أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٩٢) محرم ١٤٣٦ هـ - نوفمبر ٢٠١٤ م

info@alwaei.com

www.alwaei.gov.kw

مجلة الوعي الإسلامي

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٥٩٢ - السنة ٥٢ - محرم ١٤٣٦ هـ / نوفمبر ٢٠١٤ م



احتفاء عالمي بالكويت وأميرها

العمل الخيري بين الدول و الأفراد

الخطأ الطبي في جراحة الأعضاء البشرية

فقه التوقع المستقبلي عند الإمام الجويني

أثر حسن الظن في التماسك الاجتماعي

هدية العدد: ذخائر مجلة الوعي الإسلامي (٥)

الافتتاحية

«البلد الطيب»

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

حضارة الأمم والدول تقاس بمشاركتها الثقافية والإنسانية، ودولة الكويت اعتمدت على هذه الركائز، وفق الدين الحنيف، الذي يحث على المعرفة والعلم؛ فالثقافة الكويتية، تعد امتدادا للثقافة الإسلامية والعربية بشكل عام.

أما مشاركة الكويت في مجال نفع الإنسانية – بغض النظر عن أجناسها وألوانها – فهي ممن تساهم في مواجهة الكوارث الصحية والبيئية، وإعانة اللاجئين والمظلومين والمضطهدين، ودفع عجلة بناء وتنمية المجتمعات الإنسانية في كل مكان، وفي كل زمان، إلى غير ذلك من أعمال الخير، ولا أدل على هذه الريادة من تكريمها بلقب «مركز إنساني» وتكريم أميرها بلقب «قائد إنساني»؛ تقديرا لجهوده وجهود بلده في تحقيق عالم أفضل للإنسان؛ فقد أرسى دعائم التعاون الإنساني، مقتديا بأسلافه، بما يدل على أن المشاعر الإنسانية المتآلفة هي الباقية الدائمة، ذلك أن الإسلام العظيم أمرنا بالإيثار وعمل الخير، ولم يكن أمره موجها فقط إلى الأفراد، وإنما هو أيضا موجه إلى الدول والحكومات القادرة على البذل والعطاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩)، وفي الصحيح «أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث»، من أجل مواساة الفقراء والمحتاجين.

ولقد استطاعت الكويت بفضل الله تفعيل هذا المنهج القرآني العظيم، والمنهج النبوي الراقي؛ الداعيين إلى إنفاق المال في سبيل إطعام الجائعين، وكسوة العارين، وإيواء المشردين، إلى غير ذلك من وجوه الخير. ولم تكن المساعدات الإنسانية التي قدمتها الكويت مشروطة أو مرتبطة بهدف، وإنما بُذلت ابتغاء مرضاة المولى عزوجل، ولغايات سامية ونبيلة، وصدق الشاعر:

هـذي الكـويـت وشعـبهـا المعطاء ... مـــاذا أراه؟ أجـنـــة مـعـطـاء
كم زرت قبلك يا كويت فلم أجد ... سحرا كسحرك إنك الحسناء
إن زرتـهـا أدركـت حـكـمـة أهلها ... وطموحهم هم للسمو سماء
ومـهـنـئـا لأمـيـركـم إجـمـاعـكـم ... شعب الكويت صباحكم وضاء
شـاءت قـيادتـكـم هـنـا ألا تـرى ... إلا المحبة كي يسود صفاء
شـعـب الـكـويـت وراءهـا متماسك ... وإلى التوحد قاده العقلاء

وبهذه الأعمال الخيرة تقاس عظمة الدول الحقيقية، وتأثيرها الفعلي، ولقد اختصر ابن خلدون – رحمه الله – دورة الحضارة في كلماته: «إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول»؛ ليؤسس منظورا عمرانيا حضاريا مفاده أن عظمة الدول لا تقاس بأشخاصها وترابها، بقدر ما تقاس باستقرار منهاجها في البناء والتنمية والثقافة والعطاء.

حفظ الله الكويت من كل مكروه...

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي

العدد ٥٩٣ | محرم ١٤٣٦ هـ

العام الثاني والخمسون

نوفمبر ٢٠١٤ م

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير

سليمان خالد الرومي

التحرير

عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك

أبورواش زكي محمد

فاطمة الجندي

الإشراف الفني

الشركة العصرية

للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات

رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي

صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧

الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي – ٣٠١

البريد الالكتروني:

info@alwaei.com

الموقع الالكتروني:

www.alwaei.gov.kw

مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤ تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣

alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



الكويت منذ استقلالها تحرص على تقديم المساعدات الإنسانية والإغاثية إلى كل البلدان المحتاجة، انطلاقا من قناعتها بأهمية الشراكة الدولية والمحافظة على الأسس التي قامت لأجلها الحياة.









التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦– ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

كويت الإنسانية

جاء تكريم سمو أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح - حفظه الله ورعاه - من قبل منظمة الأمم المتحدة «قائدا للعمل الإنساني» وتسمية الكويت «مركزا إنسانيا عالميا»، تتويجا لمسيرة العمل الخيري الإنساني الكويتي، الذي بات يشار إليه بالبنان بعدما ترك بصمة في جميع أقطار العالم، وأصبح محط أنظار المحتاجين والمنكوبين.

ولعل إطلاق اللقب على سمو أمير البلاد ودولة الكويت للمساهمة بسخاء في مؤتمري المانحين لسوريا اللذين استضافتهما الكويت، وكان لهما أكبر الأثر في التخفيف من المحنة المرة التي يعانيها ملايين السوريين النازحين داخل بلادهم أو المهجرين خارجها.

والكويت منذ استقلالها تحرص على تقديم المساعدات الإنسانية والإغاثية إلى كل البلدان المحتاجة، انطلاقا من قناعتها بأهمية الشراكة الدولية والمحافظة على الأسس التي قامت لأجلها الحياة.

إن الشعب الكويتي جبل منذ قديم الزمان على فعل الخير ومساعدة المحتاجين، حتى سطرت الجمعيات واللجان الخيرية صفحات من الدعم المتواصل لمشاريع إنسانية عدة في قارتي آسيا وإفريقيا بمبادرات أهلية، أصبحت الآن أحد العناوين البارزة لأيادي الخير التي يتميز بها أبناء الشعب الكويتي.

والكويت اليوم أصبحت مصدر دعم ونشر الفكر الإسلامي الوسطي الصحيح في مختلف دول العالم بعيدا عن الغلو والتطرف والعنف والإرهاب.

التحرير

الاشتراكات

• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

احتفاء عالمي بالكويت وأميرها

د. عبدالله بدران
صحفي في وكالة كونا الكويتية



بعد تسعة أشهر من إطلاق الأمين العام للأمم المتحدة، بان كي مون، لقب «قائد للعمل الإنساني» على سمو أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وتسمية دولة الكويت «مركزا إنسانيا عالميا»، أقامت الأمم المتحدة في التاسع من سبتمبر الماضي احتفالا رسميا بهذه المناسبة جرى فيه تكريم سمو الأمير ودولة الكويت أمام حشد من كبار قادة العالم ورؤساء المنظمات العالمية والإقليمية.

ومن دولة الكويت، وفي منتصف يناير من العام الحالي، جاء ذلك الاعتراف والتقدير على لسان الأمين العام للأمم المتحدة، عندما قال في كلمته في اختتام مؤتمر المانحين الثاني لسوريا، الذي استضافته دولة الكويت حينذاك، إن سمو أمير البلاد يستحق أن يوصف بأنه «قائد للعمل الإنساني» نظرا للدور الكبير الذي أداه سموه «على الصعيد الإنساني، وهو ما جعل من الكويت مركزا إنسانيا عالميا».

وأضاف بان كي مون أن إطلاق اللقب على سمو الأمير ودولة الكويت جاء تقديرا لجهود دولة الكويت، قيادة وحكومة وشعبا، التي شجعت الأسرة الدولية على المساهمة بسخاء في مؤتمري المانحين لسوريا اللذين استضافتهما الكويت، التي كان لها أكبر الأثر في التخفيف من المحنة المرة التي يعانيها ملايين السوريين النازحين داخل بلادهم أو المهجرين خارجها.

وفي حفل التكريم، الذي أقيم في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، منح الأمين العام للأمم المتحدة سمو أمير الكويت شهادة تقدير من المنظمة الدولية، وقال في كلمة أمام الحضور إن جهود سمو أمير دولة الكويت مكنت الأمم المتحدة من مواجهة ما شهده العالم من معاناة وحروب وكوارث في الأعوام الماضية، وإنه مقابل حالة الموت

والفوضى التي شهدها العالم شاهدنا مظاهر كرم وإنسانية من قبل جيران سوريا قادتها الكويت، أميرا وشعبا.

وأفـاد بـأن الكويت أظهـرت كرما استثنائيا تحت قيادة سمو أمير البلاد، وعلى الرغم من صغر مساحة البـلاد فـإن قلب الكويت كـان أكبر من الأزمـات والفقر والأوبئة. ونحن مجتمعون اليوم لنشكر سمو أمير الكويت وشعب الكويت على كرمهم الكبير تجاه السوريين والعراقيين، مستذكرا استضافة الكويت لمؤتمرين لمساعدة الشعب السوري، ساهما في جمع الملايين من الدولارات لمساعدة المحتاجين، ليس في سوريا والعراق فقـط، بل فـي مناطق ودول أخرى امتدت من إفريقيا إلى آسيا.

وقال بان كي مون: «إن المبادرات التي قامت بها الكويت دفعت المجتمع الدولي إلى جمع المزيد من المساعدات بفضل جهود سمو أمير البلاد، مما ساعد الأمم المتحدة على القيام بوظيفتها الإنسانية»، مشددا على أن الدعم المستمر من سمو الأمير مكننا من ذلـك، معربا عن فخره لمنح هذه الشهادة التقديرية لجهود سمو الأمير، اعترافا منا بدعمه المستمر وقيادته الاستثنائية للعمل الإنساني لـلأمم المتحدة، ورفـع المعاناة عن المحتاجين في جميع دول العالم.

عطاء كويتي للإنسانية جمعاء

وألقى سمو أمير الكويت كلمة خلال الاحتفالية قال فيها: «إن مبادرة التكريم الطيبة وغير المسبوقة تجاه بلدي الكويت، شعبا وحكومة، وتجاهي شخصيا، تـدل علـى الـدور الحيوي الـذي تقوم به منظمة الأمم المتحدة وأمينها العام، والذي تجسد بالاهتمام الـدقيـق والـتفـهـم الـعـمـيـق، وبشكل ملموس وواضـح، للعديد من المشاغل والهواجس والمستجدات التي تواجه الإنسانية وتتحدى السلم الاجتماعي والأمن السياسي في عالمنا اليوم».

وأضـاف سمو الأمـيـر: «إن الكويت، ومـنـذ استـقـلالـهـا وانـضـمـامـهـا إلى هـذه المنظمة سنّت لها نهجا ثابتا في سياستها الخارجية، ارتكز بشكل أساسي على ضرورة تقديم المساعدات الإنسانية لكل البلدان المحتاجة بعيدا عن المحـددات الجغرافية والدينية والإثـنـيـة، انـطـلاقـا مـن عقيدتها وقناعتها بأهمية الشراكة الدولية وتـوحـيـد وتـفـعـيـل الجـهـود الـدولـيـة، بهدف الإبقاء والمحافظة على الأسس التي قامت لأجلها الحياة، وهي الروح البشرية».

وقال: «إنه تمت ترجمة هذه المسلّمات إلى واقع واكبت فيه الكويت المتغيرات الـعـديـدة، وعـالجـت خـلالـه الـعـوائـق التي أفرزتها التحديات المتنوعة من خلال تطوير وتحديث أساليب تقديم المساعدات، فأصبحت مبادرة سمو الأمير الـراحـل الشيخ جابر الأحمد الجـابـر الـصـبـاح – طيب الله ثـراه – فـي إلـغـاء فـوائـد الـقـروض الميسرة للعديد من الدول النامية والدول الأقل نموا، والتي أعلن عنها – رحمه الله – في الدورة الثالثة والأربعين لأعمال الجمعية العامة لـلأمم المتحدة لعام ١٩٨٨م سابقة فـي العمل الإنساني الدولي، مدشنا بذلك نقلة نوعية في أساليب المساعدات التي ارتكزت عليها الدبلوماسية الكويتية، تمثلت في تلمس حقيقي للاحتياجات الإنسانية، وإبراز





المفهوم الإنساني البحت تجاهها، وهو أن هذه القروض والمساعدات ليس لتحصيلها وحساب فوائدها المادية البحتة، بل لجني ثمار التعاون الدولي الإنساني المتعدد الأطراف وفوائده التي تفوق معطيات المادة وتوابعها».

الجمعيات الخيرية

وذكر سمو الأمير أن الجمعيات الخيرية الكويتية واللجان الشعبية لجمع التبرعات سطرت صفحات من الدعم المتواصل لمشاريع إنسانية عدة في قارتي آسيا وإفريقيا بمبادرات شعبية أصبحت الآن أحد العناوين البارزة لأيادي الخير التي يتميز بها أبناء الشعب الكويتي، ولله الحمد.

وقال: «إنه عطفا على هذا النهج الذي أسسه الأمير الراحل، اتخذت الكويت في عام ٢٠٠٨م قرارا يجسد حرصها على دعم الدور الإنساني للأمم المتحدة، عندما خصصت ما قيمته ١٠ في المئة من إجمالي المساعدات الإنسانية التي تقدمها إلى الدول المتضررة من الكوارث الطبيعية أو الكوارث التي هي من صنع الإنسان، لكي تقدم لمنظمات الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة المعنية بالعمل الإنساني وتبعتها بقرارات رسمية بمضاعفة المساهمات الطوعية السنوية الثابتة لعدد من الوكالات والمنظمات الدولية، مثل المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، وصندوق الأمم المتحدة للاستجابة للطوارئ، وصندوق الأمم المتحدة للطفولة، مما منح العمل الإنساني لدولة الكويت أفاقا أرحب وأبعادا أشمل، امتازت في تعزيز التعاون المباشر مع تلك الجهات الدولية في مختلف الأزمات».

وأعلن سمو الأمير في تلك الاحتفالية مضاعفة مساهمة الكويت الطوعية السنوية الثابتة لصندوق الأمم المتحدة المركزي للاستجابة إلى الطوارئ الإنسانية إلى مليون دولار، معتبرا أن تكريم الأمم المتحدة في هذا الحفل هو تكريم لأهل الكويت، وتقدير لمسيرتهم الخيرة في البذل والعطاء، والممتدة منذ القدم، والتي ستظل مستمرة إن شاء الله، لاسيما أن أعمال البر والإحسان قيم متأصلة في نفوس الشعب الكويتي تناقلها الأبناء والأحفاد بما عرف عنه من مسارعة في إغاثة المنكوب وإعانة المحتاج ومد يد العون والمساعدة لكل محتاج، حتى عندما كان يعاني في الماضي من شظف العيش وصعوبة الحياة، ولا تزال وستظل أعماله الخيرة ومبادراته الإنسانية سمة بارزة في سجله المشرف.

وقال سمو الأمير في ختام كلمته:



«في السنوات الثلاث الأخيرة، ونتيجة لتدهور الأوضاع الإنسانية في سوريا، واستجابة لتداعيات تلك الأزمة الإنسانية، وتلبية لطلب الأمين العام بان كي مون، استضافت دولة الكويت في يناير ٢٠١٣م ويناير ٢٠١٤م المؤتمرين الدوليين للمانحين لدعم الوضع الإنساني في سوريا، حيث بلغت التعهدات المعلنة فيهما حوالي ٣,٨ مليارات دولار، ساهمت دولة الكويت بـ ٨٠٠ مليون دولار سلمتها بالكامل إلى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية والمعنية بالشأن الإنساني».

إطلاق اللقب والتسمية

وعن اختيار سمو الأمير «قائدا للعمل الإنساني» وتسمية الكويت «مركزا إنسانيا عالميا»، يقول الدكتور عبدالله معتوق المعتوق (رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية والمستشار بالديوان الأميري ومبعوث الأمين العام للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية) «إن أفضل المقدمات يؤدي إلى أفضل النتائج، فقد واصلت الكويت، أميرا وحكومة وشعبا، نهجها الإنساني والخيري الذي بناه الأجداد والآباء، وقدموا للعالم نموذجا يحتذى في العمل الإنساني الذي يهتم بالإنسان من دون تمييز أو تفرقة على أساس دين أو عرق أو لغة أو جغرافيا، ولعل هذه الصورة المضيئة التي سطرتها الكويت عبر تاريخها قد رشحتها لتكون في هذه المكانة الإنسانية الرائدة».

ويضيف الدكتور المعتوق «إن السجل الإنساني لسمو الأمير يرشحه لأن يكون بالفعل رمزا للعطاء والإحساس بمعاناة الفقير والمنكوب وطالب العلم والأرملة والمطلقة في العالم، في زمن سيطرت فيه النزعات المادية وكثرت فيه الحروب والنزاعات الأهلية، وتضاعفت فيه أعداد الضحايا والمشردين والنازحين. وهذا التكريم دليل على أن سمو الأمير يحظى بتقدير المنظمات الإنسانية الدولية وقادتها، الذين ما برحوا يشيدون بدور سموه الإنساني في المحافل العامة وخلال اللقاءات المغلقة، وقد حضرت العديد من هذه اللقاءات التي تعظم من شأن الكويت وأميرها، فقد دأب الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون على وصف سمو الأمير في أكثر من مناسبة بأنه قائد إنساني، وأن الكويت باتت في ظل سموه مركزا عالميا للعطاء الإنساني».

لقد كانت الكويت، وستظل دائما، بسخاء شعبها وعطائها الإنساني المتجدد، وتوارث أعمال الخير والجود عبر الأجيال، وبفضل استجابتها المستمرة لحالات الطوارئ وإغاثة الشعوب، تحتل موقعا رياديا على خريطة العمل الإنساني الإقليمي والدولي، وجاء تكريم سمو الأمير تتويجا لهذا الدور الإنساني، وإقرارا دوليا بأهمية دور الكويت الإنساني المشرق، وإشادة بالعمل الخيري الكويتي الرسمي والأهلي الذي لطالما كان وسام فخر على صدور جميع أبناء الوطن.



بمناسبة تسمية أمير الكويت قائدا للعمل الإنساني

الأوقاف : الأمير جعل الكويت مركزا للفكر الإسلامي المعتدل

فهاد الفحيمان
الكويت

ارتفع اسم الكويت عاليا في هيئة الأمم المتحدة بعد تسمية أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد قائدا للعمل الإنساني، واختيار الكويت مركزا للعمل الإنساني، في سابقة هي الأولى من نوعها على مستوى العالم في مجال العمل الخيري والإنساني الذي جبل عليه أهل الكويت منذ القدم.

ولعل اختيار أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد «قائدا إنسانيا» دليل على اعتراف أكبر هيئة عالمية بالدور الكبير الذي يقوم به سمو الأمير في مشارق الأرض ومغاربها، حيث لم تتوان المساعي الكويتية في مناطق الكوارث والفيضانات وأماكن تجمع اللاجئين؛ لتنقل لهم المساعدات العاجلة، سواء كانت طبية أو إغاثية.



الشيخ محمد الخالد الصباح

قال نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الداخلية وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالوكالة الشيخ محمد خالد الحمد الصباح، إن الأيادي البيضاء لسمو أمير البلاد امتدت بالخير والسلام للبشرية جميعا، مشيدا بسجل سموه الحافل بالمآثر والعطاء الإنساني.

وأضاف الشيخ محمد الخالد أن عطاء سمو أمير البلاد الإنساني انعكس أثره على مكانة ورفعة الكويت وشعبها في نظر العالم من الاحترام والتقدير والبعد الحضاري والإنساني.

وأعرب عن فخر واعتزاز الكويت وشعبها باختيار الأمم المتحدة سمو أمير البلاد قائدا إنسانيا، معتبرا ذلك وساما على صدورنا جميعا.

بدوره قال وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية د. عادل الفلاح إن تكريم سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد بإطلاق لقب «قائد العمل الإنساني» على سموه وتسمية دولة الكويت «مركزا للعمل الإنساني»



د. عادل الفلاح

في احتفالية عالمية غير مسبوقة تعتبر الأولى في تاريخ الأمم المتحدة، هو تقدير مستحق لزعيم وقائد إنساني حكيم، أعطى للبشرية جمعاء، وتجاوزت عطاءاته الإنسانية حدود الكويت إلى آفاق إنسانية عالمية، ونزع فتيل كثير من الأزمات في المنطقة والعالم.

واعتبر الفلاح أن تتويج سمو الأمير



بهذا اللقب الفريد من نوعه عالميا يبعث الفخر في نفس كل مواطن كويتي وعربي وإسلامي، ويأتي إدراكا من أكبر منظمة دولية لدور سموه المشهود في المجال الإنساني على مدى السنوات والعقود الماضية، وثمرة للجهود الكبيرة لسموه ودعمه اللامحدود للعمل الإنساني على مختلف الأصعدة وفي مختلف أرجاء الأرض.

وأوضح أن دور سموه في دعم ونشر الفكر الوسطي في مختلف دول العالم، وتوجيهه الدائم بضرورة أن تكون الكويت مركزا عالميا للوسطية ونشر الفكر الإسلامي الصحيح البعيد عن الغلو والتطرف والعنف والإرهاب، يؤكدان أن سموه قائد ذو رؤية حكيمة، يدرك خطورة ما يحيط بأمتنا العربية والإسلامية من أفكار مسمومة لمجموعات اتخذت من الدين ستارا لأغراضها وتوجهاتها الدنيئة.

ولفت إلى أن أهل الكويت جبلوا على مدى تاريخهم على تقديم الخير الكويتي إلى جميع بقاع الأرض من دون تمييز بين لون أو جنس أو عرق أو دين، ووقفت الكويت، وعلى رأسها صاحب السمو الأمير، حفظه الله، بجانب الكثير من شعوب العالم التي تعرضت إلى كوارث، ولا يوجد بلد في العالم ليس به مدرسة أو مستشفى أو جامعة قام ببنائها أبناء الشعب الكويتي، علاوة على مشاريع الخير الأخرى، كحفر الآبار وكفالة الأيتام وغيرها من المشاريع الإنسانية، وذلك عملا بقول النبي ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».



إبراهيم الصالح

وشدد الفلاح على أن تكريم صاحب السمو من قبل الأمم المتحدة قائدا للإنسانية، هو بمنزلة وسام شرف على صدر جميع أبناء الشعب الكويتي، لأن الله سبحانه وتعالى أكرم أبناء هذا الوطن الغالي بزعيم من الزعماء القلائل في العالم الذين ينحازون إلى الإنسان، أيا كان جنسه أو دينه أو لغته.

من جانبه، قال الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف د. عبدالمحسن الخرافي إن تكريم حضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد، يأتي تتويجا للمساعي التي بذلها سموه خلال عدة مراحل كانت خير شاهد على جهوده الكريمة تجاه المتضررين من الحوادث والكوارث.

وأضاف الخرافي أن أهل الكويت جبلوا على التسابق إلى فعل الخير الممتد على امتداد تاريخ الكويت.

بدوره، أكد الإمام والخطيب في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدر الحجرف، أن تكريم سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد بلقب «قائد العمل الإنساني» وتسمية دولة الكويت «مركزا للعمل الإنساني» مناسبة غير مسبوقة على مستوى العالم.

وأضاف الحجرف أن هذا التكريم ليس بغريب أن يوجه إلى حضرة صاحب السمو، فهو كان دوما قائدا إنسانيا يلتفت إلى المحتاجين والمتضررين قبل



داوود العسعوسي

أي جهة أخرى، مما جعل الكويت تتواجد في مواقع الأحداث والكوارث وقت وقوع هذه الأحداث.

وبين أن العمل الخيري الكويتي بات اليوم يشار إليه بالبنان بعدما وضع له بصمة في السجل الخيري العالمي، وبات يترقبه المحتاجون والمنكوبون في كل مكان، فالكويت سباقة في فعل الخيرات، سواء كانت كفالة الأيتام أو حفر الآبار أو بناء المساجد أو المساكن أو المدارس، فهذا نهج أهل الكويت منذ القدم.

وقال الحجرف إن التكريم الذي قدمته هيئة الأمم المتحدة إلى حضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد، جاء تتويجا للعمل الخيري الكويتي الذي كان كالشجرة المثمرة





د. عبد المحسن الخرافي



الشيخ بدر الحجرف

ثابتة في الأرض وفروعها في السماء؛ ليتظلل بظلها كل محتاج ويتيم ومسكين وملهوف ومطارد.

بدوره قال مدير عام بيت الزكاة الكويتي إبراهيم أحمد الصالح إن منح الأمم المتحدة لسمو أمير البلاد لقب «قائد إنساني»، يأتي تقديرا لجهود سموه وعطاءاته المتوالية والكبيرة على المستويات المحلية والإقليمية والدولية، ودعمه للعمل الخيري والإنساني، مما ساهم في تعزيز مكانة الكويت في المجتمع الدولي.

وأضاف الصالح أن لسموه مبادرات خاصة وتوجيهات سامية لبيت الزكاة لتوجيه جهوده وأنشطته الخيرية والإنسانية لخدمة فريضة الزكاة والعمل الخيري والإغاثي، محليا وخارجيا، مما مكن البيت من تسجيل إنجازات وبصمات واضحة في مجال العمل الخيري والإنساني حتى أصبح صرحا خيريا مميزا يعبر عن الأيادي الكويتية البيضاء في المحافل الدولية.

من جانبه، أشاد الوكيل المساعد للشؤون الثقافية في وزارة الأوقاف داوود العسعوسي بتكريم سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد قائدا للعمل الإنساني من قبل منظمة الأمم المتحدة وتسمية دولة الكويت مركزا إنسانيا، معتبرا أن هذا التكريم مصدر فخر واعتزاز لجميع أبناء الشعب الكويتي.

وقال العسعوسي إن مسيرة أمير البلاد حافلة بالعطاء والمبادرات لإغاثة الشعوب المنكوبة بسبب الكوارث الطبيعية أو الاضطرابات التي دفعتها نحو أوضاع البؤس والفقر والأمراض والمعاناة.

وذكر أن رعاية أمير البلاد للعمل الإنساني جاءت من إيمان سموه بنبل الرسالة الإنسانية ودورها في إنقاذ الأرواح وانتشال الفقراء من مستنقع الجهل والمرض، سائلا الله تعالى أن يرفع سمو الأمير بالإسلام وينصر به دينه.

وأوضح العسعوسي أن أعمال البر والإحسان والخير جبل عليها الشعب الكويتي من قديم الأزل بما عرف عنه من مسارعة في إعانة المحتاج وتقديم يد العون والمساعدة، مؤكدا أن الكويت ستظل أعمالها الخيرة ومبادراتها الإنسانية سمة بارزة في سجلها المشرف.



السميط.. قمر مضيء في سماء الدعوة

سعيد المحثوثي
صحفي وكاتب يمني

في مجاهل إفريقيا، حيث الألم والجوع والعوز وكل ما يعني الحرمان من معان... هناك.. حيث الوباء والفقر والعطش... هناك.. حيث تمنح الإرساليات النصرانية كأسا من الماء مقابل أن يتخلى الإفريقي المسلم الفقير عن هويته ودينه وعقيدته، ليعيش في دائرة رحلة الضياع التي يرعاها أولئك الفجرة، حيث الشرك والتنصير تحت مسمى «التبشير»..

إزاء هذه الصعوبات، ورغم شتى المتاعب، قرر العربي المسلم أن يقف سدا منيعا في وجوه الشياطين، وأن يفيض أنهارا زلالا؛ ليقوض جهودهم، بعد أن تفانوا في إيصال رسالتهم الشركية الضالة.

وقف الشيخ الداعية الكويتي عبدالرحمن السميط – رحمه الله – وقفته، فأنار مساحات القارة السمراء بعد ظلام دامس، وبذر الخير والسلام والمحبة على أنقاض وفخاخ صنعتها إرساليات الضالين.

عرفه الصغير والكبير، وأحبه كل مسلم فوق فسيح إفريقيا بعد أن زرع الابتسامة، وأعاد الكرامة، وهدم بأخلاق الصابرين الشرك ومقامه.

إن المتتبع والمتابع لجهود شيخنا المجاهد الراحل ليرى سمات السلف الصالح.. من بلّغوا الإسلام بطيب أفعالهم، ونشروا أخلاقه بأخلاقهم، واستسهلوا الصعوبات من أجل أن تظل رايته المجيدة خفاقة وضاءة في سماوات الرفعة والخلود.

تظل حياة السميط منارة غراء، تهدي الدعاة إلى الثبات، وتحضهم على الصبر، وتلين لهم كل شديد، وتسهل لهم أي صعب، لأن شيخنا الراحل وضع تقوى الله تعالى ومرضاته وحده نصب عينيه، فسار على هذه الرؤية مجاهدا بوقته وعلمه وماله وحياته.. فأنعم به من جهاد وأنعم به من مجاهد.

لقد عانى شيخنا الأهوال والصعوبات في مسيرته الدعوية المباركة، حيث نجا أكثر من مرة من محاولة اغتيال وخطف على أيدي العصابات المسلحة التي تنتشر في الكثير من مساحات إفريقيا السمراء جراء تواجده المستمر بين الفقراء والمساكين.

كما تمكن بفضل الله تعالى من الإفلات والنجاة من موت محقق، بعدما حاصرته أفعى «الكوبرا» في أدغال موزمبيق الرهيبة.

مات شيخنا المجاهد السميط إثر مرض عضال ألم به،

واصطفاه الله تعالى إلى جواره.. بلّ بالثواب والمغفرة ثراه، وجعل الفردوس الأعلى داره ومأواه.. اللهم آمين.

صحيح أن الخطب بفقدان شيخنا أليم ومؤلم، لكن العزاء أن الشيخ قد وضع لبنات وإشارات في طريقه وطريقته مفادها الصبر والتضحية والتجلد، وإيصال صوت المسلم الرحيم إلى كل مسحوق ومقهور وذي عوز على ظهر هذه الفسيحة.



العمل الخيري بين الدول والأفراد

د. آندي حجازي
أستاذة تربوية أردنية

إن كنت تبحث عن السعادة فإن سبلها كثيرة، لكن أجمل لحظات السعادة تجدها في العمل الخيري والعمل التطوعي، فلا أجمل من لحظات تمضيها من حياتك وأنت تبذل من نفسك من أجل إسعاد الآخرين وتقديم العون لهم ودعمهم، فإن طعم العطاء لا يوازيه طعم، ولا يذوق حلاوته إلا من جرب العطاء يوما ما.

والعطاء والبذل يورثان المحبة والتآلف بين بني آدم، ويجلبان للإنسان شعورا لا يوازيه أي شعور على وجه الأرض. وتخيل أن أرسطو، وقبل آلاف السنين، وصف ذلك بقوله: «إن الرجل المثالي يشعر بالمتعة في إسداء المعروف للآخرين»، فتقديم العون للآخرين اعتبره من المثالية والالتزام بالمبادئ. والعظماء هم الذين يحملون المبادئ، ويحملون الهم الإنساني، ويبذلون من أرواحهم وأنفسهم من أجل تحقيق تلك المبادئ الإنسانية.

وكثيرا ما نسمع عن أشخاص سخروا أنفسهم للعمل التطوعي ولتقديم المشاريع الخيرية، فنسمع عن أثرياء مسلمين وغير مسلمين قاموا بدعم مشاريع إنتاجية أو إعمارية في بلادهم، كبناء المساكن أو المصانع، وتوظيف الشباب وتوفير فرص العمل لهم، أو بناء مدارس في قرى نائية لا تصل إليها الحكومات من أجل تعليم أطفال بلدهم، أو دعم وبناء المستشفيات أو المعاهد التعليمية ومراكز محو الأمية، وكلها تكون مجانية أو بأسعار رمزية جدا.. فما الذي دفعهم إلى ذلك إلا الشعور بالفرح والرضا في أعين الناس ومن حولهم؟

ولذلك لا يقتصر العمل الخيري على المسلمين، فما الذي يدفع - على سبيل المثال - بيل غيتس (مالك شركة مايكروسوفت)، الذي أصبح من أثرى أثرياء العالم، للتبرع بملايين الدولارات سنويا من ثروته من أجل دعم مشاريع إنسانية وتنموية في مختلف أنحاء الأرض، ومنها لمناطق إسلامية فقيرة؟! وما الدافع له لدعم المراكز الخيرية والبحوث العلمية بمبالغ طائلة عن طريق مؤسسة «بيل ومليندا غيتس» التي افتتحت عام ٢٠٠٠؟ بالتأكيد هي مشاعر سعادة يجد حلاوتها في قلبه ونفسه وأعين من حوله.

وما الذي يدفع ثريا عربيا مثل عبداللطيف جميل، وهو تاجر سيارات كبير، لأن يتبنى مشاريع لخدمة المجتمع، فقد عملت مجموعته وشركاته التي أنشأها في المملكة العربية السعودية على تقديم المنح التعليمية والتدريبية للشباب السعودي من أجل الارتقاء بعمليات تأهيلهم لمواجهة التحديات التي يفرضها سوق العمل، وتعددت تلك البرامج لتشمل المجالين الإنساني والاجتماعي حتى وصلت إلى ٢٥ برنامجا خيريا وتنمويا تنفذها المجموعة كـ «صندوق عبداللطيف جميل للتأهيل المهني والحرفي» والممول بـ ١٠٠ مليون ريال، وكذلك «مختبر عبداللطيف جميل لمكافحة الفقر»، و«باب رزق جميل» و«عبداللطيف جميل لخدمة المجتمع».. وكثيرة هي الأمثلة لشخصيات نذرت نفسها من أجل استثمار طاقاتها ومواهبها وإمكاناتها لإسعاد الآخرين، ومشاركتهم في حلول لمشكلات حياتهم.

وما الذي دفع عبدالرحمن السميط، الداعية الكويتي ومؤسس جمعية العون المباشر (لجنة مسلمي إفريقيا سابقا)، لقضاء أكثر من ٢٩ عاما في القارة السمراء لنشر الإسلام والعمل الخيري في تلك البلدان، فأسلم على يديه ١١ مليون شخص تقريبا، مع نشاطه في العمل الخيري، كإطعام الفقراء وحفر الآبار ومعالجة المرضى وتعليم الأطفال - ومن حسابه الخاص في معظم الأحيان - مع الاستفادة من كونه طبيبا متخصصا في الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي.. فما الذي دفعه لقضاء أكثر من ربع قرن في إفريقيا وفي



أدغالها وأهوالها وميليشياتها ونقص خدماتها وتعريض نفسه للخطر؟! فما هو إلا لذة العطاء، والنتائج المرئية للعمل الخيري، والذي استمر على الرغم من كبر سنه ومرضه حتى آخر لحظة من حياته.. رحمه الله وأكثر من أمثاله.

دول داعمة

لم أتعجب حينما تقرر من قبل الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون إطلاق لقب «قائد العمل الإنساني» على أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، تقديرا لجهوده في العمل الخيري والإنساني، وإطلاق لقب «مركز العمل الإنساني» على دولة الكويت، فالكويت مصدر فخر واعتزاز عربي، فهي سباقة في عمل الخير، وداعمة للإنسانية ومن دون تحيز لأي عرق أو دين أو جنس. ولا تدخر جهدا في مساعدة أي دولة منكوبة أو شعب تعرض لأزمة، مع تقديمها جهودا منظمة لخدمة الإنسان من خلال برامجها الحكومية وهيئاتها الخيرية المتنوعة، والتي تهدف إلى خدمة الإنسان وإغاثته في أي مكان في العالم. وعلى الرغم من صغر حجمها كدولة وكعدد سكان فإن لها مواقف مضيئة في العمل الإنساني والخيري وإغاثة المحتاج أينما كان، كمساعدة المتضررين جراء الكوارث الطبيعية في إفريقيا وآسيا، أو في الحروب والنكبات، كاستضافة دولة الكويت المؤتمرين الدوليين للمانحين لدعم الوضع الإنساني في سورية واللذين كان من نتائجهما جمع مليارين ونصف المليار دولار للمساعدات السورية

حدود العمل الخيري

إن سألت عن حدود العمل الخيري والإنساني؛ فهي ليست لها بداية ولا نهاية، فمشاريع العمل الخيري مستمرة باستمرار البشر والحياة على سطح الأرض، فطالما وجدت الحياة وجدت الأعمال الخيرية، وهي لا تقتصر على الحكومات والهيئات والجمعيات الخيرية دون الأفراد.. وما أسعى لقوله إن الإنسان كفرد يستطيع القيام بالأعمال الخيرية بحدود إمكاناته وقدراته ومواهبه... فلا تنتظر أن تصبح ثريا أو تصبح حاكما أو مسؤولا كبيرا في الدولة حتى تساعد في الأعمال الخيرية أو التطوعية، فأعمال الخير لا تقتصر على الأغنياء والأثرياء والحكام، أو على تقديم المال، وإنما هي لكل فرد من أفراد المجتمع، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (سبأ:٣٩)، فـ ﴿شَىْءٍ﴾ في الآية الكريمة تشمل المال والجهد والوقت والطاقة وكل ما يملك الإنسان لينفق منه، والله يعوضه الخير على ذلك فهو يخلفه خيرا مما أعطى. فابحث في نفسك وفي قدراتك ومواهبك وتخصصك وما حباك الله من قدرات، فعطاء الله متنوع، وقدم في حدود ما تملك من ذلك لمساعدة الآخرين، ولا تنتظر المقابل أو التكريم من أحد؛ لأنك قد تناله في الدنيا وقد لا تناله، ولكن عند الله لا تضيع الودائع.

وتذكر أن العطاء يحتاج منك إلى المبادرة والدافعية والبذل من ذاتك للآخرين، فإن كنت مثلا طبيبا أو ممرضا فبإمكانك المساهمة في الحروب والكوارث الإنسانية بشكل كبير في معالجة المرضى والمصابين، أو المساهمة اليومية في جزء من وقتك للمرضى الفقراء في بلدك، وأجرك على الله تعالى. وإن كنت مهندسا أو فني صيانة أو تركيب أو لديك مهنة فممكن أن تتبرع بجزء من وقتك للعمل في مشاريع خيرية تساهم في بناء المدارس أو البيوت أو المعامل أو المراكز الصحية في بلدك أو في البلدان المحتاجة إلى العون.

وإن كنت معلما فيمكن أن تتبرع بجزء من وقتك لتدريس طلبة ضعاف المستوى أو طلبة ذوي صعوبات تعلم أو طلبة كبار في السن كمحو الأمية، أو الطلبة اللاجئين في خيام التشرد والهروب من الحروب، أو تساهم في تحفيظ القرآن الكريم أو تعليم علوم الدين وما إلى ذلك. وإن كنت طالب علم فيمكنك المشاركة في المشاريع الإنسانية والخيرية والتطوعية في بلدك كتنظيف الشواطئ أو الحدائق العامة، أو ترتيب وتنظيف بيوت الله وصيانتها، ومشاريع رعاية الأيتام أو مساعدة الفقراء أو رعاية كبار السن، أو مشاريع إفطار الصائمين في رمضان، أو المساهمة في حفر الآبار لمياه الشرب، أو بناء بيوت للفقراء في بلدك مساهمة منك مادية أو جسدية... فمشاريع الخير كثيرة لا تنتهي لمن يبحث عن الخير ولن يضل الطريق ولن يعدم الوسيلة.



وإعادة إعمارها.

وكان مما أثار إعجاب هيئة الأمم المتحدة بأمير الكويت تبرع دولة الكويت مؤخرا بخمسة ملايين دولار إلى المنظمات الدولية لمواجهة انتشار فيروس «إيبولا» في بعض مناطق إفريقيا. بالإضافة إلى جهود دولة الكويت في نشر العلم والمعرفة، ودعم التعليم والمشاريع الصحية في الدول العربية وغير العربية، فهي كدولة لا تبخل بما حباها الله من موارد طبيعية لتهب من مردوداتها للدول المحتاجة.

وكمثال؛ كنت قد زرت دولة الكويت قبل عامين تقريبا، وكان أن كتب الله لي زيارة «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» والاطلاع على بعض مشاريعها وإنجازاتها وأهدافها، والتي تعمل في كل دول العالم الإسلامي، وبالفعل أعجبت جدا بما تقدمه من أعمال خيرية للدول العربية والإسلامية المحتاجة، كتقديم الاحتياجات الأساسية من طعام وشراب وخدمات صحية وتعليمية وإغاثية إلى المجتمعات الفقيرة في إفريقيا وآسيا، وإنشاء المشاريع التعليمية والتدريبية المختلفة كمعاهد ومدارس بهدف تنمية الطاقات البشرية واستغلالها والقضاء على الأمية، وإنشاء المشاريع التنموية الإنتاجية في المجتمعات الإسلامية الفقيرة بغرض تمكينها من استثمار مواردها البشرية والمالية وثرواتها كإندونيسيا وبنغلادش واليمن والصومال.. وتوفير فرص العمل ليتمكن أفراد المجتمع من العيش الكريم معتمدين على أنفسهم، والتنسيق مع الجهات والمنظمات الخيرية الإنسانية ذات الاهتمامات المشتركة والتعاون معها بحيث تتفاعل وتتكامل معها في دعم المشاريع الكبيرة.

ومن الجهود الدولية الكبرى الداعمة للأعمال الخيرية والإنسانية في كل العالم، جهود المملكة العربية السعودية التي لم تألُ جهدا، حكومة وشعبا، في دعم أية منطقة منكوبة في العالم وتقديم المساعدات المالية والفنية لها، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، كتقديم المساعدات المالية والغذائية والتنموية والطارئة للصومال والسودان وباكستان وإندونيسيا والفلبين وبنغلادش وكشمير وإفريقيا الوسطى وبورما وسورية ومصر واليمن.. وحتى مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية كدولة متضررة في أيام الكوارث والأعاصير؛ لتعزيز العلاقات الدولية والإنسانية.

والمملكة العربية السعودية ثرية بمنظماتها الخيرية كرابطة العالم الإسلامي، التي انبثقت منها «الندوة العالمية للشباب الإسلامي»، و«هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية» التي قدمت خلال أكثر من أربعين عاما خدمات ومساعدات لملايين المستفيدين حول العالم من دون تفريق بينهم على أساس العرق أو اللون أو الديانة، في كل المجالات الصحية والإغاثية والتعليمية والاجتماعية والدعوية والتطورية. وكذلك «منظمة التعاون الإسلامي»، التي يمتد نشاطها عالميا ليشمل مشاريع تعليمية وصحية وتنموية واجتماعية واقتصادية وإغاثية وتثقيفية ودعوية.. في الدول الإسلامية جميعها، مع اهتمامها أيضا بالأقليات الإسلامية في دول العالم المختلفة، والتي كان لمشاريعها الهائلة، من إنشاء مدارس وجامعات ومعاهد ومستشفيات ومصانع ومحطات كهرباء ومحطات تنقية مياه ومطارات وموانئ وطرق وجسور وبرامج محو أمية.. وغيرها، أثر كبير في التطور والنماء وإحداث الفروق في حياة الشعوب.

وهناك دول أخرى، كالإمارات العربية المتحدة ودولة قطر وغيرهما، تسهم كثيرا في العمل الخيري والإنساني، حكومة وشعبا، فتغيث المنكوب وتعين على نوائب الدهر في كل الأزمات، كإرسال المساعدات المالية لإعمار غزة مثلا، وترسل الفرق الطبية الدورية إلى مناطق في إفريقيا مع إنشاء مستشفيات متنقلة لمعالجة المرضى، وإجراء العمليات الطبية التي يحتاج إليها الفقراء مجانا كـ«برنامج نور الإماراتي» من أجل معالجة المكفوفين ومساعدتهم على الإبصار من خلال تركيب القرنيات وغيرها لمن يحتاج. بالإضافة إلى تقديم الإمارات المساعدات الغذائية للمناطق الفقيرة، كتقديم التمور عالية الجودة لنواكشوط في موريتانيا مؤخرا، وحفر الآبار لتوصيل المياه لمناطق محتاجة كما في بعض الدول الإفريقية، وبناء المساجد ومعاهد تحفيظ القرآن الكريم، ودعم المشاريع التنموية والاقتصادية في الدول الفقيرة من أجل التحسين والتطوير والتشغيل لأبنائها، وبناء المدارس ودعم برامج محو الأمية، وتشغيل الشباب وتوفير فرص عمل لهم من أجل حياة



أفضل.

ونذكر على سبيل المثال «هيئة الهلال الأحمر الإماراتي»، و«هيئة الأعمال الخيرية الإماراتية»، ومن أعمال الأخيرة الإنسانية مؤخرا وبدعم من حاكم دبي محمد بن راشد آل مكتوم؛ مشروع «سقيا المسجد الأقصى»، الذي يقوم على توزيع عبوات الماء البارد ووجبات الطعام على الصائمين والعاكفين في رمضان في المسجد الأقصى، وسد حاجة المصلين من النقص في المياه النظيفة الصالحة للشرب، في مبادرة إنسانية داعمة.

وكمثال آخر من دولة قطر؛ حيث وقعت مؤخرا «مؤسسة قطر الخيرية» في سبتمبر ٢٠١٤م اتفاقية بقيمة مليوني ريال قطري لحفر ٤٠٠ بئر بإندونيسيا في مناطق فقيرة لا تصل إليها المياه كعمل خيري تطوعي، وهو واحد من مشاريعها الكثيرة الصحية والتنموية والاقتصادية والتعليمية والإغاثية والبنية التحتية ومحاربة الفقر وتوفير السكن.. فقطر الخيرية تعمل في أكثر من ستين دولة حول العالم.

وكمثال آخر في تركيا مؤسسة «حقوق الإنسان والحرية والإغاثة الإنسانية»، التي أسست عام ١٩٩٥م في تركيا، استجابة للمعاناة التي تسببت بها الحرب في البوسنة والشيشان. وتهدف إلى تقديم الإعانة الإنسانية إلى الجميع والعمل على التصدي لأي خروقات لحقوق الإنسان وحرياته المدنية في مناطق المجاعات والحروب والاضطهاد في العالم.

ومن البرامج المنبثقة من هيئة الأمم المتحدة لدعم العمل الخيري، والتي يمكن تقديم المساعدات الإنسانية والتطوعية من خلالها لكل دول العالم: برنامج الأمم المتحدة للإنماء، والمفوضية العليا لشؤون اللاجئين، وصندوق الأمم المتحدة للطفولة، وبرنامج الغذاء العالمي، والصليب الأحمر، والهلال الأحمر.

خير البرية قدوة

وتذكر أن أعظم الخلق محمد ﷺ كان المثال الأعظم في العطاء والعمل الخيري والحث على عمل الخير بكل أشكاله، وقد شهد له سيدنا علي كرم الله وجهه: «كان أجود الناس كفا، وأكرمهم عشرة، لم أر مثله قبله ولا بعده». وأتاه رجل مرة فسأله العطاء، فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: «أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر». فقد امتاز رسول الله ﷺ بخلق إنساني رفيع وسلوك اجتماعي مميز مع جميع البشر على اختلاف شرائحهم وانتماءاتهم، مما جعله يمتلك عقول الناس وقلوبهم ويكسب محبتهم بعطاءاته المادية والمعنوية. وقد حث المسلمين على مساعدة بعضهم بعضا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (رواه البخاري ومسلم). فهذا التكاتف يظهر بشكل أوضح في أيام الشدة والكوارث والحروب.

وقد امتدح الشاعر رسول الله ﷺ قائلا:

تعود بسط الكف حتى لو أنه
ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه
لجاد بها فليتق الله سائله
هو البحر من أي النواحي أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس» (رواه البخاري ومسلم). فرسول الله ﷺ هو قمة من أعطى وجاد بكل خير. وقد اقتدى به صحابته فنذكر موقف سيدنا أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - حينما كانا يتسابقان لخدمة امرأة عجوز كبيرة في السن لا تقدر على خدمة نفسها، فكان أبو بكر يأتي بنفسه لينظف لها بيتها ويرعى شؤونها تطوعا منه، ثم يأتي عمر من بعده لمساعدتها، فيجد أن بيتها قد تمت شؤونه وأن هناك من سبقه لفعل الخير من دون أن يعلم من الفاعل حتى أدرك أن لا أحد يسبقه لفعل الخير غير أبي بكر الصديق، فكان كما أدرك. فكان هدف كل منهما العمل الخيري لوجه الله تعالى لا لقول مادح أو سمعة طيبة أو استغلال للمواقف وحاجة الفقراء.

فهناك من يعطي بلا مقابل وبلا حدود وبلا موانع أو تردد... فالعطاء نهر لا يتوقف، وبحر لا ينضب، تروي به ظمأ القلوب لترتوي من ذلك الفيض الذي لا ينضب معينه، فينبت به زرعا أخضر تنتعش به الأرض ومن عليها.

أول جمعية خيرية في الكويت (١٩١٣-٢٠١٣)*

نعيم السلاموني
باحث دراسات إسلامية

في سنة ١٩١٤م كانت الحرب العالمية وحوصرت كثير من البلدان مما أدى لوقوع مجاعة شديدة عام ١٩١٩م، لاسيما في العراق وسورية، وكانت الكويت تمد سورية والبلاد الأخرى بالأطعمة المستوردة من الهند وإفريقيا... ولقد جاد الأجواد في الكويت مما من الله عليهم، فواسوا الضعفاء وأطعموا الجياع وكسوا العراة، وتفقدوا من يحسبهم الجاهلون أغنياء من التعفف، فأرسلوا إليهم بالدراهم والطعام.. فعلوا ذلك كله بلا من ولا أذى، ومن أولئك الأجواد، حمدين عبدالله الصقر، فقد تصدق يوما من الأيام بشحنة من الأرز تفقد بها أهل الحاجة فأنفقها عليهم في يومين اثنين.


صفحة من تاريخ العمل التطوعي في الكويت
الجمعية الخيرية العربية
وبواكير النهضة الحديثة في الكويت
(١٣٣١هـ - ١٩١٣م)
بدر ناصر المطيري
مركز البحوث والدراسات الكويتية
الكويت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

صاحب السبق في هذه المؤسسة النافعة الشاب التقي المبرور فرحان الفهد الخالد الخضير فهو أول من أخذ يفاتح الناس بأمرها، ويحسن لهم القيام بمشروعها، ولقد لقي رحمه الله آذانا مصغية وتشجيعا كبيرا من المواطنين لما له من المكانة السامية بينهم، ولما له من الجاه والسمعة الحسنة والاستقامة، وكان الغرض من تأسيسها كما جاء في المنشور، ابتعاث الطلاب للدراسة في البلاد العربية الراقية كمصر وبيروت ودمشق وغيرها، وبذل ما يقتضي لهم من المصاريف في مدة تحصيلهم من صندوق الجمعية. وقد افتتحت الجمعية في ربيع الآخر سنة ١٣٣١هـ، وألقى ببعض الخطب في حفل افتتاحها بعض الفضلاء، من بينهم العالم الفاضل الشيخ عبدالله الخلف الدحيان، والمرحوم فرحان الفهد الخالد.

أعمالها

افتتحت الجمعية في ١٧ مارس ١٩١٣م، للقيام بأعمال طيبة، لخدمة الكويت والمواطنين، وبخاصة الفقراء والمساكين والغرباء، ومن هذه الأعمال:

١- المستوصف

وهو أول مستوصف يؤسس في الكويت من قبل الأهالي، وأحضروا له من البصرة طبيبا تركيا ومعه صيدلي للعمل

في المستوصف، ويعد إنشاء هذا المستوصف المجاني من أهم الأعمال التي قامت بها الجمعية نظرا لحاجة الكويت الماسة إليه.

٢- جمعت الجمعية الكتب من الأهالي وحفظتها في مقرها حتى يؤسس لها مكتبة عامة يرتادها الجمهور للقراءة، وكذلك اشتركت في بعض الصحف ليطلع أعضاء الجمعية على الأحداث العالمية.

٣- الواعظ

أحضرت الجمعية العالم الجليل المرحوم الشيخ محمد الشنقيطي،

العمل الخيري بالكويت

العمل الخيري في الكويت مستمر بعطائه، متنوع ومتشعب، من جمعيات صغيرة إلى مؤسسات كبيرة وعالمية، ومن خلال مؤسسات حكومية كبيت الزكاة والأمانة العامة للأوقاف.

فكان يلقي الأحاديث الدينية في المساجد والجوامع، ويحث الناس على العلم والأخذ بأسباب الحضارة.

٤- تعليم الأميين

افتتحت الجمعية في مقرها صفا لتعليم الأميين القراءة والكتابة، وكان يشرف على التعليم وعلى إلقاء الدروس فضيلة الشيخ محمد الشنقيطي.

٥- سقي الماء

كانت الجمعية تجلب الماء من شط العرب في البصرة بواسطة سفن شراعية (أبوام) وتقدم الماء مجانا للفقراء والمساكين، وكانت الكويت في ذلك الوقت تعاني من قلة الماء، خاصة في فصل الصيف، فكانت توزع المياه على الأهالي لاسيما الفقراء الذين ليس في استطاعتهم شراء الماء من السفن التي كانت تجلبه من شط العرب.

٦- تجهيز الموتى وتكفينهم

قامت الجمعية بتجهيز دفن أموات المسلمين والفقراء والغرباء.

٧- الإصلاح بين الناس

توجه فرحان الخالد إلى الإصلاح الاجتماعي من خلال حثه على صلة الرحم وإصلاح ذات البين وزيادة التواصل والتراحم بين الناس.

وقد فاض خير هذه الجمعية وفضلها على غير المسلمين، حتى إنه قد أسلم بعد افتتاحها جماعة من اليهود ومن النصارى المقيمين في الكويت.

*** نظرا لأهمية المقال ومناسبة عرضه في سياق الأحداث الجارية نعيد نشره بتصرف.**

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية

في عام ١٩٨٦م صدر مرسوم أميري من سمو الأمير الشيخ جابر الأحمد رحمه الله بإنشاء الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، ومقرها الرئيسي الكويت، على أن تكون مؤسسة خيرية إنسانية ذات طابع عالمي ونشاط خيري وإنساني، يشمل الإنسان في كل مكان وتشمل خبرتها جوانب مختلفة من حاجات الإنسان، واستطاعت الهيئة أن تضع بصمات إنسانية واضحة خلال فترة مسيرتها في العمل الخيري، واتسعت في أنشطتها ومشاريعها الخيرية والتنموية لأكثر من ١٤٠ دولة، ومن أبرز إنجازات هذه الهيئة:

١- تقديم الدعم والعون الإنقاذي في حالات الكوارث والنوازل الطبيعية، والأزمات والحروب والنزاعات الأهلية للمنكوبين.

٢- العمل على تلبية احتياجات شرائح المعوزين من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وطلاب العلم وغيرهم.

٣- إنشاء المشاريع الإنتاجية والتمكينية وتشغيل العاطلين عن العمل.

٤- الإسهام في التنمية الاجتماعية عبر إنشاء المدارس والجامعات ومراكز تحفيظ القرآن الكريم.

٥- العمل على الارتقاء بالخدمات الصحية وتوفيرها في كثير من المناطق التي تفتقر إليها.

٦- قامت الهيئة بمد يد العون لملايين المسلمين في كل مكان في العالم، من خلال دعمها للمشاريع الخيرية وتقديم المعونات والمساعدات لرعاية المسلمين في مجال التعليم والصحة وحفر الآبار وكفالة الأيتام ورعاية الفقراء والمحتاجين، وأصبحت الهيئة عضوا في العديد من الهيئات والمنظمات الدولية والعربية.



بيت الزكاة وثق أعمال الخير الكويتية في عشرة أجزاء

«محسنون من بلدي».. قدوتنا في العطاء



التحرير

منذ أن اجتمع الناس على هذه البقعة الطيبة من الأرض التي أطلقوا عليها «الكوت»، ثم في ما بعد «الكويت»، ظهرت فيهم أصالة الإنسان العربي، وما هو معروف عنه من جود وكرم.

وعلى الرغم من أن ظروف الحياة كانت قاسية على آبائنا الأوائل، فقد قدموا دروسا في العطاء قلما نجدها في مجتمع آخر. لذلك، كان «بيت الزكاة» الكويتي موفقا كل التوفيق حينما جمع قصص وحكايات الجود والإحسان لرجالات الكويت؛ لتتناقلها الأجيال وتحذو حذو أصحابها في مقدمة الجزء الأول (حتى الآن صدر عشرة أجزاء) من كتاب «محسنون من بلدي».

يؤكد «بيت الزكاة» على أن هذا الإصدار لمحة وفاء للرعيل الأول من رجالات الكويت، الذين سبقوا بالإيمان وأتموا إيمانهم بإحسان.. إنهم أناس آمنوا بربهم فزادهم الله هدى، صفت نواياهم فصلحت معيشتهم، عملوا لما بعد الموت فطابت لهم الحياة، عمرت قلوبهم بالإيمان فعمروا مساجد الله، منهم من قضى حياته يتعلم ليعلم الآخرين فترك للناس علما ينتفع به، ومنهم من جعل للفقراء والمساكين وذوي القربى وابن السبيل من ماله نصيبا موفورا، ومنهم من كان طوافا بالليل والناس نيام يتصدق بصدقة يخفيها لا يريد من المخلوق جزاء ولا شكورا، ومنهم من كان لليتيم أهلا وسندا فأطعم وكسا وعلم.

هؤلاء هم الـ «محسنون من بلدي»، الذين يقدمهم «بيت الزكاة»؛ وفاء لهم وتذكرة بأعمالهم الخيرة، باعتبار أن الذكرى تنفع المؤمنين.

ويوضح «بيت الزكاة» أن هذه الثلة الطيبة من شخصيات هذه السلسلة لم يتم التعريف بهم جميعهم بعد، وأن أعمالهم التي ذكرت ليست على سبيل الحصر لما قدموه، وإنما هي المعروف من إحسانهم فقط، وربما ما لا يعرف أكثر بكثير، وقد اختار منها ما يستند إلى مرجع أو وثيقة في زمن ندر فيه التدوين إلا ما تناقله الناس.

وقد حرص «بيت الزكاة»، كما جاء في مقدمة الجزء الأول من السلسلة، على أن يوثق المعلومات المستقاة من أحد أفراد أسرة كل



شخصية محسنة ما أمكن، معتمدا في ذلك على الثقة والموضوعية اللتين يتحلى بهما كل منهم، معربا عن استقباله – وبكل شكر وامتنان – أي معلومات عن أي محسن من بلدنا الحبيب الكويت تمهيدا لتوثيقها في الإصدارات المقبلة. كما يستقبل البيت أي مقترح لتطوير الكتاب.

وأكد «بيت الزكاة» على أن آل الصباح الكرام كان لهم دورهم الخيري في الماضي والحاضر، ومن باب أنهم ولاة الأمر، فقد تم استثناء أسمائهم من شخصيات هذا الكتاب تقديرا لدورهم الذي لا تمكن الإحاطة به في صفحات معدودة.

وقد وجه «بيت الزكاة» دعوة للكتابة إلى جميع المهتدين بكتاب «محسنون من بلدي»، متضرعا إلى الله تعالى أن يجعل إحسان أهل الخير في ميزان حسناتهم، وأن يثيبهم خيرا عما قدموه من عمل صالح هو الآن قدوة حسنة للأجيال القادمة؛ ليكونوا نعم خلف لخير سلف، ينعم المجتمع الكويتي بترابطهم وتآزرهم؛ لمساعدة الفقراء والمساكين وإغاثة المنكوبين من المسلمين في جميع بقاع المعمورة.

وقد أفاد «بيت الزكاة» بأنه تقصى الحقائق التي وردت في هذه السلسلة من جميع المراجع التاريخية المتاحة، ومن الرواة الثقات، ومن أقارب المحسنين، آملا أن يكون قد وفى بما هو مستطاع.

وزراء وعلماء ومفكرون يحتفون بها

«الوعي الإسلامي».. ٥٠ عاما تعريف بسماحة الإسلام

عبدالله الشريف و إسلام لطفي و هالة عبدالحافظ
دار الإعلام العربية



أكد كثير من العلماء والمفكرين وكبار المسؤولين أن مجلة «الوعي الإسلامي» قامت على مدار ٥٠ عاما بدور جليل في خدمة القضايا الإسلامية والدعوية المستنيرة، وأنها حافظت دوما على وسطيتها وتركيزها على نشر قيم الإسلام السمحة. وأشاروا إلى أن المجلة، وهي تحتفل هذه الأيام بمرور ٥٠ عاما على إصدارها، حرصت على تنويع مضامينها، وعملت على طرح المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي والأقليات والجاليات الإسلامية في العالم، واهتمت في السياق ذاته بالمرأة والشباب والأطفال.. وإلى التفاصيل.

نبدأ مع فضيلة الدكتور شوقي علام، مفتي جمهورية مصر العربية، الذي تقدم بخالص التهنئة لأسرة مجلة «الوعي الإسلامي» الغراء بمناسبة مرور خمسين عاما على مسيرتها المباركة التي بدأت مع غرة محرم عام

١٣٨٥ هـ الموافق مايو سنة ١٩٦٥م، مشيرا إلى أنه منذ انطلاق المجلة وإلى الآن حملت على عاتقها مهام ثقيلة، تتمثل في تأصيل القيم والمساهمة في تنمية المجتمعات الإسلامية بخطاب شرعي معتدل يجمع كلمة المسلمين.

وأضاف فضيلته أن المتتبع لهذه المسيرة المباركة يجد أنها حققت - بفضل الله عزوجل - أهدافا كثيرة، من أهمها تنمية الوعي الإسلامي بمفهومه الشامل، وتأكيد الهوية الإسلامية وتعزيز الشعور بالانتماء إلى الأمة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام، والرد على الشبهات بالدليل العلمي، والاستفادة من التقنيات الحديثة لتحقيق النهضة الفكرية، ودراسة المشكلات المعاصرة وطرح الحلول والبدائل.

وقال: «لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتقدم بخالص الشكر والتقدير لأسرة المجلة مع صادق الدعاء بمزيد من التقدم والنجاح».

منارة متنوعة

بينما أكد د. عبدالصبور فاضل، عميد كلية الإعلام بجامعة الأزهر الشريف، ورئيس لجنة الإعلام بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، أن المجلة حافظت على مكانتها لمدة ٥٠ عاما تنشر بانتظام، وتعتبر منارة للصحافة الإسلامية في العالم العربي والعالم الإسلامي بما تقدمه من مواد متنوعة، وهي محببة للقارئ المسلم في كل مكان، وجعلت لنفسها قراء يتابعونها ويبحثون عنها في كل مكان.

وأضاف أنه من حيث المضمون فإن المجلة متنوعة، وعملت على طرح المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي والجاليات الإسلامية في العالم، موضحا أنها خطت

- **مفتي مصر: حملت على عاتقها تأصيل القيم وتنمية المجتمعات بخطاب شرعي معتدل**
- **عميد إعلام الأزهر: منارة للصحافة الإسلامية.. وحريصة على تنويع مضامينها**
- **د. محمد مورو: لعبت دورا مهما في الدفاع عن وسطية الإسلام دون تطرف**
- **وكيل الأزهر: نرحب بالتعاون مع المجلة للوصول إلى أكبر عدد من المسلمين**
- **د. أسامة العبد: عليها أن تفتح أبوابها للوسطيين بطريقة أكبر**
- **د. أحمد زارع: طباعتها متميزة وألوانها وصورها موفقة**
- **د. إبراهيم الهدهد: تعتمد في كتاباتها على الراسخين من أهل العلم**

خطوات مهمة في الفترة الأخيرة من خلال الملحقات التي تطرحها وتخص فئتي الشباب والأطفال.

وأشار إلى أنه من حيث الشكل، فإن المجلة حافظت على العراقة والأصالة الكلاسيكية، وسعت إلى التجديد، وضربت المثل الأعلى للصحافة الإسلامية، مطالبا بمزيد من الاهتمام بمشاكل المسلمين في العالم الإسلامي وبقية الدول والجاليات، إضافة إلى إقامة مسابقات دولية بين الشباب، والاهتمام أكثر بقضايا المرأة العربية والمسلمة.

مدافعة عن الوسطية

من جانبه، أكد د. محمد مورو، رئيس تحرير مجلة «المختار الإسلامي»، أن المجلة لعبت دورا مهما في تمثيل الإسلام الوسطي، والدفاع عن المشروع الإسلامي الوسطي من دون تطرف، كما أنها فتحت الكثير من القضايا عن الأقليات الإسلامية في العالم، ودافعت عنهم، بالإضافة إلى تقديم مفاهيم صحيحة عن المشروع الحضاري الإسلامي.

وشدد مورو على أن المجتمع في حاجة ماسة إلى مثل هذه المجلة؛ لتقدم الإسلام الوسطي غير المتطرف بصورة نقية وواضحة تخاطب العالم بتسامح الإسلام.

تعاون

إلى ذلك، وجه د. عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، رسالة إلى المجلة عنوانها الشكر والتحية على الجهد المبذول لرفعة الإسلام والمسلمين.

وأكد شومان أن الأزهر الشريف يسعى إلى مزيد من التعاون مع جميع الجادين في مختلف العالم الإسلامي عامة، والعربي خاصة، مشيدا بدور المؤسسات الدينية الكويتية في مساعدة الأزهر على توصيل رسالته.

وطالب شومان المجلة بفتح مجالات للتعاون الثقافي والديني والاجتماعي للوصول إلى أكبر عدد من الناس على مستوى العالم، داعيا إلى تسليط الضوء على الأقليات المسلمة التي تتعرض للاضطهاد ولا يعلم الناس عنها شيئا.

وأوضح أن هناك مسؤولية عن الإعلام الديني، فهو يخاطب وجدان الناس وعقيدتهم ويرشدهم

د. مختار جمعة: منارة من منارات الإعلام الإسلامي

أكد د. محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف المصري، أن مجلة «الوعي الإسلامي» منارة من منارات الإعلام الإسلامي، مستمرة في أداء رسالتها منذ عشرات السنين.
وعبر الوزير عن خالص تهانيه وشكره على المجهود المبذول من أسرة المجلة على مدى ٥٠ عاما من أجل رفعة الإسلام ومصلحة أهله في العالمين العربي والإسلامي.
وأضاف أنه لابد أن يستمر الجهد واليد التي تبني؛ للحفاظ على الهوية الإسلامية والتراث الزاخر بتعاليم ديننا العظيم، لاسيما في الوقت الذي تنتشر فيه الضلالات والخرافات والأيادي التي تسعى إلى هدم أساسات الدين.
وأشار إلى أن وزارة الأوقاف الكويتية لها جولات في محاربة الفكر المتشدد البعيد عن المنهج الوسطي المعتدل، متمنيا لها مزيدا من التوفيق والنجاح، مطالبا باستمرار العمل على وحدة العالم الإسلامي ونشر ما يحتاج إليه المسلمون تجاه دينهم ودنياهم إلى يوم لقاء الله عزوجل.
وأوضح د. جمعة أن بلدان العالم الإسلامي تواجه تحديات كبيرة تتطلب تضافر الجهود الدعوية والإعلامية للعمل على توحيد الأمة ورفعة شأنها والحفاظ عليها من الدنس والشبهات والأباطيل.
وأشار الوزير إلى ضرورة أن تستمر المجلة في رسالتها لرفع القيم الإنسانية وإظهارها واضحة جلية أمام الناس ليعملوا بها، وكذا الدعوة إلى الأخلاق التي اختفت من بعض المجتمعات الإسلامية.
وتابع «إن الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف المصرية، مستعدان للتعاون مع الجميع من أجل مواجهة التشدد والفكر التكفيري اللذين يشوهان الإسلام»، موضحا أن المؤسسات الدينية في الكويت لها دور كبير في تحقيق الهدف ذاته.

إلى الطريق الحق، ولا يسعى إلى الإثارة أو إلى تحقيق ربح على حساب عقول الناس، موضحا أن الإعلام الديني رسالة لابد من الحفاظ عليها.
وأشار وكيل الأزهر الشريف إلى أن هناك روابط قوية تربط بين الكويت ومصر، خصوصا المؤسسات الدينية بعضها ببعض لوحدة أهدافها.

فكر معتدل

أما د. أسامة العبد، الرئيس السابق لجامعة الأزهر، فأكد أنه زار دولة الكويت وعاش فيها ما يقرب من ١٢ عاما، ويعلم جيدا الفكر الديني المعتدل الموجود في المؤسسات الكويتية، وحجم الجهد المبذول من أجل الوسطية والاعتدال، وحجم تقدير الشعب الكويتي والدولة عامة للأزهر الشريف.
وطالب العبد، في تهنئته للمجلة بمناسبة مرور ٥٠ عاما على التأسيس، بزيادة ما ينشر عن الفكر الوسطي والاستعانة بعلماء الأزهر للكتابة وتوضيح الحقائق والرد على الشبهات.
وأكد أن ما يميز «الوعي الإسلامي» البساطة والوضوح في طرح القضايا الدينية بما يجعل الهدف يصل إلى المتلقي من دون عوامل خارجية.
وأشار إلى أن المجلة لها تأثير في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وعليها أن تفتح أبوابها للوسطيين بطريقة أكبر لتوحيد الأهداف.

رصيد حافل

أما د. أحمد معبد، أستاذ الحديث في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، فأوضح أن مجلة «الوعي الإسلامي» منذ انطلاقها وحتى اليوم تقدم موضوعات قوية تتجاوب مع تطلعات الدعوة الإسلامية، والمبادئ والأهداف التي يريد المسلم أن ينبه العالم والأجيال الناشئة إليها.
وأضاف: «لا أنسى أنها كانت المجلة الوحيدة التي كنت أحصل منها على الأحاديث التي كان الشيخ الألباني ينشرها بعنوان «سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها على الأمة». وآنذاك كنا طلبة في مرحلة الثانوية العامة نبحث عن عدد المجلة بمجرد صدوره حتى نستفيد منها، لدرجة أن كل صديقين كانا يشتركان في ثمن العدد، حتى نحصل على الموضوعات عن الأحاديث، تصحيحا وتضعيفا، في حين لم تكن أي مجلة أخرى تفعل ذلك. وأيضا لا ننسى جهود إدارة تحرير المجلة ورئيسها في طبع مقالات الدكتور محمد الغزالي، التي طبعت مجتمعة في كتاب.. وكذا فتاوى بعض العلماء، والتي تم جمعها من خلال أعداد المجلة، حيث إن مثل هذه المجموعات تدل على رصيد المجلة الحافل بما يفيد الأجيال المسلمة في أمور دينها، وما تضطلع به من أعمال وجهود تدعو المسلمين إلى القيام بها، لكي

تكون مكانة المسلمين في تقدم، وأيضا في وعي إسلامي صحيح بعيدا عن أي أفكار فيها انحراف عن الوسطية الإسلامية التي هي روح الدين الإسلامي».

وأبدى معبد تمنيه بأن تناقش المجلة مسألة بعض الفتاوى المطروحة على الساحة، مثل الخلاف في ما يطرح من إنكار عذاب القبر، أو ما يوجه إلى كتب السنة من طعون، أو ما يطعن في بعض المعاملات الإسلامية، لافتا إلى أنه لو خصص باب من كل عدد لفتوى أو فتويين للعلماء المعاصرين في هذه الموضوعات، سيفيد المجتمع، لما للمجلة من انتشار واسع في البلاد العربية، فتكون مثل هذه الفتاوى، التي تصدر من أناس معروفين بالعلم والاعتدال وأيضا برؤيتهم الصحيحة إلى الإسلام، بمنزلة مرشد لهم للطريق الصحيح.

تواكب الأحداث

كما أبدى د. أحمد زارع، المتحدث الإعلامي لجامعة الأزهر، ترحيبه بما تقدمه المجلة من موضوعات، قائلا: «أحرص دائما على قراءتها، ولدي منها نسخ ضخمة منذ زمن بعيد، فهي تتسم بالاعتدال في أسلوب تناول موضوعاتها، علاوة على المنهجية الإسلامية التي تتفق مع صحيح الإسلام، لاسيما أنها تتميز باستكتاب كتّاب على أعلى درجة من العلم والرقي الفكري والحضاري، وأنه لا خلاف عليهم في المجتمع الإسلامي، ويعتبرون من قادة الفكر في العالم الإسلامي».

ولفت إلى أنها دائما ما تكون حاضرة في قضايا المسلمين، وتواكب الأحداث، علاوة على اهتمامها بقضايا المواطن المسلم في جميع أنحاء العالم، إضافة إلى أنها لم تنس الأقليات في المجتمعات الغربية والشرقية، وكانت حاضرة عند القضايا الآنية للمسلمين، ولم تتجاهلها، كما كانت تتجاهل بعض المجلات الأخرى هذه القضايا.

كما أكد أنها لا تنحاز إلى جهة ما على حساب أخرى، مضيفا: «لذلك، نقول إنها تعبر بالفعل عن قضايا الإسلام والمسلمين، والطبيعة الوسطية التي يرتضيها الله ورسوله، كمنهج وسطي إسلامي نعتز به، فضلا عن تميزها في الطباعة، واختيار الألوان التي تتناسب مع طبيعة الموضوعات، والصورة الجيدة، وتعد تعبيرا حقيقيا عنها، إضافة إلى الطباعة المتميزة الراقية، ونوع الورق، ورخص سعرها، الذي يسمح للقارئ المسلم البسيط ويمكّنه من أن يقتنيها ويقرأها».

العلامة المعمر معوض إبراهيم: مجلة مجاهدة تخاطب العقول والقلوب

أكد فضيلة الشيخ العلامة المعمر معوض عوض إبراهيم، حفظه الله، أن مجلة «الوعي الإسلامي»، التي تصدر منذ خمسين عاما عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، ليست مجلة واحدة، لكنها بالنظر إلى عطائها السوي وجهادها الذي شمرت له عن ذراعيها منذ اللحظة الأولى من صدورها، تعتبر موسوعة متكاملة، وأن المجلة جديرة بالإشادة بها، والتنويه بما أدته وتؤديه مشكورة منذ خمسين عاما وحتى اليوم، وإلى ما شاء الله.

وأضاف: «كم يسعدني أن أكون من الرعيل الأول من كتّاب المجلة. فلقد عرفتني وعرفتها منذ العدد الثاني من سنتها الثانية، منذ أن كان يرأس تحريرها الدكتور عبدالمنعم النمر، ثم تولى رئاستها الشيخ أحمد البسيوني، وخلفه في هذه المهمة الشيخ محمد الأباصيري، ثم الشيخ حسن مناع، رحم الله الجميع.. والمجلة الآن برئاسة الأستاذ فيصل يوسف العلي في أزهى أيامها».

وأشار فضيلته إلى أن إسهام المجلة في مجال الدعوة الإسلامية بالغ المدى، وأن عطاءها في المجال الثقافي لا يختلف اثنان في أنه في مستوى رفيع، ولاشك أنها تعرض الإسلام دينا قيما يخاطب العقول والقلوب على حد سواء، بمنهجية واستيعاب، تغبطها عليه كبريات المجلات الإسلامية، فللمجلة مع هذه الخصائص عنايتها في ملحقاتها لشباب الأمة الإسلامية الذين هم زينة حاضرها، وأمل مستقبلها، وروائح الجنة في الشباب كما قال الشاعر قديما.

ولا تكاد تقلب صفحة من صفحات هذه المجلة إلا وترى فيها مشاهد سماحة الإسلام ويسره وشموله، ونسأل الله تعالى أن يزيد هذه المجلة تألقا وارتفاعا واستهدافا لكل ما يجعلها منبر دعوة للدين والدنيا على السواء، فما تصلح الحياة إلا بدين الله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران:١٠١).

القراءة التدبرية للقرآن و تزكية الإنسان

د. الميلود كعواس
كاتب مغربي

لقد خلق الله تعالى الإنسان في قوام عجيب يباين سائر المخلوقات، إذ ركبه من شق طيني أرضي، ونفخ روحاني سماوي، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (ص:٧١-٧٢)، فهو على هذا مخلوق بين منزلتين: حيوانية وملائكية. لذلك، فهو مطالب بالحفاظ الدائم على هذا التوازن، من خلال تلبية الحاجات الشهوانية المركوزة فيه، لكن من دون إغفال عن توفير الحاجات الروحانية أيضا.

ولا جرم أن الإنسان قد حاد على مر التاريخ - ولا يزال - عن منهج التوازن إلى تغليب العناية بالأشباح وخدمتها، والغفلة عن العناية بالأرواح وتزكيتها، وهذا ما نتج عنه تشوه في تركيبة الإنسان، فصار يعاني إعاقة روحية على الرغم من استوائه الجثماني.

ولأجل معالجة هذه الإعاقة «الطارئة» هدانا الشرع الحنيف إلى عدد من السبل، لعل من أبرزها: تلاوة كتاب الله تعالى، قال ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن» (مصنف عبدالرزاق، شعب الإيمان للبيهقي)، أي إن الإعراض عن الإقبال على كتاب الله تعالى يؤدي إلى أن تصدأ القلوب، وهذا ما يورث بالتبع انسدادها وانغلاقها.

لكن القراءة المقصودة هنا ليست أية قراءة، وإنما هي القراءة التدبرية الواعية، التي تتجاوز الحلاقيم نافذة إلى القلوب. ولذلك، بين سبحانه أن عماية القلوب وانسدادها نتيجة مباشرة لانعدام التدبر لآي الكتاب المبين، قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:٢٤).

فالآية كاشفة عن العلاقة السببية بين عدمية التدبر وعماية القلوب التي هي أشد وأنكى من عماية الأبصار، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦). ثم إن الآية تشير إشارة واضحة إلى أن التدبر لكتاب الله تعالى، هو الذي يفتح القلوب ويكسر أقفالها، التي تحول دون تذوق جمال القرآن والإحساس بجلاله، وأنه هو البلسم الشافي الذي يزيل أدرانها ويطهرها من الرذائل والبذاء، ويهديها إلى سواء الصراط، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧).

إذن، فهذه القراءة التدبرية لكتاب الله تعالى تقي الإنسان من أن يخلد إلى الأرض ويتبع هواه، وترتقي به وتزكيه وتعلمه من العلم والحكمة ما لم يكن يعلم، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١)، وقال أيضا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢).

فهذا الترتيب البديع «تلاوة - تزكية



– تعلم» ليس عبثا، وإنما هو مقصود لذاته، أي إن الآيات تلمح بوضوح إلى أن من تبعات التلاوة التدبرية: حصول التزكية، واستجلاب العلم والحكمة.

فتحصل من خلال ما سبق كله أن الرقي الإنساني لا يتحقق إلا بالقراءة المتفحصة المتدبرة للقرآن الكريم، لأنها قراءة تتجاوز الحروف إلى المعاني، وتتجاوز الحناجر إلى القلوب، فتثمر فكرا وحكمة وسلوكا، وانقيادا مطلقا لأحكام القرآن ومقرراته، وهذا ما بينه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فيقول: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله» (١). وعن الحسن البصري – رحمه الله – قال: «والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل» (٢). ولعل هذا هو ما يفسر بطء بعض الصحابة في حفظ حروف القرآن الكريم، قد ثبت أن عمر الفاروق رضي الله عنه «تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة» (٣)، وذلك ليس عجزا منه، وإنما هو الحرص على التدبر والعمل، وهذا ما أكده ابن عمر فقال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرأون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به» (٤). وفي هذا المعنى يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به» (٥)، وثبت عنه رضي الله عنه أيضا أنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» (٦).

ومن الأمثلة الشاهدة على أثر تدبر القرآن في تزكية النفس، وإقبالها على فعل المأمور، ما أثر عن الصحابة – رضي الله عنهم – من سرعة الاستجابة إلى نداء الله تعالى حينما قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (المائدة:٩٠)، إلى أن قال سبحانه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة:٩١)، فقال الصحابة: «انتهينا يا ربنا». ثم أهريق ما كان بأيديهم من خمر ومسكر (٧). وما فعلوا ذلك إلا لأنهم وعوا معنى الآية وتدبروها وفقهوا أحكامها.

ومن نماذج الصالحين من بعدهم في الباب ما روي في سبب توبة الفضيل ابن عياض – وكان شاطرا يقطع الطريق – فقد عشق جارية فصار إلى بيتها في سكون الليل، فبينما هو يرتقي الجدار إليها إذ سمع رجلا قائما من الليل يتهجد ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

فلما سمعها تجاوزت آذانه وبلغت جنانه، ففقه مبناها، وأجرى معناها آنا غير مسوف، فقال: «بلى يا رب قد آن، بلى يا رب قد آن، بلى يا رب قد آن». ثم قال: «اللهم إني تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام» (٨).

بناء على ما سبق أقول إن القراءة التدبرية الواعية للقرآن الكريم تثمر اهتداء ورحمة وتزكية وشفاء، أي إنها تزكو بالقلوب في مقامات العبودية، وترقى بها إلى مدارج السالكين لرب العالمين. وفي هذا الصدد، يقول ابن القيم رحمه الله: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها (...) تعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه (...) تريه الحق حقا والباطل باطلا، وتعطيه فرقانا ونورا يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر» (٩).



الهوامش

١- تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (البقرة:١٢١)، ١/٤٠٣.
٢- نفسه، ٧/٦٤.
٣- شعب الإيمان، ح: ١٩٥٧، ٢/٣٣١.
٤- الجامع لأحكام القرآن، ١/٤٠.
٥- الجامع لأحكام القرآن، ١/٤٠.
٦- جامع البيان في تفسير آي القرآن، ١/٨٠.
٧- الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٨٢.
٨- الجامع لأحكام القرآن، ١٧/٢٥١.
٩- مدارج السالكين، ١/٤٨٥، ٤٨٦.

نقد الخطاب العلماني

د. سامي عطا
باحث دراسات إسلامية

استهُدِفَ الإسلام بحملة ضارية من دعاة العلمانية... وحملوا الإسلام الذي وسموه بـ «العقلية الدينية والعقلية الغيبية» وزر الهزيمة التي منيت بها الأنظمة، والتي لم يكن لها أي محتوى إسلامي يذكر.. الأنظمة التي كانت علمانية بدرجة أو بأخرى.. والتي كان يقودها ويوجه سياستها الداخلية والخارجية قوميون وعلمانيون، وأجهزة علمانية..

والحقيقة أن العلمانيين هم الذين قادوا العرب إلى الهزيمة، وأرادوا أن يقدموا للرأي العام ضحية تغطي على هزيمتهم وهزيمة فكرهم القومي.. فلم يجدوا إلا الإسلام كبش فداء فحملوه مسؤولية الهزيمة.. وهو منها بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.. لأنه لم يكن له دور.. بل لم يتركوا له أي دور في حربهم مع عدوهم.. ولا في أي وجه من وجوه سياساتهم.

وللعلمانيين في خطابهم، والدائرين في فلكهم مفاهيم متعددة، مثل: المقاصد، والمصالح، والمغزى، والجوهر، والروح، والمنهج، والرحمة.. وغيرها، وهي كلمات حق يراد بها باطل، يراد بها استئناس الضمير الإسلامي.. مثلها مثل: الكلمات التبجيلية التي يتداولها العلمانيون أثناء الحديث عن القرآن الكريم، تمهيدا لإقصائه عن الحياة والتشريع وذلك كقولهم:

- القرآن كتاب هداية، وإقحامه في كل أمورنا الحياتية ليس من تخصصه، إنه ليس كتابا في الطب والفيزياء.
- والخطاب القرآني خطاب تثقيفي تربوي من أوله إلى آخره..
- القرآن كتاب دين وإيمان، وليس كتاب تقنين وتشريع، بعكس التوراة..!!.
- شريعة موسى الحق، وعيسى الحب، ومحمد الرحمة..

وعلى هذا السبيل تستخدم المقاصد، والمصالح والتأويل.

فعقوبات مثل الرجم كانت سارية المفعول في ذلك العصر التاريخي، بسبب ملاءمتها للأحوال الاجتماعية آنذاك، حيث كانت المجتمعات بدوية بدائية متنقلة، فلا يوجد سجون ولا جدران وإنما خيام، فكيف يسجن السارق؟! وكيف تحفظ الأموال؟ لابد من عقوبة تميز السارق وتجعل الناس يحذرون منه، أما اليوم فقد تغير الحال.

والثابت إذن هو مبدأ العقوبة أو الجزاء، أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة إلى كل عصر!! حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه، وبذلك تظل التشريعات تفاصيل تطبيقية مشدودة إلى كلية المنهج. وبهذا يستوعب القرآن متغيرات العصور، ويبقى كما أراد الله صالحا لكل زمان ومكان. والمنهج هو الشريعة والشريعة هي المنهج، لأن معنى الشريعة في القرآن هو المنهج والمدخل والسبيل، وليست الشريعة القواعد والأحكام التفصيلية، ذلك لأن المنهج قادر على الحركة الدائمة مع الواقع، أما الأحكام التفصيلية فهي نسبة مرتبطة بظروفها، ولذلك يخطئ الكثيرون عندما يظنون أن تطبيق الشريعة، يعني تطبيق أحكامها وتفاصيلها، والحق أنه تطبيق روحها، أما تفاصيل المعاملات وغيرها فليست هي الشريعة، وإنما هي أحكام الشريعة.

إن تطبيق الشريعة يعني إعمال الرحمة في كل شيء، لأن القرآن يقوم على منهج الرحمة أو التجديد والمعاصرة، ومن هنا مادامت الرحمة هي المنهج والمنهج هو الرحمة، فإن القانون الوضعي بكل فروعه المدنية والتجارية الآن موافق لشريعة الإيمان وروح القرآن وفق دراسة «المدخل المقاصدي و المناورة العلمانية» للدكتور أحمد إدريس الطحان.

ونظام الربا في الإسلام يؤكد ذلك، فقد تغير الحال، ولم يعد الأمر كما كان استغلالا لحاجة المدين يؤدي الى إعساره وإفلاسه، ولم يعد ثمة نظام للربا، وإنما نظام لحساب الفوائد على الديون في مجتمع يقوم فيه المشروع بدون الرقابة على المعاملات، ويحدد الفائدة بحيث لا تغني الدائن ولا تستغل المدين.

ونظام الحدود في الإسلام يؤكد ذلك أيضا، فالشروط التي وضعها الفقهاء لإدانة السارق أو الزاني وإقامة الحد عليه يصعب أن تتحقق... كما أن تطبيق حد الرجم، لا يتفق مع روح الإسلام وأحكامه، لأنها تقرنه بالعنف والتشدد والقسوة أمام الرأي العام العالمي. ولذلك فتطبيق هذه العقوبات باسم القرآن خيانة له، وأقوم الطرق أن نبحث عن الجوهر، إذ لا يجب التمسك بحرفية النصوص، إنما بروحها ومغزاها ومقصدها، وهو يكفل لنا الحفاظ على مصداقية الإسلام، وصلاحه لكل زمان ومكان.

وهذا ما عناه د. نصر حامد أبوزيد بقوله: «أدرك عمر بن الخطاب حكمة التشريع الذي يعطي للمؤلفة قلوبهم نصيبا من الزكاة، لا من بنية النص ذاته، بل من السياق العام للنص، فأدرك أن حكمة هذا التأليف تقوية الإسلام الذي كان ضعيفا... إلى أن يقول: وبنفس الفهم من جانب عمر لحكمة فرض حد السرقة لم يقم هذا الحد على العبدين اللذين سرقا سيدهما الذي كان يجيعهما، وهدد ابن الخطاب السيد نفسه بقطع يده لو عاد العبدان للسرقة مرة أخرى». ولم يعلن أبوزيد عن هدفه صراحة، بل نستشفه من توظيف

جوقة العلمانيين والحداثيين اجتهادات سيدنا عمر رضي الله عنه للقول بأن المقاصد أو المصالح هي الحاكمة على النص القرآني، وأن النص يدور معها وجودا وعدما، أو يوقف أو يعطل إذا حصل تعارض بينهما، وأن الاجتهادات الجريئة التي صدرت من سيدنا عمر رضي الله عنه في القضايا المستجدة، أبلغ دليل على ذلك مثل:

- إيقافه لحد السرقة عام الرمادة.. وإيقافه لسهم المؤلفة قلوبهم.

وإليك ما يقوله الخطاب العلماني في ذلك:

- عمر ألغى بعض الفرائض، وأوقف بعض الأحكام.
- ألغى عمر حصة المؤلفة قلوبهم اتباعا لمقاصد الشرع.
- يمكن للاجتهاد المطلق أن يخصص العام، ويقيد مطلقه وأن يوقف العمل بنصوص ثابتة، وقد فعل عمر ذلك!.
- لقد أبطل عمر رضي الله عنه القطع عام المجاعة وقطع سهم المؤلفة قلوبهم.
- حكم عمر بما لا يطابق النص القرآني.
- عمر أبطل مفعول آيتين في القرآن وهو موقف مستنير.
- لقد غير عمر شرائع ثابتة في القرآن والسنة مثل: حد الخمر وحد السرقة وسهم المؤلفة قلوبهم.
- أوقف عمر حد السرقة عام المجاعة، وسهم المؤلفة قلوبهم مع أن النصوص ثابتة لم تنسخ. إلى آخر هذا الخبال والكلام البطال على حد قول المرحوم محمد جلال كشك!.

وهنا لابد من توضيح:

إن قول كل المستشرقين وتابعيهم من العلمانيين والحداثيين بأن عمر رضي الله عنه خالف النص القرآني الصريح بقطع يد السارق ينم عن جهل قائله بمقاصد الشريعة الإسلامية، وكأن الواحد منهم يقول للمسلمين لا حرج عليكم في مخالفة نصوص الشريعة فقد خالفها من قبلكم عمر..

والأمر ليس كما يتصورون.. فجريمة السرقة من الجرائم التي وضع الشارع الحكيم لها قيودا معينة، وهذه الأركان تسمى بأركان جريمة السرقة، فإذا توافرت هذه الأركان جميعها اعتبرت جريمة السرقة متكاملة.. وتسقط عقوبة القطع من كل جريمة سرقة لا تتوافر فيها الأركان مجتمعة.

وقد بينتها كتب الفقه المختلفة، كما لا يقام الحد على السارق إذا وجد مانع موضوعي واحد من ثلاثة عشر مانعا بينها الفقهاء لوجود شبهة دارئة للحد... ومن هذه الموانع:

- حدوث مجاعة.. فلا يقطع من سرق في مجاعة مضطرا لدفع الهلاك عن نفسه، روى مكحول رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا قطع في مجاعة مضطر».

وحالة الضرورة تسقط الحد والتعزير معا..

وقد نفى الله سبحانه عن المضطر الإثم بقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:١٧٣)، فحد السرقة لم يلغه عمر رضي الله عنه، بل نفذ نصوصا إسلامية أخرى كما أسلفنا، فعمر اعتبر المجاعة هذه شبهة فدرأ بها الحد.. لقد أعمل نصا مكان نص آخر اقتضته الضرورة.. وأين المجال للتخرص بأنه أبطل الحد وخالف القرآن؟.

لقد أعمل عمر رضي الله عنه الحد مع إيقاف التنفيذ أو بالتعبير الإسلامي درأه..

وقد قال أحد الفقهاء بسقوط القطع في عام المجاعة، كما فعل عمر رضي الله عنه، قال الإمام أحمد بن حنبل «لا قطع في مجاعة... وروي عن الأوزاعي مثل ذلك، ولا قطع على المرأة إذا منعها الزوج قدر كفايتها أو كفاية ولدها فأخذت من ماله، ولا قطع على الضيف إذا منع قراه فأخذ أيضا من مال المضيف..

بل لم يحد عمر رضي الله عنه غلمان حاطب ابن أبي بلتعة عندما سرقوا ناقة رجل من قبيلة مزينة ونحروها، لأنه تبين له أنهم سرقوا ناقته تحت حاجة ملحة، وهي الجوع، فحكم عمر رضي الله عنه بالضمان على سيدهم لأنه كان يستخدمهم ويجيعهم حتى دفعتهم معاملته القاسية إلى السرقة، ولذلك حكم عمر بالضمان على سيدهم تأديبا له وزجرا لأمثاله..

ويتضح مما ذكرنا: أن شرط الإعفاء من القطع في حالة الضرورة، أن لا يأخذ المضطر إلا ما يدفع به الضرر، فمن القواعد الفقهية الشرعية «الضرورة تقدر بقدرها»، وعلى هذا الأساس ليس للجائع أن يأخذ من طعام غيره إلا ما يسد به جوعه، ولا تتحقق الضرورة إلا إذا وجد الإنسان نفسه في حالة يخشى فيها تلف النفس والأعضاء، وإذا أمكنه دفع الضرورة بفعل مباح، امتنع دفعها بفعل محرم.

وبعـــد:

هذا ما فقهه عمر رضي الله عنه وهو يبين لنا مدى أحكام الإسلام وتقدمها على الأحكام التي يريد لنا الكتاب العلمانيون والحداثيون ومن يرددون أقوالهم بغير فهم أو عن سوء قصد كأبي زيد، والجابري، وجعيط وغيرهم أن نرجع إليها القهقرى بدلا من الحالة المتقدمة التي وصلنا لها، فليتروّ الكتاب قبل الخوض في أمر لم يفقهوه، وقبل أن يغمز أحد منهم بعينه ويقول لنا: إن الآية بطلت أو ألغاها عمر رضي الله عنه وأرضاه، وهكذا نرى أن توظيف المقاصد دون ضوابط أو معايير، ما هو إلا وسيلة لهدم الشريعة وإقصاء القرآن عن القيادة والمرجعية، وتبرير للحلول التي تمليها المناهج الحديثة.

د. طه ريان: لا عذر لعلماء الأمة في استمرار القوانين الوضعية التي تخالفها

الشريعة الإسلامية عصماء

عبدالله شريف
القاهرة : دار الإعلام العربية

أكد عضو هيئة كبار علماء الأزهر الشريف ورئيس موسوعة الفقه الإسلامي، وأحد أبرز شيوخ الفقه المالكي العلامة د. أحمد طه ريان، أن الشريعة والأحكام الفقهية الإسلامية عصمة لمن تمسك بها وسار على نهجها.. وأوضح في حواره مع «الوعي الإسلامي» أن كثيرا من القوانين الأوروبية مأخوذة من الفقه الإسلامي، وتحديدا الفقه المالكي، واعتبر أنه لا عذر لعلماء الأمة في بقاء الاحتكام إلى القوانين الوضعية.. وتحدث فضيلته عن مسيرته العلمية والفكرية، وعن العديد من القضايا، فإلى التفاصيل:



• بداية.. حدثنا عن نشأتك والمشايخ الذين تتلمذت على أيديهم؟

- نشأت في الأقصر جنوب الصعيد وحفظت القرآن، وتعلمت مبادئ العلوم في الصعيد أيضا، ثم أتيت إلى القاهرة للدراسة بكلية الشريعة والقانون، ودرست فيها العلوم الشرعية على أساتذة كبار، منهم الشيخ الحسيني والشيخ أنيس عبادة والشيخ زهير محمد زهير، وغيرهم من كبار العلماء الذين تلقيت على أيديهم العلم الشرعي في كلية الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر.

ومن ثم أكرمني الله وحصلت على درجات علمية متتابعة، منها ماجستير الشريعة، ثم الدكتوراه في الفقه المقارن عام ١٩٧٣م، ثم درجة أستاذ مساعد عام ١٩٨٠م، ثم درجة أستاذ عام ١٩٨٥م، وتوليت العديد من المناصب الإدارية في جامعة الأزهر وفي العديد من جامعات العالم الإسلامي، كما أتولى في الوقت الحاضر رئاسة موسوعة الفقه الإسلامي.. وأحمد الله أن من علي بزيارة العديد من البلدان الإسلامية لنشر وتلقي العلم.

• ما هي أبرز الكتب التي قمت بتأليفها؟

- ألفت عددا من الكتب، ومنها «الرسالة في عقد الوكالة في الشريعة الإسلامية» وكتاب «فقهاء المذهب المالكي» وكتاب عن الإمام مالك بن أنس.

كما ألفت عددا من الكتب الحياتية التي تهم البيت المسلم، ومنها: فقه الأسرة وتعدد الزوجات ومعيار العدل بينهن في الشريعة الإسلامية، وأيضا ضوابط الاجتهاد والفتوى.

ومعروف أن مصر تحكم منذ ١٥٠ عاما بالقانون الفرنسي في معظم القضايا، باستثناء الأحوال الشخصية كالطلاق وغيره، ومن خلال البحث تبين أن القانون الفرنسي مأخوذ من الفقه المالكي.

وأصدرت كتابا منذ شهرين يوضح كيف صاغ علماء الثورة الفرنسية قانونهم من الشريعة الإسلامية، والفقه المالكي تحديدا، وحكمت العديد من الدول الأوروبية بهذا القانون، وهذا هو آخر مؤلفاتي.

وتساءلت في الكتاب الذي جاء بعنوان «أوجز المسالك في الإبانة.. عن أخذ القانون الفرنسي الذي تحكم به مصر من الفقه المالكي فإلى متى؟»، عن سبب الاستمرار في هذا القانون الفرنسي بعد أن علمنا أن أصله شرعي، ولماذا لا نعود للاحتكام للشريعة الإسلامية.

وشمل الكتاب شهادات وأدلة على تأثر دول أوروبا واليابان وأميركا بالفقه المالكي.

وقد قمت بتأليف الكتاب بهدف إثبات أن الشريعة الإسلامية هي الأصل، ولابد من العودة إليها والاتفاق على أصولها، لأنها عصمة لمن تمسك بها وسار على نهجها من أفراد وجماعات وأمم.

ولقد ابتعدنا عن شريعتنا مدة قرن ونصف من الزمان، وكنا نُحكم بقوانين أجنبية أُتي بها إلينا بقصد تطويرنا، ثم اكتشفنا أن هذه القوانين من شريعتنا، لكنها جاءت بصياغة جديدة ولغة أجنبية.

ويجب إعمال قول الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المائدة:٤٤)، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (المائدة:٤٧).. ولا عذر للعلماء في استمرار العمل بالقوانين الوضعية على حساب الشريعة السمحة.

على السائل أن يحسن اختيار مفتيه كي لا يشاركه الوزر

• تعددت مذاهب العلماء، فما الفرق بين الفقه المذهبي والفقه العام؟

- تنوع المذاهب رحمة بالناس، حيث تتفق على أصول وتختلف في فروع، والفقه المذهبي يعطي أكثر من تفسير للمسألة الواحدة، أما الفقه العام وتفسير الأحاديث وغيرها فلا يأتي بمثل هذه التفاصيل، وقد اعترضت من قبل على الأفكار التي تطرح بمنع الفقه المذهبي في جامعة الأزهر الشريف.

فمثلا في اليمن كانوا يصرفون النظر عن الفقه المذهبي، ولكن اكتشفوا بعد ذلك أن قواعد الناس تؤخذ من الفقه المالكي، فأصبح هناك تدريس سنة كاملة للفقه، بعد ما يحصل الطالب على الماجستير، وانتدبت في جامعة الإيمان لتدريس الفقه المالكي.

• كيف يمكن للشريعة أن تعاصر الزمان المتغير؟

- العادات والتقاليد تتغير، وعلى الفقيه أن يجتهد حتى يجد أحكاما تتناسب مع البيئة الجديدة، والأعراف تختلف من جيل إلى جيل ومن عصر إلى آخر، وأذواق الناس وطموحاتهم وطريقة تعاملهم في العبادات والمعاملات المالية وغيرها.

ويجب على الفقيه أن يوازن التغيرات حتى يجد الحكم الشرعي المناسب، كما يجب عليه أن يعلم تلاميذه ذلك منذ البداية.

الشريعة سهلة وواضحة، وينبغي على الداعية والفقيه عدم ترك الأصول، وكل فقهاء الإسلام اتفقوا على الأصول واختلفوا في الفروع.

وينبغي على البلاد التي كانت تحكم بالشريعة الإسلامية ومن ثم تم احتلالها وتغيير قوانينها، أن تستعيد حقها في الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية، وعلى علماء الأمة أن يجتهدوا في تحقيق ذلك وتبيان آثاره.. كما يجب على المشرعين في الدول الإسلامية أن يراجعوا الدساتير التي يقسمون على احترامها ويكتبون فيها أن الإسلام دين الدولة، بينما نجدهم يوافقون على إصدار تشريعات تخالف هذا الدين.

● الجهاد والتكفير مصطلحان فقهيان تزايد استخدامهما في الفترة الأخيرة، كيف يتم استيعابهما وشرحهما؟

- كلمة «الجهاد» أخذت من الفقه الإسلامي ومن الشريعة، لكن لم تؤخذ بكل أركانها أو أحكامها، وعندما أريد أن أغير نظاما في أي دولة ينبغي أن تكون لدي قدرة على التغيير من معدات وأسلحة وبشر.

أما قيام مجموعة مسلحة بمواجهة دولة ونظام فهذه فتنة، والفتنة توجد الحرب وتهدم الإنسانية، وما يحدث في مالي والعراق خير دليل على هذه الفتن التي تأتي على الأخضر واليابس.

وعندما نريد أن نؤسس دولة على الشريعة الإسلامية ينبغي أن يجتمع أهل العلم وكبار العلماء من جميع الدول ليضعوا قواعد وأصول تأسيس نظام الحكم الإسلامي، ويتم عرضها على حكام الدول.

أما كلمة «كفر» فهي مصطلح صعب في الشريعة الإسلامية ويجب عدم التساهل في إطلاقه، فليس من حق أحد إخراج الناس من الدين إلا بإنكار معلوم من الدين بالضرورة.

● كيف ترى مستوى العلم الشرعي عند الدعاة الجدد؟ وبم تنصحهم؟

- الشباب ينبغي أن يتجه للقاء أهل العلم من العلماء الثقات، وعليه أن يستمد علمه أيضا من أمهات الكتب المعتمدة، وينبغي أن لا يبحث بنفسه في الكتب دون الرجوع إلى العلماء، فقد يقع في مشكلة القراءة التي لا تقوم على صحيح الدين.. ولابد من التوسع في تدريس الشريعة حتى يصل العلم الشرعي إلى الجميع، ففي كليات الحقوق مثلا؛ يجب أن يدرس بجانب مقرراتها القانونية مقررات شرعية حتى تتسع الآفاق لفهم العصر.

ووسائل الإعلام الجديدة العابرة للحدود ساهمت بشكل كبير في وصول الدعوة مراحل جيدة، لكن ينبغي الحذر، فلا ينبغي أن يتحدث في أمور الدين من ليس لديه العلم الشرعي الذي يهيئه إلى ذلك.

● كيف ترى التعليم الأزهري في هذه المرحلة؟ وهل هناك قصور؟

- الأزهر الشريف يقوم بدوره على أكمل وجه في العالم الإسلامي أجمع؛ من خلال نقل العلم وشرحه في الجامعات والمدارس والمعاهد، إضافة إلى البعثات التي يرسلها إلى دول العالم الإسلامي، ولكن هناك قصور في العملية التعليمية الأزهرية، فضلا عن أوضاع الطلاب أنفسهم ومعاناتهم، حيث أتوا من بلدان مختلفة، فتشغلهم هموم وأمور كثيرة عن التفرغ للعلم فقط.. لذا ينبغي تحسين الأحوال المعيشية للطلاب والمعلمين على السواء، كي يمكنهم أداء رسالتهم على الوجه الأمثل.. أيضا من المهم الارتقاء بمستوى العملية التعليمية وتطويرها بما يوظف الاستفادة من تقنيات العصر.

● كيف نضبط الفتوى من خلال مصادر موثوقة؟ وكيف نواجه فتاوى الفضائيات؟

- مشكلة الفتوى تحدث فيها العلماء كثيرا، والفتوى في مصر محكومة بمؤسسات معروفة، قائمة بعلمائها الأجلاء، كما أن هناك برامج ثابتة في الإذاعة للرد على فتاوى الناس وحاجاتها من مصادرها الأصلية الموثوقة، كما تتلقى دار الإفتاء فتاوى المواطنين وتجيبهم، وأتمنى من الناس في العالم الإسلامي والعربي أن يتجهوا إلى مصدر الفتوى والعلماء الصحاح الموثوقين لتلقي الإجابة وعدم الاستسهال.

أما فتاوى الفضائيات فليست محكومة، ومعظم الفضائيات تجارية تأتي بمن صوته عالٍ ومسموع، وتعطيه ألقابا تخدع الناس، لذا ينبغي على من يريد الفتوى أن يحسن اختيار مفتيه، حتى لا يحمل بدوره وزرا في أن يطلب العلم من غير أهله.



الإيجابية في شخصية المسلم

د.محمد أحمد الدش
أستاذ بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

الإيجابية تعني التحرك السريع في معالجة الواقع إصلاحا أو تغييرا دون توجيه أو أمر خارجي، وإنما هو تحرك ذاتي بتوجيه داخلي، ومعنى أن يكون الإنسان إيجابيا أن يصير قوة فاعلة في مجتمعه، وعنصرا نشطا في أمته من أجل رفعتها وبناء نهضتها، فهو صاحب همة عالية وجدية بناءة لا تؤثر فيه الخطوب، ولا يثنيه عن هدفه يأس أو قنوط، وهو لغيره ملاذ آمن وعون يجد فيه المستنصح النصح الأمين، ويجد عنده صاحب الحاجة قضاء لحاجته... وهو فوق ذلك مكثر من الطاعات، مسارع في فعل الخيرات، مغتنما لوقته غير لاه أو مضيع...هذه هي الإيجابية التي تمثل صفة أصيلة ومكونا من مكونات الشخصية العربية لا سيما الشخصية الإسلامية، فقد جبلت الشخصية العربية على جملة من الصفات التي لا توجد في غيرها من الأجناس، تحمل صورا إيجابية من النجدة والمروءة والبذل والتضحية... إلخ، ولقد جاء الإسلام داعيا إلى هذه الصفات الإيجابية وأكدتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فيقيمها القرآن الكريم على أساس الأخوة التي تقتضي النجدة والنصرة والتعاون وإعانة المحتاج وإغاثة الملهوف.

وإذا كنا نعيش هذه الأيام حالة من الانفلات الأخلاقي فإن إيجابية المسلم تأخذ تجاهها أشكالا عدة، منها: نصرة المسلم لأخيه المسلم، فإن إيجابية المسلم هنا أن ينصر أخاه ظالما أو مظلوما، وببداهة العقل نصرته مظلوما ممكنة، فكيف تكون نصرته ظالما؟!! تكون بحجزه عن اقتراف الظلم سواء وقع منه الظلم على مسلم أو على غير مسلم، وفي ذلك نصرة له ونجاة من التعرض لعقاب الله تعالى في الآخرة، ومن الإيجابية كذلك، الجلسات العرفية التي انتشرت في أرجاء الوطن لرأب الصدع بين المتنازعين وفض الخلاف بين المتخاصمين، فهي إيجابية محمودة، وسبب لإزالة الشحناء، والقضاء على البغضاء التي تكدر النفوس وتوغر الصدور، بيد أنها لا يمكن بحال أن تكون بديلا عن تطبيق القانون وإقامة العدل.

ولا تزال أمتنا بخير ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، فبهذا استحقت خيريتها على سائر الأمم.

أسباب التشويه الإعلامي الغـــــ

د. حسن عزوزي
رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة بفاس - المغرب



ـــــربي لصورة الإسلام والمسلمين



لم تعد وظائف وسائل الإعلام والاتصال الحديثة تقتصر على نقل الأحداث والوقائع وتفسيرها من وجهة نظرها، بل أصبح لها دور في صنع هذه الأحداث وصياغة القرارات وتوجيه الرأي العام وتنميط سلوكه وأفكاره، كما أصبحت القدرة على استقبال المعلومات ونشرها وتداولها من بين أهم مرتكزات القدرة على السيطرة على سائر الأعمال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وأضحى الإعلام اليوم قادرا، بفضل التطور الهائل لتقنياته، على المساهمة في بناء الإنسان أو هدمه، وعلى ترسيخ القيم أو تخريبها، كما أنه أصبح قادرا على تعزيز التفاهم والاحترام بين الشعوب، بقدر ما هو قادر كذلك على أن يشوه الآخرين ويضفي التعتيم على قضاياهم.

الإعلام الغربي وصورة الإسلام

منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، لم يعرف الحديث عن واقع صورة الإسلام والمسلمين في الغرب من الاهتمام والبحث والمدارسة ما يعرفه الآن، حيث إن المتتبع لتداعيات تلك الأحداث لا يملك إلا أن يستغرب لفظاعة الصورة التي تكونت في الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين، حيث وجد في الصورة المصطنعة عن الإسلام مادة خصبة لنسج صور نمطية موغلة في الازدراء والاستخفاف بتعاليم الإسلام ومبادئه من جهة، وعادات وتقاليد المسلمين من جهة أخرى.

وإذا كانت ظاهرة صنع صورة مسيئة للإسلام والمسلمين في الغرب ذات جذور تاريخية وفكرية امتدت إلى قرون عديدة، ابتداء من المرحلة الصليبية خلال القرون الوسطى ومرورا بالمرحلة الاستشراقية، فإنه يمكن القول إن هذه الظاهرة السلبية قد استأثرت بها في السنوات الأخيرة وسائل الإعلام الغربية، حيث أمست ظاهرة تشويه صورة الإسلام والحضارة الإسلامية في وسائل الإعلام ظاهرة حقيقية، وليست متوهمة أو مبالغا فيها، فقد استطاعت الأجهزة الإعلامية الغربية أن تنقل صور التشويه والتمييع من بطون الكتب والدراسات الاستشراقية إلى أن تكون زادا مثيرا تقتات منه وسائل الإعلام في كل مكان، وغدت تلك الصور «جماهيرية» بعد أن كانت «نخبوية».

لقد أضحى الحديث عن الإسلام يشكل وجبة دسمة في مختلف وسائل الإعلام الغربي، والتي برعت في إلصاق تهمة العنف والإرهاب به وبأتباعه، مما فاقم من حدة الاهتمام والمتابعة لكل ما يرتبط بالعالم الإسلامي، الذي أمسى منبع الخوف والريبة بالنسبة إلى

الغربيين. ولاشك في أن الإعلام الغربي، بما يمتلكه من إمكانات جبارة وقوة الجذب والتأثير، قد استطاع أن يجعل الشأن الإسلامي ضمن اهتمامات الإنسان الغربي، الذي أصبح في الآونة الأخيرة ينظر إلى المسلم في الديار الغربية نظرة حذر وارتياب وخوف. ولذلك، باتت الصور الكاريكاتيرية العنصرية، واللقطات الإعلامية السلبية أكثر الصور انتشارا وذيوعا، وأمست الآلة الإعلامية الغربية لا تجد غضاضة في نهج مختلف السبل لعرض الإسلام وتحليله وتصويره بشكل يجعله «معروفا»، وفق طريقتها، للقراء والمشاهدين الغربيين، فتكونت من جراء ذلك صور مشوهة عن ديننا تهم كل مجالاته وتعاليمه ومبادئه تكرست في أذهان الغربيين وأمست شيئا مألوفا، فأصبحنا نقرأ ونسمع أوصافا فظيعة وتهما مكذوبة وأراجيف مختلقة توجه ضد الإسلام والمسلمين، وتعمل على تشويه الصورة وتزييف الحقائق من خلال الكتابات الاستشراقية ومواد الموسوعات ودوائر المعارف وكتب المناهج الدراسية الغربية، فضلا عن وسائل الإعلام بمختلف مكوناتها: المكتوبة والمرئية والمسموعة.

أبرز أسباب التشويه الإعلامي الغربي لصورة الإسلام والمسلمين

لم يكن صعبا على مختلف مكونات الإعلام الغربي في فترة من الفترات العمل على إشاعة الخوف من الإسلام، وإحداث نوع من الإقناع لدى الإنسان الغربي بأن الإسلام دين مخيف. ولذلك، تم العمل على إيجاد صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين تجرد الإسلام من كامل خصائصه وملامح حضارته الإنسانية.

والواقع أن هناك أسبابا وبواعث كثيرة تدفع الإعلام الغربي، بمختلف مكوناته، إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين، لعل أبرزها ما يلي:

أولا - الجهل وسوء الفهم

تقوم مختلف مكونات الإعلام الغربي، المرئية والمسموعة والمكتوبة، بإمداد القراء والمشاهدين بالأفكار المغلوطة والصور الذهنية السلبية عن الإسلام والمسلمين، مما هو ناتج، في بعض الأحيان، عن جهل مطلق بحقائق الإسلام وتعاليمه، وسوء فهم كبير لقيمه وثقافته المتميزة. إن سوء فهم الغربيين للإسلام يرجع -أحيانا- إلى حرص المسلمين على تمسكهم بمبادئ الإسلام وأن تكون حاكمة لهم في جميع مناحي الحياة، وهذا ما يجعل الغربيين لا يفهمون الإسلام إلا من خلال هذه المظاهر والمشاعر الدينية التي يرونها غير منسجمة مع قيم الغرب الحداثية. لذلك، فسوء الفهم يرجع أساسا إلى وجود ميل متواصل لافتراض أن المعايير والقيم الغربية هي المرجع الوحيد في أي تحليل أو حكم على الأشياء، وأن مثل هذه المقاربة تركز بشكل رئيسي على تحليل نقط الاختلاف بين الإسلام والثقافة الغربية. ويلاحظ أن البحث عن نقاط الخلاف لا يهدف إلى فهم سلوك المسلمين، وإنما من أجل التأكيد على الاختلاف والتمايز، والتشديد -ضمنا- على تفوق الثقافة الغربية. ويرى بعض الباحثين الغربيين المنصفين أنه من أجل إزالة سوء الفهم المتبادل لابد من الاعتراف البصير والمتسامح بمساحات الاختلاف بين الثقافتين الإسلامية والغربية، فليس أمينا ولا راغبا في بناء علاقات سوية وواقعية من يتجاهل الاختلاف بين الحضارتين أو ينكره (١).

كما أن من أكبر أسباب الجهل وسوء الفهم لدى الغربيين بالإسلام أن كثيرا من الحقائق والتعاليم والقيم الإسلامية بقيت غير معروفة، خصوصا تلك القيم والمثل المرتبطة بوسطية الإسلام وسماحته، ودعوته الخالدة إلى الحوار والتعايش، ونبذ العنف والتطرف، وربما لو عرفها عموم الغربيين لكان لها أكبر الدور في تحسين صورة الإسلام وإزالة سوء الفهم الموجود اليوم.

ثانيا - الإرث الاستعماري

يمكن التأكيد على أن واقع الاستعمار الغربي للدول الإسلامية كان منبعا أصيلا لكثير من الصور الزائفة التي صنعها الغرب، وهي الصور النمطية التي عادت لتزكي وتبرر المخيلة الغربية نزعة الاستعمار والاستعلاء والرغبة المستمرة في الاحتواء، وذلك بصناعة صورة الآخر عن الإسلام وحضارته، تلك الصورة التي نمت مكوناتها لتبرر للغرب نفي الآخر الإسلامي من جهة، ولتشحن الشعوب غير الإسلامية بالعداء للإسلام. يقول المؤرخ الفرنسي ذو الكتابات المنصفة عن الإسلام مارسيل بوازار Marcel Boisard: «إن كتابات المستشرقين -عدا بعض الاستثناءات النادرة- لم تسهم في تصحيح فهم الإسلام أو إعادة تدقيق الصورة التي كانت

لدى الرأي العام الغربي إلى نصابها الصحيح، لأن الاستشراق كان في الأصل أحد الفروع العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية....» (٢).

ثالثا - أفعال وتصرفات بعض المسلمين المتطرفة

ينبغي ألا ننكر أن أفعال وسلوكيات بعض فئات المسلمين تغني -أحيانا- عن مساهمة الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام، فتكون تلك التصرفات كافية لكي يحصل الخلط لدى الآخرين بين مبادئ الإسلام وتعاليمه وتصرفات بعض المسلمين التي يتبرأ منها الإسلام والتي تسهم في ترسيخ صور نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين في أذهان الغربيين.

وهكذا، فإن الإعلام الغربي يصر على الربط بين ظاهرة الأصولية الإسلامية، وحركة التدين بصفة عامة، مع الإصرار على التركيز على بعض السلبيات، مثل: الغلو والتشدد والتطرف وأحداث العنف، من جانب هذه الجماعات عند الربط بينها وبين الإسلام والمسلمين.

ويؤكد الباحث الفرنسي فرانسوا بورغا Francois Burgat على أن الإعلام الغربي يبرز وجها سيئا للإسلام من خلال تصرفات بعض المسلمين المتطرفة، ولا يبرز الوجه الإيجابي، كما أنه يتم التركيز على العناصر والحركات غير المنضبطة، والتي لا تعبر إطلاقا عن مجمل الظاهرة الإسلامية، فعمليات خطف الرهائن والتفجير وأعمال العنف الناشئة عن سوء الفهم لحقيقة الإسلام في مبادئه وتعاليمه وقيمه، كلها تدفع الإعلام إلى استغلالها والتركيز عليها وبالتالي يتم الربط بينها وبين الإسلام (٣). وعلى الرغم من اعتراف كثير من وسائل الإعلام الغربية بنتيجة الحكم على الإسلام من خلال تصرفات طائشة وسلوكيات عنيفة لبعض المنتسبين إلى الإسلام، فإن واقع صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي يظهر تمادي جل الوسائل الإعلامية الغربية في تبني أسلوب الخلط المتعمد، علما بأن الجميع يقر بأن ظاهرة التطرف والغلو تمس جميع الديانات والحضارات وليس الإسلام فحسب.

رابعا - الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)

تعتبر لفظة الإسلاموفوبيا Islamophobie المصطلح الأكثر تعبيرا عن عقدة الخوف والهلع من انتشار الإسلام ونفوذ قوته الدينية والثقافية والبشرية داخل المجتمعات والدول الغربية. وتدل اللفظة في القواميس النفسية على الخوف المرضي والرهبة والخوف اللاشعوري (٤). وفي الاصطلاح العام تدل اللفظة: على ما تم ترسيبه وإشاعته من قلق مرضي وخوف نفسي لا شعوري لدى الغرب من الإسلام وكل ما يتصل به. وينتعش هذا المصطلح أكثر عندما يحتد العداء الغربي للإسلام، ويظهر من خلال القيام بحملات تشويهية لصورة الإسلام والمسلمين، خصوصا عبر الإعلام الغربي لكل مكوناته. إنه مصطلح جامع لعمليات التشويه المشحونة بالدسائس والأكاذيب ضد الإسلام وحضارته.

ويمكن إجمال أسباب تفاقم واستمرار الخوف من الإسلام في ما يلي:

- قدرة الإسلام على الانتشار والامتداد. فالغربيون يعترفون، مع شيء من الحيرة والدهشة، بأنه فعلا هناك ما يخيف في الإسلام كدين كاسح له قابلية التنامي والانتشار بسرعة مذهلة.
- إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام بكثافة، وبكل تلقائية وطواعية واقتناع، مما يدفع إلى التخوف من احتمال تناقص أتباع المسيحية لمصلحة الإسلام.
- تزايد أعداد العرب والمسلمين وأبنائهم وأحفادهم في البلدان الغربية، ودخول نخبة منهم تحت قبة البرلمانات الغربية، مما يدعو الغربيين إلى التوجس من احتمال بروز دور قوي للجاليات العربية والإسلامية في القرارات السياسية للدول المضيفة. إن اللافت للنظر والداعي للاستغراب أن بقية الأديان في العالم لا ينظر إليها مثل ما ينظر إلى الإسلام كدين مخيف وعدواني، فأتباع البوذية والكونفوشية والهندوسية كثر في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، لكنها لا تلقى ما يلقاه الإسلام من إقصاء وتخويف وتشويه.

هكذا إذن يتبين بوضوح أن ثمة أسبابا تكمن وراء التحامل الإعلامي الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وهي الأسباب التي يمكن التأكيد على أن تبديدها ومواجهتها ليس بالأمر الهين، خصوصا أنها تبدو متجذرة في المخيلة الغربية التي أضحت لا تصدق إلا ما هو سلبي تجاه الدين الوافد عليها. ويبقى مع ذلك واجب العمل على تصحيح الصورة قائما لابد أن تقوم به كل جهة تستأنس من نفسها القدرة على تحسين صورة الإسلام والمسلمين.

الهوامش

١- جون سيوزيتو، التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة، طبعة القاهرة، ص٣١٤.

٢ - M.Boisard : l'humanisme de l'Islam. Paris ١٩٩٢p ٣٨.

٣ - Francois Burgat : L'Islam au Maghreb--ed Karthala ١٩٨٨ p ١٢٠.

٤ - د. أسعد زروق، موسوعة علم النفس، طبعة بيروت ١٩٧٩، مادة فوبيا.



د. رضا رضوان
أستاذ القانون الجنائي

الخطأ الطبي في جراحة زرع الأعضاء البشرية

يسجل الطب الحديث نجاحات مبهرة في جراحة زرع الأعضاء، سواء بنقل عضو من إنسان وزرعه في آخر، أو نقل عضو من حيوان وزرعه في إنسان. ونعلم أن هذه الجراحة يباشرها مهنيون متخصصون في العمل الطبي. ومهما قيل في خبراتهم وتميز في أدائهم المشمول بجل أصول علم الطب والعلوم ذات الصلة، إلا أنهم كحقيقة واقعة بشر غير معصومين من الخطأ، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ (البقرة: ٢٨٦). والمعصوم صلوات الله وسلامه عليه مستثنى من ارتكاب الأخطاء، وكيف لا يكون كذلك وقد قال فيه رب العزة: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (النجم:٢-٥). ينبغي في الجراحة الطبية المختصة بزرع الأعضاء ألا تخرج على قواعد الشريعة، فإن توافرت شرعية الجراحة صارت عملا مباحا، ينبغي عند ممارسته التزام الجراح الأصول العلمية المتعارف عليها في علم الطب الجراحي، باذلا العناية المتطلبة لتحقيق الغرض من التطبيب، دون تقصير أو إهمال، وإلا أضحى مسؤولا عن خطئه الطبي، إذا وقع.

وشرعتنا تقرر عقوبة على الخطأ الطبي الجراحي في مجال زرع الأعضاء، شأن أي خطأ طبي يقع بإهمال أو عدم احتياط من القائم عليه؛ ويعاقب بالتالي الطبيب المخطئ، وجزاؤه تنظمه أحكام الدية في الشريعة، ولقد نص الشارع سبحانه وتعالى على التزام المخطئ بهذه الدية، وقد اختلف فقهاؤنا، قديما وحديثا، في مقدار دية المرأة المجني عليها بين من قال باستحقاقها نصف دية الرجل، ومن يرى باستحقاقها الدية كاملة مساواة بالرجل، وهذه إحدى معضلات الاجتهاد الإسلامي المعاصر.

زرع الأعضاء

مع تقدم الطب، وإلحاح الإنسان الدائم على الرغبة في الاستمرار في الحياة، والدعم التكنولوجي للعلوم الطبية، تطورت زراعة الأعضاء. ومنذ نجاح عملية نقل دم إنسان إلى آخر، فكر الأطباء في نقل الأعضاء السليمة وزراعتها لدى المحتاجين إليها. وتؤكد التقارير العلمية الحديثة أن عمليات زرع الأعضاء تنمو بصورة إيجابية وصحية. ولقد أضحت هذه العمليات، بعد خمسين سنة من الممارسة العملية الأولى، تقنية طبية حديثة أكثر فاعلية في علاج المرض، وذلك بالاستعاضة عن الأعضاء البشرية التالفة أو الفاشلة بأعضاء صالحة، ومع اطراد النجاح، ازدادت طلبات الحصول على الأعضاء. إن النجاح يظهر تباعا خصوصا في زراعة الكلى، وقد شجع هذا تناول أعضاء أخرى بزراعتها مثل القلب والكبد والنخاع، حسب ما أظهرته تقارير المراكز الطبية العربية، وفي مقدمتها الجمعية الكويتية للتبرع بالأعضاء التي تأسست في العام ١٩٨٤م، ويذكر أن الكويت كانت من أوائل الدول في المنطقة العربية في زراعة الأعضاء، وقد سجلت تفوقا ملحوظا في مجال هذا النشاط الطبي المتخصص، يشهد على ذلك مركز حامد العيسى لزراعة الأعضاء الذي أنشئ في العام ١٩٨٦م، والذي لم تتوقف أنشطته عن التحديث في ضوء جديد العلم والتكنولوجيا الفائقة التطور. وبصفة

عامة أصبحت زراعة الأعضاء صناعة قائمة مدعومة بالبحوث والدراسات الطبية المتخصصة في مجال تطوير وتحسين واستخدام الطرق الجراحية الحديثة لنقل الأعضاء.

هذا ومع استمرار عجلة تطور علم الطب لم يعد نقل الأعضاء مقتصرا على المصدر البشري، بل تعداه إلى زرع أعضاء الحيوان في الإنسان، ويغني عن الذكر ما سجلته تقنية المورثات، التي فتحت مجالات لزراعة مورثات حيوانية أو نباتية في جسم الإنسان.

شرعية زرع الأعضاء

نقل الأعضاء وزرعها بحثها الاجتهاد الإسلامي المعاصر، وأصدرت المجامع الفقهية فتاويها بإباحتها وجواز ممارستها بصفة عامة مع بعض القيود والشروط. فقد أصدرت هيئة كبار العلماء بالرياض قرارها برقم ٩٩ في ١٤٠٢/١١/٦ هـ بجواز نقل عضو أو جزء منه من إنسان حي أو ميت مسلم أو ذمي إلى نفسه أو غيره إذا اضطر إلى ذلك، وأمنت الفتنة في نزعه لمن أخذ منه، وغلب على الظن نجاح زرعه في من سيزرع فيه، كما يجوز كذلك تبرع الإنسان الحي بنقل عضو منه أو جزئه إلى مسلم مضطر إلى ذلك. كما أجاز المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة نقل الأعضاء البشرية وزراعتها، في دورته الثامنة المنعقدة بين ٢٨/ ٤/ ١٤٠٥ و١٤٠٥/٥/٧ هـ على النحو السابق في قرار هيئة كبار العلماء. كذلك أجاز المجمع الفقهي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في دورته المنعقدة في جدة سنة ١٤٠٨ هـ نقل الأعضاء البشرية وزراعتها على النحو السابق في قراري هيئة كبار العلماء ومجمع الفقه الإسلامي برابطة العالم الإسلامي.

وكانت قد أفتت هيئات إسلامية عدة بجواز نقل وزراعة الأعضاء، بدول عديدة منها الإمارات والكويت ومصر. فقد أفتى فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي العام ١٩٨٧م بإباحة الاستفادة بجميع أعضاء جسد المتوفى في حادث أو بطريقة عادية إذا كانت هناك ضرورة ومنفعة للمريض المنقول إليه العضو من المتوفى شريطة أن يحكم بذلك طبيب ثقة متخصص، ودون الرجوع إلى الورثة أو النيابة العامة، لأن الضرورات تبيح المحظورات، وأضاف فضيلته أن بيع الأعضاء البشرية كالكلى والعين حرام شرعا لأن جسم الإنسان ليس ملكا له بل هو ملك لله عزوجل. أما التبرع بها فجائز شرعا، دون مقابل مادي.

كانت لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، قد أيدت نقل الأعضاء، بموجب فتواها رقم (١٣٢/ ٧٩) بتاريخ (٣١/ ١٢/ ١٩٧٩)، حيث قررت بأنه «إذا كان المنقول منه ميتا جاز النقل، سواء أوصى أو لم يوص، ويقدم الموصى له أو من سمحت أسرته بذلك عن غيره، أما إذا كان المنقول منه حيا، فإذا كان الجزء المنقول منه يفضي إلى موته كان حراما مطلقا، سواء أذن أو لم يأذن، وإن لم يكن الجزء المنقول منه مفضيا إلى موته، ولكن فيه تعطيل له عن واجب، أو فيه إعانة المنقول إليه على محرم كان حراما أذن أو لم يأذن، وإن لم يكن فيه ذلك أو كان النقل بغير إذنه يكون حراما وإن كان بإذنه جاز».

وبوجه عام يكاد يكون هناك اتفاق بين أكثرية علماء المسلمين في العصر الحاضر على جواز زراعة الأعضاء البشرية بعد نقلها من أجسام حية أو ميتة لمصلحة المنقولة إليهم من المرضى، وهذا هو السائد في مجمعي الفقه الإسلامي الرابطي والدولي اللذين يضمّان أعضاء من كافة دول العالم الإسلامي.

يذكر أنه تم مناقشة وبحث مسألة نقل الأعضاء من الحيوان إلى الإنسان، وحيث حسمت المسألة، من زاوية مدى استفادة الإنسان من نقل أعضاء الحيوان إليه في حالة حاجته لهذا النقل نتيجة مرضه. فالقرآن بيّن أن الله خلق الحيوان لمنفعة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ (النحل:٥). والمنافع جمع منفعة، وهي اسم عام يقصد به الخير للإنسان، وبهذا المعنى فإن استفادة الإنسان من الحيوان للعلاج مما يدخل في المنفعة. وقد دلت أقوال الفقهاء على طهارة عدد من الحيوانات والحشرات فلهذا يجوز استعمالها في الطب لمنفعة الإنسان حين تنزل به ضرورة أو حاجة تؤدي به الى المشقة. فإذا كان شعر الخنزير مثلا مما يمكن الانتفاع به في الخرز (كما يقرر بعض الفقهاء)؛ فإن الانتفاع به في حال المرض أوعى وآكد. وإذا كانت الديدان ونحوها تعد طاهرة وحلالا في الأكل (على قول بعض الفقهاء)؛ فإن الانتفاع بها في حال المرض أوعى وآكد... أما ما نزل من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة بتحريمه نصا كالميتة ولحم الخنزير، فإن إباحته في الطب يجب أن تبنى على الضرورة استدلالا بقول ربنا: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ (البقرة:١٧٣).

صدرت قوانين في العديد من الدول العربية والإسلامية، تناولت تنظيم زرع الأعضاء، منها القانون الكويتي رقم ٥٥ لسنة ١٩٨٧م، والقانون المصري رقم ٥ لسنة ٢٠١٠م، حيث صاغت النصوص أحكام نقل الأعضاء وزرعها كممارسة طبية مباحة، ونظمت النصوص، بالإضافة إلى ضوابط عملياتها، وإجراءات مباشرتها وعقوبة مخالفة أحكام القانون. وبصفة عامة استندت القواعد القانونية إلى ما استقر عليه الاجتهاد الإسلامي.

الخطأ الطبي

مزاولة مهنة الطب والجراحة بوجه عام مقيدة بثلاثة قيود:

القيد الأول موضوعي: وهو حسن، أي أن تكون الغاية هي العلاج. فإن خرج الطبيب على هذه الغاية يكون قد خرج على حدود الشرعية فيسأل عن جريمة عمدية.

والقيد الثاني شكلي أو تنظيمي: وهو ضرورة الحصول مسبقا على «ترخيص» قانوني من الجهة المختصة

لمزاولة المهنة.

والقيد الثالث عرفي: وهو ضرورة الحصول على إذن المريض أو المصاب صراحة أو دلالة وبخاصة في الحالات الخطرة.

إن حق الطبيب أو الجراح محدود بضرورة مراعاة القواعد الأساسية التي يعترف بها علم الطب وجراحاته، ومن ثم فإنه يسأل جنائيا عن نتائج فعله بوصفها جرائم غير عمدية إذا أهمل أو أخطأ في مراعاة هذه القواعد، ويسمى الخطأ عندئذ الخطأ الفني أو المهني.

إن القائم على ممارسة عمليات زرع الأعضاء كما نعلم هو طبيب مجاز علميا تتوافر لديه خبرة أداء مثل هذه العمليات الدقيقة الخطرة في معظم تطبيقاتها الفنية. وكانت وسائل الإعلام وتقارير بعض الهيئات القضائية قد أشارت إلى وقوع أخطاء طبية، أودت بحياة بعض الأشخاص في حالات، وحالات أخرى تخلف عنها أضرار جسيمة متمثلة في العاهة المستديمة، كل ذلك ناشئ عن أخطاء مهنية... ثبت في بعض الوقائع إخلال القائم على الجراحة بما تفرضه أصول المهنة وقواعدها المقررة الثابتة، وقد انطوت بعض الحالات على الإخلال بالأصول المتعارف عليها في الأداء الاحترافي لهذه العمليات التي تتطلب مهارات خاصة.

إن هذه الأخطاء يطلق عليها في علم القانون «الأخطاء الجنائية غير العمدية»، وهذه تأخذ إحدى صورتين:

(الأولى): الخطأ العادي وهو الحالة الذهنية لدى الفاعل الذي «لا يتوقع» النتيجة الإجرامية أي المعاقب عليها والتي أدى إليها سلوكه الإرادي، وكان بوسعه أو كان يجب عليه أن يتوقعها. فخطؤه كامن إذن في أنه لم يتوقع هذه النتيجة وبالتالي لم يتخذ ما كان يجب عليه من الحيطة والحذر مما يكفل تجنب حدوثها.

(الثانية): الخطأ الواعي أو مع التبصر. والخطأ هنا خطأ جسيم، ذلك أن الفاعل «يتوقع» النتيجة الإجرامية بالفعل، ولكنه يحسب أن بوسعه تجنبها. كما أن الجراح الأرعن أو المتهور، الذي لم يأخذ في اعتباره مستجدات علم المناعة، بشأن تقنيات مواجهة ظاهرة رفض العضو المغروس في جسد آخر، مثل الكلى وغيرها مما هو سائد في تقنيات غرس الأعضاء، كما رصدت حالات أخطاء عند زرع أعضاء من الحيوان في الإنسان نظير عدم متابعة الطبيب الجراح أحدث تقارير المجتمع العلمي في طب زراعة الأعضاء، والتي تحظر نقل أعضاء معينة من الحيوان إلى الإنسان، مما أسفر عن حدوث عاهة مستديمة.

عقوبة الخطأ الطبي

قد ينتج عن خطأ الطبيب أو جراح زرع الأعضاء، الوفاة أو الإصابات بأنواعها المختلفة. هنا يثار التساؤل حول الجزاء المقرر شرعا!

لا شك- حسب التشريع الجنائي الإسلامي- يطبق على المخطئ أحكام الدية، وهي مقررة بالكتاب والسنة والإجماع.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ (النساء: ٩٢).

كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتابا، فيه الفرائض والسنن والديات، وبعث به عمرو بن حزم، فقرئت على أهل اليمن نسختها من محمد النبي ﷺ إلى شرحبيل بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والحارث بن عبد كلال، قبل ذي رعين ومعافر وهمدان، وكان في كتابه أن من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة، فإنه قودٌ،إلا أن يرضى أولياء المقتولً. وأن في النفس الدِّيةُ مائةٌ من الإبل، وفي الأنف إذا أُوعب جدعُهُ الدية، وفي اللسان الدية، وفي الشفتين الدية، وفي البيضتين الدية، وفي الذكر الدية، وفي الصلب الدية، وفي العينين الدية، وفي الرجْل الواحدة نصفُ الدية، وفي المأمومةَ ثلثُ الدية، وفي الجائفة ثلثُ الدية، وفي المُنقِّلة خمس عشرة من الإبل، وفي كل أصبع من أصابع اليد والرِجل عشرٌ من الإبل، وفي السِّنِّ خمس من الإبل، وفي الموضحة خمسٌ من الإبل، وأن الرَّجُل يُقتل بالمرأة، وعلى أهل الذهب ألفُ دينار (١).

الدية في اصطلاح الفقهاء: قال ابن عرفة: «الدية مال يجب بقتل آدمي حر عن دمه أو بجرحه مقدرا شرعا لا باجتهاد» (٢)، ويعرفها الشربيني قال: «الدية هي المال الواجب بجناية على الحر في نفس أو فيما دونها» (٣). ويقول البهوتي هي: «المال المؤدي الى المجني عليه او وليه بسبب جناية» (٤).

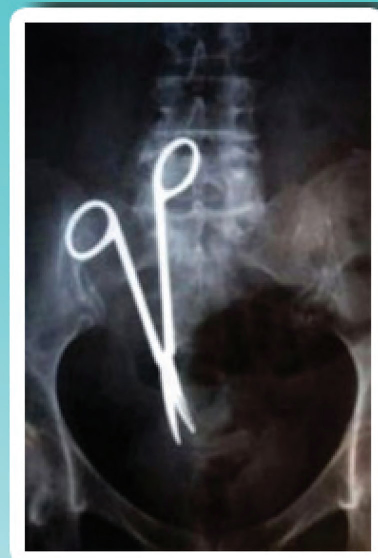
إذن الدية هي: مال مقدر شرعا، يؤدى للمجني عليه أو وارثه بسبب جناية على نفس الحر أو ما دونها. فالدية عقوبة ذات طبيعة تجمع ما بين الجزاء بتحميل الجاني تبعة تصرفه الخاطئ وكذلك إلزامه بالتعويض لجبر الضرر الذي يحيق بالمضرور.

نص رسول الله ﷺ- كما جاء في الحديث النبوي الشريف- على «أن من قتل خطأ فديته من الإبل مائة: ثلاثون بنت مخاض، وثلاثون بنت لبون، وثلاثون حقة، وعشرة ابن لبون ذكر» (٥).

وقد نص العلماء على أصول الدية، وهي: الإبل، والذهب والورق، والبقر، والغنم، والحلل؛ لحديث عطاء ابن أبي رباح: «أن رسول الله ﷺ قضى في الدية على أهل الإبل مائة من الإبل، وعلى أهل البقر مائتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاء، وعلى أهل الحلل مائتي حلة، وعلى أهل القمح شيئا لم يحفظه محمد» (٦).

دية المرأة المجني عليها

ساوى الشارع الحكيم بين الذكر والأنثى في المسؤولية الجنائية والمدنية، وفي الولاية على المال والعقود؛ وجعلها الإسلام مستقلة بجميع تصرفاتها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟



إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (النساء: ٦). إن الإسلام حرص على أن يعطي المرأة الأهلية الكاملة ولم ينقصها من أهليتها مقدار قنطار. ساواها بالرجل في جوانب عديدة وفرق بينهما في أمور أخرى، ومن المؤكد أن هذا التفريق لا علاقة له بالمساواة في الكرامة الإنسانية أو الأهلية والحقوق، وإنما لضرورات نفسية واجتماعية. وعلى الرغم من اتفاق الفقهاء على بعض الجوانب التي افترقت فيها المرأة عن الرجل، لضرورات اجتماعية ونفسية، إلا أنهم اختلفوا في جوانب أخرى، ومن هذه الجوانب دية المرأة أتكون مساوية للرجل، باعتبار إنسانيتها الكاملة، وأهليتها الحقوقية أم على النصف من دية الرجل لضرورات اجتماعية؟

اختلف العلماء في هذه المسألة، على رأيين:

الرأي الأول: دية المرأة نصف دية الرجل.

يأخذ بهذا الاتجاه فقهاء المذاهب الفقهية الإسلامية: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة سواء كان مجنيا على نفسها أو على أحد أعضائها. فمن مذهب الحنفية، جاء في المبسوط: «بلغنا عن علي، أنه قال: في دية المرأة على النصف من دية الرجل في النفس وما دونها، وبه نأخذ» (٧)، وفي مذهب المالكي، جاء في التلقين: «والدية تختلف باختلاف حرمة المقتول ودينه، فدية المسلم الذكر هي الدية الكاملة، وقد بينّاها، ودية المرأة المسلمة نصفها، ودية الكتابي الذكر كدية المرأة، ودية إناثهم نصف دية ذكورهم» (٨). أما عند الشافعي، فقد نص في المذهب: «ودية المرأة نصف دية الرجل، لأنه روي ذلك عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن عباس، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم» (٩). والمذهب الحنبلي، نص في كشاف القناع: «ودية المرأة مسلمة كانت أو كافرة، نصف دية رجل من أهل دينها، حكاه ابن المنذر، رواه ابن عبدالبر إجماعا» (١٠).

واستدلوا بالأدلة النقلية، عن فقهاء الصحابة أنهم اتبعوا سنة المصطفى ﷺ بجعله للمرأة نصف دية الرجل، وقد انعقد إجماعهم على ذلك، محتجين بالسنة النبوية الشريفة، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «دية المرأة على النصف من دية الرجل» (١١).

الرأي الثاني: دية المرأة تساوي دية الرجل.

وهو على النقيض من الرأي الأول، فقد ذهب الظاهرية وبعض فقهاء المعتزلة، وجمهرة كثيرة من الفقهاء المعاصرين، بالتوسعة في دية المرأة، واعتبارها قبل دية الرجل. ومن أقوى حججهم، ما جاء في الكتاب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ (النساء: ٩٢)، وأجمعوا على أن هذه الآية، دخل فيها حكم الرجل والمرأة، فوجب أن يكون الحكم فيها ثابتا بالسوية (١٢). وما نصت عليه السنة، بقوله ﷺ: «في النفس المؤمنة مائة من الإبل» (١٣)، باعتبار أن «النفس» ذات لفظ مطلق، ينطبق على الرجل والمرأة، فهما سواء بسواء في الدية المفروضة.

وتدق أهمية التوصل إلى رأي بات في هذه المسألة الخلافية، خاصة مع قوة رأي الفريقين، وكذلك للحاجة العلمية التطبيقية بالنسبة للأنظمة المطبقة لنظام الدية في جرائم الخطأ غير العمدي، كما هو حال دولة الإمارات، إذ اختلفت الأحكام ما بين المحكمة الاتحادية العليا، ومحاكم الإمارات، خصوصا محكمة التمييز بدبي (١٤)... ولا شك أن حسم هذه المسألة سيكون له انعكاساته على مقدار دية المرأة المجني عليها في الخطأ المهني الطبي غير العمدي في مجال زرع الأعضاء إذا ما أثيرت قضاياه أمام القضاء المختص... وصدق رب العالمين إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾ (الأحزاب:٥).

الهوامش

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب القسامة، في ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول واختلاف الناقلة عنه: ج ٨ ص ٥٨. وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب ذكر العقول: ص ٤٧٤، وأخرجه البيهقي في سننه، كتاب الديات، باب دية النفس: ٨ ص ٧٣.

(٢) شرح حدود ابن عرفة (٦٢١/٢).

(٣) مغني المحتاج (٥٣/٤).

(٤) حاشية الروض المربع (٢٢٩/٧).

(٥) رواه أبو داود في سننه برقم (٤٥٤١). كتاب الديات، باب: الدية كم هي؟ والنسائي في سننه عن ابن مسعود برقم (٤٨٠٤).

(٦) رواه أبو داود في سننه برقم ٤٣ ٤٥ كتاب الديات، باب: الدية كم هي؟ ومحمد هو ابن إسحاق، راوي الحديث عن عطاء.

(٧) للسرخسي: ج ٢٦ ص ٧٨.

(٨) للقاضي عبد الوهاب البغدادي: ص ٤٨١.

(٩) للشيرازي: ج ٢ ص ٢٥، روضة الطالبين للنووي: ج ٧ ص ١٢١

(١٠) للبهوتي: ج ٦ ص ٢٠، ومطالب أولى النهي للرحيباني: ج ٦ ص ٦٦.

(١١) أخرجه البيهقي في سننه، كتاب الديات، باب ما جاء في دية المرأة: ج ٨ ص ٩٥.

(١٢) تفسير الفخر الرازي، ج ١٠ ص ٢٣٣.

(١٣) نقلا عن المغني لابن قدامة: ج ٧ ص ٧٩٧.

مكانة الصحابة الملزمة للمعرفة

أحمد علي صالح
كاتب دراسات إسلامية

مكانة الصحابة رضوان الله عليهم من القضايا التي لها أهمية خاصة لدى كل مسلم في هذا العصر وغيره، إذ الصحابة عنصر مهم في بناء وتطور المجتمع الإسلامي، ليس فقط لكثرتهم العددية يوما بعد يوم منذ بدء الدعوة، وإنما لأهمية الوظائف المتعددة التي قاموا بها في كافة المجالات المختلفة، وتأسيهم برسول الله ﷺ في متغيراتهم الزمنية، وهو ما أدى بفقهاء كل عصر إلى بذل الجهود وتعدد المحاولات من أجل معرفة مكانتهم وفضلهم وحكمة مواقفهم لاستلهام النموذج والعبرة والطريق الرشيد.

ضرورة معرفة المسلمين لفضائل الصحابة

إن المسلمين اليوم هم في أشد الحاجة إلى معرفة فضائل الصحابة، وكريم معدنهم، وأثر تربية رسول الله ﷺ فيهم، وما كانوا عليه من علو المنزلة، التي نالوا بها ثناء الله تعالى عليهم. خصوصا فيما عليه المسلمون اليوم في أنحاء المعمورة من الضعف، وتسلط الأعداء، والتحكم فيهم.

بينما الحل بين أيديهم متمثل في التمسك بصحيح دينهم ومبتغاه، واقتفاء أثر نبيهم والاهتداء بهديه، وسبل الرشاد التي بذلها أصحابه في وظائفه المتنوعة، وابتكارهم وتجديدهم فيها، وهو ما يذكرنا الآن بكيفية الاستعداد وآلات الحرب التي يمتلكها أعداؤهم بما في ذلك من الاطلاع والإضافة على علوم الغرب، وهو مما برع فيه الصحابة، فضلا عن دلالة تطور ذلك الأمر في صناعة المعرفة والتقدم العلمي وهما لغة هذا الزمان.

يضاف لتلك الطبيعة العصرية في استلهام فضائل الصحابة، ما هو معروف ومؤسف من أن أخبار أولئك الأخيار قد طرأ عليها من التحريف والبتر والزيادة، وسوء التأويل والأغراض من قلوب قد شحنت بالغل على أفاضل هذه الأمة، فأنكرت عليهم حتى نعمة الإسلام.

وفي هذا حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وكون هذه الفرق من أهل الوعيد، ومستوجبة دخول النار؛ لبعدها عن السير على منهج النبي ﷺ وأصحابه – رضي الله عنهم – والفرقة الوحيدة الناجية هي الفرقة التي كانت تسير على ما كان عليه العمل في عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم (١).

ضرورة اقتفاء آثار الصحابة رضوان الله عليهم

لذا قد صار الآن فرضا من الفروض على كل من يستطيع تصحيح تاريخ صدر الإسلام على طريقة المحدثين، ووضع ذلك بين يدي شباب هذه الأمة حتى يكون ذلك قدوة لهم، ودافعا إلى النهوض بالأمة إلى ما فيه عزتها ورفعتها (٢).

وفي تلك القدوة وتعدد نماذجها لن نجد أفضل ممن كانوا بطانة خاتم الأنبياء والمرسلين، وهم من أصلح أهل زمانه بطبيعة الحال، إذ واجهوا الموت في سبيل الدعوة، واستمروا حاملي أكفانهم من أجل إتمام مسيرتها بعد وفاته، وبلّغوا الأمة الإرث المحمدي من غير زيادة ولا نقصان، فهم على ما تركهم نبيهم متمسكين به، أما التبديل والتغيير فقد أتى من الذين بعدهم، فبدلوا وغيروا في دين الله.

إذ لا صلاح للأمة – ونحن من الأمة – في دينها ودنياها، ولا عز، ولا نصر، ولا تمكين لها إلا إذا اقتفت آثار أصحاب النبي ﷺ وترسمت خطاهم في العبادة والاعتقاد والسلوك والاقتصاد والسياسة والدعوة والجهاد.

ويحصل لها من ذلك بقدر اتباعها لنبيها ﷺ وأصحابه – رضي الله عنهم – يقول الله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (الأنعام: ٩٠).

بل وكيف لا نقتدي بهم، وهم من حباهم الله تعالى أسمى المنازل الكريمة اللائقة بهم، وهو ما كان من منطلق النظر في قلوبهم، وعلم صلاحها وصدقها، وإخلاصها وطهارتها، لذا لم يكن غريبا أن يختصهم

بأفضل رسله، وأن يجعلهم أصحابه وأنصاره، وحملة دينه، ومبلغي شريعته، وأن يكونوا أول غرس للإيمان في هذه الأمة، حتى كانت أنوار الوحي التي نهتدي بها إنما جاءت منهم – رضي الله عنهم – حملوها وبلغوها، وتحملوا المكاره في تبليغها، وهجروا الراحة لأجلها وأجلنا، ولولاهم لما عرفنا الله تعالى حق المعرفة، ولولاهم لما عرفنا نبينا وديننا، ولولاهم لما عبدنا الله تعالى على بصيرة.

إذ هم من خص الله بهم نبينا محمدا ﷺ، وهم خير من وطئ الثرى بعد الأنبياء، فحملوا الدعوة بعد وفاته، فكانوا نجوم الهدى، وبدور التقى، نجوما لوامع، وبدورا طوالع، رهبانا الليل، وفرسانا النهار، كحلوا عيونهم بنور المصطفى ﷺ، وشرقوا بالإسلام وغربوا، حتى انتشر في كل البلاد والأصقاع، أنصارا نصروا الرسول ﷺ، ومهاجرين هاجروا في سبيل الله تاركين ديارهم وأموالهم.

ولهذا صح من قال: من سلك طريق الصحابة أفلح ونجح، ومن اتبع السبل تفرقت به عن سبيل محمد ﷺ، فاتباع الصحابة قربة وطاعة، ومخالفتهم ضلال في الدنيا والآخرة (٣).

كما صدق فيهم قول الشاعر:

عهدي بهم تستنير الأرض إن نزلوا
فيها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة (٤)
كأن أيامهم من أنسها جمع (٥)

فما العز للإسلام إلا بظلهم
وما المجد إلا ما بنوه فشيدوا

ولهذا يمكننا أن نستعرض الآن، أهم السمات التي وضعت أمامنا إلزامية الاقتداء بهم، والعناية بتصحيح ما حرف عنهم، ومن ثم تحقيق فضائل التعرف عليهم لدى المسلمين في هذا العصر وغيره، وذلك عبر النقاط الأربع التالية:

أولا: الصحابة رضوان الله عليهم هم الأقرب للصواب:

مما لا شك فيه أن صحابة رسول الله – رضوان الله عليهم – هم أقرب للصواب، وأبعد عن الخطأ، لأنهم حضروا التنزيل، وسمعوا كلام النبي ﷺ وتقريره منه، فهم أعلم بكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وأعلم بمقاصد الشريعة.

وفي ذلك ما هو معلوم من سنة الخلفاء الأربعة، وهي واجبة الاتباع بأمر النبي ﷺ ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» (رواه الإمام أحمد ١٦٦٩٢)، وغيره بإسناد حسن.

وفي هذا يتأكد الأمر في سنة الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر؛ فعن أبي قتادة رضي الله عنه في قصة مسيرهم مع النبي ﷺ، قال النبي ﷺ: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا» رواه مسلم (٦٨١).

فإذا كان الرشد يحصل للصحابة بطاعة الصديقين، واتباع سنتهما من الصحابة مع ما لهم من المنزلة والفضل، فحصول الرشد لمن أتى بعدهم من باب أولى متى ما اتبعوا هديهما (٦).

ثانيا: الصحابة رضوان الله عليهم يقفون عند نصوص الوحي:

كون أصحاب النبي ﷺ يقفون عند نصوص الوحيين، يسلمون لها، ويمتثلون لها مباشرة من غير تسويف، أو توقف، سواء كان الأمر أمر إيجاب، أو أمر استحباب.

ويشتد نكيرهم على من أتى بعدهم ممن لا يمتثلون أمر النبي ﷺ بعد بلوغه لهم؛ فهذا عبد الله بن مغفل يرى رجلا يخذف، فقال له: «لا تخذف؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، أو كان يكره الخذف، وقال:« إنه لا يصاد به صيد، ولا ينكى به عدو؛ ولكنها قد تكسر السن، وتفقأ العين».

ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخذف، أو كره الخذف، وأنت تخذف، لا أكلمك كذا وكذا (رواه البخاري ، ٥٤٧٩، ومسلم ،١٩٥٤).

فهم صحابة رسول الله ﷺ، قوم يسلمون لأمر الشارع، ولا يرضون من غيرهم إلا ذلك؛ لأنهم يعلمون أن من تمام الإيمان الواجب الامتثال والتسليم للشرع؛ ظاهرا وباطنا؛ يقول تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء:٦٥).

ثالثا: الصحابة رضوان الله عليهم يعارضون كل من يعارض النصوص الشرعية:

صحة المعارضة ووجوبها للمخالفين من السمات البالغة الأهمية لحماية الدعوة والمجتمع، وفي ذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يشتد نكيرهم على من يعارض النصوص الشرعية بعقله القاصر أو بآراء الرجال؛ لأنهم يعلمون أن في ذلك الضلال المبين، والبعد عن الصراط المستقيم؛ فعن أبي قتادة العدوي، قال: كنا عند عمران بن حصين في رهط منا، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله، قال: أو قال: الحياء كله

خير»، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب، أو الحكمة أن منه سكينة ووقارا لله، ومنه ضعفا. قال: فغضب عمران، حتى احمرت عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه ؟! قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير، فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه: إنه منا يا أبا نجيد، إنه لا بأس به) (رواه البخاري ،٦١١٧، ومسلم (٣٧).

إذ من يعارض النصوص الشرعية الثابتة بعقله، يؤتى من سوء فهمه واعتداده برأيه، فإن الأمر اختلط عند بشير بن كعب، فلم يفرق بين الحياء الشرعي، وبين الضعف الذي يعتري بعض الناس، وهذا واقع كل من يعارض النصوص الشرعية، ويحاول تطويعها لتوافق ما يراه الأفضل والأنسب لهذا الزمان بغير ذي حق.

بل وكيف يعارض شخص مقصر كثير الزلل والخطأ نصا ثابتا عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى؛ يعارضه بعقله القاصر؟ يقول تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١)، والله لا يصدر هذا إلا من شخص مخذول، استهوته شياطين الجن والإنس (٧).

رابعا: الصحابة رضوان الله عليهم هم صمام أمان الأمة:

والصحابة أيضا هم صمام أمان هذه الأمة في حياتهم، وبعد وفاتهم؛ فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: رفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء، وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» (رواه مسلم ،٢٥٣١).

فالنجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت، ذهبت وقامت القيامة، والنبي ﷺ أمنة لأصحابه، فإذا ذهب أتى أصحابه ما يوعدون من الفتن، وارتداد من ارتد من الأعراب.

ولهذا يمكننا أن نرى الصحابة كيف كانوا أمنة لأهل زمانهم، فلم تظهر البدع وتشتد ويكثر الاختلاف والتفرق إلا بعد ذهاب عامتهم، وهم أمنة لهذه الأمة إلى قيام الساعة، وذلك باقتفاء أثرهم، وعدم مخالفتهم (٨).

الصحابة رضوان الله عليهم ليسوا معصومين:

هذا ومع كل ما قدمنا من ضرورة معرفة الصحابة واقتفاء أثرهم، فضلا عن سماتهم، إلا أنه بقي أن نشير في ختام دراستنا إلى أن الصحابة ليسوا معصومين، فهم بشر قد يقع الواحد منهم في الخطأ والزلل، ويعتريهم ما يعتري سائر البشر من الشهوات المحرمة، فربما غلب أحدهم شيطانه في حالة ضعف؛ لكنهم يخالفون غيرهم في أن الواحد منهم رجّاع للحق، لا يلج في معصية؛ بل يبادر بالتوبة، ولو كلفه ذلك حياته؛ فعن عمران بن حصين: أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ وهي حبلى من الزنا، فقالت: يا نبي الله أصبت حدا، فأقمه علي، فدعا ﷺ وليها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»، ففعل. فأمر بها ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر رضي الله عنه: تصلي عليها يا نبي الله، وقد زنت ؟! فقال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى» (رواه مسلم ،١٦٩٦).

بل وما حصل بينهم من خلاف بعد وفاة النبي ﷺ حتى الاقتتال، كان الدافع وراءه الإصلاح، وتصحيح الأخطاء، فلم يكن لحظوظ دنيوية محضة، فكلهم مجتهدون مأجورون، فالمخطئ له أجر واحد، والمصيب له أجران، ولا يقدح ذلك في عدالتهم أو في كونهم قدوة لمن بعدهم، ومذهب أهل السنة والجماعة الترضي عنهم جميعا، وعدم الخوض فيما شجر بينهم (٩).

الهوامش

١- «الصحابة» للشيخ أحمد الزومان، ص ٦٦-٦٧ (بتصرف)- ط دار التراث.

٢- «شدة الحاجة إلى معرفة فضائل الصحابة رضي الله عنهم» للشيخ عبد الله محمد الغنيمان، ص ٢٠-٢٢ (بتصرف) - ط دار العلم للملايين.

٣- «الصحابة» ص ٧.

٤- الغطارفة: جمع غطريف، والغطريف: السيد السخي الكثير الخير.

٥- «مجموعة المعاني» عبد السلام هارون ج ١ ص ٥٥٦ - ط دار الكتاب العربي.

٦- «الصحابة» ص ١٣.

٧- «معرفة الصحابة رضوان الله عليهم» للدكتور إبراهيم محمد الحقيل، ص ٤٥، ٤٦ - ط دار الريان.

٨- المرجع السابق، ص٢٥- ٢٦ (بتصرف).

٩- المرجع السابق، ص٣٣-٣٩ (بتصرف).

تجليات الخطاب العقلي في الآيات البينات

د. محمد الحجوي
أستاذ التعليم العالي - المغرب

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥)

القرآن المجيد هو كتاب هداية وإرشاد، ورسالة خاتمة من رب العالمين إلى الناس جميعا؛ ليكون مصدر العبادة والتشريع والقوانين التي تنظم حياة الناس في كل عصر ومكان، ومنبعا للمعرفة التي تنير العقول وتهذب المشاعر والأحاسيس. وقد أنزل الله كتابه على رسوله الأمين لينذر قوما كانوا في ضلال بعيد بعدما حرفوا ملة إبراهيم، عليه السلام، واتبعوا الشهوات والأهواء، ولم يهتدوا لمن يستحق العبادة، وهو الله خالق هذا الكون؛ فبعث رسوله ليحيي الملة التي فطر الناس عليها جميعا، ملة الإسلام ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٣٠).

إن الله سبحانه وتعالى أوجد في كل زمان ومكان فئة من الناس ملأ قلوبهم بالمحبة والفضيلة؛ فتراهم في المجتمع كالشمعة المضيئة تنير للناس طريقهم لفعل الخير واتباع سبل الرشاد، فيسعد من اقتدى بهم ويشقى من ظل عبدا لأهوائه. وهذه الأصوات تكون قليلة في سائر المجتمعات؛ لميل النفس الأمارة بالسوء إلى النزوات والشهوات؛ ولذلك يكون تأثيرها بطيئا، وقد عانى الرسل والمصلحون من هذا الصنف من الناس.

والخطاب الإلهي، الذي بشر به الرسل والأنبياء من عهد آدم عليه السلام إلى خاتم الرسل محمد ﷺ، واحد في نهجه وغاياته، وهو الدعوة إلى وحدانية الله والامتثال لأوامره والإيمان بكل ما أخبرنا به ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (فصلت:٤٣). فكانت الآيات البينات التي نزلت على الأعراب في تلك المرحلة بردا وسلاما على النفوس المثخنة بالجراح، وبلسما وشفاء لقلوب طال عذابها وغارت جراحاتها في مستنقع الظلم والجور من سادة القوم الذين استعبدوا الضعاف وعاثوا في الأرض فسادا. في خضم هذا الوضع الممتلئ بظلم الأقوياء، وغياب شعلة الفضيلة والخير العام، أشرقت على المجتمع العربي رسالة الرحمة تبشر المستضعفين بتحريرهم من العبودية والاستغلال والظلم، وتدعو الطغاة إلى التوقف عن ظلم الناس والفساد في الأرض؛ فسمع العرب كلاما ما عهدوا مثله في شعرهم وخطبهم وأمثالهم، إنه كلام يهدي إلى الرشد والفضيلة والخير، فيه حلاوة الإيمان وطمأنينة النفوس وانشراح القلوب، تضمن شرائع وقوانين وأحكاما يسود فيها العدل وتعم المساواة كل الفئات وتحقق التكافل الاجتماعي والنهج الإصلاحي والتربوي الذي يجعل الأفراد متماسكين كأنهم بنيان مرصوص، إنه الكلام الذي غير العرب من الجبروت والأنانية والتعالي إلى الخشوع والتقوى والخشية من عذاب الله ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء:١٠٩).

هذه هي رسالة الرحمة التي تبشر الذين تلين قلوبهم لذكر الله بالجنة والرضوان والنعيم، وتنذر العصاة بما ينتظرهم من عقاب أليم، إنها تكرم البشر وترفع شأنهم ولا ترضى لهم الكفر الذي يجعلهم كالبهائم في مسارحها، لا تدري ما يحيط بها وما ينتظرها. إن الإنسان مخلوق مكرم، أنعم الله عليه بالعقل والوجدان والشعور؛ لأداء رسالة نبيلة في هذا

الوجود، وهي عبادة الله وحده لأنه الخالق الرازق، والشكر على نعمه وأفضاله عليه، والإيمان الصادق بما أخبرنا به الرسل الذين بلغوا رسالات ربهم بالحق.

وإذا كانت هذه الرسالة الخاتمة قد خاطبت العرب، فإنها بدأت من بقعتهم الطاهرة لتمتد أنوارها إلى آفاق الأرض بفضل جهاد المصطفى ﷺ ومن التف حوله من المهاجرين والأنصار حتى أظهر الله هذا الدين؛ لتصبح هذه الأمة شاهدة على كل الأمم بالتبليغ والوعظ والإرشاد والإصلاح والحفاظ على تعاليم الحنيفية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون خطاب هذه الرسالة الخاتمة مراعيا لعقول ونفوس القوم الذين خاطبتهم في بداية الأمر، لأنهم المأمورون أولا باتباع هذا الدين القيم والعمل بتعاليمه السمحة، فقد كانوا قوما يغلب عليهم الجهل والسفه كما قال الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فأصبحوا برغم معارضتهم لهذا النور في بداية الدعوة أفضل الناس في العبادة والتقوى والرحمة والمودة والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله، لأنهم أيقنوا أنه الحق من ربهم جاء ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، ومن حيرة التائه إلى يقين المطمئن، فاطمأنت قلوبهم واستراحت نفوسهم من عنائها الطويل.

هكذا اطمأنت قلوبهم برسالة الرحمة التي جاءت بالحنيفية السمحة، فلا معبود إلا الله، ولا ظلم ولا استبداد، ولا طيش ولا سفه، ولا غلظة ولا شدة إلا في الحق ونصرة الدين، فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس، تنشر السلام والمحبة، وتتضامن في السراء والضراء، وتبشر بالفضائل والمثل العليا، فنعمت الإنسانية بعدالة السماء بفضل صبر الرسول الأمين وجهاد أصحابه الذين أخلصوا لرسولهم ولما دعاهم إليه.

وإذا كان وضع العرب قبل مجيء الإسلام قد بلغ الحد الأقصى في الصراع والتفرقة والتشبث بعقيدتهم الفاسدة وعصبيتهم القبلية، فإن خطابهم في الآيات البينات اقتضى نهجا يراعي قدراتهم العقلية وأحوالهم النفسية ووضعهم الاجتماعي والأخلاقي، لأن الأعراف في أي مجتمع إذا طال عليها العهد يصبح لها سلطان قوي في النفوس، ولهذا السبب كانت الآيات البينات جامعة لأساليب البشائر والرغبات التي تجعل المخاطبين يميلون إلى فعل الخير واتباع النهج القويم، ولأساليب الإنذار والتوبيخ التي تبين لهم سوء أعمالهم وضررها على أنفسهم ومجتمعهم.

في الآيات البينات

الخطاب العقلي هو الأسلوب الذي يطلب في كل حوار يراد به إقناع الآخرين باعتناق رأي أو عقيدة أو مذهب فكري، وبخاصة إذا كان الحوار يدور بين أفراد لهم رصيد معرفي يمكنهم من تنظيم فكرهم بمنهج منطقي يجعل الآراء تتسم بالموضوعية وذكر الحجج والبراهين التي يطمئن إليها السامع. والجاهليون الذين خاطبهم القرآن الكريم كانوا أصحاب حكم مأثورة وأمثال سائرة وشعر بليغ وخطب محكمة، كما كانت لهم تجارب ناضجة في العلاقات والسلوك اكتسبوها من ظروف بيئتهم التي عانوا فيها شظف العيش وقسوة الطبيعة وألم الحروب، كما كان لاحتكاكهم بالأمم المجاورة لهم، وكان لها سبق في الحضارة والتمدن، أثر في نضج أفكارهم وتعميق نظرتهم في الحياة.

ومن هنا نجد الآيات البينات جاءت بلسان عربي مبين قد أدرك العرب أبعادها ومقاصدها الإصلاحية؛ فما كان يتعارض مع الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها وقف منها الإسلام موقف الرفض، وما يسمو بالإنسان المكرم عند الله، عقيدة وفكرا وخلقا وسلوكا، حث عليه وأثاب من يعمل به. ولأن الإسلام دين يمجد العقل ويرفع من مستوى الفكر، فإنه طلب من الجاهليين، ومن كل من يصله نداء هذه الشريعة السمحة، النظر بعمق في كل ما يحيط به لمعرفة الخالق وتقدير نعمه عليه. وهذا المنهج الإسلامي في استعمال الفكر يراعي تطور العقول بتجدد المعارف والعلوم، فأعطى للفكر الإنساني الحرية في الاجتهاد بما يلائم أصول الشريعة في أحكامها وقوانينها من الكتاب والسنة. ومن هنا كان الخطاب العقلي في الآيات البينات من أسس رسالة الإسلام التي جاءت لتحرر العقول من الجمود، وتدعو الناس لطلب العلم واكتساب المعرفة من أجل أن يدركوا عظمة الخالق وأسرار الكون.

والخطاب العقلي هو المنهج الأمثل في كل حوار، فبواسطته يحصل الرضا وتستريح النفوس، قال الله تعالى يدعو رسوله الكريم لاتباع هذا المنهج: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥).

والذين يبلغون مرتبة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة هم العقلاء والحكماء الذين نمت معارفهم واتسعت تجاربهم في الحياة. ولذلك، فإن الله سبحانه وتعالى ينعم على صفوة خلقه بهذه النعمة ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة:٢٦٩). وبالحكمة والعقل نال الإنسان مرتبة الخلافة في الأرض، وخاطبته الرسالات السماوية، إذ هو المخلوق الوحيد الذي يختار بإرادته، ويسلك الطريق الذي يرى فيه مصلحته، فليست للإنسان أي حجة على الله بعدما أعطاه عقلا وحواس

وأرسل له الرسل ليبينوا له ثواب الخير وعقاب الشر.

ولننظر في الآيات البينات التي تضمنت إشارات لتنبيه ذوي العقول والنهى الذين لا يفضلون شيئا على آخر إلا من أجل رضا الله وما فيه مصلحة لأنفسهم وعامة الناس؛ لقد فصلت الآيات البينات المنافع والأضرار وتركت الإنسان يختار، فإذا اهتدى إلى الصواب نعم وسعد، وإذا ضل فلا يلومن إلا نفسه ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (الروم:٩). ومن هنا جاء الخطاب في الآيات البينات للذين يعلمون ويدركون حقائق الأمور بعد النظر والتأمل، قال تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأنعام:٩٧). وقوله عز من قائل: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (فصلت:٣). إن العالم هو من ملك قسطا من العلوم والمعرفة تجعل عقله ينمو ليتدبر الأمور التي تعرض عليه، أو يشاهدها بالعقل والحكمة فيختار الأصلح. وجاء الخطاب أيضا للذين يفقهون، لأن الفقه علم وتنوير للعقول ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ (الأنعام:٩٨)، وللذين يذكرون لأن في الذكرى عودة النفس إلى صوابها ورشدها بعد المحاسبة على ما صدر منها، فتعود النفس المطمئنة لربها إلى رشدها وصوابها ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنعام:١٢٦)، ولذوي الأبصار والألباب الذين لهم دراية بالأمور بالحدس والتفكير السليم ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر:٢)، وللموقنين والمتوسمين في مخلوقات الله العجيبة الصنع الدقيقة التسيير ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢٠ و٢١)، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر:٧٥).

إن المتمعن في دلالات هذه الآيات البينات يلاحظ دعوتها للإنسان إلى استعمال عقله ومشاعره في كل ما يحيط به من مخلوقات، سواء كانت في الأرض أو في السماء أو في البحار والأنهار أو في تكوين خلقته وباقي الكائنات الحية؛ إن كل ما في هذا الوجود شاهد على الخالق الذي أحسن كل شيء صنعا، والعاقل هو من يعمل فكره لفحص كل كبيرة وصغيرة في هذا الكون؛ لكي يعلم أن وجوده وكل ما يحيط به لم يكن بالصدفة، وليبدأ هذا الإنسان العاقل بملاحظة أعضائه المتقنة التركيب، وقدراته العقلية الفائقة، وحواسه الدقيقة، ثم ينتقل إلى أقرب المخلوقات إليه، وبخاصة الحيوانات التي يأكل لحومها ويشرب ألبانها ويلبس أصوافها والتي تعينه في أعماله الشاقة وتحمله إلى بلد بعيد، أليس في كل ذلك دليل على عظمة الخالق وقدرته؟! ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ (يس:٧١- ٧٣). ألا يسأل الإنسان نفسه ويقول من أوجدها بهذا التركيب العضوي الدقيق الذي يجعلها تتلاءم مع بيئتها ومع ما نحتاج إليه من مأكل ومشرب وملبس وأمن على حياتنا؟ لا ريب أن العاقل يهتدي بفكره السليم وبصيرته النيرة وحكمته الرصينة إلى أن الله هو الذي يملك القدرة المطلقة، ولا أحد يستطيع فعل ذلك مهما أوتي من قوة وسلطان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ (الأنعام:٧٣). ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (لقمان:١٠ و١١).

إن قوله تعالى ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تعجيز لكل طاغ وملحد في كل زمان، لأنه لا يستطيع أن يثبت خالقا غير الله. وقد ذكر الزمخشري كيف نبهت الآيات البينات عقول الناس إلى هذه الظواهر، فقال: «والمعنى أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا بالله وأقروا. فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها وتصريف الرياح استحكم علمهم» (١).

وعلى الرغم من تقدم العلوم فإن الإنسان ما زال عاجزا عن اكتشاف الكثير من ظواهر هذا الكون وبالأحرى خلقها.

إن المخلوقات تستحق من كل من أوتي عقلا وحكمة وقتا من التفكير المتأني، وقد أعطانا الله دليلا في كتابه العزيز على طريقة استخدام العقل بشكل سليم للتأمل في هذا الكون من خلال موقف إبراهيم، عليه السلام، الذي ألهمه الله سداد النظر وحسن التأمل في ملكوت السماوات والأرض، فجال بنظره باحثا عن الله الذي يستحق العبادة، وتوصل بعقله السليم إلى أن المخلوقات على الرغم من كبر حجمها فإنها لا تستحق أن تعبد، لأنها مسيرة، وكل مسير لا بد أن يكون وراءه من له القدرة على الخلق والتدبير والتسيير ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ

﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٥-٧٩).

هكذا ينبغي للعاقل أن يتأمل في المخلوقات بنظر سديد، ولابد أن يصل في النهاية إلى الحقيقة التي أخبرنا بها الله عن كل هذه المخلوقات، لأن ما جاء في الكتاب العزيز لا يناقض العقل ولا الحقيقة، ولهذا السبب أمد الله الإنسان بكل ما يحتاج إليه للتوصل إلى الحقيقة اليقينية، فأعطاه العقل والحواس، وأرسل له الرسل لإخباره بالحقائق الغيبية وبما يعجز العقل عن التوصل إليه.

الخطاب العقلي في أسلوب الحجاج

أسلوب الحجاج من الأساليب التي تستعمل لإقناع المخاطبين بدلائل وبراهين عقلية أو مادية محسوسة تجعلهم يذعنون إلى الخطاب لقوة حجته. وهذا الأسلوب يعتمد في القضايا الدينية والسياسية والمذهبية والفلسفية، ويطلب لمن يستعمله قدرة عقلية متميزة، ومهارة فائقة في منهج الحوار، وقدرة على استحضار الأدلة والشواهد المقنعة، وسرعة البديهة، وسعة المعرفة، والثقة بالنفس. ولا نعجب أن يكون هذا الأسلوب من اختصاص الفئة المتنورة في المجتمعات، كالفلاسفة والمفكرين والدعاة والمصلحين وأصحاب المذاهب والنحل، فهذه الفئة في كل مجتمع هي التي تقوم بدور الإصلاح والتوجيه والإرشاد. وفي عصرنا الحاضر أصبح هذا الأسلوب أداة فعالة لاستمالة فئة عريضة من الناس، ولاسيما عند الوعاظ والفقهاء والمصلحين الاجتماعيين.

وكتاب الله جدير باستعمال هذا الأسلوب لمخاطبة المنكرين لوجود الله والأنبياء والرسل، وقد اعتمدت الآيات البينات في مخاطبة هؤلاء على الحجج والبراهين القوية التي تثبت وجود الله من خلال مخلوقاته وقدرته وبديع صنعه، فهذه المخلوقات لا يستطيع الجاحد إنكارها أو التشكيك فيها، لأنها ظواهر مشاهدة، كما أنه عاجز عن إيجاد مثلها، قال الله تعالى في بيان قوة حجة كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ (الأنعام:١٤٩)، وقال عز من قائل: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١). إن كلام الخالق هو أسمى كلام، لم يعرف البشر شبيها له في بيانه ومعانيه وحجته وبراهينه ودلائله. وأسلوب الحجاج في كتاب الله من الأساليب التي نورت العقول، ووجهت الدعاة إلى اتباع المنهج الذي يجدي في التبليغ والدعوة إلى الله، وإقناع الجاحدين بالحجة والبرهان.

ومن الحجج القوية التي واجه بها الرسل الكافرين حجة إبراهيم، عليه السلام، لمن تجبر وطغى بملكه وماله وقوته، فادعى الألوهية وأنكر الخالق الذي وهبه كل ذلك، قال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨).

إن دلالة الحجة في الآية الكريمة أفحمت ادعاء هذا المنكر، فلذلك بهت مما سمع ولم يستطع الرد وأقر بعجزه؛ لقد ظن أنه قادر على رد الحجة بحجة أقوى منها مثلما اغتر بالحجة الأولى، وإن كان فهمه قاصرا عن إدراك معنى الحياة والموت، وكان بالإمكان أن يجادله إبراهيم، عليه السلام، في هذه القضية برد فيه بيان أوضح، لكن هذا المنكر لن يقتنع وسيستمر في حواره العقيم؛ فلذلك واجهه إبراهيم، عليه السلام، بالحجة الثانية التي لا يستطيع أن يكثر الجدال فيها لعجزه المطلق عن تحقيق ما طلب منه.

هذا اللون من الأساليب يتعلم منه الدعاة والمصلحون والمربون كيف يخاطبون المنكرين والجاحدين والمشككين، الذين يبحثون دوما عن الذرائع والعلل التي تبرر لهم سلوكهم المشين ومواقفهم الخارجة عن الفطرة.

إن كل مصلح وداعية ومرب يحتاج إلى ما يدعم أقواله الإصلاحية، وفي عصرنا الحاضر، بعدما تطورت العلوم وتقدمت الأبحاث الميدانية والتجريبية، واكتشف العلماء الكثير من الحقائق التي أشارت إليها الآيات البينات، ينبغي أن تكون تلك الأبحاث حجة قوية في الدعوة إلى الله وفي إصلاح المجتمع. إن العلم - على نسبية تطوره - لم يناقض الحقائق التي أشارت إليها الآيات البينات، ولعل المستقبل سيكشف مزيدا من الأسرار، وصدق رب العالمين حينما قال:

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد:١٧). إن العلم ينير العقول ويفتح البصائر ويعمق الإيمان بالله، وها نحن نرى في المرحلة الراهنة أن أكثر من يعتنق الإسلام في الغرب هم العلماء لكونهم أدركوا سر عظمة الله في كل مخلوقاته.

إن الآيات البينات حينما أشارت إلى السماوات وما فيها من كواكب ونجوم، وما تجود به من أمطار في كل جهات الأرض نتيجة تصريف الرياح، وإلى خلقة الإنسان والدواب، وإلى تعاقب الليل والنهار، كل هذه الإشارات أثبت العلم - على نسبيته - قدرة الله في تسييرها بدقة، فلذلك ذكر الله أنها آية للعقلاء الذين يتدبرون في خلق هذا الكون، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية:٣ – ٥)، وقال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس:٥).

فأي دليل أقوى مما يشاهده الإنسان في تكوين جسمه، الذي صوره الله أحسن تصوير، وزوده بكل ما يحتاج إليه ليعيش حياة مطمئنة؟! وأي دليل أقوى مما يشاهده في مظاهر الطبيعة المتحركة والساكنة؟! لقد أثبت العلم بالتجربة والبراهين أن هذه المخلوقات في دقة صنعها وتسييرها لا بد أن يكون وراءها خالق بيده القدرة المطلقة.

وحينما يذكر الله سبحانه وتعالى الإنسان بما أنعم عليه من بصر وسمع وفؤاد، وهو يعلم أن هذه الحواس غاية في الحساسية والدقة، تصاب بالأذى في أي لحظة ومع ذلك تؤدي وظائفها ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك:٢٣)، هل يستطيع أن يخلق مثلها أو أن يردها إذا فقدها نتيجة حادث أو مرض؟ إنه لا يستطيع فعل شيء سوى الالتجاء إلى الله بالدعاء والتضرع لضعفه وحاجته لخالقه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت:٥١). هذه هي حجة الله على الإنسان، أعطاه كل النعم ولا يستطيع إنكارها أو الشك فيها، ولكنه يتمرد ويجحد فضل الله عليه رغم ضعفه وعجزه، وهو لا يستطيع أن يعيد الحياة إلى مخلوق مهما بلغ من الصغر والحقارة.

إن من خصائص التفكير السليم القدرة على بيان الحقيقة بالدليل المقنع والبرهان القاطع والحجة التي تجعل المخاطب لا يرتاب فيما يسمعه، ومن هنا كانت ميزة رفع مكانة العلماء وتقدير منزلتهم، فهم أقدر الناس على التوصل إلى الحقيقة وإقناع الناس بها، لكونهم يستدلون بالبراهين التي تقطع دابر الشك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر:٢٨)، وقال عز من قائل: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (سبأ:٦)، فلذلك كانت مسؤولية العلماء جسيمة أمام الله والناس، فهم المرجع والحجة في تبليغ الحقائق التي أشار إليها كتاب الله، لا يكتمون ولا يحرفون ولا يبدلون، هذا هو العهد والميثاق بينهم وبين الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران:١٨٧). فويل للذين يكتمون العلم أو يحرفونه من أجل المال والمنصب والتقرب إلى السلطان. ولا خير في من لا يتعلم ولا يعلم ولا يصدق في تبليغ العلم ولو عمر دهرا طويلا ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال:٢٢)، وفي الأثر «وإنما بعثت معلما»، و«من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين». فكم من عالم عاش زمنا قصيرا لكنه أفاد الأمة وهدى الناس وبقي ذكره عطرا بينهم، وكم من جاهل غافل ضال عاش عمرا مديدا لكنه لم يترك ذكرا حسنا.

وحينما تكون حجة الإنسان قوية في الدعوة إلى الله والإصلاح، فإنه لا يبالي بما قال الآخرون، وهذا هو النهج الذي نأخذه من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام في الدفاع عن الحق مهما كانت دعوات أصحاب الباطل والشرك، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ (النساء:٥٩)، وقال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه» (٢). وقد بين الله لنا الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن إذا كان على صواب في قول إبراهيم، عليه السلام، لقومه ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ (الأنعام:٨٠). إن إبراهيم، عليه السلام، كان يدعو إلى الحق الذي هداه الله إليه، فلم يلتفت إلى أقوال الضالين الباطلة ولا إلى مكرهم، لأن الباطل والشرك والضلال إلى زوال، لكون حجة أصحابها واهية ولا سند لها، أما الحق فلا شبهة فيه ولا ريب ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:٨٣).

ذلك هو منهج أسلوب الحجاج في كتاب الله، والذي أيد به رسله وأفحم دعاة الباطل والشرك، وسيظل هذا الكتاب في كل ما دعا إليه في العقيدة والإصلاح والتوجيه والتشريع منيرا ومرشدا إلى الحق الذي يطمئن القلوب ويهدي إلى سواء السبيل ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

الهـــوامــش:

١- الكشاف ٥٠٩/٣، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار المعرفة للطباعة.

٢- رواه مالك في «الموطأ».

فِقهُ التَّوقُّع المستقبلي عند الإمام الجويني

عبد الفتاح همام
باحث دكتوراه في الفقه

التفكير المستقبلي جزء أصيل من شريعة الإسلام، له قواعده ومناهجه وامتداداته التي تصل إلى اليوم الآخر. وعلى الرغم من ذلك، فإن حيز المستقبل في المنظومة المعرفية عند المسلمين لم يكن متناسبا في عمقه وحجمه وتكييفه في الواقع مع دلالات الشرع ومستلزماته، ولا يدل ذلك – بالطبع – على الإهمال المطلق، بل يؤكد أن حجم التوظيف والتشغيل للتقعيد المستقبلي والنظر المآلي كان ضئيلا.

ومن هذا الكم الضئيل تجربتان لم تأخذا حقهما من التأصيل والتجريد، ولم يلق الضوء على مسيرة البناء عليهما.

التجربة الأولى: تجربة السادة الأحناف، متمثلة في الفقه الافتراضي.

والتجربة الثانية: تجربة إمام الحرمين الجويني في «الغياثي»، وهي مقصودنا هنا، لأنها أكثر نضجا ومنهجية وواقعية من سابقتها.

هذه التجربة يمثلها كتابه «غياث الأمم في التياث الظلم» الذي يمثل عنوانه هدفا ومقصدا ومنهجا في آن واحد. يقول د. عبدالعظيم الديب عن مقصود عنوان الكتاب الذي سجله الجويني على صدر كتابه: «فكأن المعنى: هذا ما تغاث به الأمم عندما تلتف بها الظلمات، أي إنه يقدم المنهاج الذي تغاث به الأمم عندما تحيط بها الظلمات، أي عندما يخلو الزمان من إمام ومن مفت ومن حملة الشريعة وعلمائها» (١).

مؤسس فقه التوقع

الجويني هو مؤسس فقه التوقع وباني أركانه، فهو إمام فيه، كما هو إمام في المقاصد، وهو «أول من روض مدارج الفقه في التوقعات، واستشعر ضرورة التفكير في أفضل المآلات وأسوأ الحالات التي يمكن أن تحل بالأمة أو طوائف منها انقطعت عنها شوكة الإمام أو استحرت معضلة عامة بجماعة من الجماعات، فاستقبل هذا الفقه واستفتحه بأحكم المناهج، وأيسر المسالك، ليعم رفع الحرج كل الأزمنة والأعصر، وتفوق مقاصد الشرع وتتجلى، وتعلو راية الشريعة وتترقى، في كل الظروف والأحوال والمستجدات» (٢).

ولم تكن تجربة الإمام نابعة من خيال الفقيه الفضفاض، وقدرته التفريعية، بل كانت نابعة من



ملاحظة الواقع المعيش واستقراء أحداث عصره ومآلاته في المستقبل، يريد بذلك أن يعالج واقعا ترديا استمد منه نظرة استشرافية لما يمكن أن يقع من أحداث في المستقبل، قاصدا معالجة الواقع والمتوقع.

ومن الملاحظ أنها خطوة تعدت الافتراض الفقهي الجزئي الذي يعنى بمسائل فقهية قليلة تمر بعقلية الفقيه الخيالية، تعدت ذلك إلى افتراض كليات وقضايا كبيرة تهم الأمة، كما أن إمام الحرمين لم يقدم طروحاته وتوقعاته بشكل افتراضي نظري فحسب، بل نحا بها منحى التأصيل والتطبيق، فهي تجربة افتراضية نظرية عملية.

وليس المقصود من قراءة هذه التجربة الجمود عليها وحفظ ما توصلت إليه من أحكام وآراء، بل قد نختلف معها فيما توصلت إليه، وربما أيضا لا تصلح تطبيقا لواقع ولا لمتوقع، وإنما المقصود معرفة كيفية بنائها واستخراج منهجيتها وفهم أسسها، وذلك كله بغية استلهامها واستثمارها.

دراسة وصفية

لقد افترض الجويني افتراضات كلية وقضايا عامة، وتناثرت بينها افتراضات أخر متعلقة بجزئيات ومسائل مندرجة تحت كلياتها، وفي كل ذلك يبين عن معالجة للواقع والمتوقع، ويمكن حصر كليات القضايا المتوقعة في ركنين رئيسيين:

الركن الأول: تقدير خلو الزمان من الأئمة وولاة الأمة (فراغ السلطة السياسية أو فسادها).

ويحدد مقصده من هذا الركن بقوله: «ثم أقدر شغور الحين عن حماة الدين وولاة المسلمين، وأوضح إذ ذاك مرتبط قضايا الولاية، وأنهي الكلام إلى منتهى الغاية، فإنه المقصود بالدرك والدراية...» (٣).

أي مقصوده تبين طريقة إدارة الأمة حالة غياب الإمام، فبعد أن بين الوضع المثالي للأمة، أتبعه بالوصف المتوقع للأمة الذي يعتريها على مستوى القيادة والإدارة، فكيف يدير المسلمون شؤونهم؟

مضمون هذا الركن تحويه ثلاثة أبواب (٤).

الأول – تصور انخرام الصفات المرعية جملة أو تفصيلا.

الثاني – استيلاء مستول مستظهر بطول وشوكة وصول.

الثالث – شغور الدهر جملة عن وال بنفسه أو متول بتولية غيره.

والركن الثاني: خلو الزمان من المجتهدين ونقلة المذاهب وأصول الشريعة (فراغ السلطة العلمية أو انحرافها).

وفيه مراتب:

المرتبة الأولى: اشتمال الزمان على المفتين والمجتهدين.

المرتبة الثانية: فيما إذا خلا الزمان من المجتهدين وبقي نقلة المذاهب.

المرتبة الثالثة: في خلو الزمان من المفتين ونقلة المذاهب.

المرتبة الرابعة: في خلو الزمان من أصول الشريعة (٥).

وانتهج الإمام منهجا مقاصديا في معالجة هذه التوقعات، فبنى عليه أحكامه، وأسسها مرجعية علمية عند فقد العلماء.

ورعاية المقاصد سمة من سمات فقه الإمام عموما، فهو كما قيل إمام الفكر المقاصدي، و«الغياثي» تطبيق لمقاصد الشريعة في فقه الحكم والسياسة (٦).

ويصرح الجويني في مواطن كثيرة بأهمية المقاصد ونجاعتها في فقه التوقع: «فلو قال قائل: ما يتوقع وقوعه من الوقائع لا نهاية له، ومآخذ الأحكام متناهية، فكيف يشتمل ما يتناهى على ما لا يتناهى، وهذا إعضال لا يبوء بحمله إلا موفق ريان من علوم الشريعة.

فنقول: للشرع مبنى بديع، وأس هو منشأ كل تفصيل وتفريع، وهو معتمد المفتي في الهداية الكلية والدراية، وهو المشير إلى استرسال أحكام الله على الوقائع مع نفي النهاية...» (٧).

«أي إن للشرع مقاصد وحكما ارتبطت الفروع الفقهية بها، وامتزجت بموجباتها، فمن هنا لم يكن للمفتي أو المجتهد بد من الاعتماد عليها، لا سيما إذا ظهرت وقائع مستجدة، هي من الكثرة بحيث لا نهاية لها» (٨).

وقد علل الدكتور عبدالمجيد الصغير تعلق الإمام بالمقاصد ومحاولة تقنينها في كتابه «الغياثي» في توقعات قضاياه الكلية، حيث ربط ذلك بمشروع إنقاذي للأمة حال التراجع السياسي، والانحطاط الحضاري فقال: «تميز الجويني عن سالفيه ومعاصريه بشيئين اثنين: طرحه لأول مرة موضوع مقاصد الشريعة كعلم جديد متميز بقواطع أدلته، ثم إناطته بهذا العلم المتميز أخطر مهمة، مهمة الإنقاذ السياسي والاجتماعي للعالم الإسلامي من الهوة التي رآها وشيكة الوقوع... فلم ير الجويني منقذا من هذا الوضع المتردي سوى تأسيس القول في مقاصد الشريعة الكلية والرفع بها من مستوى الظن، الذي هو سمة الفقه وأصوله إلى مستوى قواطع الأدلة» (٩).

القواعد المستقبلية

هذه القواعد هي أصول ضابطة وحاكمة لفقه التوقع، استقرأها الإمام من «نخل الشريعة من مطلعها إلى مقطعها... وإنعام النظر في أصولها وفصولها... واستبانة كلياتها وجزئياتها» (١٠)، أراد بها أن تكون مرجعية قطعية يتخذها الناس مرجعهم في التكييف الشرعي لنوازلهم وواقعهم في زمنهم الخالي عن العلماء ونقلتهم.

وتحاول هذا القواعد أيضا أن تؤسس لفقه التوقع وتؤصل لمشروعيته، وتبين لنا سبيل الاستنباط في مثل هذه الوقائع، ويكفيني هنا لضيق المساحة أن أشير إلى بعض تلك القواعد:

- «فإن المنصوصات متناهية مضبوطة، والوقائع المتوقعة لا نهاية لها». ف: ٥٧٥.
- «والأمور في الولايات إذا لم تؤخذ من مباديها، جرت أمورا يعسر تداركها عند تماديها». ف: ٣٧٣.
- «فإن منع المبادي أهون من قطع التمادي». ف: ٢٦٩.
- «لو فرضنا خلو الزمان عن مطاع، لوجب على المكلفين القيام بفرائض الكفايات، من غير أن يرتقبوا مرجعا». ف: ٣٩٤.
- «والمسدد من نظر في أولاه لعاقبته، وتزود من مكنته في دنياه لآخرته». ف: ٥٣٧.
- «وقد تمهد أن ما لم يقم عليه دليل التحريم، فلا حرج فيه في الزمان الشاغر عن حملة العلوم بتفاصيل الشريعة، فهذا منتهى المقصد فيما يتعلق بالمعاملات» ف: ٧٨٧.
- «إذا درست فروع الشريعة وأصولها، ولم يبق معتصم يرجع إليه، ويعول عليه، انقطعت التكاليف عن العباد، والتحقت أحوالهم بأحوال الذين لم يبلغهم دعوة، ولم تنط بهم شريعة». ف: ٨٤٤.

المصطلح المستقبلي

تأسيس المصطلحات ومعرفتها ركن أساسي في بناء العلم، وتمهيد قاعدته الأولى، كما أن ابتكار المصطلحات وغناءها دال على نضج المعنى ووضوح الفكرة المعبر عنها، وهذا ما نجد أصداءه في «الغياثي»، إذ قدم الجويني مجموعة من المصطلحات التأسيسية الريادية التي تغطي جوانب الفقه المستقبلي وتؤسس لمعالمه، وتؤصل لمشروعيته. ولست في مجال إحصائها ودراستها دراسة اصطلاحية، وإنما أحاول التنبيه على تأسيس الجويني لمصطلح التوقع ومفاهيمه، لنتعرف على مدى نضوج فكرته ووضوحها.

ومن ذلكم:

مصطلح التوقع ومشتقاته (المتوقع والمتوقعة، وتوقع ويتوقع، وغيرها من الاشتقاقات)، مصطلح المستقبل، مصطلح المرتقب ومشتقاته، مصطلح المآل، مصطلح الافتراض، مصطلح التخيل.

كما أننا سنجد جملا واصطلاحات أخر دالة على ذلك الفقه، مثل: بنو الزمان، وعلماء الزمان، خلو الزمان، وشغور الحين أو الزمان.

ظروف النشأة

المتأمل في توقعات الجويني يجد أنها متعلقة بالإمام، والعلماء، والشريعة، وهذه قضايا كبرى تتعلق بعموم الأمة قاطبة، واستقرأ واقع هذا القضايا وبحث أوضاعها واستشرف مستقبلها، ورصدت جملة من النصوص الدالة على ذلك، ففيها بيان لسبب الاهتمام ونشأة الافتراضات، وأوضح نص يبين فيه سبب وضعه الكتاب قوله:

... إني وضعت هذا الكتاب لأمر عظيم، فإني تخيلت انحلال الشريعة وانقراض حملتها، ورغبة الناس عن طلبها، وإضراب الخلق عن الاهتمام بها، وعاينت في عهدي الأئمة ينقرضون، ولا يخلفون، والمتسمون بالطلب يرضون بالاستطراف... وغاية مطلبهم مسائل خلافية يتباهون بها... فعلمت أن الأمر لو تمادى على هذا الوجه، لانقرض علماء الشريعة على قرب وكثب، ولا تخلفهم إلا التصانيف والكتب. ثم لا يستقل بكتب الشريعة على كثرتها واختلافها مستقل بالمطالعة من غير مراجعة مع مرشد، وسؤال عن عالم مسدد، فجمعت هذه الفصول وأملت أن يشيع منها نسخ في الأقطار والأمصار، ولو عثر عليها بنو الزمان لأوشك أن يفهموها، لأنها قواطع، ثم ارتجيت أن يتخذوها ملاذهم معاذهم، فيحيطوا بما عليهم من التكاليف في زمانهم، ويحفظونه لصغر حجمه، واتساق نظمه» (١١).

لقد كانت الملاحظة والمعاينة لواقعه وقضاياه الكبرى مسلكا من مسالك قراءة المستقبل واستشرافه، وسببا إلى وضع افتراضاته ومناقشتها ومعالجتها لهذا المتوقع القابل.

ويهدف الجويني فيما يهدف إليه من رؤيته المستقبلية إلى غياث الأمة وانتشالها من غياهب الظلم وإنقاذها من وهاد الواقع وحفره، وطرح البدائل والحلول التي تسعفها وتخفف من وطأة آثار انهيار أو انحراف السلطات العلمية والسياسية.

الهوامش

١- مقدمة محقق الكتاب، د. عبدالعظيم الديب، ٩٤، ٢١٢.
٢- فقه التوقع.. مفهومه وعلاقته بالمآل، نجم الدين الزنكي، مؤتمر فقه الواقع والتوقع بالكويت.
٣- «الغياثي»، فقرة: ٩.
٤- «الغياثي»، فقرة: ٤٣٦.
٥- «الغياثي»، فقرة: ٥٦٨.
٦- انظر: فقه إمام الحرمين.. خصائصه وأثره ومنزلته، د. عبدالعظيم الديب، ٣١٩.
٧- «الغياثي»، فقرة: ٦٤٤ و٦٤٥.
٨- مقاصد الشريعة عند إمام الحرمين، د. هشام أزهر، ٦٤.
٩- الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، ٣٥٥، ٣٥٦.
١٠- «الغياثي»، فقرة: ٥٦٧.
١١- «الغياثي»، فقرة: ٨٣٧.



العشـــاء

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

بعد يوم عمل طويل عاد للبيت أخيرا، يجرجر قدميه وأكياس الطعام صاعدا درج العمارة وصولا للدور السادس، رمى بالمفتاح جانبا قبل أن يرمي جسده المتعب على الأريكة الأقرب إليه، سيعطي نفسه استراحة قصيرة وقد تطول قبل أن يشمر ساعديه ويجهز العشاء.

راقب الشمس وهي تنزلق ببطء نحو مخدعها، أغمض عينيه واستسلم للظلمة المتوارية خلف جفنيه.

تداخلت مع كثبان الضباب ضحكات طفليه الصغيرين، يهدهدان أجفانه بنعومة أصواتهما ويدفعانه دفعا لوسط الضباب، عدل من وضعية رأسه ليحصل على راحة أكبر في حين خرجت من صدره تنهيدة عميقة، شعر أنها اجتثت من جسده كل تعب وإرهاق اليوم، فجأة دوت صرخة، تلفت حوله بحثا عن مصدر الصوت فانزلقت يده المتشبثة بالنافذة، ليتأرجح جسده هو الأخر في هاوية مظلمة، تحامل على نفسه وخرج من شقته بتثاقل يتحرى عن الأمر.

«إنا لله وإنا اليه راجعون» قالها وهو يدلف شقته بعد لحظات غارقا في ذهوله وحبات عرق بللت جبينه، مات جاره أحمد، هكذا ببساطة، غادر الحياة التي أتى إليها قبل نحو ثلاثين عاما، تماما كما فعل هو عاد من عمله منهكا، جلس على كرسيه مستسلما لسنة من نوم ريثما تعد له زوجته العشاء، جهزت هي المائدة وذهبت لتوقظه كما تفعل كل يوم، ثم لم تلبث أن أطلقت صرخات الفزعة التي كادت أن تقذف به خلف الشمس، تحسس جسده برعب وهو يشعر بأن أنفاس الموت تحوم في بيته، وفوق أريكته التي كان نائما عليها بالذات.

بحث عن مكان يسترد أنفاسه فيه، بعد أن داهم الوهن كل خلية في جسده، تحاشى الجلوس على ذات الأريكة وكأن الموت ينتظره عليها، كم هو مخيف أن يغادر الإنسان الحياة هكذا بسرعة، دون حتى كلمة وداع، أو .... أو ماذا؟؟ وماذا سيفيد كل هذا، فهو سيغادر دون رجعة... وإن كان في مثل حالته لن يجد من يبكي عليه أو يهزه بعنف مطالبا إياه أن يصحو ويفتح عينيه، كما فعلت زوجة الجار المسكين وأطفاله الذين تحلقوا حوله...

بطريقة آلية توجه نحو السرير، لم يجد مكانا غيره يشعره بالأمان، على الأقل لو مات هنا فسيكون وضعه مريحا أو هكذا خيل له، رثا جاره المسكين، تذكر كل حسناته وكل حديث دار بينهما رغم قلتها، تذكر نظرة عتابه له حين ترك زوجته وأطفاله يرحلون بصمت.

-زوجته وأطفاله- مر طيفهم من أمامه لوهلة قبل أن يختفوا في ظلال الغرفة، شعر بحنين لهم، أن يكونوا بجانبه الآن، بكل ضجيجهم ومشاكلهم، أن يعيش معهم ما تبقت له من حياة، حتى وإن كانت ساعات إضافية قليلة...

لا يدري ما الذي حدث له، لا يدري كيف في غفلة منه ترك الفرصة للتوافه والمشاكل الصغيرة أن تسيطر على مزاجه وتصرفاته، ورداءة فعله أن تبعده عنهم، ليترك زوجته في آخر المطاف تخرج وهي تجرجر طفليها بعدها دون أن يكلف نفسه أمر اللحاق بها، «لماذا ذهبت؟!» سؤال تردد في أعماقه، هو لا يذكر حتى المشكلة التي تسببت برحيلها منذ أسابيع، أو داخله شعور بأن الأمر لم يكن حقا يستحق الرحيل وكل ذلك العناد من جهته!! كان غاضبا وشعر أن كرامته فوق كل شيء، لم يطلب منها أن ترحل لذا عليها أن تتحمل عاقبة خياراتها هكذا فكر حينها وأقنع نفسه!

تعالى صوت البكاء مجددا من شقة جاره، بدا أن الأهل بدأوا بالتوافد غير مصدقين ما حدث لابنهم الشاب، صدمة عنيفة يتبعها بكاء حارق، ثم هدوء مطبق...

سينتظر الصباح على أحر من الجمر، سيعيد زوجته وأطفاله إلى البيت، سيعيش معهم حياته التي لا يعلم متى تنتهي، سيبقي عائلته بقربه، رفع سماعة الهاتف، خاطب زوجته بكلمات قليلة طالبا منها أن تعطي السماعة لأطفاله كي يحدثهم ويطمئن عليهم، أقلقها صوته وأنساها الخلاف الذي كان بينهما، قال لها إنه سيأتي في الصباح ليعيدها والأولاد للبيت لم تبد اعتراضا، أقفل سماعة الهاتف وأغلق عينيه لبعض الوقت حين عاد له اتزانه وفاق من الصدمة الأولى عاد مجددا لشقة جاره المتوفى عارضا عليهم خدماته ومحاولا المساعدة بقدر ما يستطيع، مكث عندهم ساعات وحين لم يعد هناك ما يقوم به عاد إلى سريره محاولا النوم ناسيا أمر العشاء الذي لم يعده بعد.

القَوْلُ المأْثُورُ في إِحياءِ الصَّوابِ المهْجُور (٢٦)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



اللغة العربية الفصحى حق لنا، نحن العرب. لكن أي حق كيفما كانت وجاهته، ومهما علا شأنه، يفقد قوته ويضمحل عند إساءة استعماله والتهاون في صيانته. هذا هو الرأي القارح والدرس البليغ الذي يجب أن تعيه الطوائف العربية التي انقسمت حول لغتها الفصحى طرائق قددا على هذه الشاكلة:

١ ـ شرذمة قليلون طلبت الحق فأخطأته؛ لشدة حرصها على عقْمِيِّ الكلام المحبر، لا تنطق إلا بالتحنين والغريب الوحشي الذي يلبس العربية ثوبا مضرجا خلقا وأطمارا معيبة غريبة عن روح العصر، ولا ترى العيش الكريم إلا بجوار الشيح والقيصوم والنؤي والأثافي وخبز الملة والفلاة، مؤكدة أن طاحونة التليد هي الأزل الذي لا يتبدل، ولا يأتيه الباطل من أي ناحية، فهو الدوي الشجي المطرب الذي يغنينا عن أزيز الطائرات وحشرجة السيارات ومحركات البحث الرقمية، وهو الجذيل المحكك والعذيق المرجب، والشراب بأنقع الذي يغنينا عن بدع الحضارة الغربية وضلالاتها الآفكة.

٢ ـ طائفة من الأغتام الحداثيين الذين استأسدوا على الفصحى ورموا في طريقها الناهجة العصي والحبال، مبشرين بفتوحات العولمة، والانتصار للغاتها التي أحرزت نصرا مبينا على لغات الدنيا. لذلك، لابد من التفكير في كيفية نزع طوق العربية الفصحى عن الأعناق، وترك المدافعين عن الفصحى يشقون بنحوها وصرفها العقيمين، لأنها لم تعد لغة المعرفة العلمية التجريبية، فضلا عن أن تكون لغة مجتمع المعرفة الرقمي؛ الذي لم يعد يؤمن سوى بالضغط على الأزرار لتقدم لنا محركات البحث - قبل أن يرتد إلى أي واحد منا طرفه - من أصناف المعارف المجتباة ما لا قبل لنا به في آبائنا الأولين والآخرين. ولقد طوعت لهم أنفسهم التحليق في كل اتجاه من اتجاهات العولمة لإظهار العربية الفصحى بمظهر الشيخ الهرم الذي فقد أسباب الحياة، ومن ثمة لابد من ركوب قطار اللغات الأجنبية لتحديث المجتمعات العربية. وفي أثناء ركوب موجات اللغات الأجنبية، التي لم يدرك أغلب المنتسبين إليها من

معارفها سوى القطمير والحشف البالي من العادات والأزياء وأصناف المأكولات السريعة «الماكدونالدية» التي أصابت معدهم بعسر الهضم، أدركت فئة منهم أسباب خيبتهم، وأنهم بدل أن يجروا زمانهم نحو الأفضل والأنجع لإدراك الحداثة المزعومة؛ بدأ زمانهم يجرهم نحو سفاسف العولمة وباطل دعواتها المنكرة التي لا شية فيها، فانقلبت مدافعة عن اللهجات والعاميات مكبرين لشأنها لاتخاذها أداة التفكير الضرورية للكتابة الشائقة التي تتصعد العربية الفصحى، على شاكلة المخرقتين اللتين أقدم عليهما كل من محمد نبيل فهمي ومراد العلمي عندما كتب كل واحد منهما روايته بالدارجة المغربية وبالحرف اللاتيني رعونة منهما وجهلا وسعيا إلى موافقة مطالب العولمة الآجلة والعاجلة، بل إن بعضهم انتهى إلى الشعور بعقدة الذنب على شاكلة اعتراف الكاتب الجزائري رشيد بوجدرة قائلا: «أجد نفسي في اللغة العربية، وأعتبرها هوائي الذي أتنشق... إن أحلامي وكوابيسي باللغة العربية، وهي إضافة إلى هذا كله لغة حنان... أنا أشعر اليوم بعقدة الذنب لأنني كتبت بالفرنسية مدة عشر سنوات» (١).

٣ ــ طائفة من دعاة الحق الذين يجرون زمانهم نحو الصراط السوي، لا يطيش لهم سهم في ابتغاء الحق الأبلج، لأنهم آمنوا بقدرة العربية الفصحى ولم يلبسوا إيمانهم بريبة، مؤكدين أن الثقافة اللغوية التي لا يسندها علم بالقواعد المنظمة للغة، ثقافة عرجاء، وأن اللغة لا يمكن أن نعزلها عن الفكر، لأن الفكر مستحيل من دون لغة تعبر عنه وترعاه بالمعرفة التي تفتح الآفاق، وتسمح له بأن يصنع بها معارفه، ويشتري بها لوازمه، ويقضي بها حاجاته، وينفس بها عن مكنون نفسه ومشاعره، ويناجي بها ربه. ومن ثمة يجب التفكير في صيانة الفصحى وفي تزويدها بالغدد المقوية لمناعتها رغبة في فتح الآفاق للتفكير بالفصحى، والأخذ بأسباب النهوض التي تبسط لها أفياء الحضارة وتثريها بالمفردات الجديدة التي تقتضيها العلوم والتقنيات من دون التمرد على الأصول اللغوية المقررة، أو الذهاب بها مذهبا مريبا يخالف الطرق اللاحبة التي ضمنت للعربية استمرارها. لذا، لا ينبغي أن نترك نسج مطارف الفصحى للمصادفات ولأقلام المنشئين المقحوطة الذين لا يأتون بفائدة إلا أتبعوها بآبدة، وإنما الذين يطرزون تلك المطارف هم العلماء الخناذيذ الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب، والخبراء البارعون الذين أفردوا الوجهة للتقنيات الرقمية المعاصرة لا تند عنهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحاطوا بها علما، وفقهاء اللغة الذين مخضوا أوطاب الفصحى، وغيرهم من الأدباء المفنين في جودة أشعارهم وفي بلاغة خطبهم، ناهيك عن الانتباه إلى حياة الناس لنخل ما يستجد فيها من ألفاظ وتعبيرات اقتضتها سنة التطور التي تحافظ على الأصول الثابتة ولا تضيق على اللغة منافسها، لأن النقص المنسوب إلى الفصحى بالنسبة إلى أسماء الأشياء الجديدة يمكن استدراكه باللجوء إلى الوسائل اللغوية التي تسمح بها أنظمتها اللغوية الثرية؛ أما ادعاء النقص في الأصول والقواعد والإمكانات الذاتية، فإن العربية الفصحى بريئة من هذه الفرية، لأن لها من المؤهلات الانفجارية والاشتقاقية ما لا يتوافر في غيرها من اللغات.

تأسيسا على هذه الحقائق التي أوضحت سبيلا ناهجة لا تخفى، وشرعت طريقا لاحبا موطأ لا ينكتم، يجب علينا بذل النكيثة في ابتكار المبيدات الفعالة التي تفتك بسوسة اللحن وتصون الفصحى من الألفاظ والعبارات التي خانت معناها؛ وانحرفت عن مغزاها واستبدلت بأصولها فروعها من دون جلب منفعة أو دفع مفسدة، كما نفكر في القضاء على التلوث والأوبئة التي تهدد البيئة من حولنا، لأن إبادة الكلمات اللاحنة من حياتنا في جوهرها تحرير للغة ولأنفسنا من سوء الفهم الذي يقلب الحقائق؛ على شاكلة هذه العبارة التي تتصدر واجهات الأسواق والمحال التجارية: «سوق الخضر» التي لا يفهم منها المخضرب اللسن سوى جمع «خضرة» وهي اللون الأخضر. أما المراد الصحيح فهو: «سوق الخضراوات» قال الرسول ﷺ في الحديث الشريف: «ليس في الخضراوات صدقة»، أي ليس فيها زكاة. ناهيك عن التعامل مع خبر «كلا وكلتا» وفق ما تقتضيه اللغة العالية التي نطق بها القرآن الكريم والشعر العربي البليغ من خلال مراعاة لفظها المفرد، وليس معناها المثنى على شاكلة هذه العبارة التي أظهرت مكتوم هؤلاء الذين لم يصيبوا من قواعد الفصحى تبريرا: «كلا الفريقين انهزما» و«كلتا الأزمتين انفرجتا»، لأن «كلا وكلتا» لفظان مفردان ملازمان للإضافة، لفظا ومعنى، لتأكيد الاثنين والاثنتين وليسا مثنيين. ولذا، يجب الإخبار عنهما كما يخبر عن المفرد.

قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الكهف:٣٣). ولم يقل: «أتتا» مراعاة لمعنى «كلتا». وقال الشاعر: كلانا غني. ولم يقل: كلانا غنيان، على هذه الشاكلة:

كلانا غني عن أخيه حياته

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

أقف حيث وقف بعنان يراعي ضيق ميدانه، مؤكدا أن الثقة بصفاء أذهان القراء توجب علي هذه التصحيحات، التي تظهر أن تعليم الفصحى بالشواهد التي تتضمنها النصوص العالية التي تذهل الألباب وتخلبها، وتأسر الأفهام باللطائف التي تشتمل عليها، هي التي تجعل متكلمي اللغة العربية الفصحى في نجوة من اللحن، وهي التي تساعد على ترسيخ الملكة اللغوية ضمنيا من دون اللجوء إلى الحفظ الببغائي الكسول للمتون اللغوية، التي لا تضمن على الدوام تطبيقها بمترهية عالية تجعل كلامنا نقي الجوهر صفي الكوثر.

الهوامش

١ ــ مجلة العربي، عدد ٦٦٢، ص ٣٥، صفر ١٤٣٥هـ/يناير ٢٠١٤م، وزارة الإعلام، الكويت.

المعاني الإسلامية في شعر مجانين العصر العباسي الأول

عاصم عبدربه
كاتب وناقد إسلامي

إن العصر العباسي الأول (١٣٢هـ - ٣٣٤هـ) يعد بحق هو قمة هرم الشعر العربي، فلا يمر الباحث فيه بعقد بل بعام إلا ويجد ما يسر النفس ويبهج الخاطر من شعر وأدب وأخبار، وليس بخاف على باحث في الأدب أنه تبعا لذلك تعددت طوائف الشعراء واتجاهاتهم، فرأينا المشهورين ورأينا أهل الخلاعة والمجون ورأينا الزهاد ورأينا الفرسان...الخ، إلا أن طائفة من طوائف ذلك العصر ضرب كثير من النقاد صفحا عن ذكرهم، وولوا وجوههم شطر غيرهم من الشعراء، أعني طائفة الشعراء المجانين.

ولعل كثيرا من الناس تنصرف أذهانهم عند ذكر المجانين إلى أمثال مجنون ليلى وأشباهه ممن تيمهم العشق، ولكن المقصود طائفة أخرى تماما، فالمقصودون هم المجانين حقيقة، تماما كمن نراهم في الطرقات في بعض البلدان يمشون حفاة وفي بعض الأحيان عراة، متسخة ثيابهم، طويلة شعورهم، يتعرض لهم الناس بالسخرية، والصبيان بالضرب بالحجارة، وهؤلاء وجدت طائفة منهم في العصر العباسي الأول، ظلمهم كثيرون بوسمهم بالجنون على جميع أحوالهم، فالمتفحص لأحوالهم يجد أنهم يعانون من جنون مؤقت، يأتي فنسمع منهم كلام المجانين ونرى أفعالهم، ويذهب فنسمع منهم كلام العقلاء ونرى أفعالهم.

من هم الشعراء المجانين، وما أسباب جنونهم؟

لو ذهبنا نستقصي أسماء الشعراء المجانين وشعرهم في ذلك العصر لطال بنا الحديث، ولكن نذكر بعضهم، فمنهم جعيفران المجنون (١٨٠هـ - ٢٣٠هـ) الذي جن بسبب حرمانه من الميراث (١)، ومنهم بهلول بن عمرو المجنون (... - ١٩٠هـ) ومنهم أبو يس (كان معاصرا لأبي نواس) الذي جن بسبب تفكره في مسألة حسابية لم يقدر عليها (٢)، ومنهم سعدون المجنون (عاش حتى عصر المتوكل) الذي صام أكثر من أربعين سنة فخف دماغه فجن (٣)، ومنهم خالد الكاتب الموسوس (.. - ٢٦٢هـ)، الذي سمعه أبوتمام ينشد شعرا فقال له:

شعرك هذا كله مفرط ..
في برده يا خالد البارد

فسمعها الصبيان من أبي تمام فصاروا يهتفون بخالد كلما رأوه: يا خالد البارد، يا خالد البارد، حتى جن (٤)، وغيرهم كثيرون يضيق المقام عن حصرهم.

احتماؤهم بالجنون

كأن الشعراء المجانين كانوا يعرفون أنهم في مأمن من العقوبة مهما فعلوا، فالناس لا يعاقبون فاقد العقل أيا كان فعله، فكانوا يجترئون على أي أحد، ويفرطون في التعرض للخلفاء والوزراء، فترى معانيهم الإسلامية سواء أكانت وعظا أم غير ذلك مشوبة بشيء من النقد الصريح اللاذع، فيقول سعدون مخاطبا المأمون (١٧٠هـ ٢١٨هـ) لما بنى قصرا:

يا من بنى القصر في الدنيا وزخرفه
أسست قصرك حيث السوس والغرق
لو كنت تُعنى بذخر أنت ذاخره
أسسته حيث لا سوس ولا خرق
والموت مصطبح فيكم ومغتبق
فاحتل لنفسك قبل الورد يا حمق
واذكر ثمودا وعادا أين همُ
فلو بقي أحد من بعدهم لبقوا (٥)

فالمعاني دقيقة جدا، فقصور الدنيا يصيبها السوس والخرق، ولو كان حصيفا لبنى قصرا من الحسنات في دار الخلد، فلا يصيبه سوس ولا خرق ولا غرق، ويبلغ سعدون ذروة الشدة وهو يقول للخليفة: يا أحمق، تلك الكلمة التي لو قالها غيره لربما كانت سببا في هلاكه.

وكان الخليفة الهادي (١٤٤هـ - ١٧٠هـ) يعاني من تقلص

شفته العليا، فأوكل أبوه به خادما يذكره بإطباق شفتيه، فكان يقول له دائما: موسى أطبق، فدخل عليه عليان المجنون (عاش حتى آخر خلافة الرشيد) وهو متزمل بفي سربال الأمن والطمأنينة لكونه يعرف أن الخليفة عالم بحاله، وهو القائل:

أفلح الزاهدون والعابدونا
إذ لمولاهمُ أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا
فمضى ليلهم وهم ساجدونا
حيرتهم مخافة الله حتى
زعم الناس أن فيهم جنونا

فسأله الهادي: إيش معنى عليان؟ فقال عليان: وإيش معنى موسى أطبق؟ فغضب الخليفة وقال: خذوا برجل ابن الفاعلة، وكان بهلول حاضرا فالتفت عليان إليه وقال: خذ إليك يا بهلول، كنا مجنونين فصرنا ثلاثة، فضحك الخليفة وعفا عنه (٦).

تفاعلهم مع قضايا عصرهم الإسلامية

ظهر في العصر العباسي الأول بدعة القول بخلق القرآن، التي تولى كبرها الزنادقة وعلماء الكلام، فامتحن العلماء، وجلد الإمام أحمد، وقتل من قتل، ولم يكن الشعراء عامة بمعزل عن هذه الفتنة، إلا أن العقلاء منهم كانوا ملجمين بلجام السلطان، مقهورين ببطش الحاكم، فلم يستطع أحد منهم أن يجهر في بغداد بالحديث في هذا الأمر في عصر المأمون ولا المعتصم ولا الواثق، فلما جاءت خلافة المتوكل بدأت الفتنة تخبو شيئا فشيئا، وكان من المجانين من تأثر بهذه الفتنة فظهر هذا التأثر على شعره، فيروى أن سعدونا المجنون دخل على المتوكل فقال له: يا متوكل:

ارض عن الله وثق بالله
وكل شيء بقضاء الله
ما تبلغ الفطنة كنه الله
ولا يفوت الخلق رزق الله
الله لا يشبه خلق الله
القبض والبسط فعال الله
والجود والفخر أيادي الله
يأيها القائل قل بالله
بالحق والصدق عرفت الله
فلا تكن مبتدعا في الله
ارض بدين الله، عبد الله
لا شيء أحلى من كلام الله
يكون مخلوقا كلام الله؟
يقولها مبتدع والله (٧)

وربما يقول قائل إن الذي جرأ سعدونا على المتوكل أن المتوكل كان كارها لهذه الفتنة، ولكن الشعراء المجانين كانت لهم مع الخلفاء المناصرين لهذه الفتنة أيضا جولات، فقد أرسل بهلول إلى الخليفة الواثق (٢٠٠هـ - ٢٣٢هـ) رسالة يقول فيها: «أما بعد، فإن المراء قد لعب بدينك، والأهواء قد أحاطت بك، ومقالات أهل البدع قد سلخت عنك عقلك، وابن أبي دؤاد المشؤوم قد بدل عليك كلام



ربك، اقرأ ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ (طه:١٢)، إلى قوله ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ (طـه:١٤)، أيكون هذا الكلام مخلوقا؟! فرماك الله بحجارة من سجيل مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد (٨).

تجديدهم لمعاني الشعر بحسب عصرهم

شاع في العصر العباسي الأول السرف في بناء القصور والدور والإكثار من الموالي، لاسيما في أمراء بني العباس وحاشيتهم، فكان أن ظهرت طائفة من الشعراء مثلت ردة الفعل لتلك الحالة، فأخذوا يتكلمون عن الزهد وترك متاع الدنيا، والتخفف من البهرج والزينة، ولم يغب ذلك عن الشعراء المجانين، إلا أن المجانين كان لهم ما يميزهم عن غيرهم، وذلك أنهم كانوا يقولون ما يريدون قوله في وجه الأمير أو الخليفة، خلافا لغيرهم الذين كانوا يعظون وينصحون دون مواجهة، ومن ذلك ما صنعه بهلول مع هارون الرشيد وقد سار إلى الحج بحاشيته وموكبه وحشمه وحراسه، فأراد بهلول أن يعظه بالتخفف من زينة الدنيا، ويذكره بالموت، لاسيما وهو ذاهب إلى مكان يستوي فيه الجميع، فقال:

هب انك قد ملكت الأرض طرا
ودان لك العباد فكان ماذا
أليس غدا مصيرك جوف قبر
ويحثو الترب هذا ثم هذا (٩).

وهو ما فعله سعدون مع الرشيد حين قال له ملحا على الفكرة نفسها:

هب الدنيا تواتيكا
أليس الموت ياتيكا
فما تصنع بالدنيا
وظل الميل يكفيكا
كما أضحكك الدهر
كذاك الدهر يبكيكا

فشهق الرشيد شهقة وقال: ويل لنا إن لم يعف الله عنا (١٠).

تأثير الثقافات الوافدة عليهم

وفدت على العرب في تلك الحقبة ثقافات أجنبية كثيرة، يونانية وفارسية وغيرها، وشاعت النظرات الفلسفية المتعمقة لأمور الحياة، وانعكس ذلك على الشعراء، فرأينا في أشعارهم حكما مستقاة من أفكار فلسفية عميقة، جاء أغلبها من الثقافات الوافدة، وفشت الحكمة بكثرة في شعر تلك الحقبة، وكان للمجانين منها نصيب وافر، فيحدثنا جعيفران عن أن المقياس المعتبر بين الناس هو مقياس المال، لا غير، فهو يرى أن المرء يكرم على قدر كثرة ماله، ويهان على قدر إملاقه وفقره، ويطبق تلك الفكرة على حاله مع الناس فيقول:

رأيت الناس يدعوني
مجنونا على عمد
وما بي اليوم من جن
ولا مس ولا عمد
ولو كنت كقارون
ووالي رحبة الجند
رأوني راجح العقل
جميلا حسن القد
وما ذاك على حق
ولكن هيبة النقد (١١).

بل إن بعضهم كان يصل في شعره إلى معان غائرة، وتأملات دقيقة قل أن تجد مثيلا لها في شعر الفطاحل، ومن ذلك قول أبي العنبس الصيمري (... - ٢٧٥هـ):

كم مريض عاش من بعد يأس
بعد موت الطبيب والعواد
قد يصاد القطا فينجو سليما
ويحل القضاء بالصياد (١٢).

وهو معنى دقيق غائر، فقد يظن



الناس بمريض أنه هالك لا محالة، وييأس أهله من شفائه، ويقرر الطبيب أنه ميت، وإذا به يبرأ من علته، ويطول به العمر حتى يشهد موت عائديه الذين ظنوا به الموت، وطبيبه الذي قرر أنه ميت لا محالة.

اقتباسهم من السنة

كم من شاعر من هؤلاء المجانين نجد في شعره اقتباسات من السنة باللفظ أو بالمعنى، والاقتباس عند المجانين له دلالتان، الأولى أنهم ينسجون على منوال معاصريهم الذين أكثروا من الاقتباس من القرآن والسنة، والثانية أن ذلك يرجح ما ذكرته في أول البحث من أن جنونهم جنون مؤقت، يأتي ويذهب، وإلا فمن المحال على مجنون كامل الجنون أن يفقه السنة ويقتبس منها ما يلائمه.

فمن ذلك قول أبي علقمة المجنون (أدرك أوائل الدولة العباسية):

محن الزمان سحائب متراكمه
هي بالقوادح والفواجع ساجمه
فإذا أصبت بنكبة تشجى بها
فاذكر مصابك بالنبي وفاطمه(١٣).

فقوله: فاذكر مصابك بالنبي، مقتبس من قول الرسول ﷺ: «إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي» (١٤).

ومنه قول سمنون المجنون (... - ٢٩٨هـ) يذكر حبه لله تعالى، ويبين هيامه بحب الله فيقول في فكرة عميقة جميلة:

أنت في النفس والجوانح والفكر
وأنت المنى وفوق الأماني
كل شيء أراه منك بعين
صرت مستغنيا به عن عياني
فإذا غبت عن عياني أبصر
تك مني بحيث كل مكان (١٥).

فبيتاه الأخيران يشير بهما من بعيد إلى معنى قوله ﷺ في حديث جبريل: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١٦).

والحديث عن إبداعات الشعراء المجانين في المعاني الإسلامية يضيق عنه المقام، لذا تجد طائفة كبيرة من النقاد يعجبون بشعرهم، ويفضلونهم على غيرهم من معاصريهم، فيقول ابن عبدربه عن عليان: «وكانت العلماء تستنطقه لتسمع جوابه» (١٧)، ويقول علي بن عبدالصمد الكوفي عن بهلول: «خدمته عشر سنين أطوف معه حيث طاف، أتسقط من نوادره، وأتلقف من أشعاره» (١٨). ويقول الدكتور شوقي ضيف عن أبي العنبس: «وشعره يسيل عذوبة، وكأنما يقول أكثره ارتجالا، فلا تكلف فيه ولا تعمل» (١٩).

وقد زعم الدكتور إبراهيم النجار أن كثيرا من أخبار مجانين الشعراء موضوعة ولاشك (٢٠)، واستشهد على ذلك بقلة تواترها بين الأدباء والرواة، وقد أبعد الدكتور إبراهيم فيما ذهب إليه؛ فمن المعروف أن أخبار المجانين من الشعراء قليلة إذا قيست بأخبار غيرهم من الشعراء، ومن الطبيعي أن ينصرف النقاد والمؤرخون عن أخبار هؤلاء إلى أخبار العقلاء من الشعراء، ثم إن وضع هذه الأخبار لا يمكن تصوره من أئمة الأدب والنقد، أمثال ابن عبدربه والحصري والجاحظ والحريري وأبوالفرج الأصفهاني وغيرهم، ثم إنه من البدهي أن تكون أو يكون أكثرها مقصورا على ذكر أسمائهم دون أسماء آبائهم وأجدادهم، فمن من الأدباء يعنيه اسم أب واحد من هؤلاء المجانين؟، وإنما الذي يعنيه هو ذكر بعض أخباره وأشعاره المستحسنة، وفات على الأستاذ إبراهيم النجار أن كثيرا من مشاهير الشعراء لا تعرف أسماء آبائهم.. بل إن بعض هؤلاء الشعراء مختلف في اسمه، وبعضهم كما يقول بعض النقاد وهمي لا وجود له (٢١).

ثم إن أشعار هؤلاء الشعراء المجانين كثيرة جدا؛ بدرجة يصعب معها أن تكون هذه الأشعار موضوعة، وليس أدل على ذلك من قول الحريري: «وأشعار المجانين في هذا الباب أكثر من أن تحصى» (٢٢).

الهوامش

(١) الأغاني ٢٠/٢٣٠.
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢/١٦٤.
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ٩/٣٧١.
(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١/٤٥٧.
(٥) عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري ص ١٣٠.
(٦) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٤٨.
(٧) عقلاء المجانين ص ٣٢.
(٨) عقلاء المجانين ٢٦.
(٩) عقلاء المجانين ص ٢٢.
(١٠) غرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ٢٣٥.
(١١) عقلاء المجانين ص ٣٢.
(١٢) معجم الأدباء ٢/٣٥٤.
(١٣) عقلاء المجانين ص ٣٣٢.
(١٤) أخرجه ابن سعد في طبقاته ٢/٢٧٥، والدارمي في سننه ١/٤٠ وصححه الألباني.
(١٥) عقلاء المجانين ص٣٨.
(١٦) البخاري ح ٥٠ ومسلم ح ٨.
(١٧) العقد الفريد ٧/١٤٥.
(١٨) ذيل تاريخ بغداد ص ٩٢.
(١٩) تاريخ الأدب العربي ٤/٤٣٤.
(٢٠) شعراء عباسيون منسيون لإبراهيم النجار ٣/٢٦٧.
(٢١) ذكر أبوالفرج أن أناسا سألوا في بني عامر عن قيس بن ذريح فقالوا: ليس له في بني عامر أصل ولا نسب، فسألوا عن قائل هذه الأشعار، فقالوا لهم: فتى من بني أمية (الأغاني ٢/١٠).
(٢٢) شرح مقامات الحريري لأبي العباس الشريشي ٢/٣٦٠.

الدكتور صابر عبدالدايم في حواره لـ «الوعي الإسلامي»:

الأدب الإسلامي لا يعرف العبث

حوار: محمود زويل



الدكتور صابر عبدالدايم عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف بمصر عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة أحد المهتمين بالأدب الإسلامي البارزين في عصرنا الحاضر وأحد الشعراء المتميزين.

التقته «الوعي الإسلامي» على هامش ملتقى مجلة العربي الكويتية الثالث عشر، الذي أقيم بالكويت تحت عنوان «الثقافة العربية على طريق الحرير».

فكان هذا الحوار:

• بداية نود أن تزودنا ببطاقة تعريفية عنكم؟

- أولا نشأت في ريف مصر الجميل، في بيئة زراعية في محافظة الشرقية، بقرية العطارين، مركز ديرب نجم، وفي قلب أسرة محافظة كثيرة الأبناء، والحمد لله، نعمت بالنشأة في ظل رعاية والد كريم وهبني للأزهر الشريف، حيث ختمت حفظ القرآن الكريم في سن العاشرة، ثم التحقت بالمعهد الديني بالزقازيق، وقضيت بهذا المعهد العريق تسع سنوات، وفي هذا المعهد تفتحت الموهبة الشعرية، حيث فزت بالجائزة الأولى على مستوى الجمهورية وأنا في الثانوية، في شعر الفصحى، ثم بعد ذلك انتقلت إلى المرحلة الجامعية في كلية اللغة العربية بالقاهرة، وهذه المرحلة تمثل تطورا مهما في حياتي العلمية والثقافية والإبداعية، حيث تعرفت على المنتديات الأدبية بالقاهرة، مثل رابطة الأدب الحديث وجمعية الأدباء وجمعية الشبان المسلمين، وغيرها من التجمعات الأدبية، وفي الجامعة نفسها قمت بمشاركة في النشاط الثقافي في الجامعة، حيث توليت أمين عام اللجنة الثقافية على مستوى جامعة الأزهر، وفزت بالجائزة الأولى في الشعر على مستوى الجامعات في السنتين الأولى والرابعة، وتعرفت على كثير من رجال الأدب والعلماء والشعراء في ذلك الوقت، ومنهم الشاعر المستشار محمد التهامي، والشاعر الكبير عبدالله شمس الدين -رحمه الله- والشاعرة ملك عبدالعزيز، زوجة الدكتور الناقد الراحل محمد مندور وغيرهم.

انتهيت من مرحلة الليسانس بتفوق، وعملت بالتدريس في مدينة دمياط، ثم أعرت إلى ليبيا بعد أربع سنوات، وفي هذه الفترة حصلت على درجة الماجستير عام ١٩٦٧م تحت عنوان «محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة»، ثم الدكتوراه عام ١٩٨١م وعنوانها «النزعة التأملية في أدب المهجر»، ثم عينت بجامعة الأزهر مدرسا للأدب والنقد في كلية اللغة العربية في العام نفسه، وفي الكلية أيضا زاد النشاط مع المشاركة في المؤتمرات الأدبية في مصر والعالم العربي، وتوالت المؤلفات الأدبية والنقدية، وخاصة الكتب المعدة للترقية إلى أستاذ مساعد وإلى أستاذ، حيث حصلت على درجة أستاذ مساعد عام ١٩٨٥م، ثم درجة أستاذ عام ١٩٩٠م، وفي الثمانينيات أعرت إلى جامعة أم القرى للعمل بالتدريس في هذه الجامعة العريقة، وأيضا زاد اهتمامي بالثقافة والأدب والفكر الإسلامي، حيث كنت من أوائل المنتسبين إلى رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وهذه

الرابطة كان المكتب الرئيسي لها بالهند، حيث كان يرأس الرابطة العالم الإسلامي الكبير الشيخ أبوالحسن الندوي، وقد التقيته -رحمه الله- في مكة المكرمة وفي القاهرة وتركيا، في المؤتمرات التي كانت تعقدها الرابطة ويشارك فيها أدباء مصر والعالم العربي و الإسلامي، وعدت من جامعة أم القرى إلى جامعة الأزهر، ثم توليت وكالة الكلية ثم عمادتها من عام ٢٠٠٧م إلى عام ٢٠١٣م، والآن أعمل أستاذا متفرغا بالجامعة، وأيضا أمين عام اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجامعة الأزهر.

● كتبتم قصائد متعددة عن المسجد الأقصى المبارك، حتى لقبتم بشاعر الأقصى، فما هو الموقع والموقف العقدي والأدبي من المسجد الأقصى الشريف في نظركم؟

- المسجد الأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين، والأصل أن له المكانة العظمى في وجدان وعقل كل عربي ومسلم على ظهر الأرض، وما يحدثه الصهاينة من محاولات حرق هذا الحرم الشريف، ثم محاولات تخريبه والحفر أسفله تحت وهم وزعم البحث عن الهيكل المزعوم، ومحاولات اقتحامه مرات عديدة، لاشك أن هذه الممارسات الهوجاء تؤذي شعور كل مسلم، وتدفع الغيورين على دينهم وإسلامهم وعروبتهم إلى مواقف المجالدة والمواجهة، كل حسب سلاحه وقدرته، وسلاح الأدباء والشعراء الكلمة القوية التي تحمس الجماهير، وموقفي الشخصي من هذه القضية هو موقف المواجهة وعدم الخنوع، والحلم دائما بالعودة والرجوع، ولي تجارب شعرية عديدة في هذا المجال، ومنها قصيدة بعنوان الشهيد والسلام الذبيح، أقول في مطلعها:

صعودا صعودا إلى سدرة المنتهى
فإن السلام الذي يزعمون انتهى
دماؤك طوفان عزم ومد
وملحمة الثأر أشعلتها
وأشعلت فينا فتيل الجهاد
وكل المخاوف مزقتها

● ما رأيكم في مصطلح الأدب الإسلامي؟

- هو ليس مصطلحا غريبا على حقل الثقافة العربية و الإسلامية، فكل أمة لها خصائصها وهويتها وخصوصيتها الثقافية، وأمة الإسلام تتسم بالمنهج المعتدل المتوازن، ومن أهم سمات هذا المنهج في المجال الإبداعي والإيماني هو التأمل في ملكوت السماوات والأرض، وفي مشاهد الطبيعة الكونية والأرضية التي سخرها الله للإنسان، وهذا التأمل الإيماني هو لب أو منطلق الإبداع الإسلامي، فكل ما يراه المسلم من آيات الله في السماء والأرض، وفي النباتات والبحار، وكل ما خلق الله في هذا الوجود هو مجال لتأمل الشاعر والأديب المسلم، وأرى أن هذا هو النبع الفياض لكل التجارب التي يطمح الأدباء المسلمون إلى ارتيادها، والتجديد في الموضوعات والرؤى والأفكار والصور، إذن فمصطلح الأدب الإسلامي هو التعبير من خلال الأساليب والصور الجمالية عن الطبيعة والإنسان والكون والحياة، وليس الأدب الإسلامي نظما خاليا من الموهبة الفنية أو خاليا من الصورة الجمالية والأساليب المبتكرة، لأن الأدب بكل فنونه: الشعر والقصة والرواية والمسرح والمقال والخطبة، يقوم على التفنن التعبيري والتصويري أولا، ومن المسلم به أن الرؤية لابد أن تكون من خلال الإيمان والتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا، فليس في الأدب الإسلامي عبث فكري ولا خيال سريالي غامض، ولا طلاسم ولا غموض؛ يبعد عن العقل والشعور.

● لقد قمتم بتدريس الأدب والنقد في جامعات مصر والجامعات العربية لسنوات عديدة، وخلال تلك الفترة تعددت المؤلفات الأدبية والدواوين الشعرية لكم، ونود إلقاء الضوء على بعض مؤلفاتكم ودواوينكم المطبوعة والمخطوطة ومشاريعكم الحالية؟

- الرحلة العلمية طويلة وممتدة، ولذلك تعددت المؤلفات العلمية والإبداعية، أما عن الإبداع الشعري فلدي الآن اثنا عشر ديوانا، منها سبعة دواوين مطبوعة، والباقي قيد الطبع، وأنا الآن أعد مشروعا شعريا متكاملا يتمثل في الأعمال الكاملة، حيث ستصدر عن وزارة الثقافة المصرية قريبا، ومن أهم الدواوين.

١- المسافر في سنبلات الزمن.
٢- الحلم والسفر والتحول.
٣- المرايا وزهرة النار.
٤- مدائن الفجر.
٥- العمر والريح.
٦- ملحمة القبو الزجاجي، وهي رسالة إلى محمد الفاتح قائد الفتوح الإسلامية في بلاد البلقان، وقد أصدرت عدة كتب نقدية وأدبية، وكذلك بعض الكتب التي تتبنى قضايا الفكر الإسلامي، ومن هذه الكتب.

١- الحديث النبوي رؤية فنية جمالية.
٢- الفنون الإبداعية بين التجربة التأملية والنزعة الواقعية.
٣- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق.
٤- تاج المدائح النبوية (شرح قصيدة البردة لكعب بن زهير).

وهناك كتب تعد الآن للطبع، وهي تنطلق من البيان القرآني والبيان النبوي.

● بصفتكم كنتم عميدا لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف.. فهل من كلمة عن دور ورسالة كلية اللغة العربية بالأزهر في النهوض باللغة العربية وآدابها؟

- حرصت منذ أن توليت وكالة كلية اللغة العربية منذ عام ١٩٩٢م ثم العمادة من عام ٢٠٠٧م أن تحقق الكلية رسالتها في الدفاع عن اللغة العربية وحمايتها وتعليمها بكل علومها وآدابها لطلاب العلم، وهذه الرسالة هي أيضا

تكليف يقوم به كل الذين يعملون بكليات اللغة العربية بجامعة الأزهر في القاهرة والأقاليم، وأعتقد أن كلية اللغة العربية بالزقازيق قامت بدور رائد في هذا المجال، من حيث النشاط اللغوي والثقافي والإعلامي والعلمي، والشاهد على ذلك أنها الكلية الوحيدة في جامعة الأزهر التي نظمت ثلاثة مؤتمرات علمية دولية متوالية، وموضوعاتها كلها في خدمة اللغة العربية والنهوض بها، فالمؤتمر الأول كان موضوعه معالم التجديد في علوم اللغة العربية وآدابها، وشارك في هذا المؤتمر خمسة وأربعون باحثا من مصر والدول العربية، وأما المؤتمر الثاني فقد كان موضوعه متعلقا برسالة اللغة العربية في خدمة الإسلام، وهو معالم التلاقي بين علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وتقدم للمؤتمر أكثر من خمسين باحثا، وأما المؤتمر الثالث فكان موضوعه عن الأزهر الشريف ودوره في خدمة اللغة العربية والإسلام، تحت عنوان «دور الأزهر في النهوض باللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي» وتقدم إليه أكثر من ستين باحثا.. مما يدل على إيماننا بهذه الرسالة، كما أننا قمنا بطبع بحوث المؤتمر الأول والثاني والثالث في ثمانية مجلدات، المجلد الواحد يبلغ ألف صفحة، فهي موسوعة علمية معاصرة تعنى باللغة العربية وعلومها وباتجاهات الفكر الإسلامي وارتباطه بقضايا الأمة العربية والإسلامية، وإلى جانب ذلك كليات اللغة العربية بجامعة الأزهر تحتوي على أقسام علمية عدة، ومنها قسم الأدب والنقد، وقسم البلاغة والنقد، وقسم اللغويات (النحو والصرف) وقسم أصول اللغة وقسم التاريخ والحضارة، وكلية اللغة العربية بالزقازيق تنظم الموسم الثقافي من كل عام، وكذلك تقيم المؤتمرات الشعرية الكبيرة التي يدعى إليها كبار الشعراء من القاهرة والمحافظات، وأيضا تنفرد كليتنا بتنظيم القوافل الدينية في قرى محافظة الشرقية، حيث تشجع أبناء الريف على حفظ القرآن الكريم، وتقيم مسابقات لذلك، وتمنح الطلاب مكافئات على الحفظ، كل حسب كمية الحفظ وكيفيته، وذلك من خلال جمعية القرآن الكريم بالكلية.

● ما هي أهم عوامل تطور وتقدم ونجاح الأدب الإسلامي في رأيكم،؟

- إن الأدب الإسلامي في ظل التحديات الكثيرة التي تعوق مسيرته وحركته، وفي مقدمتها معارضة كثير من المنتمين لتيارات علمانية، حيث لا يرون في الأدب الإسلامي إبداعا -وبئس ما يزعمون- فالإسلام دين الحياة، والإبداع موهبة إلهية يمنحها الله لمن يشاء، وقد ثبت من خلال الواقع الأدبي تفوق كثير من المبدعين في الفنون الأدبية ممن يتبنون الرؤى الإسلامية، والشواهد على ذلك كثيرة جدا، وفي جميع البلاد العربية، بل في العالم الإسلامي قاطبة، ومن العوائق التي تقف حجر عثرة أمام حركة الأدب الإسلامي ضعف الموهبة عند بعض الشعراء والأدباء الإسلاميين، وخصوم هذا الاتجاه دائما يأتون بالنماذج الضعيفة، ولذلك أرى أن تتبنى مجلة «الوعي الإسلامي» المواهب الأدبية الواعدة وأن تشجعهم وتنشر لهم وتطبع مؤلفاتهم، بعد أخذ رأي النقاد، وتكليف النقاد بكتابة مقدمات للأعمال المتفوقة، وهذا ما تفعله رابطة الأدب الإسلامي، حيث تعقد مسابقات حول آداب الشعوب الإسلامية وحول الشعر النسائي، ومثل هذه المسابقات والتشجيع على النشر يفتح الطريق أمام الشعراء ذوي الرؤية الإسلامية، وأيضا أرى أن نفتح لهم الإعلام وكثير من البرامج، وأن يسعى الإعلاميون إلى تسجيل الندوات والمهرجانات الشعرية التي تعقد في التجمعات الأدبية والروابط ذات التوجه الإسلامي الوسطي المتوازن المعتدل.

● ما هو موقع آداب الشعوب الإسلامية في العصر الحاضر بين آداب العالم من حيث المستوى والتلاقح أو التواصل، وكذلك التفرد والتميز؟ وما هي الصعوبات التي تعرقل ازدهارها؟

- إن آداب الشعوب الإسلامية يجب أن نهتم بها وأن يقوم الخبراء في الترجمة ونقاد الأدب بترجمة إبداع هذه الشعوب إلى اللغة العربية، ليطلع عليها المبدعون العرب، لأن هذه الشعوب لديها مواهب فريدة وتجارب عديدة وتنوع في الإبداع، وقد أشاد بهذه الظاهرة التي نغفل عنها الناقد الدكتور الطاهر مكي في الأدب الإسلامي المقارن، وقال إن هذه الشعوب يتسم أدبها بالقوة والحيوية والتجديد، ولديهم شعراء وأدباء كبار يفوقون أدباء الغرب، ويرى بأن النقاد المحدثين يشيدون بكبار أدباء الغرب ويهملون هؤلاء الشعراء لأنهم مسلمون، ولذلك لم تلمع أسماء كثيرة منهم، بسبب الموقف التعتيمي، وفي مقدمتهم الشاعر محمد إقبال، وهناك شعراء في ماليزيا وفي سراييفو وفي البوسنة والهرسك وتركيا وإيران والهند، ويجب التنبيه إلى آداب هذه الشعوب، حرصا على ارتباطهم دائما بمنابع الإسلام وآفاقه التي لا تحد.

العجوز المحروم

خالد برادة
باحث مغربي

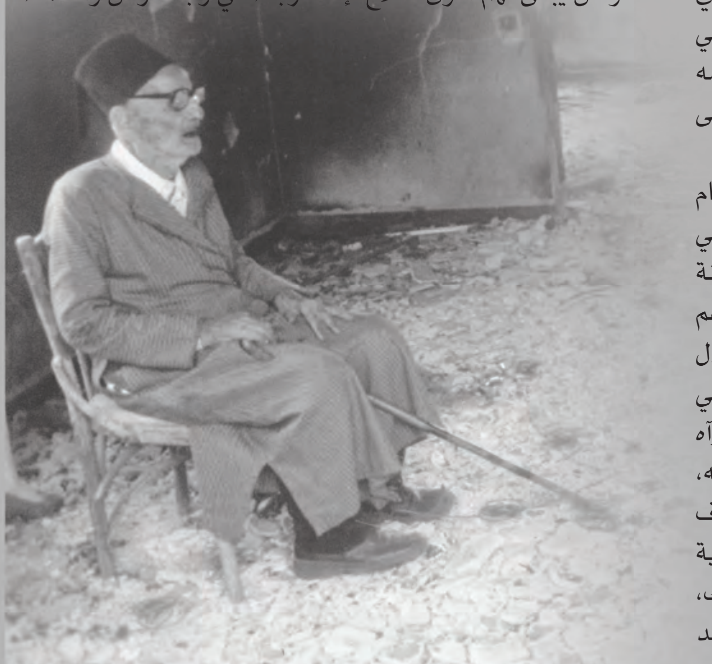
هاهو الأستاذ إدريس قد اعتاد أن يسلك طريقه المؤدي إلى عمله الذي يبعد عن بيته نحو ستة أو سبعة كيلومترات، حيث ينتظره تلاميذه الذين هم كالورود ينفح شذاها، ولو أنهم لا يزالون في ثياب الصبا، تجللهم براءة الطفولة، ليلقن هؤلاء البراعم آيات من الأدب والعلم، مؤديا بذلك رسالة تربوية جليلة منوطة به، رغم عناء الطريق الذي كان لزاما عليه أن يتكبد مشاق السير فيه، لوعورة جغرافيته، ولكن الأرض تسعد بوطء قدميه، ليصل إلى تلك المدرسة النائية، الوحيدة في تلك البادية، ولكن عزيمة الأستاذ المحترم ما كانت لتفتر عن أداء عمله الذي أخلص له، فهانت عنده المشاق، ليؤدي عمله المتقن.

ولقد كان في كل يوم من أيام عمله، وخاصة في الصباح الباسم الذي يعانق وجهه المشرق المتفتح بالأمل، مصافحا طلعته البهية بمزيد من إذكاء العزم وإيقاد وهج الفكر، إلا أنه كان يشغل باله ما تبصره عيناه، وهو في طريقه إلى العمل، شخص يلفت انتباهه، ويسترعي اهتمامه، يتراءى له من خلال مظهره العجيب أنه شيخ كبير أو أنها عجوز مسنة، فهو لا يستطيع أن يميز شخصية هذا المرء الذي يلوح له من بعيد، أهو رجل أم امرأة، لرثاثة حاله، وملابسه الرثة التي كان يتخذها درعا واقيا من البرد الشديد، فيوحي مظهره أنه كالشريد، وكانت تلك الملابس البالية تحجب عن الناظر تحديد جنسه، أرجل أم امرأة، وقد عرف الأستاذ فيما بعد أن ما شغل باله، وأشفق لحاله، هو رجل مسكين، تقوس ظهره، ونقش الزمان التجاعيد على وجهه، وقد أخذت منه السن، وتقعقع الشن، فمظهره البائس الذي ترق القلوب مشفقة على حاله يفصح عن تجهم الحياة في وجهه، وشظف العيش الذي يعانيه، وضيق ذات يده، ولا أدل على ذلك من ثيابه التي يحتمي بها من برودة الجو، خشية أن تصيبه نزلة برد فتضعف جسمه النحيف، وكان بجانبه بقرتان يرعاهما، ربما كان أجيرا يرعى البقرتين مقابل دراهم معدودة، لا تكفيه لتلبية حاجاته.

واستمر الحال على ذلك أياما وأسابيع، وفي صبيحة أحد الأيام من فصل الشتاء، حيث لا تسمع إلا صوت الرياح المزمجرة، التي لا تجعل الأقدام راسخة في الأرض، بل تتقاذف صاحبها يمنة ويسرة، كان الأستاذ إدريس ميمما وجهه كعادته إلى عمله، رغم العواصف الشديدة، ولكنه صابر في سبيل كسب الرزق الحلال من عمله، لتقر عينه، وتسعد نفسه بأمانة غرس بذور العلم في صغاره، ولكن راعه هذه المرة بدمعة ساخنة، ولوعة شديدة، ما رآه من راعي البقرتين، ذلك العجوز المسكين الذي ازور عنه مجتمعه، فلم يقدم إليه أحد من أبناء قريته ولو قماشا من الصوف يحميه، فما كان من الرجل إلا أن أضاف إلى ملابسه البالية التي لا تكفيه دفئا في ذلك الفصل البارد، قطعة من البلاستيك، يطلق عليها بالعامية في منطقتنا «الميكة»، إذ لم يكن هناك بد أو خيار أمام الرجل سوى أن يضع تلك «الميكة» على جسمه؛ علها تحميه من قطرات الغيث، فهو يخشى إن لم يفعل ذلك أن يعرض نفسه لأخطار صحية، هو في غنى عنها، فليس لأمثال هذا الرجل ما يشبع بطنه من الطعام، بله ما يعالج به جسمه من الأسقام، وعند ذلك تابع الأستاذ الكريم خطواته، ونفسه تختلج بالأحاسيس المرهفة، وقال لي: قلت بيني وبين نفسي: كم من أناس يستمتعون بالدفء الوفير والرزق الكثير داخل بيوتهم، ولهم أنواع من الثياب التي تناسب كل فصل من فصول السنة، وفي المقابل كم من الفقراء الذين غلبهم الزمن، وعضهم الفقر بنابه، وتنكر لهم المجتمع في مثل هذه المواقف التي تستدعي مد يد المساعدة لهم، فراحوا يحتمون بألبسة توفر لهم الدفء، حيث يكون البرد في أشد سطوته.. فقلت له: لله درك يا أستاذ، وشكر الله لك عاطفتك الموفورة، وأحاسيسك التي سكبتها في بحور الوجدان المرهف والصدق المسعف، وأخذت أهمس بهمسات شاعر وخلجاته قائلا:

عار علينا أن يعرى الفقراء، ويذوقوا البؤس المترع بالحرمان، وتربو عند أصحاب الترف فضول الأموال، وأصناف من الأثاث الوفير والثياب الزاهية القشيبة، وربما لفظوها إذا مرت عليها بضعة أشهر، فكان مصيرها الإتلاف، دون أن يكلفوا أنفسهم نظرة حانية بالتفاتهم إلى من يعانون، من المساكين الذين يبحثون عن اللقمة في كل مكان، راضين بمصيرهم الذي يتسبب فيه أهل البذخ والثراء، فمتى تحفظ كرامة الفقراء حتى لا تهدر نتيجة رقة الحال..؟

ولكن يبقى لهم أقوى سلاح، إنه الرجاء في رب الأرض والسماء.



إخلاص تائه

محمد ثابت توفيق
أديب مصري

«يا بني، ألم تتصل في وقت متأخر منذ يومين وأخبرتك بأن هذا ليس اتفاقنا؟! لذا، فإنني لن أتواصل معك.. عفوا، ضع السماعة من فضلك، واغلق الخط».

وقف الشاعر المخترع الشاب متعجبا! نظر إلى عناوين المحال الغريبة عليه في دهشة، رفع عينيه إلى السماء فشعر بمزيد من الحرارة تنبعث في جسده، رغم برودة الطقس في البلد الأوروبي! ظن الرجل يمزح معه، فتذكر كم هو فاضل.. فلماذا يقول له هذه الكلمات إذن؟!

الاتفاق واضح ومحدد، وحرص على تنفيذه بدقة: هناك مسابقة عالمية ستقام في هذا البلد، تبدأ مساء اليوم، جاءه خطاب بعلم الوصول من أحد كبار الأساتذة الجامعيين ممن لهم علاقة بالمسابقة، يخبره فيه - وفقا للاتفاق الذي دار بينهما من قبل - بحضور عدد من المهتمين بالتكنولوجيا والإبداع معا في العاصمة العربية التي ينتمون إليها، وكان الدكتور عبداللطيف حينها زائرا في إجازته السنوية إلى بلده.. طلب من المسؤول عن المتفوقين في الجامعة موعدا وقال له:

- «تقام مسابقة دولية للبحث عن أفضل طالب مخترع ينظم الشعر، وينبغ في المجالين، ولو بدرجة متقاربة.. رشح لي أحدهم، على أن استضيفه في فندق مدة المسابقة، وهي أيام معدودة، لأن المسابقة غير رسمية في مرحلتها الأولى».

على الفور تهللت أسارير المسؤول، وطلب مهلة لمراجعة الحاسب الآلي الخاص بالطلبة (وإن كان الاسم في ذهنه)، إلا أنه راجع ملفات إلكترونية، واتصل برقم هاتف طالب، ولأنه قادم في الطريق إلى الجامعة، والأستاذ الزائر متعجل، فقد خرجا معا لملاقاة الشاب.

بوادر الطيبة كانت تشع من محياه، يمضي وسط مجموعة من أقرانه، أراد الضيف الحديث إليه وحده، إلا أن شابا آخر بقي قريبا:

- «نريد نماذج جيدة من إبداعك.. التكنولوجي والشعري.. وأنت كما قيل لي لك قصائد بالإنجليزية، سأنتظرك يوم... من شهر... تهاتفني على هذا الهاتف المتحرك، من أقرب هاتف عام في المطار فآتيك.. وسيصلك مني خطاب بعلم الوصول فيه مختصر المعلومات».

نفذ الشاب المطلوب منه حرفيا، ولكن لماذا يقول له الأستاذ إنه جاء إلى البلد الأوروبي من قبل، واتصل به، والتأشيرة بيمينه لم يمض عليها سوى نصف الساعة مسافة الحصول عليها وختم الجواز بخاتم الدخول؟!

انتبه الشاب إلى سماعة الهاتف بيمينه وصوت الإنذار بضرورة وضع السماعة.. لقد أغلق الأستاذ الخط بالفعل.

ماذا عليه أن يفعل في هذا البلد الغريب عنه؟ وإلى أين يذهب؟ وإن استمر الوضع على هذه الحال فكيف يعود إلى بلده؟

استغفر الشاب ربه وحمده، كما اعتاد في المواقف العصيبة، وبدأ تركيز عقله يعود إليه.. الأستاذ جاد فيما يقول، وهو لم يأت إلى هنا إلا الآن.. فأين الإشكالية إذن؟

فوجئ الدكتور عبداللطيف قبل موعد حضور موفق بيومين (الشاب المعني بالحضور إلى المسابقة)، برنين هاتفه المتحرك قبيل منتصف الليل.. قال له صوت على الطرف الآخر: «أنا الشاب الذي دعوته لحضور المسابقة.. كيف آتي إليك؟».

ثار الرجل وانفعل وقال:

- «موعدنا بعد غد، والتأشيرة تبدأ من غد، فكيف أتيت إلى هنا الآن؟».

غاظه أكثر أن الطرف الآخر بدأ يتلعثم فأضاف:

- «ولكن حجز الفندق موعده بعد غد، وأسرتي معي، ضع الخط وعد يا ولدي من حيث أتيت».

لم ير الدكتور عبداللطيف موفق إلا مرة، فكيف يمكنه أن يصلح الموقف.. راح موفق يحدث نفسه عن نفسه.

دقائق، مرت عليه كدهور طويلة، وجاءه الحل.. رجل يحمل ورقة متوسطة عليها اسمه.. قال:

- «أنا من طرف الدكتور عبداللطيف.. سيعتذر إليك على خط الهاتف بنفسه».

- «بني، لقد عركتنا الحياة، ولكن بعض من ينتسبون إلينا يفعلون العجب بنا، ومن ثم يوقعونا في لبس وحرج شديدين، ومن عجب يفعلون «الأمر» بنا، فنأخذ وهلة لنفهم، وهلة غير قليلة.. بني، لم يكن أحد سيحضر المسابقة على دقتها منا من الأصل، لأن شابا منا تصرف تصرفا غير مسؤول.. وساعده على هذا توافر إمكانية المجيء إلى هنا من دون التأشيرة التي أعددتها لك، واضح إنه كان معنا أثناء اتفاقنا قرب باب الجامعة في بلدنا، ولكن لأن الخطاب لم يصله في الموعد المحدد، ولأن داء البشر النسيان، فقد أخطأ في المجيء قبل الموعد، وفي وقت غير مناسب، لم يكن الله ليفلح محاولته، تقبل اعتذاري وبالتوفيق».

في نور السجود

د. عبدالمنعم عبدالله حسن
أستاذ بجامعة الأزهر

تهفو الجباه إلى عناق الأرض في نور السجودْ
هي متعة للنفس فاق مذاقها كل الحدودْ
فإذا هوى رأسي ارتفعت وجبت آفاق الوجودْ
روحا تحلق في العلا مجتازة كل السدودْ
النفس في نور السجود تفك من كل القيـودْ
تصفو إذا تفضي بما فيها لخالقها المجيدْ
وتعز في ظل العبادة، إنها حقا تسودْ
وتسبح الأعلى فتعلو والرضا فيضٌ وجودْ
يا رب متع جبهتي بسجودها لك يا ودودْ
وإذا سجدت قربت، فيه العبد أقرب ما يكونْ
فأطل سجودك واقترب، يغمر فؤادك باليقينْ
واضرع لربك بالدعاء فإنه الحصن الحصينْ
أفرغ همومك للسميع، فكل صعب كم يهونْ
إن السجود سكينة للنفس تغشى المخبتينْ
يلقون فيه من الهداية ما تقر به العيونْ
فيعمهم فيه الرضا، قد فاز وفد المتقينْ
للساجدين من الإله الحق بشرى المؤمنينْ
والقلب في نور السجود يعمه نور مبينْ





رواية البحث عن النفس

«مخيم يا وطن»

محمد أبو السعود الخياري
باحث وناقد مصري



يمكننا وببساطة التعامل مع رواية «مخيم يا وطن» للكاتبة دعد الناصر باعتبارها رواية الظروف الراهنة.

وعلى الرغم من صدور الرواية قبل نحو خمسة عشر عاما، فإن فكرة تحول الوطن إلى مخيم قد شهدت انتشارا مؤسفا في الوقت الحاضر. لم يعد أهل فلسطين وحدهم من يسكنون الخيام ويعيشون معيشة البؤس والمعاناة وينامون بعيدا عن تراب الوطن. وإذا كانت بعض الدول تستضيف مواطني الدول المكلومة في مخيمات بائسة على أراضيها؛ فإن مواطنين من تلك الدول قد استقبلتهم مخيمات من دول جديدة.

انضم السوريون والعراقيون (أصحاب الحضارات الأقدم والأعرق) إلى طابور اللاجئين، وإلى نزلاء المخيمات، وانتشرت المخيمات في الأردن وتركيا للسوريين، بعدما كانت سوريا مخيما للفلسطينيين.

ملايين المسلمين – الغني منهم والفقير – في هذه الدول العريقة صاروا بلا مسكن، وصار المخيم بكل دلالاته على المعاناة النفسية والبدنية هو ملجأهم البائس؛ لكنه الآمن، بعدما فقدوا الأمن في أوطانهم، وصار خيارهم بين الاحتفاظ ببيوتهم والاحتفاظ بالحياة.

رواية «مخيم يا وطن» هي الرواية الفائزة بالمركز الثاني في مسابقة الرواية التي أجرتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية للأديبات، وصدرت طبعتها الأولى ٢٠١٠ م في نحو ١٢٥ صفحة من القطع الصغير؛ وتقع في تسعة فصول.

مريم.. الشخصية الحلم

تقدم لنا الرواية تجربة خصبة للتعامل مع فكرة الوطن.. فكرة تبدو شبيهة بطبيعة الأسماك التي تولد في مكان ما في المحيط على امتداده، ثم تقودها الفطرة، وتدفعها غريزة حب الوطن إلى قطع آلاف الأميال نحو هدف وحيد هو العودة إلى وطنها الأم، لا توقفها في الطريق مغريات، ولا تثنيها معوقات.. رحلة مضنية، لكنها رحلة البحث عن النفس وإعادة العلاقة بين الجسد والروح.

تقف شخصية مريم العموري، الشخصية الرئيسية في الرواية، على الحد الفاصل بين الحلم والواقع، بين الحقيقة والسراب، بين الوطن المتحقق (ولدت ونشأت في أميركا) وبين الوطن الضائع (الأب والأم فلسطينيان).

«مريم العموري، شابة في السابعة والعشرين من عمرها، خريجة قسم الصيدلة من جامعة كاليفورنيا الأمريكية الشهيرة، وجهها طيف فلسطيني كرمي لم تستطع أمريكا أن تخفي مسحته السهلية التي ظلت نسائمه تنشق سحر البحر الممتد، طيف فلسطيني كرمي لم يلتصق بالجذور مرة، ولا ردد أغنية النبض الآتي من هناك.. من رحم الأرض التي تمتد وحيا يحكي بهمس شفيف أمومة ندية فجيعة! لم ترسب في ذهن الفتاة ذات الوجه الأسمر المشرب بحمرة شفق حكاية الوطن قبل هذه الأسابيع القليلة الأخيرة» (الرواية، ص ٨ و٩).

بين حياتها الآنية المتخمة بالاستقرار والتجدد والرفاهية، وحياتها المفاجئة التي عادت إليها فيما يشبه الحلم.. فجأة ومن دون ترتيب قررت الأسرة قطع الطريق كاملا بين الوطن البديل المخملي والوطن الأصيل شديد الخشونة.

المخيمات قبور يسكنها الأحياء

بين ظلامين كان النزوح المفاجئ لأسرة مريم: من نور الاستقرار إلى ضباب التيه.. ظلام المجهول الذي تندفع إليه الرحلة المفاجئة، وظلام الليل الذي انطلقت الأسرة تحت أستاره.. كانت الرحلة أشبه بالأسطورة.

ويبدو الواقع أكثر غرابة من الأسطورة، حيث لم تتفتح عينا مريم منذ مولدها سوى على أمريكا، وهي اليوم ليست مع فلسطين الوطن، بل فلسطين المخيمات!

وكانت عودة الأسرة إلى مخيم من

مخيمات الأرض الأم صادمة ومحبطة، لاسيما لمريم التي انتقلت بين قطبي الأرض في ليلة من عمرها.

«تشكل صوت الأب هذه المرة صفعة قوية مزقت آخر أمل ببديل منطقي، عندما جاءت كلماته مهتزة باردة:

هناك لو سمحت!.. سنتابع مشيا، فالطريق ضيق.

دس بيد السائق عملة حديدية غريبة.. فتح الباب الخلفي.. أمسك بيد صغيرته، وشد عليها شالها الحريري الذي لم يفلح في تدفئة جسدها الراجف.. ضم زوجته إليه، وأسرع المشي مشيرا إلى بيت صغير من اللبن تغطى أعلاه بصفائح «زينكو»، كما بقية البيوت، أعطت إيقاعا متجددا للموت المنصهر في كل حبة من حبات المطر النازفة فوق رؤوسهم..» (الرواية، ص ١٦ و١٧).

لم تكن الصدمة الحضارية فقط هي التي اجتاحت وجدان مريم وأصابتها بالذهول، بل كانت الأثر الأكبر لصدمتها النفسية، فقد ظلت فلسطين تعيش في مخيلتها حلما يفيض بالمودة والتعاطف، لكن لم يخطر لها يوما أن ينتقل الحلم إلى أرض الواقع.. وكانت بداية الأسرة الفزعة بالانزلاق في الوحل؛ ليكرس السرد تلك الحالة الوجدانية البائسة التي صاحبت الأسرة منذ لحظة الخروج من منزلهم في ولاية ميتشجن.

«انغرست أقدامهم في الوحل، وشربت أجسادهم الغضة أول فجيعة في هذا المكان الغريب الوضيع .. التصق الأب بالباب، وجعل يدق بانفعال وعصبية.. لحظات وانفتح الباب عن وجه طفل ملتحف بغطاء مهترئ.. دخل الأب، وهو لا يزال ضاما زوجته التي انحشرت بين صدره وجاكته المصنوع من الجوخ الإنجليزي الفاخر باكية وجلة.. مد يده ملامسا يد الصغيرة التي بدت خطواتها مترددة حائرة.. انغلق الباب.. كان صريره موحشا مخيفا» (الرواية، ص ١٧).

تحول الفكرة.. تحول الإنسان.. تحول الحياة

بدت حياة مريم العموري بائسة تعسة في جزء كبير من بداية حياتها في المخيم، ولم تتغلب بسهولة على شعورها بالسخط على الحياة والأحياء فيه، بل ظلت مؤمنة بأن وجودها بينهم هو وجود خاطئ أو مؤقت، وظل السخط والازدراء هما شعوراها العاتيان نحو الحياة والناس.

ويشي المشهد الحواري التالي بتلك الفجوة بين فكرة الوطن عند مريم من ناحية وعند أصحاب القضية من سكان المخيم من ناحية أخرى:

«أنت مسكينة يا مريم.

أنا!.. ضحكت.. أنتم المساكين.. إنني على أي حال أحلم بأمل قريب.. أما أنتم، فماذا يعشش في رؤوسكم غير الأوهام والهوان؟

– يسكننا الوطن.

– آه.. لا تتحدث عن الوطن.. أنت لا تعرف الانكسار الذي دوى بداخلي إذا تنفصل جذوري عن الوطن.. وطني الجميل.. وطني الحلم الذي يرسم الوجود طيفا بديعا يداعب كل حس جميل بداخلي.. أعطيك عمري، إذ تهبني لحظة واحدة أتملى فيها وجه أمريكا الرائع.. الوطن.. ماذا تعرفون عن الوطن؟» (الرواية، ص ٥١ و٥٢).

وتمنح الرواية دورا بارزا للجدة، حيث لعبت دور المعالج النفسي، وأسهمت في تحول مريم تدريجيا من السخط إلى التعايش، ومن ازدراء مواطنيها في المخيم إلى التعاطف معهم والانتماء إليهم.

وفي الحوار التالي تقوم الجدة بإنارة بصيرة مريم، وبالمعلومة والمشاعر الجياشة كان حديث الجدة مع مريم كاشفا ومؤثرا.

«الإنجليز يا مريم.. ما طلعوا حتى تأكدوا من أن اليهود قادرون على سرقة كل شيء.. الوطن.. الناس.. الشجر.. الهوا.. لعنة الله على اليهود وعلى الإنجليز.

– وأنتم يا جدة.. هل سكتم؟

– والله يا مريم ما سكتنا.. الله يشهد وعباده يشهدون.. لكن ماذا نعمل واليهود جردونا من كل سلاح، والإنجليز زودوهم بكل سلاح.. عدل يا مريم، ما صار؟.. والله ما هو عدل.. البيوت تهدمت، والناس قتلت، والأراضي صودرت.. وبرغم كل شيء ما سكتنا.. حاربنا بالعصي وبالبواريد التي ظلت بين أيدينا.. الله يرحمك يا قسّام، ويرحم ثورتك.. الله يرحمك يا قسّام!» (الرواية، ص ٥٨ و٥٩).

ولم يكن الحوار مع الجدة، بوعيها وإيمانها العميق بعدالة الله تعالى وعدالة قضيتها، هو المؤثر الوحيد في مريم، وفي تحول فكرها وتبدل أولوياتها؛ بل كان مقتل والدها صدمة جديدة من ذلك النوع الذي وهبها حياة جديدة.

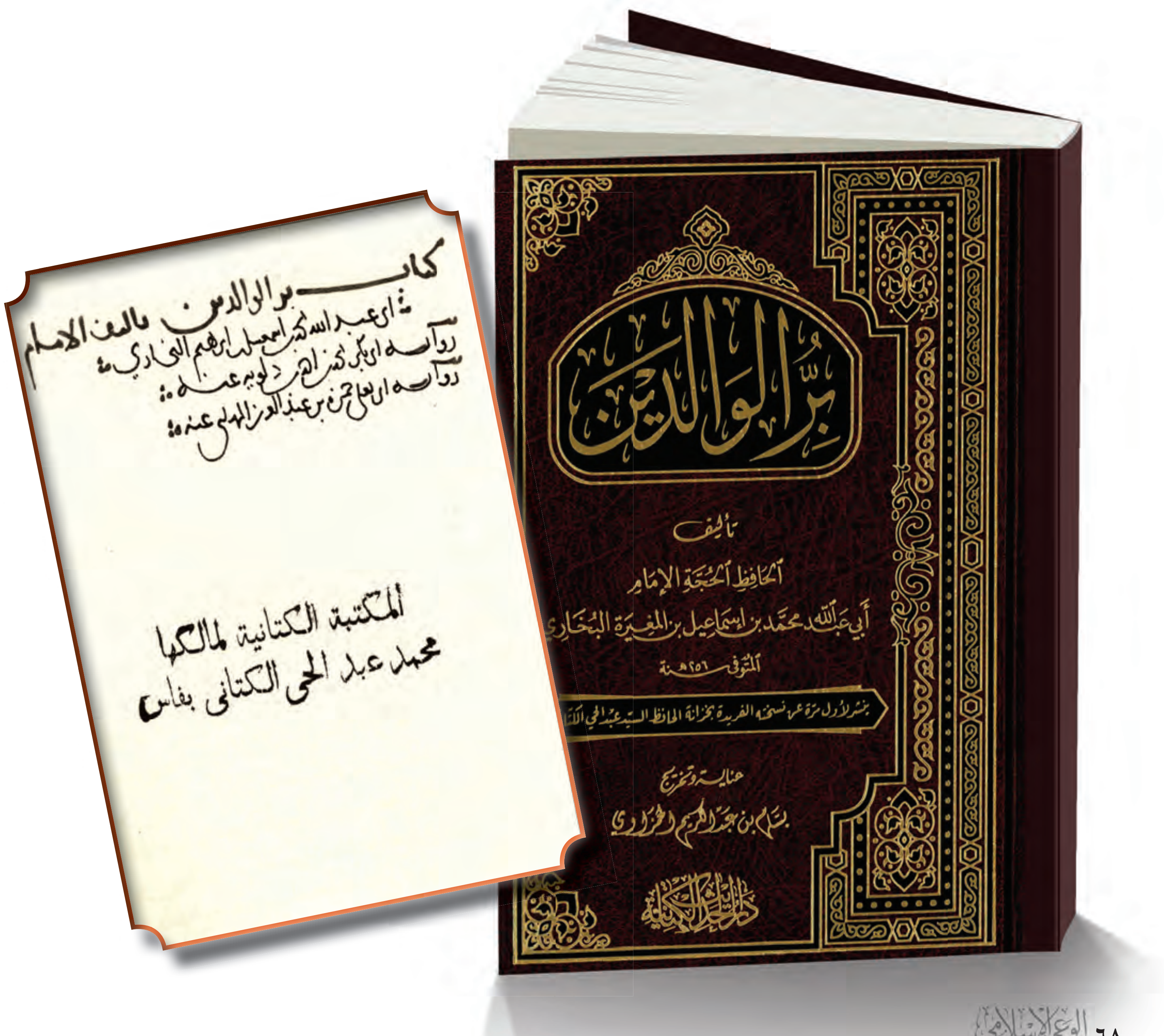
«لفت شالها الأبيض الذي ارتمت أطرافه على ثوبها الفلسطيني المتجدل بإيمانها العميق.. استقبلت النور حالمة بالغد الوضيء بعيدا عن أي ذاتية مقيتة.. كانت الأوراق المتناثرة حولها تعلن الرفض وعدم الاستسلام.. لن يستطيع أحد أن يخفي الشمس بيديه الآثمتين.. لن يستطيع أحد أن يستأثر بالهواء، فيرمينا صرعى خواء.. سأمضي.. ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين:١-٣).. بموتك يا أبي، أزهرت أشجار اللوز والكروم.. لأول مرة أبصر حوش الدار الذي لم أقض فيه طفولتي وشبابي.. وها أنا أقضي فيه أحلامي بوطن غير شريد.. أقداس لا يعرف حرمها دنس الآثمين.. إيه يا شجرة السنديان.. ويا أغنيات الحياة، كم أنا ظمأى إليك!..» (الرواية، ص ١١٤ و١١٥).

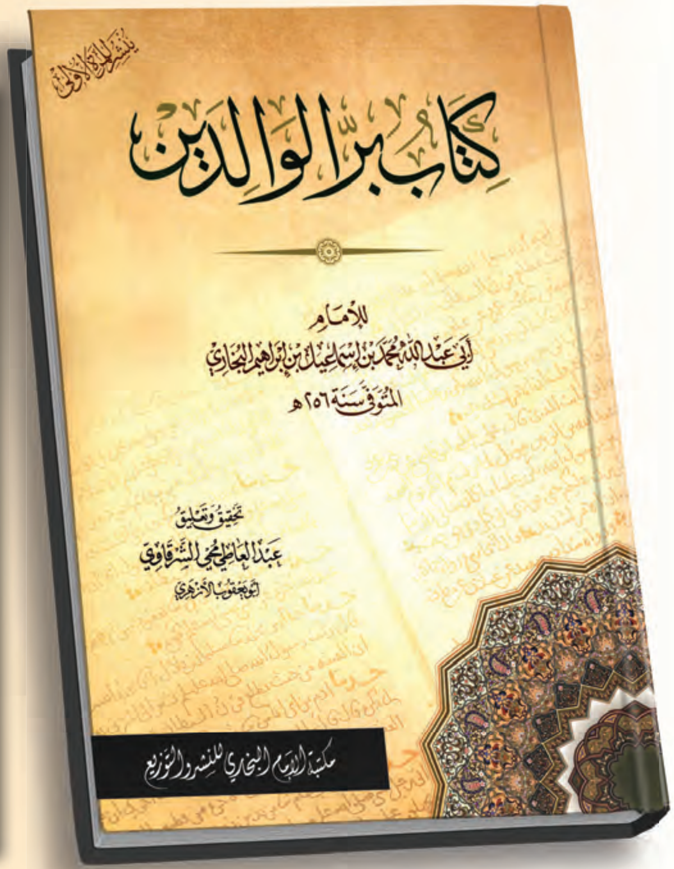
لم تكن تعرف دعد الناصر أن روايتها الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية التي أجرتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية للأديبات والمنشورة في العام ٢٠١٠.. لم تكن تعرف أن الرواية التي جسدت مأساة القضية الفلسطينية وتحول الوطن إلى مخيم ستكون رواية أوطان عربية أخرى عديدة.. حين أضحى الناس مطاردين في أوطانهم، وبات الاحتفاظ بالبيت والسكن والاستقرار في ظل الوطن آمالا عالقة بالسماء.

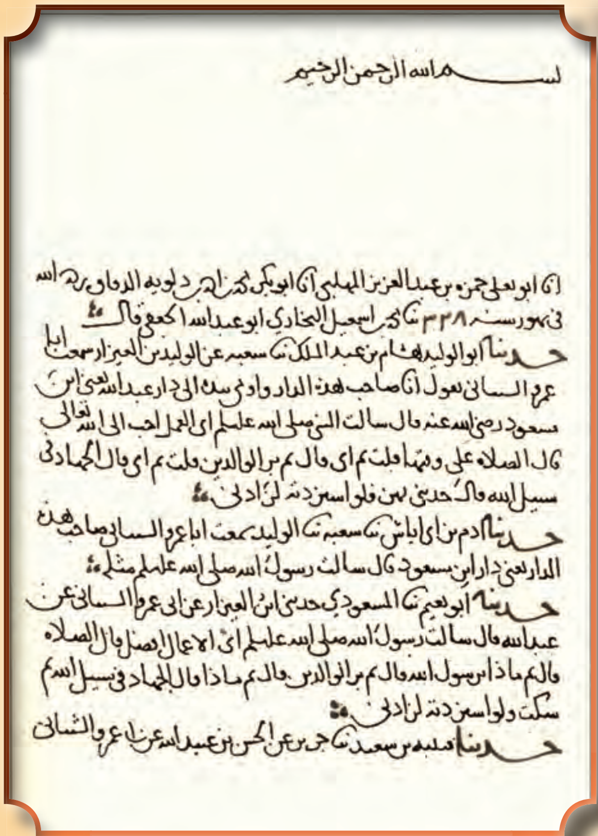
كتاب «بر الوالدين» للإمام البخاري

التحرير

هذا الكتاب عبارة عن جزء حديثي كان معروفا متداولا في مجالس الرواية قرونا متتالية، ثم صار معدودا في المخطوطات المفقودة في القرون المتأخرة، إلى أن مَنّ الله على أهل العلم بالوقوف عليه، ومن المتأخرين الذي حازوا هذا الشرف: الحافظ محمد عبدالحي الكتاني -رحمه الله- الذي حفظ المخطوط في خزانته العامرة.






بسم الله الرحمن الرحيم

من رحمة الله سبحانه أن يسر لهذا الكتاب النفيس الخروج إلى النور؛ فقام على العناية به وخدمته؛ فاضلان كريمان، كل على حدة:

الأستاذ بسام عبدالكريم الحمزاوي (دار الحديث الكتانية، طنجة، المغرب، طبعة١، مجلد واحد، ١٤٣٥هـ).

الأستاذ عبدالعاطي محيي الشرقاوي (مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، طبعة١، غلاف، ١٤٣٥هـ).

نسبة الكتاب

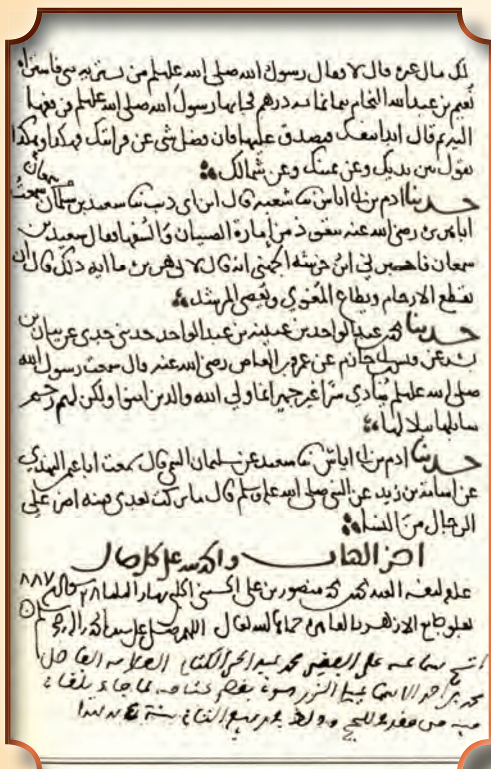
لا شك في صحة نسبته إليه، وذلك لرواية جماعة من أهل الإسناد الموثوقين هذا الجزء الحديثي في أثباتهم ومشيخاتهم بأسانيدهم المتصلة بالإمام البخاري، ولأن عددا من الأئمة نصوا على تسمية الكتاب ضمن مؤلفات الإمام البخاري.

أحاديث كتاب «بر الوالدين» ومدى تعلقها بموضوع البر

تنقسم نصوص الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

- أحاديث تتعلق بموضوع البر بشكل مباشر. مثل:

«أي العمل أحب إلى الله»... قال: «ثم بر الوالدين».



«من أحق الناس بحسن الصحبة؛ قال: أمك».

«ففيهما فجاهد».

- أحاديث تعتبر ملحقة به، وإن لم تكن ذات علاقة مباشرة به؛ كنصوص صلة الرحم وتحريم العقوق. مثل:

«لا يدخل الجنة قاطع».

«ليس الواصل بالمكافئ».

«لها رحم سأبلها ببلالها».

- نصوص عامة لها تعلق بالموضوع من أوجه خفية؛ لا يهتدي إليها إلا حذاق العلماء. مثل:

«إذا جاء أحدكم والإمام يخطب فليركع ركعتين».

«لا تغضب».

«ليس الشديد بالصرعة».

درجة الأحاديث

مجمل ما ورد في الكتاب من الأحاديث لا ينزل عن رتبة الصحيح أو الحسن، وجل الأحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، ما عدا بضعة أحاديث تدور بين الموقوف والمقطوع.

تزكية الذات



د. نبيل فولي
باحث دراسات إسلامية

شاع مصطلح «تنمية الذات» في عصرنا هذا شيوعا كبيرا، وتناقلته الألسن والأقلام، وعقدت لأجله المؤتمرات والندوات والدورات، حتى تبنت منظمة اليونسكو الدعوة إلى هذا العمل الإيجابي الكبير في إحدى دوراتها.

وتنمية الذات موقف إيجابي رفيع تجاه النفس يهتم صاحبه بإبراز ما يمكنه من مهاراته وإمكاناته الشخصية المتعلقة بالحياة العملية. وفي المقابل فإن الغفلة والإهمال في هذا الجانب لا يحولان دون تقدم الإنسان وتطور قدراته فقط، ولكنهما يهدران القائم من إمكاناته ويحولانها أثرا بعد عين كذلك.

الموقف الإيجابي

وموقف الإنسان الإيجابي من نفسه محمود في الإسلام أي حمد، بل إن الشريعة برمتها قائمة على تفعيل طاقات الإنسان النفسية والعقلية والبدنية، وتوجيهها وجهة تعطي الفرد والجماعة أكبر قدر من الخير الديني والدنيوي، وتتجنب قدر المستطاع السلبيات والشرور الناجمة عن التفاعل والاحتكاك مع الناس، بما فيهم من نوازع وما يتبنونه من مواقف.

ومن الأمثلة القرآنية البسيطة والبارزة على هذا التفعيل، ما نفتتح به قراءتنا للقرآن الكريم من الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، عملا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(النحل:٩٨)، فالعبارة تضع أمام الشخصية المسلمة تحديا من عدو خفي لا يراه الإنسان بعينيه؛ وبسبب الطبيعة الخاصة للمعركة مع هذا العدو الذي يسعى إلى السيطرة على الشخصية البشرية والتأثير سلبا في توجهاتها وسلوكها، فلابد من الاستعانة عليه برب الخلق جميعا ظاهرهم وخفيهم.

وليست الاستعانة هنا مجرد ألفاظ ترددها الألسن، أو تراتيل يترنم بها العابد؛ إذ إن الشريعة لا تعترف بتدين لا يعدو أن يكون مجموعة من الرسوم والصور الظاهرية، بل تعده غشا بينا، وإنما الاستعانة والاستعاذة المقصودة ألفاظ تترجم عن كينونة منقادة لأمر الله الذي تطلب حمايته، ومهمة هذا الجانب اللفظي هو تجديد التذكير بالبرنامج الإيماني برمته؛ حتى يحترز صاحبه مما ينتظره في طريقه من العوائق والمعاطب.

ويمكن أن نعد «تزكية الذات» صورة مهمة لإيجابية الإنسان تجاه نفسه، أو أنها صورة لتنمية الذات المؤمنة متكئة على الإسلام الحنيف وتعاليمه الراقية.

معنى تزكية الذات

يرد مصطلح «تزكية النفس» في بعض آيات القرآن الكريم باعتباره موقفا سلبيا وغير دقيق من النفس، حيث يثني الإنسان على نفسه ويمدح عمله غير ناسب الفضل إلى الله تعالى، وهذا من أكبر المعوقات أمام تصاعد الإنسان وترقيه في سلم العبادة والطاعة؛ لأن الرضا عن النفس بهذه الصورة يفقد صاحبه معية الله تعالى، كما أنه يقعد بهمته، يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء:٤٩)، ويقول في سورة النجم: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ (النجم:٣٢).

إلا أن هذا المعنى لتزكية النفس ليس مقصودنا هنا؛ لأنه يحمل معنى مدح النفس والثناء عليها وإسناد الفضل إليها فيما ينجزه الإنسان من عمل، قال ابن كثير في تفسير آية سورة النجم السابقة: «فلا تزكوا أنفسكم؛ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم» (١).

أما المعنى الذي تعنيه هذه السطور بتزكية الذات، فهو بعيد عن مدح النفس وتحسين صورتها عند الآخرين، فذاك عمل سلبي، وإنما قُصد بتزكية الذات هنا: توظيف تعاليم الإسلام وتشريعاته في الارتقاء بالنفس وتطهيرها من العوائق التي تعرقل مسيرتها الممتازة في الحياة؛ مرتبطة بالله تعالى خالق الوجود وبمنهجه العظيم.

الأصل القرآني

وهل لذلك المعنى من تزكية الذات أو النفس أصل قرآني؟ وردت «التزكية» بالمعنى الإيجابي في القرآن الكريم

باعتبارها مهمة من مهمات النبوة الأساسية التي يقوم بها النبي محمد ﷺ في أمته، ثم من يخلفه فيهم من علماء المسلمين وصالحيهم- أكثر من مرة،

ومنها قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)، فالتزكية هنا: التطهير، ولكن يقوم بها مرب ومعلم، وليست من أعمال الإنسان الذاتية تجاه نفسه.

وأما المعنى الذي تقوم عليه هذه السطور من تزكية النفس، فنصادفه في آيات أخرى؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (طه:٧٥-٧٦)، وقال: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة:١٠٨)، وقال تعالى:﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ (فاطر:١٨)، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾(الأعلى:١٤)، وفي تفسير الآية الأخيرة يقول إمام المفسرين أبوجعفر الطبري: «قد نجح، وأدرك طلبته من تطهر من الكفر ومعاصي الله، وعمل بما أمره الله به، فأدى فرائضه» (٢).

وسائل التزكية

خلصنا مما سبق إلى أن التزكية الذاتية هي عمل إيجابي يقوم به المؤمن تجاه نفسه؛ حتى تكون أكثر انضباطا وموافقة لمنهج الله تعالى في طريقة عيشها واختيار مواقفها، فما الوسائل التي وفرها الإسلام لقيام الإنسان مع نفسه بواجب التزكية؟

عادة يقوم الكبار من الآباء والأمهات وغيرهم بمهمة تربية الصغار وتهذيبهم، ويعتمدون في هذا على وسائل متنوعة؛ مثل: القدوة، والتوجيه، والنصح، والتعليم، والثواب والعقاب، وغير ذلك، فإذا كبر الصغار واستقلوا عن ذويهم انتهت مهمة التربية هذه، وصاروا ناضجين بدرجة تغنيهم عن تربية الآخرين.

ومع أن الحياة ومواقفها وما تمنحه لمن يخوض عبابها من خبرة تمثل مصدرا رائعا ودائما لتربية الإنسان، إلا أن الإسلام يضيف شيئا مهما في هذا السبيل، يستعمله الإنسان مع نفسه بنفسه لتزكيتها وتهذيبها، ألا وهو الالتزام الحقيقي بالمعاني والمفاهيم والشعائر التي تضمنتها الشريعة الإسلامية.

ولو رحنا نعطي شيئا من التفصيل في هذا الجانب، فلن تكفينا أضعاف أضعاف هذه السطور، ولذا سنكتفي بالماحة سريعة تحقق المراد الأساسي من هذه السطور، وهو بيان أن الإنسان بعد أن يستقل عن ذويه، فإنه لا يستغني عن التربية والتهذيب والتأديب، بمعانيها الإيمانية والأخلاقية، وقد وضع الإسلام في يده أدوات تساعده على القيام بهذا مع نفسه.

وأهم ما تركه الإسلام في أيدينا نهذب به أنفسنا: مدارس الشعائر الكبرى (الصلاة والزكاة والصيام والحج)، وما يتفرع عنها من النوافل التي من أجناسها؛ كالصدقة وصلاة النافلة والعمرة وصيام التطوع، إضافة إلى الذكر وتلاوة القرآن.

نعم هي كلها مدارس لتهذيب النفس وتأديبها، وربطها بالله تعالى، وزيادة يقينها في الآخرة، وتقليل تأثير المادة والاختلاط بالناس في معاملاتهم الدنيوية على القلوب التي هي مرآة عاكسة تبدو عليها آثار الأعمال صالحة أو فاسدة.

إلا أن هذا لا يتحقق إلا إذا فتحنا أمام القلوب الطريق حتى تعيش ربيع هذه الطاعات، وتتذوق حلاواتها، وتفهم أن الحكيم سبحانه لا يمكن أن يكون قد شرع لعباده من خلال هذه العبادات حركات وأعمالا عبثية وطقوسا غامضة لا تهذب نفسا، ولا تؤدب قلبا، ولا تزكي فؤادا.

إن الذي يصلي أو يزكي أو يصوم أو يحج أو يعتمر أو يذكر الله تعالى بدون أن يجد لهذه الأعمال تأثيرا أو شيئا من تأثيرها الرائع؛ طهارة قلب، واستقامة خلق، وعفة نفس، وتنزها عن الفواحش، فكأنه ما صام ولا صلى ولا فعل شيئا من هذه الطاعات!!

المسألة إذن مرتبطة بأن يعيش المسلم دينه معاني وحقائق، أن يدخل الصلاة باعتبارها تجربة لها معناها العميق وهدفها العظيم، من دوام الصلة بالله تعالى، والارتباط به ارتباط العبد الهارب إليه الملتجئ إلى جلاله، وأن يعيش الحج رحلة كبرى يخلف صاحبها الدنيا وراء ظهره، ويعيش مع مولاه وحده وسط الجموع الغفيرة عيشة الراجي رحمته، الطامع في عفوه، وأن يؤدي الزكاة أداء من باع لله مع النفس ماله، وتطهر من داء الشح ومرض البخل، وجاد على عباد الله ببعض ما جاد عليه به مولاه العظيم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣)، ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ (الليل: ١٨).

ولا ننسى أن الإنسان لا تغني عنه أدوات التطهير والتنظيف التي في الدنيا كلها مادام لا يستعملها؛ سواء أدرك قيمتها أم لم يدركها، وكذلك حالنا مع دين الله تعالى وشريعته العظيمة.

الهوامش

١- أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٦٢، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الطبعة الثانية، دار طيبة - الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢- أبوجعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٤/ ٣١٨، تحقيق: عبدالله التركي وآخرين، الطبعة الأولى، دار هجر - القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.



أثر حسن الظن في التماسك الاجتماعي

الزبير مهداد
كاتب إسلامي

حسن الظن هو أن يتوقع المرء الخير والصورة الحسنة عند غيره من الناس الذين يعاشرهم أو يساكنهم أو يجاورهم، بحيث لا يتوقع أو يظن أي جانب سيئ يراه حالا بهذا الآخر، مهما كان هذا الآخر مختلفا عنه في عقيدته أو مذهبه أو عاداته وتقاليده أو لونه أو غير ذلك، ما دام ملتزما بأصول المساكنة والمعاشرة الحسنة.

حسن الظن دعامة أساسية للمجتمع الآمن. ونقيضه: سوء الظن، الذي يشيع بين الناس التفسيرات الخاطئة والمجانبة للصواب عن سلوك الأفراد وأفكارهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ويشعرهم كأنهم واقعون تحت الرصد والمراقبة الشديدة، مما يخرب هامش الأمان، الذي يعد لبنة أساسية من لبنات السلم الاجتماعي.

فالعلاقات الاجتماعية يجب أن تتأسس على الثقة في الآخر وحسن الظن به، حفاظا على تماسك المجتمع الآمن، وترسيخا للاستقرار وقيم المواطنة والسلم والتعاون والتكافل، مهما اختلفت أعراق ومعتقدات أبنائه. وحسن الظن -بالتالي- يعد من أبرز أسباب التماسك الاجتماعي، بقطعه الطريق أمام تحقير الناس بعضهم لبعض أو تكفيرهم أو تبادل الاتهامات الباطلة بينهم.

قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» (١). هذا الحديث يضيء سبل استيعاب قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات:١٢). وفي تفسيرها قال ابن كثير رحمه الله: «ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس من غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثيرا منه احتياطا» (٢).

سوء الظن، خلافا لحسن الظن، يدفع صاحبه لتتبع العورات، والبحث عن

الزلات، والتنقيب عن السقطات، وهو ما يعد مرضا سلوكيا، يهدد السلامة النفسية لصاحبه، «قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ فقال: كل مخموم القلب صدوق اللسان. قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ فقال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد» (٣).

بينما حسن الظن يؤدي إلى سلامة الصدر، وتدعيم روابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع، فلا تحمل الصدور غلا ولا حقدا، امتثالا لقوله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» (٤).

سوء الظن يكون في الغالب شكلا من أشكال الإسقاط النفسي، الذي هو حيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية أو الجنسية للناس حتى يبرئ نفسه ويبعد الشبهات عنها، فالكاذب يتهم معظم الناس بالكذب، وكذلك الخائن أو المغتاب أو غيرهم.

وقد انتبه إلى الأمر بنباهتهم كثير من الذين كتبوا في الأخلاق الإسلامية، ومنهم علي بن محمد المصري الذي أكد أنه «لا يصل أحد إلى مقام حسن الظن، إلا إذا طهر الله تعالى باطنه من سائر الرذائل، إما بالفطرة وإما بالعلاج والرياضة، بحيث يصير لا تخطر الفحشاء على باله» (٥). وأضاف: «فمن طهر باطنه من سائر الرذائل فهو الذي يصح منه حسن الظن بالمسلمين» (٦).

وهذا المعنى نفسه، هو الذي عالجه أبو حاتم بن حبان البستي بشكل لطيف بقوله «الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه وتعذر عليه ترك عيوب نفسه» (٧).

هكذا كان دأب السلف رضي الله عنهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرا، وأنت تجد لها في الخير محملا» (٨). حتى فيما يظهر أنه لا يحتمل وجها من أوجه الخير، وهو ما أكده التابعي سعيد بن المسيب -رحمه الله- حين قال: «كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه» (٩).

سألني وأجبته

وفي هذا الباب يحكي الرواة قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل إلى مجلس فوطئ قدم رجل يجلس فنظر إليه وقال: أو أعمى أنت؟ فأجابه عمر: لا. فهم أحد الصحابة ليعاقب الرجل، فمنعه عمر وقال: إنما سألني وأجبته. فالرجل بتهجمه اللفظي على عمر وإساءته الأدب معه، قد آلم الصحابي، فضلا عن عمر، لكن عمر لم يكتف بالصبر فحسب، بل التمس العذر للرجل، فطيب بذلك خاطره أولا ثم خاطر الصحابي، وقابل إساءة الرجل بالحسنى، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت:٣٤)، فليس المطلوب هو الصبر فقط، وإنما رد الإساءة بالإحسان.

هذه القواعد الأخلاقية السلوكية التي أسس لها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، هي التي حرص فقهاؤنا على إبراز أهميتها في سلامة الصدر وفي تشكيل معالم الشخصية المسلمة الإيجابية.

ويعد ابن حزم الأندلسي من أهم من كتبوا في الموضوع، ففي كتابه القيم «مداواة النفوس» يوصي ابن حزم بالإحسان في التعامل، والتسامح بعدم مقابلة السوء بجنسه: «من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ من أساء إليه منهم بمثل فعله فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم بمثلها فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم» (١٠).

وبذكاء ونباهة فائقين، ينتبه ابن حزم إلى أهمية الثواب والتعزيز الداخلي، بعرض قاعدة في بذل المعروف مفادها: أن على من تصدى للناس بخدمتهم ومساعدتهم وبذل المعروف لهم ألا ينتظر عاقبة بذله ومعروفه منهم، لأن ذلك عليه مدار تأليف القلوب والتأثير في الناس، وبه اتقاء الشرور من خبث نفوسهم، فيتعين على المرء أن لا يعنى بالمصالح الوقتية والنتائج النفعية المادية أو المعنوية المترتبة عن سلوكه الإيجابي مع الناس، ويجب أن يتجرد من كون عمله مشروطا بنتائجه وعواقبه التي تعززه، فالتعزيز القوي هو أن يكون نفسه راضيا عن عمله بيقين نية إرضاء الله تعالى بتجريد العمل ابتداء وانتهاء لله وحده «وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عزوجل» (١١).

الرضا الذاتي

التجربة السارة التي يسفر عنها الإحسان للغير تعد بمنزلة ثواب ومكافأة، وقد انتبه ابن حزم إلى أهمية إحساس المرء بالرضا الذاتي عن سلوكه الخيري، وثقته في ثواب الله ونيل رضاه، الذي يعمل كداعم إيجابي وقوي للسلوك، يساهم في تكرار الاستجابة ويشجع على إعادة النمط السلوكي الذي أدى إلى بعث الرضا والسرور في نفس المرء. «ولا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة

والشفاعة وبذل المعروف» (١٢). ومن المشاعر المساعدة على التخلص من القلق والهم أن يحس المرء أن الآخرين في حاجة إليه وأنهم يقدرونه، فذلك يزيده ثقة في نفسه وتقديرا لها واقتناعا بجدواه في الحياة.

الدفع بالأحسن هو الأداة الفعالة للتغلب على أنانيتنا التي تهزمنا، وعلى هوى نفوسنا بردعها عن الطبع الشهواني والطبع العدواني، إنه التسامح الشامل الذي يعترف للآخر بالحق في الاختلاف، بل بالحق في الخطأ أيضا، اعتبارا لطبيعته البشرية الهشة. وهو أيضا التحلي بالقدرة على حسن الاستماع للرأي الآخر، وتفادي الغضب، وأن نحب لغيرنا ما نحب لنفسنا.

إن الدفع بالأحسن يقتضي تحسين الظن بالآخر وطرح الأحكام المسبقة في الحوار، وفتح الباب واسعا أمام مبادلة المحبة والاحترام والوئام والتفاهم والانسجام، ثم تحقيق العيش المشترك بين الشعوب على اختلاف طبعها؛ إنما يحول دون ذلك هوى النفس والأنانية.

التسامح

التسامح والثقة في الآخر وحسن الظن بالناس أمور ضرورية تحتمها الضرورة الحياتية والمصالح المشتركة. فالحكمة الربانية اقتضت أن يكون وجود الناس على الأرض في شكل تجمعات بشرية متباينة، لكنهم على الرغم من تباينهم بما ينفرد به كل تجمع من خصوصيات عرقية ودينية وبيئية وثقافية فإنهم يتفقون في ما يجمع بينهم من وحدة الأصل والحاجة إلى ضمان المصالح وحمايتها.

فالتسامح يتأسس على أساس الاشتراك الجمعي للطبيعة البشرية التي توحد الناس، الذين يتصفون بالضعف والحاجة إلى الآخر والقابلية للخطأ، وهذا التسامح لا يصب في مصلحة الشخص المخالف وحده، بل يصب في مصلحة الإنسانية جمعاء، لأنه يؤسس لمجتمع فاضل متسامح، ولأنه يقتضي منا التنازل عن أنانيتنا والتخلي عن استعلائنا، فحين نعتقد أن الحق إلى جانبنا، وأننا نمتلك المشروعية، ونتمسك بها دون أدنى تنازل، وحين نعتبر التنازل ضعفا وهزيمة، فإن الأمر يؤدي إلى حصول صدام بين المعتقدات، ينتهي إلى إظهار غالب ومغلوب، منتصر ومهزوم، هذا هو الدفع بالتي هي أسوأ، دفع بالحرب والتطاحن والتعارض، يزيد من استفحال العداوة والنفور.

نيات خبيثة

والأنانية تتعارض مع التسامح، وتعترض على مجرد التفكير فيه، وتقدم لنا أكثر من سبب لنبذه والإحجام عنه، وتقنعنا بأهمية الانتقام والقصاص ولذة الانتصار ومتعة الغلبة، وهذا ما يزيد في القلق وعذاب النفس واضطرابها. ولا سبيل لعلاج هذا القلق إلا بالسماحة وتحسين النية والتفاؤل بالخير وتمنيه للإنسانية جمعاء. يقول ابن حزم: «رأيت أكثر الناس يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم من نيات خبيثة يضبون عليها من تمني الغلاء المهلك للناس، وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقينا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئا مما يتمنونه أو يوجب كونه. وإنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها، لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد، فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها، وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها؟» (١٣)؛ فسماحة النفس تفضي إلى السعادة، وراحة البال والإحساس بالأمان، وسبيل لطمأنينة النفس التي امتدحها الله عزوجل كثيرا في القرآن الكريم.

ويضيف ابن حزم في كتابه قائلا: «حد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعا، وتتجافى عن حقك لغيرك قادرا، وهو فضل أيضا، وكل جود كرم وفضل وليس كل كرم وفضل جودا. فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل وليس جودا، والفضل فرض زدت عليه نافلة» (١٤). فيربط بمهارة بين التسامح والإيجابية التي تشمل الخصال السامية، كالكرم والجود والسهولة واليسر في المعاملة، ولين الحديث، ومقابلة الإساءة بالعفو والصفح عند المقدرة، والتغافل عن هفوات الناس، والبحث لهم عن الأعذار، وغير ذلك من الفضائل والشيم الكريمة.

ولا ينبغي أن يكون قاصرا على التعامل بين المسلمين، بل يتعين أن يعم التعامل بين جميع الناس، على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم، ولو كان العداء مستحكما بينهم، فإن ذلك لا يسقط شرط العدالة والإنصاف، ولا يوجب الظلم والاعتداء، مع وجوب التحفظ ضمانا للسلامة: «لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه، وساو في ذلك بينه وبين الصديق، وتحفظ منه، فغاية الخير أن يسلم عدوك من ظلمك ومن تركك إياه للظلم» (١٥).

الهوامش

١ - سنن ابن ماجه (بعناية محمد فؤاد عبدالباقي)، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، الجزء ٢، ص١٢٩٧، رقم الحديث ٣٩٣٣، وقد ورد في صحيح مسلم بلفظ قريب من هذا.
٢ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، ١٩٩٧، الجزء ٧، ص٣٧٧.
٣ - ابن ماجة، نفس المرجع، كتاب الزهد، باب الورع، ص ١٤٠٩، حديث رقم ٣٢١٦.
٤ - صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها.
٥ - على بن محمد المصري، تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس، القاهرة ٢٠٠٦، ص٣٣.
٦ - المصري، تحفة الأكياس، المرجع نفسه، ص٣٤.
٧ - أبو حاتم محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٤٩، ص١٣١.
٨ - جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، القاهرة، مركز هجر للبحوث والدراسات، ٢٠٠٣، ج١٣، ص٥٦٧.
٩ - السيوطي، المرجع نفسه، ص٥٦٦.
١٠ - ابن حزم، الأخلاق والسير، بيروت، دار ابن حزم، ص٨٥.
١١ - ابن حزم، الأخلاق والسير، المرجع نفسه، ص١١٧.
١٢ - ابن حزم، الأخلاق والسير، المرجع نفسه، ص١١٨.
١٣ - ابن حزم، نفس المرجع، ص٨٤.
١٤ - ابن حزم، نفس المرجع، ص١٠٦.
١٥ - ابن حزم، نفس المرجع، ص١٧٧.

المرأة الجاهلية.. بين الحب والوأد والسباء

محيي الدين عواد الظاهر
باحث سوري

ما كان الله ليدع الرجل تحت أوقار الدهر وأثقال الحياة، حتى يخلق له من نظام نفسه، من يذود عنه هموم نفسه، ويحتمل دونه الكثير من شؤونه، ويضيء له ما بين شعاب العيش وظلم الخطوب.
تلك المرأة قسيمة حياته، ومباءة شكاته، وعماد أمره، وعتاد بيته، ومهبط نجواه، وتلك آية الله ومنته ورحمته لقوم يتفكرون.
ينهض الرجل إلى الحياة بعزم وقوة يستمدان من عقله ورأيه، وتستقبل المرأة الوجود بعواطف فياضة يتجلى بها قلبها الخفاق.
فإن ظهر الرجل بمضاءة وذكاء، فإن للمرأة غايتها من صفاء القلب، ونقاء السريرة، وما ينبعث عنهما من وفاء وولاء وحنان وتسلية، وغياث مكروب ونجدة منكوب، وما إلى ذلك مما يقيم مائل الأرض ويلم صدعات الحوادث.

لم تطو صفحات التاريخ على امرأة بلغ من الضن بها والإيثار لها وبذل المهج رخصا في سبيلها ما بلغ بالمرأة العربية في تلك الحقب المتطاولة المترامية.

لقد كان العرب رواد غارات، وطلاب ثارات، وكان الرجل منهم يغتمر الموقعة لا يدري أوقع على الموت أم وقع الموت عليه؟ غير أن ابنته وما عسى أن يصيبها بعده من حاجة، وهو إن كان يتغلغل في نفسه فيهيج بها حب الحياة. فمثله في ذلك مثل إسحاق بن خلف حيث يقول:

لولا أمية لم أجزع من العدم
ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي
ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقا
والموت أكرم نزال على الحرم

كذلك كانت المرأة تهتف بالرجل، أو تلم به تحت ظلال السيوف، وقد ملك الروع القلوب، وعقد الهول الألسنة وانثغرت الأفواه، وحارت النواظر في المحاجر، فيستمد عزما نبا، ويسترد قوة عزبت. ومثل ذلك ما فعلت ابنتا الفند الزماني يوم «تحلاق اللمم»، وهو يوم انتصاف بكر من تغلب. فقد اشتجرت الأسنة، واعتنقت الأبطال، ونفذت السيوف إلى أعماق القلوب، وظهرت تغلب كالجذوة المضطرمة، وبدأت تتكشف وترتد. وهنالك نفذت الفتاتان البكريتان بين صفوف قومهما، وأخذتا تنشدان نفوسهم، وتذكيان نار الحفيظة فيهم، وكان مطلع قولهما:

وغى وغى وغى وغى
حر الحرار والتظى
وملئت منه الربى
يا حبذا المحلقون بالضحى

إن المرأة العربية مثار عاطفة الرجل، ومدار وجدانه، هي سر حياته وموته، وهي مهاج غضبه، ومعقد ألفته، وهي مجتلى قريحته، ومطلع قصيدته، وهي موطن غنائه، ومذهب عنائه، هي مشرق وحيه ومنار إلهامه، هي نور الوجود في ناظريه، وكل شيء بين يديه. لقد بلغ خيال العربي من السمو بالمرأة أن جعل الملائكة أشباها لها، ونظائر، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ما ظنك بامرأة ملكت على الرجل قلبه ورأيه فلا يكاد يصيب معنى، أو يطوف بموضوع حتى يلم بذكرها، ويتغنى بمحاسنها ويمتدح بشمائلها، ويتأثر بأطلالها ومعالمها.

كذلك يفعل شعراء العرب، وهم ألسنة القوم، وحفظة آدابهم، وحماة مجدهم، وشراع فضائلهم، حتى لقد بكى مهلهل ابن ربيعة كليبا أخاه، وهو محرق الكبد موصل الكمد، فبدأ بالمرأة يذكرها، ويصف دارها قبل أن يذكر أخاه وذلك حيث يقول:

الــدار قفــر عفاها بعد ساكنها
بالريــح بعــد ارتحال الحي عافيها
وغالــــها الدهــر إنه ذو غيل
فأصبحــت بلقــعا قفــرا مغانيــها
إلا رواكــد سفــعا بين متلـــبد
مثـل الحمامــة منتوفـا خوافيــها
دار لمهضومة الكشحين خرعبة
كالشمس حين بدا في الضوء باديها

فـمـا زال يستتبع قولـه فـي وصف صاحبته حتى قال:

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها
إذ أنـــت خليتها فيمن يــخليــها

ولـقـد كـان الـرجـل منهم ومـا يكاد يبتدر إلـى صالحة، أو يسبق إلى مكرمة حتى يسبق إلى المرأة، فيسوق إليها الشعر فياضا بمأثرته حافلا بمفخرته، وأكبر أمله أن تذكره بكلمة طيبة بين نظرائه، فيروح عنها بفخر لا ينفد ومجد لا يبيد، وفي مثل ذلك قول الشاعر ذهل يوم ذي قار:

إن كنــت ساقيــة يومــا ذوي كـرم
فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم
واعلي مفارقهم مسـكا وريحـانا

بل لقد كان الرجل يأتي الأمر تسوغه نفسه، ويحمله موقفه، وربـمـا كان الخير كله فيه، فلا تهدأ نفسه، ولا تطمئن سـريـرتـه حتى يفضي إليها بـعـذره، ويكشـف عـن مكنـون أمـره. وفي مثل ذلك ما يقول أزهر بن هلال التميمي يعتذر عن فراره:

أعاتك مــا وليت حتى تبددت
رجالي حتى لم أجــد متقدما
وحتى رأيت الورد يدمى لبانه
وقد هزه الأبطال وانتعل الدما

ومـن أمـثـال مـا جـاء فـي الاعـتـذار قول عنترة العبسي:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
أصبحت من غرض الحتوف بمعزل
فأجبتـها: إن المنيـــة منـــهل
لابــد أن أسقى بكأس المنـــهل

أما ضن الرجل بها، وحرصه عليها، وفداؤه إياها بنفسه، وما ملكت يمينه، فقد بلغ من أمـره أن كسرى أبرويز، ملـك الـفـرس وسـيـد مـلـوك الشرق، أرسل إلى النعمان يبغي مصاهرته وهو مولاه وصنيعته، والقائم بأمره والقار لسيفه، والخاضع لسلطانه، رد رسوله مقنعا بالخيبة ضنا ببنات المنذر. حتى إذا عاود الرسول مولاه بما لا يرضاه اضطربت في صدره جذوة الغضب، وثارت بين جنبيه سورة الملك، فأرسل يستقدم عاهل العرب.

هنالك أبصر النعمان وميض الموت من صوب المدائن، فأودع ابنته حرقة وما يعتز به من سيوف ودروع هائي ابـن قبيصة الشيباني، وذهـب إلى حيث طرح تحت أقدام الفيلة، فذهبت بلحمه وعظمه ودمـه كل مذهب من ثغرات الأرض، وسـوت معالم جسمه بالتراب.

كذلك بلغ من غضب العربي للمرأة، وحرصه على كرامتها، ووقف شرفه على شرفها، أن يعمد الرجل منهم إلى الملك المتوج، فيقصم هامته حياطة لهذا الشرف، وذيادا عنه أن يبذل، أو يذل كما فعل عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند.

ألا إن كلمة واحدة قذفت بها امرأة، فـأصـابـت مـوطـن الحـس مـن رجل، فهاجت لها الحـرب أربعين عاما لم يدر فيها ضرع، ولم يكتهل بين أثنائها فتى.

وحـديـث ذلـك: أن البـسـوس (خالة جساس)، نـزل بها ضيف من ذويها يـدعـى سـعـد، فـأفـسحـت دارهـا له، وأنـاخـت بحظيرتها ناقته، فما كاد يطمئن بالرجل مقامه حتى انطلقت ناقته ترعى ودخلت إلى حمى لكليب



بن ربيعة (صهر جساس، وفتى العرب وسيد تغلب)، ولم يكن لأحد غير جساس أن يرعى إبله حمى كليب، فلما أبصر كليب بها غريبة بين إبله أنفذ سهمه في ضرعها فانطلقت تعدو، وهي تشخب دما ولبنا حتى نزلت بفناء البسوس. فلما استبانت ما بها صاحت وأعولت واندفعت تقول:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة
متى يعدو فيها الذئب على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادي فإني عنهم
لراحلة لا يفقدون بنياتي

سمع جساس تلك الكلمات فأصابت الوتر الأرن من قلبه فأجفل إجفال الأخيذة من تلك الوصمة المندية، وصمة العجز عن حياطة بنيات خالته فقال: «اسكتي أيتها المرأة، فليقتلن غدا جمل أعظم عقرا من ناقة جارك». ولم يزل يتوقع غرة كليب حتى أنبئ بانفراده، فاعتقل رمحه وخرج للقائه. فلما أبصره طعنه، ودق صلبه. وعلى إثر ذلك ثارت حرب البسوس، وفيها استعر القتل في الحيين أربعين عاما حتى كاد يلحقهما الدثور في إثرها وما عصفت بها إلا كلمة واحدة كان خليقا بها أن تذهب لحينها لولا أن نسجتها امرأة.

السباء والوأد

إننا لا نخدع التاريخ في ماضيه فنمثله زهرا لا أشواك فيه، فلئن كان من الحب ما يمض ويؤذي ومن الصداقة ما يضر ويؤلم فلقد أصيبت المرأة العربية في سبيل إعزازها، والحرص عليها بلواذع بلغت في بعض المواطن حبة قلبها ومستقر حياتها.

فمن ذلك السباء، وذلك أن العرب كانوا يعقبون صفوف القتال بنسائهم وذوات أرحامهم؛ تثبيتا لأنفسهم وتشديدا لعزائمهم. وربما أحيط بهم وغلبوا على أمرهم فيكون هَمُّ الظافر أن يتخذ نساء المقهور سبايا يسوقهن إلى بيته كما يتحكم في ماله لا لحاجته إليهن، ولكن ليقطع باستلابهن آخر عرق ينبض من قلب عدوه، فيعيش ذليل الناصية مقنع الوجه أبد الحياة.

على أنهم وإن غلظت إلى هذا الحد أكبادهم على أعدائهم، فهم يعرفون لسبياهم منازلهن بين قومهن فيخلطونهن بأنفسهم إلا قليلا ممن أرث الحقد صدورهم، وملكت الضغينة منازع الرحمة من قلوبهم.

وفي أولى الحالتين يقول حاتم الطائي:

فما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة
ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا

وهناك الكثير من سادات العرب وذوي زعاماتهم انكشفت عنهم السبايا فلم يضع ذلك من منازلهم، أو يهجن من أحسابهم. ومن أولئك دريد بن الصمة حكيم العرب، وشاعر فرسانهم، وفارس شعرائهم، وأمه ريحانة بنت معد يكرب أسرها الصمة بن عبدالله وتزوجها فأنجبت دريدا وإخوته، وهي التي يقول عمرو في إسارها:

أمن ريحانة الداعي السميع
يؤرقني وأصابني هجوع
سباها الصمة الجشمي غصبا
كأن بياض غرتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس
تكشفت عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع

الوأد

أما الوأد فأشد وأشنع ما اقترفته يد ظالمة آثمة في نفس بريئة طاهرة. وذلك بأن يعمد الرجل إلى وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود وتستنشق نسيم الحياة، فيقذفها في حفرة من الأرض، ويهيل على جسمها التراب، ثم يدعها في غمرة الموت بين طباق الأرض! ولو أننا افترضنا شيوع تلك الجريمة الموبقة بين جمهور العرب لما آمنا بتلك الجيوش الخضارم التي وطئت نواصي الأرض وطوقت أعناق الأمم، وهم أبناؤهن وحفدتهن.

والحق أن الوأد لم يكن معروفا إلا في فرائق من ربيعة وكندة وتميم، وأفذاذ مغمورين يعدون قلة من مختلف القبائل. وهم بين رجلين: رجل أملق من عقل ومال، فهو يخشى أن يسيء الفقر أدب ابنته، ويهتك سترها، ويبذل عرضها. وذلك جبان لا عزم له ولا ثقة ولا إيمان، والعرب منه براء. وآخر من سراة القوم، ذهبت بعقله الغيرة وهوى بنفسه إشفاقا من تبدل الحوادث وتداول المثلات وما عسى أن يصيبها من ذل أو سباء.

وذلك وأمثاله شر مكانا وأقل عددا. ذلك وقد نهض من سادات العرب من حال دون الوأد بما بذل من مال جم وسعي حميد.

ومن بين هؤلاء صعصعة بن ناجية التميمي، فقد كان يلتمس من مسها المخاض، فيغدو إليها ويستوهب من الرجل حياة المولود إن كان بنتا على أن له في سبيل ذلك بعيرا وناقتين عشراوين، فجاء الإسلام وقد افتدى أربعمائة وليدة. ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل القرشي كان يضرب بين مضارب القوم فإذا بصر رجلا يهم بوأد ابنته قال له: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها. فيأخذها ويلي أمرها حتى تشب عن الطوق فيقول لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها.

ولعمري إذا نحن أرخينا على تلك المظالم وضربنا صفحا عن أولئك الوائدين من القوم، فإنا سنجد العرب من وراء ذلك يكادون يذوبون عطفا وحنانا على بناتهم فهم ينزلون عما ملكت أيمانهم إغلاء لهن وإيثارا للعز والنعمة والدلال فيهن.

الأسرة المسلمة وتجديد الإيمان

محمد شعطيط
باحث دراسات إسلامية

تحرص الأسر المسلمة على تجديد أثاث المنزل كلما رأت الحاجة ماسة إلى ذلك، خصوصا إذا أصبح رثا أو لا يساير الموضة العامة، أو أرادت أن تحارب الرتابة والملل بتغيير الديكور وإضفاء لمسة جمالية جديدة على الفضاء والروح معا.. فَقَلَّ أن يمر يوم أو أسبوع أو شهر إلا واقتنت الأسرة شيئا جديدا من أثاث أو أوان أو أدوات إلكترونية.. فإذا دخلت صوان البيت وجدته يئط من كثرة الملابس المعلقة فيه.. فلا تكاد تجد موضع قدم إلا وفيه قميصا أو جلبابا أو خمارا أو كساء..

كل ما سبق إذا خلا من المخيلة والرياء والإسراف وحب الظهور- فلا شيء فيه، وقد كان جواب النبي الكريم ﷺ لمن قال له من الصحابة: إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا. قال له الحبيب ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال.. إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس» (أخرجه مسلم).

المشكل بالأساس يكمن في هذا الاهتمام الزائد بالأشياء وإعطائها أكبر من حجمها، على حساب أشياء أخر أعطاها الشرع قيمة عظمى.. بينما هي عند بعضنا في أسفل الاهتمامات.

والعجيب أن الشرع قد نبه بهذه الأشياء التي نوليها أهمية كبرى على المبادئ العليا التي يجب فعلا أن نركز عليها اهتمامنا، ونجعلها في أعلى سلم الأولويات. فقد أشار النبي الكريم ﷺ إلى ما بين الثوب والإيمان من التشابه. فليس الثوب وحده من يبلى ويصبح أسمالا، بل تطرأ هذه العوارض على الإيمان أيضا.

وهل يبلى الإيمان؟

نعم أخي الكريم، أختي الكريمة. بشهادة الصادق المصدوق، يقول ﷺ: «إن الإيمان ليخلق -أي يبلى- في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم» (أخرجه الحاكم وهو في الصحيحة ١٥٨٥). فاعتقاد أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص. يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، والأدلة في ذلك مستفيضة معلومة.

ولمن يهتم بالموضة وآخر الصيحات ينبه النبي الكريم ﷺ إلى خوفه من أن يكون هذا الاهتمام مع استيفائه لشروط الستر مقتصرا على الظاهر دون الباطن. فالمكتسي الحقيقي هو من يأتي لابسا يوم القيامة ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف:٢٦).

فعن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ استيقظ ليلة، فقال: «سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتنة، ماذا أنزل من الخزائن، من يوقظ صواحب الحجرات -أي للصلاة-، يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» (أخرجه البخاري).

وصواحب الحجرات هن أزواجه.

فما ينفعك أختي بيت مليء بشتى أنواع الملابس؛ إذا كان القلب خاليا من التقى. «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (متفق عليه). فاحذر أخي -وأنت أختي- أن تكون «كاسيا في الدنيا بالثياب لوجود الغنى، عاريا في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا» (١).

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا وإن كان كاسيا

لقد كثرت في الآونة الأخيرة البرامج التدريبية التي وضعت لتنمية الإبداع والتفكير والثقة بالنفس، والسعادة الأسرية، وكيفية تنمية الميزانية العائلية وغيرها. وأنا هنا أخي -وأنت أختي- أدعوكم إلى برامج تدريبية لتجديد الإيمان في قلوبنا. برامج ميسرة، يأتي بها القوي والضعيف. لا تحلق بنا في سماء المثالية فنفشل في وسط الطريق. برامج تروم الهدي الوسط الذي يرجع إليه الغالي، ويقدر عليه الساعي. ففي الحديث: «عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه» (متفق عليه). فهيا بنا إلى منزل الحبيب لنختار بعض الوصفات النبوية لتجديد إيماننا حتى لا نكون عراة يوم القيامة:

١- صلاة الزوج وزوجه في جوف الليل، ولو ركعتين

والنتيجة أن يكتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات. فإذا عجزت الأسرة عن صلاة ١١ ركعة كما كان يفعل النبي الكريم ﷺ فلا أقل من هذه الهدية الربانية: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة:٤٥). يقول الرسول ﷺ: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعا، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات» (أخرجه أبوداود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وهو في صحيح الجامع ٦٠٣٠).

فإن استطاع المؤمن والمؤمنة أن يحافظا على اثنتي عشرة ركعة من النوافل في اليوم والليلة بني لهما بيت في الجنة كما في الحديث (٢). وهي موضحة

عند الترمذي كالآتي: ٤ قبل الظهر، و٢بعدها، و٢بعد المغرب، و٢بعد العشاء و٢ قبل الفجر (صحيح الترغيب ٥٧٨).

٢- قراءة القرآن ولو حزبين في اليوم

فاستجب أخي لنداء الله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل:٤)، وتمعن في قول الرسول ﷺ: «من سره أن يحب الله ورسوله، فليقرأ في المصحف» (الصحيحة ٢٣٤٢). وهذه درة أخرى: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها» (صحيح أبي داود ١٣١٧).

٣- الصلاة في جماعة

من أهم شعائر الإسلام، أجرها كبير، وفضلها عميم. يقول رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» (متفق عليه). وفي فضل العشاء والصبح يقول ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة، فكأنما صلى الليل كله» (أخرجه مسلم).

٤- صلاة الضحى

وأنت في بيتك يبنى لك بيت في الجنة؛ إذا صليت الضحى. ووقتها بعد أن تشرق الشمس قيد رمح، وهي تقريبا ١٥ دقيقة؛ أقلها ركعتان، وأكثرها ثمان. ففي الحديث: «من صلى الضحى أربعا، وقبل الأولى أربعا، بني له بيت في الجنة» (الصحيحة ٢٣٤٩). تبدأ يومك بالصلة بمولاك فيكفيك آخره.

٥- التسبيح مائة مرة

يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طه:١٣٠). ويقول الرسول ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» (متفق عليه).



٦- الجمعة وآدابها

يوم الجمعة يوم للبهجة والفرحة والسرور والتطيب والاغتسال، وبسط الأخلاق الكريمة، تحقيقا لقول رسول الله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر، ثم ادهن أو مس من طيب، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له، ثم إذا خرج الإمام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى» (أخرجه البخاري).

٧- السعي إلى بيوت الله

أنعم ببيت من بيوت المسلمين أفراده قلوبهم معلقة بالمساجد، يبشرهم النبي الكريم بتكفير الخطايا ومحو الذنوب، كلما دام هذا الرواح والغدو. يقول النبي ﷺ: «من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة» (أخرجه مسلم). وفي فضل آخر: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له في الجنة نزلا، كلما غدا أو راح» (أخرجه مسلم).

٨- الوضوء وركعتاه

يقول رسول الله ﷺ: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه» (متفق عليه).

٩- بر الوالدين

بر الوالدين يملأ البيت رحمة ونورا، وفضله لا يحتاج إلى بيان، فيكفينا ما ورد في الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد؛ أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحد حي؟» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» (أخرجه مسلم).

١٠- صلة الرحم وعيادة المريض

من الخلال التي تتنزل بها الرحمات والبركات على أهل البيت: صلة الأرحام. وقد وردت فيها أحاديث كثيرة منها قول الرسول ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» (متفق عليه). وهي لا تقتصر على الأحياء فقط، بل حتى الأموات لهم نصيب منها، فإن شئت أن تزور أباك في قبره فصل إخوانه من بعده، كما ورد بذلك الحديث: «من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده» (الصحيحة ١٤٣٢). وفي رواية: «إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه» (أخرجه مسلم). قال الإمام النووي، رحمه الله: «وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم، وهو متضمن لبر الأب وإكرامه لكونه بسببه، وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة. وقد سبقت الأحاديث في إكرامه خلائل خديجة رضي الله عنها» (٣).

أما زيارة المريض ففيها قول النبي الكريم ﷺ: «من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع» (أخرجه مسلم). وفي الحديث القدسي يقول الله عزوجل لعبده يوم القيامة: «يابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال يا رب: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟» (أخرجه مسلم).

١١- الذكر

وهذا لا يحتاج منك وقتا مخصصا، بل يمكن أن تقوم به على أي حال كنت عليها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه» (أخرجه مسلم). فاستن أخي بنبيك في أذكار الصباح والمساء والنوم والاستيقاظ، وما يقال بعد الطعام والشراب، وعند لبس الثوب، وعند دخول المسجد والخروج منه، وبعد الوضوء، وذكر رؤية الهلال، وهبوب الريح، وأذكار السفر والعودة منه، ودخول السوق، وسماع الأذان، وغيرها من الأذكار النبوية الشريفة، دون أن ننسى الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات» (صحيح الجامع ٦٣٥٩). أما فضل التسبيح والتحميد والكبير بعد الصلاة ففضل عجيب: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» (أخرجه مسلم).

١٢- صيام الاثنين والخميس

ففي هذين اليومين تعرض أعمال العباد على الله، وكان رسول الله ﷺ يصومهما ويقول: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» (أخرجه الترمذي وهو في صحيح الترغيب ١٠٣١). فاحرص أخي أن تتقرب أنت وأهل بيتك إلى الله بصيام هذين اليومين. فلو قدر لك ولقيت الله وأنت صائم نلت هذه البشرى الكريمة من نبيك الرحيم: «من ختم له بصيام يوم دخل الجنة» (الصحيحة ١٦٤٥).

١٣- اتباع الجنائز

وفي فضلها يقول الرسول الكريم ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟، قال: «مثل الجبلين العظيمين» (متفق عليه).

١٤- طلب العلم

وهنا لطيفة: قل يوم إلا والإنسان يقرأ شيئا. فلتكن نيتك أخي في هذه المطالعة طلب العلم، حتى يصدق عليك قول الرسول ﷺ: «ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة» (رواه مسلم).

انظر أخي -وأنت أختي- حواليك، كل شيء يحتاج إلى تجديد وتنظيف وصقل. كم مرة تغسل وجهك في اليوم؟ وكم مرة تغسل بدنك في الأسبوع والشهر؟ وكم مرة تنظفين أختي بيتك في السنة؟ وتأملوا معي هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد:١٦). طال عليك الأمد أخي. فتحت كل شيء: الجوال، والتلفاز والحاسوب والفيسبوك والتويتر والمواقع والجرائد والكتب، ولم تفتح كتاب ربك.. ذكرت كل شيء ولم تذكر مولاك، وهو القائل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٢). اتصلت بجميع أصدقائك وأحبابك، وسلمت عليهم عبر الهاتف ولم تتصل على حبيبك.. ولم تخشع لذكر الله.. وقفت مندهشا لكل اختراع بشري رغم بساطته، ولم تقف لحظة تسبح قبل شروق الشمس وقبل الغروب.. جالست كل زميل وصديق ومقاول وطبيب وبناء وغواص، ولم تخصص وقتا لصحبة أمك وأبيك، وهما أحق الناس بحسن صحابتك.. اطلعت على كل أخبار العالم، ولم تسأل عن أهلك ورحمك.. مر عليك عام أو يزيد لم تزر عمك وخالك وأدناك أدناك.. متى كانت آخر مرة طرقت باب جارك لتسأل عن أحواله؟ والله تمر السنون والسنون والجار مريض، ولا أحد من جيرانه وأقربائه يسألون عنه.. أما تخشى أن يوجه إليك الخطاب يوم الحشر: «مرضت فلم تعدني».

أخي الكريم: هذه بعض الاقتراحات العملية السهلة الميسرة -وكل سنة الحبيب وهديه يسر- وضعناها بين يديك لتجديد إيمانك. فاختر منها ما يناسبك. واللهَ اللهَ في الفرائض. ففيها الفلاح. واستعن بشيء من النوافل وتذكر «ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه». فإذا أحبك الله فيا بشراك. كان سمعك وبصرك ويدك... كما يليق لجلاله سبحانه، فما أعظم العطاء، وأغلى المثمن، وأرخص الثمن.

وفي الختام أخي المؤمن أختي المؤمنة، إن استطعت أن يكون لك عمل صالح لا يطلع عليه غيرك فافعل. فقد قال النبي الكريم ﷺ: «من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل» (الصحيحة ٢٣١٣). فلنجعل من بيوتنا خلية نحل عامرة بالإيمان والتقوى؛ لا تأكل إلا طيبا، ولا تعط إلا شهدا، حتى نتذوق حلاوة الإيمان. ولنغتنم الأوقات. فهي المطية لجنة عرضها الأرض والسموات، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

الهوامش

١- فتح الباري٢٧/١٣، مكتبة الصفا.

٢- أخرجه مسلم بلفظ: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا، غير فريضة، إلا بنى الله له بيتا في الجنة، أو إلا بني له بيت في الجنة».

٣- مسلم بشرح النووي ١٦٥/٨ دار إحياء التراث العربي، ط١ (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) تحقيق: الشيخ عرفان حسونة.



التخطيط الاستراتيجي

د. سلطان السهو
دكتوراه في المحاسبة

شاع استخدام لفظ التخطيط الاستراتيجي في هذا القرن، إذ أثبتت الدراسات أن المؤسسات التى تخطط استرتيجيا تتفوق في أدائها الكلي على المؤسسات التي لا تخطط ولكن تعتمد على ما يسمى الإدارة الفعالة أو إدارة الأزمات.

لذا فإن التحديات المتنوعة والمتغيرات المتسارعة تفرض حاجة تلك المؤسسات إلى تبني تفكير استراتيجي بعيد المدى يمثل عملية تشارك جهاز الإدارة العليا والقيادية لتلك المؤسسات لوضع التصور الذي يجب أن تكون عليه تلك المؤسسة فى المستقبل وهذا ما يعرف بالرؤية.

وبهذا يلاحظ أن أكثر الخطط الاستراتيجية تطبيقا هي تلك التي يشارك في إعدادها جميع المديرين والموظفين وبصورة أدق جميع المستويات الإدارية.

لذا لابد من نشر ثقافة التفكير الاستراتيجي في المؤسسات من خلال حلقات النقاش وورش العمل ومشاركة جميع الموظفين في وضع الرؤية المستقبلية ورسالة المؤسسة، واستنباط الاستراتيجيات المناسبة لتحقيق تلك الرؤية، والتفكير الاستراتيجي يمكن المؤسسة من تحويل رؤيتها إلى واقع وتحقيق وضع أفضل يؤدي إلى رفع كفاءتها الداخلية والخارجية، فهو تفكير متسلسل في خطواته ومنظم فى إجراءاته إذ إنه مصطلح تركيبي يتضمن كل من الخيال والإبداع وإن نتيجته بمنظور متكامل مناسب للبيئة الداخلية والخارجية للمؤسسة ومبدع في إيجاد الاستجابات المناسبة لها. وفهم المعاني والرموز واستيعابها وما تؤول إليه من علامات احتمالية.

ويقرن الاستراتيجي نجاح قراراته بمظاهر الإبداع والخيال التي تنعكس على ممارساته التنظيمية.



الداعية سامي بلال في ذمة الله

توفي الداعية الإسلامي الشيخ سامي بلال الشهر الماضي في الكويت بعد صراع مع المرض أدخل على إثره غرفة العمليات في أحد مستشفيات ألمانيا، بقصد إجراء عملية تعد من أدق العمليات.

ورغم مبادرة العديد من رجالات الكويت إلى المساهمة في تكاليف علاجه بعدما أصيب بمرض السرطان، تقديرا لعمله الدعوي التطوعي لسنوات عديدة داخل الكويت وخارجها، فإنه شكرهم وتمنى أن يكون علاجه على حساب الحكومة كونه مواطنا مستحقا.

وكان الشيخ سامي يقدم ضمن أنشطته الدعوية برامج دينية في إذاعة الكويت، إضافة إلى أنشطته الدعوية في المساجد، فكان له - رحمه الله - الكثير من المحبين والمتابعين لمحاضراته وأنشطته التي تتسم بهدوء الطرح والفكرة المقنعة.

وقد سافر إلى بلدان كثيرة للدعوة، ونشر العلم، وإقامة الدورات الدعوية، لاسيما أوروبا وجنوب شرق آسيا، وهو أول من أسس لمراكز إسلامية في البرازيل منذ سنة ١٩٩٤م. وكان - رحمه الله - ذا همة عالية وأخلاق نبيلة، وكان من أوائل الدعاة الذين خرجوا في التلفاز، وكان له أسلوب مميز وسهل.

ولم يقف جهد الشيخ على الدروس أو تنظيمها أو السفر إلى الدول الفقيرة، بل كان يتابع أمور الدعاة في الخارج، فكان يراجع بنفسه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للتأكد من تحويل رواتب الدعاة في الخارج.

وكان له جهد واضح في إذاعة القرآن الكريم، وتميزت برامجه بالإبداع والسهولة، وإذا بدأ برنامجه فكلماته العفوية ونصائحه تدخل القلب وتجبرك على إكمال الاستماع إليه.



الشائعات.. إرباك للمجتمعات

د. خالد سعد النجار
كاتب متخصص في الشؤون المجتمعية

خبر مثير، أو وصفة عجيبة، أو حدث غريب، أو نبوءة مدهشة.. تنتشر أصداؤها في الناس انتشار النار في الهشيم.. إنها «الشائعات»، التي لا يجمعها إلا جهالة المصدر (بؤرة مجهولة)، مع ما فيها من غرابة وإثارة. وبين أوساط المكائد السياسية أو الحرب النفسية أو المنافسة التجارية أو لفت الأنظار أو حتى مجرد الفكاهة والتندر.. تنمو الشائعات وتتضخم وتترسخ في ثقافة المجتمع تارة، أو تموت بعد فترة تارة أخرى.

أسباب ودوافع

تعشش الشائعات وتفرخ إذا توافرت لها مناخات الجهل، أو الأمية الثقافية. فالشائعات تموت على لسان صاحبها لولا وجود الجاهل، الذي يجعل من الحبة قبة ومن القبة مزارا. قال علي رضي الله عنه: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع؛ أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

كما أن الفراغ والخمول والملل تولد الشائعات، فالعقول الفارغة يمكن أن تمتلئ بالأكاذيب، والأيدي المتعطلة تخلق ألسنة لاذعة، وقديما سمى السلف من يجلس فارغا بـ: «عاطل، بطال». ومن سفلت همته ولم يجد بيئة كريمة تدفعه إلى العطاء والإنجاز، ولغ في حضيض التفاهة، ولم يعرف إلا بالقيل والقال!

ولا يمكن أيضا تجاهل دور الغموض في ترويج الشائعات، فالشفافية والمصداقية والوضوح تقتل الشائعة في مهدها وتحول دون انتشارها وتضخمها، قال ﷺ: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» (متفق عليه). وقد تنطلق الشائعات من مرضى حب الظهور ومدعي الثقافة والرسوخ العلمي الوهمي، أو من الراغبين في تضخيم أنفسهم بادعاء اطلاعهم على دهاليز الأخبار وبواطن الأمور.

ومما يزيد الطين بلة أن يكون هذا النمط من مروجي الشائعات ممن لهم علاقة بالجهة التي تعنيها الشائعة، خصوصا لو كانت جهة سيادية لا تتسرب منها الأخبار إلا بشق الأنفس، وهنا تكمن الكارثة، وتنطلق الشائعة التي من الصعب أن توقفها بأي حال من الأحوال، والتي لها من القدرة ما يمكنها من هزيمة الحقيقة نفسها.

كيف تسري الشائعات؟

لدى أي إنسان قناعة ذاتية بأنه يتلقى المعلومات بصورة واعية، ويفكر بمنطقية وحيادية في أغلب الأحيان، وأن آراءه وقراراته مبنية على منطقية تفكيره. لكن الحقيقة أن أدمغتنا تدفعنا إلى اختيار المعلومات بصورة انتقائية تنسجم مع قناعاتنا المسبقة، وفي أحيان كثيرة نعجز عن ملاحظة التناقضات الصريحة في الأفكار بسبب سلطان «عواطفنا».

ففي تجربة عجيبة ومثيرة أقيمت إبان الانتخابات الرئاسية الأمريكية في عام ٢٠٠٤ على عينة مقسمة بين أفراد متحمسين جدا للمرشح جورج بوش أو المرشح جون كيري. استخدمت في هذه التجربة تقنية «الرنين المغناطيسي الوظيفي»، التي تصور ما يحدث داخل الدماغ أثناء التفكير، بحيث تعطي فكرة أدق للباحثين عن الأساس البيولوجي لانحيازاتنا.

طريقة التجربة كانت في عرض

عبارات المرشحين بشكل صريح، بالإضافة إلى عرض عبارات يمكن استخراج التناقض منها، ثم تصوير أدمغة أفراد العينة أثناء تقييم هذه العبارات.

وجد الباحثون أنه حين تقدم عبارات المرشح المتناقضة إلى الأفراد المتحمسين لذات المرشح، فإن المراكز العاطفية في الدماغ تنشط، وبالتالي فلا يرون أي تناقضات. بينما حين تقدم عبارات المرشح الآخر المتناقضة فإن المراكز المتعلقة بالتقييم العقلاني هي التي تنشط ويكتشفون تلك التناقضات فورا.

وهذا الأمر تكرر في كلتا المجموعتين. فاستنتج الباحثون أن الأخطاء التي ارتكبها أفراد العينة حين كانوا يقيمون عبارات مرشحهم المتناقضة لا تعود إلى أخطاء في الاستدلال العقلاني أو نقص في المعلومات، بحيث لا يفيد معها لو درسوا كل علوم المنطق والفلسفة.. لأنهم بكل بساطة لم يكونوا يستخدمونها في التفكير لا من قريب ولا من بعيد.

أخطار جسام

الشائعة حجر عثرة لا يستهان به، فهذه الأخبار التي لا تعدو أن تكون مجرد كلمات، كم من أمة دمرتها، وجيوش خذلتها، وجماعات فرقتها، وأفراد أقلقتها، وأسر فككتها.. حطمت عظماء، ولوثت أبرياء، وشتت أصدقاء، وقطعت وشائج، وتسببت في جرائم.

وتدبر شائعة «الإفك» في بيت النبوة، والتي استمرت قرابة الشهر، والكل في المدينة يعايش محنتها، بين خائض فيها ومتبرئ منها، حتى نزل القرآن يغسل آثار هذه الفرية، ويعتبرها درسا تربويا نجح فيه أقوام، ورسب فيه آخرون. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:١١).

﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، وتمحيص المؤمنين.

بل نُسب الافتراءُ على الله تعالى إلى كل الأنبياء من خصومهم، وبرأ الله نبيه موسى مما أشاعه بنو إسرائيل عليه من المرض في جسده؛ فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب:٦٩).

ترياق وبلسم

قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٧٠ و٧١).
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ (الحجرات:٦).
- ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:٨٣).

وفي هذا ذم للذين ينقلون خبر السوء ويشيعونه بين الناس من دون تعقل في نتائج نقله، وما يحدث عنه من عظيم ضرر، وكبير خطر، وفيه تأديب من الله تعالى لعباده، يتضمن مبدأ التحفظ عند سماع الأخبار، والتثبت من أحوال نقلتها، وظروف نقلها، وعدم التسرع في رواية الأخبار ونشرها.

وفي هذا أيضا توجيه من الله لعباده إذا ثبت عندهم الخبر في ما يتعلق بالأمور المهمة، والمصالح العامة للأمة؛ مثل ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه المصيبة في الدنيا أو الدين -أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة الخبر، والحكم عليه من دون روية، بل يردونه إلى الفضلاء من أهل العلم والحكم؛ بأن يردوه إلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى أولي الأمر منهم من بعد وفاته ﷺ، وهم أهل الرأي والعلم والنصح، والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وأضدادها- فإذا رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين، وسرورا لعباد الله الصالحين، وتقوية لمعنويات المجاهدين، وتحرزا من أعداء الدين، أشاعوه ونشروه، وإذا رأوا أنه ليس في إشاعته مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مفسدته أرجح وأخطر، كتموه فلم يذيعوه، وعالجوه بأفضل ما رأوه.

وقال ﷺ:

- «كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع» (رواه مسلم وابن حبان).
- «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها (يعني ما يتثبت) يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» (متفق عليه)
- «بئس مطية الرجل زعموا» (رواه البخاري في الأدب وأبو داود).

وفي الصحيحين عن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال». أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين.

ومن أشد الأحاديث تحذيرا من إطلاق الشائعات حديث الرؤيا في صحيح البخاري، رحمه الله، فإن النبي ﷺ رأى رجلين، رجلا قائما على رأس رجل، وعند القائم كلوب من حديد، وكان يدخل الكلوب في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله. فقيل للنبي ﷺ لما سأل عن ذلك، فقال: «هذا -الذي يعذب- يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق».

الطبيب القابع بين ضلوعنا.. لماذا لا نستشيره ؟!

منور عثمان
باحث سوري

«الإنسان حكيم نفسه» قول فيه الصدق في كثير من الأحيان، ففي داخل جسم كل إنسان طبيب قابع بين ضلوعه، وقوى شفائية إذا عرف كيف يتعاطى معها، ساعدته على البرء من أمراض لم تنفع معها الأدوية الموصوفة من طبيب أو أكثر.

نعم «الإنسان حكيم نفسه» وعلى كل إنسان أن يصغي إلى الأحكام الصادرة من طبيبه الذاتي القابع بين ضلوعه.

قد يصاب الإنسان بمرض ما فيعرض نفسه على الطبيب، ثم يتناول الأدوية التي يصفها له بانتظام، ومع ذلك تظل أعراضه قائمة، فإذا تجاوزت مدة «ضيافة» المرض حدود الراحة والتحمل، فماذا يصنع المريض؟ لقد لجأ إلى رأي ثان من طبيب آخر، فإلى من يلجأ الآن؟

على الإنسان أن يثني أو يثلث لطبيب آخر أقرب إليه من حبل الوريد، الطبيب الذي يقطن في داخل جسمه مستعدا للتنبه في أي لحظة.

على المريض أن ينظر في المرآة، وعندها سيشاهد وجه طبيبه المنتظر الذي يستطيع مساعدته على الشفاء أو يحسن طريقته في التصدي لما يطرأ عليه من الأمراض الخفيفة والثقيلة.

الكثير من الأدلة العلمية توحي بأن كثيرا من الأمور مثل وسائل مقاومة التوتر والانفعال، وتناول الغذاء الصحيح، والاستعانة بالأصدقاء والأقرباء يمكن أن تساعد جسم الإنسان على مكافحة المرض، وأكثر هذه التدابير واقع ضمن قدرة الإنسان على التحكم فيها.

في ما يلي بعض الاستراتيجيات التي اقتبست من المنشورات العلمية والطبية، أو سمعت من أفواه الخبراء حول طرق الاستفادة الكاملة من القوى الشفائية الداخلية في جسم الإنسان.

إن الإصغاء إلى الأحكام العاقلة الصادرة من الطبيب الذاتي بين الضلوع، لا يعني أبدا الاستغناء عن الطبيب الخارجي، بل إنه يعني تضافر الاثنين معا من أجل الوصول إلى الشفاء السريع، لذلك وقبل أي شيء آخر، وقبل أن يتخذ المريض أي قرار بإضافة أو تبديل طرق المعالجة، عليه أن يستشير طبيبه في كل ما يعن له من أمور.

الاستعانة بالغذاء

ما إن يلم بالإنسان أي عارض صحي، كبيرا كان أم صغيرا، فإن نفس المريض لم تعد تتقبل الطعام كما ينبغي، ولكن يجب عليه أن يدرك أن لحظة المرض هي في الحقيقة اللحظة التي يجب عليه فيها أن يضاعف عنايته في أمور طعامه وشرابه، فالطعام في كثير من الحالات يعتبر جزءا من الدواء، فكيف يكون ذلك؟

عندما يمرض الإنسان فإن غدده تأخذ في ضخ أنواع من الهورمونات تجاوبا مع دواعي الإرهاق والانفعال التي تسببها الإنتانات والأمراض، وتسعى الجملة المناعية في الجسم جهدها لإخماد «الحريق» الداخلي، وهذه



الطفرة من النشاط الغددي تعني تسارع نسبة الاستقلاب والسحب من المخزون الاحتياطي في الجسم، ما يعني أن جسم المريض يأخذ في حرق الكثير من السعرات الحرارية وسائر المواد الضرورية للحياة، بما في ذلك الفيتامينات والمعادن، فإذا ضعفت المغذيات التي تدخل إلى الجسم كأطعمة، فإن استعادته لعافيته تتأخر أو تتوقف، وهكذا يعرض المريض نفسه للأخماج والعديد من المضاعفات والاختلاطات.

في الأحوال العادية لا يكون الإنسان معرضا لأن يستنفد خزانته من هذه المواد المغذية، إلا عند مرضه، كإصابته بمرض إنتاني شديد أو تعرضه لحروق كبيرة تلزمه سرير المستشفى لعدة أسابيع، إلا أن إصابة الإنسان بترفع حراري بسيط مثلا، يمكن أن ترفع قليلا درجة استقلابه، وهذا يمكن أن يسهم في تقليل مخزون جسمه من هذه المواد الضرورية لحياته.

إن سد مثل هذا النقص في المواد الاحتياطية بالجسم، يمنح منظومات مقاومة الأمراض القدرة التي تحتاج إليها لكي تعيد الإنسان إلى سابق عافيته، فإذا كان المريض مقيما في المستشفى بعد عملية جراحية كبرى مثلا، فإنه قد يعالج بوسائل التغذية السائلة عبر الوريد، أو يغذى تغذية خاصة بأطعمة مقواة تساعده على استعادة قوته وصحته، ولكن الإنسان معرض أيضا لملازمة الفراش بسبب إصابته بمرض عابر كالرشح مثلا، وعندها عليه أن يجرب طرق الإسعاف التالية:

- شرب السوائل الكثيرة الاحتواء على المغذيات، كعصير الفواكه والخضر الخفيفة الأملاح، مخففة بالماء، أو الحساء أو المرق، وكذلك شرب الماء بمقدار كاف، ثمانية أكواب أو أكثر يوميا، لأن شرب الماء من الأمور المهمة.

- تقليل مقدار الوجبات مع الإكثار منها عدديا، فتخفيف مقدار الطعام يقلل فرص إصابة المريض باضطرابات في معدته وأمعائه، كالنفخة والغازات.

- الابتعاد عن المواد الدسمة الثقيلة الوطأة على الجهاز الهضمي، فتناول المريض أطعمة خفيفة قليلة الدسم يساعد في زيادة نشاط خلايا الجملة المناعية.

- الابتعاد عن عوامل الشدة والانفعال، إن تقليل التأثر بعوامل الشدة والإرهاق يمكن أن يساعد المريض على استعادة صحته، أو تجنب الوقوع فريسة للمرض، فخلايا الجسم تتأثر بعوامل الانفعال، وقد ثبت أن السبيل الهضمي مثلا، والرئة تزخر بالخلايا الشديدة التأثر بهذه العوامل، مما يدعم الرأي القائل بوجود علاقة مؤكدة بين جسم الإنسان وعقله، فالأشخاص المعرضون لحالات من التوتر الطويل كثيرو التهيؤ للإصابة بالقروح الهضمية والرشح وآفات القلب وارتفاع ضغط الدم واضطرابات الأمعاء، والوسيلة الناجعة لتقليل الانفعال العاطفي والشدة هي شيء فردي إلى حد كبير، فقد يرتاح أحد الناس عندما يشاهد التلفاز، بينما يرتاح غيره إذا قرأ أو كتب، أو سار في الهواء الطلق، أو، أو...

إسهام المريض

- الشعور بالقدرة على التحكم في أعراض المرض، لأن هذا الشعور يعمل في النفس عمل اللقاح في البدن، ويساعد على التعجيل في الشفاء، أما إذا استسلم للعجز والأفكار السلبية فإنه قد يكون عاجزا عن الاضطلاع بجانب من هذه المسؤولية.

ولكن على المريض أن يغذي هذا الشعور الشافي، شعور القدرة على التحكم ، بما يلي:

- الاهتداء إلى شخص مصاب بمثل مرضه، قادر على التعامل بنجاح مع هذا المرض، وذلك لكي يهتدي بأسلوبه في مكافحة المرض.

- قراءة أكبر قدر ممكن من المواضيع الطبية التي تتناول مشكلته، فالقراءة تزيده اطلاعا على أسباب مرضه وطرق تفاديه ومعالجته معالجة صحيحة.

- تنسيق المريض مع الطبيب بخصوص مرضه واعتباره شريكا له في عملية العلاج.

فوائد المشي

يعتبر المشي العلاج الطبيعي لكثير من الأعراض، فالمشي المعتدل القوة؛ لا يؤدي فقط إلى تخفيف التوتر، وإنما ينبه الجملة المناعية أيضا في الجسم، فهو ينشط الخلايا المناعية، ولكن ينبغي للمريض الإحجام عن أداء التمرينات الرياضية الشاقة إذا أحس بالأعراض الأولى للمرض و أن يواجهها بالراحة.

أما بالنسبة للمشاكل الصحية المزمنة كارتفاع ضغط الدم وآلام الظهر والسكر وأمراض القلب، فإن الرياضة المعتدلة قد تكون من شأنها المساعدة على تخفيف هذه المشاكل وتقليل الحاجة إلى العقاقير، ولكن على المريض ألا ينسى طبيبه، وعليه أن يستشيره قبل الشروع في أي برنامج رياضي، أو مجهود متعب.





الخان
قصة منشأة خدمية في حضارتنا

محمد شعبان أيوب
باحث مصري في التاريخ والتراث

الخان كلمة فارسية الأصل، معناها: المنزل. وقد تطورت دلالتها للمكان المخصص للمسافرين والتجار وطلبة العلم وغيرهم. قال ابن منظور: «والخان الحانوت أو صاحب الحانوت؛ فارسي معرب، وقيل الخان الذي للتجار» (١).

فالخان بمنزلة الفندق الذي أعد لهؤلاء المسافرين، أيا كانت مهنتهم. وكان الهدف الأساسي من وجوده «توفير الغذاء والمأوى للمسافرين والتجار. وقد ظهرت الخانات في الدولة الإسلامية منذ فترة مبكرة في عصر الدولة الأموية في أواخر القرن الأول من الهجرة» (٢). ومن أقدم المصادر التاريخية التي ذكرت الخانات واهتمام ولاة المسلمين ببنائها، نجد ابن سعد (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م) في «الطبقات الكبرى»، فقال: «كتب عمر بن عبدالعزيز أن تعمل الخانات بطريق خراسان» (٣).

وقد كان وجود الخانات ضروريا نتيجة للمساحة الهائلة للدولة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر شرقا إلى المغرب والأندلس غربا، ومن بلاد الروم شمالا إلى بلاد النوبة والسودان جنوبا وغربا، وهو ما أدى إلى التمازج بين أبناء هذه الدولة، وازدهار حركة العلم وطلبه، والتجارة والمعاملات الاقتصادية، فكانت الخانات تيسيرا على هؤلاء من عناء السفر.

أنماط الخانات

كانت الخانات في أول عهدها بسيطة الشكل، تؤدي الحاجة المطلوبة منها، ثم سرعان ما تطور شكل الخان ونمطه ليلبي المرجو منه، متأثرا بالثقافة والعمارة الإسلامية. فقد جرت العادة أن يتألف الخان من باب كبير ذي مصراعين ضخمين يتسع لدخول الرواحل المحملة بالبضائع، أو من باب كبير واحد فيه باب صغير في وسطه، يسمى «الخوخة»، لدخول الناس إذا لم تكن هناك حاجة لفتح الباب الكبير. وهذا الباب تحيط به واجهة مزخرفة ذات عقود وأبراج، ويؤدي إلى باحة سماوية واسعة قد تتوسطها بركة ماء، وتحف بالباحة حجرات متنوعة، ومحلات لإيداع البضائع أو بيعها، ومكاتب للتجارة تودع فيها العروض وما إليها، إضافة إلى المسجد، وبئر الماء في جانب تلك الباحة. وثمة أقسام ملحقة بهذا الطابق الأرضي لإيواء الدواب، وفيه أيضا بيطريون وعلف للرواحل.

وفوق هذا الطابق الأرضي طابق علوي مخصص لنوم نزلاء الخان من المسافرين والتجار والحجاج وطلاب العلم الوافدين من بلاد أخرى، فيجتمعون في الخان، الذي يشرف على إدارته رجال مهمتهم تجهيز النزلاء بما يحتاجون إليه من مبيت وإقامة، يضاف إليهم عمال يقومون بتنظيم أمور الخان وتنظيفه (٤).

على أن الخانات في بلاد الشام والعراق ومصر والروم، قد اتخذت، في الغالب، نمطين من الأشكال، تنوعا بحسب مكان الخان، فالخان الذي في طرق السفر والمناطق النائية والبعيدة



عن المدن والعمران، غالبا ما كان يبنى بالقرب من الأنهار والآبار والعيون، وكل ميزته وجود مكان للدواب في الأسفل والمسافرين في الأعلى لا غير. بخلاف الخان الذي كان يبنى في المدن أو في مداخلها، فقد كان يشترك مع خانات الطرق في ما تقدم، لكنه يمتاز عنها بخدمات أخرى، كوجود الحمام والمطعم والبيطار وقربه من الأسواق أو فيها (٥).

وظيفة الخان الحضارية

أنشئ الخان كمصلحة اقتضتها الحاجة الملحة. واللافت أن هذه المنشأة الخدمية لم يتوقف بناؤها على عاتق الدولة الإسلامية فقط، فقد قام أهل الخير والغنى بإنشاء هذه الخانات والفنادق في طول البلاد وعرضها؛ ابتغاء للأجر والثواب. واللافت كذلك اشتراك بعض المحدثين وطلبة العلم في إنشائها، فهذا المحدث أحمد بن محمد الأستراباذي يبني خانا في بلدته أستراباذ في شمال إيران فيشتهر به (٦). وهذا أبو جعفر محمد بن عاصم، الشهير بصاحب الخانات، المحدث الشهير في بغداد وغيرهما (٧).

وهذا باب عظيم لم نكد نراه في أي حضارة من الحضارات السابقة على هذه الصورة التي قدمتها الحضارة الإسلامية وتوسعت فيها؛ إذ كان كثير من هذه الخانات موقوفا؛ والوقف، كما هو معروف، حبس الأصل وتسبيل المنفعة ابتغاء لرضا الله وثوابه، أو كان أهل اليسار والغنى يوقفون على هذه الخانات أوقافا؛ لعمارتها وتجديدها وتقديم ما يلزم للمسافرين والتجار وطلبة العلم والقائمين عليها من وسائل الراحة والأمان والغذاء والكسوة في بعض الأحيان من دون تقديم مقابل مالي، اللهم في حالات قليلة أخرى!

فهذان عالمان يحضر أحدهما للآخر المسافر في خان قرب دمشق للتدارس في حديث رسول الله ﷺ في القرن الرابع الهجري على ما يذكر ابن عساكر في تاريخه (٨).

وهذان شاعران أحدهما الشاعر الشهير دعبل بن علي والآخر أحمد بن الحجاج مولى أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، يلتقيان في القرن الثالث الهجري

بخان على الطريق من بغداد إلى مصر، يذكر صدفة اللقاء في الخان وطرافة قصتهما ابن المعتز (ت٢٩٦هـ/٩٠٨م) في كتابه «طبقات الشعراء» (٩).

وهذا المحدث سعدان بن يزيد البزاز (ت ٢٦٢هـ/٨٧٥م) يتقي المطر والرعد بخان في الطريق يتأمل فيه عظمة الخالق، فيقول: «كنت في بعض أسفاري، فنزلت بعض الخانات، فكانت ليلة مطيرة ورعد وبرق، فنام أهل الخان، وجلست أفكر في عظمة الله، يعني: فنمت، فإذا ابن لي قد كنت أقصيته وأبعدته، وإذا هو يخضع لي ويقرب مني، وأنا أقصيه وأبعده، ثم انتبهت، فصاح بي صائح من جانب الخان، يا سعدان بن يزيد قد رأيت عظمته، فافهم كذا يغضب عليك إذا عصيته ويتحنن عليك إذا أرضيته» (١٠).

وقد وصف لنا المستشرق الفرنسي جاستون فييت بعض خانات القاهرة في العصر المملوكي في كتابه الماتع «القاهرة مدينة الفن والتجارة» بقوله: «هناك خان من نوع خاص عند مدخل المدينة شمالي باب الفتوح سمح للمسافرين بالنزول فيه مجانا، ونظرا لموقعه في ظاهر المدينة فقد تحول إلى مستشفى للمرضى بأمراض معدية. وهناك خان آخر استخدم كمصرف أودع فيه التجار صناديق المال المملوءة بالذهب والفضة... وفي الحي نفسه كان هناك خان قوصون، أو وكالة قوصون، الذي استخدمه التجار السوريون لخزن بضائعهم مثل الزيت والسيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب. وكان فندق دار التفاح بالقرب من مسجد المؤيد أشبه بوكالة كبيرة للفواكه على اختلاف أنواعها، كما وجد خان آخر كانت تستخدم إيراداته لفدية أسرى الحرب، واشتمل على اثني عشر حانوتا وخمسة حمامات وثمانية وخمسين مخزنا وست غرف كبيرة وفناء وخمسة رباع، وخمسا وسبعين حجرة للنزلاء، وخمسة حمامات في الطوابق العلوية» (١١).

ويفهم من هذا أن وظيفة الخان في المدن في العصور الإسلامية المتأخرة، كانت استقبال التجار بشكل عام؛ من باعة الجملة ومروجي البضائع ومراسلي المستوردين والوسطاء. وفي هذا المكان كان يتم البيع والشراء، وكأن المكان لم يعد لإيواء المسافرين، بل استقبالهم ريثما يتمون تجارتهم. وكما كان لكل بضاعة دار، صار لها خان يرتبط اسمه بها، إن لم يرتبط باسم مؤسسه أو مالكه؛ فهنالك خان الحرير وخان الحبالين في دمشق، وخان الجوخ في إسطنبول، وخان الخياطين والصابون في طرابلس، وخان الزيت وخان الحرير في حلب. وكان بعضها عظيم الاتساع كخان الجمرك في حلب، الذي يعود تاريخه إلى عام ١٥٧٤م، فقد ضم اثنين وخمسين مخزنا، وسبعا وسبعين غرفة، وسوقين مبنيين بالحجر المهندم، يصل إليهما الضوء من قبب عشر تعلوهما، وكان مجموع دكاكينه ثلاثمائة وأربعة وأربعين، وإلى جانبها سبيلان ومسجد (١٢).

وبعد هذا التطواف السريع رأينا كيف أن منشأة الخان أو الفندق أو الوكالة، كانت إبداعا حضاريا إسلاميا رائعا، قدمت عبر مئات القرون خدماتها المجانية في الغالب لكل الناس من المسافرين والتجار وطلبة العلم وغيرهم، داخل المدن الإسلامية وخارجها، فكانت صورة ذهبية من صور هذه الحضارة الخالدة واهتمامها بالمسلم في ترحاله!

الهوامش

١ – ابن منظور، لسان العرب، مادة خون ١٤٤/١٣، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت.

٢– Encyclopedia Britannica :khan.

٣ – ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ٢٦٦/٥، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠م.

٤ – محمود الفاخوري، الموسوعة العربية، مادة «الخانات»، ص٧٤١.

٥ – انظر: ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ص٧٠ وما بعدها، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

٦ – الجرجاني، تاريخ جرجان، تحقيق محمد عبدالمعيد خان، ص٥١١، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٧م.

٧ – الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، ٢٣٢/٤، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢م.

٨ – تاريخ ابن عساكر، تحقيق عمرو ابن غرامة العمروي، ١١٥/٥، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.

٩ – ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبدالستار فرج، ص٣٠١، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة.

١٠ – تاريخ بغداد، ٢٨١/١٠.

١١ – جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص١٩٨ و١٩٩، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م.

١٢ – نبيلة القوصي، الخانات في دمشق القديمة ١، مقال على موقع نسيم الشام على الإنترنت.



ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعيــة والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي من الشروط:

ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه.
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، وضرورة إرسال البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

الوعي الإسلامي

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

— ٣٦٩ —

تيسير الهجاء العربي

للشيخ أحمد الاسكندرى عضو مجمع اللغة العربية الملكى

كتبت الأمم الساميّة منذ ألوف السنين كلم لغاتها بهجاء مختزل لا يصور كل حرف من حروف الكلمة التى ينطق بها ، بلْهَ حركات هـذه الحروف ، وأكثر ما كانوا يحذفون فى خطهم حروف المدّ : الألف والواو والياء، والحروف المدغمة فى مثلها ، مع أنهم كانوا يزيدون بعض حروف لم ينطقوا بها !

فأما الحذف فيظهر أنه كان للاختصار فى العمل والاقتصاد فى الرِقاع والوقت، كما نفعل نحن الآن فى كتابة الخط المختزل .

وأما الزيادة فللتمييز ودفع اللبس .

ولم يشذ العرب كثيرا فى كتابتهم عن هذا المنهج، فكتبوا به مصحف القرءان مراعين أوجه قراءته .

ولا جرم أنه لا يقوم بكتابة المختزل وقراءته إلا أهل المرانة عليه ، والتمرس به وهم قليلون فى كل زمان ومكان ، لا تنشر بهم ثقافة عامة ، ولا تعليم شامل .

من أجل ذلك اضطر أئمة اللغة وأدباؤها الى وضع علامات لضبط الحركات، وتعـديل بعض أصول الرسم والهجاء . وما زوا الهجاء الأدبى أو الديوانى من رسم المصحف ؛ لأسباب دينيـة وفقهية ، غير أنهم لم يجتمعوا على طريقة متوحدة ؛ فاختلفوا كعادتهم فى كل علم لغوى ، ولكنهم كانوا يعذرون فى تخالفهم فى أوجه القياس النحوى والتفريع عليه ؛ لكثرة لهجات القبائل العربية ، التى جرى عليها بعض القراءات المتواترة، فما عذرهم فى اختلافهم فى رسوم وضعوها بأيديهم لادخل للغة ولا للحل والحرمة فيها ، وغلوا فى مراعاة بعض الفروق بالاستثناء فى القواعد ،



حتى أصبحت لا قيمة لها ، لقلة اطرادها . وما زال المحدثون يتخبطون فى الزيادة والحذف فى تعـديل الرسم الى وقتنا هـذا ؛ لأنها مسألة ذوقيـة ، والذوق يختلف باختلاف الأفراد والزمان والمكان ؛ فأصبح أهل المغرب يخالفون فى بعض رسمهم أهل المشرق . وطالما ضج الأدباء بعامة والمعلمون بخاصة من هذا التخبط ، حتى دعا بعضهم الى الكتابة بالحروف اللاتينية ، أو وضع حروف جديدة غير الحروف العربية ، وبعضهم الى كتابة كل ما ينطق به من حروف وحركات بحروف عربية كاملة الصورة .

واذا كان من أغراض مجمع اللغة العربيـة الملكى سلامة اللغة : باستحياء آثار السلف ، من المؤلفات التى تعدّ بألوف الألوف ، رأيت أن يكون إصلاح الهجاء تدريجيا لا طفرة ، فاخترت طريقة معتدلة مستخرجة من كلام أئمة اللغة ، لجرى عليها فى تعليم النشأ الصغار ، ورفعت فيها أكثر المستثنيات من القواعد ، وقربت بها ما بين النطق والرسم . وهأنذا أقدمها لقراء مجلة المجمع ، وخاصة المعلمين منهم. فان رأوا الاكتفاء بها ، وإلا دعوتهم الى العمل بالطريقة الأخرى المختزلة ، التى ألحقتها بالمعتدلة . وليس وراء هذه المختزلة غاية إلا الخروج عن نطاق الرسم العربى بتـة ، وقطع الصلة بين القديم والحديث . وهـذا ما لا أرجوه ولا يرجوه أعضاء المجمع . فليُدْلِ أبنائى واخوانى من المعلمين والأدباء بآرائهم فى مجلة المجمع ؛ فكلنا طلاب إصلاح ، وما توفيق إلا بالله .

التعريف بمجلة مجمع اللغة العربية الملكي:

هي رافد علمي من روافد المجمع اللغوي الذي تأسس في عهد الملك فؤاد الأول، وكانت مهتمة بخدمة اللغة العربية، وتهيئة الوسائل اللازمة لعصرنتها، ووقاية اللسان العربي من العجمة السارية في كثير من البلدان العربية.

وقد قام على المجلة في بداية تأسيسها محمد حلمي باشا (وزير المعارف آنذاك)، ومحمد توفيق رفعت باشا (رئيس المجمع اللغوي).

الأستاذ أحمد علي عمر الإسكندري:

ولد في مدينة الإسكندرية، وتعلم في المعاهد الأزهرية، وتخرج في دار العلوم سنة ١٨٩٨م، ودرس فيها.

- اختير عضوا بالمجمع اللغوي عند إنشائه عام ١٩٣٤م.
- صدرت له مؤلفات عدة عن الأدب العربي في مختلف عصوره، وعدد من الكتب الدراسية لتعليم الناشئة.

توفي بالقاهرة.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

خطأ المفتي.. أثره وضمانه (٢/٢)

قد يترتب على فتوى المفتي ما يكون سببا في إتلاف ممتلكات العباد وحقوقهم، كأن يفتي المفتي بنجاسة السمن، مثلا، لمن أفتاه فيه، فيتلفه صاحبه بناء على فتواه، أو كانت الفتوى متعلقة باستيفاء القصاص من أحد، ثم يتبين بعد ذلك خطأ الفتوى، فهل يضمن المفتي شيئا من ذلك؟

للعلماء في هذه المسألة أربعة أقوال:

- القول الأول: التفريق بين حالين للمفتي: فإن «كان أهلا للفتوى» وخالف نصا قاطعا من الكتاب والسنة، أو الإجماع، فإنه يضمن؛ وإلا فلا.

وإن «لم يكن أهلا للفتوى»؛ فلا ضمان عليه.

وهو مذهب كثير من الشافعية، ووجه عند الحنابلة ذكره ابن حمدان وابن مفلح، وأنكره ابن القيم، رحمه الله تعالى.

وعلة الضمان: تقصير المفتي في البحث إن كان أهلا. وعلة عدم الضمان لغير الأهل: تقصير المستفتي في البحث عن المفتي المجتهد. (أدب الفتوى لابن الصلاح ص ٦٣).

- القول الثاني: التفريق كذلك؛ فإن كان المفتي مقلدا، ونفذ ما أفتى به بنفسه؛ ضمن.

وأما إن كان مجتهدا؛ فأفتى، أو لم

تعزير السارق عقوبة له

(رقم الفتوى ٦٢٣٦)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:

إننا نقوم بنشاط بيع التجزئة للمواد الغذائية، ونرجو بيان حكم الشرع في ما يلي:

تعلمون أننا نراقب أسواقنا بكاميرات سرية، وعندما نمسك بلص يسرق، ومقابل عدم إبلاغ الشرطة نأخذ منه إقرارا بأنه قد سرق، ويدفع لنا غرامة مالية، عشرة أضعاف المسروق.

فما رأيكم في ذلك؟ وما هو التصرف الأمثل في مثل هذه الحالة من أجل الحفاظ على أموالنا من اللصوص، وردعا لهم؟

أجابت اللجنة بما يلي:

ترى اللجنة أنه ليس للمستفتي أن يأخذ من اللص أكثر مما سرقه منه، أو قيمته عند تلفه، وله مع ذلك رفعه للقضاء؛ لتعزيره أو إقامة حد السرقة عليه، وفقا لأحكام الشريعة، وليس له أن يأخذ من اللص أكثر من ذلك، لأن العقوبة من حق القاضي وحده. ولا مانع من أن يحصل صاحب المحل على إقرار من السارق على ما وقع منه.

وتنصح اللجنة صاحب المحل التجاري بأن يكتفي من السارق باسترداد ما سرقه منه أو قيمته مع إقراره بالواقعة، وتعهده بألا يعود إلى مثلها من دون زيادة على ذلك، ما لم يتكرر منه فعل السرقة، فإذا تكرر منه ذلك يرفعه للقضاء. والله أعلم.

التنازل عن عقوبة خائن الأمانة

(رقم الفتوى ٤٢٢٥)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:

لي ابن عم كان يعمل «مندوب جمع تبرعات» في جمعية خيرية، وقبل شهر تقريبا اتهم من قبل الجمعية بخيانة الأمانة بسرقة مبلغ معين، واستردت الجمعية هذا المبلغ، لكنها رفعت عليه قضية خيانة أمانة، وهو الآن موقوف في السجن على ذمة القضية، ولما ناشدناهم التنازل عن القضية، لاسيما أنه تم إرجاع المبلغ، قالوا لنا: «يمكن أن نتنازل عن القضية إذا أفتت لجنة الفتوى بجواز مساعدة المتهم بالتنازل عن القضية»، آملين منكم أن تفتونا في ذلك الأمر، حيث لم تصل القضية بعد إلى المحكمة، وجزاكم الله خيرا.

أجابت اللجنة بما يلي:

ما دام المتهم قد أعاد المبلغ المتهم بأخذه بغير حق إلى الجمعية، ولم تصل القضية بعد إلى المحكمة، فإن حق

يتول تنفيذه بنفسه؛ فلا ضمان عليه.
وإن لم يكن من أهل الاجتهاد؛ ضمن وأُدِّب أيضا.
وهذا هو المشهور من مذهب المالكية.
قال التلمساني: «وسئل المازري عمن أفتى رجلا فأتلف بفتواه مالا، فأجاب: إن كان المفتي من أهل الاجتهاد والنظر، لم يلزمه ضمان ما ذهب بسبب فتواه. وإن كان على غير ذلك، فقد تكلف ما لا يجوز، ويضمن ما تلف، ويجب على الحاكم التغليظ عليه إذا قامت البينة عنده، ولو أدب لكان لذلك أهلا، إلا أن يكون تقدم له طلب في العلم؛ فيسقط عنه الأدب، وينهى عن الفتوى إن لم يكن لذلك أهلا». (المعيار المعرب ٢/٤١٣).

● القول الثالث: إن المفتي لا يضمن أبدا بأي حال؛ وهو قول لبعض الحنفية.
وعلة ذلك: أنه بهذه الحالة يكون متسببا، وليس مباشرا، وإنما يكون الضمان على المباشر. ينظر: «حاشية ابن عابدين ٥/٤١٩».

● القول الرابع: إن المفتي يضمن إن لم يكن أهلا للفتوى، أو خالف دليلا قاطعا.
أما إن كان أهلا لها، أو كانت المسألة اجتهادية؛ فإنه لا يضمن، بل الضمان على المستفتي.
وهذا قول الحنابلة على الصحيح عندهم؛ وذلك لأنه إتلاف حصل بفعله؛ فأشبه ما لو باشر.
قال ابن النجار رحمه الله: «وإن عمل المستفتي بفتيا المفتي في إتلاف نفس أو مال؛ فبان خطأ المفتي في فتياه قطعا؛ أي: بمقتضى مخالفته دليلا قاطعا؛ ضمنه، أي: ضمن المفتي ما أتلفه المستفتي بمقتضى فتياه.
وكذا يضمن إن لم يكن أهلا للفتيا على الصحيح، خلافا لأبي إسحاق الإسفراييني وجمع، بل أولى بالضمان ممن هو أهل للفتيا». (شرح الكوكب المنير ٤/٥١٤).
ورجح كثير من الباحثين هذا القول؛ وذلك لقوة دليله ووضوحه.

طلب معاقبة المتهم هو حق شخصي للجمعية، فإن رأت الجمعية أن المتهم قد تاب توبة نصوحا وعزم على عدم العودة إلى مثل فعلته الأولى، وسعها إعفاؤه من المطالبة بإنزال العقوبة به، وإن رأت أنه لم يتب بعد، كان لها رفع أمره إلى القضاء لينال عقوبته المناسبة، حسما لمادة الفساد، وليرتدع به غيره. والله أعلم.

كتمان الشهادة عن صاحب الحق

(رقم الفتوى ٥٥٠٠)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما حكم كتمان الحق عن صاحبه مع العلم بوجود الضرر على صاحب الحق؟ وهل يدخل كتمان الحق في شهادة الزور؟

أجابت اللجنة بما يلي:
كتمان الحق عن صاحبه عند حاجته إليه وتعين شهادته عليه به مع القدرة على الإفصاح عنه – وذلك بألا يلحقه ضرر في بدنه أو ماله أو أهله – نوع من الخيانة، وهو حرام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (البقرة:٢٨٣). والله أعلم.

كفالة الشركة لأشخاص لا يعملون فيها من دون مقابل

(رقم الفتوى ٣٩٢٦)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:

تمتلك زوجتي رخصة مؤسسة للتجارة العامة والمقاولات، وأنوب عنها في التوقيع على جميع المعاملات بموجب توكيل رسمي بذلك .

ويتقدم أحيانا بعض الزملاء يطلبون كفالة بعض أقاربهم ونقل إقامتهم على المؤسسة من دون مقابل مادي (عمل خير فقط)، علما بأنهم لا يعملون لدى المؤسسة.

لذا أفيدونا في ذلك وفقكم الله لما فيه الخير.

أجابت اللجنة بما يلي:
هذا العمل، وإن كان في ظاهره هو عمل خير، لأنه لا يؤخذ على هذه الكفالات مقابل، إلا أنه يجب الالتزام بقوانين الدولة في مثل هذه الأمور، فإذا كانت القوانين تمنع أن تكفل شركة شخصا من دون أن يعمل فيها فيجب تنفيذ هذه القوانين، لأن طاعة أولي الأمر في الأمور المباحة المنظمة لشؤون الدولة من طاعة الله ورسوله، لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (النساء:٥٩)، هذا مع ما في هذا من الكذب، والكذب حرام. والله أعلم.

إعداد: علاء عبدالفتاح

موقع «الوعي الإسلامي».. والأبحاث العلمية

أسرة التحرير المحترمين، بعد التحية والسلام، الحمد لله على كل حال، اسمي محمد عبدالقادر بن عبدالناصر، باحث أعد أطروحة الدكتوراه في قسم اللغة العربية، وموضوع بحثي «أساليب التعلم والتعليم في ضوء القرآن الكريم والأحاديث النبوية».

تسرني وتسعدني دائما زيارة موقع مجلتكم على الإنترنت، وكلما طلبت مواد مطابقة ومعلومات مناسبة عن بحثي وجدت ضالتي فيه، بالإضافة إلى أني وجدت مجلتكم الغراء مفيدة بشكل عام.

أدعو الله عزوجل أن يتقبل خدماتكم الطيبة ويبارك لكم في الدارين.

مع تحياتي: محمد عبدالقادر بن عبدالناصر، الباحث في الدكتوراه (رقم التسجيل ٢٧٤٠٨ يناير ٢٠١١-٢٠١٦)، كلية جمال محمد، تروشيرابلي، صوبة تامل نادو - الهند.

المحرر: الأخ الفاضل محمد عبدالقادر، شكرا جزيلا لكم على الاهتمام والمتابعة، متمنين لكم دوام التوفيق .

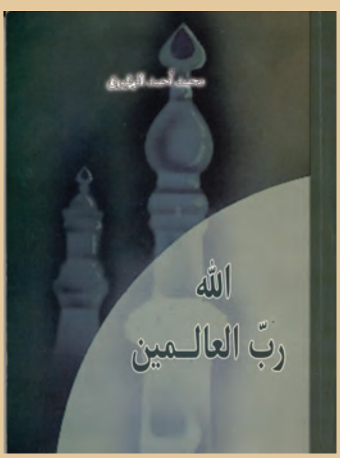
نداء إلى المسجد الأقصى

ذكرتك فاكتوى قلبي بشوق
وسال الدمع يجري في المآقي
كتبت الشعر من ماء الجفون
وقومي راقدون بلا فواق
أنادي المسجد الأقصى بصوت
تقطع من لظى ألم الفراق
أيا أقصى بعيدا عن عيوني
سدود بيننا... أنّى التلاقي؟
ويا مسرى الحبيب متى أراك
طليق الساعدين بلا وثاق؟
أرى في وجه قبتك المآسي
وأسمع للجدار أنين راق
عزيز أن نرى الأقصى جريحا
تلطخ ثوبه بدم مراق
فلا صوت هناك سوى نداء
حبيس ليس يجتاز التراقي
تصبر يا حمى الأقصى وأبشر
بنصر الله، إن الله باق
ستعلو راية الحق ويبدو
شعاع الفجر من بعد انطباق

• معان محمد الحلوجي

كتاب « الله رب العالمين »

من المغرب الشقيق وصلتنا رسالة رقيقة مرفق بها كتاب يحمل عنوان «الله.. رب العالمين»، ألفه محمد أحمد الرقيوق، ضم بين جنباته مقالات شتى، هي حصيلة القراءة والمطالعة للكتب والمراجع، كما قال المؤلف في تذييل كتابه، وقد كتبها بأسلوب عذب واضح، نسأل الله أن ينفع بها الأمة الإسلامية والبشرية جمعاء.



يقول الرقيوق في بداية الكتاب «هذا الكون الشاسع كله بدائع، وهذه الكواكب والنجوم إنها آيات وآيات من الله الواحد.

روائع في الأرض كثيرة، وروائع في السماوات كثيرة، كل شيء مفروش بالسناء والضياء.

فهذه السماء وهذه الأرض، الفضاء، الشمس، القمر، الليل، النهار، المساء، الصباح، الكل يعانق هذا الكوكب.. التاريخ يسير ومعه هذا الإنسان كل هذا وذاك الخالق هو الله.

الماء ينساب، والثلج يذوب، والفجر يبتسم، والنسيم يتحرك، ما أجمل السهل والبذرة، ما أجمل السماوات والأرض، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (سبأ:٢٤)».

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي تساهم في نشر الوعي وتثقيف الناس على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com



الإرجاف الإعلامي

في أيامنا هذه أصبح أمر التقصي والوصول إلى صحة الخبر صعبا وشاقا، فنلجأ إلى أيسر الطرق، التي نظن أنها ستنهي المشكلة وتعطينا صحة الخبر. نادرا ما تجد أفكارا بناءة بل على العكس تجد إرجافا وكذبا وضلالا وتجارة في الكلام، إنه أمر يؤدي بنا إلى الهلاك ورواج الفتن؛ لما فيه من إشاعات وأخبار مفبركة.
أصبحت بعض برامج الفضائيات تحصر فكر المشاهد تحت هدف ملء عقله بالأكاذيب والاستخفاف بعقله. تشعر وكأنك ترى وشاة مفوهين بكلام محفوظ يبدو لك معسولا حتى يداروا عيوبهم وأخطاءهم على حسابنا.
لقد اختفت - أو كادت - الأفكار البناءة وكل شيء يتعلق بالإيجابية، ونحن من يدفع الثمن.

● حسن محمد حسن

المحرر: لحديثك أخي الكريم منطق وجاهة ولكن علينا أن نتذكر مسؤولية المتلقي العظيمة التي تقتضي منه أن يحسن اختيار المصدر الإعلامي الذي يستقي منه معلوماته، لقد تعددت المصادر بين صحف ومجلات وفضائيات وإذاعات ووسائل اتصال اجتماعي وبقي علينا التأمل فيها واختيار الأصدق.

جيل جديد.. ولكن!

هذه مشاعر من رأى عددا من الشباب لا هم لهم إلا تقليد الشرق والغرب في كل شيء، والسخرية من الدين وشعائره، وأنهم بسلوكهم قد أساءوا إلى دينهم وبلادهم وأمتهم، وأصبحوا ضحايا شهواتهم، فهم حكموا على أنفسهم بالموت قبل أوانه، إذ هم أجسام تتحرك بلا عقول.

بلاد لا تعيش بها الفضيلة
وأفكار الشباب بها دخيلة
تعيش بها النساء بلا حياء
وتنمو بينهم سوق الرذيلة
يؤذن للصلاة وهم نيام
وإن قاموا فأرواح عليلة
شباب في بلاد الغرب صارت
من التقليد للأعدا «عميلة»
يصرفها العداة بما أرادوا
وأعينها عن العقبى كليلة
سمان كالبغال لها ظهور
ولكن العقول بها هزيلة
إذا نطقوها سمعت لهم صياحا
كمثل الثور إن نادى خليله

● عبدالعزيز بن صالح العسكر

من نسمات الرحمة

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» (مسلم ٢٦٢٦).
إحدى نسمات الرحمة الإلهية، إذ أكثر من فتح أبواب الخير وسهلها.
فإن بخل الإنسان بالنفقة، وكسل عن القيام، وعجز عن الصيام، وجبن عن الجهاد، وانشغل عن الصلاة فيما دون الواجب من كل ذلك! فما أعجز ذلك الإنسان أن يلقى أخاه بوجه باش؟!
فما عساها أن تكلفه تلك البسمة البريئة؟!
ولا مراء أنه لا قيمة للبسمة ما لم تقترن بسلامة صدرك لأخيك.
ولا ريب في عدم جدوى البسمة ما لم تشتمل على سلامة أخيك من كل جوارحك.
فقد يقدم الإنسان شيئا لا يكلفه أدنى مشقة، أو جهد، أو وقت، أو مال، ومع ذلك يكون له أبلغ الأثر في الدنيا، قبل الآخرة.
خذ مثلا: عندما هجر المسلمون كعب بن مالك رضي الله عنه عقوبة له على تخلفه عن غزوة تبوك بلا عذر حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت.
ثم أنعم الله عليه بنعمة التوبة، وهنأه الصحابة رضي الله عنهم.
يقول كعب: «حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس. فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني. والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة» (رواه البخاري ٤٤١٨).
فما الذي تكبده طلحة حين قام؟
لا شيء من المال، أو الجهد، أو الوقت.
فما تراه سر هذا الفرح الطاغي لكعب بقيام طلحة، وتهنئته، حتى قال: «ولا أنساها لطلحة»؟
إنها الدلالة الرمزية.
وهي أبلغ أنواع المشاركة الوجدانية.
إنه نبل أخلاقي، وسمو روحي يوحي بشعور قلب طلحة بالمعاناة النفسية التي كابدها كعب طول فترة الهجران.

● محمد فريد فراج

إعداد: تركي النصر

خطأ نحوي

كان قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي، رحمه الله بالقاهرة، وكانت بضاعته في العربية مزجاة، فجاءه يوما قاضي القضاة شمس الدين الركراكي لأمر ما، فتذاكرا إلى أن أتيا على ذكر شيء من النحو، وكان الركراكي كثير الدهاء، وبينهما في الباطن شيء، فكان مما قاله المناوي: ما زلت أسمع أن الباء لا تدخل على الفعل المضارع حتى وجدت لدخولها شاهدا من كلام العرب، وهو قول الخنساء في أخيها صخر:

وما بيكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

وأنشده بتقديم الباء على الياء.

فقال له الركراكي: والله حسن يا سيدي قاضي القضاة كثر الله فوائدكم.

ثم دخل عليه جماعة من القضاة وطلبة العلم وغيرهم، فقال له الركراكي: يا سيدي قاضي القضاة لا بأس بذكر تلك الفائدة للسادة -وقصد بذلك افتضاحه وهو لا يشعر- فتكلم ابن المناوي في المسألة وأنشد البيت كما تقدم؛ فأطرق القوم.

فقال له الركراكي: يا سيدي قاضي القضاة، لعله: «وما يبكون» من البكاء فتصحف عليكم، فخجل خجلا شديدا. وحفظت عنه وسطرت في الدفاتر.

(**السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ٢/٦٢٣**).

لقد أغنى عمر الناس

قال عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب رحمه الله: إنما ولي عمر ابن عبدالعزيز ثلاثين شهرا، لا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيه فلا يجده، لقد أغنى عمر الناس.

(**فتح الباري ٦/٢١٢**).

الاحتساب

قال شداد بن أوس: «أيها الناس لا تتهموا الله في قضائه، فالله لا يبغي على مؤمن، فإذا أنزل بأحدكم شيئا مما يحب؛ فليحمد الله، وإذا أنزل به شيئا مما يكره؛ فليصبر وليحتسب؛ فإن الله عنده حسن الثواب».

(**تفسير ابن كثير ١/٤٤٢**).

من ثمرات تدبر القرآن

ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما.

(**مدارج السالكين ١/٤٥١**).

حكم

إذا انقطع رجاؤك من صديقك؛ فألحقه بعدوك.

ضيف البخيل آمن من التخمة.

من أنزل نفسه عاقلا؛ أنزله الناس جاهلا.

السكوت يزين الأحمق، والكلام يشينه.

(**الكنز المدفون والفلك المشحون ص ٦٠**).

فضل المال

قال الجاحظ: اعلم أن تثمير المال آلة للمكارم وعون على الدين وتأليف للإخوان، وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن في موضع رغبة ولا رهبة؛ استهان الناس به، فاجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا.

وقال حكيم لابنه: يا بني عليك بطلب المال، فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك، لكفى.

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: الدنيا عافية، والشباب صحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحسب المال.

وقال سعيد بن عبادة: اللهم ارزقني جدا ومجدا، فإنه لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال.

وقال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: يا حبذا المال، أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي.

(**كشكول ابن عقيل ص ١٥٤**).

القناعة بالقليل

أرسل سليمان (أمير البصرة والسند)، إلى الخليل بن أحمد ليحضر عنده لتأديب أولاده، فأخرج الخليل خبزا يابسا، وقال: «ما دام هذا عندي؛ لا حاجة لي فيه».

(تهذيب التهذيب، ٣/١٦٣)

الغنى يطلب بالقناعة

قال سعد بن أبي وقاص لابنه عمر: «يا بني، إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإن لم تكن لك قناعة فليس يغنيك مال».

(عيون الأخبار، ٣/١٨٧)

فائدة في أنواع الولائم

صيانة النفس

قال بعض الحكماء:

- الهوى شريك العمى.
- أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.
- جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم.
- ما أشد فطام الكبير.
- لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.
- إذا سمعت المراء فأقصر.

(حياة السلف بين القول والعمل، ص ٤٢٧)

الصبر والنفس

- «النفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو إلى النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام، شردت في كل مذهب».
- «النفس فيها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره».

(عدة الصابرين، لابن قيم الجوزية)

حقيقة الرضا

قال عبدالله بن عون، رحمه الله: «لن يصيب العبد حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفا لهواك؟... ما أنصفت نفسك، ولا أصبت باب الرضا».

(صفوة الصفوة، ٣/٢٢٣)

موعظة موجزة

قال إبراهيم بن أدهم: «بلغني أن عمر بن عبدالعزيز، رحمه الله، قال لخالد بن صفوان، رحمه الله: عظني وأوجز. فقال خالد: يا أمير المؤمنين، إن أقواما غرهم ستر الله، وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين، وإلى الأهواء مائلين. قال: فبكى عمر، ثم قال: أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى».

(الحلية، ٢/٤٨٥)

مسك الختام

مفهوم السلام الاجتماعي

د. نبيه الحصري
باحث أكاديمي

واحد من أهم المبادئ التي استهدف الرسول ﷺ ترسيخها في مجتمع المدينة المنورة الجديد كان مبدأ «السلام الاجتماعي» الذي لم يكن سائدا في جزيرة العرب من قبل.

كان مجتمع جزيرة العرب في حالة صراع واقتتال دائم فيما بين عناصره، حتى أبناء البلد الواحد مثل يثرب، كانوا يقتتلون قتالا ضاريا لا يخمد إلا ويقوم من جديد، والمقصود بذلك نار الحرب التي كانت مستعرة ما بين الأوس والخزرج، العنصرين الأساسيين بالمدينة إلى جوار اليهود الذين كانوا يعملون على بقاء نار الصراع بين الطرفين لا تهدأ أبدا، وذلك حتى يتاح لليهود السيطرة الاقتصادية والعلمية والسياسية على يثرب.

قام الرسول ﷺ بتحقيق السلام بين الطرفين فاستقبلوه بلهفة وشوق بعد أن ذاقا ويلات الحروب والتطاحن فيما بينهما لأعوام عديدة، ومجتمع العلم والمعرفة الذي استهدف الرسول إرساءه في جزيرة العرب لا يتحقق إلا بالسلام والأمن والهدوء لكي يعرف أفراد المجتمع الجديد أين هم من ركب الحضارة العالمية، ومن ثم يستكشفون إلى أين يتجهون. وما كان للنفوس ولا العقول أن تتقبل العلم الجديد والهدى الفريد الذي ارتبط بنزول القرآن الكريم إلا بعد أن تتفرغ من شواغلها السخيفة التي تستغرق ملكاتها وقدراتها فيما لا محصلة من ورائه إلا الدمار والخراب.

لذا عمل الرسول ﷺ على توطيد السلام في أركان المجتمع الجديد وعناصره، بالإضافة إلى أولئك الذين وفدوا بالفعل إلى المدينة، أو الذين كان يخطط لإيفادهم إليها.

احتاجت النفوس لمثل تلك المفاهيم البسيطة الرقيقة لكي تبدأ في المرحلة الجديدة، مرحلة العناق الدائم ما بين العلم والعمل، لكي تتوافر البيئة المناسبة للحلم الجديد، كانت مرحلة تأهيل اجتماعي يبتغى من ورائها إيجاد براعم تصلح للقيادة بعد ذلك في كل المجالات المختلفة التي ستحتاجها الدولة الفتية.

لم يكن تحقيق الصلح بين الأوس والخزرج هو مفهوم أو موضوع السلام الذي عمل الرسول ﷺ على ترسيخه في المجتمع الجديد فحسب، ولكن مسالمة الجيران أيضا حتى من أصحاب العقائد الأخرى، أو أولئك الذين يشاركونهم المسكن بالمدينة مثل اليهود.

ولكن السلام الجديد هو سلام مبني على العلم. العلم بحقيقة أولئك اليهود ونواياهم وأساليبهم، سلام مبني على الحذر من تخطيطاتهم ومكرهم، حتى في حال مسالمتهم و مهادنتهم.

لم يستطع أحد أن يقضي على مبدأ السلام الاجتماعي المبني على العلم الذي عمل محمد بن عبد الله ﷺ على توفيره كأحد مبادئ الحياة في المجتمع الجديد في المدينة المنورة، حتى في غمار المعارك التي حدثت ما بين المسلمين وغيرهم في عهده ﷺ، كانت المدينة أو دولة المدينة المنورة دائما تعيش في مرحلة رائعة من التعايش الاجتماعي السلمي في داخلها وفيما بين عناصرها.

ولذا استدار الرسول ﷺ على اليهود ليؤدبهم بعد محاولتهم ضعضعة الأمن الداخلي للمجتمع الإسلامي الوليد بالمدينة بتعاونهم السري مع أحزاب الجزيرة الراغبة في القضاء على الإسلام.

هكذا دائما يحتاج السلام الاجتماعي في كل مكان، وفي كل زمان إلى اليقظة التامة لمواجهة كل أولئك المتربصين به، الساعين إلى عودة الصراع الفتاك ما بين عناصر المجتمع.







العدد (٥٩٤) صفر ١٤٣٦ هـ _ ديسمبر ٢٠١٤ م

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

info@alwaei.com

www.alwaei.gov.kw

مجلة الوعى الإسلامى

الكويت في معرض فرانكفورت الدولي الـ٦٦







مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

تدريس المعرفة الشرعية

المسلمون وصناعة الورق

التلوث الضوضائي من خلال نوازل الفقه

الذوق الأدبي.. محنة الواقع وسبيل الوصول

صون النفس من مقاصد الشريعة

هدية العدد

كراسة «قواعد العدد و المعدود»

العدد ٥٩٤ - السنة ٥٢ - صفر ١٤٣٦ هـ / ديسمبر ٢٠١٤ م


صعبة لو أخرتها
صلاتي
في وقتها
نفائس
المشروع العلمي لتعزيز العبادات
إدارة الإعلام الديني
nafaesscom
RedAwqaf
www.nafaess.com

الإنسان والحياة

القرآن الكريم وضع بين أيدينا منهجا منظما متكاملا للحضارة الراقية، والحضارة تعني الإنسان والكون والحياة، فالإنسان هو ذلك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات، وقد شرفه الله بالخلافة على هذه الأرض، فالاجتماع الإنساني ضرورة، وهو عمران العالم الذي تتكون منه المجتمعات، وهذا الاجتماع إذا حصل فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض؛ لما في طباعهم من العدوان والظلم، وهو النظام والدولة، ولابد لكي تتم رسالة الإنسان في الحياة من احترام ملكاته وإقرار رغباته، وإنماء مواهبه العالية الطبيعية التي تتناسب مع مقتضيات الفطرة السليمة، والحياة هو العمر الذي يتمتع به الإنسان، وهو محور العمارة الكونية في الحياة الدنيا، وذلك بما أوتي من نعمة الفكر والبصيرة، ولابد من تهيئة الجو الخاص والعام، كي يسلم الكيان البشري من العاهات العارضة، والسدود العائقة.

إن قادة المجتمع وعلماءه وصناع القرار فيه هم من يوجه المجتمع، إن أريد له التقدم والرقي والعطاء، أو سيبقى في الانحطاط إن لم يؤخذ بيده إلى العزة والتمكين.. وعليه فلابد من توجيه وحدة الكلمة في تقديم الإصلاح، لئلا تفرقنا العصبيات.. إن هذا الدين ينظم هذه الطباع، ويحسن توجيهها إلى أهدافها، وإن هذه الجفوة بيننا وبين الحياة محفوفة بالمخاطر، بل هي قد وقفت بنا في أوائل الطريق، على حين مضى الآخرون يكدحون ويجدون، والمجتمع الحضاري هو الذي ينتقل من موقع المستهلك القائم على إبداعات الآخرين إلى موقع الإنتاج والمشاركة الإيجابية، كما أن ديننا الحنيف يدعو إلى وحدة المجتمع وتآلفه، ونبذ الخلافات؛ ليكون كالجسد الواحد، آماله وآلامه واحدة.

إن أمتنا بحاجة إلى أن تجيد فن الحياة.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٤ | صفر ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
ديسمبر ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبوروأش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤ تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



جاءت مشاركة وزارة الأوقاف في تظاهرة ثقافية مثل معرض فرانكفورت الدولي للكتاب لتعكس صورة مضيئة عن دور الكويت في نشر الثقافة العربية والإسلامية.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- السودان. الخرطوم - العمارات - شارع ٧٣ - ص.ب ١١١٦ - دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع - ت ٧٩٣٢٨٣ (٠٠٢٤٩١١) نقال ٢٩٩٥ (٠٠٢٤٩١٢٣٠) ف ٧٩٣٢٨٤ (٠٠٢٤٩١١)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة. رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

تظاهرة ثقافية دولية

معرض فرانكفورت الدولي للكتاب تظاهرة دولية ثقافية كبرى، تجمع الآلاف من المثقفين والكتاب والباحثين من كل بلدان العالم، ويمثل أهمية معرفية وثقافية تعود لتاريخ إنشائه منذ عدة عقود، لذا كان من الضروري حرص وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على المشاركة السنوية في المعرض وآخرها نسخته الـ ٦٦ التي أقيمت أخيرا.

ويعتبر المعرض منبرا مهما يؤسس للتبادل المعرفي والحوار بين مختلف الأمم والحضارات، وهو ما تسعى إلى تحقيقه مختلف الفعاليات الثقافية التي تقام على هامشه، كالندوات الثقافية والأدبية وحلقات الحوار والنقاش والمحاضرات التي يشارك فيها كبار الأدباء والمثقفين والمبدعين.

والكويت ممثلة في وزارة الأوقاف حريصة على المشاركة الفاعلة في المهرجانات الثقافية ومعارض الكتاب الدولية؛ بهدف إبراز صورتها الحضارية التي باتت تعكس التقدم والرقي في الجانب الفكري والعلمي والثقافي.

وقد حظيت مشاركة الأوقاف الثرية في هذه الدورة بتقدير وإعجاب الزوار، لاسيما أن إصدارات الوزارة المعروضة تساهم في مد جسور التواصل لمعرفة الآخر عن طريق التبادل المعرفي.

وقد زار جناح وزارة الأوقاف، كل من حاكم الشارقة الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، ووزير الإعلام العماني عبدالمنعم الحسني، وسفير مصر بألمانيا د. محمد حجازي، ورئيس اتحاد الناشرين السعوديين أحمد الحمدان، ووفود الدول الخليجية المشاركة، والعديد من المهتمين والمثقفين وطلبة المراكز والمدارس.

التحرير

الاشتراكات

• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير - للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)



المجتمع المدني قوة ذات حدين!

محمد سعيد باه
أستاذ جامعي - السنغال

من إفرازات المدنية المعاصرة، بنكهتها الغربية المتسلطة، أو المسيطرة وفق اختيار أنصارها، ما تم الاصطلاح على تعريفه بأنه المجتمع المدني بصيغته الأخيرة، وقد جاء هذا الابتكار التصوري التنظيمي ضمن استحداث العديد من الآليات والأنساق التي يراد منها أن تنهض بوظيفة حفظ الحد الأعلى من التوازن لحركة المجتمعات وبشكل أخص في إطار نهج ممارسة السلطة التي أصبحت من أهم المعضلات التي تواجه البشرية، والتي تتكبد في سبيلها كثيرا من الخسائر، وقد يصل الأمر في بعض الحالات إلى وقوع كوارث.

والدافع الآخر الذي ساهم في هذا الاستحداث ما سجله السياسيون التقليديون من فشل متتابع في ضبط علاقة الدولة (السلطة) مع المواطن بصورة صحيحة، وبما يخدم هذا الأخير، وفق بنود العقد الاجتماعي الذي واثق به الطرفان لممارسة تلك السلطة من حيث المنطلقات والمآلات، الأمر الذي جعل مسار هذه العلاقة ينحرف مآت الدرجات، ونتج عن ذلك تغول الساسة وانفلاتهم بعيدا عن كل مراقبة شرعية؛ إما بالمبارزة وإما بالتحايل المفضوح، وهذه هي الظاهرة السلبية التي عرفت بالطغيان مع تعدد في مظاهره التي يتقمصها حسب الحالات والأوضاع.

وهنا يأتي المفهوم الجديد الذي استقر عليه العرف أو المصطلح حين يعرف المجتمع المدني - ضمن حشد من التعريفات تتنوع إلى حد التباين، انطلاقا من زاوية المعرِّف ومراميه - على أنه تجمع فضفاض للمواطنين (أفرادا وتنظيمات) في أي إطار كان، وفق محددات يتم التوافق عليها، على أن يكون ذا أهداف

غير ربحية، وأن يقع فعله خارج دائرة الأطر السياسية التقليدية من أحزاب وتكتلات، وقبل ذلك وبعده يشترط أن يكون التجمع تام الاستقلال عن الدولة من حيث القرار والاختيارات؛ وأما دورها فتربوي بالدرجة الأولى (١).

من حيث الجذور التاريخية فالباحثون الذين تناولوا الموضوع يرجعون نشأة مفهوم وتأطير المجتمع المدني إلى حوالي أربعة آلاف عام، وبالتحديد إلى أيام الفيلسوف اليوناني سقراط الذي أنشأ «koinonía politikè» وهو مصطلح يعني «مجتمع مواطنين»، ثم تبلورت التجربة عبر القرون مع وجود حالة المد والجزر، إلى درجة أن المفهوم قد غاب فترة من الزمن قبل أن يتم إحياؤه إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين يصنفان على أنهما الفترة الذهبية (قرون النور) على أيدي بعض الفلاسفة والمفكرين الذين ناضلوا من أجل التحرر من ربقة الكنيسة ثم السلطان المتحكم على الرقاب؛ وقد جعل هؤلاء المجتمع المدني يتمركز بين الدولة وبين الشعب، وتراوح دوره بين الرقابة على الدولة وبين القيام بالوساطة بين الجانبين وبين مكونات الشعب.

أما حين نتلمس ملامح المجتمع المدني في إطار المجتمع الإسلامي الكبير، فيمكننا العثور عليها من خلال تيارين نشآ في العالم الإسلامي وتركا آثارا غائرة في مسيرة هذا المجتمع، وبالأخص في إطار علاقته مع الدولة أو السلطة السياسية القائمة، ونشير هنا إلى مجتمع العلماء ومنظومة الوقف (٢).

في الوقت الذي قدم فيه الوقف من المنظور الإسلامي حلولا لكثير من العلل التي كان المجتمع المسلم يعاني منها، وهو الدور المحوري الذي تنهض به منظمات المجتمع المدني في الشق الإنساني، داعما دور السلطة السياسية وليس من باب الافتآت.. أما فيما يتعلق بدور العلماء في هذا الشأن فقد نهض العلماء ومن تحلقوا حولهم بدور كبير في موازنة السلطة السياسية من منطلقات تقترب كثيرا من تلك التي تأسس عليها المجتمع المدني الحديث، انطلاقا من البعد عن السلطة السياسية، مرورا بالانحياز إلى المجتمع، وانتهاء إلى رفض اتخاذ الخيار الحيادي.

من حيث المرتكز فإن المجتمع المدني يقوم على فكرة بسيطة تتمثل في بناء رأي عام قوي مستنير ومتماسك يملك القدرة على مواجهة ما اعتبروه انحرافات حادة للقرار السياسي الذي يرون أنه ليس منحازا لمصلحة الجماهير، وهوما سيدفعه إلى اتخاذ مواقف وفق ما تملي به مصالحه المشتركة.

حدد بعض الباحثين الغربيين مهام منظمات المجتمع المدني في:

الحماية، حماية المجتمع من سطوة الدولة، بانبساط أجواء الحريات العامة.

المراقبة، لأداء السلطة لتؤدي رسالتها ضمن العقود الاجتماعية المبرمة.

المشاركة، بمعنى جعل المواطن يساهم في صنع القرار السياسي باعتباره المستفيد والمتضرر في المقام الأول. التخفيف عن الدولة، ولأن دورها يتمركز حول حماية المواطن، فإنها لا تكتفي بمجرد التنظير، وإنما تشارك في حمل العبء. التنسيق والتكامل، ضمن جهودها للنهوض بالمجتمع تسعى منظمات المجتمع المدني إلى تأطير قواها المبعثرة لتتساند وتتكامل. الدمقرطة (نشر الديمقراطية).

إدارة النزاعات، يعتبر هذا المجال من أوسع المجالات التي تنشط فيها منظمات المجتمع المدني سواء تعلق الأمر بالنزاعات الداخلية أي تلك التي تقع بين مكونات المجتمع الواحد، أم بما يعتري العلاقات بين الدول من توتر (٣).

لكن النمو الواسع الذي حققته منظمات المجتمع المدني بعد إعادة تنظيمها وإحياء دورها، ضمن أطيافها المتباينة في الألوان والأذواق، خلال العقود الثلاثة المنصرمة قد أضفى جملة من الاعتبارات على أسس ودور والآليات الموظفة من قبلها بما جعلها تتنقل إلى مستوى جديد في علاقتها الثنائية مع كل من الدولة وأجهزتها المختلفة من جانب، والقوى السياسية الفاعلة والمجتمع في إطاره الأوسع مقابل المكونين الآخرين من جانب آخر.

يتضح هذا البعد بجلاء حين نستحضر كون نعت «المدني» قد اختير تمييزا لهذا التيار عن «السياسي» وليس مقابل غير المدني المتمثل في «العسكري»، وهو ما يحدد بدقة الغرض الأساس من نشأة المجتمع المدني، وإن كان ذلك لا ينفي أن التحور الذي دَاخَلَ المفهوم قد جعله يتضخم كثيرا، وهو الأمر الذي سيجلب على القائمين عليها النقد الذي قد تصل نبرته الحادة إلى مستوى التشكك في النوايا أو الدوافع الكامنة خلف المواقف تجاه كثير من القضايا.

مع هذه الأهمية، أو بفعلها فقد سجل كثير من المآخذ على العديد من تنظيمات المجتمع المدني وبالأخص في بلدان العالم الإسلامي، من ذلك على سبيل المثال، كونها لديها قابلية التطويع لخدمة مشاريع أخرى تتصادم مع مصالح الشعوب التي يدعون خدمتها.

لتوضيح هذه الفكرة نأخذ مؤسسة «فريدريش كونارد» الألمانية نموذجا، رغم أنها تصنف نفسها ضمن خارطة منظمات المجتمع المدني، فإن التعريف الذي تقدمه عن نفسها يطرح إشكال البعد الديني أو ما يمكن التعبير عنه بالتستر وراء لافتة «المدني» لمآرب أخرى، حيث تقول بأنها ذات توجه مسيحي اشتراكي، تنهض على القيم المسيحية ولها علاقة وطيدة بحزب «الاتحاد الديمقراطي المسيحي» الألماني الذي يوصف من الناحية الأيديولوجية بأنه قومي يميني ومحافظ.

والنموذج الآخر يتمثل في استحواذ التيار اليساري على «المنتدى الاجتماعي العالمي» الذي يعتبر اليوم أضخم تجمع للمجتمع المدني في العالم، لكن يبدو أن بريق هذا المنبر آخذ في الخفوت بسبب أن بعض القوى التي ناوأها استطاعت أن تمتص بعض زخمه، وكونه لم يكن في الأصل مؤسسا على ركائز صلبة، وإنما كان في الأساس استغلالا لظروف مواتية تمثلت بالدرجة الأولى في حالة الترنح الشديد الذي عاشه الفكر الرأسمالي في العقد الأخير، وهو ما اهتبله التيار اليساري الذي كان يعاني من فقدان نقطة الارتكاز منذ سقوط

جدار برلين وما مثله من تحولات جذرية عبر العالم، ليأخذ بعض الثأر.
مهما يكن فقد نهضت هذه المنظمات في هذه المرحلة التي نجتازها والتي تتميز باتساع دائرة التوتر في كل أركان المعمورة تقريبا، بدور معتبر كما ساهمت في الحيلولة دون أن تكون الاستحقاقات الانتخابية فرصة لتفجر النزاعات التي غالبا ما تكون مدمرة، للشعوب التي تبتلى بها، ماديا ومعنويا.
من الميادين المحورية التي يبرز فيها الدور الإيجابي لمنظمات المجتمع المدني قيامها بتبني المطالب العادلة لعدد من الفئات الاجتماعية المهمشة التي عانت إما من الحرمان من الحقوق الإنسانية الجوهرية، وإما من الخضوع للاضطهاد بأبشع صوره، كما هو الحال في بعض المناطق كالهند وفلسطين.
المساهمة بصورة إيجابية في إدارة توسعة دائرة الممارسات الديموقراطية وتعميقها كي تستقر عرفا للتعاطي مع قضايا وأجهزة الحكم، مثل تكريس ثقافة التداول السلمي للسلطة السياسية..
رغم أهمية هذا الدور المحوري الذي يمكن أن ينهض به المجتمع المدني في المحافظة على الصحة النفسية من الناحية الاجتماعية للشعوب، ورغم وجود جذور إسلامية قوية للفكرة التي ينهض عليها المجتمع المدني فإن العالم الإسلامي عموما يعتبر متخلفا عن الركب، وذلك بسبب الأوضاع التي كانت سائدة فيه قبل هبوب عواصف الربيع العربي، والذي تمركز في قلبه، وأخذ يقلب كل المعادلات قبل أن يمر بمرحلة الانتكاسات، كما يرى البعض، ونعتبره حالة طبيعية تعتري كل التحولات الكبرى في الأمم التي رزحت تحت نير الطغيان السياسي ردحا من الزمن.
فإذا سلمنا بأن الدور الذي على منظمات المجتمع المدني أن تنهض به يتمثل أساسا في حماية الحقوق العامة ونشر الثقافة السلمية في المجتمع، وتمكين الشعوب من ممارسة الحياة الديموقراطية في مباشرة السلطة ومراقبة أداء السلطات السياسية على المستويين المركزي (الدولة المركزية وأجهزتها المختلفة) والأطراف (البلديات، السلطات المحلية..)، يجب أن نعترف بأن هذا من صلب المطالب الكبرى التي يسعى أي تنظيم إسلامي إلى تحقيقها في إطار عدد من التنظيمات والإجراءات والآليات مثل الحسبة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى الله، الأوقاف وتجمعات العلماء، المنبر في المسجد..
وتكملة أو تطويرا لهذا الدور يمكن القبول بل الاحتفاء بفكرة إتاحة مساحة واسعة لمنظمات المجتمع المدني ضمن تركيبتنا المجتمعية ذات الصبغة الإسلامية إلى درجة اعتبار ذلك مطلبا ملحا يجب العمل من أجل الوفاء به، لما يمكن أن يقدمه من مساهمة معتبرة في تفعيل المجتمعات الإسلامية وتمكينها من التخلص من كثير من المعوقات نتيجة سوء العلاقة أو عدم ضبطها بصورة صحيحة ودقيقة بين السلطة السياسية وبين المجتمع بأفراده وتكتلاته.

وبمجمل ما تم عرضه يظهر أنه يمكننا استخلاص جملة من المعطيات تصلح لإعادة بناء مفهوم المجتمع المدني، ودمجه في باقة من الروافد أو المكونات التي تم تكريسها، في إطار الرؤية الإسلامية، لتنظيم قوى المجتمع الحية، وتسهيل طرائق التعاطي مع الشأن العام إزاء الدولة أو السلطة السياسية بالمعنى الأدق..
ليست منظمات المجمع المدني في الواقع سوى أحد تجليات الرغائب الدفينة في التعبير عن الذات، وبعبارة أخرى: النزوع المشروع نحو ممارسة حق المشاركة في صنع وتفعيل القرار، بما يعود على المجموع بالفائدة؛ بعيدا عن نزعة الاستفراد أو احتكار القرار.
على خلاف ما يروج في بعض البلدان، حيث تضيق الأنظمة السياسية القائمة بأي تحرك جاد لدفع الرأي العام نحو اتخاذ مواقف، خارج عباءة الحاكم، فإن المجتمع المدني في معناه الأصيل لا يعدو كونه آلية مستحدثة تنضاف إلى حشد من الآليات مثل الإعلام والمنابر الدعوية والتنظيمات السياسية..
بإتاحة مساحة كافية تستطيع القوى المجتمعية التحرك فيها بإيجابية وفاعلية، يتم احتواء تلك الطاقات المختزنة التي ستعبر عن نفسها بهذه الطريقة أو تلك، وفي حال حبسها وقد تفعل ذلك بطرق غير هادئة.
باعتبار المجتمعات الإسلامية من أشد المجتمعات اختلالا في العلاقات البينية، يشكل وجود أطر وهياكل المجتمع المدني المتسم بالقدر الكافي من الشعور بالمسؤولية أحد أهم صمامات الأمان، وهو الأمر الذي يصب في مصلحة السلطة القائمة.
ومما يساعد على نشر ثقافة المجتمع المدني في الدول الإسلامية التخفيف، إذا لم يمكن التخلص كلية، من غلواء المفهوم الإيديولوجي الذي نصبناه معيارا لمحاكمة مؤسسات المجتمع المدني.
إذا كان مفهوم المجتمع المدني الذي استقر عليه الأمر يتسم بالمشاركة الفعلية؛ انطلاقا من طبيعتها وطرائق عملها، فإننا نجد في المؤسسات الإسلامية التي تعمل في مختلف ميادين النفع العام (الإنسانية - الخيرية) أرضية جيدة لتنشئة المجتمع المدني الإسلامي بصورة متوائمة مع قيمنا وواقعنا؛ بما يحول دون الخضوع لإملاءات المجتمع الخارجي الذي يزداد تنمرا، وبالتالي إمكانية امتطائها لتحقيق أهداف غير بريئة.

هوامش:

١- كما جاء في التعريف الذي تبنته اليونسكو في وثيقة لها بهذا الخصوص.

٢- انظر بحثا قدمناه في مؤتمر الشارقة عن الوقف والآخر بعنوان: «منظومة الوقف الإسلامي.. رؤية متقدمة لتحقيق حلم التكافل البشري»، وهو موجود في الشبكة.

٣- انظر دراسة الباحثين «نينيا كوف تك» و«فريدل باي بر» بعنوان: «ما هي منظمات المجتمع المدني»؟ نشرتها مؤسستا «فريدريك إيبر» و«فانا بيزنا».

تولّى أول وزارة تربية بتاريخ الكويت:

الديوان الأميري احتفل بتكريم اليونسكو للشيخ عبد الله الجابر رحمه الله

التحرير

برعاية وحضور سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، أقام الديوان الأميري احتفالية بمناسبة اختيار الشيخ عبدالله الجابر الصباح كشخصية عالمية في مجال الثقافة والتعليم من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) للعام ٢٠١٤ / ٢٠١٥ وذلك صباح الأربعاء ١٢ من محرم الموافق ٥ نوفمبر الماضيين.

وقد أتى الاحتفال متزامنا مع الذكرى الخمسين لتولي الشيخ عبدالله أول وزارة تربية بتاريخ الكويت في العام ١٩٦٢، و«الوعي الإسلامي» إذ تبارك للشعب الكويتي هذا التكريم الذي جاء عرفانا بجهد الشيخ عبدالله الجابر رحمه الله في مجال التعليم- تقدم نبذة عن سيرة الشيخ عبدالله وفضله في مجالي التعليم والثقافة، تلك التي دعت الأزهر الشريف قبل أكثر من خمسين عاما إلى الاحتفاء به، حيث قال فضيلة الشيخ محمد عبداللطيف دراز -وكيل الأزهر في الخمسينات- في الكتاب الذي حمل عنوان «الكويت المدينة الفاضلة (سويسرا الشرق)»: «أتاحت لي زيارة سمو الأمير الشيخ عبدالله الجابر الصباح وزير المعارف والأوقاف والعدل أن ألمس عن قرب مقدار ما يتمتع به أهل الكويت من فطرة عربية سليمة وسير على نهج الإسلام في تنظيم شؤونهم، فهم ولعون بنشر العلم والخير والبر، كما أنهم حكَّموا فيما بينهم الشرع الحنيف» ومن أحسن من الله حكما لقوم يعقلون «فليس بدعا أن يحتفل الأزهر بالأمير وأن يعبر عن تقديره لبلاده في شخصه».

وهذا الرجل الذي أشرف على تعليم جيل كامل هو حفيد حاكم الكويت الخامس الشيخ عبدالله بن صباح الصباح، وهو



من مواليد ١٨٩٨.. ترأس أول نادي أدبي في الكويت عام ١٩٢٤.

وبعدها بأربع سنوات عين رئيسا للمحاكم.

في عام ١٩٣٢م عين رئيسا لدائرة البلدية، وفي عام ١٩٣٦ عين رئيسا لمجلس المعارف، بعام ١٩٤٨ عين رئيسا لدائرة الأوقاف، وفي عام ١٩٤٨ عين رئيسا لدائرة الأيتام.

في ١٧ يناير ١٩٦٢ وفي أول حكومة في تاريخ الكويت بعد انتخابات المجلس التأسيسي عين وزيرا للتربية والتعليم، وأعيد تعيينه بنفس المنصب في ٢٨ يناير ١٩٦٣ بعد وضع الدستور وإجراء انتخابات مجلس الأمة، وفي ٩ مايو ١٩٦٤ عين بالإضافة لمنصبه وزيرا للعدل -بالنيابة-، وذلك إلى تاريخ استقالة الحكومة في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٤.

وفي ٣ يناير ١٩٦٥ عين وزيرا للتجارة والصناعة، واستمر بهذا المنصب حتى عام ١٩٦٧ حيث استقال من منصبه وترك العمل الوزاري.

بعام ١٩٦٧ عين مستشارا خاصا للأمير صباح السالم الصباح، ومن بعده للأمير جابر الأحمد الصباح، رحمهما الله، وذلك حتى وفاته في ١٨ سبتمبر ١٩٩٦.

وقد اختارت منظمة اليونسكو الشيخ عبدالله الجابر ضمن شخصيات عالمية في الثامن من أبريل عام ٢٠١٣ تقديرا لإسهاماتهم المميزة في تنمية الثقافة والمعرفة الإنسانية.

وقالت إن هذا الاختيار جاء بعد دراسة ملف إنجازات الشيخ عبدالله الجابر، وتصويت المجلس التنفيذي للمنظمة لصالحه، واعتماد المؤتمر العام لهذه الشخصيات.

جاءت احتفالية الديوان الأميري بقصر المرحوم، بإذن الله، الشيخ عبدالله الجابر بوسط الكويت؛ نتاجا للتعاون المثمر بين عدة جهات حكومية، هي: مركز الوثائق التاريخية بالديوان الأميري، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ومكتب الكويت الدائم في باريس، واللجنة الوطنية الكويتية للتربية والعلوم والثقافة.

فخرج هذا الحدث بالمستوى الذي يليق به، عليه رحمة الله.



شيخ عموم المقارئ المصرية الشيخ عبدالحكيم عبداللطيف:

ضرورة تحسين التلاوة دون غلو

عبدالله شريف - القاهرة : دار الإعلام العربية

«لم أرفع صوتا على مشايخي.. وأدعو لهم ليل نهار.. وأسأل الله أن يحشرني تلميذا لهم».. بهذه الكلمات بدأ فضيلة الشيخ عبد الحكيم عبد اللطيف شيخ عموم المقارئ المصرية حديثه، متذكرا فضل أساتذته الكبار الذين تعلم على أيديهم آداب قراءة القرآن الكريم حتى صار مدرسة قائمة بذاتها في علوم التنزيل الحكيم.. كيف لا؟! وقد كانت أمنية والده أن يكون ماهرا بالقرآن الكريم، فأرسله منذ نعومة أظافره ليحفظه على أيدي كبار الشيوخ والمقرئين.. فعاش عمره كله في معية كلام رب العالمين، وأكد لـ«الوعي الإسلامي»: أنه لا حياة بدون القرآن الكريم، وطالب بأن يكون تحفيظه هدفا لكل أسرة مسلمة.

● جدل كثير أثير حول قرار وزير الأوقاف تعيينك شيخا لعموم المقارئ المصرية بدلا من الشيخ أحمد عيسى المعصراوي.. فما تعليقك؟

ينبغي على الجميع أن يعلم أن أهل القرآن، لابد أن يبتعدوا عن أي مشاحنات أو خلافات.. وأن منصب شيخ عموم المقارئ المصرية قد عرض علي قبل ٢٥ عاما، لكني رشحت الدكتور أحمد عيسى المعصراوي، لأنني لا أحب المناصب والكراسي.. والدكتور المعصراوي أحد تلامذتي الذي قرأ علي العشر الصغرى والكبرى، لكن لانشغاله بالسفر الدائم، وتحكيمه في مسابقات دولية كثيرة،



كلفني وزير الأوقاف بالمنصب فوافقت خدمة للقرآن الكريم وأهله.. وأحب أن أؤكد للجميع على عمق العلاقة التي تجمعني بالدكتور المعصراوي، والتي لا يمكن أن تهتز تحت أي ظرف.

• وكيف كانت مسيرتك إلى هذا المنصب؟

أحمد الله أنني لم أسع طوال حياتي وراء منصب، فقد منّ الله علي بأن ولدت لأسرة تنبض بحب القرآن الكريم، فما أن وصلت إلى سن الثالثة حتى بعث بي أبي إلى الكُتاب لحفظ القرآن على يد الشيخ إمام عبده حلاوة، وهو شيخي الأول، والذي تلقى القرآن الكريم عن الشيخ حسن الجريسي عن أبيه الشيخ حسن الجريسي، عن الشيخ المتولي، برواية حفص، وأخذ أيضا عن شيخ من شيوخ المتولي.. وقد بدأ بتعليمي وأقراني حروف الهجاء المفردة، ومن ثم الكلمات المجمعة، وكنا نكتب بالمحبرة والقلم، كما علمنا التشكيلات ورسم الكلمات، ولما تعلمنا قواعد الكتابة حفظنا الواجب في حق الله تعالى، والمستحيل في حق الله، والجائز في حق الله، وبعد ذلك حفظنا أسماء الله الحسنى.

ولما أراد أن نحفظ القرآن بدأ بالفاتحة، ثم بدأنا من الناس حتى البقرة، وكان الضرب عقاب من لا يحفظ، وأذكر أنني ختمت القرآن الكريم في سن ١١ عاما.

انتقلت بعدها إلى قراء آخرين أعدت عليهم ختم القرآن، منهم الشيخ علي عرفة، ثم ذهبت إلى آخرين لتعلّم تجويد

رفضت منصب شيخ العموم قبل ٢٥ عاما وقبلته الآن خدمة للقرآن الكريم وأهله

القرآن وتجويد العلم «التحفة والجزرية، وشرحهما وتطبيقهما على القراءة، ثم ذهبت إلى معهد القاهرة ونقلني أبي إلى معهد القراءات عام ١٩٥٠م، آنذاك كان الأزهر عامرا بكبار المشايخ، قرأت على عدد منهم ومن أبرزهم: عامر السيد مراد، والشيخ محمد مصطفى الملاوني، وقرأت على الشيخ مصطفى منصور الباجوري ختمة حفص، جودتها على التحفة والجزرية، ثم أفردت معه القراءات العشر، ثم جمعت من أول البقرة حتى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ (القصص ٨٨)، ثم جاءني تعيين من الأزهر بالإسكندرية.

• هل ندمت على تركك القراءة على الشيخ والذهاب للتعيين الوظيفي؟

لم أمكث في الإسكندرية سوى عام واحد انتقلت بعده إلى الفيوم، لذا اضطررت إلى ترك القراءة على الشيخ لمدة عام، وعندما عدت وجدته قد توفي، وندمت على ذلك. لكني رأيته في منامي وأنا أطلب منه أن يجيزني فأومأ برأسه موافقا وكان مبتسما، وقد كان رحمه الله يرتاح لقراءتي وقرأت عليه كثيرا.

بعدها تدرجت في مراحل التعليم بالأزهر، واستكملت تخصص القراءات والتجويد لمدة سنة، وبعد أن أتممت المرحلة الأولى وهي إجازة التجويد بحفص، انتقلت إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة عالية القراءات، وهي تتضمن دراسة الشاطبية والدرة، وغير ذلك من التفسير، والرسم، والفواصل، والنحو والصرف، والفقه.

وحضرت على الشيخ محمود علي بسّة، وتقابلت في مرحلة العليا بالأزهر مع مشايخ عظام منهم: الشيخ محمد منير عابدين، والشيخ محمود بكر، وفي التخصص حضرت على الشيخ الهمداني والشيخ أحمد محمد عبد العزيز الزيات، والشيخ عامر السيد عثمان، والشيخ إبراهيم شحاته السمنودي.

كما ذهبت إلى الشيخ أحمد محمد عبد العزيز الزيات، وقلت له قرأت على الباجوري ولم أكمل لوفاته فوافق على قراءتي عليه، وكنت آنذاك في المعهد، أكملت العالية وسأدخل التخصص، ثم ذكرت له الشاطبية والدرة، فقال: أسند القراءات العشر من الشاطبية والدرة من طريقي وبقيت مع الشيخ أذهب إليه ثلاثة أيام في الأسبوع، إلى أن ختمت القراءات، وختمت عليه في سنة وستة أشهر.

كل هؤلاء المشايخ كنت تلميذا لهم وأدعو الله أن أبعث تلميذا لهم، وبعض هذه السلسلة من الشيوخ يتصلون بالصحابة الكرام عن الإمام علي بن أبي طالب عن عثمان بن عفان عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ عن جبريل عليه

السلام عن رب العزة سبحانه وتعالى.. ومعي سند من الشيخ إبراهيم شحاته السمنودي، والشيخ أحمد محمد عبد العزيز الزيات والشيخ عبد الفتاح هنيدي.

والسند يعني أن يقرأ القارئ لأحد القراءات على شيخ ما، لحفص، أو لشعبة، أو للعشر الصغرى، ثم عن الشيخ الذي قرأ عليه الشيخ، مرورا بالمتولي، ثم ابن جزري، ثم الشاطبي، ثم التابعين، والصحابة عن رسول الله، عن جبريل، عن الله جل وعلا.

● أبرز مؤلفاتك في القرآن الكريم؟

أكملت كتاب الكوكب الدري في شرح طيبة ابن الجزري، الذي لم يكمله الشيخ محمد الصادق قمحاوي، وشرح منظومة قراءة الكسائي للشيخ علي محمد الضباع.

● ما هي الإجازة؟ وكيف تتعامل مع طلاب السند؟

الإجازة نقل صوتي للقرآن الكريم من جيل إلى جيل، وفيها يشهد المجيز أن تلاوة المجاز صحيحة مائة بالمائة، مضبوطة الأحكام والقواعد، وكل شيخ عن الشيخ الذي قبله، وهي أمانة في رقبة الشيخ الذي يُعطيها، لذلك ينبغي عليه أن يؤديها إلى مستحقيها، وكذلك كان السابقون ونحن على دربهم بإذن الله.. يأتي إلي طلاب كثيرون من مختلف أنحاء العالم يبحثون عن الإجازة، في قراءة القرآن، وأغلبهم لوجه الله تعالى، وحرف من القرآن يُساوي الدنيا وما فيها.

الدكتور المعصراوي تلميذي وعلاقتي به لا يمكن أن تهتز

● كيف ترى وضع المقارئ الآن والفرق بينها وبين كتاتيب الماضي؟

أحوال المقارئ الآن لا تسر أحد، وعدم السؤال عن وضعها أفضل، وآمل أن يوفقني الله إلى تصحيح أوضاعها.. وكان تعليم القرآن في الماضي يستخدم فيه الثواب والعقاب، وكان الشيخ يشعر أنه مسؤول أمام الله عن تعليم هذه الأجيال، ولم يكن من أجل الحصول على مكاسب، أيضا كان يشمل تعليم مخارج الحروف العربية الصحيحة وقواعد اللغة.. وتحفيظ القرآن بقواعد الأحكام والتجويد.. وكنا نحضر المقارئ بشوق، والله كان يفيض علينا بعلم القرآن الكريم، وعندما كنت قارئا قبل أن أكون شيخ مقرأة؛ كان الشيخ يعطينا علما وليس تحفيظا فقط. وكان مشايخ المقارئ، مثل الشيخ مصطفى الباجوري شيخ مقرأة الحسين، والشيخ أحمد هاني شيخ مقرأة السيدة نفيسة، علماء بالقراءات والتجويد، وحصل بعضهم على العالمية كالشيخ خميس نصار ومعه سند من القراءات العشر.

● ما الفرق بين القراءات السبع والحروف السبع؟

الحرف له معان، وحرف الشيء طرفه، ومن ضمن الحرف حروف الهجاء ومن معاني الحرف القراءة، ويقال: فلان يقرأ بحرف نافع، أي: بقراءة نافع، من ضمن تعريف حرف اللغة الوجه، فالشيخ يقرأ بوجه حفص أو وجه شعبة.. ويقول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾. والقراءات السبع نسبة للصحابة الذين رووها.

● حكمت في مسابقات عالمية لحفظ القرآن.. ما رأيك فيها وهل تحقق الهدف منها؟

حكمت في مسابقات في السعودية والكويت وماليزيا وأندونيسيا وأستراليا وروسيا، وهي تخدم القرآن الكريم، وتعتبر محافل لتلاقي شعوب الإسلام. وينبغي أن تسود روح المحبة والسلام بين المسلمين مع بعضهم وبينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى، وأنا أحب القراء كلهم، وأحب المذاهب الأربعة التي ما كانت إلا لتبسيط الإسلام السمح.

يجب احترام الاختلاف، ويجب أيضا تعليم الجهال بالأعمال التي تخرج من الدين مثل: الطواف حول الأضرحة، وأن الزيارة يجب ألا تتجاوز أخذ العبرة والاتعاظ.

● انتشرت بعض البدع التي تستعمل الموسيقى في تلاوة القرآن والآذان؟

القرآن له نغم، وتحسين الصوت أثناء تلاوة القرآن الكريم أمر واجب، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله لأبي موسى الأشعري: «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» بسبب حسن صوته.

وكان الأشعري إذا قرأ أبكى

الصحابة، كما أن قراءة سيدنا داود عليه السلام كانت تخشع الدواب والطيور لقوله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة ص: ١٨- ٢٠)

لكن لابد من الحذر عند القراءة من المبالغة أو الغلو في الأحكام، ويجب معرفة أحكام المد، والراءات واللامات، وأحكام التجويد، مع تدبر المعنى، والخشوع عند آيات الذم والوعيد وجهنم، والفرح عند آيات المدح والجنة، وقال رسول الله ﷺ:«ليس منا من لم يتغن بالقرآن» والمراد بالتغني هو تحسين الصوت بالقراءة، قال النووي في شرحه على مسلم: وقوله: يتغنى بالقرآن . معناه عند الشافعي وأصحابه وأكثر العلماء أن يحسن صوته به.

إضاءة

هو فضيلة الشيخ العلامة المقرئ المتقن: عبد الحكيم بن عبداللطيف بن عبد الله بن سليمان، أصله من بلد اسمها الطويرات في صعيد مصر، والنسبة إليها الطويري، ولد في مصر بمنطقة الدمرداش أمام مسجد المحمدي، يوم ١٩٣٦/٩/١٧م، (وهو يوافق على التقريب غرة رجب سنة ١٣٥٥هـ).

بعث به والده ووالدته وعمره أربع سنوات إلى مكتب المحمدي بمنطقة الدمرداش، فأتم حفظ القرآن الكريم وعمره نحو ١٢ سنة. وكان شيخ المكتب الشيخ إمام عبده حلاوة، وقد تلقى الشيخ إمام القرآن الكريم عن الشيخ حسن الجريسي عن أبيه الشيخ حسن الجريسي أيضا الشهير ببدير، وبعد أن أتم الحفظ قرأ الشيخ عبدالحكيم على تلميذ شيخه الشيخ علي مصطفى عرفة عدة ختمات إعادة، وعلى غيره من مشايخ هذا المسجد. ثم التحق بالمعهد الديني الابتدائي بالأزهر، وبعد أن انتظم في الدراسة أصر والده على أن ينتقل إلى معهد القراءات بالأزهر، وكان ذلك نحو سنة ١٩٥٠م.

ومن المشايخ الذين حضر لهم واستفاد منهم في مرحلة إجازة حفص: الشيخ محمود علي بسّة، أخذ عنه الشيخ عبد الحكيم إجازة التجويد، فقرأ عليه عدة ختمات، وحضر له شرح التحفة والجزرية. وفي هذه المرحلة عشق القراءات، وأجراها الله في دمه، وهذا سبب تلقيه لها عن مشايخ خارج المعهد.

وبعد أن أتم المرحلة الأولى وهي إجازة التجويد بحفص، انتقل إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة عالية القراءات، وتتضمن دراسة الشاطبية والدرة، وغير ذلك من التفسير والرسم والفواصل والنحو والصرف والفقه. وفي هذه المرحلة حضر شرح الشاطبية والدرة على الشيخ محمد عيد عابدين، وقد حصل الشيخ محمد عيد على الدكتوراه بعد ذلك وهو في التدريس، وله مثل مؤهلات الشيخ محمود علي بسّة، غير أن الشيخ عابدين كان حنفيّا، وكان عالما فذّا، وكان يعتني بتلاميذه، وخصوصا في حفظ متن الشاطبية والدرة، والذي يقصِّر في الحفظ من الطلاب يقسو عليه جدّا، وكان هذا في مصلحة الطالب.

كما حضر على الشيخ أحمد مصطفى أبو حسن، في العرض والتطبيق للشاطبية والدرة، فكان لهم شيخ يشرح ويُعرَض عليه المتن، وشيخ يُقرأ عليه للتطبيق.. والشيخ أحمد علي مرعي، والشيخ متولي الفقاعي، والشيخ أحمد الأشموني الحنفي بمعهد القراءات..

ثم انتقل إلى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التخصص، وحضر فيها على الشيخ عامر السيد عثمان، شيخ المقارئ المصرية آنذاك، والشيخ حسن المري، وهو من تلاميذ الشيخ الزيات.. وكذا الشيخ أحمد عيطة، والشيخ أحمد عبدالعزيز الزيات، والشيخ خميس نصار، والشيخ عبدالمنعم السيد.. وغيرهم.

عين شيخا لعدة مقارئ، أولا مسجد الهجيني بشبرا، ومسجد عين الحياة الذي كان يخطب فيه الشيخ عبد الحميد كشك، وكان يجل الشيخ عبد الحكيم، ويحضر المقرأة من أولها إلى آخرها، ثم مقرأة مسجد الشعراني، ثم شيخا لمقرأة مسجد السيدة نفيسة، ومقرأة مسجد السيدة سكينة، ثم شيخا لمقرأة الأزهر، وكان وكيلاً للجنة تصحيح المصاحف بالأزهر..

وأخيرا تولى منصب شيخ عموم المقارئ المصرية خلفا للشيخ أحمد المعصراوي.

وقد زار الشيخ بلادا عدة مصليا، وتاليا بالقراءات، في شهر رمضان وغيره، ومعلِّما، وحكَما في المسابقات، ومن ذلك: أستراليا، ميلبورن، تايلند، بومبي، بانغلاديش، وشارك في مسابقات عديدة في شرق آسيا، وزار ساحل العاج، وحضر رمضان في سيراليون، وروسيا، ونيويورك، وكاليفورنيا، إضافة إلى معظم الدول العربية.

وقد شارك في مراجعة المصحف بالكويت.

الإيمان بالقدر.. راحة وطمأنينة

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

إن هذه الدنيا دار بلاء واختبار، وليست دار راحة وقرار، والمنغصات فيها كأمواج البحر المتلاطمة، ولا ينجو من ذلك إنسان، يقول -تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ (البلد: ٤).

ولا تجد إنسانًا كامل السعادة، فالغني يؤرقه خوفه على ضياع ماله، والسلطان يخشى زوال ملكه، والفقير يشقى بفقره.... إلخ.

وكثير من البشر لا يدرك قيمة ما حازه ويتطلع إلى ما يفتقده، لذلك تجد حياته بائسة لعدم رضاه وقناعته. فالغني -مثلا- قد يحسد الفقير على راحة البال، وفي المقابل يحسد الفقيرُ الغنيّ على رغد العيش.

وهذه الدنيا لا تهدأ فيها الصراعات بين بني البشر، فنجد الظالم والمظلوم، وقد تدور الأيام وتتبدل الأحوال فنجد مظلومَ اليوم ظالما الغد.

ولكن من صاحبته معية الله يكون يوم ضعفه ومظلوميته مع الله بالدعاء والاستغفار والصبر... إلخ، ويوم قوّته لا ينساق خلف نفسه المنتقمة الباطشة، ويتذكر أن العفو أقرب للتقوى، وقليل من يفعل ذلك...

والمصائب تنزل بالإنسان ليظهر جوهره ومعدنه، فمنهم من تزيده المصائب قربًا من الله، ومنهم من يجزع ويطيش عقله، ولا يهتدي إلى اللجوء لربه الذي بيده كشف الضر وتحويل المحن إلى منح.

وقد كان من أركان الإيمان الستة: «الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره» (١).

وهذه هي الدنيا يوم حلو ويوم مُر، فلا الحلاوة تبقى، ولا المرارة تدوم.

قال أوس بن حارثة جدّ الأنصار لبنيه حين حضرته الوفاة: «الدهر يومان: فيوم لك، ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحسر» (٢).

وهذا الركن أرى أننا نقرؤه ونعرفه، ولكن قلما من يعيشه؛ فهذا الركن ركن عملي وليس نظريا؛ ففيه الرضا بالقضاء والتسليم له، والثقة في موعود الله بالفرج، والصبر على أمر الله، وغيره من القيم التي تتجلى للإنسان في هذه الأحوال.

قال بعض الحكماء: ربّ محبوبٍ في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مغبوطٍ في نعمةٍ هي داؤه، ومرحوم في داءٍ هو شفاؤه، وربّ خيرٍ من شرّ، ونفع من ضرّ (٣).

وأنشد أمية بن أبي الصلت في معناه:

تجري الأمور على وفق القضاء، وفي طي الحوادث محبوب ومكروه، فربما سرني ما بتّ أحذره، وربما ساءني ما بتّ أرجوه. إلا أن ضعف النفس البشرية تؤدي بصاحبها أن لا يرضى بقضاء الله، فيظهر الاعتراض على هذا القضاء، أو يحمله الجزع وعدم الصبر على قول ما لا يرضى الله عنه.....

لذلك حذر الرسول ﷺ الذين يجزعون عند حلول المصائب بهم، ولا سيما عند مصيبة الموت، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ليس منا من لَطَمَ الخدود، وشَقّ الجيوب، ودَعَا بدعوى الجاهلية» (٤).

وهذا كثيرًا ما يقع من النساء، فيكثرن من الصياح والعويل، والندب والنياحة، وإظهار الجزع والتبرم بتقطيع الثياب، وخمش الوجوه،

«قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ الممتحنة: ١٢)، أي: لا ينحن، ولا يشققن، ولا يخمشن، ولا ينشرن شعرًا، ولا يدعون ويلا.
وقد نسخ الله ذلك بشريعة الإسلام، وأمر بالاقتصاد في الحزن والفرح، وترك الغلو في ذلك، وحَضّ على الصبر عند المصائب، واحتساب أجرها على الله، وتفويض الأمور كلها إليه» (٥).
وقد أوصى النبي ﷺ بالصبر، فهو المركب الذي لا يغرق أبدًا، من ركبه فقد نجا، فقد مرّ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اتّقِي الله واصْبري». قالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه. فقيل لها: إنه النبي ﷺ. فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك.
فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» (٦).
فالمصائب مهما عظمت فإن أثرها لا يلبث أن يضعف بمرور الوقت، وقد ينمحي أثره بالكلية، لذلك قال وهب بن منبه: «ما من شيء إلا يبدو صغيرا ثم يكبر، إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر» (٧).
لذلك فالإنسان لا يخلو من حالين بينه وبين ربه؛ فشكر المنعم حال النعمة، والصبر على أمره وقضائه حال الضراء.
وقد قيل: المحنة إذا تلقيت بالرضا والصبر كانت نعمة دائمة، والنعمة إذا خلت من الرضا والشكر كانت نقمة قائمة (٨).

فوجب التنبيه على العبد أن لا يغفل «في أوقات النعمة والرخاء عن الاعتداد بالشكر، فلا يقابل فضل المنعم - تعالى شأنه - بالكفران والنكر، كما أنه إذا ابتلي بمصيبة فلا يقابلها بالسخط والضجر، بل يكون صابرًا عند البلاء، شاكرًا وقت النعماء» (٩).
لذلك كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» (١٠) .
وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر (١١).
قال أبو الحسين بن أبي البغل:
فصبرا على حلو القضاء ومره، فإن اعتياد الصبر أدعى إلى اليسر، وخير القضايا خيرهن عواقبا، وكم قد أتاك النفع من جانب الضر، ومن عصمة الله الرضا بقضائه، ومن لطفه توفيقه العبد للصبر، والصابر على بلاء الله يناله من الأجر ما لا يقدر أحد على وصفه، أو الإتيان على كنهه، فعن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي»؟
فيقولون: نعم.
فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟
فيقولون: نعم.
فيقول: ماذا قال عبدي؟
فيقولون: حمدك واسترجع.
فيقول الله: «ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد» (١٢).
فالتسليم والإذعان لحكم الله، والرضا بما قضاه، هو تسليم بالربوبية، واستمساك بالعبودية؛

فالعبد الصالح لا يشغب على سيده، ولا يسخط بحكمه، فهو يعلم أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، «وإن كان ذلك الخير مستورا عن إدراكه وحدسه» (١٣).
ومن وصل إلى هذه الدرجة فقد وصل إلى حقيقة الإيمان؛ حيث ترسّخ في يقينه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم... ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم... ولو كان لك جبل أحد، أو مثل جبل أحد ذهبًا أنفقته في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار» (١٤).
وقال ابن مسعود: «ينتهي الإيمان إلى الورع، ومن أفضل الدين أن لا يزال باله غير خال عن ذكر الله عز وجل، ومن رضي بما أنزل الله من السماء إلى الأرض دخل الجنّة - إن شاء الله، ومن أراد الجنّة لا شك فيها فلا يخف في الله لومة لائم» (١٥) .
وما كبيرة إبليس إلا لعصيانه حكم ربه، والتمرد على قضائه، وإعجابه بنفسه، فأين هو والجنة، وقد أعلن العصيان، وناصب ربه العداء.....
وانظر إلى سياق القصة... ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي

فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (ص: ٧١-٨٥).

لذلك على المؤمن الفطن أن يوطّن نفسه على ما يقضي الله له، وأن يرضى به اختيارًا، وإلا رضي به اضطرارًا.

قال الشاعر:

ما سلم الله هو السالم، ليس كما يزعمه الزاعم تجري المقادير التي قدرت وأنف من لا يرتضي راغم، والإيمان بالقدر ليس جبرا أو سلبا للإرادة وإلا بطل التكليف وسقط الثواب والعقاب، إذا كيف يثيب الله أو يعاقب من هو مضطر لفعل الشيئ، ولا مدخل له في الفعل أو الترك، وإنما يعني التكليف الاختيار.

وقد احتج الكفار بعقيدة الجبر، وادعوا أن الله هو الذي أمرهم بالكفر، وقالوا بأن إرادة الله هي التي قضت عليهم بالكفر فصاروا من الكافرين، ولو قضت إرادته بالإيمان لكانوا مؤمنين، وما تلك الحجج إلا ليبرروا كفرهم لأنفسهم ولأقوامهم....

قال -تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأنعام: ١٤٨).

وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف: ٢٨).

وقد شنع المستشرقون على المسلمين في تلك العقيدة، وادعوا أن سبب تخلف المسلمين وتأخرهم مرجعه إلى إيمانهم بها؛ فهم مستسلمون خانعون خاضعون لا يغيرون أحوالهم البئيسة، ولا يريدون أن يواجهوا أعداءهم؛ لأن الله سلطهم عليهم بذنوبهم، وأنه لا مجال للاعتراض على حكم الله.... إلخ.

وهذا لعمري فرية عظيمة على المسلمين وعلى عقيدة القدر.

(التوكل يلزمه رفع الهمة)

وإن قلنا: إن التوكل يلزمه رفع الهمة، والاطمئنان بحصول القسمة، فإن المؤمن إذا كان صادقًا في توكله، واثقًا بكرم الله تعالى وتفضله، معتقدًا بأنه - سبحانه - المتكفل للأرزاق، وأنه المسبب المانح على الإطلاق، كان رفيع الهمّة عن الخلق وأسبابهم، والتذلل في الترداد إلى أبوابهم، مطمئن النفس بحصول المقسوم على أي طريق كان مجهول هو أو معلوم.

تارة يبلغه الله ذلك من فضله مبادأة، وتارة بطريق الكسب معاوضة، وأخرى من جهة الخلق ابتلاء.

فلا معنى -حينئذ- أن يستفز العبد كدّ وطلب، ولا يزعجه تعذر كسب وسبب، لا بمعنى أن يترك الأسباب، ويتفرغ عن السعي والاكتساب، بل بمعنى تعلق النفس بالعلائق والاتكال على الخلق دون الخالق، وإلا فالكسب على الطريق المشروع مندوب إليه، خصوصا في زماننا هذا، ولا ينافي التوكل، لأن التوكل محلّه القلب، والكسب محلّه الجوارح، فمن ظن أن الطلب

يضادد التوكل حتى يترك أسبابه، ويغلق عليه بابه، كان عن العقل خارجا، وفي تيه الضلالة والجا (١٦).

قال أبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب»: لا يضر التصرف والتكسب ممن صح توكله، ولا يقدح في مقامه، ولا ينقص من حاله إذا أحكم بمعنيين: النظر إلى الوكيل في أول الحركة فيكون متحركا به، والرضا بالحكم بعد التصرف فيكون مطمئنا به. اهـ (١٧).

(جلب المنفعة ودفع المضرة من التوكل)

إذا عرفت هذا، فاعلم أن المتوكل إذا سعى في جلب منفعة له أو دفع مضرة عنه وكان نظره في ذلك إلى الله، وراضيا بما يؤدي إليه سعيه مما قدّره عليه مولاه، فقد حصل له الأجر من وجهين، وكان فعله موافقًا (لكتاب الله وسنة) سيد الكونين.

أما الكتاب فإن الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك: ١٥)، وقال -عزّ شأنه- لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ (مريم: ٢٥).

وفي التوراة: امدد يدك لباب من العمل أفتح لك بابًا من الرزق (١٨).

وأما السنة في الكسب والسبب فقوله ﷺ لأعرابي: «اعقلها وتوكل» (١٩).

وقوله عليه السلام: «إن الله يبغض العبد الصحيح الفارغ» (٢٠).

الهوامش

١- أخرج مسلم في «الإيمان»، باب: «بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، ح(٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفي رواية ابن حبان في «صحيحه»، (٣٨٩/١): «أن تؤمن بـ: الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره حلوه ومره».

٢- تاريخ دمشق، (٤٥٧/٣).

٣- حل العقال لابن قضيب البان بتحقيقنا.

٤- أخرجه البخاري في «الجنائز»، باب: «ليس منا من شق الجيوب»، ح(١٢٩٤) ومواضع أخرى.

٥- شرح ابن بطال على صحيح البخاري، (٢٧٧/٣-٢٧٨).

٦- أخرجه البخاري في «الجنائز»، باب: «زيارة القبور»، ح(١٢٨٣) ومواضع أخرى، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

٧- حلية الأولياء، (٦٣/٤).

٨- ربيع الأبرار، (١٠١/٣).

٩- حل العقال لابن قضيب البان بتحقيقنا.

١٠- شعب الإيمان للبيهقي، (٧٤/١).

١١- حلية الأولياء، (٢١٦/١).

١٢- أخرجه الترمذي في «الجنائز»، باب: «فضل المصيبة إذا احتسب»، ح(١٠٢١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وقد حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

١٣- حل العقال لابن قضيب البان بتحقيقنا.

١٤- أخرجه أحمد في «مسنده»، ح(٢١٦٥١)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: «إسناده قوي».

١٥- الحلية، (٢٤٩/٩).

١٦- انظر: سراج الملوك، ص(١٨٢).

١٧- انظر: قوت القلوب، (٢٤/٢).

١٨- قال صاحب «المجالسة وجواهر العلم»، ص(٣٤٥): حدثنا أحمد، نا الحسين بن الفهم، نا محمد بن سلام، عن يونس بن حبيب قال: قرأت في بعض كتب الله عز وجل: يا ابن آدم، أطعني فيما أمرتك، ولا تعلمني بما يصلحك، وامدد يديك لباب من العمل أفتح لك بابا من الرزق.

١٩- جزء من حديث أخرجه الترمذي في «صفة القيامة»، ح(٢٥١٧).

٢٠- أخرج ابن المبارك في «الزهد»، ص(٤٦٧) عن معاوية بن قرة قال: أشد الناس يوم القيامة حسابا الصحيح الفارغ، ولقد أخطأ صاحب «المستطرف»، (١٢٦/٢) فعزاه إلى النبي ﷺ، وتابعه على ذلك المصنف.

الترويح عن النفس

تحقيق - ربيع إبراهيم

رغم أن تعاليم الدين الإسلامي تحث على الترويح عن القلوب والنفوس وحفظها، باعتبار ذلك من مقاصد الشريعة، فإن هناك من المسلمين من يضيق على نفسه وعلى أهله وعلى المجتمع، ويرى أن الترويح عن النفس في الإجازة شيء من الترف، وقد يعده مضيعة للوقت، رغم أنه يحفظ الأثر القائل: «إن لبدنك عليك حقا»، وفي المقابل يقدس الإنسان الغربي الإجازة مثلما يقدس العمل، ليكسر الروتين ويتخلص من ضغوطات العمل، ويريح نفسه وذهنه بتغيير المكان والأشخاص والعادات اليومية.

«الوعي الإسلامي» التقت خبراء علم النفس والاجتماع والشريعة الإسلامية، وسألتهم عن أهمية الترويح عن النفس، وما الفرق بيننا وبين الغرب في فهم أهمية الإجازة وأثرها على النفس الإنسانية؟ فكانت إجاباتهم في السطور التالية:

بداية، يقول د. جميل المري أستاذ علم الاجتماع بجامعة الكويت: إن الترويح عن النفس ليس ترفا ولا مضيعة للوقت ولا قتلا للفراغ، بل هو ضرورة دينية ونفسية واجتماعية، فكما أن العمل عبادة فأيضا الترويح عن النفس عبادة. والنفس مثل الأبدان تتعب وتمل، فكما تريح جسدك عليك أن تريح نفسك بالترويح عنها، وفي الأثر «روحوا عن القلوب -أي النفوس- ساعة بعد ساعة، لأن القلوب إذا كلت ملت»، فالنفس الإنسانية تتعب، لذلك أخذ عطلة وإجازة من العمل ضروري لإراحة البدن والنفس معا، لأن الإنسان في أيام العمل المتواصلة يكون شديد التركيز بدنيا وذهنيا، مما يتطلب راحة لاستعادة قواه البدنية والنفسية.

وتابع: ومن سلبيات إهمال الإجازة وعدم الاستفادة منها انتشار الأمراض المزمنة، مثل السكر والضغط والقلب، وسببها قلة الحركة وتراكم الهموم النفسية على الإنسان؛ نتيجة إهماله ممارسة الرياضة، خاصة المشي أو الخروج في رحلة لأماكن مفتوحة أثناء قضاء الإجازة.. أو الذهاب إلى أماكن الترفيه مع الأسرة.

وعن تقديس الغرب للإجازات قال المري: الإنسان في الغرب يعطي العمل حقه ويقدسه، لذلك يستفيد من الإجازة للترويح عن نفسه وإراحة بدنه ليعود للعمل أكثر نشاطا وإقبالا على وظيفته.. بينما نحن للأسف في العالم العربي لا نقدس العمل، رغم أن ديننا يحث على إتقان العمل، وفي الحديث الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»، لذلك لا يقدس الإنسان العربي الإجازة، ورغم كثرة أيام الإجازات طوال العام -فضلا عن إجازة الصيف الطويلة- فإن معظم الموظفين والعاملين لا يهتمون بالإجازة، لأنهم لا يهتمون بجودة العمل بالأساس.. لذلك تكون النتيجة قلة الإنتاج، رغم استنزاف البدن والنفس معا، والإجازة تحولت إلى فرصة للكسل والنوم فقط، وليس للترويح عن النفس.

مع العبادات

بدوره قال أستاذ علم النفس بجامعة الكويت الدكتور بدر الشيباني: نحن في الدول العربية والإسلامية نفهم الترويح عن النفس بأسلوب مغاير للمفهوم العالمي، فعندنا الترويح عن النفس يعني الكسل، بينما الترويح عن النفس يمكن أن يكون خلال لحظات وساعات، وليس بأخذ

إجازات بالأيام وانقطاع عن العمل فقط، والمفهوم العالمي للترويح عن النفس قد يكون من خلال تمرين رياضي معين يمارسه الإنسان، مثل المشي في الهواء الطلق.
وأضاف: ومشكلتنا أننا عكس الغرب في فهم أهمية وطبيعة الإجازة، ونحن نخلط بين المفهوم العقلي النفسي والمفهوم البدني للترويح والراحة، فبالنسبة لنا الراحة تكون بدنية لا نفسية، بينما في الغرب الراحة تكون نفسية أكثر منها بدنية، حيث يقطع الإنسان الغربي في أوروبا وأميركا مسافات طويلة ليقضي عطلته، ويغير المكان وطريقة الغذاء وأنواع الأطعمة، فيروح عن نفسه بالخروج عن المألوف والروتين.
وتابع: ومن المفاهيم غير الصحيحة لدى الإنسان العربي والمسلم أنه عندما يأخذ عطلة فإنه ينقل روتينه اليومي معه إلى حيث مكان العطلة، حيث يلتقي النوعية ذاتها من الأشخاص، ويتناول الأطعمة ذاتها، بل هناك من يصطحب معه في عطلته ذات الطعام الذي اعتاد عليه، ولا يغير في إجازته إلا النوم، بحيث ينام أطول فترة زمنية ممكنة، بينما من المفترض أن يكسر الروتين ليستفيد من العطلة ويروح عن نفسه.
وأضاف: في الغرب وأميركا يستغلون العطلات الأسبوعية والسنوية أفضل استغلال للترويح عن النفس، من خلال تغيير الأجواء والأماكن التي اعتاد عليها الشخص، وتغيير الأشخاص الذين حوله، فمثلا ينتقل من بيئة صحراوية إلى بيئة ساحلية، ويعيش بين أناس جدد، ويتعرف على



عادات وتقاليد ونظام غذائي جديد، إنهم يكسرون الروتين.

حفظ النفس

من جانبه يقول د. سلمان العنزي الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت: إن الروح والنفس من الغيبيات، فهي تعريفات سماعية، لكن لا أحد يعلم عن الروح شيئا، يقول الحق سبحانه:
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥ ﴾ (الإسراء:٨٥). وأرى أن الروح والنفس لا فرق بينهما، وإن كان بعض الفلاسفة يفرقون بينهما، وكلها خلافات ظنية، ولا تصل إلى حد اليقين، وهذه حكمة من الله.
وأوضح العنزي أن من مقاصد الشريعة في الإسلام حفظ النفس بتحريم إيذائها، وعدم الإتيان بأشياء قد تؤدي إلى هلاك النفس، مثل المسكرات والمحرمات والانتحار، حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا، ودفع شر الشرين إذا لم يمكن أن يندفعا. ومن مقاصد الشريعة الإسلامية المحافظة على الكليات الخمس التي تواترت رسل الله تعالى على وجوب المحافظة عليها، وهي الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال، والعرض، ومنها اليسر ورفع الحرج والمشقة.
وتابع: والسنة النبوية مليئة بالأحاديث التي تتناول النفس الإنسانية والروح والقلوب وضرورة الترويح عن النفس حتى بالعبادات مثل الصلاة، إنها قرة عيون المؤمنين كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة». (رواه أحمد والنسائي)، ولذا كان ﷺ يقول: «أرحنا بها يا بلال». (كما عند أحمد وأبي داود).
فالصلاة راحة نفسية للإنسان المسلم، والرسول ﷺ كان يمارس الرياضة مع السيدة عائشة للترويح عن نفسه وعن زوجته أم المؤمنين، وكان الرسول ﷺ يمزح مع الصحابة، وهذا أيضا جانب من الترويح عن النفس.
وقال العنزي: سبب الاكتئاب الآن هو الاستسلام للروتين اليومي في حياة الإنسان، وعدم الترويح عن النفس من خلال السياحة المشروعة، بالسفر إلى أماكن ذات طبيعة جميلة، مثل الأراضي الخضراء أو الساحلية، ومن جوانب الترويح عن النفس تقديم الهدية لمن تحب، فالرسول ﷺ كان يفرح بالهدية، وكان يهدي، لذلك من أفضل الطرق للترويح عن النفس طاعة الله، وعمل الخير، وإراحة البدن حتى ترتاح النفس.

صون النفس من مقاصد الشريعة

د.هبة رءوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

«صن النفس واحملها على ما يزينها.. تعش سالما والقول فيك جميل - علي بن أبي طالب رضي الله عنه
صنت نفسي عما يدنس نفسي - البحتري»



شهادة الإنسان على نفسه الحاملة لفطرة العبادة وإشهاده على وحدانية الله قبل الخلق في هذه الحياة الدنيا مقترنة في التصور الاسلامي بنهاية الإنسان ومآله، فالجمع بين ابتداء خلق الإنسان من جهة، والرجعى من جهة أخرى ميزان الشرع ومدار الحياة والإحياء.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢)

والفطرة تقترن في التصور الإسلامي بالوحدانية والدين، فالدين فطرة والشهادة الأولى التي أخذها الله من ذرية بني آدم مغروسة فيها، لكن الوعي بها يتأثر بالبيئة والتنشئة والمجتمع، وهنا تصبح الفطرة قرينة البراءة الأولى للنفس عند الميلاد في مقابل فكرة الخطيئة الأولى في الخطاب المسيحي تاريخيا من جهة، وقرينة توحيد الله أصلا في فطرة الإنسان بشهادة التوحيد التي كانت في الأزل.

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠)

ولا يناقض هذا أن الإنسان يخطئ، فالخطأ لا يناقض الفطرة، لكن الخطيئة تناقضها - وبينهما فارق. ومن هنا: «لا يسرق السارق وهو مؤمن ولا يزني الزاني وهو مؤمن..» كما في الحديث.

كما تلفتنا الآيات القرآنية لاقتران الفطرة الإنسانية بخلق السموات والأرض، فالله هو الفاطر، وسنن الأنفس والآفاق تتقاطع، فحفظ الإنسان لفطرته حفظ لناموس الكون وفطرة السموات والأرض، ومخالفة الفطرة تستوجب سنة الدفع، وإلا فسدتا.

ونجد المعنى في الربط بين ثلاث آيات في القرآن:

آية ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وآية ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩)، وآية: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وتبدو الفطرة التي فطر الله الناس عليها مصدرا للهداية وبوصلة للحق أودعها الله في قلوب العباد:

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٧).

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٦) بل تبدو مستعصية - حين يكون الإيمان هو النور الذي يحمل الإنسان في مسيرة الحياة - على أن تتقبل البغي أو ترضى بالطغيان، فنتأمل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ (طه: ٧٢).

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (هود: ٥١).

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ (الإسراء: ٥١)

والفطرة مكون من رباعية مفاهيمية للأمانة والخلافة الإنسانية التي يحاسب الله عنها العباد يوم القيامة والتي يكشفها النظر في كتاب الله، تلك الرباعية هي: الفطرة، والعقل، والوحي، ثم السنن التي يدركها الإنسان بالسير والنظر ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨).

فقوله تعالى: صبغة الله بعد قوله: قل بل ملة إبراهيم حنيفا كقوله: فطرة الله بعد قوله: فأقم وجهك للدين حنيفا، وقوله تعالى: ومن أحسن من الله صبغة كقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ (التين: ٤).

ويرى الباحث المغربي عثمان مصباح الفرق بين الصبغة والفطرة كما يبدو من سياقهما في القرآن بأن صبغة الله تحصل حينما يختار الإنسان لنفسه أن يكون على الفطرة، أو كما قيل: أن يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا، والله تعالى أعلم.

ومن معنى الفطرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، إشهاد الله للعباد جاء على أنفسهم أولا بمعنى إقرارهم بأمانة أنفسهم، ثم إشهادهم على الربوبية وبعد ذلك كان التكليف بالأمانة والقيام بالشريعة والمنهاج.

النفس.. أنفس

إذا كانت هذه هي صلة الفطرة بالدين في القرآن، فأين موضع الفطرة في التكوين الإنساني؟ أين محلها ومستقرها؟

لا شك أن موضعها النفس الإنسانية التي أراد الله لها أن تكون بين الفجور والتقوى، تتراوح بين الطاعة والمعصية والتوبة، وتسعى وتجاهد في الله كي يهديها سبل السلام، وتتبع الشرعة والمنهاج كي تجد الطمأنينة الداخلية، وكي تحقق ميزان الحق وتتناغم مع ناموس الكون.

وأنواع النفوس في القرآن:

١-النفس المطمئنة: هي التي عرفت ربها، واطمأنت إليه، اطمأنت إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، اطمأنت إلى وعده ووعيده، اطمأنت إلى جنته، اطمأنت إلى وحدانيته، وإلى أنه لا إله إلا هو.

٢- النفس الزكية والمقصود بها محض النفس البشرية، أو النفس المتطهرة الطائعة، قال تعالى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ (سورة

الكهف: ٧٤)، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (سورة الشمس: ٧-١٠).

٣- النفس اللوامة، قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(سورة القيامة: ١-٢).
هذا الذي كلما تكلم كلمة أو قام بعمل راجعه، وحاسب نفسه عليه..
فيجب أن يكون المؤمن لواما، يسأل نفسه دائما، يحاسبها في الدنيا حسابا عسيرا، حتى يكون حسابها يوم القيامة يسيرا.

٤-نفس حاسدة- قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ (سورة البقرة: ١٠٩) النفس البعيدة عن الله عز وجل تحسد الناس.
٥-هناك نفس آثمة، تقع فيما حرم الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ (سورة النساء: ١١١).
٦-ونفس أمارة بالسوء- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ (سورة يوسف: ٥٣)
فالنفس قد تكون ظالمة، ومخادعة، ومستكبرة عاتية، وبخيلة شحيحة. وهي كلها وردت في آيات الكتاب لو دققنا وتدبرنا.
والحق أنه يمكن النظر للنفس الإنسانية بأنها تجمع هذه الخصال بدرجات متفاوتة، فهي ليست تقسيمات لأنفس البشر، بل هي تقسيمات في داخل النفس الإنسانية الواحدة.
و بناء على ذلك فزكاة النفس وطيبها هو الفطرة التي فطر الناس عليها كما في حديث «كل مولود يولد على الفطرة».. وهي الضمير اليقظ للإنسان يرشده للخير والحق إن انقطعت به أسباب العلم أو موارد التوجيه، والنفس الأمارة بالسوء جزء من النفس الإنسانية لأن (كل ابن آدم خطاء)، ولذلك كان التشريع والمنهج والرسالة تقويما لتلك النفس ودعوة استقامة لها، والنفس اللوامة هي التي تراجع الإنسان وتفتح له باب التوبة، وهو منطلق معاني التوبة والعفو والفضل بين الناس في الأخلاق والتشريع، والنفس المطمئنة هي التي تتدرج في معراج العرفان وعلى ذلك يقوم باب التزكية والتقرب والتجرد. وكل الأوصاف السلبية مهمة في حركة الإنسان لو ناله منها النذر اليسير، فالنذر اليسير من الحسد بمعنى التنافس يدعو لطلب المال والمكانة، وهو وقود الطموح والعمل، ومنه الحسد الممدوح في حديث: «لا حسد إلا في اثنتين» عن طلب العلم للتعليم وطلب المال للإنفاق في سبيل الله-وهو الغبطة.
فقد زين الله للناس حب الشهوات، لأن في ذلك دافعية للسعي وطلب الرزق والنسل والعمران. لكن غلبة الشهوة وغياب الميزان هو الذي يدفع الناس للبغي والظلم والتطاول.
وحتى النفس اللوامة لو أفرطت في اللوم وخرجت عن حدها تجول ذلك لمرض الوسواس القهري الذي يعجز عن العمل ويسبب الإخفاق.
الاعتدال والعدل إذا واستقامة النفس في مستوياتها ومراتبها هو الذي يحقق للإنسان الحياة الطيبة.. وتكون بذلك الفطرة التي خلقه الله عليها بكل مكوناتها..على صراط مستقيم.
كيف إذا نربط بين ذلك ومقاصد التشريع؟

الفطرة والمقاصد

غلب على فقهاء المقاصد بدءا من



القفال الشاشي في محاسن الشريعة ميلهم لتعليل الشريعة وانبنائها على المقاصد والمصالح، بما في ذلك العبادات، وعلى ذلك فإن الشريعة غاياتها ومقاصدها يعبر عنها بالكليات الشرعية الخمس الشهيرة: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، التي توالت كل الأمم والملل على تقريرها وتثبيتها.

لكن غاية قولنا هنا هو بيان أن لذلك رؤية مقابلة ومكملة، وهي أن تلك المقاصد وكل أحكام الشرع ومحاسن الأخلاق بل والعبادات غايتها حفظ فطرة الإنسان التي فطره الله عليها..وصونها وحمايتها من الطمس والتبديل.

ولذلك يمكننا صياغة حجتنا على النحو التالي: إن بذل الحياة قد يكون ثمنا لحفظ الفطرة، فيكون الموت ثمنا لحفظ النفس، وهذا معنى دقيق التفت له إمام الحرمين الجويني حين قال:

«ورب شيء يتناهى قبحه في مورد الشرع، فلا تبيحه الضرورة أيضا؛ بل يوجب الشرع الانقياد للتهلكة؛ والانكفاف عنه؛ كالقتل والزنى في حق المجبر عليهما».

ذلك أن فعل الكبائر طمس للفطرة، والشريعة خادمة للفطرة حافظة لها لأنها بها شهد العباد لله بالوحدانية قبل خلقهم في الدنيا، وبها حمل الإنسان الأمانة، وعليه فتلف الجسد صونا للفطرة أهون من تلف النفس وطمس الفطرة، وما أحكام حفظ العقل والمال والعرض إلا توابع لحفظ النفس بالمعنى الذي بسطناه، وحفظ العقل الذي يسكن في القلب والفطرة التي تسكن في النفس.

وفي المعاصرين يقول الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية: «مقاصد التشريع العامة: هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها».

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «وأعظم ما اشتمل عليه خلق الإنسان خلق قبول للتمدن الذي أعظمه وضع الشرائع له» وقد قام الشيخ بتعريف التشريع خارج محض التقنين، فالتشريع: «هو ما رعاه الإسلام من تعاريف المصالح والمفاسد وترجيحها مما هو مظهر عظمة الشريعة الإسلامية بين بقية الشرائع والقوانين والسياسات الاجتماعية لحفظ نظام العالم وإصلاح المجتمع».

«إذ الحقيقة وما عاضدها من الاعتبار هو الذي تقبله الفطرة البشرية على اختلاف أصناف البشر». وفي كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام يقول الشيخ: وعلى ذلك يتحدث الشيخ عن الجامعة الفطرية فيقول «والإنسانية هي فطرة البشر»، وهو بذلك يؤسس على قول ابن القيم في إعلام الموقعين: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن الرحمة إلى ضدها ومن المصلحة إلى المفسدة ومن الحكمة إلى العبث ليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه».

.. والحق أن فهم هذه الرابطة بين مقاصد التشريع والفطرة هو الذي تتأسس عليه عالمية الدعوة الإسلامية، فهي لا تدعو إلى منهج حياة يختلف حوله البشر، بل هي تردهم للفطرة التي فطرهم الله عليها والتي يؤدي اتباعها إلى استقامة حياتهم وتحقيق مصالحهم.. وسعادة نفوسهم.

ولا يمكن دون هذا الفهم تحقيق صيانة الفطرة.. وحفظ الأنفس.. وإقامة الدين.



بين الغرب والشرق:

وقفات مع صيانة الجسد

د. آندي حجازي
أكاديمية تربوية أردنية

كانت مشاهد غريبة غير مألوفة أبدا بالنسبة لي حينما سافرت في أحد الأعوام في زيارة لأحد البلدان المتطورة (كندا)، حيث كنت أمشي في شوارعها فأشاهد نساء كبيرات في السن قد تجاوزت أعمارهن السبعين عاما، بل الثمانين وأكثر، يركبن الدراجات الهوائية، ويتنقلن بها من مكان إلى آخر في الشوارع وداخل الحدائق العامة الخضراء، بل يقطعن بها الجسور المعلقة بين المدن بثقة تامة، وكأنهن في عمر العشرينات! وكذلك كان حال الرجال كبار السن.. مشاهد لم تمح من ذاكرتي، حيث دعتني للوقوف في ذهول والتفكير في كيفية اهتمام أبناء تلك الدول المتقدمة بأجسادهم وصحتهم، وكيفية رعايتهم وصيانتهم لصحتهم الجسدية والنفسية من أجل البقاء في حالة من قوة الشباب، على الرغم من العمر الحقيقي الذي تظهره تجاعيد الوجه، التي لا يمكن لأحد أو للزمن إخفاؤها، فهي تنقش آثارها على الوجوه كلما تقدم الإنسان في العمر ووصل إلى الشيخوخة.. والمهم أنني تعلمت كيف يحافظ الأجانب في الدول الغربية على صحتهم، فلديهم أساليب في ممارسة الرياضة وتناول الأطعمة الصحية وغيرها من الطرق، والتي سأتطرق إلى بعض منها، علنا نأخذ منها ما يفيدنا.



وفي زماننا هذا كثرت الدعوات إلى أجساد صحية، وإلى طرق سليمة في الحفاظ على الصحة الجسدية والنفسية والعقلية، ولكن هل من مجيب؟ ففي خضم الإغراءات والدعايات وحملات الترويج للأطعمة غير الصحية والوجبات السريعة، ومع الممارسات التي تدعو إلى الكسل والخمول والسمنة يزداد الأمر صعوبة.

الإسلام والصيانة للجسد

الحقيقة إن الإسلام - ومنذ مئات السنين - دعا إلى الحفاظ على الصحة الجسدية وصيانة الجسد والنفس، ولو أننا نلتزم بتلك التعليمات لاستفدنا كثيرا، وذلك السبق جاء قبل كل دعوات الغرب للحفاظ على الصحة وصيانة الجسد، فكان مثلا أن حرم الله تعالى على الإنسان الخبائث التي تضر بصحته كالخمر فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ (المائدة:٩٠ و٩١).

وكذلك قال تعالى في موضع آخر في دعوة للحفاظ على النفس مهما بلغت قسوة الظروف: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ (النساء:٢٩).

وفي الصيانة النفسية قال تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥)؛ لأن الغل والحقد يورثان العصبية والحزن والاكتئاب التي تأكل الصحة أكلا لما. وكذلك قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ (الشورى:٤٣)، فالصبر معين كبير على الصحة النفسية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ (فصلت:٣٤). فلا فائدة من الغل والحقد، وتمني الشر للآخرين يقتل صاحبه أولا.

وفي المقابل، وجه الله تعالى المسلم إلى السلوك السليم في حالة الغضب والحقد، بما يحفظ استقرار الحالة النفسية، فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ (الأعراف:١٩٩).

وعندما دخل رسول الله ﷺ على عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ فقال عبدالله: بلى. فقال عليه السلام: فلا تفعل، قم ونم، وصل وأفطر، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا». فانظر كيف جاءت دعوة الإسلام المسلمين للحفاظ على أجسادهم وكل عضو وحاسة منها، وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» (رواه مسلم). وقال عليه الصلاة والسلام: «سلوا الله العافية واليقين، فما أعطي أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية، فسلوهما الله تعالى».

ومن الأمثلة في الحفاظ على الجسد حث رسول الله ﷺ على النظافة في أحاديث كثيرة، منها قوله عليه السلام: «خمس من الفطرة: تقليم الأظافر، وقص الشارب، وحلق العانة، ونتف الإبط، والختان» (رواه الجماعة). وقال ﷺ في حديث آخر: «إن الله نظيف يحب النظافة، وجميل يحب الجمال» (رواه مسلم وابن ماجه وأبو داوود). وعن أبي رافع قال قلت: «يا رسول الله، أللولد علينا حق كحقنا عليهم؟ قال: نعم؛ حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي وأن يورثه طيبا» (رواه البيهقي).

نصائح للصيانة الجسدية

١- الابتعاد عن المأكولات غير الصحية:

الابتعاد عن الأطعمة السريعة الإعداد، والأطعمة ذات الدهون المشبعة، وعدم الإكثار من الأطعمة المالحة والحلويات. ولكن مما يلحظ كثرة انتشار المطاعم عالميا التي تنتج مثل هذه الوجبات السريعة مع حملات الترويج لها بشتى الطرق من دون أدنى اهتمام لصحة الإنسان، مع أن الكثير من الدراسات تشير إلى خطورة تلك الأطعمة على الجسد، وإلى أنها تسبب أمراضا، كالسمنة والسكري وارتفاع ضغط الدم وأمراض الجهاز الهضمي.

من جانب آخر، من الضرورة مضغ الطعام جيدا، والأكل ببطء وعلى فترات، وضرورة تناول وجبة متوازنة وطبيعية وخفيفة، مع تذكر حديث رسول الله ﷺ، فعن المقدام بن معد يكرب قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث

لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (حديث حسن صحيح رواه الترمذي). وقال تعالى في الحفاظ على النفس والتوازن في الأكل والشرب: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ (الأعراف:٣١).

٢- ممارسة الرياضة بانتظام: وخاصة رياضة المشي أو السباحة، حيث إن هاتين الرياضتين من أفضل الرياضات، لأنهما تحركان جميع أعضاء الجسد، وبشكل متوازن، وكذلك تساعدان على الانتعاش وتنفس الهواء الطلق بشكل سليم. وتشير بعض الدراسات الطبية إلى أن ممارسة رياضة المشي بانتظام تساعد على التخلص من ٤ كيلوغرامات على الأقل من وزن الجسم في السنة، وتساعد على محاربة الميكروبات وتجنب أمراض القلب والبدانة والأمراض النفسية. لكن، للأسف، ما زال الاهتمام بهاتين الرياضتين أكبر بكثير في الدول الغربية مما هي عليه الحال في الدول العربية، فلا تكاد تجد طفلا غربيا لا يعرف السباحة.

٣- الابتعاد عن التدخين والمخدرات والكحوليات لأنها مفسدة تامة ومضرة كبيرة للجسد:

أتعجب من بعض البلاد العربية التي يكثر فيها الفقر، وفي المقابل يكثر فيها عدد المدخنين ومحال ومقاهي التدخين، بل ومحال بيع الخمور! فتجد شخصا يعاني من الفقر الشديد وفي الوقت ذاته ينفق مئات الدولارات سنويا على التدخين بأنواعه، في تناقض عجيب! إذ يصبح الأمر بمرور الوقت جزءا لا يتجزأ من دمه يسري في عروقه بشكل لا يعرف معه كيف يتخلص من ذاك الإدمان المفرط، سواء أكان التدخين أم الكحول، فكلاهما أثرهما سيئ على الصحة وقاتل صامت بشكل تدريجي. والغريب إصرار الكثير من الناس على تلك العادة السيئة على الرغم من كل تحذيرات الأطباء ومنظمات الصحة العالمية لمخاطرها على النفس والجسد كمخاطرها على الرئتين والكبد والجهاز الهضمي والتنفسي والفم والأسنان، وعلى المرأة الحامل، وعلى الجنين، وعلى الأطفال في البيت الذين يصبحون مدخنين سلبيين بمرور الوقت.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ (البقرة:١٩٥).

وتجد للأسف نسب المدخنين تزداد بشكل كبير في الدول العربية عنها في الدول الغربية، لأن صحتهم في مقدمة أمور حياتهم، لكننا في الدول العربية والإسلامية، والحمد لله، ما زلنا الأقل عالميا من حيث عدد متعاطي الكحول.

إحصاءات عن التدخين

- تشير إحصاءات منظمة الصحة العالمية (٢٠١٠م) إلى أن التدخين يقتل شخصا واحدا من كل عشرة أشخاص بالغين من سكان العالم في العام الواحد.
- يتوفى ما يقرب من ٦ ملايين شخص سنويا جراء التدخين.
- التدخين يقلل العمر، حيث يفقد المدخن حوالي ١٥ عاما من حياته.
- يدخل عالم التدخين والإدمان يوميا من ٨٠ ألفا إلى ١٠٠ ألف شاب.
- يموت ٦٠٠ ألف شخص سنويا نتيجة التدخين السلبي بينهم ١٦٥ ألفا من الأطفال.
- يصل حجم إنفاق المصريين السنوي على التدخين إلى حوالي ١٨ مليار جنيه.
- يبلغ حجم الإنفاق السنوي لعلاج الأمراض المترتبة على التدخين حوالي ٣ مليارات جنيه في مصر.
- تحدث ١٧٠ ألف حالة وفاة سنويا بسبب التدخين في مصر (٢٠١٤م).
- تنفق كل من تونس والمغرب ما يزيد على ٥٠٠ مليون دينار مغربي سنويا نتيجة السجائر المهربة (٢٠١٣م).
- تنفق دول الخليج وحدها ما يزيد على مليار دولار سنويا للتبغ والسجائر، وأن كلفة استيراد التبغ في المملكة العربية السعودية وحدها تبلغ ١٣ مليار ريال سنويا. ومن جانب آخر تبذل المملكة العربية السعودية جهودا كبيرة وأموالا طائلة في محاربة المخدرات وتهريبها للمملكة.
- كشفت تقارير منظمة الصحة العالمية عام ٢٠١٣م عن أن هناك ٦ ملايين مدخن في السعودية، وأن التدخين ينتشر في ٤٠ في المائة من الذكور و١٠ في المائة من النساء و١٥ في المائة من المراهقين.

● وصلت نسبة المدخنين بين طلبة المدارس في السعودية إلى ١٠ في المائة من المدخنين. كما أن ٣١ في المائة من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٣ و١٥ عاما من الجنسين يعيشون في بيت فيه مدخنون.

٤- الحفاظ على نظافة الجسد والبيت:

فنظافة البيت وتهويته وتشميسه تحافظ على الصحة العامة للإنسان من الجراثيم والأمراض وانتشار الأوبئة، وقد حث رسول الله ﷺ على نظافة الجسد والملابس والبيت، فعن صالح بن أبي حسان قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود» (رواه الترمذي). وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا» (رواه مسلم والترمذي وأحمد).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة:٢٢٢).

وفي الحفاظ على النفس والجسد والشكل للمسلم ورد عن أبي رجاء العطاردي: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عزوجل عليه نعمة، فإن الله عزوجل يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه» (رواه أحمد).

كيفية الصيانة النفسية

١- إياك واليأس وإحباط النفس:

فإن أصبت بأمر محبط أو فشل في جانب ما فاصبر وقاوم وتحمل، لأن العثرات ترفعك وتتقدم بك، وابحث عن نقاط قوتك لا ضعفك، فروعة الإنسان لا بما يملك فقط بل بكيف يستثمر ما يملك، وكيف يفيد نفسه والآخرين بما وهبه الله من صفات ومواهب، وتذكر أن رأي الآخرين فيك وتقييمهم لك ليسا بالضرورة أن يكونا دقيقين وصحيحين، فلا تحبط نفسك بآرائهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف:٨٧).

٢- تمسك بالتفكير الإيجابي:

فكر في ما يسعدك، وفكر في صفاتك وسماتك الجيدة، وابحث عن نقاط قوتك واستفد منها، وابتسم لحياتك ولا تقف عند ما يقلقك؛ لأن الأمل دواء، والقلق عناء، ودائما هناك أمل. واعلم أن التشاؤم سيؤثر على طريقة تعاملك مع الآخرين وعلى صحتك النفسية والجسدية، وأن التفكير في النجاح هو النجاح نفسه، والعكس صحيح؛ فاقنع نفسك دائما بقدرتك على الإنجاز وفعل المطلوب، ونظم وقتك؛ لأن الفوضى وإضاعة الوقت تورثان الاكتئاب والتشاؤم والتوتر. وقد كثرت في البلدان الغربية دورات تحث على التفكير بإيجابية لما له من قدرة على صيانة النفس والجسد من الأمراض والعقبات في الحياة، بينما ما زال الموضوع في بداياته في بلداننا العربية.

٣- حاول أن تبني علاقات وصداقات:

تبين الدراسات أن العلاقات الاجتماعية تزيد من مناعة الجسم وتقلل من احتمال إصابته بالأمراض المختلفة، كما تخفف الضغوط النفسية وتوترات العمل، لكون الإنسان كائنا اجتماعيا بفطرته.

٤- الخروج للحدائق العامة وممارسة الأنشطة المختلفة داخلها:

كرياضة المشي والركض، والجلوس، والشواء، والاستمتاع بالوقت مع العائلة والأبناء. والغريب أن الكثير من البلدان العربية لا تملك حدائق بشكل كاف أو ذات مواصفات عالمية، بينما تجد الغرب، كما في أمريكا وكندا واليابان ودول أوروبا، مهتما جدا بإنشاء الحدائق العامة الكبيرة والمتميزة بخدماتها، فيخصصون بها ممشى خاصا لكل من رغب في ممارسة رياضة المشي، ويوفرون بها أجهزة رياضية ثقيلة ثابتة، وملاعب رياضية، وأماكن للجلوس، وأماكن للعب الأطفال، وللشواء وغيرها.. فشتان بين حدائقهم وحدائقنا، فهذا كله ينبع من اهتمامهم أولا وأخيرا بصحة أبنائهم وأنفسهم، فهي أولى أولوياتهم.

٥- تجنب الأدوية النفسية التي تقلل التوتر والقلق قدر الإمكان:

فقد انتشر في العصر الحديث الترويج للعقاقير والأدوية التي يمكن أن تقلل الاكتئاب والقلق والعنف والتوتر وحدة الانفعالات، وإن كانت كذلك فهي في المقابل لها تأثيرات سلبية أخرى على الصحة الجسدية والنفسية، فالأفضل تقليلها، وأنصحك في المقابل بأن تحاول الاسترخاء ومنح العقل فترات من الراحة، وألا تدع أبسط الأمور تؤثر على مزاجك وحالتك النفسية، كزحمة السير أو أصوات الأطفال مثلا، وكذلك حاول التركيز على الاقتراب من الله تعالى وتلاوة القرآن الكريم فهو خير معين؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد:٢٨).

الدعوة للصيانة وطرقها



د. محمد المشطاوي
باحث دراسات إسلامية

يحمل مفهوم الصيانة فيما يحمل من دلالة معنى التقوية، والوقاية، والحماية، والإصلاح؛ ليستمر عمل ما يراد صيانته وحمايته، بكفاءة وإتقان.
وقد دعا نبينا الكريم لهذا المفهوم، ومارسه، وفرضه، حتى صار سجية في خلائق المسلمين، فصاروا يحرصون على هذا المفهوم، وهو صيانة الجسد والروح، صيانة الفرد والمجتمع.
وقد جاءت الدعوة لهذا المفهوم وجاءت ممارسته في ظل جلال النبوة المتبنية للمفهوم والداعية له وبما يحمله هذا الدين من طهارة حسية ومعنوية.
جاءت الدعوة للصيانة من النبي ﷺ متشحة بجلال النبوة وعظمة الرسالة؛ مما مهد للاقتناع بها، ابتداء من قوله ﷺ: «لولا أن أشق على (المؤمنين) أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (١)، وليس انتهاء بقوله عليه الصلاة والسلام: «تداووا عباد الله» (٢). بما يمثله الحديث الأول من مدخل بسيط، لكنه جليل، للمحافظة على الصحة الجسدية وصيانتها، وما يمثله الحديث الثاني من رتق وعلاج أي خلل يصيب الجسد أو الروح في ظل حياته المديدة.
ولاشك أن ديننا قد أولى فكرة السلامة والصيانة العناية الكبرى، بل يمكننا أن نقول إن فكرة مقاصد الشريعة الخمسة هي في أساسها «حاملة خادمة حافظة محققة» لفكرة صيانة الإنسان بكل ما يحتاج إليه ويرقى به.
وفي سياق عملية الدعوة للصيانة، جسدية وروحية، تم التركيز على الإقناع العقلي بضرورة الصيانة ووجوبيتها.
ويمكن لنا أن نلاحظ بعض صور هذا الإقناع العقلي بالصيانة من خلال عدة إجراءات ظهرت في ثنايا الدعوة للفعل الممارس، وهو هنا الصيانة.

١- التعريف بفائدة الصيانة وخطر تركها:

إذ لا يكفي أن تأمر بفعل شيء أو تأمر بتركه فحسب، بل الأولى أن يأتي ذلك مصحوبا ومشفوعا ومقرونا بالحديث عن فائدة ما تدعو إليه؛ ولذلك يكثر في القرآن الكريم - تعريفا بالفائدة أو الخطر - أن تنتهي الآيات الآمرة والناهية بـ «لعلكم كذا» (تتقون، تشكرون، تفلحون، تتفكرون... إلخ).
ففي سياق المن على بني إسرائيل

من إنـزال الكتاب على موسى؛ ليكون نبراسا لهم يحفظهم ويقيهم ويصونهم عن كل ما يضلون، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣﴾ (البقرة:٥٣).

وفـي سبيل صيانة المجتمع ووقايته مـن الـوقـوع فـي حـالـة التقاتل الـدائـم وللمحافظة على حياة الإنسان وكينونته يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ (الـبـقـرة:١٧٩). وبـعـد هـذه الآية تأتي آية تذكرنا بفائدة الصيام وصيانته للروح بما يمثله من الانعتاق من ربقة العادة على التحليق في فضاء الـروح، يـقـول تـعـالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ (البقرة:١٨٣).

ويقول ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم من الأعـمـال مـا تطيقون فـإن الله لا يمل حـتـى تـمـلـوا، وإن أحـب الأعـمـال إلـى الله ما دووم عليه وإن قل» (٣). وإذا أردنـا الـكـلام عـن عـلاقـة هـذا الحديث بالصيانة فـإنـه يعلمنا الوسطية فـي الأخـذ بـالأعـمـال، فـلا نكلف أنفسنا بما لا نطيق ولا نتحمل أداءه، فنعجز ونـكـسـل. وهــذه الـوسـطـيـة فـي أداء الأعـمـال هـي مـا تـحـفـظ عـلـى الـروح والـجـسـد ديـمـومـة حركيته وفـاعـلـيـتـه، وقابليته الدائمة للحركة والفعل، وهذا أساس عظيم من أسس الصيانة.

٢- الربط بمثوبة وجزاء فعل الصيانة والإصلاح، والتحذير بالعقوبة والنكال للمفسدين:

والمثوبة ربما تكون عاجلة أو آجلة، ولكن المهم أن يقتنع المرء بـأن هناك مثوبة ليفعل. ومن الناس من لا يساقون إلى الفعل أو الترك إلا بالجزاء والمثوبة. ولعلك لاحظت هذه المعادلة فيما مر عليك من قـراءات فـي تراثنا وكتبنا: «من يفعل كذا فله كذا»، «من ترك كذا فله كذا»، «لو علم ما فيه من كذا لفعل كذا»، «ألا أدلكم على كذا»، أو ما في معناها، بما تحمله هذه التركيبات من دفـع للتبني والـمـمـارسـة والفعل الجاد والمتواصل.

ومن ذلك قول النبي ﷺ مثلا ومثالا على صيانة المجتمع من سيادة حالات الـتـشـاحـن والـتـبـاغـض والـتـقـاطـع: «ألا أخـبـركـم بـأفـضـل مـن درجــة الـصـيـام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصـلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة» (٤). ولاشـك أن فساد ذات البين يحتاج إلى فعل إيجابي لشخص واع يـسـعـى إلـى إصـلاح هــذه الـعـلاقـة وإعـادتـهـا إلـى حالة صلاحها؛ ولهذا كانت مثوبته وكان جزاؤه كبيرا عظيما يفوق جزاء الصائم المصلي المتصدق.

أما التحذير بالعقوبة وإيقاعها والنكال بمن يفعل محرما أو يتهاون في واجب، فيكفي أن تبحث في المدونة الحديثية عن لفظة «إياكم وكذا».

ونذكر هنا حديثا للنبي ﷺ يدعونا فيه إلى أن نصون أنفسنا عن الانزلاق إلى صغائر المعاصي حتى لا تهلكنا: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الـذنـوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» (٥).

ولا يخفى أن الـحـدود والعقوبات في الـشـريـعـة مـا أتـت إلا صـيـانـة ووقـايـة للفرد والمجتمع! فهي ليست غاية ولا هدفا، بل وسيلة للحفظ والصيانة.

٣- ضـرب المثل لتقريب فائدة الصيانة والوقاية:

والحديث السابق يعطي خير مثال على فـائـدة الـصـيـانـة، ومـثـل ذلـك قـول الله تعالى محذرا من الرياء المهلك للعمل، والمعاصي الآكلة للحسنات، فحال هذا كحال من له جنة كاملة الأوصاف مهيأة لتنتج، وصاحبها في أشد الحاجة إلى ثمرها، خصوصا لكونه كبيرا ذا عيال غير قـادريـن على الـعـمـل، ثم تذهب هــذه الـجـنـة بـمـا فـيـهـا هـبـاء منثورا بسبب إعـصـار: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ (البقرة:٢٦٦).

ويقول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عـلـيـه: «تـعـرض الـفـتـن عـلـى الـقـلـوب كالحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مـا دامـت الـسـمـاوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشـرب من هـواه» (٦)، وهـذا الحديث يدلنا على ضـرورة الصيانة والوقاية ومجابهة الخطر والشبه أولا بأول، وكذلك على أننا مسؤولون عن صيانة أنفسنا بأنفسنا، ولا أقل من أن ننكر ونقاوم ونصلح ونصون أنفسنا بأنفسنا حتى تنكت النكتة البيضاء في قلوبنا.

هوامش

١- مسلم، باب: السواك.
٢- ابن ماجه، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.
٣- مسلم، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.
٤- سنن أبي داود، باب: في إصلاح ذات البين.
٥- مسند أحمد، حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي.
٦- مسلم، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا.

مـداخـل الـشـريـعـة لحفظ النفس الإنسانية



صلاح فضل توقه
كاتب و باحث مصري

تميز الإسلام عن الملل السابقة عليه بميزة التوازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد، وبين السعي في الدنيا وإعمارها وتحقيق المكاسب الدنيوية التي تشبع حاجات الإنسان في العيش، وما بين العمل للآخرة، ونيل ما عند الله وهو خير وأبقى من الدنيا وما فيها، وهذا خلاف مادية اليهود المفرطة وروحانية النصارى المجحفة.

وهذا التوازن الذي تميز به الإسلام هو محصلة ونتيجة لنصوص شرعية وردت في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، وهذه النصوص ذاتها هي ما استند عليه علماء المقاصد في تصنيفهم للمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، وجاء حفظ النفس في المرتبة الثانية من حيث ترتيب هذه المقاصد بعد حفظ الدين، وسابقة على الثلاثة مقاصد الأخرى وهي: حفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال.

ولهذا عملت الشريعة الإسلامية على حفظ النفس والتحذير من القتل وإراقة الدماء، دون ضابط شرعي، ولها في هذا الأمر ثلاثة مداخل هي:

أولا: المدخل الإنشائي:

وهو مدخل يعتمد على البناء والتنشئة للشخصية المسلمة، بحيث تكون ملتزمة بكل تعاليم الشريعة الإسلامية، من خلال الآداب والتوجيهات القرآنية والنبوية.

وصونا للنفس الإنسانية وبيان حرمتها من خلال المدخل الإنشائي، نجد أن الشريعة الإسلامية اتخذت في ذلك عدة أساليب نذكر منها:

١- بيان مكانة النفس في الإسلام:

إن من تكريم الله تعالى للإنسان أنه خلقه بيديه الشريفتين ونفخ فيه من روحه، وقد ورد ذكر هذا التكريم في أكثر من موضع في القرآن الكريم . وعن قصة هذا التكريم يقول ابن كثير- رحمه الله – في تفسير «القرآن العظيم»:» هذه القصة ذكرها الله ، تعالى في سورة «البقرة»، وفي أول «الأعراف»، وفي سورة «الحجر»، وفي «سبحان» – الإسراء-، و«الكهف»، وهاهنا «ص» وهي أن الله سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامتثالا لأمر

الله - عز وجل - وليس سجود عبادة. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا بل كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه - عز وجل - فيه، وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق (١).

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾(ص:٧١-٧٥).

وهذا الشرف العظيم في أن المولى سبحانه وتعالى أضاف الإنسان إلى نفسه، ليعلم الملائكة عظمة وشرف هذا المخلوق الإنساني الذي نفخ فيه الرب من روحه، وهذه النفخة وإن كنا نجهلها ولكننا نعرف آثارها. فآثارها هي التي ميزت هذا الكائن الإنساني عن سائر الخلائق في هذه الأرض. ميزته بخاصية القابلية للرقي العقلي والروحي. هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي، ويصمم خطط المستقبل، وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول.

وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصية إنسانية بحتة، لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض. وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء، ولم يقع في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس - ولا أحد أفراده - عقليا أو روحيا (٢).

وهناك الكثير من مظاهر التكريم للإنسان، غير أننا اقتصرنا على أفضلها وأشرفها.

ومن هنا كان للنفس البشرية في الإسلام مكانة سامية، فالأصل هو أن الشريعة الإسلامية قد عصمت الأنفس وصانتها، وكفلت لها العيش الآمن، إما بسبب الإسلام أو الجزية أو العهد أو الأمان، وأما غير ذلك من الأنفس كنفس المحارب، أو من وجبت عليه عقوبة شرعية من قصاص أو رجم أو تعزير فليست من الأنفس المعصومة.

٢- التنشئة على خلق الرحمة:

الإسلام دين الرحمة ومبعث النبي ﷺ رحمة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(الأنبياء:١٠٧)، ومن هنا كانت دعوة الإسلام للرحمة بالآخرين حتى ولو كانوا من الحيوانات أو الجمادات، فالمسلم مطالب بالرحمة بهذه الأشياء، وقد حفلت السنة المطهرة بالكثير من المواقف التي تحض على الرحمة مع الحيوانات والنهي عن تعذيبها. ونذكر منها:

نهيه ﷺ عن اتخاذ شيء فيه الروح غرضا يُتعلم فيه الرمي» والغرض هو ما ينصبه الرماة ويجعلونه هدفا لرميهم».

فعن سعيد بن جبير رحمه الله قال: «مَرّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله - ﷺ - لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا» (٣).

ولم يقف خلق الرحمة بالحيوان عند النهي عن الإيذاء البدني فقط، بل امتد إلى النهي عن الإيذاء المعنوي بعدم لعن وسب الحيوانات، وهو ما لم تصل إليه أرقى الحضارات التي تتباهى برعايتها ورحمتها للحيوانات.

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «خذوا ما عليها، ودعوها، فإنها ملعونة»، قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد (٤).

وجعل من تعمد تعذيب الحيوان سببا في دخول النار كما في قصة المرأة التي حبست هرة دون أن تطعمها، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله - ﷺ- قال: «عُذّبت امرأة في هرّة ، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» (٥).

وفي المقابل جعل الجنة جزاء الرحمة بالحيوان وإغاثته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلب يُطيفُ بركيّة (بئر)، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها(خُفّها)، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به» البخاري (٦).

وهناك وصايا أخرى تتعلق بطعامه وركوبه وذبحه .... يضيق المقام عن ذكرها الآن.

إن هذا الربط ما بين منزلة النفس الإنسانية وكرامتها في الإسلام، وما بين خلق الرحمة بالحيوان، ليوقظ عقل وضمير الإنسان المسلم ليتدبر في رحمة الحيوان، وأن النار جزاء تعذيبه، والجنة جزاء رحمته، فإذا كان هذا هو الحال مع الحيوان، فكيف بمن يعتدي على النفس الإنسانية بتعذيبها أو قتلها ؟!

وهذا المدخل الإنشائي يربي المسلم بالضرورة على أن الإنسان المكرم من قبل الله سبحانه وتعالى، لهو أولى بالرعاية والرحمة والشفقة من الحيوان، ومن هنا تتهيأ نفس المسلم للاستجابة للأوامر والنواهي المتعلقة بحرمة الدماء.

ثانيا: المدخل الوقائي:

وهو مدخل يهدف إلى تجنب الوقوع في سلوكيات بعينها، مثل السرقة أو القتل أو الزنا، ... وذلك عن طريق مجموعة من الأوامر والنواهي التي تهدف إلى الوقاية من إتيان مثل هذه الأفعال أو الوقوع فيها.

١- بيان عظم جرم قتل النفس بغير حق:

وقد حوَت آيات القرآن الكريم وأحاديث

النبي ﷺ على الكثير من النصوص التي تبين عقوبته في الدنيا وعذابه العظيم في الآخرة، نذكر منها:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:١٥١).

وجاء في أية الإسراء الأمر المباشر بعدم الاعتداء بالقتل على النفس البشرية وما يترتب على هذا الأمر، من ضرب أو تعذيب مفضي إلى القتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾(الإسراء: ٣٣).

كما وردت في السنة المطهرة أحاديث نبوية تتحدث أيضا عن هذا الأمر، منها ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقول الزور» (٧).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما» (٨).

فقتل النفس بغير حق من عظم جرمه أن جاء في ترتيب الكبائر بعد الإشراك بالله تعالى، وبسببه يُضيق عليه دينه استشعارا للوعيد الذي ينتظره جزاء جريمته، والتي بسبب طغيانه لم ينتبه إليها من قبل.

كما حرمت الشريعة الإسلامية أن يتخلص الإنسان من حياته بالانتحار، وتوعدت فاعله بالعذاب الشديد في الآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلّدا فيها أبدا، ومن شرب سُمّا فقتل نفسه فهو يتحسّاه في نار جهنم خالدا مخلّدا فيها أبدا، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا» (٩).

كما نهت الشريعة الإسلام عن كل ما يضر بصحة الإنسان من شرب خمر أو مخدرات، أو إضراب عن الطعام، أو سلوكيات محرمة كالزنا واللواط، مما يؤدي للتسبب وانتقال الأمراض التي تؤدي للوفاة كالسرطان والكبد والإيدز...

وفي المقابل أباحت الشريعة الإسلامية للمسلم المحظورات حال الضرورة، وذلك حفاظا على حياته ، فأباحت له شرب الخمر أو أكل الميتة أو غير ذلك مما فصل فيه علماء الفقه وبينوا ضوابطه الشرعية.

وقد عملت الشريعة الإسلامية على اتخاذ كل السبل التي تمنع من الوصول للقتل، فحرمت القتال وقت الفتنة التي تضيع فيها معالم الحق فلا يستطيع المسلم أن يتبينه، فجاء عن الحسن عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عمّ رسول الله ﷺ – يعني عليا– قال: فَقال لي: يا أحنف ارجع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قال: فقلت: أو قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه قد أراد قتل صاحبه» (٩).

واحترازا في الأمر نهت الشريعة عن أن يشير المسلم إلى أخيه بحديدة أو سلاح، أو ما يشبه ذلك من ألآت قد تؤذي وتقتل، تهديدا ، أو ترويعا، وحتى ولو على سبيل المزاح، فكم من أنفس أزهقت ودماء أهرقت بسبب هذه الأمور التي لم يدر في خلد صاحبها أنها ستؤدي إلى قتل صاحبه، وما أكثر المشاهد المأساوية التي تطالعنا بها صفحات الجرائد وأخبار الحوادث عن مزاح بسلاح أو تهديد وترويع، أو تقليد لموقف أفضى في النهاية إلى القتل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه» (١٠).

وسدا للذرائع التي قد تفضي للقتل بصورة غير مباشرة، نهت الشريعة عن سب وشتم وقذف المسلم، فمجرد اللفظ قد يسبب حرجا وأذىً بالغا للإنسان المسلم، وخاصة إذا كان على الملأ وعلى مرأى ومسمع من جمع من الناس، مما يجعل هذا اللفظ مدخلا للشيطان فينمي فكرة الانتقام في نفس المسبوب لدرجة تدفعه لقتل من سبه، وكم من لفظة سب أو شتم أفضت إلى إزهاق نفس، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (١١).

ثالثا: المدخل العلاجي:

وهذا المدخل يتضمن التدابير والحلول العملية والواقعية التي رتبتها الشريعة الإسلامية حال وقوع جريمة القتل.

ففي البداية أعطت لولي الدم الحق في القصاص ممن قتل وليه، وفي هذا تهدئة وترضية لنفس أولياء القتل، ومن ناحية أخرى حفاظا على الحياة ولئلا ينتشر الثأر بين الناس دون ضابط أو زاجر فتزهق بسببه الأنفس البريئة، وكان العرب قديما يتباهون بقانون عرفي وضعوه للتحاكم إليه في جرائم القتل وهو «القتل أنفى للقتل»، فجاء القرآن

بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩).

وفي هذه الآية فوائد منها:

أ- إبانة العدل بذكر كلمة القصاص وأن القتل ليس تشفيا من المقتول.

ب- الترغيب في القصاص بذكر الحياة وجعلها نتيجة له.

ج- القصاص يشمل النفس والأعضاء بخلاف لفظ القتل، فإنه قاصر على النفس(١٢).

ثم إن مفاد الآية مستقيم على إطلاقه، لأن الإنسان إذا علم أن اعتداءه على الآخرين يوجب القصاص منه ارتدع عن قتلهم أو جرحهم؛ فكان ذلك سبب حياته وحياة من أراد قتله. أما الحكمة (القتل أنفى للقتل)، فإن مفادها غير مستقيم على إطلاقه، فليس كل قتل أنفى للقتل كما تقول، بل إن القتل عدوانا أدعى للقتل وليس أنفى له، وغالبا ما كان قتل الجاهلية بغيا وعدوانا.

وحتى مع وجوب القصاص فقد وضعت الشريعة شروطا وضوابط يجب توافرها لكي يتم القصاص، فالشريعة هنا أيضا تتوخى أعلى درجات الدقة في التطبيق هذا الحد كي لا يكون حد القصاص سببا في حد ذاته لإزهاق الأنفس، ومن هذه الشروط:

١- ضرورة إقامة البينة في قتل النفس.

٢- ضمان النفس إما بقصاص أو دية فلا يذهب دمه هدرا.

٣- تأخير القصاص إذا خشي الضرر بالغير كالقصاص من الحامل.

ومع كل هذه الضوابط إلا أن الشريعة شرعت العفو عن القصاص من باب استبقاء نفس القاتل والحرص عليها (١٣).

وحفاظا أيضا على نفس القاتل شرعت الدية لأهل القتيل، ونفس الأمور أيضا تنطبق على التسبب في إتلاف أي عضو من أعضاء الإنسان حسب سلامته وأهميته للإنسان حسب ما فصل فيه علماء الفقه.

وطالبت الشريعة القاضي قبل تطبيق الحد أن يتيقن ولا يحكم بالظن، فالحدود تدرأ بالشبهات، والأصل في ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» (١٤).

كما صانت الشريعة أنفس أهل الذمة غير المحاربين وحرمت قتلهم أو الاعتداء عليهم في السلم والحرب، ووضعت لهم الأحكام الفقهية الخاصة بهم.

ومن جميل ما اطلعت عليه أثناء إعدادي بحثي هذا قول ربنا سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(الممتحنه:١٢).

قال القرطبي: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أي: لا يئدن الموؤودات ولا يسقطن الأجنة، وكان الإقرار بعدم القتل من شروط قبول النبي ﷺ لبيعة النساء، بعد فتح مكة.

ولذلك لا نعجب عندما يتجلى حرص الإسلام على النفس البشرية، في مواقف الحرب والقتال مع الكفار الأعداء، من خلال الضوابط الأخلاقية التي كان يوصي بها الرسول ﷺ جنود المسلمين قبل خروجهم للقتال، ومن ضمن هذه الوصايا وصية رسول الله ﷺ للجيش المتّجه إلى معركة مؤتة؛ فقد أوصاهم قائلا: «اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا منْ كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، أو امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة» (١٥).

ولم تقف هذه الوصايا عند القول فقط، بل كان يتابع النبي ﷺ بنفسه مدى التزام الصحابة بها ويؤنب من يخالفها، ومن أمثلة ذلك ما حدث مع أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عندما قتل رجلا كان ما كان منه تجاه المسلمين، ولكنه نطق بالشهادتين، ورغم ذلك قتله أسامة ظنا منه أنه نطق بها لينجوا من القتل، وليس إسلاما وإيمانا.

فلما علم بذلك قال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟!» قال: نعم. قال: «فكيْف تصْنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: «وكيف تصْنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيْف تصْنعُ بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» (١٦).

تأمل هذا الموقف ففيه تحذير من القتل حتى في موقف القتال!

ورغم أن هذا ما جاء به الإسلام في شأن صيانة النفس البشرية وصيانتها، وهو موجه بالدرجة الأولى للمسلمين، فحري بهم أن يلتزموا به، وأن يبتعدوا عن القتل وكل ما يفضي إليه، وأن يتأدبوا بأدب الإسلام، وما أحوجنا في هذه الظروف التي يتصارع فيها المسلمون دولا وجماعات وأفرادا، إلى أن نعيد صياغة أفكارنا وتنشئة أنفسنا على حرمة الدماء، والكف عن إصدار الأحكام بالقتل دون ضابط شرعي، وهي لا شك مهمة ثقيلة، لذا فهي تتطلب أولا وقبل كل شيء إخلاص النوايا، ثم تضافر الجهود بين علماء الشريعة، وعلماء النفس والاجتماع، وخبراء الإعلام، لإخضاع الظاهرة للبحث والدراسة، لمعرفة أسبابها والعوامل المتحكمة في انتشارها، ووضع الحلول لعلاجها والقضاء عليها.

الهوامش

(١) تفسير القرآن العظيم ، بن كثير، ج٧ ، ص ٤٥٧.
(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٥ ، ص ٣٠٢٤.
(٣) مسلم.
(٤) مسلم.
(٥) البخاري ومسلم.
(٦) البخاري.
(٧) البخاري.
(٨) البخاري.
(٩) البخاري.
(١٠) مسلم.
(١١) البخاري ومسلم.
(١٢) مجلة البحوث الإسلامية، ج ٢٣، ص ٢٣٨.
(١٣) مقاصد الشريعة٢، عبد الرحمن بن علي إسماعيل.
(١٤) الترمذي.
(١٥) مسلم.
(١٦) مسلم.

من فقه الدعوة في الغرب:

توجيه الطاقات واستدراك الأخطاء

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

من المعلوم لمن يتابعون مسيرة الإسلام وانتشاره في الغرب، أن الإسلام هناك يواجه تحديات كبيرة؛ بعضها راجع إلى طبيعة الغرب نفسه، وثقافته المتمايزة - ولا أقول المتميزة - عن الثقافات الأخرى، مما يستدعي بالضرورة خطابا يناسب هذه الطبيعة وتلك الثقافة، فلكل مقام مقال، ولكل حادث حديث. وقد أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم وبما يناسب أفهامهم.

وبعضها الآخر راجع إلى كيفية توظيف تلك الطاقات الهائلة، التي تتمثل في إسلام عدد كبير من مثقفي الغرب ومفكريه عن اقتناع تام ودراسة وتمحيص ومقارنة؛ لأن الواقع ينبئ - للأسف - أن هذه العقول الكبيرة والطاقات الضخمة والتجارب العميقة، لم تتم الاستفادة منها بصورة مناسبة، بل في بعض الأحيان تم توجيهها إلى ما لا تحسن؛ الأمر الذي نتجت عنه أخطاء أساءت إلى هؤلاء المفكرين، وإلى الإسلام نفسه!

إن علينا بشكل عام إجراء الصيانة اللازمة لتلك التجارب ومراجعتها ومن المهم ابتداء أن نؤكد أن الإسلام يتميز بأنه ليس فيه «رجال» دين أو «كهنة» يحتكرون التبليغ عن الله سبحانه ويدعون لأنفسهم عصمة، إنما فيه «علماء» يقدمون «فهمهم» لأوامر الله سبحانه من دون أن يكون ذلك احتكارا للحقيقة، أو مصادرة لحق الآخرين في الفهم والمناقشة، ومن ثم في الاختلاف؛ ما دام من يتعرض للحديث عن الإسلام ملتزما بأصول وضوابط فهم النص القرآني الكريم والحديث النبوي الشريف، تلك الأصول والضوابط التي توارثها المسلمون عن النبي ﷺ جيلا بعد جيل، وصارت من الوضوح والدقة والتنظيم ما يجعل الرجوع إليها أمرا ميسورا.

جارودي والتوجيه الخاطئ!

فمثلا حين أسلم المفكر الفرنسي روجيه (رجاء) جارودي (١)، كان إسلامه فتحا للإسلام والمسلمين، ودليلا عمليا يؤكد خلود الإسلام، ويجدد الثقة في صلاحية عقيدته وشريعته لكل زمان ومكان ولكل العقول على اختلاف أفهامها وثقافاتها. ذلك أن جارودي اعتنق الإسلام وهو على رأس المفكرين الغربيين، حيث كان من أبرز منظري الماركسية، وعضوا سابقا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وأحد فلاسفة الغرب المعدودين.

ولذلك، عمت المسلمين فرحة كبيرة بإسلامه، وراحوا يعقدون له الندوات والمؤتمرات، ويستطلعون آراءه وأفكاره، متشوقين أن يجلي لهم تجربته، ويكشف لهم المزيد عن أزمة الحضارة الغربية المعاصرة.

لكن المسلمين بدلا من أن يستفيدوا من جهوده في نقد الحضارة الغربية، بشقيها الرأسمالي والاشتراكي، وفي نقد الصهيونية والحركة الاستعمارية العالمية، وتقتصر الاستفادة عند هذا الحد، لأن هذه المجالات هي ما يحسنه رجاء جارودي بالدرجة الأولى، ذهب بعضهم محاولا استطلاع رأيه في أمور تتصل بأدق العلوم الإسلامية، وتحتاج إلى دراسة وتعمق قد لا يكونان متوافرين بالضرورة لمن دخل في الإسلام حديثا. ومن هنا جاءت بعض أفكار جارودي التي تحتاج إلى تصويب أو تهذيب، مثل حديثه عن تطور الشريعة، وتجديد التراث، ونقد التاريخ الإسلامي، والدعوة إلى الإبراهيمية، وأخطاء ما سماه: الأصولية الإسلامية (٢).

ويصور لنا د. محمد سعيد البوطي جانبا من هذا التوجيه الخاطئ لطاقة ضخمة مثل جارودي، قائلا: «فأنا لا أشك في أن الرجل (جارودي) قد زج به في الحديث عن مشكلات تتعلق بالثقافة الإسلامية، بل ربما تتعلق بجذور من القواعد العلمية الإسلامية المعقدة. ومن الطبيعي جدا أن تخونه معارفه الحديثة والقليلة عن الإسلام، وأن يقع من جراء ذلك في تيه من الأفكار والتصورات والتفسيرات الباطلة.. على أنه كثيرا ما كان،



ولا يـزال، يصيب - اعـتـمـادا على عبقريته النـادرة، وثقافته ودرايته الفلسفية الواسعة - الحقيقة، وينتهي إلـى عمقها، فيما قد يـعـرض عليه ويسأل عنه، غير أن هـذا لا ينطبق على الحقائق التي لا تؤخذ إلا عن النصوص وقواعدها الدلالية» (٣).

ولـذا، فقد حـذر كثير من المفكرين مبكرا من التعامل غير الصحيح مع جـارودي وغيره، وحملهم إلـى مواقع ليست مـن اختصاصهم. وفـي هذا الصدد، يتساءل الأستاذ عمر عبيد حسنة فـي حـواره مـع جـارودي في الأيـام الأولـى مـن إسـلامـه: «إلـى أي مدى نستطيع - نحن المسلمين - أن نستفيد مـن موقع المفكر الفرنسي المسلم رجاء جارودي، والثغر الذي هو عليه، ونستطيع مساعدته للمحافظة على الموقع نفسه لأهميته، ولا نندفع وراء عواطفنا لنحمله إلى مواقع أخرى في العمل الإسلامي ليست من طبيعته ولا مـن اختصاصه واهـتـمـامـه، على طريقتنا في الرفع والخفض؟» (٤).

ولكن تنبغي الإشارة هنا - من باب الإنصاف - إلى أن جارودي كان يتحلى بالتواضع، وكان يحيل - في كثير من المؤتمرات - الإجابة عن الأسئلة التي لا يعرفها إلى من بحضرته من العلماء.

يقول د. البوطي: «والـذي أعرفه أنه كـان يتحفظ فـي الـخـوض فيها (أي في حقائق الإسـلام التي تحتاج إلى دراسـة متعمقة) والإجـابـة عنها، ما وسعه ذلك. وقد أنبأني صديقه الأخ الدكتور عربي كشاط، مدير مسجد الدعوة في باريس، أن طبيبة مسلمة سألت جـارودي عن رأيـه الإسلامي في أن تطبب رجـالا مرضى يلجأون إلى عيادتها، وكان إلى جانبه الدكتور كشاط. فقال لها: اسألي العالم في ذلك، مشيرا إلى كشاط».

ثـم يـعـقـب د. الـبـوطـي عـلـى ذلك بقوله: «إذن ليست المشكلة فـي أن يتحرى واحـد مثل روجيه جارودي معرفة الإسـلام ودقائق أحكامه، ثم يتورط في بعض الأخطاء الفكرية أو السلوكية، من دون قصد منه إلى ذلك أو تعمد، ولكن المشكلة الكبرى هي أن يأتي من يرقى به فجأة، ورغما عن أنفه، إلى مستوى القيادة الإسلامية العلمية الراشدة، ثم لا يلبث أن يهوي بـه إلـى حضيض الـردة والكفر!.. وأخطر من هـذا الإشـكـال أن تلعب الخلفيات الصهيونية دورا مباشرا أو غير مباشر في ذلك» (٥).

جارودي والدعوة إلى الإبراهيمية

من الآراء التي طالما رددها جارودي، وأثارت عليه شبهات كثيرة، بل طُعن فـي إسـلامـه بـسـبـبـهـا، دعـوتـه إلى الإبراهيمية.

يـرى جـارودي أن الـدعـوة إلى الإبراهيمية - وهي اتباع ملة إبراهيم، عليه السلام - تتفق مع الإسلام في أنه امتداد لدعوات الأنبياء السابقين. ويـرى أن إبـراز ذلـك وتـأكـيـده من شأنهما أن يعملا على ترسيخ الحوار بين أتباع الأديان السماوية، وتجنيبهم الصراع والمواجهة.

وحين سئل عن فكرته حول إمكانية قراءة التاريخ من وجهة نظر وحدوية عـلـى أسـاس أن إبـراهـيـم وموسى والمسيح ومـحـمـدا، عليهم الصلاة والسلام، يكمل بعضهم بعضا، قال: «هـذا التكامل فـي نظري عبارة عن حلقات تـاريـخـيـة. فكل نبي أرسل في مرحلة تاريخية قد مهد لمن جاء بعده، وانتهت أصـول هـذه الديانات الـسـمـاويـة إلـى الـرسـالـة الخاتمة الـكـامـلـة كـمـا جـاء بـهـا محمد ﷺ، باعتبار أن الإسلام قد اكتمل بنزول الـقـرآن الـكـريـم. والـقـرآن قـد أورد

هذا، وسمى الأنبياء السابقين كلهم مسلمين. وبالنسبة إلى الإسلام فهو الدين الوحيد الذي يعترف بالأديان السابقة، ويعتبر إبراهيم وموسى وعيسى،عليهم الصلاة والسلام، كلهم أنبياء مسلمين. رسول الله الكريم محمد ﷺ أوضح أنه جاء ليذكر بملة أبينا إبراهيم، كما بين أن تعاليم هؤلاء الأنبياء المسلمين من قبله قد حرفت، وأن التحريف بدأ من أيام اليهودية.. ولذلك، فأنا أؤمن بأن محمدا ﷺ قد جاء بالملة الأولى – ملة إبراهيم – وهي أكثر صور العقيدة تكاملا، فاليهود يكفرون بالمسيح، عليه السلام، ويكفرون بمحمد ﷺ. والنصارى بدورهم يكفرون به؛ ومحمد ﷺ يؤمن بإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام» (٦).

فهذه الدعوة إلى الإبراهيمية، التي أطلقها جارودي وأراد من خلالها تقريب الإسلام من الناس، وتقريب الناس، على اختلاف أديانهم، بعضهم من بعض، قد اختلف معه فيها كثير من العلماء. فبعضهم رأى أنها دعوة صحيحة في أصلها ولكن تحتاج إلى ضوابط، مثل د. البوطي كما سيأتي بيانه. وبعضهم رأى فيها امتدادا لدعوى المستشرقين، من أمثال إبراهام غايغر وإيناس جولد زيهر، بأن الإسلام قد أخذ عن اليهودية والمسيحية، وفي هذا اتهام للإسلام، الدين الخاتم والكامل، بالقصور والنقص، وهو ما يتناقض تماما مع ما نؤمن به من كمال الإسلام وتمامه، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) (٧).

كما تهدف هذه الدعوة – برأي هؤلاء العلماء – إلى إثناء المسيحيين الغربيين عن الدخول في الإسلام، بحجة أنه لا توجد بين المسيحية والإسلام فوارق أساسية، وأن الجميع أتباع إبراهيم عليه السلام (٨).

وتهدف – من ناحية ثالثة – إلى تذويب العقيدة في نفس المؤمن، وتفريغه من عقيدته ثم الوصول به إلى مرحلة اللادين (٩).

أما العلماء الذين يؤيدون هذه الدعوة بضوابط، فيأتي في مقدمتهم د. محمد سعيد البوطي، الذي بسط القول في هذه المسألة، قائلا (١٠): «اهتم روجيه جارودي في السنوات التي تلت إسلامه بالسعي إلى بعث فكرة الوحدة الدينية المتمثلة في الحنيفية السمحة التي بعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وجذب العقلية الأوروبية من خلال ذلك إلى الإسلام». ويؤكد د. البوطي موافقته على هذه الدعوة مضيفا: «إنني لم أعلن فقط موافقتي على هذه الفكرة، بل أعلنت – أيضا – عن إكباري لهذه الدقة العلمية في دراسة جوهر الدين الحق، الذي لا يمكن إلا أن يكون دينا واحدا، صاحب الإنسان منذ فجر وجوده، وهو ما أكده القرآن في أكثر من موضع، وإنما تفرع هذا الدين الواحد إلى أديان متخالفة، بدافع اختلافات ساقت إليها عصبيات متحكمة، أو مصالح وأهواء مسيطرة. تشهد بذلك التطورات الدينية التاريخية المعروفة، منذ بعثة المسيح، عليه السلام، إلى أن استقرت لقسطنطين على النحو الذي خطط له مؤتمر نيقية».

ثم يشدد د. البوطي على أن هذه الدعوة لا تختلف مع العقيدة الإسلامية، لكنها تحتاج إلى ضوابط، فيقول: «إن هذا الذي عرفه وتذوقه جارودي عن حقيقة الدين، ثم نهض يعلن عنه ويدعو إليه، في قلب أوروبا، جزء لا يتجزأ من المبادئ الاعتقادية الكبرى في الإسلام، ومن ثم فهو أمر يجب أن يلقى من المسلمين – بعد اعتقادهم به – كل دعم وتأييد، مع تبصيرهم له بالضوابط التفصيلية التي قد لا يكون بصيرا بها.. ويؤيد هذه الدعوة قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى:١٣)» (١١).

ويذكر د. البوطي أمرا جوهريا يضبط هذه الدعوة، وهو بيان مدى التحريف والتبديل اللذين أصابا الشرائع السابقة على الإسلام. فهذه الشرائع وإن كانت تتفق مع الإسلام في أصولها التي أنزلت بها؛ من حيث الدعوة إلى التوحيد الخالص ومكارم الأخلاق، إلا أنها قد أصابها من التحريف، ما جعلها تتناقض مع هذه الأصول المشتركة مع الإسلام، خصوصا في جانب العقيدة.

يقول د. البوطي: «غير أن الذي فاته (جارودي) هو التركيز على التغييرات والتبديلات الكثيرة التي أدخلت على كل من التوراة والإنجيل، وعلى مفاهيم العقيدة الإيمانية الواحدة (١٢)، لأسباب كثيرة أشار هو إلى بعض منها، وهذا ما نبه إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ (آل عمران:١٩)» (١٣).

دائرة «رحماء بينهم»

تلك كانت رؤية د. البوطي

المتوازنة، تجاه ما أثير من اعتراضات حول دعوة جارودي إلى الإبراهيمية. ولكني - مع موافقتي لرؤية د. البوطي - أرى أن نستبدل بمصطلح «الدعوة إلى الإبراهيمية» مصطلحا آخر أكثر ضبطا وهو «حوار الثقافات أو الحضارات»، لأنه إذا كان المقصود من الدعوة إلى الإبراهيمية: الدعوة إلى الجانب العقدي من الشرائع الثلاث، والذي يدعو إلى التوحيد الخالص لله وتنزيهه عن الصاحبة والولد؛ فإن ذلك يستحيل تحقيقه في ظل استمساك كل طرف بعقيدته، حتى أصحاب العقيدة المحرفة.

أما إذا كان المقصود من الدعوة إلى الإبراهيمية: الدعوة إلى الجانب الأخلاقي والإنساني، والتأكيد على ضرورة التواصل والحوار فيما ينفع البشرية؛ فإني أرى أن مصطلح «حوار الثقافات أو الحضارات» يحقق هذا الهدف من دون أن يثير الاعتراضات والشبهات التي تثيرها الدعوة إلى الإبراهيمية. هذا مع الأخذ في الاعتبار أننا مأمورون بتجنب المصطلحات التي تثير اللبس، أو المصطلحات التي لا تكون دالة على المقصود منها دلالة واضحة.

فقد نهى القرآن عن استعمال الألفاظ التي يستعملها غير المسلمين، خصوصا إذا اختلفت دلالتها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٠٤). فالآية الكريمة تنهى المسلمين أن يقولوا «راعنا» وهي من المراعاة، أي الإنظار والإمهال؛ وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان، أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا. وجاء النهي لأن اليهود قد حرفوها وجعلوها كلمة مسبة، مشتقة من الرعونة وهي الحمق. ولذلك، نهى المسلمين أن يقولوها لئلا يتشبهوا باليهود، وأمرهم أن يقولوا «انظرنا» من النظر والإمهال، أي: انتظرنا وارتقبنا (١٤).

نستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن الخطأ الذي قد يقع من جارودي وغيره من الغربيين الذين أسلموا، أمر وارد ومتوقع، وأن ذلك يجب ألا يثير شبهات حول إسلامهم، بل ينبغي أن يعالج بمزيد من النصح والرفق، وحسن التوجيه، فذلك من حقوق الأخوة بيننا، يقول د. عبدالحليم عويس: إن «رحالة فكريا» عالميا، على هذا المستوى (جارودي) من الثقافة، يحتاج إلى جهود كبيرة، ذكية مخلصة، لا تعمد إلى تجريحه، بل تعمد إلى تفقيهه، وبيان الفروق العميقة بين المصطلحات، في دائرتنا الإسلامية، والمصطلحات في دوائرها الأخرى» (١٥).

وينقل د. عبدالحليم عن الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - نصيحته «بأن نتعامل بشيء من الأناة واللطف - بل والرفق - مع رجاء جارودي بخاصة، ومع أمثاله من الذين عاشوا فكر القرن العشرين الأوروبي، ثم اتجهوا إلى الإسلام بصفة عامة». ثم يقول د. عبدالحليم: «ومع ذلك، فالحق لا مجاملة فيه، ولكن الفروق يجب أن تكون واضحة بين من يخطئ على الطريق الطويل في خطوات تشبه العثرات، ومن يبني بيته كله على (الضرار) والهدم» (١٦).

● أما ما أثير من أن جارودي قد ارتد عن الإسلام، فيكفي أن نورد إجابته هو عن ذلك، فقد سئل عما إذا كان ارتد عن الإسلام، فقال: «أبدا، هذا لم يحدث على الإطلاق، من قال إنني ارتددت عن الإسلام؟! كل ما فعلته هو أنني أهاجم من أعتقد أنهم يسيئون إلى ديننا، أهاجم الأفكار المتطرفة.. التي لا تنتمي إلى صلب الإسلام. إن هذه إشاعة مغرضة ممن يحاولون استخدام الإسلام لأغراض سياسية الأفكار التي تحاول فرضها على الرأي العام وعلى أوساط المثقفين والمؤرخين» (١٧).

ولذلك أتساءل مع د. عبدالحليم عويس: «فهل ننضم نحن إلى القافلة المتربصة بجارودي، أو نحاوره «بالتي هي أليق بمثله».. مصححين له المفاهيم، محتفظين له بدائرة «رحماء بينهم» ودائرة المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله» (١٨).

الهوامش

١ - أسلم في ١١ من رمضان ١٤٠٢هـ، ٢ من يوليو ١٩٨٢م.
٢ - لمعرفة المزيد عن آراء جارودي ونقدها راجع: «تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة» للأستاذ أنور الجندي، صفحات ١٧١و١٧٥و١٩٩. وأيضا مقال د. محمد عمارة القيم: «حوار مع جارودي»، مجلة «الأزهر»، عدد ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ص٥٥٤.
٣ - شخصيات استوقفتني، ص٢١٨، دار الفكر، ط٢، ٢٠٠١م.
٤ - من حوار مع مجلة «الأمة»، عدد ٢٩، ص٧٠، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ.
٥ - شخصيات استوقفتني، ص٢١٩.
٦ - من حوار مع مجلة «الأمة»، عدد ٢٩، ص٧٠، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ.
٧ - انظر مقال «الإبراهيمية دعوة باطلة» د. حسن عزوزي، «الوعي الإسلامي» عدد ٤٢٠، ص٣٨، شعبان ١٤٢١هـ.
٨ - انظر «تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة»، للأستاذ أنور الجندي، ص١٧٢، دار الاعتصام، من دون تاريخ.
٩ - المصدر نفسه، ص١٧٤.
١٠ - شخصيات استوقفتني، ص٢١٢.
١١ - المصدر السابق، ص٢١٣.
١٢ - خاصة بعد مؤتمر «نيقية» الذي عقد سنة ٣٢٥م، وتقررت فيه ألوهية المسيح، بناء على الدعوة التي تزعمها قسطنطين ضد رجل الدين «أريوس» ومن معه، الذين كانوا يؤمنون بالعقيدة الصحيحة، وهي أن عيسى، عليه السلام، بشر، وأنه لم يصلب ولم يقتل.
١٣ - المصدر السابق، ص٢٢٢.
١٤ - صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، ط١، ص٧٥، دار الصابوني، ط١، ١٩٩٧م.
١٥ - مقال «منهاج الحوار بين الأخيار»، مجلة «الأزهر»، عدد ٥، ص٧١٢، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ.
١٦ - مقال «ملاحظات على منهاج الحوار بين الأخيار»، مجلة «الأزهر»، عدد جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ص٧١٣ و٧١٦.
١٧ - من حوار مع مجلة «المختار الإسلامي»، عدد ١٦٣، ربيع الأول ١٤١٧هـ، ص٢١. ويشير جارودي في هذا الحوار إلى محاكمته في فرنسا، بدعوى أن كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» يحرض على معاداة السامية، ويشكك في أعداد الضحايا اليهود في «الهولوكست».
١٨ - د. عويس، مصدر سابق، ص٧١٦.

للصيانة معنى

التحرير

صانَ يَصُون، صُنْ، صَوْنًا وصيانةً وصِيانًا، فهو صائن، والمفعول مَصُون ومَصوون وصَيِّن.

• صان المالَ ونحوَه حفظه في مكان أمين: صيانة حقوق الأقلّيّات.

• صان عِرْضَه: حماه ووقاه ممّا يعيبه:

صُنْتُ نفسي عمّا يدنِّس نفسي
وترفّعتُ عن جدا كل جِبْس
أصون عرضي بمالي لا أدَنِّسُهُ
لا بارك الله بعد العرض في المالِ
وعينك إن أبدت إليك معايبًا
فصنها وقل يا عين للناس أعينُ.

• صان عهدَه: حافظ عليه، صان ماءَ وجهه: حافظ على كرامته واحترم نفسَه.

• صان لسانَه: حبسه عن كُلِّ قول فاحش.

• صان الآلةَ ونحوَها: تعهّدها بالعناية والإصلاح.

مرت الصيانة بمراحل مختلفة من التطور، فمع بداية الثورة الصناعية وحتى وقت قريب كان أسلوب الصيانة الشائع هو أسلوب ردة الفعل، بمعنى: أنه عندما تتعطل الماكينة نقوم بإصلاحها، أما إذا كانت الماكينة تعمل بشكل جيد فإنه لا يتم عمل أي نشاط له علاقة بالصيانة. أي أنه في هذه الفترة كان مفهوم الصيانة هو: إصلاح المعدة إذا تعطلت.

إلا أنه مع تطور الصناعة ظهرت الحاجة لاتخاذ بعض الإجراءات لتلافي المشاكل التي كانت تحدث بسبب استخدام أسلوب ردة الفعل في الصيانة، مثل: توقف الإنتاج فترات كبيرة من أجل الإصلاح الذي يأخذ وقتا طويلا، واحتمالات حدوث خسائر كبيرة في الماكينات أو في الأرواح نتيجة العطل المفاجئ وغير المتوقع، ومن هنا جاء التفكير في الصيانة الوقائية والتي تعتمد فكرتها على أن لكل ماكينة ولكل جزء من أجزائها عمرًا افتراضيًا معينًا يمكن حسابه بالتقريب، لذلك فإنه قبل موعد انتهاء عمره الافتراضي يتم استبداله، وبذلك يتم تجنب حدوث الكثير من الأعطال غير المتوقعة التي كانت تحدث في السابق.

ومع ذلك فإن احتمال حدوث أعطال غير متوقعة مازال واردا، حيث يمكن أن تتعرض الماكينة لظروف تشغيل قاسية، مما يعجل بموعد تلف أحد أجزائها، كما أن احتمال تغيير واستبدال بعض الأجزاء وهي في حالة جيدة يكون واردا، مما يعني خسارة مادية كبيرة، لذلك تم التفكير في أسلوب أحدث وهو الصيانة التنبؤية، والذي يعتمد على مراقبة حالة الماكينة من أجل التنبؤ بالأعطال التي يمكن أن تقع قبل حدوثها.

فإن كان الحال هكذا مع الآلة التي لا تشعر ولا تتأثر بالفكر والتأملات، فما بال الإنسان!..ألا يحتاج لصيانة نفسه وحسه وفكره؟!

لقد دعت الشريعة إلى صيانة النفس بكل سبيل يحول بينها وبين الهوى، فالاستغناء أفضل من الاستجداء، والعمل أشرف من السكون وانتظار الهبات.

ورعاية كل راع لرعيته كما ينبغي واجب شرعي، ومع الأخذ بالأسباب يكون الرضا بالقضاء وبحكم الله، فتسكن النفس وتهدأ، وهكذا تصان من الفتن والنظر للآخرين نظرات الحسد البغيضة.

يقول الله عزوجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ (آل عمران:٢٦).

ومن أوجه صيانة النفس أيضا، التواضع.. ساعتها لا تنتفخ الذات وتتكبر فتنفجر الأماني كفقاعة هواء، وتكون حسرة على المتكبرين، بل يذكر الإنسان نفسه بحقيقة الحياة ورحلتها القصيرة، وبمن يعلونه قدرا وقيمة وعطاء، وبأن الناس كأسنان المشط، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى..

يقول الله عزوجل: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨ ﴾ (المنافقون:٨).

وفي ذلك بيان لصيانة النفس الإنسانية بالعزة المستمدة من الإيمان بالله وشريعته التي مقاصدها حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال معا.



المسلمون وصناعة الورق

هند عبد الحليم محفوظ
مدرس مساعد بجامعة الأزهر

يعود اختراع الورق إلى الألف الثالثة قبل الميلاد (حوالي ٢٧٠٠ ق.م)، فقد اخترع المصريون القدماء مادة صالحة للكتابة، مع سهولة الحصول على هذه المادة بثمن في متناول الأيدي، وهي ورق البردي، وكان ذلك من أعظم الاختراعات في تاريخ البشرية. وقبل ذلك كانت الكتابة (التي ظهرت في الألف الرابع) مقصورة على الحجر أو اللوحات الطينية، التي استخدمها السومريون، الذين فضلوا الكتابة عليها وأيسر في التكلفة من قطع الحجر (١).

ولقد حلت صناعة الورق من البردي مشكلة الكتب الحجرية والطينية، ذلك أنه لكتابة نص أدبي أو علمي طويل نسبيا كان يحتاج إلى أكوام من قطع الحجر المصقولة أو اللوحات الطينية التي كانت تحرق - المهمة منها - في أفران، وتحفظ في أغلفة طينية بعد أن ينثر عليها قليل من مسحوق الطمي الجاف ليمنع التصاقها بغلافها، ذلك الغلاف الذي كان يجب كسره بطبيعة الحال قبل قراءة لوحته الداخلية (٢). فإذا أراد شخص أن يقرأ هذا النص أو ذاك كان يتحتم عليه أن يقلب أكواما من الحجارة حتى يأتي على محتويات النص أو الكتاب، ودعك من حمل هذه الكتب ونقلها من مكان لآخر وهي بالطبع مهمة شاقة.

فقد روي أن الإسكندر الأكبر، بعد أن استولى على بابل، أمر بنقل آلاف اللوحات الطينية البابلية الخاصة بالعلوم إلى المدن اليونانية على ساحل البحر الأبيض المتوسط لترجمتها إلى اللغة اليونانية وقد حملت هذه اللوحات على قوافل كبيرة من الجمال.

ولولا ورق البردي لضاع جزء كبير من التراث العلمي والثقافي لأشهر الحضارات القديمة - الحضارة المصرية- ولتغير تاريخ الثقافة والعلوم تغيرا كبيرا (٣).

وقد صنع الفراعنة الأحبار من مسحوق المعادن، وصنعوا الأقلام من أشواك نباتات مناسبة، وقد خلّد التاريخ جهود الفراعنة في اسم الورق في أغلب اللغات العالمية المشتقة من كلمة Papyrus وهو اسم البردي، أما اسم الورق في اللغة العربية فهو من كلمة الرَق (بفتح الراء) أي الجلد المرقوق.

وظل استعمال ورق البردي في الكتابة حتى القرن الحادي عشر الميلادي. فقد كُتبت المنشورات البابوية على



ورق البردي حتى عام ١٠٣٢م (٤).
أما الورق الحالي، الذي يصنع معظمه من عجائن من لباب الشجر فهو اختراع صيني، ويرجع إلى القرن الثاني بعد الميلاد. وهو يختلف في طريقة صنعه عن الورق الفرعوني، لكن الفكرة واحدة وهي تصنيع شرائح أو رقائق من مادة مرنة تصلح للكتابة عليها.

بين الحرير و الغاب

كانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هي كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل مقارنة بالحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون زمنا طويلا، ذلك أن الحرير غالي الثمن، والغاب ثقيل الوزن. حيث كان الكاتب يحتاج إلى عربات نقل يحمل عليها الكتب المدونة على شرائح الغاب، وكان على القارئ أن يقلب عشرات أو مئات الأرطال من قطع الغاب كي يطلع على نص علمي أو أدبي.. وفي العام ١٠٥ بعد الميلاد صنع (تسي آي لون) ورقا من لحاء الشجر وشباك الأسماك، وبعد ذلك طور الصينيون هذه الصناعة باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجيلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف ويجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر (٥).
ويبدو أن الورق الصيني كان محدود الانتشار ولم يذع خبره في العالم القديم أو الوسيط، حتى إن العرب لم يتخذوه في أعمالهم التجارية، وكانوا يتاجرون مع الصين والهند منذ قرون موغلة في القدم، ويبدو أن أوروبا لم تسمع عن الورق الصيني هذا إلا بعد أن طوره المسلمون، مما يوحي بأن الورق الصيني لم يكن جيدا أو مناسبا تماما للكتابة.
وعرف العرب أسرار صناعة الورق الصيني من خلال سمرقند التي فتحوها في العام ٩٣هـ - ٧١٢م. وفي العام ١٧٨هـ- ٧٩٤م أسس الفضل بن يحي في عصر هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ / ٧٨٦- ٨٠٩ م) أول مصنع للورق في بغداد، ومن ثم انتشرت صناعة الورق بسرعة فائقة في سائر أنحاء العالم الإسلامي، فدخلت سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا. وكان الناس حتى ذلك الوقت يكتبون على الرَق والعسب واللخاف. ثم أمر هارون الرشيد - بعد أن كثر الورق - ألا يكتب الناس إلا في الكاغد (الورق) (٦).





وطور المسلمون صناعة الورق وأنتجت المصانع الإسلامية أنواعا ممتازة من الورق. وأدى ذلك إلى تسهيل إنتاج الكتب بطريقة لم تكن موجودة قبل العصر الإسلامي. ففي أقل من قرن من الزمان، أنتج المسلمون مئات الآلاف من نسخ الكتب العلمية والأدبية والدينية والفنية والتي ازدانت بها مئات المكتبات العامة والخاصة في أرجاء العالم الإسلامي من قرطبة إلى سمرقند وصولا إلى الصين.
وكان الأوروبيون في ذلك الوقت يكتبون على رقوق من جلود الحيوانات، بل اعتاد الرهبان على حك مؤلفات عظماء اليونان المدونة على الزق؛ ليكتبوا بدلا منها مواعظهم الدينية، مما أدى إلى ضياع الكثير من تراث اليونان العلمي والثقافي (٧).
وترتب على تطور صناعة الورق انتشار الكتب في كل مكان ولا سيما في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية (الرابع الهجري – العاشر الميلادي)، حيث كان يوجد مكتبة بكل مسجد، وكان الحكام والأغنياء يتباهون ويفاخرون بجمع الكتب واقتنائها. وكان بعضهم يجري الأرزاق على العلماء وطلاب العلم في هذه المكتبات، وكانت بغداد تضم ستة وثلاثين مكتبة قبل أن يدمرها المغول.
وكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد الشرق ليشتروا له الكتب بمجرد ظهورها، وكان فهرس مكتبته يتألف من أربع وأربعين كراسة كل منها عشرون ورقة، ولم يكن بهذا الفهرس إلا أسماء الكتب. أما في مصر فكان للخليفة العزيز (ت٣٨٦هـ – ٩٩٦م) خزانة كتب كبيرة تحتوي تقريبا على كل الكتب المعروفة آنذاك. وجمع القاضي أبو المطرف (ت٤٠٢هـ – ١٠١١م) في قرطبة مكتبة لم يكن لها مثيل في الأندلس (٨).

المراجع:
١- تاريخ العلوم والتكنولوجيا.. في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه: الدكتور مصطفى محمود سليمان ص ٥٠٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٨م.
٢- الشرق الأدنى القديم.. مصر والعراق: الدكتور عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة- ١٩٧٦م.
٣- تاريخ العلوم والتكنولوجيا: مرجع سابق ص ٥٠٤.
٤- تاريخ العلم: جورج سارتون: ترجمة لفيف من العلماء بإشراف الدكتور إبراهيم بيومي مدكور – دار المعارف – مصر ١٩٧٦.
٥- تاريخ العلوم والتكنولوجيا: ص ٥٠٤.
٦- السابق: ص ٥٠٥.
٧- حضارة الإسلام وأثرها في الترقي: جلال مظهر، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٧٤م.
٨- تاريخ العلوم والتكنولوجيا: ص ٥٠٦.

التلوث الضوضائي من خلال نوازل الفقه

مصطفى البعزاوي
باحث دراسات إسلامية

التلوث أمر خطير لما فيه من الضرر، والمتتبع لكتب النوازل الفقهية يجدها رصدت نماذج كثيرة ومتنوعة، مما يبرز جهود الفقهاء وحضورهم ميدانيا لمنع مثل هذه الأضرار والتي تخل بنظام التوازن البيئي.

وفي هذا المقام سأورد نموذجا لهذه المشكلة البيئية القديمة، والتي يعبر عنها البيئيون في العصر الحاضر بالتلوث الضوضائي، ويقصدون به التلوث الذي يتسبب عن الضجيج، ويتعرض له الإنسان في المسكن والطرق في كثير من الأحيان أثناء العمل، ولا شك أنها تزعج الإنسان وتضر به.

وبناء على هذا النوع الذي يندرج في الحفاظ على البيئة اخترت نازلة للدراسة والتحليل من خلال كتاب المعيار للونشريسي رحمه الله.

سيكون تناولها على النحو التالي:

عرض النازلة:

(من نصب مطاحين يؤذي دويها الجيران):

وسئل ابن حارث عن رجل نصب مطاحين في بيت له، وشكا جاره دوي المطاحين، والبيت على شارع المحجة والحيطان كلها لصاحب البيت، وأراد منعه من ذلك، وإنما في دار هذا الرجل من هذا البيت حائطان أحدهما في بيته والثاني في داره.

فأجاب : قرأت وفهمت أيدك الله، الضرر درجات واتخاذ مطاحين عند حائط بيت الإنسان، وحيث لا يعدم دويها هو عندي من أعظم الضرر، وكنت أرى قطع ذلك على الجار الذي شكا ضرره به إن شاء الله.

وأجاب ابن زرب: الذي وقع في كتاب القسم من المدونة في الذي يتخذ في عرصته رحى أنها إذا أضرت بجدران جيرانه منع من ذلك.

وروى مالك رحمه الله في الضراب للحديد يكون جارا للرجل ملاصقا به فيعمل في بيته، وليس بينهما إلا حائط فيعمل الليل كله والنهار يضرب الحديد فيتأذى بذلك جاره، ولا يجد راحة من كيره وضربه ويرفع ذلك إلى السلطان، فقال مالك: لا يمنع من ذلك، إنما هذا رجل يعمل في بيته وليس هذا يراد به الضرر، فليس يمنع أحد من العمل في بيته وإنما هو عمل في يده وعيشه الذي يعيش به. رواه مطرف عن مالك، فهذا ما أقول به والله يحملك على الصواب.

وأجاب عبد الرحمن بن مخلد: ذكرت وفقك الله في كتابك أن القائم عندك في المطاحين إنما شكا أن دويها يضر به، ولم يذكر ضرارا بحيطانه، وليس الذي شكاه من المسألة التي اجتلبها بعض أصحابنا في كتاب القسم من المدونة في شيء، والمقالة الثانية في الضارب للحديد تشبه المسألة التي كشفت عنها، فالذي أرى أن لا يمنع من الانتفاع بمطاحينه، وليس الذي ذكره من أن دويها مضر به من الضرار الذي يجب قطعه والمنع منه وهو الذي أدركت شيوخنا رحمهم الله يفتون به، فهذا ما عندي وبالله التوفيق. (١)



أسباب النازلة:

يكمن سبب السؤال في هذه النازلة عن المطاحين التي تؤذي الجيران بدويها وضوضائها، وهذا السلوك لا شك أنه يضر بالجيران، سيما وأن الضجيج مصدر للأمراض، ومصدر للإزعاج، وعائق من عوائق الهدوء، ولقد أثبتت الدراسات الطبية أن أكثر من ٦٥ مليون شخص في الدول الصناعية يعانون من أعراض صحية خطيرة جدا أثبتت أن سببها هو الضجيج. (٢)

ويضيف المختصون أن قوة الضجيج إذا تعددت ٨٠ ديسيبل (٣)؛ فإن هذا يسبب تدمير الخلايا الداخلية للأذن والدماغ. (٤)

النتائج:

إن النظر في الجواب عن هذه النازلة، نجده يختلف من مفتى لآخر.

فالمفتي الأول «ابن حارث»؛ يرى أن ما ينتج عن المطاحين من الإزعاج والضوضاء من أعظم الضرر، ويحكم بقطع ذلك على الجار الذي شكى ضرره به، ويوافقه في هذا الحكم المفتي ابن زرب.

واستثنى من ذلك «الضراب للحديد يكون جار الرجل ملاصقا به فيعمل في بيته يضرب الحديد فيتأذى بذلك جاره، ولا يجد راحة من كيره وضربه».

ولعل في هذا الاستثناء عدم حصول ضرر كبير مقارنة بذوي المطاحين.

هذا فيما يخص الجواب الأول عن النازلة، وأما الجواب الثاني الذي ساقه عبد الرحمن بن مخلد فيرى أنه لا يمنع من الانتفاع بمطاحينه، وليس الذي ذكره من أن ذويها مضر به الضرار الذي يجب قطعه والمنع منه، وجوابه هذا كان بناء على شيوخه في ذات الفتوى.

وعلى كل، فالذي يهمني من هذه النازلة هو الضرر الناتج عن التلوث الضجيجي جراء تلك المطاحين المجاورة للساكنة والمسببة -كما رأينا حسب الدراسات الطبية- آثارا صحية.

الحلول:

هذه النازلة، وإن وقعت في زمن قديم، فما زال هذا النوع من التلوث كثيرا، ويقاس على هذه النازلة ما تسببه وسائل النقل الحضاري، والطائرات المدنية والحربية، والمصانع والمعامل وخاصة تلك التي تستخدم الآلات الضخمة من أصوات مزعجة للسمع، ناهيك عن مشكلة مكبرات الصوت.

وللأسف فما زالت المشاكل تجاه هذا النمط من التلوث قائمة الضرر، والتدبير الوقائي لهذه الظاهرة أن تبنى هذه المصانع بعيدا عن الأحياء الآهلة بالسكان، فالإسلام يحارب الضوضاء، ويأمر بالسكينة والوقار.

يقول الله عزوجل منفرا من رفع الصوت عموما: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

قال ابن كثير: أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه (٥)، وفي الآية أمر جازم عام بغض وخفض الصوت، وهذا على مستوى الإنسان، فما بالنا بأصوات المصانع وأشباهها! فما رأي علمائنا ومفتينا تجاه هذه النوازل ومثيلاتها؟ سيما وأنها لا زالت حاضرة في عصرنا وبشكل كبير.

الهوامش

١- المعيار، ج٩، ص. ٥٤.

٢- البيئة مشكلات وحلول، لعادل الشيخ حسين، دار اليازوري، عمان، الأردن، بدون تاريخ ورقم الطبعة، ص. ١٠٧.

٣- الديسيبل وحدة لقياس قوة الصوت، ينظر قضايا البيئة، بحوث علمية وحقائق إسلامية، لمحمد بن جلون، شركة النشر المدارس، البيضاء، ط١، ٢٠٠٠، ص. ١٥٢.

٤- نفسه، ص. ١٥٦.

٥- تفسير ابن كثير، ٤٤٨/٣.

بين سطوة التأثير وغيابه لدى الجماهير

إعلام المعرفة وصناعة الصور الذهنية..



أحمد مصطفى علي
باحث دراسات إعلامية

الحاجة إلى الاتصال تطلع طبيعي كامن في أعماق وجدان كل منا، حيث إنه أمر ارتبط بمنشأ الكون واستمراره، كما هو ذاته الخاصية المميزة للإنسان ككائن اجتماعي بطبعه، بل وسمة رئيسية لأهم سمات الإنسانية، وهي الفكر، الذي عليه طور البشر حضاراتهم حتى صارت ما هي عليه. وإذا أعملنا النظر إلى الإنسان ككائن مفكر فسنجد في ذلك السعي بشكل دؤوب لتطوير حياته أو جعلها أفضل، ومن ثم يصير مجددا الاتصال مع أقرانه هو السبيل الوحيد لإنجاز المهام الكبرى، التي كان قد كلفه بها الخالق إزاء استخلافه في الأرض ليعمرها، وهل يكون العمار دونما إعمال للتكامل والتعاون والسلام والخير، وهي عوامل يحققها الاتصال أو يدمرها؟! ومن هذه الأمور يمكننا تخيل خطورة علم الاتصال في إطار تطلعاتنا المستمرة صوب نمو ذواتنا وإشباع حاجاتنا أو الإسهام في تشكيل بيئتنا من دون تدميرها.

بل وحتى إذا أخذنا الأمر بشكل فردي، وأقصرنا النظر في حياة أي إنسان على هذه الأرض، فيمكننا القول إن الإنسان في عملية اتصال دائمة منذ ميلاده وإلى رحيله، إذ الحياة لا تستقيم من دون اتصال، وفي ذلك ما أكده جون ديوي في ثلاث نقاط رئيسية يمكن تلخيصها في ما يلي (١):

١ - إن وجود المجتمع، ومن ثم استمراره، يتوقف على نقل عادات العمل والشعور من الكبار إلى الناشئين، ولا يمكن للحياة الاجتماعية ان تدوم بغير هذا النقل الشامل للمثل العليا والآمال والقيم، والآراء بين الراحلين والوافدين للحياة.

إن دوام المجتمع يتم بنقل واتصال الأفراد، إذ إن الناس يعيشون في جماعة بفضل ما يشتركون فيه من أهداف وعقائد وأمنيات ومعلومات... إلخ. والاتصال هو الوسيلة لذلك.

إن الحياة الاجتماعية واتصال الأفراد صنوان، يتربى عن طريقهما الناس بتغير خبرات الأفراد المشتركة في عملية الاتصال، وبذلك تتسع خبرة كل منهم.

وما سبق يأخذنا إلى الحديث عن أهمية وسائل الإعلام في حياتنا، فوسائل الإعلام من الناحية الفنية هي وسائل الاتصال الجماهيري (٢)، حيث إن الإعلام لغة مشتق من العلم وإيصال المعلومات.. واصطلاحا هو استخدام وسائل الاتصال بشكل علمي لتحقيق هدف معنوي أو مادي، وكذلك تزويد الجمهور بالأخبار الصحيحة والحقائق الثابتة؛

لمساعدتهم في تكوين رأي ثاقب في واقعة من الوقائع. وهو في ذلك له وسائل متنوعة، ولها أيضا تأثيرات كبيرة متنامية، بصفة خاصة في عصر الطفرة التقنية (٣).
ونقصد بالتأثيرات أي التأثير الإعلامي في أن تجعل الآخرين يطيعونك أو يذعنون لك، أو ببساطة تعظيم التشابه في الفكر والسلوك بين المرسل والمستقبل، وهذا التأثير بطبيعة الحال الذي يرغب في إحداثه المرسل يختلف عن التعليم والفهم واكتساب المعلومات وجذب الاهتمام، لكنه قد يكون كل هذه الأشياء، أي قد يشملها معا، كما أوضحنا في تطور وظائف الإعلام في هذا العصر (٤).
إذ إن طبيعة هذا العصر وحضارته المعرفية ضاعفتا، بطبيعة الحال أيضا، من التأثير الاتصالي للإعلام بشكل لم يحدث من قبل، والعكس ربما صحيح، أي على مختلف الأوجه يمكننا أن نجد ما صار للإعلام من قوة بالغة الأهمية، خصوصا بعد تمكنه من تطويع المستجدات التكنولوجية، ومن ثم خلق وظائف مستحدثة لمحاولة التأثير والسيطرة على الجمهور وتلبية جميع احتياجاته المادية وغير المادية، وهو الأمر الذي ساهم في نجاحه تلك العزلة الاجتماعية المفروضة على جمهور يعيش عصر العولمة ويتعرض لمعطيات ثقافة ما بعد الحداثة.
وفي هذا التأثير المتنامي ما جعل العالم الشهير ماكلوهان يشبه المحيط الذي تنتشر فيه وسائل الاتصال بالتعريف التقليدي للإله (في المعتقدات الغربية) بأن مركز وجوده في كل مكان، وحدوده ليس لها مكان. لذا، أطلق على هذا العصر عصر الاتصال، إذ صار العالم يعيش ثورة في الاتصالات مهدت لها ثورة تكنولوجية (٥).
إذ بات في هذا العصر من الطبيعي اعتماد الفرد المكثف على معلومات وسائل الإعلام، بل أصبحت تلك سمة تميز المجتمعات المتحضرة في أن يعتمد الفرد على المعلومات المقدمة من وسائل الإعلام لفهم العالم الاجتماعي المحيط، والقيام بالسلوك الاجتماعي، بالإضافة إلى الهروب إلى عالم الخيال والمتعة من مشاكل وتوترات الحياة اليومية، أي نلاحظ هنا ازدياد الحاجة إلى وسائل الإعلام، ومن ثم فكلما زادت الحاجة إلى وسائل الإعلام زاد الاعتماد عليها، وزاد احتمال تغيير المعلومات من معارف الجمهور ومشاعره وسلوكه، حيث المجتمع في طريقه للنمو، وتكنولوجيا الإعلام تتطور، ووسائل الإعلام تقوم بدور مهم ووظيفة نقل المعلومات، خصوصا مع زيادة مركزية وظيفة نقل المعلومات من خلال وسائل الإعلام (٦).
وفي ذلك النقل يمكننا أن نجد العديد من الأدوات البالغة التأثير، كتأثير تكنولوجيا الاتصال في إحداث تغييرات جذرية على المفاهيم السائدة البديهية، خصوصا أن أنماط التفكير والتصورات التقليدية صارت غير قادرة على استيعاب التغييرات واحتواء مدلولاتها السيميولوجية وانعكاساتها الميدانية، فالمفاهيم خضعت لتعديلات واسعة شملت عناصرها الجوهرية والثانوية بما في ذلك مفهوم جمهور وسائل الإعلام، الذي تشكل على مدى ستة قرون منذ اختراع غوتنبرغ الطباعة، ويمكننا في ذلك تأمل انعدام الفواصل الزمنية والجغرافية بين الإرسال والتلقي، وأشكال التطور لأنظمة الاتصال الرقمي والتي أصبحت من السمات المميزة للجمهور في مجتمعات المعرفة والإعلام (٧).
حتى أن هذا الجمهور باعتماده على وسائل الإعلام، ومع تطور وسائل الاتصال الإعلامي كما أوضحنا؛ صار يقينا أن عمل وسائل الإعلام الحالي غير مقصور على نقل ما هو واقع، بل المساهمة بشكل كبير في إنتاج وإيجاد عالم آخر بما تقدمه لنا وما تمتلكه من قدرات، لهذا لم تعد وسائل الاتصال تعكس العالم الموجود بحقائقه الأساسية فحسب، بل تساعد في خلق عالم جديد بما تنشره وترويه وتذيعه وتصوره من كل مكان، إنها قادرة على أن تسقط وتغفل شخصيات مهمة، وتخلق من وقت لآخر نجوما وشخصيات جديدة، وهذا أمر بات شديد الوضوح (٨).
إذ إن الإعلام المعاصر لم يعد مجرد أداة لتوصيل المعرفة وتزويد الناس بالخبر والحدث، أو الترفيه، بل تعدى ذلك بعد تطور وسائله وتعددها ليصبح أداة فاعلة في صناعة الرأي العام الذي لم يعد مستقبلا للمعلومة أو الخبر فحسب، بل صار يتفاعل ويتأثر عقليا وفكريا وسلوكيا، فالإعلام بوسائله الحديثة وبرامجه المتنوعة يصدر عن تصورات وأفكار ومبادئ تعمل على إحداث تغير مقصود في المجتمع المستهدف، وهو أمر غير مقصور على مجتمع بعينه بل وعلى المستوى العالمي أيضا، حتى أمكن لبعض الباحثين القول إن الإعلام قادر على البناء، وله قدرة على الهدم، قادر على ترسيخ القيم أو زعزعتها، وقادر على تغيير السلوك الإنساني عبر



تغير المعارف والقيم عن طريق المناقشة والإقناع وخلق مشاركة الأفراد والجماعات والمجتمع في برامج الوقاية وإعادة الاندماج الاجتماعي (٩).

ولذلك يمكن القول إن وسائل الإعلام لديها إمكانية كبيرة في خلق الصور الذهنية من منطلق دورها في تحويل المعتقدات الجامدة إلى أفكار وآراء شائعة وسائدة في المجتمع، والتي قد يأخذها الناس ويعتقونها من دون شك في قيمتها من حيث الصحة والخطأ، ومن ثم ينجم عن ذلك لجوء الأفراد إليها لجوءا تعوديا ليطبقوها في حياتهم بلا مناقشة، وكأنها أفكار عامة لا تتطور ولا تتغير، فتصبح أحكاما تطبق على كل موقف وكل ظرف من دون اعتبار لاختلاف الظروف، أو الحقائق (١٠).

ومن هنا تكاد تجمع الدراسات الإعلامية على أن وسائل الإعلام إحدى الوسائل الفعالة التي يتم من خلالها تشكيل الصورة الذهنية لدى الجمهور في شتى المجالات، من حيث قدراتها على الاستقطاب والإبهار عبر نقل الأحداث، وكذلك استخدامها التغطية الفورية المصحوبة بالصورة الفيلمية لأماكن الحدث، فضلا عن تقديم الخلفية التفسيرية للأحداث، هذا بجانب التأثير المتزايد على وقت الأفراد بدرجة تفوق المؤسسات الثقافية والاجتماعية والترفيهية، مع إيقاع العصر، كما أوضحنا، المتسم بالسرعة والعزلة، وهو ما جعل الإعلام مصدرا للشعور بالمشاركة وعدم العزلة (١١).

ومن ثم بات يقينا ما تلعبه وسائل الإعلام في تشكيل الصور الذهنية لجمهورها عن الأفراد والجماعات والشعوب، فهي النافذة التي تطل الجماهير من خلالها على الأحداث والقضايا، وفي ضوء تعرضهم لهذه الوسائل يكونون آراءهم وانطباعاتهم (١٢)، وإذا ما أردنا التعرف على مدى قوة التعرض والاعتماد عليها، وبالتالي تأثيرها، فيمكننا تأمل نتائج دراسات عاطف العبد في الثمانينات وآرثر آسيا بيرغر في ٢٠١١م فالأولى تشير إلى أن متوسط تعرض الفرد للإعلام بمعدل ٦ ساعات يوميا، والثانية تشير إلى متوسط تعرض الفرد للإعلام بمعدل ٩ ساعات يوميا، لهذا يقول كارل ودويتش وميرت إن وسائل الإعلام لديها القدرة على إعادة كتابة التاريخ، أي ما يمكننا تفسيره بتغيير الصورة القائمة فعليا لدى الجمهور.

ولكن رغم ذلك، فإن هنالك دراسات وبحوثا تؤكد أن هذه السطوة ليست مطلقة، فهنالك قواعد قد يأتي خرقها بنتائج عكسية، وهو الأمر الذي جعل دراسة الإعلام وتأثيره في صناعة الصورة الذهنية أمرين ينالا اهتماما ملحوظا من الباحثين على مدار السنوات

الخمس والعشرين الماضية، لمحاولة الوقوف على عوامل التأثير في ذلك، وأسباب اختلافها، سواء المتعلقة بالجمهور أو بوسائل الإعلام أو بطبيعة القضية المثارة، أو في ما يعرف في نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام بالتفاعل بين الأنظمة الثلاثة: «النظام الإعلامي – النظام الاجتماعي – الرأي العام (الجمهور)».

وعلى سبيل المثال، كشفت الأبحاث التي تناولت جمهور وسائل الإعلام في الجزائر خلال ١٩ عاما، وتحديدا في الفترة من ١٩٩٠م إلى ٢٠٠٩م أنها لم تتمكن من التميز و التفرد عن البلدان الانتقالية المختلفة، أي اختلفت بين محافظة وأخرى، هذا رغم اعتمادها على قدرات بشرية ومادية وتقنية وثقافية يفترض أنها تمكنها من توظيف التقدم العلمي والتكنولوجي في إيجاد الحلول الملائمة للمشاكل الاجتماعية والثقافية المطروحة في كل منها. لكن وفي حالة مثل تلك، وجد الباحثون ضرورة التأسيس لمنهج بحث يأخذ بعين الاعتبار، ليس خصوصيات المجتمعات الانتقالية والظروف التي أدخلت فيها وسائل الإعلام فحسب، لكن أيضا كيفية تشكيل ظاهرة الجمهور تبعا لذلك، بالإضافة إلى ضرورة الانتقال من التحليل الكلي ذي النظرة الشمولية للمجتمع إلى التحليل الجزئي الذي يعيد الاعتبار إلى الوحدة الاجتماعية الأساسية، بدءا من الأسرة (١٣).

لذلك يمكننا القول إنه مع أهمية دراسة الصورة الذهنية، والتي تم الاتفاق على تغير تأثيرها، نجد هنالك أهمية كبرى في دراسة تأثير الإعلام على الجمهور المحلي لما يمكننا ذلك من استكشاف خصائص التغيير والتأثير المختلفة والمتنوعة، إيمانا بوجود اختلاف معرفي لدى هذا الجمهور بطبيعة الحال، فضلا عما قد يكون لدى هذا الجمهور من خصائص وسمات صنعها التهميش الجغرافي بطبيعة الحال، وأيضا ما في ذلك من عوامل الاختلاف الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

الهوامش

١ – د. محيي الدين عبدالحليم، الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، القاهرة والرياض (ناشر مشترك): مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص٦٨.

٢ – آرثر آسيا بيرغر، وسائل الإعلام والمجتمع.. وجهة نظر نقدية، ترجمة صالح خليل أبو إصبع، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – سلسلة عالم المعرفة، مارس ٢٠١٢م، ص٣٤.

٣ – أحمد السيد الكردي، العلاقات العامة وتكوين الصورة الذهنية للمنظمة، السعودية: بحوث جامعة الملك سعود، نشرت بموقع الدكتور أحمد السيد الكردي، (تاريخ الدخول: ٤ يوليو ٢٠١٤م)، عبر الرابط http:// kenanaonline.com/users/ahmedkordy/posts/٢٦٤٢٨٨.

٤ – حسني إبراهيم عبدالعظيم، وسائل الاتصال الجماهيري وتأثيراتها في الواقع الاجتماعي، الحوار المتمدن، العدد: ٣٥٧٢ – ١٠/١٢/٢٠١١ – ٢١:٣٠، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٢٠٪ ٢٨٦٩٦١.

٥ – محمود حسن إسماعيل، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الطبعة الأولى، القاهرة، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م، ص ١٢و١٨.

٦ – عادل رفعت عبدالحكيم، دور وسائل الاتصال في تشكيل الصورة الذهنية للأحزاب السياسية وانعكاسها على اتجاهات الجمهور نحو المشاركة.. دراسة تطبيقية، رسالة دكتوراه غير منشورة (جامعة المنيا: كلية الآداب: قسم الإعلام) ٢٠١٣م، ص١٠٣.

٧ – د. علي قسايسية، تكنولوجيا الإعلام ودراسات الجمهور في المجتمعات الانتقالية، بيروت، مجلة الاتصال والتنمية تصدر عن دار النهضة العربية، العدد ١٠، أكتوبر ٢٠١٠م.

٨ – محمود علم الدين، مستحدثات الفن الصحفي في الجريدة اليومية، رسالة دكتوراه غير منشورة، القاهرة، كلية الإعلام، ١٩٨٤، ص٩.

٩ – مصطفى تلاندين، أهمية الإعلام في تشكيل الصورة الذهنية والاتجاه العلمي والمعرفي والتطبيقي وبرنامج أحكيلي نموذج حي، المغرب، موقع مدينة العروي المغربية، (تاريخ الدخول ٣ يوليو ٢٠١٤م)، http://www.arouit.com/news/news-national/ali٣lam__hki__li.html.

١٠ – ماجدة أحمد محمود، طه أحمد المستكاوي وآخرون، وسائل الإعلام وصناعة الصور ونقلها، دراسة «صورة الذات والآخر – الصور النمطية الجامدة»، كلية الآداب، جامعة عين شمس، منشور بمجلة بمجلد «دراسات التفاعل الاجتماعي»، تصنيف ٣٠١/١٥٤٣، كلية الإعلام جامعة القاهرة.

١١ – أيمن منصور ندا، الصور الذهنية والإعلامية.. عوامل التشكيل واستراتيجيات التغير، الطبعة الأولى (القاهرة: المدينة برس، ٢٠٠٤م) ص١١١ و١١٢.

١٢ – محمود يوسف، صورة المرأة المصرية في الأفلام السينمائية التي يقدمها التليفزيون، المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، العدد العاشر، يناير – مارس ٢٠٠١م ص٥٩.

١٣ – د. علي قسايسية، تكنولوجيا الإعلام ودراسات الجمهور في المجتمعات الانتقالية، مرجع سابق.

رؤية تراثية :

تدريس المعرفة الشرعية



إدريس بحوت
أكاديمي مغربي

إن الناظر في كتب التراث، وهو يتفحص ما كتب في المجال التربوي عند علماء السلف، ليصاب بالدهشة، نظرا للزخم الهائل، والمكتوب الحاصل فيه. ومن الأسماء اللامعة، والأقلام البارعة في ذلك، نذكر إجمالا لا حصرا: أبا حامد الغزالي، وابن جماعة، والخطيب البغدادي، وابن خلدون، والماوردي، وابن بدران، وابن العربي، والقابسي، والحجوي الفاسي وكثير من قضايا التراث التربوي هي في حاجة للدراسة والتمحيص، نظرا لجدواها، وتكاملها مع جل القضايا المستجدة في الفكر التربوي الحديث. لذلك تحاول هذه المساهمة كشف واستجلاء أسس وضوابط اكتساب المعرفة الشرعية في كتب التراث التربوي، آملة أن تجد من الجيل التربوي الصاعد من يتلقف تلك الإشارات ويعمل على سبر أغوارها، بحثا واستقصاء.

المستوى المعرفي والعقلي

تزخر الأدبيات التربوية الحديثة بعدة مفاهيم وقضايا تربوية وبيداغوجية، من قبيل النظريات التربوية (السلوكية/ البيهافيورية؛ والبنائية البياجية والجشطالتية الكليانية..، ومفهوم تفريد التعليم، أو البيداغوجية الفارقية، والفروق الفردية بين الطلاب والمتعلمين، وكثير

من مفاهيم علم النفس التربوي، وعلم نفس النمو: كالاكتساب، والاتجاهات، والميول، والحافزية، والذاكرة ...)؛ وهي أشياء جميلة ومفيدة؛ بيد أنها تسجل عليها عدة ملاحظات، أهمها:

● الفصل الكلي عن القضايا التربوية التي تداولت في الفكر التربوي التراثي، بل هي نفسها، كما سيأتي بيانه.

● مجمل ما هو متداول، مشرقا ومغربا، هو عبارة عن ترجمات أو دراسات لا ترقى إلى مستوى «الوفاء» للمضامين التربوية المنقولة من الفكر الغربي بمدرستيه؛ الفرنكوفونية، والأنكلوساكسونية.

وبالعودة إلى التراث، نجد نفس هذه المفاهيم، أو ما شابهها أو يقاربها، ولا تخلو هي بدورها من ملاحظات، أهمها:

● معظم الكتابات التربوية التراثية ينقصها المنهج من حيث التبويب والترتيب والتصنيف.

● كما يعوزها المصطلح الدقيق في بعض الأحيان، وإن كان الغزالي، وابن خلدون، مثلا، قد برعا في ذلك.

وسعيا في سبيل هذا الرتق، وتقريب الهوة بين «الضفتين»، أورد بعض النصوص التطبيقية استدلالا على التكامل بين الفكرين:

ذكر الحسين بن محمد بن علي اليمني (ت ١٠٥٠هـ) في الفصل الثالث المعنون بـ « في آداب العالم مع طلبته»، من كتابه الموسوم بـ «آداب العلماء والمتعلمين» أربعة عشر أدبا. وجاء في السادس منها قوله: «أن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار لا يحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له، وتكراره، ويبدأ بتصوير المسائل وتوضيحها بالأمثلة وذكر الدلائل، ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها، وبذكر الأدلة والمآخذ لمحتملها، ويبين له معاني أسرار حكمها وعللها، وما يتعلق بتلك المسألة، من فرع وأصل، ومن وهم فيها في حكم، أو تخريج، أو نقل بعبارة حسنة .. بعيدة عن تنقيص أحد من العلماء. ولا يمتنع من ذكر لفظة يستحيى من ذكرها عادة إذا احتيج إليها، ولم يتم التوضيح إلا بذكرها، فإن كانت الكناية تفيد معناها، وتحصيل مقتضاها تحصيلا بينا لم يصرح بذكره، بل يكتفي بالكناية عنها، وكذلك إذا كان في المجلس من لا يليق ذكرها بحضوره لحيائه أو لخفائه، فيكنى عن تلك اللفظة، ولهذه المعاني واختلاف الحال ورد في حديث النبي ﷺ التصريح تارة والكناية أخرى. «آداب العلماء والمتعلمين» (١).

وهكذا يتضح أن البعد التربوي والبيداغوجي في تلقين واكتساب المعرفة الشرعية في الفكر التربوي كانت حاضرة بقوة. واستنطاق هذا النص يجعلنا نقف على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التربوية المتداولة حديثا في الأدبيات التربوية، وهي نفسها التي تداولت في التراث. ومنها، كما في النص:

● بذل الجهد في التعليم والتفهيم وتقريب المعنى للطالب، تبعا لقدراته العقلية والمعرفية والمهارية، يعبر عنه الآن بمراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، وبتعدد الطرق والوسائل في التدريس.

● مفاهيم الذهن، والعقل، ودرجات الفهم، والحفظ، والذاكرة، والاستيعاب... من أهم القضايا التي تناولتها الدراسات الحديثة في علم النفس التربوي، وعلم نفس النمو.

● التدريس بالمثال: وهي مقاربة ديداكتيكية ناجعة، والتدريس بالدليل له أهميته البداغوجية والديداكتيكية. وكلاهما يسهمان في اكتساب المفاهيم الشرعية في الدرس الشرعي الجامعي.

● مدخل الحكمة والتعليل، هو مدخل معرفي أصولي، لكنه أيضا مدخل بيداغوجي يسهم في اكتساب المفهوم وترسيخه، كما يسهم في تنمية الملكة العلمية والفكرية للطالب حتى لا يبقى فقط في مستوى التلقين السلبي.

● بيان علاقة الفروع بالأصول، تحقيقا للربط بين المكتسبات وبناء المعارف مراعاة لمستوى الطالب.

هذا علاوة على ما يزخر به النص من قضايا وآداب تربوية، كأدب الحوار، والتواصل، وأدب الاختلاف.

وهذه القضايا أثيرت مع المتأخرين، أي مع علماء القرن العاشر ومن بعدهم. وقد يظن ظان أنها أقرب إلى المجال التربوي الحداثي. ولرد هذه الشبهة، ننتقل إلى ما حرر في هذه المسألة مع علماء التربية في القرن الرابع الهجري. ولعل من أقطاب التربية في هذه المرحلة، نجد أبا حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ). حيث قال رحمه الله: «أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله».

ولعل هذا النص على وجازته، وبلاغة عبارته، كاف لرد الشبهة ولا يحتاج لأدنى تعليق.

وقال أيضا: «الوظيفة السادسة أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال: نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم..» (٢).

ومن نفائس هذا النص التربوي، نذكر ما يلي:

● مراعاة مستوى الفهم والقدرات العقلية عند الطالب..

● الحرص على عدم «إفشاء» العالم كل علمه على طلبته، حرصا على الفهم والانتفاع بما يتعلم.

إن تداول مفاهيم مثل «النفور، الإنكار، الفتنة، التخبط ..» في الفكر التربوي، كلها من معيقات اكتساب المعرفة الشرعية قديما وحديثا.

وإن إيراد مفاهيم من قبيل العقل، الحكمة، الفهم، المعيار، الميزان،

الانتفاع، كلها مفاهيم تخدم المنظومة التربوية الحديثة، عموما، والدرس الشرعي على وجه الخصوص.

ويقول ابن بدران: (١٢٨٠هـ-١٣٤٦هـ / ١٨٦٤م - ١٩٢٨م): «ثم إن الأولى في تعليم المبتدئ أن يجنبه أستاذه عن إقرائه الكتب الشديدة الاختصار العسرة على الفهم كمختصر الأصول لابن الحاجب والكافية له في النحو، لأن الاشتغال بمثل هذين الكتابين المختصرين إخلال بالتحصيل لما فيهما وفي أمثالهما من التخليط على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعالي عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح عن الوقت..» (٣).



إن النظر العميق، والتحليل الدقيق لهذا النص يفضي بنا إلى جملتيني الأولى جملة سببية، والثانية نتيجتها. فأما الأولى فهي ما عبر عنه «بسوء التعليم» ومن أهم مؤشراته: شدة الاختصار، أي: الاختصار المخل. وهذا يتم على المستوى المنهاجي، والمستوى التنزيلي الديداكتيكي. والثانية ملزومات ومقتضيات هذا السوء؛ ومن أهم تجلياتها:

عسر الفهم.

ضعف التحصيل والمردودية.

التخليط في المفاهيم والمعرفة المدرسة.

هدر الوقت والطاقة في فهم المسائل المستغلة بسبب «سوء التعليم».

٢- نهج التدرج في تقديم المفاهيم

منهج التدرج منهج قرآني، ومنهاج نبوي أيضا؛ إذ هو قانون سار في الكون كله، لا يختلف ولا يتخلف. والإنسان لم يشذ عن هذا الناموس الرباني في تعلمه وارتقاء مداركه. والحاد عن هذا المبدأ في المجال التربوي فإنه داع إلى تكليف بما لا يطاق، ومناد إلى حمل ثقل يثقل كاهل النياق.

لذلك نجد التراث التربوي لعلماء المسلمين دعوا فيه، وفي كتاباتهم التربوية عموما إلى ضرورة مراعاة مبدأ التدرج في تدريس وتعليم العلوم الشرعية، تبعا للمرحلة العمرية، والمستوى الفكري والتعليمي للطالب امتثالا لأمره عز وجل: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩) وتبيانا لكون العلوم مداخل وأوائل على السالك ولوجها، وعلى الموجه التنبيه عليها والإرشاد إليها، ضمانا «لجودة» المنتوج التربوي المنتظر، وحرصا على اكتساب المفاهيم الشرعية اكتسابا سليما. ورغبة في التمكن من العلوم الشرعية تمكنا يفي بالغرض المطلوب الذي يؤدي إلى تحصيل العلم والمعرفة المورثة للعمل.

وقد نصوا على ذلك بعبارات خفيفة، وتوجيهات تربوية لطيفة، وإشارات سنية شريفة. نجد بعض دررها في كلام الماوردي حيث يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْعُلُومِ أَوَائِلَ تُؤَدِّي إِلَى أَوَاخِرِهَا، وَمَدَاخِلَ تُفْضِي إِلَى حَقَائِقِهَا. فَلْيَبْتَدِئْ طَالِبُ الْعِلْمِ بِأَوَائِلِهَا لِيَنْتَهِيَ إِلَى أَوَاخِرِهَا، وَبِمَدَاخِلِهَا لِتُفْضِيَ إِلَى حَقَائِقِهَا. وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَ قَبْلَ الْأَوَّلِ، وَلَا الْحَقِيقَةَ قَبْلَ الْمَدْخَلِ. فَلَا يُدْرِكُ الْآخِرَ وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ؛ لِأَنَّ



الْبِنَاءَ عَلَى غَيْرِ أُسٍّ لَا يُبْنَى، وَالثَّمَرُ مِنْ غَيْرِ غَرْسٍ لَا يُجْنَى. وَلِذَلِكَ أَسْبَابٌ فَاسِدَةٌ وَدَوَاعٍ وَاهِيَةٌ» (٤).

وتشكل طرق التدريس إحدى أهم حلقات مكونات المنهاج الرباعية، نظرا لأهميتها المنهاجية، والديداكتيكية بالخصوص. لذا لا غرو أن نجد ابن خلدون في عصره يستصرخ ويستغرب بما عايشه وأرقه في وقته في مجال طرق التدريس، بأعلى صوت قائلا: «وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين في هذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويُحْضِرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويَخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها. فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه تنشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل، وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا، بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجران. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم .. وإذا خلط عليه الأمر عجزعن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم (٥).

وقد نص الغزالي: في الوظيفة الرابعة من وظائف المعلم على «أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه» (٦) ، لما في إثارة هذه القضايا الخلافية من أثر سلبي على تحصيل الطالب لكون هذا المنهج في التدريس يسبب له:

دهشة عقلية.

وحيرة ذهنية.

وفتورا في الرأي.

ويأسا عن الإدراك والاطلاع.

وعموما، فالتراث التربوي غني ومفيد؛ غير أنه يحتاج إلى تضافر جهود الأمة في سبيل البحث والتمحيص لاستخلاص الدرر التربوية، واللآلئ الديداكتيكية النفيسة. ومهما استحدثت المقاربات البيداغوجية، فإنه لا مناص من الاغتراف حينا، والغوص في أحايين كثيرة في بحر التراث، للخلوص إلى نظرية تربوية متكاملة.

الهوامش:

١- آداب العلماء والمتعلمين، الحسين ابن المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي اليمني.

٢- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مكتبة ومطبعة «كرياطة فوترا» سامارغ، أندونيسيا، د.ط.

٣- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، لعبد القادر بن بدران الدمشقي، تصحيح وتقديم وتعليق عبد الله ابن الحسين التركي، ط ٢. ١٤٠١هـ ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة بيروت.

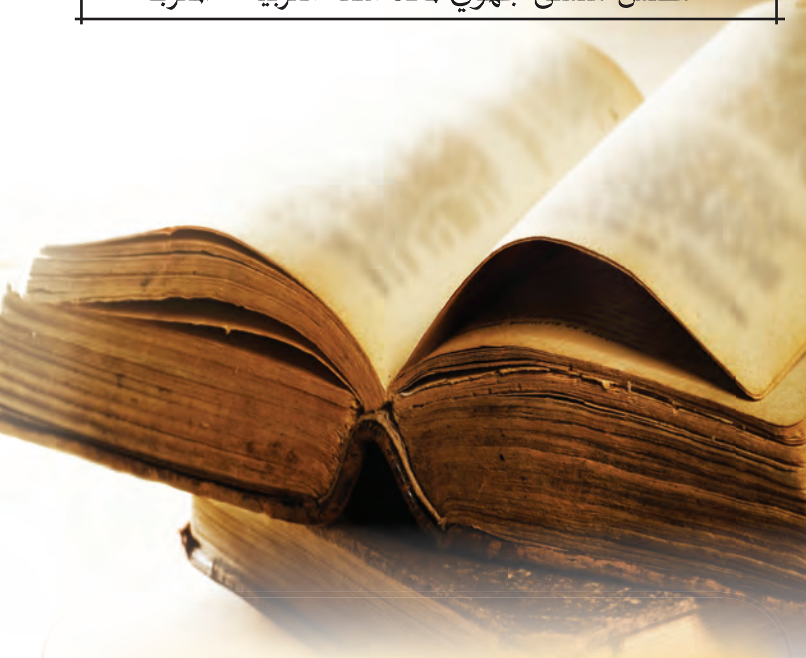
٤- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، شرح وتعليق محمد كريم راجح، ط. الرابعة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، دار اقرأ.

٥- مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت.

٦- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي الفاسي، مطبعة النهضة، تونس.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٧)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



يشهد المنصفون الثقات أن تاريخ اللغة العربية عرف تحولات شبيهة بما يحدث للطائر في أثناء الانحسار؛ حيث يتخلى عن بعض ريشه القديم لصالح ريش جديد، أو قل إنه تحول شبيه باليرقانة عندما تنتقل إلى طور الفراشة، لكنه تحول لم يمسَّ الأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية التي فرغ منها طيلة القرنين الهجريين الثاني والثالث، وإنما طال النظام المعجمي الذي يَعِدُ ببَنين وحفدة لا ينقطع نسلهم. وقد بدا هذا التحول في شعر العصر الجاهلي، الذي انتقر لغة قريش فجعلها مادة له وكنس مستبشع باقي اللغات، فذمَّها وطردها من اللغة العالية. وعندما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم اصطفى هذا اللسان القرشي؛ فجعله مادة لكلمه العربي المبين، الذي أخرس شقاشق أبيناء الكلام المفَوهين، بما أحدثه من بديع الأساليب، وكمال البلاغة، ودقة الأوصاف، وجمال العبارات، مستعملا المادة اللغوية التي نشأ عليها العربي الصميم؛ تارة يُبقي عليها كما هي، وتارة أخرى يولد منها دلالات جديدة لم يسمع بمثلها من قبل، الأمر الذي دفع اللغويين إلى الحديث عما يسمى: الألفاظ الإسلامية؛ حيث « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم. فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأُبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أُخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفَّى الآخِر الأوَّلَ... فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا هم عليه كأن لم يكن...فكان مما جاء في الإسلام، ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق؛ وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان، والإيمان وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا. وكذلك الإسلام والمسلم؛ إنما عرفت منه إسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر. فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع. ولم يعرفوا من الفسق إلا قولهم: «فسقت الرُّطَبَة» إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق: الإفحاش

تنويه

وقع في عدد ٥٩٣ في صفحة ٥٤ السطر ٣٥ في مقال إحياء الصواب المهجور (٢٦) عبارة : «لم يعد يؤمن سوى بالضغط على الأزرار» وهو خطأ ، وصوابه: «لم يعد يؤمن بسوى الضغط على الأزرار» والمجلة تعتذر للكاتب الفاضل على الخطأ غير المقصود» .

في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه. ومما جاء في الشرع الصلاة، وأصله في لغتهم: «الدعاء..» (١) وغيرها من الألفاظ التي يرهق تتبعها ويتعب. وعندما طما بحر الرَّفَه على الدولة الإسلامية، وامتدت أفياءُ الحضارة ، سعى أمراء البيان العربي والشعراء المفلقون إلى توليد دلالات أُخَر لم يسمع بمثلها، فظهر ما يسمى: «المولَّد» وكثر حتى استتب له الأمر فلم يجد اللغويون الفصحاء بدا من الاستشهاد به وروايته، كما هو الشأن بالنسبة إلى عديد التوليدات التي فتق الشعراء العباسيون أكمامها مثل: توتر العلاقات، والتململ على الفراش، وفتح الجلسة، وتعميق الفكرة، وقتل العطش، وماء الملامة، والتنزه في الرياض. يقول ابن قتيبة: «وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الناس «خرجنا نتنزه» ـ إذا خرجوا إلى البساتين ـ إلى الغلط، وقال: إنما التنزه التباعد عن المياه والريف، ومنه يقال:

«فلان يتنزه عن الأقذار» أي: يباعد نفسه عنها، و«فلان نزيه كريم» إذا كان بعيدا عن اللؤم، وليس هذا عندي خطأ، لأن البساتين في كل مصر وفي كل بلد إنما تكون خارج المصر، فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه، أي: يتباعد عن المنازل والبيوت، ثم كثُر هذا واستعمل حتى صارت النزهة القعود في الخُضَر والجنان...» (٢). وبعد نوم شتوي عميقٍ سادَ عهود الانحطاط التي عرفت العربية الفصحى في أثنائها انكماشا كاد يذهب بخلابتها وفصاحتها من خلال النصوص التي تحشى بالأسجاع التي لا تلوي على شيء، ومع ذلك يُصرُّ أصحابها ـ افتراء ـ على تجليتها في علب الجواهر النفيسة؛ ظهرت طائفة من شعراء مدرسة البعث والإحياء الذين أوردوا وأصدروا ورموا أمر الفصاحة بِحَجَرِه؛ لما اشتملت عليه أشعارهم من غُرر الألفاظ وبدائع العبارات المستوحاة من أمراء البيان العربي، الذين شهد لهم النقاد بالسبق والإيغال في أسرار البلاغة. فعلى الرغم من أن نصوصهم كانت صدى لأشعار الجاهليين والعباسيين ومن لفَّ لفَّهم، فإن تقليدهم لم يقتصر على سوى رجع الصدى الذي يقطع صلته بالحياة، وإنما حرصوا على الإضافة الجديدة، التي أكمل حلقتها شعراء جماعة الديوان، ومدرستي (أبولو والمهجر) الذين دعوا إلى التخفيف من لغة القواميس والألفاظ البالية لصالح لغة الهمس والشجى وربط الأدب بالحياة، حيث إنهم تفطنوا إلى أن العربية قد بلغت حد الكمال في أشعار البارودي وشوقي وحافظ، وفي مقالات الرافعي والمنفلوطي والمرصفي...، ولذلك سعوا إلى خلق لغة جديدة داخل لغة قديمة، لم يبتدعوا ألفاظا جديدة، ولكنهم أوجدوا استعمالات جديدة لعناصر اللغة من خلال سعيهم ـ غير البريء أحيانا ـ إلى الإطاحة بمن نعتتهم جماعة الديوان «أصنام الشر»، ورفض لغة الأعراب التي لا تواكب تبدلات الحياة المعاصرة، كما يبدو ذلك جليا في مقال «لكم لغتكم ولي لغتي» الذي دعا فيه جبران خليل جبران إلى طي الكشح عن لغة الماضي والمعجمات والفحول الخناذيذ والترصيع والتمنيق والبيان والبديع والقلائد الفضية، لصالح لغة الدمعة في جفن المشتاق، والابتسامة على ثغر المؤمن، وتلاعب النسيم بأوراق الأشجار. أما ميخائيل نعيمة فيؤكد في مقال «نقيق الضفادع»، أنه «لا قيمة للغة في نفسها، بل قيمتها في ما ترمز إليه من فكر ومن عاطفة، غير أنها مادامت رمزا من الرموز التي تساعدنا على تبادل الأفكار والعواطف؛ فهي حَرِيَّة باعتنائنا لا حبا بها، بل غيرة على الغَاية الكبيرة التي نستعملها من أجلها، لكن حرصنا على اللغة لا يجب أن ينسينا القصد من اللغة، فجميل بنا أن نصرف همَّنا إلى تهذيبها، وتنسيقها لنكسبها دقة ورقة، إنما قبيح بنا أن ننسى أو نتناسى كونها رمزا إلى ما هو أكبر وأجل منها بمراحل؛ وأقبح من ذلك أن نحسبها وافية كاملة، وليس لمستزيد في دقتها زيادة...لأن قولنا بكمال اللغة العربية كما هي اليوم، يعني إقرارنا بأن الأعراب الذين تحدَّرتْ عنهم هذه اللغة الشريفة، والنحاة الذين قيدوها بقواعد منذ ألفي سنة كانوا أنبياء البيان، بل آلهة البيان...» (٣) وإذ أنا لا أصيح بلهجة اليائس: أن الحذر الحذر من مثل هذه الدعوات التي تفتح باب الشر على لغتنا الجميلة، والتي يجب أن نحبها لذاتها، وأن نعمل على نقل هذا الحب إلى كل من يتكلم العربية، فإنني أنبِّه العقلاء إلى خطر انتشار الفوضى في ما تعبر عنه الكلمات التي نتفوَّه بها صباحا ومساءً، وألا نذعن لمنطق الاستعمال، ونتنكر لمنطق القواعد فنقبل كلمة «تحمم» التي استعملها جبران خليل جبران في أثناء قوله:

هَلْ تحمَّمْتَ بعطرٍ   وتَنَشَّفْتَ بنُور

بدل كلمة «استَحَم» المعجمية، إذ لا ينبغي استعمال كلمات اللغة في أثناء الاتصال والتواصل استجابة لرغبة المتكلم وميولاته، ولكن اعتمادا على عَقْد لغوي اجتماعي وثقافي متفق عليه، وليس لأحد الفضل في إيجاده؛ لأن اللغة بنت البيئة الثقافية والحضارية التي أوجدتها، كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة «التَّوِّ»، التي تعني: «الفرد». وفي الحديث: «الطواف تَوٌّ، والسعي تَوٌّ، والاستجمار تَوٌّ»...وجاء الرجل توًّا، إذا جاء وحده» (٤). بينما يميل الاستعمال إلى جعلها مرادفة للحال، في قولهم: جاء على التو، أي: جاء حالا. أما الذي يفيد الزمان فهو«التَّوَّة» أي: الساعة من الزمان. نقول: مضت تَوَّةٌ من الزمان أي: ساعة من الزمان.

هذا بعض ما أُدْلي به بِلَيُونة بالنسبة إلى المنْصفين الذين يقفون بين صراط الإعجاب والحياد، وألتزم به بقوة، كي أجرَّ المزورِّين عن الفصحى إلى ينابيعها ومعادنها الأصيلة، رغبة في أن أجلوها في زينتها، فترجع الآراء الفطيرة بزَوْبَرها، من دون أن تصيب لغتنا القرآنية بُنيَّات طرقها الشيطانية الليطانية.

الهوامش

١ ـ الصاحبي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق السيد أحمد صقر، ص ٧٨ وما بعدها، دار إحياء الكتب العربية.

٢ ـ أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق وضبط وشرح: محمد محي الدين عبد الحميد. ص ٣٤. ط ٤. ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، دار الجيل.

٣ ـ الغربال، ميخائيل نعيمة، ص ١٢٩و١٣٠، كتاب الدوحة رقم ١٠، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر.

٤ ـ الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الجزء السادس، ص ٢٢٩٠ .ط٤. ١٩٩٠، دار العلم للملايين، لبنان.



الذوق الأدبي
محنة الواقع وسبيل الوصول

عمر طاهيري
باحث في النقد والبلاغة - المغرب

تمر ساحتنا الأدبية منذ سنوات بمحنة ذوقية رهيبة تطل برأسها من كل الساح والجبهات، معلنة فشو روح السخافة والسآمة والقبح المغلف بغلاف (الأدب)، والمثير للضجر والاشمئزاز أن ما يسمى بالملتقيات والمهرجانات الأدبية وكذا المجلات والملحقات الأدبية صارت فضاءات للتزلف والتعالم والادعاء والتهتك باسم الأدب، ومن كثرة شيوع هذا النوع من (الأدب) -عافاكم الله- ابتلي بعض المغررين من ضعاف البضاعة والدراية بهذه الملهيات المخزيات من (قصص، وروايات، وأشعار)، وصاروا يتذوقون الجمال في القبح كما يتذوق المخمور خمرته والمدخن سجارته... وهكذا، بل إن بعض المتسنمين سلم الأدب من جهلة القوم راح يكتب -نسأل الله السلامة والعافية- عن «جمالية القبح»، ويكفي من يريد التحقق من ذلك أن يدخل بعض ما يسمى بالمنتديات الأدبية على الشبكة الرقمية لترى عيناه العجاب العجاب!



لقد صرنا اليوم أمام وضع أدبي جاوز الخوف منه وعليه إلى الخوف على بيضة الدين من ضياع بياضها، وذهاب روحها، وشيء من ذلك أو كثير منه واقع دون ريب، ولعل سائلا يسأل ما علاقة الأدب بالدين؟ الجواب بكل بساطة أن ديننا هو القرآن الكريم، وهذا القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولا سبيل إليه ولا دليل إلا دليل الأدب والبيان. وقد كان للشاطبي رحمة الله عليه في ذلك بيان شاف كاف، في موافقاته قال فيه: «الشريعة عربية، وإذا كانت عربية؛ فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا؛ فهو متوسط في فهم الشريعة والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة؛ فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم؛ فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة، ولا كان قوله فيها مقبولًا» (الموافقات: ٥٢-٥). وقبله تحدث العلماء عن ذلك وبينوا أن الطريق إلى القرآن هو طريق الأدب، لكن كيف يستطيع المرء فهم هذا الأدب وتلقي كلماته ومعانيه وأسراره وهو ظاهر الاستغلاق كما يقول الكثير؟

لبيان ذلك أقدم هذا الحديث بقول في الذوق، أبين حقيقته ومواقع ثباته ومواقع تحوله، وطرق صناعته إن كان مما يصنع.

ذوق وأذواق

الذوق: لفظ عام يشمل مختلف مجالات الحياة، فالناس لهم ذوق في الكلام، وذوق في اللباس، وذوق في السياسة، وذوق في الأدب، وذوق في الجلوس، وذوق في الإنصات.... وهكذا. هذا الذوق في الواقع منه ما هو فردي مختص بالإنسان ذاته، ومنه ما هو مشترك بين أفراد قبيلة أو مجموعة معينة، ومنه ما يكون مشتركا بين أبناء أمة وحضارة.

أما المختص بالفرد فإن منه ما هو فطري في الإنسان، ومنه ما هو مكتسب بالتجارب والأيام. أولها مقصود به تلك الحاسة الجمالية التي توهب لأفراد مخصوصين بعينهم، تتفاوت أقدارهم فيها، لذلك نجد الشعراء مراتب، والقصاصين مراتب، والرسامين مراتب، والطباخين مراتب، والنجارين مراتب، والخرازين مراتب، والسياسيين مراتب... بغض النظر عن المعارف والمعلومات التي يفضل بها بعضهم بعضا من التعلم والاكتساب، فالأذواق مواهب وعطايا أولا. أما جانب الاكتساب فمجال آخر أيضا للتفرد والاختلاف، لأن قدرات التلقي تختلف، ومستويات الإدراك والفهم والتحليل والتركيب تختلف، فقد يحضر شخصان لقاء علميا في قاعة واحدة ووقت واحد ومحاضر واحد لكنهما لا يحملان نفس المعلومات ونفس الفهم والإدراك، حسب البناء الشخصي لكل فرد منهما، وحسب قدراته الفطرية، وهنا تجتمع الفطرة بالاكتساب فيخرج الإبداع على شكل من الأشكال.

أما ذوق الجماعة فهي الأشكال والأنساق والإحساسات الجمالية التي تصير بعد وقت من التداول مشتركا تعرف به مجموعة ما، فنقول مثلا: الجلباب الفلاني، والطنجية الفلانية، والعباءة الفلانية نسبة إلى منطقة معينة، حتى الألوان صارت مميزات وخصائص تعرف بها المجموعات البشرية، ثم انتقل الأمر إلى الحديث عن الأمم والحضارات، فنقول الذوق الإسلامي في المعمار والذوق الفارسي والذوق الرومي وهكذا...

بين الفطرة الصناعة

الجانب الفطري في الذوق هو ذلك الاستعداد والروح الجياشة التي تحرك المتذوق نحو الشيء الذي

يثيره ويبعث في نفسه الشعور بالتشوق والانشراح، لكن المجتمع الذي ينشأ فيه هو الذي يوجه شعوره ليعشق هذا ويرفض غيره، وإلا كيف نرى واحدا يستطيب رائحة معينة، أو طعاما معينا، أو لونا معينا، أو سلوكا معينا، ونجد غيره نافرا من ذلك، السبب بكل بساطة أن جماعته أو مجموعته البشرية التي ترعرع فيها وجهت ذوقه إلى أشياء بعينها، وصارت حاسته الفطرية نحو الجمال تميل وتنجذب إلى أشياء بعينها، بها يقاس الجمال عنده، وعندها يقف. فالمجموعات البشرية الكبرى والصغرى هي التي تصنع الأذواق على عينها، وعلى قدر انتظامها وانضباطها تكون لها أذواق صافية وجماليات خاصة، وعلى قدر انفتاحها واحتكاكها مع غيرها من المجموعات المغايرة أذواقا وعادات وأعرافا وتقاليد تفقد شيئا من خصوصيتها الذوقية، فالأذواق خصوصيات بشرية يصعب أن تدخل في إطار ما يسمى «المشترك الإنساني»، لأن المجتمعات لا يمكن أن تكون قالبا واحدا، وما يحفظ الهويات والخصوصيات والكيانات، هو حفظ الأذواق للمجتمعات.

الإجماع في الحكم

قديما كان الذوق العربي العام ذوقا صافيا يستمد صفاءه من وحدة الذوق المتداول بين الناس حينها، ولذلك سمعنا ذلك الطفل العجيب يعلق على طرفة قائلا: «استنوق الجمل»؛ مستنكرا عليه قوله: «بناج عليه الصيعرية مكدم»، وغير ذلك مما روته كتب النقد والأدب، وقد كانت هذه الوحدة في الذوق تجعلهم يجمعون على حكم معين في قصيدة معينة، ومن ذلك إجماعهم على المعلقات أو لامية العرب... ذلك أن عناصر الجمال كانت واحدة موحدة وإن اختلفت نسبيا بين شخص وآخر، لكن الاتفاق العام حاصل بينهم تماما. ولما فسد اللسان، صرنا نقرأ أحكاما متناقضة في نص واحد، فيقول عنه فلان هذا أروع ما قرأت، ويقول الآخر لا أرى فيه جمالا... وهكذا.

أما عصرنا الحاضر فأمر آخر، فبعدما كثر المدعون، وانتشر المتقولون، التبست على الناس الأشعار والأذواق، وراح بعض المدعين يؤسسون لأذواق مشوهة، تستقبل القبح استقبال الجمال، وتستقبل الجمال استقبال القبح. فكيف يعقل أن تقرأ عليه قصيدة للمتنبي أو ابن زيدون أو الحمداني أو شوقي أو غيرهم من عمالقة الشعراء فيقول لك لا أجد فيه جمالا، وقد أجمع حكماء النقد واللسان العربي على أن شعر هؤلاء في أعلى سنام البلاغة، إلا إذا كان ممن صنع له ذوق آخر داخل (مدرسة) أخرى، هي مدرسة (القبح الجميل)، والغريب في الأمر أنه يطرب لكلام ليس فيه مقوم واحد من مقومات الشعر؟!

إننا اليوم أمام (مدارس) كثر دعاتها، تصنع نموذجا لا يقبل ذوقه المصنوع إلا تلك المقطعات التي تطالعنا بها بعض الملحقات والمجلات... وتنفر نفسه مما أجمع عليه المتذوقون المتمكنون في الأدب، ويحاجك بقوله الثابت «هم رجال ونحن رجال»، وهذا حق فعلا لكنه أريد به باطل.

أما الناجون من هذا الغثاء الذي غزى كل البقاع فإنهم يعيشون غربتهم في مجتمعاتهم، وتحاصر إنتاجاتهم وأحكامهم، بل يصبحون أحيانا محط سخرية واستهزاء، وأحيانا أخرى مثالا للرجعية والتخلف وغيرها من أوصاف الذم والتنقيص، لذلك فإن الوضع الأدبي اليوم يحتاج إلى حكمة وروية لإعادة الأمور إلى نصابها، وإصلاح ما فسد من أذواق الناس، ولا أرى المواجهة المصادمة مع الأذواق الفاسدة تفيد في إعادتهم إلى جادة الصواب، فإذا تعلق الأمر بـ«الفراخ» المتخرجة من (مدارس القبح)؛ فإنها لا تملك من أمرها شيئا، ولا تملك إلا أن تدافع عن ذوقها وقناعاتها التي صنعت بها أعواما. لذلك لا لوم عليها ولا تعنيف يصيبها، بل الحكمة معها هي الطريق الأفيد والأصوب، فلن يزيدها التعنيف إلا تصلبا وتشددا وتمسكا بأذواقها وبقناعاتها المصنوعة.

أما حين يتعلق الأمر بـ«الأصنام» التي تولت كبر هذا الفساد والإفساد؛ فإن النهج الأصوب والأسلم لرفع القدسية عنها، وكشف حقيقتها إنما يكون بفحص مقولاتها، وبيان وجوه فسادها بمنهج علمي لا يحاد عنه إطلاقا، يحكم دون تجريح، ويكشف بالدليل دون انطباع، ويفصل في القول دون مصادرة.

ما يجري اليوم في ساحة الأدب حصيلة عقود وعقود، والقاعدة المعروفة أن «ما يبنى في سنة يهدم في ساعة»، فإذا كان الهدم قد أخذ عقودا وعقودا؛ فهل نظن أن فساد قرون يصلح في عام أو عامين؛ كلا والله؛ إن المسار طويل؛ وإن اللحظة التاريخية تقتضي الحكمة والتدقيق في المنهج والأولويات؛ حتى يكون الخطو على هدى من الله، وتكون له ثماره المرجوة بإذن الله.

سؤال

محمود مفلح - شاعر فلسطيني

أيغفر لي ربي وقد كنت لاهيا — أيدخلني ربي جنان خلود
وأعلم أني لست أهلا وإنني — بعدت كثيرا، بل نقضت عهودي
ولكنني أخشى وأرجو وأنتمي — إلى أمة القرآن والتوحيد
ولم أتخذ يوما شريكا لخالقي — وحاشا فإن الله أصل وجودي
وكنت أرى فيمن غوى شر خلقه — وأنفر من كبر به وجحود!
وكم مرة أغمضت عيني فلا ترى — عراة على التلفاز مثل قرود
أقول أنا منكم وإن كنت عاتبا — وإن كنت قد جاوزت بعض حدودي
أقول أنا منكم هواي هواكم — وأنتم إذا عز الشهود شهودي
أقول أنا منكم لسانا وسحنة — فلا تغلقوا بابا بوجه بريدي
ولا تطردوني من مجالس ذكركم — فيشمت مني شانئي وحسودي
وكم كنت أستل الحسام منافحا — وآوي إلى ركن لدي شديد
ولكن زادي ما أقل قليله — أيكفي قليل الزاد عند صعودي؟
وعود ثقاب واحد هل ينير لي — طريقي ليلا أو يذيب جليدي؟
أيمكث غيري في المساجد هجدا — وترسف رجلي في شقاء حديدي
أأبصرهم يتلون آيات ربهم — وإني بلا قلب كما الجلمود
قليل من الآيات كنت تلوتها — بليل طويل قل فيه هجودي
إذا جئت ربي ما الذي قد أقوله — أيخفى على مولاي نبض وريدي
أقول بأني عشت سبعين حجة — وأني حملت الرأي غير سديد؟
أقول بأن القوم طاشوا فلم أجد — من الطيش بدا كي تزيد نقودي
فيا رب حالي هذه أنت عالم — أيطمع مثلي في جنان خلود!؟





سوق الرجال

أ. ناصر فؤاد
قاض و ناقد أدبي

وضع حقيبته بجواره، وأسند ظهره إلى جدار المسجد، وقد فقد الأمل في أن يستعين به أحد للعمل. إنه اليوم الخامس على التوالي الذي يخرج فيه مع شروق الشمس، ويعود أدراجه عند المغيب في حسرة، خالي الوفاض، كحال عمال اليومية أمثاله الذين يحملون أدواتهم مع نسمات الصباح ويتوجهون إلى سوق العمال، يقفون بجوار مسجد الشهيد بقبته الخضراء ومآذنه العالية في شموخ، ينتظرون الفرج الذي يتدلل كثيرا عليهم، وما أن يلمحوا شخصا قادما نحوهم، يتوسمون فيه أنه أحد المستخدمين، يحتاج إلى عمال للعمل لديه باليومية، حتى يتكالبوا عليه ويحاصروه، وكل منهم يريد أن يقنعه بأنه الأقوى والأمهر، ليفوز برزق يوم يكفيه ذل السؤال هو وأولاده.

كثيرا ما حاول أن يغير مسار حياته لعمل آخر، عمل دائم يضمن له نفقات زوجته وابنته ووالدته المريضة، ويتناسب مع قدراته وشهادته التعليمية، لكنه كمن يبغي سرابا.

بعين نصف مفتوحة، ساهمة النظرات، رمق المارة وهم يتنقلون في السوق المجاور، يحملون السلال تتدلى منها الفواكه والخضروات، ويمضون لبيوتهم، وعلى وجوههم القناعة والرضا.

تذكر والدته وأنينها الذي يعصر قلبه كل مساء، وصغيرته «أمل» التي تستقبله مهرولة عند عودته كل يوم، لتسأله في لهفة: هل أحضرت لي العنب الذي طلبته منك منذ أيام؟

وأفاق من شجونه على صوت المؤذن يرفع الأذان، فقام في استسلام يحمل أدواته، ودخل المسجد ليصلي العصر، في أحد الأركان ترك حقيبته وذهب ليتوضأ.

عقب الصلاة ارتفع صوت إمام المسجد، يعلن عن وجود بعض الأعطال، بدورات المياه في المسجد، ويطلب ممن يجيد أعمال «السباكة» من المصلين التطوع لإصلاحها.

من دون تردد هب مسرعا يحمل أدواته، كأنه خشي أن يسبقه أحد لنيل الأجر السماوي، فابتسم له الإمام وهو يصحبه لمكان العطل.

شمر عن ساعده القوي، وأخرج أدواته وانهمك في العمل، كان يشعر أن الله يراقبه، ولابد أن يحسن العمل، لاحت على شفتيه ابتسامة رضا ممزوجة بالحسرة، «إتقان العمل».. قاعدته الذهبية التي يحرص على تطبيقها كلما استعان به أحد لإنجاز عمل، فما باله والعمل الآن لوجه رب الناس.

طرح أحزانه جانبا، وأقبل على العمل بكل ذرة من كيانه، وقد تكور داخل دورة المياه، يعالج بيد خبيرة الصنابير التي تتسرب منها المياه.

أحس من جديد بأن هناك من يراقبه، من يرصد حركاته ويتابعه، إنه يشعر بنظراته تربت على ظهره، التفت خلفه، فرأى إمام المسجد يقف عند الباب الفاصل بين المصلى ودورات المياه، يتحدث إلى رجل تبدو عليه الهيبة والوقار،



وهما يتابعانه بنظراتهما، وإمام المسجد يشير إليه بين الحين والآخر، بينما يكتفي الرجل الوقور بإيماءات تعبر عن الرضا.

جال بخاطره أن إمام المسجد يتحدث إلى واحد من أهل الخير، ربما ليطلعه على بعض الأعطال بمرافق المسجد، ويطلب منه التبرع لإصلاحها.

عاد إلى عمله باهتمام، فاقترب منه الرجلان في هدوء، وبادره الرجل الوقور يسأله: هل أنت من عمال اليومية يا بني؟

- بصوت كسير أجابه: نعم.

- وهل تجيد أعمال الكهرباء والنجارة، كما تجيد السباكة؟

- أجاب بشيء من الحماسة بعد أن فتح له سؤال الرجل طاقة أمل: نعم يا سيدي، فأنا أخرج مع كثير من الفنيين في جميع التخصصات في طائفة المعمار، وأنا لا أختار عملي، ولكن العمل هو الذي يختارني.

- سأله الرجل وقد اكتست قسمات وجهه بالعطف: وهل تجيد القراءة والكتابة؟

- أنا حاصل على دبلوم فني يا سيدي، قالها وقد زاد فضوله المغلف بالأمل من أسئلة الرجل.

لاحظ إمام المسجد ما به من فضول، كما لاحظ نظرات الأمل تشع من عينيه، فابتسم له في حنان وهو يشير إلى الرجل في إكبار ويقول:

- عرفان بيه وكيل مديرية الأوقاف التي يتبعها المسجد، وقد أعجبه إتقانك للعمل وحرصك على فعل الخير.

- بصوت يحمل رياح البشرى، أكمل عرفان بيه: المديرية تحتاج إلى عمال لتعيينهم في قسم الصيانة والمباني، وأنا انتظرك في مكتبي غدا، ومعك جميع أوراقك، فجميع الشروط تنطبق عليك.



النحو أساس اللغة

سالم بن عميران
باحث لغوي

علم النحو من أجل علوم اللغة العربية، لا يستغني عنه متكلم، ولا يليق بجهله متعلم؛ وهو مفتاح لكل العلوم، وأجمل حلي للكلام، وأول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرة اللحن (١)، وهو الغاية من تعلمه؛ فيحتاج إليه الكاتب في نثره، والشاعر في نظمه.

يقول إبراهيم بن خلف المهراني:

النحو يصلح من لسان الألكن
والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها
فأجلها منها مقيم الألسن (٢)

أما صاحبه فهو مكرم حيثما حل، يقول الشاعر:

صاحبه مكرم حيث جلس
من فاته فقد تعمى وانتكس
كأن ما فيه من العي خرس
شتان ما بين الحمار والفرس

والمتمكن في قواعده وأحكامه يكون على بصيرة من عبارته فيخشاه المتكلم والمستمع، وغير المتمكن تراه متوقفا أو مترددا فيرفع المنصوب والمجرور وينصب المرفوع، حتى يغير المعنى في عبارته، يقول الكسائي:

إنما النحو قياس يتبع
وبه في كل أمر ينتفع
فإذا ما نصر النحو الفتى
مر في المنطق مرا فاتسع
فاتقاه جل من جالسه
من جليس ناطق أو مستمع
وإذا لم ينصر النحو الفتى
هاب أن ينطق جبنا فانقطع
فتراه يرفع النصب وما
كان من خفض ومن نصب رفع
يقرأ القرآن لا يعرف ما
صرف الإعراب فيه وصنع
والذي يعرفه يقرأه
فإذا ما شك في حرف رجع
ناظرا فيه وفي إعرابه
فإذا ما عرف اللحن صدع
كم وضيع رفع النحو وكم
من شريف قد رأيناه وضع (٣)

ولم يزل العلماء والخلفاء منذ صدر الإسلام يحثون الناس على تعلمه، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه «تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض» (٤). وقال حماد بن سلمة: «مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة (٥)» (٦). ويقول الإمام مالك رحمه الله «الإعراب حلي اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها» (٧). وكان أيوب السختياني يقول: «تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف (٨)». ويقول الأصمعي: «إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النبي

ﷺ «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحانا ولم يلحن في حديثه، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه» (٩).

وقد وصف حال أهل الأندلس في العناية بالنحو بأن النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى أنهم فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عامل في أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء (١٠).

ومن طريف ما يروى أن بعض الخلفاء وقف على كتاب لبعض عماله فيه لحن في لفظه، فكتب إلى عامله: «قنع كاتبك هذا سوطا معاقبة على لحنه». قال أحمد بن يحيى: كان هذا مقدار أهل العلم، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه والحذر من الزلل، قال القلقشندي قال صاحب الريحان والريعان فكيف لو أبصر بعض كتاب زماننا هذا؟ قلت قد قال ذلك في زمانه هو وفي الناس بعض الرمق والعلم ظاهر وأهله مكرمون وإلا فلو عمر إلى زماننا نحن لقال «تلك أمة قد خلت..» (١١).

قال هذا القلقشندي في القرن التاسع الهجري، بعد غياب العلم وأهله كما يظن، فماذا عسى أن يقول لو طالت به الحياة ورأى ما يكتب وينشر في هذا العصر الذي عم فيه الخطأ وطم؟!

إن الدعوة إلى إلغاء قواعد النحو أو بعضها، والتي ما برح البعض يدعو إليها في هذا العصر، بحجة الصعوبة والتعقيد تارة، أو عدم جدواها في الواقع تارة أخرى، هي دعوة إلى هدم أسس وقواعد الفصحى، وهي تهمة قديمة تبناها أقوام من المستشرقين وبعض ممن تتلمذ على أيديهم من العرب، ودعوا إلى إلغاء الإعراب، وأنه من باب الترف اللفظي، وإلى إلغاء جمع التكسير والمثنى؛ بحجة عدم وجودهما في اللغات الأخرى (١٢).

ولعل هذه التهم صادرة عن عامل نفسي، وهذا العامل له دور كبير في تفشي الضعف في اللغة العربية (١٣). وظن البعض أن قواعد اللغة العربية صعبة معقدة قد تكون محاكاة للغات الأجنبية، ويرد عليهم بأن الإعراب لا تنفرد به العربية وليست بدعا بين اللغات، وإنما هو حالة موجودة في عدد من اللغات، وهو أيضا وسط بين اللغات الأخرى (١٤)، حتى اللغة الإنجليزية، التي أصبحت حجة أولئك الذين يدعون إلى إلغاء القواعد، تنطوي على قواعد صعبة في استعمالها والتحدث بها قد يضيق بها حتى أبناؤها!

فكيف يستطيع هؤلاء أن يقرأوا أو يكتبوا من غير قواعد أو أسس؟

إن الحركات (الضمة والفتحة والكسرة) هي أصوات رئيسية وجدت لتسهيل عملية النطق ببقية الحروف الصامتة، مهموسة أم متفجرة، من الأبجدية، وتسهيل تركيب الجمل، أو النطق بالكلمات مجتمعة، ولم يجدها فرد أو أفراد معينون وإنما هي طبيعة لغتنا (١٥)، والكاتب الذي يقع في الخطأ يتعين عليه أن يتعلم قواعد اللغة، وهو لن يستطيع أن يكتب إذا لم يقف على مقومات اللغة وقواعدها وإمكاناتها التعبيرية.

وقد ظهرت آثار كثيرة بسبب عدم التمكن في قواعد النحو العربي، لعل من أبرزها تساهل العديد من وسائل الإعلام من قنوات وإذاعات وصحف ومجلات ومواقع إلكترونية في استعمال لغة ركيكة مشحونة بالأخطاء الإملائية والنحوية في صفحاتها وبرامجها.

ويتوجب على المعنيين بتعليم اللغة العربية أن يدركوا أن القواعد النحوية هي أساس اللغة الفصحى، ولعل صعوبة النحو تعود إلى طريقة عرض قواعده، والابتعاد عن وصف الواقع اللغوي، والحشو والاستطراد وذكر اختلافات النحويين في الإعراب.

وهناك وسائل كثيرة تساعد المتعلمين على فهم قواعد النحو، منها: الوقوف على الأصول اللغوية والنحوية، وترك التفاصيل الدقيقة والخلافات بين المدارس النحوية للمتخصصين، والاهتمام بما يسمى النحو التطبيقي من خلال قراءة نصوص أدبية رفيعة لإكساب الطلاب المهارات النحوية المتنوعة، مثل الضبط الإعرابي وإعراب الشواهد، يقول الدكتور رمضان عبدالتواب: «إن القواعد الأساسية لنحو اللغة العربية يمكن أن تستخلص في صفحات قليلة مصفاة» (١٦).

ومن الوسائل التي أثبتت جدواها: استخدام التقنية العلمية الحديثة في تعليم القواعد النحوية، وعرضها للناشئة بصورة ميسرة وشيقة تعتمد على التحليل والمحاورة والسماع، ليكتشف الطالب بنفسه جمال اللغة الفصحى ويطبقها واقعا في حياته.

الهوامش

١- الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٥ ،ج١، ص٢٩، والمقصود باللحن هنا: الخطأ في الإعراب.

٢- الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ج ١، ص٥٥.

٣- أحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال، (ج ١ - ص).

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت: دار صعب، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ج١، ص٣٢٣.

٥- (المخلاة) ما وضعه فيه من الخلى، وهو الحشيش، الذي يحتش من بقول الربيع، وبه سميت المخلاة، والواحدة خلاة، ومنه الحديث المرفوع في مكة: «لا يختلى خلاها» أي: لا يحتش حشيشها. ينظر: لسان العرب، ج١٤، ص٢٣٧.

٦- الأبشيهي، المرجع نفسه، ١٩٨٦، ج١، ص٥٥.

٧- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دمشق: تحقيق: يوسف علي طويل، ج١، ص٢٠٦.

٨- الهجنة في الكلام ما يلزمك منه العيب، ينظر: لسان العرب، ج١٣، ص٤٣١.

٩- ابن حبان، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٧ - ١٩٧٧، ج١، ص٢٢٣.

١٠- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨، ج١، ص٢٢١.

١١- القلقشندي، المرجع نفسه، ج١، ص٢٠٧.

١٢- ينظر: طالب عبدالرحمن، اللغة العربية تواجه التحديات، قطر: «سلسلة كتاب الأمة»، العدد١١٦، ط١، ذو القعدة ١٤٢٧، ص٩٧ و٩٨.

١٣- ينظر: سميح أبو مغلي، التدريس باللغة العربية الفصيحة لجميع المواد في المدارس، عمان: دار الفكر، ط١، ١٩٩٧، ص٨ و٩.

١٤- ينظر: طالب عبدالرحمن، المرجع نفسه، ص٨٣ - ٨٥١.

١٥- ينظر: محمد مبارك، مواقف في اللغة والأدب والفكر، بغداد: مكتبة النهضة، بيروت: دار الفارابي، ١٩٧٤، ص٣٣.

١٦- رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٢، ص١٦٧.

مِنْ جَمالِ النَّظْمِ القُرآني في سُورَةِ الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ

د. أحمد عبد الكريم
باحث أكاديمي

من السور التي أنزلت على رسولنا الكريم ﷺ لتمحو عن تفكيره كل ما خطر بباله، أو جال في خاطر أعداء الدعوة من أن الله عز وجل ودعه أو قلاه، وبالإضافة إلى ما في السورة من مواساة وتسرية، وطمأنة له بمواصلة الوحي، تؤكد مكانة النبي ﷺ عند ربه سبحانه، وما أعده له من النعيم المقيم، ولمن اتبعه وسار على نهجه إلى يوم الدين، وقد اتخذت السورة الإقناع منهجا من خلال مقارعة الحجة بالحجة، وقد جاء خطاب الله لرسوله ﷺ فيه كثير من المعاني والدلالات، التي تهدئ من روعه، وتشد من أزره وتقوي عزيمته، وتبعث السعادة في نفسه لما ينتظره من عطاء الله الذي وعده إياه.

موضوع السورة:

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بآيتين من الآيات الكونية الدالة على عظمة الخالق عز وجل، ويلحظ التقابل الواضح بين الآتين، فيأتي لافتا إلى صورة مادية مدركة وواقع مشهود، وفي ذلك دليل كاف لذوي العقول السليمة على وجود خالق لهذا الكون، لا تضاهي قدرته على الإحداث والتغيير وبسط الحياة ونشوئها وتسيير أمورها وامتلاك زمامها، وفي القسم بالضحى لفتة جمالية، لما تضمنته من دعوة لأولى النهى أن يُعملوا عقولهم ويتدبروا قدرة خالق هذا الكون، «.... وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى» (١). وقد أقسم الله تعالى بالضحى والليل؛ لأن مناسبة المقام الذي وردت فيه السورة يستوجب استدعاء هذه الظاهرة للمواءمة بين انفراج الأزمات حين تدلهم الخطوب كما ينفرج الضحى وينشق من الليل وتشرق الدنيا بالنور.

وفي إطار هذه الحياة، ليلها ونهارها، يأتي الحدث الذي تشير إليه الآية الثالثة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ (الضحى: ٣)، فيتحول

الكلام إلى نفي يتضمن إثباتا، وهذا النفي إن هو إلا ضرورة تفرضها مناسبة النزول، فهو نفي للفرية التي افتراها المشركون على الرسول ﷺ بأن الله قد ودعه أو قلاه، وتظهر البلاغة القرآنية في ترتيب الألفاظ وحسن اختيارها، فالله عز وجل في رده على الكافرين يفحمهم بخطابه لرسوله ﷺ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، فقد قدم الفعل «ودع» مثبتا به «ك» الخطاب؛ لأن فعل الوداع فراق بين الأحبة، يرجى اللقاء بعده، أما الفعل «قلى» فيكون هجر عن كره وبغض لا يرجى بعده لقاء، ولقد جمعت هذه الآية التكريم للرسول ﷺ من ربه مرتين، مرة بذكر المفعول مع فعل التوديع، ومرة بحذف المفعول مع الفعل «قلى» (٢)، لأن الله عزوجل يريد نفي ما ردده الكفرة أن الله أبغضه وودعه، يقول الآلوسي: «لنفي صدوره من الحق سبحانه وتوجهه للرسول الكريم» (٣). ولما كان الموقف غريبا اقتضى مجيئ هذا الفعل الشاذ في هذا السياق الغريب ليناسب غرابة هذا الموقف، فالفعل «قلى» غريب في بنية اللغة العربية؛ لأنه «ليس في كلام العرب فعل يفتح الماضي والمستقبل فيه مما ليس فيه حرف من حروف الحلق إلا قلى يقلى» (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ «فاللام في «الآخرة» و«الأولى» لام الجنس، أي كل آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى (٥). وقد جاءت الآية مشفوعة بلام الاختصاص وكاف الخطاب، لإفادة القصر؛ إذ إن ورودهما يخرج السياق من دلالة التعميم إلى التخصيص والقصر على رسول الله ﷺ جاءت الأولى ولم ترد الدنيا؛ ليجمع بذلك خيري الآخرة وما بقي من عمره، مقابل ما مضى من حياته؛ لأنه لو قال: «من الدنيا» لما صحت إلا في الآخرة، فكأنما حصر الخير في الآخرة فقط ونفى حصوله فيما يستقبل من حياته ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ (الضحى: ٥) جاءت هذه الآية معطوفة على جملة القسم كلها، وحرف الاستقبال للإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع كقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾ (يوسف: ٩٨)، وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ (الليل: ٢١) (٦)، ولقد أطلق عز وجل فعل العطاء ولم يحدده؛ للدلالة على شمولية عطاء الله لرسوله ﷺ، وأن عطاءه عز وجل لا حصر له، وفوق مخيلة البشر وغيرهم، فاستغنى الفعل «يعطيك» عن مفعوله الثاني، لاقتضاء السياق هذا الحذف؛ حيث إن «مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة» (٧). وجاءت الآية في غاية الاتساق، فجاء الفاعل لفعل العطاء ﴿ربك﴾ لا غيره، للدلالة على فعالية الربوبية قبل الألوهية، لما في ذلك من تكرم الله عز وجل على عباده وتقديم ربوبيته وقيوميته على خلقه قبل تكليفهم بحق الربوبية، وجاء ﴿ربك﴾ معرفا بالإضافة دون اسم الله العلم؛ لما يؤذن به لفظ «رب» من الرأفة واللطف، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله ﷺ وتشريفه بإضافة «رب» إلى ضميره» (٨). وجاء الفعل «ترضى» بعد الوعد بالعطاء مسبوقا بفاء التعقيب؛ للدلالة على رضا رسول الله ﷺ بعطاء الله، «وإفادة كون العطاء عاجل النفع بحيث يحصل به رضا المعطى عند العطاء فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تربص» (٩). ومجيئ الفعل «ترضى» دون غيره مما يرادفه؛ يحمل في طياته الكثير من المعاني، فالرضا من أكبر النعم التي يمن الله عز وجل بها على خلقه.

وبعد أن نفت الآيات الأولى توديع الله لرسوله ﷺ، وبسطت الحديث عن جزيل العطاء والتكريم الذي توج به ﷺ، يبدأ العتاب، عتاب الله عز وجل لرسوله ﷺ، عتاب الحبيب لحبيبه، عتاب فيه استحضار جميل صنع الله عز وجل برسوله ﷺ، ووافر عنايته به وعصمته له، وفيه دعوة للتأمل والتدبر في تكريم الله وتفضله عليه، إذ كيف يقوده تفكيره ويساوره الشك، ويخالجه الحزن لمجرد فتور الوحي عنه، ويستسلم لترهات هؤلاء الكفار ومزاعمهم أن الله تخلى عنه وودعه، برغم أنه يعلم يقينا أن عناية الله عز وجل لم تفارقه طوال حياته طرفة عين، فلازمته في مهده وطفولته، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ (الضحى: ٦ - ٨)، ففي هذه الآيات ثلاث مسائل: إيواؤه في يتمه، وهدايته من الضلال، وإغناؤه من العيلة والعوز، حيث إن الاستفهام لتقرير الإثبات، وفيه تأكيد لما أقسم الله تعالى به، وتأكيد لحتمية تحقيق ما وعده عز وجل به، حيث إنه «استئناف مسوق مساق الدليل على تحقق الوعد، أي هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه في الشدائد باطراد بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف لأن شأن الصدف ألا تتكرر، فقد علم أن اطراد ذلك مراد لله تعالى» (١٠).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ (الضحى: ٩-١٠)، فقد تقدم المفعول به وجوبا في الآيتين؛ لوقوع عامله بعد (الفاء) الجزائية في جواب (أما) وليس له منصوب غيره (١١)، حيث نلحظ أن البنية التركيبية لهذه الآية حقق فائدتين: الأولى: لفظية، تتمثل في حفظ إيقاعها، من حيث التزامها رؤوس الآي. كما أن تقديم المفعول «اليتيم» على «فعله» يعود لأسباب معنوية تتصل بالبنية بحد ذاتها وبالسياق بوجه عام؛ وذلك بما توجبه هذه الأداة من دلالة على ارتباط الشرط بالجزاء، فجملة الشرط لا تكتمل إلا في سياق جملة الجواب، لما تحمله من دلالة على تلازم الشرط والجزاء. والأخرى: معنوية، حيث إن هذه الأداة مقصودة في تقديم المفعول وجوبا لغرض التأكيد على مضاعفة العناية باليتيم والاهتمام به؛ وذلك بجعله واقعا موقع جملة أشبه ما تكون بجملة الشرط لتستدعي الجواب حكما لها وجزاء، ولعل ذلك كله لا يتحقق فيما لو رفعت الأداة وأخر المفعول (١٢).

واختتمت السورة بالفعل: «فحدث» ولم يرد فعل آخر يوازيه في المعنى يتناسب مع فاصلة السورة، فقد يتبادر إلى الذهن أن اللفظ «خبر» يسد مسد الفعل «حدث»، لكن الواقع اللغوى يؤكد أن الفعلين لا يتفقان في الدلالة ولا السياق، إذ يكتسب الفعل «حدث» قوته من السياق الواردة فيه السورة وما تحمله من معان ودلالات، فدلالة التحدث في شيئ توحي بالغبطة والسرور، ومن ثم توالي التحدث لتجدد هذه النعم وتواليها تباعا، ولذا يكون في التحدث حديث جديد غير متكرر، أما الإخبار فيكون نقلا وليس شرطا أن يكون مختصا بالمتحدث ذاته، كما لا يلتزم أن يكون سارا.

وقد جاءت السورة في غاية الإيجاز والإعجاز وردّت على افتراءات أعداء الله ورسوله ﷺ القائلين بأن الله ودع رسوله وقلاه، وكشفت عن حقيقة

الهوامش

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٨/ ٤١١.
(٢) ينظر: لمسات بيانية نصوص من التنزيل، فاضل بن صالح السامرائي، دار عمار، عمان، الأردن، ط٣/ ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، ص ٢٤٣.
(٣) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٣/ ٣.
(٤) إعراب ثلاثين سورة، لابن خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ١٣٦٠هـ -١٩٤١م، ص ١١٦.
(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية، ط١، ١٩٨٤م، ٣٠/ ٣٩٧.
(٦) السابق، ٣٠/ ٣٩٨.
(٧) السابق، ٣٠/ ٣٩٨.
(٨) السابق، ٣٠/ ٣٩٨.
(٩) السابق، ٣٠/ ٣٩٨.
(١٠) السابق، ٣٠/ ٣٩٩.
(١١) المنقح على الموشح في قواعد اللغة العربية، أحمد عبد الغفار المالكي، دراسة وتحقيق: صادق مسعد لطف المنبري، دار الإيمان، ص ٢٠٤.
(١٢) آراء البصريين النحوية في كتاب «إعراب القرآن» للنحاس في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، للباحث، رسالة دكتوراه، مودعة في مكتبة كلية الألسن، جامعة عين شمس، ص ٢١٦.



أصول النظام الاقتصادي الإسلامي

د. سوسن عبدالكريم بونقيشة
باحثة دراسات إسلامية

الحديث عن موضوع النظام الاقتصادي الإسلامي من الموضوعات الإسلامية المثارة باحتشام، في حين يمثل الاقتصاد معيارا لقياس تقدم الأمم، ولمعرفة خصائص الشعوب المادية والروحية. وربما يكون السبب في ذلك أن العالم الإسلامي قد غاص في ترتيب أموره الداخلية من فترة ما بعد استقلال الدول إلى اليوم. وأعتقد مثل غيري من الباحثين بأن الوقت قد حان لاسترجاع دور المسلمين العظيم في توجيه البشرية (١)، ومن ثم الخلاص من الفقر والتخلف والتبعية وغيرها من الآفات التي فتكت بمجتمعاتنا. فالحل الإسلامي بات اليوم سبيل نجاة للعالم الغربي الذي يحرص على تفعيل الاقتصاد الإسلامي على أرضه؛ لأنه أثبت كفاءته ونجاحاته.

إننا في غفلة مادمنا نقصي مناهج وطرقا جاهزة حوتها الشريعة الإسلامية التي تناولت جميع احتياجات البشرية إلى يوم القيامة، فهي الرسالة الخاتمة التي اكتمل فيها الدين، وفي ذلك يقول عزوجل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة:٣).

فالشريعة منهج حياة، لا بديل له، لا كما يدعي العلمانيون من بني جلدتنا الذين حصروا الدين في بعد واحد، وهو إقامة الشعائر فقط، وجعلوه في برج عال، بعيدا عن الواقع، وأقروا حياة بلا دين، في خضم الفصل بين الدين والدولة.

لقد طبق الاقتصاد الإسلامي منذ أربعة عشر قرنا بمبادئه وبأصوله الأصيلة منذ عهد الرسول ﷺ ثم تبعه على ذلك الخلفاء الراشدون، ولقد حكمت الدولة الإسلامية العالم، وتنعمت في عصور ذهبية، وكانت تنطق بالنص التأسيسي، وتنطلق منه، بمعنى أنها كانت ترجع إلى القرآن الكريم في كل شيء.

للاقتصاد الإسلامي وجهان: وجه ثابت وآخر متغير، الأول: يتعلق بالمبادئ والأصول الاقتصادية المستمدة من العقيدة، والثاني: متغير باعتبار تغير الزمان والمكان، وبالتالي تغير التطبيق، وهو يتمحور حول الكسب والإنفاق وكل ما يتعلق بهما من قريب أو من بعيد.

إذن ميزة هذا الاقتصاد أنه مبني على مجموعة من القيم الروحية، فهو نظام أخلاقي قبل كل شيء.

ولسائل أن يسأل: كيف يجتمع المادي والروحي في المجال المالي؟ أليس الإنسان شغوفا بالمال مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ (العاديات:٨). وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ (الفجر:٢٠). وكيف يخرج المال من قلبه ليجعله في يده مجرد وسيلة فقط؟

إن الجواب يكمن في السر الإلهي الذي هدى به الله عزوجل البشرية، وهو نور الإيمان الذي أنار قلوب الصحابة من قبل فتركوا الغالي والنفيس، وهاجروا مع رسول الله ﷺ نصرة للدين واستجابة إلى قيم روحية خشعت لها قلوبهم.

الخلاصة: إن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد تعبدي، حيث يراقب الإنسان نفسه رقابة ذاتية، مجددا النية في كل حين، أنه يتعامل مع الله عزوجل، ويعمل له ويطيعه في كل نبضات حياته، فيكون خروج الحرفي من منزله لكسب قوت أهله عبادة، وسعيه عبادة، وكذا من قام على خدمة الناس في شتى المجالات..

لقد صار من الضروري التركيز على النظام الاقتصادي الإسلامي في محاولة لإعادة بناء صرحه الأخلاقي، لأنه هو الحل لأزمات أنهكت مجتمعاتنا الإسلامية. ونعرف جميعا أنها أزمات أسبابها غياب الأخلاق الإسلامية، قبل كل شيء.





من مقدمات الكتب المهمة

التحرير

تُعد القراءة منذ القدم من أهم وسائل التعلم الإنساني، والتي من خلالها يكتسب الإنسان العديد من المعارف والعلوم والأفكار، فهي التي تفتح أمام القارئ آفاقا جديدة، كما تعد القراءة من أكثر مصادر العلم والمعرفة وأوسعها، حيث حرصت الأمم المتيقظة على نشر العلم وتسهيل أسبابه، وجعلت مفتاح ذلك كله من خلال تشجيع القراءة والعمل على نشرها بين جميع فئات المجتمع، والقراءة كانت ولا تزال من أهم وسائل نقل ثمرات العقل البشري وآدابه وفنونه ومنجزاته ومخترعاته، وهي الصفة التي تُميز الشعوب المتقدمة التي تسعى دوما للرقي والصدارة، ولبيان أهمية القراءة فإن أول كلمة خاطب بها المولى سبحانه نبينا ﷺ؛ هي كلمة: (اقرأ)، في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق: ١-٥)، وهذا له دلالة كبيرة وعميقة في اكتشاف أهمية القراءة للعلم والمعرفة.

كثير من الناس يحرص على القراءة وتثقيف نفسه، ولكن يفوته من ذلك حظ بالغ حين يهمل قراءة مقدمات الكتب التي بين يديه، فإنها ثروة تراثية مهدرة لا تقدر بثمن، وكثير من المتعجلين لا يعرف قيمتها، فلذلك لا يحرص عليها، بل يتعداها وكأنها من الزوائد الضارة بالكتاب المقروء!!

يعمد المؤلفون في مقدمات كتبهم إلى تبيان منهجهم في التأليف، وسبل فهم الكتاب، وشرطهم فيه، وإن أحدنا لينظر إلى كتب التراث الضخمة فيستثقل قراءة الكتاب كله، فيدعه كله إلا لماما، في حين أن لو تأمل الكتاب جيدا لوجده يحوي مقدمة عظيمة قد تغنيه عن قراءة الكتاب، لما فيها من فوائد جمة، وعلم غزير ينتفع به، وهذه بعض مقدمات الكتب التي تستحق القراءة وحدها، ولو لم يقرأ الكتاب كله:

١- مقدمة صحيح مسلم للإمام مسلم- رحمه الله-.

٢- مقدمة كتاب التمهيد لابن عبد البر، وسيأتي الحديث عنها في المقال.

٣- مقدمة هدي الساري لكتاب فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

٤- مقدمة كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم.

٥- مقدمة كتاب تهذيب اللغة للأزهري، وفيها تحدث عن جملة من قضايا اللغة، وسياتي الحديث عنها في المقال.

٦- مقدمة صحيح ابن حبان (الأنواع والتقاسيم).

٧- مقدمة كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي.

٨- مقدمة كتاب التسهيل لابن جزي الغرناطي.

٩- مقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة؛ حيث تحدث فيها عن أهمية الشعر وتاريخه، وأبرز الشعراء، وبعض عيوب الشعر والقافية.

١٠- مقدمة شرح المفصل لابن يعيش النحوي، شرح فيها مقدمة الزمخشري في كتابه المفصل.

١١- مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ.

١٢- مقدمة خزانة الأدب للبغدادي،



وسيأتي الحديث عنها في المقال.
١٣- مقدمة كتاب المجموع للنووي.
١٤- مقدمة تفسير القرطبي، حيث أبان القرطبي كثيرا من قضايا التفسير، وفضله، وأداة المفسر، وفضل القرآن وتلاوته.
١٥- مقدمة كتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية.
١٦- مقدمة جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير الجزري.
١٧- مقدمة كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان البستي.
١٨- مقدمة كتاب الضعفاء للعقيلي.
١٩- مقدمة كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.
٢٠- مقدمة كتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل لأبي علي الغساني.
٢١- مقدمة كتاب تهذيب الكمال للحافظ المزي.
٢٢- مقدمة كتاب الثقات لابن حبان.
٢٣- مقدمة كتاب الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي الجرجاني.
٢٤- مقدمة كتاب لسان الميزان لابن حجر.
٢٥- مقدمة كتاب الذخيرة للقرافي.
٢٦- مقدمة كتاب المحلى لابن حزم
٢٧- مقدمة كتاب تحفة الأحوذي للمباركفوري.
٢٨- مقدمة كتاب إرشاد الساري للقسطلاني.
٢٩- مقدمة كتاب الموضوعات لابن الجوزي.
٣٠- مقدمة كتاب البدر المنير لابن الملقن.
٣١- مقدمة كتاب تاج العروس للزبيدي.
٣٢- مقدمة كتاب المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي.
٣٣- مقدمة كتاب الوافي بالوفيات للصفدي.

نماذج من مقدمات بعض الكتب المشهورة:

أولا: كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» للحافظ ابن عبدالبر:

نظرة كلية عن الكتاب ومنهج مؤلفه فيه: كتاب التمهيد؛ فريد في بابه، وموسوعة في فقه أحاديث الأحكام، اقتصر فيه مؤلفه على ما أورده مالك في الموطأ من أحاديث الرسول ﷺ دون ما فيه من آراء مالك، وآثار الصحابة والتابعين، وأودعه من نفائس العلوم والفنون ما يعجز اللسان عن وصفه.

رتبه المصنف على الأسانيد؛ بناء على أسماء شيوخ مالك الذين روى عنهم في الموطأ، وذكر ما رواه عن كل شيخ مرتبا إياه على حروف المعجم، ولذا يصعب الوقوف على الأحاديث المرادة منه إلا بعد معرفة الشيخ، ثم رتب الشيوخ على حروف الهجاء ترتيبا مغاربيا، وهي أيضا تختلف عن ترتيب طريقة المشارقة، فالصعوبة من جهتين: من كونه مرتبا على الشيوخ، وبترتيب مغربي للأبجدية؛ فإذا أراد الباحث الاطلاع على مسألة فقهية؛ فعليه أن يكون ملما بأحاديث الموطأ التي تتكلم عن المسألة التي يبحث عنها، ثم بعد ذلك يبحث عن مواضع الأحاديث في التمهيد، ولا يتم له ذلك إلا إذا عرف شيخ الإمام مالك في الحديث الذي يبحث عنه.

وإذا كان الحديث في الموطأ مذكورا من رواية شيخين؛ فعلى الباحث أن يرجع إلى التمهيد في موضعين على الأقل، وإذا كان للمسألة أكثر من حديث؛ فعليه أن يرجع إلى كل الأحاديث، وفي ذلك مشقة لا تخفى، وقد لا يجد مراده، لأن المؤلف لا يتقيد بذكر الأحكام الفقهية على ما ذكره الإمام مالك في تراجمه للأحاديث، بل يتكلم عن فقه الحديث، وعن دلالته، سواء كانت واضحة أو خفية في أي موضع ينشط فيه لسرد مذاهب الفقهاء وحججهم، وقد يترك ذلك في بعض الأحاديث التي تبدو أنها أقرب للمسألة الفقهية، ويختار لها موضعا آخر أقل وضوحا.

هذا إذا كان البحث عن مسألة واحدة، أما من يبحث عن موضوع كامل؛ فعليه أن يقرأ التمهيد كله، أو على الأقل مطالعة كل الأحاديث التي تتكلم عن موضع البحث مما هو على شرط المؤلف.

وختم المصنف كتابه بالكنى والبلاغات، واقتصر في شرحه على الأحاديث المرفوعة، ولم يتعرض للموقوفات ولا المقطوعات ولا أقوال مالك، وهو يرجع تبعا للدليل.

بعض ما في المقدمة من فوائد:

من المسائل التي أطال فيها المصنف نفسه وأجاد وأفاد، مسألة الفرق بين المتصل والمسند، وفائدة درسهما وشرحهما، وقيمة مراسيل الموطأ، وأنها صحاح لا يطعن فيها عالم، قال ابن عبد البر:«... وكل من يتفقه منهم لمالك وينتحله؛ إذا سألت من شئت منهم عن مراسيل الموطأ؛ قالوا: صحاحٌ لا يسوغ لأحد الطعن فيها، لثقة ناقليها وأمانة مرسليها، وصدقوا فيما قالوه من ذلك، لكنها جملةٌ ينقضها تفسيرهم بإضرابهم عن المرسل والمقطوع».

ثم قرر أن الحديث المرسل الصحيح حجة لازمة كالمسند، لا فرق بينهما، وفي ذلك يقول: «مرسل الثقة تجب به الحجة، ويلزم به العمل، كما يجب بالمسند سواء».

وأما عن طريقته في تصنيف كتابه؛ فقال: «وجعلته على حروف المعجم في أسماء شيوخ مالك رحمهم الله، ليكون أقرب للمتناول، ووصلت كل مقطوع جاء متصلا من غير رواية مالك، وكل مرسل جاء مسندا من غير طريقه.. فيما بلغني علمه، وصح بروايتي جمعه؛ ليرى الناظر في كتابنا هذا موقع آثار الموطأ من الاشتهار والصحة، ... وذكرت من معاني الآثار وأحكامها المقصودة بظاهر الخطاب ما عول على مثله الفقهاء أولو الألباب، وجلبت من أقاويل العلماء في تأويلها وناسخها ومنسوخها وأحكامها ومعانيها؛ ما يشتفى به القارئ الطالب ويبصره، وينبه العالم ويذكره، وأتيت من الشواهد على المعاني والإسناد بما حضرني من الأثر ذكره، وصحبني حفظه، مما تعظم به فائدة الكتاب، وأشرت إلى شرح ما استعجم من الألفاظ...، وذكرت في صدر الكتاب من الأخبار الدالة على البحث عن صحة النقل وموضع المتصل والمرسل، ومن أخبار مالك رحمه الله وموضعه من الإمامة في علم الديانة، ومكانه من الانتقاد والتوقي في الرواية، ومنزلة موطئه عند جميع العلماء المؤلفين منهم والمخالفين، نبذا يستدل بها اللبيب على المراد...، وأومأت إلى ذكر بعض أحوال الرواة وأنسابهم وأسنانهم ومنازلهم...».

ثانيا: كتاب تهذيب اللغة للأزهري:

قال القفطي مبينا قيمة كتاب التهذيب: «رزق هذا التصنيف سعادة، وسار في الآفاق، واشتهر ذكره اشتهار الشمس»، ذلك أن مؤلفه كتبه بعدما تجاوز السبعين من عمره، ولقد جمع في «تهذيب اللغة» كثيرا من النصوص اللغوية ونسبها إلى أصحابها، وصحح مصحفها، وأودعه فوائد لغوية نفيسة، وذكر في مقدمته العلماء الذين أخذ عنهم، وقسمهم طبقات، كما عني بذكر البلدان والمواضع والمياه عناية كبيرة، حتى عد كتابه من أصح المصادر في هذا الموضوع.

وحمل في تلك المقدمة على الليث بن المظفر، واتهمه بأنه نحل الخليل بن أحمد كتاب العين لينفقه باسمه، ويرغب فيه من حوله، وأنه أدخل فيه أشياء ليست للخليل؛ لأن الخليل توفي قبل إتمامه كتاب العين، كما نقد كتاب «الجمهرة» لابن دريد، واتهمه بتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول في اللغة، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم.

ولنفاسة كتاب الأزهري؛ أوعب ابن منظور معجمه «لسان العرب» ما انطوى عليه التهذيب من مادة لغوية، ومع أن ابن منظور يثني على الأزهري في مقدمة معجمه «لسان العرب»، إلا أنه وجد منهجه صعب الاتباع، ولذلك عزا ابن منظور انصراف الناس عن التهذيب، وعما ألف على غراره، إلى سوء الترتيب وصعوبة المنهج.

بعض ما في مقدمة الأزهري من فوائد:

قرر الإمام المصنف في مطلع كتابه أهمية العلم باللغة، وأن أهل الصدر الأول كانوا أعلم بها من المتأخرين، وأن من جاء بعدهم كان أشد حاجة للعلم بها وبدقائقها منهم، حتى قال رحمه الله: «...؛ فاستغنوا بذلك عما نحن إليه محتاجون، من معرفة لغات العرب واختلافها والتبحر فيها، والاجتهاد في تعلم العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب، وورد البيان».

وعن أهمية كتابه يقول رحمه الله: «وكتابي هذا، وإن لم يكن جامعا لمعاني التنزيل وألفاظ السنن كلها، فإنه يحوز جملا من فوائدها، ونكتا من غريبها ومعانيها، غير خارج فيها عن مذاهب المفسرين، ومسالك الأئمة المأمونين، من أهل العلم وأعلام اللغويين، المعروفين بالمعرفة الثاقبة والدين والاستقامة.

وقد دعاني إلى ما جمعت في هذا الكتاب من لغات العرب وألفاظها، واستقصيت في تتبع ما حصلت منها، والاستشهاد بشواهد أشعارها



المعروفة لفصحاء شعرائها، التي احتج بها أهل المعرفة المؤتمنون عليها؛ خلالٌ ثلاث: منها: تقييد نكت حفظتها ووعيتها عن أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرانيهم سنيات؛ إذ كان ما أثبته كثير من أئمة أهل اللغة في الكتب التي ألفوها، والنوادر التي جمعوها لا ينوب مناب المشاهدة، ولا يقوم مقام الدربة والعادة. ومنها: النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين في إفادتهم ما لعلهم يحتاجون إليه.. والخلة الثالثة:... أني قرأت كتبا تصدى مؤلفوها لتحصيل لغات العرب فيها، مثل كتاب (العين) المنسوب إلى الخليل، ثم كتب من احتذى حذوه في عصرنا هذا. وقد أخل بها ما أنا ذاكره من دخلها وعوارها...

وألفيت طلاب هذا الشأن من أبناء زماننا لا يعرفون من آفات الكتب المصحفة المدخولة ما عرفته، ولا يميزون صحيحها من سقيمها كما ميزته، وكان من النصيحة التي التزمتها توخيا للمثوبة من الله عليها؛ أن أنصح عن لغة العرب ولسانها العربي الذي نزل به الكتاب، وجاءت السنن والآثار، وأن أهذبها بجهدي غاية التهذيب، وأدل على التصحيف الواقع في كتب المتحاذقين، والمعور من التفسير المزال عن وجهه، لئلا يغتر به من يجهله، ولا يعتمده من لا يعرفه.

وكنت منذ تعاطيت هذا الفن في حداثتي إلى أن بلغت السبعين، مولعا بالبحث عن المعاني، والاستقصاء فيها، وأخذها من مظانها، وإحكام الكتب التي تأتى لي سماعها من أهل الثبت والأمانة للأئمة المشهورين، وأهل العربية المعروفين.

وكنت امتحنت بالإسار سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا عامتهم من هوازن، واختلط بهم أصرام من تميم وأسد بالهبير نشأوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجعون إلى أعداد المياه، ويرعون النعم ويعيشون بألبانها، ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش؛ فبقيت في إسارهم دهرا طويلا، وكنا نتشتى الدهناء، ونتربع الصمان، ونتقيظ الستارين، واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضا؛ ألفاظا جمة ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب، وستراها في موضعها إذا أتت قراءتك عليها إن شاء الله».

ثالثا: كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي

ذكر محقق الكتاب؛ العلامة عبدالسلام هارون -رحمه الله- أن هذا الكتاب هو الذي خلد اسم مؤلفه، وأنه يعد أعلى موسوعة في علوم العربية وآدابها، شحنه مصنفه بالنصوص النادرة، وحفظ لنا به بقايا من كتب قد فقدت أو اندثرت، مع عناية حازمة بالنقد والتحقيق لكل ما يورده من ذلك. هذا إلى سرده كثيرا من أمثال العرب، وبيان معانيها ومضاربها وأصولها، وحشده للغات القبائل ولهجاتها، وحرصه على إيراد قصائد الأبيات التي تعرض لها، مع شرح الكثير منها شرحا محققا..

مقتطفات من مقدمة الكتاب:

قال رحمه الله: «هذا شرح شواهد الكافية لمحمد بن الحسن الشهير بالرضي الأستراباذي...، إلا أن أبياته التي استشهد بها وهي زهاء ألف بيت، كانت.. ظاهرة الإشكال، لغموض معناها... وقد انضم إليها التحريف، وبان عليها أثر التصحيف، وكنت ممن مرن في علم الأدب...، وجمع دواوينه، وعرف قوانينه، واجتمع عنده بفضل الله من الأسفار ما لم يجتمع عند أحد في هذه الأعصار؛ فشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد، وشرعت في شرحها...

ثم ذكر أن مقدمته تشتمل على أمور ثلاثة، هي:

أولا: الكلام الذي يصح الاستشهاد به في اللغة والنحو والصرف، وأنه نوعان: شعر وغيره، والشعراء قسمهم العلماء على طبقات أربع.

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون.

الطبقة الثانية: المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام.

الطبقة الثالثة: الإسلاميون.

الطبقة الرابعة: المولدون، ويقال لهم المحدثون.

ثانيا: ضروب وأجناس: فمنها ما يرجع إلى علم النحو...، ومنها ما يرجع إلى تفسير أبيات المعاني المشكلة...، ومنها ما يرجع إلى دفاتر أشعار العرب وهو قسمان دواوين ومجاميع...، ومنها ما يرجع إلى طبقات الشعراء وغيرهم...، ومنها ما يرجع إلى كتب اللغة...

ثالثا: ترجمة الشارح.

تدريس الدين الإسلامي فـ



يشكل النموذج البلجيكي في تدريس الدين الإسلامي، تجربة رائدة في القارة الأوروبية، وسياسة فريدة أتاحت وتتيح للتلاميذ المسلمين فرصة تعلم مبادئ دينهم، وذلك بجميع مراحل التعليم المدرسي في المؤسسات التعليمية العامة، وهذه التجربة التربوية البلجيكية الناجحة ليست وليدة الأمس القريب، بل إنها تمتد لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن، الأمر الذي يؤكد الأسبقية البلجيكية على المستوى الأوروبي في هذا المجال.

محمد بلهادي
باحث دراسات إسلامية

يلاحظ على البرامج الدراسية الإسلامية والتي تعدها المؤسسة المشرفة على المسلمين ببلجيكا، وهي «الهيئة التنفيذية لمسلمي بلجيكا» (l'Exécutif des Musulmans de Belgique EMB)، إنها عبارة عن إطار عام للعمل، ومجموعة من الخطوط العريضة تمنح للمدرس هامشا واسعا للاجتهاد. ومن الانتقادات الموجهة لهذه البرامج عدم مراعاتها لتنوع المستفيدين والمنحدرين من أصول ومجتمعات مختلفة، وكذلك عدم مراعاتها للفوارق الفردية بينهم في استيعاب المادة الإسلامية واكتسابها. (١)

ومحتوى البرنامج الدراسي مقدم بطريقة تنطلق من البسيط إلى المعقد مع الأخذ بعين الاعتبار سن ونضج المتعلمين، لذلك فموضوع واحد يمكن تكراره خلال عدة سنوات دراسية للتفصيل فيه بشكل تدريجي. (٢)

وإذا ما ألقينا نظرة على البرامج المعمول بها حاليا، نجد أن مادة الدين الإسلامي تتشكل في المرحلة الابتدائية بمستوياتها الست

ـــــي بلجيكا



من خمس مكونات رئيسة، هي: العقيدة، العبادات، القرآن الكريم، الآداب الإسلامية، السيرة النبوية.
أما في المرحلة الثانوية فبرنامج الدين الإسلامي ينقسم إلى قسمين كبيرين، لكل منهما خصائصه.
القسم الأول منه يشمل السلك الأول من المرحلة الثانوية (ثلاث سنوات)، حيث يلاحظ المحافظة على نفس التقسيم لمكونات الدرس الإسلامي المعمول به في المرحلة الابتدائية، بل حتى محاور الدروس في العقيدة والعبادات والآداب والسيرة النبوية تتشابه بشكل كبير مع الدروس في المرحلة السابقة، مما يدل على أنها تأتي كتثبيت ودعم لدروس المرحلة الابتدائية، مع إضافات وتوسع في المواضيع بما يتناسب مع متعلمي هذه المرحلة.

أما برنامج السلك الثاني من المرحلة الثانوية، فلم يعمد واضعوه إلى تقسيم دروس المادة بحسب المكونات الخمس، كما هو الشأن في المراحل السابقة، وإنما تمت برمجة الدروس بشكل متسلسل، وتدور مواضيعها حول ترسيخ مجموعة من المفاهيم والقيم النبيلة، وهي: العدالة- الحرية-السلام-الكرامة-المسؤولية-المساواة-التضامن-الانفتاح... (٣)

الأهداف العامة

المرسوم الحكومي للمجموعة الفرنسية بتاريخ ٢٤ يوليوز ١٩٩٧م، والذي يعرف بالمهمة الرئيسة للتعليم الأساسي والتعليم الثانوي، وكذا الأهداف المراد تحقيقها، ينص في الفقرة السادسة منه على ما يلي:

المهام الرئيسة للمدرسة:

- تنمية شخصية المتعلمين.
- جعل الشباب مؤهلين للانخراط في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- تكوين مواطنين مسؤولين، في مجتمع ديمقراطي، متضامن، متعدد، منفتح على الثقافات الأخرى.

من منطلق هذا النص التشريعي ونصوص أخرى مماثلة، فإن الدرس الديني الإسلامي يستهدف تعليما يجمع بين القراءة الصحيحة للنص الديني ومتطلبات العصر، مع الأخذ بعين الاعتبار الاحترام المتبادل في مجتمع متعدد الثقافات (٤). لأجل تكوين متعلم يعيش في سلام ووئام مع ذاته ومع الآخر ومع المحيط بشكل عام، وللمشاركة بفعالية في الحياة العامة، ولتحقيق الذات فكريا واجتماعيا وروحيا وأخلاقيا. (٥)

مدرسو الدين الإسلامي:

يلاحظ تزايد مهم لأعداد مدرسي الإسلام مع مرور السنوات، حيث انتقل عددهم من ٦٨ مدرسا خلال موسم (١٩٧٧/١٩٧٨م)، إلى ١٩٣ مدرسا خلال موسم (١٩٨١/١٩٨٢م) (٦)، إلى أن بلغ مجموع مدرسي الإسلام حاليا ببلجيكا ما يقارب الألف مدرس.
كما هو الشأن بالنسبة لمكانة الدين الإسلامي الذي أصبح ثانيا في بلجيكا، فإن عدد مدرسي الإسلام يأتي في الرتبة الثانية في ترتيب مدرسي الديانات في بلجيكا بعد مدرسي الكاثوليكية (٧). وكذلك نفقات الدولة على أجور موظفي الديانة الإسلامية في المرتبة الثانية بعد الكاثوليكية، حيث بلغت حوالى ٧٪ من مجموع رواتب موظفي الديانات الأخرى. (٨)
ويقوم هذا العدد المهم من مدرسي الإسلام إضافة إلى دورهم التعليمي التربوي في تلقين مبادئ الدين الإسلامي، بأدوار اجتماعية أخرى تتجاوز الإطار المدرسي، من خلال تواصلهم المستمر مع التلاميذ وأسرهم، لمحاولة سد الخصاص الحاصل في التواصل بين المتعلمين وآبائهم، إذ غالبا ما لايتقن الآباء الفرنسية أو الفلامنية، بمقابل معرفة الأطفال الضعيفة بلغة البلد الأصل، مما لا يسمح بمناقشة سوى الأمور البسيطة فيما بينهم، في حين تبقى كثير من الأسئلة معلقة في ذهن المراهق، والتي تجد الأجوبة المقنعة في كثير من الأحيان

لـدى مـدرس الإسـلام، الـذي يحاول تقريب الهوة بين الأجيال، والإجـابـة عـن استفسارات المتعلمين ومساعدتهم وتوجيههم. ويؤكد هذا الدور الهام لمدرسي الإسلام مثقفو بلجيكا كذلك، حيث يقول أحدهم:

«يعتبر عمل المئات من مدرسات ومدرسي الدين الإسلامي في النظام الرسمي الفرنكوفوني والفلاماني حدثا هاما لم يعط حقه من التقدير، في مقابل تركيز الاهتمام على المساجد والأئمة. وتمثل مجهودات السلطات العمومية البلجيكية في هذا الإطار، والتزام هؤلاء المدرسين حالة فريدة في أوروبا». (٩)

معطيات إحصائية عن عدد المستفيدين من تدريس الدين الإسلامي في التعليم الرسمي البلجيكي:

منذ بداية العمل بتدريس الدين الإسلامي في النظام التعليمي الرسمي، ما فتئ عدد التلاميذ المستفيدين يتزايد، فقد انتقلت التسجيلات في المراحل الابتدائية والثانوية بمجموع التراب البلجيكي من ٧٠٥٥ تلميذا خلال موسم ١٩٧٧/١٩٧٨م، إلى ٢٠,٦٦٢ تلميذا خلال موسم ١٩٨١/١٩٨٢م، وخلال نفس الفترة انتقلت المؤسسات المدرسية العمومية المحتضنة لتدريس الدين الإسلامي من ١٤٠ إلى ٤٤٥ مؤسسة تعليمية (١٠)

عشرين سنة بعد ذلك ارتفع عدد المسجلين في المجموعة الفرنسية لوحدها إلى ٣٤,٢٣٨ تلميذا في جميع المراحل، منهم حوالي ٢١,٠٠٠ تلميذا في منطقة بروكسيل فقط. وفي المجموعة الفلامانية في موسم ٢٠٠١/٢٠٠٢م كذلك، وصل مجموع التلاميذ إلى ٢٠,٠٤١ تلميذا، منهم ١٢,٠٤١ في التعليم الابتدائي، و٨,٤٤٩ في المرحلة الثانوية. (١١)

وخلال موسم ٢٠٠٥/٢٠٠٦م بلغ عدد التلاميذ المسجلين في دروس الدين الإسلامي بالمجموعة الفرنسية ٦٣,٧٤٧ تلميذا، منهم ١٩,٢٢٣ في السلك الابتدائي، و١٧,٥٢٤ في السلك الثانوي (١٢). وفي المجموعة الفلامانية وصل مجموع التلاميذ إلى ٢٦,٧٧٧تلميذا، ١٥,٠٥١ منهم في المرحلة الابتدائية، و١١,٧٢٦ في المرحلة الثانوية (١٣). أي مايفوق ٩٠,٠٠٠ تلميذا في مجموع التراب البلجيكي خلال هذه الفترة. ومن المؤكد أن أرقام المسجلين في دروس الدين الإسلامي حاليا قد فاق هذا العدد بكثير.

	موسم ١٩٧٧/١٩٧٨	موسم ١٩٨١/١٩٨٢	موسم ٢٠٠١/٢٠٠٢	موسم ٢٠٠٥/٢٠٠٦
عدد المسجلين في دروس الدين الإسلامي بالمجموعة الفرنسية	-	-	٣٤,٢٣٨	٦٣,٧٤٧
عدد المسجلين في دروس الدين الإسلامي بالمجموعة الفلامنية	-	-	٢٠,٠٤١	٢٦,٧٧٧
مجموع المسجلين في دروس الدين الإسلامي ببلجيكا	٧,٠٥٥	٢٠,٦٦٢	٥٤,٢٧٩	٩٠,٥٢٤

وبحسب دراسة مرجعية نشرت السنة الماضية لمركز البحث والمعلومات السوسيوسياسية (le Centre de recherche et d'informationsociopolitique-CRISP) فإن الإقبال على تعلم الإسلام مرتفع جدا في منطقة بروكسيل خاصة، حيث يأتي المسجلون في حصة الدين الإسلامي في الرتبة الأولى بنسبة ٤٣٪ من المتعلمين في المرحلة الابتدائية، و٤١,٤٪ من متعلمي المرحلة الثانوية، وبفارق كبير عن الدين الكاثوليكي (الدين الأول في البلاد) والذي لا تتعدى نسبة التلاميذ المسجلين لتلقي

دروسه ٢٣,٣٪ في الابتدائي، و١٥,٢٪ في الثانوي. (١٤)

ويمكن تفسير هذا الإقبال الكبير على الدرس الإسلامي في المؤسسات التعليمية البلجيكية إضافة إلى ارتفاع عدد المسلمين، إلى تسجيل عدد مهم من التلاميذ البلجيكيين المسيحيين في دروس الدين الإسلامي، الأمر الذي استرعى انتباه المسؤولين في بعض الثانويات البلجيكية، وهذه الظاهرة بدأت تنمو بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بنيويورك، ثم زاد اطرادها ونموها، على إثر الهجمات الدانمركية على شخصية رسولنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. (١٥)

خاتمة:

التطور الهائل للشأن الثقافي والاجتماعي للمسلمين في بلجيكا وفي أوروبا عموما، والمبني أساسا على تحول الوجود الكمي إلى تأثير كيفي بصورة متنامية ومثيرة، يستدعي تصور المشهد أولا، ثم العمل على تطويره،لاستشراف واقع تعليمي إسلامي ملائم ومتطور، يأخذ بعين الاعتبار العناية بالتكوين الروحي والخلقي، إلى جانب التكوين العلمي والمعرفي.

الأمر الذي يستلزم من قادة العمل الإسلامي في بلجيكا والقائمين على شؤون التعليم الإسلامي بمختلف أنظمته، الوعي بخطورة هذا التحدي، والتفاعل معه من موقع الثقة بالنفس، والإدراك العميق بأهمية التعامل مع المتغيرات والتحديات بوعي وانضباط، من أجل توجيه أبناء المسلمين إلى ما يصونهم ويحمي هويتهم الإسلامية. من دون أن يعني ذلك التقوقع والانغلاق على الذات ونفي التعامل مع الآخر، بل ينبغي إعداد المتعلمين للعيش بسلام مع النفس ومع الآخر ومع المحيط، ولانفتاحهم على مستقبل مشترك ومشرق.

هوامش

1-État de la formation des enseignants de religion islamique dans l'enseignement officiel en Communauté française", Emilie Brébant, Centre interdisciplinaire d'étude des Religions et de la Laïcité (CIERL), Université libre de Bruxelles, mars 2006, p.38.
2-Programme d'enseignement de la religion islamique; Niveau primaire; Conseil Supérieur des Musulmans de Belgique; Bruxelles; Septembre 1994; p.1.
3-Référentiel de compétences du cours de religion Islamique; Fédération Wallonie-Bruxelles; Mai 2013, p.10.
4-Référentiel de compétences du cours de religion Islamique; Fédération Wallonie-Bruxelles; Mai 2013, p.8.
5-Les cours de morale et de religion; Ministère de la Communauté Française; Administration générale de l'Enseignement et de la Recherche scientifique; Bruxelles; p.13.
6-L'Islam transplanté: vie et organisation des minorités musulmanes de Belgique, DASSETTO F., et BASTENIER A., Ed. EPO, Anvers, 1984, pp. 175177-.
7-État de la formation des enseignants de religion islamique dans l'enseignement officiel en Communauté française", Emilie Brébant, Centre interdisciplinaire d'étude des Religions et de la Laïcité (CIERL), Université libre de Bruxelles, mars 2006, p.18.
8-Le financement public des cultes et de la laïcité", J.-F. Husson, Politique, revue de débats, 52, décembre 2007, p. 14.
9-Islam belge au-delà de sa quête d'une instance morale et représentative, F. Dassetto, CismocPapers on line, mars 2012, p.2.
10-L'Islam transplanté: vie et organisation des minorités musulmanes de Belgique, DASSETTO F., et BASTENIER A., Ed. EPO, Anvers, 1984, pp. 175177-.
11-Mosquées, imams et professeurs de religion islamique en Belgique: État de la question et enjeux; Mohamed El Battiui, Meryem Kanmaz; la Fondation Roi Baudouin; Bruxelles; Septembre 2004; pp.3032-.
12-État de la formation des enseignants de religion islamique dans l'enseignement officiel en Communauté française", Emilie Brébant, Centre interdisciplinaire d'étude des Religions et de la Laïcité (CIERL), Université libre de Bruxelles, mars 2006, p.19.
13-État de la formation des enseignants de religion islamique dans l'enseignement officiel en Communauté française", Emilie Brébant, Centre interdisciplinaire d'étude des Religions et de la Laïcité (CIERL), Université libre de Bruxelles, mars 2006, p.43.
14-Les vrais chiffres des cultes en Belgique"; Christian Carpentier; journal La Dernière Heure; (172012/01/). http://www.dhnet.be/infos/belgique/article/382276/les-vrais-chiffres-des-cultes-en-belgique.html
١٥- مدونة الدكتور عبد الله الشارف، «مهاجر مغربي في بلجيكا»، نشر بتاريخ: ٢٩ ماي ٢٠١٣، (www.charef.net).

نساء حول الرسول(ﷺ)

خديجة(رضي اللّه عنها)

نجلاء محفوظ
نائب مدير تحرير الأهرام

ديّن هائل بأعناقنا جميعا منذ أنار الله قلوب عباده بالإسلام وحتى يبعث الخلق يوم القيامة ..
ديّن نعجز عن أدائه..
نخجل من تقصيرنا إزاءه..
وننساه كثيرا لغفلتنا..
كلنا مدينون للسيدة الطاهرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقد كانت نعم السكن لسيد الخلق ﷺ ...
آزرته بروحها وقلبها ومالها، وصدقته وخففت من همومه وناصرته بمواجهة كيد المشركين.

حزم وعفة

ولدت السيدة خديجة ببيت مجد وشرف ورياسة؛ فنشأت على الأخلاق الحميدة واتصفت بالحزم والعقل والعفة، فدعاها قومها في الجاهلية (الطاهرة).
فقد كانت من أعرق قريش نسبا وأعلاهم حسبا وممن كمل من النساء.
كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي القرشية الأسدية ، وأمها فاطمة بنت زائدة قرشية من بني عامر بن لؤي ..
ورثت السيدة خديجة عن أبويها شرف النفس وحسن السيرة وجمال الخلقة والخلق.
تزوجها أبو هالة النباش من زرارة التميمي؛ فولدت له ولدين هند ثم هالة.
وهذان الاسمان من أسماء الإناث، وقيل سبب ذلك التدليل.
لم يطل زواج السيدة خديجة من النباش فقد توفي تاركا لها ولولديها منه ثروته الطائلة.
ثم تزوجت السيدة خديجة عتيق بن عائذ المخزومي، فولدت له بنتا يقال لها: هند أيضا.

مع الرسول ﷺ

كانت السيدة خديجة امرأة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتدفع لهم المال مضاربة.
علمت عن رسول الله ﷺ صدقه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه.
أرسلت إلى رسول الله ﷺ وعرضت عليه الخروج فى مال لها للشام تاجرا على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة؛ فقبل ذلك وذهب إلى الشام.
كان الرسول ﷺ حينئذ شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب النشأة، أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي تذكر مكة قصة افتدائه من الذبح وفاء لنذر أبيه. وأمه السيدة آمنة بنت وهب أفضل امرأة فى قريش نسبا ومكانة.
تميز الرسول ﷺ بحسن الخلق وفصاحة اللسان وقوة الاحتمال والشعور بالمسئولية، لم يفسده الفراغ والمال ولم تصبه الرفاهية بآفات النعومة واللين.

إعجاب وكبرياء

كانت السيدة خديجة مطمحا لسادة قريش لعراقة نسبها ولعقلها وثرائها، لكنها أُعجبت بنبل الرسول ﷺ ، فلم يبد كغيره من التجار تطلعا لمالها وانبهارا بجمالها وتعامل معها بنبل وكبرياء.
وجدت فيه ما لم تجده فى أي رجل ممن تزاحموا على بابها يتمنون الزواج منها، تدبرت السيدة خديجة جديا أحاديث

غلامها ميسرة الذي رافق رسولنا الحبيب ﷺ رحلته إلى الشام، حيث أفاض بذكر صفات الرسول ﷺ، من كرم الأخلاق وعن طهارته وصدقه وعطفه على كل من كان معه.

وكانت قريش تتحدث عن صدقه وأمانته وترفعه عن الدنايا حتى أطلقوا عليه (الأمين).

وجدت السيدة خديجة رضي الله عنها ضالتها المنشودة في الرسول ﷺ فأخبرت صديقتها نفيسة؛ فذهبت نفيسة إلى رسول الله ﷺ.

الزواج

تحكي نفيسة مقابلتها للرسول ﷺ وتقول : أرسلتني خديجة خفية إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام ، فقلت له : يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به ، قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب؟ قال : فمن هي؟ قلت : خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قلت: علي وأنا أفعل، فذهبت فأخبرتها.

وتم الزواج، وقد أصدق رسول الله ﷺ السيدة خديجة عشرية بكرة (أي عشرين جملا)، وكانت أول امرأة تزوجها الرسول ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى توفيت رضي الله عنها ..

أبناء وبنات

أنجبت السيدة خديجة أبناء وبنات الرسول ﷺ كلهم ، إلا إبراهيم، فولدت له القاسم وعبد الله وكان يكنى بالطيب والطاهر، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن عنهن.

توفي القاسم وعبد الله في الجاهلية، وأدركت بناته الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ.

كان رسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين عندما تزوج السيدة خديجة وكانت قد قاربت الأربعين.

استمر زواجها حتى توفيت السيدة خديجة عن خمسة وستين عاما، كانت خلالها عنوان الكرامة والاتزان.

الوحي والتصديق

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه – وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الملك جبريل عليه السلام وهو في غار حراء ، فقال: «اقرأ». قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إلى آخر السورة، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال : «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: أي خديجة: «أي خديجة؟ وأخبرها الخبر: ثم قال: لقد خشيت على نفسي» .. قالت خديجة : كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل – وهو ابن عم خديجة – فقالت له خديجة: أي ابن عم: اسمع ابن أخيك: فقال له ورقة : يا ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة له: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ : أو مخرجي هم؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي.

أول من آمن

كان موقف السيدة خديجة من فضائلها التي تحسب لها ما بقيت حياة، ودليلا – فى الوقت نفسه – على فضائل الرسول الكريم ﷺ، فقد عاشرته هذه السيدة الحصيفة الشريفة الأصل والنشأة خمسة عشر عاما قبل أن يأتيه الوحي.

ومن خلال هذه الأعوام الطويلة تأكدت من نقاء وشرف جوهر هذا الزوج الكريم، وعرفت من طبائعه وخصاله ما قد يجهله غيرها من الناس، لذا كانت أول من آمن به وأكثر من سانده بالدعم الروحي والمادي، فرضي الله عنها وأرضاها.

أثر أفلام الكرتون في تربية الصغار

جميل حسين الأحمد
متخصص في شئون الأسرة

تعود أفلام الكرتون إلى العقد الثالث من القرن العشرين تقريبا، عندما بدأت شركات قديمة ترسم بطريقة أولية ومجهدة، وأخذت تنشر وتروج شخصيات معينة عبر أحداث درامية كشخصية (باباي) التي يزيد عمرها على سبعين سنة، وشخصية (توم وجيري) التي ولدت عام ١٩٤٦م، وعمرها الآن أكثر من ستين سنة، ولم يكن الكرتون للصغار فقط، بل كان للصغار والكبار معا، وما زال كذلك إلى الآن في كثير من الدول، أما في ثقافتنا فأفلام الكرتون للأطفال وليست للكبار.

وهي أفلام تعتمد على الصورة المرسومة سواء كان الرسم يدويا كما كان من قبل، أو بالحاسوب وتتحول من الصورة الجامدة إلى متحركة عبر آلية خاصة تسمح بأن يمر أمام العين في الثانية الواحدة من ١٦إلى ٢٤ صورة، فساعتئذ تبدو الرسوم متحركة، فنرى أن اليد ارتفعت مثلا أو سار الشخص...

هذه الرسوم الكرتونية مكنتهم من تجاوز آفاق كثيرة لا يسمح بها الواقع، فالشخص لا يستطيع أن يطير، ولا تستطيع التفاحة أن تتكلم، لكن في أفلام الكرتون تستطيع التفاحة أن تتكلم، فكان الكرتون فضاء واسعا للانتقال بخيال الطفل وإخصابه، كما كان مجالا واسعا جدا لتجسيد القضايا النظرية للطفل، لأن تفكير الطفل مادي. فمثلا إذا حدثت طفلا صغيرا عن الله وعن صفاته وقدرته ترى هذا الطفل يسألك هل الله مثلك له لحية؟ تعالى الله (جل جلاله) عن ذلك علوا كبيرا.

فلضعف التفكير التجريدي لدى الطفل يبدأ فيجسد حتى الله جل جلاله، ويمكن القول بأن الفكر المادي فكر بدائي أولي من أولويات الثقافة البشرية، فالكرتون هو البريد الذي يستطيع أن يقرب للطفل هذه الأشياء البعيدة، فالمعاني المجردة التي لا يمكن أن يتصورها الطفل يمكن أن نصورها له عبر الكرتون، فرسوم الكرتون قد أعطتنا فسحة أكثر سعة من التصوير السينمائي، وما جاء بعده من أجيال آلات التصوير.

إن مستقبل الأمة مرهون بما تزرعه في حاضرها، ولن تحصد أمة مجدا عظيما إذا ضيعت غراسها، وغراس كل أمة هم أطفالها الذين تتخذهم عدة لمستقبلها.

وفي الآونة الأخيرة أصبح الفضاء مفتوحا للبشر جميعا، وانتشرت وسائل الإعلام، وصار الأطفال هم أهم زبائنها، وهذا الأمر يحتم على المربين والمهتمين بشأن الطفل ألا يتركوا الأمر على غاربه، إذ ينبغي أن تدرس برامج الأطفال لينظر في طبيعة ما يفد إلينا من إنتاج الآخرين، ولا سيما أن كثيرا من النتائج السيئة لهذه الأعمال قد ظهرت واشتكى الأهالي منها بصوت مرتفع.

ومن يعايش العمل التربوي أو الدعوي يدرك مدى خطورة الأمر، فقد تعددت أوجه الخطر بين تربوي وعقائدي واجتماعي، وأسوأ ما في ذلك كله العدوان على الهوية، فإذا ما أصيب النشء في هويته أصبحت الأمة مستعدة للتبعية وصار مستقبلها ملك أعدائها.

ولا يخفى أن أفلام الكرتون هي أكثر الأعمال الفنية شعبية بين الأطفال، وهي في الوقت نفسه أكثر أفلام الأطفال جدلا لما كثر حولها من نقد واعتراض بين العديد من المربين.
وتكمن أهمية الحديث عن أفلام الكرتون في كونه يعالج قضية من قضايا التربية المهمة، تشغل بال المربين والآباء والأمهات، ولا سيما في هذا الوقت الذي تمر فيه أمتنا في مخاض استثنائي عسير يستلزم من أبنائها ذوي الإخلاص والحس الوطني أن يتنبهوا إلى تربية الأجيال وتنشئتها التنشئة الصالحة مع ازدياد الفضائيات الخاصة بالأطفال، على نحو يصعب على المربين أن يتابعوه لسرعة انتشاره ناهيك عن تغلغل شخصيات أفلام الكرتون في معظم مرافق حياة الأطفال بسبب تحول أكثرها إلى ماركة تجارية، بدءا من أغذية الطفل الصحية، فأطعمته، فألبسته فأحذيته، فألعابه، وهكذا دخلت شخصيات أفلام الكرتون حياة الطفل من كل باب واسع، وحاصرت اهتماماته، وصادرت الكثير من خياراته، والمشكلة في هذا كله أنها لا تدخل بمجرد وصفها رسوما ملونة، بل بما تحتويه من قيم ومفاهيم وأدوار درامية اختزنتها المسلسلات الكرتونية، ولا يخفى ما في هذه الأعمال الفنية من عناصر التغريب، لأنها صممت لغير بيئتنا ولغير أبنائنا.
عندما نتناول ما يتعلق بالطفل فنحن نتكلم عن التربية، فنجدها مرتبطة بالتجمع البشري، ولما كان وجود الأسرة من أب وأم وزوجة وأولاد أمرا فطريا اصطبغت التربية بالحاجة الفطرية حتى صار وظيفة فطرية يحس بها البشر بفطرتهم من خلال مواقعهم المختلفة، ومن ثم تنوعت المواقف التربوية، فالإنسان بوصفه والدا أو والدة له نمطه النفسي الخاص به، وعندما يكون الإنسان أعزبا يختلف نمطه النفسي، وعندما ينتقل إلى مرحلة الزواج يدخل في نمط جديد وحاجات نفسية جديدة.
وهذا بمجموعه أغنى حقول التربية فصار لكل مرحلة خصائصها وحاجاتها.
وقد هيأ الله (جل جلاله) المخلوق البشري للقيام بوظيفة التربية مربيا كان أو متلقيا، فهو معد ليقوم بها ومعد ليستقبلها، فالطفل مهيأ ليستقبل من المربي معلما ومن المربي كبيرا، كما أنه مستعد للتلقي عن المربي المعاصر الذي دخل كل بيت؛ ألا وهو وسائل الإعلام.
فطبيعة الإنسان أن لديه القابلية ليكون مرسلا أو مستقبلا في مجال التربية حسب موقعه، وهكذا تكون التربية مسألة فطرية لدى البشر جميعا، تتجاوز حدود العناية بالجسد إلى إصلاح نفسه، ثم تنتقل إلى تأهيله تأهيلا دقيقا لينخرط في الأسرة الاجتماعية الأوسع، فعملية التربية تكتسب مكانتها من هذه الزاوية، وتزداد أهمية حين نتذكر أن هذا المخلوق تحدد مستقبله المؤثرات الخارجية، بدءا من الأسرة حتى بقية مؤسسات التربية، فنحن إما أن نربي مواطنا صالحا، أو أن نربي مجرما، ولا شك في أن كل صالح أو مجرم بدأ في أسرة ثم في مؤسسة التربوية(المدرسة في الغالب)، أما في المجتمع المسلم فيضاف إليها المسجد، فهذه المؤسسات والمحاضن التربوية التي تنتشر في المجتمع تعنى بصناعة الإنسان وتحويله من حال إلى حال، وعلى رأس ذلك تعزيز توجهه إلى الخير، فقد ولد الإنسان مهيأ لاستقبال الخير، وزوده الله عز وجل بمجسات حساسة للخير والفضيلة والصواب، فهو يميل فطرة إليها، وهذا معنى قول النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ، فلدى الإنسان استعدادات فطرية للتربية الحسنة، وعلى الآباء والمربين استثمارها في تطوير حال الإنسان وإحداث تغيرات إيجابية في سلوكه، والعناية بتربيته ليكون قائدا مهمّا مهما كان عمره. وما من عظيم إلا مر على الأسرة ومر على المؤسسة التربوية أيا كانت، وما أظن أن أحدا يتصور أننا نعني بالمؤسسة البناء والصرح الذي تسكنه المؤسسة، بل الوظيفة التي يؤديها، فالنبي ﷺ لم يفتح مدارس ولا جامعات ولكن ربى أصحابه في المسجد، وكان المسجد من حيث بنيانه في غاية التواضع، فقد كانت أرضه من حصباء وقبل ذلك كانت ترابا، وكان سقفه من جريد النخل فأمطرت فأوحل المسجد فجاء بعض الصحابة وجمع في ثوبه بعض الحصى ففرشه بين يديه وصلى فوقه، وكل واحد فعل ذلك فتحول المسجد إلى منطقة محصوبة.
هذه المنطقة المتواضعة والتي فرشها حصباء وسقفها من جريد النخل وأعمدتها من جذوع النخل خرّجت هؤلاء الفاتحين الذين انطلقوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، ونشروا الفضيلة والخير والمعرفة للبشرية؛ فأحيوا أمتهم من العدم، كما قال صاحب البردة:

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له
وأنت أحييت أجيالا من العدم

المراجع:
١- البخاري: كتاب الجنائز ما قيل في أولاد المشركين رقم ١٣١٩.
٢- د.عماد الدين الرشيد: أثر أفلام الكرتون في تربية الطفل،نحو القمة للطباعة- سوريا - حمص ٢٠٠٧.
٣- د.أحمد نتوف: أطفالنا والتخطيط لإنتاج برامج تنموية للأطفال ، نحو القمة للطباعة سوريا - حمص٢٠٠٧.

أفعالنا.. أكبادنا تمشي على الأرض

محمد الغامدي
باحث تربوي





لا تغضبوه – اتركوه يفعل ما يشاء – هو لم يزل صغيرا وعقله صغير- غدا يكبر وتتحسن أفعاله، كلمات كنت أسمعها تتردد، وكلماتهم أوحت لي أن أكون لا مباليا ناحية كل الأشياء حولي، منذ الطفولة أرمي بألعابي بعد فترة وجيزة من شرائها وأتذمر فيعاودون شراء المزيد حتى دخلت المدرسة، وبعدها تخرجت بصعوبة من الثانوية وكبرت وتزوجت ولازلت أحمل تذمري من كل شيء بيتي وعملي وسريري وحتى من مخدتي ومن زوجتي -فلا يعجبني معها العجب- ومن أولادي، حتى أصبحت لا أتحمل أصواتهم العالية، فعندما أكون موجودا فالهدوء التام أو – ولن أخبركم ماذا بعد أو – خوفا من حقوق الإنسان ومن أكلي حتى اضطررت للدوران يوميا على جميع المطاعم العالمية صينية وهندية ومغربية وبنغالية وغيرها، وفي كل مرة أتخيل أني سأجد جناح الصرصار في الأكل – رغم أنه لم يحدث بعد – ومن ترفيهي، فكثيرا ما يزعجني شيء ما خلال رحلتنا فأعود بهم سريعا رغم تذمرهم، ولكن تذمري حجمه أكبر وتقريبا كل شيء، حتى سيارتي أظن أني أريد أن يصنعوا لي سيارة فريدة ثم يعلن بعدها إقفال المصنع للأبد، ومتذمرا من الآخرين فلا تعجبني أفعال الآخرين، وكنت دائما ناقدا سلبيا أبحث عن أخطاء الناس وزلاتهم وأسرارهم، ولن أتردد في كشفها إذا دعت الضرورة، وقد أكشفه حتى بدون ضرورة لرؤية ردة الفعل، أريد أن أرى الحياة من منظار الدراما، لأني أحببت الدراما ومشاهدة الأحداث، أخترع الحكايات وأحدد أبطالها ممن أعرفهم ليتسنى لي متابعة المسلسل إلى الآخر، ولأتمكن من بدء قصة جديدة أبطالها أناس جدد، فأنا أحب تكديس الأصدقاء لاستغلالهم وقت الضرورة ولا أحب التأخير أبدا، دائما مستعجل في أكلي في شربي في قيادتي حتى في نومي، أحب أن يأتي مستعجلا لأن فترة ما قبل النوم كانت من أصعب ما أواجه في حياتي، كل يوم كنت أخاف أن أموت حتى مع الناس أستعجلهم دائما فيتذمرون فأتذمر أكثر وأشتكي أكثر لكل من حولي عن ما حولي، وأظن أنه لم يبق لدي أي أسرار، لقد قلت كل شيء أعرفه وحتى ما لا أعرفه أقوله مرات بصراحة ومرات بوقاحة، والوقاحة أتت من تعودي على رفع صوتي لضرورة أو لغير ضرورة منذ الطفولة حتى أصبح صوت الإسعاف قريبا من نغمة صوتي، وخصوصا في البيت، وقد أحرجني صوتي كثيرا ونصحوني كثيرا ولكني لم أستمع لصوت عقلي كثيرا حتى اكتأب عقلي كثيرا وحزنت نفسي كثيرا وتعبت كثيرا، حتى اضطررت للدواء كثيرا والنوم على السرير الأبيض صباح مساء، وأصبحت أكره كل من يتعامل معي، فالجميع يقدم النصائح والإرشادات وكلما نصحوني عدت للتذمر هل أنا سيء إلى هذا الحد؟!! أنا مسلم ابن مسلم وأصلي وأزكي وأصوم رمضان وحججت والحمد لله، ومع هذا الجميع يتهمني، إنهم يتهمونني في عقلي وأنا لا أشكو من أي مرض والحمد لله، صحتي جيدة، يتهمونني أنني كنت السبب في كل شيء، حتى في مرضي أنا السبب، حتى وصلوا لأفعالي، وأفعالي أقوم بها من خلال أعضائي كَيَدي ورجلاي وتحريك جسمي وعيني، إن الذي حصل لي هو اكتئاب حاد، أي إنه حصل في عقلي، وعقلي ليس له عضلات حتى تكون لعقلي أفعال – لماذا لا تفهمونني – هذا الاتهام الباطل ما دخل عقلي بأفعالي؟ – ولن أستبعد أبدا أن يأتي أحد آخر لينصحني أن أقوالي هي أفعالي – ولم يدم الوقت طويلا حتى وجدت من يقول أن أقوالنا أفعال – وهنا ظهرت لدي موهبة التنبؤ، ألم أقل لكم إني سأقابل هذه النصيحة

– فقلت له أثبت لي كلامك أن كل ما أقوله يصبح أفعالا؟ فقال: أعرب قال. فقلت: قال فعل ماض معتل العين مبني على الفتح، قال: هذا يكفي، هذا إذا قال فعل، ثم قال: أعرب الفعل الثاني شتم. فقلت: مثل الأول فعل ماض، قال: هذا يكفي، الفعل الثالث اغتاب، قلت: فعل ماض، قال: هذا يكفي، إذا الكلمات الثلاث كلها أفعال فقلت: نعم، فقال: لاحظ معي هذه الأفعال شتم اغتاب تكلم نم كذب صدق تكلم اتهم اشتكى وغيرها الكثير هي ما نسميه بأفعال اللسان. فقلت مستغربا: وهل للسان أفعال؟!! قال: نعم، كل كلمة تخرج من اللسان نحاسب عنها، أي إن ما يخرج من اللسان هو فعل أو قصد فعل، أي إنك قلت كذا لتقصد كذا فلكل فعل نية والنية هي القصد، وإن الأقوال تتطابق مع الأفعال في حالة واحدة فقط هي أن تتبع سيد ولد آدم عندما قال ﷺ: (قل خيرا أو اصمت)، وقال عليه الصلاة والسلام: (وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم)، وقالت العرب: لسانك حصانك إن صنته صانك؛ فاستحييت من نفسي أني لم أكن أعرف أن للسان أفعالا، فقلت على استحياء: هل تعرف شيئا عن الأفعال الأخرى؟ فقال: اسأل ما بدا لك. فقلت: هل يوجد علاقة بين الأفعال والعقل – رغم أني توقعت أن يقول لا – لقد صدمني في الأعماق عندما قال: نعم، فقلت مستغربا: هل أنت متأكد؟! فقال: لا يوجد عقل بدون أفعال ولا توجد أفعال بدون عقل. فقلت له: لقد كررت ما قلت مرتين ولم أفهم، اشرح لو سمحت. فقال: سأسألك هل ستتحرك يدك بدون أن تستخدم عقلك، وإذا أردت ضرب أخيك الصغير لأنه أخطأ سيقول لك عقلك لا تفعل فهو لازال صغيرا، ويسمح له بالغلط في أفعاله فعقله لازال صغيرا، فقلت له الأمر غير واضح كثيرا هل يمكن أن تكمل؟ قال سأسألك مرة أخرى، هل تعرف أين تحدث هذه الأفعال؟ فكر لاحظ أدرك ركز تذكر فقلت على الفور تحدث في العقل، وقال إذا للعقل أفعال، وأنا سأسألك الآن نفس السؤال، هل هناك علاقة بين العقل والأفعال؟ فقلت: نعم. فقال: قد سمعت الإجابة فقلت هل لي بسؤال آخر؟ فقال: تفضل. فقلت: هل تشترك أفعال العقل مع أفعال اللسان مع أفعال الجسد؟ فقال: نعم، وتؤثر في بعضها أيضا، وتتعاون مع بعضها في فعل الأفعال. فقلت: زدني أكثر. فقال: هل تدخل الجنة بعقلك فقط؟ أو بعقلك ولسانك وجسدك وكل أعضائك؟ أي: أن أعضاء الجسد كلها تتشارك في فعل الفعل وكلها تتشارك في ثواب الفعل أو عقوبته؟ فقلت: هل للنفس أفعال خاصة بها؟ فقال: نعم. فقلت: أعطني عددا لا بأس به منها. فقال: نوى اعتقد أضمر عزم أسر اكتأب وغيرها. فقلت: شكرا، لكن لدي سؤال أخير هل للقلب أفعال؟ فقال: نعم، مثل دق وأحس وخاف وغضب وآمن وأحب وكره الخ. فقلت: هل بقي شيء لتقوله؟ فقال: لدي سؤال يتبعه سؤال. فقلت: تفضل. فقال: هل عرفت الآن أهمية الأفعال؟ فقلت: نعم. فقال: هل فكرت يوما أن تتعلم بالأفعال؟ فقلت: هاه أصلا لم أفكر بمثل هذه الفكرة، ولكني مستعد للتعلم من خلال الأفعال مادامت تقربنا إلى الله تبارك وتعالى. فقال: هل أقول شيئا؟ فقلت: تفضل. فقال: هل تريد نصيحتي؟ فقلت: نعم. فقال: لابد أن تضع في البداية نية أن تتعلم من خلال الأفعال لتقربك أفعالك إلى الله، وأن يكون في أفعالك نفع للناس، وبعدها لا تسأل متى وكيف أبدأ، ولكن المهم أن تبدأ من الآن بأي فعل، واسأل نفسك: ماذا أعرف عن هذا الفعل؟ هل أعرف معناه؟ هل أمتلك أي مهارة في هذا الفعل؟ هل هو فعل طيب؟ هل هو فعل غريب؟ هل هو فعل مميت؟ هل هو فعل مكروه؟ هل هو فعل حلال أم حرام؟ هل هو واجب أو هو مباح؟ هل هو فعل يقبله العرف؟ هل هو فعل يدخل الجنة أو النار؟ هل له آثار على غيره؟ هل له آداب؟ إلخ من الأسئلة، فعندما تتعلم بالأفعال فأنت تفتح الباب واسعا أمام الخيال وستجد عشرات الأسئلة التي تستطيع تكوينها عن فعل واحد، وهكذا تابع الأسئلة على بقية الأفعال وستتعلم وسيفتح الله عليك مادمت نويت، فأنت بحول الله ستفعل وستبحث وستسترشد وستقرأ وستتعرف على أفعال كثيرة، وستؤديها بطريقة صحيحة ولكنك لن تتعلمها دفعة واحدة بل ستتعلمها بالتدرج، فإياك والاستعجال في أفعالك كلها (فالعلم يحصل بالتدرج)، وابدأ بأفعال المعارف، ثم أفعال المهارات، ثم أفعال الأهداف، وسأضع لك أمثلة من هذه الأفعال لتتعرف عليها.

أفعال المعارف:

ينصف- يوضح- يقارن- يحدد- يصف- يفرق- يميز- يقيم- يشرح- يعبر- يسمي- ينظم- يدرج- يسجل- يكتب- يعرف - يذكر - يحدد - يعدد - يُعرف - يفسر - يرتب - يعلل - يحول - يستنتج - يعطي أمثلة - يربط -

ينتج - يعد - يجرب - يحلل - يختار - يصنف - يفكك - يصمم - يعيد بناء - يخطط - ينظم - يوازن - ينقد - يقيم - يبدي رأيه - يبرهن - يثبت.

أفعال المهارات:

يجمع-يعتمد-يوصل-يبني-يتحكم-يصمم- يناقش- يرسم- ينفذ- يصلح- يركب- يصيغ- يقيس- يعالج (بيانات)- يظهر- يطبق يكشف - يختار - يعزل - يُظهر ، يخطو - يشرح - يطبق - يربط - ينظم - يثبت - ينسق - يبدل - يكيف - ينوع - يضبط - ينقح - ينتج.

أفعال الاتجاهات:

ينقل- يوافق- يسمح- يختار- يتعاون- يتقد- يدافع- يشجع- يساعد- يوصي- يشارك- ينصح - يبدي اهتماما - يبادر - يعمل - ينضم - يدعو - يتمسك - ينظم - يغير - يدعم - يلتزم - يرتب - يعدل - يقترح - يؤدي - يستخدم - يساهم.

ما يستفاد من القصة

كم عدد الأفعال في القصة؟ وهل تعرف معنى كل فعل بالتحديد؟ وهل تعرف معجم الأفعال؟ وهل تعرف معجم الكلمات؟ أظن أن أكثرنا لم يسمع به من قبل، ولكن في هذا المعجم الكثير من معاني الأفعال نحتاج أن نعرف أنفسنا وأبناءنا عليها لنتعرف على لغتنا العربية ولنفهم قرآننا، فقد قال عنه ربنا تبارك وتعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٥)

عندما تربي أولادك بطريقة سلبية وباللامبالاة فأفعال أبنائك لن تتطور وستبقى أفعالهم في مرحلة الطفولة، وستحصد شخصية غير سوية ومتذمرة تستمر في الزمن، وستكون صفته الغالبة هي التذمر، وتستطيع معرفة المتذمر بسهولة، فعندما يقول شخص: لا أعرف ماذا أفعل، أو أنا طفشان، أو الحياة صعب التغلب عليها، أو الظروف هي من صنعت بي ذلك ونحوها، أو أفعاله تدل عليه ككثرة النوم وكثرة مشاهدة التلفزيون، أو كثرة لعبه وكثرة صراخه وكثرة شكواه وكثرة اتهاماته، وهكذا لديه الكثير مما هو سيء، وذلك لأن الأفعال تتراكم مع الزمن، والتذمر أولى مراحل التفكير السلبي، وسيتبعه أفعال أخرى كنقد وحسد وكذب واتهام واحتقار واغتياب ونميمة ورفع صوت واستعجال وغضب واشكاية واكتئاب... وأكمل من عندك ما تعرفه من أفعال مصاحبة، فكل فعل سيء يصاحبه أفعال سيئة وآثار أفعال سيئة كثيرة، وكل فعل طيب يصاحبه أفعال وآثار أفعال طيبة، فأنت مسئول عن أفعالك وعن تربية أبنائك بالأفعال، وإلا فإن أفعالك ستنعكس على أفعالهم.

فقط عندما تفعل الأفعال بطريقة إسلامية صحيحة تتطابق الأقوال مع الأفعال.

إن كنت لا تعلم فليس عيبا أن تسأل، قال تبارك وتعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأنبياء ٧).

انتبه من هذه الأفعال سيجر بعضها بعضا كدائرة، فأي فعل منها تفعله ستصاحبه هذه الأفعال جميعها، التذمر والنقد والاستعجال والجدية الزائدة والشكوى والصوت العالي والغضب وستجرك للسيئات.

القصة خيالية وفيها بعض الواقع.

ادع لنا ولنفسك بالخير وبالصلاح في الأفعال.



متلازمة العش الخالي

بشرى شاكر
باحثة مغربية

يمر الإنسان بمراحل عمرية كثيرة، وهي مرحلة تطور طبيعية، وقد جاء ذكر هذه المراحل في محكم التنزيل في سورة الحج ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

ولكل مرحلة عمرية خصائصها ومميزاتها، ولمرحلة الكبر أو الكهولة متغيرات اجتماعية وأسرية قد تؤثر على الحالة النفسية للأشخاص بهذا العمر، فالأبناء يكبرون ويرغبون بتكوين أسرهم المستقلة، وفيهم من ينتقل للدراسة أو العمل في مكان آخر، فيبقى الأبوان وحدهما وأحيانا يتوفى أحدهما ويبقى الآخر وحيدا، وقد يعيش الآباء وخاصة الأمهات حالة ما يسمى في علم النفس متلازمة العش الخالي، وهي متلازمة تجمع بين مشاعر متناقضة، مشاعر الفرح والسرور التي ترافق زواج الابن أو الابنة ورؤية الأبناء كبارا، وشعور الآباء بالفخر والزهو لكونهم أدوا واجبهم اتجاه أبنائهم دون تقصير، وفي نفس الوقت ما أن يخلو البيت حتى يشعروا بالألم والوحدة ويلازمهم شعور بالكآبة ناجم عن الإحساس بأن الآخرين يتخلون عنهم تباعا...

متلازمة العش الخالي Empty nest Syndrome، لا تأتي فقط برحيل الأبناء عن البيت، فقد تكون نتيجة وفاة أحد الزوجين، ولكنها غالبا ما تصيب الأمهات أكثر لأنهن أكثر من يكون على احتكاك بأطفالهن، وقد اعتادت على اعتبارهم أطفالا صغارا يقمن برعايتهم ويقدمن لهم الحب والعطف، ويقمن بحمايتهم كما اعتدن على سماع جلبة أصواتهم داخل البيت ولم يستعدن لرحيلهم، كما أن هذه المتلازمة عادة ما تأتي في نفس التوقيت مع انقطاع الطمث، أي ما يسمى بسن اليأس والذي غالبا ما يرافقه اضطراب في الهرمونات وتغير في المزاج، وإن كان بعض الأخصائيين يقولون إن هذا يحدث حتى للرجل خاصة وأنه مؤخرا تم اكتشاف أنه بنفس السن يكون ما يسمى إياس الذكور... andropause

وتقول الأخصائية النفسية «بياتريس كوبر روير» مؤلفة كتاب «اليوم الذي يرحل فيه الأبناء»: إن هذه المرحلة بمثابة صفحة تطوى وأخرى تفتح، وهو ليس بالأمر الهين لأن وظيفة الآباء ولاسيما وظيفة الأم تتلقى رصاصة في جناحها، فمهمة حماية الأطفال تتوقف وهي مرحلة تخلي لا يمكن التقليل من شأنها، لأن الأبناء هم مركز أسرنا المعاصرة، مغادرتهم تؤدي إلى شعور كبير بالفراغ. وتكمل قائلة: إنه على الآباء أن يضعوا مبكرا في حسبانهم أن أبناءنا سوف يغادروننا يوما، وأنهم ليسوا من ممتلكاتنا، مهمتنا تقتضي أن نبنيهم لكي يستطيعوا العيش بعيدا عنا... استباق رحيلهم يعني أن يعيش الآباء حياتهم بدونهم مع وجودهم في البيت، بحيث لا يجعلون حياتهم في انتظار، ويتابعون أنشطتهم الشخصية والمهنية لأنه يوما ما لن يكون باستطاعة الأطفال ملء ذلك الفراغ اليومي.

العديد من الآباء وخاصة إذا رحل أحد الشريكين يختار اللجوء لدار مسنين ليشعر أنه وسط الناس وأنه مرغوب به وأنه يمكنه القيام بشيئ ما ولم يعد مجرد نكرة داخل مجتمعه... ومع ذلك فالعديد يبقى مكتئبا لأنه لا يرى حوله أطفالا يركضون ويعجون بالحياة، وإنما الكل يكون بمثل عمره ويمر من نفس تجربته تقريبا...

هذه الحالة قد تقل في حال كان هناك حفدة، وخاصة إن كانوا يزورونه بشكل متكرر، فتجد الشخص يشعر بالحيوية بشكل مفاجئ بعدما كان مكتئبا ويعود لنشاطه، بل يفوق نشاطه حالته الاعتيادية، فتجده يلاعب الأحفاد ويركض معهم ويجعلهم يمتطون ظهره وكأنه لا يريد أن يفارقهم لحظة، فيشاركهم أصغر نشاطاتهم ويريد أن يتشارك وإياهم كل شيئ..

وفي جميع الديانات المنزلة نجد الاهتمام الكبير بالآباء في إشارة لمرحلة سيصبحون هم بحاجتنا، فقال سبحانه وتعالى عن يحيى عليه السلام في سورة مريم: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.. وفي سورة مريم أيضا جاء قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا



كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ وجاء الإسلام وعظم البر بالوالدين وكرر وصاياه ببرهما في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فالإسلام يعد دين ترابط ورحمة، والأواصر الأسرية لا تنتهي بانتهاء مهام الآباء، وإنما تبدأ مهام أخرى من الأبناء اتجاه الآباء عرفانا بجميلهم، ورفعة لقدرهم، بل جعل البر بالوالدين من بره سبحانه وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، ففي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ أما في سورة الأحقاف فقد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾.

الإسلام لا يحبذ ابتعاد الابن عن أبويه لمجرد أنه يريد أن يطير بجناحيه بعيدا رفقة أسرة جديدة أو بعمل جديد، فعليه وإن رحل أن يتفقدهما ويرعاهما، فقد قال هشام بن حسان: قلت للحسن البصري: إني أتعلم القرآن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: لأن تتعشى العشاء مع أمك وتقر بذلك عينها، أحب إلي من حجة تحجها تطوعا.

كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما من مسلم له أبوان، فيصبح وهو محسن إليهما إلا فتح له بابان من الجنة، ولا يمسي وهو محسن إليهما إلا فتح له بابان من الجنة، ولا سخط عليه واحد منهما فرضي الله عز وجل عنه حتى يرضى. رواه البيهقي وغيره.

ومن هنا نتبيّن أن الاسلام جاء واعيا لما لهذه المرحلة العمرية من مصاعب نفسية وجسمانية، ولذلك أصر على أن تبقى تلك اللحمة بين الأبناء وآبائهم -حسب المستطاع طبعا- فلا يمكن لشخص يعمل أو يستقر في مكان بعيد أن يزور أهله ويتناول العشاء معهم كل يوم، ولكنه يمكن أن ينظم وقته ويجعل لهم منه فسحة لزيارتهم رفقة أطفاله ويملأ حياتهم فرحا وسرورا كما كانوا يسعون لملء حياته فرحا وغبطة...

إذن فبتواصل دائم واتصالات منتظمة حتى وإن كنت بعيدا عن أبويك يمكنك أن تنقذهما من عقاقير الاكتئاب التي قد تصبح إدمانا بسبب مرورهما بفراغ متلازمة العش الخالي، خاصة أنه الآن بات بإمكان الأفراد أن يستعملوا وسائل وتقنيات تواصل عديدة كالبريد الإلكتروني والرسائل والاتصالات الهاتفية، وبات بإمكان حتى البعيد أن يتصل صوتا وصورة بأهله إلى حين عودته طبعا، فلا شيء يضاهي عناق الأم لابنها ولا تواجد فعلي لأبناء كبار كانوا يوما ما أطفالا...

كما أن على الآباء أن يختاروا لأنفسهم نشاطا معينا، فالتوقف عن العمل بتقاعد مثلا لا يعني التوقف عن النشاط، فيمكن مزاولة مهنة جديدة أو ممارسة هواية ما تناسوها مع الزمن مثل الرسم والكتابة، أو إحدى الحرف الفنية التي لا تتطلب جهدا عضليا كبيرا، وكذلك لا ينصح بالابتعاد عن الأصدقاء، فلقاء في مقهى أو في مسجد رفقة الأصدقاء يمكنه أن يجلي الحزن والشعور بالفقدان والحرمان، كذلك أن ممارسة الرياضة تحت أشعة الشمس ترفع المعنويات، فالتقوقع في الظل داخل البيت وبين جدران أربعة طيلة اليوم يزيد من ارتفاع نسبة هرمون «ميلاتونين» Melatonin، الذي يؤدي إلى الرغبة في الخمول والكسل ويشعرك بالاكتئاب أكثر، أما الخروج تحت أشعة الشمس للمشي قليلا كل يوم وبانتظام يرفع من هرمون «السيروتونين»Serotonin، أو ما يصطلح عليه بهرمون السعادة الذي يجعلك أكثر حيوية ونشاطا ويبعد عنك الكآبة...

هكذا تعتاد على حياة جديدة دون التخلي عن أبنائك، ولكن مع احترام خصوصياتهم وحياتهم الزوجية، فلا يمكن أن يكونوا إلى جانبك طوال الوقت وبنفس الوقت، لا يتوجب على الأبناء أن ينسوا آباءهم بصفة نهائية بذريعة انشغالاتهم مع أسرهم وأطفالهم وأعمالهم... فإن رحل أحد الأبوين أو كلاهما لا شيء يمكن تعويض هذه الخسارة.

الكويت شاركت في معرض فرانكفورت الدولي:
منارة علمية تتفاعل فيها الثقافات



صورة جماعية لحاكم الشارقة الشيخ سلطان القاسمي مع وفد وزارة الأوقاف

التحرير

للمرة الثالثة على التوالي شاركت دولة الكويت عبر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بجناح عربي أصيل متميز في معرض فرانكفورت الدولي بجمهورية ألمانيا في دورته الـ(٦٦).. ضم جناح الوزارة مختلف مطبوعاتها، ومنها ما تصدره مجلة «الوعي الإسلامي» من أعداد حديثة للمجلة ذاتها وللملحق الخاص بالأطفال «براعم الإيمان» وإصداراتها التي توزع معها مجانا.

وقد جمع المعرض خلال دورته الحالية ما يقارب ٧٥٠٠ دار عرض، قدمت من ١١٠ دول من مختلف قارات العالم، والذي شهد أكثر من ٣٥٠٠ تظاهرة ثقافية، استقطبت جمهورا عريضا من الزوار قدر عدده بما يقارب ٢٩١ ألف زائر، حسب تقدير الإدارة المشرفة على تنظيم المعرض.

وزار جناح وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، وفد سفارة دولة الكويت، وكل من حاكم الشارقة الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، ووزير الإعلام العماني عبدالمنعم الحسني، وسفير سلطنة عمان بألمانيا وسفير جمهورية مصر بألمانيا د. محمد حجازي، ورئيس اتحاد الناشرين السعوديين أحمد فهد الحمدان، ووفود الدول الخليجية المشاركة، والعديد من المهتمين والمثقفين وطلبة المراكز والمدارس.

وقد أكد وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المساعد للشؤون الثقافية م. داود عبدالوهاب العسعوسي في تصريح صحافي أن الكويت حريصة على المشاركة في المهرجانات الثقافية ومعارض الكتاب الدولية، وذلك بهدف إبراز صورتها الحضارية التي باتت تعكس تقدم ورقي الكويت في الجانب الثقافي.



حاكم الشارقة القاسمي يتجول في جناح الأوقاف


وزير الإعلام العماني وسفير بلاده في ضيافة جناح الوزارة


سفير جمهورية مصر في لقطة جماعية مع الوفد الكويتي

وقال العسعوسي إن هذه المشاركة تعكس الاهتمام الكويتي بالشأن الثقافي الإسلامي الذي يبرز الوجه الحضاري للكويت من خلال دعمها للإصدارات الثقافية واهتمامها المتزايد بها.

وقد تجمع العديد من المثقفين والكتاب والباحثين في المعرض، فضلا عن الناشرين من كل البلدان، وشهد الزوار مختلف الفعاليات الثقافية على هامشه، كالندوات الثقافية والأدبية، وحلقات الحوار والنقاش والمحاضرات.

وقد حظيت مشاركة الأوقاف الثرية والمتنوعة للوزارة بتقدير وإعجاب الزوار، خاصة أن عناوين الكتب والمجلات المعروضة كانت تتناول مواضيع مهمة وجديدة، تمس الواقع من خلال دراسات علمية لأسماء بارزة، مما سمح بفتح أبواب للحوار ومد الجسور لمعرفة الآخر عن طريق التبادل المعرفي، ما يعد لبنة محمودة توضع في بناء صرح التواصل الثقافي بين الحضارات مستقبلا. وقامت الوزارة بتوزيع إصداراتها المجانية لمختلف أنواع الكتب والأقراص التي تدعو إلى الفكر الوسطي والمعتدل.

من جانبه قال رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» فيصل العلي: «إن مشاركة الوزارة جاءت لتؤكد الجانب الثقافي المشرق للكويت، وأوضح أن لمجلة الوعي الإسلامي قراء من مختلف الدول الإسلامية يحرصون على اقتنائها ومتابعتها، وما يكتب بها من مقالات وبحوث ودراسات متخصصة في الجانب الإسلامي، بالإضافة إلى استطلاعات الرأي في القضايا الإسلامية المعاصرة.

لقطات على هامش المعرض

- على الرغم من أعداد الزوار الضخمة التي جالت بين أروقة المعرض فإن الترتيب المحكم حال دون ظهور أي تزاحم.
- تميزت الأجنحة المختلفة بتصميمات معمارية مبهرة تميز كل بلد عن غيرها.
- تغطية كل فعاليات المعرض الثقافية ظلت تبث يوميا على شبكة الإنترنت.
- خصصت إدارة المعرض صالة رقم (٦) كمسجد أقيمت فيه شعائر صلاة الجمعة.


مع أعضاء السفارة الكويتية في ألمانيا



صورة جماعية لوفد وزارة الأوقاف بمعرض فرانكفورت

أي الهمم همتك؟

كمال عبدالمنعم خليل
باحث إسلامي

الهمة تعني العزيمة على فعل شيء ما، والتصميم على نيل المقاصد، والجد والكفاح والمثابرة، ولأن الهمة والعزيمة تكون على الخير والشر، فإن النبي ﷺ كان يسأل ربه أن تكون همته وعزيمته على الخير والرشد، فقد روى أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسلك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لسانا صادقا، وقلبا سليما، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»، وروى أحمد والنسائي والحاكم وابن حبان وصححه الألباني من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم أعذني من شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري»، والنفس بطبيعتها قد تتردد أحيانا، أو تتلكأ عن فعل شيء ما خاصة إذا كان خيرا، أما إذا كان شرا، نعوذ بالله من ذلك، فإن الشيطان يدفعها دفعا نحو هذا الشر والإثم للوقوع فيه، فالأز والكيد من الشيطان لا ينقطع أبدا، حتى يورد النفس موارد الظالمين والهالكين، وقد أعطانا القرآن الكريم الإشارة الواضحة للانطلاق نحو الخير إذا عزم عليه الإنسان، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول بديع في هذا الشأن، حيث قال: «عجبت لعجز المؤمن، وجلد الكافر أو الفاجر»، وقال الشاعر منبها إلى آفة التردد وضعف العزيمة:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأي أن تترددا

وهمم الأنبياء وعزائمهم أعلى الهمم، كيف لا وقد جعلهم الله تعالى قدوة للبشرية إلى يوم الدين.. فجميعهم مر بالمواقف التي تحتاج إلى صبر ومصابرة، ورسوخ إيمان، وبذل الجهد من أجل إبلاغ ما أمرهم الله تعالى به، ولا تعجب إن ظل نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وفي نهاية التقرير الدعوي لرسالته ومدى الاستجابة، يقول الله تعالى عنه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود:٤٠)، كذلك ما تعرض له إبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام؛ يؤكد قوة العزيمة وعلو الهمم لديهم، أما رسولنا ﷺ فقد أعلن عن عزمه، وصرح عن همته، أمام الناس جميعا تجاه تلك المهمة التي كلفه الله تعالى بها، فقال حينما عرض المشركون عليه كل متاع الدنيا من أجل أن تخور قواه وتضعف



عزيمته ويترك تلك الدعوة لهذا الدين: «أترون هذه الشمس؟! قالوا: نعم! قال: والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة نار.. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري.. على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»، وكان ﷺ يعلي همم أصحابه كلما شعر بأن الضعف والخور يريد أن يتسلل إليها، فقد روى أحمد في المسند من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «أتينا رسول الله ﷺ وهو في ظل الكعبة متوسدا بردة له، فقلنا: يا رسول الله، ادع الله تبارك وتعالى لنا، واستنصره، قال: فاحمر لونه أو تغير فقال: «لقد كان من كان قبلكم يحفر له حفرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق، ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم من لحم أو عصب، ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله تبارك وتعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون».

ولقد ورث الصحابة رضوان الله تعالى عليهم تلك الهمم العالية فكانوا قمما سامقة، ومضرب المثل في ذلك، فقد ثبت الصديق ثبات الجبال حينما ارتد كثير من الخلق عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومنعوا الزكاة، وتزامن ذلك مع تجهيز بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى تخوم الروم، فلم يخر أو يضعف، وأعلنها صريحة قائلا: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقا، أو عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»، وتناثرت الآراء حول تأخير بعث أسامة، غير أن الصديق حين سمع هذا الرأي ثارت ثائرته، وأعلن عن عزمه وعلو همته وقال: «والله لو أن الطير تخطفني، وأن السباع من حول المدينة، وأن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين؛ ما رددت جيشا وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ، والله لو لم يبق في القرى غيري لأنفذته، أفأطيعه حيا وأعصيه ميتا؟!».

لما كان يوم اليمامة، واصطف الناس، وبدأ القتال، رمي أبوعقيل الأنصاري رضي الله عنه بسهم فوقع بين منكبه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن له شقه الأيسر، وجر إلى الرحل (مكان علاج الجرحى)، ولما حمي القتال وانهزم المسلمون في أول المعركة، وهو واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيح: «يا للأنصار، الله.. الله.. والكرة على عدوكم، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: فنهض أبوعقيل يريد قومة، فقلت: ما تريد؟.. ما فيك قتال؟! قال: قد نوه المنادي باسمي يابن عمر، فقال ابن عمر: إنما يقول: يا للأنصار! ولا يعني: الجرحى، فقال أبوعقيل: لقد نوه المنادي باسمي وأنا من الأنصار، ولا والله الذي لا إله إلا هو لأجيبنه ولو حبوا...». يقول ابن عمر: «... فتحزم أبوعقيل وأخذ السيف باليمنى، ثم جعل ينادي: يا للأنصار! كرة كيوم حنين.. كرة كيوم حنين، يا خيل الله اثبتي، وبالجنة أبشري...». يقول ابن عمر: «... فنظرت إليه وقد قطعت يده المجروحة من المنكب ووقعت على الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها خلصت إلى مقتل، وهو صريع في آخر رمق، وقد هزم الله عدوه ونصر جنده، فوقفت عليه، وقلت: أبا عقيل، فقال بلسان ملتاث: لبيك! لمن العاقبة؟ قلت: أبشر قد قتل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ثم لقي الله، فرضي الله عنه...».

إن هذه الهمم ركبت في الخلق جميعا حتى غير العاقل منها، وقد تعلو أو تضعف حسب هذه النفس التي بين الجوانح، فهذا العنكبوت ينسج عشه من أول يوم يوجد فيه في هذه الحياة، ولا يعتمد على غيره، لا على أمه، ولا على أبيه، أما الحية فلا تحفر لها مسكنا أبدا، بل تعتمد على السطو على عش غيرها، فإما أن تطرده أو تقتله، والصقر طائر همته عالية دائما، فلا يأكل إلا حيا، كذا الأسد لا يأكل طعاما بائتا، أما الغراب فلا يقف إلا على الجيف، وهذا الذباب الذي نأنف منه، ولا نطيقه أن يقف على الوجه، أو على شيء، نجده يعاود الكرة تلو الأخرى من أجل أن يأخذ ما يريد، وما سمي ذبابا إلا لأنه كلما «ذب» «آب»، أي كلما طردته عاد بتصميم أكثر.. وصدق الحق إذ يقول: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:٧٣)، أما النملة وتصميمها على إيصال طعامها إلى عشها مهما كلفها ذلك من مشاق ومحاولات مضنية لهو خير مثال لنا كي يسأل الواحد منا نفسه فيقول: هل همتي وعزيمتي أضعف من همة نملة؟، إن القائد المغولي «تيمور لنك» حينما هزم في إحدى معاركه، رجع إلى مكان قيادته وأطرق برأسه في الأرض، فشاهد نملة تحمل على ظهرها طعاما لها تريد أن تصعد به إلى عشها في أعلى الجدار، كلما صعدت وقعت، وحاولت مرة أخرى، وكررت تلك المحاولة سبع عشرة مرة، فقال «تيمور لنك»: لست أضعف من نملة، وأعاد الكرة في القتال، فانتصر وحقق الظفر.

إن الهمة العالية من الفطرة السوية لابد أن تكون في الخير دائما، أما الفطر المنكوسة فإن همتها تعلو في الشر والمكر والفساد، ولك أن تتخيل مدى علو الهمة عند أبي جهل حينما يصر على قتال المسلمين في بدر، رغم نجاة قافلة أبي سفيان، فيمر على بيوت المشركين بيتا بيتا يستثير هممهم، يدعوهم إلى الخروج، ومن لا يجيبه يقول له: اجلس إنما أنت من النساء، ثم يصرخ في قومه قائلا: «واللات والعزى، لا نرجع حتى نرد بدرا -وكان بدر موسما من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام-

فنقيم عليه ثلاثا، وننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدا، فامضوا»، وفي نفس الغزوة، تعلو همة أحد المشركين وهو الأسود بن عبدالأسد المخزومي، وكان رجلا شرسا سيئ الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم (يعني: حوض بدر)، أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فتصدى له حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه فلما التقيا، ضربه حمزة ضربة أطاحت بساقه، فسقط إلى ظهره تشخب رجله دما، ثم أتبعها حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض، وفي بعض كتب السيرة أن الأسود ظل يقفز بساق واحدة حتى ألقى بنفسه في بئر بدر، ونفذ ما هم به.

ونتساءل: ألا يوجد من بيننا من تعلو همته في الشر، والمكر، والإساءة إلى الناس، ومحاولة زرع بذور الفتنة أينما حل أو ارتحل؟ الإجابة: يوجد بكل تأكيد!

إن السلف الصالح أعطونا النماذج المثلى في تلك الهمم العالية في الخير دائما، فهذا الإمام الشافعي يعلمنا عزة النفس والهمة العالية فيقول:

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب
وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا

وهذا سفيان بن عيينة رحمه الله يرى فتى صغيرا يدخل مجلسا لأهل الحديث، فرآهم وكأنهم تصاغروا سنه، فقال لهم وهو في غضب: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ (النساء:٩٤)، ثم يحدث عن نفسه فيقول لأحد أصحابه ممن كانوا في المجلس، ويدعى نصر الهلالي: «لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، وجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، أكمامي قصار، ذيلي بمقدار، نعلي كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأنصار؛ (كعمرو ابن دينار، والزهري) وأمثالهم من علماء الأنصار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، ومقلتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلت المجلس قالوا لي: أوسعوا للشيخ الصغير. لو رأيتني يا نصر حين ذاك لما احتقرت ما رأيت».

إن ما يرفع همة الإنسان أن يكون قوي الإيمان، واثقا في نصر الله له وتأييده وتوفيقه، وأن يتخذ القدوات الحسنة له مثالا أعلى، وأن يقارن نفسه بمن علت هممهم وارتفعت، وأن يحافظ على فرائض الله تعالى ولا يضيعها، وأن يخالف النفس الأمارة بالسوء، وأن يهتم بمعالي الأمور، ويترفع عن سفاسفها والتافه منها، وأن يلح على الله تعالى في الدعاء طالبا تحقيق آماله، وأن يحافظ على الأوقات لا يضيعها، فهي عمره، قال الحسن البصري رحمه الله: «يابن آدم، إنما أنت أيام كلما ذهب يومك ذهب بعضك»، وقال أحد السلف: «إذا مر يوم المسلم في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه».

ومما يرفع الهمم أيضا الانشغال بما يعني، وترك ما لا يعني، وأن يستشير ذوي الرأي الصائب، والفكر السديد، ويتجنب صحبة المثبطين والميئسين، وأن يقبل النقد البناء الذي يصلح ويداوي ويوجه إلى الرشاد، كذلك فإن استثمار الفرص واقتناصها يجعل همة الإنسان تعلو.

إذا هبت رياحك فاغتنمها
فعقبى كل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها
فما تدري السكون متى يكون

أما ما يضعف الهمم فكثير وكثير، وأهمها التهرب من المسؤولية، واليأس والقنوط، والتحسر على ما مضى، والتسويف والتأجيل، والاستغراق في الأماني الكاذبة، والكبر والتعالي على قبول الحق، والتهاون في الذكر وقراءة القرآن.

ولعل أشد ما يضعف الهمم اتهام الزمن وسبه ولعنه، والتعلل بأنه يقف حجر عثرة في تحقيق كل ما يريد، يقول الشاعر:

أفنيت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزن
وقعدت مكتوف اليدين تقول حاربني الزمن
ما لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن؟!

إننا نريد لهممنا أن تعلو لتكون في القمة، فلا يتسرب اليأس إليها، بل لابد من ربط الأمل بالعمل، والسعي الدءوب لكل عمل نافع، ولا نسلم أنفسنا للشيطان يلعب بنا، فيصيبنا اليأس تارة، والتشاؤم تارة، والأماني البعيدة عن العمل تارة أخرى، فإن الله تعالى بين في القرآن الكريم أن الجزاء مرتبط بالعمل لكل إنسان، بغض النظر عن ملته واعتقاده، قال الله تعالى ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ (النساء:١٢٣-١٢٤).

يقول الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان رحمه الله:

كفكف دموعك ليس ينـ
ـفعك البكاء ولا العويل
وانهض ولا تشك الزمان
فما شكا إلا الكسول
واسلك بهمتك السبيل
ولا تقل كيف السبيل
ما ضل ذو أمل سعى
يوما وحكمته الدليل
كلا ولا خاب امرؤ
يوما ومقصده نبيل

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد.

إنه ولي ذلك والقادر عليه.

حق الحياء

محمد رشيد العويد
مدير تحرير مجلة النور الكويتية

من أعظم الأخلاق، وأجملها، وأهمها، خلق الحياء. هذا الخلق الذي يزين صاحبه، ويجعل الناس يحبونه، ويقدرونه، وقبل حب الناس حب الله سبحانه له.

أثنى النبي ﷺ على الحياء ثناء كبيرا، حتى جعله خيرا خالصا فقال: (الحياء خير كله). صحيح مسلم. وفي رواية (الحياء كله خير). صحيح مسلم .

وزاد ﷺ هذه الخيرية في الحياء حين نفى أن يأتي الحياء بغير الخير فقال: (الحياء لا يأتي إلا بخير). صحيح مسلم.

وقد يحسب بعض الناس أن الحياء ضعف، ومن ثم فإنه لا يصلح دائما. فقد قال أبو قتادة رضي الله عنه : كنا عند عمران بن حصين في رهط وفينا بشير ابن كعب، فحدثنا عمران يومئذ قال: قال رسول الله ﷺ (الحياء خير كله)، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب والحكمة أن منه سكينة ووقارا لله، ومنه ضعف. فغضب عمران حتى احمرت عيناه وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه !

ولقد شرح النووي رحمه الله هذا وأوضحه فقال : وأما كون الحياء خيرا كله ، ولا يأتي إلا بخير ، فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يجلّه؛ فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق ، وغير ذلك مما هو معروف في العادة. وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة وهو: أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقةً بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف؛ أطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي. وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، ونحو هذا.

أي أن الحياء لا يصرف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه يمكن أن يكون للحياء دور في جعل ذاك الأمر والنهي في رفق ولطف، وبذا يكون تأثيرهما أكبر فيمن أمرناه أو نهيناه، وتكون استجابته أفضل.

والحياء من صفات الله تعالى، كما جاء في حديثه ﷺ:(إن الله تعالى حييٌ ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر). صحيح الجامع.

فهو سبحانه يحب الحياء ، فكيف لعبد أن لا يحب ما يحب الله سبحانه، فيحرص على أن يكون حييا.

ويقول ﷺ:(إن الله تعالى حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه صفرا أن يردهما صفرا خائبتين). صحيح الجامع.

ثم نجد هذا الخلق الكريم في النبي ﷺ، كما جاء في وصفه ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه). متفق عليه.

قال ابن حجر: (الخدر) ستر يكون للجارية البكر في ناحية البيت.

وقال النووي: معناه أنه ﷺ لم يتكلم بالشيء الذي يكره لحيائه، بل يتغير وجهه فنفهم كراهيته. وفيه فضيلة الحياء ، وأنه محثوث عليه، ما لم ينته إلى الضعف والخور.

ووجدنا حياءه ﷺ مع ربه سبحانه في ليلة المعراج، حين كان موسى عليه السلام يدعوه أن يرجع إلى ربه ليسأله التخفيف في الصلاة، فخففها الله حتى صارت خمسا، بعد أن كانت خمسين ، لكن موسى عليه السلام دعاه أن يرجع لربه ليخففها؛ فقال النبي ﷺ: (سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم). البخاري.

ويشرح ﷺ للصحابة حقيقة الحياء من الله تعالى بعد أن يأمرهم به: (استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء). رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، و حسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٣٥) .

قال المباركفوري: قوله ﷺ: (استحيوا من الله حق الحياء)، أي: حياء ثابتا ولازما صادقا. قال المناوي: وقيل: أي اتقوا الله حق تقاته.

(يا رسول الله؛ إنا نستحي)، ولم يقولوا (إنا نستحي حق الحياء) اعترافا بالعجز عنه. (والحمد لله) أي على توفيقنا به، (قال : ليس ذاك) أي ليس حق الحياء ما تحسبونه، بل أن يحفظ جميع جوارحه عما لا يرضي الله. (ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس)، أي: عن استعماله في غير طاعة الله، بأن لا تسجد لغيره، ولا تصلي رياء، ولا تخضع به لغير الله، ولا ترفعه تكبرا . (وما وعى)، أي: ما جمعه الرأس من اللسان والعين والأذن عما لا يحل استعماله. (وتحفظ البطن)، أي: عن أكل الحرام. (وما حوى)، أي ما اتصل به من الفرج والرجلين واليدين والقلب، فإن هذه الأعضاء متصلة بالجوف، وحفظها بأن لا تستعملها في المعاصي، بل في مرضاة الله تعالى.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.



9me Année No. 422

Lundi 4-8-1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

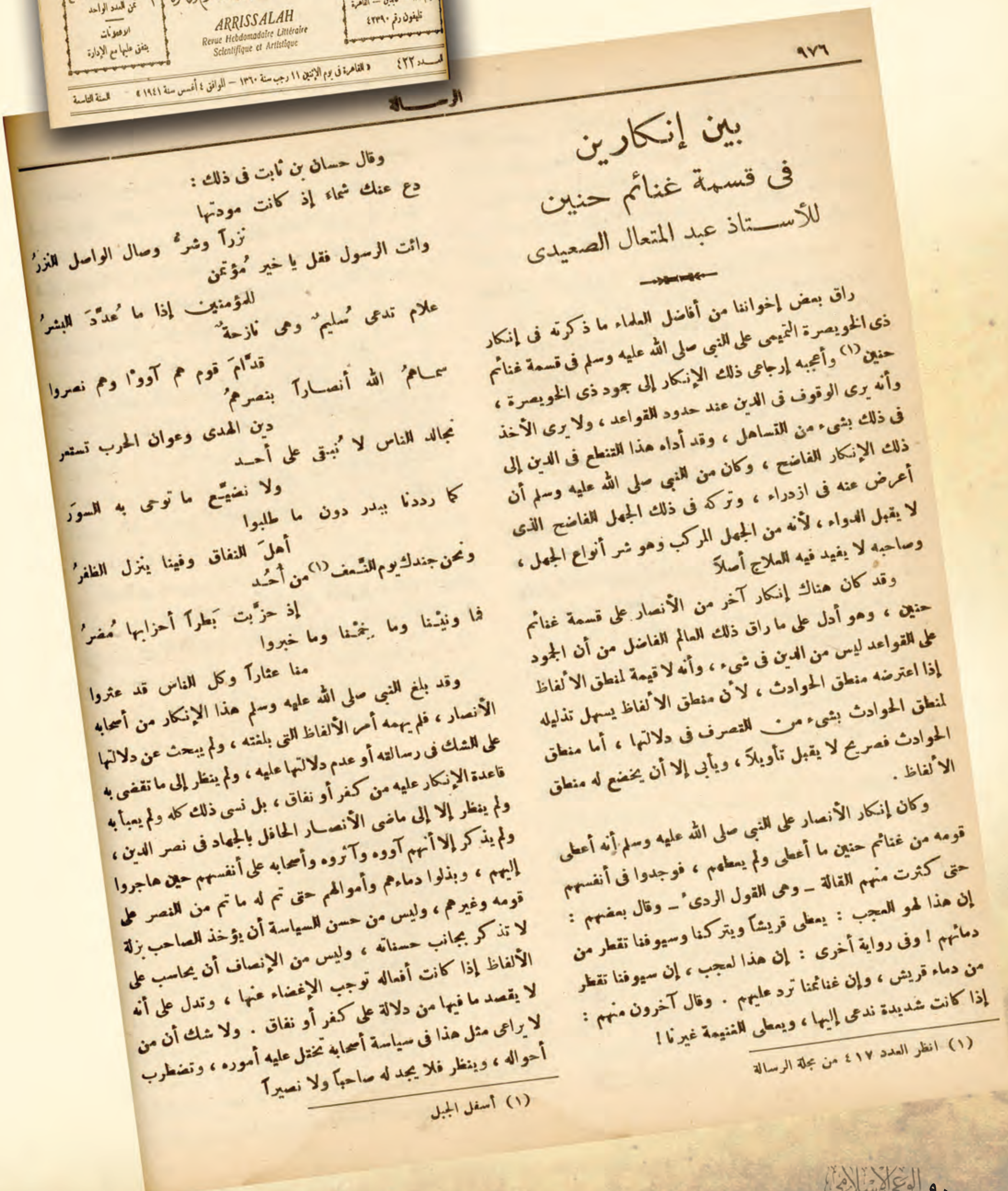
صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ – عابدين – القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الإثنين ١١ رجب سنة ١٣٦٠ – الموافق ٤ أغسطس سنة ١٩٤١ » العدد ٤٢٢



بين إنكارين
فى قسمة غنائم حنين
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

راق بعض إخواننا من أفاضل العلماء ما ذكرته فى إنكار ذى الخويصرة التميمى على النبى صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حنين (1) وأعجبه إرجاعى ذلك الإنكار إلى جمود ذى الخويصرة، وأنه يرى الوقوف فى الدين عند حدود القواعد، ولا يرى الأخذ فى ذلك بشىء من التساهل، وقد أداه هذا التنطع فى الدين إلى ذلك الإنكار الفاضح، وكان من النبى صلى الله عليه وسلم أن أعرض عنه فى ازدراء، وتركه فى ذلك الجهل الفاضح الذى لا يقبل الدواء، لأنه من الجهل المركب وهو شر أنواع الجهل، وصاحبه لا يفيد فيه العلاج أصلاً

وقد كان هناك إنكار آخر من الأنصار على قسمة غنائم حنين، وهو أدل على ما راق ذلك العالم الفاضل من أن الجمود على القواعد ليس من الدين فى شىء، وأنه لا قيمة لمنطق الألفاظ إذا اعترضه منطق الحوادث، لأن منطق الألفاظ يسهل تذليله لمنطق الحوادث بشىء من التصرف فى دلالتها، أما منطق الحوادث فصريح لا يقبل تأويلاً، ويأبى إلا أن يخضع له منطق الألفاظ.

وكان إنكار الأنصار على النبى صلى الله عليه وسلم أنه أعطى قومه من غنائم حنين ما أعطى ولم يعطهم، فوجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة – وهى القول الردىء – وقال بعضهم: إن هذا لهو العجب: يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! وفى رواية أخرى: إن هذا لعجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم. وقال آخرون منهم: إذا كانت شديدة ندعى إليها، ويعطى الغنيمة غيرنا!

(1) انظر العدد ٤١٧ من مجلة الرسالة

وقال حسان بن ثابت فى ذلك:

دع عنك شماء إذ كانت مودتها ... نزراً وشرُّ وصال الواصل النزرُ

وائت الرسول فقل يا خير مُؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البشرُ

علام تدعى سُليمٌ وهى نازحةٌ ... قدّامَ قوم هم آووا وهم نصروا

سماهمُ الله أنصاراً بنصرهمُ ... دين الهدى وعوان الحرب تستعر

نجالد الناس لا نُبقى على أحد ... ولا نضيّع ما توحى به السوَرُ

كما رددنا ببدر دون ما طلبوا ... أهلَ النفاق وفينا ينزل الظفرُ

ونحن جندك يوم النّعف (1) من أحُد ... إذ حزّبت بَطراً أحزابها مُضرُ

فما ونينا وما خِمنا وما خبروا ... منا عثاراً وكل الناس قد عثروا

وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الإنكار من أصحابه الأنصار، فلم يهمه أمر الألفاظ التى بلغته، ولم يبحث عن دلالتها على الشك فى رسالته أو عدم دلالتها عليه، ولم ينظر إلى ما تقضى به قاعدة الإنكار عليه من كفر أو نفاق، بل نسى ذلك كله ولم يعبأ به ولم ينظر إلا إلى ماضى الأنصار الحافل بالجهاد فى نصر الدين، ولم يذكر إلا أنهم آووه وآزروه وأصحابه على أنفسهم حين هاجروا إليهم، وبذلوا دماءهم وأموالهم حتى تم له ما تم من النصر على قومه وغيرهم، وليس من حسن السياسة أن يؤخذ الصاحب بزلة لا تذكر بجانب حسناته، وليس من الإنصاف أن يحاسب على الألفاظ إذا كانت أفعاله توجب الإغضاء عنها، وتدل على أنه لا يقصد ما فيها من دلالة على كفر أو نفاق. ولا شك أن من لا يراعى مثل هذا فى سياسة أصحابه تختل عليه أموره، وتضطرب أحواله، وينظر فلا يجد له صاحباً ولا نصيراً

(1) أسفل الجبل

• مجلة الرسالة...

هي مجلة أدبية ثقافية، صدرت في مصر عام ١٩٣٣م، وكان رئيس تحريرها الأديب المصري أحمد حسن الزيات (ولد سنة ١٨٨٥م، وتوفي سنة ١٩٦٨م)، وكان يكتب مقالاتها عباقرة الأدب العربي آنذاك؛ مثل: العقاد، والرافعي، وسيد قطب، وأحمد أمين، ومحمد فريد أبو حديد، وأحمد زكي، ومحمود محمد شاكر، وغيرهم.

وهكذا آثر النبي صلى الله عليه وسلم ما يقضي به حسن السياسة من أخذ أنصاره باللين ، والتغافل عما صدر عنهم من تلك القالة . وقد دخل عليه سعد بن عبادة الأنصارى يبلغه شكوى قومه ، فقال له : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم ، لِمَا صنعت فى هذا الفَيْء الذى أصبت : قسَّمْتَ فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . فخرج سعد فجمع الأنصار له ، فلما حضروا قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتنى عنكم ، وجِدةٌ وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أَمَنّ وأفضل . ثم قال : ألا تجيبوننى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعةٍ[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار . ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً

فلله هذه السياسة البارعة التى يتواضع فيها النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار هذا التواضع ، ويقوم فيهم كأنه فرد منهم ، فيوازن بين ما قدمه لهم من حسنات ، وما قدموه له من حسنات ، ويجعل ما قدموه له مثل ما قدمه لهم أو أرجح منه ، ثم يذكرلهم عظيم حظهم إذا عادوا به فى رحالهم ، وعاد الناس بما أخذوه من تلك الغنائم ، فيقتلع من نفوسهم كل أثر لتلك الموجدة ، ويجعلهم يبكون ندماً عليها أو فرحاً بعظيم حظهم

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمد على قواعد الدين ورسومه كما نجمد اليوم ، لم يأخذ الأنصار بتلك السياسة البارعة بل وقف يؤنبهم على تلك القالة ، ويذكر أن الإصرار عليها كفر ونفاق فى الدين ، وأنهم إن لم يتوبوا منها حل عليهم عذاب الله وحبط ما قدموه من حسنات فى الإسلام

ولكن مثل هذا لا يشفى النفوس العاتبة ، ولا ينال به رضا الأصحاب عند عتابهم ، وإنما يكسب رضاهم بالإغضاء عن زلاتهم ، وأخذهم بالرغبة واللين ، لا بالرهبة والوعيد . وها نحن أولاء اليوم نأخذ الناس فى ديننا بالتشديد والوعيد ، ولا نأخذهم بالرغبة وحسن السياسة ، ونقف جامدين أمام النصوص وألفاظها ، ونغالى فى الأخذ بالقواعد غير متأثرين بالظروف التى تحيط بها . ولا شك أن هذه مغالاة فى الغيرة على الدين تضر ولا تنفع ، وتنفر الناس منه ولا تجذبهم إليه ، وقد خسرنا بها كثيراً ممن كان يمكن أخذهم بالرغبة وحسن السياسة . ومن الواجب أن نقلع عن هذا الجمود ، وأن نأخذ الناس إذا زلوا بتلك السياسة التى سنها النبى صلى الله عليه وسلم

عبد المتعال الصعيدى

(١) اللعاعة بقلة خضراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

عبدالمتعال عبد الوهاب أحمد عبد الهادي الصعيدي

عبدالمتعال عبد الوهاب أحمد عبد الهادي الصعيدي؛ عالم لغوي من علماء الأزهر الشريف، وعضو مجمع اللغة العربية، وواحد من أبرز المناديين بالمنهج الإصلاحي في التعليم والفكر. ولد سنة ١٣١١هـ الموافق ١٨٩٤م بمحافظة الدقهلية، وحصل على شهادة العالمية في عام ١٩١٨م، وعمل مدرسا بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف بالقاهرة.

ألّف الصعيدي ٤٩ كتابًا مطبوعًا و٢٠ كتابًا مخطوطًا، ومنها: "تاريخ الإصلاح في الأزهر"، "حكماء اليونان السبعة"، "قضايا المرأة"، "الفن القصصي في القرآن"، ومن أشهر كتبه "المجددون في الإسلام" وهو أحد أهم الكتب التي ألقت الضوء بالنقد والتحليل على أهم الشخصيات المجددة في الفكر الإسلامي منذ القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

توفي عام ١٩٦٦م عن عمر يناهز اثنين وسبعين عامًا.

إعداد: علاء عبدالفتاح

الأمن المائي العربي... نظرات وتأملات

يحيى السيد النجار

مفهوم كلمة الأمن.. تطرح في المجالات: السياسية.. والاقتصادية.. والغذائية .. إلخ.

وتزداد ثغرة الأمن المائي العربي خطورة مع ارتفاع النمو السكاني.. والاستخدامات الزراعية والصناعية.. والأمة العربية تقع في منطقة الحزام الجاف وشبه الجاف من العالم.

ولأهمية الماء في حركة الحياة الإنسانية.. جاء ذكره في العديد من السور القرآنية منها:

الأنعام.. يونس.. الرعد.. الحجر.. النمل.. الأنبياء.. الحج.. المؤمنون.. النور.. الفرقان.. والماء يمثل أساس الكائنات الحية.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الأنبياء ٣٠).

والماء أساس خصوبة الأرض وانتعاشها واخضرارها.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة فصلت ٣٩).

وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون.. لبيان قدرة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ (سورة طه ٥٣).

ولقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة إبراهيم ٣٧).

وينفد الماء والطعام من الأم ووليدها وتجيء المكافأة الإلهية على الصبر، ينبع زمزم تحت قدمي الوليد.

ومع العجز المائي العربي.. تجيء أطماع إسرائيل في الحياة العربية في ظل سياستها التوسعية الاستيطانية.. ومن مصادر المياه لإسرائيل في أرض فلسطين المحتلة، استغلال مياه نهر الأردن.. نهر العوجا.. نهر المقطع.. نهر الكابري. وبن جوريون قال في العام ١٩٥٥م: إن اليهود يخوضون مع العرب معركة المياه.. وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف مصير إسرائيل. فإذا لم ننجح في هذه المعركة فإننا لن نبقى في فلسطين واللوحة التوراتية في الكنيست الإسرائيلي تحمل كلمة «حدودك يا إسرائيل من النيل للفرات».

والنيل والفرات نهران خارجان في منابعهما .. خارج حدود العرب.

وبات ملحا على السياسات المائية العربية أن تستوعب تداعيات الأحداث المائية المتشابكة من أجل الاهتمام بالأمن المائي.. وبنقاط منها:

١- الاهتمام بتكنولوجيا المياه المطورة .. وبالبحوث طويلة وقصيرة المدى لحسن إدارة الموارد المائية وتخزين المياه.

٢- الاهتمام بالموارد المائية السطحية والجوفية، من أجل تطويرها في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مع رسم سياسات بناءة لتحقيق التوازن المائي.

٣- تنمية الوعي لحسن استخدام المياه.. وترشيد الاستهلاك من أجل المحافظة على الموارد المائية وحمايتها من الهدر كمّا ونوعا واستهلاكا.

٤- تطوير أساليب الري الزراعية للحد من العجز المائي.. مع وضع سياسة مائية تعنى بتحديد الأولويات لتنمية الموارد المتاحة، مع مراعاة التكامل بين الموارد السطحية والجوفية.

٥- وضع خطة قومية شاملة لمواجهة العجز المائي.. وتحقيق الأمن المائي كخطوة مستقبلية لتحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء.

والتاريخ الحضاري العربي ارتبط بالأرض والمياه.. والعجز المائي العربي قائم وسيزداد باطراد مع مرور الزمن.. في ظل عدم التوازن بين مجمل الموارد المتاحة والطلب عليها.. خاصة لتأمين الاكتفاء الذاتي من المحاصيل الزراعية الرئيسية، وكان معروفا أن العرب قديما هم قوم رحالة ينتقلون سعيا في البحث عن الماء.. وابن خلدون وصف العصبية بأن أصلها من البادية.. وأن البدوي يستمد قوته من الأرض والماء.. والمسألة المائية العربية يجب أن تطرح بشكل موضوعي.. قبل أن تستفحل الأزمة في القريب العاجل.





القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي تساهم في نشر الوعي وتثقيف الناس على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

رفيدة.. مدرسة في طب القلوب والأبدان

ملكة قطيمان

قالوا: «المرأة نصف المجتمع، وهي تربي نصفه الآخر»، ومن سنتحدث عنها كانت مربية ومعلمة وأكثر، إنها الطبيبة الأسلمية، امرأة ليست ككثير من النساء، سيدة رفضت نفسها الزكية وروحها الصادقة الشرك والدجل، وانتظرت من أنار قلبها بنور الحق واليقين، وهداها إلى طريق التوحيد والإيمان، فآمنت وسخرت نفسها وعلمها لخدمة الناس، فكانت مثال الطبيبة المسلمة العالمة العاملة في ميادين الحياة، لتمحو بصنيعها ظلام الجهل والخرافة والشعوذة.

يذكر أنها كانت قارئة وكاتبة، كريمة الخلق، سخية أنفقت من حر مالها في سبيل تقديم الخدمات العلاجية، وأقيمت لها خيمة في مسجد النبي ﷺ بيثرب لهذا الغرض، فيها الأسِرَة والعقاقير والأربطة والضمادات والأدوات الضرورية، فكانت أول من عمل في التمريض من المسلمات، وخيمتها أول مستشفى في الإسلام أيضا، وانصرفت لأداء عملها واهبة نفسها وعملها ووقتها للخدمة العامة، وقضت على الكهانة والاستغلال، كل ذلك مجانا، تبغي منه وجه ربها الكريم.

في معركة بدر كانت وزميلاتها رضي الله عنهن بين صفوف المسلمين، ساقيات مواسيات آسيات، يمسحن الجراح، ويضمدنها.

في موقعة أحد جمعت رفيدة صاحباتها «أم عمارة، وأميمة، وأم أيمن، وصفية، وأم سليم، وهند» وغيرهن من المؤمنات المتطوعات رضي الله عنهن، ونظمت بينهن العمل في المعركة على أحسن وجوه التنظيم والتخطيط.

وهكذا كانت رفيدة أول ممرضة ومطببة في الإسلام، وهي بذلك منشئة أول مدرسة للتمريض في العالم، وصاحبة أول عيادة في الإسلام، وواضعة القواعد الصحيحة لعلم التمريض.

في رحاب رسول المحبة

عبد محمد بركو

تكلم رسول الله ﷺ بمئات الأحاديث الشريفة التي عبرت عن عالمية الدعوة الإسلامية، وسماتها الإنسانية الفاضلة الداعية إلى المحبة والسلام، والتعاون المثمر والعيش المشترك بين البشر جميعا، على اختلاف أعرافهم وأجناسهم وأديانهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧).

ومن هذه الأحاديث الحوارية التوجيهية الشريفة الفريدة في محبتها وتسامحها وإيمانها وإنسانيتها، نذكر الأحاديث التالية على سبيل المثال لا الحصر:

قال رسول الله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وسأله رجل: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».



فالمبادرة بالتحية والسلام لجميع الناس هي البداية الطبيعية السليمة للحوار مع الآخر.

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جانبه».

وقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

«اذهبوا فأنتم الطلقاء..»

بهذه الرحمة الجليلة والعفو النادر والصفح الجميل حاور رسول الله ﷺ المشركين الذين ضربوه وحاربوه وآذوه وأخرجوه، وقتلوا وعذبوا أصحابه، وأخرجوهم من ديارهم.

وقد حاورهم ﷺ يوم فتح مكة وهو في قمة القوة وهم في غاية الضعف، بتسامح الأنبياء وأخلاق الرسل.

من أسباب كراهية الغرب للإسلام

رفعت محمد بروبي

أولا: وجدت أوروبا نفسها محاطة بحضارة إسلامية نابغة وسامية تختلف تماما عن «المسيحية» في ذلك الوقت، ففي الإسلام لا يوجد وسيط بين العبد وخالقه، عكس المسيحية التي تتخذ الكنيسة وسيطا بين أتباعها والخالق، وكانوا يتكسبون من وراء ذلك الكثير، ومن هنا استشعرت أوروبا وتحديدا الكنيسة أن ثمة خطرا ثقافيا وأخلاقيا وسياسيا ربما يهددها.

ثانيا: هزيمة الصليبيين في معركة «حطين» على يد «صلاح الدين الأيوبي»، والتي حدثت في القرن الثاني عشر، فهذا الحدث الجليل ولد كراهية شديدة للإسلام والمسلمين.

ثالثا: كان للفتوحات الإسلامية والانتشار السريع والكبير للإسلام في أوروبا دافع كبير لكراهية الغرب للإسلام.



لهيب الأقصى

شهاب الدين المحمدي

الأرض يباب والتاريخ رماد، ولا شيء في أفق الخراب سوى لهيب النار، وصوت من بعيد يحمل بكاء القدس الآسية، وعلى بعد أمتار ثمة مقهى خرب يدعى المقهى العربي، يتكلم فيه ويجتمع العربي وهم هنا منذ زمن ليس بالبعيد يثرثرون ويغضبون ويحلفون بالعزات الصنمية ثم يقعدون بعد عراك ما ويعودون لثرثرتهم ثم يسكتون، هم الخائفون إلى درجة الذل، الصامتون إلى حد الموت، القانعون بما هم فيه من الخنوع، لا شيء في هذا الموات إلا الموت، ابحث عما شئت لن تجد شيئا يا أقصى، حتى التاريخ صارت أجسادهم تنسل منه براءة وخوفا وإرضاء لسيد الروم الكبير!! الروم في الأفق، لا.. الروم على الأبواب، لا.. الروم على الأسوار، لا .. الروم في الديار والبيوت، سيوفهم لا تفرق بين صغير وكبير.

الروم قادمون.. ولكننا قادمون أيضا في ألق عيون الأطفال، في بطون النساء، في سواعد من تبقى من رجال وأبطال، من ورود الحدائق ومن ينابيع المساجد، ومن الأرض المقدسة. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ (سورة البقرة آية : ٢١٠).





رسوخ القيم الأخلاقية

د. بثينة أبو المجد

لعل من أظهر المعالم في تاريخنا الإسلامي وفي حضارتنا الإسلامية: بروز العنصر الأخلاقي فيه، ورسوخ القيم الأخلاقية الأصيلة، من الصدق والأمانة، والوفاء، والعدل، والإحسان والرحمة، والعفاف، والشجاعة، والسخاء، والعزة، والتواضع، والحياء، وغير ذلك من الأخلاق، التي عدها الإسلام مجسدة للإيمان، وعدها من خصال المؤمنين، كما عد الرذائل المضادة من آيات النفاق، وخصال المنافقين.

جاء في وصف المؤمنين في القرآن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ (المؤمنون:١-٨).

ومن تأمل تاريخ المسلمين العلمي والفكري، أو السلوكي والعملي؛ يجد أنهم حفلوا بالأخلاق والفضائل، واهتموا بها نظريا وتطبيقا، وقولا وفعلا. كذلك ربط المسلمون بين العلم والأخلاق، فلا قيمة لعلم لا يطابقه العمل والسلوك. والعالم منحرف السلوك مطرود عند الله، مذموم عند الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف:٢-٣).

أيضا ربط المسلمون السياسة بالأخلاق، فلم يعرفوا في تاريخهم (الغاية تبرر الوسيلة) والوصول إلى الحق بطريق الباطل، وارتكاب الموبقات لتحقيق هدف نبيل في نظر صاحبه، بل لا بد من الغاية الشريفة، والوسيلة النظيفة.

هذا وقد ربط المسلمون الحرب بالأخلاق، فلا يجوز أن يقتل إلا من يقاتل، لهذا نهى الإسلام عن قتل الصبيان.

محمد الفاتح

د. محمد السقا عيد

ما حدث في تاريخ البشرية إنه ما استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها الله القوة والرفعة والسيادة في نهاية المطاف، إن العثمانيين عندما استجابوا لشريعة الله كان الفتح حليفهم، والشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر ١٠).

وفيما يلي محطات توقف الفاتح عندها لفتح القسطنطينية:

١- بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والتجهيز لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهودا كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوة البشرية، حتى وصل تعداده إلى قرابة ٤/١ مليون مجاهد، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عنى عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة.

٢- اعتنى السلطان محمد عناية خاصة بجميع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، أهمها المدافع، وأقام قلعة «روملي» في الجانب الأوروبي على مضيق البوسفور، وتزود بالسفن المختلفة ليكون مؤهلا بدوره في الهجوم على القسطنطينية.

٣- عمل الفاتح من قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد.

٤- عمل على تمهيد الطرق المؤدية إلى القسطنطينية.

٥- ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها، ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم، وأمددهم بأحدث الأسلحة المتوافرة في ذلك العصر.

٦- تميز عصر السلطان الفاتح بجانب قوة الجيش وتفوقه العددي بإنشاءات عسكرية عديدة متنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش، ومصانع للأسلحة والذخيرة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وحرص على تطوير الجيش البري والقوة البحرية.

٧- كان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والثواب الجزيل من الله تعالى.

٨- كان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال، وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله، وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية، وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري الذي قصد إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية.

صيانة السعي عن العبث

إعداد: تركي محمد النصر

قال العلامة محمد بن حسن الشطي (توفي ١٣٠٧هـ): «اعلم أنه يجب صناعة على من يريد الخوض في علم من العلوم على الوجه الأكمل، أن يتصور أولا مبادئه ليكون على بصيرة في طلبه، ويصون سعيه عن العبث».

(المصدر: الفتح المبين في تلخيص كلام الفرضيين ص٢١)

الأدب مع أهل الفضل

قال عثمان بن عاصم: «رأيت شيخا بين الصفا والمروة على ناقة، وشيخا يقوده، واجتمع أصحاب الحديث عليه، فجعل الشيخ الذي يقود الشيخ يقول: يا معشر الشباب، كفوا حتى نسل الشيخ».

فقلت: من هذا الراكب؟

قالوا: هذا الأوزاعي.

قلت: فمن هذا الذي يقوده؟

قالوا: سفيان الثوري.

(المصدر: الجرح والتعديل ٢٠٧/١)

أمانة النقل

روى الخطيب البغدادي عن الحسن بن صالح قال: «كنا إذا أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه حتى يقال لنا: أتريدون أن تزوجوه؟!»

(المقتطفات النافعة من ثمرات المطالعة ص١٩٨)

قرآن نافع وسنة ماضية

لقي ابن عمر جابر بن زيد في الطواف فقال: يا جابر إنك من فقهاء البصرة، وإنك تُستفتى، فلا تَفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإن لم تفعل؛ هلكت وأَهلكت.

(تذكرة الحفاظ ٧٢/١)

الأعمال بالعمال

قال الخوارزمي: لا صغير مع الولاية والعمالة، كما لا كبير مع العطلة والبطالة، وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليها، ومطية تحسن وتقبح بممتطيها، والصدر لمن يليه، والدست لمن جلس فيه، والأعمال بالعمال، والنساء بالرجال

(زهر الآداب وثمر الألباب ٦٠٦/٣)

علامات الحمق

وقال أبو حاتم بن حيان الحافظ: علامات الحمق: سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة في الأخيار، والاختلاط بالأشرار.

والأحمق إن أعرضت عنه أعتم، وإن أقبلت عليه اغتر، وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإذا ظلمته أنصفت منه ، ويظلمك إذا أنصفته، فمن ابتلي بصحبة الأحمق فليكثر من حمد الله على ما وهب له مما حرمه ذاك.

(أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي)

أمر بقتله ثم أمر له بصلة

كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري، فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله لاتقتلني، فو الله إني لأعول أربعًا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري، فرق لهن واستحضرهن، وإذا واحدة منهن كالبدر، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟

قالت: أنا بنته، فاسمع ياحجاج مني ما أقول. ثم قالت:

أحجاج إما أن تمن بتـــركه
علينـــا وإما أن تقتلنا معا
أحجاج لاتفجع به إن قتلته
ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج لاتترك عليه بناتــه
وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبدالملك، وأمر له بصلة

(أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي)

كفك أجود من لساني

قال مسلمة بن عبد الملك يوما لنصيب. أحد الشعراء. :
أمدحت فلانا...؟ قال: قد فعلت..
قال: أوحرمك؟.
قال: قد فعل.
قال: فهلا هجوته.
قال: لم أفعل.
قال: ولم؟
قال: لأني كنت أحق بالهجاء منه إذ رأيته موضعا لمدحي.
فأعجب به مسلمة، فقال: اسألني.
فقال: لا أفعل.
قال: ولم؟ فقال: لأن كفك أجود بالعطية من لساني بالمسألة.
فوهب له مسلمة ألف دينار

(الكامل في اللغة والأدب للمبرد)

قبول العذر

مما قيل في قبول العذر:
ما أذنب من اعتذر، ولا أساء من استغفر.
الأصاغر يهنون والأكابر يعفون.
الكريم أوسع ما يكون مغفرة إذا ضاقت بالمسيء المعذرة

(زهر الأكم في الأمثال و الحكم لنور الدين اليوسي)

الدَّيْن

«مرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه. فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديا ينادي: من كان عليه لقيس حق فهو منه في حل. قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده».

(مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة)

دواء الحسد

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولاتداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.
والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة - ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك - فارقت الحسد لا محالة.

(موعظة المؤمنين للقاسمي)

المسلم والبلاء

قال هلال بن بساق: «كنا قعودا عند عمار بن ياسر، فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما اشتكيت قط، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا؛ إن المسلم يُبتلى ببلاء، فتحط عنه ذنوبه، كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لم أطلق، وإن عقل لم يدر لم عقل».

(عدة الصابرين لابن قيم الجوزية)

أهل الجنة

قال عكرمة رحمه الله: «أهل الجنة كأمثال أولاد ثلاث وثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم، والقامة ستون ذراعا، على قامة أبيهم آدم عليه السلام، شباب جرد مرد مكحولون، عليهم سبعون حلة تتلون كل حلة في كل ساعة سبعين لونا، فيرى وجهه في وجهها ، يعني في وجه زوجته وفي صدرها وفي ساقها، وترى هي وجهها في وجهه وصدره وساقه، لا يبزقون، ولا يتمخطون، وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد.

(تنبيه الغافلين للسمرقندي)

نار الغضب

«اعلم أنه متى قويتْ نار الغضب والتهبت، وأعْمت صاحبها أصمّته عن كل موعظة؛ لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيغطي على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينيه حتى لا يرى بعينه، وتسوَد الدنيا في وجهه، ويكون دماغه على مثل كهف أضرمت فيه نار، فاسود جوه، وحمي مستقره، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا يسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه.

(منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ت: ٧٤٢)

أسْوأ العبيد حالا

«أسوأ العبيد حالا، وأعظمهم على نفسه وبالا، عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصْرار، ويحدث نفسه به متى قدر عليه، ولا ينوي ولا يعْقد استقامة، فهذا هو حقيقة الإصرار، مقام بين العتو والاستكبار، ونفس هذا هي الأمارة، ويخاف على مثله سوء الخاتمة، لأنه في مقدماتها، وسالك طريقتها، ولا يبعد منه سوء القضاء، ودرك الشقاء.

(الوعظ المطلوب للقاسمي)

مسك الختام

الشعوبية الجديدة

المتتبع للأجواء الفكرية والثقافية والسياسية التي تسود ساحات العالم الإسلامي؛ يقف مشدوها مذهولا إزاء بعض التوجّهات التي أخذت تناوئ العرب وتبغضهم وربما تمنّت لهم الشر والثبور؛ كأن هؤلاء الناس يجحدون بأن العروبة جزء من الوحي الخاتم، فقد اختار الله اللغة العربية وعاءً للتنزيل الكريم ولحفظ الوحي الخاتم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ (يوسف:٢).. فهل يمثل هذا النزوع توجّها جديدا من توجّهات الشعوبية التي عُرفت قديما في تاريخنا الفكري والثقافي والسياسي وتصدى لها مفكرون وأدباء مقتدرون أكفاء من أمثال أديب العربية الكبير الجاحظ.

ومن باب التذكير الثقافي والمعرفي، فإن الشعوبية ـ كما عرفها تاريخنا الثقافي والأنثروبولوجي (علم الإنسان والحضارات والجماعات البشرية): هي مجموعة من التيارات والتوجّهات والمنازع، يجمع بينها عامل أو قاسم كراهية العرب.

يقول المفسر الكبير الإمام القرطبي في تفسيره «الشعوبية تُبغضُ العرب وتُفضّلُ العجم» (١١ / ١٨٩): وقد نسب الإمام ابن تيمية الشعوبية إلى منزع النفاق والضلال والجحود؛ فقال: «ومن الناس من يُفضّل بعض أنواع العجم على العرب، والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاقٍ، إما في الاعتقاد وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس» (اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٤٩).

وللأمانة العلمية نشير إلى أن هذا الفهم غير مقتصر على أهل العلم والفكر من المسلمين ذوي الأرومة العربية، بل إننا نجده أيضا لدى أعلام بارزين من مفكري الإسلام الأعاجم، ممن رفضوا النزوع إلى الشعوبية دفاعا عن الإسلام وعقيدته، واعتصاما بالانتماء الحضاري الذي أسسته الثقافة الإسلامية الموحّدة الجامعة.

أجل إن الحركة الشعوبية القديمة كانت تنتقص كلّ ما هو عربي سواء أكان فكرا، أو لباسا، أو عُرفا اقتضته عادات العرب في نطاق بيئتهم الخاصة في صحراء شبه الجزيرة العربية. ولما جاء الإسلام بأنواره الهادية رسم منهجا جديدا وسطا بين العصبية العربية والتعصّب الشعوبي، كان من أهمّ ملامحه بعث عوامل الوحدة والتقارب بين الشعوب التي اختارت عقيدة الإسلام وحضارته الإنسانية المنفتحة على الآخر، المتعاونة من أجل تحقيق الخير والسلام لكل أبناء الإنسانية.

وكم نحن الآن بحاجة وفي هذه الانعطافة الحرجة المتوترة، إلى أن نبيّن من جديد منهج الإسلام الوسطي الجامع لعوامل القوة والتآزر والتضامن، كي نجنب أوطاننا المسلمة، من الوقوع في شرور شَرَك المؤامرات التي تُحاك لهذه الأمة، والتي يتمّ نسجُ بنودها وتحديد أدوات تنفيذها داخل الغرف المظلمة، ولذلك نحن نفاجأ في كلّ مرة بأسماء وأدوات وأساليب داخل الفضاء العربي والإسلامي تزيد في قتامة المشهد وتضبيب الرؤية.

فليعلم الجميع أن العاصم من قواصم الهلاك والضعف والزوال إنما هو التمسك بحبل الله المتين، الذي تجسده الوحدة والتعاون والتقارب بين أهل الإيمان، وفي ظلال دوحة الحضارة الإسلامية الوارفة العادلة، التي أرساها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

د . إبراهيم نويري
باحث أكاديمي ـ الجزائر



ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعيـة والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي من الشروط:

ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه.
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، وضرورة إرسال البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

الوعي الإسلامي



الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
مواضيع حيوية ومعاصرة
حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
مقالات لأبرز الكتاب الشباب
« الوعي الشبابي » مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي
Shabab alwaei
@alwaeialshababy
www.alwaeialshababy.com

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة
AL-Waei AL-islami
العدد (٥٩٥) ربيع الأول ١٤٣٦ هـ - يناير ٢٠١٥ م

العنف.. لماذا؟
ودوافع الحوار المطلوب (ملف العدد)



تجديد الوعي بحركة التاريخ

الإنسانية.. ومقام الرحمية الواحدة

الحشرات في قائمة الغذاء العالمي

فيلكا.. جزيرة كويتية عامرة بالآثار

موقف الحضارات غير المسلمة من المخالفين في الدين

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٥٩٥ - السنة ٥٢ - ربيع الأول ١٤٣٦ هـ / يناير ٢٠١٥ م

info@alwaei.com
www.alwaei.gov.kw
مجلة الوعي الإسلامي


براعم الإيمان
قلم صغير و فكر منير
جديد إصداراتنا
أخلاقنا الجميلة
قصص للأطفال
www.alwaei.com/baraemnew
@baraemaleimanq8
@baraemaleimanq8
baraemaleimanq8

الرفق ميمون والعنف مشؤوم

الرفق ضد العنف، ومن أعطي حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق، فقد حرم حظه من الخير. وإن العنف يلغي العقل، باعتبار أنه ينظر بعين واحدة، ويأمر بالكره لكل من خالفه، ويورث الحقد والعداوة. ولكي تزدهر الحياة البشرية في المجتمع، وتتأصل كرامة الإنسان من الاحترام والإنصاف، بعيدا عن التعدي والانحراف، ينبغي رفض العنف، فأي مجتمع يسود فيه العنف لا يمكن أن يتقدم ويتطور، وتقام فيه العدالة.

وقد تتحول الاختلافات الفكرية والسياسية والاجتماعية إلى عنف تسود فيه القيم السلبية من التعصب والتنازع والقهر والاستبداد، مقابل قيم العدالة والحرية والتفاهم والاحترام.

والخلاف بين الناس سنة إلهية كونية. وما نراه من العنف والنزاع ينشأ في الأصل من البعد عن المنهج الرباني، والتعاليم الحكيمة، والإرشادات القويمة، والنصائح العظيمة، التي أرشد بها الرسول ﷺ أمته في خطبة الوداع.

ولقد جاءت الشريعة لتقرير الحقوق والواجبات وكفالتها للجميع، من دون تمييز، وقد قالوا في الأمثال:

من لم يحسن إلى الناس قبحت إساءته، ومن حسنت مساعيه طابت مراعيه، ومن كرم خلقه وجب حقه، ومن ساء خلقه ضاق مَذْقه.

فالقواعد والأصول اللازمة للوصول إلى الحق والصواب في النزاعات والمجادلات والحوارات، هي: العدل والوفاء، والرفق والعطاء.. ارحم من دونك يرحمك من فوقك، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى، ومن طال تعديه كثرت أعاديه. فالعنف والتعصب كم جلبا للإنسان من شر، وأوقعا صاحبهما في خسر.

فاحرص مع الآخرين على الرفق والإنصاف، ولا تضخم مسائل الخلاف، واحذر آفة الانحراف.

العنف؛ من اتصف به ضاق صدره، وغاب وعيه، وجانبه الصواب.

وعليك بالرفق فإنه لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، لأن به تسهل الأمور.

ورافق الرفق في كل الأمور فلم ... يندم رفيق ولم يذممه إنسان

ولا يغرنك حـظ جـره خـرق ... فالخرق هدم ورفق المرء بنيان

ومن يحرم الرفق يحرم الخير.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي



الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٥ | ربيع الأول ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
يناير ٢٠١٥ م

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦– ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

● مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢)
● اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: (٠٠٩٦٧) ٣٣١٧٩٧
● لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: (٠٠٩٦١١)٦٥٣٢٥٩ ف: ٦٥٣٢٦٠
● سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
● الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: (٠٠٩٦٢٦)٤٦٣٠١٩١ ف: ٥٣٣٧٧٣٣
● المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
● مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
● الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
● المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
● سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
● قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
● ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
● الجزائر – شركة ام بي سي ت: (٠٠٢١٣)٣١٩٠٩٥٩٠
● تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
● المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة
●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

الله أعلم حيث يجعل رسالته..

النبوة.. ما أعظمها من كلمة! وما أجلها من نعمة!

إنها محض اجتباء من الله لعبد من عباده، وتمام اصطفاء له من بين خلقه، ليكون سفيره إلى الناس، بشيرا لهم ونذيرا، وداعيا إلى صراط الله بإذنه وسراجا منيرا، يبلغهم رسالات ربه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٦٨)..

وهكذا عرفت البشرية مصطفاها الجليل محمدا ﷺ، فقد كان اختياره الرباني مسلسلا بالاصطفاء والانتقاء، اختار سبحانه - بدءا - من خليقته ولد آدم، واختار من بني آدم ولد إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشا، واصطفى بني هاشم من قريش، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدا ﷺ، فهو خيار من خيار من خيار ﷺ.

عن شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم، وعن العباس بن عبدالمطلب، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا، وخيرهم بيتا» رواه الترمذي.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

تجليات الرحمة
في شخص الرسول الرحيم ﷺ

علاء الدين حسن
كاتب دراسات إسلامية

صفة إنسانية نابعة من حب كبير، تستشرف الآفاق، وترقى بنا إلى قيم العزة والاعتزاز، صفة لا تمحق ولا تمحى، رغم عواتي المحن، تمنحنا الدفء والأمان، صفة من صفات الخالق العظيم.. هو الرحمن الرحيم، وهو أرحم الراحمين. قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ (الأعراف:١٥٦).

وجاء في الحديث القدسي الجليل: «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» (رواه الترمذي).

والرحمة نسيج متناسق، فيه لطف وتؤدة. ومن رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل؛ ليكونوا دعاة عطف ينزعون الحقد، قال الله تعالى عن خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). وقال عزوجل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ (التوبة:١٢٨). وقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الفتح:٢٩).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولقد كان ﷺ رحمة في الدين والدنيا، أما في الدين؛ فلأنه بعث والناس في جاهلية، فدعاهم إلى الحق، وبين لهم الأحكام، وميز الحلال من الحرام. أما في الدنيا؛ فلأنهم تخلصوا ببعثته من الذل والهوان، فالرسالة المحمدية رحمة للبشرية، ولاتزال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها.

وحتى الكفار رحموا ببعثته ﷺ؛ حيث أخر الله عقوبتهم، فلم يستأصلهم بالعذاب، كالخسف والمسخ والغرق، كما حدث للأمم السابقة، إكراما له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ (الأنفال:٣٣).

وهذه مشاهد تربوية من سيرة أشرف الخلق، تتجلى فيها الرحمات بأروع صور.. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة لها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت» (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، وغفر له» (صحيح البخاري).

ولم يكن ﷺ يطيق أن يرى دابة تحمل فوق طاقتها، ونهى أن يتخذ من فيه روح غرضا للتسلية، كحال ما يعرف بمصارعة الثيران، ونهى عن التحريش بين البهائم، وأنكر على أهل الجاهلية شق آذان الأنعام، وأمر عند ذبح الحيوان أن يحد المرء شفرته، وألا نذبح ذبيحة ودابة أخرى تنظر إليها، وألا يحد الذابح شفرته بحضرة الذبيحة.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لم

يكن في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه» (رواه أبوداود). وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (صحيح البخاري).
وقال: «من لا يَرحم، لا يُرحم» (رواه مسلم).
وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء» (رواه أحمد).
ومن صفات الرحماء: الصدق مع الله، والأمانة، والإيثار، والتوبة، والعدل.
ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الرحمة بالصبيان.. عن أبي مسعود قال: ضربت غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي، فإذا برسول الله ﷺ يقول: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» (صحيح الجامع، حديث رقم ١٠٧١).
ومن رحمته بالبنات رعايتهن وإكرامهن.. قال ﷺ: «من عال جاريتين حتى يدركا، دخلت أنا وهو الجنة كهاتين» (رواه الترمذي). وقال عليه الصلاة والسلام: «اعدلوا بين أبنائكم» (رواه أحمد).
ودعا ﷺ إلى الرحمة بالوالدين فقال: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم» (رواه الطبراني في الأوسط، ٢٩٩/١).
وفي مجال رحمته بأهله قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (رواه الترمذي).
ومن رحمته ﷺ باليتيم قوله: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة. وقام بإصبعيه: السبابة والوسطى» (ابن حبان في صحيحه).
ودعا ﷺ إلى الرحمة بالجار، فقال: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» (صححه الألباني).

قسما بأن محمدا خير الورى
أهدى إلى الثقلين دينا يعتمد
قسما بأن محمدا بكماله
ما مثله أحد، ولا يأتي أحد

ومن رحمته ﷺ بالناس قوله: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا» (صحيح مسلم).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله! ادع على المشركين. قال: «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة» (صحيح مسلم).
ومرت به ﷺ جنازة، فقال: «مستريح أو مستراح منه». قالوا: ما المستريح، وما المستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب» (سنن البيهقي).
ولو تراحم الناس لما كان بينهم مظلوم ولا بائس ولا محروم.. لو تراحم الناس، لما اقتتلوا ولا سفكوا الدماء.. لو تراحم الناس، لما تخاصموا ولما لجأوا إلى المحاكم لحل النزاعات فيما بينهم.. لو تراحم الناس، لسكنت النفوس.





.. ورجلان تحابا في اللّه

د. الجيلالي سبيع
باحث دراسات إسلامية

وصف النبي ﷺ في الحديث العظيم الذي رواه مسلم في صحيحه السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله بالرجال، والرجل مصطلح يحمل معاني القوة والأمانة والصدق والحلم والأناة، وفي إشارة لطيفة لأحد العلماء فإن عدد المنعمين تحت ظل الرحمان ثمانية، لكن صار العدد سبعة لأن الحب في الله صهر المتحابين فيه فصارا رجلا واحدا وذاتا واحدة، وهذا ملحظ مهم يختصر مآل الصدق في محبة الغير بقصد طلب وجه الله تعالى.

وإذا كانت الأمور تشرف بمقاصدها وغاياتها، فإن الحب: نقيض البغض (١)، والحب: الوداد، وحببته أحبه بالكسر لغة، حبا بالضم والكسر، فهو محبوب، والتحبب: إظهار الحب.

قال النووي في شرح حديث ظل الرحمن (ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه): «معناه: اجتمعا على حب الله وافترقا على حب الله، أي كان سبب اجتماعهما حب الله، واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى، حال اجتماعهما وافتراقهما» (٢).

وقد أضاف الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام الحب إلى الله تعالى، وأنعم بها من إضافة وأنعم به من حب، وهو ما يفهمه المتأمل بعد من قوله «اجتمعا عليه وتفرقا عليه»، والمعنى اجتمعا على مرضاته وما يقرب إليه، ولم تجمعهم أرحام ولا مصالح متبادلة.

وإذا كان الأصل في ذلك محبة الله لعبديه وتوفيقه لهما، فإن إضافة الحب لله تعالى إشارة خفية إلى المظهر الحقيقي للحب الذي تاهت العقول والفلسفات في إدراكه، مع ما في الاجتماع عليه من دلالات على مخبر الحب الذي لا يتوصل إليه إلا بالذوق الذي لو عرفه المعرضون والمغرضون لجالدوا المتحابين عليه بالسيوف.

وإذا كان لكل معنوي ما يدل عليه من المحسوسات، فإن مظاهر الحب في الله عزوجل كثيرة، منها توصيف الإمام الأوزاعي الرائع: «الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إذا لم تكن مثله شانته»، وفي ذلك إشارة إلى الموافقة التي تحصل بين المتحابين لأن قصدهم واحد.

كما تبتغي محبة الشخص لذاته لأن ذلك أدعى إلى السمو بإنسانيته ورفع الاعتبار لشأنه؛ ما يكون رادا له عن سبيل الغي والهوى، فقد مر أبوالدرداء برجل قد أصاب ذنبا وكانوا يسبونه، فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي» (٣). ولهذا قال يحيى بن معاذ الرازي: «حقيقة المحبة أنها لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء» (٤).

وقد سطر الصحابة الكرام صفحات مجيدة في سجل الحب في الله، وهم الذين جسدوه تجسيدا ما بعده تجسيد على أرض الواقع، وتتواتر الروايات حول محبة كل منهم الخير لأخيه وإيثاره له على نفسه، وما قصة من تعجب الله من صنيعهما، والسبعة الذين دار قدح الماء بينهم في ساحة الوغى حتى هلكوا إلا نزر يسير في باب رقيت فيه الأنفس وتآلفت، طلبا لوجه ربها ومولاها.

ومن أروع صفحات الحب في الله ما كان بين المهاجرين والأنصار، ومما ميز علاقتهم القلبية المتينة نصح وإقالة عثرات بعضهم لبعض، فعن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، أن أبا الدرداء كتب إلى أخيه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهما: أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: «إن الأرض لا تقدس أحدا، وإنما يقدس الإنسان عمله، وقد بلغني أنك جعلت طبيبا، فإن كنت تبرئ فنعما لك، وإن كنت متطببا فاحذر أن تقتل إنسانا فتدخل النار» (٥).

وحري بمن اجتمعا على الله أن ينزل أحدهما الآخر منزلة نفسه، ويعرف له حقه وفضله، فقد جاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريد أن أواخيك في الله، فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: اذهب عني» (٦).

وقد وصل تلطف المتحابين في الله ببعضهم، والكرم بينهم درجة رفيعة تعجز الكلمات عن وصفها، وتعبر عنها مواقف من مثل قول أحدهم: «إذا طلبت من أخيك مالا فقال ماذا تصنع به، فقد ترك حق الإخاء» (٧).

إن المواقف المعروضة وغيرها كثير مما حفلت به كتب السير والمغازي والأنساب والرقائق والآداب- دليل على إدراك ذاك الرعيل لقيمة الحب في الله وأهميته في العاجل والآجل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» (رواه مسلم).

قال ابن عبدالبر في المراد بظل الرحمن المبشر به: «وظل الله، عزوجل، في هذا الموضع رحمته -والله عزوجل أعلم- وجنته، وقيل ظل الله، عزوجل، ظل عرش الله... ومن كان في ظل الله، عزوجل، سلم من هول الموقف وشدته وما يلحق الناس فيه من القلق والضيق والعرق» (٨).

وتمثل هذه العطايا والمبشرات الربانية جعل الصادقين على وجه الأرض يستميتون في طلب هذا الحب المفقود، ويتشبثون بكل طريق مؤدية إليه، ولننظر كيف تصرف الصحابي الجليل معاذ رضي الله عنه حين انبرى أمامه شعاع من تلك المحبة اللاحبة، وكيف تمسك بأهدابها في فهم وإيمان عميق بمواطن القرب والزلفى إلى الملك الوهاب.

فعن أبي إدريس الخولاني قال: «دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب براق الثنايا، وإذا الناس معه، إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، قال: فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه، وقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين في» (٩).

وإذا كان كل صادق ولاشك يفني عمره - عبادة وذكرا وعملا وتقربا - طلبا لمحبة ربه ومولاه، وطلبا لسلامة قلبه، وأملا في الفوز بظله ورحمته وعفوه، فإن الحديث يدل على أقصر السبل وأسلكها في الباب، وطالما وصف بالسبيل السهل الذي يقتضي حركة قلبية بسيطة، والأمر ليس كذلك إذا تعلق بقلوب قاسية طال عليها الأمد، وما يفعل لقلب نزعت الرحمة منه، كما جاء في البلاغ النبوي.

وتتوارد الأحاديث والآثار الدالة على ما أعده الله، عزوجل، وهو الكريم المنان للمتحابين بجلاله، فعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزوجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء» (أخرجه الترمذي).

ومرتبة كتلك هي التي جعلت الحسن رضي الله عنه يقول: «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة» (١٠).



وهذا ما حدا بالشرع الحنيف أن يرتقي بالحب في الله إلى مصاف الأعمال والقربات الجهادية العظيمة، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: النبي في الجنة، والصديق في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، ورجل زار أخاه في ناحية المصر؛ يزوره في الله في الجنة» (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان).

وإذا كان من العجب أن يضرب الرجل اليوم أكباد الإبل كي يزور أخاه في ناحية المصر، فإنه يجب رعاية وتعهد ذاك الإحساس الذي ولد تحمل تلك المشاق، لأن المكنونات القلبية تزيد وتنقص، وهذا ما تنبه إليه رسول الله ﷺ في صناعته للرجال، - ومنهم معاذ رضي الله عنه الذي تبهر سيرته الألباب - حيث قال: «يا معاذ إني لأحبك» (أخرجه الإمام أحمد).

فهذا الاعتراف لبنة أولى في تعهد الحب في الله، بما يزرعه في قلب المحبوب من ثقة وإحساس بالاهتمام العاري عن أية دواع نفعية مادية مصلحية آنية، مما يولد في قلبه همة عالية في طلب المعالي.

وهو ما جسده الصالحون بعد رسول الأنام عليه أفضل الصلاة السلام، فقد روى الإمام أحمد: «أن أبا سالم الجيشاني، أتى أبا أمية في منزله فقال: إني سمعت أبا ذر، يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره أنه يحبه لله عزوجل» وقد أحببتك فجئتك في منزلك» (أخرجه الإمام أحمد).

فالزيارة والاعتراف حق للمسلم على أخيه، ما يفتل في حبل العلاقات الأخوية التي تسمو بسمو القصد منها.

وإذا كان التفضل الرباني أصل أصول الحب في الله، لأنه هو الذي ألف بين القلوب (١١)، فإن التضرع والدعاء من مظان صيانة ذاك الإحساس الرفيع وتعهده، ومن أدل ما يستدل به أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «استأذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن وقال: لا تنسنا يا أخي من دعائك، فقال: كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا» (أخرجه أبوداود).

وإذا طُلب الدعاء من رسول الأنام، فمن دونه أولى بالطلب وأحوج، وهو ما تواترت الآثار

حوله في صفحات مجيدة التقت فيها سماحة القلوب وصفاؤها بتوفيق من الله ورعايته.

وقد كان أبوالدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه، وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي: «أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر» (١٢).

فالحب في الله وفاء ومروءة، قال يحيى بن معاذ: «بئس الأخ أخ تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك» (١٣). وفي ذلك عربون على المحبة المبتغية وجه الله تعالى، التي سمى رسول الله ﷺ المجتمعين عليها بأبناء الآخرة، حيث قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا علي، استكثر من المعارف من المؤمنين، فكم من معرفة في الدنيا بركة في الآخرة». فمضى علي رضي الله عنه فأقام حينا لا يلقى أحدا إلا اتخذه للآخرة، ثم جاء من بعد، فقال له رسول الله ﷺ: «ما فعلت فيما أمرتك؟» فقال: قد فعلت يا رسول الله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «اذهب فابل أخبارهم» فأتى علي النبي ﷺ وهو منكس رأسه، فقال له النبي ﷺ وهو يتبسم: «ما أحسب يا علي ثبت معك إلا أبناء الآخرة». فقال له علي: لا والذي بعثك بالحق.

فقال له النبي ﷺ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) يا علي، أقبل على شأنك، واملك لسانك، واعقل من تعاشره من أهل زمانك تكن سالما غانما» (أخرجه أبونعيم في الحلية).

فما أحوج الأمة إلى إحياء هذه المعاني السامية في النفوس، في زمن طغيان المادة وضمور الربانية، وهي معان تجعل للعلاقات الإنسانية امتدادا في الآخرة، حين يكون الخل عدوا لخله إلا المتقين، فالحب في الله وفاء في الدنيا، تصلح به أواصر الصلة بين الأخ وأخيه، ومواقف ثبات يباركها الرحمن، تمتد آثارها بخير في حياة الخلود، حياة الآخرة، ومن صفى، صفي له، ومن كدر، كدر عليه، ومن أحسن في ليله، كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره، كوفئ في ليله. كما قال أبوسليمان الداراني، رحمه الله (١٤).

يقول أحد العارفين بالله مستنهضا الهمم في الباب: «يا غافل، هذا عمرك يتصرم، فماذا أسست من صداقات، وماذا بنيت لآخرتك من معارف، وما شغف قلبك من أحباب؟ أنت مع أولئك يوم القيامة، وأنت من ذلك الصنف أيا كان، فالأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف كما روى مسلم وأبوداود عن أبي هريرة مرفوعا.

الهوامش

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، من ص ٢/٢١٢ إلى ص ٢/٢١٩، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

(٢) شرح النووي على مسلم، ص ٧/١٢١، باب فضل إخفاء الصدقة، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبوزكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) التبصرة لابن الجوزي، جمال الدين أبوالفرج بن الجوزي، ص ٢/٣٠٥، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٤) صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، ص ٢/٢٩٣، ط ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، دار الحديث، القاهرة، مصر.

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبونعيم الأصبهاني، ص ١/٢٠٥، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(٦) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس الجلعود، ص ١/٢٩٦، ط ١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، دار اليقين للنشر والتوزيع، وقد أحال على مخطوط فضيلة الألفة والأخوة، بقسم المخطوطات بجامعة الرياض، رقم (١٦٠٥) فيلم (٥٥٦/ ٦) الورقة (٣٧) المؤلف غير معروف، كتبت في القرن التاسع الهجري تقريبا، والأثر موجود بقوت القلوب، والإحياء، وأدب الدنيا والدين.

(٧) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ص ٢/١٨٠، دار المعرفة، بيروت.

(٨) الاستذكار، أبوعمر يوسف بن عبدالبر القرطبي، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، ص ٨/٤٤٨، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٩) الاستذكار، ص ٨/٤٥١.

(١٠) إحياء علوم الدين، الغزالي، ص ٢/١٧١.

(١١) قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (الأنفال:٦٢-٦٣).

(١٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، عناية حسن المساحي سويدان، ص ١/٣٠، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار القلم، دمشق.

(١٣) صيد الخاطر، ص ١/٣٩١.

(١٤) صيد الخاطر، ص ١/٣١.

د. محمد داود الأمين.. العام للمركز العالمي للقرآن الكريم وعلومه:

لغة الإعلام أخطر من السلاح

حوار: صابر رمضان

الصراع بين الخير والشر والتدافع بين الحق والباطل سنة جارية من سنن الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١). والعلماء في وقت الفتن والمحن لا يذوبون فيها، إنما يقفون موقف المصلح والمرشد والهادي لأمته والوطن، فهم أدلة الإنقاذ والأمناء على الحق، يدعون لدينهم لا إلى مذهب خاص ولا إلى نصرة جماعة أو حزب، ومن هنا يتعاظم دورهم في المحنة المعاصرة التي تعيشها الأمة، وقد تكالبت عليها الأمم وأحاطت بها الفتن، وجاءت موجة عاتية من الشبهات والشهوات والخلافات المذهبية والطائفية وهدم الرموز الفكرية...إلخ من أدوات الفوضى الخلاقة (الهدامة) كما قيل، كل ذلك ليعود المجتمع إلى نسيج مهلهل مفكك منهار، فتسهل إعادة التقسيم لمشروع الشرق الأوسط الجديد، إن الأمر أبعد من كل خلاف، فالأمة في خطر كما يؤكد الدكتور محمد محمد داود الأمين العام للمركز العالمي لعلوم القرآن والأستاذ بجامعة قناة السويس.. «الوعي الإسلامي» التقته وحاورته فإلى نص الحوار:

• بداية.. العالم الإسلامي يتعرض للعديد من الافتراءات للنيل من الدين الإسلامي ورموزه، فماذا لديكم لمواجهة هذه الافتراءات والأكاذيب؟



- من المؤكد أن الافتراءات على العالم الإسلامي عديدة ومتنوعة، فهم يضربون بالشبهات حول العقل لتشكيك المسلم في الثوابت الدينية في القرآن وفي النبي وفي السنة النبوية، بل ويواجه العالم الإسلامي الآن موجة جديدة، هي موجة الإلحاد، وهذه الموجة إنما تدعم فكريا وماليا من الخارج، ويهدفون من وراء ذلك أن يتحول المجتمع العربي الإسلامي إلى نسيج مهلهل، فتكون فكرة المشروع الغربي للتفكيك والتقسيم لمصلحة الصهاينة، لتكون هي الدولة العظمى في المنطقة، لنشر الاختلافات بين كل تنوع، وبدلا من أن يكون التنوع عاملا من عوامل الثراء في الحياة الفكرية عندنا؛ حولوه إلى عامل من عوامل الفرقة والتنازع، ومن هنا وجب على العقل المسلم أن يستحضر وعيه وثوابت العظمة في تاريخنا ليستطيع أن يواجه هذه الحملة الضارية التي نواجه فيها تكتلا دوليا ممكنا بالمال والعلم والاقتصاد والسلاح...

إلخ، وما من شك أن الحروب الجديدة التي تستخدم الفكر واللغة والشائعات وتستخدم التقنية الحديثة لإشاعة الخلافات والاختلافات أنها حروب لها نمط خاص ينبغي أن تكون المواجهة بنفس الأسلوب الذي نحارب به، فينبغي أن نتغير، وأن يكون هناك تحديث للشخصية العربية في المواجهة، لأن المواجهة خطيرة وشديدة، وأصبحت لا تقتصر على المؤامرة بمعنى التدبير الخفي فقط، فالآن الأمور ظاهرة وواضحة ومعلنة، والأوراق شبه مكشوفة ومعلومة، والوعي هو الذي يصنع القوة في الأمة، الوعي بمناحي القوة التي عندنا وبالمخاطر التي تحيط بنا، وأيضا بالنتائج المتوقعة إذا لم يكن كل منا مستعدا للقيام بدوره والتضحية من أجل الوطن والأمة والدين، ومن أجل هذه الثوابت التي هي هويتنا وهي أصالتنا وهي حياتنا وهي كياننا الذي ينبغي أن ندافع عنه.


د. داود مع محرر الوعي الإسلامي

● وهل كان لكم جهود في المواجهة الفكرية ضد هذه الشبهات والافتراءات؟

- نعم بفضل الله وحمده، في المواجهة الفكرية في جانب الشبهات، حيث اجتمع علماء الإسلام ليواجهوا هذه الافتراءات والشبهات والإساءات المتكررة للقرآن والنبي ﷺ، وللأمة عامة، وكان يسيئنا ويسيء كل العلماء رد الفعل الشعبي الذي يتسم بالتهور والاندفاع، والذي تصدر منه بعض السلبيات التي لا يوافق عليها القرآن، ولا تعبر عن عظمة الإسلام، مثل الحرق والتدمير والظاهرة الصوتية من السب والشتم، فأراد العلماء أن يقوموا برد فعل فكري علمي بدلا من رد الفعل الشعبي، فاجتمعنا حول هذا العمل وتفرغنا له خمس سنوات متتالية، وقمنا بعمل مسح لكل الشبهات عبر الإنترنت في المواقع المختلفة والكتب المطبوعة؛ سواء كانت ورقية أو إلكترونية، وتم التصنيف والحصر، وناقشنا المنهج الذي يجدي في مواجهة هذه الشبهات بعمق كبير، وبعد المناقشة انتهينا إلى معالجة الفكر بالفكر، والتمسنا من منهج القرآن في الرد على الشبهات التي أثيرت وقت نزول القرآن، سبيلا للرد على هذه الشبهات، فالقرآن الكريم علمنا كيف يكون الحوار مع المخالف والمفتري علينا، ثم قمنا بتصنيف هذه الشبهات من تخصصات التاريخ واللغة والشريعة..إلخ، ثم كان الرد بالمنهج العلمي الذي يخاطب العقل، ثم كان نقاش هذه الردود مع جمعية السلام الأميركية التي جاءنا فيها علماء من اليهود وعلماء من الكنيسة من أميركا، وتمت مناقشة القضايا الكبرى المطروحة، مثل قضايا المرأة وقضايا الآخر والعنف والإرهاب... إلخ، وتم طبع موسوعة «بيان الإسلام.. الرد على الشبهات» في أربعة وعشرين مجلدا، وهو جهد يذكر فيشكر لإسهام علماء الأزهر الشريف بالقدر الأكبر في إنجاز هذه الموسوعة، أمثال د. الأحمدي أبوالنور وزير الأوقاف الأسبق، ود. أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق، وجمع من أساتذة كلية أصول الدين والشريعة بالأزهر الشريف، وبحمد الله أقمنا موقعا كبيرا للموسوعة؛ حسبة لوجه الله، وهو أكبر موقع متخصص للرد العلمي على الشبهات والافتراءات.

● وهل تصب هذه الجهود في خدمة وعي الأمة الإسلامية؟

- نعم.. فمن المهم أن تكون صناعة الوعي على بينة، وأن يتصدى له أهل الذكر المتخصصون؛ لأن الردود الانفعالية التي تأتي بعيدا عن أهل التخصص قد تسيء أكثر مما تصلح، وهناك الآن جهد مماثل في الرد على شبهات الإلحاد، فالإلحاد في هذه الهجمة إنما يتخذ العلم تكئة له، حيث يقول البعض: إن الذين لا يؤمنون بالدين قد صعدوا الفضاء، على حين أن المسلمين ليس لهم موقع على الخريطة العلمية العالمية، وقد اجتمع العلماء في سلسلة تصدر تحت عنوان «حوار الإيمان والإلحاد» تكشف هذه الادعاءات، فديدننا أننا لا نهاجم، لأن القرآن علمنا الخلق، ولا ندافع لأننا ليس لدينا سوءة نضع أنفسنا موقع الدفاع عنها، وإنما نبين الحقائق التي تعبر عن عظمة هذا الدين، بالحكمة والموعظة الحسنة.

● ما تذكره يتمركز حول الجهد النظري.. فماذا عن الواقع الذي تعيشه الأمة ألما ومعاناة؟!

- الجانب العملي من أهم المهم، فالأمة تعيش في فتنة خطيرة، وهي فتنة الاختلاف السلبي،

وهدم بعضنا لبعض، حتى إن الأسوة فقدت، لأن الناس يرون الدعاة يسب بعضهم بعضا، وهنا يجب التعقل فإلى أي شيء ندعو الآخر: إلى السب والشتم؟! ولماذا لم يظهر الإسلام فينا الرحمة والسماحة؟ ونرد على هذا الواقع الصادم ونؤكد كثيرا أنه لا يوجد أحد حجة على الدين، مهما كان، فمن أخطأ فهو مخطئ، لكن الصورة العامة في العالم العربي والإسلامي صورة مؤسفة، تتسم بالسلبية، وصادمة وتدعو الآخر إلى أن ينفر منا، وبالتالي ينفر من الإسلام، ومهما حدثته عن العظمة في القرآن فإنه لن يصدق لأن الواقع في أزمة، فينبغي أن نصحح الأمل... وهو أفعالنا وسلوكاتنا، إذا أردنا تصحيح الصورة وتصحيح الأفكار، واسترداد الوعي يمثل البداية الصائبة والجادة لأن نغير ما بأنفسنا من علل أو خلل، إنها هموم أمتنا وآلام واقعنا، وإهمالها دون مواجهة ومعالجة معناه أن تأتي علينا هذه الهموم وتفتك بنا هذه الآلام.

• وما سبب هذا الواقع المتأزم الذي يعيشه العرب والمسلمون؟

- الواقع المتأزم للعرب والمسلمين هو ما صنعته السياسة بالاستخدام السيئ للدين من خلافات وصراعات، بل وحروب، وهذا لم يحدث لدين دون دين، حدث للأديان الثلاثة اليهودي، المسيحي، الإسلامي، فالصهيونية كحركة سياسية تدمر وتقتل الأبرياء، وتحتل الأرض باسم اليهودية، ولا يمكن لعاقل منصف أن يتعامل مع الصهيونية على أنها اليهودية، فاليهودية دين، لذلك رأينا من اليهود من يعترض على أفعال الصهاينة، ويقف ضدها في المحافل، بل ليهاجمها، ومن هؤلاء المفكر اليهودي الأميركي «نعوم تشومسكي» وعلى مستوى النصرانية لا يمكن إغفال ما صنعته السياسة من الاستخدام السيئ للدين، كما حدث في محاكم التفتيش في أوروبا، وقتل العلماء باسم المسيحية واسم الكنيسة، ولا يمكن إغفال الاستخدام السيئ للصليب الذي هو رمز للتضحية عند المسيحيين، فحولته السياسة إلى رمز للقهر والحروب والتدمير في الحروب الصليبية، وأيضا الصراعات التي صنعتها السياسة على مستوى العالم الإسلامي؛ أساءت للإسلام والمسلمين، والإسلام منها بريء، فالعنف كما يقرر الخبراء ليس صناعة دينية بأي حال، إنما هو صناعة سياسية بين أطراف النزاع والمصالح لإدارة الصراع، كل طرف لمصالحه حسب رؤيته.

• هناك من يدعو من العلمانيين ومن على شاكلتهم لتهميش دور الدين في الحياة حتى يرتقوا كما ارتقى الغرب العلماني.. فماذا تقول لهم؟

- هناك شائعة أو قل فكرة يريدون لها الشيوع، وهي وافدة من الغرب في الأساس، فهم يقولون إن أوروبا تقدمت لأنها تركت الدين، فإذا أردتم أيها المسلمون التقدم فتخلوا عن الدين، ويقصدون الإسلام، وهذه أكذوبة، فأوروبا أخذت بأسباب التقدم وأسباب الحضارة فتقدمت، ونحن تخلفنا لأننا لم نأخذ بأسباب التقدم، ولم نتخلف لأننا التزمنا بالدين، بل لأننا أهملنا الدين، فعندنا في الإسلام ليس هناك صدام بين العلم والدين، كما عند الآخرين، فالقرآن دعوة للعلم من أول كلمة صافحت قلب النبي ﷺ، بل ويذكر القرآن حقيقة علمية تحثنا على البحث، ولم يكن للبشرية خبر بهذه الحقائق وقت نزول القرآن، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ (العلق:١-٢)، فما كان للبشرية خبر بمراحل تطور الجنين، ولا بهذه الحقائق العلمية. والقرآن هو كتاب العقل أيضا، جاء يخاطب العقل، والعلم في الإسلام له منزلة عالية، والتخلف العلمي جريمة في حق المسلمين، فالقرآن أمرنا بالحث والاكتشاف، وجعل العلم سبب العزة والرفعة، قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ (المجادلة:١١)، فالإسلام لا يخاصم العلم، بل يتناغم معه ويأمر به، وليس في القرآن ما يصادم العلم، كما توصل إلى ذلك العالم الفرنسي موريس بوكاي في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث»، حيث خرج بنتيجتين، أولاهما: أن القرآن هو أكثر الكتب السماوية اشتمالا على حقائق العلم الحديث، وثانيتهما: أن القرآن وحده هو الذي لم يصادم حقائق العلم الحديث في شيء.

• كثر الحديث عن نهضة الأمة الإسلامية.. فما مفتاح

نهضتها من وجهة نظركم؟ وكيف يتحقق ذلك؟

– ركيزة هذه الحضارة على جناحين، جناح الإيمان وجناح العلم، وظلت الحضارة الإسلامية تتسيد كوكب الأرض كله، حتى نهاية القرن الخامس الهجري، عندما كانت تقوم على جناح الإيمان وجناح العلوم التطبيقية، من طب وفلك وكيمياء، لكن الآخر أشاع أفكارا سلبية عن الإسلام، حين أشاع مصطلح العلوم الشرعية وقصره على العلوم الدينية: الفقه والتفسير...إلخ، وقالوا إن هذه العلوم هي التي فيها الثواب من الله تعالى... وتركوا علوم التمكين: الطب والهندسة... إلخ، العلوم التي اصطلح عليها باسم العلوم الطبيعية، والحق أن هذه العلوم شرعية أيضا، لأنها ذكرت في القرآن لحثنا على طلبها... فالبحث العلمي فيها هدى قرآني، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ (العنكبوت:٢٠)، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (يونس:١٠١)، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:٥)، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾ (عبس:٢٤)، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ﴾ (الغاشية:١٧)، فالنظر في فضائه الدلالي، دعوة إلى البحث والاكتشاف...إلخ. وجاءت بعض سور القرآن بأسماء بعض الحيوانات والطيور والزمان وغير ذلك، مثل سورة النحل والعنكبوت والنمل والليل والشمس...إلخ. وفي بحث علمي قامت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بحصر قرابة ألف ومائتي آية تتحدث عن حقائق الكون وما فيه.

● تتحدث كثيرا في مؤلفاتك عن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.. فماذا تقصد به؟

– ما من شك أن القرآن كتاب معجز، وإعجازه اللغوي من لحظة نزوله، ساعة أن تحدى الله به فرسان البلاغة، والمعجزة معناها أن يكون الكلام على وجه يعجز عن البشر أن يأتوا بمثله، ومنذ أن ألف الإمام عبدالقاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» وهو يوضح أن للقرآن هذا النظم المخصوص به، هنالك بلاغة على المستوى البشري، لكن القرآن بهذا المستوى الرباني إعجاز منقطع النظير، ولذلك العلماء من بعد «السكاكي» يميزون بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية، والجديد الآن الدراسات التي تعتبر امتدادا للنظرية النظمية، فنحن إذا نظرنا إلى الكلمة داخل النظم القرآني فسنجد إعجازا على مستوى الكلمة... وعلى مستوى الحرف داخل الكلمة... وعلى مستوى الحركة، وكل يرتبط بوجه معجز بالنظم على مستوى الآية، ولا تجد هذا في غير القرآن.

● وهل هناك صلة بين التقدم العلمي والإعجاز في القرآن الكريم؟

– ما من شك في أن الإعجاز دافع لأن تنهض الأمة وتأخذ دور السبق، فإن كان القرآن قد سجل السبق في بعض الحقائق العلمية، وفيه دليل على أن القرآن حق، لكن أيضا فيه حجة علينا أن يكون منا السبق، فهو حافز للسبق العلمي، حتى يكون لنا موضع على الخريطة العلمية العالمية.

● ما تقييمكم لأداء المؤسسات الإسلامية، على مستوى العالم الإسلامي؟

– لي أمل وطموح أن ينهض الأفراد وأن تنهض المؤسسات على اختلاف أنواعها، حتى تؤدي دورها، فالفائز في هذا الزمن من يدرك دوره ومن يؤدي دوره ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، نحن أمة في خطر.. فلا مجال للكسل أو الخمول أو الأثرة والأنانية، فلابد من التضحية إذا أردنا أن نتجاوز الخطر بنجاح.

● ما نصيحتك للأمة الإسلامية؟

– نصيحتي هي وصية رسول الله ﷺ فينا، وهي التراحم والمحبة والتسامح، فما كنا في حاجة لأن يسامح بعضنا بعضا مثل حاجتنا اليوم، وما كنا بحاجة إلى أن نعتصم بالله كحاجتنا اليوم، ومن الضروري إحياء الأوامر القرآنية، ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ ﴿وَتَعَاوَنُواْ﴾ ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ ومن أهم المهام في هذا السياق استعادة الثقة بالنفس، فالهزائم النفسية أخطر الهزائم التي تفتح باب الانهيار على الأمم، ونصيحتي إلى إخوتنا في الإعلام العربي عامة: دوركم خطير.. ومؤثر، وهو إما أن يصنع صمودا وثقة.. وإما أن يصنع انهيارا وضعفا، فاحذروا ترويج الشائعات، أو ما يعمق هوة الخلاف.. أو ما يؤدي لاهتزاز الثقة بالنفس، فاللغة على لسان الإعلام أخطر من السلاح في يد العسكري.



الردة الأخلاقية وأثرها على أمن المجتمع

د. خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية



تقاس نهضة الأمم ومدى حضارتها وتقدمها بما يحمله المجتمع من أخلاق حسنة وطيبة، ولو فتشنا في مسار التاريخ لوجدنا أن القرون الثلاثة الأول (عهد الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين) هو العصر الذهبي، فقد فاقوا كل العصور إيمانيا وتعبديا وأخلاقيا، وهذا بشهادة رب العالمين لهم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ (التوبة:١٠٠).

وشهد كذلك ﷺ لهذه القرون الثلاث بالخيرية في كل شيء، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» (متفق عليه) وتواترت هذه الشهادات عبر الأجيال، بل وشهد وأشاد الأعداء بهذه الأخلاق الطيبة. قال هرقل - وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم -: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض، فقال: أنت صدقتني (١).

فإنهم -رضي الله عنهم- كانوا أبر قلوبا، وأعمق علما، وأقل تكلفا، وأقرب إلى أن يوفقوا إلى الصواب من غيرهم، لما خصهم الله به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك

وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب (٢). لقد فتح الله قلوب العباد وكذلك البلاد بسبب أخلاق هذا الجيل، التي أبهرت العالم كله، وبسبب باب الإيمان الذي فتحه هذا الجيل بينهم وبين ربهم، ففتح الله لهم كل المغاليق ويسر لهم كل الأمور ودان لهم العباد بالطاعة؛ لأنهم أطاعوا الله وامتثلوا أمره وتخلقوا بأخلاق القرآن وبهدي نبيهم ﷺ.

ويعد المسجد المحضن التربوي الأول للأمة كلها؛ وذلك لتمتعه بمقومات وأسس المنهج التربوي الذي يشبع الجانب الروحي والعقلي والبدني؛ ومن هذه المقومات:

- صلاة الجماعة: صلاة الجماعة لها من الفوائد والحكم ما إن تحققت في المسلمين لقاد المسلمون العالم كله، ولو أقمناها بخشوع وخضوع، بكامل أركانها، لنهتنا عن الفحشاء ومساوئ الأخلاق، ومن هذه الفوائد والحكم التي شرعت من أجلها الصلاة:

١- التعبد لله تعالى بهذا الاجتماع؛ طلبا للثواب وخوفا من عقاب الله، ورغبة فيما عنده.

٢- التوادد، وهو التحاب؛ لأجل معرفة أحوال بعضهم لبعض، فيقومون بعيادة المرضى، وتشييع الموتى، وإغاثة الملهوفين، وإعانة المحتاجين؛ ولأن ملاقاة الناس بعضهم لبعض توجب المحبة والألفة.

٣- التعارف؛ لأن الناس إذا صلى بعضهم مع بعض حصل التعارف، وقد يحصل من التعارف معرفة بعض الأقرباء، فتحصل صلته بقدر قرابته، وقد يعرف الغريب عن بلده فيقوم الناس بحقه.

٤- إظهار عز المسلمين، وذلك إذا دخلوا المساجد ثم خرجوا جميعا، وهذا فيه إغاظة لأهل النفاق والكافرين، وفيه البعد عن التشبه بهم والبعد عن سبيلهم.

٥- تعليم الجاهل؛ لأن كثيرا من الناس يستفيد مما شرع في الصلاة بواسطة صلاة الجماعة، ويسمع القراءة في الجهرية فيستفيد ويتعلم، ويسمع أذكار أدبار الصلوات فيحفظها، ويقتدي بالإمام ومن بجانبه وأمامه فيتعلم أحكام صلاته، ويتعلم الجاهل من العالم.

٦- تشجيع المتخلف عن الجماعة، والقيام بإرشاده وتوجيهه، والتواصي بالحق والصبر عليه.

٧- تعويد الأمة الإسلامية على الاجتماع وعدم التفرق؛ وهذه الصلاة في الجماعة ولاية صغرى؛ لأنهم يقتدون بإمام واحد يتابعونه تماما، فهي تشكل النظرة العامة للإسلام.

٨- تعويد الإنسان ضبط النفس؛ لأنه إذا اعتاد على متابعة الإمام متابعة دقيقة، لا يكبر قبله، ولا يتقدم ولا يتأخر كثيرا، ولا يوافقه، بل يتابعه- تعود على ضبط النفس.

٩- استشعار المسلم وقوفه في صف الجهاد كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ (الصف:٤)، فهؤلاء الذين صاروا صفا في الجهاد لاشك أنهم إذا تعودوا ذلك في الصلوات الخمس سوف يكون ذلك وسيلة إلى ائتمامهم بقائدهم في صف الجهاد، فلا يتقدمون ولا يتأخرون عن أوامره.

١٠- شعور المسلمين بالمساواة، وتحطيم الفوارق الاجتماعية؛ لأنهم يجتمعون في المسجد: أغنى الناس بجنب أفقر الناس، والأمير إلى جنب المأمور، والحاكم إلى جنب المحكوم، والصغير إلى جنب الكبير، وهكذا، فيشعر الناس بأنهم سواء، فتحصل بذلك الألفة؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بمساواة الصفوف حتى قال: «ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» (مسلم).

١١- تفقد أحوال الفقراء، والمرضى، والمتهاونين بالصلاة؛ وإذا تخلف بعضهم عن الجماعة عرفوا أنه كان مريضا، أو عاصيا، فينصحوه فيحصل التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخيرا فإن العملية التعليمية على مستوى أغلب الشعوب العربية والإسلامية تقوم على الروتينية إلا من رحم ربي، هذه الروتينية التي تهدم الإبداع في النفوس، وتهدم كل الجوانب المعرفية والثقافية في المتعلمين، حيث يخرج لنا -إن تخرج- أشباه متعلمين، يحملون شهادات عليا وقلوبهم وعقولهم خاوية، قد تمكن الجهل منهم، وتفاحل حتى أصبح جهلا مركبا، والمصيبة الكبرى التي تفجع قلب كل غيور أن تتولى هذه الشرذمة مقاليد وزمام الأمور، وأن يقع عل عاتقها مسؤولية تنشئة هذا الجيل، فتتكامل حلقات الجهل لتصبح ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أرد الإنسان أو المجتمع الإفادة والمعرفة فلا يجد إلا سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حيث فرغت العلوم من مضمونها وتباعدت عن أهدافها، فلا نجد أثرا علميا ولا تربويا ولا أخلاقيا، فتحدث الأزمة الاجتماعية والردة الأخلاقية التي يعاني منها كثير من طلاب العلم في جميع مراحل التعليم، حيث لا يجد في معلمه القدوة والقدرة العلمية والأخلاقية، ولا علاج لهذه الأزمات الاجتماعية المتتالية والردة الأخلاقية إلا بإصلاح منظومة التعليم على المستوى العربي والإسلامي، وهذا لا يتم بالجهود الفردية، ولكن لابد من إيجاد حلقات تواصل حقيقية ومستمرة ونشطة بين أبناء العالم الإسلامي، هذه المنظومة هدفها إحياء العلم والقيم والأخلاق.

الهوامش

١- البداية والنهاية ١٥/٧، ١٦ بتصرف.

٢- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لأبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ٣٨٢/٢.

٦

الأنانية ومقام الرَّحميَّة الواحدة

د. عطية الويشي
باحث أكاديمي

الشهوة إحدى تجليات الغريزة التي غرزها الله فينا من أجل تحصيل لذة مشروعة ومتعة هادفة، تحفظ للمجتمع وضعه الآدمي وطابعه الإنساني، وتضخ له عبر مشاريع التوظيف الإيجابي للطاقة الجنسية: نماذج بشرية وأنماطا متميزة من العلاقات الاجتماعية المؤسسة على مفاهيم «الزوجية» و«الأسرة»، ونحو ذلك من حميميات القرابة الرّحميّة التي تمثل أعلى مستويات العلاقة الاجتماعية بين الإنسان وأخيه الإنسان في المنظور الإسلامي؛ فالرحم من ثَم، رباط موثوق.. وضع له الإسلام تقديرا ذا أولوية في المسار الأخير لتقنين العلاقات بين الناس بعضهم ببعض.. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ (الأنفال:٧٥)؛ فالأرحام: «جمع رحم- وهو موضع وقوع نطفة الذكر لدى الأنثى- سمي بذلك لانعطافه وحنوه على ما فيه» (١).

والرحم هنا يعكس المفهوم الأرقى لمجالات العلاقة الزوجية ومآلاتها من كل الوجوه.. وإن لكل ما ينبثق من هذه الرحم اعتبارا اجتماعيا محترما ومصونا؛ فقد روى البيهقي في شعب الإيمان حديثا قدسيا صدره بعبارة طريفة تنم عن وعي مبكر بهذه الروح الرّحميّة للإنسانية المؤمنة، حيث قال: «فصل في صلة الرحم وإن كانت كافرة»، عن عبدالرحمن بن عوف: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «قال الله عزوجل: أنا الرّحمن، أنا خلقت الرّحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته» (رواه البيهقي).



رحميّة النفس الواحدة.. والفطرة الموحِّدة

ويردنا منطق الفطرة إلى النظر في المكونات النطفية للإنسان؛ لنعرف يقينا: أننا من صلب واحد، ودم واحد، وعرق واحد، وصبغة واحدة، وملامح هيئية واحدة.. ولولا ذلك ما كنا بشرا أسوياء! ثم ننتقل إلى أحد الروافد السببية لوجودنا: «أبوة آدم» و«أمومة حواء»: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾(النحل:٧٢)؛ فالآية تكشف عن أبعاد الفعل الإبداعي للرب جل وعلا في تنمية الوجود الإنساني وإغنائه بروح الائتلاف والتعاون الهادف، من خلال واحدية المنزع النفسي المشترك.. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(النساء:١)؛ تلك النفس الواحدة: هي المعلم التاريخي الجامع الذي ينتهي إليه النسب البشري بكافة روافده وفروعه، من «البنين» و«الحفدة».. أولئك الذين يتألف منهم الفعل الزواجي الهادف المنضبط بروح الوحي «الأمين» على النفس البشرية، الموجه لها إلى ما فيه صلاحها ووقايتها من التلف والفساد.. وتأمين حركتها في فلك اجتماعي تنموي متفاعل.. تتفرع عنه حلقات اجتماعية ودوائر حضارية متعددة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

وهنا يبدو التوجيه الرباني، ويتجلى هذا الإبداع الخلّاق في صياغة خريطة العلاقات البشرية من خلال مفهوم «النسب» و«المصاهرة»، معتمدا منهج المتوالية الرحمية الهندسية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١).

والأمر بتقوى الله إلى الناس هو إيعاز للمجتمعات الإنسانية بتحري الوصلات الرّحميّة، وتتبع مؤشراتها التواصلية الوحدوية المشدودة بكرامة التقوى.

ولقد أولى الله تعالى هذه الرّحم عناية وتقديرا، وقدر لها أولوية في الرعاية والالتزام الأدبي والأخلاقي والرعوي، والتواصل الاجتماعي البرِّي الودود الحميم، سواء بالبر المعنوي أو المادي أو بالنوال؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» (رواه البخاري). وفي شأن المواريث قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٥)؛ فليت شعري! كم هي قيمة الإنسانية حين تكون ودودة مودودة بأصولها وجذورها، متواصلة متعاطفة متراحمة!

ذلك، وقد نهى الإسلام عن عقوق الوالدين، وأمر بالإحسان إليهما، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(الإسراء:٢٣).

ولنتأمل كيف استخدم الوحي لفظ «أف» في معرض النهي التحذيري من إيذائهما بما يوجب النفور والهجر والقطيعة. وبمفهوم المخالفة فإن الأمر بـ«البر» الواصل يأتي مقابلا للنهي عن «الأف» الفاصل!

وهنا يجدر التنويه بأن البر في أصله: سلوك فطري وعفوي في مجمله، يؤكده الشرع ويتوخاه بالاستدامة من خلال إدراجه في منظومة العبادات القربيَّة؛ وإنه بالرجوع إلى الرحم الأولى التي ترتب على المرء واجب مراعاة وصل هذه الرحم، مهما بعدت أو قربت؛ هذا الواجب يتراوح في مراتب وجوبه ما بين الوجوب العرفي الاجتماعي والإنساني، والوجوب الشرعي.

ومن الشواهد الدالة على البر والصلة الرحمية في السياق البشري العام: ما ورد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، إذ قالت: «قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك» (رواه البخاري). والمعنى أنها قدمت طالبة في بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة؛ هكذا فسره الجمهور. وقال الخطابي: فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه، كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة، وإن كان الولد مسلما. وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة، والسفر في زيارة القريب (٢).

وعلى الرغم مما تعرض له النبي ﷺ من استفزازات المنافقين، لكنه كان يؤكد دائما على صلتهم والبر بهم؛ وقد مر رسول الله ﷺ ذات مرة على عبدالله بن أبي بن سلول، وهو في ظل، فقال: «قد غبر علينا ابن أبي كبشة»، فقال ابنه عبدالله بن عبدالله: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب لئن شئت لآتينك برأسه، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته» (أخرجه ابن حبان).

ذلك، ولم يوص الله تعالى الإنسان مطلقا آكد من الوصية بالوالدين – ولو كانا على غير الإسلام – إذ وصاه في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٤-١٥)؛ فإذا كان من فطرة المرأة أن تتزوج وتحمل وتلد وترعى وتربي وتتعنى بالوهن.. فمن الفطرة كذلك أن تبر وتوصل ويحسن إليها؛ بلزوم صحبتها ومعاملتها بالمعروف الذي هو من عرف الفطرة!

والحقيقة، أنه لا يمكن لأمة أن تنأى عن الرحمة ومراعاة الأرحام وهي تستفتح كافة ما تشرع فيه من أعمال قلبية وبدنية باسم الله «الرّحمن» «الرّحيم»!.. كيف ذا والله تعالى يقول مخاطبا «الناس» كل الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)؟! إن الالتفاتة القرآنية المباشرة التي استهلها الخطاب الإلهي بـ «يأيها الناس» «اتقوا ربكم»: إنما توحي بنداء المحب للألفة، والحريص على الوحدة والاجتماع.. الكاره للتشظي والتفرق والشقاق..

ذلك ولم تستقم رواية تاريخية

أو خبرة بشرية سندا وعقلا، تفيد باستمرار نكاح الإخوة أو المحارم؛ اللهم إلا ظنا أو وهما بلا سند أو أثارة من علم يقيني؛ أما اليقين فهو الفطرة والعرف البشري المتناهي أصالة وقدما.. ثم والشرع الذي يسندها ويرسخها، إذ يأتي التأكيد الإسلامي على صيانة هذه العلاقات الرحمية بمجموعة الإجراءات الاحترازية والاحتراسية، وذلك من خلال وضع الإشارات الحمراء والخطوط التشريعية التي ينبغي ألا يتجاوزها إنسان مؤمن، ذو حس فطري أصيل.. فحرم زواج المحارم، حيث قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾(النساء:٢٣).

ذلك، ولم يكتف دين الفطرة بهذا التحريم، بل قرنه بمجال محارميّ آخر، يكشف عن وجوه حكمة الاحترام المتقرر فطرة وشريعة، وهو ضرورة الحفاظ على قاعدة التواصل الاجتماعي والإنساني؛ محمية من نزق الغرائز وجموح الشهوات!.. ذلك، لأن الشهوة حين تدخل على خط المشاعر والعواطف، فإنها تقتضي الميل والتنافس والرغبة في الاستحواذ على نحو ما.. وهذا في حد ذاته خادش لمروءة العلاقة الرّحميّة، فليس وجيها عند الله أن تتعرض الروابط الرّحميّة التي جُعلت للعالم البشري مثلما جُعلت الجبال أوتادا للأرض؛ حافظة لها من الفوضى والتخلخل والاضطراب..

ولأن عاطفة الأمومة والأخوة والخؤولة والعمومة لا تقبل القسمة بهذه الطريقة الشهوانية! وإنما هي رحمة رحميّة موزعة بعدل الله على كل ذي نصيب منها بالسوية؛ ومن ثم فإن فطرة الإنسان تأبى أن تصير المؤمنة «ضرة» لأختها، أو لعمتها، أو لخالتها، فضلا عن أمها! فمثل هذه العواطف الشريفة: فطرة متجذرة في النفس البشرية؛ فإن الأم، أو الأخت، أو العمة، أو الخالة في سياق أي عاطفة منحرفة عن هذا الخط الفطري الأصيل: لا يمكن بحال أن تصير زوجة ولا ضرة لكل من يدين لها بالولاء الرّحمي في سياق هذه العواطف السامية؛ وإلا لوقعت الوحشة والنفرة والشقاق والنزاع والتنافس والصراع بين الناس؛ فاستحلال الرّحم يؤدي إلى قطعه، وهذا مما يخالف أعراف الفطرة والشريعة التي تقتضي الاجتماع والتعارف والتآلف.. بل إنه ينافي الاحترام المشروع في حق المحارم الذين هم في الحقيقة -كما أسلفنا- قاعدة التواصل وأصل التراحم بين الناس ينمو رأسيا بالنسب، وعراقة الانتماء الباعث على الجدية والالتزام الأخلاقي تجاه النسق الأسري والعشائري والاجتماعي الذي يعيش فيه، ويتمدد أفقيا بالمصاهرة والتعارف الاجتماعي والحضاري الإنساني، حيث تتوافر حلقات جديدة للتراحم ودوائر للتفاعل الخلّاق.

ولقد شرع الإسلام تأمين وحماية العلاقات الرّحميّة والروابط الأسرية من أسباب التهتك والاهتراء.. فقد «نهى رسول الله ﷺ عن أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على ابنة أخيها، أو المرأة على خالتها، أو الخالة على بنت أختها، لا تنكح الصغرى على الكبرى، ولا الكبرى على الصغرى» (أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح). بل إنه ﷺ في رواية أخرى يقول: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفئ صحفتها ولتنكح، فإنما لها ما كتب الله لها» (رواه مسلم). كل ذلك ليس من أجل تحقيق أرفع قدر من الارتباط الرّحمي والتواصل بين الأقارب: إخوانا وأنسابا وأصهارا أحبابا فحسب؛ وإنما من أجل تجذير الفروع الاجتماعية وربطها بأصولها: أفرادا وجماعات وقبائل وشعوبا وأُمما وحضارات.

الهوامش

١- أبوالحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي (ت: ١١٨٩هـ): حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، جـ١، ص١٦، بتصرف.

٢- شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد ابن حجر الشافعي العسقلاني الكناني (٧٧٣-٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، جـ٥، ص٢٣٤.

العُنفُ.. لِمَاذا؟



د. آندي حجازي
أستاذة علم النفس التربوي

قتل قابيل هابيل، وبدأ العنف منذ اللحظة الأولى لوجود الإنسان على الأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ (البقرة:٣٠). قد يكون العنف موجودا عبر الزمن ولكنه في زماننا عمّ واستشرى وأصبح ظاهرة تستحق البحث والدراسة والخروج بحلول، فلم تعد حالة فردية تحدث هنا أو هناك في مكان عابر.. فلا يكاد يمر يوم بلا سماع لأخبار العنف، حيث تفتح الصحيفة فتجد أخبارا لا حصر لها لعنف طائفي، أو عنف سياسي، أو عنف أسري، أو عنف مجتمعي، وعنف مدرسي، وعنف جامعي، وعنف في الشارع، وفي العمل، وفي الإعلام.. تفتح التلفاز فتسمع عن مقتل ومصرع، وجرحى، واشتباكات هنا، ودمار هناك، وجرائم بشعة ترتكب، وهي أحداث مستمرة متتالية يوميا!

وعندما ترغب بسماع محاورة لتنمي مكنوناتك الفكرية، أو تستمع لنقاش بين متحاورين في محطات فضائية عربية؛ فإنك تتعجب كيف يحدث فجأة التراشق بالماء وبالألفاظ النابية، والتضارب بالأيدي، بشكل عجيب، ينتهي معه الحوار، وأحيانا تصل إلى استخدام الأحذية!! فهل هذا من أساليب الحوار الناجحة التي نتوقع لها أن تكون قدوة للأجيال الناشئة، ولحل المشاكل والخلافات؟! نسأل الله الهداية والصلاح لأبناء أمتنا العربية.

العنف ممارسات خاطئة ضد الآخرين، بها مبالغة بردود أفعالنا، وتتضمن الأذية للآخر، وتأخذ عدة صور وأشكال؛ فهناك العنف اللفظي الذي يتضمن: السباب والتهديد والتجريح والإهانات والاستهزاء بالآخر، والعنف الجسدي ويشمل: استخدام القوة البدنية؛ سواء بالضرب، أو الركل، أو التعذيب، أو القتل، أو الاغتصاب، أو أية صورة من صور العنف البدني، والعنف النفسي في صور مباشرة أو غير مباشرة: كالإهمال، أو التجاهل، أو التحقير، أو التهديد المستمر، واستخدام الألفاظ النابية.

والعنف مرفوض بكل صوره وأشكاله؛ أخلاقيا وسلوكيا ومجتمعيا وفكريا.. لا لأنه يؤدي للدمار المادي والمعنوي فحسب، بل لأنه أيضا يؤدي إلى الكراهية والحقد واستمرار العنف؛ فالعنف يجلب عنفا بلا توقف، إلا بشق

الأنفس، وإثر خسائر كبيرة، مادية وجسدية ومعنوية! وقد يرجع المجتمعات للخلف عشرات ومئات السنوات، من التخلف والضياع والشتات!

والعنف يلحق بالمعنّف آثارا نفسية مستمرة؛ من اكتئاب وحزن وانطواء وخجل وتلعثم وحقد وضعف شخصية، أو عدوان وانحراف... فخذ مثلا الأم أو الأب الذي يضرب أبناءه باستمرار (فلا أسلوب آخر لديه)؛ ما حجم الخسائر التي ستترتب على سلوكه هذا؟ إنها خسائر جسدية ونفسية ومعنوية، تستمر مدى الحياة، فتؤدي إلى الإحباط وضعف الثقة بالذات، وانهزام الشخصية للأبناء، والكراهية للناس، والانحراف السلوكي والأخلاقي، وتزرع العدوانية والتبلد.. وغالبا ما ينحدر المجرمون من بيئات تسلطية كهذه.

إن استخدام العنف هو دليل على فشل الحوار العقلاني في حل المشكلات، فيدل على قلة وعي الأفراد في أساليب الحوار والنقاش وإدارة النزاعات، ويعكس وجود مشكلة أو خلل ما، لدى الأشخاص المرتكبين للعنف، وأن لديهم قصورا ذهنيا في التعامل مع الموقف أو المشكلة التي يتعرضون لها، وهو دليل على اضطراب نفسي وسلوكي، ومؤشر لضعف الشخصية وقلة الثقة بالنفس، ويدل على فشل التحكم بالعواطف والانفعالات، وإدارة الذات والآخرين بطريقة حكيمة، تقلل من حجم الخسائر. كما يعكس العنف توجهات الفرد أو الجماعات وأفكارهم التي يؤمنون بها، والطريقة التي نشأوا عليها في بيوتهم ومدارسهم ومجتمعاتهم.

لماذا يمارس الأشخاص العنف؟

إن العنف في الإنسان قد يكون فطريا، ولكنه ذو درجات متفاوتة عند البشر، والأصل أنه يمكن التحكم به، ولكن هناك عوامل تغذيه وتنميه لدى البعض، حتى يصبح مدمرا طاغيا.. ولذلك لا يكفي النظر والسماع لحوادث تتضمن العنف بأشكاله ومتابعتها دون تحريك ساكن، فعلينا الخوض في أسبابه من أجل التوصل لحلول جذرية لمشكلته؛ فالمتطلع إلى المستقبل يرى الوضع آخذا في الزيادة، ما لم يتم البحث في جذور المشكلة، وألخص تاليا أسباب العنف ومنابعه وهي:

التربية الأسرية

للمنزل تأثير عميق على السلوك والاتجاهات ونضج الانفعالات للفرد، والمناخ الأسري الذي ينشأ به الإنسان يشكل شخصيته ويؤثر بشكل مباشر على سلوكاته وانفعالاته وأفكاره، فأنماط التفاعل والقيم والنماذج السلوكية يتم تعلمها بداية من المنزل.. فالجو الأسري المشحون بالتوترات والخلافات والعنف واعتداء بعض الأطراف على الآخر، كاعتداء الأب على الأم أو الأبناء، يترك آثارا سلبية على الأبناء، لا تحمد عقباها، فيتعلم الابن العنف من المشاهدة المتكررة لوالده أو والدته يمارسان العنف، فيصبح الطفل يعتقد أن هذا هو الأسلوب الأمثل في حل القضايا والمشكلات العالقة أو المتأزمة، وأنه لا أسلوب آخر يجدي غير ذلك! فعندما يخرج للمجتمع ويواجه صعوبة فإن أول شيء يستخدمه هو يداه وسليط لسانه، لا عقله وحكمته! فلو كان الابن تعود في بيته أساليب الحوار والنقاش وتبادل الآراء والأفكار لحل المشكلات، فإنه حتما سينقل هذا الأسلوب معه أينما حل وارتحل، والعكس صحيح.

فتعلم العنف والعدوان يبدأ من البيت، ومنذ الصغر، ومن رؤية نماذج أمام الطفل أو المراهق، فما إن يصبح شابا حتى يخرج للمجتمع بنموذج مشوه من العلاقات والتفاعلات البشرية، وردود الأفعال، وحدة الانفعالات! فنسمع بعد ذلك عن عنف جامعي وعنف طائفي...

ووجد بالدراسات التربوية أن البيت الذي ينقصه الحب والمودة والرحمة وإظهار مشاعر الألفة والمحبة بين أفراده، وتسوده سلوكات العنف بأنواعها، والصراخ والتنازع المستمر، والمشادات الكلامية، بعيدا عن الحوار والتفاهمات واحترام رأي الآخر؛ هو بيت ينشئ أفرادا قلقين مكتئبين، كارهين للآخرين، غير منتجين، عنيفين، حاقدين، يبغون التخريب والانتقام، ويمارسون العنف كما مورس عليهم من قبل، بل ويتقبلونه بشكل طبيعي! فينقلون العنف للمدرسة والجامعة والشارع والعمل، ومع أسرهم المستقبلية... فترتفع لديهم مستويات العدوانية بنسب أكبر بكثير من الأسر المستقرة، الداعمة لأبنائها عاطفيا بنسبة قد تصل إلى ٦٠٪، وتزداد لديهم مشاكل الوقوع في الانحرافات السلوكية والإدمان على المخدرات والمسكرات والانتحار والقتل، والاعتداء الجنسي، والتسلط على الآخر، والاضطرابات النفسية.

غياب الحوار

هناك علاقة تبادلية بين الحوار والعنف؛ فكلما كان الحوار نشطا وإيجابيا، وفتحت أبوابه مع الجهات المتناقضة أو المتخالفة؛ فإن نزعات العنف ستقل وستؤدي لنتائج أفضل بكثير مما سيجنيه العنف، لأن الحوار يتضمن محاولة فهم الآخرين وسماع وجهات نظرهم، وإقناعهم بوجهة نظرك بشكل منطقي، مدعوم بالحجج والأدلة، من أجل الوصول إلى صيغ من التفاهم والتعايش والتكامل والارتقاء بالوجود البشري؛ لأن الإنسان مخلوق اجتماعي، خلق بالأصل ليتعايش مع الآخر، وهو مخلوق ناطق من أجل أن يطرح أفكاره ووجهات نظره وبدائله، ويتوصل إلى تسويات وتفاهمات واتفاقيات مشتركة، تحترم إنسانية الإنسان.

والمشكلة أننا وفي عالمنا العربي لم

نتعود الحوار منذ الصغر، فلا ندرب عليه أبناءنا في مدارسنا أو بيوتنا.. فالمعلم لا يستمع لطلبته وإنما يملي عليهم أفكاره وآراءه، ويصب عليهم المعلومات صبا، دون حوار أو نقاش، إلا من رحم ربي، والوالد في البيت لا يعوّد أبناءه أن ينتهجوا منهج التحاور والتشاور في أمور حياتهم وقراراتهم الأسرية، فماذا نتوقع من نتائج؟!

وهذا أحد أسباب تفوق الغرب وتقدمه اليوم؛ وهو تعويد أبنائهم على الحوار وإبداء الرأي، والاستماع للرأي والرأي الآخر، واحترام وجهات نظر الآخرين والتسامح معها، والتفكير بها والبناء عليها من أجل الوصول للقرارات السليمة؛ ولذلك تجد أن العنف ليس سمة ظاهرة يومية لديهم أو طوفانا مجتمعيا يأكل مجتمعاتهم أكلا لما ويلحق بها الدمار من كل النواحي، كما هو الحال في الكثير من المجتمعات التي يسود فيها الاستبداد وتكتم فيها الأنفاس! ولذلك فالحوار لديهم أساس في حياتهم وعلى جميع المستويات، فانظر مثلا للتحاور على مستوى اختيار رئيس للولايات المتحدة، حيث لا يصل الرئيس للحكم إلا بعد سلسلة من الحوارات والنقاشات بين الرؤساء المرشحين وبشكل علني! لأن هذا أسلوب حياتهم التي تعودوها في مدارسهم وجامعاتهم ومعاهدهم ومؤسساتهم وأسرهم، فلا يوجد شخص يتخذ القرارات بشكل فردي، ويمليها على الآخرين؛ لأن هذا التصرف هو التسلطية والفوقية المقيتة التي تثير النزاعات والصراعات.

فغياب الحوار هو أساس الصراعات في عالمنا اليوم، وخاصة في عالم الشباب، فحينما يشعر الشاب أن لا أحد يسمع صوته أو يهتم لوجهة نظره ليحقق طموحاته؛ فإنه يبحث عن طرق أخرى يفرغ بها طاقاته ويوصل بها أفكاره، خاصة أن الشباب طاقة مفعمة بالحيوية والنشاط والقدرات، وهذه الطاقة المتحفزة تحتاج للتوجيه في المسار السليم، دون إجبار أو إكراه، بل بأساليب راقية تناسب الانفتاح الكبير السائد في عالمنا اليوم؛ كالاستماع والحوار وتقبل الآخر، وليس الحوار التسلطي، أو العاجي، أو الإلغائي، أو ذا الطريق المسدود من بدايته! وقد قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:١٢٥).

الظروف الاقتصادية

والظروف الاقتصادية السيئة والفقر والبطالة وقلة الوظائف، خاصة لدى فئة الشباب، الذين إن لم يتم الاستماع لهم وحل مشكلاتهم؛ فإنها تكون دافعا كبيرا لدى البعض من أجل ممارسة العنف، فتبدأ بالعنف اللفظي والانتقادات وتوجيه التجريحات والتصريحات، وتنتهي بالعنف المادي والجسدي والسرقة والقتل والتخريب والدمار أحيانا! حيث الشعور بالظلم وعدم العدالة لدى الطبقة الفقيرة، أو العاطلة عن العمل؛ يشكل لديها دافعا كبيرا لممارسة العنف بكل أشكاله، والانتقام من الآخر الذي يعتقدون أنه سلب حقوقهم، ولم يستمع لصوتهم، ولم يرع حق الله فيهم.

فعند انتشار حالات الفقر والبطالة في المجتمع؛ فإن الجلوس على طاولة الحوار والبحث عن حلول للمشكلات، خاصة لدى المسؤولين والمتخصصين وصنّاع القرار هو الحل الأنجع للوصول لنتائج أفضل في حل مشكلات المجتمع الاقتصادية، وعدم الانتظار حتى تتفاقم الأمور من خلال الإهمال والتهميش والقتل والانتحار، وانتظار الأسوأ، أو التلاعب والتحايل! وفي جميع الأحوال فإن العنف لن يؤدي للوصول لحلول ناجعة، بل سيفتح أبوابا لمشاكل أخرى إضافية، ويؤدي لزيادة تعقيدات الأمور.. فالتحاور هو الطريقة الراقية في حل المشكلات وطرح الأفكار والآراء المفيدة، والتي تتحول لمشاريع وطنية منتجة إيجابية تدر الدخل، وتفتح أبوابا لبعض المهن والوظائف.

دور المدرسة

فحينما يمارس مدير المدرسة، أو المرشد، أو المعلم العنف مع التلاميذ -ومنذ الصغر والمراهقة- من أجل تقويم السلوكات، واتخاذ الضرب والعنف الجسدي واللفظي والنفسي أسلوبا في العقاب والتربية للطلبة، في قصص يشيب لها الرأس! ومع إغلاق أبواب الحوار والاستماع لوجهات نظر الطلبة وازدرائها والتقليل من شأنها! والتركيز على حفظ المعلومات دون نقل التعليم للواقع، ودون أن يتماشى مع حاجات المجتمع؛ فإننا حتما سنبقى بعيدين كل البعد عن الارتقاء بمستوى طلبتنا وأبنائنا نحو التطور والتقدم المنشود لمجتمعاتنا، وسننشئ أبناء يتقبلون العنف ويعتمدونه منهجا في الحياة!

بل إن المراقب للواقع يجد أننا في تراجع وانحدار في مستوى التعليم ومخرجاته، لأننا لم نجعل التعليم من أجل نمو المجتمعات أو

الارتقاء بالعلوم والحضارات وحل المشكلات المجتمعية؛ بل أصبح لملء وقت الفراغ لطلبتنا، ومكسبا للعيش لمعلميهم، دون أن يكون رسالة سامية! مع أن من أساليب التربية والتعليم الحديثة اعتماد استراتيجيات تدريسية قائمة على المناقشة والحوار، والتعلم التعاوني، والتعلم في مجموعات للنقاش والخروج بالنتائج التشاورية.

وأشير هنا إلى أن اليونسكو عملت عام ٢٠١٠م على الإسهام في تنفيذ مشروع «وقف العنف في المدارس: دليل المعلم» بهدف التعليم للجميع، دون عنف مدرسي.



أفلام العنف

غالب ما يعرض اليوم من الأفلام من أجل التسلية يتضمن العنف والتعنيف والقتل، ومشاهد كثيرة لفنون العنف وطرق القتل والدمار؛ حتى أصبح الشباب يستمتعون بمشاهدة تلك الأفلام! والمشكلة أن يصبح الشخص يستمتع بتلك المشاهد ويستمرئ وقوع القتل والعنف بكل طرقه، مع أنه محرم بديننا إلا بحق! ووسائل الإعلام اليوم لها نصيب الأسد في التأثير على سلوك أبنائنا، وتشير معظم الدراسات إلى أن هناك ارتباطا إيجابيا قويا بين مشاهدة البرامج التلفزيونية العنيفة وبين السلوك العدواني، حيث إن معدل ارتكاب جرائم القتل يزداد بعد مشاهدة أفلام العنف بدرجات كبيرة، قد تصل إلى ٤٠٪ لدى الشخص، فالمشاهد العنيفة تولد أشخاصا يتمتعون بسلوك إجرامي، وهي محرض قوي على الجريمة وارتفاع معدلاتها، خاصة لدى فئات المراهقين والشباب، بما تمتلئ به من إثارة وحركة واندفاع.

ووجد بالأبحاث أن مستويات هرمون الذكورة مرتفع بطبيعة الحال لدى المجرمين من الرجال المتورطين في الجرائم العنيفة، وأن الذكور يرتكبون ستة أضعاف ما ترتكبه الإناث من جرائم القتل.

وتشتكي الكثير من الأمهات محاولة أبنائهن تقليد سلوك الأبطال في أفلام العنف، كالمشاركة في مشاجرات واستخدام أسلحة غير حقيقية، بل واتخاذ أبطالها نماذج تحتذى في سلوكاتهم! وتقول إحدى الأمهات: أغيثوني.. ابني الذي لم يتجاوز خمس السنوات يقلد أبطال أفلام العنف في سلوكه! ما يعني ضرورة مراجعة وتفحص ما يقدم لأبنائنا وشبابنا، حتى لا يدس السم في العسل!

ناهيك عن الألعاب الإلكترونية التي تمتلئ بألعاب العنف والقتال، والتي انتشرت بشكل رهيب بين الأطفال والمراهقين، وأصبحت لها مقاه خاصة وأماكن تسلية! وتشير الدراسات أنها أكثر خطورة من أفلام العنف، لأن الألعاب تتضمن التفاعل والتشارك من قبل الطفل أو المراهق أو الشاب، بحيث يصبح هو البطل، ويبدأ بالبحث عن حلول معينة على القتل والقتال واستخدام الأدوات والأساليب المتنوعة لذلك، مما ينمي لدى الشخص حب العنف وأساليبه وطرقه مع قبوله ببساطة!

وتظهر العديد من الدراسات أن الحضور الرئيسي للألعاب الإلكترونية هو غالبا للأولاد من سن (٨-١٤) عاما، وهذه هي السن الأخطر لتشرّب طرق العنف وأدواته، وأن الأولاد هم (٥) أضعاف البنات الذين يستخدمون ويملكون الألعاب الإلكترونية؛ فيصرفون أوقاتا أكثر بكثير مما تصرفه البنات على الألعاب الإلكترونية. كما تبين دراسات أميركية أن ٧٠٪ من الألعاب الإلكترونية المنتشرة اليوم تتضمن العنف! ووجدت أن ألعاب الفيديو العنيفة تفقدك الإحساس بالآخر والشعور بالألم ومعاناة الآخرين! وهذا ما وصلنا إليه!

لذا ننصح بالتقليل من الألعاب المثيرة للعنف، ومراقبة ما يقدم لأبنائنا، وانتقاء الألعاب الإلكترونية التعليمية المشجعة على التفكير وحل المشكلات؛ حيث الألعاب الإلكترونية سلاح ذو حدين، وفق ما تستخدم لأجله.

وأؤكد أن العودة دوما للكتاب والسنة النبوية، واتباع هديهما هو خير معين على اتباع الحق والبعد عن الفتن والضلال، وقتل النفس بغير حق، وارتكاب الجرائم التي حرمها الشرع، فتعاليم ديننا هي المنهج المساعد على التذكير بأهمية تحكيم العقل والفكر والمشاورة عند اتخاذ القرارات وحل المشكلات، للارتقاء بالشعوب.

أستاذ علم الاجتماع في المركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية والجنائية د. سميحة نصر:

الإحباط سبب رئيسي للعنف

«الإحباطات العديدة التي يعاني منها الشباب هي أحد الدوافع الرئيسة لنزوعهم إلى العنف».. هذا ما تؤكد عليه أستاذ علم الاجتماع في المركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية والجنائية الدكتورة سميحة نصر، مشيرة إلى العديد من العوامل الأخرى كالأسرة والمؤسسات التعليمية التي لها يد فيها.. وتحدثت الخبيرة الاجتماعية في حوارها مع «الوعي الإسلامي» عن الدور السلبي والإيجابي للأسرة والمؤسسة التعليمية والإعلام في الظاهرة.. فإلى التفاصيل:

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية

• تتزايد مظاهر المدنية في المجتمعات، ومع ذلك يتزايد العنف أيضا، فما هو مفهوم العنف من منظور اجتماعي؟

- هو أي سلوك يلحق أذى بالفرد أو بغيره من عناصر المجتمع، أيا كان هذا السلوك.. لفظيا أو ماديا أو معنويا أو جنسيا، فاللفظي يعني السب والقذف، والمادي هو الاعتداء الفعلي باليد أو بأي وسيلة تسبب أذى ملموسا، سواء بإنسان أو بشجر أو حيوان أو مرفق من المرافق العامة.. وبالطبع أخطرها الاعتداء على إنسان، وهناك أيضا العنف المعنوي الاجتماعي والنفسي، ويكون عن طريق الإهمال أو استخدام إشارات أو إيماءات، كنظرة السخرية، فهنا استخدام لغة الجسد للتعبير عن الإيماءات صورة من صور العنف التي تحدث أذى نفسيا.

وهناك العنف الجنسي، سواء باللفظ، أو اللمس، أو ما هو أكثر من ذلك؛ فهو درجات مختلفة لأنواع سلوك العنف التي تلحق أذى بالآخر، الذي قد يكون إنسانا أو حيوانا أو نباتا، مثل تقطيع الأشجار أو الامتناع عن ريها، أو جماد عن طريق تشويه صورة الحوائط، وحرق المباني، وتبديد الممتلكات والمرافق العامة، وكل ذلك أنماط من العنف المذموم.

الأسرة والمدرسة

لو أخذنا مصر كمثال.. لماذا تزايد العنف فيها خلال السنوات الأخيرة؟

العنف موجود على المستوى الإقليمي والعالمي، وازداد في الآونة الأخيرة إلى حد ما، وبالنظر إلى حالة مصر فهي من أقل الدول التي يمارس فيها العنف، لأن طبيعة المواطن المصري مسالمة ومتسامحة.

يجب علينا ألا نتجاهل وجود العنف بدرجة أو بأخرى في المجتمع، وأن نتصدى له في جميع المجالات، فالعنف ليس قاصرا على المشهد السياسي، بل هناك أيضا العنف الأسري، الذي يمارس داخل نطاق الأسرة بين الزوج والزوجة، ومن الوالدين تجاه الأبناء أو بين الأبناء بعضهم البعض، أو من الأبناء تجاه الوالدين.. أيضا هناك عنف بين طلاب المدارس وبعضهم البعض، أو بينهم وبين معلميهم، وكل هذا يعد نواة للعنف المجتمعي فيما بعد.

ومن خلال دراسة على المجتمع المصري على عينة تم اختيارها بطريقة عشوائية بلغ قوامها ٥٩٩٥ فردا بين فئات عمرية مختلفة، موزعين على ٩ محافظات، أخذنا منهم عينة الشباب، فوجدنا أن العنف أكثر التصاقا بالذكور منه إلى الإناث، وأنه اتخذ أشكالا مختلفة، لكن أكثر الأشكال التي يمارسها الذكور من الشباب هو العنف الجسدي، وعند مقارنتهم



مع الإناث وجدناهن يستخدمن العنف اللفظي أكثر من العنف الجسدي، فهن أقل بكثير من الشباب الذكور في ممارسة العنف، وذلك موجود في مجتمعنا، لكن بصورة قليلة.

● أي الأسباب أكثر في دفع الشباب إلى العنف؟

- كثرة الإحباطات التي يتعرض لها الشباب، المتمثلة في الأوامر، ومنعه من التعبير عن رأيه، وليس من حقه أن يقرر أو حتى حرية اختيار الكلية التي يرغبها، وعدم إعطائه الفرصة لكي يصنع نفسه بنفسه، عن طريق التدخل في صناعته، حتى يصل الأمر إلى اختيار الزوجة، علاوة على كثرة الضغوط الحياتية، قد تكون نفسية كالإهانة، وعدم مقدرته على تحقيق ذاته، والتقدير المتدني لذاته، وعدم مقدرته على تحقيق رغباته أو ميوله، وقد تكون ضغوطا اجتماعية، متمثلة في فقدان أعز الناس إليه، أو أحد أفراد أسرته، مما يتسبب في ضغوط نفسية شديدة، كلها تعتبر من أكثر الدوافع للعنف، خاصة في حال غياب الوازع والتنشئة الدينية السليمة.

أيضا، هناك أسباب ودوافع أخرى قد تكون عوامل اقتصادية، لعدم امتلاك الشاب أموالا لاستكمال دراسته أو بداية حياته المهنية والأسرية بعد التخرج، وهناك علاقة قوية بين العنف وبين الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، والمشقة التي تسببها بصفة خاصة لدى متوسطي التعليم، والضغوط النفسية خاصة تؤدي إلى عنف.

وقد يكون الفقر هو السبب، إضافة إلى البطالة، كونها عاملا لإفراز أنماط عنف مختلفة، علاوة على الزحام والتكدس السكاني، بل وأيضا ارتفاع درجات الحرارة والتلوث البيئي.

أيضا البعض يفقد أحيانا السيطرة على الانفعال، وقد تكون سمة من سمات الشخصية، نتيجة عوامل مكتسبة أو وراثية، ربما تكون نتيجة لوسائل الإعلام المختلفة، التي تحتفي بالعنف خلال نشرات الأخبار أو برامج الأطفال، والأفلام والدراما، مما يعلم كيفية ممارسة العنف، علاوة على أن الكبت يولد الانفجار.

● وماذا عن دور الأسرة في العنف؟

- دون أن ندري نعلم أبناءنا العنف، من خلال معاملتهم بغلظة شديدة، علاوة على تعليمهم إهانة الوالدين، واستخدام العنف المعنوي المتمثل في الإيماءات أو العنف اللفظي عن طريق السب، إضافة إلى العنف البدني والكذب، وهناك دور للأسرة في تدعيم ومنع العنف، على أساس تربية الأبناء على قيم التسامح والمحبة والتآخي وقبول الآخر، وبث القيم الأخلاقية، فالأسرة تبني شخصا تعتمد عليه الدولة فيما بعد، إضافة إلى دورها في التوعية وبث القيم الأخلاقية والدينية، ومنع العنف عند ملاحظته، مع توضيح أنه لا يتناسب مع ديننا ولا عاداتنا ولا تقاليدنا، خصوصا أن جميع الأديان السماوية تمنع العنف.

وسائل الاتصال الحديثة

● وماذا عن العنف في المؤسسة التعليمية؟

- هناك عنف من بعض المدرسين تجاه الطلاب، خاصة أن زيادة عدد الطلاب في الفصل الواحد يشكل ضغطا على المدرس، وهو ملتزم بمنهج دراسي، يجب الانتهاء منه خلال العام، فالمشكلة من البداية تتمثل في الكثافة السكانية، ولابد من حلها، ليس عن طريق الحكومة فقط، لكن لابد من تكاتف الشعب.

والمؤسسة التعليمية تشارك في العنف عندما تلاحظه بين الطلاب ولا تتدخل لمعالجة الأمر، لأنه لابد عليها أن تمنعه وتبحث عن المتسبب فيه ومحاولة حله، وكان لي دراسة عن العنف بين طلاب المدارس، على مستوى الجمهورية، بين طلاب المرحلة الإعدادية والثانوية، للوصول إلى حجم العنف بين طلاب المدارس، كون وسائل الإعلام في هذه الفترة قالت إن العنف بينهم وصل إلى أعلى درجة، لكن الدراسة أثبتت أن العنف

ليس بالصورة التي تعلن عنها وسائل الإعلام، وكانت أقل بكثير، ووضعنا توصية أن هذا القليل يؤشر بحدوث الكثير فيما بعد، إذا لم نتصد له، وبالفعل بدأ يزداد في الآونة الأخيرة.

● وما دور تطور وسائل الاتصال الحديثة وألعاب الحاسوب في زيادة العنف؟

– وسائل الاتصال الحديثة تلعب دورا كبيرا في العنف بين الشباب، ويظهر ذلك من خلال السب والقذف وتشهير الأشخاص بين بعضهم البعض، وصور شديدة من ممارسات العنف، لأن المركز يقوم بدراستين: إحداهما عن ثقافة الحاسوب والإنترنت، وأخرى عن جرائمهما، وتبين أن من أكثر صور العنف انتشارا خلالها كان السب والقذف والتشهير، وهناك سرقات من خلال بطاقات الائتمان، وتجارة السلاح والمخدرات والأعضاء، واستغلال النساء.

مواجهة العنف

● هل من استراتيجيات لمواجهة العنف بالنسبة للشباب؟

– يجب احتضانهم، وإعطاؤهم الفرص للتعبير عن ذاتهم، وإتاحة فرص للعمل، لتحقيق كيانهم، وإشغال وقت الفراغ نتيجة البطالة الشديدة، مع الحد من الزحام والكثافة السكانية التي نعاني منها، وتوفير الإسكان، وتحقيق احتياجاتهم الأساسية، مع بث قيم التسامح وقبول الآخر، أيا كان نوعه أو الديانة، أو الجنسية أو المهنة، علاوة على تنظيم برامج توعية يتم من خلالها تعريفهم بالعنف ومشكلاته المختلفة، للقضاء عليه والحد منه، سواء كانت برامج تقودها مؤسسات أو جمعيات أهلية، أو الإذاعة والتليفزيون، فنستطيع من خلال ذلك الوصول إلى عدالة اجتماعية، بحيث يحصل كل فرد على حقه.

● وما دور المؤسسات التعليمية المختلفة في معالجة العنف؟

– جميع المؤسسات الاجتماعية، والتعليمية، بما فيها الأسرة والمدرسة والجامعة، والجامع والأصدقاء.. لهم دور في منع ممارسة العنف، مثلا من خلال المناهج الدراسية، ومعالجته، وأن تتحدث من خلال المناهج عن قيم التسامح والإخاء.

أيضا المؤسسات الدينية عليها أن تناهض العنف في خطب الجمعة، وأن تدعو إلى التسامح والإخاء ونبذ العنف.

● ما الجهات المعنية لحل مشكلة العنف؟

– كل فرد في المجتمع عليه دور في تهدئة نفسه وكبحها من ممارسة العنف، بالإضافة إلى جميع المؤسسات، المتمثلة في الأسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة، والإعلام، ومنظمات المجتمع المدني، ووزارات التعليم العالي والداخلية والأوقاف، من خلال الخطب الدينية، سواء يوم الجمعة أو في أي مناسبات مختلفة، ومن خلال برامج توعية تنظمها مراكز البحوث المختلفة، ووزارات الشباب.

● وماذا عن الإعلام؟

– الإعلام عليه تنظيم برامج توعية مختلفة، من خلال الإذاعة والصحافة، وخاصة التليفزيون، كونه أكثر وسيلة إعلام منتشرة وتفيد المجتمع الذي يمتاز بنسبة كبيرة من الأمية، فبهذه البرامج نستطيع الحد من هذه الظاهرة، مع بث القيم وكيفية الحد من العنف، علاوة على مناقشة الجرائم التي تنطوي على شكل من أشكال العنف وكيفية ردعها، مع توضيح آثار ذلك على الفرد والمجتمع، ووزارة الداخلية لها دور لأن تتصدى لكل أنواع العنف، لكن ليس بمواجهته بالعنف، لأنه يؤدي إلى تصاعده، ولابد من مواجهته بأساليب علمية سلمية.

● وما دور المركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية والجنائية في معالجة الظاهرة؟

– المركز بصدد إعداد مشروع دراسات وبحوث عن العنف في المجتمع المصري، وأنا أشرف عليه، منها دراسة عن العنف في الحياة اليومية في المجتمع، ودراسات: العنف والمشقة، وعقاب الأبناء بين الأسرة والمدرسة، ودراسة العنف بين طلاب المدارس وبعض المتغيرات الشخصية واتجاهات أولياء الأمور نحو ظاهرة العنف، إضافة إلى اتجاهات المؤسسة التعليمية نحو العنف بين طلاب المدارس.

وهناك الوصف الأيكولوجي، ويعني المتغيرات البيئية التي تدفع إلى العنف، وكان هناك دراسة عن عنف الشباب، نفذت على مستوى الجمهورية، وكانت مأخوذة من دراسة العنف الذي يحدث في الحياة اليومية.

كما درسنا العنف ضد المرأة، بالاشتراك مع وزارة الشؤون الاجتماعية، ودرسنا عنف المرأة، ووجدنا أن النساء الأميات أو متوسطات التعليم، يقمن بالنصيب الأكبر من العنف، لكن بدأ الأمر يتطور حتى وصل للفئات المختلفة والراقية في المجتمع.

وعند المقارنة بين عنف الرجل والمرأة نجد أن جرائم عنف الرجل أضعاف ما ترتكبه المرأة، فهي بطبيعتها هادئة، لكن إذا ارتكبت العنف تكون أكثر شراسة.

مؤسسات المجتمع المدني.. والحوار المطلوب

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي مصري

«الحوار» في إحدى مترادفاته غير اللفظية قد يعني: الحياة! هكذا بلا مبالغة!

إذ إن غياب الحوار يعني بالضرورة حضور نقيضه وناقضه، وهو العنف، والاحتكام إلى لغة الرصاص؛ مما يفضي في النهاية إلى أن تكون حياة الإنسان أهون الأشياء، وبلا قيمة!

ومن ثم، كان الحديث عن «الحوار» وعن ترسيخه وتدعيمه، وعن التبصير بأهميته وخطورة غيابه.. من أولى الأولويات، التي يجب أن ينشغل بها أي مجتمع يبحث عن تماسك نسيجه، ووحدة صفه، ورقيه الحضاري، ويتطلع إلى مواجهة التحديات التي لا يخلو منها زمان ولا حال.

إننا بقدر ما ندرك حرمة استحلال الدم المعصوم، وخطورة اللجوء إلى العنف كوسيلة لحسم الخلافات، وفرض الرؤى والتوجهات؛ فإننا ندرك مدى حاجتنا إلى انتهاج الحوار سبيلا لتقريب وجهات النظر، ولتفادي الدخول في طريق مسدود، لا صوت فيه يعلو على صوت الرصاص!

أما عن الأمر الأول -وهو حرمة الدماء المعصومة- فلو لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية غير هذه الآية الكريمة في باب الزجر عن سفك الدماء بغير حق، لكانت كافية رادعة لمن يحذر الآخرة، ويخشى غضب الله وعذابه؛ وهي قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢).

فقد جعل سبحانه «قتل الواحد كقتل الجميع، وكذلك الإحياء؛ ترغيبا وترهيبا؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور أن قتلها كقتل الناس جميعا، عظم ذلك عليه، فثبطه. وكذا الذي أراد إحياءها؛ إذا تصور أن حكمه حكم إحياء جميع الناس، رغب في إحيائها» (١).

وأما عن الأمر الثاني -وهو أهمية الحوار وضرورته- فنشير إليه بأن الله سبحانه قد ضرب لنا المثل



بما فعله أول الزمان مع خلقه؛ من الملائكة وآدم وإبليس؛ فقد حاور سبحانه الملائكة في خلق الإنسان، وأجاب عن تساؤلاتهم؛ وحاور آدم في معصيته ثم تاب عليه، وحاور إبليس في تكبره ثم أمهله إلى يوم الدين.. مع أنه سبحانه غير محتاج لذلك كله؛ فهو صاحب الأمر والنهي بكلمة واحدة: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ (مريم:٣٥).

ولاشك أن كل مؤسسات المجتمع؛ التربوية والدينية والتثقيفية والإعلامية والسياسية، إضافة إلى الأسرة –وهي النواة الأولى التي يتفتح فيها وعي الإنسان– مسؤولة عن ترسيخ الحوار؛ كل مؤسسة بحسب أهميتها وطاقتها.

وإذا كان المجتمع المدني بمؤسساته المتعددة –السياسية والحقوقية والتنموية والاجتماعية– هو «حلقة الوصل» بين الدولة الحديثة؛ الساعية بطبيعتها لفرض سيطرتها، والتغول بنفوذها على مختلف المجالات، من ناحية، وبين المجتمع الباحث عن حريته وحقوقه، ومكتسباته المادية والمعنوية، من ناحية أخرى؛ فإن دور مؤسسات المجتمع المدني في تدعيم الحوار، وإشاعة ثقافته، دور محوري وأساسي.

ولا يقتصر دور مؤسسات المجتمع المدني على كونها وسيطا بين الدولة والمجتمع، بل هي أيضا وسيط بين فئات المجتمع نفسه وطبقاته.

أسباب متعددة

من المهم قبل أن نسأل: ما دور مؤسسات المجتمع المدني في ترسيخ الحوار، وفي معالجة ظاهرة العنف التي تجتاح مجتمعاتنا من آن لآخر؛ أن نشير إلى أهم الأسباب الداعية إلى وجود تلك الحالة أصلا؛ حتى نتبين بدقة طبيعة الدور المنوط بتلك المؤسسات.

ولا يغيب عن بالنا أن ثمة أسبابا متعددة تقف وراء إذكاء جمرة العنف، وإفساح المجال للغضب المكتوم أن يتدحرج مثل كرة لهب، تقذف بشررها في كل اتجاه.

فالتربية الأسرية التي يغيب عنها التراحم والتواد، ويتسلط فيها أحد الزوجين على الآخر، في حالة استئساد عجيبة قد تكون مظهرا من مظاهر الكبت الذي يواجهه خارج نطاق الأسرة.. هذه التربية لا تغرس بذرة الحوار، ولا تنشئ طفلا سويا يعرف للآخرين حقهم في التعبير والاختلاف.

كما أن شيوع خطاب ديني يقوم على اتجاه واحد؛ غافلا عن سعة ومرونة الفقه الإسلامي، الزاخر بمدارس شتى ومذاهب متعددة، وذاهلا عن سنة الله في خلق الناس مختلفين؛ في اللون، والجنس، والعرق، والدين، والفهم.. هذا الخطاب الديني من شأنه أن يكون رافدا من روافد التعصب المفضي إلى العنف وإلى تمزيق لحمة المجتمع.

وفي هذا السياق، نذكر موقف الإمام مالك بن أنس حين رفض طلب أبي جعفر المنصور –ومن بعده هارون الرشيد– بجمع الناس على كتابه «الموطأ»، قائلا له: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا له، من اختلاف الناس –أصحاب رسول الله ﷺ– وغيرهم؛ وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم». فقال: «لعمري؛ لو طاوعتني على ذلك، لأمرت به» (٢).

أما وسائل الإعلام التي ترتبط بمصالح مموليها أكثر من البحث عن الحقيقة وتوعية المشاهد، كما تقضي أصول المهنة.. فإنها تتحول إلى أبواق للفتنة، وإلى آلات حادة، تقطع بها أي جسور للحوار؛ ضمن ما أسماه أحد الباحثين بـ«صناعة الكراهية» في المجتمع (٣).

إضافة إلى أن البيئة السياسية المنشغلة طوال الوقت بتضييق الخناق على ذوي الرأي المخالف، وليس بإفساح المجال أمام الرؤى المتعددة لترى النور؛ لتستفيد من أجودها وأفضلها.. توفر ذريعة لمن يريد أن يأخذ المجتمع باتجاه منحرف.

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن المسار التاريخي يدلنا على وجود صلة وثيقة بين الاستبداد وحركات العنف والتمرد؛ لأنه لو كان «العدل» –السياسي والاجتماعي– متحققا، فلا مبرر من الأساس للتفكير في التملص من سلطة الدولة.

ما العمل؟

من البدهي أنه مادامت أسباب مشكلة ما أسبابا متعددة، فإن طرق المعالجة يجب أن تتجه باتجاه تلك الأسباب؛ على اختلافها وتنوعها وتعددها.

من هنا، تتضح أهمية وثقل الدور المطلوب من مؤسسات المجتمع المدني في ترسيخ مفهوم الحوار، كواحد من المفاهيم المفصلية والحيوية لأي مجتمع، ولأي أمة.

وهذا الدور يتغيا بدرجة أساسية تغيير المفاهيم وبناء العقول، وتقويم المعارف والثقافات،

وإحلال الأفكار البناءة الفاعلة محل الأفكار الهدامة، و«الأفكار المميتة»؛ والمصطلح الأخير لمالك بن نبي.

فلابد من إشاعة مفاهيم التربية الصحيحة، وأسس بناء الأسرة المتماسكة المتراحمة، التي تصب في النهاية في بناء مجتمع راشد.

وفي هذا الإطار يمكن بواسطة تلك المؤسسات المجتمعية عقد دورات تثقيفية لتوعية وتدريب الشباب المقبلين على الزواج؛ وجعل هذه الدورات ثقافة عامة في المجتمع لا يخجل منها. وقد أثبتت دراسات كثيرة أن نسبة الطلاق أو المشكلات الأسرية بين الحاصلين على تلك الدورات، تقل كثيرا عن نظرائهم ممن لم يحصلوا عليها (٤).

وفيما يتصل بالجانب الديني والثقافي للمجتمع، فلا مفر من إشاعة ثقافة التعدد، وتوضيح الحكمة البالغة من سنة الله في الاختلاف، وبيان ضرورة أن تكون محصلة هذا الاختلاف تكاملا لا تضادا، وتعاونا لا تنافرا؛ تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات:١٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ (هود:١١٨ و١١٩).

كذلك من المهم أن تمارس مؤسسات المجتمع المدني دورها في مراقبة وسائل الإعلام التي تنحرف بسياستها التحريرية عن قيم المجتمع وتدعيم ثوابته وتطلعاته، وأن تكشف زيف تلك الأساليب الإعلامية الملتوية وطبيعة خدمتها



لأصحاب النفوذ، لا الحقيقة والمشاهد؛ كما تعلن مرارا بتدليس ممجوج!

أما عن الجانب السياسي، فإن مؤسسات المجتمع المدني -كما سبقت الإشارة- هي الوسيط الأمين بين الدولة والمجتمع؛ لا الوساطة الحيادية التي لا طعم لها ولا لون؛ وإنما -إن جاز التعبير- الوساطة المنحازة لصف المجتمع، المتحدثة باسمه، المعبرة عن آماله وأشواقه، التي تحاول ما وسعها الجهد أن تنتزع له حقوقه، وأن تزيد مساحة مكتسباته، وأن تحدث توازنا معقولا مع سلطة الدولة المتغولة بطبيعتها.

لا مجال إذن لتمييع الحقوق، ولا لمحاباة أصحاب رؤوس الأموال، ولا للجور على حقوق الطبقات المحرومة، ولا لتجميل السياسات الخاطئة وإضفاء الشرعية عليها. كما أنه لا مجال لتضييق الخناق على أصحاب الرؤى المخالفة، بل لكل صاحب رأي أن يجهر برأيه، وأن يضعه موضع التنفيذ، متى حاز إعجاب الناس ورضاءهم.

إذن، كل تلك الممارسات الخاطئة المفضية إلى العنف، والمشرعنة لصوت اللاعقل؛ ستنمحي يوم أن تدرك مؤسسات المجتمع المدني -بكل تنويعاتها ومؤسساتها- أنها من الشعب، وعن الشعب تعبر، وأنها من المجتمع وعن طموحاته تتحدث، وأن الدولة الحديثة ليست بحاجة إلى ميزات أخرى تضاف إلى يدها التي تطول كل شيء، وتتحكم في كل شيء.

ويوم أن يجد الناس، حقيقة وواقعا مؤسسات تحامي عنهم، وتدافع عن مصالحهم، وتكون لهم لسان الحال والمقال؛ فإن أي دعوة من هنا أو من هناك لحرف مسار المجتمع نحو العنف والاقتتال؛ لن تجد لها آذانا مصغية.

الهوامش

١- تفسير النسفي، ١/٢٨٠.

٢- كشف المغطى في فضل الموطا، لابن عساكر، من «المكتبة الإسلامية» على موقع «إسلام ويب».

٣- «صناعة الكراهية» مصطلح يستخدمه د. سيف الدين عبدالفتاح في سياق التحذير من محاولات تمزيق المجتمع، وبث الفرقة بين شرائحه، باستخدام «الإعلام» كرأس حربة في ذلك.

٤- نشير في هذا الجانب إلى أنه كيف كانت المرأة العربية حريصة على نصح ابنتها وتوعيتها قبل الزواج بطبيعة المرحلة الجديدة التي هي مقبلة عليها؛ والتي تختلف تماما عما ألفته ونشأت عليه؛ كما في النصيحة المشهورة من أمامة بنت الحارث لابنتها. انظر نصها في «جمهرة خطب العرب»، أحمد زكي صفوت، ١/٢٩٦، ط١، ١٩٢٣، مكتبة الحلبي، القاهرة.

دوافع العنف لدى الشباب

محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ الإسلامي



العنف ظاهرة قديمة، يمكن للمرء أن يلحظ ذلك بكل سهولة حينما يطالع مصدرا من مصادر التاريخ العام لدى أي حضارة من الحضارات، والإنسان بطبعه كائن مركب يميل إلى الفجور أكثر مما يميل إلى التقوى، ولما كان الشباب ذروة القوة لدى الإنسان، تجلت هذه الظاهرة بوضوح.

أرقام مفزعة!

لقد جاء في تقرير صحيفة وقائع، التابعة لمنظمة الصحة العالمية، الصادر في أغسطس ٢٠١١م، حول عنف الشباب، أنه «يسجل كل عام في جميع أنحاء العالم، حدوث نحو ٢٥٠ ألف جريمة قتل بين الشباب من الفئة العمرية ١٠ - ٢٩ سنة، مما يمثل ٤١ في المئة من العدد الإجمالي لجرائم القتل التي تحدث سنويا على الصعيد العالمي. وتتباين معدلات القتل التي تسجل بين الشباب، بشكل كبير، بين البلدان وداخلها. غير أن الذكور يشكلون، في كل البلدان، معظم مقترفي جرائم القتل وضحاياها. أما معدلات جرائم القتل المسجلة بين الإناث فهي أكثر انخفاضا بكثير في كل الأماكن تقريبا. ولوحظ في الفترة بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٤م، ارتفاع معدلات جرائم القتل المسجلة بين الشباب في كثير من البلدان النامية، وانخفاضها في عدة بلدان متقدمة».

ونتيجة لهذه الأرقام المرعبة، يجب أولا أن نعرف ماهية العنف لدى علماء النفس والاجتماع؛ لنرصد أهم أسبابه ودوافعه في المنطقة العربية.

ماهية العنف

يقدم علم النفس عددا من النظريات التي تفسر حدوث العنف، فوفق النظرية البيولوجية فإن العنف ينشأ نتيجة عمليات التطور في الإنسان، بالإضافة إلى كونه تعبيرا عن الطاقة الداخلية للفرد.

بينما ترى النظرية النفسية الاجتماعية أن العنف غريزة تدميرية ملتصقة بالفرد، بصورة جبلية، أو هو تقليد لنماذج العنف التي يراها الشاب في مجتمعه، خصوصا المواد الإعلامية العنيفة التي تبثها وسائل الإعلام على مدار الساعة.

وهناك وجهة نظر أخرى ترى أن هناك بعض المنظمات الاجتماعية في المجتمع تدعم العنف وتشجعه، كتشجيع أولياء الأمور أبناءهم على الاعتداء على الآخرين، أو على الممتلكات العامة. وهناك العنف الذي يصدر نتيجة للشعور بالإحباط الذي يسيطر على الفرد عندما لا يحقق بعض احتياجاته المشروعة، كالزواج وبناء أسرة. وكذلك هناك العنف الذي يصدر عن الشباب كردة فعل مضادة لعنف يمارس ضدهم من بعض القوى في المجتمع، وهذا العنف هو المسبب الرئيسي للعنف في مجتمعاتنا العربية (١).

على أننا سنقف مع سببين رئيسيين من أسباب انتشار العنف بين الشباب العربي والإسلامي، وهما: الفراغ، والقراءة المعوجة لنصوص الدين؛ بغية الوقوف أمامهما ومعالجتهما من العقلاء والنابهين.

إشكالية الفراغ

غالبا ما يكون وقت الفراغ هو الوقت الذي يتحرر فيه الفرد من المهام الملتزم بأدائها بصورة مباشرة وغير مباشرة.

ومما ينتبه له، أن رسول الله ﷺ قد حذر من ضياع الفراغ فيما لا يفيد، فدعا إلى استثماره، ونعته بالنعمة، فقال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (البخاري).

على إننا يجب أن نتفهم أن الفراغ الفكري كذلك هو الأشد خطورة، وأحد الأسباب الرئيسية في تكوين ظاهرة العنف لدى الشباب، فالفراغ الفكري ليس مقصوده خلو عقل الإنسان من المعلومات، وإنما خلو عقله من الفكر الذي هو ناتج عن جمع معلومات من مصادر مختلفة، وتحليلها، والاستفادة منها، والخروج بقناعات وثوابت فكرية محددة.

ويشير بعض الباحثين إلى أن الفراغ الفكري يرجع إلى:

١ - الجهل الناتج عن الأمية الفكرية.

٢ - عدم وجود التوعية الأبوية الكافية منذ الصغر.

٣ - عدم مبالاة الإنسان بالأحداث التي تجري حوله والاستفادة منها.

٤ - عدم وجود مناعة فكرية تقي العقول من الغلو والإفراط الفكري (٢).

العنف باسم الدين!

إن أشد التحديات التي تواجه الشباب المسلم اليوم، والتي توصله إلى العنف باسم الدين، غالبا ما تكون بسبب القراءة المنقوصة للنصوص، وهي التي تنبع: إما من غرور، أو هوى، أو قراءة خاطئة للنصوص الشرعية وخلل في فهمها.

فالهوى هو ما تدفع به النفس صاحبها لتحقيق حظوظها، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، وخاطب به نبي الله داود بقوله:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص:٢٦).

ولقد رأينا الأهواء ممزوجة بلباس زائف من الدين في أمثلة عديدة من التاريخ، فالذي قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه هو عمرو بن الحمق، الذي ظن أنه فعل ذلك ديانة، وقد

طعنه تسع طعنات، وقال حينما طعنه: «فأما ثلاث منها فإني طعنتها إياه لله، وست لما كان في صدري عليه» (٣)!

ولذلك حذر الإمام الشاطبي من أصحاب الأهواء، فقال: «فكذلك صاحب الهوى إذا ضل قلبه وأشرب حبه لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان، ولا يكترث بمن خالفه» (٤).

وثمة إشكالية أخرى، تتسبب في ذلك، هي اعوجاج منهج الشاب في التلقي الشرعي والديني، سواء من المجاهيل أو الوسائل الإعلامية والتوعوية غير المنضبطة، لذا الأصل في منهج التلقي أن يكون عن القرآن والسنة، والأئمة العدول، والالتزام بقواعد الاستدلال الشرعي. والمتأمل في الوقائع يجد أن أكثر من ترك الحق أو صد عنه، واتبع الباطل كان سببه هذا الخلل (٥).

ومما يروى عن نتائج هذا الاعوجاج في التلقي وسوء الفهم عن الله ورسوله ﷺ، ما ذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» أن «واصل بن عطاء كان في رفقة، فلقيهم ناس من الخوارج، فقالوا لهم: من أنتم؟ قال لهم واصل: مستجيرون حتى نسمع كلام الله، فاعرضوا علينا. فعرضوا عليهم. فقال واصل: قد قبلنا. قالوا: فامضوا راشدين. قال واصل: ما ذلك لكم حتى تبلغونا مأمننا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة:٦)، فأبلغونا مأمننا. فجاءوا معهم حتى بلغوا مأمنهم». وهي الحكاية التي تتكرر بتكرر سنة سوء الفهم عن الله ورسوله في كل زمان ومكان!

آثار العنف الشبابي

إن آثار العنف الشبابي على المجتمعات العربية شديدة الخطورة، وعلى رأسها ذلك العدد المفزع من حالات القتل السنوية، لكن الأشد خطورة هو أولئك الذين مروا بتجارب العنف ولم يلقوا حتفهم، فلقد ذكرت منظمة الصحة العالمية في تقريرها لعام ٢٠١١م «أن حالات العنف غير المميتة المسجلة بين الشباب لا تسهم بقدر وافر في العبء العالمي الناجم عن الوفيات المبكرة والإصابات والعجز فحسب، بل تلحق أيضا بوظائف الشخص النفسية والاجتماعية آثارا خطيرة، تدوم مدى الحياة في غالب الأحيان. ويمكن أن يؤثر ذلك على أسر الضحايا وأصدقائهم ومجتمعاتهم المحلية. ويزيد عنف الشباب، بشكل كبير، من التكاليف الصحية وتكاليف خدمات الرعاية والعدالة الجنائية؛ ويتسبب في خفض الإنتاجية، وتراجع قيمة الممتلكات، وتفكيك النسيج الاجتماعي عموما».



الهوامش

(١) صلاح الدين عبدالقادر، مقال بعنوان «العنف المنتشر بين الشباب، الأسباب والحلول»، المركز الوطني لأبحاث الشباب، جامعة الملك سعود.

(٢) رانيا نظمي، علاقة الانحراف الفكري بظاهرة الفراغ عند الشباب، من منشورات قسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٠٩/١٠، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٩٧.

(٤) الشاطبي، الاعتصام، ٧٧٨/٢، ٧٧٩، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٩٢.

(٥) محمد سويد الدقلة، الشباب ومواجهة تحديات العصر، منشور ضمن تدويناته الخاصة.

«ستة آداب.. متى تعود؟»

د.عبد الناصر حسن السقا
إمام وخطيب - مصر

ستة نداءات تبدأ من أول سورة الحجرات.. لو راعتها أمتنا لحلت جميع مشاكلها.

وهي عبارة عن آداب يؤدبنا الله تعالى بها. ألا وهي: «الأدب مع الله ورسوله عامة. ثم مع رسوله ﷺ خاصة، ثم مع الفاسقين، ثم مع المؤمنين، ثم مع الناس أجمعين». وما أحوج الأمة إليها -اليوم- في وقت تعاني فيه من أزمة أخلاق وآداب، فماذا عنها باختصار شديد؟ وماذا نستفيد؟

النداء الأول: وهو مطلع السورة الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾ (الحجرات:١)

أولا: سورة الحجرات لما كانت تسمى بسورة الآداب أو الأخلاق فإنها تعد إحدى ثلاث سور استفتحها الله بالنداء على الأمة المحمدية، وكذا تعد إحدى ٨٨ موضعا نادى الله فيها على الأمة المحمدية بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وبعد هذا النداء نرى إما أمرا أو نهيا، وهذا يدل على شيئين:

١- الإشادة بأهل الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا. وعليه: فلنسعد ولنحمد الله على نعمة الإيمان، ونعمة أن جعلنا من أمة سيد ولد عدنان، ومن أبوين مؤمنين، كما قالت أسماء بنت الصديق أبي بكر: «إن سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي وقلبي لا سلطان لأحد عليه إلا الله».

٢- لا إيمان إلا بتكليف: كما في مسلم وغيره قول رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» فأفضلها قول «لا إله إلا الله» وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وأما النداء الثاني: فقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ (الحجرات:٢).

وأما النداء الثالث: فقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ (الحجرات:٦)

ويستفاد من الآية الكريمة ما يلي:

أولا: هذه الآية الكريمة، وإن كانت قد نزلت في «الوليد بن عقبة» الذي زعم أن «الحارث بن ضرار الخزاعي» منعه الزكاة وأراد قتله، إلا أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ثانيا: تسمية الواشي أو النمام -وهو الذي ينقل كلام الناس فيما بينهم على وجه الإفساد- بالفاسق، وهو فسق لا يخرجه عن الملة إلا إذا استحل النميمة والعياذ بالله.

ثالثا: تحريم النميمة، لأنها تؤدي إلي الفرقة وسفك الدماء. لذلك -كما في حديث مسلم وغيره- «لا يدخل الجنة نمام». وفي حديث أحمد والطبراني قول الحبيب النبي ﷺ: «خيار أمتي الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار أمتي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة والباغون البراء العنت».

رابعاً: وجوب التبيان والتثبت من الأخبار المشاعة؛ لئلا نصيب قوما بجهالة فنندم.

وأما النداء الرابع والخامس: فقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝١١﴾ (الحجرات:١١).

وأما النداء السادس والأخير: فقول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣﴾ (الحجرات:١٣)

ويستفاد منه ما يلي:

١- اشتراك جميع الناس في هذا النداء. مصداقا لقول رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب».

٢- أن الحكمة من جعلنا شعوبا وقبائل هي سنة «التعارف» المؤدي للصحبة والتعاون على البر والتقوى، لأن الإنسان -كما يقول علماء الاجتماع- مدني بالطبع. ومعرفة الصالحين كنز.

٣- أن الميزان عند الله بالتقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾. وتحقيق التقوى لا يكون إلا بثلاث هي:

- إذا الشيطان لا يقوى
- وكنت على النفس تقوى
- وكان يقينك الأقوى

الوفاء بالوعد وأثره على الرزق

إحسان عبدالعزيز الدبش
باحث دراسات إسلامية

الوفاء بالوعد له نتائج إيجابية على سمعة الإنسان، بشكل عام، مهما كان موقعه، واختصاصه، ومهنته. فالذي يفي بوعده يكسب سمعة حسنة، ومن يخلف وعده يكسب سمعة سيئة، ليس هذا فقط، وإنما يخسر ماديا أيضا. والمراقب لواقعنا في مختلف المجالات وعلى مختلف الأصعدة، يلحظ، للأسف، كثرة انتشار ظاهرة إخلاف الوعد، وهي ظاهرة سلبية في علاقات الناس بعضهم مع بعض، خصوصا في مجال التعامل المهني، بمختلف أنواع المهن، سواء كانت مهنا ذات مستوى ثقافي عال، أو مهنا فنية، أو مهنا صناعية أو تجارية أو وظيفية أو مهن خدمات.

المدقق في واقع تعامل الناس بعضهم مع بعض يعجب لإخلاف الوعد، خصوصا في المجال المهني والتجاري، فيما يتعلق بالأرزاق بين العباد. مع العلم أن في إيفاء الوعد، فضلا عن أنه موقف أخلاقي يجب أن يلتزم به كل مسلم، بركة تزيد في الرزق كما سنوضح ذلك فيما يلي:

لم يترك الإسلام فضيلة إلا أمر بها، ولا مفسدة إلا نهى عنها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة:١).

والوعد نوع من العقود، قد يكون شفهيا وقد يكون كتابيا، بين إنسان وآخر.

والوفاء بالوعد ينحو منحيين: الأول بين العبد وربه، والثاني بين الإنسان وأخيه الإنسان.

فأما الأول: فقد أمر الله عزوجل المؤمنين بالإيفاء بالوعد مع كل الناس، مسلمهم وكافرهم، كبيرهم وصغيرهم، قريبهم وبعيدهم، فقيرهم وغنيهم، عالمهم وجاهلهم. وقد وصف الله عزوجل المؤمنين بأنهم من أولي الألباب، الذين من أولى صفاتهم أنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ (الرعد:٢٠). وإن الله يحب العبد الذي يفي بوعده، لأن إيفاء الوعد من التقوى، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦). وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه جل جلاله: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره» (رواه البخاري). وعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا خاصم فجر» (رواه الشيخان).

أما المنحى الثاني بين الإنسان وأخيه الإنسان: فإن الوفاء بالوعد لدى صاحب المهنة، بشكل خاص، يفيده في كسب رزقه على الشكل التالي:

وعد صحيح ودقيق، تنتج عنه ثقة ممتازة، جلب زبائن ورزق وفير.

والعكس: إخلاف وعد، ينتج عنه انعدام ثقة، هروب زبائن، رزق قليل.

إن إيفاء الوعد مع الزبائن تنتج عنه «ثقة الزبون» بصاحب المهنة (حداد – نجار – كهربائي...إلخ). فعندما يذهب المهني إلى الزبون في الوقت المحدد من اليوم والساعة، وحتى الدقيقة، يشعر الزبون بأن هذا المهني رجل صادق في وعده، دقيق في تنفيذه، فقد أتى إلى عمله في الوقت المحدد، والساعة المحددة، والدقيقة المحددة.

وهناك قسم لا بأس به من الناس حريص على أوقاته، لأن الوقت له ثمن.

هذا الإيفاء بالوعد تنتج عنه

ثقة الزبون بالمهني، مما يشجعه في مرات قادمة على أن يوصيه بأعمال أخرى يحتاج إليها. بينما ينصرف الزبون إلى غيره إذا لم يف بوعده، كما أن الزبون يشجع أقاربه وأصدقاءه على أن يتعاملوا مع هذا المهني الدقيق في مواعيده، فلا يضيع أوقات الناس سدى. بالإضافة إلى أنه إذا كان هذا المهني متقنا لصنعته، وذا أجر معتدل، ينتج عن ثقة الزبون «ربح وفير». إذن، يدر الوفاء بالوعد والاستقامة في تنفيذه الرزق على المهني.

ومن المؤسف أن نجد في مجتمعاتنا التي نعيش بين ظهرانيها، أناسا كثرا لا يوفون بوعودهم في عقود بيعهم وشرائهم، أو في أدائهم لخدماتهم في الأوقات المحددة. بينما نجد من زار بعض الدول المتقدمة صناعيا يعجب من الدقة في تنفيذهم لوعودهم في وقتها، وفي أدائهم لمهنهم، أو صرفهم الرواتب لعمالهم.

تنفيذ المواعيد بدقة

هناك طرق عدة لتنفيذ المواعيد بدقة، حسب موقع صاحب الموعد (مدير – رئيس قسم – عامل...إلخ)، وحسب نوع الموعد، وشموليته، ومكانته، ولكل حالة ترتيبها. أضرب مثالا على ذلك: إذا واعد شخص شخصا آخر، مثلا، على الساعة السابعة مساء، في بيته، وكان ممن يحرصون على إيفاء الوعد بدقة، فيتبع أسلوب العد العكسي على الشكل التالي:

١– كم أستغرق حتى أتجهز للخروج من بيتي: لبس ثيابي – ترتيب غرفتي – تصفيف شعري – مسح حذائي – تفقد أغراض الخروج من المنزل (مال – بطاقة شخصية – مفاتيح – مناديل – ساعة أو هاتف نقال) «وليكن ١٠ دقائق».

٢– أقدر المسافة بين بيتي وحافلة النقل؛ بحسب تجربة سابقة، إذا لم أكن أملك سيارة «وليكن ٧ دقائق».

٣– أقدر الزمن الذي ستقطعه الحافلة حتى أصل إلى أقرب موقف للبيت الذي أقصده «وليكن ١٥ دقيقة».

٤– كم أستغرق من المشي حتى أصل إلى البيت الذي أقصده «وليكن ٥ دقائق».

٥– أضيف من عندي خمس دقائق احتياطا «٥ دقائق».

يصبح المجموع ٤٢ دقيقة.

أي إنني يجب أن أخرج من بيتي الساعة ٦,١٨ دقيقة حتى أصل إلى بيت صديقي الساعة ٧ في الموعد المحدد بدقة.

أسلوب العد العكسي هذا أسلوب ناجح جدا. قد يقول قائل: أكلما وعدنا إنسانا علينا أن نقوم بهذه العملية الحسابية؟! الجواب في حديث، أعظم مرب وإداري بقوله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم...».

في المرات الأولى نحتاج إلى شيء من الجهد، ثم تصبح عادة حسنة سهلة، تنجز ذهنيا بدقائق إذا لم تكن بثوان. وهذه الطريقة مجربة مئات وآلاف المرات، فلمَ يكون الأجنبي أحسن مني، وديني يأمرني بإيفاء الوعد؟!

الفوائد من الإيفاء بالوعد

أولا: رضا الله عزوجل قبل كل شيء: لأن الإيفاء بالوعد يدخل ضمن أوامر الله عزوجل، كالصلاة والصيام وغيرهما من التكاليف. والتنفيذ فيما يتعلق بالمواعيد مع بقية الأوامر يحقق العبودية التامة لله عزوجل، قال سبحانه وتعالى لبني إسرائيل خاصة وللمسلمين عامة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠).

ثانيا: حسن السمعة عند الناس عامة (أقارب – أصدقاء – جيران...): إن كان يعمل عملا حرا كسب ثقة رؤسائه، وإن كان صانعا أو تاجرا كبيرا أو صغيرا كسب ثقة الزبائن، خصوصا إذا ترافق ذلك مع الجودة في الصنعة والاعتدال في السعر.

ثالثا: حفظ كرامته: إن كان موظفا أو عاملا وأخلف في مواعيد القدوم إلى العمل زجر من قبل رؤسائه، وقد يهان لأنه يؤخر الإنتاج ويعطله، وإن كان صاحب عمل وأخلف فهو مؤهل للإفلاس أو العقوبات على تأخيره بسبب إخلاله بالاتفاقيات المبرمة. وعلى ذلك نقيس في بقية الاختصاصات والمجالات.

رابعا: تجنب الخسارة المالية من دخله: مثلا، عامل كان يتأخر عن عمله صباحا بشكل يومي، رغم التنبيهات والتحذيرات له بشكل مستمر، لكنه لم يغير عادته، ودائما كان يشكو من قلة دخله، عدا غيابه خلال الأسبوع، حيث يحسم من راتبه كل غياب يغيبه.

حسب صديقه الناصح له كم يخسر في كل شهر نتيجة غيابه ١٠ دقائق في اليوم صباحا عن موعد عمله وبقية الأيام التي يغيبها في الشهر، فبلغت خسارته ١٥– ٢٠ في المئة من راتبه.

المجالات التربوية لبناء الشخصية السوية كثيرة جدا، وأهم عملية بناء سليم تعود إلى مرحلة الطفولة، خصوصا الحضانة والابتدائي والإعدادي، ففي هذه المراحل تغرس القيم والمفاهيم السليمة في كل جوانب الحياة، مع الحاجة إلى رعاية القيم الفاضلة التي تربى عليها الفرد المسلم بشكل مستمر، فكم نحن بحاجة إلى إعادة البناء التربوي في جميع المجالات من جديد ومنها الإيفاء بالوعد.



الحشرات في قائمة الغذاء العالمي

(رؤية شرعية)

د. رضا عبد الحكيم إسماعيل
باحث أكاديمي

الحشرة عند علماء الحيوان: كل كائن من شعبة المفصليّات له ثلاثة أزواج من الأرجل، ويقطع في تحوّله ثلاثة أطوار: (بيضة الحشرة، حورية الحشرة، صرصور)، أو أربعة أطوار: (بيضة الحشرة، يرقانة الحشرة، خادرة الحشرة، فراشة).
وتمثل الحشرات المجموعة الأكثر تنوعا من الكائنات الحية على سطح الأرض، فهي تشكل أكثر من ٩٠٪ من مختلف أشكال الحياة على الأرض.

يقرر خبراء الاقتصاد أن تعداد سكان العالم اليوم يقارب سبعة مليارات نسمة، وأنه سيصل عدد سكان المعمورة قرابة تسعة مليارات في العام ٢٠٥٠م، بما يطرح معضلات عالمية، في مقدمتها عدم وفاء الغذاء المتاح وطلبات الشعوب، وانطلاق المجاعات التي لن يفلت منها مجتمع من مجتمعات الأرض، وسيزداد الفقراء فقرا... والبقية تأتي.

نعلم أن «البروتين» هو عنصر الغذاء الرئيس الذي يحتاجه الجنس البشري، ويتحصل عليه من اللحوم البرية أو الداجنة، أو الأسماك والأحياء المائية.

وكثيرة هي الأدبيات العلمية التي تتناول الأبعاد الاقتصادية والبيئية لأنواع اللحوم والأسماك في قائمة الغذاء العالمي، وتتسع دراسات وبحوث علماء التغذية بما يوفر قواعد بيانات تتناول معظم ما يتصل بالأحياء البرية والمائية في قائمة الغذاء المبني على الثروة الحيوانية، بمفهومها الشامل.

في عصر تتزايد فيه الحاجة إلى الطعام نلمح بحوثا مصدرها هيئات علمية مرموقة، تؤيد إدخال الحشرات إلى سلة الغذاء العالمي، من منطلق سد العجز الغذائي، وأن في الحشرات بديلا يسهم بشكل مؤثر في حل مشكلة نقص البروتين الناشئ عن عدم كفاية المصادر الأحيائية البرية والبحرية المتاحة حاليا ومستقبلا. وبأسانيد علمية موثقة زين خبراء التغذية تعاطي البشر للحشرات على إطلاقها، وتبارت الدراسات والتقارير في دعم فرضية الاعتماد على الحشرات لغذاء البشر دون ضرر، بل وتسليط الضوء على فوائد التغذية بالحشرات.

وهذه الدراسة ستحاول استقصاء موقف الشريعة من تعاطي الحشرات في ضوء الكتاب والسنة وما استقر عليه الفقهاء، هذا في جانب. ومن جانب آخر تسليط الضوء على مستجدات علمية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون نتائجها بعيدة عن دائرة الاجتهاد الإسلامي المعاصر، ليدلو هو الآخر بدلوه في بعض المسائل الشائكة الناجمة عن كشوف العلم الحديث.

وقبل تناول الجانب الشرعي من الدراسة، يحسن بنا أن نعرض لأهم وأحدث التقارير الوثيقة التي

صدرت في شأن التغذية بالحشرات، بما في ذلك الأبعاد الاقتصادية والبيئية ذات الصلة.

فقد نشر تقرير في العام ٢٠١٤م، بعنوان «حشرات مغذية» في مجلة ناشيونال جيوجرافيك. جاء فيه: التهام الحشرات أمر شائع في العديد من البلدان المدارية، حيث تشكل بديلا مناسبا للحوم، فالخنافس والصراصير على سبيل المثال تحتوي مواد مغذية، وتوفر البروتين بثمن منخفض.. وقد ابتدع خبراء الطهي أساليب لضمان عدم تقزز الناس من بعض الأصناف؛ من خلال معالجة الحشرات، بحيث تأتي على شاكلة مسحوق أو صلصة.. وهذا ما اتبع في حشرات البق. وبذلك أمكن توفير أكياس دقيق البق، وهي مزيج مكون من دقيق القمح والحشرات الزاحفة. والحشرات على قائمة طعام ٢ مليار إنسان، أي يتناولها أكثر من ربع سكان العالم، ويبلغ عدد الأجناس القابلة للأكل ٢٠٠٠ تقريبا، وتعد الخنافس أكثر الأجناس شيوعا في الاستهلاك، فهي تمثل ٣١ ٪ من جملة الحشرات المطلوبة، يليها اليرقات بنسبة ١٨٪، والنمل والنحل والدبابير بنسبة ١٥٪، والصراصير والجنادب والجراد بنسبة ١٣٪، أما الأنواع الأخرى مثل اليعاسيب والذباب والنمل الأبيض فتمثل ٢٣٪.

والحشرات مصدر فعال للبروتين، فالحشرات القابلة للأكل توفر بديلا مستداما للحوم، فهي مصدر غذائي صحي، يحتوي على نسبة مرتفعة من البروتين والدهون، لكن تختلف قيمتها الغذائية حسب أجناسها.. والصراصير أكثر كفاءة ١٢ مرة من الماشية، وحول قيمتها الغذائية، نسبة البروتين والدهون الموجودة في الصراصير مماثلة لتلك الموجودة في معظم أنواع اللحوم.

والحشرات في البعد الاقتصادي، معظمها يتم تربيته لاستخدامه علفا للحيوان، ولكن هناك خطط لتربية الحشرات على نطاق واسع للاستهلاك الآدمي. وتبدو أهمية الحشرات في معالجة النفايات وتدويرها، فبعض الحشرات مثل الذباب وسوس الدقيق يمكنها تحويل نفاية عضوية منخفضة القيمة إلى بروتين عالي القيمة. وتمثل الحشرات مصدرا رخيصا للبروتين مقارنة مع غيرها. كما أن تكلفة تربيتها تنافسية، ولاسيما باستخدام التقنيات الآلية الأكثر كفاءة في التشغيل. والحشرات من أجود مواد صناعة الأعلاف العالمية، وإلى جوار أنها طعام، فإنها مصدر لمنتجات دوائية، وملونات، وإضافة نكهات على المشروبات المتنوعة.

بيئيا؛ تربية الحشرات للغذاء وغير ذلك لا يحتاج مساحات شاسعة بالمقارنة مع الحيوانات الداجنة الأخرى، كما أنها تصدر كميات أقل من انبعاثات غازات الدفيئة.

غني عن القول أخيرا، أن الحشرات هي طعام فاخر في دولة مثل أوغندا، حيث يزيد سعر الكيلوجرام الواحد من حشرة الجندب مثيله من اللحم بنسبة ٤٠٪، وفي الصين واليابان تتربع الحشرات على قمة قوائم طعام كافة الطبقات الاجتماعية.

حكم الغذاء بالحشرات في الشريعة

تضم قائمة الغذاء الشرعي كل طعام من مصادره الطبيعية في أرض الله، تصديقا لذكره الحكيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٢). وقوله سبحانه ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (النحل:١١٤).

ومن أهم المصادر الطبيعية في الطعام، المخلوقات الأحيائية، تلك التي نص الخالق عزوجل على أشكالها بشكل إجمالي، في قوله عزوجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (النور:٤٥).

وقوله عزوجل ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنعام:٣٨).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤).

إذن.. واستنادا للنصوص السابقة يدخل قائمة طعام البشر الأحياء الأرضية برية أو داجنة، وكذلك نظيرتها الطائرة والبحرية. والعلم المعاصر بكشوفه وبحوثه وتقنياته المتقدمة يسلط الضوء كل لحظة على مستجدات أحيائية، من الأحياء العملاقة الكبيرة إلى الكائنات الدقيقة. والشريعة لم تجز بصفة مطلقة تعاطي جميع تلك الأحياء، بصرف النظر عن التقسيم المتعارف عليه في العلوم التجريبية بين «الثدييات» و«القوارض» و«البرمائيات» و«الكائنات البحرية والأسماك» و«الحشرات» و«الكائنات الدقيقة كالجراثيم والبكتريا وغيرها»، ذلك أن مثل تلك التعاريف والتصنيفات هي من إنتاج العلم الحديث، وبالتالي لم تكن معروفة زمن الدعوة، كما أن



العلم التجريبي كشف عن أنواع جديدة تزخر المصادر التخصصية ببيان أوصافها وأشكالها التي لا تقع تحت حصر، وهذا بالقطع يفتح باب الاجتهاد لحل المعضلات الناشئة عن الاكتشافات المستجدة.
والأصل في شرعتنا إباحة تعاطي المخلوقات الأحيائية؛ لا يخرج منها إلا ما ورد فيه نص تحريم، وهذا ما اتفقت عليه جميع المصادر الشرعية.

ما يخرج عن قائمة غذائنا

ينص المولى سبحانه وتعالى على استثناءات من الأصل العام في الإباحة، ومن ذلك ما ورد على نحو واضح في محكم التنزيل، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٢-١٧٣). وقوله عزوجل ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة:٣).

جاء في تفسير ابن كثير «يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك؛ إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء بالحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» (ورواه مسلم في صحيحه).

ذكر ابن كثير أيضا: يخبر تعالى عباده خبرا متضمنا النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين والدنيا، ولهذا حرمها الله عزوجل. ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال، سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطئه والشافعي وأحمد في مسنديهما وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه والحل ميتته».

وفي التفسير كذلك: روى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعا: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال».

والمستفاد أيضا من سنة نبينا المصطفى ﷺ استبعاد أكل أنواع معينة من مملكة الحيوان، قال

ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الحرم: الفأرة والعقرب والحديا والغراب والكلب العقور» (رواه البخاري) وفي رواية الإمام مسلم قال ﷺ: «خمس من الدواب من قتلهن وهو محرم فلا جناح عليه: العقرب والفأرة والكلب العقور والغراب والحدأة».

روى الإمام أحمد فيما أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، قول المصطفى ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم، الحية، والغراب الأبقع، والفأرة والكلب العقور والحدأ».

وحرم علماء الشريعة من المخلوقات الأحيائية، كل ما لم تجري تذكيته، ويتوقع الضرر في أكله، وفي المصادر أمثلة لهذه الأحياء، كما جاء بالمحلى وحاشية العدوي والمهذب: الحيات والعقارب والفأر والخنافس والعظاء والصراصير والعناكب والوزغ وسام أبرص والجعلان والديدان وبنات وردان وحمار قبان، لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف:١٥٧) وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء.

الملاحظ أن نصوص فقهائنا الأولين تضمنت مخلوقات أحيائية متنوعة، تضم الحيوان الثديي إلى جوار الطير والقشريات والقوارض والزواحف، بجانب الحشرات في المفاهيم العلمية المعاصرة. والواضح - من خلال حصر الأنواع التي تطرقوا إليها - هو تحريم الأنواع التي يصدق عليها وصف الخبائث.

لكن يبقى سؤال: ما حكم ما يسميه العلم المعاصر «حشرة» في حين أن بنيتها البيولوجية - كما في بعض الأنواع - مخصوصة بدورة دموية، مثل بعض أنواع السحالي وغيرها، صغير أو ضخم، زاحف أو قافز، قاطن الصحاري أو الجبال أو الكهوف البرية أو البحرية، أو معتمر الغابات، والقائمة تطول العديد من قوارض الأرض والبرمائيات والزواحف الأخرى، ومنها ما لا يزيد على حجم إصبع اليد، ومنها العماليق.

يمثل اختصاص بعض الحشرات بالدورة الدموية وكونها لها رقبة وصدر تحديا أمام الاجتهاد الإسلامي المعاصر، ولاسيما مع كشوف العلم الحديث، الذي يتحفنا بعديد من أنواع يجتمع فيها خصائص الحيوان والقوارض أو البرمائيات، أو في المقابل خصائص الطير والحيوان والحشرات، وعلى سبيل المثال: الخفافيش (وهي من الثدييات الطائرة، المجتمع في بنيتها وسلوكها خصائص الحيوان البري والطير والحشرات.. وقل ما شئت في هذا المخلوق العجيب الدال على قدرة الخالق عزوجل)، وغيرها مما هو موثق في المجامع العلمية المتخصصة. فالأمر يحتاج إلى فتوى جامعة يوضح فيها -على نحو جازم- المخلوقات الأحيائية المحرم تعاطيها، وتفصيل القول البات في الحشرات، مأخوذا في الاعتبار التقسيم العلمي الحديث بين أفراد مملكة الحيوان، والتي تضم: الحيوان بمفهومه التقليدي، والقوارض والبرمائيات والطيور والزواحف (فمنها ما يطلق عليه حيوان، وآخر يسمى قارضا، وغيره يعرف حشرة، بل إن هناك ما اختلف في إلحاقه بأي نوع من الأنواع الأخرى).

إن الفتوى مطلوبة لمعالجة المستجدات العلمية، حتى لا تأخذنا رياح العولمة الغذائية، إذا صح هذا التعبير.





التدبير المالي من مقاصد الأسرة

د. حميد مسرار
كاتب دراسات إسلامية

يعد المال من الضروريات التي لا تستقيم مصالح الدنيا إلا بها، فهو من حاجيات عمارة الأرض والاستخلاف، وهو عصب الحياة وزينة الدنيا، بل هو قوام الحضارات وأصل قيامها، يقول تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ (الكهف:٤٦). وتتجلى أهمية المال في تسمية الحق سبحانه له بالقيام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾ (النساء:٥). يقول الإمام الرازي: معناه أنه لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا بهذا المال، فلما كان المال سببا للقيام والاستقلال سماه بالقيام؛ إطلاقا لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة، يعني: كان هذا المال نفس قيامكم وابتغاء معاشكم (١).

ويبين الشاطبي دور المال في حياة الإنسان بقوله: ولو عدم المال لم يبق عيش، وأعني بالمال ما يقع عليه الملك، واستبد به المالك عن غيره، إذا أخذه من وجهه، ويستوي في ذلك الطعام والشراب واللباس على اختلافها، وما يؤدي إليها من جميع المتمولات، فلو ارتفع ذلك لم يكن بقاء (٢). فالمال مقصد من مقاصد الشرع الضرورية، يسد به الفرد حاجته؛ عزة لنفسه وحفظا لمروءته، لقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر، وأعوذ بك من القلة والذلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم» (صحيح البخاري). ويحفظ دينه ومقومات عيشه، وتحقق الجماعة هدفها بعمارة الأرض، والجهاد في سبيله، لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾(الأنفال:٦٠). يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: إن من جهات توازن الأمم في السلطان على هذا العالم جهة الثروة، فبنسبة

ثروة الأمة على ثروة معاصريها من الأمم، تعد الأمة في درجة مناسبة لتلك النسبة في قوتها وحفظ كيانها، وتسديد مآربها، وغناها عن الضراعة إلى غيرها (٣).

ونظرا لأهمية المال في حياة الفرد والجماعة فلاشك أن التربية على المنهج الإسلامي في تدبيره من داخل الأسرة مدخل أساس لبناء منهج اقتصادي، يؤول حتما إلى بناء تنموي، يعتبر ثمرة من ثمرات الإسلام الحضارية، لذلك لابد من بيان موقع التدبير المالي من المقاصد الأسرية الأخرى؛ لمعرفة أهميته ودوره في بناء الأسرة، إذ أي خلل يعتريه يعود بالضرر على الفرد والأسرة والمجتمع، ومن ثم نسأل عن دور التدبير المالي في الحفاظ على بقية المقاصد الأخرى؟

التدبير المالي الأسري

شدد الإسلام في بنائه الأسري على مقصد التدين في جميع أحكامه وتشريعاته، واعتبره أساسا رئيسا لإنشاء الأسرة، بل الغاية العظمى من إنشائها، لذلك نظم جميع أطوار تأسيس الأسرة بأحكام شرعية تؤكد ضرورة حفظ التدين، فدعا إلى اختيار الزوجين على أساس الدين، فقال ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» (صحيح مسلم)، وقال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة وفساد عظيم» (سنن الترمذي).

ونظم العلاقات الأسرية تنظيما محكما ينطلق من أحكام الشرع ويؤول إليها، فنظم علاقات الأزواج فيما بينهم، وعلاقات الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء، ولم يغفل عن علاقات الرحم والقرابة. إنه تنظيم ينطلق من مصادر الشرع ويرتجي غاياته؛ تحقيقا لمفهوم العبودية، لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦). فالتدين ضامن للاستقرار الأسري، وحافظ له من كل ما يشوبه من عقبات وإشكالات، ذلك بأن المنهج التديني يجعل الأفراد يستسلمون للأحكام، استسلاما مؤسسا على العلم، نابعا من الرضا والحب، راجين الثواب والجزاء الأخروي.

وحضوره يجعل من الأدوار الملقاة على الأفراد أعمالا قاصدة مرتبطة بعالم الملكوت، فتنتفي بذلك المصالح الفردية المحضة، لترتبط بالمصالح الأخروية كذلك. وتأسيسا على ذلك فقد اعتبر الشرع التدبير المالي الأسري مظهرا من مظاهر التدين، يتجلى ذلك في ربط أحكامه ببعدها الأخروي، حيث رتب الثواب على الملتزم بها والعقاب على كل من أنكرها وكفر بها، بل اعتبر الالتزام بأحكام الشرع دليلا على حصول الإيمان وبلوغ درجة التقوى، وعد الإخلال بها سقوطا في مهاوي الآثام وبراثن الشيطان، قال ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت» (سنن النسائي). وقال ﷺ: «إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف» (صحيح البخاري).

وخلاصة القول، فمآل التدبير المالي الأسري هو حفظ التدين داخل الأسرة، بل إن التدين هو عنوان التدبير المالي الرشيد.

التدبير المالي ومقصد التزكية

التزكية لغة من زكا يزكو زكاء، وتزكى تزكية، ويستعمل جذر الكلمة ويراد به في اللغة معان عدة، منها: الزيادة والنماء، التطهير والصلاح، والزوج والشفع، أما في القرآن فيراد به معان، منها: الإيمان والطهارة من الكفر، والتربية والتطهير وغيرها، وقد بين الشاطبي مكانة التزكية حينما أكد أنها مناط إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا (٤). ومقتضى هذا الإخراج يكون بالتزكية التي تمر عبر تخلية النفس من رذائلها وأدناسها، وتحليتها بمكارم الأخلاق وفضائلها. ولما كانت التزكية مقصدا من مقاصد الشريعة العالية فقد كانت عنوان الأسرة المسلمة، باعتبارها محضن الأخلاق والتربية، ذلك بأن نظام الأسرة في الإسلام هو نظام قيمي بامتياز، يكرس إلى جانب الحق البعد الأخلاقي الذي يجعل من الأسرة أسرة مكارمة لا مشاحة..

إن اهتمام الشارع بالباعث النفسي والمبادئ الخلقية والمثل العليا، هدفه تطهير الباعث كي لا يحرك الإرادة إلى تحقيق غايات غير مشروعة تناقض مقاصد الشارع. وتأسيسا على ذلك، فالتدبير المالي القائم على الأسس والثوابت الإسلامية من تلبية لحاجات الأسرة والإيثار والتعاون والتكافل والإنفاق في سبيل الله- هو عنوان الأخلاق الإسلامية التي تحفظ كرامة الإنسان وتربطه بمجتمعه، ذلك بأن الإسلام لم ينظر للتدبير المالي نظرة قاصرة على حاجات الذات والأسرة الصغيرة فقط، بل ربط منظومة التدبير بكل ما يعود على الأسرة الصغيرة والممتدة بالخير، ولاشك أن ذلك أدعى للتحلي بالأخلاق الفاضلة.

إن استحضار البعد الأخلاقي أثناء التدبير المالي يجعل الإنسان ينأى عن كل فعل يسيء إلى الأسرة، فلا تبذير للمال ولا تقتير، بل هو وسطية واعتدال، ولا حرص على المال وطلبه بشتى الوسائل والطرق، بل هو العمل الشريف المنتج الذي يساهم في بناء المجتمع وتحقيق التنمية، ولا تمركز حول الذات وحاجاتها فقط، بل هو تفكير في

الآخرين ومساعدتهم وإعانتهم. إنها الأخلاق الإسلامية، والتي لا محالة هي حل لكثير من الإشكالات الأسرية، كالإهمال الأسري والطلاق بسبب عدم الإنفاق والعنف، وعليه؛ فحضورها والالتزام بها سبيل لسمو الأسر ة وتحقيق مقاصدها.

مقصد السكن والمودة والرحمة

اعتبر الإمام الشاطبي هذا المقصد من المقاصد التبعية للنكاح، إذ النكاح عنده مشروع للتناسل بالقصد الأول، ويليه طلب السكن والازدواج، ومستجلب لتوالي التراحم والتواصل والتعاطف (٥).

وهذا المقصد منصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١). إن السكن والمودة والرحمة أمور رئيسة في بناء الأسرة المسلمة، ومن هنا وجب السؤال عن حقيقة كل منها؟

أ- السكن:

السكن قيمة معنوية، جعلها الله عزوجل أساس قيام الأسر واستقرارها، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ (الروم:٢١)، هذه القيمة لن تتحقق إلا إذا توافرت شروط وجودها والأحكام المفضية إليها، كحق المعاشرة، واختصاص الرجل بالمرأة، والمساكنة الشرعية. إن ما يميز عقد الزواج عن باقي العقود الأخرى هو توفر السكن النفسي لدى الأزواج والأبناء والوالدين، وهذا ما أكده الشيخ محمود شلتوت بقوله: «إن العلاقة الزوجية أسمى من معنى الترابط والاندماج من علاقات الصداقة والأبوة والبنوة، وإنها ليست كما يظن من لا يفهمون حقيقتها ولا يعرفون وضعها في الحياة عقدا كسائر العقود، ثمراتها في الانتفاع والملك والتسخير» (٦).

ب- المودة:

لقد راعى الإسلام المودة في الأسرة، فخص لها من الأحكام ما يقويها ويحفظ ذكرها، بدءا بأحكام الخطبة وانتهاء بأحكام الطلاق والعدة، فدعا رسول الله ﷺ كل خاطب لرؤية مخطوبته، فقال عليه الصلاة والسلام: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» (سنن الدارقطني).

وحبب تزويج المتحابين، فقال ﷺ: «لم ير للمتحابين إلا النكاح» (سنن ابن ماجه). وجاءت نصوص الشرع تؤكد ضرورة المعاشرة بالمعروف، سواء أثناء قيام الحياة الزوجية أو حتى بعد انفصام عراها، قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (البقرة:٢٢٩)، ووجه الدلالة أن شأن الطلاق أن تكون كل مرة منه معقبة بإرجاع بمعروف أوترك بإحسان، أي دون ضرار في كلتا الحالتين (٧).

فالمودة روح تجمع بين أفراد الأسرة، تجعل كل واحد منهم يتودد للآخر بقدر ما يقدمه له من خدمة أو إعانة أو مساندة في أوقات الرخاء أو الشدة.. إن حصول المودة مآله إلى بناء أسرة متجانسة نفسيا واقتصاديا واجتماعيا، ليحصل الدفء الأسري المنشود، واللحمة الأسرية المبتغاة، فيعيش أفراد الأسرة في أمن وأمان ومحبة ووئام.

ج- الرحمة:

صفة تبعث على حسن المعاملة (٨) وخلق رفيع يجعل كلًا من الزوجين يخشى ربه، ويراعي ما عليه من حقوق تجاه زوجه.

فالرحمة عنصر من أهم عناصر العشرة بين الزوجين، وهي تبقى في حالات الرخاء والشدة، وتكون أكثر وضوحا في حالات الشدة (٩).

يقول الأستاذ عبدالحليم أبوشقة: أما إذا فتر الحب فلابد من الأصل الثاني الذي تقوم عليه الأسرة، وهو الرحمة، وهنا يتأكد البحث في الحقوق حتى لا تضيع (١٠).

لقد حرص الإسلام على إنشاء علاقات أسرية متينة، فأسسها على أساس التراحم، واعتبره أساسا يقوم على رقة تقتضي الإحسان للمرحوم والعطف عليه والحنو، بل تقتضي إرادة المنفعة للغير، وإعمار القلب بحب الخير، والنفع والبدل والعطاء للآخرين (١١). وتأسيسا على ما سبق، فالالتزام بالتدبير المالي الأسري القائم على الكسب الطيب، والإنفاق المعتدل، والادخار والاستثمار والتكافل، مآله إلى السكن والمودة والرحمة، بل هو رمز هاته المقاصد كلها، ذلك بأن حرص المسلم على تنمية موارده المالية بالكسب الحلال يورث استحضار التدين الذي يؤول حتما إلى سكن نفسي، يشعر به جميع أفراد الأسرة، فيحصل ذلك الترابط المنشود، وتلك اللحمة المبتغاة، كما أن حصول المودة والرحمة مرتبط حتما بالإنفاق المعتدل والادخار المتوازن، والاستثمار القاصد، والتكافل الهادف، والذي يعبر عن مدى ارتباط الأفراد فيما بينهم، وعلى مدى تمسكهم بتنمية مجتمعهم. إن التدبير المالي الأسري القائم على الوسطية التي تراعي ضرورات الإنسان وحاجاته الفردية والاجتماعية، يفضي إلى تحقيق

تلك المقاصد، وعليه فكل خلل قد يعتريه هو عائق نحو تحقيق مقصد السكن والمودة والرحمة.

الجانب المؤسسي للأسرة

لم يترك الإسلام الأسرة دون تنظيم مؤسسي يراعي علاقات الأفراد فيما بينهم، وينظر إلى كيفية تنظيم علاقاتهم، شأنهم في ذلك شأن كل مؤسسة ناجحة، تحتاج لحكمة ثاقبة، وعليه، فقد أطر علاقات أفراد الأسرة بمنظومة الحقوق والواجبات، فمنح الحق الأسري على أساس مصلحة الأسرة، لا على أساس مصالح الأفراد، كما جعل الحقوق متقابلة، فكل حق يقابله واجب، ليجعل الفرد يعطي بقدر ما يأخذ. وإذا كانت منظومة الحقوق شاملة لجميع الحقوق التي يحتاجها الإنسان ليعيش حياة سعيدة- فلاشك أن التدبير المالي الرشيد عنوان للتدبير المؤسسي، فهو تنظيم قائم على القوامة التي تجعل الزوج مسؤولا عن جميع أعباء الأسرة المالية، وعلى الحافظية التي تجعل المرأة مسؤولة عن تدبير تلك الموارد المحصلة، من غير إسراف ولا تبذير، لذلك فمسؤولية التدبير المالي ملقاة على كلا طرفي الأسرة، سواء أكان بحثا عن الموارد، أو صرفا معتدلا في وجوه الخير، وهي صورة عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» (رواه البخاري في الأدب المفرد). وعليه فإن قيام كل فرد بمسؤولياته المالية؛ بحثا وإنفاقا وحفظا- سبيل استقرار الأسرة، بل منطلق لمساهمة الأسرة في التنمية.

وخلاصة القول، فلا خلاف في أهمية التدبير المالي لحفظ بقية المقاصد، بل إن تحقيق بقية المقاصد قد يحصل بالالتزام بالمنهج الإسلامي في تدبير المال الأسري، من هنا قد نفهم سبب كثرة الطلاق في العالم العربي، والتي قد يعزوها كثير من الباحثين إلى المشاكل المادية داخل الأسرة، بل عده الكثير السبب الأول للطلاق، وعليه فالتدبير المالي الرشيد القائم على البحث عن الموارد المالية بالطرق المشروعة والإنفاق الوسطي والادخار المستقبلي والاستثمار- كفيل بتجنيب الأسرة الاستهلاك الترفي في زمن أصبح فيه كثرة الاستهلاك عنوان التحضر والتمدن، وترشيده دليل التخلف وعدم الانخراط في زمن الحداثة والعولمة.

لذا أعتقد أن توعية الأمة بالمنهج الإسلامي في تدبير المال الأسري هو بداية لانخراط الأسر في تحقيق مقاصد الأسرة.



الهوامش

(١) التفسير الكبير ١٤٣/٣.
(٢) الموافقات ١٧/٢.
(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور ص ٣٤٣.
(٤) الموافقات، الشاطبي، ١٦٨/٢.
(٥) الموافقات، الشاطبي، ص ١٠١/٢.
(٦) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ص ١٤٧، دار القلم، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.
(٧) التحرير والتنوير، ٣٣٤/٢.
(٨) التحرير والتنوير، ٧٢/١٠.
(٩) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص ٤١٣.
(١٠) تحرير المرأة في عصر الرسالة، عبدالحليم أبوشقة، ١٦٣/٥، دار القلم، الكويت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
(١١) التراحم بين الناس في السنة النبوية، عبداللطيف الجيلاني، ص ١٧.

أثر عوائد العرب في تفسير آي القرآن وقفة نقدية

لخضر بن عبد القادر بوغفور
دكتوراه في أصول الفقه

ربما ينقدح في ذهن بعض أهل الشريعة أن ربط أحكام الشارع بقواعدها الكلية وسياقاتها التاريخية غاية سهلة المنال، إذا وقف على بعض المسلمات الجلية والتقريرات البديعة المرقومة في هذا الشأن، ومن ثم يعجل في توظيفها والتخريج عليها.

وما إن يتأنى وينظر فيما رقمه أهل التحقيق فيما له صلة بالموضوع تأصيلا وتخريجا، فيسبر هذا المهيع الجليل على حقيقته، وينظر في دقائقه، ويلمح مزالقه، ويقف على بعض فروعه المغلوطة؛ حتى يدرك أن الأمر ليس كما توهم؛ قال الصنعاني في سياق حديثه عن علم أصول الفقه: «لعظم قدره؛ الهفوة فيه أشد من غيره، ومتعلمه يخاف عليه الزلل، ويخشى أن يميل مع الهوى فيقع في شرك الخطأ، فأول حوائج طالبه: إصلاح النية، إذ هي الأصل الأجل، ولا يميل إلى جهة حتى يصل إلى حقائقها وينظر مزالقها» (١).

وقاعدة الاعتبار بالمعهود عند العرب من جملة المسالك الاستدلالية الدقيقة التي اعتراها ما اعتراها من الخطأ والزلل، على غرار ما حصل مع نظائرها، وخصوصا لما يتعلق الشأن بملاحظة القاعدة في طريق الوصول إلى مراد الشارع الحكيم، وتأويل الوحي على ضوئه، قال ابن عاشور: «على الباحث في مقاصد الشريعة أن يطيل التأمل، ويجيد التثبت في إثبات مقصد شرعي، وإياه والتساهل والتسرع في ذلك، لأن تعيين مقصد شرعي -كلي أو جزئي- أمر تتفرع عنه أدلة وأحكام كثيرة في الاستنباط، ففي الخطأ فيه خطر عظيم»، فكان حريا بنا -طلبا للحق، ونقدا للذات، وإقامة للعدل، وتجنبا للخطأ ما أمكن- عرض هذه القاعدة من الزاوية النقدية على حد مقولة: «لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب» (٢).

المطلب الأول: حدود علاقة عوائد العرب وقت التنزيل بالوقوف على مراد الله عزوجل من الآية.

لاريب أن الوقوف على مراد الله عزوجل من أجل المطالب وأسمى الغايات التي يسعى إليها كل موفق مسدد، وثمت عدة وسائل مساعدة على بلوغ هذا الشأو بحثها أهل العلم وسردوا تفاصيلها عند حديثهم عن شروط المفسر، أو شروط الاجتهاد والفتيا، ومن أبرز ما ذكروه منها، واستفاض عنهم هو معرفة المجتهد بلسان العرب وطرائقهم في الكلام والبيان.

وتبقى هناك معرفة أخرى متحدة التعلق مختلفة المحل، ربما دقت وخفيت ملاحظتها، وهي اعتبار المجتهد بأحوال العرب وعاداتهم وقت التشريع، ليسترشد بها الناظر في إدراكه المراد من الآية على وجه التحديد. قال الشاطبي في سياق حديثه عن أهمية معرفة أسباب التنزيل لمن أراد علم القرآن: «من ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثم سبب خاص لابد لمن أراد الخوض في علم القرآن منه، وإلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة» (٣).

ولكن يتعين على العالم المعتبر بهذه القاعدة في تأويل آي الكتاب أن يستمسك بجملة من الحدود العاصمة من توظيفها توظيفا مغلوطا، على غرار غيرها من القواعد، ومن أهمها ما يلي:

أولها: إجلال مقام الاعتبار بهذه القاعدة وقت معالجة الآيات على ضوئها.

اشتهر ورع السلف عن الفتيا وتدافعهم، حتى قال عطاء بن

السائب: «أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء، فيتكلم وإنه ليرعد!» (٤). وأولى النظار بهذا الورع من يروم تقحم هذه المضايق التي قد تفضي إلى صرف الآيات عن ظواهرها الجلية.

ولا يتصور هذا الورع إلا مع افتقار الناظر إلى ربه عز وجل في بلوغ التأويل الصحيح للآية.

ثانيها: تعظيم أصول الشريعة المعصومة والوقوف عند حدها.

قال الشاطبي: «لا يصح الخروج عما حد في الشريعة، ولا تطلب ما وراء هذه الغاية؛ فإنها مظنة الضلال، ومزلة الأقدام» (٥).

وبناء عليه، فاعتبار الناظر بهذه القاعدة أو بغيرها من قواعد، يقاس بأصول الشريعة، وليس العكس، فما يقرره لا يكون مسلما قاضيا على غيره مهما علا كعب صاحبه، أو برع في تحريره، حتى يعرضه على ما جلته تلك الأصول المعصومة «عرض الدرهم المجهول على أخبر الناقدين، فما حكمت بصحته فهو منها المقبول، وما حكمت برده فهو المردود» (٦).

قال ابن دقيق العيد: «ليس لنا أن نتصرف في النصوص المتظاهرة المتضافرة بمعنى خيالي يمكن أن يكون هو المراد، مع اقتضاء اللفظ التعليل بغيره» (٧).

ثالثها: بذل الجهد في جمع كل النصوص الواردة في المسألة مع دلالاتها الظاهرة والدقيقة.

ينبغي لمن يعتبر بمعهود العرب ألا يعجل بالخروج عن ظاهر الآية حتى يستفرغ جهده في جمع النصوص الشرعية الأخرى التي وردت في المسألة، ومن ثم يغوص في دلالات ألفاظها. قال ابن تيمية: «إذا أقاموا -يعني العلماء- كتاب الله، وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بعث بها رسوله ﷺ -وهي سنته-؛ لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يحيط بعلم عامة الناس، ولميزوا حينئذ بين المحق والمبطل من جميع الخلق، بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة، حيث يقول عزوجل: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣). ولاستغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين، وما كان من الحجج صحيحا ومن الرأي سديدا، فذلك له أصل في كتاب الله وسنة رسوله، فهمه من فهمه، وحرمه من حرمه» (٨)، وهكذا الشأن في قاعدتنا، إنما الاعتبار فيها بميزان الشريعة.

رابعها: الرجوع إلى ما فهمه سلف الأمة من الآية، وعلى رأسهم صحابة النبي ﷺ.

قال ابن رجب في بيان العلم النافع للخلق، هو: «ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث» (٩).

وإذا أجمعت الأمة على حمل الآية على معنى ما؛ فالواجب المتعين خضوع من يأتي بعدها إلى مضمون هذا الإجماع، كما سبق التنبيه إليه في الحد الثالث، ولكن ماذا لو عدم إجماع في هذا المحل، وكانت ثمت آثار هادية؟

إن حصل بين هذه الآثار تعارض؛ رجح الناظر بينها على وفق الجادة المعروفة في باب التعارض والترجيح، وأما لو اتفقت هذه الآثار فإعمالها في ميزان الشرع والعقل أولى من إهمالها، بالنظر إلى شهود الصحابة لمواقع التنزيل وسماعهم لكلام النبي ﷺ، ومن ثم فهموا مرادات تشريعاته، وأضحوا أخبر الناس بها والقدوة في مراعاتها (١٠)، «كما أن جلساء الطبيب يعرفون مقاصد الأدوية التي يأمر بها بطول المخالطة والممارسة» (١١).

وهكذا الشأن فيمن نهل من معينهم واقتفى أثرهم سيكون السداد أقرب إليه من غيره، وإن كان دون السابق.

ومن ثم تعين على من يتحرى استقامة اعتباره بمعهود العرب أن يتقيد بهدي من مضى في تأويل الآي، ولهذا كان من وصية عمر بن عبدالعزيز لرجل كتب إليه يسأله عن القدر: «ارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى» (١٢)، وهذا الشافعي -الذي أثنى عليه العلماء قديما وحديثا ثناء فائقا في نفوذ نظره وعمق فقهه- قد قال عن رأي الصحابة: «رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا» (١٣).

فإن وافق اعتباره رأيهم، وتواطأت الأدلة على مطلوب واحد واشتد ساقها؛ فالحمد لله، وإن شذت نتيجة اعتباره؛ اتهم حينئذ نظره، واكتفى برأي من سلف وسلم، قال الشاطبي: «يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل» (١٤).

خامسها: التحقق من إناطة النص القرآني بعوائد العرب وجودا وعدما.

قرر الشاطبي كما سبق لزوم وقوف من يغوص في دلالات كتاب الله على عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإلا أخطأ الفهم الصحيح، وهو تقرير متين بلاريب، وهو يشير ضمنا إلى لزوم التأكد من حقيقة ما يدعى من عوائد العرب من الناحية التاريخية، ولكن ربما ذهل من يروم توظيفه عن شرط مهم دقيق لا يخفى تأصيله عن العلماء، وربما خفي عن بعضهم في حال التطبيق، ألا وهو التحقق من إناطة النص القرآني بهذه العوائد وجودا وعدما، والتحقق من عدم ارتباطه بمعاني أخرى.

فلربما عجل بعض الناظرين في إعمال هذه القاعدة، فعلق الدلالة القرآنية بحال معينة للعرب، وذهل عن مناطات أخرى، دلت عليها نصوص أخرى من القرآن أو السنة، لا تخضع لتبدل أحوال المخاطبين، وما يأتي لاحقا يجلي هذا المعنى ويبين خطورته.

المطلب الثاني: قوادح الاعتبار بمعهود العرب في فهم مراد الله عزوجل من الآية.

ربما صح الاعتبار بالكلية في طريق الوصول إلى مراد الشارع الحكيم، وربما أخطأ الهدف وعاد عليه بالإبطال، و«كل ما يكر على الأصل بالإبطال فهو باطل» (١٥)، والسبيل إلى معرفة ذلك والتحقق منه مردّه إلى أصول علمية في النقد، بينها لنا أهل الأصول والجدل، وذللوها لنا في طريق كشفنا عن الخطأ والزلل، وغالبا ما بحثوها عند كلامهم عن قوادح القياس، وهي واردة في الجملة على أي استدلال أو تفسير، وفيما يلي ما ظهر لي منها مناسبا للمقام، جاريا على وفق خصوصيات القاعدة، وقد اقتصرت على بيان حدها الواضح، وأرجأت التخريج على بعضها في ثنايا المطلب التالي:

القادح الأول: فساد الاعتبار.

وهو مخالفة الاعتبار بمعهود العرب للوحي أو للإجماع.

القادح الثاني: قادح الاعتراض.

وهو الاعتراض بأن ما جعله الناظر معهودا للعرب ليس كذلك.

القادح الثالث: فساد الوضع.

وهو التعليق على معهود العرب ضد ما يقتضيه.

القادح الرابع: النقض.

وهو وجود معهود العرب وعدم الحكم المدعى، ولو في صورة.

القادح الخامس: المعارضة.

وهي معارضة الاعتبار بمعهود العرب بمعنى أقوى منه في الاستدلال.

القادح السادس: المنع.

وهو المنع من إحدى مقدمات الاعتبار بمعهود العرب، وتحته نوعان:

أ- عدم تحقق الاعتبار بمعهود العرب في الفرع.

ب- كون المسألة مما لا يجري فيها الاعتبار بمعهود العرب.

القادح السابع: الفرق.

وهو إبداء الفرق المؤثر بين النظائر التي اعتبر في بعضها بمعهود العرب.

القادح الثامن: القلب

وهو إبداء نقيض حكم المستدل بعين اعتباره بمعهود العرب.

القادح التاسع: القول بالموجب.

وهو نفي دلالة الاعتبار بمعهود العرب على محل النزاع.

المطلب الثالث: تخريجان للقاعدة في الميزان.

التخريج الأول العقدي: قوله عزوجل في سورة النحل: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل:٥٠)، وقوله في سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الملك:١٦)، وأشباه هذه الآيات التي نصت على فوقية الباري جل في علاه.

توظيف القاعدة في تأويلها

سبق إيراد كلام الشاطبي في التنويه بأهمية قاعدة الاعتبار بمعهود العرب في فهم كلام الله، وكان من جملة ما مثل به عليها هذه الآيات الدالة على صفة علو الباري عزوجل، حيث أولها تأويلا يلغي دلالتها الجلية، جريا على مذهبه العقدي النافي وصف الباري بهذه الصفة (١٦)، حيث قال عن ظاهرها: «إنما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الأرض، وإن كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق؛ فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيها على نفي ما ادعوه في الأرض؛ فلا يكون فيه دليل على إثبات جهة ألبتة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل:٢٦)، فتأمله، واجر على هذا المجرى في سائر الآيات والأحاديث» (١٧).

وقد جلى عبدالله دراز وجه استشهاده بآية النحل؛ فقال: «أي: فليست الفوقية لتخصيص الجهة؛ لأن السقف لا يكون إلا فوق، إنما ذلك ذكر للمعهود فيه» (١٨).

التخريج في ميزان النقد (١٩)

«لفظ الجهة لم يرد ذكره في نصوص الوحي، فيتوقف في إطلاقه، ويستفصل في معناه؛ فإن أريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق، فالله ليس داخلا في المخلوقات، وإن أريد بها ما وراء العالم فلاريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات» (٢٠)، هذا هو الحق الظاهر الذي جلته أدلة الشرع التي نصت على علو الله واستوائه على عرشه، ونزول بعض الأشياء منه وصعودها إليه، وغير ذلك من الدلالات، فضلا عن أدلة العقل الراجح والفطرة السوية وإجماع أهل الملة.

وإنكار علو ذات الله على خلقه قول باطل، دخيل حتى على الأشاعرة، وأصله نابع من الاعتزال، والمسألة أشهر من أن تبسط أدلتها المتكاثرة الجلية، وإنما أشير إشارة إلى بعض أفرادها.

١- قال ابن رشد: «لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية؛ كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله، وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات

الجهة، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ (الحاقة:١٧). ومثل قوله ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ (السجدة:٥)، ومثل قوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ (المعارج:٤)، ومثل قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ (الملك:١٦)، إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها عاد الشرع كله مؤولا، وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابها؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك» (٢١).

وبهذا تبين فساد الاعتبار بمعهود العرب في إنكار هذه الصفة الربانية الجليلة.

وهكذا تبين أيضا أن ادعاء الشاطبي بأن الآيات إنما وردت بتعيين الفوقية؛ للتنبيه على نفي ما ادعاه المشركون في الأرض؛ ربما كان يسلم له لولا أنه عورض بمعان هي أقوى من اعتباره في الاستدلال؛ فإن دعواه مبنية على التخمين، والأدلة الأخرى الصريحة من قبيل حديث الجارية تقطع كل احتمال تأويل.

٢- كما يرد على كلامه قادح الاعتراض؛ بأن ما جعله الناظر معهودا للعرب ليس كذلك؛ فإن المشركين قد اشتهر عنهم الإقرار بعلوه وفوقيته عزوجل، ومما ورد عنهم في هذا الشأن من أشعار الجاهليين قول عنترة بن شداد:

يا عبل أين من المنية مهربي
إن كان ربي في السماء قضاها (٢٢).

وقال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل
ربنا في السماء أمسى كبيرا (٢٣).

قال عثمان بن سعيد الدارمي: «اتفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أن الله في السماء، وحدوه بذلك إلا المريسي الضال وأصحابه» (٢٤).

٣- وأما بالنسبة لآية النحل؛ فلها تأويلات يندفع بها ما ظنه الشاطبي منها، ومن ألطفها ما نقله القرطبي عن ابن الأعرابي أنه قال: «وكد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته. والعرب تقول: خر علينا سقف، ووقع علينا حائط، إذا كان يملكه، وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: من فوقهم ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، أي: عليهم، وقع وكانوا تحته، فهلكوا وما أفلتوا» (٢٥).

وبهذا أمكن قلب استدلال الشاطبي، وإبداء نقيض قوله من خلال الاعتبار بمعهود العرب الحقيقي المتفق مع الدلالة الفصيحة لهذا اللفظ على العلو.

التخريج الثاني الفقهي: قوله عزوجل في سورة النساء: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء:١١٧-١١٩).

توظيف القاعدة في تأويله

قال ابن عاشور عند تفسير آخر جملة من هذه الآيات: «ليس من تغيير خلق الله التصرف في المخلوقات بما أذن الله فيه، ولا ما يدخل في معنى الحسن؛ فإن الختان من تغيير خلق الله، ولكنه لفوائد صحية، وكذلك حلق الشعر لفائدة دفع بعض الأضرار، وتقليم الأظفار لفائدة تيسير العمل بالأيدي، وكذلك ثقب الآذان للنساء لوضع الأقراط والتزين.

وأما ما ورد في السنة من لعن الواصلات والمتنمصات والمتفلجات للحسن فمما أشكل تأويله. وأحسب تأويله أن الغرض منه النهي عن سمات كانت تعد من سمات العواهر في ذلك العهد، أو من سمات المشركات، وإلا فلو فرضنا هذه منهيا عنها لما بلغ النهي إلى حد لعن فاعلات ذلك. وملاك الأمر أن تغيير خلق الله إنما يكون إثما إذا كان فيه حظ من طاعة الشيطان؛ بأن يجعل علامة لنحلة شيطانية، كما هو سياق الآية واتصال الحديث بها» (٢٦).

ويعني هذا أنه في حال خلو كون هذه الخصال سمة على العهر أو الشرك فلا بأس باقترافها.

وتعد هذه القضية المشتركة بين الوحيين من أبرز ما وظف فيه ابن عاشور قاعدة الاعتبار بمعهود العرب، حيث تطرق إليها أيضا في مقاصده مصدرا إياها بقوله: «من معنى حمل القبيلة على عوائدها في التشريع إذا روعي في تلك العوائد شيء يقتضي الإيجاب أو التحريم يتضح لنا دفع حيرة وإشكال عظيم يعرضان للعلماء في فهم كثير من نهي الشريعة عن أشياء لا تجد فيها وجه مفسدة بحال». ثم ذكر النهي النبوي السابق وعلق عليه بنحو مما سبق؛ مسطرا أن تأويله لم ير من أفصح عنه (٢٧).

التخريج في ميزان النقد

لا وجه للتعجب من النهي الغليظ عن هذه المنكرات، ولا لاستبعاد وقوع اللعن على مقترفها مادام قد جنح إلى مخالفة القضاء الشرعي لأحكم الحاكمين عزوجل، ولم ترض بقضائه

الكوني؛ بتغيير ما فطر عليه الناس، ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١﴾ (الرعد:٤١).

وقد انتحلت المرأة بهذه المخالفة ما يرضي الشيطان؛ قصدت ذلك أم ذهلت عنه، وسواء كانت هذه المنكرات سمة على منكرات أخرى في المرأة أم لا، لأن الله عز وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ (النور:٢١)؛ فالنهي محكم عام لا يخصص بعرف التنزيل، وهذا التوظيف خطأ بدليل ما يرد عليه من القوادح التالية:

١- مخالفته لما نطقت به النصوص والآثار، فقد نص الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله عنه على كون حكمة النهي عن النماص والفلج هي تغيير خلق الله، ولاريب أنه أخبر بمناط خطاب النبي ﷺ.

قال أبوالعباس القرطبي عند حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «اختلف في المعنى الذي لأجله نهي عنها. فقيل: لأنها من باب التدليس، وقيل: من باب تغيير خلق الله؛ الذي يحمل الشيطان عليه، ويأمر به» (٢٨)، واعتبر تلميذه أبوعبدالله القرطبي هذا المعنى الأخير المأثور هو الأصح، وأنه متضمن أيضا للمعنى الأول (٢٩)، ودليل الحس يشهد لهذين التعليلين.

وأما وصل الشعر فقد ورد فيه أيضا من طريق صحابي جليل آخر ما يدل على أنه من باب التدليس، ومن عمل اليهود -الذين نهينا عن التشبه بهم-، فقد روى الشيخان عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية ابن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها فخطبنا، فأخرج كبة (٣٠) من شعر فقال: ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا غير اليهود! إن النبي ﷺ سماه الزور، يعني الوصال في الشعر (متفق عليه).

وذات مخالفة أهل الكتاب تحقق صلاحا للمسلم، وتدرأ عنه ما تعلق بصنيع هؤلاء الكفرة من الضرر أو النقص. قال ابن تيمية -بعد أن استدل من عدة أوجه لكون قصد مخالفة هؤلاء ثابتا بالشرع، وذكر حديث النبي ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم» (متفق عليه)-: «وهذا وإن دل على أن مخالفتهم أمر مقصود للشرع، فذلك لا ينفي أن يكون في نفس الفعل الذي خولفوا فيه مصلحة مقصودة، مع قطع النظر عن مخالفتهم، فإن هنا شيئين:

أحدهما: أن نفس المخالفة لهم في الهدي الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين.

والثاني: أن نفس ما هم عليه من الهدي، والخلق، قد يكون مضرا، أو منقصا، فينهى عنه، ويؤمر بضده، لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا وهو: إما مضر، أو ناقص؛ لأن ما بأيديهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها مضرة. وما بأيدهم مما لم ينسخ أصله فهو يقبل الزيادة والنقص، فمخالفتهم فيه: بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال. ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملا قط» (٣١).

وابن عاشور نفسه قد نص على ضرورة إفادة الناظر من هدي السلف في طريقه للوقوف على المقصود الشرعي، فضلا عن استقرائه للأحكام ذات الصلة، فقال: «عليه -يعني الباحث في مقاصد الشريعة- أن لا يعين مقصدا شرعيا إلا بعد استقراء تصرفات الشريعة في النوع الذي يريد انتزاع المقصد الشرعي منه، وبعد اقتفاء آثار أئمة الفقه ليستضيء بأفهامهم وما حصل لهم من ممارسة قواعد الشرع. فإن هو فعل ذلك اكتسب قوة استنباط يفهم بها مقصود الشارع» (٣٢)؛ فكيف الشأن فيما لو نصوا على المقصود الشرعي، وكفوه مؤنة الاستنباط كما في مسألتنا!

فلا يعقل أن تضل فهوم المتقدمين عن إدراك المناط الحقيقي لهذا الحكم حتى يأتي ابن عاشور بعد عهود طويلة ليقف عليه ويشذ عن المأثور، وحينئذ تسكن النفس إلى غلطه، والعلم عند الله تعالى.

قال ابن تيمية: «كل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين، ولم يسبقه إليه أحد منهم، فإنه يكون خطأ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام» (٣٣).

كما ورد أيضا من جهة المرفوع ما يدل على أن هذه الخصلة الذميمة من أسباب عذاب الأمم، فقد روى الشيخان عن عبدالرحمن بن عوف: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج، وهو على المنبر، وتناول قصة من شعر كانت بيد حرسي. يقول: يا أهل المدينة! أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه. ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم» (متفق عليه).

وهكذا تبين ورود قادح فساد الاعتبار على مذهب ابن عاشور في تأويل الآية وما اتصل بها، كما ورد عليه أيضا قادح عدم تحقق صلاحية الاعتبار بمعهود العرب في هذا الفرع من جهة عدم ذكر ابن عاشور لما يدل على تحققه، بل لقد نطقت النصوص كما سبق

بمناطات لهذا النهي النبوي لا تختلف باختلاف عرف العرب، وعلم من خلالها أن قوله بخلو هذه المنهيات من مفسدة لا يستقيم.

واستشكال بعض النظار لمناط خطاب الشارع في حال عدم الوقوف عليه مع التسليم؛ أولى من الخروج عن ظاهره. قال ابن دقيق العيد: «للفضائل والمصالح مراتب لا يحيط بها البشر. فالواجب اتباع النص فيها» (٣٤)، وقال العز: «الموفق من رأى المشكل مشكلا، والواضح واضحا» (٣٥).

٢- جعل ابن عاشور هذه المنهيات من جنس التزين المأذون فيه؛ كالتحمير والخلوق والسواك، مرفوض؛ لأنه جمع بين المختلفات، فالخلوق -وهو ضرب من الطيب- والسواك لا تغيير فيهما البتة، وأما التحمير فلا يتحقق فيه معنى التغيير لخلق الله؛ لزواله، قال أبوالعباس القرطبي: «قال علماؤنا: هذا المنهي عنه، المتوعد على فعله؛ إنما هو فيما يكون باقيا؛ لأنه من باب تغيير خلق الله. فأما ما لا يكون باقيا، كالكحل، والتزين به للنساء: فقد أجازه العلماء: مالك وغيره» (٣٦).

وهذا التفريق يتناسب مع المذهب العدل للشريعة في باب تزين الناس، وقد أشار إليه الدهلوي عند حديثه على مسألة التزين بالشعور، فقال: «كان ناس يحبون التشعث والتمهن والهيئة البذة، ويكرهون التجمل والتزين، وناس يتعمقون في التجمل ويجعلون ذلك أحد وجوه الفخر وغمط الناس، فكان إخمال مذهبهم جميعا، ورد طريقهم أحد المقاصد الشرعية، فإن مبنى الشرائع على التوسط بين المنزلتين، والجمع بين المصلحتين» (٣٧).

وبهذا قدح في هذا التوظيف قادح الفرق المؤثر بين هذه النظائر التي اعتبر في بعضها بمعهود العرب، حيث تحقق في بعضها تغيير خلقة الله دون الأخرى.

٣- يلاحظ من كلام ابن عاشور أنه لم يستشكل لعن الواشمات، وهذا يعني تسليمه بالحكم، وهذا الاستثناء من المنهيات التي أولها حجة عليه؛ لأنه تفريق بين متماثلات اشتركت في المناط والحكم، كما سبق في أثر ابن مسعود رضي الله عنه. قال ابن القيم: «فطر الله سبحانه عباده على أن حكم النظير حكم نظيره، وحكم الشيء حكم مثله، وعلى إنكار التفريق بين المتماثلين، وعلى إنكار الجمع بين المختلفين، والعقل والميزان الذي أنزله الله شرعا وقدرا يأبى ذلك» (٣٨).

وإذا كانت هذه المنهيات بابها واحد لزم الاعتبار بمعهود العرب في الكل، ويكون الوشم أيضا علامة على نحلة الشرك أو العهر، فإذا زالت هذه العلة زال معها النهي، وهذا ما لا يقول به ابن عاشور.

وهكذا ورد أيضا قادح القلب على مذهبه من خلال إبداء نقيض حكمه بعين اعتباره بمعهود العرب.

من نتائج الدراسة:

١- يتعين التأكد من حقيقة ما يدعى من عوائد العرب من الناحية التاريخية، كما يتعين التحقق من إناطة النص القرآني بهذه العوائد وجودا وعدما.

٢- ينبغي ألا يسترسل عقل الناظر مهما علا كعبه في ملاحظة أحوال عرب محتملة والبناء عليها في تأويل الآي إن كان قد كفاه العناء نص شرعي آخر أو إجماع معصوم أو ما أثر عن أئمة السلف من الصحابة ومن بعدهم.

٣- توخي الحذر الشديد خلال التخريج على هذه القاعدة، وخصوصا إذا تعلق الأمر بالأحكام الجلية أو مسائل العقيدة ونحوها من الأصول؛ فقد غلط في هذا المجال علماء كبار كالشاطبي وابن عاشور وهما من أقطاب علم المقاصد والأصول، فكيف الشأن بمن دونهم؟.

الهوامش

(١) مزالق الأصوليين وبيان القدر المحتاج إليه من علم الأصول ص٥٩.
(٢) نقلها الخطيب البغدادي عن عبدالله بن المعتز، في كتابه: الفقيه والمتفقه ٨/٢.
(٣) الموافقات ١٥٤/٤.
(٤) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه، رقم: ١٠٨٥، ٣٥٣/٢.
(٥) الموافقات ١٥٤/٤.
(٦) اقتباس من كلام لابن القيم.. انظر: مختصر الصواعق المرسلة ١٠٣/١.
(٧) إحكام الأحكام ٢٥٦/٣.
(٨) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٠٢/٢.
(٩) فضل علم السلف على الخلف (ضمن مجموع رسائل ابن رجب) ٢٦/٣.
(١٠) انظر: الفقيه والمتفقه ٤٣٧/١، الفتاوى ٥٠٣/٧، تهذيب السنن ١١٥٦/٣، الموافقات ٧٦/٥.
(١١) حجة الله البالغة ٤٢٣/١.
(١٢) أخرجه أبوداود برقم: ٤٦١٢، ١٦/٥. وانظر في تصحيحه: سنن أبي داود بأحكام الألباني ص٨٣٣.
(١٣) نقله عنه ابن تيمية في الفتاوى ١٥٨/٤. وليس لهذا النص وجود في نسخة الرسالة الباقية.
(١٤) الموافقات ٢٨٩/٣.
(١٥) المعيار المعرب ٤٨/٢. وانظر: البحر المحيط ٢١٥/٥.
(١٦) من أدلة ذلك أيضا قوله في الاعتصام ١٧٠/٣: «لا يشك في أن البدع يصح أن يكون منها ما هو كفر كاتخاذ الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، ومنها ما ليس بكفر كالقول بالجهة عند جماعة وإنكار الإجماع». ولم ينكر مجرد الوصف بلفظ الجهة كما يدل لذلك صريح قوله أعلاه.
(١٧) الموافقات ١٥٥/٤.
(١٨) هامش الإحالة السابقة.
(١٩) راجع في هذا المقام: الإعلام بمخالفات الموافقات والاعتصام ص٤٨.
(٢٠) التدمرية (مع اختصار وتصرف) ص٦٥-٦٦.
(٢١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص١٤٥.
(٢٢) ديوان عنترة بن شداد ص٩٢.
(٢٣) نقلا من إثبات صفة العلو لابن قدامة ص١٤٧، والبداية والنهاية ٢١/١.
(٢٤) رد الدارمي على بشر المريسي ص٢٥.
(٢٥) نقله عنه القرطبي في جامعه لأحكام القرآن ٣١٤/١٢. وانظر توجيه ابن عاشور في التحرير والتنوير ١١٤/٩.
(٢٦) التحرير والتنوير، ٢٠٥/٥.
(٢٧) انظر: مقاصد الشريعة، ص٣٢٣.
(٢٨) المفهم، ٤٤٤/٥.
(٢٩) الجامع لأحكام القرآن، ١٤٤/٧.
(٣٠) هي شعر مكفوف بعضه على بعض. شرح النووي على مسلم ١٠٨/١٤.
(٣١) اقتضاء الصراط المستقيم (بتصرف) ١٧٦/١.
(٣٢) مقاصد الشريعة ص٢٣١.
(٣٣) مجموع الفتاوى ٢٩١/٢١.
(٣٤) إحكام الأحكام ٥٠/٢.
(٣٥) القواعد الكبرى ٤٠٠/٢.
(٣٦) المفهم ٤٤٤/٥.
(٣٧) حجة الله البالغة ١١٥١/٢.
(٣٨) إعلام الموقعين ٣٣٠/٢.

موقف الحضارات غير المسلمة من المخالفين في الدين

حازم علي ماهر
باحث في الأمانة العامة للأوقاف - الكويت

في ظل الهجمة الشرسة على المسلمين و وصمهم جميعا -صراحة أو ضمنا- بالإرهاب، ووضع حضارتهم في موضع الاتهام فيما يخص قضية التعامل مع الآخر - بصفة عامة - حتى انتشرت ظاهرة «الإسلاموفوبيا» أو الخوف من الإسلام، بل والعداء للإسلام، على مستوى جزء كبير من العالم، خاصة في الغرب، فإنه من المهم أن نلقي نظرة على حال التعايش الديني عند الأمم والحضارات غير المسلمة؛ حتى ندرك مكان الحضارة الإسلامية في الخريطة الحضارية الإنسانية، ومدى أحقية هؤلاء في الاستعلاء على حضارتنا الإسلامية ومعايرتها!

تسعى هذه النظرة على التجارب التي قدمتها الأمم والحضارات الإنسانية المختلفة إلى تجنب الوقوع في فخ «الدفاع» و«التبرير» الذي يكشف عن خلل منهجي ومعرفي تعاني منه كثير من الكتابات الفكرية الإسلامية، التي تتعرض للمقارنة بين الإسلام وغيره من الديانات، أو بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، والذي مرده غالبا إلى الشعور بالنقص والدونية تجاه تلك الحضارات، عكس ما يعتقد المبررون في أنفسهم أو يعتقد فيهم.

وبالنظر المتأمل في تاريخ الأمم والحضارات غير الإسلامية نجد ما لا تخطئه عين فاحصة من سجلات بالغة القتامة، في النظر إلى الآخر بصفة عامة، وإلى المخالف في الدين بصفة خاصة؛ فنجد أنه في معظم المدنيات القديمة، كان الاتصال مع المشرك (الآخر) يمكن أن يتم فقط في أوقات الحرب، بصفته الغازي أو المغزو، وفي كلتا الحالتين كان يعتبر عدوا، وكان مصيره الموت أو الأسر، أو الموت بعد الأسر!

وفي قليل من الحال كان الاتصال مع الآخر يتم بمقتضى التجارة وحدها، مثلما كان يحدث في عهد إمبراطورية مصر (الأسرة الحاكمة ١٨)، ولكنه يعتبر كأنه شخص همجي وغير بشري.

وعند الهندوس يعتبر من لا ينتمي إلى أي ديانة هندوسية بمثابة «مليشا»، ويكون ذا مصير أسوأ من مصير «المنبوذ» – الذي يمثل أدنى طبقة – وكلاهما يعد شيئا بغيضا «مدنسا» يلوث كل شيء يتصل به، غير أن «المليشا» ليس له مركز على الإطلاق ويجب طرده من المجتمع أو قتله.

أما اليهودية فإنها – مثلها مثل المسيحية – تنظر إلى من على غير دينها باعتباره عدوا لله، وتتماثل مع الهندوسية في اعتباره منبوذا في المجتمع، وتعتبره «عدوا للقوم المختارين من الله»؛ أي عدوا يجب على المؤمنين مطاردته ومهاجمته، وإخضاعه أو تدميره حتى في وطنه!

ونجد أرسطو يقول في كتابه «السياسة»: «إن الفطرة أرادت أن يكون البرابرة عبيدا لليونان، حيث منح الأولون القوة الجسدية بينما زود اليونان بالعقل والإرادة»! بينما اعتبر الرومان من عداهم أشياء لا أشخاصا، وأطلقوا على الآخر وصف «هوستس» الذي هو العدو المبين!

على حين أن الأوروبيين قد امتلأ تاريخهم مع الآخر بالدماء منذ لاحق الأرثوذوكس الملكانيين اليعاقبة من أقباط مصر والشرق بالقتل والتشريد في القرن السادس الميلادي، وحتى حملة إبادة مسلمي البوسنة في أواخر القرن العشرين، مرورا بطرد المسلمين واليهود بقوة السلاح من الأندلس في القرن العاشر، وقبل ذلك، باستئصال غير المسيحيين من «الدانمارك» على عهد الملك «كنوت»، وفي جنوب «النرويج» إبان حكم الملك أولاف ترايجفسيون، الذي أمر بذبح كل من أبى اعتناق المسيحية، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم ونفيهم خارج حدود مملكته!

ولا تسأل عن مأساة «الهنود الحمر» في الأميركتين، والذين اعتبرهم المكتشفون الأوربيون أقرب إلى القردة منهم إلى البشر، ولا حصانة لهم، فقتلوا منهم الملايين، وحين اعترفوا بهم أوقفوا ذلك على شروط، كقدرتهم

على التحول إلى المسيحية، بل رأى «السادة المكتشفون» أن من واجبهم أن يفرضوا على الهنود التحول القسري إلى المسيحية، واعتبروا الاستعمار عملا أخلاقيا مادام التبشير يحتاج إليه، وهم بذلك كانوا أحسن حالا من السود والمسلمين الذين اعتبروهم حثالة الأمم!

وقد يدفع البعض بأن هذه التجارب تخص الماضي وحده، بينما في الحاضر تفوقت الحضارات الأخرى على الحضارة الإسلامية فيما يتعلق بالتعايش الديني، وهو أمر صحيح جزئيا فيما يتعلق ببعض الجوانب في عالمنا المعاصر، وإنكاره فيه جحود وغفلة عن الواقع الذي يشعر فيه كثير من المسلمين المقيمين في خارج الدول الإسلامية بالأمن واحترام كرامتهم الإنسانية أكثر مما كانوا يشعرون به في أوطانهم، ولكن تعميمه فيه - كذلك - إنكار لحقائق وتجارب بارزة تثبت بجلاء أن التعامل مع المسلمين تحديدا في ظل الحضارة الغربية بالذات لايزال - كذلك - يعاني من أزمة كامنة، يبدو أنها تراكمت عبر التاريخ، أبرزتها أحداث فظيعة أرقت الإنسانية ودخلت ضمن التاريخ الأسود لها، مثل حرب التطهير العرقي والمذابح التي تعرض لها المسلمون في دولة البوسنة والهرسك - وهي دولة أوروبية - في الفترة من (١٩٩٢- ١٩٩٥م)، والتي بلغ فيها ضحايا المسلمين - بحسب تقديرات الأمم المتحدة - ما يقرب من مئتي ألف قتيل، ومئتي ألف جريح ومعاق، لمجرد أنهم سعوا لإقامة دولة مستقلة لهم، مثل نظرائهم من الصرب والكروات، وحدث ذلك تحت عين الأوروبيين والعالم أجمع، دون أن يحرك ساكنا لمدة أربع سنوات، بل وتم حظر السلاح عن القاتل والمقتول على السواء، وكأن الضحايا المسلمين لا قيمة لهم ولا يستحقون النجدة والإغاثة إلا بعد أن يذبح أكبر عدد ممكن منهم!

فضلا عن التضييق المتصاعد على الأقليات المسلمة في الغرب، والذي برز في قضايا مثل: حظر حجاب المرأة المسلمة في بعض الأماكن بعدد من الدول الأوربية، والرسوم المسيئة للنبي محمد ﷺ في الدانمارك، والمبالغة والتعميم في وصم المسلمين ودينهم بالإرهاب والعنف وعدم القدرة على التعايش مع الآخر، ثم توجيه الاتهام إلى الإسلام بأنه هو مصدر الخطر على وجه الأرض الذي ينبغي الاحتشاد لمواجهته!

ويبدو أن هذا التصعيد، فضلا عن دوافعه السياسية التي تتمثل في إيجاد عدو بديل بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة، فإنه يرجع إلى أن الرؤية الغربية الراهنة تستمد جذورها من «مبدأ المواطنة اليوناني» الذي عرف فكرة الأجنبي الذي يستحيل أن يصير مواطنا، لا هو ولا من يولد من صلبه، وعرفت فكرة «العبد والسيد»، كما أنها تستمد جذورها من «مبدأ السلام الروماني» الذي يستدعي فكرة «مركزية روما» وتبعية الشعوب الخاضعة لها، ويدشن بذور النظام القانوني القومي بفكرة «القانون الطبيعي» و«القانون المدني» و«قانون الشعوب» كجذور للداروينية والهيجلية والماركسية، وغيرها من إفرازات تلك النظرية... فمفهوم «الأنا» الحديث هو الذي ولد مفهوم «الآخر» الذي يستحيل دخوله في «الأنا»، فتمت تنشئته على مقولة: إن القوة تخلق الحق، وإن العلاقة بينه وبين كل ما في الوجود لا تحتمل إلا خيارا من اثنين: إما خضوعه لهيمنة الآخر، أو إخضاعه الآخر لهيمنته، وأن رسالته في الحياة هي أن يبرهن على أنه الأصلح للبقاء في صراع أبدي لا موضع فيه للنظر إلى الكون على أنه كيان عضوي يلتزم الإنسان في مواجهته بأية ضوابط من غير صنع الإنسان. واعتبر «الأنا الحديث» علاقته مع «الآخر» كطبيعة علاقة غزو وقهر، واعتبر علاقته مع «الآخر الإنساني» لعبة صفرية لا موضع فيها للتلاقح الفكري الحر الذي يحقق التعارف والتحاور بين البشر.

وهناك تفسير آخر لهذا العداء ذهب إليه د. أحمد داود أوغلو، وهو أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي حظيت بمنزلة أرقى من الحضارة الغربية، وأن المجتمعات الإسلامية هي المجتمعات الوحيدة التي لم ترضخ للأطماع الاستعمارية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بالإضافة إلى سعي الجماهير المسلمة في الوقت الراهن من أجل صياغة ثوابتها الحضارية وثقافتها في عصر عولمة الثقافة واحتكارها، وهذا هو السبب الرئيسي الذي يفسر لماذا يجري الحديث عن المسلمين بوصفهم عناصر غير منسجمة مع النظام العالمي.

وأيا كانت الدوافع وراء العداء المتصاعد ضد المسلمين والإسلام، فإنه يكشف بجلاء عن وجود أزمة حقيقية تعاني منها الحضارة الغربية في قبول المخالف في الدين (المسلم تحديدا) إلا إذا تبنى أطروحاتها وتخلى عن ثوابته وخصوصياته الحضارية، وهو أمر بالتأكيد لا يؤدي إلى التعايش الديني المنشود.

وأخيرا

إن النظر إلى التجارب الإنسانية المختلفة في التعامل مع المخالفين في الدين، يبين كيف امتنع التعايش بالحسنى بين أبناء الأديان في ظلها، فامتلأ بالصراع والعصبية والعنصرية البغيضة.. الأمر الذي يجعلنا نتساءل متعجبين:

ما الذي يدفع هؤلاء إلى التعالي على الحضارة الإسلامية وأصولها المرجعية وسيرتها التاريخية؟!

ألا يجدر بهم بدلا من ذلك أن يتواضعوا كثيرا ويسعون -بجد واجتهاد- إلى المشاركة في وضع ميثاق شرف عالمي، ومنهاجية واضحة تسعى إلى تمكين الإنسانية من التعايش السلمي المشترك وقبول المخالف، أم أن الاعتبارات السياسية عندهم ستظل هي الناصية الكاذبة الخاطئة؟!

من خلال تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور:

مركزية القرآن في إنتاج المعرفة

د. بدران بن لحسن
كلية الدراسات الإسلامية - جامعة حمد بن خليفة - قطر

كل دارس لابن عاشور -عليه رحمة الله- يدرك الخط الفكري الذي تموقع فيه. ولا يجد من له أدنى تأمل صعوبة في معرفة أن الخط الذي أسس له كل من الشاطبي وابن خلدون -عليهما رحمة الله- قد اجتمعت روافده في ابن عاشور. فإذا كان الإمام الشاطبي رائدا أكبر في مبحث المقاصد على مستوى العالم كله، فإن الإمام ابن عاشور هو مستأنف هذه الريادة في عصرنا الحديث (١).

أما بالنسبة لابن خلدون الذي كان له فضل التأسيس لعلم العمران، والاتجاه بالبحث والفكر والنظر من التأمل النظري البحت إلى الاستقراء العملي، وإجراء الملاحظة ومراعاة طبائع العمران من تبدل وتداول وصيرورة، فإن ابن عاشور قد سلك مسلكه في ذلك؛ إذ إن الناظر في فكره يجد البعد الاجتماعي والسنني، والبحث عن العلل والقوانين مبثوثا في مختلف مؤلفاته، سواء في التفسير، أو المقاصد، أو غيرهما (٢).



وإذا نظرنا إلى ما يتميز به الخط الخلدوني الشاطبي نجد أنه -من جهة- اتجه إلى الكليات جاعلا منها إطارا للنظر والتحقيق دون أن يؤدي به ذلك إلى إهمال الجزئيات. ومن جهة أخرى، فإن هذا الخط قد اشتغل على استعادة التفكير السنني الذي أرساه القرآن الكريم، والذي يجعل من مهمة تحقيق الاستخلاف مهمة إنسانية قائمة على قوانين صارمة لا تحابي، ينبغي اكتشافها والاحتكام إليها وتسخيرها بما يحقق أهداف الاستخلاف. وبهذا فهو خط يعمل على النظر بتوازن، والتأسيس لمرجعية منفتحة، قائمة على قراءة سنن الكتاب والكون، لا على مرجعية اصطفائية حصرية كانت موجودة قبل الرسالة الخاتمة (٣).

وتهدف هذه المقالة إلى إبراز إسهامات العلامة ابن عاشور -يرحمه الله- فيما أضافه من إضافة نوعية لجهود الإصلاح والتجديد، بما توفره مساهماته من بعد تنظيري وقواعد منهجية ومعرفية لجهود الإصلاح، لتلافي الوقوع في فقدان الرؤية وافتقاد المنهج.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تقوم الورقة على استراتيجية

تحليل واحدة من المقولات الكلية والقواعد المنهجية التي يقوم عليها فكر ابن عاشور وتطبيقاتها في مختلف إنتاجه الفكري وممارساته الإصلاحية؛ والمتمثلة في مركزية القرآن في إنتاج المعرفة.

حيث تمثل هذه القضية (مركزية القرآن في إنتاج المعرفة) محورا أساسيا وبعدا مهما في فكر ابن عاشور، وتعد جهدا فكريا وعلميا ينطلق من رؤية إصلاحية تحاول إعادة الاعتبار للقرآن الكريم في تشكيل المعارف وبناء الفكر وصياغة المفاهيم، من أجل تحقيق البناء النهضوي الذي سعى إليه ابن عاشور -عليه رحمة الله-.

المقصود بمركزية القرآن

وأول ما يمثل محور ارتكاز في فكر ابن عاشور -رحمه الله- اهتمامه بالقرآن الكريم؛ لأنه «جامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسره» (٤). فالقرآن -ومنذ الصفحة الأولى من تفسير ابن عاشور- هو كتاب الله الجامع لخيري الدنيا والآخرة، وهو منبع الحق والهداية، وهو مصدر العلوم على تنوعها، وهو مستمد الكليات في التشريع وفي العلم والأخلاق. ويمكن بالنظر في القرآن وتدبره أن نولد منه نماذج معرفية ومنهجية وعملية.

بعبارة أخرى، إن القرآن مصدر لتشكيل التصورات والمفاهيم والقيم كليّها وجزئيّها، بل إن قراءة المقدمات العشر التي افتتح بها تفسيره يمكن أن ندرك من خلالها الرؤية التي انطلق منها ابن عاشور في النظر إلى القرآن، وكيف استمد من القرآن ذاته هذه الرؤية، واستمد المنهج، وحدد المقاصد التي يتناولها القرآن، ومختلف العلوم التي تستمد من القرآن الكريم، إما بطريق مباشر؛ أي ما يتعلق منها بسنن الهداية، وإما بطريق غير مباشر؛ أي سنن الآفاق والأنفس والتاريخ.

إنها رؤية جديدة تجعل القرآن مركز اهتمام شامل ومتعدد الجوانب. فهو ليس كتابا دينيا بالمفهوم الضيق للدين، وإنما هو كتاب هداية ورحمة وتبيان لكل شيء. ذلك أن القرآن منبع للمعاني والمفاهيم والتصورات، والقيم والآداب، والأحكام والقصص، ومقاصده شاملة لمختلف جوانب الفكر والعمل، ومبثوثة في كل آياته (٥). وهذه الرؤية للقرآن طالما افتقدها العقل المسلم قرونا عديدة. ولهذا يمثل القرآن محورا مهما في فكر ابن عاشور، ومصدرا لمختلف أفكاره واجتهاداته في الفقه، والاجتماع، والتربية، والعمران، والإصلاح.

بل لا نبالغ إذا قلنا بأن القرآن بالنسبة لابن عاشور يأخذ مركز الاهتمام والاشتغال في تشكيل التصورات، وتحديد الرؤية، وبناء المناهج والمفاهيم، وفي مباشرة عملية التجديد الفكري والعلمي، والإصلاح التربوي والاجتماعي. ولهذا حق أن يعد رائدا في العمل على «التوصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن» (٦).

فالقرآن الكريم في سياق فكر ابن عاشور هو منبع الهداية ومصدر الصواب لهذه الأمة الإسلامية، منه يتكون الإنسان السوي والمجتمع السوي في كل زمان ومكان. وعندما يتعامل المسلم مع القرآن والسنة تعاملا حسنا، فإنه يصل إلى فهم حسن للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان في كل مكان، وهي قضية الخالق سبحانه، والخلق والكون والحياة والهدف منها، ودور الإنسان في هذه الحياة، ومصيره بعدها، ويصل المسلم أيضا إلى فهم حسن للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر (٧).

ولذلك فإنه يحاول الرجوع مباشرة إلى القرآن الكريم من أجل تشكيل التصورات وتحصيل الفهم واستنباط المقاصد، دون الحاجة المعرفية أو المنهجية إلى الرجوع إلى التفاسير السابقة التي صارت حاجزا بيننا وبين القرآن، ولكن في الوقت نفسه دون إهمال لها، بوصفها تراثا فكريا ناتجا عن تعامل مع القرآن، وفق سقف معرفي معين وفي مرحلة معينة، واستجابة لدواع وظروف قد تختلف وقد تشابه ظروفنا.

لذا، ومنذ فاتحة تفسيره «التحرير والتنوير» أيضا، لا يجد العلامة ابن عاشور -رحمة الله عليه- غضاضة في الإعلان عن رأيه في أنه غير ملزم بالأخذ بالتفاسير السابقة، كما أنه غير مدع لتركها كلها، بل أن يقف «موقف الحكم بين طوائف المفسرين. تارة لها وتارة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد» (٨).

فكأن ابن عاشور يقول لنا إن القرآن الذي نزل إلى العالمين وإلى الناس كافة على امتداد الزمان والمكان، لابد وأن يبقى مفتوحا للأجيال تنهل منه على اختلاف بيئاتها وأزمانها، وإن من الأخطاء الكبيرة وبدايات الانحراف في الفهم والاستمداد، أن نعمد إلى محاصرة الوحي بأفهامنا، فلا نسمح له بالامتداد إلا بمقدار ما تسمح به عقولنا ومداركنا، فنحرم عقولا أخرى من حظها في الفهم، ونصادر حقها في الرأي والاجتهاد (٩).

ليس ذلك فحسب، بل يبدو العلامة

ابن عاشور منشغلا بهم الصلاح والإصلاح في الشأن الفردي والشأن العام، وهو في ذلك يسلك نهج المدرسة الإصلاحية منذ الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من رواد المدرسة الإصلاحية التي اشتغلت على أن يسترجع القرآن دوره ومكانه.

إن العمل الذي قام به ابن عاشور في تفسيره، وفي بقية مؤلفاته وهو يتعامل مع القرآن تدبرا وتفكرا واستنباطا واستقراءً؛ هو بمثابة استدعاء القرآن العظيم للساحة الثقافية الإسلامية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، وفي قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم (١٠).

فالقرآن الكريم «أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم. قال الله تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩). فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية.» (١١).

القرآن مصدر التصورات

إن المتأمل في تفسيره وبقية كتبه يدرك أن ابن عاشور حاول أن يفك الارتباط بينه وبين بعض التصورات التي أغرقت القرآن في تصورات لاهوتية كلامية، جعلت منه كتابا طقوسيا بعيدا عن صياغة الحياة، فأراد أن يسترجع المبادرة بالقرآن ويستدعيه لصياغة تصور جديد، هذا التصور هو عده أن مدار مقاصد القرآن هو الإنسان وصلاح الإنسان.

وإن تأكيده على أن أحكام الشريعة الإسلامية، من خلال النظر في القرآن الكريم، تبين أنها في أحكامها؛ الاعتقادية والعملية، تصب كلها في مقصد تحقيق صلاح الإنسان بأبعاده الثلاثة؛ الفردي والجماعي والعمراني، وذلك من خلال ضبط نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان في دوائر وجوده الثلاث السالفة الذكر (١٢).

وبما أن صلاح الإنسان هو المقصد الأعلى للقرآن، فإن كل شؤون الإنسان يشملها القرآن بوعيه الشامل لمختلف دوائر حياة الإنسان، ولمختلف أبعاد شخصيته. وعليه، فإننا بتأملنا لمختلف الدوائر والأبعاد ندرك أن القرآن يكون منبعا لنا في تأسيس مختلف المعارف المتعلقة بصلاح الإنسان؛ فردا وجماعة وعمرانا.

فالصلاح الفردي يقتضي تهذيب النفس وتزكيتها، وعلى رأس ذلك صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر (١٣). وهذا يجعل من القرآن مركزيا ومهيمنا في التأسيس لعلم العقيدة، وعلم الأخلاق، وعلم الأدب وتهذيب النفوس، ومناهج التفكير، وعلم النفس، وعلم الشعائر أو العبادات.

وأما الصلاح الجماعي، فيحصل بالصلاح الفردي أولا، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه. غير أن هذا لا يتم وحده على المستوى الفردي، بل يحصل الصلاح الجماعي من خلال ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض. وهذا هو علم المعاملات،ويعبر عنه عند الحكماء بـ «السياسة المدنية» (١٤). وفي هذا اتجاه إلى تأسيس الفقه الجماعي، أو فقه الشؤون العامة التي تهتم بالوجود الاجتماعي للفرد في وسط جماعة، وفي هذا محاولة لاستدراك ضمور الفقه في هذا الجانب؛ أي فقه الشأن العام (١٥).

وأما الصلاح العمراني، فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم، لحفظ مصالح الجميع، ورعاية المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع (١٦). وهذا بدوره يجعل من القرآن منبعا للعلوم الاجتماعية والعمرانية، ومختلف حقول المعرفة التي تؤسس للتحضر الإنساني والعمران البشري. وهو تأكيد للخط الخلدوني في التركيز على فقه العمران والاجتماع، وتأسيس مهم للبحث الاجتماعي على أسس قرآنية تستدعي القرآن مؤسسا وموجها للنظر الاجتماعي.

فصلاح الإنسان في دوائره الفردية والجماعية والعمرانية هو مقصد القرآن الأعلى. وهذا الفهم للقرآن والنظر إليه بهذه

المركزية وهذه الشمولية يجعل من القرآن مرجعا يستقى منه، لا مرجعا للتبرير للآراء الجزئية. وكأن ابن عاشور يريد منا أن نفتقر إلى القرآن ليعطينا من جواهره المكنونة ويحدد لنا المقاصد التي في ضوئها نجتهد ونعمل، ولا يفتقر إلينا القرآن للاحتجاج لها والبرهنة على صحته من خلال ما أنجزه الإنسان، أو نجعل منه مرجع تسويغ لآرائنا ومقاصدنا بعد أن نكون قد حددناها بعيدا عن القرآن.

ولذلك على من أراد فهم القرآن وتفسيره والأخذ منه أن يخضع للقرآن ومقاصده، ليستطيع أن ينتفع به، لا أن يحدد مقاصد لنفسه، ثم يأتي للقرآن طالبا التبرير له، فيقع في التجزيء. ولهذا، فإن على متدبر القرآن أن «يعلم المقاصد الأصلية التي جاء بها القرآن» (١٧)، هذه المقاصد الأصلية تدور في فلك المقصد الأعلى الذي هو صلاح الإنسان، وهي توجه منهجي لتأسيس علوم ومعارف يتوصل بها إلى تحقيق المقصد الأعلى، وتشكل المحاور الكبرى التي تحوي مختلف المعارف التي تأتي من فيض القرآن وتتصل به من قريب أو من بعيد.

إن الناظر في المقدمات التي افتتح بها ابن عاشور تفسيره يجد أن المقصد الأعلى للقرآن -والمتمثل في صلاح الإنسان- له أبعاد ثلاثة؛ هي البعد الفردي، والبعد الجماعي، والبعد العمراني. وهذه الأبعاد تنطوي بدورها على علوم مختلفة لتحقيق هذا المقصد الأعلى. ليس ذلك فحسب، بل إن المقاصد الأصلية الثمانية التي تتمحور حول المقصد الأعلى تنشئ علوما مختلفة تتعلق بالاعتقاد، والتشريع، والأخلاق والقيم، والمواعظ، والتاريخ، والسياسة العامة، والعلوم العقلية المختلفة.

ولهذا فابن عاشور يؤكد من جهة أخرى على صلة مختلف العلوم بالقرآن الكريم. ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا للعلوم بالمعنى الأكاديمي، وإنما القرآن ينظم علاقته بالعلوم في مستويات أربعة؛ فمنها ما هو مستمد مباشرة من القرآن: كتاريخ الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة. ومنها علوم تزيد المفسر علما: كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات. ومنها علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له: كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق. ومنها علوم لا علاقة لها بالقرآن إما لبطلانها: كالميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته (١٨).

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية للعلوم الدينية وغير الدينية. فالقرآن يقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، مما يجعلها ذات أصول مشتركة وتتجه إلى تحقيق أهداف متضافرة. ذلك أن التشظي المشهود في المعرفة في العالم الإسلامي والإشكالات المتعددة ناتجة عن استبعاد القرآن الكريم عن مسار الإنتاج المعرفي وعن هيمنته على إنتاج المعرفة.

ولذلك - وخاصة في مجال العلوم المرتبطة بالدين - يجب أن يكون القرآن المصدر الأعلى ويكون معيار صواب الآراء والأفكار، والمصدر الرئيس للقواعد الثابتة لجميع المعارف، وجميع مناشط الإنسان لتحقيق الهداية والاستخلاف، والناظم لمختلف أفرع المعرفة.

الهوامش

١- الحسني، إسماعيل. نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٠.
٢- يمكن النظر إلى المقدمة، وخاصة خطبة المقدمة والمقدمات الخمس الأولى للمقدمة.
٣- جعفر، هشام. الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية، رؤية معرفية، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م. من تصدير الشيخ الدكتور طه جابر العلواني للكتاب.
٤- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، مج١، ج١، ص٥.
٥- نفس المرجع السابق، مج١، ج١، ص٨.
٦- الغزالي، محمد. كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها: عمر عبيد حسنة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.
٧- إسماعيل، صلاح. كيف نتعامل مع القرآن والسنة، انظر:
- عارف، نصر محمد. قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ١٦، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٨٧م، ص٨١.
٨- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٧.
٩- شبار سعيد. الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١.
١٠- الغزالي. كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص١. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.
١١- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.
١٢- الحسني. نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٢٢٨.
١٣- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.
١٤- المرجع السابق، مج١، ج١، ص٣٨.
١٥- أبوسليمان عبدالحميد. أزمة العقل المسلم، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٦-٨٣.
١٦- ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١، ص٣٨.
١٧- المرجع السابق، ج١، ص٣٩.
١٨- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٤٥.



منهج القرآن في الحض على الإنفاق

أ. د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

المال في الإسلام مال الله، والإنسان مستخلف فيه. بالتالي، فهو ليس ملكا خالصا لصاحبه أو من يحتفظ به؛ ولأنه مستخلف فيه فهو محاسب عليه: من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟..

ولقد أوجب الله - تبارك وتعالى - على المسلمين إنفاق جزء من أموالهم في سبيله سبحانه وتعالى، ونهاهم عن البخل به. وأوجه الإنفاق كثيرة ومتعددة، فكل ما يعمر الكون هو في سبيل الله عزوجل، وكل ما يقضي الحاجات الضرورية للمحتاجين من بني البشر هو في سبيل الله عزوجل، وكل ما يخدم الإنسان، الفرد والمجتمع، هو في سبيل الله تعالى ما دام لا يدعم معصية ولا يكرس لانحلال أخلاقي.

ولقد كشف القرآن الكريم النقاب عن أن النفس الإنسانية بطبيعتها تحب اقتناء الأموال وحيازة الثروات ولا تستطيب التفريط فيها إلى حد كبير، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤). فالقرآن الكريم يشير هنا إلى أن النفس لا تقنع بالقليل من المال، بل تحب القناطير المقنطرة منه، كناية عن حرص الإنسان على امتلاك أكبر قدر ممكن من المال والاستحواذ على أكبر قدر متاح من الثروة.. وقال تعالى في موضع آخر معبرا عن هذا المعنى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:٢٠).

ولأن المال عزيز على النفس الإنسانية إلى هذه الدرجة فقد اتبع القرآن الكريم عدة سبل لإقناع الناس بالإنفاق من أموالهم في مشاريع الخير والإصلاح والتنمية وقضاء حاجات الفقراء.. من هذه السبل ما يلي:

أولا - أكد القرآن الكريم أن حيازة

المال الكثير لا تعني القرب أو التقرب إلى الله تعالى بأي حال من الأحوال، فالله تعالى لا يفضل الغني على الفقير لمجرد كونهما كذلك، بل إن الغني المنفق يتقرب إلى الله تعالى بإنفاقه كما يتقرب إليه الفقير الصابر على فقره بصبره.. والناس لا يتفاضلون عند ربهم بكثرة المال أو قلته، إنما أفضلهم عند الله أتقاهم.. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

من هنا كانت الأعمال الصالحة القائمة على الإنفاق هي من السبل المؤدية إلى القرب من الله تعالى، قال عزوجل في هذا المعنى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (سبأ:٣٧).. فالمال والولد لا يغنيان بأي حال من الأحوال عن العمل الصالح الذي هو سبيل القرب من الله عزوجل؛ لأنه يكسب المرء الوصول إلى كسب رضا الله تعالى عنه.

وقال تبارك وتعالى في موضع آخر: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (الروم:٣٩).. من ثم فإن إخراج الزكاة وتكثير الصدقات وإخراجها خالصة لوجه الله تعالى تؤدي بالإنسان إلى الخير الذي لا خير بعده، ألا وهو القرب من الله تعالى.

وتحبون المال

ثانيا – ذكر القرآن الكريم في وضوح وجلاء أن النفس الإنسانية تسعد بحيازتها للمال واقتنائها للثروة. وأوضح أن المال مع الولد يمثلان زينة الحياة الدنيا. وكشف النقاب في الوقت نفسه عن أن الأعمال الصالحة أفضل وأبقى من كل هذا وذاك، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف:٤٦).

ومن أحب في الإسلام أن يكون من ذوي الثراء المادي فلا تثريب عليه، شريطة أن يكون واعيا بأن الأبقى والأصلح عند الله تعالى هو فعل الصالحات بهذا المال وتسخيره لأعمال الخير ووجوه الإعمار في الكون.

ثالثا – أشار القرآن الكريم إلى أن المال الذي يحوزه الإنسان ويحافظ عليه يكاد أن يكون فتنة له شأنه في ذلك شأن كثرة الولد سواء بسواء. وقد يعد حملا على الإنسان إذا لم يتعامل معه وبه وفق المنهج الإسلامي السليم؛ لأنه سيتحول وقتذاك إلى فتنة لصاحبه.. قال ربنا سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال:٢٨).. وورد في المعنى نفسه قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن:١٥).

ولا يجب أن يفهم من هذا الكلام أن الإسلام يقف من المال وكثرة الولد موقفا سلبيا في كل الحالات، إنه يحذر فقط من أن يكون دأب الإنسان وديدنه في هذه الحياة الدنيا هما الحرص على جمع المال وحيازته من دون إنفاقه في سبيل الله، أو أن يكون هدفه الحرص على إنجاب الذكور للتباهي بهم أمام الناس أو التقوّي بهم على خلق الله من دون تعليمهم الدين والالتزام الأخلاقي وتسخيرهم لخدمة دينهم ومجتمعهم.

رابعا – حذر القرآن الكريم من عدم إنفاق المال في سبيل الله، وأبان أنه يلقي بالمرء في التهلكة، حيث أكد القرآن الكريم أن من لا ينفق ماله في سبيل الله ويحرص على اكتنازه يعرض نفسه بذلك لغضب الله من دون أن يشعر، قال الله عزوجل: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥). ويفهم من هذه الآية أن من أراد أن يحفظ نفسه وماله وولده من التهلكة فعليه بإنفاق المال في سبيل الله تبارك وتعالى، ولا خوف عليه من ذلك البتة، إذ الإنفاق أداة النجاة، والإمساك طريق التهلكة التي ليس بعدها خير. ولما كان الله تبارك وتعالى قد قال عقب ذلك مباشرة: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥)، فإنه يفهم من ذلك أن الإنفاق في سبيل الله يسلك الإنسان في عداد المحسنين. والمحسنون هم من أهل محبة الله تبارك وتعالى ومن صفوة عباده المكرمين.

والحق أن القرآن الكريم حذر في

أكثر من موضع من عدم الإنفاق في سبيل الله. وأكد أن في ذلك ضررا كبيرا على من يحرص على جمع المال من دون إخراج حق الفقراء والمحتاجين فيه. وأشار إلى أن إمساك المال وعدم إنفاقه يجلب التعاسة، بينما الإنفاق يجلب لصاحبه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، قال الله عزوجل في هذا المعنى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل:٥-١٠).

الصحابة - رضي الله عنهم - والإنفاق

خامسا - شدد القرآن الكريم على أن المال لن يغني عن صاحبه شيئا إذا تعرض لغضب الله تبارك وتعالى في الدنيا أو في الآخرة، فالمال المكنوز لا يأخذ بيد صاحبه حين تعرضه للتعذيب بالنار أو بأي شيء آخر؛ لأنه سيكون حجة على صاحبه، قال تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ (الليل:١١). والمال أيا ما كان حجمه، وأيا ما كانت كميته، ليس بكاف صاحبه - الذي اكتنزه وامتنع عن إنفاقه في الخيرات - من عذاب جهنم، قال تبارك اسمه وتعالى قدره في السياق نفسه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد:٢). فتلك عظة وموعظة - وما أحوجنا لأن نتعظ بكل عظات القرآن الكريم ومواعظه - لكل من يحرص على جمع أمواله واكتنازها ويتردد في إنفاقها في وجوه الخير.

إن المال الذي يكسبه المرء في حياته لا يغني عنه من الله شيئا إذا لم يخرج منه حق الفقراء والمساكين والمحتاجين، وما كان رسول الله ﷺ يحب كنز المال، وأدرك صحابته - رضوان الله عليهم - هذا المعنى فأنفقوا ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل؛ لأنهم تعلموا من رسول الله ﷺ أن الصدقة وسيلة فاعلة وناجزة في إطفاء غضب الرب. لذلك، حرصوا على التصدق ومراعاة الفقراء طوال الوقت، ولهم في هذا المجال تاريخ مشرف وأياد بيضاء.. وما تاريخ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عوف.. وغيرهم علينا ببعيد.

الاستقواء بالثروة

سادسا - حذر القرآن الكريم من الاستقواء بالمال، فقد يصد المال صاحبه - عند الاستقواء به - عن اتباع الخير، ويدفعه باتجاه التكبر والتجبر في الأرض، وينسيه حق الفقراء فيه. ولقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تشير إلى هذه المعاني وتوضح تلك الصور؛ إذ ظهر إبان عصر الرسالة وفي حياة النبي ﷺ أناس تلاعب المال بعقولهم، وأذهبت الممتلكات رشدهم، وجعلتهم يقفون ضد الإسلام الحنيف، متكئين في ذلك على ثرواتهم التي كانت تمنحهم وقتذاك مكانة اجتماعية وترفعهم في أعين الفقراء والمحتاجين من الناس.. ولقد قال الله تعالى في حق هذا الصنف من الناس - ومنهم أمية بن خلف وغيره ممن اغتروا بأموالهم وثرواتهم التي جمعوها وتفرغوا لتنميتها وأعرضوا عن اتباع الحق وسماع دعوات الخير - قال عز من قائل في حقهم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة:١-٣).. ونزلت آيات بينات في المعنى نفسه بحق الوليد بن المغيرة، الذي سيطرت عليه الدنيا، واستحوذ عليه الجشع وحب المال، قال الله تعالى في هذه الآيات: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ (المدثر:١١-١٧). فالله عزوجل يذكّر بهذه الآيات أصحاب الأموال الكثيرة والثروات الطائلة أنه تعالى هو الذي أمدهم بتلكم الأموال، وهو عزوجل الذي وهبهم البنين من الأولاد، فحق عليهم أن يؤمنوا به ويشكروه وإلا تعرضوا لما لا تحمد عقباه.

وجاء في سورة القلم ما يؤكد رفض القرآن الكريم لسلوكيات هؤلاء وأفعالهم، حيث أعاب الله تعالى أقوالهم وأفعالهم التي تمثلت في الكذب في اليمين، والمشي بالنميمة، ومنع الخير عن الناس، والاعتداء عليهم وعلى أعراضهم، وتكذيب آيات الذكر الحكيم، والتطاول على كلمات الله ووصفها بأنها أساطير الأولين، قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم:١٠-١٥).

ولقد توعد ربنا هؤلاء وأمثالهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، كل هذا لينبههم إلى أن من سبل رضوان الله أن يؤمن العبد بربه وينفق في سبيله.

وإمعانا في توضيح خطورة إمساك المال وعدم إنفاقه في سبيل الله، أشار القرآن الكريم إلى أن بعض المترفين الأوائل أطغتهم أموالهم،

وغرتهم ثرواتهم، وظنوا أن المال سيمنعهم العذاب والعقاب، محذرا بذلك أثرياء قريش – وأثرياء كل العصور – من التصرف وفقا للمنهج الذي اختطه هؤلاء الطغاة..
قال تعالى في هذا السياق:
﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥).. كما لو كان العذاب سيطول الأقل أموالا من الناس ولن يصل إلى ذوي الكثرة والوفرة من الثروة، بحسب زعمهم وفهمهم الخاطئ للقضية الإيمانية.
سابعا – حذر القرآن الكريم أصحاب المال والثروة من إنفاقهما في غير موضعهما، حيث إن هناك من الناس من لا يلجأ إلى إنفاق ماله في الأبواب الصحيحة، والمسالك الرشيدة.. من هنا كان النص القرآني شديد الوضوح والمباشرة في تنبيه أصحاب الأموال والثروات وتحذيرهم من إنفاق ما لديهم من أموال في ما لا ينفع أو في ما يضر.. ومن يفعل ذلك سيكون ماله حسرة عليه؛ لأنه تسبب له في الطغيان والتجبر، ولأنه حارب به الخير ودعاته، ووقف ضد الرسول ﷺ وهو من دعاة الإيمان والأمن والسلام، معتمدا في عناده هذا على السطوة والحظوة اللتين أخذهما من حيازته لتلك الثروات..
من هنا فقد عبر القرآن الكريم عن تلك الحالة بقول الله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦).
والذي عليه أهل العلم أن من ينفق ماله في الصد عن سبيل الله أو تعطيل أي خير تنتفع به الأمة في مشاريعها التنموية والإصلاحية هو خاسر لا محالة.

ذم البخل

ثامنا – ذم القرآن الكريم البخل والبخلاء. يتبين للمتصفح لكتاب الله تعالى أن الله عزوجل لم ينزل في كتابه آية واحدة تبيح البخل، أو تجيزه، أو تحض عليه، بل إن كل ما ورد في هذا السياق يؤكد – بما لا يدع مجالا للشك – أن الإسلام الحنيف له موقفه الواضح، وله فلسفته الخاصة في هذه المسألة، وهي فلسفة تقوم في جوهرها وأساسها على رفض البخل بكل أشكاله وألوانه، بما في ذلك البخل العاطفي، حيث أراد للأب أن يقبل أولاده ويحنو عليهم ويظهر محبته لهم.. ومن المنطلق نفسه أراد للمسلم الميسور الحال أن يؤكد دعمه لأخيه الإنسان المتعسر ماليا، وأن يقف بجانبه ويعينه على مواجهة تقلبات الحياة وصعوباتها.
من ثم فإن البخل في الإنفاق مذموم في كتاب الله عزوجل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠).
وغني عن البيان التذكير بأن كتب الصحاح ممتلئة بأحاديث النبي ﷺ التي تذم البخل وتحض على الإنفاق من دون خوف من فقر أو حاجة؛ لأن المال لا ينقص من الصدقة على الإطلاق، بل إن الصدقة هي حصنه الذي يحفظه ويقيه من الضياع أو النفاد.
ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن حالة البخل التي تعتري النفس الإنسانية مصدرها الشيطان الرجيم، فهو الذي يوسوس للمرء بأن الإنفاق قد يؤدي به إلى الفقر أو العوز، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ (البقرة:٢٦٨). والمعنى الذي عليه جمهور المفسرين هنا: أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويأمركم بالبخل، ويزرع في نفوسكم الخوف من الإنفاق، واهما بعضكم بأن الإنفاق سبيل الفقر والاحتياج، ويزين لهم ضرورة الحرص على المال، ويظهر الإنفاق في نظرهم كأنه تبديد للثروة وتضييع للأموال.
ولقد نبه الله تعالى أهل البخل، ومن يدعون الناس إليه، ومن يكتمون نعمة الله تعالى عليهم، إلى أن في ذلك مهلكة لهم ومجلبة لعذابهم، وربما يخرجهم بخلهم هذا من طائفة المؤمنين بنعمة الله عليهم، ويسلكهم في عداد الذين كفروا بنعمة الله عزوجل.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ (النساء:٣٧).
وكشف القرآن الكريم النقاب عن أن مما يغضب الله تعالى أن يمتنع أحدهم عن الإنفاق في سبيل الله بعد أن كان قد عاهد الله أن ينفق في أبواب الخير ووجوهه إذا بسط الله تعالى له رزقه، جاء في هذا المعنى قول ربنا:
﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٦-٧٧).

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٨)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



من الأقوال الثابتة أن اللغة العربية الفصحى توالت عليها كثير من النكبات المشككة في قدرتها على الوفاء بحاجات الاتصال والتواصل العلمية والتقنية المتجددتين، رغبة في إسقاط هيبتها بين اللغات، وإظهارها عجوزا عقيما عاطلا من الحلي؛ قد ذهب الزمان بنضارتها وزينتها، ومن ثمة لن تستطيع كل المساحيق التجميلية التي تتعرض لها في ندوات ومجالس المجمَّعات العلمية اللغوية أن تخفي تجاعيدها، وتعيدها إلى معترك الحياة غانية ليس بها حاجة إلى أدوات الزينة التي تخلب أفئدة المواكب الإنسانية التي تقبل عليها. وما النكبات التي تَتْرى عليها ـ دون غيرها ـ إلا لأنها لغة القرآن الكريم وسُرَّة روضة اللغات، وغُرتها الشادخة، وشمسها التي كلما ظهرت، طمست باقي الكواكب. تأسيسا على هذه الحقيقة الراسخة رسوخ الجبال، فإن أعداءها اللُّد ـ في الداخل وفي الخارج ـ لا يكلون ولا تفتر لهم العزائم في دعواتهم المنكرة التي تركب السَّخْبَر، لإبعادها عن مرجعياتها الدينية والأدبية والتراثية والحضارية والثقافية التي ضمنت لها البقاء الممزوج بصرخة الولادة في البيئة العربية التي يصر الآباء على إسماع أبنائهم القرآن الذي يتولى تعليمهم كل شيء، فيعيشون على حبها بأفئدتهم وأفواههم، لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة الأحاديث النبوية الشريفة، ومادة الشعر العربي البليغ، كما تغنى به الشعراء المفلقون في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وفي العهدين: الأموي والعباسي، بل لأن العربي الصميم، والمسلم الذي حسُنَ إسلامه يعلم علم اليقين أن «الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب».

إذا اقتصرت الحلقة الآنفة على الاكتفاء بإيراد نغبة طائر من بحر التغيرات الضرورية التي شهدتها العربية الفصحى، بأمثلة شارحة، وأدلة واضحة مبيِّنة لصراط الفصاحة ليُسْلك، فإن هذه الحلقة تمد أسباب المطمعة للمرور بسرعة البرق على بعض الدعوات المنكرة التي عقدت حُبُك النِّطاق لتنتهز نُهْزة المختلس التي تُسَوِّئ ولا تُسَوِّي، رغبة في إلباس الأطمار المعيبة للأساليب العربية المبينة، ومن ثمة دفع الشعوب العربية إلى احتقار لغتها الفصحى، وما تدل عليها كلماتها المرتبطة بالبيئة البدوية التي تخلى عنها الإنسان العربي المعاصر طوعا وكرها، ومن ثمة يرصف بنا ـ حسب زعمهم ـ أن نشيِّع هذه الكلمات التي تذكرنا بالقسوة وشظف العيش إلى مثواها الأخير، تماما كما نحرص على دفن أمواتنا الذين فقدوا أسباب

الحياة. هذه هي المسوغات التي ينطلق منها الذين يأتلفون لوأدها، ويهيئون لها الأكفان في كثير من وسائل الإعلام، ويقربونها من رمسها في ما يتفوهون به من كلام غث، بزل فيه الفساد حتى بلغ مبلغه الذي لا ينفع معه ترياق، لأنهم أدركوا صعوبة استفادة اللغة العربية من قرائها، لأن لغتها العالية لغة كتابة، وليست لغة التواصل الشفهي، ولذلك لا تستفيد من متكلميها في البيت وفي الشارع وفي السوق، وفي غيرها من الأماكن غير الرسمية التي توجب التحدث بالفصحى. هذا المناخ اللغوي المضطرب غير السليم، لا يساعد الفصحى على التطور والنماء اللَّذيْن يضمنان لها السيادة في ميادين المال والاقتصاد والعلم والتقنية، مما شجع دعاة اللهجات إلى الاعتداء على الفصحى، وعلى حقها في الوجود، فتقوى النسق العامي حتى تطاول وعربد في الميادين الأدبية التي انفردت بها الفصحى، كما يبدو ذلك من خلال دواوين الشعر الشعبي النبطي في المشرق العربي، وغيرها من النصوص الأدبية في المغرب العربي مثل: سلسلة قصص الأطفال «نيكولا الصغير» الذي أصدرته فرنسا بالدارجة المغاربية، تقديم الباحثة «دومنيك كوبي»، حيث تمَّ عرضه في المعرض الدولي للكتاب في الدار البيضاء ٢٠١٤م. وتتكون السلسلة من تسع قصص، ثلاث منها بالدارجة المغربية، وثلاث أُخَر باللهجة الجزائرية، والثلاث الأخريات بالعامية التونسية. كما ظهرت في المغرب كتابات اتخذت الدارجة أداة لها، وبالحرف اللاتيني، مثل ما طرسه المنشئ مراد العلمي، ناهيك عن محمد نبيل فهمي الذي أصدر رواية بالدارجة المغربية، بالإضافة إلى الجريدة الأسبوعية المسماة: «نيشان» التي اتخذت العامية لغة لها، لكنها فشلت في إيجاد قراء يوفرون لها الدعم اللازم للاستمرار، فرجعت من حيث أتت لا تلوي على شيء.

وعلى الرغم من أنه لا ينبغي أن يحزننا الذين يسارعون في المكر باللغة العربية الفصحى، ليّا بألسنتهم وطعنا في قدرتها، لأنهم لن يضروها بشيء مادام القرآن الكريم حارسها الأمين، فإن القائمين على الحقل اللغوي في البلدان العربية مدعوون إلى تخطيط لغوي محكم يوفر المحضن السليم لانتشار الفصحى، ويدرك المقاصد والمنافع المادية والمعنوية التي تحصل عليها الشعوب العربية من جراء العناية باللغة العربية الفصحى، ويقضي على منابت الشر التي بدأت تطل برؤوسها في أرجاء الوطن العربي، من خلال تحديد القواعد الضرورية التي تضمن المعْيَرة للفصحى نطقا وكتابة، ناهيك عن ضبط حركات مباني الكلمات وحركات إعرابها، بله تصنيف المعجمات العربية المختلفة لمساعدة المتكلمين والأدباء والعلماء والأطباء والمهندسين على الضبط اللغوي الذي يسهل الاتصال والتواصل بين أبناء الوطن العربي، إضافة إلى الاحتكام إلى ميثاق إعلامي مدعم بقرار سياسي ملزم، ولا يقبل التسامح مع مُعدِّي البرامج الإذاعية والتلفزية الذين يشترط في توظيفهم الامتلاء والضلاعة من الفصحى، بما يضمن عدم انحرافهم عن صراطها السَّويِّ، سواء من خلال طرق الإملاء المعيبة التي تسود الأشرطة المتحركة أسفل الفضائيات، أو من خلال لغيَّات الإعلانات الإشهارية التي تأخذ بخناق الفصحى، وتضع السكين على حبل وريدها، مؤذية السمع والبصر والفؤاد بما تنغش به من الأخطاء كما تنغش التينة بالدود، أو بالنسبة إلى الحوارات السياسية والاجتماعية والثقافية التي يَتِد أصحابها أقوالهم الملهوجة بالعامية أحيانا، وبأصناف الكَلِم العَرَبيزي والعَرَنْسي في أحايين كثَيرة، ناهيك عن الأشرطة الدرامية التي سعت سعيا منكرا إلى أذيَّة الفصحى، لا تترك موقفا يثير السخرية إلا حشرتها فيه، جاعلة الأعرابي الساذج، ومدرس العربية البليد هي الصورة الأثيرة المعبرة عن موقف أصحابها من العربية الفصحى. هذه الثقوب والهنات التي يمكن أن يستصغر بعضنا أمرها، فيتركها تواجه الإهمال الذي يعد مصيرها المحتوم، كما أهملت الدعوات الآنفة التي حمل الاستشراق لواءها بزعامة الألماني «سبيتا»، والإنجليزي «ولكسوس»، والألماني «مارتن هرتمان»، الذين أسهبوا في عرض مزيات العامية، وجاؤوا بالإفك والأحاديث المرجَّمة عن الفصحى، فتبعهم بعض الألفاف من المشرق العربي أمثال: شبلي شميل وأنيس فريحة ولويس عوض وسلامة موسى وعبدالعزيز فهمي وأحمد لطفي السيد ومَن لفَّ لفَّهم. لا ينبغي لنا أن نطوي الكشح عنها لعلمنا أن النار من مستصغر الشَّرَر، وأن الحبو الذي يظهر على هذه الدعوات، قد يصبح عَدْوًا وجريًا في قادمات الأيام، ولاسيما أن تيار التسهيل بدأ يتقوى في البلاد العربية حتى أصبح بعضنا يَبْجَح بإدخال بعض أساليب العاميات في نسيج العربية الفصحى كما توضح الأمثلة الآتية: × شرب فلان الأمازيغية من حليب أمه. × لون السروال داكن. × ولدت الناقة ... لا ريب أن هذه الجمل التي تنكبت طريق الفصحى، يغزو أصحابها أن يركبوا سبيل الفصحى عوَجًا، ولذلك يحسن بنا أن نطفئ لهيب هذا الحريق، بالإشارة إلى التصحيحات الآتية التي تَذَلِّك العامية وتهذبها وتخضعها للقواعد على هذه الشاكلة: × رضع فلان الأمازيغية من لبان أمه. × لون السراويل أدكن. × نُتجت الناقة... حيث إن الفصحى تميز بين لبن أُمَّات الأنعام وبين لبان الأمهات العاقلات، كما أن السراويل لفظ مفرد جمعه: سراويلات، بخلاف العامية، كما أن ما دَلَّ على لون أو عيب يأتي على وزن «أفعل» (أحمر ، أصفر، أبيض، أدكن...) وفي ضروب الولادة نقول: ولدت المرأة، ونُتجت الناقة والشاة، ووضعت الرَّمَكة والأَتَان.

بهذا المرور الطائر على الشائنات التي تحدثها اللهجات العامية في أثواب الفصحى، أرجو أن أكون أنا النذير العريان الذي يرمي حجرا في بركة اللحن الآسنة، فيأتي الآخرون فيرمون أحجارهم لتتسع دائرة الدوامة التي تطرد شنع اللغات عن العربية الفصحى، ليدرك العرب أن الإصلاح الحقيقي يجب أن يبدأ من اللغة ومما تقوله كلماتها، وعندئذ سيضطر العالم إلى الإنصات إلينا وبلغتنا العربية الفصحى، وسنطرد عنا هذا التشرذم الروحي الذي يُزيِّن لنا الاستهانة بثقافتنا، ناهيك عن دحر الوَجاهَة المصطنعة التي يُبديها بعض الأغْتام في أثناء حشو كلامهم بأمشاج الألفاظ الأجنبية من دون مصلحة مدركة.

الروماني نيقولا دوبريشان وتجربته مع اللغة العربية..

خمسون عاما في خدمة اللغة والأدب العـ

محمد عويس - القاهرة

شرع د. نيقولا دوبريشان في تعلم اللغة العربية وتعليمها ودراستها بصورة منظمة ومنتظمة في رومانيا بدءا من ١٩٥٧م، عندما تم تأسيس دائرة اللغة العربية كلغة رئيسية ضمن كلية اللغات الأجنبية التابعة لجامعة بوخارست، وكان أحد الطلاب الخمسة الذين قبلوا في هذه الدائرة في عام ١٩٥٨م من خلال مسابقة بلغ عدد المرشحين فيها ١٥ شخصا، وكان نيقولا هو ابن الفلاحين الوحيد القادم من الريف الروماني، ودفعته إلى هذا الاختيار دواع وموروثات مجهولة خافية مدفونة في وعي أجداده. وتخرج في الجامعة عام ١٩٦٣م، وكرس بهذا الاختيار خمسين عاما لخدمة اللغة العربية من دون انقطاع. وقد قطع جميع الدرجات والمراحل الأكاديمية والعلمية حتى الأول من أكتوبر ٢٠٠٨م عند بلوغه السبعين من العمر، وعن ذلك يقول: «وقد ساعدني إلهي من جديد في مواصلة خدمة اللغة العربية، إذ تم تشغيلي فورا، على أساس مسابقة جديدة، أستاذا في الجامعة الخاصة التي تحمل اسم وشهرة الأمير العلامة ديمتري كانتمير (مستشرق أوروبي بارز من أوائل القرن الثامن عشر، كان قد درس اللغة العربية إلى جانب لغات شرقية أخرى في عاصمة الإمبراطورية العثمانية إسطنبول، وكان يوقع باسم عربي مستعار (خان تيمور) اشتق من اسمه (كانتمير) حسب تقديره هو».

مجلة «الوعي الإسلامي» التقت نيقولا وكان هذا الحوار، الذي استهله بتناول بدايته مع تدريس اللغة العربية قال: أتذكر شاكرا أن وزارة الإرشاد القومي في مصر (حينذاك) قدمت هدية رمزية لجامعة بوخارست، لكنها كانت جوهرية، تمثلت في مجموعة من الكتب المدرسية ومختارات من الأدب العربي مخصصة لطلاب المرحلة الثانوية في مصر، استفدنا منها خلال فترة طويلة من الزمن، بل لا أخطئ إن قلت إن هذه النصوص يستفيد منها بصورة مباشرة أو غير مباشرة الطلاب والأساتذة سواء بسواء، حتى أيامنا هذه. وكانت الصعوبات الملازمة لكل بداية، لكن الأوضاع تغيرت تدريجيا، إذ وضعنا أنا وزملائي مجموعات نصوص أدبية وسياسية، وقواميس صغيرة، ثم كتب المحاضرات (الكورسات) التي استفادت منها الدفعات والأجيال اللاحقة المتلاحقة. وإذا بالجزء الأول (الصوتيات وصرف الفعل) من الطبعة الأخيرة لمحاضرات اللغة العربية المعاصرة التي وضعتها خلال السبعينات من القرن الماضي وعدلتها أخيرا، والجزء الثاني (الاسم والحرف) تحت الطبع على أن يتبعه كتاب محاضرات في علم النحو العربي، وكتاب في اللهجات العربية. وتجدر الإشارة إلى أن تعليم اللغة جرى ولا يزال يجري في علاقة وثيقة مع دراسة الأدب العربي والحضارة الإسلامية، لكن على الرغم من الإنجازات المرموقة المسجلة في تقدم دراسة اللغة العربية تظل وراء البحر، ونشعر بنقص الكتب العربية من كتب مدرسية ومؤلفات أدبية ومجلات ثقافية وأدبية والجرائد والمجلات السياسية، بغية متابعة الظاهرة الثقافية والأدبية والتطورات السياسية والاقتصادية على مسرح الوطن العربي والأمة العربية».

ويشير دوبريشان إلى ضرورة تحمل البعثات الدبلوماسية العربية في بوخارست وغيرها من العواصم الأجنبية المسؤولية العائدة إليها من أجل تفعيل تعليم اللغة العربية عن طريق إمداد الجامعات التي تدرس فيها اللغة العربية بمختلف المواد المدرسية والمساعدة من كتب ومجلات أدبية خاصة بكل بلد عربي على حدة (وفي بوخارست على سبيل المثال هناك ١٢ سفارة عربية) بل وكتيبات وخرائط جغرافية وسياحية، وأي مواد أخرى تراها جديرة بدعم تعليم اللغة والأدب والحضارة العربية.

ويضيف: «اهتممنا بالإعداد النظري اللغوي والأدبي في الوقت نفسه مع تكيف عملية التعليم مع الضرورات العملية للعلاقات الرومانية - العربية، السياسية والاقتصادية، والتي بلغت ذروتها خلال النصف

ـــــــربي أعددت خلالها جيلا من المترجمين



الثاني من القرن العشرين، سواء في الميادين السياسية الدبلوماسية أو الاقتصادية أو الثقافية. ويبدو أن العنصر الثقافي والإنساني أصبح في عصرنا هذا يلعب دورا أهم منه في جميع المراحل السابقة. ومن الضروري في الظروف الجديدة أن نتأمل في تكييف التعليم تماشيا مع هذه التطورات».

وقد أسهم دوبريشان جنبا إلى جنب مع زملائه - مقاوما بل متجاهلا جميع الإغراءات والمغريات الخارجية والداخلية، الظاهرة والباطنة، باعتباره معلما بتكوينه وبإرادته - في تكوين أجيال متلاحقة من المستعربين الرومان الذين عملوا في ميادين العلاقات الرومانية - العربية، ومثلوا جسورا للاتصال بين رومانيا والبلدان العربية وبين الحضارتين، وكان راضيا جدا عندما رأى طلابه يقتدون به بل سبقوه، وأصبح بعضهم دبلوماسيين وسفراء يفتخر بهم وطنهم، والوطن العربي على حد سواء، ومنهم على سبيل المثال السفير الروماني السابق في القاهرة، والذي استقبله واستضافه في القاهرة قبل أربع سنوات (عين مؤخرا سكرتير أو كاتب الدولة في وزارة الشؤون الخارجية في بوخارست).

منح وزمالات

ويضيف: «لقد تغيرت الأمور مع مرور الزمن، إذ تطورت العلاقات وتنوعت بين رومانيا وبلدان الوطن العربي، واتسعت إلى مجال التعليم كذلك، وامتدت إلى دول عربية أخرى، وازداد عدد المنح الدراسية المتبادلة بين بلداننا، وأتيح لمعظم الطلبة الذين يدرسون اللغة العربية في جامعة الدولة الرومانية فرصة الحصول على منح وزمالات وقضاء فترات للتخصص في القاهرة ودمشق وعمان. وبالنسبة إلى أبناء الأقلية المسلمة الرومانية فقد توافرت لهم الدراسات الإسلامية في الجامعات والمعاهد الدينية في مصر والسعودية والأردن والمغرب». ويشير إلى أن أول مجموعة من المستعربين الرومانيين الذين درسوا في بغداد في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي، أصبحوا جميعا ممثلين بارزين للعلاقات الرومانية العربية. وكان دوبريشان أحد المدرسين الأوائل الذين تمتعوا بمنحة دراسية في جامعة القاهرة في عام ١٩٧١م عندما أعد رسالة الدكتوراه في جامعة بوخارست تحت إشراف علامة لغوي شهير روماني حينذاك. وتعود اتصالاته الأولية مع مجمع اللغة العربية في القاهرة إلى تلك السنة، عندما التقى رئيس المجمع حينذاك الدكتور طه حسين، بعد أن ترجم له في الستينيات رواية «الأيام» إلى الرومانية. وفي سنوات النظام الشيوعي تعرض للمخاطر، إذ قام بنشر مقالات في مجلة أجنبية، حيث نشر أول مقال في مجلة المجمع ١٩٧٤م وكان مكرسا لموضوع لغوي بريء محض (الكلمات العربية الأصل التي وصلت إلى اللغة الرومانية)، وتلاه مقالان آخران.

عضو ومراسل

وانقطعت اتصالاته بالمجمع خلال الثمانينيات والتي تمثلت في تراجع النظام الشيوعي في موقفه من الثقافة والمثقفين، وفوجئ في عام ١٩٩٧م بانتخابه عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية في القاهرة، ثم عضوا مراسلا لمجمع اللغة في دمشق، وعلى إثر الأحداث التي وقعت في رومانيا في ديسمبر ١٩٨٩م توسع تعليم اللغة العربية في جامعاتها، وازداد عدد الطلاب في كل دفعة إلى أرقام تراوحت خلال التسعينيات والحقبة الأولى من القرن الحادي والعشرين بين ٤٠ و٥٠ طالبا. وأسهم في إنشاء دائرتين أخريين للغة العربية كتخصص أساسي في جامعتين خاصتين في مدينة بوخارست ودرس فيهما. ونظرا لتوسع التعليم الخاص اليوم، ليس في رومانيا فحسب بل في العالم بأسره،

توجه بنداء «من داخل البيت»، وفق الشعار اللاتيني القديم، إلى المؤسسات التعليمية والعلمية، بل والسياسية العربية، لكي تولي اهتماما بهذه الجامعات وكذلك دعمها، إلى جانب جامعة الدولة، من خلال إمدادها بالكتب المدرسية وغير المدرسية والمجلات الأدبية وغير الأدبية وغيرها من المواد المساعدة، بل وتبادل المنح الدراسية نظرا للقاعدة المادية التي تتمتع بها هذه الجامعات والتي تفوق من بعيد القاعدة المادية والبنى الأساسية لجامعة الدولة.

جيل جديد

وعن تجربته في تطوير تعليم اللغة العربية، يذكر من دون تواضع «أسهمت إسهاما جوهريا في تطوير تعليم اللغة العربية في رومانيا، وأفتخر بكوني أسهمت كذلك في تكوين جيل جديد من المدرسين الذين يشتغلون حاليا في جامعة الدولة وفي الجامعتين الخاصتين، علاوة على عدد من المدرسين الرومانيين الذين يشتغلون في جامعات غربية». ويضيف «إننا لم نعد نواجه حاليا الصعوبات التي كنا نواجهها في مرحلة البداية، حيث تتوافر لطلابنا جميع المواد اللازمة لحسن سير عملية التعليم، إذ يمكنهم الوصول المباشر أو غير المباشر، وفق قول لاتيني آخر «الكلمات تتغاير فيما يبقى المكتوب»، مما يعني أن الكتاب سيبقى للأبد، وعلى ذلك أعتقد أن أعداد المكتسبات بالكتب والمجلات وسائر الأدوات المكتوبة المادية المجسمة ستظل دائما أمرا ضروريا وأساسيا. ولكن - ومع الأسف الشديد - لا يسعني إلا أن ألاحظ أن عددا من المستعربين، بمن فيهم بعض الرومان، وقعوا في شباك نفوذ بعض الأفكار الخاطئة الغربية، مثل الرأي الخطير الرائج بين بعض الأوساط الاستشراقية الغربية وغير الغربية أيضا والمدعي بأن اللغة العربية الفصحى أصبحت لغة ميتة، وأن اللهجات العامية حلت أو لا تزال تحل محلها، وهي بمنزلة لغات مشابهة للغات اللاتينية أو الرومانية أو الجرمانية أو السلاقية. إنها لفكرة خطيرة للغاية يعتنقها - مع الأسف - بعض المستشرقين غير القادرين على تفهم ظاهرة ما سموه بالازدواجية اللغوية العربية تفهما صحيحا، أو ربما يتعمدون بذلك أهدافا معينة. إنني أميل إلى وضع هذا الموقع على حساب الجهل وليس على حساب سوء النية، على الرغم من خوفي من وقوعي أنا في الخطأ».

عرب ومستعربون

ويستطرد قائلا «أنا شخصيا رفضت هذه النظرية مرارا رفضا قاطعا، ابتداء من مطلع التسعينيات من القرن المنصرم في مناسبات مختلفة، بما في ذلك عدد من البحوث التي قدمتها في مؤتمرات مجمع اللغة العربية في القاهرة، وأشرت إلى أننا جميعا، عربا ومستعربين على حد سواء، الذين نهتم بحماية اللغة والحضارة العربيتين، يتوجب علينا رفض هذه الأفكار الغربية، والعمل على فرض استعمال الفصحى في جميع الظروف، سواء بكونها لغة مكتوبة أو منطوقة محكية، لغة للتعليم ولوسائل الإعلام على اختلاف أنواعها: المرئية والمسموعة والمكتوبة، لغة للخطاب السياسي والمخاطبة والثقافة العربيتين. أعتقد أن جميع المقدمات اللازمة



روبر شان مع محرر الوعي الإسلامي

لتحقيق هذا الهدف متوافرة في الوقت الحاضر نظرا لوجود الوعي بالانتماء إلى حضارة مشتركة، ومستوى التعليم والإرشاد في جميع البلدان العربية والثورة المعلوماتية التي تساعد على التواصل بين جميع أبناء الأمة العربية في كل مكان مهما كانت المسافات أو العوامل السياسية والجغرافية التي باتت غير قادرة على إعاقة تحقيق هذا الهدف، ولكن على المؤسسة السياسية كذلك أن تؤدي واجبها ودورها في هذا المجال. أشرت سابقا وأود أن أؤكد مجددا على العلاقة الوثيقة القائمة بين الثقافة العربية والعروة الوثقى من جهة، وبين مصير اللغة الفصحى من جهة أخرى، وعلى أن اللغة الفصحى مرتبطة ارتباطا عضويا ومقرونة بوجود الإسلام والقرآن الكريم، وأن هذا الدين وهذه اللغة سيبقيان إلى أبد الآبدين تحديا لجميع محاولات تخريب الوحدة اللغوية والثقافية العربية».

ومشاركة نيقولا دوبريشان في المؤتمرات السنوية لمجمع اللغة العربية في القاهرة خلال الأعوام



العشرة الأخيرة أتاحت له فرصة متابعة الجهود التي بذلها مجمع اللغة العربية في القاهرة للتقريب بين الفصحى والعامية من أجل تذويب الفوارق القائمة بينهما في نهاية الأمر، وفرصة متابعة القرارات والتوصيات الصادرة عن المؤتمرات من أجل صيانة سلامة العربية الفصحى. وقد أعلن دوبريشان تأييده لهذه السياسة اللغوية، واستمر في موقفه هذا، ومن خلال مجلة مجمع اللغة العربية وسائر المطبوعات.

جسور تواصل

ويرى أنه يجب على المستعربين أن يظلوا وسطاء وجسور تواصل بين ثقافات بلادهم وبين الثقافة العربية من أجل تقديم وتعريف الإبداعات الأدبية والثقافة والحضارة العربية لشعوبنا. وقد ترجم من اللغة العربية إلى اللغة الرومانية أكثر من ٢٠ كتابا من الأدب العربي. وكتب من دون انقطاع أخبارا ومقالات عن هذا الأدب في المجلات الأدبية والثقافية الرومانية، ومنها على سبيل المثال: إعداد وترجمة «انطولوجيا القصة العربية القصيرة» إلى اللغة الرومانية، وصدر في عام ١٩٨٠م في مجلدين بأكثر من ٦٠٠ صفحة، ويتضمن مجموعة نماذج قصصية من إبداع ٤٦ قاصا (بالترتيب الأبجدي من القاصين في الأردن وتونس والجزائر والسودان وسوريا والعراق وفلسطين والكويت ولبنان وليبيا ومصر والمملكة المغربية)، علاوة على دراسة مقدمة مسهبة ونبذ عن حياة ونشاط الأدباء المعنيين. «وضمن اهتماماتي بالمتشابهات والاتصالات بين الحضارة والثقافة الشعبية العربية والثقافة الشعبية الرومانية أعددت «انطولوجيا الحكايات والأساطير الشعبية العربية» في مجلدين (حوالي ٦٠٠ صفحة)، وصدر في عام ١٩٩١م، و«انطولوجيا الأمثال الشعبية العربية» وصدر في عام ١٩٧٦م، والمجموعتان المذكورتان مصحوبتان بدراسات مسهبة». ويضيف: «لكن عبقرية الروائي العربي المصري الكبير نجيب محفوظ جذبتني منذ السبعينيات من القرن الماضي، حيث ترجمت من إبداعه رؤية «السمان والخريف» في عام ١٩٧٤م ، ثم «الثلاثية» كلها (رواية «بين القصرين» في عام ١٩٨٤م، ثم رواية «قصر الشوق» في عام ١٩٨٧م، ثم رواية «السكرية» في عام ١٩٨٩م)، وجدير بالذكر أن جميع الكتب التي ذكرتها صدرت بآلاف النسخ ضمن مجموعة واسعة الانتشار في متناول يد القراء الرومانيين، بفضل ثمن الكتب المعقول، وبفضل صدور الكتب بانتظام وبعدد كبير من النسخ. ثم ترجمت رواية «ثرثرة فوق النيل» في عام ١٩٩٧م، ورواية «أولاد حارتنا» وهي تحت الطبع هذه الأيام. وأضيف إلى كل ذلك رواية «عمارة يعقوبيان» التي ترجمتها وصدرت في رومانيا في عام ٢٠٠٧م».

حياة محمد

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، اهتم نيقولا دوبريشان كذلك بالثقافة الإسلامية، واعتبر ترجمة «حياة محمد» لمحمد حسنين هيكل، الصادر في عام ١٩٩٩م، وبخاصة ترجمة معاني «القرآن الكريم» المقرونة بالتفسير والكثير من الهوامش (حوالي ١٢٠٠ صفحة) تتويجا لنشاطه في مجال نقل الكتب العربية إلى اللغة الرومانية.

وقد انطلق في نشاطه في مجال الترجمة من القناعة بأن الأدب العربي القديم يمثل صفحة ذهبية في تاريخ آداب العالم تتميز بأصالتها وخصوصيتها، باعتباره ملأ فراغا وضمن الانتقال من الآداب الكلاسيكية اليونانية واللاتينية إلى الأدب الحديث، «وأعددت انطولوجيا الشعر العربي بحوالي ٦٠٠ صفحة، في مجلدين، وترجمت هذه المجموعة بالتعاون مع مجموعة مستعربة من تلاميذي إلى اللغة الرومانية. وتتضمن المجموعة، التي اخترت النماذج التي أدرجتها فيها، من الدواوين المنقحة لقصائد من إبداع ٤٦ شاعرا من شعراء العصر الجاهلي، والعصر الأموي، والعصر العباسي، والشعر الأندلسي، علاوة على حوالي مائة صفحة من عروض العصور ونبذ الشعراء. وقد صدرت المجموعة في عام ١٩٨٢م . أما الأدب العربي الحديث فقد تجاوز منذ زمن بعيد مرحلة البدايات والتجارب وعليه أن يتخلص من الحياء والتواضع، إذ يقف بفخر إلى جانب سائر آداب العالم، ويسهم إسهاما أصيلا متميزا في تيار الأدب العالمي، ولاشك في أن العولمة الثقافية لن توفق أبدا في إلغاء لغات معينة غير مرغوب فيها ولا آدابها ولا الإسهامات الأصيلة الخصوصية لمختلف الأمم في التراث العالمي».

وبمجهوده في مجال الترجمة أعد جيلا جديدا من المترجمين المهتمين بنقل الأدب العربي، سواء القديم أو الحديث، إلى اللغة الرومانية، والذين واصلوا وأكملوا مجهوداته في هذا الميدان. ومن واجب هذا الجيل أن يطلع القراء الرومانيين على المستجدات والتطورات الحاصلة في الأدب العربي المعاصر، وأن يواصلوا نجاحاته التي هي في وجهة نظره «متواضعة».

سر شفاء عبد الرحمن

محمد ثابت توفيق
قاص مصري

قالتْ زوجه:

ـ عبدالرحمن متعب يا حاج.. أتوا به من جامعته محمولا منذ قليل.. لقد صدقه قلبه الحديث، فإن المال الوفير ورغد العيش لابد معه من منغص..

ـ رحماك ربي.. ابني الأخير.. وحيدي.. وعون تجارتي المنتظر من البشر، ألحقته بكلية التجارة خصيصا لذلك، ورجوت منك أن يكون مطيعا، فقبلتَ بلطفك دعواتِ عبدك المقصر، وكنت أعده لَلوقوف إلى جوار ثلاث فتيات يكبرنه في مشوار حياتهن من بعدي..

نظر إلى وجهه ملتاعا..

يوشك أن يغيب عن الوعي..

ـ بني ماذا حدث؟!

تمر البرهة تلو الأخرى وهو متسمر يتمتم:

ـ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلفني خيرا منها..

يفتح الصغير عينيه في وهن شديد، ينتظر كلماته، ويمر الصمت به مدويا، إلى جواره بناته الثلاث وزوجه، وهو الرجل مضرب المثل في السوق بتماسك الأعصاب.. ملاذ جميع العائلات، متى ضاقت الدنيا بهم، وأرادوا الاستقواء بأحد من البشر، لكنه يحاول التماسك، فما يستطيع، ويعاني من رغبة قوية في البكاء، هتف بنفسه:

... وأمه ماذا تفعل، إن رأتني كذلك، وأخواته.. لعله أمر طارئ.. وعكة مفاجئة.. بل قلبي يحدثني أن الأمر خطير.. ليس لي سواك يا كريم..

تلاحقتْ إلى ذهنه صور متعاقبة، نشأته يتيما، بِرُّه بوالدته، تدرجه التعليمي الصعب، بعد وفاة أبيه، اضطراره لاختصار الرحلة من أجل إخوته، تلطمه في الأسواق، رزق ربه الواسع مع مجيء أولى البنات، تعلقه بأبوابه تعالى مع الثانية، الرزق بلا حساب مع الثالثة، ظنه أن أيام تلطمه مرتْ إلى الأبد، مع استقرار مؤسسته التجارية، دعوته الله تعالى أن يمن عليه بالابن، سعادته الغامرة بميلاد عبدالرحمن، رعايته له دون تبذير أو تقتير..

خطوات ثقيلة من خلفه.. يد تقبض على كتفه:

ـ أمي.. ادعي له الله..

ـ هل قصرت مع ربك يا بني؟!

يعاني الآن تماما، ابنه لا يجيب، ودمعة تعرف طريقها، وأمه كعادتها في الحق واضحة، يمد يده ليلتقط هاتفه النقال فتصطدم بالمفاتيح فتخرجها بدلا منه، ويكاد يضعها على أذنه.. في الآونة الأخيرة ارتكن إلى الحياة الدنيا، يظن أنه لم يقصر في صدقة أو زكاة، ولكنه صار يجد شيئا من فخر بالنفس كلما قصده قاصد أو مد يدا بالعون..



في المستشفى الخاص قال الطبيب بعد ساعات من مكثف التحاليل والأشعة:

ـ لا أخفيك سرا.. مرضه غير يسير..

مادتْ الأرض من أسفل قدميه، وتلمس الطريق إلى جبهته فوصلتْ يده بصعوبة، لكنه استرجع..

في أكبر مستشفى

متخصص في أمراض الدم بإحدى العواصم الأوروبية قال الطبيب بلا شفقة:
. سرطان في الدم.. واكتشاف غير مبكر.. نظام علاج قاس.. ولا تكرر أسئلة تبدأ ب «متى» علي..
بكى لحظتها في عنف جذب انتباه العابرين واستوقف العرب في المستشفى، ولم يزد على كلمات:
. ليس لي إلاك.. يا رب..
أدمن السفر بين بلده ومستشفى ابنه، علق تجارته حتى حين.. لما تماسك الابن قليلا قال:
. لي عندك رجاء يا أبي.. خذني إلى بلدي..
. أهي النهاية؟!
قال الطبيب:
. لا ضير.. لكن لا تنس العلاج والميعاد..
فيما كانت عيناه تضيفان:
... إن كانت به ماتزال حياة..
. ابدأ صفحة جديدة يا بني.. إن أردتَ أن يهبه الله إليك من جديد..
لم يملك إلا أن يقول:
. سمعا وطاعة يا أمي..
عرفت الأسواق «الحاج» كما لم تعرفه من قبل، أكثر تعاطفا مع المنافسين، يبغي هامش ربح قليل مع الأغنياء، يبيع السلعة بثمنها أو أقل، حسب حالة المشتري، ورغم تساقط شعر عبدالرحمن، وعدم قدرته على المشي، استذكر، وقرر دخول امتحان العام النهائي من الكلية، ذهب معه -دامع العينين- حتى كرسي الامتحان، وراعته خطوات العميد في أول يوم، وأغلب المتواجدين من الأساتذة والزملاء:
. ستكون بخير.. وفقك الله!
سأله في يوم الامتحان الأخير:
. هل ستنجح يا عبدالرحمن؟
. في امتحان الدنيا نعم يا أبي..
بكى الحاج وهو يقود السيارة من جديد:
. أين تريد أن نذهب؟
. إلى السوق الشعبي يا أبي..
. أو اشتقت التسوق؟
لدى القصاب قال:
. توقف هنا يا أبي من فضلك..
. أو تريد لحما طازجا؟
نزل بنفسه، حياه صاحب المحل، ابتسم له، دقق في المحل أكثر، خفق قلب الأب: ترى عمن تبحث صغيري الحبيب!، لمعتْ عيناه وتوقفتا عند امرأة عادية المظهر تسأل:
. هل انتهيت؟!
. معنا ساعة..
قال الجزار بعد أن مضت المرأة، وعينا عبدالرحمن تنظر إلى مكان انتظارها في وهن:
. إنها تسأل عن نوع من العظام مختلط بلحم تطهوه لأبناء أيتام..
. لا تدعها يا أبي من فضلك، فلا أستطيع البقاء.. فضلا لا تهبها عشرات الكيلووات من اللحم اليوم.. رأيناها معا منذ شهور بعيدة.. وما فطنا.. أعطها من مال الله لديك دائما.. مفتاح السيارة من فضلك..
هرول الحاج وراءها:
. كم كيلو يلزم أبناءك كل أسبوع؟.. بسرعة، نعم، لا أمزح.. لا تردها أخي الجزار، ولا توقفها، وسأعطيك مبلغا مقدما، بل تعالي معي إلى محل الدواجن، لا، لم ننته بعد، أكبر محل خضراوات.. وكم كيلو فاكهة.. كله من فضل الله.. إنما هو ماله..
ابتسمتْ عينا عبدالرحمن لما التقتا بعيني الأب.. ونام هانئا تلك الليلة، ولم يتأوه طوال ساعاتها، ولم يطلب الأب قسم الطوارئ من المستشفى بالليل، عند الفجر صلى مع أبيه في مسجد المطار، بعد ساعات كانا أمام الطبيب المختص بمتابعة حالته، نظر في جديد الفحوصات:
. لا وقت لدي للعبث.. من فضليكما..
. عبث؟!
. أريد فحوصات ابنك عبدالرحمن المريض.. لا هذا المعافى، فيبدو أن لديك ابنين بنفس الاسم..
تعالى صراخ الأب، وتدخل طاقم العمل الطبي، والعرب بالمستشفى، وتكررت تأكيدات الطبيب بنبرات متعددة:
. هذا الشاب سليمٌ معافى تماما.. لم يعرف المرض الذي عرفه أخوه المريض.. ومن المستحيل أن يكون هو..
هتفت الفكرة بقلب الأب، فجذب ابنه بعيدا عن الزحام قائلا في تهدج صوت، ودموع غزيرة، وقلب ساجد لرب العزة، بل سجد به:
. يا بني.. كما قال الرسول ﷺ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»
كان عبدالرحمن منتبها تماما إلى الموقف:
. وقال ﷺ أيضا: «والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه».



مذكرات علي كمال نموذجا

حلب في الأدب التركي الحديث

عبد الستار الحاج حامد
ماجستير في الأدب التركي

علي كمال: روائي وصحفي وسياسي تركي من أبرز المفكرين والأدباء في الأدب التركي الحديث. نفي إلى حلب عام ١٨٨٩م، وأعدم ميدانيا بسبب مواقفه السياسة عام١٩٢٢م. أقام علي كمال في ولاية حلب ست سنوات، عمل خلالها في وظائف مختلفة. أتيحت له فرصة التعرف على الولاية ومناطقها المختلفة. أعطى حيزا لا بأس به لولاية حلب في مؤلفاته، ولا سيما مذكراته. قدم الكاتب معلومات قيّمة تسلط الضوء على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لولاية حلب في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. تحدث عن الإيجابيات التي رآها في الولاية ولم يهمل ذكر سلبياتها، كما أورد بعض الحكاية الغريبة المتعلقة بأهلها.

الكلمات المفتاحية: علي كمال، الأدب التركي الحديث، ولاية حلب، مذكرات.

أعطى الأدب التركي الحديث - الذي يؤرخ لبدايته بعام ١٨٤٠م مع صدور مرسوم التنظيمات في الدولة العثمانية - مكانة هامة للبلاد العربية، ولا سيما بلاد الشام، وبشكل خاص في الفترة التي كانت فيها تلك البلاد تحت سيطرة الدولة العثمانية. فثمة قسم لا بأس به من الأدباء الأتراك عاشوا قسما من حياتهم في بلاد الشام، فمنهم من عاش طفولته فيها، مثل الروائية والكاتبة فاطمة عالية جودت، والروائي محمد جلال، ومنهم من عمل موظفا لدى الدولة العثمانية، من أمثال الشاعر والطبيب المشهور: جناب شهاب الدين، والروائية: خالدة أديب أدوار، والروائي: نابي زادة ناظم، ومنهم من نفي إلى تلك البلاد، مثل الكاتب والسياسي الكبير:



علي كمال، والروائي: رفيق خالد قايا. لذلك كان من الطبيعي أن يفرد هؤلاء الكتاب لسورية في كتاباتهم، ولاسيما في جنسي الرواية والمذكرات حيزا لا بأس به (١).

في هذا البحث سنتوقف عند مذكرات أهم هؤلاء الكتاب، وهو الكاتب والسياسي والصحفي المشهور علي كمال، الذي تكمن أهميته في كونه سياسيا ومفكرا إضافة لكونه أديبا وشاعرا، عاش في حلب ما يقارب ست سنوات في الفترة مابين عامي ١٨٨٩-١٨٩٥م ، كما كتب روايتين: «الأختان»، و«مغامرة في الصحراء»، تدور أحداثهما في سورية، واختار شخصيات هاتين الروايتين من السكان المحليين والموظفين الأتراك في سورية.

ولد علي كمال في حي السليمانية، أحد أقدم أحياء إسطنبول في ١٨٦٩م، لأسرة غنية وذات صلة بالموظفين الكبار في قصر السلطان العثماني. كان والد علي كمال تاجرا كبيرا ورجلا متدينا يمجد السلطان والدولة العثمانية، أما أمه فقد كانت جارية جركسية. درس علي كمال في مكتب الرشدية، إلا أنه وبسبب مشاكله الكثيرة طرد بعد سنوات من التحاقه به، بعدها التحق بدكان والده مع مواظبته على متابعة الدروس في جامع السليمانية، جذب علي كمال -الذي كان صاحب ذكاء- انتباه بعض المسؤولين في القصر -الذين كانوا على صلة بوالده- فتوسطوا له وأعادوه إلى المكتب. تتلمذ علي كمال في مكتب الملكية على أيدي أساتذة كبار في الأدب التركي، من أمثال الشاعر والناقد معلم ناجي، والشاعر والكاتب رجائي زاده محمود أكرم، في عام ١٨٨٥م أصدر علي كمال برفقة أصدقائه في مكتب الملكية أول جريدة له، ولم يتجاوز يومها السابعة عشرة من عمره، نشر فيها بواكير أشعاره وبعض كتاباته. وفي عام ١٨٨٧م قرر مع صديق له الهرب إلى فرنسا لمتابعة دراسته هناك، إلا أنه ما لبث أن عاد بعد سنة بسبب وفاة والده. عاد علي كمال من فرنسا بأفكار جيدة حملها معه، فأراد أن يؤسس جمعية طلابية في مكتب الملكية كتلك التي رآها في فرنسا، لكن ما لبث أن قبض عليه مع زملائه أثناء اجتماع الجمعية السري الثاني الذي كان يترأسه في منزله، وبعد التحقيق معه سجن لمدة ستة أشهر نفي بعدها إلى ولاية حلب في عام ١٨٨٩م. حضر علي كمال إلى حلب برفقة عائلته الصغيرة ليعمل أولا كاتبا في الولاية، ثم مفتشا وجابيا للضرائب يجوب المناطق والمدن المجاورة لحلب، كما عمل فترة من الزمن مدرسا للغة التركية في المكتب الإعدادي في حلب، عرف علي كمال بين زملائه بنزاهته وبتفانيه في عمله. في عام ١٨٩٥م عاد إلى إسطنبول لكنه ما لبث أن غادرها من جديد إلى فرنسا، حيث درس الحقوق والسياسة، كما عمل خلال تلك الفترة مراسلا لجريدة «إقدام» الإسطنبولية في باريس، وانضم إلى صفوف حركة «جون ترك» المعارضة، إلا أنه غادر صفوفها سريعا لقناعته بعدم جدواها ليلتحق بوظيفة كاتب في سفارة الدولة العثمانية في سويسرا. في عام ١٩٠٠م توجه إلى مصر حيث عمل مديرا في مزرعة لأحد باشوات العثمانيين هناك، ولكن حدثت مشكلةٌ بينه وبين صاحب المزرعة فترك مصر عام ١٩٠٨م ليعود إلى إسطنبول. في فترة إقامته في مصر تزوج بفتاة إنكليزية تعرف عليها عندما كان يقضي عطلته في بريطانيا. بعد عودته إلى إسطنبول عمل رئيس تحرير في جريدة «إقدام»، ولكن وبسبب إنقلاب ٣١ أذار غادر إسطنبول إلى أوربة، ولم يعد إليها إلا بعد إصدار عفو عام ١٩١٢م، بعد الإطاحة بالاتحاديين الذين كانوا سببا لمغادرته إسطنبول. بعد عودته أصدر جريدة الصباح، وأسس حزبا سياسيا، وفي عام ١٩١٩م شغل منصب وزير المعارف لمدة شهرين، ثم شغل بعدها منصب وزير الداخلية لمدة لا تتجاوز بضعة أشهر (٢).

علي كمال عاش حياته معارضا للسلطة، فقد انتقد سياسات السلطان عبد الحميد، وانضم إلى معارضيه فترة من الزمن، كما كان خصما قويا لحركة الاتحاد والترقي وللحركة الشعبية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، حيث انتقد هاتين الحركتين في كتاباته الأمر الذي أدى لإعدامه ميدانيا دون محاكمة في إزميت عام ١٩٢٢م، بعد نجاح الحركة الشعبية في الوصول إلى إسطنبول.

علي كمال وإن كان قد عارض بعض سياسات الدولة العثمانية وانتقدها في مقالاته، إلا أنه بقي طوال حياته مدافعا عن الخلافة العثمانية، الأمر الذي جعل الروائي بيامي صفا يقول: «السياسة العثمانية أعدمت ميدانيا مع علي كمال في إزميت» (٣).

يتقن علي كمال التركية والعربية والفرنسية والإنكليزية، وخلف العديد من الكتب والروايات أهمها: عمري (مذكرات نشرها على شكل مقالات في جريدة الصباح أولا، ثم جمعت في كتاب بعد وفاته)، صفحة الشباب، صفحة التاريخ، الأختان (رواية)، مغامرة في الصحراء (رواية)، فترت (رواية)، رجال الاختلال، تونس، راشد مؤرخ أم شاعر، علم الأخلاق، إضافة لعدد من الكتب التي ترجمها عن الفرنسية، ناهيك عن مقالاته الأدبية والسياسية التي تزيد عن ١٠٠٠مقالة، عرف من خلالها بأسلوبه القوي وجرأته.كما ترجمة بعض أثاره إلى اللغة الفرنسية (٤).

عاش علي كمال في حلب بين عامي ١٨٨٩ و١٨٩٥م، وبحكم وظيفته كمفتش وجاب للضرائب أتيحت له فرصة التجول في مختلف المدن السورية، والتعرف على السكان المحليين والبدو، إضافة للموظفين والولاة الأتراك الذين كانوا يعملون هناك، وقد تحدث في مذكراته المسماة «عمري» بشيء من التفصيل عن ولاية حلب.

تحدث الكاتب في مذكراته عن ولاة حلب مبرزا سلبيات وإيجابيات كل وال من هؤلاء الولاة، ذاكرا أهم صفاتهم وأعمالهم التي قاموا بها في الولاية، مبينا السياسات التي انتهجوها في إدارة الولاية وانطباعات الأهالي عنهم. ومن الولاة الذين تحدث عنهم الكاتب جميل باشا، يبدو جميل باشا في مذكرات الكاتب واليا شجاعا صارما لا يفرق بين الأشراف وعوام الناس، استطاع تحقيق الأمن والاستقرار في الولاية، كما وضع حدا لتدخل القناصل في شؤون الولاية، كما قام بتوسيع مدينة حلب بإنشاء الحي المعروف حتى يومنا هذا بحي الجميلية نسبة لهذا الوالي، لكن هذا الوالي كان يدير الولاية بطريقة كيفية بعيدة عن القانون مما جعله عرضة لشكاوي الأهالي الأمر الذي أدى لعزله.

أما حسن باشا فيبدو واليا متدينا ونزيها لا يأخذ الرشوة، يمضي جل وقته في قراءة القرآن الكريم، ومثنوي جلال الدين الرومي، يحب السلطان عبد الحميد الثاني كثيرا، بيد أنه ضعيف إلى درجة أنه لا يستطيع عزل الموظفين الفاسدين، كما أنه يخاف من الأجانب الذين كانوا يعيشون هناك، وينجز أعمالهم بسرعة.

أما عارف باشا فيبدو في مذكرات علي كمال واليا فاسدا ضعيفا ليس لديه خبرة في إدارة أمور الولاية، فقد عمّت الفوضى الولاية في فترة ولايته، ولم يستطع توفير الأمن والاستقرار في الولاية، الأمر الذي جعله عرضة لشكاوى الأهالي وفي مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبي.

يذكر علي كمال أهم السلبيات للدولة العثمانية في ولاية حلب، يرى الكاتب الذي عمل مفتشا وجابيا للضرائب في الولاية أن الرشوة والفساد من أهم السلبيات في الولاية، فقد كانت الرشوة شائعة إلى درجة أن الناس لم يعودوا يتصورون موظفا لا يأخذ رشوة، فحتى المتدينين من الموظفين كانوا مرتشين. على الرغم من تحريم الدين والقانون الرشوة إلا أنها بقيت منتشرة في الولاية لانتشار الفساد. وبسبب هذا الفساد كانت الدولة تخسر الكثير من الأموال، فالسكان كانوا يتهربون من دفع الضرائب للدولة عن طريق رشوة الموظفين، أما ما كان يجمع من أموال الضرائب فيسرق من قبل الموظفين الفاسدين، وكان يتم ذلك بشكل علني دون خوف أو وجل، لكن الكاتب يعود ويقول في مكان آخر من مذكراته أن الموظفين على الرغم من ذلك كانت مخافة الله ومخافة السلطان تسكن قلوبهم، فلا يتمادون في أخذ الرشوة والفساد كثيرا.

ويورد الكاتب في مذكراته بعض الحكايات المتعلقة بالفساد المنتشر في الولاية، بعض تلك الحكايات جرى أمام عينيه، وبعضها الآخر سمعه من الناس. فمن حوادث الفساد التي كان شاهدا عليها حادثة سرقة ضرائب الأغنام في قضاء الباب، حيث أرسل للتحقيق في هذه القضية، فقد كانت بعض القبائل البدوية تحط رحالها في هذا القضاء، الأمر الذي يوجب عليها دفع ضريبة للدولة، لكن قائم مقام ومدير المال وأمين الصندوق في قضاء الباب اتفقوا على سرقة قسم كبير من الضرائب، وذلك من خلال إعطاء إيصالات للبدو بالمبالغ التي دفعوها لكنهم كانوا يسجلون واحدا بالمئة من تلك المبالغ في دفتر الإيصال.

ومن حكايات تسلط الأقوياء على البسطاء حكاية المتنفذ حسن بيك زاده الذي كان يتهرب من دفع الضريبة للدولة، إضافة إلى تصرفه وكأنه هو الحاكم في الولاية. يروي الكاتب حكاية شاب مسيحي مر راكبا على بغل وعربة بالقرب من بستان من بساتين المتنفذ حسن، فقام بقطع غصن من أغصان شجرة دراق ليستعمله كرباجا، وفي أثناء ذلك رآه البستاني، فأخذه إلى المتنفذ حسن الذي بدأ بحساب قيمة الثمار التي كان سينتجها هذا الغصن في السنوات القادمة، فنتج عن هذا الحساب مبلغ كبير من المال يساوي ثمن البغل والعربة فأخذهما وخلى سبيل صاحبهما.

ويذكر الكاتب حكاية أخرى من حكايات هذا المتنفذ سمعها من الناس، ولا يعرف إن كانت صحيحة أم لا، تقول الحكاية أن حسن بيك كان عنده بيت كبير بمحاذاة حي بحسيتا، وأراد أن يوسع هذا البيت قليلا، وكان بجانب البيت بيتٌ صغيرٌ ليهودي فقير، فقرر حسن بيك أخذ هذا البيت ليوسع بيته، لكنه لم يرد دفع المال مقابل ذلك، فوجد حيلة استطاع من خلالها الاستيلاء على البيت، حيث طلب من جاره اليهودي الفقير الاعتناء بدجاجاته لأنه سيذهب إلى منزله الصيفي، لم يستطع اليهودي رد طلب حسن بيك خوفا منه، ولأنه فقير لم يكن يستطيع إطعام الدجاجات، في نهاية المطاف اضطر إلى بيعها، وبعد سنوات طلب حسن بيك من اليهودي الدجاجات قائلا: «فين جيجات فين بيضات» (أين الدجاجات وأين البيضات)، ولكن اليهودي كان قد أضاع الدجاجات، فبدأ حسن بيك بحساب ثمن الدجاجات وثمن الفراخ التي كانت ستفقس من البيض، فنتج عن هذا الحساب أن اليهودي أصبح مدينا لحسن بيك بمبلغ كبير من المال يعادل ثمن منزله الصغير، فاستولى



على هذا المنزل (٥).
يتحدث الكاتب في مذكراته عن المنشآت التي بنيت في الولاية في ذلك الوقت، ومن أهمها المكتب الإعدادي (ثانوية المأمون حاليا)، الذي لم يكن له مثيل حتى في إستطنبول، فقد جلب أثاثه من باريس، بالإضافة إلى مزرعة تجريبية تم انشاؤها بمساع من مدير الزراعة واهان سورينيان.
في ما يتعلق بعلاقة الشعب مع الدولة العثمانية لاحظ الكاتب أن السكان كانوا يحبون السلطان عبدالحميد الثاني والدولة العثمانية، ويظهرون هذا الحب، ويحاولون أن يطبقوا أوامره قدر المستطاع، وعندما كانوا يتعرضون للظلم كانوا يفضلون مراجعة السلطان على اللجوء إلى السلاح أو الثورة. و«كان الأشراف يتطلعون للحصول على نيشان أو ثناء من السلطان، فإذا حصل الواحد منهم عل ثناء أو نيشان من السلطان كان يجن من الفرح» (٦).
أولى الكاتب أهمية كبيرة للتركيبة السكانية لمدينة حلب ذاكرا أهم الطوائف التي كانت تسكن هناك وأشهر العوائل في المدينة. يذكر الكاتب أهم العوائل الحلبية المسلمة من مثل الجابري وكيخيا والمدرس والشريف والسباعي، ويتحدث عن وضع كل عائلة من هذه العوائل، فيذكر أن عائلة الجابري هي الأكثر عددا، وكان زعيم هذه العائلة «حجي أفندي» والد نافع أفندي الجابري، الذي كان يبلغ الثمانين من عمره، لكنه كان قوي البنية، ففي الوقت الذي كان يزوج فيه أحفاده كان عنده ولد في المهد. أما نافع أفندي الجابري الذي انتخب عضوا في مجلس المبعوثان كان ذكيا داعيا من دعاة الحرية، محاربا للاستبداد. أما رئيس عائلة كيخيا التي تتركز معظم أملاكها في منطقة حارم، فقد كان أحمد أفندي الذي كان يملك العديد من الخانات بجوار القلعة مليئة بالسجاد والتحف القديمة، بالإضافة للقصر الذي كان يسكن فيه. أحمد أفندي كان يعرف بأخلاقه الحميدة وتدينه، فقد كان عضوا مستقيما نزيها في مجلس الولاية لا يعرف التملق، وكان لا يهاب الاصطدام مع الولاة في سبيل الوصول إلى الحق، إلا أنه كان يربي أولاده وفقا للأصول القديمة ولا يحب التجديد.
أما عائلة المدرس فقد كانت أغنى العوائل في المدينة، كان رئيس هذه العائلة زكي بيك، الذي كان عضوا في مجلس الإدارة، كما كان غنيا جدا وماكرا ومتملقا. زكي بيك كان كاتبا صغيرا لكن بدهائه أصبح أحد أعضاء مجلس الولاية. كان يحب نفسه كثيرا ففي الفترة التي انتشرت الكوليرا في حلب انزوى في مزرعة له، ولم يعد يخالط الناس، كما كان يرتدي معطفه في شهر آب خشية البرد.

الهوامش

١- انظرKefeli، Emel، Edebiyat Coğrafyasında Akdeniz. İstanbul: F Yayınevi ،٣. ٢٠٠٦. S١٤٨،١٥٣،١٦٤.

٢- انظر Uzun، Mustafa، “Ali Kemal” DİV، Türkiye Diyanet Vakfı، c.٢. İstanbul ،١٩٨٩. s.٤٠٥-٤٠٧.

٣- انظر Gezgin، Faruk، Ali Kemal Bir Muhalifin Hikâyesi ، İsis yay. İstanbul .٢٠١٠ S ٢٣٨.

٤- انظر المرجع السابق ص ٢٤٧-٢٤٨.

٥- Ali Kemal، Ömrüm-Ali Kemal، haz Kayahan Özgül ، Hece yay. Ankara ،٢٠٠٤. S. ١٦٩-١٧٠.

٦- انظر المرجع السابق ص ١٩٣.

عفواً أبا تمَّام

أسامة الخريبي
عضو رابطة الأدب الإسلامي

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما ... تريا ربوع الشام كيف تدمر
تريا دمارا ماحقا قد صاغه ... جيش على إخوانه يتجبر
تريا المنازل والمساجد دمرت ... حنقا فليس مؤذن ومكبر
والناس ترفع حسرة أنقاضها ... فيزيدها القصف اللئيم ويفجر
تريا جياع الخبز كيف تناثرت ... أشلاؤهم مثل الزجاج يكسر
حتى الألى طلبوا الوقود جرى لهم ... مثل الذي للخبز.. بل هو أكبر
حرقوا بفعل الزيت ثم تمزقوا ... بالقصف ثم تناثروا وتبعثروا
نام الضمير ونام نبل عروبة ... كانت قديما تستثار فتثأر
نامت قلوب لو صحت عزماتها ... لبكت لما يدمي القلوب ويأسر
شعب يعيش لدى الملاجئ نصفه ... والنصف يحرق بالدمار ويشطر
نالت ثلوج البرد من خطواتهم ... ومشى الشتاء على الخطى فتعثروا
طفل يصيح.. وأمه مكلومة ... والجوع يصرخ في البطون وينخر
شعب توزع في الشتات مشردا ... واللاجئون على الخيام تقاطروا
يتسولون الخبز من جيرانهم ... طورا تجيب.. وتارة تتنكر
وهم الألى صنعوا الحضارة قادة ... ومشوا إلى المجد التليد وشمروا
وهم الذين تفجرت جنباتهم ... علما.. وتاريخا ولم يتأخروا
أإذا أصيبوا بالشدائد حقبة ... كنا عن العون السريع نقصر؟!
عفوا أبا تمام كل قصيدة ... لم تصطبغ بالنار فهي الخنجر



ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:



ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها لأن المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

علما بأن البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

مقدمة نفيسة «الوافي بالوفيات»..

التحرير

هو المؤرخ الأديب: خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي، ولد في صفد (بفلسطين)، وإليها نسبته، وكانت ولادته سنة ست وتسعين وستمائة (٦٩٦هـ)، قرأ علوم الشريعة وعلوم الآلة، وبرع في الأدب نظما ونثرا وكتابة وجمعا، وعني بعلم الحديث، وصنف الكثير في التاريخ والأدب؛ حتى قال عنه تاج الدين السبكي: «قال لي: إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفا، وكانت له همة عالية في التحصيل»، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، وتوفي فيها.

ذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال بالعلم وتحصيله، حتى استوفى عشرين سنة وطلب بنفسه، فطاف مع الطلبة، وكتب عن أهل العلم، وقال الشعر الحسن، وأكثر منه جدا، وترسل وألف كتبا كثيرة؛ منها: التاريخ الكبير الذي سماه «الوافي بالوفيات»، وشرح «لامية العجم»، وله: «ألحان السواجع بين المبادئ والمراجع»، و«جر الذيل في وصف الخيل»، و«كشف الحال في وصف الخال».

كان -رحمه الله- حسن المعاشرة جميل المروءة، وكان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

قيمة «الوافي بالوفيات» للصفدي مجموعة كبيرة من الكتب التاريخية والأدبية وغيرها، وتعتبر في جملتها دررا في عالم التأليف، غير أن كتابه «الوافي بالوفيات» يعتبر رأس هذه المؤلفات وأجودها، فهو بحق موسوعة تاريخية وسياسية وأدبية ونقدية، ولم يقتصر «الوافي بالوفيات» على طائفة محددة من الأعلام، بل شمل بالترجمة الجاهليين، والصحابة الكرام، وتابعيهم، والملوك والأمراء والسلاطين، والقضاة والعمال والوزراء، والقراء والمحدثين والفقهاء، والنحاة واللغويين والأدباء، والحكماء والفلاسفة والأطباء، بل تطرق بالترجمة للمبتدعة وأهل الأهواء..

وهو كتاب يترجم لمن حدثت وفاته قبل سنة ٧٦٤هـ، وهي سنة وفاة المؤلف، وهذا في الغالب، وليس شرطا دائما، بل إنه يتخلف أحيانا في بعض التراجم.. إنه كتاب مهم في بابه، لأنه يضم أكثر من أربعة عشر ألف ترجمة، وكثير منها لا يعرف لها مصدر آخر غيره، كما يضم الكتاب الكثير من النكت العلمية والأدبية؛ في التاريخ، والنحو، والبلاغة، والفقه، والطب، وتعتبر مادة خصبة لدراسة جديرة بالتبويب.

وقد اشتمل الكتاب على مقدمة نفيسة، لا يليق بباحث في التاريخ أو الأدب أو العلوم الإنسانية عموما أن يهملها، فهي ديباجة رصينة حوت من المعارف رؤوسا لا يستغنى عنها، وهي معدودة في الأعلاق النفيسة المتعة، وهي من أشهر المقدمات النافعة في علم التاريخ، إذ صرح فيها الصفدي برؤية المؤرخ، وقيمة التاريخ، وأهمية كتابته، وتتبع أخباره.

وقد بين - رحمه الله - في صدر كتابه منهجه الذي سار عليه في جمع المادة، وطريقة بثها في ثناياه، وقد جاءت تراجمه ممتدة زمانيا، إذ تبدأ بما قبل الإسلام، وتنتهي ببعض من عاش في القرن الثامن الهجري، أي من الذين عاصرهم الصفدي، كما استوعبت التراجم مساحات مكانية واسعة، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وقد أورد الصفدي - رحمه الله - في هذه المقدمة النفيسة أحد عشر فصلا، تناول فيها علم التاريخ،



فتحدث عن طريقة تأريخ العرب في الجاهلية، وأقدم التواريخ التي بين أيدينا وأصولها، وبيان كيفية كتابة التاريخ، وترتيب المؤرخين لكتبهم، وطريقتهم في النقد التحليلي للنصوص التاريخية، ويذكر جردا مطولا للكتب التاريخية؛ وقد صنفها حسب التراجم التي اختصت بها، فمنها: كتب تاريخية مصرية، وأخرى شامية وثالثة مغربية وأندلسية ويمنية وغير ذلك.

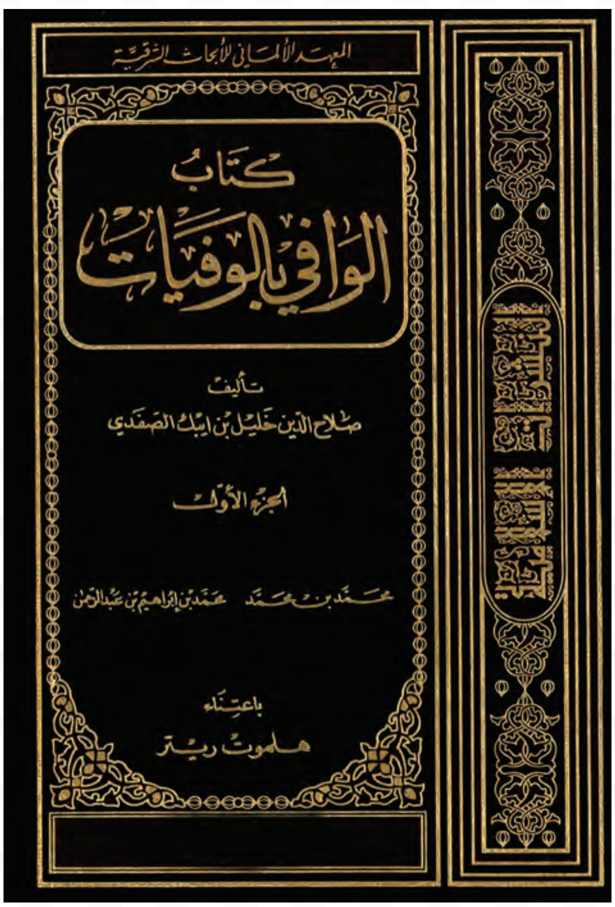
كما قدم الصفدي طائفة من القضايا اللغوية والإملائية التي لا يسع المؤرخ جهلها؛ منها دراسة كلمتي التاريخ والوفاة وجذريهما اللغويين، وطريقة المؤرخين في ضبط الأسماء بالعبارة وحروف الهجاء، وإذا وقفنا عند مصادره التي استمد منها مادته وجدناه قد اعتمد على مجموعة من كتب التاريخ والسير والتراجم والطبقات، المطبوعة والمخطوطة والمفقودة، كما اعتمد الصفدي في بعض تراجمه ومادته التاريخية على من عاصرهم، فقد ترجم لمئات منهم، وسرد فصولا من أخبارهم، ومن أهم ما ذكره مما عاصره أخبار الدولة المملوكية التي تخفى تفاصيلها على الكثيرين ممن لم يقتربوا من البلاط قربه، فقد كان، رحمه الله، من كتاب الإنشاء، وكانت له منزلة عالية عند الأمراء، مما خوله من الاطلاع على المكاتبات المملوكية وشؤونها السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها.

كما أن لكتاب «الوافي بالوفيات» قيمة أدبية راقية، تتمثل في الانتخاب الشعري الذي جعل من الكتاب خزانة أدبية ثرية لكثير مما حفلت به دواوين الشعراء، فالصفدي شاعر ناقد ذواق، له اطلاع واسع على الموروث الشعري المتقدم عنه والمعاصر له، وعنده حس نقدي بليغ.

فصول المقدمة ومحتوياتها:

الفصل الأول: ذكر الصفدي فيه أن العرب كانت تؤرخ في بني كنانة من موت كعب بن لؤي، فلما كان عام الفيل أرخت منه، وكانت المدة بينهما مائة وعشرين سنة، وأرخ بنو إسماعيل - عليه السلام - من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنائه البيت، ومن بنائه البيت إلى تفرق معد، ومن تفرق معد إلى موت كعب بن لؤي.. ومن عادة الناس أن يؤرخوا بالواقع المشهور والأمر العظيم، وقد وقع خلاف كبير في أقدم التواريخ التي بأيدي الناس: فزعم بعضهم أن أقدم التواريخ تاريخ القبط؛ لأنه بعد انقضاء الطوفان.

وأقرب التواريخ المعروفة تاريخ يزدجرد بن شهريار الملك الفارسي، وهو تاريخ أرخه المسلمون عند افتتاحهم بلاد الأكاسرة، وهي البلاد التي تسمى اليوم «إيران»، وأما التاريخ المعتضدي فلم يتجاوز بلاد العراق، وفيما بين هذه التواريخ، تواريخ القبط والروم والفرس وبني إسرائيل، وتاريخ عام الفيل.



وأرخ الناس بعد ذلك من عام الهجرة، وأول من أرخ الكتب من الهجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة، وكان سبب ذلك أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كتب إلى عمر أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها نعمل، فقد قرأنا صكا منها محله شعبان؛ فما ندري أي الشعبانين الماضي أو الآتي؟! فعمل عمر رضي الله عنه على كتب التاريخ؛ فأراد أن يجعل أوله رمضان، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين؛ فجعله من المحرم، وهو آخرها فصيره أولا لتجتمع في سنة واحدة، وكان قد هاجر ﷺ يوم الخميس لأيام

من المحرم؛ فمكث مهاجرا بين سير ومقام، حتى دخل المدينة، شهرين وثمانية أيام.

الفصل الثاني: تقول العرب: أرخت وورّخت، فيقلبون الهمزة واوا؛ لأن الهمزة نظير الواو في المخرج، فالهمزة من أقصى الحلق والواو من آخر الفم، فهي محاذيتها، ولذلك قالوا في وعد: أعد، وفي وجوه: أجوه، فعلى ذلك يكون المصدر: تأريخا وتوريخا بمعنى.

وقاعدة التأريخ عند أهل العربية: أن يؤرخوا بالليالي دون الأيام؛ لأن الهلال إنما يرى ليلا، ثم إنهم يؤنثون الذكر، ويذكرون المؤنث، على قاعدة العدد، لأنك تقول: ثلاثة غلمان وأربع جوار.. إذا عرفت ذلك، فإنك تقول في الليالي ما بين الثلاث إلى العشر: ثلاث ليال إلى بابه، وتقول في الأيام ما بين الثلاثة إلى العشرة: ثلاثة أيام وأربعة أيام وبابه.

الفصل الثالث: في كيفية كتابة التاريخ: تقول للعشرة وما دونها: خلون، لأن المميز جمع، والجمع مؤنث، وقالوا لما فوق العشرة: خلت ومضت لأنهم يريدون أن مميزه واحد، وتقول من بعد العشرين لتسع إن بقين وثمان إن بقين تأتي بلفظ الشك لاحتمال أن يكون الشهر ناقصا أو كاملا.

وقد منع أبوعلي الفارسي -رحمه الله- أن يكتب لليلة خلت، كما منع من صبيحتها أن يقال المستهل، لأن الاستهلال قد مضى، ونص على أن يؤرخ بأول الشهر في اليوم أو بليلة خلت منه.

وقال الحريري في «درة الغواص» والعرب تختار أن تجعل النون للقليل والتاء للكثير لأربع خلون، ولأربع عشرة ليلة خلت. قال: ولهم اختيار آخر، وهو أن تجعل ضمير الجمع للكثير الهاء والألف، وضمير الجمع القليل الهاء والنون المشددة؛ كما نطق القرآن: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ (التوبة: ٣٦) فجعل ضمير الأشهر الحرم بالهاء والنون لقلتهن، وضمير شهور السنة الهاء والألف لكثرتها.

فائدة: رأيت الفضلاء قد كتبوا بعض الشهور بشهر كذا، وبعضها لم يذكروا معه شهرا، وطلبت الخاصة في ذلك، فلم أجدهم أتوا بشهر إلا مع شهر يكون أوله حرف راء، مثل شهري ربيع وشهري رجب ورمضان، ولم أدر العلة في ذلك ما هي؟ ولا وجه المناسبة؟ لأنه كان ينبغي أن يحذف لفظ شهر من هذه المواضع؛ لأنه يجتمع في ذلك راءان وهم قد فروا من ذلك، وكتبوا داود وناوس وطاوس بواو واحدة؛ كراهية الجمع بين المثلين، وجرت العادة بأن يقولوا في شهر المحرم شهر الله، وفي شهر رجب شهر رجب الفرد أو الأصم أو الأصب، وفي شعبان شعبان المكرم، وفي رمضان رمضان المعظم، وفي شوال شوال المبارك، ويؤرخوا أول شوال بعيد الفطر، وثامن ذي الحجة بيوم التروية، وتاسعه بيوم عرفة، وعاشره بعيد النحر، وتاسع المحرم بيوم تاسوعاء، وعاشره بيوم عاشوراء؛ فلا يحتاجون أن يذكروا الشهر، ولكن لابد من ذكر السنة.

وقد يجيء في بعض المواضع نيف وبضع، مثل قولهم نيف وعشرين، وهو بتشديد الياء، ومن قال نيف بسكونها فذلك لحن، وهذا اللفظ مشتق من أناف على الشيء إذا أشرف عليه، فكأنه لما زاد على العشرين كان بمثابة المشرف عليها.

الفصل الرابع: النسب مما يضطر إليه المؤرخ: النسب هو الإضافة، لأن النسب إضافة شيء إلى بلد أو قرية أو صناعة أو مذهب أو عقيدة أو علم أو قبيلة أو والد، كقولك مصري أو مزي أو منجنيقي أو شافعي أو معتزلي أو نحوي أو زهري أو خالدي؛ فهذا المعنى إنما هو إضافة.

ولهذا كان النحاة الأقدمون يترجمونه بباب الإضافة، وإنما سميته نسبا، لأنك عرفته بذلك كما تعرف الإنسان بآبائه، وإنما زيد عليه حرف لنقله إلى المعنى الحادث عليه، طردا للقاعدة في التأنيث والتثنية والجمع.

المراجع:

كتاب الوافي بالوفيات..

مقدمة محقق كتاب: زبدة تجريد الوافي بالوفيات لابن حجر.

المؤسسة الأسرية.. وأدب الأطفال

عبد المجيد إبراهيم قاسم
كاتب دراسات تربوية

يمثل «أدب الأطفال» دعامة أساسية في بناء ثقافة الطفل، ووسيلة ذات أهمية بالغة في توجيه سلوكه، وتشكيل قيمه واتجاهاته، وتكوين شخصيته من النواحي العقلية والنفسية والاجتماعية. كما يشكل الاهتمام بهذا النوع من الأدب جزءا لا يتجزأ من عملية التربية لهذا الكائن الناشئ، ورافدا متميزا لها. ولا تتبع أهمية أدب الأطفال من كونه أداة تربوية مهمة لتنمية شخصية متوازنة للطفل فحسب، بل كونه يشكل عاملا في تنمية المجتمع والنهوض بمتطلباتها.



يعرف د. «علي الحديدي» أدب الأطفال بأنه: «خبرة لغوية في شكل فني، يبدعه الفنان للأطفال بين الثانية والثانية عشرة أو أكثر قليلا، يعيشونه ويتفاعلون معه، فيمنحهم المتعة والتسلية، ويدخل على قلوبهم البهجة، وينمي فيهم الإحساس بالجمال، ويقوي تقديرهم للخير ومحبتهم له، ويطلق العنان لخيالاتهم وطاقاتهم الإبداعية، ويبني فيهم الإنسان» (١).

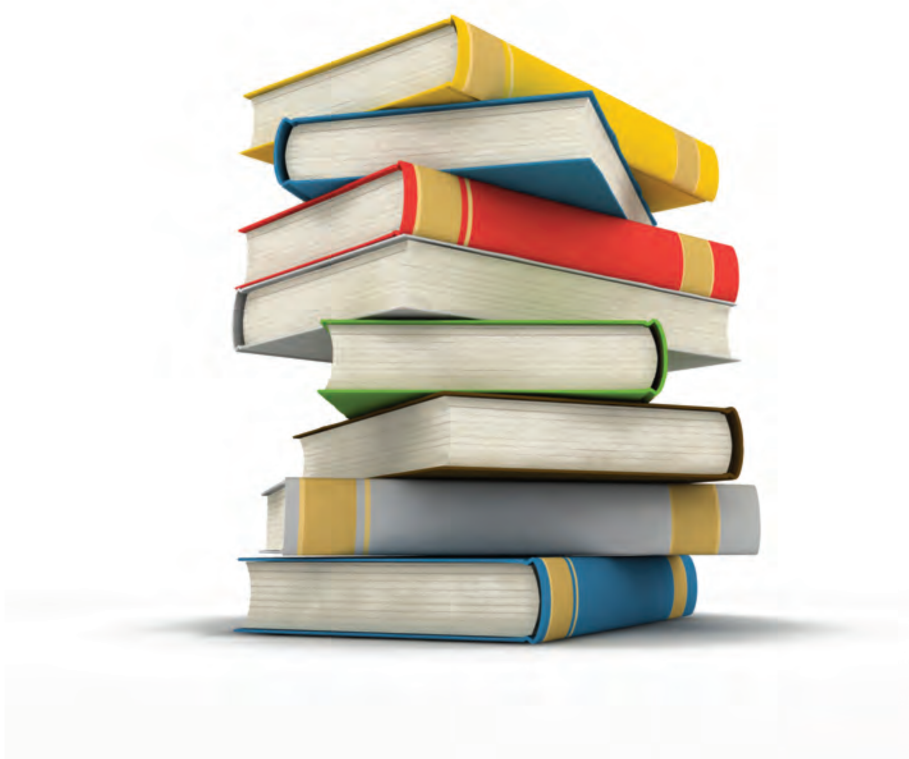
لعل من أهم خصائص فنون أدب الأطفال، التي تتنوع بين الشعر والقصة والمسرح والمقالة والرواية، أن يلائم مدركات جمهوره -مضمونا وأسلوبا- وينسجم مع طبيعة نموهم من جميع جوانبه، ويعتمد أدوات تناسبهم وتساير ميولهم وقدراتهم. ولعل أهم وظائفه التي يسعى لتحقيقها أنه يشكل وسيلة جيدة للتعليم ولاستثارة الإبداع والكشف عن مواطنه لدى الأطفال، ويقدم معظم أشكال المعرفة التي تنمي قدراتهم العقلية والتعبيرية، وتغني أفكارهم وتوسع خيالهم ومداركهم، وأنه يهذب وجدانهم ويرقى بحسهم الجمالي، ويغرس القيم التربوية والسلوكية الإيجابية في نفوسهم، ويثير فيها العواطف الإنسانية النبيلة، إضافة إلى كونه يثري لغة الأطفال، ويحقق لهم شكلا مناسبا من التفاعل الاجتماعي، ويكسبهم المهارات اللازمة لمواجهة الحياة وصعوباتها.

عليه فإن «أدب الأطفال» يشكل قاعدة أساسية لثقافة الطفل ونهجا قويا لبنائها، فالمضامين هي والأهداف هي نفسها، يكمن الفارق أن مفهوم الثقافة الطفلية أعمق وأشمل من مفهوم أدب الأطفال. يقول الباحث د. هادي الهيتي: «لأدب الأطفال دور ثقافي؛ حيث إنه يقود إلى إكساب الأطفال القيم

والاتجاهات واللغة وعناصر الثقافة الأخرى، إضافة إلى ما له من دور معرفي من خلال قدرته على تنمية عمليات الطفل المعرفية المتمثلة بالتفكير والتخيل والتذكر. وبوجه عام فإن أدب الأطفال - باعتباره تجسيدا لثقافة الأطفال - يسهم في انتقال جزء من الثقافة إلى الأطفال بصورة فنية، وفي إقناع الأطفال بالآمال الجديدة.. لذا فهو أداة في بناء ثقافة الأطفال» (٢).

لقد بات من الواضح أن الكتابة الأدبية المتخصصة للأطفال؛ تعبر عن اتجاه حديث نسبيا؛ قياسا إلى تاريخ الأدب، وأنه لم ينشأ بصيغته المعاصرة إلا بعد أن مر بمراحل عدة، غير أن حداثة هذا النوع بمعناه المنهجي لا تعني أنه كان منعدما تماما.. والحقيقة أنه وجد حيث وجدت الطفولة، لكنه لم يحظ بالتدوين والدراسة كأدب الراشدين. وقد أشارت بعض الدراسات إلى نوع من الاهتمام بالطفل وفنونه لدى المصريين القدماء، وإلى بعض الكتابات والنقوش والصور على أوراق البردي وجدران المعابد والقصور، حتى إن د. علي الحديدي يذهب باعتقاده إلى أن السينمائي الشهير «وولت ديزني» استلهم فكرته عن الكارتون وشخصياته من زيارة قام بها لمقابر المصريين القدماء، ورأى فيها قصص الأطفال المصورة (٣). ومن الآثار الأدبية القديمة التي تعود إليها جذور أدب الأطفال: حكايات البانجاتانترا المكتوبة باللغة الهندية القديمة، وحكايات إيسوب اليوناني وغيرها. ويرى كثير من المؤرخين أن أوائل القرن العشرين كانت البداية الحقيقية لأدب الأطفال في العالم العربي، حيث بدأ بالاقتباس والترجمة عن آداب الأمم الأخرى. وقد لعبت الترجمة - كمصدر مهم - دورا كبيرا منذ أن بدأ هذا الأدب بالظهور وما زال، وقد كانت عملية مطلوبة نتيجة الفراغ الذي كان سائدا آنذاك، ثم بدأت بعدها عمليات التوظيف من التراث الشعبي العربي والإنساني تؤدي دورها المرحلي، خدمة للأطفال والطفولة، وذلك قبل أن يتبلور هذا الأدب ويتخذ طابعا حديثا ومتطورا في مرحلة؛ هي مرحلة التأليف والإبداع.

وخلال الحقب التي مرت بها تلك المراحل وصولا إلى التطور الهائل في مجال أدب الأطفال ووسائطه؛ كانت الأسرة مركزا رئيسا لنقل فنونه إلى الأطفال، خاصة في مرحلة سيطر فيها ما عُرف بالأدب الشفاهي، إذ ظلت تورثها للأجيال جيلا بعد آخر، مؤكدة على دورها في نقل الثقافة وحفظها.. وقد كان الأطفال يتذوقون ما تناقلته الألسن وصدحت به الحناجر، ويستمعون إلى ما كان يسرده الآباء والأجداد من أساطير الأبطال، وحكايات وأقاصيص عن عوالم مدهشة، بتشوق ولهفة، وينسجمون معها أيما انسجام. إلى جانب التنويمات والترقيصات والأغاني، التي عُدَّت أولى الأشكال الأدبية في التراث الإنساني التي خاطبت الطفولة. إضافة إلى الأشكال الأخرى، كالنوادر والألغاز والأمثال والأحاجي. وقد شكلت -بمجملها- مصادر معرفية مهمة، أسهمت في إغناء خبرات الأطفال وإثراء وجدانهم، إضافة إلى وظيفتها في الإمتاع والتسلية. ويجدر



بالذكر أن معظم ما وصل إلينا من الأشكال الموجهة للأطفال، والنادرة أصلا، جاءت متصلة بأعمال الكبار ونتاجاتهم. «بوجه عام لم يكن الأطفال –قبل نشأة أدب الأطفال– بعيدين كل البعد عن الأدب، فقد كانوا يستمعون –أحيانا– إلى الحكايات والأمثال والروايات والحكم والرحلات، التي كان يتناقلها الناس أو يروونها في المجالس بقصد التسلية والتوجيه، ومن الأدب ما هو من التراث الديني، ومنه ما هو من التراث الشعبي الذي يحمل القيم والأفكار.. ومن بين التراث الديني ما هو أدب حكمة أو أدب تهذيب» (٤).

خلال تلك الأزمنة كان أدب الأطفال أحد أهم مهام الأسرة التربوية، وأسمى وظائفها الثقافية، بل إن دورها في نشر هذا الأدب بين أطفالها كان –ولا يزال حتى اليوم– أساسيا كمجال لإعدادهم وتنشئتهم، وتنمية قدراتهم وطاقاتهم، حتى إن لم يعد بمقدورها أن تنهض بهذا الأدب وتستثمره بالصورة المطلوبة، خاصة مع التطور المذهل لوسائل الإعلام، وفي خضم تبدلات القيم والمفاهيم المتعارف عليها، والتي باتت مفزعة في بعض الأحايين.

إن بإمكان الأسرة أن تتيح للطفل نتاجا أدبيا ذا قيمة، وتقدم له نماذج راقية، بما يتفق مع المعايير التربوية والنفسية والفنية الحديثة، وما يبعث على الجمال بكل ما يتصل بها، سواء كانت مجموعات أدبية خاصة بهم، أو مواد متنوعة في صحافتهم، وفي وسائل الإعلام المختلفة. وعليها أن تشجعه على المطالعة والقراءة وارتياد المكتبات.

ومن الأساليب المعينة للأسرة في نشر أدب الأطفال:

– الاهتمام الجاد بهذا النوع الأدبي بأنواعه وأشكاله كافة، من قبل الجهات المطلعة.

– إنشاء ركن خاص بالطفل ضمن المكتبة البيتية، وإثرائه بما يلبي احتياجاته وينسجم مع ميوله.

– الاستفادة من الوسائط التربوية الحديثة في تقديم أشكال هذا الأدب، واستغلال وسائل الإعلام والارتقاء بأدوات الطفل الثقافية عموما.

– الاستفادة من التجارب العالمية، وتشجيع الترجمة لنماذج إبداعية مناسبة، بما يسهم في تطوير الأدب الطفلي.

– التعاون الفاعل بين مؤسسات التربية والجمعيات الثقافة المحلية، والحوار المستمر بينها لتطوير العمل في هذا المجال.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما طبيعة الأدب الذي يجب أن تقدمه الأسرة للطفل، وما أهم خصائصه؟..

لعل أبرزها أن يتسم الأدب الموجه للطفل بالفكرة السليمة الواضحة، والمضمون ذي المغزى؛ القادر على النفاذ إلى عقل الطفل ووجدانه، وتقديم الأدب الذي يحمل المعاني الإيجابية ويطرح الاتجاهات السليمة والقيم الإنسانية السامية، والابتعاد عما يناول القيم السلبية كالعنف والتطرف والتعصب.. وأن يكون معبرا عن عواطفه وأحاسيسه، ومسايرا لفطرته المجبولة على الحرية والمرح. ثم أن يتناسب –هذا الأدب– مع المستوى العمري والإدراكي للطفل، ويعالج موضوعات تلبي جانبا من احتياجاته المعرفية والعاطفية والقيمية، وأن يحرض ملكاته التعبيرية وينمي قدرته على التكيف والتلاؤم.

أما من ناحية الأسلوب فيجب أن يكون جميلا، متميزا بالسهولة والوضوح، خاليا من التعقيد والغموض، وبعيدا عن السذاجة والتكلف أو الوعظ الذي يأتي بلهجة الأوامر. وأن يمتاز بالعاطفة الصادقة، التي تشحذ أحاسيسه وتنمي مشاعره الإيجابية. وأن يمتلك عناصر الإثارة والتشويق، وأن تكون الكتابة بلغة فصيحة ومبسطة تناسب لغة الطفل وترتقي بها. ومن الناحية الفنية يجب أن يراعى الإخراج الفني للكتاب الذي يحتوي على النصوص المقدمة للطفل، ويتضمن رسوما تعبيرية جذابة وملونة.

الهوامش

(١) في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٩٦م تأليف د. علي الحديدي ص ١٠٠– ١٠١ .

(٢) سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس/ آذار ١٩٨٨م، ثقافة الأطفال، تأليف د. هادي نعمان الهيتي، ص ١٤٨.

(٣) أدب الأطفال مدخل للتربية الإبداعية، تأليف: د. انشراح إبراهيم المشرفي، مدرس المناهج وطرق التدريس، كلية رياض الأطفال، جامعة الإسكندرية. موقع جامعة أم القرى، مكة المكرمة. عنوان الموقع: http://uqu.edu.sa

(٤) سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٣، مصدر سابق، ص ١٥١.

كيف نغرس حب الفصحى في قلوب أبنائنا؟

سالم بن عميران
كاتب دراسات إسلامية

اللغة العربية هي الركن الأساس في بناء الأمة؛ حيث ارتبطت هذه اللغة بالإسلام والعروبة ارتباطا وثيقا، في كل أدوار تاريخها الطويل، ونمت في أبنائها روح المواطنة الصالحة وما تنطوي عليه من حب الوطن والتضحية من أجله (١).

إن إحياء اللغة الفصحى والاعتزاز بها دليل على عمق الفكر، وبعد النظر، ومعرفة حكمة التاريخ، ورفض الاستعباد والذل، تأمل إلى ما يسمى اليوم بإسرائيل، مجتمع متعدد الأعراق والأصول والألسنة، ولكنهم يحيون لغة ميتة من قبرها (اللغة العبرية)، ويستعملونها في كل عمل من أعمال الحياة، باعتبارها لغة الهوية؛ وهذا يدل على الاعتزاز بالنفس، والدفاع عن الشخصية التي يرغب في تكوينها الصهاينة في أبنائهم (٢).



وفي الآونة الأخيرة، وبعد ظهور المنجزات العلمية الحديثة، وما أنتجته من وسائل تواصل اجتماعي عبر الهواتف الجوالة، وظهور ما يسمى بالعولمة؛ ابتعد كثير من أبناء العربية -جيل الشباب خاصة- عن لغتهم العربية الفصحى؛ فصاروا يتواصلون مع بعضهم بلغة «الأرابيش» (٣)، حيث طمست هذه اللغة معالم الحروف العربية، فحلت الأرقام والألفاظ الأجنبية محل الكلمات العربية، واختلطت فيها اللهجة العامية بالفصحى، والعربية بالإنجليزية.

وقد كانت العرب تستقبح الخطأ في بعض قواعد الإعراب؛ كرفع المنصوب ونصب المجرور، وهو ما يسمى باللحن، فكيف بطمس أسس وقواعد قامت عليها اللغة العربية الفصحى؟!

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بقوم يرمون نبلا، فعاب عليهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا قوم متعلمين، فقال: لحنكم أشد علي من سوء رميكم! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رحم الله امرأ أصلح من لسانه»، وكان ابن عمر يضرب بنيه على اللحن، ولا يضربهم على الخطأ. قال العتبي عن أبيه: استأذن رجل من جند الشام -له فيهم قَدْر- على عبدالملك بن مروان، وهو يلعب بالشطرنج، فقال: يا غلام، غطها، هذا شيخ له جلاله، ثم أذن له، فلما كلمه وجده يلحن، فقال: يا غلام، اكشفها، فليس للاحن حرمة. وهذا يدل على أن اللحن تستقبحه العرب في جميع الأحوال، من كل ذكر أو أنثى (٤)، فكيف لو رأوا ما يكتب وما يقال في هذا العصر!

إن تكوين الملكة اللغوية، وصيانة اللسان عن الوقوع في الخطأ، هو الهدف الأسمى الذي نسعى إلى تحقيقه لأبنائنا، ولا يتحقق هذا الهدف إلا من خلال قراءة النصوص الأدبية الفصيحة؛ شعرا ونثرا، مع حفظ الكثير منها، فتتكون الملكة القادرة على محاكاة هذه النصوص، وتقوى قيمة الفصحى لديهم، وقد بين العلامة ابن خلدون هذا المنهج في مقدمته، حيث يقول: «إن حصول ملكة اللسن العربي إنما هو بكثرة المحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد، على نحو كلامهم» (٥).

ومن الوسائل التي تعزز من قيمة الفصحى في قلوب أبنائنا تدريبهم على فنون الكلام، بما في ذلك الخطابة، والقراءة الجهرية، وفن إعداد الكلمة، والمناظرات، ولقاء الجماهير، وقد كاد أرباب الأفكار والحصافة يجمعون على أن اللغات الحية لا تعلم كاللغات الميتة، بل إنه لابد في الأولى من المران على التكلم بها من أول وهلة (٦)، فيكتشف الطالب جمال اللغة الفصحى، ويجعلها واقعا ملموسا في حياته اليومية.

فعلى المربين غرس حب الفصحى في نفوس أبنائهم، وتنمية شعورهم بالاعتزاز بها، وتمكينهم من استعمال اللغة العربية الفصحى استعمالا صحيحا في التعبير عن مطالبهم الحياتية والفكرية، لينالوا محبة ربهم ورسولهم ﷺ «فمن أحب العربية أحب محمدا، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها» (٧).

الهوامش

١- ينظر: علي النعيمي، الشامل في تدريس اللغة العربية، الأردن ،عمان، دار أسامة، ط١، ٢٠٠٤م ص١٣-١٤.

٢- انظر: د. المهدي بن عبود، «ارتسامات حول اللغة العربية وفعاليتها في الحقل العلمي»، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد (٣) ١٩٦٥م، ص ٣٦.

٣- وهي كلمة مشتقة من لفظين (Arab وEnglish) وتدمج فيها كلمات من اللغتين العربية والإنجليزية لتكوين كلمات جديدة. ينظر: أسماء الغابري، «سطوة مواقع التواصل الاجتماعي تنعكس على لغة الطلاب خلال الاختبارات» جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٢٦٠٥، الأحد ٢٣ رجب ١٤٣٤ هـ ٢ يونيو ٢٠١٣م.

٤- ينظر: تقي الدين المصري، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ج١، ص ١٣٧-١٣٨.

٥- ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٦٤١.

٦- انظر: مجلة المنار، ج ٢٢ ص ٨٧٨.

٧- أبومنصور الثعالبي، فقه اللغة، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ذو الحجة ١٣١٨، ص٢.

وصايا الآباء لمؤدبي أبنائهم

وائل حافظ خلف
باحث أسري

التقطنا لك - أقر الله عينا بك - جملة من وصايا آباء أَلِبَّاء لمؤدبي أبنائهم ومعلميهم من أمهات كتبِ الأخبار والأدب.. ونصصنا كل وصية إلى بعض الأسفار التي وقفنا عليها فيها. وبالله التوفيق.



وصية عتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لعبدالصمد مؤدب ولده: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت.. علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه.. ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه. ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم.

وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء، وجنبهم محادثة النساء.

وتهددهم بي، وأدبهم دوني.

وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء.

ولا تتكل على عذري، فإني قد اتكلت على كفايتك، وزد في تأديبهم أزدك في بري، إن شاء الله تعالى».

أوردها أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ في «البيان والتبيين» (ج ٢، ص ٣٥-٣٦).

ومما يروى من وصيته لولده ما أخبر به ابنه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، قال: كنت أساير أبي ورجل يقع في رجل، فالتفت إلي أبي، فقال:

«يا بني، نزه سمعك عن استماع الخنا كما تنزه لسانك عن الكلام به؛ فإن المستمع شريك القائل. ولقد نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة جاهل في فيه؛ لسعد رادها كما شقي قائلها».

(عيون الأخبار) للإمام ابن قتيبة، رحمه الله وأوردها أبوعمر في «بهجة المجالس» (ق١، ج١، ص٤٠٠).



وصية عبدالملك بن مروان

«علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة (ورعا) وأقلهم أدبا، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة، واحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا، ويمصوا الماء مصا، ولا يعبوا عبا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم».

ذكرها الإمام ابن قتيبة الدينوري في «عيون الأخبار» (ج٢، ص١٦٧).

وصية مسلمة بن عبدالملك ابن مروان

«إني قد وصلت جناحك بعضدي، ورضيت بك قرينا لولدي؛ فأحسن سياستهم تدم لك استقامتهم، وأسهل بهم في التأديب عن مذاهب العنف، وعلمهم معروف الكلام، وجنبهم مصادقة اللئام، وانههم أن يعرفوا بما لم يعرفوا، وكن لهم سائسا شفيقا، ومؤدبا رفيقا؛ تكسبك الشفقة منهم المحبة، والرفق حسن القبول ومحمود المغبة، ويمنحك ما أدى من أثرك عليهم وحسن تأديبك لهم مني جميل الرأي، وفاضل الإحسان، ولطيف العناية» ذكرها ابن أبي الدنيا في كتاب «العيال».

وصية هارون الرشيد

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده.

قال خلف الأحمر: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين، فقال:

«يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة؛ فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم، إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد، إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة؛ فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة» (مقدمة ابن خلدون).



حقوق الخادم في الإسلام

نجاح عبدالقادر سرور
باحثة دراسات إسلامية

الخادم نعمة من نعم الله، أنعم بها على الكثير منا.. إنهم إخواننا وأخواتنا، جعلهم الله عزوجل تحت أيدينا، واختبرنا بوجودهم في بيوتنا.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ (الأنعام ١٦٥)، فحق علينا أن نحافظ على حقوق الخادم ومنها:

● الرفق به وعدم تعنيفه وتوبيخه

لنا الأسوة والقدوة الحسنة في رسول الله ﷺ، الذي عامل خدمه بمنتهى الرفق واللطف، يقول أنس ابن مالك رضي الله عنه: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال: «دعوه؛ فلو قدر، أو قال: لو قضي، أن يكون كان» (مسند أحمد).

● النصح له واحترام رأيه

إن الخادم بشر مثلنا، يعاني مثلما نعاني وربما أشد؛ فلا نتكبر أن ننصح له ونقدم له المشورة، وفي النهاية نحترم اختياره ورأيه. هذا موقف لبريرة التي كانت أمة عند السيدة عائشة رضي الله عنها، تعتقها السيدة عائشة، فتصير حرة، فيتم تخييرها بين الاستمرار مع زوجها مغيث أو الانفصال عنه، فتختار الانفصال عنه، رغم حبه الشديد لها. فيقول لها النبي ﷺ: «لو راجعته». قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع». قالت: لا حاجة لي فيه (البخاري). فانظر كيف نصح النبي ﷺ بريرة ثم احترم رأيها.

● عدم ضربه وإهانته

إن هناك كثيرين يهينون من يخدمهم إهانة بالغة، بالسب والضرب وسائر أنواع الإهانة، وهذا موقف حدث أمام رسول الله ﷺ. قال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي فإذا هو رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود». قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». قال: فقلت: لا أضرب مملوكا بعده أبدا (مسلم). وفي رواية أنه أعتقه.

● السمر معه والانبساط إليه في الحديث

إن التواضع للخدم بالسمر معهم والتحدث إليهم كأصدقاء مقربين من شيم أهل المروءة والأخلاق الطيبة، وهكذا علمنا رسول الله ﷺ، فعن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي»، فانطلقت معه - فذكر أنه استغفر ودعا لهم - ثم أقبل علي فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي عزوجل والجنة». قال: قلت: بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي عزوجل والجنة» (أحمد).

● الأكل معه

من الأخلاق الفاضلة التي تكاد تندثر الحرص على أن يأكل الخادم معنا، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا كفى أحدكم خادمه طعامه حره ودخانه فليأخذ بيده فليقعده

معه فإن أبى فليأخذ لقمة فليطعمها إياه» (الترمذي).

● مساعدته في العمل إذا تعب

وهذا قمة التواضع، وتجسيد لمبدأ إنساني نبيل. قال أبوسعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ يقم البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا تعب (البخاري). وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال ﷺ: «إن إخوانكم خولكم - خدامكم - جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم» (١).

● احترام إنسانيته

إن الخادم إنسان؛ فانظر إلى رسول الله ﷺ كيف احترم إنسانية الخدم. عن أنس بن مالك قال: إن كانت الخادم من أهل المدينة وهي أمة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت (مسند أحمد). وماتت أمة سوداء كانت تقمّ المسجد ولم يعلم النبي ﷺ بموتها، فذكرها ذات يوم فقال: «ما فعل ذلك الإنسان؟» قالوا: ماتت يا رسول الله. قال: «أفلا آذنتموني؟ دلوني على قبرها»، فأتى قبرها فصلى عليها ﷺ (٢).

● إعطاؤه حقه كاملا

إن الخادم عامل وأجير، ومن العدل المبادرة بإعطائه أجره وعدم مماطلته، ومن السنة أن نعطي الأجير حقه قبل أن يجف عرقه. يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (النور ٣٣).

● عدم احتقاره والحط من شأنه

إن من حسن الخلق أن نحرص على نفسية خادمنا، فلا نهينه بكلمة نحتقره بها، أو نحط بها من شأنه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي فكلكم عبيد الله، ولكن ليقل فتاي، ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي» (مسلم).

● العفو عنه

كل إنسان عرضة للخطأ والزلل، وربما أخطأ الخادم وتكررت أخطاؤه، والمطلوب منا أن نصبر عليه، وأن ننصحه، وأن نبادر بالعفو عنه. عن عبدالله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟.. فقال ﷺ: «اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة» (أبوداود والترمذي).

● العطف عليه

إن الخدم من أولى الناس بالعطف والرعاية والبذل لهم، وخاصة في أوقات الشدة وفي المناسبات الاجتماعية، هذا رسول الله ﷺ يعرض على خادمه ربيعة الأسلمي الزواج أكثر من مرة، يقول له: «يا ربيعة، ألا تزوّج؟»، وربيعة يرفض متعللا بقلة ذات يده، وظل النبي ﷺ يلح عليه حتى قبل. يقول ربيعة: فقال لي ﷺ: «يا ربيعة، ألا تزوّج؟». فقلت: بلى، مرني بما شئت. قال: «انطلق إلى آل فلان» (حي من الأنصار)، «فقل لهم إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة» -لامرأة منهم- فذهبت، فقالوا: مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ.. فزوجوني وألطفوني.

وذكر أن رسول الله ﷺ جمع له من قومه صداق عروسه، وصنع له وليمة، وأعطاه قطعة أرض تعينه على المعاش (٣).

● تعليمه مكارم الأخلاق

مادام الخادم واحدا ممن يضمهم بيتنا؛ وجب علينا حسن تربيته وتعليمه مكارم الأخلاق، ولقد نبهنا الله عزوجل إلى تعليم الخدم والأطفال مثل آداب الاستئذان فقال عزوجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨﴾ (النور ٥٨).

● الثقة فيه والحرص على إشراكه في الثواب

إن العبد المؤمن حريص دائما على أن ينال الثواب من الله عزوجل، هو وأهل بيته وخدمه؛ فيشركهم في كل عمل صالح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: الآمر به، والزوجة المصلحة، والخادم الذي يناول المسكين». وقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي لم ينس خدمنا» (الطبراني والحاكم).

● خفض الجناح له وإكرامه بالوعظ الحسن وبالدعاء

إن الكثيرين منا لا يرد على خاطرهم الدعاء للخادم، وقليلون فحسب هم الذين يسألون خدمهم باستمرار: هل تريدون شيئا؟ رغم أن هذه هي سنة المصطفى ﷺ. عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي ﷺ: «سل». فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أوَ غير ذلك؟». قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» (مسلم).

وصدق الله عزوجل حين قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ (الأحزاب ٢١).

هذا والله أعلى وأعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٣٠٦.
(٢) فتح البارى لابن حجر ٢/١٩٧.
(٣) انظر الحديث بطوله عند أحمد في مسنده ٣٣/٣٤٩.



كما يراها الإمام ابن سحنون المتوفى سنة (٢٥٦هـ)

سياسة تعليم الصبيان وآدابها

الحسين أكروم
باحث دراسات عليا - المغرب

لا غرو أن «رسالة آداب المتعلمين» لابن سحنون، تعتبر أولى المصنفات التي أفردت بالتصنيف في أصول التربية الإسلامية، عبر التاريخ، وعليها اتكأ من جاء بعده، كابن الجزار في كتابه «سياسة الصبيان»، والقابسي في «الرسالة المفصلة»، وابن مسكويه، والغزالي وغيرهم من كبار المربين، ذلك أن مدار اعتمادهم عليها يدور حول الأسس المنهجية للتدريس وقواعد طرائق التعليم الأولى، وهي ولاشك مرحلة حساسة ودقيقة، تؤسس لأهم فترات أصول التربية، وترسخ لقوانين تأديب الصبيان وتعليمهم، فدونك قول ابن الجزار القيرواني: «إن أكثر الناس إنما أتوا في سوء مذاهبهم من عادات الصبا، إذ لم يتقدمهم تأديب وإصلاح أخلاقهم وحسن سياستهم» (١).

تحتوي رسالة آداب المتعلمين على أبواب صغيرة، يتضح لمن تتبعها أن ابن سحنون يبدأ في شرح مضمون العنوان، ثم يعقبه بروايات مختلفة، غالبها آثار يرويها عن طريق أبيه، غالبا، وعن غيره، نادرا.

توجيهه لبعض الأعراف والعوائد السائدة في مناهج التربية

عرف الإمام القرطبي العادة بقوله: «كل خصلة حسنة ترضاها العقول، وتطمئن إليها النفوس» (٢)، ولاشك أن الإمام ابن سحنون لم تطمئن نفسه إلى كثير من العوائد الدخيلة على طرائق التعليم، فنبه على عللها، محاولا قلع جذور تلك الأعراف الفاسدة من أساسها، مبقيا بعض الأعراف الحسنة، وقد سيجها بضوابط شرعية، وقبل بعض العادات الأخرى، بشروط صارمة.

أهم العوائد:

- منعه جعل المعلم عريفا بين

الطلبة
مما لا امتراء فيه أن جعل العريف بين الصبيان أمر تعارف عليه كثير من المؤدبين، قديما وحديثا، وهو كما حده ابن فارس: «القيم بأمر قوم قد عرف عليهم» (٣). فيكون معناه عند المربين: ذلك الذي يراقب الصبيان أثناء غياب المعلم؛ عارفا بأحوالهم، ملما بمقاصد شؤونهم، لكن ابن سحنون منع أن يكون الصبي عريفا؛ خشية اشتغاله بذلك، مما يلهيه عن مدارسة القرآن وتعليمه، فنظر بذلك إلى مصلحة الصبي قائلا: «وأحب للمعلم ألا يولي أحدا من الصبيان الضرب، ولا يجعل لهم عريفا منهم، إلا أن يكون الصبي الذي قد ختم وعرف القرآن، وهو مستغن عن التعليم، فلا بأس بذلك، وأن يعينه، فإن ذلك منفعة للصبي في تخريجه» (٤). ونقل ابن سحنون في موضع آخر عن مالك جواز اتخاذ العريف شرط «أن تكون للصبي في ذلك منفعة» (٥).

- إذا قارب الصبي الختمة فأخرجه والده

من الأعراف الحسنة في ثقافتنا الإسلامية العريقة إغداق الوصي أو ولي الصبي على المعلم ألوانا من النعم، وصنوفا من الإحسان، متى ختم ولده القرآن، لكن بعض الآباء يتعمدون إخراج الصبي قبل الختمة، كوسيلة للحيلولة دون إكرام المعلم، لكن ابن سحنون فطن إلى مكائدهم حين حسم المسألة قائلا: «أقضي له بالختمة. ثمّ لا أبالي أخرجه أم تركه» (٦). فسد رحمه الله بذلك باب التحايل، وقضى على النوازع النفسية التي توسوس في صدور الناس.

ثم سئل ابن سحنون عما إذا حاجج أبو الصبي المعلم فقال: ابني لا يعلم القرآن. فأجاب: «إن قرأ الصبي القرآن في المصحف، وعرف حروفه، وأقام إعرابه؛ وجبت للمعلم الختمة، وإن لم يقرأه ظاهرا، لأنه قلّ صبي يستظهر القرآن أول مرة»، وهذا توجيه لطيف منه، رحمه الله، فكم من صبي ختم القرآن، وهو كما قال، أو دون ذلك بمديد المراحل.

ويظهر أن ابن سحنون فصل القول في موضع آخر، وكأنه تراجع عن موقفه الأول قائلا: «إذا استظهر الصبي القرآن كله كان له أكثر في العطية للمعلم ممن إذا قرأه نظرا، وإذا لم يتهجّ الصبي على ما يملى عليه، ولا يفهم حروف القرآن؛ لم يعط للمعلم شيء» (٧). بل طلب ابن سحنون أن يؤدب ذلك المعلم، ويمنع من التعليم، إذا عرف بهذا وظهر تفريطه، فلم يعلق مناط الحكم على ضعف الصبي، ولا على قصور المعلم، بقدر ما راعى ما جرت به أعراف الكتاتيب القرآنية في القيروان، على طول النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

- إبطال ابن سحنون عادة رمي الفواكه في حفلة الختم

إن لحفلة ختم القرآن أعرافا حسنة وعادات محمودة، توارثها الخلف عن السلف، جيلا عن جيل، بيد أنها تختلف حسب الأعصار، بحكم تبدل العادات وتغير الأعراف، وتنوع التقاليد الاجتماعية، والتأثر بالمنزع الخاص لكل مصر من الأمصار، كسؤال ابن سحنون عما يقع عند الختم من رمي بالفاكهة على الناس: هل يحل؟ فأجاب: «لا يحل، لأنه نهبة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل طعام النهبة» (٨).

قلت: إطلاق ابن سحنون الحرمة على مطلق النهبة فيه نظر، لأن النهي في الحديث (٩) -إن قصد تلك النهبة التي أخذها الصحابة من غزوة خيبر- مقيد بحرمة نَعَم أهل الحرب، وأما النهبة التي يرمَيَ بها الصبيان في الأفراح فجائزة متى تلقت العقول السليمة تلك العادة بالقبول، وهذا ما جعل الحافظ ابن حجر يجوّز بعض صور النهبة بقوله: «وأما النهبة المختلف فيها، فهو ما أذن فيه صاحبه وأباحه، وغرضه تساويهم، أو مقاربة التساوي، فإذا كان القوي منهم يغلب الضعيف، ولم تطب نفس صاحبه بذلك، فهو مكروه» (١٠).

ومهما يكن فإن النهبة تختلف من حال إلى حال، ومن ثم يدور الحكم مع العلة؛ وجودا وعدما، وصدق الإمام الشاطبي لما قال: «فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز» (١١). نعم.. قد يكون ابن سحنون رأى تهارش العوام على تلك الفواكه، وربما انجر بهم الأمر أثناء التقاطها إلى ما لا ينبغي؛ فأطلق الحرمة درءا لما يؤول إليه ذلك، وإن كان لا يهم في هذه المقالة ما إذا كانت النهبة مندوبة أو محرمة، بقدر ما يسترعي انتباهنا نقل ابن سحنون عوائد أهل القيروان، وكيفيات احتفالاتهم المثيرة بعرس القرآن، مع رده لبعض تلك الأعراف (١٢)، وعرضها -بعد النظر والتأمل- على قاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد».

توجيه طرق التعليم وتقويم أساليبها عند ابن سحنون

رغم قصر رسالة ابن سحنون وصغر حجمها، لكنها مليئة بالفوائد، ومن تدبر ثناياها وجد أن صاحبها لم تقف به الهمة عند حد التنبيه على البدع التي تضر المتعلمين في تربيتهم، بل تعدى ذلك إلى إرشاد المعلمين إلى ضرورة مجانبة تعليم الناشئة لمسائل منهجية، قد تعيقهم عن الفهم الصحيح، فصفى، رحمه الله، طرق التعليم من كل الأساليب المنتشرة -يومها- في مختلف المدارس الشعبية بإفريقية، قصد تحسين تربيتهم، وترقية مواهبهم، علاوة على تخلية مناهج التعليم من كل المضار والمفاسد التي تعيق السير السليم للتعليم اللائق -يومها- بالمدارس القيروانية.

- كراهيته اختلاط الغلمان مع الجواري في مكان واحد

لاشك أن أصل سد الذرائع قاعدة عظيمة، عمل شيوخ المالكية بها كثيرا، ووجهوا على وفقها عددا من المسائل والأحكام، لما يتولد عن ذلك من مفاسد متوقعة، مستبصرينٍ مآلات الأحكام وآثارها، فدونك تفطُّن ابنِ سحنون لأبعاد الاختلاط حين قال: « وأكره للمعلم أن يعلم الجواري

ويخلطهن مع الغلمان، لأن ذلك فساد لهن» (١٣). والكراهة -كما يعرف من له أدنى إلمام بمبادئ أصول الفقه- من أقسام الجواز، إذ قد تكون جائزة وتصير مباحة؛ متى انتفت المضار، وتحققت فيها المصالح الخالصة من أي مفاسد جزئية محتملة.

ولهذا اشترط ذلك أبوالحسن القابسي (ت٤٠٣هـ) لما سئل عن حكم تعليم الأنثى القرآن، وهل تتعداه إلى غيره؟ فأجاب: «تعليم الأنثى القرآن حسن، ومن مصالحها، فأما أن تتعلم الترسل والشعر وما أشبهه، فهو مخوف عليها، وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه، ويؤمن عليها من فتنته، وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها» (١٤). وربما هو أول من سبق إلى ضرورة تعليم الأنثى، وتبعه بعد ذلك مشاهير المربين، غير أن المتأخرين، وإن تساهل بعضهم في ذلك، فقد اشترطوا لذلك شروطا، من مثل الإمام الشاطبي، رحمه الله، حيث قيد ذلك بشروط صارمة (١٥)، أما بعض المناهج التربوية المعاصرة، فأطلقت ذلك، فوقع الاختلاط، فزلت قدم بعد ثبوتها.

مقدار ضرب الصبيان وحدوده عند ابن سحنون

إن من تأمل سياسة تعليم الصبيان، والإشراف على تربيتهم يجدها عادة ما تفضي إلى تكاسل بعض الصبيان عن الحفظ، وتشاغل البعض بالخصومات فيما بينهم، وميلهم إلى المرح واللهو، مما يستوجب معه إيقاع ألوان من العقوبة عليهم، تختلف درجاتها حسب الوزر المرتكب، لأن الطفل إذا أهمل كما قال الغزالي: « وإن عوّد الشر، وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه، والوالي له» (١٦).

ومن هنا فصل ابن سحنون أنواع العقوبة، وحدودها بقوله: «ولا بأس أن يضربهم على منافعهم، ولا يجاوز بالأدب ثلاثا، إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك، إذا آذى أحدا، ويؤدبهم على اللعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا» (١٧). لكن القابسي لا يرى مانعا إن صعب مراس الطفل ومزاجه الزيادة على ما ذكر قائلا: «فلا بأس -إن شاء الله- من الزيادة على العشر ضربات» (١٨)، لأن الغرض من التأديب استصلاح حالهم، وتهذيب أحوالهم، وتقويم سلوكهم، ومن ثم كما قال ابن الجزار: «ينقل طبع الصبي المذموم إلى الطبع المحمود» (١٩).

ويبدو أن ابن سحنون، رحمه الله، جنح إلى مذهب المتساهلين في الضرب؛ قياسا مع مواقف غيره، ولا يبعد أن تكون سماحته تلك عرق قديم نزع إليه من توصية والده سحنون لمعلم ابنه محمد، لما أوصاه بحسن التعامل معه، والمبالغة في ملاطفته، ومن ثم تولدت فيه تلك الحنانة والرأفة واللين، في تربية الصبيان، قال سحنون لمربي ابنه المذكور: «لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام الطيب، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف، واتركه على نحلتي، فإني أرجو أن يكون نسيج وحده، وفريد أهل زمانه، وأخاف أن يكون عمره قصيرا (٢٠). قلت: سبحان الله، هو كذلك، ولد سنة (٢٠٢ ومات سنة ٢٥٦هـ) ففراسة سحنون تجاه ابنه لم تخطئ.

ومن روائع تعليلات سلطان العلماء العز بن عبدالسلام لمقاصد ضرب الصبيان قوله: «وإذا تعلم الصبي ما ينبغي أن يتعلمه من غير زجر فلا يزجر، وإن لم يتعلم إلا بالزجر زجر، فإن لم ينجح فيه الزجر ضرب ضربا يحتمله مثله، وتغلب منه السلامة، وإن لم ينزجر إلا بالضرب المبرح حرم المبرح لأدائه إلى قتله، لأنه إنما جاز لكونه وسيلة إلى الإصلاح، فإن لم يحصل الإصلاح حرم، لأنه إضرار غير مفيد» (٢١). وهو تعليل وجيه، واستنباط حسن، وبراعة في استفراغ الجهد للوصول إلى تحقيق المناط الخاص في مقاصد الضرب.

الهوامش

(١) - سياسة الصبيان وتدبيرهم، لابن الجزار القيرواني، (ص، ١٣٥)، بتصرف يسير، تحقيق د. محمد الهيلة، نشر الدار التونسية، ١٩٦٨م.

(٢) - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٧/ ٣٤٦)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٩٦٤م).

(٣) - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة «عرف»، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، (٤/ ٢٨٢)، نشر دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٩٧٩م).

(٤) - آداب المعلمين، (ص، ٣٥٦)، تحقيق فؤاد أحمد الأهواني، نشر دار المعارف، الطبعة السادسة، (٢٠٠٢م).

(٥) - آداب المعلمين، (ص، ٣٦٣).

(٦) - آداب المعلمين، لابن سحنون، (ص، ٣٥٩).

(٧) - آداب المعلمين، (ص، ٣٦٤).

(٨) - نفسه (ص، ٣٥٧).

(٩) - صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم الحديث (٥٥١٦).

(١٠) - فتح الباري، لابن حجر (١٢/ ٦٣).

(١١) - الموافقات (٢/ ٥٢٠)، تحقيق مشهور آل سلمان، نشر دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(١٢) - ذكر ابن الحاج عددا من العوائد الفاسدة في عرس ختم القرآن، انظر المدخل (٢/ ٣٠٩-٣١١)، نشر المكتبة التوفيقية، مصر.

(١٣) - آداب المعلمين، (ص، ٣٦١).

(١٤) - الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، للإمام أبي الحسن القابسي (ص، ١١٢-١١٣).

(١٥) - انظر: فتاوى الإمام الشاطبي، (ص، ١٦٥)، جمع المرحوم الدكتور محمد أبوالأجفان، نشر مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

(١٦) - إحياء علوم الدين، للغزالي، (٣/ ٧٢)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(١٧) - آداب المعلمين، لمحمد بن سحنون، (ص، ٣٥٤).

(١٨) - الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، للقابسي، (ص، ١١٣).

(١٩) - سياسة الصبيان وتدبيرهم، لابن الجزار القيرواني، (ص، ١٣٥)، بتصرف يسير.

(٢٠) - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، لأبي بكر المالكي، (١/ ٤٤٣-٤٤٤)، نشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

(٢١) - شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، للعز بن عبدالسلام، (ص، ٣١٤)، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر، إعادة الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

ثقافة إهـداء العيـوب

كمال عبدالمنعم خليل
كاتب وباحث

إذا كانت الهدية شيئا محببا إلى النفس، أو ذا قيمة نفيسة، فإن هذا أمر طبيعي، وهو المألوف بين الناس، أما أن تكون الهدية مما يعاب، أو مما لا تقبله النفس، فهو شيء مستغرب في تعاملات البشر، إلا أن العاقل يوقن أن من أهداه عيبه أحب إليه ممن يهديه شيئا ماديا، قال أحد السلف: «أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله، وأخبرك بعيب فيك، أحب إليك وخير لك من أخ وضع في كفك دينارا»، لكن ينبغي على من يهدي العيوب أن يلتزم آداب النصيحة، فيلبس العيب ثوب الهدية الذي يتصف بالجمال والنقاء وحسن الظاهر، عندها يحفظ صاحب العيب الجميل، ويشكر الصنيع.

وإذا كان الحديث عمن يهدي العيوب، فإننا نجزم بأن المادحين كثر، كل له بغيته في هذا المدح وذاك الثناء، ولقد حث الإسلام على القصد في المديح إذا كان بحق، فما بالك إذا كان المديح بغير حق؟! وقدوتنا في ذلك الرسول الكريم ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، فرغم كمال خلقه وخلقه، ورغم مدح الله تعالى له، إلا أنه أمر أمته ألا تبالغ في مدحه لدرجة تخرجه عن العبودية التي يدين بها لربه سبحانه وتعالى.

وقد أثر عن السلف أنهم كانوا يتهمون النفس بالتقصير والعيوب دائما، حتى لا يركن إنسان إلى عمله، أو يظن أنه نجا فيتكل على ذلك، فيفتر أو يضعف، يقول ابن القيم رحمه الله: «لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: والله إلى الآن منذ أن بلغت وأنا أجدد إيماني كل يوم، ثم كان يقول: أنا المكدي (الفقير إلى الله وقيل الحمال الذي يعمل بالأجرة)، وابن المكدي، وهكذا كان أبي وجدي.

إن إهداء العيوب له أصل في ديننا الحنيف، فهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من باب التواصي بالحق، ومن باب النصيحة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر: ١-٣)، وقال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي»، وكان يسأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: هل ترى علي علامات النفاق؟! (وكان على معرفة بالمنافقين، فقد سماهم له الرسول ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى)، فكان يتهم نفسه، ولا يشغله إلا عيبه، فقد كان دائم السؤال عن عيوبه. فهذا النموذج قل أن تجده، فلا يبحث الناس في غالب حالهم إلا على المزايا والمدح والثناء، وقليل من يصدقك القول في عيبك، قيل لبعض العلماء، وقد اعتزل الناس وكان منطويا عنهم: لم امتنعت عن المخالطة؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟.

ثوب الهدية: هذه الهدية من نوع خاص، لذلك ينبغي أن يكون لها ثوب خاص، فأنت تهدى عيبا ونقيصة، فلا تزد صاحب العيب جرحا على جرحه، وهما على همه، بل على مهدي العيب أن ينصح ويستر، ولا يفضح، فيلمح إذا كان التلميح يكفي، ويصرح في انفراد إذا كان التصريح لازما، المهم أن لا يكتم النصح فيكون من باب الخيانة لصاحبه، والنبي ﷺ كثيرا ما كان يهدي العيب في صورة النصح العام بقوله: «ما بال أقوام يقولون كذا، ما بال أقوام يفعلون كذا..».

قال أحد السلف: «إذا رأيت في أخيك عيبا، فإن كتمته فقد خنته، وإن قلته لغيره فقد اغتبته، وإن واجهته فقد أوحشته، ولكن كن، وعرض، واجعله من جملة الحديث».



ولكن لا تحبون الناصحين



د. خالد سعد النجار
كاتب مصري

ظاهرة التناصح والمراجعة؛ بل والنقد من الظواهر السليمة والصحية في المجتمعات الفاضلة، ومنارة باسقة تدل على فلاح الأمم ونجاحها، وعامل أساسي للتطور والتقدم وتجاوز السلبيات والإخفاقات. وهي ظاهرة وأمر ندبت إليه الشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر:١٨). وهذه إشارة ربانية إلى المراجعة الشخصية ونقد الذات، قبل المثول أمام الله يوم القيامة.

هاهي نظرية عمر الفاروق رضي الله عنه تصدح في كل زمان عبر التاريخ: «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي»، وهو هنا يتكلم على مستوى الدولة، أما على مستوى الأفراد فيقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل».

فالنقد والمراجعة والتناصح ظاهرة إسلامية أصيلة، قبل أن تكون ظاهرة مستوردة، وخلق إسلامي عاشه صالحو هذه الأمة من القادة والعلماء والمفكرين، قبل أن يكون ممارسة لدى دول الغرب الديموقراطي، فلا خلاف ولا إشكال إذن في مشروعية وأهمية المصارحة والمراجعة وتصحيح المسار، بل سر أزمات المجتمعات في تجاهل هذه الظاهرة وتمييع مواقفها تجاه السلبيات، ومحاولة خلق الأعذار، دون حسم الإخفاقات باقتدار.

وتواصوا بالحق

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ (سورة العصر).. هذه الآيات فيها وعيد شديد، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان آتيا بهذه السلوكات الأربعة، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها: الدعوة إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعوة إلى الله، والثاني الثبات عليها، والأول الأمر بالمعروف، والثاني النهي عن المنكر، ومنه قوله: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (لقمان:١٧) (تفسير الرازي: ٢٠١/١٧ بتصرف).

ومما يدل أيضا على عظم مقام النصح في الدين ولزومه وتأكده وضرورة إشاعته بين أبناء المجتمع المسلم، أنه ﷺ كان يشرطه على من يبايعه على الإسلام، كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري عن زياد بن علاقة أنه قال: سمعت جرير بن عبدالله رضي الله عنه يقول يوم مات المغيرة بن شعبة: إني أتيت النبي ﷺ فقلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علي: «والنصح (أي: وعلى النصح) لكل مسلم»، فبايعته على هذا.

وقد أخبر رسول الهدى ﷺ عن عظم مقام النصح في دين الله تعالى، وعن شرف منزلته في حديث عظيم، هو من جوامع كلمه، فقال ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» (خرجه مسلم)

لا تحبون الناصحين

يقول ابن قدامة عن صفتي «المصارحة والمناصحة»: «وقد عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب. وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب، أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا، وهذا دليل على ضعف الإيمان» (منهاج القاصدين).

ويبدو أن عدم حب الناصحين سمة على مستوى البشر والمؤسسات والكيانات والأمم، لكن تفاقم هذا الكره للنصح أصابنا بأزمات مزمنة، وصرنا نعيش بين أزمتين رئيسيتين، بين مريض لا يدري أنه مريض، وبالتالي لا يريد أن يسمع لنصح الطبيب، وبين معافى لا يرغب في انتشال المريض من مرضه.

الأول: لا يعلم ويتصرف كالأصحاء؛ والمرض يسري في بدنه ويحمله للهلكة، والثاني: يعلم لكنه يتكاسل أن يعمل بما يمليه عليه علمه.

الأول: لا يعبأ بالثاني، والثاني: يترقب الأول! ولا أحد يريد أن يغير قواعد تلك المنظومة المشؤومة، ولا أن يشق مسارا آخر في الإصلاح! أو يكسر هذا الجمود الضارب في أعماق الأزمات.. في جدلية أشبه ما تكون بالهزلية التي لا تنتهي.. ويبقى السؤال: أي فارس يجسر بصهوة جواده هذه الهوة؟! أم سننتظر حتى يدفع الأول والثاني الثمن غاليا، وبعد فوات الأوان ربما يقتنع الأول أنه في محنة حقيقية، وينتفض الثاني لينتشل الأول! ولكن هيهات النجاة.. تلك أزمة أمتنا الكبرى!

البصيرة العمياء

من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير، ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم، ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف:٧٩).

فأشر ما في النفس الإعراض عن الحق وكره أهله، والإعجاب بخاصة رأيه.. قال الشوكاني: «والمتعصب وإن كان بصره صحيحا، فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق، غفلة منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجا، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى
ومنهج الحق له واضح

إن المتعصب إنسان غارق في أوهامه وقناعاته التي يغلبها على عقله، أو بالأحرى يطوع تفكيره العقلي لينسجم مع هذه الأوهام، فيسوغها ويبررها في إطار عقلي منطقي، وهو يأنف من المناصحة، ويعرض عن المناظرة، لأنه يرى أوهامه الحق المبين الذي لا يعوزه الدليل.

أما الجدال بالباطل فهو السمة الغالبة للمتعصبين، وهو نقاش يقوم على أسس غير موضوعية ولا عقلانية.. جدال يغلفه الجمود، ويشوبه التشبث بعتيق الآراء وتقاليد الآباء، دون بارقة أمل في الانفتاح على تنوع الآراء، واستيعاب ما جد من النظريات والدراسات.

وفي الجملة تشير الدراسات الحديثة إلى أن العقلية المتعصبة تنشأ نتيجة الانحراف عن عدة معايير، منها «العقلانية»، حيث تتسم بإطلاق الأحكام المتعجلة غير المبنية على معلومات موثقة، أو تأخذ شكل الشائعة، أو الحكم المسبق، أو تأخذ شكل القوالب النمطية الجاهزة، كالتقاليد الموروثة التي كثيرا ما تكبل تعاملنا مع واقعنا المعاصر، كما يتضمن الانحراف عن معيار العقلانية التعميم المفرط، ويعني تعميم فكرة معينة على فئة من الناس، ورفض تعديل الرأي في ظل ظهور دلائل جديدة. ويتضمن كذلك تغليب عاطفة الكره تجاه الآخر، حيث يعتمل البغض في نفس صاحبه حتى يرى في الأشياء أضدادها، وفي الرجال عيوبها، وفي العيون أقذاءها.

ومن المعايير التي يصيبها الانحراف معيار «العدالة» الذي يقوم على وجوب المساواة في المعاملة بين الأشخاص، في مجالات الاهتمامات العامة، وفي الحقوق، بحيث تخلو المعاملات من التمييز المبني على اللون أو الجنس أو القبيلة.

فضلا عن انحراف معيار «العاطفة» أو المشاعر الإنسانية الراقية، الذي يجعلنا أكثر إحساسا بالآخرين، ويمكننا من مشاركتهم والتعاطف معهم.

نفسية خاصة

الناس تتفاوت أنصبتهم من التعصب بحسب شخصيتهم ونفسيتهم، فالتعصب أبعد ما يكون عن الإنسان السمح الهين اللين العقلاني الحيادي، وأقرب ما يكون من أصحاب الشخصيات المتصلبة على كافة أنواعها ومواصفاتها، ومنها: «الشخصية التسلطية» التي تدمن الهيمنة والرغبة في الخضوع المطلق لها، وتعشق الطبقية والنظر إلى الناس بدونية. «الشخصية العدوانية» التي تفتقر لسعة الصدر واحتواء الآخرين، مع فقر معرفي واندفاع في الحكم على الناس. «الشخصية الفوضوية» التي لا تجيد ترتيب أوراقها ولا أفكارها، فضلا عن سلوكاتها.

بعد تزايد إزالة أعضاء بشرية سليمة..

الاستئصال الاحترازي بين الشرع والطب

القاهرة : ريهام عاطف و آية إيهاب
دار الإعلام العربية

مع تزايد الأمراض الوراثية، لاسيما السرطانية منها، لجأ بعض المشاهير الأجانب إلى استئصال أجزاء سليمة من أجسادهم تحت ذريعة الوقاية من انتشار المرض لاحقا وعدم القدرة على السيطرة عليه.. وهو الأمر الذي وجد صدى لدى البعض دون مسوغ ديني أو طبي معتبر.. لذا التقت «الوعي الإسلامي» عددا من العلماء والمختصين، ليحددوا موقف الإسلام من هذه القضية، فإلى التفاصيل:

«النفع والضر بيد الله أولا وأخيرا، ولا ينبغي أن تدفع الهواجس الوراثية إلى استئصال أجزاء سليمة من الجسد»..
بهذه العبارة بدأ د. محمد أبو ليلة أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر، مؤكدا أنه يمكن اللجوء إلى الاستئصال في حال الاكتشاف المبكر للمرض، ومع وجود تأكيدات قوية من الأطباء بأن لدى المريض قابلية للإصابة بالمرض، وبذلك يكون في إزالته إنقاذ الكل وتضحية بالبعض، فلا ضير في هذه الحالة.

تقييد

وأضاف د. أبوليلة: إن الأمر ينتقل من الإباحة إلى التحريم إذا كان يتم إزالة أعضاء من الجسد احترازيا لمجرد الخوف من المستقبل، أو التوقع بأن ما أصاب الأم أو الأب يمكن أن يصيبه، ففي هذا الإجراء تقييد لرحمة الله تعالى.. بل يجب الصبر والاحتساب والاستعانة بالله وحسن الظن، فربما يؤدي بتر العضو إلى توابع سلبية على النفس البشرية، بحيث لا يكون المريض شخصا متوازنا كما كان، فيتحول البتر من محاولة لمنع المرض، إلى سلسلة من الآثار السلبية التي تتطور إلى ما هو أشد.. وعلى المسلم أن يكون حسن الظن بالله، فالنفس المطمئنة خير طارد للأمراض، وربما يكون الله قد من على الإنسان بمناعة طبيعية لا تضطره إلى إزالة أعضاء من جسده.

وختم قائلا: إذا أثبت الطب أن هناك خلايا سرطانية في طريقها إلى النمو فليس هناك حرمة في استئصال هذا الجزء، أما إذا كان الجسد سليما وتم استئصال العضو احترازيا، فهذا يدخل في إطار الحرمة.

الاستشارة أولا

بينما اتفق كل من د. عبلة الكحلاوي العميدة السابقة لكلية الدراسات الإسلامية، ود. آمنة نصير أستاذ الفلسفة والعقيدة الإسلامية بجامعة الأزهر، على ضرورة استشارة أهل الاختصاص من الأطباء الثقات، فإن كانوا يؤكدون ضرورة استئصال هذا العضو، وأن بقاءه يشكل خطورة على الجسد ككل. ويجب أن لا يتم الاستئصال لمجرد الهواجس والمخاوف الوراثية، والتي لا تعطي الحق في اعتداء الإنسان على جسده الذي ائتمنه الله عليه، فربما لا يظهر المرض من الأصل، وربما يشفى المريض، لاسيما أن العلم يتطور يوما بعد يوم، وما يصعب علاجه الآن، قد يكون ميسورا علاجه في الغد.

وأكدتا أن الإسلام أقر بمبدأ «الوقاية خير من العلاج» فقد حرص الإسلام على المحافظة على الصحة، وعدم إهمال النفس، بدليل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنٗا وَظُلْمٗا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ (النساء: ٢٩-٣٠). وأوضحتا أن الإسلام لا يختلف مع العلم طالما يهدف في النهاية إلى صحة الإنسان، ويفضل التريث والتفكير قبل اتخاذ القرار الذي يختاره الأطباء بالاستئصال، ففي الآية الكريمة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ (الإسراء: ٨٥).

إجماع طبي

وترفض د. سعاد صالح، العميدة السابقة لكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر الإقدام على هذا الإجراء دون يقين، مؤكدة أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل أعضاء جسده يكمل بعضها بعضا، لهذا نهى الإنسان عن إلحاق أي أذى بجسده، مشيرة إلى أنه في حالة إجماع الأطباء وهم أهل الذكر الذين أمرنا الله تعالى أن نعود إليهم وقت حاجتنا إلى المشورة،



على إجراء هذه الجراحة، وأن الضرورة تقضي ذلك، فهنا يكون على الشخص استخارة الله تعالى في أمره ليختار له الصواب والأفضل، لافتة إلى أن الفصل في هذه القضية ليس من الأمور اليسيرة، فهي قضية معقدة، ولها أكثر من جانب، لهذا يكون الحكم الصحيح بطرحها على أهل الفقه والشرع من ناحية، والأطباء الأخصائيين في الحالة والذين يبينون حجم المضار التي تسقط على الفرد في حال عدم إجرائه لهذه الجراحة من ناحية أخرى.

بينما أوضح الباحث الإسلامي علي يوسف أن تلك الأمور يجب الارتكان فيها إلى مبدأ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧) مؤكدا أن أهل الذكر هم المعتبرون بالأمر، فإذا حكم الفقيه في أمر لا يعلمه أو بدون علم فهو مذنب، فالأحكام الفقهية ترتكن في النهاية إلى مصلحة المريض، فالله قد سهل علينا، لأن الإسلام دين وسط.

وأضاف أن هذه المسألة يكون الرأي الفصل فيها للثقات من أهل الطب، ومن ثم يأتي رأي الفقه، فإذا أجاز الطب ضرورة استئصال هذا العضو لأن بقاءه يحمل مخاطر على صاحبه، فهنا يصدق الفقيه على قرار الأطباء، أما إذا قرر الطب أن لا خطورة من بقاء هذا العضو، وأن الاستئصال غير ضروري فهنا لا يجوز الاستئصال، ولو من باب الاحتراز.

غير مقبول طبيا وأخلاقيا

وبما أن جميع الآراء السابقة ألقت بالكرة في ملعب الأطباء الثقات، فقد ذهب د. عبدالحميد أباظة استشاري الكبد والجهاز الهضمي ومساعد وزير الصحة السابق، إلى عدم تأييده فكرة استئصال عضو من أعضاء الجسم لمجرد شك الشخص باحتمال إصابته بمرض السرطان، بسبب وجود تاريخ وراثي للمرض في عائلته، مضيفا أنه كطبيب يرفض تماما استئصال عضو سليم من الجسم لمجرد الخوف من الإصابة بالمرض، مؤكدا أن الوراثة ليست العامل الوحيد الذي يتوقف عليه الإصابة بالمرض، لأن المسألة الوراثية أحد العوامل المسببة، ولكن ليس كل العوامل، فليس هناك مرض وراثي ١٠٠٪، مؤكدا أن مسألة إجراء عملية استئصال لأعضاء الجسم دون أن يكون الشخص مريضا مسألة غير مقبولة طبيا وأخلاقيا.

وأضاف: هناك إجراءات وقائية أخرى تمكن الفرد من الوقاية من المرض قبل الإصابة به، مثل إجراء الفحوصات والمتابعة الطبية الدورية كل فترة، بحيث لا تقل المدة عن ستة أشهر، والكافية لاكتشاف المرض باكرا، فللأسف هذا المرض يفتك بصاحبه في المجتمعات العربية بسبب الاكتشاف الطبي المتأخر للحالة، فعامل كبير من الشفاء من هذا المرض يقع في عامل الاكتشاف والتشخيص المبكر له، مضيفا أن هذا المرض قد يصاب به الشخص لأي سبب آخر، دون أن يكون لديه تاريخ وراثي في العائلة، كما أن هناك أشخاصا أجدادهم وآباؤهم مصابون بالمرض، ومع ذلك لم يصبهم، ما يدل على أن الأمر يتوقف على قابلية الجسم لاستقبال هذا المرض.

لا ضير من إجرائه

أما د. محمد شعلان أستاذ جراحة الأورام بالمعهد القومي للأورام، ورئيس المؤسسة المصرية لمكافحة سرطان الثدي، فكان له رأي آخر، حيث أوضح أن إقدام الشخص على هذا الإجراء الوقائي يختلف حسب الشخصية، فهناك بعض المرضى الذين يصابون بالهوس والخوف المرضي من الإصابة، ما يعيقهم عن العمل والتمتع بالحياة، فلا يأكلون أو ينامون خوفا من الإصابة، وهؤلاء يكون الاستئصال هو الإجراء المناسب لهم ولصحتهم النفسية والبدنية، في حال إذا أثبتت التحاليل أن هناك احتمالية الإصابة بهذا المرض.

شهدت أمما سادت وبادت منذ ٣٥٠٠ عام قبل الميلاد

فيلكا

جزيرة كويتية عامرة بالآثار

استطلاع : علاء عبدالفتاح

فيلكا جزيرة الحضارات، هكذا تسميها البعثة الفرنسية الكويتية للآثار التي التقتها «الوعي الإسلامي» على أرض الجزيرة، بمناسبة توقيع اتفاقية دعم شركة توتال الكويت النفطية مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى بباريس.. كان اللقاء البحري أولا على متن زورق، انطلق من منطقة شرق بوسط العاصمة الكويتية إلى الجزيرة التي تبعد عن العاصمة مسافة ٢٠ كم تقريبا.. يبلغ أقصى طول للجزيرة ما يقارب ١٤كم، ويبلغ أقصى عرض لها ما يقارب ٦كم. وأقرب نقطة من اليابسة الكويتية إليها شرقا هي رأس السالمية، وأقرب نقطة إليها من اليابسة الكويتية إلى الشمال الغربي هي رأس الصبية، وتقع جزيرة مسكان إلى شمالها الغربي، وتقع جزيرة عوهة إلى جنوبها الغربي.

وسواحل الجزيرة أكثرها رملية، وإن كان جزء منها صخريا في بعض السواحل الجنوبية الغربية. ويغلب على سطحها الانبساط، وأعلى نقطة ارتفاع في الجزيرة عن مستوى سطح البحر تقع في الجنوب الغربي بمنطقة «تلال شبيجة»، ويصل ارتفاعها إلى ١٠ أمتار تقريبا. وتمتاز الجزيرة بصلاحية شواطئها لرسو السفن، لأنها محمية من العواصف البحرية.

وتشير الدراسات الأولية إلى أن الميناء القديم للجزيرة كان يقع بالقرب من منطقة «رأس الخضر»، التي تقع في الجهة الشمالية من الجزيرة، كما يوجد ميناء آخر في الجزء الجنوبي من الجزيرة، قرب موقع المدينة الدلمونية.

تدبرنا أمر الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (العنكبوت: ٢٠)، ونحن نتجول على أرض الجزيرة الطيبة.. ننتقل من منطقة تنقيب إلى أخرى، وقد ظهر العمال الذين أتوا من جنوب مصر مزودين بخبرتهم في التنقيب، وإزاحة الرمال برفق، طبقة بعد طبقة، لعل قطعة أثرية تشي بما كان عليه أهل هذه الحقبة أو تلك.

وفيلكا هي ثاني أكبر الجزر الكويتية مساحة، بعد جزيرة بوبيان، وأهم المناطق الأثرية في دولة الكويت. تزخر الجزيرة بشواهد أثرية، تمثل حقبة حضارية وتاريخية متسلسلة منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى العصر الحديث. وهي من أول المواقع الأثرية التي أجريت





فيها أعمال المسح والتنقيب الأثري بأسلوب علمي منذ عام ١٩٥٨م، وقد توقفت هذه الأعمال بسبب الغزو العراقي عام ١٩٩٠م، ولم تستأنف مرة أخرى إلا في عام ١٩٩٩م، بسبب ما لحق بها من دمار، وما انتشر فيها من ألغام، مازالت تمثل خطرا على حياة الإنسان.

وقد قالت لنا رئيسة البعثة السيدة جولي بونري: إن البعثة كانت تركز على منطقة القصور في الفترة الأولى، وكانت المسافة عائقا بين المواقع، لكن الآن تتحرك في منطقة حصن تل سعيد أيضا، وأنهم بدأوا التنقيب منذ ثلاث سنوات، وقد ظهرت آثار على بيوت جميلة، سكنها من ينتمي إلى العصور الإغريقية منذ ٣ آلاف عام قبل الميلاد، ثم اليونانية فالرومانية، وقد تبين وجود بقايا كنيستين على هذه البقعة قبل أن ينتشر الإسلام فيها، ويعمرها المسلمون، ويبنون فيها الحصون لأهميتها البحرية الكبرى.

إن السير في الأرض وسيلة تفكر وتدبر في الأحوال وفي الحكمة من تبدل الأمم، فالحياة زائلة، وكما قال الرسول ﷺ «مالي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها».

منازل الأولين

قطعتا سيراميك ربما تعودان إلى القرن السادس الميلادي، عثرت عليهما البعثة وشاهدناهما في مكان الاكتشاف، بينما العمال فرحون بالاكتشاف؛ أيما فرحة، بعد عمل شاق لشهور مضت، وعلى طاولة قريبة أظهرت رئيسة البعثة لنا مجموعة من الأواني الفخارية التي تم العثور عليها في منطقة القصور، وتعود للعصر الروماني.

فيلم وثائقي

من جانبه قال المهندس علي اليوحة أمين عام المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت: هناك أكثر من مجموعة أثرية تعمل بالمنطقة: واحدة دانمركية والثانية فرنسية. وتجري الترتيبات حاليا بالتعاون مع اليونيسكو لوضع آثار فيلكا على قائمة التراث العالمي.. وأضاف: لنا صلة وثيقة بالبعثة الفرنسية منذ أكثر من ٣٥ سنة، بدأت مع معهد ليون، وسيتم تصوير أول فيلم عن جزيرة فيلكا عن طريق فريق سينمائي فرنسي، وصل أخيرا الكويت، منوها بأن الطرف الفرنسي «توتال» مهم جدا في دعم الدراسات والأبحاث التي تقوم بها البعثة الفرنسية لاستكمال مهمتها.

آثار الغزو

كانت آثار الغزو العراقي عام ١٩٩٠م واضحة، ونحن نعبر بالباص شوارع الجزيرة إلى القرية التراثية، حيث أماكن الترفيه من مطعم ومقهى وديوانية. وطرح السؤال نفسه: لماذا لا يتم ترميم كل هذه المباني لتأخذ الجزيرة حقها الحضاري؟

استراحة الشيخ جابر

عرجنا على استراحة الشيخ أحمد الجابر، وعرفنا من المهندسة مها القاعود - التي كتبت عن تاريخ الكويت بإشراف ورعاية المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - أن هذه الاستراحة تتكون من مبنى على شكل متوازي مستطيلات، في كل جهة من واجهات المبنى يوجد باب رئيسي ذو ضلفتين، ويظهر المسقط الأفقي للمبنى ممران متقاطعان يربطان كل الأبواب الخارجية، وبهذا تتكون أربعة أركان تشغلها حجرات القصر. ولا يدخل بهذا التكوين المنسق السلم المؤدي إلى السطح، وكانت الاستراحة مستغلة كمتحف للتراث الشعبي.

ملاءمة المكان

درجة الحرارة هنا بالصيف تتجاوز الخمسين درجة مئوية، وربما لهذا فكر المهندس المعماري الذي بنى الاستراحة في تصميم فريد. حيث تقول القاعود: رغم عدم شيوع مثل هذا التصميم في بيوت الخليج، فإنه ملائم لجو الصيف الحار، إذ يخلق تهوية متقاطعة من أول المبنى إلى آخره من خلال الأبواب التي تفتح في الأطراف المتقابلة للممرات، ويمكن أيضا الحصول على تهوية داخل الحجرات من خلال نافذتين لكل غرفة، وقد شيد المبنى من المواد المتوافرة في ذلك الوقت، وهي الصخر البحري والطين والخشب.

العلاج الكيميائي للمرض الخبيث

د . عبد الرحمن النمر
طبيب وكاتب علمي من مصر



ليس غريبا أن يكون للطب صولة وجولة مع السرطان، بين حين وآخر. فما يزال السرطان أحد المغاليق التي يستعصي على الطب فهم أسرارها! وعلى الرغم من اشتغال مئات مراكز الأبحاث في أرجاء المعمورة بالبحث عن سبب السرطان، فلا تزيد النتائج عن سلسلة من الإحباط، وكأن الإنسان يبحث عن إبرة في قاع المحيط!

على أن الغموض الذي يلف نشوء السرطان في جسم الإنسان، لا يحول دون علاجه. وإن كان العلاج غير كامل بالمرة، إلا أن المحاولات العديدة التي تبذل للوصول إلى علاج ناجح، قد تضع يد الإنسان على الدواء الأمثل الذي يقضي على المرض في مهده.

وقد تقدمت وسائل الفحص المبكر عن السرطان إلى حد كبير. وأدى ذلك إلى حصر المرض في موضعه، والحيلولة بينه وبين الانتشار إلى أجزاء وأعضاء أخرى في جسم المريض. لكن العلاج ظل محصورا تقريبا في الطرق التقليدية، المتراوحة بين استئصال الورم الخبيث جراحيا، أو محاولة تدميره بالأشعة. وعلى الرغم من أن العلاج بالعقاقير كان معروفا منذ بعض الوقت، إلا أن الاعتماد عليه لم يكن كبيرا. ذلك أن الطبيعة الكيميائية للسرطان، وطريقة تفاعل العقاقير معه، لم تكن واضحة تماما.

ونتيجة للأبحاث المتعددة التي أجريت في الآونة الأخيرة، أمكن فهم طبيعة العقاقير المضادة للسرطان، وكيفية عملها في الجسم. وهذا يضيف إلى وسائل العلاج التقليدية- وهي الجراحة أو الأشعة- وسيلة جديدة. وعلى الرغم من أن الوسيلة الجديدة، وهي العلاج بالعقاقير، أو ما صار يعرف باسم «العلاج الكيميائي»، لا تعني نهاية صراع الإنسان مع السرطان، إلا أنها خطوة مثمرة على الطريق.

وتستمد طريقة العلاج الكيميائي أهميتها من تقديم العون لبعض ضحايا السرطان، الذين كان يتعذّر علاجهم بالجراحة أو بالأشعة، مثل المصابين بسرطان الدم، أو المرضى الذين انتشر السرطان في أجسامهم إلى درجة تجعل من المستحيل استئصاله جراحيا، أو علاجه بالإشعاع.

وغني عن الذكر أن مثل هؤلاء المرضى كانوا يتركون للمرض الخبيث يفتك بأجسامهم حتى الموت. وأقصى ما كان في وسع الطب تقديمه لهؤلاء الضحايا هو مسكنات الألم، حتى يأتي داعي الموت، فيسدل الستار على أكثر المشاهد إثارة للألم في حقل الممارسة الطبية! وعلى ذلك، فإن العلاج بالعقاقير يعتبر بحق انتصارا حقيقيا على عدو طال عناده، وكثر ضحاياه.

إنجاز كبير:

لأول مرة يستطيع الأطباء استخدام كلمة « شفاء» في حقل السرطان، منذ استخدام طريقة العلاج بالعقاقير. وكلمة « شفاء» هنا نسبية، إذ تستخدم بمعنى اختفاء كل علامات المرض الخبيث مدة خمس سنوات، من وقت انتهاء العلاج. وقد تبدو فترة خمس سنوات قليلة، لكنها لمريض السرطان إنجاز كبير. ذلك أن معدلات الشفاء بطرق العلاج التقليدية، تقل عن ذلك بكثير. فوفقا لنوع السرطان، والموضع المصاب من الجسم، كان معدل الشفاء يتراوح بين شهرين إلى عامين! وفي أحيان نادرة، كان يزيد معدل الشفاء عن ذلك قليلا، إذا تم اكتشاف المرض واستئصاله في وقت مبكر.

وليس هذا هو الإنجاز الوحيد لطريقة العلاج بالعقاقير، بل هناك الإنجاز الأكبر بعلاج أنواع من السرطان لم يكن ممكنا علاجها من قبل. فسرطان الدم Leukemia، الذي يصيب طرفي العمر- دون سبب معروف - كان يستحيل عمليا علاجه بالجراحة. وفي الوقت نفسه لم يكن في الإمكان إخضاع المريض للإشعاع. إذ يلزم في حالة كهذه - نظريا - تعريض الجسم كله للإشعاع بدرجة كبيرة، تمكن الأشعة من الوصول إلى عمق الجسم، حيث تسبح خلايا السرطان في الدم. وعلى ذلك، كان التسليم بالهزيمة أمام هذا النوع من السرطان، هو الخيار القهري المتروك للطبيب وللمريض على حد سواء. وكان سرطان الدم يأتي على ضحيته في أقل من عام واحد.

لكن اليوم، يمكن علاج سرطان الدم بالعقاقير. وتقدر نسبة نجاح طريقة العلاج بالعقاقير بحوالي (٥٥ ٪) للأطفال، و(٤٠ ٪) للمسنين. وإذا قورنت هذه النسب الجديدة، بنسبة صفر في المائة، في الماضي، فلا شك أن أسلوب العلاج بالعقاقير إنجاز كبير بكل المقاييس.

أما سرطان الخصية، وهو أكثر أنواع السرطان شيوعا بين الرجال في أوسط العمر، فكان يقضي على حياة نصف ضحاياه في شهور قليلة! أما النصف الآخر فكان يعيش فترة أطول - حافلة بالألم - ليلقى في النهاية نفس المصير. ومع العلاج بالعقاقير، يلوح الأمل في الخروج من ورطة الإحباط وإعلان الهزيمة، إلى قهر المرض





الخبيث ووقف آثاره المدمرة.

ومثل هذا الكلام ينطبق على سرطان الجلد Melanoma، وهو من أسوأ أنواع السرطان وأشدها استعصاء على العلاج! ومع العلاج بالعقاقير، تصل نسبة الشفاء إلى (٧٥٪). وحتى سرطان الرئة، الذي كان يعالج بالجراحة أو بالإشعاع، أو بالاثنين معا، يمكن علاجه بالعقاقير، دون حاجة إلى استئصال الرئة المصابة، أو تعريض المريض للإشعاع لشهور طويلة.

بل الحقيقة أن أي نوع من السرطان، في أي موضع من الجسم، يمكن علاجه بالعقاقير. وقد يستمر استخدام إحدى الوسيلتين التقليديتين - الجراحة أو الأشعة - في العلاج، ولكن إضافة العقاقير إلى حلبة الصراع مع الداء الخبيث، تزيد من احتمالات الشفاء، وتطرح الأمل في إمكانية القضاء على السرطان.

اكتشاف بالتدبير الإلهي:

بدأ عصر العقاقير المضادة للسرطان منذ وقت غير قريب. ففي الأربعينات من القرن العشرين، اكتشف د. تشارلز هاجنز، من جامعة شيكاغو، أن الهورمون الأنثوي «استروجين» يؤدي إلى إبطاء نمو سرطان البروستاتا عند الرجال. وكانت هذه أول مرة يتم فيها الكشف عن تأثير كيميائي لإحدى المواد على السرطان! وقد حظي الطبيب المذكور بجائزة نوبل في الطب، نظير اكتشافه الذي فتح الباب أمام ميدان جديد من ميادين أبحاث علاج السرطان.

والغريب أن الحرب العالمية الثانية، أضافت جديدا إلى أبحاث السرطان! فبينما عكف فريق طبي من جامعة «ييل» الأميريكية، على دراسة نتائج الأسلحة الكيميائية التي استخدمت في أثناء الحرب، اتضح أن المادة المكونة من مزيج من النيتروجين ونبات الخردل، والمعروفة باسم Nitrogen Mustard، كانت تحدث أضرارها من خلال مهاجمة النسيج الليمفاوي في جسم الإنسان. والنسيج الليمفاوي هو الذي يكوِّن العقد الليمفاوية، وتلك بدورها تكوِّن الأجسام المضادة، أحد الوسائل الطبيعية للدفاع عن جسم الإنسان، ضد غزو البكتيريا والميكروبات المسببة للمرض. وقد لوحظ أن العقد الليمفاوية ضمرت،

عند المحاربين الذين تعرضوا لاستنشاق غاز الخردل – وهو غاز سام – المنبعث من عجينة الخردل والنيتروجين.
وعند إجراء تجارب على حيوانات مصابة بسرطان الغدد (أو العقد) الليمفاوية. باستخدام عجينة الخردل، اتضح أن الورم السرطاني يضمر وينكمش تحت التأثير السام لنبات الخردل. وعند هذا الحد، جرب الأسلوب نفسه على المرضى من بني الإنسان، فأدى إلى النتيجة نفسها. ومنذ ذلك الوقت، اعتبر مزيج النيتروجين ونبات الخردل العلاج الأمثل لسرطان الغدد الليمفاوية!
وتتابعت الخطوات على طريق نشوء العقاقير المضادة للسرطان، فلاحظ الطبيب سيدني فاربر، في مستشفى بوسطن للأطفال، أن واحدًا من عائلة فيتامين «ب» المركب، مسؤول عن حث نمو خلايا سرطان الدم عند الأطفال! والعضو المتهم من عائلة الفيتامين المذكور، هو حامض الفوليك Folic Acid. وقد جرب د . سيدني إعطاء الأطفال المرضى عقارا مضادا لحامض الفوليك، فلاحظ أن الدواء (واسمه Aminopterin) أدى إلى انحسار المرض عند عشرة أطفال، من بين ستة عشر طفلا أجريت التجربة عليهم! وكانت هذه أول مرة يتم فيها مواجهة سرطان الدم بطريقة إيجابية.
وقد أدى نجاح المحاولات الأولى لاستخدام العقاقير في علاج السرطان، إلى تبني فكرة تطوير هذا النوع من العلاج وتوسيع آفاقه، بحيث يكون بديلا أو معضدا للوسيلتين التقليديتين في العلاج.
وفي الخمسينيات من القرن العشرين، تبنى «المعهد القومي لأبحاث السرطان» في أميريكا، هذا المشروع، في واحد من أضخم برامج أبحاث السرطان. وكان المعهد المذكور على اتصال دائم بسائر مراكز البحث الطبي في العالم، لجمع المعلومات وتقييم النتائج.
وبعد قرابة ثلاثين عاما من التعاون البشري المثمر، ولدت الأبحاث العلمية ما يزيد على ثلاثين عقارا، يطلق عليها مجتمعة اسم «الأدوية المضادة للسرطان» – Anti Cancer Drugs . أما طريقة العلاج باستخدام هذه العقاقير، فتعرف باسم «التداوي بالكيميائيات» Chemotherapy، (أو ما يشيع تحت اسم «العلاج الكيماوي») .

سلاح ذو حدين :

القاسم المشترك بين جميع الأدوية المضادة للسرطان هو كونها سامة. وعلى الرغم من اختلاف أسلوب عمل كل دواء في الجسم، فهو في النهاية يقتل خلايا السرطان. إلا أن هذه الأدوية يجب أن تعطى في وقت مبكر، بمجرد اكتشاف السرطان، لوقف عملية انقسام الخلايا السرطانية عند حده. وقد لوحظ أن خلايا نوع ما من السرطان لا تكون كلها حساسة لدواء واحد! وعلى ذلك، فالطريقة المتبعة في العلاج الآن، هي إعطاء أكثر من عقار واحد للمريض، بحيث يمكن التغلب على مقاومة بعض الخلايا لعقار بعينه.
لكن على الرغم من الفوائد الجمة التي تقدمها طريقة علاج السرطان بالعقاقير، فإنها لا تخلو من مثالب وعيوب. وأبسط عيوب العلاج الكيميائي أنه يجب أن يستخدم لفترة طويلة، قد تصل إلى عدة شهور، لضمان القضاء التام على كل الخلايا السرطانية.
أما أخطر ما في طريقة العلاج الكيميائي من عيوب، فهو المضاعفات أو الآثار الجانبية الخطيرة، المترتبة على تعاطي العقاقير – وهي سامة. فتلك العقاقير إذ تقتل الخلايا، فإنها لا تميز بين خلايا الجسم الصحيحة وبين الخلايا السرطانية، أي أنها تمارس في جسم المريض عملية قتل جماعية، تقضي من خلالها على خلايا السرطان، وكذلك على آلاف الخلايا الصحيحة .
من الناحية العلمية، فإن تلك المضاعفات الناشئة عن استخدام عقاقير السرطان، يمكن علاجها بعد القضاء على السرطان. ويعضد ذلك أن خلايا الجسم الصحيحة، تستطيع بناء ما هدمته العقاقير، من خلال قدرتها على الانقسام. كل ما في الأمر أن العلاج سيطول بعض الوقت، بحيث يتم القضاء على السرطان أولا، ثم تجرى عملية تصحيح الأوضاع في الجسم بعد ذلك.
في الوقت الحالي، يعكف الباحثون على تطوير الأدوية المضادة للسرطان، ومحاولة تصنيع عقار أكثر فعالية ضد السرطان، وأقل ضررا لسائر خلايا الجسم. ولا تخلو محاولات الباحثين من مشقة وعناء. فمن بين كل خمسة آلاف مركب كيميائي تجرى عليها التجارب، هناك مركب واحد فحسب يصلح في الحرب المعلنة على السرطان. وتبلغ تكلفة الوصول إلى المركب الكيميائي النافع حوالي مليون دولار!
هناك أمل أن يتمكن الباحثون من إنتاج عقار يهاجم خلايا السرطان فحسب، دون أن يؤذي باقي خلايا الجسم. على أي حال، فإن محاولات الإنسان الجادة والمثابرة للقضاء على الخصم اللدود، كفيلة بأن تضع يده يوما ما على العلاج الناجع. وما العقاقير المضادة للسرطان سوى خطوة على الطريق نحو الغاية المرجوة.

إعداد: هدايت الله نثار

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

الضعف في القيادة

للأستاذ عبد اللطيف الصالح

لما كان العبء الأكبر في نهوض الأمم يقع على عاتق الشباب ، فلا غرو إذا رأينا اتجاهاتهم في كثير من الأمم واضحة بينة ، يلزمون بها لأنها دستور لهم في الحياة الإجتماعية ، يتقيدون بموادها ونصوصها خلال نشأتهم البيتية والمدرسية ، وأثناء حياتهم العملية ، وشباب الأمم العربية في هذا العصر أحوج من غيرهم ، وأولى إلى بيان تلك الخطوط وذلك الخلق والتربية ، حتى ينهضوا بحملهم في هذه الحياة فواجب القادة والمربين أن يشيروا إلى الطريق التي يجب أن يسلكها الشباب العربي لتكون بمثابة دستور لهم في هذا العصر العضوض .

على القادة والمربين أن يفهموا الشباب أن الحياة عراك . وأن الواحد منهم جندي في ميدانها ، له غايات وأهداف ، وعليه واجبات وتبعات ، فلا يجوز له أن يتخلى عن جنديته فيفرّ من معمعان المعركة إلى ميدان اللهو والقصف لقضاء الوقت وقتله بمتعة طارئة أو لذة مختلسة ، وإنما يجب أن يضع نصب عينيه ذلك المرمى ، وألاّ يسمع في مجتمعاته وبيته ومدرسته سوى ما يمثل دستور حياته ، وما دستور حياة الشباب . سوى قول القائل :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً
إن الحياة عقيدة وجهاد

ونحن بحاجة قصوى إلى هذا الخلق ، خلق التضحية والجهاد والعقيدة السليمة في معترك الحياة ، وما أجدب تاريخ العرب وأقفرت أيام شبابهم واسودت صحائفهم إلاّ منذ أن تخلوا عن هذا المبدأ وذكره في دستور حياتهم ولم يؤخذوا به في تربيتهم المدرسية والإجتماعية

على القادة أن يفهموا الشباب أن من أنظمته وقوانينه أن يخطو إلى الأمام ، وأنه ليس في عرف الشباب ومعجم لغته أن يرجع إلى الوراء ، ليكن من مواد دستورهم التهيؤ والإستعداد للمستقبل والسعي المتواصل ليحققوا ما اصطلح عليه السابقون في عرف الشباب وأخلاقهم وعاداتهم ممثّلا في :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وما ضر مجتمعنا العربي والإسلامي وألحق بنا من المهانة والخزي ما لا تزال آثاره عالقة بنا ، وظلاله تلاحقنا في كل مكان ، إلاّ أن خطوط الحياة للشباب والإتجاهات عندهم لم تكن بيّنة . ولأن دستورهم في الحياة العلمية والعملية كان يقوم على الخمول والرضا بواقع الأمر ، وهذا الخلق يتنافى مع طبيعة الشباب الصالح للحياة ، لأنه ليس في دستور الشباب الوقوف عند حد في مجد النفس ومجد الأمة ، وإنما اعتاد الشباب في كل أمة وكل عصر أن يكونوا جمرة متقدة من طبيعتها الأحراق . وأن يكونوا ريحا عاتية من صفاتها الإقتلاع والتدمير ، لتستخلص الآمال من بين الأحداث . وتدفع الأيام التي تقف أمامهم وتحول بينهم وبين غايتهم في دائرة المجد وسمو الأخلاق ،

— ٤٢ —

«البعثة» الكويتية..

هي أول مجلة كويتية تنتمي إلى العصر الحديث، وقد كان لإرسال أول بعثة طلابية من الكويت للدراسة في جمهورية مصر العربية عام ١٩٣٩م، واطلاعهم على ثقافات متنوعة؛ الأثر الكبير في فتح أبواب ثقافية جديدة، فاستطاع المبتعثون تشكيل فريق واحد بطموح سبق أعمارهم، فأنتجوا «مجلة البعثة» التي كانت بداية العودة، وصدر العدد الأول منها في ديسمبر عام ١٩٤٦م، وظهر العدد الأول منها وعلى غلافه عبارة «البعثة: نشرة ثقافية تصدر عن بيت الكويت بمصر»، وترأس تحريرها المرحوم عبدالعزيز حسين.

ولم تقتصر المجلة على العمل الطلابي فقط، بل كانت توزع بشكل كبير على جميع فئات المجتمع، اعتنت بالتصوير، والرسم والكاريكاتير، كما اهتمت بالمنزل الكويتي، بالإضافة إلى إخراجها ملاحق خاصة، واهتمت بالخبر المحلي الذي غيّرت في صياغته حتى تستقطب القارئ العادي لقراءته، وقد فتحت الحوار الفكري على مصراعيه، وكان للجانب الرياضي دور كبير فيها، وقد أفردت له بابا مستمرا.

البعثة

نشرة ثقافية شهرية تصدرها ادارة بعثات الكويت بمصر

ادارة بعثات الكويت بمصر

٧ شارع قاسم بالرقة ت ٩٤٠٧١

مدير التحرير العام : عبد الله زكريا الأنصارى

العدد الأول

يناير ١٩٥٤

السنة الثامنة

اعتاد الشباب إذا ما أخفقوا فى غاية ، عقدوا العزم إلى غاية أخرى ، وإذا ما وصلوا إلى هدف سموا إلى هدف ثان وهكذا دواليك . تكون صفحة حياتهم جهاداً متواصلا وبذلك يكون حقيقة من مواد دستورهم فى الحياة قول القائل :

إذا غامرت فى شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير
كطعم الموت فى أمر عظيم

ونحن فى عصر بدأت فيه الأمم العربية الإسلامية تنتفض انفاضات يتردد صداها فى جنبات الأرض وأقطارها ، فحتى يزداد ذلك الصدى وذلك النور فى سماء البلاد العربية ، وحتى يكون البناء الجديد محكما ، فعلى القادة والمربين أن يلزموا الشباب بدستورهم الخاص فى حياتهم القلقة وأن يفهموهم معانى هذا الدستور وروحه ، لكيلا يكونوا مجرد أبواق لما تهب به ريح الغرب من مبادئ وأنظمة .

إننا لا نريد من شبابنا أن تكون مهمتهم فى الحياة ترديد تلك الأصوات والصدى الذى نسمعه من الأمم الأجنبية عن تاريخنا ومنزلتنا فى العالم ، لأن لنا عقيدة وتشريعاً دونهما أنظمة العالم وتشريعاته فى تنظيم الحياة وإقامة رواق من السعادة على مجتمع بشرى فيه الخير والصلاح .

لنا تاريخ فيه من البطولة والعدالة والمواقف الخالدة ما لم يحو مثله تاريخ أمة فى أزهى عصورها فى زمن العلم والحضارة والقرن العشرين ، والمؤتمرات والمحالفات واختراع الذرة ، والشباب إنما يرجى خيره وينتظر نفعه ويحقق أنه ربيع الأمة المخصب إذا أقام له من عمله جسراً يصله بالماضى ويعبر عنه إلى المستقبل . وكل بناء فى مجد الأمة لا يقوى على البناء إذا لم يتصل بالماضى ويمهد للمستقبل ، وتبعة هذا إنما هى على القادة والمربين فى الأمم العربية والإسلامية .

إذا جعل القادة حياة الشباب فى البلاد العربية قائمة على تلك النصوص ، وتعليمهم ينحو إلى هذا الاتجاه ، وأخلاقهم مستمدة من واقع الحياة فسوف يكون للأمة دوى يُرعب القلوب ويصمّ الآذان ، وبه ينصرون كما انتصر الآباء من قبل وإليهم يلتفت الدهر كما التفت إلى الأجداد ، وعندئذ تندفع جموع الشباب إلى معترك الحياة كالسيل العرم يجرف ما يعترض سبيله وحين ذاك ترى كل فرد فى العالم يردد قول القائل من أعماق التاريخ :

الله أكبر تلك أمة يعرب
نفرت من الأغوار والأنجاد

وعندئذ يثبت قادة العرب مرة أخرى للأمم أنه ليس هناك ضعف فى القيادة العربية ، وإن الأمة التى قادت العالم نحو موكب النور والتحرير والحرية جديرة مرة ثانية أن تقوده نحو المثل العليا « التى يبحث عنها فى زوايا التاريخ » من عدالة ومساواة واستقامة فى الأمور .

فهل يحقق قادة العرب ذلك للشباب العربى حتى نقول بأعلى صوت « لاضعف فى القيادة » ؟

الكويت — عبد اللطيف الصالح

- ٤٣ -

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

لما كان الفقه في الدين من أفضل الأعمال، وأعظمها، وأشرفها، وأزكاها، بل هو تاج الدين الأعظم، وجوهره الأسنى؛ كان بذل الجهد في تعلمه وتعليمه أمرا حتما، وفرضا أسمى؛ فبه يعرف الله بأسمائه وصفاته؛ وتعرف مخلوقاته وآياته، فيعمل المؤمن بموجب ذلك، ويدعو إليه.

ولذلك كان أعظم الفهم أن تفهم مراد الله منك، ومرادك منه، ثم تسير إليه مستنا بأنبيائه ورسله.

ولأجل ذلك، فإن هذه الصفحة سوف تكون - بإذن الله - ساحة علمية، وروضة فقهية بهية، نتناول من خلالها بعض النوازل المهمة، عرضا ودراسة، وفق منهج محدد، نقرب فيه ما بعد، ونهذب فيه ما عسر، تقريبا للفائدة، وروما للخير والعمل بما أفتى به فقهاؤنا الأعلام، وعلماؤنا النبلاء.

وفيما يلي دراسة تأصيلية لفقه النوازل؛ نجعلها مقدمة للأعداد اللاحقة حول الموضوع المذكور آنفا؛ مشتملة على العناوين التالية:

أولا - معنى فقه النوازل

- النازلة في اللغة: بمعنى نزل وحل، ثم استعملت في الشدة.

وفي الاصطلاح؛ هي: «كل ما استدعى حكما شرعيا من الوقائع المستجدة».

- تعريف «فقه النوازل» لقبا:

هو: «معرفة الأحكام الشرعية للوقائع المستجدة الملحة» (المنثور؛ للزركشي: ١/٦٩).

فالنوازل إذن، ومن خلال هذا التعريف؛ هي: ما اشتمل من المسائل على ثلاثة معان:

١- الوقوع. ٢- الجدة. ٣- الشدة.

ولذا؛ فإن فقه النوازل يكون أعم من الفقه؛ من حيث كونه يشتمل على كل ما هو مستجد وملح؛ سواء كان من الأحكام العملية، أو غير العملية؛ كالعقائد، ونحوها.

ثانيا - أهمية دراسة فقه النوازل، وأقسامه:

أهمية فقه النوازل:

وتظهر من خلال النقاط التالية:

أولا - بيان كمال الشريعة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان.

ثانيا - الاستجابة إلى أمر الله، وأمر رسوله ﷺ؛ فإن دراسة هذه النوازل من تبليغ العلم والعمل به.

ثالثا - كسب الثواب والأجر عند الله عز وجل؛ ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم، فأصاب؛ فله أجران، وإذا اجتهد، فأخطأ؛ فله أجر واحد» (متفق عليه).

رابعا - إن إعطاء النوازل المستجدة في كل عصر أحكامها الشرعية المناسبة يدخل دخولا أوليا تحت مهمة التجديد لهذا الدين، وإحياء ما اندرس من معالمه.

● **أقسام فقه النوازل:**

يمكن تقسيم النوازل باعتبارات متعددة؛ إلى ما يلي:

- **أولا: تنقسم النوازل بالنظر إلى موضوعها إلى:**

نوازل فقهية: وهي ما كان من قبيل الأحكام الشرعية العملية.

نوازل غير فقهية: مثل النوازل العقدية؛ كظهور بعض الفرق والنحل.

- **ثانيا: تقسيم النوازل من حيث خطورتها وأهميتها إلى:**

نوازل كبرى: وهي القضايا المصيرية التي نزلت بأمة الإسلام.

ونوازل أخرى دون ذلك.

- **ثالثا: تنقسم النوازل بالنظر إلى كثرة وقوعها، وسعة انتشارها إلى:**

● نوازل لا يسلم - في الغالب - من الابتلاء بها أحد؛ كالتعامل في الأوراق النقدية.

● نوازل يعظم وقوعها؛ كالصلاة في الطائرة.

● نوازل يقل وقوعها؛ كمداواة تلف عضو في حد وأخرى انقطع حدوثها.

- **رابعا: تنقسم النوازل بالنسبة إلى جدتها إلى:**

نوازل محضة: وهي التي لم يسبق وقوعها من قبل؛ مثل أطفال الأنابيب.

نوازل نسبية: وهي التي سبق وقوعها من قبل، لكنها تطورت من جهة ما؛ كالعمليات الطبية الجراحية.

ثالثا - أسباب وقوع النوازل، وحكم الاجتهاد فيها:

● **أما أسباب وقوع النوازل، فيمكن إرجاعها إلى أمرين:**

الأمر الأول: التطور العلمي، والتقدم الصناعي

فقد شهد العالم اليوم تطورا صناعيا، وعلميا، وطبيا؛ فتغيرت وسائل التنقل، ووسائل الاتصال؛ واخترعت الأجهزة الطبية الحديثة؛ فاقتضى ذلك بحثا فقهيا، ونظرا عميقا في قواعد الشرع ومقاصده.

الأمر الثاني: التعدي على الأحكام الشرعية ومجاوزتها (الفجور)

فتوسع الناس في الملذات والملاهي، واستحلوا صورا في العقود والمعاملات؛ وقد دل على هذا الأمر: قول عمر بن عبدالعزيز: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» (المنتقى للباجي، ٦/١٤٠).

● **وأما حكم الفتوى في النوازل:**

فالاجتهاد في النوازل واجب على هذه الأمة، فهو من فروض الكفاية، وربما يتعين هذا الواجب على بعض المتهيئين للنظر في بعض النوازل؛ فيصير النظر في نازلة ما واجبا عينيا في حق هؤلاء.

والدليل على أنه فرض قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران:١٨٧)؛ فتبيين العلم ونشره واجبان على العلماء وطلاب العلم.



إلا أن ابن عبدالبر ذكر عن جمهور أهل العلم أنهم كانوا يكرهون استعمال الرأي في الوقائع قبل أن تنزل، وتفريع الكلام عليها قبل أن تقع، وعدوا ذلك اشتغالا بما لا ينفع. (جامع بيان العلم وفضله، ٢/١٣٩).

رابعا - مدارك الحكم على النوازل؛ وهي:

لا يتم للمفتي والمجتهد في نازلة نظره إلا إذا سلك عند دراستها منهج: التصور، ثم التكييف، ثم التطبيق.

وهذه الثلاثة هي ما يسميه الفقهاء مدارك الحكم على النازلة؛ وبيانها كالتالي:

- المدرك الأول: التصور

وهو معنى قولهم: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فالإقدام على الحكم في النوازل من دون تصورها يعد قاصمة من القواصم.

وتصور النازلة يتطلب: الاستقراء النظري والعلمي، وقد يفتقر إلى إجراء استبانة، أو معايشة، أو سؤال أهل الشأن والاختصاص.

- المدرك الثاني: التكييف

وهو تصنيف المسألة تحت ما يناسبها من النظر الفقهي. وتكييف النازلة متوقف على تحصيل أمرين؛ ذكرهما ابن القيم رحمه الله بقوله: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر». (إعلام الموقعين، ١/٨٧).

وتكييف النازلة إنما يحصل بواحد من أربعة مسالك على الترتيب الآتي:

١- النص والإجماع.

٢- التخريج على نازلة متقدمة.

٣- التخريج على قاعدة فقهية، أو أصل شرعي أو فتوى إمام متقدم.

٤- الاستنباط.

المدرك الثالث: التطبيق

تطبيق الحكم على النازلة يراد به: تنزيل الحكم الشرعي على المسائل النازلة.

من القواعد المقررة شرعا وعقلا وعرفا في تطبيق الأحكام الخاصة على محالها: أن ينسجم هذا التطبيق مع المصالح العليا؛ بحيث لا يفضي تحصيل المصلحة الجزئية إلى تفويت مصلحة عظمى.

والمراد بالمصلحة العليا في الشريعة: المحافظة على الكليات الخمس: «الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال».

وعليه؛ فإن هذه المحافظة تكون بمراعاة ثلاث قواعد:

الأولى: الموازنة بين المصالح والمفاسد في الحال والمآل.

الثانية: تقدير حالات الاضطرار وعموم البلوى.

الثالثة: اعتبار الأعراف والعادات واختلاف الأحوال والظروف والمكان والزمان.

- المدرك الرابع: التوقف

يمكن أن نضيف مدركا رابعا، وهو التوقف في الحكم على النازلة. وإنما يصار إليه عند العجز عن تصور الواقعة تصورا تاما.

قال ابن عبدالبر رحمه الله: «الاجتهاد لا يكون إلا على أصول يضاف إليها التحليل والتحريم، ولا يجتهد إلا عالم بها، ومن أشكل عليه شيء لزمه الوقوف، ولم يجز له أن يحيل على الله قولا في دينه، لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى أصل، وهذا الذي لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديما وحديثا؛ فتدبره». (جامع بيان العلم، ٢/١٢٣).

خامسا- ضوابط الاجتهاد في النوازل:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف:٣٣).

فقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عام في تحريم القول في الدين من غير يقين، وعلم، وفهم، وتصور صحيح.

فمن أفتى في نازلة بغير علم؛ فقد نسب إلى الله تعالى ما لم يشرعه افتراء وكذبا؛ ومنه: تحريم بعض الحلال، أو تحليل بعض الحرام.

وهو ضلال من القول والعمل؛ وفي الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ حتى إذا لم يترك عالما: اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا» (متفق عليه).

ولذلك؛ لا يستقيم الاجتهاد في النوازل إلا إذا توافرت فيه ثلاثة ضوابط:

- الضابط الأول: أن يكون الناظر من أهل العلم الشرعي؛ ولابد أن يتصف بالآتي:

١- الإحاطة بمدارك الأحكام وأدلتها.

٢- العلم بمقاصد الشريعة.

٣- العلم بلسان العرب.

٤- المعرفة التامة بأصول الفقه.

٥- بذل الوسع في البحث والنظر.

ومن جميل ما أتى عن الإمام أحمد رحمه الله في بيان شروط المفتي قوله: «لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

١ ـ أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية؛ لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور.
٢ ـ أن يكون له علم، وحلم، ووقار، وسكينة.
٣ ـ أن يكون قويا على ما هو فيه، وعلى معرفته.
٤ ـ الكفاية؛ وإلا مضغه الناس.
٥ ـ معرفة الناس».

وقد وفى وكفى الإمام ابن القيم رحمه الله في بيانها وشرحها بالدليل والبرهان في كتابه القيم إعلام الموقعين. (إعلام الموقعين، ٤/١٥٢).

- الضابط الثاني: أن يحصل للمجتهد في النازلة التصور التام، والفهم الصحيح لها:

وإنما يتم له ذلك - بما ذكرناه سابقا - من بذل الوسع، واستفراغ الجهد في تصور النازلة تصورا صحيحا، وتكييفها تكييفا دقيقا؛ ليحسن بعد ذلك تطبيق الحكم عليها وفق مراد الله ورسوله ﷺ.

وأكثر ما يقع الخلل في فتاوى العلماء بنقص التصور، أو فساد جزء منه، وتكييفه على غير ما هو عليه؛ فينشأ بعد ذلك تطبيق للحكم في غير محله، أو على غير ما مثله حكم الشارع.

- الضابط الثالث: أن يستند المجتهد في حكمه على النازلة إلى دليل شرعي معتبر

وهذا الدليل قد يكون نصا، أو إجماعا، أو قياسا، أو استصلاحا، إلى ما هنالك من الأدلة الشرعية المعتبرة.

ولا يكفي في العالم نباهته، وذوقه الفقهي، أو ملكته الفقهية، والتأصيلية؛ حتى يجمع إلى ذلك تعظيمه للنصوص الشرعية، والقواعد المرعية؛ فإن كثيرا ممن توافرت فيهم الشروط صادموا - بما استندوا إليه من أدلة - النصوص الشرعية؛ بقصد أو من دون قصد. وإنما ألجأهم إلى ما وقعوا فيه: نوع من التأويل غير المعتبر، أو الاجتهاد غير المنضبط.

ومن الأمثلة على مصادمة نصوص الكتاب والسنة، أو مخالفة الإجماع: القول بحلية المعاملات الربوية في البنوك، وتجويز العمل فيها، والحكم بجواز الاستماع إلى الموسيقى والغناء، ومشاركة الكافرين في الاحتفال بأعيادهم.

سادسا - أعظم المزالق التي يقع فيها المفتي عند الاجتهاد للنازلة:

المراد بالمزالق التي يراد بها التنبيه عليها في هذه المسألة: تلك المداخل الخفية والأخطاء الدقيقة التي تحصل لكثير ممن يفتي في النوازل.

ذلك أن الوقوع في هذه المزالق حاصل مع توافر الضوابط الثلاثة من حيث الجملة، أعني بذلك ضوابط الاجتهاد في النوازل التي ورد بيانها في المسألة السابقة.

ومنها:

- المزلق الأول: تجزئة النازلة

وهو تقسيمها إلى أجزائها التي تتركب منها، مع إعطاء كل جزء حكمه الخاص به، كل على حدة، من دون اعتبار للقدر الحاصل من التركيب والاجتماع.

ومن الأمثلة على ذلك:

أن يقال في بيع المرابحة: هو عبارة عن ثلاثة عقود: عقد وكالة، وعقد مواعدة بالشراء، وعقد بيع بالتقسيط، وكلها عقود صحيحة، وبناء على ذلك فبيع المرابحة عقد صحيح لا غبار عليه.

هذا ما نطق به بعض المفتين ـ ممن يقول بالجواز ـ من غير التفات إلى المعنى الحاصل من حصول هذه العقود الثلاثة مجتمعة، ومن دون نظر إلى الهيئة الجديدة المتولدة عن هذا التركيب.

المزلق الثاني: الحيدة عن الواقع:

ومن الأمثلة على ذلك:

أن بعض المفتين حينما قد يسأل عن حكم الإيجار المنتهي بالتمليك يقول: يجوز. فيقول له السائل: لكنهم يلزموننا بالتأمين. فيقول: لا توافقهم على التأمين، بل خذ السيارة من دون تأمين، التأمين ليس بلازم.

إن هذا المفتي كان عليه أن يجلي الصورة الحاصلة في الواقع، وهي أن الإيجار المنتهي بالتمليك، بحسب الواقع، لابد فيه من التأمين. وكان عليه أن يقول: إن الإيجار المنتهي بالتمليك مع اشتراط التأمين يجوز، أو لا يجوز.

المزلق الثالث: الغفلة عن تطور النوازل وانقلابها

فهل يسوغ - مثلا - استصحاب فتوى سابقة في جواز شراء أسهم الشركات وتطبيقها القديم على أسهم الشركات القائمة الآن بصورها المتعددة؟

المزلق الرابع: الميل بالناس إلى التيسير والتخفيف من دون اعتبار لمقاصد الشريعة وقواعدها العامة.

المزلق الخامس: الميل بالناس إلى التشديد والمنع من دون اعتبار لمقاصد الشريعة وقواعدها العامة

المراد بمظان فقه النوازل: المصادر التي تتميز بذكر النوازل وبيان أحكامها.

ويمكن تصنيف هذه المصادر إلى سبعة أنواع:

● أولا - الكتب المؤلفة في النوازل

منها: كتاب الدكتور القرضاوي في الزكاة، و«المعاملات المالية المعاصرة»؛ للدكتور سعد الدين الكبي، وكتاب «الحوافز التجارية»؛ للدكتور خالد المصلح، وغيرها.

ومنها: «أحكام الجراحة الطبية»؛ للدكتور محمد الشنقيطي.

ومنها: «فقه الأقليات المسلمة»؛ للدكتور خالد عبدالقادر.

● ثانيا - الأبحاث المنشورة في المجلات والدوريات العلمية

ومن أبرزها:

- «مجلة مجمع الفقه الإسلامي»



بجدة.

- «مجلة المجمع الفقهي الإسلامي» بمكة المكرمة.

- «مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية» بالكويت.

- «مجلة جامعة أم القرى» بمكة المكرمة.

● ثالثا - التوصيات والدراسات الصادرة عن المؤتمرات والندوات الخاصة ببعض النوازل.

ومنها: المؤتمرات العلمية في النوازل المعاصرة في كثير من البلدان الإسلامية؛ ومنها التي تعقد في دولة الكويت؛ كمؤتمر صناعة الحلال في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الإفتاء.

ومنها: الندوات التي يعقدها بيت التمويل الكويتي في القضايا المالية وقضايا الزكاة المعاصرة.

● رابعا - القرارات والبيانات والفتاوى الصادرة عن المجامع الفقهية واللجان والهيئات العلمية

ومن هذه المجامع الفقهية والهيئات:

١- «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر

أسس عام (١٣٨١هـ - ١٩٦١م)، صدر في مصر قانون بشأن تنظيم الأزهر، وإنشاء هيئات تابعة له، ومن بين هذه الهيئات إنشاء مجمع فقهي للفتاوى والأبحاث الإسلامية والعلمية.

ويتألف المجمع من خمسين عضوا من كبار علماء الإسلام، يمثلون جميع المذاهب الإسلامية، ويكون من بينهم عدد لا يزيد على العشرين من غير مواطني مصر.

وقد عقد المجمع أول مؤتمر له في القاهرة في شوال عام ١٣٨٣هـ.

٢- «المجمع الفقهي الإسلامي» التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة أنشئ هذا المجمع عام ١٣٩٦هـ، ويتكون من رئيس ونائب له، وعشرين عضوا من العلماء المتميزين بالنظر الفقهي والأصولي.

وأول دورة له عقدت في شهر شعبان عام ١٣٩٨هـ.

٣- «مجمع الفقه الإسلامي» التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي

تأسس مجمع الفقه الإسلامي الدولي تنفيذا للقرار الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الثالث: «دورة فلسطين والقدس»؛ المنعقد في مكة المكرمة في الفترة من ١٩-٢٢ ربيع الأول ١٤٠١هـ الموافقة ٢٥-٢٨ يناير ١٩٨١م.

ويبلغ عدد الدول المشاركة في المجمع ثلاثا وأربعين دولة من بين سبع وخمسين دولة؛ ممثلة بواحد أو أكثر من خيرة علماء الفقه الإسلامي من أبنائها.

وقد انعقد المؤتمر التأسيسي لمجمع الفقه الإسلامي الدولي في مكة المكرمة في يونيو عام ١٩٨٣م.

٤- «مجمع الفقه الإسلامي» بالهند

أنشئ في نهاية عام ١٩٨٨م، ويشارك في ندوات المجمع السنوية نخبة من علماء الهند، يزيد عددهم على ستمئة عالم.

وأول ندوة له كانت عام ١٩٨٩م في نيودلهي، وطبعت قراراته وتوصياته في مجلد عام ١٤٢٠هـ.

٥- «مجمع الفقه الإسلامي» بالسودان

أسس وفق قانون صادر عام ١٤١٩هـ، ويضم أربعين عضوا من كبار علماء السودان، وله مستشارون من خارج السودان.

وفي سنة تأسيسه نفسها عقد أول مؤتمراته في شهر رمضان.

٦- «هيئة كبار العلماء» بالمملكة العربية السعودية

ألفت بأمر ملكي عام ١٣٩١هـ، وتنعقد كل ستة أشهر، ويرأسها سماحة المفتي العام.

٧- «اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» بالمملكة العربية السعودية متفرعة عن هيئة كبار العلماء. وتصدر عنها مجموعة عظيمة من الفتاوى.

٨- رابطة علماء المغرب

مقرها الرباط، وتضم ثلة من علماء وفقهاء المغرب العربي، وصدر عنها مجلة باسمها، وكتاب في الفقه جامع.

٩- «قطاع الإفتاء والبحوث الشرعية» بالكويت

ويضم هيئة الفتوى بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية؛ وهم ثلة من العلماء والفقهاء الأجلاء أولي كفاءة علمية متخصصة.

وصدر عن القطاع «مجموعة الفتاوى الشرعية»؛ وكان ذلك تباعا منذ عام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م إلى وقتنا الحالي، وبلغ عدد الأجزاء المطبوعة ٢٨ جزءا.

١٠- المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

وهو هيئة علمية إسلامية متخصصة مستقلة، مقره في دبلن بإيرلندا، وقد عُقد لقاؤه التأسيسي في لندن عام ١٤١٧هـ.

١١- «مجمع فقهاء الشريعة» بأميركا

مقره في أميركا. وهو مؤسسة علمية تتكون من مجموعة مختارة من فقهاء الأمة الإسلامية وعلمائها، تسعى إلى بيان أحكام الشريعة فيما يعرض للمقيمين في أميركا من النوازل والأقضيات.

● خامسا - فتاوى المعاصرين الفردية التي تغلب عليها العناية بالنوازل المعاصرة.

● سادسا - الرسائل الجامعية.

● سابعا - المواقع الإلكترونية التي تعتني بدراسة ونشر الفتاوى المتعلقة بالنوازل المتنوعة.

للاستزادة والمراجعة؛ ينظر: «فقه النوازل»؛ لشيخنا وأستاذنا الدكتور محمد حسين الجيزاني حفظه الله تعالى.

الحياة طريق مسافر

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة والنار. والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، وإنما ذلك بعد انتهاء السفر.

(الفوائد لابن القيم ص ٢٤٥).

ستة مشاهد

قال ابن القيم رحمه الله: إذا جرى على العبد مقدور يكرهه، فله فيه ستة مشاهد أحدها: مشهد التوحيد، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وأن رحمته في هذا المقدور غالبه لغضبه وانتقامه ورحمته حشوة.

الرابع: مشهد الحكمة، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك، لم يقدره سدى ولا قضاه عبثا.

الخامس: مشهد الحمد، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبودية، وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدرية، كما يصرفه تحت أحكامه الدينية، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه.

(الفوائد لابن القيم ١/٣٢)

فروق لطيفة

الفرق بين النسيان والسهو: أن النسيان يزول عن القوة المدركة والحافظة، أما السهو فإنه يزول عن القوة المدركة لا الحافظة.

والفرق بين مجموع الأجزاء، وجميع الأجزاء: هو أنه اعتبرت في المجموع الهيئة الاجتماعية دون الجمع، فإنه يعتبر في ذلك.

(الصبابات ص ١١٠)

أنقذتهم فصاحتهم من الموت

التقى صاحب حرس الحجاج بغلمان يطوفون بالليل، وأراد أن يضرب رقابهم، ثم قال لهم: من أنتم؟.

فقال الأول:

أنا ابن من دانت الرقاب له
ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة
يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه، وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين.

ثم قال للآخر: وأنت من تكون؟

فقال:

أنا ابن من لا تنزل الدهر قدّره
وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره
فمنهم قيام حولها وقعود

فأمسك عنه، وقال: لعله ابن أشرف العرب.

ثم قال للثالث، وأنت من تكون؟

فقال:

أنا ابن لمن خاض الصفوف بعزمه
وقومها بالسيف حتى استقامت
وركباه لا ينفك رجلاه منهما
إذا الخيل في اليوم الكريهة ولت

فلما كان الصباح أحضرهم، وكشف عن حالهم فإذا بالأول ابن حجام، والثاني ابن فوال، والثالث ابن حائك.

فتعجب من فصاحتهم، وقال لجلسائه: علموا أولادكم الأدب، فوالله لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم.

(أخبار العرب ٣/٩٨).

إني أخاف أن نصطحب

أراد الحسن بن علي رضي الله عنه الحج فطلب منه ثابت البناني أن يصاحبه؛ فقال: «ويحك دعنا نتعايش بستر الله، إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه».

(مواعظ الصحابة ووصاياهم ص ٣٢٢)

خطبة خليفة

لما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس، الدنيا دار غرور، وباطل، وزينة، وتقلب بأهلها، تضحك باكيها، وتبكي ضاحكها، وتخيف آمنها، وتؤمن خائفها، وتثري فقيرها، وتفقر مثريها، عباد الله، اتخذوا كتاب الله إماما، وارضوا به حكما، واجعلوه لكم هاديا ودليلا، فإنه ناسخ ما قبله، ولا ينسخه ما بعده، واعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان ومطامعه، كما يجلو ضوء الصبح إذا أسفر إدبار الليل إذا عسعس»

(شذرات الذهب: ١/٣٩٩ ص:١٥٧)

المنزل الحق والوعد الصدق

خرجت امرأة من العرب تريد المقابر حتى جلست على قبر ابنها، فقالت بصوت لها ضعيف: هذا والله المنزل الحق، والوعد الصدق، والوعيد الشديد، والمسكن الذي ليس لأهل الدنيا عنه محيد، هذا والله المفرق بين الأحباب، والمقرب من الحساب، وبه يعرف الفريقان منازلهم، أهل السعادة وأهل الشقاء، لا أقول هجرا، ولكني أحتسب على الله مصابي بك يا بني.

(بهجة المجالس لابن عبد البر)

المحافظة على الوقت

ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة. ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل. ولتكن نيته في الخير قائمة، من غير فتور ربما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: (نية المؤمن خير من عمله).

(صيد الخاطر لابن الجوزي)

طيبة وخبيثة

شجرة طيبة: الإخلاص والتوحيد شجرة في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك.

شجرة خبيثة: الشرك والكذب والرياء شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم.

(الفوائد لابن القيم ص ٢١٤).

وفاة الأئمة الأربعة

نظمت تاريخ قوم
هم من النجم أهدا
أبو حنيفة سيف (١٥٠)
ماض الشبا ليس يصدا
ومالك قطع (١٧٩) ضد
بفضله قد تبدا
والشافعي در (٢٠٤) علم
به تنظم عقدا
وأحمد رام (٢٤١) فضلا
فنال علما ومجدا

(الكشكول لابن عقيل النجدي ص ٢٤٣)

العلم والتربية

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله: العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزتهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم، وكم شقي أصحاب العلم المجرد بالعلم وأشقوا أممهم، والسعادة غاية لا يسلك إليها طريق العلم وحده من غير أن تصاحبه التربية، وأن الجمع بين التربية والتعليم هو وظيفة النبوة التي تبينها الآية: (ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون).البقرة: ١٥١

(آثار الإبراهيمي ٤/١٧٣)

خوف وخشية

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما كان بدو إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال: يا عمر اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة.

(حياة السلف بين القول والعمل ص ٥١١)

تطفئ بحارا من النار

عن أبي عمران الجوني رحمه الله قال: لكل أعمال البر جزاء، وفي كلها خير إلا الدمعة تخرج من عين العبد، فليس لها كيل ولا وزن حتى يطفأ بها بحار من النيران.

(موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/١٧٧)

شكر وتعليق

إلى الأفاضل في هيئة تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»

تحية طيبة وبعد،

فهذا نموذج من القراء الذين يثنون على المجلة، وعلى ما أطرس فيها من خلال حلقات «القول المأثور..».

دامت لكم المسرات، مع الرجاء إبلاغ تحياتي للسيد فيصل يوسف العلي/ رئيس تحرير المجلة. والسلام.

- **عبدالله أيت الأعشير**

بسم الله الرحمان الرحيم

الأستاذ القدير سي عبد الله ايت الأعشير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قرأت الحلقة 23 من القول المأثور في احياء الصواب المهجور وهي درة أخرى من درر
هذا العقد الذهبي الذي صاغته أناملكم لتزين به جيد لغتنا الحسناء. وقد أشرتم
في بداية مقالكم إلى مجموعة من الأفكار النيرة:

— سمو الفصحى وشرفها بالنظر إلى فضائلها.
— أهمية النظرة اللغوية للحياة في التمييز بين الأمم والشعوب.
— قيمة اللغة عند الفلاسفة.
— اتساع حدود اللغة ورحابتها وعلاقتها الوطيدة بالأمة التي تستعملها.

وشكلت هذه الباقة من الأفكار توطئة رشيقة مشرقة تدخل الحبور إلى روح القارئ،
بعد ذلك تطرقتم إلى الوضعية التي لا تروقكم للغة العربية في التعليم والاعلام
في ظل العولمة. وأكدتم على ضرورة النهوض باللغة العربية وإخراجها من
الوضعية المزرية التي أصبحت تعيشها، وذلك يستلزم، في نظركم، سياسة لغوية
صريحة تنطلق من جهود الأمة بأسرها.

وقد رسمتم خطة اصلاحية واضحة ومحكمة استفدتم فيها من خبرتكم
الأكاديـــمية والمهنية في التدريس والتأطير:

— الاصلاح يجب أن ينطلق من رياض الأطفال.
— الاعتماد على السماع في تلقين اللغة للشداة لأن السماع أبو الملكات.
— الاعتماد على الوسائل الحديثة في تعليم اللغة للشداة.
— اعتماد التكرار في تلقين اللغة لأن الشيء اذا تكرر تقرر.
— تشنيف أسماع الشداة بالسور القرآنية القصيرة والأناشيد العربية التي تزرع

فيهم حب العربية والقيم الرفيعة وتمكنهم من مقاومة التنميط العولمي الماحق
الذي يدخل الشطط في قواعد الفصحى، وفي الخصائص التي تمكنها من التعبير
عن الدلالات المختلفة للكلمة الواحدة تبعا لاختلاف حركات مبانيها، وقد
حرصتم على ذكر بعض النماذج التي تتغير معانيها بتغير حركات مبانيها
لتذكير رجال الصحافة ونسائها وصناع البرامج التعليمية ومعدي الكتب
المدرسية بضرورة الانتباه إلى ذلك أثناء النطق بهذه الكلمات.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكركم على المتعة التي عشتها والفوائد التي
اكتسبتها والثمار التي جنيتها من قراءة مقالكم هذا خصوصا وكل ما قرأته
لكم عموما.

مع متمنياتي لكم بمزيد من التوفيق والنجاح

عمر

القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني :

info@alwaei.com



كنوز بلاد النوبة



في خلافة المعتصم العباسي، حَرَمَ العرب من معاشاتهم التي كانت تؤديها الدولة لهم؛ باعتبارهم جنودا، واستكثر من الأتراك في عصره (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م)، فلما قطع عطاء العرب انداح العرب في شتى أرجاء مصر. وكانت لخم وجذام أكثر ضررا من القيسية بقرار الخليفة، فقاموا بثورتهم، فنزلت اللخمية الإسكندرية وما حولها، ونزلت بلي وجهينة الصعيد والصحراء الشرقية.

وهاجرت جموع كثيرة من ربيعة (ابن نزار بن معد بن عدنان) في عهد المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ - ٨٤٩-٨٥٤م)، حول الحرف الشرقي، ثم واصلوا جنوبا بأسرهم حتى استقروا في وادي العلاقي، لوجود معادن الذهب والزمرد والأحجار الكريمة هناك، وأسسوا إمارتهم الأولى بالعلاقي، في الصحراء الشرقية، في (٣٣٣هـ)، وكان معظم المهاجرين بها من القيسية.

وقد حارب العرب مع الأيوبية لطرد الصليبيين من الشرق، ومنها قبيلة طيِّئ (جزم وثعلبة)، وقد امتد سلطان هذه الإمارة العربية من وادي العلاقي شرقا، حتى نهر النيل غربا. وكان أمير هذه الإمارة العربية أبومروان بشر بن إسحق.

وجعلوا مركز إمارتهم مدينة أسوان (٧٩٠هـ)، وقد سمي هؤلاء: «أولاد الكنز»، ويسمى أتباعهم حتى الآن في بلاد النوبة: «الكنوز».

• **عبدالرحمن عوض**

تهنئة

بمناسبة حلول العام الجديد، يسرني أن أرفع إليكم خاصة، وإلى أسرة التحرير عامة أسمى تهانينا، سائلا المولى تعالى أن يجعلها لكم وثبة جديدة لإنجازات أفضل.

هذا ولا أنسى أن أشيد بحلة المجلة الفاخرة التي أتاحت للقراء الكرام تحميل المجلة مباشرة وكاملة، وأعتقد أن هذه الإمكانية تمت دراستها جيدا، بما لا يضر بمبيعات المجلة الشهرية.

تفضلوا بقبول فائق التقدير والاحترام.

ودمتم في سابغ رعاية الله وحفظه.

• **مختار محمد لوح**

رسالة تقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إلى السادة الكرام القائمين على مجلة «الوعي الإسلامي» النافعة، أحييكم، وأتمنى أن يتقبل الله جهدكم ويجعله في ميزان حسناتكم.

شد انتباهي تعدد قطوفكم، وتناولكم للعديد من المحاور المهمة.

ويسرني أن أتقدم إليكم بطلب قبولي للنشر في مجلتكم وفق قيم المجلة المرعية، مع العلم أنني باحثة في مجال علم النفس وعلوم التربية، وحاصلة على شهادة الليسانس في علم النفس المدرسي وماجستير علم النفس التربوي، ومهتمة بالإرشاد الأسري.

ببالغ الامتنان والتقدير أبلغكم رغبتي في التواصل والعمل معكم أيها الكرام.

تقبلوا تحياتي واحتراماتي.

وأنتظر ردكم في أقرب فرصة عسى أن نساهم في إفادة الغير.

ومسك الختام.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

• **فاطمة الزهرة**

الإسلام يدعو لضبط النفس

خلق الله تعالى الأنفس وأقسم بها لعظم قدرها فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٧-٨).

والأنفس متفاوتة ومتباينة، فهناك النفس اللوامة التي تلوم صاحبها حين يقترف إثما أو يرتكب جرما بينه وبين خالقه، أو بين بني جلدته، يثوي إلى رشده ويتوب خوفا من بارئه، ويرضي من أساء إليه. وهناك النفس الأمّارة بالسوء، وهي النفس الخبيثة التي اتحدت والشيطان على الإنسان فأوردته المهالك، تأمره بالسوء فيأتمر. وهنا يقول القرآن الكريم عن تلك النفس وصاحبها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:١٠)، أي: خسر من نقصها وأخفاها بالفجور، وعنها يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (يوسف:٥٣). أما النفس المطمئنة فهي التي استقامت على الدرب، وعرفت طريق الخير فسارت فيه، واهتدت بهدي القرآن والسنة، فترى صاحبها من المفلحين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (الشمس:٩)، أي: فاز بالبغية وظفر بها.

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ (الأحزاب: ٢١).

وقد أنزل الله سورة باسم الشورى، امتدح الله فيها المتشاورين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى:٣٨).

• طنطاوي عبدالقادر

قادة الفتح الإسلامي

حفلت رفوف المكتبة العربية والتاريخية بمجموعة من الكتب الإسلامية، التي ألفها المؤرخ العراقي الكبير العلامة المحقق الحاج محمود شيت خطاب، عضو المجمع العلمي العراقي ببغداد. وهذه الكتب سلسلة تضمنت تراجم العسكريين العرب، الذين خرجوا بالجيوش الإسلامية في الفتوح الأولى، في صدر الإسلام، أيام الخلفاء الراشدين الأربعة، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم، ثم في العهد الذي تلاهم، تحت لواء الخلفاء الأمويين، وحمل عنوانها: «قادة الفتح الإسلامي» في الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب العربي، من ليبيا حتى شواطئ المحيط الأطلنطي، الذي سماه العرب بحر الظلمات.

وليس من شك في أن علامّتنا، حين أخذ نفسه بهذا اللون من الدراسات التاريخية؛ إنما كان مستجيبا لما في نفسه من نوازع الوفاء لأولئك الرعيل الصالح، من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين، رضوان الله عليهم، الذين أكرمهم الله عزوجل بنشر الدعوة الإسلامية، في مشارق الأرض ومغاربها في برهة من الزمن أظهروا فيها من الإخلاص وروح الفداء والشوق الى الشهادة، ما جعلهم أمثولة رائعة للعاملين المخلصين، من أجل دينهم وأوطانهم، في سائر العصور والأجيال.

مقتطفات من مقال قديم
للشيخ طه الولي رحمه الله



معاداة السامية وحرية التعبير

إن حرية التعبير حق أصيل من حقوق الإنسان، ولأنه حق يتيح لكل إنسان القدرة على إظهار مواهبه والتعبير عنها، وتمكينه من الدفاع عن جميع حقوقه الأخرى، والتنديد بمن ينتهكها؛ فإن حرية التعبير تعد واحدة من «أمات» الحقوق الإنسانية -إن جاز التعبير- لذا يصعب في الواقع تصور الحياة البشرية المعاصرة، دون كفالة هذا الحق لكل مواطن، وهو ما يفسر لماذا تستميت النظم الديموقراطية في التمسك به، ووضع الآليات الكفيلة بحمايته، والتوسع في تفسيره.. ورغم إدراك النظم الديموقراطية المعاصرة المخاطر التي قد تترتب على إساءة استخدام هذا الحق، فإنها تقاوم بشدة كل المحاولات الرامية للحد منه، ومن ثم لا تتجاوب مع هذه المحاولات إلا في أضيق الحدود، ولضرورات قصوى، تتعلق بحماية الحقوق الفردية والجماعية الأخرى، ومع ذلك يلاحظ أن دولا ديموقراطية أقدمت منذ سنوات على سن قوانين تجرم «معاداة السامية»، وتعاقب كل من يحاول التشكيك في «المحرقة» التي تعرض لها يهود ألمانيا، إبَّان الحكم النازي، ففي أكتوبر (٢٠٠٤م) أقر الكونجرس الأميركي «قانون معاداة السامية»، ووقع عليه فور صدوره، وراح العديد من الدول الأوروبية يحذو حذو الولايات المتحدة، ويسن تباعا قوانين مشابهة.

• محمد السيد عامر

شكرا .. الوعي الشبابي

لا أستطيع وصف ما يغمرني من سعادة، كيف أفعل وأنا أراسل مجلتكم القيمة؟ أدرس في الصف الثاني الثانوي، اسمي محمد البوبكري، مغربي الجنسية، وأبلغ من العمر سبع عشرة سنة، لازلت أجهل كيف تعاقبت الفصول خلالها.

أولا، أود تقديم شكر من خالص قلبي على جهودكم العظيمة، ولما تقدمونه من معلومات وإرشادات قيمة لشباب أمتنا العربية، فحقيقة «مجلة الوعي الشبابي» غيرت الكثير الكثير في ظرف وجيز ما لم يغير في عشرات السنين... غيرت سلوكات وأفكارا تعلوها الشوائب، وأهدت نكهة السعادة لحياة القانطين.

... ألتمس من سيادتكم من خلال هذا البريد الإلكتروني السماح لي بالتدوين في مجلتكم «الوعي الإسلامي والوعي الشبابي».

فرغم أن شعبتي العلمية – العلوم الرياضية- لا تتيح لي كثيراً من الوقت، إلا أن روحي الإبداعية في نسج الكلم تقيدني لأجد نفسي مأسورا في تشكيل أجمل اللوحات الأدبية وغيرها نثرا وشعرا، وهذا من فضل الله تعالى. لكن غالبا ما تذهب هذه الأعمال في مهب الريح لتقتل روحي رويدا رويدا- لهذا السبب أراسلكم طارقا باب النجاة.. في انتظار إجابتكم – المنتظرة على أحر من الجمر – تقبلوا فائق الشكر والاحترام والتقدير، وأبقاكم الله نعمة للصالح العام.

• محمد البوبكري

الغراب عند العرب.. نذير شؤم أم بشير خير؟!

كلما رأينا إنسانا أضناه الهجر وأثقله البين، وأدنفه جوى يذيب منه الحشا، ويفجر في صدره بركان شوق يمزق ضلوعه.. وجدناه يلقي باللوم على الغراب!

وكلما حكمت الأقدار على شخص ما بفراق محب أو وداع ركب علقوا في ركابهم فؤاده، فازداد انهمار الدموع ونحيب الأكباد.. ألفينا ذلك الشخص يحمل الغراب تبعات ما حل.

وإن المتأمل في أشعار العرب وأسفار البلاغة والأدب، كثيرا ما يرى أن الشاعر يلقي باللوم على غراب البين، فيكثر من تقريعه وذمه، وكأن الغراب بيده مفاتيح الشقاء والتجافي، أو هو مطية التعاسة ومركب للبائسين.. مع أن ذلك الغراب مسكين، لا يملك حولا ولا قوة، ولا يملك نفعا ولا ضرا، ولا هجرا ولا لقاء.

وعندما يكون الشاعر متشائما تسيطر عليه حالة من السوداوية والكآبة، نراه يتفنن في توبيخ الغراب، ويمطر عليه وابلا من سحاب اللوم وغيث التقريع، الذي قد يصل أحيانا إلى السباب والشتائم، بل ربما تعدى ذلك إلى القتل والفناء.

ويبقى السؤال: ما ذنب الغراب حتى يسمى غراب البين؟! وأية جناية ارتكب حتى يضاف اسمه إلى الهجر والقطيعة والبعد والفراق؟! وهل يستطيع الغراب أن يصل ما شاءت الأقدار أن يُقطع، أو أن يقطع ما شاءت الأقدار أن يوصل؟

• مقتطفات من مقال الكاتب مصطفى قاسم عباس

الأبعاد الأخلاقية في العملية الاجتهادية

يفيد التدبر في الحديث النبوي الجامع «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أن البعثة النبوية جاءت من أجل أمر ضروري، لا يجوز أبدا تركه، لأنه متعلق بالدين بكليته. ذلك الأمر هو القيم الخلقية التي لا تكاد آية قرآنية أو حديث نبوي شريف يخلو منها، لأن موقع الأخلاق مركزي ضمن غايات البعثة المحمدية التي تستهدف العالمين بمقصد من أهم المقاصد العالية، إنه الرحمة في قوله عزوجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ومعلوم أن العملية الاجتهادية يجب أن تنطلق من مقصد الرحمة وتنتهي إليه في شمولية لكل الأحكام الفقهية التي تؤول في مجملها إلى أفعال أخلاقية.

وبالعودة إلى صلة المقاصد الشرعية بالجانب الخلقي، يلاحظ المتأمل في كتاب الموافقات للإمام الشاطبي وجود تكامل أخلاقي أصولي في إطار الحكم الشرعي. وقد قال في مقدمته «كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية أو آداب شرعية أو لا تكون عونا في ذلك فوضعها في أصول الفقه عارية». ذلك لأن القواعد الأصولية والمقاصد الشرعية لها ارتباط وثيق بالقيم الأخلاقية. أليس حفظ الضروريات الخمس أوضح برهان على صون المصالح الإنسانية عاجلا أم آجلا؟! وفي ذلك أوضح دليل على حفظ القيم الخلقية.

إن تنصيص الإمام الشاطبي على الآداب الشرعية في كلامه الآنف الذكر، يبرز بأوضح بيان الجانب الخلقي في قواعد الفقه وأصوله؛ لأن عدم وجود البعد الأخلاقي في القواعد الأصولية وعدم تحقيقها للفروع الفقهية المحققة للمصالح الشرعية والآداب الأخلاقية من تحسين السلوك وتقويم الجانب التربوي في حياة المكلف، يجعل تلك المسائل والقواعد عارية في أصول الفقه لا فائدة فيها، وبذلك فضبط القواعد الأصولية بهذه الشرطية يضمن قيام القواعد الأصولية على قيم تربوية وأخلاقية.

وقد نبه الشيخ الطاهر بن عاشور إلى اعتبار الجانب الخلقي ليس في الأحكام فحسب وإنما في شخصية المجتهدين، إذ «يتعين أن يكونوا –يعني المجتهدين– قد جمعوا إلى العلم العدالة واتباع الشريعة». ذلك لأن الخلق الإسلامي يورث الورع ونور العلم والعمل، وقد «كان الأئمة الأعلام الذين أورثوا من بعدهم ذلك الفقه العميق كانوا ممن اشتهروا بالورع قبل أن يشتهروا بالفقه وأخبارهم ناضحة بالنور والمعرفة». ومعلوم أن الورع هو ممارسة خلقية والتزام عملي بالأحكام، ويعد البعد عن الأهواء والشهوات علامة فارقة في سلوك المتصف بالورع، وقد قيل: الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات، ويرجع ذلك إلى أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه هو إحدى ثلاث:

- ■ إما حذر حلول الوعيد.
- ■ وإما تعظيم الرب جل جلاله.
- ● وإما إجلاله أن يتعرض لما نهى عنه.

ومن جوامع كلم النبي ﷺ بيانه للورع في قوله «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وفي شرح دقيق لابن القيم لهذا الحديث ذكر أن «هذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه كاملة كافية شافية في الورع».

وحاصل القول مما تقدم، أن العملية الاجتهادية تقتضي لزوما أن يتخلق المجتهد بالقيم الإسلامية العملية، سالكا مسلك القدوة، كي يروم تحقق الروح المقاصدية للأحكام التي تؤول إلى أبعاد أخلاقية ذات تأثير عميق في نظام الأمة بدءا بالمهد المؤسس للقيم وهو الأسرة المسلمة.

د. محمد طونيو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس - المغرب



صعبة لو أخرتها
صلاتي
في وقتها
نفائس
المشروع القيمي لتعزيز العبادات
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
إدارة الإعلام الديني
nafaesscom
RedAwqaf
www.nafaess.com



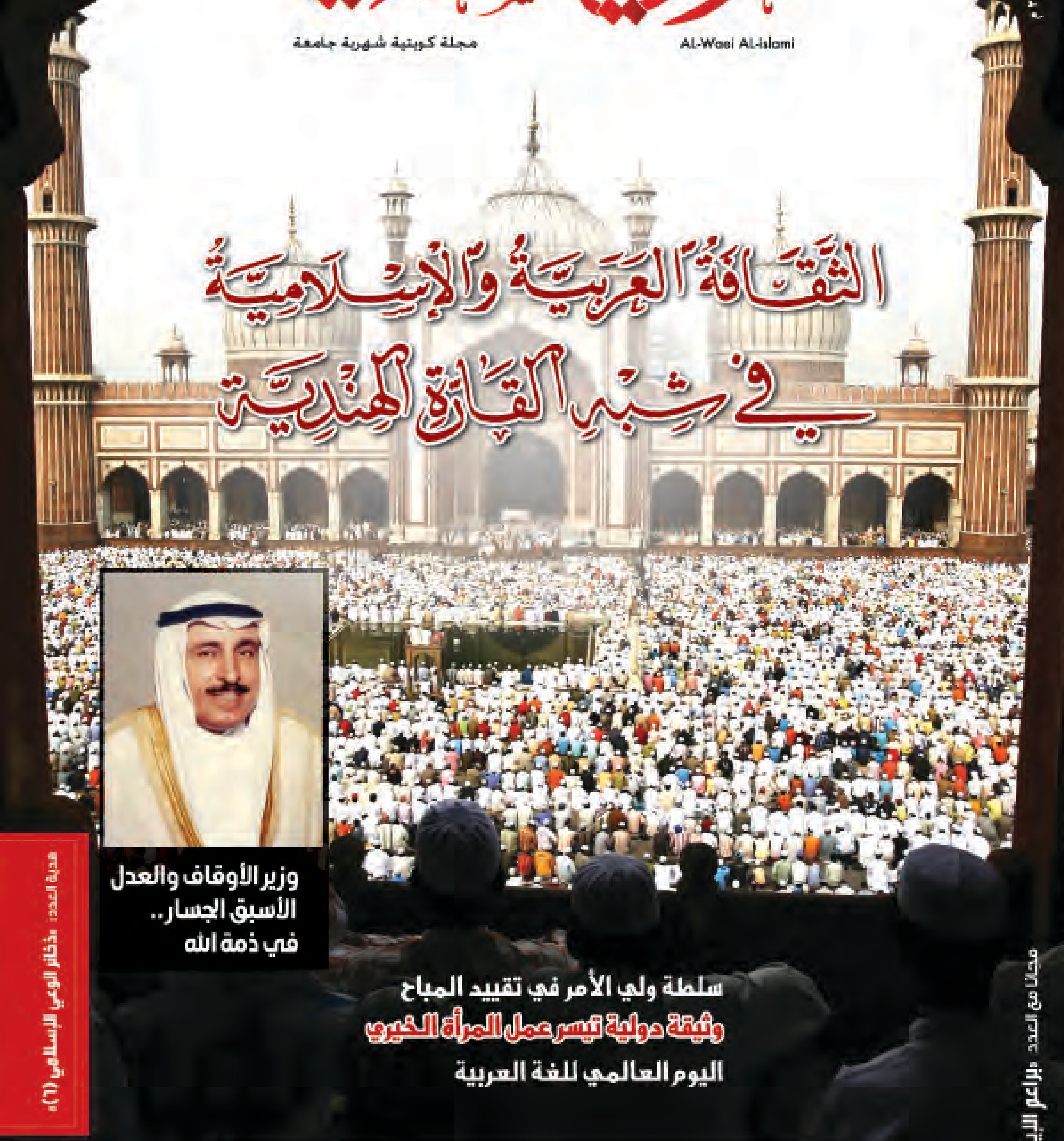
أسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

Al-Waei Al-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٩٦) ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ - فبراير ٢٠١٥ م

العدد ٥٩٦ - السنة ٥٢ - ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ / فبراير ٢٠١٥ م



الثقافة العربية والإسلامية في شبه القارة الهندية

وزير الأوقاف والعدل الأسبق الجسار.. في ذمة الله

سلطة ولي الأمر في تقييد المباح

وثيقة دولية تيسر عمل المرأة الخيري

اليوم العالمي للغة العربية

هدية العدد: «ذخائر الوعي الإسلامي (٦)»

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

مجلة الوعي الإسلامي
www.alwaei.gov.kw
info@alwaei.com


الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
مواضيع حيوية ومعاصرة
حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
مقالات لأبرز الكتاب الشباب
« الوعي الشبابي » مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي
Shabab alwaei
@alwaeialshababy

الافتتاحية

وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ

المال أداة استثمار، وليس أداة كنز، أوجده الله لنتداوله ونستثمره وندير به عجلة الاقتصاد، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياما لمعاشهم وتجارتهم، ومن هنا يؤخذ الحجر إما لحظ النفس أو حظ الغير، ولأن المال المتوافر بين الناس هو حق لمالكيه والناس، لأن في حصوله منفعة عامة، ويعود للجميع بالمصلحة.

لذلك لم تمنع الشريعة الإنسان من أن يمتلك المال، وإنما أباحته له مع الضبط والتنظيم. فالتدبير نصف المعيشة، وحسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف، قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ (الفرقان:٦٧).

فقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون، أي: لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم. فالمال عصب الحياة ووسيلة الإنسان، وهو إحدى الضرورات الخمس لتحقيق النصوص الشرعية، والمقاصد المرعية، وهو نعمة من نعم الله على خلقه في الحياة الدنيا، وهو الطريق إلى الاستمتاع بنعمها وزينتها، لذلك، لم تمنع الشريعة الإنسان من أن يمتلك المال، وإنما أباحت له ذلك مع الاعتدال.

فالمال أداة استثمار وإنفاق، وليس للكنز والادخار، فقد أوجده الله تعالى للتداول والاستثمار، ونهى عن الكسب الحرام، وعن إضاعة المال، وأكله بالباطل، فالإنسان مؤتمن عليه ومستخلف فيه، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود:٦١). وحكمة الله مراعاة المصلحة في تحقيق السعادة البشرية، ودفع الجشع والأنانية.

فالإنسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمس.

وقد قيل:

دَبِّرِ العيش بالقليل ليبقى ... فبقاء القليل بالتدبير

لا تبذر وإن ملكت كثيرا ... فزوال الكثير بالتبذير

فالقصد في النفقة مطلوب لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩).

فأمر الله بالقصد، الذي هو بين الغلو والتقصير، وقد قيل: «ما عال من اقتصد»، وقد شاع: «خير الأمور أوساطها».

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي



الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٦ | ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
فبراير ٢٠١٥ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبوراوش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر- شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها .

المحتويات

كلمة العدد

يوم اللغة العربية

احتفل العالم العربي والإسلامي باليوم العالمي للغة العربية، الذي يصادف يوم ١٨ ديسمبر من كل عام، وهو التاريخ الذي أقرت فيه الأمم المتحدة إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية ولغة العمل بالأمم المتحدة. فبعد جهود بذلت منذ خمسينيات القرن الماضي، قرر المجلس التنفيذي لليونسكو في أكتوبر ٢٠١٢م تخصيص يوم ١٨ ديسمبر يوما عالميا للغة العربية، واعتماد اليوم العالمي للغة العربية كأحد العناصر الأساسية في برنامج عملها لكل سنة.

لقد كان السلف الصالح يعتبرون اللغة العربية لغة القرآن الكريم فهي أعظم اللغات، وهي لغة الحبيب المصطفى ﷺ، وهي أجمل اللغات، وهي لغة أهل الجنة، حتى بات تعلم العربية محورا مهما للمفسر والمحدث والفقيه لإتقان علمه.

وقد نزل القرآن الكريم بذات ألفاظ العرب، ولكن إعجازه في تفرده في اختيار نظم قرآني غير مألوف، مما جعل الأقوام يتحيرون في وصف القرآن، فهو ليس كلام جان ولا إنسان.

ووفق برنامج «العربية للجميع» غير الربحي لنشر العربية، فإن تقديرات الأمم المتحدة تشير إلى أن عدد المتحدثين باللغة العربية كلغة أولى يبلغ اليوم ٢٧٩ مليون نسمة، يضاف إليهم ١٣٠ مليونا يتكلمونها لغة ثانية.

وتتوقع التقديرات نفسها، أن يتحدث بها عام ٢٠٥٠م نحو ٦٤٧ مليون نسمة كلغة أولى، أي ما يشكل نحو ٦,٩٤ في المئة من سكان العالم.

إذن اللغة العربية في نمو مستمر، وتحتاج إلى الكثير للحفاظ عليها ونشرها بين الأمم. لذا، ينبغي بناء مجتمعات لغوية، قليلة أو كثيرة، تتحدث وتتعامل بالفصحى فيما بينها.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

القرآن الكريم وحوار الأفكار

د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

لعل من أفضل ما يناط بالعقل العربي والإسلامي تعلمه من القرآن الكريم في اللحظة الحضارية الراهنة، الكيفية السليمة للانخراط في حوار فكري ومعرفي مع من ينتقد حضارتنا، وثقافتنا، ولغتنا، وديننا، وطرائق تفكيرنا - من كتّاب ومثقفي الحضارات الأخرى.. إذ الملاحظ أن فضاءنا الثقافي لم يتعامل مع العديد من الأطروحات الفكرية والثقافية التي تمسنا من قريب أو من بعيد بآليات ناجعة وأساليب مثمرة بالقدر الكافي؛ فمازال أسلوب تناولنا لأفكار الآخرين بحاجة ماسة إلى المزيد من الدراسة المتأنية والتحليل الموضوعي السليم.. ولعل ما حدث إبان ظهور ردود أفعال ثقافتنا المعاصرة على ما طرحه «صمويل هنتنجتون» في «صدام الحضارات» يظهر هذا المعنى ويؤكده؛ إذ تبين أن مسافة مازالت موجودة بيننا وبين التناول الواعي الخلاق لرؤى الآخرين وأفكارهم، وبالتالي لم نتمكن من التعامل مع رؤى الآخرين وتصوراتهم بشكل إيجابي وفعال.. فقد اتسمت ردود أفعال ثقافتنا حول ما طرحه «هنتنجتون» بالعاطفية، والانفعالية، والخطابية، إلى حد كبير.

والراصد للحركية الفكرية في عالمنا العربي والإسلامي وقتذاك يتبين له غياب الخطاب التحليلي والرؤية المنهجية في تناول هذه القضية، وتغلَّب الخطاب المعتمد على المهارات اللفظية والمماحكات الفكرية التي تتوقف عند القشور دون ملامسة جوهر الموضوع ومكنونه ومحتواه.. والدليل على ذلك أننا لم ننجز رؤية فكرية متكاملة تتسم بالنسقية والمنهجية في الرد على الأفكار والرؤى والتصورات التي طرحها هذا الكاتب الذي كان مغمورا قبل نشره لهذه الأطروحة.. لقد جاءت الردود التي أفرزتها زوبعة «صدام الحضارات» أشبه بمجموعة من الأفكار المتناثرة، أو المقتبسة من هنا وهناك، واختفى الموقف الفكري القائم على أسس واضحة من التحليل المعتمد على أساسيات البحث ومنهجيته.

واللافت أن يكون هذا حالنا في الوقت الذي نمتلك فيه تراثا فكريا ضخما، به العديد من المؤلفات والمراجع التي تتحدث عن منهجية الجدل والحوار مع الآخر.. وفيه



العديد من المؤلفات التي تحض على الوعي النقدي، وتتحدث عن أصول التباينات الفكرية ومبادئها وأخلاقياتها!.

وإذا كنا نهدف - كأمة - إلى أن تكون لدينا المقدرة الفعالة على التواصل الفكري والحوار الجدلي مع مَن هم من خارج إطار حضارتنا، فإن الأمر يقتضي الالتزام بمجموعة من الأسس والعوامل التي تكون في مجملها منهجا متكاملا يساعدنا على محاورة الآخرين وممارسة الوعي النقدي معهم، بما يساهم في إجلاء الحقائق وتوضيح الأمور.. هذا المنهج يرتكز على مجموعة من الأسس وردت في القرآن الكريم، ونشير إليها على النحو التالي:

أولا: التعامل مع النقد بسعة أفق وروية

فمن طبيعة العقل الواعي أنه غير متسرع، بالتالي فهو لا ينفعل، ولا يغضب إذا دخل في حوار مع الآخرين.. ولقد أعطى القرآن الكريم درسا للبشرية جميعا، وليس للمسلمين وحدهم، في سعة الصدر ورحابة الأفق، عندما طلب من النبي ﷺ أن يعرض عن الذين يخوضون في آيات الله حتى ينتهوا عن هذا الأمر تماما، موضحا أنه لا جناح عليه في مخالطتهم بعد ذلك إذا انتقلوا بالحديث إلى موضوعات أخرى.. يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (الأنعام:٦٨).

إلى هذا الحد بلغ الحلم والصبر على المتطاولين والمنتقدين للإسلام.. إن كل ما يطلبه القرآن الكريم هنا هو أن يعتزل المسلم مَن يخوض في آيات الله تعالى؛ حتى ينتهي عن ذلك وينشغل بأمر آخر، ولا مانع ساعتها من مخالطته والتعامل معه في إطار الثوابت الإسلامية - التي جاءت في القرآن الكريم وأوضحتها السنَّة النبوية المطهرة - للتعامل مع الآخر.

والحق أن القرآن الكريم أسس لقاعدة مهمة في هذا السياق، وهي اللجوء إلى الهدوء والسكينة في حالة قيام الآخرين بطرح ما يتعارض مع موروثنا وثقافتنا من أفكار وآراء وتصورات.. إنه الهدوء الذي يجعل الإنسان ممتلكا لزمام أمره، ولا يفقده صوابه أو عقلانيته.. كي ما يتمكن من التفكير الهادئ، ويستطيع الدخول في حوار رصين ينطلق من أسس متفق عليها، وينتهي إلى نتائج يفرزها الانتقال المنطقي المنظم من فكرة إلى أخرى.

والحق أن الآية التي أشرنا إليها سابقا تقع في سورة «الأنعام»، وهي مكية، حيث لم يكن المسلمون من القوة بحيث يردعون من يتطاول على دينهم وعقيدتهم.. غير أن القرآن الكريم اتخذ الموقف نفسه حيال نفس الأمر عندما حدث والمسلمون بالمدينة المنورة، وكانوا يمثلون القوة العظمى بها، بل إن القرآن الكريم ذكّرهم بأن هذه القضية سبق معالجتها من قبل، قال ربنا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ (النساء:١٤٠).

وإذا كان الله تعالى قد أوقف الأمر عند حدود عدم مجالسة من يخوض في آياته تعالى، وطلب منا أن نقيم معه «مقاطعة مؤقتة» حتى ينتقل إلى حديث غيره؛ فذلك يتوافق تماما مع المنهاج الإسلامي الذي يقوم على جواز التواصل مع غير المسلم، ما لم يسع إلى حربنا أو إخراجنا من ديارنا أو ديننا، قال العزيز الحكيم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة:٨).

من هنا فإن المنهج القرآني على توافق تام - لأنه تنزيل من رب العالمين - فيما يتعلق بالموقف من الرؤى النقدية التي يطرحها الآخرون، من حيث أنه لابد من التعامل مع تلكم الرؤى والتصورات من خلال ذهن متفتح وعقل مستنير متسامح غير متشدد.. ولا يجوز للمسلم تجاوز مرحلة «المقاطعة المؤقتة» هذه إلا إذا تخطت الأمور حدود النقد إلى محاولات المحاربة في الدين أو الإخراج من الوطن.

وإذا كان الإسلام الحنيف قد انتهى إلى ضرورة محاربة من يحارب المسلمين في دينهم وأوطانهم، فإنه يتفق في ذلك مع كل الدساتير والقوانين التي تعارفت عليها الأمم واتفقت عليها الحضارات، فلا يوجد دستور أو قانون في الدنيا كلها يمنع الإنسان، أي إنسان، من الدفاع عن وطنه ومعتقداته، بل إن القوانين المعمول بها دوليا تعاقب من يتخاذل في الدفاع عن هذين الأمرين، الدين والوطن.. من ثم فلا مجال للتطاول على تشريعات الإسلام الحنيف من هذه الناحية، بحجة أنه أجاز القتال. ومن هنا أقرت المنظمات الدولية الدفاع المسلح من أجل تحرير الأوطان، وتم إقرار الحرية الدينية التي تعطي لكل إنسان الحق في أن يعتنق ما يشاء من الأديان، وهذا الأمر يتفق شكلا وموضوعا مع التصور الإسلامي الذي أكد حرية الاعتقاد من خلال قول العزيز الحكيم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦).. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

ثانيا: استيعاب ما عند الآخر

الحق أن مما يلاحظه الراصد لما يحدث في ثقافتنا عند وجود نوع من الحراك الفكري أن ثمة تعجل - لدى البعض - في الرد على من وجه إلينا سهام نقده.. وهذه نقطة لها أهميتها، لأنه لكي تحسن الرد على أحد فلابد أن تحسن استيعاب ما عنده من أفكار.. إن التعجل عادة ما يكون مصحوبا بحماس وحسن نية، لكن هذه الأمور ليست ناجعة في محاجة الآخرين ومناقشة أفكارهم.. لابد إذن من التؤدة، والتروي، والدرس، والتحليل.. ولا مانع من أن نبدأ الحوار بأن نبين للآخر ما فهمناه من مقصوده، ونشرح رؤيته كما وصلتنا كي ما يكون على ثقة من أننا استوعبناه وأدركنا أهدافه ومراميه.. على النحو الذي فعله الإمام «أبوحامد الغزالي ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م» الذي شرح «مقاصد الفلاسفة» في كتاب خاص قبل أن يرد عليهم في «تهافت الفلاسفة» (١).

والحق أنه يتبين للمتأمل في كتاب ربنا أن القرآن الكريم يذكر قول المنتقدين - للوحي المنزل - أو شبهتهم قبل أن يرد عليها.. وهذا أمر لا نقف عليه في أية حضارة أخرى، فمن ذا الذي يعطي خصمه الحق كاملا لدرجة أنه يذكر له شبهته، ويذكر له حجته التي يحتج بها، قبل أن يقوم هو بدحضها والرد عليه؟

لقد مارس القرآن الكريم ذلك ليعطي للآخر حقه في إبراز ما عنده من أفكار وتصورات حول القضية الإيمانية.. وهذا ظاهر في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، وإليك بعض الأمثلة:

أ - لقد زعم بعضهم أن الرسول ﷺ يتعلم القرآن من شخص آخر، وفي هذا نفي للوحي وتكذيب للنبي ﷺ، فقال تعالى مثبتا ومبرهنا على تهافت عقولهم وتفاهتها: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل:١٠٣).. وهكذا ساق القرآن الكريم ردا منطقيا، قضى به على حجتهم وأبطل به زعمهم، من دون أن يغمطهم حقهم في التعبير عن رأيهم، حتى وإن كان من الآراء الباطلة والمزاعم المدحوضة.

ب - ولأنهم لم يستوعبوا فكرة الوحي بشكل سليم فقد زعم بعضهم أن القرآن الكريم ليس منزلا، بل هو أضغاث أحلام، أو كلام مفترى على الله تعالى، أو شعر.. وتناول القرآن الكريم هذه القضية بمنتهى الوضوح والشفافية، فعبَّر عن رأيهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء:٥).. ثم عادوا فاتهموا الرسول ﷺ بأنه شاعر مجنون، وذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ (الصافات:٣٦).. وأورد القرآن الكريم قولا آخر لهم في نفس المعنى، حيث قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ (الطور:٣٠).

إلى هذا الحد أعطى القرآن الكريم الآخرين حقهم في أن تطرح وجهة نظرهم، وينزل بها نص قرآني يتعبد به.. الأمر الذي يؤكد لنا ارتقاء وسمو المنهج القرآني في التعامل مع المنتقدين، ويؤكد من جهة أخرى مدى تسامحه معهم وصبره عليهم، ويبرز أيضا حرصه الشديد على أن يواجه الفكر بالفكر، وليس بأية وسيلة أخرى.

ج - وكان مما ادعوه وزعموه أيضا أنهم وصفوا القرآن الكريم بالسحر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ (الأحقاف:٧-٨).

والحق أنهم وصفوا القرآن بالسحر لأنه يؤثر في نفس وعقل وروح من يسمعه تأثيرا كبيرا، فبدلا من أن يعترفوا بأنه كلام معجز منَزَّل من السماء وليس من أقوال البشر؛ ذهبوا يدعون أنه من أقوال السحرة وأفعالهم، متأثرين في زعمهم هذا بثقافة السحر والسحرة التي كانت منتشرة في بيئتهم.

ولنا أن نرد على هذه الفرية من خلال نقطتين، هما: أولا: لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن القرآن الكريم حريص طوال الوقت على رفض تلك الترهات والخرافات!. ثانيا: إذا كان القرآن الكريم سحرا فلماذا لم يسحر كل مناهضيه ومعارضيه؟ أم أنه كان سحرا على مجموعة من الناس وليس سحرا على الآخرين؟!.

د - ومما عرضه القرآن الكريم من ادعاءاتهم أيضا أنهم لما قرأوا القرآن ووجدوا فيه بعض السجع، ذهب جماعة منهم إلى الزعم بأن القرآن سجع وكهانة؛ مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ (الطور:١-٤).. فرد القرآن الكريم على هذا الزعم بقول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحاقة:٣٨-٤٢).. وورد في هذا المعنى عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الطور:٢٩)..

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (التكوير:٢٥).. ورد ربنا سبحانه وتعالى على هذا الادعاء بما يدحضه ويظهر ضعفه وسذاجته قائلا ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ (الشعراء:٢١٠-٢١٢).. ثم يوضح القرآن الكريم أن الشياطين لا يتعاملون إلا مع نوعية معينة من البشر: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (الشعراء:٢٢١-٢٢٣).. فالشياطين كذبة ويتعاملون مع الأفاكين والكذبة أمثالهم.

هـ - ومما أبرزه القرآن الكريم من دعاويهم الواهية وطلباتهم الطائشة - أيضا - ما ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢).. وفي نفس الآية رد الله تبارك وتعالى قائلا ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان:٣٢).. فالعلة في نزوله منجما هي أن يتم تثبيت قلب النبي ﷺ به في مواجهة ما يتعرض له من محن ومصاعب.. وثمة علة أخرى تتعلق بارتباط القرآن الكريم بمعالجة كل واقعة حال حدوثها، وهي أنه لو نزل القرآن الكريم كله مرة واحدة لتعجبوا من كثرة موضوعاته وتعدد قضاياه، وأنكروه واعترضوا عليه.

والخلاصة هنا: أن القرآن الكريم بلغ الذروة في النزاهة في عرض فكر خصومه ومنتقديه ليعلّم الناس جميعا أن الحوار الهادئ المستنير هو الآلية الوحيدة الناجعة في تمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ.

ثالثا: القدرة على نقد الذات

من الأسس التي نرى أن يقوم عليها علم «نقد الأفكار» هو أن يقوم الحوار الفكري على استعداد الذوات المتحاورة للاعتراف بوجوه التقصير لدى الأنا، إن وجد، مع الاستعداد أيضا للاعتراف للآخر بحقه ومكانته.. غير أنه يتبين للراصد للكتابات - شبه السجالية - التي تنتجها مطابعنا وبعض المطابع الغربية أو الشرقية على السواء- أن بعض الكتاب سواء من هنا أو من هناك يتبنون وجهة نظر مفادها أن الأنا هي الأفضل دائما، وأن الآخر هو المسؤول عن كل شيء غير مقبول وغير حضاري.. فهناك من الأقلام الغربية من لا يكف عن التذكير بأن العرب حَمَلٌ على الحضارة، وأن الغرب هو من ينتج لهم كل متطلبات حياتهم، ويزعم بعضهم أن الفكر والإبداع غربي في القديم والحديث.. وبالمقابل منا أناس يطنطنون طوال الوقت بمسؤولية الغرب عن تخلفنا، بسبب نظرته الاستعمارية لنا ولثرواتنا.. ويتهمون الغرب بأنه يحتكر التكنولوجيا، ناسين أو متناسين عدة أمور:

أ - أن الغرب لا يحتكر التكنولوجيا بدليل أن مجتمعات شرق آسيا قد نجحت إلى حد كبير في اكتساب العلم والتكنولوجيا، وأضحت تمتلك مستويات متقدمة من الاقتصاد والمعرفة، بما يتيح لها أن تتنافس مع دول الغرب الأوروبي، وربما تتفوق عليها.

ب - عجزنا وتقصيرنا نحن عن الوصول إلى التكنولوجيا، سواء كان ذلك بسبب قصور في تنمية القدرات الإبداعية في طرق التعليم ببلادنا العربية والإسلامية، أم بسبب كسلنا واعتمادنا على الآخر!.

ج - إن أحدا لن يتصدق علينا بالمعرفة العلمية.. من ثم فلابد من بذل الجهد والعرق والمال من أجل الوصول إلى المفتاح السحري للتكنولوجيا، إذا أردنا أن نكون من الأمم التي تسمع لها كلمة ويؤخذ لها رأي في قضايا العالم ومسائله.

والحق أن تاريخ ثقافتنا زاخر بما يفيد أننا أمة تعترف لغيرها بالفضل، إذا كان له ذلك، فـ «ابن رشد» -مثلا- ذهب إلى أنه علينا أن نطلع على ما عند غيرنا، فإن وجدنا فيه خيرا أفدنا منه وشكرناهم عليه، وإن كان غير ذلك تركناه وعذرناهم (٢).

الخلاصة

والخلاصة أن التناول الحقيقي لقضية حوارية يجب أن يتسم بالموضوعية، والموضوعية تعني عدم السعي نحو تبرئة الذات ومدحها والتغني بأمجادها طوال الوقت، بل تعني التحليل العلمي السليم، القائم على أسس معرفية تنطلق بالدرجة الأولى من الوعي بهدف النقد والتحاور بين الطرفين، وبأن المصلحة يجب أن تكون متبادلة.

إن عالمنا المعاصر بات متداخلا تداخلا شديدا، والأفكار تنتقل من هنا إلى هناك من دون تصريح ولا استئذان.. بالتالي فعلينا أن نسعى لامتلاك آليات فكرية تتيح لنا التواصل الواعي مع الجميع، الأمر الذي يجنبنا الانكفاء على الذات، وينجينا من الاستلاب الحضاري.

الهوامش

(١) ألف الإمام أبوحامد الغزالي كتاب «مقاصد الفلاسفة» ليبين أنه فهم فلسفتهم وأفكارهم على هذا النحو.. ولقد وفق الغزالي في ذلك كثيرا لدرجة أن بعضهم قال إن الغزالي شرح آراء الفلاسفة أفضل من شرحهم لها، ثم عمد بعد ذلك إلى الرد على أفكارهم في كتاب آخر سماه «تهافت الفلاسفة»، والكتابان مطبوعان بدار المعارف بمصر.

(٢) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تحقيق د. محمد الشحات الجندي، ص١٠.

وزير الأوقاف والعدل الأسبق الجسار.. في ذمة الله

التحرير



فقدت الكويت منذ أيام عدة رجلا من رجالاتها الكبار، الذين تركوا للأمة الإسلامية سيرة عطرة، وتركوا بصمة ناصعة في تاريخ الكويت وحاضرها، إنه القاضي خالد أحمد الجسار، الذي رحل عن عمر ناهز ٧٨ عاما، تاركا أثرا طيبا ومثالا يحتذى في العدل والنزاهة كأول قاض كويتي يحصل على شهادة الشريعة والقضاء من الأزهر الشريف، وأول من اعتلى منصة القضاء في الكويت.

مولده ونشأته

ولد الأستاذ الكبير خالد أحمد الجسار عام ١٩٣٦م ، ودرس في صغره في المدرسة المباركية، والأحمدية، وكان متميزا بين أقرانه، وشهد له أساتذته بالنبوغ والتميز والجد والنشاط، ودعوا له بالخير وشجعوه. وشارك خلال سنواته الدراسية بالمباركية في تقديم المسرحيات المدرسية التربوية الهادفة، ومنها رواية «عبدالرحمن الناصر». ورواية «عمرو بن العاص»، وإلى جانب ذلك كان يهوى لعبة كرة السلة وألعاب القوى ضمن فريق المدرسة المباركية.

تحصيله العلمي

وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في الكويت؛ شد رحمه الله رحاله إلى القاهرة ليستكمل تحصيله العلمي ودراسته الجامعية في الأزهر الشريف، حيث كان يميل إلى دراسة الشريعة الإسلامية والقانون.

سار الراحل في الدراسة التي رغب فيها بجد ونشاط، والتقى خلال سنوات دراسته في

المرحلة الجامعية الأولى بكبار العلماء وتتلمذ عليهم وسمع منهم، وأخذ منهم العلم والخبرة وفن التعامل مع الآخرين.

أنهى المرحلة الجامعية وتخرج في كلية الشريعة والقانون، وكان متميزا كعادته بين أقرانه، ولم يكتف رحمه الله بهذا التحصيل الجامعي؛ ولكنه تطلع إلى الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه.

وفعلا بدأ دراسته في تخصص أصول الفقه وأكمل فيه سنتين، لكن في عام ١٩٥٢م طلب منه الشيخ يوسف بن عيسى رحمه الله تعالى أن يحضر إلى الكويت، وذلك خلال رسالة قال فيها الشيخ يوسف: «.. إن الشيخ عبدالله السالم الصباح يطلب منك الحضور إلى الكويت للالتحاق بالقضاء مادام قد أنهيت دراستك الجامعية».

العودة إلى الكويت

لبى الشيخ الجسار رحمه الله هذه الرغبة السامية لسمو الشيخ عبدالله السالم الصباح رحمه الله، وعاد إلى الكويت خادما لبلده؛ ليلتحق بسلك القضاء كأول كويتي يجلس على منصة القضاء، وعمل خلال هذه الفترة بمجهود غير عادي، وأولى هذا المنصب كل وقته وجهده، بالتعاون مع العلماء والمخلصين، وبقي رحمه الله في منصبه وتدرج فيه حتى ٦ ديسمبر من عام ١٩٦٤م، وكان خلالها مثالا يحتذى في إحقاق الحق والنزاهة والعدل.

أعماله وإنجازاته

من أهم المناصب التي أوكلت إليه رحمه الله بعد عودته إلى الكويت:

- أول قاض في الكويت من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٤م.
- وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية من عام ١٩٦٤م حتى ١٩٦٥م.
- وزير العدل من عام ١٩٦٥م إلى ١٩٧٥م.
- وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، مرة ثانية، من عام ١٩٨٥م حتى ١٩٨٨م.

الجدير بالذكر أن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تمتعت خلال فترة إدارته بالنشاط العلمي وطباعة المصنفات التي عادت على الأمة الإسلامية بالخير والنفع، ووسع عمل الوزارة من خلال استحداث بعض الإدارات والمكاتب التي تخدم الدعوة والعمل الخيري في الكويت والعالم الإسلامي.

وإن مجلة «الوعي الإسلامي»، متمثلة برئيس تحريرها، وأسرة التحرير، والعاملين فيها، تتقدم بخالص تعازيها للأمة الإسلامية عامة، وللكويت وأسرة الفقيد خاصة، بوفاة علم من أعلام الخير، ورمز من رموز المعرفة.

هذا... وتفخر مجلة «الوعي الإسلامي» بأن الفقيد الكبير رحمه الله هو أول وزير أشرف عليها منذ نشأتها، فاعتنى بشؤونها، وكان يسهل الأسباب لإخراجها، وكان له جميل الأثر على مسيرتها، كما كان متشوقا لرؤيتها تنتشر في أرجاء العالم الإسلامي، لتقدم للأمة الإسلامية مادة علمية واجتماعية، تبث من خلالها تعاليم ديننا الحنيف في أرجاء المعمورة، ومما قاله في بداية انطلاقتها:

«... وكم أنا مسرور لنجاح مشروع المجلة، ولاشك أنني في شوق لاستقبال العدد الأول منها... وآمل إن شاء الله أن يكون محققا لما رجوته».

وبرحيله رحمه الله فقدت الأمة الإسلامية عامة، والكويت خاصة، رجلا معطاء، لم يبخل بجهده ووقته وخبرته في خدمة بلده؛ متمثلا بذلك قول القائل: «الجود بالمجهود؛ منتهى الجود».

رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وآجره على ما قدم لخدمة دينه ووطنه، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان.



كان معالي الشيخ خالد أحمد الجسار وزيرا للاوقاف قبل أن تسند اليه وزارة العدل من عدة شهور ، واثناء ذلك عمل على أن تصدر الاوقاف مجلة دينية ، وأخذ موافقة من مجلس الوزراء بتاريخ ٦٤/٩/٢٨ باستثناء وزارته من القرار الصادر بتاريخ ١٩٦٤/٢/١٠ الخاص بايقاف المجلات التي تصدرها الجهات الحكومية ، والتصريح لها باصدار مجلة دينية .. فكانت مجلة « الوعى الاسلامى » التى تسعى اليك الآن .

لذلك رأت المجلة أن تجرى حديثا مع معاليه فرحب وهو مسرور بمشروعه الذى سار فى طريقه الى النور .

قلت لمعاليه : كنتم أول من عمل على اصدار مجلة دينية فى الكويت فما الدوافع التى أوحت اليكم بهذا العمل ؟

قال سيادته : عندما عينت وزيرا للاوقاف أخذت أستعرض ما تؤديه الوزارة من رسالة للمجتمع ، فتبين لـي أن أعمالها منحصرة داخل نطاق « روتيني » يمكن ايجازه فى الاشراف على الاوقاف وتحصيل ريعها واحالتها بدورها للجهة المختصة ثم اعطاء الموظفين رواتبهم .. مع الاشراف على المساجد .. مما حدا بانطلاق كثير من الاصوات الى المناداة بجعلها ادارة تابعة لوزارة العدل ، ولكن كانت هناك أصوات أخرى تؤمن بالاصلاح وتنادى بضرورة بعث الروح فى وزارة الاوقاف لتنهض برسالتها الحيوية فى مجتمعنا .

وكنت ولا زلت من الذين يؤمنون بأن وجود وزارة الاوقاف فى البلاد أمر تحتمه الضرورة للحفاظ على قيمنا الروحية ، واذا كانت وزارة الصحة قد وجدت فى البلاد لرفع المستوى الصحى بها ، ووزارة التربية والتعليم وجدت للأشراف على تربية النشء وتعليمه ، فوزارة الاوقاف تأتى فى المرتبة الاولى من ضرورات البلد ، لانها ذات رسالة روحية تعمل على نشر الثقافة الاسلامية وخلق جيل قوى من الشباب المسلم المؤمن بربه ووطنه .

وعالمنا اليوم عالم تغزوه الافكار الدخيلة ، وتتصارع فيه مبادىء طارئة ،

٨

معالي الشيخ خالد أحمد الجار
وزير العدل
يتحدث عن ميلاد أول مجلة دينية في الكويت

وهى وان كانت غريبة علينا باعتبارنا أمة اسلامية أصيلة الا أنها تعمل عملها بلا شك فى بلبلة الافكار وزعزعة العقيدة ، ما لم يكن هناك مجهود لصد تيارها وتبديد آثارها ، ونحن أمة ذات رسالة خالدة جاء بها القرآن الكريم ، فاعلن الاخوة العالمية بجانب الاخوة الدينية ، ورفع من مستوى النفس الانسانية ، وأقام دعائم العدالة الاجتماعية بين الحاكم والمحكوم وبين الضعيف والقوى ، والفقير والغنى ، والرجل والمرأة ، وأشاع فى المجتمع معنى التكافل الحق الذى تشيع فى كل نواحيه معانى الحب والسعادة والطمأنينة والسلام .

اذن فالدين ركيزة قوية فى دفع كل ما هو خطر على الانسان وخصائصه ومميزاته ، والانسان لن يستطيع أن ينعم فى هذا الكون الفسيح بالرفاهية والسعادة الحقة ما لم يكن على جانب كبير من الحفاظ على قيمه الروحية .

والامة العربية ـ كما نعلم ـ دينها الاسلام ، وهو روحها الذى لا يمكن أن تعيش بدونه ، وهو مصدر سعادتها وسبب نهضتها من كبوتها ، وهو الذى فتح أمامها الآفاق ، ودفع بها الى اقصى المشرق والمغرب تحمل رسالة السماء الى الارض ، رسالة الحق والعدل والاخاء والمساواة ..

هذه الحقائق لا ينازع فيها منازع .. لكن الحقائق لا بد لها من جنود ينهضون بها ويحمونها من المعتدين عليها ، واذا كانت كل وزارة من وزارات الدولة لها رسالتها الخاصة وان كانت تتلاقى كلها فى خدمة المجتمع والنهوض به ، فان وزارة الاوقاف عندنا قد فرضت عليها ظروف الحياة أن تنهض بالرسالة الروحية وتعمل على تدعيم القيم الدينية فى النفوس .

وهذا هو الذى دفعنى ، حين أسندت الى هذه الوزارة ، الى وضع مخطط شامل لاجهزتها يهيئها للنهوض برسالتها كما يجب ، وفى طليعة هذه الاجهزة جهاز الدعوة ، فأنشأت ادارة الدعوة والارشاد وجعلت فى مخططها اصدار مجلة تحمل رسالتها وتوضح أهدافها ، وتساهم فى نشر الثقافة الاسلامية فى الداخل والخارج .

البقية على ص : ١٧

... وع المجلة ، ولا شك أنني فى شوق لاستقبال ... الله ان يكون محققا لما رجوته .

... الشكر والتقدير ما لاقته فكرة المجلة من ... من حكومة صاحب السمو أمير البلاد حفظه ... مزيد من هذا التأييد والعون لتؤدى رسالتها كما يرجو كل مخلص لدينه ووطنه .

فقلت لمعاليه : وهذا يدعونا الى ان نسألكم عن المنهج الذى تختارونه لها وقد اطلعتم على كثير من المجلات الدينية التى تصدر فى البلاد الاسلامية ..

فقال سيادته : ان صدورها فى الثوب الذى أحبه ليس بالشىء الهين الميسور وأنا من الذين يؤمنون بتطور الاشياء ، وأن كل نقص يمكن تداركه ما دام هناك ايمان وعزم وتصميم ، وذلك كله لا ينقصكم والحمد الله .

وأنا أعرف أن كبار الكتاب فى العالم الاسلامى قد لبوا الدعوة للمساهمة فى الكتابة بها مشكورين .. وآمل أن يكون النهج الذى تنهجه مجلتنا الجديدة ((الوعى الاسلامي)) بعيدا عن كل ما يعكر صفو رسالتها ، وأن يكون رائدها الحق ترفع صوته ، وتذود عنه بكل صراحة ووضوح ، وأن تعرض الاسلام فى ثوب قشيب محبب للقراء ، وأن تساهم فى النهضة الفقهية التشريعية التى يتطلبها مجتمعنا ، وأن يعالج كتابها مشكلاتنا الجديدة على هدى من الشريعة حتى يمكن ايجاد حل لهذه المشكلات ..

قلت لمعاليه : هذا أمر مهم جدا فلم تعد المسألة الآن مسألة ترديد امجاد تاريخية فقط .. بل يجب ان نخطو كذلك للامام ونعمل لنضيف امجادا الى امجاد فى كل مجال من مجالات الحياة ..

ثم قلت لسيادته : هل راعيتم فى مخططكم حين فكرتم فى اخراجها ان تقوم بنصيب فى تثقيف المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية ؟

قال : نعم . فأنا أعرف طبعا أن كثيرا من المسلمين لا يعرفون العربية وفى حاجة الى وعى اسلامي سليم ، ومن واجبنا أن نلبي حاجة هؤلاء الاخوان ومن أجل هذا راعيت فى مخططى للمجلة ولادارة الدعوة ، أن تقوم بنصيبها فى هذا المجال ، وآمل أن يتحقق هذا المخطط على يد المسئولين الآن فى الوزارة ، وأن تتم ترجمة بعض الموضوعات الهامة التى بين دفتيها تعميما للفائدة ، وتحقيقا للهدف المنشود ، حتى تكون الكويت قد ساهمت بقسط فى هذا المجال ..

قلت لسيادته : هذا امر طبيعى لا بد للمجلة ان تقوم به . وقد كان بودى ان يصدر العدد الاول منها محققا لهذا الواجب لولا ظروف خارجة عن الارادة حالت بيننا وبين ذلك ، لكني آمل ان يتحقق هذا فى المستقبل باذن الله وعونه .. وذلك بالاضافة الى ما يقوم به قسم النشر والترجمة بالوزارة من ترجمة بعض الكتب للغات الحية ، وقد بدأ بترجمة كتاب « شبهات حول الاسلام » للاستاذ محمد قطب وقطع شوطا كبيرا فى الترجمة .

قال سيادته : هذا ما نرجوه وأسأل الله العلي القدير ان يحقق لهذا الوليد الجديد التقدم والاستمرار والتوفيق . وتحياتي وتقديرى لكل من ساهم ويساهم فى تدعيمها وأعان ويعاون فى اخراجها والنهوض بها .. وجزى الله الجميع خير ما يجزى به العاملين المخلصين ..

د. محمد الحملاوي، أستاذ هندسة الحاسبات الآلية:

تعريب العلوم .. السبيل العملي لتعزيز هويتنا

حوار: محمد ثابت توفيق

الدكتور محمد يونس الحملاوي، أستاذ هندسة الحاسبات بكلية الهندسة جامعة الأزهر، قامة علمية عربية وعالمية، تشهد بهذا الموسوعات التي احتفت به، من موسوعة الشخصيات العالمية البارزة الأمريكية من عام ١٩٩١م حتى عام ١٩٩٩م، وموسوعة الشخصيات العالمية البارزة في العلم والهندسة الأمريكية أيضا من عام ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٩م، وعدد آخر من الموسوعات الإنجليزية والأمريكية، اللائقة بعلمه ونيله أعلى الدرجات العالمية في مجال نادر كان الأسبق إليه في عصره، إذ نال ماجستير الهندسة الكهربائية، هندسة الحاسبات، من كلية الهندسة بجامعة جنت ببلجيكا، ودكتوراه هندسة الحاسبات من نفس الكلية عام ١٩٧٦م، بعنوان نظام حاسب دقيق قياسي بإمكانات تشخيصية، فيما آثر أن يتجه بعلمه لخدمة لغته وأمته عن علم ودراية، فنال دبلوم الدراسات الإسلامية من معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة عام ١٩٩٤م، ثم بكالوريوس الدراسات العربية والإسلامية من الجامعة الأمريكية المفتوحة بأمريكا عام ٢٠٠٤م، ومع عضوية الهيئات والمؤسسات والجمعيات العربية والعالمية أسس الجمعية المصرية لتعريب العلوم، وما يزال أمينها العام حتى اليوم.. كما نال جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي عبر بحثه تعريب العلوم سبيل عملي للنهوض باللغة العربية الفصحى، المشرف عليها مجلس الدولة المصري عام ٢٠٠٢م.



وفي هذا الحوار يفتح الدكتور الحملاوي صدره لـ (الوعي الإسلامي) عبر حوار ضاف عن مسيرته العلمية، وحبه للغة العربية، والفجوة التقنية التكنولوجية بين الوطن العربي والغرب اليوم، والاختلاف الجوهري بين الحضارتين العربية الإسلامية والغرب الآن، وسبل نهوض أمتنا من أزمتها اليوم.

• مسيرتك التعليمية المميزة بدأت من مصر، واختيارك الدقيق داخل قسم هندسة الكهرباء بكلية الهندسة من جامعة عين شمس، والتي التحقت بها عام ١٩٦٣م .. ويحمل من الصعوبة حينئذ الكثير.. ترى هل كان ذلك لأسباب معينة؟

– في الحقيقة إن والدي، رحمة الله تعالى عليه، كان له تأثير كبير في حياتي، فمحبتي الشديدة له، القائمة على عدم تدخله في اختياراتي، عمق من محبتي له، وأحببت السير على خطاه، فقد ولدت عام ١٩٤٧م في العاصمة القاهرة بمستعمرة الري بالأميرية، لأب يعمل مهندسا بوزارة الأشغال العمومية، ينتمي لأسرة عربية هاجرت إلى مصر مع الفتح الإسلامي لها، وتدرجت في التعليم مع نمو محبتي الشديدة له، وهو الأمر الذي أحب الهمس به في أذن كل والدين، اجعلوا أبناءكم يحبونكم، وهيئوا لهم سبل التفوق، ولا تتدخلوا بقسوة في اختياراتهم، أكبرت في أبي عدم توجيهه لي، فسرت على دربه، والتحقت بالقسم الذي ذكرته حتى تخرجت منه عام ١٩٦٨م، ولم يكن هناك قسم حاسب آلي آنذاك، فصممت على استكمال المسيرة في قسم الحاسب الآلي عبر التعليم العالي، إذ إن المسيرة التعليمية كانت قد بدأت فعليا بالنسبة لي بتخرجي، رغم عملي في وزارة المواصلات تكليفا من الدولة آنذاك، ولم يثنني عملي هذا عن آمالي العريضة، بل استطعت بتوفيق من الله تعالى استثماره.. عبر ما كان يعرف بالجهاز المركزي للتدريب في مصر آنذاك، وعبر دراستنا كمهندسين بالجهاز، وبالتالي نلت عبره منحة من المجلس البريطاني لدراسة دبلوم في إنجلترا عام ١٩٧٢م، وبعدها حصلت على منحة من جامعة جنت ببلجيكا، وكانت تخص الحاسبات الدقيقة، وكانت قد اخترعت فعليا عام ١٩٧٢م، فيما نلت الدكتوراه عام ١٩٧٦م.

من الخطأ الاعتقاد بنظرية المؤامرة في جميع مجالاتنا

حلم النهضة

• ألم تستهوك الحياة في الغرب حيث المسيرة التعليمية المميزة هذه، وسبلها، كما أعلم، كانت مهيأة تماما لك؟

– عملت بالفعل في ألمانيا الغربية كمستشار لشركة عالمية رائدة في نفس مجال الدكتوراه الخاص بي، وبخاصة في المعالجات الخاصة بتلك الحاسبات، إلا أن حبي الشديد لبلدي وأمتي دفعني للعودة، فقد كان الهدف الأسمى من دراستي أن أساهم بعلمي في نهضة بلدي وأمتي، عبر التخصص النادر الذي درسته، بخاصة أن دولا انتشلها نفس التخصص من هوة التخلف لمسار التقدم من مثل: سنغافورة، تايوان، ماليزيا، وما يزال لدي أمل في أن يقود تخصصي أمتنا نحو آفاق التقدم...

• عفوا.. لكن ماذا عن آفاق دخول أمتنا هذا المضمار من الأساس حتى يومنا هذا، وما آلية دور هذه التكنولوجيا في إحداث تقدم لبلادنا ومن ثم أمتنا؟

– بداية مع أسفي الشديد أقول إننا لم ندخل لهذا المضمار من الأساس، مضمار استخدام تقنيات الحاسب في الصناعات الإلكترونية الرقمية، عبر جميع الأجهزة الكهربائية وغيرها المستخدمة في حياتنا كلها، لتطويع تلك الأجهزة المستوردة غالبا من الغرب لاستخداماتنا، وتجاوز أمر البرمجيات الذي توقفنا طويلا عنده دون أن نصيب منه مبتغانا، وبالتالي توفير القدرة على الإنتاج في المصانع والهيئات وما شابه، وإتاحة المزيد من الاستخدام المناسب الفردي، والاستثمار المجتمعي الجماعي، في القطاع العام والخاص، فهذه التقنيات تدخل في الحاسبات كما تتدخل في عمل الثلاجة والغسالة والسيارة والمصانع، وهلم جرا، أي في حياتنا كلها فرديا، كما تدخل في الصناعات والمصانع جماعيا، ومن هنا يمكن استخدام كل هذه الأجهزة بل المصانع بذكاء وكفاءة أكبر، وهو الأمر الذي يحتاج منا إلى تعديل رقمي في المعدات حتى نستطيع الوصول إلى أقصى مدى مناسب لنا منها، وهو ما لن يفعله الغرب لنا عبر البرمجيات مع تركيزنا عليها طوال الوقت، إننا نحتاج للانتباه لما هو داخل الأجهزة وتطويره، لا لبرامج الكتابة فقط وما شابهها.. وهكذا فلا نحن حدثنا تلك الأجهزة بما يناسبنا تعديلا رقميا إلكترونيا يناسب التقنيات الدقيقة الحديثة العالمية، وانشغلنا بالبرمجيات فقط، وسبقتنا الهند مثلا، فيما كانت الفرصة متوافرة لدينا للحاق بهذا المضمار عبر شيئ من الإرادة، ولم تنتبه للأمر حتى القطاعات الخاصة في وطننا العربي، والأمر

يتفاوت على المستويين العربي والإسلامي، لكن متوسطه غير مرض مع أسف شديد جدا.. ولكن هذا لا يمنع أن الباب مفتوح للحاق بهذه الصناعات، والفرصة متاحة، لكن الصعوبة تزداد كلما تأخرنا، وهو ما آمل ألا يحدث بإذن الله.

نظرية المؤامرة

● البعض يرجع الأمر لفكرة المؤامرة الغربية من طرف خفي في البداية حيث لا يمدنا الغرب بالصناعات الثقيلة التي تكفل لنا التقدم التقني بخاصة في المجال الرقمي التكنولوجي للحاسب على النحو الذي أوضحته؟

- عفوا أريد أن أرد على السؤال بسؤال: ولماذا سيصدر لنا المنتج طريقة تصنيع سلعته هذه؟ فالسوق له قواعده، ومنها أن تشتري العدة أو السلعة لتستخدمها كما هي، لا أن يطورها المنتج لك، وأنت، بعد ذلك تستطيع أن تطور نفسك بنفسك، والعلم موجود في أشكال مختلفة، منها شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، والأمر لا يحتاج منك سوى الإرادة..

وفي الحقيقة فإنني لا أؤمن بفكرة المؤامرة هذه، فالأمر يتعلق بالمصالح، وتضاربها، بخاصة لدى أصحاب المصانع التي تدر دخلا خرافيا، فأصحابها ودولهم ينظرون إلى تطوير مصالحهم ليس إلا، لا خلق منافس لهم بإفشاء أسرار الصناعات المتقدمة، وهي أمور يجب أن نتفهمها إن لم نفهمها، نعم ليست كل المجتمعات ولا الأفراد كذلك، ولكنه النظام العام، وفكرة المؤامرة هذه تريحني من بذل المجهود، بل تجعلني أسلم بالفشل قبل بذل الجهد، والأمر غير هذا تماما، فسننجح عندما نريد ونبذل الجهد..

● ولكن اسمح لي فإن أمتنا لما سادت العالم لم تنظر إليه هذه النظرة الاقتصادية النفعية الجامدة العامة، إلا لدى من رحم ربي منهم اليوم، بل أمدتهم بسبل نهضتهم من بعد و مهدت الدرب لهم.. وهو ما لا يفعلونه معنا ولا شيىء منه على مدار تاريخهم معنا...

- رزقني الله تعالى بتأليف ٥ كتب علمية، و١٥ براءة تصميم، و٣٠٠ بحث منشور، و٣٠٣ مقالا منشورا في مؤتمر أو مجلة، أقول هذا لأن هذا الإنتاج لم يخص الصناعة أو تقنياتها فقط، بل تطرقت لمجالات مجتمعية وتنموية والإجابة عن هذا السؤال، في رأيي، تنبع من كون الحضارة الغربية تنطلق من أفق عقائدي خاص جدا نابع من (قانون أثينا) الذي يقول: إن من هم داخل أثينا يعاملون بقانون خاص بهم، عادل، وهو يختلف تماما عن القانون الذي يحكم به من هم خارج أثينا، وهو ما نجده، مع الأسف، في كثير من السلوكيات الغربية حتى اليوم، وأصبح من طبيعة تعاملاتهم معنا، وهذا لا يمنع أن هناك من ثاروا على هذا النهج من الغربيين ورأوا فيه ظلما بينا للبشرية، وأن المنجز البشري أكبر من أن يصاغ بهذه الطريقة، ومنهم أسماء كبيرة مثل الكاتب والمفكر نعوم تشومسكي، والراحل روجيه جارودي، وبرتراند راسل وتولوستوي، وغيرهم.. أما حضارتنا العربية الإسلامية فتعاملت بقيم عادلة عدلا مطلقا لأنها مستمدة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، في المقام الأول، وفي مقدمتها أن العدل مطلق وليس نسبيا مثل قانون أثينا، لذلك لم تعرف حضارتنا الاحتلال للآخر، ولا نهب الثروات، حتى إن النازية جاءت بنفس الفكر لكن برؤية أكثر آثينية وهي أن الجنس الألماني أفضل من الجنس الأوربي، فتمحورت النازية على نفسها أكثر..

أين هذا من عدالة وسماحة الإسلام في الأندلس، وفي نقل آفاق الحضارة للآخر، وإتاحة العلم للجميع إيمانا بأن الطرح العلمي يصب في صالح البشرية، وهو ما لا يقارن بقرار غربي اتخذ مؤخرا بعدم إتاحة المجالات العلمية الخاصة ببعض الصناعات المتقدمة لغير الغربيين.

● ومع هذا كله أفلح الغرب في بث أعوانه في بلادنا من المثبطين والراغبين في استمرارنا على وضعنا الحالي وبث روح اليأس من إمكانية نهضتنا وتقدمنا؟

- هذا هو مبدأ العصا والجزرة الذي يتبع مع بعضنا للأسف فيثمر لمصالح خاصة، دون مراعاة لله ومن بعده الضمير، وكلها خطط ينشرها الغرب عبر بحوث استراتيجية للسيطرة على مجتمعاتنا، ولكننا للأسف لا نحسن قراءتها، وفي ظل تجديد الخيارات للسيطرة على مقدراتنا، يجيىء الخيار الثقافي المر الوجع

على كل مخلص من أبناء أمتنا، وإن لم يستنكف عن نهجه البعض من أبناء أمتنا...

افتقادنا القدوة

• عفوا أحب أن ننتقل لمحور آخر حيث يرى بعض مفكرينا أن شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) تغني اليوم عن التداخل مع الغرب لشرح قضايانا وتقديم فكرنا له.. فهل توافق على هذا الرأي.. وبالتالي كوننا نضيع فرصة لا تعوض في هذا المجال...

- إنني لأختلف مع أصحاب الرأي السابق تماما، فهناك فارق بين المعلومة الناتجة عن القراءة، وبين المعرفة الناتجة عن القدوة، فالأولى موجودة قد يجيد التعامل بها وكتابتها كل شخص، وقد عشت في الغرب فترة كافية ولمست مدى تقييمهم لواقعنا المعاش ورؤيته على حقيقته، فيما التعامل الحضاري الإسلامي يعمل في نفوسهم فعل السحر تماما وإن ظل بصور فردية، فلابد من قدوة يريهم تعاليم ديننا حية قوية تسير على الأرض، وهذا لا يعني توقفنا عن خطاب الغرب بقدر ما يعني اهتمامنا بالجانب العملي من هذا التعامل.

لغتنا والحاسب

• ورحلة عشقكم للغة العربية الفصحى وأنت رائد في مزج الحاسب الآلي بها .. من أين بدأت .. وكيف ترى سبل نهضتنا من خلال تنميتها؟

- بدأت هذه المسيرة، بفضل الله تعالى، عام ١٩٧٤م حينما كنت في بلجيكا أحضر للدكتوراه، حيث عملت مستشارا هندسيا للتعريب في شركة أمريكية مقرها الأوربي كان في بلجيكا، من خلال المشروعات البحثية التى تأتي إلى الجامعة تتعلق بالصناعة، وقد أحببت هذا الأمر وحرصت عليه حتى بعد مجيئي إلى مصر، ومن هنا احتاج الأمر لدراسة اللغة العربية ونيل شهادتين في الدراسات الإسلامية والعربية، ليستمر عملي في مجال تصنيع الحاسبات وتطبيق تقنياتها فى مصر، والترجمة الآلية من الإنجليزية إلى العربية.. وجاءت الجمعية المصرية لتعريب العلوم عام ١٩٩٤م لتهدف إلى تعميق ممارسة اللغة العربية عبر العلوم المدرسة باللغة الإنجليزية في الجامعات، وبالتالي تعريب العلوم، وممارستها في الجامعات، ومن هنا شرفت بنيل جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي المصرية عام ٢٠٠٢م، وما زلت أرى أن تعريب التعليم والعلوم هو السبيل العملي للنهوض بممارستنا اللغوية، ومن ثم لغتنا العربية الفصحى، وأسهم في عقد مؤتمر سنوي وندوات عديدة في هذا المجال الذي يقربنا من تحقيق هويتنا، فالأمم المتحدة في تعريفها للهوية أقرت أن في مقدمتها اللغة لتعبر عن كيان وواقع، وهكذا عبر هذا الطريق وطرق أخرى أحاول أن أكون في ركاب من يسعون لنهضة وتقدم أمتنا...

• سؤالي الأخير يتعلق بالطرق الأخرى لتحقيق نهضتنا وتقدمنا...كيف تقيم الموقف منها بوجه عام بخاصة في مجال تعريب الحاسبات؟

- أؤكد أن انفصالنا عن قيمنا الحضارية أدى إلى موقفنا اليوم، إذ ليس لدينا مع الأسف منتج حضاري نقدمه، برغم أن قيم ديننا العظيم تدفعنا دفعا لنباري الغرب، ونساهم في التقدم العالمي، وديننا ليس دين تواكل، بل أمرنا أن نكون في صدارة الأمم، وهكذا يتقاعس الأفراد عن أداء دورهم اليوم، فتراوح الأمة مكانها، فلا تبرز الكتلة الحرجة اللازمة لأي نهضة، وبالتالي نكتفي بالبرمجيات، على ضعف مستواها فى الغالب وعدم تحقيقها لأية طفرات تقنية، في الحاسبات، ونترك مجال تقنيات عتاد الحاسبات الدقيقة في مجال الحاسبات وفي الزراعة والتجارة والطب والهندسة وغيرها، وللأسف فحتى البرامجيات الخاصة باللغة العربية لم ننتجها، بل ولم نوطنها ونصلح ما بها من أخطاء، وهذا مثال على عدم ترتيب الأوليات، وهو أمر متكرر في مجالات كثيرة، ويوم ندرك قيمة العمل الحضاري، وأثره، ونحسن ترتيب الأوليات، ولا نستهين بلب التقدم ومنه تقنيات الحاسبات الرقمية في مختلف المجالات، بل ونقتنع بضرورة اللحاق بالركب العالمي سريعا قبل أن يصعب الأمر علينا أكثر، مع غير ذلك من المجالات المختلفة الضرورية، مع التجويد فى مختلف الأعمال ومنها البرمجيات وأمثالها، ونعمل على تنمية لغتنا عبر تعريب التعليم والعلوم وغيرها، ونعطي هويتنا الاهتمام الواجب بها؛ نضع أقدامنا على أول الطريق الحضاري المناسب لهذه الأمة.



معالم الهدى في زمن الفتن

د. صالح بن حميد
إمام وخطيب الحرم المكي

العلماء لا يتحدثون في كل مقام بل لكل مقام مقال وأحاديث العامة ليست كأحاديث الخاصة

الناس أنواع، فالبعض يصنع موجة، والبعض الآخر يركب الموجة، والنبي ﷺ تحدث عن أشراط الساعة وعن الملاحم، كما حذر من الفتن، وذلك في صور ثلاث:

الأولى: الإنذار والتنبيه.

الثانية: التخويف منها.

الثالثة: كيف يكون الموقف منها إذا وقعت، وهذه هي الأهم.

خطورة التعجل

من الخطأ أن يتعجل الإنسان بمجرد سماعه أي خبر اعتمادا على تبادل المعلومات الشائعة في أيامنا هذه، فالذي يبث هذه المعلومات ويتلقاها غير متخصص.

الاستشراف

من طبيعة الناس أنهم يحبون استشراف الحاضر والمستقبل، وتفسير الأحداث. ويقع الإنسان هنا في مشكلة المقارنة بين الواقع والنصوص، ويحتاج إلى السبر، وحين سأل رجل النبي ﷺ متى الساعة، قال له ﷺ: «ماذا أعددت لها؟»، وفي رواية: «ويلك، ماذا أعددت لها؟».

يقول ابن حجر: والحكمة من أحاديث الفتن إيقاظ الغافلين، والحث على التوبة، فهي مواعظ وزواجر للإقبال على الرب. ولهذا قال رسول الله ﷺ في حديث عظيم المعنى: «العبادة في الهرج كهجرة إلي».

أثر العبادة في وقت اختلاف الناس

قال أهل العلم: فضل العبادة في الهرج كأنك تلجأ إلى النبي ﷺ كما مر بالحديث السابق، أي إنك تنتقل من حال الهرج إلى حال الأمن، فينشغل الناس بالهرج ولا يتفرغون للعبادة إلا من رحم الله وعصم.

ولماذا شبه العبادة بالهجرة؟ لأن الهجرة فرار بالدين من المناطق المخيفة إلى البلاد الآمنة التي يأمن الناس فيها على أنفسهم.

من هم مثيرو الفتن؟

الملاحظ أن الذي يخوض فيها ليس سياسيا ولا اقتصاديا ولا فقيها، بل يخوض فيها كل شخص غير متخصص، فلا يحسن عرضها، ولا يحسن ترتيب نتائجها.

الفرار الإيجابي

هنا يأتي دور الفرار الإيجابي الذي هو الاتجاه إلى العبادة، والبعد عن مواطن الفتن والهرج. ويتضمن الفرار الإيجابي ما يأتي:

١- الاتجاه إلى العبادة: من صلاة وذكر وقراءة القرآن وصبر ومصابرة حتى تنجلي الغمة.

٢- التأني في الفهم والتأويل: ونعني به ألا يتعجل في أي فهم، وأن يجتهد في أن يتجنب الخوض في الفتن، ولا يقول هذا الحديث أو ذاك ينطبق على هذه الحالة أو على هذا الشخص، بل ينبغي أن يذهب إلى الثقات ويسألهم.

٣- عدم القلق: ينبغي ألا يقلق، ويصبر.

٤- التروي: عليه أن يتروى في إبداء الحكم أو الرأي، بل نقول له لا تخض ولا تكلف نفسك أن يكون لك موقف، بل الزم السلامة في الفتن؛ فهي من أدق المخارج وأحسن سبل النجاة.

٥- العزلة: ونقصد بها العزلة عن معالم الفتن ولا يلتفت إليها، بل يلتفت



لا تتهم الناس بقولك: هذا منحرف هذا صاحب هوى هذا مخطئ هذا مصيب بل عليك بإصلاح نفسك وتجنب الفتن

طاعة ولي الأمر تكون في المعروف بعدم الخروج عليه مع اليقين أن له حق الطاعة والنقد - إذا كان على أصول الشريعة - بحسن النصح واتباع سنن المرسلين

إلى نفسه، وينأى بها طلبا للنجاة من الفتن، ونعني بذلك: اعتزل الناس، وتجنب هذه الأشياء، واهتم بشؤونك، فقد جاء الحديث: «إن بين أيديكم فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويصبح كافرا ويمسي مؤمنا يبيع دينه بعرض من الدنيا». و«ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي»، ثم دعاهم إلى أن يكونوا أحلاسَ بيوتهم، وفي الترمذي: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وأبك على خطيئتك». وفي أبي داوود: «إن السعيد لمن جُنب الفتن».

٦- كف اللسان: كف لسانك، حتى لو استحسنوا رأيك، وفي الحديث: «تكون فتنة تستنظف العرب (أي تقتل)، اللسان فيها أشد من السيف».

٧- التفقه في الدين وتوقير أهل العلم: وذلك بأن يتفقه ويوقر أهل العلم ويقدرهم، لأن سلامة الدين لا تكون إلا بالعودة إليهم. وهذا يدعونا إلى المفهوم الخطير ألا وهو تسفيه فتاوى العلماء من طرف أناس وصفهم النبي ﷺ بأنهم سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان.

وينبغي أن نعرف أن العلماء لا يتحدثون في كل مقام، بل لكل مقام مقال، وأحاديث العامة ليست كأحاديث الخاصة، لا نقول إنهم لا يخطئون، لكن ينبغي عندما يخطئ أحدهم أن يكون الرد عليهم بحفظ مقامهم وليس بالتعدي على مكانتهم. نعم، قد يزل العالم ويغلط، ولكن لا يثنيك ذلك عن علمه، ولا ينبغي أن تهدر مكانته، بل هو معذور، بل وأحيانا مأجور، لأن العلماء ليسوا معصومين، لكن يبقون علماء. والمتأمل يجد أن وسائل الإعلام والتواصل لم تجعل لأحد مقاما ولا قيمة. قال الإمام الشاطبي: «لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه، أو يُعتقد عليه الإقدام على المخالفة، فهذا خلاف ما تقتضيه رتبة الدين».

وقال الإمام الذهبي: «لو أن كل من زل أسقطناه لم يبق لنا عالم».

٨- الثقة بأهل العلم: بالرجوع إليهم، وبحسن سؤالهم وتجنب انتقاصهم. وأي فتنة أشد من أن ينتقص من العلماء؟! الحصيلة من ذلك أن يعجب كل ذي رأي برأيه فتكون الفوضى.

وغالب الفتن تحدث من أربعة أمور:

١- فهم فاسد.

٢- نقد كاذب.

٣- غرض منحرف.

٤- هوى متبع.

فلا تحاول أن تطبق على الناس، بل طبق على نفسك.. هل أحدث لك اضطرابا؟ هل لك غرض في الحديث عن ذلك؟ ولهذا عليك أن تتجنب ذلك.

لا تتهم الناس بقولك: هذا منحرف، هذا صاحب هوى، هذا مخطئ، هذا مصيب. بل عليك بإصلاح نفسك وتجنب الفتن.

سؤال: من يقع في الفتن؟ الجواب: الذي يقع في الفتن هو ضعيف البصيرة، قليل العلم، وهو مصداق لوصف النبي ﷺ في قوله: «سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان». فضعيف البصيرة هذه صفاته، حتى لو كانت عبادته ظاهرة.

٩- السمع والطاعة لولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين: معنى ذلك أن أي شيء فيه خروج على ولاة الأمر وعلى جماعة المسلمين اتركه مهما كان، لأن الحديث يقول «من شذ شذ في النار». وطاعة ولي الأمر تكون في المعروف بالطبع بعدم الخروج عليه، مع اليقين أن له حق الطاعة، والنقد - إذا كان على أصول الشريعة - بحسن النصح واتباع سنن المرسلين والراسخين في العلم، فهذا ليس خروجا، ولهذا لما انفرط عقد بعض الدول تفككوا ودخل فيهم من دخل، ولهذا فإن هيبة الحكم وهيبة الحاكم المسلم يجب أن تبقى مصونة ولا يتعرض لها إلا بالعدل.

ثم إن الاجتماع وعدم الفرقة من أكبر النعم ولهذا قال الصحابة: «الخلاف شر».

١٠- النصح لكل مسلم: كن نقي القلب نحو إخوانك من غير استعداء أو استكبار أو أنك أنت على صواب وهم على غيره.

١١- الصدق والتثبت: عند حديثك في الفتن تحر الصدق والتثبت، بل الأحسن والأولى ألا يكون لك رأي، وصن لسانك ويدك عن ذلك حتى تنجو من الفتن.

ثم إن هناك مجموعة من النصائح والوصايا على المسلم أن يتحراها عند الفتن، بل وفي مجمل حياته وأحواله وهي:

الإخلاص، الإحسان، النصح، الصدق، التثبت، عدم الاغترار بالكثرة، الحذر من الاندفاع والحماس، الرفق والأناة، حفظ اللسان، التوبة والإنابة.

بل إن الرفق والصبر أهم أمرين في هذا السياق، لأنه إذا ترفق ابتعد عن الفتن، وإذا صبر لم يخض فيها فينجو بنفسه ودينه. فالرفق نعني به عدم التعجل وعدم الحدة في الطبع والثوران، وأما الصبر فهو القدرة على التحكم في النفس.

***مقتطفات من محاضرة للدكتور صالح بن حميد في مسجد الفارس بدولة الكويت ٢٠١٤/١٢/٢٢ بدعوة من وزارة الأوقاف.**



بناء ثقافة التسامح

د. حسن عزوزي
أكاديمي متخصص في الدراسات الفكرية

يسجل مفهوم التسامح حضوره في عمق التجربة الإنسانية من خلال مختلف الآداب الفكرية للأديان السماوية والوضعية على السواء. وقد عرفت الحضارات الإنسانية مفهوم التسامح كواحد من المفاهيم التي تتدرج في إطار حقوق الإنسان مقابلا لمفاهيم العنف والتعصب واللاتسامح.

وإذا كان التعصب يشكل مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية لدى كثير من شعوب العالم، فإن التسامح يعتبر فضيلة إنسانية تغيب عنها مظاهر العنف، وتنجلي فيها قيم الأمن والسلام. ولذلك، فإذا غاب التسامح فهذا يعني غياب الأمن المجتمعي ومن ثم غياب السلام.

وتجمع القواميس العربية على أن المقصود بالتسامح هو المساهلة (١) والسخاء والجود والكرم، فيقال: أسمح: إذا جاد وأعطى بكرم وسخاء. وأسمح وتسامح: إذا وافقني الآخر على المطلوب، والمسامحة هي المساهلة. أما في المعاجم الأجنبية فنجد في معجم «هاشيت» تعريفا للفظة «التسامح» بأنها «موقف يقضي باحترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وآرائه ومعتقداته» (٢)، كما نجد في معجم العلوم الاجتماعية تعريفا قريبا لهذا الأخير، جاء فيه أن التسامح هو قبول الآخرين وسلوكهم على مبدأ الاختلاف، ويتعارض مع مفهوم السلطة والقهر والعنف، ويعد هذا المفهوم إحدى سمات المجتمع الديموقراطي (٣).

لقد ترجمت لفظة «Tolérance» عربيا إلى «التسامح»، ومع ذلك لابد من الإقرار بأن المفهوم يعتبر وليد حركة الإصلاح الديني الأوروبي، حيث نشأ عن تغير في الذهنية ناتج عن علاقة جديدة هي علاقة الاعتراف المتبادل بين مختلف القوى

التي استمر صراعها خلال الحروب الدينية الأوروبية.

التسامح والاعتراف بالآخر المختلف

تتضمن هذه التعريفات إذن مفاهيم تجعل من التسامح سلوكا وقيمة يتحلى بهما الشخص تجاه الآخر، خصوصا الآخر المختلف عن الذات، دينيا وفكريا، إذ لا ينبغي الاعتقاد بأن الجميع ينبغي أن يكون مشابها للذات وإلا وجب إقصاؤه ونبذه، ولقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأعلى درجات التسامح فقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣)، وقال أيضا: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥). «ومعنى العفو ترك المؤاخذة بالذنب، ومعنى الصفح ترك أثره من النفس، وكونه لم يبق أثره في النفس قمة في التسامح» (٤).

من جهة أخرى، يمكن القول إن المفهوم الراهن للتسامح ينطوي على أبعاد قوية يمكن أن نجمعها في كلمة واحدة وهي «الاعتراف». فكل شخص إنساني ملزم بالاعتراف بالآخر، سواء كان مماثلا له أو مختلفا عنه، اعترافا القصد منه الإيمان بحق كل شخص في العيش وفق قناعاته في مجتمع آمن تسود فيه علاقات التفاهم والتساكن والتعايش (٥).

إذن فالتسامح وسيلة الانسجام، وهو عملية تصفية لعرض الأفكار وفهم آراء الغير حتى يتنازل الإنسان عما علق برأيه من أنانية واعتداد بالرأي؛ ليحقق الانسجام مع فكر غيره. وبذلك يحقق الفعالية والاستمرارية لأجواء التفاهم والتساكن فيما بين أفراد المجتمع، في ظل الأمن الوارف، الذي يستظل بظلاله كل من ينسجم مع مجتمعه في وحدة الموقف وسمو النفس والارتفاع عن الضغائن والأحقاد.

إن هناك شيئا لا يدخل في نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين، ويلزم بها القضاء، وتشرف على تنفيذها الحكومات، ذلك هو روح التسامح التي تتجلى أسمى مظاهرها في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية، من البر والرحمة والإحسان، وهي الأمور التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية من أجل أن ينعم بالأمن المجتمعي الرغيد.

التسامح.. والأمن المجتمعي

إن الإنسان إذا تسامح، أو عبر عن سلوك متسامح فمعناه أن يأخذ الآخر، الذي يعيش معه في أمان، بعين الاعتبار، ويقبل حججه. وبذلك يكون مفهوم التسامح مرتبطا ارتباطا عميقا بمفهوم الأمن والسلام، فالأمن هو لازمة طبيعية لمفهوم التسامح، وإذا كان مفهوم الأمن والسلام هو غياب الحرب والصراع ووجود الأمن المجتمعي، فإن هذا يعني وجود التسامح كضرورة حيوية لمفهوم الأمن والسلام، ويبقى العنف في النهاية هو الصيغة المقابلة لمفهوم التسامح، فالعنف التعصبي أو العدواني هو نقيض التسامح، وذلك لأن التسامح هو التصور المنافي لأي ممارسة للعنف والتسلط والعدوان.

ولاشك أنه في ظل انتشار الأمن المجتمعي تسري عدوى التسامح من الفرد إلى الفرد، ليصبح المجتمع متسامحا، سواء في المعاملات، أو في تلقي الآراء والأفكار، أو في التساكن مع مختلف الجماعات، أو الحوار مع الآخر. ومن البديهي أن يكون التسامح من طبيعة الإسلام، لأنه دين اجتماعي وليس دينا ترتكز تشريعاته على الفرد وحده باعتباره محط اهتمامه، لأنه لا يرى سعادة الفرد إلا في تلاحمه مع مجتمعه، فالمجتمع بيئة الفرد التي ينمو فيها متعاونا ومنسجما معها، ولا سبيل لسعادة الفرد إلا في مجتمع متسامح، كما لا سبيل لوجود مجتمع متسامح إلا في فرد متسامح أيضا، وهذا التسامح إنما يسود في مجتمع آمن يعتمد الاستقرار والسلام والتفاهم. وإذا كان الفرد المسلم يوجه إليه الخطاب القرآني بضمير الجماعة أكثر مما يوجه إليه بضمير المفرد، فلأن الإسلام دين اجتماعي تتحقق تعاليمه ومبادئه وقيمه بالتجاوب والتواصل داخل إطار جماعي وليس فرديا. ولو تأملنا في مبدأ الشورى، على سبيل المثال، لوجدناه في الإسلام يؤدي إلى إبراز طبيعة التسامح في شخصية الإنسان المسلم. فالشورى تقتضي وجود آراء متعددة متفاضلة لا تجد حلها إلا في التسامح الذي يذيب عوامل التصلب في الرأي والتعصب في المواقف والسير في الطريق الواحد دون الإصغاء إلى مختلف الاتجاهات، فالشورى تنازل عن بعض المواقف أو بعض جوانب الرأي، فإذا كان المسلم من طبعه التسامح سهلت عليه استساغة الرأي المعارض إذا لم يمس حقا من حقوق الله أو حقوق العباد، وإنما هو التسامح الذاتي في قبول وجهة نظر أخرى تحقق الهدف أو ما يؤدي إلى تحقيقه. فالشورى إذن هي فلسفة الاجتماع الإسلامي في الأسرة والمجتمع والدولة، وهي سبيل مشاركة الإنسان في تدبير شؤون العمران، وبها يرشد الإنسان تدبير المجتمع الذي ينتسب إليه ويشعر بالأمن الاجتماعي الذي يحققه له هذا الانتماء.

وهكذا فالتسامح يعد أرضية أساسية لبناء المجتمع المدني وإرساء قواعده. فالتعددية، والديموقراطية، وحرية المعتقد، وقبول الاختلاف في الرأي والفكر وثقافة الإنسان، وتقدير المواثيق الوطنية والدولية، واحترام سيادة القانون.. خيارات استراتيجية وقيم إنسانية لا تقبل التراجع ولا التفريط ولا المساومة. فالتسامح عامل فاعل في بناء المجتمع المدني وتعزيزه واستقراره.

قيم التسامح في التوجيهات الإسلامية

إذا كان الإسلام دين سلام وعقيدة محبة ووئام بين جميع الناس، مسلمين وغير مسلمين، فإنه أيضا نظام اجتماعي يستهدف تحقيق الأمن المجتمعي الشامل، الذي يرمي إلى أن يستظل بظلاله كل من يعيش داخل المجتمع من مسلمين وأهل ذمة وغيرهم، وهذا الأمن المجتمعي هو الذي يجمع كل هؤلاء أناسا متعارفين متحابين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

إنه حتى في حالة الخصومة والشنآن يبقي الإسلام أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة وسماحة الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨)، وقال سبحانه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٧ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٧-٨).

فهذه بعض من تلك القواعد السامية التي جعلها الإسلام أصولا لمعاملة غير المسلمين، وهي أعدل القواعد التي تتفق مع روح هذا الدين وسماحته، وهي أساس شريعته الدولية التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي عليه وضرورة رده.

ومن التوجيهات الإسلامية التي تحث على السماحة ومقابلة الشر بالخير والسيئة بالحسنة قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩٦)، وقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).

ومن تلك التوجيهات أيضا أن يكون جدال الآخر بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

ووجه الإسلام إلى مقابلة النوايا السيئة والحقد الدفين بالعفو والصفح، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩).

أما سيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام فتعد ترجمة واقعية لتلك التوجيهات القرآنية، حيث طبعت حياتهم بمواجهة الأذى بالصبر والحلم والثبات، أما بعد الهجرة النبوية فكان الحرص على أشده لكي تتحقق داخل المدينة المنورة ملامح الأمن المجتمعي الشامل الذي يؤنس لشيوع أجواء التسامح والتساكن السلمي. ولذلك آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وعقد معاهدات كثيرة مع أعدائه، حيث عاهد ﷺ أهل الكتاب من يهود المدينة وما حولها على السلم والتعاون، وعاهد المشركين في الحديبية على السلم والأمان، وتساهل معهم إلى منتهى التساهل والتسامح، لكن عن قوة وعزة لا عن ضعف وذلة، بل تجلت روح التسامح عند النبي ﷺ حتى في الحرب، فقد قال لهم أيضا: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن» (رواه مسلم).

والإسلام حين يحث على التسامح مع المخالفين، ومن ضمنهم أهل الكتاب، يمنع المسلمين منعا جازما من اتخاذ أولياء منهم يتعاونون معهم، فالتسامح شيء واتخاذهم أعداء الإسلام أولياء شيء آخر، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (آل عمران:٢٨).

ومن سماحة الإسلام أنه حين يكشف للمسلمين عما تضمره لهم نفوس أعدائهم من الحقد والبغض، لا يأمرهم ولا يحرضهم على مقابلة الغل والدس والكراهية بمثلها، وإنما يحذر المسلمين ويبصرهم بحقيقة العدو، وينبههم إلى الخطر الذي يهدد الأمن المجتمعي لحماية المسلمين، ومع ذلك يحث على الصفح والعفو والجنوح إلى السلم وعدم اللجوء إلى العنف إلا عند الضرورة، كما يربي المؤمنين على أن يعاملوا الناس جميعا بسماحة الإسلام؛ منعا للفتنة وإزالة للتحديات التي تعيق استتباب الأمن والسلام والاستقرار.

الهوامش

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٩٠/٢، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، مكتبة الخانجي بمصر، ط ١٤٠٢/٣.

(٢) Dictionnaire Hachette، ed ٢، p ١١٧٣.

(٣) Lexique des sciences sociales، dallaz- Paris ١٩٨٣، p ٣٥٨.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ٢٨/١.

(٥) Hassan Azzouzi، La question de la tolérance entre chrétiens، Juifs et Musulmans in: AL MISBAHIA revue de la faculté des Lettres Sais – Fès، Volume ٤/ ٢٠٠٠ p ٥٩

رحيل المحقق د. عبدالرحمن العثيمين

التحريــــر



توفي المدقق شيخ محقّقي التّراث الإسلاميّ د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين يوم الأحد ٢١ ديسمبر ٢٠١٤م في القصيم بالمملكة العربية السعودية.

ويعتبر الراحل من أبرز المحققين والمشتغلين في التراث، إذ صدر له العديد من الكتب تحقيقا وتأليفا.

وكان الراحل حصل على درجة الماجستير عن تحقيق كتاب «التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين» لأبي البقاء العكبري عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٤م، أما الدكتوراه، فنالها عن تحقيق كتاب «التخمير في شرح المفصل» للخوارزمي عام ١٤٠٢هـ - ١٩٧٩م.

التحق بالمعهد العلمي بكلية اللغة العربية بالرياض، ثم عين بعد التخرج معلما في مدينة جدة، ثم انتقل للعمل معيدا في جامعة أم القرى، وأنجز رسالة الماجستير، ثم رسالة الدكتوراه، وظلّ أستاذا مساعدا في اللغة، حتى تقاعده وعودته إلى مسقط رأسه في عام ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.

واللافت في الراحل أنه بقي في الجامعة أستاذا مساعدا، ولم يسع إلى الترقية، على رغم أن بحوثه وكتبه المحققة تضمن له ذلك، لكنه رفض الترقية كما رفض الاستجابة لجهة علمية طلبت منه إرسال نسخة من مؤلفاته، لمنحه جائزة علمية رشحوه لها.

ولعل عدم توفر بحث عن ترجمة العكبري استدعت اهتمامه بتحقيق كتب طبقات الحنابلة، فحقّق ستة كتب في طبقات الحنابلة، وهي: «الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، «الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب الإمام أحمد» لابن عبدالهادي الإمام العلامة المحدث يوسف بن الحسن عبدالهادي، «غاية العجب في تتمة طبقات بن رجب» لابن حميد النجدي، «طبقات الحنابلة» لابن أبي علي، «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» لابن حميد النجدي.

وكانت المحطة المهمة في حياته العلمية، هي الجمع والتحقيق، فكان له مع المخطوطات شغف وهواية وعشق مبكر، ففي مرحلة البكالوريوس طلب منهم أحد الأساتذة البحث عن ديوان النابغة الجعدي المخطوط، ومقارنته بالديوان المجموع، ومن يعثر على بيت واحد زائد على الديوان المجموع فسيمنحه الدرجة كاملة، يقول العثيمين رحمه الله: فبحثتُ عن الديوان المخطوط فوجدته في تركيا، فسافرت إلى هناك، واطلعت عليه فلم أجد فيه زيادة على المجموع.

أشاد بمكانته أساتذة ومحقّقون، من أمثال: محمود شاكر، وحمد الجاسر، ومحمود الطناحي، ومحمد عضيمة، الذي وصفه بأنه «مباحث» للمخطوطات.

للاستثمار معنى بشري

استثمار الطاقات والموارد لا ينحصر في الشق المادي منها فقط، بل في الجانب الإنساني أيضا، وهو الأهم بطبيعة الحال. وخير ما نتركه للأجيال القادمة ليس صندوقا ممتلئا بالذهب والفضة، ولكن غرس طيب في صدر شرح بالإيمان والتقوى.

يستثمر الفرد فينا مدخراته، وهذا واجب عليه، إذ إن الإسلام لا يقر حبس الأموال ولا يعرف الركود والخمول والبطلان، إنما يحفز على الحركة والنشاط والعمران. ولا عمران إلا بحركة في اتجاه صحيح، وهنا يكون للاستثمار معنى. وبالنظر إلى ما تفعله الأسرة المسلمة نجد أن الأبناء أمانة، وحسن تربيتهم وتعليمهم استثمار حقيقي لا يستهان به، فالعلم أساس الحضارة، والتنافس بين الأمم تنافس على الأخذ منه عبر العنصر البشري من خلال المؤسسات التعليمية الرفيعة المستوى. وفي المقابل، يتأسف المرء على الحال التي وصل إليها البعض من انغماس في الشره الاستهلاكي، وهنا لا استثمار ولا ادخار ولا مستقبل، بل استمتاع بلحظة آنية سرعان ما تمر لتخلف الندم. وكما على الأفراد واجب تجاه أنفسهم وأوطانهم وأمتهم، فعلى الحكومات واجب أيضا في حسن استثمار الطاقات البشرية وغير البشرية مع الترشيد في النفقات وعدم التشجيع على منح أو استقبال القروض غير الإنتاجية.

التحرير

عام الرمادة نموذجا:

إجراءات الدولة الإسلامية للتخفيف من الأزمة الاقتصادية

عبد العلي الوالي
باحث اقتصادي

إن المطلع على تاريخ البشرية يجد فترة نزول الوحي على محمد ﷺ، وفترة حكم الخلفاء الراشدين أزهى ما عرفه هذا التاريخ على مستوى الأعمال الاجتماعية والتطوعية، إلى درجة أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يجدون أحيانا ما يتطوعون به، فيتحاملون لأجل الصدقة، ولأخذ صورة عن منهج سلفنا الصالح في تدبير الأزمات، واعتماد التكافل وسيلة أساسية لحلها قد اخترت أزمة عام الرمادة التي وقعت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حلت بالمسلمين أزمة اقتصادية عمت شعب الحجاز وما حوله من قرى العرب، حتى أجهدتهم وحملتهم ما لا عهد لهم به، على ما عرفوا به من اللأواء، واحتمال اختلاف الأنواء، وهو ما عبر عنه بعام الرمادة.

وقد ذكر ابن منظور وغيره سبب تقييد هذا العام بهذا الوصف، فقال: «وعام الرمادة معروف، سمي بذلك لأن الناس والأموال هلكوا فيه كثيرا، والرمد والرمادة الهلاك، وقيل هو الجدب تتابع فصيّر الأرض والشجر مثل الرماد، والأول أجود».

وعن عوف بن الحارث عن أبيه قال: «سمي ذلك العام عام الرمادة، لأن الأرض كلها صارت سوداء، فشبهت بالرماد».

أما زمن هذه الأزمة فيروي ابن سعد أنها وقعت في السنة الثامنة عشرة للهجرة بعدما صدر الناس عن الحج.

ورغم تسمية هذه الأزمة بعام الرمادة، فالظاهر من خلال بعض الروايات أنها دامت أكثر من سنة، ففي المدونة، قال ابن القاسم: «قلنا لمالك: وما زمان الرمادة، أكانت سنة أو سنتين؟ قال: بل سنتين، قال ابن القاسم: «بلغني أنها كانت ست سنين»، ويرى بعض المؤرخين أنها كانت تسعة أشهر.

والقائلون أنها أعوام جدب وليست عاما واحدا، يحمل كلامهم على أن ذلك العام كان هو الأخير المتميز الذي بلغ فيه الأمر ذروة الشدة، فالأعوام السابقة كانت أعوام قحط، فأتت على المدخرات، ثم حل ذلك العام فاجتمعت فيه آثارها. وفي هذه السنة عاش الناس في وضع

مزر جدا، ذلك أن بعض المصادر تذكر أنهم أصبحوا يأكلون كل ما يجدوه أمامهم لشدة القحط والحاجة، عن حزام بن هشام عن أبيه قال: «أصاب الناس جهد شديد، وأجدبت البلاد وهلكت الماشية، وجاع الناس وهلكوا، كان الناس يُرون يستفّون الرمة، ويحفرون نفق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها».

وفي رواية أن الأمر عام الرمادة بلغ بالناس إلى شيِّ جلد الميتة وأكله وسفّ العظام المسحوقة».

حال إمام المسلمين

يعرف الرجال عند الشدة كما يقال، وقد تجلت في هذا العام شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بوصفه حاكما فذا، وراعيا مسؤولا، حمله الله أمانة رعيته، وتجلى فيه فقهه الديني والدنيوي، وسياسته الشرعية التي رسمها، وسار عليها في معالجته لهذه الأزمة الخانقة، حتى أذن الله بانفراجها.

وقبل الحديث عن بعض التدابير التي قام بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أجل التخفيف من هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة، نتحدث أولا عن عيش القائد الراعي عمر حال الأزمة، لأنه المسؤول الأول في الدولة الإسلامية عن الرعية التي كلفه الله تعالى بحماية مصالحها وضمان عيشها، ولأن إصلاح الإمام لنفسه يعتبر أولى الخطوات للخروج من أية أزمة، فضلا عن كونه القدوة والمنهج المتبع من طرف الجميع.

من خلال كثير من الروايات يتضح لنا جليا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يفكر بنفسه بتاتا، بل كان همه الوحيد هو رعيته، ذلك أنه كان يخشى عليها الهلاك في زمانه، فيتحمل هو مسؤولية ذلك أمام الله تعالى وأمام الناس أيضا، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع أباه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في السحر: «اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد صلى الله عليه وسلم على يدي».

ومما يدل على هذا المعنى ما روي عن أنس بن مالك أنه قال: «تقرقر بطن عمر، وكان يأكل الزيت عام الرمادة، وكان قد حرم على نفسه السمن قال: فنقر بطنه بأصبعه، وقال: «قرقر ما شئت أن تقرقر، إنه ليس لك عندنا غير هذا، حتى يحيا الناس».

ومن الروايات التي نستنتج منها عدم تمييز عمر نفسه عن رعيته واستئثاره بطعام يفتقده غيره ما رواه عبد الله ابن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أنه لما أتي عمر عام الرمادة بقدر من سنام وكبد، قال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال: فأتي بخبز وزيت، ثم قال: ويحك يا يرفا! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم.

ولم يقتصر منهج التشديد الذي طبقه عمر بن الخطاب على نفسه، بل سلك نفس الأسلوب مع أهل بيته، إذ نظر ذات يوم في عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: «بخ بخ يا بن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هاربا وبكى، فسكت عمر بعدما سأل عن ذلك فقالوا: اشتراها بكف من نوى».

ورفض رضي الله عنه أن يركب دابة لأنها راثت شعيرا، ثم قال: «المسلمون يموتون هزلا، وهذه الدابة تأكل الشعير، لا الله لا أركبها حتى يحيا الناس».

تدابير عمر

لما حلت الأزمة بالمسلمين لم يقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكتوف الأيدي كما يفعل كثير من عشاق الكراسي، بل قام بإجراءات مهمة جدا، وطبقها بصرامة شديدة كما هو معروف عنه، مما ساهم بشكل كبير في إنقاذ الأمة الإسلامية من كارثة إنسانية، وهذه بعض تلك الإجراءات:

- الكتابة إلى زعماء الأمصار التابعة للإسلام من أجل أن يسهموا في درء غائلة المجاعة عن إخوانهم: وكنموذج على ذلك، الرسالة التي بعث بها إلى عمرو بن العاص، والتي كانت شديدة اللهجة، وتنطوي على حزم وعزم واستغاثة ملحة ومؤثرة، قال رضي الله عنه في رسالته إلى عمرو: «بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي، سلام الله عليك، أما بعد أفتراني هالك ومن قبلي، وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه».

أما قوله رضي الله عنه إلى العاصي بن العاصي فليس معنى ذلك أنه كان يرى في عمرو بن العاص رجل سوء، وإلا لما استعمله وائتمنه على الرعية، وهو بعد صحابي جليل معروف المكانة، ولكنه إنما يريد أن يكفه ويخفف من غلوائه، ويحتاط لنفسه وللمسلمين من عواقب دهائه.

ولقد كان لهذا الإجراء دور مهم في إغاثة المنكوبين.

- إحصاء المحتاجين للمعونة، وتعيين من يشرف عليهم: في عام الرمادة تجلبت العرب من كل ناحية إلى المدينة، فأمر عمر بعض الصحابة بالإشراف على توزيع الطعام عليهم، فمن بينهم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن عبد القاري، وعبد الله بن عتبة، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر بن الخطاب، فزودوه بأخبار ذلك اليوم. ومما يستفاد منه سياسة عمر المحكمة في تدبير هذه الأزمة، وبعده عن العشوائية والعبثية في جلب الأرزاق وتوزيعها، ونهجه سياسة الإحصاء لتحديد مقدار حاجيات الناس من

الأطعمة والألبسة، وقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه قال في ليلة بعد أن تعشى الناس عنده: «أحصوا من تعشى عندنا» ، وقال أيضا: «أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان» وبعد ليال زاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من تعشى عنده عشرة آلاف، والآخرين خمسين ألفا.

- التضرع إلى الله تعالى وإقامة صلاة الاستسقاء: لما عزم عمر بن الخطاب على أن يستسقي ويخرج بالناس، كتب إلى عماله أن يخرجوا يوم كذا وكذا، وأن يتضرعوا إلى الله، ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل عنهم.

ثم خرج إلى المصلى، وعليه برد رسول الله ﷺ، وكان أكثر دعائه الاستغفار، ورفع يديه إلى السماء مدا، وقبل أن ينصرف حوّل رداءه، فجعل اليمين على اليسار وجعل اليسار على اليمين، وبكى بكاء طويلا حتى أَخْضَل لحيته.

وروي عنه رضي الله عنه أنه استسقى بالعباس عم النبي ﷺ، عن ابن عمر قال: استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس ابن عبد المطلب فقال: اللهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه إليك به فاسقنا، فما برحوا حتى سقاهم الله، فخطب عمر الناس فقال: «أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظمه ويفخمه ويبر قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله عز وجل فيما نزل بكم». قال ابن حجر معلقا على هذا الحديث: «ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس، ومعرفته بحقه».

وقد ذكر ابن حجر في الفتح صفة ما دعا به العباس، قال رضي الله عنه: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث».

- تأخير الصدقة إلى ما بعد الأزمة: روي عن عمر رضي الله عنه أنه لم يأخذ الصدقة من الناس في العام الذي اشتدت فيه الأزمة، وفي العام القابل أخذ زكاة عامين بعد أن أحيا الناس، ولعل امتناع عمر عن أخذ الزكاة في ذلك العام راجع إلى الحاجة التي ألمت بأصحابها، رغم توفرهم على النصاب الموجب إلى إخراجها، لأن الإنتاج المرتكز بالأساس على المجال الفلاحي قد توقف، ونفس المعنى أشار إليه أبو عبيد في تأخير النبي ﷺ أخذ زكاة عمه العباس، قال: «نراه، والله أعلم، أنه كان أخر عنه الصدقة عامين من أجل حاجة العباس، فإنه يجوز للإمام أن يؤخرها على وجه النظر، ثم يأخذها منه بعد، كما أخر عمر بن الخطاب صدقة عام الرمادة، فلما حَيِيَ الناس في العام المقبل أخذ منهم صدقة عامين».

قال الدكتور يوسف القرضاوي معلقا على هذا الإجراء الذي قام به الفاروق رضي الله عنه: «وكان ذلك من حكمة عمر رضي الله عنه، وحسن سياسته ورفقه بالرعية، فأخر الزكاة عن الممولين في عام المجاعة».

أمر بعض الأسر بإيواء غيرها: ذكر بن عبد البر رحمه الله تعالى أن عمر بن الخطاب في عام الرمادة كان يجعل مع كل أهل بيت عدد أهل بيت آخر مثلهم، وكان يقول: «لن يهلك امرؤ عن نصف قوته».

هذا ما ذكره ابن عبد البر، لكن في رواية عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن أبيها أن عمر همّ بذلك فقط ولم يفعله، قالت: «سمعت عمر بن الخطاب يقول بعدما رفع الله المحل في الرمادة: «لو لم يرفعه الله لجعلت مع كل أهل بيت مثلهم».

وتحت عنوان «نية لم تتم» ذكر الشيخ محمد محمد المدني أن عمر هم بجعل أهل كل بيت من المسلمين مع مثلهم.

وربما - والله أعلم - أن عمر حفز الناس على فعل ذلك، ولم يلزمهم إلزاما، فكما طلب المعونة من بعض الأمصار البعيدة عن النكبة كمصر والشام والعراق... فالأولى أن يطلب من بعض البيوت إيواء غيرها في مكان النكبة.

- إسقاط حد السرقة: مما يدل على مكانة عمر بن الخطاب الفقهية، أنه عطّل حد السرقة عام الرمادة، وقال: «لا أقطع في عام سنة» ، ذلك أن الناس إذا كانت مجاعة وشدة غلب عليهم الحاجة والضرورة، فلا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد به رمقه، ويجب على صاحب المال بذل ذلك له مجانا على الصحيح، لوجوب المواساة وإحياء النفوس، وهذه شبهة قوية تدرأ القطع عن المحتاج.

والثابت عن عمر رضي الله عنه أنه كان يتجنب تطبيق حد السرقة في كل حالات الاضطرار، بل كان يرى أن للمضطر أخذ ما يبقي به حياته، ولو باستعمال القوة، كما أوجب الدية على من امتنع عن إغاثة الملهوف.

والظاهر أن اجتهاد عمر رضي الله عنه بخصوص سرقة المضطر، له ما يؤيده من النصوص الشرعية قرآن وسنة:

فمن القرآن: قوله تعالى بعد أن حرم الميتة والدم ولحم الخنزير...: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة: ٣)

ومن السنة: عن عباد بن شرحبيل قال: «أصابتنا سنة فأتيت المدينة، فدخلت حائطا من حيطانها، فأخذت سنبلا ففركته وأكلت منه، وحملت في ثوبي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال ما علمته إذ كان جاهلا ولا أطعمته إذ كان ساغبا أو جائعا، فرد علي الثوب، وأمر لي بنصف وسق أو وسق».

القروض الاستثمارية وموقف الإسلام منها

التحريـــر

ما موقف الإسلام من القروض الاستثمارية؟ سؤال أفرد الدكتور محمد فاروق النبهان عنوانا كاملا في مكتبتنا العربية للإجابة عليه.

صدر الكتاب عن دار البحوث العلمية بالكويت في ٣١٢ صفحة من القطع المتوسط، وبدأ بلمحة تاريخية عن القروض الإنتاجية عند الأمم القديمة والأديان السابقة للإسلام، ثم عرج على دور القروض في عملية الإنتاج والتوظيف، وعقد القرض في الشريعة الإسلامية وحكمه وصلته بالربا، ويختم بمبحث عن كيفية استثمار الأموال وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية بقوله: خلق الله الإنسان، وعلمه البيان، وميزه بهذا عن سائر المخلوقات، وجعله طموحا إلى الرقي، ومنحه أسباب تحقيق هذا الطموح، ولا يمكن أن يحقق الإنسان هذا الطموح ما لم تتوافر له حاجاته التي يحتاج إليها، ومطالبه التي لا يستغني عنها. وهذه المطالب والحاجات تزداد مع الزمن كلما ازدادت تطلعات الإنسان.

ولا يمكن توفير هذه الحاجات التي يحتاج إليها الإنسان ما لم توضع خطة للتنمية الاقتصادية يتم بموجبها تحويل المدخرات - التي يمتنع الإنسان عن استهلاكها - وتوجيهها إلى المؤسسات الإنتاجية التي تستطيع أن تعتمد عليها في تدعيم مركزها المالي. ويضيف موضحا: هناك عوامل متعددة تلعب دورا بارزا في تشجيع الادخار وتوجيه الأموال المدخرة إلى المؤسسات التي تستطيع أن تستفيد منها، ومن هذه العوامل حالة مقدار الدخل، والوعي السكاني، والثقافة العامة، ونمو الوعي الاجتماعي. وتلعب الحكومات دورا كبيرا في تشجيع الادخار وتوفير المؤسسات التي تساعد المواطنين على هذا الادخار.

ونستطيع أن نقسم عملية التمويل إلى قسمين هما: القروض العامة والقروض الخاصة. ويمضي الدكتور النبهان بنا إلى حكم القرض فيقول: القرض من المرافق التي يحتاج إليها المجتمع، وتتوقف عليها مصالحه، وهو نوع من أنواع التعاون دعا الإسلام إليه، وحث عليه، ووضع من الأحكام ما يكفل تحقيق الغاية التي وضع لأجلها، وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يقرض مسلما قرضا مرتين إلا كان كصدقتها مرة» (رواه ابن ماجة).

وعن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر» (رواه ابن ماجة).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان لرجل على رسول الله ﷺ حق فاغلظ له، فهم به أصحابه فقال لهم: «اشتروا له سنا فأعطوه إياه»، فقالوا إنا لا نجد إلا سنا هو خير من سنه، قال: «فاشتروه وأعطوه إياه، فإن من خيركم أو أخيركم أحسنكم قضاء» (رواه مسلم). وعن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ استلف من رجل بكرا، فقدمت عليه أبل من أبل الصدقة، فأمر أبا رافع أن يقضي الرجل بكره، فرجع إليه أبو رافع، فقال: لم أجد فيها إلا خيرا رباعيا، فقال: «أعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء» (رواه مسلم).

أما أركان القرض وشروطه فقد قدم الكاتب لمحة موجزة عنها، فقال: أركان العقد هي الأجزاء التي يتكون منها العقد، وهي شيئان: الإيجاب والقبول: وهما العاملان الإنشائيان في بناء العقد، والعمل القانوني الذي يربط المتعاقدين، فتصير به إدارتهما شريعة ملزمة لهما، في حدود حقوقهما. ويسمى الإيجاب والقبول «صيغة العقد»، أي العبارات المتقابلة الدالة على اتفاق الطرفين.

والأصل في العقد هو توافق الإرادتين، وهو التراضي ما بين المتعاقدين على العقد، ولما كان التراضي مجهولا، ولا يمكن الاطلاع عليه، لأنه من الأمور الباطنة، فقد أوجبت الشريعة أن يعبر العاقدان عن إرادتيهما الباطنة بألفاظهما، ويجب أن تتوافر في صيغة الإيجاب والقبول أمور ثلاثة: جلاء المعني، توافق الإيجاب والقبول، جزم الإرادتين.

ويفرد الكاتب مبحثا للحديث عن وجوب رد المقترض إلى المقرض مثل حقه الذي أقرضه إياه، قدرا وصفة، ففي المثلي يرد المثل، وفي القيمي يرد المثل أيضا صورة حتى لو اختلف سعر يوم القبض والقضاء، فلو استقرض طنا من القمح وكان سعره يوم القبض مئتي ليرة، ثم ارتفع سعر الطن إلى ثلاثمئة بعد فترة من الزمن، فعلى المقترض أن يرد إلى المقرض المثل، وهو طن من القمح، ولو اختلف السعر، لأن الواجب هو المثل، وحق المقرض متعلق بالمثل لا بالقيمة. وعلى المقرض أن يقبل حقه إذا دفعه إليه المقترض، إلا إذا سلمه إياه ناقصا أو مغايرا للمثل، وعندئذ يحق له أن يمتنع عن قبول الوفاء. ويوضح د. النبهان: «ويجوز للمقترض أن يدفع إلى المقرض عين حقه إذا كانت موجودة عنده، كما يجوز له أن يدفع المثل، وهو بالخيار ما بين العين والمثل.

ولو أراد المقرض أن يأخذ عين حقه، كان المقترض بالخيار، إن شاء دفع له ذلك، وإن شاء أعطاه المثل، وهذا هو الرأي الصحيح».

خير تركة للأبناء.. أدب وتعليم

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي



احتفى الأدب العربي بالأبناء وخلع عليهم أوصافا كثيرة، تفصح عن منزلتهم ومكانتهم، وتبين عميق محبة الآباء لهم؛ فهم فلذة الكبد، وقرة العين، وثمرة القلب. جاء في كلام الأحنف ابن قيس وهو يهدئ معاوية رضي الله عنه لما غضب على ابنه يزيد، فهجره: «يا أمير المؤمنين؛ أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة؛ إن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، ولا تكن عليهم قفلا؛ فيملوا حياتك، ويتمنوا موتك» (١).

وصف القرآن الكريم الأبناء بأنهم «زينة الحياة»؛ وهو وصف فيه من الجمال والبهجة ما فيه، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦). وجعل الدعاء بصلاحهم واستقامتهم مما يتوجه به «عباد الرحمن» إلى الله سبحانه، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤).

أمانة لديك

وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقي قد قرر أن الذكر الحسن هو للإنسان عمر ثان يمتد بعد وفاته، فقال:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثاني

فإن أبناء الإنسان الذين يتركهم بعد مماته، وقد أحسن تربيتهم، وأدى حق الله فيهم؛ هم أفضل ذكر حسن له، يجعل من حياته امتدادا غير منقطع، بل هم إحدى ثلاث تستمر بها صحيفة الإنسان في الامتلاء بالحسنات بعد وفاته ومفارقته دار العمل والكسب؛ قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (أخرجه مسلم).

إذن، الأبناء نعمة، والأبناء ذكر ثان، والأبناء أيضا أمانة؛ قد أودعها الله سبحانه عند الإنسان، وسيسأله: حفظ ذلك أم ضيع؟ فكما جاء في الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته» (أخرجه البخاري ومسلم). وجاء أيضا: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ ذلك أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» (رواه ابن حبان عن أنس بن مالك، وصححه الألباني).

وقيام الإنسان بما توجبه عليه هذه النعمة وتلك الأمانة، يعني بالضرورة أن يهتم بأبنائه، عقلا وروحا وجسدا، على السواء؛ إذ إن بعض الآباء يظن – خطأ – أنه بمجرد توفير حاجات أبنائه المادية، فإنه يكون قد برهم وأحسن واجبه تجاههم. كما أن البعض يظن أن انشغاله معظم الوقت بمتطلبات أبنائه المعيشية، يمثل ذريعة له عن تقصيره في حسن رعايتهم وتفقد أحوالهم.

لا.. هؤلاء وهؤلاء يرتكبون خطأ جسيما، فالإنسان ليس جسدا فقط، وما يجب على الآباء تجاه أبنائهم يتعدى الأمور المادية، بل قد تكون هذه الأمور أيسر ما يمكن القيام به تجاه الأبناء! ولذا روي في الحديث الشريف: «ما نحل والد ولده من نحل، أفضل من أدب حسن» (أخرجه أحمد، والترمذي). والمفارقة، أن الإنسان ربما انشغل عن أبنائه بزعم أنه يؤمن لهم مستقبلهم، فإذا هم ينشأون على غير هدى واستقامة، فيضيعون ما شقي الأب بجمعه، وانشغل به عنهم.

التربية.. علم وفن

كثيرة هي النصائح والتوجيهات والإرشادات التي يمكن أن تقال في هذا المقام، وهي في مجملها لا تخفى على أحد؛ لكن المشكلة في وضعها موضع التطبيق، وفي ضبط الآباء انفعالاتهم أمام مشكلات الأبناء المتعددة، وفي ثباتهم أمام ضغوط الحياة التي تجرفهم بعيدا عن مراعاة الجوانب النفسية والتربوية والإيمانية عندهم.





لكن تبقى ثلاث نقاط جديرة بالتنبيه والعناية؛ وهي:

- أن التربية علم وفن.
- وأن من الواجب مراعاة طبيعة المراحل العمرية المختلفة التي يمر بها الأبناء.
- إضافة إلى أن «تعليم الأبناء» هو خير ما يمكن أن يستثمر فيه الآباء، ويعود بالنفع عليهم وعلى أبنائهم وعلى مجتمعهم.

للأسف، فإن كثيرين من الآباء يعتمدون في تربية أبنائهم على ما راكموه في ذاكرتهم من خلال تجربتهم الشخصية، أو ما سمعوه، أو رأوه في البيئة المحيطة بهم؛ وهي أمور لا تخلو من غبش كثير!

هل سمعتم أن إنسانا يقبل أن يعالجه من يعتمد فقط على تجربته ومعارفه الشخصية، أم يذهب إلى طبيب ماهر حاذق؟! فما بالنا بقضية مهمة كهذه نستسهل الأمر، ونستهين به؟! لماذا لا يقرأ الآباء في كتب التربية؛ ليعرفوا ما حوته من كنوز وخبرات وإرشادات؟ لماذا لا يسعون إلى حضور دورات في تربية الأولاد، وما أكثرها؟ لماذا يستحي البعض أن يسأل: ابني يفعل كذا وكذا، كيف أتصرف معه؟

نعم، قد يسأل الآباء عن مواجهة مشكلات لأبنائهم، لكن بعد أن يقعوا فيها، ويصعب الخلاص منها!

مراحل مختلفة.. وزمان مختلف

يمر الإنسان في حياته بأطوار مختلفة، تندرج إجمالا تحت ثلاث مراحل: الطفولة، ثم الشباب، ثم الكهولة. ولكل مرحلة منها طبيعة وخصائص مختلفة عن الأخرى.

● فما يناسب مرحلة الطفولة، حتما لا يناسب ما يليها من مراحل؛ مما هو مفصل في علوم النفس والتربية. ولذلك جعل الإسلام لكل مرحلة ما يناسبها من الأحكام الفقهية، في مثل

قول النبي ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» (رواه أبوداود بإسناد حسن). وجاء في الحكمة: «داعب ولدك سبعا، وأدبه سبعا، وعلمه سبعا، ثم اترك حبله على غاربه» (٢).

لكن المشكلة الكبرى، التي تتوالد عنها مشاكل لا حصر لها، تحدث حينما يتعامل الآباء مع أبنائهم على أنهم أطفال دائما، كأنما توقف الزمان عندهم لا يتحرك أبدا! فلا يراعون التغيرات النفسية والجسدية والعقلية التي تطرأ عليهم، ولا يتيحون لهم الاعتماد على أنفسهم والتعبير عن ذواتهم ومشاعرهم ورغباتهم وتطلعاتهم، ولا يسمحون لهم بأن يروا الحياة والأحياء من خلال عيونهم هم لا عيون آبائهم!

● إن من يتأمل الحياة بتقلباتها وتغيراتها، يجد أنها في حركة مستمرة، وأن الزمان لا يتوقف عن الدوران. ومع هذه الحركة وذلك الدوران تنشأ مفاهيم وتتغير عادات، وليس من المناسب أن يصنع الأبوان قفصا حديديا لأبنائهما؛ بل الأوفق أن يغرسا فيهم احترام ما لا خلاف عليه، والتمسك بما افترضه الله، ثم يتركا لهم أن يمارسوا حياتهم بأريحية، وأن يكونوا أبناء زمانهم؛ ما دام ذلك لم يخدش حياء، ولم يؤد إلى معصية.

أما من يصر على أن يكون أولاده «نسخا كربونية» منه، فليجهز نفسه لمشكلات لا تنتهي؛ ولذا جاء في الحكمة «لا تكرهوا أولادكم على آثاركم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» (٣).

خير استثمار

العلم هو أساس الحضارة؛ عليه تقوم، وبه تشيد أركانها، ومعالمها، وفنونها. والإنسان هو عماد تلك الحضارة، منه تبدأ، وعند رقيه ورفاهيته تنتهي.. ولاشك أن التنافس بين الأمم والحضارات هو في حقيقته تنافس على الأخذ من العلم بالنصيب الأكبر؛ بما يمكن من تطوير مجالات الحياة، ومن إحراز أفضل النتائج فيها بأقل تكلفة وفي أقصر وقت ممكن.

وإن أفضل استثمار يعود بالنفع على المرء وعلى أولاده، بل وعلى مجتمعه الذي ينتمي إليه، هو أن يستثمر أمواله وطاقاته في هذا «الإنسان» الذي يشكل عماد الحضارة، من خلال صقله بـ«العلم» الذي يمثل أساس أي حضارة.

ويرى أحد الباحثين أن جميع شواهد التطور في العالم تؤكد ضرورة استثمار العنصر البشري بكل طاقاته؛ لأن ذلك هو ما يحقق الفارق في التقدم والتطور؛ وأنه لابد من تخريج قوة بشرية لها القدرة على التطوير والتحديث؛ وذلك من خلال المؤسسات التعليمية والجامعات والمعاهد العليا، وأن يسهم التعليم العالي في رسالة بناء الإنسان وتطويره.

وفي لفتة مهمة، يشير أحد الباحثين إلى أن مفهوم «الاستثمار» ارتبط بمفهوم «التنمية الشاملة»؛ التي تهدف إلى تحسين نوعية الحياة، وقدرة الإنسان على التعامل مع العلم والمعرفة وتقنيات العصر؛ وأن «التنمية» بهذا المفهوم تتوقف على التعليم الجيد للإنسان، فالتعليم هو المحور الأساسي للتنمية والنهضة الحضارية (٤).

● وفي هذا الصدد، نشير إلى ضرورة تعلم لغة أجنبية، لكن ليس على حساب اللغة العربية، كما يقع البعض في هذا الخطأ؛ فاللغة العربية وإن لم تكن لغة العلم المعاصر، لكن لا توجد أمة تبدع بغير لغتها، فضلا عن دور اللغة العربية في حفظ الهوية وتأكيد الاستقلال الحضاري (٥).

● كذلك من المهم أن يهتم الآباء بتنمية الجانب العملي والمهاري عند أبنائهم منذ الصغر، ولو عن طريق الألعاب التي تنمي الذكاء، وتدفع العقل لمزيد من التفكير؛ وألا يولوا الأهمية للحفظ فقط؛ لإحراز أعلى الدرجات، فيتحول الأطفال إلى آلات لا تعي شيئا مما تحفظ. وللأسف فإن نمط التعليم في كثير من الدول العربية يغذي هذا الاتجاه، ولذلك ليس مفاجئا أن تتراجع جامعاتنا بعيدا في قائمة الترتيب على مستوى العالم!

● وأما التنبيه الثالث، فهو أن يترك الآباء لأبنائهم الحرية كاملة في المجال الذي يريدون التخصص فيه، فلا يفرضون عليهم دراسة بعينها؛ فالعلم - بمفهومه الواسع، ومجالاته المتعددة، النظرية والعملية - مطلوب للأمة، ويمكن أن يبدع الإنسان في أي مجال من تلك المجالات، مادام قد اختاره عن رغبة وقناعة ومناسبة لمهاراته؛ وبالتالي يستطيع من خلال ذلك أن يكون ناجحا في الحياة، نافعا لمجتمعه.

الهوامش

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة، ٣/ ١٠٥.

(٢) نسبه بعضهم إلى عبدالملك بن مروان.

(٣) لا يصح هذا القول حديثا شريفا، وقد نسبه الشهرستاني لسقراط، في «الملل والنحل»، ١٤٥/٢.

(٤) هو: د. خالد جلبان، استشاري طب الأسرة في كلية الطب بجامعة الملك خالد بأبها، نقلا عن جريدة «الرياض»، بتصرف يسير، على الرابط: http://www.alriyadh.com/٨٨٨٩٣٢.

(٥) شهد كثير من المستشرقين - مثل نولدكه وجرونيباوم - على تفرد اللغة العربية، وقدرتها على مسايرة العلوم، وتميزها بخصائص وجماليات دون اللغات الأخرى.



لماذا نتجنبه وكيف نقضي عليه؟

الشره الاستهلاكي

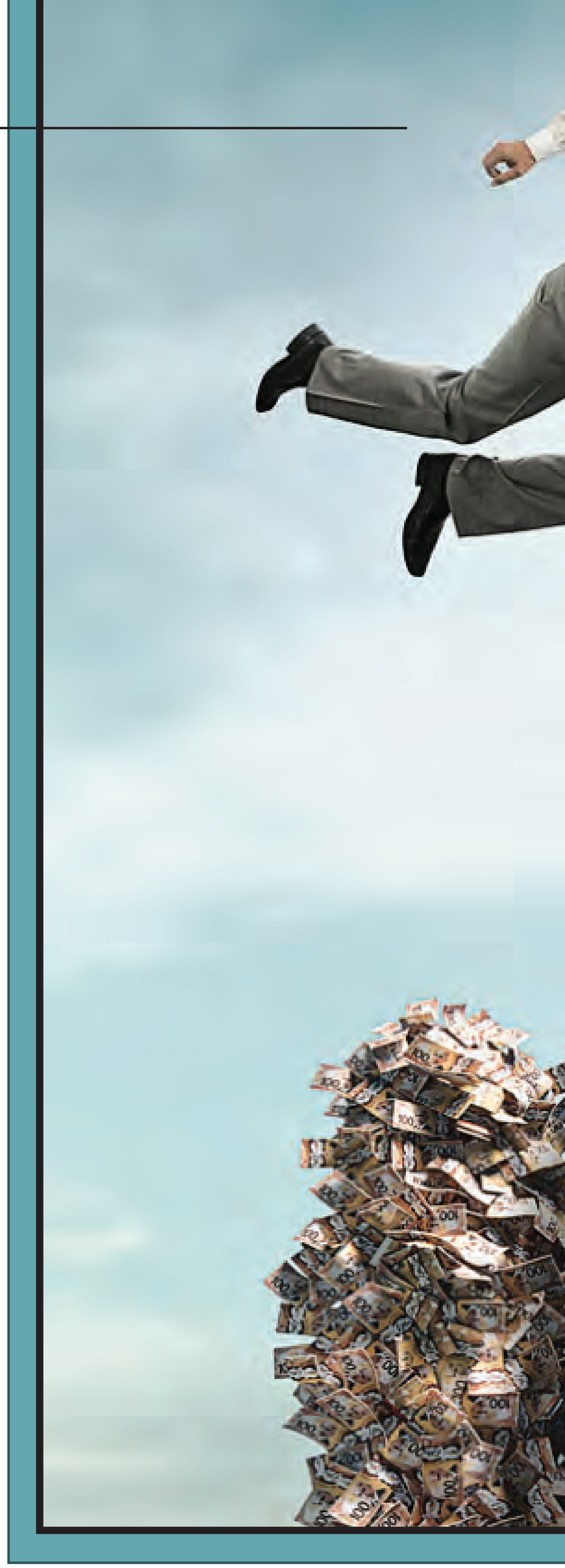
تحقيق:
نشوه صالح

لماذا غيّب الشره الاستهلاكي ثقافة الادخار في عالمنا العربي؟ وماهي الأسباب والعوامل التي أدت إلى تفاقم النزعة الاستهلاكية في المجتمعات العربية إلى هذا الحد؟ وكيف نقضي عليها لتعود ثقافة من جديد؟

هذه الأسئلة وغيرها حاولت «الوعي الإسلامي» الإجابة عنها من خلال الالتقاء بعدد من المحللين الاقتصاديين وعلماء النفس والاجتماع والدّين، الذين أكدوا جميعهم أن ظاهرة الاستهلاك انتشرت وبقوة في المجتمعات العربية بصورة لافتة للأنظار، في ظل غياب ثقافة الادخار.

وأشاروا إلى أن حب تقليد الآخرين، وغياب سياسة ترشيد الإنفاق يغذي ثقافة الإنفاق المبالغ فيه.

في البداية يوضح الخبير الاقتصادي حجاج بوخضور أن الادخار ثقافة يكتسبها الفرد من أسرته، ومن البيئة التي يشبّ فيها، موضحا أن الشعوب التي تتمتع بثقافة الادخار هي الشعوب التي تتمتع بذكاء عال، وحرص على المستقبل، لافتا إلى أن الحكومات عندما تتمتع هي الأخرى بالثقافة



الادخارية، فإن مواطنيها يكتسبون هذه القيم منها تلقائيا، ولكن عندما يجد الأفراد والشعوب أن الحكومات تنفق ببذخ هائل دون رشد فسيكونون أكثر بذخا.

وأكد بوخضور أن هناك عدة جوانب أخرى تبعد الإنسان عن ثقافة الادخار، وتدفعه نحو الترف الاستهلاكي، أهمها محاولات الدول الرأسمالية الكبرى تقوية النزعة الاستهلاكية في الشعوب الغنية والفقيرة، من أجل استنزاف كل ما في أيدي تلك الشعوب، موضحا أن تقليد الآخرين يشجع على غياب ثقافة الادخار، لأن هناك أشخاصا يبحثون عن ملذات النفس، من خلال امتلاك سلع كمالية للاستهلاك وتقليد الآخرين والتباهي.

سلوك منفلت

ويقول الخبير الاقتصادي صلاح العازمي: إن هناك مؤشرات اقتصادية توضح مدى غياب ثقافة الادخار، منها تراجع نسبة المدخرين في شهادات الاستثمار، منبها إلى أن ارتفاع نسب قروض المواطنين من البنوك يعد من المؤشرات الرئيسة لغياب ثقافة الادخار، فضلا عن أن هناك بنوكا تعمل ليل نهار على تحفيز المواطنين على الاقتراض من البنوك، وتقدم في سبيل ذلك إغراءات غير عادية.

واختتم العازمي كلامه قائلا: إن غالبية من مواطني العالم العربي لا يقدرون قيم الادخار، موضحا أن شعوب الدول الأوروبية ودول جنوب شرق آسيا لديها ثقافة ادخارية عالية جدا، ولذا فإن مواطني هذه الدول لا ينفقون أموالهم إلا فيما يستحق.

ويرى أستاذ علم الاجتماع في جامعة الأزهر د. محمد العبيدي أن الدراسات الاجتماعية والسيكولوجية تشير إلى زيادة النزعة الاستهلاكية التي تنتشر في المجتمع بصورة سريعة، عندما تغيب ثقافة الادخار عن هذا المجتمع، موضحا أن السلوكيات الاجتماعية الانفلاتية ذات الشراهة الاستهلاكية تتوغل في المجتمعات بصورة أعظم عندما لا تتخذ حكومات تلك الدول أي إرشادات لمواطنيها، لتحثهم على الادخار.

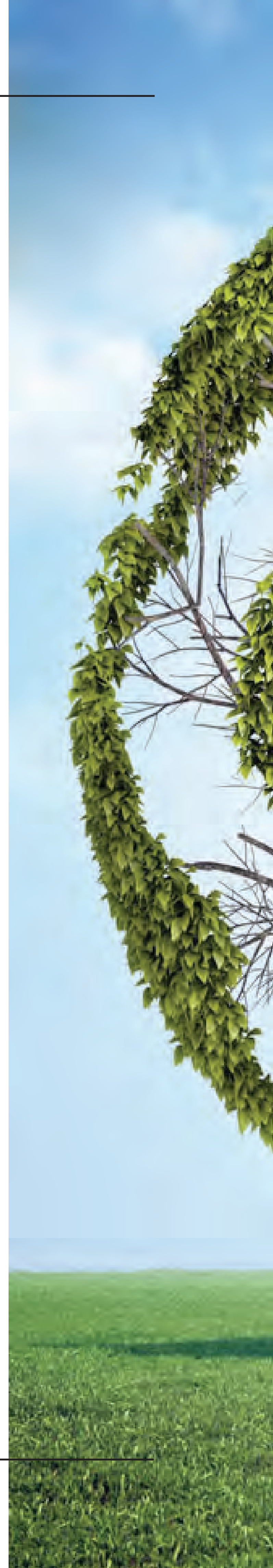
وأوضح د. العبيدي أن مؤسسات المجتمع المدني عليها أن تقوم بدورها الإيجابي لمعالجة ظاهرة زيادة النزعة الاستهلاكية، مع ضرورة ترسيخ قيم الثقافة الادخارية في المجتمع.

حب القصور

ويشير أستاذ علم النفس في جامعة الكويت د. عويد المشعان إلى أن غياب ثقافة الادخار تنتشر في الكثير من المجتمعات العربية، خاصة الخليجية، نظرا لارتفاع دخل الفرد فيها عن الدول العربية الأخرى. ومع هذا فإن ثقافة الاستهلاك الترفي المبالغ فيه تنتشر في معظم المجتمعات العربية، مفيدا أن المواطن لا يكبح جماح نفسه عن شراء كافة الموديلات الحديثة، سواء في السيارات أو كافة المقتنيات الأخرى، وهو يفعل ذلك ليس حبا في اقتناء كل ما هو جديد، وإنما حبا في الظهور بالمظاهر الخداعة.

ورأى د. المشعان أن الآباء والأمهات يلعبون دورا أساسيا في غياب ثقافة الادخار وزيادة النزعة الاستهلاكية لأولادهم، عن طريق إعطاء الأولاد كل شيء دون حساب، مطالبا أولياء الأمور بضرورة تعويد أبنائهم على الادخار منذ صغرهم. فالابن الذي يدخر من أجل شراء هدية لأمه أو لوالده أو لشقيقه الأصغر، فإن هذا الابن ستنمو لديه ملكة الادخار، أما إذا تعود الأبناء على الإنفاق المبالغ فيه حسب قاعدة «اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب» فهؤلاء الأبناء لن يقدروا على الادخار في حياتهم. ومن هنا سوف يعاني هؤلاء الأبناء في كبرهم من الإفراط في الإنفاق.





دور الأم

وأشار د. المشعان إلى أن الأم عليها أن تعود أبناءها على الادخار، وأن تساعدهم في ذلك، وعليها أن تحببهم في القناعة وعدم تقليد الآخرين، متأسفا لوجود بعض الأهل الذين يزرعون سلوكيات البذخ والإسراف المبالغ فيه في نفوس الأبناء. فاذا اشترى ابن العم هاتفا حديثا فإن بعض الأمهات تتجه فورا لشراء الهاتف نفسه لأولادها بحجة واهية.

غيرة المرأة

ويرى الاستشاري في الطب النفسي د. خالد الإبراهيم أن غيرة المرأة من المرأة تلعب دورا كبيرا في غياب الثقافة الادخارية، موضحا أن المرأة إذا رأت زميلتها في العمل اشترت سيارة جديدة أو حتى عباءة فإن دوافع الغيرة تتحرك داخلها، ولذا تتجه لشراء ما هو أفخم مما اشترته زميلتها في العمل، موضحا أن هناك الكثير من الشباب والرجال أيضا الذين لا يهتمون بتوفير أي مبالغ للمستقبل، لأنهم اعتمدوا على الدولة في كل شيء، موضحا أن المواطن عندما يجد أن دولته ترعاه من المهد إلى اللحد، فما الذي يجعله يدخر، ذاكرا أن الثقافة الادخارية تزداد في المجتمعات الفقيرة بشكل أكثر من المجتمعات الميسورة، مطالبا بضرورة تعزيز السلوكيات النفسية التي تدفع الأجيال الصاعدة نحو الثقافة الادخارية بكافة الطرق. منها على سبيل المثال أن يسلط الإعلام الضوء على تعزيز الثقافة الادخارية، وأن تهتم الأسر بتربية أبنائها على ثقافة الادخار، وتقوم المدارس بدورها في تعزيز هذه الثقافة وتبتعد عن ثقافة الشره الاستهلاكي.

ترشيد الإنفاق

وشدد الأمين العام لمؤسسات المجتمع المدني عبدالرحمن الغانم على أهمية أن تقوم مؤسسات المجتمع المدني بدورها التوعوي والإرشادي، لتعزيز قيم الادخار في المجتمع، كما أكد على أهمية قيام الآباء والأمهات بتعويد أولادهم على ثقافة الادخار من أجل تأمين المستقبل، موضحا أن الدول النفطية ينبغي عليها أن تربي أجيالها على ثقافة الادخار، من خلال ترشيد الإنفاق، ومن خلال الابتعاد عن الهدر المتواصل.

ويرى المحامي ماجد بورمية أن غياب ثقافة الادخار أدت إلى دخول الكثير من الرجال والنساء والشباب السجون، نتيجة عدم تعودهم على الثقافة الادخارية، موضحا أن الإنسان عندما يشب على قيم الإفراط في الإنفاق، فإن هذا الإنسان من السهل عليه أن يورط نفسه في قروض بنكية من أجل شراء سيارة جديدة مثلا، أو يستدين من البنوك من أجل أن يستمتع بالسفر من خلال الاستدانة، مشيرا إلى أن القوانين ملزمة لأي إنسان لا يدفع مستحقات البنوك، خاصة وأن تحرير شيك بدون رصيد أصبح جناية وليس جنحة.

كل البسط

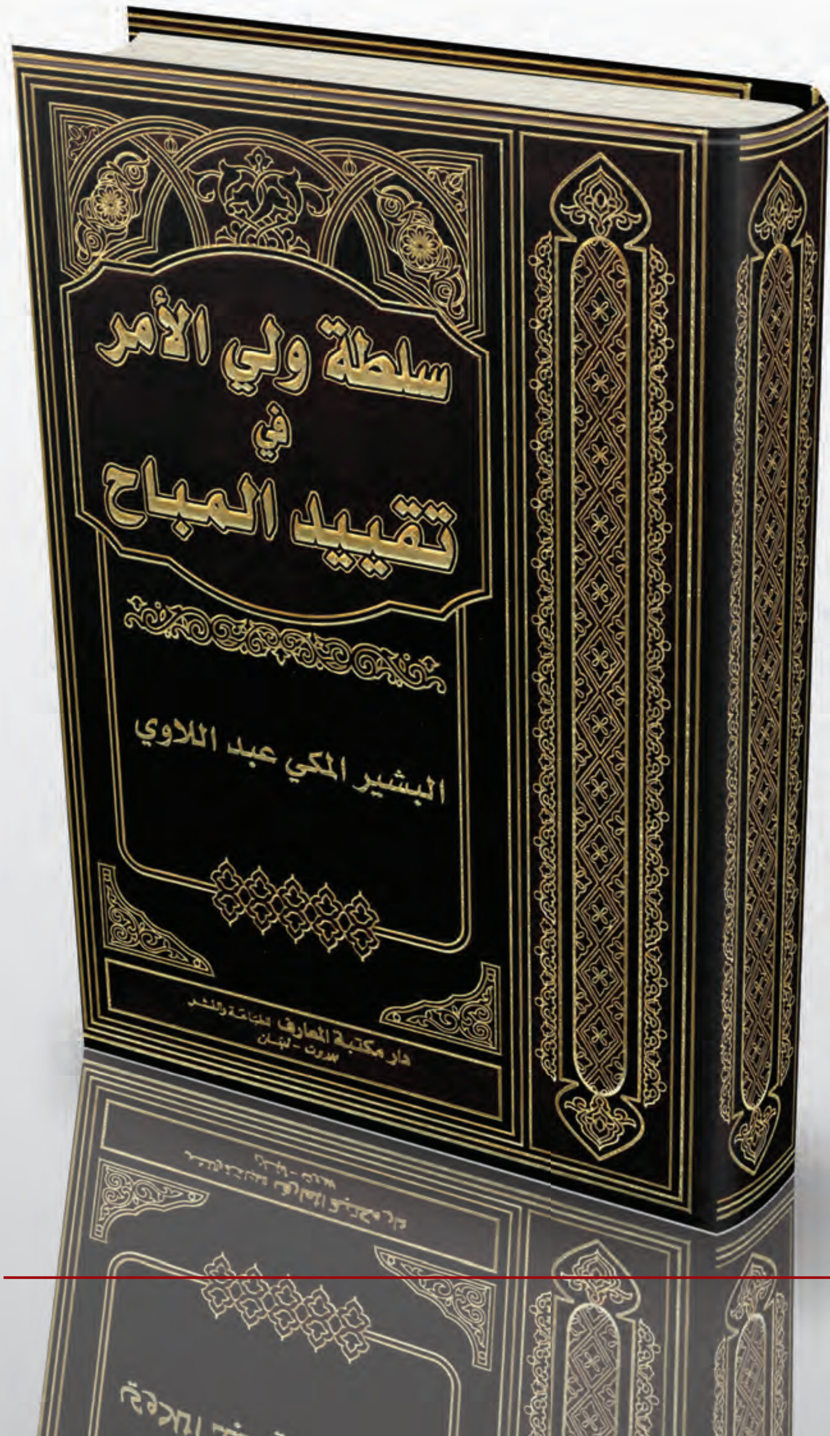
ويقول الداعية الإسلامي الشيخ أحمد الموسى: إن على الإنسان أن يلتزم بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فيما يتعلق بالادخار، لأن الإنسان إذا أنفق كل ما لديه دون أن يدخر للمستقبل فإنه سوف يلوم نفسه. والآية الكريمة في ذلك تقول ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩). موضحا أن المواطن الذي يحب تقليد الآخرين، ويتجه لشراء أحدث السيارات وآخر صيحة في الهواتف النقالة مهما كان سعرها، دون أن يكفي راتبه كل هذا هو إنسان يهلك كل ما لديه من أموال.

مشيرا إلى أن الادخار نعمة من نعم الله، لأن الإنسان إذا كان الآن في سعة من رزقه فعليه أن يعلم أن النفس لا تدري ماذا تكسب غدا، ولذا يجب أن يدخر المسلم على قدر استطاعته، ولكن في نفس الوقت يجب أن يخرج الزكاة في مواعيدها، ويتصدق على الفقراء، وأن يستثمر ويتاجر مع الله عزوجل، مع استمراره في الادخار، محذرا في الوقت نفسه من المبالغة في الادخار لدرجة البخل على النفس وعلى الغير.

سُلطَةُ وَليِّ الأمرِ فِي تَقييدِ المُباحِ (١)

التحريـــــر

الأصل في الأنظمة التي تأتي على وفق الاحتياط للمصلحة أن تكون داخل دائرة المباح، فالمصالح المعتبرة كدليل مشروعية، ذات حدين، حد متعلق بتصرفات الإمام، وحد متعلق في المتصرف فيه، فهي من جهة أساس يستند إليه ولي الأمر في تقييد المباح، وهي من الجهة الأخرى ضابط يستند إليه ولي الأمر في عدم تجاوز ما يباح له فعله (٢).



وقد عبر الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله (٣) عن تقييد المباح باصطلاحات متعددة منها: «إيقاف العمل المباح» و«منع المباح» و«تقييد المباح» و«تعطيل المباح» و«الامتناع عن المباح» وجميعها تتفق في المعنى الذي هو ترجيح أحد طرفي الإباحة؛ حيث إن المباح ليس مباحا بإطلاق؛ لأن تناوله أو الإحجام عنه تتعلق به حقوق الآخرين، ولابد من مراعاتها، مما يستوجب منع المباح تارة والأمر به تارة أخرى، بحسب ما يؤول إليه التناول أو الإحجام، بحسب الحال والمكان والزمان.

وهذا المنع أو الأمر، ليس على سبيل الدوام، فهو مؤقت باستمرار الحاجة أو الضرورة الداعية لترجيح أحد طرفي الإباحة، وهكذا فإن تقييد المباح هو ترجيح بعض الخيارات لأسباب معقولة ومؤقتة، على سبيل الأمر أو الحث، ما لم يوجد مانع شرعي من نص خاص أو قاعدة كلية أو ضابط (٤).

وبذلك يدخل في دائـرة المباح تغير الأحكام بتغير الحال والمكان والزمان، وفق ضوابط التغير الشرعية، فعندما يتخلف مقصود الحكم الشرعي عنه، سـواء المندوب أو الواجب أو المكروه أو المحرم، لزم ولي الأمر وهو المنوط به بحكم الولاية العامة صيانة تحقيق المقاصد الشرعية الخمسة ورعايتها،

وأعلاها حفظ الدين، بأن يتدخل بتصرف يعيد تحقيق المقصود الشرعي من الحكم.

تقييد المباح تفرضه السياسة الشرعية **لا الهوى والتسلط:**

وهذا التصرف من قبل ولي الأمر يعد من أمور السياسة الشرعية؛ فولي الأمر وهو يقيد الإباحة لا يقيدها بالهوى والتشهي، بل بالنظر والاحتياط المشروع والسبيل الأجود لمصلحة الرعية؛ ولذا لابد أن يلاحظ مدى مشروعية تناولها، من خلال موافقة قصد المكلف في التناول لقصد الشارع في التشريع، فإذا وافقها كان استعماله مشروعا، وإن كان على خلاف ذلك كان مطلوب الترك (٥).

وليس في ذلك أي تغيير للأحكام الشرعية، فهما خارج نطاق التخيير، ولابد من الامتثال للشرع، فتسن الأنظمة للأمر باللازم في الواجبات والحث عليها، واستحداث المرغبات لها، وعقوبة تاركها، وللأمر باللازم في ترك المحرمات والتحذير منها وعقوبة فاعلها؛ قال الشاطبي: «ومن كلامه – يقصد عمر بن عبدالعزيز – الذي عني به ويحفظه العلماء، وكان يعجب مالكا جدا، وهو أن قال: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفه، من عمل بها مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا»، وبحق ما كان يعجبهم؛ فإنه كلام مختصر، جمع أصولا حسنة من السنة» (٦).

وبناء عليه يكون حمل مقولة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»، على مقتضى الأصول المضمنة في أثر عمر بن عبدالعزيز: أن سنة ولاة الأمر وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلم، لقوله: «الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله»، وهو أصل مقرر في غير هذا الموضع، فقد جمع كلام عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أصولا حسنة وفوائد مهمة، وهو قول الشاطبي (٧).

ما هو المباح الذي يمكن تقييده؟

إلا أن هذا المباح ليس مطلقا في كل مباح، بل هو فقط فيما جعل للإمام فيه حق التصرف بالمصلحة المعتبرة، وفي كل أمر هو من اختصاصه، وضمن مسؤوليته، بحيث يباح له فعله، فيخرج بذلك جميع المباحات التي ليست من اختصاصه، ومنها على سبيل المثال خصوصيات الناس، فلا يحق للإمام أن يلزم الناس بشرب القهوة دون الشاي، أو شخصا بزواج فلانة دون علانة، أو مثل ذلك (٨). والدليل على تقييد المباح لمصلحة معتبرة من فعله ﷺ؛ حيث نهى عن ادخار لحوم الأضاحي وعلل ذلك بالدافة، وهم الأعراب الفقراء الذين يفدون على المدينة، ثم أذن في ذلك فقال ﷺ: «ألا فكلوا وتصدقوا وادخروا» (٩)، ومن فعل الصحابة منع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض الصحابة من السفر خارج المدينة (١٠)؛ فقد كان يرى جواز منع بعض الأشخاص من السفر؛ لحاجته إلى استشارتهم في الملمات والنوازل، وذلك لاحتياج الأمة لهم، وحرصه عليهم، حيث يخشى بذهابهم فقدان البديل لهم، وخاصة بعد مقتلة القراء، وكذلك لدرء بعض المفاسد التي تنتج من انتشارهم في البلاد، كظهور التعصب بين الناس للصحابي المقيم في مدينته في مقابل باقي الصحابة، مما يبث الأحزاب والفرق بين المسلمين (١١).

الفرق بين المنع من بعض أفراد المباح والمنع من جنس المباح:

وللمكلف أن يمنع نفسه من بعض أفراد المباح متى دعت الحاجة إليه، وليس له أن يمنع نفسه من جنس المباح، فإذا لم يجز ذلك للمكلف فهو من باب أولى غير جائز للإمام؛ فليس له أن يسن نظاما أو أمرا أو غير ذلك مما من شأنه أن يمنع جنس مصلحة على عموم المكلفين، بل له فقط أن يمنع الفرد من أفراد المصالح، ذلك أن جنس المصلحة متى ثبت بالدليل الشرعي؛ لم يصح منع جنسه بأي حال، فقد أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» بسنده عن حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

فلا يصح أن يأتي تقييد المباح على سبيل النسخ بإبطال حكم سابق بحكم لاحق؛ فذلك من اختصاصه ﷺ، وقد انقطع النسخ بانقطاع الوحي بوفاته ﷺ، وأما منع الفرد من أفراد المباح في حالة معينة، ولوقت معين، فجائز بضوابطه.

ومن طبيعة الأنظمة المعمول بها في كل دولة تقييد ما تدخل عليه من المباحات، وهذا التقييد معدود في أعمال السياسة الشرعية التي يقوم بها ولاة الأمر، فهي إجراء مؤقت تدعو له الضرورات أو الحاجات، من أجل المحافظة على قصد المباح إذا تعرض للنسيان أو التناسي، أو عارضتها عادات أو ممارسات تعود على المباح بالنقض، ولاسيما متى تعلق المباح بحق الآخرين؛ إذ الأصل في مشروعيته اعتبار حقوق الآخرين؛ وبزوال سبب المشروعية ترفع الإباحة (١٢)، وهو من أنواع العمل بمبدأ أن لولي الأمر تقييد المباح –عند من يقرره من أهل العلم– لمصلحة عامة لا خاصة، والمقصود اختياره أحد أفراد المباح الذي جاز فعله أو تركه أصلا، مع إلزام الناس بهذا الاختيار؛ سواء بمنعهم من فعله، أو بإلزامهم به، وهذه المباحات وإن كانت مساحة تقبل التوجيه

نحو الخير أو نحو الشر حسب إرادة المتناول لها، فإن الله عزوجل لم يرد بها إلا الخير؛ ولهذا فإن كل تصرف في المباح بما يحقق المقاصد الشرعية من جعلها مباحة يعد من مظاهر النهوض بمسؤولية خلافة (١٣) الإنسان في الأرض، ومن باب أولى خلافة الحكام على الناس.

وعلى الجملة فالمباح - كغيره من الأفعال - له أركان وشروط وموانع ولواحق تراعى؛ والترك في هذا كله كالفعل، فترك الفعل فعل؛ فكما أنه إذا تسبب الفرد للفعل كان مسؤولا عن تسببه، كذلك إذا تسبب إلى الترك كان مسؤولا عنه، فالمسؤولية تنفي الإطلاق في التصرف، وتقيد الحرية بما يؤول إليه التناول (١٤)، وعلى هذا فيجوز لولي الأمر - وقد يجب - التدخل لاتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية المباح، ومنع الضرر أو الحرج المترتب على تناوله؛ إما بمنع الناس مما يرى أن في عدم تقييد إباحته ضررا بالمجتمع، أو إيجاب ما يرى أن في الأمر به دفعا لمفسدة أو جلبا لمصلحة لعموم الناس، أو وضع طريقة مفصلة لتناول المباح، تذهب مفاسد التناول وتحول دون إساءة الاستخدام، وما يتخذه ولي الأمر من إجراءات في سبيل ذلك يكون ملزما واجب الطاعة (١٥)، فكل تقييد لمباح يحقق مصلحة عامة معتبرة، اختاره الإمام والتزمه في سن الأنظمة أو إصدار الأوامر والتعليمات وغيرها من الوسائل الإدارية؛ وجب على الأمة أن تطيعه فيه.

ومن الأمثلة على ذلك: إعادة تنظيم عمر بن عبدالعزيز رحمه الله للجانب الإجرائي في رد المظالم إلى أهلها، فرفع جميع القيود والشروط التي أضافها من سبقوه من الولاة لإثبات المظلوم لمظلمته، ثم خفف ما تبقى منها؛ بحيث يكون جانب الاحتياط باتجاه عدم تفويت مصلحة المتظلم، وذلك بالتيسير وعدم التشدد في طلب البينة القاطعة من المتظلمين، في زمن كثر فيه غشم الولاة، فكان يكتفي بأيسر من ذلك، وإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة (١٦)، عملا بقاعدة: «إذا ضاق الأمر اتسع» (١٧)، فمتى كان الخصم أحد الجهات الحكومية أو المسؤولين فيها؛ فقد تكون بينة المتظلم من المتعذر تحصيلها، وذلك لوجودها لدى خصمه، كما هو الحال في غالب التظلمات من تصرفات أو إجراءات الجهات الحكومية والعامة، أو تلك المتعلقة بعقود الإذعان، فيتعسر على المتظلمين الحصول على البينة؛ فيضيق بهم الحال، ويقع عليهم الحرج الكبير، فبعض التراتيب الإدارية قد تؤدي إلى تعثر العمل الحكومي وامتناع المحاسبة على التقصير؛ لذا ينبغي ألا يقام نظام الحكومة على ضوابط ملتوية، يعز على القائمين بالأمر أن يقوموا به، وعلى المحاسبين أن يحاسبوا ويعينوا من جاء منه الخلل والفساد (١٨).

ولأجل ذلك، أوسع عمر على الناس بتخفيف شروط البينة الكافية لإصدار قراره في المظلمة لرفع مفسدة قطع البينة عن صاحبها، والاحتياط لحقوق الناس، ومراعاة فارق الحال بين الخصمين، وتعظيم فرص ومصلحة رد الحقوق إلى أهلها.

تقييد ولي الأمر للمباح منوط بمصلحة الرعية:

ولي الأمر الأكبر هو المخول بسن الأنظمة التي تقيد المباح، وفق ما تقتضيه أحكام الشريعة السمحة. ولكن مع ذلك يبقى موقف تحديد المساحة الحرة وتقييدها موقفا صعبا وحرجا ودقيقا على الإنسان غير المعصوم، والتريث في هذا الأمر وعدم الاستعجال فيه من الإحسان؛ لأن ما زاد عما يقتضيه الحال من درء أو رفع لمفسدة، أو من جلب لمصلحة وتكثيرها؛ يعد تجاوزا للحد المشروع، وتجاوز الحد غير مشروع، وبخاصة أن تلك الأمور يصعب على عامة الناس في أكثر أحوالهم إدراك كامل الأمر، ولا يرون سوى الجزء اليسير المتعلق بمصالحهم الشخصية، قال الفاروق رضي الله عنه لما حمى الربذة: «وايم الله إنهم - أهل الربذة - ليرون أني ظلمتهم، إنها بلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية، وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عنهم من بلادهم شبرا»، فتأكيده رضي الله عنه الكلام بالقسم مؤذن بأن لهم شبهة قوية ناتجة عن نظرة جزئية في أن الخليفة ظلمهم، وحاشاه رضي الله عنه من ذلك! والحاصل أنه قد يترتب على الحاكم تكلفة سياسية حتى في احتياطه للتوسعة على عموم المسلمين (١٩).

والحريات تتسع بمقدار اتساع الأنظمة كيفا، والإقلال منها كما، وتتسع الأنظمة وتقل كميتها بمقدار ما يجعل الناس في تناولهم للمصالح التي يحتاط لها النظام والمفاسد التي يقيدها؛ موافقة لمقاصد الشارع من التشريع، ثم بحسب نمو أسباب التمدن والشعور بالمسؤولية، وبذلك يتأكد أن تقييد المباح بالأنظمة، وما يدخل في حكمها ليس إلا تدبيرا سياسيا شرعيا مؤقتا، يحفظ المجتمع والدولة من أسباب الفرقة والضعف والانحلال (٢٠).

تقييد المباح مؤقت وليس أبديا:

والأصل التأقيت في تقييد المباح؛ لأن التقييد السلبي والإيجابي الذي يترتب على سن الأنظمة عمل اجتهادي، يهدف إلى جلب مصلحة ودفع مضرة؛ لذا فهو أمر عارض أصل الإباحة، فيزول بزوال مبرراته، أضف إلى ذلك أن كثرة تقييد المباح بتبني الإمام لأحكام اجتهادية لتصدر الأنظمة على وفقها، سيؤدي إلى تقييد الاجتهاد في المسائل الاجتهادية التي صدر فيها النظام، وفي ذلك إضعاف لفكر ونظر المعنيين بتطبيق النظام (٢١). وقد ناقش ابن القيم هذه المسألة، وبين أن التقييدات تصرفات سياسية صادرة عن الخلفاء، ساسوا بها الأمة، ثم تساءل في سبيل إثبات تعلقها بالمصالح المتغيرة، فقال: «هل هي من الشرائع الكلية التي لا تتغير بتغير الأزمنة، أم من السياسات الجزئية التابعة للمصالح فتتقيد بها زمانا ومكانا؟» (٢٢)، وقد أجاب ابن عاشور عن هذ التساؤل فبين أن ذلك

موكول لنظر المجتهد سدا وفتحا، بأن يراقبوا مدة اشتمال الفعل على عارض فساد فيمنعوه، فإذا ارتفع عارض الفساد أرجعوا الفعل إلى حكمه الأصلي (٢٣)، ويأتي كلام ابن القيم وابن عاشور مقتضيا التوسعة والموافقة لمقولة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»، فأما التوسيع فمن جهة دخول السياسات التي يحدثها الخلفاء في قول عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله «تحدث للناس أقضية»، ودخول الفساد في قوله «ما أحدثوا من الفجور»، وإشارة ابن القيم إلى سياسة تقييد المباح أنها من السياسات الجزئية التابعة للمصالح، فتتقيد بها زمانا ومكانا، وتصريح ابن عاشور بمراقبة مدة اشتمال الفعل للفساد العارض يأتي على سبيل الموافقة لقول عمر: «بقدر».

والأصل في الأنظمة أن تكون مؤقتة، وجواز تدخل الدولة بالمنع والإلزام مشروط بأن يكون مؤقتا في الأفعال التي الأصل فيها عدم إيجابها على الرعية، أو عدم منعهم من إتيانها، وعلى أن يكون التدخل في أحوال مخصوصة فقط (٢٤)، والتأقيت المقصود هنا لا يحدد بزمن معين، وإنما بقاء العمل بالنظام ببقاء ما يبرره وبقاء أمر ولي الأمر به، وذلك – بحساب الزمن – قد يطول وقد يقصر، والمحدد لذلك طبيعة العارض، ومن ثم يكون من المهم تحديد مدى العارض زمنا ووقتا، وهذا صراط دقيق لا غنى عنه لمن تصدى لمهمة الإفتاء، ومن باب أولى يتأكد لمن تصدر مسؤولية الحكم، وما يقتضيه ذلك من اجتهاد في سياسة أمر الناس (٢٥).

فتقييد المباح بسن الأنظمة ليس أمرا يكثر استخدامه في إطار السنة المالية الواحدة التي تعمل بها الدول اليوم، وليس من الأمور الاعتيادية؛ لذا فسن الأنظمة يعد تدبيرا سياسيا استثنائيا، استدعاه الواقع المتغير بتغير الضرورات والحاجات، وهذا يكشف عن لزوم حضور الواقع في فكر ولاة الأمر، ولزوم متابعة مدى التزام الناس في إتيان مصالحهم، وفق الأنظمة على الوجه المشروع للتصرف في المباحات، كما يكشف عن المرونة التي تتجلى في الشريعة من خلال مراعاة إلغاء النظام والعودة إلى أصل الإباحة بزوال مصلحة تقييدها (٢٦)، لكي لا تتراكم الأنظمة فتشق على الناس وتوقعهم في حرج، دون مصلحة تعود لهم أو للدولة جراء ذلك.

تقييد المباح احتياط للمصالح المعتبرة:

وبناء على ما تقدم، يكون تقييد المباح احتياطا للمصالح المعتبرة بإطلاقها وتكثيرها ومنع دخول المفاسد عليها، وهذا عند التحقيق أحد أدوات وإجراءات مراعاة تغير وسائل وطرق المصالح المعتبرة بتغير وسائلها وطرقها المعاصرة، بحيث تؤول المصالح والأنظمة المرعية إلى صيانة الشريعة، وتجديد العمل بثوابت هذا الدين الحنيف، وحمايتها بكل وسيلة مشروعة. مع التأكيد على أن تدخل الدولة إنما أبيح لإقرار الشرع له، وليس نابعا عن مجرد تصور الدولة للمصلحة العامة، أو مسايرة للرأي العام، أو غير ذلك (٢٧).

ومن الأمثلة على تغير الطريق إلى مصلحة التعليم الشرعي، ما نقل عن تغير موقف علماء الأمة من كراهية تدوين العلم الشرعي في كتب؛ لأجل سد الذريعة إلى مفسدة، وهي كما نقل الشاطبي في كتابه الاعتصام «الخوف من الاتكال على الكتب استغناء بها عن الحفظ والتحصيل، وإما على ما كان رأيا دون ما كان نقلا من كتاب أو سنة»، إلى أن قرر الشاطبي: «اتفاق الناس بعد ذلك على تدوين الجميع لما ضعف الأمر، وقل المجتهدون في التحصيل، فخافوا على الدين الدروس جملة» (٢٨)، ويمثل الخوف على انقطاع العلم جملة انقطاع الطريق إلى المصلحة، والذي ترتب عليه حدوث مفسدة واقعة، وكانت تلك مقابل سد الذريعة لأجل مفسدة متوقعة.

الهوامش

(١) مبحث مجتزأ من بحث واسع منشور بعنوان: «سياسة عمر بن عبدالعزيز في سن الأنظمة بناء على قوله: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» للدكتور عبدالعزيز بن سطام بن عبدالعزيز آل سعود.
(٢) منقول بتصرف من: سلطة ولي الأمر في تقييد المباح للدكتور البشير بن المكي عبداللاوي (ص:١٩٥).
(٣) كشف المغطى لابن عاشور (ص: ١٧٩)، والدريني، خصائص التشريع الإسلامي، (ص:٣١١).
(٤) عبداللاوي، نفس المرجع، ص ٧٨-٧٩.
(٥) عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (المرجع السابق، ص:٨١).
(٦) انظر، الاعتصام للشاطبي ١/ ١٤٤.
(٧) المرجع السابق: ١ /١٤٦-١٤٧.
(٨) ياسين بن علي، فقه تقييد المباح، مجلة الزيتونة.
(٩) صحيح مسلم.
(١٠) تاريخ الطبري ٦٧٩/٢، وانظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٣٠٢/٣٩.
(١١) السبيعي، إبراهيم عبدالله البديوي (٢٠٠٧م)، المنع من السفر كعقوبة تعزيرية في الشريعة الإسلامية...، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد ١٧، العام ٢٠٠٧م.
(١٢) ينظر، عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (مرجع سابق ص:٨٢).
(١٣) بتصرف، عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (نفس المرجع ص: ١٣٦).
(١٤) نفس المرجع، ص: ١٠٣، والشاطبي، الموافقات، ١/ ١١٦.
(١٥) ينظر: الملكية في الشريعة الإسلامية لعلي الخفيف، ص: ١٠٢-١٠٣.
(١٦) انظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٢٥٢.
(١٧) الأشباه والنظائر للسيوطي (ص:٨٣).
(١٨) بتصرف، تدوين الدستور الإسلامي للمودودي (ص:٥٩).
(١٩) ينظر: أصول النظام الاجتماعي لابن عاشور، (ص: ١٧٧-١٧٨)، وبتصرف، عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (مرجع سابق، ص: ١٧٤).
(٢٠) ينظر، اللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (نفس المرجع، ص:٨٣)، والدريني، خصائص التشريع الإسلامي، هامش، (ص:٢٧٦)، نقلا عن أقوم المسالك، (ص:٣٠٥).
(٢١) بتصرف، التشريع وسن القوانين في الدولة الإسلامية لمحمد بن أحمد وسامي صالح (ص:٣٨).
(٢٢) ينظر، ابن القيم، الطرق الحكمية، (ص:١٨).
(٢٣) ينظر، ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (مرجع سابق، ص:١٦٣)، وينظر، اللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (مرجع سابق، ص: ١٥١).
(٢٤) السيادة وثبات الأحكام في النظرية السياسية الإسلامية لمحمد بن أحمد وسامي صالح (ص:٤٩).
(٢٥) ينظر: الاجتهاد وقضايا العصر، مرجع سابق، ص: ٢٨٦
(٢٦) سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، ص:١٥٨، ١٦٠.
(٢٧) السيادة وثبات الأحكام في النظرية السياسية الإسلامية، مرجع سابق، (ص:٩٣).
(٢٨) الاعتصام للشاطبي ١/ ٢٣٠.

المسلمون في أوروبا الشرقية (١-٢)

د. علاء الدين سيد أغا
باحث أكاديمي سوداني

كان العالم في العصر الأموي قسمين:
- دار حرب (البلاد غير الإسلامية)، ودار سلم، أو إسلام مع الدول الإفرنجية والدولة البيزنطية، ومع ما يظهر على هذا التقسيم من سمات الفقه والمعاملات، فإن عنصر الجهاد يضرب فيه بسبب جدّ قوي، فقد كانت الدولة الأموية تتصل بدار الحرب وأهلها اتصالا تجاريا، تتخلله حروب كثيرة، تضع أوزارها حينا، لتستمر من جديد (١)، وترمي هذه الحروب الأموية إلى تأمين الحدود مع الدول المجاورة، ولما كان هذا التأمين الحدودي نفسه يلتزم مكثا دائما بتلك الثغور، فإنه لا مشاحّة قد تمهد رباطا تحيي فيه هذه الصفوة المجاهدة الشعائر الإسلامية، مع قيامها بواجبها الدفاعي المنوط بها.
أما في العصر العباسي فقد تبدلت هذه العلاقات تبدلا استقر حلفا وصداقة بين الدولة العباسية وبين دولة الإفرنج، وبرزت هذه الصداقة والسفارة كأوضح ما تكون بين هارون الرشيد وشارلمان. وقد أورد مؤرخ شارلمان وسكرتيره eginhard «أن هدايا هارون إلى شارلمان كانت تشمل بعض المنسوجات والروائح العطرية وفيلا، وساعة مائية»، وقد ترددت هذه الهدايا بينهما مرارا فيما بين عامي (٧٩٧ - ٨٠٩).

ومن جهة أخرى فقد استقرت تلك العلاقات عداوة بين الدولة العباسية وبين الدولة الأموية في الأندلس والإمبراطورية البيزنطية.

ولم يكن هارون أول محدث لهذه العلاقات بين الدولة الإسلامية وبين الدول المسيحية، فقد كان المنصور وخلفاؤه على علاقة متينة، وكان شارل مارتل يتودد إلى الخليفة المهدي مهددا به منافسه، وعدو الطرفين إمبراطور الدولة البيزنطية.

وانشغلت الدولة العباسية ببعض الثورات والفتن، كفتنة بابك الخرّمي الذي اعتصم بجبال الشمال الشرقية عند حران سنة ٢٠١هـ، وانتهز هذه السانحة الإمبراطور البيزنطي فاستمال الخرّمية، وقدم لهم كل مساعدة، غير أن الإمبراطور البيزنطي حسب حسابه ثانية، وكفّ عن مساعدة الخرمية، وكتب إلى المأمون بالصلح والمهادنة.

وفي زمان المعتصم أقضت فتنة الخرمية كل مضجع، فنهض لها المعتصم (٢) وقضى عليها، وفي هذه الأثناء دبر إمبراطور بيزنطة غارة على مدينة بطرة وحرقها، وساق من فيها من المسلمين أسارى، يعضد ساعد بابك الخرمي، ليوهن المعتصم، ولكن هذه الأمنية تبددت أحلام نائم.

روى ابن الأثير أنه لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر المعتصم، فلما بلغه ذلك واستعظمه وكبر لديه، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت، وهي أسيرة في أيدي الروم: «وامعتصماه» فأجابها وهو جالس على سريره: «لبيك.. بيك» ونهض من ساعته، وصاح في قصره: «النفير النفير»، ثم ركب وسار ساعتئذ إلى أنقرة في جيش لجب، فاستولى على أنقرة،

ثم اتجه إلى عمورية – وهي مدينة تيوفيلس وحجر صباه، وملعب تربه، فحاصرها المعتصم حتى أسقطها، واستخلص من كان بها أسيرا أو مستضاما، وكان ذلك في سنة ٢٢٣هـ، وكان في جند المعتصم وقادته الكبار أشناس وبغا الكبير والأفشين.

وتجدر الإشارة إلى أن العنصر التركي في العصر العباسي الأول كان قد استقل بالإدارة والجيش بسبب الفسحة التي أذن بها المعتصم لتدبيره أمر خلافته. وأتراك هذا العصر قدموا من مناطق ما وراء نهر جيحون، أو ما يعرف بإقليم تركستان (٣)، وهو الإقليم الذي دخله المسلمون في العصر الأموي، على عهد الخليفة الوليد بقيادة قتيبة بن مسلم، ثم وفدت بعد ذلك قبائل كثيرة، وتزاوجت مع أهل البلاد، واستقرت وانتشر لذلك الدين الإسلامي في هذه المناطق، لتصبح هذه البلاد محط سفارات ورحلات.

ويلاحظ أن هذه اللحمة – العربية – التركية – الإسلامية شكلت وجودا إسلاميا، تردد ذكره في كتب الرحلات والكشوف الجغرافية، التي اختصت بهذه البلاد، وعلى رأس هذه المصادر جميعا كتب الفتوح الكبرى.

ويحسن التنبيه إلى أن هؤلاء الترك المتقدم ذكرهم ليسوا بالأتراك الشراكسة أهل بلاد القوقاز، أو المنطقة المترامية بين البحر الأسود وبين بحر قزوين.

ولا هم من الأتراك السلاجقة أو المغول، فهؤلاء قبائل تركية تباين ظهورها في التاريخ، واختلفت مواطنها على خريطة الأرض.

ولا نعني بطبيعة الحال الأتراك العثمانيين (آل عثمان)، إذ لم يظهروا بعد على مسرح التاريخ.

ولما كادت أن تأذن الدولة العباسية بالغروب إبان دورها الثاني والأخير، كان العالم الإسلامي قد اتسع اتساعا كبيرا جدا، حتى إن أطرافه المترامية بعيدا عن عاصمة الخلافة جرأت عددا غير قليل من الأمراء على الاستقلال والانقطاع جملة واحدة عن مركز الخلافة، عدا عن أمور شكلية، كالدعاء للخليفة على المنبر، وسك العملة باسم الخليفة، وإرسال الجزية، وأشباه هذه الأمور. فظهرت:

- الدولة الأموية بالأندلس، وقد تنامت وطار ذكرها كل مطار، وطبقت شهرتها الآفاق زمانا ليس بالقليل، وكان قد أسسها عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبدالملك سنة (١٣٨) هـ.
- الدولة الإدريسية (١٧٢- ٣٦٣هـ).

ثم ظهرت دول استقلت استقلالا جزئيا، أو داخليا.

- دولة الأغالبة ١٨٤ – ٢٩٦هـ.
- الدولة الطاهرية ٢٠٥ – ٢٥٩هـ مؤسسها طاهر بن الحسن.
- الدولة الصفارية ٢٥٤ –٢٩٠هـ مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار، وكانت ببلاد فارس، ودامت ٣٦ سنة.
- الدولة السامانية ٢٦١ – ٣٨٩هـ مؤسسها نصر الأول بن أحمد، وكانت ببلاد ما وراء النهر وإيران.
- الدولة البويهية ٣٢٠ – ٤٤٧هـ نسبة إلى بني بويه من الديلم جنوب غرب بحر قزوين.
- الدولة السلجوقية ٤٢٩- ٧٠٠هـ نسبة إلى سلجوق بن يقلق، وينسبون إلى قبيلة كبيرة من قبائل الترك، تعرف باسم «الغز» (٤)، وهؤلاء الغز يظهر دورهم الكبير في نشر الإسلام في كثير من أصقاع البلاد الإفرنجية والآسيوية والإفريقية، فقد أورد ابن جبير (٥٨٠هـ–١١١٤م)، وابن بطوطة (٧٥٦هـ–١٣٥٥م) ذكرا للغز في رحلتيهما بحذاء البحر الأحمر في طريق حجهما للبيت الحرام.

ثم آذنت الدولة السلجوقية بالزوال لتظهر الدولة الخوارزمية، بعد أن قضت على دولة الخطائين الوثنية، واستردت ثغور ما وراء النهر، وقد تصدى ملك خوارزم شاه وابنه جلال الدين للتيار المغولي الذي اجتاح إيران كلها وبغداد سنة ٦٥٦هـ.

ويلاحظ في هذا العرض الموجز أن الوطن الإسلامي شرقه وغربه ظل صاعدا متفاعلا متسعا لجميع المسلمين.

الكشف الجغرافي والرحلات إلى شرق أوروبا: تقدم أن دور الثغور لم يكن دورا دفاعيا فحسب، بل تعدى ذلك ليصبح دورا مهما في نشر الإسلام في البلاد المجاورة للدولة الإسلامية. وما كان للجهود الجغرافية المتمثلة في تدوين البلدان وأخبارها وتقويمها، ولا للسفارات والرحلات أن تكون، لولا منافذ الثغور المطلة على البلاد المجاورة للدولة الإسلامية والدول الإفرنجية، ناهيك عن طرق ومسالك التجارة المؤمنة والمنتشرة في أرجاء العالمين بعرضها وطولها (٥)، وعلى رأس هذه الطرق والمسالك طريق الحجاج.

وباتساع الفتوح الإسلامية استوعب المسلمون تجارب ومعارف، زادت كلما انتشروا في أصقاع البلاد، وتطلب

إدارتها التعرف الدقيق عليها، لضبط شؤونها المالية والإدارية بتنظيم الإدارة والبريد والخراج، ليتقررعلى أساس ذلك قدر الجزية والخراج، ثم تولى المؤرخون من أصحاب السير والمغازي وصف هذه المدن وسكانها وأحوالهم.

وواضح أن اتساع الدولة الإسلامية في ذلك الوقت قد هيأ لها آفاق القوى مع غيرها عن طريق السفارات والبعثات، كما فتح للمسلمين أبواب معرفة عملية وعلمية، تعرفوا من خلالها على أخبار مجاوريهم وأحوالهم معرفة خلطة وتقويم رسخت للإسلام أقداما، ساحت من بعد في تلك البلاد.

ومن قديم ما يذكر في هذا الباب بعثة الخليفة الواثق (٨٤٢- ٨٤٧ هـ) لسلام الترجمان إلى بلاد الصين، ليشاهد السد الذي بناه الإسكندر في ديار يأجوج ومأجوج، ولما عاد قص على الناس أخبار وعجائب هذه الجهة، ومهما يكن دافع هذه البعثة، فإنه بيَّن الدلالة على الولوع بالكشف والمعرفة، واستقصاء الأخبار وامتحانها دون الالتفات إلى بعد الشقة، وبعد المكان (الصين).

ولعل أعلى البعثات شأنا البعثة الدينية التي بعث الخليفة المقتدر عام (٩٢١م) إلى بلاد البلغار، تلبية لطلب ملكها (٦)، قال ابن فضلان في شأن الخزر:

ولعل الخزر مدينة عظيمة على نهر أنل، وهي جانبان، وفي أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه.

وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له «خزمة»، وهو مسلم. وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم من التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم، ولا يقضى بينهم غيره.

والظاهر من هذا النص أن الإسلام قديم عندهم، ومن خطأ القول أن بعثة المقتدر هي بداية دخول الإسلام لتلك الجهات، وبرهان ذلك ما أورده ابن فضلان نفسه متمثلا في الأسئلة الفقهية التي سأله الصقالبة «فلما اجتمعنا قال للترجمان: قل له – يعنيني -: ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنّى الآخر، ثم صلى كل واحد منهما بقوم، أتجوز الصلاة أم لا؟ قلت: الصلاة جائزة، قال: «باختلاف، أم بإجماع؟» قلت بإجماع» قال له: ما يقول في رجل دفع إلى قوم مالا لأقوام محاصرين مستعبدين فخانوه؟ فقلت: لا يجوز، وهؤلاء قوم سوء»».

وكلام ياقوت الحموي عن بلدان تلك الجهات ينبئ عن قدم الإسلام في تلك الجهات. والحق أن تجريد مادة الإسلام والمسلمين عن كتب التقويم والبلدان تحتاج إلى بحوث كبار قائمة برأسها، غير أني أتخير هنا شيئا يسيرا للتدليل على صحة ما مرّ من إشارات.

وقال أبوعبدالله محمد بن أبي بكر الزهري (توفي أواسط القرن السادس الهجري): الزيتون في رومه.. وفي غربي هذه المدينة بلاد أرمينية الكبرى، وقد بلغت غارات المسلمين في البحر من بلاد الأندلس إلى هذه البلاد، وكان يومئذ على الأسطول محمد بن ميمون من مدينة المرية، وغزاها من بعده من إشبيلية عيسى بن ميمون وفيها قبره، وهي التي أخذها محمد ابن ميمون عرمة، هي التي أخذها عيسى بن ميمون (٧).

«فلندة»:

«ومما يلي هذه البلاد الملف، وهم أقوام من الإفرنج... وإنما عرفوا بهذا الاسم لأنهم نسبوا إلى مدينة عندهم اسمها فلندة، وهي من أعظم بلاد الإفرنج...»

«أقلوبة»:

ومما يلي هذه المدينة على ساحل البحر في المشرق مدينة أقلوبة بشكيرة، ومدينة جنوة، وهي من أعظم مدن الروم والإفرنج، وأهل هذه المدينة هم قريش الروم، يقال عنهم أن أصلهم من العرب المتنصّرة من أولاد جبلة بن الأيهم الغساني الذي تنصّر في الشام، وهم قوم لا يشبهون الروم في خلقهم، لأن الروم الغالب عليهم الشقرة، وهؤلاء قوم سمر دعج شم العرانين، فلذلك قيل: إنهم من العرب، وهم قوم تجار في البحر (٨):

«بونيه»: (هي قاعدة مدن



لنقردية، وهي مدينة بالحجر والآجر والكلس، كبيرة جدا كثيرة الأهل، تتفجر داخلها العيون، وهي على نهر يجتمع تحتها بمقدار نصف ميل بنهر آخر، وفي هذه المدينة قصر حسن على بابه صورة فاس من نحاس متناهية العظم، بعثها من الدهر القديم ملك القسطنطينية إلى بلد لنقردية، وبهذه البلدة ثلاثمئة فقيه من المسلمين، وعندهم يتحاكم أهل لنقردية، وهم يعقدون لهم على وثائق أثريتهم وبيوتهم، وفيها من المسلمين تجار أغنياء، عددهم أزيد من أربعمئة، ولهم مبان سرية، ومتاجر قوية، ولذلك صار المتوجهون من التجار والحاج إلى رومة لابد لهم من بونيه (٩).

وعدّ ابن حوقل مدينة بالرمو من إحدى كبريات مدن الإسلام من حيث تعداد مساجدها، وقربها من مدينة قرطبة، وكان التشابه آنذاك بين المدينتين كبيرا جدا.

وأحسب أن الذي دفن هذه الحقائق الساطعة، وأجهز عليها تبديدا وطمسا الصليبية الحاقدة على الإسلام، بحيث تجد غياب هذه الفترة واضحا في أكثر المؤلفات الأوروبية، وإن مروا عليها لفُّوا الحقائق بقمط صغار، لا يدركها إلا من تدرب أساليبهم وطرقهم من البحث والفهم.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن أسماء البلدان الأوروبية القديمة قد تغير الآن عما كان عليه قديما، وظل الاسم القديم في كتب الجغرافيين العرب القدامى كما هو، دون أن يسمه استدراك أو بيان، فيما طبع حديثا بحروف المطابع، ولا غرو فإن ما بعث - طباعة - من كتب الجغرافية العربية الإسلامية كان بأيدي الأوروبيين (ياقوت) و(المكتبة الجغرافية) ستة مجلدات، وغيرها ما له مساس با لتقو يم والخرائط، وهم أول من تولى درسها، و تو جيهها ، ولا أريد هنا الإفاضة في هذا الموضوع بقدر ما أريد أن أشير إلى إهمالنا دراسة مادة الجغرافيا الإسلامية، وما استدركنا من ذلك إلا النزر اليسير.



لأن معرفة الجغرافية التاريخية الإسلامية لجهات أوروبا الشرقية في تلك العهود مما لا ينبغي إهماله في البحث، لأنها تضيء حقبة حالكة من حياة المجتمعات والشعوب الساكنة والمتحركة في تلك الأصقاع، لأن الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادي عشر كان الصقالبة أو السلاف (ESCLAVE) - غابات أوروبا- ينتشرون في الغرب، حيث تقدموا في أعقاب الهجرات الجرمانية نحو الغرب بين القرن الثالث والرابع، وتقدموا نحو نهر الألب ومنطقة السال - ألمانيا الشرقية اليوم - SAALE وجبال الألب الشرقية واليستريا ودالماسيا والبلقان، حتى جزر البيلوبونيز، إلى أن طردوا منها بعد القرن السادس، أما في الشرق فكانت حدودهم تنطبق على الغابة الكبيرة بالشمالية: أي: أعالي نهر الدنيبر، وأعالي نهر الدون، وأعالي نهر الفولجا مع بعض الطلائع في السطح، حيث كان البوليان يجاهدون الدرفليان، وكانت تنتشر خلف بلاد السلافين باتجاه نهر البلطيق الأقوام الفينية، التي يدمجها الجغرافيون العرب مع الصقالبة.

وكانت تعيش في سهوب روسيا الجنوبية والدانوب أقوام تركية منغولية كالخزر والبلغار والمجر. وكان السلافيون ينصرفون لحياة الغابات والأنهار، ويحيون حياة قوامها الصيد المائي، والصيد البري، وقطف الثمار، موزعين بين قبائل لا ترابط بينها.

وتمركزوا في القرن العاشر من

منطقتين، هما: بولونيا وبوهيميا، وابتداء من القرن الثامن أصبحت منطقة الأنهار (الفولجا والدون والدنيبر) مكان تجول الإسكندنافيين (VAREGUES). والروس الذين كانوا في القرن التاسع إمارة روسية إسكندنافية على نهر الدنيبر، وهي ثالث نقطة تبلور قومي.

وكان الإسكندنافيون يتجرون في اتجاهين: الأول نحو بحر الشمال وأوروبا الغربية - وهي محطات على الطريق المؤدي إلى إسبانيا والمغرب الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط، ونحو بحر قزوين والمشرق الإسلامي - والثاني باتجاه البحر الأسود وبيزنطة (١٠).

أما في بلاد البلقان (التلال الوعرة المرتفعة التي تكسوها الغابات) فاسمها القديم هيموس HOEMUS وهو وصف للممرات البلقانية الكثيرة ذات الصيت في التاريخ مثل (أي بوغاز جلقواق، دمر قابو - باب الحديد).

وواضح من وصف بلاد البلقان أنها كانت مجالا حيا لتحركات التجمعات البشرية المختلفة، واختلاطها ببعضها تجاريا وثقافيا واجتماعيا، وذلك عبر هذه الممرات الكثيرة التي تشبه إلى حد كبير شبكة للمواصلات بعيدة الانتشار، شديدة الارتباط والانفصال (١١).

وأشرنا هنا إلى هذه الأقوام والبلاد، لأن هذه المناطق جميعها ستشغل دورا رائدا ومهما في تاريخ الإسلام بهذه الجهات، وستجد من بعد الدولة العثمانية (العلية) الأرض ممهدة لنشر الإسلام، وتوسيع فتوحاتها على النحو الذي سيمر.

العهد العثماني وشرق أوروبا:

تقدم أن دور الثغور الإسلامية، أو دويلات الثغور قد أوجدت علاقات مستقرة بين البلاد الإسلامية والبلاد الإفرنجية، وقد شهدت هذه الثغور والممرات الحروب الصليبية المتتالية صوب العالم الإسلامي. وهذه الحروب قد كشفت عن علاقات اجتماعية بعيدة عن روح التعصب الصليبي، وأوضحت أيضا الأخلاق السمحة التي كانت تطبع سلوك المسلمين ومعاملاتهم للمسيحيين.

وقد بين حفيد بربروسه الصليبي - الألماني الصقلي - فريد ريكو هذه العلائق منصفا المسلمين معتمدا عليهم حتى بعد هزائمهم، واسترداد المسيحيين صقلية.

وبعيد هذا القليل كان الأناضول (تركيا) قبل أن تغدو إليه قبيلة «قايي»، وكان إسلاميا قد تمهد بفضل المؤثرات التي أشرت إليها فيما تقدم من بيان، وكما كانت قبيلة «قايي» قبيلة مسلمة، فقد وجدت في الأناضول مستقرا صالحا لتكوين إمارة صغيرة تجاهد في سبيل الإسلام على الحدود السلجوقية - البيزنطية عند المنطقة المعروفة حوالي «أسكي شهر». حيث دأبت الدولة السلجوقية على تعيين بعض القواد للدفاع عن البلاد الساحلية، وعن مناطق الحدود، واشتهر هؤلاء بأمراء الحدود.

وكان الأناضول خلال القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين منطقة تناحر بين الدولة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية، حتى استقر أمره إسلاميا كله، وأسس عثمان إمارة إسلامية صغيرة، تولى أمرها من بعده ابنه أورخان، وهو الذي فتح بروسه (١٣٢٦م)، وجعلها عاصمته، ثم عبر المضيق إلى غالبولي، لتصبح قاعدة التوسع العثماني في البلقان (١٢).

وكان عثمان ورجاله قد تقدموا في أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى في اتجاه البحر الأسود، واستقل عثمان بالإمارة، وحسب نفسه وارثا لملك السلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وقائما بجهاد البيزنطيين، وردهم إلى غربي آسيا، ومكث هناك مجاهدا، وكان حضه على الجهاد الشيخ أودبالي، وزوّجه إحدى بناته، ولقبه بالغازي، وأوصاه أن يهب نفسه للجهاد في سبيل الله في أراضي الروم، ودخل كثير من الروم البيزنطيين الذين كانوا يسكنون هذه النواحي الإسلام، وكان في العثمانيين ميل شديد إلى التنظيم وحسن الإدارة، فأنشأوا قوات مدربة تقوم بالجهاد.

وتحولت دولة الأتراك العثمانيين إلى دولة مجاهدة، وظهرت جماعات الجهاد الإسلامية، كجماعة غازيان روم (غزاة الروم)، وهي جماعة قديمة كانت على الحدود بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ العصر العباسي.

ثم نهضت الثقافة الإسلامية بين الأتراك العثمانيين. ويذكر كوبريلي أن جماعة الآخيان الإسلامية قد قلدت جماعات الفتوة أيام الخليفة الناصر العباسي، وكان أغنياء التجار يتبرعون بأموالهم للمحتاجين. ومهما كان من أمر هذه الجماعات فإن غلبة الروح الدينية على الدولة العثمانية في أول أمرها كان ظاهرا، ودفعت هذه الروح الدينية الأتراك إلى الفتوحات الإسلامية، فيما جاورهم من بلاد، وفي سنة ١٣٥٤م عبر الأتراك بحر إيجه، ونزلوا ساحل اليونان، وكانت بلاد البلقان مقسمة بين أملاك البندقية وبقايا

الدولة البيزنطية، وكانت مملكة الصرب التي تقع جنوبي شبه جزيرة غاليبولي (ولاشيا الصربية) مقسمة ضعيفة.

وفي سنة ١٣٦٢م دخل الأتراك إقليم تراقيا، وتوجهوا شمالا في بلاد البلغار وغربا إلى مقدونيا، وفي سنة ١٣٨٦م استولوا على صوفيا عاصمة بلغاريا، وكذلك «نيش» وفي عهد بايزيد الأول أخضعت بلاد اليونان كلها قبل نهاية ١٣٩٣م.

وبعد هذا التوسع الكبير لاحظ الأتراك العثمانيون جملة مسائل، كان أهمها إيجاد ذوي الخبرة العارفين بالإسلام والشرع، ليساعدوا في تنظيم الدولة على أساس إسلامي، ولاحظوا أيضا قلة عددهم قياسا لغيرهم، وهنا حاول الأتراك توحيد الإمارات الإسلامية الصغيرة.

وفي أيام محمد الثاني الملقب بالفاتح اتسعت حدود الدولة العثمانية جدا، وفتحت القسطنطينية في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م، وصارت عاصمة الإمبراطورية، وفي عهد الفاتح أيضا فتحت أثينا وما حولها، وكان ذلك سنة (١٤٥٨-١٤٦٠م) وفي عام ١٤٥٩ أخضعت بلاد الصرب، وبلاد البوسنة سنة (١٤٦٣-١٤٦٤م)، واعتنق الإسلام جملة صالحة من البوسنيين، وأصبحت البلاد البلقانية وما جاورها تابعة للدولة العثمانية الإسلامية.

ونشطت الدولة العثمانية نشاطا كبيرا في تلك البلاد، ثم جاءت الحرب التركية الروسية، ومعاهدة سيفر أغسطس ١٩٢٠م، واستولت روسيا على القرم، واستمر تراجع الأتراك أمام الروس والنمساويين.

وساءت الأحوال داخل تركيا نفسها سوءا شديدا، فبرزت الرشاوى في الدوائر الحكومية، وتفشى الفساد بين الموظفين.. وفي ذلك الوقت كان التتار قد استقلوا عن بولندا، ويمموا شطرهم نحو بحر قزوين، ثم أخذ الروس كيلبورون وكيرش وينى تامي، ومنحت الأفلاق والبغدان استقلالا ذاتيا تحت السيادة العثمانية، كذلك حصل الروس على حق رعاية رعايا السلطان من الأرثوذكس في البلاد التركية، واستولت كاترين على القرم منتصرة، ثم تحالفت مع يوسف الثاني إمبراطور النمسا، واتفقا على تقسيم تركيا، ثم اجتاح الروس خوتين وياس وأوترشاكوف، وقتلوا جميع سكانها المسلمين بأمر القائد ألكساندر سوفوروف.

هذه لمحة موجزة عن خطوات تدهور الإمبراطورية العثمانية في أوروبا الشرقية، أما الدولة العثمانية في الشرق الإسلامي فقد توفرت لها أيضا جملة مشاكل أسرعت بها نحو الغروب.

والذي يعنينا هنا الجانب الاصلاحي الذي نشدته الدولة العثمانية في آخر طور من أطوارها، ولم تدركه، وباستقراء أحوال الدولة العثمانية في هذا الطور يلاحظ سببان رئيسان:

الأول: تراخي الدولة العثمانية عن الدين الإسلامي.

الثاني: إهمال أحوال المسلمين في البلاد المفتوحة.

وأميل إلى هذين السببين كمؤشرين جوهريين لنشوء الأقليات المسلمة في شرق أوروبا، وهذان السببان يتداخلان في المشاكل المعاصرة تداخلا شديدا.

الهوامش

١- تاريخ الدولة العباسية، الشيال، دار الفكر، ص ٥٥.

٢- تاريخ الطبري، المجلد العاشر، ص ٢٤٤.

٣- تركستان، فاسيلي بارتولد، ترجمة صلاح الدين علي هاشم، الكويت.

٤- رحلة ابن جبير، بيروت، رحلة ابن بطوطة، بيروت.

٥- طرق التجارة الدولية ومحطاتها، د. نعيم زكي، مصر، الهيئة، وراجع أيضا، البسط الجيد في:

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ف، هايد، الهيئة، مصر.

- والعلاقات بين الشرق والغرب، عزيز سوريال، دار الثقافة، مصر.

٦- رسالة ابن فضلان، تحقيق د. الدهان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ص ٧٢.

٧- كتاب الجغرافية، لأبي عبدالله الزهري، تحقيق محمد صادق، مكتبة الثقافة، مصر، ص٧٥.

٨- نفسه، ص ٧٨.

٩- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت- لبنان، ص ١١٦.

١٠- الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، موريس لومبارد، دار الفكر- دمشق.

وانظر حديثه عن التجارة والسلع والطرق التجارية.

١١- KANITZ :DONAU- BULGARIA UND DER NALKAN.

١٢- أصول التاريخ العثماني، أحمد عبدالرحيم، القاهرة،١٩٨٢م.

تاريخ ثقافي مشرق.. وتبادل علمي عريق

الثقافة العربية الإسلامية في شبه القارة الهندية

إعداد: تركي محمد النصر
باحث دراسات إسلامية - الكويت

شبه القارة الهندية، هي قسم كبير من القارة الآسيوية، تضم البلدان الواقعة على الصفيحة التكتونية الهندية، وهي: بنغلادش، بوتان، الهند، نيبال وباكستان. وتضم أيضا الجزر المتمركزة على الجرف القاري، وهي: سريلانكا، وجزر المالديف.

تقع شبه القارة الهندية في جنوب آسيا جنوب جبال هيمالايا وجبال الكاراكورام، وشرق جبال هندوكوش ومنطقة بلوشستان.

وتمتد جنوبا في المحيط الهندي بين بحر العرب في الجنوب الغربي وخليج البنغال. وتغطي مساحة تقدر بحوالي ٤,٤٨٠,٠٠٠ كم٢، أي: ما يعادل ١٠ في المئة فقط من القارة الآسيوية، ومع ذلك فإن أكثر من ٤٠ في المئة من سكان آسيا يعيشون فيها؛ حيث بلغ عدد سكانها حوالي: ١,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، يتحدثون لغات كثيرة تفوق الألف لغة، أهمها: الهندية، أردو والبنغالية.

وتتمتع هذه البقعة من العالم بمعالم جغرافية كثيرة ومتنوعة، مثل الأنهار الجليدية والغابات المطيرة والصحارى والوديان والمراعي.

تشرفت شبه القارة الهندية بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وكان لمالابار في ساحل شرق الهند، شرف السبق للتعرف على الإسلام واعتناقه حتى قبل دخول الجيوش الإسلامية.

ثم بدأ المسلمون يوجهون حملاتهم إلى شبه القارة الهندية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أرسل واليه على البحرين وعمان، عثمان بن أبي العاص الثقفي، جيشا إلى الهند، ونزلوا في تانه، ومنها إلى بروص وديبل من ناحية السند.

وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فتح ربيع بن زياد الحارثي مناطق السند، وكان معه الإمام الحسن البصري، وقد أقاموا بها بضع سنوات.

وكذلك أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الحارث بن مرة العبدي عام ٣٨هـ قائدا على الحدود الشرقية فيما يلي بلوجستان، وكانت هناك مقاومة بينهم إلا أنها انتهت بانتصار المسلمين. وفي عهد الدولة الأموية فتحت السند وما جاورها من المناطق، الحدث الذي مثل نقطة تحول في تاريخ العلاقات الهندية العربية، إذ ظهرت في السند دولة إسلامية ذات جذور ثقافية (١).

أهل الحديث

ظلت شبه القارة الهندية تنعم بالحكم الإسلامي طيلة ثمانية قرون، صارت خلالها محط أنظار العلماء، ومركزا للعلوم. ولم يخل عصر من التاريخ الإسلامي الطويل في الهند من العلماء الذين نشروا الحديث، عملا وتدريسا، فكانت نهضة عظيمة أثرت على باقي البلاد الإسلامية، فاقتدى بها غالب البلاد الإسلامية في طبع كتب الحديث والتفسير.

والجدير بالذكر أن أهل شبه القارة الهندية، منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع، كانوا عاملين بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث، وقد شهد على ذلك الرحالة أبوالقاسم المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»، حين زار بلاد السند سنة ٣٧٥ هـ قائلا:

«إن مذهب أكثرهم مذهب أصحاب الحديث، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة رحمه الله.. إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، وصلاح وعفة، وقد أراحهم الله من العصبية والفتنة» (٢).

ومن أشهر هؤلاء العلماء:

- الشيخ المحدث إسماعيل اللاهوري (ت ٤٤٨هـ) الذي قدم من بخارى إلى لاهور سنة ٣٩٥هـ قبل أن يفتحها المسلمون، فدعا الناس إلى الإسلام، وأسلم على يديه الآلاف، وهو من علماء القرن الخامس.

- ومن علماء القرن السادس نجد الشيخ أبا الحسن علي بن عمرو بن الحكم اللاهوري (ت ٥٢٩هـ)، صاحب الجهود العلمية العظيمة في البلاد.

- ومنهم في القرن السابع: الإمام المحدث أبوالفضل رضي الدين الحسن ابن محمد الصغاني (ت ٦٥٠هـ)، الذي كان من مشاهير محدثي الهند وأئمة اللغة العربية، وكان معروفا بعلمه وفضله، وله العديد من المؤلفات في الحديث واللغة والأدب.

- وفي القرن الثامن الهجري قدم بعض تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى شبه القارة الهندية من الشام، وقاموا بأمر الدعوة إلى الله تعالى، ونشروا علوم الشريعة، وزودوا المكتبة الإسلامية بما أتوا به من كتب الحديث من الشام ومصر، ومن أشهر هؤلاء: العلامة عبدالعزيز الأردبيلي، والعلامة عليم الدين الملتاني، والعلامة شمس الدين بن الحريري.

- وفي القرنين التاسع والعاشر، كان لتلاميذ العلامة ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، وغيره من علماء هذه الفترة، دور كبير، حيث رحل هؤلاء التلاميذ إلى بلاد الحرمين والشام وتلقوا فيها العلوم الشرعية ورجعوا إلى بلادهم لينشروا العلم فيها.

- الإمام أحمد بن عبدالأحد السهرندي (ت ١٠٣٤هـ).

- الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي (ت ١٢٥٢هـ).

- العلامة الشيخ ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٤هـ)، الذي كان له الأثر الكبير في نصرة العمل بالحديث على طريقة المحدثين.

- الشاه عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي (ت ١٢٣٩هـ)، الذي سار على نهج والده في نصرة العمل بالحديث ضد الجمود الفقهي.

- الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي (ت ١٢٤٦هـ).

- العلامة حسن بن علي الحسيني الفتوجي (ت ١٢٥٣هـ).

- العلامة محمد إسحاق المهاجر المكي (ت ١٢٦٢هـ)، الذي انتهت إليه رياسة الحديث في عصره، وتخرج عليه كبار العلماء في شبه القارة الهندية، ومن أبرز تلاميذه:

- السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (ت ١٣٢٠هـ)، رائد الدعوة في الهند.

- الشيخ المحدث عبدالغني المجددي (ت ١٢٩٦هـ)، شيخ الحنفية في الهند.

وبالجملة، فإن فضائل علماء الحديث في شبه القارة الهندية - بعد فضل الله - واضحة جلية في حفظ السنة النبوية، وقد أعطاهم العلامة محمد رشيد رضا بعض حقوقهم عندما وصفهم بقوله:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر؛ لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر» (٣).

العلاقات الثقافية العربية

الروابط بين جنوب جزيرة العرب والديار الهندية عموما كثيرة، منها: إطلالة شريط ساحلي طويل من سواحل كل هذين القطرين على بحر العرب، وهو يمثل الشريط الساحلي الجنوبي للجزيرة العربية، ومن الهند الساحل الغربي.



وكانت العلاقات التجارية والفتوحات الإسلامية أشبه ببذور ألقيت في تراب شبه القارة الهندية، وقد نمت وترعرعت فيما بعد حتى أصبحت تجود بثمارها في صورة العطاء الثقافي العلمي، وما إن ظهرت الدولة العباسية حتى نشطت الحركة العلمية والثقافية، وقويت حركة الترجمة، وكان أول كتاب ترجم إلى العربية في عهد المنصور هو كتاب «السدهانت».

ونقل يحيى البرمكي في بغداد أهم الكتب الطبية السنسكريتية إلى اللغة العربية، ومنها: كتاب «أسماء عقاقير الهند»، وكتاب «سيرك»، الذي نقله عبدالله بن علي إلى العربية ويعد نواة هذه العلاقة الثقافية.

ومن الطبيعي أن يسبب هذا التفاعل نشأة اللغة العربية وتطورها في ربوع الهند، وقد كانت العربية، متداولة ومفهومة في بلاد السند والمنصورة والملتان (٤).

تلك الهجرات المتبادلة بين الطرفين أقر بفضلها كثير من الكتاب المنصفين، ومنهم الأستاذ محمود شيث خطاب، حيث وصفها في كتابه «قادة فتح السند» (ص١٤٦) بقوله: «حين ظهر الإسلام، ودخل العرب في دين الله أفواجا، كان منهم التجار والبحارة العرب.. حملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي كانوا يتعاملون معها.. وكانت الهند تئن حينئذ من التفرقة ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه دياناتهم، فكان التوحيد والمساواة نعمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها... فوجد الإسلام في الهند أرضا خصبة سهلة».

ونظرا للأهمية التي لهذه المنطقة في قلوب العلماء وطلاب العلم؛ قام العديد منهم بإفراد ترجمات ومؤلفات عن علمائها، ومنها كتاب الأستاذ عبدالنصير أحمد المليباري الشافعي، الذي ترجم فيه لعلماء الشافعية في الديار الهندية، وأسماه «تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية». وقال في مقدمته حاكيا عن هذه البقعة الطيبة: «تركت في ملف تاريخها الآثار الخالدة، وأريقت في أرجائها وربوعها الدماء الزكية الغالية، والتي لم تكن لتذهب هدرا، فأنجبت أبطالا، هم محاسن الدنيا وزينة الحضارة ورجال تعتز بهم الأمة شرقا وغربا، تنوعت مواهبهم، وتعددت إسهاماتهم في إثراء الحضارة الإسلامية العالمية» (٥).

تبادل علمي مع علماء نجد

لقد كانت - ومازالت - وشائج الصلة بين أهل السنة لا تعترف ببعد المسافات، ولا باختلاف الأعراف واللغات، ومن ذلك العلاقة المتميزة بين علماء نجد وإخوانهم في شبه القارة الهندية، والتي وصفها شيخ الحنابلة العلامة القاضي الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل الحنبلي النجدي، بقوله:

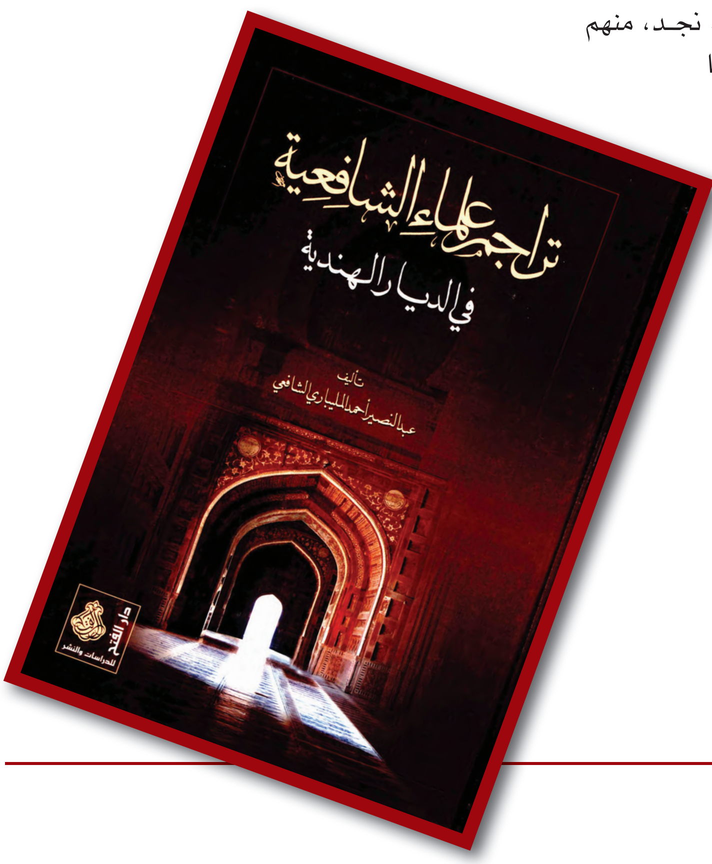
«علماء السنة في الهند، وإخوانهم في نجد، جمعت بينهم العقيدة الصافية والأخذ بالتمسك بالدليل، وتعددت الوسائل العلمية والثقافية بينهم، رغم بعد المسافات وصعوبة المواصلات، فمن ذلك الرحلة في طلب العلم، لما اشتهر علماء الهند بالاشتغال في الحديث، وتميزوا في ذلك: رحل إليهم عدد من علماء نجد، منهم شيخنا علي بن ناصر أبووادي عنيزة، ومنهم شيخ مشايخنا إسحاق بن عبدالرحمن آل الشيخ، وسعد بن حمد بن عتيق؛ فرحلوا من الرياض إلى محدث عصره شيخ مشايخنا العلامة نذير حسين وغيره.

ومن بعدهم شيخنا الشيخ عبدالله بن محمد القرعاوي، والشيخ عبدالله بن علي بن يابس، وجماعة آخرون، أخذوا الحديث عن الشيخ المحدث أحمد الله الدهلوي.

كما أخذ عدد كبير من علماء نجد على شيخنا المحدث عبدالحق الهاشمي لما ارتحل من الهند واستقر في مكة، منهم مشايخنا: الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز، والشيخ عبدالله بن حميد، كما أخذت عنه أيضا ولله الحمد.

وفي المقابل، أخذ عدد من علماء الهند عن علماء نجد، فأخذ العلامة عبدالرحمن السهارنفوري الأنصاري عن العلامة عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ.

وأخذ العلماء محمد بشير السهسواني وعبدالجبار الغزنوي وشمس الحق العظيم آبادي وغيرهم عن شيخ شيوخنا العلامة أحمد بن إبراهيم بن



عيسى.

وفي آخر القرن الماضي رحل جماعة من أعيان مشايخ ودعاة الهند للدراسة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، فاستفادوا من علماء المملكة، مثل الشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ عبدالمحسن العباد، والشيخ حمد الأنصاري، وغيرهم.

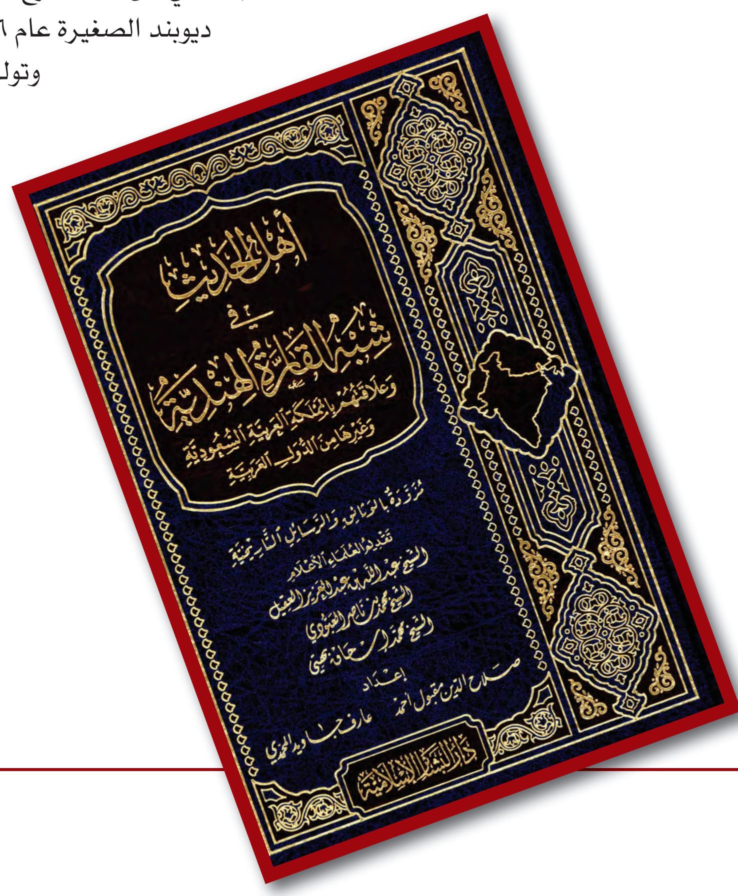
وكان علماء أهل الحديث في الهند أول من طبع كتب أئمة الدعوة في نجد، وكثير من الكتب النجدية طبعت طبعاتها الأولى في الهند، مثل مجموعة التوحيد، وتاريخ ابن غنام، وديوان ابن سمحان، وغيرها» (٦).

ولعل من ثمرات العلاقات المتميزة التي جمعت بين علماء شبه القارة الهندية وإخوانهم في شبه الجزيرة العربية؛ المجالس الحديثية التي أقامتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية في السنوات القليلة الماضية، وتمت خلالها قراءة عدد كبير من الكتب الحديثية وغيرها، ونقل علماء شبه القارة الهندية إسنادهم إلى خلق كثير من إخوانهم المسلمين في هذه البلاد، وقد استضافت الوزارة خلالها كوكبة من كبار العلماء المحدثين في شبه القارة الهندية، منهم:

- الشيخ المحدث أحمد بن علي السورتي الأجبوري رحمه الله.
- الشيخ المحدث ثناء الله بن عيسى خان المدني.
- الشيخ المحدث محمد إسرائيل بن محمد إبراهيم الندوي.
- الشيخ المحدث محمد الشجاع آبادي.
- الشيخ المحدث محمد بن عبدالعلي الأنصاري الأعظمي.
- الشيخ المحدث غلام الله رحمتي رحمة الله.

مساهمات العلماء (٧)

بعد فترة الاستعمار الطويلة التي عاشتها شبه القارة الهندية؛ ظهر نوعان من القيادة للمسلمين: النوع الأول هو القيادة الدينية، والثاني هو قيادة تعليمية. أما القيادة الدينية فركز أصحابها اهتمامهم على الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية ومظاهر الحياة الإسلامية، وأراد بعض زعماء القيادة الدينية أن يؤسسوا المدارس العربية الإسلامية في عدد كبير من مختلف مناطق الهند، وذلك لمواجهة التحديات الحضارية الأجنبية الغربية، ونجحوا في تأسيس أول معهد إسلامي من هذا النوع في بلدة ديوبند الصغيرة عام ١٨٦٦م، وتولى مهام إدارته محمد قاسم النانوتوي (١٨٣٢ - ١٨٧٩م)، واستهدفوا به إيجاد جيل تموج نفسه بالعواطف الإسلامية، تتغذى روحه بالثقافة والحضارة الإسلاميتين.



وبعد تأسيس دار العلوم بديوبند أنشئت معاهد عربية إسلامية في عدد كبير من مناطق شبه القارة الهندية، مثل ندوة العلماء وغيرها. وفي جميع هذه المعاهد الإسلامية يدرسون القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين للشريعة الإسلامية ويدرسون أيضا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية والاجتماعية، القديمة منها والحديثة، وينشرون العلوم الإسلامية والأدبية، ويحتفظون بالتراث الإسلامي، ويهتمون بنشر اللغة العربية في شبه القارة الهندية.

وعندما تأسست الجامعات والمعاهد الحكومية، تم اندماج اللغة العربية في هذه الجامعات والمعاهد الحكومية، حيث يوجد في شبه القارة الهندية العشرات من الجامعات والمعاهد للتعليم العالي، حيث تدرس اللغة العربية وآدابها، وفي كل هذه الجامعات والمعاهد العليا يوجد قسم خاص للغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية. ومن هذه الجامعات يأخذ الطلبة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في الأدب العربي واللغة العربية والدراسات الإسلامية.

وفي القرن العشرين أنجبت شبه القارة الهندية الأدباء والكتاب الذين نالوا شهرة واسعة، وتضاهي أعمالهم الأدبية أعمال الأدباء العرب الكبار، وقد تأثر هؤلاء الأدباء والكتاب بالأدب العربي الحديث وفنونه المختلفة.

ولأجل ذلك، ظل علماء المدارس الدينية حتى الآن يحتلون مكان الصدارة في مجال التأليف وإنتاج الكتب باللغة العربية، وعدد مؤلفاتهم في الموضوعات الدينية الإسلامية والفنون الأدبية يزداد يوما إثر يوم. ومن هنا، لا تزال مراكز مهمة للغة العربية والأدب

العربي ومعاقل الثقافة الإسلامية في شبه القارة الهندية قائمة تؤدي دورها على أكمل وجه.

ولعل كتاب الدكتور أحمد خان «معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية منذ دخول في إحياء الحضارة العلمية الإسلامية في الديار الهندية، وقد سلط الدكتور محمد أبوبكر باذيب الضوء على هذا الجانب في كتابه: «إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه في الهند»، حيث قال في مقدمته: في البلاد؛ وقد كان هؤلاء العلماء يحرصون حرصا شديدا على اقتناء المخطوطات العربية، وبخاصة من مكة المكرمة والمدينة المنورة عندما يأتون إليهما حجاجا، إما بطريق الإهداء أو الشراء أو الاستكتاب.



المطبعة إليها حتى عام ١٩٨٠م» يأتي ليبرز الكم الهائل، والتراث العظيم من المؤلفات العربية لعلماء شبه القارة الهندية، بما تحتويه من تعدد وتجدد، حيث قال المؤلف الدكتور أحمد خان في مقدمة كتابه: «إن الببليوجغرافية الممتدة على الزمن نحو قرنين ونصف قرن، وعلى بقعة الأرض الواسعة، ليس بوسع أحد أن يكملها في حياته الواحدة» (٨).

علماء عرب

وفي مقابل إسهامات علماء شبه القارة الهندية في علوم اللغة العربية، فإن العلماء العرب لهم اللمسات الواضحات «معظم الهجرات التي ذكرت في كتب التاريخ كانت هجرات فردية. وحفلت كتب التراجم بذكر ذوي الآثار العلمية والاجتماعية التي كان لها دور بارز في النهضة العلمية في شبه القارة الهندية... وأقدم هجرة حضرمية إلى بلاد الهند في العصور الوسطية هي هجرة فرع من بيوت السادة بني علوي الحسينيين الحضارمة» (٩).

المخطوطات العربية (١٠)

لقد اعتنى علماء شبه القارة الهندية بالتراث العربي الإسلامي - كما مر آنفا - وبان ذلك واضحا من خلال خدمتهم لمخطوطاته النفيسة المتناثرة ولذلك، نرى بعضها قد نسخ في مكة أو في المدينة المنورة، أو أن بعضها يحمل تقييد إهداء من أحد العلماء، أو أن بعضها قد نسخها نساخ من إحدى هاتين المدينتين المقدستين، أو نساخ وفدوا إلى شبه القارة الهندية من أقطار عربية وإسلامية مختلفة، فنرى فيهم البغدادي والحضرمي والشامي والمصري والبخاري والترمذي والسمرقندي. ومن هذه المخطوطات النفيسة التي جمعت بعضها مؤسسة الفرقان في مجلدين باسم «المخطوطات العربية بجامعة عليكرة الإسلامية في الهند»:

منها في الأدب العربي:

- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. المؤلف: محمد بن أبي الخطاب أبوزيد القرشي، المتوفى سنة ١٧٠هـ.

- الروضة الفائقة في الأشعار الرائقة. المؤلف: أحمد بن عبدالرحيم الشافعي (ت ١٢٩٣هـ).

ومنها في التراجم والرجال:

- أسماء رجال البخاري. المؤلف: عبدالرحمن بن أبي الخير النصربوري التتوي.

- الإكمال في أسماء الرجال. المؤلف: الخطيب التبريزي محمد ابن عبدالله (ت ٧٤١هـ).

ومنها في أصول الحديث:

- الإرشاد لمعرفة حديث خير العباد. المؤلف: يحيى بن شرف الدين النووي، المتوفى سنة ٦٧٧هـ. اسم المكتبة: جيب كنج.

- شرح البداية في علم الرواية. المؤلف: زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي العاملي (ت ٩٦٦هـ).

ومنها في أصول الفقه:

- البدر الطالع في حل جمع الجوامع للسبكي. المؤلف: محمد ابن أحمد جلال الدين المحلي، المتوفى سنة ٨٦٤هـ.

- تصريح التوضيح. المؤلف: جلال الدين بن محمد بن عمر الكشي (ت بعد ٨٥٣هـ).

ومنها في علم التاريخ:

- الأوائل. المؤلف: الحسن بن عبدالله ابن سهل العسكري، المتوفى سنة ٣٩٥هـ.

- الوسائل إلى معرفة الأوائل. المؤلف: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ).

ومنها في علم التجويد:

- الشاطبية. المؤلف: القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي (ت ٥٩٠هـ).

- الحواشي الأزهرية في حل ألفاظ المقدمة الجزرية. المؤلف: خالد ابن عبدالله بن أبي بكر الجرجاوي الأزهري (٩٠٥هـ).

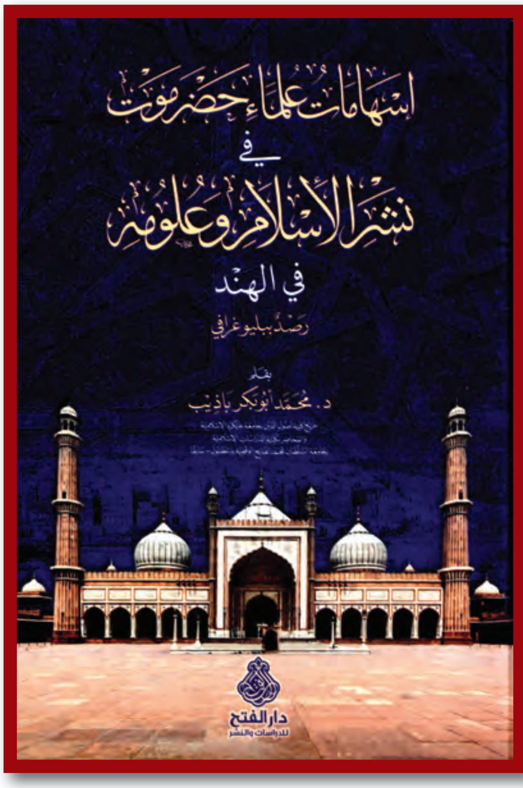
ومنها في علم التصوف:

- إحياء علوم الدين. المؤلف: محمد بن محمد أبوحامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ).

- بستان العارفين. المؤلف: نصر ابن محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٥هـ).

ومنها في علم التفسير:

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. المؤلف:



عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ).

- تفسير الجلالين. المؤلف: جلال الدين المحلي (ت ٨٦٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ).

ومنها في علم التاريخ:

- تصحيفات المحدثين. المؤلف: الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري (ت ٤٨٢هـ).

- جامع الأصول في أحاديث الرسول. المؤلف: المبارك بن محمد بن محمد الأثير (ت ٦٠٦هـ).

ومنها في السيرة النبوية:

- جامع المعجزات. المؤلف: محمد الواعظ الرهاوي (ت ١٠٨٤هـ).

- الشافي في تعريف حقوق المصطفى. المؤلف: القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ).

ومنها في علم التاريخ:

- عارضة الأحوذي في شرح الترمذي. المؤلف: محمد بن عبدالله المعافري بن العربي (ت ٥٤٣هـ).

- المحلى بحل أسرر الموطأ. المؤلف: سلام الله بن شيخ الإسلام بن فخر الدين الدهلوي (ت ١٢٣٣هـ).

وغيرها كثير في علم الصرف، والطب، والأخلاق، والحساب والهندسة، والمعاني والبيان، وعلوم القرآن، والفقه، والكلام، والمناظرة، والمنطق، والنحو.

الهوامش

(١) انظر: أهل الحديث في شبه القارة الهندية وعلاقتهم بالمملكة العربية السعودية (ص ٢١)، وأعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية (ص ١٣-١٤).

(٢) جهود مخلصة (ص٢٢).

(٣) مقدمة مفتاح كنوز السنة للخولي (١٦٨).

(٤) انظر: أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية (ص١٤)، ومساهمة علماء دلهي في اللغة العربية وآدابها (ص٤٦، ٥١)، وقادة فتح السند، للأستاذ محمود شيث خطاب (ص١٤٦).

(٥) انظر: تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية، تأليف عبدالنصير أحمد المليباري الشافعي.

(٦) انظر: تقديم العلامة العقيل لكتاب أهل الحديث في شبه القارة الهندية (ص٧).

(٧) انظر: مقال للأستاذ الدكتور عبدالمجيد عبدالعزيز.

(٨) انظر: معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية للدكتور أحمد خان (ص١٢).

(٩) انظر: إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه، للدكتور محمد أبوبكر باذيب (ص٣٩).

(١٠) انظر: فهرس المخطوطات العربية بجامعة عليكرة الإسلامية الهند.



المؤرخ الشيخ محمود شاكر الحرستاني في ذمة الله

(١٣٥١ - ١٤٣٦هـ - ١٩٣٢ - ٢٠١٤م)

التحرير

فقدت الأمة الإسلامية – بل العالم أجمع - شخصية من الشخصيات التي جبلت على العطاء الفكري الإنساني، وتركت بصماتها النافعة، إنه المؤرخ العلامة السوري الشيخ محمود شاكر الحرستاني – أسكنه الله فسيح جنانه - وقد فارق الحياة صباح الأحد ٢٣ نوفمبر في منزله بالعاصمة السعودية (الرياض).

هو المؤرخ الأديب، والجغرافي الأريب، والشيخ العلامة أبوأسامة محمود بن شاكر بن بكري شاكر الحرستاني الدمشقي.

مولده ونشأته وأسرته: ولد الشيخ محمود في حرستا الشام، في الشمال الشرقي لمدينة الياسمين دمشق، في شهر رمضان المبارك عام (١٣٥١هـ)، ونشأ في بيت دين وصلاح وكرم وصيانة، في ظل أسرة فلاحية بسيطة، فنشأ نشأة طيبة في مدرسة بلدته الابتدائية، ثم الإعدادية والثانوية بدمشق، وتخرج فيها عام (١٣٧١هـ)، ثم التحق بجامعة دمشق، حيث درس في كلية الآداب قسم الجغرافيا، وتخرج فيه عام (١٩٥٧م)، وحصل على الإجازة العالية في مجال الجغرافيا بأنواعها البشرية، والطبيعية، والإقليمية، في مرحلة زمنية كانت الشام تموج فيها بتيارات فكرية مختلفة، آثر الشيخ عدم الخوض والتأثر في طرقها ومسالكها.

وبعد تخرجه من الجامعة، عمل الشيخ في سلك التدريس، ثم التحق بالخدمة العسكرية الإجبارية في بلاده، وتخرج منها برتبة ملازم، وكان يخدم على الحدود مع فلسطين المحتلة، وبعد انتهائه من العسكرية، عاد الشيخ محمود إلى سلك التعليم والتدريس ثانية.



والشيخ متزوج وله تسعة من الأولاد، اثنان من البنين، وسبع بنات، وكانوا جميعا من البررة القائمين على خدمته ورعايته.

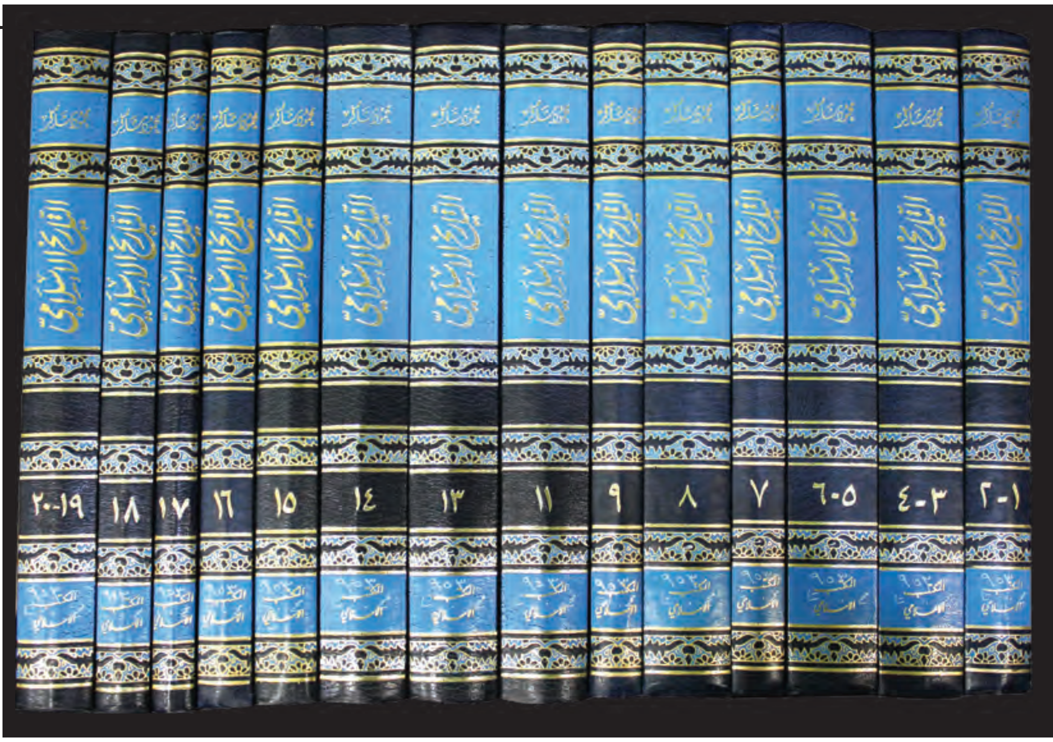
علمه ونشاطه الأكاديمي: درّس الشيخ محمود علوم الجغرافيا والتاريخ في العديد من مناطق سوريا، منها: درعا، دوما، الزبداني، دمشق، وغيرها، ثم انتقل إلى المملكة العربية السعودية عام (١٣٩٢هـ)، وعمل أستاذا للجغرافيا والتاريخ الإسلامي في كلية العلوم الاجتماعية بالرياض والقصيم، وقد شارك في وضع المناهج والخطط الدراسية في علمي التاريخ والجغرافيا، وأشرف خلالها وناقش العديد من الرسائل العلمية.

وكان رحمه الله، جميل العبارة، حسن الأسلوب والتعبير، حريصا على تفهيم الطالب، له قدرة على إفادة الطلاب.

صفاته وشمائله: كان الشيخ ذكيا فطنا، بليغا فصيحا، ملي المحيا بالقبول مليحا، وقورا مهيبا، متواضعا لبيبا، خيرا وقورا، صبورا شكورا، كثير تلاوة القرآن والصيام، مواظبا على التهجد والقيام، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ملازما للعلم منذ صغره، حسن السيرة، محبوبا في القلوب.

منهجه في كتابة التاريخ: يمكن تحديد ملامح منهجية الشيخ وطريقته في كتابة التاريخ بصورة موجزة على النحو الآتي:

١- اتباع طريقة علمية رصينة،



مستفيدا مما كتبه المؤرخون، مما أسس على مصادر صحيحة، مع الاستقراء والتحليل والتعليل، بعيدا عن الحشو والحشد باختيار الأحداث المهمة، والوقائع البارزة، ليرصدها ويعرضها بأحسن صورة، مع جزالة الألفاظ ودقة العبارة.

٢- التحليل والتوجيه والتعليق والمقارنة والاستنتاج: وهذه الجوانب تعد أثرا لعميق فكره، وموضوعية نظرته، وسلامة منهجه.

٣- اهتمامه بتصوير البيئات المختلفة في عصور المسلمين: وقد اهتم كثيرا بهذا الجانب، مع استلهام العبر في تلك العصور.

٤- جاءت كتاباته جامعة بين الجانب العلمي والجانب التربوي، بحيث لا يطغى أي منهما على الآخر.

٥- عنايته بالجانب الجغرافي في عرض المادة التاريخية.

٦- الإحساس بواجب الدعوة الإسلامية نحو الأمة من خلال التاريخ.

٧- مجاورة العقل والعاطفة: فلا يكون الخلط بين البحث العلمي والإيمان والعاطفة على حساب كل منهما.

٨- وضع تشجيرات خاصة بأنساب الشخصيات التاريخية البارزة، توضح أصولهم وفروعهم، يراها القارئ بكثرة في سلسلة (الخلفاء).

٩- وضع العناوين الدالة على المحتوى.

١٠- الاستشهاد بالآيات الكريمة، والأحاديث النبوية، والآثار عن السلف.

مؤلفاته وتصانيفه: للشيخ محمود رحمه الله أكثر من مائتي مصنف في التاريخ والجغرافيا، والفكر والثقافة الإسلامية، طبع أكثرها في المكتب الإسلامي ببيروت، لصاحبه الشيخ زهير الشاويش - رحمه الله - منها:

١- كتاب التاريخ الإسلامي: يعد هذا الكتاب مرجعا موسوعيا مهما بين كتب التاريخ، ويقع الكتاب في ٢٢ جزءا، ١٩ مجلدا، ٦٤٠٨ صفحة.

٢- سلسلة الخلفاء: (الراشدي، والأموي، والعباسي...).

٣- تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، بالاشتراك مع د. إسماعيل ياغي، يقع الكتاب في جزأين.

٤- سلسلة بناة دولة الإسلام (١ -٧) أجزاء، كل جزء فيها عشر شخصيات في سيرة الصحابة رضي الله عنهم.

٥- حرستا بلد الزيتون، وهي رسالة التخرج من جامعة دمشق.

٦- جغرافية البيئات.

٧- البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، بالاشتراك مع: أ. محمد السيد غلاب، أ. حسن عبدالقادر صالح.

٨- الكشوف الجغرافية دوافعها - حقيقتها.

وغيرها كثير كثير، كما أن للشيخ العديد من المقالات في مجلة حضارة الإسلام، وقد كتب ذكرياته ومذكراته في كتاب سماه: «من حصاد العمر»، وأوصى بطبعه بعد وفاته، وهو عند المكتب الإسلامي، وكان - رحمه الله - قد أعد برنامجا إذاعيا في إذاعة القرآن الكريم، أطلق عليه اسم: «جغرافيا العالم الإسلامي»، وكان مفيدا نافعا.

من ثناء أهل العلم عليه: أثنى عليه وعلى مؤلفاته كثير من أهل العلم والعرفان، منهم الشيخ عبدالرحمن الباني رحمه الله بقوله: «... والأستاذ محمود من أحسن من كتب في جغرافيا العالم الإسلامي، وأفضل من كتب في التاريخ الإسلامي والأقليات الإسلامية...».

وأيضا الأستاذ الشيخ عصام العطار بقوله: «أخي الحبيب، وصديقي الوفي، الإنسان الكبير، والمؤرخ الكبير، المؤمن العالم العامل، الصابر المحتسب، الشيخ محمود شاكر..».

مرضه ووفاته: ظل الشيخ رحمه الله يعمل بنشاطه المعهود حتى أصابه المرض، وضعف في آخر عمره، وذاق من أدواء العجز والكبر غاية أمره، إلى أن توفي صبيحة يوم الأحد غرة صفر من سنة (١٤٣٦هـ)، بمدينة الرياض، وكانت جنازته مشهودة، وتأسف الناس عليه، فجزاه عما قدم خير الجزاء، ورحمه الله رحمة واسعة.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٩)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



انطلاقا من عبارة «أنا الذي ألبس الأدب الفرنسي القبعة الحمراء»، التي قالها الأديب الفرنسي «فيكتور هيجو» للتأكيد على جمال عباراته، فإن وَكْدَ وسَدَمَ صاحب هذه الحلقات أن يرى الفصحى رَأيَ عيْن اليقين؛ وهي تجري على ألسنة العرب عذبة رقراقة نقية صافية صفاء أعين الدِّيَكة، ليس فقط اقتداءً بهذا الشاعر الفرنسي الذي أدرك دور اللغة وجمالها في تقوية الفكر واستقامته، وفي إظهار مكانتها بين سائر الأمم، ولكن لأن منزلة الفصحى فوق كل هذه الاعتبارات؛ فهي لغة القرآن المعجز بألفاظه وتراكيبه ودلالاته وصوره البلاغية التي لا طاقة لأحد من العالمين الإتيان بمثلها. لأجل هذه الميزة الربانية التي لا تتوفر في سائر لغات الدنيا، فإنه من الحتم المقضي أن نظل نحن ـ العرب ـ متمسكين بالطرق اللاحبة الناهجة التي ترشدنا إلى كيفية تعلم الحفاظ على صيانة لغتنا العربية ما بقي الملوان، بل إننا مدعوُّون ـ أكثر من غيرنا ـ إلى إعمال النظر والفكر لتنقية الفصحى كما تُصَوَّلُ الحنطة، لأننا محاصرون من قبل العولمة الماحقة بكثير من المعلومات التي تحتاج إلى النخل والتصفية لتمييز غثها من سمينها، وحنطتها من زؤانها، وأن نعمل من أجل مرضاتها لأنها أمُّنا الرؤوم التي غذتنا بِلِبانها الممزوجة بما أودعها فيها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من نجوم نيرات، ودُرَر مكنونات، وجواهر لامعات، ومعارف شائقات، وبما طرَّسَه فيها أسلافنا من علوم ومعارف وآداب مكَّنتها من بسط سلطانها على أمم الدنيا، عندما كان العقل العربي قائما على محمود الفحص والتنقيب، يلمح أسرار الوجود، ويستحضر قيمه الخالدة، التي تنفي عنه القفز المجاني في فراغات تضيع فيها قيمه، لأجل خلق أفضلية تُري الأمم الأخرى بدائع المعارف المجتباة، وعندما أدرك هذا العقل العربي أن اللغة العربية الفصحى هي أم القضايا التي تُعْقد عليها الخناصر، ولذلك بذل الأوائل المهَجَ في امتلاكها صحيحة معافاة، لإيمانهم أن الذين يُمسِّكون بالفصحى ينالون السيادة ويبلغون القوة والغلبة التي تهديهم إلى بناء أفكار تفرض سلطانها على الآخرين، كما فرض الغلام الأعرابي منطقه على الحجاج بن يوسف الثقفي، فأمر له بجائزة رغم الجراءة عليه وعلى جلسائه، كما توضح الحكاية الآتية التي تَذكر أن غلاما أعرابيا أدخل على الحجاج بن يوسف الثقفي، ومعه مَلأ من أهل العراق، فلما رمق الفتى الأعرابي المَنْظَرَةَ التي جلس فيها الحجاج مع جلسائه، - تلا من دون أن يعبأ بالحجاج -

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الشعراء:١٢٨-١٢٩).
وكان الحجاج مُتَّكئا فاستوى في مقعده قائلا: يا غلام، إني أرى لك عقلا وذهنا، أحَفظتَ القرآن؟ فقال الفتى: أوَ خِفْتَ عليه حتى أحفظه؟ قال: أفَجَمَعْتَ القرآن؟ قال أو كان مُفرقًا حتى أجْمعه؟ قال: أفَأَحْكَمتَ القرآن؟ قال: أوليس الله أنزله مُحكما؟ قال: أفَاسْتَظهَرتَ القرآن؟ قال: معاذ الله أن أجعلَ القرآنَ وراء ظهري. فقال الحجاج وقد ثار غضبا: وَيْلَكَ قاتَلكَ الله.. ماذا أقول؟ قال الغلام: الوَيْلُ لكَ ولِقَومكَ، قُلْ: أوَعيتَ القرآن في صدرك؟...» (١). أما الدرس البليغ الآخر فنستفيده من الأديب والمترجم الفرنسي «جون غروجان» الذي يقول: «أحاول أن تكون لغتي فرنسية خالصة، مصفاة. هناك شيء شغلني باستمرار، هو: ما هي المعاني والظلال التي تعبر عنها مختلف التراكيب اللغوية؟ فأنا أعمل على إدراك كنه عبقرية اللغة الفرنسية والبنية الذهنية لهذه اللغة، ولب اللغة الفرنسية هذا نجده إذا ما أقصينا لغات أهل الجنوب، وأصحاب الأقدام السوداء، ولغات كل المتعلمين الذين درسوا اللاتينية في المدارس، وأولئك الذين درسوا الإنجليزية، واستعمالات الذين درسوا الفلسفة الألمانية، وأيضا مستعملي اللهجة العامية المسماة «لارغو» لغة الشارع. إذا أقصينا كل هذه اللغات، وجدنا الفرنسية» (٢). فما بالنا اليوم لا يكاد كثير من كتابنا ومتكلمينا يغادرون فضاء اللغة اليومية التي استحوذت عليهم، رغم أن النص القرآني المعجز البليغ يناديهم أن تعالوا فارتعوا في رياضي الذَّفِرَة لتتعلموا أسرار البراعة التي أخرست شقاشق الأولين والآخرين، لما اشتمل عليه من الدقة والبراعة في التعبير عن المراد. تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (سبأ:٢٤). إذ استعمل القرآن العظيم حرف الجر «على» مع الهُدى، واستعمل الحرف «في» مع الضلال، لأن صاحب الهُدى لا يكون إلا في عُلُوٍّ، وصاحب الضلال لا يكون إلا في سفالة. كما استعمل القرآن الكريم أفعال: «أقبل، أتى، جاء» بدقة متناهية لا يدرك خصوصية كل فعل من تلك الأفعال إلا من أوتي حظا عظيما من التنقير والمعرفة بأسرار الفصحى وخبيئها الذي لا تظهره على السِّيف، حيث إن: «أقبل» لا تقال إلا إذا اعترى الخوف أو الغضب المرء كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ (القصص:٣١). وفعل «أتى» لا تقال إلا للذي يأتي من بعيد أو بعد طول انتظار أو جاء بشيء، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام:٣٤)، بينما «جاء» تستعمل للمجيء عن قرب ولا تحتاج إلى صلة، كما تؤكد الآية الآنفة وغيرها من الآيات القرآنية التي تند عن الحصر، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (النمل: ٣٦). ولهذا يعد الامتلاء والضلاعة من الفصحى والتبحر في طرائق تأليف الكلام، وكمال العرفان بخصوصية أساليب العربية من تمام شرائط المعرفة بأسرار الفصحى، حيث إن الأسماء والأفعال التي تتكون منها الجملة العربية تحتاج إلى الأدوات والحروف التي تسند لها أدوار الربط المحكم بين الكلمة وأختها حتى يستقيم المراد من الكلام، وهي الخاصية التي بدأ كثير من متكلمي العربية يفتقدونها، ومن ثمة يسهل اهتضام كلامهم بالحجة المخرسة، لأنه لم يسلم من الهجنة، على شاكلة هذه الجمل التي لم تصب فصوص المراد: سوف لن أفعل هذا الذنب. يعد هذا الأسلوب قمة في الركاكة. كرر فلان القول مرات... وغيرها من الجمل التي افتقدت الحس اللغوي الدقيق الذي يدرك البغية؛ لا يتجاوزها ولا يقصر عنها. فجملة: «سوف لن أفعل هذا الذنب». جمعت بين النقيضين. وهذا لا يجوز، لأن «سوف» تدل على الإيجاب في المستقبل، بينما «لن» تدل على النفي في الاستقبال. بالإضافة إلى أن «أفْعَل الذنب» هي الأخرى تحتاج إلى تعديل يشد أزرها؛ إذ الفعل الذي يناسب إتيان الذنب هو: «اقترف» وهذا يحذقه من كان دَريًا بطرق نظم الكلام البليغ؛ الذي يصدف عن الجملة الآنفة الناكبة عن سبيل الفصاحة، ليستبدل بها ما يأتي: «لن أقترف هذا الذنب» في حال النفي أو «سوف أقترف هذا الذنب» في حال الإيجاب. أما عبارة: «يعد هذا الأسلوب قمة في الركاكة» فيجب أن نستبدل بها العبارة الآتية التي تبدو أحسن منها مظهرا ومخبرا: «يعد هذا الأسلوب دركة في الركاكة» لأن الشيء الذي يجب أن يُتَّقى لا تصلح معه إلا لفظة «دركة» ولذلك قيل: الجنة درجات وجهنم دركات. وبالنسبة إلى عبارة: «كرر فلان القول مرات» فإن التكرار يقع على إعادة الشيء مرة، وعلى إعادته مرات، ولذلك لا يحسن بالمتكلم زيادة الكلام من دون حاجة. قال العسكري: «ولا يقال كرره مرات، إلا أن يقول ذلك عامي لا يعرف الكلام» (٣).

هذا هو الحق الأغر الذي ليس له رد، وهذا هو الرأي القارح الذي يشعب هذا الصدع، ولا خير في كلام يزجيه قائله قضيبا خشيبا، عاريا عن الحس اللغوي، الذي يحرص أن تكون كل لفظة مع لفقها الذي يقتضيها؛ لا ترى فيها عوجا ولا نبوا عن المكان الذي أنزلت فيه. أما الرضا بالدون من الكلام الذي جمع صنوف العي من كل جانب فتلك سبيل من يقنع من الإعجاز بالعجز، ومن السبق والتبريز بالفسكلة والتأخير. وقانا الله شر هذه العاقبة. آمين.

الهوامش

١ ـ انظر القصة كما وردت كاملة في كتاب: «من وصايا الرسول» شرح وتعليق طه عبد الله العفيفي، المجلد الأول، الجزء الخامس، ص ٣٨، دار الاعتصام.
٢ ـ سراج الرعاة: حوارات مع كتاب عالميين، خالد النجار، كتاب الدوحة رقم ٣٣، ص ٤٩. وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، فبراير ٢٠١٤م.
٣ ـ الفروق اللغوية، أبوهلال العسكري، ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسي، ص ٢٧. ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية:

الحرف العربي وتحديات المستقبل

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية



«الحرف العربي وتحديات المستقبل» كان هذا هو عنوان الندوة التي أقامها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وناقشت عددا من التحديات التي تواجه لغة الضاد، خصوصا في عصر استحوذت عليه وسائل التواصل الاجتماعي، واستخدامات الحاسوب، بخلاف التحدي الحضاري في اللغات المكتوبة بالحرف العربي.

«الوعي الإسلامي» شاركت في الندوة وجاءتكم بأبرز تفاصيلها.

«الحرف العربي ظل متصدرا اللغات الإفريقية، لكن تتم تنحيته في الوقت الحالي في مواجهة الحرف اللاتيني». بهذه العبارة بدأ مدير معهد المخطوطات العربية د. فيصل الحفيان، موضحا أن ذلك يتم بحكم القوة ودعاوى الاستعمار حول صعوبة اللغة العربية، لافتا إلى مخاطر طغيان الحرف اللاتيني على منظومة التواصل في العالم العربي، ومؤكدا أن إشكالية تعليم اللغة العربية نفسية في المقام الأول.

وشدد على ضرورة دراسة هذه الإشكالية وبحث أسبابها من جميع النواحي، وأخذها بعين الاعتبار في سياق برامج ومناهج تعليم العربية في المدارس والجامعات.

استنهاض الهمم

وقال شيخ البلاغيين د. محمد أبوموسى إن عيون علمائنا كانت على اللغة العربية والجيل الذي يستقبلها، فكانوا يكتبون ما شاءوا ولا ينسون تقديمه إلى الجيل الجديد في صورة تحببه في لغته، حيث كان العالم يكتب في العلم كتبا تتكرر، إلا أنه في كل كتاب زيادة تتناسب مع السن التي يخاطبها الكتاب.

ولفت إلى أن زرع اللغة بين الجيل الجديد غاية في الأهمية، مشيرا إلى أن ابن هشام كتب «قطر الندى» في النحو لسن ١٤ و١٥، وزاده إلى سن ١٧ و١٨ عاما، ثم كتب للطالب المهيأ لدخول الجامعة ثم للباحثين، وبذلك رتب كتاباته حسب السن.

وأضاف: جيلنا والجيل الذي قبلنا افتقدا هذه العناية، وتركا يستوحشان العربية وأن نحوها لا يعلمه إلا الشيوخ، وهذا غير صحيح. لذا، يجب أن تهتم المناهج الدراسية منذ الصغر باللغة العربية.

وأيد د. موسى ما ذهب إليه د. الحفيان من أن الاستعمار زرع في نفوسنا أن لغة القرآن صعبة، على عكس الحقيقة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)، فمن المستحيل أن يسهل الله كتابه للذكر ويصعب لغته.

وطالب باستنهاض الهمم لتعلم لغة الضاد وتسييدها في كل شؤون المجتمع، وضرورة التصدي للتغريب الذي امتزج بكل مناحي الحياة من أسماء المتاجر والمأكولات إلى شتى المعاملات اليومية والدراسية.

نصف العرب لا يتقنون لغتهم

وتحدث أستاذ علم اللغة العربية والإنجليزية بجامعة القاهرة د. صفوت علي صالح عن المدونات والمتصفحات اللغوية، مؤكدا أن معظمها لا تدعم العربية أو الخط العربي، حيث تقرأه على أنه رموز ومربعات.

ولفت إلى غرف المحادثات عبر مواقع التواصل الاجتماعي التي

قلما تجد أحدا لا يستخدمها عن طريق الهواتف أو الحواسب، والتي رصد العديد من الباحثين أضرارا نفسية لاستخدامها لما يسمى بثقافة الشاشة.

وأكد أن الخطر لا يقف عند هذا الحد، بل امتد إلى ضرب اللغة العربية في صميمها، حيث استبدال رموز أخرى بالحروف العربية، ما يعد تنازلا عن جزء من الهوية العربية.

وأوضح أن هناك إحصائية تفيد بأن أكثر من ٥٠ في المئة من سكان الوطن العربي لا يتقنون اللغة العربية، علاوة على وجود دراسة للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية تحذر من خطر تمرد الشباب وعدم استخدام العربية.

وأكد أنه لا يدعو إلى استخدام لغة المتنبي بدلا من اللغة التي يستخدمها الشباب، إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال ترك الأمر كما هو، إنما لابد من صحة تركيب العبارة.

واختتم بقوله: لا ندري ما ستكون عليه اللغة العربية إذا دام الحال على ما هو عليه بعد ٣٠ عاما!



رقمنة الخطوط العربية

وتحدث نائب مدير مركز الخطوط في مكتبة الإسكندرية أحمد منصور، عن مشروع المركز الجديد المتمثل في حوسبة الخط الأميري، وميكنة الخطوط العربية والتراثية، حيث كانت نقطة الانطلاق من خلال «رقمنة» الخط الذي استعملته أقدم المطابع المصرية، التي تأسست في عهد واليها السابق محمد علي، مطبعة بولاق، حيث سَمّوه الخط الأميري، الذي طبع به أول مصحف في الوطن العربي.

وأضاف: نعمل الآن على جمع الخطوط التراثية المنقوشة على الآثار في قاعدة بيانات، ثم رقمنتها لاستخدامها في أجهزة الحاسوب، لتناسب جميع المطابع، وبذلك تمكنا من مزاحمة الخط الحاسوبي بخطوط تراثية مأخوذة من العصور الفاطمية والمملوكية والعثمانية.

> تضمنت الندوة تكريم د. نبيل علي لخدماته الجليلة في المعالجة الحاسوبية للغة العربية، باعتباره أول من صمم أول محرك بحثي للغة العربية على أساس صرفي، وأول قاعدة بيانات معجمية للغة العربية، وأول برنامج للقرآن الكريم، وأول قاعدة معارف للشعر العربي. كما طور العديد من المعالجات الآلية الأخرى للغة العربية، وصمم نموذج المعمل المتقدم لتعليم العربية وتعلمها، وغير ذلك من برمجيات تعليمية وثقافية، إضافة إلى تكريم شيخ البلاغيين فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبوموسى.

كائن حي

بينما أكد الفنان والخطاط مصطفى عمري أن اللغة والخط العربي بحران عميقان لا نهاية لهما، لافتا إلى أن الخط كائن حي قد يفقد حياته إذا اعتمد على عالم الحاسوب، حيث يدخل أرضا ليست أرضه، فكان الأساتذة الكبار يكتبون الكتب بخط أيديهم ويفتخرون بذلك، علاوة على ما كان يفعله حفظة القرآن الكريم.

وأوضح أن الخطاطين يسمون الخط العربي بـ «الشريف»، كونه هندسة روحانية تخاطب الروح وليست مادية ملموسة، وهناك مقولة: «اكتب أعرف من أنت»، حيث تتضح شخصية الإنسان من خلال كتاباته.

وأضاف أن الخطاط يستخدم كل حواسه عندما يكتب، ولا يستمتع فنان بأعماله كما الخطاط، ولا يمكن للحاسوب مهما بلغ من التقنية أن يضاهي الحروف التي تكتب باليد.

البحث عن بدائل

أخيرا، أشار أستاذ الحاسبات والمعلومات د. نبيل علي، إلى أن اللغة وسيلة عملية لتطبيق المعرفة، لما لها من دور خطير في عصر المعلومات، مؤكدا أن اللغة العربية هي البوابة الملكية لفهم العلاقة الثقافية اللغوية وربطها بمجتمع المعرفة.

وأوضح أن النماذج الحاسوبية الموضوعة للغة العربية بدائية ولا تواكب عصر المعلومات والمعرفة، خصوصا أنه مع إشراقة كل صباح هناك ٨٥٠ مصطلحا جديدا يولد، فأي مجمع لغوي يستطيع ملاحقة هذا الكم الهائل؟ هنا يأتي الحاسوب، ليقترح لنا البدائل على أسس أعمق وأشمل، وإلا ستفرض علينا هذه المصطلحات من دون أن نفهم أسسها.

بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية:

نظرية جديدة لتعليم الفصحى

التحريــر

في خطوة جديدة من نوعها تقدم الأستاذ الدكتور عبد الله الدنان بمشروع نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، وأصدر المنتدى الإسلامي بالشارقة كتيبا فيه موجز هذه النظرية، وكيفية تطبيقها. وذلك ضمن احتفالات الشارقة عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠١٤م. يتكون هذا البحث من ثلاثة أقسام، هي: موجز نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، تطبيقها وتقويمها وانتشارها، ثم برنامج دورة محادثة باللغة العربية الفصحى، خاص بالمربيات في مرحلة رياض الأطفال والمدرسين والمدرسات في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والأمهات والآباء.

وأخيرا الخطوات المقترحة لتنفيذ تطبيق نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة. يقول المؤلف في البداية: هذه النظرية عملت عليها منذ سبعة وثلاثين عاما من أجل النهوض باللغة العربية في الوطن العربي، والقضاء على الضعف العام بهذه اللغة عند الطلاب العرب، واستندت فيها إلى أحدث البحوث العلمية، التي قمت بتطبيقها، ونجحت في ذلك - ولله الحمد - نجاحا كبيرا، بشهادة المختصين من علماء اللغة، والمربين في بعض البلاد العربية.

وقد تأكد هذا النجاح بالبحث العلمي المتمثل في رسالتي للماجستير التي أعددتها حول هذه النظرية وتطبيقاتها.

الوثائق الخاصة بالنظرية

يؤكد الدكتور الدنان أنه يمكن الاطلاع على الوثائق الخاصة بالنظرية وتطبيقاتها في موقع على الفيس بوك، بعنوان «الدكتور عبدالله الدنان صاحب نظرية تعليم الفصحى بالفطرة والممارسة»، والذي يحتوي على نماذج من أقوال الصحف، ونماذج من التسجيلات لأطفال يتحدثون بالفصحى.

ويضيف الدنان: لاحظ المربون والباحثون أن هناك ضعفا عاما باللغة العربية لدى هؤلاء المتعلمين، وبدأت الشكوى من هذا الضعف تتردد على امتداد الوطن العربي، وعقدت الندوات والمؤتمرات من أجل إيجاد حل لهذا الضعف العام، الذي نتج عنه العزوف عن القراءة، والضعف في المواد الدراسية، مما أدى إلى تدني المستوى الثقافي لدى معظم أفراد الشعب العربي، وندرة المبدعين والمخترعين، كما أدى أيضا إلى وصف اللغة العربية بأنها صعبة، وهو وصف ظالم لا يستند إلى دليل علمي، مستطردا: وبما أنني متخصص في العلوم اللغوية التطبيقية، فقد عملت منذ سبعة وثلاثين عاما على تقديم الحل الناجح لمشكلة الضعف العام باللغة العربية، وبالتالي القضاء على كل السلبيات الفكرية والحضارية الناتجة عن هذا الضعف العام باللغة العربية، التي هي لغة العلم والمعرفة في البلاد العربية كلها.

ونصل الى مرحلة التطبيق العملي لنظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، حيث يكشف لنا الباحث أنه بدأ أول تطبيق عملي لهذه النظرية على ابنه «باسل» المولود في ١٩٧٧/١٠/٢٩م، فيقول: تحدثت معه بالفصحى مع تحريك أواخر الكلمات، وطلبت من زوجتي أن تحدثه بالعامية، وقد نجحت بالتجربة، وصار باسل يتحدث معي بالفصحى، يرفع وينصب ويجر دون أي خطأ، وفي الوقت نفسه كان يحدث أمه بالعامية، لأنه اكتشف قواعد اللغة العربية اكتشافا ذاتيا، كما اكتشف قواعد العامية، فأتقن اللغتين معا. ويكمل: كررت التجربة على ابنتي «لونة» المولودة ١٩٨١/٩/٢٦م فنجحت أيضا نجاحا تاما.

ويضيف: في عام ١٩٨٨م أسست في الكويت «دار الحضانة العربية»، وكانت أول منشأة تربوية في البلاد العربية والعالم تعتمد التواصل مع الأطفال بالفصحى فقط طوال اليوم المدرسي داخل الصف وخارجه، وذلك بعد أن دربت المعلمات على التحدث بالفصحى السليمة، مع المحافظة على الحركات الإعرابية، فنجحت التجربة وصار الأطفال يتحدثون مع معلماتهم بالفصحى، وكتبت الصحافة في الكويت مقالات عديدة عن هؤلاء الأطفال، ومدى إتقانهم للتحدث بالفصحى.

مركز تصحيح مفاهيم الغرب احتفل به:

اليوم العالمي للعربية

التحريـــر

نظم مركز تصحيح مفاهيم الغرب عـن الإســلام، الـتـابـع للمسجد الكبير فـي دولـة الكويت، وتحت رعاية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، ممثلة باللجنة الوطنية في الكويت، وبالتعاون مع مركز الكويت للفنون الإسلامية، احتفالية بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، كما حددته الأمم المتحدة عام ٢٠١٠م في الثامن عشر من ديسمبر من كل عـام، وذلـك في القاعة الغربية بالمسجد الكبير.

وقد تخللت البرنامج ورشة عمل لتعليم مبادئ اللغة العربية، قدمها مدير المـركـز محمد المتعب، مع تواجد الخطاط جاسم الشمري؛ ليـخـط أسـمـاء الحـضـور بجانب مـعـرض لـوحـات الـخـط العربي.

وقـدم د. ريمـونـد فـاريـن أستاذ الـشـعـر الجـاهـلـي فـي الجامعة الأميركية محاضرة عن تجربته مع اللغة العربية.







الأوقـــات فـي الـمـوروث اللغوي العربي

خلف أبو زيد
كاتب متخصص في التراث



الوقت في اللغة مقدار من الزمان، يفرض فيه أمر، والجمع أوقات. وقته فهو موقوت، إذا بين له وقتا، قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣)، أي مفروضا في الأوقات. والتوقيت تحديد الأوقات.

والوقت المعلوم يوم البعث، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ (الحجر:٣٧-٣٨).

ولو تأملنا تراثنا اللغوي، فسنجده ممتلئا بالمفردات والألفاظ التي حددت الوقت والأوقات تحديدا دقيقا متناغما مع أجزاء اليوم، بداية من بزوغ الفجر إلى آخر لحظات الليل، الأمر الذي يؤكد على ثراء لغتنا العربية، وتفردها بين اللغات الأخرى، وهذا ما سوف نتعرف عليه عبر هذه السطور.

الفجر والساعات الأولى من اليوم

بداية، يقسم اليوم إلى قسمين، هما: الليل والنهار، يتساويان في مقدار الوقت تارة، ويختلفان أخرى، تبعا لمنازل الشمس في الفلك. وكل قسم منهما ينقسم إلى عدة أجزاء، وهذه الأجزاء لها مسميات عديدة ومتباينة، نظرا لاتساع استعمال العرب للمفردة، ونبدأ بالوقت الممتد من الفجر إلى الظهيرة، لنرى المسميات التي أطلقها العرب، بداية بكلمة الفجر، التي تعني في اللغة: الصباح المتمثل بحمرة الشمس في سواد الليل. والعرب يقولون للرجل الذي يطلع عليه الفجر «مفجر»، وللذي تطلع عليه الشمس مشرق. وقد أقسم الخالق عزوجل بالفجر في محكم كتابه الكريم: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (الفجر:١-٢)؛ ليلفت النظر إلى بديع آياته وكمال قدرته. ومن الأسماء التي تطلق على وقت الفجر «الفلق». والفلق، هو: شق الشيء وفصله إلى شقين. والفلق: الصبح، لأن الظلام ينفلق منه. ويرتبط الفجر بالبكور، وهو أول النهار، ويبدو أن هذا الاسم قد جاء من حب العرب لبكور الأشياء فجعلهم يجرونه على الوقت الذي يأتي مع أول الضياء متصلا بما قبله من الليل، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة
فهن لوادي الرس كاليد للفم

ومن أوقات البكور عند العرب «الغدو»، وهو أول النهار. وأيضا «الصبح»، حين يقول العرب أصبح فلان، أي دخل في الصباح. وكيف أصبحت، ويعنون الوقت من منتصف الليل إلى آخر نصف النهار، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود:٨١). ومن ساعات اليوم الأولى وقت الضحى، الذي عرف بأسماء عديدة، هي: الضحوة، والضحو، والضحية. ويقصد بهذه الأسماء ارتفاع النهار. والأصل في الضحى البروز والظهور، والعرب يقولون سرنا في غزالة الضحى، أي أوله. وفي راد الضحى، أي في ارتفاعه. وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

وقفت بها راد الضحاء مطيتي
أسائل أعلاما ببيداء فردد

الأديم

وأديم النهار، هو: الوقت الذي يمتد فيه بياضه. وقيل أديم النهار عامته وارتفاعه.

الظهيرة

الظهيرة اسم منتصف النهار الذي تبديه الشمس لنورها وشدة حرها، والشعراء يؤقتون بها الأفعال، قال زهير بن أبي سلمى:

رد القيان جمال الحي فاحتملوا
إلى الظهيرة أمر بينهم لبك

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم:١٨)، أي تدخلون في الظهيرة، وفيها وقت صلاة الظهر. ومن أسماء الظهيرة عند العرب «الهاجرة». والهاجرة تقترب باشتداد الشمس وحرها، ولذلك يعدون سير الهاجرة أشق أنواع السير، وفي ذلك يقول عمرو بن القميئة:

وهاجرة كأوار الجحيم
قطعت، إذا الجندب الجون قالا

وكلمة الهجر تعني انتصاف النهار، وفي ذلك يقول لبيد:

راح القطين بهجر بعدما ابتكروا
فما تواصله سلمى ولا تذر

وفي الظهيرة القيلولة، التي تعني نومة منتصف النهار. وجاء من القيلولة المقيل، وهو المكان الذي يستريح فيه القائل، قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان:٢٤)، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ (الأعراف:٤)، أي نائمون بالظهيرة. كما أن القيلولة استراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها

نوم، وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا
وجدت مقيلا عندهم ومعرسا

ومن أسماء القيلولة عند العرب أيضا «الغائرة»، والعرب يقولون أتيته عند الغائرة، أي عند القيلولة. وغور القوم، أي قالوا.

العصر أو العصران

وهو وقت النهار الذي بين القيلولة والأصيل. وأما العصران فهما الليل والنهار، والجمع عصور، ومنه سميت صلاة العصر.

وقت صلاة العصر حين يصبح ظل كل شيء مثله. ويرتبط العصر بالأصيل، وهو الوقت الذي يأتي بعد العصر مباشرة، وينتهي بابتداء الغروب، والعرب يقولون لقيته أصيلا وأصيلالا وأصيلانا، قال النابغة الذبياني:

وقفت فيها أصيلانا أسائلها
عيت جوابا وما بالربع من أحد

ووردت كلمة «أصيل» في القرآن الكريم مقترنة بكلمة بكرة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ (الفرقان:٥). ووردت اللفظة بصيغة الجمع «آصال» في قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ (الأعراف:٢٠٥)، أي أوائل النهار وأواخره. ويدخل أيضا في هذا الجزء من اليوم المساء، والذي قيل إنه يبدأ من الظهر إلى المغرب، وقيل إنه يستمر إلى منتصف الليل. وهو بهذا شركة بين الليل والنهار، وتنتهي هذه الفترة بالرواح، وهو الوقت من لدن زوال الشمس إلى الليل، قال المرقش الأصغر:

أمن رسم دار ماء عينيك يسفح
غدا من مقام أهله وتروحوا

الغروب ودخول الليل

يرتبط الغروب بغياب الشمس من جهة الغرب، والعرب يقولون تغرب الشمس غروبا ومغيربانا، وثمة مغربان: أحدهما هو أقصى ما تنتهي إليه الشمس في فصل الصيف، والآخر أقصى ما تنتهي إليه في الشتاء، وفي ذلك يقول الخالق عزوجل: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ (الرحمن:١٧). فالغروب مقترن بإدبار النهار وقدوم الليل، الذي يمتد من غروب الشمس إلى طلوعها، وأثناء هذا الوقت نجد العديد من المفردات التي استخدمها العرب، منها «الغسق»، وهو أول ظلمة الليل. وقد غسق الليل، أي أظلم. والغاسق: هو الليل إذا غاب الشفق، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق:٣)، بمعنى الليل إذا دخل. ولفظة «الغسق» تدور على معنى الانصباب والسيلان، ومن انصباب الليل على الكون يجيء الظلام، تقول: أغسقت العين، أي دمعت أو نضبت أو أظلمت. وغسق الجرح، أي سال منه ماء أصفر، قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ (الإسراء:٧٨). ودلوك الشمس، أي وقت زوالها. وغسق الليل، أي إقبال ظلمته. ومن أسماء الليل «الزلفة»، وهي الطائفة من أول الليل، وجمعها زلف، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ (هود:١١٤). فالزلفة هي الساعات من أول الليل. وقيل المغرب والعشاء. ويدخل أيضا في هذا الجزء «العشي» و«العشية»، والوقت فيهما يكون آخر النهار وأول ظلمة الليل. و«العتمة» وقت صلاة العشاء، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد «العتمة الثلث الأول من الليل بعد غيبوبة الشفق». وكان الأعراب إذا أعتموا، أي إذا دخلوا في وقت العتمة، يريحون أنعامهم بعد الغروب، فإذا أفاقت، وذلك بعد مرور قطعة من الليل، أثاروها وحلبوها، وتلك الساعة تسمى «عتمة». أما نصف الليل فقد أطلق عليه العرب لفظ «الوهن»، وهو بالتحديد نصف الليل، أو بعد مرور ساعة منه، وفي ذلك يقول بشر بن أبي حازم:

ليالي تستبيك بذي غروب
يرف كأنه وهنا مدام

أما آخر الليل فهو وقت السحر، والذي يكون قبيل بزوغ الفجر. وقيل وقت يكون من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر، والجمع أسحار، والعرب يقولون أسحر فلان أو استحر، أي صار في السحر، قال امرؤ القيس:

يعل به برد أنيابها
إذا طرب الطائر المستحر

قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ (القمر:٣٤)، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ (آل عمران:١٧). وقد خصت الأسحار بالذكر هنا، لأنها لذة النوم ووقت الغفلة، كما عبر العرب عن وقت الليل كله بلفظ البيات والمبيت والبيتوتة، وكلها تعني الدخول في الليل، حتى آخر وقت منه.

المصادر

- لسان العرب، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الناشر دار صادر عام ٢٠٠٣م.
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، د. عبدالإله الصائغ، الناشر دار عصمي للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، القاهرة عام ١٩٩٦م.
- ألفاظ الزمان بين اللغة والقرآن، كاظم فتحي الراوي، مجلة كلية آداب المستنصرية، العدد الرابع عام ١٩٧٩م.
- دائرة معارف الفيصل، مجلة الفيصل السعودية، العدد ١٦١، يونيو عام ١٩٩٠م.

قد رضيت بقربه

محمد عباس
شاعر وأديب

الآن جئتك قاصدا نور الهدى
والليل يأكل مقلتي ويشتهي
أشقى بدرب كان يوما وجهتي
وفقدت فيه الروح عند توجهي
وبقيت نفسا لا تفيء لروحها
وتعيش ليلا شائها لا ينتهي
تلقى النهار فلا تراه بقلبها
والصبح يسفر لا يبين لتائه
ثم انتبهت لنور فجر قد بدا
ورأيت شمسا بالهداية تزدهي
والروح تفلت من براثن قيدها
والقلب ينبض بالحنين لربه
والنفس تشرق بالصفاء وبالهدى
فبكيت شوقا للإله وظله
وهتفت يا رحمن عبدك قد أتى
فارفق بقلب قد أقرّ بذنبه
ودعاك يا رحمن: جئتك تائبا
من لي سواك لكي ألوذ بعفوه
أنت الرحيم ومن لبابك قد سعى
يلقاه عفوك لا يضيق بسعيه
الآن جئتك ساعيا متبتلا
أرجو القبول فهل أفوز بنوْله
سبحان رب العالمين فما أرى
إلا رضاه وقد رضيت بقربه

شجرة الخير..

محمد السعيد
أديب مصري

بحديثها المتألق المتأنق، وسلوك ينبئ عن عميق الإيمان قبل أن يلوح في منطق اللسان.. أضحت حفيدته هناء هناءة خاطره وبهجة ناظره، فلديها ذائقة أدبية تجعل مسامرتهما زادا زاخرا بتحاور يثري الوجدان .. متنعما في جلستها الحنون بصوت ندي أغن، يقدمها كقدوة للجيل الجديد، وكنموذج للطموح وطيب العطاء.

لقد أبدعت في دراستها أسلوبا ذكيا، حيث تسجل ما يعن لها من كلمات ومعادلات وقوانين تحتاج إلى الحفظ، نسقتها في قصاصات.. ترددها مترنمة في غدوها ورواحها، وقد كانت المسافة طويلة بين مسكنها والمدرسة بما يوفر وقتا للمواد العملية، مما مكنها من حصولها على أعلى الدرجات في شهادة الثانوية العامة والتحاقها بكلية الصيدلة.

في زيارة جدها لتهنئتها أسعدته رؤيتها وهي تؤم زائرات لها في الصلاة، فقد عاين وضاءة روحها في وهج لا مثيل له بين قريناتها.



أقبل عليها مهنئا بالنجاح الباهر، مبشرا بمستقبل زاهر، يسائلها عن طموحها فتجيب إجابة من تبينت مسيرها ومصيرها: أن تحصل - بتوفيق الله - على أعلى شهادة بمجال الترقي في تصنيع الدواء. ويعاود مداعبتها بسؤال عن طموحها الاجتماعي، فتناغيه برفيف حديث جد رهيف، ودلال فواح معطار: أرجو الله أن يرزقني قرينا يهب الوصال قداسته، وقافا عند حدود الله.

يرشف وجدان جدها من حديثها.. أن كل ذرة في كيانها تتوهج بأشواق الحياة، ولكنها الأشواق المحصنة بالطهر والنقاء. ويمتد التحاور بينهما: هل ستقومين بعمل قصاصات لما يستحق الحفظ من مواد الكلية، كما في مرحلة الثانوية؟ فتجيب إجابة لم تكن في الحسبان، بأمتع عبارة في أنصع بيان: بعد أن أصبحت في المرحلة الجامعية.. فثراء حياتي يا جدي أن ألج رياض القرآن.. بستان الروح، ضياء الوجدان، وسأعطر وقتي ذهابا وإيابا بذكر الله، معقبة بقول الرحيم الرحمن: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ (العنكبوت:٦٤).

يرهف السمع منبهرا، تصافح

جوانحه تلك الومضة الإيمانية في شوق عارم، ويعقب بقول المبدئ المعيد: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ (الحج:٢٤).

بارك الله فيك ولك وعليك، فقد أضحت تلك الإجابة الميمونة نقشا فوق ذاكرته.. تصافح جوانحه بما ينبئ عن ميلاد واعد بعنقود عبقرية وعطر ونبوغ ومنظومة إبداع.. حقا حقا يا هنائي.. فإنه إذا اطمأن القلب بذكر الله استنار العقل ذكاء وتوهجت الإرادة نماء وعطاء.. فكلما سنحت فرصة فراغ يشرق طيفك ملاكا بشدوك السماوي المعطر، منيرا بحديثك الأنور «ولذكر الله أكبر».. فيلهج قلبه بذكر الله. وحينما تنفلت منه قواعد الانضباط ويصير نهجا للهواجس، يقتحم عليها عزلتها لتهدي إليه من أمارات البشر والإيناس، بخواطر تمس لباب اليقين، عبر حديثها الرائع عذب المعين.

لقد اختطت مسيرها في طريق ذي ثلاث شعب: ذكر الله، وتقديس العلم، وعشق الأدب.. وكم لها من مواقف حياتية اجتماعية تمارس حيالها ثقافة سلوكية هي أهدى سبيلا وأقوم قيلا، بيقين راسخ.. أن حسن التودد إلى الناس نصف العقل.

في ليل شديد الحلكة انتفض جيرانها على دوي صراخ وقت السحر ينبعث من بيت قريب، حيث أحرق أخ شقي لأخيه - وهو أحد جيرانها - حظيرة مواشيه ومحاصيله الزراعية بالحقل.. هب الجيران، وبين صراخ النسوة والشهقات ونشيج الأنفاس، انتحت هناء بالأسرة المصابة في منأى عن الضوضاء والغوغائية الرعناء.. تذكرهم بقول الغفور الشكور: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ (الشورى:٤٣).

ولما أذن لصلاة الفجر، قامت تحث الجميع على الصلاة، مذكرة إياهم أن ركعتي سنة الفجر خير من الدنيا وما فيها، وتؤمهم للصلاة، تتلو آيات تحث على الصبر وكظم الغيظ، فالقرآن كصيدلية فيها دواء لكل داء. وعلى الرغم من فداحة الفجيعة فإنها استطاعت بالحكمة والموعظة الحسنة أن تغالب هدير التوتر، وتهدئ من نوازع الانتقام تجاه هذا الشرير الذي كان لنشأته الطفولية الكئيبة في بيته وبيئته بالغ الأثر في أن امتلأ قلبه حقدا على الحياة والأحياء، خصوصا على أخيه، الذي باركه الله، حيث تفوق أحد أبنائه (عصام) وحصل على الدكتوراه من أميركا، في حين فشل كل أبناء هذا الشقي، علميا وعمليا، وانحرفوا أخلاقيا. ويشاء الله أن ينتهي المطاف به بعد إحباطه ومعاناته من عقدة الشعور بالذنب، إلى نوع من المرض النفسي أصابه بالذهول لكل ما ومن حوله.. لم يسمع نفير عربة الشحن المتحشرج فتصدمه، وفي لحظة تخمد أنفاسه.

تصاب زوجة هذا الجار بجلطة قلبية جراء فجائية ومأساوية كارثة الحريق، كانت تلتمس وجود هناء، حيث أضحت ملاذ اطمئنان للجميع، لترطب لهيب الفاجعة في قلبها.. تهل عليها بابتسامتها الندية لتدفن أحزانها الخفية، ذاكرة لها «أن الصبر ضياء» كما يقول رسولنا ﷺ. وكيف يكون المرض حالة لا نستطيع إلا أن نتقبلها راضين بقضاء الله، الذي يختبر عباده تارة بالمسرات.. ليشكروا، وتارة بالمضرات.. ليصبروا، فصارت المنحة والمحنة كلتاهما ابتلاء، وتعقب بكلمات تسطع يقينا.. إننا أمة الحمادين، وإن عطاء الله بلا حدود، وكرمه فوق ما يجنح إليه أقصى خيال من فضل وجود.

تواصل هناء تفوقها، وتنهي أطروحة الماجستير بأعلى تقدير، وتتهيأ لدراسة الدكتوراه في تلك السن الباكرة.. كانت تقبض مكافآت التفوق المالية، وأول ما يخطر على بالها صلات الأرحام والتصدق على الفقراء والأيتام، تحدوها بصيرة تكلل طيب العطاء في الوقت المناسب، بالكم المناسب، وبالكيف المناسب.

علم الابن عصام، الطبيب في أميركا، بحادثة عمه الشرير، وما أصاب أمه من مرض خطير، فانتهزها فرصة بطلب اختيار عروس له لإدخال السرور على قلبها، وهي المترقبة لحظة فرح تنتزعها من قاع أحزانها.

يقع اختيار الأسرة على أعقل وأنبل وأجمل عروس.. إنها هناء، فتتماثل الأم للشفاء، وتغمر الأب أصداء فرحة وشته ثوب العافية. ويحضر الابن عصام من أميركا وتتم مراسم الخطوبة.

في أول زيارة لهناء.. يفاجأ بطلعتها كانبثاق الضياء، وقد تدرج وجهها بحمرة الحياء القانية، فتقبلها بجماع حنوه.

في الزيارة التالية يهديها - تعبيرا عن عميق افتتانه بها، قبيل عقد القران - عقدا نضيدا رائعا، طوق أحاسيسها كما طوق جيدها بحسن زاهر أروع. واتفق على اصطحابها معه إلى أميركا لتجد مجالا أرحب لتحقيق طموحاتها العلمية.. ثم يسرع بعقد القران، بعد أن استحوذت على قلبه بتقدير «انسجام» مع مرتبة «الشوق» المغرد بالحنايا!.

الذخيرة للقرافي

التحرير

كتاب «الذخيرة» للقرافي المالكي، كتاب مبتكر في الفقه المالكي، فروعه وأصوله، بدع من مؤلفات عصره، التي هي في الأعم اختصارات، أو شروح وتعليقات، وهو من أهم المصنفات في الفقه المالكي خلال القرن السابع الهجري، وآخر الأمهات في هذا المذهب، إذ لا نجد لكبار فقهاء المالكية المغاربة والمشارقة الذين عاصروا القرافي أو جاءوا بعده سوى مختصرات لم تهد أكثرها - على ما أدركت من شهرة وانتشار - أن كرست، عن غير قصد، تعقيد الفقه، وإفراغه من محتواه النظري الخصب، وأدلته الاجتهادية الحية، ليصبح في النهاية مجرد حك ألفاظ، ونقاش بارد يدور في حلقة مفرغة لا تنتج ولا تفيد.

وإذا كان المذهب المالكي تركز أكثر في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، فإنه قطع أشواطا متميزة قبل أن يصل إلى تعقيدات عصر القرافي، فقد كانت القيروان بالنسبة لهذا الجناح الغربي منطلق إشراق الفقه المالكي وأفوله معا، ففيها نشر أسد ابن الفرات (ت/ ٢١٣هـ) المدونة الأولى التي حوت سماعاته من مالك وغيره، وهي المعروفة بالأسدية، فأخذها سحنون عبدالسلام بن سعيد (ت/ ٢٤٠هـ)، وصححها على ابن القاسم، ورجع إلى القيروان بالمدونة الكبرى التي نسخت الأسدية، وجمعت ستا وثلاثين ألف مسألة، فانتشرت في أقطار المغرب والأندلس، وظلت ركيزة المذهب المالكي، ومرجع فقهائه طوال القرون الأولى.

وفي القيروان لاحظ أبومحمد عبدالله ابن أبي زيد القيرواني (ت/ ٣٨٦هـ) كسل الهمم عن إدراك مدونة سحنون، فاختصرها في «اختصار المدونة»، فحلّ الاختصار محل الأصل وأخمد ذكره، ثم اختصر أبوالقاسم البراذعي مختصر شيخه القيرواني، وسماه «التهذيب»، ثم جاء أبوعمرو بن الحاجب (ت/ ٦٤٦هـ) واختصر التهذيب، فزاده تعقيدا، وطم السيل مع خليل بن إسحاق (ت/ ٧٤٩هـ) الذي اختصر كتاب ابن الحاجب، فأصبح مختصر خليل هو المختصر الرابع في مسلسل مختصرات المدونة، وهو عبارة عن رموز لا تفهم إلا بشق النفس، يحفظه الطلاب عن ظهر قلب، ويقرأ أحزابا في جامع القرويين وغيره، ولا تفك رموزه إلا بالرجوع إلى عدة شروح وحواش وتعليقات.

وقد اعتمد القرافي في «الذخيرة» على نحو أربعين من تصانيف المذهب المالكي، وخص خمسة منها كمصادر أساسية يرجع إليها دائما، ويقارن بينها ويناقش، وكلها كتب مستقلة مبتكرة أصيلة، وهي: مدونة سحنون، والتفريع لعبيدالله بن الجلاب البصري (ت/ ٣٦٨هـ)، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، والتلقين للقاضي عبدالوهاب البغدادي (ت/ ٤٢٢هـ)، والجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لعبدالله بن شاس المصري (ت/٦١٠هـ).

وتميز «كتاب الذخيرة» بدقة التعبير، وسعة الأفق، وسلاسة الأسلوب، وجودة التقسيم والتبويب، الأمر الذي يضفي عليه من جهة أخرى طابع الجدة والحداثة، حتى لكأنه كتب في عصرنا الحاضر، بقلم أحد أعلام الفقه، وتظهر عبقرية مؤلف الذخيرة وموسوعيته في مزجه بين الفقه وأصوله، واللغة وقواعدها، والمنطق والفلسفة والحساب والجبر والمقابلة؛ في المواطن التي تقتضيها، وفي وضعه مصطلحات دقيقة ورموزا واضحة، تختصر أسماء الأشخاص والكتب التي يكثر تداولها في الذخيرة، تقليلا للحجم، فكلمة «الأئمة» تعني عنده الشافعي وأبا حنيفة وابن حنبل، و«ش» ترمز للشافعي، و«ح» لأبي حنيفة، و«الصحاح» تعني الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم.

ونجد في «الذخيرة» داخل الأبواب والفصول والمباحث والفروع المعتادة عناوين فرعية، تضبط المعلومات الإضافية وتحددها وتبرزها، أمثال: تمهيد، تحقيق، تفريع، تنقيح، تحرير، تذييل، قاعدة، فائدة، نظائر...

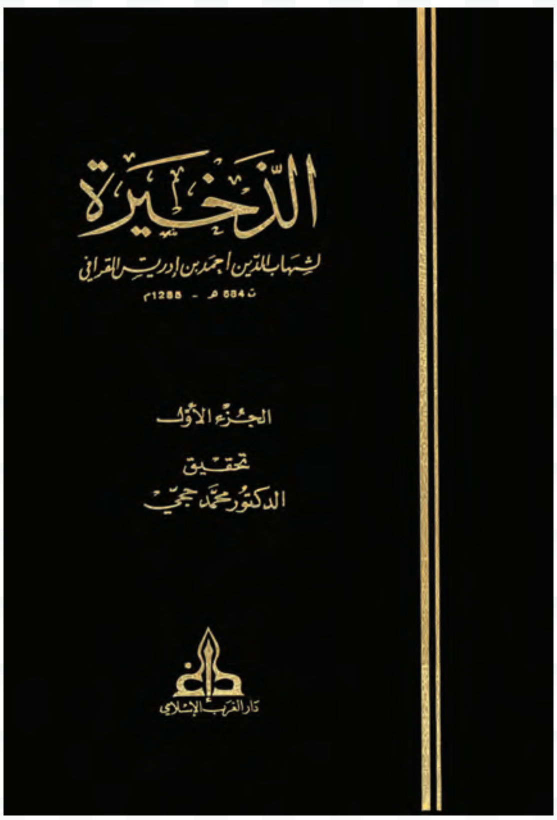
ويمكن أن يعد من مميزات «الذخيرة» كذلك عناية المؤلف بإبراز أصول الفقه المالكي، فقد جعل القرافي من شرطه في كتابه تتبع الأصول في مختلف الأبواب، قائلا في المقدمة: «وبينت مذهب مالك رحمه الله في أصول الفقه، ليظهر علو شرفه في اختياره في الأصول، كما ظهر في الفروع، ويطلع الفقيه على موافقته لأصله أو مخالفته له».

أهمية مقدمة كتاب الذخيرة

يظهر شرف هذه المقدمة فيما تضمنته من المباحث التي لابد لطالب العلم أن يطلع عليها ويعيها قبل الولوج في علم



الفقه الذي هو سلعة الفقيه الأولى.
وأول ما أوضحه الإمام القرافي في مطلع كتابه أن الفقه عماد الحق ونظام الخلق ووسيلة السعادة الأبدية، وأن من اشتغل به ساد، وذكر أن من أجل من عرف به، وأقربه إلى الحق طريقا: مذهب إمام دار الهجرة، وبين أدلته على هذا الاختيار.
كما أوضح سبب اشتغاله بتصنيف كتاب الذخيرة، وذلك أن الله عز وجل لما وهبه فضيلة كونه ناشئا مالكيا، رأى أن الواجب تعين عليه للقيام بحق المذهب بحسب الإمكان، فوجد رحمه الله أخيار علماء المالكية قد أتوا في كتبهم بالحكم الفائقة والألفاظ الرائقة والمعاني الباهرة والحجج القاهرة، غير أنهم يتبعون الفتاوى في مواطنها حيث كانت، ويتكلمون عليها أين وجدت، مع قطع النظر عن معاقد الترتيب، ونظام التهذيب، كشراح المدونة وغيرها، ومنهم من سلك الترتيب البديع وأجاد كابن شاس صاحب الجواهر الثمينة، لكنه مختصر قد لا يقنع طالب العلم المستزيد.
ومما نبه عليه القرافي في مقدمته المهمة أن الفقه وإن جل، إذا كان مفترقا، تبددت حكمته، وقلت طلاوته، وبعدت عند النفوس طلبته، وإذا رتبت الأحكام مخرجة على قواعد الشرع مبنية على مآخذها، نهضت الهمم حينئذ لاقتباسها، وأعجبت غاية الإعجاب بتقمص لباسها.
وبين أنه رحمه الله قدم مشهور المذهب على غيره من الأقوال، ليستدل الفقيه بتقديمه على مشهوريته، كما نبه على أنه اهتم بذكر مذاهب الفقه الأخرى غير المالكية، وذكر مآخذهم في كثير من المسائل، تكميلا للفائدة ومزيدا في الاطلاع.
وبين أنه أودع كتابه ما تحتاجه الأبواب من اللغة في الاشتقاق وغيره، وما تحتاجه من النحو، وأنه تكلم على الأحاديث بما تحتاجه من عزو وتوضيح إشكال أو جوابه فيه، أو إثارة فائدة منه.
ومن المهمات البالغات المذكورة في هذه المقدمة النفيسة، ما أشار إليه بقوله: «أودعته من أصول الفقه وقواعد الشرع وأسرار الأحكام وضوابط الفروع ما فتح الله علي به من فضله، مضافا لما أجد في كتب الأصحاب، بحسب الإمكان والتيسير».



وقد انقسمت المقدمة إلى مقدمتين:
إحداهما: في بيان فضيلة العلم وآدابه، ليكون ذلك معدنا وتقوية لطلابه.
والمقدمة الأخرى: في قواعد الفقه وأصوله، وما يحتاج إليه من نفائس العلم، مما يكون حلية للفقيه، وجنة للمناظر، وعونا على التحصيل.
وإنما بين مذهب مالك رحمه الله في أصول الفقه، ليظهر علو شرفه في اختياره في الأصول، كما ظهر في الفروع، ويطلع الفقيه على موافقته لأصله، أو مخالفته له لمعارض أرجح منه، فيطلبه حتى يطلع على مدركه، ويطلع المخالفين في المناظرات على أصله.
المقدمة الأولى: في فضيلة العلم وآدابه، وفيها فصلان:
الفصل الأول في فضيلته من الكتاب والسنة والمعنى.
الفصل الثاني في آدابه.
المقدمة الثانية: وفيها ذكر ما يتعين أن يكون على خاطر الفقيه من أصول الفقه وقواعد الشرع واصطلاحات العلماء، حتى تخرج الفروع على القواعد والأصول، وذلك أن كل فقه لم يخرج على القواعد فليس بشيء.
واعتمد في هذه المقدمة على كتاب الإفادة للقاضي عبدالوهاب، وكتاب الإشارة للباجي، ومقدمة ابن القصار، وكتاب المحصول للفخر الرازي، ولخص جميع ذلك في مائة فصل وفصلين، في عشرين بابا، وسمى هذه المقدمة الأصولية النفيسة «تنقيح الفصول في علم الأصول»، وهي تحتوي على أبواب أصولية كثيرة

- هذا العرض مستفاد من مقدمة محقق الكتاب الدكتور محمد حجي.



مؤتمر الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت ناقش مسودتها المبدئية:

التحريـــــر

«وثيقة دولية» تيسر عمل المرأة الخيري

خرج المشاركون في مؤتمر «دور المرأة في العمل الخيري» الذي نظمته الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الفترة ١٥-١٧ ديسمبر الماضي في فندق ريجينسي - الكويت بوضع لبنات وثيقة عالمية تكون منهج عمل وأساسا مرجعيا للمرأة في مجال العمل الخيري والتطوعي، وقد انتهى المؤتمر الذي رعاه وحضر افتتاحه أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وشارك فيه أكثر من ٣٠ عالما ومفكرا وناشطا وناشطة في العمل الإنساني، يمثلون العديد من المنظمات والهيئات الإسلامية المحلية والإقليمية والدولية، بمجموعة توصيات، تتلخص في ضرورة معالجة العوائق التي أظهرتها التجارب العملية والميدانية للأعمال الخيرية، والعمل على تذليل العقبات التي تعترض مسيرة عمل المرأة في العمل الخيري، والاتفاق على اعتماد مقررات المؤسسات الفقهية الإسلامية في تأطير الدراسات القانونية والفقهية والشرعية والإحصائية التي تم تلخيص مخرجاتها وعرضها على لجنة الصياغة؛ بإشراف اللجنة العلمية لإدراجها ضمن الوثيقة، إضافة إلى الإجماع على ضرورة صياغة الرؤية والإطار الشرعي للوثيقة صياغة قانونية وتحرير مصطلحاتها، فضلا عن تشكيل ملامح خطة العمل للمرحلة المقبلة، عبر قيام الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بتشكيل لجنة صياغة مكونة من ذوي تخصصات شرعية وقانونية وخبراء في مجال الاتفاقيات الدولية، وإحالة الصياغة النهائية إلى اللجنة العلمية لاعتمادها، وتقديم الوثيقة إلى الجهات المعنية في الدولة لاعتمادها إقليميا ودوليا، وأخيرا الدعوة إلى إحالة الوثيقة إلى لجنة علمية موسعة تضم تخصصات مختلفة، وأن يعقد اجتماع بين المختصين للصياغة النهائية، مع العمل على ترجمة الوثيقة ومذكرتها التفسيرية باللغات الأجنبية، وعلى أن يتم ما سبق خلال سنة من تاريخه.

كانت جلسات وورش عمل وحلقات نقاش المؤتمر تعقد بالتوازي بواقع ست فعاليات في الفترة النهارية، ومثلها في الفترة المسائية، وكان ذلك يسبب إرباكا لمن يريد تحصيل كل ما يبث من علوم وخبرات، لكن منذ الجلسة الأولى التي رأسها الدكتور خالد المذكور رئيس اللجنة العليا للعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية من الكويت، وشهدتها «الوعي الإسلامي» ظهر حرص المشاركين، ومنهم الدكتورة مهجة غالب عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، والدكتور عصام البشير رئيس مجمع الفقه الإسلامي من السودان، وآخرون على ضرورة إصدار وثيقة حقوقية للمرأة تدعم مشاركتها في العمل الخيرى والتطوعي، وعرضها على المجامع الفقهية الشرعية لإجازتها والعمل بها؛ بدلا من بعض الاتفاقيات والمواثيق الدولية الخاصة بالمرأة، والتي قد تخالف بعض أحكام الشريعة الإسلامية.

الخلوة والاختلاط

وقد فرقت د. مهجة بين الخلوة والتي هي محرمة شرعا، وبين الاختلاط الذي لا يمانعه الشرع، إن كان بضوابط شرعية، وتناولت المجالات التي يمكن أن تعمل بها المرأة في العمل التطوعي، ومنها

الطبية والتعليمية، وتأهيل البنات قبل الزواج، وإصلاح ذات البين بين النساء، ومحو الأمية، ضاربة الأمثال بزوجات الرسول ﷺ وبالصحابيات الجليلات اللائي عملن في تلك المجالات وأثنى عليهن رسول الله ﷺ، ومنهن السيدة زينب بنت جحش، والتي عملت من قوت يدها وتبرعت للخير، مما يؤكد تشجيع السنة النبوية للعمل التطوعي، وفق ضوابط الشريعة.

توازن بين المسؤوليات

وقد أكدت مبادئ الوثيقة الدولية الشرعية لعمل المرأة الخيري التي أكدت أن المرأة والرجل متساويان في الحقوق والواجبات، وفي أصل العمل والكسب، لا فرق بينهما إلا فيما تقتضيه طبيعتهما، وفيما خصت به الشريعة الإسلامية كلا منهما من حقوق وواجبات، وأن للمرأة العاملة في العمل الخيري ذمة مالية مستقلة وولاية تامة على أموالها الخاصة.

كما تحدد الوثيقة مقاصد عمل المرأة الخيري وهي الإسهام في تنمية الأسرة والمجتمع والإنسانية، ومكافحة الفقر وتقوية بنية الأمة وإغاثة الملهوف وبذل المعروف في السلم والحرب، وتعريف المجتمعات بقيمها الدينية والدعوية، خاصة بدور المرأة في العمل الخيري؛ منطلقة من شريعتنا الإسلامية السمحة بكل ما فيها من عمق واتزان وحكمة وبصيرة ومرونة واستجابة لمتغيرات العصر، تكون بمثابة السند الشرعي والمنهج العلمي والمرجعية الداعمة لدور المرأة في العمل الخيري.. وثيقة تبرز المكانة الحقيقية الرفيعة للمرأة في الإسلام؛ حيث كانت المرأة منذ عصر الرسالة معلمة وملهمة ومستشارة وقائدة.

فيلم وثائقي يبهر الحضور

قدم السينمائي الفاروق عبدالعزيز في الجلسة الافتتاحية فيلما وثائقيا مدته ٥ دقائق عن دور المرأة المتميز في الإغاثة الإنسانية من خلال تصوير مشاهد حية التقطها في معسكري لاجئين سوريين بالأردن وبتركيا، هما الزعتري وقرية فان، على الترتيب، وقال الفاروق لـ«الوعي الإسلامي»: لمست مبادرة طيبة من وزارة الإعلام على لسان الوكيل النشط فيصل المتلقم بدعم إنتاج الأفلام والبرامج التي تعزز من دور المرأة، وأضم صوتي لهذه المبادرة الطيبة، فلو أن الوزارة تكفلت بهذا النوع من الإنتاج لوصل جهد السيدات الكويتيات الخيري للعالم كله، كما سمعنا عن الأم تيريزا.



ناقشها المؤتمر أن عمل المرأة الخيري مبني على الموازنة بين مسؤولياتها تجاه أسرتها وأبنائها وزوجها ومن يتعين عليها رعايتهم وبين عملها الخيري، وعند التعارض وتعذر الجمع أو التوفيق بينهما تقدم مسؤولياتها نحو أسرتها وأبنائها وزوجها.

الحقوق والواجبات

وفي تعقيبه قال الدكتور عبدالله معتوق المعتوق رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، إن محاور الوثيقة وأكد المعتوق أن تلك الوثيقة تهدف إلى تقديم مرجع تشريعي لعمل المرأة في المجال الخيري.

رئيسة اللجنة التحضيرية العليا للمؤتمر شذى المشري أشارت في كلمتها الافتتاحية إلى مشاركة كوكبة من العلماء والفقهاء والمختصين، ونخبة من الوزراء والقياديين بمراكز اتخاذ القرار لتيسير انطلاق المرأة على الوجه الذي يمكنها ويكفل لها المشاركة الحقيقية والفاعلة في تنمية المجتمع.

وأضافت بوضوح: غايتنا إصدار وثيقة

الداعمون للمؤتمر

من الجهات التي دعمت المؤتمر ونوهت عنها رئيسة اللجنة التحضيرية شذى المشري:

١- منظمة التعاون الإسلامي
٢- هيئة كبار العلماء
٣- مشيخة الأزهر الشريف
٤- المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة
٥- هيئة الإغاثة الإسلامية
٦- الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٧- المنتدى الإسلامي العالمي
٨- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي
٩- مجموعة البنك الإسلامي للتنمية.



في مؤتمر التنمية الأسرية الرابع بالكويت

المرأة بين تجاذب الفكر واختيارات الذات

سلمى الميمني

أوصى المشاركون في مؤتمر التنمية الأسرية الرابع، الذي أقامته وزارة الأوقاف الكويتية مؤخرا تحت عنوان «المرأة بين تجاذب الفكر واختيارات الذات»، بتحرير المفاهيم الإسلامية والمصطلحات المتعلقة بالمرأة، وتصحيحها، وتأصيلها وفق الفهم الصحيح للإسلام، وتصحيح الصورة الذهنية المشوهة للمرأة الكويتية في وسائل الإعلام المختلفة، وتزويد المقررات الدراسية بمناهج تسهم في زيادة الوعي بدور المرأة في جميع المجالات.

وذكر المشاركون أن هنالك مشاريع علمية يجب الاهتمام بها والتركيز عليها خلال المرحلة المقبلة، كتأسيس وحدة إدارية تحت مسمى «قسم شؤون المرأة» بإدارة التنمية الأسرية، وإنشاء مركز أبحاث المرأة الخليجية يتبع الأمانة العامة لدول مجلس التعاون الخليجي، يعنى بالأبحاث المتعلقة بالمرأة في جميع المجالات الاجتماعية،الاقتصادية،التكنولوجية، النفسية، الثقافية وغيرها. جاء ذلك بمشاركة نحو ٤٠ أكاديميا وباحثا ومفكرا وخبيرا من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وعدد من كبار الشخصيات العاملة في مجال المرأة في دول مجلس التعاون الخليجي.

وقد أكد وزير العدل وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يعقوب الصانع أهمية دور المرأة في التكوين الثقافي وبناء الأسرة منذ بزوغ فجر البشرية حتى يومنا الراهن، داعيا إلى الوصول إلى مقاربات فكرية تساعد في بناء شخصية المرأة المسلمة وفق أسس السماحة والاعتدال والوسطية، تيمنا بالخطابات السامية للقيادة السياسية ممثلة بأمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، في دعم كل الجهود للنهوض بالمرأة. وقدمت إدارة التنمية الأسرية عرضا



لنتائج بحث ميداني أجرته الإدارة تحت عنوان «وسائل الاتصال الحديثة ودورها في تمكين المرأة الكويتية اقتصاديا واجتماعيا».

وشهد المؤتمر عرض تجربتين اقتصاديتين، وعقد حوار فكري مع مجموعة من الناشطات في المجتمع الخليجي.

يذكر أن «الوعي الإسلامي» شاركت في البازار الثقافي الذي أقيم على هامش المؤتمر، والذي تضمن معرضا متنوعا بمشاركة العديد من الجهات النسائية البارزة من داخل دولة الكويت وخارجها، حيث عرضت المجلة المطبوعات المتنوعة التي تخدم المرأة والطفل وتناقش مختلف القضايا المهمة للمرأة والمجتمع، كذلك تم عرض وتوزيع مجلة، «براعم الإيمان»، وإصداراتها القصصية المختلفة وتوزيعها على الضيوف وزائري المؤتمر من دول الخليج العربي، والجمعيات النسائية المهتمة بمجالات الطفل والأم.

٦ نصائح لتقليل الغيرة بين الأبناء



د. آندي حجازي
أستاذة علم النفس التربوي-الأردن

هل مر بخلدك يوما لم ينزع بعض الأبناء نحو العنف تجاه إخوتهم؟ ولم يتعامل بعض الإخوة مع بعض بتنافر، وبغض أحيانا؟ أو لم يثور بعض الأبناء ضد الوالدين؟ ولم يعاني بعض الأبناء من التوتر والانفعالات الحادة في غالبية أوقاتهم؟ أو لم يلجأون إلى الصراخ ورفع الصوت؟ أو بالعكس ينزوون في جانب من البيت بلا تفاعل؟

كل تلك التساؤلات قد تكون إجاباتها ومحركها واحدا، وهو الغيرة بين الأبناء؛ فالغيرة شعور طبيعي فطري يولد بداخلنا، يؤجج فينا مشاعر معينة تجاه الآخرين، يبنى عليها الكثير من العلاقات الاجتماعية والسلوكيات والانفعالات.

وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما غرت على امرأة قط؛ ما غرت على خديجة من كثرة ما كان رسول الله ﷺ يذكرها». فالغيرة أمر موجود في الطبيعة البشرية. وهي قد تكون إيجابية حميدة ومطلوبة، وقد تكون سلبية وضارة منبوذة! فتكون إيجابية مرغوبة حينما تولد تنافسا شريفا بين الأبناء أو بين الأشخاص الموجودين في المكان ذاته، كالذين يعملون في الشركة أو المؤسسة نفسها، فلولا الغيرة الحميدة بين أعضائها لما كان هناك إنتاج وتطور وتحسين وإبداع. ومن الغيرة الحميدة غيرة الرجل على زوجته وبناته لحمايتهن، وقد قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف، غير مصفح». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» (صحيح البخاري، ج٦).

أما الغيرة السلبية البغيضة فهي المدمرة للنفس، القاضية على الكثير من الجهود والسعادة والعلاقات الاجتماعية، وهي تعرقل صفو الإخوة في أحايين كثيرة؛ لأنها تؤدي إلى الحسد والحقد والغيبة والعنف والحزن. والغريب أن كلا نوعي الغيرة، الإيجابية والسلبية، نحن البشر من ندرب عليه، ونؤجج مشاعره بدرجات مختلفة!

والغيرة قد تتطور لتصبح من الأمراض النفسية أو القلبية التي تصيب الشخص، كالكذب والغش والتحايل والحسد، وضعف تقدير الذات.. وقد تبدأ من المراحل الأولى من العمر، مما يتسبب في سلب طاقة الشخص وفاعليته وحيويته، كالمرض حينما يسري في الجسد. والأسوأ أن تستمر

مع الشخص سمة مميزة له، طوال حياته، فيصبح يعرف عنه أنه شخص كثير الغيرة من الآخرين، لا يحب الخير لهم، وأناني يحب الخير لذاته أو لأبنائه فقط، دون الآخرين، فيكرهه من حوله.

• الأسباب المؤججة لمشاعر الغيرة بين الأبناء

السبب الأول: عدم العدل والمساواة

إن عدم المساواة بين الأبناء في التعامل، من قبل الوالدين، وعدم العدل معهم في كل النواحي، كالمساواة في نوعية الملابس والأدوات والحاجيات، وفي تقديم مشاعر الحب والحنان والتعاطف، وفي التقبيل والاحتضان والابتسام والنظرات الحانية، وفي الرعاية الجيدة، والعطايا والهدايا والمصروف، هي السبب الرئيسي والمحرك الأكبر لمشاعر الغيرة بين الإخوة، فشعور الابن بعدم العدل والمساواة بينه وبين إخوته في البيت يؤدي إلى ثورة نفسية تنشأ داخله، لإحساسه بالظلم. وبالتالي، يقرر الابن أن يقوم ببعض التصرفات الغاضبة أو الإجراءات التي يراها مناسبة لمعاقبة والديه، أو لإشعارهما برفضه لتلك التفرقة؛ فنلحظ بعض الأبناء يعبر بشكل صريح عن امتعاضه من هذه التفرقة، وقد يبدأ بتهديد الوالدين (خصوصا إن كان في سن المراهقة) بأنه سيفعل كذا، وسيفعل كذا إن لم يعاملاه كما يعاملان بقية إخوته، وغالبا ما ينفذ تهديداته إن لم يعمل الوالدان على تغيير أسلوب تعاملهما معه.

فتزداد مشاعر الغيرة حدة بين الأبناء كلما عمل الآباء على التفرقة بين الأبناء، فيزداد الشعور بالظلم، وتأخذ مشاعر الغيرة في التطور والنماء، وتؤثر سلبا على سير العلاقات الودية بين الإخوة في البيت، بل قد تكون الغيرة سببا لخلافات أبدية مستمرة بين الإخوة، وسببا في العداء والكراهية الدائمة.. وهل قتل قابيل هابيل إلا نتيجة مشاعر الغيرة التي جعلته يشعر بأن الله تعالى تقبل من هابيل قربانه ولم يتقبل منه! فما كان من غيرته إلا أن أفرغها في أمر عنيف لا رجعة فيه، ولا ينفع معه الندم، ألا وهو التخلص من أخيه، ليحمل وزره ووزر كل من قتل بعده!

السبب الثاني: المقارنة بين الأبناء

والمقارنة من أسوأ ما يفعله الوالدان، وقد تكون بين الأبناء بعضهم ببعض، أو أمام الناس بمدح بعضهم من دون بعض، فقد يمدح الأب أحد أبنائه دوما، أمام الأقارب والأصدقاء لتفوقه أو مهاراته أو لموهبة لديه أو لقدراته القيادية أو لجمال في شكله.. وفي المقابل، لا يذكر أي شيء إيجابي عن طفله الآخر، ويتكرر ذلك الموقف مرات ومرات، مما يشكل عقدا نفسية لدى الطفل المهمَل، تتحول مع الوقت إلى مشاعر غيرة وكراهية وعدوان، أو انعزال وقنوط. وأحيانا قد لا تتم المقارنة أمام الناس والأقارب والأصدقاء، بل مُوجّهة للطفل نفسه، بتوجيه التقريع إليه، بمقارنته بأخيه، فيقال له: «انظر إلى أخيك، إنه أفضل منك في دراسته، ناجح في عمله.. أو أكثر ذكاء ومهارة وإبداعا منك، وأنت لا تفلح في شيء!..»، مما يحطم قدراته، ويضعف ثقته بذاته، ومع الوقت يؤمن بما يقوله عنه والداه؛ فتضعف ثقته بنفسه، وتضمحل قدراته، وتزداد غربته عن أسرته ومجتمعه.

السبب الثالث: التفوق والتميز

وهو شعور الأخ بتفوق أخيه عليه في جانب معين، كتفوقه عليه في دراسته أو شكله وجماله الخَلقي، أو تميزه في مهاراته، أو مواهبه، كالرسم والرياضة، أو في محبة الآخرين له، أو تفوقه في عمله ورزقه.. مما يثير لديه مشاعر الغيرة، التي لو عولجت، منذ الصغر، بشكل جيد، لكان تعود الابن حب الخير لغيره، وتقبل الفروقات بين البشر، ولتعلم أن الكمال لله وحده، وأن لا أحد لديه كل شيء، بل كل إنسان يتفوق في جانب، ولا يتفوق في كل شيء، وعليه أن يحمد الله على كل حال، لا أن يحسد غيره.

• مظاهر الغيرة بين الإخوة (وقد تظهر واحدة منها أو أكثر)

أولا- الشجار والعراك بينهم

وهو من أوضح مظاهر مرض الغيرة وأعنفها، فبعض الأبناء، خصوصا الكبار منهم، قد لا يعبرون صراحة عن رفضهم للتفرقة وشعورهم بالغيرة من بعض إخوتهم، بسبب أسلوب والديهم في التعامل معهم، ولكن هذا يصبح باديا للعيان من خلال تصرفاتهم التي قد تؤدي إلى صراعات وتوترات نفسية في البيت، وعنف مع الآخرين، واعتداء على إخوته بالضرب والصراخ والشتائم.

ثانيا- البكاء والعناد

وغالبا ما يظهر لدى الصغار، فبكاء الأخ الصغير لأتفه الأسباب، وعناده، وضرب رأسه في الأرض

أو بيديه، ورميه للحاجيات بعصبية.. كلها مظاهر تشير، في أحيان كثيرة، إلى مشاعر الغيرة لدى هذا الطفل، وأحيانا كثيرة تكون نتيجة ولادة طفل جديد في الأسرة، فيشعر كأنه أخذ مكانه.. فيبكي، ويعلو صراخه لأي سبب، مثل عدم تلبية طلباته بالسرعة اللازمة، أو لسقوطه على الأرض، أو لأخذ شيء من حاجياته. وكثيرا ما يحدث ألا تعرف الأم سبب هذا البكاء والعناد والنكد والفوضى التي يحدثها، ولكن لو راجعت سلوكياتها وطريقة تعاملها فستعرف.

ثالثا- الخجل والانطواء والعزلة عن أهل بيته

الانزواء وترك مخالطة الآخرين هما من أسوأ ما يصل إليه الابن، نتيجة الغيرة، ففي الوقت الذي يتصور فيه الوالدان أنه يلعب في غرفته وحده، ويمارس هواياته، فلا يقدمان له الاهتمام، وأنه هادئ ووديع... يكون هو يعاني من مشكلة نفسية بداخله، لا يعرف كيف يعبر عنها، وكيف يصارح والديه بما يجد، فتتفاقم وتتحول إلى عقد نفسية وحقد وكراهية للآخرين.. فإهمال الوالدين لطفلهما المنعزل خطير للغاية. ولا يعلم الوالدان أن الغيرة حين تصل إلى مستوى كبير تقضي على مرح الطفل ونشاطه وحيويته التي لا بد أن يتصف بها في مرحلة الطفولة، وأن لهذا الانطواء أثرا سلبيا على الطفل في المستقبل، حيث يصبح يخاف الاختلاط بالناس، مما يقلل ثقته بنفسه وبنجاحه في الحياة.

رابعا- مشاكل سلوكية ملحوظة

تظهر لدى الابن الذي تعتريه مشاعر الغيرة والغيظ سلوكيات ظاهرة للعيان، كقضم الأظافر، والتبول اللاإرادي، أو العبث في حاجيات البيت بفوضى، أو التظاهر بالمرض.. لمحاولة الحصول على الاهتمام والتقرب من الوالدين، وجذب انتباههما وعطفهما. ولكن للأسف كثيرا ما تبوء محاولاته بالفشل، نتيجة عدم إصغاء الوالدين لصوت طفلهما، ولعدم تحرك الجهاز العاطفي لديهما، والذي قد لا يتحرك بالدرجة نفسها لكل الأبناء! الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم مشكلة الغيرة بينهم، والتي تستمر حتى عندما يكبرون، فتكبر معهم مشاعر الغيرة والاستياء، وأحيانا الكراهية أو التباعد والجفوة بينهم، ويستمر الوضع حتى بعد أن يتزوجوا ويصبح لكل منهم بيت وأسرة! بل قد تزداد أكثر بعد ذلك.

• كيف أقلل مشاعر الغيرة بين الأبناء؟

أيها الآباء والأمهات، حاولوا قدر الإمكان ما يلي: لتقليل مشاعر الغيرة بين أبنائكم، ولتعزيز ثقتهم بنفسهم والمحبة فيما بينهم:

١- العدل والمساواة بين الأبناء، وهما السبب الأول والأخير والأهم لحل مشكلة الغيرة، فالعدل بين الأبناء في كل النواحي المادية والمعنوية هو المطلوب لوأد مشاعر الغيرة بين الإخوة، فلا تظهر الحب والحنان لطفل دون آخر، حتى وإن كان بحاجة، لمعاناته من مرض ما، أو إعاقة ما، أو مشكلة نفسية أو جسدية.. وكذلك لا تفرق في المعاملة أو العطايا.. إلا إذا أوضحت لهم سبب هذا الاهتمام وأقنعتهم به. فلابد من إشعار كل ابن بالحب والحنان والتكريم والاحترام والمكانة، في الأسرة وفي قلب الوالدين، وذلك يكون قولا وعملا، خصوصا للابن الذي يعاني من اضطرابات سلوكية أو عصبية زائدة، أو من توتر وحالة نفسية.. وتذكر كيف توهّم إخوة يوسف عليه السلام أن أباهم قد أحب يوسف عليه السلام أكثر منهم، فآذوه، وحاولوا التخلص منه برميه في بئر عميقة مظلمة؛ ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ (يوسف:٨)، فاحذر من تصرفاتك ومشاعرك غير المتساوية.

٢- وزع المهام والمسؤوليات **بين أبنائك**

شارك أبناءك جميعهم بعض المهام والمسؤوليات التي تشعرهم بالحب والاهتمام والألفة، وتزيد من ثقتهم بأنفسهم، وتدعم مسيرتهم في الحياة، فلا تجعل تلك المسؤوليات ملقاة على عاتق بعض الأبناء، دون الآخرين، بحجة أن هذا قادر وهذا غير قادر، أو هذا الكبير وهذا الصغير، وإلا فستكون أنت من يسبب التفرقة والغيرة بين أبنائك.

٣- هيئ أبناءك لقدوم مولود جديد

لا تعط كل الحب للطفل الصغير، وتهمل الكبير، فهيئ الأخ الأكبر لتقبل قدوم المولود الجديد، وعلمه كيف يحبه، فمثلا عندما تشتري للمولود الجديد بعض الملابس، اشتر أيضا للإخوة الأكبر؛ لأنهم لابد أن يفسروا ما تفعله للصغير بأنك تحبه أكثر منهم، فيشعروا أن المولود الجديد قد أخذ مكانهم من حبكما واهتمامكما، فيحاول بعضهم إيذاءه أو إهماله وإنكار



وجوده، كما فعل إخوة يوسف به.

٤-استمع لأبنائك كلهم

استمع لجميع أبنائك ولآرائهم ومشاكلهم وأفكارهم، خصوصا المراهقين منهم، ولا تجعل استماعك مقتصرا على واحد منهم دون الآخرين، واحترم آراءهم، لأن الاستماع إليهم يزيد من ثقتهم بحبك لهم، ويقلل مشاعر الغيرة والحسد بين الإخوة، خصوصا إن كنت تفعل ذلك مع جميع أبنائك، وبجلسات تحاورية، أما إن كنت تستمع إلى بعضهم وتحترم مثلا آراء الكبير، دون الصغير، فإنك تؤجج مشاعر الغيرة والغيظ لديهم، فتكون أنت، أيها الوالد أو الوالدة، سببا للتفرقة بين أبنائك، وكراهية بعضهم لبعض!

٥- ازرع الثقة والمحبة فيما بين أبنائك

تقع على الوالدين مسؤولية زرع المحبة المتبادلة بين الإخوة في البيت، فذكر ابنك دوما أن هذا أخوك، وهو جزء منك، وأنه يحبك، وأنك تحبهم بالمقدار نفسه.. وعلمه أن لدى إخوته مواهب معينة، كما أن لديه مواهب مختلفة، وأن عليه تحسين نفسه وتطوير مواهبه ومظهره وإنتاجه... مع تركيز الوالدين على تنمية موهبة كل ابن على حدة؛ لزرع الثقة بنفسه وبقدراته، فتتطور بدلا من أن تضمحل وتتلاشى، بمرور الزمن.

٦- لا تقارن أبدا بين أبنائك

إن المقارنة بين الأبناء سبب رئيسي للغيرة، فلا تقارن أبدا بين ابنك وآخر أمام إخوته، ولا أمام الآخرين، ولا حتى في نفسك، لأن لكل ابن مواهبه وقدراته وطاقاته وميوله وأهدافه في الحياة، فالمقارنة بين الأبناء هي من أكثر الأسباب المحبطة التي تثير مشاعر الغيرة والحقد الدائم، فلا تقل: «ابني فلان أكثر ذكاء من الآخر، أو متى ستصبح مثل أخيك؟ أو أنت لا تتقن شيئا.. وانظر إلى أخيك وتعلم منه...» فهذه عبارات تقريع قاتلة للمواهب والقدرات ومشاعر الحب بين الإخوة، بل بالعكس ازرع الثقة النفسية في أبنائك بمدح كل واحد منهم على ميزاته وقدراته ومواهبه، واتق الله في رعاية أبنائك.



عبر سبع ومضات من مشكاة النبوة:

غرس الثقة في نفس الطفل

آمال حسناوي
باحثة دراسات تربوية - سوريا

تعالوا نرى كيف كان النبي ﷺ يتعامل مع الصغار والغلمان من الصحابة رضي الله عنهم حتى أنشأ لنا ذلك الجيل الرباني الذهبي، الذي ملك من الثقة ما جعله يقود جيوشا فتحت العالم بأسره.

هلموا بنا ننهل من معين النبوة الصافي قطرات تربوية، نروي بها ظمأ قلوبنا لتنشئة جيل يقود الأمة إلى النصر والعزة، وذلك من خلال هذه الومضات السبع:

الومضة الأولى: إن أول خطوة يخطوها المربي العاقل لغرس الثقة في نفس طفله تعليمه مبادئ الإيمان بالله تعالى، والخوف منه دون سواه؛ ففي سنن ابن ماجه عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة (جمع الحزور، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم)، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»، والشاهد هنا أهمية غرس قيم الإيمان بالله في سني الطفولة الأولى، وأن لها الأولوية على كل شيء، لأن لها ما بعدها من التربية والخلال الصالحة.

الومضة الثانية: المربي الناجح هو الذي يجعل الطفل يشعر بأهميته كإنسان مسلم؛ فعند مخاطبته يوجه إليه من الخطاب ما يشعر به الطفل أنه محترم مهم، قل له: من فضلك، لو سمحت، استأذنه فيما يخصه، وخذ برأيه وشاوره.

إن هذه الأساليب السهلة الميسورة تجعل الطفل يشعر بأهميته الاجتماعية، وقيمته الذاتية؛ فيدفعه ذلك إلى ارتقاء المعالي وركوب الغايات الجليلة؛ ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بشراب، وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟»، فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا، فتله في يده. الشاهد أنه ﷺ استأذن الغلام وأخذ برأيه وأعطاه حقه، وهذا من صميم غرس الثقة في نفسه.

الومضة الثالثة: مشاركة الطفل في أموره الخاصة، والاهتمام بأسئلته، حتى وإن كانت شؤون الطفل في نظرنا تافهة؛ فقائد هذه الأمة ﷺ وله ما له من القضايا المهمة للأمة، أوجد وقتا ليسأل أخا أنس رضي الله عنه عن طائره؛ ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»؛ فيا ترى ما شعور ذلك الطفل والنبي الكريم ﷺ يهتم به ويسأله عن طائره؟ إنه غرس الثقة في نفس الطفل منذ الصغر.

الومضة الرابعة: مما يؤثر في نفس الطفل ويرفع من همته وذوقه، اصطحابه إلى مجالس الكبار النافعة، ففي تلك المجالس العامرة بالفائدة ما يغرس في نفس الطفل معاني جميلة، ويتعلم منها ما يجعله يحسن مواجهة صعوبات الحياة بثقة، ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الكرام القدوة الحسنة؛ ففي صحيح البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي؛ قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة»، فابن عمر كان أصغر الجالسين وهم كبار الصحابة، وفيهم رسول الله ﷺ؛ ومع ذلك أكبروه وجبروا خاطره، ولم يستهينوا بصغر سنه، بل سمحوا له بمجالسة الكبار ومخالطتهم والإفادة منهم.

الومضة الخامسة: الرفق بالطفل وعدم استعمال أسلوب التهديد الذي يخلق منه شخصية هشة، يسهل كسرها وتوهين عزيمتها، في مقابل أسلوب التجاهل والتغاضي عن بعض الأمور؛ فهو من أنجع وسائل التربية؛ وقد ثبت في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف! ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت».

الومضة السادسة: إظهار محبة طفلك من أبرز ما يشيع الطمأنينة في نفسه، والثقة في عطائه، وإظهار الحب شعور جميل، ولكنه لا يكفي وحده؛ بل علينا أن نشعرهم بهذا الحب؛ ففي صحيح البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه، يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»؛ أخبر ابنك أنك تحبه، وضمه بعطف ولطف إلى صدرك؛ وسيعطيه ذلك مخزونا هائلا من الثقة لمواجهة عراك الحياة، ومن صميم الحب أن تمدح طفلك أمام الغير إذا قام بما يستحق عليه المدح.

الومضة السابعة: أوكل إلى طفلك مهمة يقوم بها، وحمله مسؤولية أمر ما، على حسب سنه وقدراته، وتجنب تحميله من العبء ما لا يطيق، واترك له فسحة في اتخاذ قرارات تخصه، وشاركه أمرا يكون بينكما، وعلمه كتمان السر، وبين له أنك ما خصصته بهذا الأمر إلا لأنه أهل لتحمل الأمانة.

جاء في مسند أحمد عن ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ يوما، حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمته، قلت: يقيل رسول الله ﷺ؛ فخرجت إلى صبيان يلعبون؛ قال: فجئت أنظر إلى لعبهم، قال: «فجاء رسول الله ﷺ فسلم على الصبيان وهم يلعبون، فدعاني رسول الله ﷺ، فبعثني إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله ﷺ في فيء حتى أتيته»، واحتبست على أمي عن الإبان (الحين والوقت) الذي كنت آتيها فيه، فلما أتيتها، قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله في حاجة له، قالت: وما هي؟ قلت: هو سر لرسول الله ﷺ، قالت: فاحفظ على رسول الله ﷺ سره.. قال ثابت: قال لي أنس: «لو حدثت به أحدا من الناس أو: كنت محدثا به، لحدثتك به يا ثابت».



الأسرة أهم المحاضن والمحبة أفضل تربية

الزبير مهداد
كاتب دراسات إسلامية

تتشكل الأسرة من الأم والأب والأبناء، وتعد أهم مجال اجتماعي مؤثر في حياة الأبناء، وحتى أثناء الغياب المؤقت لأحد الوالدين، فإن حضور تأثيره يظل قائما في حياة الأبناء، فغيابه المادي لا ينفي وجوده الرمزي المؤثر في حياة الآخرين الذين يراعونه في سلوكهم واستجاباتهم، وفيما يتوقعه منهم، وتعد الأم أهم مكونات الأسرة المؤثرة في حياة الأبناء.

وفي بعض الحضارات الإنسانية، كانت هناك ثمة عشائر ترتكز حول الأم بدلا من الأب، وتسمى العشائر الأمومية، فتسكن العائلة في موطن الأم، ويأتي الزوج ليعيش معها، وتكون سلطاته ومسؤولياته نحو الأولاد قليلة، إلا فيما يتعلق بأمر معاشهم. ويحمل الأولاد اسم الأم، ويتمتع الخال بسلطة كبيرة على أولاد أخته الذين يرثون كل ممتلكاته (١). وعبر عصور كثيرة، وفي حضارات شعوب شتى، كانت مهمة تربية الأبناء من مهام الأم كليا. ولكن بداية من القرن العشرين، أعطي الأب دورا أكبر في رعاية الأبناء في البلدان الغربية.

وقوة تأثير الأم يبدو من خلال الهالة التي تخلفها في ذهن الطفل، وتسمى في علم النفس: هالة الأم (صورة الأم) Mother imago وهي الصورة المثالية التي يكونها الطفل عن أمه، وتلازمه من سن الطفولة حتى الكبر، بحيث تغدو رمزا لتأثير الأم في نفس الشخص، هذا التأثير الذي يستغرق في الذات، ويمارس فعله بصورة لاشعورية في أحيان كثيرة (٢).

وبخلاف الأم، فإن الأب في العائلة العربية يمثل دورا أقل بروزا من دور الأم، في السنين الأولى من حياة الطفل، وخصوصا في العائلة الكبيرة الممتدة. فالأب يبقى في حياة الطفل الأولى صورة بعيدة، بعكس الأم. إلا أنه وعلى الرغم من أن الطفل لا يشعر بوجود أبيه شعورا مباشرا، فهو يعيشه كقوة كبيرة في حياته (٣).

ويساعد وجود الأب في الأسرة الأطفال الذكور على النجاح في عملية التنميط الجنسي؛ بإكسابهم السلوك الذكوري، وقد كشفت دراسة أثر غياب الأب على سلوك الأطفال عن ضعف السلوك الذكوري لدى الأطفال الذكور، في حين أن وجود الأب يؤدي إلى اكتساب الطفل السلوك الذكوري بدرجة واضحة، وتزداد معاناة الطفل إذا كان الغياب في مرحلة الطفولة المبكرة (٤).

ففي فترة الطفولة الأولى تتكون لدى الطفل نظرته إلى العالم، ويكتسب اتجاهه نحو محيطه ونحو نفسه، وذلك كله بفعل نوع علاقته بوالديه، ومدى رعايتهما له، وخصوصا أمه، فبقدر ما يحققه التفاعل من دفء وإشباع لحاجات الطفل، أو من إهمال وحرمان، ستكون استجابات الفرد للعالم والآخرين بنفس الصورة أيضا (٥).

التفاعل السيء يولد القلق

إن أشكال التفاعل القائمة في مجتمعاتنا بين الكبار والصغار هي عموما غير سوية، لا تأخذ بعين الاعتبار تكوين الطفل النفسي وخصائصه وأفكاره وحاجاته، لذلك فهو يؤدي إلى نتائج عكسية، أي بدل التفاعل والتعاطف المتبادل الذي من المفروض أن يحقق اندماج الفرد، ويساهم في خلق تكامل عناصر شخصيته، يؤدي هذا التفاعل القائم في مجتمعنا إلى خلق شخصيات متصلبة، أو انعزالية، أو قلقة مريضة، يكتنفها إحساس بالنقص والدونية والقصور، معوقة نفسيا، وبدل الاجتهاد في إثراء الحياة الاجتماعية بالعطاء والمبادرة والبذل، تقضي ناشئتنا حياتها يستغرقها بذل الجهد في خفض قلقها والتخلص من توتراتها، فيحرم المجتمع من طاقة شبابية مهمة، كان ممكنا أن تساهم في تنميته وتطويره.

والمؤكد في علم النفس أن سلوك الأفراد واستجاباتهم اللاحقة



واتجاهاتهم، تعتمد بصورة أساسية على البناء السيكولوجي الطفولي، لأن الخبرات التي يتعرض لها الفرد خلال طفولته يكون لها تأثير بارز في رسم معالم شخصيته، من حيث القوة والضعف، أو الوضوح والتكامل، أو الضياع والتشتت، رغم أن معظم الأفراد لا يدركون هذه الحقيقة حق الإدراك، لأنها تصبح في عداد التجارب المنسية بمرور الزمن (٦).

والخبرات المؤلمة التي يتعرض لها الأطفال تأتيهم من ظروف الحياة العائلية، وعلاقاتهم بوالديهم التي تعتبر مصدرا لأغلب الصراعات، فالطفل يعتمد دائما على والديه للعلاقات وللسند، وأيضا للحب. فإذا كان الوالدان مسرفين في البرود أو عدم الاستجابة، أو إذا كانا قاسيين يستعملان العقاب البدني وسيلة وحيدة في الضبط، ينشأ لدى الطفل شعور أساسي بعدم الطمأنينة والقلق الذي يؤدي إلى الصراع النفسي، فهو يحب والديه، ولا يستطيع الاستقلال عنهما، وفي الوقت نفسه يخشاهما لما يسببانه له من ألم نفسي وبدني لا يستطيع دفعه، فينفر منهما (٧).

الحرمان

وظاهرة فقدان الحب أو الحرمان العاطفي تمثل لدى الأطفال أكثر الخبرات المؤلمة المتعلقة بالوالدين، وبالأم بشكل خاص، إبان مرحلة الطفولة الأولى التي تمتد إلى العام السادس من عمر الطفل، وهذا الافتقار للحب وما يلقاه الطفل من إحباط في سبيل الحصول عليه، يترك في نفسيته ندوبا عميقة تلحق مشاعره نحو ذاته، ونحو الآخرين المحيطين به (٨)، فقد تبين دراسة أثر العلاقات بين الوالدين والصبيان على ظهور السلوك المنحرف، أن للحرمان أثرا قويا على الطفل، خاصة خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الصبي، والتي تكون حاسمة في تشكيل شخصية الطفل (٩).

فالطفل الذي يشعر - من خلال أساليب التربية وأشكال التفاعل التي يخضع لها - بأنه منبوذ محروم من العاطفة والحنان، أو أنه غير مرغوب فيه، أو أنه لا قيمة ولا اعتبار له، يحاول وبشتى الوسائل إثارة الانتباه إلى ذاته المنسية وتأكيدها، وقد لا يفلح دوما في ذلك، فتظهر عليه دلائل القلق والصراع النفسي واضطرابات السلوك المختلفة، وأخطرها العصاب (١٠).

القسوة

يميل بعض الوالدين في معاملتهم وتربيتهم لأطفالهم إلى التمسك بالوسائل القسرية الزاجرة الشديدة الإيلام، والتأثير على الطفل، فيلجأون إلى الضرب المبرح لأتفه الأسباب، وفي ظنهم أن هذه القسوة ستحقق لهم التربية السليمة لأطفالهم، فالعقاب البدني هو أكثر طرائق التأديب استعمالا في مجتمعنا، ويشكل اتجاها تنشيئيا سائدا في مجتمعنا، ويستخدم بدرجات متفاوتة، كالصفعة، وهي أكثر شيوعا وأشد إيلاما للنفس والبدن على السواء، إلى جانب الضرب على القفا، أو في أي مكان آخر من الجسم، باليد أو بآلة أخرى كالحزام أو العصا أو النعال أو غير ذلك، لهذا الاتجاه التربوي انعكاسات سيكولوجية ووجدانية على الطفل، ويتفق كل المربين وعلماء النفس على ضرره، وإن اختلفوا في تحديد آثاره ونتائجه على الطفل، صغيرا وكبيرا وتقدير خطورتها.

والملاحظ خلال حالات كثيرة للقسوة والعقاب أن زيادة استخدام العقاب مع الطفل تؤدي حتما إلى الجنوح (١١)، فقد تبين لأحد الباحثين أن نسبة كبيرة من الصبيان المنحرفين، عانوا آثار معاملة قاسية من طرف والديهم، وكانت حياتهم تتصف بعدم الاستقرار والتوتر والقلق (١٢).

وأسوأ ما ينطوي عليه الإفراط في العقاب البدني الموجه للطفل أنه يتضمن تبخيسا وحطا من قيمة الطفل، لأنه لابد لتبرير هذه العدوانية

من الحط من قيمة الطفل، ويترتب على ذلك تكوين الطفل لصورة سلبية عن نفسه، يظل يحملها طيلة حياته، حيث يؤثر تصوره لنفسه على علاقاته بأصدقائه وإخوته وغيرهم، فهو ضعيف عاجز منعدم الفعالية والكفاءة، وبدون طموحات تذكر، وكثيرا ما يكون عرضة لظهور أعراض عصابية من مختلف الأنواع، ومن جملتها عقدة النقص.

إننا في مجتمعاتنا نسيء لأطفالنا بدون كلل، وبطريقة تلقائية غير واعية، بل لا نمتلك أحيانا القدرة على تبرير ذلك، لأن استجاباتنا نحو أطفالنا وطرق تربيتنا وتعاملنا معهم تعتبر تقنيات تربوية متوارثة مقبولة، بل ونعتبرها ضرورية لأجل مصلحة الأبناء، دون وعي بآثارها الضارة وجوانبها المؤلمة السيئة.

التربية محبة

أي نوع من التربية يمكن أن يؤدي إليها الإهمال أو القسوة أو الحماية الزائدة؟! أي مصلحة للطفل في ذلك؟ أي إشباع نفسي وعاطفي يمكنه أن توفره هذه الأساليب التربوية الخاطئة؟ الطفل في حاجة ماسة لمعاملة أخرى غير تلك، في حاجة إلى العطف والمودة والحنان، لأجل نمو سليم بدني ونفسي وعقلي وعاطفي.



هناك أسس ثابتة لتربية الطفل، وشروط ومواصفات للعطف الذي يحتاجه الأطفال:

١- إن الأطفال يجب أن يحظوا بالأولوية في كل شيء، في تلبية حاجاتهم البدنية والعاطفية، وهذا أساس الارتباط الوالدي، ويوجب على الوالدين الحضور المادي والعاطفي الدائم بجوار الأطفال، وطيلة مرحلة الطفولة الأولى على وجه الخصوص، ويتعين بالضرورة على الوالدين تكييف أوقاتهم لتلائم حاجات الصبيان، وليس تكييف الطفولة لتلائم ظروف الوالدين.

٢- لا يمكن أن يقوم الحنان والمودة، إذا قامت العلاقة التربوية بين الوالدين والصبيان على القسوة، فلا ينبغي أن يكون الوالدان مهيمنين، ولا خاضعين لهيمنة، لأجل ذلك، فلا مجال لفرض احترام الوالدية على الصبيان، مهما كلف الثمن، فالعلاقات ينبغي أن تتأسس على الثقة، والاحترام على الجدارة، فالسلطة الحقيقية هي التي يعترف بها الأبناء طواعية، وليست تلك التي نفرضها، والتي قد يتولد عنها خوف أو خضوع وتمرد.

٣- محبة الأبناء تمنح دون قيد ولا شرط، وتقبل طفلك كما هو، على سجيته، وليس كما تحبه أن يكون، فالصورة التي نحب أن يكون عليها أبناؤنا الصغار قد تتعارض مع طبيعتهم الفضولية المشاغبة، الحركية، التلقائية، الفوضوية، المعاندة، الأنانية.. فالأمر يتعلق بنا نحن الكبار لنكون على الصورة التي يحبها الصغار، وليس العكس، فمحبة الصبي غير المشروطة، تعني أيضا ألا نزن على ضوء سلوكه مشروعنا الأبوي، فيجب أن نحبه ونعطف عليه ونشعره بمحبتنا ومودتنا، حتى لو انحرف عن السبيل الذي رسمناه له وحددناه لمساره، فمحبتنا لهم هي طوق النجاة الكفيل بإنقاذهم من كل خطر.

٤- الاستماع العاطفي للطفل لا يمكن أن يلتقي مع العلاقات العنيفة أو المهملة للطفل، والاستماع العاطفي شرط العطف، فيجب استدعاء كل انفعالات الصبي، حتى تلك التي نرفضها، كنوبات غضبه، أو مشاكسته، أو خوفه، أو حزنه، أو خلاف ذلك. فالصبي ليس أمامه خيار آخر غير قمع هذه الانفعالات،

على الرغم مما قد يصاحب هذا القمع من آثار مدمرة أحيانا على الصبي ومحيطه، فما يكبت من انفعالات، يتحول إلى ركام من مشاعر القلق والاكتئاب والحزن، يغلي في صدره، ويتحين الفرصة للظهور والانفجار.

٥- المصاحبة المرنة ضرورية للطفولة، فمن أصعب الأمور على الوالد الذي يعطف على الطفل، أن يجد مكانا قرب طفله، يتيح لإيقاعات الطفل أن تتطور بكل حرية، لأن الأمر يتطلب ثقة كاملة في قدراته، ومرافقته في طريقه دون دفع أو جر أو إمالة أو إعاقة. والتوجيه الحسن يتطلب من الوالدين أن يضعا تجربتهما وخبرتهما رهن إشارة الأطفال، واستحضار علامات، لكن بمرونة كبيرة، يمكن مناقشتها مع الطفل، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات وضع وطبيعة الطفل المتطورة.

٦- إن العطف لا يقتصر معناه على ما ذكر آنفا، إنه أكثر من ذلك، إنه كلمات ودودة، وحركات معبرة عنها، وإشارات، دون أن يصل الأمر إلى إحكام الخناق العاطفي حول الطفل، وإنما تمتيعه بالحضور الدافئ الدائم، والفرح الملهم والثقة والاحترام، فابتعاد الوالدين عن الطفل هو أحد أشكال العنف المدمر للطفل، فالطفل في حاجة إلى محبة تبرزها علامات واضحة، يعرفها الطفل ويميزها، ويستضيء بها في كل أزمة نفسية من أزمات النمو والتنشئة.

وحتى نتمكن من أن نسبغ العطف والمحبة على أبنائنا، يجب أن نحيط أنفسنا بالتقدير الجدير بذاتنا، فلا يمكن أن نتسامح مع الآخرين المذنبين إذا كنا لا نتحمل مسؤولية أخطائنا، ونرفض الاعتراف بها، ولا يمكن أن نحب الآخر إذا كانت معاشرته ليست موضع اعتبار وتقدير.

فيجب أن نلتفت إلى أنفسنا، ونتخلص من الآلام والندوب التي خلفتها فينا التربية القاسية التي عانيناها في صبانا، ونقتلعها من جذورها الكامنة في أعماقنا، حتى لا نعيد إنتاجها مع أبنائنا وبناتنا، ولا نرسخ القهر، ونديم الدمار النفسي المعيق للنمو السليم.

ومن نافلة القول أن جو المبادلات العميقة الدافئة التي تسود الأسرة ترسي دعائم الشخصية لدى أفرادها، وتطور لدى الأطفال القدرة على الاستقلال بالذات، وفرض الشخصية بإعمال الفكر الحر الناقد، مع مراعاة الغير، وذلك ليقين الطفل بأنه محبوب مقبول لذاته.

إلا أن أكبر عائق لذلك هو الوضع الدوني للأم في بعض الأسر، التي تفتقد الحوار الحر والصريح والصادق بين الزوجين، لغياب التفاهم والتقدير بينهما، والأخيران يعدان شرطين أساسيين للحوار الفعال، وغياب الحوار بين الوالدين ينعكس على علاقاتهما بالأطفال، فيقيمان معهم علاقات أحادية الجانب، تتسم في الغالب بالتسلط أو الإهمال.

إن الأم التي تفتقد السعادة في حياتها الزوجية، لا يمكن لها أبدا أن تتجه في تنشئتها لأبنائها اتجاها يسمح لهم بالنمو السليم، ويلبي حاجاتهم النفسية، ويوفر لهم الأمن النفسي والبدني. لأن قلقها ينعكس على حياتها وعلاقاتها بأبنائها، وانشغالها بمشاكلها يجعلها لا تولي أبناءها اهتماما، ويهدف سلوكها أساسا إلى تحقيق توازنها النفسي الداخلي (١٣).

إن الإسلام وسائر المواثيق القانونية الدولية والوطنية تعتبر الأسرة الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع، وتوجب لها من الحقوق والامتيازات الكثير الذي ماتزال مجتمعاتنا تتغاضى عنه، كما تنص تلك الشرائع والقوانين على أن للأمومة والطفولة، بشكل خاص، الحق في رعاية ومساعدة خاصتين لضمان أمنهما، وسلامتهما البدنية والنفسية.

هوامش

١- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، مؤسسة دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥م، ص ٢٢٨.

٢- رزوق، أسعد (ترجمة): موسوعة علم النفس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

٣- شرابي، هشام: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، ١٩٧٥م ص: ١٠٠-١٠١.

٤- زهران، حامد: علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٩٤.

٥- محمود السيد أبوالنيل، علم النفس الاجتماعي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م، ج٢، ص٤٩.

٦- مسلم حسب حسين، الأسس التربوية والبيئية للانحراف العصبي، مجلة آفاق عربية، عدد ١١و١٢، (١٩٨٢م)، ص ١٣٨.

٧- ج. ب. جيلفورد، ميادين علم النفس (ترجمة بإشراف يوسف مراد)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م، الجزء ٢، ص ٣٦٥.

٨- مسلم حسب حسين، المرجع السابق نفسه.

٩- محمود السيد أبوالنيل، مرجع سابق، ص ٥٢.

١٠- عبد عون عبد علي، الجريمة وجنوح الأحداث، مجلة الباحث، بيروت، عدد ٣٥و ٣٦، ص ٥٩.

١١- صباح حنا هرمز، التنشئة الاجتماعية وأثرها على سلوك الأطفال، مجلة الجامعة (بغداد)، عدد ٣، السنة ١٠، (١٩٧٩م)، ص ١٠٥.

١٢- محمود السيد أبوالنيل، مرجع سابق، ص ٥٢.

١٣- الصراف، قاسم علي، دراسة في أثر الجنسية والمستوى التعليمي للأم الخليجية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد رقم ٦٠، سنة ١٩٨٩م ص ١٤٧.

ضم عددا من مقتنيات جامعة ليدن الهولندية

معرض المخطوطات الإسلامية بالمسجد الكبير

تقرير وتصوير:
علاء عبدالفتاح

بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما من العلاقات الدبلوماسية بين دولة الكويت ومملكة هولندا، نظمت سفارة هولندا في الكويت، بالاشتراك مع مركز الكويت للفنون الإسلامية، معرض المخطوطات الإسلامية في الفترة من ٧ إلى ١١ ديسمبر الماضي أمام بهو القاعة الأميرية بالمسجد الكبير.

جاء المعرض تحت عنوان «صور عن الجمال الشرقي»، وضم لوحات من مقتنيات جامعة ليدن حازت إعجاب الزائرين لفرادتها، حيث فن الخط والمنمنمات والزخارف.

انقسمت لوحات المعرض إلى خمسة موضوعات: فن الخط، تصوير مكة والمدينة، منمنمات من الأعمال العلمية والشعرية، وتصميمات الزهور، والأشكال الهندسية. ومن المخطوطات النادرة التي توقف عندها الزائرون طويلا طَيّة من القرآن الكريم بالخط الكوفي، ترجع إلى القرن التاسع الميلادي، ومخطوطة قرآنية من سومطرة (١٨٧٣م)، ومنمنمتان ذاتا إطار ذهبي من كتاب «دلائل الخيرات» للجزولي من تركيا (١٨٣٧م - ١٢٥٣هـ)، فضلا عن أقدم نسخة عربية مصورة في العالم من النص المنقح لكتاب علم النباتات الشهير «كتاب الحشائش» لمؤلفه الحكيم الإغريقي ديسقوريدوس (سمرقند ٤٧٥هـ - أوائل ١٠٨٣م).

من اللوحات المعروضة

■ لوحة كتاب «دلائل الخيرات» للجزولي (كشمير القرن الثامن عشر)

ركز الرسام هنا على تصوير الحرمين، فالكعبة والحرم الشريف بمكة في الصفحة اليمنى، ومسجد الرسول ﷺ في اليسرى. ورسم كلا المكانين بإسقاط مسطح مثلما يظهر من اتجاه الكعبة في المركز والمنبر والمنارات في الأركان. وما يبدو في المنمنمة كحدود ذات كوات هو أروقة مقببة تتدلى منها المصابيح التي تحيط بصحن المبنيين.

■ تاريخ مكة المشرفة والمدينة المنورة (تركيا العثمانية، ٢٢ شوال ١٠٠٥هـ - ٨ يونيو ١٥٩٧م)

تظهر هذه المنمنمة المزدوجة على اليمين إسقاطا مسطحا للمسجد الحرام بمكة، حيث الكعبة في المنتصف، وعلى اليسار تظهر إحدى شعائر الحج في مكة، ويظهر موضع جبلي الصفا والمروة (في الصورة في الركن الأيسر وأسفل الصفحة على التوالي). وعلى الحجيج السعي سبع مرات بين الجبلين إحياء لذكرى سعي السيدة هاجر بحثا عن الماء لولدها إسماعيل، وبعون الله ومساعدته انشقت لها عين زمزم.

■ كتاب «الحشائش» لديسقوريدوس (الترجمة العربية) (سمرقند، رمضان ٤٧٥هـ - أوائل ١٠٨٣م)

تعد أقدم نسخة عربية مصورة في العالم من النص المنقح لكتاب علم النباتات الشهير «الحشائش» لمؤلفه الحكيم الإغريقي ديسقوريدوس، الذي عاش في القرن الأول. في الصفحة اليمنى تعرض صورة لقصب الذريرة القوي الرائحة، وعلى اليسرى، شجرة تستوطن جنوب شبه الجزيرة العربية يستخرج منها عصارة راتينجية عطرية، كما يعرض أيضا لطريقة استخراج هذه العصارة. وكانت كلتا النبتتين تستخدمان في صناعة الدواء والعطور.

■ التصريف لمن عجز عن التأليف، أبو القاسم الزهراوي (القرنان ١٤ و١٥)

يعرض هنا لسبع آلات طبية مع وصف محدد لاستخدامها في الجراحة، وهي جزء من دليل طبي كتبه أبوالقاسم الزهراوي (المتوفى حوالي ١٠٠٩م)، الطبيب الذي عاش في القرن العاشر في قرطبة المورسكية.



فقد راعه الإهمال الذي أصاب علم الجراحة في عصره، فنشر علمه بكتابة دليل للجراحة مصحوب برسومات شارحة. وعندما ترجم هذا العمل إلى اللاتينية أثر بدوره في الأطباء الأوروبيين.

■ لوحة جغرافيا الإصطخري (٥٨٩هـ - ١١٩٣م)

تعد خريطة العالم هنا أول الرسومات في النسخة المختصرة للكتاب الشهير لعالم الجغرافيا الإصطخري (القرن العاشر). وقد وضع الشمال في أسفل الخريطة بينما وضع الجنوب في أعلاها، وبها نسترجع النقوش الكوفية المطولة قرب حواف الصفحة المزدوجة. والبحر تمثله الدائرة المتحدة المركز مع دائرة الأرض التي تحيط بها، وقد بلي اللون الأزرق في معظم أجزائها. ونرى أعلى الجزء الأزرق ذي النقاط الحمراء الثلاث على اليمين والذي يمثل البحر المتوسط إشارة إلى المغرب ومصر وسوريا.

■ الجزء الثامن من كتاب الفلاحة النبطية، ابن وحشية (مصر، بين ١٥٠١ و١٥١٦م)

تشير هذه الصفحة الافتتاحية ذات اللون الذهبي والأزرق والأبيض والأخضر إلى انتماء راعي المخطوطة إلى الطبقة الملكية.

وبالفعل تخبرنا الحلية في المنتصف أن المخطوطة قد صنعت لمكتبة السلطان الغوري الذي حكم دولة المماليك بين ١٥٠١م و١٥١٦م. وقد ذكر عنوان الكتاب في الإطار العلوي، بينما كتب اسم المؤلف في الإطار السفلي. كما أضافت جامعة ليدن علامة ملكيتها (الاختصار اللاتيني ACAD.LUGD) مقلوبة في الجزء العلوي، في حين كتب نص هبة الدبلوماسي الهولندي ليفينوس وارنر في الأسفل، مقلوبا أيضا.

■ كتاب «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» (٦٤٦هـ - ١٢٤٩م)

تقدم صفحة محددة بالذهب والأزرق كل جزء من الأجزاء الأربعة لهذه المخطوطة، ويحتوي الإطار الأفقي في المنطقة العليا على العنوان واسم المؤلف، بينما تحتوي المساحة الرئيسية على تصميم مكرر من تعريشة من شكل معينات ذات فصوص، وتضم بداخلها تصميما لنبات ذهبي على خلفية تتبدل بين اللونين الأزرق والأحمر. وكثيرا ما استخدم هذا التصميم الزخرفي الذي يعمد إلى إطارات لتقسيم السطح إلى وحدات صغيرة الحجم وملء كل وحدة بتصميم في أعمال الخشب والرخام.

الهولنديون جمعوا اللوحات

في كلمته الافتتاحية لكتيب شارح للوحات المعرض قال السفير الهولندي في الكويت نيكولاس بيتس: «نأمل أن يزين هذا المعرض للفن الإسلامي بالمسجد الكبير احتفالاتنا بمرور ٥٠ عاما من العلاقات الهولندية الكويتية»، مضيفا: «يعشق الهولنديون الفن، ومنذ العصر الذهبي الهولندي بدأوا بجمع اللوحات والفخار من مختلف الأماكن. وجمعوا أيضا مجموعة رائعة من المخطوطات العربية التي لا تقدر بثمن، بعضها يعرض في المسجد الكبير».

السبق الإسلامي في حماية البيئة الطبيعية للمدن



د. يحيى حسن وزيري
أستاذ أكاديمي ومعماري

عندما نذكر أرض الله الحرام، فإننا نعني بذلك مساحات محددة من مكة المكرمة (وينطبق ذلك أيضا على المدينة المنورة)، وذلك طبقا لما ورد وجاء ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ويروى أن أول من نصب حدود الحرم إبراهيم عليه السلام، ثم إن قريشا قلعوها في زمن النبي ﷺ، فشق ذلك عليه، ثم إنهم أعادوها وجددها النبي ﷺ (١)، فقد روى أبونعيم عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ: بعث عام الفتح أسدا الخزاعي فجدد أنصاب الحرم، وكان إبراهيم وضعها يريه إياها جبريل» (٢).



ويخبرنا القرآن الكريم عن حرمة مكة المكرمة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ (القصص:٥٧)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت:٦٧)، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ (النمل:٩١)، كما يوضح القرآن الكريم في موضع آخر حرمة الصيد على المحرم في قول الله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ (المائدة:٩٦).

ويوضح الرسول ﷺ المعاني الجليلة الواردة في الآيات القرآنية الكريمة السابقة، في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الحج عن حرمة مكة (٣): عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» وقال يوم الفتح: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها. فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: إلا الإذخر».

فالحديث الشريف ينهى بوضوح عن قطع أشجار الحرم ونباته، وإن كانت شوكا، كما ينهى عن تنفير صيد الحرم، فما بالنا بصيده، وهو ما يشير إلى أهمية المحافظة على البيئة الطبيعية لمكة المكرمة بكل عناصرها النباتية والحيوانية.

كما أنه يحرم القتال بمكة المكرمة، ففي الصحيحين: أن عمرو بن سعيد لما أراد بعث الناس إلى مكة لقتال ابن الزبير، قال له أبوشريح: «يا أيها الأمير أحدثك حديثا سمعته أذناي ووعاه قلبي، أنه ﷺ قال: إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فيها، فقولوا: إن الله عزوجل أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وجدير بالذكر هنا أن نوضح أن الرسول ﷺ، قد حرّم المدينة المنورة وقرر حدود الأرض الحرام بها، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه (٤)، عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين»، والحدث: الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ولا معروف في السنة، وأما المحدِث فيروى بكسر الدال (وهو فاعل الحدث) لا بفتحها وهو الأمر المبتدع نفسه.

كما روى الإمام مسلم في صحيحه (٥)، عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وأنا أحرم ما بين لابتيها». (يريد المدينة). و«اللابّة»: الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود، والمدينة بين حرتين.

وبذلك يتضح لنا سبق المنهج الإسلامي من خلال القرآن والسنة الصحيحة في حماية البيئة الطبيعية للمدن، وهو بذلك قد سبق ما يعرف اليوم بنظام «المحميات الطبيعية» بتحريمه الصيد أو قطع الأشجار في مكة والمدينة، ولا يظن أحد أنني أذهب بالحديث بعيدا عن السبب الذي سيق من أجله

وهو تقديس هذه الأماكن، وأن تبقى بقعا آمنة يأمن كل مخلوق فيها على نفسه، غير أن هذا الأمر يجعل موضوع المحميات الطبيعية غير غريب أيضا عن الحس الإسلامي.

مما سبق يمكن أن نحدد الأحكام المتعلقة بالأرض الحرام والتي تتصل ببيئتها وحدودها، فيما يلي (٦):

١- تحريم تنفير الصيد بمكة وقتله، ويستثنى من ذلك الفواسق الخمس لحديث رسول الله ﷺ.

٢- تحريم قطع الشجر والشوك والخلى، ويستثنى من ذلك نبات الإذخر لحديث الرسول ﷺ.

٣- تحريم أخذ لقطة الحرم إلا للتعريف.

ومن الأشياء المهمة أيضا التي تتعلق بالحرم المكي هو تحريم القتال وسفك الدماء فيه، فقد روى الإمام البخاري عن أبي شريح رضي الله عنه، عن النبي ﷺ (٧): «فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ». ولم يأذن الله لرسوله ﷺ وللمسلمين بقتال فيها، إلا إذا ابتدرهم الكافرون بالقتال، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ (البقرة:١٩١).

وبناء على ما سبق فإننا إذا ما عقدنا مقارنة مع القوانين الوضعية بشأن المحميات الطبيعية، وما ورد في القرآن والسنة بشأن أحكام الحرم المكي، يتضح لنا سبق وتميز المنهج الإسلامي في هذا الصدد.

فإذا أخذنا القانون المصري في هذا الشأن كنموذج، فقد صدر القانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٣م في شأن المحميات الطبيعية بمصر، لتوفير الحماية للموارد الطبيعية والتنوع البيولوجي، وللحفاظ على الاتزان البيئي (٨)، نجد أن المادة الأولى من هذا القانون تعرف المحمية الطبيعية على أنها: «مساحة من الأرض أو المياه الساحلية أو الداخلية تتميز بما تضمه من كائنات حية، أو نباتات، أو حيوانات، أو أسماك، أو ظواهر طبيعية ذات قيمة ثقافية، أو علمية، أو سياحية، أو جمالية». أما المادة الثانية من نفس القانون فتضع ضوابط التعامل مع تلك المحميات كما يلي: «يحظر القيام بأعمال، أو تصرفات، أو أنشطة، أو إجراءات من شأنها تدمير أو إتلاف أو تدهور البيئة الطبيعية، أو الإضرار بالحياة البرية أو البحرية أو النباتية أو المساس بمستواها الجمالي بمنطقة المحمية».

أي إن قانون المحميات الطبيعية في مصر يحظر تدمير أو إتلاف الحياة البرية (الحيوانات)، أو البحرية (الأسماك)، أو النباتية، وهو ما سبق إليه المنهج الإسلامي (القرآن والسنة) بحوالي أربعة عشر قرنا من الزمان، بل وتفوّق على القانون الوضعي ليس في قتل صيد البر فقط بل وتنفيره أيضا، ووصل نهيه بالنسبة للحياة النباتية بعدم قطع الشوك وليس فقط الأشجار الموجودة في أرض الله الحرام، بل وتحريم القتال وسفك الدماء.

وفي المادة السابعة من قانون المحميات الطبيعية بمصر عقوبات تتراوح ما بين الغرامة المالية والحبس، لمن لم يلتزم بما ورد في مواد القانون، وفي هذا الشأن أيضا نجد أن علماء المسلمين أوجبوا إيقاع عقوبة على من يقطع شجر الحرم.

فقد قال الواقدي (٩): «لما أرادت قريش البنيان قالوا لقصي: كيف نصنع بشجر الحرم؟ فنهاهم وحذرهم في قطعها وخوفهم من العقوبة في ذلك، فكان أحدهم يحوق بالبنيان حول الشجرة حتى تحصل في منزله، قال: وأول من رخص في قطع شجر الحرم في البنيان عبدالله بن الزبير، حين ابتنى دورا بقعيقعان (جبل بمكة)، لكنه جعل دية كل شجرة بقرة، وكان يروى عن عمر أنه قطع دوحة كانت في دار أسد بن عبدالعزى، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، فقطعها عمر رضي الله عنه، وواداها (دفع ديتها) ببقرة».

وقال النووي (١٠): «اتفق العلماء على تحريم قطع أشجار مكة التي لا يستنبتها الآدميون في العادة، وعلى تحريم قطع خلاها وهو الرطب من الكلأ، واختلفوا في ضمان الشجر إذا قطع، فقال مالك: يأثم ولا فدية، وقال الشافعي وأبوحنيفة: عليه الفدية، وأوجب أبوحنيفة القيمة، والشافعي في الكبيرة بقرة والصغيرة شاة، وكذا جاء عن ابن عباس».

الخلاصة:

سيظل المنهج الإسلامي سبّاقا ومهيمنا على القوانين التي يضعها البشر في كل زمان ومكان، وهو ما ظهر في دراستنا هذه التي تناولت سبق القرآن والسنة في حماية البيئة الطبيعية للحرمين الشريفين، واستخدام مصطلح «الأرض الحرام»، وهو مصطلح شرعي تتعلق به أحكام وواجبات شرعية، ولكن في نفس الوقت يسهم بطريقة مباشرة في الحفاظ على البيئة الطبيعية للحرمين الشريفين، وكذلك الارتقاء بالتربية البيئية للمسلمين زوار الأماكن المقدسة في الحرمين الشريفين، وتهذيب سلوكهم في التعامل مع البيئة النباتية والحيوانية لأرض الله الحرام، مما ينعكس على سلوكهم بصفة عامة في بقاع الأرض المختلفة.

الهوامش

(١) بدر الدين الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٦٣.
(٢) انظر كتاب: الإصابة في تمييز الصحابة ١٨٣/١.
(٣) انظر صحيح مسلم: (باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام).
(٤) انظر صحيح البخاري: (كتاب فضائل المدينة).
(٥) انظر صحيح مسلم: (كتاب الحج).
(٦) البلد الحرام فضائل وأحكام، إعداد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى (١٤٢٣هـ)، ص٤٣ وما بعدها.
(٧) انظر صحيح البخاري: (باب لا يحل القتال بمكة).
(٨) يمكن الاطلاع على القانون المصري الخاص بالمحميات الطبيعية على شبكة الإنترنت.
(٩) بدر الدين الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ١٥٥.
(١٠) بدر الدين الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٢٦ ومابعدها.

تدبر في حالك

محمد فريد فرج
كاتب صحفي

يبصر أحدكم القذاة (القشة الرفيعة) في عين أخيه، وينسى الجذع (ساق النخل) في عينه (ابن حبان ٥٧٦١).. بهذه الكلمات الموجزة يشير من أوتي جوامع الكلم ﷺ إلى داء متأصل في كثير من النفوس المريضة؛ وهو الانشغال بذكر العيوب الصغيرة للآخرين عن رؤية العيوب الكبيرة للنفس. ويجر هذا الداء على أصحابه عقوبات، نذكر بعضها:

العقوبة الأولى: أنه يدفع صاحبه إلى كشف عيوب نفسه من حيث لا يدري. يحكى أن أعرابيا سمع رجلا يقع في الناس فقال: «قد استدللت على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس، لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها».

قال الشاعر:

وأجرأ من رأيت بظهر غيب
على عيب الرجال أخو العيوب

(صيد الأفكار ٤٩٢/١).

العقوبة الثانية: أنه يبرز صاحبه في صورة هزلية مضحكة تستحق سخرية الناس؛ إذ يرونه منكرا عليهم الهفوات بينما هو متلطخ بالطامات، مما يفقد موعظته أي قيمة.

ولله در القائل:

يا أيها الرجل المقوم غيره
هلا لنفسك كان ذا التقويم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

(غذاء الألباب ٢١٨/١).

العقوبة الثالثة: أنه يدفع الناس للتفتيش عن معايب صاحبه، ولله در الشافعي إذا يقول:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى
ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة
فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايبا
فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
ودافع ولكن بالتي هي أحسن

(غرر الخصائص ١٣٤/١).

وروى ابن مقلة في ذلك عن ثعلب:

إذا ما تعيب الناس عابوا فأكثروا
عليك وأبدوا منك ما كنت تستر
فلا تعبن خلقا بما فيك مثله
وكيف يعيب العور من هو أعور

(تاريخ الإسلام ٢٤١/٢٤).

العقوبة الرابعة: أنه يجلب على صاحبه فضيحة الله له، ولله در القائل:

لا تكشفن من مساوي الناس ماستروا
فيكشف الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا
ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

(غرر الخصائص ١٣٤/١).

ولذلك تنزه السلف عن هذا الداء العضال، وانشغلوا بإصلاح عيوبهم عن عيوب غيرهم.

يحكى أنهم قالوا للربيع بن خثيم: «ما نراك تعيب أحدا»! قال: «لست عن نفسي راضيا، فأتفرغ لذم الناس»، وأنشد:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها
لنفسي في نفسي عن الناس شاغل

(ربيع الأبرار ٣٢٢/٢).

وقال محمد بن سوقة: «ما أحسب رجلا يفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه» (ربيع الأبرار ٣٢٢/٢).

وأوصى جعفر الصادق ابنه موسى قائلا: «يا بني، من استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه.

يا بني، ومن كشف حجاب غيره انكشفت عورته.

يا بني، إياك أن تزري بالرجال، فيزرى بك.

يا بني، وإياك والتعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرض لعيوب الناس كمنزلة الهدف».

(تهذيب الكمال ٨٩/٥: ٩٠).

ولكن حذار من القعود عن واجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تذرعا بعيوب النفس، فليس هذا المقصد، وإنما المقصد أن البصير كما يجتهد في تنقية عين أخيه من القشة الرفيعة، فمن باب أولى ألا ينشغل عن تنقية عينه من الخشبة الكبيرة.

ولله در القائل:

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنب
فمن يعظ العاصين بعد محمد؟

(غذاء الألباب ٢١٩/١).

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.



الرحالون المسلمون

للأستاذ أحمد مظهر العظمة

مفتش الدولة ورئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي بدمشق

مما يفخر به المعجبون بالغرب الرحلات التاريخية والعلمية ، وإنها لفخرٌ حقاً ، ولكن المسلمين كانوا أسبق إليها أيام أن كانوا بأحكام دينهم عاملين .

وقد ساعد الإسلامَ على ذلك أن العرب بحكم بيئتهم ميالون إلى التنقل ، وقد كانت لقريش رحلة الشتاء والصيف طلباً للتجارة . وقد حث الإسلام المسلمين على الضرب في الأرض فاتحين ومعلمين هادين؛ فكثرت الرحلات العلمية وأثمرت الثمرات الطيبة اليانعة .

١ — فكان أهل (الحديث يرحلون في طلب الأثر ويقطعون ظهور الإبل إلى المرامي البعيدة ، وإلى كل شرق وصقع يعلمون أن فيه عن مصادر الحديث أحدا) (١) .

روى أحمد أن جابر بن عبد الله الأنصاري بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني حديث سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيراً ثم شدّ رحله وسار إليه شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه .

وكان مسروق يرحل في حرف ، وأبو سعيد كذلك (٢) .

و (قام البخاري برحلة طويلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث ، فزار خراسان والعراق ومصر والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ) (٣) .

٢ — ثم تبعهم أهل اللغة (يطلبون جفاة الأعراب . . . ويأخذون عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة وبقيت في سرة البادية أو فاضت حولها (واستمروا يرحلون إلى أواخر القرن الرابع) (٤) .

٣ — وكانت الرحلات العلمية وغيرها من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق كرحلة ابن جبير الأندلسي (المتوفى ٦١٤) .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٣٤٢ .
(٢) جامع بيان العلم للقرطبي ص ٩٤ .
(٣) الأعلام للزركلي ٣ ص ٨٦٤ عن تذكرة الحفاظ ٢ : ٣
(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٣٤٣ و ٣٤٥ .

أحمد مظهر العظمة (١٩٠٩ - ١٩٨٢م)

داعية سوري، رئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي منذ تأسيسها عام ١٩٣٣م، هو أحد وجهاء عائلة العظمة الدمشقية. عمل مدرسا للغة العربية في بداية حياته الوظيفية، ثم استلم رئاسة مكتب تفتيش الدولة السورية واستمر في منصبه فيما بعد ولحين وفاته. له العديد من المؤلفات؛ منها «تفسير جزء عم» و«تفسير جزء تبارك» و«كلمات».



العدد الرابع

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

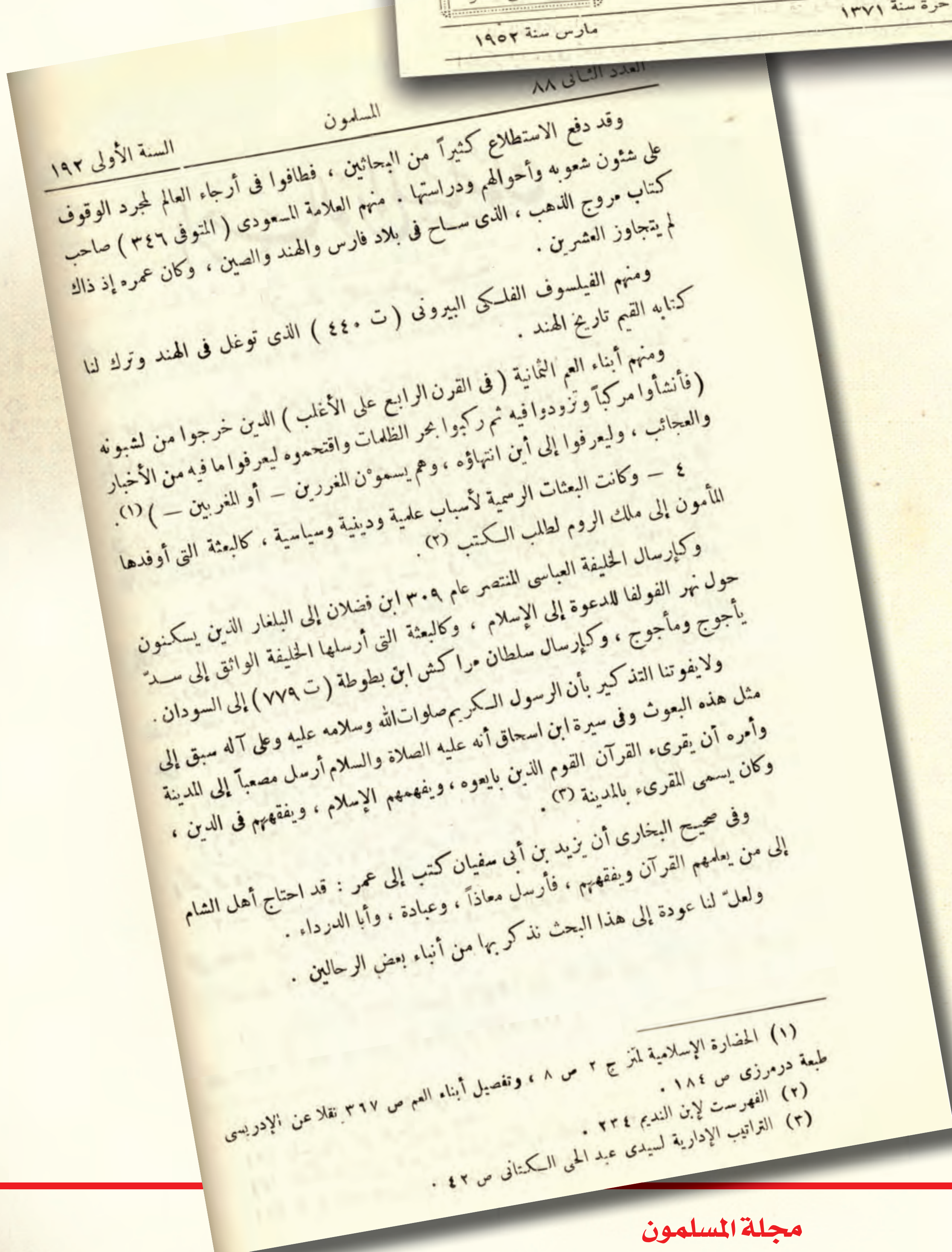
المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربى
سنتها عشرة أعداد

السنة الأولى

الاشتراكات
١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
وللطلاب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — مارس سنة ١٩٥٢



العدد الثانى ٨٨

السنة الأولى ١٩٢ — المسلمون

وقد دفع الاستطلاع كثيراً من الباحثين، فطافوا فى أرجاء العالم لمجرد الوقوف على شئون شعوبه وأحوالهم ودراستها. منهم العلامة المسعودى (المتوفى ٣٤٦) صاحب كتاب مروج الذهب، الذى ساح فى بلاد فارس والهند والصين، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين.

ومنهم الفيلسوف الفلكى البيرونى (ت ٤٤٠) الذى توغل فى الهند وترك لنا كتابه القيم تاريخ الهند.

ومنهم أبناء العم الثمانية (فى القرن الرابع على الأغلب) الذين خرجوا من لشبونه (فأنشأوا مركباً وتزودوا فيه ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه، وهم يسمون المغررين — أو المغربين —) (١).

٤ — وكانت البعثات الرسمية لأسباب علمية ودينية وسياسية، كالبعثة التى أوفدها المأمون إلى ملك الروم لطلب الكتب (٢).

وكإرسال الخليفة العباسى المنتصر عام ٣٠٩ ابن فضلان إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر الفولغا للدعوة إلى الإسلام، وكالبعثة التى أرسلها الخليفة الواثق إلى سد يأجوج ومأجوج، وكإرسال سلطان مراكش ابن بطوطة (ت ٧٧٩) إلى السودان.

ولا يفوتنا التذكير بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله سبق إلى مثل هذه البعوث وفى سيرة ابن اسحاق أنه عليه الصلاة والسلام أرسل مصعباً إلى المدينة وأمره أن يقرىء القرآن القوم الذين بايعوه، ويفهمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، وكان يسمى القرىء بالمدينة (٣).

وفى صحيح البخارى أن يزيد بن أبى سفيان كتب إلى عمر: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأرسل معاذاً، وعبادة، وأبا الدرداء.

ولعل لنا عودة إلى هذا البحث نذكر بها من أنباء بعض الرحالين.

(١) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ٨، وتفصيل أبناء العم ص ٣٦٧ نقلا عن الإدريسى طبعة درمرزى ص ١٨٤.
(٢) الفهرست لابن النديم ٢٣٤.
(٣) التراتيب الإدارية لسيدى عبد الحى الكتانى ص ٤٢.

مجلة المسلمون

مجلة إسلامية جامعة، تعتني بالموضوعات الهادفة في تربية المجتمع ودعوته، وتفسير القرآن، ونقد الخطأ وتهذيب الأخلاق، وغيرها، صاحِب امتياز المجلة ورئيس تحريرها هو الأستاذ سعيد رمضان، وقد صدر العدد الأول منها في غرة ربيع الأول سنة ١٣٧١هـ، الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥١م. من أبرز كتابها: البهي الخولي، محمد أبو زهرة، سيد قطب، محمود شاكر، أبو الحسن الندوي، مصطفى الزرقا، مصطفى السباعي، محب الدين الخطيب، عمر التلمساني.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل الاعتقادات: ما يتعلق بأحكام القرآن الكريم

حكم تغيير رسم المصحف العثماني؛ ليوافق الرسم الإملائي، أو الرسم التعليمي

- الخلاصة الحكمية: يبقى رسم المصحف على الرسم العثماني، ولا ينبغي تغييره ليوافق قواعد الإملاء الحديثة؛ وذلك محافظة على كتاب الله من التحريف، واتباعا لما كان عليه أئمة السلف، إلا عند من يرى جواز ذلك في مجالات التعليم والتدريس؛ فلا بأس بمخالفة الرسم العثماني، والكتابة وفقا لقواعد الإملاء المتعارف عليها، وفق شروط محددة.

- القرارات والتوصيات الصادرة من المجامع الفقهية، والهيئات الشرعية **بخصوص هذا الموضوع:**

أولا: قرار «مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة»؛ شعبان (١٣٨٨هـ)؛ الفقرة الثانية؛ بعنوان: «حكم كتابة القرآن الكريم بالرسم التعليمي»، وجاء فيه:

١- يقرر المؤتمر تقريرا إجماعيا مؤكدا وموثقا بأن ترتيب السور والآيات في القرآن الكريم هو ترتيب توقيفي، تلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام بوحي إلهي، وأن هذا الترتيب هو الذي جاء في المصحف الإمام عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ويعلن المؤتمر أنه لا يجوز لأحد أن ينحرف عنه أو يخالفه بأي وجه من الوجوه.

٢- يقرر المؤتمر وجوب المحافظة على رسم مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه في طبع القرآن الكريم في مصحف كامل، أو في طبع أجزاء منه، ولا يجوز استعمال الرسم التعليمي إلا إذا كان ذلك لبعض الآيات ضمن كتب تعليمية، أو لغرض اقتباس بعض الآيات أو الاستشهاد بها.

٣- يوصي المؤتمر بعدم الجمع بين قراءات القرآن الكريم عند تلاوته في المجلس الواحد، في المحافل أو الإذاعة، أو التلفزيون، أو في تسجيله على أي من وسائط التسجيل الصوتي.

انتهى القرار.

● **التعليق**

الذي يظهر من هذا القرار: وجوب المحافظة على رسم مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه في طبع القرآن الكريم في مصحف كامل، أو في طبع أجزاء منه، وأنه لا يجوز تغييره إلا لأغراض التعليم.

فالقرار - كما هو واضح - عام مخصوص.

ثم صدر في عام (١٣٩٩هـ) قرار من هيئة كبار العلماء بالرياض رقم (٧١)؛ يحمل العنوان التالي: «حكم كتابة القرآن الكريم بطريقة الإملاء العادية»، وجاء فيه: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد: ففي الدورة الرابعة عشرة لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة في الطائف في المدة من العاشر من شهر شوال إلى الحادي والعشرين فيه نظر المجلس فيما رفعه حسين حمزة صالح مدرس العلوم الدينية بمدرسة الإمام أبي حنيفة الابتدائية بمكة.. إلى جلالة الملك المعظم يطلب فيه المعونة في كتابة المصحف بطريقة الإملاء العادية، والمحال إلى سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برقم ٣/ص/٢٢٠٣٥ في ١٣٩٨/٩/٢٢هـ. واطلع على البحث الذي أعدته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في (حكم كتابة القرآن بطريقة الإملاء العادية وإن خالف ذلك الرسم العثماني).

وبعد دراسة الموضوع ومناقشته وتداول الرأي فيه.. تبين للمجلس أن هناك أسبابا تقتضي بقاء كتابة المصحف بالرسم العثماني وهي:

١- ثبت أن كتابة المصحف بالرسم العثماني كانت في عهد عثمان رضي الله عنه وأنه أمر كتبة المصحف أن يكتبوه على رسم معين، ووافقه الصحابة، وتابعهم التابعون ومن بعدهم إلى عصرنا هذا، وثبت أن النبي ﷺ قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» فالمحافظة على كتابة المصحف بهذا الرسم هو المتعين؛ اقتداء بعثمان وعلي وسائر الصحابة، وعملا بإجماعهم.

٢- إن العدول عن الرسم العثماني إلى الرسم الإملائي الموجود حاليا بقصد تسهيل القراءة يفضي إلى تغيير آخر إذا تغير الاصطلاح في الكتابة؛ لأن الرسم الإملائي نوع من الاصطلاح قابل للتغيير باصطلاح آخر.. وقد يؤدي ذلك إلى تحريف القرآن بتبديل بعض الحروف أو زيادتها أو نقصها، فيقع الاختلاف بين المصاحف على مر السنين، ويجد أعداء الإسلام مجالا للطعن في القرآن الكريم. وقد جاء الإسلام بسد ذرائع الشر، ومنع أسباب الفتن.

٣- ما يخشى من أنه إذا لم يلتزم الرسم العثماني في كتابة القرآن أن يصير كتاب الله ألعوبة بأيدي الناس، كلما عنت



لإنسان فكرة في كتابته اقترح تطبيقها، فيقترح بعضهم كتابته باللاتينية أو غيرها، وفي هذا ما فيه من الخطر، ودرء المفاسد أولى من جلب المصالح.
وبناء على هذه الأسباب اتخذ المجلس القرار التالي:
يرى مجلس هيئة كبار العلماء أن يبقى رسم المصحف على ما كان بالرسم العثماني، ولا ينبغي تغييره ليوافق قواعد الإملاء الحديثة؛ محافظة على كتاب الله من التحريف، واتباعا لما كان عليه الصحابة وأئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين.
والله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.
انتهى القرار.

● التعليق

العادة في مثل هذه الاجتماعات تدون أسماء الحاضرين، ويشار إلى الاسم الغائب منهم، أو من له وجهة نظر تتعلق بالموضوع تقييدا، أو تخصيصا أو ما شابه ذلك.
- ومن بين المجتمعين من هيئة كبار العلماء: فضيلة الشيخ: محمد بن إبراهيم ابن جبير، حيث ألقى وجهة نظره حول موضوع كتابة المصحف حسب قواعد الإملاء الحديثة- الذي بحثه مجلس الهيئة في دورته المشار إليها آنفا؛ فقال: «بعد اطلاعي على البحث القيم الذي استوفى جميع أطراف الموضوع، والمعد من قبل اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء أثابها الله وبارك في جهودها.
وبعد المناقشة التي تمت في مجلس الهيئة برئاسة سماحة الشيخ عبدالله ابن حميد حول موضوع: «كتابة المصحف بغير الرسم العثماني» وحيث إن الحديث عن هذا الموضوع قديم، بحثه الأئمة - رحمهم الله - قبل أكثر من ألف سنة، وحكموا بما ظهر لهم من التحريم أو الكراهة أو الجواز، وصنفوا في ذلك المصنفات العديدة، ولازال بحث هذا الموضوع يتكرر بين آونة وأخرى إلى يومنا هذا.
وحيث إن قراءة القرآن من المصحف المكتوب بالرسم العثماني على وجه الصواب ستكون خاصة بمن يتلقاه عن القراء، أما الصغار فسوف يكون تعليمهم من تلك المصاحف عسيرا.
لذلك فإنني أرى أن تطبع المصاحف بالرسم العثماني؛ حفظا لهذا الأثر العظيم الذي هو أصل ديننا، على أن يعاد طبع الكلمات بالرسم الإملائي المعتاد على الهامش في حيز خاص، وذلك تسهيلا لتعلم الصغار وقراءة الكبار الذين لم يتلقوا القرآن عن قارئ.
وبهذا نجمع بين حفظ أهم شيء في تاريخ ديننا، وبين تسهيل التعليم وعدم اشتباه القارئين.
والله الموفق، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه وسلم».
انتهت وجهة نظره.

● التعليق

لأجل ما في القرار السابق من هيئة كبار العلماء من الإطلاق والتعميم؛ أراد فضيلة الشيخ الجبير أن يبين وجهة نظره في الموضوع، وأن ذلك ليس على إطلاقه؛ فيجوز عنده أن يعاد طبع الكلمات بالرسم الإملائي المعتاد على هامش المصحف؛ في حيز خاص؛ وذلك تسهيلا لتعلم الصغار، وقراءة الكبار الذين لم يتلقوا القرآن عن قارئ.
وفي عام (١٣٩٩هـ)، عرض على المجمع الفقهي الإسلامي بمكة الخطاب المقدم من الشيخ هاشم وهبة عبد العال من جدة الذي ذكر فيه موضوع «تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي»، وبعد مناقشة هذا الموضوع من قبل المجلس واستعراض قرار هيئة كبار العلماء بالرياض رقم (٧١) السابق، وما جاء فيه من ذكر الأسباب المقتضية بقاء كتابة المصحف بالرسم العثماني.
ثم ذكروا ما سبق من قرار؛ فأقروه كما هو، ثم قالوا:
«وبعد اطلاع مجلس المجمع الفقهي الإسلامي على ذلك كله قرر بالإجماع تأييد ما جاء في قرار مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عدم جواز تغيير رسم المصحف العثماني، ووجوب بقاء رسم المصحف العثماني على ما هو عليه ليكون حجة خالدة على عدم تسرب أي تغيير أو تحريف في النص القرآني، واتباعا لما كان عليه الصحابة وأئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين.
أما الحاجة إلى تعليم القرآن، وتسهيل قراءته على الناشئة التي اعتادت الرسم الإملائي الدارج، فإنها تتحقق عن طريق تلقين المعلمين، إذ لا يستغني تعليم القرآن في جميع الأحوال عن معلم، فهو يتولى تعليم الناشئين قراءة الكلمات التي يختلف رسمها في قواعد الإملاء الدارجة، ولاسيما إذا لوحظ أن تلك الكلمات عددها قليل، وتكرار ورودها في القرآن كثير، ككلمة «الصلوة»، و«السموات»، ونحوهما، فمتى تعلم الناشئ الكلمة بالرسم العثماني سهل عليه قراءتها كلما تكررت في المصحف، كما يجري مثل ذلك تماما في رسم كلمة «هذا»، و«ذلك» في قواعد الإملاء الدارجة أيضا.
والله ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا».
انتهى القرار.

● التعليق

يظهر للقارئ في هذا القرار مخرج آخر للحيلولة دون اعتماد الرسم الإملائي الحديث، وهو التعليم بالتلقين، فهذا القرار وافق على ما جاء عن هيئة قرار العلماء، ورد قضية الحاجة إلى التعليم باندفاعها بالتلقين من المعلمين والدارسين، ويبقى الرسم العثماني كما هو؛ لا سيما مع التكرار.

عنوان العقل

قال ابن رشيق: قيل: لايزال المرء مستورا وفي مندوحة ما لم يصنع شعرا، أو يؤلف كتابا، لأن شعره ترجمان علمه، وتأليفه عنوان عقله، وقال الجاحظ: من صنع شعرا، أو وضع كتابا، فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف.

(العمدة ١/٩٥)

نصيحة وتحذير

حذر بعض الحكماء صديقا له صحبة رجل، فقال: احذر فلانا فإنه كثير المسألة، حسن البحث، لطيف الاستدراج، يحفظ أول كلامك على آخره، ويعتبر ما أخرت بما قدمت، فلا تظهر له المخافة، فيرى أن قد تحرزت، واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر، فباثثه مباثثة الآمن، وتحفّظ منه تحفظ الخائف، فإن البحث يظهر الخفي الباطن، ويبدي المستكن الكامن.

(**زهرة الآداب** ٣/٨٧٠)

الصعافقة

قال الشعبي: ما جاءك من أصحاب النبي ﷺ فخذه ودع عنك ما يقول هؤلاء الصعافقة.

والصعافقة، هم: الذين يدخلون السوق بلا رأس مال. أراد الذين لا علم لهم.

(**شرح السنة، للبغوي** ١/٣١٨)

المعري يمدح عبد الوهاب المالكي

قال أبوالعلاء المعري وهو يمدح القاضي عبدالوهاب المالكي المتوفى سنة (٤٢٢هـ):

والمالكي ابن نصر زار في سفر ... بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

إذا تفقه أحيا مالكا جدلا ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

(**المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة**، ص٢٢٢)

القفال

العلامة أبوبكر عبدالله بن أحمد بن عبدالله المروزي القفال الخراساني، حذق في صناعة الأقفال، عمل قفلا بآلاته ومفتاحه زنة أربع حبات، فلما صار ابن ثلاثين سنة، آنس من نفسه ذكاء مفرطا، وأحب الفقه فأقبل على قراءته، حتى برع فيه وصار يضرب به المثل، توفي سنة (٤١٧هـ).

(**سير أعلام النبلاء** ٣/٢٦٠)

الأفئدة مزارع الألسن

قال الإمام الشافعي رحمه الله: إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة فيها؛ فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها.

(**مناقب الشافعي، للبيهقي** ٢/٧٦)

تربية المعلم وتربية الأب

قال بعضهم: إن تربية المعلم أهم من تربية الأب؛ لأن تربية الأب سبب لوجوده في الحياة الفانية، والمعلم سبب في الحياة الباقية.

(الكشكول للعلامة ابن عقيل النجدي ص ٢٦٧)

مكفرات الذنوب

ذكر ابن القيم رحمه الله مكفرات الذنوب فقال: «تكفر: بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ، وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين. فهذه عشرة أسباب».

(**إعلام الموقعين** ٢/٢١٨)

فوائد التأليف

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «إن التأليف يثبت الحفظ، ويذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكشف الملتبس، ويكسب جميل الذكر، ويخلده إلى آخر الدهر»

(**التقييد والإيضاح**، ص ٢٥٥)

أشد الناس حسرة يوم القيامة

«أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة:

١. مملوك صالح يدخل الجنة، ومولاه يدخل النار.

٢. ورجل جمع المال من حل وحرام، ومنع حقوق الله منه، فيموت فيدخل النار بسببه، فيأتي وارثه فيجده مجموعا، فيبذله في محالّه من أوجه الخير؛ فيدخل الجنة، فالأول جمعه ودخل به النار، والثاني أنفقه ودخل به دار القرار.

٣. وعالم سوء ينجي الناس بعلمه وهو يصير إلى النار».

(القول العلي للسفاريني)

من عجائب الدنيا

«من عجائب الدنيا: قوم غلبت عليهم آمال فاسدة، لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا، ثم الهم والإثم آجلا، كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس، وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها ضرر لغيره، وإن كانت له فيها منفعة، فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته، ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم الله تعالى تكونه، فلو تمنى الخير والرخاء، لتعجل الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فاعجبوا لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة».

(مداواة النفوس لابن حزم)

نصيحة

قال العلامة علي الطنطاوي رحمه الله: خذوها مني نصيحة من مجرب: دونوا كل ما يمر على أذهانكم من أفكار، وما يعتلج في نفوسكم من مشاعر، واكتبوه في حينه؛ فإنكم إن أجلتموه فتشتم عنه فلم تجدوه.

(ذكريات الطنطاوي ٢٤٩/١)

من درر الشافعي رحمه الله

- خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله تعالى على كل حال.
- للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك.
- من علامة الصديق: أن يكون لصديق صديقه صديقا.
- إذا كثرت الحوائج فابدأ بأهمها.
- لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل؛ فأخلص عملك ونيتك لله عزوجل.
- من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.
- طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

(المجموع ١٣/١)

توجيهات الرشيد لمعلم ابنه

قال خلف الأحمر: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعلمه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم، إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه. وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»

(مقدمة ابن خلدون ٣٤٨/١)

بين الخير والشر

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: ولا ريب أن في كثير من المسلمين من الظلم والجهل والبدع والفجور ما لا يعلمه إلا من أحاط بكل شيء علما، لكن كل شر يكون في بعض المسلمين فهو في غيرهم أكثر، وكل خير يكون في غيرهم فهو فيهم أعلى وأعظم.

(مجموع الفتاوى ٢٣/٤)

نقطة البداية

قال العلامة مالك بن نبي رحمه الله: إذا قررنا أن نصعد نحو القمر في هذه الدقيقة؛ فعلينا أن نضع سلما على هذا الحائط توا، ونبدأ الرقي.

(مذكرات مالك بن نبي ٢٣٧/١)

لطيفة لغوية

قال الإمام البغوي رحمه الله: حلم - بفتح اللام - يحلم (كنصر): إذا رأى في منامه شيئا.

وحلم - بضم اللام - يحلم حلما: توقر فلم يخف بسماع ما يكره.

وحلم الأديم - بكسر اللام - يحلم إذا فسد قبل الدباغ.

(شرح السنة ٢٩٥/٦)

العدل في الخلاف

قال العلامة ابن أبي العز رحمه الله: إذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف.

(شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٦٣)

القلب الصادق

ما أجمل وأروع ذلك القلب الصادق الذي أحبك في الله فبحث عنك، تشغله الدنيا فيتذكرك، فيدفعه ذلك إلى الشوق إليك، والدعاء لك بظهر الغيب؛ ولعمري إنه لأعذب نهر يجري ماؤه بين المتحابين.

وهذا الحب العظيم من غير اتباع دعوى فحسب، ومن غير إخلاص بلوى لا أكثر، ومن غير نجوى وقرب حسرة وندامة.

فإذا ما استقر حب الله ورسوله في القلب جاء الحب لما أحباه، ومن ذلك الصحابة الكرام، مشاعل الهداية، وخير الخليقة بعد الأنبياء، هم الراضون المرضيون، فتحوا الأمصار بسمو أخلاقهم، وعلو تربيتهم. ومما يؤلمني ويؤلم كل غيور على دينه ما نسمعه اليوم من بعض الخبثاء المارقين، الذين يشوهون صورة أولئك الأبرار، ويوغرون الصدور ببغضهم وكراهيتهم، وما مثل هؤلاء إلا كذبابة وقعت على نخلة شامخة، فلما أرادت أن ترحل عنها قالت: أيتها النخلة تماسكي فإني راحلة عنك. فأجابتها النخلة: وهل أحسست بك أصلا حين وقعت علي! فاللهم إنا نشهدك أننا نحب صحابة رسولك محمد ﷺ كما أحبهم، اللهم واجعلنا خير خلف لخير سلف.

أخي القارئ الكريم، ليس يغيب عنك اليوم أن العالم اكتظ بمشاعر الأسى والبؤس، وبأمواج عاتية من اليأس والقنوط والحرمان، جعلت الكثير من الناس لا يوجد في قلوبهم مجال للحب ولا مساحة له، فما أحوج هذه اللحظات إلى قلب يهتف بالحب والإخاء.

ولكي يسود الحب بين البشر لابد أن يكون منطلقه من داخل الإنسان نفسه، فإذا استقر به قلبه، رقت مشاعره، وسمت نفسه، وامتلأ قلب صاحبه رقة يعامل بها من حوله، فلا يصدر عنه إلا جميل الخصال، وحميد الخلال، ومحاسن الأفعال، من هنا تبدأ دائرة الحب بالتوسع فتشمل ألصق الناس بك، وأحوج الناس إلى لين جانبك وحسن تعاملك.. أهلك، وفي مقدمتهم أمك، كيف لا؟ وهي قسيمة الحياة، وموطن الشكوى، وعتاد البيت، ومدار الوجدان، ومشرق السعادة، ومنبع السخاء، ومحل الهنا.

• بلال المرسي

القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني :



info@alwaei.com

الفكر المستنير



إن مجلة الكويت صرح ثقافي عتيد، تضم نخبة من الدكاترة الفضلاء، وثلة من الكتاب الأقحاح في اللغة العربية الأم، اللغة الإعجازية ذات الدلالات الواسعة، ولغة الاشتقاقات. وهم بهذه الجاهزية، يسطرون خلاصة ما لدى أفهامهم من خبرات، ومفاهيم، ومعارف، وأنسقة، وقوالب فكرية مشرقة بالمعاني الجذابة المتميزة.

ذلك غيض من فيض، لأن السادة الكرام ذوي الهامات العالية، التي تخولهم الغوص في أمهات الكتب المزدحمة بالمعارف والعلوم المتعددة المشارب والاتجاهات، ولأن لديهم رصيدا يدلف بهم إلى سؤدة الفكر الإنساني المتألق، لذا فمجلة الكويت الغراء تعد بمنزلة موسوعة معرفية بالغة الشأن، كونها تختزل جل مفاهيم ومعارف ورؤى هذه الشخصيات العريقة، التي لا تدخر جهدا في سبيل تقديم ذلك الحشد من المواضيع والتبويبات الثابتة والمتنوعة.

كما أنها تقدم بأساليب فيها حسن التسويق ونهم التشويق، وبديناميكية فائقة تتجلى فيها السلاسة والوضوح والإثارة والقبول، إنها ممتلئة بكل تلك المعاني المنسابة التي تقتبس وترتشف من هذه المجلدات الضاربة في جبين الدهر، والمتلألئة في ناصية الزمان، فهي تهتم بالأطر والمجالات والقضايا العلمية والاجتماعية والدينية واللغوية والنفسية والمتناثرة في سياق الفكر العقلاني المستنير.. ومما تسهم به هذه المجلة الموقرة عبر صفحاتها الخلابة والعطرة، ومن أجل ما يطرح من قضايا ونسائم ما يقدم.. ولذائذ ما يعرض:

- شذا ورحيق من تلك القرائح الأدبية الواسعة الأفق العميقة الأبعاد الراسخة القدم، أريجية فواحة، جزلية التراكيب.

- عبق نرجسي من رصيد ما تمتلكه تلك الهامات من متانة ثقافية وعلمية وفلسفية، وتأطير خلاق على كل الصعد.

مجلة الكويت ذخرا يا فتى

فاظفر بها فخرا وجدد العطاء

• مهيوب إسماعيل علي

قراءة في كتاب مترجم

العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية

في سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت صدر كتاب "العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية" تأليف دونالد رهيل، وترجمة أحمد فؤاد باشا.. وقد انبثق هذا الكتاب من قلب الثقافة العربية ليقدم بحيدة وموضوعية؛ من واقع الوثائق التراثية المحققة شهادة إنصاف في حق الحضارة العربية الإسلامية ودورها الرائد في تأسيس كثير من العلوم والتقنيات التي تجني البشرية ثمارها اليوم. وقد حرص المؤلف على أن يعرض مادة الكتاب في السياق التاريخي الشامل بأسلوب علمي سليم، خال من الحشو أو التبسيط المخل، فهو يبرز أهم مآثر المسلمين في عدد من العلوم الإنسانية الكمية التي شملت الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء. ثم ينتقل المؤلف إلى الجانب التقني من العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية، فيعرض نماذج منتقاة لأجهزة وآلات وتقنيات دقيقة، ذاتية الحركة.. وقدم شرحا وافيا لإنشاءات هندسية، شملت بناء الجسور والسدود والطواحين المائية والهوائية، وأنظمة الري وإمداد المياه، وتقنية المساحة الجيوديسية واستخراج المياه الجوفية، وخصص فصلا لتقنية التعدين واستخراج الثروات المعدنية من المناجم الكثيرة على امتداد الأراضي الإسلامية.

•نورا ياسر سليمان

نور الهدى



أتيت تجر الذنب أم جئت مغرما
أتحسب أن الدمع يكفيك مغرما
كأنك في الطوفان والموج هادر
فتسبح نحو الفلك ترجوه مرغما
أم انك قد أحياك نور محمد
فأدراك طعم الحب كم كنت مظلما
فلبيت أمر الله: صلوا وسلموا
على من عليه الله صلى وسلما
هو النجم يهدي بالسنا ينزع الدجى
فأبصره لما بدا من به عمى
وأسمع بالإيمان من صم فاهتدى
وأنطق بالتوحيد من كان أبكما
على ساق عرش الله مكتوب اسمه
فلم يذكر اسم الله إلا وأدغما

• أحمد عبدالوهاب

الصناعة في مصر الإسلامية

عكف المؤرخون المصريون على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والبحثية، منذ فتح مصر في العام ٢٠ هجرية على يد عمرو بن العاص ورفاقه، على دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وسير الملوك والأمراء والحكام والعامة. بيد أنهم لم يهتموا، إلا في النادر، بالتاريخ الحضاري للمدن التي قامت في مصر وبيان دورها في التنمية الشاملة. لذا اخترنا الحديث في هذا المقام عن المدن الصناعية التي عرفتها مصر منذ فتحها وحتى نهاية العصر الفاطمي، وأهم الصناعات التي اشتهرت بها. وترجع د. صفي علي محمد عبدالله في كتابها القيم الموسوم «مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي - سلسلة تاريخ المصريين - القاهرة ٢٠٠٠»، أسباب النهضة الصناعية في مصر الإسلامية إلى استيعاب السوق المحلي لجانب كبير من الإنتاج الصناعي للمدن، والحياة الاجتماعية التي قامت على الترف والبذخ في العصر الفاطمي، واستحداث عادات جديدة في المجتمع، إلى جانب ترف الخلفاء الذين ملأوا خزائنهم بمختلف أنواع السلع والمصنوعات. وفي ذلك تقول في كتابها القيم السابق ذكره ما نصه «هذه الحياة الاجتماعية المترفة دعت إلى التقدم الصناعي، حيث تستجاد الصنائع إذا كثر طالبوها». كما كان للمعاملة السمحة التي تمتع بها الأقباط والفنانون من كل جنس ودين، واستتباب الأمن في فترات كثيرة في العصر الفاطمي، وقوة الحكومة المركزية، أثرها الطيب في ازدهار الصناعة.

• محمد فؤاد علي

مشكلة تسويق النظرية العربية

شغلت الترجمة أذهان الكثيرين، ومن ثم اختلفوا في تحديد طبيعتها، فرأى بعضهم أنها فن، خصوصا الترجمة المتعلقة بالأعمال الأدبية، ومن هؤلاء صفاء خلوصي صاحب كتاب «فن الترجمة»، ومحمد عبدالغني حسن مؤلف كتاب «فن الترجمة في الأدب العربي»، وهناك من رأى أنها نظرية قائمة بذاتها، ومن هؤلاء كاتفورد، الذي قال إن نظرية الترجمة تهتم بنمط معين من العلاقة بين اللغات، ومن ثم فهي فرع من اللغويات المقارنة. ومن المتفق عليه أن نهضة الأمم نشأت في ظل حركات ترجمة واسعة، ومثلما أشار عبدالهادي الإدريسي في كتابه «المصطلح المعرب»: «تتساوى في ذلك الحضارات كلها، شرقية وغربية، قديمة وحديثة، ذات توجه ديني أو قومي أو اقتصادي، ذلك لأن الأمة الناهضة إنما بلغت ما بلغت لاستفادتها من تجارب السابقين ومساهمتهم في سجل الحضارة الطويل، كما أنها تمثلت في ما خلفته تلك الأمم من إرث علمي وفكري، ولا يتسنى ذلك التعلم والتعليم إلا بنقل ذلك الموروث إلى لغة الحضارة الوارثة».
هذا الموروث ينحصر في ثلاثة أوجزها سليمان الأزرعي في كتابه «تحديات الفكر والثقافة العربية»، هي: التأثيرات القادمة من الخارج - الثقافات العالمية - بسبب الاتصال الثقافي بين الأمم في حالات الحرب والسلم والاجتياح، وتأثيرات البيئة الثقافية الناتجة عن الظاهرات الملحة التي تستمد وجودها وشرعيتها من وقائع مادية معيشة، ومعطيات تراثية تفرض نفسها على شكل ذاكرة مرجعية للأمة، بسبب المنطق الطبيعي لاستمرارية روح الأمة وتواصلها فيما يسمى بخصوصية الأمة.



● فوزي تاج الدين

الزاهد عبدالله بن عمر ابن الخطاب (٧٢هـ)

كثير من الناس لا يعرفون إلا القليل عن تاريخ هذا الصحابي الجليل، على أن في دراسة تاريخه وأمثاله وتتبع صفاته وأخلاقه، ما هو جدير بأن يقوم نفوسا متقحمة في الفتن والمفاسد، وما هو كفيل بأن يكف من غلواء المرتمين في أحضان هذه الدنيا الغادرة والمنصرفين عن الدار الآخرة ممن يقول الله سبحانه فيهم: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤).
كان في عبدالله كثير من صفات أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن أبرزها الزهد في الدنيا وعدم المبالاة بها، والوقوف عند كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكن عمر بن الخطاب كان أقل منه رواية للحديث النبوي وأكثر معرفة في الفقه، وقد ميزه الله سبحانه بنفوذ البصيرة والانتفاع بأصول الشريعة وتعرف اتجاهها، وذلك جدير به، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأن الله جعل الحق على لسانه، وأنه من المحدثين في هذه الأمة، ولهذا كانت له موافقات نزل بها القرآن كما قال عمر. وكان عبدالله يتسم بما نسميه الجمود، فقد كان ملتزما دون تصرف.
وعبدالله أخو أم المؤمنين حفصة زوجة النبي ﷺ، وقد أعانه ذلك على القرب من رسول الله ﷺ والأخذ عنه في البيت الطاهر النبوي وفي المسجد الكريم، وفي الأسفار والغزوات.
ولد في السنة الثالثة من البعثة النبوية، وأسلم مع أبيه قبل الهجرة، فهو من السابقين إلى الإسلام، ثم صار مع أبيه من أكثر الناس إخلاصا للدعوة، وقد شهد مع النبي ﷺ الغزوات منذ غزوة الخندق في السنة الرابعة للهجرة، وكان قبلها صغيرا لا يصلح للقتال فرده النبي ﷺ. وقد كان عبدالله من عباد الصحابة ونساكهم، وكان أول أمره في النسك والعبادة أنه رأى في نومه كأن ملكين أتياه فذهبا به، فقص الرؤيا على حفصة أم المؤمنين، ثم قصتها حفصة على رسول الله ﷺ فما كان ينام الليل بعد ذلك إلا قليلا.

● د. محمود النوادي

المؤرخ والتعصب

القارئ لتاريخ العلم، الذي سطره – في البداية – المستشرقون، وتبعهم فيما ذهبوا إليه جمع كبير من مؤرخي العلم، رغم اختلاف مذاهبهم وعقائدهم وجنسياتهم، يجد أنهم قد أجمعوا – فيما عدا قلة معدودة – على الطعن في الإسلام كعقيدة، وفي العرب كأمة لها دورها التاريخي في الإنسانية، وأن العرب إذا كان لهم من دور في تاريخ الإنسانية، فإنه يحمد لهم الحفاظ على تراث اليونان عبر حركة الترجمة الواسعة النطاق التي حدثت في العصر العباسي، خصوصا في عصر الخليفة المأمون على نحو معروف ومشهور، أما غير هذا فلا فضل يذكر لهم. وفي هذا المجال يبرز لنا اسم إرنست رينان E. Renan (١٨٢٣-١٨٩٢م)، وهو واحد من الأسماء اللامعة في عالم الاستشراق، فضلا عن أنه من مشاهير المؤرخين الفرنسيين، ويعد من الثقات من علماء اللغات المقارنة، وكذلك في فلسفة ابن رشد، التي كانت موضوع رسالته للدكتوراه. ولعلنا لا يعنينا من رينان سوى أمر واحد، وهو رأيه في علاقة الإسلام بالعلم، فقد كرس حياته كلها لمبدأ واحد لا يتعداه، وهو: رأيه القائل بأن الإسلام دين يتناقض مع العلم، وأن الإسلام هو السبب في انحطاط المسلمين، الأمر الذي تصدى له في حينه الإمام محمد عبده، مبينا له السبب الرئيسي في هذا الانحطاط، وهو السياسة والجمود، وأن الإسلام بريء من هذا الانحطاط، حيث يقول: «كان الإسلام دينا عربيا، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا، ثم أخطأ خليفة في السياسة فأخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيرا له».

ولقد حمل رينان لواء العداوة لكل ما هو إسلامي وعربي فقد أثر عنه قوله: «إن الذي يميز العالم الإسلامي إنما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لا طائل تحته وأنه قد يؤدي إلى الكفر».

وعلى هذا النسق يبرز اسم رينان كواحد من أسماء غلاة المتعصبين ضد الإسلام والعرب معا، فقد كرس حياته للطعن في العرب كأمة، وفي الإسلام كعقيدة، باعتبارها – في زعمه – عقيدة منافية للعلم، وله محاضرة شهيرة ألقاها في أخريات حياته وتحديدا في ٢٩ مارس ١٨٨٢م في جامعة السوربون بعنوان «الإسلام والعلم» ضمنها كل آرائه في الطعن على العرب وعلى الإسلام.

وقد سيطر التعصب، الذي يصل إلى حد كراهية كل ما هو عربي وكل ما هو إسلامي، على فكر رينان، فكان قلمه الذي يكتب به ووحيه الذي يملي عليه، على الرغم من ادعائه غير ذلك.

إن آراء رينان عن الإسلام والعلم، التي هي أشبه بالأحكام القاطعة التي لا يليق بمؤرخ أن يقطع بها من دون سند من الحقيقة، مثل رأيه في أن الإسلام دين يناقض العلم، ويتعارض مع البحث الحر، وغيرها من الآراء، إنما هي آراء قد أملاها التعصب ضد كل ما هو عربي وإسلامي وعلاقة كل منهما بالعلم، بدليل أن العلم العربي قد نشأ وازدهر في ظل الإسلام. ولو كان رينان على قدر يسير من الوعي بحقائق الأمور لعلم أن القرآن الكريم كان له تأثير مباشر في ازدهار العلم العربي.

والتعصب يفقد المؤرخ أهم أدواته في التأريخ، وهي التجرد والموضوعية. لذا، فنحن أمام حالة من هذا النوع. وعلى الرغم من تهافت هذه الآراء عبر شهادات شتى، حتى من جمهرة كبيرة من المستشرقين والمؤرخين، غير أننا نسوق شاهدا ليس إلى رده من سبيل، حول ارتباط العلم بالإسلام كما لم يرتبط علم من العلوم بعقيدة من العقائد، وهو ما يتعلق بعلم الكيمياء، وهو علم ليس للعرب سابق علم به كالطب أو الفلك مثلا. غير أن حرية البحث العلمي التي أتاحها الإسلام للعلماء قد مكنت العلماء العرب من نقل الكيمياء من مجرد خرافات هنا أو هناك إلى علم. ولقد تحدث مؤرخو العلم – على اختلاف مذاهبهم – فيما يشبه الإجماع عن أن الكيمياء علم عربي أصيل. فالكيمياء؛ حقا هي علم عربي أصيل، لفظا ومعنى.

ومن هنا يجب على الباحثين المسلمين أن يتصدوا لمثل تلك المزاعم من خلال بيان الحقائق التاريخية المسجلة في التراث العلمي العربي، حتى لا يقع النشء المسلم فريسة لتلك المزاعم.

مصطفى يعقوب
باحث أكاديمي



اقرأ في هذا العدد:

- الوحدة المذهبية الفقهية والعقدية أمام التحديات
- أخلاقيات الإخبار في الفكر الإسلامي
- المجلة الزيتونية تجربة رائدة في الاعلام
- الأم في المنظومة الاجتماعية الاسلامية
- أعظم شبكة اتصالات بيولوجية
- جامع عقبة بن نافع بالقيروان



«التونسية للثقافة الاسلامية».. مجلة دورية مستقلة أسست عام 2013م وتعنى بحماية ثقافة الأجيال الصاعدة من الانصهار في ثقافات دينية ولا دينية مغايرة لخصوصيات البيئة الأم، والعمل على اكتشاف مخزون الثقافة الاسلامية الفقهي والفكري والعلمي والاجتماعي وفق منهج يقوم على الموضوعية والعلمية والوسطية واعتماد الحوار كوسيلة تواصل وإدارة الاختلاف. ويرأس تحريرها د. رضا بن رجب.

موقع الوعي الإسلامي في حلة جديدة

www.alwaei.gov.kw



مجلتكم تقترب منكم أكثر ...

- سهولة أكثر في تصفح المجلة عبر الفضاء الإلكتروني .
- أرشيف جميع أعداد وإصدارات المجلة عبر خمسين عاما من عمرها .
- تابعوا أحدث الإصدارات .

info@alwaei.com

@Alwaei_Alislami

مجلة الوعي الإسلامي

تأسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

Al-Waei Al-Islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٩٧) جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ _ مارس ٢٠١٥

العالم الإسلامي يودع خادم الحرمين الشريفين

- الإلحاد.. البضاعة المستوردة
- أمير البحار.. خير الدين بربروس
- الإدارة الحكومية عند الرواد المسلمين
- المحراب الإسلامي.. لوحة فنية



هدية العدد: بوستر «قواعد اللغة العربية»

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

مجلة الوعي الإسلامي

www.alwaei.gov.kw

info@alwaei.com

العدد ٥٩٧ - السنة ٥٢ - جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ / مارس ٢٠١٥ م

الإلحاد بين الشبهات والشهوات

إن شمس الهداية الإسلامية، وأنوار الشريعة المحمدية، بزغت على أهل الأرض، وهم في ظلام من الشرك دامس، وغيهب من الإلحاد طامس، فأضحت شمس الهداية تنور أرجاء الفضاء، وتنير الأرض والسماء، جاءت بالأدلة العقلية، والحجج النقلية، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، فالعقل جعله الله تعالى للدين أصلا، وللدنيا عمادا، فأوجب التكليف بكماله.. وما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى. ويظن كثير من الناس في هذا العصر أن الدين أمسى من المخلفات البالية، وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده، وتعدو حدوده، وتسير وحدها بلا قيود ولا حدود، دون مراعاة لخالق الأرض والسموات، وكأنهم ورثوا ذلك الإلحاد عن الجاهلية الأولى، ويعدونه من التقدم والذكاء. ومنشأ هذه الدعايات أنها جاءت من العدو وأهل الضلالات، فإنهم التمسوا في المسلمين عقولا ضعيفة، يغرها الطمع، وتقودها الشبه، فظفر منهم بأناس طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.. أناس يتكلمون لغتنا، ويستوطنون أوطاننا، وهم أضر على أمتنا. وإن الإلحاد ليس خرابا قلبيا، وليس ظلاما فكريا، بل دمار اجتماعي، يقضي على العفاف، ويطلق ألسنة الملحدين ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأعراف:٨٢).

ثمة أسباب أدت إلى الإلحاد الذي انتشر اليوم، وقامت على فكرته الضالة سياسات ومدارس ومناهج ومذاهب مادية، تلقاه أبناء المسلمين، وتأثروا به، ونقلوه، وسعوا في نشره والدفاع عنه، مع أن واقع المسلمين، دينا ومنهجا ونظاما، مخالف تماما لما كانت عليه بعض الشعوب في حياتها الاجتماعية والسياسية، فالإسلام ليس ظاهرة اجتماعية جاءت ثمرة أفكار وإبداعات بشرية، بل هو حقيقة، ومنهج يتلخص في قاعدة جليلة، لم يعرف مثلها عند غيرهم: «إن كنت ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل»، وليس محض استنتاج وحدس وتخمين وخيال، والفضل ما شهد به الأعداء، وهذه شبهات العقلانيين وبعض المستشرقين والمشككين تتهاوى، وقد ظهر لكل منصف بطلان أقوالهم، وفساد نواياهم.

أيها الجاهل المنكب عـمدا	منهج الحق موغلا في اللحود
حاملا راية الـعداء لـدين	فضله الجم ذائع في الوجود
تحسب الدين أهله في غباء	وعن النصر في زوايا الهجود

وإن أصحاب الشبهات والشهوات، لابد لهم من الرجوع والانقياد إذا ما سمعوا النذر، ورأوا الآيات: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ (إبراهيم:٨)، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ (الزمر:٧).

ولا ترجع البركة إلى الأرض إلا إذا عاد الناس إلى ربهم، منيبين راشدين، متمسكين بالدين العظيم والمنهج القويم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ (فصلت:٤٠)، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

ستظهر لهم الدلالات والحجج، بدلائل خارجية وفي أنفسهم.

وإذا نظـرت تريـد معتـبرا	فانظر إليك ففيك معـتبر
أنت الذي تمسي وتصبح في	الدنـيـا وكـل أمـوره عبـر

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٧ | جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
مارس ٢٠١٥ مـ

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هداية الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر- شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

•الكويت : ٥٠٠ فلس •السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة •الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه •اليمن : ١٠٠ ريال •لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري •تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

فتنة الإلحاد والجهر به

الإيمان بالله أصل دين الإسلام، ولا يكون صحيحا تاما إلا بتحقيق الإيمان بوجود الله سبحانه، وبربوبيته وألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وتنزيهه سبحانه عن كل نقص. ومما يستتبع هذا الإيمان اتباع النبي ﷺ، وتعظيم جانبه، والخضوع لشريعته، وقد كان هذا الأمر محل إجماع في بلاد المسلمين؛ لا ينكره إلا الكافرون، وفجأة نجمت فتنة الإلحاد، القائمة على الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وشريعته، ليس سرا واستخفاء، بل بكل جرأة ومجاهرة!

وهذه اللوثة الفكرية الداعية إلى الإلحاد مصادمة لعقيدة المسلمين، داعية إلى الهلاك الاجتماعي؛ إذا لم يؤخذ على أيدي دعاتها والقائمين على شرها، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال:٢٥). وفي سنن أبي داود عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك؛ ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله ﴿فَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٨١)، ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا».

التحرير

الاشتراكات

• داخل الكويت: للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا • الدول العربية: للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).

• دول العالم: للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها). • للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية **(الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)**



العالم الإسلامي يودع خادم الحرمين الشريفين

التحرير

ودع العالم الإسلامي خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز – رحمه الله – ملك المملكة العربية السعودية، الذي وافته المنية فجر الجمعة ٣ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ الموافق ٢٣ يناير ٢٠١٥م.

وأعلن وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء الشيخ محمد عبدالله الصباح، الحداد في دولة الكويت لمدة ثلاثة أيام (يعطل فيها العمل في جميع الوزارات والدوائر الرسمية) على وفاة خادم الحرمين الشريفين.

وكانت للعاهل السعودي مواقف كثيرة تجاه الشعب الكويتي إبان الغزو العراقي لدولة الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م، ففضلا عن الموقف الخليجي والعالمي الموحد لتحرير الكويت من الاحتلال، كان للمملكة الدور الأكبر في استيعاب عشرات الآلاف من الكويتيين، حيث وفرت لهم كل الخدمات الإنسانية بالتساوي مع المواطن السعودي، من علاج وتعليم،

ووفرت المساكن العاجلة لهم، وكل ما تيسر لخدمتهم، بالإضافة إلى احتواء الحكومة الكويتية في مدينة الطائف، والتعاون في المساعي السياسية لمصلحة الكويت في العالم أجمع، والقيادة الداخلية لحرب تحرير الكويت.

وقد كانت للعاهل السعودي كلمات رائعة بحق الكويتيين عندما كان وليا للعهد، ووجه القيادات المدنية والعسكرية لمساعدة الشعب الكويتي بأعلى طاقة.

وقد حضر أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الصباح الجنازة وبعث ببرقية تعزية لأخيه الملك سلمان بن عبدالعزيز والأمير مقرن بن عبدالعزيز، ضمنها خالص تعازيه وصادق مواساته بوفاة المغفور له بإذن الله تعالى أخيه خادم الحرمين الشريفين.

وقال أمير البلاد إن المملكة العربية السعودية الشقيقة فقدت أحد أبنائها البررة الذي كرس حياته وجهده لخدمتها والارتقاء بها إلى ما تستحقه من مكانة مرموقة بين دول العالم، كما فقدت الأمتان، العربية والإسلامية، قائدا عظيما، خدم قضاياهما وأسهم في معالجتها وفي توحيد صفوفهما وجمع كلمتهما، كما كانت له إسهاماته المشهودة على المستوى الدولي في الدعوة إلى الحوار وإشاعة الأمن والسلام بين دول العالم وشعوبه.

والفقيد الراحل كان أحد زعماء العالم البارزين الذين سعوا إلى تحقيق الأمن والسلام والاستقرار في المجتمع الدولي، وقدموا إلى البشرية خدمات جليلة من خلال أعمال الخير والإنسانية والعطاء المتدفق.



الشيخ صباح الأحمد يواسي خادم الحرمين الملك سلمان بن عبدالعزيز

ويظل مشروع الملك عبدالله لتوسعة الحرمين والمناسك من أعظم الأبنية وأكثرها تسهيلا لحجاج بيت الله الحرام في التاريخ، أضف إلى ذلك قطار المشاعر من جدة إلى مكة ومن جدة إلى المدينة المنورة.

هذا الجهد العظيم هو إحدى ثمرات الملك الراحل عبدالله بن عبدالعزيز، الذي أخذ على عاتقه هم المسلمين وتسهيل أمر أداء مناسكهم بكل يسر وسهولة.

وكان للفقيد الكثير من البصمات الدينية والعلمية والمعيشية والاجتماعية في المملكة التي شهدت تطورا علميا وحضاريا وثقافيا، كما تم الإعلان عن مشاريع اقتصادية ضخمة، منها: مدينة الملك عبدالله الاقتصادية، ومدينة الأمير عبدالعزيز بن مساعد ومدينة المعرفة، ومدينة جازان الاقتصادية، ومركز الملك عبدالله المالي.

«الوعي الإسلامي» آلمها المصاب الجلل، داعية الله أن يرحم الملك عبدالله بن عبدالعزيز، وأن يكون الملك سلمان بن عبدالعزيز خير خلف لخير سلف.



صورة لتوسعة الملك عبدالله للحرم المكي

أستاذ الحضارة الإسلامية د. مجاهد الجندي للوعي الإسلامي:

مراجعة التاريخ ضرورة لاستلهام قوة المسلمين

القاهرة - إسلام لطفي

دار الإعلام العربية



- التاريخ الإسلامي تعرض للظلم ولابد من إعادة كتابته مرة أخرى
- التحاور بإخلاص هو السبيل الوحيد لتلاقي الحضارتين العربية والغربية
- يجب ضبط خريطة الثقافة والإعلام لمعالجة الخلل الواقع في مجتمعاتنا حاليا

«التاريخ الإسلامي تعرض لظلم في تدوينه، ولابد من إتاحة الفرصة لكتابته مرة أخرى كما ينبغي».. هذا ما يؤكد عليه المؤرخ الإسلامي وأستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر د. مجاهد توفيق الجندي، والذي أوضح في حديثه لـ«الوعي الإسلامي» أن المؤرخ الذي يتمسك بمصداقيته قد يتعرض لضغوط شديدة للحيلولة دون تدوينه الحقيقة، وأوضح أن المستشرقين لعبوا دورا سلبيا في التأريخ بإظهار التفكك الإسلامي، وكثير من الشوائب التي تضر بتاريخ المسلمين.. إلى تفاصيل الحوار.

• التأريخ مهمة جليلة في حضارة الإسلام.. كيف ترى مكانته في الوقت الحالي؟

– المؤرخ الإسلامي اختلف حاله الآن عما كان عليه في العصور السابقة.قديما كان عليه أن يرتحل إلى الأماكن، ويتعرض للمخاطر والأهوال في ظل عدم وجود



مـواصـلات إلا السـفـن والجمال والخـيـول، أمـا الآن فاختلفت الظروف، وأصبحت الوسائل أكثر يـسـرا، فـالانـتـقـال لـلـوقـوف على الأحـداث والـوقـائع يتم من خلال وسـائـل الاتـصـال والمـواصـلات الحـديـثـة، لكن وعـلـى الـرغـم من الصعوبات التي واجهها المؤرخون القدامى نجد أنهم تركوا لنا رصيدا ضـخـمـا مـن الـتـاريـخ الإسلامي، ومعرفة البـلـدان، وطـرق المعيشة، وحياة السكان وأمورهم الحياتية.

والمؤرخ اليوم لا ينبغي أن يقتصر عـلـى مـجـال تخصصه الدراسي فحسب، بل من المهم أيضا أن يكون على دراية كافية بعلوم أخرى، مثل علم الأجناس البشرية، والنفس، والاجـتـمـاع، والـقـانـون، وغيرها.. غير أن أهم ما ينبغي أن يتحلى به المؤرخ هو الأمانة في نقله للحدث التاريخي، وللأسف الشديد هناك بعض المؤرخين يميلون إلى إرضاء الـسـلـطـة، ولا يـكـتـبـون التاريخ الحقيقي للواقع كما ينبغي أن يكون.

● هل يعني ذلك أن التاريخ ظلم؟

- بالطبع، التاريخ ظلم بسبب بعض المؤرخين الذين يميلون ميلة واحدة مـع الـسـلـطـة، ويـتـركـون الحقائق مقابل حفنة من المال، أو لأهواء شـخـصـيـة، كـمـا ظـلـم مـن الـدول نفسها، لأنها لا تفرج عن الوثائق إلا بعد ما يقرب من ١٠٠ عام، أي بعد أن يكون صانعو هذه الأحداث قد فارقوا الحياة، والمؤرخ المتمسك بـالمـصـداقـيـة قـد يـتـعـرض للأذى أو الموت، نتيجة كتابته عن الذين أفسدوا في الأرض.

● وكيف نعالج الظلم الذي تعرض له التاريخ الإسلامي عبر العصور؟

- لابد من إعادة النظر في كتابة التاريخ مرة أخرى، حيث أصبحت الوثائق والأرشيفات سهلة النظر فيها، فمن الممكن الآن إعادة كتابة التاريخ بصورة أفضل. ولابـد من اختيار المؤرخين الذين سيقومون بـذلـك، كما أنـه لابـد من مراجعة التاريخ الإسلامي من جديد، لأن الدين ليس صياما وصـلاة فقط، لكن الـديـن المعاملة أيـضـا، ولابـد أن نختار المؤرخين الذين يصدقون في أعمالهم، ولا ينبغي أن يكتب التاريخ غيرهم.

● كـيـف نـسـتـفـيـد مـن الـتـاريـخ الإسلامي في الوقت الحالي؟

- لابـد مـن مـراجـعـة الـتـاريـخ، والاستفادة من الأحداث التاريخية، ومـا فيه مـن جمال وعظمة وقوة المسلمين وعظمتهم في الفتوحات الإسـلامـيـة، والاسـتـفـادة منها في

واقعنا المعاصر، وهناك الكثير من العلامات البارزة في التاريخ الإسلامي، منها الحروب الصليبية وانتصار المسلمين، وفتوحات الأندلس وبلاد المغرب والمشرق وآسيا الوسطى، كلها أحداث في غاية الأهمية في تاريخ أمتنا المشرق، ولابد من التركيز عليها، لأن المستشرقين أعداء الإسلام كتبوا عن التفكك الإسلامي، وعن أشياء تضر بتاريخ أمتنا، فلابد من تنقية هذه الشوائب.

وهناك أحداث كثيرة ينبغي التوقف عندها، كمعركة «عين جالوت»، وكيف انتصر المسلمون فيها على التتار، وكيف أنه لو هزم المسلمون في هذه المعركة لضاع الإسلام وتغير التاريخ، بينما انتصارهم فيها جعل الأعداء يدخلون الإسلام، وأصبحوا ممن يدافعون عنه، أيضا هناك فتن حدثت في التاريخ الإسلامي، مثل الفتنة الكبرى، وقتل علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما.

● ما الأثر الذي تركه المسلمون على المجتمعات الغربية؟

– المسلمون علموا الغرب الحضارة بعد أن كانوا شعوبا متوحشة، والمسلمون عندما ذهبوا إلى الأندلس أقاموا حضارة الإسلام، وعلموا الغرب كل شيء في الحياة من النظافة والاستحمام وطهي الطعام وأشياء كثيرة، علموهم كيف يعيشون حياة سعيدة، كما فتح المسلمون مدارسهم وجامعاتهم للجميع، ودرس فيها أشراف وأبناء الملوك والأمراء، وتعلموا من حضارتنا الكثير.

● هل من سبيل لتلاقي الحضارتين الغربية والعربية؟

– بالفعل، هذا ممكن، ويكون ذلك عن طريق الحوار بإخلاص، عن طريق تفاهم الدول بعضها مع بعض، والحوار لن يأتي إلا إذا كان هناك تفاهم بين رؤساء الدول، ويجلس المثقفون والمتعلمون، ويأتون بالأشياء المشتركة، والأخرى الخلافية، فيتم التفاهم فيها.

● وهل نشهد حالة من حوار أم صدام حضارات؟

– نشهد حالة من الصدام بين الحضارات، لوجود من ينزعجون من الحوار والتفاهم، لأن تلاقي الحضارات ربما يؤثر على مصالحهم الخاصة.

● هل من محاولة لتصحيح قراءة الغرب لتاريخنا؟

– ليس هناك محاولات، والغرب يريد أن يبقي كل شيء كما هو عليه، ولا يريدون نهوض المسلمين، لأنهم يعتمدون على فكرة «فرق تسد».

● برأيك.. ما أثر التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية في واقع الأمة بعد غزو الثقافات الغربية لعالمنا؟

– الأثر للأسف قليل، خاصة بعد تدهور الأخلاق في الشارع، فهذه ليست أخلاق الإسلام، الناس تغربوا، والثقافة والإعلام لها دور كبير في تغريب الناس وإبعادهم



عن التأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية، فيجب ضبط خريطة الثقافة والإعلام لمعالجة الخلل الواقع في مجتمعاتنا حاليا.

● ما أهم الفوارق الجوهرية بين صناع الحضارة الإسلامية، وبين من جاءوا بعدهم وأضاعوا بعض ملامحها؟

– المسلمون عندما ضعفوا ضيعوا أشياء كثيرة، منها المخطوطات التي تعد تراث وإرث الأمة الإسلامية من العلم، فكانت القراءة قبل فروض الإسلام، لكن المسلمون لم يعودوا يقرأون، بعد أن شغلهم التليفزيون عن القراءة، وكذلك الإنترنت، والغرب سرق تراثنا، ووضعه في خزائن لا تحرقها النار، ولو حرقت الدنيا من حولها، لكن ليس لدينا في مصر إلا باب واحد في وزارة الأوقاف المصرية معالج كيميائيا لا تحرقه النار، وضع على حجرة تسمى «النفائس»، يوجد بها وقفيات، منها وقفية علي بك الكبير مكتوبة بماء الذهب وخط النسخ.

● إذا تحدثنا عن رحلتك مع التاريخ الإسلامي.. ماذا تقول؟

– هي رحلة طويلة بدأت منذ دراستي في المعهد الأحمدي في طنطا محافظة الغربية، حيث درسنا مشايخنا وأساتذتنا السيرة النبوية وتاريخ العرب قبل الإسلام، وتدرجت في الدراسة حتى وصلت إلى كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر، والتحقت بقسم التاريخ الإسلامي، ودرست فيه على أيدي أساتذتي الكرام، أمثال الدكتور محمد الطيب النجار، الذي كان وكيلا للأزهر ورئيسا لجامعته حينذاك، والدكتور إبراهيم شعوط رحمه الله، والدكتور

عبدالفتاح شحاتة، والدكتور زكي غيث، ومحمود زيادة ويوسف علي يوسف، الذي كان رئيسا لقسم الحضارة، كل هؤلاء الأساتذة درسوني التاريخ الإسلامي، والدولة العباسية والأموية، والعرب قبل الإسلام، والسيرة النبوية بتوسع، ثم قرأت قراءاتي الواسعة في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، وتدرجت إلى أن التحقت بشعبة الحضارة، حيث درست الآثار الإسلامية، والعمارة والفنون الإسلامية.

● كمؤرخ.. كيف ترى ماضي وحاضر الأزهر؟

– أولا لابد من التنويه أن الأزهر الشريف قبلة المسلمين الثقافية، فهناك مقولة «للعالم الإسلامي قبلتان: قبلة الصلاة وهي الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، وقبلة الثقافة وهي الأزهر الشريف»، فهو من أقدم جامعات الدنيا، لأن المعز لدين الله الفاطمي عندما أرسل جوهر الصقلي الذي كان قائدا من قادتهم ليفتح مصر بعد أن كثر فيها الفقر والغلاء، بنى القاهرة عاصمة جديدة للفاطميين، وبنى الجامع الأزهر، وبدأت الدراسة فيه بخمسة وثلاثين فقيها، هم أول هيئة علمية فيه، وبنى لهم المعز لدين الله بيتا حول الأزهر، يعتبر أقدم إسكان جامعي في العالم أجمع.

وأرسل العزيز بالله الفاطمي بن المعز، الرسل والسفراء إلى الدول الإسلامية، ليخبرهم أنه فتح مسجدا في القاهرة للدراسة فيه مجانا على نفقته، وأوقف على الأزهر أوقافا كثيرة تدر دخلا وريعا، ينفق منها على الأزهر وطلابه، فجاء الناس من كل بلاد العالم الإسلامي للدراسة.

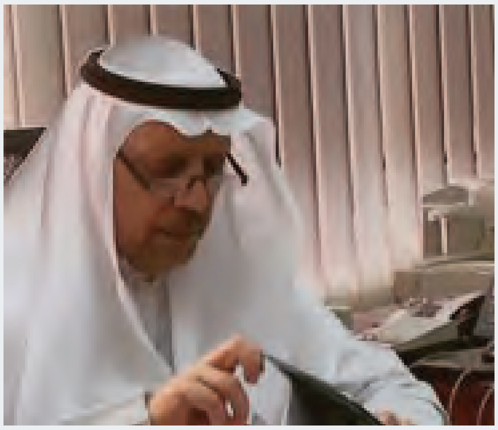
وكثير من علماء الأزهر جاءوا إلى مصر في العصر المملوكي من بلاد الشام خلال الهجمة الشرسة للمغول هناك، فجاء العلماء إلى القاهرة واحتضنهم الأزهر، وكلما جاءت هجمة من الشرق أو الغرب احتموا بالأزهر الشريف، وكان للمغاربة رواق كبير، وكذلك الأتراك والشام.

وكان ماضي الأزهر جيدا إلى عام ١٩٥٢م، ثم أصبح حاله حتى هذه اللحظة غير المأمول منه.

● وماذا عن تكريمك في اتحاد المؤرخين العرب؟

– جاء هذا نظرا لدراساتي المتميزة في وثائق الأزهر وغيرها، وخلال كتاباتي رأى اتحاد المؤرخين العرب أن يكرمني هذا العام، وحصلت على درع شوامخ المؤرخين العرب، وهذا الدرع لا يعطى لأي أحد، وإنما يعطى لأناس بذلوا مجهودات كبيرة وألفوا مؤلفات رصينة، تنفع الأمة الإسلامية، وتفيد المكتبة العربية والإسلامية، حيث يجتمع أقسام التاريخ في الوطن العربي كلهم على ترشيح شخصيات بعينها للحصول على هذا الدرع.

«الأوقاف» ودعت أحد رجالاتها الأوفياء



فقدت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية رجلا من رجالاتها الأوفياء، وواحدا من الشخصيات الوطنية المخلصة، التي كانت نموذجا للتفاني في العمل، وطيب العشرة، والصدق، وحلاوة اللسان. فقدت الوزارة مدير إدارة الشؤون الإدارية عبدالمحسن فيحان العتيبي (بوخالد) يوم الجمعة ١٦يناير ٢٠١٥م. وقد غيبه الموت بعد معاناة مع مرض لازمه قرابة السنوات الثلاث، كان فيها صابرا محتسبا، راضيا بقضاء الله وما قسم له من البلاء.

لقد أثارت فاجعة رحيلك أبا خالد غصة في الحلق، وانحسارا لمدد الرفقة الجميلة، وانطفاء لومضة نبل إنساني.

وإذا اجتمع في المرء النبل، وحب الخير، وكرامة النفس، والوقوف عند الحق.. فقد ترك الدنيا وهي أحسن مما وجدها، وفي هذا عزاء لنا، وأي عزاء. إن في فراقك يا أبا خالد خسارة لنا جميعا، ولا يسعنا إلا أن نقول: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا على فراقك يا أبا خالد لمحزونون.. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. رحمك الله رحمة واسعة، وأسكنك فسيح جناته، وألهم أهلك الصبر والسلوان، وعوضنا الله فيك خيرا».

د. عادل الفلاح

وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بائع من إفريقيا.. حجته القوية غلبت المناظرين

محمد الهدوي
باحث في جامعة جواهر لال نهرو - الهند

لم يحظ هذا الفتى بنصيب وافر من التعليم إلا ما حصل عليه من المعلومات الضرورية في المدارس الابتدائية، ولم يستطع كذلك أن يستمتع برواق المدرسة ورحابها الواسعة التي يحمل فيها الطلبة من أبناء الميسورين حقائب كتبهم لكي يحضروا الفصول صباحا ومساء. ولكنه بسبب الفقر المحدق بأسرته اضطر أن ينهي دراسته ويسرع إلى العمل في باكر عمره. وكان في عهد صباه، يعود من المدرسة إلى المبنى الذي كان يسكن فيه ليأخذ قسطه من الطعام من مطعم قريب منه، مما شكل في حياته نظاما روتينيا. وأما غياب أمه الرؤوم، التي يحبذ كل صبي وجودها معه في تلك الفترة تهيئ له طعاما يحبه، وتداعبه، وتجالسه في أحزانه ومسراته، فقد خلف في نفسه وحشة قاتلة. ولا لوم على أب كان يعمل لكفاف أسرته، وينشغل بعالمه الأبوي المسؤول. صاحبنا، أحمد ديدات، الذي نتحدث عنه، كان طالبا متفوقا بين أقرانه، وذكيا، ولامعا على الرغم من المشاكل التي هو فيها. وفي السادسة عشرة من عمره، اكتسب لنفسه مهنة ليتقي بها وطأة الفقر المحيط بعائلته. فصار بائعا. وهو اليوم، بعد خمس وتسعين سنة منذ ولادته، ليس فقط واحدا من فرسان الدعوة الإسلامية، بل أخطر المدافعين عن الإسلام في الغرب، لسانا وقلما، وأسد المنابر إذا أطلق زمجرة دبت في أحشاء الباباوات على مستوى العالم قشعريرة مقلقة. وفوق كل ذلك، إنه داعية فريد من نوعه، أحكم نشاطاته الدعوية، وتنوع فيها بما يلائم عقلية القرن الحادي والعشرين.



ولد أحمد حسين قاسم ديدات عام ١٩١٨م في سورات بالهند. كان أبوه حسين قاسم ديدات عاملا بالخياطة في جنوب إفريقيا. لحق بأبيه عام ١٩٢٧م في السنة التاسعة من عمره، وعقب مغادرته الهند توفيت أمه رحمها الله. والتحق بالمدرسة، حيث يعمل والده، وواصل دراسته حتى الصف السادس، ثم توقف عن التعليم بسبب الفقر، الذي أعجزه عن دفع الرسوم المطلوبة. ورغم أن أباه اتصل بكثير من التجار المسلمين لمساعدته على مواصلة دراسة ابنه، فإنه لم يجد إليها سبيلا، فبحث عن سبل أخرى. واختبر ديدات حظه في كثير من الأعمال المهنية، فعمل في عدة محال تجارية، ثم ارتحل من مدينة «دربان»، التي تسكن فيها أسرته، إلى دكان رجل مسلم شريف يقع على مسافة خمسة وعشرين ميلا من تلك المدينة، فمكث هناك بائعا فيه، ثم رجع إلى دربان ليعمل في مصنع كسائق للشاحنات الكبيرة، ثم عمل ككاتب ضابط للصادرات والواردات، ثم مديرا للمصنع. وفي عام ١٩٤٩م سافر إلى باكستان وعمل فيها ثلاث سنوات في معمل للنسيج. وفي عام ١٩٣٧م تزوج بالسيدة حواء غنغت، وأنجبت منه بنتا وولدين. وفي عام ١٩٩٦م، عقب عودته من أستراليا، بعد مناظرة ناجحة مع أكابر الباباوات هناك، أصيب بجلطة تحت عنقه شلته تماما، فصار طريح الفراش لمدة تسع سنوات.

وكان في فترة مرضه يتلقى عناية كريمة من الدول العربية ورؤسائها، حيث نقل إلى مستشفى الرياض للعلاج بطريقة أفضل وليعتني به متخصصون.

انتقل رحمه الله إلى جوار ربه عام ٢٠٠٥م، عن عمر يبلغ السابعة والثمانين عاما وهو يستمع إلى القرآن الكريم، الذي كان يحبه حبا جما.

عناية إلهية في حياته رحمه الله

توالت في حياته عناية الله غير المتوقعة، على حد قوله. فهيأ له ظروفا وأسبابا، كان من أولها تعطشه للقراءة، فأصبحت الكتب خير جليس له في فترات وحشته، وأصبح قارئا نهما، لا يترك شيئا يقع في يده من كتب ومجلات وغيرها إلا ويقرأه بدقة متناهية، لدرجة أنه لم يبق كتاب في المكتبة لم يقرأه، إلى جانب ما وهبه الله من فهم ثاقب، وذكاء لامع، وطلاقة لسان، وتوفيق وسداد، وجهد ومثابرة.

ورغبته الجامحة في القراءة ذللت أمامه ظروفا صعبة، لأن الدفاع عن الإسلام كان جل همه، فبدأ يجادل كل من يتصدى له في المواضيع المختلفة، مما جعله يفوقهم في المعقولات والقدرة على المناظرة، بالإضافة إلى امتلاكه قدرات لغوية هائلة.

وثانيها حصوله على كتاب «إظهار الحق» للعلامة رحمة الله الهندي، وذلك عندما كان يبحث يوما في كومة من الصحف المكدسة في أحد المخازن للحصول على شيء للقراءة، ففوجئ بهذا الكتاب القديم جدا، الذي صدر عام ١٩١٥م في الهند، أخذه في يده ليقرأ العنوان المكتوب بالإنجليزية «Izharul Hakk»، ولكنه لم يستطع فهم معنى هذه الكلمة لأنها عربية، إلا أنه وجد تحتها معناها مترجما إلى الإنجليزية: Truth revealed. وكان هذا الكتاب قد ألفه رحمة الله ردا على النصارى في خمس مسائل من النسخ والتحريف، والتثليث، وحقية القرآن، والنبوة، حين كانت الإرسالية تعمل بشدة في الهند بين المسلمين.

وبعد أن مكن نفسه بالدلائل والحجج الدامغة بدأ يلقي محاضرات جذابة ومفيدة للمختصين والعوام في القاعات، على نفقته. ولم يمض وقت طويل حتى جذب هذا الفتى الخطيب انتباه الناس في المدينة.. معلوماته عن الكتب المقدسة، وإيمانه القوي بالقرآن والرسول ﷺ مدهشان للغاية.. ذات يوم، قدم عليه من جوهانسبرج بعض من كانوا يحضرون خطبه ومحاضراته في دربان، وطلبوا منه أن يلقي خطبة في مدينتهم في يوم الاحتفال بمولد النبي ﷺ. وبتردد رفض هذه الفكرة، فهو رجل من الطبقة العاملة، ولا يستطيع تحمل كلفة الرحلة، لكنهم تكفلوا بنفقة الرحلة كاملة، ذهابا وإيابا، فسافر لأول مرة بالطائرة ليلقي خطبة مثيرة للانتباه جدا في قاعة مدينة جوهانسبرج، غير أنها لم تكن خطبة فحسب، بل زرعت في نفسه ثقة كبيرة، وجعلته يفكر أكثر في مجال الدعوة، وتوسعة نطاقها، وفي كيفية التعامل معها وابتكار طرق جديدة، وفكر في أنه إذا كان قد حاضر في قاعة مدينة جوهانسبرج، فإن قاعة مدينة دربان أحرى أن يلقي المحاضرات فيها، فبدأ بقاعة مدينة دربان عام ١٩٥٨م، وجعل المسجد الجامع الكبير هناك مقرا لنشاطاته الدعوية. وبسبب نشاطه القوي هناك بدأ الناس يعتنقون الإسلام. ولم يخف أحمد ديدات أحدا في سبيل الحق، وكم كانت كلماته ممتلئة بالشجاعة حينما ناظر ثلاثة أساقفة في باكستان وتحداهم في عقر دارهم.

العصور برجالها

ديدات رحمه الله كان ممن أرى المسلمين منحى جديدا للدعوة، أوقف حياته على الإسلام والقرآن، وقر في قلبه أنه لا يتوجب عليه الإيمان بهما فقط، بل إعطاؤهما حقهما الذي يستحقانه، نشرا وتعليما، بين الناس من غير المسلمين، الذين لم تصل إليهم الدعوة الصحيحة، وإخبارهم بخطورة الأمر المتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة، وأصحاب الأوهام الخاطئة المستشرية عن الإسلام والقرآن منذ فترة طويلة. ولا شك في أنه تمتلئ عين كل مسلم حريص على الإسلام بالدمع حين يرى هذا الشيخ المتقدم في السن يناظر كبار القساوسة مدافعا عن إسلامه بكل عزم وقوة، لا ترى على وجهه مسحة من تردد وارتباك بينما ينتظر دوره، ولكنه، بلحيته البيضاء، وظرافته، وابتسامته الوديعة التي لا تفارق محياه، والقلنسوة البيضاء التي تستريح على رأسه المحلوق على الدوام مرتفعة قليلا إلى ناصيته، يجلس في مكانه مسلحا بالحجة الدامغة، وجعبته مملوءة بالسهام الصائبة، منصتا إلى كلمات خصمه حتى ينتهي ليصرعه.. يمكنكم أن تروا كل مرة يحاضر ويناظر فيها كيف يرفع القرآن عاليا ويقول: «هذا من عند الله»، لتبقى كلمة الله هي العليا.

لئن شكرتم..

علاء الدين حسن
كاتب دراسات إسلامية

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة: ١٥٢).

ويقول رسول الله ﷺ: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله» (صحيح الجامع).

وشكر الله عز وجل ليس كلمات تتردد، فلو كان الشكر هكذا؛ لكان الناس كلهم أو جلهم شاكرين لله عزوجل، ولما قال الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ: ١٣).

والشكر هو أن لا يستعين العبد بنعمة الله على معصيته.. الشكر: أن يتقي العبد ربه حق تقاته، وذلك بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

الشكر الذي ينبغي أن نعاهد الله عز وجل عليه، هو أن نسخر النعم التي يغدقها علينا لما يرضي الله سبحانه وتعالى، وألا نستعمل شيئا منها فيما يبغض الله عز وجل.

فإذا شكرنا الله عز وجل على نعمه؛ فلسوف تمتد سلسلة العطاء سخية تهمي كرما من سماء الله سبحانه وتعالى وفضله.

هذا هو ظننا بالله عز وجل، ولن يخيب الله ظن العبد به، وكيف يخيب الله ظن عبده به، وقد جاء في الحديث القدسي الجليل: «أنا عند ظن عبدي بي» (صحيح الجامع).

ومن كنوز الشكر: الدافع المتجدد في الطريق إلى الله.. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان: ٣).

ويؤكد الباحثون في علم النفس أن الشكر له قوة هائلة في علاج المشكلات؛ لأن قدرتك على مواجهة المشكلات تتعلق أصلا بمدى شكرك لله، وبمدى شكرك للناس.

فلن تستطيع أن تسير في الطريق، ولن تتوافر لديك الطاقة المتجددة، إلا بالشكر..

العبد الشاكر هو الذي ستكون عنده طاقة متجددة ليسعى في كل خير.. أما الجاحد فلا يقدر نعمة الله عليه، فيؤدي إلى ضياعه.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص، وأعمى، وأقرع، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن. فمسحه فذهب عنه، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل. فأعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟. قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا. فمسحه فذهب، وأعطي شعرا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطاه بقرة، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر الناس. فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطاه شاة...

فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرا أتبلغ به في سفري.

فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص، فقيرا، فأعطاك الله عزوجل. قال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له كما قال للأبرص، فرد عليه مثل ما رد عليه الأبرص، فقال: إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزوجل، (أي: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلب من مالي). فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» (متفق عليه).

وهكذا يكون الأعمى قد نجح في الامتحان؛ فشكر ربه، وتصدق مما رزقه الله؛ فزاد الله عليه النعمة، وباركها له، بينما بخل الأقرع والأبرص، ولم يشكرا

ربهما؛ فسلب الله منهما النعمة.

ومن نتائج الشكر: أنه يوصلك إلى درجة المحبة، ويحفظك من العذاب في الدنيا والآخرة.. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ (النساء:١٤٧).

فالله سبحانه وتعالى لن يعذبك، مادمت قد شكرت نعمته وآمنت به؛ بل سيعينك الله عزوجل على خطواتك التي تخطوها في طريقه.. وقد قدم الله تعالى الشكر على الإيمان، لأنك لن توفق للإيمان دون شكر.

ولقد كان الشكر خلقا ثابتا لأنبياء الله عليهم السلام. يقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ (النحل: ١٢٠- ١٢١).

ويقول عز وجل عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ (الإسراء:٣). ويقول الله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ (النمل:٤٠).

وكان رسول الله ﷺ كثير الشكر لربه، وقد علمنا أن نقول بعد كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (أبو داود بسند صحيح).

وجاء رجل إلى أبي حازم يسأله عن شكر العينين، فقال: إن رأيت بهما خيرا أعلنته، وإن رأيت بهما شرا سترته. قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرا وعيته، وإن سمعت بهما شرا دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقا لله هو فيهما.

ولله در القائل:

إذا اجتمع الإسلام والقوت للفتى
وكان صحيحا جسمه وهو في أمن
فقد ملك الدنيا جميعا وحازها
وحق عليه الشكر لله ذي المن

والشكر والعبودية أمران متلازمان، فإن انفك الواحد عن الآخر غاب كل منهما، وانظروا إلى هذا التلازم كيف يتجلى في حديث رسول الله ﷺ عندما سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري عن سبب ما يتحمله من جهد في الليالي الطويلة التي يقضيها قائما مصليا ساجدا لله عز وجل، قالت: (أفلم يغفر الله لك ما تقدم وما تأخر)؟. أجابها قائلا: «أفلا أكون عبدا شكورا؟» (صحيح البخاري).

ومن كان قلبه فياضا بشعور العبودية لله سبحانه وتعالى، فاض قلبه نشوة بهذه النعم التي أرسلها الله سبحانه وتعالى إليه، نعم تتجلى فيها ألطاف الله عزوجل، تتجلى فيها محبة الله سبحانه وتعالى لعباده، تتجلى فيها رحمات الله سبحانه وتعالى لهم، تتجلى فيها استجابة الله سبحانه وتعالى لدعائهم ورجائهم، لكن الناس الذين غابت مشاعر العبودية لله عزوجل عن قلوبهم، هيهات أن يشعروا بهذا المعنى الذي يبعث الطمأنينة في النفس، وهم، وإن شكروا، فبكلمات تقليدية يغيب عنها الفؤاد، إنهم تائهون عن هوياتهم، غارقون في أهوائهم ورعوناتهم، فلربما استخدموا هذه النعمة التي يغدقها الله عزوجل فيما يسخط الله سبحانه وتعالى.

أما الإنسان، الذي وعى ذاته، وعرف عبوديته ومملوكيته لله، ثم رأى نعم الله عزوجل كيف تهمي من سمائه، ونظر فوجد كيف أن الأرض أصبحت مخضرة يانعة تبتهج لمنظرها الأبصار، فإن هذا الإنسان لابد أن تفصح عبوديته لله عن شدة الحب لمولاه وخالقه عزوجل، ممتثلا قول الله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ (إبراهيم:٧).

السؤال مفتاح العلم

خالد برادة
باحث دراسات إسلامية

يدرك الباحثون الذين بلغوا في البحث العلمي شأوا بليغا، أن العلم لا ينال إلا بالهمم العالية والعزائم المتوقدة، ولذلك هان تعب أجسادهم في سبيل بحوثهم، ليظفر الباحث النحرير منهم بما كان يؤرقه، فيغدو لحظة الظفر به مبتهجا سعيدا، ويكون له بذلك يوم عيد، وقد أدرك من يمم وجهه القاصد إلى محراب العلم والمعرفة أنه مطالب بكثرة الاستقصاء والتنقيب عن الوثائق العلمية، والحقائق الأكاديمية، وعدم الاكتفاء بما هو موجود، ذلك أن النهم هنا مطلوب، إلا أنه مذموم في كل ما عداه مما هو مرغوب، وأمامنا الآية الكريمة نبراسا لنا للضراعة إلى ربنا ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، فهذه الآية تقرر مبدأ إسلاميا أصيلا في ربط العلم بالله تعالى حتى تنكشف الحجب عن النفس وتتبدد الغيوم عن الفكر.

وقد يجد من خالط البحث دمه ولحمه، واستولى على لبه ومشاعره، أنه يلجأ إلى ركيزة أساسية ليكتمل هلال بحثه بدرا، هذه الركيزة هي الطابق الذي لا بد أن يبنى على قاعدة أصيلة، ألا وهي: قاعدة «السؤال مفتاح العلم»؛ وإذا سلمنا بهذه القاعدة التي لا غنى عنها لولوج بوابة العلم الفسيحة، فإنما نلفت النظر إلى نقطة في غاية الأهمية لقياس ميزان السؤال الذي ينير الفكر ويلهب الروح، ومفاد هذه النقطة المثارة: إن الباحث العلمي في حاجة إلى أن ينأى بنفسه عن السؤال البسيط، حتى لا يكون شأنه شأن العوام من الناس، فالباحث رجل ذو كفاءة علمية مقتدرة، وعلى إحاطة وإلمام بميدانه الذي ينهج سبيله، لذا كان لابد أن يطرح أسئلة إشكالية تأخذ طابعها الفلسفي، ليساعده ذلك على تثوير العلم، والمراد أن تتمخض عن ذلك السؤال الفلسفي أسئلة أخرى، قد تكون غائبة عن الباحث، ومن هنا يتجلى لنا الفرق الدقيق بين السؤال العلمي المساهم في تثوير العلم، وبين السؤال البسيط الذي سرعان ما ينتهي بجواب قد يكون بسيطا هو الآخر.

وقد يظن ظان أن الإسلام لا يشجع على السؤال أو يغض من قدره، ولنا أن نقول إن هذه آفة من يقرأ الآيات بظواهرها، دون أن يسبر غورها، ويحيط بأسباب نزولها، وذلك كما إذا قرأ المرء قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وبالرجوع إلى مصدر من مصادر التفسير أو أسباب النزول، فسرعان ما يزول عن الأذهان اللبس والغموض في فهم الآية.



ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن من طرق التدريس الناجحة، تقديم مجموعة من الأسئلة بين يدي الطلاب من لدن المدرس، لتفتح أمامهم الطريق الكاشف إلى المعرفة، ولتجذب أنظارهم نحو الموضوع المطروح للتلقي، وفي اعتبارنا أن تلك الأسئلة هي مقدمات لابد منها لتحقيق التحصيل العلمي المنشود، وكثيرا ما تأكد لي صحة هذا الرأي وأنا أقرأ في السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، مما زخرت به سيرته ﷺ من أحاديث مشرقة تفصح عن المنهج التربوي في إنارة العقول، وفتح مغاليق القلوب، كي تنفذ إلى القلب الفهم، دونك مثلا قوله ﷺ لأصحابه وللأمة جميعا: «أتدرون من المفلس؟» وأنت على خبر أن جواب الصحابة رضي الله عنهم – على جلالة قدرهم – كان على سجيته في تعريف «الإفلاس» على ظاهره، ولكن النبي ﷺ يريد أن ينفذ إلى دلالات كلمة «الإفلاس» ليقدم درسا أنعم به من دروس التربية النبوية التعليمية، عن طريق ضرب السؤال، والارتقاء بالأفهام من خلال الإجابة عليه بما لم يكن متوقعا، والأمثلة على ذلك تترى من الوحيين، ولذلك لابد من التمسك بالمنهج التربوي النابع من أصالة ديننا، فللسؤال أهميته البالغة في مناهج التعليم، وإذا كان سؤال المدرس لطلابه من الأهمية بمكان، فقد يكون سؤال أحد الطلاب لأستاذه في حصة الدرس محفزا لجميع الحاضرين، ابتداء بالمدرس، ومرورا بالطلاب، وانتهاء بصاحب السؤال نفسه، ومن شأن ذلك السؤال أن يحفز الجميع لتقديم عروض حول البنية الفكرية المثارة في التساؤل الذي أيقظ شريان البحث في النفوس، فيهبوا لجمع كل ما له صلة بالموضوع الذي حمله السؤال من المادة العلمية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وقد تطرح أسئلة أخرى تولد من رحم السؤال الأم، فينكشف أمام الدارسين مدى أهمية الأسئلة العلمية الجادة، فتكون مشروع حياة الباحث؛ فيستفرغ فيها غاية جهده، ويمضي حياته مرتبطا بمشروعه العلمي الذي بزغ فجره من ذلك السؤال، الذي كان يوما ما مجرد سؤال.

وقد وجدنا في كثير من الكتب التي لا غنى عنها في بابها المعرفي، أن مؤلفيها يفصحون عن أن الذي حدا بهم إلى طرق موضوع الكتاب، ما دار في جنبات حجرة الدرس، وخاصة داخل أسوار الجامعة، من حوار ونقاش حول نقطة محددة في جانب من جوانب العلوم، سواء عندما كانوا طلابا شادين أو أساتذة باحثين، فانفرط عقد الحلقة الدراسية، ولكن ما سمعوه من الآراء الفكرية لم يتوار عنهم، وظل يعمل فيهم عمله، فوجدوا موضوع النقاش الذي أذكى الحصة الدراسية موضوعا بكرا صالحا للبحث، فاستفرغوا فيه غاية جهدهم، محاولين بذلك أن يسدوا ثغرة في صرح العلوم بما توصلوا إليه من نتائج، وما اهتدوا إليه من حقائق، وتراهم بعد ذلك يدفعون إخوانهم الباحثين إلى المزيد من كشف جوانبه، وإشباعه بحثا، ولم لا يكون مشروع حياة يرتبط به الباحث، فيكون آخر ما يفكر فيه قبل النوم، وأول ما يهتم به عند اليقظة، وعند الوصول إلى هذا المستوى نكون قد حققنا الإضافة العلمية لأهل التخصص.

وهكذا نكاد نجزم أن الإضافة العلمية لا تتأتى إلا للمساهمين بحظ وافر في طرح أسئلة تلامس خواطرهم، وتعتلج في نفوسهم، ومن ثم كان لهم شرف المساهمة في تثوير العلم في أطروحاتهم العلمية، إذ ثم تبنى تلك التساؤلات والإجابة عنها، وقد يكون من السؤال الفلسفي الواحد عدة أسئلة كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

ولقد أدرك من له دربة ومران في البحث الأكاديمي، ومن خلال الاطلاع على آفاق الفكر، وتعدد مجالات المعرفة، أن ما يعيق تقديم النظريات والطروحات الجيدة في العلم هو الحديث عن ماهية العلوم والتصدي لبيانها من دون الرجوع إلى المعاجم اللغوية والفلسفية، ومن كان هذا شأنه فإنه قد ساهم عن غير قصد في قتل العلم، لأنهم كما يقولون – ما يقتل العلم هو البديهيات – ولذلك لابد من استحضار قواعد البحث العلمي التي فتح أساتذتنا الجلة – أحسن الله إليهم – عيوننا عليها.

وإذا كان السؤال مفتاحا لولوج آفاق العلم ومجالاته؛ فإنه مما تجدر الإشارة إليه أن الاعتماد على منهج طرح السؤال لهو الطريق اللاحب إلى التنظير والتجديد، وهذا هو الإبداع الفكري، إلا أننا ننبه هنا إلى الضوابط التي يجب مراعاتها وعدم تجاوزها في الموضوع المدروس محل التساؤل، حتى لا تجمح بالمرء سفن الضلال، فيورد نفسه الهلاك، وذلك كإعلاء العقلانية المحضة، وسلوك منهج الفرق التي أباحت لنفسها التأويلات العقيمة في كثير من أمور العقيدة التي يجب التسليم بها، ومن هذا المنطلق يكون السائل عامة والباحث خاصة في مأمن من الانزلاق إلى مراتع الهوان، فيؤتي السؤال مقاصده وأهدافه المرجوة.

وإننا في حاجة إلى باحثين يدركون شرف مكانتهم التي ينالونها، ولذلك لابد أن يكونوا غيورين على أبحاثهم زاهدين في بهرج الدنيا بشهادات تنال في أيديهم، وقد تكون الوجهة إليها من خلال كتابة الموضوع العلمي.. بل لابد أن نكون جيلا يسير في الطريق الذي عبده لنا كبار رجال الفكر الإسلامي الذين زهدوا في الدنيا، وتنعموا في كنف البحث العلمي؛ وهكذا نريد أن نحذو حذوهم، سالكين منهجهم الأصيل، لننتسب إلى البحث العلمي النزيه، فنكون من ذوي الأقدام الراسخة فيه، ولنا مفتاح نلج من خلاله إلى أبواب العلم الفسيحة، هذا المفتاح هو السؤال الإشكالي، ونضرع إلى الله تعالى أن يجعلنا ممن يساهمون في تحقيق الإضافة العلمية لأهل التخصص، وفتح آفاق جديدة من الأسئلة العلمية التي من شأنها أن تشكل روافد جديدة للغوص في أعماق العلم النافع، والله ولي التوفيق.

الإلحاد بضاعة مستوردة

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

عجيب أمر هؤلاء الذين يدعون إلى الإلحاد، وإلى إنكار وجود الله سبحانه، وإلى أن يسير الناس في الحياة لا حظ لهم من إيمان يملأ عليهم أفئدتهم، ولا من عبادة تخشع لها جوارحهم وتنقاد! إنهم لا يعادون الإسلام فحسب، وهو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، على اختلاف في الشرائع والأحكام للأقوام والأمم التي توزعت على امتداد القرون المتطاولة، حتى ختم الإسلام بشريعة النبي محمد ﷺ..

إنهم لا يعادون هذا الإسلام فحسب، بل يعادون أيضا الأديان الباطلة، والمعتقدات الموغلة في الخرافات والترهات.. فإنها جميعا متفقة على ضرورة الإيمان، أي على أصل القضية!

إن «الناس من أقدم العصور حيارى، يجدون في أنفسهم إلهاما بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة، يستلهمونها ويستمدون منها العون، ويستقبلون منها الخير والشر، فيدعونها خوفا وطمعا، ويتملقونها بالقرابين والعبادات، ويجدون في الإيمان بهذه القوة - التي اختلفوا في تكييفها - سندا وملاذا من رهبة القوى المادية في الكون، وسلوى وعزاء عمّا هم فيه من قسوة الحياة وآلامها» (١).

وإذا كان الإيمان - في معناه العام - هو إحساس الإنسان وشعوره بضرورة وجود قوة أخرى أكثر كمالا واقتدارا منه - كانت هي البدء الذي به كان، وإليها خاتمة المطاف والمنتهى - فإن هذا الإحساس البشري الذي يعمر به قلب الإنسان ووجدانه هو فطرة الإنسان التي فطر عليها، والتي ركبت في طبعه، فصارت لازمة من لوازم حياته، المعنوية والروحية. وكما يبحث الإنسان عن الطعام والشراب والهواء للإبقاء على كيانه المادي، فهو يشعر بالحافز للبحث عن هذه القوة الخفية، والتقرب منها واسترضائها للإبقاء على كيانه الروحي والمادي معا (٢).

من تجاوز الكنيسة إلى تجاوز الدين

لقد ظل الإنسان الغربي في «عقوده المظلمة» - خاصة في أواسط القرن السادس عشر - يعاني صراعا مريرا مع الكنيسة،



محاولا الخروج من سيطرتها وربقتها، بعدما فرضت الكنيسة رؤيتها الخاصة للكتاب المقدس، ولسائر نشاطات الحياة حتى على الجوانب العلمية منها (٣)، إضافة إلى تحالف رجال الكنيسة مع الإقطاعيين، وهو ما أدى إلى أن يثور الإنسان الغربي ليس على سلطة الكنيسة فقط، بل على سلطة الدين ذاته!

ومن هنا، نشأت موجات متتابعة من الإلحاد، ومن الجرأة على الله، تسفه فكرة الإيمان، وتصمها بالعبودية والخنوع، وتعتبرها قيدا على حرية الإنسان وإرادته.

لكن – والحق يقال – قد يكون للإنسان الغربي بعض العذر فيما فعل، إذ كانت سيطرة الكنيسة وقيودها قد بلغت حدا مرهقا للإنسان، ومثلت عبئا على الإيمان ذاته!

لكن البعض من المفتونين بالغرب وثقافته وحضارته، راحوا ينقلون معركة الإنسان الغربي مع الكنيسة، وخروجه على دينها الذي يحرم العلم.. راحوا ينقلون ذلك إلى أرض المسلمين، ويسقطون تلك المعركة على الإسلام، دون أن يدركوا أن لا وجه أبدا للمقارنة بين الإسلام، وما انتهت إليه الكنيسة من دين، وأن هذا الصراع بين العلم والدين إنما هو ابن البيئة الغربية بشكل حصري!

وفي مواجهة موجات الإلحاد، أوائل القرن العشرين، حذر الأستاذ عبدالعزيز جاويش من خطورة تلك القضية، وأوضح أن الذين يصورون علاقة العلم والدين حربا قائمة دائمة لا يستقر لهما صلح، إنما هم تلاميذ آثار الغربيين، ممن يفتنون بكل جديد، ولو كبل عقولهم بأغلال التقليد، وحبسهم عن التدبر والتفكير.

وأكد جاويش أن هؤلاء لو كان لهم علم بأصول القرآن الكريم، ووقفوا على ما مكن للعقل والوجدان من قواعد الحرية الصادقة في سائر شعب الحياة، لما زلت لهم قدم في مزالق التقليد، ولفقهوا إجلال ذلك الكتاب الذي يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسـراء:٣٦)، والذي يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣) (٤).

التحريف مدعاة للإلحاد

من الملاحظ – وكما سنرى من خلال سرد بعض التجارب الذاتية – أن التحريف الذي لحق ببعض الشرائع السماوية، وأصابها بالتناقض، وجعلها تضاد العقل وتستعصي على الفهم، فضلا عن لاعقلانية المذاهب الوضعية التي ذهبت بعيدا في منحدر الخرافات.. أن ذلك كان مدعاة للإلحاد، وسببا أساسيا في أن يرفض العقلاء تلك المزاعم التي تسمى «دينا»!

ولما كان الإسلام – الدين الخاتم – قد تكفل الله سبحانه بحفظ كتابه وينبوعه الصافي، الذي يشتمل على أصول العقائد وأمهات الفضائل وقواعد الشرائع، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر:٩).. فإننا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن الإلحاد هو مشكلة من خارج بيئتنا الحضارية (٥). فبيئتنا الحضارية لم تعرف صداما مع العلم، ولا إجحافا بمكانة العقل، ولا تسلطا على مناهج البحث العلمي، ولم تدع إلى مقررات تصادم الفطرة السليمة والعقول المستقيمة.

إن خطورة العقائد المحرفة، تكمن في أنها تبعد الناس ليس عن اتباع هذه العقائد المحرفة فحسب، بل عن الاعتقاد الديني بوجه عام. ولذلك يقول مراد هوفمان في تقديمه لأحد كتب جيفري لانج: «عندما يزعم المؤلف بأن العقائد الدينية في العصر الحديث لا تفعل شيئا، سوى أنها تزيد من أزمة الإيمان والدين، فإنه يردد صدى ما قاله محمد أسد عام ١٩٣٤م، عندما تنبأ أن الشكوك التي أثارتها العقيدة النيقية (٦) وخاصة عن أفكار التجسيد والتثليث، لن تبعد أصحاب الفكر عن كنائسهم وحسب، بل عن الإيمان بالله تبعا لذلك» (٧).

ويسجل ألفونس «أتيين دينيه» – الذي أسلم وتسمى بـ«ناصر الدين» – شهادته عن اتساق العقيدة الإسلامية مع الفكر والعقل، فيقول: «إن العقيدة المحمدية (٨) لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير. وكما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المدنيات» (٩).

ولما سئل البروفيسور «هارون مصطفى ليون» عما أعجبه في الإسلام، ذكر أن من مفاخر الإسلام، أنه مبني على العقل، لا يطالب معتنقيه أبدا بتجميد طاقاتهم الفكرية، مخالفا بذلك عقائد أخرى، تلزم تابعيها بالاعتقاد الأعمى لمذاهب وآراء معينة، دون تفكير فيها (١٠).

وقد وجه هوفمان نقدا حادا لما دخل من تحريف على المسيحية، جعلها لاعقلانية! فيقول: عندما يتوسط المسيحيون في خطأ محاولة الدفاع العقلاني عن مذهب «التثليث» يأخذون أولا بالتذرع ببعض الألاعيب اللغوية، وينتهي بهم الأمر إلى التراجع، زاعمين أنه بما أن «التثليث» هو سر من الأسرار، فإنه بذلك يستعصي على التفسير. ثم يؤكد هوفمان أن من الابتذال، القول بأن «الأسرار الدينية» تستعصي على التفسير، وهي كذلك بحكم تعريفها، ولكن ليس هناك ما يمنعنا إطلاقا من أن نقرر بداية ما إذا كانت المسألة تتعلق بسر من الأسرار بالفعل، أو أنها – كما في حالة «التثليث» – من نسج قلوب البشر وعقولهم. ويضيف: «لقد مضى ذلك الوقت الذي كان فيه للمسيحية أن تستفيد من فكرة «التثليث»، خاصة

عندما تنتشر بين شعوب تؤمن بالتسلسل الهرمي للآلهة، أما اليوم فإن «التثليث» لا يعدو أن يكون عبئا على المسيحية» (١١).

فمراد هوفمان يفرق بين ما يعتبر سرا من الأسرار، وبين ما هو من نسج عقول البشر. ويوضح أنه «الأسرار» قد يجوز عدم فهمها، ولكنه «التثليث» ليس أصلا من هذه الأسرار، وإنما هو من نسج الخيال.

ولكننا يجب أن نضيف هنا توضيحا لما ذكره السفير هوفمان، أن حتى ما يسمى «الأسرار» – أي ما يطلق عليها الإسلام «العقائد» – فإنها لا يجوز أن تتناقض مع العقل.. ولكن يجب أن نفرق في مسائل العقائد بين ما لا يستطيع العقل إدراك كنهه وحقيقته مثل: عذاب القبر، وغير ذلك من الأمور الغيبية وبين ما يحكم العقل باستحالته، مثل: التثليث ووراثة الخطيئة الأولى، فالنوع الأول يقف فيه العقل عند حدوده ويؤمن به، أما النوع الثاني فإن العقل يرفضه، ويأبى الاعتراف به، وعلى ذلك فهناك من عقائد الإسلام ما نؤمن به ولا ندرك كنهه، لكن ليس في الإسلام ما يحكم العقل باستحالته، أو ما يخالف الحقائق المنطقية.

تجارب ناطقة بالتوحيد

أمام هذا الأمر الداعي للعجب والدهشة – أي الإلحاد – فإنني أرى أن من الأوفق، ونحن نحاول أن نمد لمن أغراهم بريقه الزائف يد الهداية والإرشاد، عسى الله أن يمنحهم نورا ينقذون به أنفسهم من التردي في مهاوي ظلمات الجحود.. أرى أن نعرض لهم نماذج مضيئة من أبناء الحضارة الغربية، سبقوهم في طريق التعرف على الله، والتسليم بمنهجه، والسعادة في رحابه.

فلاشك أن عرض هذه النماذج يفيدنا في هذا المقام من ناحيتين:

الأولى: أن حياة أولئك الذين اهتدوا هي نفسها أوضح مناقشة للمزاعم التي ما فتئ هؤلاء يرفعونها في وجه دعاة الإيمان، ويلبسون بها على العامة، وعلى الشباب الذين لا تسعفهم معارفهم للصمود في وجهها.

أما الناحية الثانية، فهي أن هذه النماذج المضيئة تقول لهم بلسان الحال: لقد أغرانا الشيطان كما أغراكم، وتربص بنا كما تربص بكم، وقعد لنا في طريق الهداية كما قعد لكم، لكننا – بمعونة من الله وفضل – قد اجتزنا كل تلك العقبات، وآوينا إلى ركن شديد، ووجدنا في واحة الإيمان ما ظللنا نبحث عنه، وما شقينا لعقود بسبب الابتعاد عنه.

فمن محمد أسد الصحفي النمساوي الذي كان يهوديا، إلى رجاء جارودي الفرنسي الذي كان عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي، إلى جيفري لانج الأميركي الذي فضل الإلحاد على دين الكنيسة..

هذه النماذج – وغيرها كثير – ناطقة بضرورة الإيمان، وأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وناطقة أيضا بأن الإسلام هو الدين الجديد بأن يمنحه الإنسان ثقته، وأن يسلم له قياده، وأن يرسو بسفينة عقله على شطآنه.. فهو دين الله الخاتم، المحفوظ بحفظه من التحريف والتبديل إلى يوم الدين، ومن ثم، كان قادرا على مخاطبة أرقى العقول البشرية، على اختلاف الزمان والمكان.

وما الإلحاد إلا مشكلة من خارج بيئتنا الحضارية، فلنحذر من محاولات إرهاق العقول، وتشتيت الجهود عن مواجهة التحديات التي تحيط بنا من كل حدب وصوب!.



الهوامش

١- الرسالة الخالدة، الأستاذ عبدالرحمن عزام، ص: ١٨، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، ١٩٦٤م.

٢- في الإيمان والإسلام، الأستاذ أحمد حسين، ص: ١٣، دار القلم، بدون تاريخ، بتصرف يسير.

٣- حينما أثبت كوبرنيكس دوران الأرض حول الشمس، وحينما زاد جاليليو دوران الأرض حول نفسها؛ قرر المكتب المقدس في فبراير ١٦١٦م أن مذهب كوبرنيكس سخيف، وبمقارنته بما جاء في وصية المسيح يعد هرطقة. ولقد حرمت روما تعليم نظام المجموعة الشمسية إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر، مما أربك دراسة العلوم الطبيعية هناك. انظر: أثر القرآن في تحرير الفكر البشري، الشيخ عبد العزيز جاويش، ص: ٤١، هدية مجلة «الأزهر»، ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، بتصرف يسير.

٤- المصدر نفسه، ص: ١١١، ١١٤، باختصار وتصرف.

٥- لم يعرف تاريخنا «الإلحاد» كظاهرة، وإنما كحالات معدودة.

٦- أي العقيدة التي تقررت في مؤتمر «نيقية» سنة ٣٢٥م، والتي قررت بنوة عيسى وألوهيته.

٧- من تقديم د. مراد هوفمان لكتاب د. لانج، «حتى الملائكة تسأل»، ص: ١٢، ترجمة د. منذر العبسي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١ م.

٨- الصواب أن نقول «العقيدة الإسلامية»، لأن الغرب يقصد من نسبة العقيدة إلى محمد ﷺ، إظهار الإسلام وكأنه من اختراع محمد، وليس وحيا إلهيا.

٩- أوروبا والإسلام، د. عبد الحليم محمود، ص: ٩٩، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٢م.

١٠- في الدعوة إلى الإسلام، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص: ٢٥٦، دار التراث، ط١، ١٩٧٩م.

١١- يوميات ألماني مسلم، هوفمان، ص: ١٥٩، ١٦٠، ترجمة د. عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.

يناقش الألوهية والدين والأخلاق:
«خرافة الإلحاد»

التحرير

يعد كتاب «خرافة الإلحاد» أحد أبرز الكتب التي صدرت مؤخرا للدكتور عمرو شريف، أستاذ الجراحة العامة.

وهو كتاب مهم للغاية في مجال مناقشة قضية الإلحاد؛ لاستناده إلى الدليل العلمي، والمحاججة المنطقية، والاستدلالات العقلانية، متوغلا بعمق في جوهر قضية الإلحاد من خلال التوسط بين أكبر الفلاسفة والعلماء في مختلف المجالات المعرفية والعلمية.

يقع الكتاب – وفقا لما ورد في موقع دار ناشري – في ثلاثة أبواب، وأربعة عشر فصلا. يتناول في الفصل الأول «الإلحاد المعاصر»، مبتدئا من الميلاد إلى الفكر المعاصر والفلسفة المعاصرة في مجال الإلحاد، ويدرس متتالية الفكر المادي، الحضارة المادية، ثم الإلحاد.

أما الفصل الثاني فيبحث في طبيعة العلم، أي في العصر الحديث، المنهج الاختزالي وسلبياته، مجال العلم وحدوده، العلماء بين الحيادية والتحيز، حاجة العلم إلى الإله.

في حين جاء الفصل الثالث بعنوان: «صراع متوهم»؛ ليميز بين العلماء المتدينين والعلماء الملحدين، والفهم القاصر للدين والعلم، واصلا إلى جوهر الصراع الطبيعي، أي المذهب الطبيعي في مواجهة الدين، والتوافق بين الدين والعلم.

يناقش الفصل الرابع من جملة فصول الكتاب «الكون بين الإله والإلحاد»، فيؤرشف لقصة خلق الكون، والانفجار الكوني العظيم، ونظرة الفيزياء إلى الكون، وموقف الملاحدة المعاصرين من الكون، والبرهان الكوني (أو الدليل الكوسمولوجي)، وبرهان الضبط الدقيق. وختم الفصل بنشأة الكون في القرآن الكريم.

أما الفصل الخامس فيدرس فيه الحياة بين الإله والإلحاد، من خلال: ماهية الحياة، والسمات الوجودية للحياة، ونشأة الخلية الحية، وأكذوبة الحتمية الجينية، وأسرار البيولوجيا.

بينما الفصل السادس فيبحث في التطور الدارويني بين الإله والإلحاد، وذلك من خلال جملة من القضايا المتعلقة بالداروينية، مثل داروين ونظرية التطور، ونقد الداروينية، من خلال سجل الحفريات، وعجز آلية التطور الدارويني.

والفصل السابع معني بدراسة التصميم والتطور بين الإله والإلحاد، وذلك عن طريق البحث في ملامح التصميم في عالم الأحياء، نظرية المعلومات، التعقيد غير القابل للاختزال، والتصميم الذكي، والتطوير الإلهي.

والفصل الثامن يبحث في العقل بين الإله والإلحاد، فيدرس مسائل غاية في الأهمية، مثل: المخ والعقل، العقل واللغة، العقل وتذوق الجمال، العقل والمشاعر الروحية، المادية والعقل، العقل ونهاية الفلسفة المادية.

الفصل التاسع يبحث أيضا في مسائل مهمة جدا: الألوهية – الدين – الأخلاق.

ويلخص المؤلف قضية الكتاب كلها، بالقول: «تعتبر حياة الإنسان رحلة «عبر الزمان»، ويعتبر سفره للسياحة، أو الدراسة، أو العلاج «رحلات عبر المكان»، وتتفاوت هذه الرحلات في دوافعها ومردودها. وتظل الرحلة إلى الله تعالى مبتغى معظم البشر، فهي الغاية من الوجود الإنساني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ (الانشقاق:٦)، وهي رحلة الإنسان من المخلوق إلى الخالق، ومن الموجود إلى الموجد، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الملك إلى الملكوت والجبروت».



كيف يفكر المسلمون؟

التحرير

«من يتحدث باسم الإسلام؟».. كتاب قيم صدر عام ٢٠٠٧م بنسخته الإنجليزية، للمؤلفين: جون اسبوزيتو وداليا مجاهد. وبعدها بعامين تقريبا ظهرت ترجمته للدكتور عزت شعلان إلى العربية.. العنوان الفرعي للكتاب تساؤل أيضا يهم كل باحث في الدراسات الإسلامية، إذ يقول: كيف يفكر - حقا - مليار مسلم؟ اعتمد الكتاب في تحليلاته على نتائج أكبر استطلاع رأي عالمي آنذاك، أجراه مركز «جالوب» للدراسات الإسلامية، في ٣٥ دولة، بين عامي ٢٠٠١م و٢٠٠٧م، شمل عشرات الآلاف من المقابلات، وجها لوجه، مسحا كليا لعينة تمثل أكثر من ٩٠٪ من ١,٣ مليار مسلم في العالم. مما يجعل هذا العمل - على حد وصف اسبوزيتو - أكبر وأشمل دراسة للمسلمين المعاصرين أجريت حتى حينه. بل في التاريخ.

يقول المفكر فهمي هويدي، والذي قدم للترجمة العربية الصادرة عن دار الشروق - القاهرة: هذا الكتاب يعد مفاجأة وصدمة للغربيين، وتعريفا للعرب والمسلمين بما يعرفون. مصدر المفاجأة والصدمة فيه أنه يمثل سباحة ضد التيار، وخروجا على المألوف، وتمردا على الصورة النمطية التي فرضت على العقل الغربي، وصنفت العرب والمسلمين بحسابهم كائنات شاذة وغريبة مسكونة بالتعصب والتطرف، ومهجوسة في ذات الوقت بكراهية الغرب، ومتطلعة الى الانقضاض عليه وإفنائه.

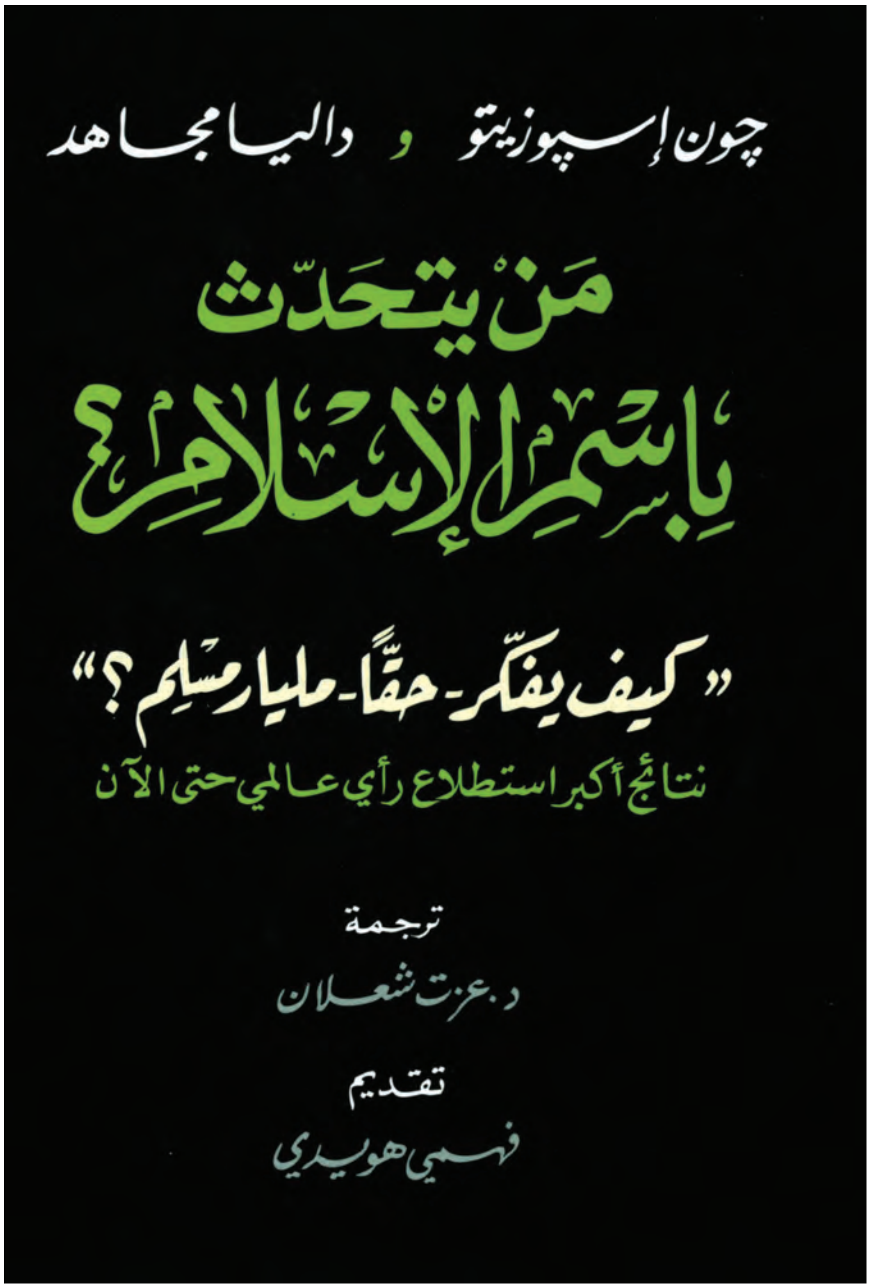
ويؤكد الدكتور عزت شعلان في مقدمة الترجمة أن من أهم ما أظهره الاستفتاء أهمية الإسلام عند الأغلبية الساحقة من المسلمين، وموقعه المركزي في الهوية الدينية والتاريخية والقومية والثقافية. ويعتبر المسلمون أن الدين قوة بالغة في التغيير السياسي والاجتماعي. كما يرون - مثل الأميركيين - أن يكون الدين مصدرا للتشريع، ولكن أغلب المسلمين لا يريدون حكومة ثيوقراطية، أي حكومة دينية يتولاها رجال الدين، ولا يرغبون كذلك في حكومة علمانية لا علاقة لها بالدين، ولعلهم يتطلعون إلى نموذج ثالث، يجمع بين المبادئ الدينية، والقيم المعاصرة القائمة على العدالة الاجتماعية.

في الفصل الأول، وتحت عنوان «أهمية الإيمان»، يتساءل الكتاب عن الدور الذي يؤديه الدين حقا في حياة المسلمين؟ ويجيبان: تبعا لاستفتاءات «جالوب» في عام ٢٠٠١م، وبين عامي ٢٠٠٥م و٢٠٠٧م، وفي بلاد تكون نسبة كبيرة من السكان أو أغلبهم من المسلمين، تقول الأغلبية في بلاد عديدة (وكثير منها يبلغ مدى ٩٠٪): إن الدين جزء مهم من حياتهم اليومية. وتعتبر نسبة كبيرة أن امتلاك حياة دينية أو روحية ثرية جانب أساسي في الحياة، لا يستطيع الإنسان أن يحيا من دونه. وعند السؤال عن أشد ما يدعو إلى الإعجاب بالعالم الإسلامي، كانت الاستجابة الأولى عند نسب مئوية مهمة من السكان، في بلاد شديدة التنوع، مثل تركيا والعربية السعودية وإندونيسيا هي: «الالتزام الصادق بالإسلام عند الناس».

ويستطرد المؤلفان: يعتبر الكثيرون الدين مؤشرا أوليا على الهوية، ومصدرا للمعنى والإرشاد والعزاء والمجتمع، وعاملا أساسيا في تقدمهم. وترغب الأغلبية من الرجال والنساء جميعا، في كثير من البلاد التي تغلب عليها نسبة المسلمين، أن ترى المبادئ الإسلامية - وهي الشريعة - مصدرا للتشريع. وعند هؤلاء المستجيبين للاستفتاء كثير من الأمور المشتركة مع أغلب الأميركيين الذين يرغبون في رؤية الإنجيل مصدرا للتشريع. وتؤكد كلتا الجماعتين أهمية القيم العائلية، وتهتمان اهتماما عميقا بأمور الأخلاق الاجتماعية. والواقع أن

المستجيبين في العالم الإسلامي، وعددا كبيرا من الأميركيين يقولون: إن أقل ما يعجبون به في الحضارة الغربية هو الحرية المفرطة في المجتمع.

ويوضح الكتاب أن الإسلام عند أتباعه الملتزمين ليس مثلما قد يبدو أمام المراقبين من الخارج صفحة مقيدة من القواعد والعقوبات، إذ هو عند كثير من المسلمين خارطة عقلية روحية، تقدم إحساسا بالمعنى والإرشاد والهدف والأمل. وتقول الأغلبية الكبرى من المقيمين في البلاد التي يكون أغلبها من المسلمين: إن حياتهم ذات هدف مهم (٩٠٪ من المصريين، و٩١٪ من السعوديين).



تقاليد وعادات

إن أهمية الدين يدعمها ما يقوله المسلمون عن تقاليدهم وعاداتهم، وهي مازالت كذلك تلعب دورا مركزيا في حياتهم. وعند سؤالهم: هل هناك تقاليد وعادات مهمة بالنسبة لكم أم لا؟ قالت الأغلبية في كثير من البلاد التي تغلب نسبة المسلمين على سكانها فيها: نعم، الأردن (٩٦٪)، والعربية السعودية (٩٥٪)، وتركيا (٩٠٪)، ومصر (٨٧٪). يتعارض هذا بصورة حادة مع أولئك الذين أجابوا بـ«نعم» للسؤال نفسه في الولايات المتحدة (٥٤٪)، والبلاد الأوروبية بصفة خاصة، مثل: المملكة المتحدة (٣٦٪)، وفرنسا (٢٠٪)، وبلجيكا (٢٣٪).

إله واحد

لم يكن المسلم الأول هو النبي محمد عليه السلام، ولكنه آدم، أول إنسان ونبي من الله. كما يؤكد الإسلام أن الله أرسل الرسل والأنبياء إلى جميع الأمم: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ (فاطر: ٢٤)، وهم جميعا قد علموا الرسالة الأساسية نفسها، وهي الإيمان بإله واحد متفرد، والمعتقد أن الأنبياء جميعا على هذا الاعتبار «مسلمون».

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ (آل عمران: ٨٤).

تعددت أسبابه.. والنهاية مأساوية..

الإلحاد الخفي

عبدالله الشريف ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية - القاهرة



- د. أبو كريشة: حرمته ثابتة، وتقوية الوازع الديني يحصن الشباب من الوقوع في هذه الكبيرة
- د. شومان: ضعف العقيدة وتزايد المشكلات الاجتماعية والاقتصادية أدى إلى فقدان الأمل
- د. إنشاد: ليست ظاهرة.. لكن على الجميع التصدي لها بداية من الأسرة وحتى الحكومة
- د. ثريا: لا يمكن الجزم بالأسباب الحقيقية دون الخضوع لدراسة منهجية
- د. بحري: تسليط الإعلام على حالات الانتحار يغري البعض بالإقدام عليه للفت الأنظار

دق علماء الإسلام ومختصون في علمي النفس والاجتماع ناقوس الخطر بسبب تزايد حالات الانتحار في المجتمعات العربية، لا سيما في أوساط الشباب، واعتبروا أن هذه الحالات باتت تقترب من حد الظاهرة، واعتبروها شرخا في جدار المجتمع وعقيدة أفراده، وشددوا على ضرورة تنمية الوازع الديني، للتصدي لهذه الحالات، وكذا العمل على حل مسبباتها التي تتمحور غالبيتها حول الظروف الاقتصادية وانعكاساتها النفسية.

نبدأ مع د. طه أبوكريشة، عضو مجمع البحوث الإسلامية، وعضو هيئة كبار علماء الأزهر، الذي شدد على أن قتل الإنسان لنفسه حرام حرمة ثابتة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ففي القرآن الكريم يقول الله عزوجل في نهي صريح: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء:٢٩-٣٠). وفي السنة النبوية المطهرة نرى كذلك نهيا زاجرا عن قتل الإنسان نفسه، قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم، وعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سكينا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة» (رواه البخاري ومسلم).

حصنوا أبناءكم

وأضاف أبوكريشة: إنه إذا أردنا أن نحد من هذه الحالات التي باتت تقترب من حد الظاهرة في مجتمعاتنا، فعلينا أن نحصن أبناءنا من النوازع والضغوط النفسية السلبية التي تؤدي إلى فعل هذا الأمر المحرم، وذلك بتقوية الوازع الديني والتوعية في مدارسنا ومساجدنا ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وفي الوقت نفسه فإن على علماء الاجتماع والنفس وعلماء الدين أن يبحثوا عن الأسباب التي تؤدي إلى هذا التجاوز الديني الخطير.

كما أشار إلى ضرورة تقديم اقتراحات ووسائل علاج عملية ومنطقية لهذه الظاهرة، معتبرا أن هذا الأمر واجب على الدولة في المقام الأول، فيجب عليها إيجاد فرص العمل لمن لا يجدون عملا، وتوفير العلاج اللازم للمرضى، سواء نفسيا أو جسديا حتى لا يستبد بهم اليأس والقنوط، ويقدموا على الانتحار.

وأوضح أن الابتعاد عن صحيح الدين من الأسباب المهمة لعدم الاكتراث بالإقدام على قتل النفس، فغياب الدين يترك آثاره في النفوس، ويحطم القلوب ويورث القنوط من رحمة الله، فيؤدي ذلك إلى مشاعر نفسية سيئة، تؤثر على عقول ضعاف الإيمان خاصة من فئة الشباب.

وتابع: يجب أن نقوي علاقة الإنسان بخالقه عز وجل، حتى يكون ذلك حصنا يلوذ به كل من يمر بضائقة حياتية، ومن المؤكد أننا إذا صنعنا ذلك فسيعيد الإنسان التفكير ألف مرة قبل أن يقوده الشيطان للتفكير في الوقوع في هذه الكبيرة التي تعد من أكبر الكبائر عند الله عز وجل.

فقدان الأمل

أما د. عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، فيرى أن تزايد حالات الانتحار، خاصة في المجتمعات العربية ليس بظاهرة، وأنه انتشر خلال القرون السابقة في المجتمعات غير الإسلامية، بينما انتقل إلى المجتمعات العربية والإسلامية مع الانفتاح الإعلامي، خلال العقود الأخيرة، مشيرا إلى أنه لا يملك إحصاءات تفيد بارتفاع معدلات الانتحار، لكنه أكد أن تركيز وسائل الإعلام على نشر

٨٠٠ ألف محاولة انتحار سنويا

كشف تقرير لمنظمة الصحة العالمية أن شخصا واحدا يقدم على الانتحار حول العالم كل ٤٠ ثانية، ليصل مجموع محاولات الانتحار سنويا إلى ٨٠٠ ألف.
وذكر التقرير أن الانتحار يحصد أرواح أشخاص أكثر من النزاعات العسكرية والكوارث الطبيعية.
وهذه هي المرة الأولى التي تصدر فيها المنظمة الدولية تقريرا كهذا، إذ قامت بتحليل بيانات أشخاص أقدموا على الانتحار من ١٧٢ دولة، لمدة عشر سنوات.
وحول هذه الظاهرة، قالت المنظمة: إن الانتحار مشكلة صحية ونفسية لا علاج لها، وأكدت عجز الهيئات الصحية العالمية عن مناقشتها، وإيجاد حل لها، مؤكدة ضرورة خفض الانتحار حول العالم بنسبة ١٠ في المائة بحلول عام ٢٠٢٠.
ومن أبرز ما ورد في التقرير ارتفاع نسبة الانتحار بين الذكور مقارنة بالإناث، كما أنها ترتفع في الدول الغنية أكثر من الدول الفقيرة.
وذكر التقرير أن استخدام المبيدات الحشرية هو الوسيلة الأبرز للانتحار، خصوصا في المناطق النائية، لذا تعهدت الحكومات بتطبيق خطط وطنية صارمة لمواجهة هذه الظاهرة، ووقف محاولات الانتحار.

أخبار حالات الانتحار بكثافة، أغرى بعض ضعاف الإيمان إلى الانسياق وراءها، والتخلص من نفسه عند أول ضائقة نفسية أو مادية أو عاطفية تصادفهم.

وأوضح شومان أن ضعف العقيدة وتزايد المشكلات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية أدى إلى فقدان الأمل، ودفع بالبعض إلى إيثار التخلص من مشكلاتهم بالانتحار، مشددا في هذا الصدد على ضرورة التوعية الصحيحة بمبادئ الإسلام التي تحرم قتل النفس.

وتابع: إن الإسلام وفقا للقاعدة الشرعية العامة الداعية إلى حفظ النفس، حرم الانتحار تحريما قطعيا، لأي سبب كان، وأنه ليس من حق الإنسان أن يزهق روحه كتعبير عن ضيق أو احتجاج أو غضب.. مؤكدا أن الانتحار من كبائر الذنوب، وقد بين النبي ﷺ أن المنتحر يعاقب بمثل ما قتل به نفسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسم، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل، فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا».

وأضاف شومان أنه مثلما تقع مسؤولية على علماء الإسلام والدين عامة بتقوية الوازع الديني، وتوضيح حرمة الإقدام على قتل النفس، فإن علماء النفس والاجتماع أيضا يقع على عاتقهم دور محوري في دراسة المشكلات الاجتماعية والنفسية المؤدية إلى الانتحار، وكذا ضرورة الوصول إلى حلول عملية لهذه المشكلات، والتي قد تخفى عن علماء الدين.

كما طالب المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية بالقيام بدورها في التصدي لهذه المشكلة، وتربية النشء وتهيئتهم على الإقبال على إعمار القلب والأرض، رغم أي تحديات وعقبات قد تصادفهم.

إحصائية مصرية: ٢٣٥٥ حالة انتحار خلال العام الماضي

كشفت إحصائية صادرة عن المركز القومي المصري للسموم التابع لجامعة القاهرة عن تزايد أعداد الشباب المصريين المنتحرين، حيث سجل المركز وقوع ٢٣٥٥ حالة انتحار خلال العام الماضي، خاصة بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٢ و٢٣ عاما، طبقا للإحصاءات الرسمية، بسبب ضائقات مادية، أو حالات نفسية.

كما رصد د. ياسر ثابت في كتابه: «شهقة اليائسين» ظاهرة الانتحار في مصر والوطن العربي، وأكد أن الفئة العمرية الأكثر إقبالا على الانتحار في مصر هي ما بين ١٥ و٢٥ عاما، حيث تبلغ نسبتهم ٦٦,٦ في المئة من إجمالي عدد المنتحرين في كل الفئات. تأتي بعد ذلك نسبة المنتحرين من المرحلة العمرية ما بين ٢٥ و٤٠ عاما، حيث تمثل النسبة الأكبر لانتحار الرجال. ومعظم حالات انتحار الرجال في هذه المرحلة العمرية ترجع إلى الظروف الاقتصادية، وعدم القدرة على الإنفاق على الأسرة.

المرتبة الثالثة في إحصائية المنتحرين جاءت ممثلة في الفئة العمرية من ٧ إلى ١٥ عاما. وكانت البنات المنتحرات في هذه المرحلة ثلاثة أمثال الأولاد. وبلغت نسبة هؤلاء الأطفال المنتحرين ٥,٢١ في المئة من إجمالي المنتحرين في مصر.

أما عن طرق الانتحار، فتختلف بين النساء والرجال، إذ إن ٩٠ في المئة من النساء يستخدمن في انتحارهن الأقراص المنومة، أو سم الفئران، أو إلقاء أنفسهن من أماكن شاهقة، أو في النيل، بالإضافة إلى لجوئهن إلى حرق أنفسهن.

أما الرجال فينتحرون عادة بالشنق، أو قطع شرايين اليد، أو إطلاق النار على أنفسهم أو الحرق.

ليست ظاهرة

على مستوى علم الاجتماع، ترى د. إنشاد عز الدين، أن الانتحار في المجتمعات العربية مازال في إطار الحالات الفردية، ولا يشكل ظاهرة عامة، موضحة أن قتل النفس موجود منذ الأزل، وله أسبابه وظروفه التي تختلف من شخص إلى آخر.

وأضافت: إن الظاهرة حتى يطلق عليها ظاهرة، لابد من توافر عدة مقاييس، أهمها توافر نسبة مئوية واضحة تقارن بالعدد الأصلي للسكان، إضافة إلى تنفيذ مقياس الشريحة الطبقية فيما يخص الأعمار المطبق عليهم نفس الحالة، ومقياس الزمن والفترة، وعلى سبيل المثال إذا وجدنا أنه بمعدل يومي أو أسبوعي ينتحر لدينا عدد معين واضح، يمثل نسبة واضحة من عدد السكان، هنا يمكن القول: إننا أمام ظاهرة لابد من دراستها.

وتابعت: المجتمعات العربية لديها التزامات دينية وعادات وتقاليد، لا تسمح بانتشار فكرة الانتحار، وهذه الالتزامات لا تقتصر على ديانة واحدة، لكنها مرفوضة من جميع الديانات.

واستشهدت بواقعة انتحار شاب على عمود لوحة إعلانات في أحد شوارع القاهرة، قائلة: «لا تحدث مثل هذه الحالات بصورة مستمرة، إنما هي حالات متباعدة زمنيا، ولا

يمكن وصفها بأنها جماعية، وهذا لا يعني التقليل من خطورتها، أو التقاعس عن علاجها، بل يجب على الجميع بداية من الأسرة وحتى الحكومة التصدي لهذه الحالات، بحل الأسباب المؤدية إلى قتل النفس.

تفكك اجتماعي

بينما ترى د. ثريا عبدالجواد، أستاذ علم الاجتماع، أن العنف تزايد في بعض المجتمعات العربية، خلال السنوات الأخيرة، كما تزايدت الاضطرابات النفسية نتيجة تفاقم المشكلات الاقتصادية والأسرية، ولكن لا يمكن الجزم بأن هناك دراسات موثوقة أكدت زيادة معدلات الانتحار للحد الذي وصفه بالظاهرة، بل يمكن القول: إن هناك تزايدا في معدل حالات الانتحار الفردية.

وأضافت: إنه في كل حالات التطور والتحول الاجتماعي تصاب المجتمعات بنوع من التفكك الاجتماعي، يمكن أن ينجم عنه هذه الحالات، ومن هذا المنطلق لا يمكن الجزم بأن حالات الانتحار التي وقعت في بعض البلدان العربية خلال الفترة الأخيرة ناجمة عن ظروف سياسية فقط، أو اجتماعية فقط، لكن هناك أكثر من سبب يؤدي إلى ذلك، ولا يمكن الجزم بالأسباب الحقيقية، دون الخضوع لدراسة منهجية.

وحذرت من أن وسائل الإعلام هي من ضخمت حالات الانتحار، حتى صنعت منها ظاهرة عامة، ومحاولة



استغلال ذلك لتحقيق مكاسب خاصة.

أما على مستوى علم النفس، فأكد د. هشام بحري، أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر، أن الانتحار يعتبر من حالات العنف الخطيرة التي تصيب المجتمعات، فعندما يغضب الإنسان من شخص قد يلجأ للاعتداء عليه بعد تفكير طويل، لكن في حالة المنتحر، فغضبه ينفث عنه في جسده ونفسه، فيقطع شرايين يده أو يلقي بنفسه من مرتفع، أو يحرق أو يشنق نفسه.

وشدد على ضرورة إعادة مفهوم قيمة الحياة لدى الإنسان، بالإضافة إلى قيمة الخوف من الله، وعدم التجرؤ على معصيته، مشيرا إلى أن الانتحار حتى الآن لا يمكن وصفه بالظاهرة في المجتمعات العربية، لكن ما يمكن الجزم به أن هناك زيادة في معدلاته نتيجة أسباب متباينة، ومنها التسليط الإعلامي على حالات الانتحار والتي تغري البعض بالإقدام عليه ربما بدافع لفت الأنظار.

وأوضح أن قرار الانتحار صعب جدا، ولا يمكن أن نقول: إن أعداد الإناث أو الذكور أكثر اتخاذا للقرار، لكن يمكن القول بأن الإناث أكثر عرضة للضغوط النفسية والاكتئاب والضيق، لأنهن يتعرضن لأكثر من جهة ضغط.

وأشار إلى أن فقدان الأمل في المستقبل، وانتشار العنف والاستهانة بالدم من الأسباب التي ضاعفت نسب الانتحار.

وطالب المجتمع بكل مؤسساته بالعمل على احتواء مصادر الضغط على الشباب والحد منها، بالإضافة إلى زرع ثقافة الذهاب إلى الطبيب النفسي عند التعرض لأزمة يصعب على الإنسان تجاوزها بمفرده.

حوار بيني وبين ملحد

الشيخ محمد الغزالي



دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسي، وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدفع بالحجة الساطعة ما يورد من شبهات..

قال: إذا كان الله قد خلق العالم، فمن خلق الله؟ قلت له: كأنك بهذا السؤال، أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لابد لكل شيء من خالق!!

قال: لا تلفني في متاهات، أجب عن سؤالي؟ قلت له: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي إن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلا، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟ إنها قضية واحدة، فلم تصدق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلها ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه..!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس وجوده، فلا نستطيع أن ننكره..!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها؟ أم يسيرها قائد بصير..!!

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنت أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنا أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها. فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين.

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين..؟

قلت: إنني أسترسل معك، لأكتشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إنني- أنا وأنت - ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندسا أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت في مواضعها، وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها...

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمرا صناعيا يدور في الفضاء، فقلت أنت: انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه. وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر.

إن الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إلي الحق الذي لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذي لاشك فيه، وإن كان كفار عصرنا مهرة في شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة، في الوقت الذي يصفون أنفسهم بالذكاء والتقدم والعبقرية.

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلا نستطيع به

البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر، ونستنتج، ونناقش، ونعتقد..

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبي، كما نرفض الدعاوى الفارغة.

وإذا كان الناس يهزأون بالرجعيين عبيد الماضي، ويتندرون بتحجرهم الفكري، فلا عليهم أن يهزأوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة.

لكننا - نحن المسلمين - نبني إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني في نواحي الكون كله.

في صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم وجدت تنويها بوظيفة العقل، اتخذ ثلاث صور متتابعة في سلم الصعود.

هذه السورة هي سورة الزمر، وأول سورة تطالعك هي إعلاء شأن العلم، والغض من أقدار الجاهلين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر:٩).

ثم تجيء الصورة الثانية، لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتة، أو عادة حاكمة، بل هو إنسان يزن ما يعرض عليه، ويتخير الأوثق والأزكى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ (الزمر:١٧- ١٨).

ثم يطرد ذكر أولي الألباب للمرة الثالثة، في ذات السياق، على أنهم أهل النظر في ملكوت الله، الذين يدرسون قصة الحياة في مجاليها المختلفة، لينتقلوا من المخلوق إلى الخالق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ (الزمر:٢١).

وظاهر من الصور الثلاث في تلك الصفحة من الوحي الخاتم أن الإيمان مبتوت الصلة بالتقليد الأعمى، أو النظر القاصر، أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق في الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة، توزعت على أوراق وأكمام، حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله، ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى زرعا جديد الجمال والمذاق، تهتز به الحقول والحدائق، من صنع ذلك كله؟

قال صاحبي - وكأنه سكران يهذي - الأرض صنعت ذلك!

قلت: الأرض أمرت السحاب أن يهمي، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن يختزن الكربون؟

قال: أقصد الطبيعة كلها في الأرض والسماء!

قلت: إن طبق الأرز في غذائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر في هذا الخلق؟ ومن المسؤول عن جعل التفاح حلوا، والفلفل حريفا؟ أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال: لا أعرف، ولا قيمة لهذه المعرفة!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر، ومشيئة تصنف؟

فأين ترى العقل الذي أنشأ، والإرادة التي نوعت، في أكوام السباخ، أو في حزم الأشعة؟

قال: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء، ولا نعرف الأصل، ولا التفاصيل!

قلت له: أشرح لكم ما تقولون!

تقولون: إنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب في أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة، وكثرة التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية في شكلها البدائي، ثم شرعت تتكاثر وتنمو، حتى بلغت ما نرى!

هذا هو الجهل الذي أسميتموه علما، ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به! أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائيا، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنحت ولن تعود! وذلك كله فرار من الإيمان بالله الكبير!

قال- وهو ساخط - أفلو كان هناك إله كما نقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء، وضيقا يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالا يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين... الخ.

قلت: لقد صدق فيكم ظني، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية، أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة! ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون، وفق ما يصيبهم من عسر ويسر ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج:١١).

قال: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا، أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة، ثم نصدر حكمنا الذي ترفضه.

قلت: أفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا، ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه، لابد أن يبتلى بما يصقل معدنه، ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح

المؤمنون في التغلب على العقبات التي ملأت طريقهم، وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء، فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة، ليقول لهم: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الزخرف:٦٨).

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قلت: إن المرء يسهر الليالي في تحصيل العلم، ويتصبب جبينه عرقا، ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب، وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد في الحياة القصيرة التي نحياها على ظهر الأرض، فأي غرابة أن يكون ذلك هو المهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال: مستهزئا - أهذه فلسفتكم في تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق، وتصبير الجماهير عليها؟

قلت: سأعلمك بتفصيل أوضح حقيقة ما تشكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا على حره، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد: «تكافل بين أجزاء الوجود، فلا معنى للشجاعة بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها، وترجح عليها.. وقد يطّرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة، كما يطرد في فضائلنا النفسية، ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري، ما لم نشعر قبله بلهفة الظمآن، ولا يطيب لنا منظر جميل، ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح».

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة، ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان مما لا يكترث به آخر، ولله في خلقه شؤون، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التي لا ريب فيها.. إلا أن هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد: «لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة، قبل استيعاب وجود العدل في تصريف الإرادة الإلهية، إن البقعة السوداء في الصورة الجميلة وصمة قبيحة إذا حجبنا الصورة، ونظرنا إلى تلك البقعة بمعزل عنها، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لونا من ألوانها التي لا غنى عنها، أو التي تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يصيبنا، ثم نعود فنضحك ونغتبط بما كسبناه منه بعد فواته».

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي يتعرض لها الخلق.. أما القسم الثاني من الشرور التي نشكو منها يا صاحبي، فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مستنكرا: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى! فكيف تتهمنا؟

قلت: أنتم مسؤولون، فإن الله وضع للعالم نظاما جيدا، يكفل له سعادته، ويجعل قويه عونا لضعيفه، وغنيه برا بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء، واقتراف المظالم واعتداء الحدود، ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل:٩٧).

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جل شأنه ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الشورى:٣٠).

إن الصدّيق رضي الله عنه جرد جيشا لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقر الحقوق، وكبح الأثرة، ونفذ الإسلام. فإذا تولى غيره فلم يتأس به في صنيعه، كان الواجب على النقاد أن يلوموه، لا أن يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس.

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجرأتم على الله، واتهمتم دينه وفعله!

ومن خسة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض!

وبدلا من أن يقوم بواجبه في تغيير الفوضى، وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين!

إنكم معشر الماديين مرضى، تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج..

وعدت إلى نفسي بعد هذا الحوار الجاد أسألها: إن الأمراض توشك أن تتحول إلى وباء، فهل لدينا من يأسو الجراح، ويشفي السقام؟ أم أن الأزمة في الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟

• المقال منشور في «الوعي الاسلامي» العدد ٩٩، ربيع الأول ١٣٩٣هـ - الموافق أبريل ١٩٧٣م.

«ميليشيا الإلحاد»

كتاب يصف الداء والدواء

التحرير

الإلحاد هو المذهب الفلسفي الذي يقوم على فكرة عدمية، أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى، فيدعي الملحدون بأن الكون وجد بلا خالق. وقد عرفت موجة الإلحاد الجديد بهذا الاسم سنة ٢٠٠٦م في مقالة لجيري وولف، الكاتب الشهير. ولعل من أبرز الكتب التي تناولت هذا المذهب في أحدث تجلياته كتاب «ميليشيا الإلحاد» لعبدالله بن صالح العجيري، الباحث في قضايا الفكر المعاصر. وهذا الكتاب من أفضل الكتب المعاصرة التي تناولت النوازل العقدية المعاصرة.

ومن يطالع هذا الكتاب، الذي أصدره العام الماضي مركز تكوين، وفقا للكاتب أسامة شحادة على موقع الراصد، يجد أنه محاولة لتعريف الدعاة والمشايخ وطلبة العلم والمربين والمفكرين، بأهم التطورات التي لحقت بالخطاب الإلحادي في الأدبيات الفكرية والعقدية الغربية، كما يقول العجيري في المقدمة، كاشفا عن تحول الإلحاد من قضية فردية إلى تشكيل ميليشيات إلحادية فكرية منظمة على إثر أحداث ٩/١١ في أميركا، على اعتبار أن هذا الحادث كان الدين هو الدافع خلفه، وأنه حان الوقت لمحاربة الدين منبع الشرور، وعدم الاكتفاء بتخطئة الدين كحال الإلحاد القديم!

ويوضح العجيري في مؤلفه المهم أن الإلحاد الجديد قد تميز بالحماسة في الدعوة له بعدما كان الإلحاد شأنا ذاتيا. ومن مظاهر هذه الحماسة للدعوة للإلحاد تأليف سيل من الكتب الإلحادية، وتصدرها قوائم الكتب الأكثر مبيعا. ولم تنج كتب الأطفال من هذه الموجة، حيث كتبت عدة مؤلفات إلحادية للأطفال والمراهقين، وأيضا امتدت هذه الموجة إلى البرامج الفضائية والإذاعية، وحتى برامج رسوم الأطفال طالتها هذه الموجة، وتوج ذلك بظهور عدة مؤسسات للملحدين، ترعى هذه الدعوة، وتعمل على الدعاية لها من خلال اللوحات الإعلانية على الطرقات أو المنتجات المختلفة من الملابس والأدوات. كما يتميز الإلحاد الجديد بعدائية الخطاب، حتى قال أحدهم: «ذهبت أيام الإلحاد المؤدب»، وذلك باستخدام أبشع الصفات والنعوت تجاه المقدسات. وكذلك يربط الملحدون الجدد كل المشاكل والشرور في العالم بمتدينين كانوا وراءها، ومن ثم الخروج بقانون «كل الشرور دينية»، لدرجة أنهم اعتبروا الاتحاد السوفييتي متدينا، ولذلك كان متخلفا ثم انهار!

كما أصبح الإلحاد الجديد موضة، وأصبح لرموزه معجبون وعشاق يتابعون أخبارهم ويعلقون صورهم ويطلبون توقيعاتهم، مما جعل الحالة تكاد تصل إلى التقديس أو علاقة المريد بشيخه!

لكن كيف يمكن علاج ومكافحة الإلحاد؟ يؤكد العجيري على ضرورة تحري الصدق والعدل والموضوعية في تناول الإلحاد؛ حتى لا يكون هذا مدخلا للطعن على الإسلام، مع عدم تسطيح الظاهرة الإلحادية، وذلك بعدم فهم شبهة الملحد والإجابة بجواب ناقص.

كما يجب تجديد الخطاب العقدي لعلاج الإلحاد، لأن الإلحاد المعاصر تطور عن الإلحاد القديم، وأصبح يعتمد على ركائز جديدة، لا يصلح معها العلاج القديم، ولابد من الاستفادة من العلوم العصرية لإبطال شبه الملاحدة، وتقديم رؤى نقدية هجومية للإلحاد، وعدم الاكتفاء بالدفاع، لأن الإسلام والإيمان هما الحق، والإلحاد هو الباطل. وأخيرا، يجب تأصيل المنهج الشرعي للتعامل مع الشبه، حتى لا يقع الضرر ويتأثر المسلم بالشبهات بدلا من نقضها، وترسيخ الحضور القرآني في قضايانا الفكرية، وهو ملمح مهم يعطي المسلم قوة عقدية في طرحه.

واقع المكتبة الإسلامية

أوضح المؤلف القصور الكبير والملحوظ في التعاطي مع ملف الإلحاد، على الرغم من أهميته! كما أشاد بمن لهم جهود وإسهامات في الوقوف ضد الإلحاد وأفكاره من المؤسسات والأفراد، فمن الشخصيات التي ذكرها: الشيخ جعفر شيخ إدريس، والشيخ محمد العوضي. ومن المنتديات على الإنترنت التي اهتمت بهذا الأمر «منتدى التوحيد». كما ذكر أيضا أن هناك بعض المراكز الناشئة والمختصة في هذا المجال كـ «مركز براهين».

دراسة تجديدية موجزة في علم الكلام

وجود الله بين الإيمان والإلحاد

د. يحيى رضا جاد
باحث أكاديمي

هذا مقال استخلصناه بالكامل من مجموع الكتب المذكورة للأستاذ الكبير د. مصطفى محمود، أسكنه الله الفردوس الأعلى من الجنة: رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص (٢١، ٢٢، ٢٣، ٨٠، ١٠٥، ١١٠، ١١١). ولغز الحياة، ص (٥٤). والغد المشتعل، ص (١٧٥). والإسلام: ما هو؟، ص (٤٠، ٤١، ١٠٢، ١٠٩، ١١٠، ١١١). وعظماء الدنيا وعظماء الآخرة، ص (٩٦)، وحوار مع صديقي الملحد، ص (٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣٦). وكلها طبعة دار أخبار اليوم - القاهرة.

ولنجلس الآن في رحاب د. مصطفى محمود رحمه الله.

هناك وحدة في خامة الوجود ومادته الأولية التي بني منها كل شيء.. وحدة في النسيج والقوانين والسنن.. فكل صنوف الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الهيدروجين والأكسجين، ولهذا تتحول إلى فحم بالاحتراق.. وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها، إذ هي الوحدة التكوينية الأولى في الجميع، تتنفس وتتكاثر وتولد وتموت بنفس الطريقة، بل هي ذاتها - بنفس المواصفات - في كل شيء حي، مع تغير طفيف، لتناسب مهمة كل نوع.. والخطة التشريحية في الجميع واحدة. فالقلب هو دائما نفس القلب بغرفه الأربع، في الحوت كما في الفأر، كما في القرد، كما في الوطواط كما في الإنسان.. والدورة الدموية والشرايين لها نظائرها في كل نوع.. والجهاز العصبي هو نفسه في الكل.. والجهاز العضلي بعضلاته، خطته واحدة في الكل.. والهيكل العظمي بعظامه، عظمة عظمة، كل عظمة لها نظيرتها، مع اختلافات طفيفة في الشكل والحجم والعدد، لتلائم وظيفة وحجم ووزن كل حيوان.. والجهاز التناسلي هو نفسه في الجميع.. والجهازان الهضمي والبولي كذلك.

إن جميع صنوف الموجودات مردودة إلى خطة واحدة، وخامة واحدة، أي إلى (فتلة حريرية واحدة)، غزل منها الكون في تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة.. والخلاف بين صنف وصنف، وبين مخلوق ومخلوق، هو خلاف في العلاقات الكمية والكيفية، في المعادلات والشفرات التكوينية، لكن الخامة واحدة، والخطة واحدة.. وهذا هو سر الشعور بالصلة بين (الإنسان) و(الحيوان)، وبين (الوحش) و(مروضه)، وبين (الأنف الذي يشم) و(الزهرة العطرة)، وبين (العين)



و(منظر الغروب البديع).

والنتيجة الطبيعية التي تقفز إلى الذهن أن خالق جميع هذه اللوحات واحد. إذ الوحدة بين الموجودات تعني وحدة خالقها.. إن كل شيء في هذا الوجود، من الذرة إلى المجرة، ينطق بالهندسة المحكمة والتدبير البديع، ويشهد بأن الله حاضر لا يغيب ولا ينام ولا يغفل ولا يسهو.. ومن ثم، لا يظلم مثقال ذرة.

أما القول بأن كل هذا الاتساق والانسجام والنظام قد حدث صدفة أو اتفاقا، أو حدث بذاته، فهو السذاجة بعينها. كالقول بأن انفجارا في مطبعة قد أدى إلى أن تصطف حروفها على هيئة قاموس محكم!

ناموس الوجود

إننا نعلم بالبداهة والفطرة - اللتين ولدنا بهما - أن (العدل والنظام) هما (ناموس الوجود)، وأن (المسؤولية) هي (القاعدة).

ومن البديهي تماما أن نتصور - بناء على ما سبق - أن الظالم الذي أفلت من العقاب في الدنيا، وأن القاتل الذي أفلت من القصاص في الأرض، كلاهما - وأشباههما - لابد من محاسبته ومعاقبته، لأن الوجود الذي نعيش فيه يفصح عن النظام والانضباط من أصغر ذرة إلى أكبر فلك، والعبث غير موجود - إلا في عقولنا وأحكامنا المنحرفة-.

إن فكرة العدل والنظام وضرورتهما تقودنا إلى ضرورة وجود عالم آخر، يتم فيه العدل والنظام والمحاسبة بشكل عام كامل تام، بلا حيف ولا ظلم ولا محاباة.. نحن نموت في سبيل تحقيق العدل، وفي النهاية لا يتحقق أبدا ذلك العدل - المطلق التام الكامل - ، وهذا يعني أنه سوف يتحقق بصورة ما لاشك فيها، لأنه حقيقة مطلقة فرضت نفسها

على عقولنا وضمائرنا.. وإلا ما ضحى أحد في سبيله.. وإذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء، فكذلك الظمأ إلى العدل – أي المطلق الكامل التام – يدل – قطعا وحتما – على وجود العدل.. ولا عدل – بشكل تام كامل – في الدنيا، فذلك دليل – ولابد – على وجود (آخرة) يحاسبنا فيها (إله عادل).. يحاسبنا فيها (العدل) – جل في علاه – بـ (العدل).. ولو كانت حياتنا عبثا ونهاياتها لا شيء – كما يتصور الملحدون – فلماذا نتحرق شوقا إلى الحق والعدل؟! ولماذا نفتدي هذه القيم بالدم والحياة؟! إنه لولا تيقن نفوسنا جميعا من تحقق تلك الأمور في الآخرة على يد إله عادل، لما أقدمنا على ما فعلناه أبدا. إن الحياة دون يقين بوجود (إله عادل) هي عبث صرف، بلا معنى، وبلا سند، وبلا رصيد.. وهي عذاب بلا حكمة، وألم بلا عوض، ومغامرة بلا عائد، ومشروع بلا ضمان ولا تأمين.

علم تجريبي

قد يقول قائل: إن النظرة العلمية (التجريبية) لا تعترف بوجود الله، إذ ليس من العلم الإيمان بالغيب.. إن مجال العلم هو المحسوس.. أرنا الله جهرة: نعترف به.

فأقول: كذبت.. إن نصف العلم (التجريبي) الآن قد أصبح غيبا.. فنحن نؤمن بالجاذبية، ولكن أحدا لا يعرف كنهها.. حتى نيوتن نفسه – مكتشف الجاذبية – يقول في خطاب إلى صديقه بنتلي: «إنه لأمر غير مفهوم أن تجد مادة لا حياة فيها، ولا إحساس، تؤثر في مادة أخرى وتجذبها، مع أنه لا توجد بينهما أية علاقة»..

فها هي حقيقة علمية نسلم بها جميعا، وهي غيب في غيب.. والإلكترون، والموجات اللاسلكية، والذرة، والنيوترون: كلها أمور – وغيرها كثير – لم نر منها شيئا، ومع ذلك نؤمن بوجودها، اكتفاء بآثارها، ونقيم عليها علوما متخصصة، ونبني لها المعامل والمختبرات والأجهزة، وهي غيب في غيب بالنسبة لحواسنا.. أفي ذلك شك؟!

فأولى بنا أن نؤمن بالغيب وعالِمه، وعالِمه الله جل جلاله الذي نرى آثاره في كل لمحة عين، وكل خفقة قلب، وكل لحظة تأمل في الوجود.

سؤال فاسد

قد يقول قائل: أنتم تقولون: إن الله موجود، وعمدة براهينكم هو قانون السببية الذي ينص على أن لكل صنعة صانعا، وأن لكل خلق خالقا، وأن لكل موجود موجدا. النسيج يدل على النساج، والرسم على الرسام، والنقش على النقاش، والكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الإله القدير الذي خلقه.. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل: ومن خلق الخالق؟! ألا يقودنا نفس استدلالكم إلى هذا تبعا لقانون السببية؟!

فأقول: سؤالك فاسد، فأنت تسلم بأن الله خالق، ثم تقول: من خلقه؟! فتجعل منه خالقا ومخلوقا في نفس الأمر.. هذا منتهى التناقض!

والوجه الآخر لفساد السؤال: أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته.. وهذا خلل منطقي. إذ السببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان، أما الله الذي خلق الزمان والمكان فهو بالضرورة فوق الزمان والمكان، ولا يصح أن نتصوره مقيدا بالزمان أو المكان، ولا بقوانينهما..

وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التي تتحرك بزمبلك، وتتصور أن الإنسان الذي صنعها لابد أنه هو الآخر يتحرك بزمبلك.. فإذا قلنا لها: بل هو يتحرك من تلقاء نفسه (أي بإقدار الله له على ذلك)، قالت: مستحيل أن يتحرك شيء من تلقاء نفسه! إني أرى في عالمي كل شيء يتحرك بزمبلك!..

وأنت بالمثل: لا تتصور أن الله موجود بذاته دون موجد، لمجرد أنك ترى كل شيء حولك في حاجة إلى موجد.

بل إن لي أن أقول (في لمحة): إن سؤال «من خلق الخالق؟» سؤال فاسد، لأن الله لا يحتاج إلى دليل، بل إنه سبحانه هو الدليل الذي يستدل به على كل شيء؛ فهو الجوهر الذي ندرك به اختلاف الظواهر، وهو الحقيقة التي نكشف بها الباطل، وهو البرهان الذي ندرك به حكمة عالمنا الزائل.. إن العقل الذي يطلب برهانا على وجود الله هو عقل فقد التعقل، إذ النور هو الذي يكشف لنا الأشياء، ويدلنا عليها، ولا يمكن – بحال من الأحوال – أن تكون الأشياء هي دليلنا على النور، وإلا نكون قد قلبنا الأوضاع، لأن الله حقيقة فطرية لا تحتمل الجدل، بله التكذيب.. ولهذا كانت حقيقة مطلقة تقبلها العقول السوية التي لم تفسدها لفلفات السفسطة، والقلوب البكر التي لم تفقد عذريتها، والفطر السليمة التي لم تخدش نقاوتها.

الربوبية

قد يسأل سائل مستنكرا: أليس عجيبا ربكم ذلك الذي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، فيأخذ بناصية الدابة، ويوحي إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلا أحصاها عددا، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وإذا سقطت ذبابة في طعام فهو الذي أسقطها! وإذا امتنع المطر فهو الذي أمسكه، وإذا هطل فهو الذي أهطله.. إنكم لتشغلون إلهكم بالكثير التافه من الأمور!

فأقول: أيكون الرب في نظرك أجدر بالربوبية لو أنه (أعفى نفسه من هذه المسؤوليات)، و(أخذ إجازة) و(أدار ظهره للكون) الذي خلقه، وتركه يخبط خبط عشواء! هل الرب الجليل

في نظرك هو رب (عاطل) (مغمى عليه): لا يسمع ولا يرى ولا يستجيب، ولا يعتني بمخلوقاته؟!

ثم من أين لك بأن موضوعا ما تافها لا يستحق عناية الله ولا رعايته، وأن آخر مهم خطير الشأن؟! هل تظن نفسك (وصيا على الله) تحدد له اختصاصاته.. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ثم إن الذبابة التي تبدو تافهة في نظرك يمكن أن تغير التاريخ بسقوطها التافه ذلك. إنها يمكن أن تنقل الكوليرا إلى جيش بأكمله، فترجح طرفا على



طرف في معركة تتغير بعدها موازين التاريخ كله.. إن أتفه المقدمات يمكن أن تؤدي إلى أخطر النتائج، كما أن أخطر المقدمات يمكن أن ينتهي إلى لا شيء.. وعالم الغيب وحده هو الذي يعلم قيمة كل شيء.

إن الإله الجدير بالألوهية حقا هو الإله الذي يحيط بكل شيء علما، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو الإله السميع المجيب المعتني بمخلوقاته.

شواهد

وقد يسأل سائل: لم لا يباشر الله جميع الشؤون بذاته، مادام بيده مقاليد كل شيء، ومادام يرجع إليه الأمر كله؟! لماذا لا يفعل بذاته دون وسائط؟!

فأقول: إن الأسباب سنة الله في خلقه.. حيث شاء الله بكرمه أن يتجلى باسمه الشافي على الطبيب ليعالج مرضاه، وباسمه العليم على المعلم ليوسع أفق تلاميذه، وباسمه البديع على الفنان ليمتع الناس، وباسمه الرزاق على التاجر ليوفر للناس احتياجاتهم، وباسمه القوي على حملة العرش تكريما لهم.. فتلك كلها - ومثلها كثير - (شواهد تكرم منه علينا) لا (شواهد حاجة إلينا).

ثم إنه سبحانه إذا أراد أن يعالج الجبل - مثلا - سلط عليه وسائط مادية - كالرياح والأمطار والسيول والإنسان - مثله لتشكيله ونحت الكهوف والسدود فيه (٨).

والأنبياء بحكم طبيعتهم البشرية، لا يحتملون أنوار الذات الإلهية، ولا يطيقون حضرتها - تذكر حال الجبل الذي أصبح دكا، وحال موسى الذي خر صعقا - فاستدعى التواصل بين الطبيعتين البشرية والإلهية اتخاذ البرازخ، فكان جبريل هو البرزخ والوسيط بين الله وجميع أنبيائه.

وكذلك محمد ﷺ، فهو بابنا إلى الفهم عن الله، لأنا بحكم طبيعتنا لسنا مؤهلين لتلقي وحي السماء.

وكذلك استدعى التواصل بين طبيعة الخالق وطبيعة المخلوقات اتخاذ البرازخ، فكانت الوسائط المادية - التي هي من جنس المخلوق مخلوقة مثله -، حتى يتحمل المخلوق معالجة الخالق له.

إن الوسائط والبرازخ من سننه في كونه - مثلما الأسباب -، لتفاوت مقامات (الألوهية) و(البشرية)، و(الخالقية) و(المخلوقية).

إقرار

وفي الختام أتساءل متعجبا غاية العجب: إذا كان الواحد منا مؤمنا بوجود الله، وبأنه أحد لا سواه، وبأنه هو الضار النافع لا غيره، فلماذا يمد اليد إلى غيره متزلفا متملقا منافقا؟!

ولماذا يكدس المال والعقار إن كان يعلم حقا أن الله هو المالك للأرض وما عليها، وهو الوارث للجميع؟! ولماذا يكذب والله سميع؟! ولماذا ينافق والله حسيب؟! ولماذا يسرق والله بصير؟! ولماذا يخون والله رقيب؟! ولماذا يتخفى والله شهيد؟!

إن الإقرار بوجود الله: (عمل) لا مجرد (تمتمة) و(حمحمة).. اللهم بلغت.. اللهم فاشهد!

عدنان النحوي رحمه الله في موكب النور

عبدالعزيز بن صالح العسكر
كاتب سعودي

كانت بلدة صفد في فلسطين نقطة انطلاق لشاعرنا، فعلى أرضها ولد، وفي قلعتها تربى، وبين بساتينها الوارفة نشأ من أسرة كريمة تنتسب إلى عالم جليل اشتهر بين الناس بصفته العلمية وعرف بالنحوي.

تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في صفد، وحصل على دبلوم دار المعلمين عام ١٩٤٨م من الكلية العربية في بيت المقدس، وبعد نكبة عام ١٩٤٨م هجر هو وأهله وأبناء بلده فاستقر به المقام في دمشق، فعمل في التدريس فيها خمس سنوات، ثم انتقل إلى القاهرة ودرس الهندسة في جامعة القاهرة وحصل على شهادتها سنة ١٩٦١م، ثم حصل على الماجستير، ثم الدكتوراه في مجال الاتصالات الكهربائية من أميركا عام ١٩٨٥م.

والناظر في تخصص الدكتور عدنان الدراسي يجده بعيدا كل البعد عن الأدب؛ وأنا أجزم أنه لا رابط بين الهندسة وبين الأدب، وبخاصة الشعر!

لكن الأمر عند شاعرنا، كما وصفه الدكتور محمد مصطفى هدارة رحمه الله في قوله في مقدمة ديوان: «الأرض المباركة» للنحوي، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م: «وما من شك في أن عدنان نشأ مفطورا على الشعر، ولم يبعد عنه لحظة واحدة في كل أدوار حياته، حتى عندما اتجه إلى دراسة الهندسة، فالشعر عنده ليس معاناة احتراف، ولا محاولة لإثبات وجود في كل مناسبة تسنح، وليس مطية ذلولا يتسلى بركوبها في رحلة الحياة، وإنما هو نبض وجدانه، ومعاناة عاطفته، وفيض مشاعره، وذوب فكره. إنه يسري في جسده مسرى نفسه، فليس عنه غناء، وليس منه بد».

إن هم التفكير في الأمة والدعوة إلى العمل لمستقبلها وإنهاض الهمم لا يفارق شاعرنا برهة من الزمن؛ فهاهو على سرير المرض في لندن لإجراء عملية في القلب عام ١٤٠٢هـ، وعاد ابنه بلال إلى الرياض فنظم قصيدة منها قوله:

ذكرناك ما بين المروج ورفقة
من الأهل والأصحاب والخلصاء
وأنداء أنسام وحلو غرائس
وخفق ضلوع في صفي دعاء
ومن يصدق الرحمن ينح لمرتقى
عزيز وعقبى نعمة وجزاء
أألهو وفي لبنان هول مجازر
وصرخة أيتام ورجع نداء
ومكر (لريجان) و(بيغن)عاصف
ليحصد من أهل ومن ضعفاء



كان نعم الصديق. شاعر طبع له أكثر من عشرة دواوين شعرية، وأكثر من ثمانين كتابا في الأدب والنقد، وجمع رصيدا ضخما من التجارب في الحياة؛ فابتلي بالطرد من الوطن، وبفقد الولد، وعاش آلام أمته وأعداؤها ينهشون جسدها قطعة قطعة، وعمل في التدريس زمنا.. أديب وناقد بهذه القامة لا يمكن أن تفيه حقه وحق أدبه سطور قليلة كهذه.

بقي أن أشير إلى أن «موكب النور»، الذي أكملت به عنوان هذا المقال، مستعار من اسم أحد دواوين شاعرنا، ولقد وجدت أن أصدق عنوان لطريق شاعرنا الذي سلكه وسار فيه حاملا لرسالته هو موكب النور، وفي ذلك الموكب انطلق من «الأرض المباركة»، وقد واجه في طريقه «جراح على الدرب»، وكان يرى في الأحداث التي تمر بأمته ووطنه «حرقة ألم وإشراقة أمل»، وفيها «عبر وعبرات» .. وكان من نتيجة معاناته واستجابة للواجب الذي يحمله بصفته أديبا وشاعرا مسلما أن نظم أكثر من عشر ملاحم شعرية مطبوعة.





المسلمون في أوروبا الشرقية(٢-٢)

(خلا الجمهوريات السوفييتية)

د. علاء الدين سيد أغا
باحث أكاديمي سوداني

سبق أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا المقال بعض المقدمات المتعلقة بجغرافيا الجمهوريات السوفييتية وتاريخها، وفي هذا الجزء نتحدث عن علاقتها بالخلافة العثمانية وجزئيات أخرى.

الدولة العثمانية والشريعة الإسلامية

أسلمت الدولة العثمانية نفسها إلى الدول الأوروبية، وإلى روسيا على وجه الخصوص، منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك واضح من المعاهدات التي عقدتها مع بعض الدول الأوروبية، حيث تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كثير من مظاهر قوتها التي كانت تتعامل من خلالها مع تلك الدول، ففي معاهدة سيتفاتورك، التي عقدتها الدولة العثمانية عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م مع النمسا، تنازلت بموجبها عن الجزية التي كانت تدفعها لها النمسا. وفي معاهدة كوجوك فينارجة، التي عقدتها الدولة العثمانية مع روسيا عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م من عهد السلطان عبدالحميد الأول ١٧٧٣ - ١٧٨٩م، سمحت الدولة بموجبها لممثلي روسيا في إسطنبول بتوفير الحماية للمسيحيين من رعايا السلطان، كما أتيح لروسيا تعيين قناصل لها في كل أنحاء الدولة العثمانية، ولم تعط الدولة مثل هذا الحق في تعيين ممثلين في ولاياتها (١).

وواضح من هذه المعاهدات المتتالية ما سيتمخض عنها بالنسبة إلى المسلمين القابعين في الدولة العثمانية في شرق أوروبا، لأن هذه المعاهدات لم تتناولهم، وإنما اهتمت بحماية المسيحيين وأحوالهم.

ولاحظ المؤرخون أن سبب ضعف الدولة العثمانية يعود أصلا إلى الابتعاد عن الشريعة الإسلامية. وقد بسط الحديث في ذلك المفكر العثماني قوجي بك KOCIBEY، وكان ضابطا في سراي السلطان، ويعد من خواص السلطان مراد الرابع. وكان قوجي قد كتب رسالة إصلاحية بخصوص تدبير أمور الدولة وإصلاحها، وتقدم بها عام ١٦٣١م، ثم شفعها برسالة أخرى قدمها إلى السلطان إبراهيم عام ١٦٤٠م. وأمثال هذه الإجراءات الإصلاحية (٢) كانت تتردد ما بين حين وآخر في الدولة العثمانية؛ نظرا للابتعاد الشديد عن الشريعة الإسلامية، لا، بل ظهر في ديسمبر عام ١٨٧٦ دستور غربي مقتبس كله من دساتير بلجيكا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة. ولما آل الأمر إلى ذلك، تنمرت روسيا وغيرها من الدول الأوروبية، واستعدت لابتلاع الدولة العثمانية وبتر أطرافها، لا، بل تركيا نفسها. وفيما بعد أجهز على تركيا المسلمة ابنها كمال أتاتورك.

وبينما كانت تدوي صرخة الإصلاح التي نادى بها المفكرون والمؤرخون الأتراك؛ لاستنقاذ ما بقي من ذلك المارد، تنادى كثيرون في الجامعة الإسلامية (٣) ووقف ضدها آخرون، متأثرين بأيديولوجيات تحارب الإسلام، وظهر فريق ثالث نادى بالتوفيق بين الإسلام والقوانين الغربية كنظام أمثل للإصلاح.

ولم يغفل تيار الإصلاح مسألة القوميات، وتعرض لها بالرفض والاستهجان.

ويعد - بحق - محمد عاكف من أوائل الذين استشعروا مسألة الأقليات والقوميات التي ستبرز بروزا واضحا في المحيط الثقافي والوطني والديني، ولأمر ما أطلق المؤرخون الأوروبيون على بلاد البلقان «مستودع البارود».

كانت البلاد البلقانية في أوائل القرن التاسع عشر ضمن الدولة العثمانية على اختلاف ساكنيها وألسنتهم ودياناتهم، فهناك اليونان والبلغار والصرب والألبان والبوشناق والبوماق والأفلاق والأتراك! وبذلك تكونت جماعات وطوائف إسلامية عديدة، إضافة إلى الطوائف المسيحية.

وكانت هذه الجماعات تقل وتكثر باختلاف الأقاليم وتشتد في وسط البلاد البلقانية، تداخلا وتشابكا، وبالذات عند مقدونيا، حتى إن كلمة مقدونيا صارت تطلق وصفا على الأطعمة المشكلة في بعض اللغات الأوروبية، ثم جوزت للاستعمال السياسي للدلالة على التشابك والتعقيد الشديدين.

اليونان

كان اليونانيون أرثوذكسا، وظلت كنيستهم على ما هي عليه حتى بعد فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح، الذي أطلق لبطريركية الفنار كل الحقوق والامتيازات التي كانت لها زمان الدولة البيزنطية. واستثمرت كنيسة الفنار هذه الحقوق استثمارا واسعا جدا، فخدمت اللغة اليونانية والثقافة اليونانية ونشرتهما بين غير بني قومها أيضا. كل هذا ولم تحاول الدولة العثمانية أن تحد

منه أو على الأقل أن تباريه وتعمل قدره، بل إنها كثيرا ما أقدمت على تأييدها وحمايتها أيضا.

وبرز الولع بالأدب اليوناني، وأعلنت استقلالها في المؤتمر القومي في مدينة ميسولونجي سنة ١٨٢٢م، وشيئا فشيئا بدأ حال المسلمين يضعف ليحتسبوا «أقليات».

كان البلغار يتبعون كنيسة الفنار الأرثوذكسية، وقد تقدم أن هذه البطريركية كانت يونانية، ونشطت حركة إحياء المدارس في بلغاريا، كعدوى يونانية مشروطة باللغة اليونانية كلغة الدين أساسا (الإنجيل كتب باللغة اليونانية فيجب أن يتلى بلغته الأصلية)، وبذلك تقيدت الوظائف الدينية باللغة اليونانية في البلاد البلغارية. وكان التعليم في جميع المدارس البلغارية يوناني اللغة حتى سنة ١٨٣٥م، وفي تلك السنة نهض رجل اسمه تئوفيت ريلسكي، وأنشأ مدرسة في غبروة علم فيها باللغة البلغارية. وقام ريلسكي بتدوين القواعد النحوية والصرفية للغة البلغارية، وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البلغارية وهيأ أصح الأسس للتعليم والعبادة على السواء. وبهذا أصبحت اللغة البلغارية لغة العبادة ولغة التعليم في كل المدارس والكنائس، وساعدت روسيا بلغاريا في برنامجها المتقدم كل المساعدة.

وهنا فقط تدخلت الدولة العثمانية ومنحت البلغار حق إنشاء كنيسة بلغارية خاصة بهم (الإكسارخية) مستقلة عن الكنيسة اليونانية، وكان ذلك سنة ١٨٧٠م، وفق الفرمان السلطاني، وتدرج الأمر حتى أصبحت بلغاريا دولة مستقلة استقلالا سياسيا. وتعرضت الدولة العثمانية للحرب مع روسيا سنة ١٨٧٨م، وفيها انتصر الروس، ووقعت الدولة العثمانية معاهدة «آيا ستفانوس»، وشيئا فشيئا بدأ حال المسلمين يضعف ليحتسبوا «أقليات».

رومانيا

وبالأسباب والمقدمات نفسها التي مرت بها بلغاريا مع اليونان وهيأت استقلالها، بل أكثر من هذا، لأن الدول الأوروبية كانت تعتقد اعتقادا جازما بـ «أن رومانيا جزء من بلاد اليونان». وعلى هذا، ثار الرومانيون على سلطة كنيسة الفنار وعلى الدولة العثمانية (سلطة الباب العالي)، علما بأن هذا الزعم خطأ من أساسه، لأن رومانيا اسم حديث جدا لتلك البلاد، فقد ظهر سنة ١٨٦٦م، وكانت تعرف فيما مضى بولايتين، «الأفلاق» و«البغدان»، منفصلتين، ثم توحدتا وأزالتا الحدود بينهما.

ونالت رومانيا استقلالها بفضل روسيا، ونهضت اللغة الرومانية وصارت لغة الكتابة والحديث، وتعبد الناس في كنائسهم بها، ولبت الدولة العثمانية هذه المشيئة الرومانية.

يوغوسلافيا

تضم يوغوسلافيا بين جنبيها عدة شعوب تعرف بـ «الصرب الكروات والسلوفن البوشناق، الغجر، والطربش» (٤). وكان الصرب تابعين للدولة العثمانية ثم إلى إدارة الإمبراطورية النمساوية بعد معاهدة برلين (١٨٧٨م) وما بعدها.

وكان الصرب أرثوذكسا، والكروات كاثوليكا، والبوشناق مسلمين يتكلمون لغة سلافية هي «السلافية الجنوبية» اليوغوسلافية. ومما يذكر هنا - تنبيها - أن الصرب أقاموا إمارة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، تطورت إلى مملكة سنة ١٨٧٨م، ونالت اعتراف السلطة العثمانية. واشتغل الصرب باللغة الصربية، تأسيسا ودرسا، فجمعوا ألفاظها في معاجم، وقيدوا نحوها وصرفها حتى غدت لغة العبادة والعلم.

وكانت البوسنة والهرسك - آنذاك - قد دخلت تحت إدارة النمسا واحتلالها سنة ١٨٧٨م حتى ١٩٠٨م، وبعدها ألحقت رسميا بالإمبراطورية النمساوية (معاهدة برلين).



وبانتهاء الحرب وانتصار الحلفاء، زالت الإمبراطورية النمساوية، وقسمت ممتلكاتها من البلاد، فالتحق الصرب بالكروات والسلوفن بالبوسنة والهرسك والجبل الأسود ليكونوا دولة (الدولة الصربية الكرواتية السلوفينية). ونالت يوغوسلافيا استقلالها وغيرت اسمها. وشيئا فشيئا بدأ حال المسلمين يضعف ليحتسبوا «أقليات» ثم يطالهم نير الحكم الشيوعي بعد ذلك.

ومما يذكر طرافة أن الحرب العالمية الأولى كانت بسبب قتل الأرشيدوك فرديناند (ولي عهد النمسا) في مدينة بوسنة سراي على يد شاب صربي متشدد للفكرة القومية، فثارت النمسا وأعلنت الحرب، ثم تحولت حربا عالمية. وفي هذه الأيام تدور حرب ضروس في البوسنة والهرسك وقودها القوميات والعصبيات ضد المسلمين، وكانت الأمم المتحدة قد حظرت أن يصدر السلاح للبوسنة والهرسك، وآثرت الأمم المتحدة أن تتفرج لاهية عما يدور في البوسنة والهرسك لتشهد إبادة المسلمين وتصفيتهم دمويا (لأنه ربما عاد الفأر ليلعب في العب القديم)، فآثرت الأمم المتحدة العمل بالقول الألماني «أرفع يدك عن هذا الموضوع».

ألبانيا

والحال في ألبانيا كمثيلاتها المتقدم ذكرها، فقد تم الاعتناء باللغة، ثم الاعتناء بالدين، ثم بالقومية، ثم بالاستقلال شيئا فشيئا...

وهكذا الحال في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر (هنغاريا)، فقد خضعت هذه الدول، إضافة إلى يوغوسلافيا، للاتحاد السوفييتي لتدور في فلكه. ولما انهار الاتحاد السوفييتي عاد هو نفسه أقليات وقوميات متناحرة فقيرة.

ولا أريد أن أشرح حال الشيوعية في تلك الدول ولا في الاتحاد السوفييتي (٥)، لكن أوجز ما يقال إن الشيوعية استبدلت الإلحاد بالدين، والديكتاتورية والتسلط بالحريات. وطبيعي أن تنشأ مشاكل جمة في تلك الدول الشيوعية جميعها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وطبيعي أيضا أن يعاني المسلمون في هذه الظروف التحولية معاناة قاسية جدا، وقد شرحت هذه المعاناة من طرق شتى (٦).

ويلاحظ أن الدول محل البحث قد أولت اللغة والدين (المسيحي) اهتماما كبيرا قياسا بالدولة العثمانية التي كان يؤمل أن تتولى ريادة هذين المجالين بما يكفل للأقليات المسلمة حقا متساويا.

ويلاحظ أيضا أن الدول الغربية قد سلكت سلوكا عنيفا ضد الإسلام والمسلمين، وجنحت نحو الإبادة الثقافية والدينية، لا، بل الإبادة العرقية، والحق أن هذا السلوك له سابقة مشهورة معروفة في «الأندلس»، فقد أجلي عنها المسلمون، فهاهي أطلال ذكرى. وإسبانيا اليوم في عداد الدول المسيحية.

الهوامش

١- PHILIPS PRICE: AHISTORY OF TURKEY FROM EMPRIRE TO REPUPLIC: LONDON.١٩٥٠.

٢- حركة الإصلاح العثماني، القاهرة، ١٩٧١م. وانظر أيضا: تاريخ أحمد جودت.

٣- الجامعة الإسلامية وأوروبا، رفيق العظم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٠٣م.

٤- مذكرة الشيخ سليمان أفندي رجبي، رئيس المشيخة الإسلامية في جمهورية مقدونيا، سكوبية، ص١.

٥- للاستزادة حول المسلمين وأحوالهم المأساوية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي سابقا راجع الرحلة: «المسلمون أمام تحدي العالم»، د. إحسان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.

٦- راجع حوله:

- مذكرة رئيس المجلس التشريعي الأعلى (يوغوسلافيا)، أور فراتي.
- مذكرة رئيس المشيخة الإسلامية، مقدونيا (يوغوسلافيا)، سليمان أفندي رجبي.
- المسلمون في يوغوسلافيا، لجنة مسلمي يوغوسلافيا، الندوة العالمية، الرياض، ١٤١٠هـ.
- أوراق الأمانة العامة لملتقى أوروبا الشرقية ١٩٩١م.





رصد الأسباب واقتراح الحلول:

الأزمة المائية العربية

أحمد مصطفى علي
باحث دراسات علمية

تناقص المياه أزمة عالمية شديدة التأزم في الوطن العربي؛ إذ تقع جميع الدول العربية تحت خط الفقر المائي (باستثناء السودان والعراق)، حيث يعرف خط الفقر المائي بالألف متر مكعب وما دونها. ويوضح مقدار هذا الخطر الذي يعيشه أكثر من ٧٥ في المئة من سكان الوطن العربي، إذ تقول في ذلك تقديرات «فالكينمارك» (معهد ستوكهولم الدولي للمياه) وخبراء آخرون: إنه يحتاج كل فرد في المتوسط إلى ١٠٠٠ متر مكعب من المياه على الأقل سنويا (أي مليون لتر ماء)، وهو ما يعادل خمسي حجم حمام السباحة الأولمبي لأغراض الشرب والنظافة وزراعة متطلبات غذائه، هذا في الوقت الذي يبلغ فيه إجمالي المياه العذبة على وجه الكرة الأرضية ٣ في المئة من حجم المياه.

وعلى الرغم من حدة الأزمة العربية، فإن تأثيرها يتضاعف مع أزمة الغذاء العالمي المقبلة، والعوز المائي الذي يجوب العالم، والذي سبق أن حذرت منه الأمم المتحدة وفق دراسات تشير إلى أن شخصين من كل ثلاثة أشخاص في كوكب الأرض سيعانيان من نقص المياه بحلول عام ٢٠٢٥م، خصوصا في مناطق الشرق الأوسط.

وتلك المشكلة العالمية للمياه خلقت نوعا جديدا من التجارة يتعلق بتصدير المياه والتي وصل حجمها إلى ٨٠٠ مليار متر من المياه في السنة، أي ما يعادل عشرة أمثال نهر بغزارة نهر النيل، وهو ما دعا المعاهد الأميركية للمياه إلى توقع تجاوز تجارة المياه مقدار ١,٧ تريليون متر مكعب سنويا في الوقت القريب مع تنامي تحرر السلع الغذائية من السيطرة، والاحتياج لأقل المياه تكلفة مقارنة بتكاليف تحلية مياه البحار والمحيطات.

ولكن يبقى أمامنا كثير من الخطوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية البالغة الأهمية لحماية المياه، وتأتي خطورة إمكانية تغافل هذه الخطوات مع الزيادة السكانية العربية، وتنامي احتياجات التصنيع والزراعة، فضلا عن الرفاهية وما تستهلكه من كميات مياه بالغة الضخامة، مثل ملاعب الجولف أو القرى السياحية. لذا، فالمسؤولية ليست للحكومات فحسب وإنما أيضا مسؤولية مشتركة مع الشعوب، إذ إن على الجماهير أن تتحمل العواقب، وتساهم بوعيها وسلوكها في الحد من الإسراف في استعمال المياه، خصوصا في الزراعة ثم الصناعة والمنازل وغير ذلك، فكل قطرة ماء هي حياة بالفعل.

ويمكننا هنا أن نتناول أهم المحاور التي يمكن الشروع فيها تجاه الأزمة المائية العربية.

أولا: تطوير السياسة المائية العربية

صار لزاما أن ننظر هنا إلى ضرورة وضع استراتيجية محكمة تراعي مختلف عناصر القضية المائية، ومن هذا: ضبط المياه - إدارة المياه - مصادر المياه، كالبحث عن مصادر جديدة واستغلالها مثل المياه الجوفية وتحلية ماء البحر وغير ذلك - كذلك ترشيد استهلاك المياه - التوعية بخطورة إهدار المياه - تشجيع الشركات ورجال الأعمال على الاستثمار في مجال المياه.

كما يبقى لهذه الاستراتيجية أن تراعي خلالها الحكومات العربية الجهود العلمية، وفي ذلك سرعة الأخذ بالتوصيات البحثية مأخذ الجد والتنفيذ من دون إبطاء، وفي مثل ذلك نتائج المنتدى العربي للبيئة (افد) ٢٠١٠م، الذي طالب بضرورة أن تحول الحكومات العربية من دورها كمزود للمياه إلى أدوار الإدارة والتخطيط، فضلا عن تنمية مصادر المياه وحمايتها من الاستخدام الجائر والتلوث، وتشجيع إعادة استخدامها، ولا يتسنى ذلك من دون معرفة دقيقة بما تمتلكه من مياه وأراض رطبة ومستنقعات وبحيرات وأحواض كشرط لنجاح إدارتها، وهذا يستلزم مراعاة دراسات تقييم التغييرات التي تحدث في أنظمة المياه العذبة نتيجة للنشاط الإنساني أو تغير المناخ، فضلا عن الحاجة إلى أبحاث حول تطوير أنواع المحاصيل لتحتمل الجفاف والملوحة، ومعالجة تحديات الأمن الغذائي في التكيف مع تغير المناخ (١).

ثانيا: المياه الزراعية

وفي المجال الزراعي يمكننا إجمال الحديث في عدة نقاط:

١ - استخدام طرق الري الحديثة، مثل الري بالتنقيط، أو استخدام تقنية الليزر في تسوية الأراضي الزراعية، والأخيرة لها مردود اقتصادي واضح على المحاصيل، خصوصا القصب والأرز. ومن النتائج الملموسة لتسوية الأرض بالليزر ما حدث في تجربة عملية في مصر على محصول القصب، وتحقيق زيادة نصيب الفرد المزارع بمقدار ٥,٤١ في المئة من الدخل القومي، وخفض استهلاك المياه من ١٢,٣ ألف متر مكعب للفدان إلى ٨,٤ آلاف متر مكعب للفدان، أي توفير أكثر من ٨١٥ مليون متر مكعب من المياه لمساحة قصب السكر فقط (٢).

٢ - تغيير التركيب المحصولي، بمعنى أن تقوم الدول العربية بزراعة المحاصيل الأكثر ربحا والأكثر طلبا لدى السكان، واستيراد المحاصيل الأكثر وفرا وزهيدة السعر.

٣ - تعديل التركيب المحصولي، وذلك عبر إمكانية توفير كميات ضخمة من المياه من خلال استبدال محصول البنجر بالقصب (٣)، مع خفض المساحات المنزرعة بالمحاصيل الشرهة للمياه، كالأرز، أو محاولة منعها أو إدخال أصناف جديدة من الأرز، فهناك سلالات أقل استهلاكا للمياه، ويتم تطويرها باستمرار في الدول المتقدمة، كاليابان، بتقنية تطوير سلالات الأرز.

٤ - إعادة استعمال مياه الصرف الزراعي فيما يلائمها، أو بعد مرورها على عملية إزالة للمبيدات العالقة.
٥ - التوسع في استعمال المياه الجوفية لغرض الزراعة.
٦ - تعظيم الاستفادة من مياه الأمطار حال وجودها في بعض الدول العربية.
٧ - ضرورة الدراسة الجيدة للأراضي التي يتم استصلاحها، مع الأخذ في الاعتبار فشل الكثير من أراضي الاستصلاح جراء زحف الرمال، أو نفاد بعض مخزون الآبار الجوفية أو ملوحتها، وهو الأمر الذي يطالب فيه البعض باستغلال الصحاري في الصناعة والمدن السكنية مقابل حماية وترك الأراضي الملائمة للزراعة في العديد من بلدان الوطن العربي، ومدى إمكانية مضاعفة التطوير والاستفادة منه.

ثالثا: المياه الصناعية والمنزلية

يزداد الصرف الصحي والصناعي الملوث بالمواد الكيميائية والمبيدات الزراعية، ويتجاوز ٤٣ في المئة من مياه الصرف بأنواعه من دون معالجة، وهو ما يرفع المخاطر الصحية للأطفال، فضلا عن ذلك لا يعاد استخدام أكثر من ٢٠ في المئة منها، وذلك وفق إحصاءات المنتدى العربي للبيئة والتنمية لعام ٢٠١٠م (٤).

هذا، ووفق تقارير البنك الدولي، فإن الأمراض التي تأتي من سوء الصرف الصحي تمثل ٤ في المئة من العبء العالمي للأمراض، كذلك الاقتراب من المناطق الصناعية والطرق السريعة، واستخدام مصادر طاقة سيئة وملوثة للبيئة يؤدي إلى مستويات مختلفة من أمراض الجهاز التنفسي وسرطان الرئة وأمراض القلب، وبالتالي فهي تكلف الدول مليارات الدولارات في شكل إنتاجية مهدرة، إضافة إلى خسائر التعويضات والعلاج. وعلى الرغم من أن التكلفة البشرية والمالية للتلوث باهظة للغاية، فإنها تقع في معظم الأحيان على الفئات الفقيرة، مما يجعل مكافحة التلوث، فضلا عن كونه مسألة اقتصادية وبيئية، مسألة عدالة اجتماعية أيضا (٥).

فخطر تلوث الماء جراء النشاط الصناعي مشكلة مزمنة، ولا يقتصر على المخلفات الصناعية، بل والتخلف في إنشاء مشاريع مجاريها المائية، وعدم مجاراتها لتوسع استهلاك المياه، واستسهال بعض منعدمي الضمير من أصحاب المصانع للتصرف غير الآمن في المياه الملوثة، أو عدم اتباع قوانين تنقيتها، أو إهمال متابعة أجهزة التنقية. لذلك، ينبغي في هذا الصدد، وللمخاطر السالفة التي كشفتها الدراسات، ما يلي:

١ - سن تشريعات ووضع عقوبات رادعة لإهدار المياه:

وفي ذلك سن تشريعات تجرم إهدار المياه.. أمثلة في ذلك: أرصفة الشوارع أو سرقة خطوط المياه، ووضع عقوبات رادعة لذلك، ووضع تشريعات تلزم أجهزة الداخلية والبيئة والمحليات القيام بدورها، وتحديد مختص لها لكل منطقة، يسأل عن وضع الإهدار المائي بها، أو التلوث الحادث فيها، ويشمل ذلك «إهدار المياه، سرقة المياه، إلقاء الحيوانات النافقة في الترع والأنهار، إلقاء مخلفات المباني والقمامة على جانبي النهر والترع والمصارف، صرف مبيدات وأسمدة في الترع والمصارف، إلقاء صرف صناعي في المجاري المائية أو الجوفية، عدم معالجة مياه الصرف الصناعي».

٢ - تشديد العقوبات المتخذة على تلويث مياه الأنهار والبحيرات بالماء الصناعي أو المنزلي، وكذلك اتخاذ عقوبات رادعة لمن يهمل صيانة وإصلاح الأجهزة القائمة بذلك.

٣ - مراقبة دورية لاستخدام المياه في المنشآت الصناعية، وسن عقوبات خاصة لمن يتكرر لديه هدر المياه.

٤ - إلزام المنشآت الصناعية بإعادة استخدام المياه متى أمكن ذلك (مثال لذلك المصانع الكبرى، والمصانع الصغرى، وورش غسل السيارات، ومحطات الوقود، والصناعات الأسمنتية والسمادية... وغيرها)، فلا تضرها إعادة استخدام المياه.

وفي ذلك الصدد، يمكن إلزام هذه الجهات بتطبيق نظم الكيمياء الخضراء، وهي كيماويات لا تضر بالإنسان، وبكفاءة تصل إلى عشرة أضعاف فعالية الكيمياء الحالية لتطهير المياه الملوثة وتنقيتها ومعالجتها. وهناك أيضا استخدام لأجهزة الليزر التي تضبط الجرعة المثالية للكيماويات، وتكشف عن مناطق التآكل في مواسير الإنتاج والمناطق ومساحتها لتوفير الوقت والجهد (٦).

رابعا: تدوير المياه

من الحقائق المعروفة علميا أنه يهدر ١٠ في المئة من المياه الصالحة للزراعة، لأنها ملوثة بدرجة كبيرة لا يمكن معها توصيلها إلى المزارعين (٧)، أما ما يهدر من باقي كميات المياه الزراعية، أي المياه التي تم الري بها واستهلكت لسوء أنظمة الري التقليدية، فهو أمر لا يمكن وصفه، فالزراعة تستهلك عادة أكثر من ٧٠ في المئة من نصيب المياه في كل دولة. أما الهدر للمياه المنزلية المستهلكة فذلك حسب تعداد سكان كل دولة، هذا بجانب الهدر الآخر للمياه المنصرفة من الأنشطة الصناعية أو الترفيهية.

لذا، بات من الضروري مع تصاعد الأزمة المائية التوسع في تدوير المياه المستعملة وفق آليات حديثة تسمح بإعادة استخدامها في أكثر من غرض، وإعادة استخدامها في الأغراض الملائمة مثل زراعة غابات الأخشاب الماهوجني التي تتم زراعتها بمعالجة مياه الصرف الصحي المنزلي.

ولتوضيح قيمتها الاقتصادية فإن سعر المتر الواحد لأخشاب الماهوجني يصل إلى أكثر من مئتي دولار أميركي، وبالتالي يحقق عائدا اقتصاديا بالغ الأهمية، وكذلك إمكانية استخدامها في تنظيف السيارات، أو أشجار الطرق، إلى غير ذلك من الأغراض الملائمة لتلك المياه المعالجة.

ويمكننا الإشارة إلى مدى الحرص على المياه في الدول الغربية، فأميركا، على سبيل المثال، تستخدم ذلك بشكل متميز، رغم أنها من الدول التي تملك وفرة مائية، بل إنها تعيد استخدام مياه الصرف المعالجة في غسل الشوارع وأشجار الطرق والغابات الخشبية،

بل إنها تبني وسائل أخرى شديدة الدقة فيما يعرف بمراحيض المزج الجاف المزودة بنظام فصل البول، وتقوم هذه التقنيات على إعادة استخدام البول في الزراعة، وتحويل المخلفات المتبقية إلى مزيج عضوي يمكن أن يخصب التربة، وتعمل هذه الوحدات بطريقة شبيهة بأكوام المزيج العضوي في الحدائق، فتقوم بتفكيك الفضلات البشرية بفعل الميكروبات الهوائية فتحولها إلى مادة غير سامة غنية بالمغذيات، ويمكن أن يستثمر المزارعون المادة العضوية الناتجة كسماد للمحاصيل، كما يمكن استخدام هذه التقنيات بصورة آمنة حتى في المناطق الحضرية المكتظة، كما يتضح ذلك من منشآت مشروع «جيبرز السكني» في ضواحي ستوكهولم وفي العديد من المشاريع الريادية (٨).

وتمكنت أميركا أيضا من خلال المهندسين المدنيين المختصين في هذه التقنية من فصل الإمدادات المائية عن نظم الصرف الصحي، وعبر هذه الوسيلة تمكنت من توفير كميات كبيرة من المياه العذبة التي تم تطبيقها على نطاق واسع. إضافة إلى ذلك، فإن إعادة تدوير المخلفات تحد من استخدام السماد المستمد من الوقود الأحفوري.

خامسا: تحلية مياه البحار والمحيطات

وليست الحلول تقف عند ما سبق، فهناك إمكانية لتحلية ماء البحر بأقل تكلفة، من خلال تبني برنامج جاد لإنتاج الطاقة النووية، وهو أمر حاسم في الاستفادة من هذه المياه بشكل مضاعف (٩).

كما يمكننا أيضا استخدام سبل أخرى متقدمة تزيل أيضا من الأذهان ما كان من تكلفة باهظة في تحلية المياه فيما سبق، مثل تقنيات التناضح العكسي لتحلية المياه بدلا من تقنيات البخار المكلفة، أو عبر تدوير المياه وتعدد استخدامها، فتكنولوجيا المياه يمكنها تخفيض الاستهلاك إلى أقل من النصف، مما يجعلنا قادرين على استصلاح أراض صحراوية جديدة وزيادة الرقعة المزروعة. كما يمكن كذلك زيادة الموارد المائية لأكثر من ٤٠ في المئة عبر إعادة استخدام مياه الصرف الزراعي والصناعي والصحي في الغابات الخشبية مما يوفر ٨ مليارات متر مكعب (١٠).

وحول هذه التقنية (التناضح العكسي) تحدثت الأبحاث العلمية الأميركية عام ٢٠٠٨م عن التوصل لمزايا تخفيض التكلفة بشكل بالغ مع تنامي استغلال عملية التحلية في توفير الطاقة الكهربائية، حيث تذكر مجلة العلوم الأميركية في تقرير علمي: «يبدو أن أدوات إزالة ملوحة المياه تحقق بعض التوازن باستثمارها لهذا المصدر الضخم من المياه المالحة، والتخفيض الكبير الحالي في تكاليف تقنية إزالة ملوحة المياه أكثر اقتصادا للطاقة، وذلك عبر استخدام تقنية التناضح العكسي؛ يعني أنه بإمكان العديد من المدن الساحلية أن تحصل حاليا على مصادر جديدة لمياه الشرب».

ففي نظام التناضح العكسي تجري المياه المالحة في أحد حيزين مفصولين بغشاء شبه منفذ (يمرر المياه العذبة)، حينئذ تطبق زيادة كبيرة في الضغط على الحيز الذي يحوي المياه المالحة، وفي خلال فترة من الزمن يجبر الضغط جزيئات المياه على المرور عبر الغشاء إلى حيز المياه العذبة. وقد حقق المهندسون بالفعل وفرا في التكاليف بإدخال تحسينات مختلفة، تشمل أغشية محسنة تتطلب ضغطا أقل وتستهلك طاقة أقل لترشيح المياه وتعديل النظام، وهذا ما يجعل البناء أكثر سهولة. وقد تم إنشاء مصانع كبيرة لإزالة ملوحة المياه تستخدم التقنية الجديدة الأرخص تكلفة في كل من سنغافورة وخليج تامبا في فلوريدا (١١).

ويعمل الباحثون حاليا على مزيد من التوفير عبر مرشحات التناضح العكسي المؤلفة من أنابيب كربونية نانوية، وهي الأكثر كفاءة للفصل، وبإمكانها أن تحقق تخفيضات إضافية في تكاليف إزالة ملوحة المياه بنسبة ٣٠ في المئة. وتشهد هذه التقنية التي تم توضيحها بنماذج أولية قلة استخدام تجاري، على الرغم من التحسينات في مردود الطاقة. ويعد سبب محدودية تطبيق تقنية التناضح العكسي أن استهلاكها للطاقة مازال كبيرا، وعليه؛ فإن من الأهمية بمكان استخدامها مصدرا لتوليد الطاقة الكهربائية بالمياه، بما يمكننا من تحمل تكلفتها، وبالتالي إمكان تطبيق هذه التقنية على نطاق واسع.

سادسا: الاستثمار في مجال المياه

من المدهش أن يتطلب عائد الاستثمار تفادي نقص المياه في المستقبل، وذلك للنفقات المالية الضخمة مستقبلا للحصول على المياه، فخبراء شركة بوز آلين هاميلتون قالوا: «إن العالم سيحتاج إلى استثمار نحو تريليون دولار سنويا لتوفير المياه اللازمة لجميع الاستخدامات حتى عام ٢٠٣٠م؛ وذلك لأجل تطبيق التقنيات المتاحة حاليا لحفظ المياه وصيانة البنية التحتية

واستبدالها وبناء نظم الصرف الصحي، وهو بالطبع رقم هائل بالتأكيد، بيد أنه قد لا يكون بهذه الضخامة، إذا ما نظر إليه في ظروف التقييم الحالية المعقولة، فالمبلغ المطلوب لا يشكل حاليا سوى ١,٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي السنوي العالمي، أو نحو ١٢٠ دولارا نصيب الفرد الواحد، ويبدو أن مثل هذا الإنفاق يمكن تحقيقه» (١٢).

سابعا: إنشاء هيئة عربية عليا من المستوى الثاني في المسؤولية ملحقة بأمانة جامعة الدول

يتبنى الباحث في هذه النقطة الرؤية البحثية للدكتور عادل عبد الرازق، حيث يكون دور الهيئة ليس تنفيذ الاستراتيجيات البحثية لحماية المياه وإيجادها فقط، بل وضع خطط طويلة الأمد لتنظيم واستغلال أحواض الأنهار العربية، والإشراف الدائم لمنع تحول أي آثار جانبية إلى عقبات تحول دون استغلال هذه الأحواض. يضاف إلى ذلك مرونتها وحيويتها في استخدام عوامل الإحلال والطرد للقوى الاجتماعية والاقتصادية في تلك المناطق، مع الإدراك الكامل لحاجات دولها وحتمية التعاون بينها. وقد تشكل هذه الهيئة نوعا من القوة المعنوية لدولها الأعضاء، خصوصا فيما يعني مصر والسودان.

ويفسر الدكتور عادل عبدالرازق، مهام هذه الهيئة في ما يلي:

إيجاد وسائل لإدارة الصراع، ويتطلب ذلك طريقتين (١٣) هما:

- صراعي، ويقوم على أن مفهوم الأمن القومي لا يتجزأ، أي إنه مفهوم يشمل استخدام الدول العربية لقواتها العسكرية لوقف استغلال الدول الأخرى المشاركة في أحواض الأنهار العربية، وبالتالي خرق اتفاقيات المشاركة الموقعة بين دولها، وهذا البديل أقل احتمالا في التنفيذ، وغير مرغوب فيه، ويصعب تطبيقه إلا في إطار التوازنات الدولية القائمة في العالم.
- تعاوني، ويقوم على مبدأ المنفعة المتبادلة مع دول الجوار الاستراتيجي، أو بين دول الحوض الواحد من منطلق الإيمان بوجود مصالح مشتركة أو متبادلة من دون مغالاة أو تجاوز، مع معرفة حقيقية لحاجات دول الحوض من الماء واستخدام أمثل لها.

وينطوي ما سبق على عنصرين مهمين (١٤):

- ضرورة تطوير استراتيجية عربية مشتركة تضع المصلحة العربية العليا موضع التنفيذ. فإذا لم يكن هناك اتحاد كامل للرؤية، فعلى الأقل وجود وحدة حركية في العمل لتنفيذ الحد الأدنى من الاتفاق تمنع الآخرين من سرقة المياه، وانتهاك المواثيق والأعراف الدولية بشأن أحواض الأنهار.

ثامنا: التوصيات الثقافية

وتتمثل تلك التوصيات في النقاط التالية:

أمور تتعدى نطاق الدولة، خصوصا على مستوى دول الجوار، ومن ذلك:

- مهرجانات ثقافية مشتركة مع دول الجوار المائي للأنهار العربية.
- دورات رياضية مشتركة مع الدول ذاتها.
- تنظيم رحلات مشتركة، وتبادل زيارات تعليمية وبحثية.
- برامج إعلامية مشتركة.
- مطبوعات عربية بلغات هذه الدول، للتقارب الثقافي معها، مع نشر الاتصال الإلكتروني.

فضلا عن العمل الداخلي لمواجهة التحديات الصارمة للحفاظ على المياه، ويقتضي عدة أمور أهمها:

- إعداد مخطط محكم يشارك فيه مجموع الفاعلين والمستهلكين للماء.
- توعية المواطنين بكيفية استعمال الماء على أحسن وجه، وتشجيع مشاركتهم.
- توعية شركات توزيع المياه والمستهلكين بأهمية الماء.
- تعليم الجهات والأفراد من خلال حملات إعلامية مقترحات مهمة لتوفير المياه.
- تفعيل دور الجمعيات الأهلية ومنظمات المجتمع المدني في التوعية بحماية المياه، والحد من تلوثها، وابتكار أساليب حديثة وتبنيها.
- وضع دروس تعليمية في جميع المراحل التعليمية.

تاسعا: تعزيز الجهود العلمية

ومن ذلك:

- الاستفادة بالجهود البحثية الغربية الأجنبية المبذولة في مجال المياه، وتطبيق الملائم للواقع، خصوصا مع انتشار المراكز البحثية العالمية ونتائجها المنشورة التي يجب الحرص على ترجمتها أولا بأول في مراكزنا العلمية العربية، والعناية بها، ودراستها، والإضافة إليها وتطويرها.
- تعزيز جهود مراكز بحوث المياه العربية والأقسام الجامعية المعنية، ودعمها ماديا، وكذلك بشريا بباحثين متميزين، وبآليات حديثة، وضم تخصصات متنوعة علمية حديثة عبر الاستفادة من الجهود الغربية في ذلك، مثل الاتصال والمياه وكيفية تطوير حملات توعية الاستهلاك لتلائم الجمهور المعاصر وآليات ثقافته الرقمية، وكذلك الأبحاث المعنية بتطوير تحلية المياه وتقليل تكلفتها المادية، وسبل ترشيد استهلاك المياه في المجالين الزراعي والصناعي والتي يدهشنا العالم كل عام بالجديد فيها.
- الاستفادة من المخترعات والتقنيات والخبرات الدولية في مجال المياه، وتطبيق التقنيات المتاحة والملائمة بشكل فوري.
- حث كبار المزارعين والمنتجين على السفر إلى مواقع الخبرة، ومعاونة صغار المزارعين في السفر على حساب دولتهم لتطوير آلياتهم الزراعية وإنماء المحاصيل وحماية الماء للتوسع الزراعي، وكذلك الأمر لباحثي الدول العربية لتعلم أحدث مجالات العلوم الزراعية واستغلال

المياه في نظم الري المتطورة.

عاشرا: تعزيز الجهود الدولية لحماية المياه

وفي هذه النقطة يمكن الحديث عن:

١- مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة في استوكهولم ١٩٧٢م

تتضمن خطة العمل الدولي لحماية الحياة ومواجهة مشكلات البيئة ١٠٩ توصيات للحكومات ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، مثل منظمة جامعة الدول العربية أيضا. وتأتي أهمية المؤتمر في اعتراف الدول بمسؤوليتها عن تأمين بيئة لائقة لأجيال الحاضر والمستقبل على السواء، كخطوة مهمة نحو التنمية المستديمة، وكذلك حق الأفراد في الاطلاع والحصول على المعلومات، والمشاركة في صنع القرارات حول النشاطات التي من المحتمل أن يكون لها تأثير بالغ في البيئة، والحق في العلاج والتعويضات لمن تأثرت صحتهم أو بيئتهم أو يمكن أن تتأثر بصورة خطيرة.

٢- برنامج الأمم المتحدة للبيئة unep ١٩٧٢م

كان من نتائج مؤتمر استوكهولم، إنشاء برنامج الأمم المتحدة للبيئة، لتكون مهمته الأساسية العناية بشؤون البيئة، ووظائفه في ذلك ما يلي:

- ترقية التعاون الدولي في مجال البيئة وتقديم التوصيات المناسبة لهذا الغرض.
- وضع الأنظمة الإرشادية العامة لتوجيه البرامج البيئية وتنسيقها في إطار نظام الأمم المتحدة.
- متابعة تنفيذ البرامج البيئية وجعل الوضع البيئي الدولي تحت البحث والمراجعة المستمرة.
- ترقية مساهمة الهيئات العلمية والمهنية المتصلة لاكتساب المعارف البيئية وتقويمها وتبادلها.
- جعل الأنظمة والتدابير البيئية والوطنية والدولية في الدول النامية تحت المراجعة المستمرة.

٣- إدارة البيئة والإسكان والتنمية المستدامة - المجلس الوزاري العربي للمياه - جامعة الدول العربية.

٤- برنامج الأمم المتحدة الإيفاد.

٥- برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP (١٥).

٦- برنامج الأمم المتحدة للبيئة الصادر جراء مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة - استوكهولم ١٩٧٢م، ويتضمن نص ميثاق المؤتمر: تمويل برامج البيئة وتقديم المساعدة والتشجيع لأي جهة داخل الأمم المتحدة وخارجها للمشاركة في تنفيذ مهام برنامج حماية البيئة والمراجعة السنوية لما تم في هذا الخصوص وإقراره.

٧- برنامج المنظور البيئي ٢٠٠٠م، والذي يتضمن ضمن بنوده، تحقيق تحسينات مطردة في مستويات المعيشة في جميع البلدان، وتوافر مأوى مناسب لسبل محيط آمن نظيف يفضي إلى الصحة الوقائية ويخفف من حدة التردي البيئي.

٨- مؤتمر الأمم المتحدة الثاني للبيئة والتنمية «قمة الأرض» ريو دي جانيرو ١٩٩٢م، والمتضمن إقرار ميثاق الأرض استنادا لإعلان حقوق الإنسان، والمتضمن كذلك جدول أعمال القرن الحادي والعشرين، وخلاله وافقت ١٧٤ دولة على ٩٠ في المئة من إعلان النوايا، وكانت الـ ١٠ في المئة الأكثر حساسية هي مثار الاعتراض، لأنها المعنية بالتمويل، لذا يجب على دول الجنوب محاولة حث الرأي العام الدولي على تنفيذ مقترح فرنسا بمنح دول الشمال للجنوب ٧٥٠ مليار فرانك كل عام، علما بأن المعونة الحالية تبلغ ٥٥ مليارا، والمقترح يبنى على أساس رفع معونة حماية البيئة بنسبة ٠,٧ في المئة من إجمالي الناتج القومي الخاص بها (وكانت تعطى بالفعل من قبل نسبة ٠,٥ في المئة)، هذا ولم تبد الولايات المتحدة الأمريكية أي حماسة لذلك (لأنها تعطى حاليا ٠,٢١ في المئة)، وكذلك بريطانيا (التي تعطي ٠,٢٧ في المئة)، والمفترض أن المساومة إذن قائمة، خصوصا أن هذه الحقوق جراء ما جنته بعض الدول الاستعمارية من تدمير دول الجنوب واستنزاف مواردها أو تعمد نقل التلوث الصناعي إليها.

الهوامش

١- ماري يعقوب، في تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية (افد) ٢٠١٠م: كارثة مائية تدق أبواب العرب قبل عام ٢٠١٥م، القاهرة: مجلة رسالة النور، العدد ٤٩٢، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٠م، ص٤١.

٢- خميس البكري، علماء الزراعة ينجحون في تصنيع المعدات الزراعية ذاتية الحركة في مصر، القاهرة: جريدة الأهرام، ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٥م، ص٢١.

٣- محمد عاطف كشك، نهر النيل - المخاطر الحالية والمستقبلية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤٨.

٤- ماري يعقوب، في تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية (افد) ٢٠١٠م: كارثة مائية تدق أبواب العرب قبل عام ٢٠١٥م، القاهرة: مجلة رسالة النور، العدد ٤٩٢، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٠م، ص٤١.

٥- شايدا بادي، ومهدي إخلاجي، وأورانبيليج باتجارجال، وآخرون، ص٩٣.

٦- وجدي رياض، الكيمياء الخضراء.. تتصدر مؤتمرات المياه، القاهرة: جريدة الأهرام، ١٩ يونيو ٢٠٠٠م، ص٢٧.

٧- ناجي كامل، مرجع سابق.

٨- مجموعة من العلماء، تقرير «مواجهة أزمة المياه العذبة في العالم»، ترجمة الدكتور أحمد فرغلي عبدالنعيم، مجلة العلوم الأميركية، ٢٠٠٨م.

٩- د. محمود منصور، مواردنا المائية.. مخاطر وتحديات، القاهرة: دار الهلال للطبع والنشر، مايو ٢٠١١م، ص٧٤.

١٠- د. مجدي أبوريان، تقنية المياه، القاهرة: جريدة الأهرام، ٤ مارس ٢٠٠٠م، ص١٠.

١١- مواجهة أزمة المياه، تقرير مجلة العلوم الأميركية، مرجع سابق.

١٢- المرجع السابق.

١٣- عادل عبدالرازق، بؤر التوتر والنزاع حول المياه في حوض النيل والعالم العربي والاستراتيجية المصرية للسياسة المائية في حوض النيل، دراسة تحليلية وقانونية في إطار العلاقات السياسية الدولية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م، ص٤٢.

١٤- المرجع السابق، ص٤٣.

١٥- ممدوح حامد عطية، إنهم يقتلون البيئة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٥١ - ٦٠.

التحديات والجهات واستراتيجية المواجهة:

تهديد اللسان العربي

أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

يمثل الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية في ١٨ ديسمبر من كل عام، مناسبة جيدة لمعاودة تأمل ما أسهمت به في مسيرة الإنسانية المعرفية والإبداعية والحضارية. لقد مثل حضور العربية المبهر في بعض الحقب التاريخية صمام أمان للتراث الإنساني بكل ما تعنيه العبارة هذه، ومن دون أي غلو يمكن أن تحمل عليه.

ومنذ فترة والمهددات التي تطيف باللسان العربي موفورة، تتبدى العلامات عليها، ويتنامى ظهور عدد من أبعادها، وتتنوع جهات إطلاق نيرانها.

إن الاحتفال مسألة مهمة جدا من الوجهة النفسية، ولكنها مهمة جدا حين تتخذ منحى إيجابيا يسهم في معالجة قضية التهديد التي يمتد الشعور بها منذ زمان بعيد من عمر العصر الحديث.

إن مراجعة التاريخ العربي المعاصر تشهد حضورا للشعوب بالتهديد اللغوي يمتد على الخريطة الثقافية العربية المعاصرة جميعا ويمتد زمنيا كذلك.

فالعقاد مثلا وانطلاقا من الهوية الواقية فتش عن ملامح اللغة الشاعرة، ثم جاء مالك ابن نبي ليعلن بصرامة ووضوح أن بقايا الاستعمار ماثلة في عجمة اللسان العربي، ثم جاء فهمي هويدي معلنا البيان المنذر المرعب: عروبة الخليج في خطر.

هذه ثلاثة أصوات فقط تتوزع على الخريطة، مشرقا ومغربا، وتمتد زمنيا لتغطي قرنا منصرما ومطلع قرن نعاني معيشته، وهي تعلن جميعا أنه لم يعد هناك وقت للاحتفال المعزول عن مخاوف التهديد.

وهذه المقالة تسعى إلى أن ترفع الصوت بنمط جديد من الاحتفال من منظور إيجابي يستهدف التنبيه السريع على التحديات التي تواجه اللسان العربي، وتدعو لحياطة هذا اللسان الشريف النبيل بما من شأنه أن يحفظ كرامته ويقيم اعتباره لما فيه تعافيه وصحته.

■ تحديات الوضع الراهن

بسبب من تغيرات حضارية واقتصادية وسكانية، أطلت مجموعة من علامات تهديد اللسان العربي. إن كثيرا من التحديات المتنوعة تضعنا في قلب الشعور بالأزمة وأعراضها. وقد استفاض هذا الشعور بالتهديد، وانتقل من الأروقة البحثية والعلمية إلى الفضاء الصحفي، وهو ما يعني تمدد الوعي بالحالة المعرفية الخاصة بتهديدات اللسان العربي. يقول فهمي هويدي في مقالته: «عروبة الخليج من واجبات الوقت» (جريدة «الشرق الأوسط»، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٦م، عدد ١٠٢٤٢): «ثمة أسباب متعددة للهزيمة اللغوية التي مرت بها الأمة العربية، لعل أهمها حالة الهزيمة الحضارية والسياسية المخيمة التي جعلت المغلوب يسعى إلى تقليد الغالب وتمثله، ونحن نشاهد تجليات ذلك التقليد في مختلف نواحي السلوك الاجتماعي، الأمر الذي لا يستغرب منه أن ينسحب التقليد على لغة التعامل بين الناس. غير أن وطأة الهزيمة بدت أشد، وثمنها غدا باهظا في المجتمعات الخليجية التي تعاني الجذب السكاني، وتعتمد بنحو كبير على العمالة الوافدة التي جاءت بلغاتها المتعددة».

إن هذه الفقرة من هذه المقالة تستهدف تعيين العلامات التي تعكس التهديد الذي يحيط باللسان العربي، ذلك أن تعيين هذه العلامات هو المقدمة

الضرورية للمثاقفة حول استراتيجيات المواجهة لهذه المهددات.

■ **التحدي الحضاري**

يمثل التحدي الحضاري أهم العلامات التي تهدد اللسان العربي. والمقصود به: هو العجز العربي المروع في ميادين إنتاج المعرفة!

لقد تراجع المجتمع العربي تراجعا يرادف الموت، أو التوقف منذ قرون طويلة عن إنتاج العلم، وهو الأمر الذي انسحب بالضرورة على إمداداته المنعدمة للمعجم العلمي العالمي.

هذا الشعور الحاكم مستفيض في كتاب اللسانيين العرب الكبار المعاصرين. يقول سعد مصلوح في مقدمة ترجمته لكتاب إدوين غينتسلر في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة: «(المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٧م بيروت، ص١٨) اللغة العربية لا يمكن أن تعد من اللغات المحدودة الانتشار، لا من جهة عدد الناطقين بها، ولا من جهة نفوذها الديني والثقافي في بلاد الإسلام. وقل مثل ذلك في وضع الثقافة العربية الإسلامية ودورها في تاريخ التطور الحضاري للفكر البشري، حضورا وتأثيرا. ومع ذلك، فإننا حين نشخص واقعة نجد - بلا ريب - أن لغة العرب وثقافتهم تكادان تكونان كلتاهما قابلتين للانضواء تحت القسيم الثاني الذي يتصف بمحدودية الانتشار وضعف التأثير».

إن هذا الذي قرره هذا اللسان العظيم، وإن كان جاءه بفحص سهمة العرب في نشاط الترجمة فهو صحيح جدا بفحص سهمة العرب المعاصرين في نشاط إنتاج العلم والمعرفة، ومن ثم تجديد اللسان وتجديد المعجم.

إن التراجع الحضاري للأمة العربية في أعلى تجلياته وأظهرها ينسحب بصورة مؤكدة على التراجع اللغوي للعربية، استعمالا ومعجما.

■ **التحدي النفسي**

يمثل التحدي النفسي واحدا من أهم التحديات التي تشكل واقع التهديدات التي تتعرض لها اللغة العربية في الوقت الراهن، ويمكن تلخيصه في أن العرب يعيشون حالة غرام مريض بالغرب!

لقد حاول كثير من المفكرين العرب المعاصرين المنتمين إلى الهوية اللغوية أن يشخصوا هذا التحدي النفسي، فكشفوا عما سموه الاستعداد للاستعمار، على حد تعبير علال الفاسي، ثم سمي القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، وهو المفهوم الذي استقر في بنية الفكر العربي المعاصر وظهر في تسمية واضحة تفسيرية في ما سبق نقله من فهمي هويدي باسم الهزيمة! وكل ذلك موصول بالقانون الذي أبدعه ابن خلدون قديما عندما قرر أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

إن هذا التحدي النفسي يبدو أثرا ونتيجة من آثار التحدي الحضاري ونتائجه على المستوى النفسي والعقلي للشخصية العربية المعاصرة في الغالب.

■ **التحدي السياسي**

لقد استيقظت حركات التحرر الوطني في العالم العربي على آثار الفعل المجرم للاستعمار اللغوي في الشعوب العربية، فقادها الضمير الوطني، ومطالب تحرير الشخصية العربية إلى إعادة تقرير الارتباط باللسان العربي بما هو واحد من محددات الهوية العربية، التي خضعت قهرا لمحاولات استلاب لغوي بشع. ظهر هذا التقرير في دساتير الدول العربية جميعا بعد تحريرها، وتراكم الإعلان عن الارتباط باللغة العربية بما هي مقوم من مقومات الإنسان العربي والدولة العربية معا. لقد كان واضحا أن ضبط اللسان وإصلاح معجمه نشاطان سياسيان، على حد تعبير كلود حجاج في «إنسان الكلام» (ص٢٦٥).

ومع مرور الوقت، والتغيير الذي أحدثه الاستعمار العالمي على مستوى الاستراتيجيات، ظهرت آثار للتحدي السياسي تهدد اللسان العربي، ولعل أظهر هذه الآثار يتمثل في ما يلي:

أولا - تحدي معاندة الأقليات اللغوية: من مثل: النوبية والقبطية في مصر، والأمازيغية في دول المغرب، وغيرها.

ثانيا - تحدي تشجيع التعلم باللغات الأجنبية والحفاوة بمتعلميها في الأجهزة العليا في الأنظمة الحاكمة.

ثالثا - تراجع رعاية مطالب تحسين اللغة العربية في الدساتير العربية.

رابعا - تنامي الآثار السلبية التي أثارت الفصحى.

خامسا - انعدام الدعمين القانوني والتشريعي لتقدم اللغة العربية مع انعدام التخطيط لمستقبلها.

■ التحدي الاجتماعي

كان للتغير الاجتماعي الذي أصاب المجتمعات العربية، على تفاوت بينها، أثره في تنامي علامات تهديد العربية، ذلك أن التغيير السكاني (الديموغرافي) الذي أصاب منطقة الخليج تعيينا، وزيادة أعداد العمالة الأجنبية غير العربية فيها، أثر تأثيرا ظاهرا على تراجع العربية الفصيحة.

وهو خطر حقيقي دعا كثيرين أن يشعروا بحرج الوضع اللغوي العربي في هذه المنطقة تعيينا.

وكان للتفاوت المرعب في مستويات الدخول، وتغير أنماط الحياة اليومية، وشيوع النمط الاستهلاكي والسلوكي المنقول من الغرب، أثرها في تزايد الشعور بعلامات التهديد أيضا.

وكان لنمط الخدمات المقدمة إلى المواطن العربي في كثير من مجالات الحياة العامة، وانتشار وسائل الاتصال الحديثة المستوردة، أثرهما كذلك في تنامي علامات تهديد اللسان العربي. إن التغريب والبعد عن العادات والأعراف المنتمية إلى الثقافة العربية التي شكلها الدين كانا علامتين ظاهرتين في سياق قراءة التهديد، لاسيما أن تاريخ الدين هو بمعنى ما تاريخ للغة، على حد تعبير موريس اولندر في «لغات الفردوس» (في١٨٧).

■ التحدي الاقتصادي

إن تراجع معدلات الإنفاق الحكومي على التعليم، بوجه عام، وتراجع معدلات الإنفاق الحكومي على تعليم اللغة العربية وبرامج ترقيتها، يعد ملمحا ظاهرا جدا في سياق قراءة التحديات التي تواجه اللسان العربي.

ذلك في الوقت الذي تشهد اللغات الأجنبية، لا سيما اللغة الإنجليزية، زيادة حقيقية في معدلات الإنفاق والتمويل لمشاريع تعليم اللغة الإنجليزية ودعمها حكوميا.

ويؤازر هذا الثقافي للدعم المالي في الإنفاق والتمويل على تعليم اللغة الأجنبية مجموعة من العوامل المعينة من مثل:

أولا - الدعم القانوني والتشريعي الذي يعين على نشر اللغة الأجنبية داخل الحدود وخارجها.

ثانيا - تنامي ظهور برامج علمية بحثية تبشر بقدرات الإنجليزية مثلا في حركة العلم العالمي: لدرجة وصلت بعدد من اللسانيين المعاصرين إلى أن يحذروا من وجود لسانيين استعماريين من أمثال دافيد كريستال، على حد تعبير لويس جان كالفيه في «حرب اللغات والسياسات اللغوية» (ص٢٨٦).

إن هذه التحديات كاشفة بشكل مبدئي عن خريطة التحديات التي تصور علامات التهديد الذي يواجه اللسان العربي في الوقت الراهن، وعدم التنبه إليها مؤذن بالسير في طريق الإبادة اللغوية للعربية والتحديد اللغوي الأجنبي في فراغات ما تخلفه هذه الإبادة.

٣ - جهات تهديد اللسان العربي

لعل أخطر ما في أمر جهات تهديد اللسان العربي أنها صارت مؤسسات ضخمة، تتحرك عن وعي من جانبها، وغفلة من جانب أبناء اللسان العربي. وتتمثل هذه الجهات المهددة في:

أولا - النشاط الاستعماري (الغربي) على مستويات دعم اللغات الأجنبية في الداخل العربي، تمويلا وإنفاقا وتشريعا.

ثانيا - الروح التغريبية المدعومة من جماعات التغريبيين بين الداخل، وهي جماعات موزعة على كثير من المؤسسات الأكاديمية والإدارية والإعلامية.

ثالثا - غياب الإرادة السياسية للأنظمة الحاكمة في الغالب.

٤ - آثار التهديد

لقد خلف ازدياد التحديات وتعاون جهات التهديد عددا من الآثار السلبية التي انعكست على وضع اللغة العربية في الوقت الراهن، وهي التي يمكن إجمالها في ما يلي:

أولا - إضعاف اللغة العربية.

ثانيا - إضعاف الثقافة العربية.

ثالثا - إضعاف المقيم.

رابعا - إخفاء العرب.

إن هذه الآثار ربما تقود إلى ما يسميه الدكتور عقيل سعيد محفوظ بـ «الحلول»، وهو الأمر الذي تترتب عليه إزاحة اللسان وإزاحة ثقافة هذا اللسان، على ما جاء في كتابه «الأكراد واللغة والسياسة: دراسة في البنى اللغوية وسياسات الهوية» (ص١٠٩ وما بعدها).

٥ - استراتيجيات المواجهة

إن فحص المهددات والتحديات، التي تواجه اللسان العربي في

الوقت الراهن، يفرض مجموعة من سياسات المواجهة يمكن إجمالها في السياسات التالية:

أولا - إعادة تصدير حقيقة ربط اللسان بالدين

لقد كان مستقرا في الوعي العالمي في الأمة أن تفهم العربية من الديانة على حد التعبير المحكم الذي أطلقه الثعالبي في مقدمة كتابه «فقه اللغة وسر العربية». وهي سبيل ناجعة على طريق مواجهة التهديدات التي تواجه اللسان العربي، وهي سبيل تحفها مجموعة من العلائق الدينية والإيمانية تتعلق بالكتاب العزيز الذي هو عربي. والنبي الكريم الذي هو عربي أيضا، وهو ما ينبغي أن يشيع ويترسخ في البرامج التعليمية والإعلامية والبحثية معا.

ثانيا - إعادة تصدير حقيقة الربط بين اللسان والقومية

إن دراسات القومية دأبت، على اختلاف مناهجها ونظرياتها، على النظر إلى اللسان بما هو مقوم أساسي في بناء الشخصية القومية. ومن المدهش أن الباحثين في حقل القومية، على اختلاف نزعاتهم وتوجهاتهم الفكرية، يجمعون على هذا الذي نقرره. وهو ما يلزم إعادة إحيائه في برامج تربية المواطنين العرب من الوجهة القومية.

ثالثا - دعم الأبعاد العاطفية على طريق الارتباط باللسان العربي

إن إعادة بناء صرح عاطفي ووجداني نحو اللغة العربية تعد مقدمة أساسية في اتجاه مقاومة علامات التهديد التي تحيط بها.

ذلك أن الدعم الواصل للغة من وجدان أبنائها يمثل سلاحا ناجعا على المستوى النفسي والاجتماعي ويعد تمهيدا وتهيئة لإجراءات استعادة المكانة.

رابعا - إحداث تحول سياسي في الإرادات الحاكمة

إن التحول في الإرادة السياسية نحو مشاريع تطوير اللسان العربي، من شأنه تحقيق سرعة ملموسة في البرامج والتنفيذ العملي نحو تقوية حضورها في الحياة.

وترتبط بهذا المبدأ مجموعة من الإجراءات لا يمكن تحقيقها من دون تدخل مباشر من الدولة، تتلخص تحت ما يعرف بالتخطيط اللغوي.

والتخطيط اللغوي جهد حكومي في الأساس، على ما يقرر لويس جان كالفيه في كتابه «حرب اللغات والسياسات اللغوية» (ص٢٢، ترجمة: د. حسن حمزة، ومراجعة: سلام بزي حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٨م): «تبدو السياسة اللغوية... مرتبطة بالدولة، وليس هذا خيارا نظريا، وإنما هو تقرير للواقع». وتتمثل خطوات ما بعد التحويل الإيجابي في الإرادات السياسية للأنظمة الحاكمة في البلدان العربية في ثلاث خطوات أساسية: وهي: (ص:٢٢٠):

١ - مرحلة التفكير في المشكلة اللغوية.

٢ - مرحلة التقرير واتخاذ القرارات.

٣ - مرحلة التطبيق، أو وضع القرارات موضع التنفيذ.

خامسا - تعزيز إنتاج المعرفة باللسان العربي

إن التحدي الحضاري، الذي يفرض تهديدا حقيقيا للسان العربي، يفرض مواجهته بتعزيز إنتاج المعرفة باللسان العربي عن طريق إجراءات منضبطة تتعلق بما يلي:

أ . إصدار حزمة من التشريعات الدستورية والقانونية الصريحة التي تدعم التعافي اللغوي للعربية.

ب . إصدار حزمة من القرارات والقوائم في الجامعات ومراكز البحوث القومية بشأن كتابة الرسائل العلمية والبحوث باللغة العربية، بما أنها اللسان الوطني للأمة.

ج. دعم المجامع اللغوية في حقول التعريب تعيينا.

د . التوسع في إنشاء معاهد مختصة في اللسانيات والتخطيط اللغوي على وجه التعيين.

إن التهديد الذي يواجه اللسان العربي شديد، وشدته واردة من تنوع أشكاله، وتنوع جهات صدوره بما يجعل مشكلة العربية مشكلة معقدة مركبة متجاوزة.

وهذا التنوع يفرض تنوعا حقيقيا في استراتيجيات المواجهة لتتوزع على الأذرع العلمية والاجتماعية والسياسية والإعلامية والتعليمية معا.

إن قضية مواجهة التهديدات التي تحيط بالعربية هي في الحقيقة قضية إحياء بالمعنى المادي أو البيولوجي أولا لأبناء الأمة العربية، ثم هي في الحقيقة إحياء بالمعنى العقلي والنفسي والحضاري لها مرة ثانية.

أمير البحار.. خير الدين بربروس

أحمد أمين
كاتب وباحث في التاريخ الإسلامي

يحفل تاريخنا الإسلامي بسير العظماء والقادة الذين تركوا بصمتهم واضحة على ما قدموه إلى الإسلام والمسلمين. لكن كثيرا من هؤلاء العظماء أصبحوا شخصيات حبيسة بطون الكتب؛ حيث ضن المؤرخون بذكرهم أو تناول سيرتهم العطرة، حتى استغل الغرب ذلك فقام بتشويه صور الكثير من شخصياتنا التاريخية، ولطخ تاريخها الناصع البياض.

فأردنا أن نزيح بعض الغبار عن سيرتهم وكفاحهم؛ لتستلهم الأجيال القادمة بطولاتهم وصولاتهم، ولتكون نبراسا لنا في طريق المجد والصعود نحو قيادة العالم مرة أخرى كما قاده هؤلاء المجاهدون.

من هذه الشخصيات أمير البحار المجاهد خير الدين بربروس ، أبرع من ركب البحر، وقاد السفن، وخاض المعارك الحربية البحرية، وفتح للمسلمين بلادا عديدة، وحرر كثيرا من البلاد المحتلة، ووجه ضرباته القوية المؤلمة إلى أعداء الإسلام، فكسر شوكتهم، وهزم جيوشهم، وذاع صيته في أوروبا كلها، وأطلق عليه الأوروبيون لقب: بربروس ، وهو يعني: ذو اللحية الحمراء.

وبلغ من شدة خوفهم وهلعهم منه أنهم كانوا يدعون في صلواتهم:

بربروس بربروس
أنت صاحب كل شر
ما كان من ألم أو عمل
مؤذ وجهنمي مدمر
إلا والسبب فيه
هذا القرصان الذي
لا نظير له في العالم (١)

ومن أجل تشويه صورته قام الغرب بإنتاج سلسلة أفلام ضخمة حملت اسم: قراصنة الكاريبي، وصور فيها المجاهد خير الدين بصورة وحشية ودموية، ووصفه بالخسة والنذالة؛ محاولا أن ينال من ذلك القائد العظيم الذي أذل قادتهم، وهزم جيوشهم، حتى إن كارلوس الخامس ملك إسبانيا كان يصرح في قواده قائلا:

«لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك، فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروس» (٢).

الاسم والمولد والنشأة

هو خضر بن يعقوب، الملقب بخير الدين، ولد عام ١٤٧٢م في جزيرة لسبوس اليونانية، لأب من الانكشارية (٣) ترك في أبنائه حب الجهاد، وأم أندلسية كان لها الفضل الكبير في اهتمام خير الدين وأخيه عروج بمسلمي الأندلس فيما بعد (٤).

كان لبربروس ثلاثة أشقاء، هم: عروج، وإلياس، وإسحاق، شاركوه في جهاده البحري، وخاضوا معه المعارك، وقد استشهدوا جميعا في معارك حربية، بينما توفي هو في ٤ يوليو ١٥٤٦م في مدينة إسطنبول.

بداية الحركة الجهادية

عمل هو وإخوته في بداية حياتهم في التجارة البحرية، وعندما وجدوا فرسان القديس يوحنا (جزيرة رودس) عاثوا فسادا في سواحل المدن الإسلامية، وأن الإسبان احتلوا بعض المدن الإسلامية في المغرب العربي، اندفعوا إلى جهاد هؤلاء المعتدين بحريا.

كون خير الدين أسطوله البحري الصغير بمساعدة أخيه عروج، وبدأ رحلته الجهادية مهاجما بعض السفن الأوروبية الحربية، وأسر من فيها، ومبادلتهم بأسرى مسلمين.

وقد استعان خير الدين بالبحارة الأندلسيين الفارين من بطش محاكم التفتيش، واستفاد من مهارتهم العالية في صناعة السفن وقيادتها، وكانوا يشكلون جزءا كبيرا من طاقمه البحري.

وتوجه عروج وخير الدين نحو جزيرة جربة في تونس سنة ١٥٠٤م، واتفقا مع أميرها أبي عبدالله محمد بن الحسن الحفصي (٥) على أن يمنحهما ميناء حلق الوادي؛ ليجعلا منه قاعدة لهما مقابل أن يدفعا له خمس الغنائم التي يغنمانها، فوافق الحفصي، وعقد معهما الاتفاق.

وبدأت هجمات الأخوين تزداد قوة وشراسة، وتدفق عليهما المجاهدون من كل صوب وحدب، وبدأ أسطولهما الحربي في النمو، وهاجما به الأساطيل الأوروبية، واستطاعا – رغم قلة عدتهما وعتادهما – إلحاق أضرار جسيمة بتلك الأساطيل، وهزيمتهم في العديد من المواقع، وأسر جنود منهم، ونصب أكمنة، ومحاصرتهم، ومنع وصول الإمدادات إلى القوات الغازية لشمال إفريقيا، مما جعل الأخوين مصدر خطر على أوروبا في



ذلك الحين.

التحالف مع العثمانيين

بدأ عود أسطوله يشتد، فهاجم شواطئ جنوة والبندقية، وإسبانيا وإيطاليا، وأصبح وجوده مثيرا لفزع الدول الأوروبية. واستطاع الأخوان استعادة مدينة بجاية من الإسبان، وحماية الجزائر من هجماتهم، واتخاذها مقرا لهم.

وفي عام ١٥١٨ استشهد عروج، وتولى القيادة من بعده خير الدين، وأرسل إليه السلطان العثماني سليم الأول أسطولا بحريا، وعددا كبيرا من المدافع، و٢٠٠٠ جندي للعمل تحت إمرته، ومنحه رتبة بكلر بك، والتي تعني: القائد الأعلى للقوات الإسلامية في إقليمه، وأصبحت مدينة الجزائر تابعة للخلافة العثمانية، كأول مدينة في الشمال الإفريقي (٦).

وكان انضمام بربروس إلى العثمانيين بمنزلة طعنة رهيبة لقوى الاستعمار الأوروبي، وأصبح خير الدين حجر عثرة في طريق طموحهم الاستعماري، لذلك قام ملك صقلية هيكو دي مينكادا في سنة ١٥١٩م بحملة ضد خير الدين لكنها باءت بالفشل؛ لصلابة خير الدين وقوته وتصديه الباسل لتلك الحملة (٧).

وقد وجه خير الدين أسطوله نحو تونس وتلمسان وحررهما، وتمكن أيضا من طرد الإسبان نهائيا من قلعة البينيون، والتي كانوا قد احتلوها قبالة مدينة الجزائر، وكان ذلك عام ١٥٣٠م (٨)، حيث حاصر القلعة لمدة عشرين يوما، وقصفها بالمدافع حتى هدم أسوارها، واقتحمها مع جنده، وأسر قائد القلعة وكبار ضباطه.

ثم طلب منه السلطان سليمان القانوني فتح تونس، التي كان يحكمها مولاي حسن، آخر سلاطين بني حفص، وكان متعاونا مع الإمبراطور الأوروبي شارلكان (كارلوس الخامس)، وكان الشعب التونسي ناقما على ذلك الوضع، فتوجه خير الدين بأسطوله وفتح تونس (٩)، وسط ترحيب كبير من سكانها. وحكمها باسم العثمانيين، وعينه السلطان سليمان القانوني قائدا عاما للأساطيل العثمانية.

بعد توالي انتصارات بربروس، وفرض سيطرته على المتوسط والكاريبي، تداعى الأوروبيون للقضاء عليه، فتكون تحالف على رأسه البابا بفرسانه وإسبانيا وفرنسا والبندقية والبرتغال، وتم تجهيز أكثر من ٦٠٠ سفينة حربية؛ بغرض إنهاء سيطرة بربروس على المتوسط والقضاء على دولته.

وكانت المعركة في خليج بروزة، ٤ من جمادى الأولى ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م؛ حيث التقت أساطيل التحالف الأوروبي بأساطيل خير الدين، المكونة من ١٢٢ سفينة، ودارت معركة حسمت لخير الدين، الذي فاجأ السفن الأوروبية بهجوم غير متوقع، فتفرقت سفنهم، وفقدت تشكيلاتها العسكرية، فوقعت فيهم الهزيمة، ووقع أكثر من ٢٠٠٠ جندي في الأسر، وغنم ما يربو على ٣٦ سفينة حربية، وفرض خير الدين سيطرته وهيمنته كاملتين على البحر المتوسط (١٠).

نجدة مسلمي الأندلس

انتشرت هجمات خير الدين لتطول مدنا أوروبية ساحلية، إلا أن أعظم ما قام به كان إنقاذ كثير من مسلمي الأندلس من بطش محاكم التفتيش؛ حيث كان صريخ الموريسكيين يتوالى كل يوم طالبا النجدة والغوث مما تفعله بهم محاكم التفتيش.

فكان يتم الاتفاق سرا مع المسلمين أن يكونوا موجودين ليلا في أماكن محددة من شواطئ بلنسية؛ لتنقلهم سفن بربروس إلى مدينة الجزائر.

وقد ذكرت مصادر تاريخية أنه نقل أكثر من ٧٠ ألف مسلم، حملهم في ٧ رحلات بأسطول بحري مكون من أكثر من ٣٠ سفينة.

ولم يكتف بذلك، بل هاجم سفن الأسطول الإسباني، وأسر جنودا منه؛ ليقايضهم بمسلمين أندلسيين (١١).

وأصعب الرحلات التي تعرضت للمخاطر كانت عام ١٥٢٩م، حين أرسل بعض المسلمين الموريسكيين رسالة إلى خير الدين ليقلهم إلى الجزائر، فأرسل خير الدين نائبيه ريس صالح وإيدين ريس، واستطاعا جمع أكثر من ٦٠٠ موريسكي، لكن قبل مغادرة الميناء هجم عدد كبير من السفن الإسبانية، وتمت مطاردة رجال خير الدين حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار)، لكن فجأة انقلبت سفن المجاهدين من الدفاع إلى الهجوم، ودمرت عددا كبيرا من السفن الإسبانية، وغنمت بعضها، وعادت إلى مدينة الجزائر سالمة، حاملة معها الموريسكين، وبعض أسرى الإسبان (١٢).

غزو فرنسا

أثناء الحرب الدائرة بين ملك فرنسا فرنسوا الأول والإمبراطور كارلوس (شارل الخامس) حول دوقية ميلان (شمال إيطاليا)، استنجد فرنسوا بالسلطان سليمان القانوني وطلب مساعدته، فأرسل السلطان سليمان حملة كبيرة على رأسها أمير البحار خير الدين، فغادر إسطنبول في ٢٣ من صفر ٩٥٠هـ ٢٨ من مايو ١٥٤٣م. وفي طريقه إلى فرنسا استولى خير الدين على مدينتي مسينة التابعة لصقلية، وريجيو الإيطالية من دون مقاومة، ثم استولى على ميناء أوستيا الإيطالي، حتى وصل إلى ميناء مارسيليا الفرنسي، ورفعت السفن الفرنسية الأعلام العثمانية احتفالا بقدوم خير الدين ورجاله، ونجح خير الدين في استعادة ميناء نيس الفرنسي من حاكمه الإسباني، وتسليمه إلى الملك الفرنسي (١٣).

ميناء طولون

كان لمساعدة العثمانيين للفرنسيين أثر كبير، فقام الفرنسيون بالتنازل عن ميناء طولون، وتسليمه إلى السلطان العثماني، وتحول الميناء إلى مركز للقوات البحرية الإسلامية، ومن خلاله قام العثمانيون باعتراض الأساطيل الإسبانية التي كانت تهدد المغرب العربي.

وخلال إدارة المسلمين للميناء أخلت الحكومة الفرنسية الثغر كله للمسلمين؛ ليتحول إلى مدينة إسلامية، وارتفع الأذان في جنبات المدينة (١٤).

صفاته وأخلاقه

كان خير الدين يمتاز بالقوة والدهاء والإقدام والشجاعة، وكان سخيا كريما محبا للفقراء والمساكين، كثير العطف عليهم، قوي الإيمان بالله، ذا صلابة في الجهاد وقناة لا تلين، إلى جانب تصميم وعزم لا يتطرق إليهما أي ضعف، ونظرة صائبة خاطفة، لا تكاد تخطئ التقدير ولا التدبير، وجرأة واندفاع لا يباليان بالصعوبات، ولا يحسبان حسابا للعقبات، ودقة في السياسة، وتدبير الملك، وعبقرية ترافقه ساعة الحرب وساعة السلم.

وصفه المؤرخ التونسي ابن المضياف: «خير الدين هذا من رجال الدنيا، بل والآخرة، فهو كما قال بعض الأدباء: خير الدين والدنيا» (١٥).

قاد خير الدين حروب الإيمان، وحقق فوزا عظيما، واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات، والاستعداد الدائم للتضحية، والصدق، والشجاعة بكل أشكالها. ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له: «يجب ألا تنسى أن الإسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويك إلياس وعروج، وإن تماديت فيما أنت عليه وركبت رأسك فإن عاقبتك ستكون كعاقبة أخويك».

فأجاب خير الدين: «سترى غدا، وإن غدا ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وأن مراكبك ستغرق، وأن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة» (١٦).

وعندما حاصر شارلكان (كارلوس الخامس) ملك إسبانيا الجزائر خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ (محمد:٧)، وتقدم إلى الميدان ومعه رجاله، وقال لهم: «إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق؛ لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام».

فصاحوا كلهم: «الله أكبر»، وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم (١٧).

وفاة بربروس

كانت حملة خير الدين بربروس على ميناء طولون هي آخر حملة، فلم تطل به الحياة بعد عودته إلى إسطنبول؛ حيث توفي في ٩٥٣هـ - ١٥٤٧م، تاركا خلفه تاريخا عظيما سطره هو وإخوته بدمائهم الزكية التي سالت من أجل الدفاع عن راية التوحيد وحماية بلاد المسلمين.

الهوامش

(١) مجلة تاريخ وحضارة المغرب في كلية الآداب في الجزائر ١٩٦٩م، العدد ٦.
(٢) مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة د. محمد دراج، ص١٤٨.
(٣) الانكشارية: مقاتلون كانت تتم تربيتهم منذ الصغر على الجهاد والقتال في مدارس خاصة أعدها العثمانيون، تشبه المدارس الحربية حاليا.
(٤) انظر: أحمد توفيق مدني، حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص١٥.
(٥) انظر: المصدر السابق، ص١٥٨.
(٦) تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد، ص٢٣١.
(٧) انظر: حرب الثلاثمئة، ص٢٠٦.
(٨) الدولة العثمانية لعلي الصلابي، ص٢١٤.
(٩) انظر: الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد، ص٢٣٢.
(١٠) انظر: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة د. محمد دراج، ص١٨٨-١٩٠.
(١١) دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص٣٨٦.
(١٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(١٣) انظر: خير الدين بربروس والجهاد في البحر لبسام العسيلي، ص١٦٥-١٦٦.
(١٤) المصدر السابق نفسه.
(١٥) حرب الثلاثمئة بين إسبانيا والجزائر، ص٢٠٣.
(١٦) خير الدين بربروس، ص١٧٠-١٧١.
(١٧) السابق.

غربــة

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

«أنا بخير يا أبي.. لا تقلق» قالها بصوت مخنوق، وهو يغلق هاتفه بعد مكالمة مقتضبة مع والده، اتصل على والده في تلك الساعة المتأخرة من الليل ليخبره أمرا ما، لكن سريعا تراجع عن قراره بالإخبار، واكتفى بالسؤال عن حاله وحال الجميع، وضع الهاتف جانبا وعاد لسريره، محاولا النوم لكن دون جدوى، وأخيرا ترك فراشه وتوجه نحو النافذة، فتحها على مصراعيها تاركا المجال لنسيم الليل البارد أن يغسل الهموم المتراكمة في صدره.

مرت ثلاثة أعوام منذ انتقل للعيش في منفاه الاختياري، لا تغيب عن باله اللحظة التي حلق فيها فوق السحاب، مغادرا بلده وأهله لأول مرة، عايش وقتها مزيجا متناقضا من المشاعر، شعر بالضيق يكتم أنفاسه، خاصة في اللحظة التي ودع فيها والديه وأخته، لكن سريعا تبدل الضيق إلى شعور خفي بالسعادة، وسرحان وإبحار طويل بين طيات المستقبل الرائع الذي ينتظره على بعد آلاف الأميال عن وطنه وبيته.. تخيل الغد وهو يفتح له ذراعيه ويعوضه بغزارة عن ماضيه، تخيل نفسه وهو يرتقي سلم المجد، ويرتقي بأعلى قممه، نظرة الفخر والاعتزاز في عيني والديه ومن حوله.

بقدر ما أخافته فكرة الرحيل والاغتراب عن وطنه وأهله حينها، لكن سريعا أبعد المخاوف عن قلبه، وفكر بشيء واحد، تحقيق ذاته وطموحه، أن يصنع من نفسه شيئا ذا قيمة في هذا الوجود.

بعد تخبط وإحباط بعد الجامعة أصبح حلمه الوحيد أن يسافر بعيدا، أن يحقق ذاته ولو خلف البحار، بغض النظر عن الثمن الذي سيكون مضطرا لدفعه، المهم أن يخرج من عنق الزجاجة التي وجد نفسها محشورا فيها، خريج جامعي بتقدير ممتاز وعاطل عن العمل.

وما إن تحققت مساعيه أخيرا، وحصل على فرصة عمل في بلد آخر، حتى سافر دون أن يكلف نفسه حتى الالتفات إلى الوراء، ودع الجميع وفتح ذراعيه لاحتضان ذاته وأحلامه، كانت الوحدة والغربة قاتلة في بداية الأمر، لكنه تغلب عليها بالمزيد من العمل والانشغال، والتوقف عن التفكير بأي شيء آخر، سوى إثبات نفسه في عالمه الجديد وعمله.

احتاج وقتا لا بأس به للتكيف مع الواقع الجديد، وبدأ عمله الجديد بروح متقدة، مقررا الارتقاء إلى أعلى المستويات، محققا إنجازا حقيقيا، يسعد به قلب والديه، ويرضي فؤاده الشغوف بالعمل والإنجاز، لكن سريعا بدأت الأمور تأخذ منحى مختلفا، مع مديره الجديد أخذت الآمال تتقلص، يوما بعد يوم، بل وتتلاشى، عجز عن تقبل أسلوبه المتعالي في التعامل، ومحاولاته الجاهدة لقتل الطموح في أعماقه لتحويله إلى آلة لا تجيد سوى إنجاز ما يطلب منها فقط دون تفكير أو تدبر، حاول في البداية مجاراته، لكنه عجز عن رؤية طموحه يغتال أمام ناظريه لأجل حفنة من المال، أو حتى بعض الميزات الظاهرية، والتي لا علاقة لها بجوهره، وما أراد أن يكون عليه يوما ما.

ليجد نفسه بعد أعوام قليلة محشورا في زاوية أضيق، وحفرة أعمق وأظلم، فالاستمرار يعني وأد روحه المتيمة بصعود المعالي. وقرار الانسحاب والعودة يعني أن يخيب ظن عائلته ووالده الذي أنهكه المرض، وأصبح عاجزا عن العمل، معتمدا بشكل كامل عليه، وأن يجد نفسه مجددا في أول الطريق، للبحث عن الذات، وفتح أبواب المستقبل المجهول.

ترك وطنه وهو يبني أبراجا شامخة من الأحلام، وسريعا رآها تنهد أمام عينيه يوما بعد يوم، في ظل غربة قاسية لا يجد فيها من يسانده، أو يخفف عنه، سوى وحدة مؤرقة، وبدل رفع سقف أحلامه يجد نفسه مضطرا للملمة أشلاء طموح بدأ يندثر في أعماقه، لولا أن يلحق نفسه، ويعود إلى بداية الطريق، بحثا عن منفذ آخر، لا يكون الثمن فيه روحه وطموحه.

بدا له بعد تفكير عميق أن العودة إلى بداية الطريق، والتخبط والتلمس والبحث خيار صعب، لكن الاستمرار فيما هو فيه والابتعاد أكثر عن ذاته بل وقتلها من أجل إسعاد من حوله على حسابها أصعب وأمر...

أغلق النافذة، وحدق مليا في حقيبته التي تنام بهدوء على أرضية الغرفة، علقت على شفتيه ابتسامة باهتة، وعاد لفراشه لينام قليلا، فغدا أمامه سفر طويل... طويل جدا.

اتخذ قراره الذي لا رجعة فيه، سيعود لموطنه ولنقطة الصفر، ليبدأ من جديد، سيتحمل العواقب، وسيتحمل نظرات الخيبة في عيني والده، ودموع الحسرة على خدي والدته، ونظرات الحنق من أخته، سيتحمل مرارة البحث عن عمل جديد، هناك أو في أي مكان آخر، لكنه لن يتحمل أبدا فشله المبطن وضياع عمره وأحلامه، فأن يبدأ ليصل لما يريد، خير ألف مرة من أن يستمر في طريق لن يوصله لأي مكان، سوى مزيد من الفشل.

تعلم اللغة العربية عند أبناء المهجر

محمد علي الدراوي
باحث تربوي

لا يدرك الكثيرون أهمية اللغة في حياة الشعوب، ولا يدركون أن حفظ اللغة وضمان استمراريتها يكون بقدر محافظتنا عليها كأفراد ناطقين بها. إن عدم إدراك هذا الأمر كان سببا في انقراض كثير من اللغات واللهجات في العالم. وبانقراض تلك اللغات انقرضت وتلاشت معرفتنا بشعوبها وأقوامها وثقافاتها.

إن كل شعب من الشعوب يتمسك بلغاته الأصلية، ويحرص على استمراريتها، ويعتبرها اللغات الرسمية التي لا يمكن التنازل عن التخاطب بها، حتى وإن كانوا على دراية بلغات أخرى.

إن علاقة الإنسان باللغة علاقة قوية ووطيدة، فلا يمكن تصور الإنسان بدون لغة، إذ إن هذه الأخيرة قد رافقته منذ أن وجد على ظهر هذه البسيطة، ولأنها هي التي تترجم ما في مكنون نفسه، وتعبر عن مراده ومقصوده، وتحول واقعه إلى كلمات، ولأنه كذلك، هي التي تؤسس لمفهوم «الأنا»، كما قال إميل بنفنيست (١)، وهي من تؤكد وجوده، وتبرز ذاته أمام الآخر، فقد ربط معها علاقة روحية خاصة، لهذا فأينما وجد الإنسان وجدت اللغة، وأينما انعدمت اللغة فقد الإنسان.

لكن واقع الجالية العربية في أوروبا لا يعكس ذلك تماما، إذ إننا قلما نجد أحدا من أبناء العرب في أوروبا يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة وتعبيرا. بل إنها أصبحت لغة مهجورة عندهم، فهم لا يتواصلون بها حتى فيما بينهم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم وعيهم بأهمية اللغة، ودورها في الحفاظ على هويتهم، وعلاقتها القوية بدينهم الإسلامي.

فلماذا يا ترى لا يهتم أبناء جاليتنا في المهجر بلغتهم الأم؟ وما هي أهم العقبات التي تواجههم في تعلم اللغة العربية في بلاد المهجر؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لابد بداية من الإشارة إلى التحول الذي عرفه قطاع تدريس اللغة العربية للجالية العربية المقيمة بالخارج، إذ إنه انتقل من تعليم تحكمه فكرة «حتمية الرجوع» إلى البلاد الأصل، والتي سادت في السبعينيات، إلى تعليم يرتكز على فرضية البقاء التي أصبحت واقعا، خاصة مع ارتفاع وتيرة الهجرة في إطار التجمع العائلي. ويهدف إلى الاندماج في المجتمع المستقبل، مع الحفاظ على الهوية (٢).

وفي ظل هذا التحول، تغيرت وجهة المهتمين بتعليم اللغة العربية من أداة تخدم فكرة الرجوع إلى وسائل البحث عن سبل توطيد الاندماج والتوازن النفسي والثقافي للمهاجرين، خصوصا في صفوف الشباب.

ورغم الجهود التي تقوم بها الجهات المكلفة بالجالية والجمعيات بديار المهجر، فإن تدريس اللغة العربية يبقى جد محدود، ويواجه مجموعة من المشاكل، وقفت عليها شخصيا، انطلاقا من الدراسة الميدانية التي أنجزتها بفرنسا (باريس ونواحيها تحديدا) صيف ٢٠٠٨م، والتي اعتمدت فيها على ثلاثة أنواع من استمارات (٣)، وحوارات مع أساتذة ومؤطرين.

وقد قمت بدراسة ميدانية في إطار بحث الماستر لأهم التحديات التي تواجه تدريس اللغة العربية في المهجر، وتناولتها من ثلاث زوايا مختلفة:

- التحديات من وجهة نظر الأبناء.
- التحديات من وجهة نظر الآباء.
- التحديات من وجهة نظر الجمعيات.

وسأقتصر، بحول الله وقوته، في هذه المداخلة على المعوقات والتحديات التي تواجه الأبناء فقط.

معوقات تعلم اللغة العربية في فرنسا بالنسبة للأبناء.

في إشارة مهمة، وجب الوقوف عندها كثيرا وبنوع من المسؤولية، فإن نسبة ١٠٠٪ من أبناء الجالية في فرنسا، والذين شملتهم الدراسة، أكدوا اهتمامهم بتعلم اللغة العربية. إذ تعتبر نسبة كبيرة منهم اللغة العربية لغتهم الأصل (٦٣,٧٪)، في حين يعتبرها البعض الآخر لغة الدين (٣٠,٣٪)، بينما قلة لم تتجاوز ٦٪ فقط اعتبروها اللغة الثانية.

إلا أن مستواهم في تحصيل اللغة العربية (الجدول الأول) ونسبة تمكنهم من الكتابة والقراءة (الجدول الثاني)، يعكس غير ذلك:



مستوى الطلبة في اللغة العربية			
لا يعتبر	ضعيف	متوسط	حسن
٢٥,٨٪	٣٥,٥٪	٢٢,٦٪	١٦,١٪

نسبة تمكنهم من الكتابة والقراءة			
لا شيء	الكتابة فقط	القراءة فقط	الكتابة والقراءة
٥٠,١٪	١٣٪	١٦٪	١٢,٩٪

هذه الإحصائيات التي بين أيدينا، تؤكد جليا أن هذه الرغبة الشديدة في تعلم اللغة العربية؛ باعتبارها مكونا أساسيا من مكونات الهوية الإسلامية والثقافة الأصلية – لا شك – أنها تصطدم بمجموعة من العراقيل تجعل أكثر من ٦٢٪ من الأبناء لا يتقنون اللغة العربية. فما هي يا ترى الأسباب الكامنة وراء هذا؟
كشفت النتائج الميدانية، النتائج التالية:

الصعوبات التي تعترض الأبناء	نسبتها
عدم اهتمام الآباء بتعليم أبنائهم اللغة العربية	٠٪
تعلم اللغة العربية لا يفيد في شيء	٠٪
صعوبة تعلم اللغة العربية	٥٤,٦٪
حصص اللغة العربية مبرمجة في وقت استراحتنا	١٥,١٪
عدد الساعات المخصصة لتعلم اللغة العربية غير كاف	٢٧,٣٪
هل تتحدث اللغة العربية داخل المنزل؟	نعم: ٤٨٪ لا: ٥٢٪
هل تتحدث اللغة العربية مع أصدقائك خارج المنزل؟	نعم: ١٩٪ لا: ٨١٪



انطلاقا من تحليل النتائج السابقة، يتبين أن ٥٥٪ من التلاميذ يجدون صعوبة في تعلم اللغة العربية، وهذا في حقيقة الأمر راجع إلى جملة أمور أهمها:

- عدم وجود رغبة كافية لدى الطالب، مما يشكل عائقا نفسيا أمامه لتعلم هذه اللغة.
- طرق التدريس التي تعتمدها المؤسسات المهتمة بتعليم اللغة العربية، خاصة المساجد، والتي تعتبر تقليدية تعتمد التلقين المباشر، مما يجعل عملية اكتساب اللغة مسألة صعبة ومعقدة عند الطالب.
- اعتماد المناهج التعليمية المستوردة من البلاد العربية، والتي لا تتلاءم والمستوى المعرفي للطالب في أوروبا من جهة، ولا تراعي الواقع الذي يعيش فيه من جهة أخرى.
- ملاحظة مهمة وأساسية: وهي أن أبناء الجيل الثاني والثالث جلهم لا يتقنون اللغة العربية، وعند البحث في الأسباب نجد بأن المدارس والمساجد التي تعنى بتعليم اللغة العربية لم تكن آنذاك بالشكل الذي هي عليه حاليا، ففي الضواحي الباريسية مثلا، لم يكن فيها في الثمانينيات والتسعينيات ما عدا المسجد الأكبر بباريس. في حين نجد اليوم عددا كبيرا من هذه المؤسسات، ولله الحمد، وهذا سيكون له وقع إيجابي على الجيل الرابع ومن سيليه.

مشكل آخر يطرح بحدة، وهو ما أكدته نسبة ٢٧٪، ويكمن في أن عدد الساعات المخصصة لتدريس اللغة العربية غير كافية بالنسبة لهم. إذ إن عدد الساعات في التعليم العمومي لا يتجاوز الساعتين أسبوعيا (وهي مدة غير كافية بطبيعة الحال)، أما في الجمعيات فهو في غالب الأحيان لا يتعدى أربع ساعات، توزع بين تدريس اللغة العربية وحصص التربية الإسلامية. وزيادة على ذلك فهذه الحصص - كما أكد ذلك نسبة ١٥٪ - مبرمجة في الأوقات المخصصة لراحة التلميذ، فالطالب بعد عناء الأسبوع، ينتظر يومي السبت والأحد ليرتاح ويستمتع باللعب، ليجد أمامه حصصا مثقلة من الدروس في انتظاره. فكيف ستكون نفسية هذا التلميذ؟ وكيف سيحب هذه اللغة التي تسلبه وقت راحته؟

ومن المعوقات التي تقف حاجزا أمام تعلم اللغة العربية، أن هذه اللغة غير متداولة في الوسط الذي يعيش فيه التلميذ: بمعنى داخل بيته وبين زملائه من أصول عربية، وهذا يعكس إلى حد كبير نجاح السياسة الفرنسية في إدماج الإنسان العربي بصفة عامة في المجتمع الغربي، وسلخه من هويته الأصلية فنسبة ٥٢٪ من الأبناء لا يتحدثون اللغة العربية، ولو في صيغتها العامية الدارجة، مع آبائهم داخل المنزل. ناهيك على أن أكثر من ٨٢٪ لا يتحدثونها مع زملائهم من جنسية عربية خارج المنزل.

كل هذه الأسباب وأخرى كانت عائقا أمام الأبناء لتعلم اللغة العربية. ومن ثم يجب على المهتمين بقضايا الهجرة، والمسؤولين عن الجالية، الانتباه إليها، ومحاولة إيجاد الحلول الناجعة لتخطيها، والمضي قدما نحو ترسيخ عنصر أساسي من عناصر الهوية لدى أبنائنا في ديار المهجر.

الهوامش

١- دفاتر فلسفية، إعداد وترجمة: محمد سبيلا، وعبدالسلام العالي، ص: ٧٤.

٢- الجالية المغربية بالخارج بين التعايش وبين تعلم اللغة الأصيلة والثقافة المغربية، أحمد نور الدين سوباتي، طوب بريس، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص١١١. انظر أيضا تحديات تواجه الأسرة المسلمة في الغرب، د. الطاهر مهدي، المجلة العلمية التي يصدرها المجلس الأوروبي للإفتاء، العدد ٨-٩.

٣- استمارات خاصة بالأبناء، وأخرى بالآباء، والثالثة خصصتها للجمعيات.



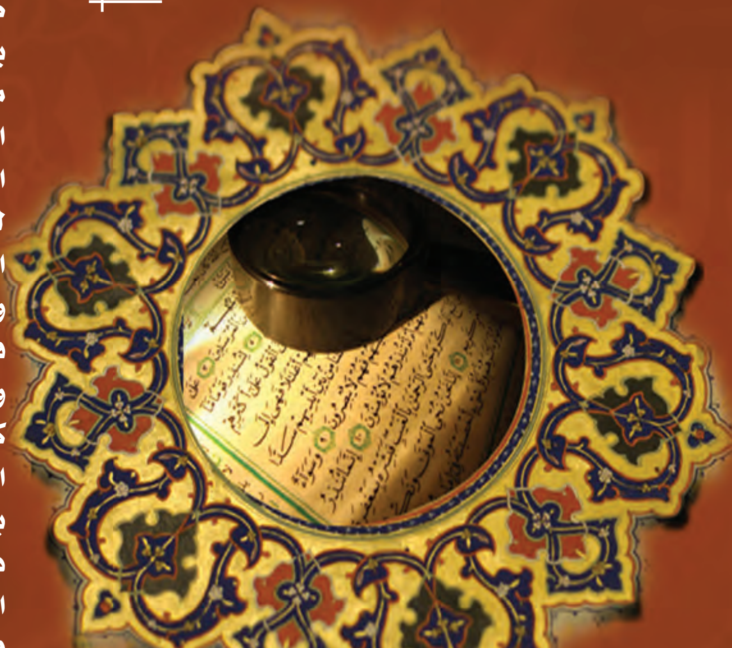
لما رأيت الفجر

محمد عباس
كاتب صحفي

لما رأيت الفجر يهمس راجيا قم للصلاة مسبِّحا وطهورا
عاهدت نفسي أن أهبَّ ملبِّيا ربَّ العباد وأرتجيه غفورا
أحيا الحياة كما يليق بعيشها عبد تفرغ للهدى مسرورا
وأهيم شوقا للقاء بخالقي عند الصلاة مَناسكا وشعورا
يارب يارحمن جئتك خاشعا وقصدت بابك ساجد النبضات
أدنو وعفوك لا يغادر سائلا أرجو القبول بواحة الرحمات
لا شيء يعدل ذكر ربك خاشعا فهو العليم بصادق الدعوات
سبحان ربي قد دنوت فراقني نور أهل فأيقظ النواما
ظمآن أنهل من بديع صفائه حيران أسأل ألتقيه سلاما
ورياض حب بالأريج تزفني بين الملائك راضيا بسَّاما
سبحان ربك لا شريك لملكه فهو الكريم يجود بالإحسان
تنأى وتبحر لاهيا عن بابه بين الدروب وصولة الشيطان
فإذا انتبهت وعدت تطلب بابه فاضت يداه بوافر الغفران
الآن أسجد حامدا لا أبتغي إلا الرضاء من الإله وحسبي
عند الحساب أقول حبك ثروتي نوري وتذكرتي وكسبي
ولقد عبدتك مخلصا وشهادتي يوم الحساب الله ربي

من الإعجاز اللغوي القرآني

أ.د. مصطفى رجب
أستاذ أصول التربية - جامعة سوهاج - مصر



تثير آيات القرآن الكريم المتشابهة لغطا كثيرا بين طلاب العلم، لاسيما الذين يهجمون على الإفتاء - منهم - بغير علم. كما أن تلك الآيات المتشابهة تستوقف القارئ أو السامع العادي الذي لم يؤت حظا من العلم بعلوم القرآن الكريم، فيفكر فيها، وربما قاده تفكيره إلى إساءة فهم المراد بتلك الآيات.

والسطور القادمة تسعى إلى كشف ما قد يكون بين بعض الآيات من تشابه، وبيان ما بينها من فروق لغوية دقيقة، ذكرها العلماء ممن رزقهم الله تعالى البصر والبصيرة فتدبروا آيات الله، ووقفوا على أسرارها، وأوضحوا ما بينها من روابط تجعل التعبير القرآني خير قدوة للقارئين والكاتبين.

• يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (المائدة:١٣)..

ثم قال في السورة نفسها: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ (المائدة:٤١).

فما سبب الاختلاف بين الآيتين، أو بالأحرى بين الجملتين اللتين تتحدثان عن تحريف الكلم؟ لم قال مرة: «عن مواضعه» ومرة: «من بعد مواضعه» والسورة واحدة؟.

في مثل هذه الحالات التي يبدو فيها التشابه بين الآيات قويا ملحوظا يحسن بنا أن نعود إلى السياق العام الذي وردت فيه كل من الآيتين: وسنرى أن الآية الأولى نزلت في شأن اليهود الذين حرفوا كلام الله، ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به، كما دلت عليه الآية السابقة للآية التي بين أيدينا، إذ تقول الآية السابقة لها:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ (المائدة: ١٢).

ومن المعلوم أنهم بعد هذا الميثاق تطاول بهم العهد وهم ينقضون الميثاق يوما بعد يوم، فلا عبدوا الله، ولا وقروا رسله، بل قتلوهم، ولا أقرضوا الله قرضا حسنا.. فجاءت الآية التالية مصدرة بالفاء التي تفيد التعقيب، وبالباء التي تدل على السببية في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم حلت عليهم اللعنة.

وهنا كان لا بد للسياق القرآني أن يستخدم «عن» في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾. لأن «عن» في اللغة العربية موضوعة «لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقا زمنه لزمنه»، أي أن تحريفهم لكلام الله ونقضهم لميثاقه لم ينتظروا به طويلا، بل حدث هذا منهم قريبا من نزول هذه التعاليم إليهم. فمجاورة زمن التحريف لزمن التكليف وقربه منه جاء بالحرف «عن» للدلالة على تجاور الزمنين.

أما الآية الثانية: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ فقد وردت في سياق آخر يوضحه نص الآية كاملا.

إذ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (المائدة: ٤١).

فالسياق الكامل للآية يدل على أنها نزلت في قوم مخصوصين من اليهود على زمن نبينا محمد ﷺ تحالفوا مع قوم من المنافقين ممن قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وقد أرسل هؤلاء وفدا للنبي ﷺ يسألونه عن حكم زان محصن، وقالوا للوفد: إن أفتاكم محمد بالجلد فأقيموا الحد، وإن أفتاكم بالرجم فلا ترجموا الزاني.

فجملة ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾، وهي مقول قولهم لوفدهم - كما يظهر من الآية - جملة تفسيرية للجملة السابقة عليها: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ لأنهم فعلوا هذا وعندهم التوراة، فيها حكم الله معروف لهم في الجلد والرجم، فأنكروه ونصحوا وفد المستفتين نصحا يخالف ما استقر عندهم من شرع الله.

فهنا جاءت «بعد» لتدل على استقرار كلام الله عندهم: أي من بعد طول عهد بهذا الكلام الذي يحرفونه عمدا. لأن «بعد» تفيد استقرار حكم ما بعدها.

• ويقول الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأعراف:١٠٧).

وقال في موضع آخر: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ (النمل:١٠)

قد يتوهم بعض طلاب العلم أن بين الآيتين تناقضا، وحاشا لله تعالى، فكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لكن سياق الآيتين مختلف. فالآية الأولى جاءت في سياق حوار برزت فيه قمة التحدي بين رسول الله موسى عليه السلام من جهة، وفرعون وسحرته وجنوده من جهة أخرى. وكان سحرة فرعون يسترهبون الناس بتحويل عصيهم إلى ثعابين وحيات تسعى. فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقي عصاه وهي - بقدرة الله تعالى - ستتحول إلى ثعبان عظيم، يلقف في جوفه كل ثعابينهم المزعومة. لتكون آيته التي سأله عنها فرعون - في السياق - من جنس آيات سحرة فرعون.

أما الآية الأولى فقد وردت في سياق أول حوار وقع بين رب العزة جل شأنه وبين موسى عليه السلام، حين ناداه ربه بالوادي المقدس - للمرة الأولى - فكان اهتزاز العصا شديد الوقع على نفس موسى عليه السلام، حتى بدت له كما لو كانت جنا يهتز. وحين نقرأ الآيات كاملة، ندرك مدى الرعب الذي حاق بهذا النبي عليه السلام حين توالت عليه المفاجآت، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ (النمل:٨-١٠).

● يقول الله تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ (النجم: ٢)

وقال الله في موضع آخر مخاطبا رسوله الكريم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ (الضحى:٧)

فكيف نوفق بينهما؟

والجواب أن الضلال المراد في سورة النجم هو الضلال في الدين، وفي أمور العبادة والنبوة والإخبار عما في الغيب. والغواية بمعنى اتباع الهوى. فالنفي هنا لتأكيد أمانة النبي ﷺ في التبليغ عن ربه، وصدقه المطلق في كل ما يأتي به قومه من أمور الدين الموحاة إليه من ربه.

أما الضلال الوارد في سورة الضحى فالمراد به الضلال في شؤون الدنيا المضطربة آنذاك - قبل المبعث - فقد كان محمد ﷺ يرى قومه - قبل المبعث - على غوايتهم يعبدون الأوثان ويعظمون شأنها. فيحار بين ولائه لقومه، وبين ما تأباه فطرته السليمة من أمور عبادتهم. فتصيبه من ذلك حيرة طال عهدها به، حتى كان يلجأ إلى الغار يتأمل السماء والنجوم، ويدرك أن لهذا الكون خالقا أعظم. فعبر عن فترة القلق والحيرة تلك بالضلال تشبيها لحاله - ﷺ - أثناءها بحال السائر في الصحراء على غير هدى لا يعلم طريقه. فالضلال هنا غير الضلال هناك.

● قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران:١٤٤).

فكيف يقول: «مات أو قتل» مع أنه أخبر في آية أخرى أنه لن يقتل، وذلك حيث يقول سبحانه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر:٣٠)

وحيث قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)

والجواب عن ذلك أن صدق القضية الشرطية لا يتطلب صدق جزأيها، فحين يقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:٢٢).

القضية في أصلها صادقة: أي لو وجدت آلهة أخرى لعم الفساد، لكن جزأيها كاذبان، فلا آلهة ثم ولا فساد.

فليس معنى الآية أن الارتداد على الأعقاب مرتبط بحالتي الموت أو القتل فقط. بل هو واقع لا محالة.

وقال الألوسي في هذا المضمار قولا شافيا حين قال: إن كلمة «إن» لا تجري في كلام الله تعالى على ظاهرها بإيراد الشك في علمه تعالى بالوقوع وعدم الوقوع. بل يحمل الشك على اعتبار حال السامع، أو ما يناسب المقام، وقد وردت «إن» هنا - أي في هذه الآية - لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لعظم ما ذكر لهم. (روح المعاني: ٤:٧٧).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ (آل عمران:١٢٦).

وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ (الأنفال:١٠) قد يتوقف القارئ أو السامع أمام هاتين الآيتين، فيلاحظ أن الجار والمجرور «لكم» جاءت بعد البشرى في آل عمران، ولم ترد في الأنفال. وإن الجار والمجرور «به» قد جاءت بعد القلوب في آل عمران، وجاءت قبلها في الأنفال. فما السر؟

إن تأمل السياق الذي وردت فيه كل آية من الآيتين يدل على سر ورودها على هذا النحو. فآية آل عمران جاءت إخبارا للمؤمنين بما تحقق لهم من عون من عنده سبحانه في غزوة بدر، على نحو ما يظهر من الآيات السابقة على هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

أما آية الأنفال فقد وردت في سياق يدل على أن المؤمنين استغاثوا وطلبوا العون من الله. حيث يقول تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فلما جاءت «لكم» ملتصقة بالاستجابة الفورية لاستغاثتهم. أغنى ذلك عن مجيئها مع البشرى.

وأما تأخير «به» بعد «قلوبكم» فلأنه لما أخر الجار والمجرور في الكلام الأول (بشرى لكم)، وعطف الكلام الثاني عليه، أخر الجار والمجرور في الثاني كما أخره في الأول.

وأما تقديم «به» في الآية الثانية فلأن نفوس المؤمنين - وهم في حال كرب واستغاثة - أحوج ما تكون إلى التثبيت والطمأنينة.

والضمير في «به» عائد على إنزال الملائكة الذي هو موضوع البشرى. فتقديم الجار والمجرور هنا - وهو ساد مسد المفعول به - أدعى لتهدئة تلك النفوس المتطلعة إلى نصره وعونه.

والله تعالى أعلم.

القلوب الثلاثة

الحسن ملواني
كاتب مغربي

دخل متهالكا شاحب الوجه فاتر الأطراف، سأله الطبيب، فلم يعرف كيف يرد عليه، فهو لا يحس بأي ألم في جسده. وبعد لحظة من التردد، قال مجيبا: أيها الطبيب، أصارحك بأني لا أشكو من ألم ولا وجع، الوساوس تهاجمني بين فينة وأخرى، تارة أخال نفسي شريرا مغتصبا تحققت فيه كل صفات التوحش والنذالة بامتياز، وتارة يتبين لي استعدادي الفطري للبذل في سبيل إشاعة المودة والوئام والاحترام بين الناس، أرى قدرتي على أن أكون مرشدا بحلمي وحكمتي ونبل أخلاقي.

كان الطبيب يحدق فيه مركزا عله يعثر بين أقواله على شيء يفيده في العلاج، وحيث لم يجد شيئا قاطعه قائلا: علتك يا أخي بسيطة، لا تحتاج إلى دواء، بعد أيام سيزول عنك ما تعانيه.

نهض المريض خائبا، كان حزين القسمات مضطرب الأفكار، فالطبيب لم يقنعه بما يمكن أن يزيل عنه ما يقاسي.. كان حائرا يتساءل عن الدور الحقيقي للأطباء، فقد زار هذا وذاك، منذ خمس سنوات ولم يسمع منهم سوى الجواب نفسه، فهل الدواء ممنوع عليه وحده؟ أم أن علته لم يوجد لشفائها دواء بعد؟

انحرف بعيدا عن الشارع الرئيسي قاصدا شجرة وارفة الظل، أسند ظهره إلى جذعها، كان جاف الحلق مغرورق العينين، كان يحس أنه وحيد في زنزانة مظلمة سيختنق فيها بعد لحظة، أغلق عينيه المترهلتين ينشد سنة من النوم تخفف من الضيق الذي يطبق عليه.. فتح عينيه وإذا بشيخ وقور يربت على كتفه، فاستغرب استغرابا، واختلط لديه الحلم بالواقع.. حياه فرد عليه التحية بشفتين مرتعدتين، ابتسم الشيخ في وجهه، ثم رفع عينيه نحو الأفق وكأن شيئا لاح له من بعيد. ثم قال: اسمع يا بني، إني أتوسم في وجهك الخير والسداد، وأعرف أنك تعاني، وربما زرت أكثر من طبيب بلا جدوى.. تعجب المريض، فمن أين له أن يعرف ذلك كله؟

قال الشيخ وهو يربت على ركبته: مرضك ليس من بدنك، مرضك من قلبك، فقلبك مريض بعد أن كان سليما، وأعلم كما تعلم أنك عشت سنوات بقلب سليم يقبل الحق من صاحب الحق، كنت منيبا إلى الله متوكلا عليه، كانت حركاتك وسكناتك منقادة لأمر العبودية وطلب التقرب إليه سبحانه وتعالى.

وحين هاجرت من بلدتك الجميلة بأناسها البسطاء الطيبين حللت بتلك المدن الغريبة، فتلوثت أفكارك وتغيرت رؤيتك الصافية للعالم، ويوما بعد يوم صار قلبك مريضا، والقلب المريض حين يشتد عليه المرض يصبح بابه سهل الانفتاح لاستقبال الشبه والشكوك ووساوس الشيطان، فإن خف مرضه رجع بصاحبه إلى التفكير في الحق والعتاب على التقصير.. وبتقلب القلب المريض، يعيش المرء متاعب نفسية تفوق الوصف.

كان المريض يصغي إلى الشيخ فشعر بالطمأنينة تسري في أعماقه شيئا فشيئا، كان يقول في نفسه: الآن فقط وجدت الطبيب المعالج، الآن جاء الشفاء.

تهيأ الشيخ للانصراف ثم عاد فقال للمريض: لقد نسيت أن أخبرك أنك محظوظ لأن قلبك لم يمت بعد، فالقلب الميت أسوأ حالا من المريض، القلب الميت مرتع للشهوات بكل الأنواع، لا يردع صاحبه عنها لا العبد ولا المعبود، يتصرف وفق هواه ولا يفكر في مولاه.

أشاع قول الشيخ مزيدا من السكينة والفرح في قلبه، وشعر أنه وجد بابا نحو طريق الشفاء.. وحين هم الشيخ بالمغادرة، سأله المريض: أيها الشيخ الطيب الفاضل الحكيم، لم تصف لي دواء! قال: عليك بالرجوع إلى سيرتك الأولى، حين كنت في بلدتك تؤمن بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٨-٨٩)، كان قلبك آنذاك خاليا من كل شهوة تبعدك عن نور الله، تبحث عن الحسنات وتخاف السقوط في الزلات.

يا بني، عليك بتقوى الله وكفى.

انصرف الشيخ.. لم يعد المريض يراه، وكان يفكر في أمر القلوب الثلاثة: سليم يطمئن صاحبه، ومريض يعذب صاحبه، وميت يميت همة وأخلاق صاحبه.

قصة قصيرة

إلى أين؟

محفوظ أمين غريب
أديب وتربوي

همهمت وهي تمرق من باب المحكمة إلى الشارع: شكرا لك يا ربي، فقد فرجت كربي. وغامت عيناها بدموع، فتثاقلت خطواتها، وعندما مدت يدها لتلتقط منديلا من حقيبتها المعلقة على كتفها، آنست من وراء دموعها من سايرت خطواته خطواتها وهو يهمس إليها برقة وحياء: إلى أين؟ بوغتت به، فرنت إليه ثم رنت وهي تكفكف دموعها لتوقن أنه هو، فلما أيقنت أجهشت ببكاء هزها هزا.. رفرف قلبه مذبوحا بدموعها، وهمس إليها مرة أخرى: إلى أين بعد أن شاء الله لك اليوم ميلادا جديدا على يد القاضي؟ لا تحسبي أني بسؤالي هذا أعبر عن مجرد عطف عليك، فأمري معك أسمى من ذلك على الإطلاق، وأنت كما عهدتك تقدرين الأمور حق قدرها. أسرعت تقول شارقة بدموعها: سؤالك الذي يأسو قلبي المكلوم مكرمة منك لا أستحقها، فلقد غدرت بك من قبل.. وعاقها سيل دموعها عن مواصلة الكلام.. همس إليها: لا أملك يا عزيزتي إلا أن أدعك تبكين لعل ذلك يريحك. وآثر أن يجنح في تهاديه بسيارته محاذيا شاطئ النيل؛ أملا في مزيد من الراحة لها. ثم راح يسترجع ذكرياته معها: لقد خفق قلبه لها حين التقيا في بداية دراستهما بكلية الحقوق، ولاتزال جنبات نفسه تشرق بما حببها إليه.. إنه لا ينسى يوم أن قالت له وهي تنظر بإجلال إلى قبة جامعة القاهرة: الدراسة الجامعية إن لم يكتسب منها الدارس أسلوبا كليا قيما في التفكير يسير حياته كلها، فحاله يوافق دعاء: اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع. عرف معها بقلبه وعقله الحب الحقيقي، لم يكن ذلك الحب نابعا من هوى خلب العين وأملته عليه رغباته، بل جاءه من شخصية يزينها الحياء والاحتشام، وتجل العلم والعلماء، ويعمر قلبها حب أهلها.. وتعاهدا على تتويج حبهما بالنهاية المشرقة التي شرعها الله، ولكن.. آه.. توجع بلسان الحال، ثم ازداد بلهيب الذكريات توجعه: آه ممن لا يستفتون قلوبهم ويستسلمون، ولفتوى من يروجون إفكا شاع في مجتمعنا أخيرا، وهو أن عواطف القلب إذا لم توافق ما يحكم به العقل من ماديات فلتذهب العواطف إلى الجحيم؛ لأنها لا تبني بيوتا ولا تشبع بطونا، وهو لا يزعم أن جارته الباكية استسلمت طوعا لإفك ماديات العقل، ولكنها اضطرت إلى الاستسلام غير باغية ولا عادية، فلا إثم عليها، وهذا ما تيقنه حينذاك. فلقد خرج هو وهي بعد إتمام الدراسة الجامعية إلى الحياة العملية.. أما هو فقد لمس فيه أحد كبار المحامين بالقاهرة ولعا بمهنة المحاماة واستعدادا طيبا لها، فألحقه بمكتبه براتب شهري زهيد، رضي به كل الرضا عازما على تنميته بإتقان عمله والجد فيه. وأما هي فكانت تعلل نفسها بأمل ترقبه لتكون عضوا قانونيا في ديوان حكومي أو مؤسسة خاصة بالقاهرة، فتدلي بدلوها في الفصل في قضايا العاملين.

وكأن إفك ماديات العقل قد أصدر حكمه بالتفريق بين قلبيهما، فبينما هو يسعى حثيثا ليخطبها إلى أهلها، داهمه في يوم عصيب نبأ إقدام شاب من جيران أسرتها بحي الحسين ليتزوجها ثم يطير بها إلى دولة خليجية، حيث يعمل مدرسا للرياضيات، فأسرع ملهوفا زائغ البصر حتى كاد أن يضيع من قدمه الطريق من مسكن أسرته بحي الأزهر إلى مسكن أسرتها، ولما حدث أباها، سارع، رغم ما بدا عليه من حنو بالغ، إلى ما يراه لب الموضوع قائلا: يا بني، العواطف تحلق بنا في آفاق الخيال، ولكن علينا أن نسمح للعقل أن يهبط بنا إلى أرض واقعنا، فواقعك يخبر بأن راتبك الشهري متواضع، وأنك ابن أسرة كادحة مثل أسرتنا، فلن تستطيع تأجير شقة الزواج أو شراء أثاث الزواج وغير ذلك من مطالب الزواج، وواقع أسرتي الكادحة يخبر أيضا بأن ابنتي تعضها البطالة بنابها، فلا راتب لها يدعم راتبك، وبأن ابنتي يسبقها في الميلاد شقيق يحمل مؤهلا جامعيا، ويصارع هو أيضا البطالة، وقلبي شفيق عليه وعلى أمثاله من الشباب الذين يصارعون البطالة وتحاصرهم في مجتمعنا مغريات الانحراف.. وابنتي يا بني، يتلوها أيضا ثلاث شقيقات طالبات علم وعبؤهن في التعليم ينوء بنا. ولما حاول - مطأطئ الرأس- الرد على أبيها بادره خالها ليوضح بغلظة قلب تجلت في كلماته: إن كان عندك حد أدنى من الفهم



فافهم ما سمعته الآن من ولي أمرها، ولا تكن مناعا لخير عاجل من غيرك انتظارا لوهم آجل منك، أنت الذي ما برحت تهيئ نفسك لخطبة لا نعرف مداها، بينما تقدم إلينا من أعد العدة كاملة ليتزوجها لا ليخطبها، ثم يطير بها إلى الخليج لتشاركه في تحصيل مال كثير.. وإن أردت مزيدا عن قدره، فالناس في حينا وأحياء مجاورة يلقبونه بالملك، يعنون ملك الدروس الخصوصية. التاع فؤاده بقذائف لسان خالها فهمهم: وهل ضمنت الأمن لابنة أختك مع ملك الدروس الخصوصية، الذي أفسد هو وأمثاله مجال التربية والتعليم، وأبوا أن يكونوا الرعاة المسؤولين عن رعيتهم التلاميذ والطلاب، وجعلوا أهليهم أذلة بخوف دائم على مستقبل أبنائهم وباغتصاب أموالهم قوام معيشتهم؟! وهم أن يجهر بهمهمته هذه لولا أن رأى نظرات خالها النارية مصوبة إليه في تحد قاتل زاده شعورا بفقره وبأسه، فلم يجد لسانه ليجهر، وشرق بدموع كادت تنفجر من عينيه، لكنه كظمها؛ ليبقي على كرامته ورجولته أمام الرجلين، ثم قام مستأذنا بالانصراف لا يكاد يرى طريقه من حجرة الاستقبال إلى باب الشقة فاصطدمت قدمه بقائم مائدة الطعام فتوقف لحظات ثم مرق من الباب ليهبط على السلم، ولما بلغ باب البيت أسند إليه ظهره وقد تفجر نهر دموعه، وبعد دقائق حزم أمره فتماسك ودلف إلى الطريق هائما على وجهه، حتى احتضنه مسكن أسرته، وهناك بات ليلة أفزعه فيها ما أفزعه من كوابيس وأضغاث أحلام، فكانت ليلة لن ينساها ما دام حيا، ولكنه في صباحها جمع شتات نفسه عازما العزوف عن الزواج وتجنيد ذاته بكل طاقتها للتفوق في عمله وتنمية قدراته المالية ما استطاع إلى ذلك سبيلا حلالا... وهاجته ذكرياته أكثر وهو يتذكر أنه مضى بعد زواجها حين من الدهر ما انقطع طيفها عن مشاغلته ليل نهار، حتى جاء يوم هلع فيه قلبه أشد الهلع، إذ رآها من دون أن تراه في المحكمة تحادث أحد زملائه المحامين، فأسرع إلى زميله يتساءل عن أمرها، فأنبأه أنها وكلته من قبل في قضية، والحكم يصدر في الجلسة المقبلة. وبلباقة طلب من زميله توضيح وقائع قضيتها، فأطرق الزميل لحظات ثم قال: إنها ابتليت بزوج له شخصيتان، بدت الأولى قبيل الزواج: شخصية تتجمل في القول والفعل، فتخدع المتعامل معها دون مخالطة. وتجلت الشخصية الثانية حين اقترنت به وشاركته الحياة اليومية تحت سقف واحد، إذ غلب طبعه تطبعه، فتبين لها أنه ما اقترن بها إلا لميل شهواني، وأنه من ذلك النوع من الرجال الذي لم يوق شح نفسه، وبدافع من بخله وحبه المال حبا جما، سامها سوء العذاب، النفسي والبدني، ولم يرحمها في غربتها بعيدة عن أهلها ووطنها، فعيرها بفقر أهلها وأضناها بتقتير عليها في المعيشة، رغم دخله الوافر من راتبه ودروسه الخصوصية، واغتصب منها مالا رزقت به من عمل زاولته في ذلك البلد الخليجي، ولما عادت معه إلى الوطن فاجأها بأنها وقعت على «شيك» يدخلها السجن، فدهشت وتحيرت وسألت نفسها عما إذا كانت قد وقعت بخدعة منه وهي ذاهلة بتأثير نوبة من نوبات عذابه في الغربة؟ ثم واصل هذا الزوج إرسال تهديداته ومساوماته المادية إليها لتتنازل عن حقوقها الشرعية فيطلقها، ولكنها أصرت على اللجوء إلى القضاء للحصول على الطلاق.

رج ذكر الطلاق البغيض مشاعره رجا انتشله من ذكرياته، فجنح بسيارته إلى منعطف يلفه الهدوء وتوقف، ثم استشعر أن قلبه يداعبه قائلا: ها هي بجانبك بعد أن حرصت أنت اليوم حرصا على حضور جلسة المحكمة التي حكم فيها القاضي بالطلاق، فهل تكرر إليها سؤالك إلى أين؟ فلما هم بالسؤال أمسك عن الكلام إشفاقا عليها، فقد رأى علامات معاناة وأسى بالغ تغمر وجهها، ثم عاوده قلبه يحثه على انتشالها من الأسى والمعاناة، فاتجه إليها قائلا: يا عزيزتي، أنا وأنت من ضحايا حقبة سوداء استحوذت فيها على سير أمورنا في مجتمعنا نزعة مادية جائرة، احترقت بنارها قلوب الكادحين أمثالنا، ولسوف يظل أولو القلوب السليمة في مجتمعنا يتساءلون حائرين: إلى أين نمضي مع تلك النزعة المادية وقد ظهر الفساد في برنا وبحرنا بما كسبت أيدي أنصارها؟ وها أنا يا عزيزتي أسألك بالله أن تنقذيني وتنقذي نفسك بالإجابة عن سؤالي: إلى أين أنت وأنا بعد أن أصابنا ما كتب الله لنا لحكمة شاءها؟

واسمحي لي قبل أن تجيبي عن سؤالي أن أقول: لا سبيل لنا إلى برد وسلام بعد النار التي اكتوينا بها إلا أن تقبلي إشهار زواجنا في الوقت المناسب في رحاب الله بالمسجد.

أشرقت نفسها بلطف كلماته الطيبة ونبل سؤاله، فأطرقت وهي تهمهم: أهكذا أنت بعد أن لوعت ولوع أهلي فؤادك؟ سبقك من تزوجني بهواه المادي فأهانني، وها أنت بقلبك السليم تتمنى أن تتزوجني لتكرمني، فما أعظم الفرق بينكما، وما أعظم قدرك بين الرجال، وغمرها شعور بأن رأسها يلامس السماء وهي تجهر له بالإجابة عن سؤاله: إلى رحاب الله بالمسجد.

القَوْلُ المأثُورُ في إحياءِ الصَّوابِ المهْجُور (٣٠)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



في البداءة لهذه الحلقة اللغوية أؤكد بما لا مرية فيه، أنه قبل الإقدام على الكتابة في هذا الموضوع لم أكن على بصيرة وافية على ما ستسلمني إليه مباديه من محطات ليست لها حدود، لذا كان من حظ هذه الحلقات الاستمرار؛ كل حلقة تولد أخرى، من دون أن يلوح في الأفق أنها ستلقي عصاها التي تهش بها على العبارات الكسولة التي تنتشر في أجواء العروبة، مثل قولهم: «خطأ شائع أحسن من صواب مهجور»، أو ترديدهم لعبارة: «اللغة عبارة المتكلم عن مقصوده» من دون اشتراط الصحة والسلامة في أثناء الاتصال والتواصل.

وبما أن الكتابة عن اللغة رحلة دائمة تسعى إلى تصحيح رؤية الأناسي لما يجب أن يكون عليه المشهد اللغوي العربي، رغبة في الارتقاء بتلك النظرة نحو الأفضل والأجود؛ الذي لا نعثر فيه على شائنة تجعلهم يخرجون من الفصحى أفواجا وزرافات نحو لغات الواقع، من دون أن يدركوا مبلغ زلتهم التي تجعلهم يتساوون مع الهوامل والغوغاء، لأن الواقع من الوقوع والسقوط والنزول بعد البزول. فهل نرضى للغتنا الفصحى التي يتعبد بتلاوة قرآنها أن تنحط وتنزل من مساكنها الفارهة التي أسكنها فيها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر العربي البليغ، إلى الواقع، حيث الغثاثة والفهاهة والإسفاف والجهل والتحريف والتصحيف الذي انتشر بوغاؤه في أجواء العروبة، مشرقا ومغربا؟

الحق أن التصحيف والتحريف

اصطلاحان متقاربان قد عرفتهما الفصحى مذ كانت الكتابة العربية، من خلال تغيير الكلم عن مواضعه وتحريفه عن معناه الصحيح، إما بتبديل الأحرف المتشابهة الأشكال ورسمها، أو بالالتباس في نقط الأحرف مثل: «التاء والثاء والسين والشين والعين والغين والجيم والخاء والحاء والراء والزاي والصاد والضاد...»، فإذا كان التغيير يخص النقط، فذلك هو التصحيف، وإن كان التغيير يمس حركات المباني فذلك هو التحريف الذي يجعل الكلمة تنطق بغير ما قصد صاحبها. وقد تنبه علماء اللغة القدامى إلى هذه الظاهرة فألفوا فيها كتبا مثل: أخبار المصحفين لأبي الحسن بن عبدالله العسكري، والمؤتلف والمختلف للآمدي، كما عقد ابن جني بابا في الجزء الثالث من كتاب الخصائص بعنوان: «في سقطات العلماء» أشار فيه إلى تصحيفات الأصمعي والفراء وأبي عمرو الشيباني وغيرهم، ومما جاء فيه من السقطات التي أخذها خلف الأحمر على المفضل الضبي قوله عن امرئ القيس:

نمس بأعراف الجياد أكفنا

إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

فقلت له: عافاك الله! إنما هو نمش أي: نمسح، ومنه سمي منديل الغمر مشوشا (١). وكذلك فعل السيوطي في «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» حيث قال: صحف حماد بن الزبرقان ثلاثة ألفاظ في القرآن، لو قرئ بها لكان صوابا؛ وذلك أنه حفظ القرآن من مصحف ولم يقرأه على أحد: اللفظ الأول «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها» أباه، يريد إياه. والثاني: «بل الذين كفروا في غرة وشقاق» يريد في عزة. والثالث: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن» يعنيه، يريد يغنيه (٢). وقد كان حماد الراوية يصحف آيات قرآنية كثيرة كما ذكر العسكري في «أخبار المصحفين» منها: ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (النحل:٦٨) قرأها: ومما يغرسون. وفي قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة:١٣٨) قرأها: صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة، وفي رواية أخرى: صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ (القصص:١٥) قرأها: فاستعانه الذي من شيعته، وغيرها مما يرهق تتبعه. ولذلك، قال عنه الثقات: «وسمعت يونس يقول: العجب ممن يأخذ عن حماد، وكان يكذب ويلحن ويكسر» (٣). وقد كان الأوائل يحترسون من هذه الظاهرة كما يحترسون من أشنع المعايب، لمعرفتهم أن اللفظ المصحف أو المحرف قد يبنى عليه رأي في اللغة أو في الفكر أو في العقيدة، كما وقع للنصارى؛ حيث ذكر السيوطي أن النصارى كفروا بتصحيف لفظة «نبي» عندما قال تعالى لعيسى في الإنجيل: «أنت نبي ولدتك من البتول» فصحفوها وقالوا: أنت بني ولدتك من البتول. هذا هو حال العرب ساعتئذ، وقد كانت العربية عاطلا عن الشكل والإعجام إلا قليلا، فما بال المجتمع اللغوي اليوم الذي انتشرت فيه وسائل النشر والطباعة، لا يتورع عن التقادع في هذه الظاهرة كما يتقادع الفراش في النار؟ وآية ذلك التصحيفات الآتية التي تكررت على ألسنة الصحافيين وبعض الكتبة المنشئين حتى تكرجت، مثل قولهم: * يجمع في كلامه بين الغث والثمين. وقولهم: * البت الفضائي المباشر للأخبار. وقولهم: * الدرة من اللبن، بكسر الدال. وهي تصحيفات خرجت عن مهيع الصحة والسداد، لم تبصر بضروب الإصابة لما تريد الصدع به، ولم تتنبه للموضع الذي تصلح فيه كل لفظة مع أختها، لأن لفظة «الغث» لا يعارضها إلا لفظة «السمين». قال الشاعر المثقب العبدي مخاطبا عمرو بن هند بعد أن أعرض عنه مخيرا له بين المحافظة على الود أو الهجر والقطيعة:

فإما أن تكون أخي بحق

فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطرحني واتخذني

عدوا أتقيك وتتقيني

كما أن البث الفضائي بالثاء، أما البت بنقطتين فهو الحسم. أما الدِّرة فتعني: السوط يضرب به، ومن معانيها الرواج، ولذلك يقال: للسوق درة. أما الدرة بفتح الدال فهي المقصودة باللبن، والدرة هي اللؤلؤة أو الببغاء الصغيرة.

الهوامش

(١) الخصائص: أبوالفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الجزء الثالث، ص٢٨٧، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، شرح وضبط: محمد جاد المولى بك، محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الجزء الثاني، ص٣٦٨ و٣٦٩، ط١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، المكتبة العصرية. صيدا، بيروت.

(٣) طبقات فحول الشعراء، محمد ابن سلام الجمحي، قراءة وشرح: محمود محمد شاكر، السفر الأول، ص٤٩، مطبعة المدني، القاهرة.

للحافظ ابن حجر العسقلاني

الإصابة في تمييز الصحابة

التحرير

أصل كتاب الإصابة أن ابن حجر لما طالع كتاب ابن الأثير (أسد الغابة) رأى أن فيه فوتا كثيرا، وخلطا لبعض الصحابة ببعض، وكذلك وقع في (التجريد) للذهبي، فجمع هذا الكتاب، وله قيمة كبيرة، حيث ألفه ابن حجر في مدة تقارب الأربعين سنة. بداية من (٨٠٩)، وحتى (٨٤٧هـ)، كما نص عليه قبيل شروعه في باب الكنى، ألفه في قمة نضوجه العلمي، حيث كان إتمامه لاحقا لكثير من كتبه الكبيرة: كفتح الباري، وتهذيب التهذيب، وتقريبه، ولسان الميزان، وتغليق التعليق.

وللكتاب ترتيب ابتكره الحافظ، وهو مع جدته صعّب الاستفادة من الكتاب، بحيث يضطر الباحث عن اسم رجل إلى استعراض الأقسام الأربعة أحيانا، ولو أن الكتاب ترك على الترتيب المعروف، ونبه الحافظ في مقدمة كل ترجمة إلى وصف الرجل بكونه بالغا أو طفلا أو مخضرما، أو ذكر خطأ، لكان أسهل في الوصول إلى المراد فيما يبدو، والله أعلم.

وكتاب الإصابة يكشف عن اطلاع واسع مدهش لابن حجر، ويقضي له بالرسوخ والنبوغ، وفيه من الفوائد شيء عظيم، فمن أهم ذلك - سوى تمييز الصحابة -: التنبيه على أوهام من سبقه في هذا الفن، كابن عبدالبر، وابن قانع، وابن شاهين وأبي موسى، وابن الأثير والذهبي، وابن منده، وأبي نعيم، وعلى ذكر الأخيرين، فإن الكتاب حافل بالمحاكمة بينهما، وقد عقب ابن حجر مرة بتعليق مهم حين قال: (٦٢١/١٢): «أبونعيم لا يزال ينسب ابن منده إلى الغلط، فيصيب في ذلك تارة، ويخطئ تارة، ولو سلم من التحامل عليه لكان غالب ما يتعقبه به صوابا». ومن فوائده: بيان أغلاط من غلط في الصحابة، من شراح الحديث والفقهاء. ومن فوائده: جمع طرق بعض الأحاديث، والبحث عن متابعات لها - خصوصا من كتب تراجم الصحابة -، والحكم على بعض الأحاديث والقصص، وإيراد بعض أشعار الصحابة، وهو مقل في هذا، مقارنة بمن سبقه. ومن فوائده: النقل عن كتب مفقودة، وهذا كثير. ومن فوائده: بيانه لمصادر المؤلفين قبله أو عاداتهم، كقوله: «جرت عادة ابن منده إذا لم يسم والد الصحابي يكنيه باسم ولده»، كعمرو بن أبي عمرو والأسود بن أبي الأسود، وكتنصيصه على أن من عادة ابن عبدالبر متابعة ابن شاهين (٤٢٨/٩)، ومن عادة أبي موسى المديني اتباع أبي نعيم في ذكر كل ما زاد على ابن منده (٥٢٤/٩).

ومن فوائده: ضبط كثير من الأعلام ضبط حرف، وهذا كثير أيضا، على عادة ابن حجر في مصنفاته.

ومن فوائده: إظهار القرابات بين الصحابة، من جهة آبائهم أو أمهاتهم.

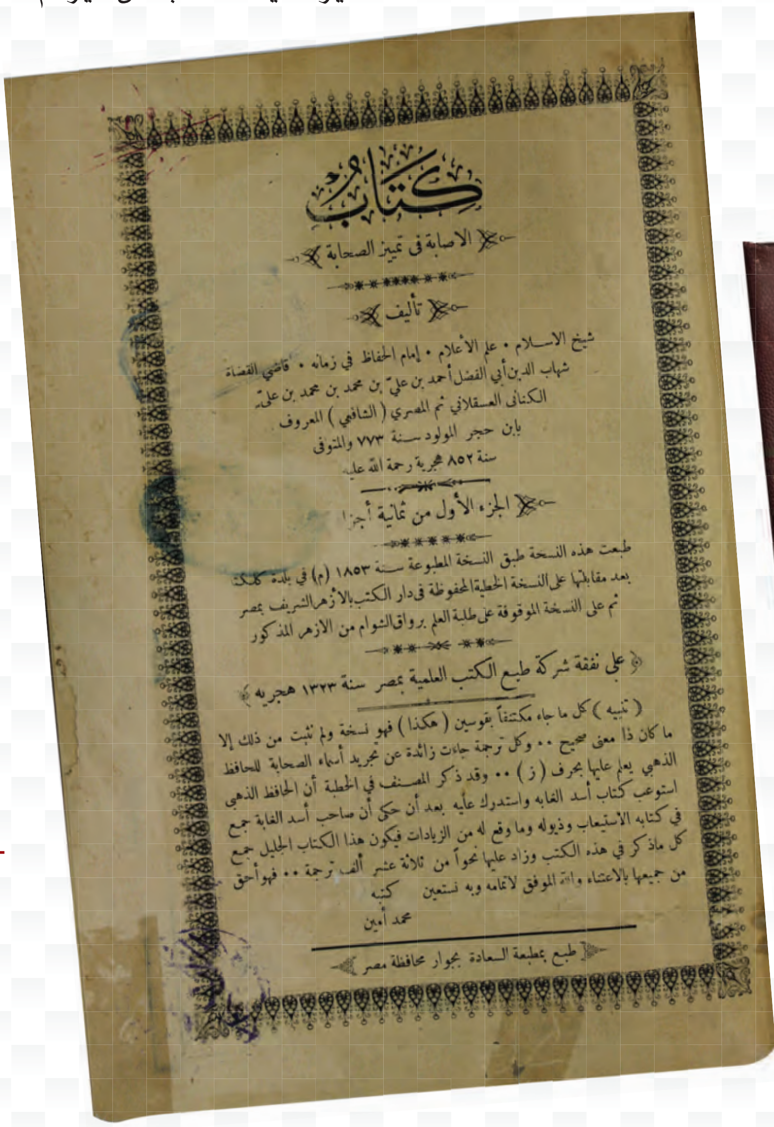
ومن المهم معرفة أن ابن حجر لم يكمل كتابه، بحيث ترك المبهمات ولم يصلها، والظاهر أنه لم يكمل الكنى أيضا، فهو يحيل إلى مواضع ستأتي، ثم لا يجدها القارئ، وقد كان ينوي تبييض الكتاب مرة أخرى (٢٨٩/١٣).

قطوف من مقدمة الإصابة في تمييز الصحابة من كلام ابن حجر:

(تسمية من ألف في جمع الصحابة): أول من عرفته صنف في ذلك أبو عبدالله البخاري، أفرد في ذلك تصنيفا، وجمع أسماء الصحابة مضموما إلى من بعدهم جماعة من طبقة مشايخه، كخليفة بن خياط، ومحمد بن سعد، ومن قرنائه كيعقوب

ابـن سـفيـان، وأبــي بـكـر بـن (أبـي) خيثمة، وصنف في ذلك جمع بعدهم كأبي القاسم البغوي، وأبي بكر بن أبي داود، وعبدان، ومن قبلهم بقليل كمطين، ثم كـأبي علـي بـن السكن، وأبي حفص ابن شاهين، وأبي منصور المـــاوردي، وأبــي حـاتم ابـن حبان، وكالطبراني ضمن معجمه الكبير، ثم كأبي عبد الله ابن منده، وأبي نعيم، ثم كأبي عمر ابن عبد البر، وسمى كتابه «الاستيعاب»، لظنه أنه استوعب ما في كتب من قبله، ومع ذلك ففاته شـيء كثير، فذيل عليه أبـو بكر ابن فتحون ذيلا حافلا، وذيل عليه جماعة في تصانيف لطيفة، وذيل أبو موسى المديني على ابن منده ذيلا كبيرا...، إلى أن كان في أوائل القرن السابع، فجمع عز الدين بن الأثير كتابا حافلا سماه: «أسد الغابة»، جمع فيه كثيرا من التصانيف المتقدمة، إلا أنه تبع من قبله، فخلط مـن ليس صحابيا بهم، وأغـفل كثيرا مـن التنبيه على كثير من الأوهـام الواقعة في كتبهم، ثم جـرد الأسـماء التي في كتابه مع زيـادات عليها للحافظ أبي عبدالله الذهبي، وعلّم لمن ذكر غلطا، ولمن لا تصح صحبته، ولم يستوعب ذلك ولا قارب.

وقد وقع لي بالتتبع كثير من الأسماء التي ليست في كتابه، ولا أصله على شرطهما، فجمعت كتابا كبيرا في ذلك ميزت فيه الصحابة من غيرهم،


كتاب

الاصابة فى تميز الصحابة

تأليف

شيخ الاسلام • علم الأعلام • إمام الحفاظ في زمانه • قاضي القضاة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن عليّ بن محمد بن محمد بن عليّ الكنانى العسقلاني ثم المصري (الشافعي) المعروف بابن حجر المولود سنة ٧٧٣ والمتوفى سنة ٨٥٢ هجرية رحمة الله عليه

الجزء الأول من ثمانية أجزا

طبعت هذه النسخة طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣ (م) في بلدة كلكتة بعد مقابلتها على النسخة الخطية المحفوظة فى دار الكتب بالأزهر الشريف بمصر ثم على النسخة الموقوفة على طلبة العلم برواق الشوام من الازهر المذكور

على نفقة شركة طبع الكتب العلمية بمصر سنة ١٣٢٣ هجريه

(تنبيه) كل ما جاء مكتنفاً بقوسين (هكذا) فهو نسخة ولم نثبت من ذلك إلا ما كان ذا معنى صحيح •• وكل ترجمة جاءت زائدة عن تجريد أسماء الصحابة للحافظ الذهبي يعلم عليها بحرف (ز) •• وقد ذكر المصنف في الخطبة أن الحافظ الذهبي استوعب كتاب أسد الغابه واستدرك عليه بعد أن حكى أن صاحب أسد الغابة جمع في كتابه الاستيعاب وذيوله وما وقع له من الزيادات فيكون هذا الكتاب الجليل جمع كل ماذكر في هذه الكتب وزاد عليها نحواً من ثلاثة عشر ألف ترجمة •• فهو أحق من جميعها بالاعتناء والله الموفق لاتمامه وبه نستعين كتبه

محمد أمين

طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



ومع ذلك فلم يحصل لنا من ذلك جميعا الوقوف على العشر من أسامي الصحابة.

(طريقة ترتيب الكتاب):

ورتبته على أربعة أقسام، في كل حرف منه: فالقسم الأول: فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، سواء كانت الطريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان.

القسم الثاني: من ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبي ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات ﷺ وهو في دون سن التمييز.

القسم الثالث: فيمن ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ، ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق أهل العلم بالحديث، وإن كان البعض منهم قد ذكر بعضهم في كتب معرفة الصحابة، فقد أفصحوا بأنهم لم يذكروهم إلا بمقاربتهم لتلك الطبقة، لا أنهم من أهلها.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط البين، وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائر فكره عليه، وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب الزاهر، وزبدة ما يمخضه (من هذا) الفن اللبيب الماهر.

الفصل الأول: في تعريف الصحابي أصح ما وقفت عليه من ذلك (أن) الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنا به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى.

الفصل الثاني: في الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابيا

وذلك بأشياء: أولها أن يثبت بطريق التواتر أنه صحابي، ثم بالاستفاضة والشهرة، ثم بأن يروى عن آحاد من الصحابة أن فلانا له صحبة مثلا، وكذا عن آحاد التابعين، بناء على قبول التزكية من واحد، وهو الراجح، ثم بأن يقول هو إذا كان ثابت العدالة والمعاصرة: أنا صحابي.

الفصل الثالث: في بيان حال الصحابة من العدالة

اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة، وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلا نفيسا في ذلك، فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره، عن طهارتهم، واختياره لهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة: ١٤٣)، وقوله:﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾(الفتح:١٨). وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنفال: ٦٤)، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ٨-١٠). في آيات كثيرة يطول ذكرها، وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له إلى تعديل أحد من الخلق، على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع الخالفين بعدهم، والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم. هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتمد قوله.

فائدة: أكثر الصحابة فتوى مطلقا سبعة: عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعائشة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين.

قال ابن حزم: ويليهم عشرون، وهم: أبو بكر، وعثمان، وأبو موسى، ومعاذ،



وسعد بن أبي وقاص، وأبوهريرة، وأنس، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وسلمان، وجابر، وأبوسعيد، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وعمران بن حصين، وأبوبكرة، وعبادة بن الصامت، ومعاوية، وابن الزبير، وأم سلمة.

قال: وفي الصحابة نحو من مئة وعشرين نفسا مقلّون في الفتيا جدا، لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان والثلاث، كأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وأبي طلحة، والمقداد وغيرهم (وسرد الباقين).

قلت: وسأذكر في ترجمة كل من ذكره من هذا القسم أن ابن حزم ذكر أنه من فقهاء الصحابة، فإن ذلك من جملة المناقب.

أهمية الكتاب ومزاياه (١):

هذا الكتاب من أهم ما ألف في تراجم الصحابة، ولا يستغني عنه طالب علم أو باحث، وقد تميز بمزايا كثيرة، قلّ أن تجتمع في غيره، ومنها:

١- مكانة مؤلفه العلمية المرموقة.

٢- مما يؤكد أهمية هذا الكتاب: أهمية الموضوع الذي يتحدث عنه، فهو يشتمل على تراجم لصحابة رسول الله ﷺ، والبحث عن أحوالهم، وتمييزهم من غيرهم، ومعرفة من ذكر معهم وليس منهم.

٣- يعتبر هذا الكتاب أجمع الكتب المؤلفة في أسماء الصحابة وأشملها وأوسعها، فقد حوى أكثر من اثني عشرة ألف ترجمة.

٤- يعد أيضا من أهم الكتب المؤلفة في تراجم الصحابة، وأكثرها انتشارا، وتحريرا وتدقيقا، وقد اطلع مؤلفه على كتب من تقدمه في هذا النوع من التصنيف، واستفاد منها، فهذبها ورتبها، وتجنب ما فيها من أوهام، وزاد عليها زيادات رآها في بعض طرق الحديث أو المصنفات الأخرى، فجاء كتابا حافلا نافعا، ليس له نظير في بابه.

٥- هذه المقدمة النفيسة التي قدم المؤلف بها للكتاب، وما ذكر فيها من فصول مهمة يحتاج إليها من أراد معرفة الصحابة، وما ذكر في ذلك من ضوابط لمعرفة الصحابة.

٦- من أهم ميزات الكتاب أن الحافظ ابن حجر استدرك على من قبله، وبين إذا كان ذكرهم للمترجم في الصحابة صوابا أو خطأ، ومثال ذلك ترجمة (حنش بن المعتمر).

٧- إن المؤلف قد بذل في هذا الكتاب جهدا كبيرا، ومكث في تصنيفه أربعين سنة، فقد قال في آخر الكتاب: انتهت كتابتي مع ما في الهوامش في ثالث ذي الحجة، عام سبعة وأربعين، وكان الابتداء في جمعه في سنة تسع وثمانمائة، فقارب الأربعين، لكن كانت الكتابة فيه بالتراخي، وكتبته في المسودات ثلاث مرات، من أجل الترتيب الذي اخترعته، وهذه المرة الثالثة، وقد خرجت النسخة مسودة أيضا لكثرة الإلحاق، ولم يحصل اليأس من إلحاق أسماء أخرى، والله المستعان «الإصابة» (٧٢٨/٦)، فهي مدة طويلة جدا، ولذلك فإن هذا الكتاب صار خلاصة آراء وأحكام الحافظ ابن حجر فيما يتعلق بالصحابة، كما أن المؤلف قد وقف على أناس وصفوا بالصحبة في غير المظان المعروفة.

٨- يمكن أن يقال: إن هذا الكتاب يمثل خلاصة ما كتبه العلماء والأئمة في معرفة الصحابة قبل الحافظ ابن حجر، فالمطالع لهذا الكتاب يظهر له أن المؤلف قد اطلع على كتب من قبله، ومحصها، وأخذ منها وترك، بحسب ما رآه مناسبا.

٩- احتوى هذا الكتاب على قدر كبير من الأحاديث، مع بيان طرقها والحكم عليها، مما يزيد في قيمة الكتاب العلمية.

١٠- إن هذا الكتاب قد حفظ لنا نقولا كثيرة من مصادر، صارت تعتبر في عداد المفقود، مثل: «معرفة الصحابة» لابن السكن، وكتاب «الصحابة» للعقيلي، و«الصحابة» لمطين، ولابن شاهين، وغيرهم.

١١- ثناء العلماء عليه: قال السخاوي في «فتح المغيث» (٩٣/٣): انتدب شيخنا لجمع ما تفرق من ذلك، وانتصب لدفع المغلق منه على السالك، مع تحقيق غوامض، وتوفيق بين ما هو بحسب الظاهر كالمتناقض، وزيادات جمة، وتتمات مهمة، في كتاب سماه «الإصابة» جعل كل حرف منه غالبا على أربعة أقسام.

الهوامش

١- دراسة مختصرة عن كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة»، موقع: الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها.



د. أشرف صالح
باحث دراسات إسلامية

ابن أبي الربيع.. نموذجا

الإدارة الحكومية عند الرواد المسلمين

وجود قوة تسمى «الحكومة»، التي يقع على عاتقها إقامة النظام الاجتماعي وبناؤه، أمر ضروري أقرته جميع الشرائع والأمم. كما أن النظام الإداري، كغيره من الأنظمة، لا يتصور وجوده ونشأته في فراغ، بل لابد من وجود دولة تحتويه، فالنظام الاجتماعي الشامل للدولة يشتمل على النظم الاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من النظم. والحقيقة أن المخطوطات الإسلامية تحفل بدراسات متخصصة في مختلف مجالات الإدارة، وسوف نعرض فيما يلي لأشهر رواد هذه الدراسات في موضوع الإدارة الحكومية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ألا وهو ابن أبي الربيع.

شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، تاريخ ولادته ووفاته غير معروف، والراجح أنه عاش خلال فترة حكم الخليفة المعتصم بالله، العباسي الثامن (١٧٩ – ٢٢٧هـ)، ابن الخليفة هارون الرشيد، والذي خلف أخاه المأمون على كرسي الحكم. كما لم يعرف لابن أبي الربيع إلا كتاب واحد باسم «سلوك المالك في تدبير الممالك»، والذي طبع في القاهرة سنة ١٢٨٦هـ. ويجمع الباحثون على أنه من أفضل نصوص الفلسفة السياسية العربية الإسلامية. وفيما يلي نماذج من موضوعات الإدارة الحكومية في هذا الكتاب، والتي تعكس الفكر الإداري الإسلامي في هذا الخصوص.

أركان الدولة

أوضح ابن أبي الربيع أربعة أركان رئيسية تقوم عليها الدولة هي: الملك (الرئيس) – الرعية (الشعب) – العدل (أجهزة العدالة) – التدبير (السلطة التنفيذية). وحدد العناصر اللازم توافرها في الملك، والسياسات التي يتبعها تجاه الدولة ونفسه وخاصته وتجاه جمهور رعيته وفي الحروب، وذكر الأقسام المكونة للرعية، وتكلم عن العدل وأقسامه وبيان شرف منزلته.

المدينة والسكان

بين ابن أبي الربيع الشروط الأساسية الستة لإقامة المدينة وهي: «سعة المياه المستعذبة – إمكان الميرة (الطعام) المستمدة – اعتدال المكان وجودة الهواء – القرب من المراعي والاحتطاب – تحصين منازلها من الأعداء – أن يحيط بها سواد يعين أهلها». كما ذكر العناصر الثمانية اللازم توافرها بعد قيام المدينة، والتي على الحاكم القيام بها نحو سكان المدينة، وهي: «سوق الماء العذب إليها ليشرب ويتناول من غير عسف – تقدير طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق – بناء جامع للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها – تقدير أسواقها بحسب

كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب - تمييز قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادا مختلفة متباينة - أن يسكن (الحاكم) أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كفالة من سائر جهاته - إحاطة المدينة بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة - نقل أهل العلم والصنائع إليها بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها».

ومن الملاحظ؛ أن هذه العناصر تشير إلى مبدأ الاستدامة في بناء المدن، وإلى الرؤية البيئية الإسلامية لاختيار مواقع المدن ومتطلباتها، خصوصا في المياه، والحماية من العوامل البيئية السيئة، وطيب الهواء، والمناطق الخضراء. ومن جهة أخرى، أوضح ابن أبي الربيع أن المزارع من الضروريات لعمارة المدينة؛ لأن الزراعة هي أصول المواد التي يقوم بها أود الخلق، وذلك من خلال القيام بمصالح المياه، وكف الأذى عن المزارعين، وتقدير ما يؤخذ منهم بحكم الشرع والعدل، وألا ينالهم خوف ولا عسف.

القيادة المثالية

حدد ابن أبي الربيع الأسس التي تقوم عليها القيادة المثالية التي تدفع عن الناس الأذى الواقع على بعضهم، وأن يكون القائد من أفضل الناس. ولذلك، فهو يميل إلى القيادة المثالية، وأن يحكم الناس أحكم الناس، قائلا: «فقد تبين... أن الناس مضطرون إلى تدبير وسياسة وأمر ونهي، وإن المتولين لذلك ينبغي أن يكونوا أفاضلهم». وقد أكد على مبدأ وحدة القيادة لاعتقاده «بأن كثرة الرؤساء تفسد السياسة وتوقع التشبث؛ لهذا احتاجت المدينة أو المدن الكثيرة أن يكون رئيسها واحدا». كما حدد واجبات القائد في: إقامة العدل، ورفع الظلم، وقيادة الدولة إلى تحقيق أهدافها العليا، وأن يعمل كل فرد في مجال اختصاصه لمصلحته ومصلحة مجتمعه.

مؤسسات الدولة

وقد اهتم ابن أبي الربيع بالتدبير (الإدارة)، واعتبره رباطا وواسطة قوية بين الحاكم والمحكوم، أو بين الملك والرعية، فالملك يحتاج إلى من يعاونه في إدارة شؤون حكمه، وإذا لم يكونوا صالحين فسدت الدولة وساء تدبيرها. وقد حذر الملك من ستة أشياء عليه الانتباه إليها وتجنبها وهي: «من استوزر غير كاف، خاطر بملكه - من استشار غير أمين، أعان على هلكه - من أسر إلى غير ثقة، ضيع سره - من استعان بغير مستقل، أفسد أمره - من ضيع عاملا، دل على ضعف عقله - من اصطنع جاهلا، أعرب عن فرط جهله».

وقد حدد ابن أبي الربيع الأتباع والأعوان الذين يساعدون الملك في تدبير شؤون نفسه وحكمه ورعيته وهم: وزير عالم (رئيس الوزراء) - كاتب عارف (الوزير أو المدير العام) - حاجب عاقل (ديوان الرئاسة) - قاض ورع (الجهاز القضائي) - عامل جلد (المحافظ) - مال متوافر - رب شرطة (السلطة التنفيذية) - جند أقوياء (الجيش) - حكيم مجرب - جليس صادق - صاحب الطعام والشراب».

ميزانية الدولة

بين ابن أبي الربيع أحوالا ثلاثة من مقارنة الإيرادات بالنفقات هي:

- أن يفضل الدخل (الإيرادات) عن الخرج (النفقات)، وذلك هو الملك المستقيم والتدبير السليم؛ ليكون الفائض معدا لوجوه النوائب.
- أن يقصر الدخل عن الخرج، وذلك هو الملك المختل والتدبير المعتل، فتدعوه الحاجة إلى العدول عن لوازم الشرع، ويؤول إلى العطب والفساد.
- أن يتكافأ الدخل والخرج حتى يعتدل، ويكون ذلك في زمن السلامة مستقلا، وعند الحوادث معتلا، فإن تحركت به النوائب كده الاجتهاد وانفض من حوله الإخوان.

ويتضح من ذلك أن ابن أبي الربيع يفضل الموازنة الفائضة التي تزيد إيراداتها على نفقاتها؛ لكي يتوافر لديها فائض في الأموال لتواجه به الكوارث والنوائب غير المتوقعة.

في الحقيقة؛ إن لكتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» قيمة فلسفية وسياسية كبيرة، فهو يبحث في السياسة والفلسفة والأخلاق والإدارة والشريعة، بل وحتى في تخطيط المدن. والجدير بالملاحظة هنا، أنه في الوقت الذي نشر فيه ابن أبي الربيع آراءه ووجهات نظره، التي تعتبر مرجعا أساسيا في عدد من العلوم، فإن أوروبا كانت تعيش في الوقت ذاته في ظلام دامس، إذ إن مجتمعاتها كانت تعيش على تراكمات من التخلف والجهل، وفي ظل أنظمة إقطاعية غاية في الإجحاف وعدم المسؤولية تجاه شعوبها.

المراجع

- ابن أبي الربيع، «سلوك المالك في تدبير الممالك»، تحقيق: حامد عبدالله ربيع، القاهرة، دار الشعب، ١٩٨٠م.
- خالد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧م.
- محمد زاهد جول، «المدينة والدولة في الاجتهاد الفقهي»، ندوة تطور العلوم الفقهية: «الفقه الحضاري، فقه العمران»، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ٣ - ٦ أبريل ٢٠١٠م.
- موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٤م، (المجلد الثاني).

مثلثات أسرية

محمد شعطيط - المغرب
باحث مغربي

يعتبر الإسلام دين الحنيفية السمحة. فهو الدين الذي تساير مبادئه الفطرة وتتماشى مع طبيعة الإنسان. وقد جاءت أحكامه وسطية من دون إفراط ولا تفريط. ففي مجال العبادة لم يدع الإسلام إلى الرهبانية والانقطاع في الصوامع والمساجد، كما أنه لم يترك الأمر سبهللا، بحيث يأتي العبد إلى ربه متى شاء حيثما تيسر له الأمر. وقد لا يتفرغ العبد لطاعة ربه أبدا وسط مشاغل الدنيا التي لا تنقطع بالليل أو النهار، بل شرع الله لعباده عبادات متنوعة؛ لتبقى صلة العبد بربه دائمة متصلة.

والناظر في هذه العبادات بمختلف أنواعها يجدها من حيث الأغلبية بعد استقراء مجموعة من النصوص - حسب الإمكان والجهد وما يسمح به الوقت - لا تتعدى من حيث القدر الثلث في أغلبها؛ تخفيفا على العباد، ولينال نصيبه من العاجلة تطبيقا لمبدأ الآية الكريمة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ (القصص:٧٧). ومن خلال هذا الاستقراء لبعض هذه الأحكام يمكن القول: إن الإسلام هو عبادة الثلث بامتياز. يأخذ الله منك الثلث لمعادك ويترك لك الثلثين لمعاشك. وما ترك لك يعود أجره إليك، إذا خلصت النية وابتغي بها وجه الله عزوجل ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣). وما لم تتم الإشارة فيه تصريحا إلى نسبة الثلث فهو، من حيث العموم، الأصل فيه التيسير والتخفيف اللذان هما مقصد من مقاصد البعثة، ومن أهم مرامي التشريع وغاياته، كما قال عزوجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف:١٥٧).

والآن إلى بعض هذه المثلثات:





الثلث الأخير من الليل

يبدأ ثلث الأسرة الأول في الثلث الأخير من الليل، حيث تتعرض للنفحات الربانية في هذا الوقت الشريف من الليل، حين ينزل ربنا عزوجل إلى السماء الدنيا، كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وينادي سبحانه: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» (متفق عليه).

فهذا الخالق عزوجل يعرف حاجة عباده إلى الراحة في أول الليل، فيترك لهم الفرصة لأخذ نصيبهم منها، ثم إذا هدأت العيون وأخذت حظها من السكن دعاها سبحانه في مشهد مهيب: «من يدعوني فأستجيب له؟»، سبحانه من إله رحيم. جعل لعباده وقتا هو مظنة الإجابة، وهو ثلث الليل الأخير.

وهذا السلوك هو دأب الرسول ﷺ وصحبه الكرام. يمر المسلم على دور الصحابة فيجد الأسر المسلمة قد نفضت عنها غبار الكسل والخمول واصطفت جماعات ووحدانا تسأل ربا كريما لتأخذ نصيبها من قول الله عزوجل: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الذاريات:١٧-١٨). ومن قول الله عزوجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمل:٢٠).

نعم طائفة من الأسر المؤمنة المخبتة الخاشعة المنيبة، بل دأب الأنبياء قبلنا، فهذا نبي الله داود عليه السلام يقول عنه الحبيب ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه» (متفق عليه). فأين نصيبك من هذا الثلث أخي المسلم، أختي المسلمة، حتى تتربى أسرتك في هذه المدرسة الربانية فتكتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات؟ ففي الحديث: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين، كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات» (أخرجه أبوداود).

وحتى توافقوا ساعة الإجابة التي قال عنها الرسول ﷺ: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة» (رواه مسلم).

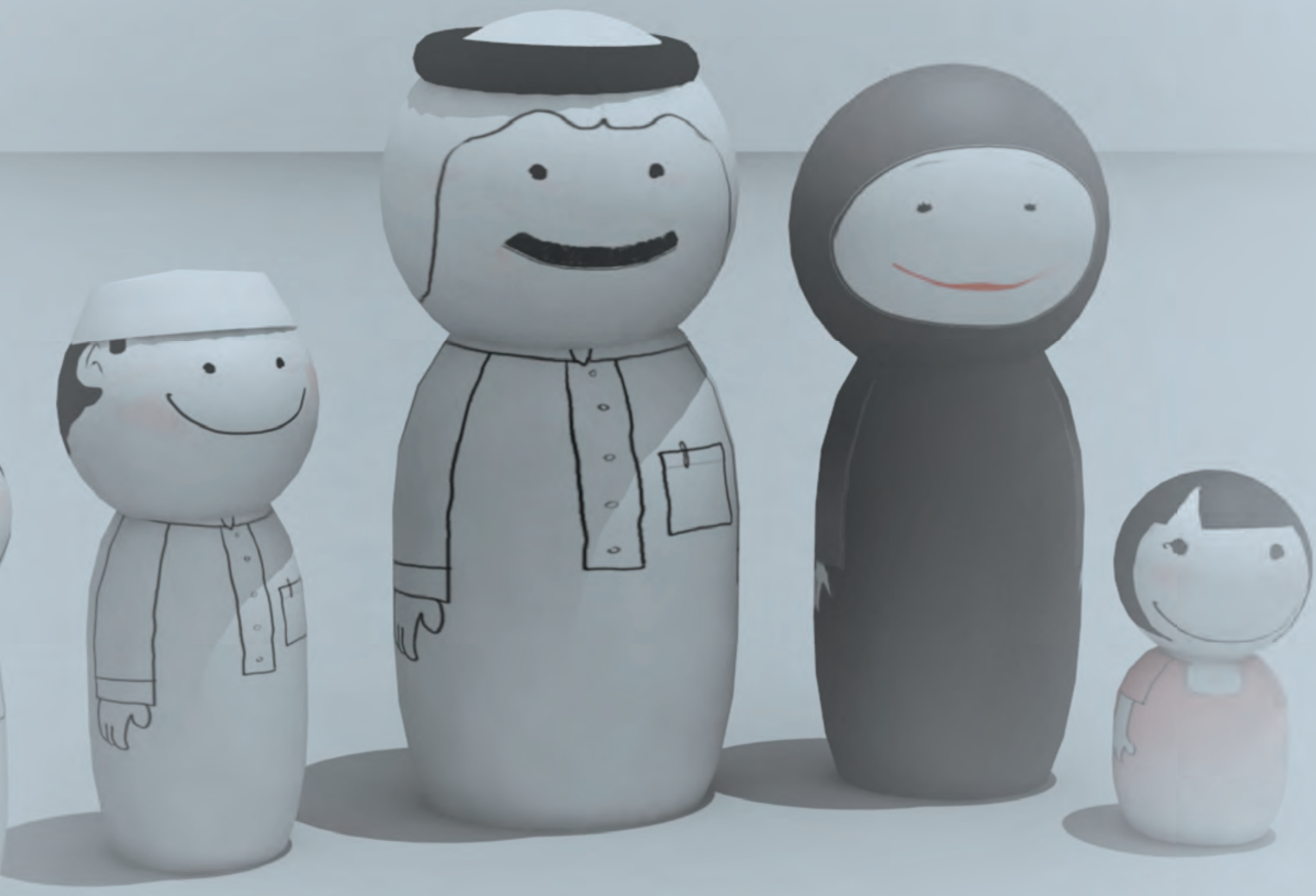
قام طفل صغير للصلاة مع والده في ليلة باردة، فقال له الوالد بلسان الشفيق الرحيم: عد يا بني في هذه الليلة إلى فراشك، فالجو بارد وأنت صغير. فأجابه الابن بكلام لا يصدر إلا عن حكيم خبر تجارب الحياة، وكيف لا يكون كذلك ومدرسة الليل أعظم المدارس وأشدها وطئا: يا أبت، لقد رأيت أمي إذا أرادت أن توقد النار تستعين بأعواد الحطب الصغيرة، فأخشى أن أكون أنا ذلك الحطب الصغير الذي يوقد الله به النار يوم القيامة، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦).

أيتها الأسرة المسلمة، نامي ثلثي الليل واغتنمي فضل الثلث الأخير، ولا يغلبنك عليه اشتغالك بالمسلسلات والأفلام، فيوشك أن ينادي المنادي بالرحيل. فالزاد الزاد قبل يوم المعاد.

الصيام

نمر إلى ثلث آخر من مثلثات الأسر المسلمة، وهو ثلث الصيام. الأسرة المسلمة أسرة موصولة بربها، ذاكرة لله، صوامة، قوامة، تصوم الأيام البيض (وهي ثلاثة أيام من كل شهر)، فإذا أضافت إليها صيام الاثنين والخميس (وهي تتكرر أربع مرات في الشهر لكل منهما)، حصلت في المجموع على أحد عشر يوما، وهو بالتقريب ثلث الشهر. فالأسرة المسلمة تقضي ثلث دهرها في الصيام، قربة لله عزوجل، وهي تعلم فضل ما أعده الله عزوجل للصائمين، قال الحبيب ﷺ: «إن في الجنة بابا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة،





لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون فيدخلون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد» (متفق عليه).

فتخيل معي أخي المسلم، فرحة أسرة كاملة تدخل من باب الريان، اجتمعت على مائدة الإفطار في الدنيا فجمعها الله في هذا الموكب العظيم في الآخرة. وهو أيضا نجاة ووقاية لشباب الأسرة وتحصين لهم من الوقوع في الرذيلة حتى يغنيهم الله من فضله، قال ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (متفق عليه).

الوصية

ثم يأتي ثلث الوصية، الذي جعله الله عزوجل تحت تصرف ذوي المال الراشدين من الأسرة، يجعلونه في من يشاءون من ذويهم أو قرابتهم أو غيرهم؛ تقربا إلى الله عزوجل. وتحديد الثلث هنا ظاهر، وهو معلل في حديث رسول الله ﷺ حين دخل على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال له سعد: قلت: يا رسول الله، أنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: «لا». قلت: أفأتصدق بثلثه؟ قال: «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة



يتكففون الناس» (متفق عليه).

ثلث الطعام والشراب والنفس

فإذا حل وقت الطعام عاشت الأسرة المسلمة في ظل ثلث آخر، يذكرها بوصايا الحبيب ﷺ، الذي ما ترك خيرا إلا ودل أمته عليه. وهذا الخير هذه المرة يتعلق بصحة الإنسان. فصلاح الأديان في صلاح الأبدان، كما قيل، و«المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير» (رواه مسلم). وهذا الإرشاد النبوي يدل الأسرة المسلمة على باب واسع من باب العافية، وهو الاقتصار على الضروري من الغذاء، وعدم الإسراف في الأكل. يقول الرسول ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (١).

وهذا الاقتصار على الثلث في الأكل هو الذي يعين، بفضل الله، على الاستيقاظ في الثلث الأخير من الليل، فالأمر بعضه مفتول في بعض، وأحكام الدين، بحمد الله، لا تتجزأ. ولذلك، من يحاول إصلاح المجتمعات الإسلامية بأخذ بعض الكتاب وترك بعض إنما يخط في رمل أو يرسم في سحاب. وفي الأثر عن بعض الحكماء أنه كان يقول لتلامذته: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا، فتناموا كثيرا، فتتحسروا عند الموت كثيرا.

ثلث الأضحية

ثم إذا حل العيد حلت معه البهجة والمسرات، وشاركت الأسرة فقراء المسلمين في أفراحهم بالتصدق عليهم بثلث أضحيتها، وهو المختار عند غالبية الفقهاء. وهو استجابة لنداء الرسول الكريم الرؤوف الرحيم، الذي علم أمته كيف تنال الأجر مع الانتفاع من الأضحية بالأكل. فعن عائشة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال في شأن أضحية العيد: «كلوا وادخروا وتصدقوا» (رواه مسلم).

الثلث الأخير من رمضان

فإذا أتى شهر رمضان شهر الرحمة والغفران، تأهبت الأسرة المسلمة لصيامه، وتشمرت لقيامه. فإذا دخل الثلث الأخير منه رفعت من وتيرة العبادة؛ اقتداء بسيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ. فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر، أحيا ليله، وأيقظ أهله، وجد، وشد المئزر. وعن عائشة، رضي الله عنها، أيضا قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره» (رواه مسلم). وقد كان عليه الصلاة والسلام يعتكف فيها ويتحرى ليلة القدر.

الثلث الأول من ذي الحجة

ثم تنتقل الأسرة إلى ثلث آخر من أثلاث الشهر، وهذه المرة مع شهر ذي الحجة، الذي أقسم الله بلياليه العشر فقال سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ (الفجر:١-٢)، وقال الرسول ﷺ عن أيامه: «أفضل أيام الدنيا أيام العشر» (٢). والأحاديث في فضلها معلومة.

لو تتبعنا المثلثات الشرعية لطال بنا المقام، وحسبنا أن أشرنا إلى فضل هذا الدين ورحمة الله بعباده وما وضع عنهم من الإصر والأغلال التي كانت عليهم؛ حتى يقبلوا على الله إقبال المحبين المخبتين، وحتى يعلموا أن دين الإسلام دين السماحة واليسر، من غير مشقة ولا عنت. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الهوامش

١- أخرجه الإمام أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو في «الصحيحة»، (٢٢٦٥)، وقد ضعفه غير واحد، وأبحاث العلم تشهد له، والله تعالى أعلم.

٢- أخرجه البزار، وهو في ص ج ص، ١١٣٣.



١٢ سببا تدعو إليها:

علموا أبناءكم الزراعة

د. آندي حجازي/ أستاذة علوم تربوية

شيء ممتع، كذلك الخروج مع ابنك أو ابنتك من أجل زراعة نبتة في حديقة البيت أو حديقة عامة، أو أرض قاحلة، الاهتمام معه بما زرعت ومتابعتها بالرعاية والسقاية والتقليم، فمن الجميل والمميز أن تعلم ابنك أهمية الزراعة وكيفية الزراعة، خاصة في زمن عم به الاهتمام بالأجهزة التكنولوجية والإلكترونية بشكل لافت فائق، وفقد الاهتمام بالنشاطات الخارجية والحركية وخارج البيوت.. فمن الممتع فعلا أن تغرس مع ابنك بذورا أو شتلات صغيرة وتسقيها دوما وترعاها وتراقبها مع طفلك وهي تنمو أمامه يوما بعد يوم، فهو سيشعر بسعادة كبيرة حينما يرى أن نبتته كبرت وأينعت وترعرعت وأصبحت تؤتي ثمارا طيبة، أو نتاجا مميزا يؤكل منه.

إن الزراعة مهنة الإنسان منذ القدم، ومارسها بعض الأنبياء، وحتى الرعي يعتمد على الزراعة.. والعمل بالزراعة ليس عيبا كما هي الصورة النمطية السائدة اليوم، بل إنها مهنة عظيمة مهمة لا تقوم الحياة بدونها، ولا يمكن للإنسان العيش بلا نتاج هذه المهنة، والأمن الغذائي والاقتصادي اليوم يعتمد على الزراعة.

في كل بلد تزرع نباتات مختلفة وفقا لمناخها، فبعضها تناسبها النباتات الموسمية، وبعضها النخيل، وبعضها الحمضيات أو الزيتون كالمناطق الجبلية، وبعضها النباتات البعلية كما في السهول.. فعلى الأب أو الأم تشجيع أبنائهم وبناتهم على زراعة النباتات المختلفة في أماكن متاحة، ولو في أحواض صغيرة داخل البيت أو خارجه، مع مراعاة طبيعة بلادهم وبما يمكن أن ينتج بها.

فكرة

ومن الجميل جدا أن تخصص الدولة أياما معينة من العام تنظمها وتشجع بها جميع المواطنين على الخروج لأماكن عامة جرداء من أجل زراعتها بنباتات متنوعة، كنباتات حرجية أو زينة أو مثمرة، فعندما تنمو تلك الأشجار بعد عدة سنوات ستصبح لدينا مزارع وحدائق وبساتين وغابات.. وهذا ليس خيالا، بل حقيقة كما يحدث في الدول المتقدمة ذات الطبيعة الخلابة، فلا تأتي من فراغ، بل من اهتمام سكانها وحكوماتها بالزراعة والتشجير. ومن الجميل أن تساهم الأسر والمدارس في الزراعة، وتخصص أيام من العام الدراسي من أجل زراعة المدرسة وحولها، أو زراعة أراض عامة يسمح بزراعتها، مع تعاهدها بالسقاية.

لماذا الزراعة؟

- **أولا**: تعليم الأبناء أن الزراعة هي من طرق عمارة الأرض التي حث عليها الدين الإسلامي، فإعمار الأرض هدف أساسي لوجوده على هذه الأرض بعد عبادة الله وحده، وإعمار الأرض لا يكون بالعمران والبناء والصناعة فقط، بل بالزراعة والإنتاج أيضا.
- **ثانيا**: تعليم الأبناء الاهتمام بالزراعة والنباتات معناه الاهتمام بالطبيعة وبجمالها وبمخلوقات الله تعالى الكثيرة والمتعددة، مما يزيد من إيمان الإنسان

وتفكره في الكون، وحمد الله تعالى على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى في سورة يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس٣٣-٣٥).

● **ثالثا**: تعليم الأبناء الزراعة هو تطبيق للسنة النبوية، حيث حث رسول الله ﷺ على ذلك بقوله: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر» (رواه البخاري، والإمام احمد). والفسيلة: النخلة الصغيرة، وكأنه ﷺ يقصد: ليس عليكم ثمرة الجهد، ولكن عليكم الجهد وحده، ابذلوه ولا تتطلعوا إلى نتائجه. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يزرع مسلم زرعا ولا يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» رواه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر: «ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس». فأي حث أعظم من ذلك! وهناك أحاديث أخرى تشجع على الزراعة وإحياء الأرض غير الصالحة، من ذلك قوله ﷺ: «من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع وعجز عنها فليمنحها آخاه المسلم ولايؤاجرها إياه». (أخرجه مسلم)

● **رابعا**: تعليم الأبناء الزراعة ينمي لديهم الحس الوطني والقومي للاهتمام بالجمال في بيوتهم وبلادهم، وبزراعتها وبالحفاظ عليها خضراء منعشة جميلة.

● **خامسا**: تعريف الأبناء أن الزراعة مصدر دخل قومي مهم وأساسي للكثير من البلاد، سابقا واليوم ومستقبلا، وقد يعمل الطفل الذي تعوّد الزراعة وأحبّها مشروعا اقتصاديا في المستقبل قائما على الزراعة، فيسهم في تقدّم بلاده وإعالة نفسه وأهله.



● **سادسا**: توجيه الأبناء إلى أن الزراعة تسهم في حل الكثير من المشكلات اليوم كالاحتباس الحراري، لأن الأشجار تنتج الأكسجين وتمتص ثاني أكسيد الكربون، وحل مشكلة المجاعات والفقر والبطالة والتزايد في عدد البشر مع نقص الغذاء، وحل مشكلات اقتصادية قومية كثيرة لو تم التركيز على المشروعات الزراعية.

● **سابعا**: مزاولة الزراعة تعلم الأبناء الصبر، فالمزروعات لا تكبر بين يوم وليلة، بل إنها من النشاطات التي تتطلب الصبر والمتابعة والاهتمام بالآخر.

● **ثامنا**: الزراعة مع الأبناء تعلمهم أن نأكل مما نزرع، ونلبس مما نصنع، لا أن نعتمد على الآخر وعلى استيراد كل شيء، فانظر اليوم إلى التحكم الغربي والأجنبي في البلدان العربية نتيجة إهمالها في الصناعات والاختراعات والمشروعات الزراعية، فأصبحت أمة مستهلكة لا منتجة، تقع تحت رحمة الأمم الأخرى بل وتحت أطماع الدول ذات الطموحات التوسعية والاستعمارية.

● **تاسعا**: ممارسة الزراعة مع الأبناء تورث السعادة والمتعة لقيامهما بنشاط مشترك مفيد وممتع، ويجعل بينهما اهتمامات مشتركة، وهذا الاهتمام يبدأ منذ الصغر، فلا ينتظر الأب ابنه كي يكبر ليشاركه في الزراعة، فجميع الأبناء قادرون عليه، صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا.

● **عاشرا**: تشجيع الأبناء على الزراعة في البيت يعني أن نأكل منتجات نباتية صحية من الفواكه والخضار، خاصة مع انتشار الهرمونات في المزروعات التجارية اليوم، ما جعلنا نأكل الكثير من الثمار المهجنة والممتلئة بالهرمونات والكيماويات التي تسبب عبر الزمن الكثير من الأمراض في الجهاز الهضمي والعصبي، والتي لا يعرف سببها.

● **الحادي عشر**: تعليم الأبناء الاهتمام بالزراعة معناه تشجيعهم الاهتمام بالثروة الحيوانية، لأن جميع الحيوانات تعتمد على النباتات في استمرار حياتها، والثروة الحيوانية مهمة لبقاء الإنسان على قيد الحياة، فهي سلسلة مستمرة.

● **الثاني عشر**: تشجيع الأبناء على الزراعة هو تشجيع لهم على العطاء وعلى محبة الآخرين، ومساعدتهم والبعد عن الأنانية، لأنه ليس من الضرورة أن ما نزرعه اليوم سوف نأكل منه غدا، فقد نأكل منه نحن أو غيرنا، وقديما قالوا: «زرعوا فأكلنا، ونزرع فيأكلون»، فهذه ضمن دورة الأجيال.

الأسرة ومقصد التدبير المؤسسي للمجتمع

د. محمد طونيو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - المغرب

أفتتح بسؤال مركزي عليه مدار هذه المقالة وصيغته:

كيف تسهم مؤسسة الأسرة في تفعيل البعد المؤسساتي في التنظيم الاجتماعي؟

يرتقي التشريع الإسلامي بالأسرة إلى مستوى المؤسسة التي تخضع لضوابط وقواعد واضحة وتنظيم محكم للعلاقة بين أعضائها، «إذ مقتضى المؤسسة أن تنظمها مجموعة أحكام ومعايير تحدد كيفيات العمل من أجل تلبية حاجات معينة جلبا للمنفعة ودفعا للمضرة» (١). وبخصوص مؤسسة الأسرة، فقد ورد التفصيل في أحكامها وبيان سبل تنزيلها بما يضمن تماسكها ويحيطها بالرعاية الكافية. «فإذا كانت أحكام الشريعة قد جاء فيها توجيه عام إلى ثقافة المؤسسة الاجتماعية، ووردت فيها مبادرة كلية عامة من شأنها التأطير المبدئي للكثير من مؤسسات المجتمع، فإنها قد خصت واحدة من تلك المؤسسات الاجتماعية ببيان تفصيلي شامل، وهو بيان ورد على وجه الطلب؛ يبين الأصول العامة لتلك المؤسسة، ويملأ تلك الأصول العامة بأحكام تفصيلية لا يدانيها في التفصيل من بين كل البيان الديني سوى أحكام العبادات، وتلك المؤسسة هي مؤسسة الأسرة» (٢).

ولعل من أسباب ذلك أنها لا تقوم على التأقيت المحدد، وإنما على



الدوام والاستمرار، ذلك لأن عقد الزواج يشار فيه إلى تاريخ بدايته ولا يذكر فيه تاريخ نهايته.

وقد منع الإسلام زواج المتعة، لأنه يخالف خاصية الدوام التي تميز عقد الزواج. «لأنه أبديٌّ شُرع للبقاء والاستمرار» (٣). إذ تنتج عنه حقوق وواجبات ملزمة لأطرافه، حيث يسود نظام القوامة الشرعية المبنية على التشاور والتعاون على البر والتقوى، وليس على التسلط والعدوان. وبهذا فإن النظام الأسري في التشريع الإسلامي يحقق - بما لا يدع مجالا للشك - زواجا ناجحا بسبب ما يوفره من مشاعر المودة والرحمة والسكينة، لأن العلاقة الشخصية بين الزوجين قائمة على حسن التعاشر والتغافر، وعلى الوصل وليس الفصل.

وعلى الرغم من ذلك، يبقى احتمال التنافر في حالات نادرة واردا وله مخرجه الشرعي من غير انتقام، وإنما تسريح بإحسان، بعد فشل الوساطة الأسرية الهادفة إلى إصلاح ذات البين، ومحاولة رأب الصدع لحل الخلاف من خلال التركيز على منهج احتواء المشكلات الزوجية، وتعرف فوائدها، وتحويلها من محنة إلى منحة، وفي حالة تعذر الصلح يتم فك الارتباط بعد ضمان الحقوق الكاملة لأصحابها، سواء حقوق الزوجين أو الأطفال.

«إن ما جاء في الشريعة من أحكام تفصيلية لمؤسسة الأسرة من مؤسسات المجتمع. وما أحيطت به تلك الأحكام من عناية بالتنفيذ والإلزام، إنما يعكس ما لهذه المؤسسة الاجتماعية من أثر بالغ في حفظ المجتمع. إذ هي اللبنة الأولى في بنيانه. ولعل هذا التفصيل في أحكام الأسرة يعتبر أيضا تعليما للمسلمين كيفية بناء سائر المؤسسات التي لم يرد فيها تفصيل؛ استيحاء من هذا التفصيل الوارد في الأسرة. والمؤسسات الاجتماعية وإن كانت مختلفة في طبيعتها إلا أنها موحدة في الثقافة التي تحدثها، وفي الغايات التي تهدف إليها، وهي حفظ المجتمع بقوة اللبنات التي يتكون منها، وبتماسك اللحمة بينها» (٤).

وها هنا سؤال ملح يتبادر إلى الذهن مفاده: لماذا كانت مؤسسة الأسرة هي الحافظة للكيان الاجتماعي؟

جدير بالذكر، قبل الإجابة عن هذا السؤال، أن قيام البنية الاجتماعية على المؤسسة هو مقصد الشريعة الذي يفضي إلى تحقيق مقصد أعلى جامع هو حفظ نظام المجتمع.

وفي الجواب عن السؤال الآنف الذكر، يمكن القول إن ثمة ثلاثة اعتبارات جعلت الأسرة هي مؤسسة حافظة للمجتمع من حيث تماسكه واستمراره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ونلخص الاعتبارات الثلاثة في الآتي:

١- التشريع التفصيلي لأحكام الأسرة بما فيه من دلالة على أهميتها في بناء المجتمع، لذلك كان شأنها في المفهوم الإسلامي ليس شخصيا يهم أفرادها فحسب، وإنما هي شأن اجتماعي، فينبغي إذن أن تبنى الأحكام الشرعية المنظمة لها على ما يؤدي إلى مقاصدها في المجتمع، بالإضافة إلى ما يؤدي إلى مقاصدها في ذاتها. ومن أبرز ما يدل على المقصد الاجتماعي من الأسرة أن الدين قد اعتبرها في أحكامها شأنا اجتماعيا وليس شخصيا، وأوكل شطرا كبيرا من شؤونها إلى المجتمع يرى فيه رأيه، ويعالجه بمعرفته، ولا أدل على ذلك من أن الخطاب في هذه الشؤون جاء خطابا جماعيا، على الرغم مما تبدو عليه هذه الشؤون من صبغة شخصية لا تتعلق إلا بذات الأسرة، وذلك مثل قوله عزوجل: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ﴾ (البقرة:٢٢١). وقوله عزوجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ (النساء:٣٥). فهذا الخطاب القرآني المطرد في شؤون الأسرة لجماعة المسلمين، وليس لأفراد الأسرة، مما يدل على أن في أحكام الأسرة مقصدا اجتماعيا أساسيا..

وشواهد ذلك كثيرة، منها أن الزواج الذي يشرف عليه الأهل من الطرفين بالولاية وتقديم المشورة، ويشارك فيه المجتمع بإعلانه والترحيب به، فإذا ما شابته نزاعات وبدت بوادر الشقاق، فإن المجتمع يشرف على الصلح ببعث الحكمين لتحرير كل نزاع واقتراح سبل تجاوز الخلاف، تجنبا لكل

أثر سلبي. ذلك لأن العلاقات سبق أن توطدت بالمصاهرة. فإما أن تكون معاشرة بالمعروف أو تسريحا بإحسان، وليس فراقا بانتقام.

وحاصل الكلام في هذا المقام أن استهلال البناء الأسري بإشراف المجتمع وتعهده بالرعاية الحسنة للأسرة، يجعل غايتها الاستقرار والاستمرار والاستثمار الذي ينتج عنه حفظ المجتمع، حيث ينشأ إنسان الأسرة ليقوم بمهمة الاستخلاف، باعتبارها أعلى الغايات التي تنتهي إليها أحكام الأسرة بصفة ظاهرة أو خفية. وبذلك تتحقق مصالح عديدة، منها الديني ومنها الدنيوي. يقول صاحب المبسوط: «يتعلق بهذا العقد - يعني عقد النكاح - أنواع من المصالح الدينية والدنيوية، من ذلك حفظ النساء والقيام عليهن والإنفاق، ومن ذلك صيانة النفس عن الزنا، ومن ذلك تكثير عباد الله وأمة الرسول ﷺ» (٥).

يضاف إلى ذلك ما يتعلمه الفرد من واجباته الأسرية والاجتماعية وما له من حقوق، مما يقوي لديه روح التآلف والأخوة، يشهد لذلك قول الإمام أبي زهرة «فالوحدة الأولى لهذا المجتمع هي الأسرة، فهي الخلية التي تتربى فيها أنواع النزوع الاجتماعي في الإنسان عند أول استقباله للدنيا، ففيها يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات، وفيها تتكون مشاعر الألفة والأخوة الإنسانية وتبذر بذرة الإيثار» (٦).

٢- وأما ثاني الاعتبارات فهو أن الأسرة هي المحضن، الذي ينشأ فيه الأفراد على تربية اجتماعية تؤهلهم نفسيا للاندماج في المجتمع، والاعتزاز بالانتماء إليه، والعمل للمصلحة العامة. لذلك، ترسخ مؤسسة الأسرة في نفوس أبنائها أن حب الأوطان من الإيمان، خلافا لمن ينشأ خارج إطار أسرة حاضنة له، فإنه يتوجس من المجتمع، ويشعر أنه لا تربطه به آصرة دم أو إيمان، وقد يلحق الأذى بالأحياء والأشياء كلما شعر بغربته؛ لكونه غير محاط بأسرة تحتضنه.

ومن أجل تفادي هذه النتائج المحققة للمفاسد النفسية والاجتماعية حرص الإسلام على أن تكون الأسرة عامل وحدة اجتماعية، ينمو فيها التآلف وصلات الود بسبب ما يربط علاقاتها من قيم أخلاقية تنظم الشأن الاجتماعي. لذلك، لا غرابة في أن تكون توجيهات الشرع لتفعيل الرعاية المتبادلة والتعاون المشترك في تنزيل الحقوق والواجبات في ظل القرآن الكريم الذي يدعو إلى التساكن والتراحم والتواد، وبهذا تكون الأسرة «محضنا تدريبيا يهيئ للحياة في المجتمع، حياة التضامن والتكافل والوحدة والتعاون» (٧).

٣- أما ثالث الاعتبارات فهو أن الأسرة هي منطلق الامتدادات التي تشكل أواصر اجتماعية متقاربة تبدأ بعلاقة الزواج، حيث إن الأصل الأصيل في تشريع أمر العائلة هو إحكام آصرة النكاح، ثم ما يتبعها من روابط النسب والمصاهرة، مما يوسع دائرة الصلات إلى العشيرة ثم القبيلة، وبعد ذلك الأمة. وفي كل دائرة مظنة للتماسك وتقوية للكيان الاجتماعي، لأن «انتظام أمر العائلات في الأمة أساس حضارتها وانتظام جامعتها. فلذلك، كان الاعتناء بضبط نظام العائلة من مقصد الشرائع البشرية كلها، ولم تزل الشرائع تعنى بضبط أصل نظام تكوين العائلة، الذي هو اقتران الذكر بالأنثى المعبر عنه بالزواج أو النكاح، فإنه أصل تكوين النسل وتفريع القرابة بفروعها وأصولها. وجاءت شريعة الإسلام مهيمنة على شرائع الحق، فكانت الأحكام التي شرعتها للعائلة أعدل الأحكام وأوثقها وأجلها» (٨).

حاصل القول من كل ما تقدم بخصوص اعتبارات جعل مؤسسة الأسرة حافظة للكيان الاجتماعي، أنه لما كان لهذه المؤسسة شأنها العظيم، من حيث البناء والامتداد، فإن مقاصد أحكامها جديرة بأن تؤول إلى تفعيل وحفظ البعد المؤسساتي في المجتمع. والله أعلم وأحكم.

الهوامش

(١) سؤال الأخلاق، الفيلسوف المجدد طه عبدالرحمن، ص٤٤، ط الثالثة ٢٠٠٦م، المركز الثقافي العربي.
(٢) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبدالمجيد النجار، ص ١٦٢، ط الثانية ٢٠٠٨م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
(٣) ولا تنسوا الفضل بينكم، أكرم رضا، ص ٧، ط أولى ٢٠٠٨م، دار الأندلس الجديدة، مصر.
(٤) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبدالمجيد النجار، ص١٦٢، ط الثامنة ٢٠٠٨م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
(٥) المبسوط، للإمام السرخسي، ١٩٣/٤، طبعة ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، لبنان.
(٦) الأحوال الشخصية، الشيخ أبو زهرة، ص ١٩، ط أولى ١٩٥٧م، دار الفكر العربي، الظاهرة.
(٧) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، مرجع سابق، ص ١٦٤.
(٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص١٥١-١٥٢، ط الثانية ٢٠٠٨م، دار سحنون للنشر، تونس.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:



ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

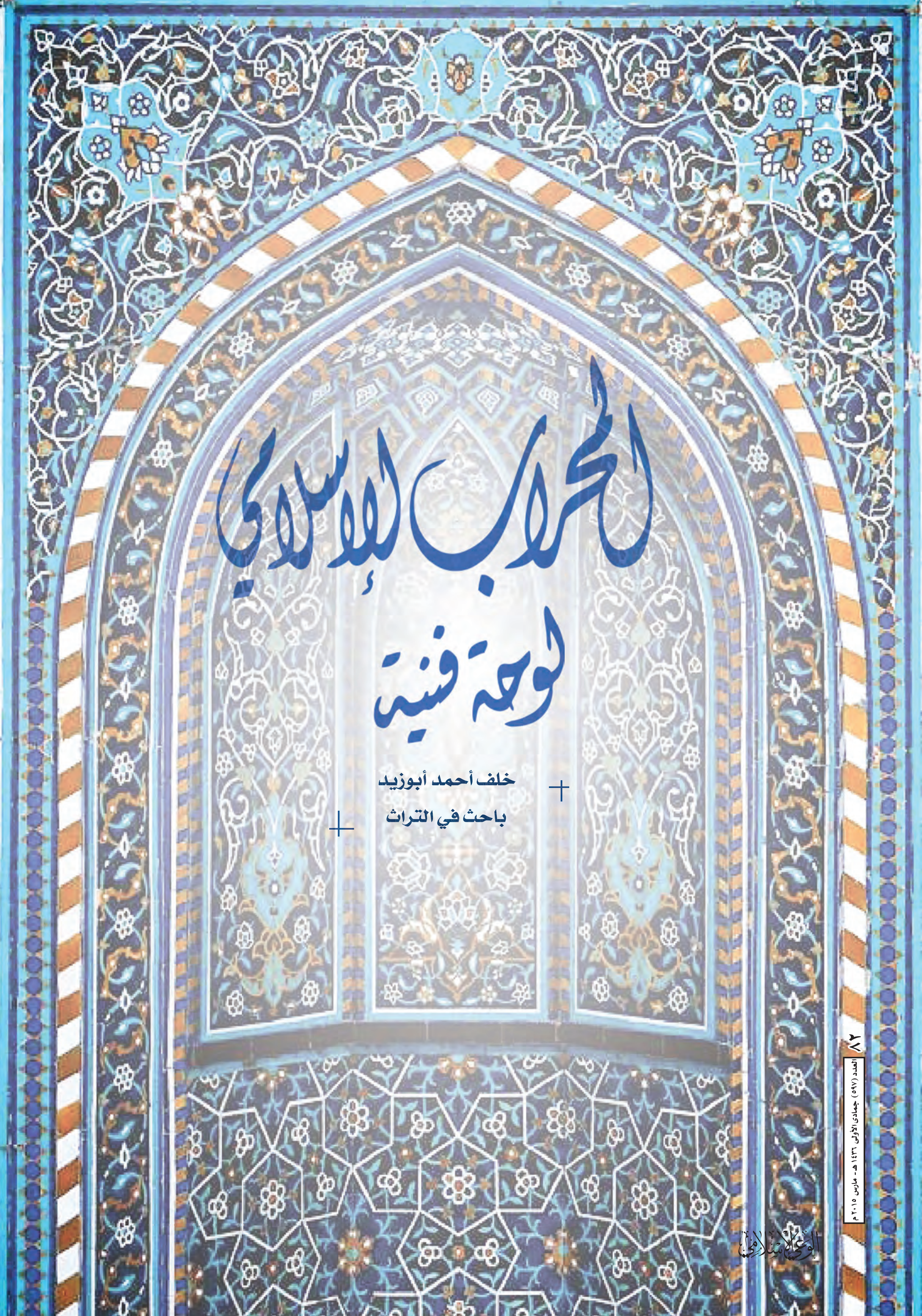
- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

البريد الإلكتروني: info@alwaei.com



المحراب الإسلامي
لوحة فنية

خلف أحمد أبوزيد
باحث في التراث

كانت المساجد، وستظل، محور الحياة الدينية في العالم الإسلامي. ولقد أقيم أول مسجد في الإسلام من قبل النبي ﷺ في المدينة المنورة، وكان من البساطة بحيث لم يتجاوز في بدايته حجم قاعة لإقامة الصلاة، ومكانا يجتمع فيه النبي الكريم بأصحابه. وعلى هذا النمط البسيط أقيمت مساجد كثيرة في مختلف المدن والبلدان، التي أشع عليها نور الإسلام بعد ذلك. ولكي يتعرف المسلمون على الجهة الصحيحة للقبلة أثناء الصلاة وضع المحراب؛ ليكون وجهتهم الصحيحة للصلاة نحو الكعبة المشرفة. هذا المحراب الذي أمسى رمزا للصلاة، وموقعا جوهريا يذكر الناس بعبادة الله عزوجل. وتبارى الناس في تفخيمه، والتركيز على شكله، حتى صار تحفة معمارية تنطق بالجمال والإبداع، وتعبر في الوقت نفسه عن الروح المبدعة، التي تحلى بها المعماري والفنان والمسلم.

تعريف المحراب

والمحراب عنصر معماري، أكثر ما يوجد في المساجد والجوامع والزوايا والمدارس. وهو التجويف أو الحنية الموجودة في حائط القبلة. وقد قيل أيضا إنه «الغرفة، الموضع العالي، صدر البيت، أرفع مكان في المسجد، أشرف الأماكن، أشرف المجالس، وقد أطلق عليه أيضا القبلة» (١). والمحراب لا يتسع إلا لشخص واحد هو الإمام، يؤدي فيه الصلاة خلال وقت الذروة، وفي الأعياد والمواسم، وازدياد عدد المصلين، فيكون وجود الإمام داخل تجويف المحراب متيحا فرصة لتكوين صف كامل من المصلين، مما يوفر في المكان. أما في الأحوال العادية، فإن الإمام غالبا يقف بعيدا عنه، وذلك يعطي انطباعا بأن عمل المحراب لا يزيد على كونه علامة بارزة لتحديد اتجاه القبلة، وبذلك يعتبر هذا العمل الرئيسي للمحراب.

المحراب في القرآن الكريم

ورد ذكر المحراب في أكثر من موضع من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم:١١). ونلحظ هنا أن التوجه بالتسبيح صباحا ومساء كان لوجوده في المحراب، أي إن المحراب هو موضع لائق لذكر الله والتسبيح والتبتل إليه سبحانه، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران:٣٧). والمحراب هنا «غرفة عبادتها في بيت المقدس» (٢). ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران:٣٩)، أي إن المحراب للصلاة ومناجاة الله وذكره سبحانه. كما وردت كلمة المحراب في القرآن الكريم بمعنى المكان العالي المكرم في المنزل، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ (ص:٢١)، «أي اعتلوا سور مصلاه ونزلوا إليه» (٣). كما جاءت لفظة محراب في القرآن الكريم بصيغة الجمع «محاريب»، في قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ (سبأ:١٣)، وفسرت محاريب في هذه الآية الكريمة بالقصور والمساجد يتعبد فيها.

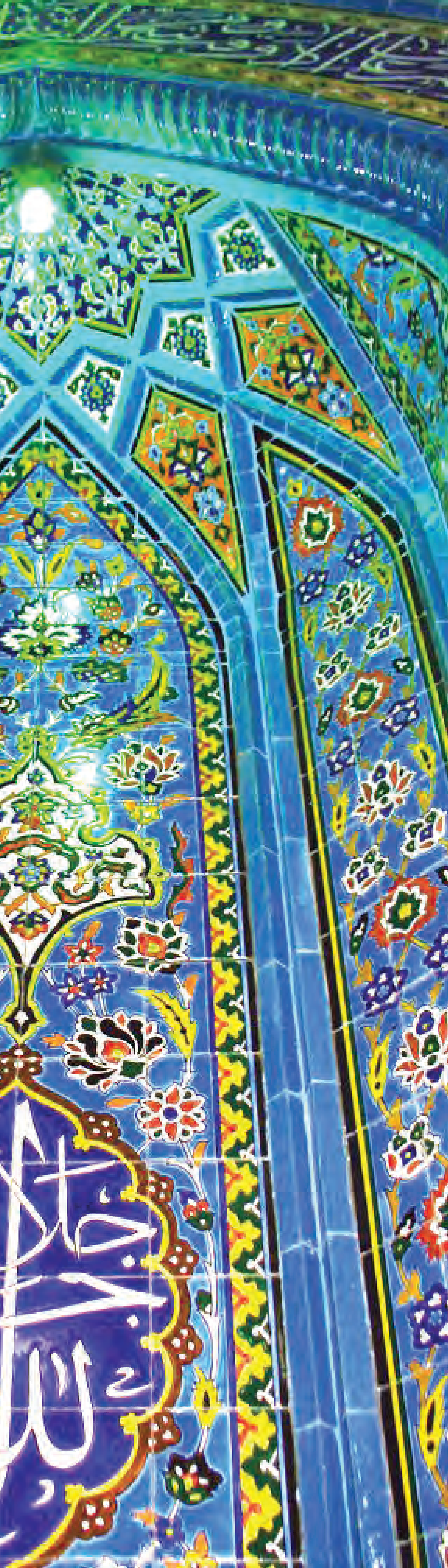
ومحاريب المساجد في الإسلام تنقسم إلى نوعين: محاريب مسطحة، ومحاريب مجوفة.

المحاريب المسطحة

هي مجرد رمز يعين اتجاه بيت الله الحرام على هيئة رسم مسطح أو غائر أو بارز. وتذكر المصادر التاريخية أنه «لم يكن المحراب في مسجد النبي ﷺ مجوفا، بل مسطحا تسطح الجدار نفسه، ولكنه كان محددا أو معلما، وظل في مكانه بعد توسعة المسجد في حياة النبي ﷺ، في السنة السابعة بعد الهجرة، وكان جراء ذلك أنه صار أقرب إلى الجدار الشرقي منه إلى الجدار الغربي، ذلك لأن توسعة المسجد نحو الغرب كانت أطول من توسعته نحو الشرق. وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقل جدار القبلة نحو الجنوب بمقدار خمسة أمتار تقريبا، ومن ثم نقل مكان المحراب نحو الجدار الجديد، ولكن على نفس المحور، وحدث الشيء نفسه في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث نقل جدار القبلة إلى الجنوب خمسة أمتار أخرى، وبذلك صار في موضعه الحالي» (٤). وقد ظل المحراب في العهد الإسلامي الأول مسطحا. أما عن المادة التي صنعت منها المحاريب المسطحة، فكانت من الجص على حائط القبلة. ومن أمثلة المحاريب المسطحة الباقية إلى اليوم محراب قبة الصخرة المسطح في المغارة تحت الأرض، كما يوجد في مسجد ابن طولون في القاهرة خمسة من المحاريب الجصية المسطحة، التي يعود بعضها إلى العصر الفاطمي، والبعض الآخر صنع في العصر المملوكي.

المحاريب المجوفة

تتخذ المحاريب المجوفة هيئة بنائية، وكيانا معماريا فريدا، ولا يعرف على وجه التحديد مكان أول محراب مجوف في المساجد الإسلامية، غير أن بعض



المصادر ترجع إنشاء أول محراب مجوف إلى توسعة المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبدالملك، زمن ولاية عمر بن عبدالعزيز على المدينة، «الذي جعل للمسجد محرابا مجوفا، وموقعه في الروضة الشريفة، أمام مصلى النبي ﷺ، فكان هذا أول محراب مجوف في المسجد» (٥). وقد انقسمت المحاريب المجوفة إلى نوعين: المحاريب المجوفة ذات المسقط المتعامد الأضلاع، والتي ترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، خصوصا في شرق العالم الإسلامي، خلال العصر العباسي كما في «محراب قصر الإخيصر، ومحراب أقدم مسجد باق على أرض فارس، ويعرف باسم طريق خانه» (٦). أما خلال النصف الأخير من القرن الثاني الهجري، فقد كانت الغلبة للمحراب المجوف ذي المسقط نصف الدائري، والذي نجده بكثرة في العمائر الأموية، كما في المسجد الأموي بدمشق، وجامع قصر الحلايات، ومسجد خان الزبيب، ومسجد أبو الوليد، والمحراب الصغير في قصر المشتى وقصر الطوبة، وجميعها في منطقة الشام. وسرعان ما انتشر هذا النوع من المحاريب المجوفة في بناء المساجد في شرق العالم الإسلامي وغربه على حد سواء. وقد قيل الكثير من الآراء بشأن الحكمة من المحراب المجوف، منها أنه يفيد في تعيين اتجاه القبلة، وفي تحديد مكان الإمام عند الصلاة، وفي توسيع المسجد بما يقرب من صف من المصلين في الصلاة الجامعة، ويساعد على تجميع صوت الإمام وتكبيره وإيصاله إلى المصلين، الذين يوليهم ظهره أثناء الصلاة، لاسيما قبل اختراع مكبرات الصوت.

مواد المحاريب

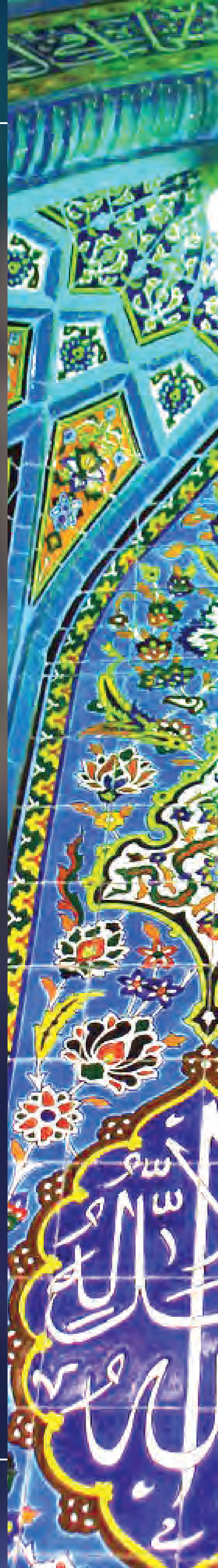
لقد نال المحراب المجوف عناية كبيرة من مؤسسي المساجد من حيث الاهتمام بعمارته وزخرفته، ونوعية المواد التي يغشى بها تجويفه. ونتوقف هنا مع أهم المواد التي صنع منها تجويف المحاريب.

الجص

يعد الجص من أقدم المواد التي صنع منها تجويف المحاريب في المساجد الإسلامية. ويعد المحراب القديم في جامع أحمد ابن طولون، في مدينة القاهرة، أقدم مثل في مصر على استخدام الجص في تشييد المحاريب، حيث استخدم الجص في تشييد محراب المسجد، وذلك من ناحية جداره المجوف وعقود واجهته، وما حولها من زخارف جصية كلها تعود إلى فترة ابن طولون «ما عدا الكسوة (الطاقية) التي من الخشب، والتي زخرفت بالألوان، فهي من أعمال السلطان لاجين المملوكي، وكذلك الشريط المزخرف بالفسيفساء والكسوة من الحشوات والأشرطة الرخامية، التي تغطي سطح تجويف المحراب» (٧).

الرخام

كان الرخام من المواد المفضلة في تغشية محاريب المساجد. ومن أشهر المحاريب الرخامية القديمة المحراب الذي عثر عليه في جامع الخاصكي ببغداد، ويعتقد أنه كان في الأصل قد عمل لجامع المنصور، الذي بناه لقصره في وسط بغداد، وهو عبارة عن قطعة من الرخام، وهناك أيضا محراب جامع عقبة ابن نافع في القيروان، والذي زود على أيدي حكام إفريقيا من الأغالبة، وهو من حشوات رخامية من المرمر المزخرف، ومحراب مسجد الناصر قلاوون في مدينة القاهرة، والذي يعد من أكبر المحاريب في مصر وأفخمها، «يكتنفه ثلاثة أعمدة



رخامية ذات تيجان كأسية، وفي تجويف المحراب فسيفساء من الرخام، والصدف متعددة الألوان» (٨). وأيضا في محراب مسجد السلطان حسن «المكسو بالرخام الملون المحلى بنقوش ذهبية، والذي يكتنفه أربعة أعمدة من الرخام، وعلى يمين المحراب المنبر، وهو من الرخام الأبيض، وبابه من الخشب المصفح بالنحاس المنقوش» (٩). كما زاوج المسلمون في المغرب والأندلس في عمل المحاريب وزخرفتها بين استخدام الجص والرخام في عبقرية فنية فريدة، تفصح عن نفسها في محراب جامع قرطبة الكبير، ومحراب مدرسة يوسف في غرناطة.

الخزف

وإلى جانب الجص والرخام، برع الفنان المسلم في استخدام مختلف أنواع البلاطات الخزفية، لتغشية المحاريب، وكان أول ظهور لبلاطات الخزف ذات البريق المعدني، في صنع المحاريب، في سامراء بالعراق، ثم أرسلت ليزدان بها محراب مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وهي باقية إلى يومنا هذا (١٠). وقد تنافس الغرب الإسلامي مع المشرق الإسلامي، من حيث الشغف باستخدام الخزف لزخرفة المحاريب، ففي بلاد المغرب والأندلس، خصوصا في عصر دولة الموحدين، استخدم الزليج بزخارفه الهندسية الدقيقة والمتعددة الألوان على نطاق واسع، حتى بات من مميزات الفن الإسلامي الرئيسية هناك، كما أثبت الخزافون في المشرق الإسلامي جدارتهم بريادة هذا الفن، من خلال استخدام بلاطات الخزف ذي البريق المعدني، والخزف ذي اللون الأزرق الفيروزي، لتغشية وزخرفة حنايا المحاريب، وذلك بتجميل محاريب البلاطات الخزفية بالكتابات النسخية، التي تحوي آيات من القرآن الكريم، إلى جانب الزخارف النباتية المعروفة بالتوريق أو الأرابسك، واستخدمت المقرنصات الخزفية أيضا لتزيين طواقي المحاريب، مثلما نرى في محراب جامع يزد، ومحراب جامع قلبان في بخارى. وقد لحق الأتراك العثمانيون بركب المحاريب الخزفية، فنراهم يستخدمون بلاطات الخزف المنتجة في أزتيك، ليس فقط لتغشية المحاريب، بل لكسوة جدران المساجد من الداخل بها.

المحاريب المتنقلة

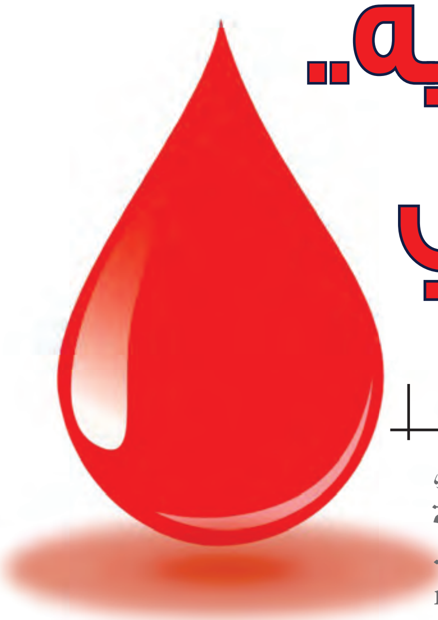
عرف المسلمون المحاريب المتنقلة، أو غير الثابتة، وهي محاريب يمكن نقلها من مكان إلى آخر عند الضرورة، وكانت هذه المحاريب تصنع من الخشب، وكان يعنى بزخرفتها، حيث كان يستخدم بعضها لإقامة الصلاة في القصور الخاصة بالخلفاء والأمراء. وقد عرفت هذه المحاريب المتنقلة أيضا في منطقة الموصل بالعراق، وما وقع شمالها من أرض الأكراد، وذلك بغرض استخدامها في المصلى الصيفي للمساجد التي تقع في المناطق القارية، التي يتسم مناخها بالبرودة الشديدة شتاء، والحرارة الشديدة صيفا، الأمر الذي دفع بالمسلمين في هذه المناطق إلى تقسيم المسجد إلى قسمين، أحدهما مغلق للصلاة في أوقات الشتاء، والآخر مفتوح لاستخدامه في فصل الصيف. ولما كان المحراب الرئيسي يشيد في الجزء المغلق، فقد كان الاحتياج شديدا لاستخدام المحاريب المتنقلة في المصليات الصيفية. ومن أمثلة هذه المحاريب المتنقلة الباقية إلى اليوم «محراب السيدة رقية، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، والذي يعود تاريخه إلى عام ٥٣٣م» (١١).

وفي النهاية نقول: رغم اختلاف العلماء بين مؤيد ومعارض للمحراب المجوف، فإنه يمثل عنصرا فنيا ومعماريا مهما، يؤكد على الطراز الفريد للعمارة الإسلامية، ويمثل في الوقت نفسه أحد الملامح المعبرة عن جماليات الفن الإسلامي.

الهوامش

١ - مختار الصحاح، مادة «م ح ب»، ص ١٢٨.
٢ - كلمات القرآن.. تفسير وبيان، للشيخ حسنين محمد مخلوف، ص ٣٧.
٣ - المصدر السابق، ص ٢٦٢.
٤ - موسوعة المفاهيم الإسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وزارة الأوقاف المصرية، الفصل الخاص بالمحاريب (نسخة إلكترونية).
٥ - وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي، محاريب المساجد.
٦ - الفن الإسلامي، أبوصالح الألفي، ص ١٦٨.
٧ - المصدر السابق، ص ١٦٩.
٨ - المصدر السابق، ص ١٩٨.
٩ - جامع السلطان حسن وما حوله، د. حسن عبدالوهاب، ص ١٨.
١٠ - الفن الإسلامي، مصدر سابق، ص ١٧٥.
١١ - موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، د. حسن الباشا، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (نسخة إلكترونية).

الأمراض الوراثية.. والعلاج الجيني



د. محمد مصطفى إبراهيم
المركز القومي للبحوث بمصر - قسم الوراثة والسيتولوجي

لقد حدثت ثورة في الطب خلال القرون الماضية، بداية من استخدام المجهر، ثم البنج والتخدير والتطعيم والمضادات الحيوية، وانتهاء بزراعة الأنسجة والأعضاء البشرية، وكذلك تقدمت وسائل التشخيص والتحليل والعلاج. ويتهيأ الطب الآن ليدخل عصرا جديدا يسمى الطب الجزيئي molecular medicine، للتعرف على مسببات الأمراض بالتفصيل، على المستوى الفيزيائي والجزيئي. ولاتزال الاكتشافات والبحوث الطبية في مجال الطب الجزيئي تشهد تطورا مستمرا.

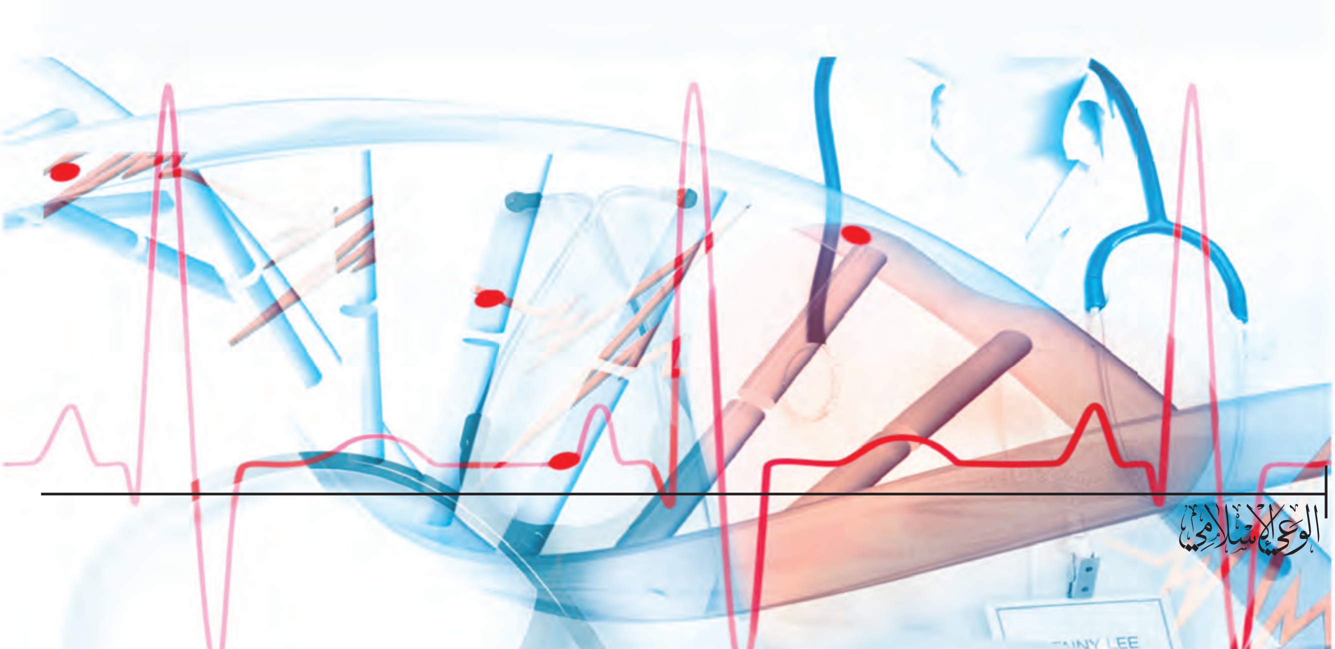
وفي مايو عام ٢٠١٢م، تمكن فريق طبي سعودي من عمل أول تحليل جيني لفيروس الإيدز، أو نقص المناعة، باستخدام جهاز تحليل الجينوم الجزيئي، الذي يتعرف على الفيروس، ويكشف نوع سلالته، ويحددها.

يولد الإنسان بمجموعة من الصفات الوراثية المسؤولة عن لون الجلد والشعر والطول ولون العينين، والخصائص الوظيفية لأعضاء الجسم اللازمة لاستمرار الحياة وبقاء الجسم سليما، وهذه الصفات محمولة على جينات موجودة على كروموسومات تمثل الجينوم البشري، الذي يشمل من ٢٠ إلى ٢٥ ألف جين، طبقا لما أعلنته النتائج الأخيرة لمشروع الجينوم البشري، وتم عمل الخريطة الوراثية للإنسان لمعرفة جينات كثير من الأمراض الوراثية.

يمكن تقسيم الأمراض إلى أمراض وراثية وغير وراثية: أمراض وراثية بيئية وأمراض بيئية. وقد عرف الإنسان حوالي ٦ آلاف مرض وراثي بشري في شعوب العالم المختلفة. ومعظم الأمراض الوراثية سببها جينات متنحية، أو طفرات تعطل إنتاج البروتينات الطبيعية.

تشكل الأمراض الوراثية والتشوهات الخلقية نسبة عالية من أمراض المواليد الجدد، ويتوقع إحصائيا أن يصاب طفل واحد من كل ٢٥ طفلا بمرض وراثي ناتج عن خلل في الجينات، أو بمرض له عوامل وراثية، مثل: عيب خلقي، وتأخر عقلي. وتسعة من هؤلاء المصابين بهذه الأمراض يتوفون باكرا، أو يحتاجون إلى البقاء في المستشفيات لمدة طويلة.

وفي العالم العربي تمثل الأمراض الوراثية مشكلة كبرى في مجال الصحة العامة، وتسهم عوامل عديدة



في انتشارها الواسع في المنطقة، منها ارتفاع معدل زواج الأقارب. وقد أنشئ المركز العربي للدراسات الجينية في دولة الإمارات العربية من أجل تشخيص الاضطرابات الوراثية ومنعها، ووضع أسس مستقبلية للرعاية الصحية في المنطقة.

وغني عن الذكر أن المركز العربي للدراسات الجينية قد أطلق مشروعا طموحا في شهر ديسمبر ٢٠٠٤م من أجل وضع «الفهرس الوراثي للعرب» (CTGA)، بهدف تنوير المجتمع العلمي والجمهور وتعريفهم بالأمراض الوراثية عند العرب، واقتراح استراتيجيات للبحث في المستقبل.

وقد عقد المؤتمر العربي الخامس لعلوم الوراثة البشرية في أواخر عام ٢٠١٣م تحت شعار «تطبيقات علوم الوراثة البشرية في الرعاية الصحية» بمشاركة ٦٠٠ طبيب وعالم وراثة من أكثر من ١٥ دولة عربية وأجنبية.

وتضمنت فعاليات المؤتمر العربي جلسة عن تشخيص الاضطرابات الوراثية، وتقنيات تحديد الخصائص الوراثية للأفراد. وقد كشف المؤتمر عن وجود نحو ١٦٠٠ مرض وراثي منتشر في العالم العربي، واصفا هذا العدد بأنه «كبير جدا»، ويساعد على الإصابة بالأمراض العضوية.

وقال رئيس المركز العربي للدراسات الجينية رئيس المؤتمر الدكتور نجيب الخاجة إن: «٨٠ في المئة من الأمراض الموجودة في العالم مشتركة بين الدول، فيما تتوزع الـ ٢٠ في المئة الباقية على الدول العربية، مع وجود خصوصية في كل دولة». وأضاف: «بالنسبة إلى دول الخليج، يبلغ متوسط الأمراض الوراثية المكتشفة ٢٥٠ مرضا وراثيا، حيث يبلغ عدد الأمراض الوراثية في الإمارات ٢٧٠ مرضا، وينخفض العدد في البحرين ليتجاوز ٢٠٠ مرض، بينما يزيد إلى ٣٠٠ مرض في سلطنة عمان، ويصل أقصاه في الكويت بـ ٣٤٠ مرضا وراثيا».



تعريف العلاج الجيني

يعرف العلاج الجيني على أنه استبدال الجين السليم الذي يؤخذ من المريض نفسه أو من إنسان آخر بالجين الممرض أو المسبب للمرض الوراثي.

طرق العلاج الجيني

توجد عدة طرق أو بروتوكولات معتمدة للعلاج الجيني في عدة دول، مثل: أميركا ١٣٥ بروتوكولا، و٦٠ في أوروبا، وواحد في الصين، وآخر في اليابان. وكلها تعتمد على الأسس التالية:

١ - التعرف على الموقع الجيني المستهدف للعلاج.

٢ - إحلال أو إضافة الجين السليم مكان الجين المعطوب عن طريق الحقن المباشر، أو استخلاص الخلايا المستهدفة وعلاجها خارج الكائن الحي ثم حقنها ثانية في الجسم بطريقة غير مباشرة.

٣ - نقل الجين السليم عن طريق ناقل إلى الخلايا المستهدفة، ومن أهم النواقل الفيروسات بأنواعها.

٤ - يجب أن يصل الجين إلى عدد كاف من الخلايا المستهدفة؛ ليستقر بها ويعبر عن نفسه.

تقسيمات العلاج الجيني

يمكن تقسيم العلاج الجيني إلى عدة تقسيمات حسب طريقة إدخال الجين إلى خلايا الجسم، أو طبقا للخلايا المستهدفة للعلاج (in vivo) داخل الكائن /ex vivo خارج الكائن الحي أو خلايا جسمية أو جنسية).

استخداماته في علاج الأمراض المختلفة

مازالت المعالجة الجينية للأمراض تحت التجارب على الحيوان، وهناك تجارب محدودة على الإنسان بداية من سنة ١٩٩٥م، حيث بدأ العالم أندرسون في معهد الصحة الأميركي تجاربه على سرطان المخ، وحقق بعض النجاح، ومازالت الأبحاث مستمرة. كما أعلن في الصحف سنة ٢٠٠٧م عن نجاح علاج العمى الوراثي بالعلاج الجيني في أحد مستشفيات لندن لأول مرة على حيوانات التجارب.

ومن أهم الأمراض المرشحة للعلاج: أمراض السرطان والأمراض الوراثية، مثل: أمراض التليف الكيسي، وأمراض الدم، مثل: الهيموفيليا بأنواعها. كذلك يمكن استخدامه في أمراض الأيض، أو التمثيل الغذائي الناتجة عن خلل في وظائف أجهزة الجسم.

أهم الصعوبات التي تواجه تطبيقه

يعتبر العلاج الجيني من التقنيات الحديثة التي تحتاج إلى خبرة وإلمام كامل بطرق العلاج والبروتوكولات المعتمدة والمطبقة في كثير من الدول المتقدمة، كذلك من أهم الصعوبات عدم ثبات الجين المنقول، ومشاكل الجهاز المناعي، والأمراض متعددة الجينات، واحتمال تنشيط الجينات الضارة، مثل: جينات الأورام، نتيجة الدمج الخاطئ للجينات السليمة في غير أماكنها المستهدفة، بالإضافة إلى النواحي اللاخلاقية والدينية. ويمكن في المستقبل التغلب على هذه الصعوبات ونشر تطبيقه في معظم دول العالم. ويتنبأ العلماء أنه بحلول عام ٢٠٢٠م يمكن التعرف على معظم جينات الأمراض الوراثية وعلاج الأمراض الخطيرة، مثل: السرطان والإيدز وغيرهما، ونحن في انتظار الوعود الحالمة لهذه التقنيات الحديثة ومدى إمكانية تطبيقها في البلدان النامية. هذا الذي سوف نراه في المستقبل القريب، إن شاء الله.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

٤

الزهراء : المحرم ١٣٤٣

الحقيقة الواحدة

لامير الشعراء أحمد شوقي بك

« غرر زياد ، وفقر الفصيح من اياد ، وسجع الحمامة على فرع غصنها المياد » . واذا كان الزمخشرى قد نظم البلاغة ذهباً فى أطواق ، والاصفهانى قد سبكها منه فى أطباق ، فان شاعر العرب الاكبر أحمد شوقى بك قد عرضها ذهباً خالصاً هو زينة الاسواق ، وأنفس الاعلاق . و (الزهراء) تبشر قراءها بأن (أسواق الذهب) معدة للطبع بأزهى الحلى وأبهى الحال . وهذه المقامة هى الكلمة الاولى فى ذلك الكتاب و « الحقيقة الواحدة » هى وجود الله سبحانه ، ولعل المؤلف يشير بها الى قول لبيد :

« ألا كل شيء ماخلا الله باطل »

يا مُتابِعَ اللَاحدة ، ومُشايِعَ العُصْبَة الجاحدة ، منكرَ الحقيقة الواحدة : ماللأَعمى والمِرآة ، وما المُقْعَد والمِرْقاة (١) ، ومالكَ والبحثَ عن الله ؟

قُمْ إلى السماء تَقَصَّ النظر (٢) ، وقُصَّ الأثر (٣) ، واجمع الخُبْرَ والخَبَر (٤) . كيف ترى ائتلافَ الفَلَك ، واختلافَ النور والحَلَك (٥) ، وهذا الهواء المشترك ؛ وكيف ترى الطيرَ تحسَبُه

(١) المقعد : الذى يشكو القعاد ، وهو داء يقعد المصاب به عن المشى . والمرقاة : السلم (٢) أرسله الى أقصاه (٣) قص الاثر : اقتفاه (٤) الخبر : الاختبار بالمشاهدة . والخَبَر : الرواية بالسماع (٥) الحلك : الظلام

الحقيقة الواحدة

٥

تَرِكَ ، وهو في شَرَك (١) ، استهدفَ فما نجا حتى هلك (٢) ؛ تعالى الله دَلَّ المُلْكُ على المَلِك !

وقِف بالارض سَلْها : من زمَّ السحابَ وأجراها (٣) ، وَرحَلَ الرياحَ وعَرَّاها (٤) ، ومن أقعد الجبالَ وأَنهض ذُراها (٥) ، ومن الذى يحلُّ حُباها (٦) ، فتخِرُّ له فى غدٍ جِباها ؟ أليس الذى بدأها غبَرَات (٧) ، ثم جمعها صخَرات ، ثم فرَّقها مُشْمَخِرَّات (٨) ؟

ثم سَلِ النملَ مَنْ أَدقَّها خَلْقا (٩) ، وَمَلأَها خُلُقا (١٠) ، وسَلَكَها طُرُقا (١١) ، تبتغي رزقا ؟

(١) تظنه حراً طليقاً ، وهو أينما حلّ فى متناول قبضة الصياد (٢) استهدف : أصبح غرض السهام . والمراد انه لا يكاد ينجو من سهم مصوب اليه حتى يدركه الموت من سهم آخر (٣) زم الناقة : خطمها (٤) رحل البعير : شد على ظهره الرحل تمهيداً للسير . عراها : جردها مما فيها من أمطار (٥) أقعد الجبال : ثبت قواعدها في الارض . وأنهض ذراها : أى رفع عاليها شامخة في السماء (٦) يحل حباها : أى يفكها من حبوتها وينهضها من ربضتها (٧) غبرات جمع غبرة (بتسكين الباء) وهى ذرة الغبار (٨) فرقها في الارض ، ومشمخرات أى باذخات (٩) أدقها : صيرها دقيقة (١٠) خلق النمل : تلك النظم المتسقة التى يوحي لها بها الالهام (١١) سلكها طرقا : جعل لها طرقا تسلكها

أحمد شوقي:

هو أحمد شوقي علي أحمد شوقي بك، ولد في: (١٦ أكتوبر ١٨٦٨م)، وتوفي في: (١٤ أكتوبر ١٩٣٢م)، شاعر مصريّ، يُعدّ من أشهر شعراء العربية في العصر الحديث، يلقب بـ "أمير الشعراء".

الزهراء

مجلة علمية أدبية اجتماعية - شهرية

تعنى بوجه خاص بالابحاث العربية والاسلامية والشرقية

وسَلِ النحلَ مَنْ أَلبَسها الحِبَرَ [١]، وقلدها الإبَرَ [٢]، وأطعمها صفوَ الزَّهر، وسخَّرها طاهيةً للبشر [٣]؟

لقد نبذتَ الذَّلولَ المُسْعِفَةَ [٤]، وأخذت في معامي الفلسفة [٥]، على عشواءَ من الضلال مُسْعِفَةً [٦]. أَوْلا فخبِّرني: الطبيعةُ مَنْ طبعها [٧]، والنظمُ المتقادمةُ مَنْ وضعها، والحياة الصانعة مَنْ صنعها، والحركةُ الدافعة مَنِ الذي دفعها [٨]؟!

(١) الحبر: جمع حبرة كعنبة وهي برود يمنية ملونة. وقد شبه بها المؤلف تلك الالوان الزاهية التي يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس

(٢) قلده السيف: وضع حمالته في عنقه (٣) طاهية: طابخة، تطبخ للناس في بطونها عسلا (٤) الذلول من الدواب: ما كانت سهلة القيادة، والمراد بها هنا الشريعة السمحة. والمسعفة: التي تسعف أبناءها باليقين والايمان

(٥) المعامي: المجاهل

(٦) العشواء: العمياء. وأعسف: خبط في السير

(٧) طبعها: خلقها. وهنا يبدأ المؤلف في تعجيز الملحدين

(٨) النظم المتقادمة، والحياة الصانعة، والقوة الدافعة: كل هذه قوى يظن الملحدون كفراً أنها هي الاصل في الكائنات

عرفنا كما عرفتَ المادَّة، ولكنْ هُدِينا وضلَّتَ الجادَّة [١]، وقلنا مثلكَ بالهَيولى [٢] ولكنْ لمْ نجحدِ اليدَ الطُّولى [٣]، ولا أنكرنا الحقيقة الأُولى [٤]

أتينا العناصرَ منْ عنصُرِها [٥]، ورددنا الجواهرَ إلى جوهرها [٦]، اطَّرحنا فاسترحنا [٧]، وسلَّمنا فسلِمنا، وآمنا فأمِنَّا؛ وما الفرقُ بيننا وبينكَ إلا أنكَ قد عجزتَ فقلتَ: سرٌّ مِنَ الأسرار. وعجزنا نحن فقلنا: اللهُ وراء كلِّ ستار!

شوقي

(١) الجادة: الطريق القويم

(٢) الهيولى: مادة، وشبه الاوائل طينة العالم بها (٣) اليدالطولى: يد الله التي أبدعت هذه الطينة ونفخت فيها الروح (٤) الحقيقة الاولى: وجود الله (٥) العناصر جمع عنصر وهو أولا بمعنى المادة البسيطة، وثانياً بمعنى الاصل. وأتيناها أي بحثنا فيها

(٦) الجواهر: جمع جوهر: وهو الحجر يستخرج منه شيء ينتفع به، والجوهر ثانيا بمعنى الاصل والجبلة

(٧) اطرح الحمل: ألقاه عن عاتقه. والمقصود من هذه الجملة وما بعدها: آمنا بالله وتركنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذي لانهاية له، والبحث الضال الذي لايؤمن فيه العثار...

مجلة الزهراء

مجلة أدبية اجتماعية شهرية ذات اتجاه عربي إسلامي، أسسها الشيخ محب الدين الخطيب قاومت التغريب ورموزه؛ صدرت لمدة خمس سنوات من عام ١٣٤٣ - ١٣٤٩ هـ الموافق ١٩٢٤ - ١٩٣٠ م، كتب فيها كوكبة من أدباء العرب والمسلمين في العصر الحديث؛ مثل: مصطفى صادق الرافعي، وشكيب أرسلان، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد تيمور باشا. وغرد على صفحاتها من الشعراء أمثال: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وغيرهم من أعلام الشعر والنثر في العالم العربي والإسلامي.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

حكم استعمال مياه المجاري بعد تنقيتها

- عنوان النازلة: حكم استعمال مياه المجاري بعد استحالتها، وزوال أعراض النجاسة منها.

- الخلاصة الحكمية: يجوز استعمال المياه التي كانت نجسة (كالمجاري، والعطورات التي تحتوي على الكحول، وسائر المائعات النجسة) بعد تطهيرها، وإزالة النجاسة منها. وذلك في الشرب، والتطهير، ورفع الحدث، وإزالة الحدث، إلا إذا نشأ عنها ضرر صحي، فلا يجوز إذن.

وتحفظ عضو المجمع الفقهي الإسلامي بمكة: د. بكر أبو زيد على قرار المجمع، وقضى بتحريم استعمال هذه المياه، لعلل سيأتي ذكرها.

● **القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:**

- أولا: ملخص بحث اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

وفيه: أن الماء الكثير المتغير بنجاسة يطهر إذا زال تغيره بصب ماء طهور فيه باتفاق، أو بطول مكث، أو تأثير الشمس، ومرور الرياح عليه، أو برمي تراب ونحوه فيه، على الراجح عند الفقهاء، لزوال الحكم بزوال علته.

وعلى هذا: فإذا كانت مياه المجاري المتنجسة - وهي بلا شك كثيرة - تتخلص بالطرق الفنية الحديثة مما طرأ عليها من النجاسات، فإنه يمكن حينئذ أن يحكم بطهارتها، لزوال علة تنجسها، وهي تغير لونها، أو طعمها، أو ريحها بالنجاسة، والحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

وبذلك تعود هذه المياه إلى أصلها، وهو الطهورية، ويجوز استعماله في الشرب ونحوه، وفي إزالة الأحداث والأخباث، وتحصل بها الطهارة من الأحداث والأخباث، إلا إذا كانت هناك أضرار صحية تنشأ عن استعمالها، فيمتنع استعمالها فيما ذكر محافظة على النفس، وتفاديا للضرر، لا لنجاستها، ولكن لو استعملها في إزالة الأحداث، أو الأخباث صحت الطهارة.

وينبغي للمسلمين أن يستغنوا عن ذلك ويجتنبوه، اكتفاء بالمياه الأخرى، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، احتياطا للصحة، واتقاء للضرر، وتنزها عما تستقذره النفوس، وتنفر منه الطباع والفطر السليمة. انتهى الملخص.

- ثم صدر بعد ذلك قرار هيئة كبار العلماء رقم: (٦٤)، في (١٣٩٨/١٠/٢٥هـ)، والذي جاء فيه: بناء على ما ذكره أهل العلم من أن الماء الكثير المتغير بنجاسة يطهر إذا زال تغيره بنفسه، أو بإضافة ماء طهور إليه، أو زال تغيره بطول مكث، أو تأثير الشمس، ومرور الرياح عليه، أو نحو ذلك، لزوال الحكم بزوال علته.

وحيث إن المياه المتنجسة يمكن التخلص من نجاستها بعدة وسائل، وحيث إن تنقيتها وتخليصها مما طرأ عليها من النجاسات، بواسطة الطرق الفنية الحديثة لأعمال التنقية يعتبر من أحسن وسائل الترشيح والتطهير، حيث يبذل الكثير من الأسباب المادية لتخليص هذه المياه من النجاسات، كما يشهد بذلك ويقرره الخبراء المختصون بذلك، ممن لا يتطرق الشك إليهم في عملهم وخبرتهم وتجاربهم.

لذلك، فإن المجلس يرى طهارتها بعد تنقيتها التنقية الكاملة، بحيث تعود إلى خلقتها الأولى، لا يرى فيها تغير بنجاسة من طعم، ولا لون، ولا ريح، ويجوز استعمالها في إزالة الأحداث والأخباث، وتحصل الطهارة بها منها، كما يجوز شربها، إلا إذا كانت هناك أضرار صحية تنشأ عن استعمالها، فيمتنع ذلك، محافظة على النفس، وتفاديا للضرر لا لنجاستها.

والمجلس إذ يقرر ذلك: يَستحسن الاستغناء عنها في استعمالها للشرب متى وجد إلى ذلك سبيل، احتياطا للصحة، واتقاء للضرر، وتنزها عما تستقذره النفوس، وتنفر منه الطباع.

والله الموفق. وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهى القرار.

● **التعليق:**

في القرارين السابقين تعلق واضح ببعضهما، فإن اللجنة الدائمة

قد أعدت بحثا حول هذه النازلة، وهو الملخص الذي عرضناه، ثم تبنته هيئة كبار العلماء بعد اطلاع مجلسها عليه، وعلى خطاب معالي وزير الزراعة والمياه المتعلق بالمياه المتنجسة بعد تطهيرها، وقد خلصا إلى جواز شرب هذه المياه، واستعمالها في التطهير، ورفع الحدث وإزالة الخبث، بشرط ألا يترتب على ذلك ضرر صحي.

إلا أن كلا القرارين استحسنا الاستغناء عن هذه المياه في استعمالها للشرب متى وجد إلى ذلك سبيل، احتياطا للصحة، واتقاء للضرر، وتنزها عما تستقذره النفوس، وتنفر منه الطباع.

- وفي عام (١٩٨٩م) اجتمع مجلس (المجمع الفقهي الإسلامي) لرابطة العالم الإسلامي في دورته الحادية عشرة المنعقدة بمكة المكرمة، في الفترة من يوم الأحد (١٣ رجب ١٤٠٩هـ - الموافق ١٩ فبراير ١٩٨٩م)، إلى يوم الأحد (٢٠ رجب ١٤٠٩هـ - الموافق ٢٦ فبراير١٩٨٩م)، ونظر في السؤال عن حكم ماء المجاري بعد تنقيته، هل يجوز رفع الحدث بالوضوء والغسل به؟ وهل تجوز إزالة النجاسة به؟

وبعد مراجعة المختصين بالتنقية بالطرق الكيماوية، وما قرروه من أن التنقية تتم بإزالة النجاسة منه على مراحل أربعة:

وهي الترسيب، والتهوية، وقتل الجراثيم، وتعقيمه بالكلور، بحيث لا يبقى للنجاسة أثر في طعمه ولونه وريحه، وهم مسلمون عدول موثوق بصدقهم وأمانتهم.

قرر المجمع ما يأتي:

إن ماء المجاري إذا نقي بالطرق المذكورة، أو ما يماثلها، ولم يبق للنجاسة أثر في طعمه، ولا في لونه، ولا في ريحه، صار طهورا، يجوز رفع الحدث وإزالة النجاسة به. بناء على القاعدة الفقهية التي تقرر: (أن الماء الكثير الذي وقعت فيه نجاسة يطهر بزوال هذه النجاسة منه، إذا لم يبق لها أثر فيه). والله أعلم.

انتهى القرار.

(وجهة نظر في الاستعمالات الشرعية والمباحة لمياه المجاري المنقاة)

عضو المجمع الفقهي الإسلامي بمكة: بكر أبو زيد

الحمد لله، وبعد... فإن المجاري معدة، في الأصل، لصرف ما يضر الناس، في الدين والبدن، طلبا للطهارة، ودفعا لتلوث البيئة.

وبحكم الوسائل الحديثة لاستصلاح ومعالجة مشمولها، لتحويله إلى مياه عذبة، منقاة، صالحة للاستعمالات المشروعة، والمباحة مثل: التطهر بها، وشربها، وسقي الحرث منها، بحكم ذلك، صار السبر للعلل، والأوصاف القاضية بالمنع، في كل أو بعض الاستعمالات، فتحصل أن مياه المجاري قبل التنقية معلة بأمور:

الأول: الفضلات النجسة بالطعم واللون والرائحة.

الثاني: فضلات الأمراض المعدية، وكثافة الأدواء والجراثيم (البكتريا).

الثالث: علة الاستخباث والاستقذار، لما تتحول إليه باعتبار أصلها، ولما يتولد عنها في ذات المجاري، من الدواب والحشرات المستقذرة طبعا وشرعا.

ولذا صار النظر بعد التنقية في مدى زوال تلكم العلل، وعليه: فإن استحالتها من النجاسة - بزوال طعمها ولونها وريحها - لا يعني ذلك زوال ما فيها من العلل والجراثيم الضارة. والجهات الزراعية توالي الإعلام بعدم سقي ما يؤكل نتاجه من الخضار، بدون طبخ، فكيف بشربها مباشرة؟ ومن مقاصد الإسلام: المحافظة على الأجسام، ولذا لا يورد ممرض على مصح، والمنع لاستصلاح الأبدان واجب، كالمنع لاستصلاح الأديان. ولو زالت هذه العلل، لبقيت علة الاستخباث والاستقذار، باعتبار الأصل، والماء يعتصر من البول والغائط، فيستعمل في الشرعيات والعادات على قدم التساوي.

وقد علم من مذهب الشافعية، والمعتمد لدى الحنبلية، أن الاستحالة هنا لا تؤول إلى الطهارة، مستدلين بحديث النهي عن ركوب الجلالة وحليبها، رواه أصحاب السنن وغيرهم، ولعلل أخرى.

مع العلم: أن الخلاف الجاري بين متقدمي العلماء، في التحول من نجس إلى طاهر، هو في قضايا أعيان، وعلى سبيل القطع، لم يفرعوا حكم التحول على ما هو موجود حاليا في المجاري، من ذلك الزخم الهائل من النجاسات، والقاذورات، وفضلات المصحات، والمستشفيات، وحال المسلمين لم تصل بهم إلى هذا الحد من الاضطرار، لتنقية الرجيع، للتطهر به، وشربه، ولا عبرة بتسويغه في البلاد الكافرة، لفساد طبائعهم بالكفر.

وهناك البديل، بتنقية مياه البحار، وتغطية أكبر قدر ممكن من التكاليف، وذلك بزيادة سعر الاستهلاك للماء، بما لا ضرر فيه، وينتج إعمال قاعدة الشريعة في النهي عن الإسراف في الماء. والله أعلم.

انتهت وجهة النظر.

إعداد: تركي محمد النصر

إشاعة العيوب

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «إن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، ولذلك فإنه ينبغي أن تكون سرا بين الآمر والمأمور، وأما الإشاعة وإظهار العيوب فهو مما حرمه الله ورسوله، ومن حب إشاعة الفاحشة في المؤمنين». **(موسوعة أقوال الحكماء)**.

الإفراط في إظهار النعم

مازال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة، كان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية.

ثم نكتة ينبغي التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم، فأصابه عدوه بالعين، فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس النعمة.

والعين لا تصيب إلا ما يستحسن، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع.

فليكن الإنسان مظهرا للتجمل، مقدار ما يأمن إصابة العين، ويعلم أنه في خير، وليحذر الإفراط في إظهار النعم، فإن العين هناك محذورة.

(صيد الخاطر لابن الجوزي).

الناس أربع طبقات

قال أبو منصور: كان المأمون يقول: الناس أربع طبقات: بين إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة. فمن لم يكن بينهم كان كَلا عليهم.

(آداب الملوك، ص ٦٨).

وعظ بليغ

قال ابن خيرة – وكان من أصحاب علي رضي الله عنه –: جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة.

قيل: وما التعسر في اللذة؟

قال: لا يصادف لذة حلالا، إلا جاء من ينغصه إياها.

(تفسير ابن كثير، ٥٣٣/٣).

الأيادي ثلاث

الأيادي ثلاث: بيضاء، وخضراء، وسوداء.

فاليد البيضاء: الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء: المكافأة على المعروف، واليد السوداء: المن بالمعروف.

(إحياء التراث في ما جاء في عدد السبع والثلاث، ص ٣١).

السياحة

قال العلامة المودودي رحمه الله تعالى: اهتم الإسلام اهتماما بالغا بأن ينشئ في المسلمين الميل إلى إكرام المسافر وإحسان قراه، ومع ذلك جعل له نصيبا في الزكاة والصدقات والغنائم؛ مما قد سهل للناس التجارة والسياحة والتعليم ودرس الأحوال، ورؤية المشاهد العلمية والتاريخية.

(أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم، ص ١٤٣).

ما رأى ظلمة منذ سنين

في ترجمة محمد بن إسماعيل، أبوعبدالله المغربي... قال العلامة ابن كثير رحمه الله: حج على قدميه سبعا وتسعين حجة، وكان يمشي في الليل المظلم حافيا، كما يمشي الرجل في ضوء النهار، وكان المشاة يأتمون به فيرشدهم إلى الطريق، وقال: ما رأيت ظلمة منذ سنين كثيرة. وكانت قدماه مع كثرة مشيه كأنهما قدما عروس مترفة.

(البداية والنهاية، ٧٧٦/١٤).

أي رجل أفسدوا

قال ابن المبارك رحمه الله: بقي بالعراق رجلان: شريك وشعبة، فلما بلغ سفيان أن شريكا استقضى، قال: أي رجل أفسدوا.

(أخبار القضاة، ١٦٣/٣).

خلط العلوم

قال العلامة ابن خلدون رحمه الله: من المذاهب الجميلة، والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا؛ فإنه قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر؛ فيستغلقان معا، ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة.
(المقدمة، ص٤٥٩)

(القول العلي للسفاريني).

وصية غالية لطالب العلم

قال علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله: «... وإذا قال الأستاذ للطالب فهمت؟ فلا يقل: نعم، حتى يتضح له المقصود إيضاحا جليا؛ لئلا يكذب ويفوته الفهم، ولا يستحي من قوله: «لم أفهم»؛ لأن استيثاقه يحصل له مصالح عاجلة وآجلة. فمن العاجلة: حفظ المسألة، وسلامته من كذب ونفاق، بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه منها، ومنها وثوق الأستاذ باعتنائه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه، وعدم نفاقه. ومن الآجلة: ثبوت الصواب في قلبه دائما، واعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية».

وعن الخليل بن أحمد: «منزلة الجهل بين الحياء والأنفة» .

(آداب الدارس والمدرس للقاسمي، والمجموع للنووي).

كبر وذل

قال الجاحظ: لم أر ذا كبر قط على من دونه، إلا وهو يذل لمن فوقه، بمقدار ذلك ووزنه.

(الحيوان، ٣٨٣/٢).

حياء

قال علي بن الحسين رضي الله عنه: «إني لأستحي من الله أن أرى الأخ من إخواني، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا»

(تهذيب التهذيب، ٣٠٦/٧).

إن الكريم لا تحنكه التجارب

قال داود بن عبد الله: سمعت مالكا يقول: كان ابن شهاب من أسخى الناس، فلما أصاب تلك الأموال، قال له مولى له وهو يعظه: قد رأيت ما مر عليك من الضيق، فانظر كيف تكون، أمسك عليك مالك.

قال: إن الكريم لا تحنكه التجارب.

(سير أعلام النبلاء، ١١/٦).

نصيحة غالية

قال العلامة الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - ناصحا الشباب: فاحذر على نفسك أمرين:

١. أن تنزع إلى البروز قبل استكمال المؤهلات المطلوبة.

٢. وأن تستكمل هذه المؤهلات، لتلفت بها أنظار الناس إليك.

فليصنع المرء أولا نفسه في عزلة، وفي صمت، وفي تؤدة، كالشجرة التي يختفي أصلها في ظلمة التراب أمدا تتكون فيه التكون الصحيح، ثم تبدأ تشق طريقها إلى الهواء والضوء.

ما ضر الشباب أن يتواروا قليلا أو كثيرا، فلا يطلعوا على الناس إلا بعد أن تكتمل ملكاتهم، ثم من الإيمان - إذا استويت - أن تقوم بما عليه لله، لا للظهور.

(الجانب العاطفي في الإسلام، ص ١٤٥) .

حفظ الله لعبده

قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ العبد المؤمن في ولده، وولد ولده، ويحفظه في دويرته، ودويرات حوله، فما يزالون في حفظ، أو في عافية، ما كان بين أظهرهم.

(المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة، ص ٢٤٨).

المبادرة

روى ابن المبارك عن الحارث بن قيس قال: إذا أردت أمرا من الخير فلا تؤخره لغد، وإذا كنت في أمر الدنيا فتوخ، وإذا كنت في أمر الصلاة، فقال لك الشيطان: إنك ترائي، فزدها طولا.

(الزهد، ٩٤/١).

من مواعظ الحسن بن علي رضي الله عنه

- الوعد مرض في الجود، والإنجاز دواؤه.
- المسؤول حر حتى يعد، ومسترقّ حتى ينجز.

(مواعظ الصحابة، ص ٣٢٣).

اللفظ والمعنى

قال الجاحظ: المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير، وقد قيل للخليل بن أحمد: مالك لا تقول الشعر صناعة؟ فقال: الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني. فأنا أستحسن هذا الكلام.

(الحيوان، ٤٠٨/١).

مع الله

كان ذلك في أحد أيام الجمع، قبل الفجر بدقائق معدودات، ألقيت ببصري في السماء، وكانت صافية وكان القمر ساطعا، فاسترعى انتباهي سرب من الطيور البيضاء الكبيرة الحجم وهي تحلق في الأفق مصحوبة بأصوات شجية عذبة مثيرة، والقرية نائمة على عروشها.

تأملت هذا المشهد الرائع النادر وقرأت هذه الآيات ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (النحل:٧٩)، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء:٤٤)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ (النور:٤١).

تدبرت معاني هذه الآيات البينات، واستحضرت في قلبي وعقلي عظمة الرحمن الذي خلق الكون وما فيه من عجائب المخلوقات من الرسل والملائكة والناس والطيور والحيوان.. دارت هذه الطيور دورات عديدة بنظام عجيب وفي مكان واحد، بأصوات شجية عذبة لم أسمع مثلها قط.. راق لي هذا المشهد العجيب النادر وهذه اللوحة الفنية الرائعة، وفجأة.. رفع المؤذن صوته بالنداء، فألفيت نفسي في حيرة: سأواصل التأمل في هذا المشهد أم سأنصرف إلى المسجد لأداء فريضة الصباح؟! وبينما أنا غارق في هذا المشهد المؤثر، انتهى الأذان، وانصرفت الطيور، وظل هذا المشهد منقوشا في ذاكرتي.. تفكروا في ملكوت الله.. وذهبت إلى الصلاة.

• عبدالسلام أحمد سومع

الأراضي الزراعية أيام العثمانيين

بانتصار السلطان العثماني سليم الأول على السلطان المملوكي طومان باي في معركة الريدانية سنة ٩٢٣ هجرية، أصبحت مصر ولاية عثمانية. وبناء عليه، شرع السلطان سليم الأول في تنظيم شؤون مصر الداخلية قبل عودته إلى إسطنبول، فأنعم على خاير بك بحكم مصر، وكان الهدف من اختيار خاير بك، وهو من الحكام المحليين الموالين للعثمانيين، ضمان ولاء مصر لحكمهم من ناحية، وتوطيد السلطة العثمانية في مصر بالتدريج بعد ذلك. وتطبيقا لهذه السياسة، قرر السلطان سليم الأول حصر الأراضي الزراعية التي يرويها النيل لتقدير الضرائب والأموال الأميرية عليها، وكيفية توزيعها على الحكام والأمراء والعسكر والفلاحين على نحو يصدر بقانون. ومما هو جدير بالذكر أن الأراضي الزراعية في مصر في زمن العثمانيين توزعت على عدة أنواع، من بينها الأراضي الديوانية، وتشمل نوعين هما: أرض الفلاحة وأرض الأوسية، وهما معا يمثلان الأراضي الخراجية أو أرض الالتزام. وتشير الوثائق العثمانية التي وصلتنا إلى تقسيم أراضي الفلاحة في الأغلب إلى ثلاثة أنواع: عال - وسط - دون. وهذا التقسيم يعتمد على جودة التربة وخصوبتها ووفرة المحاصيل. كما لا تفوتنا الإشارة إلى ثبات مساحات أراضي الفلاحة، بينما تميزت مساحات أراضي الأوسية بالتعديل والتغيير سنويا؛ لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية. ويتضح مما سبق ذكره أن أراضي الفلاحة والأوسية يجوز بيعها أو التنازل عنها. وقد وجد إلى جانب أراضي الفلاحة والأوسية الأراضي الزراعية التي عرفت باسم أراضي الرزق، وهي أراض لا يجوز بيعها أو التنازل عنها لرصدها على بعض الأفراد والمؤسسات الدينية (الأوقاف). وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة وجدت أراضي الأوتلاق، وهي مساحات من الأراضي في بعض القرى كانت مخصصة لتوفير العليق اللازم لخيول الباشا والبكوات والمماليك، أو كانت مخصصة للجسور، أي لتوفير العليق لثيران الجرافة التي تقوم بتطهير الترع والقنوات في فصل الجفاف. وأراضي الأوتلاق محدودة المساحة، وبمرور الزمن سمح الباشوات للملتزمين الذين تقع هذه الأراضي في حصص التزامهم بضمها إلى أواسيهم والانتفاع بها نظير مبلغ من المال يدفع إلى الباشا. وإلى جانب أراضي الأوتلاق وجدت أراضي المناجزة، وهي من النوع الضعيف القليل الخصوبة، وتشكل الدرجة الرابعة بالنسبة إلى الأراضي الزراعية، أي إنها تلي الفلاحة الدون.

• محمد فؤاد علي

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

فرحة مثقف

فرحت كثيرا بوصول العدد ٥٩٥ من مجلتنا الغراء إلى منطقتنا النائية بالجنوب التونسي. وازدادت فرحتي بعودة الوصال بيني وبين مجلة تربيت على مائدة فكرها الإسلامي الوسطي منذ الصغر.

امتدت علاقتي بهذه المجلة لأكثر من ربع قرن (منذ الصغر)، ولا تستغربوا ذلك؛ فأنا مغرم بالمجلات الإسلامية، ثم كانت قطيعة فرضت على المجتمع الإسلامي، حيث كانت حيازة المجلة تعتبر جريمة، ويشهد الله كم عانينا في إخفائها، وحافظنا على البقية الباقية من أعدادها الرائعة.

وفي إحدى زياراتي للعاصمة رأيت المجلة تباع في الأكشاك.. ربما أخرى؛ لتغيير شكلها.. فرحت بعودة المجلة إلى تونس.



تحصلت - بعد جهد - على بعض الأعداد، وكانت معاناة، حتى شرفتموني بإرسال العدد الأخير.

ليس لي شيء سوى قولي لكم:

بارك الله فيكم.

بارك جهودكم.

شكرا لكم من كل قلبي.

حفظ الله مجلتنا.

حفظ الله شعب الكويت.

عبدالرحمن بنسعيد

مودة

كم تغمرني السعادة بالتواصل معكم، قراءة لموضوعات المجلة، وكتابة لها، واستمتاعا بتفوق موضوعاتها وتنوعها وتميزها. ولذلك، أرى أنها أثبتت جدارتها بمواصلة الصدور، والمحافظة على مواعيده، وكذلك الملحق الممتاز «براعم الإيمان».

زادكم الله توفيقا ونجاحا، استمروا فكم نفع الله بالمجلة، وأنار بها عقولا وأفئدة.

عبدالعزيز بن صالح العسكر

اعطونا روادا

بلسان الجراح، التي أعيد فتحها بالنكسة من بعد النكبة.

بلسان قلب شهد العذاب على جسر الدموع والآلام فوق مياه الأردن الحريب.

بمنطق مسلم يعاف كأس الذل ولا يجديه أن يصد عنها مرة بعد مرة، وليست الكأس بمبعدة، ولا هو بمستسلم.

ومن ضياء الألم.. ألم الحنين إلى الديار الأسيرة.

من هديل ضمير ملتاع كلما ادكر النسيم العليل يطوف مباركا في الأصائل من حول الأقصى والصخرة.

من حكمة الليالي الطويلة المتفكرة.. ليالي الهموم الثقال، والنجوم الراسيات، والآهات، والتحسر، والزفرات.

من حماسة يقين يؤمن بسنن الله، وصواب الأقدار، ويسر العسر، ومزايا الشقاوة، ونعمة التحدي الشديد المستمر الرهيب.

ومن تقليب الفكر في عبر التاريخ، ومصائب الأمم، ودراسة الخطأ الكبير الذي ترتطم على صخراته الصلدة سفائن العقيدة العظمى المباركة.

بكل تلك الأدوات، ومن كل تلك الخاطرات.

وبين دخان الأحزان، ووميض الإيمان.

بين رعود القدرة، وبروق القضاء. ينطلق إلى كل المسلمين من صميم القلب هذا النداء:

آن الأوان يا مسلمون، فلقد فهمنا عن روح الدين، وحقيقة اليقين، وجاء تلاحق الأحداث بآيات الضرورة لاستنزال العقائد من علياء الفكر إلى أرض الحقيقة والعمل.

وجاءت فرصة الزمان لتغطية الهوة بين الأفكار والواقع، ووصل المبادئ بالحياة، وإحياء هذا الدين في خطة الدولة، وسعي الفرد، وحياة الأسرة، وكل نشاطات العيش.

فإما أن نكون مسلمين، أو لا نكون، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولا غاية حقق.

• من مقال قديم للأستاذ أحمد العناني

الـــغـــزوات الــتــدمــيــريــة.. للقيم الإسلامية

من المبادئ الأساسية للإسلام غرس القيم الأخلاقية، والفضائل الإنسانية، والخصال الحسنة، والسجايا الحميدة، في الفرد المسلم. وقد نبه إليها، وأمر بها، وحث عليها، وقرر أنها من كمال الإيمان إذا تمسك بها المسلم وحافظ عليها.

وقد سار على هذا النهج السابقون الأولون من السلف الصالح، وظلت هذه القيم تعلن عن نفسها، قولا وفعلا، مادامت تنبع من ضمير حي وقلب يقظ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (آل عمران:١٠١).

إلى أن جاء هذا الزمان الذي وجد فيه من المسلمين من ضل الطريق، وحاد عن الجادة، وجرفهم تيار الحياة المادية و﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر:١٩)، فأصبحوا أرضا خصبة لإنبات الأفكار المسمومة، وغرس الآراء الموصومة، وبذر بذور التشتت والضياع، وعملت فيهم معاول الهدم، فأطاحت بما لدى بعضهم من قيم وعادات؛ لأن عزيمتهم أوهن من بيت العنكبوت. ومع ذلك، ظلت القيم الإسلامية متأصلة راسخة في أعماق كثير من المسلمين؛ لأنها جزء من كيانهم.. هذه القيم أوغرت صدور أعداء الإسلام، فدبروا المكائد ضدها، وجهزوا الغزوات لها، وشنوا الحروب عليها، وظلت روح الشر تدفعهم حتى يومنا هذا.

• عبدالفتاح حسن الزيات

العودة للقدس الجريح

أرحنا عقلنا ردحا
تأخر علمنا حينا
وما عادت سنابل أرضنا الخضراء تكفينا
وقد صارت أيادي الغرب تطعمنا وتسقينا وتنثر سمها فينا
أرحنا خيلنا زمنا
وبعض الخيل وظفناه للأفراح سخرناه للرقص
ألا نبكي على أمس
وكم كنا وكم كانت ريادتنا
• فهل وهنت سواعدنا
وهل خويت عزائمنا
وهل صدئت سيوف الحق.. هل صدئت
وهل تاهت طلائع جيشنا المغوار.. هل تاهت
وهل جفت منابع خير أرضينا
وهل ماتت أمانينا
فما عدنا نداعبها.. تداعبنا وتغرس روحها فينا
• فهل عدنا لماضينا
لننفض كرب أزمتنا
نحقق حلم أمتنا، تفردها، تألقها، تسيدها لكل الكون
ونسرج خيلنا الوثاب. هل عدنا
تجيء الصحوة الكبرى
ونعلن زهو أمتنا، تسيدها، توحدها، تميزها، تزعمها لكل الكون
فهل عدنا لأمجاد أضعناها
ليعلو صوت مئذنتي
ويسمع كل من في الأرض صوت الواحد القهار
وتزدان مساجدنا بآيات من القرآن نتلوها علانية
ونتحاكى أحاديث عن المبعوث بالرحمات للناس
وصوت «بلالنا» المحبوب يغمر كل وادينا
ينادينا:
نصلي «الفجر» في «الأقصى»
إن شاء الله تعالى قريبا

• رفعت محمد بروبي حسين



محاولة فتح روما



بعد أن فتح الجيش العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح رحمه الله تعالى مدينة أوترانتو الإيطالية عنوة في شهر أغسطس من سنة ١٤٨٠م، كان السلطان محمد رحمه الله تعالى ينوي إكمال فتح جميع إيطاليا. ويقال إنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس في مدينة روما، لكن السلطان محمد رحمه الله تعالى توفي في شهر مايو من العام الذي يليه، وبموت السلطان محمد الفاتح تنفست النصرانية في أوروبا الصعداء، ودقت أجراس الكنائس لمدة ثلاثة أيام، وقيل إن الرسالة التي أرسلت إلى البابا كانت بها جملة واحدة، هي: مات النسر العظيم. ولم يتابع الخلفاء العثمانيون الأمر لانشغالهم بفتح المجر والصراع مع النمسا والحروب مع الصفويين، حيث حاصر السلطان سليمان القانوني فيينا مرتين، ولم يستطع فتحها لرداءة الطقس من جهة والصراع مع الإسبان في غرب البحر المتوسط وشمال إفريقيا.

• إبراهيم علي أبورمان

الشيخوخة فرصة

المسنون من حقهم التمتع بأوقاتهم، التي حرموا منها من قبل حين كانوا في زمن تحمل المسؤولية، لكن ما يجعل الإسلام دينا يتميز بالأصالة في تعامله مع مرحلة الشيخوخة، هو عدم وقوعه في الخطأ الشائع داخل الثقافة الغربية، التي تطلق العنان للمسنين لاستغلال كل دقيقة من حياتهم في التلذذ بمتع الحياة الفانية، من أسفار ورحلات وارتياد للنوادي الرياضية والفنية والترفيهية، إن كل هذه الأنشطة هي حسنة ومحمودة، لكن لا ينبغي أن تكون كل أوقات المسنين منصرفة لتحقيق رغباتهم الدنيوية.

إن الإسلام يخلق توازنا إيجابيا في حياة المسن، بحيث يدعوه لتخصيص جزء من وقته للترفيه والترويح عن نفسه، أما الجزء الأعظم من الوقت فينبغي أن يملأه بالطاعات من الصلوات في المساجد، ومساعدة المحتاجين، وصلة الأرحام، وزيارة الأحباب والأصدقاء. وينبغي لشيوخنا الأجلاء أن يحرصوا على المداومة والاستمرار على ذلك، حتى يلقوا الله تعالى وهو راض عن صنائع الخير التي اجتهدوا في تحصيلها.

أما إن أراد شيوخنا الأجلاء أن يتوجوا كل أعمالهم في الدنيا، فما عليهم إلا أن يلجأوا إلى أرقى العبادات وأجملها على الإطلاق، وهي الرضا بما كتب الله عليهم من مظاهر الضعف في شيخوختهم، وحمده سبحانه وتعالى على هذه الحال. ولا يستطيع بلوغ هذه المرتبة العالية إلا الشخص المسن، الذي أدرك الحكمة من تراجع قدراته العضوية والنفسية في نهاية عمره. فالله ينظر إلى رد فعل عبده المسن، هل سيحمده في حالة ضعفه كما حمده على القوة التي أمده بها في شبابه؟! فلا تدوم القوة إلا لله جل علاه، أما الإنسان فقدراته تخضع لقانون المد والجزر، ولو كان الشيوخ منصفين لنظروا لما زادتهم الشيخوخة من صفات حميدة وما نظروا لما أخذت منهم فقط، فهي تزيدهم وقارا وضياء وهيبة، فكم من مسن إذا شاهدت وجهه المتلألئ يزرع في قلبك حب الشيخوخة، ويثير في نفسك الشوق لتصبح يوما ما شخصا كبير السن، لتتميز أنت أيضا بما يتميزون به من بهاء وسكينة واطمئنان.

إن الشيخوخة إذن هي زهرة العمر، لأنها أكثر مراحل حياة الإنسان اتصافا بالنضج، وامتلاء بالعمل، وتحقيقا للنجاحات الكبرى في الدنيا والآخرة، مما يجعلها تستحق إعجاب الشباب وتنال تقديرهم.

• رضى الحمراني

مسك الختام

عبودية السعي وعبودية التوكل

العبودية لله تحتم على العباد السعي نحو تحقيق صلاح الدنيا والآخرة، فالمسلم الحق من يمشي في مناكب الأرض بجسده، وروحه معلقة في السماء، يغذي جانبه المادي مما خلق منه وهو الطين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ (ص:٧١)، وجانبه الروحي من الجانب العلوي بنور السماء ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر: ٢٩)، وهذه هي التوازنية والوسطية في التعامل مع غذاء البدن والروح، وبهذا التوازن عبر التاريخ استطاع المسلمون أن يجدوا لهم مكانا في مسار الحضارات، وأجبروا العالم كله أن يقف وقفة المتعلم من الحضارة الإسلامية الباهرة، تلك الحضارة التي انطلقت من ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾(البقرة:٣٠).

ومعنى استخلاف الله للبشر، وخلافتهم عن الله في الأرض يتطلب إطاعة المستخلف إطاعة كاملة، ولأن السيطرة على الأرض بتمكين الله للبشر تقتضي استغلال كل أوجه الخير فيها، من استنبات الزرع، وإحياء الضرع، وتشجير الأشجار، واستخراج المعادن والزيوت، واستثمار المناجم والمحاجر والمقالع، وإقامة المساكن والمصانع والقرى والمدن، حتى يعرف بكل ذلك ونحوه عظمة الله وقدرته، لأنه هو مانح الحياة لكل الموجودات.

فالخلافة الحقيقية هي التي تجمع بين تعمير القلوب والأبدان وتعمير الأكوان، بمنهج الله وفق سننه التي لا تتغير ولا تتبدل، ومن تلك السنن المطردة التي تغافل عنها كثير من الأجيال، أن السعي في الأرض والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، بل إن السعي الباب الأول الذي يدخل منه البشر على التوكل، ولا توكل بدون أخذ بالأسباب عند التمكن منها، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾(المائدة: ٢٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾(يونس: ٨٤)، فجعل الله التوكل على الله شرطا في الإيمان، وكلما قوي الإيمان قوي التوكل والعكس، فالتوكل أصل مراتب الدين، لأنه يشمل الإيمان والإسلام والإحسان.

وأما الآثار الظاهرة للتوكل فيأتي في مقدمتها صحة التعامل مع الأسباب دون الاعتماد عليها أو التعلق بها، فهي وسيلة من وسائل الامتثال والطاعة لرب العالمين ؛ وذلك لأن الله قدر مقدورات مربوطة بأسباب، وأمر عباده بتعاطي هذه الأسباب، ولم ينف عنهم التوكل عليه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ١٠)، كما أن الأخذ بالأسباب من قدر الله، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولو نقص هذا الركن من أبجديات الإيمان لنقص مخزون الإيمان، ولو فقد لفقد الإنسان الإيمان كله. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بهذا، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها.

د.خالد راتب
دكتوراه في الشريعة والقانون



اقرأ في العدد الجديد:

- أثر الشراكة بين الوقف والزكاة في دعم مشروعات الأسر المنتجة.
- الوقف وأثره على التطور العلمي في العراق والشام.
- وقف الأراضي على الأفراد في فلسطين.
- التمويل الوقفي للمشاريع متناهية الصغر.



أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Woei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٩٨) جمادى الآخرة ١٤٣٦ هـ / مارس - أبريل ٢٠١٥م

الإسلام بريء من العنف





‹ تنمية جماليات الذوق الرفيع

‹ العالم الجاهل في الفكر الإسلامي

‹ ألف اختراع واختراع في الكويت

مجانا مع العدد: براعم الإيمان

العدد ٥٩٨ - السنة ٥٢ - جمادى الآخرة ١٤٣٦ هـ / مارس - ابريل ٢٠١٥م

info@alwaei.com www.alwaei.gov.kw مجلة الوعي الإسلامي

مجلة

الوعي الإسلامي

تهديكم جديد إصداراتها



صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ الكويت هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
البريد الالكتروني: manager@alwaei.com - info@alwaei.com

الانحراف

إذا تأملنا واقع الأمة اليوم، وما تمر به من المحن والابتلاء، نلاحظ أن هناك مفاهيم غائبة عن الكثير، فقد حرص الإسلام كل الحرص على استقرار حياة الناس، والحفاظ على أمنهم وأرواحهم.

وهذا ما أوصى به النبي ﷺ في خطبة الوداع من الإرشادات القويمة، والتعاليم الحكيمة، والنصائح العظيمة.. والكتاب العظيم الذي بين أيدينا قد بينها وفصلها. لذا، فإن الاعتناء بدراسة السيرة النبوية مهم للمسلمين ولغيرهم، لأنها التفسير الواقعي والتطبيق العملي لهذا الدين، وكيف استطاع النبي ﷺ أن يحول العرب من أمة أكلتها الثارات والأحقاد إلى أمة وصفها الله بالخيرية، واستحقت الشهادة العالمية.

هذا وإن أسباب الخلل الواقع عائدة لغياب هذه الحقائق، وإن الجهل بها أوقع في خلل كبير، من الاستعجال والتنازل والقنوط والعزلة، والانحراف عن المنهج وتأصيل العصبية والحزبية، والخلط بين انتصار الأشخاص وبين انتصار الأمة، وظهور الحق والحقيقة.

فالإسلام الذي جاء به نبي الرحمة ﷺ قد تولى تحديد المرتبة العظمى وإقامة المعالم، وإنارة السبل، ودعا الناس إلى الأخذ بها والانتفاع بثمراتها العاجلة والآجلة، رسم للناس الطريق القويم، والمنهاج المستقيم، الذي يكفل لهم السبق العظيم، فجاء بالشرائع والأحكام الكفيلة بأن تقيم مجتمعا إنسانيا فاضلا، إذا التزموا بتطبيقها، وترك المجال الواسع للاستزادة من النظم الحضارية.

فالعدل نظام كل شيء، والإنصاف عَزَّ في هذه الأيام، وسيطر مكانه الخلاف، فصارت الحاجة ماسة إلى المنهج السليم، والقسطاس المستقيم، لنزن الأمور، ونبتعد عن الجور، وقد تتحول الاختلافات الفكرية والسياسية إلى عصبية، تسود فيها القيم السلبية، من التعصب والتنازع وسفك الدماء، فتلغي العقل، وتأمر بالكره والعداوة.

إن قادة المجتمع والعلماء والعقلاء وصناع القرار هم من يوجه المجتمع للرقي والألفة والمؤاخاة ووحدة الكلمة، فلابد من دراسة علمية منهجية، توضح الرؤية، وتبين الطريق، وتتكاتف الجهود لكشف الأسباب والعودة إلى المجد.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي



الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٨ | جمادى الآخرة ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
مارس- ابريل ٢٠١٥ مـ

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

الحكمة والغلو لا يجتمعان

الحكمة، هي: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ (النحل:١٢٥)؛ أي: ادع، أيها المسلم، كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقبوله وانقياده. ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداية بالأهم والأقرب إلى الأذهان، ولابد من الرفق واللين، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ (طه:٤٤)؛ فإن انقاد المدعو فبها ونعمت، وإلا فلينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرونان بالترغيب والترهيب، وحين طبق الصحابة – رضي الله عنهم – الحكمة في دعوتهم؛ دخل الناس في الإسلام أفواجا، وانتشر دين الله في بقاع الأرض شرقا وغربا.

ومن أصول الحكمة مراعاة حال المدعوين؛ فأسلوب الدعوة مع الكبير والصغير والرجل والمرأة والمتعلم والجاهل والرئيس والمرؤوس؛ ليس أسلوبا واحدا، بل هو متنوع، يليق بكل واحد على حدة. كما أن من أعلى المراتب الدعوية دفع السيئة بالحسنة، فإن لها أثرا بالغا في قلوب المخالفين.

وأما الغلو، فهو: نقيض الحكمة في كل شيء. فالشرع جاء بتحريم الغلو في الأقوال والأفعال والاعتقادات، واستخدم أنواعا من الأساليب والدلالات في بيان ذلك؛ تارة بالنهي عنه، وتارة بالتحذير من مشابهة الكفار في الغلو، وتارة ببيان أن الغلو سبب للهلاك. ولقد اتفق فقهاء الشريعة على تحريم الغلو بجميع صوره وأنواعه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (النساء:١٧١).

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» (رواه النسائي).

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

مسؤولو الأوقاف:
الإسلام بريء من كل عنف مشين

التحرير

علا صوت التنظيمات الإرهابية أخيرا، وظهرت صورها القبيحة في بعض وسائل الإعلام لتفزع الآمنين وتثير المشاعر وتقلب القلوب على أمتنا الإسلامية.
وقد يظن الجاهل أنه يحقق هدفا ذا قيمة أو منفعة لأمة عظيمة، إذ يتبنى هذا النهج الذي نبذه الدين، وحذر منه الرسول الكريم ﷺ والصحابة والتابعون.
أفلا يدرك أولئك المتورطون أن الإسلام منهم براء، وأن تعاليمه السمحة بعيدة عنهم بعد الأرض عن السماء، وأنهم بأفعالهم الدنيئة هذه يضرون ولا ينفعون، ويخدمون سياسات الحاقدين على الدين، ويبررون للماكرين أفعالا خبيثة أخرى تعتدي على المسلمين في أمتنا الإسلامية؟!
وزارة الأوقاف في دولة الكويت لم تألوا جهدا في محاربة مثل هذه الأفكار المتشددة.
يقول الوكيل المساعد للشؤون الثقافية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت مهندس داود العسعوسي: «هذه التنظيمات لا تمت إلى الإسلام بأي صلة، بل هي دخيلة عليه؛ لأنها تحمل شعار الغلو الذي حرمه



م. داود العسعوسي

الإسلام. ومنهج هذه التنظيمات هو منهج الخوارج قديما في تكفير المجتمعات المسلمة، واستحلال الدماء، وزرع الفتن بين أفراد الأمة، وعدم البيعة لولاة الأمر.. وغير ذلك، مما يتصادم مع عقيدة الإسلام الصافية ومنهجه السمح. كفى الله الأمة شرهم ورد عنها كيدهم».
ويؤكد أن مثل تلك التنظيمات المتطرفة قد تؤثر على قلوب الشباب بما تروجه من شبهات من جهة، واستغلال عواطفهم وغيرتهم على الإسلام من جهة أخرى، وهذا ولاشك يشكل خطرا كبيرا على أولادنا وشبابنا. ولذلك، كل الجهات الرسمية في الدولة تعمل على مواجهة هذه التنظيمات والتحذير منها، ووزارة الأوقاف لها في ذلك قصب السبق؛ حماية لجناب الشريعة، ودفاعا عن أصول الدين، ووقاية للشباب، وذلك عبر إقامة المؤتمرات التوعوية والمحاضرات التوجيهية والاتصال المباشر معهم في المساجد أو المدارس، أو من خلال حسابات الوزارة في مواقع التواصل الاجتماعي، بالإضافة إلى عمل الإصدارات المتنوعة التي تبين حقيقة الدين الإسلامي وشذوذ مثل هذه التنظيمات عن العقيدة الصحيحة، محذرة الشباب من الانخراط معهم أو التأثر بهم، وقد صدرت فتاوى من الوزارة بهذا الشأن.
فيما يقول الوكيل المساعد للشؤون الإدارية المهندس فريد عمادي إن التكفير والعنف والإرهاب ظاهرة قديمة جديدة؛ تطل برأسها بين الحين والآخر عبر تاريخ الأمة الإسلامية، وبدأ التكفير منذ أن ظهر الخوارج في الصدر الأول من الإسلام، بل ظهرت بوادرهم في عهد النبي ﷺ حينما وزع النبي ﷺ غنائم حنين وأعطى مسلمة الفتح مائة مائة من الأبل ولم يعط المهاجرين والأنصار منها شيئا، فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ

يقال له ذو الخويصرة مخاطبا النبي ﷺ بسوء أدب فقال: اعدل يا محمد، فإنها قسمة ما أُريد بها وجه الله، فلم يناد النبي ﷺ بقوله: يا رسول الله، وإنما قال: يا محمد، ثم اتهم نية النبي ﷺ حتى كاد خالد بن الوليد يضرب عنقه، فمنعه النبي ﷺ وقال له: «لعله أن يكون يصلي» ولما ولى ذلك الرجل قال ﷺ: «يخرج من ضِئضِئي هذا (أي من نسله وأصله) قوم يتلون كتاب الله لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود» ولهذا حذر النبي ﷺ من هذا الصنف من الناس فقال : «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم»، ولهذا أوضح علماء الأمة خطورة التكفير وبينوا أن التكفير هو حكم الله عزوجل ولا يجوز بحال أن ينسب التكفير لأحد إلا بما قرره الله في كتابه أو على لسان رسوله محمد ﷺ، وبينوا أن للتكفير موانع تمنع من تكفير المسلم، وذلك أن المسلم قد دخل الإسلام بيقين بنطقه بالشهادتين ولا يجوز بحال أن يخرج من هذا اليقين إلا بيقين مثله، كأن يرتد عن الإسلام أو يكفر صراحة، كأن يسب الله ويسب الرسول ﷺ، وأما من وقع في الكفر وهو جاهل أو متأول أو كاره فلا يكفر، ويكون معذورا، كما فرق العلماء بين


م. فريد عمادي

الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وبين الإطلاق والتعيين في الكفر، وغيرها من الضوابط والقواعد المقررة عند أهل العلم.

ولهذا يجب على شباب الأمة أن يتعلموا الدين من منابعه الأصلية وأن يسترشدوا بأقوال أهل العلم الراسخين، وعليهم الحذر من هذه المسالك المعوجة التي غررت بالشباب وحرفتهم عن الصراط المستقيم.

والوزارة عليها أدوار كبيرة في مواجهة الأفكار المتشددة، خاصة لدى شريحة الشباب، وبفضل الله الوزارة تملك قنوات كثيرة يمكن من خلالها توجيه المجتمع والشباب خاصة؛ التوجيه السليم من خلال خطب الجمعة والأسابيع الثقافية والدورات التأصيلية والمحاضرات العامة في الأسواق والمجمعات التجارية، وأماكن تجمع الشباب، فضلا عن التوجيه المطلوب في مراكز دور القرآن الكريم ومراكز التحفيظ ومراكز السراج المنير، وكلها منابر تستطيع الوزارة من خلالها التوجيه السليم والتحذير من هذه الآفة التي انتشرت في أوساط بعض المتحمسين للدين، وبحجة الدفاع عن هذه الشريعة، كما أن الوزارة قامت بإصدار بيان حول هذا الموضوع، وأجابت على سؤال حول مسائل الجهاد، وتم نشر هذه الإصدارات كنوع من أنواع التوجيه المطلوب.

كما أنني وبصفتي أمين عام اللجنة العليا لتعزيز الوسطية قدمت المحاور الاستراتيجية العملية لنشر الوسطية والاعتدال ومواجهة التطرف والعنف، وشملت هذه المحاور ثلاثة محاور رئيسية (المحور التوجيهي، والمحور الاعلامي والتقني، ومحور الأمن المجتمعي) وشملت هذه المحاور (٤٦) مبادرة، وكل مبادرة تحتوي على مجموعة مشاريع عمل، كلها تصب في نشر الوسطية ونبذ التطرف، والهدف من هذه المبادرات هو أن تقوم جميع المؤسسات الرسمية بدور تكاملي لنشر الوسطية والاعتدال ومواجهة العنف والتطرف، وقد قمنا بتوزيع هذه الوثيقة على جميع مؤسسات المجتمع المدني الرسمية والأهلية لنتعرف على وجهة نظر المجتمع في هذه المقترحات، وبوصول هذه الملاحظات سيتم صياغة الوثيقة على ضوء هذه الملاحظات للعمل بموجبها؛ لإيماننا بأن قضية الوسطية قضية تهم المجتمع بأسره، ومن المهم أن نتعرف على وجهات النظر في تلك المشاريع المطروحة.

ظاهرة التطرف وممارسة الإرهاب

د. أحمد حمد أحمد
أستاذ الشريعة والقانون - جامعة قطر



حتى نكون موضوعيين في كتاباتنا، سنبدأ بتحديد معنى التطرف، هل يعني التطرف التمسك بالدين؟ أو هل يعني التعصب للرأي؟ أو هل يعني معاداة الفرد للمجتمع الذي يعيش فيه؟ أو هل يعني محاربة الفساد في هذا المجتمع؟ أو هل يعني مجابهة الحكومات بسبب اختلال سياستها وأنظمتها؟ أو هل يعني توجيه شديد النقد إليها، كلما حدث خطأ أو تجاوز منها؟

إن لفظة التطرف تعني الوقوف على طرف، أي أن المتطرف يقف على حافة شيء، وغالبا ما يختل توازن كل من يقف على الحافة أو الطرف، فهو مهدد دائما بالسقوط. فالتطرف إذن هو المبالغة في أي أمر، وعدم الاعتدال فيه.

المجتمعات الأوربية

لا يخلو أي مجتمع من وجود التطرف والمتطرفين، حتى المجتمعات الأوروبية التي يظن الكثيرون أنها مستقرة لا يعكر صفوها هذا التطرف وهؤلاء المتطرفون، ففي فرنسا مثلا توجد فئة كبيرة مشايعة لليمين المتطرف exl-reme droite، وأخرى مشايعة لليسار المتطرف، وعلى الرغم من أن الحكومة الفرنسية ذات ميول يسارية في أصل مذهبها السياسي، لكنها تحاول أن تكون حكما محايدا، لا ينحاز لأي من هذين الاتجاهين المتطرفين.

المجتمعات الإسلامية

والتطرف في المجتمعات الإسلامية يأخذ طابعا خاصا، إذ تتمحور اتجاهات التطرف وتتبلور في مدى التمسك بالفضائل المرتبطة بالعقيدة، وعدم التمسك



بها، فكلما كان هناك مساس بهذه الفضائل، كان هناك مجابهة لهذا المساس، وكلما كان هناك تطرف في هذا المساس، كان هناك تطرف في هذه المجابهة.

التطرف في العبادة والدعوة:

وقد جاءت نصوص الآيات والأحاديث، لتضع المسلم في مركز التوسط والاعتدال، حتى لا تذهب به المبالغة إلى التطرف، ولاسيما في مجال العبادة والدعوة، لأن العبادة ترشيد لنفسه، والدعوة ترشيد لغيره، وهذا الترشيد لا يحقق ثمرته على الإطلاق في نطاق المبالغة والتطرف.

ففي مجال العبادة يقول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ (المائدة:٦)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ (البقرة:١٨٥)، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ (الإسراء:٢٩)، وهذا نموذج من الآيات التي تؤكد على التوسط والاعتدال في هذا المجال. ويقول الرسول ﷺ: «إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»، «يسروا ولا تعسروا»، «من شدد شدد الله عليه»، «لا يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه»، وهذا نموذج من الأحاديث يؤكد هذا المعنى المراد.

وفي مجال الدعوة يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل:١٢٥)، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ (الشورى:١٥). ويقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»، «بشروا ولا تنفروا».

من أين يأتي التطرف إذن؟

أمثل علاج للتطرف هو توسيع نطاق الصالحين والمصلحين، والتضييق على الفساد والمفسدين.

يبدو أن الأحداث الخطيرة التي تنزل بمجتمعات المسلمين، أو الكوارث التي تعصف بها تدفع بالعباد والدعاة إلى أن يتشددوا، ويشددوا في الأخذ بتعاليم الدين، والتحلي بفضائله، خوفا من طغيان هذه الأحداث، واستمرار هذه الكوارث، وتهديد المجتمع بالانهيار والدمار، فإن الاعتقاد السائد أن انتشار الفساد في أي مجتمع وخاصة المجتمع الإسلامي هو سبب هذا كله، مصداقا لقولة تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ (الإسراء:١٦).

ويبدو أن محترفي الفساد وهواته يضيقون بهؤلاء العباد وهؤلاء الدعاة، ولذلك يبذلون أقصى جهودهم في استعداء السلطة عليهم، واستنهاض الأقلام والكتاب للنيل منهم وتشويه أمرهم، واستنكار أعمالهم، تمهيدا للقضاء عليهم، حتى يضمنوا لأنفسهم العيش في أمان من مخاطرهم. وتظل حلقة التشدد والتطرف بين الفريقين تتداح وتتسع أبعادها، حتى تشغل المجتمع، وتلهيه عن تحسين حاله، وتأمين مستقبله.

وما العلاج الناجع للتطرف؟

لاشك أن علاج التطرف بالذات لا يكون بمقابلته بتطرف مثله، فإن هذا كما يقال إنما هو سكب البترول على جمرة من النار، ليزيدها اشتعالا، أو أنه سيكون كعملية شد الحبل بين فريقين، يمسك كل منهما بطرف منه، وقد يكون هذان الفريقان متساويين في القوة، فتظل المغالبة بينهما إلى ما شاء الله، وقد يكون أحدهما أقوى فتكون له الغلبة، ولكن انتصاره موقوت، فإن

المهزوم لن يصبر على هزيمته، وسيحتال لتقوية نفسه، كي يعود إلى الشد من جديد. ومعنى هذا أن المغالبة مستمرة، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي، ومن سيكون فيها المغلوب إلى الأبد.

إن العلاج الأمثل هو في توسيع النطاق للصالحين والمصلحين، وتضييق الخناق على الفاسدين والمفسدين، هو في تقوية صوت الحق، وخفوت صوت الباطل، هو في جعل الفساد وبطارقته من ثانويات تكوين المجتمع، لا من أساسياته. وأقول «تضييق الخناق وخفوت صوت الباطل وجعل الفساد من الثانويات لا من الأساسيات»، لأننا لا نستطيع القضاء على الفساد مهما بذلنا من قوة، لكننا نستطيع أن نجفف الكثير من روافده، ونكشف التزوير الذي يخدع به الكثير من دعاته.

إن العلاج الأمثل إنما هو في تجلية المثل العليا، حتى لا يغشيها غبار الشهوات الدنيا، وفي الحفاظ على القيم النفيسة، حتى لا تهبط بها النفوس الخسيسة، وفي الحرص على الأخلاق الفاضلة، حتى لا تنال منها الميول السافلة.

وما الإرهاب؟

أما الإرهاب فهو إحداث الرعب في القلوب، وليس الإرهاب مرتبطا حتما بالتطرف، فقد يكون التطرف دون إرهاب، وذلك عندما تكون السلطة من الحكمة بحيث تحفظ التوازن بين الفئات المتطرفة، ومن العدالة بحيث لا يميل أي متطرف إلى الإرهاب بسبب شعوره بظلم.

وإحداث الرعب أمر غير محمود في أي مجتمع، سواء أكان مصدر هذا الرعب هو الأفراد أم الحكومات، فقد يكون هذا الرعب من فرد ضد فرد، وقد يكون من فرد ضد جماعة أو حكومة، وقد يكون من حكومة ضد مواطنيها أو مواطني دولة أخرى.

الإرهاب المطلوب

وأمر الإرهاب يحتاج إلى شيء من التفصيل، فقد يكون الإرهاب مطلوبا شرعا، وذلك إذا ما كان موجها إلى أعداء الإسلام والمسلمين، فمن الواجب شرعا على كل مسلم وكل حكومة مسلمة الإعداد المستمر لهذا الإرهاب، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن



﴿دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ (الأنفال:٦٠). وهذا الإرهاب المطلوب هو الذي يتحقق به النصر على الأعداء، فإن الرعب إذا استحكم في قلوبهم خارت قوتهم، وارتعدت مفاصلهم، وسقط السلاح من أيديهم، وفروا هاربين، أو استسلموا مهزومين. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب».

الإرهاب المرفوض

والإرهاب المرفوض هو غالبا ما يتركز في طائفتين: طائفة يحركها الاعتداء المؤقت، وطائفة يحركها التخريب المبيت، فأما طائفة الاعتداء المؤقت فيسميهم الفقهاء البغاة، وقد نظم الإسلام علاقة جمهور المسلمين بهم على أساس من الإصلاح والتقويم، لا على أساس من الانتقام والتجريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ (الحجرات:٩). وقد يكون اعتداء طائفة على طائفة أخرى من المؤمنين لأسباب تافهة، لكنها على كل حال لا تضمر عداء لتعاليم الدين، ولا تبيت النية لتخريب ديار المسلمين.

أما الطائفة التي يحركها التخريب المبيت فهي طائفة الحرابة، وقد نظم الإسلام علاقة المسلمين بهم على أساس من الانتقام والتجريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ (المائدة:٣٣).

فالإرهاب هو إدخال الرعب بتحدي منهج الله ونظام رسوله في استقرار مجتمع المسلمين، وتأمين كل فرد فيه على نفسه وماله وعرضه، وهو إرهاب الحرابة، وهو الإرهاب الذي تجب مقاومته، وتحصين مجتمع المسلمين منه. أما الإرهاب الذي نبث به الرعب في قلوب أعداء الإسلام والمسلمين، فهو من الخصائص التي يجب أن يتميز بها مجتمع المسلمين.

عدم الخلط أسلم

وقد قمنا بتوضيح مفهوم هذه العبارات، وتحديد مواقف هذه الطوائف، حتى لا يكون هناك خلط بينها، فإن عدم الخلط بين هذه المفاهيم، أو هذه المواقف هو الأسلم في أي مجتمع مسلم. لابد أن يستعمل الدواء المر في محله، وأن يستعمل الدواء الحلو في محله، لابد أن تستعمل المبيدات والمطهرات في أماكن الحشرات والقاذورات، وأن تكون الجماليات والزينات في أماكن الأفراح والاحتفالات، لابد أن يتوفر الأمن لكل من يحرص على رقي المجتمع وتنمية مواهبه وموارده، وأن يتوجه الإرهاب إلى كل من يعمل على انحدار المجتمع، وتصفية مواهبه، وتخريب موارده.

القول الثابت

وإذا كان الكلام الذي تتداوله أو تتناوله الألسنة والأقلام في المجتمعات غير الإسلامية كلاما قد ينقصه التحديد والثبات، إذ يتعرض للتغيير والتحوير، ويقبل التبديل أو التعديل، فإن كلام الله هو المحكم الثابت الذي لا يلحقه تغيير أو تحوير، ولا يرد عليه تبديل أو تعديل، بل هو الذي تستقر عليه الأحوال، وتنتظم به الأوضاع، وتنضبط التصرفات والأعمال، ويثبت الله به قلوب المؤمنين: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ (إبراهيم:٢٧).

● المقال منشور من قبل في العدد٣١٩- ربيع الأول ١٤١٣هـ - سبتمبر ١٩٩٢م.



اغتيال العلم ووأد المعرفة

د. خالد راتب
باحث أكاديمي



بالعلم والمعرفة تنهض الحضارات، وذلك لأن العلم بمفهومه الشامل والكامل وضوابطه هو مهد الرسالات، ولقد افتتحت الرسالة المحمدية بالعلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ (العلق:١)، فكان ختامها الكمال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣)، وسارت الأمة الإسلامية في ركاب الخيرية وقيادة البشرية عندما فهمت حقيقة الرسالة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ (الجمعة:٢)، وطبقت هذا المنهج، منهج التزكية القائم على العلم والمعرفة تطبيقا عمليا، فكان اعترافا لها بالنعمة وشكرا لها: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران:١٦٤).

وقد جعل النبي ﷺ فداء ناس من الأسارى يوم بدر أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه. وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه في أشد الحاجة إلى المال، يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية (١).

هذه هي أمة اقرأ التي أولت العلم اهتماما بالغا.. ولكن أمة اقرأ الآن تغتال، ثقافيا وعلميا، عن طريق مارد الجهل. ومن صور اغتيال العلم ووأد المعرفة:

- أن يسند الأمر إلى غير أهله. فقد اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فعندما ينطق الرويبضة، ويسمع لكلامهم، ويصبحون نخبا، ويؤخر أهل العلم والفكر والثقافة، فهذا اغتيال واضح وصريح للعلم والمعرفة، وكل من شارك في هذا الاغتيال هو مجرم في حق نفسه أولا؛ لأنه كلف نفسه ما لا تطيق، ووضعها في مكانها الخطأ. ومجرم في حق وطنه؛ لأن الأوطان لا تبنى إلا بالعلم وبأيدي العلماء. ومجرم في حق دينه؛ لأن كل الأديان التي أنزلها الله



قوامها العلم والمعرفة.

● أن يطلب لغير الله ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف وجوه الناس إليه، ومن فعل ذلك فقد كتب على نفسه الشقاء في الدنيا قبل الآخرة، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار» (٢).

● ومن صور اغتيال العلم أيضا ضياع هيبته واحتقار أهله، فجميع الفنون الآن لها قوانين لابد أن تحترم ويحترم أهلها، بل ويتقدم أهلها الصفوف، في وقت نرى فيه تأخيرا متعمدا لأهل العلم والفضل.

● ومن صور الاغتيال أيضا طلب العلم والفتوى من غير المتفقهين العلماء الربانيين.

● وأكبر اغتيال للعلم والمعرفة أن نرى أسفارا من العلوم يحملها من لا يعقل ولا يعرف مقدار هذه العلوم وقيمتها: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ (الجمعة:٥).

فبنو إسرائيل - ومن سار على طريقتهم - حملوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة.. ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ (الجمعة:٥).. فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع. لكن سيرة بني إسرائيل، كما عرضها القرآن الكريم، وكما هي في حقيقتها، لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها، ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها، فهو ليس صاحبها. وليس شريكا في الغاية منها! (٣).

والطامة الكبرى أن يقود هؤلاء الحملة (حملة الأسفار) المشهد، وتكون لهم القيادة والريادة، مما يترتب عليه قلب الموازين وضياع أمانة العلم؛ بغياب الفهم، وقدر الرسالة التي يحملها، وهي ميراث الأنبياء، وعندما نضع هذا الميراث عند الحملة، عند عقول غير ناضجة وواعية، فإن ذلك يعد وأدا للمعرفة وانتحارا للثقافة والفكر، وذلك لأن الرويبضة سيصبحون في زمن اختلاط المفاهيم هم الجهابنة، وتنطلق ألسنتهم وأقلامهم للتحدث في أمور العامة، ويقدم مَنْ رأس ماله الجهل على أصحاب الكفاءات، وهذا ما حذر منه سيد الأولين والآخرين سيد العلماء ﷺ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين يدي الساعة سنون خداعة، يتهم فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، وينطق فيها الرويبضة». قالوا: وما الرويبضة؟ قال: «السفيه ينطق في أمر العامة»، وفي رواية: «الفاسق يتكلم في أمر العامة»، وفي رواية الإمام أحمد: «إن بين يدي الدجال سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن»، وذكر باقيه (٤).

إن من أعظم الظلم قتل المواهب والإبداعات، وتحطيم الكفاءات، وتقديم العجزة فكريا وثقافيا، وفتح الباب لهم على مصراعيه ليقولوا ما يريدون من دون فهم ووعي.

● ومن صور اغتيال العلم ووأد المعرفة: ضآلة الإنفاق على التعليم، فإن حجم الإنفاق على التعليم في أي دولة يعكس مدى اهتمامها به. ومن أبرز الحقائق التي كشف عنها تقرير منظمة العمل العربية عن الفجوة العلمية والتكنولوجية بين العرب والكيان الصهيوني ما يلي:

- معدل الإنفاق العربي على البحث العلمي لا يزيد على اثنين في الألف سنويا من الدخل القومي، في حين أنه يبلغ في الكيان الصهيوني ١,٨ في المئة.

- نصيب المواطن العربي من الإنفاق على التعليم لا يتجاوز ٣٤٠ دولارا سنويا، في حين يصل في الكيان الصهيوني إلى ٢٥٠٠ دولار سنويا.

- في حين يأتي الكيان الصهيوني في المرتبة رقم ٢٣ في دليل التنمية البشرية على مستوى العالم، والذي يقيس مستويات الدخل والتعليم والصحة، فإن مصر تحتل المرتبة رقم ١٩٩ طبقا لتقرير عام ٢٠٠٢م، وسورية تحتل المرتبة ١١١، والأردن المرتبة ٩٢، ولبنان المرتبة ٨٢، وهي الدول العربية المحيطة بالكيان الصهيوني، أو دول الطوق. وكشف التقرير أن مصر وحدها فقدت ٤٥٠ ألف عالم وباحث ومتخصص من أفضل الكفاءات العلمية بهجرتهم إلى الغرب، وأن نسبة العقول العربية تزيد بين العلماء والتكنولوجيين في أمريكا وكندا على ٢ في المئة (٥).

الهوامش

(١) السيرة النبوية، دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٧٦/٦، علي الصلابي.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال الشيخ الألباني: حسن، انظر حديث رقم: ٦٣٨٣ في صحيح الجامع.

(٣) الظلال، ٢٠٥/٧.

(٤) سنن ابن ماجه، ومسند الإمام أحمد، وقال الشيخ الألباني: صحيح، الصحيحة (١٨٨٧).

(٥) الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود، ٢/٨.



القاهرة - إسلام أحمد
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية

أكد أن الخط العربي كائن حي يعبر عن صاحبه..

الخطاط مصطفى عمري: التكنولوجيا أضرت بفن الخط

وصف أبوالعباس أحمد بن رجب صاحب كتاب «زاد المسافر» الخط بأنه «لليد لسان، وللخلد ترجمان».. وهو فن جميل، ساعدته لغة الضاد بما تتمتع به من مرونة وطواعية وقابلية للمد والرجع والاستدارة والتزوية، والتشابك والتداخل والتركيب، على حفظه من الاندثار، وهذا ما يؤكد عليه الخطاط والفنان مصطفى عمري، من خلال حواره مع «الوعي الإسلامي»، مشيرا إلى أن صمود فن الخط مرتبط بصمود اللغة العربية، فإلى نص الحوار:

• يتخوف كثيرون من تأثير التقنية الحديثة، وضعف الاهتمام باللغة العربية على مستقبل فن الخط الذي ظل معطاء لقرون عديدة.. فكيف ترى الأمر برأيك؟

– أراه مبشرا بالخير في أمور، وغير جيد في أمور أخرى، فهو رائع فيما يخص الإبداع، فبرغم وجود وسائل التكنولوجيا الحديثة، ظهر خطاطون على مستوى العالم لم يكن متوقعا ظهورهم، حتى من بلاد أجنبية، سواء كان من شرق آسيا أو أوروبا أو أميركا، فظهرت صحوة كبيرة في مجال الخط العربي، تدعمه مسابقات دولية تقام في العديد من الدول، مثل تركيا والكويت.. لكن في المقابل أخشى على فن الخط من ضعف الاهتمام باللغة العربية، وظهور التكنولوجيا الحديثة التي جعلت الناس لا يكتبون بأيديهم، فلم يعد أحد لديه صبر أو قوة تحمل للتعلم عن طريق المعلم بما يسمى بالمشافهة، ففن وعلم الخط العربي مثل القرآن الكريم، لا يصلح تعلمه بدون معلم مباشر، وفي مصر تراجع الاهتمام بالخط العربي مع تراجع مكانة الكتاتيب، وإغلاق مدراسه الخط العربي، تحت ذريعة التوفير، وبالتالي أصبح الخط العربي شيئا روتينيا لا يسلط عليه الضوء، خاصة من جانب وزارات الإعلام والتربية والتعليم والثقافة، وكنت أتوقع أن يدافع الأزهر الشريف والكليات التي تعلم اللغة العربية عن الخط، وتجعل له حيزا كبيرا، لكن غاب الاهتمام بقضية الخط العربي، رغم أن اللغة والخط توأمان ومتماسكان ببعضهما البعض، فلا تصلح اللغة بدون خط، أو الخط بدون اللغة.

• هل يعني هذا أن حال مدارس الخط العربي في مصر لم يعد كسابق عهدها؟

– هذا صحيح، فعدم اهتمام وزارة التربية والتعليم بمدارس الخط، بل والسعي نحو إلغائها يعد شيئا مجحفا جدا، وأثر بشدة على تعليم هذا الفن ونقله إلى الأجيال الجديدة، فإن كانت الوزارة ترى في هذه المدارس عبئا ماليا عليها، فيمكن تقليل أعدادها، وليس إلغاءها بالكلية، ومن المهم أن يتولى التعليم فيها متخصصون، فليس كل من يكتب بخط جميل يصبح معلما لهذا الفن الذي له قواعد ينبغي الالتزام بها، ففي الفترة الملكية كان المعلم يخضع لاختبارات دقيقة، لكن الوضع اختلف في الوقت الحالي، وكثير من المدارس الحالية تحولت إلى مجرد مشروعات

ربحية، أكثر منها مهنية.

● **وكيف ترى العلاقة بين الخط واللغة العربيين؟**

- علاقة ترابط، لا انفصام أو انفصال فيها، فاللغة العربية عامل أصيل في الخط العربي، فلولاها ما كان هناك خط، فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولكل حرف أسراره وقدسيته في اللغة العربية، ولولا هذه القدسية ما وجدنا للخط العربي أي إبداع، بدليل أنه في ديانات أخرى لا نجد هذا الإبداع، إلا المرتبط منها باللغة العربية، فالخط العربي يسمى الخط الإسلامي في بعض الدول، والبعض الآخر يسمونه الخط العثماني، ومشهور بأنه مرتبط باللغة والقرآن.

● **وبالتالي أي تراجع في مستوى اللغة العربية هل يؤثر سلبا على الخط العربي؟**

- بالتأكيد، فمن أهم عوامل ضعف الخط ضعف اللغة نفسها، لأن الخطاط الذي لا يعلم ماذا يكتب ولا يستطيع التفريق بين الحروف والهمزات وغيرها، لا يكون خطاطا، فيجب أن يكون متمكنا في أصول العربية، لأنه إن لم يكن متمكنا فسيأتي بأشياء غريبة ومخطئة، فعبدالله بن المبارك يقول: «من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب». وعندما كتبت المصحف كان لابد لي من أن ألتحق بمعهد إعداد الدعاة، وعندما شعرت أن اللغة غير جيدة عندي تعلمت في كلية دار العلوم، لجعل الخط أكثر قوة ومتانة، لأن الخط بدون اللغة لا يساوي شيئا، فالخط هو الذي يظهر اللغة، واللغة هي بنية الخط، فهناك في الخط العربي ما يسمى بالاختزال، وهو استخدام الحرف أكثر من مرة في لوحة واحدة.

● **تؤكد أن الخط كائن حي.. لماذا؟**

- لأنه يعبر عن شخصية الخطاط، فإذا أردت أن تعرف شخصية الكاتب، فلابد من أن ترى من خطه وهو يكتب بطريقته في الكتابة، لأن كل شخص مختلف عن الآخر في طريقة التناول، وكل «إناء ينضح بما فيه». فالخطاط وهو يكتب يظهر شخصيته، وحتى من خلال العبارات نستطيع الحكم على سمات الخطاط، سواء كان يكتب عبارات إسلامية أو غيرها. ومن خلال كتاباته تعرف إن كان حزينا أم فرحا، بخيلا أم كريما، فالمخطوطة الحقيقية هي التي نرى فيها الحبر أمام أعيننا، ونشعر بإحساس الخطاط.

وإذا دخلت المخطوطة الأصلية إلى الحاسوب، خرجت من كونها «كائنا حيا» إلى كائن مرتبط بأنظمة غير حية، يدخل فيها أشياء لا تعبر عن صاحبها، لأن الحاسوب لا ينفذ إلا الأوامر، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان:٢٧)، سمي المداد بذلك الاسم لأنه يمد القلم، وعندما يقال: القلم، يقصد به الخط العربي، وما سمي القلم قلما إلا من تقليمه، وليس القلم الجاهز، فالخط العربي ذكر في القرآن الكريم، وهذا لعظمته ومكانته.

● **وما مدى تأثير الحاسوب على الخط العربي؟**

- تأثيره سلبي مع الخطاط غير الماهر، لأن الماهر يعتبر الحاسوب عاملا مساعدا، لكن الخطاط الضعيف هو الذي يجعل من الحاسوب كل شيء، فهو يكتب، ثم يستخدم الحاسوب، ليجعل من الخط تحفة ليس فيها تدخل يدوي، فلابد من أن يكون للخطاط شخصية مستقلة تعبر عنه، وهذا ليس إنكارا. فالحاسوب وفر على الخطاطين وعلى كل من يعمل في الفن التشكيلي جهدا



الحاسوب وفر جهدا كبيرا، لكنه أضر بروحانيات هذا الفن

كبيرا، لكن أثر على الأشياء الروحانية الأصلية.

• وكيف ترى حالة تطور الخط العربي للوصول إلى الحاسوب؟

- حالة التطور تخدم جوانب اللغة، فيما يتعلق بالمعاجم والقواميس، ولكن لا تخدم بنية الخط العربي، رغم أنه ظهر في الحاسوب برامج تستخدم الخط العربي، لكن هناك فرق بين خطوط الحاسوب والخط اليدوي، فهي تقوم بمقام قريب منه، لكن لا غنى عن الخط اليدوي، لكنه جهد مشكور ممن يحاولون إيجاد حلول وبدائل لإثراء اللغة، وليس لإثراء الخط، لأنه معتمد في الأساس على الأشياء الأصلية، وكل من يدخل مجال الخط العربي دون ممارسة هذا الفن بيده ليس بخطاط أو فنان.

• لماذا يسمى الخط العربي بـ«الشريف»؟

- لتشرفه وارتباطه بالقرآن الكريم.

• بم يختلف الخط عن الفنون الأخرى؟

- فن الخط يعتمد على الروحانيات أولا، والخط العربي له قواعد وأصول، لارتباطه بالقرآن الكريم، لأنه جعل للخط مكانة سامية عالية. حتى إن هناك آيات تبين عجز اللغة أمام القرآن الكريم.

• ماذا عن أهم المعارض التي شاركت فيها؟ وما أبرز ملامح مسيرتك الفنية؟

- أشهرها كان في المدينة المنورة، خلال ملتقى مجمع الملك فهد لخطاطي القرآن الكريم في العالم، عام ٢٠١١م، حيث ضم خطاطين من ٣٠ دولة، اجتمعوا على معرض للخط العربي،



وتكريم الذين كتبوا القرآن، وكان هناك معارض أخرى، منها لوزارة الثقافة في مصر.

وبدأت من كلية الفنون الجميلة عام ١٩٨٢م، فكان الخط العربي ملازما لي حتى التخرج، وعملت بعدها بالتدريس في صغر سني، في دار المعلمين في الدقي، ثم بعد ذلك سافرت إلى

السعودية كمعلم للخط العربي والتربية الفنية وتعليم القرآن الكريم، ومنذ ذلك الحين شاركت في معارض كثيرة، ولي بصمات بأغلفة الكتب في العالم العربي كافة، وليست مصر فقط، كما كتبت المصحف أربع مرات، آخرها طبع بقراءة ورش عن نافع، ولي جولات كثيرة حول العالم لتعليم الخط، في مصر، وفرنسا، وجنوب إفريقيا وغيرها من الدول.

وحصلت على جائزة التميز في مسابقة خاصة بالخطاطين، وأيضا تم تكريمي في ملتقى مجمع الملك فهد، وآخر شيء تكريمي في كلية الفنون الجميلة بجامعة المنيا، خلال ورشة للخط العربي، ومن وزارة الشباب والرياضة مع مؤسسة «ألوان» لتعليم الخط العربي، وفي فرنسا من خلال ورشة عام ٢٠٠١م.

● ما أكثر اللوحات التي تسترعي انتباهك؟

– اللوحات التي تتميز بالجانب التشكيلي، ولها فكرة، وفيها كلاسيك أكاديمي وبصمة تشكيلية، خاصة عندما تكون حروفيات متداخلة، ولا يجب أن تكون لوحة لها نص مقروء، لكن بها حروفيات متداخلة، تعطي شكلا جميلا، فالحروفيات تعطي متسعا من الثراء والتعددية من الإنتاج الفني، غير اللوحة المقروءة، فذلك يدل على أن الخطاط يفهم في العلاقات والمساحات والمنظور والأبعاد والألوان، وتحويل اللوحة الخطية إلى لوحة إبداعية، يدخل فيها جانب التصميم والتنوع، وهذا لا يكون عند الخطاط الكلاسيك.

وأنعم الله علي بدراسة الفن الكلاسيكي والتشكيلي، وحاولت أن أجمع بينهما في إطار متساو، وقلما نجد أن خطاطا يدرس الكلاسيك بأصوله مع الفن التشكيلي.

● ما أهمية تنظيم معارض للخط العربي؟

– تشجع على الإبداع بالنسبة للخطاطين

شعرت بمدد روحاني وأنا أكتب آيات القرآن الكريم

في مرحلة التعلم، وتحافظ على فن الخط العربي، وتوفر التواصل المباشر بين الخطاطين.. وهناك محاولات من البعض ليكون لهم بصمة، خاصة في الخط العربي، لكن دون جدوى، لأن الخط وصل لمرحلة تشبع بشكل معين، لا يستطيع الإضافة فيه، لكن التطوير يكون في التناول، وليس ابتكار خط جديد، ويسمى باسم صاحبه، فهذا مستحيل، لكن الإضافة الممكنة هي الابتكار في حدود ما وصل إليه فنانو الخط العربي، وكانت في نهاية الدولة العثمانية، فالعثمانيون هم الذين أرسوا للخط العربي قواعد، وجعلوا منه شكلا مبهرا لا يستطيع أحد أن يغير فيه، فكانت العثمانية آخر العهود الإسلامية التي اهتمت بالخط العربي بشكل خاص، بدليل أنه حتى الآن تسمى إسطنبول قبلة الخطاطين في العالم أجمع، ومن يريد الوصول إلى أعلى مستوى يذهب إلى تركيا، لأنها الوحيدة التي حافظت على هذا الفن.

● ما أكثر الدول التي اهتمت بالخط العربي على مر العصور؟

– الدولة الأموية والعباسية والفاطمية، وأكثر الدول التي اهتمت بالخط العربي هي العراق، ويكفيها فخرا أن الخطاط ابن مقلة العراقي الأصل هو أول من وضع للخط العربي ميزانا وقواعد، ووضع له شكلا ومقياسا، يميز الحروف عن بعضها، وهناك الأندلس وفي الوقت الحالي تركيا، وهي ثلاث محطات للفن الإسلامي.

لكن هناك فن آخر لا ننساه وهو الفارسي، المرتبط بالمقامات في إيران، ويعتبر مستقلا بذاته، لأن له أدبيات مختلفة عن الفنون الأخرى.

● ما هي أنواع الخطوط العربية؟

– هي ستة أنواع مشهورة تتمثل في: الرقعة، النسخ، الفارسي، الديواني، الثلث الكوفي، علاوة على وجود أنواع غير مشهورة، لكن يكتب بها، مثل الإيجازة، المحقق، قلم التوقيع والكوفي، وهناك أكثر من سبعين نوعا. والخط العربي إما أن ينسب للبلد التي نشأ فيها، مثل الفارسي نسبة لفارس، وإما للشخص مثل الخط الديواني الغزلاني، نسبة إلى غزلان، أو نسبة إلى مناسبة، مثل خط التاج كان في الفترة الملكية أيام الملك فؤاد.

● وما الاختلاف بين الخطوط؟

– الاختلاف في التوظيف والشكل، لكن يسقى بماء واحد، فمثلا خط الرقعة لا نستطيع أن نشكل منه لوحات إبداعية، لأنه ليس فيه فنيات عالية، لكن خط الثلث به فنيات كبيرة، يمكن أن نبدع به، والخط الكوفي لا يكتب إلا على المساجد، والخط الديواني مرتبط بالدواوين الحكومية، ونجده يستخدم في رسالات الماجستير والدكتوراه.

● ما شعورك في أثناء كتابتك للقرآن الكريم؟

– أشعر حين أكتب القرآن بأنني منفصل عن العالم كله، وأشعر بمتعة كبيرة. وحينما أترك الكتابة أشعر بضيق، لأنها متنفس روحاني للخطاط، هو شعور لا أستطيع وصفه، لأنه مرتبط بمدد روحاني، وقت الكتابة نفسها، وعندما بدأت الكتابة كنت أشعر برعشة في يدي، لأنه كلام الله، وله رهبة كبيرة، وتعلمت أنني عندما أخطئ لا أقف عنده، بل أصححه، وأستشعر معنى الآية. وهذا ما دعاني للالتحاق بمعهد إعداد الدعاة، لأتعلم معنى الآية، ووضع الحروف، وإعراب القرآن الكريم، فكتابة القرآن غير أي شيء آخر.

وعلى الرغم من أن هناك كثيرين أجمل خطا مني، فإن كتابة القرآن اصطفاء من الله، كما أنها أمنية لأي خطاط في العالم أجمع.

على البيض والأرز عند العرب:

الكتابة الميكروسكوبية

د. عمرو عبدالعزيز منير
باحث أكاديمي

تزخر متاحف العالم بأعداد لا حصر لها من الكتابات المتناهية الصغر، التي بلغت درجة عالية من الجودة والإتقان، ساهمت بدور كبير في تتبع مراحل تطور الفن الكتابي، الذي ساهم فيه الخطاطون العرب بخدمات جليلة عندما ابتكروا الأقلام الدقيقة التي مكنتهم من تصغير الكتابة إلى حد أثار الإعجاب، حيث كانوا يكتبون على الحبوب وعلى الخواتم وغيرها، مما هيأ في ما بعد لبلورة هذا الفن؛ ليكون شكلا من أشكال حفظ المعلومات المهمة والحساسة، والذي أصبح يطلق عليه اليوم الكتابة الميكروسكوبية وقد تنبه العرب منذ قرون عديدة إلى فكرة تصغير الكتابة إلى حد لافت للانتباه، وكأنهم أرادوا أن يوضحوا للعالم أن هذا اللون من الكتابة المصغرة قد يكون هو الأنسب لإخفاء المعلومات والرسائل المهمة في مستقبل الأيام، وكأنهم تنبأوا بما سيكون في القرن العشرين، الذي شهد مولد التقارير الميكروسكوبية، التي يتم فيها تصغير صفحة كاملة في حجم الدبوس بواسطة ميكروكاميرا، بل تعدى الأمر إلى توصل العلماء إلى ما يسمى بالنقطة الميكروسكوبية، التي يمكن بواسطتها عن طريق كاميرا خاصة تصوير كتاب متوسط الحجم بأكمله في مساحة لا تزيد على المساحة التي يشغلها رأس نفرتيتي المرسومة على ورقة النقود المصرية، بحيث لا يزيد الخطاب الفردي عن حجم الدبوس.

ولكن المدهش أن العرب لم تكن لديهم أجهزة التصغير الحديثة، بل استخدموا إمكاناتهم البسيطة، وبرعوا في ذلك إلى حد يفوق الخيال، ومارسوا هذا اللون من الفن على الحبوب، والذي لم يكن لأغراض عسكرية ولا سياسية، وإنما كان عبارة عن ترف فني، القصد منه إظهار المهارة في هذا اللون من الكتابة، وهو ما يوضحه لنا المؤرخ النابه سلامة محمد البلوي في كتابه المدهش «تاريخ أمن المعلومات في الحضارة الإسلامية»، الصادر أخيرا عن دار القلم في دبي.

ولعل من أطرف الملاحظات التي أشار إليها البلوي، هي أن الإشارات التي تدل على أن العرب استخدموا هذا اللون من الفن ما أورده عبدالحي الحنبلي صاحب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، من أن إسماعيل بن عبدالله الناسخ، المعروف بابن الزمكجلي (ت ٧٨٨هـ - ١٣٨٦م) أنه كان أعجوبة في كتابة قلم الغبار مع أنه لا يطمس واوا ولا ميما، وكان يكتب آية الكرسي على أرزة وكذا سورة الإخلاص.

ولم يكن الزمكجلي الوحيد الذي ذكرته مصادرنا الإسلامية ممن برع في هذا الفن، بل يحدثنا صاحب تاريخ الأول في من تصرف في مصر من أرباب الدول، أنه شاهد عام (٩٩٦هـ - ١٥٨٧م) شخصا يدعى الأمير سليمان بن أحمد بن أزدمر، المشهور بالأخرس، الجركسي الأصل، وهو من أعيان عسكر مصر، حضر إلى محكمة منيف في مصر، وأبرز من يده حبة أرز مكتوب عليها ما قرأته وهو: «بسم الله الرحمن الرحيم» سورة العصر، وسورة الكوثر، وسورة الإخلاص، كتبه محمد سنة ٩٩٢هـ. وشاهد ذلك قضاة المحكمة المذكورة وشهودها، وما من شخص منهم إلا وقرأ ذلك مرة أو مرتين. أما الراوي لهذه الحادثة فإنه قرأ ما على الأرزة ثلاث مرات، وتأمل حروفها تأملا شافيا، وشاهد جرة كل بسملة، والكافات المبسوطة واسم الكاتب والتاريخ المكتوب بالأحمر، وكتب في خصوص ذلك محضرا رقم به شهادة من شاهد ذلك ورآه منهم. إن ممارسة هذا النوع من الفن ليست بالأمر اليسير وإلا لما قدم إلى المحكمة لتثبت صحة دعواه، ولما كتب محضرا في ذلك. إن ذلك يتطلب صناعة أقلام دقيقة، خصيصا لهذه الغاية، كذلك يتطلب الأمر تحضير نوع خاص من الحبر الذي يمكن أن يكتب به على هذا النوع من الحبوب، كذلك يتطلب الأمر صبرا وأناة من المتعامل مع هذا اللون من الكتابة، وكذلك دليل على رقي العقلية الإسلامية وقدرتها على ممارسة الأمور الدقيقة التي تبهر عقل المطلع عليها.

لقد استثمر المسلمون ورعايا الدولة الإسلامية في ممارسة هذا اللون من الفن حتى مطلع القرن العشرين، رغم الظروف الصعبة التي تلت الحرب العالمية الأولى كدليل على تواصل هذه الحضارة وعدم انقطاعها وتجددها رغم كل الظروف المحيطة، فممن اشتهر في مطلع القرن العشرين بالكتابة المصغرة على الحبوب وغيرها الأستاذ القانوني حسن أفندي عبدالجواد بمصر، الذي كتب على حبة قمح ثلاث سور من القرآن من السور القصار، وممن اشتهر بذلك أيضا الخطاط اللبناني الشهير نسيب مكرم، الذي نقش على فص خاتمه من الذهب بحجم ٩/١٠ مليمتر النشيد القومي المصري لأحمد شوقي، وعدد أبياته ستة عشر بيتا وعدد كلماته ٢٨٧ كلمة، وكان

نسيب قد سمع عن الأمير التنوخي أنه كتب آية الكرسي على حبة قمح مقدمة إلى متحف الجامعة الأميركية في بيروت كتب عليها قصيدة كلماتها ١٠٧، وهناك حبة أرز من رخام بحجم حبة الأرز الطبيعية كتبت عليها قصيدة للشاعر عبدالرحيم قليلات بعنوان «مصر وبنوها» من ثلاثين بيتا و٢٨٧ كلمة، وحبة أرز كتب عليها قطعتين من نشيد المرسيير الفرنسي، ومن عجائب آثاره بيضة من رخام بحجم بيضة الدجاجة الطبيعية كتب برأسها الطغراء السلطانية ثم مقدمة بدا فيها اسم الشيخ نسيب ودعاء للسلطان ثم فاصلا تليه مواد الدستور العثماني باللغة التركية، ثم فاصلا تليه قصيدتان في الدستور والجيش العثماني من ٥٩ بيتا، ثم فاصلا تليه خريطة الدولة العثمانية. وقد جمع على سطح هذه البيضة نحو عشرة آلاف كلمة عدا الطغراء والخريطة، وكذلك جاء في تحفة الخطاطين بأن قاسم عبارى (ت ١٠٣٤هـ - ١٦٢٤م)، وحمد مصلح الدين بن إسماعيل (١٠٨١هـ - ١٦٧٠م) كانا يكتبان على الحبوب سورا من السور القصار.

وقد أهدى نسيب إلى الملك عبدالعزيز خاتما ذهبيا نقش على فصه تاريخ جلوس الإمام العادل ملك الحجاز وسلطان نجد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود أيده الله ثم أبيات منها:

بك يا عبدالعزيز انتظمت
حالة الإسلام بين العالمين
وعلى حبك في الله لقد
جمع الله قلوب المسلمين

كذلك اشتهر في القرن العشرين محمد طاهر الكردي، فقد كتب بيتين من الشعر على حبة أرز، ورسم خريطة الجزيرة العربية، مع أسماء البلدان ووضع الألوان، رسما صغيرا بحجم طابع البريد محلاة بالذهب وقدمها هدية للملك عبدالعزيز آل سعود.

هذا، ويوجد في دار الكتب المصرية العديد من الحبوب التي تحتوي على كتابات، من بينها حبة قمح مكتوب عليها باللغة العبرية مدح سيدنا موسى - عليه السلام - للأراضي المقدسة حين دخلها بنو إسرائيل. واشتهر خطاط أفغانستان بكابول محمد داوود الحسيني بالكتابة على الحبوب، وقد كتب على بوصة مربعة ٥٥٥ كلمة. من هنا، يتضح أن هذا الفن ازدهر في أجزاء عديدة من عالمنا الإسلامي حتى مطلع القرن العشرين.. في مصر ولبنان والجزيرة العربية وأفغانستان وسوريا، وهذا خير شاهد على أن العرب كانوا السابقين لهذا الفن من بين أمم الأرض، وهم الذين أعطوه شخصيته كفن من الفنون التي انفردت بها الحضارة الإسلامية.

وقد سبق العرب الفرنسيين في الكتابة على البيض، بيد أن العرب استخدموا الكتابة على البيض كترف فكري ومن أجل الزخرفة وإظهار الإبداع، أما الفرنسيون فقد استخدموا الكتابة على البيض من أجل أهداف سياسية وعسكرية. وكانت الكتابة على البيض عند الفرنسيين غير ظاهرة، بينما عند المسلمين كانت ظاهرة بارزة، فقد كان الفرنسيون يغسلون بيضة طازجة بعناية فائقة ليزيلوا الغشاء الطبيعي لها ويكتبوا الرسالة على القشرة بحبر سري يمكن إظهاره بواسطة الحرارة، وعندما يمر القلم على المسام الموجودة على القشرة بحبر سري يمكن إظهاره بواسطة الحرارة، وعندما يمر الحبر على المسام الموجودة على القشرة إلى الغشاء لا يترك أثرا ملحوظا على البيضة التي توضع بين عشرات البيض.

أما العرب فقد كانوا يكتبون على البيضة بعد تفريغها، فقد كتب حسن أفندي عبدالجواد بمصر، والذي اشتهر كما تقدم بالكتابة على الحبوب وعلى البيض أيضا، على بيضة دجاجة مفرغة تاريخ محمد علي باشا وإسماعيل باشا، وكتب على بيضة مفرغة أخرى الدستور المصري، وقد نال العديد من الجوائز على ذلك. وقد اشتهر غيره في أنحاء عديدة من عالمنا العربي في هذا الفن. وهكذا نرى أن العرب سبقوا الكثير من الأمم في التنبيه إلى إمكانية التصغير ليدفعوا التفكير الإنساني في القرن العشرين إلى تطوير هذه الفكرة، فاستغل النهضة الصناعية وما توافر من أجهزة إليكترونية ليصل إلى نتائج مذهلة في فن التصغير، الذي يعتبر شريان حياة شبكات التجسس في العالم، وقد قرر أخيرا الناشر الكندي روبرت تشابلن أن يصدر نسخة مطبوعة من كتاب «تيني تيد فروم تيرن أب تاون»، وهو الكتاب الذي تم تسجيله عام ٢٠١٢م في موسوعة جينيس للأرقام القياسية كأصغر كتاب في العالم، حيث تتطلب قراءته نوعية خاصة من أجهزة المايكروسكوب التقليدية، إذ تمت كتابته عبر الأشعة الأيونية المركزة على ٣٠ صفيحة معدنية متناهية الصغر، وتم وضعها جميعها على رقاقة إلكترونية صغيرة، مع العلم أن كل الأحرف في الكتاب تم «نقشها» على سطر يبلغ حجمه ٤٢ نانومتر (النانومتر يساوي واحدا على المليون من المليمتر).



تنمية جماليات الذوق العام

د. آندي حجازي
أستاذة تربوية أردنية

عندما تسير في شوارع المدن المختلفة تعترضك الكثير من المظاهر والسلوكيات التي تعكس صورة الأمة والذوق العام لديها. فالكثير من الأمم اليوم يقاس رقيها وتقدمها ليس بمقدار إنتاجاتها واختراعاتها فقط، بل أيضا بمدى ما يقدم أفرادها من سلوكيات تدل على الذوق العام في المجتمع، إذ إن الذوق العام يتضمن التنظيم والترتيب والنظافة واحترام حقوق الآخرين واحترام خصوصيتهم، واحترام الأملاك العامة والخاصة للآخرين وعدم الاعتداء عليها. ويشمل كذلك القدرة على التعايش مع الآخر، وأساليب تعامل الأفراد بعضهم مع بعض، ومدى تحمل المسؤولية الجماعية وتقبل روح الجماعة. ويعكس الذوق العام مدى حب الإنسان لوطنه ومجتمعه وانتمائه للوطن الذي يعيش فيه ويأكل من خيره، حتى وإن لم يكن يحمل جنسيته.

فالذوق العام، الذي يتحلى به أفراد مجتمع ما، يعكس ثقافة ذلك المجتمع التي نشأ عليها وعاداته وتقاليده وقيمه وأفكاره التي تربى عليها، والتي قد تكون انطلقت من ديانته أو من مبادئه التي يؤمن بها، وكثيرا ما تصبح سلوكيات أفراده صورا نمطية يوصم بها ذلك المجتمع؛ ما يجعلنا نتمنى لو أن سلوكياتنا العامة تنطلق من تعاليم ديننا الحنيف وقيمه، فعندها سنكون أفضل المجتمعات وأرقاها سلوكيا وأخلاقيا، ولكن حيث بعدنا اليوم عن مظلة الدين، ولم نجعل لسلوكياتنا أي مظلة ذات قيمة؛ باتت سلوكياتنا العامة عجيبة لا يمكن أن توصف بأي حال من الأحوال بأنها من الذوق العام أو الخاص!

ولنضرب أمثلة على ذلك، انظر وأنت تسير في الكثير من المدن العربية اليوم كيف أصبح حال نظافة شوارعها، سترى أبناءها يرمون المخلفات من نوافذ السيارات وأبوابها، وعلى أبواب مدارسها، ومداخل محلاتها التجارية، وفي حدائقها يتركون مخلفاتهم على أرضها، أو يخربون ملاعبها وأشجارها وأزهارها، في مشاهد تثير الاستعجاب! فكيف





ونحن أمة جعلت النظافة دليلا من أدلة إيمانها «النظافة من الإيمان»، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ (المدثر:٤). فلم يعد يمنع من يمارس تلك السلوكيات، كبارا كانوا أو صغارا، أي خلق أو ذوق عام! وتأمل أيضا كيف يكتب البعض على جدران الأنفاق والجسور والأسوار العامة والأماكن الأثرية! فهل يقبلون أن يكتب أحد على أسوار بيوتهم وجدرانها؟

وانظر كذلك إلى من يريد البناء في أرض له تجد أنه يحفر أرضه، ثم ما يخرج منها من أتربة يأخذه ويرميه في أرض غيره أو في أرض عامة، فهل هذا يحق له؟! وهل هذا من الذوقيات العامة؟! فأين نحن من الأمانة ومن تعاليم ديننا الحنيف؟!

وترى العديد افتقدوا الحس الوطني العام، فمثلا نلحظ حينما يريد البعض الاعتراض على سياسة حكومية ما؛ أنهم يأخذون بالتدمير والإتلاف وتحطيم الممتلكات العامة والخاصة والدوائر الحكومية، فهل هذا يمت لتعاليم الدين أو للذوق العام بصلة أو يخدم القضية المعنية؟! تصرفات لا تليق بأخلاقيات الذوق العام والخلق الرفيع والسلوك الحضاري، حيث يمكن التعبير عن الرأي بطرق حضارية كما يفعل الأفراد في المجتمعات الغربية. كما أن ما نخسره من ممتلكات عامة أو أشجار أو أرصفة، نحتاج إلى وقت طويل لإعادته إلى ما كان عليه، بالإضافة إلى الخسائر المادية والجمالية. وللأسف، إن أخلاقيات الذوق العام باتت لدى أفراد الغرب أفضل مما هي لدى أبنائنا اليوم!

أمثلة واقعية لظاهرة الذوق العام

إن الذوق العام تعكسه أساليب التعامل بين البشر وأفراد المجتمع الواحد، خصوصا في الأماكن العامة وفي المناسبات المتنوعة والمعاملات المختلفة، فمثلا حينما يصطف الأفراد في طابور من أجل إتمام معاملة ما ثم يأتي شخص متأخر من بعيد، وبشكل متحايل يقنع أحد المصطفين في مقدمة الصف بالاصطفاف أمامه، متجاهلا بقية المصطفين، ومتغاضيا عن حقوقهم، فهذا يعكس نقصا في الذوق العام لدى هذا الشخص، الذي يتمركز حول نفسه ولا يرى إلا حاجته، وكأن الآخرين لا حاجات لديهم، أو هو يعتبر نفسه أفضل منهم، وأن لديه موعدا لا يمكن التأخر عنه بينما هم لا!

أو تكون في حافلة فتفتح حقيبتك أو تقرأ في ورقة أو مجلة أو هاتفك، فترى من يجلس أو يقف بجانبك يختلس النظر؛ ليرى ما تقرأ أو ما ستخرج من حقيبتك أو جيبك، وكأن الأمر يعنيه! أو تجده يحاول معرفة ما اشتريته داخل الأكياس التي تحملها! أو تكون في الطريق فتسمع صراخ بعض الأفراد أو ألفاظا بذيئة أو تحرشات حرجة في سلوكيات تفتقد الحد الأدنى من الذوق العام! أو تكون في سيارتك فتسمع أصوات الموسيقى الصاخبة تخرج من إحدى السيارات، أو أصوات بعض الشباب وهم يصرخون مخرجين أنفسهم من نوافذها بطريقة تزعج الآخرين ولا تحترم آداب السير في الشارع أو حاجات بعض الناس.. أو تجد استخدام منبه السيارة لمناداة بعض الأشخاص أو في الأفراح بطريقة صاخبة تزعج الآخرين! أو ترى بعض الشباب يمارس هواية «التفحيط» في السيارات في الشوارع بطريقة تمتلئ بالخطورة والتهور.

هذه سلوكيات لا يمكن أن تحدث في الدول المتقدمة، حيث أساليب التعامل مع المجتمع الذي يحيط بالفرد تعكس المستوى الثقافي والتعليمي لذلك الشعب، وعمق تفكيره، والبعد الإنساني والحضاري الذي تربى عليه، واحترام الآخر. وبهذه السلوكيات يعرف مدى الرقي في التعامل والذوق العام الذي بلغه ذلك المجتمع دون غيره، كالمجتمع الياباني أو الماليزي أو السنغافوري أو مجتمعات بعض دول أوروبا أو المجتمع الكندي.

وعندما نقول إن هذا الذوق العام ينطلق من ثقافة المجتمع التي نشأ عليها، فإننا لا نبالغ، فانظر مثلا إن كانت الأم تسير مع ابنها في حديقة عامة أو شارع عام أو مركز تجاري، وبعد تناول ما بيدها من طعام ترمي

المخلفات على الأرض! أو ترى ابنها يرمي مخلفات طعامه من دون أن تردعه أو تعلمه التصرف الصحيح! فكيف سينشأ هذا الطفل؟ فكما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه...

والكلام ينطبق على الأم والأب على حد سواء. وإن كان هذا السلوك هو الأعم الأغلب لدى أفراد مجتمع ما، فستصبح ثقافة الشعب هي رمي المخلفات أينما كانوا في الأماكن العامة من دون أدنى اكتراث. والمشكلة أيضا أن تتكون لدى الآخرين صورة نمطية سلبية عن هذا الشعب يصعب تغييرها ما لم تتغير تلك السلوكيات.

الإسلام دين الذوق العام

وديننا الإسلامي أعاننا على التربية القويمة لتلك السلوكيات التي تنم عن الذوق العام، وذلك بآيات وأحاديث كثيرة تربي المسلم على الذوق العام، فمثلا ألا يرفع الصحابي أو الأعرابي صوته في حضرة النبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ (الحجرات:٢)، وفي موضع آخر يعلمنا التأدب في الطريق كالسير بهدوء ومن دون إزعاج للآخرين وعدم رفع الصوت: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ (لقمان:١٩)، فما بالك بمن يرفع صوت المسجل في السيارة، أو «يفحط» في سيارته ليزعج الآخرين، أو يستخدم منبه السيارة بطريقة مزعجة من دون مراعاة لوجود مستشفى أو مدرسة أو ما شابه، فأين غض الصوت من ذلك كله؟!

وآيات كريمة في تعليم المسلمين أخلاقيات التعامل مع رسول الله ﷺ عند دعوتهم إلى بيته، وهي أخلاقيات وذوقيات تعامل المسلمين بعضهم مع بعض عامة، كعدم دخول بيوت الغير من دون إذن، وعدم الإطالة عند الآخرين، وبالأخص بعد تلبية دعوات الطعام؛ فقال تعالى معلما المسلمين في كل زمان ومكان تلك الذوقيات العامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ (الأحزاب:٥٣).

وكذلك في ضرورة الاستئذان للزيارة أو الاتصال للسماح بالقدوم، فإن اعتذر الشخص فعلينا عدم القدوم وعدم الغضب من ذلك، فلكل إنسان ظروف خاصة، وعدم دخول أي بيت من دون إذن، وإن كان مفتوحا، لأن دخوله بهذه الطريقة ليس من الذوق العام في شيء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ (النور:٢٧-٢٨).

وقد قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع» (رواه مسلم). فما أجمل هذا التهذيب الذوقي!



وانظر لجماليات الذوق العام في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ (الحجرات:١١)، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ (الحجرات:١٢).. أليست هذه تربية إسلامية على ذوقيات التعامل مع الآخرين بعدم السخرية منهم أو التجسس عليهم أو اللمز والتنابز بالألقاب والأسماء السيئة التي تؤذي الآخرين؟!

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي



ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟﴾ (المجادلة:١١).

فهذه السلوكيات في التوسيع للآخرين في المجلس أو في الحافلة أو القطار أو لكبار السن أو ذوي الحاجات، إنما تنم عن أخلاق وذوقيات عالية، ومن الجميل تربية النشء عليها. وقال النبي ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست». قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» (رواه البخاري ومسلم). وقال عليه الصلاة والسلام: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»، أليست هذه من جماليات الذوق العام، كإفشاء السلام وإجابة الدعوة وتقديم النصح للآخرين حين الحاجة، وتشميت العاطس حيث يشعر بالاهتمام به، وكذلك زيارة الأهل والأصدقاء عند المرض؛ والتبسم في وجوه الآخرين... ألا تحتاج إلى بعض الذوقيات للشعور بحاجات الآخرين وإشاعة المحبة بينهم؟

الذوق العام والتربية

إننا نرى البعض وبحمد الله يظهر سلوكيات تنم عن ذوق عالي المستوى؛ كمن يتحدث بصوت معقول أثناء سيره في الشارع، أو يسلم على المارة في الطريق أو الباعة الجالسين على أبواب محلاتهم، أو ترى موظفا يبتسم في وجوه المراجعين، ويعكس جوا من الابتسام والأريحية، مما يريحهم ويشعرهم بإنسانيتهم، أو ترى شخصا يساعد جاره، أو شخصا مريضا في الشارع، أو تشاهد رجلا مارا يلتقط الأذى عن الطريق ويضعه بعيدا، أو أما تمنع طفلها من تكسير مصابيح الشوارع أو قطف أزهار الحدائق العامة، أو والدا يمنع ابنه من تخريب سيارات الجيران أو إيذاء قطة في الشارع، ويرفض منه استخدام السباب والألفاظ البذيئة أثناء اللعب مع أقرانه.. فهذه كلها سلوكيات تمت تنميتها ومراقبتها لدى هؤلاء الأفراد منذ الصغر أيام الطفولة والمراهقة.

فتنمية الحس الجمالي والذوق العام لدى أفراد المجتمع تبدأ منذ الصغر ومن التربية والتعليم في البيت والمدرسة، فأخلاقيات الذوق العام تعكس التربية التي نشأ عليها الفرد من خلال أسرته ومدرسته ومجتمعه. فحينما يشاهد الطفل أمه تبتسم في وجوه الآخرين وتحترم حقوق جيرانها ولا تؤذيهم بصوتها أو ألفاظها وسلوكياتها، وتهتم بنظافة بيتها وأناقته وتهيئة ديكوره بشكل جميل ومريح للنفس، وتضع أحيانا بعض الزهور في بعض غرف البيت أو على مداخل بيتها، وتعلم أبناءها النظافة فرائحة بيتها فواحة عطرة جميلة، وتشجع أبناءها على ترتيب غرفهم وأسرتهم قبل الذهاب إلى المدرسة، وتحثهم على الأناقة والتهذيب مع الآخرين في التعامل فلا شجار يدوي ولا سباب، وتعلم أبناءها اتباع السنن النبوية في آداب الطعام، وآداب النوم، وآداب الاستئذان، والسلام، وآداب الطريق والشارع، واحترام الكبير والوالدين، وتهتم بالمحافظة على الحدائق العامة والشارع وممتلكات الآخرين.. فإنه حتما حينما يكبر هذا الطفل سيكون قد اعتاد الحفاظ على ممتلكات المجتمع العامة، لأنه يشعر بالأمانة تجاهها، وبأهمية نظافتها، ومراعاة حقوق الآخرين... فينمو معه حس جمالي وذوق عام تجاه ما حوله، لأن من الطبيعي ألا يكون الإنسان بشخصيتين أو وجهين: شخصية في البيت وأخرى في العالم الخارجي.

ولكن إن كانت التربية قاصرة النظر أو ذات فجوات وتناقضات وتشجع على تخريب ممتلكات الدولة وعلى الاعتداء على حقوق الآخرين، فهذا كله سيكون مصدرا لإشاعة روح الفوضى والأنانية مع قتل الحس الجمالي والذوق العام لدى الطفل، الذي يتخذ من والديه قدوة له، يرقبهما في كل تصرفاتهما وأقوالهما وأفعالهما.

وهناك دور كبير للمؤسسات التعليمية من خلال منهاجها في الإسهام في تكوين ثقافة التعاون وتنمية الروح الجماعية والتأكيد على كرامة الإنسان وحرياته، واحترام الآخر، والاعتراف بالتعددية الفكرية، والاختلاف في الأمزجة والسلوكيات والتي لا تعني التدمير والتخريب والعبث! فعلى المناهج تنسيق الأنشطة كي تكون ذات طابع اجتماعي حضاري وإنساني، تحترم الفرد وتغرس فيه روح الانتماء الوطني والشعور بالمسؤولية تجاه الوطن وممتلكاته وأنظمته، لينمو لدى الأطفال الانتماء إلى المجتمع وهويته الثقافية؛ فمازال الكثير من أطفالنا وشبابنا تنقصهم التربية على قضية الذوق العام والحس الوطني التنموي.. فحب الوطن من الإيمان.

الذوق العام في حضارتنا

محمد شعبان أيوب
باحث دراسات إسلامية



حين كتب المستشرق الجاد مايكل كوك كتابه المهم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، كان دافعه من وراء هذا العمل الذي استمر معه لمدة عشر سنوات كاملة، هي تلك الحادثة التي قرأ عنها في الصحف الأميركية عن تلك المرأة التي اغتصبت على مرأى من الجميع، في محطة قطار شيكاغو سنة ١٩٨٨م، وما تدخل عشرات المشاهدين لإنقاذها، أو ردع الجاني، «وماذا يعنيه ذلك في سياق المسؤولية الأخلاقية والقانونية والدينية العامة». (١) ثم انتقاله في بداية كتابه الآنف إلى قصة «صائغ مرو» الذي تصدى لأبي مسلم الخراساني بطل الثورة العباسية؛ لردعه عن الظلم، ففقد حياته، استنادا لاعتقاده بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقارنته بين تلك الحادثتين، وما ترتب عليه من تتبع كوك على مستوى الطرائق الفيلولوجية - التي انتهجها من قبله مستشرقو القرن التاسع عشر والعشرين في دراساتهم حول التراث الإسلامي – في القرآن الكريم والحديث النبوي والمذاهب الفقهية والكلامية والمدارس الإسلامية المعاصرة، فخلص إلى تلك النتيجة التي فصلها الغزالي (ت٥٠٥هـ) في «إحياء علوم الدين»، في الفصل الذي عقده باسم: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، إذ قال رحمه الله: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين». (٢)

لقد رأى ذلك الباحث الأميركي كوك أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو المبدأ الذي ميز الأمة المسلمة عن أمته الغربية، فهو يعترف بصراحة تحسب له أنه «ليست لدينا (في الغرب) في حياتنا اليومية مصطلح يشرح هذا الواجب، كما ليست لدينا نظرية عامة حول الأوضاع التي ينطبق عليها، والإرغامات التي تسقطه. إن القيمة الأخلاقية موجودة عندنا، لكنها ليست من القيم التي أولتها ثقافتنا صياغة متطورة ومتكاملة». (٣)

في المقابل، فإن من يبغي فهم قضية الذوق العام واللياقة في ديننا الحنيف لن يجد أفضل من مدخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمعناه الأعم الأشمل، للفهم والاستيعاب، وربما الدهشة التي تصيب القارئ والباحث على السواء لمدى الشمولية التي تلمس في هذا المبدأ الإلهي العظيم.

واستقاء هذا المبدأ كغيره من المبادئ الأخرى في الإسلام، إنما يتكئ على القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو مما لا يحصى ولا يحصر، والآية القرآنية الجامعة التي تكشف عن أن خيرية الأمة المسلمة إنما ترتبط بتمسكها بهذه الوظيفة الحضارية والأخلاقية، على المستوى الفردي والجمعي على السواء كاشفة لذلك، إذ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠). وقد علق الأستاذ سيد قطب رحمه الله على هذه الآية بقوله: «سبق في السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها، ليدلها على أنها لا توجد وجودا حقيقيا، إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني». (٤)

والحق أن الغزالي كان من أوائل من عكفوا على فهم النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم، وأثرها العملي على الذوق والسلوك العام، وذلك في كتابه «جواهر القرآن»، وقد رد جوهر هذه النظرية إلى عنصرين أساسيين يتصل أحدهما بالمعرفة، ويتصل الآخر بالسلوك، وانتهى إلى أن حصر في القرآن من النوع الأول سبعماءة وثلاثا وستين آية، كما حصر من النوع الثاني سبعمائة وإحدى وأربعين آية. (٥)

أما الأحاديث النبوية الشريفة فهي كثيرة للغاية، لعل أشهرها قوله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (٦)، وهذا الحديث الشريف من جوامع الكلم في قضية الذوق العام واللياقة، إذ ترك الحرية للمفسدين أو المنحلين على إطلاقها مفسدة للمجتمع؛ والإنسان بطبعه متعجل للمعصية قبل الطاعة، كما أخبرنا تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨)، ولو لم يجد هؤلاء المفسدون من يقف لهم آمرا

بالمعروف وناهيا عن المنكر، لاستشرى فسادهم.

من النظرية إلى العمل

إن أهم ما يميز الحضارة الإسلامية أنها كانت على المستوى العملي نموذجا فذا لتطويع الحركة البشرية، فكرا ومادة لخدمة الوحي الشريف. ونظرا لأن قضية الذوق والسلوك العام، كانت قد تجلت في آي الذكر الحكيم، وأقوال وأفعال النبي ﷺ وخلفائه من بعده، فقد برزت بمرور الوقت، ونضوج الفكرة، مسألة الاحتساب كسلوك واقعي، وانتقل الأمر من طور الفردانية إلى عمل مؤسسي جاد له ضوابطه وقواعده الواضحة، بل لم يتوقف الأمر عند ذلك، إذ صار الاحتساب وظيفة لا غنى للدولة الإسلامية عنها، ثم شرع في وقت لاحق في الكتابة المتخصصة عن الدور الأخلاقي والتعريف المنطقي لهذه المؤسسة، فظهرت مؤلفات الاحتساب في حقل الآداب والأخلاق العامة، وربما وجدناه في حقل السياسة الشرعية وآدابها.

أما الأمثلة التاريخية على هذا فأكثر من أن تحصى في مجلد، فضلا عن مقال، لقد حكى الإمام ابن كثير في «البداية والنهاية» أن رجلا يدعى أبا الحسين النوري اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح (بحار) فقال: ما هذا؟ ولمن هذا؟ فقال له: هذه خمر للمعتضد (الخليفة العباسي). فصعد أبوالحسين إليها، فجعل يضرب الدنان (أوعية ضخمة) بعمود في يده حتى كسرها كلها، إلا دنا واحدا تركه، واستغاث الملاح، فجاءت الشرطة، فأخذوا أبا الحسين، فأوقفوه بين يدي المعتضد، فقال له: ما أنت؟ فقال: أنا المحتسب. فقال: ومن ولاك الحسبة؟ فقال: الذي ولاك الخلافة يا أمير المؤمنين. فأطرق رأسه، ثم رفعه فقال: ما الذي حملك على ما فعلت؟ فقال: شفقة عليك، لدفع الضرر عنك. فأطرق رأسه، ثم رفعه، فقال: ولأي شيء تركت منها دنا واحدا لم تكسره؟ فقال: لأني إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالا لله تعالى، فلم أبال أحدا، حتى انتهيت إلى هذا الدن دخل نفسي إعجاب من قبيل أني قد أقدمت على مثلك فتركته. فقال له المعتضد: اذهب، فقد أطلقت يدك، فغير ما أحببت أن تغيره من المنكر. فقال له النوري: الآن انتقض عزمي عن التغيير. فقال: ولم؟ فقال: لأني كنت أغير عن الله، وأنا الآن أغير عن شرطي. فقال: سل حاجتك. فقال: أحب أن تخرجني من بين يديك سالما. فأمر به فأخرج فصار إلى البصرة، فأقام بها مختفيا، خشية أن يشق عليه أحد في حاجة عند المعتضد، فلما توفي المعتضد رجع إلى بغداد. (٧)

لقد تدخلت وظيفة المحتسب في كل ما من شأنه المحافظة على الذوق والسلوك العام، ومن أعجب ما نقرأ، ما وضعه ضياء الدين ابن الأُخوة (ت٧٢٩هـ) في كتابه «معالم القربة في طلب الحسبة»، في فصل «في الحسبة على مؤدبي الصبيان»، حيث قال: «يشترط في المعلم أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظا للكتاب العزيز، حسن الخط ويدري الحساب، والأولى أن يكون مزوجا، ولا يفسح لعازب أن يفتح مكتبا لتعليم الصبيان، إلا أن يكون شيخا كبيرا، وقد اشتهر بالدين والخير، ومع ذلك فلا يؤذن له بالتعليم إلا بتزكية مرضية، وثبوت أهليته لذلك. وينبغي للمؤدب أن يترفق بالصغير... ولا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم، ولا رقيقة لا تؤلم الجسم، بل تكون وسطا... وينبغي للمؤدب أن لا يستخدم أحد الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم، كنقل التراب والزبل وحمل الحجارة وغير ذلك، ولا يرسله إلى داره وهي خالية، لئلا يتطرق إليه التهمة...» (٨).

وهذا الكتاب يعد من أروع ما كتب في قضية الذوق العام وضوابطها، فضلا عن مؤلفات أخرى سبقته مثل كتاب «نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة» للشيزري (ت٥٩٠هـ).

لا ريب أن نظام الحسبة في الإسلام – كما يقول العلامة مصطفى الشكعة – «هو ذروة ما يمكن أن يفكر فيه الحكم الحصيف، للحرص على راحة الناس وأمنهم ودعتهم، والحفاظ على رفاهيتهم، وتجنيبهم كل أسباب القلق والضيق، وحماية المجتمع أدبيا ومعنويا وماديا، حماية مبسوطة كل البسط، غير محدودة بحدود، ولا مقيدة بقيود، إلا حدود الأمن وقيود الذوق، ولا نكاد نجد حكما معاصرا في أية دولة معاصرة يستعمل مثل هذا الأسلوب من أساليب حماية المواطنين في نطاق وظيفة بعينها، مثل وظيفة الحسبة وصاحبها المحتسب». (٩)

هوامش

١- مايكل كوك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي، مقدمة رضوان السيد، ص٢٠. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الثانية – بيروت، ٢٠١٣م.
٢- الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/٣٠٦، دار المعرفة – بيروت.
٣- كوك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ترجمة رضوان السيد وآخرين، ص٢٥.
٤- سيد قطب: في ظلال القرآن ١/٤٤٨، دار الشروق، الطبعة السابعة عشرة، القاهرة، ١٤١٢هـ.
٥- محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة عبدالصبور شاهين، ص٥، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، بيروت، ١٩٩٨م.
٦- صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٧٨). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧- ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/٨٩.
٨- ابن الأخوة: معالم القربة في طلب الحسبة، ص١٧٠، ١٧١، دار الفنون، كامبردج.
٩- مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ص٨٤.

غياب التنشئة والمسؤولية والرقابة والمحاسبة أبرز أسبابها

سلبيات المجتمع في مرآة الشرع والفطرة السليمة



إسلام لطفي ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية - القاهرة

- د. إبراهيم الهدهد: المشكلة تبدأ من البيت والمدرسة.. ومنهما أيضا يبدأ الحل
- د. هاشم بحري: عودة التنشئة الأسرية واحترام آدمية المواطن أولى خطوات العلاج
- خبيرة إتيكيت: ضغوط الحياة والتفريط في الدين أفرزا هذه السلبيات
- خبيرة اجتماعية: لابد من تربية النشء على السلوكيات القويمة واحترام الآخرين

د. عمارة: التدهور السلوكي ليس وليد اللحظة

أكد المفكر الإسلامي د. محمد عمارة في مقال له أن تدهور السلوك لدينا ليس ظاهرة معاصرة، وليس مرتبطا بالاستعمار فقط، ولكننا لدينا تخلف موروث، وألوان من التدهور الاجتماعي، حتى قبل مجيء الاستعمار وما جاء به من علمانية. لكن الوافد الغربي أحدث خللا في المعيار، بمعنى أننا قبل الاحتلال كنا متفقين على موقف واحد لتعريف ما هو الخلل، فالحلال والحرام - رغم وجود التدهور في الماضي - كان هناك اتفاق عليهما، وكان هناك اتفاق على تعريف ما هو القويم وغير القويم في السلوك، ولكن الخلل في المعيار جاء مع قدوم المستعمر الأجنبي، فعندما يكون الميزان صحيحا تعرف أن فلانا على حق في فعله، وأن الآخر على باطل، فماذا يحدث إذا كان الميزان نفسه فيه خلل؟!

وأوضح أن الاستعمار أضاف كما من التدهور وخللا في الميزان الذي يفرق بين الحسن والقبيح؛ فمنذ الدولة الأموية تغيرت الأمور، فحل الجور محل الشورى، لكن نطاق عمل الدولة كان محدودا، فالدولة كانت تفتح البلدان، أما من يجاهد وينشر الإسلام فكان هو الأمة، والأمة هي التي كانت تقوم على أمر التعليم والصحة، وظلت الشريعة هي الحاكمة في نطاق الأمة، والعلماء هم قادتها، وبالتالي ظل الانحراف محدودا.

وأضاف د. محمد عمارة أن القانون المرتبط بالعقيدة كان له انضباط وقوة، فحتى السارق وهو يسرق كان يعلم أن هذا انحراف وحرام وأن عليه الندم والتوبة، وبهذا المنطق الإسلامي نقلل حجم الانحراف ونفتح الأبواب أمام العودة إلى السلوك الاجتماعي السوي، أما القانون الوضعي فهو غير محترم بين الناس الذين يتحايلون عليه لأنه يخالف الشريعة.

تموج مجتمعاتنا الإسلامية اليوم بالعديد من السلوكيات السلبية، التي لا تمت إلى قيم دين الرحمة والتكافل والاحترام والنظافة والأخلاق الحميدة بصلة. ولا تبدأ هذه السلوكيات المرفوضة من علو الصوت والشجار في الطرقات والبصق فيها وحشوها بالنفايات، مرورا بالتحرش والتطاول وانتهاك الحرمات، والتنابز بالألفاظ والألقاب، وعدم الالتزام بآداب المرور والجيرة، وصولا إلى التخلي عن احترام الكبير وتوقيره، وفقدان المعلم هيبته وتطاول التلاميذ عليه، وكذا السخرية من علماء الدين وغياب توقيرهم.. كلها من السلوكيات المرفوضة التي جاء الإسلام بضدها.. «الوعي الإسلامي» سألت عددا من العلماء عن هذه السلوكيات وكيفية علاجها، فإلى ما قالوا:

نبدأ مع دراسة لاستشارية الطب النفسي د. رضوى سعيد، أكدت أن السبب الرئيسي في تدهور السلوكيات المجتمعية هو المشكلات التي تتفاقم داخل المجتمع، لافتة إلى أن هناك علاقة بين المشاكل المجتمعية وسلوكيات الأفراد، فكلما ازدادت هذه المشكلات تدنت سلوكيات الأفراد.

وأوضحت أن الجهل والازدحام والتكدس السكاني والضوضاء تعد عوامل تقلل من قدرة الجهاز العصبي على التحمل، وبالتالي ينفعل الشخص، ثم يتجاوز، ومن هنا يظهر سوء سلوكياته. لذلك، نجد أن سلوكيات الأشخاص الذين يعيشون في الأماكن التي تمتاز بالطبيعة النظيفة والأقل ازدحاما تكون أفضل من سلوكيات من يقيمون في بيئة غير صحية.

حلقة مترابطة

بينما أشار تقرير للجمعية الوطنية للدفاع عن الحقوق والحريات، إلى أن هناك ظواهر غريبة طارئة على المجتمع المصري أصبحت في تنام وازدياد، ويجب على الدولة والمجتمع أخذ زمام المبادرة بمواجهتها. وأكد التقرير أنه إذا لم تتم مواجهة هذه السلوكيات فإنها سوف تنتشر كما النار في الهشيم، وهي سلوكيات مشينة ترقى إلى مستوى الجرائم مثل «التحرش، هتك العرض، زنا المحارم، الاغتصاب».

وطالب التقرير بضرورة مواجهة هذه السلوكيات بحسم وعدم دفن الرؤوس في الرمال، مشيرا إلى العديد من المظاهر السلبية الأخرى، مثل حالة الفوضى التي يمر بها الشارع، وانتشار البطالة والمخدرات والموبايلات الصينية الرخيصة الثمن، التي أصبحت وسيلة في أيدي المراهقين يتداولون من خلالها مقاطع الفيديوهات الجنسية المقززة، والتي تشكل جميعها حلقة مترابطة من السلوكيات السلبية التي ينبغي التصدي لها.

ابتزاز تكنولوجي

كما رصد تقرير آخر لمركز تنمية مهارات المرأة أبرز السلبيات التي جدت على المجتمع، وذكر منها مساوئ استخدام التكنولوجيا بطريقة خاطئة تسيء إلى الآخرين وتقتحم خصوصيتهم أو تمارس ضدهم الابتزاز. كما تطرق إلى سلبيات اجتماعية تتكرر يوميا، مثل إلقاء المخلفات والقمامة المنزلية من شرفات المنازل وأبواب السيارات في الشارع، أو وضع هذه المخلفات في أوعية أمام الشقق السكنية من دون غطاء، وإلقاء بقايا الطعام وقشور الفاكهة من وسائل المواصلات المختلفة

أثناء السير، إضافة إلى التدخين داخل وسائل النقل والمواصلات وفي الأماكن العامة.

الأسرة هي الأساس

إلى ذلك، أكد نائب رئيس جامعة الأزهر د. إبراهيم الهدهد، أن رسول الله ﷺ كما صح في الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس في الطرقات». قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». فإعطاء الطريق حقه من آداب الذوق العام التي يجب أن يكون المسلمون عليها في تصرفهم في الملتقيات العامة والشوارع.

وأضاف: كف الأذى هنا مبدأ عام.. المراد منه كف الأذى قولا وفعلا، والذي يحدث الآن في الطرقات أمور تقشعر لها الأبدان، حيث يكثر فيها الأذى بالقول أو الفعل، فنرى كثيرا انتهاك الآداب العامة والاعتداء على الذوق العام، فيستغل الإنسان ما أمام بيته أو متجره مما لا يحل له من حق لعامة المسلمين في الشوارع، ويضيق عليهم الطرقات.

وتابع: الأمر الآخر من الذوق العام أيضا المنافي للآداب، هو عدم احترام الصغير للكبير في أثناء جلوسه على قارعة الطريق، سواء كان جالسا أو قائما، حيث مرور الإناث أو الذكور، فليس هناك غض للبصر أو عفة في اللسان، ولا مراعاة لحق الكبير.. مع أن شريعة الإسلام في ذلك واضحة، حيث صح عن النبي ﷺ في حديث عبدالله بن عمرو: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا»، وفي الحديث الذي صححه الألباني: «ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»؛ فهذه أمور وسلبيات كثيرة جدا في المجتمع المسلم ما كان ينبغي أن يأتيها أحد من المسلمين، فمثلا صار من الأمور المعتادة جدا في الطرقات أن يمر كبار السن بينما الصغار من الشباب والغلمان يضعون قدما على أخرى ويتلفظون بألفاظ قبيحة، مع مد أرجلهم في الشارع بحيث لا يستطيع الشيخ الطاعن المرور في الطريق، وإذا استنكر الشيخ الأمر ناله شيء من الألفاظ القبيحة.. كل هذا يعتبر من الأمور التي تعد اعتداء على الذوق العام ولا يرضاها الإسلام.

وأكد أن الأمثلة كثيرة، فمن حفر حفرة أمام بيته ولم يقم بردمها وإصلاح الطريق كما كان، وترتب على ذلك أن يصاب أحد من المارة بسوء، فعليه ذنب وعقاب حسب الواقعة التي تحدث، فمعالم الشريعة واضحة في هذا الأمر. كذلك من المخالفة للذوق العام كسر قواعد المرور، لأنها من الأمور التي تنظم العلاقات في الشارع بين الأفراد والسيارات، فأي مخالفة من هذا القبيل هي مخالفة لشرع الله، وإن القانون يأتي لمصالح الناس كافة، فالناس جميعا في الحق سواء. ونرى كثيرا من المشاجرات التي تحدث، والتكدس جراء ذلك، وهو سوء سلوك من الأفراد، وعدم احترام الذوق العام.

وعن إلقاء القمامة في الشارع، أكد الهدهد أن الرسول ﷺ قال: «طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تطهر أفنيتها»، والأمر ينطبق على الشارع أيضا، فالنظافة من الإيمان، ومعنى هذا أن الإسلام يربط النظافة بالإيمان؛ أيضا النبي ﷺ علمنا أن من رفع شوكا أو عظما أو ما إلى ذلك من الطريق يعد بمنزلة صدقة فقال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». فالإسلام يدفعنا إلى أن ننظف شوارعنا، وكل الممتلكات العامة التي يستخدمها المواطنون.

وأشار إلى أن المصطفى ﷺ، تحدث عن أن الإيمان يأمر بالنظافة، وأنه لابد من غسل اليدين، مع وضع اليدين على الفم عند التثاؤب أو العطس.. وكل ذلك المقصود منه في الإسلام عدم إيذاء الآخر، فكل ما فيه إيذاء للآخر وخدش لمشاعره هو من المنهي عنه شرعا، مما هو قائم الآن وما قد يستجد حتى قيام الساعة، لأن هناك أناسا يعانون من حساسية من هذه التصرفات، فربما لو رأى أحدا يبصق أو يدخن في الشارع ترتب عليه أذى، حتى في الصلاة، وكذا عادة التجشؤ التي تؤذي الآخرين، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال لرجل تجشأ: «كف عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة».

وعن الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه السلوكيات السلبية في المجتمعات المسلمة، قال الهدهد: الأسباب ترجع إلى التنشئة، لأن البيت هو الأساس في هذا الأمر، وترجع بعد ذلك إلى المدارس التي يتعلم فيها النشء الصغار، فنحن في بيوتنا لا ننتبه إلى الآداب العامة، مع أن الإسلام يأخذ بيد الإنسان ويعلمه كل شيء، فالنبي ﷺ علم الأمة في أحاديث صحيحة كل شيء، حتى دخول الحمام والخروج منه، فالإسلام لم يترك هذه الآداب العامة، إنما فصلها تفصيلا، وعندنا في تراث المسلمين كتب في آداب السفرة والطعام، مع نصوص واضحة من الإسلام تعلم النشء هذا السلوك القويم العالي المستوى، الذي يرفع وضع الإنسان أمام الآخرين، إلا أن البيوت شغلتها شواغل أخرى كثيرة، وأصبح هم كل واحد أن يشتغل بلقمة العيش ثم لا يشتغل بتنشئة من يطعمه، فيكون ذلك الفساد الأعظم.

وعن العلاج، قال: يبدأ من البيوت والمدارس، ولابد من أن تكون لدينا مقررات دراسية للآداب العامة في مراحل التعليم المختلفة، خصوصا في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، وأن توضع الآداب المناسبة لكل مرحلة عمرية؛ فنحن نفتقد الآداب التي يجب أن يتحلى بها الأبناء مع آبائهم، لأن الآباء أنفسهم افتقدوا الآداب المفروض أن يعلموها هم لأبنائهم، فذلك الأمر تعاوني، ولابد من أن يكون هناك تعاون بين الأسرة، مع وجود برامج توعية، وأن يكون هذا اتجاها عاما للدول الإسلامية، لأن التنشئة إذا كانت صحيحة تتحلى بالآداب العامة فكل ذلك يعود بالخير الوفير جدا على المجتمع. نحن الآن نرى الطفل في الشارع يمسك بزجاجة ويضربها في الحائط ويملأ أرض الشارع بالزجاج المكسور، مما يترتب عليه إيذاء الآخرين، فترسيخ الآداب العامة يعود بالخير على المجتمع والدولة والأسرة، لكن الناس لا يفطنون إلى هذا ويفطنون إلى كل شيء يحتاج إليه أبناؤهم من الناحية المادية فقط.

ولفت إلى أن هناك تأثيرات عدة على المجتمع، فبناء الأسرة أصبح متهالكا، وكثر العقوق، وتفكك الأسر، وتقطعت الأرحام. والتأثير الثاني هو على الدولة، فأصبحت الدول تتكلف كثيرا جدا بسبب تنظيف شوارعها. والتأثير الثالث على الفرد نفسه، لأنه يصبح بلا وعي لهذه الآداب، مما يجعله فردا مفسدا في المجتمع.

حياة آدمية

من جانبه، أوضح رئيس قسم الطب النفسي في جامعة الأزهر د. هاشم بحري، أنه لابد من عودة دور الأسرة في تنشئة أبنائها على سلوكيات مستمدة من الدين، وكذا ضرورة إصلاح التعليم، لأنه يعطي للإنسان ثقة في نفسه، واحتراما لذاته، حتى لا يدخل في مرحلة الانهيار. علاوة على أن تتحمل الدولة مسؤولياتها في توفير فرص العمل، وتهيئة البيئة المعيشية المناسبة التي توفر القدر المناسب من الحياة الآدمية لمواطنيها.

وأكد أن العنف من أبرز الممارسات السلبية الدخيلة على المجتمعات العربية، وهو نوع من تصريف الغضب، ويأتي على شكلين: إما الاعتداء على الآخرين وهو ما نراه في العنف في الشوارع أو التحرش، أو الاعتداء على النفس كما في حالات الإدمان. والحل يكمن في احترام النفس والشعور بقيمتها، فلو شعر الإنسان بقيمته لا يمكن له أن يعتدي على الآخرين أو على نفسه.

وأشار إلى أهمية مبدأ الثواب والعقاب للحد من هذه الظاهرة، وضرورة أن يبادر المجتمع إلى علاجها منذ الصغر.

أساسيات الفطرة

أما خبيرة الإتيكيت وفن التعامل ماجي الحكيم فقالت: كان المجتمع الشرقي يمتاز بصفات أصيلة، مثل الشهامة واحترام الصغير للكبير، لكن مؤخرا تراجعت هذه القيم نتيجة ضغوط الحياة، فتخلت الأسرة عن التربية في ظل انشغالها بالعمل، وبالتالي نشأت الأجيال خالية من أساسيات الذوق على الرغم من أنها من أساسيات دين الفطرة الإسلام.

وأضافت: الأصل في الإتيكيت هو التعليم الإسلامي، ونحن بطبيعتنا شعوب متدينة، وإذا لم يتعلم المسلم أساسيات دينه، مثل النظافة والحفاظ على الغير وخصوصياتهم وغض البصر، فلن يكون لديه أي صفة من أصول الإتيكيت. فالإشكالية الآن أن الناس ابتعدوا عن دينهم، ونحن في حاجة إلى العودة إلى أصولنا أكثر من التعلم، ويجب علينا أن نعامل الآخرين كما نحب أن يعاملونا.

ثواب وعقاب

بينما ترى الخبيرة في المركز القومي المصري للبحوث الجنائية والاجتماعية د. سوسن فايد، أن المسألة تعود إلى عوامل كثيرة، أهمها في الأساس التربية والتعليم من خلال الأسرة أولا، ثم من خلال المؤسسات التعليمية، حيث إنه في التنشئة يجب تعويد الطفل وتعليمه الطرق الصحيحة للتعامل مع الآخرين.

وأضافت: الثقافة العامة والضوابط واللوائح التي نضعها في المرور والنظافة والتعاملات على أي مستوى من المؤسسات، لابد من وجود قواعد ولوائح، وأن يكون هناك ثواب وعقاب، لكن في حالة عدم ضبطها تكون الفوضى، مثل ما نمر به الآن، لأنه لا يوجد ثواب وعقاب ومثل أعلى.

وشددت على أنه لابد من وجود هدف مشترك لدى جميع المؤسسات لمناقشة القواعد والضوابط التي تخلق المناسب للالتزام والابتعاد عن المظاهر السلبية. ومعظم الناس يريدون أن يكونوا صورة من المجتمعات المنظمة، لكن غياب المسؤولية والرقابة والمحاسبة تسبب في الوضع السيئ الذي نشهده.

وعن أبرز المظاهر السلبية التي تثير استياءها، قالت إنها تكمن في الشوارع المكدسة بالسيارات وكأنها أصبحت «جراج»، فهناك بعض من يمتلكون سيارات لكنهم لا يستخدمونها، مما يحدث أزمة مرورية، علاوة على أن عدم إعطاء الطريق حقه من مظاهر الفوضى، كما طالبت النساء بأن يلتزمن بالزي الإسلامي، مؤكدة أن هناك أزمة ثقة متبادلة بين الذكور والإناث، ولكي يكون الالتزام كاملا علينا فهم الدين بحق.

الإسلام والذوق

إسلام عبد التواب
باحث دراسات إسلامية

لا يزال الإسلام كل يوم يبهر كل من يطالع نصوصه وتشريعاته من المؤمنين به أو غير المؤمنين، حيث يرون في انبهار وإكبار كيف اهتم الإسلام بالقضايا الكبرى من عقائد وتشريعات وعبادات، وصراع بين الحق والباطل، ثم يرون كيف خصص في إحكام جانب من اهتمامه لقضايا يعتبرها البعض جزئية أو هامشية، أو في أحسن الأحوال متروكة لعادات الناس وطباعهم واختلافاتهم.

فكما اهتم الإسلام مثلا بقضية التوحيد، وحث المؤمنين على الصلاة والزكاة، وكما اهتم بالجهاد في سبيل الله، وسماه: ذروة سنام الإسلام، فإنه أولى اهتماما كبيرا أيضا للذوق في حياة المسلم، وحثه على مراعاة ما يجعل حياته وحياة الآخرين جميلة، ولا ينفر الناس عنه.

وقد بين العلماء أن أصول الشريعة ثلاثة: ضروريات وحاجيات وتحسينيات، والذوق الذي نتحدث عنه يدخل في باب التحسينيات التي تضفي الجمال والراحة على حياة المسلم.

فإذا نظرت إلى آية الاستئذان في سورة النور رأيت عجبا، فالإسلام يتدخل هنا في أمر قد نراه يسيرا بسيطا، وهو: كيف يدخل عليك أولادك وخدمك حجرتك، وكيف ومتى يستأذن عليك أصدقاؤك وأهلك عند زيارتهم لك، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (النور: ٥٨).

«فالمؤمن إذا كان معه ملك يمين يستأذن عليهم، لأنه قد يكون في حالة لا يرضون أن يروا عليها، فيستأذن عليهم في هذه الأوقات، وهكذا أهل بيته يستأذن عليهم في الأوقات الثلاثة التي بينها الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة... فالخادم سواء كان مملوكا، أو كما نصت عليه الآية، أو غير مملوك من باب أولى، وهكذا من لم يبلغ الحلم من



الصبيان يستأذن في هذه الأوقات الثلاثة، وغير الصبي من باب أولى، والكبير من باب أولى، والمقصود من هذا التحرز من كونه يرى أهل البيت على حالة غير مناسبة، فإذا استأذن استعدوا وحرصوا على أن يكونوا في حالة حسنة».

فهذا التشريع هو مراعاة وتنمية للذوق في نفوس المسلمين في أمر يتكرر يوميا، ويتحرج منه الكثيرون، بينما يفعله الآخرون دون إحساس بالذنب أو الخطأ؛ فجاء التشريع القرآني ليلفت الأنظار إلى أهمية مراعاة الذوق في الاستئذان على الناس في بيوتهم.

وفي مجال تناول الطعام نرى شائعا بين الناس أفعال وتصرفات، تثير اشمئزاز الجالسين، وتصرف نفوسهم عن مشاركة الآخرين هذا الطعام، وربما صرفته عن مصاحبة هذا الجليس، لعدم مراعاته الذوق في آداب تناول الطعام، ولو كان الذوق أمرا هينا لتركه الإسلام ولم يهتم به، ولكن لأهميته وجدنا هذا الحديث يوجه فيه النبي ﷺ إلى بعض آداب وذوقيات تناول الطعام، فعن عمر بن أبي سلمة قال: «كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، فما زالت تلك طعمتي بعد».

وموقف الرسول ﷺ هنا ضبط سلوكيات الغلام وذوقه في تناول الطعام، وجعل سلوكه يتغير بعد ذلك إلى نهاية عمره، وهذا هو معنى تربية الإنسان على الذوق: أن يجعل الذوق سلوكا بديهيا في كافة جوانب حياته لا يتكلفه تكلفا.

وفي هذا الحديث إشارة إلى الاهتمام بالذوق في تناول الطعام عامة. ومن جوانب الذوق في تناول الطعام، والتي نوصي بتربية أبنائنا، وتوجيه شبابنا إليها: مضغ الطعام والفم مغلق، وعدم الحديث أثناء المضغ، وعدم مزاحمة الآخرين عند وجود أيديهم في الإناء.

وعندما يحثنا الإسلام على عيادة المريض، تجده يأمر بأن نفسح للمريض في الأمل؛ فعن أبى سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئا، وهو يطيب نفس المريض».

وفي معاملة الكبير والصغير يروي سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟». فقال الغلام: والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدا، قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده.

وفي هذا الحديث مراعاة للذوق من نواح عدة، حيث راعى رسول الله ﷺ الترتيب بدءا من اليمين، ولكن هذا الترتيب كان يوجب إعطاء الغلام الصغير أولا، بينما يوجد من هم أكبر منه سنا، فاستأذنه رسول الله ﷺ؛ فلما وجد من الغلام إصرارا على أن ينال شرف وكرامة أن يشرب خلفه ﷺ منحه النبي ﷺ الإناء ليشرب منه.

هذه الأمثلة التي سقناها وغيرها الكثير، تدل دلالة واضحة على أهمية الذوق من المنظور الإسلامي، فالحياة ليست أياما تنقضي على أية حال، وهي كذلك ليست مجرد أساسيات وضروريات نحتاجها، لنظل على قيد الحياة بأي شكل من الأشكال، وإنما لابد من تجميلها بالذوق والمعاملة الراقية التي تبهج المسلم، وتجعل حياته جميلة سعيدة هو ومن حوله.

الفيومي: مفهوم «الإتيكيت» إسلامي

هالة عبدالحافظ
صحفية مصرية

تحول الإتيكيت من ممارسة عملية للرقي والتحضر في المعاملات الإنسانية إلى علم أكاديمي يدرس في الجامعات والمعاهد. واستطاعت خبيرة فن الإتيكيت د. ميسون الفيومي أن تفعل ذلك مع طلابها، وقبل ذلك مع أبنائها (ولدين وبنت)، وتؤكد في كتبها ومحاضراتها أن هذا الفن ذو أصول إسلامية وليس بدعة غربية كما يعتقد كثيرون.

تقول الفيومي: معظم من أدرس لهم هم طلبة أرى لديهم إقبالا شديدا باختلاف الفئات التي ينتمون إليها؛ على اعتبار أن العمل بالخارج يحتاج إلى هذا الفن في التعامل، وقد لاحظت في أثناء الدورات التدريبية التي أحاضر فيها إقبالا من فئات مختلفة.

وتضيف: الإتيكيت فن مرن وليس فيه قواعد ملزمة مثل البروتوكول، وله أصل إسلامي، والنبي محمد ﷺ كان يطبق هذا المفهوم في كل تصرفاته كآداب عامة، والفارق هو في المسمى فقط، فما نسميه نحن «آداب إسلامية» يسمونه هم «إتيكيت».



فالنبي علمنا كيفية التصرف في كل المواقف التي نمر بها على مدار اليوم، منذ الاستيقاظ وحتى النوم، ومن ذلك معاملة الأصدقاء، فالنبي حين كان يسلم على من يصافحه يهز اليد ثلاث مرات، وأشير إلى مدرسة في أميركا تدرس الإتيكيت كانت تؤكد أنه يجب النظر في عين من نسلم عليه، وهذا من آداب الإسلام، إذ كان عليه الصلاة والسلام لا يخفض بصره عمن يسلم عليه، ولا تفارق الابتسامة وجهه، كذلك كان أبوبكر الصديق رضي الله عنه يمثل دور مدير العلاقات العامة بوزارة الخارجية اليوم، فكان يستقبل الوفود التي تأتي لمبايعة النبي ﷺ وينظمها ويشرف على تقديم واجبات الضيافة لها، وهذا موجود في البروتوكولات الآن، فالإتيكيت الغربي معظمه مستمد من الإتيكيت الإسلامي.

وتؤكد الفيومي: إذن لو رجعت إلى جذورك الأولى فستستغني تماما عن الثقافات الغربية؛ لأن النبي ﷺ أرسى دعائم الآداب الإسلامية، والدين لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ولو كنت ملتزما دينيا فستكون متبعا بالضرورة لقواعد فن الإتيكيت.

باي شو يي مؤرخ الصين الكبير

عبدالقادر رالة - الجزائر

المؤرخ باي شو يي ١٩٠٩-٢٠٠٠م من أعلام المؤرخين في الصين وشيوخهم، واعترف له عظماؤهم وكبار الباحثين بطول الباع، ودقة المعلومات، وصدق النظر، والبعد عن الشهرة والتعصب القومي، بالإضافة إلى وفرة مؤلفاته التي تدور حول موضوعين رئيسين، هما: تاريخ الصين، وتاريخ المسلمين في الصين.

«اسمه العربي جمال الدين، ولقبه دجاو لون، أما مسقط رأسه فهو مدينة كاي فنغ بمقاطعة خنان» (١) جنوب الصين. «وهو أحد أعلام التاريخ الصيني، وبالأخص تاريخ الإسلام وتاريخ قومية هوي» (٢)، أكبر القوميات الصينية المسلمة العشر.

وبالإضافة إلى براعته في البحث التاريخي، كانت له اهتمامات بالفلسفة الصينية، وثقافة وتقاليد القوميات الصينية المتنوعة والثرية، وبالأديان والآداب العالمية.

تعلم اللغة العربية في المدارس الخاصة التابعة للمساجد، فتعمق فيها وأتقنها، وفي الوقت نفسه كان يطالع كتب الأدب الصيني الكلاسيكي (باللغة الصينية).

«درس باي شو يي أربع سنوات في مدرسة الإرسالية (التبشيرية) التي كان التعليم فيها أفضل كثيرا من نظام التعليم الصيني ونظام التعليم لقومية هوي في ذلك الوقت. درس باي شو يي اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة في المدرسة، فاستفاد من ذلك في بحوثه ودراساته في ما بعد. ولكنه لم يغير عقيدته، فقد ظل طول حياته مؤمنا بالإسلام وملتزما بتعاليمه» (٣).



وبعد أن تخرج، مارس التدريس في أكبر الجامعات الصينية، في مقاطعة يونان، ونانجينغ وبكين. وبالموازاة مع ذلك كان يكتب المقالات وينشر الدراسات حول التاريخ وفلسفته.

«وأشرف على مجلة «نجوم الفجر»، نصف الشهرية، حيث بدأ نشاطه الأكاديمي حتى صار أحد أكثر علماء عصره شهرة في دراسة قومية هوي» (٤). وقد بدأ يهتم بتاريخ الإسلام في الصين منذ سنة ١٩٣٨م، خصوصا قومية هوي، أكبر القوميات الإسلامية في الصين، والتي تعود أصولها إلى العرب الذين تزوجوا بالصينيات، بينما القوميات الأخرى الأقل عددا تعود إلى أصول تركية ومغولية.

«وفي عام ١٩٤٣م نشرت له مقالة طويلة بعنوان «مختصر تاريخ الإسلام في الصين»، وتعتبر هذه المقالة من أهم الأبحاث التي تعتني بتاريخ قومية هوي أثناء فترة الجمهورية (١٩١١-١٩٤٩م)» (٥).

«قام بكتابة وتحرير موسوعة «أهم الأحداث في التاريخ الصيني»، والتي صدرت في عام ١٩٨٠م، وقد طبعت أكثر من ثلاثين مرة، فصدر منها أكثر من مليون نسخة، وترجمت إلى عدة لغات أجنبية، كالإنجليزية والفرنسية واليابانية والألمانية والإسبانية والكورية والرومانية» (٦)، وبالإضافة إلى تلك الموسوعة الشهيرة فقد ألف العديد من الكتب التاريخية المهمة، مثل تاريخ المواصلات في الصين، ومختصر علم التاريخ.. وكذلك العديد من الكتب حول تاريخ الإسلام في الصين، تعتبر مراجع أساسية في هذا المجال، وأهمها وثائق تاريخ الإسلام في الصين، مختصر تاريخ الإسلام في الصين، ترجمة أعلام قومية هوي، الحياة الجديدة لقومية هوي، انتفاضات قومية هوي عبر التاريخ وغيرها.

«وفي ١٩٩٩م قام بإصدار ٢٢ جزءا من موسوعة تاريخ الصين العام. وتعد هذه الموسوعة العمل النموذجي لإنجازات وإسهامات باي شو يي في القرن المنصرم، وينظر إليها على أنها أعظم المشروعات العلمية في القرن الفائت، وهي من أكثر الأعمال التاريخية وأعلاها مستوى في القرن العشرين» (٧).

الهوامش

(١) مين شان لين ورفيقه، موجز تاريخ وثقافة قومية هوي، ترجمة أحمد عاشور ورفاقه، دار الشعب، نينغشيا، الصين، ط٢٠١٢م، ص٢٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٧.

(٣) لي هواين، مئوية المؤرخ الصيني المسلم باي شو يي، الصين المصورة، يوليو ٢٠٠٩م، بكين، ص٨٦.

(٤) دينغ هونغ ورفيقه، المسلمون في الصين في القرن العشرين، ترجمة يه ليانغ ينغ، دار الشعب، نينغشيا، الصين، ط٢٠١٣م.، ص٢٦.

(٥) موجز تاريخ وثقافة قومية هوي، ص٢٢٧.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٢٨.

(٧) المرجع نفسه، ص٢٢٨.

فضالة بن عبيد.. نموذج حي للتربية

د: مصطفى رجب
أستاذ جامعي - مصر

تحدث الكتاب العزيز عن الصحابة رضوان الله عليهم في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ **(المائدة:٥٤). وقد روى الحاكم في المستدرك أن رسول الله ﷺ عندما نزلت عليه هذه الآية، أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هم قوم هذا». كما تحدث القرآن عن بعض القبائل التي أظهرت تمسكها بالدين، وحبها لرسول الله ﷺ مثل جهينة ومزينة - فيما روى الإمامان الجلالان - اللتين نزل فيهما قوله الله تعالى:** ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **(التوبة: ٩٩).**

إلا أن هناك آيتين امتازتا بأنهما تناولتا بصورة مباشرة أوصاف صحابة رسول الله ﷺ وجزاءهم ومكانتهم عند الله سبحانه وتعالى، وعلى هاتين الآيتين وما آزرهما من أحاديث شريفة بنى العلماء أحكامهم الخاصة بالتعامل مع الصحابة، وما ينبغي لهم من التأدب عند ذكرهم.

أما أولاهما فهي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).

والثانية قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ (الفتح: ٢٩).

هاتان الآيتان هما الأصل فيما يجب على المسلم من التأدب مع جميع الصحابة، فإن الله سبحانه وتعالى اختارهم لصحبة نبيه، ونقل رسالته لمن بعدهم من الأجيال المسلمة. وإلحاق العيب أو النقص بهم، فيه غمز في الشريعة عموما، لأنهم كانوا أوعية نقلها.

من هو فضالة بن عبيد؟

هو أبو محمد فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم ابن جحجبى الأنصاري الأوسي. شهد بيعة الرضوان، وشهد أحدا - على ما قال الواقدي - والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ثم خرج بعد وفاة النبي ﷺ إلى الشام فسكنها، وتوفي بها سنة ثلاث وخمسين من الهجرة، وقيل: سنة تسع وخمسين في عهد معاوية.

وقد شهد فضالة فتح مصر، وشارك فيه مع الفاتحين، وأقام فيها مدة،

فقد نقلت إلينا كتب السيرة والسنة أنه تولى القضاء والبحر في مصر لمعاوية بعض الوقت، وروى عنه من أهلها: أبو خراش الصحابي، والهيثم بن شفي، وعبد الرحمن بن جحوم وغيرهم.

ولما استقر المقام لفضالة في بلاد الشام ذاع صيته بها، فقد رووا أن الصحابي الجليل أبا الدرداء كان قاضيا على دمشق أيام معاوية، فلما احتضر عاده معاوية، فسأله عمن يرشحه لتولي القضاء بعده، فقال: فضالة بن عبيد، فلما توفي أبو الدرداء، قال معاوية لفضالة: إني قد وليتك القضاء، فحاول فضالة أن يعتذر، فقال له معاوية: «والله ما حابيتك بها (أي: والله ما وليتك هذا المنصب محاباة لك)، ولكني استترت بك من النار».

فضالة المربي:

كان الصحابي الجليل فضالة بن عبيد واحدا من أولئك الصحابة الذين اعتنوا كل العناية بالفقه والتعلم، فكان يداوم على حضور مجالس النبوة، ويشارك في الغزوات، ويناقش غيره من الصحابة فيما سمعوا – في غيبته – من النبي الكريم ﷺ.

وكان يجمع إلى التفقه والعلم، قوة الشخصية والحزم والشجاعة والورع والتقوى، ولكن تلك الصفات اجتمعت في كثيرين غيره من الصحابة، فما تميز به من بينهم؟ في رأينا أنه تميز بصفة المعلم المربي الذي يحرص على إبلاغ العلم لغيره، والحث على العمل به.

وأدلتنا على ذلك كثيرة منها:

١- أننا تتبعنا مروياته في كتب السنة فوجدنا مروياته يغلب عليها الطابع العملي. فهو من الذين نقلوا عن النبي الكريم ﷺ السنة العملية، أي أفعال النبي ﷺ التي شاهدها فضالة.

٢- أن كثيرا من الأحاديث التي رواها أو رويت عنه كانت ذات صبغة تعليمية. فكثير منها يبدأ بقول أحد تلاميذه: سألنا فضالة عن كذا وكذا، فقال: كذا وكذا.

٣- أن سلوكه – في بعض أحاديثه – كان سلوكا عمليا، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن ثمامة بن شفي حدثه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره، فسوّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها. والنسائي في سننه أن ثمامة بن شفي حدثه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

ومن مواقف فضالة التربوية ما رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء عن القاسم أبي عبد الرحمن قال: غزونا مع فضالة بن عبيد – ولم يغز فضالة في البر غيرها – فبينا نحن نسرع في السير، وهو أمير الجيش، وكانت الولاة إذ ذاك يسمعون ممن استرعاهم الله عليه، فقال قائل: أيها الأمير، إن الناس قد تقطعوا، قف حتى يلحقوا بك. فوقف في مرج عليه قلعة، فإذا نحن برجل ذي شوارب، فأتينا به فضالة، فقلنا: إنه هبط من الحصن بلا عهد، فسأله فقال: إني البارحة أكلت الخنزير، وشربت الخمر، فأتاني في النوم رجلان فغسلا بطني، وجاءتني امرأتان، فقالتا: أسلم، فأنا مسلم، فما كانت كلمته أسرع من أن رمينا بالزبار فأصابه، فدق عنقه، فقال فضالة: الله أكبر، عمل قليلا، وأجر كثيرا. فصلينا عليه، ثم دفناه (الزِّبار – بتشديد الزاي المكسورة –: نوع من الحجارة الصغيرة).

ففي هذه الرواية درسان تربويان كبيران، أولهما: ما أشار إليه راوي القصة من حسن قيادة فضالة وتبسطه في الحديث مع رجاله، واهتمامه بالاستماع إلى آرائهم والعمل بها إذا وافقت الصواب.

والدرس الثاني: هو سرعة بديهته وحسن تصرفه فور مصرع الرجل، فقد علق على إسلام الرجل الذي جاء سريعا وموته الذي أعقب إسلامه بلسانه.

ومن مواقفه التربوية التي تكشف عن صفة بارزة ينبغي للمعلم والقاضي والحاكم أن يتحلى بها وهي: سعة الأفق، وحسن التصرف، ما روي عن ابن هشام الغساني قال: حدثني أبي عن جدي قال: وقعت من رجل مائة دينار، فنادى: من وجدها، فله عشرون دينارا، فأقبل الذي وجدها. فقال: هذا مالك، فأعطني الذي جعلت لي. فقال: كان مالي عشرين ومائة دينار، فاختصما إلى فضالة، فقال لصاحب المال: أليس كان مالك مائة وعشرين كما تذكر؟ قال: بلى، وقال للآخر: أنت وجدت مائة؟ قال: نعم، قال: فاحبسها ولا تعطه، فليس هو بماله، حتى يجيء صاحبه.

نماذج من أفكاره التربوية:

ولم يتوقف العطاء التربوي عن

سيدنا فضالة رضي الله عنه عند حدود السلوك العملي، فما نقل إلينا من أقواله يؤكد ما ذهبنا إليه من انطباع شخصيته بطابع المعلم المربي، فقد رووا عنه أنه قال: لأن أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة، أحب إلي من الدنيا وما فيها، لأنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧).

وعندما سأله أحد تلاميذه أن يوصيه، قال له: خصال ينفعك الله بهن؛ إن استطعت أن تَعرف ولا تُعرف، فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تكلم، فافعل، وإن استطعت أن تجلس ولا يجلس إليك، فافعل. وهذه الكلمات - على وجازتها - من جوانب التربية السلوكية، فهو يأمره بأن يطلب العلم، ويجالس العلماء، ويسمع منهم، دون أن يسعى إلى الشهرة وحب الظهور، ولا يتوهمن متوهم أن هذه الوصية تدعو إلى كتمان العلم وعدم نشره، كما يظهر من قوله: (وإن استطعت أن تسمع ولا تكلم) فحاشا لصحابي جليل مثل فضالة أن يذهب هذا المذهب، وهو يعلم أن الجزاء الشديد الذي توعد الله تعالى به الذين يكتمون ما آتاهم الله من البينات والهدى. فهو لا يدعو تلميذه إلى العزلة أو كتمان العلم. فسلوكه العملي رضي الله عنه عندما استعفى معاوية من القضاء فلم يجد أذنا صاغية، فقبله على غير رضا، يدل على أن العالم إذا أسند إليه منصب أوجب عليه تبليغ أحكام الله وما عنده من العلم أذعن واستجاب، سعيا لأن يكون من الأئمة الذين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولكنه رضي الله عنه قصد بهذه الوصية أن يبث في نفس تلميذه الذي سأله الوصية، روح التواضع، وتجنب حب الظهور، والحرص على التقوى، واجتناب التسرع في بث العلم قبل العمل به.

ومن آراء فضالة التربوية المأثورة أيضا قوله: «ثلاث من الفواقر، إمام إن أحسنت، لم يشكر، وإن أسأت، لم يغفر، وجار إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أفشاها، وزوجة إن حضرت آذتك، وإن غبت خانتك، في نفسها وفي مالك». فهذه ثلاث آفات إذا أصابت مجتمعا تفككت أوصاله، وساء حاله، وفاضت به أوحاله، فالزوجة سكن لزوجها يطمئن إليها، والجار سند لجاره يحفظ غيبته، ويرعى حرمته، ويقيل عثرته فإذا ساءت أحوال الزوجة والجار، فلنا أن نتصور كم تكون الحياة إذ ذاك قاسية على صاحبها. وتزداد قسوتها إذا كان إمامه (بمعنى رئيسه الأعلى) لا يرعى حقوق مرؤوسيه، فلا يعرف أقدارهم، ولا يقبل أعذارهم.

التربية العملية في السنة من خلال مرويات فضالة:

كما قلنا في صدر هذا الحديث، كان سيدنا فضالة رضي الله عنه ممن يهتمون برواية السنة العملية مما شهده حال صحابته للنبي الكريم ﷺ، وقد حفلت كتب السنة بنماذج سلوكية للتربية العملية في السنة رواها فضالة بن عبيد رضي الله عنه فمن ذلك:

١- ما أخرجه مسلم في صحيحه بسنده: أخبرني أبو هانئ الخولاني أنه سمع علي بن رباح اللخمي يقول: سمعت فضالة بن عبيد الأنصاري يقول: أتي رسول الله ﷺ وهو بخيبر بقلادة فيها خرز وذهب، وهي من المغانم تباع، فأمر رسول الله ﷺ بالذهب الذي في القلادة فنزع وحده، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: الذهب بالذهب وزنا بوزن.

٢- ما أخرجه مسلم بسنده في صحيحه عن حنش الصنعاني عن فضالة بن عبيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر نبايع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة، فقال رسول الله: ﷺ لا تبيعوا الذهب بالذهب، إلا وزنا بوزن.

٣- ما أخرجه الترمذي في سننه بسنده عن أبي هانئ الخولاني أن أبا علي عمرو بن مالك الجنبي أخبره عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس، يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم، فقال: لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة. قال فضالة وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ.

٤- ما أخرجه الترمذي في سننه بسنده عن أبي هانئ الخولاني عن أبي علي الجنبي عن فضالة بن عبيد قال بينا رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلى، فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، وصل علي، ثم ادعه، قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك، فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: أيها المصلي ادع تجب.

٥- ما أخرجه النسائي في سننه عن مكحول عن ابن محيريز قال: سألت فضالة بن عبيد عن تعليق يد السارق في عنقه؟ قال: سنة. قطع رسول الله ﷺ يد سارق، وعلق يده في عنقه.

لقد كان لذلك الصحابي الجليل كثير من التلاميذ الذين رووا عنه، منهم: حنش الصنعاني، وعبد الله ابن محيريز، وعبد الرحمن بن جبير، وعمرو بن مالك الجنبي، وعبد العزيز بن أبي الصعبة، والقاسم أبو عبد الرحمن، وعلي ابن رباح، وميسرة مولى فضالة.

الشيخ الدكتور عبدالسلام الهراس في ذمة اللّه

التحرير

فقدت الأمة الإسلامية، منذ عدة أيام، أحد رجالات الدعوة والوعظ والإرشاد في المغرب، وعضوا مؤسسا في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، الشيخ الدكتور عبدالسلام الهراس، والذي وافته المنية بمدينة فاس صبيحة يوم الجمعة ١ جمادى الأولى الموافق ٢٠ فبراير ٢٠١٥م، عن عمر ناهز ٨٥ عاما، مخلفا وراءه إرثا فكريا وعلميا ودعويا مهما.

ولد الشيخ الدكتور عبدالسلام الهراس رحمه الله في المغرب في مدينة «شفشاون» سنة ١٩٣٠م، ونشأ وترعرع فيها، ثم أكمل دراسته الجامعية والأكاديمية، وشاهد ملاحم الجهاد ضد الاستعمار، وقد دون شهاداته على تلك الحقبة التاريخية في جريدة التجديد المغربية في سنتي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤م.

وعاصر رحمه الله كبار المفكرين والأدباء والدعاة والمصلحين في العالم العربي والإسلامي، أبرزهم المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله، حيث عاش معه في القاهرة وبيروت ودمشق، واستفاد منه كثيرا.. وساهم في طبع ونشر بعض كتبه التي لاقت قبولا واسعا في العالم الإسلامي.

درس الابتدائي والثانوي بمسقط رأسه، ثم بالقرويين بفاس.

– ثم بالكلية الشرعية ببيروت بلبنان.

– ثم الليسانس في الحقوق جامعة محمد الخامس، المغرب (١٩٦١م).

– ثم دكتوراه الدولة من جامعة مدريد، كلية الآداب مدريد (١٩٦٦م).

وجال في عدة عواصم عربية منها القاهرة وبيروت ودمشق، وعاش معظم حياته بفاس وبها توفي رحمه الله.

للشيخ الهراس رحمه الله حضور ملموس، ومشاركات إيجابية رصينة في كل الاجتماعات في الهيئة الخيرية وفي اتحاد العلماء، وفي كافة اللقاءات، تميز فيها بحرصه البالغ على سلامة الدين واللغة والأخلاق من التحريف والتزييف والتميع.

وقد ساهم في التدريس العلمي الأكاديمي من خلال عمله الآتي:

– أستاذ بجامعة محمد بن عبد الله بفاس، ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها.

– جامعة مدريد كلية الآداب، إسبانيا، قسم اللغات الشرقية.

– جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية اللغة.

– جامعة القاهرة، كلية الآداب، القسم الإسباني.

– الجامعة الإسلامية، ماليزيا. وعضو المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية.

وأشرف على أكثر من خمسين دكتوراه وماجستير في الأدب الأندلسي، والفكر الإسلامي والدراسات الإسلامية.

هذا، وكان الشيخ الهراس رحمه الله مدرسة ربانية ربت أجيالا وأجيالا من رجالات الدعوة والفكر الإسلامي.

وللشيخ الهراس رحمه الله العديد من الإنجازات العلمية، والتحقيقات الرصينة، والمؤلفات القيمة، ومنها:



. «قصة الأندلس من الفتوح إلى النزوح»، صدر منه الجزء الأول.

. أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) وإدارة الأزمات.

. – سعادة المرأة في ظل الإسلام.

. كما نشرت له العديد من الكتابات في الصحف والمجلات العلمية منها: «المناهل»، و«دعوة الحق»، و «البحث العلمي».

. تحقيقه لـ(التكملة لابن الأبار).

. مشاركته في تحقيق (أزهار الرياض في أخبار عياض) لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.

. تحقيق (ديوان ابن الأبار البلنسي).

. (صلة الصلة) لابن الزبير الغرناطي.

. (درر السمط في خبر السبط).

وبفقده تكون الأمة الإسلامية قد فقدت واحدا من علمائها الربانيين المربين، نرجو من الله العلي القدير أن يغفر له، ويرحمه.

الرسول ﷺ.. داعيا ومعلما

السنوسي محمد السنوسي
باحث مصري

الدعوة والتعليم، أو الداعية والمعلم.. مجالان متناغمان، متناسقان، يبدوان على درجة من الترابط قد تصل إلى حد التطابق، ومن ثم فطبيعي أن يعرف النبي ﷺ بأنه «داع» و«معلم».

وقد ورد هذان الوصفان بحق النبي ﷺ في القرآن الكريم وهو يعدد لنا مهام «الرسالة» التي أمره الله بتبليغها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب: ٤٥- ٤٦).

وقال أيضا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة: ٢).

ومن الملاحظ في هذا الشأن، أن وظيفة «التعليم» ترد أيضا منسوبة إلى النبي ﷺ في دعاء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حين كان يدعو لذريته- وهو يرفع القواعد من البيت- أن يرسل الله لهم نبيا يتلو عليهم آياته ويعلمهم ويزكيهم، فقال كما قص القرآن الكريم عنه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩).

كما وردت كذلك في مقام الامتنان من الله سبحانه على عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤).

أما في السنة النبوية، فقد عرف النبي ﷺ نفسه بأنه «معلم»، فقال فيما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا» (رواه مسلم).

فحينما يوصف الرسول ﷺ بأنه «داع» وأنه «معلم»، فهذا يشير إلى ترابط هذين الوصفين، وإلى مدى التناغم العميق بينهما.

وما أبلغ وصف النبي ﷺ بأنه «معلم»! إنه وصف دقيق يلخص في أمانة وإحاطة حاله وهو يدعو الناس ويرشدهم ويزكيهم، فقد كان ﷺ «معلما» بكل ما تحمل الكلمة من قيم ومعان وسلوكات ومهارات، مما كشفت عنه العلوم التربوية الحديثة.

لم يكن ﷺ يلقي على الناس مواعظه دون أن يتخير الكلمات والعبارات، ولا دون أن يراعي أحوالهم واختلاف أفهامهم، ولا دون أن يظهر لهم الشفقة والحرص على حاضرهم وآخرتهم، ولا دون أن يحاورهم ويناقشهم ويزيل عنهم الشبهات والاستفسارات.. بل كان ﷺ يسلك في دعوته مسلك «المعلم».

وما أنجح الداعية حين يكون معلما، وليس مجرد واعظ يردد كلمات لا روح فيها، ولا مهارات تصاحبها!

إن «الدعوة» رسالة وأمانة، لا وظيفة بالمعنى الروتيني الجاف.. وكذلك «التعليم»، فهو لا يؤتي أكله إلا إذا كان رسالة نابضة بالحيوية، وكان المعلم مستشعرا لعظم الواجب المنوط به، متحليا بالمهارات اللازمة لإيصال الرسالة التعليمية لطلابه.

قواسم مشتركة

وفيما يتصل بالصلة الوثيقة بين «الدعوة» و«التعليم»، ثمة قيم ومهارات كثيرة، تعكس أوجه التشابه والتقارب بين هذين المجالين.. ويكفينا في هذا المقام أن نشير إلى ثلاث من هذه القيم والقواسم المشتركة، وأن ندلل عليها من حياة النبي ﷺ ومواقفه، بما يكشف لنا كيف كان ﷺ «داعيا» بمهارات المعلم، و«معلما» بقيم الداعي، وكيف مزج ﷺ بينهما على نحو يستحث دعاتنا في الواقع المعاصر أن يستفيدوا منه في تجديد صلتهم ووسائلهم بجمهور المدعوين وقضاياهم الراهنة.

القاسم الأول: الرفق

يقال: «(رفق) به، وله، وعليه: لان جانبه وحسن صنيعه»(١). والرفق صفة نفسية جامعة دالة على حسن الخلق، ولين الجانب، وزكاء النفس.. ولهذا كانت هذه الصفة ضرورية للداعية والمعلم، وقاسما مشتركا بينهما.

ولنا أن نتصور النتائج الكارثية حين يشتغل بالدعوة أو التعليم من يسلك سبيل الغلظة والقسوة والزجر! إن هذا الشخص لهو عبء على الرسالة التي يحملها، والوظيفة التي يشتغل بها، وهو حتما سيفسد حتى لو أراد أن يصلح!

وكم من أناس تُرك عندهم انطباع سيئ عن الإسلام، أو عن عموم الدعاة، نتيجة كلمة أو موقف لداعية غاب عنه الرفق!

وكم من طلاب تسربوا من التعليم، وصاروا أبناء للمجهول، أو لما يضر بالمجتمع، بسبب تعنت مدرس وغلظته!

إن الدعوة والتعليم لا يصلح لهما إلا الرفيق الرحيم، الذي امتزجت نفسه بنبل رسالته حتى يفيض حنوا وشفقة على من حوله، ويكون- بحق- عنوانا لما يبلغه، وداعيا بحاله قبل مقاله.

لقد كان النبي ﷺ يعالج الأخطاء برفق، دون أن يفاقم المشكلة أو يحرج المخطئ، مما جعل أحد الصحابة ينطق بكلمة جامعة لحسن أخلاقه ﷺ، وذكائه في التعامل مع المواقف الحرجة، فقال: «ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه».

روى معاوية بن الحكم السلمي قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثُكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلي! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني. لكني سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني (أي: ما انتهرني) ولا ضربني ولا شتمني، قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» (رواه مسلم).

قال النووي تعليقا على الحديث الشريف: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته، وشفقته عليهم. وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه»(٢).

القاسم الثاني: التدرج

إن «التدرج» سنة كونية وتشريعية، فقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ولو شاء لجعلها في لحظة أو أقل، بأمره: كن. كما أن التشريع الإسلامي ظل يتوالى في ثلاث وعشرين سنة، ولم ينزل جملة واحدة، ناهيك عن أن الحكم الواحد أخذ صورا متدرجة في التشريع حتى استقر، مثل مسألة تحريم الخمر، لكي تستوعبه النفس البشرية، ولا يثقل عليها أو ترغب عنه.

وإذا كان التدرج سنة كونية وتشريعية، فإنه اتساقا مع ذلك يعد أمرا لازما في

كان ﷺ «داعيا» بمهارات المعلم.. و«معلما» بقيم الداعي

مجالي الدعوة والتعليم، إضافة إلى أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بفقه الأولويات، وترتيب سلم الأحكام والمفاهيم، لأننا إذا أخذنا بالتدرج فمن غير المتصور أن نبدأ بالأقل أهمية، أو بصغائر الأمور، بل نبدأ بالأهم، فالمهم، فالأقل أهمية.

في تعليم «اللغة» مثلا، نبدأ بحروف الهجاء، ثم بالكلمات، ثم بتركيب الجمل، ثم بالنحو والصرف، فالبلاغة... وفي «الرياضيات»، نبدأ بالتعرف على الأرقام، ثم بالعمليات الحسابية البسيطة مثل الجمع والطرح، ثم العمليات المركبة... إلخ.

والأمر يسير على هذا المنوال في «الدعوة»، فنبدأ بالعقيدة بمعانيها الواضحة التي تغرس محبة الله وخشيته في القلب، ثم بالعبادات وأولها الصلوات الخمس.. إلخ، بحيث لا نؤخر ما حقه التقديم، ولا نقدم ما حقه التأخير.

لكن حين يغيب عن الداعية أو المعلم مفهوم التدرج - وفقه الأولويات - فإنه لاشك سيقع في خلل كبير، ولن يحقق الفائدة المرجوة من الدعوة أو التعليم.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فحين أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن، أوصاه بأن يتدرج في الدعوة، بادئا بالأهم فالمهم، فقال له: «إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» (رواه البخاري).

القاسم الثالث: الحوار

والدعوة أو التعليم ليست عملية صماء، تعتمد على التلقين، والإرسال من طرف واحد، بل هي عملية تبادلية، تقوم على الأخذ والرد، وعلى التواصل والاتصال، وعلى استنطاق الإجابة من عقل المتلقي، وتعويده أن يقلب بنفسه الأمر على وجوهه حتى يصل باقتناع تام إلى النتيجة، لأن اقتناعه بها حينئذ يكون أشد رسوخا وثباتا، مما لو تم تلقينه إياها ابتداء دون حوار. فالحوار يؤكد الحقيقة في نفس المتلقي وعقله، ويقطع الطريق أمام محاولات تشكيكه فيها.

وحين جاء شاب إلى النبي ﷺ يسأله أن يأذن له بالزنا، ما كان أيسر على النبي ﷺ أن يبادره بالقول إن هذا حرام ومنكر، بل أن يزجره لمجرد التفكير في هذا الأمر المخالف للفطرة السوية.. لكنه ﷺ- وهو الداعي المعلم- أخذ يسأله في الأمر، ويقلبه له على كل أوجهه، ليصل بنفسه إلى النتيجة التي يريدها النبي ﷺ، فهذا أثبت للنتيجة في قلب الشاب، وأدعى أن يلتزم بما خلص هو إليه، لا بما أملي عليه، ولو كان حقا ومن سيد البشر ﷺ(٣).

بهذه الثلاثية التي أشرنا إليها بإيجاز (الرفق، والتدرج، والحوار) يتضح لنا كيف كانت سيرة النبي ﷺ نموذجا عمليا للمزج بين الدعوة والتعليم، وتوظيف إيجابيات كل منهما في المجال الآخر، سعيا إلى حسن التواصل مع المخاطبين، وعرض الفكرة في أحسن صورة من الوضوح والإقناع والتأثير.

الهوامش

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص: ٣٧٥، طبعة مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٨م.

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم.

(٣) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه. فقال: ادنه. فدنا منه قريبا، قال فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه. فلم يكن بعدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء» (رواه أحمد).



سرقة بطاقات الائتمان الإلكترونية في التشريع الجنائي الإسلامي

د. رضا عبدالحكيم رضوان
أكاديمي متخصص في التشريع الجنائي

بطاقة الائتمان الإلكترونية عبارة عن نظام مصرفي حديث النشأة، حيث تقوم هذه البطاقة مقام النقود الاعتيادية في الوفاء والضمان، ويطلق عليها بطاقة الوفاء visa card.

ترصد الدوائر الأمنية والجنائية الجرائم المتصلة بهذه البطاقة، كسرقتها وتزويرها، أو استعمالها من قبل الغير والاستحواذ على أموال أصحاب البطاقات والمودعة في الحسابات البنكية، أو التقاط أرقامها السرية حين استعمالها عبر شبكة الإنترنت ومن ثم الاستيلاء على أموال أصحابها، كذلك إساءة استخدام تلك البطاقات من قبل حامليها.

تتولى البنوك إصدار هذه البطاقة إلى عملائها الذين لديهم حسابات مصرفية، وهي تسمح لحاملها بسحب أو تحويل نقود من حسابه. والبطاقة بلاستيكية الصنع، تحتوي على شريط ممغنط يتضمن بيانات عن حساب العميل لدى البنك، كما تتضمن شريطا لاصقا مدونا عليه توقيع صاحب الحساب، بالإضافة إلى صورة شخصية للعميل.

إن هذه البطاقة وليدة عقد اتفاق رضائي يتم بين العميل والمصرف أو البنك، والشريعة لا تمانع التصرفات العقدية طالما روعيت مبادئها العامة الكلية، كما نص عليها الفقهاء، كتلافي الغرر والربا المحرم وغيرهما.

تستخدم البطاقة في نوعين من التعامل:

أولا – وظيفة الوفاء

حيث يستخدمها العميل في دفع ثمن مشترياته من شخص أو جهة ما، فيتقاضى البائع مستحقاته من حساب العميل، والبنك يضمن تنفيذ ذلك، وقد جرى العمل على خصم المبلغ من حساب العميل المشتري وإيداعه حساب البائع.

ثانيا – وظيفة سحب النقود

أي سحب مبلغ نقدي من ماكينة السحب الآلي الخاصة بالمصرف (الصراف الآلي)، أو ببنوك أخرى بناء على اتفاق سابق على صلاحية السحب بالبطاقة نفسها من عدة مصارف عن طريق إقامة شبكة من الاتصالات بين تلك المصارف تسمح بمعرفة حساب العميل وتلبية طلبه في السحب وخصم المبالغ النقدية المسحوبة بين تلك المصارف.

يدرس شراح القانون الجنائي الجرائم الناشئة عن استخدام بطاقة الائتمان الإلكتروني، وقد صنفوا أنواع هذه الجرائم ما بين إساءة استخدامها من قبل مالك البطاقة، أو الغير، أو تزوير البطاقة واستخدامها في الاستيلاء على الأموال.

والنماذج التجريمية السابقة لا تثير مشكلات بشأن العقوبة الواجبة التطبيق، وذلك من وجهة نظر شرعية، لسبب بسيط، وهو استيعاب نظام التعزير الإسلامي لجميع الجرائم الناشئة عن التقدم العلمي والتكنولوجي، أيا كان شكل الجريمة أو نمط ارتكابها. فالتعزير يطبق حيث لا تكون الجريمة مصنفة ضمن الحدود الشرعية، ويعرف الفقهاء التعزير بأنه «تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود» (١)، أو «هو العقوبة المشروعة على جناية لا حد فيها» (٢).

وبالنسبة إلى جرائم بطاقة الائتمان الإلكتروني، يملك النظام القانوني

الوضعي، والشريعة تتفق معه في ذلك - بمراعاة القواعد المنصوص عليها في التعزير شرعا - في تقرير عقوبات الحبس والغرامة، ضد مرتكبي هذه الجرائم، سواء كانت مادتها إساءة استخدام أو تزوير.

وتدق المسألة، في شأن اختلاس الجاني بطاقة غيره واستعمالها في الاستيلاء على الأموال المودعة بالمصرف.. فهل يعد الجاني هنا سارقا بالمعنى الشرعي؟ ذلك أن التشريع الإسلامي يوجب القطع حدا، ولا اجتهاد للمنظم القانوني في هذا، ولا يملك سلطة تقديرية، إذ يلتزم الحاكم (ولي الأمر المنظم القانوني) بما جاء في المصدرين السماويين.

صورة الجريمة هنا أن الجاني اختلس بطاقة المجني عليه، ثم ولج إلى المصرف وحيث باشر المصرف تنفيذ طلبات الجاني، وذلك بالوفاء أو السحب وفق التقنيات الإلكترونية المطبقة.

لقد مثل هذا الفرض معضلة لدى شراح القانون الوضعي وفلاسفته على إثر التقنيات المستحدثة. والأمر على خلاف ذلك في شرعتنا التي كيفت التصرف بأنه سرقة، فيجب حد الجاني، وذلك جانب من الإعجاز التشريعي الذي تفرد به النظام الجنائي الإسلامي على جميع القوانين الأرضية.

إن المستقر عليه عند جمهور الفقهاء، أن السرقة يشترط فيها أن تكون من حرز، فان لم تكن من حرز فلا قطع على السارق (٣).

واستدلوا على ذلك بما رواه عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده (٤)، من أن النبي ﷺ سئل عن التمر المعلق فقال: «من أصاب بفيه من ذي حاجة غير متخذ خبنة (٥)، فلا شيء عليه، ومن خرج بشيء منه فعليه غرامة مثليه والعقوبة، ومن سرق منه شيئا بعد أن يؤويه الجرين (٦)، فبلغ ثمن المجن (٧)، فعليه القطع، ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثليه والعقوبة» (٨).

قال ﷺ (٩): «لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة (١٠) جبل، فإذا آواه المراح (١١) أو الجرين فالقطع فيما يبلغ ثمن المجن» (١٢).

والحديث الأول يستفاد منه اشتراط الحرز، والحديث الثاني أوجب الحرز في سرقة الثمر المعلق في الشجر والشاه إذا كانت في المرعى فيقاس عليهما غيرهما (١٣).

إن «الحرز» مادة دراسة داخل «فقه السرقة»، وقد عدد الفقهاء صورا ونماذج للحرز، منها: حرزية البيت، وحرزية الخيمة، وحرزية القبر للكفن، وحرزية الجيب والكم، وحرزية الراعي والسائق وقائد الماشية، وحرزية الحمام، وحرزية المسجد.

والمقصود بالحرز هو المحافظة على الممتلكات من السرقة، وقطع أي شبهة في التفريط من طرف مالكيها. ولما كان الحفظ قد يحصل بإحراز هذه الأموال في أماكن تؤمنها الناس من السرقة - قد يكون بحراستها من طرف مالكها أو من يقيمه لحفظها - فقد قسم الفقهاء الحرز إلى نوعين: حرز بالمكان وحرز بالحافظ.

والحرز يحدده العرف، وما جرت عليه المعاملات الناشئة عن التطور الحضاري. لذا، سبر علماؤنا تطبيقات معاصرة لاصطلاح «الحرز»، مثل: السيارة، وكاميرات المراقبة وكلاب الحراسة، ماكينات الصرف الآلي.

ومما لاشك فيه أن الجاني مختلس البطاقة يستخدمها في الدخول الإلكتروني فيحصل على مال الغير أو يتصرف فيه لمصالحه الخاصة إضرارا بغيره، فإن الموافق لرأي جمهور الفقهاء أن مثل هذا الجاني يعد سارقا، ذلك أن المصرف الآلي هو «حرز»، فيما سماه علماء الشريعة «حرز بالحافظ»، ذلك أن فرضية الحرز تضم نوعين من الأحراز: الأول: حرز المكان، والثاني: حرز بالحافظ. ويدخل الأنموذج التجريمي محل البحث في النوع الثاني كما أثبتت الدراسة. ولذلك، يؤخذ الجاني بحد السرقة؛ تنفيذا للنص الشرعي الجازم، قال بعزته: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ (المائدة:٣٨).

الهوامش

(١) الأحكام السلطانية ٢، ص:٢٣٦.
(٢) المغني:٥٢٣/١٢.
(٣) بدائع الصنائع:٧١/ ١٠٩، والبحر الرائق:٦:١٥، والكافي في فقه أهل المدينة:١٠٨٠/٢، والمقدمات المهدات:٢٠٩/٣، وأحكام القرآن لابن عربي:١١١/٢، وبداية المجتهد:٤٤٩/٢، والأم:٢٠٥/١٦، والحاوي:١٣٩/١٧، وروضة الطالبين:٧/ ٣٣٦.
(٤) انظر: العدة في شرح العمدة:٣١٥/٢.
(٥) في القاموس المحيط، ص:١٥٣٩، الخبنة بضم الخاء: ما يحمله الشخص في حضنه، من خبن الطعام إذا غيبه وخبأه للشدة.
(٦) موضع تجفيف التمر، انظر: لسان العرب:٨٦/١٣.
(٧) وهو الترس، انظر لسان العرب:٤٠٠/١٣.
(٨) أخرجه أبوداود في الحدود، باب ما لا قطع فيه (١٤ ٥٥٠-٥٥٠ رقم: ٩٠ ٤٣) والنسائي في قطع السارق، باب الثمر يسرق بعد أن يؤويه الجرين (٤٥٩/٨ - ٤٦٠، رقم ٤٩٧٣).
(٩) انظر: المهذب:٤٢٢/٥، والذخيرة:١٥٨/١٢.
(١٠) في تفسير غريب الموطأ:٤٢٦/١-٤٢٧ (الحريسة هي كل ما رعى في الجبل والمسارح من الماشية والدواب).
(١١) في تاج العروس:٤١٩/٦ (المراح بضم الميم، المكان الذي تأوي إليه الإبل والغنم بالليل).
(١٢) أخرجه النسائي في السارق، باب الثمر المعلق يسرق: (٤٥٩/٨، رقم ٤٩٧٢).
(١٣) المهذب:٥: ٤٢٢-٤٢٣، والذخيرة: ١٥٨/١٢: ١٥٨/١٢.

المراجع

- علي عدنان الفيل (٢٠١٣م)، المسؤولية الجزائية عن استخدام بطاقة الائتمان الإلكترونية (دراسة مقارنة) مجلة الحقوق، العدد:٣، السنة:٣٧.
- يوسف مطلق المطوطح (٢٠١٤م)، البطاقة الائتمانية من الناحية القانونية، مجلة الحقوق، العدد:١، السنة:٣٨.
- عبدالرحمن بن سليمان الربيش (٢٠٠٩)، الحرز وأثره في جريمة السرقة، مجلة البحوث الأمنية، مجلد:١٨، العدد:٤٤.

العالم الجاهل في الفكر الإسلامي

د. مسعود صبري
باحث في الموسوعة الفقهية - الكويت

جعل الله تعالى للعلماء المكانة العلية، فعلمهم الكتاب والحكمة، وفقههم في الدين، وعلمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، فرفعهم بالعلم، وزينهم بالحلم؛ لأن بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح. ولذا، كان فضلهم عظيما، وخطرهم جزيلا، فهم ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، حتى إن الحيتان في البحر لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، فهم في الشفاعة دون الأنبياء وفوق الشهداء، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل عند الله من العابدين، وأعلى درجة عند الله من الزاهدين، حياتهم للعباد غنيمة، وموتهم للعالمين مصيبة، يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، وجميع الخلق إلى علمهم محتاج، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عند، وهم مرجع الناس جميعا، حكاما ومحكومين، فبقول العلماء يحكمون، وعليه يعولون، فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وقد دل القرآن على فضلهم، مرشدا إلى مكانتهم، فهم أخوف الخلق من الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر:٢٨)، وهم أعلى الناس عنده يوم القيامة درجات، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة:١١).

هذه هي الصورة الواجبة للعلماء، ولكن ابتليت الأمة على مر عصورها بصنف آخر من العلماء، سماهم السابقون العلماء الجهال، والعلماء الجبارين، والعلماء الفساق.

ووصف العالم بالفسوق ورد عن النبي ﷺ، كما في حديث أنس: «يكون في آخر الزمان عباد جهال، وعلماء فساق».

كما ورد عن السلف وصف العالم بالفاجر، فعن سفيان الثوري قال: «تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون». بل وصف مكحول رحمه الله العالم الفاسق بأنه أنتن من جيفة الحمار، فقال: «إنه لا يأتي على الناس ما يوعدون حتى يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة حمار». وذلك لأنه يبيع دنياه بآخرته.

ووصف الفضيل بن عياض بعض العلماء بأنه جبار، فيقول: «إن الله عزوجل يحب العالم المتواضع، ويبغض الجبار، ومن تواضع لله ورثه الله الحكمة». وقد تنبه السلف - رضوان الله عليهم - إلى أن العلماء أصناف، فمنهم من يطلب الدنيا بعلمه، ومنهم من يطلب الآخرة. قال الفضيل رحمه الله: إنما هما عالمان: عالم دنيا، وعالم آخرة، فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاتبعوا عالم الآخرة، واحذروا عالم الدنيا، لا يصدنكم بشره، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٣٤) الأحبار: العلماء، والرهبان: العباد. ثم قال: لكثير من علمائكم زيه أشبه بزي كسرى وقيصر منه بمحمد ﷺ.

إن النبي ﷺ لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمر إليه.

قال فيهم الإمام الآجري: «علماء في الظاهر، لم ينفعهم الله بالعلم، ممن طلبه للفخر والرياء والجدل والمراء، وتأكل به الأغنياء، وجالس به الملوك، وأبناء الملوك، لينال به الدنيا، فهو ينسب نفسه إلى أنه من العلماء، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء، فتنة لكل مفتون، لسانه لسان العلماء، وعمله عمل السفهاء» (أخلاق العلماء للآجري، ص:٨٣)

وهؤلاء العلماء هم أشر على الأمة من أعدائها، لأنهم يكذبون على الله ورسوله والأمة بكلام الله ورسوله، فيدلسون في الدين، وينتحلون صفة المتقين، يجعلون الحرام حلالا، والحلال حراما، ويصورون الباطل حقا، والحق باطلا.

علماء السوء في التوراة

والعلماء الفساق في كل أمة من الأمم، وهم في هذه الأمة أيضا، ويدل على وجود علماء فاسقين في كل أمة ما ورد عن وهب بن منبه قال: قال الله عزوجل فيما يعاتب به أحبار بني إسرائيل: «تفقهون لغير الدين، وتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة، تلبسون جلود الضأن، وتخفون أنفس الذئاب، وتتقون القذى من شرابكم، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال، تطيلون الصلاة، وتبيضون الثياب، وتنتقصون مال اليتيم والأرملة، فبعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي ذي الرأي، وحكمة الحكيم».

صفات العالم الجاهل عند المسيح

وقد أبان المسيح - عليه السلام - عن صفات بعض العلماء الجاهلين، من سخط الرزق، واحتقار مكانته ووظيفته، فيعظم وظيفة أهل الدنيا، ويحتقر وظيفته الدينية، ويتهم القضاء والقدر، ويقبل على الدنيا ويدبر عن الآخرة، ويؤثر دنياه على آخرته، ولا يعمل بما علم.

فعن هشام صاحب الدستوائي قال: قرأت في كتاب بلغني: أن من كلام عيسى ابن مريم عليه السلام: «كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه، واحتقر منزلته، وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته. وكيف يكون من أهل العلم من اتهم الله فيما قضاه، وليس يرضى شيئا أصابه. كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه. وكيف يكون من أهل العلم من دنياه آثر عنده من آخرته، وهو في دنياه أفضل رغبة. وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليحدث به، ولا يطلبه ليعمل به».

صفات علماء السوء في الأمة

وقد ذكر العلماء الثقات صفاتهم، وحذروا الأمة منهم. وأكثر العلماء الجهال يأتون في آخر الزمان، وقد أبان النبي ﷺ من صفاتهم، إذ هو تركنا على المحجة البيضاء.

من تلك الصفات:

التأويل الفاسد

فشأن علماء السوء الجهال هو تحريف الكلم عن موضعه، فعله علماء بني إسرائيل من قبل، فبدلوا الآيات المنزلة، ولما حفظ الله تعالى كتابه القرآن الكريم كان عمل علماء السوء هو التأويل الفاسد، بتغيير مراد الله تعالى من قوله إلى ما يوافق أهواءهم وأهواء من يخدمونهم، وهو نقض للعهد والميثاق المأخوذ عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المائدة:١٣)، فخالفوا ما أمرهم الله تعالى به من بيان الحق بعيدا عن صاحبه، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران:١٨٧).

الكذب على الله

ومن صفات علماء السوء أنهم يكذبون على الله تعالى، فيدعون على الله ما لم يقله، وينسبون إليه ما لم يحكم، شأنهم كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ (آل عمران:٧٥).

وقد حذر الله تعالى من طائفة ممن ينتسبون إلى العلم كذبهم عليه، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾ (آل عمران:٧٨)، فيوهمون الناس أن ما يدعونه من الكذب هو من عند الله، وما هو من عند الله، فعن مجاهد في تفسيره (ص:٢٥٤) في قوله: ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾(آل عمران:٧٨)، يعني: «يحرفونه».

استحلال الحرام

فمن صفات العلماء الجاهلين أنهم يستحلون الحرام إما صراحة لمخالفة النصوص القطعية، وإما للشبهة، يقول الأوزاعي: «كان يقال: ويل للمتفقهين لغير العبادة، والمستحلين الحرمات بالشبهات». فنجد بعضهم يستحلون من المال ما حرم، ويستحلون قتل الأبرياء من الخلق، ويستحلون لأنفسهم ولذويهم وقرابتهم ومحبيهم ما يحرمونه على عامة الناس، يؤولون النصوص تأويلا فاسدا.

وفي شأنهم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ (النحل:١١٦-١١٧).

التصدر للمجالس بغير علم

أولى صفات العلماء الجاهلين أنهم لم ينهلوا من معين العلم ما يؤهلهم لشغل وظيفتهم، فجلسوا دون أن يكونوا أهلا لمكانهم، فيخرج علينا من لا فقه له في الدين، فيفتي الناس بالحلال والحرام، ولم يجلسه شيوخه من العلماء، وإنما أجلسه أصحاب الفضائيات والشاشات، لأجل أنه يحسن الوعظ في الناس، أو أن له جمهورا يستمع إليه، فيتاجر أهل الفضائيات - إلا من رحمه الله - بمكانة الواعظ، ويجلسه غير مجلسه، فيفتي الناس بغير علم.

ففي الحديث المتفق عليه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما؛ اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا».

وفي الحديث نبوءة من النبي ﷺ باضمحلال مستوى أهل العلم، وأن العلم يقل في الأمة، وهذا ما شاهدناه، فقد كانت الأمة في أزمنة السلف والخلف ينشغلون بطلب العلم، كنشاط يومي، لا ليتحصلوا على شهادة جامعية، أو ينالوا به وظيفة دنيوية، أو يتكسبوا من ورائه قربا من السلطان، أو جاها يفاخرون به الناس، بل كانوا يطلبون العلم لوجه الله تعالى، بل لم يكونوا يتكسبون منه، فلهم أعمالهم وتجاراتهم التي يتكسبون منها، فكان علمهم لوجه الله خالصا، ولم يكونوا يكتفون برتبة من العلم، بل كانوا يطلبون العلم إلى آخر الحياة، كما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: من المهد إلى اللحد.

وفي الحديث حصول خلو الزمان من العالم الرباني، مع وجود من يتسمون باسم العلماء، ويتبوأون المناصب الدينية وأعلى وصف لهم أنهم طلاب علم.

طلب العلم لغير وجه الله

ومن سمات العلماء الجهال أنهم يطلبون العلم لغير وجه الله تعالى، ففي سنن الترمذي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علما لغير الله، أو أراد به غير وجه الله، فليتبوأ مقعده من النار». وقد أبان النبي ﷺ عن المقاصد الخبيثة للعالم الجاهل، فهو يتعلمه ليباهي به زملاءه وأصدقاءه من العلماء، أو يجادل به السفهاء من الناس، أو لينال تجمع الناس حوله طلبا للشهرة، ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه وابن حبان، عن حذيفة عن النبي ﷺ: «لا تعلموا العلم، لتباهوا به العلماء، أو لتماروا به السفهاء، أو لتصرفوا وجوه الناس إليكم، فمن فعل فهو في النار».

طلب العلم للدنيا

ومن العلماء من يطلب العلم لينال به منصبا أو هو عنده مجرد وظيفة يأكل بها، حتى قال أحد من تولى منصبا يعد أكبر المناصب الدينية في العالم، حين روجع في بعض الأمور وصدور بعض التصرفات

التي لا تليق بالمنصب، قال: إنما أنا موظف!

وهناك ممن يشتغلون بالعلم لا هم لهم إلا الدنيا، لا يبتغون به وجه الله تعالى، وفي سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علما، مما يبتغي به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة».

وقد نبه على ذلك ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «لو أن أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، سادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا؛ لينالوا من دنياهم، فهانوا على أهلها». رواه البيهقي وهو عند ابن ماجه موقوفا على ابن عمر - رضي الله عنهما.

وابتغاء العلماء الدنيا بالعلم يصرف الناس عن العلم لا عنهم، قال وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني: «كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم، رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم؛ رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم، لما رأوا من سوء موضعه عندهم، فإياك وأبواب السلاطين، فإن عند أبوابهم فتنا كمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئا، إلا أصابوا من دينك مثله».

ويوضح مالك بن دينار رحمه الله بعض صفات العلماء الجاهلين بحقيقة العلم ومنزلته، كونهم يطلبون العلم للدنيا، ويتفاخرون بعلمهم على الخلق، ويراؤون به الناس، فيقول: «يا عالم، أنت عالم تأكل بعلمك. يا عالم أنت تفخر بعلمك. يا عالم، أنت عالم تكاثر بعلمك. يا عالم، أنت عالم تستطيل بعلمك. لو كان هذا العلم طلبته لله لرُئي ذلك فيك، وفي عملك».

تصيد أخطاء الآخرين

ومن صفات العلماء الجاهلين أنهم يحرصون على تخطئة غيرهم، ويتصيدون أخطاءهم، فيغلب عليهم الجدل والمناظرة، فيهتمون بسفاسف الأمور دون عظائمها، فلا يعود بعملهم نفع على الدين، ولم يكن ذلك نهج السلف - رضوان الله عليهم.

وقد حذر النبي ﷺ من هذا الصنف من الناس، فيتذاكرون ما لا نفع فيه للأمة من المسائل، فعن ثوبان رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «سيكون أقوام من أمتي، يتعاطى فقهاؤهم عضل المسائل، أولئك شرار أمتي».

وعن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ «نهى عن الأغلوطات»، قال عيسى: والأغلوطات: ما لا يحتاج إليه من: كيف وكيف؟

وعن الحسن قال: «إن شرار عباد الله قوم يحبون شرار المسائل، يعمون بها عباد الله».

إن الأمة اليوم بحاجة إلى العلماء الربانيين كما وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ (آل عمران:٧٩)، فالعلماء لا يتحزبون لطائفة دون طائفة، ولا يميلون لحزب دون آخر، إنما وجهتهم الحق من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح خير القرون بشهادة سيد المرسلين ﷺ، فهم ميزان الأمة وعمودها، وصيانة مكانتهم واجبة عليهم لا لذواتهم، ولكن لما يحملون من مشاعل النبوة التي بها كانوا ورثة الأنبياء، يقولون الحق ولو كان مرا، ولا يخافون في الله لومة لائم، فهم حراس الدين والعقيدة، الآخرة همهم، وحفظ الدين واجبهم، وتوريث العلم مهنتهم، وإرشاد الخلق إلى الخالق غاية الغايات ومقصد المقاصد.

وإن الخسارة الكبرى لا تتعلق بعلماء السوء الجهال، وإنما تتعلق بضلال الخلق عن الحق، والتأثير السلبي لمن يتولون القيادة الدينية في بلاد المسلمين من تشويه صورته في الداخل والخارج لأجل أطماع دنية، وشأنهم أن يترفعوا عن ذلك، وألا يكونوا أهل دنيا بل يكونوا أهل الله، وما كان لأهل الله أن يكذبوا على الله.

وما ضاعت أمة إلا بسبب تفريط علمائها، وضياع علمهم، أو انحرافهم عن منهج الله تعالى، وقد ضرب الله تعالى لنا مثلا في القرآن بعلماء بني إسرائيل، وهي آيات تستحق الدراسة والتأمل، لأنها محطة تاريخية في تاريخ علماء أمة، فما ضلت أمة إلا بضلال علمائها، وما استقامت أمة إلا باستقامة علمائها، وما سعى أحد إلى الإصلاح دون أن يكون الإصلاح في العلماء والدعاة إلا ضل الطريق، فهذا هدي الأمة وسمتها، والبحث عن الإصلاح في غيرهم مضلة لا هدى فيها.

النقود في التاريخ الإسلامي

حواس سلمان محمود
باحث في التراث الإسلامي

تعتبر عملية اختراع النقود عملية حضارية كبرى، ولقد اهتدى الإنسان إليها منذ العصور القديمة، شأنها في ذلك شأن اختراع أحرف الكتابة، أو استكشاف كيفية إشعال النار، أو ابتكار الزراعة.

لقد عاش الإنسان البدائي على جني الثمار والصيد بشكل جماعي، وكان زعيم القبيلة هو الذي يوزع المنتجات بين أفرادها، وكانت العشيرة تشكل وحدة اقتصادية معلقة، ومع تطور الإنتاج أصبح الاقتصاد المعلق غير كاف لمواجهة الحياة الإنسانية ومشقاتها المتعددة، فدخلت الجماعات المتفرقة في مبادلات فيما بينهما الآخر على شكل مقايضة (مبادلة سلع مع سلع مباشرة)، وكانت المقايضة وسيلة في بادئ الأمر في مجتمعات بسيطة، ولكن مع تطور المجتمعات ظهرت حاجات جديدة وتعددت السلع وزاد الإنتاج، فأضحى التعاون بموجب المقايضة عملية عسيرة على الإنسان، وما لبث الإنسان أن توصل إلى إيجاد وحدة معيارية تقاس بها قيم مختلف السلع والخدمات، ثم أصبحت هذه الوحدة وسيطا للمبادلة، يقبلها الأفراد عموما، في الوفاء بالالتزامات. فالنقود إذن هي أي شيء يتمتع بقبول عام في الوفاء بالالتزامات، أيا كان نوعها وأيا كانت صفاتها. وأصبحت النقود، فضلا عن ذلك، أداة لاختزان القوة الشرائية، وذلك كي تستخدم عند الحاجة في المستقبل. فما دام في إمكان الفرد مبادلة أي شيء بالنقود فإنه يمكن للمرء أن يكتنز النقود، وذلك لأهمية الوظائف التي تؤديها، باعتبارها وسيطا للتبادل، ومقياسا للقيمة، ومستودعا للقيمة ومعيارا للمدفوعات الآجلة.

وكانت النقود السلعية أقدم أنواع النقود، واحتلت المعادن النفيسة، مثل الذهب والفضة، مكان الصدارة بين المعادن النقدية، وتلتهما في المنزلة معادن أخرى، مثل الحديد والنحاس والزنك والقصدير.



يذكر أن التاريخ المبكر للنقود يعود إلى الابتكار الذي حدث في الصيف (آسيا الصغرى) والنقود التي سكها الليديون من خليط معدني من الذهب والفضة، وذلك في عهد ملكهم إرديس (٦٥٢ - ٦٢٥ ق.م).

النقود قبل الإسلام

لم يكن للعرب نقود خاصة بهم حين ظهر الإسلام، فقد كانوا يتعاملون بالدراهم الفضية الساسانية وبالدنانير البيزنطية الذهبية، ولاشك في أن تعاملهم بنقود الفرس والبيزنطيين يرجع إلى مجاورتهم للدولتين ومستعمراتهما، وإلى رحلاتهم التجارية العديدة. ومع ذلك، فقد كانت هناك نقود عربية متداولة بين العرب في الجاهلية على نطاق محدود جدا، وكمثال على ذلك نقود اليمن الحميرية. وكذلك اقتبس الأنباط من الإغريق والروم ضرب النقود، وكان لدولة تدمر نقود على شكل نقود الإسكندرية الرومانية، وعليها كتابة ورسوم.

تجدر الإشارة إلى أنه قد اشتهر عند العرب الدينار الهرقلي، فكانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية، وكان ذهب الدينار الهرقلي من أجود أنواع الذهب، وكان شكله بديعا حسنا. كما استعمل العرب الدينار البيزنطي، إذ نقلوا اسمه من اليونانية فأطلقوا عليه اسم الدينار أو الدينر (من دون ألف)، وكان الدينار مثقالا من الذهب، أي ٤,٢٦٥ من الغرامات، وهذا الوزن هو وزن «السوليدس»، أو الدينار البيزنطي الذي كان شائعا في بيزنطة قبل الإسلام، وكان وزن الدينار يقدر أيضا باثنتين وسبعين حبة شعير، أو ستة آلاف حبة خردل من الوسط. ويذكر المقريزي أنواعا مختلفة من الدراهم الفضية الساسانية التي شاعت عند العرب قبيل الإسلام، وكانت هذه الدراهم مختلفة الأوزان والأسماء، حيث هناك الدراهم السود الوافية والدراهم الجواز، وكانت لهم دراهم تسمى «جوراقية»، إضافة إلى الدراهم «الطبرية».



العملات والنقود في التاريخ الإسلامي

يطلق عليها لفظ «السكة»، الذي يعبر عن معان متعددة تدور كلها حول النقود التي تعاملت بها الشعوب العربية والإسلامية من دنانير ذهبية ودراهم فضية (سبق ذكرها) وفلوس نحاسية. ويقصد بلفظ «السكة» أحيانا تلك النقوش التي نزين بها هذه النقود على اختلاف أنواعها، وأحيانا أخرى يعني «قوالب السبك» التي يختم بها على العملة المتداولة، كما يطلق أيضا على الوظيفة التي تقوم على سك العملة تحت إشراف الدولة. ويقدم العلامة العربي ابن خلدون تعريفا جامعا للسكة فيقول: «السكة، هي: الختم على الدنانير والدراهم للتعامل بها بين الناس بطابع حديد، ينقش فيها صور وكلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار والدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، إذ يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدرهم والدينار بوزن معين يصطلح عليه، فيكون التعامل بها عددا، وإذا لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا. والسكة تعد مظهرا من مظاهر سلطة الخليفة أو السلطان أو الحاكم، إلى جانب كونها وثائق رسمية لا يمكن الطعن فيها، أو مصدرا من مصادر التاريخ تساعد على استنتاج الحقائق التاريخية، سواء ما يتعلق منها بالأسماء أو العبارات الدينية المنقوشة عليها، إلى جانب كونها سجلا للألقاب والنعوت التي تلقي الضوء على كثير من الأحداث السياسية، التي تثبت أو تنفي تبعية الولاة أو السلاطين للخلافة أو للحكومات المركزية في التاريخ الإسلامي. ولذلك، تعد النقود التي سكت في صدر الإسلام في دمشق وبغداد والقاهرة مستندات رسمية تؤكد على الوحدة السياسية والاقتصادية للعالم العربي».

ولابد من التأكيد - هنا - أن العقيدة الإسلامية قد أسهمت بقسط كبير وملموس في تطور صناعة السكة في العالم الإسلامي بفضل اهتمام الشريعة الإسلامية بالنقود، لكونها تدخل في ميدان العبادات، وتحدد المعاملات، وذلك لصلاتها المباشرة والوثيقة بالزكاة والصداق والعقود والوقف والعقوبات وغيرها. ارتبطت السكة ارتباطا وثيقا بالفنون الإسلامية، حيث تساعد نقوشها في التعرف على الكتابات الأثرية المنقوشة، ودراسة دلالاتها السياسية والتاريخية والعقائدية، إلى جانب كونها مصدرا مهما للتعرف على أسماء البلاد والأماكن التي ضربت فيها. كذلك تفيد دراسة السكة في إلقاء الضوء على حالة العالم الإسلامي الاقتصادية عبر العصور التاريخية.. من خلال التعرف على قيمة العيار في السكة، ومقدار وزنها في العصور الوسطى باسم «دار السكة» و«دار الضرب»، وهي على هيئة منشأة صناعية تتبع السلطان

أو الحاكم، وتقوم بإصدار عملات نقدية ذهبية أو فضية أو نحاسية أو برونزية.

١- في عهد الرسول ﷺ

جاء الإسلام وكان الدرهم الساساني والدينار البيزنطي شائعين في العهد النبوي المبارك، ويشير القرآن الكريم واصفا طوائف من أهل الكتاب، ويذكر الدينار قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ (آل عمران:٧٥).

هذا، ولقد كان الذهب والفضة خلال هذه الفترة النبوية المباركة، يمثلان ذروة التعامل النقدي، بل إن كفار قريش تحدوا الرسول بأن يأتي بمعجزة حسية تؤكد صدق رسالته، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ (الزخرف:٥٣). وبعد رسوخ الإسلام حذر المسلمين من مغبة اكتناز معدني الذهب والفضة، وعدم إخراج زكاتهما ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ (التوبة:٣٤).

ونظرا لانشغال النبي ﷺ وصحابته الأبرار بتوطيد أركان الدولة الإسلامية الناشئة، والقضاء على الشرك والكفر، أقر عليه الصلاة والسلام العملات النقدية المتداولة في عهده لتنظيم جباية الزكاة، على الرغم من أنها تحمل شعارات وصورا تتعارض مع روح الإسلام وتعاليمه، وظلت هذه النقود متداولة في معظم أرجاء الجزيرة العربية بشكل عام والحجاز بشكل خاص، حيث كان الدرهم الفضي الساساني متداولا في الحجاز، باعتباره معدنا نفيسا لا نقدا ثابتا. وكان منها (أي النقود المتداولة) الكبير والصغير والثقيل والخفيف.

والدرهم الساساني عبارة عن قطعة فضية مستديرة عليها صورة الحاكم الساساني داخل طوق من ثلاث دوائر، وأمام وجهه اسمه مكتوب باللغة الفهلوية (البهلوية)، وخارج الطوق توجد أربعة أهلة متفرقة على الجهات الأربع في وسطها نجوم سداسية، وفي خلف العملة صورة الموقد الناري للعقيدة المجوسية، وإلى جانبيه حارسا المعبد، أما الدينار البيزنطي فهو عبارة عن قطعة ذهبية مستديرة الشكل، على وجهها صورة الإمبراطور البيزنطي هرقل لوحده أو مع ولديه «هرقليوناس» و«قسطنطين»، ويحمل كل منهما صليبا ينتهي بصليب آخر، أما الوجه الآخر للعملة فيتمثل الصليب قائما على مدرجات أربعة بجانبها كتابات بالأحرف اللاتينية.

وهناك عملة ثالثة تحتل مكانة أقل من سابقتيها وهي: الفلس النحاسي البيزنطي، مطبوع على وجهه صورة للإمبراطور البيزنطي الحاكم، أما الوجه الآخر فقد حمل الحرف اللاتيني «m»، الذي يرمز إلى قيمة الفلس، ويساوي ٤٠ نميا (٣٠ غراما)، وقد أقره الرسول ﷺ في التعامل.

لقد استعملت هذه العملات على نطاق لا بأس به في عهد الرسول ﷺ، حيث فرض الإسلام الجزية على أهل الكتاب دينارا على كل بالغ، وجعل الإسلام الفضة والذهب من الأموال الباطنة، وزكاتهما ربع العشر. ونصاب الفضة مئتا درهم بوزن الإسلام، الذي وزن كل درهم منه ستة دوانق، وكل عشرة منها سبعة مثاقيل، وفيها إذا بلغت مئتي درهم خمسة دراهم هو ربع عشرها، ولا زكاة فيها إذا نقصت عن مئتين وفيما زاد عليها بحسابه.

وأما الذهب فنصابه عشرون مثقالا (أي دينارا) بمثاقيل الإسلام، ويجب فيه ربع عشره وهو نصف مثقال، وفيما زاد بحسابه، ويستوي فيه خالصه ومطبوعه، ولا تضم الفضة إلى الذهب، ويعتبر نصاب كل واحد منهما على انفراده. وأصبحت لهذه العملات النقدية قوتها الشرائية، فقد اشترى الرسول ﷺ حائطا لبني النجار مساحته ٤٢٠٠ م٢ بنى عليه مسجدا بعشرة دنانير ذهبا، دفعها من مال أبي بكر رضي الله عنه. واشترى عثمان رضي الله عنه في عهد الرسول أرضا زادها في المسجد بعشرين ألفا، أو بخمسة وعشرين ألف درهم، وقيل بعشرة آلاف درهم.

تجدر الإشارة إلى أن بعض الصحابة قد امتهن الصرافة، مثل: البراء بن عازب وزيد بن أرقم، رضي الله عنهما. وقد ورث العرب بعضا من العادات السيئة في الجاهلية، فجاء الإسلام مبطلا لها، حيث كان من عادة التجار العرب أنهم يتعاملون بوزن النقود لا بعدّها، ذلك لأن بعض الناس كانوا يقتطعون جزءا من الدرهم أو الدينار، وقد عاب القرآن هذه الصفات الذميمة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (النمل:٤٨)، أي قيامهم بتزييف الدراهم وغشها، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ (هود:٨٧). هذا، ولقد روى المروزي بإسناده عن علقمة ابن عبدالله عن أبيه: «أن النبي ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس»، ولهذا يعتبر النبي ﷺ صاحب أول إصلاح نقدي قام به العرب المسلمون في مجال القضاء على ظاهرتي الغش والتزوير حينما وضع لبنات الحضارة الإسلامية القائمة على العقيدة والأخلاق، وهذا مصداقا لقوله تعالى جل وعلا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء:١٠٧).

٢- في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

بعد وفاة النبي ﷺ استمر الخلفاء الراشدون، رضي الله عنهم، على نهجه في التعامل بالمسكوكات النقدية الأجنبية، وذكر الإمام أبو الحسن الماوردي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضع ماهية الدرهم الشرعي. وقد اهتم ابن

خلدون في مقدمته بتحديد هذه النقود فقال: «أعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعون درهما، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار، ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير، فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة، وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع».

وتذكر بعض المراجع الحديثة نقلا عن المقريزي (من علماء القرن التاسع الهجري) أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضرب الدرهم سنة ١٨ للهجرة على نفس الكسروية وأشكالها وأعيانها، ولم يحاول ضرب سكة جديدة، إلا أنه أضاف إليها نقش بعض العبارات الإسلامية مثل الحمد لله، ومحمد رسول الله، ولا إله إلا الله، ولله، أو بسم الله، أو بسم الله ربي.. وهذه النقوش الموجودة في بعض العملات الكسروية الساسانية مشكوك في نسبتها إلى الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعدة أمور أهمها:

١- أن المصادر الفقهية والتاريخية المتقدمة لم تذكر ذلك البتة. فعن سعيد ابن المسيب أن أول من ضرب النقود المنقوشة عبدالملك بن مروان، وكانت الدنانير والدراهم كسروية.

٢- أن هذه النقود المنقوشة في عهد عمر لم يصل إلينا منها شيء حتى نسلم بصحتها، بل إن هذه الدراهم المنسوبة إلى عمر مؤرخة بسنة ٢٠، وبعضها موجود في المتحف العراقي، فإن تاريخ سكها في الحقيقة لا يعود إلى فترة الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٣-٢٣هجرية)، وقد نتج هذا الالتباس بسبب عدم التمييز بين التواريخ التي كانت تضرب بها النقود آنذاك.

٣- إذا افترضنا ضرب هذه النقود في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأين المكان الذي سكت فيه؟!

٤- أن المتأمل في شخصية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كأحد العشرة المبشرين بالجنة، والمعروف بإيمانه القوي، وغيرته الشديدة على الإسلام، لن يقبل بوضع شعارات الإسلام الخالدة على هذه العملات الوثنية والمجوسية بما فيها من صور وطقوس تتنافى مع تحريم الإسلام لهذه الصور، قال عليه الصلاة والسلام: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ». ويمكن الإشارة هنا إلى شخصية عمر بقول المصطفى ﷺ فيه: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك». (صحيح البخاري).

وهكذا نرى أن هذه المسكوكات المنسوبة إلى عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليست على الوجه الصحيح في نسبتها لعدم وجود الأدلة الكافية والبراهين الدامغة.

٣- في العهدين الأموي والعباسي

أمر عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف بنشر الدراهم الجديدة في القسم الشرقي من الدولة الإسلامية، وبمنع تداول الدراهم السابقة، وبإقناع الناس بجلب الدراهم القديمة إلى دار الضرب لطبعها من جديد، وسار الخلفاء الأمويون بعد عبدالملك بن مروان على سياسته في ضرب النقود، فكان الخلفاء يتشددون في عيار الدينار الذهب، وكان الذهب خالصا بقدر ما كانت تساعدهم طرق التصفية. وقيس عيار دينار للرشيد وآخر للمطيع فكان عيارهما ٩٧,٩ في المئة، أي ٢٣,٥ من القراريط (حبة)، باعتبار أن الذهب الخالص ٢٤ قيراطا (حبة). كذلك تشدد الخلفاء بعد عبدالملك في صحة الوزن وتخليص الفضة، فضرب عمر بن هبيرة (والي العراق) للخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك، دراهم أجود من دراهم الحجاج على عيار ستة دوانق، ولما ولى الخليفة هشام بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسري العراق اشتد في النقود أكثر من ابن هبيرة. وذهب خلفه في ولاية العراق يوسف بن عمر، وكان أبعد منه في تخليصها والدقة في العيار، فكانت الدراهم «الهبيرية» و«الخالدية» و«اليوسفية» أجود نقوش بني أمية. ولم يكن الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور يقبل في الخراج من نقود بني أمية غيرها، ولهذا سميت الدراهم الأولى «المكرهة». وفي العصر العباسي كان الخلفاء يضربون الدراهم والدنانير، وكانوا ينفقون أحيانا وزن الدراهم، فضرب أبوالعباس السفاح الدراهم بالأنبار ونقصها حبة واحدة، ثم نقصها حبتين. وفي خلافة المنصور أصبح النقص ثلاث حبات، ولم يصبح للدراهم وزن ثابت، مما جعل الناس يتعاملون بها بالوزن. ولما قتل جعفر البرمكي فوض هارون الرشيد أمر دار الضرب إلى السندي بن شاهك، فاعتنى بتخليص الذهب والفضة في النقد، وضرب الدرهم على العيار الصحيح، لكن الأمر لم يثبت على حال بعد ذلك.

أما وزن الدينار العباسي فكان بوزن الدينار الأموي وهو ٤,٢٦٥ من الغرامات، أي ٦٦ حبة، وهذا هو الوزن الشرعي للدينار أو المثقال. واستمرت كلمة دينار تنقش على جميع النقود الذهبية للدولة العباسية والدول التي نشأت في عهدها وانفصلت عنها، وكان هارون الرشيد أول خليفة يذكر اسمه على الدينار، وضرب العباسيون من الدنانير ما كان أكثر من المثقال إلى أربعة مثاقيل، وذلك للتعامل بها، وضربوا عدا عن هذا أنواعا من الدنانير الكبيرة الحجم والوزن، وذلك لكنزها أو للصلة والإهداء في مناسبات معينة، كالأعياد والأفراح، أو للتصدق بها، وأطلقوا عليها اسم دنانير الصلة، وذلك لكي يصلوا بها أحباءهم وندماءهم والفقراء.

المراجع

- محمد عودة العودان، «النقود في الحضارة الإسلامية»، مجلة الخفجي، ربيع الأول - يونيو ١٩٩٩م، ص٢٢.
- سامي عبدالله المغلوث، «العملات النقدية المستخدمة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين»، مجلة الخفجي، ربيع الآخر ١٤٢٠هجرية - يوليو ١٩٩٩م، ص١٢.
- سالم الشيحاوي، «النقود عبر التاريخ»، صحيفة تشرين السورية، ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٠م، ص٩.
- جون كينث جالبريت، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، «تاريخ الفكر الاقتصادي.. الماضي صورة الحاضر»، عالم المعرفة - الكويت، عدد ٢٦١، سبتمبر ٢٠٠٠م، ص١٥٧.
- د. ناهض عبدالرزاق، المسكوكات، أبو عبيد ابن سلام، الأموال.
- مقال بعنوان «العملات والنقود الإسلامية»، موقع «سوق السبت»، ٧ أبريل ٢٠٠٨م.

قراءة في حوادث الإساءة إلى نبينا محمد ﷺ

د. نبيـل فـولي محمد
باحث أكاديمي

من وقت إلى آخر تهب علينا ريح فتنة عاتية تتعرض لنبينا الحبيب محمد ﷺ بالإساءة والاستهزاء في فيلم أو رسم أو خطبة أو مقال، ويسوغون هذا بحرية الرأي والتعبير، متعللين بأنها عنوان ثقافتهم والثابت الأول من ثوابت حضارتهم.

ولو أنهم اعتمدوا في إساءتهم وسخريتهم هذه على حقائق ثابتة وروايات صادقة، لكان لهم شيء من العذر، ولكنه التلفيق والبهتان والافتراء على فخر الإنسانية.

ولو أنهم سووا في موقفهم هذا بين جميع الرموز في الشرق والغرب، فسخروا من رموز السياسة ومشاهير التاريخ، ومن أعلام الثقافة والفكر والفن، ومن الحاخامات والقساوسة والكنائس و«الكتاب المقدس» كما يفعلون مع الإسلام ونبيه، لصدقناهم – وإن كنا لا نرضى بهذا أسلوبا – في أنها حرية الرأي والتعبير ليس إلا!

إن السباب والهجاء بالكلمات الغليظة ليسا بالأسلوب المحترم للتعبير عن الرأي، ولا يعدوان أن يكونا تراجعا أخلاقيا يأنف منه شرفاء الناس، وينأى عنه كرامهم، فحتى لو كان خصمي شيطانا رجيما راعيا للشر والرذيلة، فإن الحل في التعاطي معه ليس بسبه ولا شتمه، ولكن بالانشغال برعاية الخير وإشاعة الفضيلة في دنيا الناس، وكفه عن حماقاته بالوسائل والطرق التي تكفلها الشرائع والقوانين.

وقد تجدد الكلام في هذا الموضوع بقوة بعد حادث الهجوم الدامي على صحيفة «شارلي إبدو» الفرنسية الصاخبة في يناير ٢٠١٥م، وإصرارها بعده على مواصلة سياستها في رسم صور كاريكاتورية للنبي محمد ﷺ، وقيامها بهذا فعلا في أول عدد لها بعد الحادث.

وتريد هذه السلسلة من المقالات التوقف عند أشهر حوادث الإساءة إلى النبي الخاتم وأخطرها في التاريخ؛ لحصد الدروس المهمة فيها، ومعرفة أفضل السياسات وأحسن المواقف التي يمكننا اتخاذها في مواجهة مثل هذا السلوك الشاذ.

وإن كان رسول الله ﷺ لا يضره أن يتطاول عليه متطاول، ولا أن ينتقص من قدره جاهل أو جاحد، فإن الغيرة الواجبة على دين نحن محسوبون عليه بكل حال تفرض علينا أن نخرج عن صمتنا، وندرس هذه الظاهرة دراسة نتبين بها السياسة

الصحيحة والمجدية تجاهها.
إن مثل محمد ﷺ حري بأن تغار عليه البشرية كلها، عندما يشتمه شاتم أو يسبه ساب؛ فيغار عليه المسلمون لأنه نبيهم الذي جلب الله لهم خيري الدنيا والآخرة على يديه، ويغار عليه غير المسلمين لأنهم يشاركونه في إنسانيته وبشريته، وهو منهما في القمة الرفيعة العالية.

لقد امتدح النبي ﷺ بعض رجال الجاهلية لما كان فيهم من الفضائل، وأثنى على رجال وأقوام خالفوه المعتقد لأخلاق حسنة كانت فيهم، أفلا يستحق هو كل الاحترام والإجلال؛ لأنه تحلى بكل فضيلة عالية ودعا الناس إليها، وتجرد من كل رذيلة وحذر العباد منها؟

أفلا يستحق الاحترام والإجلال وهو الذي لم يرض بإيمان بلا أمانة، ولا بصلاة لا تنهى صاحبها عن المنكر، ولا بدين بلا عهد، ولا بعلم بلا عمل صالح؟

وأما المسلمون، فهم في حاجة إلى أن يحسنوا الدعوة إلى الإسلام بصورته الصحيحة، ولعل من أهم المداخل إلى ذلك أن نعرف الناس بشخص رسول الله ﷺ، فهو - حتى على المستوى الإنساني العام - شخصية مبهرة تلبي حاجات الناس إلى المثل الأعلى في شتى مجالات البطولة والتميز، وتبدو منسجمة مع نفسها ومبادئها وأقوالها وأفعالها؛ كل ذلك في غير تكلف ولا تصنع، بل هي الفطرة النقية في أجلى صورها حين تعانق الخير وتدعو إليه فعلا قبل أن تعظ به قولا.

إن هذه المحاولة لقراءة مجموعة من أحداث الإساءة إلى نبينا ﷺ مما جرى في الماضي البعيد والقريب، ومازال شرر بعضها يتطاير إلى الآن، تسعى إلى ألا تكون ردود أفعالنا انتفاضة عاطفية عجلى لا تلبث أن تخبو نارها.

لكن القراءة المقصودة هنا تحتاج قبل ذلك إلى مقدمات تتناول في عجالة المكانة العقدية للرسول، وكذلك المكانة التشريعية، والدفاع الإلهي عنه ﷺ، ومؤلفات المسلمين في بيان أحكام هجاء شخص النبي الكريم، وحاجة البشرية إلى محمد ﷺ ورسالته، ودوافع الهاجين لرسول الله ﷺ، ثم أشهر حوادث التعرض للنبي بالإساءة، والدروس التي يمكن حصدها من كل حادثة.

دفاع الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ تجلى لنا، قديما وحديثا، في صور شتى تلفت انتباه أصحاب العقول إلى أن يد الله تعمل في هذه الناحية، وتدفع عن هذا النبي، فما كان لله تعالى أن يرسل نبيه داعيا إلى الحق صابرا ثابتا عليه، ويقيمه قدوة تامة للناس من دون أن يدفع عنه تهجمات السفهاء، حيا وميتا.

ولعل أهم الصور التي بدا فيها هذا الدفاع المجيد عن رسول الله ﷺ تتمثل فيما يلي:

■ الوحي الشريف

فقد كال المشركون لرسول الله ﷺ، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك ما توارثوه من عبادة الأنداد والشركاء، التهم والشتائم، وتفننوا في ذلك، حتى لم يتركوا وصفا سيئا مناسبا لحاله إلا ألصقوه به، فرموه بالسحر والكهانة والجنون والكذب والشعر، فسجل القرآن هذا، ورد عليه بالحجة مرة، والتهديد مرة أخرى، وتسجيل الحقيقة مقرونة بالثناء على الرسول تارة ثالثة.

■ تسخير من يدافع

ليس غريبا أن يدافع المسلمون من أهل الطاعات والقربات عن نبيهم الكريم محمد ﷺ، لكن من المدهش حقا أن يشاركهم في هذا مسلمون

استغرقتهم المعصية، وقارفوا حتى الكبائر من الذنوب، وقد سجل القرآن هذا الدفاع عموما حين قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧).

ومن نماذج هذا الدفاع العظيم عن رسول الله: أن علماء الحديث خاضوا أقوى حملة في التاريخ لرد افتراءات الوضاعين والكذابين على رسول الله، فحفظ الله لنا بهؤلاء الرجال الممتازين أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته صافية نقية من الدخيل والمكذوب، وصار معروفا عندنا ما هو صحيح النسبة إليه منها صحة يقين أو صحة رجحان، وما فيه ضعف قليل مجبور، وما به ضعف لا ينجبر، وما هو كذب صراح لفّقه بعض المفترين.

كما ألف المسلمون، قديما وحديثا، في الذب عن رسول الله ﷺ ورد الافتراء عنه، وهذا غير ما ألفوه في مدحه وذكر شمائله الشريفة عليه الصلاة والسلام، مما ليس هذا سياقه، ويمكن أن يقوم الباحثون بخدمة هذا الجانب بإعداد ببليوجرافيا كاملة للمؤلفات الإسلامية التي وضعها أصحابها في الذب عن أبي القاسم عليه الصلاة والسلام.

دفاع المسلمين عن نبيهم محمد ﷺ وعن جميع الأنبياء صفحة مجيدة لهذه الأمة، والحديث عنه لا تكفيه أسفار طوال، ونحن هنا فقط نقدم نماذج تكشف عن جانب من هذه الصفحة.

ولعل المستشرقين هم أكثر الناس تطاولا على رسول الله ﷺ في مؤلفاتهم، مع ادعائهم الحياد والعلمية وارتدائهم طيلسان الأكاديمية، وقد رد على افترائهم على النبي ﷺ أعلام من الشرق والغرب، ومن المسلمين وغير المسلمين على السواء، ومنهم السير سيد أحمد خان (ت ١٨٩٨م) الذي سافر من الهند إلى لندن خاصة ليناقش ادعاءات القوم حول النبي محمد ﷺ مباشرة، على الرغم من مخالفة العلماء للرجل في كثير من الآراء التي ذهب إليها.



حمل سير سيد أحمد خان زاده ومتاعه من شبه القارة الهندية إلى عاصمة الإنجليز، وسعى إلى أن يكون سدا دون رسول الله ﷺ، وقد كتب إلى صديقه محسن الملك في أثناء هذه الرحلة يقول: «هذه الأيام يتألم قلبي عندما أقرأ كتاب وليم موير الذي كتبه عن حياة سيدنا محمد ﷺ. فقد وجدت الكتاب طافحا بالتعصب الطائفي، وافتقر مؤلفه إلى النزاهة العلمية. وقد عزمت عزما أكيدا على أن أكتب كتابا عن حياة الرسول ﷺ، ولا أبالي أن أنفق في سبيل ذلك كل ما عندي من المال والعقار، بل أتمنى أن أموت على هذه الحال، وحينما ينادى علي يوم القيامة يقال: هذا المسكين الفقير الذي أنفق كل ما عنده لأجل الدفاع عن جده محمد ﷺ».

ولعل من الكتب المهمة التي لا يفوتنا ذكرها هنا في سياق الحديث عن رد مفتريات المستشرقين على رسول الله ﷺ، كتاب الدكتور عبدالرحمن بدوي رحمه الله «دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره». وقد عرف بدوي بكونه بحاثة كبيرا في الفلسفة والفكر الإسلامي والغربي الحديث والقديم، وتعلق بالفكر الوجودي زمنا طويلا، وانتهى أخيرا مدافعا عن القرآن والإسلام ونبيه عليه



الصلاة والسلام من قلب العاصمة الفرنسية باريس.

■ دفاع غير المسلمين

وتسخير الله تعالى لأهل الإنصاف من كل ملة كي يردوا على المفترين بالباطل على رسول الله، هو صورة أخرى من صور الدفاع الإلهي عن نبيه المصطفى ﷺ، ففي كل أمة وفي كل ملة منصفون، لا يحبون الجور ولو على من يعتقد غير اعتقادهم، ويحبون العدل حتى مع مخالفيهم.

وقد ظهر لكثير من هؤلاء التجني الفاضح لبعض أصحاب الأقلام والآراء على النبي محمد ﷺ، ونسبتهم إليه ما لا يليق به بالباطل والزور، فردوا عليهم، واتهموهم بالتحامل.

والنماذج على هذا كثيرة، ولا نعني بهم كل من كان منصفا في الحديث عن رسول الله، فهذا باب واسع، بل نقصد منهم تحديدا من كتب مدافعا ورادا لسهام الجور عنه ﷺ، ومنهم الإنجليزي توماس كارليل (ت ١٨٨١م) الذي عمل على أن يدفع عن محمد ﷺ تلفيقات شانئيه ورميهم إياه بالكذب، فقال: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدا خداع مزور... إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مئتي مليون من الناس أمثالنا».

ويقول كارليل: «يزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان. كلا، وايم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرا، وحنانا وبرا، وحكمة وحجى، وإربة ونهى - أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف السلطان والجاه، وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟!».

ومن هؤلاء أيضا الكاتب المصري الدكتور نظمي لوقا، الذي ألف مجموعة من الكتب حول الإسلام وبعض الشخصيات الشهيرة في تاريخه، ومنها كتاب «محمد الرسالة والرسول»، وقد سعى في بعض فقراته إلى إثبات صدق النبي ﷺ في ادعائه النبوة ردا على من يقول غير ذلك، وساق الدكتور لوقا على رأيه أدلة؛ منها:

- تبدل حاله ﷺ بعد النبوة من راحة ورخاء إلى نصب وتضييق، فقد «كان موفور الرزق موسعا عليه، فبدل من ذلك تضييقا وشظفا. كان آمنا في سربه، فبدل من ذلك قلقا ومطاردة وارتياعا. كان موفور الكرامة والمكانة بين قومه بالنسب الرفيع والحسب المنيع، فبدل من ذلك إهانة وتحقيرا وازدراء».

- «لم يساوم هذا الرسول، ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته على كثرة فنون المساومات واشتداد المحن» - كما يقول الدكتور لوقا.

- «لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقا يستعلي بها على أحد، أو يرتب لنفسه بها سلطانا أو تقديما. ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لا يزيد؛ ليس عليه إلا البلاغ».

ولعل نشر هذا اللون من الكتابات في البيئات غير الإسلامية بلغات مختلفة، يسهم في تقديم صورة صحيحة عن النبي ﷺ، ويزيل الهراء الكثير الذي راكمه الحقد على شخصية النبي الخاتم.

القَولُ المأثُورُ في إحياءِ الصَّوابِ المهْجُور (٣١)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



لقد كان أمر اللغة العربية الفصحى على است الدهر شجرة طيبة، أصلها ثابت بالقرآن الكريم، وفروعها نضرة بما أودعه فيها الأبيناء من جواهر نيرات ودرر مجلوة، ولذلك حرص العرب على الحدب والحنو عليها حنو المرضعات على الفطيم. فلما حلت العولمة بساحتنا العروبية فجرت فيها نهرا متدفقا يجري بماءين، كل واحد منهما يسعى لإفناء الآخر: الأول ينبوعه عذب فرات، نزل على الفصحى نزول الطل على الأرض العذية، فآتت أكلها من خلال التمكين لها باستغلال الوسائل التقنية المساعدة على رقمنة مصادرها، التي ألبستها الأثواب الناصعة. كما يظهر ذلك في دواوين الشعراء المفلقين القدامى والمحدثين، وفي ترسل الأدباء البلغاء الذي أضحى طوع أيدينا، بعدما كنا نكابد عرق القربة لأجل الحصول على تلك الكنوز والمصادر، ناهيك عما تقدمه تلك الوسائل للمتعلمين من فرص سانحة للتعلم الذاتي، ومن إشاعة أجواء الحبور في أثناء التعلمات الصفية. أما الينبوع الآخر فهو يجري بالماء الملح الأجاج، ليفتك بالفصاحة، زاحفا بسيله الراعب الزاعب كي يعجل بإفلاس المشروعات العروبية، ويعمق جراحات الإنسان العربي، بإحداث تغييرات قيمية تغري وتغوي بفقدان الثقة بقيمنا الأصيلة وإنجازاتنا الآنفة، ويزرع بذور الشك في هذا الجيل الناشئ الضائع، الذي لم يتبق له سوى الإلقاء بنفسه في محرقة أضواء العولمة الساطعة، كما يتتايع الفراش في النار، فاتحا نوافذ القلوب والعقول، ليشرب محلول شوب لغات العولمة شراب

الهيم، حتى أفقدهم بوصلة انتقار الأصلح الذي ينجيهم من غمراتها وأحابيلها الملهية، فتأخرت ألبابهم عن إدراك غرر الفصحى ودررها، التي حجبتها عنهم العاميات وشنع اللغات الأجنبية، مبادرين إلى الطعن في آلاء الفصحى، مدعين أن الصفاء اللغوي في زمن العولمة أضحى عنقاء مجنحة، إذ الكلمات مثل البضائع والسلع، سريعة التنقل والانتشار، ولذلك لابد من استعمالها كما نستعمل هذا العدد الهيضل من التقنيات الرقمية التي تقذف بها مصانع الغرب الحديثة.

ولكي تبقى اللغة العربية ملبية لمطالب المتكلمين بها، مجارية لتطورات العصر وما يتفتق عنه من ابتكارات لم نسمع بمثلها في آبائنا الأولين، دون أن يلحقها المسخ والتبديل الذي تنتصر له لغات العولمة في ادعائها أن الصفاء اللغوي أضحى خيتعورا مضمحلا، فإن العرب مطالبون في أثناء هذا الاقتتال الشديد بين الكلمات، التي تمزج الصفو بالكدر وتخلط الغرر بالعرر، أن يدركوا أن الانتقال المزعوم لكلمات العولمة لا يحدث إلا في اتجاه واحد، هو الانطلاق من الدول المهيمنة تقنيا إلى الدول المستهلكة، التي تعيش على ما تقدمه لها موائد الغرب من الخشارة التي تفضي بها إلى حالات التيه والضلال، كما تتجلى طلائع هذا الضياع في كثير من الكلمات المنحوتة التي بدأت تشيع الفوضى والفساد في الأساليب العربية المبينة على هذه الشاكلة: (الركمجة، أي: ركوب الأمواج)، و(النثعرة، أي: النثر الشعري) و(المنتهلك، أي: المنتج المستهلك)، و(الكارئ، أي: الكاتب القارئ)، و(الحزضر، أي: الحزام الأخضر)، و(طنفسي، أي: الطب النفسي)، و (حبرم، أي: حب الرمان) و(طبقصل، أي: طبق الأصل)، وغيرها من الكلمات المنحوتة التي يمجها الطبع، لما تدخله من غموض وضيم على الفصحى، ناهيك أن النحت حدث عارض على العربية، لا يلتجأ إليه ولا يرتفق به إلا في بعض الموافقات التي ذكرها القدامى، والتي لا تزيد عن عشرين لفظة، لأن هناك طرقا لزيادة ونماء الثروة اللغوية العربية غير الطريقة الإلصاقية والمزجية التي تعتمدها اللغات الهندية الأوربية. إذ العربية تنمو وتتوالد بالانفجار من الداخل، من خلال عمليات الاشتقاق الذي يعد من خصائص اللغات السامية. أما إذا ولينا وجهنا شطر اللغات الشبابية التي يدعو بعضنا لمناصرتها، مع السماح لرياح التغيير أن تهب على أديم العربية، لتكنس منها الألفاظ البدوية التي تذكرنا بشظف العيش، فإن الأمر أدهى وأمر على الرصفاء الغيورين على ما حل بالعربية وبأصواتها التي يرسلها أصحاب الرسائل القصيرة، عبر أجهزة الهواتف النقالة، على هذه الشاكلة: حرف الهمزة أصبح هو رقم ٢، والحاء رقم ٧، والخاء رقم ٥، والعين رقم ٣، والقاف رقم ٩، ناهيك عن بعض العبارات التي يختزلونها على شاكلة هذه السوأة الصلعاء: السلام عليكم (SA) و جازاكم الله خيرا (JAK) و إن شاء الله (ISA) و صلى الله عليه وسلم (صلعم) و من أجلك، التي يكتبها عرب المشرق الذين يتكلمون الإنجليزية هكذا: (u٤) ومات من الضحك، التي أصبحت تكتب لدى متكلمي المغرب العربي هكذا: (Mdr) والقائمة طويلة الذيل، بل إن الكلمات المرشحة لمثل هذا البوش البائش من الاختصارات المعيبة الموشاة بأغلفة غاية في التمويه، لإخفاء ما جمعت من صنوف العي المستوجب للطرد المنكر، يخطئها العد والحصر، لذلك لا ينبغي إطالة الانتظار لمعرفة إلام يكون صيور أمرها؟ فهي أولاد علة تغلفها ظلمة داجنة من الغموض، عارية من البيان، ناكبة عن الدقة، لا تلوي على شيء، لذلك يجب وضع زبر الحديد التي تحمي لغتنا الفصحى من طوفان فوضاها الذي لا يبقي ولا يذر.

إن العصا قرعت لذي حلم، أما الذين لا يدركون خطر هذه المجمجة الأعجمية، فإن هذه الحلقة اللغوية تغزو إبصارهم بخطر هذه الاختصارات التي أدخلت في الفصحى من قبل العولمة، لاغتصاب الصحة، ولإخفاء السبيل المهيع التي تولد من عنقاء العربية المحترقة، رجاء واعدا وأملا محققا بمستقبل زاهر للعربية؛ ولاشك أن هذا المستقبل يبدأ من اعتماد عقل مكين، يعي ذاته وما يتوفر عليه من كنوز ولآلئ تساعده في طرق قضية اللغة، التي تعد حياتها وصحتها من حياة وصحة الأمة التي تتكلمها، ومن ثمة يعلن هذا العقل العروبي حضوره الفعال في أثناء خوض غمرات الحروب اللغوية التي تشنها لغات العولمة على اللغات الضعيفة، فتخرج الفصحى من ساحتها مظفرة، لم تنل منها قطميرا، لتعود أنوار الفصحى ساطعة. ولاريب أن هذا الهدف يوجد منا على طرف الثمام، إذا أحسنا استغلال الطاقة المعرفية التي سبق للثقافة العربية أن بذلتها، عندما بسطت أجنحة العلم والمعرفة على العالم، لم تترك قابة إلا اقتبتها، ولا نقارة إلا انتقرتها، ولا شاردة إلا اقتنصتها.

ولكي لا نرضى بما نحن فيه من حيرة الإرتاج والإجبال والتوقف عن الإبداع، فإنني أدعو إلى غربلة هذا السيل الجراف القحاف الذي تقذف به هذه الوسائل التقنية، بواسطة التفكير في الخطط اللغوية المساعدة، التي تضمن أن تكون بعض هذه التبدلات في صالح الفصحى، وأن ندرك كيفية اشتيار عسل هذه التقنيات التي تكسب أنصارا جددا، نظرا لما توفره من جهود بالنسبة إلى الإنسان المعاصر.

من ديوان الأدب القرآني العظيم:

اصفح الصفح الجميل

محمود توفيق
كاتب صحافي

في كتاب الله سبحانه وتعالى فيض من تأديب الله عز وجل لنبيه ﷺ، ثم لورثته من أهل العلم والدعاة إلى الله جلّ جلاله. وهداية له إلى ما يمكّنه من القيام بحق ما كلف به من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن هذا ما جاء في سورة «الحجر»، من أمر الله سبحانه وتعالى نبيه سيدنا محمدًا ﷺ بأن يصفح صفحا جميلا.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ (الحجر: ٨٥- ٨٧).

في تصدير الآية بالحقيقة الكونية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وبالحقيقة العقدية: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ﴾، من قبل التكليف بالصفح الجميل، ثم بالحقيقة العقدية أيضا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ثم بالمنة العظمى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، في كل ذلك تثقيف للنفس، لتتلقى هذا التكليف الثقيل: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ تلقي أولي العزم من الرسل.

ذلك أن الصفح الجميل، لايتأتى إلا بعظيم من اليقين، وبعظيم من المثابرة ومن الصبر الجميل أيضا. فالنفس البشرية مفطورة على أن تنتقم لنفسها إن كانت من نفوس الدهماء، أو تنتصر للحق الذي هي عليه إن كانت من نفوس الأنبياء والعلماء والأولياء، وكل تقي ولي لله سبحانه وتعالى.

والصفح في لسان العربية هو الإعراض عن اللقيا بما لا يحب، يقال: صفح عنه أي: أعرض عن عقوبته، بل عن ملامته، وعن ذكر ذنبه، بل عن تذكره، وتلك مقامات علية متصاعدة من الصفح، ففي الصفح إقبال وبشاشة وجه، ولذا جاء منه التصافح، وهو الأخذ باليد، أي أن يضع الرجل صفح كفه في صفح كف الآخر. وهذا يقتضي إقبال الوجه على الوجه، وهذا فيه رمز إلى ما قام في القلب من القبول والإقبال، ومن هنا شرعت المصافحة بين الرجال بعضهم بعضا، وبين النساء بعضهن بعضا، إيذانا بالقبول والإقبال..





وجمال الصفح المأمور به، هو الصفح الآتي من قوة نفسية وقوة واقعية، وليس صفح العجزة والضعفاء هو الصفح الذي كان من النبي ﷺ يوم الفتح: حين أطلقهم، ولم يعاقبهم (١)، وكان بملكه ﷺ أن يقطع الأعناق، ولا ملامة عليه، ولكنه الحكيم، والنازل على ما أمره به الله سبحانه وتعالى، والعليم بأن فعل الصفح فيهم وفيمن يأتي من بعد أعظم وأنجع من فعل الانتصار في كل منازلة من منازلات الحرب.

هو صفح جميل من أنه خارج من فتوة نفسية وقوة عملية، وهو صفح جميل من أن أثره الجليل الجميل لا يطاول.

والصفح الجميل سجية من سجاياه ﷺ. روى البخاري في كتاب «التفسير» من صحيحه بسنده عن عبدالله بن عمرو ابن العاص - رضي الله عنهما - أن هذه الآية التي في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ (الأحزاب:٤٥)، قال في التوراة: «يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا». (حديث رقم: ٤٨٣٨).

ومن الصفح الجميل ما راوه مسلم في كتاب «الجهاد والسير» من صحيحه بسنده عن أنس رضي الله عنه أن أم سليم رضي الله عنها اتخذت يوم حنين خنجرا فكان معها، فرآها أبو طلحة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟». قالت: «اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه». فجعل رسول الله ﷺ يضحك. (٢)

قالت: يا رسول الله، اقتل من بعدنا من الطلقاء. انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن». (حديث ٤٧٨٣)

أرأيت إلى قوله ﷺ: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»، هذا من الصفح الجميل الذي يؤتي من الثمر أطيبه.

وهو ﷺ لم يكتف بأن لم يعاقب، بل لم يعاتب الطلقاء إذ أدبروا يوم حنين، وخلفوا رسول الله ﷺ، وما كان لهم أن يفعلوا، بل كان منه ﷺ ما هو أجمل، اقتسم فيهم وفي المهاجرين الغنائم، ولم يمنح الأنصار شيئا، مما حاك في نفس ثلة من الأنصار، فقالت ما قلت، فكان من مكافأة النبي ﷺ أن قال لهم مقالة، هي عز الدنيا وسعادة الآخرة، حين قال قالت ثلة منهم:

إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة غيرنا. فبلغه ذلك، فجمعهم في قبة، فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ما حديث بلغني عنكم؟»! فسكتوا، فقال: «يا معشر الأنصار، ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله ﷺ تحوزونه إلى بيوتكم؟».

قالوا بلى. فقال رسول الله: ﷺ «لو سلك الناس واديا، وسلكت الأنصار شعبا لأخذت شعب الأنصار» (٣)

أرأيت إلى الصفح الجميل مع الطلقاء، والحكمة الجميلة مع الأنصار؟!

ومن هذا ما رواه البخاري في كتاب «الأدب» من صحيحه بسنده عن أنس ابن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة - قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته - ثم قال: «يا محمد، مر لي من مال الله الذى عندك. فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء». (حديث ٦٠٨٨)

وجاء في كتاب «البر والصلة» من جامع الترمذي بسنده عن أبي إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله الجدلى يقول: سألت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». (حديث رقم: ٢١٤٨). قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وكان ﷺ يحث أصحابه على الصفح، وأن لا يسارعوا إلى العقوبة، بل ليكن العفو مبدأ أمرهم ومنتهاه، وإن وقع من بعضهم ما يستوجب الحد.

روى أحمد بن حنبل في مسنده من حديث عبدالله بن مسعود بسنده عن شعبة قال سمعت يحيى بن المجبر قال: سمعت أبا ماجد - يعني الحنفي - قال: كنت قاعدا مع عبد الله - قال - إني لاذكر أول رجل قطعه، أتي بسارق فأمر بقطعه وكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله، كأنك كرهت قطعه.

قال ﷺ: «وما يمنعني ؟ لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم».

إنه ينبغى للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه.

إن الله عز وجل عفو يحب العفو ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾. (حديث: ٤٢٥٢)

وجعل الصفح عمن أساء من أفضل الفضائل، لأن في هذا دفعا للسيئة بالحسنة، كما أمر كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ (فصلت: ٣٤)

روى أحمد بن حنبل في مسنده من حديث معاذ بن سهل رضي الله عنه، بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من منعك، وتصفح عمن شتمك». (حديث:١٦٠٢٣)

هذه الثلاثة التي هدى إليها نبي الرحمة ﷺ إنما يقوم له أولو الفتوة النفسية، لأن للقيام لها فضلا عن القيام بها استحقاقات رجولية بالغة، لايلقاها إلا الصابرون صبرا جميلا.

وإن لحضورها في أي أمة فضلا عن

شيوعها أثرا جليلا وجميلا في تماسك الأمة، وتحقيق سلامها الاجتماعي، فتنعم بنعمتي الأمن والكفاية. وتلك نعمة الدنيا:

روى البخاري في كتابه «الأدب المفرد»، باب: «من أصبح آمنا في سربه» بسنده عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه - عبيد بن محصن اختلف في صحبته - عن النبي ﷺ قال: «من أصبح آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده طعام يومه فكأنما حيزت له الدنيا»: (حديث: ٣٠٠)، ورواه الترمذي، وابن ماجه.

ذلك هو نبي الرحمة، ونبي الحكمة ﷺ. فهل لنا أن نحمل من ميراث رحمته بأمته، ومن ميراث حكمته، ما يجعلنا أهلا لأن نحوز شرف وراثته في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؟

فالصفح عمن أساء، ودفع السيئة بالحسنة عامل عظيم الأثر في تحقيق مجتمع متماسك متراحم، وهذا ما نفتقر إليه. إن هذا ما يفتقر إليه كل قائد فتي قوي مع خصومه. ولكن هذا يحتاج إلى علي الحكمة، يعرف الأرض التي ينبت فيها الصفح ويورق ويزهر ويثمر، فإن كان من الخصوم من لا يصلح معه ذلك الصفح فلا يكون، كما فعل مع بني قريظة، لما كان منهم من خيانة في غزوة الأحزاب. فمثلهم يزيدهم الصفح فجورا، فلا يكون الصفح حينئذ جميلا. لأنه سيثمر قبحا، ويزيد العتو عتوا.

فالصفح الجميل عمن يصلحه الصفح قائم لم ينسخ بالأمر بالقتال، كما ذهب إليه بعض أهل العلم. قال الطبري:

حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي، عن إسرائيل، عن جابر، عن مجاهد (فاصفح الصفح الجميل) قال: هذا قبل القتال. حدثني المثنى، قال: أخبرنا إسحاق، قال: ثنا عبد الله بن الزبير، عن سفيان بن عيينة، في قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ وقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قال: كان هذا قبل أن ينزل الجهاد. فلما أمر بالجهاد قاتلهم فقال: «أنا نبي الرحمة ونبي الملحمة، وبعثت بالحصاد، ولم أبعث بالزراعة».

أما آية السيف فهي قائمة لمن لا يصلحه الصفح الجميل. وخصوم الدعوة ليسوا سواء، فلا يكون منهج التعامل معهم واحدا، فذلك منطق الحكمة في الدعوة.

ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ ولنا معه في سورة (النحل):

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ (النحل:١٢٥).

جعل له ثلاثة سبل إلى تحقيق الدعوة: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ذلك أن الناس أربعة: منهم من يسمع ويقبل، فهذا سبيل دعوته الحكمة، ومنهم من يسمع ويقبل، ولكنه لايقبل لما يحيط به من الشهوات الصارفة، فهذا سبيل دعوته الموعظة الحسنة. وهذان الضربان متقاربان، ولذا كان النظم القرآني المتعلق بدعوتهما واحدا ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ عطف سبيل الموعظة الحسنة على سبيل الحكمة.

ومنهم من يسمع ولا يقبل، بل يجادل ويعارض ويناكد، ولكنه لا يرفع سيفا. وهذا سبيله الجدال بالتي هي أحسن. وهذا ما حملته الآية الكريمة في سورة النحل.

وهذا الضرب ليس من باب الضربين الأولين، ولذا التفت عن النظم الذي كان للضربين الأولين، فلم يقل: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فلو قال لفهم من العطف أن هذا الضرب الثالث من باب الضربين الأولين، ولكن البيان القرآني عدل عن النهج الأول في النظم والصياغة، واستفتح طريقة جديدة، فقال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، فهو عطف على فعل الأمر الذي في صدر الآية ﴿ٱدۡعُ﴾ مما يفهم أن هذا السبيل ليس من باب السبيلين الأولين، إشارة إلى أن الضرب الثالث مغاير للضربين الأولين، وهذا نهج من السنة البيانية للقرآن الكريم في إفهام دقائق المعاني ولطائفها.

وكل هؤلاء الثلاثة الأضرب يصلح معهم، ويصلح من أحوالهم الصفح الجميل، وهذه الأصناف الثلاثة باقية ما بقيت الحياة. مما يجعل الأمر الإلهي للنبي ﷺ ولأمته من بعده ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ أمرا باقيا ما بقيت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

ويبقى الصنف الأخير من الناس: من يسمع، ولا يقبل ألبتة، بل يشهر سيفه ليمنع الدعوة من أن تبلغ غيره، فهو لا يكتفي بأن يعرض هو عنها، بل يسعى بسيفه وما ملكت يمينه من القوى إلى أن يحاجزها عن أن تبلغ مسامع الآخرين. فيتخذوا ما شاءوا طوعا لا قهرا، لأنه يعلم أنها إن بلغت مسامعهم، فإنها ستحرك ساكنا في كثير منهم، ومنهم من سيستمع، ويقبل، وهذا الضرب الرابع من الناس هو الذي جاء الأمر بقتاله، لا بقتله، فليست الغاية ألبتة قتله، وإن سل سيفه، بل الغاية قتاله، ليكف سيفه. فإن كفه، فلا يقاتلن فضلا عن أن يقتل. فإن الإسلام دين الحياة في سبيل الله، وليس دين الموت في سبيل الله، بل الموت في سبيل الله تعالى حين لا تتحقق الحياة للناس في سبيل الله إلا بموت ثلة من المسلمين في سبيل الله تعالى، تحقيقا لتلك الحياة للآخرين، وهذا هو منهج الإيثار، وذلك هو جليل الجود، وجميل السخاء.

الهوامش

١- تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط (١) ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة، ج١٧، ص١٢٨.

٢- حسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد للبخاري.

٣- صحيح البخاري (المغازي)، حديث رقم: (٤٣٣٧)، ورواه مسلم في كتاب (الزكاة) رقم: (٢٤٨٨).

نبع الحنان

حسين سباهي
كاتب سوري

إلى من علمتني .. أن الحياة عطاء.. وأن العطاء وفاء.. إلى أمي.. وكل الأمهات.. أنثر كلماتي.. رياحين محبة ووفاء.

همي رضاكِ.. وأنتِ نور حياتي
يا خير مَخلوق.. يعيش بذاتي
نبع الحنان.. ومنك كل سعادتي
يا من عمرت الكون بالبركات
من أين أبتدئ القصيد.. وكل ما
حولي ربيع زاهر الجنبات
أماه عيدك في الربيع تعطف
نحو الجمال ليكمل الآيات
أماه.. يا رمزا لخير وارف
يا فيض عطف في مدى السنوات
يا زهرة الأطياب.. تعشق طيبها
كالنحل ترشف من شذا الزهرات
مهما فعلت .. فلن أرد فضائلا
لك يا ملاكا طاهر الصلوات
قد تنقل الأشعار بعض محبتي
لكنها خجلى من الثغرات
فلأن قلبي عن هواك مقصر
ولأن حبك أرفع الغايات
مدي يديك أشم عذب عبيرها
أستاف بعض الطيب والحسنات
قد كانتا دوما سريرا هانئا
يحنو علي برقة وأناة
كنتُ الصغير.. وكنت أجمل ملجأ
آوي إليه لأجمع البسمات
صرتُ الكبير.. وأنت أعظم مرشد
يسدي إلي النصح في الهفوات
لا ندرك الفضل الكبير لأهلنا
وعواطفا بالنبل دفاقات
إلا إذا صرنا نربي.. مثلهم
أبناءنا بالعين والراحات

أمنيــة

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

أنهى الخطيب خطبته، ونزل من على منبره ليؤم الجمع في صلاة الجمعة. بعد الانتهاء حيا المصلين بابتسامته، التي قلما تفارق شفتيه ووجهه الوقور، وقفل عائدا إلى البيت، ثم لم يلبث أن غير وجهته، بعد أن تذكر أن زوجته بصحبة الأطفال في زيارة لأهلها، فليس أمامه إلا أن يدعو نفسه عند أحد جيرانه أو طلابه أو يبحث عن مطعم قريب ليتناول غداءه، فاختار الخيار الأخير وتوجه إلى أقرب مطعم.

بعد أن غادر زقاق الحي الضيق ودلف إلى الشارع الرئيسي، لفت انتباهه ابن جاره الذي لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، كان واقفا تحت شجرة على جانب الطريق، يتلفت حوله بوجل ويدخن من سيجارة حاول جاهدا إخفاءها بين أصابعه.

«أحمد!».. ناداه الشيخ وهو يتجه نحوه بخطى واسعة.

برؤيته للشيخ المسرع نحوه متجهم الوجه، انتاب أحمد الذعر، وتجمد مكانه ذاهلا، وإن سرت رعشة خفيفة بيده التي أخفاها خلف ظهره.

وقف الشيخ إزاءه يرمقه بنظرات مغضبة، قبل أن يمسك بذراعه ويرفعها حتى صارت أصابعه التي تمسك بالسيجارة مقابل وجهه، تنشق الرائحة الخانقة... «ندخن!».. قالها الشيخ وهو يتناول السيجارة من يد أحمد. لوح بها في وجهه قبل أن يرميها على الأرض ويسحقها بحذائه...

انتقلت الرعشة من يد أحمد إلى سائر جسده، أغمض عينيه، وانتظر أن تهوي كف غليظة على وجهه، كما يفعل والده كلما أخطأ.

«هل تغديت؟!».. وعوضا عن ذلك أتاه صوت الشيخ بنبرة أقل حدة، مما أجبره على فتح عينيه والتحديق فيه باندهاش دون أن ينبس بكلمة.

«سألتك هل تغديت؟!».. كرر الشيخ السؤال بنبرة أكثر هدوءا.

هز أحمد رأسه نفيا دون أن تتحرك شفتاه.

«وهل كنت في طريقك إلى البيت لتتغدى هناك؟!» سأل الشيخ، وإن كان يعرف الإجابة مسبقا إلا أنه أتته إجابة مباشرة من أحمد بالنفي قبل أن يطرق ببصره إلى الأرض؛ حتى لا يلحظ غشاوة الدموع التي طافت على عينيه. «حسنا!».. قال الشيخ، وأكمل: «تعال معي».

أفلت يد أحمد، ومضى، بينما تبعه أحمد وكأنه يشده خلفه بخيط شفاف.

التزم كلاهما الصمت في الطريق الذي لم يطل، فما كان يبحث عنه الشيخ يقع على بعد خطوات قليلة منهما: مطعم شعبي بنهاية الشارع نفسه.

اختار طاولة قصية، وطلب طعاما لهما.

أكل أحمد بشهية، ولم يشأ الشيخ أن يقاطعه، وعندما أوشك على الانتهاء سأله دون أن يرفع بصره نحوه: «لماذا لم تصل الجمعة معنا، كنت قريبا من الجامع بما فيه الكفاية لتلحق بالصلاة، في حال لم تشأ أن تحضر الخطبة؟!».

وضع أحمد الملعقة على طرف الصحن، وظل محدقا في طبقه شبه الفارغ دون أن ينطق بكلمة.

«هل يعلم والدك أنك لا تصلي؟».. سأل الشيخ دون أن ينتظر إجابة السؤال الأول.

«هو نفسه لا يذهب إلى الجامع سوى أيام العيد».. أخيرا تحدث أحمد بصوت خافت.

«وهل هذا مبرر لتترك أنت صلاتك؟!».

لم يرد عليه أحمد الذي انشغل بمراقبة المكان حوله.

«منذ متى وأنت تدخن؟». كان سؤالا مباغتا، فتوقف أحمد عن التلفت حوله ونظر نحو الشيخ مباشرة لتتحرك شفتاه بتوسل: «تلك الأولى يا شيخ، أخذتها من جيب معطف والدي خلسة. أقسم لك أنها المرة الأولى».

«وماذا إن عرف والدك؟».

«هو نفسه يدخن، فلماذا تلومني أنا؟! لن أكون إلا مثله».

«ولماذا لا تكون مثلي أنا؟! ما المانع؟!».

«احمد الله يا شيخ أنك وجدت أبا يربيك ويدلك على الجامع، أما أنا فأبي لا يدخل الجامع إلا نادرا. لا أظنه حتى يحفظ شيئا من القرآن».

«وهل هذا سبب لتحذو حذوه؟!».. يسأل الشيخ وهو يضع الملعقة ويكمل: «سأحكي لك قصة».

«لا تقل لي إنك ستحكي لي قصة أهل الكهف والصحابة!».

«بل سأحكي لك قصة أخرى، لطفل اسمه ياسين أتى إلى الحياة قبل أربعين عاما في قرية نائية. نشأ الطفل في حضن أبوين لا يعرفان ما هي الصلاة. مرة من المرات اجتمع مع الأطفال من سنه، وكل منهم يقول ما يتمناه حين يكبر، منهم من اختار أن يكون طيارا، ومنهم من اختار أن يكون مهندسا، وحين أتى الدور على ياسين هل تدري ماذا قال؟».

«ماذا؟».. سأل أحمد وقد توقف عن الأكل.

«قال إنه يريد أن يكون مثل العم عبدالله».

«من هذا؟!».



«إمام الجامع في القرية. حدث أن سار ياسين ذو التسع سنوات يوما بجانب الجامع، ووقف يراقب بدافع الفضول. كان الإمام يصلي، يطيل الركوع والسجود، كانت المرة الأولى التي يرى فيها شخصا يصلي من هذا القرب، وحين انتهى الإمام من الصلاة بدأ يذكر الله، تسبيحا وتحميدا واستغفارا. ترك ياسين مكانه في النافذة ودخل الجامع الذي لم يكن فيه ثمة صوت سوى الصمت وهمهمات الذاكرين المسبحين، جلس إلى جانب الإمام، ونقل بصره بين شفتيه اللتين تتحركان بخفوت، وأنامله التي تسبح وتحمد، وعينيه المغمضتين، وقد بدا أنه يسبح في عالم آخر. أغمض عينيه هو الآخر، وحرك شفتيه كما يفعل الإمام، وانساب مع الأذكار القليلة التي يعرفها ويرددها ويلتذ بمعاودتها، ثم فتح عينيه ليجد أن الإمام يراقبه وابتسامة على شفتيه. «ماذا تفعل؟».. سأله الإمام.

«أفعل ما تفعله أنت».. أجاب ببراءة.

«وهل أعجبك ما أفعله؟!».

«كثيرا جدا، كنت أراقبك وأنت تصلي. أرجوك أريد أن أصلي معك».. قال ياسين متوسلا.

ومن فوره علمه الإمام الوضوء. صلى وياسين خلفه، يقلد حركاته دون أن يدري ما ينبغي عليه القول.

عندما أنهى الإمام الصلاة نظر خلفه ليجد أن الصغير لا يزال خلفه، سرت في قلبه سعادة، ومنذ ذلك الحين ووقته مقسم بين الصلاة والذكر وتعليم الطفل الصلاة وتحفيظه القرآن».

توقف الشيخ عن سرد القصة ليجد أن أحمد كان متابعا له.

«ذلك الصغير أصبح شيخا وإمام جامع وحافظا للقرآن، رغم أن والديه لم يكونا يصليان حتى. لكن هل عرفت من يكون؟».. سأل الشيخ.

«لا، من هو؟».

«وكأنك لا تعرف اسمي!».. تساءل الشيخ ضاحكا.

«أهــا».. خرجت من شفتي أحمد وقد اعتراه الخجل، لكنه لم يقل كلمة إضافية، ليتابع الشيخ ياسين: «أنا كنت ذلك الطفل الذي نشأ بين أبوين لا يصليان، ورغم ذلك فتشت عن الطريق الصحيح، حتى وجدته. يا بني، يوم القيامة كل مسؤول عن نفسه، لن يتحمل أحدنا ذنب الآخر، ولن يعذب أحد بدل الآخر، ولا تزر وازرة وزر أخرى، طريقك.. أنت من ينبغي أن تخطوه وتعرفه، ومستقبلك.. أنت من يجب أن يختاره لا والدك ولا والدتك».

واصل أحمد صمته، فسأله الشيخ: «هل أطلب لك المزيد؟!».

«الحمد لله شبعت».

«بما أن لا أحد بالبيت فسأعود إلى الجامع، إن أردت رافقتني، وإن لم ترغب فكما تشاء».

أطرق أحمد دون أن يجيب بنعم أو لا.

ترك الشيخ الطاولة، دفع الحساب ومضى، التفت إلى الخلف متمنيا أن يلحقه أحمد، لكنه لم يخرج من باب المطعم، دعا له في سره ثم واصل طريقه.

جلس في ركنه الخاص بالجامع. ثبت بصره على الباب. شعور في داخله ظل يسيطر عليه بأن أحمد سيدخل عليه، يعطيه الفرصة ليزيل تلك الغشاوة التي تمنعه من النظر أمامه، وتصيبه بالارتباك، تتضح الرؤية فيميز الصواب من الخطأ، ولا يستمر بتدمير نفسه لمجرد أنه لم يجد في والده الناصح الأمين.

لكن أحمد لم يأت، ويبدو أنه لن يفعل. انقبض قلبه وهو يتخيله يشعل سيجارته الثانية والثالثة والرابعة ويواصل طريق التيه الذي جر نفسه إليه وساعدته الظروف على ذلك.

بدأ يسبح في سره، وواصل تسبيحه الذي تمنى ألا ينتهي، فتح عينيه ليجد أحمد بجانبه، ابتسم له، فبادله أحمد بابتسامة خجولة وأطرق ببصره إلى الأرض، قبل أن يرفع عينيه مجددا وينظر إليه بنظرات هي مزيج من التوسل والامتنان، تركه يواصل تسبيحه وعاد هو لذكره الذي لن ينتهي حتى يحين رفع أذان العصر.

اللغة العربية من التحدي إلى العالمية

السهلي عويشي
كاتب صحفي

اللغة كائن حي دائم النمو والتطور، إلا أنه في مراحله هذه قد يتعرض للكبوات، والهزات التي قد تجعله يضعف، فإن هو كان يمتلك بداخله إمكانات المقاومة والممانعة والبقاء تجاوز كبوته لينهض من جديد وينمو ويتطور، وإن انعدمت فيه هذه الإمكانات وسيطرت عليه قابليته لاحتضان الآخر مضى وانتهى. واللغة أيضا «ذلك الوعاء الحاوي للثقافة ووسيلة التفكير الذي يحدد رؤية العالم ونواميسه، لذلك شكلت معرفتها أهم ركيزة لتحصين الهوية والذات والشخصية» (١).

وحديثنا عن الهزات التي قد تعيشها اللغة في مختلف مراحلها، باعتبارها وعاء معرفيا لثقافة معينة، يدفعنا إلى الوقوف عند مختلف التحديات المطروحة أمام اللغة العربية، باعتبارها لغة كونية، لأزيد من قرنين من الزمن، أو يزيد، وهي تتعرض لمعاول الهدم، لو تعرضت له لغة أخرى لانتفت من الوجود، لولا أنها تملك من المقومات ما حفظ لها، ويحفظ لها بقاءها، واستمراريتها، لكن الإشكالات التي تطرح: لماذا هذا التهافت والتحامل عليها بهذه القوة والقسوة؟! أليست لغة كباقي اللغات ومن حقها التطور والمنافسة؟! ما هي أوجه هذا التحامل وهذا التهافت؟ ما هي آليات كسب الرهان والانتقال بالتالي من شعار التحدي إلى رهان العالمية في ضوء المتغيرات التي يعيشها العالم على جميع الأصعدة؟ هذه إذن جملة من الإشكالات التي نطرحها، ونروم مقاربتها في هذه الورقة، لا للحسم فيها، وتقديم أجوبة شافية مانعة بشأنها، بل لتبقى دائما موضوع بحث، وتمحيص، من منطلق أن موضوعا بهذا الحجم وهذا الثقل يحتاج إلى جهد جميع الباحثين والدارسين الغيورين على لغة الضاد، لما لها من مكانة وأهمية، باعتبارها الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة على حد تعبير اللغوي الشهير أندرسون.

وفي هذا الباب يقول ابن خلدون «إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم». لأن ابن خلدون يعتقد أن المغلوب مولع أبدا بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته، وسائر عوائده.. وإذا ما تأملنا هذا القول، وأخضعناه لميزان العقل لوجدناه ينطبق على حال اللغة العربية منذ اللحظة الأولى لاكتشاف حجم الفارق بيننا وبين الآخر وإلى الآن، بل يزداد الأمر سوءا واستفحالا في ظل المتغيرات الجديدة، والتحديات الشرسة التي تواجه فيها اللغة من قبل قوى العولمة المتمثلة في المصالح المادية الناجمة عن الاتصال بالأجنبي، والتأثير الإعلامي القائم على الصخب والضجيج والتبشير باللغة الإنجليزية على أنها اللغة العالمية (١).

في مقابل ذلك انحسار وأفول نجم اللغة الفرنسية التي بشر بها الكثير من المثقفين منذ رفاعة الطهطاوي، مرورا بطه حسين، وإلى ما بقي.. وغدا ماذا لو أفل نجم اللغة الإنجليزية وبزغ نجم آخر من الشرق مثل الصينية أو اليابانية؟! هل سنظل دائما تبعا للآخر نلتمس منه نور العلم والمعرفة؟! إنه سؤال إشكالي كبير لا يتذلل إلا إذا وضع في سياقه المعرفي والتاريخي، المرتبط أساسا بما هو ثقافي وفكري، وهو يأتي عكس ما يؤسس له البعض لتجريدنا من هويتنا، وبالتالي تحقيق ما لم يستطع أن يحققه طيلة قرون مضت، وفق مخطط مدروس محدد الغايات. ولفهم ما يحاك لابد أن نقف عند بعض المحطات التاريخية المهمة في علاقتنا نحن بالآخر، باعتبارها تجيب

بشكل أو بآخر عن هذا الإشكال، كما تساعدنا في فك حيثيات ما يحاك.

١- محطة الانبهار

إنها محطة تملك الإحساس بالضعف والانبهار عند المثقف العربي، وهو يرى بأم عينيه ما وصل إليه الآخر من قوة، وتنظيم، وعلم، وتأليف، وتقانة، وثقافة، وما يعيشه المسلمون من تخلف وجهل. هي محطة إذن ارتبطت بالتلاقي مع الآخر: إما بواسطة البعثات الدراسية وإما الرحلات، والتي أظهرت حجم الانبهار الكبير بالآخر، إلى حد التماهي معه أحيانا، كتجربة رفاعة الطهطاوي، الذي ما إن عاد إلى مصر حتى أسس مدرسة الألسن لتدريس اللغة الفرنسية والحضارة الغربية بين الطلبة العرب، وهناك من يرى أنه أسس هذه المدرسة بتوجيه من فرنسا، لأنها تعلم ما للغة من دور فعال، ليس في التواصل فقط، بل، وهذا هو الأهم، في نشر الثقافة والحضارة، ليتوالى مخطط توجيه سهامهم إلى لغة الضاد منذ ذلك التاريخ وإلى الآن، وبأشكال متنوعة ومختلفة، تارة بالهجوم على التراث العربي القديم، كالتشكيك في الشعر الجاهلي مع طه حسين، وتارة بالدعوة إلى اللهجات، وتارة بتشجيع الصراعات الاثنية والعرقية من باب اللغة، بدعوى حقوق الأقليات، وتارة بنبذ الحرف العربي في التدريس، وتارة بمبررات لا تستند إلى أي أساس علمي ومنطقي سوى مجاراة الآخر بشكل مبطن غير معلن. فعلى امتداد خريطة العالم الإسلامي عمل الآخر بكل ما يملك من قوة للنيل من اللغة العربية، لأنه يعلم أنها المدخل للانقضاض على الأمة، فهي الدين، والتاريخ، والتراث، والحضارة، وأي مشكك في قوة اللغة العربية وجدارتها لا يسعنا إلا أن نحيله إلى التجربتين اليابانية والصينية، كما أشار مالك بن نبي رحمه الله قبل أزيد من أربعين سنة «لكن الذي هو أكثر دلالة هو المقارنة بين فئتين متميزتين من تلاميذ الثقافة الغربية، فقد كانت الانطلاقة الحديثة للمجتمع الإسلامي معاصرة لانطلاقة أخرى في اليابان، فالمجتمعان قد تتلمذا معا حوالي عام ١٨٦٠م في مدرسة الحضارة الغربية، واليوم هاهي ذي اليابان القوة الاقتصادية الثالثة في العالم، فالأفكار المميتة في الغرب لم تصرفها عن طريقها، فقد بقيت وفية لثقافتها لتقاليدها وماضيها» (٣).

لكن ما حصل للمجتمع الإسلامي لمثقفيه هو العكس، جرفتهم الأفكار المميتة في الغرب، إذ لم تستطع النخبة المثقفة التخلص منها، مما أدى بمشروعها النهضوي إلى الإخفاق، لتعلق فشلها على مشجب اللغة العربية، ناسين أو متناسين معجزة اليابانيين الذين استطاعوا التقدم والتطور على الرغم من حفاظهم على لغتهم، وثقافتهم، وتقاليدهم في نظامهم التعليمي، وحتى في نمط حياتهم. فلماذا يريد دعاة الحداثة المفترى عليها أن يصرفونا عن ماضينا، وتاريخنا، وجذورنا العربية والإسلامية بدعاوى لا تستند إلى أساس علمي، أو تاريخي سوى ذلك الحقد الدفين الذي تخفيه للغة العربية ومن خلالها للأمة؟

٢- الاستشراق

في إطار العلاقة بيننا وبين الآخر، والتي سادتها في الكثير من الأحيان تجاذبات، وصراعات، وتدافعات بين الطرفين، ظهر الفكر الاستشراقي الذي تحكمت فيه مجموعة من الدوافع، والتي في أحايين كثيرة تجاوزت ما هو علمي ومعرفي إلى ما هو إيديولوجي وديني وإمبريالي، وفق مخططات استراتيجية كانت تروم التحكم في الأمة العربية والإسلامية ومقدراتها للإجهاز عليها، فالآخر يعلم أن الآلة العسكرية وحدها لا تكفي، ولا تحسم المعارك، فلجأ إلى تنويع خياراته بما يخدم مصالحه ومخططاته، وضمنها الغزو الثقافي والفكري، الذي وفق أحد الدارسين، لم يكن وليد اليوم أو البارحة، بل منذ الحملات الصليبية على الشام والتي باءت بالفشل، حيث اتجهت وجهة أخرى غير عسكرية، كانت نواتها الأولى جمعيات المستشرقين التي كانت تتألف من رجال الكنيسة، أو اليهود، ممن لهم كره عميق للإسلام، فكان شغلهم الشاغل هو دراسة الإسلام، والقيام بتحريفه، وتشويه جماله، وزرع البلبلة والتشكيك في ثقافة المسلمين ودينهم الحنيف؛ لتشويه الحضارة الإسلامية في أذهان المسلمين (٤).

فقاموا بدراسة كل ما له علاقة بالإسلام، والمسلمين من تاريخ، وفقه، وحديث، وأدب، وحضارة، وفنون، وسرقة المخطوطات وأمهات المصادر التي شكلت كنزا معرفيا إسلاميا أصيلا، فقاموا بدراستها وترجمتها بمنهجهم، وبما يخدم مخططاتهم «فلما بدأ اتصالنا بالحضارة الغربية.. لم يجد المثقفون من غير علماء الشريعة أمامهم طريقا ممهدا للحديث عن تراثنا المبعثر في كتب قديمة غير منظمة تنظيما يتفق وتنظيم الكتب العلمية عند الغربيين إلا كتب المستشرقين، الذين أفنوا أعمارهم في دراسة ثقافتنا وتتبع مصادرها في خزائن الكتب العامة عندهم....» (٥)، فلم يسلم من مثقفينا إلا القليل، ممن آلوا على أنفسهم جهد المراجعة، والقراءة الجديدة من المصادر الصحيحة الأصيلة، بعيدا عن زيف المستشرقين وقراءاتهم، غير مكتفين بما تم تحصيله منهم. أما أولئك الذين اكتفوا بما قرأوا، فأصبحوا مجرد أبواق لترديد ما تحصلوا عليه، وإن كان ممتلئا بالشوائب، فقاموا بإنتاج وصناعة نخب على نهجهم، ومنهاجهم، وعلى سمعهم وبصرهم، يتبنون طروحاتهم وأفكارهم، بل ويجتهدون بما يتماشى وتصوراتهم، ومناهجهم في التفكير والتحليل، حتى وإن كانت هذه المناهج قد شاخت

وماتت في المجتمعات التي ولدت فيها، وبالتالي «فإذا كانت الأفكار التي تستورد من الخارج هي أيضا مميتة في وسطها الأصلي فإنها ستلعب في مجتمعنا الدور نفسه وتعطي النتائج نفسها...» (٦).

ولما تنامت عملية إحياء التراث العربي الإسلامي، تحقيقا وتدقيقا ومتابعة، وتمكنت من إفشال هذه المخططات، تغيرت استراتيجية العمل، بحيث إن سهام النقد، والهدم لم تعد تتجه بتلك الحدة نفسها، كما كانت، للدين والحضارة العربية الإسلامية بشكل مباشر، لأنها لعبة مكشوفة وساذجة، إذ أصبحت تتجه إلى اللغة كنوع من التقية والتحايل، للتلبس بلبوس المدافع عن الأمة والغيور عليها، والذي لا يريد لها إلا التقدم والرقي والتطور، لتستمر مذبحة التراث والحضارة عبر إنتاج لغة هجينة، لا امتداد لها، لا روح لها، لا في التاريخ، ولا في المجتمع.. لغة ضعيفة، اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وتداوليا، بإحداث نوع من القطيعة معرفيا وحضاريا بين الإنسان العربي المسلم وتراثه، مما يعني تحقيق الهدف المرسوم سلفا وهو ما يمكن أن نمثل له بالمعادلة التالية:

إضعاف اللغة = إضعاف الهوية = إضعاف الذات

لغة= هوية = ذات

وهي معادلة يمكن أن نكتشفها بشكل جلي من خلال حديثنا عن الازدواج اللغوي.

٣- الازدواج اللغوي

لعل من تبعات الحركة الاستعمارية للعالم الإسلامي أنها لم تنهب مقدراته الطبيعية فحسب، بل عملت على إضعافه أيضا، ثقافيا وفكريا، حتى لا تقوم له أي قائمة، وبالتالي تبقى هي القوة السائدة، حتى لو خرجت. كما أن الصراع لم يكن صراعا عسكريا فقط، بل كانت هناك صراعات ومعارك حامية الوطيس في جبهات أخرى لا تقل خطورة عن تلك العسكرية، استعملت فيها أسلحة أخرى واستراتيجية من نوع آخر، هذه المعارك قادها رجال الفكر والثقافة المتشبعون بقيم اللغة الأصيلة، وبقيم الدين الحنيف وتعاليمه السمحة، فقد كانوا هم محركيها، وكان الدين هو الطاقة المتجددة التي يشحن بها المجاهدون والمناهضون للاستعمار في البلدان العربية الإسلامية، وهذا ما انتبه إليه المستعمر مبكرا. ولما لم تنفع استراتيجية الخرافة والدجل لإفساد العقيدة أمام يقظة الفكر الإصلاحي النهضوي في العالم الإسلامي، لجأ إلى استراتيجية أخرى تتبنى على إشاعة الفرقة بين المسلمين، لكون الإسلام كان هو اللحمة الجامعة، رغم اختلاف الأعراق والألوان والألسن، فبدأ يبحث عن شيء آخر، فوجد ضالته في تشجيع الفكر القومي، والعرقي، والطائفي، تحت يافطة حقوق الأقليات، وهو ما يتجلى بشكل واضح في تفكيك الخلافة الإسلامية بتشجيع العنصر العربي على الانفصال، ثم بث الفرقة داخل الأوطان العربية: الظهير البربري في المغرب العربي - استعمال ورقة الأكراد في العراق والشام وتركيا.. وتشجيعهم على الانفصال - تمزيق السودان، إلى غيرها من المحطات التي كانت كلها تهدف إلى إضعاف الأمة، والتي مازالت سائدة إلى الآن، وإن اتخذت صورا أخرى، وتلونت بشعارات الدفاع عن حقوق الإنسان، إلا أنها هذه المرة بلاعبين جدد من الداخل، وهنا الخطورة، كالتيار الأمازيغي المتطرف في المغرب العربي الكبير، ثم ورقة الأكراد في الشام والعراق وتركيا، وهو مخطط يدخل من دون شك في سياق إضعاف الأمة وتفكيكها وتمزيقها، بدءا باللغة وانتهاء بالمقومات الحضارية لها، ونحن نتحدث عن المخططات الاستعمارية في ما يخص الجانب اللغوي، لابد من التأكيد على أن العصر الاستعماري غرس في ما غرس من الظواهر المتصلة بالهياكل الاقتصادية، والاجتماعية، والإدارية في البلاد المستعمرة ظاهرة خاصة هي ازدواجية اللغة التي تتعلق ببناء الثقافية، والعقلية وبأفكاره (٧). وهو ما حدث في كل البلدان العربية المستعمرة، وإن بدرجات متفاوتة في المغرب العربي، كما في مصر والشام، الأمر الذي أدى إلى إعادة إنتاج الأفكار والقيم والمعتقدات، كما يلاحظ مع عبدالرازق الأزهري القديم الذي جعل أفكاره وقيمه الأساسية موضع تساؤل عندما ناقش مثلا فكرة الخلافة (٨) أو لآخرين من بعده، وإلى الآن، ممن انبهروا بثقافة الغرب وافتتنوا به إلى حد الحلول، وصاروا يرون فيه الأنموذج الذي يحتذى به، بدءا برفاعة الطهطاوي وانتهاء بمناصري قيم الحداثة وما بعد الحداثة. ولقد انتبه مالك بن نبي لخطورة هذا منذ زمن بعيد، مشيرا إلى أن الانشقاق الذي أدخلته ازدواجية اللغة في العالم الثقافي للبلد الإسلامي ليس ذا طابع

جمالي فقط، بل هو ذو بعد أخلاقي وفلسفي،

والمتأمل لما يحصل حاليا في المشهد الثقافي العام، يدرك - لا محالة - أن الأمر في الازدواج اللغوي لم يعد منوطا به تفجير الحقل الثقافي، وإغناؤه فقط، بل تمادى إلى حد تفخيخه وتخريبه، ونسفه بالكامل، متلبسا بإيديولوجيات متنوعة، لتخدم ما سماها مالك بن نبي آلهة اليوم وتمائم الساعة ولتخدم نفسها تحت أي قناع من هذه الأقنعة (٩)، وهو ما يتكشف من خلال تصاعد الأصوات الداعية إلى اعتماد اللهجات في التدريس، وتصاعد التيار الأمازيغي المتطرف الذي بمناسبة وبغير مناسبة تجده متحاملا على اللغة العربية، وهو لا يعبر إلا عن هدف واحد، وهو ضرب اللغة العربية في معاقلها الأساسية وإضعافها، وبالتالي الترويج لأفكار المستشرقين، واتهامهم للغة العربية باعتبارها لغة جامدة، ومحنطة، وعاجزة عن التعبير عن الفكر الجديد (١٠)، فالمشكلة ليست أساسا في اللغة، بقدر ما هي في الفكر، ولو كانت في اللغة لما استطاعت مجتمعات بالأمس القريب كانت تراوح مكانها في التخلف، أن تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار، من دون أن تقطع مع لغتها وتاريخها وتراثها، لنخلص كما يقول الدكتور عبدالعزيز حمودة «إننا حينما استغرقتنا عملية استهلاك فكر الآخر، ولم نعد ننتج فكرا خاصا بنا، قدمنا لغتنا في حالة قصور وعجز..» (١١).

لذا نجده لا يتردد، وهو الملم والمتلقي للتعليم الغربي، في أن يحذر من مخاطر التبعية الثقافية، كما يدعو إلى الاتجاه للتراث العربي القديم، لتأكيد شرعيته هو، وليس شرعية الحاضر، وإبراز وتطوير أفضل ما فيه لتحديد رؤية أو شرعية للمستقبل من دون إهمال الاستفادة من المخزون الثقافي الغربي بعيدا عن الارتماء الكلي في أحضان الثقافة النظرية الغربية الحديثة، لما فيه من تجن على الذات واللغة، إضافة إلى ذلك، فإن شعار القطيعة المعرفية مع التراث، خلق فراغا أدى إلى تبني الفكر الغربي كبديل لملء الفراغ الجديد، وبالتالي خلو الساحة الثقافية العربية من فكر لغوي، ونقدي ناضج (١٢)، لأن اللغة العربية لغة استمرارية وحياة، وليست لغة قطيعة، وبالتالي كان التقهقر هو المآل، لما تم الانسياق وراء فكر الآخر وتبنيه، الأمر الذي صار يستوجب رفض ثنائية الانبهار بكل إنجازات العقل الغربي واحتقار كل إنجازات العقل العربي (١٣).

هذه إذن بعض التحديات المطروحة أمام اللغة العربية، أبينا إلا أن نضعها في سياقها التاريخي والثقافي والفكري، بغية فهم ما يحصل حاليا من تحامل عليها، لأن فهم الحاضر يستدعي استيعاب الماضي، لوضع أرضية صلبة تستشرف المستقبل.

رهان العالمية

إننا حينما نقول إن اللغة العربية لغة كونية وعالمية، بإمكانها المنافسة، وتحقيق الريادة، واسترداد أوجها ومجدها، لا نقول ذلك من باب دغدغة العواطف والأحلام، بل نقول ذلك انطلاقا من مجموعة من المؤشرات، كما وضعها علماء لغويون غربيون قبل العرب أنفسهم، وانطلاقا أيضا من دراسات وأبحاث لسنية ومن نتائج محصل عليها تصب كلها في مصلحة اللغة العربية.

لقد أثبتت الدراسات اللسنية الحديثة أن اللغة الوحيدة غير القابلة للانقراض هي اللغة العربية.

الهوامش

(١) اللغة والهوية، جون جوزيف، ترجمة عبدالنور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٤٢، أغسطس ٢٠٠٧م، الكويت، ص٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١١.
(٣) مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق ١٩٨٨م، ص١٥١.
(٤) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، دار ابن حزم، بيروت ٢٠١٠م، ص٢٨٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٥١.
(٦) مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص١٥٠.
(٧) المصدر نفسه، ص١٣٧.
(٨) انظر: كتاب مختارات من الأدب العربي المعاصر، أنور عبدالمالك، باريس ١٩٦٥م، ص٨١، ٨٦.
(٩) مشكلات الأفكار في الحضارة الإسلامية، مصدر سابق، ص١٣٩.
(١٠) المرايا المقعرة، عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٧٢، أغسطس ٢٠٠١م، الكويت، ص١٩٥.
(١١) المصدر نفسه، ص١٩٦.
*انظر: المرايا المقعرة، عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة.
(١٢) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(١٣) الخروج من التيه، عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٩٨، نوفمبر ٢٠٠٣م، الكويت، ص٦٨.

تاج العروس من جواهر القاموس

التحرير

الحمد لله القائل: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الزمر: ٢٨)، ومن هذا المنطلق، يجب رعاية هذا الوعاء، وتعهده الفاعل والمتخصص، حتى لا تضيع في مهب التداخلات الحضارية والثقافية المختلفة. فكيف إذا كانت هذه اللغة هي لغة القرآن، وبيان الرسول الكريم ﷺ، فواجب إحاطة اللغة العربية برعاية فائقة، تهدف أولا إلى صيانتها، ومن ثم الارتقاء بها، لتكون بحق اللغة العبقرية التي لا يستغنى عنها في وضع فروع المعرفة المختلفة في إطارها، وقد تصدى الكثيرون لدراسة عميقة لتراكيب اللغة واشتقاقاتها، ولكن سعة اللغة العربية وصعوبة الإحاطة بها يحتمان مزيدا من الجهد، تصديقا لمن قال: كلام العرب لا يحيط به إلا نبي.

وإن أحد أهم كنوز تراثنا «معجم تاج العروس» للزبيدي، الذي شرح به القاموس المحيط. وقبل عرض ما جاء في مقدمة التاج، ينبغي علينا أن نستعرض أهم سمات منهج «القاموس المحيط» لمؤلفه مجد الدين الفيروز آبادي، ومنها: أنه:

١- اتبع في ترتيب المواد نظام القافية الذي ابتكره الجوهري.

٢- اهتم بالترتيب الداخلي للمواد، ففصل معاني كل صيغة من زميلتها في الاشتقاق، وقدم الصيغ المجردة على المزيدة، وأخر الأعلام.

٣- اتبع مبدأ الإيجاز، فحذف الشواهد على اختلاف أنواعها.

٤- اعتمد اعتمادا كليا على المعجمين «المحكم» لابن سيده، و«العباب» للصاغاني.

٥- حاول استقصاء المواد اللغوية وصيغها ومعانيها المختلفة.

٦ - اعتنى بذكر الأعلام. وبخاصة المحدثين والفقهاء، وأسماء المدن والبقاع، واعتنى بذكر الفوائد الطبية، كما اعتنى أيضا بالألفاظ الاصطلاحية في العلوم المختلفة.

٧- كتب بالحبر الأحمر كل الكلمات التي زادها على الجوهري.

٨- اهتم بضبط الكلمات، هربا من تصحيف النساخ.

٩- استعمل رموزا خاصة، لتدل على أشياء معينة، وذلك إمعانا في الاختصار، نحو: م: معروف، ع: موضع، ج: جمع، هـ: قرية، د: بلد(١).

قطوف من مقدمة الزبيدي في كتابه «تاج العروس»

بعد حمد الله تعالى، والصلاة على نبيه الكريم وآله وصحبه، بين الزبيدي رحمه الله أن التصنيف مضمار خطير، وقال عن اجتهاده فيه:

«وقد تصديت للانصباب في هذا المضمار تصدي القاصد بذرعه، الرابع على ظلعه، فتدبرت فنون العلم التي أنا كائن بصدد تكميلها، وقائم بإزاء خدمتها وتحصيلها، فصادفت أصلها الأعظم الذي هو اللغة العربية، خليقة بالميل في صغو الاعتناء بها، والكدح في تقويم عنادها، وإعطاء بداهة الوكد وعلالته إياها، وكان فيها كتاب القاموس المحيط، للإمام مجد الدين الشيرازي أجل ما ألف في الفن، لاشتماله على كل مستحسن، من قصارى فصاحة العرب العرباء، وبيضة منطقها وزبدة حوارها، والركن البديع إلى ذرابة اللسان، وغرابة اللسن، حيث أوجز لفظه وأشبع معناه، وقصر عبارته، وأطال مغزاه، لوح فأغرق في التصريح، وكنى فأغنى عن الإفصاح، وقيد من الأوابد ما أعرض، واقتنص من الشوارد ما أكثب، إذ ارتبط في قرن ترتيب حروف المعجم ارتباطا جنح فيه إلى وطء منهاج أبين من عمود الصبح، غير متجانف للتطويل عن الإيجاز، وذلك أنه بوبه، فأورد في كل باب من الحروف ما في أوله الهمز، ثم قفى على أثره بما في أوله الباء، وهلم جرا، إلى منتهى أبواب الكتاب، فقدم في باب الهمزة إياها مع الألف عليها مع الباء، وفي كل باب إياها مع الألف على الباءين، وهلم جرا، إلى ما انتهى فصول الأبواب، وكذلك راعى النمط في أوساط الكلم وأواخرها، وقدم اللاحق فاللاحق، ولما كان إبرازه في غاية الإيجاز، وإيجازه عن حد الإعجاز، تصدى لكشف غوامضه ودقائقه رجال من أهل العلم، شكر الله سعيهم، وأدام نفعهم، فمنهم من اقتصر على شرح خطبته التي ضربت بها الأمثال، وتداولها بالقبول أهل الكمال، كالمحب ابن الشحنة، والقاضي أبي الروح عيسى ابن عبد الرحيم الكجراتي، ومنهم ومنهم...».

ثم قال: «ومن أجمع ما كتب عليه مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوي أبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي، المتولد بفاس سنة ١١١٠هـ، والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠هـ، وهو عمدتي في هذا الفن، والمقلد جيدي العاطل بحلي تقريره المستحسن، وشرحه هذا عندي في مجلدين ضخمين، فلما آنست من تناهي فاقة الأفاضل إلى استكشاف غوامضه، والغوص على مشكلاته.... قرعت ظنبوب اجتهادي، واستسعيت يعبوب اعتنائي، في وضع شرح عليه، ممزوج العبارة، جامع لمواده بالتصريح في بعض وفي البعض بالإشارة، واف ببيان ما اختلف من

نسخه، والتصويب لما صح منها من صحيح الأصول، حاو لذكر نكته ونوادره، والكشف عن معانيه والإنباه عن مضاربه ومآخذه بصريح النقول، والتقاط أبيات الشواهد له، مستمدا ذلك من الكتب التي يسر الله تعالى بفضله وقوفي عليها، وحصل الاستمداد عليه منها، ونقلت بالمباشرة لا بالوسائط عنها، لكن على نقصان في بعضها نقصا متفاوتا بالنسبة إلى القلة والكثرة، وأرجو منه سبحانه الزيادة عليها».

ثم ذكر أصوله التي اعتمد عليها، ومن أهمها: كتاب الصحاح للجوهري، والتهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده، وتهذيب الأبنية والأفعال لابن القطاع، ولسان العرب لابن منظور، وتهذيب التهذيب للتنوخي، وكتاب الغريبين لأبي عبيد الهروي، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، وكفاية المتحفظ لابن الأجدابي وشروحها، وفصيح ثعلب، وشروحه الثلاثة: لأبي جعفر اللبلي، وابن درستويه، والتدميري، وفقه اللغة، والمضاف والمنسوب، كلاهما لأبي منصور الثعالبي، والعباب والتكملة على الصحاح، كلاهما للرضي الصاغاني، وغيرها كثير جدا ذكرها كلها..

ثم قال: «ولم آل جهدا في تحري الاختصار، وسلوك سبيل التنقية والاختيار، وتجريد الألفاظ عن الفضلات التي يستغنى عنها في حط اللثام عن وجه المعنى عند ذوي الأفكار».

مشتملات مقدمة التاج: مقدمة كتاب تاج العروس مشتملة على عشرة مقاصد:

المقصد الأول في بيان أن اللغة هل هي توقيفية أو اصطلاحية؟

المقصد الثاني في سعة لغة العرب.

المقصد الثالث في عدة أبنية الكلام.

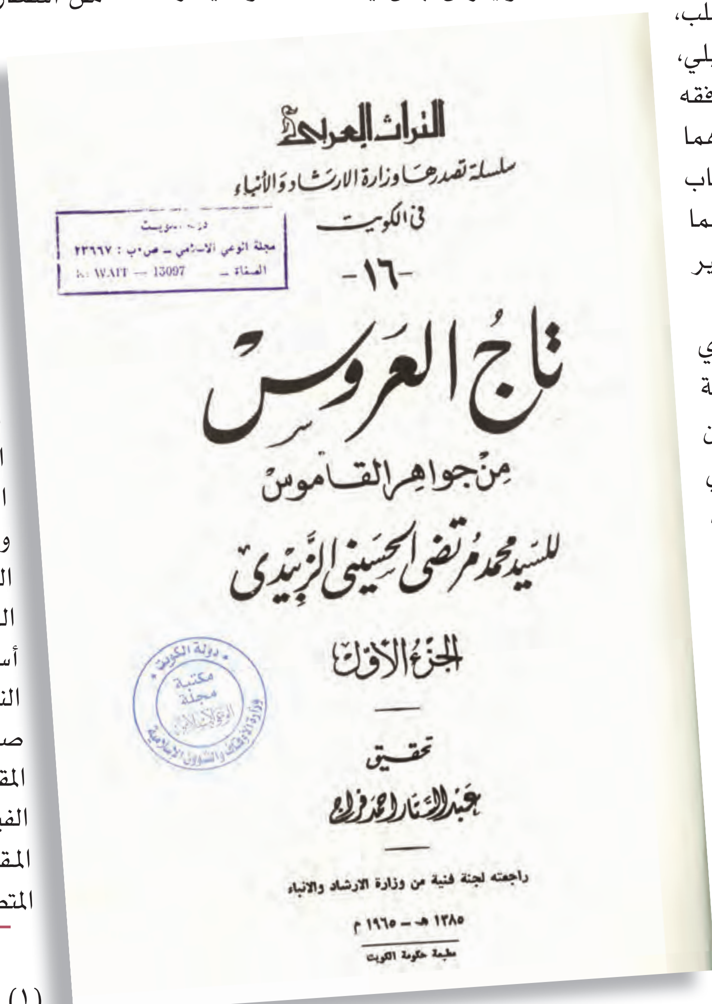
المقصد الرابع في المتواتر من اللغة والآحاد.

المقصد الخامس في بيان الأفصح.

المقصد السادس في بيان المطرد والشاذ والحقيقة والمجاز والمشترك والأضداد والمترادف والمعرب والمولد.

المقصد السابع في معرفة آداب اللغوي. ولأهمية ما جاء فيه أورده بلفظه:

قال السيوطي في المزهر: أول ما يلزمه الإخلاص وتصحيح النية، ثم التحري في الأخذ عن الثقات، مع الدأب والملازمة عليهما، وليكتب كل ما رآه ويسمعه، فذلك أضبط له، وليرحل في طلب الغرائب والفوائد، كما رحل الأئمة، وليعتن بحفظ أشعار العرب، مع تفهم ما فيها من المعاني واللطائف، فإن فيها حكما ومواعظ وآدابا يستعان بها على تفسير القرآن والحديث. وإذا سمع من أحد شيئا فلا بأس أن يتثبت فيه، وليترفق بمن يأخذ عنه، ولا يكثر عليه، ولا يطول بحيث يضجر، ثم إنه إذا بلغ الرتبة المطلوبة صار يدعى الحافظ، ووظائفه في هذا العلم أربعة: أحدها وهي العليا الإملاء، كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء، وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير، فأملى أبوالعباس ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة، رأيت منها مجلدا، وأملى أبومحمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى، وأملى أبوعلي القالي خمس مجلدات وغيرهم، وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدثين، يكتب المستملي أول القائمة: مجلس أملاه شيخنا فلان، بجامع كذا، في يوم كذا، ويذكر التاريخ، ثم يورد المملي بإسناده كلاما عن العرب والفصحاء، فيه غريب يحتاج إلى التفسير، ثم يفسره، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد مما يختاره، وقد كان هذا في الصدر الأول فاشيا كثيرا، ثم ماتت الحفاظ، وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد، واستمر إملاء الحديث.


التراث العربي
سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت
-١٦-
تاج العروس
من جواهر القاموس
للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي
الجزء الأول
تحقيق
عبدالستار أحمد فراج
راجعته لجنة فنية من وزارة الإرشاد والأنباء
١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
مطبعة حكومة الكويت

المقصد الثامن وفيه أنواع:

النوع الأول في بيان مراتب اللغويين، وفيه فرعان:

الأول في بيانه أئمة اللغة من البصريين، وبيان أسانيدهم ووفياتهم وكناهم.

الفرع الثاني: في بيان أئمة اللغة من الكوفيين، وبيان أسانيدهم وألقابهم ووفياتهم.

النوع الثاني: في بيان أول من صنف في اللغة، وهلم جرا.

المقصد التاسع في ترجمة المؤلف الفيروزآبادي.

المقصد العاشر في أسانيدنا المتصلة إلى المؤلف.

هامش

(١) مستفاد من مقدمة المحقق علي شيري.

الجالية المسلمة ودورها في الدعوة بالغرب

محمد الدرداري
كاتب مغربي

إن الأقليات المسلمة التي تعيش في بلاد المهجر، يمكن أن تقوم بدور فعّال في دعوة أهل الغرب إلى الإسلام، وتعريفهم بحقيقته، فهؤلاء يعدون بمثابة سفراء الإسلام ورسله في الغرب، يقول الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله: «ومن المقطوع به أن جماهير المسلمين المهاجرين- وهم ألوف مؤلفة- يمكن استبقاؤهم على دينهم، بل يمكن جعلهم طلائع لنشره، لو أرادت الأمة الإسلامية ذلك، وعملت له» (١).

فهذه الأقليات بإمكانها أن تكون مصدر إشعاع دعوي وروحي بما تحمله إلى العالم من خير، وبما تقدمه للناس من فضل، إلا أن «الحياة المعاصرة تكشف عن ضعف هذا الدور بين الجاليات المسلمة في تعريف الناس بالإسلام، وأن من يدخل في الإسلام - غالبا - إنما تعرف عليه من الكتب والبحوث والمجلات، لا من خلال دعوة المسلمين لغيرهم» (٢).

ومن المعلوم أن ثمة عقبات كثيرة تقف في وجه دعوة أهل الغرب إلى الإسلام، وهي عقبات تحول دون تعرف المواطنين الغربيين على الإسلام في صورته النقية، إن الدعوة التي يمكن أن تقوم بها الأقليات المسلمة في الغرب، لا تتوقف على نمط واحد، أو وسيلة موحدة، بل تتنوع إلى أنماط أو طرق مختلفة، بحيث يصبح بإمكان جميع المسلمين العائشين في الغرب القيام بواجب الدعوة إلى الله، وتبليغ شرعه للناس.

التبليغ بالقدوة

ولعل من أهم وسائل دعوة الغرب للإسلام: القدوة الحسنة، فالمسلم في الغرب مكلف بتطبيق إسلامه اعتقادا وقولا وعملا أينما وجد، وهو بذلك يقدم شهادة عملية للإسلام، فعلى المسلم في بلاد المهجر أن يكون كتابا مفتوحا يقرأ فيه أهل الغرب أخلاق الإسلام وتعاليمه السمحة التي ترتقي بالإنسان، وتسمو به إلى القمم السامقة، بحيث لا يطلع هؤلاء منه إلا على الفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ولقد نقل عن إبراهيم بن أدهم أنه قال يوما لأصحابه: «ادعوا الناس وأنتم صامتون، قالوا: كيف ذلك؟ قال: ادعوا الناس بأفعالكم».

ولقد انتشر الإسلام في بقاع كثيرة من العالم بالقدوة الحسنة والسمعة الطيبة للمسلمين، فالقدوة الحسنة التي يظهر بها المسلم هي في الحقيقة بمثابة شهادة عملية ودعوة واقعية للإسلام، يستدل بها النبهاء والأذكياء من غير المسلمين على ربانية رسالة الإسلام، وصحة نبوة محمد ﷺ.

إن القدوة في مجال الدعوة والتبليغ هي بمثابة القلب من جسم الإنسان، ولذلك لما تمنى الناس ذهبا ينفقونه في سبيل الله، كانت مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ولكني أتمنى رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ ابن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله».

وتأكيدا على أهمية القدوة في مجال الدعوة إلى الإسلام في الغرب، تقول الأستاذة «ليلى بيومي» في مقال لها تحت عنوان: «إشكاليات الدعوة عند مسلمي الغرب» وإذا كان المسلمون الذين يقيمون في الغرب يرغبون حقا في ممارسة الدعوة الإسلامية على أسس سليمة في أوساط الغربيين، فعليهم أولا البدء بأنفسهم، وتنقية صفوفهم، وتنقية أفكارهم، وإقامة شؤون حياتهم على أسس الشورى الإسلامية، وتغليب المصالح الإسلامية العامة على مصالح الأشخاص الخاصة، وتصحيح مسار حياتهم تماما، كي ينظر إليهم الإنسان الغربي على أنهم القدوة والنموذج (٣).

التبليغ بالقول

وهذا يتطلب انفتاحا على الناس، وتواصلا مستمرا معهم، والتبليغ بالقول هو الأصل في تبليغ الدعوة ونشرها في الآفاق، ومما لا شك فيه فإن الدعوة الإسلامية في الغرب استفادت من جو الحرية المكفولة في الدساتير الغربية، خاصة حرية التعبير وحرية الرأي، وهو ما أتاح أمام الدعاة فرص اللقاء مع المدعوين في أوطانهم، ومخاطبتهم بحرية قل أن تتوفر لنظرائهم في بلدانهم الأصلية.

والقول المطلوب من الداعية في مجال التبليغ يتخذ أشكالا متعددة، فتارة يكون عبارة عن محاضرة دعوية يستدعى إليها من يوثق في عقله من الغربيين، ونتلمس فيه قبول الحق، وقد ننفتح على أشكال دعوية أخرى، كالاتصال المباشر مع المدعوين في العمل، أو الجامعة، أو المدرسة، أو الشارع، وغيرها من المرافق، أو



الاتصال غير المباشر من خلال وسائل الإعلام المختلفة.

والذي يتولى دعوة غير المسلمين في بلاد المهجر - من أبناء الأقليات المسلمة - يجب عليه أن يكون راسخا في علم الشريعة، متعمقا في فقهها، «لأن فاقد الشيء لا يعطيه»، إضافة إلى اطلاعه الواسع على الشُبه المثارة حول الإسلام، وسبل دحضها والرد عليها، كما يجب أن يكون خطابه الدعوي مراعيا لقواعد التخاطب الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم وحث عليها النبي ﷺ، ومن هذه القواعد:

الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ (النحل: ١٢٥). فالواجب على دعاة المهجر وغيرهم أن يخاطبوا الناس ويدعوهم إلى الإسلام بالرفق واللين والإحسان، ويتجنبوا كل أسلوب فيه إغلاظ في القول أو احتقار للآخرين.

وتبدو قيمة هذه الخصلة في دعوة الكفار، ما خاطب به الله تعالى نبيه موسى وأخاه هارون حينما قال لهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ (طه: ٤٣- ٤٤)، قال ابن كثير يرحمه الله في تفسيرها: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين» (٤).

وقال الإمام الشوكاني: «أمرهما بإلانة القول له، لما له في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ ذي بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر، والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه، يقال: لان الشيء يلين لينا والمراد تركهما للتعنيف» (٥).

الجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل:١٢٥). وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ومن المعلوم أن التعبير القرآني في مقام الموعظة اكتفى بأن تكون «حسنة»، أما بالنسبة للجدال فلابد أن يكون بالتي هي «أحسن»، والفرق أن الموعظة تكون مع الموافقين، عكس الجدال الذي يكون مع المخالفين، لهذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن، يقول الشيخ القرضاوي:

« معنى التي هي أحسن: يعني الطريقة التي هي أفضل الطرق وأجودها وأقربها للوصول إلى القلوب والعقول، بمعنى أنه إذا كان هناك طريقتان في الجدال والحوار، طريقة حسنة جيدة وطريقة أحسن منها وأجود، فنحن باعتبارنا مسلمين مطالبون بأن نحاور بالطريقة التي هي أحسن وأجود» (٦).

هذا هو الخطاب الدعوي الذي يجب على المسلمين في المهجر الالتزام به، وتلك هي معالمه الأساسية التي تكسبه الفاعلية والقدرة على التأثير والتأقلم مع الأوضاع العامة التي يعيشها الإنسان الغربي في وطنه.

الهوامش

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه..كيف نفكر فيه؟ الشيخ محمد الغزالي، مؤسسة الشرق للعلاقات والنشر والترجمة، عمان، ط/١، ١٩٨٤م ص:١٥٤.

(٢) د. أحمد شاهين، مقال تحت عنوان «دور الأقليات في الدعوة» منشور على موقع: عودة ودعوة.

(٣) ليلى البيومي، «إشكاليات الدعوة عند مسلمي الغرب».

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/١،١٩٩٧م، تحقيق: سامي محمد السلامة، ج/٥، ص:٢٩٤.

(٥) فتح القدير، الإمام الشوكاني، الناشر: دار الوفاء، ١٩٩٤ م، دون طبعة، حققه وخرج أحاديثه: د. عبد الرحمان عميرة، ج/٣، ص:٥٠٣.

(٦) د. يوسف القرضاوي، «الانفتاح على الغرب: مقتضياته، وشروطه»، بحث منشور ضمن كتاب جماعي تحت عنوان: رسالة المسلمين في بلاد الغرب، ص ١٥/١٦.

إرشاداً لذوي الأمل:

أحوال الطفل المهمل

د. حميد مسرار
باحث دراسات إسلامية

الأطفال هبة الله ووديعته التي استودعها عباده، فهم بهجة الدنيا وزينتها، وهم مستقبل الأمة وحاملو لواء حضارتها، إنهم العالم المليء بالبراءة والطهر والنقاء، هم رجال ونساء الغد، الذين تعقد عليهم الآمال في حمل مشعل الأمة، والدفاع عن الحق في سبيل إعلاء كلمة الإسلام. لذلك عني الإسلام بالطفل عناية خاصة، فشرع له من الحقوق ما يكفل سعادته، ويحفظه من الانحلال الخلقي، بل يقومه على المنهج الرشيد والسلوك السوي، عاهدا أمره إلى أسرة يربطها رباط مقدس، تضمن له البقاء، وتحقق له السعادة.

إلا أن بعض النفوس الضعيفة أبت إلا أن تسير في ركاب الغرب حيث سار، فأقبلت على الملذات وتكالبت عليها، ضاربة عرض الحائط كل القيم والأعراف، ما ضعضع أركان الأسرة، وهدم بنيانها، فكانت ثمرة ذلك أطفال مصيرهم الإهمال والضياع، أطفال شاءت لهم الظروف أن يولدوا في جو لا يحتفي بهم، ولا تطلق الزغاريد عند حلولهم ضيوفا جددا على هذا العالم، صغار رمت بهم الأقدار على أرصفة الشوارع أو أبواب المساجد والمستشفيات، ليجدوا مؤسسات خيرية محضنا لهم، بل مستقرهم إلى حين ظهور كافليهم أو آبائهم.

وعليه فقد اعتنى الإسلام بالطفل عناية بالغة، لا أقول منذ ولادته، بل قبل أن يولد، فالإسلام حرم السفاح وشرع النكاح، ودعا إلى تكوين الأسرة من أجل الطفل حتى ينشأ في ظل محضن سليم، وفي رحاب أبوة راعية وأمومة حانية، وينال حقه من حسن التربية، ونظرا لما قد يحدث من إشكالات قد توجده بعيدا عن محضنه الأصلي؛ إما لقيطا أو يتيما، يوسم مهملا في مراكز خيرية، فالتعريف بهم وبإشكالاتهم، بل الأسباب المؤدية إلى إهمالهم واجب شرعي على الأفراد والمجتمع أن يقوم به تخفيفا من الظاهرة، بل معالجة لها من مهدها، لتنشئة جيل يعتز بأسرته، وينتمي إليها عاطفيا، فينعكس ذلك على انتمائه لوطنه وأمته.

اللقيط وأحكامه

عرفه ابن قدامة بأنه الطفل المنبوذ، ثم قال: «واللقيط بمعنى الملقوط، فعيل بمعنى مفعول، كقولهم: قتيل وجريح وطريح» (١).

وعرفه السرخسي بقوله: «مولود طرحه أهله خوفا من العيلة، أو فرارا من تهمة الريبة» (٢).

أما الكاساني فقال: «لغة فهو فعيل من اللقط، وهو اللقطاء بمعنى المفعول، وهو الملقوط وهو الملقى أو الأخذ والرفع، وأما العرب فتقول هو اسم للطفل المفقود، وهو الملقى أو الطفل المأخوذ والمرفوع عادة، فكانت تسميته لقيطا باسم العاقبة، لأنه يلقط عادة، أي يؤخذ ويرفع، وتسمية الشيء باسم عاقبته أمر شائع في اللغة، قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ (يوسف:٣٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ (الزمر:٣٠) (٣).

وقد اختلف الفقهاء في تفسيره، فذكر بعضهم أن المنبوذ من طرح عندما ولد، وشأنه فيمن ولد زنا، واللقيط ما طرح في الشدائد والحرب لا عندما ولد، وهذا ما قاله مالك رحمه الله، فيمن قال لرجل: يا منبوذ، قال: لا يعلم منبوذ إلا ولد الزنا (٤).

أحكامه:

يعد اللقيط حرا، لأن الحرية هي الأصل في الناس، وولاؤه للمسلمين، ويحكم له بحكم الإسلام إن كان التقاطه في ديار المسلمين، وينبغي للملتقط الإشهاد على التقاطه، حتى لا ينسب إليه كولده (٥).

يقول ابن رشد الجد في المقدمات الممهدات: «وقد اختلف في اللقيط، إنه عبد لمن التقطه، وقيل: إنه حر وولاؤه للمسلمين، وقيل: ولاؤه لمن التقطه، لأنه لا يخلو من أن يكون ابن أمة، فهو لسيدها لا ينتقل ملكه عنه، إلا بما تنتقل به الأملاك، أو يكون ابن حرة فهو حر، والصواب الذي عليه أهل العلم أنه حر، لأن الناس كلهم من آدم وحواء، فالأصل الحرية، وذلك مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «المنبوذ حر، وقال علي رضي الله عنه: اللقيط حر وتلا قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ (يوسف:٢٠) وموضع الحجة في الآية أن اللقيط لو كان مملوكا لمن التقطه لما احتاجوا إلى شرائه (٦).



أما نسبه، فيعد مجهولا إلى أن يثبت العكس، فإن دعاه أحد، سمعت دعوته، وأما علاقته بمن التقطه فهو أولى بإمساكه من غيره، حتى يكبر، ونفقته من بيت المال، إذا لم ينفق عليه الملتقط استدلالا بحديث متين أبي جميلة أنه قال: وجدت منبوذا على بابي فأتيت به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر: هو حر، ونفقته علينا (٧).

اليتيم وأحكامه

اليتيم هو الذي لا أب له، ما لم يبلغ الحلم، أي حتى تنتهي مرحلة الطفولة، ويصبح رشيدا، وقد روي عن رسول الله ﷺ «لا يتم بعد احتلام».

ولقد جاء ذكر اليتامى في القرآن الكريم بالجمع والمفرد ثلاثا وعشرين مرة، منها خمسة مواضع تكون أحكاما شرعية واجبة التنفيذ قضاء، وأحد عشر موضعا تكون أحكاما شرعية واجبة النفاذ ديانة فقط، والنوع الأول خاص بأموال اليتيم، والثاني خاص بالحث على حسن معاملته (٨).

وعليه فقد جاءت أحكام الشرع تدعو إلى حفظ ماله وحسن معاملته.

حفظ ماله

لقد جاء التشديد في تحريم أكل أموال اليتامى في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الأنعام:١٥٢)، ويقصد بذلك أن الولي أو الوصي على اليتيم يجب عليه إدارة أموال اليتيم إدارة حسنة، ولا يأخذ منها إلا بحق كما في قوله عزوجل: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء:٦).

ويمنع الشرع التعدي على أموال اليتيم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء:١٠).

لذا على الوصي رد المال إلى اليتيم عند بلوغه سن الرشد، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ (النساء:٦)، وقوله عزوجل: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ (النساء:٢).

بل أمر الأوصياء والأولياء بتنمية أموال اليتيم، فضلا عن الحفاظ عليها وعدم المساس بها، أو الأكل منها، فقد روي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من ولي يتيما فليتاجر له، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة».

- **حسن معاملته:**

لقد راعى التشريع حق الأيتام في: الاعتناء بهم وحسن معاملتهم، فحث على إعطائهم شيئا من التركة، مع أنهم غير وارثين، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ (النساء:٨).

كما حذر من الإساءة إليه، حيث أخرج الإمام البخاري في كتابه: «الأدب المفرد، وابن ماجه في سننه» عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» (٩).

ومما تقدم يتضح أن الشريعة الإسلامية قد استهدفت أن ينشأ اليتيم فردا صالحا كريما عزيزا، لا يشعر بالعزلة أو المهانة بين أفراد المجتمع، وفي سبيل ذلك حذرت من تحقيره أو الاعتداء عليه، أو على ماله، بأبلغ عبارات التهديد والوعيد،



بل أمرت بحمايته ورعايته والإحسان إليه، وإكرامه بما لا مزيد بعده.

من هنا سيكون المجتمع في مأمن من انحراف اليتيم وتشرده، إذا راعى حقوقه التي كفلتها له الشريعة الإسلامية.

الإهمال: أسبابه ونتائجه

من أهم أسباب الإهمال ما يلي:

أ- الأسباب الاقتصادية

ويمكن إجمالها في الفقر والبطالة

١- الفقر

يعد الضيق الاقتصادي عاملا أساسيا في إهمال الأطفال والتخلي عنهم، ذلك بأن الفقر من شأنه أن يؤثر سلبا على تماسك الأسرة وتكاملها، فعجز الأب أو رب الأسرة عن تلبية مطالب وحاجيات أبنائه من مسكن وملبس وغذاء وصحة، قد يدفع به إلى إهمال أبنائه مكرها تحت ضغط ظروف لا حول ولا قوة له بها.

٢- البطالة

نعني بالبطالة عدم توفر العمل بصفة دائمة، أو توفره بصفة متقطعة، مما يؤدي إلى الشعور بعدم الاستقرار والإحباط، فعدم التوفر على دخل كاف يؤثر سلبا على الأبناء، وذلك بحرمانهم من إشباع حاجاتهم المادية والمعنوية، حيث يقيم الطفل مقارنة بينه وبين أقرانه، ليخلص إلى مأساة نفسية تعود عليه وعلى أبويه بما لا يقدران عليه، فيؤدي ذلك إلى إيداعه بإحدى المراكز.

ب- الأسباب التربوية

قد يغفل الآباء جانب التربية، مكتفين بما هو اقتصادي، ظنا منهم أن الابن لا يحتاج إلا إلى الملبس والغذاء، ومما يمكن ملاحظته والوقوف عنده في الواقع ثلاثة أمور، ألا وهي:

١- الحماية المفرطة للطفل

فالإهمال قد ينتج بسبب العناية المفرطة، وذلك بإرضاء حاجات الطفل إرضاء تاما، وإظهار الحب والعطف له، مما يؤدي به إلى استغلال هذا الاتجاه في السيطرة على والديه، فهذا النوع من المعاملة يمنع نضج الطفل الاجتماعي، ويحول دون تحرره، والتدرب على الأخذ والعطاء، فينعكس ذلك سلبا على شخصيته.

٢- شدة الضبط وغياب الحوار

يتجسد في رغبة الآباء فرض تعاليم صارمة ودقيقة، مجبرين الأبناء على اتباعها، وكل مخالفة لهذه التعليمات تقابل بعقاب من قبل الأب، مما يؤدي بالطفل إلى الإحساس بالظلم والقهر، فيقع فريسة سهلة للحيرة والضياع والقلق، ويدفعه هذا الشعور إما إلى الانقياد أو الخنوع، أو إلى العصيان والتمرد حين تسمح له الظروف.

٣- إحساس الطفل بالرفض من قبل والديه

حيث يتمثل في عدم الاهتمام بالطفل، وإهمال متطلباته المادية والمعنوية، والتقصير في إظهار العطف والحنان والرعاية اللازمة، أو الشعور بعدم الرغبة فيه، وبكونه يشكل عبئا ثقيلا على كاهل الأسرة، وأن ميلاده كان نتيجة خطأ، أو سوء تقدير، إضافة إلى انشغال الوالدين عن الأبناء، وعدم تخصيص أوقات معينة لهم.

ج- التفكك العائلي

يشكل التفكك العائلي تهديدا وتعطيلا للدور الطبيعي للأسرة في التربية ورعاية الأبناء، فعرفه بعضهم بأنه «تصدع الأسرة» في حالة تعدد الزوجات، أو وفاة أحد الوالدين أو كليهما أو الطلاق، وأطلق عليه البعض الآخر تعبير البيوت المحطمة بسبب الطلاق، أو الفراق، أو موت أحد الوالدين أو كليهما، بينما أطلق عليه فريق ثالث «الأسرة المحطمة» التي تتحطم بالطلاق، أو بالمشاجرة المستمرة، أو الوفاة، أو السجن لأحد الوالدين، أو غيابه بصورة مطردة، وفريق آخر يطلق عليه تعبير «التفكك العائلي» أو «التفكك الأسري». غير أن هذا التنوع في الألفاظ لا يخرج عن كونها جميعا تشترك في معنى واحد (١٠).

إن الحياة المضطربة وتفكك الروابط الأسرية وكثرة الخلافات، من شأنه أن يؤثر سلبا على الأطفال، مما يجعلهم عرضة للضياع والتمزق، الشيء الذي يؤدي بهم إلى الإهمال.

د- الفساد

حيث تفشى بنسب كبيرة في المجتمع العربي، ومن بين أسبابه.

١- ما يبث في وسائل الإعلام

إن ما يبث في وسائل الإعلام من سموم مقصودة تؤدي إلى التقليد الأعمى، وهذا ما يلاحظ في صفوف المراهقين الذين يقلدون الممثلين والمغنين في اللباس والمظهر، ويتهافتون على أحدث صيحات الموضة، ظنا منهم أنهم يسايرون التطور، مستبيحين لأنفسهم علاقات غير شرعية، يكون ثمرتها أطفالا أبرياء، مصيرهم الإهمال والضياع.

٢- عدم مراقبة الآباء لأبنائهم

انشغال الآباء عن أبنائهم يجعلهم عرضة للفساد، لما لأصدقاء السوء من أثر جلي على نفسية الأطفال، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن



يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا نتنة» (صحيح مسلم).

نتائج الإهمال

لا مراء في أن لإهمال الأطفال نتائج وخيمة، تؤثر سلبا على شخصية الطفل، تبعا لنشأته في أوضاع غير متزنة وفي مناخ يطبعه التوتر وعدم توفر الشروط الموضوعية للنمو السوي، فيكون بذلك مهددا لولوج مختلف دروب الانحراف والإجرام، لتقبر سواعد كان يمكن أن يعول عليها في بناء المستقبل.

١- الآثار النفسية للإهمال

إذا تعددت مواقف الحرمان، وزادت شدتها، فإن الطفل يمكن أن يفقد توازنه النفسي فيصاب باضطرابات تعيب شخصيته، وتكون مصحوبة بقلق واكتئاب، وشعور بعدم الاستقرار، تجعله من غير الممكن أن يدرك الواقع إدراكا صحيحا، مما يدفع به إلى الميل نحو العزلة والانطواء، فاقدا بذلك الثقة في كل من حوله لعدم شعوره بالأمان، إلى أن يصل إلى درجة الرغبة في إيذاء الآخرين بتمرده، لأنه شخص غير مرغوب فيه حسب اعتقاده.

٢- الانحراف

أضحت ظاهرة انحراف الأطفال المهملين من أكبر الإشكاليات المطروحة، نظرا لخطورة العواقب التي تهدد مستقبل الناشئة، متخذة تجليات عدة نذكر منها:

• الإدمان على المخدرات

حيث يلجأ إليها الكثير من الشباب لتسكين القلق، وتناسي الأزمات النفسية التي يعيشونها.

• الاستغلال الجنسي

شهدت هذه المشكلة تناميا ملحوظا خاصة مع تصاعد موجة الفساد، ما جعلها مادة للندوات والمؤتمرات الدولية، ولكن ما يجب الإشارة إليه هو ذلك الصمت الرهيب الذي ساهم فيه كل من المجتمع المدني والضحايا، في مقابل الأعداد الهائلة من الأطفال الذين يتعرضون للاستغلال الجنسي.

• التشرد

المتشرد هو من لم يكن له محل إقامة مستقر ولا وسائل للعيش، ولا يتعاطى عادة صناعة ولا حرفة، فالشارع ملاذهم الوحيد الذي لا بديل لهم عنه، فيه وجدوا الرفيق الذي احتضنهم بعد أن ضاقت بهم كل السبل، وأغلقت في وجوههم كل الأبواب، فلفهم بين جناحيه، ومنه تجرعوا القطرة الأولى للتشرد، إنهم أطفال مازالوا في عمر الزهور، أذاقتهم الحياة كل أنواع الحرمان العاطفي والمادي، فلم يجدوا بديلا عن التشرد، واختاروا الشوارع والأزقة، ومن أدبياتها تعلموا، فتتامى ظاهرة التشرد قاد إلى ظهور مآس أخرى، تمثلت خاصة في امتهان التسول كوسيلة لضمان لقمة العيش، الأمر الذي يدفع إلى إعادة التفكير في السياسات الاجتماعية المتبعة، وتحسين الظروف المعيشية، وخلق مراكز لإيوائهم، تتم فيها إعادة تكوينهم واسترجاع ثقتهم بنفسهم، كخطوة أولى لتقليص حدة هذه الظاهرة.

وللحد من هذه الظاهرة لابد من البحث عن حلول ناجعة. من بينها ما يلي:

- خلق منظومة اقتصادية متكاملة، للحد من ظاهرة الفقر، التي تعد من أهم روافده.
- ترسيخ معالم الدين الإسلامي في الأسرة والمجتمع، وذلك ببناء الأسرة على تعاليم الدين الإسلامي، سواء من حيث اختيار الزوج أو الزوجة، أو من حيث التربية الملقاة على عاتق الآباء.
- تصميم وتنفيذ حملات إرشادية عبر وسائل الإعلام المختلفة، والوسائل الإرشادية الأخرى، كإعداد كتيبات ونشرات، وتنظيم الزيارات الميدانية، وتنظيم الندوات وورش العمل الموجهة نحو أفراد المجتمع وأسره بشكل عام.
- تشجيع الزواج له ارتباط وثيق بالمنظومة الاقتصادية، فدحض أعراف البذخ تجعل الزواج ميسرا، مما يضيق دائرة هذه الظاهرة.
- القيام بدراسة الأسباب الاقتصادية والاجتماعية المساهمة بشكل كبير في ظاهرة التفكك الأسري.
- التنسيق مع الجهات والمؤسسات الحكومية والأهلية والخاصة ذات العلاقة والاهتمام، بهدف توفير الأوضاع والظروف الصحية والنفسية والاجتماعية، التي تساعد على تجنب وقوع المشكلة.

الهوامش

١- الإمامان: موفق الدين وشمس الدين بن قدامة: «المغني والشرح الكبير على متن المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل» الجزء ٦، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ٤٠٣.

٢- الإمام علاء الدين أبوبكر بن مسعود الكاساني الحنفي: «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» الجزء ٦، دار العربي، بيروت - لبنان، ص ١٩٧.

٣- المرجع نفسه، ص ١٩٨.

٤- أبوعبدالله محمد الأنصاري المشهور بالرصاع: «تحقيق محمد أبوالأحقاف والطاهر المعموري، شرح حدود بن عرفة» الجزء ٢، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص ٥٦٥.

٥- الإمام أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» الجزء ٢، دار القلم، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٣٠٩.

٦- أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي: «المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات» تحقيق أحمد أعراب، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ص ٤٧٦.

٧- السرخسي، «المبسوط» الجزء ٧ ص ١٧٧.

٨- محمد عبدالجواد محمد «حماية الطفولة والأمومة» منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٣٧.

٩- عبدالكريم زيدان: «المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية» الجزء ٨، مؤسسة الرسالة، ص ١٠٤.

١٠- جعفر عبد الأمير ياسين: «آثار التفكك العائلي في انحراف الأحداث، عالم المعرفة، بيروت، ص ٢٢-٢٣.



قيمة إيجابية.. أم ظاهرة مرضية؟

الغيرة.. عند الأطفال

صبحة بغورة
باحثة جزائرية

كثيرا ما نسمع من يتحدث عن المعاناة من وجود الغيرة بين الأطفال، وبخاصة بين الإخوة، وعن حجم ما تجلبه هذه الغيرة على الأسرة من متاعب جمة ومشاكل وخصومات. والواقع أنه قد تبدو هذه الغيرة في بعض الحالات طبيعية؛ انطلاقا من واجب الاعتراف بميل الأطفال الفطري نحو الأنانية وحب التملك والرغبة في الظهور، إلى جانب تلهفهم على إشباع حاجاتهم طالما كانت تتعلق بالتنافس نحو الخير والنجاح لأنفسهم وللآخرين، أو في التسابق نحو لفت الأنظار إليهم، أو الاستئثار بحب الأهل لهم. ومع ذلك، علينا أن نتعامل معهم بحكمة كبيرة تقتضي أولا ألا نميز أحد الأطفال، في غمرة تلهفهم، عن الآخرين إلا بمقدار ما اجتهد فيه، ولا نبالغ كثيرا في إظهار الحب الكبير لأحد الأطفال دون سواه وأمام إخوته وعلى مرأى منهم. وإذ لا ننكر أيضا مقدار التفاوت بين الإخوة في الذكاء، سواء الوراثي أو الذكاء الاجتماعي المكتسب الذي عليه ستتباين قدراتهم الذاتية وإمكاناتهم الطبيعية في التكيف مع المتغيرات، ولباقتهم في الحديث ولياقتهم في التصرف، فإنه ستبرز لنا معضلة التوفيق بين مبدأ عدم التمييز بين الإخوة من جهة، وبين واجب الاعتراف بفضل المجتهد منهم وحقه في الشكر والتقدير من جهة أخرى. والحكمة تقتضي لتحقيق أقصى درجة من التوفيق بين الأمرين، الإشادة بالمجتهد، وهذا حقه، وتلمس أسباب الإخفاق مثلا لمن لم يسعفه الحظ أو الظروف، مع التأكيد له على أنه لو توافرت له الظروف نفسها التي واجهها المجتهد لكان هو أيضا النجاح من نصيبه، ثم تشجيعه المستمر على إعادة المحاولة مستفيدا من أخطائه، مع دوام بعث الحماسة في نفسه، بإنارة سبل التوفيق التي يكون قد غفل عنها، أو قلل من شأنها، أو تجاهلها تماما، وعدم التردد في توجيه النصح، مع ترك هامش يعمل فيه الطفل بعقله واجتهاده. ومن المفيد هنا التأكيد على أن من سلامة التصرف التوضيح للطفل أن التأسي بالنماذج الناجحة لا عيب فيه، وأن التقليد فيما فيه الخير له ليس عارا عليه. هذا السلوك من جانب الوالدين لا يضع الناجح من أطفالهما على قدم المساواة مع من أصابه الإخفاق، وفي الوقت نفسه يقلص كثيرا من هامش التمييز المفضي إلى التباعد بينهم، والذي تولد فيه

بذرة الغيرة المدمرة، أي التي لا تدفع للتأسي بالناجحين، أو محاولة اللحاق بهم.. بل إلى تدميرهم، وهنا مكمن الخطر الداهم، لأن الأمر حينها يتعلق بوجود خليط من الانفعالات، كالخوف والغضب والحقد والشعور بالنقص، والتي تنعكس في صورة مظاهر سلوكية مختلفة تدل على عدم التوافق الشخصي والاجتماعي عند الطفل، ومنها التبول اللاإرادي وقضم الأظافر ومص الأصابع والعصبية الشديدة والصراخ من دون سبب، وصولا إلى درجة بروز ميل عدواني ذي بعد انتقامي.

في المدرسة

وكما أن الغيرة تنشأ عند الأطفال من طبيعة معاملة الآباء لهم، فكذلك الأمر في المدرسة حين تبدو المعاملة السيئة من جانب المعلمين، خصوصا في المراحل المبكرة من الدراسة، بتفضيلهم أحدهم بالمدح وتوجيه الذم لآخر، إنها معاملة تثير غضب الطفل، لأنها تشعره بأنه مهزوم غير مقبول، فيزيد إحساسه بعدم الأمان، وتهتز ثقته بنفسه وبالآخرين. والمذموم عادة يشعر بالمهانة والدونية، وهذا يؤدي به إلى الإحباط ثم الفشل الدراسي، فتنمو بداخله العداوة، والغلظة في الحديث، والجفاء في التصرف، ويمكن أن تستمر معه في كبره فتجلب له المتاعب في عيشه وعمله وحياته المستقبلية كلها.

من المهم جدا إشعار الطفل بالاهتمام بشؤونه، بالاستماع إليه والتفاعل معه بإيجابية، وتوجيه العناية بغذائه وملبسه وصحته، وإظهار الحب له بالابتسام في وجهه، والتربيت برفق على كتفه، أو بمسحة رقيقة على رأسه وغير ذلك من صور التلامس الجسدي الرقيق، وتخصيص وقت للعب معه.. فهي وسائل مهمة تبعث في نفسه السرور والطمأنينة، والمبادرة بتقديم ما يحب دون إفراط، وتشعره بقيمته ومكانته في الأسرة والمدرسة وبين أقرانه بتعظيم ما ينجح فيه من أعمال، ولو كانت تافهة وصغيرة. ومن الطبيعي ضرورة توخي الحرص على عدم الضجر من تصرفاته مهما كانت طائشة، وذلك بالاكتفاء بالتوجيه إلى السلوك الصحيح بصوت منخفض، على أن بعض الحالات يراها الآباء تتطلب شيئا من العقاب في حالة تعمد تكرار الخطأ على ألا يكون العقاب بتهديده بحرمانه من الحب والرعاية، وإنما بالتركيز فقط على أن والديه ومدرسيه يرفضون التصرف الخاطئ، وأنه سيظل محبوبا ومقبولا بحسناته، ولن تنزع سيئاته ما فطر عليه قلب الأبوين من محبته.

المنافسة الشريفة

من أصول التربية السليمة تعويد الطفل في صغره أن الحياة أخذ وعطاء، وأنه يجب على الإنسان أن يحترم حقوق الآخرين، وتعويده على المنافسة الشريفة بروح رياضية تجاه الآخرين من دون الشعور بالنقص أو عدم الثقة، وكذلك توفير أجواء أسرية ومدرسية لإقامة علاقات على أساس المساواة والعدل، من دون تمييز أو تفضيل أحد على آخر، مهما كان جنسه أو سنه أو قدراته، وأنه لا تحيز في المعاملة، وتعويده على السعي بكل ماأمكنه للتفوق، وعليه أيضا تقبل الهزيمة بشرط أن يعي جيدا قيمة أن يعمل لتدارك إخفاقه بالمزيد من الصبر والجهد، وهذه هي قيمة الإصرار.

كثيرا ما تنشأ الخلافات بين الأطفال في الأسرة الواحدة، وهذا أمر طبيعي في سيرة الحياة. ومن المهم هنا توخي أقصى درجات العدل والإنصاف أثناء الفصل بينهم فيما تنازعوا فيه بالاستماع جيدا إلى كل المتخاصمين، وإعطاء كل منهم الفرصة كاملة لتوضيح رأيه والدفاع عن نفسه، لابد من إعطاء كل ذي حق حقه، ولكن في المقابل ستبرز ضرورة امتصاص حنق من خسر منهم بإعطائه شيئا لا يتوقعه ولا تكون له صلة بموضوع الخلاف بينهم، مع احتضانه، وعدم مجادلته في شكواه، بل ابتكار عمل جماعي مرح يشاركون فيه جميعا لتعزيز التوافق بينهم والانسجام، خصوصا بين الذكور والإناث، فكثيرا ما تنشأ بينهما مظاهر التفرقة حسب الجنس في مجال التنافس نحو اكتساب خبرات عملية تتطلب بعض الخشونة والقوة العضلية، ولا يجوز أن تكون البنت هي الضحية في حالة فض كل شجار مع أخيها، بل من المفيد أن نتركها تدرك هي بنفسها، ومن خلال التجربة، الفارق الطبيعي في طبيعة التكوين الجسماني الذي قد يمنحها القدرة على القيام بأعمال معينة ولكن لن يسعفها في غيرها، وبذلك نتجنب تسلل مشاعر الغيرة المرادفة في هذه الحالة للكراهية.

وفي السياق ذاته، يمكن أن تكون للغيرة بين الأطفال بعض الميزات، وذلك حين تعطي للأطفال الفرصة لتعلم بعض المهارات العملية، خصوصا في المدارس أثناء التنافس العلمي أو الرياضي، كالتحادث ومحاولة التفاهم لحل النزاعات أو التعاون لتجاوز مشكلة معينة، هنا يكون من المفيد عدم تدخل الأسرة في فض النزاع بين الأطفال وتركهم يعتمدون على أنفسهم في ذلك؛ حتى لا يعتمد الطفل بعد ذلك على أسرته لحل مشاكله، ولا يتعمد يوما إثارة المشاكل من باب جذب الانتباه إليه، وعلى الأسرة التدخل فقط إذا استدعى الأمر ذلك، أي لمنع حدوث أي ضرر بدني.

إن أسلوب تجنيب الطفل البريء الإصابة بمشاعر لم يكن يعلمها، وليس مسؤولا عنها، أخف بكثير من معالجته من آثارها المدمرة بعدها، ويجب الاعتراف بأن سوء التربية من قلة التعلم، وأن الأطفال ضحايا من أنجبوهم وفشلوا في إعدادهم للحياة، وإذا تجاوز الأمر بعض العائلات فالفرصة دائما قائمة لتصحيح الوضع بتصحيح المعاملة من أجل سعادة الأسرة والمجتمع.

وسائط ثقافة الأطفال وخصائصها

عبدالمجيد إبراهيم قاسم
باحث دراسات تربوية

لقد كان ينظر إلى الأطفال قديما على أنهم رجال صغار، عليهم خوض غمار الحياة ومواجهة صعوباتها بطرائق الراشد وأساليبه. لكن، وبعد التطورات الهائلة التي شهدتها وتشهدها العلوم، والتغيرات التي طرأت على النظريات التربوية بخاصة، ومع تجدد المفاهيم حول عالم الطفولة وتبدل النظرة إليه، ثبت - قطعا - أن للأطفال قدرات واحتياجات وميولا خاصة بهم، فأدركت الأمم والشعوب - بإدراكها تلك الحقائق - قيمة هذه المرحلة الحقيقية، وأخذت بالاهتمام بأطفالها، وإيلائهم الرعاية الكافية، حتى عد هذا الينبوع الإنساني أهم ثرواتها، وأسمى الغايات التي تنهض بها إلى التطور والتقدم. وفي الوقت نفسه، عد ذاك الاهتمام مؤشرا إلى تقدمها ورقيها، ومقياسا لمكانتها بين مصاف نظيراتها.. وقد أصبح الاهتمام بتربية الطفل ثقافيا - تحديدا - هدفا استراتيجيا وتنمويا، ومن الضرورات التي تجتهد في مجالاتها الشعوب، كونها تحمل رسالة عظيمة في مضمونها ومحتواها. فالتربية الثقافية التي يتشربها الطفل اليوم، هي التي ستسهم في توجيه مسار حياته وتحديد اتجاهاته مستقبلا.

لم تعد الأسرة أو المدرسة وحدهما مصدر الثقافة والمعرفة، بل إن الطفل أصبح يتلقاهما عبر وسائط أو وسائل عدة. والوسيط في ثقافة الأطفال هو كل أداة تستخدم في تقديم أو إيصال المادة الثقافية باختلاف أشكالها إليهم. ولوسائط ثقافة الطفل خصائص واعتبارات تختلف كثيرا أو قليلا عن خصائص وسائط ثقافة الكبار. وفي الوقت نفسه، فإن لكل وسيط ثقافي طبيعة وآلية مختلفة عن غيره من الوسائط، إلا أن أفضلها على الإطلاق ما لاءم طبيعة الطفل، وقدم له صورا ومواقف واقعية عن الحياة.

تتعدد هذه الوسائط وتتنوع، ابتداء بالكتاب المطبوع، ووصولا إلى بعض المنجزات التقنية الحديثة كالإنترنت، ومرورا بالصحيفة والتلفاز والسينما والإذاعة والفيديو والمسرح والمتحف والمعرض والرحلة الاستكشافية وغيرها. ويمكن تقسيم وسائط الثقافة إلى ثلاثة أنواع: وسائط الثقافة المقروءة، ومنها الكتاب والمجلة، وهو نوع يستخدم المطالعة كوسيلة اتصال وتأثير، وميزته أن الرسالة فيه تبقى ثابتة، يمكن الرجوع إليها. والوسائط المسموعة، كالإذاعة والاسطوانات، والوسائط المسموعة المرئية، كالتلفزيون والمسرح والسينما والفيديو، وهي تعتمد الصوت والصورة في نقلها للثقافة، وتمتاز بدرجة عالية من الفعالية والتأثير، لأنها تتوجه إلى حاستي السمع والبصر.

١- الكتاب: أولى وسائط تقديم الثقافة وأهمها، ولا يمكن الاستغناء عنه مهما تقدمت الوسائط الأخرى.. إذ يعد أكبر مورد لتنوع ثقافة الطفل، والبوابة العظيمة التي تقوده إلى المعرفة بمفهومها العام والشامل. من أهم خصائص كتاب الطفل وشروطه:

- المضمون: وما يطرحه من أفكار ومعارف وقيم مناسبة، ومدى تحقيقه للاعتبارات التربوية والنفسية والتذوقية الخاصة بالطفل.
- الإخراج والشكل: يؤديان دورا مهما في جذب الطفل، وتنمية حبه للمطالعة، كأن يكون حجم الكتاب مناسبا، وغلافه جذابا، شكلا ولونا، وأن يحتوي على رسوم ملونة ومعبرة.

٢- المجلة: وسيلة تثقيفية مهمة في حياة الأطفال، فهي تحسن مهاراتهم القرائية، وتزيد في حصيلتهم اللغوية، وترقى بتذوقهم الفني والجمالي، عبر ما تقدمه من مجموعة المواد، كالقصص والأشعار والمعلومات وغيرها من المواد الثقافية المتنوعة، وعبر ما تحققه من تفاعل إنساني، ودافعية مرتبطة بميول الشريحة الموجهة إليها.

٣- الإذاعة: للكلمة المسموعة دورها المهم في رفد الطفل بالثقافة.. والإذاعة كوسيلة إعلامية تعتمد الكلمة، وتستخدم المؤثرات الصوتية، إنما تثير خيال الطفل عبر تحويل الكلمات إلى صور صوتية نابضة بالحياة. إن الإذاعة تسهم في التعليم والترفيه والتذوق عبر برامجها التي تتنوع بين الغناء والموسيقى والقصص والحكايات، وبرامج المهارة والترفيه والتواصل. كما أنها تملأ أوقات الفراغ بالمفيد والممتع، وتكسب مهارات عدة، كالتدرب على الخطابة والنطق السليم، وحسن الاستماع والإصغاء.

٤- التلفاز: أهم مصادر تثقيف الطفل وأكثرها جاذبية وإمتاعا له، إذ يجمع بين العديد من المؤثرات كالصوت والصورة، واللون والحركة. ولعل طبيعة الطفل المولعة بالاستكشاف والاستطلاع، جعلت هذا الجهاز السحري يستأثر بحيز كبير في



نفسه. والتلفاز – في الحقيقة – ليس وسيلة لتزويد الطفل بالمعارف والقيم والعادات السلوكية فحسب، بل وسيلة تمتلك شيفرة تأثير مهمة في شخصيته، وتكوين وعيه الثقافي الإنساني. وهي تسهم إسهاما أساسيا في بنائه التربوي عموما، ذلك إذا مكناه من الاستفادة من البرامج المفيدة والمناسبة كبرامج التعليم المبسط، وموضوعات الطبيعة والحيوان، وأفلام المغامرات الشيقة، والقصص العلمية المناسبة.

٥- المسرح: وسيلة اتصال فكرية وثقافية واجتماعية لا يختلف على أهميتها اثنان. ويكفي الاستشهاد بمقولة الشاعر الإسباني لوركا بأنه: «ترمومتر تقاس به عظمة البلاد». للمسرح في حياة الطفل دور كبير، فهو ينمي مداركه، ويوسع ثقافته، ويدربه على ضبط انفعالاته وتفريغ شحناته العاطفية، ويبعث في قلبه مشاعر الفرح والسعادة. بيد أن أهم مزايا المسرح تتمثل في التجسيد الحي للمواقف، وما يحققه من تأثير وتفاعل أولا. وفي المزج بين الكثير من الفنون الإنسانية، كالتمثيل والإلقاء والحوار والاستعراض والغناء، وتنوع المؤثرات التي تعتمدها عروضه، كالموسيقى والضوء والصوت والإضاءة، ثانيا. وفي تعدد أنواعه، كالمسرح المدرسي ومسرح العرائس ومسرح الظل، وتلون أشكاله، كالمسرح الغنائي والشعري والنثري والحواري، ثالثا.

٦- السينما: وسيلة اتصال مهمة، تؤدي دورا بارزا في نشر الثقافة وتعميم المعرفة، وتعد – بعد التلفاز – من أكثر وسائل الإعلام تأثيرا في نفوس الأطفال، حيث الصورة المتحركة والناطقة، والقادرة على شد انتباههم وجذبهم.

٧- الفيديو: اختراع حضاري ملازم للتلفاز ومكمل له، تكمن ميزته في استخدام التسجيلات والبرامج التعليمية على نطاق واسع، وفي الاحتفاظ بها وعرضها في الأوقات المرغوبة.

٨- المتحف: مرآة تعكس تاريخ الشعوب وحضاراتها، وأداة تربوية وثقافية تمتاز بمقدرة هائلة على رفد الطفل بالثقافة. كما يحقق أغراض التعرف على التراث الإنساني، والاطلاع على عادات الشعوب في المراحل المختلفة وتقاليدها، إضافة إلى تنمية التذوق الفني والجمالي للأطفال.

ولوسائل الإعلام عموما، كمنظومة واسعة لنقل الثقافة، دور مهم في مجال تثقيف الطفل، وصياغة المفاهيم الثقافية الحديثة في حياته، من خلال التوجه التربوي السليم، والتأسيس لشخصية طفلية متوازنة. تختلف خصائص كل وسيط ثقافي للطفل عن غيره بحسب طبيعة الوسيط نفسه، غير أنها تشترك جميعا في مجموعة خصائص لعل أهمها على الإطلاق: مراعاتها لمتطلبات نمو الأطفال في كل طور، ومن مختلف جوانبه الإدراكية والعاطفية والاجتماعية، وتوافقها، شكلا ومضمونا، مع ميولهم ودوافعهم، والاستجابة لرغباتهم واحتياجاتهم في المعرفة والتعبير والإبداع. ثم أن تتصف هذه الوسائط بالمقدرة على الإثارة والتشويق والإمتاع، لتتمكن من الولوج إلى نفس الطفل، وتحرك أحاسيسه وانفعالاته. ومن المهم هنا أن تتنوع هذه الوسائط، فلا تقتصر العملية التثقيفية على وسائط معينة بذاتها، بما يجعلها مصدرا لإثارة تفاعل الأطفال وشد انتباههم. ولكي تؤدي هذه الوسائط دورها المطلوب في التربية، وتحقق الأهداف المرجوة، ينبغي التوجه بها توجها جادا، والعمل على تطويرها بصورة مستمرة، وربطها بأحدث المعطيات، وإحاطتها بأسباب التشويق والجاذبية.. إذ لم يعد ممكنا اليوم اختصار مسألة «تثقيف الطفل» بالكتاب أو بطريقة صناعته، لأنه أصبح مفهوما أشمل وأعمق. وقد أشار أحمد فضل شبلول لهذا الجانب بقوله: «لم يعد أمر ثقافة الأطفال مقصورا على طريقة صنع الكتاب بشكل يجذب إليه الطفل، أو على اختيار النص الشعري أو الحكاية أو القصة المناسبة له، ولم يعد الأمر مقصورا كذلك على مناقشة تقديم ما هو غير ناطق من حيوان أو طير بطريقة ناطقة، لقد جلب التطور التكنولوجي والإلكتروني معه أشكالا وأفكارا ومشاكل جديدة لأطفالنا، وينبغي على صانعي ثقافتهم الجديدة استيعابها أولا، ثم طرح مضامين جديدة تناسب هذه الأشكال».

في منهجية الحوار مع الطفل

فاطمة عبد الرؤوف
كاتبة من مصر

ليس من المبالغة القول: إن الحوار هو أهم آلية لنقل الأفكار والمشاعر، ومن ثم التوجيه والتعليم والتربية. لذلك فلا غرابة أن اشتمل القرآن الكريم على عدد هائل من الآيات المشتملة على الحوار. فثمة حوار بين الأنبياء وأقوامهم. وينقل القرآن الشبهات التي يثيرها هؤلاء، وردّ الأنبياء وجدل المشركين. وهناك حوار الأب وأبنائه، كإبراهيم ويعقوب ولقمان ونوح، وهناك حوار أهل الجنة وأهل النار، وحوار أهل النار مع خزنة جهنم.. القرآن كتاب حي، لذلك فهو زاخر بالحوارات التي هي أفضل وسيلة لتوصيل المشاعر والأفكار.

فكيف يمكن للحوار أن يكون منهجية تربوية ناجحة ومؤثرة، خاصة مع تنوع واختلاف المراحل العمرية للطفل، وتباين المشاعر النفسية والانفعالية له.

أهميته التربوية

إذا كان الحوار أمرا فطريا عفويا لصيق الصلة بالإنسان، منذ لحظة وجوده، وهو أمر طبيعي داخل نطاق الأسرة بين الوالدين والأطفال، فإن الفوائد التربوية التي يمكن تحقيقها من خلاله هي من الأهمية بحيث يجب أن يتنبه الوالدان للغايات المرجوة من خلال الحوارات العفوية أو المقصودة، والتي يأتي على رأسها:

١- إقامة علاقة قوية عميقة مع الطفل وهو أمر ليس بالهين، لأنه يعتبر القاعدة الأساسية للبناء، حيث سيترتب على عمق هذه العلاقة مدى استجابة الطفل للتوجيهات أو التحذيرات. لذلك لا تندهش عندما يستجيب أحد الأطفال لوالديه ببساطة، بينما لا يبدو على طفل آخر أي بوادر استجابة أو حتى اهتمام بما يقوله والداه. فوراء الطفل الأول علاقة عميقة كان أساسها الحوار، بينما يقف وراء فتور الطفل الآخر علاقة يشوبها الإهمال والجفاف وضعف الحوار.

٢- وسيلة للتوجيه

فمن خلال الحوار نستطيع توجيه الطفل لما هو مطلوب منه، في أمر دينه ودنياه. فمثلا عندما يحين موعد عيد الأضحى تسأل الأم ابنها: هل تعرف لماذا اشترى والدك هذا الكبش؟ فتنبه الطفل عن طريق السؤال، وقد تتلقى الأم إجابة ما، أو يجيبها بالنفي، فتكون لديها الفرصة لشرح الأمر، وقد يسألها الطفل أو يستزيدها، كي يعرف أكثر عن قصة الذبيح. وفي نهاية الحوار ستقوم الأم الذكية باستخلاص أهم الدروس، وتجعل الطفل يشاركها في استخلاص هذه الدروس، وينزلها على واقعه.

٣- إزالة الشبهات والمشكلات

قد يعاني الطفل من شبهة ما، خاصة في البلاد التي يسكنها أغلبية من غير المسلمين، أو قد يعاني من مشكلات في المدرسة، أو مع جماعة الرفاق، وقد تسبب هذه الشبهات أو المشكلات أزمة نفسية شديدة عند الطفل. فإذا كانت تقنية الحوار مفعلة، فلن يكون هناك مشكلة عند الطفل، وسيطرح شبهته أو مشكلته ببساطة على طاولة الحوار.

٤- فض الشجار

من أهم المشكلات التي يعاني منها الوالدان كثرة الشجار بين الأبناء، بحيث يتحول جو البيت الهادئ إلى صراخ وصياح، وكل منهم يلقي بالسبب على الآخر.. هنا تعمل تقنية الحوار كفتيل لحل الأزمة، عن طريق إجراء حوار فوري مع الجميع، يوضح فيه كل طرف وجهة نظره، ويلتزم بآداب الحوار. وأهمها الاستماع للطرف الآخر وعدم مقاطعته، ثم منح كل منهم فرصة للتعقيب، حتى يتم الوصول لوجهة نظر مقبولة. وأهم درس يتعلمه الأبناء أن الحوار وسيلة فعالة لتحقيق الأهداف، وليس الشجار.



هناك عقبتان كبيرتان تمنعان إجراء حوار صحي مع الأبناء:

العقبة الأولى: هي آفة العصر الحديث، ألا وهي انشغال الوالدين في العمل والحياة العامة، بحيث يكونان واقعين في مصيدة الضغوط، ومستهلكين تماما، ولا يمتلكان الطاقة النفسية لإجراء حوار بناء مع الأبناء.

العقبة الثانية: هي الجهل بمنهجية الحوار البناء، فالكثير من الآباء يستعيرون نمط التربية الذي عايشوه بحلوه ومره، وكثيرا ما يكون التسلط وإصدار الأوامر الفوقية، وعدم الرغبة في الحوار واعتباره أمرا عبثيا، وإهدارا للوقت هي مكونات أساسية بارزة في هذه التربية التي كانت سببا وربما نتيجة لحالة التردي الحضاري الذي عايشته أمتنا، وربما لا تزال تعايشه على نحو ما.

العقبة الثالثة: هي لغة الحوار الباردة التي تخلو من العواطف الدافئة والتعاطف الصادق مع ما يقوله الأبناء، ففي كثير من الأحيان يكون الابن بحاجة لمن يقدر مشاعره، أكثر ممن يحل مشاكله بأفكار منطقية (ذلك لأن في أعماق الأطفال الصغار عموما حاجة ملحة إلى أن يكونوا محل حب الآخرين وعطفهم، وهذا ما يتغذون عليه نفسيا بهذه المحبة التي يجب أن ينعموا بها من قبل أمهاتهم وآبائهم على السواء) (١).

الحوار والمرحلة العمرية

من الثابت علميا أن الجنين يسمع الأصوات بوضوح، وأنه يولد وحاسة السمع مكتملة لديه. إن الحديث للوليد ليس حوارا من طرف واحد كما قد يظن البعض، وإنما هو حديث من طرف، وانتباه وإنصات وتفاعل من آخر يريد أن يتعرف على أبجديات الحياة. لذلك فقد حث الإسلام على أن يكون أول عهد المولود بكلمات الحياة الأذان والإقامة. ويستمر الرضيع عامين كاملين يستمع وينتبه ويبني ذاكرته العميقة التي تكون ملامح شخصيته فيما بعد. إن الطفل في هذه المرحلة يتحاور بملامح وتعبيرات وجهه، والهمهمات التي يصدرها كبداية للكلام، بل حتى بالبكاء والصراخ الذي يرسل من خلاله رسائل معينة لوالديه، رسائل احتجاج، أو غضب، أو لفت انتباه، أو تنبيه لحاجة غير مشبعة.

الطفولة المبكرة

ثم تأتي مرحلة الطفولة المبكرة (٢- ٦ سنوات) حيث العبارات الأولى ذات المغزى للطفل، ومن ثم يستطيع الحوار أن يأخذ شكله الطبيعي.. في هذه المرحلة ستكون الوظيفة الأولى للحوار هي تعميق العلاقة مع الطفل، تمهيدا لمرحلة التوجيه الحقيقية التي تبدأ من سن التمييز.

إن مادة الحوار الأساسية تدور حول اللعب، كما فعل النبي ﷺ عندما كان يتحاور مع طفل فطيم (دخل لتوه مرحلة الطفولة المبكرة)، ويتحاور معه حول أهم شيء لهذا الطفل، وهو طائره الذي يلعب معه. فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له: أبوعمير - أحسبه قال: كان فطيما -، قال: فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: يا أبا عمير، ما فعل النغير - طائر صغير كالعصفور-؟ قال: فكان يلعب به» (رواه مسلم).

الحوار في مرحلة الطفولة المبكرة سيأخذ شكلا إيجابيا نشطا، فكما يتحدث ويسأل المربي، فإن الطفل أيضا يتحدث ويسأل (يطلق البعض على هذه المرحلة «مرحلة السؤال»، فما أكثر أسئلة الطفل في هذه المرحلة. إنك تسمع منه دائما ماذا؟ لماذا؟ أين؟ كيف؟ من؟...

إن الطفل في هذه المرحلة علامة استفهام حية لكل شيء، إنه يحاول الاستزادة العقلية المعرفية، يريد أن يعرف الأشياء التي تثير انتباهه، وأن يفهم الخبرات التي يمر بها.

هو يسأل وقد يفهم الإجابات، وقد لا يفهم، وقد ينصت وقتا كافيا لسماع الإجابات، وقد لا يفعل. ويقرر بعض الباحثين أن حوالي ١٠-١٥ ٪ من حديث الطفل في هذه المرحلة يكون عبارة عن أسئلة). (٢)

والسؤال يعني الحوار، فلابد للسؤال من إجابة. ومهارة المربي أن يجعل من إجابته مادة غنية لإثراء الحوار مع الطفل: ولكي يتحقق ذلك لابد أن:

- تكون الإجابة قصيرة، وواضحة.
- شيقة لطرح مزيد من الأسئلة، إذا كنا نريد تعميق الحوار.
- تشد انتباه الطفل، حتى يتأثر بها.

سن التمييز

مرحلة الطفولة المتوسطة (٦-٩) يطلق عليها في الأدبيات الإسلامية سن التمييز. حيث يبلغ النضج العقلي للطفل مرحلة جيدة، يميز فيها الأمور بشكل حقيقي، هنا ينطلق الحوار كأهم وسائل التربية، إنها مرحلة الأسئلة الواعية، والإنصات للإجابة والتعليق والتعقيب عليها.

إنها مرحلة تعليم الصلاة «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين» (رواه أحمد والحاكم وأبوداود). ويحضرني في هذا السياق هذا الحوار الحقيقي الذي دار بين أم وطفلتها.

الأم: لقد حدثتك كثيرا عن أهمية الصلاة، ولكنك لا تحافظين عليها، لماذا؟

الطفلة تصمت قليلا، وتنظر لأمها، وتقول: هل تريدين الصراحة؟

الأم باهتمام: نعم.

الطفلة: لا أحفظ التشهد (نسيته) و..

الأم: وماذا أيضا؟

الطفلة: أريدك أن تصلي معي...

الطفلة في هذه المرحلة (مرحلة سن التمييز) مستبصرة واعية بأسباب تحول بينها وبين الصلاة، فهي من جهة تشعر بالخجل، لأنها نسيت صيغة التشهد، ومن جهة أخرى تطلب دعما نفسيا من خلال صلاة الجماعة.

هذه المرحلة العمرية على الرغم من درجة النمو العقلي الجيدة التي تمر بها، فإنها لا تدرك جيدا وبعمق الأفكار المجردة، كالضمير والمراقبة.. إنها تشهد بزوغ نمو هذه القيم. ومن الأهمية بمكان طرح هذه القيم للحوار والسؤال، وقص القصص حتى تقترب من ذهن الطفل بشكل محسوس، يساعده على استيعاب هذه الأطروحات، وتحويلها لجزء من وجدانه الحي. وللحديث عن الطفولة المتأخرة حيث الاستعداد للبلوغ شأن آخر.

هامشان

(١) التأصيل التربوي للأبناء، السيد أحمد المخزنجي، صـ ٨٢.

(٢) علم نفس النمو، الدكتور حامد زهران، صـ ١٧٣.

إحياء للعلوم الشرعية وللآداب الإسلامية في زمن العولمة والتغريب

العودة إلى الكتاتيب

د. سوسن عبد الكريم بونقيشة
عضو هيئة تدريس - جامعة حائل، السعودية

الكتاتيب، يتعلم الطفل فيها النطق السليم، وآيات القرآن الكريم، إذا لم نقل: إنه يختم فيها القرآن الكريم، ويحفظ فيها نصيبا لا بأس به من أحاديث رسول الله ﷺ ، ويتربى قلبه فيها على محبة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فهي تنمي في داخل الطفل عقيدة سليمة، وجملة من المبادئ والأخلاقيات الإسلامية التي ترسخ في الذهن، ولا تنسى مهما تباعد الزمن، إننا نتعلم فيها صفة اللباس الشرعي والحشمة وعدم الاختلاط. فتكون الصفوف الأولى للذكور، والأخرى للإناث. ونتعلم فيها حب اللغة العربية والاعتزاز بها وبر الوالدين، وكيفية الدعاء والذكر، وكيفية الصلاة والوضوء، وكيفية احترام وإجلال المؤدب وطاعته. فهو المثال الأعلى والقدوة. ولقد استبعدت الكتاتيب منذ زمن بعد أن حلت محلها رياض الأطفال التي غزت بلداننا مخلفة في القلب حسرات.. إنها نسخة مصغرة من رياض الأطفال الموجودة في البلدان غير الإسلامية، مما يجعلنا نصدم بواقع مرير، نعم، لقد طال الغزو الفكري والتغريب أطفالنا بكل مساوئه، وبكل ما يحمله من فراغ روحي وأخلاقي، فالطفل فيها حر طليق، يقضي طيلة الوقت في اللعب واللهو والرقص المختلط، ويركز اهتمامه على الثياب والزينة والحفلات والأكل الجاهز... فهو حتى وإن تعلم فيها بعض الآيات، يبقى حفظه غير مستجيب للتلاوة الصحيحة في النطق والأحكام، وهي سرعان ما تتلاشى من ذهنه، لأنها في الأخير ليست محور اهتمامه، لأن رياض الأطفال محور اهتمامها هو اللعب والترفيه، استجابة للنظريات الغربية في تربية الأطفال... فيخرج منها الطفل، وقلبه متعلق بكل ما تربى عليه.

إن وجود مختصين في العلم الشرعي يوجهون الطفل في مرحلة مبكرة من حياته يضمن لهذا المجتمع شابا ورجلا متمسكا بدينه، ويضمن لنا طالبة وزوجة وأما متمسكة بدينها، لأن شحذ الشخصية يبدأ في مرحلة مبكرة. فالاهتمام بالطفل منذ التنشئة الأولى أمر ضروري، صار من اللازم أن ننتبه إليه، وأن نعلم خطورة الاقتباس من الغرب على أبنائنا، إنه تقليد أعمى لمجتمع يعيش أزمة أخلاقية على كل المستويات.

لقد أصبحنا اليوم نتحدث عن مشكلات عجيبة غريبة، تفتك بأطفالنا وبشبابنا، كالانجذاب إلى الراقصات والمغنيات والممثلات... ثم تقليد هؤلاء، وكالإعجاب والمثلية التي بدأت تظهر في مجتمعاتنا منذ سن مبكرة...

فإعادة النظر في مناهجنا وفي كوادرنا أمر أصبح حتميا، فلا يكفي أن تعرف المربية مثلا قواعد علم النفس، وكيفية صنع الدمى والأشياء الفنية، حتى تتأهل لتربية الأجيال. شتان بين هذه الشروط ونظيرتها في الكتاتيب، حيث كانوا يشترطون في المؤدب أو المؤدبة أن يكون من أهل الصلاح المشهود لهم بذلك، زيادة على الإتقان لتلاوة كتاب الله المجيد وحفظه، وشروط أخرى أدبية، مثل اشتراطهم أن يكون المؤدب متزوجا.. ولقد كانت الدولة تشرف عليها من خلال المحتسب، من حيث أنظمته. ويسهم الفقهاء في تنظيم مناهجها. وقد ألفت كتب كثيرة في هذا الشأن (١).

ولقد أتى كتاب «آداب المعلمين» مثلا، على كثير من المسائل المتعلقة بالمعلمين، وما يجب عليهم نحو تعليم الصبيان وتأديبهم، حتى يسلموا من تبعات السؤال عمن استرعاهم الله تعالى (٢).

ولعلي أتساءل: لماذا لم تتعالَ أصوات الدعاة والباحثين المهتمين بالشأن الديني إلى إرجاع هيبة الكتاتيب التي تعد ظاهرة مفيدة في المجتمعات الإسلامية؟ هل

نسينا مكانة الكتاتيب دينيا وتاريخيا وثقافيا وإنسانيا؟ لقد كانت الكتاتيب من الإنجازات التي يفتخر بها المسلمون، والتي حبذها أولياء أمور الأطفال، واطمأنوا بها على المستوى التعليمي لأبنائهم وبناتهم وعلى تربيتهم، على مر التاريخ. وتجدر الإشارة إلى ما ورد عن مجمع الفقه الإسلامي من قرارات داعية إلى أسلمة المناهج التعليمية (٣)، مما يدعو جديا إلى وقفة حاسمة وموضوعية، لتقييم التجارب الموجودة في مجتمعاتنا.

ويجب ألا ننسى أننا نعيش في زمن الصحوة الإسلامية، حيث استفاق المسلمون على كوارث البديل الغربي الذي تبنته الدول والشعوب، وظنت أنه المنقذ من التخلف ومن الأزمات، فقد أصبح لزاما علينا اليوم أن نقف لمراجعة الذات، هذه الهوية المهددة، ولنتخلص من النظرة الدونية للأشياء الأصيلة، فالأغلبية ينظرون إلى الكتاتيب وكأنها تراث يجب أن نحييه في لوحة أو في صورة من صور الاحتفالات بيوم التراث الوطني.. في حين نتناسى أن العودة إلى الأصل فضيلة، وإحياء لسنة من السنن المندثرة، وقد كان الصبيان زمن رسول الله ﷺ يتعلمون. فعن ابن عباس: «توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم» (أي المفصل) (٤).

«وقد ظل المسجد النبوي على مدى تاريخه الطويل المنهل العذب والمدرسة الأولى التي يتلقى فيها الطلاب العلم والتعليم، وتخرجت منه أجيال عديدة من أبناء المدينة والمسلمين كافة، وبقيت ساحاته وجوانبه زاخرة بحلقات العلم حتى الآن، وبالكتاتيب حتى فترة متأخرة من القرن الرابع عشر الهجري. وذكر الشيخ جعفر فقيه في حديثه عن التعليم في المدينة المنورة في بداية القرن العشرين، وبحدود عام ١٣٢٥هـ أن عدد الكتاتيب في المسجد النبوي كان ستة كتاتيب. وذكر ناجي الأنصاري في كتابه «التعليم في المدينة المنورة» أن عدد الكتاتيب بالمدينة المنورة في عام ١٣٤٩هـ ثلاثة كتاتيب أميرية في داخل المسجد النبوي الشريف، ومجموع التلاميذ بها (١٢٥) تلميذا، وعدد المعلمين فيها (٦) معلمين. كما ذكر عثمان حافظ في كتابه «صور وذكريات» أن عدد الكتاتيب في المسجد النبوي الشريف في عام ١٣٣٣هـ /١٩١٤م كان (٨) كتاتيب، وموقعها في الجهة الشمالية من المسجد. وقد تعطلت بسبب الحرب العالمية الأولى...

ومنذ عام ١٣٧٣هـ أخذت هذه الكتاتيب سواء داخل المسجد النبوي أو في المدينة تتلاشى شيئا فشيئا.. ولم يبق من هذه الكتاتيب في المسجد إلا حلقات لتعليم القرآن الكريم، وحلقات أخرى لدروس العلم» (٥).

إننا إذا قمنا بإلغاء الكتاتيب وقعنا في مشكلة التغريب. وإن اختزلنا وظيفتها في تحفيظ القرآن الكريم فقط، فقد وقعنا في إقصاء حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وهو أمر ضروري. وكذا تعلم الوضوء والصلاة وسائر العبادات والأخلاقيات الإسلامية فضلا عن اللغة العربية وحذقها.. وما من شأنه أن يكون له وقع في توجيه ملكات الطفل إلى ما يحبه الله ويرضاه.

فالحل الأنسب هو تطوير الكتاتيب



التقليدية، بتحديث آلياتها، وإدخال تعديلات تناسب الفترة المعيشة، من تقنية حديثة وأساليب معاصرة، حتى تتمكن الكتاتيب الحديثة من إثبات وجودها.

وفي هذا الصدد تحضرني التجربة التونسية، حيث قاموا بتفعيل دور الكتاتيب فوجهوا المختصين من الشريعة إلى العمل في الكتاتيب، بعد أن أسندت لهم الدولة دورة تدريبية مطولة في تكوين المؤدبين، تتضمن كل ما يحتاج له المربي للتعامل مع الأطفال وفهمهم. كما يوجد في هذه الدورة تدريب للمؤدب والمؤدبة على التقنية الحديثة، وعلى الألعاب المدروسة لتنمية الشخصية وتثبيت الهوية... فنراهم قد أدخلوا جانب



اللعب (فسحة، مسرح الظل عوض عروض الأزياء وما تخلفه من تبلد، توجيه نحو القصص الصغيرة، وتحبيب الأطفال في المطالعة، وتوجيه كذلك نحو القصص الإسلامي..).

أما عن المادة العلمية، فقد بقيت على ما هي عليه من تعليم الطفل التلاوة الصحيحة للقرآن الكريم، وتحفيظه أحاديث رسول الله ﷺ، وتعليمه اللغة العربية والحساب والرسم... وما أضافوه هو دمج الحاسوب في العملية التعليمية ومبادئ اللغات الأجنبية، كما أدمجوا السنة التحضيرية، فأسندوها للمؤدب مباشرة قبل دخول الطفل إلى السنة الأولى من التعليم الابتدائي.

كما وفرت الدولة من جانبها كتاتيب مجهزة، عادة ما نجدها محاذية للمساجد، فتعرف الكتاتيب بأسماء المساجد التابعة لها، وهو نظام متجذر في تاريخ البلاد، كما أضافت الدولة دعما ماديا للمؤدب والمؤدبة، وتركت لهم مجالا لأخذ أجورهم من الأولياء حسب مقدار محدد لكل طفل، حتى تضمن للمؤدب الحياة الكريمة، إيمانا منها بالدور الذي يقدمه للمجتمع، كما هيأت الكتاتيب لعدد معين، حتى تضمن الأداء الجيد وأخضعتها لسلطة إشراف، فهي تابعة لوزارة الشؤون الدينية، يزورها من حين إلى آخر الوعاظ الدينيون، حتى يراقبوا سير العمل عن قرب. هذا على المستوى التنظيمي والمنهجي. ويبقى المؤدب خاضعا لدورات تدريبية، كلما اقتضت الحاجة، وقد لوحظ بعد فترة قصيرة من تطبيق هذه التجربة إقبال متزايد على الكتاتيب من الأولياء، وانجذاب لها من الأطفال، واستحسان لها من المجتمع، لم تشهده البلاد من قبل (٦).

هذا وتجدر الإشارة إلى أننا في زمن اخترق فيه المسلمون، وتداخل فيه الحلال والحرام، وأصبح القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر. واعلم أيها المكرم أنه إن صلحت العقيدة استقامت حياة الإنسان كلها. وقد علم الرسول ﷺ أصول العقيدة أولا لصحابته رضوان الله عليهم، فكانت الفترة المكية بمثابة وضع الأسس التي قامت عليها الدولة الإسلامية، بفضل الله ومن بعده رسوله ﷺ.

الهوامش

(١) انظر كتاب «آداب المعلمين»، تأليف العلامة والفقيه أبي عبدالله محمد بن سحنون فقيه المغرب وابن فقيه المغرب عبدالسلام سحنون ابن سعيد التنوخي، القيرواني، شيخ المالكية (ت٢٥٦هـ).

(٢) المصدر الإلكتروني: http://elmalikia.blogspot.com

(٣) قرارات مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته الخامسة عشرة بمسقط (سلطنة عُمان) ١٤ - ١٩ المحرم ١٤٢٥هـ، الموافق ٦ - ١١ آذار (مارس) ٢٠٠٤م. قرار رقم ١٣٨ (١٥/٤) من موقع: www.fiqhacademy.org.sa/qrarat

(٤) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن، رقم٥٠٣٥، ص٤٣٦ من موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة)، إشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبدالعزيز ابن محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، دار السلام للنشر، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٠ م.

(٥) مقال عنوانه: «الكتاتيب» يحتفظون بحضورهم في المسجد النبوي جريدة الرياض بتاريخ ٥ رمضان ١٤٢٩هـ - ٥ سبتمبر ٢٠٠٨م - العدد١٤٦٨٣.

(٦) مقال عنوانه: برنامج إصلاحي متكامل لمنظومة الكتاتيب في تونس، نشر في أخبار تونس، بتاريخ: ٢٠٠٩/٨/٩م.



المسلمون «المنسيون» في جمهورية تتارستان

نجاح إبراهيم منصور
باحثة إسلامية متخصصة في التراث

جمهورية تتارستان إحدى الجمهوريات الإسلامية السوفييتية الواقعة في منطقة الفولجا (في قلب روسيا)، يجاورها خمس جمهوريات إسلامية أخرى، هي: بشكيريا، وتشوفاش، وموردوفيا، وماري يل وأودمورت. وذلك إضافة إلى منطقة القوقاز الشمالي (جنوب غرب روسيا)، وتشمل سبع جمهوريات (داغستان، والشيشان، وإنغوشيا، وقبردين بلقاريا، وأوسيتيا الشمالية - ألانيا وكارتشييف شركيسيا، والأديغة). ويبلغ إجمالي عدد المسلمين في هذه الوحدات الإدارية نحو ١٦-١٧ مليون نسمة، إضافة إلى ٥-٦ ملايين آخرين يتوزعون بشكل مبعثر عبر الأصقاع الروسية، من حدود الصين واليابان شرقا إلى حدود فنلندا غربا.

دور التجار

وصل الإسلام إلى تتارستان في بداية القرن الرابع الهجري، عندما وصل التجار المسلمون إلى حوض نهر الفولجا، وأسلم شعب البلغار، وأرسل إليهم الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٠هـ - ٣٢٠م) من يفقههم في الدين. وكان الإسلام يسود منطقة الحوض الأدنى من نهر الفولجا، بل تجاوزها إلى منطقة القرم في شمال البحر الأسود، غير أن الدفعة الأساسية للدعوة الإسلامية في حوض الفولجا وصلت بإسلام التتار.

روسيا القيصرية

عندما احتل قياصرة روسيا تتاريا في سنة (٩٦٠هـ - ١٥٥٢م) كان الإسلام منتشرا بين سكانها، واضطهد الروس أهلها، وحاولوا جذبهم إلى المسيحية بالقوة والقهر، لكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعا، وقد بذلت الإمبراطورة كاترين الثانية جهودا جبارة في هذا المجال في سنة (١١٩٢هـ - ١٧٧٨م)،



فأمرت بأن يوقع كل من الذين اعتنقوا المسيحية «الجدد» على إقرار كتابي يتعهد فيه بترك خطاياه ويتجنب الاتصال بالكفار، ويظل على الدين المسيحي، وطبق هذا بالقوة على التتار المسلمين، ولكنهم كانوا مسيحيين اسما، ثم تخلصوا من هذا التعسف، وظلوا على إسلامهم، ولقد دونت أسماؤهم في السجلات المسيحية زورا. ووقف المسلمون التتار في ثبات وقوة ضد الصليبيين وحملاتهم، وشهد القرن التاسع عشر الميلادي عدة قوانين تحد من انتشار الدعوة، لدرجة أن القانون الجنائي الروسي كان يعاقب كل شخص يتسبب في تحويل روسي إلى الإسلام بـ «الأشغال الشاقة»، وعلى الرغم من هذا فإن الدعوة انتشرت بصورة سرية، ولما صدر قانون حرية التدين في روسيا القيصرية في سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) حانت الفرص للدخول في الإسلام بصورة جماعية، فبلغ من أعلنوا إسلامهم في سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٦م) ثلاثة وخمسين ألفا، وفي سنة ١٩٠٩ دخلت ٩١ أسرة في الإسلام.

- **٣٠ ألف مسلم يحفظون القرآن ويدرسون تفسيره!**
- **جميع محاولات طمس الهوية الإسلامية باءت بالفشل**
- **«التتار» في حاجة ماسة إلى من يعلمهم اللغة العربية**

وسارت الدعوة الإسلامية قدما في حماسة بالغة، فكان كل مسلم داعية إلى دينه، وقد خدمت الدعوة الإسلامية هجرة جماعات ممن احترفوا الحياكة في القرى الإسلامية في زمن الشتاء، واعتنق هؤلاء الإسلام وتحولوا إلى دعاة للإسلام عند عودتهم إلى قراهم، وأثمرت دعوة التتر أنصارا في سيبيريا وغيرها.

قبل الثورة الماركسية

كان في مدينة قازان عاصمة جمهورية تتاريا جامعة إسلامية بها سبعة آلاف طالب، وكانت بها مطبعة أخرجت مليون نسخة من ٢٥٠ كتابا في سنة (١٣١٠ هـ - ١٩٠٢ م)، كما كانت في مدينة قازان مكتبة إسلامية كان يزورها ٢٠ ألف قارئ سنويا، وكان يوجد مسجد لكل ألف مسلم، وكان يوجد مركز للدعوة الإسلامية. واجتهد علماء قازان في نشر الدعوة، وطبعوا منشورات لها، واهتموا بالتعريف بالإسلام باللغة التتارية، وانتشر الدعاة (مليات) وطلاب جامعة قازان في القرى والفيافي يدعون إلى الإسلام، ونشطوا في هذا الأمر بعد صدور قانون حرية الأديان في روسيا في سنة ١٩٠٥ م، ونجحوا في بث الدعوة الإسلامية بين تتار سيبيريا.

السوفييت في الحكم

واجه التتار حربا قاسية على معتقداتهم، فأغلقت المدارس الإسلامية، ودمرت المكتبات والمطابع الإسلامية في قازان عاصمة تتاريا، وثار التتار ضد الاضطهاد الديني، وقدموا العديد من الشهداء، وأعدم حتى أولئك الذين تعاونوا مع السوفييت، ورفض السوفييت وحدة الأراضي الإسلامية، وعملوا على تفتيتها إلى قوميات للقضاء على الوحدة. وقد أدمج الروس كل المناطق الإسلامية التي توجد في روسيا الأوروبية في إدارة دينية واحدة مقرها أوفا عاصمة جمهورية بشكيريا، وتشرف على المسلمين في سيبيريا أيضا، وجردوا هذه الإدارة من كل السلطات فأصبحت أمرا شكليا، ولكن في الآونة الأخيرة حدث تغير في روسيا الاتحادية، ونتجت عن هذا حرية الأديان، وبدأت صحوة إسلامية في المناطق الإسلامية.

صحوة إسلامية واعدة

وعلى الرغم من معاناة مسلمي تتارستان، فإنهم شهدوا في الحقبة الأخيرة صحوة إسلامية واسعة، وقد بلغت نسبتهم حوالي ٧٠ في المئة من تعداد السكان، كما بلغ عدد حفظة القرآن الكريم ٣٠ ألف مسلم. وقاموا أخيرا بتجديد المساجد وترميم الآثار الإسلامية التي تعرضت للهدم والإزالة في الحقب الماضية، ولا ينقصهم سوى الدعاة القادرين على تعليمهم اللغة العربية.



فكرة مبتكرة تفيد الناشئة

«ألف اختراع واختراع» في المركز العلمي بالكويت

علاء عبدالفتاح

فكرة معرض «ألف اختراع واختراع»، الذي شهدت فعالياته ساحة المركز العلمي بالكويت في الفترة من ٤ فبراير إلى ٧ مارس ٢٠١٥م، فكرة متميزة، أثمرت في ذهن أكثر من ٦ ملايين زائر لهذا المعرض المتجول حول عواصم العالم، ما يبدل الصورة النمطية لمشاركة المسلمين في حركة العلوم، وأسهمت في تشكيل وعي الناشئة الذين تعرفوا - ربما للمرة الأولى - على إنجازات الفكر الإسلامي وبراعة علماء المسلمين في عصور كانت البلدان الغربية فيها تتعلم من أمتنا.

المعرض يرفع درجات الثقة بالنفس، ويزيد الشعور بالفخر المطلوب لمقاومة تيار الدونية الذي تسعى أجهزة إعلام كثيرة إلى بثه في نفوس أبنائنا.

يستقبلك في هذا المخيم المواجه لمبنى المركز العلمي بالسالمية، إحدى مناطق الكويت المتاخمة للخليج العربي، عرض سينمائي (معرب) تم إنتاجه في يناير ٢٠١٠م، بطولة النجم العالمي بن كينغسلي Ben Kingsley ومن إخراج آلان ديكنز Alan Deakins.

مقابلة المخترعين

العرض، الذي يمتد لنحو ١٣ دقيقة، يعرفنا من خلال ثلاثة تلاميذ يجرون بحثا عن العصور المظلمة، ويقابلون بديع الزمان أباالعز الجوزي باكتشاف ابن الهيثم للأسس التي اخترعت على أساسها الكاميرا، وبالتالي السينما، من خلال إسقاط صورة على سطح آخر من خلال ثقب





في غرفة مظلمة.

أو عباس بن فرناس، الذي فكر في الطيران قبل الأخوين رايت بألف عام، وكذلك بأبي القاسم الزهراوي، الملقب بـ «أبوالجراح»، الذي اخترع العديد من الأدوات الجراحية، مثل: المشرط وخيط أحشاء القطط للجراحة.

أو مريم الأسطرلابية، التي اخترعت الكثير من الأسطرلابات التي تعرض منظر السماء والنجوم لتحديد الزمن وحركة الكواكب.. وفي نهاية الفيلم يسأل الأطفال الثلاثة ابن الجوزي عما اخترعه، فيقول إنه اخترع جهازا يحول الحركة الدائرية إلى حركة طولية بواسطة ذراع تدوير و«عَتَلة» متصلة، ومن دون هذا الجهاز لم تكن لتتم الثورة الصناعية، كما اخترع آلة قياس الأوقات.

بعد العرض مباشرة تنفرج الشاشة ليجد الجمهور نفسه في مواجهة ممثلين محترفين يقومون بأدوار العلماء المسلمين، وكل أمام أشهر جهاز اخترعه يدعو الزائرين، وأغلبهم من الأطفال، إلى التعرف على الجهاز، وأحيانا تجربته، كما حدث من عباس ابن فرناس، حيث يجرب الزائر أن يحلق بذراعيه أمام شاشة تفاعلية، فإذا ما أحس بتعب سقط النموذج الذي كان يحلق أمام عينيه!

ورش علم وفن

بعد الجولة في المعرض والتوقف عن الاختراعات، يمكنك الحصول على نسخة من كتاب الاختراعات بثمن رمزي، هو ديناران كويتيان. وهناك ورش تلوين للأطفال، وورش علمية لتوليد التيار الكهربائي وتحويل الحركة إلى طاقة ضوئية وغيرها.



قالوا عن المعرض

قال مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عدنان شهاب الدين، يوم افتتاح المعرض، إن المؤسسة تتبنى هذا النشاط من واقع اهتمامها ومساهمتها الفعالة في نشر برامج الثقافة العلمية التي تمثل أحد المحاور الرئيسية الأربعة التي بنيت عليها استراتيجيتها.

بينما قال مدير ومنتج معرض «ألف اختراع واختراع» أحمد سليم، إن المعرض، الذي يستضيفه المركز العلمي بدعم مؤسسة التقدم العلمي، هو من أكبر المعارض، ويسلط الضوء على الحقبة الذهبية الغنية بالإنجازات الإسلامية، مشيرا إلى أن الهدف من إقامة المعرض هو الإسهام في تطوير ونشر وتعلم العلوم، ودعم الموهوبين والمتميزين، والمساعدة في تطوير الثقافة العلمية والبيئة الممكنة.

أما رئيس المركز العلمي مجبل المطوع فقال إن هدف المعرض تبسيط العلوم ونشر الوعي في جو من التفاعل الترفيهي، مما يبث روح الإبداع والابتكار لدى الجيل الجديد.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

صاحب الامتياز المسئول: عبد الحميد الصانع

« حكمة العدد »

متى تجمع القلب الذكي وصارماً
وانفاً حمياً تجتنبك المظالم
فلاصلح حتى تعثر الخيل بالقنا
وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

كاظمة

مجلة شهرية

تبحث في الآداب والعلوم والفنون والاجتماع

﴿ بدل الاشتراك عن سنة ﴾
روبية ٩ في الداخل
دينار عراقي
أو ما يعادله من العملة الاخرى في الخارج
—(ثمن العدد ١٢ آنة)—
« الاعلانات »
يتفق عليها مع مدير الادارة عبدالصمد تركي

العدد ٢ ﴿ الكويت آب ١٩٤٨ ﴾ السنة الاولى

التعليم القروي في الكويت

لا يخالفني إنسان في قولي بوجوب تعميم التعليم في هذه الامارة الصغيرة. فالتعليم وحده يستطيع أن يرفع منزلتنا في اعين الامم الحية، وبالتعليم وحده نستطيع ان نبني حياة سعيدة تليق بكرامة الانسان في هذا العصر. وقد شاءت الظروف العصيبة والتجارب القاسية الشديدة أن تكشف للامة العربية سر ضعفها، وعلة اضطرابها وتخلخلها، فكان ذلك السر وكانت تلك العلة جهل الامة العربية، وتأخرها في العلوم الحديثة، وحرمان ابنائها من التربية الصالحة القويمة، فوقع ما وقع من زعزع مؤلم وتخلخل موجع واضطراب مؤسف في كل حركة من حركاتها التحررية. ولو فكر زعماء العرب في تعليم الامة العربية، واعداد الناشئة منها إعداداً قومياً قوياً لجنوا ثمرا طيباً مرضياً في كل وثبة من وثبات الجهاد، ولما حدث شيء مما حدث طيلة هذه الفترة الطويلة. ولكنهم — وهم المخلصون طبعاً — وجهوا جل جهودهم واهتمامهم نحو استغلال حيوية الشعب العربي، فخابوا اكثر من مرة في هذا الاستغلال، وعلموا — ولكن في الاخير — ان الحيوية وحدها لا تكفي مهما كانت قوتها ومهما كانت الزعامة حكيمة في اثارتها واستغلالها.

ولست مضطرا في هذه الكلمة العجلى الى الاسترسال في هذه الخواطر ما دمت معتمداً على وعي المسئولين هنا وقبولهم الآراء السديدة، والنصائح الصادقة، وتقديرهم لكل احساس قومي شريف. فالتعليم كما قلت يجب ان يكون معمما في هذه الامارة. ومن الغرابة أن نخص به قوماً دون قوم محتجين بصدوف هؤلاء وإقبال أولئك ناسين ان سبل الترغيب كثيرة، وطرق الترهيب اكثر، وان الجهل أو الابقاء عليه جريمة شنعاء تعد في زمننا هذا.

ونحن نعترف جميعاً بأن للقروي ما لابن المدينة من الحقوق وأن على هذا ما على ذلك من الواجبات،

-٥١-

عبدالحميد عبدالعزيز الصانع

أديب ومؤرخ وصحفي كويتي، ولد بالكويت عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، اعتمد في التعليم بتوفيق الله على نفسه دون ان ينتظم في سلك التعليم العام، وعمل في بداية حياته في التجارة، ثم انتقل إلى العمل الحكومي، شارك في تأسيس المكتبة الأهلية في دولة الكويت، كما ساهم في تأسيس غيرها من المشاريع العلمية النافعة وإدارات العلم والتربية. توفي عام ١٣٧٩هـ (٤ مارس ١٩٧٦م)

كاظمة

مجلة شهرية

تبحث في الآداب والعلوم والفنون والاجتماع

— ٢ —

وأن الطبيب لا يترك المريض فريسة للمرض القاتل تلبية لرغبته في تجنب ألم العلاج ومرارة الدواء.

كما أن الزارع لا يرفع رأسه فخوراً معتزا الا إذا قلب الارض الماحلة القاحلة الى زروع بهيجة ورياض نضرة تملأ النفس سرورا واعجابا. فالعناية المبذولة فى نشر التعليم وتقويته في مدينة الكويت حميدة مشكورة. وقد بلغت ادارة المعارف مدى بعيدا سجل لها الثناء الجميل في قلوب جميع المواطنين، غير ان التعليم القروي – وهو جزء لا يتجزأ من رسالة المعارف — لا يزال مفقودا مع الاسف الشديد. وقد قلت غير مرة لبعض المسئولين فى مؤسسة المعارف بوجوب الاهتمام بتعليم ابناء القرى وتوجيههم توجيهاً حديثاً. وكم رأيت بنفسي ذكاء ابناء القرى الكويتية واستعدادهم الفطري للتعلم. ومهما نسيت فلن أنسى ما شاهدته في زيارتى لجزيرة فيلكه منذ ثلاث سنوات، فلقد وجدت فى تلك الجزيرة الوادعة المنسية مدرسة حديثة البناء ذات حجرات فسيحة وفناء صحي رحب، وموقع نزه جميل، ووجدت طلاباً يفوقون بذكائهم واستعدادهم لطلب العلم ابناء مدينة الكويت لا يقلون عددا عن مائتي طالب نشيط، ولكنى لم اجد سوى ذلك شيئاً. وكان ما في الجداول الملاءة على جدران حجرات الدراسة برهاناً على تضييع أولئك الابرياء. ويمكن القول عن الفنطاس والدمنة وحولي والجهرة وغيرها بمثل ما قلت عن تلك الجزيرة المنسية. فهل آن الاوان لاصلاح التعليم القروي ؟؟ وهل تعيرنى ادارة المعارف اذنا صاغية فتستمع الى اقتراحاتي، وتعمل بها أو ببعضها إن وجدت فيها خيرا ؟

إن هذا النوع من التعليم يجب ان تنشأ له ادارة مستقلة ترتبط بالادارة العامة، وأن يتولى شؤون هذه الادارة مدير يطلق عليه «مدير التعليم القروي». ثم يجب أن تنال هذه الادارة كل ما تفتقر اليه من المال. فاذا تم ذلك فالاصلاح المنشود محقق، والنتائج الحسنه مضمونة. لأن في المقدور الاخذ بكل أو بعض الوسائل الآتية:

(١) العنايه ببناء المدارس القروية وترميمها وتأثيثها وتشجيع زراعة الاشجار فيها. فالمدرسة إن كانت منظمة نظيفة صحية جذبت قلوب الاطفال وفرضت عليهم حبها وتفضيلها على البيت.

(٢) تعيين اثنين أو ثلاثة من مدرسي الكويت الشبان لكل قرية على أن يزودوا بالنصائح والتوجيهات دائماً، ويشجعوا على تحمل حياة القريه بمخصصات مالية.

(٣) ترغيب الطلاب في التعلم بالمساعدات، كأن تعطى لهم رواتب شهرية لا تقل عن خمس روبيات، ولا تزيد على عشر. وهذه المساعدة لها وقع في نفوس القرويين الفقراء.

(٤) تأييد المدرسين وفرض الاحترام لهم على جميع سكان القرية، لأن فى احترام المدرس احتراما للعلم، ومتى احترم الآباء العلم فان الابناء سيقبلون عليه عن رغبة وشوق وتقدير.

(٥) تجهيز كل مدرسه بصيدلية صغيرة للاسعاف الاولي فى المدرسة والقرية ما دامت القرية محرومة

– ٥٢ –

مجلة كاظمة

هي أول مجلة صدرت وطبعت في الكويت؛ فقد صدر العدد الأول منها في يوليو من عام ١٩٤٨م، وهي صحيفة أدبية اجتماعية، تصدر مرة في كل شهر، وأشرف على تحريرها وإدارتها أدباء كويتيون، منهم صاحب امتيازها: المرحوم عبدالحميد الصانع، ومعه عبدالصمد التركي وأحمد السقاف، وللأسف فإن المجلة لم تتعد عددها التاسع حتى انتهى أجلها، وتوقفت عن الصدور بسبب خلاف في الرأي، نشره القائمون على المجلة ولم يرق لمن خالفهم..

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس جامعة
أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

الاتجار في العملات والصرف

الصرف: بيع عملة بعملة أخرى من غير جنسها، ولا بد فيه من التقابض في مجلس العقد، ولذا لا يجوز شرعا البيع الآجل للعملات، ولا المواعدة على الصرف فيها.

وورد في اللجنة الدائمة جواب لسؤال: جواز الصرف المشار إليه آنفا، وإن خالف القوانين الوضعية.

يجوز شراء الذهب والفضة بالشيكات المصدقة، على أن يتم التقابض في المجلس.

أما الحوالات فجائزة بمقابل، أو بدون مقابل، وسواء كانت بالعملة نفسها، أو بعملة مغايرة، وفي هذه الحالة تجري عملية الصرف قبل التحويل.

● **القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:**

- أولا: قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لـ «رابطة العالم الإسلامي» في دورته الثالثة عشرة، المنعقدة بمكة المكرمة، والتي بدأت يوم السبت (٥/ شعبان/١٤١٢هـ) الموافق (٨/٢/١٩٩٢م)، بشأن: المواعدة ببيع العملات بعضها ببعض.. وهل يجوز أن يقوم المصرف، أو الشركة، بترتيب عمليات شراء مستقبلي لصالح أحد العملاء بطلب منه؟

وقد نظر في الموضوع، وتوصل إلى النتائج التالية:

أولا: إن بيع عملة بعملة أخرى يعتبر صرفا.

ثانيا: إذا تم عقد الصرف بشروطه الشرعية، وخاصة التقابض في مجلس العقد، فالعقد جائز شرعا.

ثالثا: إذا تم عقد الصرف، مع الاتفاق على تأجيل قبض البدلين أو أحدهما إلى تاريخ معلوم في المستقبل، بحيث يتم تبادل العملتين معا في وقت واحد، في التاريخ المعلوم، فالعقد غير جائز، لأن التقابض شرط لصحة تمام العقد، ولم يحصل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

والحمد لله رب العالمين.

انتهى القرار.

- ثانيا: ثم صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة، رقم: (٩٣ (٥/١١))، بشأن الاتجار في العملات، وجاء فيه:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد:

فإن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في دورة انعقاد مؤتمره الحادي عشر بالمنامة، في مملكة البحرين، (٢٥-٣٠ رجب ١٤١٩هـ)، الموافق (١٤- ١٩ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٩٨م).

بعد اطلاعه على الأبحاث المقدمة إلى المجمع بخصوص موضوع «الاتجار في العملات»، واستماعه إلى المناقشات التي دارت حوله، قرر ما يلي:

أولا: التأكيد على قرارات المجمع رقم ٢١(٣/٩)، بشأن النقود الورقية وتغير قيمة العملة، ورقم ٦٣(٧/١) بشأن الأسواق المالية. الفقرة ثالثا: التعامل بالسلع والعملات والمؤشرات في الأسواق المنظمة رقم (٢)، التعامل بالعملات، ورقم ٥٣ (٦/٤) بشأن القبض، الفقرة ثانيا: (١- ج).

ثانيا: لا يجوز شرعا البيع الآجل للعملات، ولا تجوز المواعدة على الصرف فيها. وهذا بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع الأمة.

ثالثا: إن الربا والاتجار في العملات والصرف دون التزام بأحكام الشريعة الإسلامية، من أهم أسباب الأزمات والتقلبات الاقتصادية التي عصفت باقتصاديات بعض الدول.

التوصيات:

ويوصي المجمع بما يلي:

وجوب الرقابة الشرعية على الأسواق المالية، وإلزامها بما ينظم أعمالها، وفق أحكام الشريعة الإسلامية في العملات وغيرها، لأن هذه الأحكام هي صمام الأمان من الكوارث الاقتصادية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهى القرار.

- ثالثا: ثم صدرت فتوى من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في ذي القعدة، عام (١٤٠١هـ)، وهي:

السؤال: هل يجوز تجارة العملة في السوق السوداء، رغم أن قوانين البلد تمنع ذلك؟

الجواب: يجوز شراء العملة بعملة أخرى من غير جنسها، ولو تفاوتت في السعر، يدا بيد، ولا يمنع من ذلك المخالفة للقوانين الوضعية.

انتهت الفتوى.

● **التعليق:**

الأصل جواز المتاجرة بالعملات، والتكسب بفروق أسعار صرفها، بشرط مراعاة ضوابط الصرف الشرعية، وأهمها: حصول التقابض في مجلس العقد، فلا يصح أن يفترق المتصارفان،

وبينهما شيء، لقول النبي ﷺ: «ما كان يدا بيد: فلا بأس به، وما كان نسيئة: فهو ربا». رواه الشيخان، من حديث البراء.

وإنما قلنا ذلك؛ لأن العملات من الأصناف الربوية، فهي قائمة مقام النقدين: الذهب والفضة، لأنها أصبحت ثمنا لكل مثمن، وقيمة لكل مقوم، وقد قال ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، إلا مثلا بمثل، ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الورق بالورق، إلا مثلا بمثل، ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا غائبا منها بناجز»، (متفق عليه).

فإذا بيعت ريالات بدولارات، أو جنيهات بدنانير، أو غيرها؛ فيشترط التقابض في المجلس، ولا تجوز النسيئة فيها.

- وأما بشأن «تجارة الذهب، الحلول الشرعية لاجتماع الصرف والحوالة»، فقد صدر من مجمع الفقه الإسلامي بجدة قرار رقم: ٨٤ (٩/١)، وجاء فيه:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره التاسع بأبوظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، (١-٦/ ذي القعدة/١٤١٥هـ)، الموافق (١-٦/ نيسان (إبريل)/١٩٩٥م)، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع: «تجارة الذهب، الحلول الشرعية لاجتماع الصرف والحوالة»، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله، قرر ما يلي:

أولا: بشأن تجارة الذهب:

أ- يجوز شراء الذهب والفضة بالشيكات المصدقة، على أن يتم التقابض بالمجلس.

ب- تأكيد ما ذهب إليه عامة الفقهاء من عدم جواز مبادلة الذهب المصوغ بذهب مصوغ أكثر مقدارا منه، لأنه لاعبرة في مبادلة الذهب بالذهب بالجودة أو الصياغة، لذا يرى المجمع عدم الحاجة للنظر في هذه المسألة، مراعاة لكون هذه المسألة لم يبق لها مجال في التطبيق العملي، لعدم التعامل بالعملات الذهبية، بعد حلول العملات الورقية محلها، وهي إذا قوبلت بالذهب تعتبر جنسا آخر.

ج- تجوز المبادلة بين مقدار من الذهب، ومقدار آخر أقل منه مضموم إليه جنس آخر، وذلك على اعتبار أن الزيادة في أحد العوضين مقابلة بالجنس الآخر في العوض الثاني.

د- بما أن المسائل التالية تحتاج إلى مزيد من التصورات والبحوث الفنية والشرعية عنها، فقد أرجئ اتخاذ قرارات فيها، بعد إثبات البيانات التي يقع بها التمييز بينها، وهي:

- شراء أسهم شركة تعمل في استخراج الذهب أو الفضة.
- تملك وتمليك الذهب من خلال تسليم وتسلم شهادات، تمثل مقادير معينة منه، موجودة في خزائن مصدر الشهادات، بحيث يتمكن بها من الحصول على الذهب، أو التصرف فيه متى شاء.

ثانيا: بشأن الحلول الشرعية لاجتماع الصرف والحوالة:

أ- الحوالات التي تقدم مبالغها بعملة ما، ويرغب طالبها تحويلها بنفس العملة جائزة شرعا، سواء أكان بدون مقابل أم بمقابل، في حدود الأجر الفعلي، فإذا كانت بدون مقابل فهي من قبيل الحوالة المطلقة، عند من لم يشترط مديونية المحال إليه، وهم الحنفية، وهي عند غيرهم سفتجة، وهي إعطاء شخص مالا لآخر، لتوفيته للمعطي أو لوكيله في بلد آخر. وإذا كانت بمقابل، فهي وكالة بأجر، وإذا كان القائمون على تنفيذ الحوالات يعملون لعموم الناس، فإنهم ضامنون للمبالغ، جريا على تضمين الأجير المشترك.

ب- إذا كان المطلوب في الحوالة دفعها بعملة مغايرة للمبالغ المقدمة من طالبها، فإن العملية تتكون من صرف وحوالة، بالمعنى المشار إليه في الفقرة (أ)، وتجري عملية الصرف قبل التحويل، وذلك بتسليم العميل المبلغ للبنك، وتقييد البنك له في دفاتره بعد الاتفاق على سعر الصرف المثبت في المستند المسلم للعميل، ثم تجري الحوالة بالمعنى المشار إليه.

انتهى القرار.

● **التعليق:**

الأصل أن التعامل بالشيكات لا بأس به؛ لأنه من أنواع التوثيق المشروع للدين، جاء في قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة، رقم (٥١ (٢/٦)) ما يلي: «الأوراق التجارية (الشيكات...) من أنواع التوثيق المشروع للدين بالكتابة».

وجاء في قرار المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في دورته الحادية عشرة: «يقوم استلام الشيك مقام القبض، عند توفر شروطه في مسألة صرف النقود. بالتحويل في المصارف».

ويستثنى من ذلك ما إذا كانت السلعة مما يشترط فيه التقابض، كالذهب والفضة؛ فلا يجوز التعامل فيها بالأجل أو الشيكات غير المصدقة من البنك، لعدم توافر شرط التقابض.

أما أخذ البنك عمولة مقابل التحويل، فلا حرج فيه من حيث الأصل، باعتبار العمولة أجرة على التحويل، سواء كانت هذه العمولة مبلغا مقطوعا، أم نسبة من المبلغ المحول، وليست هذه العمولة من الربا، وإذا كان التحويل من عملة إلى عملة أخرى، فيشترط حينئذ التقابض بين البنك والعميل، سواء كان القبض حقيقيا، أو حكميا.

وهو ما يفهم من القرار السابق، وما نص عليه قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي أيضا رقم: ٥٣ (٦/٤)، والمنعقد في دورة مؤتمره السادس بجدة في المملكة العربية السعودية (١٧-٢٣/ شعبان/١٤١٠هـ)، الموافق (١٤-٢٠/آذار (مارس)/١٩٩٠م)، بشأن القبض: صوره، وبخاصة المستجدة منها وأحكامها.

إعداد: تركي محمد النصر

مخالفة الهوى

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفتهم الهوى».

(روضة المحبين، ص٦٤٨)

من درر الأقدمين

- قال يحيى بن كثير: «لا يستطاع العلم براحة الجسد».
- قال الثوري: «ينبغي للرجل أن لا يحك رأسه إلا بأثر».
- قال ابن عبدالهادي: «كان ابن تيمية يقول: أنا رجل ملة لا رجل دولة».
- قال مالك: «ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك».
- قال أبوالحصين الأسدي: «إن أحدكم ليفتي في المسألة، لو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر».
- قال الثوري: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس: القراء والأمراء».
- قال جابر بن زيد: «لأن أتصدق بدرهم على يتيم، أو مسكين؛ أحب إلي من حجة بعد حجة الإسلام».
- قال مالك بن دينار: «كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخائنين، وكفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع في الصالحين».

(المقتطفات النافعة، ص٢٦٠-٢٧٠)

كتم الحسنات

قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: «وعن أبي حازم قال: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك».

(سير أعلام النبلاء، ١٠٠/٦)

خطورة العجب

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «إذا فتح الله عليك في باب قيام الليل؛ فلا تنظر للنائمين نظرة ازدراء، وإذا فتح الله عليك في باب الصيام؛ فلا تنظر للمفطرين نظرة ازدراء، وإذا فتح الله عليك في باب الجهاد؛ فلا تنظر للقاعدين نظرة ازدراء.. فرب نائم ومفطر وقاعد؛ أقرب إلى الله منك.. وإنك أن تبيت نائما وتصبح نادما خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا، فإن المعجب لا يصعد له عمل».

(مدارج السالكين، ١٧٧/١)

أويس القرني

قال أويس القرني رحمه الله تعالى: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لم يدع للمؤمن صديقا، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك عونا... حتى والله لقد رموني بالعظائم. وايم الله، لا أدع أن أقوم». وكان أويس إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب، ثم يقول: «اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به».

(صفة الصفوة، ٥٤/٣)

الناس على دين ملوكهم

قال العلامة الطبري رحمه الله تعالى: «كان الوليد صاحب بناء، واتخذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فإنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع، فولي سليمان، فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبدالعزيز، كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟».

(تاريخ الطبري، ٩٨/٨)

حقيقة الخشية والذكر

قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: «إن الخشية: أن تخشى الله، حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته؛ فتلك الخشية. والذكر: طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن أكثر التسبيح وتلاوة القرآن».

(صفة الصفوة، ٥٤/٣)

نصائح بليغة

قال العلامة شمس الدين محمد بن محمد الراعي الأندلسي: «روي عن يحيى بن يحيى الليثي قال: آخر ما اجتمعت بمالك قال: أذكر لك شيئا تبلغ به حكمة الحكماء؛ إذا حضرت مجلسا فاستعمل الصمت، فإن أصابوا استفدت، وإن أخطأوا سلمت. وشيئا تبلغ به طب الأطباء؛ لا تأكل حتى تجوع، وارفع يدك وأنت تشتهي».

(انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك، ص٣١٤)

الديباج الخراساني

كان جرير إذا حدث عن الأعمش قال: هذا الديباج الخراساني.

قال عيسى بن يونس: ما رأيت الأغنياء والسلاطين عند أحد أصغر منهم عند الأعمش مع فقره وحاجته.

(تهذيب الكمال، ٨٦/١٢)

فرجة في القلب

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «من أحب أن تفتح له فرجة في قلبه - يعني انشراحا في صدره - فليكن عمله في السر أفضل منه في العلانية».

(ترتيب المدارك، ٦٠/٢)

ابن آجروم

نحوي مقرئ شهير، عالم صالح، ولد سنة ٦٧٢هـ، يحكى عنه أنه صنف الآجرومية بالحرم الشريف، تجاه بيت الله الحرام، له شرح حرز الأماني في القراءات للشاطبي، توفي بفاس سنة ٧٢٣هـ.

(الأعلام للزركلي، ٢٣٦/٧)

أطوع الناس لله

قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: «أطوع الناس لله؛ أشدهم بغضا لمعصيته».

(جمهرة خطب العرب، ٤٤٦/١)

طريقة القوم

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «قال سهل بن عبدالله التستري: مذهبنا مبني على ثلاثة أصول: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال».

(الاعتصام، ٣٥٠/٢)

إنما بنيت للذكر

خطب أبوبكر رضي الله عنه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنه ستفتح لكم الشام، فتأتون أرضا رفيعة حيث تمتعون فيها من الخبز والزيت، وستبنى لكم بها مساجد، فإياكم أن يعلم الله عزوجل أنكم إنما تأتونها تلهيا، إنما بنيت للذكر».

(مواعظ الصحابة للمقبل، ص٢٢)

أربعة كتب

قال الإمام الذهبي رحمه الله: «قال الشيخ عزالدين بن عبدالسلام - وكان أحد المجتهدين: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل «المحلى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين.

قال الذهبي: لقد صدق الشيخ عزالدين، وثالثهما: «السنن الكبير» للبيهقي، ورابعها: «التمهيد» لابن عبدالبر. فمن حصل هذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها؛ فهو العالم حقا».

(سير أعلام النبلاء، ١٩٣/٨)

علم الاجتماع الديني



يأتي كتاب «علم الاجتماع الديني» المترجم من الإيطالية، في وقت تشهد فيه الثقافة العربية حاجة ماسة إلى هذه النوعية من المؤلفات العلمية. حيث يهدف بالأساس إلى تقديم ملخص إجمالي للمحاور الكبرى لعلم الاجتماع الديني، كما حضرت في طيات الأعمال الكلاسيكية الكبرى للفكر الاجتماعي.

إذ يتناول بالدراسة والمعالجة مفاهيم أساسية، مثل المقدس، والدين، والتدين. سواء برسم الخطوط الكبرى ذات الصلة، بالتعريفات أو الإجراءات، لتحويل المفاهيم المجردة إلى مؤشرات تجريبية، دون إفراط في النقاشات النظرية والمنهجية، التي قد تجعل النص مغرقا في التخصص، ويجافي الأهداف التعليمية التي يرنو بلوغها.

إذ رغم انتشار أقسام علم الاجتماع، في جل جامعات البلدان العربية، فإنها مازالت تشكو بعض النقائص اللافتة. تتلخص أساسا في عدم قدرة علم الاجتماع المستورد على الإحاطة بإشكاليات الاجتماع العربي، والدين إحداها، إذ ثمة اغتراب للمعرفة عن واقعها. وهو عجز ناتج عن مناهج تدريس تعول على استعراض النظريات والمناهج السوسيولوجية الغربية، تعريفيا، وأحيانا بافتتان، يفتقد لتعريبها الوظيفي، ونقصد به جعل تلك الأدوات المعرفية في خدمة الواقع الديني العربي، لفهم مضامينه وتحولاته وتحدياته.

• عزالدين عناية

سجع المنثور هدية الثعالبي

تاريخنا الإسلامي زاخر بسير العظماء، حافل بآثارهم، وحينما يتحدث عنهم التاريخ يذكرهم في صفحاته بريشة التعظيم والإكبار، لأنهم حليته وزينته، ومن أبرزهم أبومنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ولد صاحبنا في مدينة نيسابور، سنة ٣٥٠ هجرية، في أسرة فقيرة، تشتغل بخياطة جلود الثعالب، وعمل الفراء منها، ويبدو أنه انخرط في مهنة أسرته في بداية حياته، ثم دفعت به أسرته إلى أحد كتاتيب نيسابور ليتأدب فيه، ويتلقى مبادئ العلوم العربية والمعارف العامة، ولما أنهى دراسته، فارق مهنة أسرته، واشتغل بالتأديب وتعليم الصبيان، وتشير كتب السير والتراجم إلى صلاته بالعلماء الذين توافدوا على نيسابور في عصره، وخير شاهد على ذلك تتلمذه على يد أبي بكر محمد العباس الخوارزمي الذي أشاد الثعالبي بعلمه وأدبه، والذي لقبه في كتبه بالأستاذ، كما لازم غيره من العلماء، وأخذ عنهم العلم والمعرفة، كما تشير كتب السير والتراجم إلى رحلاته خارج نيسابور، ومن بينها رحلته إلى مدينة بخارى، عاصمة الدولة السامانية، وتذكر أن صاحبنا استفاد من هذه الرحلة زادا علميا وفيرا، نتيجة لقاءاته بعلماء وأدباء بخارى، وإقامة العلاقات الوثيقة معهم، وخير شاهد على ذلك، إيراد الكثير من معارفهم وعلومهم في كتبه ومؤلفاته التي وصلتنا، كما تشير كتب التراجم والسير أيضا إلى استفادته من بديع الزمان الهمداني، الذي تعرف عليه بعد عودته من بخارى، كما التقى صاحبنا في نيسابور أبا سهل أحمد بن الحسن الحمدوني.

وقد برز الثعالبي في مجال التأليف، وفي ذلك يقول الدكتور أسامة محمد البحيري محقق الكتاب: «عاش الثعالبي ما يقرب من ثمانين سنة، قضى معظمها في الدرس والتحصيل والترحال والتأليف، ورزق بسطة في تصنيف الكتب، حتى تجاوز عددها مئة كتاب في العلوم اللغوية والأدبية والتاريخية والمعارف العامة، وقد تميزت كتبه بصغر الحجم، ووضوح الأسلوب، وسهولة التراكيب، والبعد عن الغموض والتعقيد، والتخصص»، ولهذه الأسباب ذاعت وانتشرت في جميع الأقطار بين العامة والخاصة على السواء، حتى إنه يقرن دائما بالجاحظ في الشهرة والذيوع وكثرة التأليف.

• محمد فؤاد علي

القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني :

info@alwaei.com

المالديف وتعليم اللغة العربية

شعب جمهورية المالديف كله من المسلمين.. ومع دخول الإسلام إلى المالديف تأثرت اللغة المالديفية باللغة العربية.. فأصبحت تشبه العربية إلى حد كبير.

وبرزت أهمية تعريب الشعب المسلم في المالديف بعد الاستقلال عام ١٩٦٥ ميلادية.. وقبل إدخال التعليم الحديث.. كان التعليم يتميز بالطابع التقليدي في التلقين المباشر أي التحفيظ.. وقد تركز ذلك في التعليم الديني.

وقد تم إنشاء معهد الدراسات الإسلامية، ليكون نواة للدراسات الإسلامية والعربية في المالديف.. وكان ذلك في غرة المحرم عام ١٤٠١هجرية.. ومن أهدافه تعليم اللغة العربية، ونشرها بين أفراد الشعب المالديفي المسلم.. وإعداد الطلبة الذين سيوفدون للدراسة في الدول العربية.. وتخريج مدرسي التربية الإسلامية واللغة العربية، وتعليم القرآن الكريم، تلاوة وحفظا.

إن المالديف.. ماضية في نشر اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - وتعريب مناهجها الدراسية.. ويساعد على تنفيذ هذه الخطة التعريبية عدة مدرسين من الأقطار العربية.

• من كتابات الأستاذ محمود حسن



وداع صديق

نطق اليراع وفاض بحر شجونه
وتدفقت من حزنه الأنهار
الشيخ راح، وختمت أوراقه
وتكدرت بذهابه الأخبار
فخر العدالة والنزاهة والتقى
وتواضع عرفت به الأخيار
ماذا يقول المنصفون لمدحه
هيهات تحصي فضله الأشعار
يا «ناصر» الأخلاق فارق نبلكم
من يا أخي من بعدكم نختار؟!
الباب أغلق، والمواعد أبعدت
واليسر أضحى بعدكم إعسارا
«دار الحبيب» بكى لفرط حنينه
فبكى لفرط بكائه الزوار
ما للبشاشة غاب نجم ربيعها
لم يبق من أنهارها آثار؟!
ما للسماحة جف نبع عطائها
لم يبق من أربابها ديار؟!
بعض الأنام يعز فينا مثلهم
والبعض في أرقامنا أصفار

• عبدالعزيز بن صالح العسكر

الشهيد أسد بن الفرات

هو أحد رجالنا وأبطال أمتنا، لم يعش في عهد النبوة، ولا في عصر الخلفاء الراشدين، ولا في عصر الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، بل سطع نجمه في مجتمعه بعد عصر النبوة، بنحو مئة وخمسين عاما، وكان موضع تألقه بعيدا عن منزل الوحي ومهبط الرسالة، كان هناك في شمال إفريقية، ومع ذلك بقي نور الإيمان مشرقا في صدره وقلبه، مرشدا له على طريق دربه، ولم يصده تأخر الزمان ولا بعد المكان عن الإسهام الرائع في بناء مجتمعه، على أسس من الدين واليقين، والعلم والفقه، والإعداد والاستعداد، والربط بين كتاب الدرس، وجهاد النفس وسلاح الميدان.

إنه العالم العامل والإمام الفقيه، والقاضي القائد: أبوعبدالله أسد بن الفرات بن سنان، كان مولده بحران، سنة ثنتين وأربعين ومئة، وانتقل وهو طفل صغير مع أبيه إلى مدينة «القيروان» في شمال أفريقية، ثم انتقل إلى مدينة «تونس»، وحفظ القرآن الكريم.

بعدها بسنوات ذاع صيت أسد في الفقه، ونشر كتاب «الأسدية» بين الناس، ويعد من أهم المراجع الأساسية في فقه المالكية، واختير لتولي القضاء في إفريقية سنة ثلاث ومائتين، فجعل القرآن والسنة عهدته في الأحكام بين الناس.

• أحمد الشرباصي

بريد القراء

شكر وعرفان

صاحب الفضيلة مدير التحرير الموقر
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
نرجو لسعادتكم موفور الصحة وهناء البال، وبعد:
فنتلقى ببالغ التقدير مجلتكم الغراء «الوعي الإسلامي» باستمرار.
ونقدر جهودكم التي تبذلونها في نشر العلم والثقافة الإسلامية، ونشكركم على إرسالها للمكتبة المركزية بجامعة الفلاح في الهند التي يستفيد منها نحو خمسة آلاف طالب وطالبة ومئات الأساتذة والباحثين. فالرجاء من سعادتكم التكرم بالاستمرارية في إرسالها ونحن نشكر جهودكم المتواصلة ومساعيكم الجبارة، وندعو الله لكم بالتقدم والتوفيق لخدمة الإسلام والمسلمين، ونشر الثقافة الإسلامية في أنحاء العالم. وتقبلوا منا أزكى التحيات والله يحفظكم ويرعاكم.
والسلام عليكم ورحمة الله

عرفان أحمد الفلاحي

جسر ثقافي

تحية ملؤها الحب والتقدير والاحترام، أرسلها لكم عبر أثير المودة، راجيا من المولى «عز وجل» أن تكونوا بوافر الصحة والخير والسعادة.
مع اعتزازي بكم دائما..الكادر المتألق في «الوعي الإسلامي» الغراء، الجسر الثقافي والفكري والأدبي الرحب الذي يجمع المفكرين والأدباء والمثقفين شرقا وغربا، والمنبر الذي أتشرف بالانتماء إليه.
تمنياتي لكم بدوام النجاح، والمزيد من الإبداع والتألق والازدهار..
دمتم بحفظ الله ورعايته.

عبدالمجيد إبراهيم قاسم

الزهرة الذبيحة

هي طفلة سورية ما بلغت العاشرة، شردتها عصبة الشر وأبادت أخواتها، وأجبرتها وبقية أهلها على الفرار، فنزحت عن مسجدها ومنزلها ومدرستها، وهامت على وجهها تطلب الرحمة لنفسها ولذويها، وتطلب القصاص العادل من ذئب البرية.

أبصرتها في زيها والدمع يشرح حالها
وقد استبد بها العناء مخدرا أوصالها
وتحطمت منها القوى سهم المجاعة طالها
هي زهرة لعب الزمان بحسنها ودلالها
ذبلت برغم ربيعها حتى غدت يرثى لها
لاذت بحضن شجيرة والدمع يغرق شالها
حزنت عليها نجمة لما رأت ما هالها
راحت تسبح ربنا ثم انثنت تدعو لها
ساحت دموع صغيرتي لما بكيت لحالها
وسألتها عما بها فتحدثت أسمالها

• رفعت بروبي



النجاح الكامل

المحترم رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
تحياتنا الطيبة المباركة، وبعد: أتقدم إليكم بالشكر الجزيل على تزويدكم مجلتكم الغراء لمجلس الدراسات والبحوث الإسلامية في كيرالا- الهند، كهدية منكم إلى الأقلية المسلمة في الهند. ونحن مسؤولي المجلس وأعضاءها والمنتسبين إليه من العلماء والمثقفين وأساتذة جامعة روضة العلوم وطلابها الباحثين كلهم يستفيدون من المجلة، ويستخدمونها للمطالعة والدراسة العميقة، وإعداد المقالات والبحوث، وتصنيف الكتب، لأن كل مقالة تنشر فيها ذات قيمة علمية، توازي كتابا جامعا، صنف في الموضوع. وتمتاز المجلة عن غيرها من الصحف بعرضها أفكار العلماء المجتهدين، وتناولها القضايا الحساسة الدينية التي تهم المسلمين في العصر الحاضر. ويسرنا أن نشعركم بأننا نبذل أقصى جهودنا لتكون فائدة المجلة عامة، غير قاصرة على من يتقن اللغة العربية. فنحن نترجم بعض مقالاتها القيمة المختارة إلى لغتنا المحلية، وننشرها في مجلاتنا الإسلامية المنشورة في مالايالم - لغة كيرالا.
هذا، ونقدر جهودكم العظيمة في نشر هذه المجلة التي تتسم بمستوى عال في المضمون. فالقارئ يتذوق من مائدتها بأنواع من مواد العلم والأدب والثقافة والتاريخ. وندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق لها السير إلى الأمام بخطى راسخة والنجاح الكامل في رسالتها النبيلة.
تقبلوا منا فائق الشكر والامتنان.

محمد كوتاشيري
الأمين العام لمجلس الدراسات والبحوث الإسلامية
كلية الفاروق - كيرالا- الهند

ردع المجرم في الشريعة الإسلامية

حفظت شريعة الإسلام للإنسان تلك الضروريات الخمس، أو ما يعرف بالكليات الخمس، وهي الدين والعقل والعرض والنفس والمال، والمتدبر لأحكام تلك الشريعة يتبين له ذلك الأمر بجلاء ووضوح، فقد شرع الإسلام أركان الإسلام الخمسة كشعائر تعبدية لديننا الإسلامي الحنيف، كذلك شرع أركان الإيمان الستة، وغير ذلك من الأحكام التي تحافظ على دين المسلم واعتقاده، وفي مجال حفظ النفس شرع الزواج من أجل الحفاظ على نسل الإنسان وتكاثره، كذلك من اعتدى على هذه النفس بأي صورة، وجب تطبيق الحد عليه قصاصا، وحرم الإسلام تعاطي الخمور وكل مسكر، حفاظا على هذا العقل، ولأجل الحفاظ على المال، حرم الإسلام الغش والاحتكار والسرقة، وكل معاملة فيها غرر وتدليس، أما العرض فصانه الإسلام من مجرد الكلام عليه بغير دليل، فشرع حد القذف على من نال من الأعراض، وجعل بعض الظن إثما.

ونفس الإنسان التي بين جنبيه تحدثه بالخير مرة، وبالشر مرات ومرات، والعاقل من ألجم تلك النفس، فقادها وألزمها الصراط المستقيم، لأجل ذلك لابد وأن يكون لتلك النفس رادع، هذا الرادع إما أن يكون ذاتيا، أي من داخلها، وهذا لمن وفقه الله لكبح جماح تلك النفس، وإما أن يكون رادعا من العقوبة، بحيث ترى تلك النفس ما ينزل بغيرها من العقوبة عند ارتكاب جريمة، فتفكر ألف مرة إذا أقدمت على ارتكاب منكر، أو إلحاق الأذى بالغير.

ولا يظن إنسان أن تعاملات الإسلام مبنية على العفو وحده، أو التسامح وحده، بل إن العفو يسير موازيا للقصاص، والتسامح يسير موازيا للعقوبة، والله تعالى قرر ذلك عن نفسه سبحانه وتعالى فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ (الرعد: ٦)، وقد قيل في الحكمة: «من أمن العقوبة أساء الأدب»، فالردع مطلوب لتلك النفس، حتى تكف عن الجرائم والآثام.

• **كمال خليل**

حرية التعبير

قال أحد المفكرين: «إن الأمة التي لا يملك أفرادها حرية التعبير عار عليها حرية الأمم الأخرى». كل ما في هذه الطبيعة ثمين وجميل وعظيم، ولكن أثمنه وأشرفه وأعظمه هو الإنسان.

وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا». وتنادت جمعيات ومؤسسات في مختلف أنحاء العالم، تؤكد على حقوق الإنسان، ورعايتها، والدفاع عنها إذا تعرضت لظلم أو جور أو خدش حياء. وليست الحرية مشاعا، أو كلمة مطلقة من دون ضوابط أخلاقية ووجدانية واجتماعية، فالحرية لا تعني على الإطلاق إهانة معتقدات الآخرين، وجرح المشاعر، وإيذاء النفوس، والتهكم والسخرية والانتقاص. فالمشكلة ليست في الدين، وإنما في نفوس البشر، فالإرهاب لا هوية له، وما من إنسان عاقل ناضج واع يستسيغ الظلم والجور والتعسف.

إن ما حدث في أوروبا وصمة عار في جبين السياسات الأوروبية المتعاقبة، فهي تقول ما لا تفعل، وتضرب بحقوق الإنسان عرض الحائط، وتبرر لمواطنيها ما يقدمون عليه من إساءات وانتهاكات، وإن الذين يسيئون إلى الرسول ﷺ لا يملكون قيما روحية، ولا يعترفون بحقوق الآخرين ومعتقداتهم.

أخط هذه السطور وأنا أشعر باعتزاز وفخر كبيرين بانتمائي إلى الأمة العربية، وإحاطتي المتواضعة بتراثها، حيث رضعت حليب العروبة والإسلام، وكتبت عشرات القصائد في مدح الرسول ﷺ وبالتراث التليد، فالأديان جميعها تنبذ العنف وتدعو إلى المحبة والتسامح والغفران، ويتجسد مثل هذا الحب الكبير بقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

كما تجلت الرحمة بكل ما تعنيه من صفاء ونقاء وود في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء:١٠٧).

إن هذه المعاني السالفة الذكر تمثل معاني الحرية الحقّة، وليست الحرية التي لا ترتبط بالضوابط الأخلاقية والروحية، ولكل أمة عاداتها وتقاليدها وأعرافها، ويجب أن يتم الاعتراف المتبادل بهذه القيم والافتخار بها لأنها تمثل قيم الشعوب في كل أمم الأرض.

وهكذا، إن حرية التعبير لا تعني المساس بشرائع الآخرين، وإنما الإجلال والإكبار والاحترام لمعنى هذه الكلمة السامية، وما توحي إليه من صدق العاطفة واحترام الطرف الآخر من أجل تقدم البشرية نحو رؤية إيجابية تحقق الخير لكل بقاع الأرض، ضمن حرية إيجابية شامخة المآثر والشمائل وليس إقصاء الآخر.

جاك صبري شماس
كاتب سوري

الوعي الإسلامي

سلسلة ذخائر «الوعي الإسلامي»



العدد (٥٩٩) رجب ١٤٣٦ هـ - ابريل - مايو ٢٠١٥ م

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة
Al-Waei Al-Islami

صيانة التراث.. ضرورة إنسانية (ملف العدد)

- منهج الإسلام في إخماد الفتن
- إدارة الأزمات التعليمية.. الفريضة الغائبة
- ماذا تقدم وسائل التكنولوجيا الترفيهية لأطفالنا؟
- مؤتمر حاجي خليفة الدولي.. رؤية تاريخية وأسئلة عصرية

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٥٩٩ - السنة ٥٢ - رجب ١٤٣٦ هـ / ابريل - مايو ٢٠١٥ م



هدية العدد: «ذخائر الوعي الإسلامي (٦)»

مجلة الوعي الإسلامي
www.alwaei.gov.kw
info@alwaei.com

أسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

أكثر من ١٠٠ إصدار

يحلق في آفاق الفكر والثقافة



صيانة التراث

إن الإبداع الفكري والعلمي للتراث الإسلامي، هو حصيلة قرون طويلة في عدة مجالات، تكمن في التراث المسطور الذي لا غنى للعالم عنه، وما ترك لنا الأوائل في خزاناتها من تراث خالد، وعلم نافع، أفادت منه الحضارة الغربية.

ولايزال هذا التراث الهائل متناثرا في مدونات نادرة، سطرت باليد، اشتملت على معارف القدماء.. هذا التراث الثمين الذي ينبغي جمعه وصيانته من الهلاك.

ومن المعلوم أن التراث الإسلامي ابتلي خلال القرون بمحن عديدة في مشارق الأرض ومغاربها، وضاع منه الكثير.

فالإنسان منذ القدم يعتمد على غيره، ويحاول الإتيان بشيء جديد. فالاعتماد والابتكار هما من عوامل التقدم والارتقاء. وقد أخذ العرب والمسلمون عمن تقدمهم، واقتبس الغرب من العرب، وكان مما امتازت به القرون الأولى من الإسلام أن علوم الأوائل، التي بدئ بترجمتها، قد زادت العناية بها، وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحا جديدا، فترجم إليها من عدة لغات، فاغتنت اللغة، ورأت من الأساليب والأفكار ما لا عهد لها به، وهذا أول تأثير من آداب الأمم الأخرى أصاب اللغة العربية، فأصبحت لغة علم وصناعة، بعد أن كانت لغة شعر وحكمة فقط.

وما أضافه العرب من الثقافة الإنسانية إلى تراث من سبقهم من المفكرين، وما خلفته الحضارة الإسلامية لا حصر له.

ونظرة إلى الأمم الناهضة القوية ذات التراث الضخم، نجد أنها تصرف عنايتها إلى القديم وإحيائه، وأن المقصد الأسمى والغاية النبيلة هما جعل تلك الأمة تؤمن بأن لها كيانا معتبرا في عالم الاكتشاف والاختراع، وأنه بإمكانها المساهمة في خدمة الإنسانية.

إن الأمة العربية والإسلامية من الأمم التي خلفت تراثا في ميادين المعرفة، عاد على الحضارة بالتقدم والارتقاء، وقد وضعوا له الأصول والقواعد؛ درسا وتدقيقا لا تزال في أسسها وجوهرها. وإذا ضاعت الأصول، ضاع التاريخ معها، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلفها الأسلاف، فإذا سطت محن الدهر أو عوادي الزمن على بعض هذه الآثار والتراث وأزالت معالمها، فقدها التاريخ، وكانت كأنها لم توجد، وبفقدها يجهل عصرها ورجالها.

فلزاما على أهل الحل والعقد أن يتفرغوا للبحث والتفتيش عن التراث وجمعه وصيانته حتى يكون متاحا للدارسين والباحثين في شتى فروع المعرفة البشرية.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٩ | رجب ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
ابريل – مايو ٢٠١٥م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هداية الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦– ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: (٠٠٩٦٧) ٣٣١٧٩٧
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الـدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر– شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

- الكويت : ٥٠٠ فلس • السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة • الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه • اليمن : ١٠٠ ريال • لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري • تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

التراث.. عز الأمة

التراث هو الوجه المشرق للأمة، ومن دون هذا الإشراق؛ يسقط قدر الأمة، وينسى تاريخها، وتهون على أبنائها قبل أن يحتقرها أعداؤها. والداهية الكبيرة التي تصيب الأمة في حال تضييعها لتراثها؛ أنها قد ترتبط شعوريا بثقافة غيرها، بما تحمله الثقافة الدخيلة من معاول هدم لبنية أخلاقها وتقاليدها.

وحتى تبني الأمة نهضتها التراثية بناء جادا خاليا من أسباب السقوط والتعثر، ينبغي أن تكون عملية إحياء التراث ونقله إلى الأجيال المعاصرة مدروسة بعناية واقتدار، وعلى أيدي المتخصصين الأكفاء، ذلك أن احتمال الغلط أو التحريف المتعمد للقيم التراثية، يسيء إساءة بالغة إلى النص التراثي، ويضيف تشويها جديدا إلى حلقة من حلقات العلم في تاريخنا المجيد، كما أنه يعتبر أجل خدمة يمكن تقديمها إلى الغزو الثقافي الذي يزحف نحو أمتنا وديننا.

من اللازم الواجب أن يكون القائم على أمر التراث - دينيا كان التراث أو علميا أو أدبيا - ثقة، مأمون الجانب، حريصا على الارتكاز في عمله العظيم على جذوره العقدية الصحيحة، ومن دون ذلك لن يكون الدوران حول التراث إلا تشويها منظما، وتخريبا مقصودا، ولن يثمر أبدا في دفع عجلة الأمة نحو عزها ومجدها ورفع راية تقدمها.

التحرير

الاشتراكات

● داخل الكويت: للأفراد ٧،٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا ● الدول العربية: للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).

● دول العالم: للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها). ● للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

«الوعي الإسلامي» شهدت فعالياته المختصة بالببليوغرافيا وتصنيف العلوم:

مؤتمر حاجي خليفة الدولي.. رؤية تاريخية وأسئلة عصرية



تركي محمد النصر
تصوير: هدايت الله نثار

سلط مؤتمر حاجي خليفة الدولي - الببليوغرافيا وتصنيف العلوم في الحضارة الإسلامية (الرؤية التاريخية وأسئلة العصر)، الذي انعقد في العاصمة التركية إسطنبول على مدى ثلاثة أيام (٦ - ٨ مارس ٢٠١٥)، الضوء على علم الببليوغرافيا الإسلامية، وفلسفة تصنيف العلوم وتطبيقاتها، والجدل القائم بينهما، علما بأن هذين النشاطين العقليين الرفيعي المستوى ميزا الحضارة الإسلامية باكرا، وحققت بواسطتهما أغراضا علمية غالية دفعت البحث العلمي إلى الأمام؛ فكان التوثيق الذي يحفظ، والتراكم المعرفي الذي يبني، والحفز الذي يضيف ويفتح آفاقا جديدة أمام العقل الإنساني والجماعة البشرية.

ويسمى المؤتمر باسم المؤرخ والعالم الموسوعي حاجي خليفة، النموذج اللافت للعقلية الإسلامية في تعاملها مع المعرفة، وبكتابه الشامل «كشف الظنون» الذي يمثل ذروة نضجها في التأليف الببليوغرافي. وقد شاركت مجلة «الوعي الإسلامي» في المؤتمر بدعوة كريمة من معهد المخطوطات العربية، ومركز البحوث الإسلامية (isam)، ومركز إسطنبول للبحث والتعليم (isar).

وقد اشتملت الجلسة الافتتاحية على ثلاث كلمات للمؤسسات الثلاث، وقد أكد د. فيصل الحفيان مدير معهد المخطوطات العربية، في كلمة ألقاها، اهتمام «الألكسو» وجهازها المتخصص (معهد المخطوطات العربية) بالقضايا الحضارية التي لابد أن يتقاطع فيها الماضي مع الحاضر.

أهداف المؤتمر

ناقش المؤتمر ثلاث قضايا، اثنتان منها تاريخيتان، الأولى: الببليوغرافيا الإسلامية في تطورها وعلاقتها العضوية بمبحثي: تصنيف العلم، وتاريخ العلم ثلاثية في غاية الأهمية، سواء للتأصيل، أو للتحديث. والثانية: حاجي خليفة في تمثيله للثلاثية المشار إليها، وأيضا في ما يمكن أن نقوم به تجاه تراثه، وبخاصة الببليوغرافي منه.

أما الثالثة: ففيها نلتحم بالمشهد المعرفي الذي نعيش تعقيداته وثوراته، مستعينين بالرصيد التاريخي للببليوغرافيا الإسلامية وتاريخ العلم الإسلامي، لننظر في جدوى تطبيقات هذا الرصيد وحدوده وأبعاده المختلفة.

وقال مدير الخزانة الملكية أحمد شوقي، إن نشأة علم الببليوغرافيا في أوروبا ترجع إلى بدايات العصر الحديث، وإذا كان العلم حديث العهد، فإن المصطلح قديم. فقد كانت الببليوغرافيا في العصر القديم تعني كتابة الكتب، وأصبحت، بعد التطور الذي عرفته العلوم في الغرب في القرن التاسع عشر، تعني الكتابة عن الكتب. ومنذ القرن السادس عشر للميلاد بدأت تظهر مؤلفات في الموضوع باستعمال اللفظ أو من دونه، ككتاب المكتبة الدولية Bibliothéca Universalis الذي وضعه العالم والطبيب السويسري C. Gessner، المتوفى عام ١٥٦٥م، الذي نشأ على يديه، والذي أطلق عليه الببليوغرافيا الدولية العامة، وتعني

ثمرة الشراكة العلمية

أتى مؤتمر حاجي خليفة الدولي - الببليوغرافيا وتصنيف العلوم في الحضارة الإسلامية، ثمرة لشراكة علمية بين معهد المخطوطات العربية و«isar» و«isam» اللذين يعدان من أهم مراكز البحوث التركية. وكان المعهد قد وقع اتفاق تعاون معهما على هامش إحدى الدورات التدريبية التي أقامها المعهد بالتعاون مع «isam».



رئيس التحرير مع مجموعة من المشاركين بالمؤتمر

باختصار: سرد الكتب الخاصة بكل فن من الفنون في عدد من اللغات وفي كل أنواع المعرفة.

في المقابل، أوضح أيمن فؤاد سيد أن التدوين في الحضارة الإسلامية بدأ مع نهاية القرن الهجري الأول في شكل صحف مشتملة على بعض أحاديث رسول الله ﷺ. لكن التدوين الحقيقي للحديث وتصنيفه، وكذلك المدونات الأولى في المغازي والسير، لم يبدأ إلا في العقود الأولى للقرن الثاني الهجري عند نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي. وتشير المصادر إلى عدد من علماء الحديث وصفوا بأنهم «أول من صنف الكتب» أو «أول من صنف الحديث». ومن أوائل هؤلاء المصنفين: ابن جريج في مكة، ومعمر بن راشد في اليمن، وهشام بن حسان وسعيد بن أبي عروبة في البصرة، وسفيان بن عيينة في الكوفة.

بدوره، قال د. عبدالحكيم الأنيس إن الحاج خليفة علم من أعلام الثقافة الإسلامية، يتردد اسمه في مراكز البحوث، وأروقة الجامعات، وقاعات الدرس، ومكاتب الباحثين.. ترك ثروة علمية مقدرة في مجالات علمية متعددة، دلت على نبوغ كبير، على الرغم من قصر عمره.

حاجي خليفة.. العلامة المؤرخ

يعد العلامة المؤرخ مصطفى بن عبدالله القسطنطيني، المعروف بـ «حاجي خليفة»، المولود سنة ١٠١٧هـ، عالما موسوعيا، ونموذجا لافتا للعقلية الإسلامية في تعاملها مع المعرفة، وكتابه «كشف الظنون» يمثل ذروة نضجها في التأليف الببليوغرافي.

أرخ للبلدان وجغرافيتها، وللدول ورجالاتها، وللمؤلفين ومؤلفاتهم، ولايزال إنتاجه العلمي في التاريخ والتراجم مصدرا في غاية الأهمية، لا يستغني عنه باحث إلى اليوم.

ولد في عصر كانت فيه الدولة العثمانية في أوج عظمتها، وعلى الرغم من وفاته في سن مبكرة (سنة ١٠٦٨هـ)، فإن تراثه العلمي يضعه في سدة الببليوغرافيين وكتاب التاريخ والتراجم. وتبين مقدمة الكشف الرائعة عن سعة إدراكه لحقائق العلم، وتدل على ثقافته الواسعة، وعلى ما بذله من جهد في إنجاز كتاب صرم من أجله عشرين عاما من حياته.

وليس (الكشف) وحده، فله - كما يعرف الباحثون - عشرون كتابا، منها:

(سلم الوصول إلى طبقات الفحول).

(فذلكة) في تاريخ الإسلام العام.

(جهان نما) في مظهر العالم في الجغرافيا، وهي لا تقل أهمية عن (الكشف). ومما يؤسف له أن هذا التراث لم يلق العناية التي يستحقها حتى الآن.

محاور المؤتمر

ضم المؤتمر ٦ محاور هي:

١- الببليوغرافيا وتصنيف العلم.

٢- تاريخ الببليوغرافيا الإسلامية وأسئلتها.

٣- حاجي خليفة: الرجل والعالم.

٤- تراث حاجي خليفة.

٥- كشف الظنون.

٦- إحياء تراث حاجي خليفة.

المشاركون في المؤتمر

دعي إلى المشاركة في المؤتمر نخبة من العلماء والباحثين من مختلف الدول الإسلامية، شاركوا بـ ٣٣ بحثا، ومنهم: أحمد شوقي بنبين (المغرب)، فيصل الحفيان (سوريا)، محمد عبدالوهاب جلال (مصر)، أيمن فؤاد سيد (مصر)، هاشم فرحات (السعودية)، صاحب عالم الأعظمي الندوي (الهند)، عبدالقادر بوشيبة (الجزائر)، بن علوي هواري (الجزائر)، يوسف الصديقي (قطر)، عبدالله الرشدي (المغرب)، مراد تدعوت (مصر)، محمد آيدن (قطر)، أسامة غريب عبدالمعطي (مصر)، بالإضافة إلى مشاركات من كندا وجنوب إفريقيا وأميركا وإسبانيا.

التوصيات

واختتم المؤتمر بجلسة استشرافية، خلص خلالها المجتمعون إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، ومنها:

- إحياء تراث حاجي خليفة المخطوط.
- إعادة نشر كتاب «كشف الظنون» نشرة علمية محكمة.
- إنشاء موقع إلكتروني متخصص تشرف عليه المؤسسات الثلاث.
- عقد مؤتمر حول تصنيف العلوم بين الحضارة العربية الإسلامية والغربية، يكون محوره طاشكبري زادة، باعتبار مؤلفه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» ذروة تصنيف العلوم عند المسلمين.

دسائس السوء وسوء الخاتمة

د. خالد راتب
دكتواره في الشريعة

من حسنت بدايته حسنت نهايته، ومن طهرت سريرته حسنت خاتمته، وإن صلاح الظاهر نتيجة حتمية لصلاح الباطن، وصلاح العلانية نابع في أغلب أحيانه من صلاح السر، والقلب إما أن يكون كالصفا، ناصع البياض، مملوءا بالتقوى والإيمان، وصفات الخير، وإما أن يكون أسود، مملوءا بالكفر والنفاق وصفات الشر.. وإما أن يختلط فيه المادتان، مادة إيمان ومادة كفر أو عصيان.. وما يغلب على القلب يحكم له به، وقد يرى الإنسان طائعا مخبتا، وقلبه فاجر فاسد، قد دست فيه دسائس السوء الخفية من النفاق.

يقول ابن رجب: (ودسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة، وقد كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقيل له: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله - عزوجل - يقلبها كيف يشاء») (١).

ودسائس السوء موطنها القلب المريض أو الميت، وتظهر فضائح هذه الدسائس الخفية عند سكرات الموت، عندما يعجز صاحب الدسيسة السيئة أن يتلفظ بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عندما تخرج روحه، وكأنها تخرج من سم الخياط، لا تفتح لها أبواب السماء، وما لها من شفيع ولا نصير، ويوم القيامة يبدو له من الله ما لم يحتسب، يقول صاحب مفاتيح الغيب: «ويوم القيامة تظهر الفضائح، ويظهر لمن خالف ظاهره باطنه، ما لم يكن يحتسب، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر: ٤٧)... أي ظهرت لهم أنواع من العقاب، لم تكن في حسابهم». وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، فكذلك في العقاب حصل مثله، وهو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزمر:٤٧). (٢)

وهذه الدسائس كالسرطان تدمر وتخرب ومن أخطر هذه الدسائس:

١- النفاق: كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم منه؛ لأن المؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب عليه عند الخاتمة، فيخرجه إلى النفاق الأكبر، لأن النفاق الأكبر من أسباب سوء الخاتمة (٣).

وقد ذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لحذيفة رضي الله عنه: «نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟» - يعني من المنافقين - قال: «لا، ولا أبرئ بعدك أحدا» (٤). وقال عبد الله بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه، وما منهم من أحد يقول: إن إيمانه على إيمان جبريل وميكائيل (٥).

فإذا كان الصحابة الذين حققوا الإيمان قولا وعملا، وشهد لهم الله ورسوله بذلك يخافون على أنفسهم من دسيسة النفاق، فكيف بغيرهم؟

٢- المكر والخديعة: ومن دسائس السوء التي تؤذن بخاتمة السوء: المكر والخديعة، كما أن المكر والخديعة يسببان العقاب الدنيوي قبل الأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (النحل:٤٥)، وقد قال ﷺ: «والمكر والخديعة في النار» (٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «المؤمن غر كريم (٧)، والفاجر خب (٨) لئيم» (٩).

٣- الكبر والعجب: الكبر والعجب مرضان خطيران، وهما سبب في البعد عن الله وتدبر آياته، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف:١٤٦). ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله جل وعلا يرفعه الله. وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان:٦٣)، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص:٨٣).

وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه
على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
إلى صفحات الجو وهو وضيع

٤- الحسد والحقد: الحاسد والحاقد يطعنان في الإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، وإن مات الحاقد والحاسد على ذلك، فقد يختم لهما بسوء الخاتمة؛ لذا عد ابن القيم الحسد من أركان الكفر، حيث قال: «أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة... فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، وأحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره،



ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة؛ لأن ذنبه كان عن كبر وحسد، فقلعُ هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده، والرضا به وعنه، والإنابة إليه...». (١٠)

الطريق الناجع لعلاج دسائس القلوب

١- معرفة الله - عزوجل - حق المعرفة واللجوء إليه، والاستعانة به في تحقيق العبودية الكاملة لله، قلبا وقالبا؛ لتكون حياتك كلها دائرة في فلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة:٥).

٢- الإلحاح في الدعاء: كما يستعان على تطهير القلب من دسائسه بكثرة الإلحاح في الدعاء، بأن يثبت الله قلبك على الإيمان، وألا يزيغه عن طريق الهداية، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، فإذا أراد أن يقيم قلبا أقامه، وإذا أراد أن يزيغ قلبا أزاغه، وإن من زيغ القلب طلب الدنيا بالآخرة، وحب الرياسة والظهور، والتعالي على خلق الله.

٣- عدم الاكتراث بالدنيا الفانية، فإنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فمهما أخذته من حطامها، وما حصلت عليه من مناصب ووجاهات، فما قدر كل ذلك من جناح البعوضة، ولو دامت الشهرة والمناصب لغيرك ما وصلت إليك، وأهل الكرامة والعزة من رفعه الله، لا الذي رفعته المناصب والدنيا.

٤- الاهتمام بأعمال القلوب، فهي محل نظر الله، فإذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ (الشعراء ٨٨- ٨٩)، وقال ﷺ: «... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (١١).

٥- مجاهدة النفس، حتى تهذب من دسائس القلب، والتي من جملتها الرغبة في الصدارة أو المنصب، وكذلك الطمع فيما في أيدي الناس، وحب الثناء أو المحمدة، وكذلك محاسبة النفس للوقوف على عيوبها، ثم التخلص من هذه العيوب.

٦- معرفة أخبار أصحاب القلوب المريضة التي لم تخلص وجهتها إلى الله، ومعرفة سوء عاقبتهم. فإن ذلك مما يساعد على تجنب هذا الداء، أو هذه الآفة، لئلا تكون العاقبة كعاقبة هؤلاء.

٧- الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الخلق مهما كانت قوتهم، ومهما كان سلطانهم، فإنهم عاجزون عن أن يجلبوا لأنفسهم نفعا، أو يدفعوا عنها ضرا، فضلا عن أن يملكوا هذا لغيرهم (١٢).

٨- إخلاص السريرة والعمل على نقائها، يقول وهب بن منبه: «يا بني أخلص طاعة الله بسريرة ناصحة، يصدق الله فيها فعلك في العلانية... ولا تظن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عرقها: العلانية ورقها، والسريرة عرقها. إن نخر العرق هلكت الشجرة كلها، ورقها وعودها، وإن صلحت صلحت الشجرة كلها، ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير، ما كان عرقها مستخفيا، لا يرى منه شيء. كذلك الدين لايزال صالحا ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها، فإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين، فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن، لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل» (١٣).

الهوامش

١- انظر جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص ٣٢، والحديث أخرجه أحمد، ١١٢/٣ و٢٥٧، والترمذي (٢١٤٠).

٢- مفاتيح الغيب، ٢٤٩/٢٦.

٣- جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ١/ ١٧٤، و١٧٢.

٤- ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، ١٩/٥.

٥- البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، معلقا مجزوما به، ١/ ٢١.

٦- أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١١٠٧)، والطبراني في «الصغير»، (ص ١٥٣) و«الكبير» أيضا كما في «المجمع» (٧٩/٤)، وأبونعيم في «الحلية» (١٨٨/٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (ق ١٥/ ٢)، وقال الهيثمي: «ورجاله ثقات وفي عاصم بن بهدلة كلام لسوء حفظه». قلت: والمتقرر فيه عند أهل العلم أنه حسن الحديث، يحتج به. لا سيما إذا وافق الثقات. ولهذا قال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٢): «إسناده جيد».

٧- غر كريم، أي: ليس بذي مكر، فهو ينخدع لانقياده ولينه (وهو ضد الخب)، يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة، وقلة الفطنة للشر، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلا، ولكنه كرم وحسن خلق.

٨- «خب»: بفتح الخاء. وقد يكسر، وهو الساعي بين الناس بالفساد، مظاهره خلاف باطنه، وباطنه ما ينفر الناس عنه. كذا في «الشرح». «لئيم»: خلاف الكريم.

٩- أخرجه الترمذي، وقال الشيخ الألباني: حسن. انظر حديث رقم: ٦٦٥٣ في صحيح الجامع.

١٠- الفوائد، ١٥٨/١.

١١- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات.

١٢- آفات على الطريق الدكتور: السيد محمد نوح، ١٤/٢.

١٣- حلية الأولياء، ٧٠/٤.



الإنسان بين العبودية والحرية

محمد الدش
كاتب دراسات إسلامية

من عظيم المنح الإلهية والعطايا الربانية أن يصير الكون، بما فيه ومن فيه، خاضعا منقادا لله تعالى، فسبحانه له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، فهو الخالق بقدرته وإرادته، المتصرف بحكمته ومشيئته، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. ولقد كان للإنسان في هذا الكون المنزلة العالية بما خص به من شرف العبودية لله عزوجل، بما تحمله هذه الكلمة من شرف الخضوع لله تعالى من ناحية، وشرف الغاية التي خلق الإنسان لأجلها من ناحية أخرى. والناظر في القرآن الكريم يلحظ - بجلاء تام - أن هذا الشرف الممنوح من الله لجميع خلقه لا يقف عند إنسان دون آخر، بل الكل في نوال هذه العطية سواء. لقد وصف الله عزوجل أنبياءه ورسله، عليهم السلام، إجمالا بالعبودية له تعالى، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٢)، وذكر بعضهم تفصيلا بتشريفهم بالعبودية له، فوصف سيدنا نوحا بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء:٣)، ويقول في سيدنا إبراهيم وبنيه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ (ص:٤٥)، ويخبر القرآن الكريم في ثلاث آيات بمزيد من البيان والدلالة على عبودية المسيح، عليه السلام، لربه تعالى وأنه ليس إلها، وقد أنطقه الله بذلك ليكون مثلا وحجة على قومه، وبرهانا على قدرته تبارك وتعالى.

ووصف الله خاتم الأنبياء والمرسلين بالعبودية تكريما وتشريفا في كثير من آي الذكر الحكيم منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان:١). إنها أعظم صفة، فلو كان لرسول الله ﷺ صفة أشرف من ذلك لخصه الله بها في هذا المقام الشريف.. مقام الإخبار بإنزال القرآن الكريم والدعوة إليه.

ولما كان الإنسان مخلوقا مكرما، فضله الله تعالى على كثير ممن خلق تفضيلا، ومنحه من الحقوق التي تناسب ذلك التفضيل والتكريم، فقد وهبه حق الحرية، به يختار من المباحات ما يشاء.. من المأكل والملبس والمشرب. يحصل المال من حله بأي طريق شاء، يعمل في الخير ما يريد.. إلى غير ذلك من أموره الحياتية. وفي طليعة تلك الأمور، ترك لك أمر اختيار دينك



ابتداء، فلا يكرهك على الدخول في دين ما، ولكنه أقام الحجة على البشر، فأرسل الرسل، مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعدهم. وقد يحسب الإنسان أن حريته تأتي من التصرف على أي نحو يريده طالما أن عقله يقبل ذلك، أو أن نفسه موافقة له، أو أن طبعه يهواه.. كلا، فهذا تصور مغلوط لمفهوم الحرية التي أرادها الله لعباده، فالإنسان يفعل كثيرا من الأمور ظاهرها الحرية الشخصية وباطنها العبودية المقيتة، ثم يرفض العبودية الحقة لله تعالى، التي تمنحه حريته، وتفك عنه أغلاله، وتكسر قيوده.. العبودية لله تعالى هي التي تخلص الإنسان من عبادة الفكرة، وأسر الشهوة. وانظر، أخي القارئ الكريم، إلى واقعنا الذي نحياه، تجد أننا نعيش في زمن العبودية لا الحرية التي يتغنى بها الصغير قبل الكبير، نعيش في عالم؛ العبيد يصنفون فيه وفق ما يذلون له ويخضعون، فليس العبد هو من يذل لإنسان مثله يأمره وينهاه فحسب، بل يتعدى هذا المفهوم، ليوضح أن كل ما يسيطر على الإنسان ويجعله يدور حوله كما تدور الرحى فقد صار له عبدا يطيعه، وينقاد له، ويحركه يمنة ويسرة. ومن هذه الأصناف عبيد هذا الزمان.. عبيد الفكرة الباطلة، من لعب الشيطان برؤوسهم، وزينت لهم عقولهم القاصرة وأفئدتهم الخربة أنهم على الحق، وسمحوا لأنفسهم بالإعلان عن هذا الباطل بكل جرأة ووقاحة تحت اسم حرية الفكر والرأي، وقد وجدوا لأنفسهم منابر إعلامية تنشر أباطيلهم وافتراءاتهم، فأمثال هؤلاء ليسوا عبادا لله الذي منحهم حرية منضبطة بشرعه تعالى يمتازون بها عن السائمة.. وإنما هم عباد للشيطان الذي أمرهم بالفوضى والعشوائية حتى صاروا كالأنعام بل أضل، ثم يأتي عبيد الشهرة، الذين ضحوا في سبيلها بأغلى المبادئ وأنفس القيم ومعالي الخلق، ونسوا أنهم حين يعلنون أنهم أحرار فقد أخطأوا وأساءوا.. أخطأوا في فهمهم للحرية على أنها تعني الابتذال والإسفاف.. وأساءوا حين تعدت تصرفاتهم إلى الإضرار بالآخرين، فأذهبت بعض حيائهم وبدلت بعض أخلاقهم وآدابهم. وعلى الجانب الآخر، تجد عبيد اللذات والشهوات، يدورون في فلكها، تقيدهم حبائلها.. جامع للمال من حله وحرامه.. حريص عليه، بخيل به، دائما في خدمة الدينار والدرهم، يبذل في طلبه نفسه.. فهذا هو عبد المال، ثم يأتي صنف آخر من عبيد هذا الزمان وهم عبيد العادات السيئة التي لا يستطيعون لها فكاكا، وما أكثر هؤلاء! يعيشون عبيدا لعادات مرذولة وأخلاق مذمومة، ويحسبون أنهم أحرار. إن الحرية الحقيقية لا تكون إلا في العبودية الكاملة لله تعالى.. هي الطريق المستقيم والسبيل المنير، الذي يخلص الإنسان من رق الشبهات وأسر الشهوات.

ابن رشد الحفيد مفسرا

إسماعيل برو
كاتب وباحث

لا يختلف اثنان على أن ابن رشد من علماء الكلام والفلاسفة الكبار، الذين حازوا السبق في ميدان العلوم، ووضعوا بصمتهم في تاريخ الفكر الإسلامي. لكن الغريب في الأمر أننا لم نجد من العلماء أو المفكرين المسلمين من قرن ابن رشد بالقرآن والوحي! وكأن الرجل لم يتطرق إلى القرآن والسنة مطلقا، رغم أن كتبه طافحة بالاستشهادات القرآنية التي تنطق بذلك، خصوصا كتابه القيم «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة».

ترى كيف كانت علاقة ابن رشد بالوحي؟ وما هو المنهج الذي اتبعه في التعامل مع الآيات التي أتت في معرض الاستدلال خصوصا الأصول العقدية؟ أسئلة حاولنا الإجابة عنها في متن هذا المقال.

١- تفسير ابن رشد

من خلال استقرائنا لكتب ابن رشد نلحظ أن الرجل قد رشف من بحر التفسير، وإن لم يكن لابن رشد كتاب في التفسير كما هو معلوم، وقد ظهر ذلك جليا، خصوصا في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» الذي هو العمدة في هذا الباب من التفسير.

وقد تميز ابن رشد في تفسيره للآيات القرآنية، محاولا انتزاع المعاني الدقيقة والإشارات اللطيفة في نوع من الاختصار وعدم التفصيل الطويل، وقد تفوق في ذلك غاية التفوق، وهذا ما سنبينه بحول الله من خلال سوقنا لبعض الأمثلة من دون إطالة.

٢- نماذج من تفسيره للآيات

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب:٧٢)، فقد فسر ابن رشد الأمانة بالتأويل الصحيح «والتأويل الصحيح هي الأمانة التي حملها الإنسان فحملها، فأبى وأشفق منها جميع الموجودات، أعني المذكورة في قوله تعالى (الآية)» (١).

تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران:٧)، يقول ابن رشد عنهم وهؤلاء أهل الجدل والكلام.

وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره. وقالوا إن هذا التأويل هو المقصود به وإنما أتى الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده واختبارا لهم. ونعوذ بالله من هذا الظن بالله (٢).

يرى ابن رشد في هذه الآية أنها أمر لأهل الراسخين في العلم لتأويل القرآن «وكأنه اعتبر الله والراسخين في العلم فقط يعلمون تأويل الكتاب. واعتبر ابن رشد الجزء الأخير من الآية ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ (آل عمران:٧) بداية كلام، بمعنى أن الراسخين في العلم هم الذين يعلمون تأويل الكتاب، على حسب رأيه، قالوا آمنا، وعلى هذه الحال يكون ابن رشد قد حصر حق التأويل في العلم. أما إذا وقفنا عند لفظ الجلالة الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ (آل عمران:٧)، ثم اعتبرنا بداية كلام ما يأتي بعد ذلك، وهذا ما قرره أكثر علماء الفقه والقراءات المشهورة، يبقى الكلام أن ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ (آل عمران:٧)... فالشرط المميز لهذا الرسوخ قولهم آمنا به، دون أن يحاولوا التأويل خوفا من أن يكونوا ممن يبتغون الفتنة والتأويل ويكونوا من الذين في قلوبهم زيغ» (٣).

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ (النبأ:٦)، يقول ابن رشد في تفسير هذه الآية «وذلك أن المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون والوضع، وزائدا إلى هذا معنى الوراثة واللين. فما أعجب هذا الإعجاز! وأفضل هذه الاستعارة! وأغرب هذا الجمع! وذلك أنه جمع في لفظ «مهاد» جميع ما في الأرض من موافقتها لكون الإنسان عليها» (٤).

من خلال تفسير ابن رشد لهذه الآية يظهر جليا تعلق ابن رشد بكتاب الله وإعجابه بجمالية وأسلوب النص القرآني إلى حد الانبهار، مما يدل على أن الرجل يمتلك نفسا لغويا كما امتلكه اللغويون والمفسرون، كيف لا ومعرفة اللسان العربي هي المدخل الأساسي لفهم النص القرآني وإظهار معانيه.

يرى ابن رشد أن الناس ينقسمون إلى نوعين: النوع الأول مؤهل لمعرفة حقيقة الأشياء، ويتكون من أهل التأويل أو الفلاسفة الراسخين في العلم. أما النوع الثاني فهو جميع الناس، بمن فيهم أهل الجدل؛ لأنهم ليسوا علماء، ومعرفتهم للأشياء تبقى معرفة ظنية.

هذه النماذج من الآيات التي فسرها ابن

رشد، والتي تتناول في معظمها المسائل العقدية والكلامية لأن المقام يقتضي ذلك، فقد لاحظنا كيف يسوقها ابن رشد للدلالة على صفات الله وأفعاله، ورغم اعتقاده بأن الطريق إلى معرفة البارئ عزوجل هو طريق القرآن، إلا أنه يتجاوز الدليل القرآني ليغوص في معاني الصفات والأفعال، بنفس عقلي حجاجي عقدي.

وهو بذلك لم يشذ عن مناهج المتكلمين في تعاملهم مع الآيات القرآنية، رغم أن مشروعه هو نقد منهجي لأدلة المتكلمين في عقائد الدين، هذا النقد استمده من القرآن نفسه.

ورغم أن ابن رشد نهج منهج التأويل في تفسير الألفاظ التي لا يمكن حملها على ظاهرها فإنه كان يتبع قواعد التفسير المعروفة ولا يتعسف باستخدام التأويل بإدخال تأويلات بعيدة عن الجو البياني للآيات القرآنية وإنه يفسر تلك الآيات كما هو المتبادر في فهمها في أول نظرة. وهو يرى أن تلك الطريقة هي الطريقة المثلى في فهم معاني الآيات القرآنية، لذلك فهو يطلق على هذه الطريقة اسم «الطريقة النظرية»، وهي التي أمر الله تعالى بها الناس في كتابه الكريم، لأنهم يدركونها بنظرهم وهي طريقة الجمهور والخواص معا، فالجمهور يفهمون ظاهرها والخاصة من العلماء والحكماء يتعمقون في معانيها.

٣- منهج ابن رشد في تفسير القرآن

تفسير القرآن بالقرآن

من المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضا، والأمثلة على ذلك من القرآن كثيرة ومتعددة، فما أجمل في آية فصل في آية أخرى...

ولقد نهج ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة» هذا النهج، واعتمد طريقة تفسير القرآن بالقرآن غير مرة في معرض الاستدلال بالآيات القرآنية.

- ففي معرض القول بالتنزيه يسوق الآية من كتاب الله العزيز: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى:١١) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ (النحل:١٧)، قال ابن رشد: «هي برهان قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وذلك أنه من المغروز في فطر الجميع أن الخالق يجب أن يكون إما على غير صفة الذي لا يخلق شيئا...» (٦).

- وقد يعرض أحيانا الآيات التي تشترك مع الآية المفسرة (أي التي استدل بها) لبيان أوجه الاشتراك في المعنى مثاله ما صرح الشرع به من نفي صفات المخلوق عنه، ومن صفات النقائص الموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان:٥٨)، يقول ابن رشد: «ومنها النوم وما دونهما يقتضي الغفلة والسهو عن الإدراكات، والحفظ للموجودات وذلك مصرح به في قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ (البقرة:٢٥٥) ومنها النسيان والخطأ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ (طه:٥٢)» (٧).

- ولا يقتصر في معرض استشهاده بآية واحدة وإنما يعضدها بآيات أخرى، مثاله في آية القدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ (القمر:٤٩)، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾ (الرعد:٨)، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ (الحديد:٢٢) (٨).

- ثم يأتي بالآيات التي يعارض بعضها بعضا فيقول: «وربما يظهر في الآية الواحدة التعارض في هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ (آل عمران:١٦٦)، ثم قال في هذه النازلة بعينها: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١٦٦)، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ (النساء:٧٩) وقوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ (النساء:٧٨)» (٩).

هذه الآيات اختلف المسلمون فيها وافترقوا إلى فرقتين: «فرقة اعتقدت أن اكتساب الإنسان هو سبب المعصية والحسنة، وأنه لما كان هذا ترتب عليه العقاب والثواب، وهم المعتزلة. وفرقة اعتقدت نقيض هذا، وهو أن الإنسان مجبور على أفعاله ومقهور، وهم الجبرية» (١٠).

ختاما يتبين أن ابن رشد الحفيد انطلق في مشروعه الفكري من الوحي، وقد توسل به لتحقيق ما يصبو إليه محاولا الرد على المخالفين عموما، وإبطال مزاعمهم وأقوالهم المخالفة للحكمة.

الهوامش

(١) ابن رشد، فصل المقال وتقرير بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تحقيق: عبدالمجيد همو، دار معد، دمشق، ط: الأولى، ص:١٢٦.

(٢) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تعليق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط: الأولى، س:٢٠٠٢م ص: ٦٩+٧٠.

(٣) عبدالمجيد همو، تعليق في فصل المقال لابن رشد، ص:٣١،٣٢.

(٤) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:٨٧.

(٥) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:١١٦.

(٦) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:٥٨.

(٧) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:٥٩.

(٨) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:١٠٧.

(٩) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص:١٠٨.

(١٠) نفسه، ص:١٠٩.



قصف التراث الإسلامي!

محمد شعبان أيوب
باحث متخصص في التاريخ

إن التراث هو تلك الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها لنا التاريخ كاملة أو مبتورة، فوصلت إلينا في صورة كتب مخطوطة أو لفائف أو كراسات، وليس هنا حدود معينة لتاريخ أي تراث كان؛ فكل ما خلفه المؤلف بعد حياته من نتاج يعد تراثا فكريا (١).

لكن التراث الإسلامي تعرض لنكبات حقيقية ومفصلية في تاريخه الطويل. إننا يمكن أن نرجع لأول مصادر القوائم «البيليوجرافيا» التي كتبت باللغة العربية، وهو كتاب «الفهرست» (٢) لمحمد بن إسحاق النديم الذي ألفه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م، جامعا فيه أسماء معظم الدراسات التي كتبت في عصره في مركز العاصمة العباسية بغداد في مجالات الدراسات الشرعية واللغوية والنحوية والأدبية والصوفية، والمصنفات العامة والفرق والمذاهب والعلوم البحتة، لنرى أنه أحصى ٨٣٦٠ كتابا لـ ٢٢٣٨ مؤلفا حتى الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري، لم يصلنا منها سوى من ١٠ إلى ٢٠ في المئة، على الأكثر، طبقا لما ذكره محقق الفهرست العلامة الدكتور أيمن فؤاد سيد في سلسلة محاضرات عن «المخطوطات العربية» سمعتها عنه في «معهد المخطوطات العربية» بالقاهرة، في نوفمبر ٢٠١٣م.

وقد قاس على ذلك أساتذة المناهج التراثية والمخطوطات أن تراثنا الإسلامي في المجالات المختلفة لم يصلنا منه إلا الخمس تقديرا، مما يعني أن أكثر من ٨٠ في المئة من تراثنا لا يزال مفقودا!

وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة بعض الإضاءات والمجهودات الجبارة التي حاولت - ولا تزال - إحياء التراث الإسلامي المخطوط من خلال فهرسة المخطوطات وترميمها وحفظها في كل المكتبات والمعاهد العلمية المتخصصة في هذا المجال، ولعل أشهر مؤلفين قاما بجمع مظان التراث العربي المخطوط في مكتبات العالم تمثلا



في «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، الذي حظي كتابه - ولا يزال - باهتمام الباحثين في الدراسات التراثية، وكتاب العلامة التركي فؤاد سزجين، الذي استدرك ما فات بروكلمان في كتابه «تاريخ التراث العربي»، وقد جاء في عشرة أجزاء نال صاحبها جائزة الملك فيصل العالمية لمجهوده الجبار في هذا الكتاب، حيث توقف - للأسف الشديد - عند سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م.

نعود فنقول إن المأساة التي نكبت بالتراث الإسلامي ترجع لعدة أسباب سياسية واقتصادية وعسكرية وفكرية في مجملها، وقد اتخذت أشكالا متنوعة في التاريخ الإسلامي وفي العصر الحديث.

يمكن من خلال التأمل في حادثتين مهمتين في تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق والأندلس أن نكشف الأسباب التي دفعت إلى القضاء على شطر كبير من التراث الإسلامي، وهما:

١- الصدام العسكري الذي قام به المغول في بلاد المشرق الإسلامي، مثل: مرو وخوارزم. قال المؤرخ الأميركي ول ديورانت: «كان المغول يضعون الأسرى في مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم من أمامهم أو قتلهم من خلفهم. وفتحت مرو خيانة، وأحرقت عن آخرها، ودمرت في اللهب مكتبتها التي كانت مفخرة الإسلام (٣)، فضلا عن إشراف وزيرهم نصير الدين الطوسي في بغداد على عملية نهب منظمة لمكتبات بغداد، قال الصفدي (ت٧٦٤هـ): «فابتنى بمدينة مراغة قبة ورصدا عظيما، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربع مئة ألف مجلد» (٤).

٢- الصدام الحضاري والديني الذي قام به الإسبان مع التراث الأندلسي؛ فقد «أبدت السياسة الإسبانية اهتماما خاصا بالقضاء على تراث الأندلس الفكري، وبدأت بارتكاب فعلتها الشائنة في سنة ١٤٩٩م أعني لأعوام قلائل من سقوط غرناطة، فجمعت الكتب العربية، وأحرقت بأمر الكردينال خمنيس حسبما فصلنا من قبل، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء، وأودعت أيام فيليب الثاني في قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد، وحجبت عن كل باحث ومتطلع. وفي أوائل القرن السابع عشر، وقع حادث كان سببا في مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية. ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركبا مغربية لمولاي زيدان ملك المغرب كانت مشحونة بالكتب ومختلف التحف، ومن جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك» (٥). وتضع الرواية الإسبانية تاريخ هذا الحادث في سنة ١٦١٢م في عصر فيليب الثالث، وذلك حينما اشتد اضطراب العلائق بين إسبانيا والمملكة المغربية. وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى إسبانيا، وأودعت قصر الإسكوريال، إلى جانب بقية التراث الأندلسي التي كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثاني. وكانت مجموعة مولاي زيدان المغربية تحتوي على عدد كبير من الكتب الأندلسية التي كثر استنساخها، «اقتنائها بالمغرب، بعد سقوط غرناطة. ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا. ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس. ففي سنة ١٦٧١م شبت النار في الإسكوريال، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منه سوى ألفين، هي التي مازالت تثوى حتى اليوم في أقبية مكتبة الإسكوريال التي يشرف عليها الآباء الأوغسطنيون. وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ» (٦).

الغارة على التراث حديثا

أما الغارة على التراث الإسلامي حديثا، فاتخذت منحى آخر، لم

يكن بالاستيلاء على المخطوطات الإسلامية بالسرقة فقط، كما فعل المستشرقون ولصوص المخطوطات الإسلامية من قراصنة الغرب الثقافي، وإنما بأداة أشد نكاية، تمثلت في لي عنق هذا التراث والهجوم عليه بلا هوادة من المدرسة العلمانية بفرعيها الليبرالي واليساري.

وفي كتابه «شهادة العصر والتاريخ» يقرر الأستاذ أنور الجندي ذلك، بعد رحلة عطاء في مجال الفكر الإسلامي بلغت خمسين عاما، بقوله: «تكشفت لي أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة، التي بدأها مخطط عنوانه «حرب الكلمة»، وذلك بعد هزيمة الغرب في الحروب الصليبية، في دعوة عريضة للعمل على إعلان حرب تقوم على تزييف مفاهيم الإسلام وتدمير قيمه؛ وذلك عن طريق التأويل والتمويه في محاولة لإخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة، وتميزه المتفرد» (٧).

لقد حمل لواء الهجوم على التراث الإسلامي زمرة من المستشرقين - لا نقول جل المستشرقين - الذين عكفوا بجد يحسدون عليه على التراث الإسلامي؛ قراءة واستيعابا وفهما وسفرا مضنيا، ليكتشفوا ما فيه، ويقدموه لأقوامهم. على أنهم قدموا لهم «أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قوم بداة، جهال، لا علم لهم كان، جياع في صحراء مجدبة، جاءهم رجل من أنفسهم فادعى أنه نبي مرسل، ولفق لهم دينا من اليهودية والنصرانية، فصدقوه بجهلهم واتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، ودان لهم من غوغاء الأمم من دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة جلها مسلوب من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان وغيرهم، حتى لغتهم كلها مسلوبة وعالة على العبرية والسريانية والآرامية والفارسية...» (٨). ويستطرد العلامة محمود شاكر رحمه الله في كشف طرائق هجوم هؤلاء المستشرقين على التراث الإسلامي، والإسلام ذاته، بخبرته المعهودة في المجال التراثي والاستشراقي على السواء.

لكن هؤلاء المستشرقين الكبار فرخوا لنا من أبناء جلدتنا مجموعات سارت على دربهم في النيل من التراث بلا هوادة، وساعدهم في هجومهم ذاك تملكهم لزمام وسائل الإعلام، ومنابر الثقافة في البلدان العربية والإسلامية، فصار ضجيجهم أقوى، وطنينهم يشوش على الناس فهمهم، ويخلخل لديهم الثقة في تراثهم.

إننا يمكن أن نلخص مظاهر الهجوم على التراث الإسلامي في العصر الحديث من خلال ثلاثة مظاهر جلية، وهي:

١- سرقة الاحتلال الغربي وأذرعه من المبشرين والمستشرقين للتراث الإسلامي من مخطوطات وتحف وذخائر (٩).

٢- الجهل بالتراث الإسلامي، روحا وفكرا ومصطلحات، بل وتحريفه من قبل كثير من المستشرقين (١٠).

٣- العداء للتراث الإسلامي من العلمانيين بكل أطيافهم: إما بالتأويل الحداثي المناقض لبنية التراث وأهدافه، أو بالهجوم المباشر والنيل منه بالسخرية والاستهزاء (١١).

لقد كان للعوامل السياسية والمذهبية والعسكرية والطبيعية، والصدام الحضاري بين المسلمين والمغول والمسلمين والصليبيين والمسلمين والبيزنطيين، فضلا عن سرقة المخطوطات الإسلامية في عصر الغفلة الذي انتاب الأمة المسلمة في القرون الأربعة الأخيرة، دوره في عملية قصف التراث الإسلامي، ولم يخرج الاحتلال من بلادنا إلا وقد زرع مجموعات «وظيفية» استكملت مهمة القصف والنيل من التراث الإسلامي: إما جهلا بالتراث أو عداء له. لكن على الرغم من هذه المحاولات العاتية المستمرة منذ قرنين على الأقل، فإن أجيالا جديدة من الباحثين المسلمين وطلبة العلم المجدين، صار لهم الفضل في الحد من هذا العدوان، بل وتفكيكه، على أن هؤلاء المدافعين في حاجة إلى الدعم المادي والمعنوي من الحكومات والأفراد.

الهوامش

(١) عبدالمجيد دياب، تحقيق التراث العربي؛ منهجه وتطوره، ص١٢، دار المعارف - القاهرة.

(٢) النديم، الفهرست، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن، ٢٠٠٩م.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ٣٧٨/١٣، دار الجيل - بيروت، ١٩٨٨م.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ١٤٧/١، دار إحياء التراث - بيروت، ٢٠٠٠م.

(٥) السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ٧٠/٦، دار الكتاب - الدار البيضاء.

(٦) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٠٤/٥، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة - القاهرة، ١٩٩٧م.

(٧) أنور الجندي، شهادة العصر والتاريخ ص٣، دار المنارة، الطبعة الأولى - جدة، ١٩٩٣م.

(٨) محمود محمد شاكر، المتنبي «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ص٥٩، ٦٠، دار المدني - جدة، ١٩٨٧م.

(٩) مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون.. ما لهم وما عليهم، ص١٩، دار الوراق للنشر والتوزيع.

(١٠) عبدالعظيم الديب، المستشرقون والتراث، ص٢٦ وما بعدها، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - المنصورة، ١٩٩٢م.

(١١) إبراهيم بن عمر السكران، مآلات الخطاب المدني، ص١٢٩ وما بعدها، دار الوعي للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤٣٥م. وللمؤلف نفسه: التأويل الحداثي للتراث.. التقنيات والاستمدادات، ص١٣٣ وما بعدها، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى - الرياض، ٢٠١٤م.



التراث العربي الإسلامي من التهميش إلى السطو

تدمير الكنز

أ.د. خالد فهمي
أكاديمي بكلية الآداب - جامعة المنوفية

تراث الأمة هو عقلها، ودمها الذي به تحيا بين الأمم، وجماع خصائصها الحضارية والنفسية. إن هذا الصوت الذي أعلنه هنا صحيح من أي زاوية نظرت منها إلى تصور التراث، هو صوت صحيح إن رأيت التراث: منجزا فكريا تمثل في «الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة» على حد تعبير عبد السلام هارون في «التراث العربي، سنة ١٩٧٨م» لأنه يمثل مادة بناء العقل وتكوينه.

وهو صوت صحيح إن رأيت التراث: «حقيقة أكثر تعقيدا من أن نتصور أنها تبدأ عند مجموعة من أمهات الفكر». «إن التراث يجب أن يحمل على أنه كل ما تركه السلف للخلف... لابد وأن يتسع ليشمل الفكر والنظم والمؤلفات» على حد تعبير حامد ربيع في (مقدمة سلوك المالك (١٩/١)، لابن أبي الربيع)؛ لأنه جوهر الهوية، ومجمع العناصر الوراثية المنسربة في نفوسنا وتقاليدنا جميعا.

ولذلك فإن النظر إلى التراث من بوابة أنه أغلى الكنوز نظر مستقيم جدا، وصحيح ولازم.

البيئة البائسة

وهل البداية التي شهدت الميلاد المشؤوم لعمليات ما يمكن تسميته بتدمير الكنز، يمكن أن نؤرخ لها بتوزيعها على مراحل متعددة، وإن كانت متفاوتة الخطر، بطبيعة الحال.

أولا- لقد كانت البداية البائسة لتدمير الكنز مع هجوم المعتزلة الدموي على فهم السلف، أهل السنة، ميراث الصحابة والتابعين.

لقد نما كثير من الحشائش السامة بفضل البذور الكلامية التي تنكرت للفهم النقي الذي تركه النبي ﷺ في الأمة.

وكانت قمة المرحلة متجسدة في سياق المحنة التي خرج منها أهل السنة ظافرين حقيقة، لكن جسم الأمة بدا مثخنا ببقايا السم الذي اخترق جسمها مع سهام الأفكار المنحرفة.

ولعل أجلّ من ناقش هذه الآثار من المعاصرين هو إبراهيم بن عمر السكران في: (التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات)، دار الحضارة، الرياض، سنة ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

ثانيا- مراحل الاجتياح المسلح الذي تعرضت له الأمة على مدار تاريخها الطويل، مع التتار، والصليبيين، والاحتلال الأوروبي الغربي، ثم الأميركي.

ثالثا- مرحلة سقوط الخلافة التي كانت أقسى المراحل التاريخية، والتي توحشت فيها صور تدمير الكنز، واتسعت آثاره المرعبة، وتنوعت لتطال مناطق تهميشه، وإسقاطه، وتشويهه، وسرقته، والإزراء به، وفقدان الثقة فيه، ومحاربته، ومحاصرته.

تجليات المحنة

لقد كانت هذه المراحل الممتدة التي صبت في نهر العصر الحديث محنة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبكل ما يعلق بها من هوامش دلالية مادية ومعنوية معا.

ويمكن رصد تجليات هذه المحنة في رؤوس الأقلام التالية:

أولا- الاستهانة بالتراث، وما نتج عن ذلك من تهميش، وازدراء، وتجاوز وإهانة.

ويعد الأستاذ محمود شاكر رحمه الله أهم صوت صرخ بمخاطر هذه الاستهانة في العصر الحديث، حيث يقول في مقدمة تحقيقه لأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني (ص:٢١): «والاستهانة داء وبيل، يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم»، ويقول (ص:٢١): «إن ذم التراث والاستهانة به كان أول صدع في تراث الأمة العربية الإسلامية، وأول دعوة لإسقاط تاريخ طويل». وظلت الاستهانة باقية الأثر في الناس إلى اليوم، حتى وصلت في بعض المناطق إلى اغتياله ماديا ومعنويا.

إن الهزيمة النفسية أمام الغرب هي التي ولدت في النفوس إهانة التراث.

ثانيا- انقراض غالب الأساتذة الكبار من المحققين، والمنظرين في ميدان تحقيق التراث، ونقد نشراته نقدا علميا دقيقا.

ثالثا- تحريم كثير من الجامعات في بعض البلدان العربية دراسة النصوص التراثية بغرض تحقيقها، ونشرها، والإزراء بهذا العمل العلمي.

رابعا- عدم الاعتداد بأعمال تحقيق التراث في عدد من أنظمة الترقية الأكاديمية في عدد من البلدان العربية.

خامسا- تقلص إسهام المؤسسات الرسمية في بعض البلدان العربية، وتراجعه في ميادين خدمة المخطوطات، وفهرستها، وتحقيقها، وما يستتبع ذلك من إهمال كثير من المخطوطات.

سادسا- عدم تدريس (تحقيق النصوص التراثية) في الأكاديميات العربية في الغالب.

سابعا- عدم العناية بقواعد علم تحقيق النصوص التراثية، وعدم العمل على إحيائها بعد أن فقدت الأدبيات الرائدة قيمتها، وأبدت عجزا عن مواجهة الأسئلة العميقة والكثيرة التي يطلقها البحث المعاصر حول عدد كبير من التفاصيل الدقيقة، لكثير من قضايا هذا العلم.

ثامنا- سرقة المخطوطات، وتهريبها للخارج، وهي الظاهرة التي يسميها الدكتور محمد عيسى صالحية باسم: «تغريب التراث العربي» في كتابه: (تغريب التراث العربي بين الدبلوماسية والتجارة: الحقبة اليمانية)، دار الحداثة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٥م.

لقد كان مؤلما جدا أن يغيب عن الوعي الثقافي العربي أن كثيرا من الدوائر الدبلوماسية الغربية عرفت قيمة تراثنا، في الوقت الذي تتنامى فيه في بلادنا صور توحش الاستهانة به، وتأخير رتبته وقيمته، يقول محمد عيسى صالحية (ص:٥):«هان التراث، فضاعت الأرض، ورخص الإنسان، بكلمات بسيطة هذه هي مأساتنا في عصرنا، جاءوا مستعمرين مبشرين بنهضة بدعوى النهوض والارتقاء، فمارسوا على أمتنا سادية (تعذيبا مؤلما) تربو على إذلال عبيد روما، فأعملوا في تراثنا نهبا وسرقة».

تاسعا- التشويه

ومن جانب آخر فقد مارس نفر من المعاصرين لأغراض تجارية صورا من تشويه التراث، فأهانوه عند نشره، ولم يراعوا القواعد العلمية التي ترعاه، وترعى أداء نصوصه صحيحة، مخدومة، مكشفة.

واستعلن عمل عدد من دور النشر في هذا الميدان، تتحرك وقد فقدت ضميرها، وشوهت منجزا أفنى علماء الأمة أعمارهم مجاهدين في سبيل القيام به، وهو تشويه عرض هذا التراث، للظهور مملوءا بالأخطاء والفساد، والتحريف، والتصحيف.

وهو تشويه لا يقل عن التشويه الذي مارسه المحققون المستشرقون، عندما حرفوا عددا من نصوصه، وأسقطوا عددا آخر من هذه النصوص لأغراض دينية، واستعمارية، وحضارية.

إن هذه التجليات تمثل رؤوس أقلام كلية موجزة جدا، لكنها يمكن أن تتخذ مثالا على حجم المأساة، والمحنة التي يتعرض لها تراث الأمة منذ نحو قرنين على الأقل، وهي الحقبة الأشد مرارة، والأكثر ضراوة، والأعنف توحشا.

الخروج من بيت المحنة

هل ثمة آفاق للأمل؟

إن البكاء يحسنه كل أحد، وليس المقام مقام بكائيات تقام، ثم نذهب وقد تقرحت منا العيون، بغير عائد من عمل.

إنه إذا كان ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٧/٤) يقرر: أن فضيلة العلم في جواب السؤال، فإن فضيلة العمل والإيجابية والإيمان بهذا التراث تكمن في البحث عن آفاق تعين على كسر هذه البكائية، والخروج من بيت المحنة.

والحق أن ثمة أصواتا مهمة جدا يمكن أن تمثل بدايات جيدة للسير في اتجاه الانتصار للتراث، يمكن أن نجملها فيما يلي:

أولا- الدعوة إلى إحياء علم تحقيق النصوص التراثية، تجمع أدبياته المعاصرة، وتحللها وتنظم قواعدها، وتفصل القول فيما جاء سريعا مختزلا، قاصرا.

ثانيا- التوسع في المعاهد العلمية، ومساندة الجمعيات والمراكز الأهلية المعنية بدراسات التراث، والمخطوطات.

ثالثا- التوسع في دراسة منجز العلماء المعاصرين المتعاطفين مع المنجز التراثي لأعلام الأمة، وتقييم ما أنتجوه، والتركيز

في فحص المتبقي من بحوثهم.
وثمة أسماء مهمة جدا في هذا السياق من أمثال: يحيى العلمي، وعبدالسلام هارون، ومحمود شاكر، والألوسي، والكوثري، وإحسان عباس، وحامد ربيع وغيرهم، وهي أسماء جديرة بأن تكون بداية جيدة لفحص مفاهيم تحقيق التراث ودراسته، والإيمان به، وإحيائه، ونقده... إلخ.
رابعا- إعادة الاعتبار لدراسات التراث، وتحقيقه في البحوث الجامعية العليا، وبحوث الترقيات لأعضاء هيئات التدريس في الجامعات العربية، بعد توفير الضمانات العلمية اللازمة.
خامسا- إنجاز الاعتراف بما يمنحه معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية من شهادات علمية (دبلوم/ وماجستير) في مجال التراث وفهرسته، وتحقيقه.
سادسا- الدعوة إلى إنشاء أقسام علمية مستقلة لدراسات التراث العربي الإسلامي في الجامعات المختلفة.
رابعا- ضرورة التوقف عن اتهام التراث في الإعلام، والتصدي لصور الإزراء به.
ثامنا- الدعوة إلى عقد مؤتمرات دورية لمناقشة مشكلات التراث، ومجالات خدمته المعاصرة، واستراتيجيات استثماره، وتوطينه في الثقافة المعاصرة.
إن كثيرا من الأصوات المعاصرة استيقظت على التعاطف مع التراث، بعد أن وجدت الهجوم العنيف المتنوع على أوعيته، وأفكاره، وأعلامه، وبدا التوجه نحو مواجهة أشكال الاستهانة بالتراث، وفضح الممارسات القاتلة ضده تتكاثر، وهو أهم ملمح للأمل في المشهد الحالي.
وينضم إلى هذا الملمح المهم ملمح آخر مهم جدا، وهو عمل عدد من المؤسسات وإن كانت قليلة، على نشر الوعي العام بالتراث بما تنشره من نصوصه، توزعها على نطاق واسع جدا، مما سيسهم بالضرورة في خلق أجيال مؤمنة به.

استراتيجية المواجهة

ومن أكثر الأشكال الإيجابية على طريق استراتيجية مواجهة صنوف تدمير الكنز الموزعة على خريطة التهميش والسطوة وهو شكل مهم جدا له تأثيره الجيد في تكوين وعي قوي بقيمة التراث، وتعيد له وجاهة الارتباط به، نفسيا وعقليا وماديا.
وهذا الشكل يتمثل في استثمار بعض العناصر التراثية الواردة من علم المخطوط في عدد من الأجناس الأدبية المعاصرة ذات الحضور الثقافي، من مثل الرواية.
لقد لجأ عدد من الروائيين المعاصرين في الشرق والغرب إلى الاستمداد من علم المخطوط والتراث بعضا من العناصر، لدعم عدد من الوظائف الفنية والجمالية، والاقتصادية، والحضارية، والسياسية المتحققة، بما يبدعونه من روايات.
ومن مظاهر هذا الاستثمار للعناصر التراثية المستمدة من علم المخطوط في الرواية المعاصرة ما يلي:
أولا- استثمار مصطلح المخطوط في عناوين عدد من الروايات، بدافع جمالي وفني ونفسي وتسويقي معا، على ما نرى في عناوين الروايات التالية:
أ- مخطوطة ابن إسحاق، لحسن الجندي.
ب- مخطوطة وجدت في عكرا، لباولو كويلو.
ج- المخطوط القرمزي: يوميات أبي عبدالله الصغير آخر ملوك الأندلس، لأنطونيو جالا.
ثانيا- تصميم الرواية وفق تقنية الإيهام، أي: التلبيس على القارئ أن الرواية نص قديم ليس رواية، وإنما هو مخطوط عثر عليه محققه المعاصر، وأنه لم يفعل سوى نشره، وهي تقنية لجأ إليها عدد من الروائيين المعاصرين، لأغراض سياسية ودينية تتعلق بمحاولة كسر حدة المواجهة للروائي الذي يريد أن يدخل إلى نقد المؤسسة الدينية، ونقد عدد من أفكارها المنتشرة، بالإضافة إلى عدد من الوظائف الجمالية والإمتاعية، وممن لجأ إلى هذه التقنية فصمم عمله الروائي، زاعما أنه عثر على مخطوطة، يعيد نشرها:
أ-باولو كويلو في مخطوطة وجدت في عكرا.
ب- يوسف زيدان في: عزازيل.
ج- حسن الجندي. في: مخطوطة ابن إسحاق.
ثالثا- استثمار بعض المعلومات المتعلقة بدراسات التراث والمخطوطات لتطوير بعض الشخصيات، ودعم حبكة العمل الروائي، وتصعيد الأحداث.
وممن فعل ذلك فأجرى على لسان عدد من الشخصيات بعض المعلومات المستمدة من دراسات التراث، وعلم المخطوط:
أ- إليف شافاك في روايتها: قواعد العشق الأربعون، على لسان «كيرا» زوج جلال الدين الرومي الثانية.
ب- يوسف زيدان في روايته: النبطي.
ج- محمد المنسي قنديل في روايته: قمر على سمرقند.
إن الكنز الذي يسعى إلى تدميره الكثيرون مازال بإمكاننا أن نستنقذه، وفي استنقاذه استنقاذ للأمة.
ولعل أهم نقطة في سبيل استعادة حضور التراث في العقل المسلم المعاصر أن يفهم ارتباطه العضوي، ودورانه حول مركز «الوحي»، لقد ظهر شارحا، وخادما، وكاشفا تصورا جديدا جاء به الوحي العزيز، فدار حول مركزيته.
إدراك هذه الحقيقة كفيل بتعديل كثير من المسارات في التعامل مع التراث في الواقع المعاصر، لأنه سيصير لزاما على المسلم المعاصر أن يرتبط بالتراث من جانبي الإيمان والأخلاق معا.



القاهرة - عبدالله شريف
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية

أكثر من ٤ ملايين مخطوطة عربية في متاحف الغرب

مدير مركز تحقيق النصوص د. أيمن فؤاد:

أكثر إنتاجنا التراثي منهوب ومفقود!

- **تراث الحضارة الإسلامية تعرض لمذابح عديدة أبرزها حرق مكتبتي بغداد وقرطبة**
- **أكثر مخطوطات العالم في تركيا ثم إيران ومصر.. وأقدم مصحف موجود في اليمن**
- **السرقة والإهمال أبرز أعداء التراث.. ولا يمكن استعادة ما تم تهريبه قبل ١٩٧٢م**

ليس أدل على عظمة وغزارة التراث العربي والإسلامي المخطوط من تعرضه، على مدار ١٤ قرنا وحتى الآن، للاستنزاف والهدر والنهب! فكثيرة هي النوائب التي حلت بهذا التراث، لم تكن البداية بالمذبحة التي ارتكبها التتار بحق مكتبة بغداد، ولم ينته الأمر بعدها بالسلب والنهب والإهمال، فتكفي الإشارة إلى أن مكتبات الغرب يتوافر فيها أكثر من ٤ ملايين مخطوطة من أندر ما أبدعته عقول المسلمين. وفي حواره مع «الوعي الإسلامي»، يؤكد أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الأزهر مدير مركز تحقيق النصوص، د. أيمن فؤاد السيد، أن تراث الأمة العربية الإسلامية غزير وعظيم، لكن غالبيته تعرض للنهب والتلف.. وإلى التفاصيل:

• معروف عنكم الاهتمام بشأن التراث المخطوط والذود عما يتعرض له من إهمال أو إتلاف.. كيف جاءت مسيرتك العلمية في هذا الشأن؟ ومن أبرز الرواد الذين أناروا دربك في تلك المسيرة؟

- التعامل مع التراث في العموم شيء مكتسب، ولا توجد كليات أو معاهد تدرس تخصص المخطوطات، لكني درست التاريخ، وأحببت الغوص في التراث القديم وما حمله من معان وأفكار ورؤى مستقبلية عظيمة. ومن أبرز من شجعني على الدخول في هذا المجال، والدي، أمين مخطوطات دار الكتب المصرية. فكنت أتردد كثيرا على الدار القريبة من المنزل، ورأيت قاعة المخطوطات ومخزنها والأشخاص الذين يترددون على أبي وعلى الدار، فضلا عن النقاشات التي كانت تتم بينهم.

أربعة ملايين مخطوطة عربية منهوبة!

يقدر عدد المخطوطات العربية والإسلامية الأصيلة المنتشرة في مكتبات العالم بأربعة ملايين مخطوطة. وهذا العدد الهائل من المخطوطات، يمثل، إذا كان مجتمعا، ربع عدد الكتب الموجودة في المكتبة البريطانية مثلا، مما حدا بأحد العلماء المسلمين إلى القول إنه لو جمعت الكتب التي صنفها العرب والمسلمون لاستطعنا تغطية الكرة الأرضية بأوراقها.

فعلى سبيل المثال، يزخر المتحف الوطني البريطاني بأنفس الآثار العربية وأثمنها من اليمن ومصر والعراق وغيرها، فهو يحتكم على أكثر من ١٥ ألف مخطوطة عربية، هي أكبر المجاميع الإسلامية وأكبر ما يعرف من نوعها من المجاميع النفيسة في أوروبا وشمال أميركا، كما أنها جزء من بين أكثر من عشرين مليون مادة تحويها المكتبة البريطانية في خزائنها في المبنى الجديد في سانت بانكرس في لندن.

هذه المجموعة من المخطوطات العربية تسميها المكتبة بدار خزانة كنوز التراث العربي والإسلامي، وتشتمل على: حوالي ٧ آلاف مخطوطة فارسية، وألفي مخطوطة أوردية، و٤٠٠ مخطوطة من ماليزيا الإسلامية، و١٢٠ مخطوطة تركية، إلى جانب مجموعات أصغر من الصين الإسلامية ومن المغرب العربي ومن إسبانيا.

ومن أبرز من كانوا يحضرون: الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية المصري د. شوقي ضيف، وقد نشر وحقق كتابه «الرد على النحاة» لابن مضاء، وأخرجه من بين المخطوطات القديمة. ود. خليل يحيى نامي، والمفكر عبدالرحمن بدوي، ود. محمود شاكر، ود. حمد الجاسر، والمستشرق الفرنسي شارل كوينز.

كان أبي يشركني في تجارب الطباعة للكتب التي يتم تحقيقها، فبدأت أرى الخطوط وأنواعها، وطريقة فهرسة المخطوطات، وكنت أذهب معه إلى «معهد المخطوطات»، لاسيما أن والدي هو من أنشأ فهارس المخطوطات في المعهد، منذ ١٩٤٥م إلى وفاته ١٩٦٧م.

• لا يعرف كثيرون ماهية علم المخطوطات.. فما مراحل تطوره في التاريخ الإسلامي؟

- المخطوطات هي ذاكرة الأمة، حيث إن الطباعة دخلت متأخرة إلى البلدان العربية، ونجد أن الكتاب المخطوط أخذ وقتا طويلا منذ بدايات التدوين حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما دخلت الطباعة في عصر والي مصر محمد علي، وإنشاء مطبعة بولاق، وقبل ذلك كانت الكتابة قائمة على المخطوطات فقط. والمخطوطات هي طريقة التدوين التي كانت متبعة في التاريخ من قدماء المصريين مرورا بالآشوريين واليونانيين والرومان والفرس وكل الحضارات التي تلتها. وقد استخدم القدماء أنواعا مختلفة لكتابة المخطوطات، منها «البردي» الذي يصنع من ساق نبتة تسمى «البردي»، ظهرت في مصر القديمة وانتقلت بعدها في العصور القديمة إلى فلسطين وصقلية والعراق، وكذلك ورق «الرق» و«البرشمان» الذي يصنع من جلود الحيوانات، حيث تغسل وتوضع عليها مواد لإزالة الشعر، ثم تشد الجلود حتى تصبح جاهزة للكتابة.

والمخطوطة هي وسيلة لحفظ الإنتاج الفكري والعلمي، وكانت قديما على البردي والرق والبرشمان، ولم يعرف الورق إلا عندما انتصر المسلمون عام ١٣٣هـ على الصينيين قرب سمرقند، وأسروا بعضهم ونقلوا منهم تقنيات صناعة الورق، التي انتقلت إلى العراق في عهد البرامكة، وتم إنشاء مطابخ الورق، وحل الورق تدريجيا حتى القرن الرابع محل «الرق» و«البردي».

• يقول البعض إن من الأفضل خروج المخطوطات إلى دول أوروبا حتى لا يمسها إهمال العرب.. بماذا ترد؟

- وجود الآثار في الخارج سفير مهم للحضارة العربية والإسلامية، لكن علينا بدلا من الفخر بخروجها الإبقاء عليها، والاستفادة من العلوم التي تحتويها، وعدم الانشغال بوضع قوانين تقيدها كقانون تداول المخطوطات.

والمخطوطة ليست تحفة للمشاهدة، لكن هي أصل ومرجع لمن يريد البحث عن التاريخ والأدب والعقيدة، ومن يريد أي معلومة لابد أن يعود إلى المصادر، وهي الكتب الخطية، ولا بد من نشرها نشرا علميا للتأكد من أنها أصلية، وليس الاحتفاظ بها متحفيا. والمخطوطة هي الأصل الذي تبنى عليه كل الدراسات والعلوم.

ومن أبرز مظاهر الإهمال ما حدث في مصر مع مخطوطة «الرسالة» للإمام الشافعي، في دار الكتب ٢٠٠٤م، حيث كانت هناك فعالية تسمى يوم المخطوط ويوم الوثيقة، وتم عرضها في مدخل المؤتمر، ثم فقدت أو سرقت، ولم يجدوها حتى الآن.

• هذا يدفعنا للحديث عن أبرز مذابح التراث والمخطوطات في التاريخ.

- أنشئ بيت الحكمة في العصر العباسي، وازدهر في عهد الخليفة العباسي المأمون، محدثا نقلة نوعية في الترجمة تمهيدا للعصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في بداية القرن التاسع الميلادي، سنة ٨٤٠ م. لكن في عام ١٢٥٨م، اجتاح «التتار»، العنصر غير الحضري، الأخضر واليابس، ووصلوا إلى مقر الخلافة في بغداد بتآمر من أحد الوزراء، واستطاعوا حرق وتدمير الإنتاج الفكري الإسلامي الذي شمل مئات السنوات، وألقوه في نهر دجلة، وكان يضم ما يقرب من نصف مليون كتاب.

وقبل مذبحة بغداد، توجد مذبحة مكتبة الدولة الفاطمية، التي أضاعت علوما كثيرة على المسلمين. وأيضا هناك العديد من مظاهر الإهمال تحدث يوميا، منها على سبيل المثال: نقل وتخزين عدد كبير من الوثائق والمخطوطات النادرة ومحتويات «الكتبخانة» الملحقة بمسجد الرفاعي بالخليفة، إلى سرداب عمارة ملك لوزارة الأوقاف تقع خلف المسجد، مما يهدد بتلف تلك الوثائق النادرة، التي تعاملت معها مديرية الآثار على أنها ورق دشت، حيث إن سوء تخزين

التتار والإسبان.. وإحراق تراث بغداد وقرطبة

أقدم التتار سنة ٦٥٦هـ على عمل إجرامي بشع، وهو تدمير وإحراق مكتبة بغداد العظيمة، وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين طوال أكثر من ستمئة عام. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون، من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.

وهو الأمر نفسه الذي تعرضت له مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، فعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هـ (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماما التي بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأنفق في سبيل كتابتها ما لا يحصى من مال وعرق وجهد.

الوثائق وتعرضها للرطوبة ودرجات الحرارة المنخفضة والمرتفعة أيضا، يساعدان على تآكل خام الورق ذاته، بالإضافة إلى الحشرات والقوارض التي تكون في الغالب ساكنة رئيسية في أماكن التخزين السيئة (السرداب)، مما يعجل بسرعة تعرضها للتلف في زمن قياسي.

أيضا المذبحة التي تعرض لها المجمع العلمي بالقاهرة قبل ٣ أعوام، حيث أتت النيران عمدا على محتويات المجمع، الذي يعد إحدى أقدم المؤسسات العلمية في القاهرة، والذي أنشأته الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، وكان به وقت الحريق عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات والوثائق النادرة، تعرض كثير منها للحرق والتلف، ومن بينها كتاب وصف مصر.

• كان للغرب دور في العناية بالتراث العربي المخطوط.. كيف تقارن دور الغرب مع دور مؤسسات التراث وترميم المخطوطات في العالم العربي؟

- معهد المخطوطات العربية أنشئ عام ١٩٤٥م، ويتبع جامعة الدول العربية، ويهدف إلى تصوير المخطوطات من المكتبات العالمية وإتاحتها في مقره في القاهرة، بعد فهرستها وتسجيلها وعنونتها.

اعتمد المعهد في بدايته على أعمال كارل بروكلمان، خصوصا «تاريخ آداب اللغة العربية» في اختياراتها، وأرسلت بعثات لعدة أقطار لجمع أندر ما تحتويه المخطوطات التي خرجت من بلاد المسلمين. ويقدم المعهد دورات مهمة في تحقيق المخطوط وفي الخطوط وأنواعها وغيرها من الدورات المتعلقة بالتراث.

أما عن الترميم الذي يعد علما كبيرا ذا أصول وقواعد، فهناك مهارات وأدوات يجب أن يتقنها من يقوم بهذه المهمة الخطيرة التي ربما تخرج عملا تستفيد منه أجيال وأمم، وربما يفسد قيمة كبيرة لا تقدر بثمن، وهو يعني تجميل المواد الأثرية وإعادة حالتها إلى شكل أقرب إلى أصلها بغير إضافات تتلفها.

ويوجد في مصر مركزان للترميم: واحد في دار الكتب، والآخر في مكتبة الإسكندرية، وعملهما فني فيزيائي وكيميائي، يختص بإعادة الجلود إلى طبيعتها وترميم المخطوطة وإزالة البكتيريا والثقوب منها.

ويوجد معهد المخطوطات، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، اللذان يعملان على إرساء قواعد متفق عليها وأولويات النشر وحصر التراث المطبوع بالتنسيق مع الدول العربية، وتوحيد القواعد التي يلتزم بها المكتبيون وقواعد النشر العلمي، والتنسيق بين إصدار الكتب، حتى لا تحصل ازدواجية في النشر أو في مشاريع التحقيق.

وأطالب بإنشاء أقسام للمخطوطات وترميمها في قسم المكتبات في كليات الآداب لتطوير هذا العلم، حتى لا يصبح حفظ التراث مجرد اجتهادات.

• هل هناك قوانين تكفل استعادة المخطوطات المنهوبة؟

- لا نستطيع إعادة أي مخطوطة، لأنها خرجت في ظروف ومناسبات مختلفة، كان تداول هذه الكتب والممتلكات الثقافية غير مسيطر عليه، وكل المتاحف الغربية تحوي قطعا أثرية ترجع إلى العرب والشرق عموما.

وبعد اتفاقية اليونسكو في ١٩٧٢م، أصبح لا يستطع أحد استعادة القطع الأثرية إلا ما خرج بعد توقيع الاتفاقية، بشرط أن يكون مسجلا في متحف أو مكتبة، أما غير المسجل وما خرج قبل عام ١٩٧٢م، فلا نستطيع استعادته.

• وهل هناك فهرس موحد للمخطوطات في عالمنا العربي؟

- نعم، لدينا فهرس، وكل مجموعات المخطوطات المهمة في العالم لها مجلدات وكتيبات. والغرب هو أول من بدأ هذه العملية في المكتبة الوطنية بباريس والمتحف البريطاني ومكتبة الدولة في برلين ومكتبة جامعة لايدن. وبدأت دار الكتب المصرية، منذ تأسيسها عام ١٨٧٠م، في إعداد فهرس قديم، ثم في عشرينيات القرن الماضي قامت بإعداد فهرس حديث، وتشرع الآن في إعداد قاعدة بيانات على الحاسب الآلي، كما في أغلب مكتبات العالم. وتوجد مخطوطات كثيرة في بلادنا لا توجد لها تقنيات أو كتالوجات.

• متى بدأ التدوين عند المسلمين؟ ومن أبرز المدونين؟

- بدايات التدوين عند العرب كانت بدائية، فكان كتاب الوحي يسجلون

د. أيمن فؤاد السيد

د. أيمن فؤاد السيد: هو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الأزهر، ومدير مركز تحقيق النصوص، عالم تخصص في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، عاش منذ نعومة أظافره بين التراث العتيق في مكتبة والده الذي أنشأ فهارس معهد المخطوطات، نال الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون ١٩٨٦م، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٨٣م، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٥م، وجائزة عبدالحميد شومان للعلماء العرب الشبان في العلوم الإنسانية لعام ١٩٨٨م، وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٧م.

له العديد من المؤلفات، منها: تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، وتاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، والدولة الفاطمية في مصر.. تفسير جديد، ودار الكتب المصرية.. تاريخها وتطورها، والتطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، والكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات.

على الحجارة وسعف النخيل. وفي القرن الثاني، انتشر التدوين بكثرة على يد علماء مثل ابن ماجه وأبي داود، والترمذي، والنسائي، والإمام مالك ابن أنس، والبخاري، مرورا بالعصور المتتابعة.

وفي العصر العباسي، تم إنشاء بيت الحكمة في بغداد، وضم علوما كثيرة عن طريق الترجمة في عصر المأمون عن اللغات اليونانية والفارسية، فبدأ الاحتكاك بحضارات أخرى، ونقلوا العلوم المختلفة، وأضافوا إليها وأصبح هناك علم عربي متنوع.

● يعد التوثيق أمرا مهما لأي حضارة.. فما أبرز الموضوعات التي تناولتها المخطوطات؟ وماذا تعني مهنة «الوراقة»؟

– المخطوطات العربية تناولت موضوعات في الجغرافيا والرياضيات والفلك والجبر والحديث واللغة والنحو والتاريخ.

وكان يتولى التدوين أشخاص يعرفون باسم «الوراقة»، يعملون على كل ما يخص عملية الكتابة وتصحيحها وتشكيل الأحرف وتلوينها، ومن ثم تغليفها بالجلد ونحوه، وإذاعتها ونشرها. وقد تطور الخط العربي بظهور مهنة الوراقة ومر بمراحل طويلة، بداية من الخط الحجازي (المكي والمدني)، ثم الكوفي (قائم الزاوية)، حتى ابتدعوا خط الوراقي الأصلح للكتابة من خلال ابن مقلة وابن البواب، وظهر في القرن السابع على شكله النهائي «الياقوتي المستعصمي».. كل ذلك واكب عملية الإنتاج الفكري العربي، حتى القرن التاسع عشر.

● ما أقدم الكتب المؤرخة وأبرز الدول التي تحتفظ بالكتب والمخطوطات؟

– أقدم كتب تعود إلى القرن الثاني الهجري، وأقدم كتب إسلامية موجودة تعود إلى القرن الثالث، حيث يوجد ٤٠ مصحفا وكتابات مسيحية بالحرف العربي، وعدد من المصادر العربية التي ترجع إلى القرن الثالث، وأكثر ما كتب في القرن الثاني «مفقود».



أما عن أبرز الدول التي تحتفظ بالكتب والمخطوطات فتأتي تركيا في البداية، حيث تضم أكثر من ١٢٠ ألف كتاب ومخطوط قديم، تتبعها إيران، ومن ثم مصر. وتعتبر هذه الدول من المراكز الرئيسية للمخطوطات، حجما وكيفا، من ناحية الموضوع والشكل والإخراج.

●هل اندثرت مهنة تحقيق المخطوطات؟ وما أهم أخلاقياتها؟

– تحقيق المخطوط هو مصطلح ابتدعه أحمد زكي باشا، ويعني النشر النقدي للنصوص. وهذا اللفظ يستخدمه الغرب، ويتضمن جمع النسخ للكتاب، وتشجيرها، واستبقاء الأصول، واستبعاد الفروع من العائلة الواحدة، ومن ثم مقارنة النسخ حتى تصل إلى النص الأصلي الذي أراده المؤلف.

بدأت مع المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والكتاب المقدس، وطبقت على المؤلفات العربية، عندما بدأ المستشرقون عملية إحياء التراث العربي في القرن التاسع عشر على طريقة إليخمان، الذي أسس تقعيد النشرة النقدية للنص بالنصوص الكلاسيكية، وطبقت على المخطوطات العربية.

المهنة لم تندثر كليا، لكنها منقرضة منذ فترة طويلة. فعلى سبيل المثال، الجامعات والمعاهد غير معترفة بالمهنة كأساس للترقية، والأزهر مهتم بالتحقيق لكنه غير ممارس.

والكتب الدينية، التي تشمل التفاسير والأحاديث، لا يوجد بها جديد لتحقيقه، وما يحتاج إلى تحقيق فعلي هو كتب التاريخ واللغة والأصول وعلم الكلام والكتب الطبية، ولابد من معرفة القواعد التي نقلت في عصر النهضة، لأن العلم مسألة تراكمية.

والمخطوطات عموما تعتمد في ألوان كتابتها على الأبيض والأسود، وبعض النسخ فيها منمنمات، كمقامات الحريري، وكليلة ودمنة، ودعوة الأطباء، والحيوان للجاحظ، وكتب الفنون الحربية، وافتتاحيات المصاحف، والفاتحة والبقرة وخاتمة المصحف، وتشتمل على زخارف نباتية هندسية.

وصنع العرب الألوان من مواد مختلفة، منها ما هو مصنوع من مصادر نباتية كالحناء والبن والأرز والورد والأزهار، ومنها ما هو مصنوع من الأحجار الكريمة. ومن أهم الألوان التي كانت تستخرج من مساحيق الأحجار، الأخضر والأزرق اللذان كانا يستخرجان من أحجار الفيروز النفيسة.

أما المصدر الثالث لصناعة الألوان، فهو الأتربة، بعد أن تنخل وتصفى وتسحق لتصبح كالكحل، ثم تخلط بالصمغ والماء حتى تصبح جاهزة لتحلية صفحات المخطوطات. ومن الألوان أيضا التذهيب. وهناك نوعان رئيسيان في تذهيب المخطوطات، هما المطفي واللماع: أولهما يتم بلصق الأوراق الذهبية الرقيقة في مواضع التحلية، والثاني عن طريق التلوين المباشر بماء الذهب.

● هل توجد في الدول العربية نسخ مكتوبة من المصحف الشريف؟

– توجد في مصر أوراق في دار الكتب بالخط الحجازي لم تصل إلى حد مصحف كامل، وهناك نسخ قديمة جدا اكتشفت في اليمن وترجع إلى القرن الأول الهجري، تم اكتشافها فوق قبة مسجد انهار بفعل السيول، ونسخ موجودة في المكتبة الوطنية في باريس وتشمل أوراقا غير كاملة بالخط الحجازي المائل، أما الخط الكوفي فموجود منه نسخ كاملة في العالم.

ويوجد في اليمن آلاف الكتب والمخطوطات القديمة بحوزة القبائل والعائلات، وكلها مكتبات شخصية، وأغلبها تشمل فكر المعتزلة وفقههم.

التراث عند المستشرقين

د. مسعود صبري
باحث في الموسوعة الفقهية - الكويت

يعد التراث واحدا من أهم دعائم الحضارة لكل شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، ولذا نلاحظ أن كثيرا من الحروب يشن فيها العدو هجوما عنيفا على تراث الأمة التي يحاربها، إما بالإحراق، أو الإتلاف، أو الإلقاء في البحور والأنهار، كما حصل في تاريخ دخول التتار عاصمة الخلافة بغداد، رغم أن الكتب لم تكن تحاربهم، أو تقف ضدهم في شيء، وكما حصل في العصر الحديث في حرب الصرب على البوسنة والهرسك، حيث أحرقوا مكتبتها المركزية بما فيها من كتب ومخطوطات، ولم ينج منها إلا عشرة آلاف مخطوط، لإدراك بعض العقلاء لأهميتها، ولما رأوا من الهجوم عليها، وكما يحصل من بعض الجماعات المتطرفة في هجومها واستيلائها على بعض المدن العربية الآن.



إن التراث لا يمثل شيئا صامتا في حياة الشعوب، بل هو قلبها النابض، ولسانها الناطق، وسلاحها الحامي، وغذاؤها الذي به تقوم عليه حياتها. ولذا كان للمحتلين دائما عناية فائقة بتراث الدول التي تعاديها، كما هو حال الحركة الاستشراقية منذ نشأتها إلى اليوم، وإن تغيرت بعض ملامحها، لكن يبقى معرفة الأعداء من خلال تراثهم وتاريخهم هو المدخل الأصعب في حالة الحرب والعداء؛ لأنه أداة فهمهم، وآلة التخطيط ضدهم، في حين كان تعامل المسلمين مع تراث الحضارات الأخرى ليس من سبيل العداء، وإنما من سبيل التبادل الثقافي والمعرفي، والاستعانة به في النهضة العلمية، وهذا ما شوهد في تاريخ المسلمين منذ حركة النهضة العلمية أيام الخلافة العباسية على يد الخليفة محمد المأمون، والذي أمر بترجمة كل كتب اليونان في جميع العلوم والمعارف، إلى حد الإسراف الذي كادت خزائن الدولة معه تنفد، ومع ترجمة كتب ومعارف لم يكن نفع المسلمين بها كبيرا مقابل ما دفع في ترجمتها من مال المسلمين، ومازال المسلمون يتعاملون مع تراث الغير من باب التعارف الإنساني والتبادل المعرفي، انطلاقا من قاعدة التعاون التي أمر الإسلام بها أتباعه، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة:٢)، وانطلاقا من الحكمة المشتهرة: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها».

إن قراءة في حركة الاستشراق يمكن أن تضيء لنا بعض الملامح في علاقة الاستشراق بالتراث، ولعلها تفسر



لنا هذا الاهتمام من جانبهم، وهذا الانبهار من العالم الإسلامي بجهد المستشرقين في الاطلاع وخدمة التراث الإسلامي، حتى أقيمت كثير من الندوات والمؤتمرات له، وأنفقت ملايين الدولارات من أموال الدول الإسلامية دعما للمستشرقين، حتى بات العمل في خدمة التراث مدخلا جيدا للدعم المالي عند بعض المستشرقين من الدول الإسلامية الغنية، وهو إحسان ظن من المسلمين بهؤلاء المستشرقين باعتبار أنهم يخدمون تراث الأمة، وانبهارا بالسيد الغربي صاحب الحضارة، دون إدراك أو وعي لحقيقة العمل الاستشراقي وأهدافه على نحو يمحص لنا ذلك التوجه بكل أبعاده المتشابكة والمعقدة، التي يختلط فيها تحقيق بعض الكتب التراثية من جانب، والاستفادة من هذا التراث الأصيل في معرفة الشعوب العربية والإسلامية من جانب آخر، بل والخروج بنتائج تقدم في أحيان غير قليلة لصناع القرار في الدول الغربية على وجه الخصوص، حيال التعامل السياسي مع الدول العربية الإسلامية، خاصة أن كثيرا من العاملين في حقل الاستشراق لهم علاقات وثيقة بوزارة الخارجية ببلدهم، وهي الوزارة المعنية بعلاقة الدولة بغيرها من الدول.

ومن الإنصاف أن نقول: إن المستشرقين ليسوا سواء، فهم أصناف متعددة، يمكن تقسيمهم كالآتي:

الصنف الأول: الاستشراق السياسي:

ويمثله المستشرقون الذين يطلعون على التراث بهدف دراسة المجتمعات الإسلامية؛ لتقديم صورة عنهم وعن أفكارهم ومبادئهم وعقولهم لدولهم للمساندة في تقديم صورة لطبيعة التعامل مع تلك الدول، والمقصد هنا هو مقصد سياسي.

الصنف الثاني: الاستشراق الديني:

ويمثله مستشرقون يدرسون الإسلام وتاريخ الدول العربية بقصد الطعن في الإسلام والتاريخ والهوية، وحفلت كتابات المستشرقين بكثير من هؤلاء، ومن نماذج هؤلاء ما كتبه «جولد تسيهر»، و«ول يورانت»، و«فان فلوتن»، وغيرهم، وهي كتابات جل اهتمامها نقد الإسلام والطعن فيه، والتشكيك في رسالته وأحكامه، بل والكذب والتدليس على الإسلام والمسلمين وتاريخهم وتاريخ خلفائهم وتاريخ وأخلاق المحدثين والفقهاء، وقد قام كثير من الأساتذة بالردود العلمية التي تبين زيف كتابات هؤلاء، وإن فتن بهم بعض المفكرين من المسلمين.

الصنف الثالث: الاستشراق الكسبي:

ويمثله مستشرقون يدرسون الإسلام وتاريخه حسب الطلب، وحسب الأهداف التي توضع لهم، لأنهم يعتبرون أن هذا العمل والتخصص هو مصدر العيش والاسترزاق لهم.

الصنف الرابع: الاستشراق العلمي

ويمثله مستشرقون يدرسون الاستشراق من الناحية العلمية البحتة، يحاولون قدر المستطاع نقد وتحليل الكتابات التراثية بحيدة

وإنصاف، وهم يمثلون الفئة الأقل في المستشرقين، ومنهم من يأخذ موقف الحياد، ومنهم من ينصف، فينصر حين يرى الانتصار، وينتقد حين يرى النقد واجبا.

ملاحظات منهجية على العمل الاستشراقي في التراث

ومما يلاحظ على العمل الاستشراقي ما يلي:

عدم التقيد بالمنهج العلمي في الكتابة

فمما هو معلوم لدى كل دارس في الدراسات الأكاديمية أن كل بحث مهما كان لونه أو نوعه له أصول ينبني عليها، وإلا فلا وزن له في الدراسات الأكاديمية، ومن ذلك:

النقل عن المصادر الأصيلة

فكثير من كتابات المستشرقين تنقل عن المصادر الوسيطة التي لا تعبر بالأصالة عن المنقول، وتنسبه إلى أصحابه، مع أنهم لم يرجعوا إلى كتابات المؤلف نفسه مع وجود كتبه، ولكنهم ينقلون عمن كتب عنه، ويحاكمون المتحدث عنه، سواء أكان فقيها أو محدثا، أو عالما في أي تخصص على ما نقل عنه، لا على ما قاله هو بنفسه، وهذا يطعن في كثير من الكتابات الاستشراقية التي تخلت عن النزاهة العلمية والحيدة والنصفة فيما يكتبون عن رجالات الإسلام.

التصحيف في النقل

وهو نقل المعنى عن صاحبه بمرادهم هم لا بمراده هو، دون نقل النص بعينه، ولكنهم يصوغون العبارات بمعان غير الواردة في النص عن الإمام أو الفقيه، ويفعلون كما قال الله تعالى عن أهل الكتاب ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦).

فمن أمثلة ذلك، ما نقله المستشرق «جولد تسيهر»، من قوله: ويقول وكيع عن زياد بن عبدالله البكائي (أحد المحدثين): «إنه مع شرفه في الحديث كان كذوبا».

والنص الأصلي هو كما جاء في كتاب التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع (٣/ ٣٦٠) زياد بن عبدالله ابن الطفيل البكائي الكوفي، سمع ابن إسحاق ومغيرة، وقال ابن عقبة السدوسي عن وكيع: هو أشرف من أن يكذب، قال دلويه: مات سنة ثلاث وثمانين ومائة. فحرف جولد تسيهر القول من «أشرف من أن يكذب»، إلى: «إنه مع شرفه في الحديث كان كذوبا».

ومن تحريفات جولد تسيهر أيضا في نفس المجال، اتهامه للإمام الزهري



بأنه كان «مستعدا لأن يضع الأحاديث لبني أمية، وأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية، ولم يكن الزهري من أولئك الذين لا يمكن الاتفاق معهم، ولكنه كان ممن يرى العمل مع الحكومة، فلم يكن يتجنب الذهاب إلى القصر، بل كان كثيرا ما يتحرك، في حاشية السلطان، بل إننا نجده في حاشية الحجاج عندما ذهب إلى الحج، وهو ذلك الرجل المبغض ...» إلخ.

فالزهري لم يكن مع الحجاج بن يوسف الثقفي في حاشيته حين حج، وإنما كان مع عبدالله بن عمر، حين اجتمع مع الحجاج.

والنص الصحيح ورد في كتاب «تهذيب التهذيب»، لابن حجر (٩/ ٤٥١)، ونصه:

وقال الذهلي لست أدفع رواية معمر عن الزهري أنه شهد سالما وعبدالله بن عمر مع الحجاج في الحج، فقد روى ابن وهب عن عبدالله العمري عن الزهري نحوه وروى عنبسة عن يونس عن ابن شهاب قال: وفدت إلى مروان وأنا محتلم، قلت رواية معمر التي أشار إليها أخرجها عبدالرزاق في مصنفه عنه، ولفظه: كتب عبدالملك إلى الحجاج أن اقتد بابن عمر في المناسك، فأرسل إليه الحجاج يوم عرفة: إذا أردت أن تروح فآذنا، فراح هو وسالم وأنا معهما، وقال في آخره: قال ابن شهاب وكنت صائما، فلقيت من الحر شدة.

ولقائل أن يقول: إن بعض التحريفات ربما جاءت من جهة الترجمة، لأنهم لم يكونوا يجيدون العربية كأهلها، وهي شبهة واهية، لأن جولد تسيهر يجيد العربية بطلاقة، ومع افتراض أنه لم يكن يجيد العربية، فهذا يعني أنه ليس أهلا لدراسة علوم الإسلام والعربية، وبالتالي فيترك كل ما

كتب، لأنه لم يكن متخصصا.

وليس التدليس المنقول عن جولد تسيهر يقف عنده، بل هو مشتهر جدا في كتابات كثير من المستشرقين، خاصة فيما أسميناه «الاستشراق الديني».

فكتابات المستشرقين ينقصها المنهجية العلمية في الدراسات الأكاديمية، فكثير منهم لم يكن يتحلى بأدوات البحث العلمي المنصف، أو أنه تخلى عنها طواعية، وإن لم يكن كل المستشرقين كذلك.

رفض تقييم العمل الاستشراقي

ومما يلاحظ على الكتابات الاستشراقية أنهم يضيقون ذرعا بنقدها، فهم بزعم الحرية يرون أن هذا عمل علمي، وأنه من حقهم كمستشرقين أن يكتبوا عنا ما يشاؤون، دون أي نقد من أحد، لأن هذا النقد يمثل تعطيلا للحركة العلمية الاستشراقية، ولأنه يمثل قيدا كبيرا على الحرية الفكرية، فهم يرفضون تقييم العمل الاستشراقي ولو بالمشاركة بين المتخصصين في الاستشراق من المسلمين وبينهم، ويرون ذلك تدخلا في عملهم، ونسي هؤلاء أنهم يكتبون عنا، وأنه من حقي أن أنقد كل من كتب عني، لأن من كتب عني ليس بأعلم بفكري مني.

والعجيب أنهم هم يقومون بالنقد اللاذع في كثير من الأحيان، فهم يبيحون لأنفسهم النقد لغيرهم، لكنهم لا يسمحون لأصحاب الشأن أن ينتقدوا أعمالهم عنهم!

اتجاه العمل الاستشراقي

ومما يلاحظ أن العمل الاستشراقي في ترجمة كتب الإسلام وآدابه كان موجها توجيها محددا، وحصل فيه انتقائية كبيرة في كثير من الأعمال، فهي المعيار الحاكم للكتب التي ترجمت، وعبر عن ذلك الدكتور محمود قاسم بقوله: «لقد نقلنا المستشرقون إلى أرسطو، على حين نقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين وعلومهم» (المؤامرة على الإسلام، أنور الجندي، ص ٢٠٩).

ويجيء التصوف وعلم الكلام والكتب الفلسفية على رأس قائمة الكتب التي يعنى بها الاستشراق، لأن في نشر تلك الكتب في المجتمعات المسلمة نفعا لهم بما يتماشى مع مقاصدهم في العمل الاستشراقي، فكثير مما ترجم عن الحلاج الذي حكم عليه بالكفر من قبل علماء عصره، وعن السلمي الصوفي، وابن الزيات الشاذلي، وابن عباد الرندي، وبعض الكتب عن الفرق الضالة عن الإسلام كالإسماعيلية والمفضلية وغيرهم، وبعض كتابات ابن كمونة اليهودي، وبعض الكتابات اليونانية التي ترجمها بعض علماء المسلمين، وبعض كتابات ابن سينا في الفلسفة، مع تحذير علماء الإسلام من كتاباته في الفلسفة والعقيدة، بخلاف كتاباته في الطب، وترجمة بعض الكتب التي تدخل على انحطاط أخلاق أصحابها، كتلك الرسائل التي فيها سخرية، أو المقارنة بين الجواري والغلمان، وغير ذلك مما يقل نفعه، نعم ترجموا بعض الكتب النافعة، لكنها بالمقارنة بالكتب التي لا نفع فيها لا تقارن.

كما اهتموا بكتب التراجم والتاريخ في الرتبة الثانية، وكانت كتب التاريخ حقلا كبيرا للتدليس على علماء المسلمين وخلفائهم، ووصفهم بما لا يليق بأخلاق المسلمين، فضلا عن خلفائهم، خاصة فيما يتعلق بهارون الرشيد. ومن الإنصاف أن نقول: إن بعض المستشرقين المنصفين كانت لهم ترجمات رائعة لعدد من كتب اللغة والنحو والأدب والبلاغة، لكنهم كما قال الدكتور عبدالعظيم الديب رحمه الله عنوا بالنشر في اتجاهين: تراث الفرق والإحن، وكل ما يؤدي إشاعته ونشره إلى تجديد النزاع بكل صوره، الفكري، والمذهبي، والسياسي.

الثاني: كل ما يفقدنا الثقة بماضينا وأمجادنا ورجالنا وقادتنا.

وضرب على ذلك بعض النماذج منها: احتفاء المستشرقين بكتاب «ألف ليلة وليلة»، الذي قيل عن صاحبه: كذاب يأتي بالعجائب والغرائب، فقد كتبوا عنه في «دائرة المعارف الإسلامية» خمسا وثلاثين صفحة كاملة، وأن نحو عشرين من أعلامهم أصدروا أبحاثا عنه، ما بين دراسات وترجمات وتعليقات، واعتنوا به عناية فائقة في إخراجه، ونشره وإذاعته كتابة وصحافة وإذاعة وإعلاما، وكتبت عنده الدراسات الأدبية عندهم، وتعدى إلى دراسة التاريخ وتاريخ الفكر من فقه وتفسير وعقيدة، ومن ثم استشرى خطره، وصار ما فيه من طرائف وغرائب أحكاما ثابتة، وقضايا مقررة، يستند إليها في الطعن على السنة والفقهاء والقضاة.

إننا مع العمل الاستشراقي العلمي الجاد عن تراثنا، نفتح له أبواب التعاون، وهو من قبيل التواصل الفكري والحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وكل حضارة إنسانية، على أن تلتزم المنهج العلمي في الكتابة الذي تعارفت عليه كل المؤسسات الأكاديمية، وأن يكون خارج الإطار السياسي، أو العداء الديني، فقد تقرر في كتاب ربنا حرية الاعتقاد للشعوب، على أساس قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون:٦)، فتكون دراسة التراث وصلا حضاريا بما يخدم الإنسانية؛ على دعائم ومعايير العلم النافع والعمل الصالح.

التراث.. إشكالية المصطلح والقراءة



السنوسي محمد
باحث وصحفي-مصر

قضية التراث وما يتصل بها – تعريفا وقراءة وإحياء ومقارنة – هي من القضايا التي أخذت حيزا كبيرا من حياتنا الفكرية المعاصرة، والتي يتحدد بناء عليها موقفنا من قضايا عدة، تتفرع عنها وتتصل بها. وهي – إضافة لذلك – من القضايا التي ثار حولها لغط كثير؛ إذ إن طرح النقاش أو الجدال حول قضية التراث قد جاء في سياق «المواجهة الحضارية الشاملة، التي جاءت بها أوروبا إلى بلادنا حاملة معها نواتج نهضتها، ووسائل تقدمها.. وأصبحت القضية المطروحة على العقل المسلم بإلحاح: كيف نواجه التحدي ونواكب العصر؟ هل نعوض مركب النقص، ونعالج هذه الأزمة النفسية، ونردم فجوة التخلف، بتبني الثقافة والتقنية الغربية» (١).

وتنبع أهمية «التراث» من كونه «الهوية الثقافية للأمة، والتي من دونها تضمحل وتتفكك داخليا، وقد تندمج ثقافيا في أحد التيارات الحضارية والثقافية العالمية القوية» (٢).

وهذه الأهمية للتراث لا تقتصر على ما يتصل بالأمة الإسلامية، بل هي «قانون حضاري» يشمل كل الأمم، فلكل أمة تراثها الذي يشكل دورا محوريا في تكوين هويتها، إذ «لا هوية للذات بغير الاستناد إلى تراثها» (٣). ولذا فإن «الشعوب لا تستعيد في وعيها – ولا يمكن أن تستعيد – إلا تراثها، أو ما يتصل به، أما الجانب الإنساني العام في التراث البشري كله، فهي تعيشه داخل تراثها لا خارجه» (٤).

مفهوم التراث

تشير مادة «التراث» لغويا إلى ما يورث عن الآباء من مال أو جاه (٥)، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعنى المال الموروث، في قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ (الفجر: ١٩) (٦). أما مصطلح «التراث» في الاستخدام الفكري فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا؛ لأنه لم يكن معروفا لدى المسلمين على النحو المستخدم به حديثا، إنما هو مصطلح وافد من البيئة الغربية، ومحمل بدلالات خاصة بتلك البيئة، ومن ثم نشأ الاختلاف حوله حينما وضع في البيئة الفكرية الإسلامية.

و«التراث» بصفة عامة يمكن تعريفه من «زاويتين: تراث السلوك والعادات والقيم غير المكتوبة؛ وتراث الإبداعات الفكرية والفنية والأدبية، المكتوبة أو المسجلة والمرئية المحفوظة» (٧).

أما التراث داخل الخطاب النهضوي العربي الحديث والمعاصر، فيقصد به بصورة أساسية: «الجانب الفكري في الحضارة العربية الإسلامية: العقيدة، والشريعة، واللغة، والأدب، والفن، والكلام، والفلسفة، والتصوف» (٨).

التراث والأصالة.. والمعاصرة

قد يستخدم مرادفا لمصطلح «التراث» مصطلح «الأصالة»؛ ويقصد به: «وضوح الهوية، وتتبع أصولها الحضارية، وهذا يتأتى عن

طريق تمثل تراث الأمة» (٩).
أما المصطلح المقابل لـ«التراث» في الاستخدام الفكري فهو مصطلح «المعاصرة»؛ وهو يعني: «العيش في خضم العصر، والتفاعل مع العالم المحيط» (١٠).

ويلفت الأستاذ عمر عبيد حسنة النظر إلى خطأ من يطرحون مفهوم «التراث» أو «الأصالة» في مقابل مفهوم «المعاصرة»، متصورين أنه يلزم الأخذ بأحدهما فقط؛ لأن «الحقيقة البادهة: أن لا معاصرة دون أصالة، ولا أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة» (١١).

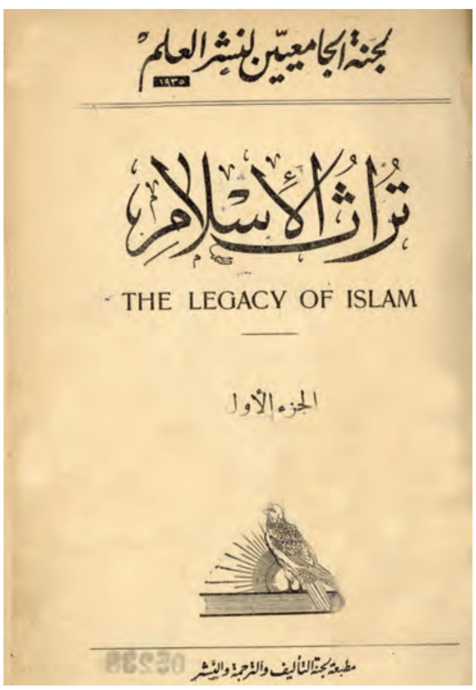
ثم يتساءل: هل المواكبة للعصر، وقبول التحدي يفقدنا الهوية، ويؤدي لضياع الذات؟ أم أن الأساس الصحيح، والتجربة التاريخية (الأصالة) تعطينا نوع أمن، وتجعلنا قادرين على النزول إلى الساحة استجابة لخطاب التكليف، وتسلحنا بالمقاييس الصحيحة للقبول والرفض، والقدرة الهاضمة للثقافات والمنجزات الحضارية، دون الذوبان أو الخوف؟! (١٢).

التراث.. والقرآن والسنة

إذا كانت الأمة الإسلامية قد انبعثت في الوجود مع نزول القرآن الكريم، وإذا كانت علومها المختلفة قد ولدت من رحم هذا الكتاب المحفوظ من التبديل والتغيير، حينما تفاعلت الأمة مع كتاب ربها - فهما واستنباطا وتطبيقا - حتى نشأت وتألقت عشرات العلوم والمعارف، لاسيما حين نشطت حركة التدوين في منتصف القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع.. فإن هذه النشأة وهذا التفاعل كانا سببا رئيسيا في حدوث الاختلاف حول مفهوم «التراث» ومضامينه، وهو الاختلاف الذي يتبلور في السؤال التالي:
هل يدخل القرآن الكريم والسنة النبوية في إطار التراث مع بقية العلوم الأخرى، أم نستثنيهما لأنهما يتصلان بالوحي المعصوم، غير خاضعين للفعل الإنساني؟

• الرأي الأول ذهب أنصاره إلى أن «التراث الإسلامي» هو ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة وثقافة وقيم وآداب وفنون وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية، ومن ثم فهو يشتمل على الوحي الإلهي (القرآن والسنة). وإن كان أنصار هذا الرأي يفرقون في النظرة والتعامل بين الوحي، فهو لا يقبل الانتقاء والاختيار منه، ولا محاولة تطويعه للواقع، وبين المنجزات البشرية الحضارية والثقافية، فهي قابلة للانتخاب والتوظيف، وفق الرؤية المعاصرة، وحسب الحاجة والمصلحة (١٣).

ويرى هؤلاء أن القول بالفصل بين القرآن والسنة باعتبارهما وحيا إلهيا، وبين النتاج الثقافي والحضاري في التراث، قد يكون الغرض منه أن يتم «الانتقاء والنقد بحرية دون المساس بالعقيدة الدينية». ولذا فهم يؤكدون أن هذا القول «يبعد عن واقع المشكلة الحقيقية؛ لأن الفصل غير ممكن عمليا، ولأن النقد يمكن أن يتعرض للعقيدة والشريعة من



خلال نقد قيم التراث المستمدة من الوحي الإلهي» (١٤).

• أما الرأي الثاني فيذهب القائلون به إلى عدم دمج الوحي بالتراث، ويرونه مفارقا له؛ لأن التراث في اعتقادهم «إنجاز إنساني خالص، أو مبدعات إنسانية يكون الإنسان فيها هو الصانع، وهو المورث للآتي بعده. بتعبير آخر: لا تراث إلا ما هو عرضي إنساني زماني، ولا مورث إلا ويكون عرضيا إنسانيا زمانيا. وهذا يعني أنه لا مدخل ذاتي للأمور الإلهية في دائرة التراث» (١٥).

فالتراث حسب رأيهم يشتمل في نهاية التحليل على ثلاثة عناصر: العلوم، والمصنوعات، والقيم. وهم يقصدون - من تحديد التراث على هذا النحو - توضيح أن العلاقة بين «التراث» و«المقدس» علاقة مصطنعة تماما، نشأت من توهم دخول القرآن والسنة في التراث باعتبار أنهما - بحسب هذا التوهم - من العناصر المكونة للتراث، مما أضفى على التراث طابع «المقدس».

ولذا فهم يؤكدون أن توهم دخول القرآن والسنة في التراث هو مجرد وهم؛ لأن القرآن ليس هو علوم القرآن، ولأن علم أصول الدين أو الفقه أو أصول الفقه ليست هي الدين نفسه، فهذه العلوم جميعا هي «كلام» تاريخي على الدين، وعلى الوحي. وهي بهذا الاعتبار تاريخية إنسانية، أما الوحي نفسه فهو الإلهي، وهو المجاوز للتاريخ. تلك العلوم تراث أما الوحي فليس بتراث (١٦).

• ويمكن أن أعقب بالقول: إن الخلاف بين هذين الرأيين ليس ذا بال؛ لأنهما يتفقان على أن منهج التعامل مع الوحي يختلف اختلافا جذريا عن التعامل مع غيره، سواء أدخلنا القرآن

والسنة تحت مظلة «التراث»، أم أخرجناهما منها.
وبالتالي، يمكن أن نعد هذا الخلاف من باب التأكيد والتنبيه على حقيقة الفروق بين الوحي من ناحية، والذي هو متجاوز للزمان والمكان، ويجب له التسليم والخضوع، وبين المنجزات البشرية

حول موضع القرآن الكريم والسنة النبوية من مفهوم «التراث» ومضامينه، فإن هناك قراءة مزورة للعلاقة بينهما، تلقي بظلال قاتمة على مفهوم «التراث».
وهي قراءة المستشرقين، ومن دار في فلكهم، الذين يجمعون في سياق واحد بين القرآن والسنة،

الديني: التوارة والإنجيل، وقد يكونون معذورين في ذلك، بسبب ما دخل على هذه المصادر من تحريف، وما ظهر فيها من تناقض؛ لأنها دونت بعد انقطاع زمني كبير من عهد أنبيائها، ولم تخضع عند جمعها وتدوينها لمثل ما التزم به جامعو السنة النبوية من تدقيق



حوله من ناحية أخرى، والتي هي متأثرة بزمانها ومكانها، ونقبل منها بقدر ما تقترب من الوحي، أما ما خالف الوحي فمردود على قائله.
ولذا صح عن الشافعي رضي الله عنه قوله، الذي صار بمثابة قاعدة لميزان التراث وغربلته: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وفي رواية: «إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث، فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي الحائط».

التراث.. والقراءة المزورة

بالإضافة لهذين الرأيين السابقين

وبين العطاء البشري المستمد منهما، لا بقصد التأكيد على «ربانية» ونقاء التراث الإسلامي، أي رفع التراث البشري قريبا من المصدر الإلهي، بل بقصد أنسنة الوحي الإلهي، وإخضاعه للمناهج والأدوات التي يتم التعامل بها مع النصوص الأدبية والفكرية، أي إنزال الوحي من مرتبته العليا السامية إلى مستوى العقول البشرية القاصرة، التي لا تسلم من غبش في الرؤية، وتخليط في المنهج، وزيغ في القصد.
هكذا تعامل الغربيون مع تراثهم

وتمحيص.
وهكذا يراد لتراثنا أن يتم التعامل معه، نقدا وقبولا ورفضا، دون أي اعتبار للوحي المحفوظ من التحريف والتبديل، المنزه عن التناقض والاختلاف.
فعلى سبيل المثال، يقدم صاحب «التراث والتجديد» رؤية زائفة للتعامل مع التراث، تحتفظ له بأهميته ومصطلحاته من حيث الشكل، لكن تفرغه من مضمونه ومحتواه؛ حتى لتزعم أن «الله: لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح، أي إنه تعبير

أدبي، أكثر منه وصفا لواقع، وتعبير إنشائي، أكثر منه وصفا خبريا» (١٧)!

وتهدف تلك المحاولة الزائفة إلى «التحرر من السلطة بكل أنواعها، سلطة الماضي وسلطة الموروث، فلا سلطان إلا للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه، وتحرير وجداننا المعاصر من الخوف والرهبة والطاعة للسلطة، سواء كانت الموروث، أو سلطة المنقول» (١٨).

ويعقب د. عمارة على هذا التخريب لتراثنا، قائلا: هنا تطالعنا «آلهة التنوير الغربي» لتحل محل الموروث - كل الموروث - فلا سلطان إلا للعقل والمادة، وهي محاولات تسير على درب التنويريين الغربيين الذين «أنسنوا» كل الإلهيات، بحيث يتم التخلي عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة، من مثل: الله، الرسول، الدين، الجنة، النار، الثواب، العقاب، «في علم أصول الدين؛ لأنها قطعية.. ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة»؛ فكل ما يجاوز الحس والمشاهدة، وكل ما لا يتأنسن، يجب تأويله بل والتخلي عنه وإلغاؤه (١٩).

نحو قراءة صحيحة

في مقابل ما يمكن أن نسميه القراءة الجامدة للتراث والقراءة المزورة له، تبدو الحاجة ماسة إلى قراءة أخرى صحيحة منصفة له، بحيث:

• تدرك أولا أن للوحي - قرآنا وسنة - دورا محوريا أساسيا في تكوين تراثنا العريض الممتد، وفي تشكيل عقلنا ونموذجنا المعرفي.

• وتفهم ثانيا أن هذا «الوحي» ليس على مستوى واحد، فمنه ما هو قطعي الثبوت والدلالة، وهذا النوع من النصوص قليل جدا بالنسبة إلى سائر النصوص، ولا مجال فيه للاجتهاد. كما أن منه ما هو قطعي الثبوت، ظني الدلالة، وظني الثبوت، قطعي الدلالة، وظني الثبوت والدلالة، وهذا فيه مجال للاجتهاد المنضبط بآليات فهم النص القرآني والنبوي. إضافة إلى ذلك، توجد وقائع لم ترد فيها نصوص، ويسميها د. القرضاوي بـ «منطقة الفراغ التشريعي»، وهي المنطقة التي تركتها النصوص- قصدا - لاجتهاد أولي الأمر والرأي، وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة، ويرعى المقاصد الشرعية، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهي (٢٠).

• وتستوعب ثالثا أن العلماء قد أوسعوا «منطقة الفراغ التشريعي» - وغيرها مما هو محل للاجتهاد - تنظيرا وتقعيدا ودرسا، ومن غير المعقول أن نرمي وراء ظهورنا جهودهم التي تراكمت عبر قرون متطاولة! لاسيما وأن أحدا لم يزعم العصمة أو القداسة لعالم أو مفكر، فلا عصمة إلا لرسل الله وأنبيائه عليهم جميعا الصلاة والسلام.

• وتعي رابعا أن «التراث» و«المعاصرة» هما وجهان للنهضة الراشدة، لا غناء بأحدهما عن الآخر.

وتبقى الأمانة معلقة برقابنا تستحثنا على مواصلة طريق الاجتهاد والإبداع، مستفيدين من تلك الثروة والآليات والمناهج، مطورين لها، مشدودين دائما إلى النص القرآني والنبوي ومقاصدهما، غير متجاوزين للثوابت والقطعيات، وغير مسفهين لمن سبقونا على الدرب، وغير منقطعين عن الاستفادة مما عند غيرنا في إطار رؤيتنا وثوابتنا.

حينئذ نكون قد أحسنا قراءة «التراث» قراءة صحيحة، وأدينا حقه وأمانته عندنا، وقمنا بواجبنا كما ينبغي نحو واقعنا المعاصر وتحدياته.

الهوامش

(١) من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب: «التراث والمعاصرة»، د. أكرم ضياء العمري، ص: ٨، ٩، سلسلة «كتاب الأمة»، العدد رقم ٦٧، ط١، ١٤٠٥هـ، قطر.
(٢) د. أكرم ضياء العمري، «التراث والمعاصرة»، ص: ٣٥.
(٣) د. طه عبدالرحمن، «سؤال المنهج»، ص: ٥٩، ط١، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت.
(٤) د. محمد عابد الجابري، «نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي»، ص: ٥٢، ٥٣، المركز الثقافي العربي، ط٤، ١٩٨٥م، الدار البيضاء.
(٥) راجع «المعجم الوسيط»، ص: ١٠٦٦، ١٠٦٧، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م، مكتبة الشروق الدولية.
(٦) جاء في «التحرير والتنوير» لابن عاشور: «والتراث: المال الموروث، أي: الذي يخلفه الرجل بعد موته لوارثه».
(٧) سامي خشبة، «مصطلحات فكرية»، ص: ٦٦، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧م.
(٨) د. محمد عابد الجابري، «التراث والحداثة: دراسات ومناقشات»، ص: ٣٠، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩١م، بيروت.
(٩) د. أحمد صدقي الدجاني، «فكر وفعل»، ص: ١٢٢، دار المستقبل العربي، ط١، ١٩٨٥م.
(١٠) المصدر نفسه، ص: ١٢٢.
(١١) من تقديمه لكتاب: «التراث والمعاصرة»، د. العمري، ص: ١٣.
(١٢) المصدر نفسه، ص: ١٣، ١٤.
(١٣) د. أكرم ضياء العمري، «التراث والمعاصرة»، ص: ٢٧، ٢٨، باختصار يسير.
(١٤) المصدر نفسه، ص: ٢٤.
(١٥) د. فهمي جدعان، «نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى»، ص: ١٧، دار الشروق، ط١، ١٩٨٥، عمان، الأردن. باختصار يسير.
(١٦) المصدر نفسه، ص: ١٧- ١٩، باختصار وتصرف يسير
(١٧) د. حسن حنفي، «التراث والتجديد»، ص: ١١٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٢، بيروت.
(١٨) المصدر نفسه، ص: ٥٢.
(١٩) د. محمد عمارة، «الإسلام بين التنوير والتزوير»، ص: ١٩٠، ١٩١، دار الشروق، ط١، ١٩٩٥م. باختصار وتصرف يسير.
(٢٠) د. يوسف القرضاوي، «الخصائص العامة للإسلام»، ص: ٢٢٣، مكتبة وهبة، ١٩٨٩. باختصار وتصرف.

عندما تنتهي ملايين المخطوطات حرقا أو غرقا:

التراث في أتون الحروب

علاء عبدالفتاح

«التراث في أتون الحروب» كتاب يأخذك في سياحة فكرية عبر الأزمان، منذ القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا.. كتاب أصدره معهد المخطوطات العربية بالقاهرة أخيرا لمؤلفته الدكتورة بغداد عبدالمنعم، التي ترصد لنا بدقة شديدة ما الذي جرى لمخطوطاتنا الثمينة التي وضع فيها الباحثون العرب خلاصة فكرهم، فإذا بها تلقى في النهر أو تحرق، وتضيع هباء منثورا، لأن جيوشا جوفاء - بشهادة مؤرخي الغرب أنفسهم - رأت فيها آلات فكر يعجز أعتى المقاتلين فيها عن صناعة مثلها.

من بغداد إلى الشام إلى الأندلس.. مئات الآلاف من المخطوطات نسفت نسفا، وفي أفضل الحالات سرق ما تبقى منها ليتجمد في متاحف الغرب.

والسؤال ذو الشجون: ترى ما حال أمتنا لو بقيت تلك المخطوطات سليمة في بلادنا؟ ماذا لو أنها طبعت أو أعيدت طباعتها واستفاد منها الباحثون المحدثون؟!

تقع الدراسة في ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط، وفي ثلاثة فصول، فصلها الأول لعاصمتي التراث المخطوط في سورية (حلب ودمشق)، وفصلها الثاني لفلسطين، وفصلها الثالث للعراق.

وتبنت الدراسة - كما يقول د. فيصل الحفيان في مقدمتها - مقولة أساسية هي أن الحرب على الإنسان لا تنفك أبدا عن تراثه، وأن القتل كما يتوجه إلى الحياة يتوجه أيضا بالدرجة نفسها من القصد والعنف إلى عقله، وتحديدا إلى ذاكرته الحضارية (تراثه).

وبحسب الحفيان، فإن الباحثة ترجع بفكرة الاعتداء على التراث إلى القرن الخامس الهجري، الذي جرت فيه أول عملية إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، مؤكدا أن التراث الفكري العربي وقع تحت رحى التاريخ: الإحراق والإغراق في الشام والقدس وبغداد وقرطبة وغرناطة، وكان الأمر يتم بمراسيم ملكية! ورحى الحاضر الذي علا فيه صوت السرقة بعد أن نضج وعي الآخر بأهمية التراث، وكان القصد أيضا إلى المناطق نفسها: سورية وفلسطين والعراق.

ويضيف: صار واضحا أن سرقة التراث هي البوابة لسرقة التاريخ والجغرافيا جميعا، إضافة - بالطبع - إلى سرقة الإنسان نفسه.

ترجع د. بغداد ما حل بأمتنا إلى الوسطية المكانية التي تتمتع بها المنطقة العربية في العالم، والجسرية التاريخية العميقة التي حملتها حضارتها، باعتبارها سمات وضعتها أمام تناقض مستمر، طرفا هذا التناقض هما الحرب والمعرفة، الحرب والتراث، ومن ثم الحرب والتراث المخطوط، مفصلة بالقول «أما الحرب فقد أتتها من شرقها الآسيوي البعيد نسبيا، ومن غربها الأوروبي القريب. وأما التشكلات المعرفية وتناميها، فكانت أداءها الحضاري القائم دوما في بنيتها. وهذه الوسطية وهذا «التجسير» الذي كان قدرها، جعلا منها حضارة من دون عقد ولا توجسات، وأنتجا جانبها المنفتح على الآخر، وربما كان ذلك سببا من الأسباب التي أوقعتها في مآزق كبيرة، فقد بدأ الاستحواذ والحرث في تراثها المخطوط بتربته الخصبة البكر، ومن ثم تعرضت للطمس، فاختفى الزمن الحضاري العربي في التاريخ «العالمي» الذي حرره الغرب معتمدا منجزاته التاريخية بأصولها اليونانية - اللاتينية، ومستبعدا المنجزات العربية السامقة في عملية إنكار غير مسوغ لم يعرف العالم مثلها حتى الآن».

وتخلص الباحثة إلى أن لدينا الملايين من كتبنا لم تدن بعد من المطبعة، لما تزل بخطوط بأحبار النساخ، أو بخطوط مؤلفيها، أو لعلها قد تكون نسخة وحيدة باقية.. بعض هذه المخطوطات تجاوز عمرها ألف عام.

أمثلة محددة

ويطرح الكتاب أمثلة محددة، فيذكر أنه في نهايات القرن الخامس الهجري هاجمت الحملة الصليبية الأولى (٥٠٣هـ/١١٠٩م) مخطوطات مكتبة بني عمار في طرابلس الشام، فأحرقتها، ثم أغرقتها في النهر (نهر أبي علي)، وكان ذلك أول وأضخم إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، فقد قضي على مئة ألف مخطوط من المجاميع الكبيرة الواسعة في مجالات العلوم والآداب والفلسفة والفلك، وهي مخطوطات نفيسة، وصفها المؤرخون بفخامة التجليد وجودة الزخرفة والتذهيب.

وخلال مئتي سنة استغرقتها هذه الحملات جرى تدمير كثير من خزائن التراث المخطوط في المدائن الشامية، ومنها خزائن المسجد الأقصى في القدس وسائر المدن الفلسطينية، وكانت الصدمة الأولى حين دخل الصليبيون مدينة القدس في سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م) فأجهزوا على بنيتها البشرية والثقافية.

المصير نفسه

ويحكي الكتاب أن الصليبيين قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، فيهم جماعات كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، الذين جاوروا بذلك الموضع الشريف، وكان مصير المخطوطات العربية في معظم مدن بلاد الشام هو مصير مخطوطات القدس.

المغول

ومن بين أهم الخزائن التي دمرتها الحروب الصليبية، خزانة «أسامة بن منقذ» صاحب قلعة شيزر قرب حماة في سورية «فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة»، وقبل أن تنحسر الحملات الصليبية نهائيا عن المشرق العربي، وفي منتصف القرن السابع الهجري، اجتاح المغول بغداد، وأغرقوا مخطوطاتها في دجلة. ومع نهاية القرن التاسع الهجري تشهد أوروبا في جزئها الجنوبي إعداما هائلا جرى فيه إحراق مليون مخطوطة عربية وغير عربية من خزائن قرطبة وغرناطة أمام الملكين المنتصرين فرديناند وإيزابيلا.

سرقة مستمرة

توضح الباحثة أن اهتمام الأوروبيين ازداد بالتراث العربي المخطوط بعد وجودهم الطويل في بلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية، وبدأوا في عمليات الاستحواذ عليه بأساليب وطرق متعددة، وقد ارتبط هذا الأمر بالقرارات العليا في دولهم، وعلى سبيل المثال نقل لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م) معه من دمياط مخطوطات عربية وقبطية، واحتذى حذوه كثيرون من أمراء الفرنسيين وأغنياء حجاجهم الذين رافقوا الملك في زيارته الأماكن المقدسة، في حين وقع عدد آخر من خزائن المخطوطات العربية في أتون حروب جديدة، وقامت المدفعيات هذه المرة بقصف المخطوطات مباشرة.



المكتبات البغدادية

مع حلول القرن السابع الهجري كانت البنية العسكرية للدولة العباسية في

أدنى مستوياتها، غير أن المكتبات البغدادية كانت قد امتلأت بمخطوطاتها التي تمثل مجمل المنتج المعرفي في كل أنحاء المناطق التي انتشر فيها الإسلام وانداحت فيها الثقافة العربية، حتى إننا نستطيع القول إن الدولة العباسية تحولت قبيل سقوطها إلى دولة «مكتبة»، فغدت المكتبة تمثلها أكثر من أي شيء آخر. ويمكن أن نلاحظ أمرا غاية في الفرادة، وهو أن العمل الوحيد الذي قام به الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله وخيول المغول تقترب حثيثا من بغداد، هو إنشاء عدة خزائن ضخمة للكتب (المخطوطات).

وكانت العقوبة الأولى التي أنزلها المغول بالدولة العباسية حين اجتاحوا بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) هي إعدام مخطوطاتها غرقا في نهر دجلة، فقد استشعروا أن في هذا التراث تكمن «شيفرة» الإبداع وسر هذه الحضارة، فقرروا تدميره في لحظة انتصارهم.. قتلوا الخليفة، وقتلوا جيشا من المبدعين والكتاب والفنانين.. كانت المكتبات مهيبة بمخطوطاتها، فبدت لهم وكأنها تفضح فراغهم وهي ترمقهم بثقلها المهول.. كانت تلك عقدة العسكري الأجوف «المنتصر» أمام مدينة حبلى بالحضارة.

ويستمر الكتاب ساردا بدقة شديدة تاريخ تراثنا المنهوب أو المحروق في دراسة بديعة قلما جادت المكتبة العربية بمثلها.

٤٤ جدولا عبر التاريخ والجغرافيا

حرصت الباحثة على أن تسجل عبر ثلاثية الجغرافيا والتاريخ والحاضر أماكن المخطوطات، وما تعرضت له من أخطار عبر ألف عام، وما آل إليه حالها اليوم، وقد سيطرت على معجمها اللغوي - للأسف - ألفاظ الاندثار والخراب والهدم والدمار والنهب والفقد والضياع.

ومن فضائل هذه الدراسة ٤٤ جدولا سندت اللغة بالأرقام وبالعناوين المحددة وبالأوصاف الدقيقة.

الحرب	تاريخها	أثرها
الحروب الصليبية ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية	٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م	تدمير خزائن المخطوطات في القدس ودمشق وحلب وطرابلس الشام، ثم نهبها في ما بعد
معركة حطين	٥٨٣هـ/١١٨٧م	إعادة بناء خزائن المخطوطات في القدس وحلب ودمشق
الاجتياح المغولي لبغداد	٦٥٦هـ/١٢٥٨م	إغراق خزائن بغداد في نهر دجلة
معركة عين جالوت	٦٥٨هـ/١٢٥٩م	تحجيم الوجود المغولي - التمكن من تأسيس بنى ومؤسسات ثقافية علمية وتعليمية على قاعدة عريضة من خزائن المخطوطات
سقوط غرناطة	٨٩٨هـ/١٤٩٢م	حرق المخطوطات في حادثة علنية مشهورة في ساحة الرملة بغرناطة. متابعة إعدام المخطوطات العربية أينما كانت في نطاق غرناطة وأريافها بواسطة محاكم التفتيش وقراراتها.

علاقة الحروب التاريخية بالتراث العربي المخطوط



سالو الحسن
باحث بجامعة نيامي - النيجر

المخطوطات العربية في إفريقيا نموذجا:

كنوز تاريخية مهددة بالضياع

يرمي هذا المقال إلى إبراز وجود التراث العربي المخطوط في إفريقيا، وبيان أماكن وجودها، ومحاولة الحكومات والأفراد والمنظمات التي تعتني بحماية هذه الكنوز لإنقاذها من الضياع، وجهود علمائها في مجال التأليف، وقد شرعت بذكر بعض الدول التي يوجد فيها هذا التراث، مبتدئا بالنيجر ونيجيريا ومالي وبوركينا فاسو كنموذج للدول الإفريقية الغربية، ليكون هذا العمل منطلقا يعتمد عليه أبناء القارة في تقويم تراثهم العربي الإسلامي الذي خلفه علماء المنطقة.

تحتضن بعض مراكز تاريخية حكومية وغيرها في إفريقيا آلافا من المخطوطات النفيسة التي تحتوي على العلوم العربية والإسلامية وغيرها من العلوم. ويذكر أن وجود المخطوطات في إفريقيا الغربية يعود إلى دخول الإسلام وانتشاره فيها، منذ فجر الدعوة الإسلامية. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن في بعض الإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا: إمبراطورية غانا (١)، وكانم برنو (٢)، وخلافة صكتو (٣)، كانت اللغة العربية لغة التخاطب والعمل، «وكانت اللغة العربية لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية في غرب إفريقيا، منذ أن رسخ قدم الإسلام فيها، وأصبحت الثقافة الإسلامية هي السائدة في المجتمع، وبخاصة في عصور الإمبراطوريات الإسلامية المذكورة» (٤). ونتج عن ذلك ميلاد التراث العربي المخطوط لوجود حركة الكتابة وتشجيع السلاطين التقليديين العلماء في دفع عجلة اللغة العربية وثقافتها إلى الأمام.

أما في النيجر، فإن أول من قام بجمع واقتناء هذه الكنوز هو بوبو هما، رئيس المجلس الوطني النيجري عام ١٩٧٤م، وجاءته فكرة جمع هذه النفائس انطلاقا من أعماله في التاريخ، وعلم الاجتماع والسلالة. حيث أدرك أهمية التراث العربي المخطوط في معرفة وإعادة كتابة تاريخ بعض القبائل في النيجر والدول المجاورة. وكانت هذه المخطوطات في مكتبه الخاص بالمجلس الوطني النيجري، قبل أن يتم نقلها إلى معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بجامعة نيامي، بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٧٤م (٤). وفي هذا العام تم فتح قسم المخطوطات العربية والعجمية التابع لجامعة نيامي، والذي كلف بمهمة المضي قدما في اقتناء المخطوطات في جميع أنحاء النيجر، والمحافظة عليها، والتحقيق وترجمة بعض النفائس منها.

وفي إطار التعريف بكنوز المخطوطات الموجودة في النيجر، قام الدكتور حسن مولاي، رئيس قسم المخطوطات العربية والعجمية بمحاولة ناجحة، متمثلة في إعداد فهرس لجميع المخطوطات الموجودة في المخزن، وبالتعاون مع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي الموجودة في لندن، تم فهرسة هذه المخطوطات البالغ عددها ما يزيد على أربعة آلاف مخطوطة، مختلفة الأحجام في ثمانية مجلدات. وبعد الانتهاء من عملية الفهرسة، قام القسم بترجمة وتحقيق بعض مخطوطات نفيسة،

منها على سبيل المثال لا الحصر: تحقيق كتاب للشيخ عثمان بن محمد ابن فودي، المتوفى في ١٢٣٣هـ-١٨١٧م بعنوان: «فتح البصائر لتحقيق وضع علوم البواطن والظواهر» (٥)، حققه وعلق عليه الدكتور سيني موموني وسالو الحسن، وتحقيق مخطوط آخر في تاريخ قبائل زرما التي تقطن منطقة تيلابيري، والجزء الشمالي لدولة مالي بعنوان: «خطوات أهل سندر»، تحقيق



الدكتور أيوب لوالي وسالو الحسن، وترجمة مخطوط آخر إلى الفرنسية: «تاريخ أبلغ وغيرها من المناطق» للشيخ عيسى بن منصور الأغلالي، وترجمه إلى الفرنسية الدكتور حسن مولاي، رئيس القسم، وتحقيق مخطوط آخر للشيخ عثمان بن محمد بن فودي بعنوان: «أجوبة محررة عن أسئلة مقررة في جواب الشيخ شيصمص بن أحمد»، قام به الدكتور أيوب لوالي، وإعداد فهرس المخطوطات التاريخية الموجودة بقسم المخطوطات، من إعداد الدكتور حسن مولاي.

وعند انعقاد المعرض الأول للمخطوطات في مدينة أغدس الواقعة في شمال النيجر عام ٢٠١٢م، بغية إخراج هذه الكنوز من طي النسيان إلى عالم الوجود، أكد الدكتور سيني موموني، رئيس قسم المخطوطات على أن الآلاف من المخطوطات النادرة والنفيسة، بعضها موجود في المراكز الحكومية، وأخرى بحوزة مواطنين في المكاتب الأسرية، لا يملكون الإمكانيات المادية والتقنية الحديثة لحفظها من التآكل والظروف الطبيعية وغيرها. وقال: إن عشرة في المائة من هذه المخطوطات معرضة للخطر، بعضها به أثر الرطوبة، وبعضها مهدد لسوء الحفظ والصعوبات التي تعترض الجهود الرسمية لإنقاذها من الضياع.

وانطلاقا من هذه الأعمال الجليلة في خدمة التراث العربي الإسلامي، فإننا نشير إلى أهمية هذه الكنوز، وضرورة الحفاظ عليها بالوسائل الحديثة.

هذا وإن قسم المخطوطات العربية والعجمية التابع لمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بجامعة نيامي بصدد تنفيذ جزء من مشروع اقتناء المخطوطات الموجودة في أيدي المواطنين في مناطق النيجر، على الرغم من قلة الإمكانات. حيث بدأ بمنطقتي مرادي وتيلابيري، وتم العثور على مخطوطات كثيرة، مكنت القسم من مواصلة الجزء التاسع من الفهرسة. وأنجز القسم ما يزيد على ٢٠٪ من ذلك المشروع الذي سيشمل جميع مناطق أخرى، لاقتناء وتزويد أصحاب المكاتب الأسرية بخبرات، لحماية كنوزهم المخطوطة من الاندثار، وعدم السماح ببيعها خارج النيجر.

وتزخر جمهورية نيجيريا الاتحادية بالمكتبات التي تشرف عليها الحكومة والمكتبات الخاصة. ومن أبرزها: مركز البحوث وجمع المخطوطات بجامعة بايرو، ويسمى هذا المركز بمركز الوثائق، تم تأسيسه عام ١٩٧٥م لمساعدة الباحثين والطلبة في جمع مواد بحوثهم وتنظيمها (٦). ويبلغ عدد المخطوطات في المركز حوالى ألف مخطوط في التاريخ والعلوم والملفات الحكومية، ومجموعة من مسجلات رئاسة المستعمرات البريطانية، ما بين عام ١٨٩٩م إلى ١٩٤٨م، وبعضها مصور على ميكروفيلم. وتنوعت مضامين المخطوطات الموجودة في مخزن المركز بين العلوم الشرعية والطب والتاريخ، وبحوث المؤتمرات العالمية في مواضيع مختلفة وغيرها من العلوم النافعة. وأغلب مخطوطات المركز فيه تنتمي إلى أسرة الفوديوية الشهيرة بنشر العلم والثقافة الإسلامية في هذا الجزء من نيجيريا الاتحادية.

ومركز التاريخ بولاية صكتو الذي أنشئ في عام ١٩٧٥م بأمر من الوزير جنيد (٧) بن محمد البخاري عام ١٩٠٦م، بغية إعادة الناس إلى تراثهم وتراث أجدادهم، ويقوم بمهمة حفظ كل ما له صلة بخلافة صكتو، ونشره وتطويره وحفظ المخطوطات وصيانتها وترجمتها، واقتناء المخطوطات الأخرى، ناهيك عن تقويمها وتوجيه الطلبة في البحث. ويمتلك المركز آلاف المخطوطات في شتى ميادين المعرفة. وللقسم علاقة التعاون مع عدة مراكز في إفريقيا، منها: قسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة نيامي، و مركز أحمد بابا في جمهورية مالي وغيرها من المراكز التي تحتضن المخطوطات.

وتوجد في المركز قائمة تحتوي على المخطوطات التي يتصفحها الباحث عند قيامه بزيارة المركز. والملاحظ أن جل هذه المخطوطات تعاني من مشكلة الحفظ، كغيرها من المخطوطات الإفريقية. والمركز بصدد إعداد فهرس للمخطوطات، بالتعاون مع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

كما يوجد قسم المخطوطات في جامعة أحمد بلو بزاريا، وهو من أقدم المراكز المتخصصة في حفظ التراث العربي الإسلامي، حيث ساهم في تأسيس العديد من المتخصصين. ويحتوي على مخطوطات قيمة ونفيسة، جمعت من شمال نيجيريا، وتم تصنيفها حسب الأسماء (٨).

أما فيما يخص المكتبات الإسلامية الخاصة، فإنه من الصعب حصرها، وحصر عدد مقتنياتها لكثرتها، وهذا راجع إلى اهتمام أهل نيجيريا بجمع الكتب وتكوين المكتبات.

المخطوطات في مالي

لا يمكن الحديث عن المخطوطات العربية في إفريقيا دون التطرق إلى المخطوطات الموجودة في مالي، وخاصة في مدينة تمبكتو، التي تحتوي على مجموعة تقدر بعشرة آلاف مخطوط، أكثرها بالعربية، وأخرى باللغات المحلية، وهي التي يطلق عليها اسم المخطوطات العجمية. ولا يستطيع الباحث بهذه العجالة إلقاء الضوء على جميع المخطوطات في مالي، ولا بيان عددها بشكل محدد لكثرتها، ولأنها أيضا محاطة بالأسطورة. أما فيما يخص وضعيتها، فإنها مهددة بالعواصف الرملية، والنمل الأبيض، وبعضها ممزق، وبعضها أيضا مهدد بآثار الرطوبة، أو متآكل الأطراف، أو مبتور البداية أو النهاية. وقد تعرضت بعض مخطوطات تمبكتو للسرقة والنهب، وهدم آثار تاريخية من قبل المجموعة الإسلامية المسلحة التي تريد تطبيق الشريعة الإسلامية في مالي.

ويعد مركز أحمد بابا (٩) من أهم المراكز التي تعتني بالمخطوطات هناك، وقد ساهمت منظمة اليونسكو في الحفاظ على مخطوطات مالي، وقامت جنوب إفريقيا ببناء المركز الجديد الذي يحتوي على المخطوطات في المركز.

أما مكتبة ماما حيدرا التذكارية، فإنها تحتوي على آلاف من المخطوطات، تم فهرسة الجزء الكبير منها، بالتعاون مع مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي. وقام مركز جمعة الماجد بدبي بتزويد المكتبة بأحدث الأجهزة للترميم ورقمنة المخطوطات، كما فعلت لبعض مراكز المخطوطات في العالم.

بوركينا فاسو

ويوجد العديد من المخطوطات في بوركينا فاسو، في مكتبات خاصة، كتبها جهابذة العلماء، منهم العلامة الحاج محمد مرحبا الذي ألف أكثر من ٥٠ مخطوطا في شتى العلوم. وقد قام الباحث كبير حسن من النيجر بإعداد رسالة الماجستير في جامعة عثمان بن محمد بن فودي حول إحدى مخطوطات الإمام محمد مرحبا في الصرف. ويمتلك قسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة نيامي أغلب مخطوطات الإمام.

الخاتمة

من خلال هذا العرض السريع حول الكنوز المخطوطة في إفريقيا، والذي لا يدعي فيه الباحث الكمال، فإنه تمكن من إلقاء الضوء على جانب من التراث العربي الإسلامي، الذي تعج به تلك القارة، وأماكن وجودها، وحالاتها المادية، وبيان أن هذه المقتنيات تمثل بمحتوياتها المعرفية الثروة الثمينة التي تعد شاهدا ناطقا على النهضة الفكرية والثقافية التي شهدتها بعض الدول الإفريقية على مر العصور، كما تعكس هذه المخطوطات مهارة علماء الأفارقة، وإبداعاتهم في شتى فنون المعرفة. فبناء على كون هذا التراث الإنساني جزءا لا يتجزأ من تراث الأمة الإسلامية، فإن الباحث أشار إلى الظروف المادية المحيطة بتلك الكنوز، وضرورة مشاركة فعالة للسلطات والمنظمات الدولية التي تهتم بالتراث، وكذلك الأفراد والمؤسسات من خلال تقديم دعم جوهري يمكن من إنقاذها، حتى لا تتعرض لمزيد من المخاطر.

الهوامش

١- إبراهيم طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة عام ١٩٧٥م، ص ١٨.

٢- الدكتور علي يعقوب: إسهام علماء الأفارقة في الثقافة العربية والإسلامية، مطبعة تنمولا- لاغوس نيجيريا، ص ٤.

٣- سالو الحسن، التراث العربي المخطوط في جمهورية النيجر، مكتبة مخطوطات أبلغ نموذجا، مجلة التواصل، العدد ٢٠، ص ١٩٧.

٤- سالو الحسن، فهرس المخطوطات العربية في مدينة أبلغ بجمهورية النيجر، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، جامعة عثمان بن فودي، عام ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، ص ١٨٥.

٥- د. سيني موموني وسالو الحسن، تحقيق المخطوط بعنوان: «فتح البصائر لتحقيق وضع العلوم البواطن والظواهر»، مطبعة ENS EDITIONS ٢٠١٢م، ص: ١٤.

٦-الطيب عبدالرحيم محمد، المخطوطات العربية في نيجيريا الاتحادية، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٤٠٧هـ-١٩٨٥م، ص١٥.

٧- المرجع السابق.

٨- ولد الزوير جنيد عام ١٩٠٦م، وتوفي والده محمد البخاري عام ١٩١٠م، فكفله عمه الوزير محمد سمبو بن أحمد. ختم الوزير جنيد القرآن الكريم في العاشرة من عمره، ثم جالس العلماء لدراسة العلوم الإسلامية. ومن علمائه إمام مسجد محمد بلو الذي قرأ عليه كتب الشيخ عثمان بن محمد بن فودي رحمه الله، والشيخ يحيى ابن الوزير خليل لدراسة الأدب والشعر العربي، ثم القاضي يحيى بن الوزير عبد القادر حيث قرأ عليه كتب الحديث. وفي عام ١٩٦١م، منحته جامعة أحمد بلو درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب.

٩- هو العلامة أحمد بابا التنبكتي، ولد عام ١٥٥٦م، ولم يوجد عالم في تمبكتو أو السودان الغربي في سعة علمه وشهرته. ومن آثاره: كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج.

(معاملة النبي ﷺ للمنافقين نموذجا)

منهج الإسلام في إخماد الفتن

عبدالعلي الوالي
باحث دراسات إسلامية

إن الباحث في علاقة النبي ﷺ مع أهل النفاق، ليلفيه حكيما، وطبيبا، يتقن كيفية التعامل مع الداء، وإنتاج الدواء المناسب له، حيث كان ﷺ يعاملهم بأساليب مختلفة، تتفق مع أفعالهم، ومدى خطورتها على الدعوة الإسلامية، وخطورتها على المسلمين، إذ كان همه الأكبر صلوات ربي وسلامه عليه هو الحفاظ على أمن واستقرار الدولة الإسلامية الناشئة، وإليك أخي القارئ الفاضل لمحة عن أساليب معاملة النبي ﷺ للمنافقين:

أولا: أسلوب الصبر وعدم الإرغام على الفعل

رغم أن بعض المنافقين كانوا يعاملون النبي ﷺ بسوء أدب، وكانوا يظهرون له أحيانا بغضهم له، ولدعوته، ويرفضون تقديم أي خدمة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله، فإننا وجدناه ﷺ يصبر على سوء معاملتهم، ولا يجبرهم على تقديم العون المادي والمعنوي للمسلمين، وإذا تتبعنا السيرة النبوية فسنقف على مشاهد كثيرة لذلك، أكتفي بعون الله تعالى بواحد منها.

ذكر صاحب الروض الأنف أن المنافق مربع بن قيظي (١) قال للنبي ﷺ حين كان عامدا لأحد: «لا أحل لك يا محمد إن كنت نبيا، أن تمر في حائطي»، بل أكثر من هذا، أخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: «والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به»، فهل كان جواب النبي ﷺ على هذا الفعل: اقتلوه، أو: اقطعوا رأسه؟ لا، لم يكن رد الرسول ﷺ كذلك، وإنما قال لما ابتدره البعض ليقتله: «دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة». (٢)

وبالتالي فيستفاد من هذا الخبر أمران:

الأول: الصبر على هذا المنافق، وعدم معاقبته على فعله الشنيع.

الثاني: عدم إجباره على مرور جيش النبي ﷺ بحائطه.

ثانيا: أسلوب الإخفاء وعدم التشهير

من الثابت أن الله تعالى أخبر النبي ﷺ بأخبار المنافقين واحدا واحدا، والدليل على ذلك قول أنس في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ (محمد: ٣٠)، قال أنس: «فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرفه الله ذلك بوحي أو علامة، عرفها بتعريف الله إياه» (٣).

ومن المعروف أيضا أن النبي ﷺ أسر إلى حذيفة أسماء المنافقين، حتى إن عمر ناشده: أأنا من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدا بعدك (٤).

لكن السؤال المطروح هنا هو: لماذا لم يخبر النبي ﷺ عن المنافقين صحابته الكرام، وترك ذلك سرا؟

ربما إن ذلك يرجع لحكم، منها:

.أن الإسلام يعلمنا كيف نحكم على ظواهر الناس، ونترك سرائرهم للخالق عزوجل.

. أن في سترهم تحفيزا على الاجتهاد في العمل، وترك أعمالهم الدنيئة، لأن كل واحد من الصحابة يخشى على نفسه أن يكون منهم، كما عبر عن ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه

. أن من كان خطر إظهار أمره أشد من خطر إخفائه، فالأولى ستره.

وهكذا. والله تعالى أعلم - لو فضح النبي ﷺ أمرهم، لأدى ذلك إلى فتنة عظمى، لأن هؤلاء المنافقين كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة، فلو كشف النبي ﷺ أمرهم لعيرت كل قبيلة غيرها بمنافقيها، وربما أدى ذلك إلى نبذهم داخل المجتمع، وذلك قد يكون سببا في عدم توبتهم.

ثالثا: أسلوب الحكم على الظواهر

لقد عامل الرسول ﷺ المنافقين الذين كان كفرهم أشد من الكفار الصرحاء معاملة المسلمين في أحكام الدنيا، فلم يفرق بينهم وبين غيرهم من صحابته رضي الله عنهم، على رغم أن سيرتهم كانت دالة دلالة لا لبس فيها أنهم يكفرون بالله ورسوله وباليوم الآخر، ولم يكونوا مؤمنين مطلقا.

وبهذا يعلم أن من أظهر الإسلام، ودلت القرائن على كفره، لا يعامل معاملة الكفار حتى يكون كفره صريحا.

وقد كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يتخذون ما يبدو لهم من القرائن الدالة على خيانة بعض الأشخاص، ممن أظهروا إسلامهم، حجة على عدم إيمانهم، ويستأذنونه في قتلهم، ويصفونهم بالمنافقين، لما يظهر لهم من أن نفاقهم نفاق اعتقادي، أي إنهم كفار، وليسوا بمسلمين. فكان رسول الله ﷺ يدافع عمن عرف صدقه وإيمانه، ويقبل عذره، ويذكر ما له من فضائل، كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، الذي كشف في رسالة له سر رسول الله ﷺ من عزمه على فتح مكة أرسلها إليهم مع امرأة، وكان ﷺ قد أخفاه ليهاجم قريشا قبل أن يستعدوا لقتاله.

فلما كشف أمر حاطب، قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال الرسول ﷺ: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» (٥).

أما من دلت القرائن على نفاقه، ولم يعلم الرسول ﷺ صدقه، وترجح له أنه منافق فعلا، فلم يكن ﷺ يدافع عنه ولا يثني عليه، ولكنه لا يقر أحدا على قتله، ويعلل ذلك بأنه قد أظهر للناس أنه من المسلمين، والإسلام يعصم دماء من أظهره وماله، فإذا أذن في قتله ظن الناس أن محمدا يقتل من آمن به (٦).

قال الإمام الشافعي رحمه الله مبينا منهج النبي ﷺ في حكمه على ظواهر المنافقين: «وفي سنة رسول الله ﷺ في المنافقين دلالة على أمور، منها: لا يقتل من أظهر التوبة من كفر بعد إيمان، ومنها أنه حقن دماءهم وقد رجعوا إلى غير يهودية، ولا نصرانية، ولا مجوسية، ولا دين يظهرونه، إنما أظهروا الإسلام، وأسروا الكفر، فأقرهم رسول الله ﷺ في الظاهر على أحكام المسلمين، فناكحوا المسلمين، ووارثوهم، وأسهم لمن شهد الحرب منهم، وتركوا في مساجد المسلمين» (٧).

رابعا: أسلوب قبول إبداء الرأي

فيما أعلم - والله أعلم - لم يثبت عن النبي ﷺ أنه منع أحد المنافقين من التعبير عن رأيه، وأحيانا كان ﷺ يقبل آراءهم، ولو مكرها.

والدليل على ذلك قصة المنافق عبد الله بن أبي مع النبي ﷺ في شأن بني قينقاع، فلما فعل بنو قينقاع ما فعلوا بالمرأة المسلمة، (٨) وهددوا النبي ﷺ، (٩) حاصرهم ﷺ خمس عشرة ليلة، حتى

نزلوا على حكمه.
فتدخل المنافق عبد الله بن أبي، ليجنب مواليه العقاب، فقال: «يا محمد أحسن في موالي»، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: «يا محمد، أحسن إلى موالي»، فأعرض عنه، فأدخل يده في درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني»، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا، (١٠)، ثم قال: «ويحك! أرسلني»، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر (١١) وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك» (١٢).
فمن هذا الخبر نستفيد ما يلي:
. أن النبي ﷺ لم يرفض أن يبدي هذا المنافق رأيه، فلم يقل له مثلا: اسكت أيها المنافق، لا حق لك في الكلام.
ويؤكد هذا الأمر، أنه لما اختلف الصحابة في مسألة الخروج لقريش من عدمه في غزوة أحد، كان رأي النبي ﷺ موافقا لرأي المنافق ابن أبي، وهو الإقامة بالمدينة ومقاتلتهم بها (١٣).
. أنه رفض رأيه لأنه لم يكن صوابا، وربما لو كان صوابا لقبله، والدليل على هذا الرفض، إعراضه عنه.
. أنه قبل رأيه أخيرا مكرها، لأنه رأى في ذلك مصلحة راجحة للدولة الإسلامية الناشئة، وهي تجنيبها الفوضى والخلاف، لأن ابن أبي المنافق كان زعيما، له أنصار، وكان نفاقه لم يظهر بعد بشكل واضح، إضافة إلى أن عددا كبيرا من اليهود لايزالون بالمدينة، ومن الممكن أن يجرؤوا على أعمال مسيئة للمسلمين.
كما أن هدف النبي ﷺ الأول هو إنهاء دسائس ومكر بني قينقاع، وليس قتلهم، وحتى إن فضل قتلهم، فمن أجل إخافة القبائل الأخرى المتربصة بالدولة الإسلامية الناشئة.

خامسا: أسلوب رد إرجافهم:

من أعمال المنافقين المشينة، أنهم كانوا يشككون في انتصار الإسلام، ويحاولون دائما تثبيط همم الصحابة رضوان الله عليهم، بادعائهم أن ما يقومون به مغامرات ستكون عواقبها وخيمة عليهم.
ففي غزوة الخندق لما ضيق العدو على المسلمين، وعظم البلاء عليهم، وجد بعض المنافقين ذلك فرصة لخلق البلبلة في صفوف جيش النبي ﷺ، فقال: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» (١٤).
وقال آخر: «يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج من المدينة» (١٥).
فلما كثر الكلام، وتكلم المنافقون بكلام قبيح، تدخل النبي ﷺ ليعالج إرجافهم، فقال: «والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة والبلاء، فإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا، وأن يدفع الله عز وجل مفاتح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله» (١٦).
وهكذا كان النبي ﷺ يرد باطلهم، ويقوي عزائم أصحابه، حتى لا يكون لهم أثر على قلوب المؤمنين الصادقين.

سادسا: أسلوب التدرج من المسامحة إلى المواجهة:

إن أعمال المنافقين كما عرف من سيرتهم تطورت شيئا فشيئا، ففي البدايات الأولى لظهور الإسلام في المدينة المنورة، ظهرت منهم أعمال عدائية للنبي ﷺ، إلا أنها كانت فردية، وكانت تظهر عبارة عن ردة فعل لواقعة ما، أو إبداء رأي في أمر ما، كما وقع في غزوة بني المصطلق حين كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فلما بلغ الخبر المنافق عبدالله بن أبي، قال: «قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن

كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» (١٧).

ثم ما فتئت أعمالهم أن تطورت إلى عقد اجتماعات وترتيب لقاءات، وإعداد الخطط للكيد للمسلمين، ظهر ذلك جليا أثناء الإعداد لغزوة تبوك، حيث بلغ النبي ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عنه في غزوة تبوك.

وكذلك إن أمعنا النظر في ردود أفعال الرسول ﷺ في وجه المنافقين، فسنجدها تدرجت حسب أفعالهم، فلما كانت أفعالهم فردية وعابرة كان ﷺ لا يوليها اهتماما كبيرا، فلما أصبحت أعمالا مخططا لها، تغير أسلوبه في التعامل معهم من الصبر والصفح إلى المواجهة، فالمنافقون الذين اجتمعوا في بيت سويلم اليهودي قصد الكيد للمسلمين، أرسل إليهم طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة (١٨) من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا (١٩).

وأمر رسول الله ﷺ أيضا بهدم مسجد الضرار وتحريقه، لأنه أنشئ بنية تفريق جماعة المسلمين (٢٠).

وخلاصة القول، أن تغير معاملة النبي ﷺ للمنافقين من اللين إلى الشدة، ترجع إلى ما يلي:

- تغير طريقة المنافقين من أعمال عابرة إلى أعمال تتسم بالتخطيط والإعداد، لتقسيم الدولة الإسلامية الناشئة، أو هدمها إن أمكن.
- زوال المحاذير التي كانت تمنعه من مثل هذه الردود، حيث انكشف أمرهم للجميع، وظهر خبثهم لمن معهم ولمن ضدهم.
- محاولة النبي ﷺ إبلاغهم رسالة مضمونها، أن أمرهم قد انكشف.

سابعا: أسلوب الحرمان من المناصب والمسؤوليات الحساسة في الدولة.

إن المتتبع لسيرة الرسول ﷺ يدرك جيدا مدى حذره ﷺ من مكائد المنافقين، ومن هذا الحذر أنه لم يول أحدا من المنافقين، قال ابن تيمية رحمه الله بهذا الصدد: «والنبي ﷺ لم يول على المسلمين منافقا» (٢١).

وفي الأخير أسأل المولى عزوجل أن يحفظ أمتنا من كيد المنافقين ومكرهم، وأن يجنبنا هذه الخصلة المذمومة التي تجعل صاحبها في أسفل سافلين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء:١٤٥).

الهوامش

١- لم يزد صاحب الإصابة في ترجمته عن قوله: «والد مرارة... عد في المنافقين، ويقال: تاب». (٦/ ٥٣).
٢- الروض الأنف، لابن هشام، تحقيق عمر عبدالسلام، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢١٢/٤.
٣- تفسير القرطبي، تحقيق هشام البخاري، دار عالم الكتب، ص ٢٥٣/١٦.
٤- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ص ٣٦٢/٢.
٥- السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، ص ٣/ ٥٣٨.
٦- سيرة ابن هشام، دار الصحابة للتراث، ط: الأولى، ص ٢٨٧/٣.
٧- الأم للشافعي، دار المعرفة، ص٢٩٦/١.
٨- سيرة ابن هشام،٤٥٧/٢.
٩- المصدر السابق،٤٥٦/٢.
١٠- الظلل: جمع ظلة، وهي السحابة، (انظر مختار الصحاح، مادة ظلل، ص:١٩٦)، والمقصود بها هنا تغير وجه رسول الله ﷺ.
١١- حاسر: لا درع عليه ولا عمامة على رأسه. (انظر: لسان العرب، فصل الحاء المهملة ، ١٨٧/٤).
١٢- سيرة ابن هشام، ٤٥٧/٢.
١٣- المصدر السابق، ٧/٣.
١٤- المصدر السابق، ٢٠٦/٣.
١٥- المصدر السابق.
١٦- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط:٣ رقم: ١٧٨٦٣، ٥٤/٩.
١٧- سيرة ابن هشام، ٢٨٦/٣.
١٨- روي أنه تاب وصلح حاله، وقيل: إن والد الضحاك هو الذي كان منافقا، والله أعلم. (انظر ترجمته في الإصابة: ٣/ ٣٨٤).
١٩- سيرة ابن هشام، ١٨٣/٤.
٢٠- المصدر السابق، ٢٠٢/٤، ٢٠٣.
٢١- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط، ١-١٩٨٧م، ٤٥١/٣.

فريضة الغائبة في مدارسنا:

إدارة الأزمات التعليمية

د. فرغلي هارون
باحث في علم الاجتماع

الأزمات على تعددها واختلاف أشكالها، حالة ملازمة للإنسان في كل زمان ومكان، فهي تحدث في البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة على حد سواء، مع اختلاف طبيعتها وعمق تأثيرها. وتمثل الأزمات التي تمر بها المؤسسة التعليمية نقطة حرجة وحاسمة في كيان المؤسسة، حيث تختلط فيها الأسباب بالنتائج، وتضطرب الأمور في مسارها المعتاد داخل المؤسسة، وقد يفقد المديرون قدرتهم على التعامل الفعال معها، واتخاذ القرار المناسب حيالها، في ظل عدم التأكد، وضيق الوقت، ونقص المعلومات، الأمر الذي قد يؤدي إلى إعاقة المؤسسة عن العمل لتحقيق أهدافها، وقد يؤدي أيضا إلى إحداث خسائر مادية أو بشرية أو كلتيهما.

والأزمة لغة هي: الشدة والقحط والضيق، حيث يقال: أزمت السنة أزما، أي اشتد قحطها. وتأزم، أي أصابته أزمة. ويعرفها فنك Fink بأنها: «نقطة تحول في حياة المنظمة نحو الأسوأ أو الأفضل. فهي حالة من عدم الاستقرار يحدث فيها تغيير حاسم في سير العمل في المنظمة، قد يؤدي إلى نتائج مرغوب فيها، أو نتائج غير مرغوب فيها» (١). بينما يعرفها محمد رشاد الحملاوي بأنها: «خلل يؤثر تأثيرا ماديا على النظام كله، ويهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها النظام» (٢).

أما الأزمة التعليمية فيمكن تعريفها بأنها: «مشكلة أو حالة تواجه النظام التعليمي، وتحدث نتيجة لتراكم مجموعة من التأثيرات الخارجية المحيطة بالنظام التعليمي، أو حدوث خلل مفاجئ يؤثر على المقومات الرئيسية للنظام التعليمي يهدد بقاءه» (٣). وهي: «مشكلة أو حالة تواجه النظام التربوي، تستدعي اتخاذ قرار سريع لمواجهة التحدي الذي تمثله تلك المشكلة، غير أن الاستجابة الروتينية لمؤسسة الإدارة التربوية تجاه هذه المشكلة أو التحدي الذي تمثله المشكلة، تكون غير



كافية، فتتحول المشكلة حينذاك إلى أزمة تتطلب تجديدات في المؤسسة الإدارية التربوية والأساليب الإدارية التي تتبعها تلك المؤسسة» (٤).

ولا يختلف تعريف الأزمة المدرسية كثيرا عن تعريف مفهوم الأزمة أو الأزمة التعليمية بشكل عام، حيث عرفها الحملاوي بأنها: «خلل يؤثر تأثيرا ماديا على النظام المدرسي ويهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها النظام في المدرسة» (٥). وعرفها عبدالله مسعود غيث الجهني بأنها: «حالة حرجة تؤدي إلى حدوث خلل في النظام المدرسي اليومي، وتعيق العاملين في المدرسة عن أداء أعمالهم» (٦).

ويعرفها البعض بأنها نقطة تحول غير عادية، تتمثل في مواقف تتعرض لها المدرسة بصورة فجائية يصعب التنبؤ بها، وتتلاحق الأحداث بسرعة، وتتشابك فيها الأسباب بالنتائج، وينجم عنها تهديد للأرواح والممتلكات والقيم، كما ينجم عنها قلق وتوتر لمعظم أفراد المدرسة، الأمر الذي تفقد معه إدارة المدرسة القدرة على السيطرة على هذه المواقف واتخاذ القرارات الرشيدة. ويعرف جونز وباترسون الأزمة المدرسية بأنها: «حدث مفاجئ غير متوقع يؤثر بعمق وسلبية على نظام محدد للمنتسبين إلى المدرسة» (٧).

أسباب الأزمات التعليمية

لا يمكن إرجاع الأزمات المدرسية إلى عامل واحد، ولكنها تأتي في الغالب نتيجة تفاعل عدد من العوامل المتزامنة والمتتالية، من دون أن ينفي ذلك تفاوت الأهمية النسبية لأحد العوامل أو بعضها دون الأخرى وفقا لطبيعة الأزمة. وبشكل عام، يمكن إرجاع نشوء الأزمات المدرسية إلى نوعين من الأسباب:

١- أسباب خارجة عن إرادة الإنسان، مثل الأزمات الطبيعية كالحرائق والسيول، أو الصحية كظهور مرض معد يربك المدرسة.

٢- أسباب ناتجة عن الأخطاء البشرية، سواء من العاملين في المدرسة نظرا لضعف تأهيلهم وتدريبهم وسوء إدراكهم للأدوار التربوية المتوقعة منهم، أو من الطلاب نتيجة ما يقومون به من سلوكيات خاطئة كالتدخين والشغب والضرب والسرقة وتعاطي المخدرات وغيرها.

وترى ناهد عبدالله الموسى أن هناك مجموعة عوامل متعلقة بالإدارة المدرسية تساهم في نشوء الأزمات، أهمها (٨):

١- القصور في فهم كثير من مفاهيم الإدارة واتجاهاتها لدى كثير من المديرين والإداريين في المدرسة.

٢- انحصار دور المديرين في العمليات الإدارية الإجرائية، وعدم الاهتمام بالنواحي الفنية التي تحقق نقلة نوعية في الأداء.

٣- عدم فعالية أو تفعيل معظم السلطات والاختصاصات المنصوص عليها في اللوائح الخاصة بتنظيم عمل المدرسة.

٤- استغراق كثير من المديرين في العمل الإداري الروتيني مع عدم توافر برامج وقنوات كافية للتنمية المهنية.

٥- ضعف العلاقات والروابط المجتمعية للمدرسة، خصوصا العلاقات مع المجتمع المحلي بتنظيماته ومؤسساته المختلفة.

٦- ضعف الصلاحيات الممنوحة للمدرسة في مجال تخطيط وتطوير العملية التعليمية بشكل عام.

٧- ضعف الوعي بأهمية دور الإدارة المدرسية في إدارة إمكانات المجتمع المدرسي، والدور الذي يمكن أن تقوم به في تهيئة المناخ الملائم لتحقيق التغيرات المستهدفة في سلوك الطلاب.

مدخل إدارة الأزمات

يهدف علم إدارة الأزمات إلى تقليل تأثير الأزمات على حياة البشر. ويهدف إلى التعرف على الأزمة، والقوى الصانعة لها، والمؤيدة لها، وطريقة تحاشي وقوع الأزمة، وتخفيف آثارها إذا ما وقعت، والتعامل معها بعلمية وحرفية، والسعي إلى الاستفادة من نتائجها. وتظهر أهميته في المجال التعليمي فيما يلي (٩):

١- تهيئة المناخ الملائم للتلاميذ، لكي يمارسوا الأنشطة، بعيدا عن الضغوط النفسية، والتشتت الذهني.

٢- العمل على توفير النظام والاستقرار للعاملين في المدرسة، بما يتيح سير العمل المدرسي، على النحو المخطط له، ويساهم في الارتقاء بالعملية التربوية التعليمية.

٣- المحافظة على الموارد والإمكانات المادية للمدرسة، في حالة وقوع الأزمات، أو التقليل من الخسائر المتوقعة إلى أقل قدر ممكن.

٤- العمل على زيادة إنتاجية العاملين في المدرسة، من خلال تركيز جهودهم، وعدم انشغالهم بالأزمة.

٥- عدم تضارب الأدوار في الموقف من الأزمة.

٦- تكوين سمعة إيجابية طيبة، في المجتمع الخارجي، عن المدرسة.

٧- وضع الخطط المناسبة للتعامل مع الأزمات في حال وقوعها.

٨- التنبؤ بالأزمات المستقبلية، ووضع التدابير الوقائية لمنع حدوثها.

٩- إعداد سيناريوهات افتراضية لكيفية التعامل مع الأزمات المدرسية.

١٠- تهيئة العاملين في المدرسة والطلاب للتعامل مع الأزمات

المتنوعة.

١١- تكوين فريق لإدارة الأزمات المدرسية، وتوزيع المهام والأدوار على أعضائه.

١٢- المواجهة الفورية في حالة وقوع أزمة وتحقيق السيطرة الكاملة على الموقف.

المنهج العلمي

يتفق المهتمون بدراسة الأزمات المدرسية على ضرورة استخدام الأسلوب العلمي لمواجهتها، لضمان السيطرة عليها وتوجيهها إلى مصلحة المؤسسة. ويرتكز هذا الأسلوب على إتمام المراحل التالية (١٠):

١- الدراسة المبدئية لأبعاد الأزمة: ويكون الهدف منها تحديد العوامل المشتركة في الأزمة، وتحديد أسباب الاحتكاك الذي أشعل الموقف، وتحديد المدى الذي وصل إليه الموقف، وترتيب العوامل المشتركة والمؤثرة حسب درجة خطورتها، مع تحديد القوى المؤيدة والمعارضة لكي نستطيع تحديد نقطة البداية للمواجهة.

٢- الدراسة التحليلية للأزمة: ويتم ذلك من خلال عدد من العناصر، تشمل التفرقة الواضحة بين مظاهر الأزمة وأسبابها، وتحديد تلك الأسباب بشكل موضوعي وواضح، والتأكد من المصادر بحيث تحدد عدد العناصر المشتركة في صناعة الأزمة، ودور العنصر البشري ومدى تأثيره في ظهور الأزمة، وكذلك دور العوامل الطبيعية والتكنولوجية والوزن النسبي لكل منها في حدوث الأزمة، وأسباب الخلل الذي أدى إلى حدوث الأزمة. ويتم أيضا تحليل الموقف لمعرفة المرحلة التي وصلت إليها دورة حياة الأزمة، ومن ثم يتم توقع طبيعة وتكاليف الأخطار الناتجة عن الأزمة، وأثر الوقت على انتشارها، وتحديد الإمكانات والموارد المتاحة للمؤسسة والتي يمكن الحصول عليها في وقت مناسب لاستخدامها في مواجهة الأزمة. وتأتي أهمية هذا التحليل أنه يوفر قاعدة معلومات مهمة للتعامل مع الأزمة وإدارتها بفاعلية، من خلال تحويل تلك البيانات والمعلومات إلى مؤشرات كمية وأحكام كيفية موضوعية حول الأزمة.

٣- التخطيط للمواجهة والتعامل مع الأزمة: وهي مرحلة رسم السيناريوهات ووضع الخطط والبرامج، وحشد القوى لمواجهة الأزمة والتصدي لها. وهي تعتمد على ما تم جمعه من بيانات ومعلومات في المرحلة السابقة، بحيث تنتهي إلى وضع عدد من الحلول وبدائلها من خلال الفهم الكامل للبيانات والتركيز على تحقيق الأهداف، وتنتج عنها خطة المواجهة للتحرك في الاتجاهين التاليين:

أ- الاستعداد للمواجهة: ويتضمن ذلك اتخاذ الإجراءات التالية: تحديد مجموعة الإجراءات الواجب اتخاذها لحماية كل ما يحيط أو ذي صلة بمنطقة الأزمة ومجالها، وترتيب هذه الإجراءات طبقا لما يساعد على تقليل الخسائر ووقف التدهور - تحديد نوع المساعدات المطلوبة من جهات يمكن الاستعانة بها وطلبها - إعطاء التعليمات والتحذيرات اللازمة للأفراد المشاركين في المواجهة الموجودين في مجال الأزمة - التعامل مع المشاعر الإنسانية مثل الحماسة والخوف والذعر في اتجاه عدم انتشار الأزمة - تحديد نوع المعلومات وتوقيتات صدورها - تنظيم عمليات الاتصال داخل مجال الأزمة نفسه من الداخل وكذلك مع الجهات والمنظمات خارج المجال.

ب- التفاعل مع الأزمة: تأتي هذه الخطوة كمحصلة للخطوات السابقة، وفيها يتم التخلص من قدر كبير من العشوائية والتخبط والانفعال لحظة الأزمة، فضلا عن التعامل مع الأزمة بالمبادرة وليس برد الفعل.

وتهدف خطة المواجهة الفعلية والتعامل مع الأزمة إلى: وقف تدهور الموقف، وتقليل الخسائر، والسيطرة على الموقف، وتوجيه الموقف إلى المسار الصحيح، ومعالجة الآثار النفسية والاجتماعية الناتجة عن الأزمة، وتطوير الأداء العملي بصورة أفضل مما سبق، واستخدام أنظمة وقاية ومناعة ضد النوع نفسه من الأزمات أو الأزمات المشابهة.

أهمية مدير المدرسة

يعد التعامل مع الأزمات أحد المواقف الرئيسية التي تظهر مدى كفاءة مديري المدارس في الإدارة، فإدارة الأزمة في المؤسسات بشكل عام، وفي المدارس بشكل خاص، تضع المسؤولية الأولى على المدير، باعتباره قائدا إداريا ومشرفا تربويا مقيما يدير الأنشطة والمهام الإدارية والأكاديمية من منطلق الصلاحيات الممنوحة له، وهو بذلك يعد المسؤول الأول أمام زملاء العمل والسلطات الرسمية وأفراد المجتمع عن سير الأداء المدرسي بشكله الصحيح (١١).

لذلك، لابد أن تتوافر فيه مجموعة من السمات والمهارات الخاصة منها (١٢):

- سمات شخصية: مثل الشجاعة والقدرة على التكيف والموهبة والمثابرة.
- قدرات ومهارات عقلية: مثل

الانتباه والتفكير الإبداعي الناقد، والاستفادة من الخبرة السابقة، والقدرة على التركيز والتخيل والطلاقة.

● خصائص انفعالية: مثل البرود الانفعالي، والقدرة على تحمل التوتر ومقاومة التشتت والتحكم في الانفعالات، وحشد الطاقات الكامنة لأداء أعمال غير روتينية.

● القدرة على التخطيط والتنظيم، والإصغاء الجيد، والقدرة على جذب العناصر المدعمة وتطويعها لتحسين موقف المدرسة في مواجهة الأزمة، والمهارة في التفاوض.

ويضيف الجهني إلى ما سبق بعض المهارات والخصائص التي يرى ضرورة توافرها في مدير المدرسة باعتباره مديرا لفريق إدارة الأزمات المدرسية وهي (١٣):

١- المعرفة المتخصصة في الإدارة التربوية والمدرسية، خصوصا ما يتعلق بالأمور الإدارية من تخطيط وتنظيم وتنسيق ومتابعة واتخاذ قرارات، وكذلك ما يتعلق بالناحية النفسية لطلاب المرحلة التي يدير إدارتها.

٢- الاطلاع المستمر على المستجدات المتعلقة بالأزمات المدرسية وكيفية التصرف معها.

٣- القدرة على استخدام المعلومات المتوافرة عن الأزمة بشكل سليم.

٤- حسن اختيار أعضاء فريق إدارة الأزمات.

ويرى الخضيري أن من خصائص قائد الأزمات أيضا: القدرة على تنمية العلاقات الإدارية وتطويرها مع أعضاء فريق المهام، وأن يكون مؤهلا ومدربا على إدارة الأزمات، وأن تكون لديه القدرة على التخيل، والقدرة على صياغة ورسم التكتيكات اللازمة للتعامل مع الموقف الأزموي الذي يواجهه (١٤).

وإضافة إلى هذه الصفات، فإن هناك مسؤوليات تقع على عاتق مدير المدرسة في إدارة الأزمات المدرسية، يحدد الجهني أهمها فيما يلي (١٥):

١- التخطيط: ويتم من خلال إعداد سيناريوهات وتصورات عن الأزمات المحتمل وقوعها، واتخاذ الإجراءات الوقائية المناسبة التي تعمل على منع مسببات الأزمات، وكذلك إعداد وتجهيز فريق لإدارة الأزمات في المدرسة.

٢- التنظيم: تحتاج مواجهة الأزمات إلى جهد جماعي، وبالتالي لابد من توافر نوع من التنسيق والتوافق والتكامل بين الجهود المختلفة التي تبذل في إدارة الأزمة، وذلك لمنع الازدواجية والتعارض في الأعمال، ويتم التنظيم من خلال توزيع المهام والأدوار على فريق إدارة الأزمات المدرسية.

٣- تبسيط الإجراءات: في ظل ضيق الوقت وتسارع أحداث الأزمة لابد من استخدام إجراءات بسيطة تساعد في التعامل مع الأزمة، والابتعاد عن الروتين في العمل والمخاطبات الكتابية وذلك لأهمية الوقت أثناء حدوث الأزمات في المدارس.

٤- اتخاذ القرارات: حيث تحتاج إدارة الأزمات المدرسية إلى السرعة العاجلة في اتخاذ القرارات الدقيقة والمناسبة لموقف الأزمة، بحيث تكون هذه القرارات واضحة ويمكن تنفيذها في حدود الإمكانات المتاحة في المدرسة.

٥- التواجد في موقع الأحداث: ومن فوائد ذلك أنه يبعث الطمأنينة في نفوس المعلمين والطلاب بصفة خاصة، ويخفف من الآثار النفسية الناتجة عن الأزمة، ويساعد على توفير المعلومات الضرورية لمدير المدرسة حتى يكون على بينة كاملة بتطورات الأحداث.

الهوامش

١- Fink، Steven، crisis management، American management Association، New Yourk، Vol. ٧، No. ١، ١٩٨٩م. P١٥.

٢- محمد رشاد الحملاوي، إدارة الأزمات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، ١٩٩٧م، ص١٣.

٣- إبراهيم أحمد، إدارة الأزمات: الأسباب والعلاج، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٥٥.

٤- ندى عز الدين عنتور، معوقات إدارة الأزمات في المدارس الحكومية الثانوية في محافظات الضفة الغربية وسبل علاجها من وجهات نظر المديرين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين، ٢٠١٢م، ص٢٩.

٥- محمد رشاد الحملاوي، إدارة الأزمات، مرجع سابق، ص١٣.

٦- عبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية من وجهة نظر مديري المدارس بمحافظة ينبع، رسالة ماجستير، برنامج ماجستير الإدارة التربوية، جامعة الملك عبدالعزيز - جدة، السعودية، ٢٠١٠م، ص١٥.

٧- ناهد عبدالله الموسى، إدارة الأزمات في مدارس التعليم العام بمدينة الرياض: تصور مقترح، رسالة دكتوراه، قسم الإدارة التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، السعودية، ٢٠٠٦م، ص٢٧.

٨- المرجع السابق، ص٣٧-٣٨.

٩- فاطمة محمد البغدادي، مهمة استراتيجية.. إدارة الأزمات في المدارس، مجلة المعرفة السعودية، العدد ٢٠٣، ٢٠١٢م، الموقع الإلكتروني: http://almarefh.net/.

وعبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية، مرجع سابق، ص١٨.

١٠- انظر في ذلك:

رهام راسم عودة، واقع إدارة الأزمات في مؤسسات التعليم العالي بقطاع غزة، دراسة تطبيقية على الجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير بقسم إدارة أعمال، كلية التجارة، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٨م، ص٢٧-٢٨.

ناهد عبدالله الموسى، إدارة الأزمات في مدارس التعليم العام بمدينة الرياض، مرجع سابق، ص٧٣-٧٤.

مشروع تحسين التعليم الثانوي، برنامج تدريبي في الاتجاهات المعاصرة في إدارة المدرسة الثانوية، وحدة التخطيط والمتابعة، وزارة التربية والتعليم المصرية، ٢٠٠٩م، ص٧٣-٧٦.

١١- غسان الحلو، الأزمات المدرسية في المدارس الثانوية الحكومية في مديريات شمال الضفة الغربية بفلسطين، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد ٢٤ (١)، ٢٠١٠م، ص٢٢٨.

١٢- مشروع تحسين التعليم الثانوي، مرجع سابق. ص٧٩.

١٣- عبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية، مرجع سابق، ص٣٠.

١٤- محسن أحمد الخضيري، إدارة الأزمات، علم امتلاك كامل القوة في أشد لحظات الضعف، مجموعة النيل العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م. ص٣٦٨.

١٥- عبدالله مسعود غيث الجهني، أساليب اتخاذ القرار في إدارة الأزمات المدرسية، مرجع سابق، ص٢٨-٢٩.

إزالة الاشتباه عند بعض الآيات المتشابهات

د. أحمد شرشال
أستاذ أصول الدين - بروناي / دار السلام

يجب أولا ألا نخوض في الحديث عن القرآن وأوصافه ونعوته وعلومه، حتى نحكم مصطلحاته، ونحسن فهمها واستعمالها في مواضعها الصحيحة، حتى لا تكون نتائج أبحاثنا مغلوطة أو يشوبها النقص والخلل. ومن هذه الجهة دخل الوهم والاشتباه على كثير من الباحثين في كيفية حفظ القرآن الكريم، فوصفوا آيات الله البينات المحكمات بالاشتباه واللبس! وهو واقع في أذهانهم. والآيات البينات المحكمات خالية من كل ذلك.

فقد وصف الله كتابه الحكيم بالإحكام العام، ووصفه بالتشابه العامل في كل ألفاظه ومعانيه، ولا تعارض بين هذين الوصفين، ويمكن الجمع بينهما، بل يجب وصفه بهما، فهو محكم ومتشابه، بل من مقتضيات الإحكام وجود التشابه، فهما وصفان لذات واحدة وهي القرآن الكريم.

ووصف بعضه بالإحكام، وهو الأصل، وأم الكتاب، ووصف ما يقابله، وهو القليل، بالتشابه. ويرد هذا إلى الأصل الأول، ويراد به التشابه المعنوي، وليس هذا مقصودا للقراء، فلا يشتبه عليهم؛ لأنه يتعلق بالمعاني لا بالحفظ كما هو مشهور ومعروف في كتب علوم القرآن والتفسير.

إن التشابه العام، الذي يقابل الإحكام العام، صفة ذاتية للقرآن الكريم كله لا تنفك عنه، فقد وصفه منزله بهذا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ (الزمر:٢٣)، فإن هذا التشابه والإحكام وصف من أوصافه الجميلة ونعت من نعوته الجليلة.

أما المتشابه اللفظي في عرف القراء والحفاظ فهو جزء يسير منه كالجزء اليسير من التشابه المعنوي الذي يقابل الإحكام الخاص الذي هو الأصل، وهو الذي ينشأ عنده الاشتباه واللبس غالبا عند تلاوة الآيات المتشابهات، فهي مظنة للوقوع في الغلط والخطأ، وبقدر ما تكون زيادة في أوجه التشابه اللفظي والتكرار في مصطلح القراء يطرأ الاشتباه على القارئ لا على المقروء، وعلى الحافظ لا على المحفوظ، فلا ينسب الاشتباه إلى الآيات البينات المحكمات، وإنما الاشتباه يتأتى من قبل القارئ أو الحافظ لكثرة وجوه التشابه والتماثل والتكرار، فهو صفة طارئة تعرض للقارئ أو الحافظ عند تلاوته لهذه الآيات المتشابهات، وهو ما يسمى بالمتشابه اللفظي الذي اصطلح عليه القراء، خصوصا تلك السور والآيات التي تكثر فيها أوجه التشابه اللفظي.

ولن يستطيع أحد، مهما أوتي من بلاغة القول، أن يحدد مواضعه إلا القراء والحفاظ أنفسهم؛ لأنهم هم الذين يكابدونه، ويعانون من مشقته، ويخافون من مواقعه.

فإذا كان القارئ لا يعلم ما يفرق به بين وجوه التشابه والاختلاف فلاشك أن أمواج التشابه تقذف به عن المسار الصحيح في التلاوة، فيغرق في الاشتباه، فيجد نفسه في آية أخرى أو سورة أخرى، فيقع في الغلط والخطأ، وربما يكون ذلك صارفا له عن الحفظ إذا لم يتحصن بمعرفة معاني هذا التشابه الذي يقود إلى الاشتباه.

لذلك، كانت الحاجة الملحة إلى دراسة وتوجيه الآيات المتشابهات عند القراء، وإزالة الاشتباه عنها بإبراز علامات، يهتدي بها الحافظ، ويتعلق بها القارئ والمتعلم عند تلاوته، فتصونه من الاشتباه، وتحمي حفظه من الضياع والنسيان، وتشجعه على المزيد من المحفوظ.

فإذا فهم الحافظ للقرآن أو من هو في طريق الحفظ هذه المعاني، وتعلق بها قلبه، فإنها لمن أعظم ما يوثق الحفظ ويقويه، فلا يحتاج إلى المراجعة المستمرة والتكرار الدؤوب.

فإن إبراز الفروق اللغوية بين هذه الآيات، يزيل الاشتباه واللبس، ويحصن المحفوظ، ويقيه من شر التفلت والنسيان، فتصير هذه الآيات من المحكم المتيقن، ويزال عنها الاشتباه المتوقع أو الموهوم من أذهان الطلاب، فيقتحمون أمواج التشابه من دون الغرق في الاشتباه.

ومن أهم محاسن الحفظ العقلي والتوثيق الذهني، أنه يكون من المحفوظ والمقروء ذاته لا من خارجه، فليس غريبا ولا دخيلا على القرآن، لأن ضبط الحفظ وتقييده من المحفوظ ذاته.

فإذا استحضر الطالب هذه المعاني للآيات المتشابهات، وعقلها، واستذكرها عند تلاوته، تنير له طرق الوقاية من الوقوع في الاشتباه واللبس، وتحمي حفظه من الضياع والنسيان، وتشجعه على المزيد من المحفوظ.

بين «يفعل» و«يخلق»

من المتشابه اللفظي الذي يقع فيه الاشتباه والغلط غالبا قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ (آل عمران:٤٠-٤١) الواقعة في قصة زكريا عليه السلام. هذه الآية تتشابه مع قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ (آل عمران:٤٧) في قصة مريم بعد قصة زكريا مباشرة (١).

موضع التشابه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ في قصة زكريا، وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ في قصة مريم، والقصتان متجاورتان ومتشابهتان في المبنى والمعنى والمقصود (٢).

نوع التشابه: اختلاف في الخطاب بالتذكير والتأنيث، واختلاف في التعبير، فعبر بالفعل في قصة زكريا وعبر بالخلق في قصة مريم.

هذا التشابه قد يؤدي إلى الاشتباه لمن لم يحصن نفسه بالمعاني، لأن المعنى يبدد ظلمة الاشتباه. قد ينتقل الحافظ في قراءته من قصة زكريا إلى قصة مريم أو العكس؛ لوجود التشابه اللفظي، وقد حصل هذا فعلا، كما سمعته مرارا وتكرارا، وحالي كحالهم.

إزالة الاشتباه المظنون

الآية الأولى وردت في سياق زكريا عليه السلام، وهو شيخ كبير وامرأته عاقر، وجرت العادة في الطاعنين في السن ألا يحصل بينهما إنجاب الأولاد. فتوجه إلى الله بالدعاء والتضرع والتوسل أن يهب الله له ولدا، ونص دعائه في سورة مريم (٣).



فأجاب الله دعاءه وبشّره بولد اسمه «يحيى»، فتعجب من هذا الأمر واستغربه، وذكر المانع من ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ (مريم:٨).

أجاب الله عن تعجبه، وقال، وهو موضع الشاهد: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ (آل عمران:٤٠-٤١)، فالفعل: «يفعل» يعبر به عن القدرة على الشيء (٤) ولم يقل: «يخلق» لوجود الزوج والزوجة.

وقصة مريم ذكرت بعد قصة زكريا مباشرة لشدة العلاقة والارتباط، وهي شبيهة بها، فبشرها الله بولادة عيسى، عليه السلام، فاستغربت ذلك كما استغرب زكريا، ولكن الغرابة هنا أشد لعدم وجود الزوج ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ (آل عمران:٤٧)، أجاب الله عن تعجبها واستبعادها وجود الولد من أم فقط فقال:

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ (آل عمران:٤٧).
التشابه في الخطاب بالمذكر والمؤنث وفي التعبير بالفعل والخلق، هذا التشابه بين القصتين يوقع في الاشتباه واللبس، فإزالته والفصل بين الآيتين والتمييز بينهما أن في قصة زكريا عليه السلام الخطاب للمذكر: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ والتعبير بالفعل: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، في هذا الموضع، ولم يعبر بالخلق، لأن الزوج وزوجه موجودان، ولكن أسباب الإنجاب معطلة بسبب سن زكريا وعقر امرأته الصورة الظاهرة موجودة للولادة، ومن ثم عبر القرآن عن هذه الحالة بالفعل: «يفعل» الذي هو دون الخلق والإنشاء والإبداع.
وفي قصة مريم الخطاب للمؤنث: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ والتعبير بالخلق ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، لأن ولادة عيسى من أم فقط، فالتعبير الصحيح عنه هو الأنسب لعدم وجود الأب فقال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ (آل عمران:٤٧)، فلا يصح استعمال أحدهما مكان الآخر.
فإذا فهم الطالب هذا المعنى، واستقر في ذهنه، وتذكر ذلك عند تلاوته، فإنه يزول عنه الاشتباه واللبس المظنون عند هذه الآيات المتشابهات، ويمكنه من أداء صلاة التراويح والامتحانات والمسابقات وتلاوة القرآن تعبدا لله، ويغنيه ذلك كثيرا عن الرجوع إلى المصحف، لأن هذه المعاني صارت مفهومة لدى الحافظ، لأن الكلام المفهوم قل ما ينسى.

وبهذا تنتقل الآيات المتشابهات من حيز الاشتباه من أذهاننا إلى حيز الإحكام والتفصيل والبيان، فهي مبينة ومحكمة ومفصلة كما وصفها منزلها، والاشتباه المزعوم في الأذهان والعقول لا في الآيات البينات، والله أعلم.

بيان علة التقديم والتأخير

من المتشابه اللفظي في عرف القراء، الذي يقع عنده الغلط والنسيان والتردد والحيرة من الطلاب والحفاظ ومن دونهم، ويكاد يكون ذلك شبه إجماع، ولو ما للتشابه من أثر في تلاوة الطلاب ما ذكرها العلماء ضمن المتشابه اللفظي (٥)، وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ (الأنعام:١٥١).
هذه الآية من سورة الأنعام تتشابه مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ (الاسراء:٣١).
موضع التشابه: في سورة الأنعام: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، وفي سورة الإسراء: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾.
نوع التشابه: الاختلاف في التقديم والتأخير قدم ما أخره في الإسراء، وأخر ما قدمه في سورة الأنعام، قدم رزق الآباء على الأبناء في سورة الأنعام، وقدم رزق الأبناء على الآباء في سورة الإسراء.

إزالة الاشتباه وبيان الفرق بين الآيتين

أن رزق الأبناء قد قدم في آية الإسراء: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ﴾ على رزق الآباء، لأن الخطاب في سورة الإسراء للأغنياء بدليل قوله: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، فإنه لا يخشى الفقر إلا من كان عنده ما يكفيه، إذ الفقير منغمس في الفقر فلا يقال فيه يخشى من الفقر. ولفظ الخشية يوحي بالخوف الآتي مستقبلا. والسياق من أوله إلى آخره يدل على أن الخطاب للأغنياء، فقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ (الإسراء:٢٦)، المأمور بإتيان حق القرابة غني، ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ المأمور بعدم التبذير هو الغني، لأن الفقير لا يتأتى منه التبذير، ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ (الإسراء:٢٩) نهي الغني عن بسط اليد بالمال. ثم نهي عن قتل الأولاد خشية وقوع الفقر، فكان من البلاغة بمكان أن يقدم الوعد برزق الأولاد على الآباء.
وقدم رزق الآباء في آية الأنعام على رزق الأبناء، لأن الخطاب للفقراء، وقد كان العرب في الجاهلية يقتلون أولادهم بسبب الفقر الحاصل المفهوم من قوله: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ (٦).
قدم الوعد برزق الآباء على رزق الأولاد في سورة الأنعام: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾،وقدم

الوعد برزق الأولاد على رزق الآباء في سورة الإسراء: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

نهي عن قتل الأولاد كما كان يفعله أهل الجاهلية، سواء بسبب الفقر الحاصل كما أفادته آية سورة الأنعام، أو خشية حصوله كما أفادته آية سورة الإسراء، ومجموع الآيتين المتشابهتين بالتقديم والتأخير، أفاد النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر الحاصل كما في سورة الأنعام أو الخوف من الفقر المتوقع المظنون كما في سورة الإسراء.

إزالة الاشتباه والغموض

ليس في هذا غرابة أو غموض أو إبهام لمن تأمل وتدبر، فهو جلي واضح المعنى، لأن ما في سورة الأنعام الفقر حاصل للآباء، فاستوجب ذلك تقديم الوعد برزق الآباء على رزق أولادهم.

وأما في سورة الإسراء فقدم رزق الأولاد على رزق الآباء، لأن الخوف من الفقر المتوقع الذي يجلبه الأولاد هو السبب - وفق اعتقادهم - فقدم الوعد برزقهم على رزق آبائهم، وهو الموافق للمنطق العقلي ومفهوم من فحوى الخطاب، ولا إشكال فيه.

وبناء على ما تقدم، فإذا قرأت الآية في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ قدم كاف الخطاب وأخّر ضمير الغيبة والقيد: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ قدم وعد الله برزق الآباء على أبنائهم وجوبا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ...﴾.

وإذا قرأت الآية في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ قدم ضمير الغيبة وأخّر كاف الخطاب. والقيد: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، قدم وعد الله برزق الأبناء على آبائهم وجوبا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾، لأنهم هم السبب في الفقر في ظنهم.

إن الخطاب في آية الأنعام لقوم فقراء يهمهم رزقهم أولا ثم رزق أولادهم، فقدم في القراءة رزقهم، لأنه أهم عندهم، واقرأ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

والخطاب في آية الإسراء مع قوم ليسوا فقراء، لكنهم يخشون الفقر مستقبلا بسبب أولادهم، فقدم في القراءة الوعد برزقهم على رزق آبائهم، واقرأ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

فإذا فهم الطالب هذه المعاني والفروقات، واستحضر ذلك في باله عند التلاوة، زال عنه الاشتباه واللبس، وصارت الآيتان في ذهنه من المحكمات البينات الواضحات، فيكون آمنا من الوقع في الغلط والاشتباه واثقا من قراءته، وسيجد نفسه تلقائيا مدفوعا نحو السياق الصحيح فيما بعد موضع التشابه أو التماثل، فهذا يثبت الحفظ ويقويه ويمنع التفلت والنسيان.

بيان علة الإفراد والجمع

من المتشابه اللفظي الذي يقع فيه الاشتباه والغلط غالبا قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (النحل:١٠-١٣).

موضع التشابه: الموضع الأول «لآية»، الموضع الثاني «لآيات»، الموضع الثالث «لآية».

نوع التشابه: التعبير بالإفراد في الموضع الأول والموضع الثالث، والتعبير بالجمع في الموضع الثاني. فما سبب استعمال المفرد في موضعه؟ وما سبب استعمال الجمع في موضعه؟

أولا- تحديد التشابه المؤدي إلى الاشتباه

١- إن هذه الآيات الثلاث تكرر فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ ثلاث مرات باختلاف صيغ الجمع والإفراد، وكثيرا ما كنت أخطئ فيها ويقع الغلط واللبس في تلاوتي لها، ثم يضاف إلى هذا التشابه اشتباه آخر، وهو أن خواتم هذه الآيات غالبا ما يحصل في تلاوتها الخطأ والاشتباه نفسه فتنتهي الآية الأولى بالإفراد وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وتنتهي الآية الثانية بصيغة الجمع وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وتنتهي الآية الثالثة بصيغة الإفراد وقوله:

﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

فهذه الآيات مظنة للوقع في الغلط والنسيان، وقد ذكرها علماء المتشابه اللفظي ضمن الآيات التي يقع عند تلاوتها الاشتباه واللبس (٧)، فالخطأ فيها واقع ومتوقع، وكثيرا ما تشتبه على الطلاب، ولم يسلم من ذلك الحفاظ مع تفاوتهم في جودة الحفظ.

ثانيا - إزالة الاشتباه الموهوم

المنهج السديد لنفي الاشتباه عند هذه الآيات المتشابهات يجمع بين حسنتين: تثبيت الحفظ العقلي والتوثيق الذهني وتعليم اللغة العربية، فالعربية أساس لدفع الاشتباه، والفصل بين الآيات المتشابهات في أذهاننا.

٢- إن الآية الأولى جاءت بصيغة الإفراد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، وهو المتعين، لأن المشار إليه بذلك هو مفرد، وهو نزول الماء من السماء، وفوائده على الإنسان والحيوان والنبات. فنقيد الآية الأولى بصيغة المفرد في الموضع الأول؛ لأن المدلول عليه واحد مفرد، فلا يصح الجمع، فلا نقرأ إلا بالإفراد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾، وحينئذ ينتفي الاشتباه.

الآية الثانية التي تليها مباشرة جاء لفظ الآية بصيغة الجمع: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وهو المتعين، لأن المشار إليه مجموعة من الآيات الدالة على قدرة الله، وهي الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وكل واحدة منها آية وجمعها آيات، فلا تصح القراءة إلا بصيغة الجمع وموافقة لقوله: «مسخرات» بالجمع، فلا تلتبس بالآية الأولى ولا بالثالثة.

والآية الثالثة: تتحدث عن شيء واحد وهو جنس ما تخرجه الأرض من ألوان النباتات والزروع والمعادن وغيرها. فلذلك كانت الإشارة إليه بالمفرد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾. وهكذا نجد أن كلمة «آية» حينما استعملها القرآن مفردة كانت في موضع لا يصح فيه إلا الإفراد، وحينما جاء بها على صيغة الجمع كانت في محل يتطلبه ويقتضيه لفظ الجمع: «لآيات».

٤- إزالة الاشتباه في خواتم الآيات الثلاث، فالآية الأولى تنتهي فاصلتها بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والآية الثانية تنتهي فاصلتها بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، والآية الثالثة تنتهي فاصلتها بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

هذا الترتيب البديع بين التفكر والتعقل والتذكر من شأنه أن يكون عاملا قويا لحفظ القرآن وتثبيته، ومنع التفلت والنسيان، وأدعى للتذكر لا أنه مصدر اشتباه ولبس، الاشتباه في الأذهان لا في القرآن. إن النظر في نزول الماء من السماء بهذه الطريقة، وما ينتج عنه من المنافع العظيمة، يحتاج إلى إعمال فكر وتأمل وتدبر، ولذلك ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فإذا تفكر الإنسان وجال خاطره في مجموعة من الأشياء ثم وصل إلى نتيجة مرضية تمخضت عن تفكيره، فإنه يعقل ويمسك ما وصل إليه تفكيره وهداه إليه، ولذلك ختمت الآية الثانية التي بعدها بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.. فإذا قيد ذلك وأمسكه وعقل ما هداه إليه إعمال فكره، يأتي التذكير والعبرة والاتعاظ فلذلك ختمت الآية الثالثة بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فهذه نتيجة عملية منطقية من شأنها نفي الاشتباه المظنون ومنع التفلت واللبس، وحماية الحفظ من الضياع والنسيان، تفكير وعقل وتذكر.

وبهذا يزول الاشتباه المتوهم واللبس المظنون، وتنتقل هذه الآيات من أذهان الطلاب من الآيات المشتبهات إلى البينات المفصلات كما وصفها الحكيم الخبير، فاجتمع فيها التشابه العام والإحكام العام، وانتفى عنها الاشتباه الطارئ على تلاوة القارئ.

فالتفكير أولا، ثم عقل ما توصل إليه التفكير ثانيا، ثم التذكير والاتعاظ والعبرة بما دلت عليه هذه الآيات.

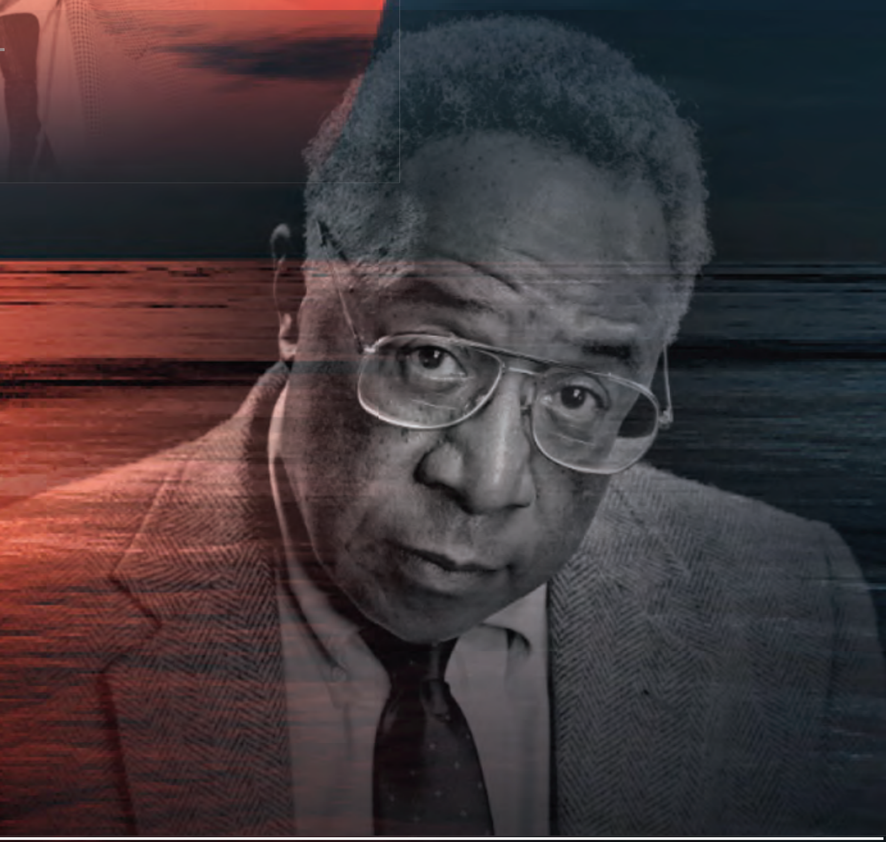
الهوامش

(١) وقد ذكر أحدهم إحدى عشرة آية متشابهة مع هذه الآية، وهي ليست من المتشابه اللفظي أصلا، ولا يقع عندها الاشتباه، انظر: كتاب الآيات المتشابهات، ص:١٨٩ و٢٤٣.
(٢) وهذه الآيات من ضمن مقرر الحفظ على طلاب جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية كلية الشريعة والقرآن (٧) رقم: ٤٤٠١ ut فحفظوها كلهم في زمن قياسي، بعد ما عرفوا كيف يقتحمون أمواج التشابه دون الغرق في الاشتباه.
(٣) من أول سورة مريم إلى الآية ٦ وما بعدها.
(٤) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ،٢٨٦/٣.
(٥) درة التنزيل ٩٩، البرهان ١٧٨، ملاك التأويل، ٤٧٩/١.
(٦) انظر وجوه الاستبدال في القرآن للكردي ١٥٥.
(٧) انظر: درة التنزيل ١٨١، البرهان ٢١٧، ملاك التأويل ٧٣٢/٢.

جذور الأمريكيين السود الإسلامية

السيد عبدالمحكم السيد
موجه علوم بالأزهر





تعتبر أفريقيا القارة المسلمة بين قارات العالم الأكثر عددا من المسلمين. فالغالبية العظمى من سكانها الأصليين يدينون بالإسلام، وتذكر الإحصاءات أن نسبتهم هي ٧٠ في المئة من سكانها.

وقد انتشر الإسلام في شرق أفريقيا منذ عهد النبي ﷺ، ثم تخطى الصحراء حتى وصل إلى المناطق الداخلية إلى «كينيا» (١)، و«تنزانيا». واقتحم نطاق الغابات في قلب القارة، ونفذ إلى هضبة البحيرات. وتدفق إلى هضبة الحبشة، وانتشر على طول الساحل الغربي. ودخل الإسلام جنوب إفريقيا مع المهاجرين المسلمين من الهند وماليزيا، ولا يزال ينتشر ويصل مداه إلى آفاق جديدة (٢).

ويلفت الأنظار الآن ميل معين بين سود أميركا لاتخاذ مواقف موالية نسبيا للعرب والمسلمين. فنجد بين الكتاب والمفكرين السود الأميركيين الذين لهم خلفية دينية أو علمانية وعيا بوجود الإسلام كعنصر ظاهر في الثقافة، خلال بحثهم التاريخي والاجتماعي، فضلا عن الثقافي والروحي.

وهذا الاتجاه واضح في كتاب المؤلف «أليكس هيلي» عن رحلته إلى تلك القرية الحالمة «جوفيوري» في دولة «جامبيا» غرب أفريقيا، التي اختطف منها القراصنة الإنجليز شابا اسمه «كونتا كينتي» سنة ١٧٦٧ ميلادية، ونقلوه ليباع عبدا رقيقا في أميركا، لا يعرف أحد عنه شيئا، حتى ألهم الله واحدا من أحفاد هذا الأفريقي المسلم أن يأتي من ولاية «فرجينيا» إلى دولة «جامبيا» باحثا عن القرية التي اختطف منها جده منذ مئتين وخمسين عاما تقريبا.

ويركز المؤلف على تأكيد استمرارية الهوية الإسلامية للسود في أميركا. وقد وصل عددهم الآن إلى نصف سكان الولايات المتحدة الأميركية.

والكتاب يحفل بكل من ناحيتي الثقافة العربية الإسلامية المكتوبة بلغة القرآن، والتي تعلمها الفتى المسلم «كونتا كينتي» في كتّاب القرية، قبل أن يختطف. كما يركز على الثقافة المحلية القبلية بأفريقيا.

ولكن المهم هو عنصر الدين، والقدرة على كتابة الجمل باللغة العربية التي علمها «كونتا كنيتي» لابنته الوحيدة «كيزي»، وعلمتها هي بالتالي لأبنائها.

يقول حفيده «أليكس هيلي»: أخذني رجال «جوفيوري» إلى المسجد المبني من الخيزران والقش، وصلّوا من حولي باللغة العربية، وترجم لي ملخص دعائهم: (الحمد لله على واحد فقدناه من بيننا، أعاده الله إلينا).

ولعل في هذا ما يُلهم الدعاة وهيئات التبليغ للعمل من أجل تذكير هؤلاء بأنهم انحدروا من أصول لها ثقافة عالية، لها صلة بوحي السماء عموما، وبكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل من حكيم حميد. والقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لم ينله التحريف، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

ولعلنا نتدارك ما فاتنا. ولنبدأ مع «أليكس هيلي» من البداية، لنتعرف على الجذور الإسلامية للسود في الولايات المتحدة الأميركية.

ولنبدأ مع الكاتب الأميركي، والبحث عن «جذوره» الإسلامية:

و«أليكس هيلي» من السود الأميركان. تطورت حياته وأفكاره، فاعتنق الإسلام، وانضوى تحت راية الزعيم الزنجي المسلم «مالكوم إكس».

فلما اغتيل هذا الزعيم، اعتزل وذهب يبحث عن طريق القراءة والسفر، حتى خرج بكتابه «جذور» بعد اثنتي عشرة سنة.. وأصبح اسمه بعدها أشهر من «محمد علي كلاي» الذي اعتنق الإسلام مثله.. ونال على كتابه «جذور» جائزة «بوليتزر» للأدب. وهي الجائزة التي تعادل في أميركا جائزة نوبل العالمية الشهيرة.

يقول «أليكس هيلي» الكاتب الأميركي الأسود:

الأمة الأميركية كلها أمة مؤلفة من مهاجرين، فيما عدا تلك القلة التي عرفت باسم «الهنود الحمر». وفيما عدا هذه القلة فكل الأميركان قد هاجروا إلى أميركا بمحض إرادتهم ورغبتهم في بلاد لا حدود لغناها ووفرة مواردها، إلا فئة واحدة جاءت قسرا وغصبا.. أولئك هم الزنوج.. كان يجلبهم القراصنة، ويبيعهم تجار الرقيق عبيدا بعد أن كانوا أحرارا.

ولايزال بعض البيض في أميركا يتوهمون أن السود من مواطنيهم ليس لهم أصول حضارية ولا إنسانية، بالمفهوم الذي يعرفه من نزحوا من إنجلترا أو فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.

ولقد استمع «أليكس هيلي» وهو صغير من جدته العجوز إلى قصة جده المسلم الأفريقي، الذي بدأت مأساته عندما ذهب يبحث في الغابة المحيطة بقريته عن جذع شجرة ملائم، ليصنع منه طبلة.

وكان يقول: إن اسم قريته «جوفيور» القريبة من نهر «كامبي بولونجو»، وهناك انقضّ عليه أربعة ضربوه على رأسه حتى أفقدوه الوعي، وكتفوه بالحديد، وألقوه في سفينة مع عدد كبير من الصبيان والفتيات السود.

وعبرت السفينة بحرا هائجا أربعة شهور، حتى ألقت بهم في تلك الأرض الجديدة. وظلت هذه القصص عالقة بذهن أليكس هيلي حتى شبّ وفكر في البحث عما وراء هذه القصص التي سمعها من جدته العجوز. وظن أن الأفارقة الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة أخيرا يستطيعون مساعدته في بحثه، فكان يذهب إليهم ويسألهم عن تلك القرية «جوفيور» فيستمعون إليه تأدبا، ويهزون أكتافهم، وينصرفون مندهشين من هذا الأميركي الذي يبحث عن قرية مجهولة وسط غابات أفريقيا. وأخيرا التقى بأستاذ في جامعة «هارفارد» متخصص في الشأن الإفريقي.

فقال له: إنه يرجح أن تكون هذه القرية في «جامبيا»، فهناك نهر بهذا الاسم. وبعد ثلاثة أيام كان أليكس هيلي يركب الطائرة في طريقه إلى غرب أفريقيا. وفي عاصمة دولة جامبيا قالوا له: هناك أناس تخصصوا في حفظ تاريخ القبائل والعائلات، فذهب يبحث حتى وجد المؤرخ العجوز الذي راح يروي قصة العائلة، وكأنه يقرأ في كتاب مسطور.. إنها عائلة مسلمة مثل الكثير من العائلات في تلك المنطقة. عائلة لها تقاليد اجتماعية ودينية. ووصل المؤرخ إلى سنة ١٧٧٦ ميلادية حين وقعت مأساة في العائلة.

فقد ذهب ابنها البكر يلعب على شاطئ النهر، فاختفى ولم يظهر له أثر بعد هذا... هل غرق في النهر وجرفته الأمواج؟!

أم هل اختطفه تجار الرقيق؟ فصل الخطاب ليس هنا..

وذهب «أليكس هيلي» إلى لندن، وهناك تحتفظ الحكومة في مكتب السجلات العامة بوثائق عن السفن الإنجليزية. ونقب في تلك السجلات العامة، حتى اهتدى إلى السفينة التي حملت ذلك الفتى الإفريقي، واسمها «لورد لونجيبه»، وقد أبحرت من جامبيا حتى وصلت إلى ميناء «أنا بوليس» في أمريكا يوم ٢٩ من سبتمبر ١٧٧٦ ميلادية. وقرأ في جريدة «ميريلاند جازيت» في عدد شهر أكتوبر إعلانا عن وصول السفينة لورد لونجيبه، قادمة من نهر جامبيا في أفريقيا، وعليها حمولة من أجود وأصح الأصناف من العبيد الذكور والإناث السود.

وعاد أليكس ليكتب قصة جده الذي ولد في قرية «جوفيور» بجامبيا، والذي أثر الإسلام في سلوكه حتى نهاية حياته غريبا بعيدا عن أهله ووطنه الأصلي.

وترجع جذور عائلة «كنتا» إلى أحد الشيوخ المرابطين على ثغور إقليم «موريتانيا» الإسلامية، ويدعى «كيرابا كونتا كينتا». وعندما وصل إلى سن الإدراك حدّثه عن جده كينتا الأول، وأعانه على حفظ القرآن، ومعرفة الكتابة باللغة العربية، ثم اصطحبه إلى المسجد، وعلمه كيف يعرف مواقيت الصلاة بنفسه.

وعندما وصل سن الثانية عشرة تلقى «كينتا» تدريبا على المصارعة والقتال والصيد، ولفت إليه الأنظار لذكائه وقوة بنيانه وفراعة طوله. وعندما وصل سن الرابعة عشرة اصطحبه أبوه إلى قرية عمه على مسيرة أربعة أيام، مشيا على الأقدام في أرجاء أفريقيا المونقة بالعشب، ومرّ بمواطن الأسود.

وعندما بلغ السادسة عشرة اصطحب أخاه الأمين في رحلة للبحث عن الذهب، وعادا برزق وفير من هذا المعدن النفيس.

وبدأ يفكر في حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وزيارة مسجد الرسول محمد ﷺ بالمدينة المنورة، إلا أن خططه لم تتحقق، لأنه ذهب ذات يوم عندما بلغ السابعة عشرة إلى غابة قريبة من قريته «جوفيور»، وهو كثيرا ما ذهب إليها منفردا، وكانت هذه الغابة آمنة تماما من الوحوش المفترسة كالأسود والنمور.. ولكن كان ينتظره في هذه المرة من هو أكثر شراسة، وأكبر شرا من الوحوش الجائعة! كان يتربص به أربعة من القراصنة المدربين على صيد البشر.. ودخل الفتى في معركة غير متكافئة، ولكنه استطاع أن يفقأ عين أحدهم قبل أن يضربوه على رأسه، ويفقد الوعي. وعندما أفاق وجد نفسه مكبلا بالحديد، ودفعوه إلى مبنى يسمى «قلعة جيمس»، والتي كانت مركزا لتجميع الزنوج وتصديرهم إلى أميركا. وقام أحد القراصنة بكي ظهور هؤلاء المخطوفين والمخطوفات برسم تلك العلامة على ظهورهم وظهورهن (L.L)، إنها العلامة التي ترمز إلى السفينة التي ستحملهم واسمها «لورد لونجيبه». ورأى «كينتا» كيف تحرق أسياخ الحديد أجسادهم وأجسادهن، ويتعالى صراخهم وصراخهن، ويزداد الأنين والبكاء عندما يصب الماء المالح على جروحهم! ولا حول ولا قوة لهم، لأنهم مقيدون بأطواق الحديد.. كانت الرحلة طويلة عبر المحيط في تلك السفينة الرهيبة. وكان قد سبقها المئات من السفن التي حملت الألوف من الأحرار لبيعهم عبيدا أرقاء بقانون دستوري، استندت نصوصه إلى الدستور الأميركي، الذي قرر إقامة دولة حرة ديموقراطية فيما يتعلق بالجنس الأبيض فقط. أما فيما يتعلق بالسود، فكانت أبعد شيء من الحرية والديموقراطية، حتى وصل عدد الزنوج إلى نصف عدد السكان الأميركان، وهي نسبة لم يبلغها عدد الرقيق في أي مجتمع أو عصر، أو في دولة من الدول.

وحاول «كينتا» الهرب رافضا أن يعيش عبدا، وقد خلقه الله مسلما حرا، فقطعوا نصف قدمه حتى لا يستطيع الهرب، وعطفت عليه «بيل» الخادمة السوداء، فكانت تقدم له الطعام الذي يفضله كمسلم لا يأكل لحم الخنزير، ولا يشرب الخمور، وتعاونه فتحضر له الماء ليتوضأ ويصلي كما كان يصلي في مسجد قريته «جوفيور» المسلمة. وظل محافظا على ذلك حتى مات.

ومع أن «بيل» تكبره، فقد تزوجها، وأنجب منها وحيدته «كيزي»، التي وعت ما كان يحكيه لها عن حياته قبل أن يخطفه الإنجليز. ويكتب لها على الرمل اسمه واسم أبيه وجده بالحروف العربية «كينتا عمر كيرا باكونتا كينتا»، وحفظت «كيزي» ذلك. ولكن عندما بلغت «كيزي» السادسة عشرة نزعت من والديها، وباعها سيدهما ولم يرها والدها بعد ذلك على الإطلاق، وهناك في ولاية «كارولينا» أنجبت من سيدها الأبيض الذي اشتراها ولدا أسموه «جورج». وأنجب جورج ذكورا وإناثا. وإحدى حتى قصة جدها.

الهوامش

١- من دول شرق أفريقيا، ومساحتها ٥٨٣٦٤٤ كيلو مترا مربعا، وعاصمتها «نيروبي»، وهي موطن «حسين أوباما» والد الرئيس الأميركي «باراك حسين أوباما».

٢- كتاب «الديانات في أفريقية السوداء»، ص ١٥٢:١٥٣، لمؤلفه هو بيرديشان.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٢)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



لا خلاف اليوم بين أبناء العروبة في أن القرآن الكريم رشح اللغة العربية الفصحى كي تكون غرة لغات العالمين دينا ودنيا، سواء في أمسها الدابر، أو في هذا الزمن الحاضر، أوفي مستقبلها الجائر الحائر، لذا قبيح بكل عربي صليب صميم أن يخرج من هذه اللغة التي اصطفاها ربنا لتكون مادة لقرآنه؛ الذي اشتمل على عرائس الألفاظ الأبكار التي أخرست شقاشق الأبيناء، وبدائع العبارات التي جعلت الخزامى في أنف كل عربي مفوه بليغ عارف بأسرار البلاغة، وضروب البراعة في تنضيد الألفاظ، واستعمالها في الأماكن التي تقتضيها وترتضيها. فلماذا أتى علينا حين من الدهر أصبحنا لا نعرف فيه من عربيتنا الفصحى إلا ما يقدمه الأغراب لنا من غذاء أصاب معدنا وأفكارنا بالعسر والهزال؟ ولماذا نصر على جعلها دبر آذاننا رغم ما وشاها به القرآن الكريم، والشعر العربي البليغ، وقرائح الأدباء والعلماء العرب المجيدين من جواهر تخلب الألباب، ودرر مستفرهة تأخذ بنياط القلوب؟ ولماذا طارت الفصاحة من دنيا العروبة، رغم الهينمات والتلاوات المتخيرة التي تسمع للقرآن الكريم، وقراءة الشعر العربي البليغ، وكلام الفصحاء في مشارق الأرض ومغاربها؟ ولماذا فشلت طرقنا التربوية في وضع صوى ومنارات في طريق الفصاحة كي تعرف فتتبع؟ وما هي السبيل الناهجة التي تمكننا من بلوغ الأرب في شرب العربية الفصحى ماء نميرا، فتجري بها ألسنتنا في مؤسساتنا وفي إداراتنا وفي معتملاتنا وفي

أنديتنا وفي مصانعنا وفي مطاراتنا. أسئلة كثيرة تجد جوابها البليغ في أن تعليم وتعلم الفصحى يجب أن يؤسس على المزاوجة والجمع بين طريقتين، كما تجمع حبات الجلبان في سنيفها: الأولى رأسها الطبع، وعمودها السماع، المقتصر على تخير النصوص الماتعة الشائقة التي تخلب الألباب وتدخل آذان الشداة من غير إذن، ودعائمها المناخ اللغوي السليم الذي يمكن للفصحى بقرار سياسي صادق وملزم ينتقل بلغتنا من الصفة إلى الحال، التي تشبع الحاجات الذوقية والرغبات النفسية، التي تشعل وقود الشداة للانغماس في الفصحى، والإقبال على التحدث بها كما يقبلون على التمارين الرياضية والتواصلات الافتراضية الحميمية على الشابكة. أما الطريقة الأخرى فإن العلم وضوابطه يمثل ذروة سنامها، حيث تقدم لهم القواعد والقوانين الأساسية الضامنة للفصحى ضمنيا، وفي أطر فنية تجعلهم يقتصرون على الكفاية، لا تلقى عليهم الغايات في أثناء البدايات، ولا يتوسعون في العلم بوجوه الاستعمالات الصحيحة، إلا عندما يظهرون معرفتهم بضروب المقامات التي تجعل الكلام وافيا بالغرض الذي إليه قصد المتكلم، فيتحولون من مرحلة النحو الضمني إلى مرحلة الحذاقة والملكة الراسخة التي تستند إلى النحو المرجعي القاعدي الذي يضمن للغة الاستقامة، لأن النقص في تحصيل ملكات العلوم والمعارف، أساسها في الغالب الأعم راجع إلى النقص في ملكة اللسان، لأن اللغة هي الفكر، وهي الوسيلة الضرورية للمعرفة، كما أن المعرفة لا يمكن تصورها من دون لغة مستقيمة، كل واحدة منهما ضرورية للأخرى، مثل الروض مع عبير أزاهيره. ولهذا فإن الطريقة التي نستعمل بها لغتنا العربية الخداج، هي المسؤولة عن أفكارنا الفارغة، مثل مومات النحل، وهذا ما يؤكده العالم (دوتراسي De tracy) قائلا: «إن تكوين الأفكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات، فكل علم يمكن رده إلى لغة أجيدت صياغتها، ومعنى قولنا عن علم معين: إنه تطور وتقدم، هو أن ذلك العلم قد ضبط لغته لا أكثر ولا أقل، ضبطا يتم إما بتغيير ألفاظه، وإما بأن يجعل الألفاظ القائمة أدق في معانيها» (١). لهذا فإن التخلف الفكري الذي نعانيه يعود إلى العلل اللغوية التي اعتاص علينا ابتكار ترياق ينجينا من الجهل بلغتنا وبقواعدها التي تنجينا من سوء الفهم، إذ بالملكة اللسانية نستطيع إدراك خبايا الكلام وأسراره؛ جيده ورديئه. وهذه الملكة كما أسلفت إما أن تكون جبلية فطرية تولدها البيئة اللغوية، فيرضعها الإنسان من لبان أمه، ومن ثمة يسيل لسانه باللغة التي نشأ عليها عذبا رقراقا؛ وذلك هو الطبع؛ وإما أن يحصلها المرء في مؤسسات وفق برامج محددة تعتمد الدربة والمران، وتلك هي الصنعة. ولهذا لا يعد المرء مترهيا محصلا لهذه الملكة، إلا إذا توفر على حس لغوي متمكن، وذوق جمالي مميز، ورصيد معرفي رصين للضوابط والقواعد المنظمة التي تجلي أسرار الكلام، التي يتوقف عليها إدراك البراعة والخلابة في الأساليب. فهل تسعى معاهدنا العربية لامتلاك الفصحى طبعا وصنعة، كما امتلكها أسلافنا الذين يعز أن تعثر لهم على شائنة في ما كانوا يطرسون، وما كانوا يتفوهون به؟ الحق أن الفصاحة كانت أعز ما يطلب لديهم، ولذلك كانوا يعدون اللحن والخطأ ضلالا، يستحق مرتكبه أن يرشد وينبه إلى الصواب، على شاكلة هذه الحادثة الطريفة: أراد رجل أن يسأل أعرابيا عن أهله، فقال: كيف أهلك بكسر اللام؟ فقال له الأعرابي: صلبا، لأنه لم يفهم مما سأله عنه سوى أنه يسأله عن السبب الذي يهلك به. وسأقتصر في هذه الحلقة على إيراد نموذجين من لحن المعاصرين، أحدهما يرجع إلى فساد الطبع عند قولهم: كل المغاربة سواسية أمام القانون، وهم يقصدون أنهم سواء أمام القانون، أي متساوون، وهو لحن فاحش، لأن لفظة «سواسية» لا تستعمل إلا في اللؤم والخسة والشر، كما يقول الشاعر ذو الرمة:

لهم مجلس صهب السبال أذلة

سواسية أحرارها وعبيدها

وقال آخر:

شبابهم وشيبهم سواء

سواسية كأسنان الحمار

أما النموذج الآخر فيرجع إلى الصنعة، أي: إلى عدم التمكن من القواعد التي تضمن السلامة، كما يبدو ذلك في العبارة الشائعة الآتية: خير الأمور أوسطها. إذ الصحيح الذي لا مرية فيه هو: خير الأمور أوساطها، بجمع لفظة «أوساطها»، لكي تتطابق مع جمع «الأمور».

قال عبد الله بن مسعود في خطبته: «وخير الأمور أوساطها...» (٢)، وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنهـــا

نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

الهوامش

١- نافذة على فلسفة العصر، د. زكي نجيب محمود، كتاب العربي، الجزء الثاني، عدد ٩٨، ص ١٣٧، ط١، أكتوبر ٢٠١٤م، وزارة الإعلام، الكويت.

٢- البيان والتبيين، أبو عثمان بن بحر ابن محبوب الجاحظ، تحقيق وشرح: حسن السندوبي، الجزء١، ص ٢٧٤، ط٤، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، دار الفكر، بيروت - لبنان.



وقت مستقطع

مياسة النخلاني
قاصة من اليمن

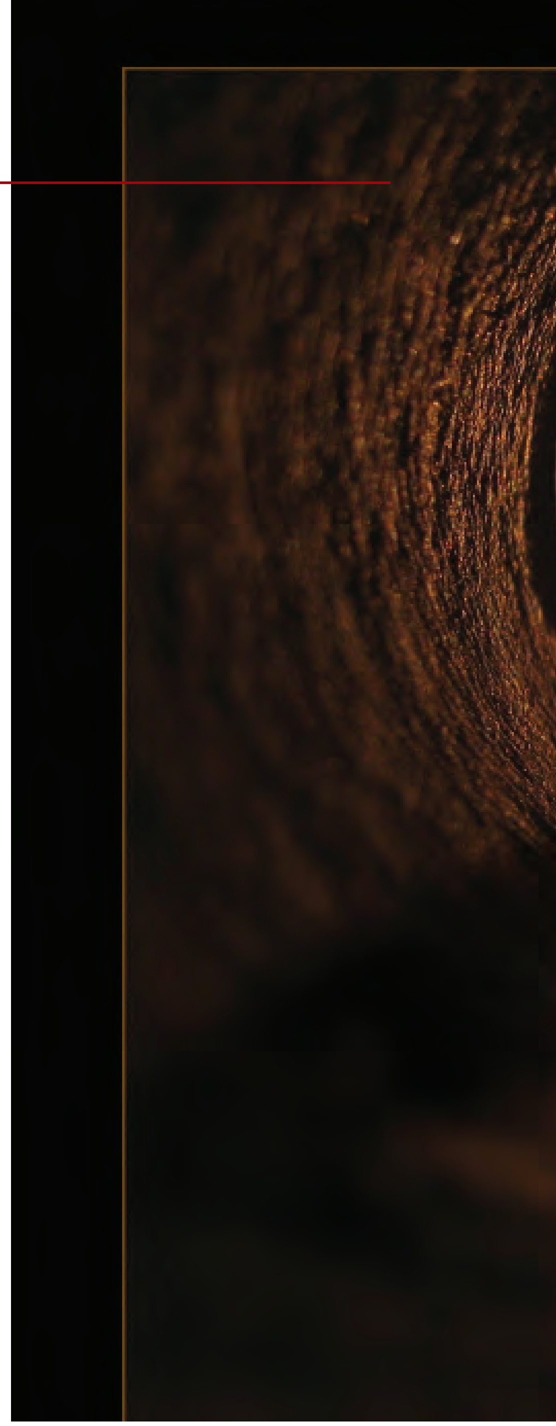
تردد بعض الوقت وهو يغادر غرفته.. يدرك جيدا أن هذا المشوار بالذات سيأخذه إلى منحى آخر من طريق الهروب الذي يسلكه منذ فترة ليست بالقصيرة، أو بالأحرى سيشده إلى ذلك الطريق الذي تصعب العودة منه.

ومع ذلك، لم يدم تردده كثيرا.. غادر غرفته، ونزل الدرج مسرعا من دون أن يتبادر إلى ذهنه أن يتوقف عن التوغل أكثر، أو حتى يحاول الالتفات إلى الوراء ليلحظ الفارق بين ما كان وما هو عليه الآن، وما سيكون عليه غدا إن ذهب إلى هناك.

كل ما فكر فيه حينها - إن كان يفكر في حاله أساسا - أن يواصل الاختباء خلف الحاجز الضبابي الذي يحول بينه وبين من حوله، حتى أقرب الناس إليه، وهم بشكل خاص.

ياسر، الشاب الذي كان يضرب به المثل في فترة من فترات حياته، تحول في لحظة واحدة إلى كتلة من اللامبالاة والسلبية، لا يكاد يفكر في أحد ممن حوله، لا يعنيه شيء على الإطلاق، ولا يهمه حال أحد، لا عمل له منذ صحوه وحتى منامه سوى أن يتسكع هنا وهناك، يبذر ما في يديه من مال، وما إن ينتهي منه حتى يطلب المزيد. لا يعي ما يفعل سوى مواصلة المسير في الطريق الذي لم يعد يرى سواه، أو لا يرغب في سواه، والأمران سيان، موت الرغبة في داخله للتفكير.. الإحساس أو الانتباه، وكأن قلبه وعقله في حالة موت سريري، يشعر بما حوله ولا يشعر، يرى العالم يتحرك من حوله ولا يحاول أن يكون جزءا منه، أصبح كل هذا وأكثر خلال عامين فقط!

كيف وصل إلى هذا المنعطف؟ لا يعلم، ولا يريد أن يعلم. كل ما يتذكره أنه أوشك أن ينهي سنوات المدرسة كأفضل ما يكون، كان إنسانا آخر، بدأ الأمر حين سقط والده مغشيا عليه،



وفي المستشفى أعلنها الطبيب أن لا أمل في شفاء الوالد، وأنه قد يموت خلال أيام. عاد الجميع إلى البيت تحت وقع الصدمة، ينتظرون اللحظة التي يفارقون فيها الوالد، إلا والدته التي أصرت أن التشخيص ليس صحيحا! وبالفعل، أخذت زوجها إلى طبيب آخر ليخبرهم أن التشخيص السابق مخطئ وسيكون الوالد بخير بعد إجرائه عملية جراحية. حينها، وفي اللحظة التي عادت الحياة إلى عيني والدته وإخوته، قرر أن يكون طبيبا، لا يدري لماذا اتخذ ذلك القرار، لكنه أراده بشدة، وعزم على بذل أقصى طاقته لتحقيقه.

لم يتخل عن المركز الأول في كل مراحل دراسته اللاحقة لتلك الواقعة، وكلما فتر عزمه تذكر كلمات الطبيب وهي تنساب على مسامعهم ليبث العزم لروحه مجددا. لكنه، ولأسباب خارجة عن إرادته، تحصل أخيرا على مجموع لا يؤهله لدخول كلية الطب، ولا حتى المرور من جانبها.. هكذا سارت الأمور، قدم أفضل ما لديه، لكن لم يقدر له أن يجتاز آخر مرحلة.

ألجمته الصدمة، لم يبدر منه أي تصرف سوى الدخول في نوبة صمت طويلة، كمن وقع من ارتفاع شاهق، وحين سقط على الأرض لم يتألم، لأنه فقد القدرة على الإحساس بجسده وأطرافه، وهو حينها فقد القدرة على الوصول إلى مراكز الإحساس في أعماقه، كل ما في داخله أصبح يعج بالصمت. وبالهدوء ذاته رمى بملفه في كلية العلوم الإدارية، ومن دون عزيمة أخذ يتردد على الجامعة وقاعاتها، يستمع إلى أساتذته من دون أن يدري ما يحاولون قوله، لينهي عامه الجامعي الأول بإخفاق تام ورسوب بكامل مواده. ومع ذلك، لم يشعر بالذنب، أو يحاول إصلاح وضعه الدراسي، بل تمعن أكثر في معاقبة نفسه على ذنب لم تقترفه: يتسكع هنا وهناك، يصادق شبابا لم يعرف أمثالهم في حياته؛ سهر حتى الصباح، ونوم حتى ما بعد الظهر.. كان يهرب من مواجهة واقعه قدر ما يستطيع.

وها هو يسير الليلة إلى شقة صديقه، حيث يفترض بهما رفقة البقية أن يعيشوا «ليلة مميزة»، قالها وهو يغمز بعينه ويرسم ابتسامة خبيثة على شفتيه، كان يدرك أنه سيضيع هناك تماما، وقد لا يكون بمقدوره العودة.

«ماذا بعد؟!».. حدث نفسه وهو يغادر السيارة ويوشك على دخول العمارة «إلى أين تريد أن تصل؟!».

توقف مذهولا فهذه أول مرة يتردد هذا السؤال في أعماقه منذ وقت طويل. كان الأمر مجرد سهر وتمضية الليل برفقة بعض الأصدقاء، لكن أن يتجاوز للحرام فهذا ما لم يضعه في حسبانه «سأسهر حتى الفجر ثم أعود إلى البيت».. أجاب على سؤاله بإصرار وواصل ارتقاء درجات الدور الثاني.

«قف!».

دوت في رأسه بقوة، لدرجة أنه تلفت حوله ليتأكد أن لا أحد قد سمع الأمر الموجه من نفسه لنفسه. كان صوته الداخلي يتحدث، وإن شعر بأن شخصا آخر في داخله هو من نطق بهذه الحروف الثلاثة. نعم، كان هو من قالها.. «ياسر» الذي حاول جاهدا أن يدفنه في داخله، ها هو يستغيث مجددا، بعد أن تحرر نوعا ما من القيود التي كبله بها خلال أكثر من عامين.

شعر بالاختناق، أراد أن يكمل طريقه لكن قدميه تسمرتا.

«سأصعد إلى هناك».

قالها بصوت مسموع وهو مصمم على المواصلة، لكنه ما إن وصل إلى باب الشقة حتى تراجع ونزل الدرج بسرعة؛ ليجد نفسه وسط الشارع أخيرا، يتنفس بعمق هواء الليل البارد، حرك قدميه وبدأ يمشي من دون هدى.

فعلا ماذا يعني لو أنه لم يتمكن من تحقيق أمنية ما، ليس مبررا ليواصل الانحدار الذي هو عليه الآن، يكفي عامان من الحزن والاكتئاب والتيهان واللامبالاة، لا داعي للإسهاب أكثر، ولتضييع نفسه لأجل لا شيء، سيكون بمقدوره النجاح في أي مجال يريد، وتعويض أي خسارة تعرض لها، عليه أن يقرر ذلك فقط وسيفعل.

عاد إلى باب العمارة، نظر طويلا إلى بوابتها قبل أن يشيح ببصره بعيدا ويركب سيارته ويبتعد.



أيمن عبدالسميع
قاص من مصر

عم جابر الخياط

دخل شاب حانوتا قديما لخياط عجوز، فقدم الشاب قطعة قماش مستوردة (صوف إنجليزي) للرجل العجوز، وقال له مؤكدا:

يا عم جابر، أريد جلبابا «عليه القيمة للمناسبات»، ليس به عيب يذكر، ولك ما تطلب من الأجر.

ابتسم العجوز من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم ربت على ذراع الشاب الفارع، وبعد لحظات من الصمت، تمتم بفم مرتعش:

إن شاء الله يا بني، بعد يومين طلبك سيكون جاهزا.

اجتهد عم جابر الخياط وسهر الليل؛ ليكون الثوب جيدا ومتقنا، وخاليا من العيوب تماما!

وبعد أن تسلم الشاب ثوبه من الخياط العجوز، عاد إليه في اليوم التالي، فقال للخياط العجوز وكله أسف وحزن:

يا عم جابر، لقد وجدت بعض العيوب في حياكة الثوب، وهذا لم يكن اتفاقنا (وأراه إياها).

فأجهش عم جابر الخياط بالبكاء الشديد، فتأثر الشاب ببكاء العجوز وضمه إلى صدره في حنو وقال له متأسفا:

● لا عليك يا عم جابر، لا تشعرني بالذنب، هكذا الثوب يعجبني، سامحني، والله ما قصدت أن أحزنك، وأنا راض بالثوب على حالته، ولن أنقصك جنيها من أجرك.

وبعد صمت دام طويلا، نطق عم جابر بشفة مرتعشة وهو يركن نظارته الطبية على صوان جواره، ولا يزال ينخرط في البكاء وصوته لا يكاد يخرج من حنجرته المعروقة:

● يا بني، ليس على هذا أبكي، لكني أبكي لأنني عملت كل جهدي؛ لأتقن لك حياكة الثوب، ثم خرجت تلك العيوب الظاهرة.. أنا أبكي على طاعتي لربي، وقد اجتهدت بها عمري الطويل، فكم فيها من العيوب؟!

فابتسم الشاب في وجه العجوز، وعاد يربت عليه من جديد.

ألق الضياء

محمد نور العلي
شاعر إماراتي

بمحمد ألق الضياء تلالا
فكسا العوالم نضرة وجمالا

في هدأة الصحراء رنّق نوره
فمشى الجميع لقدسه يتوالى

ولقد أراق على الحياة بهاءها
وأحالها عرسا تتيه دلالا

لله سحر قد بدا من روحه
لكن ذاك السحر كان حلالا

في يوم مولده الهداية أرسلت
للظامئين محبة ووصالا

يوم تسامى لا أدق للطفه
في العالمين ولا أجل جلالا

والخلق قبل اليوم جهل قاتل
سفكوا الدماء وقدسوا التمثالا

تاه الدليل فلا نجوم مضيئة
تهدي الحيارى يمنة وشمالا

قد شاب قرن الجاهلية وانمحت
جل المآثر وارتقت إضلالا

وعلا هتاف المجد يصدح قائلا
جاء الرسول يحقق الآمالا

هذا الذي شهد الأنام بفضله
كالبدر في كبد السماء كمالا

يا خير من زان البسيطة نوره
يامن سما بشمائل يتعالى

فلقد سموت على الورى برسالة
حوت الفضائل والهدى أجيالا

ولقد حملت الخلق نحو نجاتهم
من بعد ما جال الفساد وصالا

ولقد أرحت الناس من عهد العمى
فكأن ذاك العهد كان خيالا

وأعدت للإنسان كل كرامة
سلبت بشرع جهالة أحوالا

ولقد رددت إلى الحقيقة حسنها
حتى غدت كالشامخات طوالا

ولقد غرست الأرض روحا فانتشت
وغدت بصدق تنبت الأبطالا

وسهرت تحرس أمة صيرتها
للعالمين نموذجا ومثالا

وبلغت تهدي الخافقين بدعوة
سمحاء كنت لحسنها حمّالا

فتسابقت أرض الحجاز لهديها
وغدا الخليج بعطرها مختالا

وتلألأت أرض الكنانة جزلة
ومشت شآم لخيرها إقبالا

فشموس حبك في القلوب مضيئة
وسناء مجدك في الوجود تعالى

صلى عليك الله يا قمر الهدى
يامن به ألق الضياء تلالا



عثرات الأقلام (١)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

● قولهم: «عدم اعتياد الموظفين على كذا»، صوابه: «عدم اعتياد الموظفين كذا»، من دون حرف الجر، قال القاموس: «تعوده واعتاده جعله عادته وعوده إياه جعله يعتاده».

● وقولهم: «فلبثوا هناك برهة من الزمن»، يعنون وقتا قصيرا، مع أن «البرهة» هي الوقت الطويل، قال في الصحاح: «برَهَ: أتت عليه برهة من الدهر، أي مدة طويلة من الزمن»، وأما «الهنيهة» فهي الوقت القصير.

● وقولهم: «يواصلون السعي بهمة لا تعرف الكلل»، صوابه: «الكلال»، قال في الصحاح: «كللت من الشيء أكل كلالا وكلالة أعييت».

● وقولهم: «استفسروا من بعضهم بعضا» و«ينظرون إلى بعضهم البعض»، وصوابه: «استفسروا بعضهم بعضا»، و«ينظر بعضهم إلى بعض»، وهو غلط فاش فلينتبه إليه.

● وقولهم: «فضربه ما ينوف عن خمسين عصا»، صوابه: «ما ينيف على خمسين»، أي يزيد عليها، فإن هذا الفعل (ناف) إذا كان بمعنى الزيادة فلا يستعمل إلا رباعيا مع حرف الجر «على» لا «عن».

● وقولهم: «وهناك غرفة للمائدة ومحل للغسيل ومنتزه»، صوابه: «متنزه» بتقديم التاء، من التنزه «التفعل» لا الانتزاه «الافتعال»، وقوله: «محل للغسيل» الأظهر أن يقال فيه: «محل للغسل»، أي غسل الثوب، أما «الغسيل» بالياء فهو الثوب المفعول نفسه.

● وقولهم: «البضائع المتأخرة في العنابر»،

نبذة عن مجلة «المجمع العلمي العربي» ورئيس تحريرها

تعتبر مجلة «المجمع العلمي العربي» من المجلات العربية الرائدة والعريقة، حيث صدر عددها الأول في يناير سنة ١٩٢١م الموافق ٢١ ربيع الثاني سنة ١٣٣٩هـ.
ويتركب كيان هذه المجلة من أربعة أبواب:
الأول – في المقالات والمحاضرات ذات الموضوعات العلمية الفنية.
الثاني – في المراسلات التي ترد إلى إدارة المجلة من المراسلين والعلماء وأهل الفضل.
الثالث – في الأخبار والشؤون العلمية عامة.
الرابع – في أعمال المجمع ومساعيه الداخلية الخاصة به.
وكان هدف المجمع العلمي العربي من إصدار هذه المجلة: نشر ما يجري فيه وفي دوائره التابعة له من أعمال وأبحاث علمية.
أول رئيس تحرير للمجلة كان الأستاذ العلامة محمد كرد علي، وهو أول وزير للمعارف والتربية في سوريا، ورئيس المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه سنة ١٩١٩م حتى وفاته ١٩٥٣م.
نشأ رحمه الله في أسرة كريمة، وقرأ كتب العربية والأدب على علماء دمشق الكبار أمثال: الشيخ سليم النجادي والشيخ طاهر الجزائري، وشغل عدة مناصب منها: رئيس تحرير صحف ومجلات عدة منها: «الشام» و«الرائد» و«الظاهر» و«المؤيد»، وأنشأ مجلة «المقتبس»، وأنشأ المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩م وعُين رئيسا له حتى وفاته، وله العديد من المؤلفات: منها: «خطط الشام» و«أقوالنا وأفعالنا» و«الإدارة الإسلامية».

صوابه «الأنابر» جمع «أنبار» وقلب الهمزة عينا خطأ.

● وقولهم: «فلان كفؤ لوظيفة كذا» و«فلان من الأكفاء لكذا»، وصوابه: «فلان كفي» و«هو من الأكفياء»، أي ذو كفاية ومقدرة على العمل، أما «الكفؤ» بالهمزة فهو بمعنى «المثل»، واستعماله بمعنى «الكفي» بالياء خطأ ينبغي التفطن له.

● وقولهم: «وعدا عن ذلك فإن الأمر كيت وكيت»، صوابه: «وعدا ذلك» و«ما عدا ذلك» بإسقاط حرف الجر «عن».

● وقولهم: «فلان لا يهتم لهذا الأمر قط»، صوابه: «أبدا» أو «عوض»، إذ هما لتأكيد الاستقبال، أما «قط» فلتأكيد الماضي يقال: «ما اهتم لهذا الأمر قط».

● وقولهم: «كسر ربقة الأسر»، وصوابه أن يقال: «قطع ربقة الأسر أو فكها أو حلها أو خلعها»؛ لأن «الربقة» إحدى عرى الحبل الذي تشد به البهم، فهو يقطع قطعا ولا يتكسر كسرا. أما «النير»، وهو الخشبة المعترضة في عنقي الثورين، فيصح استعمال الكسر معه.

● ومن عثرات الأقلام قولهم: «وصدف أن أعداءه وشوا به إلى الملك»، وصوابه: «اتفق أن أعداءه - أو صادف أن أعداءه»، أما «صدف» الثلاثي فمعناه:



«صرف وانصرف»، و«صدف عنه» أعرض وصد.

● وقولهم: «ثم انتقل إلى بيروت حيث توفي هناك»، «حيث» نفسها ظرف مكان بمعنى «هناك»، فمعنى «حيث توفي»: «هناك توفي»، وإعادة كلمة «هناك» تكرار لا داعي له.

● وقولهم: «إذا بحثنا في هذه الأمور لوجدناها كيت وكيت»، صوابه: «وجدناها» من دون إدخال اللام عليها؛ لأن اللام إنما تقع في جواب لو.

● وقولهم: «لابد في هذا الأمر من المفاداة والتضحية»، الأفصح أن يقال: «لابد فيه من المخاطرة أو المغامرة». وفسرت كتب اللغة «المغامر» بالذي يلقي بنفسه في الغمرات ويقتحم المهالك، أما «المفاداة» فمعناها أن تفدي أسيرا بأسر، كما أن «التضحية» بالشاة ذبحها وقت الضحوة ثم عم كل وقت.

● وقولهم: «ذلك خير بألف مرة من تحويل حتى جزء واحد... إلخ»، إقحام «حتى» بين المضاف والمضاف إليه لا مسوغ له، فالأظهر أن يقال: «من تحويل أقل جزء».

● وقولهم: «جاء القوم بما فيهم العلماء»، صوابه أن يقال: «جاءوا وفيهم العلماء أو معهم العلماء».

● وقولهم: «لابد وأن يكون كذا»، صوابه: حذف «الواو» من بين «بد» وما بعدها؛ لأن ما بعدها متعلق بها على تقدير حرف الجر «من»، إذ المعنى: «لا فرار ولا محيص من أن يكونوا كذا».

● وقولهم: «يجب كذا حتى ولو كان مضرا»، صوابه حذف «حتى»، فيقال: «يجب كذا ولو كان مضرا».

● وقولهم: «إنما فعلت هذا الأمر لأجل صالح الوطن - أو لأجل صوالح الوطن»، والأظهر أن يقال: «لأجل مصلحة الوطن أو مصالحه».

● وقولهم: «تنازعوا على النفوذ في البلاد»، صوابه أن يقال: «تنازعوا في النفوذ»، أي تخاصموا. ويصح أن يقال أيضا: «تنازعوا النفوذ» من دون حرف جر، على معنى تجاذبوه وأراد كل منهم أن يستأثر به.

● وقولهم: «يجتهدون في عمار البلاد»، صوابه: «في عمران البلاد» أو في «عمارة البلاد» بالتاء.

المصدر:
مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق
الجزء (٦) حزيران سنة ١٩٢١م - الموافق ١٨ رمضان سنة ١٣٣٩هـ - المجلد الأول.

مقدمة الكتب

«جامع الأصول»

لابن الأثير

عبادة نوح

إن السنة النبوية هي الأصل الثاني من أصول الأحكام الشرعية التي أجمع المسلمون على اعتبارها أصلا قائما بذاته، فهي والقرآن متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالقرآن كلي هذه الشريعة، والرسول ﷺ مبين بسنته لجزئياتها. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤)، وقد أنعم الله على هذه الأمة الإسلامية بأن قيض لها في القرون الأولى نخبة ممتازة وصفوة مختارة، ندبت أنفسها لخدمة السنة النبوية المطهرة ولم شتاتها، فالتقطوها من أفواه سامعيها، وجمعوها من صدور حامليها، وطووا الفيافي والقفار إلى حفظتها في كل قطر ومصر، وبذلوا في سبيل ذلك أموالهم، وأفنوا أعمارهم، فكان من أثر ذلك تدوين المؤلفات الضخمة العديدة التي ضمت تراث نبينا الكريم ﷺ، فاستحقوا بذلك رضوان الله تعالى، والشكر والتكريم.

وكتاب «جامع الأصول» أحد تلك المؤلفات العظيمة، عمد فيه مؤلفه إلى الأحاديث التي وعتها الأصول الستة المعتمدة عند الفقهاء والمحدثين: الموطأ، والبخاري، ومسلم، وأبوداود، والترمذي، والنسائي، التي حوت معظم ما صح عن النبي الكريم ﷺ، فجمعها وأدمجها كلها في مؤلف واحد، بعد أن رتبها وهذبها وذلل صعابها، وقرب نفعها، وافتتحه بمقدمة ضافية فصل فيها الطريقة التي اتبعها في تصنيف الكتاب، وذكر جل قواعد مصطلح الحديث التي تمس الحاجة إلى معرفتها، وختمها بتراجم الأئمة الستة الذين جمع كتبهم في تأليفه هذا، فجاء فذا في بابه، وكل من يقتنيه عن الأصول الستة يغنيه.

لقد ذكر المؤلف في مقدمته أن أول عمل قام به، هو حذف الأسانيد، فلم يثبت إلا اسم الصحابي الذي روى الحديث عن النبي ﷺ إن كان خبرا، أو اسم من يرويه عن الصحابي إن كان أثرا، اللهم إلا أن يعرض في الحديث ذكر اسم أحد رواته فيما تمس الحاجة إليه، فإنه يذكره لتوقف فهم المعنى المذكور في الحديث عليه.

وأما متون الأحاديث، فقد أثبت منها ما كان حديثا عن رسول الله ﷺ، أو أثرا عن صحابي، وما وجد من أقوال التابعين والأئمة المجتهدين في الأصول التي جمعها في كتابه، فلم يذكرها إلا نادرا.

واعتمد في النقل من كتابي البخاري ومسلم على «الجمع بين الصحيحين» للإمام أبي عبدالله الحميدي، وذكر أنه أحسن في ذكر طرقه، واستقصى في إيراد رواياته، وأن إليه المنتهى في جمع هذين الكتابين، وأما باقي الكتب الأربعة، فقد نقلها من الأصول التي قرأها وسمعها، كما اعتمد على نسخ أخرى منها غير مسموعة له.

وقد عول في المحافظة على ألفاظ البخاري ومسلم أكثر من غيرهما من باقي الأئمة الأربعة، اللهم إلا أن يكون في غيرهما زيادة أو بيان أو بسط، فإنه يذكرها، كما يتتبع الزيادات من جميع الأمهات، ويضيفها إلى مواضعها.

وقد عدل عن الطريقة التي اتبعها أصحاب الأصول الستة في الترتيب والتبويب، لأن كل واحد منهم قد





ذكر أحاديث في أبواب من كتابه، ذكرها غيره في غير تلك الأبواب، فعمد إلى الأحاديث المضمنة في هذه الأصول، فاعتبرها وتتبعها واستخرج معانيها، وبنى الأبواب على المعاني التي دلت عليها الأحاديث.

وكل حديث انفرد بمعنى، أثبته في باب يخصه، وما اشتمل من الأحاديث على أكثر من معنى، إلا أنه بأحدها أخص، وهو فيها أغلب، فقد أثبته في الباب الذي هو أخص به وأغلب عليه، وإذا كان يشتمل على أكثر من معنى، ولا يغلب أحد المعاني على الآخر، فقد أورده في آخر الكتاب في اللواحق.

ثم إنه خرج أسماء الكتب المودعة في الكتاب، وجعلها مرتبة على حروف المعجم، طلبا لتسهيل كلفة الطلب، وتقريبا على المريد بلغة الأرب.

وقد أثبت ما وجده في كتب الغريب واللغة والفقه من معنى مستحسن، أو نكتة غريبة، أو شرح واف في آخر كل حرف على ترتيب الكتب، بعد الاحتياط فيما نقله، وما لم يجده فيها - وهو قليل - فقد ذكر فيه ما سنح له بعد سؤال أهل المعرفة والدراية.

ومما لا شك أنه قد أسدى بتأليفه هذا الكتاب العظيم إلى الإسلام وأهله يدا لا تزال مشكورة، ما دام في الدنيا من يدين بهذا الدين، ويتبع سبيل المؤمنين. فجزاه الله خير جزاء.

ترجمة المؤلف:

هو الإمام البارع مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري ثم الموصلي المعروف بابن الأثير، ولد سنة ٥٤٤هـ قرب الموصل، وتلقى معارفه الأولى، من تفسير وحديث ونحو ولغة وفقه وغيرها من العلوم.

كان من محاسن الزمن، ذا دين متين، وطريقة مستقيمة، عارفا، فاضلا، ورعا، عاقلا، مطاعا، رئيسا، مشاورا، ذا بر وإحسان، وصنف تصانيف مشهورة، وألف كتبا مفيدة، منها: «غريب الحديث» على حروف المعجم، وهو المعروف بالنهاية، و«الشافي شرح مسند الشافعي»، و«الإنصاف بين الكشف والكشاف» جمع فيه بين تفسيري الثعلبي والزمخشري، و«البديع» في النحو، و«الباهر في الفروق» في النحو أيضا، و«تهذيب فصول ابن الدهان»، و«المصطفى المختار من الأدعية والأذكار»، و«كتاب لطيف في صناعة الكتابة»، وغيرها.

ولما أقعد آخر عمره، جاء رجل مغربي فعالجه بدهن صنعه، فبانت ثمرته، وتمكن من مد رجليه، فقال لأخيه عز الدين: أعطه ما يرضيه، واصرفه، فقال أخوه: لماذا وقد ظهر النجح؟ قال: هو كما تقول، ولكني في راحة من صحبة هؤلاء القوم - يعني الأمراء والسلاطين -، وقد سكنت نفسي إلى الانقطاع والدعة، وبالأمس كنت أذل نفسي

مقدمة الكتب

بالسعي إليهم، وهنا في منزلي لا يأتون إلي إلا في مشورة مهمة، ولم يبق من العمر إلا القليل، فدعني أعش باقيه حرا سليما من الذل، قال أخوه: فقبلت قوله وصرفت الرجل بإحسان، فلزم بيته صابرا محتسبا، يقصده العلماء، ويفد إليه السلاطين والأمراء، يقبسون من علمه، وينهلون من فيضه، حتى توفي رحمه الله بالموصل سنة ٦٠٦ هـ (١).

قطوف من كلام المصنف في المقدمة:

قال رحمه الله: «أما بعد، فإن مبنى هذا الكتاب على ثلاثة أركان:

الأول: في المبادئ، والثاني: في المقاصد، والثالث: في الخواتيم.

والركن الأول: ينقسم إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: في الباعث على عمل الكتاب، وفيه مقدمة وأربعة فصول..

المقدمة: ما زلت في ريعان الشباب، وحداثة السن، مشغوفا بطلب العلم، ومجالسة أهله، والتشبه بهم حسب الإمكان، وذلك من فضل الله علي، ولطفه بي أن حببه إلي، فبذلت الوسع في تحصيل ما وفقت له من أنواعه، حتى صارت في قوة الاطلاع على خفاياه، وإدراك خباياه، ولم آل جهدا - والله الموفق - في إجمال الطلب، وابتغاء الأرب، إلى أن تشبثت من كل بطرف تشبهت فيه بأضرابي، ولا أقول: تميزت به على أترابي،

ولله الحمد على ما أنعم به من فضله، وأجزل من طوله، وإليه المفزع في الإسعاد بالزلفى يوم المعاد، والأمن من الفزع الأكبر يوم التناد، وأن يوزعني شكر ما منحنيه من الهداية، وجنبنيه من الغواية.

وبعد، فإن شرف العلوم يتفاوت بشرف مدلولها، وقدرها يعظم بعظم محصولها.... إلا أن من أصول فروض الكفايات؛ علم أحاديث رسول الله ﷺ، وآثار أصحابه رضي الله عنهم التي هي ثاني أدلة الأحكام، ومعرفتها أمر شريف، وشأن جليل، لا يحيط به إلا من هذب نفسه بمتابعة أوامر الشرع ونواهيه، وأزال الزيغ عن قلبه ولسانه.

وله أصول وأحكام وقواعد، وأوضاع، واصطلاحات ذكرها العلماء، وشرحها المحدثون، والفقهاء، يحتاج طالبه إلى معرفتها، والوقوف عليها بعد تقديم معرفة اللغة والإعراب، اللذين هما أصل لمعرفة الحديث، لورود الشريعة المطهرة بلسان العرب.

وتلك الأشياء:

كالعلم بالرجال، وأساميهم، وأنسابهم، وأعمارهم، ووقت وفاتهم.

والعلم بصفات الرواة، وشرائطهم التي يجوز معها قبول روايتهم.

والعلم بمستند الرواة، وكيفية أخذهم الحديث، وتقسيم طرقه.

والعلم بلفظ الرواة، وإيرادهم ما سمعوه، وإيصاله إلى من يأخذه عنهم، وذكر مراتبه.

والعلم بجواز نقل الحديث بالمعنى، ورواية بعضه، والزيادة فيه، والإضافة إليه ما ليس منه، وانفراد الثقة بزيادة فيه.

والعلم بالمسند وشرائطه، والعالي منه، والنازل.

والعلم بالمرسل، وانقسامه إلى المنقطع، والموقوف، والمعضل، وغير ذلك، واختلاف الناس في قبوله، ورده.

والعلم بالجرح والتعديل، وجوازهما ووقوعهما، وبيان طبقات المجروحين.

والعلم بأقسام الصحيح، والكاذب، وانقسام الخبر إليهما، وإلى الغريب، والحسن وغيرهما.

والعلم بأخبار التواتر، والآحاد، والناسخ، والمنسوخ.

وغير ذلك مما تواضع عليه أئمة الحديث، وهو بينهم متعارف.

فمن أتقنها، أتى دار هذا العلم من بابها، وأحاط بها من جميع جهاتها، وبقدر ما يفوته منها تنزل عن الغاية درجته، وتنحط عن النهاية رتبته، إلا أن معرفة التواتر والآحاد، والناسخ والمنسوخ - وإن تعلقت بعلم الحديث - فإن المحدث لا يفتقر إليها؛ لأن ذلك من وظيفة الفقيه؛ لأنه يستنبط الأحكام من الأحاديث، فيحتاج إلى معرفة المتواتر، والآحاد، والناسخ، والمنسوخ.



فأما المحدث، فوظيفته أن ينقل، ويروي ما سمعه من الأحاديث كما سمعه، فإن تصدى لما وراءه، فزيادة في الفضل، وكمال في الاختيار...».

ثم نثر تلك الفوائد الحديثية العظيمة في فصول متعددة، هذه عناوينها:

الفصل الأول: في انتشار علم الحديث، ومبدأ جمعه وتأليفه.

الفصل الثاني: في بيان اختلاف أغراض الناس ومقاصدهم في تصنيف الحديث.

الفصل الثالث: في اقتداء المتأخرين بالسابقين، وسبب اختصارات كتبهم وتأليفها.

الفصل الرابع: في خلاصة الغرض من جمع هذا الكتاب.

الباب الثاني: في كيفية وضع الكتاب، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: في ذكر الأسانيد والمتون.

الفصل الثاني: في بيان وضع الأبواب والفصول.

الفصل الثالث: في بيان التقفية، وإثبات الكتب في الحروف.

الفصل الرابع: في بيان أسماء الرواة والعلائم.

الفصل الخامس: في بيان الغريب والشرح.

الفصل السادس: فيما يستدل به على أحاديث مجهولة الوضع.

الباب الثالث: في بيان أصول الحديث، وأحكامها، وما يتعلق بها.

الفصل الأول: في طريق نقل الحديث وروايته، وفيه سبعة فروع:

الفرع الأول: في صفة الراوي وشرائطه.

الفرع الثاني: في مسند الراوي، وكيفية أخذه.

الفرع الثالث: في لفظ الراوي وإيراده، وهو خمسة أنواع:

النوع الأول: في مراتب الأخبار، وهي خمس.

النوع الثاني: في نقل لفظ الحديث ومعناه.

النوع الثالث: في رواية بعض الحديث.

النوع الرابع: انفراد الثقة بالزيادة.

النوع الخامس: في الإضافة إلى الحديث ما ليس منه.

الفرع الرابع: في المسند والإسناد.

الفرع الخامس: في المرسل.

الفرع السادس: في الموقوف.

الفصل الثاني: في الجرح والتعديل، وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: في بيانهما وذكر أحكامهم.

الفرع الثاني: في جواز الجرح ووقوعه.

الفرع الثالث: في بيان طبقات المجروحين.

الفصل الثالث: في النسخ.

وفيه ثلاثة فروع:

الفرع الأول: في حده وأركانه.

الفرع الثاني: في شرائطه.

الفرع الثالث: في أحكامه.

الفصل الرابع: في بيان أقسام الصحيح من الحديث والكذب، وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول: في مقدمات القول فيها.

الباب الرابع: في ذكر الأئمة الستة وأسمائهم، وأنسابهم، وأعمارهم، ومناقبهم وآثارهم.

الباب الخامس: في ذكر أسانيد الكتب الأصول المودعة في كتابنا هذا.

الركن الثاني: في مقاصد الكتاب.

الركن الثالث: في الخواتم، ويشتمل على ثلاثة فنون:

الفن الأول: في ذكر الأحاديث

الفن الثاني من الركن الثالث: في ذكر الأسماء والكنى والأبناء والألقاب والأنساب، وتشتمل على خمسة أبواب.

الفن الثالث: في فهرست الكتب والحروف والأبواب والفصول والفروع.

قال رحمه الله: «فلذلك جميعه، الأركان ثلاثة أركان، الكتب مائة وتسع وعشرون كتابا، الأبواب مائة وواحد وثلاثون بابا، الفصول خمسمائة وثلاثة عشر فصلا، الفروع مائتان وواحد وسبعون فرعا، الفنون ثلاثة فنون، الأقسام ستة أقسام، ومقدمة وخاتمة».

هامش

(١) من أول الكلام إلى هنا، مستفاد من مقدمة محقق كتاب جامع الأصول، الشيخ عبد القادر الأرنؤوط - رحمه الله - مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى.

«الوعي الإسلامي» زارته في تركيا وجالت في مكتبته العامرة بالكتب النادرة:

ارسيكا.. منارة فكرية جديدة

استطلاع: تركي محمد النصر - تصوير: هدايت الله نثار

مركز البحوث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في تركيا (أرسيكا) من أبرز المراكز البحثية في العصر الحديث، بدأ عمله عام ١٩٨٠م، بوصفه أول جهاز ثقافي في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي. وقد عكس قرار إنشاء المركز - والذي صدر عن المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء الخارجية في عام ١٩٧٦م، باقتراح من الجمهورية التركية - رغبة الدول الأعضاء في إبراز حضارتها وتاريخها وتراثها المشترك، وهو ما يشكل أساس تضامنها وتعاونها.. المدير المؤسس للمركز البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلو، اتبع نهجا علميا وإبداعيا في آن واحد، وفر لعمل المركز توجهه وصلته بالعالم الإسلامي والمجتمع العالمي بأسره، وقد عمل المركز على تحقيق أهدافه من خلال إقامة برامج أبحاث أصلية، وتعاون ثقافي دولي، مما أبرز العمل الثقافي كأحد أبرز مجالات عمل المنظمة.

مجلة «الوعي الإسلامي» زارت «أرسيكا» أخيرا بوفد على رأسه رئيس تحريرها فيصل يوسف العلي، الذي استقبله مدير المركز الدكتور خالد أرن، في غرفة مكتبه بقصر «يلديز»، موضحا الدور النشط الذي يقوم به مركز البحوث الإسلامي للتاريخ والفنون منذ بداية إنشائه في جميع المحافل، من حيث إجراء البحوث ونشرها وعقد المؤتمرات والمهرجانات والمسابقات المعمارية والفنية، كما أشار إلى تنظيم المركز في ثمانينيات القرن الميلادي الماضي فعاليات تشمل برنامج النشاطات الخاصة بالشعوب والثقافات الإسلامية، مما ساعد على وضع دراسات أكاديمية في هذه المجالات، مؤكدا أن برامج المركز تساهم في بناء تفاهم إيجابي بين الحضارات، وبخاصة بين العالمين الإسلامي والغربي.

وأوضح أرن أن برنامج المركز طويل المدى الخاص بالعلماء المسلمين وما أنتجوه من أعمال عبر القرون، أثمر مجلدات سيرة ذاتية سجلت التراث المدون للثقافة الإسلامية، فنشر المركز ١٥ مجلدا حول تاريخ الأدبيات العلمية في العالم الإسلامي، شملت علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا والعلوم العسكرية والعلوم الطبيعية والتطبيقية والطبية، كما نشر المركز مطويات وسيرا ذاتية عكست تاريخ الثقافة في العالم الإسلامي.

المركز قام بدراسة متعمقة لنسخ أقدم مصاحف العالم وأعاد طباعتها صورة طبق الأصل

وإجمالا، أنتج مركز «أرسيكا» ١٢٨ كتابا بلغات مختلفة: العربية والإنجليزية والفرنسية والألبانية والبوسنية والفارسية والتركية والأوردية واليابانية والروسية ولغة الملايو، نُشر بعضها بالتعاون مع مؤسسات أكاديمية في البلدان المعنية. ونظم المركز مئات المعارض الفنية والوثائقية والمحاضرات العامة، كما نظم أكثر من ستين معرضا علميا في مختلف البلدان.

مكتبة مركز «أرسيكا» في «مخزن ذخيرة»!

من خلال جولة في مكتبة مركز «أرسيكا» تبين أن المكان كان مخزنا عثمانيا قديما للسلاح (سلاحخانة سراي يلديز)، ثم افتتح تحت رعاية رئيس وزراء تركيا آنذاك والرئيس الحالي رجب طيب أردوغان في ١٧ مايو ٢٠٠٩م.

تضم هذه المكتبة المتخصصة في



نسخة صنعاء

أهدى مدير «أرسيكا» الدكتور خالد أرن نسخة من «مصحف صنعاء» لرئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» فيصل يوسف العلي، الذي قام بدوره بإهداء مكتبة «أرسيكا» نسخة من إصدارات مجلة «الوعي الإسلامي».



مدير أرسيكا يطلع رئيس التحرير على إحدى المخطوطات

الثقافة والحضارة الإسلامية أكثر من سبعين ألف مجلد نادر تعود لبدايات عصر الطباعة في ١٤٠ لغة، وتضم ١٥٠٠ دورية، إضافة إلى مخطوطات قيمة، وآلاف من الخرائط والأوعية الميكروفيلمية. ومن أثمن محتويات مكتبة سراي يلديز المصاحف النفيسة، حيث أولى المركز أهمية بالغة لعلوم القرآن الكريم، والبحث في المصاحف التاريخية القديمة التي تحتل مكانة متميزة في العالم الإسلامي.

ونعرف من خلال الجولة أن المركز قام بعمل دراسة حول مصاحف تعد من أقدم المصاحف المنسوخة في العالم، لشرح خصائصها والتعريف بها، ثم نشر هذه المصاحف في صورة طبق



الأصل.

ومنها مصحف فاضل باشا «شريفوفيتش» والمحفوظ في مكتبة غازي خسرو بيك في مدينة سراي بوسنة في البوسنة والهرسك عام ٢٠٠٢م، ومصحف «قازان» الذي طبع في قازان بتتارستان عام ١٨٠٣م وعرف بأنه أول مصحف جرت طباعته في العالم الإسلامي، كذلك المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان ابن عفان رضي الله عنه، نسخة متحف طوب قابي سراي ٢٠٠٧م، وقد أجريت عدة دراسات أخرى على المصحف ذاته.

والمصحف الشريف المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (نسخة صنعاء)، يأتي هذا المصحف ليضم دراسة جديدة قام بها الدكتور طيار آلتي قولاج، وهذه الدراسة عميقة في عملية البحث الفني المقارن، وهو محفوظ في الجامع الكبير بصنعاء عاصمة اليمن.

وهذا العمل يشكل مرحلة متقدمة من سلسلة الصور طبق الأصل والدراسات العلمية والفنية التي رافقتها، وهو الأوسع بالمقارنة مع ما سبقه من الأعمال المشابهة.

ولعل من ميزات هذه النسخة أن مركز «أرسيكا» استطاع استكمال العمل ونشره مع صورة طبق الأصل من مصحف صنعاء خلال مدة زمنية محددة تم الانتهاء منها خلال عام ٢٠١١م، وأعلن عنه في مؤتمر بحضور أردوغان.

مكتب مدير «أرسيكا» قصر يلدز

بدأ اللقاء بمدير مركز «أرسيكا» في غرفة مكتبه، قد تبين أنها الغرفة العريقة نفسها التي لطالما استقبلت سفراء الدول في عهد السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله.



أطفالنا والتكنولوجيا الترفيهية



د. آندي حجازي
أكاديمية في علم النفس التربوي

في الماضي، وليس البعيد، ونتحدث عن زمن كنا فيه أطفالا، كنا نتذوق معنى الطفولة، كنا نلعب، نقفز، نركض، نتسابق، نتمرجح، نلهو ونمرح مع أطفال الجيران والأقارب.. مازالت ذاكرتنا تحمل ذكريات مرحة كنا فيها نتسابق، نلعب «الاستغماية»، يجري بعضنا وراء بعض، نركب الدراجات الهوائية والزلاجات اللوحية، ونلعب بالكرة ألعابا لا تنتهي، ونخترع ألعابا، ونذهب إلى المكتبات العامة من أجل المطالعة وقضاء الأوقات بين صفحات الكتب والأحجيات، فنقرأ القصص والمجلات، بل وأجزاء من الموسوعات... فأذكر أن طفولتنا تضمنت الكثير من الانطلاق في الهواء الطلق، وخارج الأبواب، وبين أحضان الطبيعة، فلم تكن الأبواب موصدة، كنا نذهب في رحلات عائلية جماعية أسبوعية تجمع الأقارب، نتنقل بين مروج الطبيعة وفي ربوعها وربيعها وبساتينها الغناء، نشعر بعذوبة الطبيعة وجمالها وألحانها وروعتها وعظمة خالقها، فنحمد الله على آلائه، ونستمتع بطفولة لا يكدرها الزمان.

وفي المقابل؛ أنظر اليوم بعين المتأمل إلى أطفالنا في عالم وصف بالمتغير، والمتسارع، وسريع التغير، وعالم السرعة، وعالم التكنولوجيا، والعالم الرقمي، وعالم الاتصالات، والثورة التكنولوجية، وعالم الإلكترونيات، والبطاقات، والاختراعات، والقرية الصغيرة.. فكل شيء أصبح متوافرا وسريعا وبين أيدينا ومتطورا، يوفر الوقت والجهد، ويجلب لك المعلومة بأقل من الثانية ومن دون جهد أو عناء، ويطلعك على كل العالم وأحداثه اليومية لحظة بلحظة، والحمد لله.. ولكن التكنولوجيا سلاح ذو حدين، فيها الغث وفيها السمين، فيها الحق وفيها الباطل، فيها الحقيقة وفيها الخيال، وفيها الواقع وفيها المبالغة، فيها الخير وفيها الشر.. وفي خضم كل هذا أين نجد أطفالنا اليوم؟ إذا بحثتم عن أطفالنا فلن تجدوهم إلا بين أربعة جدران، يقبعون في مشهد من تلك المشاهد الأربعة التي قدمتها التكنولوجيا الترفيهية للطفل وهي:

الطفل والهاتف المحمول

طفل أو مراهق يضع رأسه في جهاز صغير نقال ينقله معه أينما حل أو ارتحل، ولو غادر مقعده لثوان معدودة غادر معه النقال وكأنه قطعة من جسده! كيف لا وهو يتنقل في عالم المحمول من مشهد لمشهد، ومن فيديو لآخر، ومن صفحة لأخرى، ومن موقع لموقع، ومن لعبة لأخرى، ومن فيسبوك لتويتر، ومن واتسآب لرسالة أخرى في واتسآب... جهاز يأكل وقته أكلا، ويجذب نظره جذبا، ويسرق عقله خلسة، فإن ناديت ابنك فلا يسمع، وإن أشرت إليه بيدك لا يكاد يراك! إنه مندمج في عالمه الخاص، الذي يغوص به غوص البحار العميق، يسرق لبه وقلبه كالساحر أو كسارق محترف! قد يؤخره عن صلاته وعن أعماله المدرسية وعن زيارات أقاربه واللعب مع رفاقه، ليجعله يعيش في عالم رقمي ليس بالحقيقي بعيدا عن التفاعلات الاجتماعية الحقيقية وعن



تعود لقاء الناس والتعامل مع البشر وجها لوجه! فما المستقبل المنتظر لأطفالنا؟!

وفي خضم هذا كله؛ هل سألت نفسك أيتها الأم وأيها الأب ماذا يشاهد ابنكما في هذا الجهاز؟ هل حاولتما معرفة ما سر تعلقه بتلك الآلة الصغيرة؟ هل جربتما محاورته ومعرفة ما يشاهده؟ هل تأكدتما من أنه لا يشاهد مناظر مخلة بالآداب أو الحياء أو تعارض الدين؟ أو أنه يكثر من إضاعة الوقت بلا طائل؟ هل شعرتم بالندم يوما لشراء هذ الجهاز لابنكم؟ فهل حاولتم وضع قوانين والوصول إلى تسوية مع ابنكم في شروط استخدامه أم الأمور هائمة لا يعرف الابن أين مستقره؟! فالمخاوف من تفاقم انحدار أبنائنا في الحفرة لا التراجع والاستدراك.

مع ألعاب الفيديو

إنها ألعاب الفيديو (الألعاب الإلكترونية)، أو ما يعرف بـ Playstation X-Box وألعاب الكمبيوتر والفيديو، فهي ألعاب يفترض أنها تقدم التسلية والمرح والمتعة والفائدة لأبنائنا، فهي تستغرق من وقت الأطفال الكثير. تجد الطفل شديد الاهتمام بتلك الألعاب؛ إنه في حالة انشغال تام، منجذب بكل حواسه، ويداه لا تكادان ترتفعان عن آلة التحكم، وعيناه لا تفارقان الشاشة ولا حتى للحظة! حيث اللحظة الواحدة معناها خسائر كثيرة في اللعبة... تركيز شديد، إدمان كبير، عنف شديد، انفعالات حادة من الابن! إنه في حالة اندماج تام لا يجب أن يتكلم معه أحد أو يطلب منه شيئا!

فهل يا ترى فكرنا ماذا يتعلم الطفل من تلك الألعاب؟ ماذا تقدم له؟ ما الذي تركز عليه؟

إن غالبية تلك الألعاب تقدم العنف لأبنائنا، فقد وجد بالأبحاث أن ٢٢ ألف لعبة فيديو من أصل ٣٠ ألف لعبة تقدم العنف، العنف بأشكاله الجسدية، كالضرب والقتل والركل والسباب، والزيادة في سرعة السيارات، والتعدي على الآخرين، والاعتداء الجنسي، وتعليم السرقة! ثم نتساءل: لماذا بدأت مجتمعاتنا تعاني من العنف؟ لماذا كثرت جرائم القتل؟ لماذا زادت مشاكل التحرش الجنسي؟ لماذا لم يعد أبناؤنا يستشعرون حجم الكوارث في بلادهم؟ لماذا تبلدت مشاعرهم؟ إن كان أطفالنا ينشأون على العنف بكل وسائل التكنولوجيا والإعلام فكيف ستكون مشاعرهم تجاه العنف بعد ذلك؟ لابد أنها مشاعر متبلدة، ترى القتل والدمار والتخريب من دون أن تحرك ساكنا، أو تبدي استهجانا في نفسها على الأقل!

هل تعلم أيها الأب المربية وأيتها الأم المربية أن هناك ألعابا تحلل الحرام، فتعرض نساء شبه عاريات يدخلن على اللاعب في غرف خاصة؟ أو تجعله يقود عصابات سرقة وقتل، يقتل كل من يعارضه أو يواجهه في طريقه، فيسرق سيارته مثلا ويرميه في الطريق؟ أو تجعل الطفل يدخل إلى المراقص والملاهي الليلية، ويشارك في خلع الملابس أو لعب القمار؟!

أي تربية نتوخاها من وراء مثل هذه الألعاب المستوردة في ثقافتها ومضمونها وأفكارها، والبعيدة كل البعد عن ثقافتنا وهويتنا وديننا الإسلامي؟! إن لم نحذر منها فأي تنشئة سينشأ عليها أطفالنا، أي تشويه لثقافتنا وقيم أبنائنا، ونحن في غفلة منها، وما علينا سوى شراء تلك الألعاب المدمرة للتربية وللقيم الأخلاقية والإسلامية وتقديمها لأطفالنا من دون التأكد من مضمونها، من أجل إشغال أبنائنا بأي وسيلة ترفيهية فقط من دون التفكير في أبعادها التربوية على المدى البعيد؟!

وفي الصدد ذاته، لماذا لا نفكر في صناعة ألعاب إلكترونية مرتبطة بثقافتنا وهويتنا العربية والإسلامية تنمي الأخلاق بدلا من تدميرها، تنمي العادات الحميدة بدلا من تشجيع ارتكاب الكبائر؟ لماذا لا ننتج ألعابا تستخدم في التعليم في مدارسنا؟ هل تنقصنا العقول المفكرة، أم الإمكانات المادية، أم القيم العليا، أم الدافعية الذاتية لذلك؟ إن لم نوظف التكنولوجيا لمصلحتنا وظفت هي ضد مصالحنا وعاداتنا!

التلفزيون

المحطات الفضائية، وما أدراك ما تقدمه من برامج ومسلسلات للأطفال والمراهقين وحتى رسوم متحركة! في الماضي أتذكر أننا كنا

كأطفال نحب حضور برنامج «افتح يا سمسم» وبرنامج «المناهل» وغيرهما من البرامج المقدمة إلى الأطفال، فكانت البرامج من صناعة عربية تتوافق مع ثقافتنا وحضارتنا وقيمنا ولغتنا، وتبث باللغة العربية الفصيحة، تنمي عقولنا ومعارفنا وانتماءنا للغتنا، تزرع فينا الحب للآخرين وتزرع المساعدة والتعاون والصدق والأمانة ومحبة الجيران والسؤال عنهم. لكن عندما لم نعد نصنع مثل تلك البرامج، وأصبحت برامجنا مستوردة كأي بضاعة من الصين واليابان وفرنسا وأميركا وأوروبا... فماذا ستحمل في طياتها؟

البرامج التلفزيونية المقدمة إلى الأطفال اليوم لا تكاد تخلو مما يلي:

- مشاهد العنف والقتل وارتكاب الجرائم والدماء والسرقة، ثم التحقيق في تلك الجرائم، بعد تشجيعها وزرع وسائلها وطرقها وأدواتها في عقول الأطفال! وقد أكدت دراسات كثيرة، عربية وأجنبية، بل وأميريكية، على أن معدلات العنف تزداد عند الأطفال بحضور أفلام ومسلسلات تلفزيونية تتضمن العنف، فالعلاقة طردية؛ فكلما زادت ساعات جلوس الأطفال أمام التلفاز زادت حالات العنف والعدوان لديهم. ووجد أن الأطفال يتعلمون بالتقليد، فهم يتحولون من مشاهدين إلى مقلدين وممارسين لتلك السلوكيات، فحتى برنامج كـ«توم وجيري» يتضمن العنف والحيل والخداع في الإيقاع بالآخرين والنيل منهم!

• المشاهد والأفكار الجنسية

الأفلام التي تقدم إلى أبنائنا الصغار أو المراهقين والرسوم المتحركة اليوم لم تعد بتلك البراءة التي من المفترض أن تقدم إلى الصغار! إنها تتضمن قصص الحب والغرام للجنس الآخر، بل ومشاهد التقبيل للجنس الآخر، واللباس المتعري والقصير والضيق الفاضح! ولم التعجب وهي ليست من ثقافتنا ولسنا من أنتجها، فهي دخيلة على ثقافتنا، ومناقضة تماما لتعاليم ديننا وما يرضي الله تعالى. والسؤال: لماذا لا ننتج – نحن العرب – تلك البرامج التلفزيونية الخاصة بنا وبحضارتنا وقيمنا الأصيلة؟ فحضارتنا وديننا ممتلئان بالقصص لبطولات وأخلاق تصلح لتحويلها إلى رسوم متحركة، تكون بناءة لا هدامة.

• تشويه العقيدة

الأدهى والأمر أن تلك البرامج التلفزيونية والرسوم المتحركة والأفلام للمراهقين، باتت تشوه عقيدة أبنائنا بأمور تتضمن الشرك والضلال وعبادة غير الله تعالى، فتجدها مثلا تتضمن الصلاة في الكنيسة أو المعبد البوذي أو تشجع أعياد النصارى وطقوسهم، أو تذكر آلهة غير الله تعالى، أو أن القوى الخارقة في الكون هي الطبيعة! أو تدخل في أمور غيبية، فتصور الملائكة أو الجن كما يحلو لها! كيف لا وهي لم تصمم في الأصل لنا، بل هي مستوردة بكل ما تتضمنه من تشويه لعقيدة أبنائنا، وأحيانا بقصد وتناقض لما ورد في ديننا وفي الأحاديث النبوية، والمشكلة أننا لا نجلس مع أبنائنا نراقب ما يشاهدون ونصحح مفاهيمهم، أو على الأقل نمنع حضور مثل تلك البرامج!

• تشويه الحقائق والخيال

إنها برامج وجهت إلى الأطفال ورسوم متحركة وأفلام، لكنها شوهت خيال أبنائنا وفطرتهم، فجعلت الكائنات الشريرة كالجن والشياطين خيرة، ولها ملامح جميلة ومحببة! وجعلت الكائنات الصالحة على شكل فئران وخنازير وأشكال قبيحة مشوهة! وجعلت إسفنجة تتحدث! وجعلت التشرد وترك الأسرة شيئا جميلا محببا يتضمن المغامرات والمتعة! والحقيقة أن الأطفال دون الخامسة مثلا لا يميزون بين الحقيقة الخيال، والمشكلة أنهم يتابعون وهم يعتقدون أن الإسفنجة ممكن أن تتحدث أو أن الحصان يطير أو أن الإنسان إن قفز من مكان مرتفع جدا لا يحدث له شيء.

• تشويه المخلوقات

كثيرا ما تشوه المخلوقات الجميلة التي خلقها الله تعالى بأحسن صورة، فيجعل لها أشكالا قبيحة، كأن تكون لها عين واحدة في الرأس، أو جسد صغير جدا ورأس متضخم، أو آذان كبيرة وأنف صغير ولسان طويل! أو جعل النار تخرج من أيدي تلك المخلوقات أو أفواهها أو تخرج سكاكين حادة تقطع المقابل! أو يتحول المخلوق مرة إلى أفعى كبيرة ومرة إلى طائر ومرة إلى مركبة ومرة إلى ذئب.. في تشويه تام لمفاهيم الأطفال الصغار وعقولهم.

والأخطر أنهم يجعلون لتلك المخلوقات المشوهة أو مشاهير برامج الأطفال، ملابس وحقائب وأدوات مدرسية ودمى وألعاب فيديو وأثاثا يروج لها، ليجعلوها مألوفة تماما للطفل، في تشويه تام لفطرته التي فطر الله الناس عليها.

• تشجيع السحر والشعوذة

وباتت برامج الأطفال ومسلسلاتهم وأفلام المراهقين تتضمن السحر والشعوذة، وبطرق محببة (كأفلام هاري بوتر مثلا)، وأفلام رعب للمتعة، فيتعلم الطفل أن السحر مسموح وجميل ومعين على تحقيق الأمور، وهو في الحقيقة من الكبائر التي تغضب الله تعالى غضبا شديدا لما به من أذى للآخرين.

والسؤال الذي يجب أن يطرح على الآباء والأمهات: من أصبح يربي أبناءنا نحن أم التلفاز والأفلام؟ نحن أم الغرب واليابان ومن نستورد منهم؟ ألا تجد الأم وسيلة لإشغال

أبنائها عنها إلا التلفاز ودون مراقبة لما يشاهدون؟ كيف نشأت الأجيال السابقة بعيدا عن التلفاز؟ حاولي ألا تعودي أبناءك على مشاهدة التلفاز ولساعات طويلة، لأنه سيصبح المربي والمغذي الفكري لهم، وسيصبح التعلق به أكثر من تعلقهم بالوالدين، ويصبح الانفصال عنه مشكلة تحتاج إلى حلول ومعاناة، وتصبح أقواله مسموعة ومحفورة في الذاكرة بطريقة يصعب محوها وتغييرها، لأن الطفل كالإسفنجة يمتص كل ما يعرض له.

الكمبيوتر

إن جهاز الحاسوب ككل الأجهزة السابقة (الهاتف النقال، والتلفاز والمحطات الفضائية، وألعاب الفيديو)، هو سلاح ذو حدين، به الخير وبه الشر، وإن لم يحسن استخدامه فسيتحول إلى أداة هدامة، تمحو القيم والأخلاق والعادات العربية الأصيلة، واللغة وتعاليم الدين الخاتم للأديان. فتلك الأجهزة تضعف كل ما له علاقة بثقافتنا، بل وتستعيض عنه بثقافة أخرى دخيلة لا تمت لديننا وقيمنا وتاريخنا ومعتقداتنا وعاداتنا بصلة، فالشبكة العنكبوتية تفتح أمام أطفالنا كل أبواب العالم وكل المغاليق، وتدعهم يدخلون من أي باب يشاؤون من دون تحذير أو توجيه أو توعية.. وأبناؤنا الصغار منهم، وحتى المراهقون، قد لا يدركون خطر طمس الهوية الذي يمارس عليهم أو يعيشونه، وخطر التحرر من القيم والمبادئ والتعاليم الدينية، وخطر العولمة وما تحمله في طياتها، خصوصا أن الكثير من الآباء والأمهات أصبحوا هم أيضا لديهم انشغالات واهتمامات خاصة على الإنترنت، وهم أنفسهم يشاهدون الغث والسمين والمواقع الإباحية والمشاهد المخلة بالآداب والدين، والمضيعة للوقت، والمدمرة للنفس الراقية الموصولة بخالقها!

فإن لم يتنبه المربون لتلك الهاوية التي أصبحنا نسقط بها شيئا فشيئا، فإنه سيأتي يوم نجد أبناءنا وقد تحولوا بشكل تدريجي لنسخ من المشاهير الغربيين بأفعالهم، كالمغنين أو الراقصين أو الممثلين أو عارضي الأزياء أو مصمميها أو لاعبي الكرة أو التنس! كيف لا وأبناؤنا باتوا يعتبرون هؤلاء المشاهير هم النماذج التي يجب أن يحتذى بها، وهي ما تدر عليهم الأرباح الطائلة والسمعة والشهرة! وبالأخص مع غياب التربية الأسرية والمجتمعية الصالحة وعلى قصص النماذج الحقيقية الرائعة التي في حضارتنا وديننا من علماء ومخترعين ومكتشفين ودعاة حملوا الخير للإنسانية، والذين يصلحون للاقتداء بهم والسير على خطاهم إن نحن أبصرنا الطريق.

وهنا يأتي دور الآباء والأمهات في تنشئة أبنائهم، ومنذ الصغر، على تعليمهم تلك القصص، وتحفيظهم تلك الأسماء العظيمة ومواقفهم، كأبي بكر الصديق، والفاروق عمر ابن الخطاب، وعثمان، وعلي، وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن معاذ، وسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وصلاح الدين الأيوبي، والرازي، والفارابي، والخوارزمي، وابن سينا، وابن رشد، وابن الهيثم، والبيروني وغيرهم الكثير.. وعدم الانتظار ليكبروا ويطلعوا عليها، لأن الزمن يمر وقد يطلعون وقد لا يتاح لهم ذلك، فيفوتهم الخير الكثير، فتضعف أمتنا بضعف تمسك أبنائها بقيمهم وبأصول حضارتهم.

كل الأمم تعتز بحضارتها، بل وتبحث لها عن حضارة لتتمسك بها وتفتخر بها وتعتز بها، فما بالنا ونحن لدينا أعظم حضارة عرفتها البشرية لا نشعر بقيمتها الحقيقية ونبحث عن حضارات أخرى لنقتبس منها، معتقدين أن التطور والرقي أن نرمي بحضارتنا وراء ظهورنا ولا نلتفت إليها، ونجري ونلهث وراء ما صنعه لنا الآخرون على أمل أن نستمتع بحياتنا ونستفيد مما ينتجون، فأصبحنا أمة تابعة قابعة لا وزن لها في العالم؟!

نصائح تربوية سريعة

في ظل ما عرضت أنصح الأمهات والآباء بعدة نصائح عملية لعلها تكون مفيدة ومنها: إخراج التلفاز من غرف نوم الأطفال وتحديد ساعات لمشاهدته، مراقبة ما يشاهد الأبناء من أفلام وفيديوهات عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والجلوس مع الأبناء فترات أطول ومحاورتهم وأخذ آرائهم، وإشراكهم في أعمال البيت ومسؤولياته، واصطحاب الأبناء إلى الحدائق العامة والبساتين والمعارض الفنية، كالرسم والأشغال اليدوية، والمعارض الثقافية والمتاحف، وزيارات الأقارب، والخروج في نزهات وإلى أماكن لعب للأطفال للتعويض عن الجلوس أمام تلك الأجهزة لساعات طويلة، وتشجيع ممارسة أنواع الرياضة وركوب الدراجات الهوائية وما شابهها، واللعب بالكرة مع الأبناء، وتشجيع ممارسة الهوايات، كالرسم والتطريز وفنون الرياضة، سرد القصص الهادفة وذات الاعتزاز بأبطالنا وعلمائنا وعظماء تاريخنا، استخدام أساليب تربوية كالحرمان في حال أثرت تلك الأجهزة على معدلات التحصيل المدرسي والصلاة والعادات الحميدة، تعويد الأبناء على المراقبة الذاتية وربط أفعالهم دوما بالله تعالى وأنه يرانا وهو الشاهد على أفعالنا.



تعمل على وقف الإنهيار الأسري:

مؤسسات الإرشاد الزواجي

منى السعيد الشريف
خبيرة تربوية - مصر

انهيار الأسرة كارثة مجتمعية خطيرة، وبعثرة لكيان تتشرذم أركانه، وانحدار نحو الهاوية.. فأولاد تضيع في نشأة أسرية غير طبيعية في رحاب الجد أو الجدة، أو مع زوج أب أو زوجة أم.. وزوجة تواجه المجتمع كمطلقة يراها ذئاب البشر فريسة سهلة، أو أنها تخوض غمار حياة أسرية جديدة مع زوج له غالبا ظروف خاصة (كبير السن أو مريض..)، وهي في كل الأحوال مشتتة القلب بين حياتها الجديدة وأولادها البعيدين عن كنفها وحضنها، أما الزوج فحياته لا تخلو من معاناة، فهو الرجل المطلق الذي ربما عزف عن الزواج لمرارة ما لاقى في تجربته السابقة، وحينها ينظر إليه المجتمع بنظرة حذر، فعن إبراهيم بن ميسرة أن طاوس بن كيسان قال له: لتنكحن أو لأقولن لك ما قال عمر لأبي الزوائد: «ما يمنعك عن النكاح إلا عجز أو فجور».

وقال عبد المؤمن المغربي: «ورجل بلا بعل كرجل بلا نعل، والعزوبة مفتاح الزنا، والنكاح ملواح الغنى، ومن نكح فقد صفد بعض شياطينه، ومن تزوج فقد حصن نصف دينه، ألا فاتقوا الله في النصف الثاني، فإن خراب الدين بشهوتين: شهوة البطن وهي الصغرى، وشهوة الفرج وهي الكبرى، فاعمر الركعتين وأحكم الحصنين».

وربما يتجه هذا الزوج المطلق إلى خوض غمار التجربة الأسرية من جديد بنفسية غير النفسية الأولى، وبعمر مضت منه بعض السنون، ومع زوجة جديدة لها ظروفها الخاصة أيضا، وعلى المجمل لا يخلو الأمر من معاناة وتضحيات، ليست بالهينة ولا البسيطة.

وكل هذا البركان الثائر والخضم الهائج ألمح إليه الحديث النبوي الشريف المعجز الذي رواه مسلم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت». قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه (أي: يضمه إلى نفسه ويعانقه).

ورغم أن الطلاق مباح، لكن هدم الأسرة هدم للمجتمع كله، قال المناوي: هذا تهويل عظيم في ذم التفريق، حيث كان أعظم مقاصد اللعين لما فيه من انقطاع النسل وانصرام بني آدم وتوقع وقوع الزنا الذي هو أعظم الكبائر فسادا وأكثرها معرة، كيف وقد استعظمه في التنزيل بقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ (البقرة:١٠٢).

لذلك قرر الفقهاء أن الإفساد بين الزوجين من كبائر الذنوب، وهو فعل السحرة، وأعظم أعمال جنود إبليس. وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «ليس منا من خبب (أي أفسد) امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده» (رواه أبوداود:٢١٧٥).

قال ابن القيم: وهذا من أكبر الكبائر، فإنه إذا كان الشارع نهى أن يخطب

على خطبة أخيه، فكيف بمن يفسد امرأته أو أمته أو عبده، ويسعى في التفريق بينه وبينها حتى يتصل بها، وفي ذلك من الإثم ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يزد عليها، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله، فحق العبد باق، فإن ظلم الزوج بإفساد حليلته والجناية على فراشه أعظم من ظلم أخذ ماله، بل لا يعدل عنده إلا سفك دمه.

إن انهيار الأسرة ما هو إلا مشروع توريد أطفال غير أسوياء إلى المجتمعات، حيث لا يوجد في أبجدياتهم معاني التلاحم والترابط والتعاطف، فما من شك أن الأولاد هم أعظم ضحية في هذا الانهيار، لقلة حيلتهم وضعف إمكاناتهم، وقلة خبرتهم في التعامل المبكر مع الظروف خارج نطاق الأسرة، ففقدان المأوى والتشتت في المعيشة، وغياب الأمان الاجتماعي أمور ليست بالهينة على الصغار، بل ربما يجد الولد أو الشاب متنفسا خارج نطاق الأسرة، ولو بالاعتماد على نفسه بالعمل، فما بالنا بالبنت التي تتوالى عليها الصدمات من كل جانب، ولا تستطيع الفكاك منها، هذا مع رقة مشاعر الأنثى ورهافة أحاسيسها، الأمر الذي يقودها حتما لاضطرابات نفسية خطيرة تدمر كيانها بالكلية.

والمحصلة أننا بدلا من بناء أجيال يحملون على عواتقهم رقي الأمة ننتج مشاريع أمراض اجتماعية وسلوكية، يستنزفون الطاقات في مكافحة جرائمهم وعبثيتهم واستهتارهم وسائر مشاكلهم النفسية والاجتماعية.

ولذلك نحن ابتداء في أمس الحاجة لاستشعار خطر «الانهيار الأسري» والتحرك على كافة الأصعدة والمستويات، للحيلولة دون تفاقم معدلاته، وبالطبع فالوقاية خير من العلاج، ومن هذا المنطلق يقع العبء الأكبر على «مؤسسات الإرشاد الزواجي» المعنية بترسيخ المفاهيم الصحيحة عن مشروع الأسرة، بداية من أسس اختيار الزوج والزوجة، ومرورا بأبجديات وفنون واستراتيجيات الحياة الزوجية وتربية الأولاد، وانتهاء بأساليب إدارة الخلافات والأزمات الزوجية.

إن «الأمية الأسرية» كارثة تهدد كيان الأسرة قبل نشأتها وخلال مسيرتها كذلك، تلك الأمية التي جعلت كثيرا من بيوتنا تؤسس على شفا جرف هار، ينخدع فيها الطرفان بالمظهر ويغفلون الجوهر، تحركهم خبرات حياتية سطحية في ظل غياب خبرة ومشورة الآباء والعقلاء والمختصين، حيث تقدم في اختياراتهم القيم الزائلة (الجمال، المال، المنصب، العشيرة..) على القيم الثابتة (الدين، الخلق، الكفاءة بين الزوجين..).

وما يقال عن أمية مرحلة ما قبل الزواج يقال أيضا عن أمية إدارة الحياة الزوجية وما تشمله من جهل بحقوق وواجبات متبادلة، وآداب وسجايا منشؤها المودة والرحمة، فضلا عن الجهل بطبيعة الرجل ومكنونات المرأة وما يتطلبه ذلك من لباقة وكياسة واحترافية في بعض الأحيان، لذلك من الخطأ الجسيم اعتبار مؤسسات الإرشاد الزواجي أشبه بغرف مغلقة معنية بحل المشاكل الزوجية فقط، بل إن دورها الوقائي والتعليمي أهم بكثير قبل نشوب الحريق، وتعاظم الخطب بين كيانين (زوج وزوجة) لا يعرفان كيف يتجانسان معا في كيان واحد اسمه «الأسرة».

ومؤسسات الإرشاد الزواجي لا يعْوزها ولا ينقصها البرامج، فديننا الحنيف قدم في هذا الشأن جملة من التوجيهات والآداب، قلما تجدها في مصدر آخر، أما الدراسات الاجتماعية والنفسية فما قصرت أبدا في عطاءاتها في هذا المضمار، المشكلة الرئيسة تكمن في فريق عمل مدرب ومشبع بهذه الثروة العلمية وكفؤ للعمل باحترافية، فضلا عن دعم حكومي ومجتمعي لهذه المؤسسات، كي تمارس دورا فعالا في محو الأمية الأسرية المتوغلة في مجتمعاتنا، وألا يقتصر تواجدها في شكل ديكوري أو رمزي لا يسمن ولا يغني من جوع.

لابد أن يكون الشغل الشاغل لهذه المؤسسات قضية «الاستقرار الأسري»، وهذا يتطلب استغلال كل القنوات الإعلامية (فضائيات، صحف، مجلات، نشرات ومطبوعات..) لنشر الوعي الجماهيري بأهمية ودور هذه المؤسسات في محاولة لتعديل المفاهيم بضرورتها في حياتنا، وحاجة الجميع للانخراط في فاعلياتها وأنشطتها، من أجل محو الأمية الأسرية والارتقاء بالوعي الأسري، والتعرف على فنونه وخفاياه وأسراره.

ولا يفوتنا أيضا أن نركز على مستوى الأداء في هذه المؤسسات، بمعنى إيصال رسالة لكافة أفراد المجتمع بضرورة التثقيف الأسري، وهذا يتطلب من هذه المؤسسات أن تكون على مستوى مهني راق ومتميز، لكي يجد كل وافد إليها حاجته وبغيته من فقيه يعرض الأحكام الشرعية والمفاهيم الإسلامية، ومتخصص نفسي وآخر اجتماعي للتعامل مع المواقف المتنوعة بما تقتضيه ضوابط العلم والعرف، هذا فضلا عن أحدث الوسائل التكنولوجية والإلكترونية التي تعين على أداء دور هذه المؤسسات، وتتيح التواصل مع روادها الذين لا يستطيعون الانخراط المباشر في أنشطتها.

إن «مؤسسات الإرشاد الزواجي» ثغرة للأسف منسية، أو على الأقل مهمش دورها تارة، ومختزل تارة أخرى في حل المشاكل الزوجية فقط.. ثغرة تحتاج لمرابطين أكفاء يحرسونها، وبالتالي يحرسون الأسرة والمجتمع والأمة بأسرها من الانهيار.. ثغرة تحتاج إلى دعم رسمي وشعبي، ودعم مادي ومعنوي، واستشعار الجميع بالحاجة إليها والاعتصام بكنفها من أجل إحباط كيد الشيطان وضمان سلامة الجميع، والله المستعان وعليه التكلان.



صبحـة بغورة
باحثة جزائرية

اللعب في حيـاة الطفـل عبث.. أم استكشاف؟!

يستغرق اللعب في حياة الطفل في سن ما قبل دخوله المدرسة معظم ساعات يقظته، وهو أكثر أنشطته اليومية، حتى إنه قد يفضله على الأكل والنوم.. واللعب بالنسبة للطفل الصغير هو وظيفته الأولى وعمله الأساسي، وتمثل الفترات الأولى من حياة الطفل أهمية خاصة، إذ يعد اللعب وسيلة حقيقية للكشف عن صورة الطفل، فاللعب هو ضرورة حيوية لنمو شخصية الطفل وقدراته التعبيرية، ويؤثر بصورة مباشرة على سلوكه وتصرفاته الانفعالية، فهو يلعب ويتصرف بتلقائية تسمح بسهولة معرفة جوانب شخصيته، وإذا كان اللعب نشاطا طبيعيا وتلقائيا أولا، ثم مكتسبا لاحقا فإن غيابه في حياة الطفل يبدو غير عادي، لأنه مؤشر على عدم حيويته، فاللعب نشاط حركي ضروري، من خلاله يكتسب الطفل مهارات حركية تقوي جسمه، وتنمي عضلاته، فيزيد إقباله على الألعاب التي كانت تبدو أكبر من قدراته، ومنها يكتسب المطاطية العضلية والمرونة المفصلية، فيقبل على القيام بالمهام المختلفة برغبة وشجاعة ومقدرة، كما أن اللعب يزوده بالمفردات وبالمعلومات، وبمختلف ألوان المعرفة، فيكبر مخزونه اللغوي ونموه العقلي، وتتسع مداركه، فيصير متقد الذهن سريع البديهة، محبا للمبادرة وقوة الاقتراح، وإضافة إلى هذه الفوائد البدنية والعقلية تبرز فوائد أخرى أكثر أهمية، وهي المتعلقة بالجوانب التربوية، حيث أصبح لعب الأطفال في الفكر التربوي المعاصر أكثر الوسائل فعالية في تعليم الأطفال وتعلمهم. اللعب والمرح والبهجة سمتان بارزتان خلال السنوات المبكرة من عمر الطفل، وعن طريق اللعب يمكن أن تستثار حواسه، وتنمو عضلاته الدقيقة والكبيرة، وينمو بدنه نموا سليما تماما، كما تنمو لغته وعقله وذكاؤه وتفكيره، وسيدرك معها معنى روح الجماعة والتعاون مع أترابه في الألعاب الجماعية ذات الطبيعة التنافسية التي تمثل في حد ذاتها فرصة لترسيخ تقبله لحالة الخسارة بكل روح رياضية، تماما مثل فرحه بالفوز، ومن شأن الألعاب البدنية أن تعزز وتحسن مستوى النشأة الجسدية عند الطفل.

من منا لا يتذكر أول لعبة أمسكت بها يداه، أو تلك اللعبة الجماعية التي شارك فيها أحدنا مع الأصدقاء، وكيف أننا عشنا عالما من صنعنا، وقمنا ببطولات قصص من نسيج خيالنا، ربما تكون الإجابة عن إحساسنا تلك اللحظة أحد مفاتيح إعادة النظر في الدور الذي تقوم به اللعبة والألعاب في حياة الأطفال، فهي عالمهم الرحب المليء بالخيال الطفولي البريء الحافل بالقصص والحكايات والشخصيات التي لا يعرفها سواهم، فمن مخيلتهم فقط يصنعون الأساطير، ويعيشون في كل لعبة تفاصيل حكاية تربطهم بها ويتذكرونها، عادة يرتبط الطفل بالألعاب والدمى، حيث تشعره بالمتعة والتسلية، فاللعبة هي أهم ما يشد الطفل في سنواته الأولى، حيث يتلمس فيها أحاسيس الأمان والحماية، كتلك التي يجدها بجوار أمه، ويستمد منها الذاكرة المحملة بعبير المنزل والأشخاص المحببين إليه، ولذا فإن على الأم ألا تحرم طفلها من هذه الأحاسيس الرقيقة، وألا تسعى لفصلها عنه مهما بلغ عمره، بل تدعه يتمتع بصحبة رفيق الطفولة المخلص في سلام وأمان.

لاشك أن الوضع السكني في المدن

الكبرى قد يجد كثيرا من انطلاقة الطفل الذي يحتاج إلى الركض والقفز والتسلق، وهذا غير ممكن في المنازل الضيقة، بالإضافة إلى ميل الأسرة بعد يوم عمل مضن إلى الراحة والسكينة والهدوء، لذلك ترى الأبوين قليلي الصبر أمام مظاهر تصريف الطاقة الزائدة عند الطفل، كما يؤدي حرص الأبوين الشديد كي يجعلا طفلهما بعيدا عن أي أضرار تسبب له إصابات جسدية أن يصل بهما هذا الحرص مستوى مبالغا فيه، فيقبع طوال نهار يومه مقيد الحركة، عصبي المزاج، هزيل الجسم وضعيف اللياقة البدنية، فمن خلال اللعب يحقق الطفل التكامل بين وظائف الجسم الحركية والانفعالية والعقلية التي تتضمن التفكير والتدرب على تذوق الأشياء، فيتعرف على لونها وحجمها، وكيفية استخدامها. اللعب يساعد الطفل على أن يدرك عالمه الخارجي، وكلما تقدم الطفل في العمر استطاع أن ينمي كثيرا من المهارات أثناء ممارسته للعب ولمختلف الأنشطة الأخرى، والمشاهَد أن الألعاب التي يقوم فيها الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة بالملاحظة والاستكشاف والتجميع وغيرها تنمي قدراته العقلية، وتثريه بمعارف كثيرة عن العالم الذي يحيط به، ويضاف إلى هذا ما تقدمه القراءة من معارف جديدة. وللرحلات والاطلاع على المعالم الدينية والسياحية فوائد عظيمة في تذوق الفن وتهذيب الروح، وما في بعض البرامج التلفزيونية من قيم تربوية عميقة كذلك. إن اللعب يساعد على نمو الطفل من الناحية الاجتماعية، ففي الألعاب الجماعية يتعلم الطفل النظام، ويدرك قيمة العمل الجماعي، ويؤمن بالمصلحة العامة، وإذا لم يمارس الطفل اللعب مع الأطفال الآخرين، فإنه يصبح أنانيا، ويميل إلى العدوانية، ويكره الاندماج في الجماعة، لكنه بواسطة الألعاب مهما كانت بسيطة يستطيع أن يقيم علاقات جيدة ومتوازنة معهم، وأن يحل ما يعترضه من مشكلات ضمن الإطار الجماعي، وهو ما يسمى «اللعب التعاوني»، وأن يتحرر من نزعة التمركز حول الذات، ومن بعض السمات السلبية الأخرى، مثل الخجل وضعف الثقة بالنفس.

في بداية المرحلة الابتدائية هناك اللعب بالمشاركة، حيث يشارك مجموعة من الأطفال في لعبة معينة، لكن دون قائد، كالسير في طابور أو ترتيب الألعاب، وهذا ما يكشف عن إبداعات خفية في الحياة النفسية للطفل، فللعب قيمة تربوية عالية، إذ يساهم بتكوين النظام الأخلاقي المعنوي لشخصية الطفل، وخاصة الأطفال الانطوائيين، كونه حافزا على المشاركة الإيجابية، ومجرد قبول الطفل المشاركة يعطيه الإحساس بقيمته أنه جزء من المجموعة، ويشعره بالرضا، ومن مزايا الألعاب الجماعية كذلك المعرفة المتبادلة، وتعدد أساليب التعاون وتبادل القيم، والمفاهيم، مثل الصواب والخطأ، وهنا تبدو مسؤولية الوالدين في إتاحة الفرصة كاملة للنشاط التلقائي للطفل، فمن خلال اللعب يتعلم الطفل معايير السلوك الخلقي كالعدل والصدق والأمانة وضبط النفس والصبر. وإذا كان الطفل يتعلم من اللعب أن يميز بين الواقع والخيال، فإن الطفل من خلال اللعب أيضا، وفي سنوات الطفولة الأولى يظهر الإحساس بذاته كفرد مميز، فيبدأ في تكوين صورة عن هذه الذات وإدراكها على نحو مميز عن ذوات الآخرين، رغم اشتراكه معهم بعدة صفات، وثمة ما يسهم إلى حد كبير في تنمية مهارات الطفل كجمع المواد من أوراق وقطع بلاستيكية أو مكعبات الخشب... بحرص وترتيب، كي يجعل منها شيئا معبرا، يثير اهتمامه، ويحقق شغفه، وكذلك الرسم الحر للتعبير عما يختلج في نفسه من أفكار يعكسها في أشكال مرسومة بكل حرية وتلقائية، ومشاركته في النقاش وفسح المجال أمامه للإجابة على الأسئلة، وتدريبه على تكوين الجمل المفيدة، لاكتساب الشجاعة الأدبية، وتشجيعه على تكوين علاقات صداقة مع أترابه، ومن أفضل ما يمكن أن يفيد الطفل تمكينه من الكتابة بنظافة وإتقان، وتدريبه على تركيز انتباهه على الأعمال المطلوبة منه، بالاستفادة من مهاراته الحركية، وتعويده على الدقة في التنفيذ، واحترام المواعيد المحددة، وقد كشفت الدراسات في بعض الدول الأوروبية بعد تجارب مهمة أن الأطفال يجسدون الظواهر والأحداث والشخصيات في لعبهم، وهذا ما يسمى بـ «اللعب الإيهامي» فيمثل الأطفال مثلا شرطة ومجرمين، أو عروس وعروسة، أو يضع «طنجرة» على رأسه، ويعتبرها خوذة عسكري... فهذا في حد ذاته دليل إبداع، أو «اللعب الاستطلاعي» مثلما يحدث عند حصوله على لعبة جديدة كالسيارة مثلا يكسرها ليعرف ما تحتويه بداخلها. فاللعبة المعقدة تثير اهتمامه أكثر من اللعبة البسيطة.

فوائد اللعب والألعاب لا تعد ولا تحصى، تربويا وأخلاقيا وبدنيا، وفيها تتحقق المقولة الشهيرة: «العقل السليم في الجسم السليم». وسلامة؛ كليهما تمنح حياة الفرد في كبره الحيوية والنشاط، بل وتقيه شر الأمراض في شيخوخته.

معاقل العلم والعلماء.. مرو

د. محمدي النورستاني
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

مدينة من أمهات مدن خراسان، يطلق عليها «مرو الشاهجان»، تمييزا لها عن «مرو الروذ»، وكانت قاعدة خراسان أيام السلجوقيين وصدر الإسلام (١)، وكذلك كانت مركز خراسان أيام أن كان المأمون فيها، واستمرت كذلك إلى أن نقل الطاهريون مركز خراسان إلى «نيسابور»، وأطلق عليها البعض أنها «أم القرى» لخراسان (٢).
قال الحموي عنها: «مرو الشاهجان: هذه مرو العظمى، أشهر مدن خراسان وقصبتها.. أما لفظ مرو فقد ذكرنا أنه بالعربية الحجارة البيض التي يقتدح بها، إلا أن هذا عربي ومرو مازالت عجمية، ثم لم أر بها من هذه الحجارة شيئا ألبتة. وأما الشاهجان: فهي فارسية، معناها: نفس السلطان؛ لأن الجان هي النفس أو الروح، والشاه هو السلطان، سميت بذلك لجلالتها عندهم» (٣).

وقال عنها ابن حوقل النصيبي (ت بعد ٥٨٠هـ): «ومدينة مرو قديمة، تعرف بمرو الشاهجان، أزلية البناء، ويقال إن قهندزها من بناء طهمورث، والمدينة القديمة من بناء ذي القرنين، وهي في أرض مستوية بعيدة من الجبال، فلا يرى منها جبل بالقرب، وليس في شيء من حدودها جبل، وأرضها سبخة كثيرة الرمال، وأبنيتها من طين، فيها ثلاثة مساجد للجمعات، فأما أول مسجد أقيمت فيه الجمعة: فمسجد بني داخل المدينة في أول الإسلام، فلما كثر الإسلام بني المسجد المعروف بالمسجد العتيق على باب المدينة، ويصلي فيه أصحاب الحديث، وبني من بعد ذلك المسجد الذي على ماجان، ويقال إن ذلك المسجد والسوق ودار الإمارة من بناء أبي مسلم...» (٤).

وقال ابن حوقل أيضا في أهمية مدينة مرو: «وكانت مرو معسكر الإسلام في أول الإسلام، ومنها استقامت مملكة فارس للمسلمين؛ لأن يزدجرد ملك الفرس قتل بها في طاحونة الزرق، ومنها ظهرت دولة بني العباس...» (٥).

وكانت مرو أولى مدن خراسان قاطبة، كما أسلفنا، وازدهرت أكثر أيام تولي أبي مسلم الخراساني، الذي مكن للعباسيين من الوصول إلى الخلافة، وزاد ازدهارها أيام إقامة المأمون بها قبل انتقاله إلى بغداد بعد تولي الخلافة، كما سبق، وبعد نقل الطاهريين عاصمة خراسان من مرو إلى نيسابور لم تعد تتبوأ تلك المكانة القديمة (٦).

ويبدو أنه قد دب إليها بعض الخراب بعد ذلك، فقد مر عليها المقدسي (ت نحو ٣٨٠هـ) فرأى ثلث ربضها مهدما، وقهندزها ليس بأحسن حال منها (٧).

وذكر أيضا أن ربض مرو فيه جامعان، أحدهما عند باب المدينة، والثاني في الصيارفة، وأن الغالب عليه أصحاب الإمام أبي حنيفة، وأنه وما حوله من بناء أبي مسلم الخراساني (٨).

كما أن ابن حوقل استعرض شيئا مما أصابها من الخراب قائلا: «وفي زماننا هذا - وهو سنة ثمانين وخمسمئة - ليس بمرو مسجد جامع عامر غير المسجد الذي بناه أبومسلم...» (٩).

أيام السلاجقة

على أن مرو قد استعادت شيئا من عافيتها وبهائها بعد ذلك، حيث اتسعت المدينة، وعظم شأنها أيام السلاجقة، حيث جعلوها أولى المدن مرة أخرى، قال الحموي: «وقد كان السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي مع سعة ملكه (١٠) قد اختارها على سائر بلاده، ومازال مقيما بها إلى أن مات، وقبره بها في قبة عظيمة، لها شباك إلى الجامع، وقبتها زرقاء، تظهر من مسيرة يوم (١١)، بلغني أن بعض خدمه بناها له بعد موته.. وتركتها أنا في سنة ٦١٦هـ على أحسن ما يكون...» (١٢).

وكان قصر سنجر في قرية «أندرابة»، على فرسخين من مرو، وكانت ترى بقايا قصره في المئة السابعة.

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي (١٣) قد بنى سورا عظيما حول المدينة، واعتنى السلاجقة بمياه نهر مرغاب، وأقاموا فيه السدود والمسنيات ومقاسم الماء، ورتبوا أمر توزيعها على تلك الواحة.

فتح مدينة مرو

كان فتح مرو سنة ثلاثين من الهجرة، وتم على يدي حاتم بن النعمان الباهلي، وكان قد أرسله عبدالله بن عامر بن كريز من نيسابور، فصالح أهلها صلحا، وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (١٤).

تدمير التتار لمدينة مرو

لم يدم ما كان لمدينة مرو من البهاء والتوسع، حيث أصابها ما أصاب غيرها من المدن الإسلامية في تلك الأقطار مع قدوم جحافل المغول التتار، حيث دمرها التتار، وجعلوها أثرا بعد عين، وكان تدميرهم لها سنة ٦١٧هـ، وقد أضحت خزائن الكتب في مرو -



وسيأتي الحديث عنها - طعمة للنيران عقب نهبهم للمدينة. قال الحميري وهو يتحدث عما حدث لمدينة مرو: «وانجلت الحال عن سبعمئة ألف قتيل من المسلمين، وإنما عرف عددهم بأن وضعت عليهم قطع القصب، وكان القتلى بنيسابور وبلخ وهراة أكثر ممن كانوا بمرو، وهذه أمهات مدن خراسان التي كان المثل يضرب بعمارتها وعظمها، خربوها وقتلوا أهلها في بعض سنة، وفعلوا في مدارس هذه المدن وربطها ما تنبو عنه الأسماع، فسبحان من أرسلهم لطي الدنيا» (١٥).

وقام التتار المجرمون بحرق الجوامع والخزائن وغيرها، وكسروا السدود والمسنيات ومقاسم الماء في نهر مرغاب، فتحولت البلاد من واحة خضراء إلى سبخة مقفرة. وحين اجتاز ابن بطوطة بما وراء النهر إلى خراسان: أخبر بأن مدينتي: بلخ ومرو خربتان (١٦).

أيام تيمور وبعدها

ذكر المستوفي (ت٧٤٠هـ)، في سياق وصفه لمدينة مرو، أن الخراب مازال مستوليا على أكثرها، مما يدل على أن وضعها لم يتغير كثيرا في النصف الأول من القرن الثامن.

إلا أنها استعادت بعض بهائها في ختام ذلك القرن (الثامن)، وذلك لأن تيمور لنك كان كثيرا ما ينزل عندها حين يخفت دوي الحرب، وكان غالبا ما يقيم في موضع سماه بعضهم «ماخان»، ورجح لسترنج أنه «ماجان»، وهو الربض الغربي العظيم في مرو.

على أن مدينة مرو قد استعادت عظمتها الأولى في أيام شاه رخ، حفيد تيمور، حيث جدد قسما كبيرا من المدينة في سنة ٨١٢هـ، وقد صرح بعض مؤرخي تلك الحقبة بأنها قد عادت ثانية إلى ما كانت عليه من عمران وازدهار (١٧).

ياقوت الحموي ومدينة مرو

أقام ياقوت في «مرو» ثلاثة أعوام يجمع مادة كتابه «معجم البلدان»؛ لأن مرو كانت قبل ورود التتر إليها مشهورة بخزائن كتبها، وكان يتمنى البقاء فيها لولا ورود التتر إليها، ففارقها إلى خوارزم، فلبث فيها شهورا، ثم فارقها إلى إربل، ولم يطب له المقام فيها، فتركها إلى الموصل.

وقد وصفها قائلا: «وتركتها أنا في سنة ٦١٦هـ على أحسن ما يكون. وبمرو جامعان للحنفية والشافعية، يجمعهما السور» (١٨).

خزائن الكتب

قال الحموي مشيدا بخزائنها، ومخبرا عن حبه لمرو: «وأقمت بها ثلاثة أعوام... ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها، لما فارقتها إلى الممات؛ لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة، وكثرة كتب الأصول (١٩) المتقنة بها، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع، إحداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عتيق الدين الزنجاني، أو عتيق بن أبي بكر... وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها: الكمالية، لا أدري إلى من تنسب، وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته... وخزانة نظام الملك الحسن بن إسحاق في مدرسته، وخزانتان للسمعانيين، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك - أحد الوزراء المتأخرين بها - والخزائن الخاتونية.

وكانت سهلة التناول، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن، تكون قيمتها مائتي دينار، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وألهاني عن الأهل والولد.

وأكثر فوائد هذا الكتاب (٢٠) وغيره مما جمعته: فهو من تلك الخزائن.

وكثيرا ما كنت أترنم عند كوني بمرو بقول بعض الأعراب:

أقمرية الوادي التي خان إلفها
من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالي أطارحك البكاء فإننا
كلانا بمرو الشاهجان غريب

ثم أضفت إليها قول أبي الحسن مسعود ابن الحسن الدمشقي الحافظ، وكان قدم مرو فمات بها في سنة ٥٤٣هـ:

أخلاي إن أصبحتم في دياركم
فإني بمرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقا ثم أحيا تذكرا
وبين التراقي والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صبابة
ولكن بقاه في الحياة عجيب

إلى أن خرجت عنها مفارقا، وإلى تلك المواطن ملتفتا وامقا، فجعلت أترنم بقول بعضهم:

ولما تزايلنا عن الشعب وانثنى
مشرق ركب مصعد عن مغرب
تيقنت أن لا دار من بعد عالج
تسر، وأن لا خلة بعد زينب» (٢١).

بداية فكرة تأليف ياقوت الحموي لكتابه «معجم البلدان» كانت في مرو

إن صلة الحموي بمدينة مرو، التي أحبها، عميقة جدا، حيث إن فكرة تأليف كتابه العظيم «معجم البلدان» راودته وهو فيها، فقد ذكر في مقدمة كتابه أنه لما كان في مجلس أبي المظفر

عبدالرحيم بن الحافظ أبي سعد عبدالكريم السمعاني بمرو الشاهجان سنة ٦١٥هـ أنكر عليه أحد الجلساء ضبطه لكلمة «حباشة»، ولم يجد في خزائن مرو العشر كتابا يذكرها، فراودته فكرة تأليف هذا الكتاب.

قال الحموي في ذلك: «وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب: أنني سئلت بمرو الشاهجان، في سنة خمس عشرة وستمئة، في مجلس شيخنا الإمام السعيد الشهيد فخر الدين أبي المظفر عبدالرحيم بن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبي سعد عبدالكريم السمعاني، تغمدهما الله برحمته ورضوانه.. عن حباشة، اسم موضع جاء في الحديث النبوي، وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية، فقلت: أرى أنه «حُباشة» بضم الحاء... فانبرى لي رجل من المحدثين وقال: إنما هو «حَباشة» بالفتح. وصمم على ذلك وكابر، وجاهر بالعناد من غير حجة وناظر، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل؛ إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل، فاستعصى كشفه في كتب غرائب الأحاديث، ودواوين اللغات، مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها.

فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء، ويأس من وجوده ببحث واقتراء، فكان موافقا - والحمد لله - لما قلته، ومكيلا بالصاع الذي كلته، فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطا، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطا، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا، وإلى ضوء الصواب داعيا...» (٢٢).

وقد سبق أن أكثر فوائد هذا الكتاب من تلك الخزائن.

النسبة إلى «مرو»

والنسبة إلى «مرو»: «مروزي». قال السمعاني: «وكان إلحاق الزاي في هذه النسبة فيما أظن للفرق بين النسبة إلى «المروي»، وهي الثياب المشهورة بالعراق، منسوبة إلى قرية بالكوفة» (٢٣).

أما النسبة إلى «مرو الروذ»: فهي: «المروذي»، وتقع في شمال أفغانستان.

موقع «مرو» الآن

وتقع «مرو» الآن في «تركمانستان»، وهي من الجمهوريات التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي، وتسمى الآن «ماري»، وتقع إلى الشمال الشرقي من «عشق آباد»، عاصمة تركمانستان (٢٤).

مؤلفات العلماء

من المعروف أن كثيرا من المدن الكبيرة التي كانت مراكز العلم ومعاقله، قد ألفت فيها كتب مستقلة، كمدن: بغداد، ودمشق، وجرجان، وواسط.. وغيرها. وقد ألف كثيرون كتبا في مرو، ولكنها كلها لم تطبع إلى الآن.

وممن ألف في تاريخ «مرو»:

١- محمد بن علي بن حمزة، أبوعلي الفراهيناني (ت٢٤٧ هـ).

٢- العباس بن مصعب بن بشر، أبوالفضل المروزي.

٣- أحمد بن سيار بن أيوب، أبوالحسن المروزي الحافظ (ت٢٦٨هـ).

٤- محمد بن حمدويه بن موسى بن طريف بن روح، أبورجاء الهورقاني السنجي (ت٣٠٦هـ).

٥- عبدالله بن محمود، أبوعبدالرحمن السعدي المروزي (ت٣١١هـ).

٦- أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد ابن معدان، أبوالعباس المعداني الأزدي (ت٣٧٥هـ).

٧- أبوزرعة السنجي، وكتابه من مصادر السمعاني في الأنساب.

٨- أحمد بن عبدالملك بن علي بن أحمد بن عبدالصمد، أبوصالح المؤذن النيسابوري (ت٤٧٠هـ).

٩- عبدالجبار بن عبدالجبار بن محمد، أبومحمد الثابتي الخرقي (ت٥٥٣هـ).

١٠- الإمام عبدالكريم بن محمد، أبوسعد السمعاني (ت٥٦٢هـ) صاحب الأنساب (٢٥).

«مرو» من أشهر معاقل العلم والعلماء

ينتسب إلى مدينة «مرو» عدد لا يحصى من العلماء، قال الحموي في ذلك: «وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم، منهم: أحمد بن محمد بن حنبل الإمام، وسفيان بن سعيد الثوري (مات وليس له كفن واسمه حي إلى يوم القيامة)، وإسحاق بن راهويه، وعبدالله بن المبارك، وغيرهم» (٢٦).

وقال ابن الأثير الجزري: «وخرج منها جماعة كثيرة من العلماء لا حاجة إلى ذكرهم لشهرتهم» (٢٧).

الهوامش

(١) انظر: كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، ص٤٣٤، و«الجغرافيا» لابن سعيد المغربي، ٥٣/١.

(٢) انظر: «أحسن التقاسيم»، ١١٠/١، ١١٥.

(٣) «معجم البلدان»، ٥٤/٤.

(٤) كتاب «صورة الأرض» لأبي القاسم بن حوقل النصيبي، ص٤٣٤.

(٥) كتاب «صورة الأرض» له، ص٤٣٦.

(٦) انظر: «بلدان الخلافة الشرقية»، ص٤٤٤-٤٤٥.

(٧) انظر كلامه في «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ص٣١١.

(٨) المصدر السابق.

(٩) كتاب «صورة الأرض» له، ص٤٣٥.

(١٠) كان سنجر آخر سلاطين السلجوقيين العظام، وامتد ملكه إلى أقصى بلاد الترك (كاشغر)، وأقصى بلاد اليمن، والحجاز، ومكران، وخراسان، وسجستان، وما وراء النهر، وطبرستان، وكرمان، وبلاد فارس، والعراقين، والموصل، والجزيرة، والشام، وغيرها من البلاد، انظر: «زبدة التاريخ»، للحسيني، ص١٨٠، و«دولة السلاجقة» للدكتور علي الصلابي، ص١٩٠.

(١١) تشييد القبور وتجصيصها، وبناء القبب عليها، وإسراجها، وغير ذلك من مظاهر تمييز بعض القبور: هي من وسائل الشرك التي نهى عنها الشارع في أحاديث كثيرة، ولكن هذه الظاهرة منتشرة في كثير من بلاد الإسلام، والله المستعان.

(١٢) «معجم البلدان»، ١٣٤/٥.

(١٣) هو السلطان الكبير جلال الدولة أبوالفتح ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان السلجوقي التركي، تملك بعد أبيه سنة ٤٦٥هـ، وتوفي سنة ٤٨٤هـ.

(١٤) انظر: «فتوح البلدان» للبلاذري ص٣٩٢، و«الأنساب» للسمعاني، ٢٦٥/٥.

(١٥) «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري، ص٥٧٢.

(١٦) انظر: «رحلة ابن بطوطة»، ص٣٩٦، عند حديثه عن مدينة «هراة».

(١٧) انظر: «بلدان الخلافة الشرقية»، ص٤٤٥.

(١٨) «معجم البلدان»، ١٣٤/٥.

(١٩) يقصد النسخ الخطية للكتب.

(٢٠) يقصد كتابه الكبير «معجم البلدان».

(٢١) «معجم البلدان»، ١٣٤/٥-١٣٥.

(٢٢) «معجم البلدان»، ٢٥/١.

(٢٣) «الأنساب» للسمعاني، ٢٦٦/٥.

(٢٤) انظر: «بلدان الخلافة الشرقية»، ص٤٣٩ وما بعدها، «موسوعة المدن العربية والإسلامية» للدكتور يحيى الشامي، ص٤٢١-٤٢٢.

(٢٥) ملخص من كتاب «تاريخ المحدثين لمدن الشرق والشام» لأبي معاوية مازن البيروتي، ص١٦٤-١٨٥، وقد ذكر فوائد عن جل المؤلفات المذكورة، نقلها عن الكتب التي نقلت عن تلك الكتب.

(٢٦) «معجم البلدان»، ١٣٦/٥.

(٢٧) «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير، ١٩٩/٣.

الشيخ هشام الحمصي.. فارس ترجل

د. محمد حسان الطيان
أستاذ مشارك في الجامعة العربية المفتوحة
وكلية الدراسات العليا في جامعة الكويت

جزعت وللحر أن يجزعا
وودعت صبري إذ ودعا
وجادت عيوني على بخلها
وحق لها اليوم أن تدمعا
وما دار في خلدي أنني
أرى العلم يرضى الثرى مضجعا
فقل للخطابة ذوبي أسى
ولا تطلبي بعده مصقعا

فقدت أعواد المنابر - في بلاد الشام خصوصا وفي العالم الإسلامي عموما - خطيبا من ألمع خطبائها، وفارسا للكلمة من أبرع فرسانها، وداعيا إلى الحنيفية السمحة من أخلص دعاتها، وعالما بفقه الموازنات والأولويات والمصالح الشرعية من أجل علمائها.

ذلكم هو العلامة الشيخ هشام عبدالرزاق الحمصي، خطيب الأدباء وأديب الخطباء.

عرفته منذ نحو أربعين عاما (١٩٧٣م) يعتلي منبر مسجد الفردوس القريب من سكني في حي السادات، فما سمعت خطيبا أفصح ولا أحكم ولا أجزل ولا أوفى منه (عدا شيخنا الشيخ كريم راجح - حفظه الله - فذاك نمط آخر). ثم تبعته مع الآلاف الذين تبعوه وتابعوه في تنقلاته بين مساجد بدر.. فسعد.. فالشاء، فما ازداد هو إلا ضياء كالبدر، وما ازددنا نحن إلا سعدا به وثناء عليه، ونسأل المولى أن يجمعنا به في الفردوس كما عرفناه أولا في جامع الفردوس.

كان أمة في الفصاحة والبيان، يتغنى بالعربية، ويرى تعلمها من الدين، ويحث الناس في خطبه على إتقانها وإحسانها، كيف لا وبها يفهم كلام الله، وبمعرفتها تدرك أسرار الإعجاز، وبملكتها يصح الاستنباط والتفسير والتأويل.

وكان مدرسة للتيسير والتبشير، وهو يصدر فيها عن دراية بمذاهب الفقهاء، واستيعاب لاختلاف الأئمة، وإدراك



ترجمة الفقيد

- ولد في دمشق عام ١٩٣٩م.
- حمل الشهادات الشرعية والعامة في الإعدادي والثانوي، وإجازة في الشريعة، ودبلوما في التربية من جامعة دمشق.
- حاضر في مادة التفسير والتجويد في جامعة دمشق - كلية الشريعة
- درس في دار المعلمين الأولى بضع سنوات قبل تقاعده، كما درس النحو في جامعة أم درمان الخاصة وكلية الشريعة والقانون بدمشق عدة سنوات، وفي المعاهد الشرعية.
- ألف ثلاثة كتب وهو طالب في الجامعة (أذيعت عبر إذاعة دمشق في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات).
- بعد بلوغه الخمسين من عمره ألف ثلاثة عشر كتابا جديدا.
- خطب على منابر دمشق في عدة مساجد مرموقة مدة ٥٣ سنة مرتجلا.
- ينظم الشيخ الشعر ويحفظ الكثير منه.
- دعي إلى الولايات المتحدة وكندا والكويت لإلقاء خطب ومحاضرات.

لمقاصد الشريعة الغراء والحنيفية السمحة.

وكان معلما من معالم الوسطية في الدين، يأبى الغلو والتكلف، ولا يرضى بالشطط والشطح والدجل.

وكان صادقا مخلصا - أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا - لا يجامل ولا يداهن، ولا يصانع ولا ينافق، ولا يتملق ولا يغالي في المديح.

وكان محبا للقرآن، تاليا له، مجودا لألفاظه، مترنما بتلاوته، متغنيا بقراءته، أوتي مزمارا من مزامير داود، فسعد به كل من سمعه. وكان متفننا في تعليمه، عالما بأسرار بلاغته وفصاحته، متوقفا عند الكثير منها بأجمل تعليل وأطرف تأويل.

وكان راوية للشعر العربي، ذواقا لروائعه، متخيرا لبدائعه، ينثره في خطبه ومجالسه ودروسه ومحاضراته، فيكون له أبلغ الأثر في نفوس سامعيه.

وقد أوتي في التعليم مواهب قلما اجتمعت لواحد، من جودة خط، وندواة صوت، وحضور فقه، وحسن تأت، وبلاغة كلمة، وطرافة تعليل، وظرافة خاطرة، وكمال أسر لكل من حضر أو سمع.

ولهذا كله بكيته لما جاءني نعيه، وبكى معي أهلي، وبكى معي صحبي، وبكت معي كتبي... وحق لها أن تبكي.

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلف هيمان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر تبكي وهي عيدان

رحمه الله، وأكرم نزله، ورفع في عليين مقامه، وجزاه عنا وعن الأمة خير ما جزى خطيبا عن قومه، وداعيا مصلحا عن أمته، ومعلما ناصحا مرشدا عن صحبه وتلامذته.



المسلمون في أوروبا.. اضطهاد متزايد

القاهرة - عبدالله شريف
دار الإعلام العربية

تتنامى ظاهرة «الإسلاموفوبيا» خاصة في أوروبا، ربما لمجرد العداء للإسلام، أو خوفا من التزايد السريع في أعداد المسلمين، أو ربما بسبب إلصاق بعض الممارسات السلبية بالأقليات الإسلامية، التي تتعرض بالتالي إلى حالات اضطهاد وتضييق، تتباين من دولة إلى أخرى، مثلما تتباين الأقليات الإسلامية في اندماجها مع المجتمعات الغربية التي تقيم فيها.. ولعل حادثة «شارلي إيبدو» تلخص حال الأقليات المسلمة، فقد تم اتهام مسلمين بارتكابها، وفي المقابل تم منح الجنسية الفرنسية لشاب مسلم من جمهورية مالي تكريما له على إنقاذ حياة ١٥ مواطنا من حادث عنف.. «الوعي الإسلامي» تلقي الضوء على الأقليات المسلمة في أوروبا وما تواجهه من سلبيات وإيجابيات.

نتوقف أولا مع تقرير لصحيفة «الإندبندنت» البريطانية، أكدت فيه أن نحو ٥٠ حادث اعتداء على مسلمين وقع في أعقاب حادث «شارلي إيبدو». وأوضح التقرير أن المسلمين في فرنسا وألمانيا وحتى في المملكة المتحدة البريطانية ينظر إليهم بعين الريبة. وبينت الصحيفة أنه يوجد في فرنسا أكبر جالية مسلمة في أوروبا، إذ يبلغ تعدادها نحو خمسة ملايين نسمة (حوالي ٧,٥ في المئة من مجموع السكان)، أما في ألمانيا فيبلغ عدد المسلمين ٤ ملايين (٥ في المئة) وفي بريطانيا يبلغ عددهم ٣ ملايين (٥ في المئة).

المسلمون في أوروبا

كما ذكر تقرير سابق لمؤسسة «عدالة للجميع ضد التمييز»، حول تعداد المسلمين في أوروبا، أوضح أن عددهم بلغ ٤٥ مليونا. وأكد أنه على الرغم من التضييق والاضطهاد فإن عدد المسلمين في تزايد مستمر، وأن دورهم وتأثيرهم في مجتمعاتهم يزدادان بشكل ملحوظ خلال الأعوام العشرة الأخيرة، حيث أصبح الإسلام الدين الثاني والمعترف به رسميا من السلطات في كثير من الدول الأوروبية.

وأكد أن أكبر كثافة سكانية للمسلمين في منطقة البلقان، حيث يشكل المسلمون في ثلاث دول أوروبية غالبية كبيرة، وهي: كوسوفو بغالبية تقارب ٩٠ في المئة، تليها جمهورية ألبانيا بنسبة ٨٠ في المئة، ومن ثم البوسنة والهرسك في الموقع الثالث بنسبة ٥٥ في المئة.

وتلي البوسنة والهرسك من حيث كثافة السكان المسلمين جمهورية مقدونيا بنسبة تصل إلى ٤٠ في المئة، تتبعها مونتنيغرو، التي تبلغ نسبة المسلمين فيها حوالي ٢٠ في المئة، وهم في هاتين الجمهوريتين اليوغوسلافيتين السابقتين (مقدونيا ومونتنيغرو) من أصول ألبانية وبوسنية.

وبلغ عدد المسلمين الأوروبيين الأصليين في منطقة البلقان أو ما يسمى جنوب شرق أوروبا حوالي ٩ ملايين نسمة، أما مجمل عدد المسلمين في الجزء الأوروبي من

روسيا فقد وصل إلى ١٧ مليون نسمة وبنسبة ١٢ في المئة من عدد السكان تقريبا. أما عدد المسلمين في هولندا فهو مليون مسلم بنسبة ٦ في المئة من مجمل السكان.

وبين التقرير ذاته أن تأثير المسلمين وحضورهم في أوروبا الغربية يزدادان يوما بعد يوم، بعكس أوروبا الشرقية، التي تظهر فيها تيارات التعصب والتشدد والعنصرية في مختلف مؤسسات المجتمع، كونها كانت خلال العهد الاشتراكي السابق مجتمعات مغلقة وتحولت إلى مجتمعات محافظة قوميا يغلب عليها التشدد.

وقال التقرير إن أكثر المجتمعات الأوروبية عداء للإسلام والمسلمين اليوم هي اليونان، تليها سلوفينيا، حيث إنها البلد الأوروبي الوحيد الذي لا توجد فيه مساجد رسمية للمسلمين.



احتواء الأزمات

إلى ذلك، أكد رئيس لجنة الدعوة بمجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشيخ عبدالعزيز النجار، أن الإسلام دين يجمع ولا يفرق، موضحا أن للبعثات الإسلامية دورا كبيرا في دعم الجاليات المسلمة، خصوصا في أوروبا وغيرها.

وأضاف أن الهدف من «مجمع البحوث» في قانون الأزهر تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي، وبيان الرأي في ما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة. ويضم المجمع عدة لجان، من أهمها لجنة المعاهد الأزهرية التي تتواصل مع أغلب الأقليات الإسلامية في العالم.

وأشار إلى أن المجمع يرسل بعثات مستمرة لتصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام، موضحا أن الأقليات تختلف من دولة إلى أخرى، فبعضها مكرم والآخر مضطهد، مشيرا إلى أن قوانين الدول المختلفة واحترامها لحقوق الإنسان والأديان تؤثر أيضا على التعامل بين هذه الأقليات.

وأكد أن على جميع الهيئات الإسلامية التنسيق بشكل واسع لاحتواء أي أزمة لأي أقلية في العالم، فهم قادرون على ذلك، مشيرا إلى اختلاف العقليات من دولة إلى أخرى ومن أقلية إلى أخرى، فهناك من يلتزمون بالإسلام قولا وعملا، ويحترمون قوانين البلدان التي يقيمون فيها طالما لا تتعارض مع عقيدتهم، وهناك من يبتعدون عن صحيح الإسلام.

وأضاف أن نشر تعاليم الإسلام الحقيقي ليس صعبا، وهناك كثيرون في أوروبا لديهم الاستعداد لتقبل الرأي الآخر.

أفكار مغلوطة

أما د. أحمد طه ريان، العميد الأسبق لكلية الشريعة والقانون بالأزهر وعضو هيئة كبار العلماء، فأوضح أنه منذ سنوات طويلة تتجدد الإساءات عبر الصحف الغربية للنبي محمد ﷺ، وفي كل مرة نكتب وندين ونستمر على معاملاتنا ذاتها من دون تغيير، مشيرا إلى أنه لو تم التعامل مع الأمر على أنه من الأولويات لمنعت تلك الإساءات إلى الأبد.

وأضاف أن البعثات التي تطلقها الهيئات الإسلامية تحتاج إلى دعم كبير وخطط وأفكار جديدة.

وتساءل بحسرة: «لكن من يهتم بنشر الدين والدعوة وقد انشغلنا بالرفاهية والزينة وتقليد الأمم؟»، مشيرا إلى أن اضطهاد المسلمين والإساءة إلى النبي محمد ﷺ لن يتوقفا إذا استمررنا على الأساليب ذاتها.

ولفت إلى أن هناك مفاهيم غير صحيحة عن الإسلام لدى كثيرين ممن ينتسبون إليه، ما ساعد على ظهور الأفكار المغلوطة عن الإسلام، قائلا إن هناك أيضا من مواطني الغرب من ينصفون الإسلام ويحاربون حملات الإساءة إلى النبي على الرغم من أنهم غير مسلمين.

وقال: «الإساءة لا تنتقص من الرسول ﷺ»، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٥)، موضحا أن كثيرا من أهل الغرب يعرفون أن الإسلام لم يأمر بقتل ولا بهدم، وأنه دين الرحمة والتواصل وإعمار الأرض، لكنهم يعاندون، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران:١١٨).

ولفت إلى أن بعض هذه الإساءات تكون محاولة لصد الإقبال المتزايد على الإسلام في أوروبا، حيث يزيد عدد المتجهين إلى الحق والإسلام بشهادة أجهزتهم البحثية.

تقصير الإعلام والمؤسسات الإسلامية

بينما أكد د. علاء نصير، أستاذ الإعلام بجامعة الأزهر، أن الهجوم على الأديان من أهم السمات الغالبة على معظم شعوب دول أوروبا، فهم أنفسهم فيما بينهم يرفضون أديانهم، مشيرا إلى أنهم لا يمتلكون ثقافة احترام الأديان والغيرة على الرسالات السماوية.

وأكد أن المسلمين يمتلكون هذه الغيرة على الدين بقوة، حتى الفاسد والعاصي منهم، لكن هذه الغيرة لا تعني ممارسة العنف ضد هذه المجتمعات.

وأشار إلى أن الهجمة الأخيرة على المسلمين في الغرب بعد حادثة «شارلي إيبدو» ليست جديدة، وتعتبر رسالة تحثنا على التحرك في الاتجاه السليم لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

وطالب بتكثيف وتجديد القوافل الدعوية إلى أوروبا وعدم الاعتماد على النقل، مشيرا إلى ضرورة دراسة عقولهم وثقافاتهم للوصول إليهم.

وشدد أن على المسلمين في جميع أنحاء العالم، أفرادا ومؤسسات، الاهتمام بالأفعال وليس الأقوال، والسلوكيات والتصرفات تنقل الإسلام الحقيقي، بالإضافة إلى نشر أخلاق الإسلام من القرآن وسيرة رسول الله ﷺ.

وأضاف أن بعض المنتسبين إلى الإسلام يسيئون إليه بما يصدر عنهم من سلوكيات تشوه صورة الإسلام، وعلينا تحمل هذه التبعات وإصلاحها في أفكارنا وتعاملاتنا، بعضنا مع بعض، حتى نستطيع بعدها النقل إلى الخارج.

وأشار إلى أن هناك تقصيرا واضحا من وسائل الإعلام العربية في تصدير سلوك الإسلام الصحيح، وهناك دور كبير على ١٢٢ جامعة إسلامية حول العالم ينبغي أن تقوم به في هذا الشأن، وتكاتفها جميعا سيعطي نتيجة إيجابية في تصحيح الصورة.. ومن ثم القيام بدور محوري في الدفاع عن الأقليات المسلمة في الغرب وفي كل مكان، فطالما لم يصدر عن هذه الأقليات إساءة إلى البلدان التي يقيمون فيها، فبالتالي لا يمكن السكوت على إساءة يتعرضون إليها.

> **إفريقيا الوسطى نموذجا للاضطهاد**
>
> أكد اتحاد علماء أفريقيا أن مسلمي أفريقيا الوسطى يتعرضون إلى إبادة جماعية تعد عارا في جبين الإنسانية، مطالبا بملاحقة ومعاقبة المتورطين في جرائم قتل وتقطيع وحرق المسلمين أمام عدسات الكاميرات.
>
> ويشكل المسلمون نحو ١٥ في المئة من سكان جمهورية أفريقيا الوسطى، مما يجعلها ثاني أكبر دين في البلاد بعد المسيحية (٥٠ في المئة).

شوكة المسلمين

بدوره، أكد د. عبدالمهدي عبدالقادر، عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، أن نصرة الإسلام تكون باتباع الشريعة، ويوم أن يتمسك المسلمون بدينهم لن يستطيع كذاب أو مفتر أن يتهجم على القرآن الكريم أو سنة النبي ﷺ، أو الجاليات المسلمة في مختلف البلدان.

وأضاف أن هناك دراسة غربية حددت ترتيب الدول حول الالتزام بتعاليم الإسلام، ولم يكن في العشر الأولى أي من الدول الإسلامية! وهذا مؤشر على حجم التشوه الذي يعاني منه العالم العربي والإسلامي.

وأشار إلى أن من الأسباب التي تقلل من مكانة المسلمين، سعيهم للتشبه بالأمم الأخرى: نساؤنا كنسائهم وشبابنا كشبابهم، حتى أصبحنا أضحوكة العالم وأصبحنا ذيولا لهم، مشيرا إلى أن على المسلمين، حكاما ومحكومين، علماء وطلاب علم، أن يتمسكوا بالإسلام، فإذا قويت شوكة المسلمين في أوطانهم لم يتجرأ أحد على النيل منهم في بلاد المهجر.

الدين المعاملة

وأخيرا، أكد د. رشدي شحاتة أبوزيد، أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة حلوان، أن نشر صحيح الإسلام عن طريق المعاملة مع غير المسلمين له أثر قوي، مشيرا إلى أن هذه الطريقة كانت أهم الطرق في العصور الماضية.

وأضاف أن على وسائل الإعلام وجميع المؤسسات الدينية بذل المزيد من الجهد لنقل صورة الإسلام الحقيقية، بالإضافة إلى تفعيل لغة المواطنة داخل مجتمعاتنا الإسلامية حتى لا يفرق في الحقوق والواجبات بين مسلم وغيره، فبتحقيق العدل بين المسلم وغيره تتغير صورة الإسلام المغلوطة لدى مواطني الغرب.

وأضاف أنه توجد جهود لبعض البلدان العربية، مثل: المملكة العربية السعودية والكويت ومصر، تصب في دعم الأقليات المسلمة في بلدان الغرب، وتعزز المحافظة على هويتها الإسلامية، ونيل حقوق أبنائها السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال: إقامة المراكز الإسلامية، المساجد، الأكاديميات العلمية، الجامعات والمعاهد والمدارس، والكراسي، إضافة إلى الأعمال الإغاثية والإنسانية. وطالب بمضاعفة هذه الجهود وعدم اقتصارها على الدعم المادي، بل أيضا الدعم المعنوي والعلمي والسياسي، إن تطلب الأمر.



ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:

ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة :

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

معركة الوعي: سؤال النهضة

على مدار أكثر من قرن من الزمان، والسؤال المركزي الذي يشغل عالم المسلمين هو: لماذا تأخر المسلمون، وتقدم غيرهم؟

والإجابة على هذا السؤال المركزي أو الوجودي، أو بالأحرى: سؤال النهضة، وعملية الاستئناف الحضاري تحتاج إلى رؤية فكرية عميقة، وإحاطة بأبعاد تاريخية واسعة، ومعرفة حضارية كبيرة، وخبرات فكرية وثقافية، حتى يتم تشخيص هذه المحنة التاريخية تشخيصا دقيقا ومستوعبا، ليتسنى تقديم محاولات جادة للإجابة عليه.

وعلى مدار أكثر من قرن من الزمان تعددت المدارس الفكرية التي حاولت الإجابة على هذا السؤال المركزي، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أنه (أي السؤال) مازال حاضرا ومعاشا في الوعي الجمعي العربي والإسلامي، وأنه مازال يثير مزيدا من الجدال على اختلاف طرق التناول وإشكاليات المنهجية، ويمكن القول بشيء من اليقين: إن كل النتاجات الفكرية على مدار تلك الحقبة الزمنية الطويلة نسبيا هي محاولات للإجابة على هذا التساؤل.

ذلك أن كل خطاب للنهضة يفرز سؤاله، ومازال خطاب النهضة في عالمنا العربي يستدعي مزيدا من الجدال.

ورغم ما قدم من إجابات أو محاولات اجتهادية للنهوض، ظل حال الأمة كما هو، ترزح تحت مطارق مظاهر التخلف في الداخل، وسندان الضغوط الكونية من الخارج، ولعل ذلك مرده إلى أن سؤال النهضة لا يستلزم فقط إجابات نظرية، بقدر ما يحتاج إلى حركة واعية على الأرض، وتراكم معرفي في أبنية المجتمع السياسية والاقتصادية.

حاول أمير البيان شكيب أرسلان (١٢٨٦-١٣٦٦هـ-١٨٦٩-١٩٤٦م) في كتابه: (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟) (صدر في ١٩٣٠م) أن يقدم إجابة قال عنها الشيخ رشيد رضا: «إنها آية من آيات بلاغته، وحجة من حجج حكمته، ولعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته، وانبجس من معين خبرته».

وانحسرت إجابة أمير البيان عن سبب تأخر المسلمين في عدة نقاط، منها:

١- بعدهم عن دينهم، وعدم رغبتهم في التضحية بأي مما يملكونه في سبيل رفعة هذا الدين.

٢- أكد أمير البيان أن أسباب تأخر المسلمين لا ترجع لكونهم مسلمين.

٣- ذكر أن من أسباب تأخر أو انحطاط المسلمين الجهل، العلم الناقص، فساد الأخلاق، الجبن، نسيان ماضيهم المجيد، وتخليهم عن ثقافتهم وديانتهم. وتركهم الجهاد، وشحهم، وبخلهم على المجاهدين الإسلاميين، وضياع الإسلام بين الجامدين وبين الجاحدين، وترك العلم والعمل به والتخوف من الفشل. وأكد أن العزيمة والإرادة كفيلتان بإحراز أي تقدم.

وفي نهاية تحليله أكد أمير البيان أن المسلمين لن ينهضوا إلا بالأشياء التي نهض بها غيرهم، ومنها: الجهاد بالمال والنفس، والعلم.

ولن يتم للمسلمين - ولا لأي أمة من الأمم - نجاح أو رقي إلا بالتضحية، فإن هذا الأمر قد أمر الله به - عزوجل - مرارا في كتابه العزيز.

ولننفض غبار اليأس، ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغون كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان.

وفي تجربة اجتهادية أخرى حاول الشيخ أبوالحسن علي الحسني الندوي (١٩١٤م -١٣٣٣هـ - ١٩٩٩م -١٤٢٠هـ) في كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) أن يقدم إجابة مختلفة لنفس السؤال، ولكن الذي ينظر إلى عنوان الكتاب يجده غريبا في تركيبه، والمفترض أن يكون العنوان هكذا: (ماذا خسر المسلمون بضعفهم)، لكن الندوي نظر إلى الواقع نظرة شمولية فجاء العنوان هكذا، لأن انحطاط المسلمين سيؤدي إلى ضعف العالم وخسارته، والعكس صحيح.

شخص الندوي الواقع الحالي بقوله: إن علة العالم الإسلامي اليوم هي الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى

الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة. فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمه غير مسائل الطعام.

ثم استعرض أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية، ووصف ما حل بالمسلمين أنفسهم، عندما تخلوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن تبعاتهم، وما نزل بالعالم كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى، ويرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص.

ومن خلال هذا الاستعراض، يحس القارئ بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية، وردها إلى الهدى الذي انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى المعرفة، وبمدى الخسارة التي حلت بالبشر جميعا، لا بالمسلمين وحدهم في الماضي، وفي الحاضر، وفي المستقبل القريب والبعيد.

إلى جانب ذلك فإن الخصيصة البارزة في هذه المحاولة للإجابة على سؤال النهضة: هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجا للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجا كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية، فهو ينظر إلى الأمور كلها، وللعوامل جميعها، وللقيم على اختلافها. فحين يتحدث المؤلف عن رد القيادة العالمية إلى الإسلام، فهو يتحدث عن مؤهلات القيادة، فلا ينسى بجوار «الاستعداد الروحي» أن يلح في «الاستعداد الصناعي والحربي»، و«التنظيم العلمي الجديد»، وأن يتحدث عن «الاستقلال التجاري والمالي»، إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية. وبهذا الإحساس المتناسق قدم الندوي في استعراضه التاريخي، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء إجابته أو تصوره للإجابة.

حاول المفكر الجزائري مالك بن نبي (١٣٢٣-١٣٩٢هـ/ ١٩٠٥-١٩٧٣م) في كتابه (شروط النهضة) أن يقدم إجابته مختلفة على هذا التساؤل المركزي: فشخص واقع الأمة بأن عوامل تراجعها تكمن في قابليتها للاستعمار، وشيوع ثقافة الاستهانة والتهوين، وطغيان تقديم الأشياء والأشخاص على الأفكار، والتركيز على التفاصيل والانشغال بها دون الكليات.

وأكد ابن نبي على أن أمراض هذه الأمة هي: الاستعمار والأمية، والفقر والظلم والجهل.

وقدم تصوره ثلاثي الأبعاد للإجابة على سؤال النهضة بأن مشكلة الإنسان وتغييره يبدأ من النفس، وذلك بمعرفتها وتعريفها للآخرين، وبمعرفة الآخر وعدم التعالي عليه.

ومشكلة التراب من حيث قيمته الاجتماعية وحلها موجود في إعادة الاعتبار لقيمة «الشجرة» التي تكسر حدة التصحر الذي يعاني منه الإنسان.

والبعد الثالث يتعلق بالزمن الذي هو المكون الأساس لأي حضارة.

ولاشك أن هناك محاولات أخرى، بعضها أسبق من محاولة أمير البيان، وخاصة للجيل الأول من رواد النهضة، أمثال الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، والكواكبي، وخير الدين التونسي، وبعضها كان على أرضية تغريبية أو استلهاما من الحضارة الغربية، وبعضها كان رفضا للواقع، واختزال الإجابة في شعار العودة إلى الإسلام، دون تقديم أي آليات أو مناهج وأساليب عمل.

وخلاصة القول: إن أي محاولة للإجابة مستوعبة لابد أن تكون أكثر واقعية في التشخيص لواقع الأمة المأزوم والمهزوم، فتركز على معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٥)، فتؤكد على نقد الذات واكتشاف مواطن الخلل في البنية الثقافية والاجتماعية، ولعل ذلك ما حاولته بعض اجتهادات الجيل الأول من الباحثين عن إجابة لسؤال النهضة، مثل: رفاعة الطهطاوي في كتابه «تخليص الإبريز»، وخير الدين التونسي في كتابه «أقوم المسالك في معرفة المالك»، وعبدالرحمن الكواكبي في كتابيه «أم القرى»، و«طبائع الاستبداد»، ومحمد عبده في مساجلاته مع «رينان»، و«هانوتو»، و«فرح أنطوان»، ومحمد رشيد رضا من خلال مجلته «المنار».

منذ أكثر من قرن ومازال السؤال صالحا للطرح، إذ إن الواقع المعيش لم يقدم عليه إجابة بعد، وأحسب أن أي إجابة لابد أن تتجاوز الرؤية التقليدية لتشخيص واقع لم يزل قائما منذ قرنين، إلى محاولات تقديم إجابات أشد تفصيلية عن كيفية تجاوز واقع التخلف ذاته، للانخراط في دورة الحضارة من جديد، دون انفصال منهجي عن الثوابت الفكرية التي تشكل عصب أي حضارة ناهضة، أو تريد النهوض..

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

يقول ويل ديورانت:
الحضارة «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإن الحضارة تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق».

ويقول مالك بن نبي:
الحضارة: «توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدات الضرورية له في هذا الطور».

مقولات في الوعي الحضاري

«الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على أن يرتفع على ذاته أو يهوي دونها، على عكس الملائكة والحيوانات، فالملائكة لا تملك إلا أن تكون ملائكة، والحيوانات هي الأخرى لا تملك إلا أن تكون حيوانات، أما الإنسان فقادر على أن يرتفع إلى النجوم أو أن يغوص في الوحل».

د. عبدالوهاب المسيري

«إن إقامة العدل أصعب بكثير من هدم الظلم، فالهدم فعل سلبي، والبناء فعل إيجابي».

نيلسون مانديلا

«نهوض أي أمة أمر ليس بالمستحيل، شريطة أن تمتلك هذه الأمة إرادة التغيير».

د. جاسم سلطان

عرض كتاب

الوعي الحضاري.. مقاربات مقاصدية لفقه العمران الإسلامي



د. مسفر بن علي القحطاني

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص ١٦٠، ٢٠١٢م.

على مدار أربعة فصول هي:

الفصل الأول: مقاربات حول مفهوم الوعي الحضاري.

الفصل الثاني: لبنات في صناعة التحضر.

الفصل الثالث: مقامات الرعاية الشرعية للتحضر الرشيد.

الفصل الرابع: منطلقات في بناء الوعي الحضاري.

ناقش المؤلف عناصر موضوعه، وألقى الضوء على معالم فقه العمران، وحاول - رغم سعة الموضوع وامتداداته - الإحاطة به من جميع جوانبه.

وبالرغم من أن العمران من شروط الاستخلاف في الأرض، فإننا - كما يؤكد المؤلف - لا نجد دراسات فقهية معاصرة تسبر غوره المادي، وتؤصله بالفقه الشرعي، وتحاول ربط المادة بمصدرها الرباني.

ومصطلح الوعي مصطلح شائك ومربك، وعصي على الإحاطة المنطقية كما يثبت المؤلف، وإن اشترك المعنيان اللغوي والشرعي في إمكانية الإحاطة بالأمر المراد بفهم وإدراك، بعيدا عن العنف والإكراه، وبعيدا عن الانقياد بلا حجة أو دليل.

وتظل عملية تجديد الوعي عبئا تنوء بحمله الجبال، فهو صمام الأمان من التحولات الحادة أو التقلبات السريعة.

ويؤكد المؤلف أنه يمكن تقديم ملامح مقاربة اجتهادية لتجديد الوعي الديني من خلال القضايا الأربع الآتية:

«الفهم البياني» الصحيح لدلالات النصوص على معانيها.

و«التأصيل الاستدلالي» المعرف بأحكام النوازل الجديدة، وفق قواعد التنزيل المحكم.

و«الشهود الاستخلافي» القائم بواجب عمارة الدنيا، ونهضة معاش الناس، وفق مشاريع تحضر واقعية.

و«التلازم المقاصدي» بجمع النصوص والفهوم، لتتوافق مع حقائق المقاصد الكلية للشريعة والمعطيات العلمية والمستجدات المصلحية.

قضايا كثيرة جديرة بالاعتبار والقراءة، أثارها الكتاب، لعل أهمها:

أثر الأسئلة في صناعة الأفكار.

جدلية الواقع المتغير، وثبوت النص المقدس.

خطورة اغتيال الوعي، والانكسار الطوعي للتخلف.

إن العمران من مقاصد الشريعة، فالله يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١).

وكما يقول علال الفاسي: «المقصد العام للشريعة هو عمارة الأرض»، مشيرا إلى أن هذا الكون مسخر لأجل الإنسان وعمارة الأرض، وأن هذا التسخير الكوني يبصر الإنسان بمهمته الكبرى في تحويل هذه المسخرات، لتكون عونا في العمران.

ويؤكد المؤلف في خاتمة بحثه على أهمية استلهام فقه العمران في مواجهة الكثير من التحديات المعاصرة التي يواجهها الفرد والمجتمع.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

دعوة الحق
مجلة شهرية تعنى بالبحوث الدينية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط

محافظون ومجددون

للأستاذ الرحالي الفاروقي

لقد ظهرت دعوة الحق للعيان ، وبرزت للوجود زاهية بالبيان ، وخلقت فى النفوس حنينا ، وتركت فى الاذان طنينا ، وتلقاها الشهم الكبير بصدره الرحيب ، وقلبه السليم ، فنعيذها بالله العظيم من وقوع الموانع وحدوث القواطع ، ونتمنى ان تبقى حرة صريحة مخلصة للحق ناصرة للدين، تعبر عنه وتهتز له وتخاصم عنه وتحتج له ، ونحن فى حاجة ماسة وضرورة ملحة الى من يدعو الى مذهب الحق ويجهر به ، والى من يستمع الى قول الحق ويعمل به ، والى مراعاة ما تمليه

الظروف الجارية ، وتوجيه الاحوال القائمة **من دون تقدم جامح ولا تاخر فاضح .**

نحن احوج الى اثارة هذه الدعوة المستنيرة ، والى العمل على اثبات الحق فى موطنه واقرار سلطته وتنفيذ خطته بقوة المنطق ونفوذ الحجة مع اعتبار البيئات والنظريات ورد الشبهات والمغالطات ، اخلاصا للحق وجهادا فى سبيله ، ودفاعا عن اهله وعشيرته ، واقتداء بالداعية الاكبر والمرشد الابر جلالة محمد الخامس .

اننا نعيش فى عصر سطا فيه شيطان المادة على سلطان الروح ، فكان من الغالبين ، وانهدت فيه الدعائم الروحية وانحطت القيم المعنوية الى اسفل سافلين ، وتكاثر فيه المدعون والداعون ، وقل الحافظون لحدود الله والراشدون .

وهنا يجب ان يدوي صوت الحق ويظهر اهله فى الميدان للتعريف بمذهبهم ، ونشره بين اهاليهم وعرضه على اخوانهم ، وقد يجدون انصارا ولا يعدمون احرارا يقفون بجانبهم ويعملون لصالح بلادهم ويبتغون رضاء خالقهم .

هكذا كانت طبيعة الشرائع والملل من قبل كلما تطاول الزمن وستر الباطل الحق وجد جديد فى الحياة بعث الله رسلا مبشرين ومنذرين اقامة للحق واصلاحا للارض واهلها ببيان الشرائع واقتفاء آثارها فلا صلاح للارض ولا لاهلها الا بان يكون الله وحده هو المعبود ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسله لا لسواهم وغير الله من الخلق انما يجب طاعته اذا امر بطاعة الله وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام ، فقد اصلح الله الارض واهلها برسله وبدينه ، والامر بتوحيده ، ونهى عن افسادها بالشرك وعصيان رسله ومخالفة امره (**ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح فى مكان سحيق ــ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**) ومن تامل احوال العالم وجد كل صلاح فى الارض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسله ، وكل شر فى العالم وفتنة وبلاء وتسليط عدو وسلب نعمة فعلته مخالفة اوامره ومخاصمة احكامه ومعاداة رسله ، ومن تدبر العالم منذ قام الى الان والى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الامر كذلك فى خاصة نفسه وفى حق غيره عموما وخصوصا .

والملامة فى هذه الدنيا على حملة الاقلام وعدول الشريعة ، الذين يسكتون ولا يتكلمون ، والمذمة على قادة الامم ورؤساء الشعوب الذين يثبون وثبة جريئة لا تحمد عاقبتها ، فيهيئون بذلك هوة سحيقة ونفرة دائمة بين انصار القديم وانصار الجديد كما يقولون . ولعل السبب فى تنافر الفريقين ، وتراشق الجانبين عدم وجود الثقافة اللازمة والمرونة الكافية فى الافكار ، وقلة الفهم الصحيح والادراك السليم لتعاليم الاسلام من جهة ، ولاصول الحياة الجديدة من جهة اخرى مما ادى الى قلة الوثوق وكثرة التخوف ، فوقف كل فى جهة مخالفا للاخر ، ظانا به السوء ، وكل منهما يلقب غيره بلقب لا يزيدهما الا جحودا وعنادا ونفورا وابتعادا، ولو سلك الجميع مسلكا وسطا ، وصح قصدهم وطابت نفسهم ، واكتمل عقلهم ، لامكنهم التغلب على المشاكل كلها بواسطة الاجتماع والدراسة لعناصرها وتحليل اجزائها ومعرفة مبدئها وغايتها ، وبعرض الاحكام على الخارج كما هو شان العلوم العقلية والسياسية والشرعية ، فلا نصادم اصلا من اصول الشريعة الواضحة ، ولا نخل بركن من اركانها الثابتة ، وكل مشكلة فلها حل وكل داء فله دواء ، والشرائع السماوية والقوانين الوضعية وان كان للاولى فضل ومزية ، انما

انظر البقية على الصفحة 23

تابع للصفحة 9

كانا لنفع العباد وتحري مصالحهم ودفع المضار عـــن
ساحتهم ولهذا المعنى تعلقت احكام الشريعة بافعالهم .
وشريعة الاسلام من هذا الجنس الا انها باعتبارها
آخر الشرائع السماوية كانت تعاليمها اكثر ملاءمة للحياة،
واقدر على مماشاة الازمنة فتراها فى اقوالها واحكامها
تدعو الى المثل العليا والى حياة السلم والعدل ، والى
احترام الحقوق البشرية ، والى ادامة العمل ، وحفظ
نظامه لضمان بقائه ووجوده ، وغير ذلك مما نسمعه فى
المجالس الدولية والمجامع السياسية ، ومزجت بيــن
الروح والمادة ولم تفصل بين الدين والدولة ليكـــون
عنصر الحكومة المسلمة قائما على تكويــن الضميــر
بالوازع الديني ومبينا على مراقبة الاهية لا يفوتهـــا
صغير ولا كبير من الاعمال والحركات ، واذا صلح القلب
صلح الجسد ، واذا فسد القلب فسد الجسد ، فكان
الاسلام نظاما طبيعيا وحكيما وخالدا لا يقصر عـــن
ممارسة الحياة ، ولا يتاخر عن ركب الحضارة ، اللهم الا
اذا قعد به اهله وابناؤه ، او نسبوا له العقم والجمود
كذبا وافتراء وجهلا واعتداء . ومن احكام هذه الشريعة
ما يدوم ويبقى لبنائه على مصلحة دائمة او مفسدة
مستمرة ، والله اعلم بما كان وما يكون الى نهاية هـــذا
العالم ، ومنها ما تتبدل وتجدد ، بحسب الظـــروف
والاطوار ، وباعتبار المنافع ، وعلى ذلك كان نســـخ
الاحكام فى الشرائع تبعا لما جد من المصالح وكان اوفـــق
بسنة الحياة وانسب لطبيعة العمران ، وارتبطت الاحكام
فى اصول الشريعة ارتباطا تاما باللعل والاسباب .

وناسف كثير الاسف لان بعض شبابنا قد غرتهم
مظاهر الحياة الغربية غرورا ، وغيرت نفوسهم تغييرا
جوهريا فانكروا الايمان بالغيب وتركوا الصلاة والزكاة ،
وجسروا على القول ان هذه المظاهر رسوم تقليدية وان
الزمن قد تقدم عليها .

يظنون ان التقدم الحاد وابتداع وانصراف عـــن
الواجبات واغراق فى الماديات واخذ بالاباحة المطلقة وان
التقدم المادي المجرد كفيل بضمان الحياة وبقاء الحضارة
وجالب للهناء والسعادة ، وهو ظن حائد عن جهـــة
الصواب ، بعيد من نفس الحقيقة ، واصحابه فى حيرة
وفتنة وغرور يسبحون فى بحر من الخيال والسراب .

ان التقدم الحقيقي ان ننصرف بكليتنا الى تكوين
النفوس ، وتقويم الاخلاق واصلاح الاعوجاج ببناء الحياة
على اساس متين من الاخلاق والدين والعلم والجـــد
والعقل الرصين ونستقصي الجهود فيما ينقصنا من
الحياة حتى نكون علماء مخترعين واطباء ما هريـــن
وعمالا متدربين وجنودا مستعدين وليس من التقدم فى

2

شيء ان نتنصل من الاداب الشريفة والاخلاق الكريمة
ونخرج عن اوضاع الاسلام ونتلاعب بشرائعه ونتنكر
لعقائده .

ان دعوة الحق هي دعوة الاسلام التي اخرجـت
الناس من الظلمات الى النور ، ومن الجهالات الى العلم،
ومن الباطل الى الحق ، ومن الفوضى الى النظام ، وهي
التي هاجر محمد صلوات الله عليه وسلامه من اجلها
وجعل المدينة مركزا لنشرها ، وهي التي تبنى علـــى
اليقين والعمل عقائدها ، وتمتاز بالبساطة حقائقهـا ،
وبموافقة الفطرة اوضاعها ، وبرفع الحرج والمشقـــة
تكاليفها ومن دان بها تمسك بالسبب الاقوى واخـــذ
بالعروة الوثقى وتقدم حسا ومعنى ، والكتاب الناطق
بالحق والسنة المبينة للحق هما معتمد هذه الدعوة ،
ومستندها الصحيح، وباعتمادهما تطيب الحياة وتسعد
الشعوب وترتقى الى المقام اللائق وتسير الى الـــذروة
والسنام ، وهذان الاصلان هما قوام الدنيا والديـــن
واصل حياة المسلمين ، ففيهما النجاء من كل مشكلة ،
والملجأ من كل معضل ، والله يقول الحق وهو يهدي
السبيل .

دعوة الحق

هي مجلة مغربية تصدرها شهريا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، صدر عددها الأول في عام ١٣٧٦هـ/ يوليو١٩٥٧م، وتهتم بالدراسات الإسلامية والتاريخ وبشؤون الثقافة والفكر.

الرّحّالي الفاروقي

عالم من علماء المغرب، ولد في بدايات القرن العشرين، وكان من المتبحرين في كثير من العلوم الشرعية واللغوية، حفظ القرآن من طفولته وأتقنه ورسمَه بالقراءات السبع، درس بمراكش والقرويين، وخطب في جامع الكتبيين، وتولى رئاسة الجامعة اليوسفية بمراكش، وأسندت إليه عمادة كلية اللغة ودراسة مادة الحديث بدار الحديث الحسنية، كما تولى رئاسة المجلس العلمي، وألقى عددا من الدروس الحسنية الرمضانية، توفي عام ١٤٠٥هـ الموافق ١١ مارس ١٩٨٥م.

إعداد: د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس جامعة
أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل الأحوال الشخصية: الخطبة والنكاح

- عنوان النازلة: الخطبة والنكاح عن طريق وسائل الاتصال الحديثة

- الخلاصة الحكمية:

١- دلت القرارات الواردة في هذا العدد على أنه لا يصح إجراء عقد النكاح عن طريق البرق والفاكس والحاسب الآلي والهاتف اللاسلكي؛ وذلك لاشتراط الإشهاد فيه، ونظرا إلى ما كثر في هذه الأيام من التغرير والخداع، إلا إذا استخدمت هذه الوسائل لتوكيل شخص للنكاح، فإنه يصح.

٢- إلا أنه يمكن أن يقال الآن: إنه بتطور آلات الاتصال التي تنقل بها الصورة مع الصوت، قد يحصل التأكد من شخصية الطرفين مع الشاهدين، وكلامهما بالإيجاب والقبول، وتجري هذه الرؤية عن بعد مجرى الحضور في المجلس الواحد الذي اشترطه الفقهاء. وهنا يكون العقد صحيحا.

● **القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع والفتاوى الخاصة، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:**

● أولا: صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة؛ رقم ٥٢ (٦/٣)، بشأن حكم إجراء العقود بآلات الاتصال الحديثة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين:

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره السادس بجدة في المملكة العربية السعودية من ١٧-٢٣ شعبان ١٤١٠هـ الموافق ١٤-٢٠ مارس ١٩٩٠م، بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع إجراء العقود بآلات الاتصال الحديثة.

ونظرا إلى التطور الكبير الذي حصل في وسائل الاتصال وجريان العمل بها في إبرام العقود لسرعة إنجاز المعاملات المالية والتصرفات.

وباستحضار ما تعرض له الفقهاء بشأن إبرام العقود بالخطاب وبالكتابة وبالإشارة وبالرسول، وما تقرر من أن التعاقد بين الحاضرين يشترط له اتحاد المجلس - عدا الوصية والإيصاء والوكالة - وتطابق الإيجاب والقبول، وعدم صدور ما يدل على إعراض أحد العاقدين عن التعاقد، والموالاة بين الإيجاب والقبول بحسب العرف.

قرر ما يلي:

أولا: إذا تم التعاقد بين غائبين لا يجمعهما مكان واحد، ولا يرى أحدهما الآخر معاينة، ولا يسمع كلامه، وكانت وسيلة الاتصال بينهما الكتابة أو الرسالة أو السفارة (الرسول)، وينطبق ذلك على البرق والتلكس والفاكس وشاشات الحاسب الآلي (الحاسوب)، ففي هذه الحالة ينعقد العقد عند وصول الإيجاب إلى الموجه إليه وقبوله.

ثانيا: إذا تم التعاقد بين طرفين في وقت واحد وهما في مكانين متباعدين، وينطبق هذا على الهاتف واللاسلكي، فإن التعاقد بينهما يعتبر تعاقدا بين حاضرين، وتطبق على هذه الحالة الأحكام الأصلية المقررة لدى الفقهاء المشار إليها في الديباجة.

ثالثا: إذا أصدر العارض، بهذه الوسائل، إيجابا محدد المدة يكون ملزما بالبقاء على إيجابه خلال تلك المدة، وليس له الرجوع عنه.

رابعا: إن القواعد السابقة لا تشمل النكاح لاشتراط الإشهاد فيه، ولا الصرف لاشتراط التقابض، ولا السلم لاشتراط تعجيل رأس المال.

خامسا: ما يتعلق باحتمال التزييف أو التزوير أو الغلط يرجع فيه إلى القواعد العامة للإثبات.

انتهى القرار.

وبمثل هذا القرار صدرت فتوى رئيس لجنة الإفتاء في الجامعة الإسلامية بغزة؛ حيث ورد إليه سؤال:

■ **السؤال: ما حكم عقود البيع التي تجرى بواسطة شاشة الحاسب الآلي (الكمبيوتر) والتي تعرف بـ«التجارة الإلكترونية»؟**

● الإجابة:.... وإبرام العقود عبر شاشات الحاسب الآلي (الكمبيوتر) لا يشمل عقد النكاح لاشتراط الإشهاد فيه، ولا عقد الصرف لاشتراط التقابض، ولا عقد السلم لاشتراط تعجيل رأس المال في المجلس.

أما ما يتعلق من احتمال التزييف أو التزوير أو الغلط أثناء التعاقد عبر «الكمبيوتر» فهذا يرجع فيه إلى القواعد العامة للإثبات (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر).

رئيس لجنة الإفتاء: د. أحمد ذياب شويدح.

● التعليق:

لما كان لابد لصحة عقد الزواج من وجود الشاهدين مع الزوجين في مجلس العقد، وذلك للتأكد من شخصية الزوجين وسماع الصيغة، وكان الكلام في التليفون أو ما يشبهه من الوسائل المذكورة مما يعسر فيه التحقق من صوت الزوج؛ لإمكان التقليد والمحاكاة للأصوات، وكذلك إذا سمعته الزوجة

فالشاهدان ربما لا يسمعانه؛ كان لابد من اشتراط ذلك والتأكيد عليه، واستثناؤه من القرار السابق.

إلا أنه يمكن أن يقال الآن: إنه بتطور آلات الاتصال التي تنقل بها الصورة مع الصوت قد يحصل التأكد من شخصية الطرفين مع الشاهدين، وكلامهما بالإيجاب والقبول، وتجري هذه الرؤية عن بعد مجرى الحضور في المجلس الواحد الذي اشترطه الفقهاء. وهنا يكون العقد صحيحا.

راجع كتاب: «أحكام الأسرة في الإسلام» للدكتور محمد مصطفى شلبي.

وأما اشتراط العدالة في الشهود: فذهب الأحناف إلى أن العدالة لا تشترط، وأن الزواج ينعقد بشهادة الفاسقين.

والشافعية قالوا: لابد من أن يكون الشهود عدولا لحديث: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل». فإذا عقد الزواج بشهادة مجهولي الحال، ففيه وجهان. والمذهب: أنه يصح.

● ثانيا: ثم صدرت فتوى اللجنة الدائمة حول عقد النكاح عن طريق الهاتف؛ حيث جاء في السؤال الثاني من الفتوى رقم ١٢١٦ ما يلي:

■ **السؤال: إذا توافرت أركان النكاح وشروطه إلا أن كلا من الولي والزوج في بلد، فهل يجوز العقد تليفونيا أم لا؟**

● الجواب: نظرا إلى ما كثر في هذه الأيام من التغرير والخداع، والمهارة في تقليد بعض الناس بعضا في الكلام وإحكام محاكاة غيرهم في الأصوات، حتى إن أحدهم يقوى على أن يمثل جماعة من الذكور والإناث، صغارا وكبارا، ويحاكيهم في أصواتهم وفي لغاتهم المختلفة محاكاة تلقي في نفس السامع أن المتكلمين أشخاص، وما هم إلا شخص واحد، ونظرا إلى عناية الشريعة الإسلامية بحفظ الفروج والأعراض، والاحتياط لذلك أكثر من الاحتياط لغيرها من عقود المعاملات، رأت اللجنة أنه ينبغي ألا يعتمد في عقود النكاح في الإيجاب والقبول والتوكيل على المحادثات التليفونية؛ تحقيقا لمقاصد الشريعة، ومزيد عناية في حفظ الفروج والأعراض حتى لا يعبث أهل الأهواء ومن تحدثهم أنفسهم بالغش والخداع.

وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهت الفتوى.

● التعليق:

الذي يظهر والله أعلم في هذه المسألة: أنه يجوز عقد النكاح عن طريق الهاتف والإنترنت إذا أمن التلاعب، وتحقق من شخص الزوج والولي، وسمع الشاهدان الإيجاب والقبول. وهذا ما أفتى به الشيخ ابن باز رحمه الله، حيث سأله المشرف على موقع الإسلام سؤال وجواب في سؤال حمل رقم ٢٢٠١، وهو مقتضى فتوى اللجنة الدائمة التي منعت النكاح هنا لأجل الاحتياط وخوف الخداع.

وبهذا يعلم أن الإشكال هنا ليس في مسألة اتحاد المجلس، فإن الاتصال الهاتفي أو «الإنترنتي» من الطرفين في الوقت نفسه يأخذ حكم المجلس الواحد.

والشهادة على هذا العقد ممكنة، بسماع صوت المتكلم عبر الهاتف أو الإنترنت، بل في ظل التقدم العلمي اليوم يمكن مشاهدة الولي وسماع صوته أثناء الإيجاب، كما يمكن مشاهدة الزوج أيضا.

● ثالثا: ثم صدر قرار ندوة مجمع الفقه الإسلامي بالهند في دورته الثالثة عشرة عام (٢٠٠١/٤م) بشأن إجراء التعاقد بالآلات الحديثة:

أولا: المراد من المجلس الحال التي يشتغل فيها العاقدان بإجراء التعاقد. والقصد من اتحاد المجلس أن يتصل الإيجاب بالقبول في وقت واحد، ومن اختلاف المجلس ألا يتصل الإيجاب بالقبول في وقت واحد.

ثانيا:

(أ) يصح الإيجاب والقبول في البيع عن طريق الهاتف ومؤتمر الفيديو، وإذا كان العاقدان على الإنترنت في وقت واحد ويظهر الطرف الآخر قبوله بعد الإيجاب بالفور انعقد البيع، ويعتبر مجلس العاقدين في هذه الصورة متحدا.

(ب) إذا أجاب أحد في البيع على الإنترنت ولم يكن الطرف الآخر متواجدا على الإنترنت وقت الإيجاب، وبعد وقت تسلم الإيجاب، فهذه إحدى صور البيع بالكتابة، وعندما يقرأ الإيجاب يلزمه إظهار القبول في حينه.

ثالثا: إذا أراد المشتري والبائع إخفاء تعاقدهما واستخدما لذلك الأرقام السرية، لم يجز لشخص آخر الاطلاع على هذا التعاقد، أما إذا كان لشخص ما حق الشفعة أو حق شرعي آخر متعلق بذلك العقد أو البيع جاز له الاطلاع عليه.

رابعا: إن عقد النكاح يحمل خطورة أكثر من عقد البيع، وفيه جانب تعبدي، ويشترط فيه الشاهدان، لذلك لا يعتبر مباشرة الإيجاب والقبول للنكاح على الإنترنت ومؤتمر الفيديو والهاتف، أما إذا استخدمت هذه الوسائل لتوكيل شخص للنكاح، ويقوم الوكيل من جانب موكله بالإيجاب والقبول أمام الشاهدين صح النكاح، ويلزم في هذه الصورة أن يكون الشاهدان يعرفان الموكل أو يذكر الموكل اسمه واسم أبيه عند الإيجاب والقبول.

انتهى القرار.

● التعليق:

نص القرار كسابقه على أن عقد النكاح لا يصح انعقاده عن طريق الوسائل الإلكترونية الحديثة، إلا أنه زاد عليه صحة ذلك إذا استخدمت هذه الوسائل لتوكيل شخص للنكاح.

قال ابن قدامة: «ويجوز التوكيل في عقد النكاح في الإيجاب والقبول، ولأن النبي ﷺ وكل عمرو بن أمية وأبا رافع في قبول النكاح له، ولأن الحاجة تدعو إليه؛ فإنه ربما احتاج إلى التزويج من مكان بعيد لا يمكنه السفر إليه؛ فإن النبي ﷺ تزوج أم حبيبة وهي يومئذ بأرض الحبشة» (المغني ٥/٢٠٣).

إعداد: التحرير

الحذر من الغفلة

عن زهير بن أبي نعيم رحمه الله، أنه قال له رجل: يا أبا عبدالرحمن أتوصي بشيء؟
قال: نعم، احذر أن يأخذك الله، وأنت على غفلة.

(صفة الصفوة، ١٩/٤)

قد يعثر الجواد

قال الكسائي رحمه الله:

صليت بهارون الرشيد، فأعجبتني قراءتي، فغلطت في آية ما أخطأ فيها صبي قط، أردت أن أقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فقلت: لعلهم يرجعين.

قال: فوالله ما اجترأ هارون أن يقول لي: أخطأت، ولكنه لما سلمت، قال لي: يا كسائي، أي لغة هذه؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قد يعثر الجواد، فقال: أما هذا فنعم.

■ قال الذهبي رحمه الله:

من وعى عقله هذا الكلام، علم أن العالم مهما علا كعبه، وبرز في العلم، إلا أنه لا يسلم من أخطاء وزلات، لا تقدح في علمه، ولا تحط من قدره، ولا تنقص منزلته.

ومن حمل أخطاء أهل العلم والفضل على السبيل؛ حمدت طريقته، وشكر مسلكه، ووفق للصواب.

(تاريخ بغداد، ٣٤٥/١٣)

قبلنا منك يا معلم الخير

قال عبدالله بن أحمد رحمهما الله، سمعت أبي يقول ليحيى بن معين:
يا أبا زكريا، بلغني أنك تقول: حدثنا إسماعيل ابن علية!
فقال يحيى: نعم أقول هكذا.
قال أحمد: فلا تقله، قل: إسماعيل بن إبراهيم، فإنه بلغني أنه يكره أن ينسب إلى أمه.
قال يحيى لأبي: قد قبلنا منك يا معلم الخير.

(المناقب لابن الجوزي، ص٣٣٦)

عشر خصال

ينبغي للإنسان أن يكون فيه عشر خصال من خصال الصالحين من أخلاق الطير والبهائم:

سخاء الديك، وأمانة الحمامة، وصمت البازي، وحذر الغراب، وحزن الطاووس، وبصيرة الهدهد، وأنفة الفهد، وصدق الفرس، وصبر الجمل، وود الكلب.

(كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار)

أسلوب التعليم عند العرب

قال العلامة القاضي الخليل بن أحمد السيجري الحنفي:

اخدم العلم خدمة المستفيد ... وأدم درسه بفعل حميد
وإذا ما حفظت شيئًا أعده ... ثم أكِّده غاية التأكيد
ثم علقه كي تعود إليه ... وإلى درسه على التأبيد
وإذا ما أمنت منه فواتا ... فانتدب بعده لشيء جديد
مع تكرار ما تقدم منه ... واقتناء لشأن هذا المزيد
ذاكر الناس بالعلوم لتحيا ... لا تكن من أولي النهى ببعيد
إن كتمت العلوم أنسيت حتى ... لا ترى غير جاهل وبليد

(مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ٣٩/١)

إياك وطول المجالسة

قال ابن شبرمة لابنه: يا بني، إياك وطول المجالسة، فإن الأسد إنما يجترئ عليها من أدام النظر إليها.
وقال أردشير لابنه: يا بني لا تمكن الناس من نفسك، فإن أجرأ الناس على السباع، أكثرهم لها معاينة.
وقال ابن المعتز:

رأيت حياة المرء تــرخص قـدره   فإن مات أغلته المنايا الطوائح
كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله   كذا تخلق المرء العيون اللوامح

(بهجة المجالس وأنس المجالس، ٤٩/١)

العلوم أربعة

علم نافع (الطب).
علم رافع (الفقه).
علم واضع (النجوم).
علم ساطع (الأدب).
وزاد بعضهم خامسا: علم بارع (التفسير).

درر

قال الأحنف بن قيس:
الكلام بالخير أفضل من السكوت، والسكوت خير من الكلام باللغو والباطل.
والجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء.

(التمهيد، ٢٩/١٠)

سوء المجالسة

من سوء أدب المجالسة: أن تقطع على جليسك حديثه، أو تبدره إلى تمام ما ابتدأ به منه، خبرا كان أو شعرا، تتم له البيت الذي بدأ به، تريه أنك أحفظ له منه. فهذا غاية في سوء المجالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه.
وقيل لداود الطائي: لم تركت مجالسة الناس؟ قال: ما بقي إلا كبير يتحفظ عليك، أو صغير لا يوقرك.
(بهجة المجالس وأنس المجالس، ٥٠/١)

من أسماء القمر

من أسماء القمر عند العرب: الساهور، السنمار، الوباص، الوضح، الزبرقان، الأبرص، الأزهر، الباحور، الطوس، الجبهة، الزمهرير، الغاسق، الجيلم، البدر.
(لطائف اللغة لأحمد بن مصطفى اللبابيدي، ص٧)

كناش وسفينة

كان لأدباء العرب كلف بجمع ما يستحسنونه عند مطالعاتهم، على اختلاف المواضيع والأذواق والعصور، فسموا مثل هذه المواضيع «كنانيش» جمع «كناش»، وهي كلمة سريانية بمعنى: مجموع فوائد. وسفن جمع سفينة، وهذه تكون غالبا مستطيلة الحجم، تفتح من جهة طولها، لا من جهة عرضها مثل بقية الكتب، وكثيرا ما تختص بمجاميع شعرية، ولعلها سميت سفينة من أبحر الشعر، إلى أسماء أخرى لا محل لاستقرائها.
(مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ٢٧٥/٦)

أخلاق نساء السلف

قالت امرأة سعيد بن المسيب:
«ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم: أصلحك الله، عافاك الله...».
(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٩٨/٥).

دور السلطان «تيبو» في الهند

يتحسر المسلمون إلى اليوم على ضياع الأندلس، في حين أن كثيرين لا يعرفون تاريخ الهند الإسلامية التي حكمها الإسلام والمسلمون أكثر من ألف سنة، ثم سقطت في يد الإنجليز. لقد كانت لها حضارة عظيمة، لكن للأسف أضاعها المسلمون، كما أضاعوا من قبل الأندلس بفعل العديد من العوامل الداخلية والخارجية. لقد حكم السلطان تيبو ولاية ميسور الهندية الجنوبية خلال الفترة الممتدة بين ١٧٨٢ – ١٧٩٩م. وكرس كل حياته للجهاد ضد الاحتلال الإنجليزي، ولم يلتفت إلى مغريات الحياة، بل كان همه الكبير أن يقاتل الإنجليز حتى يطردهم من أرض الهند الجنوبية ويؤسس فيها حكومة إسلامية على دعائم قوية.

إن السلطان نمر تيبو يعتبر أحد أساطير التاريخ الإسلامي في الهند الإسلامية، حيث بذل كل حياته في سبيل الله، وتحول إلى أسطورة الجهاد ضد الإنجليز، وهو يعد من الشخصيات الكبيرة التي رسخت الإسلام في الهند. ولقد كانت له من صفات القيادة ومن الخصال الدينية والإنسانية ما استحق بها أن يكون في عداد القادة المسلمين العظام من أمثال طارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي. ولقد نجح في تدعيم أسس حكومته في منطقة ميسور والهند الجنوبية. وفي عهده شيدت المساجد والمدارس في كل قرية ومدينة، وعين المؤذن والقاضي العادل، كما حرص السلطان على نشر التعليم بين أبناء المسلمين، فعين المدرسين في المساجد لتعليم أطفال المسلمين. وكان السلطان يصل ليله بنهاره في العبادة وفي تلاوة كلام الله، وكان يكره الذين يخالفون تعاليم الإسلام ويقترفون الذنوب، فحق للرجل أن نقرأ عنه.

● حسن بن محمد

المرابطون في التاريخ الإسلامي

دولة المرابطين قامت منذ البداية على أساس ديني إسلامي صرف، يهدف إلى: نشر الإسلام السني الصحيح، وإعادة إحياء فريضة الجهاد، ومحاولة بعث القوى الإسلامية واستنهاض همتها من جديد، بعدما دب الضعف والانقسام في البلاد الإسلامية ولم يعد للعباسيين قدرة للسيطرة عليها، وكثرت بها الانحرافات والابتعاد عن تعاليم الدين، ومن ثم العمل بكل جهد على العودة بالمجتمع إلى عهد السلف الصالح.

وقد اعتمدت في التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلنت حربا على البدع والخرافات، فحطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وطالبت الناس بالقيام بفروض دينهم. ولذلك، لقيت دعوة المرابطين الترحيب أينما حلت، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد الإسلامية من المفاسد والمظالم، وفتحت المدائن والبلدان أبوابها لهؤلاء الملثمين المجاهدين الذين لا يبغون من الحياة الدنيا سوى الإصلاح.

ويندر في كتب الحوليات الإسلامية أن نجد دولة خدمت الإسلام كما خدمها المرابطون، ثم لقيت الجزاء السيئ على ما قدمت من المسلمين أنفسهم، فقد تخلى الأندلسيون عن المرابطين وتركوهم يواصلون المعارك وحدهم ضد النصارى، بل حملوا عليهم وهاجموهم وأهانوهم وأنكروا فضلهم، وبلغ قصر نظرهم أن ثاروا عليهم فسهلوا للعدو بذلك مهمة القضاء على أمتهم ودينهم وحضارتهم، كما خذلهم الموحدون في المغرب ولم يمنحوهم الفرصة في إتمام جهادهم في الأندلس ضد النصارى المتحالفين ضدهم، وراحوا يضربونهم من الخلف، مشتتين بذلك من قواهم التي توزعت بين جبهة الأندلس وجبهة المغرب، مما عجل بسقوط دولتهم.

صديق الوعي الإسلامي

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الهوية الإسلامية

هويتنا الإسلامية خط أحمر، ولا يجوز لأحد العبث بها، فالهوية قضية أساسية في الحياة الإنسانية، فالأمم بلا هوية كالجسد بلا روح، وكالحياة بلا ماء وهواء، فالهوية: هي حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره، فهي ماهيته، وما يوصف به من صفات. وكما أن للفرد هوية، فللمجتمعات والأمم هوية أيضا، ولها آثارها المترتبة عليها، فبالنسبة إلى الفرد هي التي تقوم سلوكه، وهي البوصلة التي توجه اختياره عند تعدد البدائل، وترسم سماته الشخصية، وبالنسبة إلى المجتمع هي الحصن الذي يتحصن به أفراده بداخله.

والهوية الإسلامية لا تتعارض مع الشعور الفطري بحب الوطن، فحب الوطن من الدين ومن هدي سيد المرسلين ﷺ. من هنا، بذل العلمانيون والمسبحون بحمد العولمة الغربية، أقصى جهدهم لذوبان الهوية الإسلامية ومزجها بهويات أخرى عن طريق تدمير البنية التحتية لمعتقداتنا الإسلامية، وتشويه رموزنا الدينية والثقافية حتى أصبحنا نرى في بلادنا من شباب المسلمين من يعلق في عنقه علم دولة أجنبية، ومن يلصقه على سيارته بلا حرج، ومن يتسابق على تقليد الغربيين في المظهر والعادات التي لا تتناسب مع هويتنا الإسلامية، بحجة المدنية والحداثة.

• الشيخ رسمي عجلان



الفتح الإسلامي لمدينة كابول

قرأت بحثا علميا يحمل عنوانا طويلا نسبيا «علاقة كابول بدولة الخلافة من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الطاهرية: تاريخ سياسي وحضاري»، سطرته الأستاذة الدكتورة إصلاح عبدالحميد ريحان، وحصلت به على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي (تخصص المشرق الإسلامي) من كلية الآداب في جامعة عين شمس، وقد نشرته فيما بعد بعنوان «الفتح الإسلامي لمدينة كابول: من سنة ٣١/٢٠٥ هجرية»، ضمن سلسلة تاريخ المصريين التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر. وقد استهلت المؤلفة كتابها ببيان الصعوبات التي صادفتها أثناء إعداد البحث، ومن أبرزها ندرة الكتب والمؤلفات الخاصة بفترة البحث. لكن الباحثة لم تيأس واستطاعت الحصول على مادتها التاريخية عن طريق الاستعانة بالسفارة الأفغانية في القاهرة، حيث أمدها السفير أجمل خيبري (سفير أفغانستان في مصر خلال إعداد البحث) بأمهات المصادر العربية والفارسية والإنجليزية إلى جانب كتب الرحالة والجغرافيين العرب وكتب الأدب القديم والحديث، التي مكنتها من إنجاز رسالتها على الوجه الأكمل الذي يشجع كل قارئ على المتابعة.

• محمد فؤاد علي

فهرسة الشيخ محمد الورزازي

طالعت للباحث أحمد السعيدي، عن منشورات جمعية تطاون أسمير في تطوان، كتابا جديدا بعنوان «فهرسة الشيخ محمد بن علي الورزازي نزيل تطوان» (١٢١٤هـ / ١٧٩٩م)، تقديم وتحقيق.

والمؤلف الورزازي أحد علماء المغرب خلال القرن ١٢هـ، وهو سليل الأسرة العلمية الورزازية في المغرب، انتقل من بلده ورزازات في درعة إلى سجلماسة وفاس وأيت عياش.. بغرض أخذ العلوم وملاقاة الشيوخ والعلماء والحصول على الإجازة منهم، قبل أن يستقر بتطوان ويصبح إماما بجامع لوقش ومدرسا للعلم به ومتصوفا على الطريقة الناصرية ومؤلفا، وكان من شيوخ العلامة أحمد بن عجيبة. وتجمع فهرسة الورزازي بين عرض المرويات والتعريف بالشيوخ وإيراد إجازاتهم له، يقول: «هذه فهرسة أذكر فيها، إن شاء الله، المشاهير من أشياخي، ممن قرأت عليهم، وأخذت عنهم، وأجازني ومن لم، تذكرة لي وتبصرة لغيري». كما يقول عنها في إجازته لتلميذه ابن عجيبة: «وأحلته على فهرستي التي وضعتها في مشايخي، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، متضمنة لأسانيدهم». وهذا يبين أنه جرى فيها مجرى من سبقه من المسندين المغاربة في كتابة فهارس شيوخهم وأسانيدهم ورواياتهم للكتب ودرايتها. وتتجلى قيمة الفهرسة في تقديم معطيات مهمة عن الحياة العلمية والفكرية في المغرب خاصة والغرب الإسلامي عامة خلال القرن ١٢هـ، وكذا إبراز الصلات والعلاقات بين المغرب والمشرق عبر الأسانيد والمصنفات والإجازات والرحلات، فضلا عن تعريف القارئ بالشيخ الورزازي خلال سيرته وتعلمه وشخصيته العلمية عموما.

• **أحمد بن محمد شاعري**

باسم الله

حين تؤوب
الشمس
لقلبك
يشرق يومك
تهتف روحك
باسم الله

• • •

حين
يروق الصبح
لعينك
يلمس قلبك
قبس النور
يفيض النبض
بذكر الله

• • •

حين
تعانق
درب السعي
تدق
بكفك
باب الرزق
تعود الكف
بنعم الله

• • •

حين
تعود لبيتك
طيرا
راح خماصا
عاد بطانا
يحمل
دفء الأمن
لأهله
فاذكر دوما
كرم الله

حين
تدير النظرة
حولك
دارك
أهلك
كسرة خبز
تملأ عينك
فاذكر أنك
قد أمسيت
بكنف الله

• • •

حين تراك
نقي القلب
تسبح ربك
حين رقادك
فاعلم أنك
فوق الحقد
وفوق الغل
ونلت الآن
أمان الله

• • •

حين تعود
من الأحلام
تعانق فجرا
في محراب النور
يصلي
فاسجد
شكرا
للرحمن
وهب نشيطا
وابدأ يومك
باسم الله

• **محمد عباس علي**

كلمة في الإحسان



استعملت كلمة «الإحسان» في معان كثيرة، فاستعملت بمعنى «الإتقان» مثل قوله عزوجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (فصلت:٣٣)، وقوله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة». وتستعمل بمعنى «الفضل والزيادة» عن أداء الواجب، فأداء الواجب «عدل» والزيادة عليه «إحسان»، وعلى هذا المعنى قوله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل:٩٠). كما تستعمل بمعنى التصدق على الفقير. والإحسان قديم وواجب ما دام في المجتمع غني وفقير ومحتاج وغير محتاج، وربما كان الباعث عليه أول الأمر سد رب الأسرة (رجلا أم امرأة) حاجة أفرادها من الأطفال والعاجزين عن الكسب، والإشفاق على ذوي القربى وصلتهم.

ثم اتسع حتى شمل المجتمع بأسره، ثم اتسع حتى شمل الإنسانية كلها، حتى شمل الحيوان والنبات. وقد تبنى الإحسان الدين، وجعله إحدى وسائله، وربطه بالجزاء الأخروي والثواب بعد الموت.



• محمد الحسيني السحرتي

الأزمة المالية في إطار الأخلاق الإسلامية

على الرغم من أن بعض الاقتصاديين نبه إلى خطورة فصل الاقتصاد عن الأخلاق، فإن واقع الاقتصاد الرأسمالي المعاصر يعلن بصريح العبارة أنه لا دور للأخلاق في الاقتصاد، وهذا الأمر من الوضوح في الواقع الاقتصادي المعاصر بحيث لا يحتاج إلى التدليل عليه. هنا تجيء واحدة من أكبر المساهمات الإسلامية في الاقتصاد.

الاقتصاد في الإسلام مربوط ربطا محكما بالأخلاق في جميع جوانبه، وقطاع الإنتاج - على سبيل المثال - يحكمه الإسلام بضوابط أخلاقية محددة، بل حتى مجال الاستهلاك محكوم بضوابط أخلاقية محددة.

ولذلك، نقول إن الإسلام يعالج الاقتصاد بروابط أخلاقية تؤمنه من انتكاسات تنشأ بسبب غياب الأخلاق. ويقوم النظام المالي والاقتصادي الإسلامي على مبدأ التيسير على المقترض الذي لا يستطيع سداد الدين لأسباب قهرية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ (البقرة:٢٨٠).

كما يقوم على منع التكتلات المؤدية إلى إلحاق الضرر والظلم بالناس، وتأمين الحرية والإفصاح اللازمين لرواد السوق من بائعين ومشترين، ومنع غبن المسترسل، ومحاربة الاكتناز والاحتكار، حيث إن النبي ﷺ نهى عن الاحتكار وقال: «من احتكر فهو خاطئ» (رواه مسلم)، وهو حبس السلع بانتظار ارتفاع أسعارها مما يؤدي إلى الإضرار بالناس.

• فيصل شياد

مسك الختام

في إحياء المراجعات الفقهية

لعله من نافلة القول التأكيد على أهمية الفتوى، بما هي «إخبار عن الله تعالى في إلزام أو إباحة»، محاط بسور من القواعد والآداب مما يتصل بالمفتي أو المستفتي، وشروط القول المفتى به؛ لخطورة ما يتعلق به من عبادات المكلفين وحقوقهم، وواجباتهم، وأعراضهم.. واصطلح العلماء على وصف ذلك كله «ضوابط الفتوى».

وإذا كان تبليغ العلم فريضة إسلامية، فإن الإفتاء إخبار عن الله وتوقيع عن شرعه، ومن ثم وجب على كل مستفتى أن يتريث حتى تحصل له الأهلية المطلوبة. ولربما يكون هذا سبب الإشكال الملحوظ؛ فالبعض يغلب فريضة تبليغ العلم على حساب وجوب تحصيل أهلية الإفتاء، فيلتبس عليهم الأمر.

وكانت نتيجة هذا أن كثر المتصدرون للفتوى، وتواردت أعداد هائلة من الفتاوى؛ منها الواقعي والخيالي، والشرعي وغير الشرعي.

ويقف المسلم موقف الحيرة، فهو حين يقدم على الاستفتاء، أو قراءة الفتوى؛ إنما يهم بذلك لحاجته إلى حل ديني لمعضلة تلبس بها، أو أمر ينوي القيام به.. فإذا تساقطت الفتاوى أمامه كأوراق الخريف ازدادت حيرته، ونمت دهشته؛ فبأيها يأخذ؟! لتظهر بهذا أهمية تمحيص الفتاوى، وتنقيح الآراء الدينية من قبل مراكز مختصة وهيئات رسمية.

إن الناظر في واقع الفتاوى في العالم الإسلامي، وما تتناقله منها وسائل الإعلام، يقف على فوضى حقيقية. قد لا يتخيل معها موقف العامي المسكين الذي يرجو من العلماء بيان الأصوب ليقوم به.

وهذا الواقع يحتم على جسم الأمة بمراكزها الدينية ومؤسساتها العلمية توجيه نظر العناية إلى هذا الجانب المهم من ممارسة المسلمين الدينية. وذلكم بإحياء دور المراجعات بإنشاء مراكز لتمحيص الفتاوى والرد على ما ينبغي الرد عليه، أو بزيادة اختصاص المراجعة لدور الإفتاء والمجامع الفقهية.

ومن شأن إحياء المراجعات إسكات المتطفلين على شأن الإفتاء، ببيان عدم إتقانهم أساسيات الإفتاء وانعدام التريث المطلوب، وموازنة المسألة بفقه الواقع، واعتبار الأعراف.

إلا إن هذا الفقه (فقه المراجعات) لا يزال أكبر غائب عند الأمة إلى جانب فقه الموازنات والأولويات، فمراجعة الخطاب الديني لابد أن تستند إلى فقه، ومراجعة السياسات الوطنية لا محيد لها عن فقه، وقل مثل ذلك في التخطيطات الاقتصادية والعمرانية.

فإلى متى يظل هذا الأمر يخبط فيه الناس خبط عشواء، ولا ينظر إليه نظرة تكامل مع الواقع العالمي المعيش؛ بصعوباته ومتناقضاته؟! وإلى متى يترك لكل مترصد لهفوات المتحدثين في الشأن الديني مجال يخدم أطاريحه، ومتسع ينفذ منه إلى الطعن في الدين الإسلامي، ثم يقال لنا فيما بعد إن هذا الرأي اجتهاد شخص واحد لا يمثل رأي الإسلام في القضية؟! فهل يظن أن هذا حل المعضلة؟!

ولا يخفى ما لهذا من أثر سيئ على الدعوة الإسلامية وترغيب الناس في هذا الدين الحنيف، وما كل مرة تسلم الجرة، وقديما قال الشاعر:

أبني أمية أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا

نص العلماء على شروط المفتي وفصلوا الكلام في ذلك لخطورة خطة الفتوى. وحسب الباحث النظر في أنواع المجتهدين عند علماء أصول الفقه ليقف على مجتهد المذهب، ومجتهد الفتوى، والمجتهد المطلق وما يشترط في كل منهم. ومعلوم أن المقصود من ذلك قطع الطريق على الآراء الشاذة والغريبة، سواء كان مصدرها عدم تفقه المفتي أو أخذه بأقوال مرجوحة في الفقه.

الحنفي المراد
باحث دراسات إسلامية


الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
مواضيع حيوية ومعاصرة
حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
مقالات لأبرز الكتاب الشباب
« الوعي الشبابي » مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي
Shabab alwaei
@alwaeialshababy

موقع الوعي الإسلامي في حلة جديدة

www.alwaei.gov.kw



مجلتكم تقترب منكم أكثر ...

- سهولة أكثر في تصفح المجلة عبر الفضاء الإلكتروني .
- أرشيف جميع أعداد وإصدارات المجلة عبر خمسين عاما من عمرها .
- تابعوا أحدث الإصدارات .

info@alwaei.com

@Alwaei_Alislami

مجلة الوعى الإسلامى



العدد (٦٠٠) شعبان ١٤٣٦ هـ - مايو - يونيو ٢٠١٥ م

الوعي الإسلامي

Al-Waei Al-Islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٦٠٠ - السنة ٥٢ - شعبان ١٤٣٦ هـ / مايو - يونيو ٢٠١٥ م

أخلاقنا الغائبة.. كيف نستعيدها؟





مدير ألكسو د. محارب: التعليم الرديء أخرج أجيالا لا علاقة لها بالإسلام

- الفقه الافتراضي.. رؤية مقاصدية
- الحنين إلى الأوطان للجاحظ
- الحياة في سبيل الله
- المؤرخ عبدالهادي التازي في ذمة الله

هدية العدد «بوستر الصرف العربي»

info@alwaei.com | www.alwaei.gov.kw | مجلة الوعي الإسلامي



أنشئت عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
اشترك
واحصل على
إصداراتنا
دراسات وأبحاث علمية
التراث العربي
المسائل الأصولية
من قضايا أصول النحو
دليل قواعد الإملاء ومهاراتها
رسالة في الوقف
التاريخ في الإسلام
أسرار العربية
دراسات وأبحاث علمية

مكارم الأخلاق

اعتنى الناس بأمر التربية، عناية لم يسبق لها مثيل في جميع العصور، وأصبحت مسائلها هي الشغل الشاغل للقائمين بأمر الإصلاح في الأمم المتطورة، لأنها أثبتت الدعائم التي تبنى عليها أسباب الرقي والفلاح.

وإنه لمن الكمال اللائق بالمجتمع المسلم أن يكون بناؤه على مكارم الأخلاق وترك مساوئها، وقد ساءت وكثرت في هذا الزمن لسهولة نشرها، وتعدد طرق وصلها، وغياب القدوة.

وقد حث الشرائع على المكارم، فالقرآن والسنة يضمنان النجاح لأي أمة تسير على منهاجهما، فالأخلاق ليس الغرض منها معرفة كيف يعيش الإنسان، بل معرفة كيف يجب أن يعيش.

والتربية - كما هو معلوم - تعهد الشيء ورعايته بالزيادة والتنمية والتقوية، وهي في الإسلام تجمع بين تأديب النفس، وتهذيب الروح، وتثقيف العقل، ولها رسائل عدة، وإذا صلحت سبل التربية صلح أمر التعليم.

وعلينا بالتوجيهات الشرعية، وتقييد الألسن عن اشتغالها بالأباطيل، وخوضها في أوحال القال والقيل، فإن اللسان أعظم الأعضاء ضررا، وأشدها خطرا، إن لم يتعاهده صاحبه أوقعه في المهلكات، وجلب إليه الآفات، فرحم الله امرءًا حفظ جوارحه ولسانه، وأصلح حاله قبل تورطه وارتحاله.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠٠ | شعبان ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
مايو - يونيو ٢٠١٥م

المراسلات

رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net



في هذا العدد

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: (٠٠٩٦٧) ٣٣١٧٩٧
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

•الكويت : ٥٠٠ فلس •السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة •الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه •اليمن : ١٠٠ ريال •لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري •تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

أزمة أخلاق

المجتمع كالبناء الكبير، لا يقوم إلا على قوة أعمدته، وسلامة كل جزء فيه، حتى يؤدي وظيفته متضامنا - من حيث لا يشعر - مع بقية الأجزاء. فسعادة المجتمع ونهضته متوقفتان على إحساس أفراده بمسؤوليتهم، وإخلاص كل واحد منهم في بذل أقصى طاقته في القيام بواجبه. وبمقدار هذا الإحساس والإخلاص تكون سعادة المجتمع، وبالتالي سعادتهم في حياتهم.

وبناء المجتمع لا يكون ولا يقوم إلا على أفراد لهم خلق ودين يدفعهم إلى الإخلاص لأمتهم ومجتمعهم في أعمالهم.. وإنه لا يكفي مطلقا أن نبني المصانع ونصدر القوانين، بل لابد أولا من بناء الرجال الذين يديرون المصانع وينفذون القوانين.. لابد من تربيتهم على الشعور بمسؤوليتهم وعلى مراقبة الله في أعمالهم.

إن الأزمة التي تمر بنا ليست في قلة المال أو الرجال أو المصانع أو نقص القوانين، لكن الأزمة الحقيقية هي أزمة الأخلاق الناشئة من جدب النفوس من الوازع الديني، ومن الشعور بالمسؤولية نحو الجماعة، وأن قوة الأمة الإسلامية لا تتحقق إلا على يد أبنائها الذين ينسون مصالحهم الشخصية، ويراقبون الله في أعمالهم، ويتقونه في أمتهم، ويتعاونون في إخلاص وحسن أخلاق ليردوا لها اعتبارها، ويعيدوا مجدا كان لها في سالف أيامها.. فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

د. عبدالمنعم النمر
رحمه الله

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

في الدورة الـ ٢٢ لمجمع الفقه الإسلامي:

الشريعة تحل المشكلات المعاصرة

ربيع إبراهيم



أكد مجمع الفقه الإسلامي أن ما يحل بالعالم الإسلامي في هذه الأوقات هو نتيجة الابتعاد عن تطبيق شريعة الإسلام، وانتشار الظلم والفساد، وضعف الانتماء إلى الأمة، وضعف الالتزام بالتربية الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة وسيرة المصطفى ﷺ.

وأشار المجمع إلى أن أولى خطوات الإصلاح ورفع ما يحل بالأمة، أن تعود الأمة إلى رشدها، وتلتزم بالشرع الحنيف؛ ليعود المؤمنون إخوة متحابين متعاونين ملتزمين.

جاء ذلك في الدورة الـ ٢٢ لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، والذي عقد في الكويت خلال الفترة من ٢٢ - ٢٥ مارس ٢٠١٥م، بحضور ثلة من العلماء ورجال الدين.

وشدد المجمع على أن القتال بين المسلمين محرم حرمة الدم المسلم لقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار».

والواجب وضع السلاح وادخاره؛ لحماية الأمة واستعادة مقدساتها، وليس للتقاتل في ما بين أبنائها، موضحا أنه يرصد ويتابع ما يحل ببعض مجتمعات المسلمين ودولهم، مما يتعرض له فيها أبناء الأمة للقتل والتشريد جراء الحروب الطاحنة التي هدمت الأوطان، ودمرت البيوت والعمران، وقوضت قوى الدول واقتصادها وجيوشها، وأتت على المعالم الحضارية والبنى التحتية بالتدمير والتخريب والإفساد، فاستحال أمن تلك المجتمعات إلى خوف، وشبعها وكفايتها إلى جوع ومخمصة، وراحتها واستقرارها إلى تشريد وتنقل وحياة بائسة، رملت فيها النساء، ويتم الأطفال وسكنوا الخيام بعد أن كانوا يسكنون البيوت العامرة الآمنة.

ودعا المجمع أبناء اليمن إلى الالتزام بالشريعة، والاحتكام إلى الشرع الحنيف، والوفاء لوطنهم، واللجوء إلى الحوار وترك القتال الذي لا يؤدي إلا إلى الدمار والتشريد وزرع الفتن التي تقوض المجتمع وقوته.

توصيات المؤتمر

وفي ختام المؤتمر أصدر مجمع الفقه الإسلامي الدولي حزمة من التوصيات والقرارات المتعلقة بالقضايا التي تمت مناقشتها في ١٥ جلسة علمية على مدار ٤ أيام، وهي:

زيارة القدس

انتهى مجلس المجمع إلى أن الحكم الشرعي لزيارة القدس مندوب ومرغب فيه، لكن النقاش دار حول المصالح والمفاسد في ذلك.

ويرى المجمع أن تقدير هذه المصالح من هذه الزيارة يعود إلى المختصين من أولي الأمر والسياسة في بلاد المسلمين.

وقال المجمع إنه: «من الضروري تذكير جميع المسلمين بأن قضية القدس الشريف قضية الأمة بأجمعها، وأنه من الواجب نصرتها وتأييد أهلها وأهل فلسطين ودعمهم».

الشورى والديموقراطية

يوصي مجلس المجمع بشأن موضوع الشورى والديموقراطية من منظور إسلامي بما يلي:

١- ضرورة الاهتمام بنشر ثقافة الشورى في الإسلام، تأصيلا وتطبيقا، عبر المحاضرات والندوات ومناهج التربية والتعليم ووسائل الإعلام والاتصال المعاصرة.

٢- أن يهتم أهل الاختصاص بالبحث عن صيغ وتطبيقات جديدة مستمدة من مبدأ الشورى، مع مراعاة الضوابط الشرعية في ذلك.

جهاد الطلب وجهاد الدفع

أوصى المجمع بشأن موضوع جهاد الطلب وجهاد الدفع بما يلي:

١- تفعيل إنشاء محكمة العدل الإسلامية لفض النزاعات بين الدول والمجتمعات المسلمة وتعزيزها بقوة مشتركة تشكل من مختلف بلدان العالم الإسلامي.

٢- التأكيد على تفعيل قرار المجمع في دورته السادسة، وقرار رقم ٦٨ (٧/٦) المتضمن إعداد مشروع لائحة الحقوق الدولية في الإسلام، وقراره رقم ١٢٩(١٤/٣) المتضمن التوصية بإعداد مدونة إسلامية في القانون الدولي الإنساني.

٣- تكليف لجنة من العلماء والمختصين لإعداد مناهج ومقررات دراسية، تهدف إلى بيان حقائق الإسلام في مجال العلاقات الدولية في السلم والحرب، وتراعي المستجدات، وتتمسك بالثوابت والأصول.

تكفير المسلم

أوصى مجمع الفقه الإسلامي الدولي بما يلي:

١ - يوصي المجمع شباب الأمة ويحذرهم من ادعاءات أصحاب الفكر المنحرف وأهل الغلو، ويوجههم للعلم الصحيح النافع وفق منهج وسطي، ويقتدى بما جاء عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.

٢- يوصي علماء الأمة ودعاتها بالتواصل مع الشباب، والقيام بمسؤولية الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق المنهج الوسطي.

٣- يوصي الحكومات والدول بتوفير الوسائل وتذليل العقبات للتواصل مع الشباب وتوجيههم الوجهة الصحيحة من قبل علماء الأمة وقادة الفكر والرأي فيها.

٤- يوصي بالإفادة من التجارب الناجحة في بعض الدول في محاورة أصحاب الفكر الضال، ومن ذلك تجربة «المناصحة» في المملكة العربية السعودية.

وأوصى المجمع نفسه بضرورة استكمال تنفيذ التوصيات السابقة بعقد ندوات لبحث الموضوعات الآتية:

أ - مسألة الولاء والبراء.

ب - حديث الفرقة الناجية وما بني عليه من نتائج.

ج - التكفير لعدم التطبيق الشامل لأحكام الشريعة الإسلامية.

المرأة والولايات العامة

قرر المجمع بشأن موضوع المرأة والولايات العامة ما يلي:

أولا - يؤكد المجمع على أن الإسلام قد كفل للمرأة حقوقها كاملة، وأنزلها المنزلة اللائقة بها، مراعيا مكانتها الاجتماعية وفطرتها، ومهمتها، أما وبنتا وزوجة ومسؤولة.

ثانيا - يرى المجمع رأي جمهور الفقهاء في أن المرأة لا تتولى الولاية العظمى (رئاسة الدولة).

ثالثا - إن رئاسة المرأة للولايات العامة، مثل القضاء والوزارة ونحوهما، فيها خلاف بين فقهاء المذاهب، وهو خلاف معتبر. ولفقهاء كل بلد ترجيح ما يرونه من أقوال الفقهاء.

رابعا - حال تولي المرأة ولاية مما سبق يجب عليها الالتزام بالضوابط والآداب التي حددتها الشريعة الإسلامية، وعلى الخصوص في أحكام اللباس وغيره، وألا تخل مشاركتها في تلك الولايات أو الوظائف العامة بوظيفتها الأساسية التربوية تجاه أسرتها.

حقوق المعاقين

أوصى المجمع بشأن موضوع حقوق المعاقين في الفقه الإسلامي بما يأتي:



١- العمل على توعية الأسرة والمجتمع بحقوق المعاقين بكل الوسائل الممكنة، من خلال البرامج الإعلامية والتعليمية والثقافية والاجتماعية.

٢- دعم الجهات والمؤسسات الحكومية والأهلية المعنية بشؤون المعاقين، وتعزيز البيئات المساندة لتلك الجهات.

٣- عقد المؤتمرات والندوات وورش العمل المتعلقة بشؤون الإعاقة.

٤- إنشاء مراكز دراسات وبحوث تعنى بشؤون الإعاقة، والاستفادة منها من خلال البرامج الموجهة نحو المعاقين.

٥- توسيع نوافذ التواصل المتبادل بين المجتمع والمعاقين، وإقامة الجمعيات التي تعنى بحقوقهم وتتبنى قضاياهم على المستوى المحلي والدولي ودعمها.

٦- يؤكد المجمع على ضرورة القيام بكل ما يؤدي إلى الحد من أسباب الإعاقة، ويشمل ذلك الفحص الطبي قبل الزواج والتطعيم ضد شلل الأطفال وغيره.

٧- التأكيد على المواثيق الدولية الخاصة بحقوق المعوقين فيما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية.

ضمان البنك

وحول ضمان البنك للمخاطر الناشئة عن سوء استثمار أموال العملاء وتعويضهم عن الأضرار الناجمة، يوصي المجمع بالآتي:

١- حرص البنوك الإسلامية على بذل العناية في استثمار أموال المودعين واتباع كل الأساليب والآليات لحماية أموالهم، ودرء المخاطر عنها، وإنشاء الصناديق وتكوين الاحتياطيات والمخصصات اللازمة لذلك.

٢- دعوة الدول الإسلامية إلى إصدار قوانين تعنى بإنشاء مؤسسات لضمان أموال المودعين، أو إجراء تعديلات على القوانين الجارية على أساس التأمين التكافلي تشترك فيها المؤسسات المالية الإسلامية، وتدار هذه الصناديق وفق ما تناوله مجمع الفقه الإسلامي الدولي في قراره رقم ٢٠٠ (٢١/٦) بشأن الأحكام والضوابط الشرعية لأسس التأمين التعاوني.

التأمين التعاوني

يرى المجمع ضرورة عدم اللجوء إلى جعل العوض نسبة من الفائض، أو جعل نسبة من الفائض حافزا لجهة المدير، مشيرا إلى أن ذلك يثير مشكلات فقهية أو تطبيقية.

وقرر المجمع جواز إنشاء صناديق وقفية تكافلية، تقوم بتغطية بعض الأخطار من ريع ما يوقف فيها من أموال، ويجوز اقتطاع جزء من الفائض التأميني ليكون وقفا نقديا، ويجوز لشركات التأمين الإسلامية إنشاء صندوق وقفي بمساهمات نقدية تقتطع من الفوائض التأمينية ليستخدم ريعه في حالات العجز أو التعثر لهذه الشركات المشاركة في الصندوق.

وانتقد المجمع غياب هيئات الرقابة الشرعية في بعض شركات التأمين التكافلي.

وأوصى المجمع بشأن استكمال بحث قضايا التأمين التعاوني ودراستها بما يلي:

أولا - العمل على نشر ما ورد في قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي رقم (٢٠٠/٦/٢١)، وقراره في

هذه الدورة، اللذين يشكلان مرجعية شاملة للمبادئ والأسس التي تحكم أعمال التأمين التعاوني من الناحية الشرعية على نطاق واسع، وترجمته إلى العديد من اللغات، ويدخل في ذلك توزيعه على شركات التأمين التعاوني العاملة وهيئاتها الشرعية.

ثانيا – التوصية للهيئات التشريعية العاملة في مجال التأمين التعاوني في الدول العربية والإسلامية، بتضمين ما ورد في قراري مجلس المجمع سالفي الذكر، في تشريعاتها، والإحالة إلى المجمع باعتباره مرجعا شرعيا معتمدا.

ثالثا – التوصية بتضمين التشريعات المنظمة للتأمين التعاوني النص على منح وعاء التأمين (صندوق حملة الوثائق ... حساب التأمين المستقل عن حسابات الشركة) شخصية حكمية تضم جميع المشتركين في حسابات التأمين التعاوني، مع ملاحظة ما ورد بهذا الخصوص في قرار المجمع رقم (٢١/٦/٢٠٠)، بحيث تنص تلك التشريعات على من يمثل هذه الشخصية على نحو لا يؤدي إلى تضارب المصالح.

رابعا – إصدار معايير لحوكمة مؤسسات وشركات التأمين الإسلامية بما يحقق أهداف ومقاصد قرار المجمع رقم (٢١/٦/٢٠٠)، وهذا القرار يحفظ حقوق الأطراف ذات العلاقة، خصوصا ما يتصل بالعلاقة بين الجهة المديرة وصندوق التأمين، بما يضمن درء تضارب المصالح، ويحقق العدالة للطرفين.

كما أوصى المجمع بشأن «استخدامات مياه الصرف الصحي المعالجة» بما يلي:

١- العمل على معالجة مياه الصرف الصحي، حتى ولو لم يتم استخدامها، واجب شرعي، درءا لمفاسد وأضرار تراكمها على الإنسان والبيئة، وإن ذلك واجب دون النظر إلى الفوائد الاقتصادية التي تعود من معالجتها، حتى ولو تم صرفها في البحار أو الأودية بعد المعالجة. لقاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٢- التوعية بالترشيد في استخدام المياه، في جميع الأغراض، المنزلية والخدمية والزراعية، لحث الشرع الحكيم على ذلك.

٣- متابعة البحث العلمي عن أنسب الطرق لمعالجة مياه الصرف الصحي، وأقلها تكلفة، واستهلاكا للطاقة، درءا لما قد يحدث من أضرار جراء ذلك.

٤- استمرار التجارب والأبحاث العلمية التي تضمن صلاحية الماء المعالج للاستخدام في الأوجه الجائزة.

٥- الرقابة المشددة على الأجهزة والقائمين على معالجة مياه الصرف.

٦- التأكد المستمر من سلامة المحاصيل والأغذية التي يتم ريها بالمياه المعالجة.

٧- التعريف بالمنتجات المعتمدة على الري بالمياه المعالجة، حتى يكون المشتري على معرفة بها.

٨- الاستفادة من المخلفات الموجودة في مياه الصرف الصحي في إنتاج الطاقة، وللحد من التلوث البيئي.

وعن حكم الأعلاف المشتملة على مكونات محرمة، قرر المجمع عدم جواز استخدام الأعلاف المشتملة على مخلفات الميتة والدم والخنزير والهرمونات والمضادات الحيوية، باعتبارها مواد تسبب أضرارا بالغة على صحة الإنسان. ويوصي المجمع الدول الإسلامية بضرورة التحري، عند طلب الأعلاف من الدول الأجنبية، من عدم اشتمالها على المواد المذكورة سابقا.

وقد أكد وزير العدل وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يعقوب الصانع، في كلمة نيابة عن أمير الكويت الشيخ صباح الأحمد، أن للشريعة الإسلامية دورا مهما في إيجاد الحلول للمشكلات التي تعاني منها المجتمعات المعاصرة، ودور الفقه الإسلامي بمرونته وسعته في بيان أحكام المسائل المستحدثة، والنوازل المستجدة، وتقديم الأجوبة الشافية لها، مشيرا إلى أن هذا المؤتمر جاء ليبحث العديد من الموضوعات الحساسة والمهمة، التي تحتاج الأمة إلى معرفة حكم الشرع فيها، ورأي فقهاء الشريعة وعلماء الدين حيالها، والتي لا ينبغي لآحاد العلماء – فضلا عن آحاد الناس – أن ينفرد برأي فيها، بل تحتاج إلى مجمع فقهي، يجمع علماء الأمة من مختلف دول العالم الإسلامي؛ لأنها من الموضوعات الكبيرة، والمسائل الخطيرة، التي يجب أن ترد إلى مجامع الفقهاء ومؤسسات الإفتاء.

من جانبه، قال أمين مجمع الفقه الإسلامي الدولي د. أحمد بابكر، إن مجمع الفقه الإسلامي هو المرجعية الفقهية للمسلمين في أقطار الأرض كلها، ولهذا فهو يسعى إلى تحقيق الآمال الكبيرة المعقودة عليه منذ إنشائه، والغايات التي من أجلها أنشئ، وهي تكتسب أهمية قصوى في كل يوم، وذلك بكثرة المستجدات وتعاظم التحديات، فالتقدم في العلم والصناعة والإعلام، والتجدد في الحياة السياسية والعلاقات الدولية، أنتجا واقعا معقدا، تغيرت فيه التصورات والمفاهيم للحياة وللأنظمة وللأحكام وللمعاملات.

إشادة

قدم المشاركون من العلماء والفقهاء في مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ورئيس المجمع الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، برقية شكر لأمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد، لرعايته الكريمة للدورة الثانية والعشرين. وأشادوا بحصول سموه على لقب «قائد الإنسانية» من الأمم المتحدة.

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «ألكسو» د. عبدالله محارب:

التعليم الرديء أخرج أجيالا لا علاقة لها بالإسلام

القاهرة - إسلام لطفي
تصوير: رمضان إبراهيم - دار الإعلام العربية

كشف الدكتور عبدالله محارب، المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «ألكسو»، أن كثيرا من مشكلات العالمين العربي والإسلامي في السنوات الأخيرة سببها اعتماد نظم تعليم رديئة؛ أسهمت في تخريج أجيال لا تعرف شيئا عن دينها أو حتى عن مضمون دراستها، مشيرا إلى أن تراجع الاهتمام بقضايا الثقافة والتربية كان من أسباب هذا الخلل، مشيرا إلى أن منظمته بدأت في تبني خطط مدروسة لإصلاح هذا الخلل، والمبادرة بعرض خدماتها على مختلف الدول العربية.
كما تطرق في حديثه مع «الوعي الإسلامي» إلى العديد من القضايا، مثل أهمية المخطوطات وتحقيق النصوص ودور الشباب والإعلام الإسلامي... فإلى التفاصيل:

• توليتم مسؤولية المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «ألكسو» قبل نحو عامين، فهل تضعنا في طبيعة عملها والدور الذي تقوم به؟

- المنظمة أنشئت تحت مظلة جامعة الدول العربية عام ١٩٧٠م، لتقوم على ٣ ركائز، هي: معهد المخطوطات؛ البحوث والدراسات العربية، والإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية. ومن حيث الأداء، تعتبر منظمة «ألكسو» موازية لمنظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة، وهي من الناحية الشكلية تابعة لجامعة الدول العربية، إلا أنها مستقلة إداريا وماليا بشكل كامل، وتضم في عضويتها جميع الدول العربية، ومدارسها التشريعية هي التي تمولها وتقر قراراتها الإدارية، علاوة على وجود لجان مراقبة. وجاء إنشاؤها بعد إقرار خطة الوحدة الثقافية للوطن العربي، واستمر العمل فيها لفترة في دولة الكويت على مستوى لجان مختلفة لتحقيق هذه الطموحات، كي تكون بيت خبرة، ومنسقة بين الدول العربية في الشؤون التي تساعد في التربية والتعليم والثقافة والبحث العلمي.



• وماذا عن الطموحات التي قامت من أجلها المنظمة وتلك التي تسعى إليها في الوقت الحالي؟

- الطموحات التي أسست من أجلها المنظمة أن تكون بيت خبرة تلجأ إليه كل الدول العربية عندما تحتاج إلى إقامة مشروعات أو تنفيذ أنشطة وصياغة بعض اتفاقيات ذات صلة، حول موضوع ثقافي معين أو بحث علمي أو استحداث وتطوير بعض المناهج التربوية.

والآن، نحاول أن نجعل المنظمة جهازا فاعلا يشارك الدول في تنفيذ المشروعات التي تمس المواطن العربي، لاسيما في الشأن الثقافي والتعليمي، حيث نلاحظ أن هناك تراجعا في

مستوى التعليم العام العربي، لدرجة أن من يتخرجون من الثانوية العامة يكاد الكثير منهم أن يكونوا أميين، لذا نحاول معالجة هذا الوضع المأساوي بإصلاح منظومة التعليم العام عن طريق إجراء دراسات وبحوث تحلل وتشخص وتعالج.. في البداية، تشخص الواقع في كل دولة، وما يحتاج إليه من تحسين وتعديل، بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم فيها، لتنفيذ البرامج المناسبة فيما يتعلق بتجديد التعليم. والمنظمة لا تنتظر لجوء الدول العربية إليها لحل مثل هذه المشكلات، بل تبادر بالتواصل مع كل الدول المعنية وتقترح عليها المشروعات التي تفيدها وتساعد في تنفيذها.

● ما أبرز المشروعات التي نفذتها المنظمة على أرض الواقع؟

– توليت مسؤولية المنظمة منذ عامين تقريبا، ومنذ تأسيسها عام ١٩٧٠م وحتى الثمانينيات أنجزت المنظمة كثيرا من المشروعات على أرض الواقع، منها: ترجمة العديد من الكتب المشهورة في تاريخ الأدب العربي، إضافة إلى معاجم عربية متداولة بين الناس، وكذلك دراسات عن بعض الدول العربية، أيضا شكلت إصدارات المنظمة في تلك الفترة زخما هائلا غطى القضايا الثقافية والإعلامية والتربوية، وقام عليها مجموعة من الأساتذة الكبار والمتخصصين. أيضا، كان لمعهد المخطوطات العديد من الإنجازات منذ إنشائه في عام ١٩٤٦م، سواء في المؤلفات أو مساعدة العديد من الباحثين في الحصول على نسخ كانت عزيزة لا يمكن التوصل إليها.

أيضا، معهد البحوث والدراسات العربية الموجود في مصر، كان له باع طويل في معالجة عديد من القضايا العربية، منها: غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠م، وإصدار كتاب «الكويت وجودا وحدودا»، حيث أجرى فيه مجموعة من الباحثين والمستشارين مزيدا من البحوث حول مكانة الكويت التاريخية والجغرافية، وحقيقة عدم تبعيتها إلى العراق، وغير ذلك من الحجج، وصدر الكتاب في عام ١٩٩١م، وغيره العديد من البحوث، علاوة على جهود كبيرة يقوم بها معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ومقره الخرطوم، حيث تأتي إليه أفواج من الدول الأجنبية، سواء الإفريقية أو الآسيوية، وله دور رائع في نشر العربية بشكل عام، إضافة إلى معهد تنسيق التعريب في الرباط، الذي أصدر عددا هائلا من المعاجم تعنى بتعريب المصطلحات العلمية، خاصة المرتبطة بالتصنيع وغيرها.

أزمات الأمة العربية أدت إلى تراجع الاهتمام بقضايا الثقافة والتربية

وكذلك هناك مركز لترجمة الأعمال الفكرية والعلمية، وسبق أن فاز بجائزة الملك عبدالله للترجمة، في عامين متتاليين، بسبب رقي الدور الذي يقوم به.

● وماذا عن الخطط المستقبلية والدور المتوقع من المنظمة لاسيما في ظل العقبات التي قد تعترضها؟

– هناك خطة خمسية تنتهي في عام ٢٠١٦م، وتبدأ الخطة الجديدة في ٢٠١٧م وتنتهي في عام ٢٠٢٢م، وجرت العادة أن تصاغ الخطة داخل المنظمة، لكن نظرا لتوجهنا الجديد لاستحداث دورها، استعنا بدار خبرة سعودية، لها تجارب في وضع الاستراتيجيات لوضع خطة للمنظمة تستهدف تنفيذ مجموعة من المشروعات خلال خمسة أعوام، بالتعاون مع إدارات المنظمة المختلفة: الثقافة والعلوم والتربية وإدارة الاتصال والمعلومات. ستقوم هذه الخطة على أسس مرنة لتكون هناك برامج تتصل بالمواطن العربي على أرض الواقع وليست قضايا إنشائية فقط أو شعارات عامة أو قضايا يمكن أن يلوكها اللسان دون أن تجد لها صدى على أرض الواقع، وأن تكون هناك مشروعات ذات مراحل محددة تخدم قضايا التربية بتكلفة مالية ومدة زمنية محددة للتنفيذ.

● وهل من عقبات تتعرض لها المنظمة في الوقت الحالي؟

– هناك عقبات كثيرة جدا، أولها: أن الأمة العربية تمر بمرحلة مخاض على المستوى السياسي والثقافي، ما أدى إلى تأخر الاهتمام بالأولويات التي تعتبرها المنظمة في المراحل المتقدمة (مثل الثقافة والتربية). والقضية الأخرى التي تتعرض لها الأمة في الوقت الحالي هي الأفكار البعيدة عن الإسلام، وتتمسح وتتلبس لباس الدين، وهذه نتاج التعليم الرديء منذ أكثر من ٣٠ عاما، ذلك التعليم الذي أخرج أجيالا من الشباب عقولهم فارغة، وليست لها علاقة بالإسلام.

أضف إلى ذلك: عدم الاهتمام بالتعليم الديني، فأصبح مهمشا داخل المدارس، ولا يعرف الطلاب حقيقة الدين، وبذلك تخرجت أجيال في جميع التخصصات تفتقر إلى المعرفة الدينية. ولذلك، عندما يصادفون أشباه المفتين الذين يفتون بأشياء بعيدة عن الإسلام يقتنعون بها بسهولة، لأن لديهم فقرا في الثقافة الدينية.

ومن الأشياء التي نواجهها بصورة مباشرة هي عدم اهتمام بعض القيادات العربية بمشروعات التربية والثقافة في بلادهم، فتجدهم يقدمون الاستثمار والاقتصاد في خططهم على التعليم، بينما يجب الاهتمام أولا بالأمن والصحة والتعليم في مرحلة واحدة، ويجب أن تصرف عليها الكثير من الأموال لتنفيذ المشروعات الخاصة بها.

والآن، بعض الدول تنبهت لهذا الأمر، فمثلا في المملكة العربية السعودية بدأوا يعالجون هذا الوضع فأنشأوا جهازا تابعا للديوان الملكي مباشرة،

يراقب التعليم وأجهزته ويعمل على تقييمها واقتراح البرامج التي تقوم بتطوير المناهج والكتب والنشرات وإعداد المدرس، وعلاقته بالطالب وأسرته، وهم في طريقهم لتعديل وتحسين مناهج التعليم.

• تطرقت في حديثك إلى فقر المعرفة الدينية، كيف تعالج المنظمة هذا الأمر؟

– للوصول إلى التعليم الصحيح لأساسيات الدين، وتخليص المناهج الدينية من الأشياء التي يمكن أن تنفر الطالب، يجب أن تركز مناهج الدين على الرحمة وكل ما يجعل الطالب يقبل على التعلم بآفاقه الرحبة. ففي الدولة الإسلامية القديمة، عندما دخلت الجيوش العربية العراق، كانت هناك يهود ونصارى وفئات أخرى، لم يجبرهم المسلمون على دخول الإسلام، بل على العكس تعاملوا معهم بأريحية، وأصبح منهم وزراء، وكانوا يجتمعون معا ويتناقشون ويتزاورون. هذه الحياة التي كانت موجودة في ذلك العصر، كانت أقرب إلى الخلافة الراشدة، ولم يقوموا بقتل أهل الديانات الأخرى، فيجب أن نعيد إلى الطفل الصغير قضية قبول الآخر، وأن يعامله كإنسان، ويجب أن تتم صياغة حقيقية لقضية التعليم الديني في المدارس الابتدائية والمتوسطة.

• عرف عن دولة الكويت حرصها الدائم على تدعيم الأعمال ذات الطبيعة الإنسانية والثقافية، فماذا عن طبيعة مشاركتها في خطط وبرامج المنظمة؟

– كل دولة في المنظمة تدفع قدر ما تأخذه منها جامعة الدول العربية، والكويت والسعودية من أكثر الدول الملتزمة في دفع ميزانية المنظمة، بواقع مليون و٢٥٠ ألف دولار لكل منهما، أما باقي الدول فتدفع أقل من المليون دولار، حسب مستوى الدولة. كما تستضيف الكويت كثيرا من أنشطة المنظمة وتنفق عليها، كان آخرها

الكويت أكثر دعما لأنشطة المنظمة..

مؤتمر عن الصومال احتضنته الكويت وأنفقت عليه بسخاء.

• بوصفك من المهتمين بالتراث وعلم تحقيق النصوص، إلى أي مدى يجد هذا العلم اهتماما من الأجيال الجديدة في العالمين العربي والإسلامي؟

– الحقيقة أن هناك اهتماما من الشباب بهذا العلم، لكن يحتاجون إلى توجيه، لأنه ليس علما يمكن أن يساهم فيه أي شخص، بل يجب على الشخص أن يتدرب عليه ويعرف أصوله وقواعده الخاصة به، وهو علم مشوق لاكتشافنا من خلال دراسة المخطوط أشياء كثيرة جدا، تائهة عن الأذهان، فهؤلاء كانوا ينقلون قبل ألف عام في: كيف يفكرون وينظرون إلى الأشياء وتسيير أمور مجتمعهم ودينهم ودنياهم، وهؤلاء الذين كتبوا المخطوطات بعقول ليست تخصصية في تخصص بعينه، بل كانت عقولهم موسوعية تتحدث في كل الفنون والعلوم، ونجد من يتحدث في الحديث يناقش في الرياضيات كأنه متخصص فيها. وقضية الغرفة المظلمة التي هي أساس الصورة الآن اكتشفها العرب منذ القدم، هذه القضية عرفناها من خلال المخطوطات. فحتى نقرأ المخطوط، يجب أن تكون عقولنا موسوعية، ونبحث في كثير من العلوم، ومثلا: من يناقش قضية الطيران يبحث في علومها والأحياء والبيولوجيا، والذي يحقق يجب أن تكون عقليته قريبة من عقلية المؤلف، والتحقيق هو أن يخرج المحقق الكتاب كما ألفه صاحبه، ويضع الهوامش التي توضح الأفكار الموجودة، فقد تكون غامضة فيشرحها.

فهناك إقبال، لكن يحتاج إلى عناية على المستوى الرسمي. ومع الأسف، المنهج الأميركي قديما لم يكن يعترف بالتحقيق، لأنهم لم يكونوا يعرفون أهمية الأمر، والآن بدأوا يدركون ذلك. ونحن في جامعاتنا اتبعنا المنهج الأميركي ولم نغيره. وحاليا، الكثير من الجامعات العربية لا تعتد بالتحقيق كبحث أكاديمي، وتطلب من الباحث أن يختار موضوعا آخر، وبالتالي يجب على الجامعات أن تعيد النظر إلى التحقيق بنظرة عادلة تستوعب دوره وأهميته الحقيقية.

• وما أبرز الدول التي لها إسهامات في هذا الشأن؟

– مصر من أوائل الدول التي لها إسهامات على المستوى العربي في هذا الأمر، وكثير من المستشرقين الذين كتبوا في مجال التحقيق تعلموا في الجامعات المصرية، ثم بدأت تتعلم منهم أجيال خرجت بعد ذلك إلى لبنان وسوريا والمملكة العربية السعودية.

• وهل نحن بحاجة إلى مؤسسات علمية تعنى بدراسة التراث والعمل على حفظه وإعادة تحقيقه بأسلوب يتناسب مع طبيعة العصر وكذلك الاستفادة من التقنية؟

– الاهتمام بالمخطوط تطور منذ فترة، والقضية أصبحت دراسة وتدريبا على المعرفة وطريقة الوقفيات والإنجازات العلمية، ونجد المؤلف له ملاحظات خاصة بأسرته داخل المخطوط، ومعهد المخطوطات الآن اتجه إلى التدريب وأصبح يرسل بعثات إلى كثير من الدول العربية وغير العربية لتدريب المهتمين بقضية المخطوط، علاوة على وجود أجهزة خاصة بترميم المخطوطات.

• كيف ترى الأزمات التي يتعرض لها التراث العربي والإسلامي خاصة في السنوات الأخيرة؟

– هناك كلمة مشهورة تقول: «من جهل شيئا عاداه»، فبدلا من أن يبحث عن طبيعة الشيء يعاديه، فهناك كثيرون ممن جهلوا المخطوط وأهميته، بدأوا المناداة بإلغاء هذا التراث والتخلص منه. نحن ندعو إلى تخليص التراث من


د. محارب مع مندوب الوعي الإسلامي

أشياء قد تكون غير مناسبة للعصر، لكن لا نقبل الدعوات الشاذة بهدمه، وهذه القضية من أبرز الصعوبات التي نواجهها، كما الدعوة إلى العلمانية من قبل المتطرفين، وقطع كل صلة بالقديم، ولا نستطيع أن نعدهم معبرين عن الأمة ومصالحها، لكننا نراهن على زيادة الوعي في المستقبل، خاصة مع حرص الشباب على علم المخطوط.

• تقوم الصحافة الإسلامية بدور محوري في تنوير المسلم لاسيما في ظل تعرضه لغزو فكري وإعلامي مكثف، فهل ترى أن الإعلام الإسلامي مثل «الوعي الإسلامي» نجح في مهمته؟

- الإعلام في المنطقة العربية، سواء الإسلامي أو العام، ليست له مبادئ وخطة واضحة، لذلك فهو يتخبط، ونجده يحسن في بعض الأمور ويتخبط في أخرى. والإعلام يختلف باختلاف توجهات الدولة، عندما تكون القيادة متسامحة يطلق العنان، وعندما تتزمت الدولة يتزمت الإعلام. و«الوعي الإسلامي» تلعب دورا مهما، ربما لا ننتبه له كثيرا في الدول العربية، بينما نجدها في الدول الإسلامية غير الناطقة باللغة العربية تحظى بقبول واسع وحرص كبير على متابعتها ومعرفة الثقافة الإسلامية من خلالها، لاسيما مع حرص القائمين على المجلة في الفترة الأخيرة على تطوير مستواها الطباعي والإخراجي، وأتمنى أن تستمر بنفس الحماس في رسالتها.

• وما الذي ينقص الإعلام ليكون أكثر فعالية وتأثيرا؟

- أن يكون أكثر اتصالا بالإنسان المسلم، والقضية الآن في القراءة، حيث لم تعد شيئا رئيسا في وعي الشعوب، وأصبح لدينا «جوجل» هو الذي نرجع إليه في الأمور كافة، وعندما يريد الشخص أن يعرف أي قضية يلجأ إليه، وحوامل المعرفة لم تعد هي المجلة أو الكتاب فقط، بل أصبحت وسائل أخرى جديدة جدا تحتاج إلى أن تواكبها. وفي رأيي، فإن «الوعي الإسلامي» وغيرها من المجلات الإسلامية يجب أن ترقى في أدائها لتستكمل هذه الأدوات لمخاطبة النشء، لذلك نحن الآن أدركنا أن هناك فجوة بين الأجيال، وحاليا كثير من الشباب يهتمون بالدخول على تطبيقات قد تكون غير تربوية وغير هادفة، فأنشأنا «ألكسو Apps»، ونظمنا مؤتمرات في تونس ومصر والسعودية وقطر، ندعو فيها الشباب إلى الاشتراك في مسابقات، تستقبل ما يخترعونه ويرسلونه إلى لجنة في كل دولة خاصة بالمنظمة لتقييم التطبيقات واختيار ٤ أو ٥ مشاركين، نمنحهم جوائز تصل إلى ٥٠ ألف دولار، ثم توضع هذه التطبيقات على هذه المنصة، فمن هنا، ارتقينا في طريقة مخاطبة الجيل، وأصبحنا نخاطبه بما يفهم، وأدعو المؤسسات الإعلامية إلى أن تدخل في هذا الميدان، ومخاطبة هذا الجيل بالوسيلة الإلكترونية، فالآن كل شاب معه قرين، وهو الهاتف المحمول.

• شهدت مؤخرا الاحتفال بيوم المخطوط العربي، فما القيمة التي تحملها الاحتفالية للمخطوط؟

- الاحتفال يلفت نظر الناس إلى أهمية المخطوطات، هذه الاحتفالية لم تكن موجودة قديما، وأنا الذي اقترحتها كوني من المتخصصين في هذا المجال، ولذلك اقترحت منذ العام ٢٠١٣م أن يكون للمخطوط يوم سنوي، هو الرابع من أبريل من كل عام، لأنه يوافق يوم إنشاء معهد المخطوطات. كل دول العالم تقريبا حريصة على اقتناء هذه المخطوطات. وكان من بين خطط الدول الاستعمارية قديما أن تحصل على هذه المخطوطات لما لها من قيمة أثرية، ثم لما لها من دلالات يمكن استخراجها من حالة العصر في وقتها، وما فيها من علوم كثيرة، لأن المخطوطات كانت هي الوسيلة التي انتقلت بها العلوم العربية إلى أوروبا، ونحن في بلادنا مع الأسف فرطنا في كثير من المخطوطات.

وهذا المخطوط الذي نجد له فهارس كثيرة، سواء في دار الكتب المصرية أو في تركيا وأوروبا، لا يمثل إلا ١٥ أو٢٠٪ من عدد المخطوطات الموجودة في العالم، فلم يستطع أحد حصرها.

وأول خطوة يجب أن نفعلها هي العمل على حصر هذه المخطوطات وكتابة عناوينها وتخصيص فهارس خاصة بها، وتخرج بعثات لكل دولة قد تستمر شهرا أو شهرين، وتزور جنبات الدولة وتستكشف المكتبات الخاصة، حتى نجد أنه لدى بعض الأسر مخطوطات، وهناك مخطوطات كثيرة في إيران والهند وغيرها من الدول.

ثم تشجيع النشء والشباب على الاهتمام بهذا التراث، حيث إنه يرسخ في نفوسهم الانتماء ويعرفهم كيف كان أصحاب المخطوطات علماء ومحبين للبحث العلمي والدراسة ولا يسعون وراء شهادات ولا مناصب، عكس ما هو قائم في الوقت الحالي.

بذور الخير.. في أمة محمد ﷺ

مياسة النخلاني
كاتبة يمنية

الحقيقة التي لا يمكن نكرانها أننا مللنا من البرامج التلفزيونية والمقالات والأحاديث التي تحاول أن تثبت وبالأدلة الدامغة أن الأمة العربية الإسلامية فقدت وبشكل مخيف مكانتها التي كانت، سيما بعد أن تجردت من الأخلاق المحمدية التي أتى عليه أفضل الصلاة والسلام ليربينا عليها.

الأغلب إن لم يكن الجميع يندد بما آل إليه حالنا، ويحاول أن يثبت أن الغرب أفضل وأنزه وأكثر خلقا منا، وأصبحت مهمة البرامج التي تبثها الفضائيات ويتابعها الملايين ترسخ في عقولنا بأننا أتباع محمد ﷺ ما عاد فينا خير، وأن أخلاقنا أصبحت في الحضيض!

لا يمكن الادعاء بأنهم كاذبون، لكن كل ما يفعلونه أنهم يسلطون الضوء على جانب واحد من جوانب تلك المجتمعات، متعمدين إخفاء الوجه البشع للمجتمع الغربي، بينما يكاد يكون الجانب الإنساني لديهم معدوما وتضعف نسبته يوما بعد يوم، ومازال بعض متحدثينا وكتبتنا مصرين على أن يشعرونا بالفارق المهول بيننا وبينهم، وكأننا أصبحنا عشرين نقطة على الشمال، ولا يمكن أن نحقق أو أن نكون رقما إيجابيا في هذه الحياة.

لأمثال هؤلاء أقول: بعض الإنصاف يرحمكم الله.. فرغم حالات اليأس والإحباط ورغم كل ما يقال بأن أمتنا العربية والإسلامية أصبحت تفتقد أخلاقيات الإسلام، وتحولت إلى إمعة تتبع الغرب؛ حتى إن قادنا إلى جحر ضب، لكن من منا لا تصادفه مواقف ومشاهدات يومية تؤكد له أن أمة محمد ﷺ مازالت تنبض بالحياة على الرغم من كثرة الأمراض التي تهاجمها، فلاتزال الأمة المحمدية، ولو بنسب متفاوتة هي أمة الأخلاق الكريمة والطيبة الفطرية والشهامة والرحمة، ولو بنسبة ١٪، هذه النسبة من شأنها أن تكبر وتتضاعف إن عدنا إلى تعاليم ديننا الحنيف، دين الأخلاق والمعاملة الحسنة، وكما قال الحبيب المصطفى ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ما دعاني لأكتب هذه الكلمات هو رغبة حقيقية للتغريد خارج السرب ولو قليلا، خاصة بعد أن حدث لي موقف قبل أيام، فبينما كنت أغادر أحد المراكز التجارية، استرعى انتباهي لافتة معلقة على الواجهة الزجاجية مكتوب عليها «من فقد كيسا به مصوغات ذهبية فعليه الاتصال على الأرقام التالية...»، حينها شعرت بالفخر أن يكون بيننا أمثال هؤلاء المتصفين بالأمانة، من يراعون الله تعالى في ما يقع بأيديهم، ولا يزحزحهم عوزهم ورقة حالهم عن أمانتهم، وهذه ليست المرة الأولى التي أصادف فيها مثل هذه الإعلانات، فبين الحين والآخر تقع عيناي على ورقة معلقة على جدار محل أو زجاج وسائل المواصلات العامة، يعلن أصحابها عن عثورهم على مستندات، مال، مصوغات، ويطالبون أصحابها بالاتصال بهم، وأحيانا صور أطفال ضائعين عن ذويهم، ويحاول هؤلاء إعادتهم بكل ما يملكون من قدرة.. قد تكون نسبة هؤلاء قليلة لكنهم موجودون، وأحيانا كثيرة يكونون من أصحاب الدخل المحدود، وربما المعدوم، لكن رصيدهم من الأخلاق والأمانة وعفة النفس عالية جدا، حينها شعرت أن أمتنا رغم ما وصلت إليه الآن لاتزال بذور الخير مغروسة فيها.

تعزز لدي هذا الاقتناع بعد أن شاهدت قبل فترة وجيزة مقطع فيديو انتشر على موقع اليوتيوب أجرى من خلاله بعضهم تجربة بسيطة في مجتمع غربي، في مواقع متحشدة بالمارة، وقاموا بتكرار مشهدين تمثيليين في أوقات متفرقة، في المشهد الأول يتحرش أحدهم بفتاة كاشفة الرأس فيمضي الناس من أمامهم دون أن يتحرك أحد لنصرة الفتاة.. الموقف نفسه تكرر في مشهد آخر، لكن الفتاة هذه المرة لبست ثيابا محتشمة وغطت رأسها بوشاح، ففي كل مرة يتحرش بها الرجل يهب ناحيتها شبان يبدو أنهم مسلمون يدافعون عنها ويوقفون المعتدي عند حده، وهذه هي النخوة

والشهامة التي ليست من صفات أحد إلا أتباع النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، بغض النظر عن جنسياتهم وعن المجتمعات التي أتوا منها.
لذا ومن منطلق النظر ناحية الجزء الممتلئ من الكوب، ولنترك جانبا ولو لبعض الوقت ذلك الجزء الفارغ حتى وإن كان أكثر من النصف.. طرحت سؤالا بسيطا على البعض، أستطلع رأيهم: هل يتذكرون موقفا حدث لهم أو أمامهم شعروا من خلاله بأن هناك من لايزال محافظا على قيم الإسلام في حياته ومعاملاته.. فتحدث طه ياسين الخامري – طالب يمني في ألمانيا قائلا: عدت إلى اليمن في زيارة قصيرة، وخلال الأيام الأولى لزيارتي شعرت بألفة وبراحة نفسية عميقة، خاصة مع تلك الابتسامة التي أجدها في وجوه الناس، خاصة أني عدت للتو من مجتمع يكاد يكون جامد الملامح والتفاصيل، بالتأكيد حدثت مواقف كثيرة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، أني في أحد الأيام قدت السيارة عائدا مع عائلتي من زيارة بعض الأقارب، وفجأة توقفت السيارة في منتصف الطريق لأني نسيت أن أملأها بالوقود، كان موقفا محرجا، خاصة أن الوقت ليلا ولازلت بعيدا جدا عن البيت، لكن لحسن الحظ وجدت سيارة أجرة تمر من جانبي فأوقفت السائق وطلبت منه أخذي إلى أقرب محطة وقود، فأخبرني أن أقرب محطة على مسافة نصف ساعة بالسيارة، وقد لا نجد فيها وقودا، وحينما ارتسمت علامات الانزعاج على وجهي ابتسم وهو يمسك بي من يدي ويصطحبني إلى حقيبة سيارته ويخرج منها جالون وقود إضافي يضعه للطوارئ، وكم كانت دهشتي حينما رفض أن يتقاضى ثمنه، مؤكدا أن نجدة المحتاج لا تباع بثمن!
أما ثناء مصطفى، مهندسة حاسوب فتقول: أتذكر موقفا حصل أمامي بالفعل، كان لدي صديقة مرت بظروف صعبة للغاية، وساءت نفسيتها جدا بعد وفاة شخص عزيز على قلبها، قذفها في أتون الحزن والألم والعزلة التامة عن المجتمع حولها، وفي محنتها وقف أحد جيرانها وزوجته معها، من خلال التخفيف عنها وأيضا عبر محاولة البحث عن عمل لتشغل نفسها به وتبتعد عن دائرة الحزن التي حبست نفسها داخلها، وحدث هذا بالفعل دون أن يخبراها أنهما من وفرا لها هذا العمل حفاظا على مشاعرها، ساعتها فقط شعرت أن الدنيا لاتزال بخير، وأن هناك أناسا لم تنزع الإنسانية من قلوبهم.

قلب حنون

بينما تسرد فتحية فهمي مربية في دار أيتام «تعز» أحد المواقف قائلة: أتت إحدى السيدات المتبرعات للدار ومعها صديقتها، فمرت ببعض اليتيمات وكان بينهن طفلة لا تتجاوز العامين من عمرها.. تبكي، سألتنا عنها فأخبرتها أنها أتت إلى الدار قبل أيام من «صعدة» بعد أن فقدت والديها، ولا يعلم لها أهل غيرهما، حضنت السيدة الطفلة وأخذت تهدهدها حتى سكتت، وتوسلتنا أن تتبناها وتأخذها إلى بيتها، لكن قوانين الدار لا تسمح بأخذ الأطفال خارج الدار، وتسمح فقط بالتبرع لهم، أغرقت الدموع وجه السيدة وهي تعيد لنا الطفلة، وتقول: ليس لدي إلا ما يكفيني وأطفالي، أعطوني إياها وسأربيها مع أطفالي وأعتني بها قدر ما أستطيع، لازلت أذكرها وهي تغادر الدار عاجزة عن كفكفة دموعها، ولولا قوانين الدار لأعطيتها الطفلة، فلا أظن أنها ستجد أما أكثر حنانا منها.

إحساس بالمسؤولية

واقعة أخرى تسردها نهى قاسم – موظفة قائلة: خرجت رفقة أختي إلى السوق وركبنا الباص، وبعد لحظات ركب رجل كبير في السن وهو يجبر طفلا صغيرا لا يتجاوز السابعة على الركوب، بدا عليه أنه رجل محترم، لكن طريقة تعامله مع الطفل وبكاء الطفل ورغبته الملحة بالنزول أثارت فينا الشك والريبة، بدأ يضرب الطفل ليسكت، فنهرته، سألته عن قرابته للطفل فقال إنه ابني، لم أصدقه فهو أكبر من أن يكون له ابن بهذا العمر، ونفور الولد منه لا يوحي بأنه والده حقا، حاولت استجواب الطفل لعلي أفهم ما يحدث أو أملك مسوغا لأنتزعه منه، لكنه لم يتفاعل معي أو يترك لي فرصة المساعدة، شعرت بالحيرة حينها وبكاء الطفل يتزايد، لحظات وتوقف السائق جانبا وهبط متجها ناحيتنا، ودون أن يسمح للرجل بالمقاومة انتزع منه الطفل وأركبه بجانبه، والغريب أن الطفل بمجرد أن أصبح بجانب السائق هدأ تماما وتوقف عن البكاء، وعند نزولنا طلبت منه ألا يعيد الطفل للعجوز، فقال لي: لا تقلقي لن أتركه، حينها دعوت الله أن يعيد الولد إلى أهله، وشكرت السائق من أعماق قلبي، حقيقة كان موقفا لن أنساه ما حييت.
وأخيرا لا أعتقد أن فينا من لم/ ولا يصادف من هذه المواقف التي تثبت لنا أن في هذه الأمة من لايزال يسير على خطى الحبيب محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، لايزال فينا الخير والصدق والأمانة والشهامة والرحمة.. ورغم كل شيء فإن البذرة التي غرسها فينا الصادق الأمين لاتزال تؤتي ثمارها ولو بنذر قليل، وتحتاج من يتعهدها بالرعاية لتورق وتَرِفَ وتؤتي ثمارها.



محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

الحياة في سبيل الله

من أعظم الناس أجرا عند الله الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم رخيصة في سبيل الله عزوجل، قال سبحانه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ (الحديد: ١٩).

وقد جعلهم الله في أعلى المنازل، وبشر الطائعين لله ورسوله بأنهم سوف يكونون معهم ورفقاء لهم، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء: ٦٩).

وإن كرامة الشهيد عند الله عظيمة، قال رسول الله ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة» (١).

هذا الشهيد الذي تحمل في سبيل الله تكسير العظام، وتقطيع اللحم، وفقد الأعضاء؛ لتكون كلمة الله هي العليا... ليكون دينه هو الغالب.... ليكون الحق ظاهرا على الباطل... ليحل العدل محل الظلم...

هذا الشهيد الذي لم يلتفت إلى عرض زائل من المغانم والسبايا، ولكنه بذل النفس والمال في سبيل الله.

ولكن هل «سبيل الله» مقصورة على الجهاد والشهادة فحسب؟

أظن أننا ضيقنا واسعا، حيث إنه إذا أطلقنا «سبيل الله» ذهبت الفهوم والأذهان إلى الجهاد والشهادة، ولكن المعنى أوسع بكثير، فهو رحب برحابة الدنيا، يسع كل الأعمال ما دامت خالصة لوجه الله تعالى.

فإنفاق المال قليله وكثيره ابتغاء وجه الله هو في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (التوبة: ٣٤).

وحبس النفس ووقفها لله هو من سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ



﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (البقرة: ٢٧٢-٢٧٣).

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: هم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله.

وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله.

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يعني: لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش والكسب، وهم أهل الصفة.

وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: هم قوم أصابتهم جراحات في الجهاد مع رسول الله ﷺ فصاروا زمنى، حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله» (٢).

والصيام لوجه الله هو في سبيل الله، قال ﷺ: «من صام يوما في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا» (٣).

وطلب العلم لإخراج النفس والناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم بنية خالصة لله هو في سبيل الله، فعن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» (٤).

والإنفاق على الأهل لسد حاجتهم، وحفظ ماء وجههم عن السؤال، هو في سبيل الله، فقد سأل أصحاب رسول الله ﷺ: ما أنفقنا على أهلينا؟

فقال: «ما أنفقتم على أهليكم في غير إسراف ولا تقتير فهو في سبيل الله» (٥).

وكذلك السعي للإنفاق على النفس والعيال والوالدين؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ تبوكا، فمر بنا شاب نشيط يسوق غنيمة له، فقلنا: لو كان شباب هذا ونشاطه في سبيل الله كان خيرا له منها، فانتهى قولنا حتى بلغ رسول الله ﷺ فقال: «ما قلتم؟» قلنا: كذا وكذا.

قال: «أما إنه إن كان يسعى على والديه أو أحدهما فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على عيال يكفيهم فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه فهو في سبيل الله عزوجل» (٦).

وقد كان القول الفصل من النبي ﷺ في توضيح معنى «سبيل الله»؛ فقد أخرج عبدالرزاق عن أيوب قال: أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رجل من قريش، من رأس تل، فقالوا: ما أجلد هذا الرجل! لو كان جلده في سبيل الله.

فقال النبي ﷺ: «أوليس في سبيل الله إلا من قتل؟»

ثم قال: «من خرج في الأرض يطلب حلالا يكف به أهله فهو في سبيل الله، ومن خرج يطلب حلالا يكف به نفسه فهو في سبيل الله، ومن خرج يطلب التكاثر فهو في سبيل الشيطان» (٧).

وقد فهم مجاهد ذلك عن رسول الله ﷺ فقال: ليس سبيل الله واحدا، كل خير عمله (٨) فهو في سبيل الله (٩).

إن الشهيد في سبيل الله لعل شهادته تكون راحة له من عناء الدنيا ونصبها وشقائها، ولكن طريق الجهاد طويلة.

فالصديق أبوبكر رضي الله عنه كان عونا لرسول الله ﷺ، وناله الأذى الشديد في ماله ونفسه وعرضه، ولم ينل الشهادة في سبيل الله، لكن حياته كلها كانت جهادا في سبيل الله.

وخالد بن الوليد الذي خاض كثيرا من المعارك، وأصيب فيها، مات على فراشه، فكانت حياته كلها في سبيل الله تعالى.

وعمرو بن العاص فاتح البلدان، والذي نحسب أن مسلمي مصر والشام من الفتح إلى قيام الساعة في ميزان حسناته، لم يمت في ميدان المعركة، ولكن معركته في الحياة كانت ممتدة حتى وافاه أجله على فراشه.

لذلك قال ربنا جل وعلا: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ (الأحزاب: ٢٣).

هوامش

(١) أخرجه البخاري.
(٢) تفسير الخازن، (٢٠٧/١)، وانظر: تفسير البغوي، (٣٣٧/١).
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه الترمذي.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلا.
(٦) أخرجه البيهقي.
(٧) أخرجه عبد الرزاق.
(٨) كان يتحدث عن رجل معين.
(٩) أخرجه ابن أبي شيبة.



رئيس التحرير يتوسط الحفني وبعض العاملين هناك

مفتي مقاطعة إكسانتي في اليونان لـ«الوعي الإسلامي»:

قرابة المليون مسلم يعانون التنصير والتشكيك في العقيدة

حوار: فيصل يوسف العلي
تصوير: هدايت الله نثار

يتركز مسلمو اليونان في ثلاث مقاطعات شمالا بالقرب من الحدود التركية، هي: إكسانتي وقوموتيني والكنوريوليس، إضافة إلى العاصمة أثينا التي تضم حوالي ٨٠٠ ألف مسلم من غير اليونانيين.

وعلى الرغم من وجود دار إفتاء في كل مقاطعة تعين المسلمين فيها على أمور دينهم، فإن قرابة المليون مسلم يعانون في سبيل ممارسة عقيدتهم كما يتمنون.. «الوعي الإسلامي» في زيارتها أخيرا إلى الجمهورية التركية التقت الشيخ أحمد متة، مفتي مقاطعة إكسانتي منذ تسع سنوات، والذي درس وتخرج في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٩٩١م، وسألناه عن أوضاع إخواننا المسلمين هناك، وعن حرية ممارسة شعائرهم في ظل ندرة المساجد والقوانين التي تحكمها وتحكمهم.



● ما أوضاع المساجد في اليونان، وهل يرفع الأذان فيها؟

- المساجد موجودة في اليونان في مناطق المسلمين، ويرفع فيها الأذان ولله الحمد، ولكن كثيرا من التحديات تواجهنا، منها التنصير ومشاريع تهدف إلى التشكيك في العقائد، لكن المسلمين في اليونان بالمجمل أقلية محافظة متدينة.

● هناك مفت لكل مقاطعة فما الصعوبات التي تواجه دور الإفتاء في اليونان؟

- أصعب ما مر علينا في هذا الشأن ما يمكن تسميته ازدواج العمل بالإفتاء، فالمفتي كان يتم تعيينه بالانتخاب من قبل لجنة إسلامية، كما حدث في عامي ١٩٨٥م و١٩٩٠م، ولكن فيما بعد تدخلت الدولة، وأرادت أن تعين مفتيا من دون اختيار المسلمين، وفعلا عينت الدولة مفتيا من قبلها، وعين المسلمون مفتيا من قبلهم بالاختيار، إذ إن من الأمور المتفق عليها بين المسلمين في اختيار المفتي أن يتم تعيينه بالاختيار، ويبقى في منصبه مدى الحياة، ولأنه لا ميزانية محددة لهؤلاء الأئمة، فإن رواتبهم تتكفل بها الجمعيات الإسلامية والأهالي.

طلاب الشريعة في قوموتيني

حضر جلسة الحوار الشيخ إبراهيم الشريف، مفتي مقاطعة قوموتيني منذ خمس وعشرين سنة، وقد درس وتخرج في الجامعة الإسلامية في إسطنبول سنة ١٩٨٠م، وقد أفاد بأن نحو ٣٣٠٠ طالب يتعلمون أحكام الشريعة في مساجد قوموتيني.

● كم عدد المسلمين في المناطق الثلاث؟

- يبلغ عدد المسلمين في هذه المناطق ١٥٠ ألفا، وجميعهم يحملون الجنسية اليونانية، بينما يوجد في أثينا ٨٠٠ ألف من غير اليونانيين، وأوضاعهم أصعب.

● ماذا عن تنقلاتكم بين إسطنبول والمناطق الإسلامية في اليونان؟

- التنقلات ميسرة ولله الحمد، ولا توجد أي عقبات.

● كم عدد المساجد في اليونان؟

- في اليونان حوالي ٣٥٠ مسجدا موزعة على المناطق الثلاث المسلمة، والعديد من هذه المساجد بحاجة إلى ترميم. أما أئمة المساجد، فهم متخرجون في العديد من الجامعات الإسلامية (تركيا - المدينة المنورة - مصر - سوريا - وبعض البلدان العربية).

● هل هناك مدارس إسلامية لتعليم شعائر الدين والأحكام الشرعية في اليونان؟

- للأسف، لا توجد مدارس من هذا النوع حاليا، ونحن نرسل أولادنا إلى إسطنبول أو إلى السعودية لتعليمهم القرآن وأحكام الدين.

● هل يعاني مسلمو اليونان في سبيل أداء فريضة الحج؟

- نعم، نمر بصعوبات كثيرة، خصوصا بعد رفض الترخيص لشركات الحج، مما يضطرنا للذهاب إلى البلاد المجاورة أو التعاقد مع شركات حكومية بأموال مضاعفة، ولكن بالنهاية؛ الناس يحجون بصعوبة كل عام، وفي السنوات الأخيرة، وبسبب الأزمة الاقتصادية؛ قل عدد الحجاج.

● هل في المدارس العامة دروس شرعية للمسلمين؟

- كان هذا موجودا سابقا، أما الآن فقد غيرت الدولة المناهج ومنعت المواد الشرعية، ولكننا بادرنا إلى تعليم أولادنا الدين عن طريق حلقات المساجد ولله الحمد، فنعلمهم القرآن والفقه الحنفي والعقائد.

العولمة والأزمة الأخلاقية

د. آندي حجازي
تخصص علم النفس التربوي

إن المتأمل اليوم للواقع يرى أن العالم باتت تسوده العولمة بكل معاييرها ومبادئها، وبما تحمله من إيجابيات وسلبيات، وبات الإنسان يشعر بأن المادة أصبحت هي المسيطرة على حياة الشعوب وتفكير الأفراد، المادة بما تشمل من معرفة واختراعات وإنتاجات وبضائع ومحسوسات على أرض الواقع. والمعضلة من سيادة المادة أن تعم المصلحة والمنافع الدنيوية والشخصية قبل أي منفعة أخرى، وأن تتعارض مع ما يرضي الخالق تعالى ومع الأخلاق السامية الراقية، لأنها تفقد غذاء الروح، وتجعل الإنسان يلهث وراء المادة وحاجات الجسد والشهوة من دون أن يتطلع إلى حاجاته الروحية.

إن انتشار العولمة وسيادتها يجعلان الأمم ترضى بكل ما تفرضه عليها العولمة من متغيرات ومن فقد للهوية الوطنية والثقافية والدينية لأبناء المجتمع، فاليوم مع سيادة العولمة بدا الصراع كبيرا بين الثبات على المبادئ والقيم الأخلاقية الرفيعة وعلى الهوية الثقافية للمجتمعات والأفراد، وبين الانصهار في بوتقة العولمة وما ألقت علينا من أخلاق دونية، وأثقلت كاهلنا بوسائل تكنولوجية باتت تغير في عقول الصغار والكبار وتتلاعب بها وفق ما تشاء؛ ومن هنا بدأت تظهر في حياتنا أزمة أخلاقية واضحة المعالم.



في الماضي القريب جدا كنا ننظر إلى الرقي الغربي على أنه رقي في القيم والأخلاق أيضا، وبدأنا ننقل عنهم أنها أمة تتميز بجوانب أخلاقية مقدرة، كاحترام النظام والوقت والدور والدقة في المواعيد والصدق في القول والأمانة في التجارة والاحترام للإنسان، ولكننا مع مرور الوقت أصبحنا ندرك أن التزامهم بتلك الأخلاق إنما هو بسبب مصالحهم الشخصية، لأن تلك الأخلاق تحقق لهم المكاسب والمنافع الدنيوية والتجارية، فإن تعارضت معها فلا مشكلة من

الانقلاب عليها! وقد نسينا، أو ربما بجهل منا، أن تلك الأمة لم تقم على حضارة يوما، بل بالعكس، قامت على إبادة حضارة أهل البلاد الأصليين (الهنود الحمر)، وسرقة بلادهم، والتخلص منهم في إبادات جماعية، ثم نقول إنها حضارة تحترم الإنسان وتقدره! أية مفارقة؟! تلك الإبادة الجماعية تكررت في العراق وفي أفغانستان وهيروشيما ونكازاكي في اليابان وفي عدة دول... فأين هذا الرقي الأخلاقي؟!

بل انظر إلى التفرقة التي قامت على أساس اللون الجسدي للبشر؛ فكم عانى الأشخاص ذوو البشرة السوداء في الولايات المتحدة من الذل والمهانة والعبودية والاحتقار والتعذيب والتفرقة! فلعهد قريب كانت لا حقوق لهم، ولا مدارس تجمع بين البيض والسود، ولا جامعات، ولا وسائل مواصلات مشتركة، ولا أسواق، ولا حتى كنائس مشتركة! فمثلا حدث أن أخطأ رجل أسود البشرة فدخل كنيسة من كنائس البيض في أميركا، والتي يفترض أنها مكان لنشر القيم والعدل والمساواة بين البشر، وكان القسيس يتحدث فرأى هذا الرجل الغريب عنهم يدخل الكنيسة فامتعض، وأخرج ورقة وكتب فيها كلمات وأرسلها إليه، وحينما فتحها ذاك الرجل الأسود البشرة وجد بها: «إن عنوان كنيسة السود في شارع كذا»! فأي حضارة تلك التي نتشدق بأنها كرمت الإنسان وتحترم حقوقه ونتمنى العيش في أوساطها.

ما يهمنا هنا ليس هو انتقاد أمة؛ ولكن كفانا - نحن المسلمين أعظم أمة - تعلقا بأحبال من خيوط العنكبوت بأن تلك الحضارة الغربية (ذات الأزمات الأخلاقية الفادحة من شرب خمر وقتل وزنا وقمار ولواط وتعر للأجساد وتمييز عنصري..) هي ما تستحق التقدير والإعجاب والاقتداء. قد يكون لديها ما يستحق التقليد والتقدير، كاحترام المواعيد والنظام والاهتمام بالعلم والاختراع والتكنولوجيا، ولكن العلم الحقيقي هو ما يبني القيم الإنسانية الراقية ويرتقي ويسمو بها، وهو ما يجعل للحياة معنى ساميا راقي المبتغى يرضي خالق البشرية؛ لا ما يوصل إلى هوة أخلاقية تجعل في حياة البشر فراغا روحيا مدمرا طويل المدى، ويدعو إلى الاكتئاب والانتحار لدى الكثيرين!

هوة أخلاقية

إنها هوة أخلاقية أو أزمة أخلاقية وصلت بالعالم الغربي اليوم إلى الشذوذ الجنسي والتعري والفضائح الجنسية والأفلام الإباحية، وإلى انحطاط إنساني، بل حتى عالم الحيوان يأباها، ففي قصة لعالم أجنبي أراد أن يراقب سلوك النسور، فأقدم على تجربة ذات مرة؛ بأن استبدل بيض طائر آخر في العش ببيض النسر في لحظة غياب الأم عن البيض، وعندما عاد النسران (الذكر والأنثى) وشاهد الذكر ذلك البيض، طار مسرعا ثم عاد برفقة مجموعة من النسور الأخرى وأخذت تضرب أنثى النسر ضربا شديدا على جناحيها وجسدها حتى ماتت، والباحث يراقب ويصور ما يحدث في ذهول، بل ورأى النسر الذكر يأخذ البيض الغريب ويطير به ثم يرميه من أعلى رافضا وجوده في عشه.. فانظر، أيها القارئ، كيف بالطير يرفض تلك السلوكيات اللا أخلاقية من أنثاه لدرجة قتلها، فكيف بنا في زماننا وقد وصلت الإباحية في عالم البشر اليوم إلى درجة لم تصلها الكثير من الأمم السابقة البائدة، لدرجة تستجلب غضب الله تعالى.

حضارتنا هي الأصل

ما صدرته لنا العولمة ووسائل التكنولوجيا جعلنا نبتعد خطوات كثيرة عن قيمنا وأخلاقنا الإسلامية العظيمة وضرورة الاعتزاز بها وبعظمائها، بل وأقنعتنا بأنها الأعظم أخلاقيا، وأنستنا حضارة عظيمة قامت أساسا على الأخلاق، فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، مما يعني أنه كان في الأمة العربية وقبل الإسلام شيء من الأخلاق التي يعرفون بها، كالكرم والنخوة والشجاعة والفروسية والفطنة والصدق والإخلاص وحسن الجوار، فجاء الإسلام ليكمل تلك القيم الأخلاقية العظيمة ويؤكد عليها، والتي امتدح الله تعالى الأمة العربية والإسلامية بها: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ (آل عمران:١١٠).

فخذ مثلا حاتم الطائي، الذي اشتهر بكرمه الواسع، حتى إن رسول الله ﷺ امتدحه يوما، حينما سبيت ابنته في إحدى الغزوات، فاستنجدت برسول الله ﷺ قائلة: يا رسول الله، امنن علي، من الله عليك، فقد هلك الولد، وإني بنت سيد قومي، كان أبي يفك الأسير ويحمي الضعيف، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي. فقال لها رسول الله ﷺ: «يا جارية، هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه». ثم قال لأصحابه: «خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق».

وتأمل كيف رفض سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأخذ من بيت المال ما يصلح شأنه بعد عرض المسلمين

ذلك عليه، وهو يقول: «كيف يعنيني أمر الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم». وانظر كيف كان يتسابق مع سيدنا أبي بكر الصديق في خدمة امرأة عجوز لا معين لها، وهما قادة الأمة! أي عظمة تلك؟ وانظر إلى رحمة سيدنا عمر حينما رفع الجزية عن رجل طاعن في السن من أهل الكتاب رآه يسأل الناس الصدقة فقال: «والله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله في الهرم»، فرفع الجزية عنه وعن أمثاله من كبار السن من اليهود والنصارى!

وكم وردت آيات في القرآن الكريم تحث على مكارم الأخلاق فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ (النحل:٩٠)، وقال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧﴾ (لقمان:١٧)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ۝٧٢﴾ (الفرقان:٧٢) وقال أيضا: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ (الأعراف:١٩٩)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾ (آل عمران:١٣٤)، وامتدح الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ (القلم:٤).. والكثير من الآيات لا يتسع المجال لذكرها جميعا تحث على الأخلاق السامية. وورد الكثير من الأحاديث النبوية في ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم» (رواه الترمذي في سننه). وقال عليه الصلاة والسلام: «وأنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» (رواه أبوداود في سننه).

وانظر إلى ارتباط الأخلاق بالعبادات في الإسلام، فقد جاءت العبادات لتهذب الأخلاق، لأن الأخيرة تحتاج إلى التربية والتهذيب والمراقبة، فقال تعالى عن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ..﴾ (العنكبوت:٤٥)، والزكاة تؤخذ من الأغنياء لتعطى للفقراء لتطهير النفس من أدران البخل والشح والأنانية، أما الصوم فقال رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (صحيح البخاري)، والحج قد لا يقبل بسوء الخلق أثناء أداء مناسكه، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ (البقرة:١٩٧).

معالم الأزمة الأخلاقية

واليوم باتت تتصدر حياتنا، في كل مناحيها، أزمة أخلاقية واضحة المعالم، نتيجة البعد عن التمسك بمبادئ ديننا الحنيف وأخلاقياته ونماذجه العظيمة، ونتيجة تمسكنا بمبادئ العولمة التي بثت أفكارها الماسونية والليبرالية العالمية واللادينية وحركات الإلحاد والعلمانية، فكلها دعمت العولمة التي اجتاحت بيوتنا وشعوبنا، فبدأت المحطات الفضائية ووسائل الإعلام، المرئية والمسموعة، تتلاعب بعقولنا وأفكارنا، وتبعدنا عن هويتنا الإسلامية. والأدهى والأسوأ، تتلاعب بعقول أبنائنا الناشئين، فتبهرهم بفنونها وأسماء مشاهيرها الذين باتوا القدوة للكثير من الشباب؛ قدوة في مأكلهم وملبسهم وقصات شعرهم وشكلهم، ومنحى حياتهم واهتماماتهم ورغباتهم.

ومع غياب الدور الأسري اللازم في توجيه الأبناء أصبحت المحطات الفضائية، التي لا تعد، والإنترنت ووسائل التكنولوجيا بما تعرضه، هي الموجه والمعلم والمسيطر، فتفاقمت الأزمة الأخلاقية.. فأصبحت ترى - على سبيل المثال - أبناء لا يهتمون لرضا والديهم؛ يرفعون أصواتهم فوق صوتهم، ويجيبونهم بإجابات في قمة اللا تهذيب واللا مبالاة بحقوق والديهم! وأصبحنا نسمع كثيرا عن طلبة لا يحترمون معلمهم، ولا يقدرونه، ويتعاملون معه وكأنه أجير لديهم! وكذلك لم تعد ترى الأطفال الصغار يقومون من مجلسهم احتراما لحضور الكبار أو من أجل أن يجلسوا في أماكنهم.. أين ذهبت تلك الأخلاق الراقية؟! لقد بدأت تذوب في بوتقة مبادئ العولمة، فأضحى الكبر يغلف سلوكياتنا، وكأن احترام الكبار هو إهانة للصغار، أو تقبيل يد الكبير أصبح ينظر إليه وكأنه شيء من التراث، وكذا تقبيل أيدي الوالدين! فقد استقينا ثقافتنا من ثقافة المادة والتكنولوجيا؛ لا ثقافة الحب والاحترام والتقدير.

وقد برزت سلوكيات في عالمنا توحي بحجم الأزمة الأخلاقية التي نعيشها، فمثلا ترى الصراعات المستمرة بين الإخوة، صراعات تبدأ منذ الصغر، منشؤها الغيرة والتفرقة بين الأبناء والبعد عن فهم الدين، وعدم متابعة

الآباء لسلوكيات أبنائهم لتوجيههم ونصحهم، فبدأت الأزمات بين الإخوة تطفو على السطح، كاستيلاء الأخ على ميراث إخوته ظنا منه أن هذا نوع من الذكاء؛ وهو لا يعلم كم يعكس من دنو أخلاقي، انتهاء بهم في المحاكم أو الإيذاء أو أن يقتل بعضهم بعضا! فلم تعد الروابط الأسرية والعائلية كما كانت سابقا، فقد دخلت عليها شوائب كثيرة أفقدت الإخوة كثيرا من رونقها، ويجب علينا مراجعة أنفسنا لأجلها وتصحيح مسارنا.

وانظر كيف أصبحت التهاني ومساندة الإخوة والأقارب تتم برسالة نصية وهم يسكنون في المدينة نفسها، فيتم الاكتفاء بالتهاني والتعازي التي توضع على الفيسبوك أو برسالة عبر الواتسآب وما شابه، في إهمال منا لأهمية صلة الرحم والمودة الحقيقية بين الأقارب، والأحاديث التي تحث عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام: «إن صلة الرحم وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار» (رواه أحمد). وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال للرحم: «ألا تحبين أن أصل من وصلك، وأن أقطع من قطعك؟».

وفي صورة جلية للأزمة الأخلاقية التي سادت حياتنا، لابد أنك مررت بشخصية أو أكثر لمدير مؤسسة ما، جل همه هو مصلحته الشخصية واكتساب المال أو السفرات، بعيدا كل البعد عن تطوير مؤسسته أو موظفيه وجر المنفعة لهم، وأغلب اجتماعاته مع موظفيه نظرية متكررة الفكرة لا طائل منها.. وفي الجانب المقابل؛ لابد أنك رأيت موظفا يحاول أن يخادع ويراوغ ويقصر ويماطل في عمله معتقدا أن لا أحد يعلم بما يفعل، أو أن هذا نوع من الذكاء و«الفهلوة»، كما يطلق البعض عليها! وهنا لا ننكر أن الغرب والأجانب بالفعل تفوقوا علينا في هذا الجانب؛ نتيجة إخلاصهم في العلم وصدقهم في العمل، والذي من المفترض فينا كأمة إسلامية أن نكون القدوة في هذا الصدق، والإخلاص في العمل، كما كان عظماء المسلمين على مر الزمن.

وللأسف، إن هذا الخداع والغش باتا ينشآن مع أبنائنا منذ الصغر، فلا والد يردع، ولا أم تعلم وتصحح، بل تتفاخر مع جليساتها بما لدى ابنها من أساليب في الغش، وكأنها دليل دهاء! فكيف سيكون هذا الطفل مستقبلا؟! حتما سيمارس الغش في عمله، وفي تجارته، ومع زوجته، وأبنائه، ومجتمعه.. وهذا ما أصبحنا نعيشه.

المحطات الفضائية

من جانب آخر؛ ترى كثير من المذيعين ومديري البرامج التلفزيونية لم يعودوا يتحرجون من طرح أي موضوع في البرامج التلفزيونية، وعلى الهواء، بحجة التثقيف والتنوير أو إيجاد الحلول، فبات الصغير يفهم كثيرا من الأمور التي كان الكبار في الماضي يتحرجون من ذكرها فكيف بالخوض فيها؟! أما اليوم فلا حرج من شيء! فالأب يعجب بكلام ذاك المذيع أو يقدر تلك المذيعة الكاشفة عن رأسها وبكامل حلتها وزينتها، وهي تقدم ما تدعي أنه موضوع مهم، بينما جل همها جذب عيون الشباب والأشخاص إعجابا بجمالها وشخصيتها... في أزمة أخلاقية حقيقية، فلم يعد هناك رجل يقتنع بجمال زوجته، فما يراه ويشاهده في التلفاز من تزيين وعمليات تجميل ومغنيات كاسيات عاريات، يجعل من الصعب على الزوجات متابعة كل تلك الموضات والملابس والتغيرات في شكل الوجه... إنها فتن كثيرة تصب في عقولنا الكثير من التغيرات اللا أخلاقية وتعيث فيها فسادا، وهيهات هيهات لعشرات السنوات من إصلاحها إن استمرت المعطيات ذاتها.

أزمة أخلاقية ترمي بظلالها على مناحي الحياة، تتجسد في البعد الحقيقي عن الله تعالى وعن الخوف منه، فترى تعريا من النساء في بعض البلاد العربية في الشارع والأسواق، وفي أماكن العمل، وفي التلفاز، وبين النساء أنفسهن في حفلاتهن، وفي المسابح، وفي الفيديوهات التي تنتشر... تعر زائد عن المعقول لدرجة تصل حد الفحش وغضب الله تعالى، وبشكل يدعي الحرية: الحرية الشخصية، وحرية الاختيار، وحرية السلوك! ولا يعلم هؤلاء أن هذه الحرية ما هي إلا وهم الحرية، فالحرية الحقيقية ليست ما يوصلك إلى الفحش والمنكر والبعد عن طريق الصواب، لكن الحرية هي التي ترتقي بفكرك للتحكم بعناصر حياتك لتصل إلى نتائج وأخلاق قويمة تنقذ الإنسان في آخرته، لا أن تهوي به في مهاوي الانحطاط الأخلاقي ومهاوي الردى في الآخرة!

إن التراجع الأخلاقي إن لم يتم إيقافه من قبل المربين والحد منه، فسيستمر وصولا إلى ما لا نهاية، إلا برحمة الله تعالى، وسيكون مستقبل الهوية الثقافية والدينية للكثير من أبناء الأمة العربية غامضا معتما. فعلينا العودة إلى تعاليم إسلامنا العظيم والتمسك بفضائل ديننا الربانية، والاقتداء بصحابة رسولنا ﷺ وعظمائنا الذين ضربوا أروع الأمثلة في السمو الأخلاقي، والاقتداء أولا وأخيرا بسيد البشر ﷺ، الذي كان خلقه القرآن، وأحبه كل من تعامل معه؛ لعظيم خلقه صلوات الله وسلامه عليه.

من المسؤول عنه؟

انفلات الشباب الأخلاقي



تحقيق : نشوة صالح

ما الذي يدفع بشباب الأمة العربية والإسلامية نحو الانفلات الأخلاقي؟ وكيف نعود بشبابنا إلى القيم الخلقية التي استمدتها الأمة العربية من إسلامها وعاداتها وتقاليدها؟ وما هي الآليات التي يمكن أن تتبع لحماية شبابنا من الانحراف الخلقي؟

تلك الأسئلة طرحتها «الوعي الإسلامي» على عدد من الشباب والفتيات ومتخصصين في مختلف المجالات، التربوية والاجتماعية والنفسية والقانونية والدينية، وقد أجمعوا كلهم على ضرورة حماية شباب الأمة من الجوانب غير الأخلاقية التي تحاول الدول الأجنبية بثها في نفوس أبنائنا، والتفاصيل في تلك السطور:

كان أول من التقيناه محمد أغا (طالب ثانوي)، قال إن أصدقاء السوء يلعبون دورا كبيرا في جنوح بعض الشباب المراهق نحو الانفلات الأخلاقي، لافتا إلى أنه كشاب يبتعد تلقائيا عن زمرة الشباب الذين لا يهمهم مستقبلهم ويتجهون إلى معاكسة الفتيات. وترى سماء أحمد (طالبة جامعية) أن غياب رقابة الأسرة عن الأبناء يلعب دورا مهما في تفشي الجوانب غير الأخلاقية في نفوس الأبناء، موضحة أن رقابة الأهل إذا كانت قوية سيعلم الشاب أو الفتاة أن هناك حسابا في حالة ارتكاب أي خطأ أخلاقي.

يقول محمود مؤمن (طالب جامعي) إن الانفلات الأخلاقي بين شباب الجامعات حدث ولا حرج، مستغربا أن الشاب الملتزم في هذا العصر مع شديد الأسف ينظر إليه على أنه عقلية رجعية، موضحا أن عصر الفضائيات ساهم في تفشي فساد الأخلاق بين الشباب.

ويرى فاضل عبدالرحمن (طالب جامعي) أن هناك الكثير من الشباب الملتزم والحمد لله في المجتمعات العربية، لكن المشكلة أن الشاب غير الملتزم بالأخلاق يسعى دائما لإفساد أخلاقيات الشباب الملتزمين بشتى الطرق، إما عن طريق جر الشباب للتعرف على الفتيات أو الإدمان أو إلى مشاهدة مواقع إباحية.

من جانبه، يقول رئيس حقوق الإنسان الإسلامية العالمية ورئيس المدرسة الأكاديمية العالمية المحامي مبارك المطوع، إن هناك الكثير من الشباب المسلم الملتزم والمحافظ على دينه ولله الحمد، لكن في المقابل هناك شباب بالفعل انحرف عن السلوكيات الإيجابية، وانخرط في سلوكيات غير أخلاقية متنوعة يصعب حصرها.

وأشار المطوع إلى أن القانون في حد ذاته ليس عقبة في التزام الشباب بالأخلاق من عدمه، لأن القوانين موجودة وتجرم أي فعل يرتكبه الشاب، لكن المشكلة الأساسية تكمن في الانحراف الخلقي واتباع الشباب الهوى.

وأوضح المطوع أنه، كصاحب مدرسة، يطالب بضرورة عودة الجوانب التربوية

في المدارس بحيث تساهم المناهج في تغذية عقول الشباب تربويا، مؤكدا أن العلم وحده لا يكفي، ولهذا يجب أن يتسلح شباب الأمة بالعلم والأخلاق في آن واحد.

ويؤكد الخبير في العلوم الاجتماعية د. محمد العجمي أن من أسباب تفشي الأخلاق السلبية في الأبناء زيادة معدلات الطلاق في المجتمعات العربية؛ نظرا لأن الأبناء الذين يعانون من انفصال الأب عن الأم يستسهلون السير في الطرق غير المستقيمة، مما يدفع بهم نحو الانفلات الأخلاقي بكل أنواعه، ملمحا إلى أن هذه الشريحة من الأبناء لا تدمر نفسها خلقيا فقط، بل تساهم في تدمير كل الشباب من حولها.

وطالب د. العجمي بضرورة تماسك الأسر بشتى الطرق، وأن يفكر الآباء والأمهات الذين يعيشون حياة مزعزعة في مصير الأبناء قبل أن يفكروا في الانفصال. ولفت إلى أن غياب دور مؤسسات المجتمع المدني في العالم العربي عن حل مشاكل الشباب، أصبح من الأسباب المؤدية إلى انتشار الجوانب غير الأخلاقية للشباب العربي، مشيرا إلى أن تلك المؤسسات كان ينبغي عليها أن تكثف جهودها لمناقشة قضايا الشباب، خصوصا في عصر طغيان تكنولوجيا المعلومات التي يستخدمها كثير من شبابنا في الجوانب غير الأخلاقية.

وطالب د. العجمي بتوحيد جهود كل الجهات والمؤسسات المعنية بحماية الشباب في مجتمعات العالم العربي.

ويرى أستاذ علم النفس في جامعة الكويت د. خضر البارون أن الشباب العربي يعاني الإحباط، موضحا أن المجتمعات الفقيرة في عالمنا العربي تعاني كثيرا من جملة مشاكل، مما يدفع الشباب الذي لا يستطيع الزواج أن ينحرف خلقيا ويبحث عن شهوته الجنسية بكل الطرق، لافتا إلى أن

محمد أغا: أصدقاء السوء يلعبون دورا كبيرا في إفساد أخلاق الشباب

سماء أحمد: غياب الرقابة الأسرية من أسباب فساد أخلاق الشباب

محمود مؤمن: البعض ينظر إلى الشباب الملتزم على أنه عقلية رجعية

مبارك المطوع: القوانين موجودة لردع الشباب ولكن المشكلة في اتباع الهوى

د. محمد العجمي: زيادة معدلات الطلاق تساهم في تدمير الشباب خلقيا

الكبت الجنسي يدفع الشباب والفتيات نحو الانحراف الخلقي بشتى طرقه.

ويرى د. البارون أن المجتمعات الخليجية الميسورة ماديا يعاني شبابها كذلك من جملة مشاكل تدفع بهم نحو الانحراف الخلقي، حيث إن حياة الرفاهية يتم استغلالها بصورة سلبية عندما تغيب القيم النبيلة، مشددا على أهمية أن تهتم الأسرة العربية بشكل عام بتصحيح أخلاقيات شبابها، موضحا أن الأم يمكن أن تراقب أولادها ولكن بصورة غير مباشرة، لأن هذا العصر من الصعب فيه أن يشعر الأبناء بأنهم ملاحقون من ذويهم.

أما الخبير التربوي د. عادل البحيري فقال إن دور المدرسة يجب أن يساهم في تحصين الشباب والفتيات بالقيم الأخلاقية، لأنه ما الفائدة من التعليم بلا أخلاق، مشيرا إلى أن المدرس ينبغي أن يكون قدوة أمام تلاميذه، موضحا أن المدرس الذي يدخن سيجارة أمام تلاميذه أثناء شرح الدروس فهو بذلك يعطي الضوء الأخضر للتلاميذ كي يتجهوا نحو التدخين، مطالبا بضرورة تعديل مناهج اللغة العربية والتربية الدينية في العالم العربي، مع ضرورة إدخال مناهج جديدة تساهم في دعم القيم الخلقية الإيجابية في نفوس الأبناء، وأن يعي الأبناء جيدا العواقب الوخيمة للفساد الأخلاقي من خلال عرض تجارب واقعية لهم.

ويرى الداعية الإسلامي الشيخ صالح الغانم أن غياب الوازع الديني يلعب دورا عظيما في الفساد الأخلاقي، مطالبا الآباء والأمهات بضرورة تربية أطفالهم على القيم الإسلامية، لأن الطفل كالعجينة اللينة في يد والديه، موضحا أن الإسلام اهتم كثيرا بالأخلاق، ولنذكر هنا أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم:٤)، وقال الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وأضاف الغانم أن الدول الأجنبية المعادية للإسلام تسعى بشتى الطرق إلى أن تهدم القيم الإسلامية في نفوس شبابنا المسلم، وتحاول تلك الدول نشر جوانبها السلوكية غير الأخلاقية في أوساط شبابنا المسلم عن طريق نشر الرذائل والفواحش عبر وسائل إعلامها أو عبر المواقع المختلفة، سائلا الله عزوجل أن يحفظ شباب الأمة من خبث الماكرين الساعين لتفتيت قيم شبابنا.



الضوابط السلوكية للاقتصاد

عبدالحافظ الصاوي
خبير اقتصادي -مصر



يصف البعض الاقتصاد الإسلامي بأنه اقتصاد أخلاقي، بما يضعه من ضوابط لكل الفاعلين في النشاط الاقتصادي، سواء على صعيد المستهلكين أو المنتجين، على صعيد العامل ورب العمل، أو صاحب رأس المال، أو ولي الأمر، ومن تبعه من مسؤولين في الدولة. ويتميز المنهج الاقتصادي الإسلامي عن غيره من المناهج الأخرى بالجانب الأخلاقي، فالرأسمالي لا يعنيه سوى الربح، وعلى الآخرين أن يحققوا مصالحهم بالطريقة التي يرونها، كما أن الاشتراكي تعنيه العدالة، وإن كانت على حساب ظلم الآخرين وإهدار ثرواتهم، مما يقلل حافز العمل والإبداع لدى أفراد المجتمع.

وحرص الإسلام على احترام ملكية المال، سواء كان مالا عاما أو خاصا، وجعلت الشريعة الإسلامية من المال أحد المقاصد العامة لها، فتم وضع

الضوابط الخاصة بطرق كسب المال، وكيفية التصرف فيه. ووضع الإسلام جزاء صارما لمن تسول له نفسه تجاوز الجانب الأخلاقي تجاه ممتلكات الآخرين وأموالهم، فجعل عقوبة السارق قطع يده.

ويعد الضابط الذاتي لدى أفراد المجتمع المسلم، أحد أهم الدوافع لتحكيم الأخلاق لدى الفرد المسلم في تصرفاته المالية والاقتصادية، فالنبي ﷺ ذكر في حديثه الشريف «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه».

ويتضح من الحديث الشريف وجود نوعين من الرقابة على تصرفات المسلم المالية والاقتصادية: الأولى رقابة قبلية حين يسعى لاكتساب المال، فهو مسؤول عن مصدر كسبه، ولابد أن يكون من الحلال واستوفى الشروط الأخلاقية التي وضعها الإسلام كضوابط لهذا الأمر. ورقابة بعدية، فبعد الحصول على المال يسأل الفرد، فيم ينفق ماله الذي اكتسبه من حلال؟

وإذ احترمت الشريعة الإسلامية حرية التصرف في المال، إلا أنها وضعت ضوابط أخلاقية لهذا التصرف، ولم تترك هذه الحرية على إطلاقها، فحرم الإسلام الإسراف في المال، أو إهلاك المال في المصارف الحرام. وقدم الإسلام أولويات للتصرف في المال، فهناك الحاجيات، أي الضرورات الأساسية، سواء للفرد أو المجتمع، فلابد أن ينصرف إليها المال، ثم التحسينات التي لا تستقيم الحياة من دونها، فحصول الإنسان على الضروريات فقط، يجعله يعاني من مشكلات لا تتفق وتكوينه النفسي، فالنفس البشرية جبلت على حب السعة. ثم المرتبة الثالثة وهي الكماليات، وهي مسألة تختلف من ظروف شخص وأحواله إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، وذلك حسب القدرة المالية، وإن كان الإسراف في الكماليات تحوم حوله الكثير من المخاوف التي تجعل الإنسان ينزلق في دوائر التبذير أو الإسراف المنهي عنه.

وفي الوقت الذي احترم فيه الإسلام رغبة الإنسان في الحصول على الربح، فإنه جعل هذا الربح مشروطا بأن يكون في نشاط تتحقق منه منفعة للفرد والمجتمع، والبعد عن مجالات الإضرار بالأفراد والمجتمعات. ولا يترك الإسلام صاحب رأس المال يضرب في الأرض من أجل السعي للربح فقط، ولكنه اشترط عليه أن يكون ذلك السعي في مجالات الحلال، وفي إطار المصلحة العامة، التي تضعها الدولة للحفاظ على ثروات المجتمع وإشباع حاجاته.

وليس هذا فحسب، بل جعل الإسلام رأس المال بالكامل خاضعا لحق من حقوق المجتمع، وتحقيق العدالة الاجتماعية؛ لرعاية الفقراء والمساكين، ومن تقعد بهم قدراتهم على العمل والسعي، ففرض الزكاة؛ لتكون سياجا أخلاقيا عمليا، لا يقوم على الإحسان من قبل الأغنياء تجاه الفقراء، بل جعلها واجبا على الأغنياء يسعون إلى أدائه، وحقا للفقراء يسعون إلى الحصول عليه من دون إهانة أو انتقاص من إنسانيتهم.

إن حق المجتمع ليس في تحصيل الزكاة لحساب الفقراء فقط، بل حق المجتمع على أصحاب رؤوس الأموال أن يدفعوا بها في تحقيق معيشة كريمة، قوامها العمل والإنتاج وعمارة الكون، فما يسمى حديثا بالمسؤولية الاجتماعية لرأس المال، هو ما أقره الإسلام من قرون بألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وأن يوجه لسد احتياجات الأمة المختلفة.

علم الاقتصاد

في علم الاقتصاد التقليدي يقولون إن علم الاقتصاد «علم غير أخلاقي»، أي إنه غير معني بأخلاق الفاعلين الاقتصاديين، ولكنه معني برصد الظواهر الاقتصادية الناتجة عن تصرفات الفاعلين الاقتصاديين، فالاقتصاد التقليدي – مثلا – في حالة الاحتكار يفصل في أنواع الاحتكار، وأوضاع التوازن لكل من المستهلك والمنتج، والتعرف على فجوات الربح، واختلاف حالة السوق ما بين المنافسة الكاملة والاحتكار الكامل أو احتكار القلة.

ولكن تناول الاقتصاد الإسلامي لقضية الاحتكار – على سبيل المثال – مختلف، فرتب على رصد أداء المحتكرين أحكاما تتعلق بحياة الناس ومعاشهم، فجرم الإسلام الاحتكار كسلوك فقال ﷺ: «المحتكر خاطئ».

ولا يتوقف الاقتصاد الإسلامي عند هذا الجانب الوعظي والتوعوي، ولكنه ينطلق إلى جانب تطبيقي، فأعطى لولي الأمر الحق في أن يتدخل في حالة ثبوت الاحتكار، وإرغام المحتكر على أن يبيع بثمن المثل، أي السعر السائد في السوق في ظل الأوضاع الطبيعية، وفق آليات العرض والطلب.

وقد فرض السلوك الأخلاقي الإسلامي نفسه حتى على صعيد الاقتصاد التقليدي، فأدبيات علم الاقتصاد عندما تستعرض محددات الطلب، كسلوك اقتصادي، فإنها تذكر مجموعة من المحددات، من بينها العادات والتقاليد والمعتقدات

الإسلامية، وتدلل على ذلك بمثال عدم تناول المسلمين للخمور وأكل لحم الخنزير.

إن السلوك الاقتصادي الأخلاقي في المنهج الإسلامي يرتبط بالعقيدة بالدرجة الأولى، فالعقيدة في إطار تعريفها الفلسفي البسيط هي: «تصور الإنسان للإله والكون والحياة، وطبيعة العلاقة بينهم»، فإيمان المسلم بربه وأسمائه وصفاته، ينعكس في تصرفه الاقتصادي، فيعي رسالته بعبادة الله، وأن مقتضيات العبادة تشمل عمارة الكون، ولا تتحقق العمارة لهذا الكون من دون ضوابط أخلاقية للنشاط الاقتصادي على صعيد الفرد والدولة.

منهج مختلف

ترصد الإحصاءات الدولية، بلوغ الناتج المحلي العالمي نحو ٩٢,٨ تريليون دولار حسب تقديرات عام ٢٠١١م (١)، ومع ذلك نجد أن العالم يعاني من مشكلات إنسانية حادة، فنحو مليار إنسان يعانون من الجوع، في حين يعاني أغنياء العالم من أمراض السمنة. وفي حين تتدفق الأموال الطائلة في مجالات الحروب والتسليح، تعجز الدول الأقل نموا - عددها نحو ٤٢ دولة على مستوى العالم (٢) - عن تدبير نحو ٣٠ مليار دولار لاستئصال لعنة الجوع لنحو مليار إنسان في العالم (٣).

ورحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: «ما جاع فقير إلا بتخمة غني»، وهي حقيقة تفسر واقعنا الاقتصادي العالمي الحالي، فنحو ٢٠ في المئة من سكان العالم يتركزون في أوروبا وأميركا ينعمون بنحو ٨٠ في المئة من الدخل العالمي، بينما ٨٠ في المئة من السكان لا يحصلون إلا على ٢٠ في المئة من الدخل على مستوى العالم (٤).

بينما نجد الإسلام قد جعل من أهداف الدولة أن تحقق الضرورات الخمس لمن يعيشون في كنفها، وهي: «المأكل والمشرب والملبس والمسكن ووسيلة الانتقال». إن الإسلام لا يقدم هذه الضرورات كمنح أو من دون مقابل، ولكنه يحرص على توجيه النشاط الاقتصادي ليلبي هذه الحاجات في إطار من تبادل المصالح. وإن الدولة تلزم نفسها القيام بهذا الدور من خلال القطاع الخاص كفرض كفاية، فإن قصر القطاع الخاص أو عجز عن توفير هذه الضرورات، أصبح الأمر في نطاق فرض العين على الدولة.

إن واقعنا الحالي، سواء على الصعيد العالمي أو القطري، يعكس منهجا يخالف المنهج الأخلاقي الضابط للنشاط الاقتصادي، وإن كان بنسب متفاوتة، وحضور الجانب الأخلاقي في واقعنا المعيش اقتصاديا من شأنه أن يزيل الكثير من المشكلات. فتقديرات صندوق النقد الدولي لحجم أموال الاقتصاد الأسود سنويا تدور ١,٦ تريليون دولار (٥). وهي بطبيعتها أنشطة مشبوهة في مجالات الدعارة والقمار وتجارة المخدرات والاتجار بالبشر وتجارة السلاح



غير الرسمية، وكلها أنشطة تجردت من ضابط الأخلاق.

إن توجيه هذا المبلغ، بحده الأدنى أو الأقصى، من شأنه أن يغير مسار حياة الكثيرين، فدولة بحجم مصر يعيش فيها نحو ٩٠ مليون نسمة، يبلغ ناتجها المحلي الإجمالي سنويا نحو ٢٧١,٩ مليار دولار (٦)، أي إن الحد الأدنى للأموال القذرة على مستوى العالم يبلغ نحو ما يزيد على ثلاثة أضعاف الناتج المحلي الإجمالي لمصر.

إن اتجاه رؤوس الأموال للعمل في مجالات الاقتصاد الأسود - بلا شك - دافعه الأكبر غياب الأخلاق، والسعي للربح السريع على حساب مقدرات اقتصادية ومعيشية لآخرين.

توازن بين الحقوق والواجبات

إن الإسلام حين وضع هذه الضوابط على أصحاب رؤوس الأموال بتسخير أموالهم في مجالات الاستثمار والتجارة التي تحقق مصالح المجتمع وفق قواعد الحلال والحرام، فإنه فرض على العمال أخلاقا تتفق وتحقيق هذا التكامل بين منظومة العمل ورأس المال، فجعل إتقان العمل من الشروط الرئيسية التي يجب أن يتحلى بها العامل المسلم، فقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». والإتقان هو شرط أداء العمل، ومن دونه يتراجع النشاط الاقتصادي، وتقل القيمة المضافة، ويضار العامل وصاحب رأس المال والمجتمع نتيجة غياب الإتقان.

ولا ينقص من حق العامل شيئا، لا في مكان عمله وبيئته، ولا تسخيره ليبذل جهدا بلا مقابل، بل لابد من توفير شروط ما نسميه في حياتنا المعاصرة بـ «العمل اللائق»، أي ضمانات التأمين الصناعي والصحي والاجتماعي، وأن يكون أجر العامل يكافئ ما يبذله من عمل، وأن يوفى العامل أجره فور انتهائه من عمله، فالنبي ﷺ قال: «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه».

وثمة قاعدة مهمة محل احترام في ضوء الجانب الأخلاقي للاقتصاد الإسلامي، وهي أنه «لا عمل بغير أجر، ولا مال بغير عمل»، فالإنسان طاقة يجب ألا تعطل، ولا يمتهن التسول، فالعمل قيمة في حد ذاته، كما أنه أحد مصادر الحصول على المال والثروة، ولا يبذل العمل في إطار السخرة، وتحت أي زعم، ولكنه يبذل نظير مقابل، وهذا هو الأصل، إلا إذا كان على سبيل التبرع في إطار تطوعي.

مساوئ غياب الأخلاق اقتصاديا

إن غياب المنهج الأخلاقي في واقع النشاط الاقتصادي تترتب عليه مجموعة من المضار الاقتصادية، التي تكرس للفقر والبطالة، وكثير من الأمراض والأوجاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ففي إطار سعى صاحب رأس المال لتحقيق الربح، بغض النظر عن الوفاء بالضرورات، يتجه إلى الكماليات والترفيات، فيحصل سوء تخصيص للموارد.

فعلى سبيل المثال، تتجه الآن كثير من الأموال في بلاد العالم الإسلامي للإسكان الفاخر والمنتجعات السياحية، بينما هناك أزمة إسكان خانقة لشريحة كبيرة من السكان، يحتاجون فيها إلى إسكان اقتصادي، أو في أحسن الأحوال ما يسمى بالإسكان المتوسط.

ومن هنا نجد ما ترتب على هذا السلوك الاقتصادي السيئ من تأخر الزواج وانتشار الفاحشة، والسعي لممارسة أي نشاط اقتصادي للحصول على وحدات سكنية فاخرة.

وثمة أضرار اقتصادية أخرى ترتبت على غياب المنهج الأخلاقي في البلدان الإسلامية، منها فساد مناخ الاستثمار، إذ انتشرت الرشوة، وغاب إتقان العمل، وسعى البعض للحصول على ما لا يستحق، بزعم إتاحة الفرص.

الهوامش

(١) تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١٤م، البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، جدول ١٠، ص ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، جدول ١، ص ١٦٠ - ١٧٠.

٣) منظمة الفاو، العالم يحتاج فقط) ٣٠ مليار دولار سنويا لاستئصال لعنة الجوع، HYPERLINK «http://www.fao.org/newsroom/ar/news/20081000853//index.html» http://www.fao.org/newsroom/ar/news/20081000853//index.html، تاريخ الزيارة ٢٠١٥/٣/٣م.

(٤) سمير مرقص، عولمة أم حرب طبقية عالمية، الأهرام الاقتصادي، ٢٠٠٩/١١/٣٠م.

(٥) مركز أنباء الأمم المتحدة، تقرير جديد للأمم المتحدة عن غسل الأموال يؤكد غسل ١,٦ تريليون دولار في عام ٢٠٠٩م، https://www.google.com.tr/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=5&cad=rja&uact=8&ved=0CD4QFjAE&url=http%3A%2F%2Fwwwunorg%2Farabic%2Fnews%2Fstory.asp%3FNewsID%3D15746&ei=aMMZVYfLIcH7aqjggegH&usg=AFQjCNHu7qTjGRHR0L0NSFHsljJp4oCqyQ

(٦) قاعدة بيانات البنك الدولي، HYPERLINK «http://data.albankaldawli.org/indicator/NY.GDP.MKTP.CD» http://data.albankaldawli.org/indicator/NY.GDP.MKTP.CD، تاريخ الزيارة ٣٠ مارس ٢٠١٥م.



أخلاق الإسلام في نظر الغربيين

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

إذا كان الإسلام قد استطاع إبان بزوغ فجره أن يمد إشعاعاته سلما بلا حروب، خصوصا في دول جنوب شرق آسيا، من الهند حتى حدود الصين والمحيط الهادئ، من خلال التجار الذين تمثلوا أخلاقه، وعكسوا بسلوكهم صدقه وأمانته وقيمه في التعامل مع الآخرين.. فإن الإسلام لايزال، بأخلاقه وقيمه، قادرا على أن يجذب إليه القلوب العطشى المتطلعة إلى رؤية نموذج خلقي ينقذها من ويلات المادية والنفعية والأنانية، التي يشقى بها الإنسان المعاصر.

كانت الأخلاق فيما سبق سفيرا للإسلام إلى مساحات شاسعة من البلدان التي عمرها وأنارها، وهي أيضا سفير الإسلام للحضارة المعاصرة التائهة.

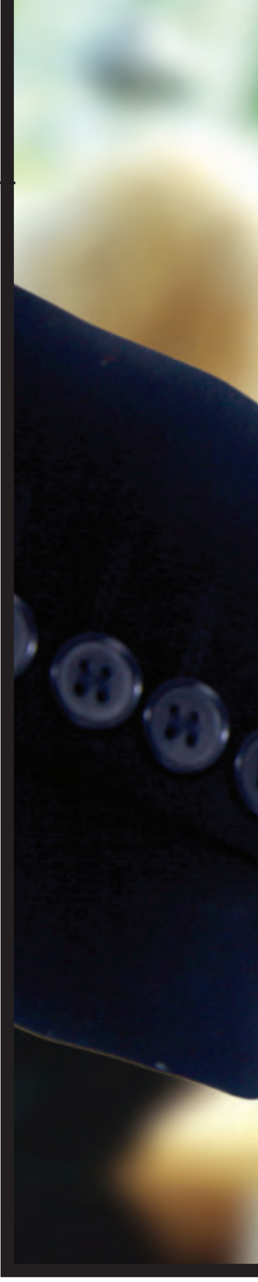
ولا أرانا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن «الفجوة الحضارية» إذا كانت قد باعدت بين عالم الإسلام وما سواه تباعدا كبيرا، كما وكيفا، خصم من قدرة المسلمين على الإسهام في العطاء الحضاري التقني والعلمي؛ فإن «أخلاق الإسلام» - بجانب عقائده وتشريعاته - هي التي بإمكانها أن تجعل المسلمين مؤهلين مجددا ليقدموا عطاء للإنسانية المعاصرة.

ولا غرو؛ فقد أكد الإسلام أهمية الأخلاق، ورفع منزلتها لدرجة أن جعلها «الغاية» من بعثة النبي ﷺ، الذي قال عن رسالته: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة). بل حين مدح الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ، جعل «الخلق العظيم» آية المدح وعلامة الرفعة والعلو، فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤).

ومن المهم في هذا الصدد أن نستعرض بعض شهادات الغربيين الذين أسلموا؛ لنرى كيف كانت «أخلاق الإسلام» سفيره لديهم، بحيث أغناهم ما رأوه من سلوك قويم وخلق حسن - ممن خالطوهم من المسلمين - عن كثير من الكلام حول الإسلام، وعن كثير من الشرح النظري لمبادئه وفضائله.

أخلاق ربانية

إن الأخلاق الإسلامية «أخلاق ربانية»، أي مصدرها هو الله سبحانه؛ هو الذي شرعها، وفصلها، ووضع حدودها وضوابطها ومعالمها؛ وبالتالي فإن المسلمين يلتزمون بها



من دون حاجة إلى رقيب خارجي أو سلطان قاهر؛ لأن الآمر بها هو الله سبحانه.

يقول محمد أمان هوبوهم (من ألمانيا): «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يغرس في نفوس من اتبعوه الشعور بمراعاة حدود الآداب والأخلاق، من دون حاجة إلى سلطان قاهر غير ضمائرهم؛ لأن المسلم يؤمن أنه حيثما كان فهو في دائرة رقابة ربه، وفي هذا ما يرده عن ارتكاب المعاصي» (١).

وتذكر السيدة زينب كوبولد (إنجليزية) أنها عندما كانت في الجزائر تعالج من مرض ألم بها، واختلطت بالجزائريين، أعجبت بأخلاقهم، وأبرزها: الأمانة، والعفة، والتراحم، والصدق. وعلمت أن تلك الصفات منشؤها الدين الذي يؤمنون به، فتطلعت إلى التعرف على أحكام هذا الدين العظيم (٢).

ولأن الأخلاق الإسلامية ربانية، فيصير مطلوبا الالتزام بها في كل الأحوال والأوقات؛ لأن العبد دائما تحت رقابة الله. يتحدث رافع شريف عن الفرق بين أخلاق المسلمين وغيرهم، فيقول: «كان من العوامل التي شجعتني على اعتناق الإسلام، أني وجدت المسلمين الذين تعرفت عليهم يعملون بتعاليم الدين كما ينبغي.. في حين أن زملائي وأصدقائي من قبل يرتكبون الحماقات والذنوب في العطلات الأسبوعية، ويعلنون توبتهم بعد ذلك واعترافهم، ثم يعودون إلى نفس الشيء.. وكنت أشعر بأن هذا نفاق بين الإنسان وربه، فالخطأ خطأ، والصواب صواب، فليس هناك ما يبرر ارتكاب الآثام» (٣).

أخلاق إنسانية

يقرر الإسلام أن الإنسان، بغض النظر عن دينه ولونه وجنسه، مخلوق كرمه الله سبحانه، وسخر له ما في السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠).

ولذا، أمر الإسلام بالعدل مع الناس كلهم، حتى مع المخالفين في الدين، فقال تعالى موجها الخطاب لنبيه ﷺ وللمؤمنين من بعده: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الشورى:١٥).

ولما سئل الدكتور عمر رولف إهرنفيلز (نمساوي) عن سبب إسلامه، قال: «ما يؤكده الإسلام من تدعيم روح الأخوة الإنسانية الشاملة بين عباد الله جميعا، أخوة لا تزعزعها فوارق اللغة أو الجنس أو التاريخ» (٤).

ومن إنسانية الأخلاق الإسلامية أن الإسلام قد شرع زيارة المريض حتى لغير المسلم؛ فقد زار النبي ﷺ غلاما يهوديا كان يخدمه حين مرض، وقعد عند رأسه وقال له: «أسلم». فنظر الغلام إلى أبيه، فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم؛ فخرج النبي ﷺ، وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» (رواه البخاري من حديث أنس).

يقول أستاذ الصحافة في جامعة نيويورك مارك سليفر عن سبب معرفته بالإسلام: مرضت ذات يوم أثناء إقامتي في المغرب، فوجدت عشرات من جيراني ومعارفي يأتون لزيارتي، ويحاول كل منهم أن يصنع لي شيئا، فدهشت لهذا السلوك الإنساني، الذي لم أجد له نظيرا في بلدي أميركا؛ حيث الكل لا يهتم إلا بنفسه، وطابع الحياة المادية البحتة هناك يصبغهم جميعا بالأنانية، ولهذا لا يكترثون بما يصيب الآخرين. ولذا، فإني حين سألتهم عن الدافع الذي يحملهم على صنع كل هذا من أجلي ومن دون مقابل! أجابوا جميعا: إن هذا هو ما يفرضه عليهم دينهم الإسلامي، ويأمرهم به رسولهم العظيم محمد ﷺ (٥).

إن خير شاهد على إنسانية الأخلاق الإسلامية، ذلك التسامح الذي أظل غير المسلمين في ديار الإسلام، وما تمتعوا به من حسن معاملة سمحت لهم بالاندماج في المجتمع الإسلامي، والاستفادة من تقدمه وخدماته، والعيش في أمن وحرية على عقائدهم وأعراضهم وأموالهم.

تشهد الكاتبة الأميركية المهتدية مريم جميلة على ذلك قائلة: «في ظل التسامح الإسلامي عاش اليهود داخل الحضارة الإسلامية أحرارا، وانطلقت ملكاتهم الفكرية.. وأشهر شخصية يهودية نبغت تحت حضارة الإسلام هو موسى بن ميمون». وتوضح أن تسامح المسلمين جعل موسى بن ميمون طبيبا خاصا لصلاح الدين الأيوبي؛ لأنه مثل غيره من اليهود لم يشعروا بغربة وسط الحضارة الإسلامية، مثلما شعروا في وسط الحضارة الغربية (٦).

أخلاق واقعية

إن الله سبحانه لم يكلف عباده شططا، ولم يرهقهم عسرا، سواء فيما يتصل بعقائد الإسلام، أو عباداته، أو

أخلاقه، أو تشريعاته؛ بل كلفهم بما يناسب طاقاتهم وإمكاناتهم، وفي الوقت نفسه بما يرفع من بشريتهم إلى مستوى فوق مستوى الملائكة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨).

ومن أبرز الحقائق التي تدل على واقعية الأخلاق الإسلامية، أن الرسول ﷺ – وهو الذي أمرنا باتباعه والاقتداء به – ليس إلها، ولا ابن إله، ولا ملكا؛ بل هو كما أمره الله في القرآن الكريم أن يعرف عن نفسه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (الكهف:١١٠). فهو ﷺ «إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون، باع واشترى، وصادق وعادى، وسالم وحارب، وتزوج وأنجب، كان يرضى ويسخط، ويفرح ويحزن، ويكره ويحب» (٧).

ولأن النبي ﷺ بشر من جنس البشر الذين أرسل إليهم، فإن هذا يجعل طلب الاقتداء به أمرا ميسورا ومعقولا؛ فلو كان ﷺ من غير البشر لكان ثمة وجه مقبول لاحتجاج بعضهم في عدم الاقتداء به حينئذ بأنهم لا طاقة لهم بالسير على خطاه.

يقول الأميركي ستيفنس كلارك (مصطفى يوسف) عن واقعية الأخلاق الإسلامية: «بعد الدراسة والاطلاع لمست أن كثيرا من تعاليم الأديان لا تتفق مع العقل والواقع؛ فكيف مثلا إذا ضربني أحد على خدي الأيمن أدير له خدي الأيسر؛ أو يتحول الخمر والخبز إلى دم المسيح ولحمه في بدن الإنسان وغيره! إنها مسائل تدخل في باب السحر ولا تدخل في باب الواقع؛ كما أن المسيح كان يعيش حياة يتعذر على الإنسان أن يحيا مثلها (أي يقتدي به فيها)، إنه من عالم آخر، وينبغي لمن يريد أن يتابعه أن يكون من جنسه ليستطيع أن يفعل مثله. أما بالنسبة إلى الإسلام، فمحمد ﷺ بشر وضع موضع الأسوة التي يمكن لكل بشر أن يقتدي بها؛ لأنه بشر مثله» (٨).

ويذكر جوزيف كليمنس أن من أسباب إسلامه «إعجابه المطلق بمبادئ الإسلام التي ترضي نزعات الرجولة في أتباعها، وتدعو إلى الذود عن الحق والحرية والكرامة بكل سلاح مشروع، وتنهى عن الخضوع والرضا بالقهر والهوان، وفي الوقت نفسه تأمر بالعفو عند المقدرة، وحماية الضعفاء، والإحسان إلى النساء، والحنو على اليتامى والمساكين» (٩).

دعوة عملية

غاية ما نريد أن نصل إليه من هذه الشهادات – وغيرها كثير – التي تعكس تجارب ذاتية صادقة عن الرحلة مع الإسلام، أن نذكر بأن تمسك المسلمين بأخلاقهم، ومعاملتهم غيرهم معاملة حسنة، يعدان «دعوة عملية» لاعتناق الإسلام، ويعدان أيضا «وسيلة صامتة هادئة» لتصحيح الصورة المغلوطة عنه، بلا كثير جهد، وبلا كثير نفقات قد تبذل من غير طائل!

يقول المغني الأميركي جيرمان جاكسون (شقيق المطرب المعروف مايكل جاكسون): «لقد عرفت أن وراء تلك الروح المتميزة التي أضفت على هؤلاء الشباب مثل هذه الأخلاق الحميدة هو دين الإسلام، الذي يحث على مكارم الأخلاق.. لم يعرض علي أحد الدخول في الإسلام مباشرة، وإنما بسلوك هؤلاء الشباب المسلم، وأخلاقهم الحميدة، وانضباطهم الملتزم في جميع تصرفاتهم؛ قد عرضوه علي بطريق غير مباشر؛ مما زاد إعجابي الشديد بهذا الدين الذي اعتنقته بلا أي تردد» (١٠).

هكذا نرى أن الأخلاق الإسلامية – بما تتميز به من ربانية، وإنسانية، وواقعية – قادرة على بيان عظمة الإسلام، وعلى تجلية جانب مشرق من جوانبه.. وأن الالتزام بها يعد – بحق – خير سفير للإسلام إلى الحضارة المعاصرة.

الهوامش

(١) محمد كامل عبدالصمد، الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ٢/ ١٤٤، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٥م.

(٢) المستشار محمد عزت الطهطاوي، في الدعوة إلى الإسلام، ص:٢٣٩، دار التراث، ط١، ١٩٧٩م، باختصار.

(٣) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ٢/ ٢٠٦، ٢٠٧.

(٤) الطهطاوي، في الدعوة إلى الإسلام، ص:٢٥١.

(٥) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ١/ ١٣٤، ١٣٥.

(٦) المصدر نفسه، ٣/ ١٧، ١٨.

(٧) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص:١٥٣، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٧٧م.

(٨) الطهطاوي، في الدعوة إلى الإسلام، ص:١٨٠. لا أوافق كلارك على قوله عن المسيح عليه السلام: «إنه من عالم آخر، وينبغي لمن يريد أن يتابعه أن يكون من جنسه ليستطيع أن يفعل مثله»؛ فكل الأنبياء، بمن فيهم المسيح عليهم السلام، بشر مثلنا، وإن تحلوا بهمة عالية جعلت أفعالهم كأنها من غير جنس أفعال البشر؛ ولا أساس لمن يزعم أن لعيسى عليه السلام طبيعتين: إلهية وبشرية! قال تعالى مؤكدا حقيقة بشرية الرسل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ (الأنبياء:٧و٨).

(٩) المصدر نفسه، ص: ٢٠٣.

(١٠) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ٢/ ١١٣.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:



ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

سؤال الأخلاق بين الإسلام والغرب!

محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ والتراث الإسلامي

تبدو أزمة الأخلاق المعاصرة مسألة إشكالية معقدة للوهلة الأولى؛ ذلك لأن هذه الأزمة لا ترتكن في جانب واحد من جوانب الحياة الإنسانية المعاصرة، بل أضحت مأزقا في كافة أشكال التمظهر الإنساني من السياسي إلى الاجتماعي إلى المعرفي إلى الاقتصادي إلى التكنولوجي، فجل الحقول الإنسانية والعلمية اليوم معنية بسؤال الأخلاق، وأسباب غيابها، وآثار هذا الغياب.

وتأتي أهمية «الأخلاق» لكونها الأساس الركين في قيام وسقوط الحضارات، وإننا نرى هذه الحقيقة جلية في تاريخ الحضارات البشرية؛ ففي كتابه «قصة الحضارة» لم يغب عن المؤرخ الأميركي الجاد «ولديورانت» أثناء استعراضه لمسار الحضارات الإنسانية منذ القدم حتى بدايات العصر الحديث، تتبع قضية الأخلاق وأشكالها في جل الحضارات التي وقف معها، وغالبا ما أفاض في الحديث عن أثر الأخلاق ومصادرها في تلك المجتمعات، فهو يقول عن دين اليونان: «يبدو لأول وهلة أن الدين اليوناني لم يكن ذا أثر كبير في الأخلاق، فقد كان في أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة، وبقي إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان» (١). وهاك حديثه عن سقوط الإمبراطورية الساسانية: «سادت وقتئذ الفوضى في تلك البلاد التي أنهكتها الحروب مدى ستة وعشرين عاما، وفشا في الدولة التفكك الاجتماعي بعد أن عمها الفساد الأخلاقي بتأثير الثروة التي جاءت في أعقاب النصر الحربي» (٢).

المذاهب الغربية ومأزقها الأخلاقي

وما بين الحضارة الغربية التي قامت ولاتزال على فلسفة الأخلاق التي وضعها فلاسفة اليونان الأقدمون كأرسطو وأفلاطون وغيرهما، والأخلاق الإسلامية التي ما جاءت إلا لتكمل محاسن الأخلاق وصالحها عامة ثم تحض على ثباتها واستمراريتها، كما نفهم من حديث نبينا ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» (٣). تسير البشرية اليوم بين طريقين نقيضين!

إن خطورة ضعف المسلمين اليوم، وتراجعهم أمام المأزق الأخلاقي العالمي الذي تفرضه أخلاق الحداثة المعاصرة، لا تنطوي آثاره على حضارتهم وأمتهم وحسب – برغم مأساوية هذا الوضع – وإنما تتكشف هذه المأساة على العالم كله؛ ذلك أن الفلسفة الأخلاقية اليونانية دفعت الإنسان الغربي إلى تحقير ما دونه من أجناس أخرى، وتبرير استعمار واستغلال واستعباد غير الغربيين، يقول برتراند رسل: «لقد أخطأ اليونان خطأ فاحشا حين أحسوا شعور السيادة على الشعوب البربرية، ولاشك أن أرسطو قد عبر عن فكرتهم العامة في ذلك حين قال: إن أجناس الشمال مليئة بشعلة الحياة، وأجناس الجنوب متحضرة، واليونان وحدهم هم الذين يجمعون الطرفين، فشعلة الحياة تملؤهم وهم في الوقت نفسه متحضرون. وأفلاطون وأرسطو كلاهما قد ذهبا إلى أنه من الخطأ أن يتخذ من اليونان عبيد، لكن ذلك عندهما جائز بالنسبة للشعوب البربرية!» (٤).

وسار الغربي المعاصر على درب أسلافه الأقدمين، وجل الأيديولوجيات والأفكار الأخلاقية التي انتشرت في القرنين التاسع عشر والعشرين وإلى الآن لم تخرج قيد أنملة عن التصورات اللاأخلاقية التي قعدتها الفلسفة الأخلاقية اليونانية أم الفلسفات الغربية المعاصرة.

وقد تنوعت تلك المذاهب؛ فـ«النفعية» تجلت عند بعض فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر، وفلاسفة الإنجليز مثل بنثام وجون ستيورات مل في القرن التاسع عشر والعشرين، و«معالم المذهب النفعي تتلخص في التقاء مفكريه على القول بأن اللذة

أو المنفعة هي الخير المرغوب فيه، والألم هو الشر الذي يجب تفاديه، ومن ثم فإن المنفعة عندهم هي مقياس الخيرية» (٥).

وفي القرن العشرين تفرع المذهب النفعي فروعا شتى وانتصر له طائفة من الفلاسفة الأميركيين بوجه خاص، ويتضح المذهب بصورة أوضح عند أحد كبار فلاسفته وهو وليم جيمس الذي يرى أن الخير يقوم في إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته، وجاء بعده جون ديوي الذي اعتبر الأفكار والمثل العليا والمبادئ مجرد وسائل وذرائع يستعين بها الإنسان فيتوجه سلوكه إلى حيث تتحقق مطالبه وغاياته (٦).

أما ماركس زعيم الفلسفة الاشتراكية فبسبب اعتقاده في أن التقدم لامندوحة عنه؛ ظن أنه من الممكن «الاستغناء عن الاعتبارات الأخلاقية؛ فإذا كانت الاشتراكية آتية فهي لابد أن تكون تحسينا» (٧).

الإسلام يقدم الجواب!

في المقابل يقدم الدين الإسلامي الجواب الكافي حول سؤال الأخلاق؛ إنه لا يقدم مادة وفيرة حول ماهية الأخلاق وأنواعها، وكيفية عملها في الإنسان وبالإنسان، وإنما يقدم الحلول الناجعة للمشكلات الأخلاقية الفردية والجماعية والعالمية على السواء.

لقد كشفت الحضارة الإسلامية في سيرتها الأولى وما تلاها اتكاءها على الأخلاق والقيم والمثل النبيلة، تجلت هذه الحقيقة في سيرة النبي ﷺ وسنته والوحي الإلهي المنزل عليه، وكشف أن خير الناس أحسنهم أخلاقا، قال: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقا» (٨)، وفي رواية أخرى: «إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقا» (٩)، وأمر أن يتخلق أصحابه وأتباعه بالخلق الطيب، فقال في الحديث الذي رواه أبوذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال لي رسول الله: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (١٠). وبين – خلافا للفلسفة اليونانية والغربية المعاصرة – أن الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وهي مخافة الله تعالى، فقال في حجة الوداع: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟»، قالوا: «بلغ رسول الله» (١١).

وقدم النبي ﷺ القدوة الأخلاقية، حتى إن الله تعالى صرح بهذا في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١).

وسار الصحابة – رضوان الله عليهم – على طريق النبي ﷺ، ولم يتجل نبلهم وأخلاقهم فيما بينهم فقط، وإنما في تعاملهم مع الآخر، في السلم والحرب، ولم تكن الحرب دافعة لهم لتجاوز ما اعتقوه من أخلاق الإسلام.

فنرى خليفة رسول الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول ليزيد بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – قبيل خروجه لفتح الشام: «إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا، ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن» (١٢).

وهي الوصايا التي تكشف الهوة الأخلاقية – عند المقارنة – بين ما قام به الفاتحون المسلمون وما قامت به الدول الاستعمارية الغازية في العصر الحديث، ولاتزال.

أما القرآن الكريم فهو دستور الأخلاق بحق؛ لأنه قد تميز عن الكتب والرسالات السابقة «بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، وهو الذي ظل متفرقا في تعاليم القديسين والحكماء، من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض، زمانا ومكانا، وربما لم يترك بعضهم أثرا من بعده يحفظ تعاليمه» (١٣).

وما بين دين وحضارة قامت على الأخلاق، وحضارة أخرى قامت على النفعية وتجنب سؤال الأخلاق ينزلق الإنسان المعاصر إلى هوة سحيقة من الانحلال والصراعات، طالما ظل الإسلام والمسلمون في موقع بعيد عن التأثير العالمي، هوة أعلنها منظرو الغرب دون مواربة في أطروحات «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات».

الهوامش

١- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ٦/٣٦٥. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس، ١٩٨٨م.

٢- ول ديورانت: قصة الحضارة ١٢/٣٠٤.

٣- مسند أحمد، ح (٨٩٣٩) ٢/٣٨١. مؤسسة قرطبة للنشر. وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح قوي الإسناد.

٤- برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود ١/٢٥١. لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ١٩٦٧م.

٥- مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٦١. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى – بيروت، ٢٠٠٤م.

٦- توفيق الطويل: الفلسفة الحديثة ص٢٧٦، ومصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٦٦.

٧- برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ٣/٤٣٤. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ١٩٩٧م.

٨- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ح (٣٣٦٦). تحقيق مصطفى البغا. دار اليمامة، الطبعة الثالثة – بيروت، ١٩٨٧م.

٩- البخاري ح (٣٥٤٩).

١٠- سنن الترمذي، ح (١٩٨٧). تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١١- مسند الإمام أحمد ٣٨/٤٧٤، ح (٢٣٤٨٩). وقال الأرناؤوط حديث صحيح الإسناد.

١٢- موطأ الإمام مالك، رواية يحيى الليثي (٩٦٥). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٣- محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص٨. مؤسسة الرسالة – القاهرة.



أخلاقنا الغائبة.. كيف نستعيدها؟!

آية سرور ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية - القاهرة

الصدق، العدل، الأمانة، حسن الخلق، الرفق، الإيثار، النصح، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر.. هذه بعض الأخلاقيات التي قامت عليها حضارة الإسلام. ذلك الدين المتين، الذي يقول رسوله الكريم ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ويقول ﷺ أيضا: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء». فكيف استبدل كثير من المسلمين الذي هو أدنى بالذي هو خير، فشاع الكذب والجور والخيانة وسوء الخلق.. وغيرها من الصفات التي شابت سلوكيات قليل أو كثير منا؟ وكيف يمكن استعادة الأخلاق الحميدة؟

«الوعي الإسلامي» سألت عددا من المختصين، وإليكم التفاصيل:

نبدأ مع ندوة عقدتها أخيرا كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر تحت عنوان: «الأخلاق الإسلامية بين النظرية والتطبيق»، تحدثت عن أن الأمة تعيش أزمة أخلاق، وتعاني من مظاهر انحطاط وفوضى وعنف وتخلف وبطالة، وأشارت إلى أن الأخلاق ليست معلومات ومعارف نظرية، إنما هي ترجمة على أرض الواقع.

وشدد المتحدثون في الندوة على أن تجديد الخطاب الديني يجب أن يرتكز على الأفعال، وأنه لو استطعنا ترجمة الدين في حياتنا فلن نحتاج إلى تجديد الخطاب الديني، مؤكدين أن النبي ﷺ ظل على مدار ثلاثة عشر عاما يربي أصحابه على الإيمان والثقة بالله، زارعا في نفوسهم الصدق والصبر وتحمل الأذى والإخلاص والتواضع والعطاء.

وانتهت الندوة إلى أن قضية الأخلاق ليست مجرد تعليم فقط بل تربية، وأن حسن الخلق يتأصل في معرفة الأخلاق في سلوكياتنا، وأن الأخلاق

الشيخ مصطفى: الاستمساك بالدين هو السبيل المستقيم لاستعادة الأمة أخلاقها النقية

الإسلامية تمتاز عن الوضعية بعدة سمات، منها: أن الأخلاق الإسلامية ثابتة لا تتغير عبر الزمان أو المكان، فبر الوالدين واجب أبدي، والكرم خلق دائم، وكذا الصدق لا تغيره المفاهيم المادية السائدة في المجتمع. أيضا الأخلاق الإسلامية محددة بضوابط الشريعة، وليست متروكة لأهواء الناس، فالحسن في نظر المسلم هو ما حسنه الشرع، والقبيح هو ما قبحه الشرع، مصداقا لقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

انفلات

إلى ذلك، قال د. علي الجبلي، أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، إن المرحلة التي تمر بها المجتمعات هي مرحلة تحولات كبرى في شتى المجالات بصفة عامة، وفي الثقافة بصفة خاصة، والأخلاق عنصر من عناصر الثقافة، وبالتالي حدث انفلات في بعض القيم، أطلق عليه علماء الاجتماع مصطلح «العالم المنفلت»، ولا يمكن استعادة تلك القيم إلا عن طريق دورة حياة كاملة جديدة، تبدأ بمرحلة معينة، وبعد ذلك تتحول إلى أخرى وهكذا، وستأخذ وقتا طويلا، لأن التغييرات في القيم والأخلاق هي تغييرات في البنية الأساسية. وقال إن على كل فرد أن يبدأ بنفسه في التغيير والتخلي عن تلك السلبيات، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)، ومن ثم الاهتمام بتربية النشء وتعليمهم تعليما صحيحا، وبالتالي تعم القيم الفاضلة وتختفي القيم السلبية.

وعن مشروع إحياء الأخلاق في المجتمعات، أكد أن المشروع القومي الحقيقي لابد أن يبدأ بالتعليم، وأن تتغير فلسفة التعليم، ولتتغير يجب أيضا تغيير بيئة التعليم، بداية من الأساتذة في المدارس والمعاهد والجامعات، لأنهم الأساس الذي يقع على عاتقه مهمة تغيير الأخلاق السلبية إلى إيجابية.

الأسرة أول الحلول

أما د. محمد حجاب، أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس، فأكد أن السبب وراء اختلال القيم وأخلاقيات المجتمع الإسلامي هو الاتصال بالحضارات المختلفة، والانفتاح على قيم الغرب بشكل كبير، ومع أن القيم نسبية، فما هو في المجتمعات الشرقية قيمة كبرى، قد يكون على النقيض في المجتمعات الغربية. وأوضح أن أزمة الأخلاق بدأت تطفو على سطح المجتمعات العربية منذ سبعينات القرن الماضي، بسبب ثورة التكنولوجيا والاتصالات والهجرة إلى الخارج بحثا عن العمل.

وقال إن المخرج الأول

مظاهر حسن الخلق

- إفشاء السلام: فذلك مما يزيل الحواجز النفسية ويقرب القلوب. قال ﷺ: «ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أفشوا السلام بينكم».
- البشاشة والابتسامة: تعطي شعورا بالرضا من كلا الطرفين. قال رسول الله ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك المسلم صدقة». وقال جرير رضي الله عنه: «ما حجبني رسول الله منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي».
- المصافحة بحرارة: فقد كان رسول الله إذا صافح أحد الصحابة يظل ممسكا بيده.
- الكلمة الطيبة: فالكلام الطيب هو كرم ليس فيه نفاق. قال رسول الله ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة».
- عدم الحديث إلا بما فيه مصلحة وخير: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت».
- عدم التناجي: فذلك مما يزرع الكراهية في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «لا يتناج اثنان دون الثالث».
- عدم الخوض فيما لا يعني الإنسان: فمن تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه. قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».
- حب الخير للآخرين وعدم الحسد: فالحسد من أخطر المعاول التي تهدم الروابط الاجتماعية.
- عدم احتقار الآخرين: فقد كان ﷺ يسلم على الكبير والصغير، وقد قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».
- الكف عن ذكر عيوب الناس: فذلك مما يجعل الآخرين يكفون عن تصيد عيوبك، كما قال الشاعر:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ
فكلك عورات وللناس ألسن

- مراعاة نفسيات الآخرين: نفوس الناس تختلف من شخص إلى آخر، فهناك من هو حساس وهناك من هو غير ذلك، فعلينا أن نراعي هذا الجانب.
- عدم جرح مشاعر الآخرين في ذكر ما لا يملكون: فهذا من شأنه أن يقوض الصداقة ويهدم عرى المودة والألفة.
- الهدية: وهي من أفضل الطرق لتجديد المودة وإنهاء ما قد يترسب في قلوب بعض الأصدقاء بسبب تصرف ما.
- السماحة واللين وعدم التعصب للرأي.
- الكمال لله وحده: فإرضاء الناس غاية لا تدرك وكثرة العتاب تنفر.

د. حجاب: الانفتاح على الحضارات المختلفة قوض أخلاقياتنا والحل يبدأ من الأسرة

والأهم لإعادة الأخلاق هو الأسرة، باعتبارها مؤسسة التنشئة التعليمية الأولى في المجتمع، ويجب أن تتماسك ويعود الأب بصورته النفسية والبيولوجية القوية كما كان من قبل، من رقابة ومتابعة للأبناء؛ لأن الابن يتقمص قيم أبيه ويسير عليها طوال حياته، وتلي المدرسة الأسرة مباشرة لدعم القيم الفاضلة في نفوس الأجيال؛ لأن الدين لابد له من دعائم يقوم عليها بصورة سليمة، ويأتي بعد ذلك الإعلام، فلا يصح أن تكون صورة الأب في الأعمال الدرامية والفنية ضعيفة ومخادعة.

وبرأيه، فإن القيم السلبية التي ظهرت في المجتمعات أساسها الطموح المادي، فالأمم تسعى إلى الربح المادي الذي ليست له حدود، وهذه قيمة من قيم الغرب، وبالتالي ليست هناك قناعة.

وأضاف أنه يمكن التصدي لهذه السلبيات عن طريق التربية والتعليم، وتعليم الدين بصورة صحيحة، فإذا اجتمعت التربية والتعليم والدين في مجتمع واحد أصبح رقم واحد في العالم.

مضامين سلبية

بدورها، قالت د. ثريا البدوي، أستاذة الإعلام بجامعة القاهرة، إن السبب وراء اختلال أخلاقيات المجتمع هو اختلال المؤسسات الاجتماعية، التي تتمثل في الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام، فإذا نظرنا إلى انتشار المدارس والجامعات الخاصة نجد أصحابها يتناسون القيم والأخلاق، ويركزون على ما يحصلونه من مبالغ مالية فقط من دون النظر إلى مرجعية العائلة ومستواها التعليمي، ومن دون بذل جهد حثيث في الارتقاء بالمستوى الأخلاقي للطلاب.

أما عن وسائل الإعلام، فليس لها أي دور توعوي فيما يتعلق بالهويات الثقافية والدينية للمجتمعات، ولا تحرص على أن تكون القيم والأخلاق مكونا أساسيا من مكونات الهوية الثقافية والدينية للمجتمعات، بل على النقيض من ذلك، إذ كثير من هذه الوسائل هي بحد ذاتها أداة من أدوات هدم الأخلاق، فمثلا غالبية الدراما المنتجة في بلادنا العربية تحمل مضامين سلبية أكثر منها إيجابية. وينبغي أن يستعيد الإعلام دوره التوعوي والأخلاقي ويلتزم بالمواثيق التي تضبط عمله وأخلاقياته، ولا يلهث وراء الإثارة أو الربح المادي على حساب رسالته الحقيقية.

وأضافت: أما بالنسبة إلى الأسرة، فقد انصرفت وراء كسب الرزق لتكفي المتطلبات اليومية، ولم يعد لديها وقت للتنشئة السليمة، بينما الأسر الغنية تعتمد في تربية أبنائها على العاملات ذات الجنسيات المختلفة، وبالتالي يتعلم الطفل منهن قيم المجتمع الذي تنتمين إليه وليس الذي ينتمي هو إليه ويعيش فيه.. مع وجود وسائل الإعلام الجديدة وتطلع الشباب لها بكثافة عالية، اختلت منظومة القيم تماما.

وتابعت د. ثريا: إذا قامت كل الجهات السابقة بدورها الحقيقي، وكانت هناك توعية جادة للنشء والشباب للاستمساك بصحيح الدين وتفعيله، وتم تجديد الخطاب الديني بما يتفق مع روح الدين وطبيعة العصر، فبالتالي يمكن استعادة الأخلاقيات الغائبة للمجتمعات مرة أخرى.

> **غياب التنشئة وراء تراجع الأخلاق**
>
> أكد الشاب أحمد مصطفى أيوب، الطالب بكلية الهندسة جامعة عين شمس، أن الأخلاق فطرة في الإنسان السليم، لكن هذه الفطرة تتعرض للعديد من العوامل التي تسببت في إفسادها، مؤكدا أن الإعلام وغياب دور الأسرة هما السبب الرئيسي في تراجع الأخلاقيات.
>
> في الاتجاه ذاته، قالت هند عماد، طالبة بكلية الآداب جامعة عين شمس، إن التطور التكنولوجي استُخدم الجانب السيئ منه، كالتنصت والمعاكسة وتتبع الآخرين وتصويرهم من دون إذن، مشيرة إلى أن غياب الأخلاق مسؤولية جماعية للأسرة والمؤسسات التعليمية والدينية والمجتمعية.
>
> وهو ما ذهبت إليه أيضا نورهان حسين، طالبة بكلية الآداب جامعة عين شمس، مؤكدة أن السبب وراء تراجع أخلاقيات المجتمع هو افتقاد القدوة الحسنة وانعدام التنشئة الاجتماعية الصحيحة، وسلبية المناهج التعليمية والقائمين عليها.

القدوة وخلق القرآن

بينما أوضح د. علاء نصير، أستاذ العلاقات العامة بجامعة الأزهر، أن اختلال القيم في المجتمعات سببه البعد عن صحيح الدين، مشيرا إلى أن الأخلاق في الإسلام ليست لونا من الترف يمكن الاستغناء عنه عند اختلاف البيئة، وليست ثوبا يرتديه الإنسان لموقف ثم ينزعه متى شاء، بل إنها ثوابت شأنها شأن الأفلاك والمدارات التي تتحرك فيها الكواكب لا تتغير بتغير الزمان، ذلك أنها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم:٣٠)، بينما الأخلاق السلبية التي ظهرت في المجتمعات سببها غياب القدوة الصالحة، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١)، فاتباع الرسول ﷺ واقتفاء أثره والسير على طريقه توصل

إلى مكارم الأخلاق، بينما البعد عن منهاجه ﷺ يعني القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفي القلب من ذلك سيئ الأخلاق.

وأضاف أن المشروع الأخلاقي يجب أن يكون في السلوك والعمل وليس مجرد شعارات أو كلمات، فقد ورد أن السيدة عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه».

الاستمساك بصحيح الدين

في الاتجاه ذاته، يؤكد الشيخ مصطفى عبدالرحيم جاد الرب، مدير عام الوعظ والإرشاد الديني ورئيس لجنة الفتوى بالوادي الجديد، أن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، وقد خص الله – جل وعلا – نبيه محمدا ﷺ بآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤). وورد عنه ﷺ أنه قال: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق». وقد عد النبي ﷺ حسن الخلق من كمال الإيمان، فقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا».

وأشار إلى أن من يسر الإسلام أن المسلم مأمور بالكلمة الهينة اللينة لتكون في ميزان حسناته، قال ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»، وحتى التبسم الذي لا يكلف المسلم شيئا، له بذلك أجر، قال ﷺ: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة».

وأضاف أن على المسلم الذي يريد أن يقتدي بنبيه ﷺ في حسن الخلق أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برا، وصولا، وقورا، صبورا، شكورا، راضيا، حليما، رفيقا، عفيفا، لا لعانا ولا سبابا، ولا نماما ولا مغتابا،

د. البدوي: إصلاح المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والإعلام أولى خطوات العلاج

ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا، ولا حسودا، يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، يتسم بالرفق في كل شيء، حتى مع الحيوان، فقد حذر النبي ﷺ من إيذاء الحيوان حتى ولو بمنع الطعام عنه فقال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وفي المقابل، فإن أصل الأخلاق المذمومة كلها في الكبر، والمهانة، والدناءة، والعجب، والحسد، والبغي، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض، والاستنكاف عن قبول النصيحة، والاستئثار، وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة، وأن يحمد بما لم يفعل.. وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر. وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس. وإن من سوء الخلق بذاءة اللسان، فعن علقمة عن عبدالله قال: قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء». وانتهى إلى أن الاستمساك بالدين الحنيف هو السبيل المستقيم لاستعادة الأمة

دينا: علينا استعادة أخلاقيات الرسول ﷺ كإفشاء السلام والتهادي والتبسم

أخلاقها المحمدية النقية.

حسن الخلق من الفطرة السليمة

بدورها، قالت خبيرة الإتيكيت دينا علي ماهر، إن اختلال القيم والأخلاقيات الصحيحة يرجع إلى أسباب عديدة، من أبرزها غياب التنشئة السليمة والدور السلبي الذي تمارسه وسائل الإعلام، لاسيما من خلال الدراما التليفزيونية التي صهرت القيم الحميدة التي تربت عليها الأجيال السابقة واستبدلت بها منظومة من الممارسات السلبية، وسمتها بغير أسمائها، فالخداع مثلا يسمونه ذكاء اجتماعيا.. وهكذا.

وأشارت إلى أن كل صفة طيبة وجميلة، مثل حسن الخلق، واحترام الكبير والعطف على الصغير، والإفساح في المجالس، وآداب الحديث، وآداب الطعام، وآداب النظافة وحتى دخول الخلاء، كلها سلوكيات مستمدة من صحيح الدين الإسلامي الحنيف، وبالطبع نقيض هذه السلوكيات من سوء الخلق، ورفع الصوت والسباب ولعن الآباء والأمهات وكذا الخيانة والتكبر، وسوء الأدب مع الكبير أيا كان، والدا أم معلما أم جارا وغير ذلك، كل هذا من الصفات المقوتة التي تتنافى مع الفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها.

وشددت على ضرورة التصدي لكل ما يفسد أخلاقيات المجتمع، والبدء في وضع مناهج تعليمية تعلي من شأن القيم والأخلاق وتتصدى لكل ما يتعارض معها، وتنفيذ برامج تليفزيونية للتوعية بأهمية السلوكيات الحميدة للأطفال والشباب والعائلة، بالإضافة إلى زيادة الموضوعات التي تتحدث عن الإتيكيت والقيم والسلوكيات التي حثنا عليها الرسول ﷺ كما في قوله: «أفشوا السلام بينكم»، وقوله ﷺ: «تهادوا تحابوا».. إلى غير ذلك من النصائح النبوية التي تسمو بأخلاقياتنا، ومن أبسطها وأجملها: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

الفِقهُ الافتراضيُّ.. رُؤيةٌ مقاصِديّة

عبدالفتاح همام
باحث دراسات إسلامية

الفقه الافتراضي: هو اجتهاد الفقيه في وضع الحكم الشرعي لما لم يقع بعد من الحوادث والنوازل المقدرة (١).

أو المراد به: تقدير الحوادث وفرض وقوعها، ثم إيجاد الحلول المناسبة لها، بناء على ذلك (٢).

وافتراض المسائل له جذور ممتدة إلى العهد النبوي؛ فقد وردت سؤالات مفترضة من قبل الصحابة للنبي ﷺ، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو في النار» (٣).

«فهذا نص قاطع في جواز فرض المسائل المحتملة الوقوع قبل وقوعها، وبيان حكمها إذا وقعت، فقد سأل الصحابي رسول الله ﷺ عما لم يقع، وشقق السؤال على وجوه مختلفة، وأجابه الرسول ﷺ عن كل الوجوه التي جوز السائل احتمال وقوعها ولم ينهه أو يقل له: حتى يقع» (٤).

وقد تميز الأحناف في هذا النوع من الفقه وعرفوا به، وسموا: «الأرأيتين»، أو: «أصحاب أرأيت» لأنهم يكثرون في سؤالهم بـ: أرأيت لوكان كذا فما الحكم؟ وماذا لو كان كذا؟ (٥).

وافترض الفقهاء مسائل كثيرة في أغلب أبواب الفقه الإسلامي، بعضها يمكن أن يقع في قابل الأيام، وبعضها نادر الوقوع، وبعضها يستحيل وقوعه.

ويترادف الفقه الافتراضي أو يتقارب مع ما يطلق عليه بالفقه التقديري، فقه التوقع، فقه المستقبل، الفقه الارتيادي، فقه الترقب، وكلها اصطلاحات قريب بعضها من بعض (٦).

الرؤية المستقبلية للفقه الافتراضي

الفقه الافتراضي - في مدلوله ومجال عمله - وهو فقه مستقبلي يقدر حدوث النوازل، ويصدر الفقيه مسألته بقوله: «أرأيت: لو حدث كذا وكذا»، أي في المستقبل، ووردتنا مسائل كثيرة من هذا الفقه أصبحت من صميم الفقه الإسلامي الآن.

وقد كان للخيال العلمي عند الفقهاء



دوره في وضع تصورات مستقبلية لكثير من الاحتمالات التي يمكن أن تقع، وبعضها تتقضي الأعمار ويستحيل وقوعه.

بل إن الفقه الافتراضي- باعتباره قائما على التقدير المستقبلي - له وشائج قوية بأدلة اجتهادية معتبرة، مثل اعتبار المآل. «فالمجال الزمني للفقه الافتراضي يتحد مع المجال الزمني لاعتبار المآل، فهما يبحثان في الزمن الآتي والمستقبل المتوقع» (٧)

لا أدري لم يمتعض البعض من الفقه الافتراضي، وكل الاختراعات والتقنيات العلمية المعاصرة كانت بذور خيال واسع يستحيل وقوعها، بل واتهم أصحابها بالجنون، ثم تحققت على أرض الواقع، بل العجيب أن السينما الغربية تأنسن (من الإنسان) الحيوانات، وتجعل لها دورا سينمائيا، وبرعت في أفلام الخيال العلمي، وحصدت جوائز عالمية استحسانا لها وتشيجعا.

وقد حاول البعض التشنيع بقصد أو من دون قصد على الفقه الافتراضي، وساق فروعا افتراضية غريبة، وعمم بها الحكم على هذا النوع من الفقه، والبعض تعمد سياق فروع افتراضية، تشكيكا في الإسلام، وغمزا وطعنا في عقلية الفقهاء (٨).

ولكن يشاء الله سبحانه أن يعبر كثير من الباحثين عن شدة الاحتياج إلى هذا الفقه، ودونت بعض المقالات: لا تقتلوا الفقه الافتراضي (٩)، ودعوة إلى إحياء علم الفقه الافتراضي (١٠)، وعقدت مؤتمرات كثيرة تعبر عن الرغبة الملحة في الافتراض المستقبلي والاستشراف المآلي (١١).



مقاصدية الفقه الافتراضي

لقد قصدت فيما قصدته من كتابة هذه الكلمة إظهار الدوافع التي دعت الفقهاء إلى الافتراض، وقراءة المقاصد التي حركتهم لهذا الاتجاه.

المقصد الأول: حسن الاستعداد للتعامل مع المتوقعات.

ويشهد له قول أبي حنيفة لقتادة: «إنا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه» (١٢)، وأصله ما ثبت في الصحيح عن حذيفة بن اليمان أنه، «كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يقع فيه» (١٣).

قال السرخسي: «فإن قيل: لماذا أورد هذه المسائل (أي المفترضة) مع تيقن كل عاقل بأنها لا تقع، ولا يحتاج إليها، قلنا: لا يتهيأ للمرء أن يعلم ما يحتاج، إليه إلا بتعلم ما لا يحتاج إليه، فيصير الكل من جملة ما يحتاج لهذا الطريق، وإنما يستعد للبلاء قبل نزوله» (١٤).

فمقصد الاستعداد من أهم مقاصد الاجتهاد الافتراضي الذي يستشرف النازلة قبل وقوعها، ويستعد لها ولآثارها ومآلاتها، ثم ينزل الأحكام الشرعية المناسبة لها.

المقصد الثاني: الدربة على تخريج الواقعات للتعليم وتفقيه الطلاب وتدريبهم على تخريج الواقعات من أهم مقاصد الاستشراف الافتراضي والفتيا المستقبلية؛ إذ تعين الطلاب على تنمية ملكة الاجتهاد، وإتقانهم صناعة الفتوى، وترسيخ القواعد وتفريع الفوائد.

قال البيهقي: «وبلغني عن أبي عبدالله الحليمي رحمه الله أنه أباح ذلك للمتفقهة الذين غرض العالم من جوابهم تنبيههم وإرشادهم إلى طريق النظر والإرشاد، لا ليعملوا، ثم

قال: وعلى هذا الوجه، وضع الفقهاء مسائل المجتهدات، وأجروا بآرائهم فيها، لما في ذلك من إرشاد المتفقهة، وتنبيههم على كيفية الاجتهاد» (١٥).

وقد ذكر الإمام الجويني أن طريقة الافتراض في الفقه يستفاد منها في معرفة مدارك الأحكام، وأسرار المعاني، قال: «وفيها التنبيه على مأخذ الأصول والفروع، ومن أحكمه تفتحت قريحته في مباحث المعاني، وعرف القواعد والمباني، ورقى إلى مرقى عظيم من الكليات لا يدركه المتقاعد الواني، وطرق المباحث لا تتهذب إلا بفرض التقديرات قبل وقوعها، والاحتواء على جملتها ومجموعها» (١٦).

ومن الطريف الذي يحكى أن الإمام أبا يوسف لما أراد أن يتصدر للتدريس قبل إجازة شيخه الإمام أبي حنيفة له، أرسل إليه رجلا يسأله عدة مسائل افتراضية، فلم يحسن الجواب، وعاد مرة أخرى إلى شيخه، وغرض الإمام أبي حنيفة تمكينه من ملكة الاجتهاد، وتدريبه على صناعة الفتوى (١٧).

«وعلى هذا فقس ما تسأل عنه من هذا النوع، فإن هذا النوع لا يدخل في الواقعات إنما وضعوه لتشحيذ الخواطر، وامتحان المتبحرين في العلم» (١٨).

المقصد الثالث: نمو الفقه وازدهاره وتجديده.

الاستشراف الافتراضي عند الأقدمين من أهم مكونات الفقه وروافده ومصادره، وأصبح ذخيرة علمية، وإلى الآن ما زلنا نجد فيه حلولا وأجوبة لكثير من التساؤلات المعاصرة الواقعة والمتوقعة. «والحق أنه لو قدر نجاح الفكرة التي تقاوم هذا النوع من الفقه ما كانت لنا هذه الثروة الفقهية العظمى الوافية التي نعتز ونفاخر بها» (١٩).

وذهب العلامة محمد أبوزهرة إلى أن التنظير الافتراضي أمر لابد منه لنمو الفقه، واستنباط قواعده ووضع أصوله، ويرى أنه لازم لدارس الفقه، بل «إن ذلك هو لب العلم وروحه، ومن وقت أن صار الفقه علما يتدارس بين المسلمين، تحت ظل كتاب الله، مستقيا من سنة رسول الله ﷺ، والمسائل الممكنة الوقوع تفرض وتفرض لها أحكام... وإذا كان لفقهاء الرأي في ذلك السبق، فهو سبق إلى فضل، وإلى أمر ترتب عليه خير كثير ونفع عميم» (٢٠).

ونرى مصداق ذلك في تدوين المدونة في فقه الإمام مالك، فأصل فكرتها هو الإمام أسد بن الفرات الذي كان ميالا إلى الاستشراف الافتراضي والتقدير الاجتهادي للمسائل، فذهب إلى محمد ابن الحسن وتشرب منهجه وطريقته، ثم ذهب إلى ابن القاسم بعد أن جرد مسائل العراقيين من أحكامها المبنية على مذهب أبي حنيفة، وأراد معرفة جوابات مالك عليها من تلاميذ الإمام، وبعض المسائل واقعية، وكثير منها افترضي، وإن لم يكن بعيد الوقوع، قال ابن رشد عن المدونة: «وكانت مؤلفة على مذهب أهل العراق، فسلخ أسد بن الفرات منها الأسئلة، وقدم بها المدينة ليسأل عنها مالكا - رحمه الله - ويردها على مذهبه، فألفاه قد توفي» (٢١).

المقصد الرابع: إحياء الاجتهاد وتطوره.

نقل الشوكاني عن البعض اعتبار النظر فيما لم يقع مسلكا من مسالك الاجتهاد، ونوعا من أنواعه، فقال: وقال بعضهم: الاجتهاد في حق العلماء على ثلاثة أضرب: فرض عين، وفرض كفاية، وندب.

فالأول (أي فرض عين): على حالين:

أحدهما: اجتهاد في حق نفسه عند نزول الحادثة.

والثاني: اجتهاد فيما تعين عليه الحكم فيه، فإن ضاق فرض الحادثة كان على الفور، وإلا كان على التراخي.

والثاني (فرض كفاية): على حالين:

أحدهما: إذا نزلت بالمستفتي حادثة، فاستفتى أحد العلماء، توجه الفرض على جميعهم، وأخصهم بمعرفتها من خص بالسؤال عنها، فإن أجاب هو أو غيره سقط الفرض، وإلا أثموا جميعا.

والثاني: أن يتردد الحكم بين قاضيين مشتركين في النظر، فيكون فرض الاجتهاد مشتركا بينهما، فأيهما تفرد بالحكم فيه سقط فرضه عنها.

والثالث (الندب): على حالين:

أحدهما: فيما يجتهد فيه العالم من غير النوازل، ليسبق إلى معرفة حكمه قبل نزوله.

والثاني: أن يستفتيه قبل نزولها (٢٢).

من خلال قراءة النقل السابق، نجد أن بعض أنواع الاجتهاد أخذ مزيدا من البحث والدرس، وخصوصا الاجتهاد النوازلي، أما النوع الثالث وهو الاجتهاد الاستشرافي الذي يفترض الوقائع قبل نزولها فلم يكن الاهتمام به مثل سابقيه، وأحسب أن النوع الثالث من الاجتهاد الاستشرافي في الوقت الحاضر سيجد في الدراسات المستقبلية وبحوثها ومناهجها آلية ووسيلة لتفعيله.

إن هذا الفقه يمكن أن يقوم بنصيب كبير في تطوير الاجتهاد في الفقه الإسلامي؛ إذ قدم لنا ألوفا من القضايا المتوقعة، وهذا فتح بابا للاجتهاد فيها والتعامل معها. وهذا ينفي عن هذا الدين اتهامه بالجمود والماضوية؛ إذ هو يفتح أبوابه للمستقبل وقضاياه عبر الفقه

الافتراضي الذي يستبصر حلول المشكلات قبل وقوعها..

وتفعيل الاجتهاد الافتراضي يترتب عليه – غير تطوير الاجتهاد وتجديده – الخروج عن دائرة التقليد.

المقصد الخامس: عرض بدائل فقهية.

كان علماؤنا يراعون الاحتمالات المختلفة للمسائل ويذكرونها وأحكامها، ويطالبون بمراعاتها، فالغزالي يقول في حقيقة القولين: فعلى كل ناظر في المسائل وظائف خمس:

أولها: وضع صورة المسألة وفهمها.

والثانية: طلب الاحتمالات فيها واستقصاؤها.

والثالثة: حصر ما ينقدح من جملة تلك الاحتمالات، وتعليلها ما أمكن.

والرابعة: طلب أدلة الاحتمالات.

الخامسة: طلب الترجيح في تلك الأدلة (٢٣).

والفقه الافتراضي يرصد جملة من الاحتمالات والبدائل، فتأتي الفتيا المستقبلية للتعامل مع هذه البدائل والاحتمالات، وتبين أحكامها؛ مما يقلل الغموض الذي يكتنف الأحداث والقضايا، كما أنه يقلل الخطأ في الفتيا، ويزيد من رجحان الصواب والتسديد.

المقصد السادس: التخريج الفقهي.

لقد حاول العلماء المعاصرون تخريج كثير من النوازل الواقعة على القضايا المفترضة، ووجدوا تشابها بينهما، فخرجوا الواقع النازل على الواقع المفترض، فوفر عليهم جهدا كبيرا، وقرب إليهم صورا محتملة يقيسون عليها. ومن القضايا المخرجة على الفقه الافتراضي:

ما قاله الشاطبي في الاعتصام: «لو كان ثم من يسير إلى فريضة الحج طيرانا في الهواء أو مشيا على الماء لم يعد مبتدعا بمشيه كذلك، لأن المقصود إنما هو التوصل إلى مكة لأداء الفرض، وقد حصل على الكمال» (٢٤).

جاء الشاطبي بافتراض كان مستحيلا في زمنه، فأصبح جزءا من حياتنا اليومية.

وقد أورد الحطاب هذه المسألة في شرحه لمختصر خليل، فقال: «ولو طار ولي الله – تعالى – إلى جهة السماء قبل طلوع الفجر بساعة، فإنه يرى الفجر في مكانه، بل ربما رأى الشمس، ومع ذلك يحرم عليه صلاة الصبح حينئذ؛ لأن الفجر الذي نصبه الله – تعالى – سببا لوجوب الصبح إنما هو الفجر الذي نراه على سطح الأرض فتحصل من هذا أنه إذا علم دخول الوقت بشيء من الآلات القطعية مثل الإسطرلاب والربع والخيط المنصوب على خط وسط السماء، فإن ذلك كاف في معرفة الوقت وإذا أراد أن يعتمد على مجرد رؤية المنازل طالعة، أو متوسطة فلابد أن يتربص حتى يتيقن دخول الوقت؛ لأن مجرد رؤية المنزلة طالعة، أو متوسطة لا تفيد بمعرفة الوقت تحقيقا، إنما هي تقريب، بخلاف ما إذا علم توسط كوكب معلوم بالخيط المذكور وعلم مطالعه وأنه يتوسط عند طلوع الفجر، أو العشاء فهذا يفيد معرفة دخول الوقت تحقيقا فيعتمد ذلك» (٢٥).

«هكذا استفاد العلماء من هذه المعلومة، ليعلموا كيف يحسب الوقت للصلاة في الطائرة، فيجب أن ينتظر المصلي حتى وقت الفجر على الأرض. وعلمنا أنه يمكن قياس الوقت بالآلات» (٢٦).

وقد خرج الإمام القرافي على مسألة تقدير اجتماع العيد والكسوف، جملة من المسائل التي وقعت فأفاد وأغنى رحمه الله (٢٧).

الهوامش

(١) الفقه الافتراضي بين أهل الرأي وأهل الحديث، مجلة الوعي الإسلامي، د. محمود النجيري، عدد٥٣٢.
(٢) العقل الفقهي، د. نوار الشلي، ١٥٠.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيد.
(٤) منهج السلف في السؤال عن العلم، الشيخ عبدالفتاح أبوغدة،٣٣.
(٥) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، الشيخ محمد الخضري ٢٧٧.
(٦) انظر: مقال فقه المستقبل، مجلة الوعي الإسلامي، عدد،٥٦٠.
(٧) الفقه الافتراضي وتطبيقاته المعاصرة، د. صلاح الدين خلوق، ٩.
(٨) من خلال تصفحي في شبكة المعلومات (النت) وجدت بعض المواقع التنصيرية تسوق فروعا فقهية افتراضية طعنا في الإسلام وتشنيعا على أهله، وكان هذا من أهم الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا المقال.
(٩) مقال للكاتب إبراهيم الشدوي، صحيفة الندوة، عدد،٩٩٣.
(١٠) مقال للكاتب أحمد علي آل مريع، مجلة البيان، عدد، ٢٧١.
(١١) انظر: الإفتاء ودراسات المستقبل، عبدالفتاح همام، كتاب أصدرته روافد في سلسلتها الرائعة،عدد١٠٤، وزارة الأوقاف الكويتية.
(١٢) تاريخ بغداد، ٣٤٨/١٣.
(١٣) البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، مسلم في الإمارة باب: الأمر بلزوم الجماعة.
(١٤) المبسوط للسرخسي،١/ ٢٤٢.
(١٥) المدخل إلى السنن الكبرى، ٢٢٧.
(١٦) الغياثي: فقرة، ٨٣٦ .
(١٧) الأشباه والنظائر لابن نجيم ٤٢٥.
(١٨) المبسوط للسرخسي، ط دار الفكر،٣/ ٢٩٤.
(١٩) مقدمة موسوعة جمال عبدالناصر في الفقه الإسلامي، بإشراف الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط١٣٨٦/١هـ جـ١، ص٣١.
(٢٠) أبوحنيفة: حياته وعصره،٢٠٤.
(٢١) المقدمات ٤٥/١، والصحيح أن أسدا كان بالعراق وقت وفاة مالك، وانظر: مالك لأبي زهرة، ٣٤٩.
(٢٢) إرشاد الفحول،٢١١/٢.
(٢٣) حقيقة القولين،٢٩٤.
(٢٤) الاعتصام ٢٥٣/١.
(٢٥) مواهب الجليل، ٣٨٦/١.
(٢٦) الفقه الافتراضي، نجوى زنتوت،٨٨.
(٢٧) انظر: اليواقيت في أحكام المواقيت، ١٢ وما بعدها.

في عهد عمر بن عبدالعزيز

السِّياسَةُ المالِيَّةُ الراشِدَةُ

بوعزيز الشيخ
باحث دراسات إسلامية

أخذت سياسة عمر بن عبدالعزيز المالية مكانة بالغة الأهمية في فترة خلافته، إذ تشهد أيامه التي قضاها على رأس الخلافة أنه كان مديرا ماليا بامتياز، كيف لا، وقد تميز عهده برخاء اقتصادي، حتى صار أهل الزكاة لا يجدون من يأخذ زكاتهم، وذلك لعدم وجود من يستحقها، بسبب الرفاهية الاقتصادية المنقطعة النظير، وسنتناول في هذا المقام الإشادة بأهم الإجراءات المالية المتخذة في عهده، وأثرها على النواحي الاقتصادية للخلافة، لذلك فإن دراسة السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبدالعزيز تعد أمرا مهما، لأن عهده جاء بعد أن ظهرت عدة تجاوزات مالية واقتصادية، لم تكن موجودة زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين.

الكلمات المفتاحية

السياسة المالية

تمثل السياسة المالية أحد أهم الركائز التي تتحقق بها التنمية الاقتصادية، إذ تعتبر إحدى الوسائل المهمة لمحاربة مظاهر الفقر والتخلف، وتسعى نحو التقدم في شتى مجالات الحياة، وجدارا صلبا لمواجهة المشكلات الاقتصادية، من خلال محاربة التضخم وتحقيق الاستقرار الاقتصادي بشكل عام، والاستقرار المالي بشكل خاص، بالإضافة إلى السعي لتحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي، بمحاربة مظاهر الفقر والبطالة، وتحقيق العدالة في توزيع الدخول، والإقلال من الفجوات ما بين الفئات المختلفة للمجتمع، ناهيك عن الجانب البيئي الذي هو أساس الحياة البشرية.

وبالرغم من تطبيق السياسات المالية المختلفة في إطار الفكر الغربي، سواء أكان رأسماليا أو اشتراكيا، فإن هذه السياسات أثبتت فشلها لعدم، ملاءمتها لطبيعة وبيئة مختلف المجتمعات الإسلامية، مما دفعنا إلى الرجوع إلى الماضي، واستخلاص الدروس المثالية في ضوء سياسة مالية راشدة، انتهجها خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز، والتي استطاع من خلالها تحقيق اقتصاد مثالي، أعتبره مثالا خالدا للعدالة الاقتصادية، لم تشهد المعمورة مثله حتى الساعة.

أهمية البحث تظهر أهمية البحث من خلال إبراز أهمية الرجوع إلى الأسس والمبادئ الراشدية لمواجهة الأزمات المالية والاقتصادية العصرية التي ترتبط بالدول الإسلامية عموما، وبالدول العربية خصوصا.. والتي تتمثل في: طرح المنهج الإسلامي بصورة علمية ومنهجية للحكام المسلمين المبتعدين عن جوهر الدين، وعن تطبيقه في حياتهم العامة، ولغير المسلمين الذين يبحثون عن بديل للنظام المالي المنفعي المتعدد



الأزمات.

مشكلة البحث تتلخص مشكلة البحث في الحاجة إلى دراسة علمية تحليلية لعوامل الرفاهية الاقتصادية، في عهد الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبدالعزيز التي بدأت من خلال تطبيق نظام مالي مثالي. ومحاولة الإجابة على أهم الأسس الضوابط المالية التي أدت إلى الازدهار الاقتصادي في عهده.

الفرضيات تناولت الدراسة اختيار فرضية أن النظام المالي الراشد له الأثر الكبير في تحقيق التوازن الاجتماعي، مما يدفع بعجلة التنمية الاقتصادية إلى النقطة المثالية.

من هو عمر بن عبدالعزيز؟ سؤال وجب الإجابة عنه قبل الدخول في صلب الموضوع، هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ابن عبدشمس بن عبدمناف أبوحفص القرشي الأموي أمير المؤمنين، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١). ومن هذا يتبين أن عمر بن عبدالعزيز من أشرف قبائل العرب حسبا، وأعظمها نسبا، فجده لأبيه هو مروان بن الحكم الذي اختلف في كونه صحابيا من أصحاب النبي ﷺ، أو من أكابر التابعين (٢). وأما جده لأمه فإنه فاروق الأمة وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد اجتمع له طيب المحتد، ورقي الأصل من جهة أبيه وأمه، ويسجل التاريخ عن عبدالعزيز بن مروان والد عمر أنه ولد في المدينة المنورة، ثم دخل الشام مع أبيه مروان، وكان ولي عهده بعد أخيه عبدالملك، وقد ولاه أبوه الديار المصرية في سنة خمس وستين (٣).

١- تعريف السياسة المالية

اشتق مصطلح السياسة المالية أساسا من الكلمة الفرنسية «Fisc»، وتعني حافظة النقود أو الخزانة (٤). وكانت السياسة المالية يراد في معناها الأصلي كل من المالية العامة وميزانية الدولة، وتعزز استخدام هذا المصطلح على نطاق واسع أكاديمي بنشر كتاب «السياسة المالية ودورات الأعمال» للبروفيسور Alain. H. HANSEN، ويعكس مفهوم السياسة المالية تطلعات وأهداف المجتمع الذي تعمل فيه، فقد استهدف المجتمع قديما إشباع الحاجات العامة وتمويلها من موارد الموازنة العامة، ومن ثم ركز الاقتصاديون جل اهتمامهم على مبادئ الموازنة العامة وضمان توازنها، ولكن نظرا لأن اختيار الحاجات العامة المطلوب إشباعها يتطلب من المسؤولين اتخاذ قرارات، وأن هذه الأخيرة قد تحدث آثارا متعارضة أحيانا، فتثير مشكلة كيفية التوفيق بين هذه الأهداف المتعارضة وتحقيق فعاليتها، على نحو مرغوب، وفي ضوء تلك التوفيقات والتوازنات يتكون أساس ومفهوم السياسة المالية (٥).

٢- أسس السياسة المالية لعمر بن عبدالعزيز

تتجلى أسس السياسة المالية لعمر بن عبدالعزيز من خلال النظر والتبصر في بعض خطبه المشهورة، والتي كانت تحمل في طياتها ملامح سياسية مالية راشدة، استلهمها مما سبقه في الحكم من الخلفاء الراشدين، وبالأخص من سيدنا عمر بن الخطاب، والدليل على ذلك طلبه من سالم بن عبدالله بن عمر أن يكتب له سيرة مفصلة لعمر ابن الخطاب (٦)، حتى تكون له سندا وذخرا يقتدي به مستقبلا.

وحين توليه الإمارة في الدولة الإسلامية ألقى خطابه التالي: «أوصيكم بتقوى الله عزوجل، فإن تقوى الله خلف من كل سعي، وليس من تقوى الله عزوجل خلف. واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه - فيما بينه وبين آدم عليه السلام - أبا حيا، لمعرق له في الموت. وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحدا باطلا، ولا أمنع أحدا حقا».

وقد جاءته عمته ذات يوم وهو خليفة المسلمين في الأرض، تشكوه مساواته لهم مع بقية أفراد المجتمع، واسترداده للأموال والمخصصات المالية من المنح والعطايا التي كانت تصل إلى أهل بيت الخليفة وأقربائه، فرفض شكواها جملة وتفصيلا، وكان جوابه صريحا وواضحا، حيث قال لها: «يا عمة، اعلمي أن النبي ﷺ مات وترك الناس على نهر مورود، فولي ذلك النهر بعده رجل، فلم يستنقص منه شيئا حتى مات، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر، فلم يستنقص منه شيئا حتى مات، ثم ولي ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابسا لا قطرة فيه، وأيم الله لئن أبقاني الله لأردنه إلى مجراه الأول، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالي، والوالي لا يزيل ذلك، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناء عنه في غيرهم» (٧).

ومن خلال التمعن في أقواله، تتضح أهم المعالم التي أسس بموجبها سياسته المالية والتي كانت تقوم على ما يلي:

- العدل المالي ورفع الظلم: من خلال رؤيته الثاقبة بوجود انتهاكات في تطبيق السياسة المالية لمن سبقوه من أمراء بني أمية (٨)، من خلال قوله فيما سبق ذكره: «وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيها ﷺ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم»، وهو ما دفعه إلى ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم وجعلها أساسا لقيام سياسة مالية راشدة، فجميع الأهداف والوسائل التي اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم، هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسي من مقاصدها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا

﴿مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).
يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة (٩).
ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول في ذلك: ما من طينة أهون علي فتا، ولا كتاب أيسر علي ردا من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها (١٠).

● تأكيده على تطبيق السياسة المالية المنتهجة أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وذلك من خلال قوله بأنه إن أبقاه الله ليردن النهر المورود الذي تركه الرسول ﷺ إلى سابق عهده (١١)، وأيضا من خلال طلبه لسالم بن عبدالله بن عمر أن يكتب له سيرة عمر بن الخطاب، ومنه الوصول إلى العمل بنفس السياسة المالية التي انتهجها عمر بن الخطاب، والتي بدورها كانت تقوم على مجموعة من الأسس نلخصها فيما يلي:

● مساواة الخليفة مع الرعية في الطعام والكساء. حيث حلف عمر رضي الله عنه بأن لا يذوق السمن واللبن حتى يلبي احتياجات الرعية من الطعام (١٢)، وجاءت ممارسة الفاروق رضي الله عنه لهذا المبدأ كدليل واضح على مبدأ العدل والمساواة في التسيير المالي لشؤون الخلافة الإسلامية.

● إلحاق كل الأمور المالية من إيرادات ونفقات بشخصه إلى جانب أمور الخلافة، حيث قال: «من أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له واليا وقاسما».

● بناء سياسة مالية تقوم على مبدأ حصول كل ذي حق على حقه من بيت المال، وذلك بمنعه جل أنواع العطايا، استنادا لقوله: «ولا أمنع أحدا حقه».

● الاختيار الأمثل للأمراء والولاة الصالحين القادرين على التسيير المثالي لشؤون المالية، حينما اعتبر أن صاحب بيت المال ركن من أركان أربعة لتثبيت السلطان.

● التسيير الرشيد والعقلاني في الإنفاق المال العام، حيث يقول: «ولكم إذا وقع في يدي (أي المال العام) ألا يخرج مني إلا بحقه».

● إقامة إدارة الجباية العادلة، وقد قال في هذا الشأن: «ولكم علي ألا أجتبي شيئا من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه».

● إعادة الأموال التي أخذت من أصحابها ظلما: لأنها تبقى حائلا دون مشاركة الأفراد في مشروعات التنمية وتطوير الأوضاع الاقتصادية، وإن هذه الأموال تبقى في ذاكرة المجتمع مؤشرا سلبيا على ثقة الناس بالمصلح، لأن رفع شعار الإصلاح الاقتصادي يتعارض مع الصورة بإبقاء الظلم، لأن من لا يصلح القديم لا يحسن في الجديد، فكتب عمر ابن عبدالعزيز إلى عماله في مال قبضه بعض الولاة ظلما، أن يرده إلى أهله، وتؤخذ زكاته لما مضى من السنين، ثم عقب ذلك، بأن لا يؤخذ منه إلا زكاة سنة واحدة، فإنه كان ضمارا (١٣).

● الاهتمام بفريضة الزكاة العينية والتشديد عليها، وعدم التهاون في جمعها وإنفاقها، والحرص على وصولها للمستحقين لها.

● محاربة الفساد المالي والرشوة باسم الهدية، قال عمرو بن مهاجر: اشتهى عمر بن عبدالعزيز تفاحا، فأهدى له رجل من أهل بيته تفاحا، فقال: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام للذي أتى به، وأقرئ فلانا السلام، وقل له: إن هديتك وقعت عندنا بحيث نحب، فقلت يا أمير المؤمنين: ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية، فقال: ويحك إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، وهي لنا اليوم رشوة (١٤).

● زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة، وموارد بيت المال الأخرى.

● تحسين موارد الدولة المالية، وضبطها بالضابط الشرعي، كجباية الزكاة والخراج وغيرها.

ومما سبق ذكره، يتضح أن أسس السياسة المالية لعمر بن عبدالعزيز كانت في الأصل مزيجا بين أسس من سبقوه في الحكم من الخلفاء الراشدين، وعلى رأسهم الفاروق عمر رضي الله عنه وإبداعات شخصية، استهلها بعمليات إصلاحية للمخالفات المالية التي شابت بعض الشؤون المالية في عهد بني أمية، وكذا توزيع دقيق وعادل للثروة، وختمها بضبط شامل للنظام المالي، بزيادة الموارد وضبط الإنفاق، مع مراعاة ترتيب حقوق الناس في مختلف أرجاء الخلافة الإسلامية.

٣- دور الأسس المالية الراشدة في تحقيق الرخاء الاقتصادي:

لقد كان للأسس المالية التي استند إليها عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه الأثر الكبير والسريع على الأحوال الاقتصادية للمجتمع الإسلامي، والملاحظ أن الخليفة الراشد الخامس كان ينظر دائما إلى المال على أنه وسيلة لتحسين أحوال الرعية، وليس وسيلة للمنافع الشخصية، وفي ذلك بدأ عمر بن عبدالعزيز بنفسه باعتباره المثل والقدوة فوهب كل ما يملك من أموال وأراض هو وزوجته إلى بيت المال، لكي تنفق على شؤون المسلمين، وهو ما جعله يكسب قلوب من عايشوه في تلك الحقبة.

كانت سياسة عمر المالية تهدف على إيصال الناس إلى حد الكفاية، من خلال زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى، ويلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يوما فقال: «وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن وهم، وأكون أنا أولهم» وفي خطبة أخرى يقول: «ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما

أحد لا يسعه ما عندي إلا وددت أنه بدئ بي وبلحمتي الذي يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم» وقد ظهر ذلك عمليا عندما أمر بقضاء دين الغارمين، عندما كتب إليه عامله على الصدقات: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فأجاب عمر لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه، فسياسة عمر المالية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهي حاجات يرى أنها أساسية، وضرورية للإنسان، تصعب الحياة بدونها (١٥)

٤- الآثار الاقتصادية المقتبسة نتيجة تطبيق السياسة المالية الراشدة في عهد عمر بن عبدالعزيز

باختصار يمكن القول بأن الأسس المالية المنتهجة من طرفه رضي الله عنه، كان لها أهمية كبيرة في تحقيق الأهداف الاقتصادية في ظرف وجيز لا يتعدى الثلاثين شهرا، ويمكن الإشارة إلى بعض الآثار الاقتصادية المحققة في إطار تطبيق السياسة المالية الراشدة:

١- القضاء نهائيا على جميع أوجه الفقر والحاجة حتى اكتفى الناس، ووصل الأمر بهم، أن كان الرجل يخرج زكاة ماله، فلا يجد أحدا فقيرا ليستلمها (١٦).

٢- حل مشكلة مديونية الأفراد وكذا القضاء نهائيا على كل الآفات الاقتصادية للمجتمع، نتيجة الفائض المالي الذي شهدته ميزانية الدولة في عهده، لاندفاع أفراد المجتمع للعمل والإنتاج، بعد استقرار الأمن والتخلص من القوانين الجائرة المعيقة للاستثمار، فكثر عدد المؤدين للزكاة، وانخفاض عدد القابضين لها.

٣- معالجة مشكلة العجز المالي التي لطالما عانت منها خزينة الخلافة خاصة في عهد عبدالملك بن مروان نتيجة التكاليف التي كانت تتحمل عبئها الخلافة في عهده، بتقديم الجزية لملك الروم، بسبب عدم قدرة الدولة في تلك الحقبة على مواجهته عسكريا، نتيجة نقص الأموال والعتاد العسكري (١٧).

٤- اتباع سياسة محاربة الإسراف والتبذير والرشوة والفساد المالي من طرف شخصه كان لها الأثر الكبير في التقليل من تكاليف الإنتاج، وهذا بدوره أعطى للمشروعات الإنتاجية إمكانية الربحية والاستمرار والنمو والتطوير إلى الأفضل، من خلال زيادة المبيعات فزيادة الإنتاج ومقابلة الطلب المتزايد يحجم من عملية ارتفاع الأسعار.

٥- إن تطبيق سياسة زكاة المال والتكافل الاجتماعي للخليفة الخامس ساعد على هطول الأموال واستثمارها في المشروعات الطيبة الحلال، كما أن إيتاء الزكاة عينا من أفضل السياسات المالية العمرية لتقليل عرض النقود وبذلك لا تخلق فرصا للتضخم الاقتصادي.

نتائج الدراسة:

بعد أن سافرنا في الصفحات السابقة مع أهم الأسس المالية لعمر بن عبدالعزيز وكذا أهميتها في معالجة المشاكل الاقتصادية نحب أن نوجز للقارئ الكريم أهم ما توصل إليه هذا البحث.

حيث يتضح مما سبق، أن للسياسة المالية الراشدة والسليمة دورا كبيرا في القضاء على أهم المشاكل الاقتصادية إذا طبقت التطبيق الصحيح، ولعل في دراسة أسس السياسة المالية الراشدة في عهد عمر ابن عبدالعزيز الدليل الكافي والشافي على أنها تحمل في طياتها العلاج الناجح للمشاكل الاقتصادية التي يتخبط فيها المجتمع الإسلامي في الوقت المعاصر، وأسس السياسة المالية هي في الأصل تنبع من تعاليم الكتاب والسنة، بالإضافة إلى تلك التوجهات الاجتهادية التي لا تخرج عن الإطار الديني. ويمكن التأكيد على أن اتباع النهج المالي الراشد الذي طبقه عمر بن عبدالعزيز في عهده رضي الله عنه سيحقق الرفاهة المالية والاقتصادية والاجتماعية في وقتنا المعاصر، باعتبار أن العصر الحديث يمتاز بوفرة عناصر الإنتاج وتنوعها، بالإضافة إلى التطور العلمي الهائل والذي يجعل من تطبيق النهج المالي لعمر بن عبدالعزيز سهلا وممكنا، خاصة إذا ما توفرت الإرادة العمرية والهمة السياسية التي تساعد كثيرا على نجاح السياسة المالية الراشدة.

والملاحظ من خلال تعمقنا في دراسة المنهج الراشدي المالي لعمر ابن عبدالعزيز أن السياسة المالية والاقتصادية أخذت حظها الوافر من الاهتمام وأقصى درجات العناية، وذلك من خلال الإجراءات الصارمة التي عمل على تطبيقها بعد توليه الخلافة مباشرة.

الهوامش

١- البداية والنهاية (٥/٢٥٢)، الثقات لابن حبان (٥/١٥١)، ط/ دار الفكر.

٢- نفس المرجع السابق، (٤/٧٩٩-٨٠٠)، الطبقات الكبرى (٥/٢٣٠)، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٧/٢٩٥) ط/ دار الجيل.

٣- نفس المرجع السابق، (٤/٧٧)، الطبقات الكبرى (٥/٢٣٦)، الثقات لابن حبان (٥/١٢٢) ط / دار الفكر العربي، ١٩٧٥م.

٤- طارق لحاج، المالية العامة، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩م، ص٢٠١.

٥- السياسة المالية ودورها في تحقيق التوازن الاقتصادي، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة، دراوسي مسعود، ص ٤٧.

٦- عمر بن عبدالعزيز، لابن كثير القرشي، ص ١٠٧.

٧- نفس المرجع السابق، ص ١٠٩.

٨- السياسة المالية لعمر بن عبدالعزيز، قطب إبراهيم محمد، ص ٥٨.

٩- أعلام الموقعين (٣/ ٣).

١٠- سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي ص ١١٣.

١١- نفس المرجع السابق، ص ٥٨.

١٢- تاريخ ابن خلدون، جـ٢ ص ١١٤.

١٣- أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد عبدالعليم البردوني.

١٤- أبوالفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، الدراية في تخريج أحاديث الهداية، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني.

١٥- د. محمد عوده العمايدة: كيف أغنى عمر ابن عبدالعزيز الناس؟ www.alhiwartoday..net

١٦- الواسطي، تاريخ واسط، ج١، ص١٨٤.

١٧- البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص١٦٤. الأصبهاني، حلية الأولياء، ج٣، ص١٧٦.



الحنين إلى الأوطان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

لكل شيء من العلم، ونوع من الحكمة، وصنف من الأدب، سبب يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتا، ومعنى يحدو على جمع ما كان منه متفرقا. ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله.. بطلت الحكمة، وضاع العلم، وأميت الأدب، ودرس مستور كل نادر.

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل في الصخر، لبطل أول العلم وضاع آخره. ولذلك قيل: «لا يزال الناس بخير ما بقي الأول يتعلم منه الأخير».

وإن السبب الذي بعث على جمع نتف من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تربها وبلدانها، ووصفها في أشعارها توقد النار في أكبادها، أني فاوضت بعض من انتقل من الملوك في ذكر الديار، والنزاع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخر أمهد من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصب من جنابه. ولم يزل عظيم الشأن جليل السلطان، تدين له من عشائر العرب ساداتها وفتيانها، ومن شعوب العجم أنجادها وشجعانها، يقود الجيوش ويسوس الحروب، وليس ببابه إلا راغب إليه، أو راهب منه؛ فكان إذا ذكر التربة والوطن حن إليه حنين الإبل إلى أعطانها، وكان كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعي
وأضحى فؤادي نهبة للهماهم
حنينا إلى أرض بها اخضر شاربي
وحلت بها عني عقود التمائم
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه
وأرعاهم للمرء حق التقادم

فقلت: «لئن قلت ذلك لقد قالت العجم: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة».

وقالت الهند: «حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك، لأن غذاءك منهما، وأنت جنين، وغذاءهما منه».

وقال آخر: «احفظ بلدا رشحك غذاؤه، وارع حمى أكنك فناؤه. وأولى البلدان بصبابتك إليه بلد رضعت ماءه، وطعمت غذاءه».

وكان يقال: «أرض الرجل ظئره، وداره مهده، والغريب النائي عن بلده المتنحي عن أهله، كالثور الناد عن وطنه، الذي هو لكل رام قنيصة».

وقال آخر: «الكريم يحن إلى جنابه، كما يحن الأسد إلى غابه».

وقال آخر: «الجالي عن مسقط رأسه ومحل رضاعه، كالعير الناشط عن بلده، الذي هو لكل سبع قنيصة، ولكل رام دريئة».

وقال آخر: «تربة الصبا تغرس في القلب حرمة وحلاوة، كما تغرس الولادة في القلب رقة وحفاوة».

وقال آخر: «أحق البلدان بنزاعك إليه بلد أمصك حلب رضاعه».

وقال آخر: «إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره فالإنسان

أحق بالحنين إلى أوطانه».
وقال الحكماء: «الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشدة، وطهارة الرشدة من كرم المحتد».
وقال آخر: «ميلك إلى مولدك من كرم محتدك».
وقال آخر: «عسرك في دارك أعز لك من يسرك في غربتك»، وأنشد:

لقرب الدار في الإقتار خير
من العيش الموسع في اغتراب

وقال آخر: «الغريب كالغرس الذي زايل أرضه، فقد شربه، فهو ذاو لا يثمر، وذابل لا ينضر».
والقول في حب الناس الوطن وافتخارهم بالمحال قد سبق، فوجدنا الناس بأوطانهم أقنع منهم بأرزاقهم.
ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: «لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى عبد الرزق». وترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب، والمحل القفر، والحجر الصلد، وتستوخم الريف، حتى قال بعضهم:

أتجلين في الجالين أم تتصبري
على ضيق عيش والكريم صبور
فبالمصر برغوث وحمى وحصبة
وموم وطاعون وكل شرور
وبالبيد جوع لا يزال كأنه
ركام بأطراف الإكام يمور

وترى الخضري يولد بأرض وباء وموتان وقلة خصب، فإذا وقع ببلاد أريف من بلاده، وجناب أخصب من جنابه، واستفاد غنى.. حن إلى وطنه ومستقره.
ولو جمعنا أخبار العرب وأشعارها في هذا المعنى لطال اقتصاصه، ولكن توخينا تدوين أحسن ما سنح من أخبارهم وأشعارهم، وبالله التوفيق.
ومما يؤكد ما قلنا في حب الأوطان قول الله عزوجل حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها من قلوب عباده فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء:٦٦)، فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (البقرة:٢٤٦).
وقال الأول: «عمر الله البلدان بحب الأوطان». وكان يقال: «لولا حب الناس الأوطان لخربت البلدان».

لولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ونقرهم آثار الأوائل في الصخر لبطل أول العلم وضاع آخره

وقال عبدالحميد الكاتب وذكر الدنيا: «نفتنا عن الأوطان، وقطعتنا عن الإخوان».
وقالت الحكماء: «أكرم الخيل أجزعها من السوط، وأكيس الصبيان أبغضهم للكتاب، وأكرم الصفايا أشدها ولها إلى أولادها، وأكرم الإبل أشدها حنينا إلى أوطانها، وأكرم المهارى أشدها ملازمة لأمها، وخير الناس آلفهم للناس».
وقال آخر: «من أمارات العاقل بره لإخوانه، وحنينه إلى أوطانه، ومداراته لأهل زمانه». واعتل أعرابي في أرض غربة فقيل له: «ما تشتهي؟». فقال: «حسل فلاة وحسو قلات». وسئل آخر فقال: «مخضا رويا، وضبا مشويا».
وقالت العرب: «حماك أحمى لك، وأهلك أحفى بك».
وقيل: «الغربة كربة، والقلة ذلة». وقال:

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبدا
إن الغريب ذليل حيثما كانا

وقال آخر: «لا تنهض عن وكرك فتنغصك الغربة، وتضيمك الوحدة».
وقال آخر: «لا تجف أرضا بها قوابلك، ولا تشك بلدا فيه قبائلك».
وقال آخر: «يحن اللبيب إلى وطنه، كما يحن النجيب (١) إلى عطنه»، وقال:
«كما أن لحاضنتك حق لبنها، كذلك لأرضك حق وطنها».
وذكر أعرابي بلده فقال: «رملة كنت جنين ركامها، ورضيع غمامها، فحضنتني أحشاؤها، وأرضعتني أحساؤها».
وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه، فلا أم ترأمه، ولا أب يحدب عليه.
وقالت أعرابية: «إذا كنت في غير أهلك؛ فلا تنس نصيبك من الذل». قال الشاعر:

لعمري لرهط المرء خير بقية
عليه وإن عالوا به كل مركب
إذا كنت في قوم عدا لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب

وفي المثل: «أوضح من مرآة الغريبة» - وذلك أن المرأة إذا كانت هديا في غير أهلها تتفقد من وجهها وهيئتها

ما لا تتفقده وهي في قومها وأقاربها - فتكون مرآتها مجلوة تتعهد بها أمر نفسها.

كانت العرب إذا غزت، وسافرت، حملت معها من تربة بلدها رملا وعفرا (٢) تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع، أنشد لبعض بني ضبة:

نسير على علم بكنه مسيرنا
بعفة زاد في بقايا المزاود
ولابد في أسفارنا من قبيصة
من الترب نسقاها لحب الموالد

وقيل لأعرابي: «كيف تصنع في البادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟»، قال: «وهل العيش إلا ذاك؟! يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس في فيئه يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى».

وقيل لأعرابي: «ما أصبركم على البدو؟»، قال: «كيف لا يصبر من وطاؤه (٣) الأرض، وغطاؤه السماء، وطعامه الشمس، وشرابه الريح؟! والله لقد خرجنا في إثر قوم قد تقدمونا بمراحل ونحن حفاة، والشمس في قلة السماء، حيث انتعل كل شيء ظله، وإنهم لأسوأ حالا منا: إن مهادهم للعفر، وإن وسادهم للحجر، وإن شعارهم للهواء، وإن دثارهم (٤) للخواء:

إذا ما أصبنا كل يوم مذيقة
وخمس تميرات صغار كوانز
فنحن ملوك الأرض خصبا ونعمة
ونحن أسود الغاب عند الهزاهز
وكم متمن عيشنا لا يناله
ولو ناله أضحى به حق فائز»

ولهذا الشعر خبر طويل وصف فيه نوقا أضلها، واقتصرنا منه على ما وصف من قناعته بوطنه.

وحدثنا سليمان بن معبد، أن الوليد بن عبدالملك أراد أن يرسل خيله، فجاء أعرابي له بفرس أنثى، فسأله أن يدخلها مع خيله، فقال الوليد لقهرمانه أسيلم ابن الأحنف: «كيف تراها يا أسيلم؟»، فقال: «يا أمير المؤمنين، حجازية، لو ضمها مضمارك ذهبت». قال الأعرابي: «أنت والله منقوص الاسم، أعوج اسم الأب». فأمر الوليد بإدخال فرسه، فلما أجريت الخيل سبق الأعرابي على فرسه، فقال الوليد: «أواهبها لي أنت يا أعرابي؟»، فقال: «لا والله، إنها لقديمة الصحبة، ولها حق، ولكن أحملك على مهر لها سبق عاما أول وهو رابض». فضحك الوليد وقال: «أعرابي مجنون!»، فقال: «وما يضحككم؟ سبقت أمه عاما أول وهو في بطنها». فاستظرفه واحتبسه عنده، فمرض، فبعث إليه الوليد بالأطباء، فأنشأ يقول:

إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه

جاء الأطباء من حمص تخالهم
من جهلهم أن أداوى كالمجانين
قال الأطباء: ما يشفيك قلت لهم
دخان من التسرير يشفيني
إني أحن إلى أدخان محتطب
من الجنينة جزل غير موزون

فأمر الوليد أن يحمل إليه سليخة، من رمث فوافوه وقد مات فهو عند الخليفة، وببلد ليس في الأقاليم أريف منه، ولا أخصب جنابا، فحن إلى سليخة رمث وحبا للوطن.

وحكى أبوعبدالله الجعفري عن عبدالله بن إسحق الجعفري قال: «أمرت بصهريج لي في بستان عليه نخل مطل أن يملأ، فذهبت بأم حسانة المرية وابنتها - وهي زوجتي - فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجليها في الماء، فقلت لها: ألا تطوفين معنا على هذا النخل، لنجني ما طاب من ثمره؟ فقالت: ههنا أعجب إلي. فدرنا ساعة وتركناها، ثم انصرفنا وهي تخضخض رجليها في الماء وتحرك شفتيها، فقلت: يا أم حسانة، لا أحسبك إلا وقد قلت شعرا. قالت: أجل. ثم أنشدتني:

أقول لأدنى صاحبي أسره
وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه
لعمري لنهي باللوى نازح القذى
نقي النواحي غير طرق مشاربه
بأجرع مجراع كأن رجاجه
سخاب من الكافور والمسك شائبه
أحب إلينا من صهاريج ملئت
للعب فلم تملح لدي ملاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبته بالعشي هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أوسرت جنح الظلام جنائبه».

ولما حملت نائلة بنت الفرافصة الكلبية إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، كرهت فراق أهلها، فقالت لضب أخيها:

«ألست ترى بالله يا ضب أنني
مرافقة نحو المدينة أركبا
أما كان في أولاد عوف بن عامر
لك الويل ما يغني الخباء المطنبا
أبى الله إلا أن أكون غريبة
بيثرب لا أما لدي ولا أبا».

وقال آخر:

«ألا يا حبذا وطني وأهلي
وصحبي حين يُدَّكر الصحاب
وما عسل ببارد ماء مزن
على ظمأ لشاربه يشاب
بأشهى من لقائكم إلينا
فكيف لنا به ومتى الإياب».

قال: «ومن هذا أخذ الطائي قوله:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل».

... وأنشد أبو عمرو البجلي:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد
وريا روضه غب القطار
وعيشك إذ يحل القوم نجدا
وأنت على زمانك غير زاري
شهور ينقضين وما شعرنا
بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل
وأقصر ما يكون من النهار

وأنشد للمجنون:

إلى عامر أصبو، وما أرض عامر
هي الرملة الوعساء والبلد الرحب
معاشر بيض لو وردت بلادهم
وردت بحورا ماؤها للندى عذب
إذا ما بدت للناظرين خيامهم
فثم العتاق القب والأسل القضب

وأنشدنا المازني:

اقرأ على الوشل السلام وقل له
كل الموارد مذ هجرت ذميم
جبل ينيف على الجبال إذا بدا
بين الغدائر والرمال مقيم
تسري الصبا فتبيت في ألواذه
ويبيت فيه من الجنوب نسيم
سقيا لظلك بالعشي وبالضحى
ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك برد مائك لم يذق
ما في قلاتك ما حييت لئيم

وقال آخر:

ألا ليت شعري والحوادث جمة
متى تجمع الأيام يوما لنا الشملا
وكل غريب سوف يمسي بذلة
إذا بان عن أوطانه وجفا الأهلا

وقال آخر:

وأنزلني طول النوى دار غربة
إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
فحامقته حتى يقال سجية
ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله
ولو كنت في قومي وجل عشيرتي
لألفيت فيهم كل خرق أواصله

وأنشد لذي الرمة:

إذا هبت الأرواح من نحو جانب
به أهل مي هاج قلبي هبوبها
هوى تذرف العينان منه، وإنما
هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وقال أبوعثمان: «رأيت عبدا أسود حبشيا لبني أسيد - قدم من شق اليمامة - فصار ناطورا (٥)، وكان وحشيا مجنونا لطول الغربة مع الإبل، وكان لا يلقى إلا أكرة، فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إلي، وسمعته يقول: لعن الله أرضا ليس بها عرب، قاتل الله الشاعر حيث يقول: «حر الثرى مستعرب التراب». أبا عثمان، إن هذه العُريب في جميع الناس كمقدار القرحة في جلد الفرس، فلولا أن الله رق عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم. أترى الأعيار (٦) إذا رأت العتاق لا ترى لها فضلا، والله ما أمر الله نبيه ﷺ بقتلهم، إذ لا يدينون بدين، إلا لضنه بهم، ولا ترك قبول الجزية منهم إلا تنزيها لهم».

وقيل لأعرابي: «ما السرور؟»، فقال: «أوبة بغير خيبة، وألفة بعد غيبة».

وقيل لآخر: «ما السرور؟»، فقال: «غيبة تفيد غنى، وأوبة تعقب منى». وأنشأ يقول:

وكنت فيهم كممطور ببلدته
يسر أن جمع الأوطان والمطرا

وأحسن ما سمعنا في حب الوطن وفرحة الأوبة قوله:

وباشرتها فاستعجلت عن قناعها
وقد يستخف الطامعين المياسر

مشمرة عن ساق حولاء جسرة
تجاري بنيها مرة وتحاضر

وخبرها الوراد أن ليس بينها
وبين قرى نجران والدرب صافر

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

وقيل لبعض الأعراب: «ما الغبطة؟»، فقالوا: «الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان». قيل: «فما المذلة؟»، قال: «التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان».

وقال آخر:

طلب المعاش مفرق
بين الأحبة والوطن

ومصير جلد الرجا
ل إلى الضراعة والوهن

حتى يقاد كما يقا
د النضو في ثني الرسن

ثم المنية بعده
فكأنه ما لم يكن

ووجدنا من العرب: من قد كان أشرف على نفسه، وأفخر في حسبه، ومن العجم: من كان أطيب عنصرا وأنفس جوهرا أشد حنينا إلى وطنه، ونزاعا إلى تربته.

وكانت الملوك على قديم الدهر لا تؤثر على أوطانها شيئا.

وحكى الموبذ أنه قرأ في سيرة إسفنديار بن يستاسف ابن لهواسف، بالفارسية، أنه لما غزا بلاد الخزر ليستنقذ أخته من الأسر، اعتل بها، فقيل له: «ما تشتهي؟»، فقال: «شمة من تربة بلخ، وشربة من ماء واديها».

وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدة فقرهم يحنون إلى أوطانهم، ويقنعون بتربهم ومحالهم.

ورأيت المتأدب من البرامكة المتفلسف منهم، إذا سافر سفرا أخذ معه من تربة مولده في جراب يتداوى به.

ومن أصدق الشواهد في حب الوطن، أن يوسف – عليه السلام – لما أدركته الوفاة أوصى أن تحمل رمته إلى موضع مقابر أبيه وجده يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام.

وروي لنا أن أهل مصر منعوا أولياء يوسف من حمله، فلما بعث الله موسى – عليه السلام – وأهلك على يديه فرعون وغيره من الأمم، أمره أن يحمل رمته إلى تربة يعقوب بالشام، وقبره معلوم بأرض بيت المقدس بقرية تسمى حسامي.

وكذلك يعقوب، مات في مصر فحملت رمته إلى إيلياء (قرية بيت المقدس)، وهناك قبر إسحق بن إبراهيم – عليهما السلام.

ومن حب الناس للوطن، وقناعتهم بالعطن، أن إبراهيم لما أتى بهاجر أم إسماعيل مكة فأسكنها، وليس بمكة أنيس ولا ماء، ظمئ إسماعيل فدعا إبراهيم ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم:٣٧)، فأجاب الله دعاءه، إذ رضى به وطنا، وبعث جبريل – عليه السلام – فركض موضع زمزم برجله، فنبع منه زمزم.

ومر بإسماعيل وأمه فرقة من جرهم، فقالوا: «أتأذنون لنا أن ننزل معكم؟»، فقالت هاجر: «نعم، ولا حق لكم في الماء»، فصار إسماعيل وولده قطان مكة، لدعوة إبراهيم عليهما السلام.

نعم، وهي مع جدوبتها خير بقاع الأرض، إذ صارت حرما، ولإسماعيل وولده مسكنا، وللأنبياء منسكا ومجمعا على غابر الدهر.

وقال آخر في حب الوطن:

سقى الله أرض العاشقين بغيثه
ورد إلى الأوطان كل غريب

وأعطى ذوي الهيئات فوق مناهم
ومتع محبوبا بقرب حبيب

الهوامش

(١) النجيب: الفرس الكريمة الجيدة.
(٢) العفر: وجه الأرض.
(٣) الوطاء: هد الفراش.
(٤) الدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار، وهو ما يلي الجسد.
(٥) الناطور: حارس الزرع.
(٦) الأعيار: جمع: عير، وهو البعير.



بين ميسون ومعاوية

التحرير

حكي أن ميسون بنت بحدل الكلبية لما اتصلت بمعاوية، وكانت ذات جمال باهر وحسن غامر، أعجب بها وهيأ لها قصرا مشرفا على الغوطة وزينه بأنواع الزخارف، ووضع فيه من أواني الفضة والذهب ما يضاهيه، ونقل إليه من الديباج الرومي والموشى ما هو لائق به، ثم أسكنها مع وصائف لها كأمثال الحور العين، فلبست يوما أفخر ثيابها وتزينت وتطيبت بما أعد لها من الحلي والجوهر الذي لا يوجد مثله، ثم جلست في روشنها وحولها الوصائف، فنظرت إلى الغوطة وأشجارها، وسمعت تجاوب الطير في أوكارها، وشمت نسيم الأزهار وروائح الرياحين والنوار، فتذكرت نجدا وحنت إلى أترابها وأناسها وتذكرت مسقط رأسها، فبكت وتنهدت، فقالت لها بعض حظاياها ما يبكيك وأنت في ملك يضاهي ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إلي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي
أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج
أحب إلى من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق دوني
أحب إلي من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب
أحب إلي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف
أحب إلي من علج عنوف

فلما دخل معاوية عرفته الحظية بما قالت، وقيل إنه سمعها وهي تنشد ذلك، فقال: ما رضيت بنت بحدل حتى جعلتني علجا عنوفا، هي طالق ثلاثا.

القَوْلُ المأثُورُ فِي إِحيَاءِ الصَّوابِ المهْجُور (٣٣)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



المترجمون كثر والكثرة فاتحة الاختلاف، والاختلاف يفضي إلى القصور عن إيفاء المعنى حقه، لأن صراط الالتزام بالمعنى الأصل دقيق، والواطئ عليه يلزمه الاتصاف بحذر الثعابين، وصدق المتقين، واستواء اللسانين لكي ينجو من استحالة إيفاء أي لغة بما تعبر عنه لغة أخرى، ولذلك نجد المترجمين يقدمون ويؤخرون ويزيدون وينقصون ويخلطون العبارات المبرمة المزمومة بالعبارات السحيلة غير المحكمة، رغبة في إصابة المراد الذي لا يزيد ولا يقصر عن الكلام المترجم. ولقد أدرك القدامى صعوبة هذه البغية، حيث إن «الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها... وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه؟» (١)، لأن اللغات لا تتطابق بأسمائها وصفاتها وقوتها وضعفها ومجازاتها وحقائقها وثرائها وفقرها، بل تسعى كل لغة إلى التمسك بأسرارها وخصائصها وعبقريتها الموحية التي تجعل الترجمان يخطو على دحض رغم بذل الوسع والمجهود؛ لأجل ذلك اشترطت شرائط يجب أن يستوفيها المترجم الذي لابد «أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة. وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية» (٢) مستوي اللسانين، قادرا على ضبط الاشتغال اللغوي والتمييز الدلالي الذي يتوصل بهما لإدراك المعنى المراد للدلالة التبعية التي تنطوي

على ظلال وإيحاءات تفرض على المترجم الانتقال من الفهم إلى التأويل، ولذلك عدت الترجمة عملا تأويليا يخفف من صعوبة الوصول إلى نوع من الاتحاد التام بين كلمات وعبارات اللغتين المختلفتين، لأن هناك جوانب مغلقة في الثقافات البشرية، ومن ثمة لا يمكن نقلها إلى الثقافة الأخرى، إلا إذا كنا مستعدين للتنازل عن محصلة الأفكار والعقائد والأخلاق والعادات، وكل ما توحي به تلك الكلمات والعبارات من مشاعر وأحاسيس تعكس الهوية الثقافية للغة. وآية ذلك أن طائر البومة عند العرب يرمز إلى الدمار والخراب والفراق، بينما يوحي في الثقافة الإنجليزية بالحكمة والمعرفة، كما أن القمر بالنسبة إلى العرب يدل على البهاء والضياء والجمال، بينما الثقافة الفرنسية تجعله رمزا للذبول والشحوب والاصفرار. ومعلوم أن اللغة هي الأداة التي جعلت كل أمة تنظر إلى أشياء الحياة من خلال زاوية النظر التي تلائمها، وليس على الأفراد والجماعات سوى الطاعة وقبول الزاوية التي تنظر بها اللغة إلى تلك الحياة التي تعكس عقل الأمة؛ الذي تنسجه الطبيعة انطلاقا من كثير من العوامل الخفية التي تعكس طرائق التفكير المشتركة التي تشم ولا تفرك، والتي يجليها الفن والثقافة بصفة عامة. ولذلك فإن الفرنسي عندما يعبر عن الإحساس بالبهجة والحبور يقول: ça me réchauffe le cœur لأن بيئته الباردة تجعله يبحث عن الدفء، لكن العربي صاحب البيئة الحارة إذا قال: «هذا يدفئ قلبي» فإن كلامه يعد خارجا عن سنن الكلام العربي النجار، لأن التعبير عن الفرح والسرور في العربية هو قولنا: «هذا يثلج صدري» لذلك عندما ترجمت أشعار الشاعر التركي «ناظم حكمت» علق قائلا: هذه ليست أشعاري، إنها أشعار المترجم، لأنه أوجد بناء لغويا مختلفا في صيغه وتراكيبه، وإن كان يوحي من أشعاري. لذلك فإن النصوص المترجمة تبدو أقل انتماء إلى النص الأصلي، ولاسيما عندما يشعر المترجم بضرورة التصرف في الكلمات والمعاني للتوفيق بين طريقة صياغته الجديدة، وصياغة النص الأصلي الذي يكبله بقيود لابد من مراعاتها في أثناء الترجمة.

وحتى تكون هذه الحلقة أجمع للفائدة وأضبط للإشارة إلى زائنات وشائنات الترجمة من وإلى العربية فإن الذين يتوخون لباب الحقائق يدركون أن الترجمة فتحت على الفكر العربي أبواب المعارف المجتباة منذ تأسيس بيت الحكمة في العصر العباسي، لأنها كانت بمثابة المحرض الفكري الذي أضاف للعرب شموسا مشعة أضاءت لهم دنيا العلم والمعرفة التي تتوفر عليها الأمم الأخرى، فانطلق الفكر العربي يجوب الآفاق ويستبطن خوافي المعارف حتى أدرك الربوة العالية في علوم الرياضيات والطب والبيطرة والزراعة والصناعة والكيمياء وسائر العلوم والمعارف التي على هذا الجر والسحب، لكن سرعان ما طفئ هذا السراج عن ساحة ثقافتنا العربية، كأنه ليس لنا في باب المعرفة العلمية نقط ولا إعجام، ولاسيما عندما انصرفت فئة من الشداة إلى ترجمة بعض آداب الأمم الأخرى لكي تمحو عنا ظلمة الجهل، لكن ضحالتها اللغوية لم تمكنها من إضافة الزيت الكافي إلى سراج الثقافة العربية، فوقعت في أسر الأساليب الأجنبية، وأرغمت الفصحى على قبول التعابير التي لا تراعي حرمة للفصاحة، ولا تتفق مع نواميس العربية، ولا تحمل خصائصها، ولا تستظل بأظلالها، ولا يسري في عروقها دم العروبة. ولقد أضرت هذه العبارات التي ساعدت وسائل الإعلام المختلفة على انتشارها، حتى فشا هذا النمط التعبيري واستولى على ألسنة الكتاب والأدباء الذين أرغموا الفصحى على ارتداء أثواب اللغات الأجنبية على هذه الشاكلة: كم هو جميل! التي تعد ترجمة حرفية للعبارة الفرنسية: Comme il est beau! والتي تعد عبارة التعجب العربية النجار أحسن منها رئيا: ما أجمله أو قول: أجمل به، التي نطق القرآن بمثلها في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾ (الكهف:٢٦)، وقوله تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾﴾ (مريم:٣٨). وقولهم: «أعطى موافقته» بدل قولهم «وافق» وقولهم: «النقطة التي أفاضت الكأس» بدل قولهم: «القشة التي قصمت ظهر البعير». وقولهم تعبيرا عن شدة اختصار الشيء: «وضع باريز في قارورة» بدل قولهم: «وضع الزفر في الزفر» التي تلائم المراد الذي يراعي خصوصية البيئة والثقافة العربيتين. حيث إن الزفر هو البحر، والزفر هي القربة. وقولهم: «القاسم المشترك» بدل قولهم: «العامل المشترك» لأن القاسم في العربية يفيد الانشطار والفرقة، ومن ثمة يستحيل تصور شيء يفرق ويجمع في الوقت نفسه.

هذه جملة من العبارات المترجمة التي تنكبت طريق الفصاحة، حرصت أن أنكسها من ثوب العربية الفصحى القشيب، لأنها تمثل أثافي الشطط والزيغ التي لا ينبغي لأحد أن يبقي عليها، لأن الصواب قد غرق فيها عندما سقطت في أودية اللغات الأجنبية واستجرت إليها طائفة من المنشئين، ومن ثمة لابد من إظهار ما أشكل منها بالإيضاح وما التبس بالتبيين، وما اشتبه بالجلاء في عبارات عربية مرآتها أحسن، وحسها أدق ونجدها أعلى.

الهوامش

١- الحيوان. أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. الجزء الأول. ص ٧٦. ط٢. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
٢- المصدر نفسه. ص ٧٦.

الشاعر والروائي الأردني أيمن العتوم:

أنصفني القراء ولم ينصفني النقاد

حوار: محمد عويس



أيمن العتوم شاعر وروائي أردني ولد في مدينة جرش عام ١٩٧٢م، تلقى تعليمه الثانوي في دولة الإمارات العربية المتحدة، والتحق بجامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، نال بكالوريوس الهندسة المدنية عام ١٩٩٧م وفي عام ١٩٩٩م تخرج من جامعة اليرموك بشهادة بكالوريوس لغة عربية، ثم حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في اللغة العربية، وقد كانت روايته «يا صاحبي السجن» التي صدرت عام ٢٠١٢م سببا في شهرته، حيث تناولت تجربة الكاتب الشخصية في السجون، وله دواوين شعرية عديدة أحدثها «نبوءات الجائعين» وهي قصائد كتبت في السجون، ويعمل العتوم كمعلم للغة العربية، وسبق له أن عمل في مجال الهندسة، ومن دواوينه الشعرية: بوارق الفجر، البيارق، الزنابق، المشارق، القمر المسافر، قلبي عليك حبيبتي، خذني إلى المسجد الأقصى، نبوءات الجائعين.. ومن كتاباته المسرحية: «المشردون»، «مملكة الشعر»، أما الروايات فإن له: يا وجه ميسون، في فلسفة الحب، يا صاحبي السجن، يسمعون حسيسها، ذائقة الموت..
ويعود للعتوم الفضل في تأسيس العديد من النوادي والروابط الشعرية، وقد شارك في الكثير من الندوات والأمسيات الشعرية في النقابات المهنية، وفي مهرجان مؤتة على مدى أعوامه ودوراته الخمس. للشاعر العتوم ستة دواوين شعرية، ومسرحيتان، ورواية، وعشرات المقالات.. مجلة «الوعي الإسلامي» التقت العتوم وكان هذا الحوار:

• ما هي رؤيتك لكلا المشهدين: الروائي والشعري في الوطن العربي حاليا؟

- مع الربع الأول من القرن العشرين كان صوت الشعر قد بدأ يترسخ شيئا فشيئا في الوجدان العربي؛ آنذاك ظهرت أصوات شعرية عميقة بعد سبات أدبي طويل، واستطاعت هذه الأصوات أن تعيد إلى الشعر العربي ألقه بعد أن فقد بريقه لقرون خلت. لا أحد يستطيع أن يتجاوز تلك القامات التي نقشت مجدها على صفحة التاريخ بمداد من حروفها الذهبية؛ مَن من المثقفين كان بإمكانه أن يتجاوز شوقي وحافظ والجواهري وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي وعرار وغيرهم، ومن ثم بدر شاكر السياب ونزار قباني... وطائفة ممتدة من الذين أثروا الذائقة الجمعية للسان العربي.. وفي منتصف القرن نبغ عدد من الروائيين شقوا طريقهم وسط الصخر؛ كان الشعر حينها مهيمنا على الساحة، يخضع لجبروته كل فن آخر.. آنذاك قذفت حركة التاريخ بروائي بديع هو نجيب محفوظ، لم تكن الرواية من قبله قد نضجت كما نضجت على يديه؛ ومع أنه كان يجدف عكس تيار الشعر الجارف في زمانه، إلا أنه وضع خطوطا في الخارطة الثقافية لا يمكن محوها.. وبتقدم العقود استطاعت الرواية أن ترتقي على حساب الشعر؛ الشعر الذي واصل تراجعه أمام السير الحثيث المذهل للرواية.. أستطيع القول اليوم إن الربع الأخير من القرن المنصرم كان هو الجولة الحاسمة بالنسبة للفنين؛ تربعت الرواية على العرش، واكتفى الشعر بدور الجالس في مقاعد المتفرجين!!

• نود إلقاء الضوء على اتجاهك إلى التراث في كتاباتك الشعرية.

- كما أنه لا توجد شجرة بدون جذور، بل لا يمكن أن تحيا بغيرها؛ كذلك لا يوجد شاعر منبت تماما عن ماضيه.. كل تجارب الشعراء هي تمثل لتجارب السابقين، ما من شاعر ارتقى إلا حين هضم لغة السابقين، وشكل من هذه اللغة عجينته الخاصة، وخبز بها ليطعم التائقين إلى المعرفة؛ ويكفي أن أضرب هنا مثلا بالمتنبي الذي كان يحفظ ديواني الطائيين: أبي تمام والبحتري، ويرافقاه في حله وترحاله، بل إن عددا من النقاد ذهب إلى أن المتنبي كان يعيد إنتاج حكم أرسطو بأسلوبه الرفيع، وبلغته الراقية.. إذن الاتكاء على تجارب السابقين أمر يبدو لا مفر منه لمن يريد أن يستقل ببنائه الخاص، وهو أمر غير معيب؛ إلا أن السقطة التي يقع فيها بعض من ذهبوا إلى آبار السابقين ليمتحوا من مائها ألا يقدموا لجيلهم ماءهم الخاص بهم، فتراهم يعيدون ذلك الماء، لكن وقد أسن وتغير لونه وطعمه؛ لأن ماتحه لم يحسن أن يضيف إليه من نكهته

الخاصة؛ بالفعل كان المقتل للسابق أن يكرر اللاحق تكرارا ممجوجا؛ أما أولئك الذين خرجوا عن هذه الدائرة واستطاعوا فك المعادلة، وأتوا بجديد من ذلك القديم؛ فهم الذين خلدوا أو خلدوا؛ وتأمل معي ما قاله أبوالعلاء:

وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

• كيف استفدت من تجربتك الشعرية في كتابة الرواية؟

– الشعر جملة مكثفة، والرواية جملة مفتوحة؛ الشعر بناء هرمي دقيق، والرواية بناء أفقي ممتد.. أفادني الشعر في تجربتي الروائية في أمرين: أولهما أن الخيال الشعري أوسع من خيال الروائي فيما أرى، فاستعنت بالأول لأوسع الثاني. وثانيهما أن لغة الشاعر أكثر رقة ودقة، فإذا ما ذهب الشاعر ليستخدمها في الرواية مدت مساحة من المتعة والحس والخيال أبعد مما يفعل الروائي الخلي من نار الشعر.

• هل تخلى الشعر عن مكانته للرواية؟

– ليس تماما.. الشعر يمكن القول عنه إنه نبتة صبار في الصحراء، والرواية غيمة في صيفها.. الأول أدوم وأقدر على مقاومة ظروف الحياة القاسية من الثاني.. الشعر نهر ممتد، والرواية بحيرة تستقي ماءها من ذلك النهر.. حين نزل القرآن نزل ليتحدى الشعراء الذين تألهوا في شعرهم، وجاء ليقول إن هناك لغة أكثر سحرا من لغة الشعر، وهذا التحدي ضمن للشعر الخلود؛ إذ استمد خلوده هذا من خلود القرآن. أما الرواية فهي فن مستحدث؛ وقد يعروها الهرم ذات يوم أو الشيخوخة، وقد تموت كما ماتت فنون أخرى، ظهرت ثم اختفت؛ كفن المقامة، وفن الموشحات. والحقيقة التي لا يمكن التعامي عنها أن الشعر أقدم هذه الفنون وأبقاها إلى اليوم؛ ولم يخل منه عصر البتة؛ وإن كان يقوى في بعض العصور ويضعف في أخرى.



• أيمن العتوم وتجربته الشعرية والروائية: أيهما أنصفه النقاد؟

– في الحقيقة أنصفني القراء ولم ينصفني النقاد، أو لعل العبارة الأصوب لم يلتفت النقاد إلى أعمالي لأسباب كثيرة متداخلة، يصعب تفصيلها الآن؛ غير أن البعد الجماهيري الذي أضافه القراء إلى تجربتي ربما سيجعل قلوب النقاد تميل إلى ما أكتب، ولو بعد حين. الرواية قدمتني إلى الناس أكثر مما قدمني الشعر، خمسة وعشرون عاما مع الشعر أو تزيد، لم تأت بصدى كذلك الصدى الذي جلبته لي الرواية في العامين الأخيرين.

• قصائدك تميزت بأنها ذات أبعاد شعرية متعددة، وعوالم ممتدة، وإن كان محورها جميعا على اختلاف موضوعاتها- الوطن.. لماذا؟

– لأن الوطن بوصلة تشير إلى كل جميل وساحر ورائع ومدهش. أغلب شعراء الحداثة تداخلت في أشعارهم الحبيبة بالوطن، والوطن بالحبيبة، حتى صار الاثنان واحدا غير منفصم.. حين تنذر لوطنك قلبك فاعلم أنه ستتفتح في هذا القلب حدائق الأمل وعرائش الياسمين، تلك الحدائق التي ستزرع البسمة على الشفاه، وتلك العرائش التي ستذر الطيب والعبق في الأجواء... ومنهما تتسع الدوائر لتشمل المعاني جميعها؛ فيبدأ العشق والفلسفة والتصوف بالتجلي.

• هل أسهمت الجوائز العربية في إحداث حراك للرواية والشعر؟

– بالتأكيد، بعض الشعراء الشباب والروائيين الجدد ما كان لهم من حظ ليعرفهم الناس لولا تلك الجوائز، مع التحوط بأن بعض هذه الجوائز -كما هي حال الجوائز جميعا- لا تخلو من بعد عن الموضوعية والعدالة، على حساب المحسوبية والشخصنة. إلا أنه أيضا لا يمكن إنكار الأثر الطيب الذي ساهمت فيه بنشر الثقافة وتحريك الماء الراكد.

• هل استفدت من قراءتك للقرآن الكريم في تطوير ذائقتك الأدبية ؟

القرآن منجم ذهبي يكسب الحرف الإعجاز والخلود معا؛ في ظلاله نبتت قصائدي؛ ومن مائه شربت فصول رواياتي؛ بعض الذين يتكئون هذا المتكأ قد يسيئون أكثر مما يحسنون؛ غير أن استخداما ذكيا وسلسا للعبارة القرآنية أو ما خلفها فيما نكتب، سيكسب حروفنا ألقا ووهجا عظيمين.

• هل هناك سمات لغوية وجمالية في الروايات التي يكتبها بعض الشعراء تختلف عن الروايات الأخرى؟

– أعتقد ذلك؛ حين تقرأ رواية لشاعر تستطيع أن تدرك ذلك؛ إن جذوة الشعر المقدسة إذا دست تحت حطب الكلمة اشتعل في النفس كل ساكن؛ ومن قبسها أضاء كل معتم.. بالإضافة إلى ذلك فإن الملمس الشفيف في طرف الحرف لا يشعر به إلا من يقرأ رواية لشاعر؛ شيء من التحليق في عوالم الشعراء الغامضة الساحرة سببه مزج لألوان الشعر البديعة على أرضية الفكرة لتجيء اللوحة كاملة الدهشة.

• ما هي مشروعات أيمن العتوم المستقبلية؟

– بعد الشعر والرواية؛ قد أخوض عالم المسرح؛ هاجس المسرح ظل يراودني منذ بداياتي الشعرية؛ لكنه صمت لصالح الشعر.. اليوم وقد خفت صوت هذا الأخير، فلربما سيعلو عن قريب صوت المسرح.. على صعيد آخر لدي رواية جديدة أعمل عليها، آمل إن شاء الله، أن ترى النور في نهاية شهر آب المقبل.

اللغة العربية في الجزائر

زهية فراح
إعلامية جزائرية

إن المتأمل في المجتمع الجزائري بعين البصيرة، التي تخترق حدود الرؤى، وترى بعين ثاقبة ما لا يرى، يبصره سلسلة وثيقة، تشد فيها الحلقة أختها بقوة وإحكام؛ خشية أن تصبح تتناثر تلك السلسلة وينحل رباطها. وهذا البصر الدقيق لا يتأتى لمن يرى منه أفرادا يقطنون رقعة واحدة متدافعين في أنحاء إقليمها، كل يحمل في رأسه أحلامه وتطلعاته، مسوقا بما يختزن في عقله الباطن من ذكريات وحكايات وأهداف وطموحات.

وإن السر الدفين وراء هذا الإحكام، هو المثلث الذي كان يرفع شعاره الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله، ومن بعده أخوه الإمام الإبراهيمي وسائر علماء الجزائر؛ حيث كانوا في كل محفل يغرزون في ضمير الأمة ثلاث كلمات «الإسلام والعربية والجزائر»؛ فهذه الموروثات الجليلة التي استقرت في وجدان كل جزائري، هي التي توحد المجتمع وتجعله يدا واحدة، وإنها بحق موروثات كتب لها الدوام متى اعتز بها أبناؤها، ووضعوها فوق الرؤوس؛ شأنها في ذلك شأن كل عال سابح في الآفاق.

واللغة العربية – بعد الإسلام – هي أرفع الكلمات وأجلها، فهي لغة القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (يوسف:٢)، ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (فصلت:٣)، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (الأحقاف:١٢). إنها لغة تعكس وجودنا، وتمنحنا الثقة في قيمتنا؛ فمن برزت لغته برز وقاد، ومن غابت لغته غاب وقيد، وما ذلت لغة إلا ذل شعبها، يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي: «وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار؛ ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها؛ فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد: أما الأول: فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا. وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا. وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها؛ فأمرهم من بعدها لأمره تبع» (١).

ولما كانت للغة العربية هذه الأهمية البارزة، كانت أول باب طرقه المحتل الغاشم في جميع البلاد التي دمرها وأباد بركتها، ولكن الاحتلال الفرنسي له طعم آخر، يعرف الجزائريون مذاقه معرفة لا يخالطها شك، فهو أمر من العلقم، وأخبث من الجيفة؛ إنه احتلال همجي يدمر كل شيء، ولكن أولى أولياته في الإبادة والسحق إنهاء معالم الهوية وطمسها، وعلى رأسها الإسلام والعربية، ورحم الله الإمام عبدالحميد بن باديس حين قال: «إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد؛ في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج» (٢).

فبفضل الله سبحانه وتعالى، ثم باجتهاد العلماء والمصلحين الجزائريين؛ حفظت اللغة العربية في الجزائر، وبقيت شوكة في حلوق المتفرنسين؛ ولا أدل على ذلك من كلمة الإبراهيمي رحمه الله، حيث أعلنها صريحة بقوله: «اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي؛ لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم؛ فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الأفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه؛ أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتتساغ في الألسنة واللهوات، وتتساب بين الشفاه والأفواه... فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها، وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معا» (٣).

تلك قطرات منعشة من تاريخ ماضينا العريق الشاهد النزيه على وقت مضى، ولكن حاضرنا ينبغي أن يكون أهم وأجل؛ لا لشيء إلا لكونه مستقبل ماض ممتلئ بالتضحيات. فيا أهل الحاضر، ويا مستحضري الماضي، أما تجلت لنا الهوة بين عربية اليوم وسط نور الاستقلال، وبين عربية الأمس وسط ظلمة الاستدمار؟!

الهوامش

(١) وحي القلم، (٣/٢٧).
(٢) آثار ابن باديس، ٣/٣٠٩.
(٣) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ٣/٢٠٦.

عشريات عدنانية

في رثاء الداعية علي رضا محمد النحوي رحمه الله

عبدالرحمن الفكيكي - شاعر مغربي

يا صحابي في حياة الكبد — بالكتاب المولوي الأبدي
قد هوت بي ريح أحزان فمن — يا ترى يأخذ منكم بيدي
كلهم قال: ترى ماذا جرى؟ — ما جرى مجلبة للكمد
لم؟ وما حل مصاب جلل — سهمه صاب صميم الكبد
طود تقوى وجهاد مجتبى — في زمان الزيغ والفكر الردي
طود نهج نبوي صوره — كم سعى في بعث موتى همد
طود نهج قد بدت حكمته — في أمور شائكات المورد
طود نثر تزدهي الضاد به — طود شعر يعربي المحتد
لهف نفسي قد هوى فيم هوى؟ — إيه يا نفس تأني وارشد
فالذي تبكينه اليوم فتى — عاش بالله عظيم الجلد

إيه عدنان الكتابات الغرر — كلما حاقت بنا سود الفكر
من لنا اليوم وقد قيل لنا — غيب الكاتب ذياك السفر
من لنا يا من هدانا حرفه — خير هدي باليراع المعتبر
خير هدي هو من وحي السما — زانه الله بهاتيك السور
خير هدي امتي سرت به — مذ تبدى مثل غيث منهمر
غير أن الغي فيه طامع — فهما رهن عراك مستمر
كم رأينا ليل غي غازيا — نوره يا لك من ليل أشر
ورأينا من نبكي دافعا — ظلمة رعناء بالحرف الأغر
رب عدنان مضى لكنما — إرثه ها هو محمود الأثر
كيف لا وهو الذي ينمى إلى — إرث طه خير مبعوث البشر

يا رفيقا لي في درب الجراح — يا أخي في الشعر والشعر سلاح
أنت يا من رغم بعد حاطني — ببرور كان لي نعم الوشاح
أنت تدري أنني للنصح قد — عشت أبغي لبني قومي الفلاح
يا رفيقي هو دا نصح لهم — يترجى منهمو حسن انتصاح
قل لهم عدنانكم رغم الردى — قد تبدى بلبلا زاهي الصداح
راعه ما قد دهاكم بعده — من رزايا بومها فظ النواح
فانبرى يصدح تتوا باعثا — بصداح فيكمو روح الكفاح
يا «لقاء المؤمنين» المجتبى — يا أخا الروض إذا ما الروض فاح
أنت يا من كنت بالأمس لهم — معهدا ينشر هديا وصلاح
قم بنا نهديهمو أنشودة — لا تقل لي بيننا صم الصفاح

أيها المسلم يا روح الحياة — بالذي ورثه خير الهداة
ألف مرحى في لقاء مؤمن — دأبه الوعظ بقدسي العظات
منهج الله الذي أدعو به — قام بالقرآن نور الكائنات
وكذا بالسنة الغرا ولا — تنس ضادا هي حسناء اللغات
يا لثالوث عظيم به لذ — أيها المسلم إن شئت النجاة
أيها المسلم يا من همه — دعوة الإصلاح في كل الجهات
عجبا تنشد إصلاح الورى — ناسيا نفسك يا للانفلات
انتصر بدءا على نفسك إن — شئت نصرا مثل أفذاذ الدعاة
واخلص النية لله تفز — إنما الأعمال حقا بالنيات
ولتكن ممن إليه قد سعى — بيقين وبعلم وثبات

فرق النقاد المنصفون بين الشهرة والقيمة، فليس كل إنجاز ذي قيمة اشتهر صاحبه. وفي المقابل، ليس كل صاحب إنجاز مشهور قدم شيئا ذا قيمة.
وهنا في هذا الباب، الذي تستحدثه «الوعي الإسلامي»، نحاول تسليط الضوء على أصحاب إنجازات أدبية راقية، لم تتحقق لهم الشهرة كما تحققت لغيرهم، على الرغم من أنهم أثبتوا - مع مر الزمن - جدارتهم وإبداعهم، بل وتتلمذ على مؤلفاتهم العديد من المبدعين المحدثين.



د. محمود خلف
باحث أكاديمي

إبراهيم بن ناصيف اليازجي
(١٢٦٣ - ١٣٢٤هـ / ١٨٤٧ - ١٩٠٦م)

هو: إبراهيم بن ناصيف بن عبدالله ابن ناصيف بن جنبلاط: عالم بالأدب واللغة. أصل أسرته من حمص، وهاجر أحد أجداده إلى لبنان. ولد إبراهيم في بيروت في ٢ مارس سنة ١٨٤٧م، ونشأ فيها، وقرأ الأدب على أبيه. فنشأ محبا للعلم، ميالا للبحث، شغوفا بالدرس، حتى أصبح دائرة معارف، لغوية وأدبية وعلمية. كلف باللغة العربية، وانكب على تفهمها بفكر نير، ورأي صائب حتى استوعب ما تضمنته المعاجم والآثار الأدبية، وخلفه فحول اللغة والأدب الأقدمون، ووقف على دفائن اللغة، وتغلغل في مطاوي عبقريتها، يستجلي أسرارها، ويبحث عن كنوزها حتى أعطانا من تراث الماضي ما كان مدفونا في الخزائن، ومستورا في مظان المصادر.

آثاره

خلف الشيخ إبراهيم اليازجي آثارا عديدة في مجالات مختلفة، أبرزها تصحيح الأخطاء التي جاءت في معجم «لسان العرب» لابن منظور، المتوفى حوالي (٧١١هـ/١٣١١م)، ومعجم «تاج العروس» لمحب الدين مرتضى الزبيدي، المتوفى (١٢٠٦هـ/١٧٩١م)، ومعظمها لايزال مخطوطا، لاسيما معجمه اللغوي الذي سماه «الفرائد الحسان في قلائد اللسان».
كما تولى تحرير جريدة النجاح سنة

(١٢٨٩هـ/١٨٧٢م). وانتدبه المرسلون اليسوعيون للاشتغال في إصلاح ترجمة الكتب الدينية للنصارى، فقضى في هذا العمل وأشباهه نحو تسعة أعوام. وتعلم العبرية والسريانية والفرنسية، تبحر في علم الفلك وله فيه مباحث. وتولى كتابة «مجلة الطبيب»، وألف كتاب «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد» جزءان، وله «ديوان شعر».

كما اهتم بخدمة اللغة في عصره، ودبج فيها موضوعات حول أخطاء الصحف اللغوية والتعريب، وأغلاط العرب القدماء والمولدين، كما أشار إلى الأخطاء التي وقعوا فيها، والتي وقع أبوه فيها من قبل. ونبه الكتاب في مقالاته إلى ضرورة انتقاء الكلمات العربية والألفاظ الاصطلاحية للمخترعات الحديثة، مثل: الساري لقضيب الصاعقة، والمنطاد للبالون، والبرق للتلغراف، والبريد للبوسطة، والبطاقة للكارت، والجريدة للجرنال، وغير ذلك من الألفاظ التي تدور على ألسنة كثير من الأدباء اليوم.

سافر إلى أوربا، واستقر في مصر فأصدر مجلة «البيان» مشتركا مع الدكتور بشارة زلزل، فعاشت سنة، ثم أصدر مجلة «الضياء» شهرية، فعاشت ثمانية أعوام. وكان من الطراز الأول في كتاب عصره. وخدم العربية باصطناع حروف الطباعة فيها ببيروت، وكانت الحروف المستعملة حروف المغرب والآستانة.

أسلوب اليازجي

كان إبراهيم اليازجي صاحب علم واسع، ونظر دقيق، ورسالة آمن بها، يسهر ليله وراء شاردة عنت له، ويقضي نهاره ناشرا وكاتبا ومعلما، فرفع اللغة بإنشاء لا تعتوره ركاكة، ولا يتخلله تعقيد، فكان في طليعة الذين أسسوا النهضة، ومشوا بها إلى الأمام. وقد ترسم خطاه نفر من الكتاب؛ لتفرده في عالم الكتابة، ودنيا البحث، ومجتمع الثقافة، وحملوا الراية من بعده. وأهم ما يميز أسلوبه ما يلي:

١- صحة التركيب، وسلامة التعبير، وفصاحة العبارة، ومتانة الأسلوب.

٢- السجع الخالي من التعقيد في رسائله ومقاماته وكتبه ومقالاته.

٣- تضمنه استعارات غريبة إلا أنها جديدة، أفادت اللغة، وخدمت الأدب.

٤- تبحر في اللغة، وتعمق في أصول اشتقاقها، مما سهل عليه بعث اللغة كي تجاري العصر.

٥- عليه من التقليد روعة القديم، ومن الابتكار قشابة الحدوث.

٦- الجمع بين المتانة والسهولة، والأخذ بكل جديد عن عقل وفهم وإدراك.

٧- يعبر عن المقصود بأوضح الصور، فتراه يستعمل لكل معنى اللفظ الموضوع له، بحيث ينتقل القارئ من اللفظ إلى المعنى من دون واسطة.

ومن نماذج كتاباته مقال بعنوان: «اللغة والعصر»، كتبه يوم انصرف الأدباء إلى تحصيل ملكة الكتابة العربية الصافية، والتضلع من اللغة بحقيقتها ومجازها، فقال: «لم يبق في أرباب الأقلام ومنتحلي صناعة الإنشاء من هذه الأمة من لم يشعر بما صارت إليه اللغة لعهدنا الحاضر، من التقصير بخدمة أهلها، والعقم بحاجات ذويها، حتى لقد ضاقت معجماتها بمطالب الكتاب والمعربين، وأصبحت الكتابة في كثير من الأغراض ضربا من شاق التكليف، وبابا من أبواب العنت. واللغة لا تزداد إلا ضيقا باتساع مذاهب الحضارة، وتشعب طريق التفنن في المخترعات والمستحدثات إلى أن كادت تنبذ في زوايا الإهمال، وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوالي، ومست الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من التلم قبل تمام العفاء، وقبل أن ينادي عليها مؤذن العصر: سبحان من تفرد بالبقاء، ويختم على معجماتها بقصائد التأبين والرثاء.....».

وللشيخ أيضا قصائد متفرقة ومنظومات رشيقة لم تجمع حتى اليوم. ومن أقدم ما وجدت له من القصائد ما أنشده في الجمعية السورية في أوائل سنة (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م)، وهي منظومة حماسية ذكر فيها العرب فقال في أولها:

سلام أيها العرب الكرام
وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهودا
مضت قدما فلم يضع الغمام

ثم قال في وصف مجالس العلم:

مجالس العلوم غدت منارا
به ليغلب الجهل انصرام
جلاها كل أبلج أريحي
تقر له البلاغة والكلام
تجرد من أياديه المواضي
وترسل من لواحظه السهام
رجال في انتشار الفضل جدوا
وفي حب العلوم صبوا وعاموا
تلاعبت الحمية في نهاهم
كما لعبت بشاربها المدام
تهز الأريحية كل يوم
معاطفهم كما اهتز الحسام
هم الشهب والمطيرة فوق أرض
يلوح لنوئهم فيها غمام
غمام قد تخلله بروق
يصافحها الرجاء متى تشام
جهابذة يقوم الفرد منهم
بما أعيا به جيش اللهام

ويضاف إلى ما سبق ما امتاز به الشيخ من جودة الخط، وإجادة الرسم والنقش والحفر. وكان رزقه من شق قلمه فعاش فقيرا، غني القلب، أبي النفس. إلى أن توفي في ٢٨ ديسمبر من سنة ١٩٠٦م بالقاهرة. فقدت به الآداب العربية أحد أنصارها المعدودين.

عثرات الأقلام (٢)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

● قولهم: «حضرة الرئيس المهاب»، بضم الميم، من «أهاب» الرباعي، بمعنى أن الناس تهابه. وصوابه: «مهيب» و«مهوب»، اسم مفعول من «هاب» الثلاثي. وقد يصح أن يقال: «مهاب» بفتح الميم على معنى أنه موضوع مهابة.

● إذ يقال: «مكان مهاب»، و«مكان مهال» بفتح الميم، فيها من الهيبة والهول.
وقولهم: «أوشك الصبي على الغرق» يريدون أنه أشرف على الغرق، وصوابه أن يقال: «أوشك أن يغرق»، أو: «أشفى على الغرق».

● وقولهم: «فذهبوا مرفوقين بقوة من قبل الحكومة»، صوابه: مرافقين بقوة أو مصحوبين بها.

● وقولهم: «أهاج هذا القول خواطر الوطنيين»، صوابه: هاج خواطرهم من دون همزة أو هيجها بالتشديد.

● وقولهم في جمع سائح: «سواح» بالواو، وصوابه «سياح» بالياء، لأن فعله ساح يسيح، لا ساح يسوح.

● وقولهم: «أمن له مستقبله، أو: أمر معيشته» الظاهر أن يقال: «أمنه من مستقبله أو من أمر معيشته»، بمعنى أنه جعله في أمن من سوء مستقبله، أو في أمن من ضياع أمر معيشته. أو يقال: «أمنه على معيشته أو مستقبله» مع حرف الجر «على»، فيكون مثل أمنة على دمه وماله، كذا يفهم من التاج.

● وقولهم: «ولازالت السفينة تنقل كذا»، صوابه: «مازالت»، أما «لا» مع «زال» فلا تستعمل إلا في مقام الدعاء: يقال: «لازلت ملحوظا بعين العناية».

● وقولهم: «غضب حينما رأى حقوق الأهلين مداسة»، ويقولون في ضد ذلك أحيانا: «وقد سر حين رأى حقوق الأهلين مصانة»، والصواب فيهما: «مدرسة ومصونة» من «داس وصان» الثلاثيين، ولا يقال: «أداس»، ولا «أصان» بالهمز.

● وقولهم: «بادرنا لنشر الخبر لتطمين الأفكار»، صوابه: لطمأنة الأفكار أو لطأمنة الأفكار، أي تسكينها، إذ يقال: «طمأنه طمأنة وطأمنه طأمنة». أما قولهم من هذه المادة: طمنه تطمينا، بقلب الهمزة ميما، وإدغامها في الميم الأصلية، فلم يرد في الفصيح، وهو مع هذا غلط فاش جدا.

● وقولهم: «ناهيك عما نستعمله من الأساليب»، يريدون فضلا عما نستعمله. وهو خطأ لأن معنى ناهيك: حسبك وكافيك. قال اللسان: «ناهيك بفلان رجلا ومن رجل، أي: كافيك وحسبك هو».

● وقولهم: «لا يهمهم سوى محافظة مراكزهم»، صوابه سوى المحافظة على مراكزهم، إذ يقال: حافظ على الشيء، لا حافظه.

● وقولهم «رساميل» في جميع «رأس المال» خطأ، وصوابه أن يقال: «رؤوس الأموال».

● وقولهم: «جاءه قوميسيونجي، وعرض عليه البضاعة الفلانية»، ويريدون بالقوميسيونجي ذاك الذي يتوسط بين المحال التجارية في أوروبا وبين تجار بلادنا في عرض نموذجات البضائع وبيعها لهم. ونرى أن نستعمل مكان «القوميسيونجي» كلمة «الوسيط». والأفصح ما قاله ابن سيده في كتابه «المخصص»: فلح فلان إذا اطمأن إليه الناس فقالوا له: بع لنا كذا، أو اشتر لنا كذا، فيأتي التجار فيبيعهم، أو يشتري منهم، قال: ويسمى المتوسط بين التجار على هذه الصورة: «الفلاح».

● و هذه الكلمة، أعني: «الفلاح» تشتبه بالفلاح بمعنى الحراث، غير أن القرائن وسياقات الكلام كفيلة بتعيين المعنى المراد، شأن جميع الكلمات الأخرى المشتركة المعنى، الشائعة في كلام الكتاب.

● أما كلمة «الدلال» فتبقى على استعمالها في الوسيط ببيع الأمتعة، وما كان تفاريق و«السمسار» ببيع البضائع الأغلى قيمة، وما يباع بالجملة.

● كلمة «سفسير» بمعنى سمسار أيضا، ويمكن استعمالها في طائفة خاصة من السماسرة، وتبقى كلمة «الفلاح» للسماسرة الذين يعرضون بضائع المعامل بمقادير كبيرة.

شبح الحرية

أسماء السكاف
كاتبة سورية

صباح مشرق، وشمس دافئة، وهواء يداعب كل المخلوقات على هذه البقعة التي أتواجد أنا فيها من الكرة الأرضية.. أحسسته يوما مثاليا للذهاب إلى شاطئ البحر، انطلقت بلا أي تحضير، وبلا تفكير أيضا، جلست على رمال الشاطئ، وأنا قريبة جدا من الماء، أنظر إلى الموج الساحر، وأراقب حركاته وشقلباته الرشيقة، ومع اقتراب كل موجة أتوقع أن تطولني قطرات منها.. سمعت خلفي صوت أم تنادي صغيرها بهلع: «ابتعد عن البحر يا ولد؛ ستبلل نفسك»، نظرت خلفي فوجدت صغيرا بمنتهى الجمال والبراءة، أظنه في بداية مشيه، يحمل كرته متجها صوب البحر وفي عينيه تساؤل: «لم تخاف أمي من البحر الجميل ومياهه الرائعة؟!».. أخذت الأم صغيرها وعدت أنا لمراقبة البحر بأمواجه الزرقاء وقطراته اللؤلؤية. كان الشاطئ مكتظا نوعا ما، فعلى يميني عائلة تجلس مستمتعة بأشعة الشمس الذهبية، وعلى يساري يجلس مجموعة من الشباب يبدو لي أنهم يناقشون موضوعا مهما. تساءلت: لم نحب البحر لهذه الدرجة؟ لم لا نمل القدوم إليه؟ لم لا نشبع من النظر إلى مياهه؟ وأيضا أسمع الجميع - بلا استثناء - يرددون عبارة «أشعر أن البحر يبتلع همومنا»، حتى إنني أعرف شخصا ضريرا مولعا بالبحر أيضا لا يمل الوقوف أمامه والاستماع إلى تلاطم أمواجه، لم أجد إجابة غير: «الحرية»، بمعنى أننا نشعر أمامه بالحرية، أو نشعر بحريته اللامحدودة، فنطيل النظر إليه، فلا نرى حدودا لنظرنا، بل على العكس نرى سعة واتساعا على مد الأفق والعين، مفيدا لها، ويريحها النظر إلى مكان لا محدود (أي لا حدود له)، كالبحر والصحراء، مثلا. في تلك اللحظة الروحانية - إن صح التعبير - ومع نسمات الهواء الباردة، ضغطت كلمة حرية على زر الذاكرة في عقلي، وذهبت بي إلى ذكرى يحبها قلبي، وعقلي أيضا، حيث كنت طفلة صغيرة أجلس أمام أبي الإنسان الرائع والشخص الكامل المواصفات والرجل الذي يعرف كل شيء عن أي شيء، هكذا كان بالنسبة لي حينها، سألته بعد أن أنهيت قراءة قصة عن صيد العصافير ووضعها داخل الأقفاص: «أبي، هل نحن أحرار؟»، ما زلت أذكر جيدا تنهيدته وهو ينحي كتابه جانبا ويجيبني بإجابة لم أفهمها جيدا في حينها: «يا ابنتي، تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين»، لم يطل حوارنا حينها، ولكن كلماته نقشت في عقلي. أيقظني من ذكراي رذاذ الماء الذي باغتني على وجهي، ابتسمت للماء الذي أحسست برذاذه يداعب وجهي، اقتربت من البحر لأبلل يدي وقدمي، فوجدت سربا صغيرا من السمك يسبح بحرية ويجول حيثما أراد من دون قيود أو حدود تحد من انطلاقته، وكأن كل شيء حولي اليوم يريدني أن أنطلق بحرية، وكأن ذاكرتي عن هذا الموضوع كانت آخذة بالذبول، ونسمات الهواء العليل اللطيفة مع رذاذ الأمواج الرائعة قد أنعشاها وردا الروح إليها. تذكرت يوما كنت أجلس فيه مع بعض الأقارب، وجاءنا ابن عمي ليقرأ ما جاد به قلمه عن حرية الأوطان لبحث ما طلب منه في المدرسة، أذكر جيدا أنه ما إن بدأ حتى قال عمي بصوت منخفض جدا: «ششششش صه.. فالحيطان لها آذان»!

وفي اليوم التالي كانت أمي مجتمعة مع بعض النسوة يتحدثن، وجاءت سيرة فلانة وابنتها وكيف أنها سافرت لتدرس وحدها، قالت إحداهن: «إنها فتاة عودها والداها على الحرية»، قالت لها الأخرى: «ستر الله بناتنا وبنات المسلمين»! وكأن كلمة حرية مناقضة للستر بالنسبة إلى الفتاة!

أو حتى عندما كنت أرى طفلة أو طفلا يناقش والديه عن أي أمر من الأمور، سواء أكان شراء ملابس أم حتى نوع الطعام الذي يريد طلبه من المطعم، قلما كنت أرى احتراما لما يريد قوله هذا الصغير بحريته الفطرية، فجل ما كنت أسمعه: «لا تناقش أمك وأباك عندما يتحدثان» أو «عندما يتحدث الكبار يصمت الصغار».

أشعر أن أغلب من حولي يريد قولبة الحرية حسب مفهومه الشخصي، بل حسب مزاجه أيضا، فهذا الصغير الذي قمع وألجم فمه عن قول ما يريد، سيكرر ما حدث معه في كبره، والطامة الكبرى لو أنه أصبح معلما ومربيا للأجيال!

حولي عدد كبير جدا من الناس ممن ارتبطت كلمة حرية عندهم بالسياسة؛ لذلك تجدهم مقيدين من قبل أنفسهم، وكأنهم وضعوا قيودا داخلية، بل وأحيانا لا يتجرأون على لفظ كلمة حرية من شدة خوفهم.

وكذلك أيضا حولي، بل ومن المقربين، من ارتبطت عندهم كلمة حرية بمفهوم مناقض للأحكام الشرعية، وكأن الإنسان الحر هو من تفلت من أحكام الشريعة.

ووجدتني - بلا شعور - أدندن بصوت أشبه بالهمس بأبيات أحبها جدا وعلقت في ذهني منذ قرأتها قبل أعوام مضت:

إن الحـــريــــة أن تـحـيــا عــبـــدا لـــلـه بـكـلـيـة..
وفـق الـقــرآن ووفـق الـشـرع ووفـق الـسـنن النبوية

إنها أبيات من قصيدة، ولكنها تلخص المفهوم الشمولي للحرية، فليس هناك حرية جزئية، فإما أن تكون حرا أو لا تكون، ولو طبقت الأحكام الشرعية بالطريقة الصحيحة لما تعدى أحد على حرية أحد ولما ظلم أحد.

أنا مؤمنة جدا أن «من ينكر الحرية على الآخرين لا يستحقها لنفسه»، وما أكثر الذين يتغنون بالحرية، وما أقل الذين يمارسونها!

أحكام النساء

اسم الكتاب: أحكام النساء
المؤلف: علاء الدين بن العطار الشافعي
المحقق: د. إيمان بنت محمد علي عزام
إصدار: دار البشائر الإسلامية (سلسلة دفائن الخزائن)
الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م
عدد الأجزاء: ٤ مجلدات

بين أيدينا كتاب «أحكام النساء» لابن العطار الشافعي، وهو أول كتاب فقهي أفرد في الأحكام المتعلقة بالنساء، وقد عالج مؤلف الكتاب هذا الموضوع المهم على طريقة الفقهاء؛ مستندا إلى الأدلة من القرآن والسنة، وأقوال علماء الأمة؛ مؤكدا أن الذي سيذكره فيه تضمن أحكاما اختصت اختصاصا كليا بالنساء، وأحكاما أخرى يشترك في أصل الحكم فيها الرجال والنساء، ثم ينفرد كل منهما بكيفيات وهيئات، وأحكاما ثالثة يتفق فيها الرجال والنساء، ولكن تجهلها أو تهملها معظم النساء، وأحكاما رابعة تعم الجنسين؛ منها أحكام معروفة، ومنها ما يندر حصولها ويجهل حكمها؛ إلى غير ذلك مما يتعلق بمباحث الكتاب النفيسة.

وقد قامت الدكتورة إيمان عزام بدراسة وتحقيق هذه النادرة العلمية، ونالت بها درجة الدكتوراه في الفقه الاسلامي من كلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بتقدير ممتاز، حيث اعتمدت على نسخة مخطوطة فريدة، وبذلت جهدا جليلا لتذليل صعابها؛ فاعتنت بها عناية تامة، من حيث إثبات النص صحيحا، مع ضبط الآيات والأحاديث والنصوص المنقولة، كما وضعت حواشي مهمة، مع فهرسة علمية تعين الباحث في الرجوع إلى ما يريده من المجلدات الأربعة.

وقد أسهم الكتاب في حفظ نصوص سابقة، وانفرد بذكر مسائل لم تذكرها كتب المذهب الشافعي المشهورة، وأظهر شخصية ابن العطار من خلال اختياراته الفقهية فيه ومهارته العلمية، ويقظته في توضيح مواضع الوهم، واهتمامه بالوعظ والربط بالواقع ومحاربة البدع.

مكانة كتاب «أحكام النساء» بالنظر إلى: مؤلفه، وزمن تأليفه، وخصوصية موضوعه

إن أعمال التراث تستمد أهميتها من أبعاد مختلفة، من أبرزها: مكانة مؤلفها ومقدار الثقة فيه، وزمن تأليفها، وأهمية موضوعها، ومخطوط «أحكام النساء» الذي قامت الدكتورة إيمان عزام بتحقيقه؛ اجتمعت فيه الأسباب السابقة، التي لو انفرد أحدها لكان داعيا إلى تحقيقه والعناية به، فكيف وقد اجتمعت كلها؟

وبيان ذلك فيما يلي:

أولا: مكانة مؤلف كتاب «أحكام النساء»:

علاء الدين ابن العطار عالم فقيه، ومحدث من دمشق الشام؛ عاش في النصف الأخير من القرن السابع والربع الأول من القرن الثامن الهجريين (٦٥٤-٧٢٤هـ)، وهو عصر اشتهر بعناية حكام المماليك بالعلماء والمدارس، وكان رحمه الله من أخص تلاميذ الإمام النووي الشافعي، صاحب التصانيف الشافعية المعتمدة التي دارت حولها الشروح والتصانيف، وقد أوصاه شيخه النووي بإكمال المجموع لما أدرك أهليته لذلك، وعلو مكانته الفقهية؛ لكن لم يقدره الله له، وهو صاحب رحلات واسعة، حيث جاب البلدان، وأخذ عن كبار علمائها، فرحل إلى الحجاز واليمن ومصر ونابلس وغيرها من البلدان، وتولى مشيخة دار السنة بدمشق لمدة ثلاثين سنة.

قال الذهبي عنه: «كتب وجمع ودرس وأفتى واشتهر ذكره»، وقال ابن كثير: «له مصنفات وفوائد وتخاريج ومجاميع»، وقال عنه ابن حجر: «نسخ الشيخ علاء الدين الأجزاء وكتب الطباق وغلب عليه الفقه، وصحب الشيخ محيي الدين النووي، واشتغل عليه وحفظ التنبيه بين يديه حتى كان يقال له: مختصر النووي».

وهذا كله فصيح صريح في بيان مكانة المؤلف لا يحتاج معه إلى مزيد بيان.

ثانيا: زمن تأليف كتاب «أحكام النساء» لابن العطار رحمه الله:

ألف ابن العطار كتابه «أحكام النساء» في الربع الأول من القرن الثامن الهجري؛ حيث ذكر أن فراغه منه كان سنة عشر وسبعمائة، وهي فترة زمنية تشرئب لها أعناق المهتمين بالتحقيق، بعد أن صار وجود ما يصلح للتحقيق تحت مظلة الجامعات قليل فيما قبل ذلك من القرون.

ثالثا: أهمية موضوع الكتاب وخصوصيته

إن موضوع الكتاب هو فقه أحكام النساء الخاصة بهن، والنساء نصف المجتمع، وهن شقائق الرجال، ومربيات الأجيال، والجهل فيهن شائع ذائع، والعلم بأمور الدين بينهن قليل بل نادر، فالحاجة ماسة - إذن - إلى تقريب الأحكام لهن، وتيسير الفقه بين أيديهن.

وأول الخطوات جمع ما تناثر من جزئيات المسائل وفروع الفقه من سائر الأبواب في كتاب واحد، وإذا قصرت الهمم

عن تعليم النساء الفقه كله، فلا ينبغي أن تضعف عن تعليمهن ما يتعلق بهن، فبرغم اشتراكهن في كثير من الأحكام مع الرجال، فإن هناك من الأحكام ما استأثرن به على جهة الاختصاص في كافة أبواب الفقه.

ولقد أدرك المتقدمون أهمية هذا الموضوع، وبالتالي أهمية كتاب «أحكام النساء» لابن العطار، فوجدنا الناشري (ت٨١٥هـ) عني به واختصره، والناشري عالم فقيه جليل، وعناية مثله بكتاب «أحكام النساء» ينبئ بالتأكيد عن أهمية الكتاب ومكانته.

ثم إن كتاب «أحكام النساء» كما ذكرت المحققة هو الكتاب التراثي الفقهي الوحيد الذي عالج أحكام النساء على طريقة الفقهاء؛ ولذلك صار في تحقيقه سد ثغرة ضرورية في المكتبة الإسلامية؛ لأنه مهما قدمَ للنساء من دراسات فقهية معاصرة، فيظل للتراث قيمته ووزنه وفضله وأصالته واكتمال الثقة فيه، وفضل علم السلف على الخلف معروف ليس هو محل إثبات.

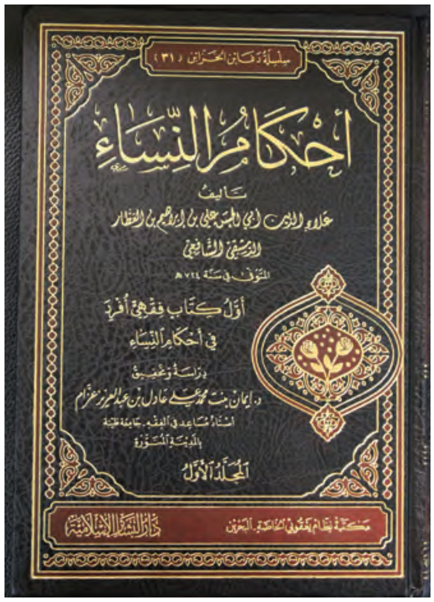
التعريف بمحتوى كتاب «أحكام النساء»

أولا: أنواع الأحكام التي حواها كتاب «أحكام النساء» لابن العطار:

ذكر ابن العطار رحمه الله في آخر تقديمه للكتاب ضابطا مهما، وهو أن أعمال الجوارح الظاهرة، وهو علم الفروع، منه ما يتوافق حكم النساء فيه مع حكم الرجال، ومنه ما يتخالف حكمهما فيه؛ ثم قال رحمه الله: «والذي نذكره في هذا الكتاب ما يخالف أحكام الرجال».

وبدراسة الكتاب نلاحظ أن ابن العطار رحمه الله لم يقتصر على ذكر الأحكام المختصة بالنساء، والتي يختلف فيها حكمهن عن حكم الرجال، مع التسليم بأن هذا النوع من الأحكام شكل النسبة العظمى من أحكام كتابه، والتسليم كذلك بأن هذا النوع شغل المقام الأول من اهتمام ابن العطار رحمه الله.

وفي محاولة لتصنيف الأحكام التي



ضمنها ابن العطار كتابه؛ فقد قاد استقراء المحققة للمخطوط إلى حصر تقريبي لأنواع الأحكام التي حواها، فوجدت ثمانية أنواع من الأحكام تضمنها كتاب «أحكام النساء» لابن العطار، وهي:

النوع الأول: أحكام اختصت اختصاصا كليا بالمرأة: ومعظمها في كتاب «الطهارة» و«الصلاة» و«اللباس والزينة» ونحو ذلك.

النوع الثاني: أحكام يشترك في أصل الحكم فيها الرجال والنساء، ثم ينفرد كل منهما بكيفيات وهيئات: ومن ذلك: الغسل؛ فالمرأة كالرجل؛ لكنها تزيد في غمر ضفائرها بالماء، ومنها: الوقوف بعرفة حكمها كحكم الرجل؛ لكنها تقف قاعدة في حاشية الموقف...إلخ.

النوع الثالث: أحكام يتفق فيها الرجال والنساء، وتجهلها أو تهملها معظم النساء: ولا يتنبه لها النساء لذيوع الجهل بينهن، أو يشتهر اعتناء الرجال بها دونهن، نحو: الاستياك، والختان، والعقيقة عند البلوغ لمن لم يعق وليها عنها...إلخ.

النوع الرابع: وهو الأحكام التي تعم الجنسين: وهي التي يتفق فيها النساء والرجال مطلقا، وأحكامها في الأغلب معروفة، فينبه إليها المصنف في عجالة، ثم يتجاوزها إلى غيرها؛ نحو قوله: «حكم المرأة في التيمم حكم الرجل»، وقوله في كتاب الزكاة: «وتجب الزكاة في الركاز على كل مكلف؛ رجلا كان أو امرأة، محجورا عليه، أو مطلق التصرف»، وكثير من الأحكام في كتاب البيوع، وفي كتاب «الجنايات والحدود»...إلخ.

النوع الخامس: أحكام تعم الجنسين، ثم يندر حصولها، فيجهل حكمها: ومثال هذا النوع: قوله في كتاب الحج، فصل: النذر: مسألة: «ولو نذر رجل ذبح ولده ذكرا كان أو أنثى».

النوع السادس: أحكام تختص بالرجل: ويذكرها ابن العطار على سبيل المقابلة، وقد جاءت في الكتاب في مواضع قليلة، ومن ذلك قوله: «ويكره للرجل أن ينام مستلقيا على وجهه، فقد صح أن رسول الله ﷺ رأى رجلا مستلقيا على وجهه، فقال: إن هذه بطحة يبغضها الله تعالى».

ومنه: قوله بعد ذكره مقدار ما ترخي المرأة من الذيل: ولهذا كان إرخاء الإزار على الكعبين للرجال في النار؛ لما فيه من الفخر والخيلاء، والتشبيه بالنساء؛ فإن ذلك شرع لهن للستر، وهو مفقود في حق الرجال.

النوع السابع: أحكام يذكرها لا تختص بها النساء ولا يختص بها الرجال: ولكن يذيع إتيانها على مخالفة الشرع في مجتمعه، واحتمال جهل النساء بحكمها مع إتيانهم لها احتمال قوي، ومن أمثلته: «حكم الأجراس التي تعلق على الدواب، وضرب النقارات في الحرب، وحكم الشبابة، والأرغن».

النوع الثامن: أحكام تلحق آثارها المرأة، وإن كان فاعلها هو الرجل: وهو نوع من الأحكام ظهر في أبواب النكاح في فصول نحو: الطلاق، والظهار، والإيلاء، واللعان، والأيمان.

وعموما، فإن المحققة رأت في دراسة الكتاب أن في خروج ابن العطار رحمه الله عن شرطه في ضابط كتابه ظهورا جديدا لروحه الوثابة إلى نفع الناس؛ حيث كان هذا النفع، ومهما استدعى خروجا عن الضوابط والقيود.

مُعجمُ البُلدانِ

لياقوت الحموي

التحرير

اعتمد الجغرافيون المسلمون على رحلاتهم الشخصية، وكان ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، من هؤلاء البلدانيين الذين جمعوا معلومات قيمة، وقد وضعها في مصنفه الجامع «معجم البلدان»، الذي يعد من أهم المصادر في بابه وأكثرها شهرة، وذلك لما تضمنه من مادة جغرافية وتاريخية وأدبية متنوعة.

ومعلوم أن المعاجم أو القواميس الجغرافية تمثل نمطا من أنماط الفهرسة والتبويب، وانتخاب المعلومات الجغرافية وتصنيفها؛ حسب الترتيب الأبجدي، ويتطلب التأليف في هذا المجال توفر القدرة العلمية والبحثية على حصر المادة الجغرافية، والقدرة على التمييز بين الصالح منها والضعيف المتهالك، وإنجاز المعجم الجغرافي يعد بحق ابتكارا إسلاميا بامتياز؛ فقد أكثروا من تصنيف القواميس في علم الجغرافية، ومنها كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي، الذي ألفه في القرن السابع الهجري.

أما فكرة تأليف الكتاب فقد غاب عنه ضبط لفظة هي سوق من أسواق العرب في جاهليتهم، فكانت هذه الحادثة دافعا قويا له لوضع معجم عام يجمع شتات المادة الجغرافية المعروفة؛ لهذا انصرف إلى تأليف معجمه، ولكي يجهز نفسه لإنجاز المعجم؛ رجع إلى كثير من الكتب ونقل منها بأمانة، فأورد وصفا جيدا لكل ما استطاع أن يصل إلى علمه عن المدن ومواضعها، إضافة إلى رحلته العلمية في تلك السبيل، وبعد أن أنجزه قال ياقوت عنه في مقدمته واصفا إياه:

«كتاب في أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأنداد والأوثان».



وقد كانت مقدمة كتابه من أنفس ما لا ينبغي أن يجهله طالب علم عموما، ومحب الجغرافية والبلدان خصوصا، وهذه بعض مقتطفات منها:

قال في أول مقدمته شارحا دافعه في جمع كتابه:

«هذا كتاب في أسماء البلدان، والجبال، والأودية، والقيعان، والقرى، والمحال، والأوطان، والبحار، والأنهار، والغدران، والأصنام، والأنداد، والأوثان. لم أقصد بتأليفه، وأصمد نفسي لتصنيفه، لهوا ولا لعبا، ولا رغبة حثتني إليه ولا رهبا، ولا حنينا استفزني إلى وطن، ولا طربا حفزني إلى ذي ود وسكن. ولكن رأيت التصدي له واجبا، والانتداب له مع القدرة عليه فرضا لازبا، وفقني عليه الكتاب العزيز الكريم، وهداني اليه النبأ العظيم، وهو قوله عزوجل، حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته، ويقيم الحجة عليهم في إنزاله بهم أليم نقماته: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج:٤٦)؛ فهذا



تقريع لمن سار في بلاده ولم يعتبر، ونظر إلى القرون الخالية فلم ينزجر، وقال وهو أصدق القائلين: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ (الأنعام:١١)؛ أي انظروا إلى ديارهم كيف درست، وإلى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست، عقوبة لهم على اطراح أوامره، وارتكاب زواجره، إلى غير ذلك من الآيات المحكمة، والأوامر والزواجر المبرمة؛ فالأول توبيخ لسبق النهي عن المعصية شاهرا، والثاني أمر يقتضي الوجوب ظاهرا».

وقال في معرض ذكره حاجة أهل العلم جميعا للباب الذي ألف فيه وجمع من أجله كتابه الممتع: «الافتقار إلى هذا الشأن يشترك فيه كل من ضرب في العلم بسهم...؛ فإني رأيت جل نقلة الأخبار، وأعيان رواة الأشعار والآثار، ممن عني بها دهره، وأنفد فيها عرضه وعمره حسن الاستمرار على الصواب...، حتى يمر بهم ذكر بقعة كانت بها وقعة واقعة، فيختلط لاحتياجه إلى النقل لا العقل، والرواية لا الدراية، فتراه إما غالطا، أو مغالطا، فيخفض من صوته بعد رفعه، ويتكهم ماضي لسانه بقدعه، ثم قلما رأيت الكتب المتقنة الخط، المحتاط لها بالضبط والنقط، إلا وأسماء البقاع فيها مهملة أو محرفة، وعن محجة الصواب منعطفة أو منحرفة، قد أهمله كاتبه جهلا، وصوره على التوهم نقلا، وكم إمام جليل، ووجه من الأعيان نبيل، وأمير كبير، ووزير خطير، ينسب إلى مكان مجهول، فتراه عند ترجيم الظنون على كل



محتمل محمول، فإن سئل عنه أهل المعارف أخذوا بالنصف الأرذل من العلم، وهو لا أدري. وبئست الخطة للرجل الفاضل، فإن التمس لذلك مظنة، أعضل، أو أريغ له مطلب، أعوز وأشكل، لإغفالهم هذا الفن من العلم الخطير مع جلالته، وإعراضهم عن هذا المقصد الكبير مع فخامته.

ومن ذا الذي يستغني من أولي البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها، وضبط أصقاعها وتنقيحها، والناس في الافتقار إلى علمها سواسية» ثم بين قيمة معرفة الأماكن وضبطها، وأنها بالخصوص لا يستغني عنها عالم بالشرع؛ فقال: «من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين، ومعالم للصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، ومشاهد للأولياء والصالحين، ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين، وقد فتحت هذه الأماكن صلحا وعنوة، وأمانا وقوة، ولكل من ذلك حكم في الشريعة، في قسمة الفيء وأخذ الجزية، وتناول الخراج

واجتناء المقاطعات والمصالحات، وإنالة التسويفات والإقطاعات، لا يسع الفقهاء جهلها، ولا يعذر الأئمة والأمراء إذا فاتهم في طريق العلم حزنها وسهلها؛ لأنها من لوازم فتيا الدين، وضوابط قواعد الإسلام والمسلمين».

فأما أهل السير والأخبار، والحديث والتواريخ والآثار، فحاجتهم إلى معرفتها أمس...، لأنه معتمد علمهم...، وأما أهل الحكمة والتفهيم، والتطبب والتنجيم، فلا تقصر حاجتهم إلى معرفته عمن قدمنا، فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها، والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها،... ولذلك صنف كثير من القدماء كتبا سموها جغرافيا، ومعناها صورة الأرض، وألف آخرون كتبا في أمزجة البلدان وأهوائها...

وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم إليها، لأنها من ضوابط اللغوي ولوازمه، وشواهد النحوي ودعائمه، ومعتمد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها...

فإنه إن زعم أنه واد وكان جبلا، أو جبل وكان صحراء، أو صحراء وكان نهرا، أو نهر وكان قرية، أو قرية وكان شعبا، أو شعب وكان حزما، أو حزم وكان روضة، أو روضة وكان صفصفا، أو صفصف وكان مستقعا، أو مستقع وكان جلدا، أو جلد وكان سبخة، أو سبخة وكان حرة، أو حرة وكان سهلا، أو سهل وكان وعرا، أو يجعله شرقيا وكان غربيا، أو جنوبيا وكان شماليا، سفل قدره، ونزر كثره، وآض ضحكة، ويرى أنه ضحكة، وجعل هزأة، ويرى أنه هزأة، واستخف وزنه واسترذل،

واستقل فضله واستجهل».

ثم ذكر باعثه الأول على التصنيف في هذا النوع من العلم؛ فقال:

«وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب، أنني سئلت بمرو الشاهجان، عن حباشة اسم موضع جاء في الحديث النبوي، وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية؛ فقلت: أرى أنه حُباشة بضم الحاء، قياسا على أصل هذه اللفظة في اللغة، لأن الحُباشة: الجماعة من الناس من قبائل شتى، وحبشت له حباشة أي جمعت له شيئا؛ فانبرى لي رجل من المحدثين، وقال: إنما هو حَباشة بالفتح. وصمم على ذلك وكابر، وجاهر بالعناد من غير حجة وناظر، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل؛ إذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل؛ فاستعصى كشفه في كتب غرائب الأحاديث، ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها، فلم أظفر به إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء، ويأس من وجوده ببحث واقتراء، فكان موافقا والحمد لله لما قلته، ومكيلا بالصاع الذي كلته، فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطا، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطا، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا، وإلى ضوء الصواب داعيا، ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون، ولم يهتد لها الغابرون. يقول من تقرع أسماعه: كم ترك الأول للآخر!».

ثم ذكر أسماء من صنف من المتقدمين عليه في أسماء الأماكن، وأسماء كتبهم وذكر أنه اقتدى بهم، وأوضح أن تلك المصنفات صنفان:

منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة، ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار، واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار.

وبعد أن عدد الكتب ومؤلفيها، بين مدى مجهوده في نقل معلوماتها، والتزامه الأمانة في ذلك؛ فقال:

«وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها، ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب والمحدثين، ومن أفواه الرواة، وتفاريق الكتب، وما شاهدته في أسفاري، وحصلته في تطوافي، أضعاف ذلك، والله الموفق».

وفي السياق أعطى أحكامه التي تحصلت له على تلك المصنفات - وقد كان قسمها على طبقات - ما كان منها جيدا في بابه وما كان قليل الفائدة؛ فقال:

«فأما الطبقة الأولى، فأسماء



الأماكن في كتبهم مصحفة مغيرة، وفي حيز العدم مصيرة، قد مسخها من نسخها، وأما الطبقة الثانية فإنها وإن وجدت لها أصول مضبوطة، وبخطوط العلماء منوطة مربوطة، فإنها غير مرتبة، لشدة الاختصار، لأن قصدهم منها تصحيح الألفاظ، لا الإبانة عما عدا ذلك من الأغراض»

وفي آخر مقدمته النفيسة سرد منهجه المحكم في مصنفه العجيب المفيد؛ فقال:

«فاستخرت الله تعالى، وجمعت ما شتتوه، وأضفت اليه ما أهملوه، ورتبته على حروف المعجم، ووضعته وضع أهل اللغة المحكم، وأبنت عن كل حرف من الاسم: هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور، وأزلت عنه عوارض الشبه، وجعلته تبرا بعد أن كان من الشبه، ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربيا، ومعناه إن أحطت به علما إن كان عجميا، وفي أي إقليم هو وأي شيء طالعه، وما المستولي عليه من الكواكب، ومن بناه، وأي بلد من المشهورات يجاوره، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه، وبماذا اختص من الخصائص، وما ذكر فيه من العجائب، وبعض من دفن فيه من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين، ونبذا مما قيل فيه من الأشعار في الحنين إلى الأوطان، الشاهدة على صحة ضبطه والإتقان، وفي أي زمان فتحه المسلمون وكيفية ذلك، ومن كان أميره، وهل فتح صلحا أو عنوة، لتعرف حكمه في الفيء والجزية، ومن ملكه في أيامنا هذه.

على أنه ليس هذا الاشتراط بمطاوع لنا في جميع ما نورده، ولا ممكن في قدرة أحد غيرنا، وإنما يجيء على



هذا البلدان المشهورة، والأمهات المعمورة، وربما ذكر بعض هذه الشروط دون بعض على حسب ما أداني إليه الاجتهاد، وملكناه الطلب والارتياد».

على أنه رحمه الله لأمانته وصدقه وجليل معرفته، بين أنه أعطى القارئ فوائد عظيمة، في قالب سهل ممتع، ونبهه إلى أن هناك أشياء ذكرها من باب التتميم العلمي والتنكيت، ولا يلزم من ذلك صحتها، قال:

«واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها، وملكتك عفوا صفوا عقدها وحلها، حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق، وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرئ إلى قارئها من صحتها، لأنني كتبتها حرصا على إحراز الفوائد، وطلبا لتحصيل القلائد منها والفرائد، فإن كانت حقا فقد أخذنا منها بنصيب المصيب، وإن كانت باطلا فلها في الحق شرك ونصيب، لأنني نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها، لتعرف ما قيل في ذلك حقا كان أو باطلا، فإن قائلا لو قال: سمعت زيدا يكذب، لأحببت أن تعرف كيفية كذبه».

وبعد اعتذاره عما يمكن أن يكون في كتابه من الزلل والسهو؛ إلا أنه واثق في صناعته، وأنه يبذ بمصنفه غيره من المصنفات التي تشترك معه في الموضوع، يقول ذلك وثوب التواضع يلفه، قال رحمه الله:

«وعلى ذلك فإنني أقول ولا أحتشم، وأدعو إلى النزال كل علم في العلم ولا أنهزم، إن كتابي هذا أوحد في بابه، مؤمر على أضرابه، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق، وركب في طلب فوائده كل طريق، فغار تارة وأنجد، وطوح لأجله بنفسه فأبعد، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته، وساعده العمر بامتداده وكفايته، وظهرت منه أمارات الحرث وحركته. نعم، وإن كنت أستصغر هذه الغاية فهي كبيرة، أو أستقلها فهي لعمر الله كثيرة، وأما الاستيعاب فشيء لا يفي به طول الأعمار، ويحول دونه مانعا العجز والبوار، فقطعته والعين طامحة، والهمة إلى طلب الازدياد جامحة، ولو وثقت بمساعدة العمر وامتداده، وركنت إلى توفيقي لرجائي فيه واستعداده، لضاعفت حجمه أضعافا، وزدت في فوائده مئين بل آلافا، ولو التمست نفاق هذا الكتاب وسيرورته، واعتمدت إشاعة ذكره وشهرته، لصغرته بقدر الهمم العصرية، ورغبات أهل الطلب الدنية، ولكني انقدت فيه لنهمتي، وجرني رسن الحرص إلى بعض بواعث همتي، وسألت الله، جل وعز، أن لا يحرمنا ثواب التعب فيه، ولا يكلنا إلى نفسنا فيما نحاوله وننويه، وجائزتي على ما أوضعت إليه ركاب خاطري، وأسهرت في تحصيله بدني وناظري، دعاء المستفيدين، وذكر زكي من المؤمنين، بأن أحشر في زمرة الصالحين.

وإذا أردنا معرفة مضامين أبواب المعجم الخمسة فقد ذكرها ياقوت في مقدمة كتابه، وهي:

الباب الأول: في صفة الأرض وما فيها من الجبال والبحار وغير ذلك.

الباب الثاني: في ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها والاختلاف في كيفيتها.

الباب الثالث: في تفسير الألفاظ التي يتكرر ذكرها في هذا الكتاب.

الباب الرابع: في أقوال الفقهاء في أحكام أراضي الفيء والغنيمة وكيفية قسمة ذلك.

الباب الخامس: في جمل من أخبار البلدان.

قال رحمه الله في سلخ مقدمته بعد ذكر هذه الأبواب الخمسة:

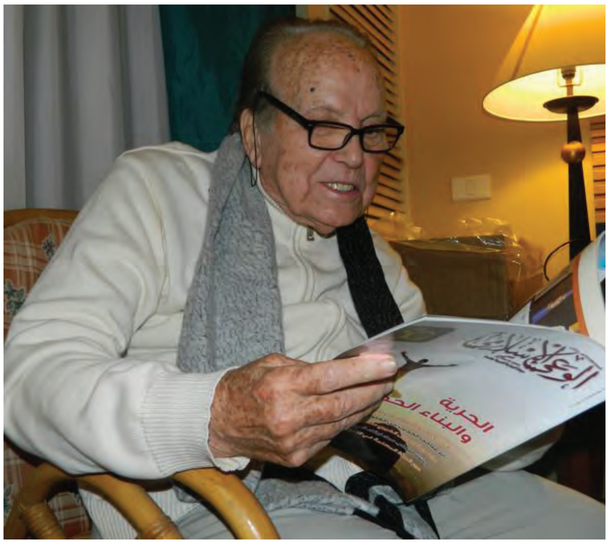
«ثم أعود إلى الغرض فأقسمه ثمانية وعشرين كتابا على عدد حروف المعجم، ثم أقسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين بابا للحرف الثاني للأول، وألتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه، وإلى أي غاية بلغ، فأقدم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب: ا ب ت ث... على صورته الموضوعة له، من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها، لأن جميع ما يرد إنما هي أعلام لمسميات مفردة، وأكثرها عجمية ومرتجلة؛ لا مساغ للاشتقاق فيها».



د. عبدالهادي التازي في آخر حوار له قبل وفاته:

تجاهل «الآخر» مصيبة كبرى

حوار: صابر رمضان



على الرغم من المناصب والدرجات العلمية التي تقلدها المؤرخ والسياسي المغربي د. عبدالهادي التازي، رحمه الله، فإنه كان دائما يعتز بعضويته في مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي كان يرأسه عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين رحمه الله، ورغم أنه يوصف بعدة ألقاب، من بينها المؤرخ والأديب والسياسي، فإنه يتذوق كل لقب على حدة.

«الوعي الإسلامي» التقته قبل وفاته بفترة وجيزة على ضفاف نهر النيل في أحد الفنادق على هامش مشاركته في دورة مجمع اللغة العربية الثمانين بالقاهرة. وعلى الرغم من المشقة التي بدت عليه أثناء الحوار معه؛ نظرا لظروفه الصحية وسنه المتقدمة، فإنه أبدى سعادة بالغة بالحوار؛ لما يكنه من حب جارف ومشاعر نبيلة تجاه الكويت التي يؤكد دوما أن رحلته إليها كانت هي المفتاح الأول لتعرفه على العالم العربي. وإلى نص الحوار معه:

• كيف ترى دور مجمع اللغة العربية بالقاهرة، محليا وإقليميا وعالميا بصفتك أحد أعضائه البارزين؟

- نسمع عن مجمع اللغة العربية منذ ٨٠ عاما، ونحن نحضر اليوم دورة المجمع الثمانين، وأنا أسعد بذلك، وأعتز بأنني عضو في هذا المجمع منذ أيام الدكتور طه حسين رحمه الله، كما أنني عضو في مؤتمر دمشق والمجمع العلمي العراقي عندما كنت سفيرا هناك، وأقدر جدا ما يقوم به زملاؤنا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فهناك لجان لها اختصاصها، وسعدت جدا بحضوري في هذه الدورة، خصوصا لما وجدته من مناقشات في الجلسات المغلقة لاهتمامات الجغرافيين الأعضاء، واهتمام الفلاسفة، واهتمام الصيادلة، واهتمام الأطباء. لكن المشكل الذي يعيشه مجمع اللغة العربية اليوم مشكل حاد ودقيق، وهو السؤال الموضوع حول تدريس العلوم بمعنى العلوم البحتة (طب وهندسة) وكيف تدرس في الجامعات، وهل تدرس باللغة العربية أم باللغة الأجنبية؟ وهذا هو الصراع الحاصل الآن، ليس على صعيد المجمع فقط ولكن على صعيد شعوبنا العربية، فالعالم الآن يتغير، والتاريخ يتحرك، وفي استطاعتك أن تقاوم كل تيار، إلا تيار التطور الذي يحصل في العالم، هنا نجد أن الموقف في مجمع اللغة العربية يتنوع إلى ثلاثة مواقف: هناك في المجمع من يفرض أو يوصي بقوة بضرورة تعليم العلوم باللغة العربية الفصيحة، هذه فكرة جميلة، هناك طريق ثان يرى أن تعليم العلوم باللغة العربية الفصيحة غير عملي، لأننا نشهد كل يوم تطورا جديدا في هذا العالم في ميدان العلوم، ولذلك فإن هذا التيار الثاني يقول بضرورة تعليم العلوم (science) باللغات الأجنبية، وهناك طريق ثالث يرى ويحاول الجمع أو المزج بين الرأيين - لكن كيف؟ هذا هو المهم - ويقول إننا لا نتخلى عن عربيتنا فهذه ردة إذا تحولنا أو تخلينا عن عربيتنا، ولكن يجب مع هذا الشعور أن نلتفت إلى ما يحدث حولنا، وكيف نلتفت إلى الأمم الأخرى، يجب أن نعرب، والتعريب يحتاج إلى وقت، وقت لاختيار الذي يقوم بالترجمة، ووقت لاختيار الذي يقوم بإيجاد المصطلح، هذا الفريق الثالث في انتظار أن يتم التعريب المنشود، وعلى المستوى المطلوب لا بأس بأن نستعين باللغات الأخرى، بحيث الآن نحن في صراع مع التيارات الثلاثة، ويجب - وأقولها بصراحة - أن نستجيب لمطالب أبنائنا وأحفادنا الذين يفتحون عيونهم كل يوم على جديد يرونه في التلفزة، أو يسمعون به في الإذاعات أو يقرأونه

في متن الصحف، أنا مثلا أقدر جدا المجلات التي تصدر في بعض البلاد العربية معربة للعلوم، وهذا شيء جميل، ويجب علينا أن نشكر هذه المنابر، وأن نقدرها. وأعيدها مرة أخرى: إنما نحن في انتظار أن يكون عملنا متقنا ولا بأس بأن نقوم بمصالحة بين الفرقاء في ما يتعلق بهذا الموضوع الذي يجب أن ننظر إليه نظرة جيدة.

• في رأيك ما مستقبل اللغة العربية في ظل طوفان اللهجات العامية الآن؟

- قامت عندنا في المغرب ضجة حول هذا الموضوع، فالكل في المغرب يعتبر أن الاعتماد على اللغة الدارجة دون الالتفات إلى اللغة العربية بدعة من البدع؛ ولذلك نرى أن التمسك باللغة العربية، كوسيلة من وسائل التعليم، خير ضمان لتحسن الأحوال من وجهتي نظر اثنين: أولا أن المستوى سيبقى مرتفعا، وثانيا إغلاق الباب على كل الدخلاء فيما يتصل باللغة العربية.

• مع الاهتمام الغربي المتزايد بالعالم العربي الإسلامي.. هل تتوقع أن تنشط دعوات تغريب اللغة العربية كما نشطت أيام الاستعمار مع غيرها من الدعوات الفكرية الهدامة؟

- هناك فرق أرجو أن أبدده أمامكم، وأشكرك على هذا السؤال الدقيق الرقيق، المحرج أيضا، ففي عهد الاستعمار كان الهدف القضاء على حضارتنا، وإبعادنا عما نؤمن به، أما اليوم فلا، فالبشر يتزايدون كل يوم ما شاء الله، وأصبحنا مضطرين إلى أن نلتفت إلى طلبات البشر؛ فلذلك أنا لا أرى أن هناك تشابها بين الأمس واليوم. اليوم كل واحد يفتح عينيه على مستقبل يريده هو لا أنت، يفكر في أن يذهب إلى كندا، يفكر في أن يذهب إلى أميركا ولا وسيلة توصله إلى كندا أو أميركا أو فرنسا أو ألمانيا أو بريطانيا إلا بأن يعرف لغة أخرى. أقول بكل صراحة، إن أمر الشعوب أصبح بيد أبنائها، وأنا لا أستطيع، وأقولها غير خائف، أن أقف في وجه أبنائي وهم يهاجرون إلى البلاد الأخرى، من أجل أن يحسنوا معلوماتهم، ولذلك أصبحنا الآن أمام البحث عن السوق الذي يعيش فيه هذا المواطن، لا يمكن لك أن تقف في وجه ابنك أو حفيدك وهو يسمع عن أن المدرسة الأخرى أحسن من مدرسته، فالوعي اليوم انتشر بطريقة غريبة جدا، نحن نستغرب منها، ولكننا لا نجهل أن بيوتنا أصبحت مغزوة بما تراه في كل مناطق العالم، والأجيال يرون مثل ما ترون، ويبحثون عن مصالحهم أيضا، فلذلك أريد أن أقول إنني أحاول أن أزيل من تفكيرك أن هناك رغبة اليوم في أن تنشط دعوات تغريب اللغة العربية مثلما نشطت أيام الاستعمار.

• وكيف تقيم حال مؤسساتنا التعليمية والمراكز البحثية وما وصلت إليه الآن؟

- هناك مشكل كبير مما طرحت، وهو مشكل معلم العربية، فمعلم العربية بعضه لا يصل إلى المتانة والمناعة اللتين يتمتع بهما المعلم الآخر، وسأعود إلى الموضوع الأول، وهو يتلخص في ضرورة استعانتنا باللغات الكونية، فاللغات الكونية أصبحت من مزاجنا، وأصبحت عملا يمتزج بمكوناتنا. ومن هنا، أنصح بأن علينا إذا أردنا أن نواكب المسيرة العالمية، التي هي آتية لا محالة لا مرد لنا منها، وإذا أردنا أن نواكب هذا العالم، فعلينا أن نأخذ بمعالم الطريق التي سكنها هذا العالم.

• هل أنت متفائل بمستقبل اللغة العربية في ظل العولمة والهيمنة الغربية؟

- طبعا، فمستقبل اللغة العربية مضمون، لكن علينا في الوقت ذاته ألا نتجاهل الآخر، فتجاهل الآخر ورفضه هما المصيبة الكبرى. وقد قمت في الشهور الماضية بزيارة إلى بلاد الخليج، وتحسست أن النشء هناك يميل إلى الانفتاح على العالم الآخر، لماذا؟ لأنه يريد أن يعيش، والعيش يقتضي أن تتحاور مع الآخر، واللغة العربية ستصبح مهددة إذا ظللنا وإذا استمررنا في تجاهل هذا الآخر؛ ولهذا أقول إن اللغة العربية بخير على الإطلاق، لكنني أقول إن على هذه اللغة والمشرفين عليها أن يفتحوا آذانهم وعيونهم على كل ما هو جديد، وإلا فسنعمل على أن يهجرها أبناؤها.

• شغلت دولة الكويت حيزا من وجدانك.. فما سر عشقك لها؟

- عندما كنت سفيرا لبلادي في العراق كانت الكويت قريبة مني، لكن الأكثر والأهم أن الكويت كانت مفتاحي للتعرف على العالم العربي، فمن خلال المؤتمر الرابع للأدباء العرب في الكويت التقيت هناك بطائفة كبيرة من الأدباء والشعراء الذين حضروا إلى الكويت، وكان من بينهم أعلام من مصر، أذكر منهم رئيس مجمع اللغة العربية آنذاك، والدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) وزوجها، فهذه اللقاءات التي تمت في الكويت خلال هذا المؤتمر جعلتني أمتن علاقتي بالعالم العربي، فهناك رحلتان اثنتان كان لهما الفضل في تكوين شخص عبدالهادي التازي، أولاهما رحلة الكويت التي عرفتني بالعالم العربي، ورحلتي الأولى إلى أوروبا التي غيرت - وبكل صراحة - من سيرتي الذاتية التي كانت لي في المغرب. وقد قامت حكومة الكويت بطباعة كتاب لي عن الكويت عبرت من خلاله عن الهمم العظيمة التي يتمتع بها قادة دولة الكويت الذين دفعوا ببلادهم إلى الصفوف الأولى للبلدان العربية.

• أخيرا.. كلمة للمثقفين واللغويين والكتاب العرب فماذا تقول؟

- لابد أن يقوموا بواجباتهم في توجيه الرأي العام حسب ما يقتضيه الضمير والشعور بالمسؤولية.

عبدالهادي التازي.. في ذمة اللّه

نايف شرار - الكويت



انتقل إلى رحمة الله مساء الخميس ٢ أبريل الماضي بالرباط البروفيسور والمؤرخ المغربي عبدالهادي التازي، عضو أكاديمية المملكة المغربية، عن عمر يناهز ٩٦ عاما.

تقلد الراحل عدة مناصب علمية ودبلوماسية، إذ عين سنة ١٩٤٧م مديرا للمعهد الجامعي للبحث العلمي، وسفيرا للمغرب لدى عدد من البلدان، قبل أن يعين مكلفا بمهمة في الديوان الملكي.

وعين رئيسا للمؤتمر العالمي السادس للأسماء الجغرافية في نيويورك.

وشغل الراحل أيضا عضوية عدد من المجامع العلمية، منها المجمع العلمي العراقي، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمعهد العربي الأرجنتيني، ومؤسسة آل البيت، ومجمع اللغة العربية بالأردن، ومجمع اللغة العربية بدمشق.

كما عين الراحل عضوا في المعهد الإيطالي الإفريقي والشرق، الذي يوجد مقره في العاصمة الإيطالية روما، واختير عضوا في المجلس العلمي لهيئة المعجم التاريخي للغة العربية.

وعمل الراحل أستاذا ومحاضرا في عدد من المعاهد والمدارس العليا والكليات داخل المغرب وخارجه حول تاريخ العلاقات الدولية.

وتم توشيح عبدالهادي التازي قيد حياته بعدد من الأوسمة، منها وسام العرش بالمغرب سنة ١٩٦٣م، ثم الحمالة الكبرى للاستقلال بليبيا سنة ١٩٦٨م، ووسام الرافدين بالعراق سنة ١٩٧٢م، ثم وشح بقلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة في المغرب سنة ١٩٧٦م، ثم الميدالية الذهبية للأكاديمية سنة ١٩٨٢م.

وفي يوليو ٢٠٠٦م، وبمناسبة ذكرى عيد العرش المجيد، وشح السيد عبدالهادي التازي بوسام العرش من درجة ضابط كبير.

وصدر للراحل العديد من الكتب، عبارة عن تراجم وأبحاث باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية.

دور المرأة المسلمة في المجالين الخيري والفكري

د. محمد الحجوي
أكاديمي مغربي

الإسهام في الأعمال الاجتماعية والخيرية والفكرية، وفي كل وجوه البر والإحسان هو مظهر من المظاهر التي قامت عليها المجتمعات الإسلامية منذ القدم، أعمال اشترك فيها الرجال والنساء معا بدون تفاوت، لأن المرأة منذ أن حررها الإسلام من قيود الجهل والتبعية والتخلف الذي عانت منه في العصر الجاهلي، وأعطاها حريتها، وحدد لها حقوقها وواجباتها قد أصبحت مطالبة في الأحكام الشرعية والواجبات الدينية مثل الرجل، فهي تتصرف في أموالها بحرية، وتختار وجوه البر الذي تضع فيه مالها دون تضييق من الرجل، كما تختار الوجوه التي يزدهر بها الفكر والثقافة وعمل الخير والإحسان الذي يكتب لها في سجل أعمالها لتنال به الذكر الطيب في الحياة الدنيا ورضا الله في الحياة الأخرى مثل الرجل.

إن الحرية في صرف المرأة مالها في الوجوه التي تختارها وتحمل المسؤولية الكاملة في أعمالها واختياراتها يعطيها الأهلية في أن تكون عضوا فعالا في المجتمع، في كل المجالات الاجتماعية والفكرية التي أباحها لها الإسلام، ومنها وجوه البر والإحسان والإسهام في تنمية المجتمع، بالقدر الذي يمكنها من ذلك. وقد قامت المرأة المسلمة منذ بدء الدعوة الإسلامية بدورها الريادي في جميع المجالات التي يكلف بها الرجل، بدءا من نشر العقيدة السمحة من تعاليم الكتاب والسنة إلى التدريس والتأليف في العلوم الدينية والأدبية والعلمية، والقيام بالأنشطة الثقافية والاجتماعية والعمرانية، والمشاركة في القرارات السياسية وتدبير شؤون الدولة، والجهاد في سبيل الله، وتقديم العون للمجاهدين وأبناء السبيل، وممارسات الأعمال في التجارة والتدبير والشأن الاقتصادي. وكانت جهود المرأة المسلمة بارزة في كل بلاد الإسلام في المشرق والغرب الإسلامي، وفي كل أرض انتشر فيها الإسلام، إذ لم تتخلف عن القيام بواجبها الديني والعلمي والاجتماعي والفكري والثقافي والجهادي في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، باستثناء مرحلة الاستعمار التي عمل فيها على نشر الجهل والتخلف، ولم يقتصر ذلك على المرأة وحدها، بل شمل الرجل أيضا، لأن المخطط الاستعماري كان يهدف إلى القضاء على الإسلام دينا وفكرا وثقافة وحضارة، وطمس معالم الإسلام عقيدة وتاريخا وفكرا، ونهب خيرات بلاد الإسلام، واستعباد المسلمين بكل الوسائل والطرق، ليصبحوا خدما للغرب على المدى البعيد، فلذلك كان الاستعمار، ومازالت أفكاره حتى في عصرنا الحاضر تسير في هذا الاتجاه، لكيلا يستطيع العالم الإسلامي تحقيق نهضة صناعية وتقنية تجعله يتخلص من التبعية له.. إنه مخطط بغيض يحرص على تطبيقه بجميع السبل، ويجند له من كل دولة أتباعا يؤمنون بفكره، ويعملون على نشره.

وإذا كانت هذه المرحلة التاريخية تعد من أشد المراحل سوداوية في تاريخ الأمة الإسلامية، لأنها عملت على تأخير الأمة الإسلامية، والرجوع بها إلى قرون التخلف، فإن مرحلة ازدهار النهضة الإسلامية التي بدأت بعدما تخلصت فيها المجتمعات الإسلامية من الاستعمار عرفت فيها المرأة المسلمة مشاركة في هذه الصحوة والنهضة الإسلامية التي تبشر بالخير لهذه الأمة، فقد فتح لها المجال على مصراعيه، لكي تتعلم وتشارك في كل ميدان يمكن أن يسهم في تنمية المجتمع وتقدمه في جانب العمران والبناء والتخطيط، وفي نشر الفكر والعلوم الدينية والأدبية والعقلية بالتدريس والتأليف والمناظرات والبحث العلمي في الجامعات ومراكز البحوث، وفي المشاركة في المجالات التي كان الرجل مهيمنا عليها، ولاسيما الميدان الصناعي والتقني والتجاري.

ونذكر بعض هؤلاء النساء اللواتي برزن في هذه الميادين الثقافية والخيرية، وأصبحن رموزا للفضيلة

وعمل الخير في العالم الإسلامي، ومنهن:

● البهاء بنت الأمير عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية، توفيت سنة ٣٠٥هـ. كانت هذه المرأة الفاضلة عالمة زاهدة عابدة، وشديدة الرغبة في فعل الخير بالمال والفعل الحسن في المجتمع، وقضت فترة من حياتها في خدمة كتاب الله بنسخه بخط جيد وبارع، مراعية في ذلك خط رسم حروف القرآن الكريم. قال ابن عبدالملك المراكشي: «وكانت تكتب المصاحف وتحبسها» (١).

- فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني المتوفاة سنة ٢٤٥هـ. هذه المرأة الفاضلة المحبة للخير والعلم، هي التي بنت «جامع القرويين» الشهير بمدينة فاس، وقد أصبح هذا الجامع من أكبر الجامعات الإسلامية في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي، وتخرج منه علماء وفقهاء ورجال دولة كان لهم الأثر الكبير في نشر الثقافة والفكر، والحفاظ على المذهب المالكي، ونشر الإسلام في جنوب الصحراء، حيث كان المغرب البوابة التي انطلق منها الإشعاع الديني والعلمي إلى أعماق إفريقيا، عن طريق هؤلاء العلماء، وعن طريق التجار (٢). وما زال هذا الجامع إلى عصرنا الحاضر يقوم بدوره العلمي.

- السيدة جليلة طوسون: أوقفت هذه المرأة في مصر عائد ١٣٨ فدانا ليصرف على تربية وتعليم الفتيات اليتيمات، وقد نصت في وقفيتها على تكوينهن في العلوم الدينية والشرعية، وتعليمهن مبادئ الحساب والقراءة، وفنون الطبخ والخياطة، وكل ما يناسب الفتيات (٣).

وهذا الموقف الذي سلكته هذه المرأة الفاضلة يدل على ما بلغت إليه المرأة المسلمة من نضج فكري، ووعي بمرحلة التخلف والجهل التي يجتازها العالم الإسلامي، فجعلها تفكر في التعليم والتربية، باعتبارهما البوابتين لكل تقدم وازدهار للأمم، ولا غرابة في ذلك، فالحضارة الإسلامية تأسست منذ بدايتها على العلم الذي أبدع فيه المسلمون في الجانب النظري والتطبيقي، وتركوا مؤلفات غزيرة في العلوم الدينية والأدبية والعقلية، وبخاصة الرياضيات والهندسة والطب وعلم التنجيم والفلاحة، ومن هذه العلوم أسس الغرب حضارته التي ينعم بها في عصرنا الحاضر.

وكذلك نهجت هذا النهج الأميرة فاطمة ابنة الخديوي إسماعيل، إذ خصصت مالا ضخما في وقفيتها لدعم التعليم المدني والتعليم العسكري (٤). حيث شعرت بأن الوجهين في التعليم مكملان للنهضة الإسلامية الشاملة التي كان يرتقبها العالم الإسلامي، لاسيما في تلك المرحلة التي كان يتهيأ فيها للدخول في الحداثة فكريا وعسكريا وتقنيا وصناعيا.

ويبلغ هذا النضج الفكري أسماه في عمل الأميرة فاطمة هانم أفندي إسماعيل التي أوقفت مجوهراتها الثمينة من أجل تشييد مباني الجامعة الأهلية بمصر في مرحلة كان فيها التعليم الجامعي في العالم الإسلامي محصورا على فئة قليلة جدا (٥).

ومعروف أن هذه الجامعة كان لها دور بارز في خلق النهضة الفكرية والعلمية بمصر بمناهج حديثة مثل الجامعات الغربية في المرحلة التي



بدأت فيها مصر تتطلع إلى التعليم الجامعي الحديث، وقد خرجت مجموعة كبيرة من الباحثين والأدباء هم الذين أسهموا في تطوير البحث العلمي في الجامعات المصرية والعربية.

ومن النساء من أوقفن أموالهن لتزويج الفتيات الفقيرات واليتيمات، وتقديم العون لهن ليتعلمن مهنة تحفظ كرامتهن، وكل هذا كان يسهم في استقرار المجتمع، ونشر الفضيلة والخير فيه، إذ صيانة الفتيات لاسيما اللواتي ليس لهن من يعولهن ويحميهن من مخالب الفقر وقسوة الزمان يعد من أسمى الفضائل الدينية والإنسانية والأخلاقية، فالمرأة الصالحة المتعلمة ركن أساسي في تقدم المجتمعات واستقرارها، فهي المربية والمعلمة للأجيال.

كذلك نجد من هؤلاء النساء الفاضلات من اشترطن في وقفيتهن إرسال الطلبة إلى الخارج لإكمال تعليمهم العالي في العلوم الحديثة التي تقدمت فيها أوروبا في القرن التاسع عشر، وكان العالم الإسلامي آنذاك في حاجة إليها ليستكمل نهضته العلمية والتقنية، لاسيما علوم الطب والهندسة المدنية والعسكرية، وعلوم التجارة والاقتصاد.

هذه الوجوه من العمل في مجال الخير والإحسان، وفي مجالات ثقافية وتربوية تبين أن المرأة المسلمة كانت واعية بدور الوقف في النهوض بالمجتمع الإسلامي من الناحية الثقافية والفكرية والعمرانية والاجتماعية، وفي حفظه من الاضطرابات والفتن التي تنشأ جراء انتشار الفقر والتخلف والجهل؛ كما كان وعيهن عميقا بما يمكن أن تقوم به الفتاة المتعلمة في المجتمع بمشاركتها الفعالة في النهضة المرتقبة، ولذلك وجدنا من يشترطن في وقفيتهن تعليم الفتاة فقط شعورا منهن بأثر التعليم في توجيه الفتيات للإسهام في النهضة الحديثة.

والمجتمعات المتقدمة لم تحقق نهضتها الشاملة في جميع الميادين إلا بإشراك المرأة وجعلها عنصرا فعالا في المجتمع، هذا بالإضافة إلى أن تعليم المرأة يساعدها في تربية النشء تربية سليمة، والأسرة تعد النواة الأولى للمجتمع، فمنها يبدأ الإصلاح والتوجيه والتكوين، فإذا صلحت المرأة صلح المجتمع، والعكس صحيح.

إن التعليم الهادف، والتربية المنتظمة، وجعل التعاليم الدينية أساسا في التعليم والتربية، يصون أخلاق المرأة، ويحفظها من الضياع والتشرد في الحالات التي لا تجد فيها معينا من الأسرة والزوج والمجتمع. إن تعلمها الهادف والموجه، وتربيتها الدينية والخلقية، يدفعها إلى سلوك طريق الفضائل والمثل العليا بالبحث عن العمل الذي يصون كرامتها، ولا يجعلها مبتذلة وسلعة رخيصة في المجتمع تباع مثل البضائع، وتهان عند أصحاب النفوس الدنيئة. وهذه الأعمال ليست غريبة على المجتمع الإسلامي الذي حرر المرأة من قيود الجهل والتخلف، ووضعها في مرتبة رفيعة، فقد كانت في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية حاضرة في حلقات العلم والتدريس والتأليف والمناظرات العلمية، ومشاركة في المشروعات الاجتماعية والعمرانية، ومربية في بيتها وفي قصور الخلفاء والأمراء، وطبيبة ومعالجة في زمن السلم والحرب، ومجاهدة في سبيل الله، حينما تتعرض ديار الإسلام للاعتداء؛ والكثير من الرجال العظام في تاريخ الإسلام نشأوا في حضن امرأة، علمتهم وحرصت على تكوينهم، بعدما فقدوا آباءهم وهم صغار، والفقيه العالم الإمام الشافعي خير دليل على ما قامت به المرأة المسلمة في تربية الأبناء تربية صالحة وموجهة للفضائل بعد فقد الأب، فقد نشأ يتيما ورعته أمه حتى أصبح من أفذاذ الرجال في تاريخ الفكر الإسلامي.

والعالم الإسلامي في المرحلة الراهنة، وفي صحوته المباركة، قد أعاد المكانة للمرأة في المجتمع على جميع المستويات، فهي تتعلم في الجامعات، وتلج التخصصات الدقيقة، وتسهم في التنمية الشاملة بالعمل في جميع الميادين، ولو كانت شاقة ومختصة بالرجال.

ولا ريب أن هذه الخطوات مبشرة بخير عميم لهذه الأمة التي ينبغي أن تحفظ المرأة وتصون كرامتها وتعطيها المكانة اللائقة بها، ولا نشك في أنها قادرة على أن يكون لها موقف بارز في دفع كل الجهات المسؤولة في الدولة إلى النهج القويم ومسلك الخير والفضيلة، مثلما فعلت المرأة قديما في الشرق والغرب الإسلامي.

الهوامش

١- الذيل والتكملة، السفر الثامن، القسم الثاني، ص٤٨٤.

٢ - هذه المرأة اشتهرت شهرة كبيرة في الغرب الإسلامي والمشرق.

٣- انظر «أوقاف النساء. نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية. دراسة الحالة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين، ريهام أحمد خفاجي. «أوقاف»، عدد ٤، سنة ٢٠٠٣م.

٤- المرجع السابق.

٥- المرجع السابق.



مبدأ حفظ النسل في الإس

يوسف القسطاسي
كاتب دراسات إسلامية

إن موضوع تكثير النسل والإنجاب واحد من المواضيع التي شغلت حيزا مهما في كتابات ومؤلفات العلماء، قديما وحديثا، واستحوذ على أذهان الناس مختلف المستويات، لارتباطه الوثيق بالحياة الزوجية واستقرار الأسرة المسلمة.
ورغبة مني في خدمة قضية من قضايا الأسرة المسلمة ونشر المعرفة وتلبية حاجيات المسلمين في ما يخص مسألة الإنجاب والنسل وفهم مقصده وبيان مفهوم تكثيره وضابط استعمال وسائل تنظيمه، يأتي هذا المقال لتوضيح مفهوم الكثرة التي دعا إليها الإسلام في تنظيم النسل، والغاية من الحث عليه، وضوابط تنظيمه مراعاة لمبدأ حفظه.

أودع الله عزوجل في الإنسان حب الذرية استبقاء لأثره من بعده ومددا له وسندا، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ (آل عمران:١٤) وقال عز من قائل ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد دعا رسول الله ﷺ إلى تكثير النسل فقال: «تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة».
والشريعة حثت على رعاية النسل حين دعت إلى تكثيره كثرة نوعية، لا كثرة غثائية، مقصودها نسلا قويا طيبا جديرا بأمانة الاستخلاف في الأرض وعمارتها، وفق مراد الله عزوجل، لهذا نجد نبي الله سيدنا زكريا عليه السلام دعا الله أن يرزقه ذرية طيبة فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (آل عمران:٣٨)، فلما جاءته البشارة بسيدنا يحيى عليه السلام وصفته بما تقر به عينه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.
إن تكثير سواد الأمة وإن كان مقصدا شرعيا مرغوبا فيه إلا أن الشريعة إحاطته بشروط تضبطه، فهي لا تقصد إلى كثرة غثائية، بل إلى نسل قوي مؤمن يسعى إلى مرضاة ربه وخدمة أمته وحسن عمارة الأرض.
يقول الشيخ شلتوت: إن الشريعة في الوقت الذي حث فيه على كثرة النسل إنماء للأمة وتكوينها لقوتها قضت بصيانة هذه الكثرة من الضعف ومن أن تكون غثاء كغثاء السيل: وإلى هذا تشير الكثير من الآيات القرآنية، فقد جاء في صفات عباد الرحمن أنهم يطلبون من الذرية ما تقر به أعينهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان :٧٤) يقول ابن عاشور: إنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة، إذ لا تقر عيون المؤمنين إلا بأزواج وأبناء مؤمنين، فمن أجل ذلك جعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنة، وإن كان فيه حظ لنفوسهم بقرّة أعينهم. فما هو السبيل إذن إلى تلك الكثرة القوية؟

الضوابط

إن تكثير النسل مقصد شرعي من النكاح كما سبق بيانه ولكن تحقيق ذلك المقصد يقتضي إدراك حقيقته، حتى لا تؤخذ دعوى تكثير النسل عند قاصري الفهم كدعوة إلى تكاثر أرنبي يترتب عليه استقالة الأسرة من مسؤولياتها تجاه الذرية. فجاءت أحكام الأسرة مبينة أن الكثرة المقصودة شرعا يجب أن تضبط بضابطين اثنين:
الضابط الأول: تنظيم النسل.
الضابط الثاني: رعايته وتنميته



ـــــــلام .. وضوابط تنظيمه

وحسن تربيته.

تنظيم النسل

إن قضية تنظيم النسل تحيل إلى ما ظهر في القرن الماضي من دعوات إلى تحديده، خصوصا بعد ظهور نظرية مالتوس في السكان التي أشارت إلى أن: عدد السكان يتزايد كل ٢٥ سنة بنسبة متوالية هندسية (١-٢-٤-٨-١٦-٣٢-٦٤) ومقومات العيش لا يمكن زيادتها في نفس المدة (أي ٢٥ سنة) إلا بنسبة متوالة عددية (١-٢-٣-٤-٥-٦-٧) فعدم التوازن بين الزيادة السكانية والموارد الغذائية سيؤدي إلى خلل ونقص في مقومات العيش، مما يقتضى عدة إجراءات مانعة من هذه الكارثة منها: ١- تأجيل الزواج حتى يتوافر له الرزق ما يسمح له بتكوين أسرة.

منع الحمل

وقد كان لهذه النظرية تأثير كبير على البنية الاجتماعية الأوروبية، وخاصة مؤسسة الأسرة، فتم العزوف عن الزواج، وخرجت المرأة إلى العمل، وتكرست النظرة الأنانية والمادية داخل الأسرة والمجتمع. كما أن كثيرا من مثقفينا تأثروا بهذه الدعوى، فبدأوا يروجون لها، ولا يخفى ما في تحديد النسل من تناقض مع صريح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وقد ذكرنا بهذه النظرية حتى نميز تحديد النسل عن تنظيمه فتحديد النسل كما بينت بواعثه ومقاصده لا يمكن أن تقصده أمة تريد البقاء لنفسها.. كما أن المائدة التي أعدها الله لعباده في ظاهر الأرض وباطنها لا يمكن أن تضيق عن حاجتهم وحاجة نسلهم مهما أكثروا ومهما عاشوا، وإنما المشكلة في كيفية توزيع خيرات الأرض على ساكنيها..

أما تنظيم النسل فمطلب ضروري لإعداد ذرية قوية، فهو تحكم مؤقت في الإنجاب بقصد المباعدة بين فترات الحمل أو إيقافه لمدة معينة من الزمان اذا دعت إليه حاجة معتبرة شرعا. فتنظيم النسل بهذا المعنى قد تعرضت له الأحاديث النبوية، وعالجه الفقهاء في باب العزل. وقد صحح الإمام الغزالي المذهب القائل بالإباحة مستدلا بالأحاديث الواردة في إباحة ذلك، ومنها ما روي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ سئل عن العزل فقال:» اصنعوا ما بدا لكم فما قضى الله تعالى فهو كائن، وليس من كل الماء يكون الولد « وكثير من الأحاديث وردت في الإباحة ترجح هذا القول، وهو الذي اتفقت عليه المذاهب الأربعة.

وقد نفى الغزالي حكم كراهية التحريم والتنزيه عن العزل لأن إثبات النهي إنما يكون بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه، بل هنا نص يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلا، أو ترك الجماع بعد النكاح، أو ترك الإنزال

بعد الإيلاج، فكل ذلك ترك الأفضل وليس بارتكاب نهي، ولا فرق إذ الولد يتكون بوقوع في الرحم وله أربعة أسباب: النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف لينصب المني في الرحم. وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثاني، والثاني كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوأد، لأن ذلك جناية على موجود حاصل.

وفيما يلي بعض البواعث الدافعة إلى تنظيم النسل ومدى اعتبارها شرعا:

١- منع الحمل المؤقت لأجل الإرضاع:

إن تمكين الأم من إرضاع ابنها رضاعا كاملا مستحسن شرعا، يقول تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، فالأم المرضع إن حملت فسد لبنها، وكان لذلك أثر سيئ على صحة الطفل، وهو ما يسمى لبن الغيل، فعن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقتلوا أولادكم سرا، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه». يقول الشيخ شلتوت معلقا على هذا الحديث « دعثر الحوض إذا هدمه، والغيل الإرضاع في زمن الحمل، فالطفل الذي يرضع لبن الحامل تضعف قوته ويحمل عنصر الضعف، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال ضعف عن مقاومة نظيره في الحرب وانكسر بسبب ذلك. وقال العلماء: إن لبن الحامل فيه داء يعوق نمو الطفل ويذهب بنضرته، ونحن نشاهد في حالات كثيرة صحة ما قاله العلماء، نشاهد ذبولا واضمحلالا وضيق خلق وإشرافا على الهلاك، في الأطفال الذين يسوء حظهم فيدركهم الحمل وهم في زمن الرضاع. وليس كل والد يستطيع أن يستأجر المراضع الخالية من الحمل ليتم لابنه الرضاعة، إنما الذي يستطيع ذلك أفراد قلائل في الأمة من ذوي البسطة واليسار ومثل هؤلاء لا يحكمون على المجموع كما أن في هذه المدة التي يمنع فيها الحمل مستراحا للأم حتى تستعيد ما فقدته من قوة بسبب الحمل، وتتفرغ لحق ولدها عليها من الرعاية والحضانة..

٢- منع الحمل تحرزا من نسل مريض:

وذلك عندما يكون أحد الزوجين أو هما معا مصابا بداء عضال فيغلب الظن على انتقاله إلى الذرية دفعا للضرر الذي قد يصيبها، فالضرر مدفوع بقدر الإمكان، إذ حاجة الأمة كائنة في نسل قوي صالح.

وقد يقال إن في هذا المنع تعطيلا وقطعا للذرية، فيجاب بأنه تعطيل جزئي يدفع ضررا أكبر من المصلحة المترتبة على عدم التعطيل، لا سيما اذا كان النسل المرجو نسلا مريضا بأمراض خبيثة مزمنة. يقول الشيخ الشرباصي في تعليل هذا الترجيح المصلحي: «إن كل ما يترتب على تعقيم بعض أفراد الناس هو تقليل بني الإنسان، فلو كان الذي يفوت بسبب عدم الولادة نسلا صالحا، فهذا لقلته لا يكاد يشعر به والنوع بدونه باق، فما بالك إذا كان الذي يفوت بسببه التعقيم هو نسل رديء مصاب بعاهات نفسية أو عقلية أو جسمية؟ أليس في هذا الصنيع خير للنوع الإنساني بسلامة أفراده بالقدر المستطاع» (١١).

٣- الحرص على سلامة الزوجة وصحتها:

إذا كانت الزوجة مريضة، أو ثبت أن مرضها يزيد بالحمل، أو يتأخر شفاؤها (١٢)، فهنا يكون درء المفسدة المحققة التي تصيب الزوجة من الحمل أو الوضع أولى من جلب المصلحة المرجوة وهي الولد.

٤- الضعف المادي للأسرة:

فمن شأن العزل أن يسد ذرائع يكون أخطرها تورط الأب في الشبهات لإعالة أسرته، وهذا ما عبر عنه الغزالي بقوله: «الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء. وهذا أيضا غير منهي عنه، فإن قلة الحرج معينة على الدين» (١٣).

بل إن الشافعي انفرد بتفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ (النساء:٣)، فقال: «﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي لا تكثروا عيالكم» (١٤)، فدل تفسيره على أن قلة العيال أولى. ولكن ابن القيم رد تفسيره هذا بما ورد عن جمهور المفسرين من السلف والخلف، فقال: «معنى الآية: ذلك أدنى ألا تجوروا ولا تميلوا، فإنه يقال: عال الرجل يعول إذا مال وجار، ومنه عول الفرائض لأن سهامها زادت..» (١٥).

كما أنه لم يثبت في النهي عن تنظيم النسل خوفا من كثرة الحرج وقياما بحق الأولاد حق القيام دليل صريح، فيكون من باب المباح. بل إن عدة آثار تشير إلى الحرج الذي تسببه الكثرة مع الفقر، فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه قوله: جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء (١٦)، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «كثرة العيال أحد الفقرين، وقلة العيال أحد اليسارين» (١٧).

والنظر المقاصدي يوجهنا إلى تمييز نظرتين حول تكثير النسل: أولاهما نظرة إلى مصلحة الأمة والتي تتجلى في كثرة قوية، يقول محمد

شلتوت: «وأن الولد لم يكن حقا لوالديه إلا بمقدار ما يهيئانه لخدمة الأمة والقيام بنصيبه فيها» (١٨)، وثانيتهما نظرة إلى واقع كل أسرة، تقدر فيه حسب استطاعتها وقدرتها كيفية تنظيم نسلها ورعايته.

حفظ النسل

تعتبر رعاية النسل وحسن تربيته ضابطا مهما لتكثيره. فلئن كان الزوجان مدعوين استحبابا إلى تكثير الذرية، فإن من واجباتهما تربيتها ورعايتها والقيام بحقوقها. فقد حمل الشرع الأبوين مسؤولية رعاية فطرة الطفل وتنميتها وحمايتها من الانحراف العقدي والأخلاقي، قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» (١٩).

كما يصور القرآن حرص الوالدين المؤمنين على إيمان ولدهما الكافر، حيث يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الأحقاف:١٧).

إن مسؤولية الأسرة تجاه أبنائها تقتضي رعايتهم بدنيا، فالضعف الذي تمقته الشريعة لا يقتصر على الجانب الإيماني والخلقي فحسب، بل يتعداه إلى الجانب البدني أيضا. فرخصت للمرأة الحامل والمرضع في الإفطار إذا خافتا على ولديهما، ونهت - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - عن إرضاع الولد لبن الغيل لما له من تأثير على سلامة الرضيع البدنية، وحفظت حقوق الطفل من إرضاع وإطعام وكسوة وتعليم، يقول تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٣٣).

وقد التفتت مدونة الأسرة المغربية إلى هذا الضابط في المادة ٥٤ والتي جاء فيها: «للأطفال على أبويهم الحقوق التالية:

- حماية حياتهم وصحتهم منذ الحمل إلى حين بلوغ سن الرشد.
- العمل على تثبيت هويتهم والحفاظ عليها، خاصة بالنسبة للاسم والجنسية والتسجيل في الحالة المدنية.
- النسب والحضانة والنفقة طبقا لأحكام الكتاب الثالث من المدونة.
- اتخاذ كل التدابير المكنة للنمو الطبيعي للأطفال بالحفاظ على سلامتهم الجسدية والنفسية والعناية بصحتهم وقاية وعلاجا.
- التوجيه الديني والتربية على السلوك القويم وقيم النبل المؤدية إلى الصدق في القول والعمل، واجتناب العنف المفضي إلى الإضرار الجسدي والمعنوي، والحرص على الوقاية من كل استغلال يضر بمصالح الطفل.
- التعليم والتكوين الذي يؤهلهم للحياة العلمية وللعضوية النافعة في المجتمع، وعلى الآباء أن يهيئوا لأولادهم قدر المستطاع الظروف الملائمة لمتابعة دراستهم حسب استعدادهم الفكري والبدني».

الهوامش

١- كشف الخفاء، ١/٣٨٠ - مصنف عبدالرزاق، ٦/١٧٣.
٢- الإسلام عقيدة وشريعة، ص٢٠٩.
٣- التحرير والتنوير، ١٩/٨١.
٤- ينظر بتفصيل: قراءة إسلامية لنظرية مالتوس: د. زينب صالح الأحوش، مجلة المسلم المعاصر، عدد: ٧٣-٧٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤م- ١٩٩٥م، ص: ٣١-٣٢.
٥- الفتاوى، دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية لعامة، لمحمود شلتوت، ص: ٢٥٣-٢٥٤.
٦- مسند أحمد، رقم: ١١٤٥٦، ٣/٤٧.
٧- الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٩/٣٣٢.
٨- إحياء علوم الدين، ٢/٥٨.
٩- سنن أبي داود، كتاب الطب، باب: في الغيل، رقم: ٣٨٨١، ٤/٩.
١٠- الإسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢١٠.
١١- الدين وتنظيم النسل، ص: ٨٩.
١٢- الدين وتنظيم النسل، ص: ٥٠-٥١.
١٣- إحياء علوم الدين، ٢/٥٨.
١٤- تحفة المودود بأحكام المولود، ص: ١٥.
١٥- تحفة المودود، ص: ١٧.
١٦- الفردوس بمأثور الخطاب، ٢/١١٠، كشف الخفاء، لإسماعيل ابن محمد العجلوني (ت: ١١٦٢هـ)، ١/٤٠٢، وقد نسب العجلوني رواية هذا الأثر إلى الحاكم في تاريخه.
١٧- كشف الخفاء، ١/٤٠٢.
١٨- الإسلام عقيدة وشريعة، ص:٢٠٧.
١٩- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم: ١٢٩٢، ١/٤٥٦.

عبدالمجيد فرغلي.. رحلة عطاء

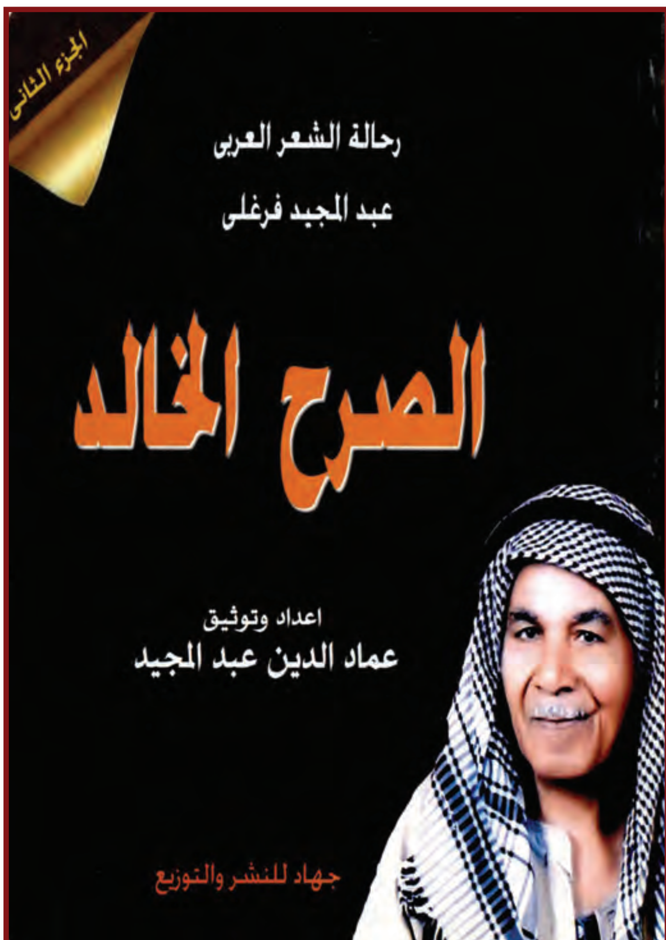
عماد الدين فرغلي
محامي بالنقض والدستورية العليا - مصر

ولد الشاعر عبدالمجيد فرغلي في قرية النخيلة بمحافظة أسيوط مصر، في الرابع عشر من يناير عام ١٩٣٢ ميلادية. وبعد رحلة عطاء ضمت ٢٣ عنوانا في مكتبة الشعر العربي، رحل عن عالمنا في الثالث من ديسمبر عام ٢٠٠٩ ميلادية.

عمل فرغلي في التدريس للمرحلة الابتدائية من عام ١٩٥٢م وحتى عام ١٩٧٧م، ثم أعير للعمل بالتدريس في الجماهيرية الليبية في مدرسة المجاهد الابتدائية ببنغازي من عام ١٩٧٣م وحتى عام ١٩٧٧م، وأخيرا عمل مفتشا للتحقيقات في التربية والتعليم من عام ١٩٧٨م حتى عام ١٩٩٢م.

من مؤلفاته الشعرية المودعة بدار الكتب والوثائق القومية في مصر:

يقظة من رقاد (عام ١٩٥٥م)، العملاق الثائر (عام ١٩٥٩م)، ديوان أشواق (إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة في يونيو عام ٢٠٠٠م)، ملحمة الخليل إبراهيم (في أربعة عشر جزءا تم إيداع أحد عشر جزءا في دار الكتاب)، ملحمة السيرة الهلالية، ديوان عودة إلى الله، ديوان مسافر في بحر عينين.. وغيرها من الأعمال.



وقد عارض الشاعر عبدالمجيد فرغلي كلا من أبي نواس في ديوان كامل (وقد كان موضع بحث في عدة رسائل)، وأبي تمام والمتنبي وابن الرومي، والشاعر الأندلسي بن حمديس، والإمام البوصيري في همزيته وميميته، وأمير الشعراء أحمد شوقي في قصائد «نهج البردة - ولد الهدى - سلوا قلبي».. وغيرهم.

كما تطرق الشاعر إلى عدة بحوث، فكتب عن الشاعر محمود حسن إسماعيل (شاعر الكوخ)، وكتب بحثا عن المرأة في أدب العقاد، وكتب جريمة الزنا في القانون الوضعي والشرائع السماوية.. دراسة مقارنة.

وقفات بين إبداعه

في قصيدته «حامل المصباح» عن المعلم:

حييت فيك كفاحك المبذولا
وعرفت منه بلاءك المجهولا
خلى المعلم يا رسول شمائل
لك في الشعوب يد البناء الأولى
أخلاق أجيال الورى قومتها
عقلا وروحا: بل هوى وميولا

وقال تقديما لملحمته «نداء من القدس»، التي عارض فيها الشاعر علي محمود طه في قصيدته «فلسطين» التي قيلت عام ١٩٤٨م بملحمة شعرية عدد أبياتها ألفان وخمسمئة وثمانون بيتا شعريا:

تحرك صلاح فحطين أخرى
تناديك والسابقين افتدا
وقدسك بين شباك العداة
أسنوا الشفار لها والمدى

وقال مستبشرا بالنصر في المقطع ٥١ من الملحمة ذاتها:

سنسحقهم بيد من فداء
تدمر أطماعهم مقصدا
سنمضي إلى النصر مستبسلين
ولن نترك الجمر أن يبردا

وقال للأم في عيدها:

رفعنا عن محياها الستارا
وأقبلنا نقيم لها الشعارا
وقد جلست على كرسي مجد
تطل على الورى تهب النهارا

وأحب الشاعر عبدالمجيد فرغلي مصر فكانت ملحمته «مسافر في بحر عينين».. يكتشف القارئ في آخر بيت فيها أنه يعشق مصر.

ومن ضمن ما جاء فيها قال:

لا تقل كانت ولا كان الهوى
عشق القلب وما كان غوى
قال لي الحب ترنم وكفى
أن ترى النجم سموا ما هو

آية الحسن جمال ساحر
يخلب الروح ويشفي من جوى

كما كتب محبا للخلفاء الراشدين، فقال في ملحمة أبي بكر رضي الله عنه:

ما لي و«دع عنك لومي» تلك معصاء
لي في أبي بكر الصديق عصماء
قصيدة في فم الأيام أبعثها
وباعث الشوق هل تخفيه حوباء؟

وقال عن طباعه في الملحمة ذاتها:

رقيق طبع رضي الخلق شيمته
عادى الأشاجع فوق الوجه إنتاء
وللرزانة في خلائقه
لين وليس به للنفس أهواء

وفي ملحمته عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

وسائلي عن أبي حفص يسائلني
من أمه؟ من أبوه؟ آله الغرر
الأم «حنتمة» جد «مغيرتها»
ومن عُدي أبوه فهو مؤتصر
وجده الثامن المدعو «مرة» قد
كان النبي إليه المنتمى ذكروا
في عشرة من بطون جمعت أسر
منهم عدي ومخزوم لهم حصروا

وقال عن سديد رأيه:

وكان من عمر رأي يضيء سنى
كم ذا يؤيده القرآن والسور
قد قال في من غدوا أسرى مقولته
أئمة الكفر فاقتلهم فلا عذر

وفي ملحمته عن ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال:

راوي الزمان نشدت الحق وجدانا
أعر سمعك لي أوليت تبيانا
لثالث الخلفاء الراشدين رنا
وقال إنك «ذو النورين» أردانا
آمنت بالله إيمانا بقدرته
وأنه خلق الأمشاج إنسانا

وقال واصفا عطاءه في الإسلام في توسعة الحرمين المكي والنبوي:

وحينما رام أرضا في مدينته
لمسجد قال يا عثمان لو كانا
وكان أدرك ما يبغي الرسول له
فراح يشري لأرض بيعها آنا
ووسع المرجو توسعة
تحوي المصلين بنيانا وعمرانا

وكتب ملحمة أسد الله الغالب علي بن أبي طالب رضي الله عنه قائلا:

أتوق لآل البيت والشوق يعرب
وحبي لهم ورد لما عنه أغرب
هم القيمة العلياء من آل هاشم
فمطلب جد أبو طالب أب
أخص عليا والحسين وزينبا
وفاطمة أمه لها البيت ينسب
وما الحسن الأسنى مكانا بركنه
بناسيه مثلي إذ لهم أتقرب

قال عنه الدكتور الطاهر مكي:

«رأيت الشاعر من الصعيد، وأنا صعيدي متأصل، وأحمد الله كثيرا على أن هذا الشاعر الصعيدي، الذي سوف أقرأ عمله وأتناوله، جاء في القمة – على الأقل – في مذهبي ومنهجي».

«وحين قرأت هذا الديوان وجدت صاحبه لا يغني لنفسه، وإنما يغني لقومه، ومن هنا فهو يعنينا بقدر ما يغني لقومه، ومن هنا فهو يعنينا بقدر ما يعني أي إنسان آخر».

«أما هذا الشعر حينما قرأته وجدت فيه ما أبحث عنه، وجدت الشاعر تناول كل قضايا عصره، سياسية، واجتماعية، ووطنية، وإنسانية، وتحدث عن هموم مصر وفلسطين، وشغلت فلسطين حيزا كبير من هذا الديوان، وتحدث عن العراق، وعن سوريا، وعن الوحدة، وعن الانفصال، وليس حديثا، مباشرا، وليس ثرثرة، وإنما وقائع وتاريخ يقدمه بصورة فنية، فقلت في نفسي إذن نحن أمام شاعر حقيقي».

حوارات:

أصغر شاب يحصل على الدكتوراه: نصيحتي إتقان الإصرار والتحدي

تعرض في مسيرته القصيرة إلى عقبتين كانتا كفيلتين بأن تدخلاه في دوامة الإحباط والاكتئاب، وهما ضياع حلمه الأول في الالتحاق بكلية الهندسة، وضياع حلمه الثاني في الاحتراف في أحد الأندية الأوروبية.. لكنه لم يتوقف طويلا أمام هاتين العقبتين، بل اتخذهما وسيلة للارتقاء نحو تحقيق إنجاز رفيع المستوى، وهو نيل درجة الدكتوراه في وقت قياسي، قبل أن يبلغ عامه الحادي والعشرين.. إنه الشاب إسلام صلاح البشاري، الذي حل ضيفا على «الوعي الشبابي» عبر هذا الحوار:



• الدكتوراه درجة علمية رفيعة.. كيف كان الطريق إليها وأنت مازلت شابا؟

– قرأت في مجال التسويق، فوجدت في نفسي رغبة في التعمق فيه، فتقدمت لدبلومة كندية من القاهرة، وتوصلت لفكرة تسويقية ساعدت إحدى الشركات كثيرا، وبعدها عرضت علي الدراسة والحصول على الماجستير والدكتوراه من جامعة كندية، بعدما رأى المحاضر الذي كان يدرس لي في الدبلومة بمصر أنني أستطيع أن أكون جيدا في بلاده، فوافقت ومن هنا كانت البداية.

• وماذا عن الماجستير والدكتوراه في كندا؟

– التحقت تباعا بدراسة الماجستير والدكتوراه، وكان ذلك يتم بموازاة دراستي الأساسية بكلية التجارة بمصر، حيث كنت أدرس أون لاين غالبا، وأتردد على كندا للمناقشة أحيانا. واستمر الحال هكذا ٤ أعوام، حصلت خلالها على درجتي الماجستير والدكتوراه في علم إدارة الأعمال والتسويق والتنمية البشرية، وقدمت خلالها ٤ مشروعات، منها إعادة تدوير البلاستيك لصناعة «الأسفلت»، علاوة على إعادة هيكلة المواصلات، وكانت لي نظرية في التسويق سجلت باسمي، وقمت بالتدريس في الجامعة الكندية بمونتريال.. كل ذلك ولم أتم عامي الحادي والعشرين حينذاك.

• من خلال تجربتك.. ماذا تقول للشباب؟

– أنصحهم بإتقان الإصرار، وتحديد أهدافهم، وألا تكون متناقضة، والابتعاد عن الانتقاد غير البناء من الآخرين. ودائما يجب أن يحول الشاب الكلمات السيئة إلى طاقة إيجابية. وأقول لهم: صدقوا أنفسكم، فتحقيق الأهداف شيء متاح، فلم يكن في مخيلتي أن أحصل على الدكتوراه في هذه السن، وكان أقصى طموحي أن أكون مدير تسويق في شركة، لكن العقبات التي تعرضت لها، قادتني إلى أن أنافس ذاتي وأحقق ما ظننته مستحيلا.

طور نفسك

هكذا تحافظ على هدوئك رغم ضغوط العمل

يمكن لأسلوب تعاملنا مع زملائنا في العمل أن يضع نهاية لمسيرتنا المهنية، أو أن يصنع منها إنجازا، لكننا لا نقدر دوما على إجادة الأداء تحت وطأة ضغوط العمل.. فأحيانا، يكون الدافع الذي يغريك للصراخ والصياح بوجه زملائك – أو أي شخص آخر للتنفيس عما بداخلك – قويا جدا.

لذلك يعد الحفاظ على الهدوء، ومعرفة الوقت الذي يمكنك فيه أن ترفع من نبرة صوتك، أو أن تقرر الانسحاب، من الأمور المهمة المطلوبة لعمل توازن دقيق.

وقد تناول هذا الموضوع في الفترة الأخيرة على موقع «لينكد–إن»، بيرنارد مار – المدير التنفيذي بمعهد الأداء المتطور، وفيما يلي ملخص لما كتبه في مقاله بعنوان «كيف تنجز ما عليك تحت ضغط العمل».

هناك استراتيجيات يمكنها تحسين فرصك لتقوم بأداء أفضل تحت وطأة العمل، من بين هذه الاستراتيجيات:

– تهيأ، ثم تهيأ أكثر.

الكثير من أشكال الخوف والقلق يشبه «رهبة الظهور على المسرح»، إذ تنبع هذه المخاوف عندما يطلب منا القيام بأمر لم نتهيأ له، أو نعتقد أننا سوف ننسى النص الذي علينا أن نردده، أو أننا سنبدو كالحمقى، أو أن التقنية التي نستخدمها سوف تتوقف عن العمل، أو أننا سنقع من فوق خشبة المسرح.

ويضيف: إن أفضل طريقة لمعالجة هذه الرهبة هي الممارسة والتطبيق.. عليك أن تمارس العرض أو المشهد مرارا وتكرارا. اختبر سلفا التقنية المتوفرة. سر على خشبة المسرح. افعل كل ما تريد لكي تشعر بأنك مهيأ قدر المستطاع.

-استخدم الحديث الإيجابي إلى النفس. إذا كان عقلك يردد باستمرار سلسلة من الأفكار السلبية من قبيل: سوف أفشل، سيضحك الجميع علي، لن أنسى أبدا ما سيحدث.. فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى زيادة مستوى قلقك. ويضيف: عوضا عن ذلك، اجعل ذهنك يتعلق بواحدة من ثلاث تعبيرات إيجابية، مثل «تنفس»، «واصل التركيز» و «كن على أفضل حال»، وذلك كي توفر لنفسك شيئا إيجابيا تركز عليه.
بتطبيق واحدة من هذه الاستراتيجيات: سيتمكن حتى أولئك الذين لا يشعرون عادة بالراحة عند مرورهم بظروف تثير توترهم وأعصابهم، من الاسترخاء، والظهور كمحترفين ومتحررين من القلق.

ناجحون

كويتيان يحصدان جائزتين في معرض «مال أول»

فاز الباحثان الكويتيان في جمع المقتنيات القديمة والنوادر محمد البناي ونواف العصفور بجائزتين في معرض «مال أول» للمقتنيات الشخصية لمواطني دول مجلس التعاون الخليجي الذي استمر ثلاثة شهور.
وأشاد سفير دولة الكويت لدى قطر متعب صالح المطوطح في تصريح لوكالة (كونا) عقب حفل توزيع الجوائز بهذا الإنجاز من قبل الباحثين الكويتيين معربا عن فخره بما قدماه من أعمال تراثية تبرز اهتمام الكويتيين في التراث وحرصهم على التمسك به.





شباب الجامعة

عشر نصائح تعزز قدراتك قبل الامتحانات

نشر موقع top Universitys المختص بشؤون الجامعات عبر العالم عشر نصائح يمكن أن تدعم جهد الطالب إبان موسم الامتحانات وهي:
١- امنح نفسك فسحة زمنية كافية للمذاكرة!
ليلة الامتحان هي ليست الفرصة الأنسب للمذاكرة، والأفضل أن يضع الطالب لنفسه جدولا بالمواد التي سيجري امتحانه فيها ويخصص لها أيام درس محددة لا يتجاوزها.
٢- رتب مكان مذاكرتك!
راقب مستوى انتشار الضوء الصناعي والطبيعي في مكان المذاكرة، وتأكد أن المقعد والأريكة والسرير القريب مريح.
٣- ضع قريبا منك الخرائط والمخططات والجداول التي تساعدك في المذاكرة!
تمثل الخرائط والجداول والمخططات مساعدات بصرية مهمة تساعد على مراجعة الدروس. في بدء رحلة المذاكرة، تحد نفسك بتدوين كل ما تعرفه عن المادة، ثم قارن ذلك بما هو معروض على الجداول والمخططات.
٤- تمرن على حل أسئلة امتحانات سابقة!
الفكرة هنا في تعويد الطالب على صيغة الأسئلة في مادة معينة، لكيلا تشكل له مفاجأة في الامتحان المرتقب.
٥- اشرح إجاباتك لآخرين!
لا يشكل الوالدان والأشقاء الأصغر سبب إزعاج دائم للطالب، بل يمكن الاستفادة من حضورهم بتعريفهم بسؤال ما، ثم بشرح طريقة الطالب في الإجابة عن هذا السؤال.
٦- رتب جلسات مذاكرة مع أصدقاء!
من خلال جلسات المذاكرة مع أصدقاء يمكن أن يحصل الطالب على إجابات لأسئلة تحيره، كما يمكن لهذه الجلسات أن تثير أسئلة تلفت نظر الطالب إلى مواضيع لم تخطر بذهنه.
٧- خذ فترات استراحة منتظمة!
ثبت علميا أن منح الذهن فترات استراحة بفاصلات زمنية منتظمة بين ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة، يرفع من قدرة الذاكرة على خزن المعلومات، وينشط الدورة الدموية، خصوصا إذا تضمنت الاستراحة تمارين رياضية.
٨- ابتعد عن الطعام الدسم!
احرص على تناول طعام يغذي المخ، مثل السمك والمكسرات والحبوب المطبوخة وبعض الفاكهة. ويصدق هذا أيضا على أيام الامتحان نفسها.
٩- برمج يوم الامتحان!
على الطالب أن يراجع كل القواعد والمستلزمات المطلوب منه اصطحابها لقاعة الامتحان قبل يوم الامتحان، ويتأكد من توفرها في حوزته.
١٠- اشرب كثيرا من الماء!
شرب الماء بكميات كبيرة ينشط الدورة الدموية ويزيد من وصول الدم إلى المخ.

إعداد : د. عمرو عبد الكريم

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال التجديد

كان أحد أهم معاني خاتمية الرسالة الإسلامية وخلودها، هو الإيمان ببلوغ العقل الإنساني درجة من النضج تسمح له بالاستقلال باستنباط الأحكام استقلالا تاما، أو تأسيسا على ما ورد في التشريع الإسلامي من أصول وقواعد وأحكام.

ومن ثم ظل «سؤال التجديد» هو أهم الأسئلة المحورية لنهضة الأمة من وهدتها، وبعثها من سباتها العميق على مدى عصورها المتطاولة.

والتجديد في اللغة نقيض البلى، أي ما خلق وبلي فأعيد جديدا على ما كان عليه أول مرة، أي إعادة الشيء إلى سيرته الأولى.

وفي الحديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها».

وهو يعني الإخبار والتكليف بالاجتهاد ومواجهة تغيرات العصور والحاجات المتجددة، أي العودة بمفهومات الدين إلى ينابيعه الأولى، ورفض البدع والجمود.

والتجديد هو تجديد أمر الدين بعد ما يمكن أن يكون قد ناله من الزيادة والنقصان، أو المغالاة أو التفريط، أو غياب بعضه عن العمل به تكاسلا، وضعف السلوكيات الاجتماعية والأخلاق، وفتور الهمة والفاعلية والعزيمة.

فقيم الدين متكاملة محفوظة بحفظ الله، ولكن أقدار التدين والالتزام تتغير، ويلحقها الضعف أو التهوين والنسيان أو القصور، وهو ما يحتاج إلى التجديد، إذ هو تجديد للتدين لا للدين، وتجديد للواقع البشري وتصحيح أخطائه، وتقويم اعوجاجه، والتعامل مع هذا الواقع في ضوء المرجعية الإسلامية.

إن الحماسة الزائد والنية الحسنة من دون القدرة على وضع دليل عمل، وخطة استراتيجية، ومنهج حركة من خلال استطاعات الأفراد والإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، وحال المجتمع في تحمله، لا يتم به مقصد التجديد.

فالخطب العامة والوعظ العاطفي والتأليف السطحي ليست من التجديد في شيء، بل قد تساهم في تكريس العلل والتخلف.

وعلى مدار العصور الإسلامية المتعاقبة كان التجديد هو الحل لما اعترى الأمة من آفات، ولما وقر في خلدها من مفاهيم تحتاج إلى تحديث أو إزالة ما علق بها من آثار السنين.

فكان جوهر حركة التجديد هو الإحياء، أي نفض الغبار وإزالة الران، وتخليص الأصل مما علق به من شوائب، وما تراكم عليه من غبار السنين.

ومن المهم التأكيد على أنه ليس من مجالات التجديد الثوابت القطعية التي قررها الإسلام، والمتعلقة بالعقائد والعبادات والأخلاق وأصول المعاملات وغيرها من الثوابت القطعية، سواء في الثبوت أو في الدلالة.

أما الحوادث والنوازل والمستجدات، الناجمة عن تغير أنماط الحياة عبر الزمان والمكان، فهي محل التجديد، ودائرة عمله، ومناط إعماله.

وكما يقول الإمام محمد عبده: «إن التجديد يشمل حفظ نصوص الدين الأصلية صحيحة نقية، ونقل المعاني الصحيحة للنصوص، وإحياء الفهم السليم لها، والسعي للتقريب بين واقع المجتمع المسلم في كل عصر، وبين المجتمع النموذجي الأول الذي أنشأه الرسول ﷺ، وإحياء مناهج ذلك المجتمع في فهم النصوص والاجتهاد. كما يشمل التجديد تصحيح الانحرافات النظرية والفكرية والعملية والسلوكية وتنقية المجتمع من شوائبها».

وعلى مدار عصور الأمة الممتدة لم تخل الأرض من قائم لله بحجة، فتتارت أعلام التجديد الفردي والجماعي والفكري والحضاري، وانتشرت حركات التجديد على مدى الرقعة الشاسعة التي ظللت محور العالم الإسلامي من طنجة إلى جاكرتا.

وكان محور عمل حركات التجديد هو إحياء الوعي الديني، وتحريره من الانحرافات الاعتقادية والسلوكية، والتصحيح العقدي والعبادي للمسلمين.

وكما يقول أستاذنا الدكتور سيف الدين عبدالفتاح: إن تجديد الدين هو في حقيقته تجديد وإحياء وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه، لتحقيق العمارة الحضارية وتجديد حال المسلمين، ولا يعني إطلاقا تبديلا في الدين أو الشرع ذاته».

والتجديد هو أهم خصائص الأمة الإسلامية، إذ إن حضارتها لا تعرف الانقطاع، ولا الجمود، بل قدرة غامرة على التجدد والتجديد والتواصل والاتصال، والعودة إلى الأصول المنشئة لتنهل من معين لا ينضب لإمدادها بمزيد من الاستمرار والبقاء.

وتظل المحاور الثلاثة لعملية التجديد هي:

- إحياء ما انطمس واندرس من معالم السنن ونشرها بين الناس، وحمل الناس على العمل بها. فكما يقول المودودي: «المجدد: كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدد حبله بعد انتقاضه».

- قمع البدع والمحدثات، وتعرية أهلها وإعلان الحرب عليهم، وتنقية الإسلام مما علق عليه من أوضار الجاهلية، والعودة به إلى ما كان عليه زمن الرسول ﷺ وصحابته الكرام.

أو كما قال السيوطي في جامعه الصغير إن: «المراد بتجديد الدين، تجديد هدايته، وبيان حقيقته وأحقيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع، أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق، وسنن الاجتماع والعمران في شريعته».

- تنزيل الأحكام الشرعية على ما جد من وقائع وأحداث، ومعالجتها معالجة نابعة من هدي الوحي.

يقول عبدالفتاح إبراهيم: «التجديد: يعني العودة إلى المتروك من الدين، وتذكير الناس بما نسوه، وربط ما يجد في حياة الناس من أمور، بمنظور الدين لها، لا بمنظارها للدين».

(راجع دراسة: اسعيد مديون، إشكالية التجديد بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي).

خلاصات منهجية

١- المجدد فرد أم جماعة ومدرسة؟

أحسب أن تعقيدات الواقع المعاصر وتداخلها قد تجاوزت إمكانات المجدد الفرد، فلابد للتجديد المعاصر من عمل جماعي ضمن إطار مؤسسي، تحكمه نظم متطورة قابلة للإجابة على ما يتجدد من أسئلة وما يطرح من قضايا.

يؤكد هذا المعنى قول الحافظ الذهبي رحمه الله: «الذي أعتقده من الحديث أن لفظ «من يجدد» للجمع لا للمفرد».

وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «لا يلزم أن يكون في رأس كل مئة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة (يعني قد تكون جماعة)».

ويقول ابن الأثير «لا يلزم أن يكون المبعوث على رأس المئة رجلا واحدا، وإنما قد يكون واحدا وقد يكون أكثر منه، فإن لفظة «من» تقع على الواحد والجمع».

٢- بعض أدبيات التجديد في العصر الحديث.

توالت أفكار التجديد في التبلور والتشكل في مختلف جوانب الحياة الفكرية:

فكتب الشيخ أمين الخولي مقاله «التجديد في الدين» عام ١٩٣٣م، ونشره في مجلة الرسالة، وتحدث فيه عن التجديد في الدين وعلومه.

وفي عام ١٩٤٨م كتب المودودي «موجز تجديد الدين وإحيائه».

وفي عام ١٩٥٥م أصدر عبدالمتعال الصعيدي كتابه: «المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر».

ثم كتب محمد إقبال: «تجديد التفكير الديني في الإسلام».

٣- بين التجديد والتبديد.

على الرغم من وضوح مفهوم التجديد من على الأرضية الإسلامية ووضوحه الشرعي واستناده إلى مفاهيم شرعية أصيلة، فإن المفهوم لم يخل من محاولات استنبات على أرضية علمانية، ففي عشرينيات القرن التاسع عشر دعت ثلة من المفكرين والأدباء المصريين إلى تغريب العقل المصري وتبني العلمانية، وأطلقت على نفسها تيار التجديد، إلا أن مجمل أفكارهم كانت إلى التبديد أقرب.

في المفاهيم والمصطلحات

مفهوم الحضارة

مفهوم الحضارة عند ابن خلدون:

«إن الحضارة هي نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار، يضفي على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة، وإدارة شؤون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية».

«وإن الملك والدولة غاية للعصبية، وإن الحضارة غاية للبداوة، وإن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة (جمهور أو عامة) له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا».

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي:

«الحضارة هي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده المساعدة الضرورية».

مقولات

«إن أي كلام يفيد منه الاستبداد السياسي، أو التظالم الاجتماعي، أو الطعن الثقافي، أو التخلف الحضاري، لا يمكن أن يكون دينا، إنه مرض نفسي أو فكري، والإسلام صحة نفسية وعقلية» (الشيخ محمد الغزالي).

«بطبيعة الحال، فالإنسان الذي لا هوية له لا يمكنه أن يبدع، فالإنسان لا يبدع إلا إذا نظر للعالم بمنظاره هو وليس بمنظار الآخرين، لو نظر بمنظار الآخرين، أي لو فقد هويته، فإنه سيكرر ما يقولونه ويصبح تابعا لهم، كل همه أن يقلدهم أو أن يلحق بهم ويبدع داخل إطارهم، بحيث يصير إبداعه في تشكيلهم الحضاري» (**د. عبدالوهاب المسيري**).

«في حالات التقهقر والجمود الحضاري يكون الجميع في حاجة إلى التعلم، لكن يكون المعلم غير موجود أو يكون نصف جاهل، أو يكون الناس غير مدركين لما يمكن أن يفعله العلم في حياتهم، وهذا ما تعاني منه اليوم شعوب إسلامية كثيرة» (**د. عبدالكريم بكار**).

عرض كتاب



«الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة»

د. عبدالعزيز برغوث

الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مشروع روافد، ٢٠٠٧م، ٢٣٤ صفحة.

على مدار خمسة فصول يطوف بنا الكاتب في مدارات الموضوع الذي عكف عليه سنين طويلة.

ويهدف الكتاب في الأساس إلى ترسيخ قيم التعددية والتنوع والاختلاف البناء في دائرة الفكر الإسلامي، واعتماد مقاصد القرآن والسنة في فهم الخطاب الإسلامي وتنزيله، وانتهاج منهج الوسطية، مع التأكيد على الوعي بالآخر وعدم تجاهله أو تهوين قدره، والدعوة إلى التعايش والتعاون على البر والتقوى.

الفصل الأول: الإطار المنهجي لدراسة طبائع الأمة الوسط والشهود الحضاري

وفيه يؤكد الكاتب أن الوسطية في الإسلام منزع استخلافي، حيث إن الإسلام لم يكن في مبدأ منطلقاته إلا دينا وسطيا تتجلى فيه أدق معاني الشمول والتكامل والقصدية والنظام. ومفهوم الأمة الوسط لا يتحقق إلا بمعرفة بعض الأبعاد المهمة (تاريخية - عمرانية - استخلافية)، وبذلك تكشف العلاقة الجدلية بين الإسلام والأمة في الفعل الحضاري والاستخلافي، وهو ما يعني ضرورة التوجيه الثقافي للأمة الوسط.

الفصل الثاني: طبائع العولمة وتأثيرها على الشهود الحضاري للأمة وضرورة المقاربة الحضارية

وينظر الكاتب إلى العولمة باعتبارها وصفا آخر لمفهوم العلاقات الدولية بين الدول، وتعني الزيادة الملحوظة في تبادل العلاقات الدولية، وتعاضدها، وتسارعها بصورة متشابكة ومتداخلة يتعذر فيها الفصل أو العزل.

الفصل الثالث: الأمة الوسط والعولمة الحضارية وضرورة التفاعل المبدع والسلام الحضاري

وفيه عرض الكاتب المعاني الدلالية لبناء ثقافة التعايش العالمي، والمعاني الدلالية لكلمة السلام والتعاون بين البشر والدعوة إلى التحاب بين العالم، وهذا المعنى داخل في كل كيان وكينونة الأمة.

وقد أورد الكاتب بعض الآيات القرآنية في هذا السياق من إعطاء المعنى الاجتماعي للسلام أو السلم مع مقارنة ذلك بالعولمة ومفاهيمها التي تعطي للإنسان أبسط معاني السلام والأمان.

الفصل الرابع: أهمية التجديد الثقافي والتربوي في بناء إنسان الشهود الحضاري

وأهم الموضوعات في بناء الشهود الحضاري، هو بناء الإنسان الشاهد حضاريا، وبناء القيادات البشرية القادرة على الشهود.

وأكد الكاتب على أنه لا يمكن أن تسترجع الأمة عافيتها وقوتها في الشهود الحضاري بغير الإعداد الجيد للإنسان القيادي، الذي يعكس بدوره هذه النهضة ويتمثل أبعادها ومعطياتها وتشكيله ليكون ذا رسالة قد حملها وعليه أداؤها؛ لتفسير حقيقة استخلافه على الأرض.

الفصل الخامس: الأمة الوسط وضرورة تجديد فلسفة التعليم وأدوار المعلم الشاهد حضاريا

وفيه يعرض الكاتب لأهمية الدور المحوري للمعلم والتعليم، في ظل الثورة الهائلة في عالم المعلوماتية المعاصرة، مع عرض الأبعاد الاجتماعية والثقافية والفكرية وغيرها المرتبطة بهذا التوجيه.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.



العدد ٩ - السنة الاولى من السلسلة الثانية — ثمن النسخة ١٠ فرنكات

البصائر

هيئة جمعية العلماء ولسان حالها

شعارها العروبة والإسلام

المدير المسؤول وصاحب الامتياز ورئيس التحرير: محمد البشير الإبراهيمي

عنوان الجريدة ١٢ نهج پومبي — رقم الهاتف ١٧-٢٧٨ — الحساب الجاري ٧٣-٥٣٩ — السجل التجاري ٧١٢٤ — الجزائر

« EL-BASSAÏR »
Journal hebdomadaire
Directeur-Gérant : TALEB BACHIR
12, Rue Pompée - ALGER
C.C.P. 539-73 — R.C. Alger 7124

يوم الجمعة ١٨ ذو القعدة عام ١٣٦٦ هـ || تصدر يوم الجمعة من كل اسبوع || الموافق ليوم ٣ اكتوبر سنة ١٩٤٧ م

من أدب القرآن

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا »

إلى أبنائي الطلبة

المهاجرين في سبيل العلم

وأوجه النداء الى جميع ابنائنا المهاجرين الى الشرق العربي ، أو الى اطراف المغرب العربي ، أو الى أوروبا - ثم أخصص المهاجرين الى تونس لأنهم كثرة . ولأن في احوالهم لغيرهم عبرة .

انكم يا أبناءنا مناط آمالنا ومستودع أمانينا . نعدكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة ، ولاستحقاق الارث ، وهو ذو تبعات وذو تكاليف ، وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح .

وانكم يا أبناءنا فارقتم الأهل ، وفيهم الآباء والأمهات ، وفارقتم الديار التي خلعتم فيها التمائم ، وفارقتم الوطن الذي له على كل حر كريم دين ! وفاؤه الحب ، وكفاؤه النفع والجميل ، وما هون فراقكم على آبائكم وهون فراقهم عليكم الا الآمال اللائحة لكم ولهم في مستقبلكم ، وما تعودون به من علم يصحبه فخر وحسن ذكر وطيب أحدوثة .

ان آباءكم يتخيلون من وراء هجرتكم ما يعود به المجاهد المقدام من أجر وغنيمة ، وما يرجع به التاجر المخاطر من أرباح وطرائف .

وانكم لتتخيلون من وراء هجرتكم - وانتم في ربيع الحياة - وما يفوق أفواف الربيع حسنا وجمالا ، ويفوق أزهاره أريجا وعطرا .

وان الوطن - وهو أبو الجميع - يتطلع من وراء هذه الهجرة الى احياء وتعمير واعادة مجد وبناء تاريخ ، نحن نعلم أن الأب العامي الفقير حين يرضى بفراق ولده ، ويزوده ببعض ما يملك من قوت العيال الصغار طائعا مختارا مطمئنا - انما يفعل ذلك اعتقادا بان فعله تكفير عن جريمة الجهل ، ومحو لوصمة الأمية ، وتنصل من ضعة الخمول - وان الأب العالم الذي يرضى بذلك ويهون عليه - انما يفعله معتقدا أن ولده سيكون أعلم منه ، واوسع اطلاعا ، وانفذ بصيرة على نسبة من زمنه ، وتطورات زمنه ، ولا يعتقد غير ذلك منهم الا مغرور بنفسه - الجاهل أحسن ادراكا للزمن منه ، وان الوطن حين يرضى بخلوه من ابنائه يتخيل أنهم ما أخلوه الا ليعمروه ، وما قطعوه الا ليصلوه ، وما فارقوه شبانا عزلا الا ليعودوا اليه كهولا مسلحين بقوة التفكير ، تظاهرها قوة العلم تظاهرها قوة العمل .

يا أبنائي اذا عرفتم هذا وعرفتم واجب انفسكم التي تحملت الأتعاب ، وتجرعت مرارة الاغتراب ، وذاقت طعم الحاجة والشدة وواجب آبائكم الذين غذوا وربوا ، وأجابوا داعي العلم فيكم ولبوا ، وواجب الوطن المجدب الذي جعلكم رواده الى القطر ، وأرسلكم وانتظر ، ورجا من ايابكم الحيا والحياة ، اذا عرفتم ذلك كله ، فماذا اعددتم لهذه الواجبات ؟

انكم لا تضطلعون بهذه الواجبات الا اذا انقطعتم لطلب العلم ، وتبتلتم اليه تبتلا ، وانفقتم الدقائق والساعات في تحصيله . وعكفتم على اخذه من افواه الرجال وبطون الكتب ، وأستثرتم كنوزه بالبحث والمطالعة وكثرة المناظرة والمراجعة ، ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار .

ان اسلافكم كانوا يعدون الرحلة في سبيل العلم من شروط الكمال فيه ، بل كانوا - في دولة الرواية - يعدون الرحلة للقاء الرجال من شروط الوجوب ، فكانوا يقطعون البراري والصحاري والقفار ، ويلقون في سبيله المعاطب والأخطار وكانوا يجوعون في سبيله ويعرون ، ويظماون ويضحون ، فلا يتشكون الفاقة والنصب ، ولا يعدون الراحة الا التعب ، ولكنهم لا يضيعون اوقاتهم - اذا وصلوا الى امصار العلم ولقوا رجاله - في مثل ما تضيعون فيه أوقاتكم من اسفاف ولغو ، بل كانوا يحاسبون أنفسهم على الدقيقة أن تضيع الا في استفادة وتحصيل .

فتعالوا نقارن سيرتكم بسيرتهم وتحصيلكم بتحصيلهم ثم نتحاسب على النتيجة !

كانوا يقيدون وانتم لا تقيدون ، وكانوا ينسخون الأصول بأيديهم ويضبطونها بالعرض والمقابلة حرفا حرفا وكلمة كلمة ، وانتم أراحتكم المطابع ، ويسرت لكم الكتب - ورب تيسير جلب التعسير - فان هذا التيسير رمى العقول بالكسل ، والأيدي بالشلل حتى لا تجري في اصلاح الأغلاط المتفشية في تلك الكتب .

وكانوا يرجعون بالرواية الواسعة والمحفوظ الغزير ، وينقلون الجديد من العلم ، والطريف من الآراء ، والمفيد من الكتب - من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ، فانظروا بماذا ترجعون انتم اليوم ؟ !

وكانوا ينقطعون عن أهليهم وديارهم انقطاعا متصلا يدوم سنوات ، وانتم تزورون أهلكم ودياركم في كل موسم ، وفي كل عطلة ويزورونكم ، وتخاطبونهم في اليوم الواحد ويخاطبونكم .

الحقيقة أننا لا نسمي رحلتنا اليوم رحلة الا بضرب من التوسع ، كما نسمي السفر بالطائرة سفرا ، ونضعه بجنب السفر على الابل .

* * *

يا أبناءنا ان الحياة قسمان حياة علمية ، وحياة عملية ، وان الثانية منهما تبنى على الاولى قوة وضعفا ، وانتاجا وعقما ، وانكم لا تكونون اقوياء في العمل الا اذا كنتم اقوياء في العلم ، ولا تكونون اقوياء في العلم الا اذا انقطعتم له ، ووقفتم عليه الوقت كله ، ان العلم لا يعطي القياد الا لمن مهره السهاد ، وصرف اليه أعنة الاجتهاد .

لا تعتمدوا على حلق الدروس وحدها ، واعتمدوا معها على حلق المذاكرة ، ان المذاكرات لقاح العلم ، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدرس بالمذاكرة في ذلك الدرس ، انكم ان تفعلوا تفتح لكم ابواب من العلم ، وتلح لكم آفاق واسعة من الفهم .

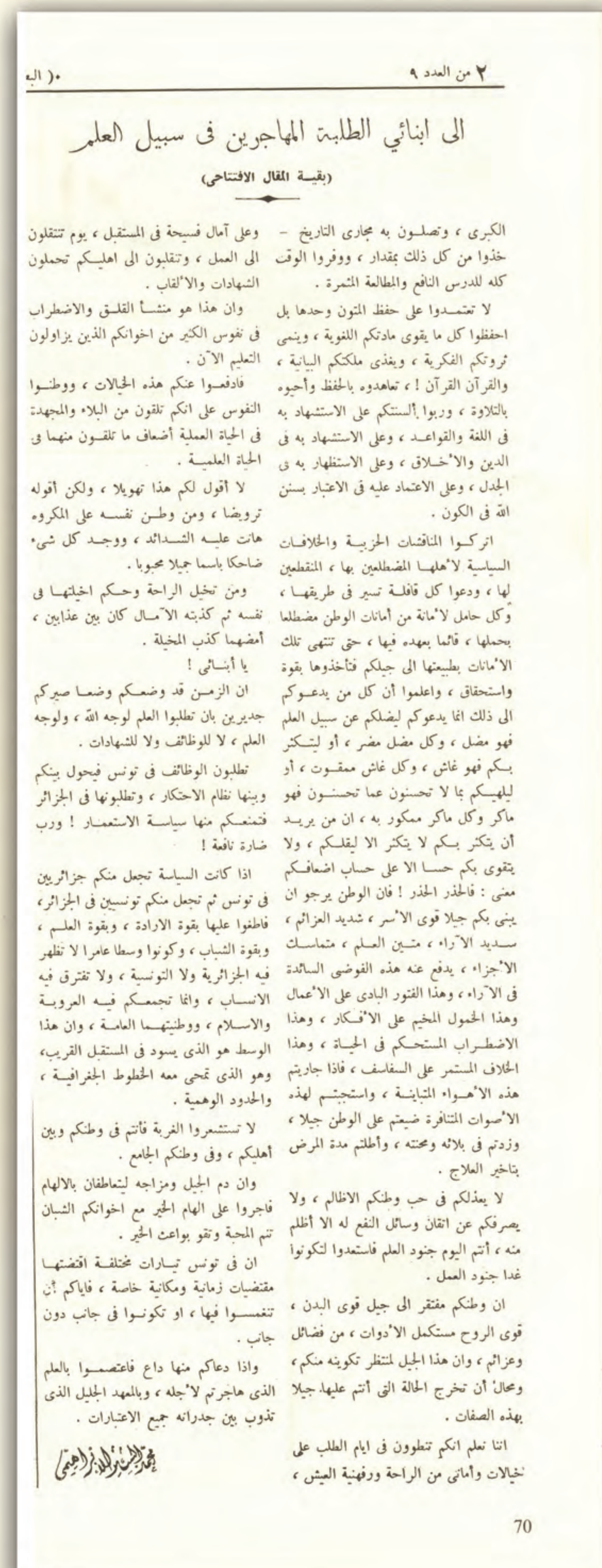
ولا تقنعوا بالكتاب المقرر ، واقرأوا غيره من الكتب السهلة المبسوطة في ذلك العلم تستحكم الملكة ويتسع الادراك ، وسينتهي الاصلاح الذي تقوم به ادارات كلياتنا الى اختيار كتب سهلة ممتعة في كل علم تفرض عليكم قراءتها ومطالعتها ، ثم كتب أخرى في المعارف العامة كالتاريخ والأدب والحكمة والأخلاق والتربية ، فوطنوا انفسكم على ذلك من الآن ، وروضوها على اختيار النافع المفيد من الكتب ، ومن العار الفاضح أن لا نرى في الكثير من ابنائنا الذين تخرجوا من الزيتونة ، واتجهوا بفطرتهم الى الأدب - من استوعب كتاب الأغاني قراءة ، ولا فيمن اتجهوا الى علوم الدين من استوعب قراءة الصحيحين والسنن ، ولعمري ما سلاح الاديب الا الأغاني وامثاله - ولا سلاح الفقيه الا تلك الكتب واشباهها .

لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة الا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني ، ولا في الجلوس في المقاهي الا بقدر ما تدفعون به الملل والركود ، ولا في قراءة الجرائد ، الا بقدر ما تطلعون به على الحوادث

(البقية على الصفحة ٢)

إلى القراء

لأسباب بريدية ومطبعية قاهرة تغير موعد صدور الجريدة من الجمعة الى الاثنين ابتداء من العدد العاشر .



٢ من العدد ٩ — ٠(البـ

الى ابنائي الطلبة المهاجرين فى سبيل العلم

(بقيـة المقال الافتتاحى)

الكبرى ، وتصلـون به مجارى التاريخ – خذوا من كل ذلك بمقدار ، ووفروا الوقت كله للدرس النافع والمطالعة المثمرة .

لا تعتمـدوا على حفظ المتون وحدها بل احفظوا كل ما يقوى مادتكم اللغوية ، وينمى ثروتكم الفكرية ، ويغذى ملكتكم البيانية ، والقرآن القرآن ! ، تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة ، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به فى اللغة والقواعـد ، وعلى الاستشهاد به فى الدين والأخـلاق ، وعلى الاستظهار به فى الجدل ، وعلى الاعتماد عليه فى الاعتبار بسنن الله فى الكون .

اتركـوا المناقشات الحزبيـة والخلافـات السياسية لأهلهـا المضطلعين بها ، المنقطعين لها ، ودعوا كل قافلـة تسير فى طريقهـا ، وكل حامل لأمانة من أمانات الوطن مضطلعا بحملها ، قائما بعهده فيها ، حتى تنتهى تلك الأمانات بطبيعتها الى جيلكم فتأخذوها بقوة واستحقاق ، واعلموا أن كل من يدعـوكم الى ذلك انما يدعوكم ليضلكم عن سبيل العلم فهو مضل ، وكل مضل مضر ، أو ليتـكثر بـكم فهو غاش ، وكل غاش ممقـوت ، أو ليلهيـكم بما لا تحسنون عما تحسنـون فهو ماكر وكل ماكر ممكور به ، ان من يريـد أن يتكثر بـكم لا يتكثر الا ليقلـكم ، ولا يتقوى بكم حسـا الا على حساب اضعافـكم معنى : فالحذر الحذر ! فان الوطن يرجو ان يبنى بكم جيلا قوى الأسر ، شديد العزائم ، سـديد الآراء ، متـين العـلم ، متماسـك الأجزاء ، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة فى الآراء ، وهذا الفتور البادى على الأعمال وهذا الخمول المخيم على الأفـكار ، وهذا الاضطـراب المستحـكم فى الحيـاة ، وهذا الخلاف المستمر على السفاسف ، فاذا جاريتم هذه الأهـواء المتباينـة ، واستجبتـم لهذه الأصوات المتنافرة ضيعتم على الوطن جيلا ، وزدتم فى بلائه ومحنته ، وأطلتم مدة المرض بتاخير العلاج .

لا يعذلكم فى حب وطنكم الاظالم ، ولا يصرفكم عن اتقان وسائل النفع له الا أظلم منه ، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل .

ان وطنكم مفتقر الى جيل قوى البدن ، قوى الروح مستكمل الأدوات ، من فضائل وعزائم ، وان هذا الجيل لمنتظر تكوينه منكم ، ومحال أن تخرج الحالة التى أنتم عليها جيلا بهذه الصفات .

اننا نعلم انكم تنطوون فى ايام الطلب على خيالات وأمانى من الراحة ورفهنية العيش ، وعلى آمال فسيحة فى المستقبل ، يوم تنتقلون الى العمل ، وتنقلبون الى اهليـكم تحملون الشهادات والألقاب .

وان هذا هو منشـأ القلـق والاضطراب فى نفوس الكثير من اخوانكم الذين يزاولون التعليم الآن .

فادفعـوا عنكم هذه الخيالات ، ووطنـوا النفوس على انكم تلقون من البلاء والمجهدة فى الحياة العملية أضعاف ما تلقـون منهما فى الحياة العلميـة .

لا أقول لكم هذا تهويلا ، ولكن أقوله ترويضا ، ومن وطـن نفسـه على المكروه هانت عليـه الشـدائد ، ووجـد كل شىء ضاحكا باسما جميلا محبوبا .

ومن تخيل الراحة وحـكم اخيلتهـا فى نفسه ثم كذبته الآمـال كان بين عذابين ، أمضهما كذب المخيلة .

يا أبنـائى !

ان الزمـن قد وضعـكم وضعـا صيركم جديرين بان تطلبوا العلم لوجه الله ، ولوجه العلم ، لا للوظائف ولا للشهادات .

تطلبون الوظائف فى تونس فيحول بينكم وبينها نظام الاحتكار ، وتطلبونها فى الجزائر فتمنعـكم منها سياسـة الاستعمـار ! ورب ضارة نافعة !

اذا كانت السياسة تجعل منكم جزائريين فى تونس ثم تجعل منكم تونسيين فى الجزائر، فاطغوا عليها بقوة الارادة ، وبقوة العلـم ، وبقوة الشباب ، وكونوا وسطا عامرا لا تظهر فيه الجزائرية ولا التونسية ، ولا تفترق فيه الانسـاب ، وانما تجمعـكم فيـه العروبـة والاسـلام ، ووطنيتهـما العامـة ، وان هذا الوسط هو الذى يسود فى المستقبل القريب، وهو الذى تمحى معه الخطوط الجغرافيـة ، والحدود الوهمية .

لا تستشعروا الغربة فأنتم فى وطنكم وبين أهليكم ، وفى وطنكم الجامع .

وان دم الجيل ومزاجه ليتعاطفان بالالهام فاجروا على الهام الخير مع اخوانكم الشبان تنم المحبة وتقو بواعث الخير .

ان فى تونس تيـارات مختلفـة اقتضتهـا مقتضيات زمانية ومكانية خاصة ، فاياكم أن تنغمسـوا فيها ، او تكونـوا فى جانب دون جانب .

واذا دعاكم منها داع فاعتصمـوا بالعلم الذى هاجرتم لأجله ، وبالمعهد الجليل الذى تذوب بين جدرانه جميع الاعتبارات .

محمد البشير الابراهيمي

70

جريدة البصائر

هي أسبوعية جزائرية، تصدر باللغة العربية عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تعنى بشؤون الإسلام والعربية في الجزائر، أنشأها العلامة عبدالحميد ابن باديس، وقام على رئاسة تحريرها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهي رابع صحف جمعيّة العلماء؛ أنشئت بعد تعطيل فرنسا لثلاث جرائد للجمعية في سنة واحدة؛ هي: السنة المحمدية، والشريعة المطهرة، والصراط السوي. وقد بدأ صدورها يوم ٢٥ جويلية ١٩٤٧م.

محمد البشير الإبراهيمي

(١٨٨٩-١٩٦٥م) الموافق (١٣٠٦-١٣٨٥هـ) من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي والإسلامي، ومن العلماء العاملين في الجزائر، وهو رفيق النضال لعبدالحميد بن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية، ونائبه ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين، وكاتب تبنى أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار، وتحرير العقول من الجهل والخرافات، وردها إلى الشريعة الإسلامية الصافية.

إعداد: د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل المسائل الطبية: تحديد النسل وتغييره وتحصيله

- عنوان النازلة: منع الحمل وتحديد النسل.

- الخلاصة الحكمية:

١ - إنما أراد المخترعون لفكرة تحديد النسل أن يكيدوا بها للأمة الإسلامية، فالمحبذون لها من المسلمين وقعوا في أحبولتهم، وستكون لهذا التحديد إن نجح - لا قدر الله - عواقب وخيمة.

٢ - لا يصح شرعا وضع قوانين تجبر الناس على تحديد النسل بأي وجه من الوجوه.

٣ - الإجهاض بقصد تحديد النسل، أو استعمال الوسائل التي تؤدي إلى العقم لهذا الغرض؛ أمر لا تجوز ممارسته شرعا للزوجين، أو غيرهما.

٤ - لا يجوز تحديد النسل مطلقا، ولا يجوز منع الحمل إذا كان القصد من ذلك خشية الإملاق؛ إلا إذا كان منع الحمل لضرورة محققة يقرها طبيب مسلم ثقة، أو كان تأخيره لفترة ما لمصلحة يراها الزوجان؛ فإنه لا مانع حينئذ من منع الحمل، أو تأخيره.

● القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع والفتاوى الخاصة، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:

● أولا - من توصيات وقرارات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة محرم ١٣٨٥هـ؛ حول موضوع تحديد النسل:

١ - أن الإسلام رغب في زيادة النسل وتكثيره؛ لأن كثرة النسل تقوي الأمة الإسلامية، اجتماعيا واقتصاديا وحربيا، وتزيدها عزة ومنعة.

٢ - إذا كانت هناك ضرورة شخصية تحتم تنظيم النسل؛ فللزوجين أن يتصرفا طبقا لما تقضيه الضرورة، وتقدير الضرورة متروك لضمير الفرد ودينه.

٣ - لا يصح شرعا وضع قوانين تجبر الناس على تحديد النسل بأي وجه من الوجوه.

٤ - إن الإجهاض بقصد تحديد النسل، أو استعمال الوسائل التي تؤدي إلى العقم لهذا الغرض؛ أمر لا تجوز ممارسته شرعا للزوجين أو غيرهما.

ويوصي المؤتمر بتوعية المواطنين، وتقديم المعونة لهم في كل ما سبق تقريره بصدد تنظيم النسل.

انتهى القرار.

● ثانيا - ثم صدر قرار هيئة كبار العلماء رقم ٤٢؛ بخصوص منع الحمل، وتحديد النسل؛ وهذا نصه:

ففي الدورة الثامنة لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة في النصف الأول من شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٦هـ، بحث المجلس موضوع «منع الحمل وتحديد النسل وتنظيمه»؛ بناء على ما تقرر في الدورة السابعة للمجلس المنعقدة في النصف الأول من شهر شعبان عام ١٣٩٥ هـ من إدراج موضوعها في جدول أعمال الدورة الثامنة.

وقد اطلع المجلس على البحث المعد في ذلك من قبل اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

وبعد تداول الرأي والمناقشة بين الأعضاء، والاستماع إلى وجهات النظر، قرر المجلس ما يلي:

نظرا إلى أن الشريعة الإسلامية ترغب في انتشار النسل وتكثيره، وتعتبر النسل نعمة كبرى ومنة عظيمة من الله بها على عباده، فقد تضافرت بذلك النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله، مما أوردته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في بحثها المعد للهيئة والمقدم لها.

ونظرا إلى أن القول بتحديد النسل أو منع الحمل مصادم للفطرة الإنسانية التي فطر الله الخلق عليها، وللشريعة الإسلامية التي ارتضاها الرب تعالى لعباده.

ونظرا إلى أن دعاة القول بتحديد النسل، أو منع الحمل فئة تهدف بدعوتها إلى الكيد للمسلمين بصفة عامة، وللأمة العربية المسلمة بصفة خاصة، حتى تكون لهم القدرة على استعمار البلاد وأهلها.

وحيث إن في الأخذ بذلك ضربا من أعمال الجاهلية، وسوء ظن بالله تعالى، وإضعافا للكيان الإسلامي المتكون من كثرة اللبنات البشرية وترابطها.

لذلك كله؛ فإن المجلس يقرر: بأنه لا يجوز تحديد النسل مطلقا، ولا يجوز منع الحمل إذا كان القصد من ذلك خشية الإملاق؛ لأن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها.

أما إذا كان منع الحمل لضرورة محققة؛ ككون المرأة لا تلد ولادة عادية، وتضطر معها إلى إجراء عملية جراحية لإخراج الولد، أو كان تأخيره لفترة ما لمصلحة يراها الزوجان؛ فإنه لا مانع حينئذ من منع الحمل، أو تأخيره؛ عملا بما جاء في الأحاديث الصحيحة، وما روي عن جمع من الصحابة - رضوان الله عليهم - من جواز العزل، وتماشيا مع ما صرح به بعض الفقهاء من جواز شرب الدواء لإلقاء النطفة قبل الأربعين، بل قد يتعين

منع الحمل في حالة ثبوت الضرورة المحققة.

وقد توقف فضيلة الشيخ عبدالله بن غديان في حكم الاستثناء.

انتهى القرار.

● ثالثا - ثم صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي؛ التابع لرابطة العالم الإسلامي؛ في الحكم الشرعي في تحديد النسل، ونصه:

فقد نظر مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته الثالثة المنعقدة في مكة المكرمة في الفترة من ٢٣ إلى ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٤٠٠ هـ؛ في موضوع تحديد النسل، أو ما يسمى تضليلا «تنظيم النسل»؛ وذكر ما علل به القرار السابق الصادر عن هيئة كبار العلماء.

وبعد المناقشة وتبادل الآراء في ذلك، قرر المجلس بالإجماع ما يلي:

١ - أنه لا يجوز تحديد النسل مطلقا.

٢ - ولا يجوز منع الحمل إذا كان القصد من ذلك خشية الإملاق؛ لأن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، أو كان ذلك لأسباب أخرى غير معتبرة شرعا.

أما تعاطي أسباب منع الحمل أو تأخيره في حالات فردية لضرر محقق، ككون المرأة لا تلد ولادة عادية، وتضطر معها إلى إجراء عملية جراحية لإخراج الجنين؛ فإنه لا مانع من ذلك شرعا، وهكذا إذا كان تأخيره لأسباب أخرى شرعية أو صحية يقرها طبيب مسلم ثقة، بل قد يتعين منع الحمل في حالة ثبوت الضرر المحقق على أمه إذا كان يخشى على حياتها منه بتقرير من يوثق به من الأطباء المسلمين.

٣ - أما الدعوة إلى تحديد النسل، أو منع الحمل بصفة عامة؛ فلا تجوز شرعا للأسباب المتقدم ذكرها.

٤ - وأشد من ذلك في الإثم والمنع: إلزام الشعوب بذلك، وفرضه عليها، في الوقت الذي تنفق فيه الأموال الضخمة على سباق التسلح العالمي للسيطرة والتدمير، بدلا من إنفاقها في التنمية الاقتصادية، والتعمير، وحاجات الشعوب.

انتهى القرار.

وقد رقمته تسهيلا للفائدة، ولم يكن مرقما.

● رابعا - ثم صدر قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي في دورة مؤتمره الخامسة، والمنعقد في الكويت: ١-٦ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ/١٠-١٥ ديسمبر ١٩٨٨م؛ بشأن تنظيم النسل؛ ونصه:

بعد اطلاعه على البحوث المقدمة من الأعضاء والخبراء في موضوع «تنظيم النسل» واستماعه إلى المناقشات التي دارت حوله.

وبناء على أن من مقاصد الزواج في الشريعة الإسلامية الإنجاب، والحفاظ على النوع الإنساني، وأنه لا يجوز إهدار هذا المقصد، لأن إهداره يتنافى مع نصوص الشريعة وتوجيهاتها الداعية إلى تكثير النسل، والحفاظ عليه، والعناية به، باعتبار حفظ النسل من الكليات الخمس التي جاءت الشرائع برعايتها.

قرر ما يلي:

أولا - لا يجوز إصدار قانون عام يحد من حرية الزوجين في الإنجاب.

ثانيا - يحرم استئصال القدرة على الإنجاب في الرجل أو المرأة، وهو ما يعرف بـ«الإعقام» أو «التعقيم»، ما لم تدع إلى ذلك ضرورة بمعاييرها الشرعية.

ثالثا - يجوز التحكم المؤقت في الإنجاب بقصد المباعدة بين فترات الحمل، أو إيقافه لمدة معينة من الزمان، إذا دعت إليه حاجة معتبرة شرعا بحسب تقدير الزوجين عن تشاور بينهما وتراض، بشرط ألا يترتب على ذلك ضرر، وأن تكون الوسيلة مشروعة، وألا يكون فيها عدوان على حمل قائم.

انتهى القرار.

وبمثل ما سبق:

١ - صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بالهند في ١٩٨٩/٤م؛ تحت عنوان: «ضبط التوليد».

٢ - وكذلك فتوى مختصرة بهذا الخصوص من لجنة الفتوى الكويتية برقم ٦٥٩.

● التعليق:

أولا - يجب الاعتقاد ابتداء، أن الحفاظ على النسل وتكثيره يعد من مقاصد الشرع في الزواج، ومنعه، أو تحديده وتنظيمه غير المشروع يعود على مقصده الشرعي بالإبطال، ومن ذلك يقول الدكتور محمد علي البار (عضو الكليات الملكية للأطباء بلندن وجلاسكو وأدنبرة)، بعد ما بين بالآيات والأحاديث الدالة على تشجيع الإسلام على التناسل والنكاح: «فإن سياسة منع الحمل، أو ما يسمى بتنظيم الحمل، والذي تقوم به كثير من الدول الإسلامية، هي سياسة خاطئة تضاد مقاصد الشريعة من كثرة التناسل، والزواج، والحث عليهما».

ثانيا - إن قضية بهذه الخطورة ما كان لها لتخلو طاولات الهيئات العلمية، والمجامع الفقهية المعاصرة؛ من بحثها، وبيان الحكم الشرعي لها.

ولذا رأى القارئ الكريم في هذا: اتفاق كل من هيئة كبار العلماء، والمجمع الفقهي التابع للرابطة، ومجمع الفقه التابع للمنظمة، ومجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، ومجمع الفقه الإسلامي بالهند على الأحكام التالية في هذه القضية:

١ - عدم جواز تحديد النسل مطلقا بصفة عامة.

٢ - عدم جواز منع الحمل بصفة عامة؛ خشية الإملاق، والفقر، وللأسباب الأخرى غير المعتبرة شرعا.

٣ - عدم جواز إصدار قانون يحد من الإنجاب.

ثالثا - استثنى العلماء مما سبق:

١ - جواز تعاطي أسباب منع الحمل أو تأخيره في حالات فردية؛ لضرر محقق؛ ككون المرأة لا تلد ولادة عادية، وتضطر معها إلى إجراء عملية جراحية لإخراج الجنين.

٢ - جواز التحكم المؤقت في الإنجاب بقصد المباعدة بين فترات الحمل إذا دعت إليه حاجة شرعية، يقدرها الزوجان؛ بشرط عدم الضرر على حمل قائم، وأن تكون الوسيلة مشروعة.

إعداد: تركي محمد النصر

صيانة الدين والحسب

قال العلامة ابن مفلح الحنبلي رحمه الله: «... وترك سعيد بن المسيب دنانير فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجمعها إلا لأصون بها ديني وحسبي، ولا خير فيمن لا يجمع المال فيقضي دينه، ويصل رحمه، ويكف به وجهه. وقال سفيان رحمه الله: ليس من حبك الدنيا أن تطلب فيها ما يصلحك» **(الآداب الشرعية ٣/٤٣٠)**.

النكتة

النكتة: هي مسألة دقيقة أخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، وسميت المسألة الدقيقة نكتة، لتأثير الخواطر في استنباطها، وهي إما موافقة في الرأي أو مخالفة لمؤلف الكتاب الأصلي.

كان التنكيت لونا من التأليف العربي القديم، وكان أحيانا يمثل تأليفا مستقلا في موضوع معين، وأحيانا يتشابه في وظيفته مع التحشية، ويكتب تعليقا على نص معين، ولكنه في كتاب أو رسالة مستقلة، ومن ذلك:

١- «النكت» على كتاب ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، ويشتمل على تعليقات وفوائد، ودفاع عن المؤلف ومناقشته، واعتراض عليه، وشرح لبعض الأمور اللغوية والاصطلاحية.

٢- «النكت الظراف على الأطراف»، لابن حجر العسقلاني، ويشمل تعليقات ابن حجر على «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» للمزي (ت ٧٤٢هـ)

(عبقرية التأليف العربي ص٣٣٨).

درجة الأبرار

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «من أحب أن يلحق بدرجة الأبرار، ويتشبه بالأخيار؛ فلْينوِ في كل يوم تطلع فيه الشمس نفع الخلق فيما يسر الله من مصالحهم على يديه، ولْيُطِعِ الله في أخذ ما حل وترك ما حرم، وليتورع عن الشبهات ما استطاع؛ فإن طلب الحلال والنفقة على العيال باب عظيم لا يعدله شيء من أعمال البر»

(الإيمان الأوسط ص ٦٠٩).

علم السير والتواريخ

قال العلامة ابن الجوزي (ت: ٥٧٩ هـ) رحمه الله: «واعلم أن في ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة؛ أهمها ...: أنه إذا ذكرت سيرة حازم، ووصفت عاقبة حاله؛ أفادت حسن التدبير واستعمال الحزم، أو إن ذكرت سيرة مفرط، ووصفت عاقبته؛ أفادت الخوف من التفريط، فيتأدب المتسلط، ويعتبر المتذكر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم المعقول، ويكون روضة للمتنزه في المنقول»

(المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١/١١٧).

الكلام بالخير غنيمة

ذكر عند الأحنف بن قيس: الصمت والكلام، فقال قوم: الصمت أفضل. فقال الأحنف: «الكلام أفضل لأن الصمت لا يعدو صاحبه، والكلام ينتفع به من سمعه، ومذاكرة الرجال تلقيح لعقولهم».

وقالوا: السكوت سلامة، والكلام بالخير غنيمة، ومن غنم أفضل ممن سلم.

(بهجة المجالس وأنس المجالس ١/٥٥).

مكارم الأخلاق عشر

قالت عائشة رضي الله عنها: «مكارم الأخلاق عشر: صدق الحديث، وصدق البأس في طاعة الله، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء»

(مواعظ الصحابة ووصاياهم ص ٣٢٩).

سوء الظن

قال العلامة القرافي رحمه الله تعالى: «أما الاكتفاء بالظاهر فهو شأن الجهال الأغبياء الضعفاء، ومثل هؤلاء لا ينبغي للحاكم الاعتماد على قولهم في التزكية، وكل من كان يغلب عليه حسن الظن بالناس لا ينبغي أن يكون مزكيا، ولا حاكما، لبعده عن الحزم، وقد قال ﷺ: «الحزم سوء الظن» فمن ضيع سوء الظن ضيع الحزم، نعم لا ينبغي أن يبني على سوء ظنه شيئًا إلا لمستند شرعي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات:١٢)»

(شرح تنقيح الفصول ص ٣٦٦).

الرزق والتوكل

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «إذا جلس الرجل ولم يحترف؛ دعته نفسه إلى أن يأخذ ما في أيدي الناس، فإذا شغل نفسه بالعمل والاكتساب؛ ترك الطمع، وقال المروذي: قيل لأبي عبدالله: أي شيء صدق التوكل على الله عزوجل؟ قال: أن يتوكل على الله، ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيئه بشيء، فإذا كان كذلك؛ كان الله يرزقه وكان متوكلا»

(الآداب الشرعية ٤٣١/٣).

الدمعة الصادقة

قال فرقد السبخي رحمه الله: بلغنا أن الأعمال كلها توزن إلا الدمعة تخرج من عين العبد من خشية الله؛ فإنه ليس لها وزن ولا قدر، وإنه ليطفأ بالدمعة البحور من النار.

وقال رحمه الله: قرأت في بعض الكتب أن العبد إذا بكى من خشية الله تحاتت ذنوبه كيوم ولدته أمه، ولو أن عبدا جاء بجبال الأرض ذنوبا وآثاما لوسعته الرحمة إذا بكى، وإن الباكي على الجنة لتشفع له الجنة إلى ربها فتقول: يا رب أدخله الجنة كما بكى علي، وإن النار لتستجير له من ربها فتقول: يا رب أجره من النار كما استجارك مني وبكى خوفا من دخولي.

(موسوعة ابن أبي الدنيا ١٧٢/٣).

الأعمش

قال وكيع رحمه الله: «كان الأعمش قريبا من سبعين سنة، لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه قريبا من سنتين ما رأيته يقضي ركعة».

وكان الأعمش كثير الحديث، وكان عالما بالقرآن رأسا فيه، وكان قرأ على يحيى بن وثاب، وكان فصيحا لا يلحن حرفا، وكان عالما بالفرائض.

ولم يكن في زمانه من طبقته أكثر حديثا منه.

(تهذيب الكمال ٨٨/١٢ – معرفة الثقات للعجلي ٤٣٤/١).

مواعظ عمرية

قال الفاروق رضي الله عنه:

- «تفقهوا قبل أن تسودوا»
- «التؤدة في كل شيء خير إلا ما كان من أمر الآخرة»
- «ما أبالي على أي حال أصبحت! على ما أحب، أم على ما أكره؛ ذلك بأني لا أدري الخيرة فيما أحب أم فيما أكره»

(مواعظ الصحابة ص ٣٠، ٣١).

حكمة

قال الصدفي رحمه الله تعالى: قال لي الشافعي: «ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر الذي فيه صلاحك فالزمه»

(سير أعلام النبلاء ٤٣/١٠).

إعداد: علاء الدين عبدالفتاح

العادات والتقاليد الاجتماعية

يرد العلماء النشأة الأولى للعادات الاجتماعية إلى الحاجات الضرورية التي تتطلب الإشباع، وتتسم السلوكيات التي يستخدمها الإنسان في إشباع رغباته بالتكرارية، ويقبل الإنسان على السلوكيات الصحيحة لإشباع الرغبات ويتجنب السلوكيات الخاطئة، وتسمى السلوكيات الصحيحة بالعادات لتعارف الناس عليها وقبولهم لها نتيجة المحاكاة، وتدور العادات الصحيحة حول الزي (اللبس) والأكل والشرب والاحتفال بالمواسم والأعياد الدينية والاجتماعية، فضلا عن الأفكار والآراء، وتشير الباحثة المتميزة إيمان صالح في كتابها القيم «عادات الزواج وتقاليده في الواحات البحرية» إلى حقيقة مهمة مؤداها أن عدم التطابق يمثل الاستثناء من القاعدة، لأن من يعارض المحاكاة ولا يخضع لها يشعر بالعذاب كثيرا بسبب استياء الجماعة وسخطها وجزائها، وللعادات والتقاليد الشعبية خصائص تميزها عن العادات والتقاليد الفردية، من بينها أنها فعل اجتماعي، وبأنها متوارثة لارتكازها على تراث يدعمها ويقويها، ويعمل على رسوخها واستمرارها في المجتمع، كما تتميز بأنها قوة معيارية وأداة من أدوات الضبط الاجتماعي التي تحفظ للمجتمع كيانه واستمراره، وذلك بما تقره من جزاءات توقعها على الفرد نتيجة مخالفته أو عدم تبنيه لها، وتتميز أيضا بارتباطها بالزمن مثل العادات المرتبطة بتعاقب وتتابع فصول السنة كالعادات المرتبطة بشهر رمضان والعيدين، وكذلك العادات المرتبطة بمناسبات معينة في حياة الفرد.

• محمد فؤاد علي



القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني :



info@alwaei.com

لماذا كان محمد ﷺ «أميا»

كان محمد ﷺ أميا، وفاقد الشيء لا يعطيه، وهذه إحدى معجزات الإسلام الخالدة، فعلى الرغم من كون محمد أميا غير متعلم بواقع الحال في شبه الجزيرة العربية فإنه استطاع أن يقود أعظم أمة وأعظم حضارة عرفها التاريخ، واستطاع أن يربي ويعلم من وراءه أجيالا وأجيالا استطاعت أن تحمل مشاعل النور لكي تجلو بها غياهب الظلمات التي كان يتخبط فيها كوكب الأرض بمن عليه.

ولنتوقف قليلا عند موضوع الأمية كواحدة من صفات الرسول ﷺ، فالأمية إذا تواجدت في أي إنسان هي صفة تحط من قدر ذلك الإنسان، ولكنها كانت في محمد ﷺ شرفا وكرامة وتأكيدا لنبوته ﷺ.

إذ إن المولى عزوجل جعله أميا على فطرته ونقائه كما ولدته أمه ﷺ، ولم يتح له المولى أن يتعلم القراءة أو الكتابة حتى لا يغير معتقده أو فكره كما تروجه اليهود والنصارى وغيرهم.

كما أن الأمية تواجدت عند محمد ﷺ في ذات الوقت مع ملكات وقدرات عقلية وذهنية وروحية وذاتية غير عادية، بل وقدرات جسمية أيضا، فقد كان ﷺ يتعبد ويتبتل وينقطع لذلك بالأسابيع في غار حراء قبل نزول الوحي، ولا يفت ذلك في عضده.

• نبيه فرج الحصري

إنها المدينة وكفى

يكفي أن تقول أمام أي مسلم «المدينة» ليتبادر لذهنه على الفور أنها المدينة المنورة.. ولا غيرها، إذ إن المدن الأخرى تضاف إلى مسمياتها وصفاتها، أما المدينة فهي الوحيدة التي تعرف بالمدينة.. وكيف لا، وهي مهبط الوحي، حيث تحوي بين جنباتها وعلى حصبائها وبين رمالها أشرف الخلق محمد ﷺ والجمع الفضيل من صحابة المصطفى ﷺ، وعلى رأسهم من لو وزن إيمان الأمة بإيمانه لرجحت كفة إيمانه.. إنه الصديق رضي الله عنه والآخر من أعز الله به الإيمان والإسلام عمر بن الخطاب: الذي فرق الله به بين الحق والباطل.

والبقيع به ما يزيد عن عشرة آلاف من الصحابة، والمسجد النبوي ثاني الحرمين الشريفين، وما بين منبر المصطفى ﷺ وقبره روضة من رياض الجنة، والمدينة هي مدينة التشريع والتأصيل والتفريع، واللوم للمنافقين واليهود والتقريع، إنها قبل أن تتشرف بهجرة المصطفى ﷺ كانت تسمى يثرب، ثم سميت المدينة فطيبة الطيبة، فلقد روى الطبراني عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله عزوجل أمرني أن أسمي المدينة طيبة».

• الحسين محمد حميد



قدرة الأمة على العطاء

تمتلك أمتنا رصيدا ثريا من التجارب والخبرات الذاتية والتنموية في جميع الجوانب، كما لها القدرة على توسيع الآفاق والمدارك للاستفادة من مختلف الأمم والحضارات قديمها وحديثها، والتحدي الأعظم أمامنا هو قضية التنزيل الواقعي لمنظومة القيم التي نمتلكها، والعمل بها في حياتنا أفرادا وجماعات.

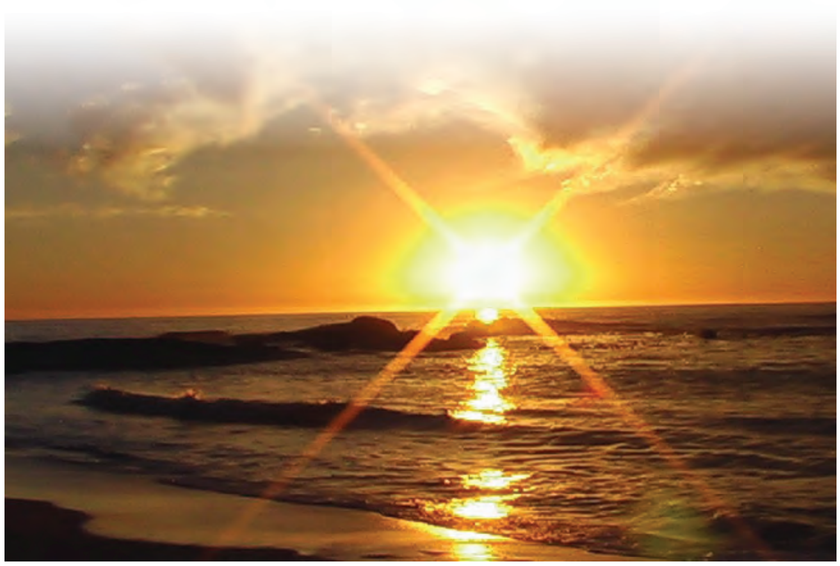
فلقد حرص الإسلام على توسيع دائرة البذل والعطاء في كل جانب من الجوانب إن كان بها نهضة للأمة وتقدمها وعدم قصر ذلك على فئة من الفئات، فالأمر يستوي فيه الجميع، وكل ذلك يكون بالتربية على الثقة بالله، والمشاركة في الخير، والتعلق بالآخرة، والزهد بالدنيا وعدم الركون إلى متعها، وببث المودة، وتعميق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم.

ولابد من تدريب النفس على البذل والعطاء وتعويدها على السخاء في كل شيء، حتى بالكلمة الطيبة؛ إذ الكرم في مثل هذه الأمور إنما ينال بالتكرم والجود بالعطاء؛ فمن لم يرب نفسه على البذل ويستسهل السخاء لن يهون الجود عليه، ولن يستطيع التصدق بيسر وسهولة.

والموفق من أدرك أن حوائج الأمة وحاجات الناس إليه هي نعم من الله عزوجل يسوقها إليه، وجب عليه استغلالها، وعدم التفريط فيها.

فحري بنا كأفراد أيا كان موقعنا، مادمنا نجد فائضا قليلا من جهودنا وفائضا عن كفايتنا في أي شيء أن نسخر هذا الفائض من الوقت والمال والسعة في قضاء حوائج الناس.

● مروان المخلافي



مع الذكر

سـاد الـنـمـاء بـذاكـر
كم كان في التقوى جواد
رق الـنـديم كبلسم
قد كان في الدنيا دواء
شـع الـزمـان بساجد
كم بث في الدنيا رخاء
حـب أصـيـل شـع من
نـور وده أزهـى الـوفـاء
روح، نـسـيـم راق من
طيب ذكره كل الآفاق
رمـز نـبـيـل نـال في
قرب ربه أسمى الجنان
حـس رقـيـق عـاش في
ظل حبه روح الوئام
روض نـضـيـر فـاض من
غصن بانه أسخى الخيار
ظـل ظـلـيـل عـاش في
ستر ظله أهل الأمان
شـأن عـظـيـم عـز في
بـر ديـنـه كل الأنـام

محمد طلعت محمد دنيا

الإسلام والتسامح

إن دعوة الإسلام دعوة تسامح لا دعوة انتقام وتشف، وفي التاريخ الإسلامي - وخاصة في عهد النبوة والخلافة الراشدة - صور مضيئة للتسامح والعفو والتوبة، وإصلاح النفس، فربما تحول المسيء إلى محسن، والخبيث إلى طيب، وربما صار من كان عدوا بالأمس رجلا من عظماء الإسلام.

فهذا أبوسفيان صخر بن حرب، كانت إليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب، وهو الذي قاد قريشا كلها يوم أحد.. جاء أبوسفيان بعد معركة أحد فقال: يوم بيوم بدر، يوم لنا ويوم علينا، ويوم نساء ويوم نسر، حنظلة بحنظلة، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لا سواء، أما قتلانا فأحياء يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون». قال أبوسفيان: قد كانت في القوم مثلة.. ما أمرت ولا نهيت ولا أحببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سرني، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها.

وكان أبوسفيان من الذين يهجون رسول الله ﷺ وقتل سلمة بن ثابت يوم أحد.

هذا الذي فعل ذلك مع النبي ﷺ ومع المسلمين كيف تصرف معه رسول الله ﷺ حين قدر عليه؟ هل انتقم وتشفى؟



لقد كانت راية رسول الله ﷺ بيد سعد بن عبادة يوم الفتح، فمر بها على أبي سفيان، وكان أبوسفيان قد أسلم، فقال له سعد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا! فلما مر رسول الله ﷺ في كتيبة من الأنصار، ناداه أبوسفيان: يا رسول الله، أمرت بقتل قومك؟ زعم سعد أنه قاتلنا! فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشا» وقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية، وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية، فقال له أبوسفيان: والله إنك لكريم، فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرا.

وفقئت عين أبي سفيان يوم الطائف، واستعمله رسول الله ﷺ على نجران، فمات النبي ﷺ، وهو وال عليها، ورجع إلى مكة فسكنها برهة، ثم عاد إلى المدينة فمات بها. وقيل: إن عين أبي سفيان الأخرى فقئت يوم اليرموك، وكان هو القاص في جيش المسلمين. يحرضهم ويحثهم على القتال.

إن العفو والتسامح جعلا من أبي سفيان جنديا مخلصا ورجلا عظيما من عظماء الإسلام.

● نجاح عبدالقادر محمد سرور

مسك الختام

المنهج الإسلامي ومسألة الواقعية

تأملت بعض أدبيات وخطابات المذاهب والمنازع والفلسفات الوضعية فألفيتها تتباهى بالواقعية، وتزعم الاتصاف بها في شتى مناهجها وأفكارها ومسالكها التطبيقية في الحياة، فأدركت مدى حدود ودلالات هذه الخاصية، وما يمكن أن تعود به من مردود إيجابي على من يتصف بها ويحرص على مراعاتها في واقعه العملي، والترويج لها على مستوى الخطابات والأدبيات الفكرية والتنظيرية والإعلامية ونحوها.

أما في الرؤية الإسلامية فإن مصطلح الواقعية يعني الانطلاق والتماهي مع أشواق الفطرة الصحيحة والاهتداء بشرع الله تعالى وأحكامه الثابتة المحكمة الواردة في القرآن المجيد والسنة المطهرة؛ ومن ثمة فليس المقصود بالواقعية في فكرية المنهج الإسلامي مسايرة الواقع أو الخضوع له كما هو في حقيقة حاله المعيش أو القائم، حتى لو كان واقعا زائغا منحرفا، أو بعيدا عن حدود الانضباط بمنهج الله تعالى ومقاصد الشرع الحنيف.

ولاشك أن من أهم ثوابت رسالة الفكر الإسلامي المعاصر الإسهام البصير في تقريب الواقع بكل تفصيلاته من رحاب الفطرة الصحيحة، وإخضاعه لمعايير الإسلام وهداياته وثوابته ومقاصده العامة، وذلك من منطلق قاعدة «سددوا وقاربوا».. أما مقدار تحقيق النجاح على هذا الصعيد فهو مرهون بمدى تمكن القائمين على شؤون الفكر الإسلامي من مهارات المعاملة مع مكونات الواقع.

لاسيما إذا وضعنا في الحساب أن الإسلام منح الكلمة ومنح السلوك تأثيرا عجيبا في النفوس، من خلال تميّز طرق الموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه الأدوات هي الأصل في معالجة الواقع وتقريبه من الفطرة الصحيحة.

أما من الناحية العملية للواقعية في المنهج الإسلامي فإننا نجد أن شريعتنا السمحة قد وضعت مجموعة مبادئ خاصة برفع الضرر وأخرى خاصة برفع الحرج. وقد تفرعت عن كل مبدأ جملة من الفروع؛ ومن أشهر مبادئ أو قواعد رفع الضرر «أن الضرر يزال شرعا» ومما تفرع عن هذا المبدأ: وجوب الوقاية والتداوي من الأسقام المختلفة، وقتل الضار من الهوام والحيوانات. وكذلك نجد من قواعد هذا المبدأ «يرتكب أخف الضررين لاتقاء أشدهما» ومما تفرع عن هذا المبدأ: أن يصلي المكلف في حال العجز عن التطهر أو ستر العورة أو استقبال القبلة، وفق ما تيسر له من قدرة، لأن ترك هذه الشروط أخف من ترك الصلاة.

ومن أشهر مبادئ رفع الحرج قاعدة «المشقة تجلب التيسير» ومما تفرع عن هذا المبدأ: الرخص المقررة في العبادات، كالفطر في رمضان للمريض والمسافر والحامل والنفساء والعاجز، وكقصر الصلاة بالنسبة للمسافر...إلخ.

أيضا يمثل التفكير الحر مظهرا من أجل مظاهر الواقعية في الإسلام، وذلك لأنه أساس المعتقد، ولا يصح في الاعتقاد القهر والتغلب والإكراه، لذلك جاء الخطاب في هذه المسألة واضحا حاسما لا يقبل التأويل، كما في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

أجل إن هذا الخطاب الواضح البين قد أوصد الأبواب أمام أي مسلك قد يسوق إلى استخدام الارهاب والقهر من أجل حمل امرئ ما على الاعتقاد بما لا يستقيم عنده من خلال موازينه العقلية وتركيبته الوجدانية والتربوية.

وما هذه الأمثلة التي أوردناها إلا نماذج يسيرة عن المنجز الإسلامي في مسألة الواقعية التي تتغنى بها معظم الفلسفات والمنازع الأرضية؛ وهي أمثلة كافية في التدليل على أصالة تجذر قيمة «الواقعية» في المنهج الإسلامي وفق ثوابت وكليات ومقاصد الشرع الحنيف.

والله ولي التوفيق.

د. إبراهيم نويري
أكاديمي جزائري



صعبة لو أخرتها
صلاتي
في وقتها
نفائس
المشروع الخليجي لتعزيز العبادات
إدارة الإعلام الديني
nafaesscom
RedAwqaf
www.nafaess.com

أسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٦٠١) رمضان ١٤٣٦ هـ - يوليو ٢٠١٥ م

شهر رمضان بين الواقع والمأمول

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٦٠١ - السنة ٥٢ - رمضان ١٤٣٦ هـ / يوليو ٢٠١٥ م



- هوى النفس وتحلل المجتمعات
- مقاصد القرآن الكريم وثمرتها
- مخاطر الإعلانات التلفزيونية على القيم
- احتفالية المخطوط العربي تدعو إلى نشر ثقافة التراث

هدية العدد: «بوستر الوقف»

info@alwaei.com | www.alwaei.gov.kw | مجلة الوعي الإسلامي



أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
اشترك
واحصل على
إصداراتنا
دراسات وأبحاث علمية
أسرار العربية
التاريخ في الإسلام
دراسات وأبحاث علمية

شرف الزمان

أنزل القرآن في شهر رمضان، ليكون المعجزة لسيد ولد عدنان، ولقد عني المسلمون منذ فجر الإسلام، في ربوع العالم، بالقرآن الكريم؛ مصدر الهداية، ومنبع الإشراق، وكانت له آثاره المباركة الطيبة في حياة الإنسان، ولقد تكفل الله بحفظه.

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

فلما كان الصيام في نفسه مضاعفا أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال، كان صيام شهر رمضان مضاعفا على سائر الصيام؛ لشرف زمانه، فإن الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال. لأن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها، لله عزوجل، ولا يوجد في عبادة أخرى غير الصيام.

وكم يتوالى علينا الشهر وحالنا فيه كحال أهل الشقوة! لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة.

فيجب على المسلم أن يتلقاه بالقبول، والفرح بأداء حقوقه، فيعمر نهاره بالصيام، وليله بالقيام، وبترك الشهوات، فلتركها فوائد جليلة، منها كسر النفس، وتخلية القلب للفكر والذكر.

وعلى العاقل أن يعرف قدر عمره، وأن ينظر لنفسه في أمره، فيغتنم ما يفوت استدراكه، وربما حصل بتضييعه هلاكه، فمن عرف شرف العمر وقيمته، لم يفرط في لحظة منه.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي



الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠١ | رمضان ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
يونيو - يوليو ٢٠١٥م

في هذا العدد



رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: (٠٠٩٦٧) ٣٣١٧٩٧
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة
●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

عبادة الهوى!

أصل دين الإسلام الاستسلام لله، والانقياد له بالطاعة. فمن أسلم وجهه لربه، ووقف عند حدود الله، وامتثل أمره؛ فقد اهتدى وفاز، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠-٤١)، وأما من اتبع هوى نفسه، فإنه بالضرورة مخالف أمر ربه، منتهك حدوده؛ وعاقبته الهلاك والخذلان ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٣٩). والفساد إنما يقع بسبب الجهل بالحق، أو مخالفته مع العلم به وهو الهوى. والجهل والهوى أصلا كل شر وبلية، ولذلك ما ذكر الله سبحانه الهوى في كتابه إلا على سبيل المذمة والأمر بمخالفته، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القصص:٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦).

الهوى شر محض؛ لأن صاحبه يتخذه إلها، فلا يتحرك إلا بأمره، ولا ينصاع إلا لحكمه، وصدق الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:٢٣).

التحرير

الاشتراكات

• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا • الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).

• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها). • للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

شهر رمضان بين الواقع والمأمول

د.خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

الكل يعرف فضل رمضان، وأنه شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار، والكل يستعد له، فأهل الطاعة يستعدون له بعزيمة قوية وروح عالية، لتزكية نفوسهم، والرقي قدما في طهارة القلب والمجتمع، ويكون الاستعداد بوضع الخطط، وتحديد الهدف، ومعرفة ماذا يريد منهم شهر القرآن والصيام والجود والكرم..

وأهل المعصية يستعدون كذلك لرمضان؛ حيث يدخلون على رمضان ولا هَمَّ لهم بالليل والنهار إلا تحصيل الملذات والشهوات، بل وتزداد معاصيهم في شهر رمضان، ويصدون غيرهم عن ذكر الله وعن الفرائض؛ وذلك بملء أوقاتهم باللهو كالمسلسلات والأفلام...

إن واقع كثير من الصائمين في رمضان - ناهيك عن الذين لا فرق عندهم بين رمضان وغيره - مؤلم ومحزن؛ فهناك سلوكات سلبية تظهر من الصائمين لا تتناسب مع: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، ولا مع الإيمان والاحتساب المطلوب تحققهما في رمضان وغيره، ولا مع شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، ولا مع شهر الانتصارات على النفس والهوى والشيطان والأعداء..

إنك ترى فضولا كبيرا من الصائمين وإسرافا بكل ما تحمل الكلمة من معان، فهناك إسراف في المأكل والمشرب، فما حرموا منه بالنهار يعوضونه في الليل إسرافا وتبذيرا!.

وإسراف في النوم في نهار رمضان؛ ويا ليت النوم من كثرة القيام والتهجد، ولكنه النوم من كثرة السهر أمام المحرمات وما يغضب الله، وبعض الناس ينام من بعد السحور حتى قبل أذان المغرب بدقائق معدودة؛ ليواصل السهر مرة أخرى!

وقد كان سلفنا الصالح أشد الناس حرصا على أوقاتهم، وخصوصا في الأزمنة الفاضلة كشهر رمضان، فكان نهارهم صياما بكل ما تحمله الكلمة وإمساكا كاملا عن كل المحرمات، وشغل اللسان والجوارح بالطاعات (قراءة القرآن والذكر، والدعاء والصدقات وإطعام الطعام، وتفطير الصائمين...)، وليلهم قيام واستغفار، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السجدة:١٦)، ثم بعد ذلك قلوبهم وجلة ألا تقبل منهم الأعمال، فهم في وصال دائم بربهم.

قال ابن رجب في لطائف المعارف: «كان بعض السلف يختم في قيام رمضان كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع، منهم قتادة، وبعضهم في كل عشر، منهم أبورجاء العطاردي، وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، كان الأسود يقرأ في كل ليلتين في رمضان، وكان الحنفي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة، وفي بقية الشهر في ثلاث، وكان قتادة يختم في كل سبع دائما، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرأها في غير المصحف، وعن أبي حنيفة نحوه. وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان، وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام».

ونرى في رمضان إسرافا في الكلام دون ضابط، والتحدث فيما لا يعني المرء، وقد قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، والتكلم فيما لا يعني المرء عاقبته وخيمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ شهيدا؛ فبكت عليه باكية، فقالت: واشهيداه، قال: فقال النبي ﷺ: «ما يدريك أنه شهيد؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، أو يبخل بما لا ينقصه».

وقال الحسن: من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، وقال سهل بن عبدالله التستري: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق، وقال معروف: كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله.

وقال محمد بن عجلان: إنما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعنيك من أمر دنياك. وقال رجل لسلمان: أوصني، قال: لا تكلم، قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم، قال: فإن تكلمت، فتكلم بحق أو اسكت.

ولا يقتصر الأمر على التدخل فيما لا يعني المرء، بل يتعدى إلى الغيبة والنميمة والسباب وقول الزور والتقاتل، وهذه

الفئة من الناس لا حظ لها في رمضان إلا الجوع والعطش، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

ومن السلبيات الواضحة لبعض الصائمين تضييع أوقات العمل بحجة الصيام والقيام، فيذهب متأخرا إلى عمله وينصرف مبكرا مضيعا حقوق الناس!، متناسيا حقوق العمل عليه من الإتقان الذي يحبه الله، قال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

ونشاهد التخاصم والتدابر في شهر الصفاء والمودة والمحبة بين أفراد الأسرة، وبين الأقارب والجيران.. وقد وصى الله عباده بالتعارف والتعاون: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢).

ومن السلبيات والمخالفات التي يقع فيها الصائمون التشرذم والافتراق والاختلاف الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب القوة: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦).

وقد أمرت الأمة الإسلامية بالاعتصام والاتحاد، وهذا هو الهدف الأساسي من العبادات، فالصلاة في جماعة باب من أبواب التعارف والتقارب، والزكاة تهدف إلى توثيق العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، والصيام باب من التكافل الاجتماعي، والتوحد الشعوري والقلبي والعملي، وذلك يظهر عند إمساكهم وإفطارهم، وكذلك الحج مؤتمر التعارف العالمي، فالعبادات كلها توحدنا.. فلماذا نحن نتفرق ونتشرذم؟!

ومن المحزنات التي يندى لها جبين الأحرار ما يحدث لإخواننا المسلمين الذين يقفون وحدهم في وجه الباطل يستأصل شأفتهم، ويقضي على وحدتهم، عندما نرى المجازر والمذابح تحدث على مسمع ومرأى من العالم كله، ونحن صامتون مسرفون في الصمت! ناديت لو أسمعت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي.

هذا هو الواقع وبكل صراحة ودون تضليل، خلاف المأمول الذي يجب تحققه، فالمأمول تحقيق مقصد الصيام وهو: «التقوى وتربية النفس وتزكيتها، وتطهير الأخلاق، وتهذيب السلوك»، المأمول هو إيجاد عباد أولي بأس شديد في مواجهة شهواتهم وأنفسهم، ومواجهة أعدائهم، والفرصة سانحة الآن، والجو العام يساعد على ذلك، حيث تسلسل الشياطين، وغلق أبواب النيران، وفتح أبواب الجنان، ولا يتحقق هذا المأمول إلا عندما نعرف جيدا أن شهر رمضان هو ميلاد العالم كله؛ وذلك لأنه ميلاد الرسالة الخالدة التي نزلت على قلب محمد ﷺ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥)، هذا الكتاب الخالد الذي نزل على الرسول الخاتم كان نقطة الارتكاز في تغيير العالم كله، وذلك لأن غايته الهداية: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩). ولما كان شهر رمضان ميلادا جديدا لهذه الأمة كان اهتمام أصحاب رسول الله به عاليا، وكانوا يستعدون لهذا المولود - الذي سيدخل البهجة والطمأنينة على قلوبهم ونفوسهم، ويصنعهم خلقا آخر - قبل أن يأتيهم بستة أشهر.

فالأمل الذي ننتظره في رمضان أن يحدث فينا تغيرا شاملا وكاملا في حياتنا، سيتحقق.. ولكن بشرط أن تكون البداية من ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ والنهاية بـ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، ولا يحدث هذا التغيير بالتمني ولكن لابد من إرادة التغيير والسعي الحثيث الجاد نحو التغيير الشامل والكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

وحقيقة التغيير الاستمساك بالوحي: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف:٤٣)، وإن كان الخطاب للرسول ﷺ وهو خير من تمسك بالقرآن، فالأمر أولى وأولى لكل فرد في أمته، فنحن لا نريد أمة متسابقة في القراءة والحفظ فقط، بل نريد أمة التسابق في التمسك والاعتصام بالقرآن والسنة المطهرة.

نأمل في شهر رمضان - شهر الصيام والقيام والمسارعة في الطاعات - أن يصنع لنا الرجال الذين يصدقون مع الله في نياتهم وأعمالهم، نريد «رمضان بدر» اقتداء بكتيبة الإيمان التي صامت إيمانا واحتسابا فدمغت أهل الباطل وتوجت نصرها بفتح مكة..

نريد رمضان الذي نسترد فيه القدس من الصهاينة، ونسترد حريتنا ونحرر فيه أنفسنا من أنفسنا.

محطات إيمانية مع شهر الصوم

د. محمد السقا
باحث أكاديمي



شهر رمضان ليس كبقية الشهور، أيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، الشياطين فيه مغلولة محبوسة، ويزيد الله فيه الأرزاق ويكتب الآجال ويختار وفد الحاج إلى بيته الحرام، إنه شهر التوبة، وشهر الإنابة، وشهر القرآن، وشهر الاستغفار، وشهر الدعاء، وشهر العبادة، وشهر الطاعة، وشهر المواساة، وشهر الصبر، وشهر العتق من النار، وشهر الفوز بالجنة.

أخي الصائم، يطيب لي أن أقف معك وقفات سريعة في عدة محطات في هذا الشهر الفضيل:

المحطة الأولى: تحقيق التقوى

شرع الله سبحانه وتعالى لعباده صيام شهر رمضان المبارك لتحقيق تقواه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣).

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ فالصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثالا لأمر الله تعالى واجتنابا لنهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها مما تميل إليه نفسه متقربا بذلك إلى الله تعالى، يرجو بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله سبحانه، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها: أن الصوم يضيق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعاته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقير المعدم، وهذا من خصال التقوى.

المحطة الثانية: الدعاء

من فضائل هذا الشهر المبارك أن الدعاء مستجاب فيه؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم» (حديث صحيح، رواه الترمذي وابن ماجه ١٧٥٢).

فالصائم حين يصوم يصبح منكسر القلب، ضعيف النفس، ويذل جموحه، ويقترب من ربه تعالى، ويترك الطعام والشراب طاعة لله تعالى، ويكف عن الشهوات استجابة لرب الأرض والسموات.

المحطة الثالثة: الصبر

إن شهر رمضان فرصة عظيمة لتقوية الإرادة وصدق العزيمة، والانتصار على النفس والتسامي بها فوق الشهوات، والترفع عن الأحقاد والضغائن والكراهية والعناد. فهو شهر الصبر، والصبر جزاؤه عظيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (الزمر:١٠).

قال ابن رجب الحنبلي: «والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة». وتجتمع الثلاثة في الصوم، فإن فيه صبرا على طاعة الله، وصبرا عما حرم الله على النفس والبدن، لأن العبد يترك شهواته لله ونفسه قد تنازعه إليها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن الله عزوجل يقول: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي، وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي».

فالصوم يختص، من بين باقي الأعمال، بأنه سر بين العبد وربه. والمطلب: مراقبة الله، وهذه المراقبة ما هي إلا صبر على تحري ما يرضي الله فيقبل عليه العبد، وعلى تحري ما يغضب الرب فينفر منه العبد. فاصبر على مراقبة الله.

أقول: فالذي صبر على هذه الأمور، ولا يخرج من رمضان رجلا صبورا فقد فاته خير كثير، وحرم نفسه فرصة عظيمة جدا لاكتساب هذه الصفة، وهي صفة الصبر، والتي هي من أخلاق الأنبياء والرسل.

المحطة الرابعة: تلاوة القرآن

رمضان شهر القرآن، قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة:١٨٥).

وإن ابتداء نزول القرآن في رمضان دليل على أهمية رمضان من جهة، ودليل على أنه من المهم التزام القرآن فيه، تلاوة وحفظا وتفسيرا وتدبرا وعملا وتطبيقا. فنزول القرآن، الذي هو النعمة العظمى، تزامن في رمضان، الذي هو المنحة العظمى. فالذي يعطل القرآن ليس له حظ في رمضان.

وتلاوة القرآن في شهر رمضان، والاستماع إليه، ومدارسته، وتدبر أحكامه.. من أعظم القربات التي يتقرب بها الصالحون إلى الله تعالى في هذا الشهر.

ففي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن...» (الحديث).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «ودل الحديث أيضا على استحباب دراسة القرآن في رمضان، والاجتماع على ذلك، وعرض القرآن على من هو أحفظ له. وفيه دليل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان».

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المدارسة بينه ﷺ وبين جبريل كانت ليلا، فدل ذلك على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلا، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر.

وفي الختام

فإن الصيام جنة من النار، وإنه جنة من الشهوات، وإن في الجنة بابا يقال له الريان لا يدخل منه إلا الصائمون، وإن الصيام شفيع لصاحبه. وهو كفارة ومغفرة من الذنوب، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. الصيام سبب للسعادة في الدارين.

فيا من ضيع عمره في غير الطاعة، يا من فرط في شهره، بل في دهره وأضاعه! يا من بضاعته التسويف والتفريط، وبئست البضاعة، يا من جعل خصمه القرآن وشهر رمضان، كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة؟!

رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وقائم حظه من قيامه السهر.

اللهم بلغنا رمضان.. اللهم بلغنا رمضان.. اللهم بلغنا رمضان.

واجعلنا من الصائمين القائمين فيه يا أرحم الراحمين.

من إبداعات الدلالة القرآنية في آيات الصيام



د. مصطفى أحمد قنبر
باحث في العلوم اللغوية
الدوحة - قطر

لم يحظ كتاب سماوي بالتأمل والتدبر، ولم ينل قدرا من البحث والدرس مثل ما حظي به القرآن الكريم، فالتف حوله كل راغب في الهدى وباحث عن الحقيقة، وعلى مائدته الثرية جلس كل ذي علم يبتغي علما ندر أن يجد ضالته إلا في هذا الكتاب المعجز.

وما أروع ما كتبه فقيه العربية العالم الموسوعي جلال الدين السيوطي يرحمه الله في هذا المقام، إذ يقول: «إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل هدى وغي، فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد: فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام. وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار. ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب» (١).

ألفاظ منتقاة في نسيج لغوي بديع

وإذا تأملنا آيات الصيام في هذا الكتاب المعجز، استوقفتنا الكثير من النكات في مكوناتها من ألفاظ منتقاة، وتراكيب انتظمت في مواقعها في هذا النسيج اللغوي البديع. نكتفي هنا ببيان ما جاء في الآية الأولى، إذ يقول البارئ جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣).

وأول ما نطالعه أن هذه الآية الكريمة الأولى تضمنت حكما شرعيا لركن من أركان الإسلام، وهو فرض الصيام لشهر واحد في العام هو شهر رمضان. وقد تضافرت العناصر اللغوية في هذا الخطاب القرآني داخل تراكيب بديعة لإخراج هذا البيان القرآني الفريد على النحو الذي نراه، وما كان لعناصر غيرها أن تؤدي دورها الدلالي، وما كان لمواقعها في التراكيب أن تتبدل مؤدية المعنى والدلالة نفسيهما، فسبحان من هذا كلامه!

فما بين الأسلوب الإنشائي الطلبي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في المفتتح، وأسلوب الترجي ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ في المختتم، تلقى أصحاب عقيدة التوحيد رسالة ربهم في فريضة الصيام عبر عناصر لغوية وتراكيب فصيحة واضحة المضمون، عميقة الدلالة.

النداء بأحب صفة للمؤمنين

بدئ النص الكريم بأسلوب النداء تنبيها وجذبا للمتلقين بالأداة: «يا»، التي تستخدم لنداء البعيد، مسافة أو حكما، وقد ينادى بها القريب توكيدا (٢). وكلا التعليلين، البعيد مكانة والقريب توكيدا، مقبول هنا. ثم جاء المنادي بأحب صفة للمعنيين بهذا التكليف، إنها صفة الإيمان التي تميز هؤلاء عن غيرهم، وتلك صفة جعلتهم أهلا لفرض هذه الشعيرة عليهم بكيفية مخصوصة فصلتها الآيات التالية، كما هم أهل للاستجابة لكل ما يدعوهم إليه خالقهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى:٣٨)، لأن في تلك الاستجابات الحياة الحقيقية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٤).

ثم جاء جواب النداء بجملة فعلية فعلها ماض، بما يفيد إنفاذ الحكم وثبوته وأنه قد صدر فلا مراجعة، ولنتأمل قليلا الفعل: «كتب»، الذي تصدر هذه الجملة، إنه يحمل دلالة الإلزام لكل مخاطب من جماعة المؤمنين، وذلك قبل أن يعرف

نائب الفاعل الذي يترتب عليه نوع الاستجابة لهذا الفعل. وإذ جاء هذا الفعل على صيغة ما لم يسم فاعله، فلأن الفاعل معروف للمقصودين بالنداء، وهو الشارع الحكيم تبارك وعلا، أو لتعظيم المكتوب (الصيام)، ولتنصرف الأهمية هنا لمضمون الفعل ودلالاته.

أما نائب الفاعل (الصيام)، فقد تأخر ليتقدم عليه الجار والمجرور (عليكم)، بما يفيد تخصيص المخاطبين هنا بالحكم دون غيرهم، وفي هذا التخصيص عناية تشريف وتعظيم لهم، وليس تكليف مشقة وتعذيب، وفي ذلك أيضا تأكيد الإلزام والفرض. ثم يأتي نائب الفاعل، وهو المقصود بالإلزام والفرض، في الفعل «كتب» إنه «الصيام» بعد أن تهيأت نفوس المتلقين له.

السياق التاريخي للفريضة

إلى هنا كملت الرسالة، ووصل مضمونها إلى المتلقين المعنيين بها، وهم جماعة المؤمنين، وما عليهم إلا السمع والطاعة كما في كل أوامر التكليف. لكن هذا النص الشريف لم يقف عند هذا، بل تطرق إلى السياق التاريخي لهذه الفريضة، ربما ليلقي شيئا من الطمأنينة في نفوس المكلفين، حيث قد تساورهم بعض الشكوك في عدم المقدرة على القيام بهذه الشعيرة، أو ملاقاة المشقة والتعب والإنهاك البدني، بيد أن هذه النفس ما عهدت من بارئها إلا اليسر لا العسر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، فتأتي الصورة التشبيهية: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تهدئة لهذه النفوس القلقة، ونشرا للسكينة في جنباتها.

التقوى الغاية والثمرة

ثم ترتفع معنويات هذه النفوس بعد أن زالت عنها الهواجس حين تنبأ من الشارع لهذه الفريضة جلت حكمته، أن الغرض من ذلك كله جائزة كبرى، وهدف أسمى، وغاية عظمى، إنها التقوى! وما أدراك ما التقوى عند هذه الجماعة المؤمنة؟ إنهم «يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه. فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم. وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون إليه» (٣). وهو ما عبر عنه التركيب التالي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بيان لحكمة الصيام وما لأجله شرع، فهو في قوة المفعول لأجله لكتب. و«لعل» إما مستعارة لمعنى كي استعارة تبعية، وإما تمثيلية بتشبيه شأن الله في إرادته من تشريع الصوم التقوى بحال المترجي من غيره فعلا ما. والتقوى الشرعية هي اتقاء المعاصي، وإنما كان الصيام موجبا لاتقاء المعاصي، لأن المعاصي قسمان: قسم ينجع في تركه التفكر كالخمر والميسر والسرقة والغصب فتركه يحصل بالوعد على تركه والوعيد على فعله والموعظة بأحوال الغير، وقسم ينشأ من دواع طبيعية كالأمور الناشئة عن الغضب وعن الشهوة الطبيعية التي قد يصعب تركها بمجرد التفكر، فجعل الصيام وسيلة لاتقائها، لأنه يعدل القوى الطبيعية التي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية» (٤).

ديمومة العطاء

هنا تعلو الهمم وتشحذ العزائم.. إنها ثمرة ليست وقتية أو آنية، إنها مستمرة ودائمة. ولحلو مذاقها وجمال شكلها ولذة طعمها، ترغب نفوس هؤلاء الذواقين في ديمومتهم معها، فلا يكتفون بالأيام المعدودات، بل يسعون إلى اغتنام السنن من شوال وذي الحجة والمحرم...؛ لأنهم علموا ما في هذه الشعيرة من الخير الكثير. وعلى قدر وعظم الجائزة يكون العمل والسعي لها.

هكذا كانت الرسالة، وبهذه الكيفية تلقتها ووعتها العقول المؤمنة. مذ اشرأبت الأعناق لمعرفة الحكم والمعنيين به حتى بلوغ الهدف الآني والآجل من هذا الركن العظيم، وما تخلل ذلك من عناصر لغوية هيأت المتلقين لقبولها وساهمت في إبراز هدفها. كل هذا جعل أفئدة المؤمنين تلهج بالسمع والطاعة لحكم الشارع جلت حكمته. فسبحان من هذا كلامه!

وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

١ - السيوطي (ت ٩١١ هـ): الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ج١، ص١٧.

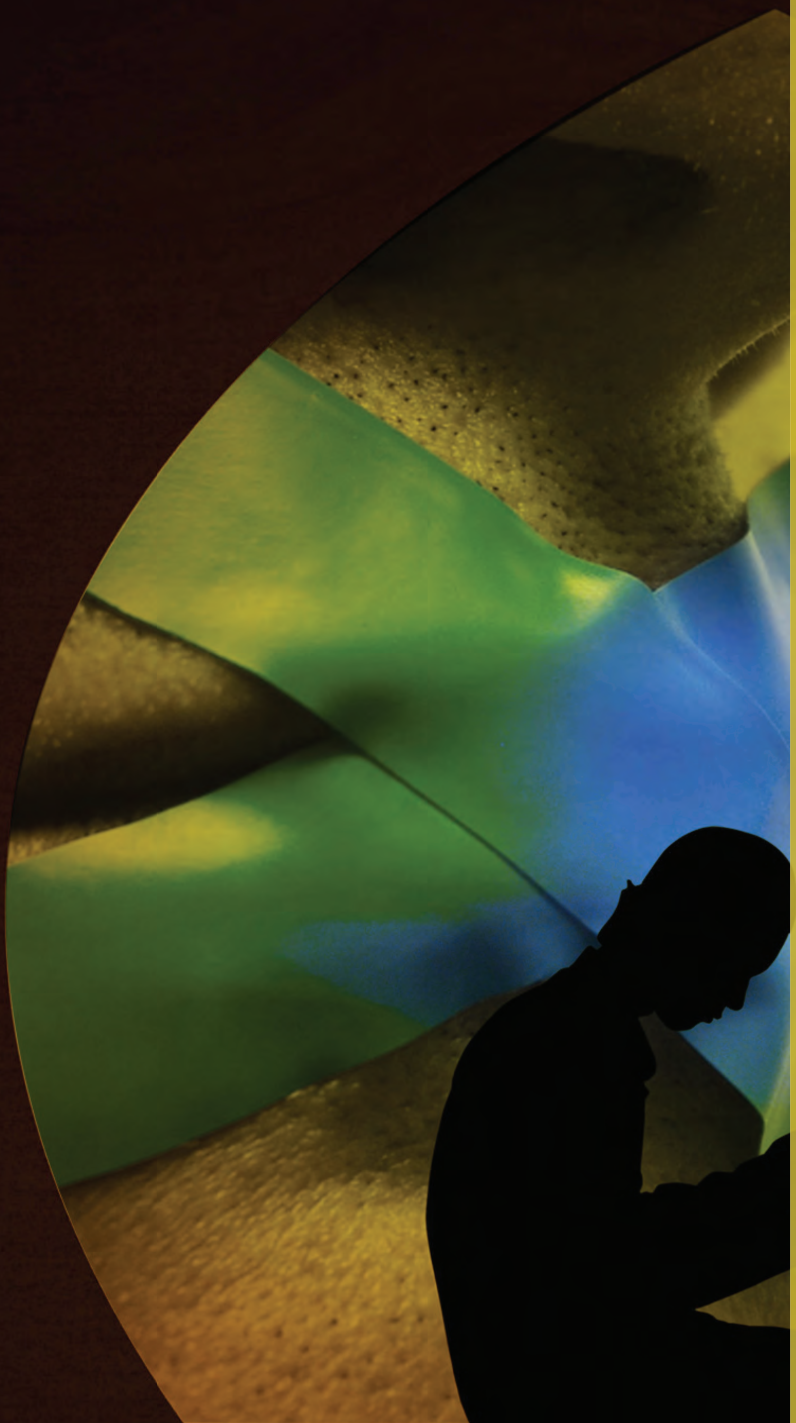
٢ - انظر: ابن هشام: مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٥، (١٩٧٩م)، ص٣٥٤، ٣٥٥. ود. إبراهيم حسن إبراهيم: أسرار النداء في لغة القرآن الكريم، مطبعة الفجالة، القاهرة، (١٩٧٨م) ص٩.

٣ - سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ط ١٧، (١٤١٢هـ)، ١/ ١٦٨.

٤ - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٤م)، ج ٢، ص١٥٨.

في الفرق بين الصوم والإمساك

أ. د. أمان محمد قحيف
باحث أكاديمي



إن من المفيد للوعي بجوهر العبادة وإدراك مقاصد التشريع تحرير المصطلحات وبيان المعاني والدلالات الحقيقية لمفاهيم الشريعة الإسلامية الغراء؛ لأن من يعبد الله تعالى على بصيرة أفضل بكثير ممن يتعبد من دون وعي أو إدراك للمعاني السامية والراقية المتضمنة في كل عبادة أو تشريع.

ولقد اخترنا - بمناسبة شهر رمضان - أن نلقي شيئا من الضوء على الفرق بين مفهومي «الصوم» و«الإمساك»، إذ كثيرا ما يتبادر إلى ذهن بعضنا أن مفهوم اللفظين مترادف تماما، من حيث المعنى والدلالة، بينما الواقع أن ثمة فروقا متعددة بين المفهومين، يقف عليها ويدركها المحققون من أهل العلم والدراية، وتغيب في كثير من الأحوال عن ذهن العديد من المسلمين.

والحق أن وجود هذه الفروق - التي سنوضحها لاحقا - بين اللفظين يعد دليلا ناصعا على دقة المفاهيم في تراثنا الإسلامي، ويؤكد من جهة أخرى على ثراء لغتنا العربية وثراء معاني مفرداتها التي يتداولها الناس.

ولاشك أن هناك من يتناول اللفظين بمعنى واحد انسياقا خلف المقولة الشهيرة التي تقول: «الصوم لغة هو الإمساك»، مع العلم بأن هذه المقولة لا تقبل ولا يؤخذ بها إلا عند الحديث عن الصوم غير الشرعي: أي الصوم الذي لا يراد به عبادة ولا يقصد به طاعة، كالصوم الذي يمارس من أجل إنقاص الوزن أو رفع مستوى اللياقة البدنية أو انتظام القوام.. إلى غير ذلك من الأهداف والأغراض الدنيوية.

بينما الدارس المحقق لقضية الصوم من الناحية الشرعية يتبين له أن اللفظين - الصوم والإمساك - ليسا بمترادفين على الإطلاق؛ إذ ثمة فروق لغوية وشرعية بين دلالة ومعنى كل منهما.

ولبيان هذه الفروق نشير إلى أنه قد ورد في «لسان العرب» عند الحديث عن عموم الصوم أن «الصوم: ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام» (١). ولقد نقل العلامة ابن منظور عن أبي عبيدة - العالم اللغوي الشهير - أن الصوم «إنما هو نية في القلب وإمساك عن حركة المطعم والمشرب» (٢). فالصوم بهذا المعنى يتكون من ركنين أساسيين هما: النية التي في القلب، والإمساك عن الطعام والشراب والنكاح.

نأخذ من ذلك إذن أن الصوم أعم من الإمساك وأوسع منه، لأن الإمساك مع النية يشكلان ركنين أساسيين يقوم عليهما الصوم.. هذا من جهة اللغة.

والحق أن هذا الفرق بين اللفظين موجود ومشار إليه عند أهل الفقه أيضا، فقد ورد عند العلامة ابن رشد الحفيد، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ، أن للصوم عند الفقهاء أركانا ثلاثة «اثنان متفق عليهما، وهما: الزمان، والإمساك عن المفطرات. والثالث مختلف فيه، وهو النية» (٣). فالزمان هو شهر رمضان. أما الإمساك فيقول فيه ابن رشد: «أجمعوا على أنه يجب على الصائم الإمساك زمان الصوم عن المطعوم والمشروب والجماع...» (٤).

والشاهد هنا أن الإمساك يعد ركنا من أركان الصيام الثلاثة (الزمان والإمساك والنية) التي أشار إليها أكثر الفقهاء، على النحو الذي أوضحه العلامة ابن رشد الحفيد في كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد». ولقد أشار الغزالي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) في كتابه «إحياء علوم الدين» (*) إلى أن الإمساك من الواجبات على الصائم.

ويستفاد من ذلك أن الإمساك لا يرادف الصوم، لأنه من الواجبات المنوط بالصائم الالتزام بها.

ونود الإشارة إلى أن الوقوف بمعنى الصوم عند حدود الإمساك فقط كما يظن بعضهم، هو بمنزلة النظر إلى ظاهر التشريع الإلهي من دون التغلغل إلى جوهره أو الولوج إلى حقيقة معانيه. فالصوم، كتشريع إلهي، لا يتمثل بحال من الأحوال في الامتناع عن المأكل والمشرب وإتيان النساء فحسب، كما يتصور بعض الناس. لكن الصوم بمعناه الحقيقي هو الإمساك عن كل ما يتنافى مع روح الإيمان والتقوى، ولعل هذا هو السر في أن يفتتح الله تعالى أولى آيات الصيام على النحو التالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣).

وهكذا بدأ الله تعالى الآية بنداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ثم ختمها بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، وفي ذلك إشارة بليغة وواضحة إلى ارتباط الصوم بالإيمان والتقوى في الوقت نفسه.

يؤخذ من ذلك إذن أن الارتباط وثيق بين الصوم وبين التقوى التي هي الإمساك عن كل ما يتعارض مع جوهر الإيمان بالله والانقياد له، والدليل على ذلك أن من «يتجه إلى غير الله بالقصد والرجاء لا صوم له، والذي يفكر في الخطايا ويشتغل بتدبير الفتن والمكائد ويحارب الله ورسوله في جماعة المؤمنين لا صوم له، والذي يطوي قلبه على الحقد والحسد والبغض لا صوم له، والذي يستغل مصالح المسلمين العامة ويستعين بمال الله على مصالحه الشخصية ورغباته وشهواته لا صوم له.. فالصائم ملاك في صورة إنسان، لا يكذب ولا يرتاب ولا يشي ولا يدبر في اغتيال أو سوء، ولا يخادع، ولا يأكل أموال الناس بالباطل» (٥).

وبالجملة نقول: إن كل من يعكر صفو المجتمع أو يعتدي على استقرار حياة المسلمين وأمنهم، بأن يرهبهم أو يقتلهم أو يستذلهم أو يتطاول على حرماتهم وأموالهم.. أو بأي شيء من هذا القبيل، لا صوم له.

إن تأدية فريضة الصوم على الوجه الأكمل تقتضي من الصائم أن يجمع بين مظهر الصوم وجوهره، بأن يصوم لسانه وقلبه وضميره كما تصوم جوارحه، وهذا هو المعنى الحقيقي للصوم، إذ «يجمع صورته وهي الإمساك عن المفطرات، ومعناه وهي تقوية روح الإيمان بالمراقبة.. وبهذا يجمع الصائم بصومه بين تخلية نفسه وتطهيرها من المدنسات، وتزكيتها بالطيبات.. وإلى ذلك يشير الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» (٦). وحسبنا في ذلك أن نذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:٢٧)» (٧).

ونشير إلى أن الذي ننتهي إليه في هذا السياق هو أن ثمة فروقا لغوية وشرعية بين مدلول لفظ الصوم ومدلول لفظ الإمساك، إذ الصوم أعم من الإمساك ويحتويه، فالإمساك هو أحد أركان الصوم، وهو صورة الصوم، أو مظهره، أو واجب من الواجبات التي يكتمل بها الصوم، لكنه ليس هو الصوم، وإن كان الصوم يبطل من دون تحقق الإمساك أو الالتزام به باعتباره واجبا على الصائم.

وبعد، أما وقد علم القارئ أن الإمساك هو مظهر الصوم وصورته، فله أن يختار كيف تكون عبادته في هذا الشهر الفضيل: هل يقف بها عند المظهر الذي هو الإمساك عن الطعام والشراب والنساء، أم يتجاوز بها ذلك الحد وصولا إلى صوم اللسان والقلب والنفس والضمير مع الجوارح، فيتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣)؟

الهوامش

١ - ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، المجلد الخامس، ص٤٣٤.

٢ - المصدر نفسه، ص٤٣٤.

٣ - ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩ م، الجزء الأول، ص٢٠٤.

٤ - المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(*) ينظر: أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، باب الصوم.

٥ - محمود شلتوت (الإمام الأكبر)، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة عشرة، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م، ص١٠٨-١٠٩ (بتصرف يسير).

٦ - رواه البخاري في باب «من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم» ١٩٠٣.

٧ - انظر: محمود شلتوت، المرجع السابق، ص١٠٩ (بتصرف يسير).

د. عبدالمقصود عبدالحميد باشا رئيس قسم التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر:

ليس في التاريخ الإسلامي نقاط ضعف

القاهرة - إسلام لطفي
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية

هل هناك حقا نقاط ضعف في كتابة التاريخ الإسلامي؟ هل يمكن إعادة كتابة التاريخ، أم من الأجدى تفنيد السلبيات التي شابت كتابته، إن وجدت؟ وما دور الباحث المنصف في هذا المجال؟ كل هذه الأسئلة وغيرها يجيب عليها الدكتور عبدالمقصود عبدالحميد باشا، رئيس قسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، في حواره مع «الوعي الإسلامي»، لافتا إلى أن ما يظنه البعض بأنه نقاط ضعف قد يكون أمانة المؤرخين في رصد أدق التفاصيل، من وجهة نظرهم.



● العديد من المؤلفات تباينت بين المكاني، مثل «تلمسان»، والمعرفي مثل «عبدالحميد بن باديس»، والتقييمي مثل «منهج نورالدين محمود في الحكم والقيادة».. من هذا المنطلق كيف ترى مكانة التاريخ العربي؟

- التاريخ وعاء الزمان، والجغرافيا وعاء المكان، فوعاء الزمان يقول فيه الحكيم العربي: «ليس بإنسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره.. ومن درى أخبار من قبله أضاف أعمارا إلى عمره»، وتاريخ أي دولة لا نستطيع أن نقول إنه كتب بشكل صحيح بنسبة ١٠٠ في المئة، فلدينا تاريخ ما قبل الإسلام بالنسبة إلى الجزيرة العربية، هناك المعلقات لشعرائنا قبل الإسلام، أرخوا للجزيرة وتاريخها وأمجادها، لكن في عصر الرسول ﷺ، جاء

القرآن الكريم ليكون أدق مؤرخ لكثير من الأحـداث السـابقـة والمعاصرة والمستقبلية.

وإذا أردنا أن نطلع إلى تاريخ أمة من الأمم، فليس معنى هذا أن كل ما نطلع عليه صوابا، فلا يستطيع مؤرخ أن يكتب التاريخ مجردا بنسبة ١٠٠ في المئة، بل لابد لكاتب التاريخ ألا يترك بصمته الشخصية، ولذلك علينا نحن كباحثين في التاريخ أن ننظر إلى ما هو صواب وإلى ما هو خطأ، ونقيم كل صفحة كتبت فيه، فالذي هواه مع سلطة ما، يكتب من وجهة نظره ما يؤيد هذه السلطة، والذي ضد سلطة ما ينعكس هذا الفكر على كتاباته.

ومن هنا، إذا نظرنا إلى تاريخ الفرس أو الـروم، فسنجد بصمات فردية، ومـن هنا يجب علينا كباحثين في التاريخ ألا نأخذ هذه القضايا على أنها مسلمات، هذا غير ما أخبر به القرآن ورسول الله ﷺ، أما ما حدث من حروب واقتتال بين المسلمين أو الفرق الإسلامية، فهذه تحكمت فيها أهواء أشخاص، فمثلا كان الأمويون يناصرون بني أمية في دمشق، وبني أمية من قريش، وعندما هاجم جيش يزيد بن معاوية المدينة المنورة في موقعة الحارة الشهيرة، كان والي المدينة قرشيا أيضا، وكـان كثير مـن سكـان المدينـة قرشـيـين، لكن العصبية تغلبت. ومن هنا، إذا أردنا أن نتحدث عن تاريخ فترة أو حاكم معين فلا نستطيع أن نحكم عليه حكما صحيحا إلا بعد مضي الجيل الذي عاصره والجيل الذي تلاه، حتى نكتب بحيادية كاملة.

● وهل التاريخ العربي بحاجة إلى أن يكتب من جديد كما يقول البعض؟

- التاريخ يجب أن يبقى كما كتبه أصحابه، ويبقى النقد، ليخرج النقاد والمؤرخـون الجـدد ليـؤرخـوا تاريخا جديدا مع الاحتفاظ بالقديم حتى يرجع إليه من يريد، فربما الأجيال المقبلة تختلف رؤيتها عن رؤيتنا، وقد يكتبون أيضا مستعينين بأفكارنا وبأفكار من سبقونا.

الشك بوجود نقاط ضعف في التاريخ الإسلامي ليس سوى أمانة رصد من جانب المؤرخين

وعـنـد تحـليـل الأحـــداث نجـد من يلتمس الأعـذار للبعض، ولابـد من الموازنة بين المؤيد والمعارض. وفي تفسيـر الأحـداث نجـد إيجابيات عديدة، فأين الباحث في التاريخ، ولا يكون التقييم صحيحا إلا بعد مضي ٥٠ عاما على الأقل.

● وماذا عن التاريخ الإسلامي؟

- التـاريـخ الإسـلامـي هـو التاريخ العربي، لأن العرب لم يبدأ تاريخهم الحقيقي إلا مع ظهور الإسلام، وكانت هناك استهانة بالعرب، فتاريخ العرب لم يبدأ جديا إلا بعد ظهور الإسلام. والتاريخ الإسلامي تعرض لتشويهات كثيرة، وبكل أسـف، ألصق التاريخ بالإسلام، لكن يجب ألا يلصق تاريخ ولا أفراد ولا تصرفات دول بالإسلام، لأن الإسلام قائم بذاته.

وأعجب كثيرا حينما يقول أحدهم إن الإسلام يقول كذا، بينما هو في الحقيقة يعبر عن نفسه، والأجدى أن يقول: قال الله سبحانه وتعالى أو قال الرسـول ﷺ، فلنأت بالآية أو الحديث، ثم نقول: تفسيرها في رأيي كذا، وليس تفسير الإسلام، فلا أحد يفهم تفسير الإسلام الحقيقي، بدليل أن المفسرين السابقين للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة فسروا آيات القرآن بأشياء ما عدا الآيات المحكمات، لأن هناك آيات محكمات لا تقبل التأويل أو الاجتهاد، مثل آيات الميراث، وهناك أحكام في القرآن الكريم لا تقبل النقاش، إنما نأتي إلى بقية آيات القرآن، كما قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله: «إذا نظرنا إلى قصة سيدنا موسى، فسنجد أنها وردت في عدة سور، لكن قد يتوهم البعض أنها جاءت في سـور متعددة لتؤدي الغرض نفسه، لكنها جـاءت فـي سـور متـعددة لأن كل آيات في كل سـورة أدت غرضا معينا لا يمكن أن يكون مكانها في موضع آخر». وبالتالي، إذا أردنا أن نتحدث في التاريخ الإسلامي فيجب أن نحدده وفق فكرنا ورؤيتنا، وعدم إلصاقه بالإسـلام، لأنه حجة علينا ولسنا نحن حجة على الإسلام.

● هل في التاريخ الإسلامي نقاط ضعف؟

- ليس فـي التاريخ الإسـلامـي نقاط ضـعـف، فـمـا يظنـه البـعـض «نقاط ضعف» هو أمانة أئمتنا المؤرخين، التي أملت عليهم أن يذكروا كل صغيرة وكبيـرة، ويـجب أن نشكر الله على أمانتهم، فهم لم يزيفوا، إنما سجلوا كل ما وصل إليهم، سواء كان صوابا أو غير ذلك، تاركين لنا حرية النقد.

طعنات المستشرقين

● يـحـفـل الـتـاريـخ الإسـلامـي بالعديد من الفتن التي لعب المستشرقون دورا في تحويرها لـتـخـدم أغـراضـهـم.. فكيف يتصدى المؤرخ العربي والمسلم لطعنات المستشرقين؟

- دعــوت مـنـذ زمـن بـعـيـد إلى ضـرورة تعلم لغات أهل الأرض،

وقد سبقنا إلى ذلك رسول الله ﷺ، حينما أمر بعض أتباعه بتعلم لغات الناس في عصره، فبعضهم تعلم الفارسية والبعض العبرية، وغير ذلك، وكان سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه يجيد لغة الحبش في أفريقيا وكذلك اللغة القبطية الخاصة بأهل مصر، واللغة الرومانية التي كان يتحدث بها الرومان في بلاد الشام، إضافة إلى إجادته للغة العربية، لذلك إذا أردنا أن نقف على فكر هؤلاء المستشرقين فيجب أن نتعلم لغاتهم، فلماذا يتفوقون علينا ويكتبون عن تاريخنا وعن تفسير آيات القرآن وسنة النبي ﷺ، لأنهم أجادوا اللغة العربية الفصحى وفهموها، وتأولوا عليها.. وإذا أردنا تقييم المستشرقين فقليل منهم منصفون وغالبيتهم ليسوا كذلك، فالمنصفون نظروا بعين الحق والحقيقة، وغير المنصفين نظروا بعين الحقد، فما أمر الإسلام إلا بكل خير ومعروف، ومبادئ الإسلام شيء وتصرفات المسلمين شيء آخر، ومبادئ المؤرخين المسلمين الذين كتبوا التاريخ حسب ما وصلهم شيء، ونقدنا لهم شيء آخر.

● وهل استفاد العرب من المستشرقين؟

– بالفعل، فلدينا المؤلف الإنجليزي سير توماس أرنولد، الذي يجيد العربية وله العديد من الكتب عن الإسلام، مثل كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، رغم أنني أخرجت في الكتاب ٣١٥ خطأ، فإنه يعتبر من أفضل الكتب، وهناك كتب كثيرة، وهناك المفسدون الذين استفدنا منهم أيضا، فليس هناك من يعتقد أن فكره فاسد،

بعض المستشرقين منصفون وكثير منهم ليسوا كذلك.. وإذا أردنا مجابهتهم فلنتعلم لغتهم

فكل من يكتب يعتقد أن فكره هو الصواب، وبالتالي لابد أن تخاطبه من موقعه هو، من حيث فكره، وترد على الثقافة بثقافة، واللغة بلغة، وكثير من هؤلاء لم يفقهوا دقائق اللغة العربية، لأن لها دقائقها البعيدة التي لا يفهمها المستعربون بل لا يفهمها إلا كبار المتخصصين.

ومن الضروري معاملة الناس بفكرهم، وأحمد الله أنني نجحت أخيرا في أن أدخل قرار تعلم اللغات إلى قسم التاريخ بجامعة الأزهر، وصدر قرار من مجلس الجامعة بأنه على كل طالب يريد أن يسجل رسالة الماجستير أو الدكتوراه أن يحصل على درجة «التويفل» أو ما يعادلها في المنطقة التي سوف يؤرخ لموضوعه فيها، وهذه خطوة كبيرة للأمام في الدراسات التاريخية، ومن يرد أن يدرس في الصين فليتعلم اللغة الصينية.. اللغة الإنجليزية هي المسيطرة والمهيمنة على العالم، لكن من الأفضل أن يتعلم لغة أهل البلد الذي سيؤرخ عنه.

● وهل نجح العرب والمسلمون في أن يقوموا بدور مضاد عن طريق الاستغراب؟

– العرب والمسلمون متفوقون في مجالات متعددة كالطب والهندسة وغيرها، وإذا قرأنا تاريخ ألمانيا فسنعرف مدى تأثير المسلمين في نهضة ألمانيا الحديثة، وأعرف أن مهندسا مصريا هو الذي أنشأ مترو الأنفاق، ولدينا العديد من العلماء.

الحضارات دول

● يتهمنا الغرب بأننا أمة تعتمد على تاريخها فقط.. كيف ترى ذلك؟

– في الوقت الحالي نعم، لكن من الذي تسبب في هذا؟ حينما يعجز الإنسان ويكون غير قادر على الحركة، أو أن يكون فاعلا في المجتمعات فإنه دائما ما يلجأ إلى أجداده وآبائه، ليفتخر بهم، ويجب أن نعلم أن الحضارات دول، وأي حضارة لابد أن تتعرض للهزيمة يوما، فالفرس وصلوا إلى القمة لكنهم بلغوا نهاية الضعف قبل الإسلام، حينما أشيعت الديانة المانوية وغيرها من الديانات التي فجرت الانحطاط الأخلاقي في الدولة الفارسية فأبيدت، وكذلك الإمبراطورية الرومانية وغيرها. والحضارة الإسلامية باقية الآن في نشأتها، كتبها، تراثها، والعلماء الموجودين في الوقت الحالي.

● إذن.. هل ستشهد الحضارة الإسلامية بعثا جديدا بعد أن طمست؟

– بالتأكيد، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر:٩)، وقال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي»، فالاستمساك بحبل الله المتين وبسنة ﷺ هو سبيل النهوض الحقيقي لأمة الإسلام، وسوف يأتي الزمن، آجلا أم عاجلا، لنهضة المسلمين من جديد، وقد بشرنا الرسول ﷺ بأن الحجر والشجر سينطق أمام المسلم.



قطاع الثقافة في «الأوقاف» يشارك في معرض جنيف الـ٢٩

التحرير







رئيس التحرير يتوسط العسعوسي و أبا الخيل و النهام

شاركت دولة الكويت، ممثلة في قطاع الثقافة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في الدورة التاسعة والعشرين للمعرض الدولي للكتاب بجنيف في سويسرا، خلال الفترة من ٢٩ أبريل وحتى ٣ مايو ٢٠١٥، برئاسة الوكيل المساعد للشؤون الثقافية داوود العسعوسي.

وتأتي مشاركة الوزارة في إطار استراتيجية دعم القطاع الثقافي، في جانب المشاركة في المعارض الدولية للكتاب، وإبراز الوجه الثقافي لدولة الكويت، ممثلة في مجلة «الوعي الإسلامي» وإدارة الإعلام الديني.

وعرض جناح الوزارة الإصدارات العلمية والبحثية والمجلات والأسطوانات الإلكترونية، تأكيدا وتعزيزا لحضور الكويت، وبيانا لجهودها من خلال مؤسساتها في توعية أبناء المسلمين حول العالم.

وضم جناح الوزارة قسما لمجلة «الوعي الإسلامي»، يشمل مجموعة مهمة من كتب الشريعة واللغة بلغات عدة، إضافة إلى قسم إدارة الإعلام الديني، الذي عرض بوسترات وأفلاما بلغات عدة لتعريف زوار المعرض بالإسلام وسماحته، ودور المرأة في الإسلام.

يذكر أن معرض جنيف الدولي للكتاب أحد أهم المعارض في القارة الأوروبية، إذ تشارك فيه ٧٠٠ دار نشر تمثل أكثر من ١٥ دولة من مختلف القارات.

مقاصد القرآن الكريم وثمرتها

د. يوسف الحزيمري
باحث دراسات إسلامية - المغرب



القرآن الكريم، كلام الله المعجز إلى الخلائق، هذا الكتاب الخالد الذي غير الله به مجرى تاريخ البشرية جمعاء، من الضلال إلى الهدى، ومن الطريق المعوج إلى الصراط المستقيم، لم ولن يوجد كتاب على وجه البسيطة كتب عنه، وسخرت له جميع العلوم مثله، والواقع يشهد بذلك... كتاب جعله الله فرقانا ونورا وهدى ورحمة وشفاء، واشتمل على أمور الدين والدنيا، قال عزوجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨).

وعن علي رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: إن أمتك ستفتتن من بعدك، فسأل رسول الله ﷺ، أو سئل: ما المخرج منها؟ فقال: «كتاب الله العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢)، من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن ولي هذا الأمر فحكم به عصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهذا الذي سمعته الجن، فلم تتناه أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (الجن:١-٢)، لا يخلق عن كثرة الرد على طول الدهر، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه» (١).

ومن ثم شملت عناية المسلمين بكتابهم الكريم «كل ما فيه وكل ما يتصل به: من حفظه في الصدور وحفظه في السطور، ومن إبراز لوجوه إعجازه وأسرار بلاغته إلى عنايتهم بفنون تجويده وترتيله وشرح ألفاظه، وعباراته وبيان معانيه ودلالاته، ومن ضبط رسمه وشكله، وتحديد ابتدائه ووقفه، إلى إعرابه وشرح غريبه. ومن تاريخه وأسباب نزوله، إلى استقراء قواعده وكلياته، وتحليل قصصه وأمثاله. ومن عد حروفه وآياته، إلى سبر مقاصده ومناسباته...» (٢).

وكان من هذه العناية والاهتمام بيان

مقاصد القرآن الكريم ومحاوره الكبرى، التي تعد قواعد وكليات، يرجع إليها في فهم مراد الله عزوجل، وفي الاجتهاد والاستنباط، مما نجده عند علماء التفسير في مقدمات تفاسيرهم.

وقد لخص العلامة ابن عاشور في مقدمة تفسيره مقاصد القرآن الأصلية التي جاء لتبيانها، بحسب ما بلغ إليه استقراؤه إلى ثمانية أمور، وهي:

- إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح.
- تهذيب الأخلاق.
- التشريع، وهو الأحكام خاصة.
- سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة، وحفظ نظامها.
- القصص وأخبار الأمم السالفة، للتأسي بصالح أحوالهم.
- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار... وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم.
- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.
- الإعجاز بالقرآن، ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ (٣).

وجعل رحمه الله غرض المفسر هو: «بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه، بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا... فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن، مما جاء لأجله». (٤)

أما الشيخ محمد الغزالي رحمه الله فذهب إلى أن: «القرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سوره، يمكن القول بأنه يدور على محاور خمسة، وهي: الله الواحد، والكون الدال على خالقه، والقصص القرآني، والبعث والجزاء، والتربية والتشريع... هذه هي المحاور الخمسة التي أفاض القرآن في ذكرها»، (٥)، وانتهى فضيلته إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها.

وقد فصل الدكتور أحمد الريسوني الحديث عن المقاصد العامة للقرآن الكريم، معتبرا أن العناية بهذه المقاصد الكلية، لم تبرز بوضوح إلا على يد بعض المفسرين والدارسين المعاصرين، مع أن معرفة هذه المقاصد وتحقيقها هي الفائدة الكبرى والغاية القصوى للقرآن وعلومه ومباحثه، ليصل بعرضه وبحثه إلى وضع «مقاصد مقاصد القرآن الكريم»؛ أي ذكر الأهمية والفائدة الإجمالية لمعرفة مقاصد القرآن الكريم.

فمن أهم ما يستفاد من معرفة مقاصد القرآن - وخاصة مقاصده العامة - ما يلي:

١- معرفة مقاصد القرآن الكريم هي المدخل السليم إلى فهم الرسالة القرآنية الإسلامية على وجهها الصحيح، بلا زيادة ولا نقصان، ولا إفراط ولا تفريط.

٢- معرفة هذه المقاصد العامة، واستحضارها عند قراءة القرآن وتدبره، تمكن قارئه من الفهم السليم للمعاني التفصيلية والمقاصد الخاصة لأمثاله وقصصه ووعده ووعيده، ولكل آية وكل لفظ وكل حكم ورد فيه.

٣- بمعرفة مقاصد القرآن يتسدد فهمنا لمقاصد السنة النبوية جملة وتفصيلا، ومن خلال ذلك يتسدد النظر الفقهي، والاجتهاد الفقهي.

٤- مقاصد القرآن هي الميزان والمعيار الذي يجب أن نزن به أعمالنا الفردية والجماعية، وحياتنا الخاصة والعامة، فكل عمل قلبي أو أخلاقي أو اقتصادي أو سياسي أو عسكري أو حضاري لا يهتدي بمقاصد القرآن، وبمقاصده في القرآن، فهو حائد عن هدي القرآن.

٥- مقاصد القرآن هي الميزان والمعيار الذي لا بد منه كذلك للمفسرين في مناهجهم وتفسيراتهم؛ فبمعرفتها ومراعاتها يضمن المفسر لنفسه ولتفسيره أن تكون اهتماماته ومقاصده واستنباطاته في نطاق مقاصد القرآن، بلا زيادة ولا نقصان.

وهذا ضرب من «تفسير القرآن بالقرآن»، ويمكن تسميته: «تفسير القرآن في ضوء مقاصده» (٦).

فحري بنا أن نعرف هذه المقاصد، وأن نقطف منها هذه الثمرات، كيما تعيننا على فهم كتاب الله حق الفهم، وتدبره أحسن تدبر، لأجل العمل به في حياتنا على المنهج الوسط القويم.

الهوامش

١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٣٧٦)، والحديث أخرجه الدارمي في السنن ٥٢٦/٢، والترمذي في السنن (٢٩٠٦)، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

٢- مقاصد المقاصد، الدكتور أحمد الريسوني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص:٨.

٣- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس،١٩٨٤م، (١/ ٣٩-٤١).

٤- التحرير والتنوير (١/ ٤١).

٥- المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، طبعة دار الشروق، ص:١٨.

٦- مقاصد المقاصد، الدكتور أحمد الريسوني، ص:٥٠-٥١.



لزيادة الوعي بقيمته الحضارية

القاهرة:
دار الإعلام العربية

احتفالية المخطوط العربي تدعو إلى نشر ثقافة التراث

دعت احتفالية يوم المخطوط العربي، التي أقيمت للعام الثالث على التوالي في العاصمة المصرية القاهرة وعدد من المدن الأخرى، إلى ضرورة نشر ثقافة التراث المخطوط لزيادة الوعي بقيمته الحضارية ودوره الرائد في بناء حضارات الشرق والغرب. وحثت الاحتفالية، التي نظمها معهد المخطوطات العربية، واحد من مؤسسات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، على ضرورة رد الاعتبار لتراث الأمة العربية والإسلامية، لاسيما في وقت يطالب فيه البعض بالقطيعة مع هذا التراث الذي قامت عليه حضارات اليوم.

وسيطرت على كلمات المشاركين في الاحتفالية الدعوة إلى تعزيز الوعي بأهمية التراث، والتصدي الحاسم لدعوات البعض بالانفصال عن تراث الأمة بدعوى مسايرة التطور النوعي الذي شهدته وسائل الاتصال الحديثة، فجاءت الاحتفالية إحياء للمخطوط العربي بكل ما يحمله من معارف وثقافات، لتوسيع آفاق العقل المعاصر، من خلال البناء على ما أنجزه السابقون من نجاحات أنارت مشاعل الحضارة لأمم الشرق والغرب.

د. فيصل الحفيان: رد اعتبار للمخطوط ضد من جعلوا التخلي عن التراث شرطا للحداثة

ولم ينس القائمون على الاحتفالية رحلة تدوين المصحف الشريف، حيث اطلع الضيوف على معرض خاص لتلك الرحلة، وكان أبرز ما احتواه: إحدى النسخ القرآنية المنسوبة إلى ذي النورين (عثمان بن عفان ﵁)، كتبت بالخط الكوفي غير المنقوط في ١٠٨٧ ورقة من الرق، كانت محفوظة في المدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل عبدالرحيم البياني، إضافة إلى قطعة خشبية كتبت عليها نحتا أوائل سورة النجم بالخط المدني (اللين) ترجع تقديرا إلى القرن الثاني الهجري.

كما اطلع الضيوف على جزء يشتمل على السبع الخامس من القرآن الكريم، يبدأ بالآية رقم ٥٦ من سورة «المؤمنون» وينتهي بالآية رقم ٢٠ من سورة «سبأ»، كتبه عمر بن محمد عام ٥٠٥ هجرية.

وخلال أيام الاحتفالية في بيت السناري الأثري في حي السيدة زينب، التابع لمكتبة الإسكندرية، بالقاهرة، تم تناول عدد من أشهر مخطوطات

د. عبدالله محارب: الوفاء للمخطوط يكون بإنتاج معرفة جديدة غير مأخوذة من الغير

التراث الإسلامي.

وشهدت الفعاليات التعريف بالمخطوط والحرف العربي من خلال معارض ومحاضرات مختلفة، لاسيما تناول صناعة الأحبار في المخطوطات العربية.

كما شهدت الفعاليات إطلالة على المخطوطات العربية والتركية بالخزانة التيمورية ودار الكتب، كما تمت مناقشة فن التصوير في المخطوطات الفارسية.

رد اعتبار

وخلال كلمته في الاحتفالية، قال مدير معهد المخطوطات العربية د. فيصل الحفيان، بمناسبة يوم المخطوط العربي ٢٠١٥: «نطمح إلى أن يكون الاحتفال بيوم المخطوط العربي تقليدا راتبا لنا ولمن بعدنا. والاحتفال، كما هو معروف، من الطقوس الاجتماعية والرموز التي لا تكاد تخلو منها ثقافة من الثقافات، وكما أن للرمز الثقافي دلالات فإن له أيضا وظائف».

ولفت إلى دلالة يوم المخطوط قائلا: «الوعي بأهمية التراث ورد الاعتبار إليه بعد أن كاد يطويه النسيان جراء دعاوى القطيعة معه، حتى إن بعضهم ذهب إلى تحميل التراث مسؤولية كبوة الحاضر، وجعلوا من التخلي عنه شرطا للعبور إلى الحداثة».

وأضاف: «كلنا يذكر الدعوة إلى العامية، ودعوة استبدال الحرف اللاتيني بدلا من العربي، ودعوة تبسيط النحو العربي، وحذف الكثير من قواعده.. وكلها تشترك في هدف واحد، هو القطيعة مع التراث، وكأنهم لا يعرفون أن سرقة الماضي تقضي على كل أمل في المستقبل، وأن غياب التراث عن أفق الأمة يعادل فقد الإنسان لذاكرته، وكلنا يعرف أن فاقد الذاكرة لا يكاد يبقى له من الوجود شيء».

وأضاف: «القطيعة مع التراث هي بمنزلة فصل الرأس عن الجسد، وإذا قطع الرأس سقط الجسد ميتا في الحال. لذلك؛ فإن التراث يظل دوما هدفا رئيسيا من أهداف المعتدين».

ونفى الحفيان أن تكون إقامة يوم سنوي للمخطوط بمنزلة بكاء على الأطلال، مؤكدا أنها بمنزلة استشراف للمستقبل، ذلك بأنها دعوة إلى التعرف على الذات الجماعية والتاريخية، واستلهام الجذور والتسلح بالثقة.

ووجه حديثه إلى الشباب قائلا: «الأمة التي صنعت كل ذلك التراث لا يمكن أن تقنع بأن تبقى على هامش التاريخ، فلا تركنوا إلى كبوة الحاضر وتخلدوا إلى الأرض، بل انظروا إلى المستقبل، وأعدوا له العدة. اقرأوا التراث لتعرفوا أن ذاكرتكم الجماعية فيها الكثير والكثير. انفضوا الغبار عن أرفف المكتبات واقرأوا المخطوطات، وتذكروا أنه إذا كان العلم يتقدم، فهناك تراث الحكمة الذي لا يبلى».

تكريم

سلم الدكتور فيصل الحيفان والدكتور عبدالله محارب الدروع التذكارية إلى كل من: الدكتور عبدالله العسيلان (شخصية العام التراثية)، والدكتور أيمن فؤاد سيد (مترجم كتاب «المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي»)، وكذلك نجل الخطاط الراحل سيد إبراهيم.



إنتاج معرفة جديدة

إلى ذلك، أكد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) د. عبدالله محارب، أن الحرص على الاحتفال بيوم المخطوط العربي يأتي لترسيخ هذا اليوم سنويا كنوع من الوفاء للتراث الإنساني الذي انتقل إلينا من خلال المخطوطات.

وأضاف: «يوافق الاحتفال اليوم الرابع



د. عسيلان: بدأت مرحلة الحنين إلى لقاء الكتب واقتنائها من مسجد الرسول ﷺ

من شهر أبريل من كل عام، والذي يوافق إنشاء معهد المخطوطات العربية قبل نحو سبعين عاما، وتحديدا في العام ١٩٤٦م. ومن المعلوم أن كل قضايانا التربوية والثقافية والعلمية وحتى الاتصالية إنما هي رهن بالكتاب، وما المخطوط الذي نحتفي به إلا كتاب. صحيح أنه تاريخي، لكن، من قال إن المعرفة الأصيلة ينال منها الزمن أو يقلل من شأنها مرور الأيام؟ إن المعرفة التي تملك القدرة على أن تتجاوز الزمن وتصل إلينا هي معرفة مقاومة للموت، وإلا لما استحقت اسم تراث».

وشدد على أن الوفاء للمخطوط والقيام بحقه يكونان بإنتاج مخطوط جديد، أي معرفة جديدة، نحن مبتكروها، لا مستنسخوها ولا مقتبسوها ولا آخذوها من غيرنا.

كما شدد على أن ذلك لن يتحقق إلا بتوسيع قاعدة الإفادة من التراث، ولهذا كان يوم المخطوط مناسبة تربط بين الأجيال الجديدة وتراثها، ومن ثم دعم ذاكرته الحضارية، من خلال هذا التراث الذي يجعله أقدر على الحضور والمواجهة وصياغة حاضر ومستقبل جديدين.

وتابع: «ثمة بعد مهم ينبغي أن نلتفت إليه، وهو أن المعرفة التراثية التي يحملها المخطوط ليست كل شيء، فهناك أيضا الطاقة الروحية التي يختزنها، والتي تملك قدرة سحرية على إعادة صياغة البنيان النفسي لصاحب التراث، خصوصا في المراحل التاريخية التي يتعرض فيها هذا البنيان للاهتزاز، ولاشك أننا اليوم نمر بمرحلة خطيرة، حيث الانحسار الحضاري في أسوأ صوره، وحيث الاضطرابات والخلافات والصراعات. وليس كالتراث مشترك يمكن أن يمنح الطاقة ويخفف من الغلواء والشطط ويزرع الثقة بالمستقبل وبإمكان ولادة حضارية جديدة».

ارتباط الشباب بتراث أمتهم

بدوره، أوضح د. عبدالله عسيلان، الذي تم تكريمه كشخصية العام التراثية، أن الاحتفال بيوم المخطوط العربي إنما هو احتفاء بالتراث الإسلامي قاطبة، فمن خلاله تأكد للعالم أننا نملك رصيدا من العلم والمعرفة لا يوجد مثله عند أمة أخرى.

وتحدث عن رحلته مع المخطوطات قائلا: «المخطوطات لها تاريخ يتغلغل في أعماق وجداني، ويلقي ظله الوارف على دروب حياتي، إذ منها كانت بداية انطلاقي في مدارج العلم والمعرفة، فقد فتحت عيني على مجالي هيبتها ووقارها منذ وقت مبكر حينما كنت طالبا في المرحلة الإعدادية، أتلمس الطريق إلى النبع الذي يسد الغلة، ويطفئ أوار الظمأ، وأبحث عن مصادر

النور الذي يبدد ظلمات الجهل، ويريد الله أن أجد ضالتي في مسجد رسول الله ﷺ على يد بعض شيوخ العلم، ومن هنا بدأت مرحلة الشوق والحنين إلى لقاء الكتب واقتنائها».

وشدد د. عسيلان على ضرورة أن

د. فتحي صالح: أمتنا تجهل كثيرا من إسهاماتها الحضارية في التراث العالمي

العصري برؤية تعبر عن الأمة العربية الإسلامية.

إسهامات حضارية

بدوره، أشار المؤسس والمدير الشرفي لمركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي د. فتحي صالح، إلى أن الاحتفال بيوم المخطوطات أمر مهم جدا، لأنه يوضح فترة نضوج الحضارة بانتقالها من قوم إلى آخرين، مشيرا إلى أن أقدم حضارتين هما المصرية

كانت تحرم بعض الأشياء التي لا تتفق مع مفهومها.

كما لفت إلى أن الأمة امتلكت الحضارة عندما امتلكت المعرفة، كون الأخلاق والمعرفة والثروات هي أساس كل شيء.

وقال أستاذ علم اللغة في كلية الآداب بجامعة المنوفية د. خالد فهمي: «نشهد النسخة الثالثة من الاحتفال بيوم المخطوط العربي، الذي تكمن أهميته في وضع ملف المخطوطات



ترتبط الأجيال الجديدة بتراث أمتها، لتعي أي أمة عريقة تنتمي إليها. وفي الوقت ذاته، ليس مطلوبا من هذه الأجيال أن تركن إلى هذه المنجزات فحسب، بل عليهم أيضا إلى جانب اعتزازهم بهويتهم وأسلافهم وما قدموه للمعرفة والفكر الإنساني، أن يسيروا أيضا على درب أسلافهم بصناعة منجزات معرفية وفكرية جديدة، تعبر عنهم، وتساير التطور

والبابلية، ثم الفارسية، والإغريقية، والرومانية، ثم عصر النهضة في الغرب.

وأكد أن الأمة العربية تجهل الكثير من إسهامات حضارتها في التراث العالمي، مشيرا إلى أن الحضارة العربية كانت الغالبة منذ القرن العاشر إلى الخامس عشر، حيث ترجمت كل ما وقع تحت يدها من علم، عكس الحضارة البيزنطية التي

على خريطة الاهتمامات العالمية».

وأضاف: «فعاليات الاحتفالية لها مميزات عديدة، منها أنها علمية تجمع شباب المحققين للقاء شيوخ المجال وخبرائه الكبار من المثقفين، علاوة على فتح آفاق للتعريف بالمخطوط وتقييمه، ومن هنا بدأنا نعي أهمية هذا المجال، والعمل على مواجهة العقبات التي تعترض طريق المخطوط ومن أبرزها نقص عمليات الفهرسة».



هوى النفس.. وتحلل المجتمعات!

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

من الشائع – خطأ – أن يكثر التحذير من «هوى النفس» في إطار دائرة الفرد فحسب، دون دائرة المجموع الأكبر اتساعا؛ وكأن المجتمعات أو الشعوب تسلم مما يصيب الأفراد من أمراض! نعم، المجتمعات تمرض كما تمرض الأفراد، ويصيبها ما يصيبهم؛ لأن الأفراد هم من يشكلون بمجموعهم هذه المجتمعات.. كما أن السنن الربانية وتشريعات الإسلام هي بالأساس تخاطب المجموع قبل الفرد؛ لأن بصلاح البيئة والمحيط العام يستطيع الفرد أن ينمي نوازع الخير لديه، وأن يحفظ على نفسه الصفات الحميدة بيسر وسهولة.

والمقصود من «هوى النفس»: «ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع» (١). فكما يميل الفرد إلى ما يستلذه من الشهوات مخالفا أوامر الشرع، كذلك تفعل المجتمعات بوقوعها في المحظورات، فيكون العذاب الأليم جزاء وفاقا، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الطلاق:٨)، أي: وما أكثر القرى التي أعرضت عن أمر الله، فكان جزاؤها الحساب الشديد، والعذاب بالاستئصال.

جاء في «التحرير والتنوير»: «والمراد بـ(الهوى) ما تهواه النفس، فهو مصدر بمعنى المفعول، مثل الخلق بمعنى المخلوق؛ فهو ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفع الكامل. وشاع (الهوى) في المرغوب الذميم؛ ولذلك قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ

﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أن ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى﴾ حال مؤكدة ليست تقييدا؛ إذ لا يكون الهوى إلا بغير هدى» (٢).

ولخطورة «هوى النفس»، كان اتباعه موجبا للهلكة، وكانت مخالفته شرطا للنجاة.

قال تعالى يخبرنا عن صفات أهل الجنة، والتي منها عصيان الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠-٤١).

وقال عن صفات المشركين الضالين: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (الروم:٢٩).

وقد عد الحديث الشريف «اتباع الهوى» إحدى ثلاث مهلكات، هي: «شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» (٣).

الاستغناء عن منهج الله!

إن «اتباع الهوى» صفة ذميمة تشكل خطورة على صاحبها، فردا كان أو مجتمعا؛ لأنه يقول - بلسان الحال - إنه مكتف بعقله وتدبيره، مستغن بهما عن منهج الله، وهداية الله، وشريعة الله؛ فهو يرى في نفسه ورغباته الكفاية والغناء، أو يرى لهما الأولوية والأهمية؛ ولو أنه كان يدرك حقا قصور عقله وعدم استقامة نفسه، لما جعل من رغباته وأهوائه موجها له، وحاكما على تصرفاته؛ بل لأسلم نفسه طائعا مختارا إلى أوامر الله، في الفعل والترك؛ فأتى الطاعات واجتنب النواهي.

أما كيف تتبع الأمم أهواءها؟ وكيف يكون اتباع الهوى سببا في تحلل المجتمعات؟ فهذا هو السؤال المهم الذي ينبغي أن ننشغل به، وأن نبذل في استجلائه جهدا بمثل ما بذل فيه على مستوى الفرد.

ويستمد هذا السؤال أهميته من أنه يتقاطع مع العمل المطلوب لاستكناه طبيعة العلل الحضارية التي تصيب المجتمعات؛ فتنخر عافيتها، وتجعل عاقبة أمرها خسرا..

إن نهوض المجتمعات أو سقوطها له سنن تحكمه، وله شروط لابد من استيفائها دون محاباة ولا مجاملة؛ والغافلون هم من لا يرون هذه السنن، ولا يعطونها العناية اللازمة من الفحص والبحث.

ثلاث نقاط

ويمكن أن نجمل الأسباب التي بها تكون المجتمعات متبعة أهواءها، في ثلاث نقاط رئيسة:

• **الابتعاد عن منهج الله، بعصيان أوامره واقتراف نواهيه**

فترى الفرائض مهملة، والحدود معطلة، والمعاصي شائعة، والأخلاق نادرة، والعدل غائبا؛ بل تحل المحاباة والأحكام الانتقائية التي تخدم مصالح طبقة بعينها، بدل المبادئ الراسخة التي تسري على الجميع وتنشر أشعتها دون تمييز: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» (متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها).

• **الإسراف والترف**

بما يترتب عليهما من ضياع حقوق الفقراء، ومن التنافس في المحرمات، والإقتار في المنافع، وإهمال الزكاة؛ ولذا كانا من أسباب هلاك الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ (الإسراء:١٦)، وقال عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الدخان:٣١).

• **اتباع الأمم الأخرى، وتقليدها في غير ما هو محل للتقليد والنقل**

بما يعنيه من مسخ الهوية، وضياع الخصوصيات التي تميز الأمة عمن سواها، وبما يترتب عليه من تفكك المجتمع وتحلله بسبب القيم والمناهج الغريبة عنه، المخالفة له: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» (متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري).

إن الإنسان - وبالتالي المجتمع - إما أن يكون عبدا لله، أو عبدا لهواه؛ وإما أن يتخذ من منهج الله طريقا ودليلا له في دروب الحياة، فيسعد في دنياه وآخرته؛ وإما أن يسير خلف كل ناعق، ويتبع كل صيحة، يظنها النجاة وما يدري أنه يسير إلى هلكته بقدميه، ويخط شقاءه بيديه!

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ (محمد:١٤).

نعم يا رب.. لا يستويان..!!

الهوامش

١- معجم الكليات، أبوالبقاء الكفوي، ص: ٩٦٢، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢- تفسير «التحرير والتنوير»، ابن عاشور، المكتبة الإسلامية، على موقع «إسلام ويب»، ذكره في تفسير سورة «النازعات».

٣- روى الطبراني في المعجم الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات؛ فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه؛ وأما المنجيات: فالعدل في الغضب، والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية؛ وأما الكفارات: فانتظار الصلاة بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات؛ وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وصلاة بالليل، والناس نيام».



د. مسعود صبري
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية

حديث القرآن عن الهوى

يظل القرآن الكريم هو مصدر المعرفة الأول للمسلمين في شتى أنواع المعرفة والثقافة، فالقرآن الكريم كتاب هداية في المقام الأول، وتلك الهداية الربانية أوسع من دلالة الهداية عند الفقهاء والعلماء، فالهدى هو إصابة الطريق القويم في كل شأن من شؤون الإنسان؛ دينا ودنيا، فالبحث عن المعرفة الصادقة التي تدل الناس على الحقيقة طريقها القرآن الكريم، كما قال الله تعالى مخاطبا أهل الكتاب والأمم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **(المائدة:١٥-١٦).**

من هنا، كان واجبا على المفكر المسلم أن يكون القرآن مصدر المعرفة الأول عنده، مع ما حوته السنة النبوية من حكم بالغة وهدي قويم، يضيف إليها من تراث الأمم وتجاربها ما ينير طريقه الفكري. وتظل الدراسات القرآنية معينا لا ينضب، وبحرا ماؤه لا ينتهي، كيف لا وفي الأثر عن القرآن: «ولا يخلق من كثرة الرد».

ومن الموضوعات التي تناولها القرآن وأعطاها أهمية موضوع: «اتباع الهوى»، واتباع الأهواء ليس محصورا على الأفراد الآحاد، بل هناك اتباع للهوى عند المجتمعات والأمم والشعوب والحكومات، لكن يبقى الداء واحدا، والخطر يختلف من آحاد المجتمع إلى مجموعهم من الدولة والمجتمع.

تعريف الهوى في القرآن

فالهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه. وهو بهذا المعنى لا يكون مذموما على الإطلاق، فتكون فيه القسمة العقلية من الهوى المذموم، والهوى المحمود، وهو ما يشهد له قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠)،



فبين القرآن أن هناك هدى من الله، وهو الهوى المحمود، وأن هناك هوى بغير هدى من الله.

حكمة الهوى

والحكمة من وجود الهوى في الإنسان وأن الله تعالى خلق الهوى فيه، أنه ضرورة لبقاء الإنسان، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل وإلى المشرب ما شرب وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستحلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار (ذم الهوى، ص:١٢).

وإنما جاءت نصوص الشرع بذم الهوى، لأن غالبه ما يكون به الضرر على الإنسان، وأنه قل من الناس من يلتفت إلى مصلحة وجود الهوى مركبا في الإنسان، والحكم - كما يقول الفقهاء - يدور مع الغالب وليس مع النادر، بل أبان الله تعالى أن الكثرة من الناس هي التي تتبع الهوى، وأن القلة هي التي تتبع الحق من ربهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (الأنعام:١١٩).

ولصعوبة مجاهدة الإنسان هواه، فقد وعد الله تعالى صاحبه بالجنة أن تكون مستقره ومأواه، تشجيعا لخلقه على مخالفة هواهم، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٤١).

ورغم كثرة الآيات التي تحدثت عن اتباع الهوى، فإنه يلاحظ أن حديث القرآن عن الهوى هو من باب الكليات لا الجزئيات، ذلك أنه ركز على القاعدة الأم من التحذير من اتباع الهوى، لأن تطبيقاتها كثيرة جدا، وتماشيا مع طبيعة القرآن الكريم من أن غالبه يركز على القضايا الكلية، ليترك التفصيل للسنة النبوية ولاجتهاد العلماء، حتى تبقى خصوصية القرآن كما هي من كونه الكتاب الخالد المشتمل على الألفاظ والعبارات المعجزة، فآياته مع صغر عددها، وكونها معدودة، لكن معانيها غير متناهية، وهي مراجعة واجبة فيما اشتهر عن الفقهاء من كون النصوص متناهية والحوادث غير متناهية، بل الصواب عندي أن النصوص معدودة، لكن معانيها غير متناهية، فتستطيع تلك الآيات المعدودة بإعجازها أن تشمل ملايين الحوادث التي توصف بأنها غير معدودة، فمعاني الآيات أشمل وأكبر من الحوادث.

«وأنواع الهوى متعددة، وموارده متشعبة، وإن كانت في مجموعها ترجع إلى «هوى النفس وحب الذات»، فهذا الهوى منبت كثير من الأخطاء وحشد من الانحرافات، ولا يقع إنسان في شباكه حتى يزين له كل ما من شأنه الانحراف عن الحق

والاسترسال في سبيل الضلال حتى يغدو الحق باطلا والباطل حقا والعياذ بالله. ويمكن رد خلاف أهل الملل والنحل ودعاة البدع في دين الله تعالى إلى آفة الهوى. ومن نعم الله على عبده ورعايته سبحانه أن يكشف له عن مدى ارتباط مذاهبه وأفكاره ومعتقداته بهوى نفسه، قبل أن تهوي به في مزالق الضلال، حتى يضيء المولى سبحانه مشاعل الإيمان في قلبه، فتكشف زيف تلك المذاهب أو الأفكار أو المعتقدات، ذلك لأن حسنها في نفسه لم يكن له وجود حقيقي، بل هو وجود ذهني أو خيالي أو صوري صوره الهوى وزينه في النفس ولو كان قبيحا في واقعه أو لا وجود له إلا في ذهن المبتلى به» (أدب الاختلاف في الإسلام، العلواني، ص:٢٧)

الرسول ﷺ أبعد الخلق عن الهوى

ولذم القرآن اتباع الهوى، فهو يقرر أن كل ما جاء في القرآن الكريم منقولا عن الله سبحانه وتعالى للبشر بواسطة جبريل إلى محمد ﷺ، فهو كلام صادق لم يتبع فيه الرسول الهوى، فهو أبعد الخلق عن اتباع الهوى، حتى يكون قدوة للناس جميعا فيما يدعوهم إليه من ترك الهوى، وهو أولى خطوات نجاح الداعية أن يبدأ هو بنفسه، فكان ﷺ أبعد الخلق عن الهوى المذموم، في قوله وفعله وكل أمره، كما قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (النجم:١-٤).

حالات الإنسان مع الهوى

وللإنسان مع هواه ثلاث أحوال:

الأولى: أن يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان:٤٣).

والثانية: أن يغالبه فيقهره مرة ويقهر مرة، وإياه قصد بمدح المجاهدين، وعناه النبي ﷺ بقوله: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم».

والثالثة: أن يغلب هواه ككثير من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء، وهذا المعنى قصد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠-٤١).

وله قصد النبي ﷺ بقوله: «ما من أحد إلا وله شيطان وإن الله تعالى أعانني عليه حتى ملكته». فإن الشيطان يتسلط على الإنسان بحسب وجود الهوى فيه، والله أعلم بالحقيقة (الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص:٩١).

صفات ومخاطر اتباع الهوى في القرآن

وقد أبان القرآن الكريم عن كثير من صفات أصحاب الهوى، وحذر من عاقبته، وكشف لنا عن عدد من المخاطر التي تلحق بصاحب الهوى، ومن ذلك:

الاستكبار

فيشير القرآن الكريم إلى أن اتباع الهوى كان سببا في تسلل الاستكبار إلى نفوس الكافرين، فدفعهم إلى عدم الإيمان بالرسل، فكذبوهم، بل قتلوا بعضهم، كما حصل مع زكريا ويحيى - عليهما السلام - وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل، بل ينقل الإمام ابن القيم رحمه الله أنهم قتلوا سبعين نبيا في يوم واحد! فاتباع الهوى قد يؤدي إلى الكفر والقتل، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ (البقرة:٨٧-٨٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ (المائدة:٧٠).

عبادة الهوى

إن صاحب الهوى يضل به هواه ويذله حتى يعبده من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان:٤٣). وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الهوى شر إله عبد».

وقد كان كفر الأمم السابقة وعبادة غير الله تعالى نتيجة لاتباع الهوى، فتلك الأصنام التي كانت تعبد من دون الله تعالى كان العرب يؤمنون أنها ليست الإله الحق، بل يزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ (الزمر:٣).

ولهذا عاب الله تعالى عليهم عبادة تلك الأوثان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ (النجم:٢٣).

ومازال البشر - حتى اليوم - يعبدون آلهة من دون الله، على اختلاف تلك الآلهة من الجمادات أو الأشخاص أو الأشياء، فاتباع الضلال والأسياد والكبراء، لأنهم أسياد وكبراء، نوع من العبادة، وقد أشار النبي ﷺ إلى عبادة البشر في حديث عدي بن حاتم الطائي كما في الترمذي وابن ماجه: «ألم يحلوا لكم الحرام، ويحرموا عليكم الحلال، فأطعتموهم؟». قالوا: بلى. قال: «فتلك عبادتكم إياهم». وقد عبد أهل مصر قديما حكامهم الفراعنة، حين قال لهم فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (النازعات:٢٤)، مع كونهم

يعلمون أنه بشر مثلهم، لكنه الهوى، الذي يطمس العقول ويعمي القلوب، ويجعل من الإنسان عبدا لمثله من دون أن يكون عبدا لله، فيصم عن سماع الحق، ويصر على الباطل، حتى لو ذكر بأنه باطل، فإنه يقول: ولو كان، فيتبعون أهواءهم بغير هدى من الله.

«إن خطر الهوى أنه يضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة، إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها، فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ، وأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن الفهم وصم عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى، فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٣-٤٤) (إحياء علوم الدين، ٣/٤٧).

النكوص عن طريق الحق

وأصحاب الأهواء، الذين يصرون على مواصلة طريق الهوى، لا يثبتون على الحق، بل يحيدون عنه، حتى يصلوا إلى تكذيب آيات الله تعالى، وقد ضرب الله تعالى لمن اتبع هواه مثلا في القرآن، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

القلب الغافل

ومن أخطر ما يصيب صاحب الهوى أن يصاب قلبه بالغفلة، فيران عليه، ويوضع بينه وبين قبول الحق حجاب مانع، وسد فاصل، وهوة كبيرة، فما استطاعوا – للحق – أن يظهروه، وما استطاعوا إليه نقبا يرون منه ولو بصيصا؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ والأمة بالصبر مع الصالحين الذين لا يريدون إلا وجه الله والدار الآخرة، وأن يلزمهم ولا يلتفت إلى أصحاب الأهواء، فقال جل في علاه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

نسيان الآخرة

ومن المخاطر التي يقصها القرآن عن أصحاب الأهواء أن صاحب الهوى لا يفكر في الآخرة، فالدنيا هي همه الأول، وشغله الشاغل، فلا يفكر إلا في دنياه من جمع المال واكتساب الشهرة ونيل المناصب الدنيا، ثم هو لا يستعملها في طاعة الله، بل إذا ذكروا بها لم يصدقوا، ثم إنهم بعد ذلك يصدون الناس عن تذكر الآخرة، حتى يكونوا معهم سواء، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (طه:١٥-١٦).

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح: «من كانت الدنيا همه؛ جعل الله فقره في قلبه، وشتت عليه أمره، ولم يأته منها إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة أكبر همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة».

الضلال المبين

ومن نتائج اتباع الهوى أن يكون صاحبه في ضلال مبين، فالهوى يمنع صاحبه من اتباع الحق، فيزيغ عنه، حتى إن جاءته الدعوة الصادقة من نبي من الأنبياء، فإنه لن يصدقها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠). وصاحب الهوى يضل على علم لا عن جهل، بل يجعل هواه إلها يعبد، فالهوى عنده مطاع، لا يرد له طلب، فلا يسمع إلا لهواه، ولا يرى إلا لهواه، ولا يرضي إلا هواه، فقام عنده مقام الإله، ومن شدة حبه لهواه فقد أضحى أعمى وإن كانت له عينان، فهو لا يرى بقلبه، ولا يبصر بعينيه، فأنى لهذا أن يعرف طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:٢٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة:٧٧). ومع هذا، فهو صاحب جهالة وضلالة، كما قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ (الروم:٢٩). ومن يتبع أصحاب الأهواء يكن ضالا مثلهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام:٥٦).

خسران ولاية الله ونصرته

ومن أضرار اتباع الهوى أن يخسر المؤمن ولاية الله ونصرته له، فيكله إلى نفسه يتخبط في كل اتجاه، لا يعرف

صوابا من خطأ، ولا حقا من باطل، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة:١٢٠)، بل لا يكون متبع الهوى في مأمن من عذاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد:٣٧).

اتباع الهوى ظلم

ويعتبر القرآن اتباع الهوى ضربا من الظلم وغمض الحقيقة، إذ اتباع الهوى مغاير لحقائق الكون التي خلقها الله تعالى، وهو حيد عن طريقه الصحيح الذي فيه صلاح الإنسان، وقذف به إلى الهواية، وبذا، يظلم صاحب الهوى نفسه ومجتمعه وأمته، لما يصيبه وغيره من الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٤٥).

التحذير من اتباع الهوى في الحكم

وقد حذر الله تعالى من اتباع الهوى، خصوصا في الحكم بين الناس، وذلك باتباع أهواء الناس في الحكم بينهم، وأن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أو ما قاله بعض السفهاء من كلمة الكفر: «ما دخل الله تعالى بالسياسة!»، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، أو بتحكيم الشرائع المناقضة لشرع الله تعالى، وذلك بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة:٤٨).

أما التشريع في غير ما يصادم أحكام الله تعالى القطعية، أو ما يتعلق بسن القوانين الإدارية ونحوها، فليس اتباعا للهوى ولا حكما بغير ما أنزل الله تعالى.

إن القرآن يلح على أن تنتفي سيطرة أهوائنا في أحكامنا، فهي شر وثن يتبع، كما قال الشيخ دراز، (دستور الأخلاق في القرآن، ص:٤٨٤). ولذا، خاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٣٥).

كما خاطب داود عليه السلام بقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص:٢٦). فإن كان اتباع الهوى محرما، فإنه في حق الحاكم المسلم أشد حرمة.

الوقوع في الفتن

وصاحب الهوى يقع دائما في الفتن، فحياته ليست مستقرة، ولا يعرف للراحة طعما، ولا للسعادة طريقا، بل هو متخبط في حياته، يتيه في غيابات الفتن ما ظهر منها وما بطن بقدر تعلقه بالهوى، كما قال جل في علاه: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٩).

فساد السماء والأرض

ويجيء خطاب القرآن الكريم في ذروته محذرا من الهوى، مصورا إياه بأبشع صورة، فاتباع الهوى مفسد للحياة بأسرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٧١).

فلو أعطي كل إنسان ما يهوى – مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة، وأن ينال في الدنيا الخير الأبدي بلا مزاولة (ولا يعلم أنه أعطي ذلك) لكان فيه فساد العالم بأسره. (الذريعة الى مكارم الشريعة، ص:٩٣). ويقول الإمام ابن القيم (إعلام الموقعين، ٧٢/١): «وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا وفسد أمرها أتم الفساد».

الهوى المحمود

ورغم أن غالب حديث القرآن جاء في ذم الهوى والتحذير منه، إلا أنه في ثنايا ذكره ذم الهوى يلفت الانتباه إلى الهوى المحمود، وهو من أعلى مقامات العبد، لا يصل إليه إلا الأنبياء والصالحون من عباد الله تعالى، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص:٥٠)، فبمفهوم المخالفة ومن أهدى ممن اتبع هواه بهدى من الله تعالى، وهو إنصاف القرآن وعدله، ولو كانت نسبة من يتصف هواه بالمدح قليلة نادرة، لكن القرآن أثبتها.

كما يشهد لها حديث النبي ﷺ الذي صححه الإمام النووي: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».



د. آندي حجازي
أخصائية تربوية أردنية

كيف أضبط أهواء نفسي؟

منذ اللحظات الأولى لحياة الإنسان بدأ صراع النفس مع أهوائها، فمنذ أن كان سيدنا آدم - عليه السلام - في الجنة، وسمح الله تعالى له ولزوجته حواء بأن يأكلا من كل شجر الجنة عدا شجرة واحدة، جاء الشيطان ووسوس لهما ليقعا في أهواء النفس وضغوط الشيطان وارتكاب المحظور، فلم يستطيعا في تلك اللحظة أن يضبطا شهوتهما، وتناولا من تلك الشجرة المنهي عنها، فكان العقاب بالنزول إلى الأرض والعيش فيها إلى ما شاء الله للإنسان العيش إلى أن تنتهي الحياة، ثم يعود من يستحق إلى الجنة في خلود أبدي.

ويستمر التصارع بين أهواء النفس، بين الخير والشر، فحياة الإنسان ما هي إلا صراع مستمر بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين هوى متبع وهوى مبعد، بين أن أفعل ما يرضي أهوائي وشهواتي وأن أفعل ما يرضي الله تعالى خالقي وواهبي الحياة. ومن هنا، تأتي أفعال الخير وأفعال الشر لبني البشر. ومن هنا، يأتي الحساب والعقاب. وما حياة الإنسان إلا امتحان حقيقي لما يجب على الإنسان من ضبط لأهوائه وشهواته، ووضع لنفسه من أهداف سامية.. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧-٤١).

الحياة ممتلئة بالمغريات؛ فانظر إلى من يتناول المسكرات، أو المخدرات، أو المدمن على التدخين أو الشيشة، أو من يمارس الفاحشة مع نساء.. أليس يتبع أهواءه؟ ومن ينظر إلى الأفلام الإباحية أو الأفلام الممتلئة بالمشاهد المثيرة للغريزة الجنسية من دون تفكير، ولو للحظات، في الآخرة وفي ما يرضي الله تعالى! وانظر إلى من تتبع أهواءها في شراء كل ما تشتهيه نفسها من ملابس وأدوات تجميل وزينة وتحف وكماليات... وفي المقابل، تتبع الشح عند الدعوة إلى الإنفاق على عمل خير أو صدقة أو مساعدة فقير أو إتمام بناء مسجد أو دار علم أو مستشفى... إنها أهواء النفس.

إن أهواء النفس لا تنتهي، واتباع الشهوات أمر سهل محبب للنفس، مع أن أبواب الخير ليست مكلفة ماديا كما هي أبواب الشر، فأنت حتى تتناول الخمر أو المخدرات أو تلعب القمار أو تقع في الربا أو الزنا وغيرها من اتباع لشهوات النفس، فإنك تضطر إلى دفع المال الكثير لها، بينما هناك الكثير من أعمال الخير لا تحتاج إلى مال، كالصلاة والصيام وذكر الله تعالى

ورضا الوالدين وإماطة الأذى عن الطريق ومساعدة الآخرين والابتسامة في وجوه الآخرين ودعوة الناس إلى الخير وحضور الخطب الدينية.

وعلى الرغم من أن بعض العبادات تتطلب الإنفاق المادي، كالحج والصدقة والزكاة، فإنك تشعر بسعادة تلامس أعماق قلبك حينما تؤديها، في مقابل شعورك بالحزن والاكتئاب وأنت تمارس أعمال الشر والمعاصي التي تغضب الله تعالى، والتي تورث في القلب نكتا سوداء تورث الحزن والتعاسة والشعور بفراغ كبير من دون أن تعلم سبب تلك التعاسة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ (طه:١٢٤-١٢٦).

مجاهدة النفس

إن من أعظم الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى. والمجاهدة في معجم «لسان العرب» مأخوذة من «ج هـ د»، التي تدل على المشقة. والمجهود هو اللبن الذي أخرج زبده، لأنه لا يخرج إلا بتعب ومشقة. ولذا، لا يقال «اجتهد فلان في حمل حبة»، بل «اجتهد في حمل صخرة»، لما في الصخرة من المشقة والعناء. وسمي قيام الليل تهجدا لما فيه من تعب ومعاناة في حمل النفس على ترك النوم في الفراش الوثير لتقوم بين يدي الله رب العالمين. وقد قال أحد الصالحين: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين عاما فذقت حلاوته عشرين عاما أخرى»، مكافأة لجهاده أصبح سهلا عليه، ممتعا، لا يستغني عنه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩).

أما مجاهدة النفس اصطلاحا، فهي: إجبار النفس الأمارة بالسوء والمتبعة للهوى على ما هو مطلوب في الشرع. وقيل هي: بذل المستطاع في أمر الله المطاع، ومخالفة الهوى، وترك المحرمات، والترفع عن المكروهات.

ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» (رواه مسلم). وقال العلماء: «هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ». ومعناه: أن الجنة طريقها صعب يحتاج إلى مكافحة أهواء النفس ومقاومتها، فمن أراد دخول الجنة عليه أن يكره نفسه على فعل الطاعات، وتحمل مشاق العبادات، والمواظبة عليها والصبر على مشاقها، كالصلاة والصيام وإخراج الزكاة والحج وكظم الغيظ والعفو عن المسيء وضبط اللسان عن الغيبة والنميمة. أما النار فطريق دخولها سهل، وهو فعل ما تشتهيه النفس من المحرمات والمعاصي، كشرب الخمر والزنا والغيبة والنميمة وقتل النفس وإضاعة المال والوقت وترك الصلاة والصيام وترك اللباس الشرعي للمرأة والخروج متبرجة من دون أدنى خوف من الله تعالى والتفكير في الآخرة.

فهتك حجاب الجنة يكون بترك الشهوات المحرمة، وهتك حجاب النار باقتحام الشهوات. وهذه هي حياة المسلم: صراع بين ارتكاب تلك المحرمات أو البعد عنها.

قصة وعبرة

وأعلم شيخا، رحمه الله، في سوريا رزقه الله ستة عشر من الأبناء (عشرة ذكور وست إناث)، عمل وزوجته بجهد شخصي منهما (في الثمانينيات من القرن الماضي في زمن توقف فيه النشاط الديني في المساجد السورية) على تحفيظ أبنائهما جميعا، ذكورا وإناثا، القرآن الكريم كاملا، ومجودا، قبل إتمامهم المرحلة الابتدائية، وحفظ كتب الأحاديث النبوية، بل وتحفيظهم سبعا من القصائد الطوال التي تتضمن أحكام الدين والتجويد والعلوم الشرعية، وعودا أبناءهما منذ طفولتهم الباكرة على قيام الليل، فلم يكن يسمح لأحد منهم بأن تفوته صلاة التهجد في جماعة يقيمها الوالد في بيته مع زوجته وأبنائه كل يوم، فلا تأخر عن تلك الصلاة لأي سبب، كما عودا أبناءهما على النوم باكرا والاستيقاظ باكرا قبل الفجر (كما هي السنة النبوية)، وفي التسعينيات من القرن ذاته أصبح سبعة من أبنائهما من أئمة المساجد الدمشقية، وكلهم تزوجوا وأنجبوا الأبناء، ولم يمنعهم ذلك من تعلم علوم الدنيا، فتخرج منهم المهندسون والأطباء والمعلمون... وبنات الشيخ غدون مشرفات حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المساجد. ويذكر الأبناء أن والدهم لم يستخدم الضرب أو الشتم أو الصراخ معهم البتة، فأي تربية تلك العظيمة التي عودت الأبناء على مواجهة أهواء النفس من حب الراحة والنوم واتباع الشهوات؟! إنها التربية على الإيمان والتذكير بالهدف من الحياة.. رحم الله الشيخ العالم الجليل سعيد البرهاني وزوجته الفاضلة.

تنزيلات شهر رمضان

وإن من جمال ديننا الإسلامي العظيم أن جعل في كل عام أياما مباركات عظيمة، فيها دعم رباني من الله تعالى، تعين الإنسان على فعل الطاعات وترك المنكرات، فهي كموسم التنزيلات من الله تعالى في وقت معين من كل عام، ومنها شهر رمضان المبارك، الذي يوفر الله تعالى فيه الدعم النفسي للإنسان المعين على الطاعة بتصفيد الشياطين طول شهر رمضان، وفتح أبواب الجنة ليقبل باغي الخير، وإغلاق أبواب النار رأفة وإعانة من الله تعالى للمسلم على الطاعة. فما أعظم أن نستفيد من موسم الخير هذا الذي تصبح

الطاعات فيه أهون، والمعاصي فيه أصعب، وتصبح العبادات بأضعاف الثواب. فإن كان هناك محل تجاري يعرض تنزيلات هائلة حقيقية لفترة محددة أفلا يقبل الناس عليه لاستغلال تلك التنزيلات الموسمية للاستفادة منها قدر الإمكان؟ فكيف والله تعالى يعطينا شهرا تتضاعف فيه الحسنات؛ أفلا نقبل عليه بكل جوارحنا وقدراتنا؟

وهنا يلزم إشغال النفس بالحلال الطيب، وملء يوم المسلم وليله بالواجبات الشريفة، كالصلاة وقراءة القرآن الكريم والانشغال بصلاة قيام الليل والذكر وإفطار الصائمين وصلة الرحم ودعوة الفقراء أو الأقارب إلى إفطار رمضان، والقيام بالأعمال المفيدة التي تقرب إلى الله تعالى.. ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر، فالخوف من الوقوع في المحظورات ووقت الفراغ كإضاعة الوقت في الأسواق وبين الشراء واللهو، أو مشاهدة المسلسلات في رمضان التي تمتلئ بالمشاهد الإباحية أو المخلة بالآداب، والتي تضيع ثواب الصائم وتفتح عليه أبواب الفتن والشهوات، وأقل ما فيها أنها تضيع وقت المسلم كبرامج المسابقات والدعايات.

وإن كان الإنسان لم يستغل شهر رمضان المبارك كمحطة للتزود بالوقود الداعم على الطاعة طوال العام، فأي أوقات من العام سوف يستفيد منها ليعود نفسه على الطاعة والعبادة وجمع أكبر ثروة ممكنة من الحسنات؟

يقول سفيان الثوري: «ما عالجت شيئا أشد علي من نفسي، مرة لي ومرة علي». ويقول الحسن البصري: «ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك». فترك النفس تسعى وراء أهوائها وشهواتها من دون كبحها ووضع ضوابط لها هو الخسارة الحقيقية والضياع، دنيا وآخرة.

نصائح لمواجهة أهواء النفس

• تذكير النفس بالخوف من الله تعالى:

تذكير النفس دوما بالهدف الأساسي لخلق الإنسان، وهو طاعة الله وعبادته، وتعويدها الخوف من الله تعالى وحده ومن عقابه، بتخيل العقاب، والقراءة عما ورد عنه في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وتعويد الشعور برقابة الله تعالى عند قرار ارتكاب المعصية، وجعل الأولوية الخوف من الله لا الخوف على أمور الدنيا كضياع الرزق والربح، أو الخوف على المستقبل، لأن هذه مداخل الشيطان للنفس الأمارة بالسوء لارتكاب المحرمات كالغش والسرقة والربا.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٧٥). لذلك، إن جعلت خوفك من الله تعالى فقط فقد نجوت من أهوائك، لأنه الرادع عن ارتكاب كل معصية وكبيرة.

• استخدم أسلوب العقاب مع نفسك:

حينما تجد نفسك مقبلة فكافئها بما تحب، وإن وجدتها ارتكبت كبيرة أو معصية فعاقبها بفعل طاعة عسى تمحو ما ارتكبت من سيئات، فتصدق بمبلغ من المال، أو صم عدة أيام، أو قم بأعمال تطوعية، أو اقرأ أجزاء من القرآن الكريم، وامنع نفسك من مشاهدة برامج التلفزيون، أو من استخدام الهاتف النقال لفترة.. ولذلك جعل الله عزوجل الكفارات عند ارتكاب الأخطاء من أجل تطهير النفس وعدم التفكير في العودة مرة ثانية للخطأ ذاته.

• دعاء الله تعالى بالعون على مواجهة أهوائك:

لا شيء يعدل دعاء الله تعالى على المساعدة والعون على الطاعة واجتناب المنكرات والمحرمات، فالله وحده قادر على كل شيء، وهو الذي يحب الالتجاء إليه بالدعاء. وتذكر قول سيدنا يوسف في محنته عندما تعرض لفتنة النساء فدعا الله عزوجل لعونه على التخلص من ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)، فاستجاب الله تعالى له وصرف عنه كيد النساء وفتنتهن.

• صمم برنامجا خاصا لرمضان:

صمم برنامجا لك ولأبنائك لمحاربة أهواء النفس في رمضان والاستفادة من نفحات الشهر الكريم وثوابه العظيم. فما أعظم أن تجعل لنفسك برنامجا من الطاعات تقسم به أوقات يومك، فتخصص أوقاتا للصلاة، ولقراءة القرآن الكريم، ولصلاة الليل، ولإعانة الوالدين في أعمالهما، أو دعوتهما والأهل لتناول الإفطار، أو دعوة فقراء أو المشاركة في إطعامهم، أو توزيع الصدقات على دور الأيتام والمحتاجين.

• ابتعد عن المشتتات والملهيات:

فكما ذكرنا «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»، ولذلك طريق الشر سهل ميسر، فلا تجعل مثلا للتلفاز وقتا في جدولك في رمضان، تفرغ لأعمال الخير والطاعات فقط، وابتعد عن كل المشتتات والمحبطات وسالبات الثواب وخاطفات ساعات رمضان الثمينة ودقائقه، فترفع عن السفاهات لأنها لا تفيد في الآخرة.

• رسول الله ﷺ قدوتنا في جهاد النفس:

تذكر أن رسول الله ﷺ قدوتنا في مجاهدة النفس وفعل الطاعات، فكان يشمر ويجتهد في رمضان، ويعتكف في العشر الأواخر، ويوقظ أهله، وتتفطر قدماه وهو يصلي قيام الليل، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بنا نحن ونحن الأحوج للثواب والمغفرة من الله عزوجل؟!

مناظرة بين علم النفس والدين:

أفعالنا بين العاطفة والعقل

عبدالله شريف ومحمد عبدالعزيز
تصوير: رمضان إبراهيم
دار الإعلام العربية - القاهرة



د. مجدي حسين

بالتأكيد نحن لسنا آلات معدومة العاطفة. وفي الوقت ذاته، ليس من المفترض أن نغيب عقولنا وننساق فقط - وباندفاع وطيش - وراء عواطفنا، سواء في قراراتنا أو ردات أفعالنا، فنبل المقصد لا يعفي من خطايا الوسيلة، فليس بالتظاهرات المنفلتة يكون الانتصار لرسول الله ﷺ ضد الإساءات المتكررة، وليس بالتدليل المفسد للأبناء تكون المحبة والرحمة، وما تغيير المنكر رهن بالاندفاع والعاطفة فحسب، بل يجب أن يحتكم إلى ضوابط الشرع والعقل.. وهذا ما نناقشه من خلال هذه المناظرة بين عالمين كريمين: د. مجدي إبراهيم حسين (استشاري الطب النفسي في جامعة عين شمس)، ود. سامي السرساوي (أستاذ الشريعة والقانون وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف).

● كثير من المسلمين تأتي ردود أفعالهم محتكمة إلى العاطفة وليس إلى العقل، ويظهر هذا في مواقف كثيرة، منها اندفاع كثيرين إلى ارتكاب تصرفات غير محسوبة إثر وقائع الرسوم المسيئة المتكررة. ويحدث هذا أيضا حتى في تصرفات الزوجين بعضهما مع بعض.. فلماذا تحتكم معظم تصرفاتنا إلى العاطفة لا إلى العقل؟ وكيف يمكن تصويب ذلك؟

- د. مجدي إبراهيم: التفكير بالعاطفة له أصل تاريخي، فالشعوب العربية، لاسيما التي تطل على البحر المتوسط، تشترك في هذه الصفة مع البلاد الأوروبية التي تقع

د. مجدي إبراهيم: البيئة لها دور في تغليب العاطفة.. وتصويبها مسؤولية العلماء والإعلام

على الضفة الأخرى من البحر، ومن دلائله: الميل إلى الصوت العالي، والمزاج الحاد، والتقلب السريع في المشاعر، وصعوبة إخفاء رد الفعل الذي يكون دائما متسرعا.

والبيئة لها انعكاس على تكوين الشخصية، كما تقول مراجع الطب النفسي والأبحاث التي تدرس العوامل التي تساعد في تكوين الشخصية. فالأماكن الساحلية تجعل الإنسان أكثر ميلا إلى الحرية، ويكون مزاجه متقلبا كموج البحر، بينما من ينشأ في بيئة صحراوية يتسم بالقسوة نوعا ما، ويكون متحفظا في مشاعره.

وتظهر هذه المشاعر عند حدوث موقف مثير أو أمر جلل، فتجد العقل الجمعي ينطلق، والكل يتصرف بمنطق ما تربى عليه وما طبعته البيئة في وجدانه، فمنهم من يميل إلى الاندفاع والعنف من دون قياس العواقب.. وتصويب ذلك يأتي من خلال تفعيل دور الإعلام وصناع القرار وعلماء الدين لتغيير الرأي العام وتوجيهه إلى المسار الصحيح.

- د. سامي السرساوي: القطاع الكبير من المسلمين يغيب عنه الوعي الديني الكامل، وتغلب عليه العاطفة التي ينبغي أن تكون مرتبطة بالكتاب والسنة، فأي عاطفة لا تنضبط بالكتاب والسنة هي وبال على الشخص وعلى الأمة؛ فمن حق المسلم أن يغضب عندما يساء إلى النبي ﷺ، أو أي موضوع ينال ثوابت الإسلام، لكن من دون الاندفاع لهوى عاطفته.

وعلى أهل العلم والفضل أن يحددوا طرق إحكام العقل وضبط العاطفة وسبل الرد على الاستفزازات ردا عمليا، وليس من خلال العنف والتخريب كما يتخيل البعض، إنما رد عملي عن كيفية التزام المسلم بأخلاقيات دينه ونبيه محمد ﷺ؛ ففي زمننا الحالي عشرات التظاهرات في كل اتجاه لكنها لا تغير شيئا على أرض الواقع؛ لأنها غير منضبطة ومقيدة

الإعـلام أكبـر تـأثيرا على عقل الطفل فإما أن يجعله عنيفا دمويا مندفعا أو عاقلا متزنا

بما يرضي الله وبما يرضي رسوله ﷺ.

وعلى الإنسان المسلم أيضا ألا يتصرف إلا بناء على فهم ووعي لواقع الدين، ولا أتحرك بعاطفتي كـ«الدابة التي قتلت صاحبها»، وأن يعلم المسلم أن أي فعل أو رد فعل من دون وعي أو انضباط، لا يرد حقا، ولا يمنع ظلما وعدوانا، إنما تكون له آثار سلبية أكبر. وعلى الإنسان قبل أن يتصرف في أمر عام مراجعة العلماء لضبط ميزان العاطفة والعقل.

دور محوري للإعلام

● هل تلعب مؤسسات الأسرة والتعليم والدين والإعلام دورا «سلبيا» في هذا الاتجاه؟ وكيف يمكن تصويبه؟

– د. مجدي إبراهيم: للأسف بعض المؤسسات تتصرف بمنطق العقل الجمعي، وتخضع للرأي العام، وتفتقر إلى إعلام الأزمة وإدارة الأزمة، فالعالم العربي حتى الآن لا توجد فيه إدارة أزمة في الإعلام.

والأسـرة والإعـلام مـن أكبر وسائل الاتصال تأثيرا في عقل الطفل، وأصبح في يدها الأساس لشخصيته، فتجعله عنيفا دمويا مندفعا أو عاقلا متزنا، فالطفل في السنوات السبع الأولى من عمره يبدأ في تجميع الأفكار والعادات، من الأسرة ومن التلفزيون.

ومما نراه من عنف في التلفزيون ومظاهر الفساد يمكن أن نقول إنه يؤثر بالسلب في عقل الطفل العربي، فهو لا يعرض إلا ما يثير الشباب ويدمر العقل.

– د. سامي السرساوي: أعطني إعلاما لمدة عام أغير لك المجتمع بأسره. والتلفزيون والإذاعة والصحافة لها قدرة هائلة على الحشد والتوجيه.

والإعلام يشكل ضمير الأمة ويوجهها؛ فعندما يعرض الإعلام ما يسيء إلى الدين أو إلى رموزه، أو يعرض الإساءات التي يخترعها الغرب أو شعاراتهم، أو يعرض مثيرات للشباب أو أغاني وأفلاما هابطة ضد الإسلام، فيعتبر دوره سلبي يضر الأمة والدين، لكن عندما يعرض ما يصحح الأخطاء أو يزيل الشبهات أو يقدم ما يفيد الدنيا والدين فتجب تحيته.

بناء الشخصية

● ينساق كثيرون وراء عواطفهم في تقليد ومحاكاة بعض الشخصيات المؤثرة مجتمعيا، سواء كانت شخصيات إيجابية أم سلبية، فنجد البعض يقبلون على التدين الشكلي، والبعض يقلدون المشاهير في كل ما يفعلونه من دون احتكام إلى عقل أو فطرة سليمة.. فما الأسس التي ينبغي زرعها في نفوس أبنائنا ليكونوا قادرين على التحكم في عواطفهم والاستماع إلى صوت العقل؟

– د. مجدي إبراهيم: اتباع الغربيين وتقليدهم والاقتداء بهم ومحاكاة

عندما ترى منكرا فكر أولا واستخدم الحكمة وابتعد عن العنف والانفعال والغضب

طرق لبسهم وكلامهم، شيء موجود وأساسي بين المراهقين. وتشير دراسات علم النفس الاجتماعي



د. سامي السرساوي

إلى أن الشهرة عنصر جذب مهم جدا، والنجاح أيضا عنصر جذب، فكلما حقق الشخص المشهور نجاحا

ينبغي إعطاء الطفل مفاتيح أساسية لبناء شخصيته ونماذج قويمة يأخذ منها وعنها

أكثر، زاد تعلق الناس به ومحاكاة تصرفاته وأفعاله، لذلك على المشاهير التصرف بحذر، والالتزام في كلامهم وسلوكياتهم لأنهم قدوة.

ووضع علم النفس عدة أسباب للتقليد، منها الحاجة إلى الأمان من دون خوض تجارب جديدة، بالإضافة إلى الحاجة إلى قبول الآخرين، فلكي يقبلوني لابد أن أكون شبيها لهم.

ومن الأسباب أيضا الاعتقاد بأن الآخر يمتلك معرفة أوسع، ولديه إنجازات أكبر، فأنا أطمح إلى الوصول إليه.

وجزء كبير من شخصية الطفل يتكون في السنوات السبع الأولى، فينبغي في هذه الفترة إعطاؤه

مفاتيح بناء الشخصية ونماذج يأخذ منها وعنها.

- د. سامي السرساوي: هذا يحتاج إلى تغيير الثقافة الكاملة لدى الأطفال لما قبل الحضانة، والإعلام مسؤول بدرجة كبيرة، حيث إنه رسخ - على مدار عدة سنوات - أن النموذج للمسلم ليس هو الحبيب محمد ﷺ، وليس الصحابة الأطهار أو التابعين، بل الممثل الفلاني والمصارع واللاعب والزعيم الغربي، حتى أصبح ذلك النموذج الراسخ لدى أغلبهم.

الكثير من الشباب أصبح عندما تحدثهم عن مثل هذه الشخصيات يسمع منك، وعندما تحدثه عن الصحابة أو الدين يتجاهل، علما بأنه في الإسلام نماذج وثوابت سبقت الغرب بكثير، حيث إنهم يعتبرون تلاميذ علينا، لكن للأسف هم أخذوا منا ولم يستكينوا، ونحن ركنا ونمنا، حتى إننا نهدم ما قدمه لنا أجدادنا، ونحتاج إلى جهد العلماء وصدق النوايا، ولابد على الشباب أن يقرأوا تاريخهم بصدق.

ضوابط التغيير

• كيف ينبغي أن يكون تعامل الإنسان السوي عندما يرى أمرا منكرا؟

- د. مجدي إبراهيم: الإنسان السوي عليه التفكير أولا قبل التصرف، ولتغيير المنكر لابد من استخدام الحكمة والقول الحسن كما تذكر آيات القرآن الحكيم، وضرورة البعد عن الانفعال والغضب والعنف.

ومن طرق ضبط النفس الوضوء، لأنه يطفئ نار الغضب، بالإضافة إلى تعديل وضع الجسم من القيام إلى الجلوس أو العكس، لتغيير دورة الدم والمخ، والمشي والرياضة واستخدام المسبحة والحديث مع النفس.

● النقاش مع الطفل في جميع تساؤلاته من أبرز ما يؤدي إلى سلامة النفس والعقل

● التعميم من أخطر آفاتنا.. وعلينا تنشئة جيل يفكر ويستنتج ويستنبط ويميز ويقرر

● أعطني إعلاما لمدة عام أغير لك المجتمع بأسره كيفما تشاء

وينبغي عدم الخوض مع الجاهلين، فمن يجادل الجاهل سوف يخسر، لأنه يعتمد على الصوت العالي، بالإضافة إلى أنه لابد من عدم الحديث إلا بحجة وأدلة، فشرط نجاح المناقشة والمناظرة التساوي في العلم والحجة.

- د. سامي السرساوي: الرسول ﷺ رسم الطريق لذلك من خلال الآيات والأحاديث، وقد قال الله عزوجل ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٢١). وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله عزوجل أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

والتغيير باليد ليس لكل الناس، وعندما نرى أمرا مسيئا لابد أن تكون ردات أفعالنا منضبطة بميزان الشرع والعقل. والتغيير باليد لمن عنده آلياتها، فالمسلم يستطيع التغيير في منزله مع أولاده، لكن لا يستطيع أن يغير في بيت جيرانه، لكني أملك النصيحة لهم، والحث على تجنب المنكر، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران:١٥٩). فينبغي عند تغيير المنكر بإحدى الطرق الثلاثة أن تكون بأسلوب حسن، قال الله جل وعلا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥)، وإذا علمت أن هذا الشخص، الذي تريد تغيير المنكر لديه، رجل عصبي عنيف، فينبغي أن تلتزم التغيير بالقلب وترفض المنكر، أما الاندفاع خلف العاطفة فإنك تدمر أكثر مما تصلح.

نصائح للشباب

• الشباب على وجه الخصوص سريعو التقلب المزاجي.. فبسرعة يحبون، وبالسرعة نفسها يكرهون، فما النصائح التي يمكن أن تقدم لهم في هذا الخصوص؟

- د. مجدي إبراهيم: انتشار الأفلام الرومانسية والأغاني العاطفية والكلمات المبتذلة، أثر على تحكم الشباب في عواطفهم وأمزجتهم. وتقلب المزاج والاندفاعية موجودان بنسبة كبيرة في فترة الشباب، لكن وجود هدف واضح لهم مع بعض النجاحات يجعلهم يفكرون بنضوج أكثر.

التركيز في صنع نجاح هو الشيء الذي ينبغي أن يسعى إليه الشاب، فمدارس علم النفس تشير إلى أن الطفل الذي يربى على التنظيم والترتيب وضبط النفس يمر بمرحلة الشباب في هدوء وعدم تخبط.

• تربويا، ينساق بعض الآباء

في تدليل أبنائهم بلا حدود تحت سقف عاطفة الأبوة أو الأمومة، متجاهلين ما قد يكون لذلك التدليل الزائد من آثار سلبية، فما الطريقة السليمة للمزج بين العاطفة وحسن التنشئة؟

– د. مجدي إبراهيم: أكدت مدارس علم النفس الحديثة ضرورة رصد تطور السلوك عند الأطفال.. والعاطفة التي وضعها الله في قلبي الأم والأب لا يمكن منعها، لكن هناك ضوابط لها، فينبغي أن يكون مع الحب والتدليل حزم وحسم بطريقة تبتعد عن العنف.

وينبغي في حال التربية الحذر من عدم الوفاء بالوعد، والعنف، والانشغال، والسب، والضرب، وعدم الالتزام بتعاليم الشرع.

ولابد من خلق نماذج في خيال الطفل عن مدى أهمية الإيثار والبعد عن الأنانية، وافتعال مواقف تعليمية للطفل للسيطرة على النفس وكيفية القيادة، وعدم التحكم في اختيارات ملابسه وأكله.

والنقاش مع الطفل في جميع تساؤلاته من أبرز ما يؤدي إلى سلامة النفس والعقل، لأن هذه الإجابات هي التي تشكل تفكيره القادم، ومن المهم وضع الإجابات التي تجعل منه طفلا مسؤولا غير مدلل.

– د. سامي السرساوي: أوصانا الله بحفظ أمانة الأسرة والأبناء في نداء قال فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال:٢٧-٢٨)، فتربية الأبناء ينبغي أن تكون على الدين الذي أساسه الرحمة والعاطفة، ففي عهد صحابة رسول الله ﷺ كان من هم دون العشرين يقودون جيوشا نتيجة التربية على الإسلام الصحيح، كما حدث في شهر صفر سنة ١١هـ عندما جهز النبي ﷺ، جيشا ضم كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وأمر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وكان عمره حينها يقارب ١٨ عاما، وأمره أن

عندما يستشعر الشاب عظمة الله في قلبه تنضبط أفكاره وعواطفه

يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

فمن هنا، ينبغي ضبط ميزان العاطفة والتنشئة لدى الأطفال بتربيتهم على نصرة الحق والمظلوم، وحب الناس، والبعد عن الأنانية، وقول الصدق، وإطعام الطعام، وقص سيرة النبي ﷺ والصحابة الكرام عليهم، وضبط ما يشاهدونه على التلفزيون.

ميزان التقييم

• على المستوى العام اعتاد كثيرون أن يطلقوا أحكاما عامة بصفة إجمالية.. فمثلا يقول البعض هذا النظام فاشل، أو الغرب يضطهد المسلمين، أو التعليم الديني سبب انتشار التطرف.. فكيف يمكن ضبط ميزان التقييم ليكون منصفا ولا يطلق أحكاما لا تحتكم إلى العقل؟

– د. مجدي إبراهيم: يعتبر التعميم أخطر آفة وعيب من عيوب التفكير، وللأسف التعميم ناتج عن أسلوب التعليم الذي يعتمد على التلقين والحفظ، بجانب أسلوب التربية الذي يعتمد على عدم المناقشة والجدل.

وكلما نشأ الشخص في جو ديموقراطي وتعليم جيد، كانت قدرته على الاستنتاج والاستنباط أقوى، وتزداد قدرته على التمييز وإطلاق الحكم الصائب على الأشياء.

وعقل الإنسان عندما يرى شخصا آخر أو فكرة جديدة يبدأ في فحصها، فإذا اتفقت مع ما تربى عليه من عادات وتقاليد وتنشئة، فإنه يصنفها لديه في مراتب ودرجات، وربما يطلق عليها حكما بالرفض أو القبول، لذلك من المفترض أن تكون هناك تربية سليمة على كيفية التعبير وتقدير الأشياء.

ويلعب الخوف والوسواس القهري وغيرهما من أمراض النفس دورا في إطلاق الأحكام، فبعض الذين نشأوا على الخوف من الغير ومن التجديد والابتكار يرفضون أي شيء آخر، فضلا عن إطلاق أحكام غير دقيقة قبل التجربة وقبل الحصول على معلومات كاملة.

– د. سامي السرساوي: إذا أسند الأمر إلى كل متخصص انضبطت الحياة، ولكن تنطلق الفتاوى ممن هو غير أهل لذلك، وينبغي ألا يتكلم أي شخص أو يطلق الأحكام جزافا، إلا إذا كان لديه علم في هذا الاتجاه، وجاء في الحديث الشريف أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن موعد قيام الساعة، فقال له رسول الله ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (رواه البخاري).

ومن أبرز الأسباب التي أدت إلى إطلاق الأحكام غير الصحيحة قلة الثقافة والمعرفة، وعدم الارتباط بأرض الواقع.

الضوابط الأخلاقية لمنظومات الهندسة الطبية

د. شيرين فراج
أستاذة الهندسة الطبية - مصر

الهندسة الطبية، هي العلم المعني بتطوير وتصميم الأجهزة والمستلزمات الطبية، وكذلك في تقانات تحليل الإشارات والذكاء الاصطناعي، وتجدر هنا الإشارة إلى فروع وتطبيقات الهندسة الحيوية الطبية، التي أدت إلى الثورة العلمية الطبية الحديثة في التشخيص والعلاج.

فما قبل عام ١٩٠٠م كان الطب يعتمد على الطبيب وحقيبته الصغيرة السوداء ومهاراته وحسه الإكلينيكي، ثم بدأ التحول في المجال الطبي والثورة في التشخيص والعلاج من التطور السريع للعلوم التطبيقية التي أفرزت المجالات البينية، ولنذكر هنا فروع الهندسة الحيوية الطبية وتطبيقاتها، وهي:

١ - الميكانيكا الحيوية.
٢ - التحليل الطبي والبيولوجي.
٣ - المجسات الحيوية.
٤ - الهندسة الإكلينيكية.
٥ - المعلوماتية الطبية والحيوية.
٦ - هندسة التأهيل.
٧ - المحاكاة الفسيولوجية.
٨ - النانو تكنولوجي الحيوية.
٩ - الأجهزة الطبية.
١٠ - الهندسة العصبية.
١١ - هندسة الأنسجة.
١٢ - الهندسة الحيوية.
١٣ - المواد الحيوية.
١٤ - التصوير الطبي.
١٥ - وأخيرا الأجهزة المساعدة والأعضاء الصناعية.

ومما سبق يتضح كم يتداخل مجال الهندسة الحيوية الطبية في المجال الطبي، وكم يعتمد التشخيص والعلاج الطبي على هذا المجال في إيجاد حلول وعلاجات لأمراض مستعصية من أجل رفاهية الحياة والبشرية والإنسان.

ولكن في خضم كل هذه المزايا التي من المتصور أنها تعود على الناس بالنفع وحياة وصحة أفضل، تظهر أخلاقيات الممارسة والتطبيق والبحث في هذا المجال الذي لو أسيء استخدامه قد يصبح مضرا بالبشرية، فمجال الهندسة الطبية يستخدم كل التقانات الهندسية، خصوصا ذات التكنولوجيا العالية والإلكترونيات والميكانيكا.

وقد أصدر الاتحاد الأوروبي توجيهات وضوابط جديدة لاختصار استخدام جهاز الرنين المغناطيسي(٢٠٠٦) نتيجة لمخاطر الإشعاع الكهرومغناطيسي.

بالإضافة إلى ذلك التطور لا ينتهي عادة، فجهاز الرنين المغناطيسي خضع لعدة تطورات، فهناك الرنين



المغناطيسي المفتوح الذي يصلح لحالات معينة ولا يصلح لأخرى. والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كانت حالة المريض لا تستدعي القيام بالفحص بجهاز رنين مغناطيسي قوي عالي المغناطيسية، فهل إذن من الأخلاق أن أعرض المريض للفحص بجهاز رنين مغناطيسي عالي المغناطيسية لأي سبب آخر غير احتياجه الفعلي للفحص؟ وهل من واجب الطبيب أن يوضح احتياج المريض الفعلي للفحص وبأي نوع من الأجهزة وللمريض حق الاختيار؟

الموجات فوق الصوتية

ولننطلق إلى مثل آخر وهو كثرة استخدام الفحص بالموجات فوق الصوتية، خصوصا أثناء الحمل، وإغفال الكثير من الأطباء وعدم وعي المرضى بأن ذلك قد يكون مضرا للجنين، حيث إن هناك أبحاثا كثيرة أثبتت إمكانية الضرر، مثل التأثير على الجهاز السمعي للأجنة، ووجد أن الطفل الذكر الذي يتعرض إلى الموجات فوق الصوتية كثيرا في بطن أمه يكون أعسر (أي يستخدم اليد اليسرى)، ولم يعرف حتى الآن نوعية الضرر الذي تسببه تلك الموجات على المخ، وكذلك نسبة الصفراء الوليدية الفسيولوجية، وذلك لأن تلك الموجات تقوم برفع درجة حرارة الخلية. فمن حق المريض أن يعلم مدى الضرر الواقع



عليه، خصوصا مع انتشار الموجات ثلاثية الأبعاد، وزيادة نسبة الإشعاع بها من دون أن تكون لها فائدة إكلينيكية. ومن هنا يجب أن يتم استخدام تلك الفحوصات تحت ضرورة طبية ملحة، وبعد الفحص الإكلينيكي الذي يحدد أن هناك مشكلة ما يجب التأكد منها، ولا تكون تلك الفحوصات عشوائية أو لرغبة الأم في رؤية جنينها.

وهناك محددا أمان لعمل أجهزة الموجات فوق الصوتية، التي من حق المريض أن يعلم مدى الجرعة الإشعاعية التي يتعرض لها، وهما:

أ - المعامل الميكانيكي، وهو علامة الضرر التجويفي.

ب - المعامل الحراري، وهو علامة الضرر الحراري على الأنسجة.

فالتقانات الحديثة يجب أن يكون لها بروتوكول خاص بها، والمريض يجهل الضرر الذي قد يلحق به، وقد يجهله الطبيب أحيانا أيضا. فمع التطور الطبي الهائل ومع الاتجاه إلى التخصص الدقيق نجد أن سلوك الطبيب اختلف ولم يعد حكيم الماضي، وأصبح الاعتماد في التشخيص والعلاج على استخدامات الأجهزة الطبية، وقد يقوم مثلا طبيب أطفال بطلب أشعة رنين مغناطيسي لطفل وقد لا يحتاج الطفل إليها فعليا، فعلى الطبيب المتخصص في الأشعة، وهو الأكثر دراية باستخدام ذلك الجهاز، مناقشة ذلك مع طبيب الأطفال لرؤية مدى جدوى ذلك الفحص مقابل ما سيتعرض له الطفل من الإشعاع. ومن الثابت علميا أن الطول الموجي لإشعاع الرنين المغناطيسي يتوافق مع طول الطفل، مما يعظم الضرر على الطفل.

ولنسرد بعض الأضرار التي قد تصيب الإنسان من جراء التعرض للموجات الكهرومغناطيسية والإشعاع غير المؤين عموما:

١ - الضرر الناتج من الديناميكية الكهربية للمجال المغناطيسي.

٢ - الضرر الناتج من المغناطيسية الميكانيكية للمجال المغناطيسي.

٣ - الضرر الناتج من التفاعل على مستوى الذرة والنواة.

وتلك الأضرار تؤثر على سريان الدم وتأخير السريان في إحداث التدفق وزيادة في ضغط الدم والتأثير على النمو والإنجاب وعمليات نمو الجنين والسلوك والجهاز العصبي المركزي. بالإضافة إلى تأثير موجات الراديو في رفع درجة حرارة الخلايا التي قد تؤدي إلى الأمراض السرطانية، والصداع الناتج من زيادة وجود السيراتونين في الدم، والتأثير على إفراز هرمون الميلاتونين الذي له فائدة كبرى في تخليص الجسم من الشوارد الحرة، التي أظهرت الأبحاث أن زيادتها سبب الأمراض السرطانية.

فمن أخلاقيات التطبيق أن يعلم كثافة القوى ومعامل الامتصاص النوعي للإشعاع غير المؤين عند التعرض إلى أي من تطبيقات هذا الإشعاع في الطب والحياة العادية، مثل أجهزة التليفونات المحمولة وأبراج البث الإذاعي والتليفزيوني وأجهزة التحكم عن بعد وغيرها من التطبيقات التي لا تخلو منها حياتنا. إذن لا يخلو أي تطبيق من الضرر، ولتعظيم فائدته يجب استخدامه الاستخدام الصحيح غير مدفوع بضعف الحس الإكلينيكي للطبيب.

أجهزة الإشعاع المؤين

من أجهزة الإشعاع المؤين أجهزة الجاما كاميرا، التي تستخدم في فحوصات القلب وغيره. أحيانا كثيرة يتناسى الطبيب ويجهل المريض أنه يحقن بمواد مشعة، وأنه يصبح منذ ذلك الوقت وطيلة حياته مشعا. صحيح أن فترة نصف العمر للمادة، التي تختلف من فحص إلى آخر، تقلل من نسبة الإشعاع، لكنها لن تنتهي، أي إن الإشعاع الناتج من المريض سيقل ولكنه لن ينتهي أبدا.

ومع تطور أجهزة الجاما كاميرا ظهرت أجهزة إشعاع البوزيترون المقطعي، والتي تستخدم في دراسة الأيض، وبالتالي تحديد التشخيص بناء على تغيرات الأيض الناتج من الأمراض السرطانية ومرض باركنسن وفحوصات القلب. المشكلة فقط تكمن في أن هذا الجهاز يستخدم مواد مشعة ذات فترة نصف عمر طويلة بالنسبة إلى الفحوصات المستخدمة في الجاما كاميرا.

وبالتالي، فإن تحديد وطلب مثل هذا الفحص يجب أن يكون تحت

ضرورة ملحة تحتاج إليه لا أن يكون عشوائيا.

الأشعة السينية

وننطلق كذلك إلى فحوصات الأشعة السينية، إلى حق المريض في معرفة الجرعة الإشعاعية التي سيتعرض لها، فمثلا أجهزة الأشعة المقطعية تصدر نسبة إشعاع كبيرة، فهي تعرض المريض إلى جرعة من ١٠-٢٥ مللي سيفرت (وحدة القياس)، وهي جرعة كبيرة قد تؤدي إلى زيادة نسبة التعرض إلى مرض السرطان. وفي حين أن العالم الآن يتجه إلى تقليل الجرعة الإشعاعية التي يتعرض لها المريض، فتم اختراع أجهزة الأشعة المقطعية الحلزونية، ثم الآن الأجهزة المقطعية المخروطية، بالإضافة إلى فائدتها الإكلينيكية فإنها تخفض نسبة الإشعاع الذي يتعرض له المريض بنسبة ٩٧ في المئة، فإذن من حق المريض أن يعلم ذلك، ويطلب ذلك الفحص إذا كان قادرا ماديا للتقليل من الجرعة الإشعاعية.

والآن هناك أجهزة الأشعة السينية، والتي تعرض المريض إلى جرعة إشعاعية لا تتجاوز مقدار المرور من البوابات الإلكترونية، ولكن لارتفاع ثمنها، ولأن الإقلال من الإشعاع الذي يتعرض له المريض لم يكن أبدا في بؤرة اهتمام الطبيب، فالمهم بالنسبة إلى الطبيب هو كتابة العلاج للمريض وتشخيصه، أما حساب مدى ما يتعرض له المريض من الإشعاع وأثر ذلك على حياته بعد ذلك فهو أمر غير مدرك.

التحليل الطبي

التحليل الطبي هو أحد أساسيات التشخيص السليم، وأهم ركائزه «كيت الاختبار»، والتي تحتوي على كيماويات متغيرة القدرة على الثبات، فهناك أكثر من مؤثر فيها وهي: الزمن، نوعية الكيماويات، عدد مرات الاستخدام بعد الفتح. وبناء على «كيت اختبار» تعطى النتائج، إذن فالتأكد من استخدام أفضل الكيماويات وأفضل المنتجات عالميا، هو أمر أساسي لا يقبل المناقشة، والذي يؤثر فعليا على التشخيص السليم، ولكن ماذا يحدث نتيجة للطلب على الأرخص؟ بدأت الشركات تتنافس في استخدام كيماويات فترة ثباتها قليلة ونتائجها غير مؤكدة. ولرخص ثمنها انتشرت، وانتشر معها عدم دقة نتائج المعامل، والتي قد يجهل المريض والطبيب أحيانا أسباب عدم دقة النتائج، وانتشر معها فكر أن يتم إجراء الاختبار المعملي في أكثر من معمل للتأكد من النتائج. إذن، أليس من أساسيات الأخلاق استخدام «الكيت» التي تمت معايرتها ولها شهادات جودة وفترة ثبات طويلة، حتى ولو كان ثمنها مرتفعا؛ لأن إجراء التحليل مرة بكل تأكيد أوفر من إجرائه عدة مرات للوصول إلى نتيجة سليمة؟!

بالإضافة إلى احتياج أجهزة المعامل إلى المعايرة حتى تعطي نتائج سليمة.

جهاز التنفس الصناعي

ومع تطور جهاز التنفس الصناعي، الذي له ثلاث طرق للعمل:

متحكم كليا، وهنا هو يتحكم كليا في تنفس المريض، ولا يقوم باستقبال أو التعامل مع أي محاولة للمريض في التنفس، وبالتالي يتم برمجته على دورة لضخ الهواء وسحبه من الرئتين، وعادة يكون المريض في حالة لا يستطيع التنفس فيها.

مساعد للمريض، وفي تلك الحالة يستطيع المريض التنفس، ولكنه لا يأخذ القسط المحتاج إليه من الهواء، فيعمل الجهاز في تلك الحالة على ضخ كمية مناسبة من الهواء، في تلك الحالة يجمع الجهاز طريقتي التحكم والمساعدة، فتتم برمجته بالزمن، إذا فشل المريض في سحب الهواء يقوم الجهاز بضخ الهواء كليا.

ومع تطور رسم المخ الكهربائي وطرق تحليل الإشارات، ظهرت مشكلات فقهية ودينية، مثلا في مجال نقل الأعضاء وزراعتها، لاسيما في حالات موت جذع المخ وفي حالة المرضى الذين استعصى شفاؤهم.

أجهزة المناظير

أجهزة المناظير، التي أصبحت لا غنى عنها، لكن لارتفاع ثمنها وحيث إن تلك الأجهزة في أغلب الأحيان لا يتم تعقيمها، لأن استخدام الكيماويات ومواد التعقيم يسبب لها تآكلا، وفي الوقت نفسه يقلل من عمرها الافتراضي، ويقوم الأطباء في أفضل الظروف بتطهيرها، وهناك شتان بين التطهير والتعقيم، فأصبحت أحد أسباب نقل العدوى، خصوصا الالتهاب الكبدي الوبائي، فأصبحت تلك الثورة التكنولوجية الحديثة، والتي ساهمت بدور فعال في مجال التشخيص والعلاج، أحد مسببات الأمراض المستعصية. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الأمان في إجراء أي تدخل طبي، وإن كان مكلفا أفضل، أم أن ضعف الأخلاق والمبادئ والرغبة في التربح أصبحت القيم السائدة ولو على حساب الآخرين؟

وقائع لا أخلاقية من الحياة العملية

علم الاجتماع هو علم يدرس السلوكيات، ولكي نكون أكثر دقة، عند تصنيع أي جهاز طبي يقوم المصنع بوضع إرشادات عامة ومهمة للاستخدام، وقد لا تتصور كيفية تفتق ذهن بعض المستخدمين عن استخدامات لا أخلاقية، وقد تكون مضرة للمرضى، فهناك بعض السلوكيات الناتجة من شعوب الدول النامية مدمرة، فهي تسلك منهج التوفير، والتواكل، والإهمال واللامبالاة، التي مؤكدا تصيب



المريض بالضرر، وعادة ليس هناك قانون أو حكم رادع لتلك السلوكيات، التي أحيانا كثيرة تودي بحياة البشر. وسأقوم بسرد قصص حقيقية واقعية كنت شاهدا عليها تثبت مدى أهمية الدعوة إلى التمسك بالأخلاق والقيم ومبادئنا الدينية.

في صرح طبي كبير، وفي وحدة غسل الكلى، كان جهاز غسل الكلى به عطل في وحدة التسخين الخاصة بالدم (حيث تجب إعادة تسخين الدم لدرجة حرارة الجسم قبل دخوله إلى الجسم مرة أخرى، حيث إن خروج الدم من الجسم يفقده لدرجة حرارته)، فبدلا من أن يغلق العمل على الجهاز تم العمل به، ووضع مريض غسل الكلى عليه، مع تفتق ذهن العاملين على الوحدة بحل، وهو أن يقوموا بإحضار مياه دافئة لوضع أنابيب الدم قبل دخولها الجسم لتسخين الدم مرة أخرى.

وهنا حدثت المأساة، قامت الممرضة بإحضار مياه بدرجة حرارة الغليان، وعند وضع أنابيب الدم بها ودخول الدم إلى المريض مرة أخرى توفي المريض، فقام الطبيب في ذلك الوقت بنهي الممرضة عن فعل ذلك مرة أخرى فقط!

ووحدة غسل الكلى هي وحدة على قدر أهميتها للمرضى وقد تكون حياتهم متوقفة عليها، على قدر ما تكون سببا لكوارث كثيرة، فهي تنقل العدوى، وقد حدث ذلك كثيرا، ولايزال يحدث يوميا، فهي قد تكون ناقلة لعدوى مرض الإيدز والالتهاب الكبدي الوبائي، حيث إن فلتر الدماء الذي يجب ان يعدم بعد كل استخدام، نتيجة لضعف الأخلاقيات وبغرض تعظيم المكسب المادي، يتم استخدامه أكثر من مرة، مما يؤدي إلى انتشار العدوى! أترون معي، يدفع المريض ثمن العلاج ويعاد استخدام الفلتر أكثر من مرة، ويؤدي إلى إصابته بأمراض قاتلة نتيجة لانعدام الضمير.

ولنقف قليلا عند الضمير. فما هو الضمير؟ وما هي تلك الرقابة على النفس؟ وأين يقع الضمير؟ وما معنى غياب الضمير وضرر ذلك على البشرية؟ وما علاقة الضمير بالخطأ؟

الضمير هو وازع النفس، ومستلهم الهداية من الروح، وهو العقل الذي يفرق بين الخير والشر، هو المسؤول عن محاسبة النفس على الخطأ وفقا للمثل الدينية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٧-١٠). وإذا غاب الضمير والوازع فجرت النفس، وانتشر الفساد في الأرض.

ووحدة غسل الكلى يجب أن تصاحبها وحدة معالجة مياه ذات خاصية معينة، حيث إن تلك المياه لها دور في عملية تنقية الكلى، فمثلا إذا احتوت المياه المستخدمة في أجهزة الغسل الكلوي على كالسيوم أو مغنسيوم أعلى من الحدود المطلوبة، فإن المريض سيعاني من الغثيان والتشنج والقيء، وإذا احتوت على نسبة عالية من النيترات فسيصاب المريض بالأنيميا الدموية، وإذا احتوت على نسبة عالية من الكبريتات فإنها قد تؤدي أحيانا إلى الوفاة. وكانت لي دراسة عن نوعية تلك المياه، وتبين تلك الدراسة أن وحدة معالجة المياه في كثير من الأماكن لا تؤدي دورها، فإما يتم تحويل المياه من دون المرور على بعض الفلاتر، أو أن الفلاتر تهالكت حتى لم تعد تؤدي دورها في التنقية، مما يؤدي إلى أن العديد من المرضى يصابون بالغثيان والدوخة، ونجد الطبيب يعالج ذلك بإعطائهم محلولا ملحيا لمحاولة ضبط كيمياء الدم من دون التنبه إلى أصل المشكلة.

في العديد من المراكز الطبية، التي قد تكون باهظة الثمن في تقديم العلاج، تتم إعادة استخدام أدوات، أو مستلزمات ذات استعمال مرة واحدة، من إبر أخذ العينات وبعض من المستلزمات الطبية، مثل السلك المرشد، القسطرات الباهظة الثمن، مثل القسطرات البالونية وقسطرات الأوعية الدموية، قفازات، وغيرها.. ويعللون ذلك بأنهم يقومون بتطهيرها عن طريق استخدام بعض المطهرات، أو تعقيمها في أفران التعقيم، وهو أمر بالغ الخطورة لسببين: الأول أن تلك الأشياء مصممة على ألا يتم تعقيمها مرة أخرى، فإذا ما أدخلت في وحدات تعقيم فسيتغير تركيبها

الكيميائي، وستخرج مواد ضارة جدا بالصحة، وعند استخدامها للمرضى ستكون جالبة للمرض. والثاني في حالة استخدام مواد مطهرة لتطهيرها فإنها كذلك ستقوم بإخراج مواد ضارة بالإضافة إلى نقلها للعدوى، حيث إن التطهير ليس إلا الإقلال من جزيئات الميكروب والفيروس، ولكنه ليس تعقيما.

وبالنسبة إلى المستلزمات أو الآلات التي تعقم في كثير من الأحيان، يتم إغفال عملية التعقيم والاكتفاء بالتطهير، حيث إن التعقيم هو عملية معقدة ومكلفة، وهذا الوضع في معظم العيادات الطبية وفي كثير من المراكز الطبية التي لا يوجد لديها جهاز تعقيم بالبخار وغير قادرة على القيام بالتعقيم.

وعملية التعقيم تبدأ من غسل الأجهزة أو الآلات بالماء والصابون جيدا، وإزالة آثار الدماء، ثم تركها لفترة في مواد مطهرة، وبعد ذلك يتم تغليف تلك الآلات بغلاف معين به علامة يتغير لونها عند التعقيم، ثم إدخال تلك الآلات في جهاز التعقيم بالبخار في دورة كاملة، ثم التأكد بعد ذلك من كفاءة التعقيم بتغير لون العلامة، وأخذ عينات وتحليلها للتأكد من كفاءة التعقيم.

وفي كثير من المستشفيات، خصوصا أجهزة الشفط لا يتم تغيير الأنابيب الخاصة بها، فالأطفال عند الولادة يتم التشفيط لهم ولكن لا يتم تغيير الأنبوبة الخاصة بالجهاز! وفي العمليات الجراحية يستخدم كذلك الشفاط في كثير من الأحيان من دون تغيير أنبوب الشفط، مؤذنا بانتقال العدوى.

وقد حدث يوما أن انتقلت عدوى إلى كل من أجروا جراحات في خلال أسبوعين في وحدة عمليات معينة، وعند البحث وجد أن بعض المستلزمات الجراحية يعاد استخدامها بعد وضعها في محلول التطهير «سايداكس»، وأن المحلول قد انتهت صلاحيته، ومع ذلك يعاد استخدامه!

قسطرة تشخيصية

ولننتقل إلى مرتبة أخرى من اللاأخلاقيات، منذ حوالي خمسة عشر عاما بدأ العالم في محاولة اختراع أو إضافات لأجهزة لتفادي القيام بالقسطرة التشخيصية لمرضى القلب، فبدأ اختراع منظار الموجات فوق الصوتية للقيام بفحوصات القلب بدلا من القسطرة التشخيصية، ثم أخيرا القيام بإضافة مقطوعات معينة لجهاز الأشعة المقطعية حتى يصل إلى ٣٠٠ مقطع، وهو الذي يمكن من فحص القلب وتفادي عملية القسطرة التشخيصية. لكن تلك الأجهزة الحديثة، واستخدامها بكل تأكيد أفضل للمريض من القيام بإجراء القسطرة التشخيصية وما لها كذلك من مخاطر، سيقلل من عمل السادة أطباء القلب الذين يقومون بعمل القسطرة التشخيصية، وهو دخل بكل تأكيد لا بأس به لهم، فيرفضون إخبار المريض بتلك الأجهزة الحديثة، وكذلك يشككون في كفاءتها. ولقد شاهدت مريضا بجلطة في القلب أصر جميع أطباء القلب الذين يقومون بإجراء القسطرة التشخيصية والعلاجية على القيام بإجرائها له ورفض استخدام الأشعة المقطعية الحديثة، وحين أصر المريض على إجرائها كانت النتيجة عجيبة، فهو لا يحتاج لا إلى قسطرة تشخيصية ولا إلى تركيب دعامات، فهو لا يحتاج إلى أكثر من علاج دوائي! إذن ما هو حق المريض في استخدام أكثر التقنيات حداثة لتوفير مشقة إجراء العمليات؟ وما هو حق المريض في الحصول على أفضل علاج من دون الزج به في استفادة شخصية لآخرين؟ وما هو حق المريض في معرفة الأخطار المتوقعة لاستخدام علاج معين؟

التقدم العلمي الآن أتاح معرفة إذا كان المريض يحتاج إلى قسطرة علاجية أم لا من دون الزج به في قسطرة تشخيصية، وبناء عليه، يتم تجهيز نوعية العلاج الذي يحتاج إليه من دعامات أو قسطرات بالونية بالمقاس الذي يحتاج إليه للقيام بالقسطرة العلاجية إذا لزم الأمر، أما أن أقوم بعمل القسطرة التشخيصية لتحديد المشكلة ثم البدء في تجهيز احتياجات المريض إذا لزم له علاج في الجلسة نفسها فهو أمر لم يعد مقبولا.

هشاشة العظام

هشاشة العظام أصبحت أمرا شائعا عند كبار السن، لاسيما السيدات، ومن دون تفكير يقوم الطبيب بكتابة علاجات الكالسيوم من دون النظر والتدقيق في سبب الهشاشة، ومن دون إعلام المريض بأن علاج الكالسيوم وتناوله لفترات طويلة يؤدي إلى أن يترسب على الشرايين مسببا تصلب الشرايين، ومشاكل في القلب، بالإضافة إلى أضرار كثيرة أخرى. وقد اكتشف العلماء أن سبب الهشاشة ليس نقص الكالسيوم كما يزعمون في أغلب الأحيان، وأن السبب في الهشاشة هو نقص مادة السيلينيوم. فقد ظهر أن أغلب المصابين بالهشاشة لديهم، بالإضافة إلى ذلك، الأنيميا، فوجد أن السبب وراء ذلك هو أن العامل الرابط لإدخال الكالسيوم والحديد في الخلايا لا يعمل بكفاءة، وذلك لنقص مادة السيلينيوم. إذن، قد يكون العلاج لمرضى الهشاشة هو تناول بعض الأغذية الخضراء الغنية بالسيلينيوم مثل الجرجير...إلخ.

مما سبق يتضح أن العديد من مشكلات الممارسة اللاأخلاقية عند استخدام منظومات الهندسة الطبية تكمن في الآتي:

١ - أن يجهل الطبيب المنظومة التي يعمل عليها، ولا يحيط علما بجميع جوانب الضرر أو الضرر المحتمل، والفائدة من استخدامها، وذلك يعود

إلى عدم دراسة الطبيب لعلم الأجهزة الطبية. وفي تلك الحالة يكون الطبيب مظلوما والمريض كذلك لوقوع الضرر عليه عن غير قصد.

وإنني أدعو إلى تضمين دراسة مبسطة عن علوم الأجهزة الطبية في مقررات دراسة الطب أسوة بما هو متبع في كلية الهندسة لدراسة الهندسة الطبية، فهي تشمل دراسة العلوم الطبية الأساسية من تشريح وعلم وظائف الأعضاء وكيمياء حيوية... إلخ.

٢ - أن يعتقد الطبيب أن كثرة الفحوصات للتشخيص هي أفضل من قلتها، لذلك لرغبته في الدفع بجميع الأسباب التي قد تكون مسببة للعارض. وهنا نجد أن هناك سببين لذلك: أولهما: ضعف الحس الإكلينيكي للطبيب، والذي يكون دائما أساس التشخيص. والثاني: هو البند الأول وعدم علم الطبيب بالأضرار المحتملة نتيجة التعرض لمنظومة طبية في غير احتياج.

٣ - المصالح الشخصية والإهمال هي الآن من أشد الممارسات اللاأخلاقية، فارتفاع ثمن الأجهزة الطبية وتطورها السريع جعلا من بعض الذين يقتنونها يستخدمونها أحيانا من دون ضرورة طبية، وذلك للاستثمار، أو لا يقومون بإجراءات الأمان عند الاستخدام، وذلك أيضا بهدف التربح.

٤ - سرعة التطور في الأجهزة الطبية ومحاولات العالم لاختراع الأجهزة التي تعظم الفائدة وتقلل وتعدم الضرر المحتمل أو الناتج، ومن ذلك كما سبق أن ذكرنا أجهزة الأشعة المقطعية المخروطية، والتي تعتبر الآن هي الثورة في عالم الإشعاعات، فهي تعطي صورة دقيقة للأنسجة، وهو أمر لم يكن قائما من قبل، بالإضافة إلى أن نسبة الإشعاع الصادر منها تقل عن مثيلتها بـ ٩٧ في المئة. لكن ماذا فعلت مجتمعاتنا، فهي لم تستطع توفير مثل هذا التشخيص الباهظ الثمن، ويظل حتى الآن استخدام الأجهزة عالية الإشعاع، ومسألة حقوق الإنسان من التعرض لمخاطر الإشعاع وحقه في المعرفة بمختلف أنواع التشخيص والعلاج ليست في بؤرة الاهتمام.

٥ - في مجتمعاتنا العربية يغفل حق المريض في المعرفة، في حين أن الدول الأوروبية وغيرها تنص على حق المريض في معرفة مرضه، وشرح جميع أركان العلاج وما قد يتعرض له من ضرر محتمل أو أعراض جانبية، وهذا يساهم جديا في نجاح العلاج.

فعلينا احترام حرية مخاطرة الإنسان بصحته وحياته من أجل تحقيق منفعة خاصة.

٦ - وأخيرا علينا أيضا أن نعلم أن عدم معرفة الآن الأضرار التي قد يسببها استخدام الأجهزة الطبية الحديثة لا يعني عدم وجود أضرار لها، فعند اختراع أي جهاز جديد يعتبر هو الأكثر أمانا؛ لعدم معرفتنا ربما بأضرار له قد تكشف عنها الأيام. فالآن يجب أن يقدم للمريض أفضل علاج ناجع، وتستخدم في التشخيص أفضل الأجهزة الحديثة، إن كان المريض في احتياج لها، ولكن على الطبيب أن يحترس من جهة عدم التحدث عن الأمان الكامل لهذا التطبيق، ولأدلل على ذلك ففي أوائل القرن الماضي كان الطب يجيز استخدام الأشعة السينية في الكشف على المرأة الحامل، ولكن ماذا عن الآن؟ لقد أصبح مجرما استخدام فحوصات الأشعة السينية في الكشف على الأجنة، واستبدلت أجهزة الموجات فوق الصوتية بها، وهي بكل تأكيد أكثر أمانا من أجهزة الأشعة السينية في حالة استخدامها المقنن.

٧ - إن عدم تخصيص أبنية خاصة لخدمات الرعاية الصحية والعلاجية يؤدي أحيانا إلى تلوث البيئة المحيطة، خصوصا مراكز الأشعة بأنواعها ومراكز الغسل الكلوي.

وفي النهاية، إن من أخلاقيات استخدام الأجهزة الطبية في العلاج ألا تكون سببا في انتشار العدوى، أو الإساءة إلى كرامة الإنسان، أو أذى يصيب الجسم مع استقلال الجسم البشري أو ضرر قد يصيب الإنسان بسبب سوء الاستخدام، وألا تكون الفائدة المرجوة أقل من الضرر الذي قد يصيب الجسم البشري، مع المساواة في تقديم سبل العلاج لجميع البشر من دون تفرقة أو تمييز.

ولا يخضع المريض للعلاج أو البحث من دون موافقة رسمية منه، على ألا تصبح تلك الموافقة هي صورة لحماية الطبيب تؤخذ روتينيا قبل إجراء العمليات الجراحية ومن دون شرح للمريض عن نوعية العلاج الذي سيتلقاه ومخاطره.

ويجب على الطبيب والهيئة المعاونة بذل كل العناية والاحترام والرعاية للجسم البشري للحفاظ على الإنسانية، مع استمرارية التعلم حتى يقدموا أفضل رعاية ويكونوا على علم بأحدث أساليب العلاج وأفضلها، فقديما كان يسمى الطبيب حكيما؛ لأنه يجب أن يمتلك الحكمة ولا يكون سببا في ضرر.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة:١٧٩)

بهذا الالتزام بمبدأ حق الحياة والمعرفة، وحرية الإرادة للإنسان، وكرامة الجسم البشري وعدم انتهاكه والحفاظ على خصوصيته، وبالتشدد في توقيع الجزاء على أي عدوان عليه سارت الشريعة في مقدمة الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان.

والتي منعت تماما أن يحول الجسم البشري أو جزء منه إلى مصدر للكسب.

وأنهي قولي بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».



مخاطر الإعلانات التليفزيونية على القيم

د. محمد الفاتح حمدي
كاتب صحفي

يقول الكاتب والأكاديمي الفرنسي الشهير «ريجيس دوبريه»:

«إن عالم الصورة الإعلانية التلفزيونية، يندرج ضمن حرب اقتصادية ضاربة لا هوادة فيها، فحركة الصورة تتعلق أساسا بحركة تجارية، وتباشر صناعة مهمة تتحكم فيها مصالح هائلة وأموال طائلة، وهو الوضع الذي يحول الصور الإعلانية من تحف فنية ذات قيمة جمالية إلى مجرد منتوج تجاري بقيمة مادية، ولذلك فإذا كانت الحرب استمرارا للسياسة بوسائل أخرى، فالاقتصاد السمعي البصري هو تصريف للسياسة الدولية بوسائل أخرى، فالصراع الذي تخوضه الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، اعتمد على السينما بشكل أساسي، لأنه حين يمر فيلم أميريكي تمر معه السيارة الأميريكية وغيرها من منتوجات الاقتصاد الأميريكي. إن صناعة الحلم حددت في هذا السياق كأداة أساسية للهيمنة والتحكم، فمن المؤكد – كما يقول ريجيس دوبريه –: أن الصورة تتضمن قدرة هائلة على الاستحواذ على وعي الناس وانتباههم وأذهانهم، وتنفذ إلى زمانيتنا الخاصة، إنها اجتياح لحميميتنا الفردية».

تمهيد.

شهدت المجتمعات العربية تطورا كبيرا على مستوى كل مجالات الحياة في ظل الانتشار الكبير لتكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، حيث أصبحت هذه المجتمعات تعيش في عالم مفتوح على مصراعيه، في ظل العولمة الإعلامية، متأثرة بما يشهده الغرب من تحولات على المستوى الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والثقافي والرياضي، والإعلامي، خصوصا مع التطور الكبير الذي يشهده البث الفضائي، وقد استقطبت مسألة الاستقبال التلفزيوني المباشر منذ التسعينيات اهتمام الجميع في العالم العربي، من

سياسيين ومفكرين وباحثين اجتماعيين ومختصين بمجال علوم الاتصال والإعلام. كما أثارت هذه القضية جدلا واسعا في مختلف الأوساط، واتخذت السلطات في العديد من الأقطار العربية تجاهها مواقف متباينة. وربما كان سبب تخوف الكثيرين من ظاهرة البث الفضائي المباشر هو الحفاظ على الهوية الثقافية المحلية، في الوقت الذي تحاول فيه الولايات المتحدة الأمريكية اختراق الثقافات المحلية في كثير من دول العالم، ومن بينها الثقافة العربية الإسلامية. ولقد ساهم البث الفضائي المباشر في تعريف الشعوب العربية والإسلامية بشتى الثقافات، والعادات والتقاليد، والعلوم والفنون السائدة في شتى المجتمعات العالمية، في إطار ما يعرف بحوار الحضارات والثقافات بين الشعوب. وما نلاحظه في واقعنا وداخل أسرنا بخصوص التزايد الكبير واللافت للانتباه للقنوات الفضائية الأجنبية والعربية التي غزت بيوتنا ومؤسساتنا، حيث أصبحت هذه القنوات الفضائية قادرة على تخطي الحواجز والحدود الجغرافية والسياسية، وتجاوز الرقابة التقليدية، وتنامي قوة المنافسة بينها على استقطاب المشاهدين، مما جعل المشاهد يواجه كما هائلا من الصور والأفكار والبرامج والرؤى، لم تكن معتادة لديهم في البيئة المحلية الخاضعة للرقابة الرسمية. لقد أصبحت مشاهدة هذه القنوات متاحة وميسرة للمتلقي، وأصبح التعرض للقنوات الفضائية بين أوساط الجمهور الجزائري يتحرك وسط مئات الخيارات المتاحة من القنوات والاتجاهات الفكرية والسياسات الإعلامية، وهو الأمر الذي يترتب عليه انعكاسات متباينة على الصعيد الأخلاقي والقيمي والتربوي، والاجتماعي والسياسي، ومن بين هذه الخيارات المتاحة من القنوات نجد قنوات الموسيقى والغناء، والمسلسلات والدراما، وقنوات الرياضة والألعاب، وقنوات الأخبار والبرامج الحوارية، وقنوات الجنس والإثارة، وقنوات الإعلانات التجارية والخدمات، وغيرها كثير، حيث تبث برامجها عبر الأقمار الصناعية المتعددة (العربية والأجنبية)، والتي يصل بثها إلى كل البيوت الجزائرية والعربية، ويبقى أمام المشاهد اختيار البرنامج والقناة المفضلة التي تلبي رغباته وحاجاته من المشاهدة اليومية.

دور القنوات الفضائية العربية

كل هذا التنوع في القنوات المتخصصة والموضوعاتية والجامعة - الحكومية والخاصة - ساهم في تفتيت الجماهير إلى فئات معينة، حسب الرغبات والإشباعات التي تحققها هذه القنوات الفضائية. فنجد مثلا - حسب دراسات عربية كثيرة (١) - جمهور الأطفال يفضل قنوات الأطفال، مثل «قناة الجزيرة للأطفال»، وجمهور الشباب الذي يفضل القنوات الرياضة، وقنوات الموسيقى والغناء والأفلام، مثل «قناة الجزيرة الرياضية، دبي الرياضية، وقنوات روتانا وقناة MBC ٢» وغيرها كثير، ونجد جمهور ربات البيوت اللواتي تفضلن قنوات المسلسلات والطبخ والصحة والقنوات الدينية وغيرها. فهذا التنامي الكبير في عدد القنوات الفضائية العربية وبرامجها هو خدمة للمشاهد العربي من جهة، والربح والتجارة من جهة أخرى، وهذا ما أدى إلى زيادة بحجم كبير في عدد البرامج الإعلانية والإعلامية التي تنتجها، حيث تسعى كلها إلى استقطاب أكبر قدر من المشاهدين إليها من خلال تركيزها على البرامج المثيرة التي تستقطب أكبر شرائح المجتمع، مثل فئة الشباب التي تفضل بحجم كبير برامج المباريات الرياضية المثيرة، والأفلام والمسلسلات والأغاني والحوارات مع نجوم الرياضة والفن والغناء، وأيضا تنظيم المسابقات والألعاب، حيث يتم التركيز على نوعية الجوائز المالية المغرية، وذلك بهدف كسب مشاركة قياسية من الجمهور، والتصويت عبر الرسائل القصيرة، وكل ذلك من أجل تحقيق أرباح كبيرة للقناة، بالإضافة إلى بيع مساحات إعلانية للمؤسسات ووكالات الإعلان داخل هذه البرامج وبأسعار خيالية في الكثير من القنوات التي تشهد إقبالا على برامجها مثل قناة «MBC١ ومختلف قنواتها»، وأيضا قنوات الجزيرة الرياضية وأبوظبي ودبي وروتانا، وغيرها كثير.

وظائف الإعلان في حياتنا اليومية

إن الوظيفة الأساسية للإعلان الذي يبث عبر برامج القنوات الفضائية العربية، هي إيصال الرسالة الإعلانية لجمهور المستهلكين، والتي تعتمد بدورها على جذب الانتباه كأول خطوة للإعلان الناجح، وهي مهمة لم تعد سهلة في ظل التطورات الكبيرة في وسائل الاتصال والإعلام الحديثة، حيث يتطلب الأمر وجود إعلان متميز يجذب انتباه الجمهور وسط هذا الكم الهائل من الإعلانات، مما حفز على استخدام العديد من تقنيات وأساليب الإعلان لتحقيق هذا الغرض، خاصة وأن التلفزيون بوصفه وسيلة إعلانية تتميز بالعديد من الخصائص، كتقديم الرؤية والصوت والحركة، والتي تعطي للمعلنين مرونة إبداع هائلة، وذلك يتحقق نظرا لتفاعل الصورة مع الصوت، مما يمنح فرصة إبداعية هائلة، ومرونة في تصميم الرسالة ويجعل من الممكن خلق تمثيل درامي مماثل لحقيقة السلع والخدمات. وما تقوم به الإعلانات التلفزيونية أنها تعكس صورة السلعة والجو المحيط بها، وتخلق جوا عاطفيا واستمالات مسلية، تساعد في إظهار السلع العادية بصورة مبهرة.

لقد أصبح الإعلان صناعة تقوم على أسس فنية وعلمية، تشترك فيها كل علوم التأثير، ابتداء من مبادئ الإحساس والتنبيه والمؤثرات الصوتية واللونية والمركبة والإيقاعية، وفي الإعلان تمارس أكثر درجات التقنية التلفزيونية تطورا، كي تأتي الرسالة الإعلانية مكثفة، قوية، مؤثرة، فاعلة، تخترق الوعي مباشرة، وتتراكم في

الذهن بلا حاجة إلى تأمل أو تحليل، أهم شيء فيها هو التفاعل مع هذه الرسالة والاستسلام لها ولتأثيرها. ومن أجل ذلك توظف شركات الإعلانات العالمية الخبراء في علم النفس والتحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، لدراسة دوافع الجمهور وسلوكه وعاداته وقيمه وتفضيلاته ونقاط مقاومته ونقاط تجاوبه، كما تدرس تأثير الجماعة وضغوطاتها، والمحاكاة التي قد تتحول إلى عدوى، عن طريق هذه المعرفة الدقيقة، تقدم الإعلانات كي تجد منافذ التقبل مفتوحة أمامها، وكي تتجنب الاصطدام بنقاط المقاومة.

وفي هذا الإطار، «تشهد القنوات الفضائية تنافسا كبيرا فيما بينها، من أجل جلب أكبر قدر من المعلنين إليها، وذلك من خلال بيع فترات زمنية مهمة (فترات الذروة) على البرامج التي تستقطب حجما كبيرا من المشاهدين، وذلك بأثمان باهضة، خصوصا فترات الذروة، لأن الإعلان يعد موردا أساسيا في المحطات الفضائية، لذا توليه عناية فائقة من حيث الميزانية المرصودة، وكتابة السيناريو وأداء الممثلين ولغة التصوير، وتوظيف الألوان، وتدرجات النور أو الظلال، وطريقة توزيع الأشياء في الفضاء، وفي استعمال الموسيقي والمؤثرات الصوتية. ويترك للجمهور المشاهد الحكم بنجاح أو فشل الإعلان التلفزيوني، وهو الذي يقبل أو يرفض المعلومات التي تعرضها الرسالة الإعلانية.

فالإعلان التلفزيوني الناجح هو الذي يأخذ بعين الاعتبار طبيعة الجمهور المستهدف، باعتباره نظاما متكاملا ومتفاعلا من السمات العامة والسمات الاجتماعية والفردية والسلوكية» (٢)، والمتتبع لبرامج القنوات الفضائية يلاحظ أن أغلب القنوات أصبحت تبث برامج الإعلانات في محتوى البرامج المقدمة، خصوصا البرامج التي يزيد عليها الطلب من قبل الشباب، مثل المباريات الرياضية والأفلام والمسلسلات والأغاني والألعاب والمسابقات الكبيرة وبعض البرامج الحوارية المثيرة على شكل فواصل إعلانية، وهذا ما يجعل حجم المشاهدة لهذه الإعلانات ترتفع مع مرور الأيام، وكلما زاد حجم المشاهدة للبرامج ذات الشهرة الكبيرة ارتفع معه ثمن الزمن المخصص لفترة بث الإعلانات.

مخاطر الإعلانات التلفزيونية على الفرد والمجتمع

إن المتتبع للقنوات الفضائية العربية، يلاحظ بأن حصة الإعلانات التي تبث في العديد منها، تكاد تساوي المدة الزمنية المخصصة لبعض البرامج اليومية، مما يجعل المشاهد مكرها على متابعتها، والتي قد تحمل في أغلبها إيحاءات تتنافى مع قيمنا وعاداتنا وأعرافنا، والمعايير السائدة داخل مجتمعاتنا الإسلامية والعربية، من خلال توظيف المرأة بشكل يثير الانفعالات والشهوات، ويحرك الغرائز الجنسية لدى الجمهور بعرضها بلباس غير محتشم. وهذا ما أكدته العديد من الدراسات العربية التي ترى بأن «الإعلان في القنوات الفضائية العربية والأجنبية يخاطب الغرائز الجنسية، من خلال الرقص والغناء والحركات التي تقدم بها الموديلات داخل الومضات الإعلانية، وما يحققه المنتج من انتعاش وقتي، وسعادة لحظية بمجرد تناول بعض السلع الاستهلاكية، مثل المشروبات الغازية، وهو بذلك لم يركز على المنتج أو قيمته وفائدته، وإنما أعطى صورة أبعد ما تكون عن قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، من الاختلاط بين الجنسين بصورة مستفزة، لم يرض عنها الكثير من أفراد المجتمع العربي والإسلامي» (٣). هذا في ظل غياب المراقبة من قبل السلطات المعنية، أو في ظل سيطرة أصحاب المال والأعمال على مختلف وسائل الإعلام والأسواق التجارية، إذ لا يهمهم سوى الحصول على أرباح كبيرة، من خلال الوصول إلى أكبر عدد من مشاهدين للومضات الإعلانية المقدمة في القنوات الفضائية. أما مراعاة القيم والعادات والتقاليد السائدة داخل المجتمعات العربية والإسلامية بالنسبة لهم، فهي في آخر الاهتمامات أو غير موجودة إطلاقا، مادام الهدف الأسمى هو تحقيق الربح والكسب الكثير، وتحقيق حجم أكبر من المبيعات، حتى ولو كان على حساب منظومتنا القيمية.

وفي ظل تزايد الفترات الإعلانية في القنوات الفضائية العربية، وخصوصا الإعلانات المستوردة من الدول الأجنبية، أصبح شبابنا في ظلها تائها قد يقلد كل ما يشاهده عبر هذه الومضات الإعلانية، والتي على الرغم من قصر المدة الزمنية للومضة الإعلانية التلفزيونية فإن أثرها قد يكون عميقا، خاصة عندما يتكرر عرضها أكثر من مرة، حيث تصبح مطبوعة في



ذهن المتلقي، وهذا ما يؤكده المفكر الجزائري عزي عبدالرحمن قائلا: «إن التأثير يكون إيجابيا إذا كانت محتويات الرسائل الإعلانية وثيقة الصلة بالقيم، وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا، وبالمقابل يكون التأثير سلبيا إذا كانت المحتويات لا تتقيد بأي قيم، أو تتناقض مع القيم، وكلما كان الابتعاد عن القيم أكبر، كان التأثير السلبي أكثر» (٤). وقد يكتسب الشباب من مشاهدته لتلك الإعلانات المختلفة وفي فترات متعددة العديد من السلوكيات والعادات الغريبة عن مجتمعنا، سواء أكانت مفيدة أو مضرة بالنسبة له، وذلك تحت شعار الموضة والتفتح على الآخر، ومواكبة تطورات العصر، وما نشاهده يوميا في واقعنا الحاضر من مظاهر غير اعتيادية في اللباس والأكل والحوار والعلاقات الاجتماعية، خير دليل على التغيرات والتحولات الحاصلة داخل المجتمع الجزائري، والتي قد يكون لبرامج الإعلانات التلفزيونية دور كبير في هذا التغيير السلوكي والقيمي، سواء على مستوى الأسرة أو المجتمع.

لقد جعلت القنوات الفضائية بمختلف برامجها نسبة كبيرة من الشباب العربي يعيش في عالم خيالي، بعيدا عن مجتمعه وأسرته، لا يدرك ماذا يفعل فيه، يفكر دوما في محاولة الوصول إلى هذا العالم المثالي الذي صورته وزرعته وسائل الإعلام والاتصال المختلفة في مخيلته، مما «ولد لدى شبابنا مرض الإحباط والقنوط واليأس من واقعه المعاش، وخصوصا في حالة عدم قدرته على امتلاك ما تسعى القنوات الفضائية العربية لترويجه من خدمات متنوعة، وقد يعود ذلك لظروفه الاجتماعية، والاقتصادية الصعبة التي يتخبط فيها، لأن أغلبيته - الشباب - في هذه المرحلة يكون مرهف الحس، شديد الحساسية، ويتأثر تأثرا بالغا بنقد الآخرين، ويستغرق في أحلام اليقظة، ويحقق عن طريقها ما لم يستطع تحقيقه في الواقع» (٥)، وهذا ما يجعله يشكل صورة نمطية لحياة جديدة، صنعتها برامج الإعلانات الفضائية في مخيلته، وفي حالة عدم قدرته على تحقيق ذلك قد يتصرف تصرفات تسيء لأسرته ومجتمعه وحتى لشخصه.

إن تركيز القنوات الفضائية العربية على الإعلانات كمورد اقتصادي أساسي، يجعلها تهمل المبدأ الذي وجدت من أجله، وهو تلبية رغبات ومتطلبات الشباب، الذي يأمل دوما لمشاهدة برامج وحصص تلفزيونية تعبر عن رغباته وتطلعاته، ولكن في الغالب يجد نفسه يشاهد ومضات إعلانية متنوعة، لا تعبر عن حاجاته الأساسية وطموحاته المستقبلية، أقل ما يقال عنها: إنها ترويج للثقافة الغربية الاستهلاكية القائمة على مبدأ الماديات، لذا «يذهب بعض الشباب لشراء وفعل أشياء لا لزوم لها، تؤدي إلى الانحراف في السلوك، وتضييع الحدود، وتكثر التناقضات في صفوف هذا الجيل الفتي الذي يصبو إلى مجاراة صيحات العصر والموضة، والمبالغة في مجاراتها، ولو على حساب باقي أفراد أسرته، أو على حساب القضايا الأساسية في الحياة» (٦).

إن ما تسعى له القنوات الفضائية العربية والأجنبية وغيرها من وسائل الاتصال والإعلام، من خلال برامجها، هو تكوين جيل من الشباب لا يدرك ولا يشعر بما يقوم به من سلوكيات في حياته اليومية، وكأنه مخدر بما يصله يوميا من برامج مسمومة، وذلك من خلال ترويج لإعلانات أجنبية، تقوم على معادلة توضح كيفية نجاح «والت ديزني» و«الماكدونالدز» في غزو الثقافة العالمية التي وضحها «بن يامين بوربار» (Benjamin Borber)» في أن سبب نجاح استعمار والت ديزني للثقافة العالمية يكمن في ظاهرة قديمة قدم الحضارة الإنسانية، وهي المنافسة بين الشاق والسهل، والبطيء والسريع، وبين المعقد والبسيط. فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي، يدعو للإعجاب والإكبار، وكل ثان من هذه الأزواج يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا. إن «ديزني» وماكدونالد» و«mtv تروج لما هو سهل وسريع وبسيط» (٧)، وهذا ما يؤدي إلى إحداث زعزعة في قيم الشباب الجزائري والعربي، كما يؤدي ذلك إلى حدوث اضطرابات في سلوكياته وأفكاره من خلال تنازله عن العديد من القيم التي منبعها الثقافة الإسلامية، وتشربه جملة من القيم التي تبث من خلال الفواصل الإعلانية المستوردة، تحت شعار التقدم والعصرنة والموضة - عبر نافذة البث الفضائي المباشر - والتي تروج للعديد من القيم المادية والاستهلاكية، والتي يطبعها الإغراء والإغواء، وإظهار مفاتن النساء، والاختلاط بين النساء والرجال، بالإضافة إلى إظهار الخمور والعلاقات الغرامية والممارسات الجنسية على المباشر، دون حذف بعض المشاهد المثيرة للشهوات، مما يؤدي به إلى الوقوع في المحرمات من خلال المشاهدة المتكررة لتلك المشاهد الإباحية التي تزرع في نفوس الشباب الروح الانهزامية.

يعد تكرار تلك الومضات الإعلانية بشكل كثيف عبر البرامج التلفزيونية خطرا على شبابنا، من حيث إنها «تخاطب قلب الشباب المولع باستخدام كل شيء جديد إذا أمكن له ذلك. فالسيارة الجديدة تستأثر الشاب، وخاصة عند عرضها في الإعلانات، والموضات الحديثة التي تسيطر على تفكير معظم الشباب، لأن للإعلان قوة تأثيرية على هذه المرحلة المهمة من حياة الإنسان - مرحلة الشباب - حيث يحرك الدوافع الكامنة داخله، فيلجأ الشباب إلى تلبية هذه الدوافع عبر السؤال عن موضوع الإعلان أو عن السلعة أو الخدمة المعلن عنها، ثم يذهب ويفكر بالجواب مليا، وعند عدم قدرته على

شراء السلعة، أو الخدمة، يتبادر إلى ذهنه الشراء بالتقسيط أو بقرض من المصرف، وهكذا يصبح مدانا، يسدد كل شهر أقساطا، وتصبح حياته بالتقسيط، ولا يستطيع تحقيق التوازن المالي في حياته، لأن مصاريفه أكثر من دخله، ومن المؤسف أن فئة غير قليلة من الشباب العربي تعيش هذه الحالة السلوكية الاستهلاكية غير الرشيدة (٨)، ويقول في هذا الشأن «ماركوس» في كتابه «التحليل الآتي للاستهلاك»: «إن المستهلكين يرون أنفسهم في السلع التي يستعملونها، حيث يجدون نشوتهم في سياراتهم، وفي حجم وشكل منازلهم، وفي الأجهزة التي يستعملونها. فالميكانيزمات التي تربط الفرد بمجتمعه قد تغيرت» (٩)، فلم يعد الأفراد داخل المجتمع يولون مكانة للصدق والأمانة والصبر. فالإنسان الناجح اليوم يقوم على أساس ما يملكه، وهذه الفكرة أكدها «برمان ماركوس» من خلال الدراسات التي قام بها، حيث توصل إلى أن حياة الأفراد تتميز اليوم بالامتلاك، كما أن بعض الممتلكات لها معان قوية ورمزية» (١٠).

الإعلانات التلفزيونية والشباب

والمقصود أن كثرة الومضات الإعلانية التي تحتوى على مشاهد غير أخلاقية في بعض الفضائيات العربية التي دخلت بيوتنا من دون استشراف منا، تشكل هذه الأخيرة - الومضات الإعلانية التي تحتوى على لقطات خليعة - خطرا كبيرا على قيم شبابنا، ونحن نعاينها دون أن نحرك ساكنا قبلها، بدعوى التحضر والانفتاح والتعرف على ثقافات الآخرين، ومن دون أن نقوم بتوجيه وإرشاد شبابنا فيما يختارونه من أفلام ومسلسلات وأخبار وأفلام كارتونية، تناسب مرحلة نموهم مع مراعاة البيئة التي يعيشون فيها، كما أننا أصبحنا غير مهتمين (بصفتنا أولياء) بالحوار مع أبنائنا في العديد من القضايا التي أصبحت تشكل حاجزا داخل الأسرة الجزائرية، ممنوع الحديث فيها مع الأبناء، مثل العلاقات الجنسية والزواج والعلاقات الغرامية، والصداقة والتعارف والحب وتبادل المعلومات، والغيرة على اللغة العربية، وطريقة اختيار الأصدقاء، واختيار القدوة الصالحة في المجتمع، وطريقة التفكير والحوار، والقناعة في العيش بما نملك من قدرات مادية، تناسب مكانتنا الاجتماعية، كما تجنبنا الإسراف والتبذير وطريقة اللباس والأكل وغيرها من العادات، التي يجب علينا فتح الحوار فيها بشكل مستمر، وهذا ما يدفع بشبابنا خلال مراحل نموهم إلى اللجوء للبث الفضائي وغيره من الوسائل الإعلامية والاتصالية، لمعرفة بعض المسائل التي تعد من الممنوعات، بحكم حب الاطلاع والاستزادة في هذا المجال، وخصوصا في مرحلة المراهقة التي يميل فيها الشاب إلى محاولة اكتشاف ومعرفة العديد من القضايا المرتبطة بشخصيته، ومراحل نموها، وكيفية الظهور، وإثبات وجوده داخل الجماعة التي يعيش معها، ومن أجل إشباع رغباته وحاجاته في هذا المجال الذي كان يصنف بالنسبة له من الممنوعات داخل الأسرة وذلك في ظل غياب دور الأولياء في تلقين أبنائهم لهذه الأمور التي جاء بها الدين الإسلامي، والتي حث على الحديث فيها ومناقشتها، والحوار بخصوصها مع الأبناء، حتى لا تبدو غريبة وجديدة عنهم في الوقت ذاته، مما يدفعهم للبحث عنها في قنوات أخرى تزيف الحقيقة، وتحطم العادات والتقاليد والمبادئ السامية، داخل الأسرة والمجتمع على حد سواء.

إن ما يشاهده الشباب العربي من ومضات إعلانية متنوعة عبر بعض برامج القنوات الفضائية العربية، والتي يغلب عليها طابع الترفيه والتسلية المبالغ فيهما، والإغراء والإغواء من خلال إظهار مفاتن النساء، وظهور النساء مع الرجال في أفلام إعلانية خليعة تروج للممارسات الجنسية، وترويجها للمسابقات من خلال القدرة على دخول عالم الشهرة والنجومية أو الربح السريع، وذلك بالمشاركة في تلك البرامج والتفاعل معها، وفي ظل تزايد بث هذا النوع من البرامج المغرية قد يكون لذلك انعكاس خطير على حياة الشباب، يدفع بالكثير منهم إلى الانفصال التدريجي عن الواقع الذي يعيش فيه، فقد تصور للشباب - الإعلانات التلفزيونية - أن الحياة تجري على أساس النمط الذي يشاهدونه في الأفلام والمسلسلات، وأنها دوما هادئة وملونة، وهذا في حقيقة الأمر عزل اصطناعي للشباب عن واقع الحياة كلها بكل ما فيها.

الهوامش

١- انظر دراسات جزائرية أنجزت في هذا الشأن، مثلا: دراسة، عبدالله بوجلال، (وآخرون): القنوات الفضائية وتأثيرها على القيم الاجتماعية والثقافية والسلوكية لدى الشباب الجزائري، ودراسة أخرى للباحث، محمد الفاتح حمدي: استخدامات الشباب الجزائري لتكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة وانعكاساتها على قيمهم.

٢- شدوان علي شيبة: الإعلان، المدخل والنظرية، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥)، ص: ٢٨ بتصرف.

٣- رجاء الغمراوي: الإعلان التلفزيوني وثقافة الاستهلاك، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط١، ٢٠١١)، ص: ١٤٨بتصرف.

٤- عزي عبد الرحمن: الثقافة وحتمية الاتصال، نظرة قيمية، مجلة المستقبل العربي، السنة٢٦، العدد(٢٩٥)، أوت/سبتمبر، ٢٠٠٣.

٥- محمد مصطفى زيدان: النمو النفسي للطفل والمراهق ونظريات الشخصية، (جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة،١٩٩٠)، ص:٥٣.

٦- مصطفى عبدالقادر: الشباب بين الطموح الإنتاجي والسلوك الاستهلاكي، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤)، ص:٨٤.

٧- محمد شطاح: التلفزيون والطفل، مجلة المعيار، قسنطينة: جامعة الأمير عبدالقادر، العدد (٠٧)، ديسمبر ٢٠٠٣، ص:٩١.

٨- مصطفى عبدالقادر: مرجع سابق، ص: ٨٢ بتصرف.

٩- محمود عودي: «أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، دراسة ميدانية في قرية مصرية»، (القاهرة: سلسلة علم الاجتماع المعاصر، ١٩٨٠)، ص: ١٧٩.

١٠-Berman، Ronald :«Advertising and social chang»، sage publications، Beverly Hilles، ١٩٩٢، P ١٢٧.

الإسلام وحقوق الإنسان



أحمد مصطفى
باحث أكاديمي



منذ صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨ وإقراره قانونيا بالعهد الدولي ١٩٦٦م، والغرب يقرن التحضر بمدى التزام الدول بهذه الحقوق، بل ويجعل ترتيبه لرقيها مقرونا بمرتبة التنفيذ حسب أجيال حقوق الإنسان، والتي تبدأ بالحقوق المدنية والسياسية، كالحق في الحياة والجنسية والانتخاب، ثم جيل الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، كحق التعليم والصحة والعمل، حتى تبلور أخيرا ومنذ ١٩٩٢ الجيل الثالث لحقوق الإنسان، وتحديدا مع إعلان ريو للبيئة والتنمية المستدامة، والذي يتحدث عن حقوق الأجيال القادمة في البيئة وثرواتها وحمايتها، بحيث أصبح الحق الإنساني يمتد لمن لم يأتِ بعد (وهو أمر لطالما وجهنا إليه الرسول الكريم ﷺ كتوجيهه لنا بعدم تلويث البيئة وعدم الجور عليها، ولو كنا على نهر، وتنميتها، ولو بزراعة شجرة ونحن على مشارف القيامة)، كما تنامت في إطار هذا الجيل الثالث ما يعرف بحق الاتصال المعرفي، لما يلمس منه من تأثير تنموي سواء للشخصية أو لمقدرات الدول.

والحقيقة أن علاقة الإسلام بحقوق الإنسان ليست حديثة الصلة، أو مقرونة فقط بتوقيت ظهورها، وكما هو معروف فقد كان من المساهمين في صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الدكتور المصري محمود عزمي، والذي وضع أول مادة استنباطا من التعاليم الإسلامية التي ذكرها الفاروق عمر في سواسية الناس، ومنها جاءت المادة ١، التي تقول بنفس مضمون كلام الفاروق «يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلا وضميرا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء» (١).

فالإسلام وحضارته ومنذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، وهو يرتكز على الإنسان بصفته فردا يتمتع بمكانة خاصة عند الله، ولذلك اهتم الدستور الإسلامي عبر القرآن والحديث بالتركيز على حقوق الإنسان بمعناها الحديث، كما في إقراره لمبادئ الحرية والعدالة والتضامن في علاقة الفرد بالدولة والجماعة السياسية، مثلما تضمنته قيم حضارة الإسلام من وضع الفرد غير المسلم في الدولة الإسلامية، حيث كفلت لهم نفس الحقوق التي كفلتها للمسلمين (الحق في الحياة – الحق في مباشرة الشعائر الدينية بحرية – حق التملك – الحق في العمل) (٢).

لذا فليس من الغريب تخطئة الأكاديميين عندما يتم الحديث عن التراكم التاريخي لنضال الشعوب من أجل حقوق الإنسان والذي يجعلون بدايته مع «الماجنا كارتا» ١٢١٥م الموافق ٦١٢ هـ، ووثيقة إعلان الاستقلال الأميركي ١٧٧٦م، وإعلان حقوق الإنسان للثورة الفرنسية ١٧٨٩ – ١٧٩٩، ويغفلون تماما عن ذكر تراثنا الإسلامي في مجال حقوق الإنسان، برغم إقرار الإسلام لأول وثيقة حقوق إنسان عرفها التاريخ، والتي كان للعرب المساهمة في تأسيسها وهي «حلف الفضول» الذي أسس في أواخر القرن السادس الميلادي، في دار عبدالله بن جدعان أحد وجهاء مكة، عندما اجتمع عدد من فضلاء مكة وتعاهدوا

على ألا يتركوا في مكة مظلوما إلا وكانوا معه على ظالمه حتى ترد مظلمته، وحظي هذا الحلف بمباركة الرسول ﷺ الذي قال عنه: «لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت»، ويقول الدكتور قدري عبدالمجيد وهو باحث في مجال حقوق الإنسان: إن هذا الحلف هو أول جمعية لحقوق الإنسان عرفت على وجه الأرض، كما يشير إلى ما وضعته أمتنا الإسلامية عند تأسيسها أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة لوثيقة أخرى بالغة الأهمية تعد أول تشريع في حقوق الإنسان، فيما عرف باسم «صحيفة المدينة» التي أكدت حقوق غير المسلمين وحق المواطنة (٣).

فقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية - إلى جانب براءته من عصبية النسب والأسرة، وبلغ في ذلك مستوى لم تصل إليه «الحضارة» الغربية إلى يومنا هذا، وليس أبسط مثال من الحضارة التي تبيح للضمير الأميركي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء منظما تحت سمع الدول وبصرها، كما تبيح له تلك التفرقة النكدة بين البيض والسود، وتلك الوحشية البشعة التي كانت تبيح لحكومة جنوب إفريقيا العنصرية أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين، وتبيح لحكومات روسيا والصين والهند والحبشة ويوغوسلافيا وغيرها إفناء المسلمين بالجملة! (٤).

وأبسط توضيح لما سبق أن الإسلام سمح للمسلم أن يعطي صدقة الفطر والتطوع للفقير الذمي من أهل بلده، فللمسلم أو الذمي خمس الركاز الذي يعثر عليه في غير ملك لأحد، وللدولة أربعة أخماسه (٥).

بل ومن روح الإسلام أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، ليكون سكونك تفكيرا في الله، ونظرك عبرة وعظة (٦).

أول دستور لحقوق الإنسان

ومن حيث التشريع لحقوق الإنسان، فهنالك اتفاق بين العديد من الباحثين أن شريعة الإسلام هي أول دستور يقر الحقوق الإنسانية على وجه الأرض، وذلك فيما اشتملت عليه من قوانين ومحاسبة للإخلال بحقوق الآخرين عبر مساواة وعدم تمييز على أساس العرق أو اللون أو غير ذلك، فضلا عن إقرار الدستور الإسلامي للمعاملات العادلة وعلاقات الناس بعضهم ببعض، دون استغلال، كما في الربا «ربا المال» بل وما اشتمله أيضا الدستور الإسلامي من نظام الأسرة والمواريث والوصية، لذا فهو أسمى الشرائع جميعا بشهادة أساطين القانون من الأوروبيين، حتى إنه من المعروف أن المشرعين الفرنسيين حينما وضعوا القانون الفرنسي كانوا يستحضرون أمامهم كتب الشريعة الإسلامية؛ يأخذون منها بين الحين والحين ما يطيب لهم من نصوص أو يروق لهم من أحكام، حتى إن المنصفين منهم لا يفتأون يكررون في كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم أن الشريعة الإسلامية هي أم الشرائع وأسماها وأقومها (٧).

ولذلك فشريعة الإسلام هي أول دساتير الأرض التي تستخدم مفهوم حقوق الإنسان بمعناه المعاصر، وذلك قبل ظهوره بنحو ألف عام، ومن ذلك موقفه من حرية العقيدة في وقت لم يكن هنالك أي إمكانية للحديث عنها، وتتضح المعالم الحضارية لسماحة الإسلام في إنه لم يقف من الأديان السماوية السابقة له موقف تحد أو نكران أو جحود، لأنه يقر أنها في أصلها من عند الله الذي أرسل الرسل وأنزل الشرائع السابقة له، فعقيدة الإسلام شقيقة للعقائد السماوية السابقة، وكلها تدعو إلى الخير وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وبذلك جاء الإسلام فاستكمل ما يحتاجه تقدم الزمن من تطور في الفكرة الأزلية، ملائما للزمان الذي نزل فيه والأزمان اللاحقة له، وقد جمعت الآية الكريمة هذه المعاني في (٨) قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

كما يذكر هذا النص الحقوقي المتميز: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦). هذا من حيث الدعوة الموجهة إلى العامة، فإذا ما كان الأمر متعلقا بأهل الكتاب طلب الإسلام من المؤمنين زيادة من التلطف ومزيدا من إظهار المودة وحسن المجادلة: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، بل وما شهده المجتمع الإسلامي من تطبيق لهذه الحقوق الإنسانية عبر رسول الإسلام ﷺ والذي وقف لجنازة اليهودي قائلا لصحابته عند تساؤلهم التعجبي «أو ليست نفسا؟!»، كما هي أفعاله صلوات الله وسلامه عليه مع جيرانه اليهود، وتعاليمه ودعواته التي نادى بها وطبقها في حياته، فهو الذي تسامح مع أهل مكة الذين عذبوه وقد دخل مكة فاتحا منتصرا قائلا: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، رغم أن هذا التاريخ وقوانينه كانت تبيح للمنتصر إعمال القتل في المهزوم، ولكن حينما دخل ﷺ مكة، وانتصر على الكفار من قريش عاملهم وفق أسمى مواثيق العالم الحديث في التعامل مع الأسرى، وفيما يسبق اتفاقيات جنيف وغيرها.. بل وتعدى ذلك الصفح عنهم إلى الدعاء لهم قائلا: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

الممارسة المسؤولة للحرية

أما قضية الحرية وهي واحدة من أهم حقوق الإنسان، فالإسلام جاء ليحدث العالم عن الممارسة المسؤولة للحرية وكيفية تحقيقها في وقت لم تكن البشرية قد عرفت قانونا للحرية بعد، ومن ذلك أنه جعل المرء على وعي بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم، لأن لهم نفس الحق الذي يطلبه الإنسان لنفسه، وهذا يعني أن العلاقات الإنسانية بين أفراد البشر هي علاقة موجودات حرة، حيث يتنازل كل منهم عن قدر من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع، وهذا يعني بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا

ساد التعايش السلمي والمحبة بين أفراده، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه (٩).

وقد ورد للدلالة على ما سبق عشرات الأحاديث والآيات القرآنية التي تؤكد ذلك، ومنها ما جاء في قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وسبب نزول هذه الآية يبين لنا إلى أي مدى وصل الإسلام في تقديس الحرية، وفي تكريم هذا المعنى، وتأكيد هذا المبدأ، فقد كان الأوس والخزرج في الجاهلية إذا امتنعت المرأة من الحمل فنذرت إذا ولدت ولدا هودته، أي جعلته من يهود، وهكذا نشأ بين الأوس والخزرج هاتين القبيلتين العربيتين بعض أبناء يهود، فلما جاء الإسلام وأكرمهم الله بهذا الدين وأتم عليهم نعمته، أراد بعض الآباء أن يعيدوا أبناءهم إلى الإسلام دينهم، ودين الأمة في ذلك الحين، وأن يخرجوهم من اليهودية، ورغم الظروف التي دخلوا فيها اليهودية، ورغم الحرب التي بين المسلمين وبين اليهود، لم يبح الإسلام إكراه أحد على الخروج من دينه وعلى الدخول في دين آخر، ولو كان هو الإسلام. فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦). في وقت كانت الدولة البيزنطية تقول: إما التنصير وإما القتل. وكان المصلحون الدينيون في فارس يتهمون بأشنع التهم (١٠).

حقوق الآخرين

لطالما أكد الإسلام في أكثر من موقع على حقوق الآخرين الإنسانية وسلامتهم، كما في قول الرسول ﷺ ملخصا معنى المسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (رواه مسلم)، ويدعو في ذلك القرآن الكريم المؤمنين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨)، وهذا الفهم الإنساني يأتي من منطلق أن الله خلق البشر من أب واحد، وأم واحدة، وجعلهم إخوة متساوين في الحقوق والواجبات (١١).

فيقول تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ويقول عزوجل: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩). وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ (الشورى: ٤٨)، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٢).

وقد خلق الله الناس مختلفين في عقائدهم وأهدافهم وقدراتهم العقلية، فالذي يريد الناس على الاتفاق في كل شيء مناهض لقضاء الخالق سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ (هود: ١١٨- ١١٩).

حقوق الإنسان

يذكر جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: «إن القوة لم تكن عاملا في نشر القرآن، لأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم، فإنما ذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان للإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى، وقد عامل العرب الفاتحون أهل سورية ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم»، وفي الختام قال جوستاف لوبون: «والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، وذلك بفضل اتباعهم وتمسكهم بتعاليم القرآن».

ويشاطره في ذلك ج.هـ. ويلز في كتابه «مختصر تاريخ الإنسان» مرجعا انتشار الإسلام إلى الإخاء الإنساني، فيعد تلك القيم التي جاء بها المسلمون فتحا جديدا في تاريخ العلاقات الإنسانية قائلا: وثمة عنصر مهم للقوة التي هيأت للإسلام سبل الانتشار، تتجلى في إصرار الإسلام على اعتبار أن المؤمنين إخوة متساوون تماما أمام الله، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم.

ربما نكون قد استعرضنا جوانب سريعة مما تضمنته الحقوق الإنسانية في الإسلام، وهذا ما يأتي على النقيض مما هو معتقد عن مجافاة الإسلام لحقوق الإنسان، جراء الفهم الخاطئ لدى الآخر من قراءة بعين واحدة لأحداث إرهابية لطالما استنكرها علماء الإسلام وأهل الدراية به، ولكن -كما هو معلوم- فإن الفعل أصدق كثيرا من القول، وهو ما يستوجب علينا كأمة إسلامية الكثير من الأمور في تأكيد علاقة القيم الإنسانية بالإسلام، عبر ممارسات مراكز الإسلام في الغرب ومشاركتها في دور الأيتام أو في دعم حقوق المهمشين والضعفاء والإعلان والإعلام عن ذلك ورابطه الإسلامي، فضلا عن ضرورة التوضيح عبر أفلام وثائقية ودرامية موجهة توضح هذه الحقوق الإنسانية الإسلامية، ونماذجها التاريخية المحققة، وهي كثيرة جدا، هذا بجانب ما هو مرجو من قادة الدول نحو تأكيد هذه القيم وإعلائها في المعاملات والمناسبات المختلفة الداعية إليها.

الهوامش

١- مادة ١، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، نيويورك: موقع منظمة الأمم المتحدة، http://www.un.org

٢- مجموعة باحثين «بدون أسماء»، حقوق الإنسان بمصر، دراسات وبحوث، القاهرة: موقع الهيئة العامة للاستعلامات، http://www.sis.gov.eg

٣- قدري علي عبدالمجيد، الإعلام وحقوق الإنسان، قضايا فكرية ودراسات تحليلية وميدانية، جامعة القاهرة، رسالة دكتوراه منشورة، القاهرة، دار الجامعة الجديدة للنشر، ٢٠٠٨م، ص ٦٣.

٤- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، ص ٤٥ - ٤٦.

٥- أحمد محمد الحوفي، سماحة الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص٧٤.

٦- محمد عطية الإبراشي، روح الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣م، ص٤١ -٤٢.

٧- مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ص ٤٥ - ٤٦.

٨- المرجع السابق، ص٤٥ - ٤٦.

٩- محمود حمدي زقزوق، التسامح في الحضارة الإسلامية، (نقل بتصرف)، القاهرة، وزارة الأوقاف، ٢٠٠٤م، ص ٥٠-٥١.

١٠- يوسف القرضاوي، الإسلام والحرية، «فتاوى وأحكام»، قطر، موقع القرضاوي: http://www.qaradawi.net

١١- عبدالله شحاته، النور الجديد، القاهرة، دار أخبار اليوم، ١٩٩٩م، ص٥٤.

ذوو اللسانين

د. أحمد حسين بكر
أستاذ اللغة الفارسية وآدابها

لم يكن انتشار اللغة العربية في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي من قبيل هيمنة لغة الفاتح المتغلب على أبناء الأمة المغلوبة، فقد أقبل الفرس على تعلم اللغة العربية بعد أن دخلوا في دين الله أفواجا، وذلك لإيمانهم بأن تلك اللغة ليست لغة قومية تخص العرب وحدهم، وإنما هي لغة المسلمين جميعا، فهي لغة القرآن الكريم، والإقبال على تعلمها من الدين، فهي أداة العلم ومفتاح التفقه فيه.

وقد عبر الثعالبي (٤٢٩هـ) عن هذه العاطفة في قوله: «من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا ﷺ. ومن أحب الرسول العربي أحب العرب. ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب. ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها» (١).

ولقد ساعد على انتشار اللغة العربية بين الفرس كونها لغة السياسة والإدارة والعلوم الدينية والأدبية والعقلية، وكان ينبغي على من يريد أن يبزغ نجمه في هذه المجالات أن يتعلم لغتها، ولهذا انطلق الفرس في تعلم اللغة العربية وخدمتها، فقد كان على الأديب أن يتعلم العربية وفنونها البلاغية، ويطلع على آثار مشاهيرها قبل أن يشرع في الإبداع بلغته الفارسية أو باللغة العربية.

أما خدمة الفرس للغة العربية فلا يمكن إنكارها، ويكفي أن أشهر الكتب الموضوعة في قواعد تلك اللغة هو كتاب سيبويه (١٨٠هـ).

وهكذا راجت اللغة العربية في بلاد فارس وانتشرت شيئا فشيئا، ولم يكد القرن الثاني الهجري ينتهي حتى كانت العربية هي اللغة الرسمية للبلاد.

وحافظت هذه اللغة على مكانتها الرفيعة حتى بعد انبعاث القومية الفارسية من جديد وعودة الفرس إلى لغتهم الأصلية، فقد ظلت لغة لأهل الفضل والعلم والأدب، يتسامرون بها في مجالسهم ويتبارون في إظهار تمكنهم منها، ومن هنا ظهرت ظاهرة ذوي اللسانين.

و«ذوو اللسانين» مصطلح يطلق في الأدبين العربي والفارسي على أولئك الأدباء الذين كانوا يكتبون باللغتين العربية والفارسية. وهناك مصطلحان آخران يطلقان على هؤلاء الأدباء، وهما: «ذوو البيانين» و«ذوو البلاغتين» (٢).

ويشترط البعض في من يطلق عليه هذا المصطلح أن يكون من أصحاب المقام الأدبي الرفيع في كلتا اللغتين.

ويمكن تقسيم ذوي اللسانين إلى مجموعتين: الشعراء والعلماء.

الشعراء

وتضم مجموعة الشعراء عددا كبيرا من أبرز شعراء إيران على مر العصور، مثل: أبي الفتح البستي (٤٠٠هـ)، ورابعة القزدارية (ق٤هـ)، والنطنزي (٤٩٧هـ)، ومسعود سعد سلمان (٥١٥هـ)، وعمر الخيام (٥١٧هـ)، وسعدي الشيرازي (٦٩١هـ)، وجلال الدين الرومي (٦٧٢هـ)، وركن الدين دعويدار (ق٧هـ)، وحافظ الشيرازي (٧٩١هـ)، ونور الدين الجامي (٨٩٨هـ)، وهاتف الأصفهاني (١١٩٨هـ)، وأديب البيشاوري (١٣٤٩هـ).

ومن هؤلاء الشعراء من يحتوي ديوانه على قسم كامل للأشعار العربية، مثل: سعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي وأديب البيشاوري وركن الدين دعويدار.

ومنهم من تناثرت أشعاره العربية في ثنايا ديوانه الفارسي، مثل: حافظ الشيرازي وهاتف الأصفهاني.

ومنهم من احتفظت لنا كتب الأدب والتراجم بنماذج من أشعاره العربية، مثل: عمر الخيام.

ومنهم من ذكرت كتب التاريخ والأدب أنه كان له ديوان بالعربية إلى جانب ديوانه الفارسي، مثل: أبي الفتح البستي، الذي ذكر عوفي في «لباب الألباب» أنه رأى له ديوانين أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية (٣).

ويعد سعدي الشيرازي واحدا من أشهر الشعراء ذوي اللسانين، فهو ذلك الحكيم الذي درس اللغة والأدب والبلاغة والفقه والحديث والتفسير في المدرسة النظامية في بغداد، وعاش في بلاد العرب سنوات طوالا قبل أن يرجع إلى شيراز.

وللسعدي أشعار عربية كثيرة، نشرت في قسم خاص من أعماله الكاملة. ولعل قصيدته في البكاء على بغداد بعد سقوطها في يد المغول سنة ٦٥٦هـ ومقتل الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ) من أهم أشعاره العربية وأطولها، وهي القصيدة التي يقول في مطلعها:

حبست بجفني المدامع لا تجري
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبري

أما عمر الخيام فهو الشاعر الذي عرفه العرب برباعياته الفارسية الشهيرة التي ترجمت إلى اللغة العربية ترجمات عديدة، ولم يعرفوه شاعرا عربيا على الرغم من أشعاره العربية التي تقبع في بطون الكتب مثل «خريدة القصر» للعماد الأصفهاني، و«تاريخ الحكماء» للقفطي، و«نزهة الأرواح» للشهرزوري، و«الإيضاح» للخطيب القزويني.

ولهذه الأشعار أهمية كبيرة؛ إذ يمكن إلقاء الضوء من خلالها على زوايا جديدة في حياة الخيام، كما أنه يمكن الاستفادة منها في الحكم على

شخصية الخيام التي ذهبت فيها الأقاويل كل مذهب بسبب الرباعيات التي تنسب إليه، إذ كيف يوصف بالإباحة والخلاعة والكفر والإلحاد والزندقة وهو القائل (٤):

أصوم عن الفحشاء جهرا وخفية
عفافا وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عصبة ضلت عن الحق فاهتدت
لطرق الهدى من فيضي المتقاطر
فإن صراطي المستقيم بصائر
نصبن على وادي العمى كالقناطر

لقد دفعت المقارنة بين الأشعار العربية، المقطوع بنسبتها إلى الخيام، مع الرباعيات، المشكوك في نسبة أغلبها إليه، أحد الباحثين إلى القول إن «الدارس لشعره العربي يجده أليق بسمعة الخيام الفيلسوف وشهرته كرياضي. وأحسب أن الخيام في شعره العربي يبدو مسلما شديد الاعتزاز بإسلامه. وأسلوبه في كتاباته العربية عموما يطبعه اللسان العربي، ويظهر به كمفكر إسلامي ملتزم» (٥).

ومن ذوي اللسانين شعراء كانوا ينظمون الشعر بإحدى اللغتين ثم يترجمونه إلى اللغة الأخرى، ومنهم الأغاجي (ق٤هـ) والجاجرمي (٦٩٠هـ).

ومن المؤسف أن نرى أغلب الأشعار العربية التي كتبها ذوو اللسانين يعاني الإهمال والتجاهل من الفرس والعرب على السواء، ولا يجد من يجتهد في جمعه وضبطه وتحقيقه ودراسته، وذلك على الرغم من أن هذه الأشعار تمثل إضافة نوعية مهمة لديوان الشعر العربي؛ لأنها تتميز بما تحتوي عليه من «المتع العقلية والطرف الفنية، التي ربما كانت في بعض النواحي غير مألوفة لدى العقول العربية الخالصة» (٨).

العلماء

أما العلماء من ذوي اللسانين فهم أولئك الذين صنفوا الكتب الأدبية والعلمية باللغتين العربية والفارسية. وتضم هذه المجموعة عددا كبيرا لا يمكن حصره من الأدباء والعلماء الذين كتبوا باللغتين في شتى العلوم الدينية والدنيوية، مثل: ابن سينا (٤٢٨هـ)، وأبي الريحان البيروني (٤٤٠هـ)، والغزالي (٥٠٥هـ)، وعين القضاة الهمذاني (٥٢٥هـ)، ورشيد الدين الوطواط (٥٧٣هـ)، والسهروردي (٥٨٧هـ)، وفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، والزمخشري (٥٣٨هـ)، ونصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ)، والبيضاوي (٦٨٥هـ)، ورشيد الدين فضل الله (ق٨هـ).

وقد أشار ابن خلدون إلى كثرة العلماء العجم الذين أثروا الحضارة الإسلامية بمؤلفاتهم في قوله: «إن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم» (٩).

ومن هؤلاء العلماء من كان يؤلف الكتاب الواحد على نسختين، إحداهما باللغة العربية والأخرى باللغة الفارسية، ومنهم أبوالريحان البيروني صاحب كتاب «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» الذي ألفه سنة ٤٢٠هـ باللغة العربية ثم أعاد كتابته باللغة الفارسية، وهو من أوائل الكتب وأهمها في علم الحساب والهندسة والهيئة والنجوم (١٠).

وسار رشيد الدين فضل الله على درب البيروني في تأليف كتاب «جامع التواريخ». وكذلك فعل شمس الدين بن قيس الرازي في كتابه «المعجم في معايير أشعار العجم» (١١).

كما لخص الإمام الغزالي كتاب إحياء علوم الدين في كتاب باللغة الفارسية أسماه: «كيمياء السعادة».

والحقيقة أن اللغة العربية حظيت بالقدر الأكبر من اهتمام هؤلاء العلماء، فجاء أكثر مؤلفاتهم وأهمها وأشهرها وأكثرها قيمة بهذه اللغة، فقد كانت لغة العلم في العالم الإسلامي كله، حتى إن البعض منهم كان يهتم بذكر الدافع إلى تأليفه بالفارسية، وكأنه يرفع عن نفسه الحرج لإقدامه على ترك العربية ويقطع الطريق على منتقديه، وكان البعض الآخر يعتذر صراحة في مقدمة كتبه الفارسية عن تأليفه الكتاب بهذه اللغة (١٢).

وفي النهاية، سيظل ديواننا العربي ناقصا، وسيحرم القارئ العربي من الاستمتاع بأشعار تتميز بنكهتها الخاصة ما لم نهب لإنقاذ تراثنا الشعري المتمثل في ما تبقى من أشعار نظمها أناس عشقوا العربية، وأبدعوا بها في بيئاتهم الأعجمية.

وسيظل جزء من تاريخنا العلمي، المتمثل في المؤلفات الفارسية للأدباء والعلماء ذوي اللسانين، الذين لا نعرف لهم في عالمنا العربي غير مؤلفاتهم العربية، مجهولا بالنسبة إلينا، وهو ما يدفعنا إلى المناداة بالاهتمام بترجمة هذه المؤلفات إلى لغتنا ودراستها.

الهوامش

(١) أبومنصور عبدالملك الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٢٩.
(٢) قاسم تويسركاني، تتى چند از سخنوران ذولسانين، مجلة الدراسات الأدبية، العدد ١، السنة الرابعة، ١٩٦٢م، ص٦٧.
(٣) محمد عوفي، لباب الألباب، ج١، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦م، ص٦٤.
(٤) محمد بن محمود الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، مركز التراث القومي والمخطوطات، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٥٣٦.
(٥) عبدالمنعم الحفني، عمر الخيام والرباعيات، القاهرة، دار الرشيد، ١٩٩٢م، ص١٧٦.
(٦) علي بن الحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج٢، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣م، ص١٣٢٥.
(٧) محمد عوفي، لباب الألباب، ج٢، ص١٧.
(٨) إبراهيم أمين الشواربي، العربية في إيران، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد الأول، مايو ١٩٥١م، ص٤٨.
(٩) عبدالرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٢، دمشق، دار يعرب، ٢٠٠٢م، ص٣٦١.
(١٠) ذبيح الله صفا، تاريخ أدبيات در ايران، ج١، تهران، انتشارات فردوس، ١٣٦٩هـ.ش، ص٦٢٩.
(١١) الشواربي، العربية في إيران، ص٤٦.
(١٢) قاسم تويسركاني، تتى چند از سخنوران ذولسانين، ص٦٥.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٤)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

تعد اللغة من الثغور الأساسية التي تسعى الأمم القوية إلى التسلل من خلالها خلسة للتأثير على الأمم المغلوبة، لذا فمن حرس هذا الثغر أمن المكائد كلها، ومن أهمله كانت عاقبة أمره مع توالي الأجدان خسرا؛ ذلك أن ألفاظ اللغة اليوم تشبه حركات الناس، فهي تتنقل وتسافر من البلدان المتقدمة الغالبة إلى بلدان الجنوب المتأخرة المغلوبة، وفي أثناء هجرتها، التي تكون من ورائها غايات خفية، تدخل في اقتتال وتزاحم وتصارع خفي، إلى أن تجعل الآذان تختلسها من غير إذن، والألسن تلهج بها راضية مرضية؛ لأن نار جدتها وسهولتها قد أضاءت واشتعلت مثل النهار إذا متع وارتفع، وعندما تتحقق من أن الحاجة إليها أصبحت من ضرورات الحياة؛ تشرع في مزاحمة كلمات اللغة المغلوبة شيئا فشيئا حتى تزويها في حدود جد ضيقة، تقتصر على العادات والتقاليد والعبادات، لتتولى اللغة الأجنبية العريدة في مجالات العلم والمعرفة والاقتصاد والتقنية. هذا هو واقع الصراع اللغوي بين الأمم الناهضة بلغتها، والأمم التي تقتعد الذيل في النهوض بشؤونها، فماذا أعددنا نحن - العرب - في هذا الشأن؟ وهل مكنتنا حصافتنا من جعل تجارب أسلافنا مرايا لنا نهتدي بها لاستيعاب محورية التعريب في النهوض ببلداننا العربية؟

ذلك أن الدواوين في العراق، إلى عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، كان يقوم عليها كتاب الفرس، وكانوا يكتبونها بالفارسية، وعندما ولي الحجاج العراق قال الكاتب صالح بن عبدالرحمن، الذي كان من سبي سجستان، لكاتب ديوان الحساب زاذان فروخ: «إن الأمير سيقدمني عليك، ولا أحب ذلك! فقال: إن الأمير لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري! فقال صالح: إن أمرني بنقل الديوان إلى العربية فعلت! فقال له: فانقل بين يدي شيئا منه! ففعل. فقال زاذان فروخ لكتاب الفرس: التمسوا مكسبا فقد ذهب مكسبكم. ثم نقل صالح الدواوين إلى العربية» (١). وبذلك بدأت حركة التعريب، وبدأ العرب يتحررون من الهيمنة الفارسية على الإدارة. أما طرق التعريب المعتمدة لحظتئذ، فيمكن إجمالها في ما يأتي:

١- إبدال أحرف الكلمة بعضها من بعض، مثل لفظة «كورب» الفارسية التي عربت هكذا: «جورب»، ولفظة «كومل» التي أصبحت: «جمل»، ولفظة «لشكر» التي عربت هكذا: «عسكر»، و«شراويل» التي عربت بتغيير حرف الشين هكذا: «سراويل».

٢- نقصان حرف أو أكثر من الكلمة الأجنبية مثل Kêtos التي عربت بلفظة: «حوت».

٣- تغيير حركة أحد الأحرف مثل: «دَستور» بفتح الدال التي عربت بضم الدال «دُستور».

٤- زيادة حرف على الكلمة الأعجمية مثل: «ديبا» الفارسية التي عربت بزيادة حرف الجيم: «ديباج».

٥- تغيير وزن الكلمة إلى وزن عربي مثل ألفاظ: «سندس» و«درهم» و«قسطاس» و«جهنم».

وعلى الجملة، فإن المعرب يعرف بعلامات مثل: البداية بحرفي: «نر»، مثل: نرجس. أو أن يكون بعد حرف الدال حرف الزاي، مثل:«مهندز» التي غير «زايها» بحرف السين: «مهندس»، أو خلو الكلمة الرباعية والخماسية من أحرف الذلاقة وهي: «الراء والميم والباء والنون والفاء واللام»، ومنها اجتماع «الجيم والراء» في الكلمة مثل: «آجر»، و«القاف والطاء» مثل: «قسطاس وقرطاس»، و«الصاد والجيم» مثل: «صولجان»، و«الكاف والجيم» مثل: «سكرجة»... وغيرها من الكلمات الطويلة الذيل. تلك هي السبيل اللاحبة التي سلكها الأوائل في تعريب دنيا العرب. وقد أبانت اللغة العربية عن طواعية نادرة في قبول كل ما يفد إليها من الثقافات الأخر، لم تعجز عن إدماج الكلمات الأعجمية وتطويعها حتى تنسجم مع أخواتها العروبيات؛ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا على شاكلة الكلمات اليونانية الأصل الآتية: «أسطول، دكان، إقليم، إسفنج، زبرجد، طاوس، فانوس، قصدير، قلم، نافورة، قانون، بقدونس، بطاقة، إبليس، أخطبوط...». ولئن نجحت جهود التعريب الآنفة حتى أصبحت العربية الفصحى لغة مانحة للعلم والمعرفة يوم جدتها في عهد العباسيين، فإن وضعية التعريب اليوم أصبح يلفها غموض كثيف، وتشتت مريب، وضياع للجهود مخيف، رغم أن المجمعات اللغوية المنتشرة في أرجاء الوطن العربي تجري خيولها المبرزة في ميدان التعريب بالبيان الوافي، إلا أن جهودها لا تبرح مقراتها التي تصدر

منها، ومن ثمة تصبح مسوداتها مجرد أوراق ملوثة بالحبر، وآية ذلك قائمة المعجمات الطويلة الذيل التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب بالرباط عن كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية والعلمية والتقنية والاقتصادية والسياحية والفلاحية والتواصلية، من دون أن يظهر في الأفق أن هناك اتجاها في هذه الدولة أو تلك لفرضها على مؤسساتها، انطلاقا من كونها ثمرة جهود النخبة المقتدرين المتخصصين في مجالات اللغة والعلم والمعرفة، وما ذلك إلا من عصا الفرقة التي ألقتها دول العولمة الماحقة بيننا لإبقائنا مغانم تطرد بواسطتها مغارمها الاقتصادية والاجتماعية. هذا هو السر في أننا لا نزال نبحث عن الإجابة الشافية الوافية لأسئلة النهضة التي سبق الحسم فيها منذ ستينيات القرن الماضي، على شاكلة سؤال: هل نعرب أو نترجم؟ الذي أشبعه الأوائل بحثا كما يثبت هذا الجواب الذي أدلى به العقاد عام ١٩٦٠م، حيث يقول: «نحسب أن بداهة اللغة العربية من قديمها إلى حديثها تملي علينا جواب هذا السؤال: هل نترجم أو نعرب أو نكتفي بما عندنا فلا ترجمة ولا تعريب؟ وجواب اللغة بلسان بداهتها الأصيلة أن المعاني تترجم، وأن الأعلام وما هو من قبيلها تعرب، وأن التعريب ضرورة ملازمة، قد لازمت اللغة العربية منذ نشأتها، ولا خوف عليها منه في حدوده الصالحة، لأن البنية الحية هي التي تستطيع أن تلحق بتركيبها المتين كل غذاء مفيد» (٢). لأن التعريب المفيد الشامل هو السراج الذي يطفئ عن بلداننا العربية ظلمة التأخر عن التحكم في العلم والمعرفة باللغة العربية لأجل تحقيق التنمية المرتجاة، ويمنح للثقافة العربية فرصة الذيوع والانتشار، من خلال انتشار بضائعها ومنتجاتها ومخترعاتها باللغة العربية، وعندئذ لا يمكن أن نقبل أن نستعمل لسانا غير لساننا العربي المبين، ولا أن تنوب عنا لغة أخرى في الإعلان والإشهار لبضاعة من منتجاتنا العربية. بمثل هذه الثورة الثقافية الشاملة يمكن أن يحدث التعريب ثورة في طرائق تفكيرنا، فيغدو المشروع العروبي مشروعا مجتمعيا يطيح بسياسة التوازنات اللغوية السائدة في بلدان المغرب العربي لأجل المحافظة على سراب السلم الاجتماعي بين العرب والأمازيغ، ومن ثمة إظهار النية الصادقة لتقوية أدوار العربية الفصحى في اصطناع المعارف العلمية الحقة، انطلاقا من اتباع خطة منهجية علمية في الصناعة الاصطلاحية «تقوم على مبادئ علمية موحدة، وترتكز على أسس موضوعية مشتركة؛ الدافع إليها الرغبة في التقليل من التباينات الملحوظة في الاصطلاحات بين البلدان العربية؛ ولاسيما بين البلدان التي تستعمل الفرنسية، والأخرى التي تستعمل الإنجليزية» (٣) لغة ثانية في أثناء اتصالها وتواصلها مع أبنائها في الداخل، ومع غيرها في الخارج. ولا سبيل إلى إدراك هذه البغية إلا باعتماد قرارات سياسية ملزمة تستنفر أصحاب التخصص لاقتحام دنيا المعرفة؛ لأجل الكشف والتشخيص والتصحيح برؤية علمية ثاقبة تمزج الأقوال بالأفعال، وتطرد عن ساحتنا العربية الاستعانة بالاصطلاحات الأجنبية التي نكتفي بإلباسها الأصوات العربية، سواء صادف ذلك مصلحة أو لم يصادفها؛ على شاكلة هذه الاصطلاحات التي عربناها بالمحافظة على أصواتها الأجنبية، اعتقادا منا أن مقابلها العربي معدوم، مثل:

- البيداغوجيا، والتي يعد اصطلاح: «اللقانة» أحسن منه أثاثا ورئيا.
- الأرشيف، مع العلم أن اصطلاح: «الربيدة» ألطف مرآة. - السيكولوجي، الذي يبدو اصطلاح: «النفسي» أتم منه وأحكم وأسهل في النطق.
- الديكور، بدل إشاعتنا للفظة القرآنية المشعة: «الزخرف».
- الروبرتاج، بدل اكتفائنا باللفظة العربية الأنيقة: «التحقيق» أو «الاستطلاع».

تأسيسا على ما سبق، يتضح بجلاء أن التعريب المأمول في الوطن العربي يجب ألا يترك فقط لجهود الآحاد، مهما بلغوا في العلم بأسرار العربية قرن الكلأ، ولكن يجب أن يتولى أمره هيئات علمية مكونة من مختلف التخصصات، ومخول لها، بقوة القانون، إصدار نشرات دورية إلى كافة البلدان العربية، تلزمها باستعمال تلك الاصطلاحات في المجالات التي تقتضيها، بدل ترك الألفاظ الأجنبية تعيث فسادا في لغتنا وفي طرائق تفكيرنا، التي لا يمكن لها أن تستقيم من دون التعلم باللغة العربية الفصحى، ولاسيما أن عربيتنا تبدي طواعية غير محدودة في اشتقاق اصطلاحات جديدة عربية المحتد؛ اعتمادا على نقل الدلالة من المجال الأصلي الذي استعملت فيه الكلمة، إلى مجال آخر كما هو الشأن بالنسبة إلى الاصطلاح الآتي: «المذمرة» بدل Echographie الذي نقلته من لفظة «التذمير»، التي تعني العملية التي يقوم بها «المذمر» لمعرفة جنس الجنين في رحم الناقة.

الهوامش

(١) البيان والتبيين. أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ. تحقيق وشرح: حسن السندوبي. الجزء ٣. هامش الصفحة ٣٤. ط٤. ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م. دار الفكر. لبنان.

(٢) نعرب أو نترجم؟. عباس محمود العقاد. مجلة القافلة. عدد ١٩٦٠م. وقد أعادت المجلة نفسها نشر هذا المقال في العدد الثالث. المجلد ٦٣. ص ٧٣. مايو/يونيو ٢٠١٤م. السعودية.

(٣) اللغة وبناء الذات. عبدالله أيت الأعشير وعبدالرحمن بودراع وأحمد شوقي الخطيب. كتاب الأمة عدد ١٠١. ص ١٦٨. جمادى الأولى١٤٢٥هـ / يونيو- يوليو٢٠٠٤م. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر.



في دورته الحادية والثمانين بالقاهرة

عولمة اللغة العربية.. في مؤتمر الخالدين

القاهرة :
دار الإعلام العربية

هيمنت قضية الخروج باللغة العربية من مجرد لغة تواصل بين أبنائها إلى جعلها أداة لصناعة المعرفة، ليس على نطاق محلي فقط بل إلى أفق عالمي لا محدود، على فعاليات المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الحادية والثمانين، التي عقدت تحت عنوان «اللغة العربية وعالم المعرفة». وتباينت الطروحات في هذا الصدد بين المطالبة بالاستثمار البشري، من خلال إحياء اللغة العربية لدى أبنائها أولا، ومن ثم امتلاكهم القدرة على الإنتاج المعرفي، وكذا توظيف الموارد التي يمتلكها العرب كالنفط لتكون أداة لعولمة لغة الضاد، وفرض التعامل بها استثماريا وسياحيا، كما هي الحال في اللغة الإنجليزية.

«الوعي الإسلامي» شاركت في الحدث وجاءتكم بأبرز مناقشاته.

«التخطيط اللغوي والتنمية اللغوية – قضايا الترجمة والتعريب – اللغة العربية في وسائل الاتصال الإلكتروني – مقترحات عملية للتقريب بين المجامع العربية في موضوعات: المصطلح العلمي، الأرقام، كتابة الحروف، الرسم الإملائي، أسماء الشهور».. كانت هذه أبرز المحاور التي ناقشها المؤتمر على مدى أسبوعين واختتم في السادس من أبريل ٢٠١٥.

ومن الملاحظ في غالبية الأبحاث أنها ركزت على تعزيز المعرفة، وجعل اللغة العربية قاسما أساسيا فيها، ومن ثم الانطلاق بها إلى آفاق المنافسة والندية عالميا من خلال اتخاذ خطوات عملية لبسط نفوذ لغة الضاد في كل شؤون الحياة بالمجتمعات العربية. ففي بحث «المجامع اللغوية العربية بين وسيطين: الورقي والرقمي»، للدكتور محمد حسين علي زعين، عضو المجمع، المراسل من العراق، قال إن الذي يؤرخ للحضارة الإنسانية يقف على ثلاث وسائط لنقل اللغة، كان الطين أول شاهد على أنه الوسيط الحاضن لشتى أنواع المعرفة، ثم كان

الورق شاهدا على مرحلة من مراحل الإنسانية يضم على أسطره ما شاء الإنسان أن يحفظه من علوم وفنون، حتى إذا كان عصرنا كانت الشاشة فيه شاهدة على تواصل إنساني كوني، إنه عصر الإلكترون، عصر بزغ فيه الحاسوب الآلي وسيطا يضم مجاميع بشرية مختلفة الحاجات والاتجاهات والخلفيات المعرفية واللغوية، وسرعان ما استثمر الإنسان هذه الطاقة حتى أصبح العالم قرية واحدة.

مجامع إلكترونية

وأضاف د. زعين: إننا نعيش في عصر ثورة المعلوماتية، تلك الثورة التي انضم إليها مختلف الأنشطة والفعاليات، لتوجد لنفسها في ذلك الفضاء موضع قدم يجعلها على مقربة من متناول اليد، ويجعلها جزءا من القرية العالمية.

ومن خلال بحثه خرج بنتائج ومقترحات، أهمها أن الوسيط الإلكتروني أو الرقمي لا يمثل اليوم ترفا فكريا أو علميا، بل حاجة ملحة تقتضيها متطلبات العصر الحديث وما وصلت إليه الثورة المعلوماتية في العالم، حيث إن العالم اليوم قائم على استثمار هذا الوسيط لإيصال نتاجاته ومعارفه إلى كل بقاع الكرة الأرضية. وفي مجال اللغة، نجد أن المحتوى الرقمي للغة العربية يكاد يكون ضئيلا، مقارنة باللغات الأجنبية التي استطاعت أن تحتل مساحة واسعة من هذا المحتوى. ومن ثم، شدد على ضرورة قيام المجامع والمؤسسات اللغوية العربية بتفعيل مواقعها الإلكترونية وتنشيطها على الشبكة العالمية، وزيادة الاهتمام بها، ورفدها بكل جديد في الدرس اللغوي، مع جعلها نافذة للباحثين يطلعون من خلالها على الأبحاث والدراسات والقرارات التي تصدر عنها.

وتطرق إلى نشأة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، حيث أوضح أنه يعد من المجامع اللغوية العربية التي أنشئت حديثا، إذ أسس في ٦ ربيع الأول ١٤٣٣هـ، الموافق ٢٩ يناير ٢٠١٢م، في مدينة مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، ويعد أول مجمع تفاعلي على الشبكة العالمية. ويعلل القائمون عليه سبب إنشائه متخذين من الوسيط الرقمي منطلقا لعملهم، بأن الشبكة العالمية لما كانت اليوم هي الوسيلة الكبرى والدائرة الأوسع وكان الوصول إليها أيسر، عزم القائمون على هذا المجمع على تأسيسه ليكون مرقبا يجمع صفوة من العربية ونقبائها، ومرصدا لحراسها ورقبائها. وكذا، تصحيح الأخطاء الشائعة، وتيسير تعلم العربية وتعليمها وتقريبها، وتشجيع الدارسين، وإحياء التراث العلمي، والعناية باللهجات العامية في الجزيرة العربية، لاسيما في المملكة العربية السعودية.

حوسبة العربية

في الاتجاه ذاته، أعد الدكتور عبدالعزيز عبدالله تركي السبعي، رئيس مجلس أمناء المنظمة العالمية للنهوض باللغة العربية، عضو مجمع اللغة العربية، المراسل من الدوحة، بحثا بعنوان «اللغة العربية في وسائل الاتصال الإلكتروني»، أشار خلاله إلى أن مسيرة اللغة العربية في العصر الحديث تنبئ بأنها آخذة في الازدياد والتطور والانتشار، ولفت إلى أن معهد حوسبة اللغة العربية في دولة قطر يعد نموذجا متميزا، ويقوم على مهام ومسؤوليات جليلة في خدمة اللغة العربية، حيث أجرى العديد من الأبحاث والدراسات والتطبيقات في مجال حوسبة اللغة العربية، منها: تقسيم الكلام الآلي بإثبات جدوى استخدامات مقسم الكلام الصرفي لزيادة قدرة تكيف الاختلافات باللغة العربية، علاوة على استخدام خدمة «تويتر» لتأسيس مدونة عربية متعددة اللهجات، وإمكانية تحديد التعرف على لهجة الكلمات العربية المستخدمة على موقع التواصل الاجتماعي «تويتر» من خلال جدول كلمات معلومة من كل لهجة، واستخدام نماذج التوسيم لتحسين نتائج أجزاء الكلام للغة العربية، والتعرف على الأرقام والتذكير والتأنيث من خلال إجراء البحوث والدراسات لتقديم نظام آلي متكامل لمعالجة العربية.

كما تطرق إلى أهداف المنظمة العالمية للنهوض باللغة العربية، حيث تعمل على تأصيل عملية التعليم من خلال: أداء المعلم والطالب والمناهج، وضع التوجه الإعلامي بأشكاله كافة ليصبح أقرب ما يكون إلى اللغة العربية الفصيحة المعاصرة، القيام بالبحوث وتطويرها في مجال اللغة العربية واستخدام التقنيات الحديثة في ذلك، دعم جهود الترجمة من وإلى العربية وتعريب المصطلحات العلمية والتقنية.

بسط التعامل بها

وخلال بحثه، أوصى الدكتور عودة خليل أبوعودة، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، جامعة الدول العربية بأن تعمل من خلال الخطط، التي تقوم عليها برامج مؤسساتها التربوية والتعليمية، على الاهتمام باللغة العربية، وتعزيز الإيمان بأهمية التمسك بها، والسعي الجاد إلى بسط التعامل بها، قراءة وكتابة وتعبيرا، في مجالات الحياة كلها، إضافة إلى إنشاء وكالة أنباء عالمية كبرى تتبع جامعة الدول العربية، تتبنى نشر الأخبار وترجمتها من اللغة العربية وإليها، ضمن خطط منظمة تبين الاعتزاز باللغة وتمسك الأمة بها تمسكا عقديا غريزيا حتى يصبح كل فرد مدافعا عن اللغة حيثما كان.

صناعة المعرفة

وقال الدكتور عبدالفتاح الحجمري، مدير مكتب تنسيق التعريب في المغرب لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، في بحثه عن جدوى التخطيط اللغوي اليوم، إن اللغة

ليست أداة تواصل فقط، بل أيضا هي أداة قادرة على إنتاج المعرفة.

وأشار إلى أن الوضعية اللغوية في العالم العربي تتصف بجملة محددات تسمح بتواجد ازدواجية لغوية بين لغة عربية فصيحة رسمية بموجب اختيار حضاري موحد تبنته الأمة العربية منذ مجيء الإسلام وقيدته في دساتيرها، وأخرى عامية ينحصر استعمالها في الحياة العامة.

وأكد أن اللغة العربية توجد اليوم في صلب معركتنا الحضارية بكل أبعادها، الاجتماعية والثقافية والسياسية، لأنها من مقومات وجودنا وهويتنا وركيزة انتسابنا إلى العصر الحديث، وقد أضحى قرية واحدة وصغيرة تتداخل فيها اللغات والثقافات.

كما أشار إلى أن امتلاك رصيد لغوي موحد وتنسيق الجهود البحثية وتوفير شبكة عربية للمصطلحات وإنشاء مجمعية حاسوبية محيَّنة، هي اليوم إجراءات كفيلة لمواجهة صعوبات تدفق المعلومات، كما أنها تسمح للغة العربية بإقامة تفاعل نقدي مع المعرفة في مختلف مجالات البحث العلمي والاجتماعي والتقني.

وفي بحثه «السياسة اللغوية وتنمية اللغة العربية»، قال الدكتور علي القاسمي، إن السياسة اللغوية هي خطة علمية لتنظيم الشأن اللغوي، وتتولى الدولة عادة التخطيط اللغوي في البلاد لتحديد: وظائف اللغات الوطنية والأجنبية، مجالات استعمالها، العلاقات بينها، طرق تنميتها أو محاصرتها والقضاء عليها.

ومن الجائز أن تمارس التخطيط اللغوي السلطة المحلية في الولاية أو المقاطعة، كما يمكن أن تكون لكل منظمة دولية أو مؤسسة علمية سياستها اللغوية، مشيرا إلى أنها لا تتوقف عند وضعها والإعلان عنها، بل تحتاج إلى نقلها من مرحلة التفكير والتخطيط إلى مرحلة الفعل والتطبيق.

ولفت إلى أن السياسة اللغوية، كبقية السياسات، التعليمية والصحية والاقتصادية، تحتاج إلى إرادة مخلصة، وتخطيط علمي قويم، وتنفيذ حازم أمين، بل هي أهم السياسات جميعا؛ لأنها الأساس والمنطلق في التنمية البشرية بعد أساس العدالة الاجتماعية.

وأكد أن السياسة اللغوية الرشيدة تعمل على تنمية اللغة المشتركة وتعميمها في الحياة العامة، وفي التعليم في جميع مجالاته وتخصصاته، والإعلام، والمؤسسات الاقتصادية والمالية، وإنشاء المدونات النصية المختلفة دعما للبحث اللغوي، وتنمية وجودها، وتشجيع الترجمة من اللغات العالمية إليها وبالعكس، وتطوير طرق تدريسها، وتيسير نحوها وكتابتها.

فرض اللغة

في السياق ذاته، طالب محمود أحمد السيد، عضو المجمع، المراسل من سوريا، بفرض اللغة في مجالات التعامل والخدمات وتعريب العلوم، مؤكدا أن ذلك من شأنه أن يدفع بجهود نمو وتمكين اللغة لتخرج من إطار لغة التواصل فقط، إلى آفاق أوسع، كصناعة المعرفة وتداولها على نطاق عالمي، ويتطلب ذلك إرادة قوية من الدول العربية، خصوصا المصدرة للنفط، بأن تكون معاملاتها، داخليا وخارجيا، قائمة على اللغة العربية، ومن ثم دفع شتى دول العالم لإتقانها واعتمادها لغة رسمية، ليس على سبيل التخاطب فقط، بل في الاستثمار أيضا.

وذهب أيضا إلى إمكانية فرض اللغة شرطا أساسيا على العمالة الوافدة إلى الدول العربية، خصوصا من البلدان الإسلامية غير المتحدثة باللغة العربية، كذلك فرض تعريب الوثائق ومطبوعات السفر والخدمات البنكية والبريدية والمراسلات الإلكترونية على القادمين إلى البلاد العربية والخدمات في المواقع السياحية والفنادق. وطالب أيضا بضرورة دعم السياحة الثقافية بإبراز الآثار العربية، خصوصا المحلات منها، بالحرف العربي، وكذلك المخطوطات، واستثمار جمالية الخط وتوظيفها في الرسم والعمران والمنسوجات والنقش والمنحوتات، وفي القلب من ذلك كله الاستثمار البشري بإعداد جيل قوي منتج، يعتز بلغته، ويحرص على نقلها، بل وفرض التعامل بها، فكما أن المواطن العربي يتم إجباره على التعامل بلغة البلد الأجنبي الذي يذهب إليه حتى إن لم يكن يجيدها، ومن ثم يسعى إلى تعلمها، فبالمثل ينبغي إلزام الوافد الأجنبي إلى البلدان الناطقة بالعربية بأن يتعلم الحديث بلغة أهلها.

أرقامنا بين الهند والعرب

وفي سياق متصل، حظيت الأرقام العربية بنصيب كبير من الاهتمام أيضا، وقدمت الوفود العديد من البحوث، كان أبرزها «الأرقام الحسابية بين الهند والعرب»، والذي أعده الدكتور أحمد بن سعود السيابي، عضو المجمع، المراسل من سلطنة عمان. وعن سبب إثارة الموضوع في هذا العصر، أشار إلى أن الأقطار العربية والإسلامية شهدت في القرن التاسع عشر الميلادي زحفا أوروبيا متمثلا في المستعمرين الأوروبيين لبلادها، إما على شكل حكم مباشر، وإما على شكل حماية. وقد صحب الغزو العسكري في ذلك الاستعمار غزو ثقافي لا يقل خطورة عن الغزو العسكري، وربما أشد منه. ولفت إلى أن المعركة بين الأرقام الغربية والشرقية مستمرة، ولا أحد يدري إلى أي منها يكون الظفر ويتحقق النصر.

وتحت عنوان «استبدال الأرقام المغربية بالمشرقية»، قال: تعلو الصيحات وترتفع الدعوات إلى استعمال الأرقام المغربية بدلا من الأرقام المشرقية،



كبار النقاد والأدباء في المؤتمر

على اعتبار أن المغربية هي الأرقام العربية أما المشرقية فهي الهندية، وليس ذلك، حسب رأيي، من قبيل التعاطف مع المغرب العربي أو تقليده، وإنما ذلك من باب الرغبة في اتباع الغرب وتقليده، لتنطبق علينا النظرية الخلدونية حول ولع المغلوب باتباع الغالب وتقليده.

وأضاف: على أن استعمال الأرقام المشرقية كان هو السائد في المغرب العربي الإسلامي، لاسيما المغربين الأدنى والأوسط (ليبيا، تونس والجزائر)، ولعل استعمال الأرقام المغربية كان منحصرا في بعض أقاليم المغرب الأقصى المتمثلة في المملكة المغربية، وذلك قبل عصر الاستعمار الغربي على المغارب الثلاثة، بل كانت هنالك دعوة جيدة إلى استعمال الأرقام المشرقية في بعض الأقطار المغربية أو المغاربية بعد الاستقلال، فقد ذكر الدكتور أحمد مطلوب عددا من المؤلفات والمجلات والصحف التي أخذ أصحابها يؤرخونها بالأرقام المشرقية، حتى إن الجزائر كتبت على عملتها النقدية الأرقام المشرقية.

وفي خاتمة البحث، أوضح أن الدعوة إلى استبدال الأرقام المغربية عن الأرقام المشرقية فيها جناية على تراثنا العربي الإسلامي العظيم، هذا التراث الضخم الذي كتبت أعداده وتواريخه بالأرقام المشرقية، وفي ذلك إهمال للذاكرة العربية وتنكر لها.

وفي بحثه عن «أصالة الأرقام والشهور العربية»، قال الدكتور أحمد مطلوب، رئيس المجمع العلمي في بغداد، إنه لم تشهد لغة هدما كما شهدته اللغة العربية، حيث إنها منذ أن بسطت جناحيها على مشارق الأرض ومغاربها تتعرض للانتقاص، لاسيما في القرن العشرين، على الرغم من أن القرآن نزل بها، وألفت بها الكتب، ودرس بها ونظم بها أروع الشعر وأعذبه، واتسعت للتعبير عما في النفوس من رغبات.

وشدد على أن التمسك بصورة الأرقام «١، ٢، ٣...»، والأخذ بأسماء الشهور «كانون الثاني، شباط، ...» سبيل إلى ترسيخ هوية الأمة العربية التي تواجه التحديات، وما يحاك من دسائس وفتن، وما يبرم من أحابيل لتذوب في بحر العولمة، ومعلم من معالم وحدة العرب وهم يغذون الخطى نحو عالم جديد.

إحساس بالذنب!

وكان رئيس مجمع اللغة العربية، الدكتور حسن الشافعي، قال في كلمته الافتتاحية للمؤتمر: إن العلم والمعرفة يرتبطان، منذ البداية، بالحرف والكلمة والأسماء واللغة والإفصاح والبيان، ولم تكتمل دائرة الخلق ومناط الحكمة من الوجود إلا بخلق الإنسان، حيث يقول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن:١-٤). واستطرد أن رجال المجامع اللغوية يواجهون تحديات كبرى، ويتحملون مسؤوليات ثقال، مؤكدا: ومع ذلك، نحاول ألا نفقد صفاء العقل وثبات الروع في مواجهتها، وقد يلاحظ المتابع لأحوال الشعوب والأقطار العربية على ما تعانيه من شدائد وأخطار مصيرية أنها أدركت تقصيرها في حق لغتها الشريفة، وتركت العابثين يهينونها في عقر دارها، فبدأت حركة من الحنين والإحساس بالذنب في حق لغتنا وحضارتنا، بل قل: وجودنا وهويتنا وبقاؤنا ومصيرنا.

عثرات الأقلام (٣)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

من عثرات الأقلام قولهم: «قاطعه عدة أمرار» (جمع «مرة». ويقال في جمعها أيضا: «مرات»)، وصوابه: «عدة مرار» من دون همزة.

وقولهم: «رجوته أن يتوسط في مسألة الإصلاحات»، صوابه «رجوت منه»؛ لأن فعل «رجا» إذا تعدى بنفسه كان معناه الخوف تارة، والأمل تارة أخرى، فيقال: «ما له لا يرجو الله»، أي لا يخافه، و«إنا لنرجو شفاءه»، أي نأمله ونتوقعه. وأما إذا كان معناه الطلب من الشخص، فالواجب تعديته إليه بحرف الجر «من»، فيقال: «رجوت منه أن يتوسط في الإصلاحات»، لا «رجوته»، و«أرجو منك أن تزورني»، لا «أرجوك»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ (النساء:١٠٤).
واستعماله من دون «من» غلط فاش جدا، فليتفطن له.

وقولهم: «إلا إذا اقتضت الحال للذهاب لبيروت»، وصوابه: «اقتضت الحال الذهاب» من دون حرف الجر، وكذلك فعل «الذهاب» يتعدى إلى مفعوله بحرف الجر «إلى» لا «اللام»، فيقال: «الذهاب إلى بيروت – لا لبيروت».

وقولهم: «وإذا كانت المحكمة كائنة في بلدة كذا»، صوابه: «وإذا كانت المحكمة في بلدة كذا»، بحذف كلمة «كائنة»؛ لعدم الحاجة إليها. والتصريح بكلمتي «كائن» و«كائنة»، اللتين تتعلق بهما «في» الظرفية، غلط فاش جدا، لاسيما في الصكوك والإعلانات.

وقولهم: «دع الارتكان إلى فلان»، أو «على فلان»، يريدون: دع الاعتماد عليه أو الأمل فيه، وهو خطأ، وصوابه: «دع الركون إليه».

وقولهم: «جماد الأول» و«جماد الثاني» غلط، وصوابه: «جمادى الأولى» و«جمادى الثانية»، بتأنيث الموصوف والصفة.

وقولهم: «كلفه دولة الحاكم بكذا»، صوابه: «كلفه كذا» من دون الباء؛ لأن فعل «كلف» يتعدى إلى مفعول بنفسه.

وقولهم: «حكمت عليه المحكمة بجزاء نقدي يتراوح بين خمسة إلى خمسين ليرة». يقال: «راوح بين العملين»، إذا فعل هذا مرة وهذا مرة، «وتراوح زيد وعمرو الأمر الفلاني»، فعلاه هذا مرة وهذا مرة. ففي العبارة المذكورة وأشباهها «لا معنى للتراوح»، فينبغي أن يقال: «حكمت عليه المحكمة بجزاء نقدي من خمسة إلى خمسين ليرة»، أو «أقله خمس ليرات وأكثره خمسون»، أو «يختلف بين خمس ليرات وخمسين ليرة».

وقولهم: «ذهب إلى المطبعة لأجل تصحيح البروفا». والأولى أن نستغني عنها بمثل كلمة «المثال» أو «النموذج» أو «الطبق» (من المطابقة).

وقولهم: «أظهر دولة الحاكم لهم حسياته الخفية أو حاسياته الخفية». أما «حاسيات» فأصلها «حاسات»، وهي الحواس الخمس الظاهرة، وهي لا توصف بكونها خفية. وأما «حسيات» فالأولى الاستعاضة عنها بـ«أحساس» بفتح الهمزة (جمع حس، الذي معناه رقة النفس وعطفها)، والأحسن من ذلك كله أن يقال: «عواطف» أو «أميال».

وقولهم: «قد بلغت كل دائرة ما يختصها»، صوابه: «ما يخصها أو يختص بها» (أ.هـ).

وأتيت يا رمضان

هند حامد النزاري
المملكة العربية السعودية- المدينة المنورة

وأتيت تهدي الفجر للفجر   وتبث روح الخير في الخير
وأتيت والآفاق أفئدة   مرهونة بمنازل البدر
فكأنها ورؤاك غايتها   جمعت خيوط العام في شهر
وكأنها مذ ودعتك هنا   قد أومأت للشمس بالأمر
فمحت حساب الوقت وامتثلت   ترنو إلى أيامك الزهر
آنستنا يا واحة ورفت   وجحيمنا في الأرض يستشري
وحرائق الأرزاء تكنفنا   والموت عبر عروقنا يسري
تغفو الأماني في محاجرنا   لتفيق من عسر على عسر
عام أضيف إلى هزائمنا   أواه يا رمضان لو تدري
كم شُرِّبَتْ بالصبر ريشته   كي تمزج الآلام بالحبر
لما رآنا نحتسي دمنا   ونصد نار الغدر بالغدر
جسدا تنازع حارَ ساجدُنا   يدعو لأيٍّ يديه بالنصر
رمضان دع ما قلت إن يدي   نزفت مداد الحزن من صدري
فاستقبلتك مواجعي هربا   لحماك فاقبل سيدي عذري
واشفع لحرف ظامئ لهف   في حالك الأيام للفجر
يا قادما ما زال مرتحلا   شتان بين الوصل والهجر
هيا املأ الآفاق مرحمة   وابسط يديك بوارف البشر
وابذل لنا الأطياب نرقبها   إنا نروم مضاعف الأجر
إنا إلى رياك في شغف   وإلى الندى والعتق والطهر
ولأنت والأرواح ملحمة   أزلية كالأرض والقطر
رمضان شكرا أن رجعت على   ما كان واستعصمت بالصبر
شكرا لأنك ما برمت بنا   وجنوحنا في السر والجهر
شكرا لمن أهداك أمتنا   وهو الحقيق بأعظم الشكر
بر كريم البذل بلغنا   شهرا يغير حسبة الدهر
رمضان يا زمنا يطير بنا   للأفق من عشر إلى عشر
يزجي السلام إلى عوالمنا   متهاديا في ليلة القدر
يا روضة القرآن كم أمل   أحييته في خشعة الوتر
يا منبع الخيرات يا سكن   الأرواح يا بوابة الذكر
عد ثم عد فالعمر يسرقنا   وشموسنا لمغيبها تجري
واعبر بنا وارأف بغربتنا   ثقلت علينا وطأة الوزر

إبراهيم عبدالقادر المازني

د. محمود خلف
باحث أكاديمي

من أعلام الشعر والفكر والأدب المعاصر، أديب مجدد، من كبار الكتاب. امتاز بأسلوب حلو الديباجة، تمضي فيه النكتة ضاحكة من نفسها، وتقسو فيه الجملة صاخبة عاتية.

في بيت عتيق على حدود الصحراء في القاهرة. ولد إبراهيم عبد القادر المازني سنة ١٣٠٨هـ - «١٨٨٩م» في «كوم مازن» من المنوفية بمصر، نشأ في بيئة دينية متواضعة، إذ كان أبوه محاميا شرعيا، ولم يكن على شيء من الثراء. ولم يتمتع إبراهيم طويلا برعاية أبيه، فقد توفي وهو في سنيه الأولى، ولم تقعد بأمه فاقتها، فقد رعته وألحقته بالمدرسة الابتدائية، حتى إذا أتمها التحق بالمدرسة الثانوية، وعينها من ورائه.

وطمح بعد إكمال دراسته الثانوية إلى الالتحاق بمدرسة الطب، لكنه لم يكد يدخل غرفة التشريح، حتى أصابه غثيان شديد، فانصرف عن الطب، وفكر في الالتحاق بمدرسة الحقوق، إلا أن ضيق ذات يده رده عنها إلى مدرسة المعلمين. وفي هذه المدرسة أخذت ملكته الأدبية في الظهور، فعكف على قراءة الأدب القديم يقرأ في كتابات الجاحظ، وفي كتاب الأغاني وفي الكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي وغير ذلك من عيون النثر العربي القديم، كما أخذ يقرأ في الشريف الرضي ومهيار وابن الرومي والمتنبي، وأضرابهم من الشعراء البارعين.

بدأت كتاباته منذ اشتعال الثورة المصرية ١٣٣٨هـ - «١٩١٩م». وشارك الثائرين في كتابة المنشورات التي تؤجج أوارها، حتى هددته السلطات بالنفي والتشريد، ومع ذلك ظل مشتغلا بالسياسة والصحافة حتى آخر لحظات حياته.

وكان الكتاب يتخيرون لتعابيرهم ما يسمونه «أشرف الألفاظ»، فيسمون به عن مستوى فهم الأكثرين، فخالفهم إلى تخير الفصيح مما لاكته ألسنة العامة، فأتى بالبين المشرق من السهل الممتنع. وعمل في جريدة «الأخبار» مع أمين الرافعي، و«البلاغ» مع عبدالقادر حمزة، وكتب في صحف يومية أخرى، وأصدر مجلة «الأسبوع» مدة قصيرة، وملأ المجلات الشهرية والأسبوعية المصرية بفيض من مقالاته لا يغيض. وعاش عيشة «الفيلسوف» مرحا، زاهدا بالمظاهر. وكان من أرق الناس عشرة، ومن أسلسهم في صداقته قيادا، يبدو متواضعا متضائلا - وفي جسمه شيء من هذا - وفي قرارة نفسه أشد الاعتزاز بها والعرفان لقدرها. يمزح ولا يمس كرامة جليسه، مخافة أن تمس كرامته.

ويتناول نقائص المجتمع بالنقد، فإذا أورد مثلا جعل نفسه ذلك المثل، فاستسيغ منه ما يستنكر من غيره. وله كتب، منها: «حصاد الهشيم» مقالات، و«إبراهيم الكاتب» جزآن، قصة، و«قبض الريح» و«صندوق الدنيا» و«ديوان شعر» جزآن صغيران، و«رحلة الحجاز» و«بشار بن برد» و«ميدو وشركاه» قصة، و«ثلاثة رجال وامرأة» و«غريزة المرأة» و«ع الماشي» و«شعر حافظ» في نقده، و«الشعر، غاياته ووسائطه» رسالة، وترجم عن الإنجليزية «مختارات من القصص الإنجليزي» و«الكتاب الأبيض الإنجليزي».

وشعره في جزأين ليس فيه سياسة ولا وطنية ولا دعوات اجتماعية؛ وإنما هو تجربة نفسية تامة، وهي تجربة تفيض بالألم والكآبة إزاء الطبيعة والتفكير في النفس والحياة الإنسانية ومتاعس البشرية، ويأخذ ذلك شكل انفجارات وجدانية. وربما كان مرجع ذلك عنده إلى أنه كان صاحب نفس حساسة وشعور مرهف إلى أبعد ما يكون الإرهاف الدقيق. ولم يكن شيء في حياته مفرحا، فقد ذاق ألم اليتم صغيرا، وكان قصيرا تقتحمه العين، وأحس ذلك في نفسه، فضاق بحياته وتبرم بها غاية التبرم، وزاد تبرمه حدة أن أصيب ساقه في حادثة سببت فيه عرجا، لازمه إلى مماته.

وهو لا يبارى في مقالاته التي يصف فيها مشاعره وخوالجه؛ إذ كان مرهف الإحساس، وكان إذا تعمق التأثر نفسه فاضت عليه خواطره، وكأنها تفيض من نبع لا ينضب. ومن خير ما دبجته براعته من ذلك ما جاء بكتابه «في الطريق» من حديثه عن ابنته الصغيرة التي اختطفها القدر من بين يديه،

وهي في غرارة الطفولة، فقد صور ذكرياته معها وما كانت تأتيه من لعب وعبث تصويرا باكيا رائعا.

● أسلوب المازني

تكشف آثار المازني عن أسلوب مشرق فكه ساحر وساخر، محبب إلى النفس، نابع من ثقافة عريضة، وموهبة قادرة على إذابة العامية في الفصحى، وينفرد بسخرية ناعمة، تجلوها روح الفكاهة المصرية العذبة الخالصة، وأهم ما يميز أسلوبه ما يلي:

١- البساطة في التعبير، واستخدام المألوف من الألفاظ، والمشهور من العبارات، وإظهار الألفاظ الدارجة في ثوب فصيح.

٢- العناية بالأمثال الشعبية، ورسم صورة للبيئة المصرية عامة، والقاهرية بصورة خاصة، وإيثار الدعابة الساخرة التي تمثل روحه.

٣- جمله قصيرة متلاحقة، وعباراته سلسة شائقة.

٤- إيثار الألفاظ الغريبة في معارض السخرية، أو إظهار المفارقة، أو الإضحاك، فنراه يخاطب المتعالي قائلا: «أيها الفطحل»، ويتحدث عن المتحذلق فيقول: إنه من «الجهابذة»، وعند امتلاء البطن يقول: «إنه شعر الكظة».

٥- تشبيهاته جديدة دقيقة وطريفة، فتراه يقول: «أقدم من هرم خوفو»، و«معدتي طاعنة في السن كمخلاة قديمة»، و«الزواج يشبه لبس الحذاء»، و«الأعزب كالذي اعتاد الحفا»، و«كانت لا تريد أن تتزوج، وصدقت فما تزوجت لأنها ماتت» و«كان شديد السكر حتى إنه كان يمشي متزنا»، وغيرها كثيرة وعديدة.

٦- المحافظة على الإطار اللغوي في قواعده وتراكيبه ومفرداته.

وبذا وغيره كان المازني في فكاهاته وسخرياته فنانا رائدا مبدعا، عميق الغور، واسع الأفق، انطبعت مختلف



مظاهر الحياة المصرية في نفسه، فعبر عن صورها في قوة ووضوح.

● الصورة الأدبية عند المازني

وأما إبراهيم عبدالقادر المازني: فيرى أن الصورة الأدبية غير فن التصوير والرسم، فهي غنية بالحركة والحيوية، وتعاقب الزمن وقتا بعد وقت، حتى يأتي الشاعر على الحركة المقصودة من الصورة، بينما فن الرسم جامد ليس له إلا لحظة واحدة من الزمن، وهي تلك اللقطة التي يختارها الرسام من الزمن، ليودعها فنه وريشته، كما أن الصورة الأدبية تنفرد أيضا بخاصة لا توجد في فن التصوير، وهي أن الشاعر ينقل للقارئ المنظر المراد تصويره، من خلال مشاعره، وخواطره، ويلونها من داخل نفسه، فتؤدي عند القارئ إلى إثارة مثل هذه الأحاسيس والمعاني والآمال والخوالج.

والمازني يرى أن الصورة ليست هي مجرد الشكل الذي يقابل المضمون، ولكنها تصدر عن الوسائل الفنية للشكل، وهو ما يفيده النظم عند الإمام عبدالقاهر، إلا أنه تناولها في عمق وجدة تبدو في أمور:

أ- وضح مفهوم الصورة على وجه التقريب، وتكون في تناول المنظر المراد تصويره من خلال خواطر الشاعر وأحاسيسه وتلوينها بذات نفسه وعاطفته.

ب- أن الصورة ليست خطبة بنص الشاعر فيها على المراد، وما يقصده صراحة، ولكن على الشاعر بموهبته الفنية أن يدع الصور تتحدث بذلك، وتكشف عن الأثر الكامن فيها لا الشاعر.

ج- أن الصورة الأدبية لها لحظات في الزمن تتعاقب وتحدث ما فيها من حركة حيوية، وهما لب الصورة وعصبها، وهذا هو الفارق المميز بينها وبين الرسم.

د- أن المازني جعل الخيال هو الأساس في الصورة، وبه يتفوق صاحبه على غيره، ويقسم الخيال قسمين: أحدهما الخيال الحسي، وهو ما يستمد فيه الشاعر البواعث على الابتكار من ظواهر الطبيعة، وهو في نفس الوقت تصوير الشيء على حقيقته، كما يقع تحت الحس في الواقع، من غير إعمال ولا تحوير، وهذا ضرب نادر في الصورة؛ لأن وجود الخيال فيها لابد أن يأخذ مجراه، ويعمق أجزاءها. ثانيهما: تخييلي، وهو ما يستمد الشاعر فيه البواعث على الابتكار من نفسه وخواطره وعواطفه؛ لأن الأصل في الشعر سعة النظر، وعمق المعاني، فقد يتناول الشاعر منظرا محدودا في نظر الرائي، ولكنه يراه بالمعنى الأوسع والأعمق مما يراه الآخر.

وتقديرا له ولمكانته الأدبية وما بذل من جهود قيمة في أدبنا المعاصر اختير عضوا بمجمع اللغة العربية.

مكبا على التحرير في الصحف وإخراج القصص والأعمال الأدبية المختلفة حتى انطفأت شعلة حياته في سنة ١٣٦٨هـ - «١٩٤٩م».

رحلة في «زاد المعاد»

عبدالله محمد الدرويش
باحث دراسات إسلامية



فخرت أمتنا بعلمائها، وازدهت على الدنيا بكريم خصالها، فلا يمضي زمن إلا ويبّرز للكون آثار نهضتها.. والكتاب الذي بين أيدينا ألفه عظيم من عظماء هذه الأمة، حق لنا أن نفخر به وبأمثاله، وأن ننادي في الخافقين أين لكم من أمثاله؟!.

إنهم علماء أفذاذ بذلوا مهجهم في سبيل رسم الطريق لكل السالكين إلى الله، فيما يصلح دنياهم وأخراهم، فلم يبخلوا بجهد من جهودهم، أو علم من علومهم، إلا وقدموه طيبة به نفوسهم، يبتغون بذلك الأجر والمثوبة من الله عزوجل، وهم مع ذلك استفادوا من جميع أوقاتهم فلم يضيعوا شيئا هباء، ولم يسمحوا لسيف الزمن أن يقطعهم.

فهذا الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه ألف كتابه في حال سفر، وتشتت قلب، وتفرق همة، كما حدث عن ذلك في أثناء كتابه.

وهذا من أكبر دواعي معرفة مقدرة هذا الإمام على الاستفادة من المخزون المعرفي والثقافي الذي كان نبعا دفاقا ظهرت معالمه في هذا السفر العظيم الذي توضحت فيه آثار من سبقه، وألقت أنوارا وضاءة أنارت سبيل من لحقه.

فتلحظ عميق فقهه وفهمه في دراسته للموضوعات المطروحة ومناقشته لكل قضية فيها إشكال.. وليس هذا محصورا في مناقشته الفقهاء بل تعداه إلى اللغويين والنحاة، فلا يأخذ قولا على عواهنه، وإنما يدقق ويمحص بعد ذكر أقوال السابقين واللاحقين، فإذا كانت مسألة تتعلق بالنحو ذكر مدارس البصريين والكوفيين، وكشف النقاب عن الخطأ في المسألة.

وهو واثق مما يقول، لأن ما عنده غير موجود عند الآخرين، وتعبيره عن ذلك: وهي مسألة شريفة لعلك لا تراها في مصنف.

وتنبع ثقته من عدم تعلقه بالأشخاص، وجنوحه إلى التمسك بالصحيح دون الوقوف عند الرجال.. ولذلك مال إلى مخالفة شيْخه وصرح بذلك. على الرغم من محبته البارزة لشيخه، إذ لا يخلو بحث من نقل عنه من رسائله أو أجوبته، وحتى ما يشاهده من أفعاله وتصرفاته.

حتى أننا عرفنا أنه ألف هذا الكتاب بعد وفاة شيخه، وكأنه بذلك يؤرخ لنضج فكره، وعميق فقهه، إذ إنه كتب كتابه بعدما عركته الحياة، وكشفت له الحقائق، وأنارت له السبل.

ونستطيع القول: إنه يؤرخ لعصره وما فيه من محاسن ومساوئ.

ولهذا: نكشف متابعته لحوادث عصره وما كان فيه من فتن ومؤامرات، وما كان للمؤلف من منزلة في قلوب الخلق، مع تبيان منزلته عند أولياء الأمر، حيث كانوا يستفتونه في الوقائع الجارية. وتآمر بعضهم على المسلمين.

وبذكره للوقائع نتعرف على بعض مظاهر العداوة لأهل دمشق ومقاومتهم للغزاة.

كما أنه يؤرخ لحياته وحياة من يعرفه ويحبه، ولذلك: يذكر حواره مع أهل الكتاب.

ويمر عرضا على ما يجري معه من أمراض وعلل في رحلته، حيث تحدث عن مرضه في مكة واستشفائه بالفاتحة وماء زمزم. وإصابته بالحمى.

ويرشدنا خلال ذلك إلى كتبه وما يؤمل في كتابته.. حيث يبين أن بعض الأبحاث مستوفى في كتاب له هو:

. التخيير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير.

وينبه على مواطن تحتاج إلى إطالة فيقول: وعسى أن نفرد فيه مصنفا شافيا إن شاء الله تعالى.

- تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام.
- مفتاح دار السعادة.
- مدارج السالكين.

ولا نعدم منه إيضاحا وبيانا لفائدة بعض هذه الكتب حيث يقول عن جلاء الأفهام: وهو كتاب فرد في معناه، لم يسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها... .

وإذا أراد من القارئ أن يوسع مداركه في التعرف على معلومات أكثر ذكر له أنه أشبع الكلام في هذه المسألة في كتاب كذا.

أو يحيل على مكان غير معين فيقول: وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجها قد ذكرت في غير هذا الموضع.

وهو في منهجه يعتمد:

١. التجربة في كثير من الأمور الطبية. والشرعية.

٢. المشاهدات الحسية التي يلحظها وله أثر فيها.

٣. الرؤى المنامية، وقد أخذ ذلك عن شيخه الشهاب العابر.

٤. النقول من الكتب الأصلية للمذاهب وغيرها، فينقل فصولا كاملة من المازري وابن قدامة في المغني، وابن حزم في المحلى بالآثار، ويسميه منجنيق الغرب.

ومن كتب الرجال: ككتب شيخه المزي... .

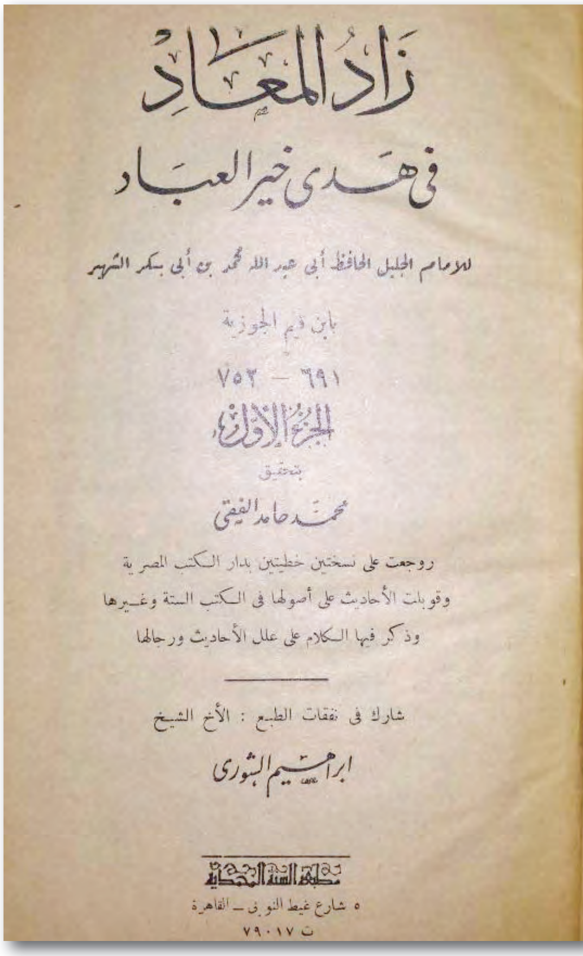
وينقل نصوصا بأسانيدها من كتب بعضها مفقود، مما يعطي كتابه أهمية أصالة النصوص.

٥. الشيوخ: كان المصنف كالنحلة يأخذ الرحيق من كل الزهر.

والمتتبع لكتابه يلحظ استفادته من كثير من علماء عصره في كل الفنون، وإن كان أخذه عن بعضهم أكثر من بعض، فهو شديد الصلة بشيخ الإسلام يرقبه في كل حركاته وسكناته، وينقل عنه كل صغيرة وكبيرة، ويستذكره في كل مناسبة تعرض، وينقل بعض رسائله بنصها وفصها. كما ينقل عنه أصالة مشافهة أو بالواسطة فيقول: بلغنا عن شيخنا أبي العباس.

وكانت صلته بالعلماء منذ صغره ونعومة أظفاره، فظهرت مقدرته على تمييز الجيد من الرديء، وأسفه أن لا يكون قد قرأ علوما على بعضهم لانخرام منيتهم، من أمثال شيخه أحمد بن عبد الرحمن المعروف بالشهاب العابر حيث قال: وهذه حال شيخنا هذا، ورسوخه في علم التعبير، وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه، لصغر السن، واخترام المنية له رحمه الله تعالى.

ويصرح بسماعه وقراءته على أمثال الحافظ أبي الحجاج المزي في كتبه: كالتهذيب.


زاد المعاد
في هدى خير العباد
للإمام الجليل الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير
بابن قيم الجوزية
٦٩١ – ٧٥٢
الجزء الأول
بتحقيق
محمد حامد الفقي
روجعت على نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية
وقوبلت الأحاديث على أصولها في الكتب الستة وغيرها
وذكر فيها الكلام على علل الأحاديث ورجالها
شارك في نفقات الطبع: الأخ الشيخ
ابراهيم الثوري
مطبعة السنة المحمدية
٥ شارع غيط النوبي – القاهرة
ت ٧٩٠١٧

وهو لا يقف عند شيخ لا يتعداه، بل يقتنص الفوائد من كل الناس، ولذلك يقول: سمعت أحمد بن المعدل ينشد.

وله استفادة من أصحابه حيث يقول: وحدثني صاحبنا أبوعبدالله محمد بن عثمان الخليل المحدث ببيت المقدس.

ويعزو الكلام لصاحبه منوها بفضله وفضل أهله، كقوله: أخبرني بذلك عنه ولده الإمام عز الدين عبدالعزيز أبوعمرو أعزه الله بطاعته.

وعندما كان يتحدث عن طب النبي ﷺ استفاد من حذاق عصره في الطب وإن لم يذكر أسماءهم فيقول: أخبرني بعض حذاق الطب. وقال لي بعض فضلاء الأطباء.

وهو إمام في كل الفنون التي تطرق إليها؛ يحسبه من لم يتابعه في أبحاثه أنه لا يعرف غير ذاك العلم. وكأنه أراد من ذلك الوصول إلى حقيقة عقد الإخاء بين الحكمة والشريعة وعدم مناقضة أحدهما للآخر.

فإذا كشف عن علل الأحاديث رأيت ناقدا متقنا من أهل الفن يميز الطيب من الخبيث، ويكشف العلل، ويعرف الدقائق، مع تمييزه لطريقة العلماء المحققين من أمثال الإمام مسلم.

وإذا أورد أمثلة من اللغة أطنب حتى تظنه قد استوعب ما في كتب اللغة وكأنه متخصص في ذاك الفن.

ومن يستعرض كتابه من أوله إلى آخره، يجد فيه العالم المتقن، والفقيه المتمكن، والمؤرخ المدقق، والمحدث النقاد، الذي حاز قصب السبق في كل فن من فنون علم الشريعة، فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع نفسه، وربه، ومجتمعه.

فكان طبيب الأجساد، والأرواح، يعطي من هدي المصطفى ﷺ الأدوية الناجعة، والبلسم الشافي.

تهذيب الكمال للحافظ المزي

التحرير

حينما ألفت الكتب الستة في الحديث؛ عدها جهابذة المحدثين دواوين الإسلام؛ فعنوا بها وبرواياتها وتدقيقها، فاشتهرت في بلاد الإسلام، وذاع صيتها بين الناس، ونتيجة لذلك ألفوا الكتب المعنية بتناول الرجال الواردين في أسانيدها منذ القرن الرابع الهجري. لكن أحدا لم يجمع شيوخ أصحاب الستة قبل الحافظ أبي القاسم بن عساكر، رحمه الله، في كتابه «المعجم المشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة النبل»، ثم جاء الحافظ الكبير عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي، رحمه الله؛ فألف كتابه «الكمال في أسماء الرجال»، وتناول فيه رجال الكتب الستة، وهو أول من ألف في رواة الكتب الستة؛ حيث لم يقتصر على شيوخهم، بل تناول جميع الرواة المذكورين في هذه الكتب من الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى شيوخ أصحاب الكتب الستة، لكنه لم يستقص الأسماء التي اشتملت عليها استقصاء تاما، ولا تتبع جميع تراجم الأسماء التي ذكرها في كتابه تتبعا شافيا؛ فحصل في كتابه بسبب ذلك إغفال وإخلال، وهذا ما دفع الحافظ المزي، رحمه الله، لاستدراك هذا النقص في كتابه «تهذيب الكمال» (١).

وقد كتب المزي لكتابه مقدمة ممتعة طويلة اشتملت على مفاتيح كتابه، ومنهجه في استدراكه وجمعه وتحريره، وها نحن ذاكرون منها قطوفا متنوعة، لندل القارئ على فضلها وفضل الكتاب الذي دلت عليه.

قال، رحمه الله، بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيه: «أما بعد، فإن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحجة، وداع إليه على بصيرة، لكي لا تبطل حجج الله وبيناته، فهم، كما وصفهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: «أولئك هم الأقلون عددا، الأعظمون عند الله قدرا، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان قلوبها معلقة بالمحل الأعلى شوقا إلى لقائهم، وإذا كان الأمر كما ذكرنا، والحال على ما وصفنا، فواجب إذن على كل مكلف ذي عقل سليم مطلق من إسار الشهوات الحيوانية والشبهات الشيطانية أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تحصيل الفوز بالنعيم الأبدي، والنجاة من العذاب السرمدي».

ثم بين أن تلك النجاة مرتبطة بمدى التمسك بالكتاب والسنة، وأن الكتاب محفوظ بحفظ الله له قدرا وشرعا، فقال:

«وأما السنة، فإن الله تعالى وفق لها حفاظا عارفين، وجهابذة عالمين، وصيارفة ناقدين، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فتنوعوا في تصنيفها، وتفننوا في تدوينها على أنحاء كثيرة وضروب عديدة، حرصا على حفظها، وخوفا من إضاعتها، وكان من أحسنها تصنيفا، وأجودها تأليفا، وأكثرها صوابا، وأقلها خطأ، وأعمها نفعا، وأعودها فائدة، وأعظمها بركة، وأيسرها مؤونة، وأحسنها قبولا عند الموافق والمخالف، وأجلها موقعا عند الخاصة والعامة: صحيح البخاري، ثم صحيح مسلم، ثم بعدهما كتاب السنن لأبي داود، ثم كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي، ثم كتاب





كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال

للإمام الحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي

٦٥٤ - ٧٤٢ هـ

نسخة مصورة عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية

دار المأمون للتراث

السنن لأبي عبدالرحمن النسائي، ثم كتاب السنن لأبي عبدالله ابن ماجه القزويني، وإن لم يبلغ درجتهم.

ولكل واحد من هذه الكتب الستة مزية يعرفها أهل هذا الشأن، فاشتهرت هذه الكتب بين الأنام، وانتشرت في بلاد الإسلام، وعظم الانتفاع بها، وحرص طلاب العلم على تحصيلها، وصنفت فيها تصانيف، وعلقت عليها تعاليق، بعضها في معرفة ما اشتملت عليه من المتون، وبعضها في معرفة ما احتوت عليه من الأسانيد، وبعضها في مجموع ذلك.

وكان من جملة ذلك كتاب «الكمال»، الذي صنفه الحافظ عبدالغني المقدسي في معرفة أحوال الرواة الذين اشتملت عليهم هذه الكتب الستة، وهو كتاب نفيس كثير الفائدة، لكن لم يصرف مصنفه، رحمه الله، عنايته إليه حق صرفها، ولا استقصى الأسماء التي اشتملت عليها هذه الكتب استقصاء تاما، ولا تتبع جميع تراجم الأسماء التي ذكرها في كتابه تتبعا شافيا،



كتاب تهذيب الكمال

للشيخ الإمام العالم الحافظ الزاهد

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

فحصل في كتابه بسبب ذلك إغفال وإخلال».

ثم قال يبين الداعي الذي دفعه للاستدراك على الكتاب الأصل:

«فلما وقفت على ذلك، أردت تهذيب الكتاب، وإصلاح ما وقع فيه من الوهم والإغفال، واستدراك ما حصل فيه من النقص والإخلال، فتتبعت الأسماء التي حصل إغفالها منهما جميعا، فإذا هي أسماء كثيرة تزيد على مئات عديدة من أسماء الرجال والنساء. ثم وقفت على عدة مصنفات لهؤلاء الأئمة الستة غير هذه الكتب الستة؛ فإذا هي تشتمل على أسماء كثيرة ليس لها ذكر في الكتب الستة، ولا في شيء منها، فتتبعتها تتبعا تاما، وأضفتها إلى ما قبلها، فكان مجموع ذلك زيادة على ألف وسبع مئة اسم من الرجال والنساء؛ فترددت بين كتابتها مفردة عن كتاب الأصل، وجعلها كتابا مستقلا بنفسه، وبين إضافتها إلى كتاب الأصل، ونظمها في سلكه، فوقعت الخيرة على إضافتها إلى كتاب الأصل، ونظمها في سلكه، وتمييزها بعلامة تفوزها عنه، وهو أن أكتب الاسم، واسم الأب أو ما يجري مجراه بالحمرة، وأقتصر في الأصل على كتابة الاسم خاصة بالحمرة».

وأما عن رموز كتابه ومصطلحات مصنفه؛ فقد قال عنها:

«وجعلت لكل مصنف علامة، فإن تكرر الاسم في أكثر من مصنف واحد؛ اقتصرت على عزوه إلى بعضها في الغالب؛ فعلامة ما اتفق عليه الجماعة الستة في الكتب الستة: (ع)، وعلامة ما اتفق عليه أصحاب السنن الأربعة في سننهم



الأربعة: (٤)، وعلامة ما أخرجه البخاري في الصحيح: (خ)، وعلامة ما استشهد به في الصحيح تعليقا: (خت)، وعلامة ما أخرجه في كتاب القراءة خلف الإمام: (ز)، وعلامة ما أخرجه في كتاب رفع اليدين في الصلاة: (ي)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الأدب: (بخ)، وعلامة ما أخرجه في كتاب أفعال العباد: (عخ) (٢)، وعلامة ما أخرجه مسلم في الصحيح: (م)، وعلامة ما أخرجه في مقدمة كتابه: (مق) (٣)، وعلامة ما أخرجه أبو داود في كتاب السنن: (د)، وعلامة ما أخرجه في كتاب المراسيل: (مد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الرد على أهل القدر: (قد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الناسخ والمنسوخ: (خد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب التفرد، وهو ما تفرد به أهل الأمصار من السنن: (ف)، وعلامة ما أخرجه في فضائل الأنصار: (صد)، وعلامة ما أخرجه في كتاب المسائل التي سأل عنها أبا عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل: (ل)، وعلامة ما أخرجه في مسند حديث مالك بن أنس: (كد)، وعلامة ما أخرجه الترمذي في الجامع: (ت)، وعلامة ما أخرجه في كتاب الشمائل: (تم)، وعلامة ما أخرجه النسائي في كتاب السنن: (س)، وعلامة ما أخرجه في كتاب عمل يوم وليلة: (سي)، وعلامة ما أخرجه في كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ص)، وعلامة ما أخرجه في مسند علي رضي الله عنه: (عس)، وعلامة ما أخرجه في مسند حديث مالك بن أنس: (كن)، وعلامة ما أخرجه ابن ماجة القزويني في كتاب السنن (ق)، وعلامة ما أخرجه في كتاب التفسير: (فق)».

ثم أوضح رمزه للأسماء الواردة في كتابه وطريقة تمييزه لهم؛ فقال:

«وقد جعلت على كل اسم كتبته بالحمرة رقما من الرقوم المذكورة أو أكثر بالسواد، ليعرف الناظر إليه عند وقوع نظره عليه من أخرج له من هؤلاء الأئمة وفي أي كتاب من هذه الكتب أخرجوا له، ثم أنص على ذلك نصا صريحا عند انقضاء الترجمة، أو قبل ذلك على حسب ما تقتضيه الحال. وذكرت أسماء من روى عنه كل واحد منهم، وأسماء من روى عن كل واحد منهم في هذه الكتب أو في غيرها على ترتيب حروف المعجم أيضا على نحو ترتيب الأسماء في الأصل، ورقمت عليها أو على بعضها رقوما بالحمرة يعرف بها في أي كتاب من هذه الكتب وقعت روايته عن ذلك الاسم المرقوم عليه، ورواية ذلك الاسم المرقوم عليه عنه. ثم ذكرت في تراجمهم روايتهم عنه، أو روايته عنهم كذلك، لتكون كل ترجمة شاهدة للأخرى بالصحة والأخرى شاهدة لها بذلك».

ثم بين أصول منقولاته في كل فن؛ ليكون القارئ على بينة من أمر ما يقرأ؛ فقال:

«واعلم: أن ما كان في هذا الكتاب من أقوال أئمة الجرح والتعديل ونحو ذلك، فعامته منقول من كتاب «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي الحافظ بن الحافظ، ومن كتاب «الكامل» لابن عدي الجرجاني الحافظ، ومن كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي الحافظ، ومن كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر الدمشقي الحافظ، وما كان فيه من ذلك منقولا من غير هذه الكتب الأربعة، فهو أقل مما كان فيه من ذلك منقولا منها، أو من بعضها».

ثم عرج على منهجه في الإحالة بالإسناد ومن دونها، فقال:

«ولم نذكر إسناد كل قول من ذلك فيما بيننا وبين قائله خوف التطويل. وقد ذكرنا من ذلك الشيء بعد الشيء لئلا يخلو الكتاب من الإسناد على عادة من تقدمنا من الأئمة في



ذلك، وما لم نذكر إسناده فيما بيننا وبين قائله: فما كان من ذلك بصيغة الجزم، فهو مما لا نعلم بإسناده عن قائله المحكي ذلك عنه بأسا، وما كان منه بصيغة التمريض، فربما كان في إسناده إلى قائله ذلك نظر، فمن أراد مراجعة شيء من ذلك أو زيادة اطلاع على حال بعض الرواة المذكورين في هذا الكتاب، فعليه بهذه الأمهات الأربعة؛ فإنا قد وضعنا كتابنا هذا متوسطا بين التطويل الممل، والاختصار المخل».

ولقد دل طالب العلم على مشمولات كتابه، وأنها محيطة بقدر كبير من رجال العلم فقال:

«وقد اشتمل هذا الكتاب على ذكر عامة رواة العلم، وحملة الآثار، وأئمة الدين، وأهل الفتوى، والزهد والورع والنسك، وعامة المشهورين من كل طائفة من طوائف أهل العلم المشار إليهم من أهل هذه الطبقات، ولم يخرج عنه منهم إلا القليل».

وفي نصيحته لمن أراد الاستقصاء وزيادة البحث والاطلاع، قال رحمه الله:

«فمن أراد زيادة اطلاع على ذلك، فعليه بعد هذه الكتب الأربعة بكتاب «الطبقات الكبير» لمحمد بن سعد كاتب الواقدي، وكتاب «التاريخ» لأبي بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب، وكتاب «الثقات» لأبي حاتم البستي، وكتاب «تاريخ مصر» لأبي سعيد عبدالرحمن بن أحمد الصدفي، وكتاب «تاريخ نيسابور» للحاكم النيسابوري الحافظ، وكتاب «تاريخ أصبهان» لأبي نعيم الأصبهاني الحافظ، فهذه الكتب العشرة أمهات الكتب المصنفة في هذا الفن».

وأما طريقة ترتيب الأسماء الواردة في «التهذيب»، وهي مهمة جدا، فقال رحمه الله:

«وقد رتبنا أسماء الرواة من الرجال في كتابنا هذا على ترتيب حروف المعجم في هذه البلاد، مبتدئين بالأول فالأول منها، ثم رتبنا أسماء آبائهم وأجدادهم على نحو ذلك؛ إلا أننا ابتدأنا في حرف الألف بمن اسمه أحمد، وفي حرف الميم بمن اسمه محمد لشرف هذا الاسم على غيره، ثم ذكرنا باقي الأسماء على الترتيب المذكور؛ فإذا انقضت الأسماء ذكرنا المشهورين بالكنى على نحو ذلك، فإن كان في أصحاب الكنى من اسمه معروف من غير اختلاف فيه؛ ذكرناه في الأسماء، ثم نبهنا عليه في الكنى، وإن كان فيهم من لا يعرف اسمه، أو من اختلف في اسمه؛ ذكرناه في الكنى خاصة، ونبهنا على ما في اسمه من الاختلاف في ترجمته، ثم ذكرنا أسماء النساء على نحو ذلك، وربما كان بعض الأسماء يدخل في ترجمتين أو أكثر، فنذكره في أولى التراجم به، ثم ننبه عليه في الترجمة الأخرى».

وفي آخر مقدمته النفيسة بين زياداته على صاحب الأصل، فقال:

«وقد ذكرنا في أواخر الكتاب فصولا أربعة مهمة لم يذكر صاحب الكتاب شيئا منها، وهي: فصل فيمن اشتهر في النسبة إلى أبيه، أو جده، أو أمه، أو عمه، أو نحو ذلك، مثل: ابن أبجر، وابن الأجلح، وابن أشوع، وابن جريج، وابن علية، وغيرهم. وفصل فيمن اشتهر بالنسبة إلى قبيلة، أو بلدة، أو صناعة، أو نحو ذلك مثل: الأنباري، والأنصاري، والأوزاعي، والزهري، والشافعي، والعدني، والمقابري، والصيرفي، والفلاس، وغيرهم. وفصل فيمن اشتهر بلقب أو نحوه، مثل: الأعرج، والأعمش، وبندار، وغندر، وغيرهم. ونذكر فيهم وفيمن قبلهم نحو ما ذكرنا في الكنى. وفصل في المبهمات، مثل: فلان عن أبيه، أو عن جده، أو عن أمه، أو عن عمه، أو عن خاله، أو عن رجل، أو عن امرأة، ونحو ذلك. وننبه على اسم من عرفنا اسمه منهم».

وقد نص، رحمه الله، على أن الفائدة من كتابه إنما يحصلها من شاد في العلم طرفا جيدا منه، وأما المبتدئون فإن استفادتهم ربما كانت دون المرجو، قال رحمه الله:

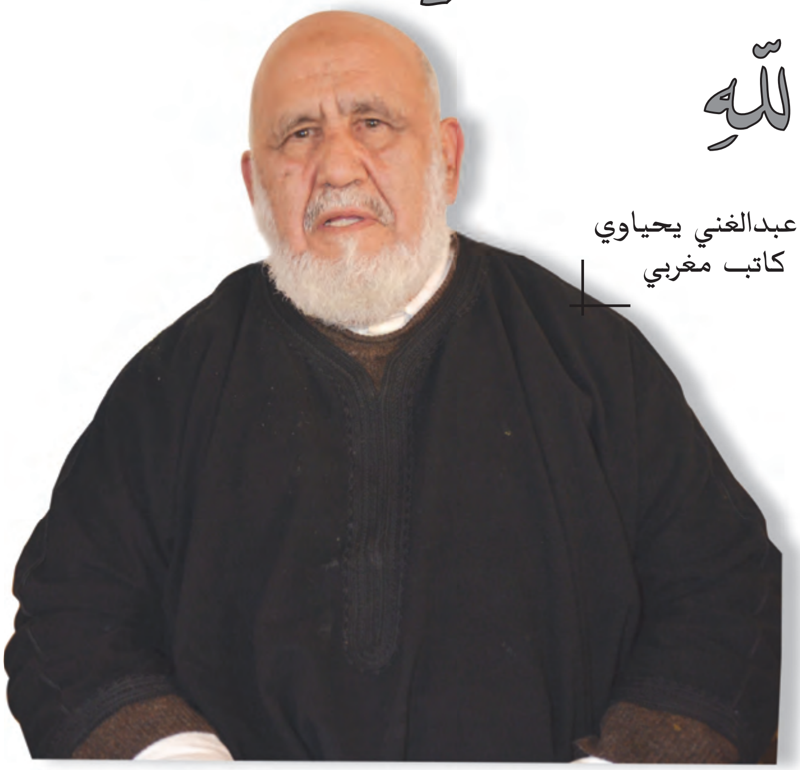
«وينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حصل طرفا صالحا من علم العربية: نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث، والتواريخ، وأيام الناس، فإنه إذا كان كذلك؛ كثر انتفاعه به، وتمكن من معرفة صحيح الحديث وضعيفه، وذلك خصوصية المحدث التي من نالها، وقام بشرائطها؛ ساد أهل زمانه في هذا العلم، وحشر يوم القيامة تحت اللواء المحمدي إن شاء الله تعالى».

هامش:

١- مستفاد من مقدمة تحقيق الكتاب، للدكتور بشار عواد معروف.

العلامة محمد التاويل في ذمة الله

د. عبدالغني يحياوي
كاتب مغربي



فقدت الأمة الإسلامية عصر يوم الاثنين ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، الموافق ٦ أبريل ٢٠١٥، العلامة الكبير والشيخ الجليل الدكتور محمد التاويل عن عمر ناهز الثمانين عاما. كان رحمه الله رجل العلم والعطاء، شيخ المالكية من دون منازع، وحافظ أصول المذهب وفروعه، فقيها وأصوليا محنكا، ويعد من أبرز علماء القرويين، وهو رجل المبادئ والمواقف الصلبة رحمه الله برحمته الواسعة، وهذه نبذة مختصرة عن سيرته ومساره العلمي.

نسبه وولادته

هو أبوحميد محمد بن محمد قاسم بن حساين التاويل، ولد سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، بمنطقة عين باردة، عمالة تاونات قرب مدينة فاس.

نشأته وتعلمه

ينتمي الشيخ محمد التاويل إلى منطقة عرفت أغلب مداشرها بتحفيظ القرآن الكريم، ودراسة بعض العلوم الشرعية. وإضافة إلى هذا فشيخنا نما وترعرع في وسط علمي بامتياز، وهو ابن أسرة علمية، أبوه كان حافظا للقرآن الكريم، وشيخا للقراءات السبع.

حفظ محمد التاويل القرآن الكريم وبعض المتون في قريته، وبعدها التحق رحمه الله بجامع القرويين، فقضى فيه سنوات تميزت بالجد والاجتهاد والتحصيل العلمي المتواصل. ومن بركات الله عليه أن رزقه بذاكرة قوية، وفهم ثاقب، وذكاء منقطع النظير، مما أهله أن يكون من المبرزين بين أقرانه طيلة مدة دراسته، وكان دائما في المراكز الأولى بين الطلاب، كل هذا أكسبه عطف أساتذته واعتناءهم به، وتفرسوا فيه أنه سيكون عالما عاملا، وأنه سيكون خلفا لخير سلف.

وأما محفوظاته فكثيرة منها: التلخيص للإمام القزويني، وجمع الجوامع لابن السبكي، وتحفة ابن عاصم، وألفية ابن مالك التي حفظها في عشرة أيام بمعدل ١٠٠ بيت في اليوم.

ولقد تعلم على يد علماء أجلاء مبرزين كانوا يحبونه ويجلونه، نذكر من بينهم: العربي الشامي ومحمد بن عبدالقادر الصقلي ومحمد بن الحسن الزرهوني وعبدالكريم الداودي وأحمد الحبابي وعبدالهادي التازي وعبدالعزيز بلخياط وأبوبكر جسوس وأحمد يزيد البدراوي وأحمد الوردي الجاي والعباس بناني وغيرهم كثير.

عطاؤه العلمي

يعتبر الفقيه الأصولي الشيخ محمد التاويل من العلماء الأفذاذ الذين أجادوا وأفادوا في مختلف العلوم الشرعية، وحق له أن يكون كذلك لأنه نشأ في بيت علمي، وتلقى تعليمه على يد أبرز علماء فاس كما ذكرنا سابقا، مما جعل عطاءاته العلمية بمختلف أنواعها متميزة، فلقد تعلم على يديه طلبة كثر لا نستطيع إحصاءهم، نظرا لطول مدة تدريسه التي وصلت إلى ٥٤ سنة، وتقلد مناصب ومهمات غاية في الأهمية، وقد ألف مؤلفات عدة، تختلف مواضيعها، حاول جاهدا فيها إيصال الحق إلى الناس وتنقيته من



الباطل، وقد ذكر لي أن ما ألفه وكتبه ليس بدافع الكتابة وإنما بدافع الرد على العلمانيين ودفاعا عن الشريعة، ودحضا لأقوال من أراد إدخال أمور في الدين ليست منه..

كتبه ومؤلفاته

١- الوصايا والتنزيل في الفقه الإسلامي.
٢- موقف الشريعة من اعتماد الخبرة الطبية والبصمة الوراثية في إثبات النسب ونفيه.
٣- اللباب في شرح تحفة الطلاب.
٤- وأخيرا وقعت الواقعة وأبيح الربا: الفوائد البنكية.
٥- مشكلة الفقر: الوقاية والعلاج في المنظور الإسلامي.
٦- إشكالية الأموال المكتسبة مدة الزوجية: رؤية إسلامية.
٧- الوصية الواجبة في الفقه الإسلامي.
٨- شذرات الذهب فيما جد في قضايا النكاح والطلاق والنسب.
٩- الشركات وأحكامها في الفقه الإسلامي.
١٠- لا ذكورية في الفقه.
١١- زكاة العين ومستجداتها.
١٢- منهجية عمر بن الخطاب في الاجتهاد مع النص.
١٣- خصائص المذهب المالكي.
١٤- زراعة الأعضاء في الفقه الإسلامي.
١٥- مع عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: في حياتها الأسرية ومسيرتها العلمية.
١٦- العذب الزلال في فقه الأموال.

وله كتب أخرى لم تطبع بعد، وله أيضا عدة مقالات في عدة مجلات وجرائد، وشارك كذلك في ندوات وطنية ودولية، وألقى محاضرات متعددة في مواضيع مختلفة.

المهام والوظائف

● أستاذ بجامع القرويين بعد حصوله على شهادة العالمية بسنة، وكان ذلك ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ومنذ ذلك الوقت وهو يدرس إلى أن تقاعد سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

● أستاذ للتعليم العتيق بجامع القرويين منذ ١٩٨٨م إلى ٢٠١٢م.

● المرشد والمسؤول عن صياغة أسئلة امتحانات البكالوريا واختبارها بالتعليم الأصيل سابقا.

● عضو اللجنة الملكية الاستشارية لمراجعة مدونة الأسرة.

● عضو في صياغة مشروع مدونة الوقف بتكليف من وزارة الأوقاف.

● عضو في خلية تأليف الكتاب المدرسي للتعليم الأصيل (أربعة كتب: ثلاثة في الفقه وواحد في الأصول).

● عضو لجنة التحكيم في جائزة محمد السادس للفكر والدراسات الإسلامية.

● عضو المجلس العلمي المحلي بفاس.

● عضو المجلس العلمي الأعلى بالرباط.

● مزاول للوعظ والإرشاد والإفتاء بمدينة فاس.

الشهادات التي حصل عليها

● شهادة العالمية سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

● دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

● شهادة الدكتوراه سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

تلامذته

لا نستطيع حصر ولا عد تلامذته، لأنهم يعدون بالآلاف، والشيخ لا يتذكر إلا القليل ممن درسوا عليه، لكن الذين تميزوا في المجال العلمي، والذين ظل على صلة وثيقة بهم فقد ذكر لي بعضهم وهم كالتالي: محمد أبياط ورضوان بنشقرون والشاهد البوشيخي وأحمد البوشيخي وحسن الزين الفلالي وعبدالله الهيلالي وعبدالله غازيوي ومحمد العمراوي وفريد الأنصاري (رحمه الله) وامحمد العمراوي وغيرهم كثير.

وفاته

توفي رحمه الله بمدينة فاس عصر يوم الاثنين ١٦ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ/الموافق ٦ أبريل ٢٠١٥، وصلي عليه صلاة الجنازة عصر يوم الثلاثاء بجامع القرويين، ووري جثمانه الثرى في موكب جنائزي مهيب بمقبرة باب الفتوح بفاس.

رحم الله الفقيد، ورزق أهله وذويه وطلبته والمحبين له الصبر والسلوان، ونسأل الله العظيم أن يعوض الأمة عنه بعلماء أفذاذ ينافحون عن شريعته.

السحر الحلال

إيمان القدوسي
باحثة تربوية



وضعك وجاذبيتك عند زوجك مدى الحياة يتطلبان سحرا من نوع خاص، إلا أنه حلال، بل هو عين الحلال.

لو أردنا تلخيص الأمر في كلمة واحدة يمكننا القول امنحيه حبك الخالص فقط.

ربما هذه هي مهمتك الأبرز، ووظيفتك الأساسية كزوجة منح الحب ونشر السعادة.

حددت الآية الكريمة هذا الدور في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم:٢١). يمتن الله على عبده بتلك الزوجة المحبة الودود التي تمنحه مودتها ويسكن إليها قلبه ويتبادلان التراحم والمساندة، فليست هناك نعمة في حياة الرجل أعظم من الزوجة الصالحة.

المودة التي ذكرت في الآية هي أعلى درجات الحب، فهي أكثر خصوصية، وأثبت جذورا، وأعمق تلازما للقلب.

لكن كثيرا من الزوجات تشكو من أنهن أحببن وأعطين وتفانين ولم يجدن ما يأملن من صدى لمشاعرهن، وهناك من تزداد آلامهن حين يعلمن أن أزواجهن لا يبادلهن المشاعر فقط، بل يبحثون دائما عن غيرهن، وكلما زاد عطاؤهن زاد نفورهم فما السبب؟

يبحث الرجل في الزواج، بشكل أساسي، عن الحب والاحتواء، وتلك المشاعر التي تلفه وتريحه وتملأ حياته بهجة وهدوءا. يبحث أيضا عمن تفهمه، وتلهمه، وتعكس له صورة إيجابية عن ذاته. وتلك المشاعر أهم عنده من الجنس ومن الخدمات المنزلية التي تقدمها له الزوجة ومن الإنجاب نفسه، فهو يبحث أولا عن راحته، ثم تأتي مزايا الزواج الباقية في ترتيب تال، وذلك لأنه يتعب ويشقى في الحياة وصراعات العمل، ويريد العودة إلى بيت يجد فيه واحته الظليلة من هجير الحياة.

فإذا عاد ليجد زوجته تمتلئ نفسها منه استياء وغضبا، ويعكس وجهها عدم الرضا، ثم سارعت بانتقاده وتقييمه في كل كلمة أو تصرف، ثم أشعرته أنه أقل شأنا من غيره من الرجال، لأنه لا يلبي طموحاتها، ثم لجأت إلى معاملته بأسلوب الوعظ والإرشاد وكأنه طفل لا يحسن أمرا،

ثم أرادت أن تخفف وقع ذلك في النهاية فارتدت ثوبا جديدا وتجملت بشكل فج وابتسمت لتمثل عليه دور الزوجة الكاملة وسألته كيف تراني؟ وما رأيك في الطعام الذي أعددته؟ فلا عجب لو انتهز الفرصة ورد لها كل إهاناتها السابقة، فتتعجب، وربما بكت وهي تتساءل: بعد كل ما أفعله؟

ما فعلتيه يا سيدتي، هو أنك أخفقت في توصيل رسائل الحب له، وبدلا منها وصلته رسائل سلبية تقول: «لا أحبك كما أنت؛ ولذلك أريد تعديلك وتحسينك. كما أنني تورطت في زواجي منك؛ ولذلك أحاول، عبر الانتقاد والوعظ، أن أغيرك. ما تقدمه لي لا يرضيني، ولكنني أحاول تمثيل دور الزوجة المحبة وأنت لا يعجبك؛ فأعاقبك بالنكد والحزن والبكاء، وبدلا من أداء وظيفتي في منح المحبة ونشر السعادة فإنني أتفنن في جلب التعاسة».

ما فعلتيه أنك لم تستطيعي الوصول إلى حب الرجل، وحب الرجل جوهرة ثمينة تكمن داخل صدفة قلبه، فإذا عرفت كيف تفتحين قلبه وتصلين إلى الجوهرة فستملكينها وتستمتعين بأحلى المشاعر التي ترفعك محلقة فوق السحاب، وسوف تجربين بنفسك معاني الحب الحقيقي التي تغنى بها الشعراء وتفنن في وصفها المحبون.

كيف يحدث سحر الحب؟ وهل يهبط على ذوي الحظ الحسن أم إنه عمل وأسلوب؟

في الحقيقة، هو عمل وأسلوب، ويمكن اختصاره بالحب الصادق، فالحب الصادق هو نفسه الحب الساحر.

أما التفاصيل فكثيرة.. الحب الصادق لا يرى العيوب، لكل إنسان عيوبه ونقائصه، ولكن الحب ينظر بعين الرضا، وعين الرضا عن كل عيب كليلة لا تراها، أو على الأقل تقبل وجودها ضمن الباقة كلها، فأنت تختار شخصا غير قابل للتجزئة، لن تأخذ منه ما يروقك فقط. والحب الصادق لا يسعى إلى تغيير صفات المحبوب قسرا وقصدا، لأن ما نسعى إلى تغييره معناه أننا نرفضه، ولكننا حين نتقبل الشخص بكل ما فيه فإن حبه لنا وتقديره سيستخرجان منه أفضل ما فيه، وسيتغير حتما للأفضل، ولكنه سيتغير بطريقته هو وبإرادته وليس عن طريق تدخلنا وتسلطنا عليه.

الحب الصادق الباطن فيه أقوى من الظاهر. لا حب مع امتلاء النفس بالاستياء والغضب، فأنت تشعين ما في نفسك؛ ولذلك تخلصي فورا من تلك المشاعر السلبية، واملئي نفسك بخيال الحب وأحلامه، ثم ارسلي طاقة الحب وعبيره الفواح الذي يفصح عن نفسه بشكل لا يخفى على أحد.

ودائما، عزيزتي الزوجة، تخلصي من تراكم المشاعر السلبية بداخلك، واملئي قلبك حبا ليشع هالة نور من حولك.

الحب الصادق لا يعبر عنه بالكلمات فقط، بل بجميع الحواس: اللمس والشم والنظر والذوق والحاسة السادسة أيضا، ولغة الجسد، وبريق العيون، وبسمة الشفاه الحانية النابعة من القلب، والخجل الفطري الذي يأبى انتهاك حلاوة الإحساس بكثرة الكلام وصراحته وفجاجته.

حين أسمع من تقول أجلس مع زوجي وأقول حدد ماذا تريد مني ونتناقش.. هذا تفاوض شركاء في عمل أو تجارة وليس مناجاة عاشقين تكفيهما نظرة أو كلمة واحدة. ولست مع كثرة ترديد الكلام العاطفي ما لم يكن نابعا من القلب، فالكلام دوره في سحر الحب مثل رشة الفلفل على الطبخة المتقنة.

الحب الصادق معناه صورة حلوة تعكسها عيناك لزوجك، وفي الوقت نفسه ليست مزيفة، ولكنها أجمل لقطة من أفضل زاوية مع ضبط الظل والنور سوف يتعلق زوجك بانعكاس صورته الجميلة في عينيك، فيستغني بك عن كل النساء، ويراك هو أيضا أكثرهن جمالا وسحرا.

الحب الصادق فيه دعم ومساندة وتشجيع، ورضا بالعطاء، وتحفيز للوصول إلى مراتب أعلى في كل المجالات. الحب الصادق هو حب الثقة، وليس حب الرعاية، حب الرعاية نمنحه لأطفالنا القصر، فنقدم الخدمات ونربي ونوجه ونعلم ونحذر و.. و.. و.. أما مع الزوج فحب الثقة فقط، الثقة في رجولته وضميره وكفاءته وقدراته والتعزيز الدائم لثقته هو بنفسه، وليس فيه تشكك، أو ترصد، أو تصيد للخطأ، أو تجسس. الحب الصادق فيه استقلالية وليس تبعية، فعلى الرغم من اعترافك بقوامة زوجك فإن ذلك لا يعني أنك مجرد تابع عديم الشخصية، بل معناه ترتيب الأدوار، فأنت تؤدين أعمالك وتطورين نفسك وتضيفين إلى حياته الكثير وتتحملين معه المسؤولية.

الحب الصادق انفتاح روحين، يرى كل منهما الجمال الداخلي في الآخر، والبصمة المميزة التي خصه الله بها وحده، وبالتالي يكتفي به ويرتبط ولا مجال لمقارنته بغيره.

الحب الصادق كائن حي ينمو ويتطور ويتغير بمرور الوقت ليتناسب مع كل مرحلة عمرية وحياتية، فيتجذر وجوده، ويشتد عوده بمرور الزمن، ويمتد ظله على من حوله من أبناء وأحباب.

الحب الصادق هو السحر الحلال الذي لا يملك الرجل الفكاك من أسره، ويستمتع بوجوده في روعته وجماله.



تأملات في كلمة «الأرحام»

عبدالباقي يوسف
باحث سوري

نقف بشيء من التحليل مع كلمة «الأرحام» الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾(آل عمران:٦) يفصلكم، ويشكل تكوينكم ﴿فِي الْأَرْحَامِ﴾ التي هي موضع تصويري لكم، رحم المرأة، من هذا الموضع تبدأ رحلة رحمة الأم بوليدها، إنها تربيه في رحمها، وهو يدغدغ رحمها، وكلما تنظر إليه نظرة، تذكر بأنه نبت في رحمها، وهذا يزيدها رحمة وشفقة به، مهما بلغ من الخشونة فيما بعد، ولذلك فإنها تكون أكثر رحمة به من أبيه.

والرحم، من مشتقات الرحمة، والله رحمن رحيم، يقول في الحديث القدسي: «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» (١).

إن تكوين الإنسان في الرحم، يجعله مائلا إلى التراحم، وكذلك إلى صلة الرحم، وصلة الرحم تعني أن تتواصل مع من جمع بينكم الرحم الواحد، والذي تتفرع منه فروع، وهذا ما نعبر عنه بـ «الأقارب»، فيحضك الإسلام على أن تكون على صلة بأقربائك.

يقول النبي ﷺ: «إن الله تعالى يخلق عظام الجنين وغضاريفه من مني الرجل، وشحمه ولحمه من مني المرأة». ومما ورد من حديث ثوبان في صحيح مسلم: «أن اليهودي قال للنبي ﷺ: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض، إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: (ينفعك إن حدثتك)؟. قال: أسمع بأذني، قال: جئتك أسألك عن الولد. فقال النبي ﷺ: (ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله».



وثمة أحاديث عديدة تبين كيفية تأسيس الإنسان في الرحم، وكذلك تبين المسار الذي سوف ينتهجه هذا الجنين في حياته، مما يبين علم الله بالغيب.

يقول النبي ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك»، أو قال: «يبعث إليه الملك بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أو سعيد»، قال: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (٢).

تبين هذه الأحاديث بأن تكوين الإنسان الأولي يكون في رحم المرأة، والإنسان يأخذ من أمه أكثر مما يأخذ من أبيه، وتبذل أمه جهدا به أكثر مما يبذل أبوه، ولذلك لايكون للرجل أن يحرم الأبناء من أمهم، أو يحرم الأم من أبنائها، وهو يقرر الانفصال عنها، أو طلاقها، وهذه المسألة عليها أن توقفه كثيرا قبل أن يتخذ قرارا مصيريا كهذا، وألا يرجح كف أنانيته، أو مصلحته الشخصية، أو راحة باله على أساس هذا الحرمان الذي هو ظلم كبير بالأولاد، وبالأم أيضا، إلا في حالات استثنائية، وهي أن الأم يمكن لها أن تفسد الأبناء، وهذا ما لا يحدث إلا في حالات شديدة الاستثنائية، لكن على الأغلب فإن الأب يقرر هذا الحرمان، كي يحقق لنفسه راحة من المرأة التي اكتشف بأنه غير سعيد معها، بعد أن أنجب منها، أو أنه يريد أن يتزوج بأخرى، ولذلك ترى بأن الطلاق هو ليس بغيضا فحسب عند الله، بل هو أبغض حلاله عنده، وكذلك فهو أبغض حلال الله عند الناس، بسبب ما تترتب على هذا الطلاق من سلبيات بحق الأبناء.

فإذا نظرنا إلى عملية ضرب الأبناء، نرى بأن الابن لا يشعر بأن أمه ضربته وهي تضربه بالفعل، لأن التي تضربه، إنما هي التي نبت في رحمها، وهي تضربه برحمة ما نبت في رحمها، بيد أن الابن يشعر بأنه ضرب بالفعل عندما يضربه أبوه.

من هنا، فإن الانتكاسات الأولية تتشكل في بنية الطفل على قدر ما يتلقى الضرب، أو الإهانة، أو التوبيخ، من أبيه، وليس من أمه، وهو من شأنه أن ينمي لدى الطفل شعور النقص، أو عقدة الدونية.

وإذا كان ضرب الأب للابن يأتي بنتائج سلبية في مراحل تربيته، فإن ضربه للابنة يكون أكثر سلبية، ذلك أنها تمتلك رحما خرج من رحم، وهذا ما يجعلها أكثر رقة وشفافية من أخيها، لأنها تعد لتكون أما، في حين يعد أخوها ليكون أبا، وهي عندما تكبر تبقى محافظة على مساحة الرحمة في قلبها، كي ترحم به جنينها، وهو في رحمها، ثم كي ترحمه به وهو يكبر يوما بيوم على صدرها، في حين أن الابن الذي يغدو رجلا يملك أن ينزع الرحمة من قلبه، وأن يقسو، بل حتى يمارس القتل بأقسى ألوانه، لكن المرأة

وهي تشاجر امرأة، قد يبلغ بها الأمر أن تشد شعرها، أو تعضها، وينتهي الأمر عند هذا الحد، لأن ذلك جل ما يسمح به رحم المرأة لها، لكن الرجل عندما ينقض على رجل، قد يفتك به، ويبلغ به مرحلة القتل، لهذا نرى بأن أول جريمة في التاريخ الإنساني لم ترتكبها المرأة، بل ارتكبها الرجل بحق الرجل، وإذا صدف وأخطأت الابنة خطأ فادحا، فإنها تخبر أمها، أو أختها، أو حتى خالتها، أو عمتها، وهي تأمن رحمها، ولا تخبر الأب، أو الأخ، أو أي رجل في العائلة، لأنها لا تأمن رعونته، ورد فعله، وحتى في جرائم الشرف، فإن الرجل يقوم بها، حتى



لو كان صغيرا، وقتل أخته التي نبتت معه في ذات الرحم، ولا تقدم عليها المرأة مهما كانت كبيرة، رغم أن المرأة هي الأكثر ضررا نتيجة خطيئة الابنة، والرجل هو الأقل ضررا نتيجة ذلك، فأول ما يصيب الأذى، أمها، ثم أخواتها، ثم من هن على صلات رحم بها، حيث قد يطال الأذى مستقبلهن ويعيقهن في الزواج، لكن ذلك لا يطال مستقبل الرجل، ولا إعاقته في الزواج مهما كان مقربا منها، ولذلك فإن الجرائم الكبرى والصغرى، على الأغلب يرتكبها الرجال. وما يلحقه الرجال من أهوال وكوارث بالإنسان والطبيعة، لهو أكثر مما تفعل النساء، والرجال عادة هم الذين يقررون الحروب الكبرى، في حين أن النساء يبكين فلذة أكبادهن الذين تودي تلك الحروب بهم. ثم عقب ذلك قال الله

تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ معنى ذلك أن له المشيئة في خلق هذا الإنسان، سواء أجعله أبيض، أو أسود، قصيرا، أم طويلا، ذكرا، أم أنثى. ثمة حديث نبوي بهذا الصدد يقول: «إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوما، ثم تكون علقة أربعين يوما، ثم تكون مضغة أربعين يوما، فإذا بلغ أن يخلق، بعث الله ملكا يصورها. فيأتي الملك بتراب بين إصبعيه، فيخلطه في المضغة، ثم يعجنه بها، ثم يصورها كما يؤمر، فيقول: أذكر أو أنثى؟ أشقي أو سعيد، وما رزقه؟ وما عمره؟ وما أثره؟ وما مصائبه؟ فيقول الله، ويكتب الملك. فإذا مات ذلك الجسد، دفن حيث أخذ ذلك التراب».

﴿لَآ﴾

نفي مطلق

﴿إِلَٰهَ﴾

رب

﴿إِلَّا﴾

دون

﴿هُوَ﴾ الله الواحد الأحد الذي لا شريك له، المتفرد بأنه إله الخلق جميعا، وقد ورد في هذا المقام اسم الله الحسن.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾

الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير، وهذا تذكير للناس بأنه قادر أن يعز من يشاء، وقادر أن يذل من يشاء، وقد قال قبل ذلك في ذات الآية: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، ثم جاء اسم الله تعالى الحسن.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾

وفق حكمة إلهية خالصة في الخلق لا يعلمها إلا الله، وهي آيات لأولي الألباب ليتفكروا بها، ويأخذوا منها العبر، كونها تبين للناس بأن مشيئته جل وعلا لا تأتي عبثا، بل هي لحكمة إلهية خالصة، تسري في خلقه، وهم وفق هذه الحكمة يخرجون من ظلمة الرحم وسكونه، إلى ضوء الحياة وضوضائها، والسعي في مناكب الأرض.

يبين ذلك بأن كل مخلوق إنما هو حكمة من حكم الله تعالى، ولا شيء لا لزوم له في الحياة، فإن مات جنين في رحم أمه، فهي حكمة مقدرة من الله تحمل رسالة لأولي الألباب في زمانها ومكانها وأشخاصها، وإن عمر هذا الرجل ماشاء الله، فهي حكمة مقدرة من الله، تحمل رسالة لأولي الألباب في زمانها ومكانها وأشخاصها.

الهوامش

١- أخرجه الترمذي، وصححه، عن عبدالرحمن بن عوف.

٢- رواه البغوي في تفسيره.

٣- أورد الطبري هذا الحديث في تفسيره، وأخرجه الترمذي، وصححه، عن عبدالرحمن بن عوف.

٤- رواه البغوي.

في رثاء الشيخ الدكتور عبدالهادي مسوتي



د. حسان الطيان
أستاذ اللغة العربية في الجامعة العربية المفتوحة

اليوم مات معلمي، مات التقي والنقي، منه تعلمت طلب العلم، وأنا طفل ريض غض لا أتجاوز السابعة، وفي صحبته عرفت الكثير من رجالاته، وفي غرفته كانت أولى دراساتي، وفي مكتبته كانت أولى مطالعاتي، ثم حين شببت عن الطوق تعاهدت معه على حفظ القرآن، فتابع وقصرت.. وأكمل وما نصفت..

وكان أعظم درس تعلمته منه، جلوسه بين يديَّ طالبا في معهد الفتح، وهو الصيدلي المتقن، والحافظ القارئ المقرئ، والعالم العامل المعلم، ليحصل على الإجازة في العربية من الأزهر، بعد أن حصل على إجازة الصيدلة من جامعة دمشق، وإجازة العلم الشرعي من أكابر شيوخ دمشق، وعلى رأسهم شيخ الشام وريحانتها سيدي العلامة الشيخ عبدالرزاق الحلبي رحمه الله وأعلى في الجنان مقامه.

على أن أعظم عطاء حصله، وأجل منحة منحها، كانت كتاب الله عزوعلا، حفظا وتجويدا.. ورعاية وتعهدا وتعليما.

فمضى لغايته ولسان الحال يردد عرفت فالزم، يقطع الليل آيات وقرآنا، فرقى لعمري فوق كل رقى، وسما بدنياه إلى أهل السما.

فهنيئا لك أيها الخال الحبيب ما نلت وما حزت، وليهنك العلم الذي حصلت، وليهنك الذكر الذي حفظت، وليهنك الصبر الذي صبرت، أعلى الله في الجنان مقامك، وبلغك سؤلك ومرادك، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

... وتعود بي خيوط الذاكرة إلى أكثر من نصف قرن مضى، فيتراءى لي فتى يافع لا يتجاوز العاشرة من عمره، يتأبط كتاب الهدية العلائية في الفقه الحنفي، ليتوسط حلقة من حلقات العلم في مسجد السادات بدمشق الشام، ويكتنفه طفلان غريران، يلوذان به، ويحتميان بظله، عله يشفع لهما جلوسهما في مجلس لا يجلس فيه إلا الكبار عادة.

أما شيخ المجلس فهو شيخنا الشيخ عبداللطيف الفرفور، وأما الطفلان فأنا وأخي رضوان.. وأما الغلام اليافع الناشئ في رحاب العلم فهو خالي عبدالهادي مسوتي رحمه الله وبرد مضجعه.

كان ذلك أول العهد بطلب العلم، ومجالسة العلماء، والمزاحمة بالركب.. وأحسبه كان عام ١٩٦٤.

وتمضي الأيام.. تتبعها الشهور والسنون، فما تزيده إلا حرصا على طلب العلم، وحبا برجالاته، وتشبثا بحباله، واحتفاء بأهله، واقتناء لكتبه. أذكر أن والدتي – أطال الله في النعمة بقاءها – كانت تستعير منه كتب الطنطاوي، وما إن تنتهي من كتاب حتى تشرع بالآخر، وانتقلت إلينا عدوى الشغف بالمطالعة، وأكرم بها من عدوى، فبتنا عاشقين للكتب، نترقب فراغ الوالدة من أحدها لنعكف عليه قارئين مستمتعين ومفيدين.

وكان الخال الحبيب عبدالهادي مع أخويه هشام وفريد أترابا لنا وأقرانا، لا نجد دنيانا إلا بهم، ولا يروق لنا العيش إلا معهم، ولا تحلو لنا الحياة إلا في كنفهم..غادين رائحين، وعابثين لاعبين.. لا يخشى علينا الأهل شيئا من غوائل الطفولة وطيشها مادام معنا عبدالهادي مرشدا وموجها وصمام أمان من كل منزلق، إذ كان الأكبر فينا.

وكم أسس لنا من مشاريع يختلط فيها اللعب بالجد، والأنس بالفائدة، والمتعة بالتعليم والعلم..

حتى إذا شب عن الطوق أخذ نفسه أخذا حازما بالجد والاجتهاد والعلم والعمل، فكان القدوة الصالحة لنا، وكم كنت أغبط أخي رضوان على صحبته له في صف واحد، ودراسة مشتركة، ونجاح مطَّرد.

وخار له المولى سبحانه أن يدرس الصيدلة فكان المبرز فيها، ولم يصرفه ذلك عن طريق العلم الشرعي، بل كان ينهل من مجالسه ويتفنن في حضور حلقاته، بدءا من حلقات الشيخ عبداللطيف صالح الفرفور، وبعض حلقات والده الشيخ صالح، ومرورا بحلقات تلامذته وعلى رأسهم شيخنا العلامة الشيخ عبدالرزاق الحلبي، وانتهاء بدروس الشيخ لطفي الفيومي، والشيخ أحمد نصيب المحاميد، والشيخ حسين الخطاب، والشيخ كريم راجح، والشيخ هشام البرهاني والشيخ محمد سكر.. وغيرهم كثير، عليهم رحمات المولى سبحانه.

رحمك الله يا أبا نزار بكل حرف قرأته أو أقرأته.. وجودته أو صححته.. في كتاب الله جل وعلا، ورحمك الله بكل صبر صبرته، وكل كأس تجرعته، وكل هم حملته.. وجعل مقامك في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وجزاك عنا وعن أهلك وتلامذتك وأمتك خير ما جزى راعيا عن أهله، ومقرئا عن صحبه وتلامذته، وعالما عن قومه وأمته.

المـدح والقدح

الضوابط والآداب

كمال عبدالمنعم
باحث مصري

المدح والثناء والإطراء، يكون بذكر جميل الفعال والخصال، والذم والقدح يكون بذكر القبيح من القول والفعل، وكلاهما ذكرا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد مدح الله تعالى أقواما وذم آخرين، وكذا الرسول الكريم ﷺ، ومن مدحه الله ورسوله فلا يستطيع أحد ولا ينبغي له أن يذمه، أما من ذمه الله ورسوله فلا مادح له، ولا رافع لشأنه وقدره، إذ لا معقب على قول الله ورسوله، أما المدح والقدح الذي يصدر من البشر تجاه بعضهم البعض، فهذا مما ينبغي التوقف عنده طويلا، لأن ذلك قد يكون في جانب العدل أو في جانب الزيغ أو الشطط، والمعيار لضبط ما يصدر عن الناس من مدح وقدح هو المنهج الإلهي، والميراث النبوي في الحكم على الناس وعلى أقوالهم وأفعالهم.

لقد مدح الله تعالى نفسه، لا لأنه يحتاج إلى مدح، ولكن ليعلمنا نحن بكمال قدرته، وليبصرنا بعظم تدبيره في خلقه، لنزداد إيمانا على إيماننا، وأجل وأعظم ما وصف الله نفسه به، ومدحها به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾، ذاك لأنه المتفرد بالألوهية، والمستحق للعبودية، فلا إله ينازعه، ولا رب يشاركه، وهو المنزه عن الشبيه والنظير والزوجة والولد، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص ١-٤)، وورد مدح الله تعالى لنفسه في آيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨)، أي أنه نعم المعين والناصر والسيد والسند، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ (الذاريات:٤٨)، أي أن الله تعالى فرش الأرض ومهدها للعيش فوقها بطمأنينة وسكينة، فلا تميد أو تميل بما عليها ومن عليها، وذلك من إعجاز خلقه في كونه سبحانه وتعالى.

ومدح الله تعالى الجنة دار المتقين، ووصفها بأجمل الأوصاف ليرغبنا فيها، ولنجد السير، ونشمر عن ساعد الجد، لنفوز بها في الآخرة، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد:١٥).

أما رسول الله ﷺ فقد مدح أشخاصا بعينهم وبشرهم بالجنة، روى الترمذي وأبوداود وصححه الألباني عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة»، ومدح المؤمن القوي وفضله على المؤمن الضعيف، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان».

أما الذم من الله فكان أيضا لأصناف من البشر ممن أشرك به وعبد غيره، وحرف كتبه، وأساء إلى رسله، وطغى وبغى، وأكل أموال الناس بغير حق، وأكل الربا، وارتكب الفواحش والموبقات، وأفسد في الأرض، كذلك ذم بعض أفعال العباد التي يرتكبونها، وهي لاشك معصية له عزوجل، مثال ذلك قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (الحجرات:١١)، وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (المائدة:٨٠)، وقوله عزوجل: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:٦٣).

إن الإنسان ليعجب أشد العجب من هذه الجارحة، أقصد: اللسان التي اجتمعت فيها كل فعال الخير والشر، فبه يتلو الإنسان القرآن، ويذكر الرحمن، ويصلي على الحبيب المصطفى، ويصلح بين المتخاصمين، ويشهد الحق، وينطق بالصدق، ويثني ويمدح، وبجارحة اللسان أيضا، يسب ويلعن، ويهجو ويقدح، ويشهد الزور، وينطق بالفجور، ويغتاب وينم، لأجل هذا ذكرنا ربنا سبحانه وتعالى بخطورة ما نتكلم به، وأننا سنحاسب على كل ما يصدر منا، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، وروى الترمذي وأحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان (تذل له وتخضع، وقيل: تذكر) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

لقد كره الإسلام المدح المبالغ فيه، لأنه يؤدي بصاحبه إلى العجب، وقد يصل به إلى القعود عن العمل الصالح، وقد يجره إلى الكبر والخيلاء، مدح رجل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فقال له: يا خير الناس، وابن خير الناس، فقال له: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله على غزارة علمه، ورفعة قدره ومكانته، كان يكره المدح، ويكثر التوبيخ لنفسه، قائلا: والله منذ أن أسلمت وأنا أجدد إيماني، ما بي شيء، ولا مني شيء، أنا المكدي (أي: شديد الفقر والحاجة إلى الله تعالى)، وابن المكدي، وهكذا كان أبي وجدي، ثم أنشد قائلا:

أنا الفقير إلى رب البريات
أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي
والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة
ولا عن النفس لي دفع المضرات

أما الذم الذي يصدر من العباد فقد تنوع وتشكل إلى حد التطاول على الذات العلية، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم:٨٨-٩٢)، وروى البخاري في صحيحه والنسائي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله عزوجل: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفوا أحد».

ووصل الذم من البشر إلى الرسل والأنبياء، فاستهزأوا بنوح عليه السلام، وعذبوا إبراهيم عليه السلام، وسجنوا يوسف عليه السلام، وآذوا موسى عليه السلام، وقتلوا زكريا عليه السلام، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، أما محمد ﷺ فقد نال منهم الكثير، فوصفوه بالشاعر، والكاهن، والساحر، والمجنون، وحاولوا بكل ما أوتوا من أساليب الذم والتوبيخ والأذى أن يثنوه عن تلك الدعوة التي بعثه الله بها.

ولم يسلم الوحي المنزل من قبل الله تعالى على رسولنا ﷺ من هذا القدح، فقال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان:٥)، وقال سبحانه مخبرا عن أحد عتاة الشرك، وهو الوليد بن المغيرة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم:١٥).

إن المسلم المتزن لابد أن يقيم ما يصدر عنه من مدح وقدح، فلا يمدح بغير حق فيكون منافقا، ولا يقدح بغير حق فيكون مغتابا، وسواء كان هذا أو ذاك فهو فعل مذموم يجلب على صاحبه الإثم والعقاب من الله تعالى، وأقول نصيحة لنفسي أولا، و للقارئ الكريم: نزه لسانك عن كل ما يؤدي إلى عقاب الله وغضبه، سواء كان مدحا بغير حق، أو قدحا بغير حق، ونزه جوارحك أن ترتكب الإثم والسوء، فيا سعادة من سار على الوسطية التي أمر بها ديننا الحنيف، فلا إفراط ولا تفريط، عندها يكون من الفائزين الناجين، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.



مَدْرَسَةُ «وَالِدَةِ عَتِيق».. كلية إيمانية جامعة

اسطنبول : تركي محمد النصر

زارت مجلة «الوعي الإسلامي» مدرسة والدة عتيق في مدينة إسطنبول العريقة، والتقى رئيس تحريرها فيصل يوسف العلي بمدير شعبة العربية ب(إيثار) د. أحمد صنوبر، حيث تم اللقاء في إحدى المراكز العريقة التابعة للكلية، وهو مركز البحوث التركية (ISM) هذا المركز الشامخ الذي أسس بدعم من رئاسة الشؤون الدينية التركية، بهدف نشر العلوم والثقافة الإسلامية بشكل علمي منهجي.

وتحدث صنوبر عن هذه الكلية الجامعة العريقة، وعن أقسامها ومراكزها، وأهم مراحل تطورها قائلا:

أنشأ هذه المدرسة العريقة السلطان مراد الثالث بين عامي (١٥٧٠-١٥٧٩م) ملحقة بمسجد الوالدة عتيق، (أي: والدة السلطان مراد الثالث السيدة «نور بانو»).

وتولى بناء هذا المسجد الشامخ مع ملحقاته ومدرسته العريقة المعمار الشهير «سنان» باني «جامع السليمانية» في الطرف الأوروبي، وكانت هذه المدرسة هي آخر بناء له قبل وفاته رحمه الله تعالى.

ملحقاتها ومحتوياتها

يتبع هذه الكلية الجامعة: (جامع كبير، ومدرسة تعليمية، وتكية، ودار للحديث، ودار للقراء، ومستشفى، وحمام، ودار للضيافة، وفندق ضخم، ومطبخ ومطعم).

وتحتوي هذه المدرسة على (١٨) غرفة، إضافة إلى قاعة الدرس، وكانت المدرسة في العصر العثماني مدرسة عالية، متخصصة قوية، لا يلتحق بها إلا أقوياء الطلبة، ولذلك كانوا يختارون منهم (١٨) طالبا فقط، يعيشون في غرف المدرسة ويدرسون مع علمائها.

وتعد هذه المدرسة أهم مدرسة عثمانية في القسم الآسيوي من إسطنبول، وهي مدرسة ستينية، أي: في أعلى مستويات المدارس العثمانية، حيث كان تصنيف المدارس في الدولة العثمانية بحسب الكتاب المدرس، أو بحسب رواتب الأساتذة، وكانت (ستين فضية) أعلى رواتب للمدرسين في ذلك الوقت.

وجاء الثناء على هذه المدرسة في أكثر من موضع في كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبي، حيث كان يذكر بعض العلماء الذين درسوا فيها، ويذكر أنه ترقى حتى وصل إلى التدريس في هذه المدرسة مثل:

١- فيض الله طورسون، ثم ترقى في المـدارس إلـى أن وصـل إلـى مدرسة «والدة السلطان بأسكدار».
٢- والـعلامـة ابـن المهمندار الحلبي الحنفي، الـذي رحـل إلـى إسطنبول «ثم درس بمـدارس دار الخلافة إلى أن وصل إلى مدرسة والـدة السلطان مراد».
كما ذكـر المحبـي، وغيـرهـم مـن كبار العلماء.



أهم مراكز المدرسة

يُعتبر مركز العلوم والفنون (ISM) من أهم مراكز هذه المدرسة العريقة، هذا المركز الشامخ الذي أُسس بدعم من رئاسة الشؤون الدينية التركية، بهدف نشر العلوم والثقافة الإسلامية بشكل علمي منهجي عام (٢٠٠٧م) بعد أن رمّمت من الخراب الذي أصابها في العهد الجمهوري للدولة التركية.
استقطبت المدرسة أذكياء طلاب كلية الإلـهيـات مـن جـامعـة مـرمـرة، حيث تستقبل - بعد امتحانات عديدة للمتقدمين - أعلى الطلاب والطالبات درجة لتوفر لهم:
١. برنامجا تعليميا قويا لمدة ٤ سنوات، يدرس فيه الطالب علوم اللغة العربية بشكل مكثف، وعلوم الآلـة: (المنطق، والبلاغة، والعقائد، والفقه الحنفي، والفلسفة، وعلوم الحديث، والقرآن، والتفسير) وغيرها من العلوم. فضلا عن مجالس التزكية والتربية والتهذيب، ويُعطى الطالب بعد انتهاء الدراسة إجازة بالعلوم التي درسها.
٢. برنامجا للانغماس اللغوي في بلد عـربـي، وعـادة مـا يـكون أحـد بلدان الشام.
وبـين المـركـز ومعهد «قـاصـد» لتعليم اللغات في الأردن الآن اتفاقية تعاون مشترك في تبادل المدرسين واستقطاب الطلاب.
٣. السـكـن والـطـعـام المجـانـي، حتى يتفرغ هؤلاء الطلاب الأذكياء للدراسة والتعلم.
٤. مكافأة شهرية للطلاب.
٥. رحـلات سياحية وترفيهية داخلية وخارجية.
هـذا، ويحصل الطالب الـدارس في هذه المدرسة العريقة بعد قضاء خمس سنوات في الطلب العلمي المنهجي على إجـازة فـي الـعلوم التي درسـهـا، وهي عشرون مادة علمية وثقافية وإيمانية.
وبهذا تكون مدرسة والدة عتيق مركزا إشعاعيا لنشر الدعوة الإسلامية ولغة القرآن الكريم بطريقة علمية منهجية وسطية راقية.





كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.



حول النقد

بقلم عباس محمود العقاد

من المعروف عن الناس جميعا انهم يميلون الى الثناء والتقريظ ، وينفرون من الذم والانتقاد

وحب الثناء فى جملته خصلة حسنة محمودة العاقبة لأنه يدعو الى طلب الكمال . وما لم يكن نزوة من نزوات « الانانية » العمياء فهو سبيل الى العمل الذى يستحق الثناء

ولكن كراهة النقد ليست بصفة محمودة فى جميع الاحوال لأنها تنطوى على أخطاء كثيرة تدل على ضيق العقل . كما تدل على ضيق الخلق وضيق المجال

اول هذه الاخطاء ، اعتقاد المرء ان الناقد أفضل دائما من المنقود فهو اذا سمع النقد ظن ان الذى يوجهه اليه يستعلى عليه ويدعى انه مبرء من العيب الذى يسنده اليه ولولا ذلك لهان وقع النقد فى نفسه لأنه يشعر انه ومن ينقده سواء

وقد يكون المنقود أفضل من الناقد فيما يتعلق بذلك العيب وفيما يتعلق بسواه . والحقيقة المشاهدة ان الناقد لايكون افضل من المنقود فى عيوبه ولا أقدر منه على عمله المنتقد ولا على سائر أعماله . كل منا يستطيع أن ينظر الى بيت من البيوت فيرى انه سخيف البناء غير صالح للسكن . ولكننا لا ندعى لهذا اننا أقدر على البناء والهندسة من بانيه ومهندسه ، وقد يعيى الكثيرين منا أن يقيموا حجرا على حجر فى جدار صغير . وكل منا يذوق الطعام فيستعذبه او يعافه . وليس كل آكل بقادر على اعداد صفحة من الطعام خير من التى يعافها ، ولو كان عليما بكل عيب من عيوبها فى صناعتها وفىمذاقها. وكل منا يستطيع أن يقرأ كتابا فيشعر بنقصه فى جانب من جوانبه لأنه كان ينتظر المزيد من البيان فى ذلك الجانب ولكن لا يفهم من ذلك ان القارىء المنتقد أعرف بصناعة التأليف من صاحب الكتاب . وقصة المصور الصينى معروفة ، تصلح للذكر فى هذا المقام : كانت له صورة يعرضها ويتوارى خلف ستار المصنع ليستمع الى أقوال الناظرين اليها . وكان منهم اسكاف عاب شكل الحذاء لأنه لا يطابق القالب المخصص لصنعه فأخذ المصور بملاحظته وأصلح عيبه كما اقترح الاسكاف . وعاد هذا فى اليوم التالى فأطمعه التفات المصور الى رأيه واكثر من الملاحظة على أجزاء الصورة من الرأس الى القدم . فبرز له المصور من وراء الستار وأملى عليه درسه فى هذه المرة : انك أحسنت فيما عرفت . فلا تسىء فيما تجهل . وقف بقدميك على حذائك ولا تزد عليه . ومهما يكن من احسان هذا الناقد فى ملاحظته فهو احسان كلام لا احسان عمل . لأنه لو سئل أن يصلح الخطأ فى حذاء الصورة لما استطاع أن يزيل عيب الصناعة فيها . ولا يزال المصور أقدر منه على اصلاح عيوب الصورة حتى فى شكل الحذاء

فالناقد يبدى ما يشاء من العيوب ولا يجعله ذلك افضل ولا أقدر على اصلاح العيوب من صاحب العمل . اذا كره الاستماع اليه انفة من التسليم له بالتفوق عليه . حتى لو اعتقد صاحب العمل أن التفوق عليه ممتنع أو مستحيل ، ولا امتناع ولا استحالة فيه . ويحسن بالناقدين والمنقودين جميعا أن يذكروا ان القدرة على اظهار العيوب أسهل جدا من القدرة على اظهار الحسنات . فان الطفل الصغير قد ينظر الى أعظم العظماء ، فيضحك منه ويلمح عيوبه الظاهرة من لمحة خاطفة وقد يستطيع أن يحكيه فى عيوبه سخرية وعبثا فيجيد محاكاته كل الاجادة ولكنه يقضى عشرات السنين قبل أن يعرف حسناته وفضائله . وقد يقضى العمر كله ولا يقدر على محاكاته فى حسنة من حسناته أو فضيلة من فضائله . كما استطاع فى طفولته أن يحاكى ذلك العظيم فى مشيته أو لهجة كلامه أو جملة حركاته

وما برحت معرفة العيوب قريبة الى أصحاب العيوب ومعرفة الحسنات عسيرة على غير أصحاب الحسنات

ومن أخطاء الكارهين للنقد ان كراهيتهم لم تنم على ضعف الثقة بالنفس ، كما تنم على ضعف الثقة بالناس وضعف الثقة بالقيم الادبية وكل قيمة من قيم التقدير والكرامة

فالرجل الذى يعرف عمله لا يضيره أن يجهله غيره . والرجل الذى يملك ثروته ويأمن عليها لا يضيره أن يحسبه هذا أو ذاك فى عداد الفقراء. ومن كان واثقا من قوته فهى بين يديه يجدها

٦



مجلة «الشهر»: مجلة أدبية فنية نقدية كانت خلال المدة (١٩٥٨ - ١٩٦٢م) وتعتني بالفكر والثقافة، ومن أبرز كتابها المشاهير عباس العقاد، وعائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ). رأس تحريرها سعدالدين وهبة، وكانت تصدر من القاهرة.

حاضرة عنده كلما احتاج اليها . وانما يضطرب الضعيف الذى تشاع عنه القوة كذبا اذا شاع عنه الضعف بدلا من القوة لأن ما تخلقه الاشاعة تقضى عليه اشاعة مثلها . وما يثبت على الحق لا تمحوه الاباطيل

فليس ادل على ضعف الثقة بالنفس من خوف النقد واتقاء المزاعم ، كذلك يدل على ضعف الثقة بالناس ان يحسبهم الكارهون للنقد العوبة يلعب بها كل ناقد ، وأرجوحة تميل بها الاهواء مع كل جاحد وحاقد . وما كان فى وسع احد قط أن يلعب بآراء الناس كافة وان وسعه ان يلعب بآراء القليلين منهم الى حين ، وقديما قيل ما قيل عن نوابغ الدنيا وعباقرة الازمان فذهب القيل والقال وبقيت مآثر النبوغ والعبقرية ساطعة سطوع الشمس راسخة رسوخ الجبال

واشد من ضعف الثقة بالنفس ضعف الثقة بالناس . بل هذا هو سبب ضعف الثقة بكل شيء وبكل انسان . فان الذى يشك فى وجود القيم الصحيحة فى العالم يخشى الخطر على كل قيمة ويحسب المجد كالهوان . وان الجواهر كالحجارة وان العملة المشروعة كالزيوف الممنوعة . ليس بين شرعها ومنعها الا صيحة تعلو هنا أو ضجة تخفت هناك

ولسائل أن يسأل : لماذا يحرص الانسان على سمعة لا قيمة لها ..؟ وما قيمة السمعة التى لا تحفظ نفسها بنفسها ؟ وما معنى الخوف على قيمة محفوظة يراها العارفون فلا يخلطون بينها وبين الاعراض والقشور ؟

ان كان للعمل الادبى أو العمل الاجتماعى قيمة مقدورة يعرفها الناس فلا خوف عليها من النقد والناقدين ولا حذر عليها من كيد الكائدين وحقد الحاقدين . وان لم تكن للأعمال المأثورة قيمة دائمة فلماذا نحرص عليها ونشفق من زوالها . ونطلب لها الدوام وليس لها حظ من الدوام

ان خوف النقد عادة غير محمودة العاقبة فى جملتها ، عادة لا يؤمن صاحبها بحقه على نفسه . ولا يؤمن بحق مرعى لغيره . ولا يطمئن الى قيمة تحميه من عوارض القلق وبوادر الشكوك . فالكاره للنقد يخطىء فى خوفه من النقد الصواب لأن النقد الصواب ينفعه وينفع الناس ولا يصغره فى نظر نفسه ولا يفهم منه حتما انه اقل قدرا واضعف قدرة من ناقديه

وهو يخطىء فى خوفه من النقد الخطأ لانه يحجر على آراء غيره ولا يرى لهم حق المخالفة له ولو خالفوه مخطئين . ولعله يخطىء سبيل العزاء فى الحالتين . فحسبه من عزاء لو شاء أن يتعزى أن ينظر الى ناقديه هل سلموا من النقد وهل وافقهم الناس على كل ما قالوه؟ وهل يرى بين الناس احدا يرضى عنه جميع الناس كائنا ما كان شأنه وبالغا ما بلغ من العلم والرفعة ومحاسن الاخلاق؟

قال الحكيم الاندلسى ابن حزم الملقب بامام النقاد : « من قدر انه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . ومن حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمتها فى أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس اياه اشد واكثر من اغتباطه بمدحهم اياه »

ثم مضى يفسر ذلك برايه فقال : ان مدحهم اياه ان كان بحق وبلغه مدحهم له اسرى ذلك فيه العجب فأفسد فضائله . وان كان بباطل فبلغه فسر به فقد صار مسرورا بالكذب . وهذا نقص شديد

وأما ذم الناس اياه فان كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سببا الى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم . وان كان بباطل فصبر اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر

واحسن الحكيم فيما قال وفيما علل . ولو شاء لزاد عليه ان الاغتباط بالذم كثيرا ما يكون من قبيل الثناء المعكوس . وانه لثناء معكوس لا رياء فيه اذا صدر عن حسد ورغبة فى انكار الفضل الذى يشعر به الحساد فيحاولون اخفاءه بالذم والانكار . وربما كان انكار اللئيم ابلغ فى الشهادة لصاحب الفضل من ثناء الكريم . ولقد كان ابن حزم مبتلى فى زمانه بحسد الحساد فأثاروا عليه الخاصة والعامة واحرقوا كتبه وحرموا قراءته فقال :

لئن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
ملأت به القرطاس بل هو فى صدرى

ثم بقى ابن حزم فى كتبه المأثورة وزال حاسدوه فلا يذكرهم الناس الا اذا ذكروه ليصغروهم ويكبروه

ومنذ خمسين سنة كانت كلمة ابن حزم هذه شعار الجريدة التى تولى تحريرها أستاذ الجيل احمد لطفى السيد وكان يجعلها شعارا له وجوابا على نقد الناقدين وخلاف المخالفين ، وهم كثيرون فانتهى النقد والخلاف الى تقدير واعتراف ، ولم يبق من جيل الحكيم المصرى - خليفة ابن حزم فى نظرته الى الثناء والذم - الا من يدين له بالاستاذية والسبق الى سواء السبيل فى فهم الوطن والوطنية

وقد نسيت اعمال لم ينقدها احد وبقيت اعمال لم تسلم من النقد فى زمانها ولا بعد زمانها وعمل العاملون وكتب الكاتبون فلم يستحقوا البقاء بما سمعوه من ثناء ، ولم ينقطع غيرهم عن عمل أو كتابة خوفا من نقد مضى أو نقد يجيء

واشفق بعضهم من التأليف لأنه يجر الى القدح والتعنيف . لا بل جاء فى الامثال ان من اراد بعدو سوءا فليزين له تأليف كتاب أو تحبير مقال

فان صح هذا المثل فهو صحيح على شريعة السيد المسيح « احبوا اعداءكم وباركوا لاعنيكم فمن تمنى لعدوه ان يؤلف فتلك امنية صديق لصديق . أو امنية عدو لعدو محبوب

نعم : وكالتأليف فى امر النقد كل عمل باق .. تبنيه الهمم والعقول وتقول فيه الالسنة ما تقول»

عباس محمود العقاد

٧

عباس محمود العقاد

(ولد في أسوان سنة ١٨٨٩م) أديب ومفكر وصحفي وشاعر مصري. اشتهر بمعاركه الأدبية والفكرية مع الشاعر أحمد شوقي والدكتور طه حسين والدكتور زكي مبارك والأديب مصطفى صادق الرافعي والدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، وغيرهم، وقد ساهم في إثراء الحياة الأدبية في مصر والعالم العربي عموما، توفي في ١٢ مارس ١٩٦٤م، وكان عمره يوم مات ٧٤ سنة.

إعداد : خالد خلاوي

حوارات

طالب بكلية الهندسة: ابتكرت جهازا لتحويل النفايات إلى غاز وورق فاخر

لم يتعد العشرين عاما، من مواليد محافظة بني سويف المصرية، طالب بكلية الهندسة جامعة ٦ أكتوبر، دفعه رؤية تلال القمامة إلى البحث عن كيفية تحويلها إلى مواد تنفع مجتمعه، وهذا ما نجح فيه «المخترع الصغير» «فادي أشرف مختار» بابتكار وحدة آلية لإعادة تدوير المهملات بالطاقة الشمسية لإنتاج وقود وألومنيوم وورق فاخر، حصل بموجبها على المركز الأول على الوطن العربي من جامعة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في الابتكار، وإلى نص الحوار:

حدثنا أولا عن فكرة مشروعك وهل هي مرتبطة بطبيعة دراستك؟

- الفكرة هي عبارة عن وحدة آلية لإعادة تدوير المهملات بالطاقة الشمسية، وتنقسم لجزأين: الأول، خاص بإعادة تدوير الورق، والآخر، خاص بإعادة تدوير المواد العضوية، فتخرج في صورة ورق فاخر، أو خشب كونتر، وعلب المشروبات الغازية يتم معالجتها وتخرج في شكل «لوح ألومنيوم» بسمك (٢ مللي).

كما أن بواقي الطعام تدخل وتحدث لها عملية تخمر خلال ٧ أيام لتخرج غاز البيوجاز أو الميثان، ويدخل في العديد من الاستخدامات. وحدات البيوجاز مطبقة في العالم منذ أعوام، مثل البرازيل، حيث إنتاجها الرئيسي للوقود يكون عن طريق القمامة. لكن الجديد في الوحدة أنها صغيرة الحجم متر/ متر ونص، وارتفاع متر، تعطى ٤ أضعاف الإنتاجية المتعارف عليها للوحدات الأخرى.

حدثنا عن مراحل عمل الجهاز ومدى أهميته؟

- الجزء الأول خاص بإعادة تدوير الورق والألومنيوم، فالورق يتم فرمه ثم إضافة



مواد كيميائية، ثم يتم تعقيمه حراريا، ثم ضغطه في صورة لوح خشبي جاهز قبل أن تستخدمه المصانع، أو يتم تغيير خزانات المواد الكيميائية وإضافة خزانات أخرى لنشارة الخشب وغراء وبعض المواد الكيميائية، ويخرج في صورة خشب، وأما علب المشروبات الغازية بمختلف أنواعها فتدخل ويتم عملية تغطية عليها، ثم تلين بالحرارة، ثم إضافة مواد كيميائية.

من وجهة نظرك، ما أهمية الجهاز؟

- سيحل مشكلتين من أكبر المشاكل الموجودة في مصر حاليا: أولها، نقص مصادر الطاقة، والثانية تكمن في التخلص من القمامة. فمصر تدفع بشكل سنوي ١٥ مليار جنيه للتخلص من القمامة، ويمكن أن نستخدم ربع هذا المبلغ ليساعد على إنتاج خطوط إنتاج للوحدة، للحصول على إنتاجية عالية.

هل جربت الجهاز عمليا؟

- جربته، وحصل على براءة اختراع محلية، وأخرى دولية من جامعة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في المملكة العربية السعودية. فالجهاز خرج من نطاق الحبر على ورق إلى حيز التنفيذ، وموجود في وزارة البحث العلمي المصرية.

طور نفسك

١٠ طرق لتكون صاحب شخصية جذابة

١- اعرف نفسك: فهمك لنفسك وقدرتك على فهم تصرفاتك يعطيك قوة وقدرة على التعامل مع نفسك بذكاء ووعي، يجب أن تعرف تلك الصورة التي سيراك عليها الآخرون قبل أن تفكر في التأثير عليهم.

٢- ارفع معنوياتك: ولتؤثر في الآخرين إيجابيا يجب أن تكون في حالة معنوية مرتفعة، وأسهل الطرق لرفع معنوياتك ممارسة الرياضة، فالرياضة تحسن الحالة المزاجية وتخفف التوتر وتحافظ على الصحة.

٣- أشعرهم بأهميتهم: إذا أردت أن تجذب إليك شخصا فاستمع إلى ما يقوله وتعرف عليه وافهمه أكثر واجعله يشعر أنه أهم شخص في المكان.

٤- طور معلوماتك وثقافتك: تحدث مع الآخرين عن الأشياء التي تهتم بها وتؤثر فيك وترفع معنوياتك وتؤثر في نظرتك للحياة.

٥- اهتم بمظهرك: مظهرك يشير إلى مدى اهتمامك بنفسك واعتدادك بها ورضاك عنها، ولذا ارتدِ أفضل ما تسمح به ميزانيتك.

٦- تعاطف معهم.. الاستماع باهتمام والتعاطف الصادق هما أقصر الطرق لتكون شخصية جذابة، إذ كيف ستؤثر في الناس إذا كنت لا تستطيع أن تفهمهم.

٧- اجعلهم يتذكرون كلامك: في حديثك استخدم دائما الأمثلة التشبيهية والقصص لأنها من أكثر الأدوات التي تجعل حديثك ممتعا مؤثرا.

٨- اهتم بأسمائهم: كل شخص يحب أن يسمع اسمه، لذلك عندما تتحدث إلى شخص احرص على أن تذكر اسمه أثناء حديثك.

٩- كن راضيا: أن تكون راضيا عن نفسك وعما لديك هو مفتاح السعادة الشخصية، والناس ينجذبون إلى الشخص السعيد الراضي المبتهج.

١٠ - كن خفيف الظل: حاول أن يتضمن حديثك بعض الدعابات.



شباب الجامعة

جامعة الكويت تفوز بجائزة رواد المناظرة

حصدت جامعة الكويت يوم ٢٠١٥/٥/٧ جائزة رواد المناظرة في البطولة الدولية الثالثة للمناظرات التي نظمها مركز مناظرات قطر بمشاركة ٦٧ فريقا من ٣٣ دولة عربية وأجنبية.

وأعربت رئيسة وفد جامعة الكويت الدكتورة سهام القبندي عن سعادتها البالغة بهذه الجائزة وسط هذا الحشد للشباب العربي والآسيوي والأوروبي والأميركي.

ومثل دولة الكويت في هذه البطولة خمس جامعات، هي: جامعة الكويت بفريقين من الطلبة وفريق طالبات، والجامعة العربية المفتوحة، وجامعة الخليج للعلوم والتكنولوجيا، والجامعة الأميركية، وكلية القانون الكويتية الدولية، بفريق لكل منها يضم أربعة طلبة ومدربا لكل جامعة.

واستطاعت الفرق الكويتية تحقيق نتائج جيدة في المناظرات لكونها أول مشاركة للطلبة على الصعيد الشخصي، حيث وصل فريق جامعة الكويت (طلاب) إلى دور الثمانية، فيما استطاع فريق كلية القانون الكويتية الدولية الوصول للدور نصف النهائي.



ناجحون

الزكارنة.. مؤسس مشروع القاموس الإسلامي للصم

عمل كبير قام به المشرفون على مشروع القاموس الإسلامي للصم والذي يتاح من خلاله للشريحة المصابة بالصمم التعرف على تعاليم الدين الإسلامي بواسطة شرح سور القرآن الكريم بقصد تدبر وفهم تعاليم الإسلام، لئلا تحرم هذه الفئة الكريمة من فيض هذا الدين وتعلم أحكامه، وهذا ما قام به الأستاذ ناجي محمد زكارنة، مذيع لغة الإشارة للصم ومؤسس مشروع القاموس الإسلامي الإشاري في تفسير القرآن الكريم ومفردات وتعاليم الدين الإسلامي للصم.

يقول الأستاذ الزكارنة عن فكرة المشروع: بدأت فكرة تأسيس هذا القاموس منذ عشرين عاما عندما كنت أترجم الحضارات الدينية للصم في نادي سمو الأمير علي للصم في محافظة الزرقاء في المملكة الأردنية الهاشمية،



ويومها كنت أواجه صعوبة كبيرة في ترجمة الكلمات الدينية، وهي أمانة كبيرة يجب توصيلها للصم بدقة متناهية، والحمد لله، بعد سفري إلى قطر تهيأت لي الأمور المادية من خلال دعم وزارة الأوقاف القطرية، ومن هنا بدأت بجمع الكلمات الخاصة بالمصطلحات الإشارية، وقد استخرجت هذه الكلمات من أمهات بطون الكتب الفقهية، واستعنت بها بعد الله تعالى، وقمت بفهرستها حسب ما يتطلب كل باب، وبعد الجمع والتنقيح قمت بعرض ما عملته على المركز الثقافي للصم، وبفضل من الله تعالى تمت الموافقة على تبني هذا المشروع (القاموس الإشاري الإسلامي)، وساعد على إنجاز المشروع لجان من خبراء عرب ومترجمين في مجال الصم والبكم، حيث تم توزيع الكلمات التي قمت بجمعها على هؤلاء الخبراء في بلدانهم، وتم عمل ورشة عمل في الدوحة للتصويت على الكلمات وتوثيق الصورة التي تعتمد من قبل الصم، ثم بعد تلك الجهود الشاقة تم الاحتفال بتدشين هذا القاموس الذي يحتوي على ١٢٠٠ كلمة من المصطلحات الدينية، وبداية العمل بهذا المشروع كانت عام ٢٠١٠.



إعداد : د. عمرو عبد الكريم

معركة الوعي: سؤال الهوية

سؤال على مدار أكثر من قرنين من الزمان والأمة الإسلامية من طنجة إلى جاكرتا تعيش أزمة هوية حادة ضربت في أطنابها، وتعددت مستوياتها وتجلت في كثير من مشكلاتها الاجتماعية والسياسية.

ولقد تعددت تعريفات مفهوم الهوية إلا إنه يدور في جوهره بصفة عامة حول ذلك الإحساس بين أفراد مجتمع معين بأن هناك أسسا أو خصائص تربط فيما بينهم وتميزهم عن غيرهم..كما يرى كثير من علماء العلوم السياسية أن مفهوم الهوية يشير إلى الأساس الذاتي - وليس بالضرورة العاطفي - للعضوية في مجتمع سياسي معين.

ومن الناحية الفلسفية فالهوية هي ما يكون به الشيء هو. وهي مأخوذة من «هو» بمعنى جوهر الشيء وحقيقته، ومن ثم يتم تعريف الهوية بأنها «مركب» من العناصر المرجعية والمادية والذاتية، حيث تجسد الهوية الضمير الجمعي لأي تكوين بشري، أو تكتل إنساني، بما هو نظام قيمي وثقافي واجتماعي، إذ يشكل وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة، ومن ثم فالهوية تشير إلى الكيان والذاكرة الجماعية، وهي مرتبطة ارتباطا وجوديا بالمعتقدات الدينية والأبعاد الإنسانية والتشكلات الثقافية التي تطبع أي كيان حضاري بسمات معينة.

لذا فإن كثيرا من الباحثين يؤكدون على أن الهوية هي مجمل الثوابت التي لا تتوقف على غيرها، وتبلور مجمل السمات والخصائص المميزة لمجتمع بعينه.

وبالتالي تصبح «الهوية» محددا لوجود المجتمع وعاملا لاستمراريته، وإذا لم تحفظ ويتم الذود عن حياضها يؤدي ذلك إلى قصورها وعجزها عن مواكبة التطور الحضاري، ويكون ذلك سببا في الانهيار أو التدهور الذي يغشى مجتمعا بعينه.

ومن ثم فسؤال الهوية مرتبط بسؤال الذات الحضارية وسؤال الوجود الذاتي، الذي هو في جوهره وجود مستقر، وراسخ لإنسان تلك الهوية.

وجوهر الهوية هو البحث عن الجماعة أو الكيان الذي يتجه إليه ولاء الأفراد في هذه الجماعة أو هذا الكيان، وعندما تلاشى الانتماء الكبير للأمة اشتعلت الانتماءات الصغرى اشتعال النار في الهشيم، فظهرت الانتماءات الجهوية والعرقية واللغوية والثقافية، وكان الانتماء للكيانات الأصغر كالانتماء للأسرة أو للقبيلة أو للإقليم أو للدولة أو حتى في الانتماء لكيان أكبر من الدولة كالأيديولوجيات العابرة للثقافات، وعادة ما تتعدد درجات الولاء، لكن صلب الهوية يتمثل في الولاء الأسمى للأفراد، فعندئذ يستطيع الفرد أن يجد الإجابة على تساؤلات مثل: من أنا؟ ومن نحن؟ وفي أي وعاء حضاري يتشكل وجودنا الذاتي؟

وجوهر أزمة الهوية الحضارية التي تعيشها الأمة الإسلامية تشير إلى أن ما قبلته تلك المجتمعات ذات يوم (وعلى مدار عقود متواصلة) كتعريفات مادية ونفسية للذاتية الجماعية لم يعد مقبولا، أو طرأت عليه من العوامل ما جعلته محل شك في مجتمعات، ومحل إنكار في مجتمعات أخرى، ومحل محاربة في مجتمعات ثالثة.

وعلى مدار الرقعة الواسعة التي تظلل محور طنجة - جاكرتا أثار سؤال الهوية قضيتين مختلفتين:

القضية الأولى: وهي قضية تعدد الهويات وتصارعها، بما يعنيه ذلك من وجود كيانات أخرى خلاف الأمة؛ يتجه إليها ولاء الفرد، وهنا تثار العديد من الأسباب حول تعدد الهويات وتصارعها في بلدان عالم المسلمين، وكان من نتيجة ذلك أن عانت كثير مما يسمى بالدول الإسلامية من مشكلات عدم التكامل الوطني أولا، ثم عدم التكامل الإقليمي، ثم ثالثا: مشكلات عدم التكامل القيمي.

القضية الثانية: وهي وجود فجوة

واسعة بين النخب على مستوى دول العالم الإسلامي والشعوب، إذ في الوقت الذي تولى فيه زمام الأمور نخب ما بعد الاستعمار تشعبت الهويات الوطنية بدول العالم الإسلامي واتسعت فيه الفجوة بين الشعوب والقيادات السياسية والفكرية التي مكن لها الاستعمار من بعد.

وترجع جذور أزمة الهوية في أغلب بلدان العالم الإسلامي إلى الدور الكبير الذي ساهمت به دول الاحتلال الغربي في سحق جذور الهوية الإسلامية، فكانت أزمة اللغة العربية في أغلب بلدان المسلمين مما نتج عنه تشوه المجال الثقافي واللغوي، إذ إن الاحتلال اللغوي - إذا جاز التعبير - في بعض البلدان الإسلامية وسيادة اللغة الأجنبية على المجال العام والتعليمي والتربوي، ولعقود طويلة أدى إلى تفجر أزمة الهوية في دولة ما بعد الاحتلال.

لقد عمل الاحتلال في أغلب بلدان المسلمين على تحطيم الأسس والمقومات الذاتية التي قامت عليها المجتمعات الإسلامية، وعلى التوازي ما قامت به قوات الاحتلال الثقافي في زرع بذور ثقافته ونظمه السياسية والاجتماعية، حتى ضاعت خصوصياتها الحضارية، وذابت معالم هويتها الوطنية والدينية، وتكرست التبعية وضمن الغازي استمرارها.

وكان من تداعيات استمرار أنماط ما قبل الاحتلال أن تشوهت البنية الثقافية لأغلب دولنا الإسلامية، ورغم أن كثيرا من تلك الدول نصت في دساتيرها على أن دينها الإسلام فإن النظم الحاكمة لم تعط هذا الشعار أي محتوى حضاري أو ثقافي أو اقتصادي، وهذا أول ما يعني أن الاحتلال ذهب لكن نهجه بقي متجذرا في البنية السياسية لدولة الاستقلال.

ولقد ساعد على استحكام أزمة الهوية في معظم بلدان العالم الإسلامي عدة عوامل، أهمها: أن الانفتاح على العالم الغربي فرض لغته في المعاملات الاقتصادية، فكانت اللغة الأجنبية هي لغة المسيطر والمهيمن في لعبة غير متوازنة، استمر فيها قانون ابن خلدون: إن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

وربما يكشف سؤال الهوية أهم إشكالات قضايا الوعي الحضاري، إذ إن جوهر سؤال الهوية هو علاقة الذات الحضارية بالآخر المختلف، وعلى مدار قرون كانت العلاقة بالآخرين سواء في بعدها الصراعي أو التعاوني أهم مظاهر اكتشاف الذات.

ولقد تجلى سؤال الهوية في مراحل الانتقال التي عاشتها الشعوب الإسلامية من الأمة - الدولة إلى بدايات تشكل الدولة القطرية، وانغماسها في أزمات ما بعد الاستقلال، ومحاولات بناء دول تملك مقدراتها الذاتية، وتملك قدرات تفعيل مواردها على مواجهة تحدياتها.

وعلى مدار عقود الاستقلال الطويلة عاشت أغلب شعوب العالم الإسلامي أزمة الصراع بين الهوية القطرية أو الهوية السياسية التي تمثل الدولة القومية الحديثة باعتبارها الممثل للعقد الاجتماعي بين السلطة والمواطنين، وبين الهوية الحضارية التي تقوم على أسس: الدين واللغة والثقافة التي تحياها تلك الشعوب والتي تدور في فلكها تلك الدولة.

سؤال الهوية يطرح من الإشكالات أكثر مما يقدم من الأجوبة، وأجوبته مفتوحة لا تحتكر الحقيقة ولا تقصرها على تصور بعينه، بأسئلة الوعي بقدر ما تبعد عن التنميط بقدر ما تفلح في إثارة الذات على واقع أكثر تنوعا وتعددا، وهو ما حفظ الذات الحضارية على مدار قرون طويلة فاستوعبت الحضارة الإسلامية على مدار المساحة الشاسعة التي تظلل محور طنجة - جاكرتا التنوع العرقي والديني والثقافي واللغوي، وحافظت على قدر من التجانس في إطار ثقافة استيعابية تؤكد قيم التعايش السلمي، وثقافة الحوار بالتي هي أحسن، وقبول الآخر المختلف: دينا وعرقا ولغة ومذهبا، وسيادة قيم العدل والقسط والمساواة بين الناس.

ملاحظة منهجية

«الهوية الكونية» التي يروج لها البعض من مفكري عالمنا العربي والإسلامي لا يمكن أن تكون بديلا للهوية الحضارية لشعوب أمتنا لكثير من الاعتبارات الفكرية والعملية والواقعية، وكما حاولت «العولمة» تنميط العالم في الإطار الحضاري الغربي، إلا إن الانفجار التكنولوجي الرهيب في وسائل التواصل الاجتماعي فجر كل الهويات الكامنة على مدار شعوب الكرة الأرضية، وأحيا ما كان قد اندثر من هويات ذاتية لشعوب صغيرة، فما بالنا بعالم إسلامي يتمحور العالم حول حركته وإن كان في مرحلة خفوت حضاري واضح.

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

مفهوم الحضارة عند الفيلسوف طه عبدالرحمن

الحضارة إنتاج خطابي وسلوكي يستند إلى قيم إنسانية حية.

مفهوم الحضارة عند صامويل هانتغتون

«فما الذي نعنيه عندما نتحدث عن حضارة ما؟ إن الحضارة هي كيان ثقافي. فالقرى والأقاليم والمجموعات الاثنية والقوميات والمجموعات الدينية لها جميعها ثقافات متميزة... وهكذا فإن الحضارات هي أعلى تجمع ثقافي للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب، ولا يسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى. وهي تحدد في آن معا بالعناصر الموضوعية المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات، وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب نفسه».

مقولات في الوعي الحضاري

«**مشكلة اليقظة الدينية**» التي دخل فيها العالم الإسلامي تفتقر إلى:

سند فكري محرر على شروط المناهج العقلية والمعايير العلمية المستجدة، فلا نكاد نظفر عند أهلها لا بتأطير منهجي محكم، ولا بتنظير علمي منتج، ولا بتبصير فلسفي مؤسس.

وتراجع اليقظة بأسرع مما استغرق ظهورها من الوقت من نتائج ظاهرتين هما:

١- الغلو في الاختلاف المذهبي.

٢- الخلو من السند الفكري.

الفيلسوف طه عبدالرحمن

«النكتة باعتبارها جزءا من الثقافة الشفهية يمكن أن تكون قناة يعبر من خلالها الرأي الشعبي عن رأيه ورؤيته وغضبه بعيدا عن رقابة سلطة الدولة المركزية، وبالتالي يمكن للنكات أن تكون مؤشرا على تصاعد الوعي الشعبي ودعوة لقوى المعارضة وأعضاء المجتمع المدني للتحرك، تساندهم قاعدة شعبية عريضة».

الدكتور عبد الوهاب المسيري

«إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية ينبتون ويحصدون ويعجنون ويخبزون ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها».

مصطفى صادق الرافعي

عرض كتاب



نقد العقل المسلم: الأزمة والمخرج، تقديم الدكتور محمد عمارة

عبدالحليم أبوشقة

الكويت: دار القلم، ط ٢، ٢٠٠٥، ٢٢١ صفحة.

كتاب أستاذنا الكبير الراحل عبدالحليم أبوشقة «نقد العقل المسلم»، كتاب مركزي في باب الوعي الحضاري، وإذا كان كتابه «تحرير المرأة في عصر الرسالة» هو أهم أعماله الفكرية، فإن كتاب نقد العقل المسلم هو أهم الوصفات الشاملة لأزمة هذا العقل.

يقول مقدم الكتاب الدكتور محمد عمارة: «هذا الكتاب صفحات من الإبداع الفكري الخالص، لأنه لم يكتب في صورة كتاب يتوجه به صاحبه إلى الحياة الثقافية والفكرية، فيراعي ملابساتها وضغوطاتها ومقتضيات مجاملاتها أو توقى محاذيرها وإنما كتب في صورة:

ومضات فكرية، وإلهامات إبداعية خالصة في الصدق والتجرد والعمق والنقاء، فهو زفرات عقل، تصاعدت في لحظات خلوة مع نفس كبيرة تحمل هموم الأمة الإسلامية، بل والإنسانية وتتعبد الله، سبحانه وتعالى، في محراب التفكر والتدبر والتعقل فيما آلت إليه أحوال المسلمين، كأمة والإسلاميين، كطليعة تعلق عليها الأمة أغلب الآمال في النهوض المنشود.

وهو أطواق نجاة للعقل المسلم المعاصر من حالة التردي والتخبط والإحباط، التي تمثل المخاض الذي طال انتظار الخروج من أوحاله».

يقع الكتاب في ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: أزمة العقل المسلم المعاصر.

وبدأ فيه المؤلف بتبيان حجم العقل كنعمة خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات، وربط الكاتب العقل بالإيمان ربطا يجعل أحدهما بدون الآخر خللا في النفس، فكيف يكون الإيمان بلا عقل إلا عبودية لبشر؟ فنحن لم نر الله تعالى، ولم نتوصل إليه إلا بعقولنا، وما كان الهدي النبوي عبر الأزمنة إلا مكملا للطريق الذي ابتدأه العقل نحو الإيمان.

وما العقل دون إيمان يهديه ويرفع من إنسانيته وروحه؟ ودون قيم عليا يهتدي بها تحميه من تدمير نفسه والعالم؟

وفي هذا الفصل يستعرض المؤلف أهم أعراض انحراف العقل المسلم المعاصر وهي:

١- الغفلة عن القواعد الأصولية والقواعد الفقهية.

٢- الوقوع في بعض المزالق الفكرية.

٣- سيطرة الأعراض النفسية السلبية.

وربما كانت أهم ملامح عبقرية المؤلف هي قدرته على ضرب الأمثلة والتمثيل لكل العناصر التي يوردها، وهو الأمر الذي يجعل من عرض أو اختصار مثل تلك النوعية من الكتب أمرا شاقا وعسيرا، ولا يغني بحال من الأحوال عن قراءته قراءة واعية متبصرة، وهو الأمر الذي أشار إليه مقدم الكتاب الدكتور محمد عمارة.

أما الفصل الثاني: حول منهج التفكير الإسلامي.

فيؤكد المؤلف فيه على أن أهم نقطة في صناعة الحضارات، هي صناعة الإنسان، فكلما ارتقى الإنسان وبلغ درجة عالية من التحضر أدرك أهمية صناعة الإنسان، وأولاها عناية خاصة تفوق عنايته بصناعة الآلات، ورسم الخطط وبذل المال لإعداد صانعي الإنسان وصانعي الأجيال.

ثم يحدد المؤلف مصادر المعرفة الإسلامية:

١- الوحي كمصدر لبعض المعلومات عن الكون، بعضها وصلنا إليها بالعلم التجريبي وبعضها ما وراء العقل.

٢- الكون، ووسائل تحصيل المعرفة فيه هي الحس والعقل.

وفي الفصل الثالث: حول الخلاف والحوار.

يتحدث المؤلف عن الخلاف والحوار، وعن أهمية كل منهما، فالخلاف ضرورة من ضرورات الخلق، ولن يتفق الناس جميعا على شيء واحد ولو أردنا ذلك.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل الفن: التمثيل والأناشيد وأعمال الفن المختلفة

عنوان النازلة: حكم تمثيل وتصوير الأنبياء والصحابة.

- الخلاصة الحكمية:

١- لا يجوز تمثيل النبي ﷺ، وخلفائه الأربعة، وأمهات المؤمنين، وبناته، ويستعاض عن ذلك بأن تحكي بعض الشخصيات الأخرى أقوالهم.

٢- يجب على ولاة الأمور، والمسؤولين، ووزارات الإعلام، وأصحاب وسائل النشر، منع تصوير النبي ﷺ، صورا مجسمة، وغير مجسمة: في القصص والروايات، والمسرحيات، وكتب الأطفال، والأفلام، والتلفاز، والسينما، وغير ذلك من وسائل النشر، ويجب إنكاره، وإتلاف ما يوجد من ذلك، وكذلك يمنع ذلك في حق الصحابة رضي الله عنهم.

٣- قرارات المجامع الفقهية، وهيئة كبار العلماء، ورابطة العالم الإسلامي، وغيرهم: تحريم تمثيل النبي ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم.

٤- متى ما تقيد العاملون بالضوابط الشرعية - الآتي ذكرها - في أي مسلسل أو تمثيلية؛ فإنه يكون صالحا للعرض، وإلا فلا.

* القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:

● أولا: فتوى لجنة الفتوى بدولة الكويت رقم (٧٢٣٦) في المجلد (٢٢/ص٤١٤)؛ حول «العمل في المسرحيات، وتمثيل النبي وأزواجه وأصحابه»، وفيه:

عرض على اللجنة استفتاء حول عرض مسلسل تاريخي بعنوان «خالد بن الوليد»؛ فأجابت بما يلي:

١) الأصل أن التمثيليات والمسرحيات مباح إنتاجها، والعمل فيها من تمثيل، وإخراج، وعرض، وغير ذلك إذا روعي فيها الأمور المعتبرة شرعا، وذلك لأن التمثيل من أحسن الوسائل التثقيفية، وأن تأثيره في النفوس أقوى من كثير من الوسائل التقليدية.

٢) لابد في التمثيليات التاريخية الإسلامية من أن تكون صادقة تاريخيا بأن تتقيد في إيراد الوقائع والظروف المحيطة بها بتمثيل ما كان واقعا قدر الإمكان، وذلك بأن تكون موافقة للروايات الصحيحة الواردة في المصادر الإسلامية الموثوقة، وخاصة في التمثيليات التي تتعرض لحياة النبي ﷺ وأصحابه وأبطال الإسلام.

٣) لا يجوز تمثيل النبي ﷺ، وخلفائه الأربعة، وأمهات المؤمنين، وبناته، ويستعاض عن ذلك بأن تحكي بعض الشخصيات الأخرى أقوالهم.

٤) أن يكون الهدف من تمثيل الصحابة إبراز دورهم في فهم وتطبيق ما ورد في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الكريم ﷺ من أحكام، ودورهم القيادي في مسيرة الأمة الإسلامية، وامتثالهم لأوامر الله تعالى ونواهيه، وتمسكهم بأحكام الشريعة الإسلامية عقيدة، وخلقا وعملا، ومنهجا وسلوكا.

٥) أن يكون ما ينسب للصحابي من قول أو فعل ثابت الرواية عنه.

٦) أن يكون الممثلون له، من المسلمين المتمسكين بدينهم والمشهود لهم بالصلاح والتقوى.

٧) يراعى في أهداف المسرحيات والتمثيليات أن تكون مقررة لمحاسن الأخلاق والآداب، ومنفرة عن مساوئها، ومرغبة في أن تكون الحياة ملتزمة بالإسلام بعيدة عن الإثارة الجنسية، والإسفاف الخلقي.

٨) أن تعرض هذه التمثيليات قبل عرضها على الجمهور على لجنة علمية دينية متخصصة لإقرارها أو اقتراح إدخال التعديلات الضرورية عليها.

- فإذا تحققت هذه الضوابط في هذا المسلسل فإنه يكون صالحا للعرض، وإلا فلا. والله أعلم.

انتهت الفتوى.

● ثانيا: ثم صدر قرار مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة في ذي القعدة عام ١٣٩٧هـ، ومن توصياته:

يؤيد المؤتمر الإمام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الإسلامية في بيانه المؤسس على قرار المجمع بأنه لا يقر إنتاج فيلم «محمد رسول الله» بهذا الاسم، أو باسم «الرسالة»، أو أي فيلم آخر يتناول بالتمثيل صاحب الرسالة، أو أحد أصحابه الكرام.

ولا يجوز السماح بعرضه صيانة لشخصية الرسول الكريم، وأصحابه الأجلاء من التعرض لما لا يليق بمنزلتهم المصونة.

ويطالب المؤتمر بمراقبة الأفلام السينمائية والتمثيليات قبل عرضها، ومنع ما يتعارض منها مع تعاليم الدين الحنيف، ويطالب باختيار رؤساء تحرير الصحف والمجلات على مستوى المسؤولية، وأن تمنع المجلات والكتب المستهترة بالقيم الدينية والخلقية.

انتهى القرار.

● ثالثا: ثم صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي؛ التابع لرابطة العالم الإسلامي؛ مستنكرا

إخراج فيلم «محمد رسول الله ﷺ»، ونصه:

«وقد عرض هذا الموضوع على المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، فقرر: تحريم إخراج فيلم عن النبي، وتحريم تمثيل الصحابة، وذلك في المادة السادسة من قراره المتخذ في دورته الثالثة عشرة، المنعقدة خلال المدة من ١ شعبان ١٣٩١ إلى ١٣ شعبان ١٣٩١هـ، وهذا نص المادة المذكورة:

١- يقرر المجلس التأسيسي بالإجماع تحريم إخراج فيلم محمد رسول الله؛ لما فيه من تمثيله بآلة التصوير الكاميرا، مشيرة إليه، وإلى موضعه، وحركاته، وسائر شؤونه بالتحديد، وتمثيل بعض الصحابة في مواقف عديدة، ومشاهد مختلفة، وهو محرم بالإجماع.

٢- يوصي المجلس الأمانة العامة للرابطة بإبلاغ هذا القرار لجميع الدول الإسلامية، والمنظمات الإسلامية، والجمعيات الدينية في البلاد العربية والإسلامية، ووزارات الإعلام، ومشيخة الأزهر، ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، والصحف، والإذاعات في البلاد الإسلامية كافة.

٣- يوصي المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، بإخطار مخرج هذا الفيلم بهذا القرار جوابا على طلبه الأخير بإخراج الفيلم، وإنذاره بأن الأمانة العامة للرابطة ستتخذ الإجراءات القانونية ضد كل من يحاول الاعتداء على قدسية، وحرمة صاحب الرسالة العظمى، وحرمة أصحابه الأكرمين في أية جهة من العالم.

٤- يوصي المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بوضع رسالة في حرمة إخراج فيلم عن النبي، وعن أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، تضم ما أجرته الأمانة العامة للرابطة بشأنه في جميع مراحله، وما صدر فيه من قرارات في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمنظمات الإسلامية الأخرى، وما صدر بشأنه من القرارات والفتاوى في البلاد الإسلامية عامة، ونشر ذلك في البلاد الإسلامية تبصرة، وتنويرا وإرشادا، وتحذيرا.

٥- يشكر المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي على ما قامت به من جهود موفقة في هذا الموضوع الخطير».

انتهى القرار.

● **رابعا: ثم صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الاسلامي في دورة مؤتمره الثامنة، والمنعقد في مكة: ٢٧ ربيع الآخر، و٨ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ؛ بشأن موضوع استنكار المجلس تصوير النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومما ورد فيه باختصار:**

«أن مقام النبي ﷺ مقام عظيم عند الله تعالى، وعند المسلمين، وأن مكانته السامية، ومنزلته الرفيعة، معلومة من الدين بالضرورة...

وأن الواجب على المسلمين: احترامه، وتقديره، وتعظيمه التعظيم اللائق بمقامه ومنزلته عليه الصلاة والسلام...

فإن أي امتهان له، أو تنقص من قدره، يعتبر كفرا، وردة عن الإسلام، والعياذ بالله تعالى.

وأن تخييل شخصه الشريف بالصور، سواء كانت مرسومة متحركة، أو ثابتة، وسواء كانت ذات جرم وظل، أو ليس لها ظل وجرم، كل ذلك حرام، لا يحل، ولا يجوز شرعا...

وكذلك يمنع ذلك في حق الصحابة - رضي الله عنهم - فإن لهم من شرف الصحبة...

ومثل النبي ﷺ سائر الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فيحرم في حقهم ما يحرم في حق النبي ﷺ...

لذا؛ فإن المجلس يقرر: بأن تصوير أي واحد من هؤلاء حرام، ولا يجوز شرعا، ويجب منعه».

انتهى القرار باختصار.

● **التعليق:**

- كذلك قررت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية منع تمثيل الصحابة رضي الله عنهم: والنبي ﷺ من باب أولى، وذلك بقرارها رقم ١٣ وتاريخ ١٦/ ٤/ ١٣٩٣هـ، وهو من أهم القرارات عمقا، وإقناعا، وتفنيدا لحجة المجيزين.

- وبمثل ذلك قرر مجلس هيئة كبار العلماء في دورته العشرين المنعقدة بمدينة الطائف من ١٤٠٢/١٠/٢٥حتى ١٤٠٢/١١/٦هـ اطلع المجلس على الأمر السامي رقم (١٢٤٤) وتاريخ ١٤٠٢/٧/٢٦هـ المتضمن الرغبة الكريمة في قيام مجلس هيئة كبار العلماء بالنظر في موضوع تمثيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتمثيل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وحكم تمثيل الأنبياء وأتباعهم من جانب، والكفار من جانب آخر. بعد صدور الفتوى رقم (٤٧٢٣) وتاريخ ١٤٠٢/٧/١١هـ من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بتحريم ذلك.

- وفي الدورة الثانية والعشرين لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة بمدينة الطائف من العشرين من شهر شوال حتى الثاني من شهر ذي القعدة عام ١٤٠٣هـ؛ أعاد المجلس النظر في الموضوع، ورجع إلى قراره السابق رقم (١٣) وتاريخ ١٣٩٣/٤/١٦هـ، وإلى الكتاب المرفوع من المجلس بتوقيع رئيس الدورة الخامسة إلى جلالة الملك فيصل رحمه الله برقم (١/١٨٧٥)، وتاريخ ١٣٩٤/٨/٢٧هـ؛ المتضمن تأييد مجلس هيئة كبار العلماء لما قرره مؤتمر المنظمات الإسلامية من تحريم إظهار فيلم «محمد رسول الله»، وإخراجه، ونشره، سواء فيما يتعلق بالرسول ﷺ، أو بأصحابه الكرام رضي الله عنهم.

- ومن جميل ما عللت به لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف الكويتية عدم جواز تمثيل الأنبياء قولها: «لأن ذلك يعني الكذب عليهم، والكذب عليهم محرم شرعا، لقول النبي ﷺ: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (متفق عليه)، (٢٥٥٦/٣١/٩).

حلاوة العبادة

قال الإمام أحمد بن حرب رحمه الله: «عبدت الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتى تركت أشياء: تركت رضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق. وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين. وتركت حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة».

(سير أعلام النبلاء ١١/٣٤).

لطائف الحكم

- من طلب من البخيل حاجة، كمن طلب السمك في المفازة.
- من كان الناس عنده سواء، لم يكن له أصدقاء.
- من صبر على مودة الكاذب؛ فهو مثله.
- أول المروءة: طلاقة الوجه، والثانية: التودد، والثالثة: الفصاحة.
- لا تحقر الفقير الشريف، ولا ترغب في الغني الدنيء.
- ما أجمل الصبر على ما لابد لك منه.
- خذلان الجار لؤم.
- قرابة بلا منفعة؛ بلية عظيمة.
- ليس مع الحسد سرور، ولا مع الحرص راحة.
- الحاسد يظهر وده في كلامه، وبغضه في أفعاله.

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي، ص ٦٧).

أشرف ما رغب فيه الراغب

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجَدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه الكاسب، لأن شرفه ينم على صاحبه، وفضله ينمي عند طالبه، وقد منع الله المساواة بين العالم والجاهل؛ لما خص به العالم من فضيلة العلم.

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه: يا بني تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة (أي: من عامة الناس) عشتم.

(الكشكول للياسين، ص٦٠).

الرفق نصف العفو

وقف رجل بين يدي المأمون وقد جنى جناية، فقال له: والله لأقتلنك.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، تَأَنَّ علي، فإن الرفق نصف العفو.

قال المأمون: وكيف وقد حلفت لأقتلنك؟

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، لأن تلقى الله حانثا خير لك من أن تلقاه قاتلا... فخلى سبيله.

(رياض الهمم في النصائح والحكم، ص ٩١).

رداء العمل

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو أن عبدا دخل بيتا في جوف بيت فأدمن هناك عملا، أوشك الناس أن يتحدثوا به، وما من عامل يعمل إلا كساه الله رداء عمله؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر».

(الزهد والرقائق لابن المبارك ٢/١٧).

من منثور الحكم

إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء.

وقال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه، وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه، وعلم أنه لم ينله؛ وأما الشبر الثالث فهيهات، لا يناله أحد أبدا.

وقال حكيم: من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم.

(أدب الدنيا والدين، ص ٨٠).

الحزم والعجز

قال حكيم لرجل يجلس إليه: ما حرفتك؟ قال: التوكل على ربي والثقة بما عنده، فقال الحكيم: الثقة بربك تحرم عليك إصلاح معيشتك! أوما علمت أن طلب ما تعف به عن المسألة حزم، والعجز عنه فشل، والفقر مفسدة للتقى، متهم للبريء، ولا يرضى به إلا الدنيء».

(محاضرات الأدباء للأصبهاني ١/١٢٥).

ذهبوا وبقيت أعمالهم

قال مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى: كنت أمشي مع ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمر على خربة، فقال: «قل: يا خربة، ما فعل أهلك؟».

فقلت: يا خربة، ما فعل أهلك؟

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذهبوا وبقيت أعمالهم».

(آداب النفوس للمحاسبي، ص ٤٣).

عندما تطيب العزلة

قال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى: «... فيه إباحة لزوم البادية، واكتساب الغنم، وأنه ينبغي للمرء أن يحب الغنم والبادية اقتداء بالسلف، وفرارا من شرور الناس، واعتزالا عنهم، ولكن في البعد عن الجماعة والجمعة ما فيه من البعد عن الفضائل، إلا أن الزمان إذا كثر فيه الشر، وتعذرت فيه السلامة؛ طابت العزلة».

(الاستذكار ٢٨/٢).

دواء خلل السريرة

قال سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أسأت سيئة في سريرة، فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية، فأحسن حسنة في علانية؛ لكي تكون هذه بهذه».

(التوبة لابن أبي الدنيا، ص ١٢١).

موعظة بليغة

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معزيا رجلا بابنه: «إنك إن صبرت جرى عليك القدر؛ وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر؛ وأنت مأزور».

(التعازي لأبي الحسن المدائني، ص ٨٢).

ذؤابة

نقل أبوحيان التوحيدي أن منصور بن عمار حض الناس على الغزو في فناء دار الرشيد بالرقة، فطرحت امرأة من حاشيته صرة تصحبها رقعة مكتوب عليها: «رأيتك يا ابن عمار تحض الناس على الجهاد، وقد ألقيت إليك بذؤابتي، فلست أملك غيرها، فبالله إلا جعلتها قيد فارس غاز في سبيل الله تعالى، فعسى الله جل جلاله يرحمني بذلك، فارتج المجلس بالبكاء، وضج بالنحيب، وتعجب الناس من ذلك.

(البصائر والذخائر ٢٩/٨).

مذاكرة الرجال تلقيح لعقولها

ذكر الصمت والكلام عند الأحنف بن قيس، فقال قوم: الصمت أفضل؛ فقال الأحنف: الكلام أفضل لأن الصمت لا يعدو صاحبه، والكلام ينتفع به من سمعه، ومذاكرة الرجال تلقيح لعقولها.

(بهجة المجالس لابن عبدالبر القرطبي ٥٤/١).

إعداد : علاء عبدالفتاح

فرحة «الوعي الإسلامي»

وصلت إلى كلية الباقفيه للآداب والعلوم الإسلامية في هذا اليوم المضيء مجلة «الوعي الإسلامي»، التي تحمل في طياتها دراسات نافعة ومقالات قيمة تتعلق بالتراث العربي والأدب الإنساني.

ونحن - أساتذة الكلية - اطلعنا على المجلتين («الوعي الإسلامي» و«براعم الإيمان»)، من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، وسعدنا بمحتوياتهما، وجودة معالجتهما للمواضيع الدينية الإسلامية، كما أن أناقتهما في الإخراج ونوعيتهما في المضمون تبتغي الإشادة بهما والثناء عليهما. وقد طلبنا من طلبة الكلية الباقفيه الاستفادة منهما؛ لكي يرتقوا إلى أفق اللغة العربية والأخلاق الربانية معا.

ونشكر من سويداء قلوبنا القائمين على هذه المجلة الغراء. وندعو الله الملك المنان أن يبارك في جهودهم وأن يسدد خطاهم، والله الموفق والمرشد إلى سواء السبيل. وإن شاء الله سيتعرف طلبتنا على حبيبهم الجديد، وسيعرفون للمجلة قدرها ومكانتها في أوقات قراءتهم.

ونرجو تعاونكم المستمر بإرسال مجلتنا الغراء كي يستفيد منها أكثر من مئة وخمسين طالبا من طلاب الكلية. تجدر الإشارة هنا إلى أننا نعتبر أطفالا في اللغة العربية، ولذا نرجو منكم استمرار مجيء مجلة «براعم الإيمان»، فهي مجلة تسهل دروبنا إلى قمة اللغة العربية الفصحى.

• محمد خبيب الوافي
عميد كلية الباقفيه للآداب
والعلوم الإسلامية بالهند



القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني :

info@alwaei.com

التفكير في خلق الله يثبت العقيدة

ميز الله تعالى الإنسان بالعقل على جميع الحيوانات، وجعله مناط التكليف، وهو مصدر سعادته، ومنشأ شقائه، وكل ذلك رهن بصحة أحكامه أو ضلالها.

زد على ذلك أن العقل إذا نما وسما، كان كفيلا برقي البشر وتمدينهم وتسخيرهم ما في السموات والأرض في سبيل مصالحهم الخاصة والعامة. فالعقل السليم إذن إكسير الحياة ومنبع السعادة، ولولاه لما كانت للإنسان قيمة ما، ولبقي هذا العالم من دون مغزى أو هدف. ولهذه الآثار العظيمة للعقل اهتم المفكرون بتنمية عقول ناشئتهم وأجيالهم؛ ليستطيعوا اقتطاف ثمراته اليانعة في مختلف ميادين الحياة.

واتخذوا التعليم وسيلة لهذه الغاية، فإن كثيرا من الأبحاث إنما وضعت لهدف آخر غير هدف الفائدة المادية المباشرة لها، وهذا الهدف الآخر هو تنمية العقل والسمو بالتفكير وفتح الآفاق أمام الفكر.

ولكن أكثر الناس ظنوا أن دراسة العلوم وقراءة الكتب مما يكفي لنمو العقل وتربية الإنسان، فأكبوا على الكتب يقرأونها ويدرسون ما فيها، ظانين أنها هي وحدها مصدر العلم ومنبع المعرفة.

لقد أهمل هؤلاء النظر في كتاب كبير آخر معروض دائما أمام الذهن البشري ليطالع فيه ويتأمل، وهو يصحبه في كل مكان وفي كل وقت، ذلك الكتاب الذي أهملوا النظر فيه وقراءة سطوره هو الكون نفسه.

• **هناء ثابت**

الجالية المسلمة في الأوروغواي

تقع الأوروغواي شرق أميركا الجنوبية، ولها حدود مشتركة مع دولتي البرازيل والأرجنتين وساحل المحيط الأطلنطي. عدد سكان الدولة ٣,٢٥ ملايين نسمة، وعدد سكان العاصمة مونتيفيديو ١,٤مليون نسمة في مساحة ١٧٦٢١٥ كلم٢.

أما عدد المسلمين في هذه الدولة فقليل جدا، وهو يتراوح ما بين ٥٠ و٨٠ شخصا فقط من المواطنين والمهاجرين، ومعظمهم من أهل البلد نفسه، حيث دخلوا في دين الإسلام منذ فترة قصيرة، وأكثرهم يعيشون في العاصمة، وعدد قليل منهم منتشر حولها في مدن أخرى.

أول ما أسس في هذه الدولة من المساجد أو المراكز الإسلامية، هو المسجد الذي افتتحه السفارة المصرية عام ١٩٨٣م، والذي لايزال موجودا بجوارها. وظلت الدعوة الإسلامية منحصرة فيه فترة من الزمن إلى أن أسست المنظمة الثقافية الإسلامية في الأوروغواي عام ٢٠٠٨م.

وتتمتع المنظمة بالاعتراف من المنظمة الإسلامية لأميركا اللاتينية والكاريبي (OIPALC)، التي مديرها العام هو السيد المهندس محمد هاهر، وكذلك من مركز خادم الحرمين الشريفين الثقافي الإسلامي في الأرجنتين (CCIAR). وقد شارك رئيس المنظمة الإسلامية في الأوروغواي ثامر شاكي، في المؤتمر الذي انعقد هذا العام ١٤٣٣هـ به، وتحت عنوان «سبل النهوض بالجاليات الإسلامية في أميركا اللاتينية والبحر الكاريبي». وقد زار مديرا المؤسستين المذكورتين آنفا المسجد التابع للمنظمة الإسلامية بالأوروغواي مرات عديدة.

• **سليم أنطونيو**

منبر الفكر السليم

أخي رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

وصلني العدد ٦٠٠ من المجلة لشهر شعبان من عام ١٤٣٦هـ، وإنني أشكر الرجال الكرام الذين يديرون المجلة ويهتمون بها لأمور كثيرة من أهمها:

١- المحافظة على الصدور في بداية الشهر العربي وليس الإفرنجي كما تسلك مطبوعات كثيرة.

٢- التعامل بالتاريخ الهجري، تاريخ الإسلام، وليس كمن استبدل به ما هو أدنى منه، وهو الميلادي تاريخ غير المسلمين.

٣- حافظت المجلة على تنوعها وشمولها ورصانة موضوعاتها وأصالتها.

٤- إخراج ممتاز للمجلة يندر أن نجد مثيلا له في المطبوعات الشهرية والأسبوعية.

٥- عدد شهر شعبان يصل إلي في دولة أخرى غير بلد الصدور في ٢٣ من شهر رجب وهذا سبق وتألق يذكر فيشكر، سلمت أيد كتبت وطبعت ونقلت وأشرفت.

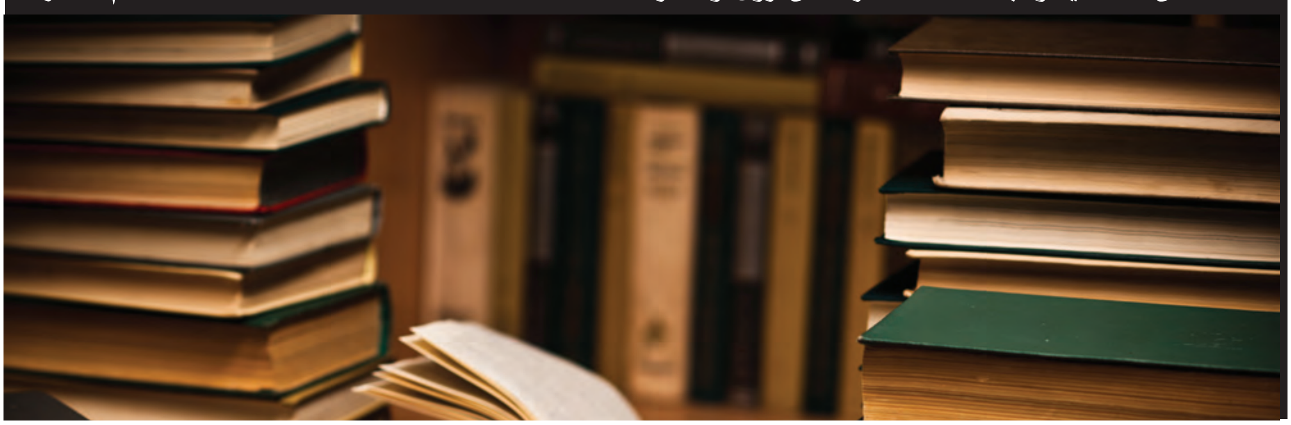
حفظ الله الكويت وأهلها، وأبقاكم منبرا للفكر السليم والأدب الأصيل وإعلام البناء والنور والأمل المشرق، ووفقنا وإياكم لما يرضيه إنه جواد كريم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

● عبدالعزيز بن صالح العسكر
عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.

أهمية تحقيق التراث

الأمة الإسلامية اليوم أشد احتياجا إلى مقام تحقيق التراث العلمي والفكري والثقافي والحضاري الإسلامي، الذي خلفه السلف على مر الأزمان والعصور الماضية في مختلف مشارب العلوم والمعارف والفنون. هذا التحقيق يستدعي تعميق النظر فيه، من حيث البيان والإيضاح لعدد من القضايا والمباحث، لما تختزنه من رؤى وأفكار أنارت سبيل بحثهم، وطريق دربهم، ومعالم سيرهم في تأليف العلوم وتصنيفها، وتنزيل وجوه التدليل والتوجيه لمسالك إعمالها في واقع معاشهم، ورسم خطى تنظيرهم وتقعيدهم لمسار اجتهادهم، وإبراز تألقهم وإبداعهم.

● د. منعم السنون



العز بن عبدالسلام... سلطان العلماء

الاقتصاد الإسلامي - كما نعرف - علم يعنى ببحث الظواهر الاقتصادية للإنسان من منطلقات منهجية وفكرية، فمصادر العلم في الإسلام - بوجه عام - لا تقتصر على الحس والعقل، وإنما تتعدى ذلك إلى مصدر ثالث له أهميته الكبرى، وهو الوحي. وبهذا تتوافر للاقتصاد وغيره من علوم أخرى المصادر المتكاملة للمعرفة من جهة، والمنهج الفكري السليم من جهة ثانية.

والعز بن عبدالسلام في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» يجسد مدى اهتمام الشريعة والفقه الإسلامي باستقرار وازدهار الحياة الاقتصادية للأفراد والمجتمعات، وذلك طبقا للرؤية السابقة أن للنشاط الاقتصادي وضوابطه مساحة في فكر الإمام العز بن عبدالسلام. وتتبنى هذه الدراسة إظهار جانب من عبقرية هذا العالم الإسلامي الشهير، في مادة قلما تؤطر في كتب التراث الإسلامي، وهي مادة ضوابط النشاط الاقتصادي واصطلاحات العلاقات الناشئة عن تصرفاته.

العز بن عبدالسلام هو عالم دين مسلم سني على مذهب الأشاعرة، وفقيه شافعي، لقب بـ «عز الدين» و«سلطان العلماء» و«بائع الملوك»، اسمه بالكامل: أبومحمد عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهدب السلمي، مغربي الأصل، ولد في دمشق في سوريا عام ٥٧٧هـ، وعاش فيها، وبرز في الدعوة والفقه. وقد نشأ في دمشق في كنف أسرة متدينة فقيرة مغمورة، وابتدأ العلم في سن متأخرة نسبيا، تزود بالعلم حتى صار أحد أعلم زمانه، فقد قصد العز فطاحل العلماء في عصره، وجلس في حلقاتهم، ونهل من علومهم، وتأثر بأخلاقهم، واستوعب العلوم في مدة تعتبر وجيزة، فقد قال عن نفسه: «ما احتجت في علم من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذي أقرأ عليه إلا وقال لي الشيخ: قد استغنيت عني، فاشتغل مع نفسك. ولم أقنع بذلك، بل لا أبرح حتى أكمل الكتاب الذي أقرأه عليه في ذلك العلم».

● د. رضا عبدالحكيم

دور اللغة السواحيلية... في نشر الإسلام

تعتبر اللغة السواحيلية من أعرق اللغات في إفريقيا، وهي اليوم من أهم لغات شرق إفريقيا، وهي اللغة الرسمية لكل من دولتي تنزانيا وكينيا. ولقد ظهرت هذه اللغة في الساحل الشرقي لإفريقيا في القرن الثامن الميلادي، وذلك بفضل جهود التجار العرب، خصوصا العمانيين، الذين ابتدعوها للتواصل مع السكان المحليين؛ ولذلك نجد اليوم أن حوالي ٢٥ في المئة من مفرداتها عربية، وما تبقى فهو من أصول لغة «البانتو» الإفريقية. ولقد ظلت اللغة السواحيلية، وإلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، تقرأ وتكتب بحروف عربية، ولكن مع دخول الاستعمار الإنجليزي المنطقة، أصبحت تكتب بحروف لاتينية.

ولقد كان لانتشار اللغة السواحيلية بين السكان الأصليين الأثر الكبير في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين القبائل التي تقيم على الساحل الإفريقي وتلك التي تقيم حول الطرق الرئيسية للقوافل والممتدة من الساحل إلى بحيرة «نياسا» وإلى المدن والقرى الداخلية الواقعة على بحيرة «تنجانيقا».

ولقد كان للغة السواحيلية دور كبير في اختلاط العديد من القبائل الإفريقية بعد أن أسلمت، كما وحدت هذه اللغة بين السكان في هذه المنطقة، حيث كانت الثقافة السواحيلية عاملا للوحدة بين سكان الساحل الإفريقي، حيث التمازج والتزاوج فيما بينهم، وأصبحت عامل ربط بين الساحل والداخل، وانتشرت انتشارا واسعا بعد أن حمل العرب العمانيون هذه اللغة الوليدة إلى القبائل كثيرة.

● حسن بن محمد

الوحدة المنشودة

يمكن القول بأننا وقعنا في خطأ حضاري واستراتيجي قاتل، أو أننا أجبرنا على الوقوع فيه بطريقة أو بأخرى؛ وفق سياق نظرية المؤامرة، فقد انسلخنا كعرب عن النسيج الإسلامي بمفهومه الواسع، مما أفقدنا مناعة ضد الحملات الفكرية والعسكرية والاقتصادية التي لا تفتر من طرف القوى الغربية والإقليمية المتربصة، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال نكرانها أو نفيها، فصراع الهيمنة قائم وأزلي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، رغم أن هناك من يحاول نفي نظرية المؤامرة والصراع ويعتبرها شماعة نعلق عليها فشلنا وتخلفنا.

الأمم المتآمرة تحشد صفوفها من أجل بسط نفوذها على العرب والمسلمين إجمالا، فتراها تتوحد وتنصهر في بوتقة واحدة من أجل تكريس قوتها وسيطرتها في مختلف الميادين، في حين لم نستطع نحن أن ننشئ تحالفا إسلاميا يمتد من جاكرتا إلى المغرب، رغم ما يفرزه ذلك من قوة هائلة لا تصمد أمامها لا أميركا ولا أوروبا ولا حتى إسرائيل، نظرا للإمكانات التي ستتوافر إذا تحقق هذا الاتحاد، والذي سيكون بدون شك «لحمة متماسكة» يجمعها دين واحد ومصير مشترك، وموارد اقتصادية وبشرية كبيرة جدا، بخلاف بقية الأمم التي تمكنت من تحقيق الوحدة رغم تعدد الأديان والاثنيات والأهداف.

كان الأجدر بنا أن نتجه شرقا، خصوصا نحو بلدان شرق آسيا المسلمة التي يتصاعد نجمها يوما بعد يوم، لأنها تمكنت من جعل الإسلام منهاج حياة لا يتعارض مع مستجدات العصر، وبنت من خلاله إنسانا صالحا تسيره المبادئ السمحة في مختلف مناحي الحياة، إنسانا مسلحا بالعلم والفضيلة والغايات النبيلة، فأقامت بذلك دولا ناجحة ومتطورة، لذلك فقد أخطأنا فعلا عندما أهملنا هذا الجزء من الجسد الإسلامي ولم نتعلم منه ولم نتحد معه.

التحدي الحضاري الذي نواجهه، وينبغي أن نكون على درجة كبيرة من الوعي لاستيعاب أبعاده وضروراته، هو واجب تغيير تفكيرنا بالكامل تجاه حصر الوحدة في الوطن العربي فقط، وتوسيع إدراكنا لهذه القضية، بل وإلغاء كلي لفكرة أن العرب وحدهم معنيون بصناعة نموذج إسلامي ناجح، لأن هذا لن يتحقق أبدا بدون ضم مختلف البلدان الإسلامية وانصهارها في بوتقة واحدة، لأن الأمة الإسلامية كل متكامل لا يتجزأ، وهي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وإن حدث خلاف ذلك فمعناه الضعف والتشتت وسهولة الخضوع.

لقد حفل التاريخ الإسلامي بشخصيات مرموقة تركت بصمتها، فكان الكثير من العلماء وقادة الجيوش وحتى الملوك من غير العرب ومن اثنيات مختلفة، إلا إنهم برزوا وعملوا من أجل مصلحة المسلمين عموما، ومن أجل دولة الإسلام بالمفهوم الواسع للكلمة، الدولة التي بلغت حدود أوروبا وأقاصي الهند والسند، وبنت مجدا ساهم فيه كل المسلمين، واستفادت منه حتى بقية الأمم التي نتقاسم معها هذا الوجود وهذا الكوكب.

إننا بالفعل إذا سعينا لِلَمِّ شمل الدول الإسلامية، وأعني تلك التي لا يسكنها وهم التسلط والسيطرة بدافع اثني أو طائفي، وسعينا بعزيمة وإخلاص من أجل تحقيق الوحدة معها، عندها فقط يمكن أن تكون للعرب قوة يُعتد بها، وتحسب لهم الأمم الأخرى ألف حساب قبل أن تتجرأ على مجرد التفكير في إلحاق الأذى بها أو استهدافها.

عبدالعالي زواغي- الجزائر



الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
مواضيع حيوية ومعاصرة
حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
مقالات لابرز الكتاب الشباب
« الوعي الشبابي » مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي
Shabab alwaei
@alwaeialshababy



أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
Al-Waei Al-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
العدد (٦٠٢) شوال ١٤٣٦ هـ - يوليو - أغسطس ٢٠١٥ م
العدد ٦٠٢ - السنة ٥٢ - شوال ١٤٣٦ هـ / يوليو - أغسطس ٢٠١٥ م
مجانا مع العدد «براعم الإيمان»
الأصالة في جامع ابن طولون
• تتويج لعمر من العمل (ملف العدد)
• العلامة محمد الخضر حسين .. مجاهد بالقلم واللسان
• البيوع الفاسدة
• لغة التدريس بين الفصحى والعامية
هدية العدد «ذخائر الوعي الإسلامي (٨)» «بوستر البلاغة»
info@alwaei.com
www.alwaei.gov.kw
مجلة الوعي الإسلامي

أسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

AL-Waei AL-islami

الأعمال بالسوابق

لما كانت السابقة مستورة عنا، والخاتمة ظاهرة، جاء في الحديث «إنما الأعمال بالخواتيم»، كالوعاء، إذا طاب أعلاه، طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه، خبث أسفله، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال، وأن كلا ميسر لما خلق له من الأعمال، التي هي سبب للسعادة أو الشقاوة، والتعويل على كرم الله وفضله ورحمته، وأن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة.

وللنفس حالتان، حالة استراحة إن حرمتها إياها كلّت، وحالة تصرّف إن أرحتها فيها تخلّت، فالأولى بالإنسان تقدير حاليه، فإن لها قدرا محدودا، وزمانا مخصوصا، ومن عاش لشيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، وينبغي أن يقسم حالةَ تصرّفه ويقظته على المهم من حاجاته، ويتصفح ما صدر من أفعاله، فإن كان محمودا أمضاه، وإن كان مذموما استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل، وقد قيل: من كثر اعتباره، قلّ عِثاره.

فإياك والأمر الذي إن توسعت
موارِدهُ ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرءُ نفسَه
وليس له من سائر الناس عاذر

والأعمال بالخواتيم، إما أن يوقظ قبل موته بمدة يتمكن فيها من التزود بعمل صالح يختم به عمره، أو يوقظ عند حضور الموت فيوفق لتوبة نصوح يموت عليها، فالتوبة التوبة قبل أن يصل الموت النوبة، فيحصل المفرط على الندم والخيبة، فكن أيها العاقل مقبلا على شأنك، واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك، ولا تداهنها بإخفاء عيبك، وإظهار عذرك وهذّب نفسك، بإنكار عيوبك، فإنه من لم يكن له من نفسه واعظ، لم تنفعه المواعظ.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠٢ | شوال ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
يوليو - أغسطس ٢٠١٥م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد











التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

•الكويت : ٥٠٠ فلس •السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة •الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه •اليمن : ١٠٠ ريال •لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري •تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها .

المحتويات

كلمة العدد

خاتمة السعادة

يا له من سعد حين يختم عمر العبد بخاتمة حسنة؛ فيوفق قبل موته لعمل صالح يقبض عليه؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله»؛ قالوا: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته» (رواه أحمد)، ومن أكرمه الله بذلك جاءته البشارة عند موته برضوان الله ورحمته وجنته، واستحقاق كرامته؛ تفضلا منه تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت:٣٠).

وفي صحيح مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»؛ قالت: فقلت: يا نبي الله! كلنا نكره الموت.. فقال: «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه».

إن آخر ساعة في حياة الإنسان هي الملخص لما كانت عليه حياته كلها؛ فمن كان مقيما على طاعة الله سبحانه؛ بدا ذلك عليه في آخر حياته؛ والعكس بالعكس عياذا بالله. لما احتضر عمر ابن عبدالعزيز - رحمه الله -، كان آخر ما تلفظ به قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص:٨٣).

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)



بين الثقة بالنفس والثقة بالله

د. فرغلي هارون
باحث في علم الاجتماع

يعتقد البعض أن هناك تعارضا بين الثقة بالنفس من جهة، والثقة بالله عزوجل والاعتماد عليه والتوجه إليه في طلب الحاجات ودفع المكروهات من جهة أخرى. والحقيقة أن هذا اعتقاد خاطئ، فالثقة الحقيقية بالنفس لا تعني الاعتماد عليها والركون إلى قدرتها دون الالتجاء إلى الله تعالى، بل إن من كمال الثقة بالنفس إحسان الظن بالله تعالى، والاعتماد والتوكل عليه دون تواكل.

لكن الذي يتعارض مع الثقة بالله تعالى هو الإفراط في الاعتداد بالنفس وتفضيلها على الغير، أو ما يعرف بالزهو أو الإعجاب بالنفس والغرور والتعاظم والكبرياء، والتي تعتبر أنواعا من الثقة الزائفة بالنفس، وهي دليل على ضعف الثقة الحقيقية بالنفس؛ فكلما كان الشخص مبالغا في غروره وإعجابه بنفسه ويرى أنه أفضل من غيره، دل ذلك على أنه في أعماق نفسه يفتقد الثقة الحقيقة بنفسه، كما قال إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ (ص:٧٦)، أو كما قال فرعون: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢)، أو كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ (القصص:٧٨).

وقد ذم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الزهو والكبر والتعالي على الناس، وذلك لأن الزهو والإعجاب بالنفس يؤديان إلى التعاظم والتعالي على الناس ومعاملتهم بتحقير واستكبار. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ (لقمان:١٨)، وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (رواه مسلم في صحيحه حديث رقم ١٣٦).

أما الثقة الحقيقية بالنفس فمنبعها اعتقاد الواثق بنفسه أن جميع قدراته وإمكاناته إنما هي من نعم الله تعالى عليه، وإن فعاليتها إنما هي مرهونة بعون الله تعالى وتوفيقه له، وبذلك ينجو بنفسه من فخ الغطرسة والتعالي والغرور.

والثقة بالنفس هي حسن اعتداد المرء بنفسه، واعتباره لذاته، وقدراته؛ حسب الظرف الذي هو فيه، دون إفراط من عناد وكبر، ودون تفريط من ذلة وخضوع غير محمود. فتقديرك لنفسك واحترامها وتقدير قيمة صفاتك الشخصية وإنجازاتك التي حققتها، مع الإقرار بأن كل ذلك من فضل الله عليك وتوفيقه لك، هو المعنى الحقيقي للثقة بالنفس.

أما الثقة بالله فتعني: تعلق القلب بالله عزوجل، وتوكله عليه، وتفويض الأمر إليه، مع الأخذ بالأسباب. وتعني: الغنى عن المخلوق مهما كان مركزه أو نفوذه، والالتجاء إلى الله وحده؛ إيمانا ويقينا بأنه وحده سبحانه الذي بيده الأمر كله، ومنه النفع كله، وإليه يرجع الأمر كله.

والثقة بالله سمة تميز المؤمن الحقيقي الصادق العارف بربه جل وعلا، المتيقن من وعد الله ووعد رسوله ﷺ الذي أيقن أن الله قادر على كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٨)، فاطمأنت نفسه، وزال خوفه من كل مخلوق.

وأيقن أن الله لا يعجزه شيء ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ (فاطر:٤٤) فاستعصم به دون غيره، وسلم إليه وحده.

وأيقن أن الله معه يراه ويرعاه ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ

﴿مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد:٤)، وأنه الأقرب إليه من كل شيء، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦)، فتوكل عليه وحده، وقصده وحده، ولم يخش أحدا سواه، ولم يقصد بابا سوى بابه، عملا بقول رسول الله ﷺ: «إن ربكم تبارك وتعالى حيي يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا» (رواه أبو داود في سننه حديث رقم ١٤٨٨)، ويقينا بقول النبي ﷺ: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، فقال رجل من القوم: إذن نكثر، قال ﷺ: «الله أكثر» (رواه الترمذي في الجامع حديث رقم: ٣٥٢٦).

وأيقن أن أمر الله مرهون بكلمة، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧)، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)، فجعل ثقته في الله وحده، واستعان به وحده، ولم يسأل سواه.

وأيقن بقضاء الله وقدره، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:٥١)، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد:٢٢)، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:١١)، فاطمأن قلبه، وامتلأ رضا وتسليما لأمر ربه، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣).

وأيقن بوعد الله له ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٢٧٧)، ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠)، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٦). ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠)، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (العنكبوت:٥٨).

فكان من ثمرة هذا اليقين:

التسليم لحكم الله، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

والتسليم بقضاء الله، والرضا بقدره في كل الأمور، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران:١٧٣-١٧٤).

وكان من ثمرة هذه الثقة الكاملة بالله عزوجل، أن زادت ثقته بنفسه، واعتداده بكرامته، وزال معها كل خوف أو قلق أو توتر، وتمتع معها بالرضا والهدوء والسعادة، واكتملت صحته النفسية.

تلك الثقة التي نجدها في محمد ﷺ وهو في الغار والكفار على بابه يطلبون رأسه، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٤٠).

تلك الثقة التي نجدها في إبراهيم، عليه السلام، عندما ألقي في النار، فقال بعزة الواثق بالله: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فجاء الأمر الإلهي: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩).

تلك الثقة التي نجدها في المجاهدين القائمين على أمر الله وبأوامره في كل زمان ومكان، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣)، فكانت نتيجة هذه الثقة ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران:١٧٤).

ومن هنا، فلا تعارض بين الثقة الحقيقية بالنفس والثقة الحقة في الله؛ فالثقة بالله هي المنبع الحقيقي والأصيل للثقة الحقيقية بالنفس، وهي الزاد الذي لا ينفد، والوقود الذي لا ينضب، التي يجب أن نبني عليها وبها ثقتنا بأنفسنا. وعندما تكتمل ثقتنا بأنفسنا نكون قد استكملنا ركنا مهما من أركان صحتنا النفسية.



القاهرة – آية سرور: دار الإعلام العربية

د. غنايم: استمسك بالدين تجتز المرحلة الصعبة

أكد د. محمد نبيل غنايم أستاذ الشريعة بكلية دار علوم جامعة القاهرة، أن المسلمين يعيشون هذه الأيام مرحلة صعبة، أضحى فيها الإسلام غريبا، موضحا أن أولى خطوات الخروج من هذا الوضع أن يقوم العلماء بمحو الأمية الدينية، وتحسين صورة الإسلام في الشرق والغرب، ونشر السماحة ومكارم الأخلاق.

• يموج العالم الإسلامي حاليا بمجموعة من المتغيرات.. فما تقييمك للوضع اليوم؟

– العالم الإسلامي في هذه الأيام يمر بمرحلة صعبة جدا، وقد تنبأ بها رسول الله ﷺ منذ البعثة النبوية الشريفة، حين قال: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله، من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»، وما أكثر الفساد في هذه الأيام، حيث تنتسب إلى الإسلام فئات متعددة، وهي أكثر ما تكون إضرارا بالإسلام وتشويها له، وتقوم بتصرفات هي أبعد ما تكون عن صحيح الإسلام، وإنما يسعى أعداء ديننا من خلال الترويج لمثل تلك الأفعال المشينة إلى تشويه صورة الإسلام في الشرق والغرب، بينما الإسلام بريء من كل هذه الممارسات والسلوكيات الخاطئة، فهو رسالة رحمة للعالمين، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»، وقال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وقال أيضا: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ (الأعراف:١٩٩)، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى:٤٠)، وعلى الرغم من كل ذلك، لايزال هناك مسلمون يسيرون على هدي الإسلام، وهدي رسول الله ﷺ وأصحابه الأبرار. ونحن لا نفقد الأمل، ولا نيأس من رحمة الله، ونستبشر خيرا بعودة الوعي الصحيح، والأمن والأمان والاستقرار للبلاد العربية والإسلامية.

الاستمساك بالدين سبيل النجاة

• وكيف نتخطى هذه المرحلة الصعبة؟

– نتخطى هذه المرحلة بعدة أمور: الأمر الأول هو ما نصح به الله رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ

﴿ ... تُسْـَٔلُونَ ٤٤ ﴾ (الزخرف:٤٣-٤٤)، فعلينا أن نستمسك بالقرآن الكريم، وما فيه من توجيهات وإرشادات، ونعود إليه بكل صدق وإخلاص، ونعتز به في كل مكان وزمان، رغم أنف الحاقدين والمعتدين، الأمر الثاني هو الاستمساك والمحافظة على السنة النبوية المطهرة لرسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم أجمعين، حتى نعيد الوجه المشرق للإسلام، الذي كان في المدينة المنورة، والذي حققه رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار، من وحدة الأمة، والتآخي في الله عز وجل، والتعاون على البر والتقوى والإخلاص، والعمل بمبادئ الإسلام وأركانه، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله، وسنتي». فالقرآن الكريم هو كتاب الله، والسنة النبوية هي النور المبين، يقول عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦ ﴾ (المائدة:١٥-١٦)، ومن هنا تقع المسؤولية الكبرى على العلماء في محو الأمية الدينية الموجودة بين الناس، وتحسين صورة الإسلام في الغرب والشرق، ونشر السماحة ومكارم الأخلاق التي جاء بها ديننا الحنيف، وبذلك مع الصدق والإخلاص واليقين في نصر الله يعود للإسلام مجده. وليس بعيدا علينا أو غريبا عنا أن رسول الله ﷺ ذكر أن من علامات الساعة الكبرى نزول عيسى- بن مريم، ودعوته للإسلام، وحكمه بكتاب الله تعالى، ونشر العدل بين الناس، حتى لا يكون هناك فقير ولا محتاج ولا جائع، بسبب وفرة الأموال، وما ذلك على الله بعزيز، ونحن عندنا الأمل الكبير في تحقيق ذلك، لكنه يحتاج إلى سواعد قوية من أبناء الإسلام، يحتاج إلى مسلمين يحملون راية القرآن الكريم والسنة النبوية الوسطية.

على العلماء محو الأمية الدينية وتحسين صورة الإسلام ونشر السماحة ومكارم الأخلاق

• طبيعة الخليقة قائمة على الاختلاف، كيف يمكن إحداث التعايش في هذا الشأن، من خلال فقه الاختلاف؟

- أولا الاختلاف بين الناس سنة إلهية أو كونية، نص عليها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فمن ذلك مثلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ٩٩ ﴾ (يونس:٩٩). إذن أمام هذه القواعد الأساسية يتعايش الناس بصورة طبيعية، يساوي في ذلك المسلم وغير مسلم، فهم مواطنون في أرض واحدة، يعملون معا لإقامة حضارة الوطن الذي ينتمون إليه، ورسول الله ﷺ حقق ذلك في تأسيس دولة الإسلام في المدينة المنورة، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار. وهؤلاء هم المسلمون، ولكن كان إلى جوارهم في المدينة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتعايش معهم النبي ﷺ بمنطق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ٦ ﴾ (الكافرون:٦)، وأقرهم على ذلك، وكان هناك أيضا مشركون، سواء من أهل المدينة، أو ممن يفدون إليها من الخارج، ومع هذا تعايش الجميع في دولة الإسلام. وكان رسول الله ﷺ يحمل كل فريق منهم مسؤوليته نحو المدينة، ونحو المسلمين أو غير المسلمين، وبالتالي نحن نرجو أن يتحقق هذا التعايش بين الجميع، بحفظ الحقوق والمحافظة عليها، وأداء الواجبات، والسعي إلى القيام بها في جد واجتهاد وإخلاص، لأننا أولا وأخيرا أبناء أب واحد وأم واحدة، وهما آدم وحواء. فعلى الناس أن يفطنوا إلى ذلك، ليتحقق التعايش، وتتقدم أوطاننا بصورة جماعية إلى أماكن القيادة والريادة، في هذا العالم الفسيح.

ثلاث ركائز

• كثير من مشكلات الأمة حاليا سببها غياب العدل الاجتماعي.. فهل من حلول لمشكلات المجتمع، مستمدة من الشريعة الإسلامية؟

- الإسلام حقق العدل الاجتماعي بثلاثة أمور: الأمر الأول أنه فرض الزكاة على الأغنياء. وما جاع جائع، ولا افتقر فقير إلا ببخل غني، أو بإمساكه، أو نحو ذلك من الأغنياء، لأن الله سبحانه وتعالى ميزنا بفريضة الزكاة في أموال الأغنياء، تكفي وتغطي حاجات الفقراء، تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (التوبة:١٠٣)، وفي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ٢٥ ﴾ (المعارج:٢٤-٢٥)، هكذا حقق الله سبحانه وتعالى العدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، في حال أدى الأغنياء ما عليهم من حقوق

للفقراء. الأمر الثاني هو الدعوة إلى الصدقة، وإنفاق الأموال في سبيل الله، حيث وعد الله على ذلك الأجر العظيم ومضاعفاته، فقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١)، وقال الأئمة الأربعة: إن من حق ولي الأمر رئيس الدولة أو أمير المؤمنين أن يفرض في أموال الأغنياء أكثر من فريضة الزكاة، بما يكفي حاجات الفقراء، ومن هذا المنطلق نجد الضرائب في كثير من البلاد العربية. وتعتبر هذه الضرائب منفذا آخر من منافذ تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، والأمر الثالث أن الله عزوجل أمر بالعدل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (النساء:٥٨)، فكل قاض وكل ولي أمر مسئول عن رعيته، وعن تحقيق العدالة الاجتماعية بينهم، وهذه أمانة علقها الله سبحانه وتعالى في عنقه، ولا يجوز له أن يغض الطرف عنها، أو يتهاون في تطبيقها، بكل الأشكال التي ذكرناها، كما بين الرسول ﷺ في قوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، بل إنه ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وكان أولهم «إمام عادل»، حيث جعل الله سبحانه وتعالى أولهم الإمام العادل، ليحقق العدل بين الفقراء، والعدالة بين المتخاصمين. يقول أحد الأدباء:

«لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع
ولا عريان ولا مظلوم ولا مسكين»

وكان أحد أهداف الصيام هو أن يشعر الصائم بحاجة الفقير إلى الطعام والشراب، وبالتالي ينعكس ذلك إحسانا إلى الفقراء والمساكين، وتبين ذلك

الإسلام قدم ثلاث ركائز أساسية لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس كافة

في قوله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»، وقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»، فيجب علينا فعل مثل هذه النماذج التي ذكرها الله في كتابه العزيز، لتحقيق العدالة الاجتماعية، قال سبحانه وتعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨ ﴾(محمد:٣٨)، وهذه دعوة للأغنياء جميعا والحكام، لينتبهوا إلى وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية، بين سائر من تحت رعايتهم ومسؤوليتهم.

● من آن إلى آخر تطفو ظاهرة «الإسلاموفوبيا».. فكيف يمكن علاج هذه الظاهرة السلبية، من خلال التفعيل الحقيقي لحوار الأديان؟

- ينبغي التقرير بأن «الإسلاموفوبيا» التي تعرف الآن على أنها «التخويف من الإسلام» ظاهرة قديمة، وليست جديدة، قوامها العداء للإسلام، منذ أيام النبي ﷺ، فكانت العداوة قائمة، واستمرت بعد وفاة النبي ﷺ، وقد ذكر الله في كتابه العزيز: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ (البقرة:١٢٠)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ (الممتحنة:١)، فلذلك، العداوة قائمة، لكنها لا تمنع التعايش، والنبي ﷺ تعايش مع جميع الطوائف من اليهود والنصارى، في مكة والمدينة، والآن نحن نتعايش في بلادنا مع غير المسلمين، وهناك في البلاد الأوروبية أقليات من المسلمين يتعايشون بصورة شبه طبيعية، وفي معاملاتنا مع أتباع الديانات الأخرى، يجب أن نعود إلى قيم الإسلام، كما في قول الله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾(الكافرون:٦)، وقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وقوله: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ ﴾ (الممتحنة:٨)، وقال رسول الله ﷺ «أنا بريء يوم القيامة ممن ظلم ذميا، أو ضيع حقوقه». ومما لاشك فيه أن حوار الأديان يحدث نوعا من التقارب والتفاهم، لأن لدينا بعض الأمور الغامضة عن الآخر، لذلك يعمل الحوار على تقريب وجهات النظر، حتى نصل إلى الثوابت الصحيحة، وبذلك يتم التعايش وتبادل المصالح، ونكون جميعا عونا على بناء الحضارة، وإصلاح المجتمعات، سواء كنا مسلمين أو غير مسلمين.

أسباب الإلحاد

● الشباب بين التطرف والإلحاد.. ما أسباب الموجة الإلحادية التي ظهرت في المجتمعات الإسلامية؟ وهل من مخرج من وجهة نظر الشريعة الإسلامية؟

- يقول العلماء: إن أعداء الإنسان ثلاثة: الفقر والجهل والمرض. وتلك هي أسباب الموجة الإلحادية في المجتمعات الإسلامية، لانتشارهم بكثرة في جميع المجتمعات تقريبا، والفقير يلجأ إلى السرقة، وذلك لتقصير الأغنياء في حقوقهم تجاه الفقير، والجاهل عدو نفسه والآخرين، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «لو حاورني ألف عالم

لغلبتهم، ولو حاورني جاهل واحد لغلبني»، أما المريض فيحتاج من يمد إليه يد العون والشفاء، ولذلك من لم يجد ذلك يقع في شبكة الإلحاد والتطرف. وبالطبع هناك أسباب فرعية، مثل السعي إلى لفت الأنظار، من خلال التمرد على ثوابت الدين والمجتمع.

• من وجهة نظرك.. هل هناك علاقة بين تطور التكنولوجيا والدعوة الإسلامية؟

– بالتأكيد، كل إنتاج له آثار مفيدة، أو ضارة، حيث إن شبكات التواصل الاجتماعي لها الوجه النافع، وهو الحصول على معلومات مفيدة، وأدوات البحث العلمي للعلماء والعقلاء والباحثين، حيث نجد أمهات الكتب موجودة عليها، لكن أيضا هناك الوجه الضار، وهو ما يعرض عليها من إباحيات وأفلام، وصور مسيئة للرسول ﷺ، وفيها نشاطات أخرى غير سوية، وهذا ليس عيبا في التكنولوجيا، لكنه عيب في المستخدم نفسه، وأرى من الواجب على القائمين على الشبكة العنكبوتية ألا يقدموا تلك الضلالات أو الكفريات، لأن الناس بحاجة إلى التوعية والتدين، وليس إشاعة تلك الأشياء.

• هل أثرت تلك التطورات في فكر وعقيدة الشباب؟

– بالطبع أثرت بشكل كبير، لأن الشباب عندما يجدون أعداء الإنسان الثلاثة التي سبق ذكرها، ولا يجدون من يأخذ بأيديهم إلى الطريق الصحيح، لابد وأن يلجأوا إلى تلك الأبواب الخلفية السيئة التي تأخذهم إلى الضلالات.

• كيف تنظر إلى الخلافات التي نعيشها، وتفرض على كثير من الناس حالة من الإحباط؟

– يجب أن نفرق بين السياسة والأخلاق والإنتاج، وقد رأينا صراعات وخلافات عديدة منذ أيام النبي ﷺ، ثم في حروب الردة في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم

ثلاثية الفقر والجهل والمرض أهم أسباب الموجة الإلحادية

عهد الخلفاء الراشدين، ولذلك نقول: إن الاختلاف كان وما زال قائما.. فيجب علينا أن نتوجه إلى العمل والإنتاج، وإقامة الحضارة، وتحقيق مكارم الأخلاق، وأن نقدم للعالم أجمع الصورة الصحيحة للإسلام، فالحكام لهم فكرهم وإرادتهم وعملهم، لذلك يجب على كل طالب أن يذهب إلى دراسته، ويتفوق فيها، والصانع إلى مصنعه، ليزيد من إنتاجه، والمزارع إلى حقله، لنحقق الاكتفاء الذاتي، ونتقدم مثل غيرنا.. على كل منا أن ينصرف إلى عمله، ويبدع فيه، أما السياسة فلها أهلها ورجالها.

وأخيرا لا يحق إلا الحق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد:١٧).

هذه المساواة معصية

• يطالب البعض بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، انطلاقا من خروجها للعمل ومشاركتها في تحمل المسؤوليات الأسرية.. كيف تنظرون إلى هذا المطلب؟

– هذا المطلب غير شرعي، لأن الله سبحانه وتعالى أعطى كل ذي حق حقه، فألحقوا الفرائض بأهلها، وما بقي فأولى برجل ذكر، وسمي علم الميراث بالفرائض، لأنه عبارة عن جملة من الفرائض التي فرضها الله عزوجل، وهي النصف والربع والثلث والثلثان، ونحو ذلك من الأمور المذكورة في سورة النساء، في تقسيم المواريث، والقرآن الكريم سمى هذه الفرائض بأسمائها، كما جاء في القرآن الكريم وقول الرسول ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها، فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء ينزع من أمتي» حديث ضعيف. وسماه الله سبحانه وتعالى حدودا فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ (النساء:١٣-١٤)، فماذا ننتظر بعد ذلك؟ هل يجوز لأحد أن يعترض على هذا التقسيم؟ أو يعدل في هذه الفرائض؟ وكيف نتحدث بعد ذلك في مساواة الرجل بالأنثى في الميراث! إن هذه المساواة معصية لله سبحانه وتعالى، لذلك جميع علماء الشريعة الإسلامية يرفضونها، لأنها تنافي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

• انطلقت دعوات على ألسنة علماء، تطالب من يكررون الحج والعمرة بتخصيص نفقات حجهم التطوعي، للمساهمة في حل مشكلة الفقراء وأصحاب الحاجات.. هل تساندون هذا المطلب؟

– بالطبع نساند هذا المطلب الصحيح، لأن تكرار الحج والعمرة بعد أداء الفريضة يعود نفعه على فاعله فقط، أما إنفاق تكاليف الحج والعمرة المكررين، فيعود نفعه على فئات كثيرة من الفقراء والمحتاجين والمرضى واليتامى والمساكين، لذلك أؤيد هذا الرأي، لأن من يقوم بإنفاق ذلك في شتى المجالات المختلفة سيؤجر من جهتين، من نيته لتكرار الحج والعمرة، وسيحتسب له حج وعمرة لهذه النية، لأن الرسول ﷺ يقول: «نية المرء خير من عمله» حديث ضعيف، وسيؤجر من دعوات الفقراء والمساكين الذين ستعود عليهم صدقته.

قراءة في النموذجين المرابطي والموحدي:

أثر التوجهات السياسية في العلوم الدينية

د. محمد أبحير
باحث في أدب الغرب الإسلامي

تعد الأسس الفكرية والعقدية لكل دولة أو جماعة هي الموجه الحقيقي لحركاتها وسكناتها، لذا فالحديث عن دولتي المرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس لا يشذ عن هذه القاعدة. فالمرابطون أقاموا دولتهم على أكتاف فقهاء المذهب المالكي، الذين لعبوا دور أيديولوجيي الدولة. أما الموحدون فقد ساروا على خطى فكر المهدي ابن تومرت، الذي دعا إلى الرجوع إلى العقيدة الصحيحة ومراجع الفقه والدين الأصيلة، أي الكتاب والسنة.

وقد شهد حكم الدولتين، المرابطية والموحدية، نضوج الدراسات المتعلقة بالفقه والتفسير. ولعل أهم ما يبرز هذا النضوج هو عناوين الكتب المصنفة، وزمرة الأعلام الذين أفنوا زهرة شبابهم في تأليفها. وننقل في هذا الصدد شهادة ابن خلدون حول اهتمام المغاربة بعلم التفسير، إذ يقول: «وجاء أبومحمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى» (١).

كما اهتم العلماء بمذهب مالك، من خلال إفراغ الوسع وإعمال الطاقة في دراسته وتلخيصه وتقريبه إلى الناس. يقول صاحب «المقدمة»: «وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل بما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق» (٢).

وعلى الرغم من أن مذهب الإمام مالك عرف تذبذبا في مساره أيام حكم الموحدين، فإن هذا لم يمنع الناس من الاشتغال به، وتفضيله على ما سواه، فـ «لم يعتن بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه وتفضيله وروايته وتقديم حديثه وتصحيحه» (٣). فهذه أبلغ شهادة على هذا الاهتمام من لدن علامة عصره، والذي لولاه لما ذكر المغرب، إنه القاضي عياض اليحصبي السبتي (٤٤٥ هـ)، الذي عايش فترة الحكمين المرابطي والموحدي.

ويمكن التدليل على هذه الحركة العلمية من خلال الإلماع ببعض مصنفات الفقه والتفسير (٤) على عهد الدولتين، منها:

- مختصر كتاب ابن أبي زمنين لإبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي، فقد «كان من أهل العلم والفضل والزهد والتقشف... وكان مقدما في علم الشروط والأحكام، مشاركا في علم الأصول والأدب» (٥).
- «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» للقاضي عياض، الذي «أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبرز في علوم الحديث، وحمل راية الرأي، ورأس في الأصول، وحفظ أسماء الرجال» (٦).
- وهج الجمر في تحريم الخمر لأبي الخطاب بن دحية الذي «اشتهر بعلم الحديث وروايته، فعد من كبار حفاظه ولم يسلم من نقد الناقدين من المشارقة وغيرهم» (٧).
- «منهاج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل» لأبي الحسن الرجراجي.
- تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي.
- «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» للقاضي عياض.
- «مشارق الأنوار في غريب الحديث والأنوار» له.
- «تفسير القرآن» لابن عبدالجليل القصري.
- «تفسير القرآن» للمزدغي، فقد «كانت له يد طولى في علم التفسير والقراءات والآداب وغير ذلك» (٨).
- «كتاب النزع في إبطال القياس» لابن القطان الفاسي.

كما يمكن إلحاق مكتبة منظر الدولة الموحدية (محمد بن تومرت) بهذه القائمة.

ومعلوم أن الدولة المرابطية قامت على أساس ديني إصلاحي، يتخذ من مذهب الإمام مالك شرعة ومنهاجا، ومن الفقهاء سندا وعونا، حتى عدت دولة الفقهاء؛ لكثرة نفوذهم وتغلغلهم في دواليب السلطة. فقد شهد علم الفقه على مذهب الإمام مالك حضورا متميزا، وواصل تقدمه في هذا العصر، وعقدت المجالس الحافلة في كل من سبتة وفاس ومراكش للمناظرة عليه، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول (٩).

ولعل من دواعي اختيار مذهب الإمام مالك محاولة الابتعاد عن المذاهب الأخرى التي كانت مستشرية وقتئذ. يقول الأستاذ حسن جلاب: «وقد أصبح المذهب المالكي محور الحركة

الإصلاحية المرابطية، وخطا عقديا بنى عليه عبدالله بن ياسين المالكي دعوته، وتمكن من نشره بين قبائل صنهاجة ثم في باقي المغرب، وحل محل المذاهب التي انتصبت بسبب ضعف الأدارسة» (١٠).

وعلى النقيض من ذلك، أسست الدولة الموحدية على أسس مغايرة ومختلفة تماما مع أسس الدولة المرابطية، فإذا كان دستور المرابطين هو مذهب الإمام مالك، فإن محمدا بن تومرت «كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئا من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء» (١١).

ويذهب عبدالله كنون إلى القول إن علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرعه وانتشاره كما كان قبل أو أكثر، إذ «(إن) المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطا كبيرا في هذا العصر، وذلك برغم الحملة المنظمة من رجال الدولة للقضاء عليه» (١٢). ولقطع الشك باليقين يسرد الباحث أسماء فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في العصر الموحدي (١٣).

وإذا كانت الدولة المرابطية قد تركت بصمتها واضحة في التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري للمغرب والأندلس، من خلال تحقيق الوحدة المذهبية في إطار المذهب المالكي، إلا أن هذا العمل تخللته بعض الهفوات تتمثل في «تأسيس الحكم المرابطي على المذهب المالكي، وكانت المالكية لا تهتم إلا بعلم الفروع، وكرس الفقهاء هذا التوجه» (١٤).

فقد أورد عبدالواحد المراكشي شهادة في حق الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إذ يقول: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء» (١٥).

وقد استغل ابن تومرت اهتمام المرابطين بعلم الفروع من أجل إسقاط دولتهم وكسر شوكتهم، فقد كانت دولة الموحدين «تقوم على دعامتين فكريتين مناقضتين للدولة المرابطية، أرساهما المهدي بن تومرت... وهما الأشعرية في العقائد، أو على الأدق مناهضة منهج المرابطين في العقائد وتصوراتهم فيها، ثم الاجتهاد في التشريع والفقه القائم على الكتاب والسنة، لنقض بناء الدولة المرابطية المتشبثة بالمالكية» (١٦).

وعلى الرغم من هذه الشواهد الناطقة والدالة على موقف الموحدين من عقيدة أسلافهم، فقد اختلفت الآراء حول موقف الموحدين من كتب الفروع، عندما صادروها وأمروا بإحراقها ونبذها. فقد ذهب البعض إلى أن الهدف من وراء تلك الحملة هو حث الناس على الرجوع إلى الكتاب والسنة والعمل بهما، بينما رأى البعض الآخر أن غرضهم هو القضاء على مذهب مالك وحمل الفقهاء بالقوة على مذهب ابن حزم الظاهري (١٧).

فقد أثبت عبدالواحد المراكشي، باعتباره مؤرخا للدولة الموحدية، شهادة حول دعوة أبي يوسف الموحدي إلى الأخذ بالكتاب والسنة، إذ يقول: «وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث الرسول ﷺ والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد... وكان قصده في الحملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من الحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا» (١٨).

الهوامش

١- المقدمة، ابن خلدون، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص:٤٤٠.
٢- نفسه، ص:٤٤٩.
٣- ترتيب المدارك، القاضي عياض، حققه: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢/٨٠.
٤- ينظر على سبيل المثال: النبوغ المغربي، الجزء الأول - ترتيب المدارك، الجزآن الثاني والرابع.
٥- الصلة، ابن بشكوال، حققه إبراهيم الإبياري، ط:١، ١٩٨٩م، ١/١٦٨.
٦- أزهار الرياض في أخبار عياض، المقري، حققه: إبراهيم الإبياري ومن معه، مطبعة فضالة، ٣/٧.
٧- فهارس علماء المغرب، عبدالله المرابط الترغي، منشورات كلية الآداب بتطوان، ص:٦٠٤.
٨- تراجم مغربية من مصادر مشرقية، محمد بن شريفة، ط:١، ١٩٩٦م، ٢٢٩.
٩- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبدالله كنون، ١/٧١ و٧٢.
١٠- الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب، د. حسن جلاب، ط:٢، ١٩٨٥م، ص:١٥.
١١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبدالواحد المراكشي، ص: ٢٧٥.
١٢- النبوغ المغربي في الأدب العربي، ١/١٢٣.
١٣- نفسه، ١/١٢٣.
١٤- قراءة في فكر المهدي بن تومرت السياسي، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، العدد:٣، ١٩٨٧م، ص:٩٢ و٩٣.
١٥- المعجب، ص:٢٥٤.
١٦- المذهبية في فكر أبي الوليد بن رشد، مجلة التاريخ العربي، العدد:٦، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص:٢٥٦.
١٧- ينظر: ابن تومرت وتجديد الفكر الإسلامي، مجلة الاجتهاد، العدد:٢٠، ١٩٩٣م.
١٨- المعجب، ص:٤٠٠ و٤٠١.

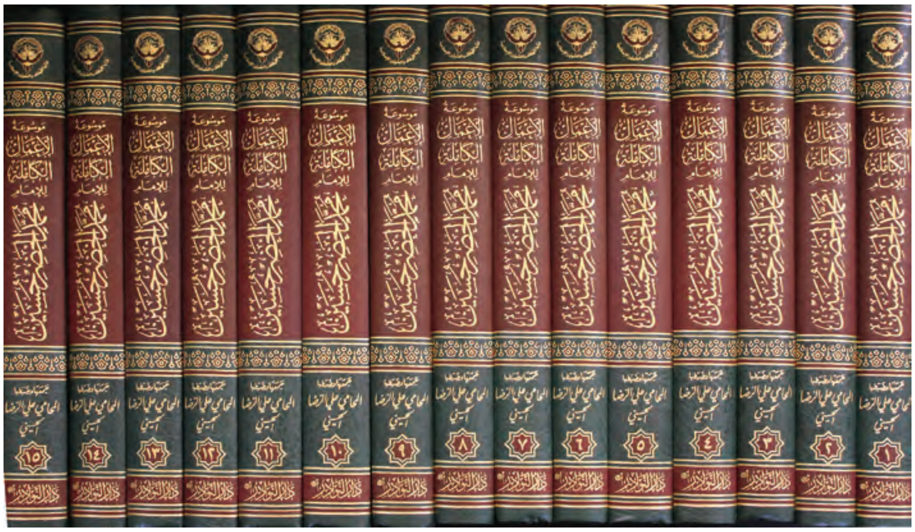
العلامة الخضر حسين
مجاهد بالقلم واللسان

صلاح حسن رشيد
باحث متخصص في الشؤون الإسلامية



عاش في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حينما كان العالم الإسلامي يرزح تحت نير الاحتلال، وأهوال الفقر والجهل والمرض، فطمح إلى تخليصه من ربقة التبعية والاستعمار، والدخول في فلك الاستقلال والتقدم والمدنية، والالتحاق بركب العالم الأول.

ولد الشيخ في بلدة «نفطة» الجزائرية، وقد حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم اللغوية والشرعية على الشيخ عبدالحفيظ اللموشي.



وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (أي في عام ١٨٨٨م) انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة، وبعد عامين التحق بجامع الزيتونة، حيث أخذ العلم على يد خاله الشيخ المكي بن عزوز، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم بوحاجب، وغيرهم من أساتذة الزيتونة.

وفي سنة ١٩٠٣م نال شهادة العالمية، وكان متشبعا بالروح الإسلامية الوطنية، فكان أول موقف له تجاه سلطات الاستعمار الفرنسي هو رفضه تولي بعض المناصب التي عرضتها عليه الحكومة الاستعمارية في تونس.

وفي نفس الفترة الزمنية (١٩٠٣-١٩٠٤م) زار الجزائر موطن آبائه وأجداده، وكان قد أصدر في تونس أول مجلة أدبية وعلمية، وهي مجلة «السعادة العظمى».

وفي سنة ١٩٠٥م تولى قضاء مدينة «بنزرت» وضواحيها، إلى جانب ممارسته للخطابة والتدريس بجامع بنزرت الكبير، وبعد عامين عاد إلى تونس العاصمة، وعين مدرسا بالمدرسة الصادقية، وبعدها بعام تطوع للتدريس بالزيتونة، ثم عين مدرسا بها.

وفي سنة ١٩٠٧م اشترك في تأسيس الجمعية الزيتونية. وفي سنة ١٩١١م قاد حملة لمناصرة الشعب الليبي في حربه ضد إيطاليا، فاتهمته السلطات الفرنسية ببث روح العداء للغرب، وضيقت عليه، فهاجر إلى تركيا عن طريق مصر وسوريا.

ثم عاد مرة أخرى إلى تونس، ليهاجر منها ثانية إلى الشام، ثم إلى تركيا من جديد، حيث عمل محررا عربيا بوزارة الحربية العثمانية، وشارك في مفاوضات سياسية خلال الحرب العالمية الأولى، ثم عاد إلى دمشق فاعتقله الأتراك عام ١٩١٦م عدة أشهر، ثم عاد إلى تركيا، وبعدها رحل إلى ألمانيا، وعاد مرة أخرى إلى تركيا، ثم استقر في دمشق، فلما احتلها الفرنسيون عاد إلى تونس، ولكنه لم يلبث أن رحل إلى القاهرة عام ١٩٢١م واستوطن هناك، حيث أصبح عضوا في هيئة كبار العلماء ومجمع اللغة العربية.

وفي سنة ١٩٢٤م، أسس جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية، التي ضمت المجاهدين من تونس والجزائر والمغرب الأقصى.

وفي سنة ١٩٢٧م ترأس الاجتماع التحضيري لتأسيس «جمعية الشبان المسلمين» بحضور أعلام الفكر وكبار الزعماء والعلماء في العالم الإسلامي، الذين اعترفوا له بالمكانة العلمية الكبيرة، فقدموه لرئاستهم.

الخضر حسين شيخا للأزهر

لم يكتف الخضر حسين بما حصل من علم ومعرفة، بل واظب على التحصيل والتعلم، فبعدما نال شهادة العالمية من الأزهر الشريف، أبدى من الرسوخ والتمكن ما أدهش علماء الأزهر الكبار الممتحنين، حتى إن الشيخ عبدالمجيد اللبان- رئيس اللجنة - قال عنه بصراحة: هذا بحر لا ساحل له؛ فكيف نقف معه في حجاج!

نال الشيخ عضوية جماعة كبار العلماء برسالته القيمة «القياس في اللغة العربية» سنة (١٣٧٠هـ -١٩٥٠م)، ثم لم يلبث أن وقع عليه الاختيار شيخا للجامع الأزهر في (٢٦ ذي الحجة ١٣٧١هـ - ١٦ سبتمبر ١٩٥٢م)، وكان الاختيار مفاجئا له، فلم يكن يتوقعه، بعدما كبر في السن وضعفت صحته، لكن مشيئة الله أبت إلا أن تكرم أحد المناضلين في ميادين الإصلاح، حيث اعتلى أكبر منصب ديني في العالم الإسلامي.

وكان في ذهن الشيخ حين ولي المنصب الكبير وسائل لبعث النهضة في مؤسسة الأزهر، وبرامج للإصلاح، لكنه لم يتمكن من ذلك، ثم لم يلبث أن قدم استقالته احتجاجا على اندماج القضاء الشرعي في القضاء الأهلي، وكان من رأيه أن العكس هو الصحيح، فيجب اندماج القضاء الأهلي في القضاء الشرعي؛ لأن الشريعة الإسلامية ينبغي أن تكون المصدر الأساس للتشريع، وكانت استقالته في (٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ -٧ يناير

١٩٥٤م). وقال كلمته المشهورة: «إن الأزهر أمانة في عنقي، أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل له نقص... يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدهما العفاء».

معاركه الفكرية

خاض الشيخ كثيرا من المعارك الفكرية، وخرج منها منتصرا، من أشهرها معركة كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين، ومعركة كتاب: «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق.

أما الكتاب الأول: فقد ظهر سنة (١٣٤٥هـ -١٩٢٧م) وأحدث ضجة هائلة، حيث جاهر مؤلفه الدكتور طه حسين بالشك في كل قديم دون في صحف الأدب، وزعم أن كل ما يعد شعرا جاهليا إنما هو مختلق ومنحول، ولم يكتف بهذه الفرية، فجاهر بالهجوم على المقدسات الدينية، حيث قال: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، ولكن هذا لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي...».

وقد انبرت أقلام غيورة لتفنيد ما جاء في هذا الكتاب، من أمثال: الرافعي، والغمراوي، ومحمد فريد وجدي. ومن جانبه قام الخضر حسين بتأليف كتاب: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، فند ما جاء فيه، وأقام الأدلة على أصالة الشعر الجاهلي، وكشف عن مجافاة طه حسين للحق، واعتماده على ما كتبه المستشرق الإنجليزي مرجليوث دون أن يذكر ذلك.

أما الكتاب الآخر فهو «الإسلام وأصول الحكم» الذي ظهر في سنة (١٣٤٤هـ -١٩٢٦م) وأثار ضجة كبيرة، وانبرت الأقلام بين هجوم عليه ودفاع عنه، وقد صدم الكتاب الرأي العام، حين زعم أن الإسلام ليس دين حكم، وأنكر وجوب قيام الخلافة الإسلامية، ونفى وجود دليل عليها من الكتاب والسنة، وكانت الصدمة الثانية أن يكون مؤلف هذا الكتاب من علماء الأزهر.

فنهض الشيخ لتفنيد دعاوى الكتاب، وأصدر كتابه: «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م) تتبع فيه أبواب الكتاب، فكان يبدأ بتلخيص الباب، ثم يورد الفقرة



التي تعبر عن الفكرة موضوع النقد فيفندها، ونقد استخدام المؤلف للمصادر، وكشف أنه يقتطع الجمل من سياقها، فتؤدي المعنى الذي يقصده هو، لا المعنى الذي يريده المؤلف.

وقد كشف الشيخ في هذا الكتاب عن علم غزير، وإحاطة متمكنة بأصول الفقه وقواعد الحجاج، وبصيرة نافذة بالتشريع الإسلامي، ومعرفة واسعة بالتاريخ ورجاله وحوادثه.

في ميادين الإصلاح

اتجه الشيخ إلى تأسيس الجمعيات الإسلامية، فاشترك مع جماعة من الغيورين على الإسلام سنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) في إنشاء جمعية الشبان المسلمين، ووضع لائحتها الأولى مع صديقه محب الدين الخطيب، وقامت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام والدفاع عن قيمه، ومحاربة الإلحاد العلمي، ولاتزال هذه الجمعية بفروعها المختلفة تؤدي بعضا من رسالتها القديمة.

وأنشأ أيضا «جمعية الهداية الإسلامية»، وكان نشاطها علميا أكثر منه اجتماعيا، وضمت عددا من شيوخ الأزهر وشبابه وطائفة من المثقفين، وكون بها مكتبة كبيرة كانت مكتبته الخاصة نواة لها، وأصدر مجلة باسمها، كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

وإلى جانب هذا النشاط الوافر تولى رياسة تحرير مجلة نور الإسلام - الأزهر الآن - التي أصدرها الأزهر في (المحرم ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م)، ودامت رئاسته لها ثلاثة أعوام، كما تولى رئاسة تحرير مجلة لواء الإسلام سنة (١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م).

وتحمل إلى هذه الأعباء التدريس بكلية أصول الدين، فالتف حوله الطلاب، وأفادوا من علمه، وعندما أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م) كان من الرعيل الأول الذين اختيروا لعضويته، كما اختير عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وأثرى مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة ببحوثه عن صحة الاستشهاد بالحديث النبوي، والمجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية، وطرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية.

مواقف من حياته

ضرب الخضر حسين أروع الأمثلة في الصدق والشجاعة، نذكر منها على سبيل المثال: أنه عندما كان في ألمانيا حضر عند مدير الاستخبارات الألمانية، وكان معه سكرتيره، وذلك أثناء سفرهم إلى قرية ألمانية، وفي نهاية الحديث سأله المدير: أليس

كذلك يقرر ابن خلدون؟
فقال له: وماذا يقرر؟
قال: إن العرب لا يصلحون لملك، ولا يحسنون حكما للأمم.
فقال له: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام، وقد بين ذلك غاية البيان في فصل عقده في مقدمته.
وهذا يدل على أن الشيخ كان قارئا جيدا واعيا حاضر الذهن.
ومن مواقفه أيضا أن السلطات الفرنسية في تونس دعته ليكون عضوا في المحكمة المختلطة التي يكون فيها قضاة مسلمون وأجانب، فرفض؛ لأن المحكمة تحكم بغير ما أنزل الله، ولأن المحكمة قائمة في ظل الاحتلال، وستخدم مصالحه.
ومن مواقفه الجريئة أنه حاضر في تونس عن «الحرية في الإسلام»، أثناء وجود الاستعمار الفرنسي فيها، وذلك في نادي قدماء مدرسة الصادقية الثانوية، فقال: «إن الأمة التي بليت بأفراد متوحشة تجوس خلالها، أو حكومة جائرة تسوقها بسوط الاستبداد هي الأمة التي نصفها بصفة الاستعباد، وننفي عنها لقب الحرية».
ثم بين الآثار السيئة للاستبداد في شجاعة وجرأة، وقد تناقل الناس مضمون المحاضرة ووصلت أخبارها إلى الشام وغيرها.
وفي مصر كان له موقف مشرف حين طالب أحد أعضاء مجلس الثورة بمساواة الجنسين في الميراث، ولما علم الشيخ بذلك أنذرهم إن لم يتراجعوا عن هذا فسيلبس كفنه، ويدعو الشعب إلى زلزلة الحكومة والقيام عليها لاعتدائها على حكم من أحكام الله، فكف ذلك العضو عما نواه من تغيير حكم الله تعالى.

الخضر حسين شاعرا

للشيخ شعر جيد كثير، ضمّن بعضه في ديوان منشور، سماه «خواطر الحياة»، فمنه في ذم الكماليين – أنصار كمال أتاتورك – الذين ألغوا الخلافة:

ما خطب قوم طالما وصلوك
واعتز باسمك عرشهم هجروك
حرسوك أحقابا وحلق صيتهم
في الخافقين لأنهم حرسوك

ومن شعره – أيضا – حين نصحه بعض أصحابه بالرجوع إلى الشام وترك مصر:

يقول: تقيم في مصر وحيدا
وفقد الأنس إحدى الموتتين
ألا تحدو المطية نحو أرض
تعيد إليك أنس الأسرتين
وعيشا ناعما يدع البقايا
من الأعمار بيضا كاللجين
فقلت له: أيحلو لي إياب
وتلك الأرض طافحة بغين
وما غين البلاد سوى اعتساف
يدنسها به خرق اليدين

ومدح الأمير عبدالكريم الخطابي يوم جاء من منفاه، واستطاع بعض المخلصين تخليصه في السويس، وهو في طريقه إلى سجنه بفرنسا، فقال على الباخرة مرحّبا به:

قلت للشرق وقد قام على
قدم يعرض أرباب المزايا
أرني طلعة شهم ينتضي
سيفه العضب ولا يخشى المنايا
أرنيها إنني من أمة
تركب الهول ولا ترضى الدنايا
فأراني بطل الريف الذي
دحر الأعداء فارتدوا خزايا

مؤلفاته

ترك الشيخ عددا من الكتب والمؤلفات، أشهرها: «رسائل الإصلاح»، و«الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان»، و«الحرية في الإسلام»، و«محمد رسول الله خاتم النبيين»، و«نقض كتاب الشعر الجاهلي» لطه حسين، و«نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق و«تونس جامع الزيتونة»، و«أديان العرب قبل الإسلام»، و«بلاغة القرآن»، و«القياس في اللغة العربية». وكذلك «الخيال في الشعر العربي»، و«آداب الحرب في الإسلام»، و«دراسات في العربية وتاريخها»، و«حياة ابن خلدون»، «تونس.. ٦٧ عاما تحت الاحتلال الفرنساوي»، و«تعليقات على كتاب الموافقات للشاطبي»، و«خواطر الحياة» (ديوان شعر)، وغيرها كثير ....، وافتتاحيات مجلة «لواء الإسلام»، ومجلة «نور الإسلام». بالإضافة إلى مئات المقالات والمحاضرات.

قالوا عنه

قال فيه العلامة عبدالمجيد اللبان – رئيس لجنة امتحان شهادة العالمية بالأزهر – يوم تقدم إليها للاختبار: «هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج».
وقال عنه الشيخ العلامة محمد علي النجار: «إن الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يجتمع في غيره، إلا في الندرى، فقد كان عالما ضليعا بأحوال المجتمع ومراميه، لا يشذ عنه مقاصد الناس ومعاقد شؤونهم، حفيظا على العروبة والدين، يرد ما يوجه إليهما وما يصدر من الأفكار، منابذا لهما، قوي الحجة، حسن الجدال، عف اللسان والقلم».
وقال عنه العلامة محمد الطاهر بن عاشور: «إنه من أفذاذ علماء الإسلام، وقد كان قليل النظير في مصر».
وقال عنه عباس العقاد إنه: كان من أنصار الدعوة التي لا زمان لها؛ لأنها صالحة لكل زمان، مهما تتجدد مذاهب المعرفة.. وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين، وهما طرف اليسار من المتعلمين، الذين جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين، الذين جاوزوا؛ فضيقوا حدوده عليهم، وإن لم يجاوزوه!
وقال عنه الدكتور محمد رجب البيومي: ومن يطالع كتابه «رسائل الإصلاح» بأجزائه الثلاثة» يدرك يقينه الثابت بماضي الأمة وعزتها.



بكل فخر أضعت هويتي

أسماء السكاف
كاتبة سورية

كبرت وتخرجت وتزوجت وأنجبت طفلة جميلة.. وكأي أم محبة كنت أتوق لتعليمها كل شيء، وكنت أسعى لتأمين البيئة الصحية والتربوية والتعليمية لها، كنت مثابرة بقراءة الكتب التربوية المختصة والاطلاع على تجارب غيري..كانت تستهويني التجارب والكتب الأجنبية؛ فأنا منبهرة بطريقة تعامل معظم من نطلق عليهم الأجانب مع أطفالهم أو حتى مع الطفل بشكل عام، كنت بشكل شبه يومي أصطحب طفلتي إلى حديقة منطقتنا التي يقطنها عدد لا بأس به من «الأجانب» بل ومن العرب «المؤجنبين»، كانت اللغة الوحيدة المتداولة في الحديقة بين الأهالي والأطفال والعاملين في المطعم الموجود في الحديقة وحتى حارس الحديقة هي اللغة الإنجليزية التي أحببت سماعها جدا من الأطفال، بل وحتى أعجبت جدا بطلاقة بعض الأطفال العرب عند نطقهم لها فقررت ألا أحدث طفلتي إلا بالإنجليزية، وفعلا فعلت رغم انتقاد بعض المقربين لي، فأصبحت أقرأ لها القصص بالإنجليزية حتى أصبحت تفهمني جيدا، في نفس الأثناء كانت طفلتي تكبر، وبالتالي كنت أنخرط معها بمجتمع الطفل أكثر وأخالط معها أطفالا مختلفين؛ سواء في النادي أو في دورة القرآن الأسبوعية، بدأت ألاحظ أن أغلب من حولي من أطفال كان أهلهم يقومون بالدور نفسه معهم، خصوصا من ناحية اللغة، وكأن علامة اهتمامنا



بأطفالنا من خلال هجرنا للغتنا الأم، كانت طفلتي بعمر السنتين عندما أحسست بشعور مؤلم أنني أعمل جاهدة وبجد ومثابرة على سلخها من هويتها.. وقفت مع نفسي وقفة ليست طويلة، فالأمر بات واضحا جدا عندي، خصوصا بعد أن خالطت بعض الأطفال الأتراك والهنود والأوروبيين، ورأيت اعتزاز كل منهم بلغته وحرصه على تعليمها بإتقان لأطفاله أولا وقبل كل لغة أخرى، أدركت أنني أجرم بحق طفلتي وأناقض ما أتعلم من طرق تربوية، حمدت الله أنها مازالت في سن غضة قابلة لشرب لغتها الأم الجميلة، استدركت ما فاتني في عامين، وبدأت معها رحلة الأحرف العربية الجميلة، ولعبة مخارج الأصوات التي يكابد من يريد تعلمها على كبر الأمرين، رغم أني نوعا ما أسبح معها الآن عكس التيار، فنحن اليوم في زمن يفاخر فيه الأغلب بل ويتباهى بأن أطفاله الذين يدرسون في مدرسة «أجنبية» لا يتقنون العربية ولا يفهمون الأشعار العربية إذا ما سمعوها.. فهم متحدثون وناطقون بارعون باللغة الإنجليزية، بالتأكيد لست ضد تعلم اللغات وخصوصا الإنجليزية.. فنحن نحتاجها بشكل شبه يومي؛ شئنا أم أبينا حتى في بلادنا العربية، ولكنني مع الفخر والاعتزاز بأننا عرب.. ومعرفة قيمة لغتنا الجميلة بكافة حروفها غير الموجودة في اللغات الأخرى، أنا أفخر أن الله قدر لي أن أكون عربية وأن القرآن نزل بلغتي، فلغتي تحمل كنوزا وتعبيرات وتشبيهات وبلاغة أُراهِنُ على عدم وجودها بأي لغة أخرى، لذلك سأحرص على تعليمها لأطفالي، لأنها الأصل ولأنها الأصعب أيضا بين اللغات.. وبعد إتقانهم لها سأحرص على أن يتقنوا الإنجليزية وأيضا لغات أخرى.. ففي هذا تنمية للذهن..

ألتقي الآن بنماذج حولي مختلفة من الأهل ممن لديهم أطفال أعرف إحداهن ابنتها في السادسة من عمرها، عربية وولدت في بلد عربي وأقرباؤها وأصدقاؤها عرب، ولكنها لا تتقن من اللغة العربية حرفا فقد وضعها والدها بكل فخر في بيئة معقمة بالكامل من أي نطق عربي، فالمدرسة إنجليزية والمربية إنجليزية ووالداها لا يتحدثان معها إلا بالإنجليزية.. والأمر المر أن الأم تفخر بذلك قائلة: «ابنتي لا تتحدث العربية.. كلموها بالإنجليزية».

صدقا أشفق على الصغيرة كلما رأيتها.. كيف لها أن تتعلم القرآن وتصلي به، الله وهب هذه الصغيرة نعمة اللغة العربية، وبكل برود وفخر نزع منها والداها حق التمتع بهذه النعمة، ولو دقق كل منا في مجتمعه وحوله لوجد العديد من «المتأجنبين» بعضهم عن جهل مطبق، فمنهم من لا يتقن من الإنجليزية سوى بضع كلمات يرددها حيثما جلس ليبدو – ظنا منه – بمظهر المتمدن أو من طبقة المجتمع المخملي، والأغلب من المبهورين بالغرب ولغتهم وكل شيء قادم من هناك؛ غثه وسمينه، ناسين أو متناسين أنه من المستحيل على المرء أن يغير جلده وأصله كقصة الغراب الذي أعجبته مشية طائر الحجل فأراد تقليدها.. حاول فترة من الزمن وعندما يئس أراد العودة لمشيته ولكنه نسيها، فلا هو أتقن مشية غيره ولا عاد لمشيته، فأرجو أن يخرج جيل أكثر وعيا.. لا يقتل لغته في نفسه ليتنفس لغة أخرى.. فالكتب العربية كنز.. ومن المحال أن نجد مثله، وحتى لو ترجموها فلن يستطيعوا ترجمة إحساسها وتشبيهاتها.. أسأل الله أن يعين كل مرب على تنشئة جيل واع فخور بأصله ولغته ودينه.

يحضرني قول الشاعر حافظ إبراهيم عندما تخيل اللغة العربية تعاتبنا فقال:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

أرى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز أقوام بعز لغات

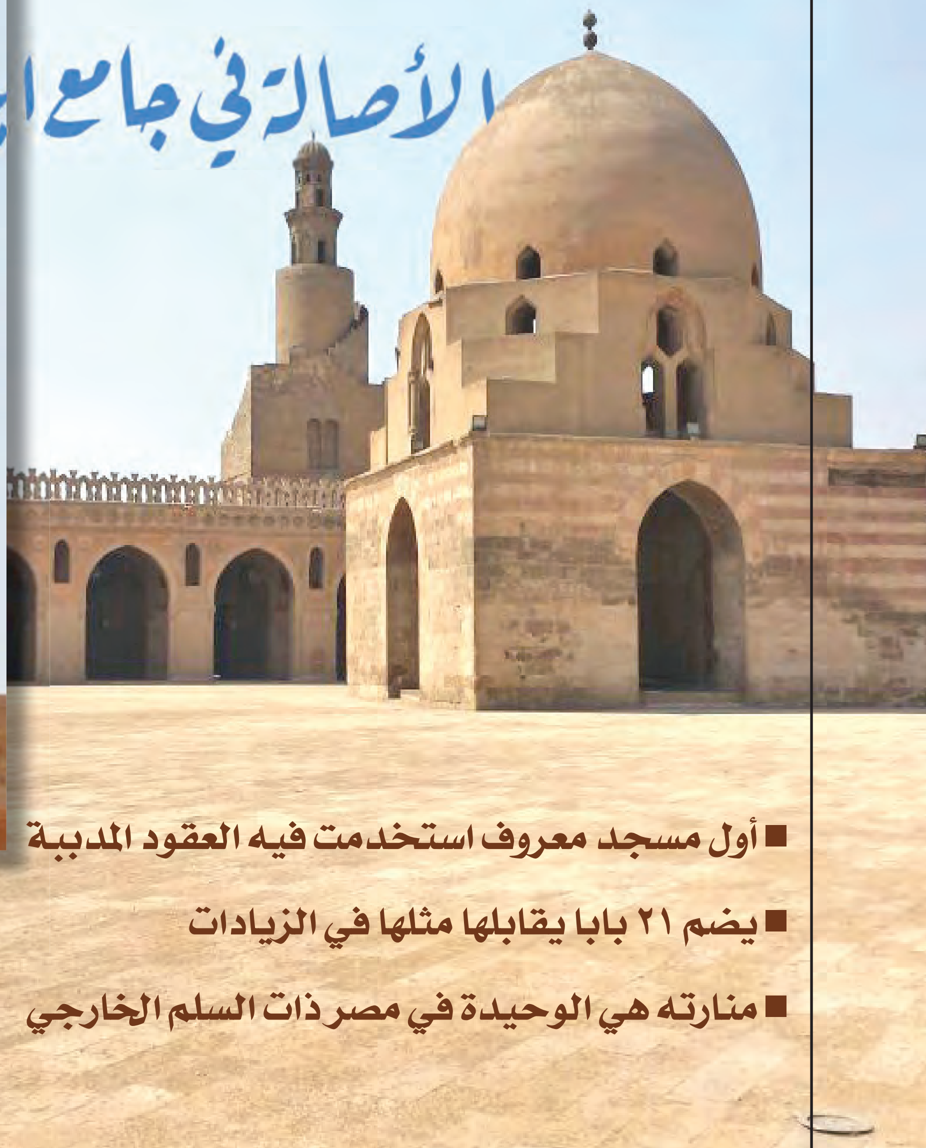
أيهجرني قومي عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل برواة

له أهمية عظمى في تاريخ تطور العمارة

الأصالة في جامع ابن طولون



التحرير



■ أول مسجد معروف استخدمت فيه العقود المدببة

■ يضم ٢١ بابا يقابلها مثلها في الزيادات

■ منارته هي الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي

جامع ابن طولون هو ثالث جامع أنشئ للجمعة في مصر. ويعد، بحق، من أقدم الجوامع المحتفظة بتفاصيلها المعمارية وهيكلها الأصلي العظيم. اسمه من اسم الأمير أبوالعباس أحمد بن طولون، المولود في بغداد سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م)، وبعد أن فرغ ابن طولون من بناء القصر والميدان شرع في بناء هذا الجامع سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م)، واستمر العمل سائرا فيه إلى أن انتهى منه في شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨م).

وجامع ابن طولون من أكبر المساجد، وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة: صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذات عقود. والمسجد الطولوني كان أول مسجد معروف ثابت التاريخ استخدمت فيه العقود المدببة المنفوخة كعنصر معماري بطريقة منتظمة، ولهذا فإن لمسجد ابن طولون «أهمية عظمى في تاريخ تطور العمارة».

وتمتاز عمارة المسجد الطولوني بأن بناءه من الآجر المكسو بالجص، وكذا جدرانه ودعاماته وعقوده، كما تمتاز باستخدام الدعامات في حمل العقود ورفع السقف، للاستغناء عن العمد، وإذا كانت جملة عدد الدعامات في المسجد مئة وستين دعامة، فإن بناءه بالعمد كان يتطلب ضعف هذا العدد منها على الأقل.

معظم القرآن الكريم

يمتاز المسجد الطولوني بأنه سجل معظم القرآن الكريم في الإزار الخشبي الذي يرتقي جميع جدران المسجد الداخلية وبوائكه، بحيث تنتشر آيات الله البينات في كل مكان داخل المسجد أمام أعين المصلين، في خط جميل يبهر الأنظار، ويحرك المشاعر.

وتحيط بالجامع من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بـ «الزيادات»، وهي من المسجد، ومثلها موجود في جامع سوسة.

وأسوار هذه الزيادات عالية تسودها البساطة، فتحت بها أبواب تقابل أبواب الجامع، تتوجها من أعلى شرفة مفرغة. كما فتحت بأسوار الجامع أبواب وشبابيك علوية بينها حنايا وطاقات مخوصة تتوجها من أعلى شرفات.

وعدد أبواب الجامع ٢١، يقابلها مثلها في الزيادات، وتوجد في بعض الأبواب معابر خشبية قديمة بها زخارف مورقة.

المهندس المجهول

من المدهش أن هناك خلافا حول جنسية مهندس ابن طولون، فبينما نرى المقريزي يعبر عنه بالنصراني، يرجح آخرون أنه مهندس المقياس أحمد بن محمد الحاسب، الذي قدم من العراق لبناء المقياس الجديد بالروضة.



فإذا تجاوزنا سور الزيادة فمن أي باب من أبواب الجامع نصل إلى الإيوانات، التي يتوسطها صحن كبير. وهنا تتجلى عظمة هذا الأثر الخالد الحافل بشتى الصناعات والفنون.

ويمكن القول إن دعامات هذا المسجد فريدة في تاريخ العمارة، وهي أول مثل معروف من نوعها، فهي ليست دعامات فحسب، تحل محل العمد، وإنما هي مجموعة معمارية منسقة، تشمل دعامات تحف بها أشكال أعمدة مبنية من الآجر مندمجة في أركانها، وتعلوها طاقات مفرغة. ولم تظهر مثل هذه المجموعة المعمارية في أي بناء سابق للمسجد الطولوني، فهي ابتكار في تاريخ العمارة من حق بنّاء هذا المسجد علينا أن نسجله له.

المحراب الموجود بالإيوان الشرقي، من أكبر الإيوانات وأكثرها أروقة وأخلفها زخرفا، فهو يشتمل على خمسة أروقة، ويتوسط جداره الشرقي المحراب، وبه منبر وبه تاريخ إنشاء الجامع، وتوجد به محاريب طولونية وفاطمية ومملوكية.

وبتجويف المحراب عصابة من الفسيفساء المذهبة كتب بها بالخط النسخي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهذه الفسيفساء والطاقية الخشب بالمحراب ومقرنص القبة أعلاه من عمل المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م).

دار الإمارة

على يمين منبر جامع ابن طولون باب كان يؤدي إلى دار الإمارة التي أنشأها أحمد بن طولون وأثثها بالفرش والستور، كانت مخصصة لنزوله حينما يذهب إلى صلاة الجمعة، فيجلس فيها، ويجدد وضوءه، ثم يدخل منها إلى مقصورة المسجد. وقد ذهبت هذه الدار ولم يبق منها سوى مدخلها وبه



خصائص زخرفية

للمسجد الطولوني ميزات وخصائص في مجال الزخرفة، فقد تعددت العناصر الزخرفية في هذا المسجد، ويلقاها الزائر له في إطارات الدعامات وتيجانها، وتيجان الطاقات والنوافذ، كما يلقاها في إطارات العقود والنوافذ والطاقات، وفي عقود الدعامات وعقود النوافذ، وفي الإزارات التي تعلو رؤوس العقود، ورؤوس النوافذ، والإزارات التي تمتد حول جدران المسجد الداخلية، وفي الإزار الخشبي الذي يحيط بهذه الجدران ويجري مسافة كيلومترين عليها، وفي رؤوس الطاقات الممتدة بين النوافذ على الواجهات، وفي السرر المقامة بين الطاقات والعقود، وتلك الممتدة على واجهات الصحن، وفي الشرفات التي تعلو الجدران، وفي ستائر النوافذ المفرغة.

كل هذه الزخارف تجعل للمسجد الطولوني طابعا خاصا في تاريخ الزخرفة المعمارية، لاشتماله على مجموعة زخرفية لم تجتمع من قبل.

بقايا كوابيل للسقف تمثل رأس فيل بنابيه.

المنارة

أقام أحمد بن طولون منارة الجامع في الزيادة الغربية، لصق حائط الزيادة، وهي مبنية بالحجر، مقاس قاعدتها ١٣،٦٥٨١٢،٧٨ مترا، وسلمها من الخارج بأربع قلبات يصعد منه إلى سطح فسلم حلزوني نصف دائري يوصل إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوي وهو على هيئة مبخرة، وهي المنارة الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي، وهي تشابه منارة سامراء، أما المنارة الحالية فلها قاعدة مرتفعة بنيت من الحجارة، وحفرت عليها في كل جانب من جوانبها الأربعة طاقة صماء مزدوجة، في وسطها عمود صغير رشيق، يرتقي عليه عقدان منفوخان على هيئة عقود المآذن الأندلسية، وترتفع هذه القاعدة أو هذا الطابق الأول من المئذنة إلى ما يزيد قليلا على واحد وعشرين مترا، ويعلوه طابق ثان مستدير يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار، ويبلغ قطره حوالي سبعة أمتار. ويرتفع فوقه طابقان مثمنان، متراجعان، ينتهي ثانيهما بقبة صغيرة مضلعة، يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض أربعين مترا.

وقد أعاد بناءها السلطان لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) على مثال ما كانت عليه من قبل، غير أنه أضاف إليها مبخرة مضلعة في قمتها، على أسلوب مباخر المآذن في العصر المملوكي. كما أنه بنى قنطرة تربط المئذنة بسطح مؤخر المسجد.

ويقال إن المنارة التي أقيمت مع المسجد في عهد ابن طولون كانت غريبة المظهر والبنيان، لأن مدرج سلمها يلتف حولها من الخارج، وقد بنيت من الحجارة، بينما بني المسجد كله من الآجر.

الترميم

في سنة ١٩١٨م أمر الملك فؤاد بتخلية جوانب الجامع وإصلاحه. وفي عهده تمت تخلية الوجهة البحرية للجامع، وفتحت أبوابها، وأصلحت أسوارها، وأزيلت الأبنية المحدثة بالزيادة القبلية. كما أخلي قسم كبير من الوجهتين



الخط الكوفي

الخط الكوفي المستخدم في الجامع الطولوني خاصية لم يستطع أحد من المستشرقين إنكار أصالتها، ولم يحاول أن يردها إلى مصدر غير عربي إسلامي. وتبدو زخرفة الخط في المسجد الطولوني سلسلة مبسطة، واقتصرت على رسم الحروف نفسها، وطريقة تنسيقها واتزان مواضعها، فلم تلبس حلية خارجية، زهرية أو نباتية. ويلاحظ في رسم الحروف، أول رحلة لتطورها الزخرفي، إذ روعي أن تنتهي الخطوط الرأسية بفرطحة مدببة، وأخذت رؤوس الحروف المستديرة تتبع على أشكال الوريقات النباتية وأنصافها.

الشرقية والغربية، وتم تبليط أروقة الإيوانات الغربية والبحرية والقبلية، وأصلحت الزخارف الجصية بباطن العقود، وأصلح السبيل الموجود في الزيادة القبلية، وأزيلت الأتربة من الزيادات، ومهدت هي والصحن، وأعيد بناء الرواق المشرف على الصحن من الإيوان الشرقي، كما عمل لجميع الأروقة سقف من الأسمنت المسلح برسم السقف القديم، ثم غلفت بأخشاب أدخلت فيها الأجزاء القديمة، وأعيد تركيب الإزار الكوفي فيها.

ووفقا لكتاب «المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها»، فإن المسجد الطولوني تأثر بإقامة مسجدي الأزهر والحاكم فيها، وبدأ شأنه يضمحل، حتى قيل إنه «تشعث وخرب أكثره» في أيام الخليفة الفاطمي المنتصر بالله، وقد أمر هذا الخليفة بتجديد أحد الأبواب النافذة إلى المسجد من الزيادة الشمالية، وسجل تاريخ هذا التجديد في لوحة رخامية على هذا الباب، في سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م). وألصقت ببعض الدعامات بضعة محاريب جصية، عددها خمسة، أحدها عمل في عهد الملك الأفضل (وزير المستنصر بالله)، سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)، ومنها محرابان يرجعان إلى العصر الفاطمي، ورابع يبدو أنه عمل في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وفي سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) عندما فر الأمير لاجين واختفى بالمسجد الطولوني، وصار يتردد بمفرده في الجامع، وهو حينئذ خراب، وأقسم إن سلمه الله من هذه المحنة ومكنه في الأرض أن يجدد عمارة هذا الجامع.

فلما كان شهر المحرم من سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) وجلس لاجين على سرير الملك ولقب بالملك المنصور، بر بقسمه، وصرف إليه كل ما يحتاج إليه في العمارة، وأزال كل ما كان فيه من تخريب، وبلطه، وبيضه، وأقام القبة التي تعلو المحراب، والفسقية التي تتوسط الصحن، ومحرابا من الجص في بيت الصلاة. وقد جددت في المسجد «مئذنتان» في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، في أوائل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي)، وقد هدمت هاتان المئذنتان من بعده.

المحراب

ونلاحظ أن محراب ابن طولون محراب مجوف، يحف به من كل جانب عمودان متلاصقان، وثمة محاريب أخرى صغيرة مسطحة على الجص ألصقت بالدعامات ولا تظهر على الرسم التخطيطي للمسجد.

وللمسجد أبواب فتحت في جدرانه، جملتها اثنان وأربعون بابا. وقد فتحت نوافذ في جدران المسجد الأربعة، ولم تفتح مثلها في جدران الزيادات، ويبلغ عدد هذه النوافذ ١٢٨ نافذة، يرتفع مستوى قواعدها عن أرضية بيت الصلاة والأروقة ما يقرب من ستة أمتار.



رحلة العمر

د. آندي حجازي
أستاذة تعلم وتعليم أردنية

إن الاستغراق في متاع الدنيا وشهواتها يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ويحرمه متعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم في الأرض، وإن الذي لا يوقن بالآخرة يقينا جازما يصعب فطامه عن شهواته، وصرفه عن مجونه ولذاته، لأنه لا يرضى أن يبيع لذة حاضرة أكيدة من أجل لذة آجلة يشك هو في وقوعها! ولذلك يرتكب الكثير من البشر ما يرتكبون في حياتهم من ذنوب ومعاص دون اكتراث لآخرتهم أو نهايتهم والشكل الذي ستكون عليه خاتمتهم.

بينما المؤمن العاقل من سخر الدنيا لنفسه ولم يسخر نفسه للدنيا، ولم يجعل الدنيا غايته وهمه، بل جعلها وسيلة للبر والصلاح والوصول للجنة؛ فتراه دائم التفكير بآخرته وخاتمته. وكان سفيان الثوري رحمه الله يبكي فأشفق عليه أهله وقالوا: أتبكي الذنوب؟ فقال: الذنوب أهون علي من هذه، وأشار إلى تبنة بيده (حفنة من بقايا سيقان القمح والشعير لعلف الماشية)، إنما أخاف سوء الخاتمة.

وعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك، قالت: قلت: يا رسول الله، ما أكثَرَ دعاءك: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»، فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران:٨).

فإذا كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم من الخطأ يخاف تبدل القلب واتباع الهوى وتبدل الخاتمة فيكثر الدعاء لله تعالى، فكيف بنا نحن!، وإننا في زمن كثرت به الأهواء والمذاهب والآراء المضللة والفتن والمغريات؟! فنحن أجدر بالدعاء لله تعالى بتثبيت القلب على الإيمان وحسن الختام.

ويرى الكثير أن العلامة المميزة لحسن الخاتمة أو سوئها غالبا ما تكون سيرة الإنسان في حياته، وعمله طيلة أيام عمره. فتأتي الخاتمة غالبا لتكشف عن سجل الحياة، وتلخص رحلة العمر، وأفعال الإنسان ونواياه منها، وتبدي للناس ما يشغل بالهم ويسيطر على تفكيرهم، وما خفي من أعمالهم من صالح أو طالح، وتعلن عن أعظم اهتماماتهم في مسيرة حياتهم.

خواتيم مبشرة

وانظر مثلا، ما أجمل خاتمة هذه المرأة؛ تموت في دار تعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وقد تزوجت منذ أربع سنوات ولم تنجب، فركزت جل اهتمامها على حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، وبعد أن صلت الفجر مع زوجها وهو إمام المسجد، عادت وجهزت طعام إفطار لزوجها، ثم

أصرت رغم مرضها وجسدها المتعب أن تذهب وتسمِّع وردها اليومي مما حفظت من القرآن الكريم والذي كان جزءا كاملا من القرآن الكريم! فبعد أن انتهت من تسميعه وصلت الضحى في مركز التحفيظ، شعرت بضيق في التنفس، وتجمعت المعلمات حولها ليساعدنها واتصلن بزوجها، وحضر زوجها، ثم قال لها: نذهب للمستشفى؟ فقالت: لا، فقال: أحضر الطبيب إلى هنا؟ فقالت: لا، فأنا الآن أموت! وفاضت روحها والقرآن الكريم في يدها وهي في دار التحفيظ.. فيا الله ما أروعها من خاتمة.. ومن لا يتمنى مثل هذه الخاتمة؟ ولكن لا يوفق أحد لهذه الخاتمة إلا من كان عمله في حياته على مثل ذلك، وأخلص عمله لله، فيقول البعض: من أراد أن يعرف كيف ستكون خاتمته فلينظر إلى عمله في حياته. قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ (إبراهيم:٢٧).

وهذه قصة أخرى يرويها أيضا الشيخ عباس بتاوي والذي كان يعمل في تغسيل الأموات في جدة، وهو يروي قصة تغسيل الشيخ علي جابر إمام الحرم المكي الشريف الذي توفي عام ١٤٢٦هـ الذي كان يصدح بأعذب صوت في جنبات بيت الله العتيق لمدة تزيد عن التسع سنوات، وقد طلب العديد من أهله تغسيل جسده الطاهر، فأكرم الله الشيخ عباس بتاوي ليقوم بذلك كما ذكر، وقد كان الشيخ علي جابر رحمه الله عظيم الجسد كما يصف عباس بتاوي؛ فيقسم بالله أنه حمله هو واثنان من النعش إلى طاولة الغسيل بكل سهولة حتى تعجبوا من هذه الخفة التي تناقض عظم جسده. ويقول عندما كشفنا عن وجهه إذا بالابتسامة واضحة على وجه الشيخ، ويضيف الشيخ عباس قائلا: كان جسد الشيخ علي جابر رحمه الله قد وضع بالثلاجة أكثر من اثنتي عشرة ساعة، ولكن الغريب أن جسده لم يكن باردا أبدا، وكأنه لم يدخل الثلاجة وإنما برودة عادية، برودة الميت الطبيعية، ويقول: من خلال سنوات قضيتها في هذا العمل والكثير من الحالات التي مرت علي، إذا مكث الجسد في الثلاجة لمدة تزيد عن ساعتين؛ فإنه يتصلب تماما، حتى في بعض الأحيان ترى قطع ثلج على الجسد، وإذا وضعت يدك على البطن كأنك وضعتها على لوح زجاج بارد، ولكن هذا لم يكن للشيخ علي جابر، فعندما حركنا يديه إذا بها تتحرك بكل سهولة، وكأنه نائم وكأنه لم يدخل الثلاجة، وحتى إن مساعد الشيخ المغسل أيضا تعجب من ذلك، وقلت له إنها من أغرب الحالات التي مرت علينا، اثنتا عشرة ساعة في الثلاجة ولا أثر للبرودة على جسده، وأطرافه تتحرك بكل سهولة، الله أكبر، حتى بكى أبناؤه لشدة تأثرهم. ثم يتابع المغسل: وبعد انتهاء التغسيل حملنا الشيخ علي جابر وتوجهنا به صوب المكان الذي طالما تعلق قلبه به، المكان الذي طالما أم الناس فيه، إلى الحرم المكي الشريف، ويقول الشيخ عباس: لا أقدر أن أخبركم عن مدى تدافع الناس وعن الجموع والمواكب التي تبعت سيارة نقل الموتى، وكم استغرق الطريق لشدة الزحام بالمعزين، كلها تدعو لفقيد الأمة، وفي مقبرة الشرائع كان قبره، وقد امتلأت المقبرة برجال الأمن لتنظيم مرور السيارات ودخول الناس، رحمه الله، ما أجملها من بشائر لحسن الخاتمة، كيف لا ومن عاش على طاعة الله فالله يورثه محبة الناس والدعاء له والحزن لفراقه.

الموت لا ينتظر أحدا

وفي المقابل؛ يذكر البعض أن شابا كان صادا عن طاعة الله سبحانه وتعالى كما عرف عنه لم يفكر في التوبة أو لم يقدر عليها، جاءته سكرات الموت فجأة، فجاء مرافقوه يلقنونه الشهادة قل: لا إله إلا الله. ولكنه يتكلم بكل كلمة ولا يقول الشهادة! ويكررون عليه ولا سبيل. حتى قال في النزع الأخير: أعطوني مصحفا، ففرحوا واستبشروا وقالوا: لعله يقرأ آية من كتاب الله فيختم له بها، فأخذ المصحف ورفعه بيده وقال: أشهدكم إني قد كفرت برب هذا المصحف، ثم مات.

ما أقساها من خاتمة.. رحمنا الله برحمته وأحسن خاتمتنا وألهمنا الرشد حتى آخر لحظة.

وهذا شاب آخر في سكرات الموت أيضا يقولون له: قل لا إله إلا الله. فيقول: أعطوني دخانا. فيقولون: قل لا إله إلا الله. فيقول: أعطوني دخانا. فيقولون: قل لا إله إلا الله عله يختم لك بها. فيقول: أنا بريء منها.. أعطوني دخانا!

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه: «الجواب الكافي» أن أحد الناس قيل له وهو في سياق الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: وما يغني عني قولها وما أعرف أني قد صليت لله صلاة؟! فلم يقلها، ومات على ذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «إن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت، مع خذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان، فيقع في سوء الخاتمة والعياذ



بالله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان:٢٩).

ويقول بعض الصالحين إن سوء الخاتمة تكون على رتبتين؛ الرتبة الأولى وهي الأسوأ: حيث تكون بسبب الشك أو الشرك بالله أو الكفر والجحود؛ فتقبض الروح على تلك الحال وتكون حجابا بينها وبين الله تعالى، وتقتضي العذاب المخلد.

والرتبة الثانية، وهي الأقل سوءا: حيث يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو اتباع شهوة محرمة، كمن يتعاطى المحرمات والمنكرات كالمخدرات والأغاني والتدخين ومشاهدة الصور المحرمة وظلم الناس والتعامل بالربا... ويصر على ذلك حتى آخر لحظة ويموت على ذلك، بما يظهر سوء الخاتمة والعياذ بالله.

التحول من الضلال إلى الهداية

ولكن من علامات حسن الخاتمة ومن رحمة الله ببعض عباده (والذين قد يكون لهم عمل صالح خفي لا يعلمه إلا الله أو لديهم خشية من الله على الرغم من ارتكابهم بعض المعاصي، أو قد تكون لهم توبة بين الحين والآخر)، أن يوفقهم الله عزوجل قبل موتهم للتوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير فيختم لهم بحسن الخاتمة، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله» قالوا: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته» (رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه الحاكم في المستدرك).

وهذه قصة جميلة لمن تبدلت حياته قبل مماته فتاب إلى الله تعالى، فيقول أحد الأشخاص: كنت أمشي في سيارتي بجانب سوق في الرياض فإذا بشاب يعاكس فتاة، فترددت بنصحه ثم عزمت على نصحه، فنزلت من سيارتي وسلمت على الشاب وقلت له: أنا لست من الشرطة وإنما أخ أحب الخير لك، وبدأت أذكره بالله حتى دمعت عيناه، وتفرقنا وأخذت رقم هاتفه وأخذ رقمي، وبعد أسبوعين كنت أبحث في جيبي فوجدت رقم الشاب فقلت: أتصل به وكان وقت الصباح فاتصلت به قلت: السلام عليكم.. فلان هل عرفتني؟، قال



وكيف لا أعرف صوتا سمعت به كلمات الهداية وأبصرت النور وطريق الحق. واتفقنا على اللقاء بعد العصر، وقدر الله أن أتأخر على صاحبي ساعة لضيوف جاءوني، ثم ترددت هل أذهب أم لا. ثم قررت الوفاء بالوعد ولو متأخرا، وعندما طرقت الباب فتح لي والده، فسلمت عليه وسألته عن ابنه فأخذ يحدق بي باستغراب وصمت، وبعد أن كررت السؤال أجاب بحزن: هذا تراب قبره قد دفناه قبل قليل. فقلت يا والد، قد كلمني الصباح! فقال: صلى الظهر، ثم جلس في المسجد يقرأ القرآن، وعاد إلى البيت ونام القيلولة، فلما أردنا إيقاظه للغداء فإذا بروحه قد فاضت إلى بارئها. وأضاف الأب: لقد كان ابني من الذين يجاهرون بالمعصية لكنه قبل أسبوعين فقط تغيرت حاله وأصبح هو الذي يوقظنا لصلاة الفجر بعد أن كان يرفض القيام للصلاة ويجاهر بالمعصية في دارنا، فمن الله عليه بالهداية. ثم سألني الأب: منذ متى عرفت ولدي يا بني؟ قلت: منذ أسبوعين. فقال: أنت الذي نصحته؟ قلت: نعم. فقال: دعني أقبل رأسا أنقذ ابني من النار.

وهذه فتاة تحب التبرج في لباسها ومظهرها، لديها صديقة دائما تقنعها بالالتزام والصلاح وارتداء اللباس الإسلامي، لكن الفتاة كانت ترفض بشدة وتصر على التبرج، فخطر على بال صديقتها فكرة: أنا أريد أن أذهب لأشترى ملابس فهل تأتين معي؟ فوافقت الفتاة.. وبعد أن سارتا قالت لها الثانية: أنا عندي درس في المسجد الآن، ويجب أن أحضره، فهل تأتين معي؟ فوافقت الفتاة ودخلتا المسجد، وكانت المحاضرة عن الحجاب الشرعي، فتأثرت الفتاة الأولى بكلام الواعظة، وبكت وصممت ألا تخرج من المسجد إلا وقد ارتدت الحجاب الشرعي، وفعلا أحضرته لها الأخوات، فارتدته وخرجت من المسجد، فصدمتها سيارة وماتت وهي تائبة إلى الله تعالى وتائب قلبها. ومن وصايا لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة».

التوبة رحمة

فعلى المسلم ألا يفقد الأمل في التوبة فباب التوبة مفتوح ليل نهار؛ ما لم تطلع الشمس من مغربها، وقد يوفق الله الإنسان لتوبة وعمل صالح في نهاية حياته يختم له به ختاما جميلا، مصداقا لقول رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق في الحديث الصحيح: «... فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (رواه البخاري). فحتى من استمر على عمل صالح وغير في نهاية حياته، فعليه أن يراجع نيته من أفعاله قبل أن يختم له - والعياذ بالله - بخاتمة سوء غير متوقعة.

وقال أبوحمزة الجندي:

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
واعصي الهوى فالهوى مازال فتانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه
ننسى بمصرعه آثار موتانا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا
ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
أبعد خمسين قد قضَّيْتها لعبا
قد آن تقصري قد آن قد آنا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن
كانت تخر له الأذقان إذعانا
خلوا مدائن كان العز مفرشها
واستفرشوا حفرا غبرا وقيعانا

وسأل سيدنا موسى عليه السلام الله عزوجل قال (كما جاء في الأثر): «يا رب إذا سألك الطائع ماذا تقول؟ قال: أقول: لبيك، قال: فالصائم؟ قال أقول: لبيك، قال: فالزاهد؟ قال: أقول: لبيك، قال: فالتائب؟ قال: أقول: لبيك لبيك لبيك، يا موسى! كل هؤلاء يتكل على عمله، وهذا يتكل على رحمتي، وأنا لا أخيب عبدا اتكل علي». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة:٢٢٢).

تتويج لعمر من العمل

السنوسي محمد السنوسي
باحث إسلامي

ليس أفضل عند المؤمن من ختام حسن تطوى به صفحة حياته الدنيا، ذلك أن الناس يبعثون يوم القيامة على ما ماتوا عليه كما جاء في الحديث الشريف؛ فعن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» (١).

فإذا مات المسلم على طاعة، كصيام أو تلبية (٢)، أو قراءة للقرآن؛ بعث على ذلك يوم القيامة. وما أسعد المسلم حينئذ بهذه الهيئة التي يبعث عليها، فهي تطمئنه وتثبته وتيسر له ما هو مقدم عليه من أهوال يوم القيامة.

الناس جميعا يكونون في فزع واضطراب؛ بينما هو ثابت الجنان، مطمئن القلب، يستظل بعمله، ويستعد للقاء الله، ولنيل الجزاء الأوفى على ما أسلف في الدنيا من عمل الصالحات.

كما أن حسن الخاتمة من دلائل حب الله للعبد، فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا استعمله». فقيل: وكيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت، ثم يقبضه عليه» (٣).

إن لحظة الخاتمة تجسد محصلة حياة الإنسان، وتمثل نتيجة سعيه في الدنيا، فهي تتويج لعمر من العمل، خيرا كان أم شرا.

نعم، قد يختم لإنسان بغير ما كان يعمل في الدنيا، كما جاء في الحديث: «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها؛ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (٤).

لكن هذا الحديث يفسره ويجليه ما جاء عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة» (٥).

فنحن قد نظن أن خاتمة إنسان ما ليست متوافقة مع حياته؛ وهذا غير صحيح، بل هذا ما يبدو لنا كما جاء في رواية سهل الساعدي.

وقد شرح ابن رجب هذه الإضافة المهمة التي جاءت برواية سهل فقال: «قوله: (فيما يبدو للناس) إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت؛ وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة» (٦).

فالله سبحانه أرحم بعباده من أن يضيع عملهم، وأعدل من أن يظلم أحدا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠)، وقال أيضا: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦).

كما أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية؛ ومهما اجتهد المرء أن يخفي على الناس حقيقة قصده وسعيه، فإن الأمور منكشفة عند الله انكشافا تاما بحيث لا يغيب عنه ما تطويه الصدور، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ ولذا فإنه سبحانه يعطي كل إنسان الخاتمة التي يستحقها، لا طبقا لما يبدو للناس، بل جزاء وفاقا لما يعلمه الله عنه، من خير أو شر (٧).

دعاء

والمطلوب إذن من المسلم أن يدعو الله بإلحاح أن يهبه الصدق في القول والعمل، والإحسان في السر والعلن، وأن يثبته على طريق الاستقامة؛ حتى يكون جديرا بختام حسن، يكون له نعم البشرى فيما هو مقبل عليه بعد الموت.

فالنبي ﷺ، وهو من هو، كان يكثر في دعائه أن يثبت الله قلبه على الإسلام؛ فقد أخبرت أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، قالت: قلت: يا رسول الله، أوإن القلوب لتتقلب؟! قال: «نعم، ما من خلق الله من بني آدم من بشر، إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإن شاء الله عزوجل أقامه، وإن شاء الله

أزاغه».
وحين سألت أم سلمة النبي ﷺ أن يعلمها دعوة تدعو بها لنفسها، قال لها: «قولي اللهم رب محمد النبي، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا» (٨).

عمل

إضافة إلى هذا الدعاء الحار المتصل، فعلى المسلم أن يظل منشغلا بطاعة الله ومرضاته؛ لأنه لا يدري متى يحين أجله، ولا متى تقوم قيامته؛ فإذا كانت حياة المسلم موصولة بالطاعة فإنه متى جاءه الموت وجده عابدا ذاكرا شاكرا، وبذلك يتحقق له حسن الخاتمة.
لقد أمر الله نبيه ﷺ بالعبادة حتى يجيئه الموت، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩). وأمر عباده بتقواه حق التقوى وبأن يموتوا على الإسلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٢).
فإذا كنا مأمورين بالعبادة حتى الموت، وبأن نموت على الإسلام، بينما نحن لا نعرف ساعة مجيء الموت؛ فإن الامتثال لهذا الأمر من الله يقتضي أن تكون حياتنا كلها مشمولة بالعبادة، حتى إذا حان الأجل كنا في طاعة الله، وكنا مسلمين كما أمرنا.
قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾: «اليقين: الموت. فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ وكان قوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ كافيا في الأمر بالعبادة؟ قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ مطلقا، ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا؛ وإذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ كان معناه: لا تفارق هذا حتى تموت. فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ولم يقل: أبدا؟ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله: أبدا؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد. والمراد: استمرار العبادة مدة حياته، كما قال العبد الصالح: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم:٣١)» (٩).

توبة

بجانب الدعاء الحار والانشغال الدائم بالعبادة، تأتي ثالثة العبادات المهيئة للخاتمة الحسنة، وهي المبادرة بالتوبة متى طاف بالإنسان طائف من الشيطان أو من هوى النفس.
فليس من المتصور أن يكون الإنسان على الصراط المستقيم طوال الوقت، لا يحيد عنه يمنة ولا يسرة؛ لأن ابن آدم خطاء وكثير النسيان والغفلة.. والنجاة إذن للمرء من أن يدركه الموت وهو على حال المعصية، هي أن يبادر بالتوبة النصوح - حتى لو تكرر الذنب - بلا يأس ولا استسلام لنزغات الشيطان المحبطة والميئسة؛ قال تعالى عن صفات المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:١٣٥)، وقال أيضا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١).
إن الله عزوجل خلق الإنسان، وهو سبحانه أعلم بطبيعة من خلق، وبتنازع نفخة الروح فيه مع قبضة الطين.. ومن رحمته سبحانه بهذا المخلوق الضعيف أن فتح أمامه باب التوبة ما لم يغرغر، وأن جعل له محطات إيمانية يتزود منها، ويغسل عن نفسه فيها ما أصابه من درن؛ وهذه المحطات متصلة لا تنقطع، على مدى اليوم والليلة، وعلى شهور العام.
فعلى المسلم أن يغتنم فرصة أن روحه مازالت بين جنبيه، وأن يحسن الإنابة والتوكل على الله، وأن يكثر من فعل الخيرات ويسارع فيها ولا يحتقر من المعروف شيئا، وأن تكون التوبة النصوح المتجددة ملاذه من لحظة ضعف يستزله الشيطان فيها؛ حتى إذا حانت منيته كان على حال ترضيه قبل لقاء الله عزوجل.

الهوامش

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.
(٢) جاء في صحيح مسلم - كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا خر من بعيره وهو واقف مع النبي ﷺ بعرفة فوقص أي: انكسر عنقه فمات، فقال: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تخمروا رأسه؛ فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيا.
(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الرابع، ص:١٥١، تعليق وتحقيق: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
(٧) في معلقته أشار زهير بن أبي سلمى إلى أن ما يجاهد الإنسان لإخفائه عن الناس من صفاته وعيوبه، لابد أن يظهر لهم يوما.. فما بالنا بعلم الله سبحانه؟! قال زهير:
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
(٨) أخرجه أحمد في مسنده، مسند النساء، حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ.
(٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، نقلا عن «المكتبة الإسلامية»، من موقع «إسلام ويب».



تطبيقات التواصل الاجتماعي.. مسالك الخير

القاهرة - مصعب ناصر
دار الإعلام العربية

قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا استعمله» قالوا: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته».. ومن ذلك، فإن استمرارية العمل الصالح إحدى علامات حسن الخاتمة، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»، ومن ذلك ما يأخذ صورة عصرية في صورة تطبيقات دعوية تعمم النفع والفائدة والرقي على المسلم في عباداته ومعاملاته، وفي دنياه وأخراه.

يأتي في صدارة هذه التطبيقات تطبيق «وذكّر»، الذي يتنوع بين

الشريف: تنشر أعمال خير وبر لصاحب الحساب حتى بعد وفاته

الأذكار والأحاديث المكتوبة أو المقاطع الدينية القصيرة (كآيات القرآن وقصار السور) في صورة حالة منشور على الفيس بوك أو كتغريدة على تويتر يراها كل أصدقائك وكل متابعيك، بعد الاشتراك في التطبيق من هنا http://wazkr.com/؛ بذلك تبدأ بجني عدد لا حصر له من الحسنات حتى أثناء انشغالك أو نومك.

أيضا، من التطبيقات التي تدخل على صاحبها أجرا ميسورا تطبيق «صلاتي»، فمع هذا التطبيق تشارك يوميا مواعيد الصلاة لمدينتك على صفحتك الشخصية، واتجاه القبلة، ونصائح للخشوع في الصلاة، وقيام الليل. ويمكنك الاشتراك في هذا التطبيق من هنا http://bit.ly/1QhVIAH.

تطبيق آخر هو «فرسان السنة»، فبالإضافة إلى نشر آيات وأحاديث وسنن عن الرسول ﷺ، فإن التطبيق ينشر أيضا العديد من الموضوعات الدينية التي تهم المسلمين في شتى بقاع الأرض. ويمكن الاشتراك فيه من هنا

.http://bit.ly/1GlE6NJ

«منبه الأذكار»، باشتراكك في هذا التطبيق؛ تنشر على الحائط الخاص بك في الفيس بوك، وعلى مدار اليوم، أذكار وتسابيح وسنن عن رسولنا الكريم ﷺ، كذلك أسماء الله الحسنى. ويمكنك الاشتراك من هنا .http://bit.ly/1AXkDCP

وهناك أيضا تطبيق «آيات»، وينشر آية مختارة من كتاب الله عزوجل على حسابك يوميا، ويمكن الاشتراك فيه من هنا .http://bit.ly/1FLjVEr

ومن التطبيقات المهمة أيضا «أريج الجنة»، الذي يقول مبتكروه: «عطر موقعك بذكر الله بأبسط الطرق من خلال عرض أذكار متجددة». الاشتراك من هنا .http://bit.ly/1F46ZbU

أيضا، تطبيق «رياض العلم» الذي ينشر فوائد إسلامية وأحاديث وأدعية نبوية. والاشتراك فيه من هنا .http://bit.ly/1nhRHcH

ولمحبي سماع آيات الذكر الحكيم، يمكن لمشتركي تطبيق «Quran mp3 App»، الاستماع إلى القرآن الكريم بأصوات عدة قراء مباشرة من على صفحتك، الاشتراك من هنا .http://on.fb.me/1BUl4sx

أيضا، تطبيق «ذكر ولو بآية»، ينشر آيات وأدعية ومواعظ وإرشادات من القرآن الكريم https://www.facebook.com/ayatquranCOM.

الدال على الخير

وحول استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والتطبيقات التي أتاحتها في نشر الخير وتجنب سوء الخاتمة، وأيسر الأعمال التي يمكن للمسلم من خلالها أن يصل إلى حسن الخاتمة حتى ولو كان يعمل على مدار ساعات اليوم، يقول الباحث والداعية أبوحسام الدين الطرفاوي: قال رسول الله ﷺ «من دل على خير فله مثل أجر فاعله». (أخرجه أبوداود وغيره بسند صحيح)؛ ومن ذلك فإن استخدام مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها على أنواع: نوع يستخدمها لإشباع رغباته وشهواته، فيضيع من أجل ذلك ساعات وساعات لا تعود عليه إلا بالذنوب والآثام وتضييع الأموال والأوقات، وسيسأل عنها يوم القيامة.

ونوع يستخدمها لأغراض دنيئة، كأكل أموال الناس بالباطل، مثل شركات النصب والاحتيال على الناس.

ونوع يستخدمها ضد البلاد في التعاون مع المفسدين والأعداء لخرابها. ونوع يستخدمها لنشر الأفكار الباطلة والديانات المنحرفة سعيا وراء مال أو شهرة.

ونوع يستخدمها لنشر الأخبار الكاذبة والأباطيل لإحداث بلبلة في المجتمع والتشهير بالناس أو تحقيق شهرة من وراء ذلك. ونوع يستخدمها تسلية وتضييعا للأوقات، وهذا دليل على فراغ العقل والقلب؛ وكل هذه الأنواع فيها الضرر المحقق.

وفي المقابل هناك من يستخدمها للترويج لسلعة صالحة أو نشاط يعود عليه وعلى غيره بالنفع، فهذا جائز.

ونوع – وهو الأهم – يستخدمها في نشر العلم الصحيح والعمل الصالح وحث الناس عليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا عمل صالح. ونوع يستخدمها في التواصل بين الأقارب وصلة الأرحام؛ وكل هذه الأنواع صاحبها مأجور عليها.

> **الطرفاوي: وسيلة لنشر العلم الصحيح والعمل الصالح وحث الناس عليه بالحكمة**

إلا إن هناك آفات في الأنواع الأخرى وسقطات تقع، وهذا لابد منه، لكن خيرها يغلب شرها؛ فعلى من يريد الاستفادة من ذلك أن ينوي العلم الصالح وحث الناس عليه ولو بنشر آية أو حديث، أو نصيحة ينصح بها نفسه وغيره.

وحول كيفية تجنب سوء الخاتمة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي أيضا، أكد الطرفاوي أنه إذا أراد المسلم تجنب سوء الخاتمة من خلال جلوسه على الإنترنت فعليه أن ينوي نية صحيحة بأن ينشر الخير بين الناس، وأن يحسن خلقه، فلا يسب ولا يشتم، ولا يخدع؛ فإن فعل ذلك ووقعت منه هفوات فتكفرها حسناته إن شاء الله تعالى.

وأضاف: ولأن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، فلم يكلفهم إلا بما يطيقون دون ضرر يلحق بهم أو بغيرهم؛ فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ (الطلاق:٧)، فينبغي تجنب المشاركة في وضع ونقل أخبار كاذبة، وأوهام فاسدة، أو نشر أحاديث مكذوبة أو ضعيفة، وكذا مختلف البدع المضللة التي تتنافى مع الدين والأخلاق، والقيم والأعراف، ومن ثم تنشر الفساد في المجتمعات.

وحول تطويع شبكة الإنترنت في أفعال تجلب حسن الخاتمة، أضاف الطرفاوي: ينبغي الاستفادة منها بما يفيد، وتفعيلها التفعيل الإيجابي من خلال الاستفادة منها في صلة الأرحام، ونشر الخير،



وتقريب العلم الصحيح للناس، والتحذير من البدع والمنكرات، والتحذير من الكذب والشائعات. ومن ذلك، التطبيقات التي انتشرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي للحث على الخير، وإرشاد الناس وتعليمهم، ونشر الأحاديث الصحيحة والحكم والمواعظ الهادفة، مثل تطبيق «وذكّر»، الذي ينشر أذكارا وأحاديث مكتوبة أو مقاطع دينية قصيرة، كآيات القرآن وقصار السور، في صورة «حالة/ منشور» على الفيس بوك أو كتغريدة على تويتر يراها كل أصدقائك وكل متابعيك بعد أن تشترك في التطبيق. وكذلك تطبيق «سنن»، الذي يعنى بنشر سنن النبي ﷺ وسيرته وفضائل الأعمال والقيم والأخلاق الإسلامية.

الإنترنت وحسن الخاتمة

وحول مدى فاعلية هذه التطبيقات في ضوء أعداد المتعاطين مع التقنية في العالم العربي، يقول الباحث والمحلل التقني محمد الشريف، إنها بالفعل تحقق تجاوبا كبيرا، خاصة بين فئة الشباب، مؤكدا أنه طبقا لتقرير قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب، بمركز دبي التجاري العالمي التي عقدت خلال الفترة من ١٧ إلى ١٨ مارس ٢٠١٥م، فإن «فيس بوك» هو وسيلة التواصل الاجتماعي الأكثر استخداما في جميع أنحاء العالم العربي، بنسبة ٨٧٪، وتعد دول الإمارات العربية المتحدة وقطر وعمان والأردن وفلسطين والعراق واليمن وليبيا ومصر والمغرب هي الأكثر نشاطا. وحلّ «واتس آب» في المرتبة الثانية الأكثر استخداما بنسبة ٨٤٪. بينما مثل الحصول على المعلومات، ومشاهدة مقاطع الفيديو، ومشاركة الصور؛ كثاني أهم سبب لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي بنسبة ١٢٪. وتعد المحادثات النشاط الأكثر شيوعا بين المستخدمين العرب بنسبة ٥٠٪، تليها قراءة المدونات التي ينشرها آخرون بنسبة ١٨٪.

وأضاف أن تطوير المحتوى العربي هو عملية مستمرة وقوية. ومن المهم التأكيد على وجود العديد من المؤثرين عالميا في المجالات المختلفة، وأيضا العديد من المدونات القيمة جدا للجمهور، ومن ذلك التطبيقات التي انتشرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي والتي تتيح نشر مواد لصاحب الحساب حتى بعد وفاته. وذلك إذا اشترك المستخدم في تطبيقات لأعمال خير وبر، بحيث تنشر تلقائيا بعد وفاته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له» (أخرجه الترمذي وابن خزيمة وسنده صحيح)، فإذا كان ما ينشره على وسائل التواصل الاجتماعي طاعة لله تعالى وعلما ينتفع به الناس في دينهم ودنياهم، واستمر هذا العلم بعد مماته يتناقله الناس ويستفيدون منه؛ فهو من باب علم ينتفع به.

كما أشار إلى أهمية دور الإعلام الاجتماعي وكذا الإعلام التقليدي في نشر قصص الصالحين وكذا الطالحين للاعتبار من خواتيمهم، وللتحفيز على الطاعة وترك المعصية، مؤكدا أن وسائل الإعلام عليها دور كبير في توعية الناس بدينهم، وذلك من خلال الاهتمام بشؤون العبادات الصحيحة وتقريب فهمها للناس، وتعليمهم مكارم الأخلاق وحسن الآداب، وما عليهم من حقوق تجاه الآخرين، وتوعيتهم بحق الله تعالى عليهم.

سلاح ذو حدين

يقول الباحث الإسلامي أيمن الشعبان: مما لاشك فيه أن هذا العالم المتداخل، وتلك التقنية المنتشرة، كسائر الوسائل المستخدمة في حياتنا اليومية، سلاح ذو حدين؛ إما أن ينفعك في دينك ودنياك، إن أحسنت استثماره واستخدامه واتقيت الله فيه وجعلته نصب عينيك، وراقبته في كل حرف أو نظرة أو تغريدة أو مشاركة، وإلا فسيكون وبالا عليك وستندم على كل لحظة قضيتها فيه.

فكل ما فيه مسطّر مؤرشف مسجل موثق، لدى الشركة المؤسسة على هاردات وسيرفرات ضخمة غير محددة السعة، فقد يتم التلاعب بها أو الاختراق أو التغيير، لكن هنالك أرشيفا وسجلات محفوظة عند رب الأرض والسموات، لا تتغير ولا تتبدل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ (الانفطار:١٠-١٢)،



«من الأفعال قليلا كان أو كثيرا ويضبطونه نقيرا أو قطميرا» (تفسير الألوسي).

ويضيف: الله الله في استثمارها بأحسن الأوجه وأنفعها، وإياك ومغرياتها، فإما أن تكون نعمة تحصد ثمارها في جنات النعيم، أو تصبح نقمة تجني ويلاتها في أسفل سافلين - عياذا بالله - فهي بين النعمة والنقمة، والنتيجة إما ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥ ﴾ (القمر:٥٤-٥٥)، وإما ﴿فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ ﴾ (القمر:٤٧-٤٨)، نسأل الله العافية.

طريق للجنة وطريق لجهنم

جاء في مقال لم يذكر اسم كاتبه بموقع طريق الإسلام أنّ «الفيسبوك» من أكثر المواقع التي يتردد عليها المسلمون، وأنّ التواجد عليه وعلى غيره من مواقع التواصل الاجتماعي قد يكون طريقا مثمرا للجنة، بالمثابرة على نشر الخير والتعاون على تبصير المسلمين بأسس الدين، والدلالة على المواقع الإسلامية، والمشاركة في الأنشطة الدعوية، وسبل الدعوة يسيرة بفضل الله تعالى، فبضغطة زر يمكن نشر المعلومة الشرعية لعدد كبير من المسلمين، فعلينا أخي المسلم أن نستثمر كل الوسائل المتاحة لجني ثمار الحسنات، والتمتع بفضل الله تعالى لنشر الطاعات.

وفي المقابل، قد يكون طريقا إلى جهنم، بنشر الموبقات، والمشاركة في نشر المحرمات، والموسيقى، وأخبار الفاسقين، والدلالة على الشهوات، ويتحمل من يقوم بهذه الآثام كل ما يترتب على ذلك من آثام الغير؛ يجدها في ميزانه، فاحذر أخي الكريم من المشاركة أو التعليق أو الإعجاب بأي محتوى لا يرضي الله تعالى، ونعوذ بالله تعالى من هذا الشر الكبير.

توصيات يرجى معرفتها وإدراكها جيدا حتى نتجنب السيئات الجارية على الفيسبوك وغيره:

● لا تشترك في صفحات النكت، فهي مليئة بالكذب، ولا تخلو من الرذائل، لقول النبي ﷺ: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له ثم ويل له».

● لا تشترك في صفحات الفاسقين من الممثلين والموسيقيين وغير ذلك، فهم يدعون لما حرمه الله تعالى، وفيه موالاة للفاسقين وحب لهم، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث هن حق: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى اللهَ عبدٌ فيوليه غيره، ولا يحب رجل قوما إلا حشر معهم».

● لا تقم بنشر صور النساء تحت أي ذريعة تسولها النفس ويدعمها الشيطان، ولا تقم بنشر الفواحش والأشياء التافهة لكي يضحك الناس، فسيضحك الناس اليوم ولكن من قام بالنشر سيحمل أوزارهم يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» (رواه مسلم).

● لا تقم بنشر شيء لا تعلمه ولا تدرك حقيقته ولا تجار الناس في نشر الافتراءات، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦ ﴾ (الإسراء:٣٦).

● لا تقم بنشر معلومة من الشريعة الإسلامية إلا بعد أن تتأكد أن مصدرها ثقة ولا تقم بنشر حديث شريف إلا من المصادر المعتمدة حتى لا تشترك في ترويج الكذب على رسول الله ﷺ وذلك لقوله ﷺ: «إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

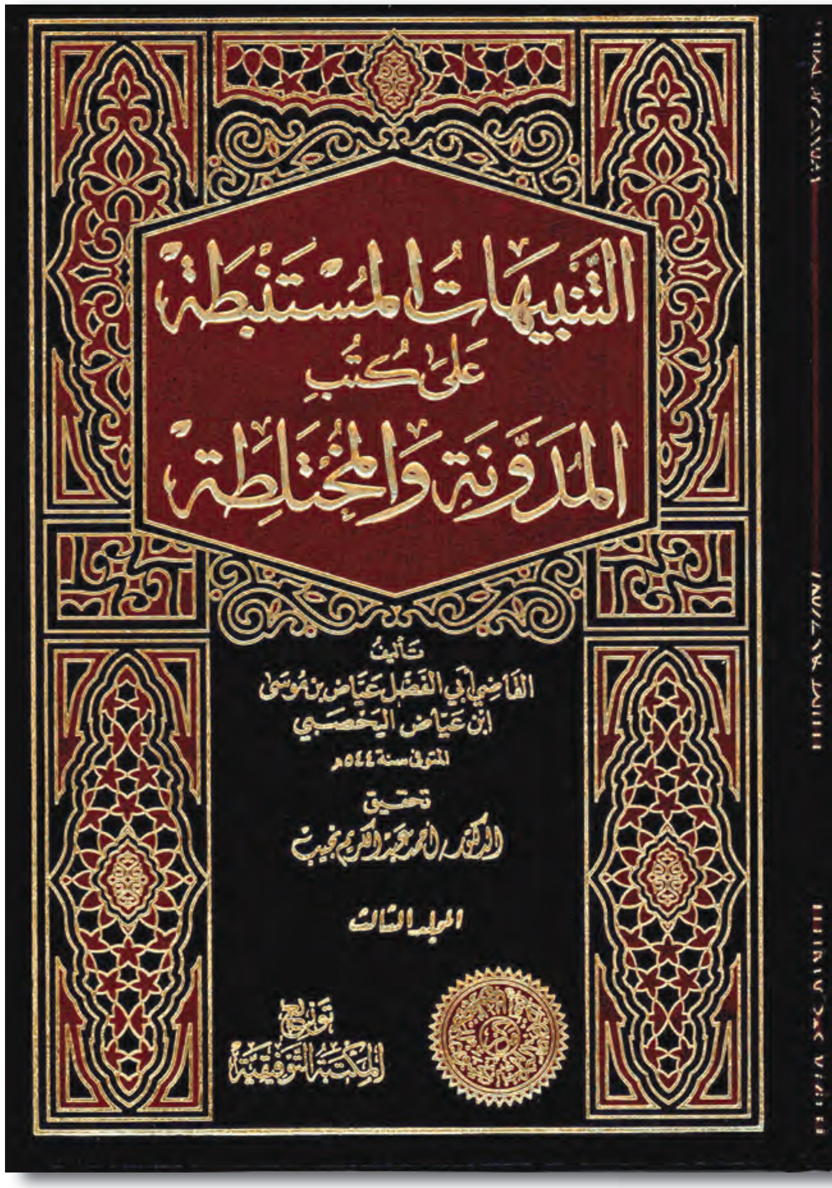
● لا تقم بنشر رابط لصفحة منهجها مخالف لشريعة الإسلام ولا تنشر منها حكمة أو معلومة فهذه خديعة وفخ للترويج لآلاف المخالفات الشرعية بعد ذلك، فلا تكن دعامة للشر وأنت لا تعلم عاقبة الأمر.

● لا تقم بالتعليق بإيجابية على المنكرات حتى لا تحمل وزر تدعيمها ونشرها.

● لا تقم بنشر أي شيء قبل أن تسأل نفسك: هل هذا في ميزان الحسنات أم في ميزان السيئات؟.

البيوع الفاسدة

التحرير



الفساد في البيع يكون لعلل كثيرة، ولمسائله وصوره ألقاب وأسماء وصور معروفة، ويجمعها ستة أنواع؛ خمسة مما يفسده في نفسه، والسادس مما يفسد لما يلحقه من غيره.

فالأول: ما كان قمارا وخطرا ويشتمل على: بيع الغرر (١)، والأجنة والملاقيح والمضامين (٢)، وحبل حبلة (٣)، وبيع الحصاة (٤)، والمنابذة (٥)، والملامسة (٦)، والمزابنة (٧)، والمخابرة (٨)، وما فيه خصومة، والطير في الهواء، والحوت في الماء، وبيع ما ليس عندك، وبيع الرطب باليابس، وبيعتين في بيعة، وبيع العربان (٩)، والثنيا (١٠)، والبيع على قيمة السلعة، أو بما اشترى فلان أو بما رضيه من الثمن، وبثمن مجهول، وبيع الثمار قبل أن تزهي، والزرع قبل يبسه، وإلى أجل غير محدود...، وأشباه هذا كله؛ مما يكون الغرر بالجهالة بالمبيع، إما في نفسه، أو صفته، أو مقداره أو عوضه أو وقت قبضه أو مآل حاله.

والثاني: الربا بالتفاضل فيما لا يجوز فيه التفاضل، وذلك في الطعام المقتات المدخر للعيش غالبا، أو الفضة أو الذهب؛ نقدا كان ذلك أو إلى أجل، والتفاضل مع الأجل في الجنس الواحد في جميع الأشياء.

والثالث: الربا في النسيئة والتأخير، كالعين كله، وأجناس المطعومات كلها، كانت من جنس واحد، أو مختلفة.

والرابع: ما لا يصح بيعه قبل استيفائه، وذلك يختص بالطعام.

فهذه أربعة أصول في البيوع الفاسدة لعقودها وأنفسها، ويلحق بها نوع **خامس** لا بد منه، وهو ما منع بيعه؛ إما لحرمته، أو لخبثه وعدم منفعته.

فلحرمته؛ كالحر، وأم الولد (١١) والمدبر (١٢) والمعتق إلى أجل.
ولخبثه وعدم منفعته شرعا؛ كالنجاسات والميتات والخمر والدم والأصنام والصور والخنزير والكلب والقرد وآلات الباطل والسم.
أو عادة؛ كالديدان والجعلان.
وما خرج عن هذه الوجوه فهو جائز، إلا أن تقترن به قرائن فساد خارجة عن نفسه وعقده، وهو النوع **السادس**.

علل تحريم البيع وفساده

هي أربع علل:

علة بوقت لا يجوز فيه البيع؛ كوقت الأذان والصلاة يوم الجمعة.
وعلة في المتعاقدين؛ كالسفه والصغر والجنون والرق والسكر، إلا أن العقد هنا موقوف لإجازة نظر من له النظر، وليس بفاسد شرعا.
وعلة شرط قارن البيع؛ كالسلف وغيره من الشروط المؤثرة في العقد أو النكاح والقراض ونحوهما.
وعلة تعلق حق لغير البائع بالمبيع، كبيع التفرقة، وبيع مال الغير بغير أمره، وبيع الحاضر للبادي، والبيع على بيع أخيه، وتلقي السلع، وكالمرهون.
فإذا سلم العقد من وقوعه وقت النهي، أو من شرط لا يجوز معه، أو قرينة تفسده، وسلم المتعاقدان من علة الحجر والتعدي على بيع ما لا يملكانه، وكانا جائزي الأمر، وسلم المعقود به وعليه من الجهالة بحقيقته وأوصافه أو مآله أو وقت قبضه، ومن كونه مما لا يصلح بيعه لحرمته، أو لخبثه، أو كونه مما لا ينتفع به عادة أو شرعا - على ما فسرناه - أو من تعذر تسلم المشتري له حسا؛ كالشارد، والطائر في الهواء، أو شرعا؛ كالمرهون، أو شرطا؛ كالمعين يشترط قبضه إلى أجل بعيد يتغير فيه؛ صح البيع وسلم من العلل.

الشروط المقترنة بالبيع

هي على أربعة أقسام:

الأول: قسم منها يقتضيه العقد، ولو لم يذكر: فلا يضر ذكره، كشرطه أن يقبض المشتري سلعته مكانه، أو يدفع الثمن مكانه في الحاضر المقبوض، أو على أنه لا يبقى حق للبائع في المبيع.
الثاني: اشتراط ما هو من مصالح البيع أو أبيح فيه؛ كشرطه الأجل فيما يجوز فيه، أو الرهن، أو الحميل، أو الإشهاد، أو إلزام ضمان الغائب، فهذا أيضا جائز لازم إذا اشترط.
الثالث: خارج عن هذين القسمين؛ كاشتراط تحجير بعض منافع الملك والتصرف فيه، مثل ألا يبيع ولا يهب ولا يسافر بالعبد، أو اتخاذ الأمة أم ولد أو تعتق إلى أجل، وبيع الثنيا، أو شرط عقد آخر يخالف مقصد البيع وجمعه معه كالقراض مع البيع، أو النكاح، أو السلف، أو الشركة، أو الصرف فهذه كلها شروط تبطل البيع، واختلف إذا أسقط مشترط الشرط شرطه، هل يصح البيع أم يفسخ على كل حال؟
الرابع: من الشروط ما يخف فيكره ابتداء، فإذا وقع سقط وصح البيع؛ كقوله: إن لم تأتني بالثمن إلى أجل كذا فلا بيع بيني وبينك؛ على مشهور المذهب، وشرط البراءة من الجائحة.

الهوامش

١ - بيع الغرر: هو الخطر الذي لا يدرى أيكون أم لا؟ ويدخل في مسائل كثيرة غير منحصرة؛ كبيع الآبق والمعدوم والمجهول، وما لا يقدر على تسليمه، وما لم يتم ملك البائع عليه، وبيع السمك في الماء الكثير، واللبن في الضرع، وبيع الحمل في البطن، ونظائر ذلك، وكل هذا بيع باطل؛ لأنه غرر من غير حاجة.
٢ - المضمون ما في صلب الذكر، والملقوح ما في رحم الأنثى، وكلاهما ليسا بمال حتى يباعا؛ وبيع الجنين مثلهما، ولذلك نهي عنه.
٣ - حبل الحبلة: أن تنتج الناقة، ثم تحمل التي نتجت.
٤ - بيع الحصاة: هو أن يجعل المتبايعان الرمي بالحصاة بيعا؛ فيقول: إذا رميت هذا الثوب بالحصاة؛ فهو مبيع منك بكذا. وقيل: هو أن يقول: بعتك من هذه الأثواب ما وقعت عليه الحصاة التي أرميها، أو بعتك من هذه الأرض من هنا إلى ما انتهت إليه هذه الحصاة. والغرر فيه واضح، ولذلك نهي عنه.
٥ - بيع المنابذة: هو أن ينبذ الرجل إلى الرجل بثوبه، وينبذ الآخر بثوبه إليه، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر، ولا تراض.
٦ - بيع الملامسة: أن يمس الثوب بيده ولا ينشره، وإذا مسه فقد وجب البيع، وهو منهي عنه؛ لما روى أبوسعيد الخدري رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين: المنابذة والملامسة».
٧ - المزابنة: بيع الرطب بالتمر؛ مشتقة من الزبن وهو المخاصمة والمدافعة.
٨ - المخابرة: وتسمى أيضا المزارعة، وهي: معاملة على الأرض ببعض ما يخرج من ثمرتها.
٩ - بيع العربون: هو أن يشتري السلعة من غيره، ويدفع إليه دراهم على أنه إن أخذ السلعة فهي من الثمن، وإلا فهي للمدفوع إليه مجانا.
١٠ - بيع الثنيا: هو أن يبيع الإنسان شيئا ويستثني منه جزءا شائعا فيه.
١١ - أم الولد: هي الأمة التي تلد من سيدها، وقد كانت مارية القبطية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ، وكانت هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وهي سرية إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.
١٢ - العبد المدبر: هو الذي يقول له مالكه: أنت حر بعد وفاتي.

● اختصار وتهذيب من كتاب: «التنبيهات المستنبطة على كتب المدونة والمختلطة» للقاضي عياض.

المنهج النبوي في اختيار الأسماء

د. محمد سعد
باحث أكاديمي

الأسماء في كل أمة عنوان حضارتها، وميسم أصلها الذي تفتخر به، ودليل واضح على سموها، ورفعتها، ومرآة صافية لكثير من قيمها وعاداتها.
ذلك بأن الأسماء في حقيقتها هي مجموعة من القيم الإنسانية والمعاني الجمالية، والآثار التاريخية.
فقد كان لأهل الجاهلية قبل الإسلام أسماؤهم التي تصور حياتهم وترسم بيئتهم بكل مكوناتها فسموا: صخرا، وحجرا، وجحرا، وأسدا، وفهدا، وقيسا، وكلبا وسرحان، وظبية، ومها، وزينب، وهندا، ودعدا، وظالما، ومغيرة.... وواضح إلى أي مدى تعكس هذه الأسماء مكونات البيئة التي عاشوا فيها والقيم الإنسانية التي تربوا عليها.
وعن هذه الطريقة يقول الجاحظ في كتابه الحيوان: «كان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنسانا يقول حجرا أو رأى حجرا سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم ما لقي، وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب، وإن كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك» (١).

وهكذا تصبح البيئة بكل مكوناتها وقيمها من أهم الروافد، وأصفى المنابع التي يستقي منها الناس أسماءهم.

وإذا طبقت هذا على كثير من البيئات تجد مصداق ذلك واضحا جليا، فالبيئة البدوية تختلف أسماؤها عن الحضرية، وتختلف الريفية عن المدنية، وأرباب الصناعة والتجارة يختلفون عن غيرهم من أرباب الفكر والثقافة وهكذا.

ولقد كان للإسلام منهج فريد في التعامل مع الأسماء وطريقة التسمية، وقد بدا ذلك واضحا في سيرة النبي الكريم ﷺ حين وجه الأنظار نحو وجوب اختيار الأحسن من الأسماء حين قال «إنكم تدعون - أي ينادى عليكم - يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم» (٢).

ولم يقف المنهج النبوي في اختيار الأسماء عند هذا الحد بل تعداه إلى عدة قواعد ومعايير مهمة أوجب على الأب باعتباره المسؤول الأول عن التسمية أن يلتزم بها وهذه المعايير هي:

١- اختيار الأحسن من الأسماء

فعلى المربي أن يحرص دائما على اختيار أحسن الأسماء وأجملها، لا كما يفعل بعض الناس حين يحرص على وجود عنصر الغرابة أو الطرافة في الاسم؛ غير ملتفت إلى معناه ودلالته.

ومن الطريف أن شخصا يدعى ميمونا رزق ببنت فلما أراد أن يسميها قال سوف أبحث عن أصغر الأسماء، فوقع اختياره على اسم «مي» فسألته: بم سميت ابنتك يا أستاذ ميمون؟ فقال: مي. فقلت له: هل تعرف معنى «مي»؟ قال: لا. قلت؟ إنه القرد الصغير.

فأنشأ يضحك قائلا: عائلة قرود..!!

وما أجمل أن نتذكر هذا الحديث ونحن نفكر في اختيار أسماء أولادنا:

«إن أحب أسمائكم إلى الله عزوجل عبدالله وعبدالرحمن» (٣).

ولقد كان الصحابي يأتي إلى النبي فيسأله ﷺ عن اسمه فإن وجد في اسمه دلالة قبيحة أو معنى يدعو إلى خلق ذميم، غيره إلى اسم آخر، وربما غير اسمه الحسن إلى ما هو أحسن منه.

كما غير: حازم، وشهاب، وزيد الخيل، وكلها أسماء حسنة في ذاتها لكنه غيرها إلى ما هو أحسن منها. فغير النبي ﷺ اسم حازم إلى «مطعم» بمعنى مرزوق، وغير اسم «شهاب» إلى «هشام»، وغير اسم «زيد الخيل» إلى «زيد الخير» (٤).

٢- البعد عن الأسماء ذات الإيحاءات الصادمة والمتشائمة

إن تعاليم الإسلام تحمل في ثناياها وفي مغازيها حفاظا على المشاعر الإنسانية الراقية، لأن الإسلام ما جاء إلا لهداية البشر وتنوير حيواتهم بكل ما هو سام ورفيع، ومن ثم لم يسغ الإسلام صدم مشاعر الناس

بالأسماء التي تثير التشاؤم أو الخلاف أو الحرب أو الكآبة.

وإذا كانت بعض الأسماء تدعو إلى التشاؤم فإن الأصل أن المسلم لا يتطير، ولا يتشاءم، إذ المتشائم لا يبرح أن يكون خائفا رعديدا، فضلا عن إيمان المسلم بأن كل شيء يجري بقدر الله يجعله ساكن النفس مطمئنا، لكن لما كانت النفس البشرية، التي خلقها الله تجنح دوما إلى كل جميل، وتنفر من كل قبيح، كان الرسول ﷺ يحب الفأل الصالح، والكلمة الحسنة، ويتفاءل بالاسم الحسن، فقد روي عنه أنه لما هاجر هو وأبوبكر مروا بإبل بالجحفة، فقال النبي ﷺ: «لمن هذه الإبل؟»، قال: رجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سلمت إن شاء الله» فقال: «ما اسمك؟» فقال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدت إن شاء الله» (٥).

٣- البعد عن الأسماء التي تخالف المعتقد الصحيح لكل مسلم

فمن المقرر أنه لا يجوز التسمية بما يخالف المعتقد الصحيح لكل مسلم، كالتسمية بأسماء الله مثلا كمن يسمي ابنه: رحمن، أو أكبر، أو قيوم، وكذلك التسمية بما لا ينبغي أن يوصف به إلا الله سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أشنع الأسماء عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله عزوجل» (٦).

أو التسمية بالتعبيد لغير الله، كعبد النبي وعبد الرسول وعبد علي وعبدالحسين وعبد الحسن، وعبد الملاك، وعبد المسيح ونحو ذلك.

٤- البعد عن الأسماء التي تدعو إلى خلق ذمه الإسلام

ونعني بالمعيار الخلقي ألا يكون الاسم دالا على خلق ذمه الإسلام، أو تعارض مع الغاية العظمى لديننا، وهي إتمام مكارم الأخلاق، كأن يعبر الاسم عن مسلك نفسي منحرف كالكبر، أو تزكية النفس، أو الذل والاحتقار ونحو ذلك.

ولهذا السبب غير النبي ﷺ اسم «برة» لكونه دالا على تزكية النفس، بينما المسلم متواضع وقور، فقد قال رسول الله ﷺ حين سمع هذا الاسم: «لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم» (٧).

كذلك غير النبي ﷺ: حزن، وعتلة، لكونهما يحملان معنى الشدة والغلظة، بينما المسلم لين سهل، وكذا غير اسم «بغيض»، إلى محبوب واسم «خرقة» غيره إلى عبدالله، لكونهما يحملان معنى الذل والاحتقار، والمسلم عزيز ومكرم.

٥- البعد عن الأسماء ذات الدلالات القبيحة

ونعني بقبح الدلالة كون الاسم دالا على معنى قبيح، تأنف الطباع السليمة منه، وينفر منه ذو الفطرة السوية، وقبح الدلالة هنا قد يكون في الوصف الذي يحمله الاسم كالتسمية بغافل، أو عاص، أو غاو أو ظالم ونحو ذلك.

فلاشك أن هذه الأسماء تحمل من قبيح الصفات ما يجعل صاحب الطبع السليم يأنف من التسمية بها، ومن ثم فقد غير النبي الكريم ﷺ اسم «جعيل» تصغير «جُعَل» وهو حشرة صغيرة كالخنفساء إلى اسم «عمرو» (٨)، وغير اسم «شيطان» إلى عبدالله (٩)، وغير اسم العاصي إلى مطيع (١٠)، وعاصية إلى جميلة (١١)، وإلى مطيعة (١٢)، كل هذا وفقا لهذا المعيار، وهو قبح الدلالة.

ومن الأسماء ذات الإيحاءات الصادمة بل المقززة: إغراء، فتنة، وناهد (١٣)، وفاتن، ورماس (١٤) ومي (١٥) وسوزان (١٦).

الهوامش

١- الحيوان للجاحظ ٣٢٤/١، والاشتقاق لابن دريد، ص٧.

٢- صحيح ابن حبان، ج١٣/ص١٣٥، ح٥٨١٨، ومسند أحمد، ج٥/ص١٩٤، ح٢١٧٣٩.

٣- أخرجه مسلم (١٦٨٢/٣، رقم ٢١٣٢). والحاكم (٣٠٤/٤، رقم ٧٧١٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٣٠٦/٩، رقم ١٩٠٨٩).

٤- المعجم الكبير للطبراني، وراجع معرفة الصحابة لأبي نعيم.

٥- خرج الحديث.

٦- خرج الحديث.

٧- وقد غير الرسول ﷺ هذا الاسم إلى زينب، وهي زينب بنت جحش أم المؤمنين، وكذلك زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد وإلى جويرية، وهي جويرية بنت الحارث المصطلقية أم المؤمنين وإلى ميمونة، أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية (انظر كتاب أحسنوا أسماءكم، ص٤١٣).

٨- غير منسوب، استشهد يوم الخندق، سنن البيهقي ج ٩ ص ٣٠٨.

٩- وهو عبدالله بن قرط، سنن البيهقي، ج ٩ ص٣٠٨.

١٠- وهو مطيع بن الأسود العدوي والد عبدالله بن مطيع، قال البيهقي عن عبدالله ابن الحارث بن جزء الزبيدي قال: توفي صاحب لي غريبا فكنا على قبره أنا وعبدالله ابن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكان اسمي العاص واسم ابن عمر العاص واسم ابن عمرو العاص، فقال لنا رسول الله ﷺ: «انزلوا واقبروه وأنتم عبيدالله، قال فنزلنا فقبرنا أخانا وصعدنا من القبر وقد أبدلت أسماؤنا». سنن البيهقي، ج ٩ ص٣٠٧.

١١- وهي جميلة بت عمر بن الخطاب، وجميلة بنت أبي الأفلج.

١٢- وهي مطيعة بنت النعمان.

١٣- الناهد: الفتاة التي نهد صدرها أي ارتفع.

١٤- «رماس» جمع رمس والرمس هو القبر، وقيل الرماس ظلمة القبور، راجع لسان العرب مادة «رمس».

١٥- مي: القرد الصغير.

١٦- وهو اسم غير عربي، ومعناه الإبرة، أو المحرقة.

تطبيق الحدود في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية

أحمد عبد الجواد زايدة
ماجستير شريعة - الأزهر الشريف

كانت مسألة تطبيق الشريعة من ألح المسائل التي أثير حولها النقاش والجدل خلال العقود الماضية أو قل خلال القرن الماضي، إذ إنها بدأت مع بدء رحيل الاستعمار وظهور حركات الإحياء الديني وترقيها في مستويات التحدي والمدافعة؛ فبعد أن رحل الاستعمار من بعض البلدان متزامنا مع سقوط الخلافة الإسلامية نشأ أمام المسلمين تحدي الوحدة السياسية المفقودة، والمتزامن مع تحدي الاستعمار الذي لايزال باقيا في بعض البلدان، والذي رحل عسكريا وبقي إداريا ومؤسسيا وثقافيا وقانونيا «تشريعيا» في بلدان أخرى.

من هنا كانت إشكالية تطبيق الشريعة - وهي ليست بإشكالية - لكن لما أثير حولها من لغط وأفهام يصح بعضها ويصيب في مساحات دون أخرى كانت إشكالات؛ كما أنها لم يتوقف الحوار فيها بالفكر والمنطق والحجة والمعرفة، بل امتد إلى ما هو أخطر من ذلك على مدى عقود سابقة، مما هو غني عن الذكر والبيان؛ لكن الجدير بالذكر أن مستوى إحياء الأمة وإعادة وحدتها وتحريرها من الاستعمار العسكري والفكري والسياسي والمؤسساتي والثقافي تحول وتم اختصاره في الوحدة السياسية، ثم تم اختصار هذا في تطبيق الشريعة «دون تحديد لمدلولها ولا لمن تقع عليه الأدوار، ولا لمن يناط بهذه المهام دوره بين الدولة والمجتمع، ودون أي تطرق للحديث عن الكيفية ولا عن فقه التنزيل» ثم تم اختصار تطبيق الشريعة في الحدود؛ ثم تم الحديث عن الحدود بلا فقه ولا معرفة لتصورها الفقهي وتطبيقاتها على مسار التاريخ الإسلامي، فضلا عن معرفة الواقع الحالي وإشكالاته وكيف تقوم بتنزيل الأحكام المجردة «التي لها شروط وأسباب وموانع» على واقع محقق في عالم اليوم له من الإشكالات ما هو كفيل بأن يتم تسكينه في محاور الحكم التكليفي جميعا، مما يسد الباب في كثير من الحالات أمام تطبيق الحكم التكليفي.

ومن ثم كان هذا البحث مستهدفا هذه القضية عن طريق توضيح مفهوم تطبيق الشريعة وماهيته؛ ثم الانتقال لمفهوم الحدود والمقصود به؛ ثم الانتقال للحديث عن شروط وأسباب الحدود التي شرعت؛ ثم أخيرا الحديث عن مقاصد هذه الحدود التشريعية.

الشريعة والفقه

نشأ لدى البعض ارتباط وطيد بين مفهومي الشريعة والفقه، وكأنهما متطابقان؛ وبعيدا عن الارتباط العرفي لدلالات المفهومين؛ فإنه من المستقر عليه علميا أن الشريعة شيء والفقه شيء آخر؛ وأن الشريعة أعم وأكثر تجريدا وعمومية وثباتا؛ وأن الفقه أكثر تحديدا وتنزيلا وتغيرا - بمعنى أن الحكم الشرعي في التجريد شيء وفي التحقيق وعند التنزيل شيء؛ فالخلاف حول تنزيل الحكم عند التحقيق على واقعة معينة بأحوال وأوصاف وأسباب وشروط لا يعني بحال إنكار الحكم في تجريده وأصله - وأن الشريعة تحتوي جميع الأحكام وجميع التشريعات في مختلف النواحي، في حين أن الفقه متعلق بتنزيل هذه الأحكام المستنبطة من مصادرها ومظانها على عالم الناس وحياتهم؛ فتطبيق الشريعة يأتي عبر الفقه، والفقه هو الصورة العملية لفهم الشريعة وتنزيلها على واقع المجتمعات.

الشريعة والأحكام والقانون

تضمنت الشريعة الإسلامية بمصدريها أحكاما تشريعية مباشرة، وهي ما عُرف فقهها بـ«آيات وأحاديث الأحكام»، وهي لدى من قام بإحصائها من

العلماء لا تتجاوز الاثنين ونصف بالمائة من نصوص الوحي قرآنا وسنة؛ غير أن التركيز الإعلامي والسياسي بل والعلمي أحيانا على «تطبيق الشريعة» فيما تعرضت إليه القوانين الوضعية فقط من جملة الأحكام التشريعية جعل أذهان الناس وتصوراتهم بل وإيمانهم واهتمامهم ينصب على النصوص والأحكام المتعلقة بهذه القوانين فقط، مما يعرف تحت بند «تقنين الشريعة»؛ وهو أمر له سلبيات لا حصر لها – وفقا للشائع من المفهوم والتصورات الموجودة عنه–؛ وبلاشك فإن هذه النصوص والأحكام من الوحي المقدس الذي لا يستطيع أحد أن يتجاوزه، ولاشك كذلك فإن لهذه النصوص أثرا كبيرا ومهما في بنيان الأمة المسلمة وكيانها، بل والعالم كله.

الفرق بين الشريعة والقانون

غير أن المقصود هنا مناقشة الحالة السلبية التي نشأت إثر تضخيم مساحة وأوزان هذه النصوص المجتزأة من الشريعة على كل نصوص الوحي قرآنا وسنة؛ تلك النصوص التي تضمنت الأخلاق والأوامر والنواهي التي تتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع والآداب، وبحقوق الفقراء، وبالصدقات وبالإحسان وبذكر الفضل وحفظه؛ وبذكر قوانين الأمم وسنن نهضتها وسنن التدافع والخير والشر وسنن الاستبداد والطغيان وسنن النصر والنهوض... فكل هذا من الشريعة، بل وكل هذا هو الشريعة، وحين يتم حصر الشريعة وحظر سماحاتها في مساحة «القوانين» فقط فإننا نكون بصدد أزمة من أزمات العقل المسلم المعاصرة، وهي أزمة في رؤية الشريعة وقراءتها بمنظور الدولة الحديثة ومنظور ما أفرزته من أدوات متغولة في حياة الناس اليوم، ومن هذه الأدوات «أداة القانون» (المجردة والعامة) والتي لا تعترف بسلطة الضمير ولا تحاسب عليه! وهو ما يعد مخالفا تماما لفلسفة الشريعة والأخلاق.

وبناء على ما سبق؛ فإن تطبيق الشريعة هو تطبيق ما نصت عليه من تشريعات وأوامر ونواه وآداب وأخلاق في حق الفرد والمجتمع والأمة، والعلاقة بين المحكوم والحاكم وبين الأب والأبناء والزوج وزوجته والفقير والغني، وذكر مراتب الإحسان بمستوياتها الثلاثة؛ الإحسان بين الإنسان العبد وربه، وبين الإنسان العبد وذاته، وبين الإنسان والناس من حوله، بما تتضمنه هذه المستويات من علاقات وصلات نصت الشريعة بحقها وبصددها على أحكام وتشريعات عديدة تقوم بصياغة هذه العلاقات والصلات بما يحقق عمران الإنسان والمجتمع والأمة...، وصولا لعمران العالم؛ إذ لا يستقيم ولا يصلح عمران العالم إلا بعمران آحاده ومكونه الأساسي وهو الإنسان، كما قال الإمام الطاهر ابن عاشور.

ومن هنا فإن تطبيق الشريعة ليس فقط هو مساحة القوانين؛ ولا هو الأدوار التي يجب على «الدولة» أن تقوم بها؛ ولا على الحاكم فقط؛ بل هو دوائر ومستويات متداخلة ومتشابكة للغاية يقع العبء الأكبر فيها على الأمة والإنسان والمجتمع، ويكون تداخل الدولة فيها بكيفية معينة، إذ إن الأصل فينا أننا أمة قبل أن نكون دولة؛ وفي هذا الإطار تعد الحدود إحدى هذه المساحات في مساحة الأحكام التشريعية كجزء له حجمه ووزنه ضمن الأحكام والتشريعات.

مفهوم الحدود والمقصود به

ليس المقصود بلفظة «الحد» في الاصطلاح القرآني حصره في «الحدود الجزائية» كما هو شائع كذلك؛ بل إن معنى الحدود يتسع لما هو أكثر من ذلك باتساع آداب الأسرة والمجتمع والفرد؛ فنجد في العديد من الآيات القرآنية ورود لفظة الحد ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة:٢٢٩) بعد إيراد وذكر وتبيين أحكام الأسرة وغض البصر وغيرها من الآداب والأخلاق؛ فالحدود هنا يقصد بها المساحات التي لا يجوز للإنسان المسلم أن يتجاوزها أو يتعداها، أو هي المساحات التي يجب عليه أن يقف عندها ويمتنع عن التجاوز؛ وهذا يرد على جل التشريعات التي شرعها الله سبحانه وتعالى؛ ومن هنا أتي إطلاق لفظة «الحدود» على الحدود الجزائية من باب إطلاق الكل على الجزء حين يكون رئيسا في باب المنع – فأطلق على ما هذا حاله من المنع اسم الحدود حرصا وتنبيها على حرمته وشناعته – حين أطلقت حرصا وتنبيها على اجتناب المحرمات الكبرى. فالزنا وشرب الخمر والقذف والسرقة والحرابة حدود لعظم شأنها في المنع وترتيب عقوبة حسية كبيرة على مقترفها؛ فالحد في الشرع ورد بمعنى التشريعات التي شرعها الله للعباد من الحلال والحرام؛ وسميت حدودا لأنها منعت وفصلت وميزت بين ما يجوز وما لا يجوز وما يحل وما يحرم؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة:٢٢٩)؛ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء:١٤)؛ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة:١٨٧).

قال في لسان العرب مادة «حد»: الحد: الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر؛ وجمعه حدود. وفصل ما بين كل شيئين حد بينهما ومنتهى كل شيء حده ومنه أحد حدود الأرضين وحدود الحرم؛ والحد في اللغة الفصل والمنع؛ ومن يتأمل كلام صاحب اللسان والمصباح يفهم أن من معاني الحد لغة: المنع والحجز والفصل بين الشيئين؛ والنهاية التي ينتهي إليها الشيء. وسميت بعض العقوبات حدودا لأن من شأنها أن تمنع من ارتكاب الجرائم.

تضييق مفهوم الشريعة والحدود وخطورته على الأمة والدولة

واللافت للنظر أن التغير والحصر الذي حدث في مفهوم تطبيق الشريعة انتقل بذاته إلى مفهوم الحدود؛ فمن حصر مفهوم الشريعة باتساعه ومساحاته وعمقه إلى جعله محصورا في مفهوم «الفقه» إلى جعل الفقه محصورا في مفهوم «القوانين» ومسألة «تقنين الشريعة» إلى جعل الشريعة و«تقنين الشريعة» محصورا في «الحدود» إلى جعل الحدود مختزلة فقط في «الحدود الجزائية» إلى جعل الحدود الجزائية مصطلحا ضبابيا بلا قيود ولا شروط ولا ضوابط! فيضيع الفقه وتضيع معالم الشريعة؛ مع التنبيه والتأكيد أن هذا الكلام لا يعني بأي حال وبأي صورة المساس بقطعية أحكام الحدود أو التهوين منها. فلا يوجد مسلم يسعه القول بهذا.

إذن؛ فإن الحد المقصود به هنا في إشكالية البحث التي يناقشها؛ هو ما يطلق على العقوبات المفروضة على بعض المعاصي والكبائر كحد الزنا وحد السرقة وحد شرب الخمر وغيرها حقا لله تعالى؛ ويمكن أن يعرف بأنه العقوبة المقدرة حقا لله تعالى؛ ومعنى كونها حقا لله تعالى: أنه لا يجوز إسقاطها بأي حال من الأحوال مطلقا، فهي غير قابلة للسقوط.

ولأن الشارع كما قال الإمام الغزالي رحمه الله في المستصفى قد قصد إلى حفظ دين الناس؛ وأعراضهم؛ وأموالهم؛ وأنفسهم؛ وعقولهم؛ فقد شرع لكل مقصد من هذه المقاصد ما يحفظه بالمبتدأ والمنتهى؛ فحرم ما يهدم هذه المقاصد تماما ووضع لها أشد العقوبات، وحرم كذلك كل ما يوصل إليها بالتشريعات والأحكام؛

ووضع «الحدود» الكبرى للمنع دون الوصول إلى الجرائم وأمهات الكبائر التي تهدم بنيان هذه المقاصد وتدمرها.

- فقد شرع الإسلام لحفظ الدين «حد الردة»؛ وشرع لحفظ النفس «القصاص: وهو عقوبة لا حد»؛ وشرع لحفظ العرض «حد الزنا»؛ وشرع لحفظ المال «حد السرقة»؛ ولحفظ العقل «حد شرب الخمر»؛ وهو ما عبر عنها الإمام أبوالحسن العامري بالزواجر، فقال: مزجرة حفظ الدين ومزجرة حفظ العرض.

شروط وأسباب الحدود

ينقسم الحكم الشرعي إلى حكم تكليفي، وإلى حكم وضعي. فالحكم التكليفي هو الحكم في التجريد؛ فهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الطلب أو التخيير. وهو الأحكام الخمسة: الإيجاب؛ والتحريم؛ والكراهية؛ والندب؛ والإباحة؛ الأحكام التكليفية الخمسة؛ وهناك الحكم الوضعي: وهو جعل الشيء سببا لشيء آخر أو شرطا أو مانعا أو صحيحا أو فاسدا وهي السبب؛ والشرط؛ والمانع (الصحة، البطلان).

ارتباط الحكم التكليفي بالحكم الوضعي وأثر الوضعي فيه من ناحية التطبيق والتنفيذ، ومن ثم فإن المتحدث عن تطبيق الحدود يحتاج أن يفرق بين مستويين في الدعوة للتطبيق وفي تنزيل التطبيق؛ فلا يجوز لمسلم صح إسلامه واستقام أن يقول بعدم قطعية الحدود أو أن يقول إنها «تأريخية» أو ليست من الإسلام؛ فأحكام الحدود كحد السرقة وحد الزنا وحد الخمر... إلخ؛ كلها أحكام مستقرة قطعية على مستوى الحكم التكليفي التجريدي؛ هذا على مستوى الإيمان والاعتقاد والتجريد؛ أمّا حين ننتقل إلى مستوى التنزيل والتطبيق فإننا نكون بصدد شروط من نوع آخر وإلى تعامل وتعاط بكيفية أخرى «وتوافر هذا وتحققه يعد أيضا من تطبيق الشريعة»؛ وهو توافر الأسباب؛ وانتفاء الموانع؛ وتحقق الشروط.

- والسبب هو: لغة: كل ما توصلت به إلى شيء. واصطلاحا: ما يلزم من وجوده وجود الحكم ومن عدمه عدمه لذاته.

والشرط هو: لغة: العلامة؛ ومنه قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (محمد:١٨).

اصطلاحا: ما يلزم من عدمه عدم الحكم.

-المانع: لغة: اسم فاعل منعه.

اصطلاحا: ما يلزم من وجوده عدم الحكم؛ ولا يلزم من عدمه وجود الحكم.

ومن ثم؛ فإنه ومع كون أحكام الحدود الجزائية من قطعيات الشريعة وأحكامها الثابتة؛ غير أن الداعي إلى تطبيق هذه الحدود عليه أن يدرك جزءها الآخر وهو الحكم الوضعي فينظر أولا إلى وجود الأسباب؛ وإلى توافر الشروط؛ وإلى انتفاء الموانع؛ كي يكون تطبيق الشريعة جاريا على صحة واستقامة وفقا لمعايير الشريعة وأهدافها ومقاصدها، فنضمن بهذا التطبيق السليم؛ ومن ثم نحتاج أن نتساءل عمّا قالته النصوص بهذا الصدد؟ وعن أي واقع اجتماعي وفي أي واقع اجتماعي يمكننا أن نطبق هذه الحدود؟ وبأي شروط؟ وبأي كيفية؟ كي يكون تطبيق الحدود متجها نحو تطبيق مقاصد الشريعة التي تغياها الشارع خلف تشريع هذه الحدود وألا يعود على أصله بالبطلان لسوءٍ في الفهم أو انحراف في التطبيق.

ومن ثم فإن هناك خلافا كبيرا سنجده في تصور هذه الحدود كما هي في حكمها المجرد قبل مرحلة التحقيق والتنزيل؛ أقول في مرحلة التجريد؛ أي كما هي في مرحلة النصوص وفي أقوال الفقهاء والأئمة والمذاهب، وبين تصور الكثير من غير الفقهاء للحدود في مرحلة التجريد، وهذا إن عكس فإنما

يعكس ضبابية شديدة في فهم وتصور الكثير في مساحة حرجة من الشريعة لا تسعها هذه الضبابية أو الارتباك.

مقاصد الحدود

قامت فلسفة الإسلام في تنفيذ التكليف على ثلاثة مستويات وركائز؛ أمَا المستوى الأول؛ فهو الوازع الفطري: وهو ما استودعه الله سبحانه وتعالى في نفوس عباده من فطر سليمة مستقيمة وسوية. الوازع الثاني: الوازع الدياني؛ وهو أوامر الله سبحانه وتعالى والخوف من عقابه وعذابه والرغبة في عفوه ورضاه ومحبته؛ أمّا الوازع الثالث: فهو الوازع السلطاني بما للسلطان من قدرة على إنزال العقاب ومحاسبة المخالفين المتجاوزين لحدود الله التي جعلها لحقوق العباد والجماعة حفاظا على مصالحهم ورعاية لحقوقهم وتحقيقا لمقاصد الشارع الحكيم التي تغياها من إنزال الشريعة والأحكام.

وقد سعت الشريعة لحفظ ضروريات الحياة التي لا تستقيم حياة الناس إلا بها وإذا حدث فيها فوت أو تهارج اختلت ولم تستقم؛ وفي هذا يقول الإمام الغزالي رحمه الله «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: هو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوّت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة».

ومن ثم حرمت الشريعة السرقة وشرعت لها هذا الحد حماية لأموال الناس؛ ولكنها وضعت من الشروط والموانع ما هو كفيل بأن يطبق الحد على من بلغ به حد الكفاية وأغناه أن يكون الدافع خلف هذه السرقة دافع الحاجة أو الضرورة، فجعل هذا محل اعتبار وتقدير؛ فلا يطبق إلا على من بلغت به نفسه من الخطورة الإجرامية مبلغا يمثل خطورة على المجتمع بما يحقق الردع العام للمجتمع، فلا يفكر أحد في أن يُقدم على هذا الأمر حماية للمجتمع ولأمواله؛ ويمثل ردعا للسارق فلا يفكر في أن يكرر السرقة مرة أخرى؛ إذ إن السارق الذي قام بهذه السرقة وهو ليس محتاجا ولا مضطرا ولا مكرها وهو بالغ عاقل مختار لديه الكفاية إنما يسرق لا لأجل الحاجة وإنما لأجل خطورته الإجرامية ونفسه غير السوية.

والأمر ذاته في حد الزنا؛ فحماية للأعراض وحماية للأنساب في المجتمع من الاختلاط؛ وحماية للفطرة الإنسانية السوية من الرذائل والفواحش ورعاية للقيم الكبرى التي تبنى وتتأسس عليها المجتمعات شرع حد الزنا وشرعت من الأحكام الجزئية التفصيلية ما يمنع من الوقوع فيه والمنع من «قربانه»؛ وفي شروط تطبيق حد الزنا تجد أنه من الصعوبة بمكان إثباته أو تحقيقه إلا لو ارتكبه الشخص في مكان عام فاضح ضاربا بقيم المجتمع وبالحياء العام عرض الحائط مما يخل بالنظام العام وبحقوق الجماعة.

فالتشريعات ليست منفصلة في الإسلام بل هي منظومة متكاملة ترتبط مع بعضها البعض بنسق واحد متسق للغاية؛ يؤدي بعضها إلى بعض مما فيه خير ويمنع بعضها عن بعض مما فيه شر؛ فتسد كل ما يؤدي للشر والحرام، وتفتح كل ما يؤدي للخير والحلال؛ فتجد الإسلام قد شرع الزواج رعاية لفطرة الإنسان وما وضع الله فيهم من فطرة لتحقيق الاستخلاف ورعاية للنسل، وفي الوقت ذاته شرع حد الزنا زجرا عن أي مساس بالأعراض والأنساب؛ وشرع العمل والبيع والشراء والزكاة والصدقة وندب إليها وفرضها أحيانا سدا لحاجات الفقراء والمحتاجين؛ وجعل اكتساب المال حلالا وجعله من زينة الحياة الدنيا؛ وفي الوقت ذاته حرم أي مساس به أو أكله بالباطل أو أخذه دون رضا، وشرع لهذا حد السرقة؛ وجعل للعقل مكانة وقيمة بها يسمو الإنسان على سائر الكائنات، وجعله مناط التكليف وجعل من حقه السؤال والجدال الحسن؛ وحرم كل ما يؤدي إلى المساس به فحرم الخمر وأي مسكر.

المقصد من العقوبات

تحدث الإمام الطاهر ابن عاشور عن مقاصد العقوبات التي تشمل القصاص والحدود والزواجر في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية؛ فذكر أن الشريعة ليست فيما شرعته في هذه الأمور بنكاية؛ وأن جميع تصرفاتها تحوم حول إصلاح حال الأمة في سائر أحوالها؛ وليس يُحفظُ نظامها إلا بسد ثلمات الهرج والفتن والاعتداء.

ثم ذكر أن مقصد الشريعة من تشريع الحدود والقصاص والتعزير ثلاثة أمور: تأديب الجاني؛ وإرضاء المجني عليه؛ وزجر المقتدي بالجناة.

فالأول: وهو التأديب: راجع إلى المقصد الأسمى؛ وهو إصلاح أفراد الأمة الذي منهم يتقوم مجموع الأمة؛ وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة:٣٨)؛ فبإقامة العقوبة على الجاني يزول من نفسه الخبث الذي بعثه على الجناية.

وأمّا الثاني؛ إرضاء المجني عليه: فلأن في طبيعة النفوس الحنق على من يعتدي عليها عمدا والغضب ممن يعتدي خطأ فتندفع إلى الانتقام؛ وهو انتقام لا يكون عادلا أبدا؛ فكان من مقاصد الشريعة أن تتولى هي هذه الترضية وتجعل حدا لإبطال الثارات القديمة؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع «وإن دماء الجاهلية موضوعة».

وأمّا الأمر الثالث؛ وهو زجر المقتدي بالجناة: فهو مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النور:٢)؛ قال ابن العربي في أحكام القرآن: «إن الحد يردع المحدود ومن شهده وحضره يتعظ به ويزدجر لأجله ويشيع حديثه فيعتبر به من بعده.

الوحي.. ومنهجية المعرفة التاريخية

د. عطية الويشي
باحث دراسات إسلامية

غير خاف مدى الأهمية التاريخية للمحتوى القصصي القرآني، والتي لا تتوقف عند كونها مجرد حكي مسرود يتناول خبر ما غبر من الأمم... بل جاءت لتؤسس لدى الأجيال البشرية وعيا تاريخيا متميزا بطبيعة التجارب المتراكمة التي حفلت بها حياة القبائل والشعوب والأمم والحضارات... وعيا مبنيا على العلم واليقين لا على الظن والتخمين...﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الأعراف:٧).

وفي إشارة تأكيدية على العلاقة المنهجية بين الوحي وبين المعرفة التاريخية يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود:١٢٠)، وذلك لتكون تلك الأنباء ماثلة بين يدينا في مدونات الخبرة ودفاتر العبرة وفي مظان التيسير إلى مقاصد الاستخلاف... ولذلك، نلاحظ أن القصة القرآنية كانت بمثابة نواة لحركة التفلسف التاريخي في ضوء تلك المعطيات اليقينية، وكانت الباعث الحثيث على تفسير التاريخ مستصحبا الوحي بمقاصده العليا في صناعة النموذج الإنساني عبر أدوار التاريخ وأطواره المختلفة...

ولعل من وجوه الحكمة في إيراد القرآن الكريم قصص الأولين وأحوالهم وبعضا من أحكام شرائعهم: تحقيق الاكتفاء المرجعي بالوحي عما سواه فيما يتعلق بثوابت التصور التاريخي للنبوات الخالية، و«على وجه يصدق الكتب السابقة ويهيمن عليها من دون أخذ عنها وتعلم منها (١)، إذ إن توحيد مصدر التلقي وفق معطيات موثوقة من شأنه أن يفيدنا في حقل المعرفة التاريخية على النحو التالي:

أولا: رسم صورة منطقية لمبررات توالي الرسالات وتعاقب النبوات فيمن خلوا من قبل.

ثانيا: التحرر من تدخلات الإيحاءات المغشوشة التي تتضمنها بعض الإسرائيليات...

ثالثا: تركيز التفكير حول خصوصية التفسير الإسلامي لمسيرة النبوات الرسالية... تلك التي انتهت منطقيا إلى نبوة خاتمة مستتمة كافة شروط التهيؤ لممارسة الفعل الحضاري الإنساني اللائق بخير أمة أخرجت للناس.

رابعا: توحيد مصدر التلقي حول النبوات من شأنه تثبيت أركان الأسوة ومواطن العبرة وضبط



الدلالة التاريخية للنص وفق مراد الله تعالى دون افتئات متحرف للتشويه أو التشويش.

ولعل أهم ما يميز الوعي التاريخي الإسلامي أنه متكون في أصله من معطيات الوحي الذي يؤرخ لعهود النبوات والرسالات وما تتضمنه من عبر ودروس... ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المؤمنون:٤٤). كما أنه وعي متهيئ لرصد حركة التاريخ وتسجيلها في ظلال رعاية ربانية حارسة للحقائق حافظة إياها من التموه والتشوه.

الفتاوى القرآنية والمعرفة التاريخية على الرغم مما بذل في مجال التفسير الإسلامي للتاريخ من جهود علمية لم تدع إلا مجالا محدودا للاستدراك عليها والإضافة إليها؛ فإن جهدنا عبر سياق هذه الدراسة، سيتركز على استخراج الدلالات التاريخية من بعض الموضوعات المتعلقة بالفتاوى القرآنية في النوازل، مع التعريج على كل من أسباب النزول وأسباب الورود باعتبارهما مناسبات لنوازل أولاها الوحي بعضا من سياقه فأجاب عنها سردا قصصيا أو توجيها سلوكيا... بما يصلح أن يكون رصدا لتصرفات يمكن الاستفادة منها في مجال الكتابة التاريخية؛ ولعلنا نلاحظ آيات معينة نزلت تصويبا لمسار السلوك الإسلامي المعتاد بعادات ليست من الدين...

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ (البقرة:١٨٩).

ويمكننا التقاط أحد خيوط العلاقة بين النوازل والمعرفة التاريخية من خلال أسباب النزول القرآني وأسباب الورود النبوي... والتي تبدو من خلالها الأحداث التاريخية مترتبة عبر متواليات استفهامية حول نوازل معرفية وموقفية تستجد في ساحة التدافع البشري... فيجيب عليها الوحي مبصرا بالتاريخ ومشيرا إلى أهميته في تشييد الوعي الحضاري الإسلامي.

ذلك، ولم يفرض الوحي وصايته على العقل بصورة مقيدة لملكات البحث والتحري العلمي للحقائق التاريخية، بل المتأمل في طبيعة الفتاوى القرآنية، يجد أنها تحيل المستفسر أحيانا إلى أكثر من مرجع تأكيدا لمعرفته وتحقيقا ليقينه... قال تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس:٩٤)، أي فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشك، إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار. فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعا لمعذرتهم (٢).

وبالتأمل في مادة «أفتى» عبر آيات القرآن الكريم، سنجد دلالتها التاريخية تتراوح ما بين التوظيف المباشر للتاريخ في صناعة الإنسان، وبين الإحالة إلى الوحي قصدا إلى استيفاء شروط الكمال المعرفي الإنساني.

وقد يأتي تعبير الفتوى القرآنية أو النبوية في النازلة بصيغة من شأنها: تعزيز المعرفة التاريخية بمراجع إضافية لمن لا يؤمنون بالكتاب كمرجعية تعزيزية لعل العبرة تبلغ بسلوكهم مبلغ الاستقامة في الحياة... قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأعراف:١٦٣).

ولأن غالبية أسباب نزول القرآن كانت مرتبطة بالنوازل والأسئلة فيها، فقد وردت استفتاءات قرآنية في نوازل تتعلق بموضوعات تاريخية متنوعة... وقد فصل الوحي فيها الجواب ذكرا بقدر حاجة السائلين عنها؛ فمثلا نجد أن قصة ذي القرنين تعكس في أسباب نزولها: جانبا مهما من حالة الفضول المعرفي بالتاريخ في مجتمع عصر النبوة، فنزل الوحي مشبعا ذلك الفضول بشيء من الاسترسال الحكيم... فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ (الكهف:٨٣).

أهمية علم أسباب النزول في الكتابة التاريخية

وعلى الرغم مما تردد بين المشتغلين بعلوم القرآن قديما من مقولات تحاول التقليل من أهمية علم أسباب النزول؛ بدعوى أنه «لا دخل لأكثر ما يروى من أسباب النزول في فهم معاني الآيات الكريمة، اللهم إلا شيء قليل من القصص والروايات» (٣)... وقالوا: إنه «لا طائل تحته لجريانه

مجرى التاريخ» (٤). وقد استدرك العلماء على أصحاب ذلك الرأي، إذ يقول السيوطي «زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك، بل له فوائد (٥)... منها: تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب» (٦). لكننا نرى الواحدي يشدد على أهمية إبانة ما أنزل في الكتاب من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها (٧)؛ وبغض النظر عن مدى صوابية تبني مثل تلك المقولات في حقل علوم القرآن... لكننا نلاحظ أن الأهمية التاريخية في أسباب النزول كانت محل توافق الفريقين كليهما، وهو ما يعزز البعد التاريخي في أسباب النزول ويربطها بمنهجيات المعرفة التاريخية؛ وهذه في الحقيقة مسلمة منطقية وبديهية قديمة... لكن الالتفات إليها قليل!.

وعلى صعيد المعرفة التاريخية، فإن العلم بأسباب النزول: يعزز من قدرة الإنسان على التعايش الوجداني الحي مع عصر النبوة، «فيعيش مع النص القرآني: كيف نزل ليعالج أمرا وقع أو سؤالا عرض، وتعرف الظرف الزماني والمكاني لذلك الحدث، وتكاد تكون شاهدا له، مشاركا فيه، وتفهم الموضوع بأبعاده ومراميه تماما» (٨). وقد قال أبوالحسن البصري: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت، وما أراد بها» (٩) وهذه المقولات لا تخلو من الفائدة التاريخية.

النوازل القرآنية وعلاقتها بأسباب النزول

ولقد ارتبط فهم الوحي قرآنا وسنة بالتاريخ من حيث دلالة الأخير على الواقع في زمن النزول وأسبابه؛ ويمكننا التقاط خيط العلاقة بين النوازل والمعرفة التاريخية من خلال أسباب النزول القرآني (١٠)... تلك النوازل التي تبدو من خلالها الأحداث التاريخية مرتبطة بتساؤلات حول الله تعالى والكون والحياة والإنسان... فكانت تكشف عن مستوى ما بلغه الطموح الإسلامي من جهود في استيفاء شروط الحياة بكافة وجوهها الحضارية والسياسية...

وثمة مواقف بعينها خلدها التاريخ لارتباطها بالوحي في مواضع عديدة، إما من خلال القرآن الكريم مباشرة، وإما من خلال ما ورد عن رسول الله ﷺ مبينا مناسبة النزول؛ فمثلا، «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء:٢١٤)، صعد النبي على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي»، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبولهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبولهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا. فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ (المسد:١-٢).

ومما يلاحظ - بادئ ذي بدء- أن أسباب النزول بدأت تتداعى بعد هجرة المسلمين إلى يثرب واستقرارهم بها، ومع تنامي المد الإسلامي وتبنيه إجراءات تقنينية منشطة للمسارات الوظيفية التي تعنى بتمدين المجال الحضاري... من خلال وضع آلية تصورية معنية بترتيب تنظيم علاقة المسلمين مع غيرهم، سواء في المجتمع المدني أم خارجه مع مشركي العرب أو الروم وغيرهم؛ ولاشك أن ذلك الحراك المتنامي قد ارتبط بنوازل ومستجدات استثارت تساؤلات واستفسارات كان القرآن والرسول يتفاعلان معها بطريقة لائقة بخير أمة أخرجت للناس.

ولقد كان النبي ﷺ حين يسأل عن شيء، فينزل القرآن ببيان حكمه؛ مثال ذلك: ما ورد عن عبدالله قوله: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث بالمدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه عن الروح، فسألوه، «فقام متوكئا على العسيب وأنا خلفه فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء:٨٥)؛ فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه (١١). وهكذا، وردت الآيات متضمنة أكثر من مغزى تاريخي.

والحقيقة أن معرفة أسباب النزول فضلا عن كونها كاشفة عن ملابسات النوازل والمواقف التاريخية التي ارتبطت بها، فإن إجابات المفتين عن هذه النوازل تعد قيمة مضافة للوعي التاريخي؛ وتفيدنا كتب أسباب النزول عن آية التبس على مروان بن الحكم فهمها حين توهم أنه معني بقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ

﴿ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ (آل عمران:١٨٨)، فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون! فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه! إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ...﴾ (آل عمران:١٨٧) حتى قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟...﴾ (آل عمران: ١٨٨)، فلم يزل الإشكال إلا بمعرفة سبب النزول (١٢)؛ فتلكما حادثتان تأرختا بسبب فتوى ابن عباس عن سؤال مروان بن الحكم.

إن أحد وجوه الحكمة التاريخية من دراسة فتاوى النوازل في القرآن والسنة النبوية بصفة عامة: إنما تتلخص في كون تلك النوازل وفتاويها أداة كاشفة عن أحد أسرار الثبات والاطراد في السلوك الحضاري، وهو ما يعكس مدى الالتزام الأخلاقي والولاء الروحي والثقافي للنصوص الموجهة لسلوك المؤمنين... ذلك السلوك الذي يبدو وكأنه أشبه بالسنة أو القانون الواجب الالتزام - هذا عند من يقول بأن العبرة في أسباب النزول أو الورود: إنما تكون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهذا ما يضع الحوادث التاريخية بكافة تداعياتها في بؤرة الذاكرة الإنسانية المنتعشة بالتلاوة والتدبر إلى انتهاء التاريخ بقيام الساعة.

الهوامش

١- أحمد بن عبدالرحيم ولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ): الفوز الكبير في أصول التفسير، عربه من الفارسية: سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص١٦٥.

٢- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، جـ١١، ص٢٨٤.

٣- ولي الله الدهلوي: الفوز الكبير في أصول التفسير، ص١٠٤.

٤- بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص٢٢.

٥- عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، جـ١، ص١٠٧.

٦- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص٢٢.

٧- أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري (ت:٤٦٨هـ): أسباب النزول، تحقيق: ماهر يا سين الفحل، دار الميمان، الرياض، ٢٠٠٥م، ص٢٠.

٨- عبدالحكيم الأنيس- ضمن حيثيات نتائج تحقيقه كتاب: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ): العجاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٨هـ، جـ٢، ص٩٢٦.

٩- أبوعبيد القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي البغدادي (ت: ٢٢٤هـ): فضائل القرآن، تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٩٧. على أنه يجب الحذر والتحرز تجاه أسباب النزول، فلا تؤخذ على علاتها، بل يجب عرضها على القرآن نفسه، فما وافق القرآن أخذ به، وما عارض القرآن طرح، إذ يوجد تناقض في بعض الروايات، وهناك القصص الخرافي في جانب منه، وهناك الإسرائيليات المطولة التي لا يحتملها النص القرآني، بل وهناك ما لا يوحي بالسبب فيسمى سببا، وقد يطلق في هذا الضوء السبب على اللازم والمتعلق، وهو غير السبب، وقد يطلق السبب على ما يعتبر من باب الجري وقبيل الانطباق، وليسا من الأسباب (محمد حسين علي الصغير: تاريخ القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ص٥٣، بتصرف يسير).

١٠- ومما نلاحظه من مآخذ في هذا السياق: ذهاب الواحدي إلى أن سبب نزول سورة الفيل: قدوم أبرهة من الحبشة لهدم الكعبة؛ إذ استدرك السيوطي عليه ناقدا فقال: «والذي يتحرر من سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من سببها قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك، وكذلك ذكره في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ (النساء:١٢٥)؛ فسبب اتخاذه خليلا ليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى» (الإتقان في علوم القرآن، جـ١، ص٦٤)، وإنما هي إشارات تاريخية مجردة لا علاقة لها بمناسبة نزول أو سببه...

١١- أخرجه البخاري عن ابن مسعود، حديث: ٧٤٥٦.

١٢- أبوالحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت: ١٥٠هـ): تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٣هـ، جـ٥، ص١٤٩.



إدارة الأزمات وتدافع الحجيج

د. رضا عبدالحكيم
باحث أكاديمي

تسجل تقارير المجتمع الدولي وهيئات إدارة شؤون الحج في المملكة العربية السعودية، تعاظم التدفق البشري للحجيج في مواعيده الشرعية، وأن مدن المملكة تستقبل ملايين القادمين من كل حدب وصوب، وذلك لأداء شعائر الحج، يقول المتعال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ **(الحج:٢٧-٢٩).**

كان من الطبيعي أن تبرز التظاهرة البشرية لأداء الشعائر، في أشد صورها، إذا ما علمنا زيادة تعداد مسلمي أرض الله على مليار نسمة، منتهى آمالهم أن تطأ أقدامهم أطهر البقاع لأداء الركن الخامس في الإسلام لمن استطاع إليه سبيلا. لذا أضحى تدافع الحشود البشرية قدرا لا تملك سلطات التنظيم في المملكة العربية السعودية سوى اتباع أفضل ما أنتجته مناهج الفكر الإداري وبحوثه الحديثة لإدارة شؤون الحج، هذا الحدث العظيم المتكرر سنويا.

إن سلامة الحجيج من أهم أولويات من خصهم الله بنعمة استقبال ضيوف الرحمن، وهم سكان مكة المكرمة وأولو أمرها من الحكام والإداريين، قال بحكمته: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾ (قريش:١-٤).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ (القصص:٥٧)، فالحرم الآمن لا يسفك فيه دم، ولا يقتل صيده، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته إلا من أراد التعريف بها.. كل هذا عناية بهذا البلد؛ لأن الله جعله مهوى أفئدة المؤمنين ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة:١٢٥)، ما أتوا إلا وأفئدتهم تشتاق إليه.

الحشود البشرية، وتشكلها أثناء أداء الشعائر، وأدوات الإدارة الحديثة في مواجهة تدافع البشر، حقل تبنت الأدبيات العلمية الحديثة دراسته ضمن بحوث «علم الحشود». والسطور التالية ترصد بإيجاز مشكلة الحشود أثناء الشعائر، وغني عن القول إن الهدي النبوي قد أسس منذ أربعة عشر قرنا من الزمان أصول السلامة وأمن الحجيج في سبق معرفي إعجازي، وحلول مستقبلية نيرة، أرساها سيد البشر عليه الصلاة والسلام، ضمانا لعودة الحجيج سالمين إلى بلدانهم، بإذن الله تعالى.

مشكلة تدافع الحشود

خلال العقود القليلة الماضية تم رصد أخبار وتقارير تناولت الأضرار الجسام الناشئة عن تدافع الحشود البشرية، وذلك في البيئات المهيأة لاستقبال المئات، بل الآلاف من الأشخاص، وأحيانا ملايين البشر، كما هو شأن حجيج المسلمين في الأرض المقدسة. ورأى المجتمع العلمي المعاصر التصدي بأساليب تقنية وإدارية وفنية من أجل إدارة الأزمات الناشئة عن تدافع الحشود التي يختلط بفعل ديناميتها الحابل بالنابل، ويلقى العشرات والمئات مصرعهم على إثر الفوضى والاضطراب والتزاحم، وهذا ما دلت عليه تجارب عدة، مثل ما حدث في الاستادات الرياضية العالمية، والنموذجين الشهيرين: «كارثة استاد هيلز بورج» و«حادث استاد بورسعيد في مصر»، كذلك تدافع حشود الحفل الموسيقي في روكسكيلد في الدنمارك، ونماذج مروعة أخرى حدثت في بقاع شتى من العالم في الهند والفلبين وغيرهما من بلدان المعمورة. وما زالت آثار الدمار الذي حدث فوق جسر الجمرات في المملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٦م ماثلة في الأذهان، بفعل مقتل ٣٦٣ من الحجيج أثناء موسم الحج.



وجاء في تحليل لخبراء الطب حول الإصابات التي تسببها الحشود وتدافعها، أن أكثر الأسباب شيوعا والتي تؤدي إلى حدوث حالات وفاة في كوارث الحشود، هي الاختناقات التي تنتج عن نقص الأوكسجين الذي يعقب التزاحم، حيث يتسبب التدافع في الضغط على بطون الضحايا والأقفاص الصدرية مما يؤدي إلى شل حركة الرئتين. وإن الاختناقات الناتجة عن نقص الأوكسجين تحدث بسبب تكدس الناس بعضهم على بعض، رأسيا أو أفقيا، بحيث يتدافعون ويضغط بعضهم على بعض بقوة.

تحركات الحشود وتصرفاتهم أثناء الأزمة كانت محور دراسات - أضف إلى خبراء الطب والجراحات - علماء النفس والإدارة والرياضيات، فصدرت تبعا لذلك العديد من الأدبيات والبحوث، التي تقدم استراتيجيات في الوقاية والعلاج، في ضوء معطيات ردود أفعال الحشود أو التنبؤ بها في مواقف معينة. هذا وقد ابتدع العلماء والباحثون تصميمات



أمنية والاستعانة بتكنولوجيا نظم المعلومات من أجل التخطيط الناجع للحد من كوارث تدافع الحشود (١).

أمن الحجيج أثناء الشعائر

نعلم أن هناك أوجها مختلفة لشعائر الحج، إذ يعد الذهاب إلى جسر الجمرات واحدا من مناسك حج المسلمين لمكة المكرمة، حيث يرمي المسلمون الحجارة على ثلاثة أعمدة مختلفة الواحد تلو الآخر. ويتكون حشد الحجاج من حوالي ٧٥٠٠ فرد يقفون على الجسر. وللأسف، يؤدي هذا إلى وقوع العديد من الحوادث. وبتدخل سلطات المملكة العربية السعودية، وجهود خادم الحرمين الشريفين وخبراء المملكة، تم تنفيذ ابتكارات عدة، مثل تصميم جديد متعدد الطبقات لجسر الجمرات، بحيث يتم توحيد الحجاج المتواجدين في أماكن مختلفة إلى مستويات منفصلة بعضها عن بعض، وبذلك أمكن تحقيق فصل بين الجماهير المتدافعة، كذلك منع التداخلات بين الجماهير، ووضع الحد الأدنى للازدحام والتكدس عند الدرجة الدنيا، لتفادي الكوارث. وجدير بالذكر أن المملكة تطور أنظمة أمنية لأجل الإدارة الرشيدة للحشود البشرية أثناء الحج.

سلامة الحجيج في الهدي النبوي

نهى نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عن حمل السلاح في الحرم.. نهى أن يدخل السلاح إلى الحرم؛ تعظيما لأمنه، حتى يقطع خط الرجعة لمن أراد سوءا و فسادا. وعند النظر إلى السلامة في الحج، نجد أن الإسلام اعتنى بسلامة الأبدان وسلامة الأرواح وسلامة النفوس وسلامة البيئة، كل ذلك اعتنى الإسلام به؛ لكي يؤدي الحاج عبادته في هدوء.

وجد أن الرسول ﷺ يعلمنا كيف نحقق السلامة، فقد أتى لبيت الله لأداء حجة الوداع، وطاف بالبيت، فلما ازدحم الناس عليه والكل يتطلع ليراه، ركب واستكمل طوافه راكبا، وأتى الحجر الأسود فقبله، وأتاه أخرى فاستلمه بيده وقبل يده، وأتى إليه ثالثة فأشار إليه بيده وهو ماش، لم يكرر تقبيل الحجر توخيا للسلامة، ولو قبل الحجر في كل مرة لتمسك الناس بهذا فقبلوه مرات عديدة وألحق بعضهم الضرر ببعض.

رأى النبي ﷺ عمر رضي الله عنه يزاحم فقال: «يا عمر، إنك رجل قوي، قبل إن رأيت سعة وإلا فانصرف». هذا من باب التيسير والتسهيل على المسلمين.

إن الركن اليماني، كما هو معلوم، للاستلام فقط من دون إشارة، ثم إن المسلم في سعيه بين الصفا والمروة يسرع بين العلمين إذا لم يجد مشقة، وإذا وجد ازدحاما فلا يشرع



له الإسلام الإسراع بين العلمين مع المشقة (٢).

ثم نجد أن الرسول ﷺ في انصرافه من عرفة كان يشير بيديه لأصحابه السكينة السكينة.. كل ذلك حرصا على ألا يزدحم الناس. وفي يوم عرفة وقف ﷺ وقال للناس: وقفت هنا وعرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرفة ومزدلفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن محسر ومنى كلها منحر، وللحاج مكة كلها منحر. وأمرهم أن يبقوا في أماكنهم، فقال ﷺ: إنكم على شعيرة من شعائر أبيكم إبراهيم. فلم يخص الوقوف بجزء معين من عرفة، فلو خصه بجزء معين لكان فيه إهلاك للناس، ولكنه ﷺ قال: «وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف». ولما أتى المزدلفة قال: «وقفت هاهنا ومزدلفة كلها موقف»، ورخص للضعاف من النساء بالانصراف حتى لا يؤذين من الازدحام. وفي منى رمى جمرة العقبة، ونحر، وحلق، فجاء الصحابة قائل يقول: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. فقال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر فقال: لم أشعر، فنحرت قبل أن أرمي. قال: «ارم ولا حرج». فما سئل النبي ﷺ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج». يفهم من هذا حرصه - صلوات الله وسلامه عليه - على تسهيل سلامة الحجيج. نحر في منى وقال: نحرت هاهنا ومنى كلها منحر، وكل فجاج مكة طريق ومنحر.. اشتكت أم سلمة من الطواف ماشية فأذن لها أن تطوف راكبة خلف الناس، وفي هذا تسهيل للحج وأمن الحجيج.

إن أمن الحجيج وإدارة حشودهم تشريع إسلامي ملزم للناس وللحاكم القائم على شؤون الحج. وقد توعد الله من هم في الحرم بسيئة أن ينزل به العقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (الحج:٢٥). فكل من هم في الحرم بسوء ونوى شرا وضررا ببيت المسلمين، فإن الله يعاقبه وإن كان في أقصى الدنيا، بمجرد همه، وإن لم يفعل شيئا؛ احتراما لأمن هذا البلد. والنبي ﷺ رخص لرعاة الإبل وسقاة الحجيج ترك المبيت في منى، وأن يبقوا في أماكن سقيهم للحجيج ورعيهم لإبلهم، ورخص لهم أن يرموا في اليوم الأول ثم لا يرمون إلا في اليوم الثالث، كل هذا من التيسير وسلامة الحجيج.

إن الحج موسم عبادة وقربة إلى الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة:٢٠٠). إن الإسلام جاء بالحج ووضع منهجه، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة:١٩٦)، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (البقرة:١٩٨-٢٠٠).

إن الحج صبغة إسلامية، والحج مؤتمر للتعاون والمحبة والمودة بين الأمة، ومن هدي نبينا المصطفى ﷺ النهي عن المزاحمة، واتخاذ التدابير الأمنية الضامنة لتلافي كوارث الحشود المتدافعة، وإدارة أزماتها، وهذا ما أثبتته الدراسة.

وخير ختام، قال بعزته: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (النمل:١٨).

الهوامش

١- أميرة عبدالمنعم (٢٠١٣م): عندما تتدافع الحشود، مجلة العلم، العدد ٤٤٦، ص:٢٧-٣٣.

راجع أيضا: تقرير (٢٠١٤م) نظم المعلومات يحلل تحركات الحشود البشرية الضخمة، مجلة العربي العلمي، العدد ٢٦، ص:٣٦ و٣٧.

٢- مفهوم السلامة في الحج لفضيلة مفتي عام المملكة العربية السعودية، الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، مجلة الحج والعمرة، العدد السادس، جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، ص:٣٤-٣٦.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٥)

الأخيرة

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



الآن وقد بلغ زورقي مرفأ النهاية، في هذه الحلقات اللغوية التي كانت فواتح معارفها على حبل الذراع، فأضحت عواقب معارفها أعز من بيض الأنوق؛ وكانت بداءتها مجرد قطرة، غير أن اتصالها وتتابعها شهرا بعد شهر، وعاما بعد عام، جعلا فوالجها وثغابها نهرا فياضا سخيا. ولا عجب، فالواحد مع الثاني والثالث يصبحون عصبة، والمدماك إلى المداميك الأخرى تغدو حائطا وصرحا؛ فإنني أعلن على لسان الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان أن الناس ليسوا في حاجة إلى شيء أكثر من حاجتهم إلى «إقامة ألسنتهم التي بها يتعاورون القول، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكم، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها؛ ويجمعون ما تفرق منها. إن الكلام فارق للحكم بين الخصوم، وضياء يجلو ظلم الأغاليط، وحاجة الناس إليه كحاجتهم إلى مواد الأغذية» (١)، ولاسيما في هذا الزمن المعاصر، الذي يحرص الأقوياء على فتل شبكات العولمة للضعفاء، للإيقاع بهم في فخ الرضا بكل ما هو غربي، وطي الكشح عن البضاعة العربية الصميمة؛ وما ذلك إلا من عقدة التصاغر التي أصابتنا بها العولمة، ومن ثمة أصبح بعضنا ينظر إلى اللغة العربية الفصحى بعين قذية، تمنع من إبصار جواهرها المكنونة التي يحجبها عنه العمش الثقافي الذي ابتلينا به بأخرة.

أرجو أن تكون هذه القراطيس أجمع للفائدة، وأضبط للصحة والسلامة التي تعود بالفائدة الماتعة على الفصحى، التي كان الأوائل حرصا على إظهارها في أجود مرآتها بعبارات أصفى وأوفى وأجود. ولقد حرصت أن أقيد هذه الحلقات بكلام يجاري بلاغة الأولين، رغبة في أن يستقبلها القراء بالحفاوة التي تجعلهم يشربون كلماتها محلولا منعشا يكنس الخطأ عن لغتنا الغراء، فيعود الاعتراف بالفصاحة، وبحتمية التعلم بالفصحى أرسى وأوكد، ونطرد عنا الكسل اللغوي الذي جعلنا نرضى بركوب ذنب البعير في الصناعة المعرفية بلغة القرآن الكريم الموصوفة باللسان العربي المبين، وبأحسن الحديث الذي لاعوج فيه ولا أمت.

ولقد دفعني هذا المشهد اللغوي العربي، الذي يعج بكثير من التعابير التي تنكبت طريق الفصاحة، إلى قرع ظنبوب الاجتهاد للإسهام في البحث عن حلول علمية لهذه الحالة التي أسود منها المشهد اللغوي العربي، منطلقا من مبادئ اللسانيات التعليمية التي تتفاعل مع كثير من المعارف والعلوم، ناهيك عما توفره اللسانيات التطبيقية من فرص

عديدة لتسهيل التحكم في تعلم اللغة، سواء تعلق الأمر بالاتجاه التقابلي الذي يصرح بإمكانية التنبؤ بالأخطاء والغلطات اللغوية، والذي يرى أن العاميات في العالم العربي هي مصدر الصعوبات التي يعانيها متعلم الفصحى، لأن التقابل بين بنية اللغتين: (العامية والفصحى) هو المسؤول عن نقل بعض الأخطاء من العامية إلى الفصحى. أما الاتجاه الآخر، الذي يعنى بتحليل الأخطاء والغلطات اللغوية بعد وقوعها، فإنه يميز بين أخطاء القدرة، التي تعد نسقية مصدرها الجهل بالقواعد والضوابط اللغوية، وغلطات الإنجاز، التي تعد عرضية نرتكبها سهوا، رغم معرفتنا بتلك القواعد والضوابط اللغوية المقررة التي أسري عليها بليل وفرغ منها.

ولقد قدم هذا الاتجاه تفسيرات مقنعة للأخطاء والغلطات الشائعة، أكتفي في هذا التأزير بالإشارة إلى ما يزيل التلبيس، الذي يكون تذكرة للذاكرين على هذه الشاكلة:

١- غلطات القياس الخاطئ: مثل قياس مصدر «نضَجَ» نضوجا على مصدر «دخل» دخولا، بينما الفصيح هو: «نضجٌ»، وهو مصدر سماعي. وقياس جمع مستشفيات على جمع فتيات فقالوا: «إحدى المستشفيات»، والصحيح: «أحد المستشفيات».

٢- الإيهام بالترادف: مثل الاعتقاد بترادف ظرف المكان «حوالي» مع ظرف الزمان «زهاء». وبين «لحظة» و«برهة». وبين الفعل «ضاف» و«استضاف». وبين «التتابع» و«التتايع». و«الرومان» و«الروم». و«التو» و«التوة».

٣- التصحيف والتحريف: ويكثر هذا النوع في تغيير صوت بصوت آخر، أو في الخلط بين حركات المباني بالنسبة إلى اللفظة الواحدة مثل: «البث/ البت»، و«الغث والثمين» بدل «السمين»، و«الأذان/ الآذان»، و«الخدمات والخدمات» و«الغِرُّ والغُرُّ».

٤- التداخلات اللغوية: مثل عبارة «قلت في رأسي» العامية، بدل عبارة: «قلت في نفسي» الفصيحة، وكذلك تذكير «الكأس»، بينما تؤنثها الفصحى.

٥- الترجمة الحرفية من اللغة الأجنبية: مثل عبارة «تقابلا رأسا لرأس» التي لا ترضاها الفصحى التي تقول: «تقابلا على انفراد».

٦- توهم الأصالة: مثل جمع كلمة «مدير» على «مدراء» توهما من القائل إن «ميم مدير» أصلية في الكلمة، مع العلم أنها زائدة؛ ولذلك تجمع الكلمة جمع مذكر سالما، بخلاف لفظة «وزير» التي تجمع «وزراء»؛ لأن «واوها» أصلية، من فعل: «وزر».

٧- الإملاء العرفي: مثل أسماء الإشارة والموصولة التي لا تكتب كما تنطق، وبعض الألفاظ الأخر: عمرو، وداود، وطاوس، التي تكتب بواو واحدة.

٨- التعميم المتسرع: مثل تعميم لفظة «اليتيم» وعدم مراعاة الدقة اللغوية التي تتميز بها الفصحى، حيث لا يطلق هذا النعت إلا للذي فقد أباه، أما الذي فقد أمه فيقال له: «العجي»، والذي فقد الأبوين يقال له: «اللطيم».

٩- إعادة الاقتراض: مثل تعريب لفظة «الكحول» بدل إحياء اصطلاح «الغول»، الذي نطق به القرآن الكريم.

١٠- الجهل بالقواعد: مثل تكرار «كلما» في الجملة الواحدة. وعبارة: «كم هو جميل!» التي لم تحترم قاعدة التعجب، التي تصاغ وفق الصيغتين: «ما أفعل» و«أفعل به»، ناهيك عن عدم مراعاة وظيفة همزة الإزالة التي تقلب معنى الفعل إلى ضده مثل: «صغى وأصغى»، و«جاء وأجاء»، و«ترب وأترب»، و«قذى وأقذى».

١١- فقدان الحس اللغوي: مثل قول المتأخرين: «سوف لن أفعل كذا»، وقولهم: «كرر القول مرات»، ناهيك عن قولهم: «يعد أسلوبه قمة في الركاكة».. وهي كلها عبارات تفتقد الحس اللغوي العربي الصميم.

١٢- التعريب الأعرج: وآية ذلك الكلمات الأجنبية التي عربناها على شاكلة المهورة إحدى خدمتيها، اعتقادا منا أن مقابلها العربي معدوم، مثل اصطلاحات: «الأرشيف» بدل «الربيدة»، و«البيداغوجيا» بدل «اللقانة»، و«الديكور» بدل «الزخرف».

هذا مجرد ضوء مشكاة، ونغبة طائر، وشعاع من شمس المعرفة باللغة العربية، وبنوفلها اللجي الذي لا ينكش، قدمت منها ذروا، ووضعت زفرها في زفرها خشية الإطالة. أرجو أن أصيب كبد الظبي في ما أومأت إليه من معارف اجتلبتها من معادنها الأصيلة، واحتطبتها من الحذاقيين الذين مخضوا أوطاب الفصحى ومخروا عباب يمها، وأن لا أرمي في رجاف الفصحى بمنجاب خائب؛ وإذ أشهد القارئ إني لست سوى فرع من أيكة الذين مخروا عباب يم الفصحى حتى جاءوا بالمقل، فإنني أرجو أن أكون أنا النذير العريان الذي ينفخ في الصور قائلا: لذام بحب الفصحى لذام، فهي أمنا الرؤوم التي أرضعتنا بلبانها، وهي كل ما تبقى لنا نحن - العرب - في هذا العالم العولمي الذي بلغ طوفانه المدى في المحو وانتهاك الخصوصيات والقيم المميزة للأمم والشعوب. وقديما قيل: «العلم أربعة أصناف: علم للمكسب فذلك مهنة وابتذال، وعلم للمفاخرة فذلك علم السفهاء، وعلم للآخرة وذلك علم الصالحين، ورابع يبعث عليه شرف النفس، وذلك علم النبلاء» (٢)، أرجو أن يكون عملي من شجرة العلمين: الثالث والرابع، وأن أدرك البغية، وألا أغادر هذه الدنيا حتى أرى الفصحى قد استقامت وسالت بها ألسنة شداتنا سهوا رهوا، واللهجات العامية قد تضعضع بنيانها وزوتها الفصحى في حدود ضيقة جدا، كما أرجو الله تعالى أن يقرن منطقي بالسداد، ويجعل لي لسان صدق موصول بالفلاح، ويوفقني لتكون أقوالي موصولة بأعمالي، وأعمالي محققة لشأوي المغرب. آمين.

حرر في بني ملال ليلة الأربعاء ٢٩ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ الموافق ١٨ فبراير ٢٠١٥م. المغرب.

الهوامش

١- كتاب الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي، تصحيح وضبط وشرح أحمد أمين وأحمد الزين، الجزء٢، الليلة٢٥، ص١٤٤، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا.

٢- الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، أبوالعلاء المعري، ضبطه وفسر غريبه: محمود حسن زناتي، الجزء ١، ص٤٠٠، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.

العـــودة للديــــار

مياسة النخلاني
قاصة من اليمن

«سنرحل في الصباح».. قالها لزوجته وأولاده الستة. اندس بصمت تحت لحافه محاولا استجداء النوم من دون فائدة، لم يتخيل أبدا أن يأتي اليوم الذي يغادر فيه قريته الصغيرة بهذه الطريقة، لكن بعد آخر نقاش دار بينه وبين أبيه شعر برغبة تلح عليه بالرحيل، قفزت إلى رأسه وطبقها فورا من دون تفكير.

«والدك لا يقصد ما يقول، وأنت تدرك هذا أكثر من غيرك»، قالتها زوجته معاتبة.

«أيا كان، سأرحل طالما يريد مني الرحيل»، رد من دون أن ينظر إليها!

«وهل ستتركه وهو في هذه السن من دون سند أو عون؟! لم تكن سوى كلمة قالها في لحظة غضب»، ردت بإصرار، في محاولة منها لثنيه عن قراره، لكن من دون فائدة، كان قد أزمع الرحيل ولا مجال للتراجع، وأمام عناده الذي لم تفهم له سببا لم تجد بدا من الإذعان له وطاعته في قرار اتخذه.

في الصباح، وحين فتح عينيه، كانت قد أعدت كل شيء للرحيل كما أمرها. شاهد الرفض في عينيها، لكنه تجاهله، حمل الحقائب وترك كل شيء خلفه، والده العنيد وبيته الذي عاش بين جنباته سنوات طويلة.

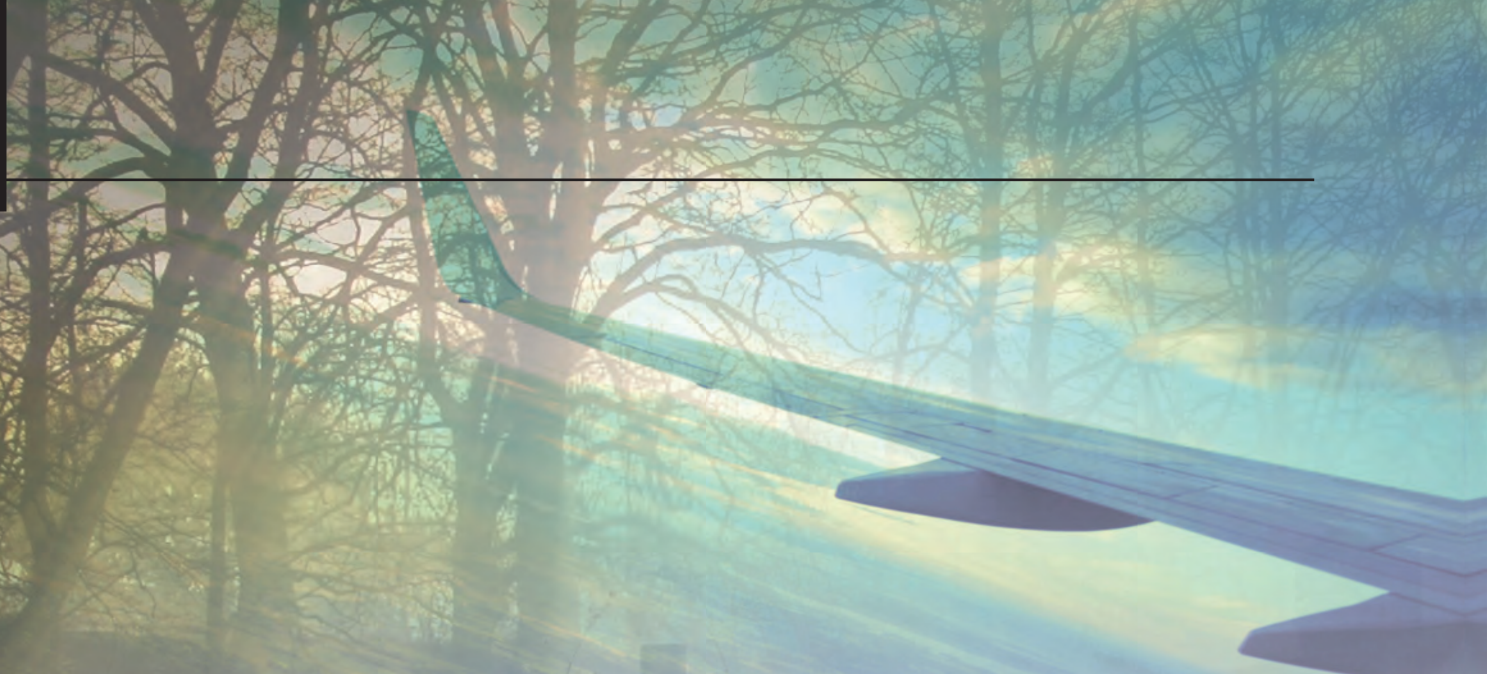
لم يكن أمر العثور على سكن في المدينة الواسعة بالهين، خصوصا أن لديه عائلة، لكنه وبعد مجهود وجده أخيرا، في حي متواضع لا يكاد يختلف عن الحي الذي عاش فيه في قريته، استأجر شقة صغيرة. وفي اليوم التالي بدأ البحث عن عمل، ليحالفه الحظ بالعمل أجيرا لدى تاجر حبوب، لم يكن العائد كبيرا، لكنه على الأقل يكفيه سؤال الآخرين ويسد جوع عائلته، التي منذ انتقالها إلى المدينة أصبحت تكتفي بوجبتين فقط بدلا من ثلاث.

«هل يمكن أن يوصل العناد صاحبه إلى هذه الحالة؟!»، تساءل كثيرا، بحث عن سبب مقنع يجعله يجبر نفسه وعائلته على اختيار هذه الحياة القاسية بينما لديه بيت وأرض يزرعها ويأكل من خيرها، من دون الحاجة إلى البحث عن عمل لدى الغير وبأقل القليل، ثم والده الذي ليس له أحد سواه، من سيؤنس وحدته، ويطبخ له، ويعتني به في الكبر. حين يأتي إلى هذه النقطة، يعتصر الألم قلبه، يتمنى لو يعود خادما تحت قدميه لبقية حياته، ماذا إن خرجت منه كلمة في لحظة غضب، ألم يتحمله صغيرا؟ ووقف إلى جانبه وسانده شابا؟!

«سحقا للعناد حين يتشبث بالعقل ويرفض تركه»، ترددت أصداؤها في أعماقه وهو يهز رأسه ويحاول النوم ليصحو باكرا ويلحق بعمله.

أثناء خروجه إلى العمل صادف العجوز الذي يخرج من البيت المقابل كل صباح وهو يدفع عربة خضار بالكاد يقوى على تحريكها، كان كبيرا في السن، لعله بعمر والده، لكن العمل الشاق قوس ظهره، وقلة التغذية أذهبت اللحم من جسمه.

خفق قلبه بشدة، وسرت رعشة من منتصف ظهره إلى أخمص قدميه حين تذكر والده وتخيله يحرث الأرض ويعمل بجهد بعد هذا العمر. ومن دون تردد، تقدم نحو الجار واستأذنه أن يدفع العربة بدلا منه، ولو لجزء من الطريق، وافق العجوز ممتنا ومشى خلفه من



دون أن ينطق كلمة واحدة، أوصله إلى مفترق الطريق ثم ودعه وسار في طريقه.

لم يغب عن باله طوال ذلك اليوم، وتمنى لو أنه يقابله أثناء العودة لكنه لم يلتق به. في صباح اليوم التالي، تقابلا عند الباب، سلم عليه ودفع العربة المحملة بالخضار، هذه المرة تجاذبا أطراف الحديث، علم أن العجوز يعيش وحيدا بعد وفاة زوجته.

«وأولادك؟!» سأله باستغراب!

«لم يرد الله أن يكون لي أولاد، والحمدلله على كل حال»، أجاب بغصة. لم يعقب هو على كلامه، وواصل طريقه، يدفع العربة بصمت.

في تلك الليلة، دق على باب العجوز وبيده عشاء، جلس معه قليلا قبل أن يغادر، ومن وقتها أصبح يحمل على عاتقه إطعامه، ولولا أن بيته صغير جدا لطلب منه المبيت عنده، حاول ثنيه عن الذهاب كل يوم إلى السوق لبيع الخضار واعدا إياه أن يتكفل بكل مصاريفه. لكن العجوز رفض: «يا بني، قضيت طوال عمري وأنا أعمل وآكل من عرق جبيني، لا أريد أن أعيش أيامي الباقية عالة على الآخرين».

عاد إلى بيته مهموما، سألته زوجته عن السبب، فحكى لها ما صار مع الجار، سكتت هنيهة قبل أن تتساءل: «ووالدك، ألم ترأف لحاله؟!».

نظر إليها بعينين زائغتين، لكنه لم يقل كلمة واحدة.

في اليوم التالي، لم يقابل الجار أثناء خروجه، فرجح أن يكون قد سبقه، واصل طريقه وهو يفكر فيه. عندما عاد، أخبرته زوجته أنها أوفدت ابنها إليه بالطعام، دق على بابه كثيرا ونادى عليه لكنه لم يجب.

وضع الأغراض جانبا وذهب إليه، بعد محاولات عدة دخل الدار ووجد العجوز نائما في فراشه، بالكاد ترمش عيناه، أسعفه من فوره إلى المستشفى.

«والدك أصيب بغيبوبة سكر، بإذن الله تعالى سيتجاوزها ويعود معك إلى البيت سليما معافى»، قال الطبيب وهو يربت على كتفيه!

شعر بدوار وفقدان التوازن، بحث عن كرسي ليرتمي عليه.. «والدك!»، تردد صداها في رأسه حتى كاد أن ينفجر، خاف على العجوز الذي أصبح جزءا من عائلته، وعلى والده الذي مضت شهور من دون أن يزوره أو حتى يهاتفه.

«يا لقسوة قلبك»، قالها لنفسه بصوت مسموع وهو عاجز عن مداراة دموعه.

مضت أيام والعجوز يتحسن. وحين حان وقت الخروج، ومن دون حتى أن يستأذنه، أخذه معه إلى البيت.

«أعدني إلى بيتي يا بني»، قال العجوز بصوت واهن.

«نم الآن وغدا سأذهب بك إلى بيتك»، قال بحزم.

أخبر زوجته بقراره بالعودة إلى بيته وإلى أبيه، كان تأنيب الضمير والندم قد استبدا بكل تفاصيل عقله حتى أرهقاه، ولن يسامح نفسه إن حدث له مكروه.

شاركها حزم الأمتعة كي لا يتأخروا، فلم يعد يطيق صبرا أن يبيت ليلة أخرى بعيدا عن والده.

«والجار؟!»، سألت زوجته.

«سآخذه معي»، أجاب، ثم أكمل حزم الأمتعة.

في صباح اليوم التالي كان كل شيء معدا للرحيل، رفض الجار في البداية أن يذهب معه إلى قريته لكنه أصر عليه: «يا والدي لدي هناك أرض أزرعها ونأكل من خيرها، وبيت كبير يكفينا جميعا، لن تكون عالة علي، بل ضيفا كريما وأبا عزيزا، كان لدي والد، والآن والدان، والحمد لله على هذه النعمة، سأصونها ولن أفرط في أحدكما أبدا».

أمام كلماته لم يجد الجار بدا من الموافقة، لم يكن لديه الكثير ليأخذه معه، ودع بيته الصغير وعربته رفيقة كفاحه لسنوات طويلة.

عندما وصل إلى القرية، انكب على قدم والده يقبلها، ويطلب منه السماح، لم يكن بحاجة لسماع شيء فدموع والده فرحة بعودة ولده وأحفاده كانت غنية عن كل كلام.



لغة التدريس بين الفصحى والعامية

سالم بن عميران
أديب يمني

اعتنى العلماء والمربون، قديما وحديثا، باللغة العربية الفصحى، تعليما وتأليفا؛ لدورها المحوري في بناء شخصية الأمة وارتباطها بالقرآن الكريم والدين الإسلامي الحنيف.

ولما كانت اللغة العربية الفصحى في العصور المشرقة للإسلام في أوج ازدهارها وقوتها؛ أضحت لغة التعليم في المدارس والجامعات المنتشرة في عواصم الإسلام؛ في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والقيروان، حتى إن الطلاب الذين يأتون من أوروبا يلزمهم تعلم العربية لأخذ العلوم الدنيوية من المسلمين؛ كعلم الفلك والطب والكيمياء والبصريات، التي صيغت بلغة عربية فصيحة، ووضع أسسها علماء أجلاء، كابن سينا والرازي وابن الهيثم وابن النفيس.

ولا غرو، فقد كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة في تلك الفترة على امتداد بلاد الإسلام؛ من بحر الصين شرقا إلى جبال البرانس غربا.

أما في عصر العولمة والتقدم العلمي والازدهار الحضاري، إذ تقاربت الأفكار والثقافات بين الأمم والشعوب؛ فارتقت لغات، وهددت أخرى بالانقراض والاندثار، وبقيت اللغة العربية الفصحى تشكو من التهميش أو الإقصاء في أكثر من مجال من مجالات الحياة، حتى حوصرت في بعض البلاد في زوايا ضيقة ترتبط بالشعائر الإسلامية، كالأذان والصلاة وخطب الجمعة، وظلت الفصحى حبيسة بطون كتب التراث العربي والإسلامي على رفوف المكتبات تنظر إلى بنيها بطرف خفي من سيعيد لها بهجتها ويجدد عهدها المشرق؟!

إن التحديات التي تواجهها اللغة العربية الفصحى اليوم في مجال التعليم أضحت أمرا جليا وواضحا، فهناك قصور في مهارات تعلم اللغة العربية، كالقراءة والكتابة والمحادثة والسماع. ولعل من أبرز أسباب ذلك شيوع العامية في العملية التعليمية

وجعلها وسيلة اتصال بين المعلم والطالب؛ لفهم المادة العلمية وما يتعلق بها من نشاطات، وهي ظاهرة تستحق الدراسة والبحث؛ لما لها من آثار سلبية على مستوى اللغة العربية في مجال التعليم.

وقبل البحث عن أسباب شيوع هذه الظاهرة وآثارها على العملية التعليمية، تجدر بنا معرفة العلاقة بين الفصحى والعامية، وخلاصة القول في هذه المسألة: إن علاقة الفصحى بالعامية هي علاقة تعايش؛ فما زالت العامية تحتفظ بكثير من الألفاظ التي تعود أصولها إلى الفصحى؛ والفصحى قد تؤدي وظائف ربما لا تنهض بها العامية، وفي الوقت نفسه تقوم العامية بوظائف أخرى ربما لا تنهض بها الفصحى (١)؛ أي: تكون العامية في شؤون الحياة اليومية؛ في السوق والشارع والبيت، وربما ترتقي إلى ما يعرف بالأدب الشعبي الذي يفهمه عامة الناس؛ من حكم وأمثال وقصص وأشعار، أما الفصحى فهي أكثر رقيا ومكانة وتتداول في مجالات التعليم والإعلام والمحافل الرسمية، وهي اللغة التي تكتب بها المقالات العلمية والأدبية الرفيعة في الصحف والمجلات، فمن خلال هذه العلاقة التكاملية فلا مضارة بين الفصحى والعامية إذا استعملت كل منهما في مجالها.

أسباب استعمال العامية في التدريس

هناك أسباب كثيرة أدت إلى شيوع العامية في عملية التدريس في مراحل التعليم المختلفة، من أبرزها:

- ضعف التأهيل اللغوي للمعلم: وهي مسألة مؤثرة في عملية التعليم، تسبب الإخلال بها في تراجع مستوى العربية في مجال التعليم عامة في الفترة الراهنة، وقد مضى زمن كان ينظر فيه إلى المعلم على أنه رمز للمعرفة والحكمة؛ فهو مصدر المعرفة الوحيد في مجتمعه وأهل حيه، وما يحتاجون إليه في أمور القراءة والكتابة (٢) لكفاءته تربويا وعلميا ولغويا.

- تسهيل فهم المادة العلمية للمتعلم: وهي حجة واهية، حيث أكدت الدراسات الحديثة على ضرورة أن يتعلم الطفل في بدايات حياته باللغة العربية، وأن الأصل أن يكون التعلم والتعليم باللغة العربية الفصحى بلا استثناء، في كل المستويات (٣).

- تجاهل الجانب العملي من تعلم اللغة العربية: فلا تزال طرق السرد والحفظ والتلقين يعتمد عليها في عملية التدريس، وقد أثبتت كثير من الدراسات الحديثة أن هذه الطرق لا تثير في المتعلم روح المناقشة والحوار، بالإضافة إلى عدم استيعاب كل المهارات اللغوية، وشحذ أذهان التلاميذ بكم ضخم من الألفاظ غير المألوفة (٤).

وقد تسبب استعمال العامية في عملية التدريس إلى تراجع اللغة العربية في مجال التعليم من خلال المظاهر الآتية:

- ضعف الطالب في المراحل المتقدمة من التعليم في المهارات الأساسية للغة العربية؛ كالقراءة والكتابة والسماع والمحادثة.

- تشويه اللسان العربي من خلال امتزاج الفصحى بالعامية؛ فيقرأ الطالب من الكتاب المدرسي بالفصحى، بينما يسمع معلمه يتحدث بالعامية أثناء عرضه للدرس، وتلك ازدواجية لغوية لها أثر سلبي على الفصحى.

- الشكلية والجمود في تعلم قواعد اللغة العربية، وابتعاد ما يدرسه الطالب عن واقعه الذي يعيشه في حياته اليومية، وهذا الشعور له دور كبير في تفشي الضعف في اللغة العربية (٥).

- عزوف النشء عن القراءة، وقد أثبتت الحقائق أن اللغة العربية الفصحى فيها سر عجيب لو أتقنها المتعلم سيجد فيها شوقا إلى القراءة (٦).

- التقليل من قيمة الفصحى في وسائل الإعلام، والاستهانة بمعلم العربية، حتى صور في بعض المواد الإعلامية بصورة هزلية، بينما يجل معلمو اللغات الأجنبية فيلقون تقديرا ومكانة (٧).

مقترحات للنهوض بالفصحى في مجال التعليم

لقد بذلت جهود كثيرة للحد من العامية في مجال التعليم، بدءا بتأليف الرسائل والكتب التي تهدف إلى الوقاية من الوقوع في شرك الألفاظ العامية (٨) وصولا إلى مشاريع لغوية ناجحة تهدف إلى معالجة كل مظاهر الضعف في اللغة العربية في مجال التعليم. ولعل ما قام به الدكتور عبدالله الدنان في السنوات الأخيرة يصب في هذا الاتجاه؛ حيث وضع نظرية فريدة في تعلم الفصحى بالفطرة والممارسة، واقترح حلا لمشكلة تعليم اللغة العربية الفصحى في المرحلة الابتدائية مبنيا على أحدث النظريات والتطبيقات العلمية الخاصة بتعليم اللغات، التي تفيد بأن القدرة الفطرية الهائلة لاكتساب اللغات عند الأطفال تبدأ قبل سن السادسة، وأنها تبدأ بالضمور بعد هذه السن (٩)، وأن الطفل يبتدئ باكتساب اللغة من خلال اتصاله بالبيئة الثقافية بصورة عفوية تقوم على التقليد والمحاكاة ثم يصير قادرا على إخراج الكلمات والجمل والتعبير بطريقة تلقائية (١٠). وبدأ الدكتور الدنان تطبيق نظريته تلك في بعض المدارس الخاصة ورياض الأطفال، حيث يمارس فيها الطالب اللغة العربية الفصحى لغة وحيدة

للتواصل في المدرسة طوال اليوم المدرسي بحيث لا يسمع الطالب في المدرسة إلا الفصحى ولا يقبل منه إلا الفصحى (١١).

ومن الأمور التي تعزز من استعمال الفصحى في مجال التعليم

- اختيار ألفاظ عامية قريبة من الفصحى بحيث يفهمها التلميذ، فالمعلم الناجح هو من يستفيد من لغة الكلام التي يأتي بها التلميذ إلى المدرسة، وهنا يمكن إحكام الصلة بين لغة التعليم ولغة التخاطب اليومي (١٢).
- استخدام طريقة التسكين في المستويات الأولى من التعليم؛ أي تسكين أواخر الكلمات، ما عدا الكلمات المبنية، فإنها تنطق بحسب حركة بنائها؛ لأنها تلزم حركة واحدة.
- أن تكون دراسة قواعد اللغة عملية أكثر مما هي نظرية من خلال اعتماد مهارات الاستماع والكلام لدى المتعلم في المراحل الأولى؛ ليكتسب من ذلك الجرأة الأدبية على التعامل بالعربية الفصحى (١٣).
- الاستفادة من التقنية العلمية الحديثة والوسائل التعليمية الفعالة في تعلم اللغة؛ حيث يكون دور المعلم ميسرا وموجها للتعلم، متسما بالكفاءة العلمية والتربوية اللازمة. وإن صفا نشيطا يقوده معلم ماهر يستطيع، بكل تأكيد، أن يعالج كل اعوجاج أو نقص في مستوى الطالب (١٤).
- استعمال اللغة العربية الفصحى في كل أنواع النشاط المدرسي، مثل: الطابور الصباحي، الصحافة والإذاعة المدرسية والتمثيل المسرحي والخطابة، والندوات.
- تحفيز التلميذ على القراءة الحرة خارج حدود المدرسة، من خلال ربط الطفل بالكتاب أو المجلة (١٥)، فهي بلا شك تزيد ذخيرته اللغوية وتمده بالمعاني والأفكار وتوسع أفقه وخياله.
- أن تسهم الأسرة في إشاعة الجو الثقافي داخل البيت من خلال توفير مكتبة خاصة للأطفال، واستخدام أسلوب القصص، وممارسة الألعاب اللغوية التي تسهم في تنمية مهارات الفصحى لديهم (١٦).
- إشاعة الفصحى في وسائل الإعلام، خصوصا البرامج الموجهة إلى الأطفال، وأن توطد علاقاتها بالمؤسسات التربوية والتعليمية من خلال الحفاظ على الفصحى ورفع مكانتها لدى الأجيال الحاضرة.

الهوامش

١- انظر: جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، الكويت: عالم المعرفة، يناير ١٩٩٠م، ص٦١.

٢- انظر: عبدالعزيز الجلال، تربية اليسر وتخلف التنمية: مدخل إلى دراسة النظام التربوي في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، الكويت: عالم المعرفة، يوليو ١٩٨٥م، ص٨٩-٩٠.

٣- انظر: حوار مع د. محمد الحملاوي، مجلة «الوعي الإسلامي»، العدد ٥١٦، شعبان ١٤٢٩، ص٢٦.

٤- انظر: عبدالعزيز الجلال، مرجع سابق، ص٧٠-٧١.

٥- انظر: سميح أبومغلي، التدريس باللغة العربية الفصيحة لجميع المواد في المدارس عمان -دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص٨-٩

٦- انظر: تجربة الدكتور عبدالله الدنان مع خمسين طفلا للقراءة والتلخيص في إحدى المدارس الابتدائية التي يشرف عليها، حيث وجد في نهاية العام أن أقل طالب قرأ ٣٦ كتابا، أما الأول فقد قرأ ولخص ٢٨٤ كتابا، (موقع طريق الدعوة).

٧- انظر: ندوة «أسباب تدهور استعمال اللغة العربية»، موقع: minbar@aljazeera.net، تاريخ الحلقة: ٢٠٠٩/٢/٢٢م.

٨- أشار إليها د. حسين نصار في تحقيقه لمعجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، القاهرة: دار الكتب ج١، ص٩-١٠.

٩- انظر: جمعة سيد يوسف، مرجع سابق، ص٤٩-٥٠.

١٠- انظر: هادي الهيتي، ثقافة الأطفال، الكويت: عالم المعرفة، مارس ١٩٨٨م، ص١٤٢-١٤٤.

١١- أشير إليها في العدد ٥٩٦ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ من مجلة الوعي الإسلامي، «نظرية جديدة لتعليم الفصحى» ص٥٨، وله بحث سابق بعنوان «إعداد المعلم وتدريبه على تعليم اللغة العربية الفصحى في المرحلة الابتدائية» مقدم إلى ندوة تعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائية: الواقع والتطلعات المنعقدة في ذي القعدة ١٤٢٠هـ، بالمملكة العربية السعودية.

١٢- ينظر: علي النعيمي، الشامل في تدريس اللغة العربية، دار أسامة الأردن - عمان، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٤٢.

١٣- انظر: سميح أبومغلي، مرجع سابق، ص٥٢.

١٤- انظر: انجيلا ميديسي، التربية الحديثة، ترجمة علي شاهين، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٥م، ص١٢٩.

١٥- وهنا لابد من الإشادة بملحق مجلة «الوعي الإسلامي» (براعم الإيمان) ودورها المتميز في هذا المجال، حيث تمثل وجبة شهية ينتظرها الأطفال نهاية كل شهر.

١٦- هناك رسالة بعنوان «فاعلية استخدام الألعاب اللغوية في تنمية مهارات التعبير الشفهي الإبداعي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية» للدكتور راضي فوزي حنفي.

قصة قصيرة

الرسالة

محمد عباس
كاتب مصري

بدت السماء لمسعود منبثقة من بين الأبنية الإسمنتية المحيطة، مكسوة بطلاء ضوئي سحري، ينبض بسكينة حالمة، تليق بالموقف الذي يحيط به، تمنى لو يزيح تلك الأبنية، ليتسع له مجال الرؤية، يرى باب السماء كما لم يره من قبل. حدق في وجه الشمس، تساءل: هل يمكن أن تموت، وإذا ماتت كم عدد المشيعين الذين سيتبعون جثمانها إلى مثواه؟

ها هي الأقدام من حوله تمضي، أعداد مهولة من الوجوه العابسة، تتحرك في بطء وبلا تدافع، بينما الموت يسير الهوينا أمامهم.

تفجرت خواطره بين عينيه، سحبته من الموقف حوله، جرفت معها هدوءا كان يتوارى خلفه عن أعين الخلق، كونه غريبا هنا وسط غرباء، يحتم عليه أشياء بعينها، عليه ألا يندفع إلى خصومة قد تجره إلى عراك، العراك قد يضطره إلى سماع ما لا يطيق سماعه، لذا فقد وضع نصب عينيه أن يتوارى خلف هدوء، يبدو للعيان طيبة أو تسامحا، أو هو سيماء صلاح، يبتعد به عما لا يعنيه، مركزا اهتمامه فقط في حانوته الصغير الذي يرتزق عن طريقه، والمسجد القريب الذي يؤدي فيه صلواته، ثم بيته الذي يغلقه دوما، قانعا من معرفة الناس حوله بسلام عابر، أو كلمة طيبة لا أكثر، وقد قبل من الأيام تلك الحالة راضيا بحياته كرجل على الهامش، إلى أن مات اليوم رمضان، شيخ الجامع الكبير.. أغلق حانوته فورا، توجه إلى المسجد للصلاة عليه، ثم مرافقة جثمانه إلى مثواه. البلدة كلها هوت أفئدتها إلى المسجد، ثم تبعته إلى المقابر، أعداد رآها مسعود وهو يمضي حاملا شيب نظراته، ووهن خطواته، فتفجرت في صدره براكين خواطر، أغرقت هدوءه، وتركته في جحيم من الحروف المصهورة التي تأكل قلبه بأنياب حداد، فتح عينيه على ما لم يطف بخياله من قبل، سائلا نفسه:

- كم عدد المشيعين لجثمانك لو مت اليوم؟

أشاح بوجهه محاولا الإفلات من إلحاح السؤال على رأسه، ارتفع رنينه أكثر، تردد صداه في أروقة دماغه، ورأى جثمانه يسير هزيلا، وبضعة أشخاص لا يكادون يشدون البصر أو يملأون العين، يسيرون خلفه، أغرقت بحار الأسى عينيه وهو ينعى نفسه متحسرا على حاله، سيذهب إلى الآخرة غريبا كما عاش طوال حياته. هل يبالي أهل الآخرة بكثرة عدد المشيعين للميت، وهل تكون مكانته بينهم مرتبطة بهذا العدد؟

أدار عينيه في الخلق حوله، رؤوس مبذورة في أديم الأرض، كبرت وترعرعت لتسير خلف جثمان رمضان شيخ الجامع الكبير، تودعه في ود غامر ليدخل إلى الآخرة مفاخرا بعدد مشيعيه، كيف له وهو الغريب الذي لا يعرفه إلا من يتعامل معه - وهم قليل - أن يناجي الأرض لكي تنبت رؤوسا مثل تلك لتسير خلفه؟

تكورت الدموع في عينيه، صنعت أمواجا هادرة، ودوامات ما لها من قرار، رأى جثمانه من جديد ملقى على الأرض، لا يجد من يحمله، امرأته وحيدة بالطريق تبكي رجلها الذي لا يجد من يتعطف ويسير خلفه إلى حيث يواريه التراب.. من خلف الدموع المتأججة في عينيه رأى المرئيات من حوله كائنات هلامية، تتحرك في متاهة الأرض.. ظلال تتحرك أو هي أقنعة ترتديها الأرواح، ثم ما تلبث أن تخلعها بعد أداء دورها على مسرح الحياة، لفتت انتباهه بين تلك المرئيات حروف ذهبية مكتوبة على لوحة معلقة على مدخل حانوت قريب، سقطت عليها أشعة الشمس، فأخذت تشد الأعين المارة برونقها، مسح وجهه بباطن كفه، قرأ:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

حدقت عيناه في الكلمات، كأنما يتعرف عليها من الحطيئة لأول مرة، اللوحة تبدو أعلاها سماء صافية الأديم، تحت السماء تلك الكلمات، وتحت الكلمات مباشرة صحراء قاحلة، اصفرارها لامحدود، إلى جانب منها تنزوي نخلتان متجاورتان، يسير تحت ظلهما رجل وحيد، يحمل بيده اليسرى عصا يتوكأ عليها، واليمنى ممسكة بطرف مخلاة من القماش، ملقاة على ظهره المحني قليلا إلى الأمام.. عاد مسعود يمسح عينيه بقوة، يواصل التحديق في اللوحة، يشعر أنه ذلك الرجل السائر وحده وسط الصحراء، حاملا مخلاته في سكينة القانع بأحواله وطول سفره، أن تلك الكلمات هي رسالة هبطت عليه من السماء، رسالة فيها مهمة محدد عليه أن يقوم بها، وإجابة شافية على تساؤله الذي لم يبح به لمخلوق.. عاد للبكاء، لكنه هذه المرة حمدا للذي لم يتركه رغم غربته، ورغم سيره وحيدا في صحراء الوجود.



أحمد شاكر الكرمي

(١٣١٢-١٣٤٦هـ = ١٨٩٤-١٩٢٧م)

د.محمود خلف
باحث في الدراسات الأدبية

هو: أحمد شاكر بن سعيد الكرمي. من أسرة علم وأدب، كاتب صحافي، رشيق الأسلوب دقيق التعبير. تعلم بالأزهر في القاهرة، واشتغل بالصحافة، وأحسن الإنجليزية.

ولد أحمد شاكر الكرمي بن الشيخ سعيد الكرمي، وشقيق الشاعر عبدالكريم الكرمي - أبي سلمى - في مدينة طولكرم، مركز قضاء بني صعب في فلسطين، سنة ١٨٩٤م كما هو مذكور في سجل الأحوال المدنية بدمشق.

تلقى علومه في المرحلة الابتدائية في مدارس طولكرم ثم ولى وجهه شطر القاهرة ليرتشف العلوم والمعارف من معين الأزهر الشريف، وصحبه في رحلته إلى مصر والانتساب للأزهر أخوه محمود الكرمي. وقد جاء في وثيقة بتوقيع الشيخ عيسى منون شيخ رواق الشوام بالأزهر مؤرخة ٥ رجب ١٣٤٢هـ ما يلي: «بالكشف من سجلات رواق الشوام بالأزهر الشريف تبين أن الشيخ أحمد شاكر نجل الشيخ سعيد الكرمي من أهالي طولكرم التابعة لنابلس بفلسطين جاء إلى الجامع الأزهر الشريف، وانتسب برواق الشوام بتاريخ ١١ شوال سنة ١٣٣١هـ واستمر إلى ٩رجب سنة ١٣٣٦هـ».

أصل أسرته من اليمن، يقول الزركلي: وسألت والده عن أصلهم، فكتب لي ما يأتي: «أصلنا من عرب اليمن الذين جاءوا لفتح مصر مع عمرو بن العاص، ولما فتحت مصر وقسمت أرضها على الغانمين بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج سهمهم في إقليم الشرقية الذي سكنه عدة قبائل لم يزالوا معروفين، والبلدة التي سكنها أهلنا اسمها «شنبارة»، وبما أنه يوجد هناك قريتان بهذا الاسم فتميزت قريتنا باسم «شنبارة الطنينات» (١) ولم يزل أقاربنا فيها للآن، وهم سادتها، ويعرفون ببيت الدحار، وأول من جاء منهم لبلاد فلسطين جد والدي، نزح كما نزح غيره من أهالي قرى مصر لأسباب اختلفوا فيها، فمن قائل: إن نقص النيل عن إرواء الأراضي هو السبب، ومن قائل: إن التكاليف التي طلبها منهم محمد علي باشا هي التي ألجأتهم للهجرة» (٢).

أمضى الأخوان في الدراسة وطلب العلم في رحاب الأزهر نحوا من سبعة أعوام، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م وتعذر الاتصال بين مصر وفلسطين سافر أحمد شاكر إلى الحجاز ليحرر في جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في مكة المكرمة يومئذ بناء على اختيار الكاتب العربي الفذ والمجاهد الحر الأستاذ محب الدين الخطيب له بالذات لمعاونته في تحرير الجريدة سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م. وقد أمضى الكرمي في الحجاز سنة واحدة عاد بعدها إلى القاهرة وعمل محررا في جريدة «الكوكب» الأسبوعية والتي كان يحررها محمد القلقيلي.

أقبل على دراسة اللغة الإنجليزية حتى أجادها، وعاد بعد ذلك إلى مدينته طولكرم فمكث بها فترة وجيزة سافر بعدها إلى دمشق في صحبة والده الذي كان يومئذ نائبا لرئيس المجمع العلمي هناك.

في سنة ١٩٢١م أسهم في تكوين أولى الجماعات الأدبية في سوريا وهي التي سميت باسم الرابطة الأدبية، وفي تحرير مجلتها التي سميت باسمها، ثم تولى تحرير مجلة الفيحاء سنة ١٩٢٣م. وفي سنة ١٩٢٥م أنشأ مجلة الميزان التي عاشت عامين ١٩٢٥م و١٩٢٦م.

اتصل من خلال عمله بالأدباء العرب في مصر والمهاجر، وجرت بينه وبينهم مراسلات، وكان يوقع مقالاته بأسماء متعددة أشهرها قدامة. تزوج ولم ينجب ثم داهمه مرض السل ومات على إثره.

أدبه

أحمد شاكر الكرمي أديب فذ، وكاتب

نابغة، وناقد شجاع، ومترجم مجيد، واسع الثقافة، متنوع المعرفة، كتب العديد من الأبحاث والمقالات في الأدب والنقد. وقد ظفر بنصيب موفور من الشهرة التي تجاوزت حدود بلاده، ونوه به وبأدبه وبموهبته عدد من الأعلام الذين أطروا فكره، وقرظوا هذا الفكر ومدى ملاءمته لروح العصر.

من أول الآثار الأدبية التي خلفها «الكرميات»؛ وهي مجموعة من المقالات تناولت ثلاثة عشر موضوعا في الأدب والتاريخ والفلسفة والأخلاق والاجتماع والترجمة، وقد نشرها الأستاذ محيي الدين رضا في القاهرة سنة ١٩٢١م، وكتب لها مقدمة قرر فيها أن الكرميات تهدف إلى ثلاثة أغراض:

ترقية اللغة الكتابية؛ ويظهر ذلك جليا من أسلوبها المنسجم الذي يميل إلى السهولة والمتانة، فقد طارد كاتبها الأساليب القديمة.

التهذيب الخلقي؛ فقد علم صاحب الكرميات أن النفوس أصبحت مقفرة من المكارم، نفورة عن الفضائل، تعشقت الشرور، وركبت لها كل مركبة. فأبرز لنا حقائق لو اتبعها الناس لاستراحوا وأراحوا، وانصرفوا إلى الخير... ومن أقواله: «إن هذه الدنيا ما هي إلا مسرح تعرض عليه الأعمال كما هي، والناس يتلقفون ما يرونه ذا صلة بنفوسهم».

مدحه أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، بقوله: «النابغ، الناقد، مازني الشام، وعقاده». وفي سنة ١٩٦٤م كتب الأستاذ فؤاد الشايب مقدمة طويلة لكتاب أحمد شاكر الكرمي الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، قال فيها عن الكرمي ما يلي: «عربي النفس والطيب، أزهري الدراسة والتربية، إنساني الثقافة والشوق بما تيسر له من اطلاع على الأدب الغربي عن طريق إتقانه اللغة الإنجليزية. هذه هي ملامح الصورة التي صعدت حولها أنظار الدمشقيين، وعلقت بها عام ١٩٢٠م عندما حط على روضهم هذا الطائر العربي النادر صاحب الجناحين الملويين والمنقار الكاسر، لم يكن فلسطينيا، ولا حجازيا ولا مصريا، ولا شاميا. هذا الفتى العربي الجريء الذي ما لبث أن تصدر صحن الدار الشامية، وكأنه ولد فيها مع ليمونتها، أو نقش كبيت شعر على صدر قاعتها...».

ويقول الباحث علي مواسي: «يعتبر أحمد شاكر الكرمي من الشخصيات الثقافية والأدبية والبحثية التي تركت أثرا مهما في الساحة الفلسطينية السورية قبل نكبة عام ١٩٤٨م، وذلك بما قدمه من إسهامات لافتة وجدية في حقلي النقد الأدبي والترجمة تحديدا. فعلى الرغم من أن الحركة النقدية في فلسطين - سوريا، شأنها في ذلك الزمان شأن النقد في سائر العالم العربي، لم يقدها نقاد متخصصون في هذا الحقل، إنما كان كتاب النقد في غالبيتهم من المشتغلين في حقول الثقافة والأدب العامة، إلا أن الكرمي استطاع أن يقدم نموذجا للناقد المتخصص الموضوعي الباحث، الأمر الذي دفع حسام الخطيب إلى اعتباره (بالمعنى الدقيق لكلمة نقد).. أول ناقد متخصص في الحياة الأدبية الفلسطينية الحديثة».

نظراته

في الكتاب الذي أصدرته مديرية الترجمة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٦٤م قسم أبوسلمى آثار أخيه أحمد شاكر إلى الأقسام السبعة الآتية:

١- مفكرة المحرر.
٢- آراء أحمد شاكر الكرمي.
٣- المعرض العام.
٤- النقد.
٥- الشعر الغربي.
٦- القصص.
٧- أقوال ورسائل.

● نموذج من أدبه:

قال أحمد شاكر الكرمي في إهداء كتابه «الكرميات» إلى الأستاذ محيي الدين رضا: «ما الملك العظيم في سلطانه، والظالم المستبد بين حراسه وأعوانه، والغني الكبير بين غلمانه، إلا مظاهر باطلة من مظاهر الحياة. وقد درج الناس منذ القدم على أن يحرقوا ذكاءهم بخورا أمام هذه الجنائز الثلاث، أما أنا فإن لي طريقا آخر أسير فيه. لا أهدي كتابي للملوك والظلام لأنني أبغضهم. ولا أقدمه للأغنياء والمترفين لأنني أحتقرهم، ولكني أرفعه لك يا محيي الدين يا صديقي العزيز ليكون ذكرى لصداقتنا الوثيقة واعترافنا بأدبك وفضلك».

آثاره

● خالد: رواية مترجمة عن الإنجليزية للقصصي الأميركي ماريون كراوفورد (١٩٢٣م).
● الكرميات: مجموعة مقالات وقصص - القاهرة - (١٩٢١م).
● مجلة الميزان: (١٩٢٥-١٩٢٦م).
● مذكرات بكويك: رواية مترجمة عن الإنجليزية نشرت تباعا في مجلة الميزان.
● مي، أو الخريف والربيع: رواية مترجمة عن الشاعر الإنجليزي جيوفري تشوسر (١٩٢٢م).

وفاته

في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢٧م انطفأت شعلة حياته، ودفن في مقبرة «باب الصغير» بدمشق، وكتب على قبره: «هنا يرقد أحمد شاكر بن الشيخ سعيد الكرمي، مات غريبا إلا من إخوانه، وتحت هذه الكلمة كتب هذان البيتان من الشعر، للشاعر السوري المشهور محمد البزم:

ثوى تحت هذا الثرى أحمد ... فأشعل في القلب نيرانه
وأسرع يبغي رضا ربه ... وتاريخه ود غفرانه

الهوامش

(١) ورد اسمها في كتاب «قوانين الدواوين» وكتاب «تحفة الإرشاد» باسم «شنبارة الطنانات»، وتعرف حاليا باسم «الصوة» بمركز أبوحماد بمحافظة الشرقية، محمد بك رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: (٧٨/٢).
(٢) الأعلام: (١٣١/٧).

عثرات الأقلام (٤)

التحرير

رأت مجلة «الوعي الإسلامي» إعادة نشر السلسلة الماتعة من «عثرات الأقلام» المسطرة بين طيات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، والتي تهدف إلى نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه.
واجتهد المجمع في الاقتصار على ما ظنه خطأ من القول، مما لا يحتاج فيه إلى الرد والمناقشة، تفاديا للمجادلات والمناقشات التي طالما كانت سببا في خفوت الأصوات، وموت المشروعات. وزيادة في تجنب أسباب الجدل والمناقشة، اكتفى المجمع بنقد القول دون ذكر اسم كاتبه أو الصحيفة التي كتب فيها.
سائلين الله عزوجل أن يقع هذا العمل موقع الرضا والقبول، فيتدبروا هذه الملاحظات، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم، إذ ليس الغرض من ذلك كله إلا خدمة اللغة العربية الكريمة، وإحياء فصيح تراكيبها وبليغ أساليبها، والله الموفق والمعين.

أخذنا ننشر من عهد قريب تحت هذا العنوان بعض الأغلاط الشائعة في الكتابات العصرية مما نطلع عليه في الجرائد وغيرها، مع الإشارة إلى وجوه تصحيحها، مقتصرين في ذلك على ذكر ما كان منها صريحا لا يقبل التخريج أو التأويل، وما كان جوهريا لا عرضيا؛ تفاديا من المناقشات التي لا تجدي نفعا، وخوفا من أن يفوتنا ما نقصده من إقبال الكتاب على تصحيح كتاباتهم من دون أن يتمحلوا الحجج والأعذار لإصلاح بعض ما نبهنا عليه من تلك العثرات.

غير أنه من موجبات الأسف أن كثيرين من أولئك الكتاب لم يزالوا يكررون تلك الأغلاط بعد التنبيه عليها، كأنه يعز عليهم الإقلاع عما تعودوه من الخطأ والركاكة والعادة طبيعة ثانية، أو كأنهم يفضلون الاستمرار على الغلط أنفة واستكبارا ومكابرة في الحقائق. وهذا الإهمال أو التهاون، وإن كان من المثبطات، لا يمنعنا من متابعة عملنا والمثابرة عليه إلى أن نرى كتابنا آخذين في تقويم أود كتابتهم وتنزيهها عن شوائب الأوهام. ومما يشجعنا على ذلك أن كثيرين من أهل العلم والفضل نشطونا باستحسانهم صنيعنا، وبعض الكتاب قد استفادوا من انتقاداتنا فهذبوا ألفاظهم وصححوا عباراتهم، وبعض الأدباء رغبوا في اتباع مثالنا والنسج على منوالنا، فنشروا على صفحات الجرائد بعض الأغلاط، وأشاروا إلى وجوه تصحيحها، وهو عمل ممدوح، لأنه يدل على شغفهم بهذه اللغة الشريفة وغيرتهم عليها، فنحن نثني عليهم، ونتمنى أن يكثر أمثالهم في الوطن العزيز، لكننا نستأذنهم في إيراد الانتقادات الآتية:

١- إنهم اتخذوا لانتقاداتهم العنوان الذي اتخذناه نحن، وهذا ما يدعو إلى الالتباس، حتى يعسر على القارئ التمييز بين ما ننشره نحن وما ينشرونه هم، ويعرض المجمع العلمي إلى أن ينسب إليه ما لم يكن موافقا عليه. وقد كان في إمكان أولئك الأدباء أن يتخذوا لانتقاداتهم عنوانا آخر؛ دفعا للالتباس، لأن الألفاظ الدالة على هذا المعنى كثيرة. والعجيب أن أحدهم زاد على عنواننا لفظة الألسنة، ولم نر سببا لتلك الزيادة إلا إذا كان يظن أن عثرات الأقلام غير عثرات الألسنة، والذي نظنه نحن أن من يصحح عثرات قلمه يصحح عثرات لسانه.

٢- إنهم كرروا تصحيح بعض الأغلاط التي نبهنا عليها وصححناها، وما عهد ذلك ببعيد فينسى، فكأنهم لم يطلعوا على ما نشرناه أو اطلعوا عليه وتجاهلوا لسبب لا نعلمه.

٣- إنهم أنكروا على الكتاب استعمال ألفاظ وتراكيب صحيحة كـ«عوائد» في جمع «عادة»، و«صنائع» في جمع «صناعة»، وكتعدية «أحس» بالباء.. وغير ذلك مما لا ينكر استعماله. أما «عوائد» فقد نص على صحتها في كتب اللغة، قال في «تاج العروس»: ومن جموع العادة عوائد، ذكره في «المصباح» وغيره، وهو نظير «حوائج» في جمع «حاجة» (أ.هـ). فالظاهر من هذا النص أن هذا الجمع منقول من العرب؛ لثبوته عند أئمة اللغة. وقد ورد استعماله في كتابات البلغاء، قال ابن خلدون في مقدمته: «العوائد ترسخ بكثرة التكرار».

وأما «صنائع» فهي جمع «صناعة» على القياس، كما يتبين ذلك من مراجعة أقوال العلماء، قال أبوعلي الفارسي في كتاب «الإيضاح»: إن ما كان على وزن «فعالة»

(أي مثلث الفاء) يجمع سالما ومكسرا، فيقال في جمع: «ذؤابة وسحابة ورسالة ذؤابات وذوائب وسحابات وسحائب ورسالات ورسائل». وجاء مثل هذا القول في كتاب «التسهيل» لابن مالك وكتاب «شرح الألفية» للأشموني. والمستفاد من ذلك أنه يجوز أن تجمع «صناعة» على «صنائع» كما نص على ذلك في بعض المعاجم، وقد وردت هذه اللفظة أيضا في مقدمة ابن خلدون مئات من المرار، كقوله: إن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقضت منها الصنائع، لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها.

وأما تعدية «أحس» بالباء فقد نص عليها القاموس قال: أحس الشيء بالشيء علمه وشعر به.

ومما أنكره أحدهم على الكتاب قولهم: «ما كان لي أن أقول لك». وصححه بقوله: «ما يكون لي أن أقول لك»، أو «ما يصح لي». واستشهد بقول القرآن: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ (المائدة:١١٦). ومفاد ذلك أن استعمال الماضي بدلا من المضارع في مثل هذا التعبير خطأ. ولا نرى وجها لهذه التخطئة؛ لأنه إذا قال زيد لعمرو: «لم لم تخبرني بالأمر حين زرتني بالأمس؟». وأجابه عمرو: «ما كان لي أن أخبرك به قبل اليوم»، أي ما صح لي، أو ما جاز لي، كان التعبير صحيحا لا غبار عليه على أنه يجوز استعمال الماضي في موضع المضارع في مثل هذا المقام، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم مرارا عديدة كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة:١١٣)، وقوله أيضا: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ (التوبة:١٢٠)، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ (الأنفال:٦٧)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (الشورى:٥١). والمعنى في هذه الآيات وأمثالها: ما يصح، وما ينبغي، وما يجوز؛ وذلك دليل واضح على جواز استعمال «كان» في موضع «يكون» في الجملة المعترض عليها. وأما قول المعترض: ولك أن تقول أيضا ومعناه يقرب من معنى ما سبق «لم أكن لأقول لك، وما كنت لأقول لك» ففيه نظر؛ لأن المعنى في هذه الجملة نفي القول، والمعنى في الجملة السابقة نفي جواز القول، والفرق بين المعنيين بعيد، فلا يصح أن يعبر عن أحدهما بما يعبر به عن الآخر، فالمأمول في أدبائنا ألا ينشروا انتقادا من دون تحقيق، ولا يتطرفوا في انتقاداتهم إلى حد أنهم يمنعون استعمال الجائز في اللغة، لأن هذا المنع مضر بها كتجويز الممنوع، فكما أن استعمال الخطأ يفسدها كذلك ترك الصواب يضيق نطاقها ويثبط عزائم الكتاب ويغل أيديهم.

هذه انتقاداتنا أوردناها بالإخلاص، ولم نقصد بها المناظرة أو المناقشة، وإنما قصدنا بيان الحقيقة وإثبات الفائدة والله المسؤول أن يرشدنا جميعا إلى محجة الصواب.

● ومن عثراتهم قولهم: «وقد أعرب الحاكم عن حسن نواياه نحوهم»، صوابه: «عن حسن نياته»؛ لأن «نية» تجمع على «نيات» لا نوايا.

● ومنها قولهم: «وقد دعا الوزير ذوات البلد وكلمهم في الأمر»، صوابه: «وجهاء البلد وأعيان البلد». و«ذوات» جمع «ذات»، وإن كانت بمعنى نفس الشيء لم ترد بمعنى الوجهاء أو الأعيان في كلام الفصحاء.

● ومنها قولهم: «كما وأن هذه المسألة نالت استحسانا من الجميع»، صوابه: «كما أن» بحذف الواو إذ لا معنى لزيادتها في هذا المقام.

● ومنها قولهم: «لابد من السعي لأجل نوال هذه الأمنية»، صوابه «لأجل نيل هذه الأمنية»، أما «النوال» فمعناه «العطية والعطاء».

● ومنها قولهم: «ولم تظهر بعد نتيجة هذا التطاحن». لا معنى للتطاحن هنا وصوابه: «التقاتل، أو التصاول، أو التجاول».

● ومنها قولهم: «أي متى تنفرج الأزمة»، صوابه: «متى تنفرج» أو «إيان تنفرج» فهما للاستفهام عن الزمان المستقبل، أما «أي» فللاستفهام مطلقا، و«متى» تفيد الاستفهام بنفسها، فلا معنى لدخول أداة استفهام على أخرى.

ومنها قولهم: «أجال طرفه إلى الناس»، صوابه «أجال (أي أدار) طرفه ونظره فيهم» لا إليهم.

● ومنها قولهم: «باشروا بالإحصاء منذ أمس»، صوابه: «باشروا الإحصاء» من دون باء.

● ومنها قولهم: «سوف لا يهملون مصلحة البلاد». سوف والسين كالجزء من الفعل فلا يفصل بينهما بفاصل، فالواجب أن يقال: «سوف يهملون» (في الإثبات)، و«لا يهملون» (في النفي)، وإذا أريد تأكيد الاستقبال مع النفي قيل: «لن يهملوا» فهو نفي واستقبال معا.

● ومنها قولهم: «وهو من المحكومين بالسجن المؤبد»، صوابه: «من المحكومين عليهم»؛ لأنه يقال: «حكم عليه القاضي» لا «حكمه القاضي».

ومنها قولهم: «وقد أصبحت القلوب تشعر رحمة وحنانا على البؤساء»، صوابه: «تشعر برحمة وحنان»؛ لأن فعل «شعر» يتعدى بحرف الجر لا بنفسه.

● ومنها قولهم: «وقد شجب دولة الحاكم هذا الرأي وصوب الرأي الأول»، بمعنى «أهلكه وأحزنه»، ولا تكون بمعنى «قبحه وعابه»، كما يستعملها بعض الكتاب.

«الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف»

على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل

للقاضي علاء الدين علي بن سليمان المرداوي (ت: ٨٨٥هـ)

التحرير

كتاب «الإنصاف»، جليل القدر عظيم الفائدة، وإذا كان الخلال – رحمه الله- هو جامع كتب الرواية عن الإمام أحمد؛ فإن علاء الدين المرداوي جمع ما وقع له من كتب الرواية، ومن الكتب الجامعة لها، ومن كتب المتون في المذهب، وما لحقها من الشروح والحواشي والتعاليق والتخاريج والتصحيح والتنقيح، وربطه بكتاب «المقنع» لابن قدامة، الذي يعد قاعدة انطلاق لمسائله، ثم أتبعها في كل باب ما فاته، وضم إليه من الفوائد، والتنبيهات، وثمرات الخلاف في المذهب وغيره، ما تقر به عين الفقيه، ويبهر المتبحر، فضلا عن الطالب المتعلم؛ فصار كتاب «الإنصاف»، بهذا الاعتبار، مجددا للمذهب، جامعا لشمله، مصححا ومنقحا لرواياته وتخاريجه؛ حتى أغنى عن سائر كتب المذهب قبله أو كاد. وكتاب «الإنصاف» بالنسبة إلى روايات المذهب؛ يعتبر مثل كتاب: «جامع الأصول» و«كنز العمال» في السنة، بجمع الروايات ومن خرجها؛ فصار بهذا ديوان المذهب، ويصح أن يطلق عليه مكنسة المذهب في الروايات، كما أطلق على كتاب الفروع: مكنسة المذهب؛ أي من حيث الفروع (١).

مقتطفات من تقريرات المرداوي في مقدمته البديعة

بين الإمام المرداوي – رحمه الله – في مطلع مقدمته سبب تأليف كتابه، وتعلقه بغيره؛ فقال ما فائدته:

«إن كتاب «المقنع في الفقه» لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، من أعظم الكتب نفعا، وأكثرها جمعا، وأوضحها إشارة، وأسلسها عبارة، وأوسطها حجما، وأغزرها علما، وأحسنها تفصيلا وتفريعا، وأجمعها تقسيما وتنويعا، وأكملها ترتيبا، وألطفها تبويبا. قد حوى غالب أمهات مسائل المذهب، فمن حصلها فقد ظفر بالكنز والمطلب. إلا أنه أطلق في بعض مسائله الخلاف من غير ترجيح؛ فاشتبه على الناظر فيه الضعيف من الصحيح؛ فأحببت – إن يسر الله تعالى – أن أبين الصحيح من المذهب والمشهور، والمعمول عليه والمنصور، وما اعتمده أكثر الأصحاب وذهبوا إليه، ولم يعرجوا على غيره ولم يعولوا عليه».

ثم أوضح أن ابن قدامة في كتابه المقنع؛ له اصطلاحات وإطلاقات ينبغي معرفة ما ترمز إليه، حتى تتسنى الفائدة من الكتاب، وقد طول في هذا الفرع لجليل الفائدة المرجوة منه، ومن ذلك قوله:

المصنف – رحمه الله تعالى – يكرر في كتابه أشياء كثيرة، عبارته فيها مختلفة الأنواع، فيحتاج إلى تبيينها، وأن يكشف عنها القناع. فإنه تارة يطلق «الروايتين» أو «الروايات» أو «الوجهين» أو «الوجه» أو «الأوجه» أو «الاحتمالين» أو «الاحتمالات» بقوله: «فهل الحكم كذا؟ على روايتين، أو على وجهين، أو فيه روايتان، أو وجهان، أو احتمل كذا واحتمل كذا» ونحو ذلك؛ فهذا وشبهه الخلاف فيه مطلق. والذي يظهر أن إطلاق المصنف وغالب الأصحاب ليس هو لقوة الخلاف من الجانبين، وإنما مرادهم حكاية الخلاف من حيث الجملة؛ بخلاف من صرح باصطلاح ذلك، كصاحب الفروع، ومجمع البحرين وغيرهما.

وتارة يطلق الخلاف بقوله مثلا: «جاز، أو لم يجز، أو صح، أو لم يصح، في إحدى الروايتين، أو الروايات، أو الوجهين أو الوجوه»، أو بقوله: «ذلك على إحدى الروايتين، أو الوجهين»، والخلاف في هذا أيضا مطلق، لكن فيه إشارة ما إلى ترجيح الأول.

وتارة يذكر حكم المسألة مفصلا فيها، ثم يطلق روايتين فيها، ويقول: «في الجملة» بصيغة التعريض؛ أو يحكي بعد ذكر الحكم إطلاق الروايتين عن الأصحاب، ويكون في ذلك أيضا تفصيل، فنبينه إن شاء الله تعالى.

وتارة يقول بعد ذكر حكم المسألة: «في رواية»؛ أو يقول: «في وجه»؛ ففي هذا يكون اختياره في الغالب خلاف ذلك، وفيه إشعار بترجيح المسكوت عنه، مع احتمال الإطلاق.

وتارة يحكي الخلاف وجهين، وهما روايتان، وقد يكون الأصحاب اختلفوا في حكاية الخلاف؛ فأذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وتارة يذكر حكم المسألة، ثم يقول: «وقيل عنه كذا»؛ أو: «وحكي عنه كذا»؛ أو: «وحكي عن فلان كذا»؛ بصيغة

التعريض في ذلك، وقد يكون بعضهم أثبته لصحته عنده فتبينه.

وتارة يحكي الخلاف في المسألة، ثم يقول: «قال فلان كذا» بغير واو. ولا يكون ذلك في الغالب إلا موافقا لما قبله؛ لكن ذكره لفائدة؛ إما لكونه أعم، أو أخص من الحكم المتقدم، أو يكون مقيدا أو مطلقا، والحكم بخلافه ونحوه.

وتارة يقول بعد ذكر المسألة: «في ظاهر المذهب. أو وظاهر المذهب كذا. أو في الصحيح من المذهب. أو في الصحيح عنه. أو في المشهور عنه»؛ ولا يقول ذلك إلا وثم خلاف، والغالب: أن ذلك كما قال. وقد يكون ظاهر المذهب. والصحيح من المذهب عنده دون غيره. و«ظاهر المذهب» هو المشهور في المذهب.

وتارة يقول: «في أصح الروايتين، أو الوجهين، أو على أظهر الروايتين، أو الوجهين»، ولا تكاد تجد ذلك إلا المذهب، وقد يكون المذهب خلافه، ويكون الأصح والأظهر عند المصنف ومن تابعه.

وتارة يطلق الخلاف، ثم يقول: «أولاهما كذا»؛ وهذا يكون اختياره، وقد يكون المذهب.

وتارة يقول بعد حكايته الخلاف: «والأول أصح، أو وهي أصح»؛ ويكون في الغالب كما قال، وقد يكون ذلك اختياره.

وفي بيانه أمر اختلاف الرواية عن الإمام أحمد قال رحمه الله:

إذا روي عن الإمام أحمد رواية، وروي عنه: أنه رجع عنها، فهل تسقط تلك الرواية ولا تذكر، لرجوعه عنها، أو تذكر وتثبت في التصانيف؟ وعمل الأصحاب على ذكرها، وإن كان الثاني مذهبه.

وقد توقف عند مسألة قوة الخلاف، وتكافؤ الأقوال من حيث المآخذ والأدلة؛ فقال:

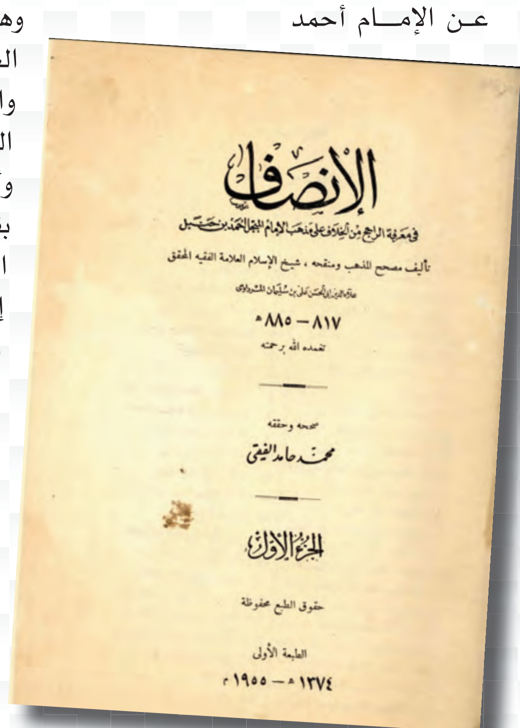
إذا كان الخلاف في المسألة قويا من الجانبين ذكرت كل من يقول بكل قول، ومن قدم وأطلق، وأشبع الكلام في ذلك. وإن كان المذهب ظاهرا أو مشهورا، والقول الذي يقابله ضعيفا أو قويا، ولكن المذهب خلافه، أكتفي بذكر المذهب وذكر ما يقابله من الخلاف، من غير استقصاء في ذكر من قدم وأخر.

ثم سرد مجردة طويلة للكتب والمصادر التي نقل منها، ولم أطول بذكرها تيسيرا على القارئ، ويمكن من أراد مراجعتها، قراءة المقدمة من كتاب «الإنصاف»، وقد قال في ذلك:

نقلت في هذا المصنف من كتب كثيرة؛ من كتب الأصحاب من المختصرات والمطولات، من المتون والشروح.

كما أنه بين منهجه في كتابه، جملة وتفصيلا؛ من حيث العزو والنقل والترجيح وغير ذلك، فقال رحمه الله:

طريقتي في هذا الكتاب: النقل عن الإمام أحمد


الإنصاف
في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل
تأليف مصحح المذهب ومنقحه، شيخ الإسلام العلامة الفقيه المحقق
علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي
٨١٧ - ٨٨٥هـ
تغمده الله برحمته
صححه وحققه
محمد حامد الفقي
الجزء الأول
حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م

والأصحاب. أعزو إلى كل كتاب ما نقلت منه. وأضيف إلى كل عالم ما أروي عنه. فإن كان المذهب ظاهرا أو مشهورا، أو قد اختاره جمهور الأصحاب وجعلوه منصورا، فهذا لا إشكال فيه. وإن كان بعض الأصحاب يدعي أن المذهب خلافه، وإن كان الترجيح مختلفا بين الأصحاب في مسائل متجاذبة المأخذ، فالاعتماد في معرفة المذهب من ذلك على ما قاله المصنف، والمجد، والشارح، وصاحب الفروع، والقواعد الفقهية، والوجيز، والرعايتين، والنظم، والخلاصة، والشيخ تقي الدين، وابن عبدوس في تذكرته؛ فإنهم هذبوا كلام المتقدمين، ومهدوا قواعد المذهب بيقين؛ فإن اختلفوا فالمذهب: ما قدمه صاحب «الفروع» فيه في معظم مسائله؛ فإن أطلق الخلاف، أو كان من غير المعظم الذي قدمه، فالمذهب: ما اتفق عليه الشيخان، أعني المصنف والمجد؛ أو وافق أحدهما الآخر في أحد اختياريه. وهذا ليس على إطلاقه، وإنما هو في الغالب؛ فإن اختلفا فالمذهب مع من وافقه صاحب القواعد الفقهية، أو الشيخ تقي الدين، وإلا فالمصنف.

وأما عن منهجه في الترجيح فبينه بقوله:

الترجيح إذا اختلف بين الأصحاب إنما يكون ذلك لقوة الدليل من الجانبين، وكل واحد ممن قال بتلك المقالة إمام يقتدى به؛ فيجوز تقليده والعمل بقوله، ويكون ذلك في الغالب مذهبا لإمامه؛ لأن الخلاف إن كان للإمام أحمد فواضح، وإن كان بين الأصحاب، فهو مقيس على قواعده وأصوله ونصوصه.

هامش

١- المدخل، للشيخ بكر أبوزيد، ٢/٧٢٩.



صور من ذكاء الصحابة

نجاح عبدالقادر
كاتب صحفي

إن المؤمن كيس فطن، ذكي واسع الأفق، حسن في تصرفه، حكيم في تدبيره. وقد تعلم الصحابة -رضوان الله- عليهم من معلمهم ﷺ ذلك. وهذه صور من ذكاء الصحابة، تبين -بجلاء- رجاحة عقولهم، وعبقرية تفكيرهم. وقد حرصنا على أن نقدم ثلاث صور: الأولى لصحابي جليل، والثانية لصحابية جليلة، والثالثة لأسرة طيبة من أسر الصحابة.

الصحابي حذيفة بن اليمان

قال ابن إسحاق: قال حذيفة بن اليمان: والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع -فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة- أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة». فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد، فلما لم يقم أحد دعاني، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال ﷺ: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا». قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال فلان ابن فلان (عند الواقدي: معاوية عن شماله، وعمرو عن يمينه (١). ثم قال أبو سفيان: ... ارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي: «لا تحدثن شيئا حتى تأتيني» لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي... فلما سلم أخبرته الخبر. وقد روى هذا الحديث مسلم بن الحجاج في صحيحه (٢).

فانظر كيف تصرف حذيفة رضي الله عنه في هذا الموقف العصيب، لقد استخدم مهاراته العقلية في ذكاء خارق، وبسرعة بديهة لا تحتمل التأخر لحظة، فعلى الرغم من أنه جلس بين اثنين من أذكى العرب (معاوية رضي الله عنه وعمرو بن العاص رضي الله عنه) فإنه تفوق عليهما، وأثبت أنه - في هذا الموقف- أذكى منهما، وتمثّل ذلك في:

أولا - مبادرته بالسؤال الفوري السريع لهما: حين قال أبو سفيان: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ فإذا بحذيفة يبادر مسرعا، ويأخذ بيد الرجل الذي كان إلى جواره ويسأله في حزم: من أنت؟ فأُسقط في يد من إلى جواره وكان لا بد له من الإجابة قائلا: فلان ابن فلان.

ثانيا - تجنب حذيفة، بذكائه وحسن تصرفه، أن ينكشف أمره، لأنه لو عُرف لكانت النتائج وخيمة عليه وعلى الجيش المسلم المرابط.

ثالثا - تحكم حذيفة في نفسه، واستخدم منتهى الحكمة بعدم رميه أبا سفيان بسهم يقتله؛ لأنه، من ناحية، لا يضمن أن ينفذ السهم فيقتل فعلا أبا سفيان. ومن ناحية أخرى، سيكون قد خالف رسول الله ﷺ في طلبه منه ألا يحدث شيئا. فكان هذا في قمة الذكاء وحسن التصرف.

الصحابية أم سليم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: اشتكى ابن لأبي طلحة، قال: فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات، هيأت شيئا، ونحته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبو طلحة أنها صادقة. قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما». قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن (٣).

هذا الحديث يبرهن على ذكاء أم سليم رضي الله عنها. ويَظهرُ ذكاؤها في هذا التدرج الواعي في إعلام زوجها بخبر موت طفلهما الصغير أبي عمير الذي كان النبي ﷺ يمازحه ويقول له «يا أبا عمير، ما فعل النغير». وكان أبو طلحة يحبه حبا شديدا. وتمثل هذا التدرج في كتمان الخبر عنه تماما في البداية، ثم تعمدها أن تتزين له لتسليه وتنسيه قلقه على ولده، ولو مؤقتا، ثم استخدامها أسلوب التعريض بقولها: «وأرجو أن يكون قد استراح». ثم استخدامها أسلوب تهيئة النفس لتلقي الخبر المؤلم بقولها في رواية مسلم: «يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوما أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا».

ثم لما تأكدت من عدم اعتراضه على أن يسترد صاحب العارية عاريته، قالت: فاحتسب ابنك.

ولا يخفى علينا ما في تصرف أم سليم من صبر جميل، وهي الأم التي مات طفلها الحبيب، وما في تصرفها كذلك من جلد وتحكم هائل في مشاعر الحزن والألم إلى الدرجة التي تزينت فيها لزوجها، حتى تغشاها. ولا يخفى كذلك علينا ما في قلبها من رسوخ الإيمان بقدر الله، والتسليم لقضائه، وهذا في منتهى الحكمة والذكاء. فكان طبيعيا أن يبارك الله لهما في ليلتهما -كما دعا رسول الله ﷺ لهما- ويرزقا تسعة من

الولد كلهم قد حفظ القرآن وعلمه. يقول ابن حجر: وفي قصة أم سليم هذه من الفوائد: مشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها. وشرط جوازها ألا تبطل حقا لمسلم. والمبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر في أول الحال تنكد عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذي أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلغها مناها وأصلح لها ذريتها... وفيه بيان حال أم سليم من التجلد وجودة الرأي وقوة العزم (٤).

أبو طلحة وأم سليم

قال البخاري: عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل النبي ﷺ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله؟». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ. فقال ﷺ: «لقد عجب الله عز وجل -أو: ضحك- من فلان وفلانة». وأنزل الله عز وجل:

﴿.. وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴾ (الحشر:٩) (٥).

وفي الرواية الأخرى: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرجل قال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان. فباتا طاويين (٦). وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه: «فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة» (٧).

هذا الحديث الشريف يبدو فيه جليا الذكاء الجميل المختلط بالحفاظ على الإحساس والشعور في أعلى درجاته. ويتمثل ذلك في:

أولا- إثارة أبي طلحة اهتمام زوجه بالضيف إلى أقصى درجة بذكاء شديد، وذلك بقوله لها «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ». وهو بهذا الأسلوب الموجز البليغ يحثها على أمرين: طاعة رسول الله ﷺ بإكرام ضيفه، ثم طاعة الزوج الواجبة في المعروف، فقدمت للضيف طعام أولادها، ونفذت أمر زوجها: «ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا».

ثانيا – ذكاء أم سليم في ردها على زوجها لتتأكد منه، فتقول له: «والله ما عندي إلا قوت الصبية».

وقد حرصت على ذلك، كأنها تستأذن زوجها في أنها ستقدم للضيف طعام أولادها الذي ليس في البيت سواه! واستئذانها هذا يقطع الطريق على لوم زوجها إياها إذا ما حدث مكروه لطفل من الأطفال أو قام من نومه باكيا من الجوع، وكأنها تقول له: لنكن متفقين على ذلك.

ثالثا – الذكاء الشديد وحسن التصرف مع الصبية الصغار. قال: «نومي صبيانك إذا أرادوا عشاء».

ونحن لا ندري كيف استطاعت أم سليم أن تنوم صبيانها بغير عشاء، اللهم إلا بذكائها الشديد وحسن تصرفها.

رابعا – الحرص على إحساس الضيف، وتنفيذ دواعي الإكرام معه كاملة، ومنها الجلوس مع الضيف وتناول الطعام معه، وهذه عادة عربية أصيلة أقرها الإسلام وشجع عليها. لكن السؤال هنا: كيف سيجلس أبو طلحة وزوجه لتناول العشاء مع الضيف، والطعام قليل ولا يكاد يكفي إلا هذا الضيف وحده؟! إن حل هذه المعضلة يحتاج إلى ذكاء شديد، وهذا ما فعله أبو طلحة وأم سليم، لقد قال لها: «فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج». ففعلت ذلك بمنتهى الذكاء: «ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته» فجعلا يريانه أنهما يأكلان وهما في الحقيقة لا يأكلان.. إنه الحرص على تنفيذ آداب الضيافة، من إيناس للضيف، وإيثاره بالطعام المتوافر، مع إيهامه بأنهما يأكلان معه.

خامسا – لقد علم أبو طلحة وأم سليم بذكائهما الإيماني أن إرضاء رسول الله ﷺ هو في الحقيقة إرضاء لله عز وجل، وأن في هذه الطاعة، وفي هذا التصرف الأخلاقي الذكي ثمرات عظيمة عند الله عز وجل، فإذا بأبي طلحة حين يصبح ذاهبا إلى المسجد يبادره النبي ﷺ بقوله: «ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما». ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما الرضا بصنيعهما.

لقد علم رسول الله ﷺ عن طريق الوحي بما صنع أبو طلحة وزوجه مع الضيف، ففرح بحسن تصرفهما، وبشرهما بنزول قول الله تعالى فيهما وفي من يصنع مثلهما: ﴿.. وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

الهوامش

١- المغازي للواقدي ٤٨٩/٢.
٢- البداية والنهاية لابن كثير، ج٤ ص١٣٠.
٣- البخاري ٥٣/٥ ومسلم ٢٢١/١٢.
٤- فتح الباري لابن حجر ٣٥٠/٤.
٥- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧١/٨.
٦- البخاري ١٥٧/١٢.
٧- مسلم ٢٨٠/١٠.



تنمية روح الإبداع عند الطفل

محمد شعطيط
خبير أسري

في طفولة بيل جيتس، دخلت عليه أمه البيت فوجدته شارد الذهن، فسألته: «ماذا تفعل يا بيل؟». فأجابها قائلا: «أنا أفكر. هل سبق لك يا أمي، أن فكرت؟». ظنت الأم أن بطفلها لوثة من جنون، فأخذته إلى الطبيب النفسي، الذي قرر بعد جلسة مطولة مع الطفل، الذي لم يتجاوز السادسة من عمره حينها، أن يحضر له مجموعة من الكتب لإشباع فضوله وتنمية رغبته الملحة في التفكير والإبداع.

لم يكن بيل جيتس بدعا من سائر الأطفال في حب الاستطلاع، الذي يعتبر منصة إطلاق الطفل إلى عالم الإبداع. لكنه وجد الأسرة الحاضنة التي آمنت بقدراته واستعداداته، التي جبله الله تعالى عليها، وعملت على دعمها، واستثمارها، وتوجيهها، وسقيها، حتى اشتدت، واستوت، وآتت من كل زوج بهيج.

وإذا كان للأسرة هذا الدور الفعال والإيجابي في التنشئة الإبداعية للطفل، فإنها أيضا سيف ذو حدين.. عامل تثبيط وقتل لموهبة الإبداع. ولذلك، إذا أرادت أي أسرة أن توفر البيئة المناسبة لتنمية روح الإبداع لدى أطفالها، فإنه يتحتم عليها الاشتغال على واجهتين نراهما رئيسيتين. إلا أنه وقبل الحديث عنهما لا بأس من تقديم تعريف مقتضب للإبداع وهو كما يلي: الإبداع مصدر بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه. وركي بديع: حديثة الحفر. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولا. وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٩)، أي ما كنت أول من أرسل. والبديع: المحدث العجيب. وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة:١١٧)، أي خالقها ومبدعها ومخترعها لا عن مثال سابق.. ورجل بدع، وامرأة بدعة: إذا كان غاية في كل شيء كان عالما أو شريفا أو شجاعا. هذا من الناحية اللغوية. أما عند ذوي الاختصاص، فيمكن الاكتفاء بتعريف الموسوعة الفلسفية العربية، فقد جاء جامعا مانعا، وقد عرفت الإبداع كما يلي: «إنشاء شيء جديد أو صياغة عناصر موجودة بصورة جديدة في أحد المجالات، كالعلوم والفنون والآداب».

أما الواجهتان اللتان ينبغي على الأسرة توجيه اهتمامها إليهما فهما:

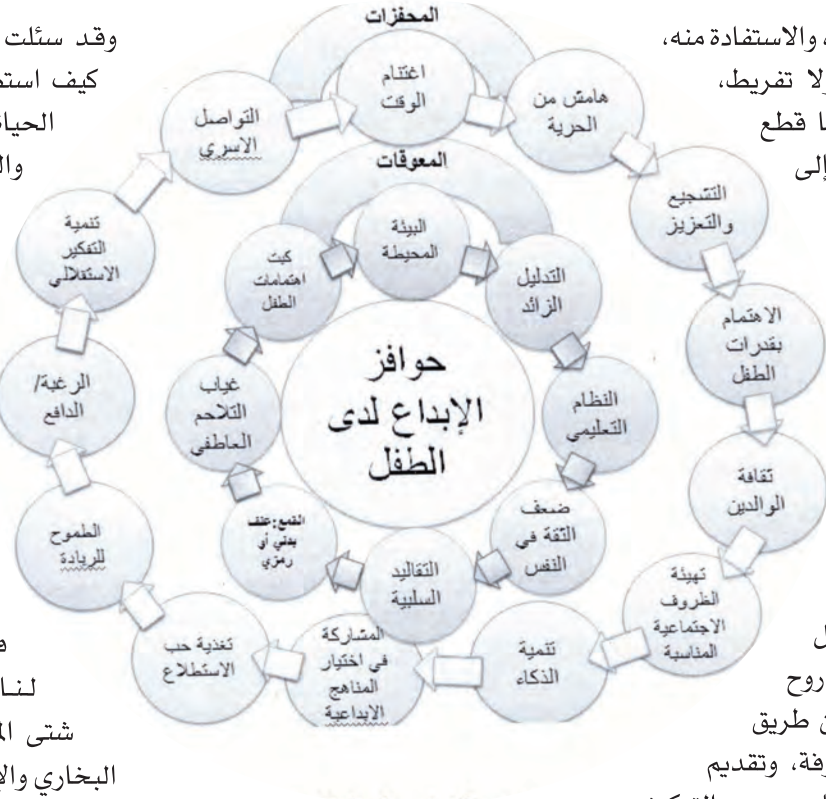
١ - العمل على تطوير محفزات الإبداع.

٢ - إقصاء معوقات الإبداع، أو العمل على تقليصها والتضييق عليها ما أمكن.

والخطاطة التالية يمكن أن تشكل خلاصة هذه المعوقات والمحفزات؛ حتى يسهل التعامل معها وتذكرها، بل يمكن رسمها وطبعها على ورقة وتعليقها في سبورة البيت عند الطفل أو باحة البيت أو على شاشة الهاتف أو القارئ اللوحي أو غيرها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العوائق والمحفزات لا يمكن الضرب بينها بسور يقطع الصلة بينها. بل ما يكون عاملا محفزا عند طفل قد يكون عائقا لدى طفل آخر. ذلك للعلاقة الدينامية بين مختلف هذه العوامل. فثقافة الوالدين مثلا، التي تكون عامل تحفيز عند بعض الأطفال، قد تسهم في قتل الإبداع عند آخر. فالوالدان المثقفان - مثلا وأحيانا وليس دائما - يسقطان تجربتهما على أبنائهما، فيحاولان تدارك الأخطاء التي ارتكبت معهما من حيث اغتنام الوقت وفترة الصبا في التحصيل، مما يؤدي إلى المبالغة في ملء فراغ الطفل بالأنشطة والبرامج والدورات، من دون أخذ احتياجاته بعين الاعتبار، مما يؤدي إلى ملل الطفل وامتعاضه، وقد يدفعه إلى ترك الجمل بما حمل. فتتبغض إلى قلبه كل أشكال الحرص على المعرفة واغتنام الوقت والتحصيل وبرامج الإبداع. ولذلك وجبت الإشارة

إلى دراسة كل عامل، والاستفادة منه، من دون إفراط ولا تفريط، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. فإلى الخطاطة:



من خلال قراءة خطاطة الحوافز والمعوقات يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

- تلعب العوامل الموضوعية دورا مهما في تنمية الإبداع لدى الطفل من خلال إشباع روح المبادرة لديه عن طريق استثمار حبه للمعرفة، وتقديم الدعم اللازم والمناسب، مع التركيز على التواصل، وإعطاء هامش من الحرية المسؤولة للطفل، إضافة إلى التشجيع والتحفيز المستمر.
- دور التلاحم العاطفي وإبعاد الطفل مطلقا عن المشاكل الزوجية والأسرية والعائلية. فالأسر المضطربة الهائجة المائجة تغذي روح الانعزال والانطواء لدى الأبناء. كما أن كثرة لوم الطفل وتقريعه وتأنيبه بمناسبة وبغير مناسبة تفقده الثقة بنفسه كما أثبتت ذلك بعض الدراسات.
- اغتنام كثرة أسئلة الطفل وحبه للاستطلاع في تنمية روح الإبداع لديه بتعليمه كيفية الإبحار الآمن في الإنترنت، وتوجيهه التوجيه الناعم اللين إلى بعض المواقع العلمية والتربوية الهادفة التي تشبع نهمه المعرفي. فكثرة أسئلة الطفل هي مفتاح الإبداع وبدايته المشرقة. ومن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة كما تقول الحكمة.
- تنمية التعلم الذاتي لدى الطفل، وتعليمه كيف يصطاد السمكة بنفسه وصنارته مع الصبر الدؤوب، ونشر روح الاستمتاع واللعب، واستثمار مختلف النظريات التربوية التي قربت الشقة وكفت المؤنة.

أما المعوقات فإن إكراهاتها تبدو لأول وهلة صعبة المنال، لكن زرع الورد في الحقل منذ البداية والاعتناء به يغنيان في النهاية عن مشقة اقتلاع الأشواك. ومن شغل نفسه بالفضائل كفى نفسه تعب اقتلاع الرذائل. فإذا تمعنا في الخطاطة وجدنا أن أهم المعوقات الأسرية للإبداع تتجلى أساسا في الجانب النفسي والعاطفي. أو في الجزء الأكبر منه. فلا إبداع مع غياب التلاحم العاطفي والإشباع الروحي لنفسية الطفل. لا إبداع مع القمع والإرهاب والعنف الأسري. ولا إبداع مع ضعف ثقة الطفل بنفسه، والتي تلعب الأسرة دورا بارزا في تغذيتها وفي رعايتها منذ نسائم فجر الطفولة الأولى. كما أنه لا إبداع مع التدليل الزائد أو التقاليد السلبية المقيدة التي تلبس لبوس الدين أو العرف المبالغ فيه، مما ينعكس بالسلب على روح المبادرة والطموح والإبداع.

وقد سئلت فتاة في إحدى المجلات: كيف استطعت تحقيق أهدافك في الحياة؟ فكانت إجابتها: لقد آمن والداي بقدراتي ومواهبي فشجعاني، ولم يكونا في أي لحظة عامل تثبيط أو إعاقة لطموحاتي وأفكاري وإبداعي.

لقد كانت الأمة العربية والإسلامية رائدة بين الأمم حينا من الدهر لأنها شجعت ونمت التفكير المستقل والإبداع الخلاق في شتى المجالات، فأنتجت لنا عباقرة ومبدعين في شتى المجالات من أمثال: الإمام البخاري والإمام أحمد والشافعي وابن تيمية والغزالي وابن رشد والبيروني وابن البيطار وابن النفيس وابن الهيثم والجزري.. وغيرهم كثير. وإن الأمة أضحت اليوم ولودة بحمد الله، وقد استيقظت من سبات عميق. ويقع النصيب الأوفر على الأسر الكريمة للمساهمة في هذه النهضة من خلال تربية روح الإبداع لدى أبنائها وفلذات أكبادها بطرق علمية بعيدا عن الارتجالية من جهة، أو الإهمال وترك الحبل على الغارب من جهة ثانية، فالعصر عصر علم، وما كان على أساسه وبني على قواعده أعطى ثماره ولو بعد حين، وواقع الأمم الغربية خير شاهد، فهل نتعلم ونستفيد؟ وهل نسارع إلى المشاركة في دورات تدريبية لتعلم كيفية تنمية روح الإبداع لدى الأبناء؟ وهل نقوم بزيارات دورية أو سنوية للمبدعين والعلماء والعباقرة في مختلف المجالات؟ وهل ننهل من المعارف الحديثة لتحقيق هذا الهدف النبيل؟ نعم، في الإمكان أفضل مما كان، وكم ترك الأول للآخر، وعطاء الله ممدود، فهل نبسط الكف؟

الأهمية التربوية لتقدير الذات

الزبير مهداد
كاتب تربوي



يعد تقدير الذات هدفا تربويا تحرص التربية الحديثة على تحقيقه في الناشئة. وتقدير الذات هو الحكم الذي تصدره الذات على نفسها، وهو دعامة أساسية للشخصية على مستوى رصيدها المعرفي وكيانها الوجداني ونشاطها السلوكي، بل أكثر من ذلك، فنوع التقدير إيجابيا أو سلبيا للذات يؤثر على حاضرها ومستقبلها، واختياراتها وقراراتها، ونجاحها أو فشلها. فإذا كان إيجابيا، يتيح للفرد إمكانية القيام بردود أفعال مناسبة والشعور بالتوافق والسعادة، وهذا ما يمنح الذات القدرة على مواجهة صعوبات الحياة والأزمات والأحداث غير المتوقعة عاملة فاعلة ومحفزة على تحسين أدائها ونجاحها المدرسي وعلاقاتها بالآخرين وتوافقها النفسي ودرجة طموحها. أما إذا كان سلبيا فسيؤدي ذلك إلى الإحساس بالدونية، وفقدان الثقة بالنفس والشعور بالمعاناة، ما يعيق تواصلها مع الأشخاص وتكيفها مع الوقائع والأحداث، ويؤثر سلبا على صحتها النفسية. فإن أي خلل أو سوء في تقدير الذات وكفاءاتها من شأنه التأثير سلبا على أداء الطفل في المدرسة أو غيرها، وعلى صحته النفسية.

تتوزع مجالات تقدير الذات إلى العلاقة مع الجسد والعلاقة مع الآخرين والعلاقة مع الإنجاز أو العمل. فالطفل يحس بتقديره لذاته منذ الوعي بجسده كائنا مستقلا، ويأخذ هذا الوعي عدة مظاهر سلوكية بدنية، ومعرفية ووجدانية. فهو يحاول دائما إرضاء والديه وانتظار ردود أفعالهما الإيجابية، كما يسعى إلى انتزاع مكانة خاصة داخل أسرته، بين إخوته. ومن جهة أخرى، يحرص على البحث عن مظاهر التميز أمام أقرانه. أما في فترة المراهقة فيصبح تقدير الذات ضرورة ملحة، خصوصا مع التغيرات الجسدية المؤثرة التي يعيشها المراهق.

وهذا السياق يقتضي منا التفكير والتأمل في ذواتنا، وذلك من خلال طرح الأسئلة التالية: من أنا وكيف ينظر إلي الآخرون؟ هل شكلي جميل؟ هل هيأة بدني مقبولة؟ هل يقدرني الآخرون؟ هل إنجازي يضاهي إنجاز غيري؟ هل أستطيع أن أكون أفضل، وكيف؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تكون بمثل هذه الصيغة، أو لا تكون واضحة للعيان، لكنها عموما، هذه الأسئلة أو غيرها أو مثيلتها، تتبادر إلى ذهن الناشئ بشكل أو بآخر.

بهذه الأسئلة يحاول الناشئ البحث عن السبيل الذي يوصله إلى تحقيق توازن نفسي وتكيف اجتماعي ونجاح، حتى يحظى بتقدير غيره، ويحتل في جماعته المكانة التي يطمح إليها. وهذا بطبيعة الحال مرتبط بالصورة التي ينشئها الفرد عن ذاته في شموليتها، فيسعى جاهدا إلى البحث عما يمنحه القوة، وما يعزز لديه تقديره لذاته. وهي الرغبة تبدأ في الاشتغال منذ الطفولة، وتزيد حدتها في المراهقة، وتتواصل في سن الرشد. فالتقدير الإيجابي يدفع الفرد، ذكرا كان أو أنثى، إلى السلوك الإيجابي والاستقلالية والمبادرة، مدفوعا دوما بالرغبة في تطوير إنجازه وإنضاج تجربته والسعي الحثيث لتحقيق النجاح ومواجهة التحديات. في حين أن التقدير السلبي يكبل الناشئ الذي يحكم على نفسه مسبقا بالفشل والعجز والاتكالية، ما يحول دون قدرته على حل مشكلاته والتغلب على تحدياته واتخاذ قرارات مستقلة، فيستسلم بسرعة معتقدا أن الفشل قدره المحتوم. وحتى السلوك الأخلاقي يكون متدنيا لديه، ويتجلى ذلك في سعيه للغش والتملق وغيرهما.

وقد انتبه الفقهاء والمربون المسلمون إلى هذه القيمة التربوية، فأبرزوها في مصنفاتهم ورسائلهم ونصائحهم، وكانوا من خلال ذلك يبرزون قاعدة إسلامية تعتبر من الأمور المعلومة في الدين بالضرورة، وهي قاعدة تكريم الله عزوجل للإنسان.

التكريم الإلهي للإنسان

إن الإسلام يقر بكرامة الإنسان، ومظاهر التكريم الإلهي للإنسان كثيرة، منها الخلق في أحسن تقويم، والتأهيل بالعقل والعلم والقدرات الذاتية، ثم تسخير الكون له، حتى يتهيأ لتحمل مسؤوليته باعتباره مكلفا، ويتحمل أعباء التكليف بأداء واجبه في إثراء الحياة الدنيا بعطائه ومساهماته في تلبية حاجاته وحاجات غيره.

فالفقهاء والمربون يتفقون على أن الله عزوجل كرم الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم، وسخر له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وماء وحيوان وسماء ونبات، ومكن له في الأرض تمكينا يتيح له الارتقاء بكل شيء في الأرض والطبيعة.

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤)، أي: يمشي قائما منتصبا، ويأكل بيديه، وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا، يفقه بذلك كله، وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية». ويورد ابن كثير شهادات أخرى تفيد أن من أهم دلائل تكريم الله عزوجل للإنسان أنه خلقه بيديه، بخلاف غيره من المخلوقات التي قال لها سبحانه وتعالى كن فكانت.

آيات كثيرة في القرآن الكريم تدلنا

على مظاهر التكريم المختلفة وترشد إليها، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠). يقول القرطبي في تفسيره «كرمنا، أي جعلنا لهم كرما وشرفا، وهذا الكرم نفي النقصان لا كرم المال» (١).

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس:٧-٨)، قال أحد المفسرين: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، وبين لها ما أن تأتي أو تذر من خير أو شر أو طاعة أو معصية».

ومن دلائل تكريم الله للإنسان أن خصه بالذكاء والتفكير وعلمه دون سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن:١-٤)، وقال أيضا في كتابه الكريم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١). فالعلم سابق على الجهل، والمعرفة الإنسانية بدأت بتعليم الله سبحانه وتعالى الإنسان وهو ما ترشد إليه الآية الكريمة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:١-٥). كرم الله الإنسان بأن خصه بالعقل، وحثه على التفكير وطلب العلم؛ لبلوغ درجة التقوى الموصلة إلى السعادة في الدارين، الدنيا والآخرة.

أهل الله الإنسان بمؤهلات وأسباب جعلته متمكنا في التصرف في الكون الطبيعي، ومن هذه المؤهلات: العقل والبيان. فقد جعل الله للعقل العالم بمقتضى أحكام الشريعة السمحة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق، وهذا السلطان العقلي الذي أمر الله الناس أن يحتكموا إليه، هو سلطان مطلق وشامل، يتناول بسلطته كل معنى في الوجود. لهذا اعتبرت الشريعة حفظ العقل إحدى الضروريات الخمس أو مقاصد الشريعة (٢). ويقول العلماء إن الله عزوجل قد جعل للعقل إدراكا مسلما لما لا يحل فعله، وزاجرا عن فعله، وهو ما يرشد إليه الحديث الشريف «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (٣). يقول الماوردي: «أس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا، وأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه» (٤).

والتكريم مرتبط بالإيمان، لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده أسفل سافلين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (التين:٦)، أبقى عباده المؤمنين العاملين الصالحين مكرمين، خصهم بالمكانة العلية، ولم يرددهم إلى أسفل. وبين الله عزوجل كيف خص بالعزة ذاته الجليلة ورسوله الذي بعثه بالحق والمؤمنين الذين آمنوا به وصدقوا رسله، يقول الله عزوجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨)

التربية تتأسس على قاعدة التكريم

وهذا المنطلق هو الذي تتأسس عليه العلاقة التي تربط المربي بالمتعلم، والتي تقتضي تعاملا يتأسس على احترام الناشئ وتقديره، حتى يتشرب الناشئ هذا الاحترام ويصبح مقدرا لذاته. وهو الذي تستلهمه الحيثيات التي تستند إليها فتاوى الفقهاء بعدم جواز استخدام المعلم للصبيان المتعلمين، وقد شرحه بتفصيل ابن حجر الهيثمي في كتابه «تحرير المقال» (٥)، وهو الذي عبر عنه القابسي عند تناول موضوع عقاب الصبي وتأديبه، احتاط للأمر بتحديد أماكن الضرب وعدد الضربات، واستدرك بتنبيه المعلم وتذكيره بأن الأمر يتعلق بكرامة المسلمين وأبشارهم وأعراضهم، فلا يجوز التهاون في تناولها (٦). وابن خلدون الذي أكد في مقدمته أن من غايات التربية مساعدة الناشئ على الاندماج الاجتماعي وتحقيق النمو السليم لشخصيته، مبينا أن شرط ذلك هو قيام العلاقة التربوية على احترام ذات المتعلم وكرامته، مذكرا بمخاطر الشدة على المتعلم وآثارها في عرقلة نموه السليم واضطراب شخصيته، «وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن والحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله». ويدعو بإلحاح إلى تربية الأفراد بطريقة وأساليب تراعي كرامتهم، وتجعل منهم مواطنين صالحين يقدرون ذواتهم.

وابن حزم في كتابه «مداواة النفوس» أحصى عددا من صفات وسمات الشخصية السوية، ناصا على أن تقدير الذات هو أهمها ومحورها، وحددها في قبول الفرد لذاته واحترامه لها، والشعور بالرضا عن حياته؛ وهذا الشعور شرط تحقيق السعادة الفردية؛ تقبل الآخرين وتقديرهم والتفاعل معهم ومبادلتهم الأخذ منهم بالعطاء لهم؛ والتعاون معهم، وهذا التفاعل ضروري لسعادة الجميع؛ الشعور بالكفاية لمواجهة مواقف الحياة، والتحمل والصبر، بحيث يجب على الفرد أن ينمي إمكاناته ليكون قادرا على مواجهة مختلف مواقف الحياة، ولتحقيق هذه التنمية يجب تعرف الذات والوقوف على نقائصها والسعي لتكميلها. وبين ابن حزم في كتابه المذكور أن التسامي بالإيمان وبالعلم، وبالعمل والإنتاجية وبالجود ومساعدة الآخرين، يعد من أهم

أسباب الرضا عن الذات وتقديرها.

كيف نحقق تقدير الذات؟

إن كل المربين، القدامى والمعاصرين، يتفقون على أن الإنسان مفطور على حب وجوده وكماله، يسعى إلى ضمان سلامته وأمنه؛ حماية لهذا الوجود. ودوافعه وسلوكه وحاجاته وعلاقاته إنما تسعى إلى إبراز ذاته، وتأكيدها، وإثبات أهميتها، وترسيخ مكانتها في المجتمع، وإظهار قيمتها وفعاليتها وجدواها؛ لكسب ثقة الغير واحترامهم وتقديرهم ومودتهم.

فتقدير الذات مهم جدا من حيث إنه هو البوابة لكل أنواع النجاحات الأخرى المنشودة، فطرق النجاح مهما كانت سهلة وقريبة، لا يمكن أن يسلكها الفرد إذا كان لا يولي اعتبارا لذاته، أو كان تقييمه وتقديره لها ضعيفا، فلن ينجح في سلوك سبل النجاح لأنه يرى نفسه غير قادر وغير أهل وغير مستحق لذلك النجاح.

وتقدير الذات يكتسبه الناشئ من التنشئة التي خضع لها منذ طفولته في الأسرة، ومن التربية المدرسية وتجاربه وفعالياته ضمن الحياة المدرسية والاجتماعية، وعلاقاته بغيره من الراشدين والأقران، هذه الحياة التي تعرضه لمواقف وتستدعي استجابته وردود فعله. فمرحلة الطفولة مهمة جدا في تكوين نظرته إلى ذاته وتقديره أو تبخيسه لها، بحسب نوع المعاملة التي لقيها والتنشئة والتربية التي خضع لها. فالطفل الذي يلقى المحبة والتقدير والتشجيع على مواجهة المواقف والدعم للتغلب على الصعوبات، هو غير الطفل الذي يتعرض للإهمال ولا يلقى دعما للتغلب على الصعوبات والمشكلات التي تواجهه. فالأول ينشأ لديه تقدير إيجابي لذاته بخلاف الثاني.

فالعمودان اللذان يتأسس عليهما تقدير الفرد لذاته هما:

١- النظرة إلى الجسد: ففي مرحلتي الطفولة والمراهقة بالخصوص يجب أن يستشعر الفرد، ذكرا كان أو أنثى، أنه مخلوق في أجمل صورة وأحسن تقويم، مصداقا لقول الله تعالى في سورة التين. فتحسين صورة الجسد أساس الرضا الذاتي، وشرط قبول الفرد لذاته واعتزازه بها. تحقيق التوازن النفسي والوجداني، خصوصا إذا كانت نظرة الطفل إلى جسده سلبية أو غير واضحة، فالجسد يستحق التقدير والاعتزاز به، لأن الله عزوجل خلقه بيديه. وفي ذلك قمة العطف والرحمة والحنان الإلهي.

٢- النظرة إلى المهارات والإنجاز: يجب أن يستشعر الناشئ أن كل الخيارات متاحة له ليرتقي بإنجازه ويحقق أحلامه، فالله قد سخر له الكون، وزوده بالمهارات اللازمة لاستثمارها، ويدرك أنه يتوفر على المهارات الضرورية، بحيث يمكن تنمية مهاراته البارزة، والبحث في ذاته عن مهاراته الكامنة. فذاته تحتوي على كنوز من المهارات والقدرات يكفي أن يتعرفها ويطورها. كما ينبغي في جميع الحالات تقدير إنجازه وعدم تبخيسه، فالإنجاز الجيد يستحق التنويه والشكر والتشجيع، والإنجاز الرديء أو الضعيف ينبغي مساعدة الناشئ على تطويره وتحسينه، والفرص قائمة دوما لأجل ذلك. والمبادرة بيد الأسرة والمربين لتحقيق ذلك ومساعدته على بلوغ النجاح.

فالعلاقة مع الناشئ، وعلاقات الناشئ بأقرانه، يجب أن تراعي ما سبق، حتى يشعر بأنه مقبول، وأن حياته مقدسة، وعرضه مصون، وأمنه ثمين، وأنه قادر على تحقيق الإنجاز الجيد، والمساهمة بدوره في إغناء الحياة وتطوير واقعه والتحكم فيه. فيؤسس لعلاقاته مع أقرانه على الندية والتعاون والتكامل والاحترام المتبادل، وليس على الخنوع والرضوخ واستجداء العطف والشفقة، ويكون انتماؤه لجماعته موضع تقدير. فسلوكيات كثيرة يظهرها أبناؤنا وبناتنا في تفاعلهم الاجتماعي، كالانزواء والعنف والتلعثم خلال الحديث، أو الكذب، وغياب روح المبادرة ورفض تحمل المسؤوليات، والإحساس بالعجز عن تحقيق الإنجاز الجيد، واسترخاص الحياة والعرض وغير ذلك، إنما تعد علامات لتقدير سيئ للذات وتبخيسها.

إن التقدير الإيجابي للذات شرط أساسي لتحقيق التوازن النفسي والشعور بالرضا، فهو يترجم الكرامة التي خص بها الله تعالى عباده، ويدل على القيمة التي نمنحها لناشئتنا والمحبة التي نسبغها عليهم. وبذلك نفسح لهم السبل ونبين لهم المسالك التي يمكن أن تقودهم إلى كل خير ونجاح وكل ما ينتظره مجتمعهم منهم كأفراد يتمتعون بكرامته ومستعدين لبناء مجتمع الكفاءة والأمن والسلم والتعاون.

الهوامش

١- القرطبي، كتاب الجامع لأحكام القرآن، جزء٩، ص: ٢٩٤.

٢- الشاطبي، الموافقات، جزء٢، ص: ١٠.

٣- الصنعاني، بلوغ المرام، جزء٤، ص:٢٨١.

٤- الماوردي، أدب الدين والدنيا، ص:١٧.

٥- تحقيق هشام نشابة ضمن «التراث التربوي في خمس مخطوطات»، ص:٢٤٣.

٦- الأهواني، أحمد فؤاد: التربية في الإسلام، ص:٣١٥.

المكتبة المنزلية.. غائب نتمنى عودته



عثمان إسماعيل
صحفي مصري

وسط التحديات الفكرية المتباينة والتي فرضت علينا فقدنا الكثير من مفاتيح السعادة الأسرية ووسائل الدفء الأسري ومنها «المكتبة المنزلية» التي فقدت هويتها إثر تغيرات حياتية ومجتمعية طارئة أو مفروضة، ولكن هناك من يصر على أن تكون المكتبة المنزلية من لوازم الحياة لما لها من آثار ملموسة في الرقي الفكري والعقلي والسلوكي للفرد خاصة والأسرة عامة.

وبداية المكتبة المنزلية تكمن في هوية «الأب» الذي له ميوله القرائية والمعرفية في فرع خاص أو فروع ثقافية عدة، بعدها يحاول جادا نشر هذه الهواية بين أبنائه وتشجيعه لهم، كل حسب ميوله، هنا تكتمل هوية المكتبة المنزلية بمعارفها المختلفة وثقافاتها المتعددة، وعقب ذلك تصبح القراءة سلوكا معتادا يصير الكتاب من خلاله خير جليس حول مائدة الأسرة لتتذوق أشهى مناهل المعرفة وإشباع الميول والرغبات لما تصبو إليه.

ومما لاشك فيه أن المكتبة المنزلية لها آثارها التي لا ينكرها أحد وتتمثل في:

إيجاد هوية الحوار الأسري حيث تعمل المكتبة المنزلية على خلق نمط خاص للغة الحوار في محيط الأسرة، ذلك الحوار الذي أساسه احترام الرأي والرأي الآخر، والذي يقوم على التفاهم وأسلوبية عرض القضايا الخاصة والعامة، وكيفية طرحها للنقاش لإيجاد المخرج والحل المناسب الذي يرضي أطراف الحوار، دون المساس بذات العلاقة الأسرية، مما يساعد على تقبل النقد بروح وشعار: «إن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية».. فالقراءة واكتساب الثقافات المختلفة يضفي على الحوار إيجابية تبادل الرأي واكتساب سلاسة الحوار وفهم أبعاده المتباينة، حسب ما تخضع له من ثقافات الآخرين، وما يتسم به من لباقة اللغة وحسن اختيار وانتقاء اللفظ، مما يساهم في إيجاد هوية خاصة للحوار الأسري، إثر قراءات وثقافات مختلفة كانت نتاج ما تحويه أرفف المكتبة من ميول وأهواء.

ومما تساعد المكتبة المنزلية على بنائه هو «التكوين العقلي» لأفراد الأسرة، حيث تعمل على خلق وسائل تطور الفكر وتنمية مساحات العملية الذهنية إزاء احتدام الصراع للمواقف والمشكلات والتعرض لها، فثقافات المكتبة المنزلية وصداقة الكتب توجد نوعا من المواجهة بين صراعات التفكير، الأمر الذي تتطور معه مراحل النمو العقلي والتفكير أسلوبا وطريقة.

ومع القراءة واكتساب المعارف المختلفة تتسع آفاق التفكير وفرص التعامل العقلي بالمنطق السليم، ومادام المناخ الأسري أساسه التفكير المنطقي، وبما ينتج عنه من

تناغم وتآلف وتقارب في الملاءمات العقلية؛ فهذا أيضا نوع من السعادة المنزلية التي تصل بالحكم على الأشياء بكل رضا وقناعة وألفة.

وأروع ما تحققه المكتبة المنزلية هو «الجلسة الأسرية» والتي تصقلها هوية أفرادها ثقافة وتفكيرا وحوارا وميولا، تلك الجلسة الثقافية الدافئة التي نلمس فيها روح الفكر وشفافية النقاش وأخلاقيات الحوار الهادف وثقافة المخاطبة، مما يقوي الترابط الأسري وتزيد معه المودة والألفة ونقاء السريرة وصفاء النوايا.

إن تلك الجلسة الأسرية إن كانت يومية أو أسبوعية فإنها أروع أساليب التربية الأسرية نحو حياة أفضل، تحقق من خلالها ما تتمناه طموحا وآمالا وأهدافا.

ونلمس أهمية المكتبة المنزلية ودورها المهم في «القضاء على وقت الفراغ وانحراف الشباب» تجاه أمور يأباها المجتمع وتنفر منها الأسرة، وهذا يتم بتعويد أبناء الأسرة حسب مراحلهم العمرية المختلفة على صنوف القراءة، وبما يتلاءم معهم، مما يجعل المكتبة صديقا وعالما يتعايشون معه في حياتهم اليومية، هذا العالم الذي يكسبهم الرقي الأخلاقي والنضج السلوكي واحترام الذات وصون النفس الآدمية التي أكرمنا بها الله عزوجل، فلا نلقي بها في عالم التهلكة والدمار.

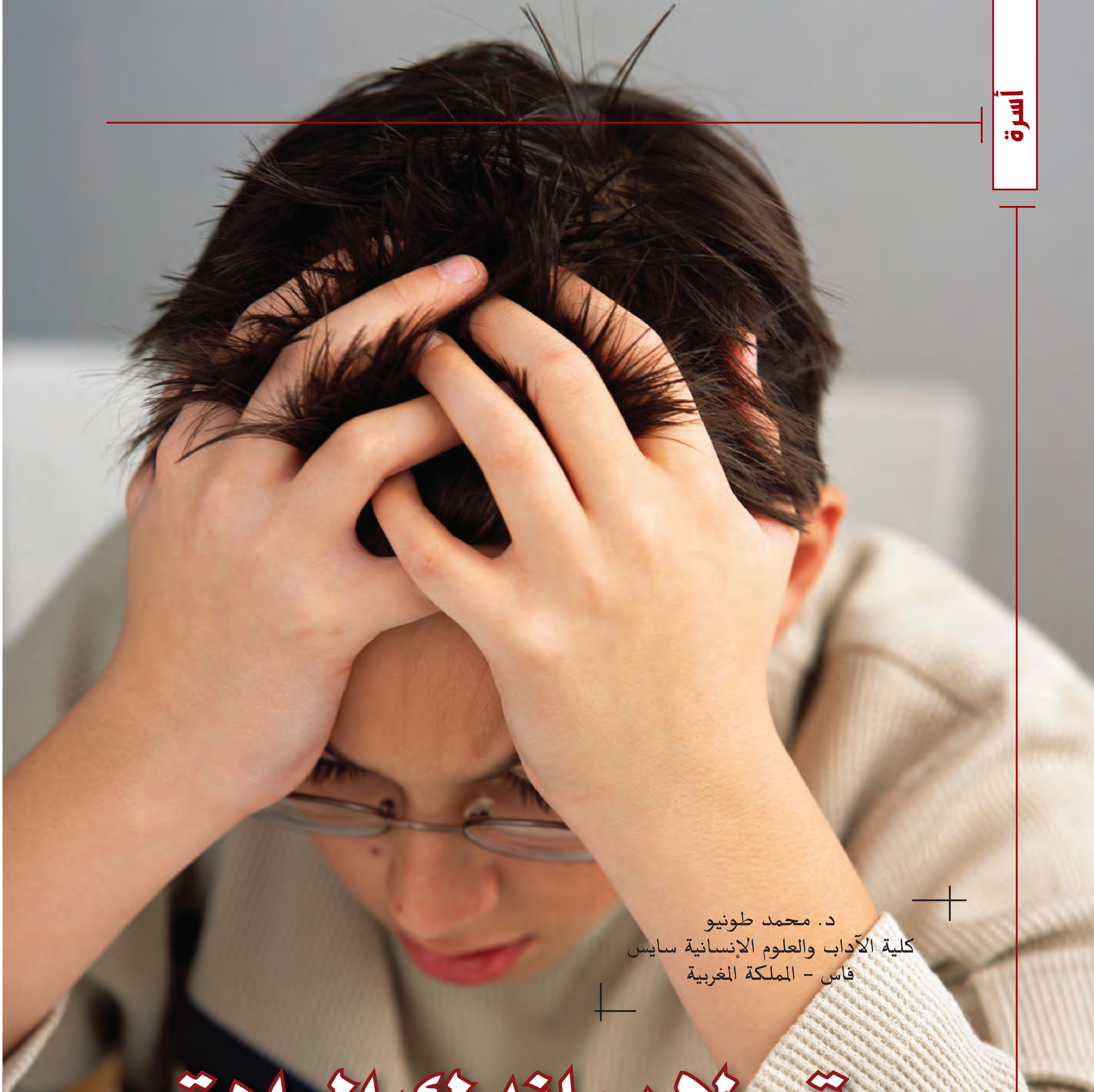
فالمكتبة المنزلية وملازمة الكتاب والولوج في أغواره خير وسيلة للقضاء على الفراغ الذي يتعرض له الشخص ويلقي به في عالم المجهول، ذي العواقب الوخيمة، فخير جلسة وأفضل حوار مع أرفف المكتبة وما عليها من علماء وكتاب وشعراء وشخصيات وثقافات.. مما ينعكس على عالم القارئ ذاته وصداقاته الخارجية التي ستكون صدى لتلك التربية الأسرية الثقافية؛ حيث الهدف والطموح.

وإرضاء الذات بما يتفق وما دعا إليه الدين الحنيف من صقل النفس بالأخلاق وصونها من كل سوء وعبث يشوه هويتها.

وإضافة لما سبق تستطيع المكتبة المنزلية «إيجاد هوية خاصة للأسرة وأفرادها» حيث تساهم المكتبة المنزلية وبما تكتسبه الأسرة وما تنهل من علوم وثقافات في وضع الأسرة موضع الإجلال والاحترام والتقدير، بعد أن سلكت الطريق التربوي السليم وهيأت لنفسها العوامل التي تجبر الآخرين أن تبادلهم وتقدم لها أرقى درجات الاحترام والهيبة والإجلال، وبما يحمل من سمو التعامل المتبادل وأن تجد لنفسها مكانها المميز في محيط مجتمعها، حيث السمعة الطيبة والسيرة العطرة الحسنة، مما يكسبها الهيبة والوقار.

كل ذلك بسبب الرقي العقلي والسلوكي والفكري الذي هو نتاج الدفء المعرفي والثقافي والسمو العلمي بثقافاته المتباينة، إضافة إلى أن المكتبة المنزلية تساعد على تهيئة مناخ صحي يعمل على حسن تصريف الأمور؛ بما تختزن لديها من خلفية معرفية ثقافية تساهم في وضع الأمور في نصابها.





د. محمد طونيو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
فاس - المملكة المغربية

حتى لا يعاندك المراهق

ثمة شبه إجماع لدى المربين على أن سلوكيات فئة عريضة من المراهقين والمراهقات تتسم بضعف التوازن بسبب التمرد والعناد، وبالأخص في المدرسة وفي الأسرة، وهما المؤسستان اللتان تعدان روافد التربية والتثقيف وغرس القيم المؤثرة في المشاعر الإيجابية والسلوك المنتج.

وإذا كان منتظرا تضافر آراء الوالدين والمدرسين على الجهود التربوية ونتائجها المنشودة، بالنظر إلى الهدف التربوي الموحد لكلتا المؤسستين، فإنه من الغريب العجيب أن آراء المربين فيهما تتفق على وصف حالة المراهقين - أقل ما يقال عنها - بأنها ليست على ما يرام.

صحيح أن ثمة عدة وسائط تربوية أخرى ذات تأثير قوي، كالإعلام وشبكة الإنترنت باعتبارها قارة سادسة يختلي فيها المراهقون بعيدا عن واقعهم المعاش. لكن - في تقديري - إن مرد ذلك الانزعاج، الذي يعاني منه المتعاملون مع الرصيد التربوي للمراهقين الذي لا يسمح بتواصل فعال ومؤثر، إلى أسباب متعددة، أركز هنا على السبب الرئيسي، وهو العنف في الصغر واعتماد التسلط والتحكم لفرض الرأي في أجواء مشوبة بالصراخ والنقد الدائم واللوم الذي لا ينقطع، يضاف إلى ذلك التركيز على سلبيات الطفل والغفلة عن إيجابياته. وجدير بالذكر هنا أن العنف لا يقتصر على العقاب والضرب فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى فرض الرأي بالتهديد والحرمان من الحاجات النفسية.

لذلك أظن أن المراهق المتمرد يمارس انتقاما ضد أسرته ومدرسته، وذلك بتعمد الانحراف السلوكي والفكري؛ كي يعبر عن نفسه وكينونته لمن يعتبرهم قد مارسوا عليه عنفا سابقا لما كان طفلا، وهو الآن في مرحلة عمرية يشعر بذات مستقلة فوق العنف، قادرة على الرفض والمقاومة؛ لذلك يتصرف من موقعه الجديد وكأنه امتلك القوة المقرونة بالحرية، التي يحقق من خلالها ذاته، كما يرى نفسه قد تجاوز الطفولة وأضحى ينافس الراشدين، إذ يعبر بألفاظ صريحة، أو يلمح بحركات وإشارات عن عدم رغبته في تنفيذ ما يطلب منه قاصدا الانتقام. وهو حينئذ يستحضر ما تعرض له من تعنيف سابق، حيث ينظر إلى المواجهة على أنها معركة وأنانية من الكبار تمنعه من حقوقه واستقلاليته، مما يستلزم في نظره الدفاع عن ذاته. وقد حذر القرآن الكريم من الغلظة والجفاء في معاملة الغير في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولا يخفى ما ينجم عن الصدام مع المراهق من مضار مختلفة، منها كرهه لمن سبب له الألم، والعزلة والانطواء، والتغيب عن المدرسة، واختلاق الأعذار للتملص من الواجب. وهي نتائج خطيرة أشار إليها العلامة ابن خلدون، رحمه الله، بالقول: «إن إرهاف (١) الحد في التعليم مضر بالمتعلم، سيما أصاغر الولد، ومن كان مرباه بالعسف (٢) والقهر من المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه (...) فينبغي للمعلم في متعلميه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب» (٣).

وهنا يقترح أغلب المهتمين والباحثين في قضايا المراهقة بإجراء حوارات مع المراهقين، وهو توجيه مطلوب، إلا أن السؤال الملح هنا: لماذا - غالبا - تكون ثمة صعوبات تضعف هذا الحوار أو تحد من فعاليته، وبالأخص إذا لم يكن الراشد يمتلك ما يكفي من المهارات والقدرات المنهجية لتدبير الاختلاف مع المراهق؟

الذي يبدو لي كجواب بديهي، أن المراهقين المعاندين لم يتعودوا على الحوار ولم يدركوا قيمته وقواعده، لذلك هم يختارون أسهل المسالك وهو ألا يتواصلوا، وبذلك يحافظون على مواقعهم ومواقفهم الرافضة والمستعدة للصدام الانفعالي. وهي وضعية لا يمكن أن تجد حلولا عملية لها إلا بالحوار، والحوار وحده ولا شيء غير الحوار.

لكن مبدأ الوقاية هو الأهم في الحقل التربوي، حيث منذ الصغر يجب على المربين، سواء كانوا أسريين أو مدرسيين أو إعلاميين، أن يدربوا الطفل على الحوار باعتباره الأداة الفعالة لحل المشكلات، فيترعرع في أوساط تقوى عنده المناعة الحوارية التي تؤهله إلى سن المراهقة وقد زاد رصيده في قيم التواصل وضوابطه، وحينئذ يكون اكتسب الكفايات التواصلية التي تفيده في إيجاد الألفة مع الغير والتفاوض معه وفق الآداب الإسلامية. ففي الحديث النبوي: «ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن» (٤). ومن ذلك الانتباه إلى السلوكيات المرغوبة عند الطفل، والثناء عليه كي يكررها وتصبح عنده عادة، ومنها أسلوب الحوار العائلي الناجح.

وليس من شك في أن هذا المنهج هو الكفيل بإعداد مراهق يقدر ذاته، ويحمل صورة إيجابية عن قدراته وإحساسه بقيمة نفسه بين من حوله، وهي قيم تبعده عن العناد، وتقربه من النضج الفكري والإصلاح السلوكي. وبهذه المقومات يتأهل لتغيير تفكيره وتعديل إحساسه، ثم الانتقال إلى السلوك المنشود المؤسس على قاعدة من المنهج التربوي الأسمى، وصيغتها «بالحوار في الصغر نبني الألفة في الكبر». والله أعلم وأحكم.

الهوامش

١- شدة.

٢ - الظلم.

٣- مقدمة ابن خلدون، ص٥٣٩، تحقيق درويش الجويدي، طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، المكتبة العصرية، بيروت.

٤- أخرجه الإمام الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في أدب الولد.



أفشوا الثناء.. بين صفوف العاملين

هنادي الشيخ نجيب
كاتبة لبنانية

يقول الشاعر:

يهوى الثناء مبرز ومقصر
حب الثناء طبيعة الإنسان

فهل المطلوب منا - نحن المسلمين - تحطيم هذه النزعات البشرية؟ بل هل المفهوم عندنا تهشيم تلك الكوامن البشرية؟

ولماذا يصادر كثيرون جهود الآخرين، ويقفزون فوق إنجازاتهم، ويتغافلون عن أعمالهم، ويغمضون أعينهم عن مواهبهم، بحجة أن الثناء عليهم سيفسد نفوسهم ويشوش عليهم؟

ألا يوجد من خط وسط بين الثناء والمدح وبين النفاق والمجاملة الكاذبة؟ وكيف نحافظ على التوازن في المدح بين التطرف والاعتدال؟!

قال أحدهم: «ذقت طعم الحياة فوجدت فيها أمرا يسوق لك وللآخرين الإسعاد والسرور، وهذا الأمر هو احترام مواهب الناس، والاعتراف بقدراتهم، وتشجيع طموحاتهم، وعدم مصادرة جهودهم وعدم إلغاء أدوارهم».

قولوا لنا بربكم - قراءنا الكرام - هل يتحقق كل ذلك إلا بكلمات طيبة تثني على الخير في الناس، فتثبتهم عليه، وتحفزهم على الزيادة منه، وتحث غيرهم لينافسوهم في البذل وإحسان العمل؟!

لقد جرت العادة فينا أننا إذا جلسنا مجلسا فأثنى بعضنا على أحد بخير يعلمه منه، قام آخر رافعا صوته مبديا سخطه وغضبه، وقال مستنكرا: «أحثوا التراب في وجوه المداحين، لقد قطعتم عنق صاحبكم، هذا الفعل لا يجوز، ولا يتناسب مع الإخلاص لله»!، ثم سرعان ما يتوجه هذا الغاضب إلى الممدوح، مشككا في نيته، مخوفا إياه من الوقوع في الرياء، معترضا على استبشاره بسماع كلمات الثناء، بدل الخوف على نفسه من العجب والكبرياء..!

لاشك أن مقاومة أضرار المديح



(المبالغ فيه) أشد صعوبة من مقاومة الإساءة والذم.

وقد يتوازن الإنسان عندما يواجه الطعنات، لكنه قد يفقد هذا التوازن عندما يواجه المجاملات والإطراءات.. وهذا ما يدفعنا للبحث عن طريق وسط، ليس فيه إفراط ولا تفريط.

إن المدح والثناء من الأمور التي تسر النفوس، وتحفزها على زيادة العطاء، والاستمرار في الخير، وتبرز وجوه الفضل فيها، وتجعل منهم قدوات يتأسى بهم من حولهم.

المدح المؤدب المقتصد يؤثر في الناس، وهو ليس غريبا في ديننا، ولا مرفوضا بشكل مطلق، بل هو وسيلة فعالة من وسائل التربية المفيدة، إن استخدم في وقته وبمقدار محسوب مدروس.

الثناء، بصدق وأمانة، هو عامل تشجيع وأداة تحفيز للابن في البيت، للطالب في المدرسة، للموظف في المؤسسة، للمتطوع في الجمعية، للعامل في المصنع، وللجندي في المعركة، والمقصود منه، دفع الممدوح إلى الأمام، وإمداده بطاقة معنوية إضافية ليقدم الأحسن والأفضل.

وقد يستعمل المدح عند أقوام حبا وتشجيعا وثناء، وقد يستغله أقوام تكسبا ونفاقا ورياء...

لذلك فقد ورد عن نبينا ﷺ التحذير من التوسع في المدح فقال: «البذاء والبيان شعبتان من النفاق».

أتى بعضهم إلى رجل من الصالحين فرفع بصره إلى السماء قائلا: «اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني، وأنت وحدك تعرفني».

وقال سفيان بن عيينة: «لا يضر المدح من عرف نفسه».

نعم، من عرف نفسه، وعرف تقصيره وذنوبه، لن يسكر برشفة مديح أو ثناء. لكن ذلك لا يجيز لنا أن نصادر حقه في أن يستبشر ويفرح بما يسمعه من ثناء الناس.

فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟

قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

قال الإمام النووي معلقا: «هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم».

وقد ذكر ابن القيم بأن الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس لا يجتمعان، إلا كما يجتمع الماء والنار.

وفي كتاب الله مدح لأنبياء الله ورسله وأنصارهم وأصحاب كل فضيلة وخير، وفي سنة رسول الله من الأحاديث في مناقب الصحابة ووصف كل واحد منهم بما وصف به من الخصال الجميلة.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «أرأف أمتي بأمتي أبوبكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأقرؤهم أبي، وأمين هذه الأمة أبوعبيدة بن الجراح».

فالمدح المحمود المباح هو أن يقدم المسؤول أو الراعي الثناء على من ولي إدارة مواهبه، وأن يذكر بعض الخير الذي منه، ثم يحفزه بفعل بعض المأمورات، أو ترك بعض المنهيات.

فقبل أن يوجه رسول الله ﷺ عبدالله ابن عمر إلى قيام الليل قال له: «نعم الرجل عبدالله، لو كان يصلي من الليل»، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا.

وكذلك مدح النبي ﷺ عمر بن الخطاب في حضوره فقال له: «ما رآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك».

وقد علق ابن حجر العسقلاني على هذه الرواية قائلا: «وهذا من جملة المدح، لكنه لما كان صدقا محضا وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر، مدح به، ولا يدخل ذلك في المنع».

هكذا وازن العقلاء بين الثناء المقتصد والمدح الصادق، وبين مداراة النفوس والحرص على صفائها وإخلاصها..

هكذا فهموه: لا إغفال لمواطن الخير في الناس حد التجاهل، ولا مبالغة في الإطراء والمجاملة، حد النفاق.

ومع وجود ما يسمى بالنفاق الاجتماعي والاستغلال الكلامي، لابد أن نحذر القارئين من تلك الفئة المتجاوزة.. فمن مدحك بما ليس فيك في رضاه، ذمك بما ليس فيك في غضبه.

ورحم الله القائل: «من مدح الرجل بغير ما فيه، فقد بالغ في ذمه».

على أن لا نتفاجأ من وجود فئة ثانية ترى الخير لكنها تبحث فيه عن ألف شر:

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرا به الماء الزلالا!



نموذج للمدارس الرائدة

مدرسة الأمر الأول "ILKEMIR"

استطلاع : تركي النصر

خلال رحلتها العلمية إلى مدينة إسطنبول التاريخية، حيث يفوح عبق العلم والحضارة الإسلامية، في مدينة شهدت عزة الإسلام وقوة الخلافة؛ زارت مجلة «الوعي الإسلامي» مدرسة «الأمر الأول» يوم الاثنين ٤ مايو ٢٠١٥م قبيل صلاة الظهر، والتقى رئيس التحرير الأستاذ فيصل يوسف العلي بمدير المدرسة الأستاذ سعد الدين إيكاي، الذي اصطحب رئيس التحرير في جولة مؤثرة في أرجاء هذا الصرح الشامخ، الذي يمثل واحدا من الآثار الطيبة لثقافة الوقف في المجتمع التركي.

أصل التسمية

لقد انتقى القائمون على هذا المشروع العلمي الرائد اسم المدرسة بدقة، حيث يعبر عن المقصد الأسمى للأمة الإسلامية وهو العلم والثقافة.

والأمر الأول هو «اقرأ»، أول أمر من الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ جاء مسطرا في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق:١).

نشأة المدرسة وأهدافها

لعل ما يميز هذه المدرسة الرائدة أنها أنشئت مستقلة، لا تتبع أي جمعية، وإنما كان إنشاؤها لأمر عظيم رسمه القائمون على تأسيسها لإفادة دينهم ومجتمعهم.

ومن أهم من أهم أهداف المدرسة استغلال طاقات الطلاب الأذكياء لتكون في خدمة دينهم وبلدهم.





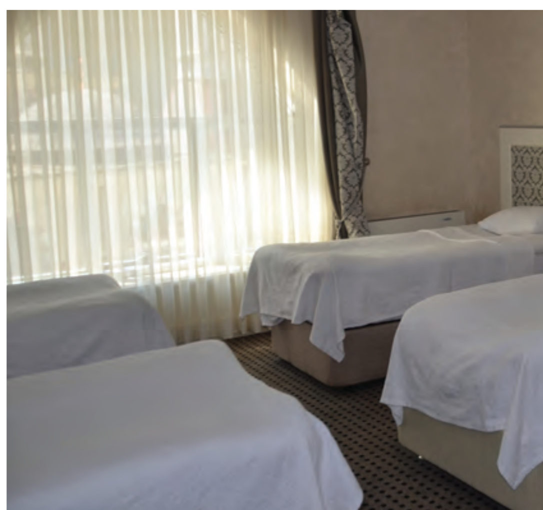
رئيس التحرير يتوسط مسؤولي المدرسة



وتنمية العقول النيرة، والحفاظ عليها من الهجرة.

وكذلك إعادة التجربة القديمة التي كانت متبعة في الدولة العثمانية، وهي: العناية بالطلاب الأذكياء وتخريجهم علماء لخدمة أمتهم.

وتخريج نخبة من المتميزين تأسسوا تأسيسا صحيحا على مبادئ الدين الإسلامي والأخلاق الحميدة.



اختيار الطلاب

تقوم إدارة مدرسة «الأمر الأول» - التي تعتني بتدريس طلابها وإعدادهم بالمجان - باختيار الدارسين فيها وفق ضوابط محددة منها:

عمل مسح شامل وزيارات مكثفة لعموم المدارس، والتركيز على مدارس الأئمة والخطباء المتوسطة.

ومقابلة الطلاب الراغبين، واختبار قابليتهم للتعليم، وإجراء اختبار القدرات.

واختيار ٢١٦٢ طالبا، كإجراء مبدئي، وعمل اختبار تصفية أولية لهم، واختيار ٥٠٧ طلاب منهم.

وكذلك دعوة الطلاب المختارين إلى مقر المدرسة، وإجراء مقابلة خاصة لكل طالب، مدتها ساعتان، وفق نظام اختبار «wisc-r» الأميركي المعمول





به منذ مئة عام.

- بعد إجراء هذه الاختبارات والمقابلات الخاصة لعموم الطلاب، والتي استمرت أربعة أشهر ونصف الشهر، تم اختيار ١٠٣ طلاب من أصل ٥٠٧.
- تم تقسيم هؤلاء الطلاب إلى مجموعات.
- تمت المراقبة العلمية والنفسية للطلاب لاختيار التوجهات العلمية أو المهنية لديهم.
- مراقبة ميول الطلاب (الأدبية، الرياضية، القيادية، الفكرية...).
- ثم تم عمل اجتماع لأستاذة الطلاب الذين أشرفوا عليهم عن قرب (من الحضانة إلى المتوسطة)، ودعوة الأهالي، وتم اختيار ٨٥ طالبا من أصل ١٠٣ كتصفية نهائية.

منهج التعليم في المدرسة

تتبع مدرسة «الأمر الأول» نظام منهج التعليم المزدوج المكثف، حيث تقوم بتدريس المنهج الحكومي في الفترة الصباحية، وتدريس العلوم الإسلامية في فترة ما بعد العصر، وذلك من خلال توزيع الطلاب على قاعات مجهزة لجميع التخصصات، وسميت كل قاعة باسم عالم من علماء المسلمين؛ ليكون قدوة لهؤلاء الطلاب.

ومن الأهداف الأساسية في العملية التعليمية تنمية الشعور الإيماني لدى الدارسين، حيث يهدف القائمون على العملية التدريسية إلى تحفيظ الطلاب القرآن الكريم خلال خمس سنوات، حيث يحفظ الطالب في الصيف مئة صفحة من المصحف، إضافة إلى دراسة «الفقه والأخلاق والتفسير والحديث واللغة العربية».

ويهتم القائمون بالمنهج الإسلامي الديني فيها؛ حيث يخرجون طلابا في المرحلة الثانوية يكونون بقوة طلاب كلية الشريعة، وربما أقوى،



أما بالنسبة إلى اختيار التخصصات الجامعية، فيتم اختبار ميول الطلاب فيما بعد المرحلة الثانوية.

وأما عن إقامة الطلاب ومبيتهم فإنه قد تم تخصيص سكن للطلاب يليق بهذا المشروع الرائد، وهو سكن داخلي، يعد بمنزلة سكن فندقي راق من حيث الترتيب والنظافة اللذين يدرب الطلاب عليهما. ويهدف القائمون أيضا من إقامة الطلاب في هذا السكن إلى تنشئتهم على نظام إسلامي دقيق.

وتمنح إدارة المدرسة إجازة أسبوعية للطلاب لزيارة أهلهم؛ حيث يغادرون المدرسة ظهر السبت، ويعودون إليها مساء الأحد؛ لكي يعدوا أنفسهم لاستئناف دراستهم صبيحة الاثنين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العناية الفائقة التي توليها المدرسة، لا تقتصر على الطلاب فقط؛ بل تمتد لتشمل عائلاتهم، فإذا كانت هذه العائلة فقيرة وبحاجة إلى العناية المادية والاجتماعية؛ أولتها المدرسة العناية اللازمة.

ومن خلال جولة ميدانية بصحبة مدير مدرسة الأمر الأول السيد سعد الدين؛ في جنبات المدرسة ومرفقاتها، اتضح لنا الدقة في بنائها لتكون مؤسسة تعليمية نموذجية من حيث مراعاتها لأدق تفاصيل الترتيب والأمن والسلامة.

وخلاصة القول: تعتبر هذه المدرسة نموذجا خاصا للمدارس العلمية التربوية الرائدة التي تهدف إلى نشر العلم الحديث مكتسيا بثوب من الثقافة الإسلامية والأخلاق الحسنة.



حيث يكون الطالب المتخرج مؤهلا لمرحلة الماجستير مباشرة.

وتحتوي المدرسة على جميع الأقسام الدراسية حتى المتوسطة، وهي الآن بصدد افتتاح المدرسة الثانوية التي تم تأسيس بنائها على أرض وقفية بمساحة ٢٠٠ الف متر مربع.



إعداد: خالد خلاوي

الداعية د. عصام الروبي: الشباب كنز الأمة المخبوء

أكد الداعية د. عصام الروبي، أن الشباب مرحلة الحرث والجد والاجتهاد، ويحصد لاحقا ما اجتهد فيه طوال تلك الفترة، موضحا أن الشاب إن لم ينل حظا وافرا من التعليم وحسن الثقافة في هذه المرحلة فمتى يتعلم؟ وإذا لم ينتج ويزرع في تلك الفترة فمتى يفعل؟ مشيرا في حواره مع «الوعي الشبابي»، أنه يهتم خلال مناقشته مع الشباب بموضوعات الرقائق التي تأخذ بقلوبهم نحو الرقة وتحبيبهم في رحمة الله، فإلى نص الحوار:

• ما أبرز الموضوعات التي ناقشتها ولاقت صدى بين الشباب؟

- الموضوعات التي يتقبلها الشباب بقبول حسن هي موضوعات الرقائق التي تأخذ بقلوبهم نحو الرقة التي تحببهم في رحمة الله الواسعة، وأظن أنه ليس من الحكمة أن نتكلم مع الشباب وهم في فترة القوة والعنفوان عن مظاهر الترهيب والتخويف، فالشاب أحوج ما يكون أن نحببه في ربه، ونعلمه كيف يحب دينه ونبي الله، ومجتمعه ووطنه.

• وما أبرز المخاطر التي تهدد الشباب المسلم في الوقت الحالي؟

- هنالك عقبات كثيرة تهدد الشباب، أولا مسألة الإلحاد التي أطلت برأسها الخبيث، ولابد أن نتصدى لها وأن نواجه هؤلاء العابثين الذين يقولون إنه لا إله وأن هذا الكون خلق عبثا!!، وأيضا هناك التطرف الفكري الذي ينشأ نتيجة عدم فهم النصوص الإسلامية فهما صحيحا، أو الجهل المركب؛ كل هذا يؤدي إلى التطرف، وبالتالي علينا أن نجفف منابعه الفكرية ونواجه الفكر بالفكر والحوار.

• كيف يقي الشباب أنفسهم من الإحباط والتشاؤم؟

- الأمر يتوقف على الإيمان، فإذا كان لديهم إيمان قوي بحرارة متمكنة في القلب، ستكون النفوس سوية، راضية، مرضية، حرة، عزيزة أبية، ولا يمكن أن يتسلل إليه الجزع أو الخوف أو القلق، أو الاكتئاب أو التقلبات المزاجية، بينما أي شاب يسرف على نفسه وينحرف في المسار اللاأخلاقي ويتعدى حدود الله، يصاب بتقلبات مزاجية عالية، وحالة من القلق والضيق والنكد والكرب، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤).



• إدمان التكنولوجيا سبب في انعزال كثير من الشباب عن العالم حوله. كيف يمكن حل ذلك؟

- التقدم العلمي التقني الذي أذهل الشباب، كما أذهل غيرهم، فرض نفسه على الساحة فرضا لا يمكن أبدا أن نتغافل عنه، فهذه وسيلة من وسائل التقدم؛ خيرها خير، وحسنها حسن، وقبيحها قبيح، لكن علينا أن نرشد الوقت ونحن نتعامل مع هذا التقدم العلمي التقني، هذا من خلال الدور المنوط بالأبوين نحو أبنائهم، فلابد أن تكون هنالك مراقبة أسرية ومجتمعية ومدرسية، وتعليمية، وثقافية، ويجب أن تكون هنالك مراقبة دولية على ما ينشر في هذه الوسائل، لأنها تغرس قيما في نفوس الشباب، وإذا كانت إيجابية فسيرتقي المجتمع ويتقدم، وإذا كانت سلبية فلاشك أن ثمارها ستكون مرة تعود مرارتها على الفرد والمجتمع وكل من حوله.

• كيف تعلم نفسك بنفسك؟

الآن أصبحت مصادر التعلم كثيرة، عربية، وغير عربية، العديد من الجامعات العريقة والمراكز التعليمية تتيح مواد تعليمية على مواقعها على شبكة الإنترنت. حدد أولا ما تريد أن تتعلمه، ولماذا تريد أن تتعلم ذلك؟.

وإن كنت تريد أن تصبح متعلما ذاتيا قادرا على الحصول على المعلومات من المصادر المختلفة، ومعالجتها، والإبقاء عليها وفهمها دون الحاجة لشخص يقوم بشرح المعلومات لك، فعليك اتباع هذه الخطوات:

١- أوجد الدافع

لابد من التأكد من وجود الدافع في التعلم، والرغبة في اكتساب المعلومات، تأكد من أنك فعليا تريد أن تتعلم من أجل التعلم، أوجد السبب والدافع وراء التعلم، اسأل نفسك في البداية، ماذا تريد أن تتعلم؟، ثم لماذا؟

٢- ابحث عن المعلومات التي قد تحتاجها للتعلم

الآن، انظر في المعلومات المتاحة لديك، فإن كانت لا تكفي فابحث عن المزيد من المعلومات، اجمع كل ما قد تحتاج إليه لاحقا، جميع الكتب، ملفات الفيديو، والمواد التي تستخدمها، البعض لا يفضل جمع كل المعلومات، ويفضل البحث عما يحتاجه في كل مرة يقوم فيها بعملية التعلم.

٣- ابدأ في التعلم

الآن بعدما أصبح لديك المعلومات اللازمة، قم بالبدء في التعلم، افهم المعلومات جيدا، ابدأ تدريجيا ولا تتسرع.

٤- ابدأ في الممارسة والتطبيق

إن كنت تريد تعلم التصميم، أو البرمجة، أو غيرها من الأشياء التي تتطلب الممارسة، قم بالممارسة وتطبيق

المعلومات والخبرات التي تعلمتها، هذا بالتأكيد لا يمنع من الإبداع، والتجديد، لكن الممارسة هي جزء مهم جدا لا يمكن التخلي عنه لإتمام عملية التعلم الصحيحة.

٥- تركيز الوقت في التعلم

لابد من إنفاق المزيد من الوقت في عملية التعلم، إن إتقان أي شيء يترتب على الوقت الممنوح له، فلا تترك يوما يمضي دون التعلم أو الممارسة والتطبيق ولو قليلا من الوقت.

٦- نظم عملية التعلم الخاصة بك

لابد من التنظيم، والتحضير لما ستتعلمه في المرة القادمة، فالتنظيم من الخطوات الأساسية نحو النجاح.



«طالب».. تجربة لشاب كويتي استفاد منها ٥١٤ ألف مستخدم

بعد مرور خمس سنوات على انطلاقتها باتت المبادرة الوطنية للتعليم الإلكتروني (طالب) تجربة رائدة متعددة الأبعاد لاسيما في التواصل بين الأضلاع الأربعة للمنظومة التربوية. وحقق هذا المشروع التفاعلي الذي أطلقه شاب كويتي انتشارا واسعا في دولة الكويت غطى أكثر من ٥٠٠ مدرسة في مختلف المناطق التعليمية وشمل نحو ٥١٤ ألف مستخدم.

ولم تتوقف هذه المبادرة عند نظامها الأول لدى إطلاقها بل وصلت إلى النسخة السادسة حيث يمكن الولوج إلى هذا النظام عبر تطبيقات الهواتف النقالة والأجهزة اللوحية الذكية، وما أضفى عليها خصوصية أخرى هي الرعاية التي تحظى بها من كلية علوم وهندسة الحاسوب بجامعة الكويت.

وعن هذا المشروع قال عميد الكلية الدكتور فواز العنزي: إن الكلية دعمت هذه المبادرة في العام الدراسي ٢٠١٣/٢٠١٤م وتبنتها بغية المساهمة في تطويرها وجعلها منتجا منافسا عالميا وليس إقليميا فحسب.

وأضاف الدكتور العنزي أن الكلية لاحظت أن البرنامج وصل إلى مراحل متقدمة في التعليم الإلكتروني، بل بات أحد أكثر البرامج الناجحة في الإقليم العربي، وأصبحت الكلية الهيئة العلمية الراعية للمبادرة، وتم تطوير نظامها إلى النسخة السادسة منه ليطبق في أكثر من ٥٠٠ مدرسة.

ولفت إلى أن المبادرين أنشأوا تطبيقا للهواتف الذكية تحت مسمى «طالب» يقدم خدمات كثيرة تتعلق بالطالب وولي الأمر والمعلم والإدارات المدرسية بحيث يمكن متابعة السجل اليومي للطالب بكل سهولة ويسر.

طالب Taaleb
المربع الإلكتروني للتعليم المتكامل
E-square for integrated education

طالبات يبتكرن تقنية لتخليص الكبار من سلس البول

صمم عدد من طلاب وطالبات السنة النهائية في بكالوريوس الهندسة بجامعة خليفة، مجموعة مشاريع للتخرج، وركزوا فيها على المشاريع التي تخدم مجالات تخصصهم ومنها، الهندسة الطبية، والمجال الصحي، حيث صمم عدد منهم «عضلة صناعية قابضة للجهاز البولي».

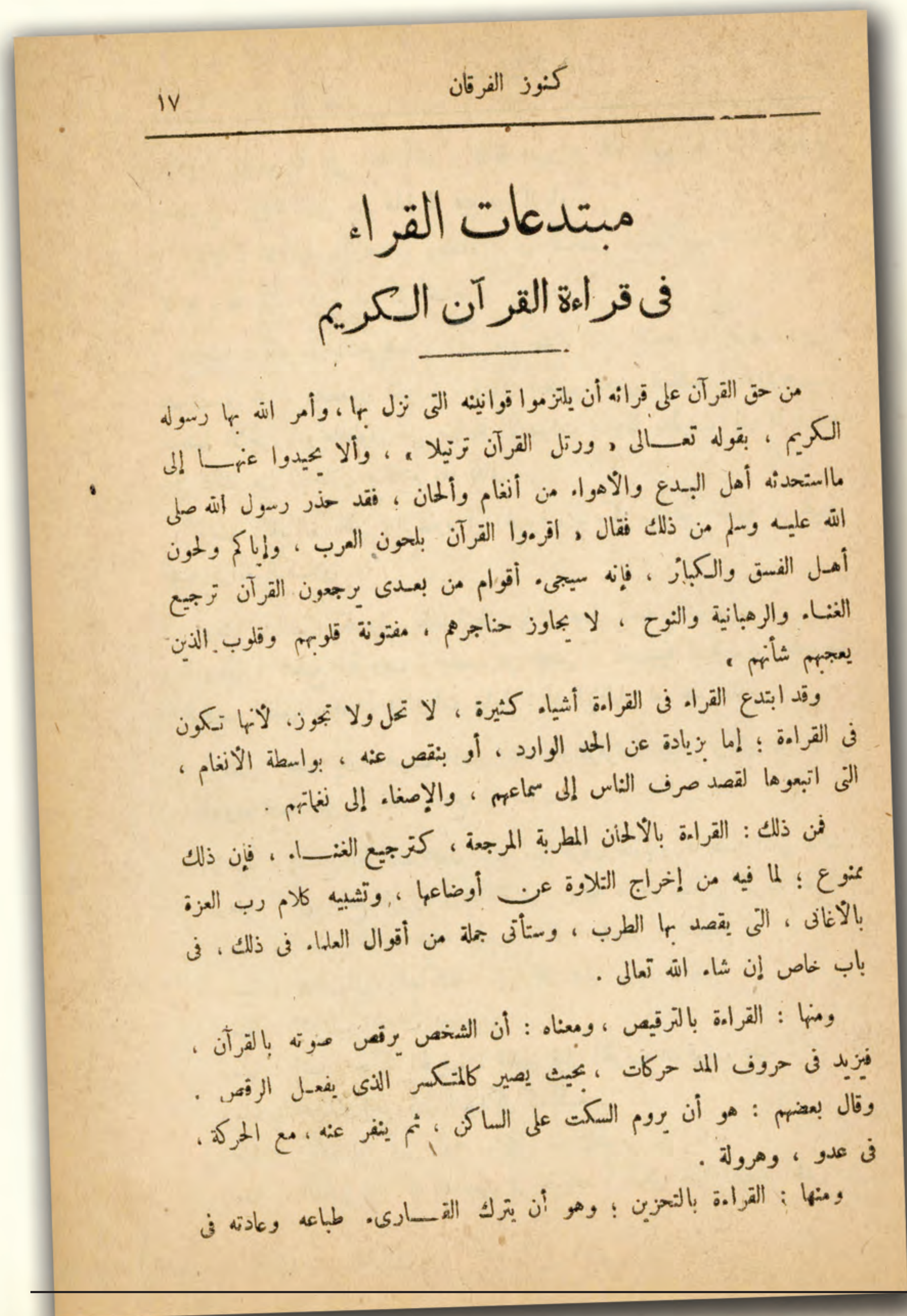
وبحسب ما أفادت جامعة خليفة فقد صممت كل من الطالبات، سارة حمودة، وانتصار العامري، وهبة أبوسل، ولطيفة الزعابي، من تخصص الهندسة الطبية الحيوية، وملوك العامري، من الهندسة الميكانيكية، «عضلة صناعية قابضة للجهاز البولي»، يستفيد منها كبار السن والسيدات الحوامل، ممن يشكون من سلس بولي بسبب ضعف العضلة القابضة في الجهاز البولي.



وأوضحت الطالبات، أنهن بحثن على الإنترنت ووجدن خمسة أجهزة موجودة في هذا المجال، ولكن كل جهاز له مشاكل خاصة فيه، ومنها تمزق الأنسجة في حال وجود ضغط عال، واستطاعت الطالبات تخطي هذه المشكلة، حيث إن الطبيب يتحكم بضغط العضلة، التي تعمل بالإشارة الإلكترونية.

وأضافت الطالبات، أنهن قدمن للحصول على براءة اختراع، بعد أن استشرن مجموعة من الأطباء المختصين ونصحوهن بعدد من التعديلات على الجهاز، سيعملن على تطويره وتحسينه بها قريبا.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.



كنوز الفرقان ١٧

مبتدعات القراء

فى قراءة القرآن الكريم

من حق القرآن على قرائه أن يلتزموا قوانينه التى نزل بها، وأمر الله بها رسوله الكريم، بقوله تعالى «ورتل القرآن ترتيلا»، وألا يحيدوا عنها إلى مااستحدثه أهل البدع والأهواء من أنغام وألحان، فقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال «اقرءوا القرآن بلحون العرب، وإياكم ولحون أهل الفسق والكبائر، فإنه سيجىء أقوام من بعدى يرجعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم».

وقد ابتدع القراء فى القراءة أشياء كثيرة، لا تحل ولا تجوز، لأنها تكون فى القراءة؛ إما بزيادة عن الحد الوارد، أو بنقص عنه، بواسطة الأنغام، التى اتبعوها لقصد صرف الناس إلى سماعهم، والإصغاء إلى نغماتهم.

فمن ذلك: القراءة بالألحان المطربة المرجعة، كترجيع الغناء، فإن ذلك ممنوع؛ لما فيه من إخراج التلاوة عن أوضاعها، وتشبيه كلام رب العزة بالأغانى، التى يقصد بها الطرب، وستأتى جملة من أقوال العلماء فى ذلك، فى باب خاص إن شاء الله تعالى.

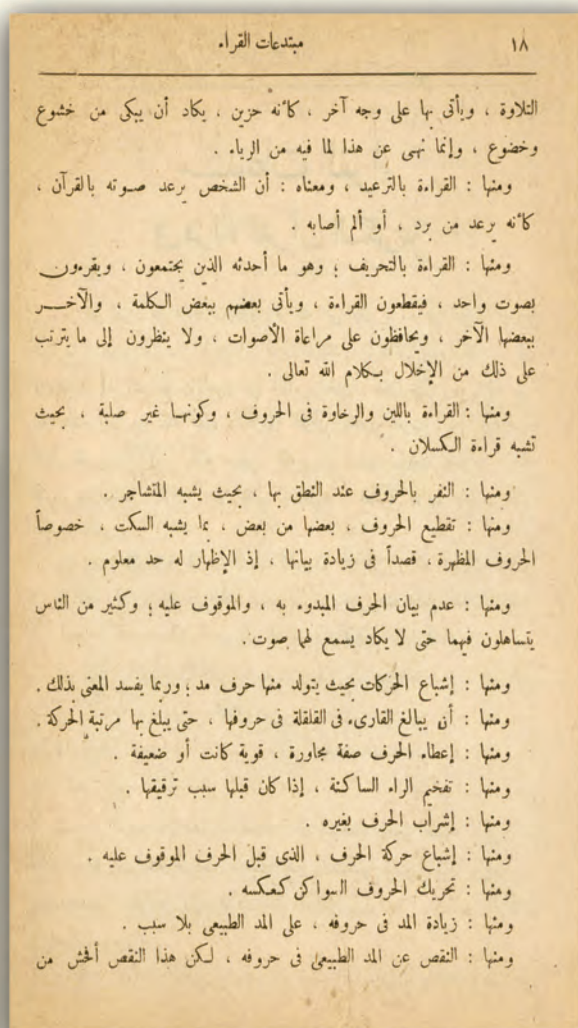
ومنها: القراءة بالترقيص، ومعناه: أن الشخص يرقص صوته بالقرآن، فيزيد فى حروف المد حركات، بحيث يصير كالمتكسر الذى يفعل الرقص. وقال بعضهم: هو أن يروم السكت على الساكن، ثم ينفر عنه، مع الحركة، فى عدو، وهرولة.

ومنها: القراءة بالتحزين؛ وهو أن يترك القارىء طباعه وعادته فى



مجلة كنوز الفرقان

صدرت بتاريخ ١٣٦٨ - ١٣٧٢ هـ عن الاتحاد العام لجماعة القراء بمصر، مجلة علمية دينية ثقافية؛ تعنى بعلوم القرآن الكريم، كان رئيس تحريرها: الشيخ علي محمد الضباع شيخ عموم المقارئ المصرية رحمه الله، وقد صدر العددان الأول والثاني منها في محرم / صفر سنة ١٣٧٢هـ الموافق: أكتوبر سنة ١٩٥٢م.



١٨ مبتدعات القراء

التلاوة ، ويأتى بها على وجه آخر ، كأنه حزين ، يكاد أن يبكى من خشوع وخضوع ، وإنما نهى عن هذا لما فيه من الرياء .

ومنها : القراءة بالترعيد ، ومعناه : أن الشخص يرعد صوته بالقرآن ، كأنه يرعد من برد ، أو ألم أصابه .

ومنها : القراءة بالتحريف ؛ وهو ما أحدثه الذين يجتمعون ، ويقرءون بصوت واحد ، فيقطعون القراءة ، ويأتى بعضهم ببعض الكلمة ، والآخر ببعضها الآخر ، ويحافظون على مراعاة الأصوات ، ولا ينظرون إلى ما يترتب على ذلك من الإخلال بكلام الله تعالى .

ومنها : القراءة باللين والرخاوة فى الحروف ، وكونها غير صلبة ، بحيث تشبه قراءة الكسلان .

ومنها : النفر بالحروف عند النطق بها ، بحيث يشبه المتشاجر .

ومنها : تقطيع الحروف ، بعضها من بعض ، بما يشبه السكت ، خصوصاً الحروف المظهرة ، قصداً فى زيادة بيانها ، إذ الإظهار له حد معلوم .

ومنها : عدم بيان الحرف المبدوء به ، والموقوف عليه ؛ وكثير من الناس يتساهلون فيهما حتى لا يكاد يسمع لهما صوت .

ومنها : إشباع الحركات بحيث يتولد منها حرف مد ؛ وربما يفسد المعنى بذلك .

ومنها : أن يبالغ القارىء فى القلقلة فى حروفها ، حتى يبلغ بها مرتبة الحركة .

ومنها : إعطاء الحرف صفة مجاورة ، قوية كانت أو ضعيفة .

ومنها : تفخيم الراء الساكنة ، إذا كان قبلها سبب ترقيقها .

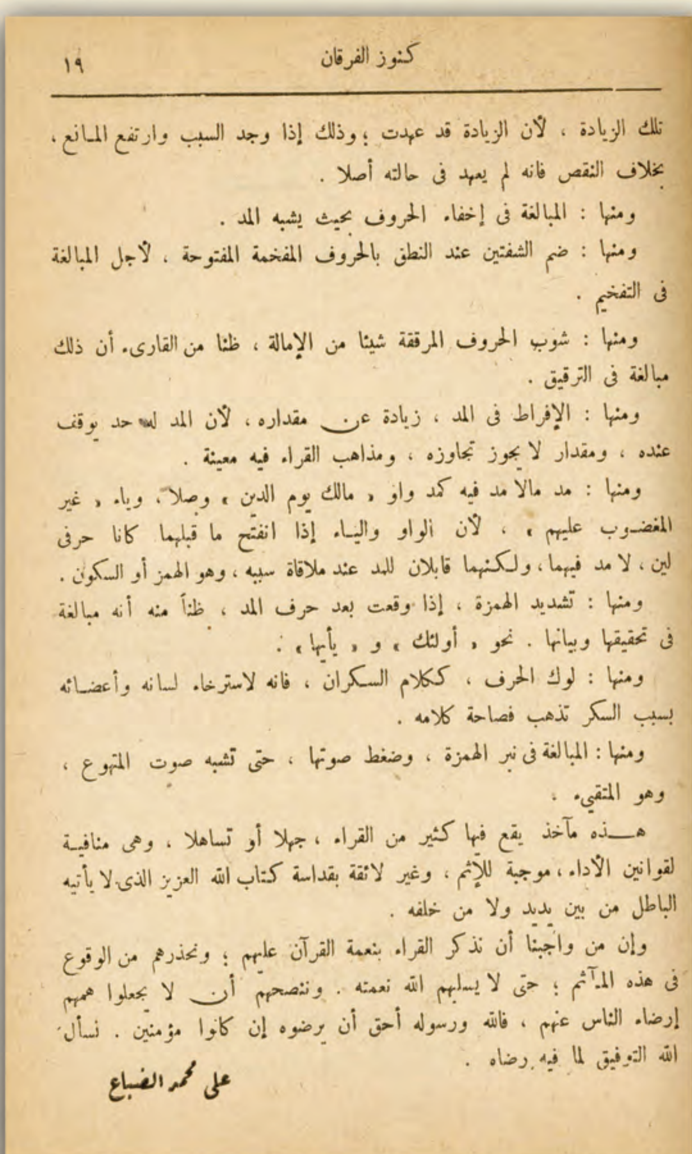
ومنها : إشراب الحرف بغيره .

ومنها : إشباع حركة الحرف ، الذى قبل الحرف الموقوف عليه .

ومنها : تحريك الحروف السواكن كعكسه .

ومنها : زيادة المد فى حروفه ، على المد الطبيعى بلا سبب .

ومنها : النقص عن المد الطبيعى فى حروفه ، لكن هذا النقص أفحش من



١٩ كنوز الفرقان

تلك الزيادة ، لأن الزيادة قد عهدت ؛ وذلك إذا وجد السبب وارتفع المانع ، بخلاف النقص فانه لم يعهد فى حالته أصلا .

ومنها : المبالغة فى إخفاء الحروف بحيث يشبه المد .

ومنها : ضم الشفتين عند النطق بالحروف المفخمة المفتوحة ، لأجل المبالغة فى التفخيم .

ومنها : شوب الحروف المرققة شيئا من الإمالة ، ظنا من القارىء أن ذلك مبالغة فى الترقيق .

ومنها : الإفراط فى المد ، زيادة عن مقداره ، لأن المد له حد يوقف عنده ، ومقدار لا يجوز تجاوزه ، ومذاهب القراء فيه معينة .

ومنها : مد مالا مد فيه كمد واو « مالك يوم الدين » وصلا ، وياء « غير المغضوب عليهم » ، لأن الواو والياء إذا انفتح ما قبلهما كانا حرفى لين ، لا مد فيهما ، ولكنهما قابلان للمد عند ملاقاة سببه ، وهو الهمز أو السكون .

ومنها : تشديد الهمزة ، إذا وقعت بعد حرف المد ، ظناً منه أنه مبالغة فى تحقيقها وبيانها . نحو « أولئك » و « يأيها » .

ومنها : لوك الحرف ، ككلام السكران ، فانه لاسترخاء لسانه وأعضائه بسبب السكر تذهب فصاحة كلامه .

ومنها : المبالغة فى نبر الهمزة ، وضغط صوتها ، حتى تشبه صوت المتهوع ، وهو المتقيء .

هـذه مآخذ يقع فيها كثير من القراء ، جهلا أو تساهلا ، وهى منافية لقوانين الأداء ، موجبة للإثم ، وغير لائقة بقداسة كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وإن من واجبنا أن نذكر القراء بنعمة القرآن عليهم ؛ ونحذرهم من الوقوع فى هذه المآثم ؛ حتى لا يسلبهم الله نعمته . وننصحهم أن لا يجعلوا همهم إرضاء الناس عنهم ، فالله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . نسأل الله التوفيق لما فيه رضاه .

على محمد الضباع

الشيخ الضباع

هو نور الدين علي بن محمد الملقب بالضباع؛ شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية؛ إمام مقدَّم في علوم القرآن، ممن أخذ عنه القراءات العشر الشيخ عبدالعزيز عيون السود، والشيخ أحمد حامد الريدي التيجي شيخ القراء بمكة المكرمة.

توفي العلامة الضباع بعد حياة حافلة بالخدمات الجليلة لكتاب الله العزيز في ١٤ رجب ١٣٨٠ هـ.

إعداد: د. عمرو عبد الكريم

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال التغريب

تعود جذور المعركة الحضارية الضارية بين العالمين العربي الإسلامي والعالم الغربي الاستعماري التوسعي إلى أكثر من قرنين من الزمان، حاول فيهما العالم الغربي فرض التغريب، أو إن شئنا الدقة «غربنة» العالم كله، بما فيه العالم الإسلامي، وفرض منهجه وطريقته في الحياة على شعوبه.

وربما كان سلاح الوعي أحد أهم أسلحة تلك المواجهة الحضارية: وعي الذات ووعي الآخر، وإدراك الفروقات الحضارية، ومناطق الفراغ والثغرات، التي تسرب منها تيار التغريب، ليس على مستوى التطبيق والأدوات والمنتجات، بل على مستوى الأفكار والمناهج والتصورات.

انتهت حروب الفرنجة، المعروفة في كتب التاريخ باسم «الحروب الصليبية» (وهو تعبير في تصورنا مضلل، فمصطلح الحروب الصليبية كمصطلح الصهيونية كلاهما يستخدمان ديباجات دينية لشحذ همم العوام في الديانتين لتحقيق أهداف سياسية واستعمارية) التي كانت تستهدف الغزو المباشر لديار المسلمين ومحاولة استنزاف خيراتها وثروات شعوبها. وكان من أهم نتائجها اكتشاف أهمية توظيف المعارف الدقيقة عن ديار المسلمين: لغة وعادات وثقافات وتقاليد، فكان ظهور علم الاستشراق.

وفي الغزوة الغربية الحديثة كان التغريب أهم أسلحة حركة استعمار العالم الإسلامي، فمن دون معلومات دقيقة عن أوضاع المسلمين وثغراتهم المنكشفة لا يمكن اقتحام تلك الحصون المنيعة، فكانت أهداف حركة التغريب جوهرها فتح الحصون من داخلها، والحصون لا تفتح إلا من داخلها.

فنشأ تيار التغريب، وهو تيار فكري كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمي إلى صبغ حياة الأمم عامة، وحياة المسلمين خاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

ومن ثم فجوهر «التغريب» هو: «فرض أنماط وأساليب ومعايير الحياة الغربية» بحيث تكون هي المعايير التي يتم الاحتكام إليها في أي قضية: اجتماعية كانت أو فكرية، سياسية كانت أو اقتصادية.

وربما كانت البدايات الأولى لحركة التغريب في ديار المسلمين حسنة النية إلى حد كبير، فلقد كانت محاولة من العالم الإسلامي لتحديث جيوشه وتعزيز قدراته، سواء أكانت عن طريق الابتعاث أم استقدام الخبراء الغربيين لبناء نهضة حديثة، وذلك لمواجهة الغزوة الضارية التي بدت من رغبة الدول الأوروبية في بسط نفوذها الاستعماري في ديار المشرق.

وعلى مدار قرنين من الصراع ومحاولة التغريب المستمرة، كانت المشكلة الأبرز هي أن العلوم التي تم استجلابها أو ابتعاث الطلاب لتحصيلها، هي علوم متحيزة حتى النخاع للنموذج الغربي، فكما يقول أستاذنا الدكتور عبدالوهاب المسيري: تنبع العلوم الإنسانية الغربية من رؤية غربية للعالم، ومن تجربة الإنسان الغربي التاريخية. وقد زعم الإنسان الغربي أن هذه الرؤية «عالمية» و«صالحة لكل زمان ومكان»، وهذا ما يُطلق عليه التمركز حول الذات الغربية، وهذه هي الترجمة الدقيقة لعبارة Euro-centricity.

لقد حملت الأفكار التغريبية مركزية شديدة حول الغرب، وأصبح الانفتاح على العالم هو الانفتاح على الغرب، وأصبح العلم هو ما يجود به هذا العالم على البشرية، في عملية اختزال بغيضة تلاشت فيها كل التكوينات الحضارية التي تشكل ما يطلق عليه «العالم».

ومن ثم، يمكن القول إن مشكلة الغرب من الناحية الحضارية أنه لم يعد غربا وإنما فرض نفسه عالميا.

ومشكلته من الناحية السياسية والاقتصادية أنه صار المركز، وليس أحد أطراف العالم. ومشكلته الفلسفية - وهي المشكلة الأشد إلحاحا - أنه صار المطلق الوحيد في هذا العالم.

والحلول ببساطة أن يعود الغرب غربيا، وأن يعود أحد أطراف العالم، وأن يعود نسبيا، أو يستعيد نسبيته ويتخلى عن إطلاقيته.

وهذا لا يمكن أن يتم إلا باستعادة المنظور العالمي والتاريخي المقارن، بحيث يصبح التشكيل الحضاري الغربي تشكيلا حضاريا واحدا، له خصوصيته وسماته وتاريخه، تماما كما أن لكل التشكيلات الأخرى خصوصياتها وسماتها وتاريخها.

والمنظور المقارن لا يعني علاقة التأثير والتأثر الشائعة في الدراسات الجامعية، وإنما يعني محاولة الوصول إلى رؤية عالمية حقة من خلال مقارنة البنى الحضارية والتجارب التاريخية المختلفة والنماذج المتعددة، التي تعامل الإنسان من خلالها مع العالم فأبدع أشكالا حضارية خاصة متنوعة لها قوانينها الداخلية، وتتبع إنسانيتها من خصوصيتها لا من خلال اتساقها مع قانون عالمي عام وهمي، هو في نهاية الأمر «قانون غربي». كما يقول أستاذنا الدكتور عبدالوهاب المسيري.

وأتصور أن أي جهد حقيقي لمواجهة تيار التغريب لا يكون بصوغ قصائد الهجاء، وإنما بإبداع حضاري حقيقي، يقدم حلولا لمشكلات المجتمعات المعاصرة، ويجيب على أسئلتها الملحة، وتقديم إبداع فكري متماسك يعبر عن إنسان هذه الأرض وتصوراته الفلسفية ومعتقداته ورؤيته الكلية عن الإنسان والكون والحياة.

فالنقد المجرد لا يقدم فكرا، ولا يبني أرضا، ولا يصنع حضارة.

إن التقليد، سواء للأقدمين (اغتراب في الزمان) أو للآخرين (اغتراب في المكان)، لا يصنع حضارة، ولا يرشد نهضة.

والتقليد ضد الإبداع، فالتقليد استلاب، والاستلاب لا يمكن أن يؤدي إلى تقدم على أي مستوى.

فعلى الرغم من أن كثيرا من رموز تيار التغريب قد عادوا وأعلنوا تراجعهم بشكل حاسم عن أفكار التغريب ومفاهيمه، فإن الآلة الإعلامية التي يسيطر عليها هذا التيار نفسه تجاهلت تلك العودة، وأسدلت عليها الستار. ورغم مرور عشرات السنين فإن الناس لا يعرفون إلا مقولات التغريب ورموزه.

وحري بنا، ونحن على هذه الثغرة الثقافية، أن نعمل على استعادة الرموز الوطنية، خصوصا أن العبرة بالخواتيم، وكانت عودتهم صادقة، فيما نحسب، وأعلنوا عن تراجعهم عن كثير مما كانوا يعتقدون ويرجون له، ودفع كثير منهم ثمن هذه الأوبة، وأهيل التراب إعلاميا على مراجعاتهم ونظراتهم النقدية لما كانوا يعتقدون.

فعميد الأدب العربي، أبرز رموز تيار التغريب، أعلن عودته، ونشر ذلك أستاذنا الكبير الدكتور محمد عمارة في كتابه: «طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام».

لقد كانت المرحلة الأخيرة من حياة طه حسين هي مرحلة الإياب الصريح والحاسم إلى أحضان العروبة والإسلام، ولقد أفصح طه حسين في تلك المرحلة عن إيابه الروحي إلى الإسلام الدين، وعن قناعته الحضارية بأن العرب والعروبة هما مادة الإسلام.

عاد طه حسين لا ليكون «درويشا» على الطريقة الإسلامية، ولا «درويشا» على الطريقة الغربية، وإنما عاد وآب ليمثل عقلا إسلاميا متألقا، وليقدم نموذجا من نماذج المراجعات الفكرية والتطور الفكري، كما يقول أستاذنا الكبير الدكتور محمد عمارة.

ودفن طه حسين في القبر، الذي أوصى أن يحفر عليه هذا الدعاء النبوي الذي كان أثيرا إلى قلبه، قريبا من لسانه، وهو: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي.. لا إله إلا أنت».

ومن أبرز نماذج العودة المباركة عودة أحد أهم مؤسسي التيار التغريبي في مصر خلال القرن العشرين، وهو منصور فهمي، الذي يصل في عام ١٩٣٩م إلى نتائج يرفض فيها كل ما كان يدعو إليه، فكتب يقول: «سبحانك اللهم، فليست بيئتي التي أعيش بها ولها وفيها هي بيئة الغرب (...) وهذا ما ورثناه من عادات ومحن وظروف وصروف غير ما ورث الغرب. أفتكون مكنوناتنا غير مكنوناته، ومميزاتنا غير مميزاته، وظروفنا وصروفنا غير ظروفه وصروفه. ثم يراد بنا أن نكون كالغربيين، ويحاول داعية صريح أن يقنعنا بأن نتخذ من الغرب إماما نأتم به في كليات ما يسير عليه الغرب وفي جزئياته؟».

ولا يمكن أن ننسى مراجعات مفكر بوزن محمد حسين هيكل، خصوصا ما كتبه في كتابه «في منزل الوحي» عام ١٩٣٦م.

وأحسب أن تلك المراجعات بحاجة إلى دراسة شاملة يكتب لها الذيوع الإعلامي.

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

مفهوم الحضارة عند صمويل هنتنجتون:

«الكيان الثقافي الأوسع، الذي يضم المجموعات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية والأمم، ولذا فالحضارة هي بمنزلة القبائل الإنسانية الكبرى».

مفهوم الحضارة عند الدكتور أحمد شلبي:

«وعلى هذا فالحضارة الإسلامية هي ما قدمه الإسلام للمجتمع البشري من فكر يرفع شأنه وييسر أمور حياته. ونقول للمجتمع البشري وليس للمجتمع الإسلامي فحسب، إذ إن الإسلام قدم مآثره للبشر جميعا، وبعض هذه المآثر يتضح مع غير المسلمين أكثر مما يتضح مع المسلمين».

مقولات في الوعي الحضاري

«العلم دون دين أعرج. والدين دون علم أعمى».

(ألبرت أينشتاين)

«استراتيجية الإلهاء هي عنصر أساسي في التحكم في المجتمعات. وهي تتمثل في تحويل انتباه الرأي العام عن المشكلات المهمة والتغييرات التي تقررها النخب السياسية والاقتصادية، ويتم ذلك عبر وابل متواصل من الإلهاءات والمعلومات التافهة».

(نعوم تشومسكي)

«إن وجود الغنى الفاحش بجانب الفقر المدقع في مجتمع واحد، يؤدي إلى الانفجار، عاجلا أو آجلا. ومهما طلي هذا التفاوت في الثروة بطلاء من الدين أو الخلق أو الشرف، فإنه مكشوف في أعين الناس تتقزز منه النفوس».

(علي الوردي)

عرض كتاب



«الاستقلال الحضاري» الدكتور محمد عمارة

يعالج هذا الكتاب قضية محورية من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقساما ثلاثة في هذا الكتاب وهي:

١- الاستقلال الحضاري.. وماذا يعني في النهضة المنشودة لأمتنا؟

٢- العلاقة بين «موروثنا» العربي الإسلامي و«الوافد الغربي».

٣- ونموذج تطبيقي لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية (الأزهر) وموقفها من التغريب والجمود والتجديد.

وصولا إلى الإسلام في بلورة «معالم المشروع الحضاري» الذي ينير لأمتنا طريق الخروج من مأزقها الحضاري، ويناقش هذا الكتاب عددا من القضايا الفكرية الخلافية والشائكة.

ومعالم الهوية العربية الإسلامية. وموقعها من «الثبات» و«التغيير».

والموقف من الحضارات الأخرى: أهو «التفاعل».. أم «التبعية».. أم «الانغلاق»؟

هذا الكتاب محاولة لرصد محاولات المصلحين والمفكرين والمجددين في العصر الحديث للبحث عن «الاستقلال الحضاري» للأمة.. بين أصحاب الجمود وأصحاب فكرة الجامعة الإسلامية، مثل الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس والكواكبي..

إنها باختصار: «معالم للنهضة».. ودليل عمل للإقلاع الحضاري.

تعتبر قضية الموقف من الغرب من القضايا الفكرية الخلافية.. ذات إشكالية كبيرة، تكاد أن تصبح ثغرة بين مفكرينا ومثقفينا، فانقسمت أفكارهم ونصوصهم بين «سلفية نصوصية»، تسعى إلى معاكسة قوانين التطور، التي هي سنة من سنن الله في الكون والمجتمع، وتسعى إلى جعل الحاضر والمستقبل في القوالب ذاتها التي صنعها «سلفها الصالح» في عصور الانحطاط والتخلف تحت حكم المماليك.. وتحكم العثمانيين!.. وبين «سلفية نصوصية متغربة» تسعى هي الأخرى إلى جعل حاضرنا ومستقبلنا في القوالب التي صنعها «السلف الغربي»، بدءاً من اليونان القدماء، وحتى نهضة الأوروبيين المحدثين!

وإذا كان الخيار الأول سيقودنا إلى «انغلاق» يقف بنا عند «التخلف الموروث»، الأمر الذي سيجعلنا عاجزين عن تقديم البديل، وإبداع المشروع الحضاري الكفيل لنهضتنا، وتحررنا من قبضة الهيمنة الغربية.. فإن الخيار الثاني سيقودنا إلى «التبعية» للمركز الحضاري الغربي، وهي تبعية يسعى إليها الغرب، ويسمح بها، شريطة ألا تتعدى إطار السلبيات وأمراض نموذجه الحضاري، الذي بدأ بلوغ نهاية الطريق المسدود!

ويسعى الدكتور محمد عمارة من خلال صفحات هذا الكتاب إلى التبشير بطريق ثالث متميز في الصراع الدائر حول الموقف من الحضارة الغربية. طريق التمييز بين الثوابت وبين المتغيرات، طريق النضال من أجل الحفاظ على نقاء الهوية الحضارية للأمة، في وجه محاولات المسخ والنسخ والتشويه التي تمارسها فكرية التغريب وتيار المغتربين... طريق فتح نوافذ العقل على مختلف الحضارات في موقع الراشد المستقل، الباحث عن عوامل القوة، يدعم بها ذاتيته المتميزة ونهضته الحضارية المستقلة... والرافض لكل عوامل الاستلاب لشخصية القومية وللمسات التي ميزت حضارة أمته عبر قرون تاريخها الطويل المجيد.

تلك هي الرسالة التي تحاول الوفاء بها صفحات هذا الكتاب.

فالاستقلال الحضاري يحدث للأمم عندما تتمكن من الاحتفاظ بشخصيتها القومية ونمطها الحضاري، بعد أن تعبر مرحلة جهلها بتراثها وعصورها المظلمة، وأيضا بعد أن تتخلص من انبهارها بحضارة الآخرين وتكتشف تراثها الحضاري وتستلهمه، فتنهض لتجعل حاضرها ومستقبلها امتدادا متطورا لهذا التراث ولا تحاكي غيرها من الحضارات، وهذا ما فعلته أوروبا التي استلهمت نهضتها الحديثة من حضارتنا العربية الإسلامية، وبعد نضجها تخلصت من التصور العربي الإسلامي وعاد مفكروها إلى نصوص تراثهم يستلهمونه ويقومونه، واحتفظت حضارتهم بسماتها ولم تصبح امتدادا لحضاراتنا الإسلامية.

القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ٢٤٠ صفحة.

إعداد: د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

اللحوم المستوردة والذبائح

اللحوم المستوردة من بلاد أهل الكتاب يحل أكلها، إذا توفرت شروطها الشرعية، وأما المستوردة من البلاد المجوسية والشيوعية؛ فيحل أكلها إن كان معها شهادة من جهة إسلامية موثوقة.

وحل مشكلة اللحوم المستوردة يكون بـ: الإكثار من تربية الحيوانات، والعناية بتنميتها، واستيراد ما يحتاج إليه منها، وإنشاء مجازر خاصة بالمسلمين في البلاد التي يراد استيراد اللحوم منها إلى البلاد الإسلامية.

والأصل في التذكية الشرعية أن تكون من غير تدويخ للحيوان، إلا عند العجز عن السيطرة عليه إلا بتدويخه، فتجوز تذكيته بعد التدويخ بشرط ألا يؤدي التدويخ إلى موته لو ترك.

● القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:

● أولا: ما عرض على لجنة الفتوى الكويتية (ج٢/ص٢٢٧/ف٥٨٨)؛ حول «ما ينبغي مراعاته فيما يستورد من اللحوم»؛ ومما أجابت به:

اللحوم المستوردة من بلاد أهل الكتاب يحل أكلها، إلا إذا تيقن أن ذابحها من غير المسلمين وأهل الكتاب، أو أنها قتلت خنقا أو بصورة غير جائزة شرعا.

وأما اللحوم المستوردة من البلاد المجوسية والشيوعية فيحل أكلها إن كان معها شهادة من جهة إسلامية موثوقة تثبت أنها ذبحت على الطريقة الإسلامية، ولا يحل أكلها إن لم يكن معها مثل تلك الشهادة. والله أعلم.

● ثانيا: صدرت فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء رقم (٧٢٣٦) حول حل مشكلة اللحوم المستوردة؛ ويتلخص ذلك فيما يأتي:

١- الإكثار من تربية الحيوانات، والعناية بتنميتها، واستيراد ما يحتاج إليه منها إلى المملكة حيا، وتيسير أنواع العلف لها، وتهيئة المكان المناسب لتربيتها وتذكيتها بالمملكة، وبذل المعونة لمن يعنى بذلك من الأهالي؛ شركات أو أفراد تشجيعا له، وتسهيل طرق توزيعها في المملكة.

وكذا الحال بالنسبة لإنشاء مصانع الجبن، وتعليب اللحوم، والزيوت، والسمن، وسائر الأدهان.

٢- إنشاء مجازر خاصة بالمسلمين في البلاد التي يراد استيراد اللحوم منها إلى البلاد الإسلامية، أو المملكة العربية السعودية، ويراعى في تذكية الحيوانات بها الطريقة الشرعية.

٣- اختيار عمال مسلمين أمناء عارفين طريقة التذكية الشرعية ليقوموا بتذكية الحيوانات تذكية شرعية في تلك الشركات، بقدر ما تحتاج المملكة إلى استيراده منها.

٤- اختيار من يحصل به الكفاية من المسلمين الأمناء الخبيرين بأحكام التذكية الشرعية، وأنواع الأطعمة؛ ليشرف على تذكية الحيوانات، وعلى مصانع الجبن، وتعليب اللحوم، ونحوها في الشركات التي تصدر ذلك إلى المملكة العربية السعودية.

وإذا كان اليهود حريصين على أن يكون الذبح متفقا مع عقيدتهم، ومبادئهم؛ فخصصوا لذلك مجازر لهم، وعمالا يذبحون لهم كما يريدون، فالمسلمون أحق بذلك منهم، وأولى أن يستجاب لهم؛ لكثرة ما يستهلكون من اللحوم، ومنتجات المصانع الغربية، وشدة حاجة أولئك إلى تصريف ما لديهم من لحوم ومنتجات أخرى.

● التعليق:

مما نصت عليه لجنة الفتوى الكويتية (ج١٠/ص٣٤٥/ف٣٠٨٠)؛ حول ما يعتقده بعض المسلمين من اشتراط إشراف المراكز الإسلامية على الذبائح في الدول غير الإسلامية: أنه لا أثر لوجود مركز إسلامي أو عدم وجوده من الناحية الشرعية، ولولي أمر المسلمين اشتراط الإشراف على الذبح عن طريق المركز الإسلامي، أو غيره إن رآه ضروريا لتحقيق الشروط المتقدمة.

● ثالثا: صدر قرار مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لـ«رابطة العالم الإسلامي» في دورته العاشرة، المنعقدة بمكة المكرمة، والتي بدأت يوم السبت (٤/صفر/١٤٠٨هـ) الموافق (١٧/أكتوبر/١٩٨٧م)؛ وانتهت يوم الأربعاء (٢٨/صفر/١٤٠٨هـ) الموافق (٢١/أكتوبر/١٩٨٧م) بشأن موضوع: «ذبح الحيوان المأكول بواسطة الصعق

الكهربائي»، ومما جاء به:

أولا: إذا صعق الحيوان المأكول بالتيار الكهربائي، ثم بعد ذلك تم ذبحه أو نحره، وفيه حياة فقد ذكي ذكاة شرعية، وحل أكله؛ لعموم قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة:٣).

ثانيا: إذا زهقت روح الحيوان المصاب بالصعق الكهربائي قبل ذبحه، أو نحره؛ فإنه ميتة يحرم أكله، لعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

ثالثا: صعق الحيوان بالتيار الكهربائي - عالي الضغط - هو تعذيب للحيوان قبل ذبحه أو نحره، والإسلام ينهى عن هذا ويأمر بالرحمة والرأفة به، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم؛ فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم؛ فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» (رواه مسلم).

رابعا: إذا كان التيار الكهربائي - منخفض الضغط - وخفيف المس بحيث لا يعذب الحيوان، وكان في ذلك مصلحة، كتخفيف ألم الذبح عنه، وتهدئة عنفه ومقاومته؛ فلا بأس بذلك شرعا مراعاة للمصلحة.

● **التعليق:**

١- كذلك أفتت هيئة الفتوى الكويتية (ج١٠/ص٣٤٣/ف٣٠٧٦)؛ حول ما إذا خفضت قوة الصعقة الكهربائية بحيث لا تؤدي إلى قتل الحيوان (صغيرا أو كبيرا)؛ فما حكم استخدام الصعقة الكهربائية في هذه الحالة؟ فأجابت الهيئة بأنه: إذا ثبت بيقين أن الصعق الكهربائي لا يؤدي إلى قتل الحيوان؛ فلا بأس به بشرط ألا يكون في ذلك مزيد تعذيب للحيوان، ولا تقليل نزف الدم منه عند الذبح، فإذا ثبت أنه يؤدي إلى قتل الحيوان ولو بنسبة قليلة أو كان فيه تعذيب أو تقليل لنزف الدم منه؛ فلا يجوز الصعق.

٢- أما بالنسبة للبسملة فقد اختارت لجنة الفتوى الكويتية (ج٢/ص٢٢٤/ف٥٨٤) أنه يجوز إطلاقها على كل مجموعة من الطيور بعضها مع بعض.

وكذلك أكدت لجنة الفتوى على أن الذبح لا يصح إن كان الذابح مجوسيا أو ملحدا، بل لابد أن يكون مسلما أو كتابيا، كما أنه ينبغي ملاحظة عدم إلقاء الطيور في الماء قبل أن تمر على الذبح فترة كافية لزهوق نفوس الطيور.

● **رابعا: صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة في دورته العاشرة عام (١٩٩٧م)؛ رقم: (٩٥ (١٠/٣) بشأن الذبائح؛ حيث تناول المسائل المتعلقة بآلة الذبح سواء القديمة أو الحديثة، ومما جاء فيه تأكيده على مراعاة الأمور الآتية:**

(أ) مراعاة الشروط الفنية التي يتأكد بها عدم موت الذبيحة قبل تذكيتها؛ فإن الحيوانات التي تذكى بعد التدويخ ذكاة شرعية يحل أكلها إذا توافرت هذه الشروط، وقد حددها الخبراء في الوقت الحالي بما يلي:

١- أن يتم تطبيق القطبين الكهربائيين على الصدغين أو في الاتجاه الجبهي- القذالي (القفوي).

٢- أن يتراوح الفولت ما بين (١٠٠ - ٤٠٠ فولت).

٣- أن تتراوح شدة التيار ما بين (٠,٧٥ إلى ١,٠ أمبير) بالنسبة للغنم، وما بين (٢ إلى ٢,٥ أمبير) بالنسبة للبقر.

٤- أن يجري تطبيق التيار الكهربائي في مدة تتراوح ما بين (٣ إلى ٦ ثوان).

(ب) لا يجوز تدويخ الحيوان المراد تذكيته باستعمال المسدس ذي الإبرة الواقذة، أو بالبلطة أو بالمطرقة، ولا بالنفخ على الطريقة الإنجليزية.

(ج) لا يجوز تدويخ الدواجن بالصدمة الكهربائية، لما ثبت بالتجربة من إفضاء ذلك إلى موت نسبة غير قليلة منها قبل التذكية.

(د) لا يحرم ما ذكي من الحيوانات بعد تدويخه باستعمال مزيج ثاني أكسيد الكربون مع الهواء، أو الأكسجين، أو باستعمال المسدس ذي الرأس الكروي بصورة لا تؤدي إلى موته قبل تذكيته.

● **التعليق:**

١- مما يجب اعتقاده في موضوع الصعق، والطرق الحديثة في الذبح: ما نص عليه مجمع الفقه الإسلامي بالسودان قرار رقم ٤ (٢١/٢٨) حول الذبائح في المسالخ الحديثة بأم درمان بأن: الأصل في التذكية الشرعية أن تكون من غير تدويخ للحيوان، إلا عند العجز عن السيطرة عليه إلا بتدويخه، فتجوز تذكيته بعد التدويخ بشرط ألا يؤدي التدويخ إلى موته لو ترك.

٢- مما ينصح به: مراجعة ما أفتت به لجنة الفتوى الكويتية (ج١٠/ص٣٣٨/ف٣٠٧٣) تحت عنوان «فتوى موسعة في الذبح الشرعي»؛ حيث إنها اشتملت على: الأحكام والاشتراطات المطلوبة للذبح على الطريقة الإسلامية، وما فيها من التعاريف المهمة؛ كتعريف الذبح والنحر والعقر، وكذلك: ما يشترط في الحيوان المراد تذكيته، وما يشترط في المذكي، وما يشترط في أداة التذكية، وطريقة التذكية الشرعية، وجملة من التوصيات القيمة.

التحرير

حرفة العارف

قال بعض الحكماء: «حرفة العارف ستة أشياء: إذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه احتقر، وإذا نظر في آيات الله اعتبر، وإذا هم بمعصية أو شهوة انزجر، وإذا ذكر عفو الله استبشر، وإذا ذكر ذنوبه استغفر»

(سير أعلام النبلاء ١١/٣٤).

حسبك بمن ترضى به الأصول قدوة

قال العلامة ابن عقيل رحمه الله: «ومن عجيب ما أسمعه من هؤلاء الأحداث الجهال أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، لكنه محدث، وهذا غاية الجهل؛ لأنه قد خرج اختيارات بناها على الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما لا تراه لأحد منهم، وذكر مسائل من كلام أحمد، ثم قال: وما يقصد هذا إلا مبتدع قد تمزق فؤاده من جود كلمته، وانتشار علم أحمد، حتى إن أكثر العلماء يقولون: أصلي أصل أحمد، وفرعي فرع فلان، فحسبك بمن ترضى به الأصول قدوة، وكان يقول: هذا المذهب إنما ظلمه أصحابه...»

(ذيل الطبقات لابن رجب ٣٤٧/١).

من لم يصن نفسه لم يصنه العلم

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: «من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن وعى الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم»

(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، ص ٢٢١).

أفضل الزهد

«أفضل الزهد: الزهد في الرياسة على الناس، وفي المنزلة والجاه عندهم، والزهد في حب الثناء والمدح منهم؛ لأن هذه المعاني هي أكبر أبواب الدنيا عند العلماء، فالزهد فيها هو زهد العلماء، وقيل: لا يثبت لأحد مقام في التوكل حتى يستوي عنده المدح والذم من الخلق فيسقطا»

(الوعظ المطلوب للقاسمي، ص٥٧).

ثلاث خصال

قال بعض الحكماء: إن لم يكن في التاجر ثلاث خصال افتقر في الدارين جميعا:

١. أن يكون لسانه نقيا عن ثلاثة: الكذب، واللغو، والحلف.

٢. أن يكون صافيا من ثلاثة: الغش، والخيانة، والحسد.

٣. أن يكون محافظا على ثلاث: الجمعة، والجماعات، وطلب العلم في بعض الساعات.

(شرح لامية ابن الوردي للقناوي، ص ٥٢).

إنما الكلام أربعة

قال أبرويز لكاتبه في تنزيل الكلام: «إنما الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء؛ فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم؛ فإذا طلبت فأسجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول»

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ١٢٦/٢).

قرابة بلا منفعة؛ بلية عظيمة

قال بعضهم: «أما بعد، فإن قرابتك من قرب منك خيره، وابن عمك من عمك نفعه، وعشيرتك من أحسن عشرتك، قرابة بلا منفعة بلية عظيمة، القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة تحتاج إلى القرابة»

(محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني، ٤٣٥/١).

رسالة إلى صديق معرض

كتب الأصمعي إلى بعض أصحابه وقد رأى منه إعراضا:

«وكفى بالإعراض حاجبا، وبالانقباض طاردا، ومن مطلك ولو ساعة؛ فقد حرمك. ومن كتم سره عنك؛ فقد اتهمك. ومن صافى عدوك فقد عاداك. ومن عادى عدوك؛ فقد صادقك ووالاك. ومن أقبل بحديثه على غيرك؛ فقد طردك. ومن شكا لك سوءا؛ فقد سألك. ومن سكت عند ذم الناس لك؛ فقد ذمك. ومن بلغك شتمك؛ فقد شتمك. ومن نقل لك؛ فقد نقل عنك. ومن شهد لك؛ فقد شهد عليك. ومن تجرأ لك فقد تجرأ عليك»

(مسلك الأبصار في ممالك الأمصار، ٧/٣٣١).

موعظة بليغة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «بالغت في وعظ أمير المؤمنين المستضيء بالله العباسي، فمما حكيت له: أن الرشيد قال لشيبان: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين، لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن؛ خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف. قال: فسر لي هذا!

قال: من يقول لك أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله؛ أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم، كان عمر رضي الله عنه يقول: إذا بلغني عن عامل أنه ظلم ولم أغيره؛ فأنا الظالم.. فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله.

وقلت له في كلامي: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقدم خوفي عليك؛ لمحبتي لك على خوفي منك».

فتصدق الخليفة المستضيء بالله العباسي بمال جزيل، وأطلق المسجونين، وكسا الفقراء.

(البداية والنهاية، ١٦/٧٠٩)

لا تثق بوعدها

«إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق؛ وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات؛ فإياك أن تثق بوعودها في المباحات»

(المقتطفات النافعة، ص ٢٨١).

وصف عجيب

قال الشيخ الزاهد أبوعمران موسى بن عمران القيسي الميرتلي رحمه الله تعالى في الهر: «نعم الجليس الهر، لا يخبر ولا يبوح بسر، يحفظ سرك عليك، ولا ينقل عنك ولا إليك، كريم المؤانسة، سليم المجالسة، لا يهمز ولا يلمز ولا يغتاب، ولا صاحبه منه بمرتاب، يحفظه إذا نام، ويطرد عنه الهوام، منافعه كثيرة، ومؤنته يسيرة، فاقتصر عليه أنيسا، واتخذه جليسا، يسلم لك معه دينك ودنياك، فهو أنفع لك من كثير من إخوانك، وأحرس من خدمك وأعوانك»

(المقتطفات النافعة، ص ٢٨١).

أيهما أفضل

قال رجل لابن الجوزي رحمه الله: أيهما أفضل: أن أسبح، أو أستغفر؟ فقال: «الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور»

(فتح الباري، ١٢/٣٨١).

النظافة

«ليس من السنة، ولا من الشريعة ما خالف النظافة وحسن الهيئة في اللباس والزينة التي من شكل الرجال للرجال، ومن شكل النساء للنساء»

(الاستذكار لابن عبدالبر، ١/٣٣٠).

إعداد: علاء عبدالفتاح

الإسلام الحضاري بوابة العبور لأوروبا

لم تقتصر آثار الجهود الدعوية، التي بذلها المسلمون في عصر الحروب الصليبية تجاه النصارى، على البلاد الإسلامية فحسب، بل امتدت إلى أوروبا نفسها منطلق العدوان الصليبي الحاقد على البلاد الإسلامية، حيث تفاوتت هذه الآثار، قوة وضعفا، بين الجهات الأوروبية.

فمثلا روجر الثاني، أحد ملوك صقلية، الذي استحضر كثيرا من الكتب العربية وأمر بترجمتها وكان يجل العلماء المسلمين ويقدرهم، فكان إذا جاء الإدريسي إلى مجلسه أكرمه واحترمه ووسع له.

ومن ملوك صقلية المعجبين بالحضارة الإسلامية كذلك الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي كان متأثرا بكل ما هو عربي، وكان يجيد اللغة العربية كما كانت لغته الأم، وخلال طفولته كان على علاقة بقاضي المسلمين في مدينة باليرمو الذي قدم له عددا من الكتب العربية في مختلف العلوم.

وكان الإمبراطور فريدريك كثير الاتصال بالملك الكامل في مصر بشأن بعض المسائل العلمية، ومن ذلك مثلا إرساله بعض الأسئلة إليه ليجيب العلماء المسلمون عليها. ثم محاوراته العلمية مع أحد سفراء الملك الكامل إليه والذي كان من العلماء المسلمين في مصر.

ومن القادة النصارى الذين أعجبوا بالحضارة الإسلامية بعض ملوك الدول النصرانية في الأندلس، فقد كان الفونسو السادس في طليطلة يحب العلماء المسلمين، بل إن أكثر مستشاريه ومعاونيه من المسلمين، وكذلك ألفونسو العاشر ملك قشتالة كان مقربا للعلماء المسلمين ومستخدما لهم في كثير من المهام.

• **عبدالواحد محمد**

ليلة مرض سعيدة

هذه هي المرة الأولى التي يمرض فيها مرضا يقعده عن الحركة ويعتصره الألم اعتصارا، حتى وكأن كل عضو من أعضائه يشكو ويألم، ارتفعت درجة حرارته، ولم يعد يشتهي شيئا من أنواع الطعام والشراب، فقد تحول طعم الطعام والشراب إلى مرارة تعلق بحلقه، كان يلزم فراشه ولا يستطيع مفارقته من كثرة الإعياء، وقد تحول الفراش إلى لفحة من النار من تحته، فشلت كل محاولاته في سرقة بضع دقائق لينامها بغية الراحة من التأوه والألم.. وصف الطبيب له عقارا يمكنه من النوم قهرا، تناوله في لهفة بعدها لم يشعر بشيء من حوله.. استيقظ بعد ساعات وهو يمسك بقطعة القماش المبللة التي وضعتها زوجته فوق رأسه لتخفف شيئا من درجة حرارة جسمه الملتهب.

أخذ يفرك عينيه، كومة من الأدوية بجواره وليس بالحجرة إلا صوت زوجته ساجدة تبكي وتدعو بدعاء أبكاه.. كان دعاؤها يعكس صفاء نفسها وشفقتها ووفاءها لزوجها «اللهم إن هذا زوجي وأبي وأخي وقد مسه الضر فاكشف عنه ضره وعافه وأنت أرحم الراحمين».. تكرر الدعاء في خشوع من دون ملل، وتلح على الله الرحيم ودمعها كشلال حتى خال أنه يستمع إلى قلب مذبوح ينطق بشفتين.. تركها حتى انتهت من صلاتها، وراحت تقترب من فراشه وهي تمسح بيد دموعها وقد وضعت الأخرى على جبهته لتطمئن على درجة حرارته.. أنفرج ثغرها عن ابتسامة مشفقة حنونة وقد أمسك بيدها في شكر ووفاء أيضا. قالت في حنو بالغ: اطمئن، فأنت بخير، لقد طمأننا الطبيب الذي يباشرك، ولقد دعوت الله لك وكلي ثقة أنه لن يرد دعائي ولن يخزينا فيك أبدا، هطلت من عينيه دموع ما استأذنت، ولم يدر إن كانت تهطل بسبب ما قرأه في وجه زوجته من خوف ولهفة أم بسبب وفائها ودعائها ورقتها، أم هما معا؟ أجاب بصوت رقيق: زوجتي، لقد استجاب الله دعاءك حقا، فما عدت أشعر بشيء مما كان يلازمني من ألم، ربما لأنك استخدمت سلاح المؤمن، فدفع الله به الكروب وحقق المطلوب، لقد ناجيت ربك بجوف الليل ووقت السحر وهو وقت نزول الرحمات واستجابة الدعوات فلم يردك الكريم خائبة.

• **محمد أحمد عبدالقادر محمد**

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

حل علة الأفكار

يكاد العالم الإسلامي يعيش واقعا لا يخلو من الأزمات الخانقة، بيد أن الأزمة التي طوقت جسده وشلت حركته هي أزمة الأفكار، ونعم الفكر الرفيع والقول السديد ذاك الذي جادت به قريحة المفكر مالك بن نبي في هذا المجال، حين بين أن علة العالم الإسلامي لا تكمن في الشخوص ولا في الأشياء، بل في الأفكار: بين إقباله عليها وإدباره عنها، بين أصالة منبعها وتجديد فعاليتها، بين معركة الأفكار الأصيلة والأفكار الغريبة القاتلة.

فبعد ذاك الرعيل الأول ذي الإيمان القوي، وصاحب الهمة العالية، والعقل المفكر المبدع، الذي عاصر تلألؤ الفكرة القرآنية المشعة، وزامن عصر العقل المنتج الولود، ابتدأ العنصر البشري يضعف بعد قوة، ويتهاوى بعد علو، وينبطح بعد استقامة، فضيع رويدا رويدا لذة العلم وتلهف الاستيعاب وأصول التفكير الأصيل، لتفلت معه روعة الإشعاع والبريق الأخاذ، ويكون مصيره الظلمة أو النور الخافت.. فما الحل؟

إن من بين الحلول التي دافع عانها المفكر الجزائري مالك بن نبي - رحمه الله - وبشراسة، فيما يخص مسألة الأفكار، تلك الأصول الثلاثة المتمثلة في: الإنسان الأفكار والأشياء، ومدى التفاعل السليم بينها، شريطة أن تعطى هذه الأصول أحسن طلائعها، إذ يمثل الإنسان أول حل في هذه المعادلة؛ كونه محور التغيير وحركة عجلة الأفكار، وكذا الأشياء، فعزيمة الفرد وإرادته هما اللتان تجران فكره، وبهما معا يسخر الإنسان ما هو مادي في خدمته وخدمة مجتمعه، وهنا يظهر الفارق بين الحضارة الإسلامية الجاعلة من الماديات وسيلة، وبين الحضارة الغربية المتخذة من الماديات هدفا، ويبقى الإنسان وإرادته أول حل في المعادلة.

• زهية فراح

تنوع المقالات

السلام عليكم، وصلني أمس العدد الجديد، وهو رائع بكل المقاييس، بتنوع مقالاته، وعنايته بالعربية، وحواره مع د. محارب، وهديته التي بذل فيها جهد أسطوري، فاختزلت مطولات في علم الصرف؛ لتقدمها في لوحة واحدة، يتبدى في كل مربع من مربعاتها مقدار ما بذل فيها من جهد وتدقيق ومعالجة وتفنن، فجزاكم الله خيرا، وجزى معدها ومصممها أخانا د. يحيى مير علم خير الجزاء، وأوفاه.

وتحية لربان السفينة ومحركها الأستاذ الفاضل فيصل العلي، لك مني كل الود والتقدير، رحم الله أباك، وزادك فضلا وعلما.

• د. محمد حسان الطيان

إحياء الأرض الموات

الإسلام دين ودنيا، بناء وحضارة.. هذه هي حقيقة يسلم بها كل من فقه تعاليم الإسلام ودعوته الحضارية السامية، وما ذلك إلا لأنه دين عالمي لا تحده حدود مكانية أو زمانية.

وتقتضي عالمية الإسلام أن يدعو إلى إصلاح العالم وإحياء الأرض، ومن ثم فهو يهدف إلى انتشار العمران في العالم وتحقيق الثروة والقوة للمسلمين، ولذا يدعو أتباعه إلى الانتشار في الأرض وإحياء مواتها.

والموات من الأرض: هي الأرض التي لم يسبق تعميرها، وليست ملكا لأحد. ويكون إحياؤها بتعميرها وجعلها صالحة للانتفاع بها في السكنى والزراعة ونحوهما، وذلك بتحويطها بالبناء، أو بتوفير الماء لها وغرس النبت والشجر فيها على حسب ما يقضي به العرف بين الناس.

وأراد الإسلام أن يحفز المسلمين لإحياء الموات من الأرض، فجعل الأرض الموات لمن أحياها؛ فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «من أحيا أرضا ميتة، فهي له» (رواه أحمد والترمذي والنسائي). وفي رواية أخرى: «من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها» (رواه البخاري وأبو داود وأحمد ومالك في الموطأ).

• د. ماهر عباس جلال

خطر الكلمة

عندما تكتب الكلمة فهي كالرصاصة إذا خرجت من السلاح فلا يمكن ردها. وهي تمثل خطرا بالغا على المجتمع والناس. فإذا لم يراع الكاتب حقيقة ما يكتب أو ما يقول، تصبح الكلمة طلقة طائشة؛ فكم من كلمة أشعلت نيران الحروب أو أدت إلى سلام، وكم من كلمة غيرت مسار حياة الإنسان، وكم من أناس ندموا أشد الندم على كلمة قالوها، وكم من كلمة خربت بيوتا أو ألفت بينها!

إن الإنسان يدخل الإسلام بكلمة ويخرج منه أيضا بكلمة، وينعم الإنسان في الآخرة بكلمة ويعذب في قبره بكلمة، وتحل الزوجة لزوجها بكلمة وتحرم عليه بكلمة، والثواب والعقاب رتبهما ربنا جلا وعلا على كلمة. إن خطر الكلمة شديد، فربما يقول الإنسان كلمة يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفا، وربما يقول كلمة يصل بها إلى الدرجات العلى من الجنة، يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق:١٨)، هذه واحدة. أما الثانية فقد قال الله عزوجل: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ (إبراهيم:٢٤) هذا عن الكلمة الطيبة.. أما عن الكلمة الخبيثة فقد قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم:٢٦). يقول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم». إن الكلمة إذا أطلقت بالكتابة أو بالكلام فلابد لقائلها أو كاتبها أن يتقي الله قبل أن ينطق بها أو يكتبها، فإن الخطر متحقق في الاثنين معا.

إن المثل الشهير الذي يقول: «لسانك حصانك إن صنته صانك»، هو واحد من أروع الأمثلة العربية التي تعبر عن خطر الكلمة.

● محمد السيد عامر



النظريات الفقهية

استلمنا العدد رقم ٦٠٠ من مجلة «الوعي الإسلامي»، وقرأنا جميع محتوياته ودرسناها، فوجدنا أن البحث حول الفقه الافتراضي - رؤية مقاصدية، بحث جيد، ونرجو أن يكون في كل عدد من الأعداد المقبلة دراسة حول موضوع من الموضوعات الفقهية الجديدة، ويا حبذا لو كتبتم أو نشرتم سلسلة بحثية عن النظريات الفقهية الجديدة وأنواع الفقه الإسلامي، فهذه السلسلة ستفيد.



الفقه الافتراضي.. رؤية مقاصدية

وكذلك نشر أعداد خاصة للمجلة حول المعالم العصرية التاريخية في البلدان العربية.

وأثمن جهودكم العلمية وأقدرها تقديرا بالغا.

• أمين العثماني

Islamic Fiqh Academy (India)

المحرر: نشكركم على حسن المتابعة.

اقتراحاتكم جديرة بالدراسة، وسنبحث إمكانية تحقيقها على أرض الواقع في أقرب وقت ممكن.

الزكاة أساس التراحم

الزكاة هي الركن الثالث بعد الشهادة، والصلاة. وجاءت مفردة «الزكاة» ملازمة لمفردة «الصلاة» في القرآن الكريم في ثلاثين موضعا تقريبا، إنها ملازمة لها هدف وحكمة. فالزكاة فرضها الله وحدد مستحقيها ولم يترك ذلك لبشر، والنبي ﷺ حدد الأنصبة، فهي معجزة تميزت بالخلود والاستمرارية، ومن إعجازات الزكاة صلاحية قوانينها وأنظمتها حتى اليوم، ولم يظهر دليل على بطلان هذه القوانين، واستيعاب هذه القوانين لجميع مستجدات الحياة خلال أربعة عشر قرنا، ومن طبيعة القوانين خاصة التغير تبعا لسنة الحياة. والزكاة تكافل اجتماعي، ويبرز هذا التكافل من خلال النظرة الإجمالية لحياة الإنسان الفرد ضمن المجتمع، له ثلاث مراحل، ففي زمن الطفولة المجتمع يقدم للطفل، وفي الشيخوخة المجتمع يقدم للشيخ، بقيت المرحلة الوسطى من العمر، وهي المرحلة الإنتاجية لتسديد ما مضى من دين الطفولة، وفيها تخزين لمرحلة الشيخوخة، وعليه دين ثالث للمعاقين غير الطفولة والشيخوخة، لأن في المجتمع الأعمى والأصم والمعتوه والمجنون والعاطل نتيجة الحوادث الطارئة.. فالمبصر يزكي بصره في خدمة الأعمى، والقوي يزكي قوته في خدمة الضعيف، وهذا يعطي المسلم ميزة بأنه من الأساس يتحرك حركة تسعه وتسع غيره، لأن النية أصلا مبيتة لمساعدة الآخرين، وهذا مستوحى من آيات الزكاة.. والزكاة نظام تأميني للجميع، ودواء نفسي يعالج الذي يدفع والذي يأخذ، الأول: من الشح، والثاني: من الحسد. وقد خسر العالم الإسلامي الكثير بغياب الزكاة.

• هناء ثابت

مِسْكُ الخِتَام

التحليق نحو باب الله

الظلال المنعكسة من الآية التالية ترسم مشهدا أخاذا وتشخص إحدى الحالات التي يصل إليها الإنسان في مواجهة عثرات الحياة حتى ولو كان في قمة الإيقان بأن عناية الله لن تتخلى عنه أبدا، لكن الطبيعة البشرية تنازعه يقينه وتجعله، إذا لم يكن متحصنا بمحكمات العقيدة في الله مع المداومة على تمتين وشائج تربطه بالسماء، يلتجئ إلى بدائل غير مشروعة أو ينهار قبيل لحظات الانتصار، وذلك حيث يحكي لنا مناجاة نبي من أنبياء الله جرفته موجة عارمة من التسخط على فجاجة قومه فانطلق مغاضبا: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ (الأنبياء:٨٧).

وبقراءة أولية للوضع النفسي المتزلزل الذي تشير إليه هذه الآية الكريمة، يتبين لنا أن من أشرس أعداء الإنسان في هذه الحياة الانزلاق إلى وهدة القنوط ساعة تحاصرنا خطايانا وتضرب ذنوبنا حولنا حصارا سميكا (في الظلمات) وخاصة عندما تتخذ وضعا ماديا متجسدا كما الحال في قصة نبي الله ذي النون. والخطر أن ينزغنا الشيطان فيوحي إلينا زخرف القول ويزين لنا الكف عن تحريك اليد للإمساك بأي خيط يمكن أن يكون قارب النجاة التي تعيدنا إلى دائرة فضل الله ورحمته ورضوانه، عند هذه النقطة نفقد أهم دافع للسير نحو الأمام والإيقان بأننا نستحق الحياة الإيمانية وأن الآخرين ينتظرون منا أن نقدم لهم شيئا؛ وخاصة في تلك اللحظة الحرجة التي نشعر فيها بأن يد الله الحانية قد تخلت عنا وأننا قد انزلقنا إلى حظيرة الطرد وأن الموجة الآتية هي التي ستبتلعنا بدلا من أن تكون هي التي بعثت بها العناية الربانية لتنتشلنا وتعود بنا إلى شطآن الأمان حيث تنتعش الروح فتنشط الجوارح لتعويض ما فات من الخيرات. لكن هذه الطاقة الطبيعية والخلاقة الكامنة في كل إنسان، تحتاج إلى مدعمات خارجية تمكنها من التبرعم والنمو حتى تصل إلى مستوى الصلابة بحيث نحول ما نقترفه من موبقات (فاحشة، السيئات..) إلى وقود نظيف للمضي في طريق الأوبة إلى رحاب الله ونداوم على العروج حتى إذا استقمنا على الطريق اللاحب الموصل إلى رضوان الله نفخنا تلك الروح الوثابة التي تسكننا فيمن حولنا: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾ (الفرقان:٧١).

ساعة نمعن النظر في سورة يوسف نفاجأ بالمشهد الأول يختزن كل عوامل القنوط ثم تأتي الوقائع واحدة تلو أخرى تؤكد بأن دائرة الآلام تتسع باستمرار دالة على أن المشهد الختام لا يمكن إلا أن يكون في غاية القتامة، لكن النهج القرآني التربوي يرسم خطا موازيا في تلك الكلمات الهادئة الواعدة التي كان الأب المكلوم يلقيها بين فينة وأخرى في كل مرة حاول فيها أبناؤه دفعه إلى الانكفاء.

ولاستجلاء هذا المعنى هيا بنا نتأمل في المقطعين التاليين من قصة يوسف وإخوته مركزين على تلك اللحظات التي تختنق الروح فيها بسبب ما يعتري تلك الشعلة الهادئة الهادية من انحصار الضوء فتظلم جنبات الروح حتى إذا ظننا بأننا وصلنا في الانحدار إلى قاع اليم انبجست الشعلة واتقدت مجددا فنرى المسار كله يتحول نتيجة لسعات الخطايا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ (يوسف:٩١). ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ (يوسف:٩٧).

د. محمد سعيد باه
أكاديمي سنغالي

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
العدد (٦٠٣) ذو القعدة ١٤٣٦ هـ / أغسطس - سبتمبر ٢٠١٥ م
العدد ٦٠٣ - السنة ٥٢ - ذو القعدة ١٤٣٦ هـ / أغسطس - سبتمبر ٢٠١٥ م
مجانًا مع العدد: براعم الإيمان
هدية العدد: بوستر تخريج الحديث

الوحدة الوطنية واجب الوقت



- الأخلاق ومقصد وحدة الأمة
- الإسلام والآخر.. عود على بدء
- سماحة الإسلام وأباطيل خصومه
- جواب الفقيه الباجي على راهب فرنسا
- بين قانون السماء والأرض.. الحج نموذجا

info@alwaei.com
www.alwaei.gov.kw
مجلة الوعي الإسلامي

أسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

جديدنا



يعتبر هذا الكتاب من الكتب المهمة التي أصدرتها مجلة «الوعي الإسلامي»، حيث يناقش فيه مؤلفه الأستاذ الدكتور كمال عرفات نبهان عبقرية التأليف العربي من حيث التصنيف والتقسيم والإبداع، وقد نال جائزة كتاب العام التراثي لسنة ٢٠١٤م من قبل منظمة الألسكو ومعهد المخطوطات العربية

أمسك بنصالها

إن هذا العالم الإسلامي الفسيح الذي نعتز بالانتساب إليه، ونعيش لإسعاده والسعادة به، وانتشاره ودخول الناس فيه، والأجيال التي أتت بعد ذلك إلى يومنا هذا، منهم من يعتز ويفتخر بذلك ويمتلئ قلبه سرورا به، ويدعو لمن كان السبب في هذا الخير العظيم، ومنهم من ابتأس به، وامتلأ فؤاده حقدا على الذين دخلوا فيه، وجعل من دأبه أن يصفهم بكل نقيصة، وأياديهم الخبيثة التي عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه، فصورت الوقائع والواقع بغير صوره، فالاجتماع رحمة، والفرقة وحشة.

إن الفتنة التي تخلف القتل والدم أعظم، فكيف في بيوت الله «ومن دخل المسجد فهو آمن»، وأشار النبي ﷺ في الحديث بالنهي عن دخول المساجد بالسلاح، وأن يمسك بنصالها، إشارة إلى تعظيم قليل الدم وكثيره، وتأكيد حرمة المسلم.. وجرائم بيوت الله منكرة بجميع المقاييس.

والغدر بالمصلين في المساجد الآمنة، فما الذي يبقى آمنا للناس، إذا ما انتهكت المساجد، وأي حرمة تبقى إذا تمكنت الآراء الكاسدة، والتأويلات الفاسدة، والجهالات المتراكمة، وكم في هذه الأفعال من صد عن دين الله، والثبات عليه، والرغبة في دخوله، فأي دين هذا الذي يبيح الإجرام والاعتداء على الآمنين الغافلين، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولنحذر من فتن المصائب وما يقع من الانتهازيين ومن ترزق بالأزمات ويدعي البطولات، ويحقق مجده الشخصي، ويكون نافخا في الكير، ليصل إلى أهداف وضيعة، ومآرب شخصية حقيرة.

وأمن البلاد والعباد ليس سلعة يتاجر بها، ولكنه ضرورة لإقامة الشعائر، والعيش الكريم، وقطع الطريق على المتربصين.

نعوذ بالله من الجهل والحمق ومن زيغ القلوب، ونسأله سبحانه أن يحفظ بلدنا الكويت وبلاد المسلمين من كيد الكائدين وخيانة الخائنين وتربص المتربصين.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠٣ | ذو القعدة ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
أغسطس - سبتمبر ٢٠١٥م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

- الكويت : ٥٠٠ فلس - السعودية: ٥ ريالات - البحرين : ٥٠٠ فلس - قطر : ٥ ريالات - الإمارات : ٥ درهم - سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة
- الأردن:دينار واحد - مصر : ٢ جنيه - اليمن : ١٠٠ ريال - لبنان: ٢٠٠٠ ليرة - سوريا: ٣٠ ليرة - المغرب : ١٠دراهم - الجزائر: ٤ دينار جزائري - تونس: دينار واحد تونسي - المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني - باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

حق المساواة بين الناس

إن الحملة الحضارية الإنسانية الشاملة التي اقترنت بالإسلام، اقتضت إقرار كل المبادئ الخلقية الأصيلة، ونبذ كل مظاهر التخلف والتعثر والرجعية والتفرقة الظالمة بين أبناء البشر دون اعتماد على ميزان معقول أو حساب صحيح للنتائج.

ومن الأصول الحضارية للإسلام، ومنهجه الديموقراطي في الحياة السياسية والاجتماعية، إعلانه المساواة التامة دون تمييز بين الناس بسبب الجنس أو العرق، أو اللون أو النسب والحسب، أو الدين، أو المنصب والجاه وسلطة الحكم، أو السن، أو الغنى والمال، أو المحبة والبغض، وذلك تجاوبا مع نزعة الإسلام العالمية وعموم رسالته للبشرية، واعتبار تنظيماته وشرائعه رحمة للعالمين.

ومن أهم مظاهر المساواة إجمالا ثلاثة أمور:

١- المساواة في القيم الإنسانية المشتركة: أي لا تفاضل في الأجناس «فالجنس الآري والحامي والسامي كلها سواء»، ولا تفاضل في الألوان «فالأبيض والأسود والأحمر والأصفر على حد سواء».

٢- المساواة أمام القانون والقضاء وفي تكافؤ الفرص: يعني أن الناس جميعا متساوون في التكاليف والالتزامات العامة والحقوق، وفي نطاق الجريمة والعقاب، وفي مبدأ تكافؤ الفرص بالنسبة إلى العمل والتوظف ونحو ذلك.

٣- المساواة في جزاء العمل: فما دام الأشخاص متكافئين في العمل، فهم يستحقون أجرا متساويا دون تمييز أو محاباة لأحد على حساب الآخرين. وعليه، فلا يصح أن ينخفض أجر إنسان لأنه أسود مثلا.

ثم إن مبدأ الكرامة الإنسانية يقتضي تحرير الإنسان، وتوفير كل أسباب العزة والكرامة والشرف له، عملا بتكريم الله له وإزالة كل عوامل التفرقة بين أبناء البشرية بسبب الجنس واللون وغير ذلك، لأن الكرامة هي الإحساس المعنوي بشخصية الإنسان، والإنسان هو أساس كل القيم والحضارات التي تقوم على الخير والسلام والعدل والإخاء والحرية، ولن يؤمن بالحرية من لا يؤمن بالإنسان وكرامة الإنسان.

من مقال د. وهبة الزحيلي في «الوعي الإسلامي» عدد ٩٠

الاشتراكات

- داخل الكويت: للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية: للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم: للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

«الأوقاف» تدين تفجير مسجد الصادق.. والوحدة الوطنية واجب الوقت

التحرير



يرفض ديننا الإسلامي جرائم التفجير في المساجد، فلا يقر هذا في أي مذهب من مذاهبه، ولا في أي قول من أقوال العلماء؛ بل إن إجماع العلماء على أن هذا الفعل فعل محرم، وفوق الحرمة هو كبيرة وجريمة، وأيضا محرم مضاعف لكونه في بيت من بيوت الله تعالى.

والظاهر للعيان أنه تفجير انتحاري استهدف جامع الإمام الصادق بمنطقة الصوابر في العاصمة الكويتية، أثناء صلاة الجمعة، في التاسع من رمضان ١٤٣٦هـ السادس والعشرين من يونيو ٢٠١٥م، مما أسفر عن مقتل سبعة وعشرين شخصا وإصابة مئتي وسبعة وعشرين آخرين.

في الحقيقة، إنه حلقة دموية في مسلسل تشويه الإسلام بأيدي بعض أبنائه، ضعاف الفكر، قليلي العلم، الذين استمالتهم الأيادي الخبيثة؛ فزاغت قلوبهم عن الحق فكانوا من الأخسرين أعمالا.

وإذ تدين مجلة «الوعي الإسلامي»، التابعة لقطاع الشؤون الثقافية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، هذا الحادث الإجرامي، مؤكدة أن زيارة أمير الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح للمسجد فور وقوع الحادث وتفقده المكان، كان عزاء لرعيته من سكان الكويت باختلاف مشاربهم، إذ قال سموه «إن هذا العمل الإجرامي على أحد بيوت الله، والذي لم يراع منفذوه حرمة هذا الشهر الفضيل وما يمثله من خروج عن شريعة الدين الإسلامي الحنيف، إنما هو محاولة يائسة، وسلوك شرير، ومشين لشق وحدة الصف وإثارة الفتنة والنعرات الطائفية البغيضة».



وأشــار إلــى أن «وحــدة الكويت الوطنية هي السياج المنيع لحفظ أمـن الـوطـن، وأن مـا يـتحـلـى به إخوانه وأبـنـاؤه المواطـنـون الكرام من روح وطنية سامية ومشهودة، وبما عرف عنهم من محبة وتفان لوطنهم وولاء لـه والـتـفـاف حول قيادتهم، سيصد بعون الله تعالى ويفشل أهداف منفذي هذا العمل الشنيع والجبان».

وقد شارك الآلاف من المواطنين والمقيـمـين فـي مـراسـم التشييع فـي المـقـبـرة الجـعـفـريـة بمنطقة الصليبخات. كما حضر مسؤولون كبار في الدولة، منهم رئيس مجلس الأمـة مـرزوق الـغـانم وعـدد من الوزراء، مراسم العزاء في مسجد الدولة الكبير، في إشارة إلى تلاحم أطياف الشعب تأكيدا على الوحدة الوطنية، وبوتقة إيمانية تنصهر فيها جميع الـفـوارق، ويعلو شعار واحد أن الكويت لجميع الكويتيين.

خطبة جمعة موحدة

خصصت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت خطبة جمعة موحدة بعد الحادث بعنوان: «ربي.. اجعل هذا البلد آمنا» في المسجد الكبير وجميع المساجد، بحيث تكون شاملة لكل مكونات وأطياف الشعب الكويتي.

والـغـريـب أن الشـبـاب المغـرر بهم يظنون أنـهـم بأعمالهم الإرهابية هذه يتقربون إلى الله، بل ويرجون أن ينالوا رحمته بإزهـاق أنفسهم وأنفس المخالفين لهم، وهذا لعمري أمر جد خطير، فقد قيل إن من قتل عمر رضي الله عنه كان يتقرب إلى الله بقتله، ومن قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتقرب إلـى الله بقتله، ومـن قاتل فـي أتـون الـفـتن الكبرى كـان يقتل الصحابي ظانا أنه على الحق وينفذ ما يرضي ربه!

وهــؤلاء فـسـروا الـنـصـوص على حسب أهـوائـهـم، وغـالبا مـا يكون لديهم رأي وهـدف، واتـجـاه أولا، ثم يذهبون يبحثون عن الأدلة التي يزعمون أنها تدل على ما يذهبون إليه كما استدلوا ليبرروا جرمهم.

بينـمـا المـسـؤول فـي الاختلافات المذهبية والطائفية فـي الإسـلام وفــي الـشــريـعـة، هــو ولــي الأمـر والدولة، لأن جميع من تحت ولاية الـدولـة هـم واحـد فـي الحقوق، وواحــد فـي الـواجـبـات، وكـمـا أن عليهم واجبات فلهم حقوق، وعند



ولي الأمر والدولة يعامل الناس بالسواسية، لأن هذا مقتضى العدل، وهذا مقتضى ما أمر الله جل وعلا به عباده، فمن أظهر ما يخالف دين البلد وعقيدتها، أو ما يخالف النظام وولي الأمر من أي الفئات، يؤاخذ.

يبقى أن نؤكد أن القصاص له أهله، وأجهزة الدولة، التي لم تقف عاجزة أمام هذه الخلية المنفذة للعمل الإرهابي فقبل مرور ثماني وأربعين ساعة على الحادث، تمكنت الشرطة من ضبط كل من ساهم في هذه العملية، وقد اعترفوا جميعا بأدوارهم التي سهلت على الانتحاري تنفيذ مهمته الخسيسة.

ومع هذا المصاب الجلل نستذكر بعض الأحداث المهمة في تاريخ الكويت، والتي لم تؤثر على الوحدة الوطنية، فعلى الرغم من محاولة



عمل إجرامي

قال وزير العدل وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يعقوب الصانع، إن الحادث «عمل إرهابي وإجرامي يهدد الأمن ويعمل على تمزيق الوحدة الوطنية»، وإن الكويت كانت وستظل واحة أمن وأمان لجميع مكونات المجتمع الكويتي وجميع الطوائف، وإن الكويت تعرضت إلى المصاب الجلل من جراء هذا «العمل الإرهابي» الذي لا يمت إلى الإسلام بصلة ولم يراع حرمة المسجد والشهر الفضيل ولا حرمة دماء المسلمين.

وأكد وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية د. عادل الفلاح، أن الاعتداء الآثم على مسجد الإمام الصادق بربري مشين، لا يمت إلى ديننا الإسلامي الحنيف بصلة، والكويت كلها ستقف صفا واحدا في وجه العابثين بأمنها، الذين لم يراعوا حرمة بيوت الله ولا حرمة دماء المسلمين ولا حرمة الشهر الفضيل، الذي تزكو فيه النفوس، وتتطهر فيه الأرواح من دنس المعاصي والذنوب، ويتقرب فيه المسلمون بكل أنواع الطاعات والقربات إلى رب الأرض والسموات.

وشدد وكيل وزارة الأوقاف المساعد للشؤون الإدارية والمالية الأمين العام للجنة العليا لتعزيز الوسطية فريد عمادي، على أهمية وسائل التواصل الاجتماعي في وأد الفتنة، وعدم المشاركة في نشر الإشاعات، واستشعار المسؤولية في حماية أمن البلاد والحفاظ على كل من يعيش على تلك الأرض الطيبة، مشيرا إلى أهمية قيام وزارات الدولة، متعاونة متكاتفة، بدورها في نشر الوعي وقيم الوسطية وتحذير الشباب بالدرجة الأولى من أفكار تلك التنظيمات الفاجرة.

وأكد قطاع الإفتاء والبحوث الشرعية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وإدارة الوقف الجعفري في الأمانة العامة للأوقاف، أن الكويت لم تعهد مثل هذه الأعمال الإجرامية التي تسعى إلى إشعال الفتنة بين الشعب الكويتي المتسامح، داعيا إلى العمل على وحدة الصف وتفويت الفرصة على أولئك المفسدين الذين يريدون بجريمتهم إشعال نار الفتنة بين أبناء الشعب الواحد.



تفجير موكب أمير الكويت الراحل الشيخ جابر الأحمد عام ١٩٨٥م، وكذلك حادثة خطف الطائرة الكويتية الجابرية، وأيضا الغزو العراقي الغاشم على الكويت عام ١٩٩٠م، فإن نسيج المجتمع الكويتي ظل متوحدا متكاتفا تحت راية أمير الكويت والأسرة الحاكمة وبفضل حكمتها ودعوتها إلى التكاتف والتسامح.

وقد أكد وزير الأوقاف يعقوب الصانع أن الوزارة لن تقبل بالفكر المتطرف من قبل أي شخص كان أو أي فكر معين، وأن الأخذ بمنحى الفكر التكفيري لن نقبل به بأي حال من الأحوال، وأن مسطرة القانون ستطبق على الجميع، مشيرا إلى أن التنسيق موجود مع وزارة التربية في إعطائها من خبرات وزارة الأوقاف حتى تساهم في وضع مناهج مادة التربية الإسلامية، معربا عن خالص شكره لجميع من قدم التعازي في شهداء الكويت الأبرار، سواء من داخل البلاد أو خارجها من جميع الدول الشقيقة والصديقة.

إن الضمانة الأساسية للأمن في البلاد تقوم على تقوى الله، والخوف من الله، لأن الذي يراقب الله عزوجل لا يمكن أن يتعدى على عرض: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»، تقوى الله هذه أعظم ضمانة للأمن.

إننا يد واحدة مع ولاة أمورنا في مواجهة كل ما يستهدف هذه البلاد، ويد واحدة أيضا ضد المجرمين، وسيكون المجتمع، بعلمائه ومفكريه وأساتذة الجامعات وكل من له تأثير، يدا واحدة لرد الإجرام على أهله، وأخذ الحق لأهله، والدم له أهله.

تعديل السلوك الإنساني في القرآن: مواقف ولفتات!

د. محمد سعيد باه
أكاديمي - السنغال

نقدم بين يدي الموضوع لمحة أخاذة من سيرة المصطفى ﷺ ترينا الأفق البعيد الذي كان يحلق فيه الرسول القدوة ﷺ في رسم الشخصية المؤمنة التي تكاملت فيها عناصر القوة، بعد تخليصها بالصقل والتعاهد من معظم عوامل وهنها، وهو يهتف بالبشرية لتعود من تيهائها الموغلة وأن تنهض من الارتكاس في حمأة السقوط فتعود إلى الجادة كي تستأهل تبوأ مقعد الاستخلاف وحمل وأداء الأمانة:

عن زيد بن سعنة رضي الله عنه: «ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما» (١).

أما إذا ألقينا النظرة في كتاب الله فسنجد الحديث الضافي الذي خصصه للإنسان من حيث هو كائن متفرد اختير لمهمة بضخامة الكون مع تشخيص دقيق وعميق لطبيعته وما يملكه من قدرات وما يصدر عنه من تصرفات في إطاري التأصيل والتفسير؛ فضلا عن تجلية البعد المزاجي فيه دون إهمال ما يطرأ له من تبدلات في الحالة النفسية أو العقلية (المزاج العام) بسبب ما هو مركوز فيه من محركات تتأثر بما يستجد في الإنسان تارة وتارة أخرى بفعل ما يحيط به من مؤثرات خارجية قاهرة، قد يقوى حينا على مجادلتها وكبح جماحها، وربما عاندته يوما وانهارت دفاعاته:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (المعارج:١٩-٢٣).

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ (الفجر:١٥-١٦).

وفي الحالتين نلحظ إرفاق القرآن العلاج بالتشخيص:

تأتي الصلاة بما تختزنه من طاقة خلاقة تجعل الإنسان يمارسها بعمق كي ينتشل نفسه بنفسه من وهدة سحيقة إلى التحليق عاليا، وفي حالة من السمو الروحي، بحيث إذا ما آب من تلك السياحة الروحية تبدلت حالته وشفت روحه وصفا مزاجه؛ عادت تلك الأجهزة التي كانت قد تعطلت إلى العمل بفاعلية واندفاع، وفي اتجاه متناغم مع بقية عناصر الكون المسبحة المجدة لربها والدائبة في أداء وظائفها الثابتة في حسن سير الكون وتدبير أحوال الخلائق:

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (المعارج:٢٢-٣٥).

وفي سورة الفجر وجه المولى العليم بدخائل ونواقص الكائن البشري توجيها لطيفا ومؤثرا يتضمن توبيخا حانيا عن طريق وضع الإنسان - المتعكر مزاجه والمنحرف شعوره - في قالب جماعي يشعره بأن النقص الذي يعاني من درنه ويكابد ثقله يعم من حوله، من أجل عدم تيئيسه من استدراك نقائص طارئة نتيجة الضغط الشرس الذي يمارسه عامل شديد الانغراز في نفسيته (شدة حب الخير المتضاعف بعامل «تزيين حب الشهوات»:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ (الفجر:١٧-٢٠).

وحين نديم النظر في العلتين المشخصتين وفي العلاجين الموصوفين نلحظ التداخل والتكامل في العناصر التي يهيب بنا كتاب الله أن نستثمرها للنهوض بهذا الكائن الهش والسامي في آن معا، ليستعيد نشاطه في السير نحو باب مولاه وخطاه ثابتة في الواقع وآثاره بارزة على الثرى الذي جاء منه وعاش عليه ثم يعود إليه في ختام جولته في مناكب الأرض.

وهنا القيمة الخاصة للمنهج المبثوث في رمضان وفي غيره من شعائر الإسلام في تخليص الإنسان من حالة المزاج المنحرف فيجعله يعاني من لأواء أيام الامتناع عن المعتاد من أطايب الحياة ثم يدفعه إلى



ممارسة قدر كبير من البذل والعطاء ويغلف ذلك كله في حالة من النشوة الروحية تزيل الكدر المادي الذي قد يكون وراء فشل كثير من الوصفات العلاجية التي تتسم بمرارة المذاق فتمج، وربما دفعت الإنسان إلى الارتماء في أحضان المهيجات، ولا تكون النتيجة إلا المزيد من الخشونة التي تنعكس عن سلوكياتنا حين تجتاحنا موجة من الانفعال الذي يمثل أحد أبرز دلائل الفشل التربوي بسبب علة في المنهج أو بغير ذلك من العوامل النفسية والفكرية.

وبهذا الاستقراء للنهج الذي يرسمه لنا القرآن عن الإنسان (خلقا، ميولا، حالات، طوارئ، إمكانات، فرص، نوازع متناقضة...) يتضح بأنه يزاوج في منهجيته التربوية بأن هذا الكائن الذي يكاد الضعف أن يكون من أعمق سماته ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ (الروم:٥٤). معرض للسقوط إلى أن يصل القعر بقدر ما يملك من المؤهلات الخاصة تجعله يحلق فوق بقية الكائنات كما ورد في سورة الشمس التي تجلي البعدين المتقابلين بصورة تؤكد بأنه حديث من خالق هذا الإنسان العالم ببواطنه المطلع على دواخله:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس:٧-١٠).

من أروع ما نسجله هنا توظيف القرآن مصطلحا ذا رنين أخاذ ودلالة خاصة «التزكية»، وهو ما يؤكد ضمنا أن المزاج العكر لدى الإنسان حالة طارئة على فطرته النقية التي خلق عليها ثم يخوض معه جولة من التوجيهات، عبر موقف ولفتات تتناثر عبر صفحاته (قصة يوسف وإخوته في المقطع الأخير، قصة أصحاب الجنة، قصة موسى وأخيه هارون وهو يجره من لحيته بعد أن ألقى الألواح وهو غضبان أسف، قصة يونس إذ ذهب مغاضبا...) تتضافر وتتساند لتبرهن له على أنه صالح وأنه يملك مصدرا من الطاقة الخلاقة لا يكاد ينضب، إنما يكفيه أن يسوقه في المسار الصحيح ليجد نفسه وقد استعادت حالة الاستقرار والتوازن التي عليه أن يحرص على الحفاظ عليها:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (المائدة:٢٧-٢٨).

في هذا المشهد ترتسم ملامح الشخص الإيجابي القوي في يقينه المتصرف وفق ما يوقن به من قيم استقرت لديه ثوابت لا يمكن أن تأتي حالة مزاجية لتبدل من خياراته التي يستنير بها في حياته، ثم يدفعنا القرآن إلى التأمل في هذه النوعية الرائعة التي ينعتها النبي ﷺ بأنها «مخموم القلب»، أي العملة النادرة التي تتجمل بها الحياة.

نحن مستيقنون، بأن حديث القرآن صريح وواضح في تأكيد أن المسألة تتعلق بمنزلة من منازل ولاية الله للعبد ننتهي إليها بسعي حثيث يتخلله السقوط والنهوض يتعاوران (يصدق ويتحرى الصدق..) وبعد معاناة ممضة ومكابدات شرسة نجتاز فيها من العقبات ونجندل من الأعداء ما لا ينحصر في عد، ثم نستمر في محاولة الصعود لوعورة الطريق الموصل للقمة السامقة، كل هذا نجده ملفوفا في هذا الأمر الرباني الملحق به التشخيص الدقيق للمسار المستقيم وما يفضي إليه من مكانة سامقة عند الله:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصلت:٣٤-٣٥).

يكفي تبشيعا للمزاج الملتهب أن فسره القرآن بأنه أثر من آثار تلك النزغات التي ينزغناها عدونا الأول:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ (فصلت:٣٦).

ننهي القول هنا بأن الإنسان كائن مرهف الحس قوي وسريع الاستجابة للمثيرات من حوله ويتميز أساسا بأنه يظل في حالة تجاذب بين مؤثرين: «العقل والعطافة»، وقد فضل المنهج القرآني المحافظة عليهما بصقل الأول ورفده بمحكمات المعرفة وتهذيب الثاني وشحنه شحنا متوازنا ليصل إلى حالة منشودة يعرفها المربون بـ: «اعتدال المزاج»، عندها يرق الإنسان فيشف فيعيش حالة الانسجام أو الانضباط التي شخصها الرسول ﷺ يوم كرر الوصاة للرجل المستوصي فقال: «لا تغضب»!

هوامش

١- انظر تمام القصة بطولها في المعجم الكبير للإمام/ الطبراني.

أمين عام مجمع الفقه الإسلامي الدولي الدكتور أحمد خالد بابكر:

مهمتنا بيان أحكام الشرع في حركة الحياة

حوار: ربيع إبراهيم



استضافت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت الدورة الثانية والعشرين لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، على مدار أربعة أيام خلال الفترة ٢٢ -٢٥ مارس الماضي.

«الوعي الإسلامي» التقت أمين عام مجمع الفقه الإسلامي الدولي الدكتور أحمد خالد بابكر للحديث عن أبرز القضايا التي ناقشها المؤتمر وما أصدره من قرارات وتوصيات... فكان الحوار التالي:



● **ناقش مجمع الفقه الإسلامي قضية غير المسلمين في العالم الإسلامي، هل لك أن تحدثنا عن ذلك؟**

- عن غير المسلمين في العالم الإسلامي، الله سبحانه وتعالى يقول لنا في كتابه العزيز: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة:٨)، أن تبروهم: البر هو أعلى درجات حسن التعامل، وهو المطلوب من الأبناء والبنات مع أبيهم وأمهم، وتقسطوا إليهم: والقسط هو أعلى درجات العدل. فهم ليسوا مسلمين، لكن طالما أنهم لا يحاربونكم لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على إخراجكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين.

● **بالنسبة للمرأة والمعاقين، هل الهدف من تناول هذه القضايا في مؤتمر المجمع هو الحديث عن الأقليات والفئات الخاصة؟**

- لا، المقصود هو الحديث عن كل المسلمين، فلعلك سمعت النقاش أن كل الدول الإسلامية تحدثت عما هو موجود في الدولة الفلانية والدولة الفلانية وقالت إن المفروض أن تكون هناك جهات وهيئات من أجل العناية بهؤلاء المعاقين. أما المرأة فقد تحدثوا عن توليها الولاية العامة فتكون رئيسة جمهورية وغير ذلك من المناصب. وأرى أن المرأة هي نصف المجتمع، كما يقولون، ولها مهام وعليها أن تؤدي مهامها الأداء الأكمل. وأكد المجمع في قراره الختامي بالمؤتمر أنه يرى رأي جمهور الفقهاء في أن المرأة لا تتولى الولاية العظمى (رئاسة الدولة)، وأن رئاسة المرأة للولايات العامة، مثل: القضاء والوزارة ونحوهما، فيها خلاف بين فقهاء المذاهب، وهو خلاف معتبر. ولفقهاء كل بلد ترجيح ما يرونه من أقوال الفقهاء، وإنه حال تولي المرأة ولاية مما سبق، فيجب عليها الالتزام بالضوابط والآداب التي حددتها الشريعة الإسلامية، خصوصا في أحكام اللباس وغيره، وألا تخل مشاركتها في تلك الولايات أو الوظائف العامة بوظيفتها الأساسية التربوية تجاه أسرتها.

بابكر في سطور

الدكتور أحمد خالد بابكر
أمين مجمع الفقه الإسلامي الدولي
تاريخ التعيين: ١٤٣٢/٩/١هـ الموافق ٢٠١١/٨/١م
الجنسية: سوداني
تاريخ الميلاد: ١٩٤٠م
الحالة الاجتماعية: متزوج وأب

المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس الأدب (قسم اللغة العربية) - جامعة القاهرة، فرع الخرطوم.
- ماجستير اللغة العربية - جامعة الخرطوم - كلية الأدب قسم اللغة العربية.
- الدكتوراه: جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعنوان موضوعها هو: القراءات عند ابن جرير الطبري في ضوء اللغة والنحو كما وردت في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»

الأخلاق ومقصد وحدة الأمة

د. إبراهيم نويري
باحث أكاديمي - الجزائر



العبادة والأخلاق في الإسلام نسق فريد، وهما جانبان متلازمان متلاحمان، كأنهما وجهان لعملة واحدة، لا ينفكان إلا في عالم المفردات والمصطلحات. ولاريب أن مفهوم العبادة في الإسلام ومنهجه واسع شامل لكل حركات ومنجزات الإنسان المسلم المستصحب في نيته وضميره طاعة الله، والقيام بأوامره ومقاصد شرعه ومنهجه.

فلهذه العبادات حكمها العظيمة التي يحيط العقل البشري ببعض دلالاتها وثمراتها وفوائدها، ويعجز عن الإحاطة ببعضها الآخر، وحسب هذا العقل أن يدرك بأن الله تعالى إذا تعبد الإنسان بمناسك معينة أو مخصوصة، فإن فيها الخير كله، فهو سبحانه لا يتعبده إلا بما يصلح نفسه ويزكيها، وبما يعود عليه بالخير والبركة والتزكية في حياته الروحية والمادية والاجتماعية وغيرها.

شعائر الإسلام ومغزى الوحدة

ولقد جاءت شعائر الإسلام كلها لتؤكد حقيقة معنى الوحدة. فصلاة الجماعة عبادة يومية جعلت منها الشريعة السمحة مظهرا من مظاهر الاتحاد والانسجام والتآلف؛ فالمسلمون يجتمعون عدة مرات في اليوم الواحد في تظاهرة وحدوية تنظم صفوفهم خلف إمام واحد، وفي اتجاه قبلة واحدة، وقلوبهم نحو هدف واحد، هو طاعة الله وامتثال أمره وأداء فرضه. كما أن صلاة الجمعة مظهر آخر من مظاهر الاتحاد والاجتماع، للنظر في راهن واقع الأمة، وما تعيشه من أوضاع وما تجابهه من تحديات ومشكلات، وهي دورة تعبوية أسبوعية إسلامية عبادية، تجسد جانبا من جوانب حرص المنهج الإسلامي على وحدة الأمة.

فالصلاة فرضها الله تعالى على المكلفين خمس مرات في اليوم والليلة، وهي تشي بوحدة المسلمين في الغاية والهدف، فقد جعل الله تعالى مواقيتها واحدة وركعاتها واحدة وهيئتها واحدة، لا تختلف من بلد إلى بلد، أو من جيل إلى جيل، ويتم الإعلان عنها بصوت ندي، فيستجيب المؤمنون للنداء، ويجتمعون كلما سمعوا هذا النداء في بيت من بيوت الله تعالى، يناجون ربا واحدا ويؤدون أعمالا واحدة، ويتجهون إلى قبلة واحدة، فأي وحدة أبلغ وأعمق من وحدة المصلين في الجماعة، يصلون خلف رجل واحد هو الإمام، ويبتهلون إلى رب واحد هو الله الواحد الأحد، ويتلون كتابا

واحدا هو القرآن، إنها وحدة نفذت إلى اللباب، ولم تكتف بالقشور، وحدة في النظرة والفكرة، ووحدة في الغاية والوجهة، ووحدة في المظهر والمخبر، وبذلك يصح الجزم بأن الإسلام دعا أبناءه إلى صلاة الجماعة، ليتعارفوا فلا يتناكروا، ويتقاربوا فلا يتباعدوا، ويتحابوا فلا يتباغضوا، ويتصافحوا فلا يتشاحنوا، لأن الحكمة منها دالة بذاتها على جمع الكلمة والتعارف والتآلف (١).

إن ركعات الصلاة وهيأتها لا تتغير جزئيا ولا كليا عندما يؤثر المسلم أداءها لسبب أو آخر بمفرده. غير أن الإسلام ضاعف أجرها بضعا وعشرين مرة أو يزيد إذا اختار المسلم أداءها إلى جانب إخوانه في صف واحد أو في صفوف متناسقة، وهذا الإغراء ينم عن مدى ترغيب الإسلام في الانضواء إلى الجماعة ونبذ العزلة، والانخراط في المناشط العامة التي تؤديها الأمة المسلمة، مما يحتاج إليه المجتمع. وهذا أمر يدل على أن الإسلام يكره للمسلم أن ينحصر في نطاق نفسه، أو أن يؤثر مصلحته الخاصة على مصلحة الجماعة أو المجتمع الذي يحيا بين جنباته. فيتضح من ذلك أنه لمقصد أن يمتزج المسلم بالجماعة فقد «شرع الله الجماعة للصلوات اليومية، ورغب في حضورها، وتكثير الخطى إليها، ثم ألزم أهل القرية الصغيرة أو الحي الآهل أن يلتقوا كل أسبوع لصلاة الجمعة، ثم دعا إلى اجتماع أكبر في صلاة العيد جعل مكانه الأرض الفضاء.. وأمر الرجال والنساء بإتيانه إتماما للنفع وزيادة في الخير» (٢).

إن الصلاة من أعظم وأجل الفرائض والعبادات الجامعة للمشاعر والقلوب، ففي أجوائها يشعر المسلم في كل يوم يتصرم، برسوخ معنى الوحدة والانتماء للأمة، ويحس كذلك بأنه واحد من ألوف الملايين من إخوان العقيدة، ممن يتجهون إلى هذه القبلة، يشعر أن قلبه مرتبط بالله رب العالمين، ومرتبط بالمسلمين في شتى بقاع المعمورة بهذه القبلة التي توحد قلوبهم ومشاعرهم وغاياتهم (٣).

ثم إن المقيم لهذه العبادة على النحو المرسوم يكون رضي النفس، حسن الخلق، جيد المعاملة، عضوا نافعا في المجتمع الذي يعيش فيه، وإذا كان الفرد صالحا صلحت الجماعة أيضا بالتبعية لذلك كما هو معلوم. فهذا هو على الراجح السر في حث الإسلام على الجماعة، والتنويه بعظيم منزلتها، التي لا تدرك حقيقتها من الناحية العملية إلا عن طريق أداء الصلاة وفقه كنه جميع العبادات الجماعية أو ذات البعد الاجتماعي، فهي الأمر الكفيل بانتفاء فوارق اللون وفوارق الثراء وفوارق الدم، ونحو ذلك من الفوارق، فيشعر الفرد شعورا حقيقيا بأنه للجماعة، وتشعر الجماعة بأنها للفرد.. لكن يلاحظ أن هذه الحكمة لا تتحقق بصفة تامة أو على الوجه المطلوب إلا إذا أقبل المصلي على عبادته بوعي كامل، ويقظة حادة وتأمل عميق، أما إذا تجردت الصلاة والعبادة من هذا الوعي وإدراك المقاصد فإنها ربما تكون قليلة الثمرة أو عديمة الجدوى (٤).

أما العبادة الثانية في أركان الإسلام فهي الزكاة، هذه العبادة العظيمة التي تستهدف دعم صلة المسلم بإخوة العقيدة والمصير، والتطهر من رذيلة الشح ومنازع سطوة النفس، فالزكاة سلوك تحرري فاعل من إسار هوى النفس وأنانية الذات، وهي أيضا عمل وحدوي من صميم الأعمال والمنجزات الداعمة المعضدة لقوة المجتمع من الداخل، لكونه يسهم في سد ثغرات الضعف والاحتياج والمسغبة التي يخلفها الفقر في كيان المجتمع المسلم.

ولاريب في أن الجماعة التي ينتشر فيها الإملاق والاحتياج والعوز، تشتعل فيها العداوة والبغضاء والحقد، وتكثر الجرائم وتتفكك الأواصر، فيهتز كيان الأمة بما يشيع بين جنباتها من تقاطع وتدابر وتعادي؛ لذلك شرع الله الزكاة كوسيلة عملية سلوكية تقوي وشيجة المودة بين الأغنياء والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متكافلة متعاونة على الخير العام، فالزكاة إذن وفق هذا الطرح أو المفهوم إنما هي لمصلحة الجماعة والمجتمع، فهي كفالة لا غنى عنها لسد حاجات الفقراء والمحتاجين، بما تهيئه لكل عضو منهم من كرامة الشعور بالحياة الشريفة الطيبة التي ينبغي أن تضمن حدها الأدنى الجماعة المؤمنة (٥).

أما صوم رمضان من كل عام فهو ينطوي على أبعاد ودلالات كثيرة، من أهمها تربية المسلم وإشعاره بأنه فرد من أمة كبيرة لها رسالتها وقسماتها العقدية والاجتماعية والحضارية المتميزة؛ ففي توقيت الصيام بطلوع الفجر ونهايته بإقبال أول الليل أثناء الغروب، حكمة لتوحيد حركة المسلمين، وضبط مناشطهم العامة مع إضفاء صبغة خاصة عليها، فمعنى الوحدة والتآلف محسوس في كل مضامين وأداءات عبادة صوم رمضان.

ولهذه العبادة الجليلة تأثير عقدي وفكري ونفسي عميق على الإنسان المسلم، إذ شاءت الحكمة الإلهية أن يكون نزول القرآن في شهر الصوم، ليكون المحور الجامع لكل شؤون المسلمين، منه يستمدون مقومات حياتهم، ويسترشدون بهداياته الشاملة لكل مجالات الحياة والنشاط الإنساني. كما أن لهذه العبادة تأثيرا روحيا وأخلاقيا كبيرا مشهودا، إذ تغص المساجد بجمهور المصلين المقبلين على تلاوة كتاب الله تعالى، وتدبر أحكامه وهداياته بخشوع واستكانة لله، فتصفو الأرواح وتزكو النفوس، ويحس الجميع بوحدة الأمة الكبرى من خلال الارتباط اليومي بالقرآن العظيم طيلة

أيام الشهر الفضيل. إن أمة تتوحد في نظام حياتها، وفي القدرة على ضبط نوازع شهواتها ومآرب غرائزها، وتتوحد في مرجعية فكرها وعقيدتها ومنظومة حياتها في شتى المجالات، كما تتوحد في مشاعرها وأشواقها وآمالها، ويتحقق لها ذلك من خلال عبادة واحدة، وفي شهر واحد، لابد أن تكون مهيئة للنصر والعزة والمجد، ولابد أيضا أن تكون عصية على أعدائها ومناهضي مشروعها ورؤيتها ومنهجها في بناء الإنسان والحياة والحضارة.

وصفوة القول أن صوم رمضان يسد على المسلمين منافذ الشر والتفكير فيه، ويملأ قلوبهم وأفئدتهم بمحبة الخير لعباد الله وخلائقه، ويغرس في نفوسهم وعزائمهم خلق الصبر ومجابهة مشاق الحياة بثبات، مهما عظمت أو اشتدت وطأتها (٦).

ولنا أن نتصور أو أن نفترض لو يمكن أن تستمر معاني هذه الوحدة التي نحسها في شهر الصوم قائمة في واقع حياة الأمة المسلمة، وهي رقم ضخم جدا من عدد سكان الأرض، وهي التي تتوزع أراضيها في كل جهات المعمورة، وهي التي تمتلك من الثروات والخيرات ما يجعلها من أغنى أمم الأرض، لو استمرت معاني هذه الوحدة في الحضور، ولو تم تفعيلها في الواقع الحي المتحرك، هل هناك قوة في الأرض تستطيع الوقوف في وجه هذه الأمة، وتحريف وجهتها في الحياة إلى غاية أو إلى وجهة لا ترغب فيها؟!

الحج أنموذج حي لوحدة الأمة

ويعد الحج إلى بيت الله الحرام من أبرز المظاهر العبادية التي يتجلى من خلالها الجانب الوحدوي، إذ إنه أعظم مؤتمر يجتمع فيه المسلمون من جميع أقطار الدنيا تلبية لنداء ربهم وتأدية مناسكهم، في عبادة جماعية، تضم المسلمين على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأجناسهم وأقطارهم وأحوالهم، في قلوب خاشعة متبتلة خاضعة لم يوحدها سوى الإسلام، ولم يجمع بينها إلا التقوى والعمل الصالح.

وفي الحج دعوة صريحة إلى توحيد الكلمة والموقف بين المسلمين، فهو تجمع ضخم للمسلمين، يوحد بينهم ويوثق عراهم ويجمع شتاتهم، ويؤدي إلى تعارف أبناء الأمة الإسلامية، وتبادل المنافع المادية والمعنوية بينهم، وفيه كذلك إذابة للفوارق الطبقية والمادية، ودعوة إلى أن يكونوا كالجسد الواحد، ولا أدل على ذلك من لباس الإحرام الموغل في البساطة، وما يرمز إليه من الوحدة والتماثل بين الفقراء والأغنياء، والحكام والمحكومين، والأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، ففي صعيده الطاهر تختفي تماما جميع الفوارق التي تمايز بين الناس في واقع الحياة، بسبب اللون أو الجاه أو المال أو المكانة الاجتماعية والسياسية، أو غير ذلك من الاعتبارات.

إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يقصدون مكة المكرمة طائعين مختارين لهدف فريد هو أن يعلنوا بمخبرهم ومظهرهم عبوديتهم لله الواحد الأحد، وليرسخوا الوحدة بينهم ولينبذوا التفرق والتنازع والتعادي والتنافر والتشاحن. فالحج أساسه وقوامه إخلاص العبودية لله، لكن ترجمة ذلك عمليا يتجسد في تحقيق وحدة الأمة وإحلال الألفة والمودة والرحمة بين شعوبها وتفعيل التناصر والتضامن بين كل المسلمين، لأن هناك تلازما حقيقيا بين التوحيد والوحدة، وهذا التلازم يشعر به المسلم بقوة في موسم الحج (٧).

غير أن السؤال الكبير الذي يجب أن يطرح وأن يستمر التذكير به على الدوام هو هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية توضع فيها الخطط المفصلة للوحدة الإسلامية الشاملة؟ لقد آن للأمة الإسلامية أن تخرج من قوقعة سجن الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة، إلى محيط الجماعة الكبرى التي يرون منها نموذجا مصغرا في هذه الرحلة المقدسة (٨)، ذلك أن فقه مقاصد ومرامي العبادات والشرع جملة أمر مطلوب، إذ به تتحقق الثمرة وتتجسد الغايات والمقاصد.

وهذه العبادات اليومية والموسمية التي شرعها الدين الإسلامي مع غيرها من الرغائب والتوجيهات والأحكام الأخرى تكشف عن مدى اهتمام الشريعة الغراء ببناء مجتمع متحد متعاون متكافل، يكون حقا كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص. ولقد أكد الرسول ﷺ، على مدى أهمية وقيمة الألفة والتضافر والاتحاد منذ اللحظات الأولى لدخول المدينة المنورة، ونفذ ذلك عمليا في حركة التآخي الفريدة حيث آخى بين الطلائع المؤمنة من المهاجرين والأنصار، فقد كان المجتمع الإسلامي حينئذ في مستهل تشكيله وفي بداية نشوئه، وهو مقبل على امتحان عسير تفرضه طبيعة الدين الجديد والوضع السياسي والأمني المحيط بالمدينة المنورة، فهو أحوج ما يكون إلى الوحدة ورص الصفوف، وإزالة أسباب وعوامل الاختلاف والتفرق، ليتمكن على ضعف إمكاناته من الصمود في وجه الأعاصير الهابة التي توشك أن تعصف من مختلف الاتجاهات.

لقد قضى ﷺ بذلك ، على العصبيات الجاهلية والنزعات المختلفة التي كانت تمزق المجتمع آنذاك، وأحل محلها حالة من الألفة والأخوة، لم يذق المجتمع طعمها من قبل، فصنع

من ذلك المجتمع الناشىء الصغير قوة كبرى دافعت عن الإسلام واحتضنته بقوة واقتدار، وأفشلت كل المؤامرات التي استهدفت استئصاله والقضاء عليه، ثم حملت رايته المنتصرة لترفعها فوق ربوع الجزيرة العربية في مدة زمنية يسيرة، ثم منها إلى بقية أقطار وأمصار المعمورة.

ولعل من المناسب في هذا المقام الإشارة إلى أن الإسلام لم يرد للعبادات المقررة في شريعته أن تقتصر على بعد التزكية الفردية فحسب، وإنما حرص أتم الحرص على أثرها الاجتماعي، وعلى مردودها الجماعي، لأن هدفه المجتمع وصلاحه، والعبادات من وسائل هذا الإصلاح والتأهيل، ولأن المفروض أيضا أن الأمة الإسلامية متساندة متضافرة في كل ظروفها ومتغيرات أحوالها، فإن مسؤولية الفرد في المجتمع الإسلامي عن الجماعة، ومسؤولية الجماعة عن الفرد، مسؤولية عظمى ليس لها حدود، لذلك كره الإسلام للفرد المسلم وأنكر عليه أن ينعزل ويستوحش ويشرد عن المجتمع وحراكه ونشاطه وتطلعاته، وبالمقابل أيضا كره للجماعة أن تهمل العناية بالفرد، وأوجب عليها أيضا أن تصون مصالحه وتحترم حريته وخصوصيته وحقوقه، فالفرد في المجتمع الإسلامي جزء في كل، يكمله ويكتمل به، ويعطيه ويأخذ منه، ويحميه ويحتمي به. ولاريب في أن المسؤولية الفردية عن الجماعة، والمسؤولية الجماعية عن الفرد من أوضح مقاصد العبادات المفروضة في شريعة الإسلام ومنهجه الفريد (٩).

أخلاقيات الإسلام منظومة وحدوية

أما الأخلاق فهي قرينة العبادات، لاتنفك عنها في أعمال وسلوكات وعلاقات الإنسان المسلم والجماعة المسلمة، ويقصد بالأخلاق في الغالب الأعم: مجموع المبادئ والقواعد المرشدة والمنظمة للسلوك الفردي والجماعي، على نحو يشمل جميع جوانب وشؤون العلاقات والممارسات الاجتماعية والإنسانية.

وتتميز الأخلاق في الإسلام بوصفها مرسومة أو موجهة بالوحي، وإن بدا عليها الطابع الإنساني المحدد لأساسيات السلوك، لذلك نلاحظ أن العقيدة الإسلامية تمنع المؤمن من أن يكون أنانيا يخص نفسه بما أفاءه الله عليه من نعم وأفضال، وهو يعلم أن في ذلك حرمانا لعيال الله وللجماعة المسلمة من الخير الذي حبته به العناية العليا، فالعقيدة الإسلامية تهذب سلوكه، فتجعل منه عضوا صالحا يكمل إنسانيته بالإحساس بأهله وجيرانه وأمته وبالناس أجمعين، وهذه الأخلاق تنمي في روحه مبدأ الوفاء والانتماء والمودة للجماعة، فيضحى من هذه الأرضية معتقدا بأن هذا الإحساس إنما هو من متممات إيمانه، ومن مستلزمات استخلافه في الأرض (١٠).

وفي الحديث الشريف الذي رواه عمرو بن عبسة تلخيص حسن لمدى علاقة الأخلاق بالإيمان ذاته، وبحسن إسلام المرء واستقامته، ولمدى أثر منظومة الأخلاق الإسلامية في دعم وحدة الأمة وتعضيدها من الداخل: «عن عمرو بن عبسة قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، من تبعك على هذا الأمر؟ قال: حر وعبد، قلت: ما الإسلام؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام، قلت: ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة، قلت: أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده، قلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: خلق حسن» أخرجه مسلم

فيتضح بذلك أن الأخلاق الإسلامية إنما هي رديفة العبادات وشقيقتها، وأنها من أهم دعامات بناء الأفراد وتهذيب النفوس والتمكين للإصلاح الاجتماعي، وتوطيد عرى التلاحم والتضافر والوحدة، وأنها من أبرز دواعي التكافل والتضامن داخل نطاق شبكة العلاقات والتواصل والتعاون في المجتمع الإسلامي الأنموذج.

كما يتضح أيضا أن العبادة والأخلاق في المنهج الإسلامي مرتبطان أشد الارتباط في توطيد وتعضيد مقصد وحدة الأمة المسلمة والتمكين للقيم الحضارية التي يقوم عليها هذا المنهج.

والله ولي التوفيق.

الهوامش

١- عمر يوسف حمزة وأحمد عبدالرحيم السايح، معالم الوحدة في طريق الوحدة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، ط١، القاهرة، ١٩٩٣ م، ص ١٠٨.

٢- محمد الغزالي، خلق المسلم، مكتبة رحاب، ط٥، الجزائر ١٩٨٧م، ص ١٧٧.

٣- محمد أبوزهرة، الوحدة الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، د ت، ص ٢٣٥.

٤- محمد عبدالعليم العدوي، الوحدة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة، دار البيان للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٥٦.

٥- المرجع نفسه، ص ٦٦.

٦- محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام، ط ٧، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣٥٠.

٧- معالي عبدالحميد حمودة «الحج تلازم بين التوحيد والوحدة»، مجلة الحج، السنة الثالثة والخمسون، الجزء السادس، ذو الحجة ١٤١٨ هـ / أبريل ١٩٩٨م، ص ٣٦.

٨- عمر يوسف حمزة وأحمد عبدالرحيم السايح، معالم الوحدة في طريق الوحدة الإسلامية (مرجع سابق)، ص ٥٦.

٩- عبدالرحمن عزام، الرسالة الخالدة، ط٥، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩ م، ص ٦٩.

١٠- المرجع نفسه، ص ٦٣.

القيم.. والصناعة الإعلامية

د. الحسان شهيد
باحث في الدراسات الإسلامية والمعرفية

عرفت الثورة الإعلامية محطات علمية كبرى منذ بداية نشأة الإنسان، فبعدما كان الكلام المباشر والسماع، وأحيانا الخيال، مصادر أساسية للمعرفة وتلقي المعلومة والخبر، انتقل ذلك إلى حاسة البصر في تضافر مع الوسائل المتطورة مشخصا في الصوت والصورة وتفاصيلهما المختلفة، بل إن الوقت المعاصر لم تتجاوز الصناعة الإعلامية مرحلة الانضباط والاحتكام إلى الصورة فحسب، بل إلى صناعة الصورة نفسها أو الحكاية، ومنحها أبعادا جديدة رمزية ومستوعبة لشروط التأثير، وتشكيل الأذواق إلى خلق قيم والعمل على خرم أخرى.

إن هذه الثورة العلمية في صناعة الإعلام قلبت معها خصوصيات النظر القيمي عند الإنسان المتلقي لحاضره ومستقبله، بناء على درجات إدراكه ووعيه بالفكرة المقصودة، حتى أصبحت للإعلام سلطة جامحة في صناعة قرارات قوية، وتهيئة لأجواء بناء منظومة قيمية جديدة. وهذه بعض الأمثلة لبيان ذلك:

أولا - قضايا الأسرة: كثيرة هي القضايا الأسرية التي تعمل الآلة الإعلامية على معالجتها، ونظرا لارتباطاتها الدقيقة بمجموعة من القيم الثقافية، باتت الأسرة في موقع تهديد خطير.

أ - برامج أسرية: يتم فيها عرض مشاكل زوجة مع زوجها، وإجراء محاورة ومجادلة شديدتي اللهجة وبشكل فاضح، كل يدافع عن نفسه أمام الكاميرا مباشرة، هاتكة لقيم الستر والأدب في الكلام، والإحسان للوالدين. وفي دراسة علمية خلص الباحث مساعد بن عبدالله المحيا إلى أن بعض الأشكال الإعلامية في الوطن العربي «تعلن فيها الحرب على أوضاع المرأة المسلمة في المجتمعات العربية المسلمة بحيث سعت بعض هذه المسلسلات إلى أن توحي إلى جميع المشاهدات بأن جميع قرارات المرأة ينبغي أن تتخذها هي دون الرجوع إلى ولي أمرها، أو الذي ولاه الله مسؤولية القيام عليها، زوجة أو بنتا» (١).

ب- برامج الدفاع عن الواقعات في الرذيلة: وذلك بعرض تقارير ووثائقيات مع الحديث عن معاناتهن وسوء معاملتهن كأنهن مظلومات، محاولة بيان الظلم الذي يسلط عليهن في المجتمع بما اقترفته أيديهن، وهذا من شأنه أن يشيع الرذيلة والزنا في المجتمع.

تلك عينة فقط من الأشكال الإعلامية الخاصة بقضايا الأسرة، وإلا فهي كثيرة قد لا تغيب عن المرء المتتبع للمعروضات الإعلامية.

ج - الجمال والمرأة: لم يعد لقيمة الجمال سحرها في ظل الثورة الإعلامية والتقنية المعاصرة، حيث أصبحت مبتذلة بإضفاء المساحيق الإعلامية عليها، فاستغلت قيم الأنوثة والطبيعة الإنسانية في تجميل القيم السالبة للبعد الإنساني، خصوصا المادية منها.

ثانيا - الرسوم المتحركة: إن الرسوم المتحركة، أو ما يسمى بـ «الأفلام الكرتونية»، من أشد الأشكال الإعلامية خطورة في ترسيخ بعض القيم، أو على الأقل في تغيير بعض المفردات القيمية، خصوصا في ذاكرة الطفولة، التي عادة ما تكون مهيأة لاستقبال الثقافة الرمزية والصور القيمية المراد توجيهها أو تشكيلها في مرآة النفس عند الطفل.

وهنا يجدر التنبيه إلى بعض الأمثلة:

أ - صورة القط: في كثير من الأحيان تخلق الرسوم المتحركة عداوة.. مع الحيوان الأليف القط، وذلك بتصويره رمزا للعداء أحيانا، وللغباء تارة/ والغدر تارة أخرى، كأفلام «توم وجيري» المشهورة، في حين يتم تصوير الفأر رمزا للظرافة والذكاء والألفة، وفي ذلك قلب لبعض القيم التي ينبغي تلقينها للطفل، فالقط في الثقافة الإسلامية له اعتباره الخاص لحديث النبي ﷺ «إنها ليست بنجس، إنما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات» (٢)، وحتى سؤرها طاهر ولا ينجس ماء الوضوء الذي شربت منه (٣). أما الفأر فصنفه العلماء ضمن الحيوانات النجسة السؤر والمأمور بقتلها في الحرم (٤).

ب - اللحية: عادة ما يتم بيان

الشخصية العدائية وغير المرغوب فيها مرسومة بلحية كثيفة إشارة إلى القبح وسوء الأخلاق، وتلك صورة لا ينبغي تقديمها للطفل حتى لا يربط بين القيم المذكورة والصورة المراد إبلاغها، لأن اللحية دلالة على قيم الالتزام والوقار في ثقافتنا.

ج - التبرج: عادة ما تصور الأفلام الكرتونية الفتيات الذكيات والنبيهات المتحررات من كل قبح وسوء بلباس متبرج سافر، أما الكاسيات منهن فيقدمن- في أحسن الأحوال - على أحوال يمثلن بها دور الخادمات أو الشريرات أو ما شابه ذلك، فتتركز في ذاكرة الطفولة تلك الصور النفسية لتترجم إلى تمثلات واقعية ومعيشية.

ثالثا - قضايا الحروب: لقد ابتكر الإنسان الآلة الإعلامية بتقنياتها المعقدة لخدمة الإنسان ووجوده القيمي المغاير لباقي المخلوقات، لكن التحولات العميقة تحول معها البعد الوظيفي النبيل للإعلام إلى بعد غائي واستثماري خطير على القيم الإنسانية، ومن ذلك.

أ - تأجيج الصراع: تبدأ خطورة المؤسسات الإعلامية في تغطيتها لقضايا الحروب والصراعات من تأجيج تلك الاختلافات وتشديدها. وقد بلغ السيل زباه لما أصبحت تلك المؤسسات الإعلامية ناطقة باسم طوائف معينة وقبائل خاصة بل بأفراد مفردة. وفي الوقت الذي ينبغي تسخير تلك الوسائل في لم شمل الأمة وتوحيد قضايا الإنسان وخدمة قيمه، أخذت تلك الآلة تهدده في وجوده وفي قيمه وأخلاقياته بزرع فتائل النيران وتغذية روحها. وهذا الأمر لا يستدعي أمثلة، فالواقع فصيح في المسألة.

ب - الضحية والجلاد: طالما كانت المؤسسات الإعلامية المتعددة وسائل ناجعة في التسوية بين الضحية والجلاد أحيانا في نظر الشعوب، خصوصا المغلوبة على أمرها، كما قلبت مشهد الخصومة من جعل الضحية جلادا إرهابيا، والجلاد ضحية وديعا، قلبت بها موازين القيم من العدل إلى الظلم ومن الظلم إلى العدل، حتى أضحى المتابع الجاهل بحقائق الأمور واثقا من الصورة المقلوبة. ولا أدل على ذلك من مثال الاحتلالات المتكررة للشعوب، وآخرها الإرهاب الصهيوني المحتل لأرض فلسطين.

ج - حرمة الإنسان: انتهك الإعلام بسلطته، المادية والأدبية، حرمة الإنسان الحي؛ باغتيال حقوقه بعدما حوله من مظلوم إلى ظالم، بعد حشد كل قواه لإقناع العالم بذلك، ولم يتوقف عند ذلك الحد، بل خرم حرمته وهو في مرحلة الانتقال من الحياة إلى الموت، بقدرته على نقل مباشر أمام أعين أخيه الإنسان وهو يذبح أو يقتل أو يرمى بالرصاص، ملوحا بكل القيم الإنسانية نثر الهواء، لخدمة مقاصد مادية اقتصادية أو سياسية، ولاشك في أن لذلك انعكاسات سلبية على قيم الإنسان الذي أصبح القتل والإعدام لديه مسألة هينة.

رابعا - قضايا العلوم: استطاعت القوة الإعلامية الموجهة خرق عدد من القيم النبيلة، متجاوزة بذلك روح الأمانة العلمية أحيانا، وقيمة العدل في أحيان أخرى، مستعملة في ذلك سلطتها وغفلة المتلقي وضعف الآخر، ويمكن التدليل على ذلك بنسبة الملكية الأدبية أو ببراءة الاختراع التاريخية إلى علماء لهم أوصاف واستثناءات خاصة، مع إغفال وتهميش صاحبها الأول وإقصائه؛ إما لأسباب ثقافية أو حضارية، كنسبة علم الاجتماع لإميل دوركايم الفرنسي بدل ابن خلدون. وإلحاق اكتشاف الدورة الدموية بهارفي الإنجليزي أو سيرفيتوس الإسباني بدل ابن النفيس، وكذا نسبة اكتشاف قوانين الضوء إلى الألماني يوهانز كيل بدل ابن الهيثم محمد بن الحسن، وقد استكملت الآلة الإعلامية هذا الدور بشكل لافت.

إضافة إلى ما ذكر، فإن سلطة الإعلام استطاعت في عصرنا تشكيل أذواق جديدة وآراء مغايرة وأنماط خاصة في التفكير، «فهي تقدم - للمتلقي - كمية هائلة من برامج التسلية، رياضة وعنفا وجنسا ورومانسية وكوميديا.. وتحوله إلى متفرج سلبي يشاهد نشرة الأخبار، وقضايا الشأن العام بالطريقة نفسها التي يشاهد بها الأشرطة السينمائية..».

كانت هذه صورا تعرب عن مثيلاتها في الهيمنة الإعلامية القاسية، التي باتت تهدد قيم الإنسان المعاصر في حاضره ومستقبله، ولا فكاك من مخاطر تلك القوى الرمزية المتسلطة إلا بإعادة النظر في قيمة الإنسان وبعده الأخلاقي الكوني في تفاعل بنّاء بأبعاد قيمية إنسانية مع الوسائل الإعلامية الوسيطة.

الهوامش

١ - مساعد بن عبدالله المحيا، القيم في المسلسلات التلفازية، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٣هـ، ص:٣٠٢/٣٠٣.

٢ - أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الطهارة، باب الطهور للوضوء، الحديث رقم١١.

٣ - انظر: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، أبوالوليد محمد بن رشد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٧/١٤٢٨م، ١/ ٣٤.

٤ - انظر: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، أبوالوليد محمد بن رشد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٣، ٢٠٠٧/١٤٢٨م، ٢/ ٤٢٧.

٥ - أحمد غيلان، وسائل الإعلام، الواقع والتحديات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، مكتبة الطالب، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص:٣٥.



الحج.. مساواة وعدالة وهداية

بين قانون السماء والأرض..

القاهرة - عبدالله شريف ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية

- **الراوي: يحقق المساواة وهو العبادة الوحيدة التي تختفي فيها مظاهر التفاخر والعصبية**
- **د. عمارة: على الدعاة أن ينبهوا إلى الآفات التي لحقت بأمتنا حين ابتعدنا عن قيم الحج**
- **د. منير: تفعيل قيمه باعتبارها أمرا ربانيا وضرورة إنسانية لبقاء المجتمعات وصيانتها**
- **الريان: تجرد الحجاج والتزامهم بأمر الله يحقق مفهوم «التقوى»**
- **النجار: يغير معايير التفاضل.. ويجمع مفاهيم الإحسان والصدقة والالتزام**
- **الجميعي: أسس لوحدة الأمة وحذر من الخلاف والجدال**

اعتبر علماء ومفكرون نسك الحج رسالة إلهية من فوق سبع سموات لتعزيز قيم المساواة والعدالة والهداية بين بني آدم على الأرض، وأكدوا أن هذا الركن العظيم من أركان الإسلام تذوب فيه كل الفروق، ويتجرد الجميع من ألقابهم وانتماءاتهم وأجناسهم ليقفوا جنبا إلى جنب، لا فضل بينهم لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي.. وحث العلماء على استلهام القيم الإلهية من هذا النسك العظيم، وجعلها منهج حياة متواصل..

«الوعي الإسلامي» والتفاصيل:

«قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تهفو لزيارة البيت الحرام، وترمي خلفها كل الدنيا لأجل قيمة إسلامية عظيمة تنير قلوبهم وتجذبهم للتوحيد الكامل ولنظرة الرحمة».. بهذه الكلمات بدأ حديثه الشيخ د. محمد الراوي، رئيس قسم التفسير بجامعة الإمام محمد ابن سعود بالرياض وعضو في مجمع البحوث الإسلامية بمصر، موضحا أن أناسا لا يعرف أحدهم أحدا، يجتمعون في موقف واحد، ويهتفون بكلمات متشابهة وبلباس واحد في مشهد يثبت قمة المساواة، فالجميع يعبدون ربا واحدا، ويلبون نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ



﴿ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ (الحج:٢٧-٢٩).

يجمعهم الحب والسكينة

وأشار د. الراوي إلى أن كل من يكون في البقعة المباركة عندما تسأله عن أبرز مشاهده يروي لك أنه لا يعلم الغني من الفقير، العاصي من التائب، كذلك لا يعلم من أي طائفة هذا المسلم أو من أي بلد، لكنه يعلم هدفه ووجهته، يجمعهم الحب والسكينة، البكاء والخضوع للواحد القهار سمتهم، واللين مع الآخرين خلال هذه الأيام المباركة طبعهم.

وأوضح أن الحج هو العبادة الوحيدة التي تختفي فيها مظاهر الزينة والتفاخر بالأنساب والعصبية والقبائل وبإنجازات الدول وإخفاقاتها، وبالألوان أبيضها وأسودها.

وتابع أن الحج هو حقيقة الإسلام البيضاء المتوحدة اللاهجة باسم الله، المحبة للغير، الحاضنة لكل الألوان والأعراق والطوائف، المحافظة على الحقوق المحترمة للإنسانية والمبتعدة عن الدماء حتى الحيوان.

وأوضح أنه لا يستطيع أحد أن ينظر من قريب أو بعيد إلى مشهد جبل عرفة مثلا وقد ذاب الجميع في دائرة واحدة والكل يسأل إلها واحدا حاجته ويطمع في رحمته، ويدعو الجميع لبعضهم البعض وأن لا يرى عظمة وقيمة المساواة في الإسلام، وشدد على ذلك رسول الله ﷺ في خطبة الوداع فقال: «أيها الناس إن أباكم واحد وإن ربكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

وأضاف د. الراوي: إذا نظرنا إلى مفهوم العدالة نجد أنه التساوي في الفرص والحقوق والواجبات بنظام تشريعي يحكم، ونجد في الحج ضوابط وأركانا وواجبات ووحدة حتى في الشكل، فحقق الحج مبدأ العدالة فلا تجد تفرقة في العبادة ولا في الحكم ومن يعمل أكثر ويجتهد يكن له نصيب أكبر من الرحمة والمغفرة.

وأشار إلى أن الأمة تحتاج إلى أن تكون دروس الحج واقعا، فنبتعد عن الكره والبغض لأجل اللون والعرق والفكر، وليس مع الثقافات الأخرى ولكن مع بعضهم البعض أولا.

وتابع: نسمع ألسنة من الغرب عن العدالة والمساواة وننبهر بها وننسى المشهد العظيم الذي يبهر الدنيا كلها ويظهر أصل حقوق الإنسان الموجودة في الدين، ننسى رسالة الإسلام في كل عام بل نسينا أبرز قيم ديننا العظيمة خلف سواتر وأكاذيب وقشور، فكثرت دماء المسلمين المهدرة بسبب غياب فقه دروس الحج، وقد حذر من ذلك رسول الله ﷺ في خطبته فقال: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، وتركت فيكم ما إن

أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله وسنة نبيه».

طاقة إيجابية

أما د. عمرو عبدالعزيز منير أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية آداب جامعة جنوب الوادي فقال: العدل في المجتمعات يتحقق بالمساواة: لا ينبغي إغفال الحكمة الربانية من مشهد المساواة الرباني الذي يتجسد على الأرض في أيام معدودات للحج. فالجميع متساوون، وهذه المساواة شرط لقبول الفريضة، فلا رفث ولا جدال ولا فسوق في الحج إذا أراد المؤمن أن تقبل حجته.

وأضاف: لا يصح أن نقصر القيم السامية للحج على هذه الأيام ولا هذا المشهد، بل علينا أن نسعى لتحقيقه دائما باعتباره أمرا ربانيا وضرورة إنسانية لبقاء المجتمعات وصيانتها، والمساواة تعني أن نعطي كل ذي حق حقه، فيثاب المصلح ويعاقب المسيء، وليس أن يتساوى الكل في الإطلاق.

وأشار د. منير إلى أن قيمة العدل هذه ترتبط بالعمل وترتبط بالخلق وترتبط بالسعي.. ولا يرتقي مجتمع على وجه الأرض أو في التاريخ إلا بهذه القيمة.. أن يشعر كل فرد أنه سيأخذ ما يستحق إذا اجتهد وعمل ما بوسعه.. مؤكدا أن تحقيق هذه القيمة كفيل ببلوغ غاية أخرى هي السلم الاجتماعي الذي يضمن الاستقرار.. وتحقق المساواة في المجتمعات بهذا المعنى كفيل بخلق طاقة إيجابية تضمن توجيه طاقات المجتمع لكل ما هو نافع وصالح بدلا من الوقوع في شرك اللامساواة الذي يستنفد طاقة المجتمعات والأمم ويوقفها عن النمو في وقت أصبحت جميع الأمم تتطلع للأمام، ولا ترضى بالوقوف ثابتة، بل تتجه نحو الوحدة لا الفرقة لعل الغد يأتيها بيوم أضحى وأشرق..

وتابع: إن وحدة هذه الأمة هي أسمى غاية رسخها النبي ﷺ بين أصحابه مع تنوعهم، أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، عربيهم وأعجميهم، ألَّفهم بقول «لا إله إلا الله» وجعلها حصنهم الحصين، من دخله – ولو بعد عداء – تصان حرماته: دمه وماله وعرضه، قاعدة لم يرحل ﷺ حتى أعاد تأكيدها ببيان فصيح، ليقينه أن هلاك أمته بتركها، وأنهم سيفعلون!

وأنهى د. منير رأيه قائلا: تزورنا أيام الرحمة في الحج وأفراد أمتنا منقسمون إلى واع لأيام الحج ومعانيها، أو غافل عن مقاصدها، والواعي لها إما قد أدركها على الحقيقة أو أدركها على التحريف والتشويه الذي ألم بكل شيء جميل في أمتنا فأفرغه من جواهره، فإن كان من الذين أدركوها مشوهة فهو كالسائر على غير طريق، لا تزيده الطقوس إلا بعدا، وأما من أدرك هذه الفريضة على الحقيقة فإنه لا يعدو أن يكون مؤمنا بها أو جاحدا لها، راضيا أو ساخطا، فالمتمثل الواعي هو وحده الفائز بيوم أضحى وأشرق.

قيم الحج

من جانبه، أكد د. محمد طه ريان، رئيس موسوعة الفقه الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، أن الحج تأسيس وتطهير وتنقية لنفس الإنسان، وصدق رسول الله ﷺ حين قال في حديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»، وفي رواية له أيضا: «من حج هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه».

وأضاف أنه ينبغي قبل تناول فكرة تأثير قيمة الحج على نظرة المجتمعات الأخرى إلى الإسلام وتعاليمه وتحقيقه المساواة والعدالة ينبغي أن نتمعن في القيمة الفريدة التي ينبغي أن يحققها الحج في نفوس المسلمين أنفسهم، وهي تبدأ بالتجرد، ويعني التجرد لله من كل شيء من متع الدنيا والشهوات والملذات، والتعود على الصبر في سبيل الله ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، والتقرب إلى الله بما يحب من العبادات القولية والفعلية، ويجب التأكيد على لفظ بما شرع الله وأمر، وليس كما تحب النفس، وهذا معنى «إن أقربكم إلى الله أتقاكم»، مصداقا لقول الله تعالى:

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات:١٣).

وأشار إلى قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «حججنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أول خلافته، فدخل المسجد الحرام حتى وقف على الحجر، ثم قال: إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك».

وأوضح د. ريان أن التقوى هي سلوك الإنسان مع ربه ومع عباده، فنجد تأصيل هذه الكلمة في فريضة الحج منذ أن ينوي المسلم الذهاب إلى الأراضي المقدسة ويعقد العزم على العودة خاليا من الذنوب، وربما يتمنى أن ينقضي أجله وهو بين يدي الله على جبل عرفات، فالجميع على صعيد واحد اختلفت ألوانهم وقبائلهم ولا يوجد بداخل أحدهم حقد ولا حسد ولا طمع إلا في رحمة الله، تربطهم الأخوة الإسلامية ويؤدون عبادة بخطوات شرعها الله ولا يخالفونها، يقول الله تعالى:

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة:١٩٧)، ويقول عزوجل: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ (الحج:٣٧)، مشيرا إلى أن الحج ينبغي أن يحدث تغييرا في النفس وليس مجرد أداء الفريضة أو التطهير من الذنوب، ولكن درس لبناء الإنسان المسلم السوي.

وأضاف أنه لابد على الحاج لحظة وقوفه بين يدي الله وقبل الإفاضة أن يرى أمامه ماذا سيقدم بعد الحج، وكيف سيرجع إلى بلده وحياته الأخرى، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ (النحل:٩٢)، ولتطبيق قيم الحج في المجتمعات لابد من تربية النشء عليها بدءا من البعد عن احتقار زملائهم أو البحث عن العيوب بهم، ويجب أيضا تعليمهم فقه الاختلاف حتى لا نرى شبابا يقتلون باسم الدين.

وأضاف أن على ولاة الأمور أن يبدأوا بذلك بين الشعوب بالابتعاد عن الفرقة والشخصنة، وأن يعلموا الشعوب قيم الدين ويعملوا على غلق أبواب الفتن.

تحقيق العدالة

إلى ذلك، أكد الشيخ عبدالعزيز النجار، مدير الدعوة بمجمع البحوث الإسلامية، أن هناك طرقا لتطبيق المساواة والعدالة الواضحة في رحلة فريضة الحج على المجتمع الحقيقي، تبدأ بتغيير معايير التفاضل غير الصحيحة التي فرضتها المجتمعات على الناس، وتبدأ بتربية الأطفال على بذل الخير وعدم التفرقة بينهم ومراقبة تصرفاتهم في التعامل مع سخرية بعضهم من بعض، مشيرا إلى أنه يجب منعهم من السخرية والانتقاص من الآخرين، وتعويدهم على أن الله خلق الخلق وكرم الإنسان وأنه لا فرق إلا بالأعمال وعمارة الأرض وتنمية المجتمعات، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء:١).

وأضاف أن من سبل تحقيق العدالة، تطبيق ولاة الأمور الأحكام على الناس جميعها وأن لا تفرق في الميزان، وهي من أهم شروط المساواة، يقول رسول الله ﷺ: «إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وأشار إلى أنه ينبغي تربية الشباب على الإحسان ومراقبة الله وحده والتعاون مع الآخر ومساعدة المحتاج من أجل رضا الله وتقواه، قال رسول الله ﷺ: «الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» وهذا من أقوى مشاهد الحج وتقوى الله، حيث يعمل الحاج على مراعاة أوامر الله طول فترة الحج والابتعاد عن نواهيه، مستشهدا بأنه حتى «اللقطة» لا يجوز أخذها.

وأكد أن من أهم أوجه العدالة في الحج «وجوب الهدي» على جميع الحجاج والحكمة من مشروعيته مساعدة الفقراء والمساكين، والتقرب إلى الله وتعظيم البيت الحرام.

وأد الخلاف والجدال

أما د. عبدالمنعم الجميعي، أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الفيوم، فأكد أن الحج على مدار التاريخ هو أساس التكافل الاجتماعي بين المسلمين، مشيرا إلى تعدد الدروس المستفادة منه على المستوى الإنساني والاجتماعي موضحا أن مشهد وقوف الغني والفقير معا لا يوجد فرق بينهما بملابس واحدة وربما يتقبل من الفقير ويطرد الغني- مشهد عظيم ينبغي دراسته بعناية.

وأشار إلى أنه توجد قيمة عظيمة ذكرها الله في كتبه بقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧)، موضحا أن الحج استهدف وقف الخلاف والحديث فيما لا ينفع ولا يضر ولا يبني الأمة الإسلامية الموحدة التي تظهر في لوحة فريدة على جبل عرفات، وفي منى وجميع المشاعر.

وأوضح أن الحج سعى للمساواة بين الجميع، واستشهد بحديث رسول الله ﷺ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت قريش، ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، فإن سائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، فيقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله عزوجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة:١٩٩)، والعلماء فسروها بأن الإسلام جاء ليساوي بين الجميع ولا يغلب أحدا على أحد.

آفات النسيج الاجتماعي

أكد المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة، أن المساواة روح سارية في كل شعائر الإسلام وفرائضه ومناسكه، وهي أكثر ما تكون في مناسك الحج، فالناس يجتمعون في محفل ديني كبير في زمان واحد، وفي

مكان واحد، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وقومياتهم وأوطانهم، يجتمعون وقد اتصفوا بصفات الميلاد والوفاة، يتجردون من ثيابهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ويلبسون غير المخيط كأنهم مقبلون على ربهم، لا فرق بين كبير وصغير، ولا أمير وفقير، وهذه المساواة التي تتجلى في مناسك الحج سمة من سمات المنهاج الإسلامي في كل ميادين الحياة.

وأضاف: لذلك يحسن في الدعوة الإسلامية والدعاة المسلمين أن ينبهوا في خطابهم الديني على الآفات التي لحقت بالمجتمعات الإسلامية، والتي سادت في كثير من هذه المجتمعات، إذ لدينا فوارق طبقية تمزق النسيج الاجتماعي في كثير من المجتمعات، ولدينا سلطات مستبدة تحرم شعوبها نعمة الحرية التي فضل الله بها الإنسان على كثير من المخلوقات، ولدينا أناس يموتون من التخمة وأناس يبيعون عقيدتهم للمنصرين لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء، ولدينا نظم قطرية مزقت أوصال دار الإسلام وأمة الإسلام وجعلت هناك فوارق فاحشة بين بعض الشعوب وبعضها الآخر.

وتابع د. عمارة: ولدينا غزو فكري يحتل العقل المسلم كما تحتل القواعد الأجنبية كثيرا من أرض الإسلام، ولدينا كثير من الشوائب والأمراض التي تهدد قيم المساواة التي هي منهاج شامل وروح سارية في عبادات المسلمين وشعائرهم.. لذا علينا أن نعود إلى قيمة المساواة لأن الله سبحانه كرم بني آدم جميعا، وقال في كتابه الحكيم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠)، وعلمنا في قرآنه أن التفاضل بالتقوى، فأبواب الفضل مفتوحة أمام كل الناس والكل أمام الله سواء، وعلينا أن نحيي هذه السمة لتعم معاملاتنا ومناهج حياتنا.

مشاهير أسلموا بسبب الحج.. مالكوم إكس نموذجا

يعرف مالكوم إكس بالرجل الذي مات واقفا.. ذلك الرجل الإفريقي الذي انتقل من قاع الجريمة والضياع إلى غياهب الأفكار المتطرفة والعنصرية.. حتى هداه الله إلى الإسلام الصحيح.. بعد رحلة طويلة من البحث عن ذاته وكرامته كرجل أسود.

ولد مالكوم إكس أو الحاج مالك شباز في محيط يعاني فيه العنصر الأسود من منتهى العنصرية في المجتمع الأميركي، حيث كان الرجل الأسود الناجح لا يعدو أن يكون ماسح أحذية.. وكان أبوه قسيسا، أما أمه فكانت أصولها هندية.

حين بلغ مالكوم إكس سن السادسة قتلت جماعة عنصرية أباه وهشمت رأسه فعانت أسرته الأمرين، وقد كانت الأم ترفض أخذ المساعدات الاجتماعية حتى تحفظ كرامة أسرتها، ولكن تدخل مكاتب الضمان في حياتها وتحريض أحد الموظفين البيض الأبناء على والدتهم أورثها مرضا عقليا أودعت بسببه في المستشفى لمدة ٢٦ سنة.. ومن حينها ترددت أخلاق الأولاد وانحدر مالكوم إكس في قاع الجريمة والسرقة حتى أودع سجن الأحداث.

وبعد أن خرج مالكوم من السجن كان يطمح لأن يكون محاميا، لكن معلمه الأبيض أقنعه بأن مهنة المحاماة لا تناسبه لكونه أسود، فكان أثر هذا الكلام على الشاب مؤلما..

ثم انتقل إلى بوسطن وعاش فيها حياة الملذات وانغمس فيها حتى أدرك يوما أن سبب فقر الرجل الأسود هو انجراره خلف تلك الملذات وإهماله للتعليم.. وبقي على غفلته تلك خمس سنوات حتى أودع السجن مرة ثانية..

وفي السجن زاره أخوه الذي اهتدى إلى جماعة «أمة الإسلام» بزعامة أليجا محمد والذي كان يدعي الرسالة وينشر فكرة خاطئة عن الإسلام على أنه دين الرجل الأسود، وبعدها قرر مالكوم أن ينضم إلى «أمة الإسلام» تلك بعد خروجه من السجن، وانطلق يدعو الشباب في البارات وأماكن الفواحش للانضمام لجماعته حتى تأثر به كثير من الناس.. وذاع صيته وبدأ يظهر على الإعلام وتنهال عليه الاتصالات وعرف عنه قوة خطابته وتحديه لخصومه.

قرر مالكوم إكس أن يتعرف على الإسلام أكثر، فطار لأداء فريضة الحج سنة ١٩٦٤م وزار أنحاء العالم الإسلامي، فرأى كيف يختلط الأبيض بالأسود أثناء الحج بلا تمييز ولا تفرقة.. فعرف أن دين الإسلام دين البشرية كلها، فتعلم الصلاة والتقى الملك فيصل رحمه الله الذي قال له حينها: «إن ما يتبعه المسلمون السود في أميركا ليس هو الإسلام الصحيح»، فعاد مالكوم إلى أميركا وقد تغيرت أفكاره، وبدأ يعلم الناس الدين الصحيح، ونادى بأخوة بني الإنسان بغض النظر عن اللون، ودعا إلى التعايش بين البيض والسود وفق قيم الإسلام التي يعكسها ببساطة مظهر الحجيج.. وهو الأمر الذي أثار بعض العنصريين ضده فأردوه قتيلا رحمه الله سنة ١٩٦٥م.

المساواة.. وتجربة «الصف المقسوم»

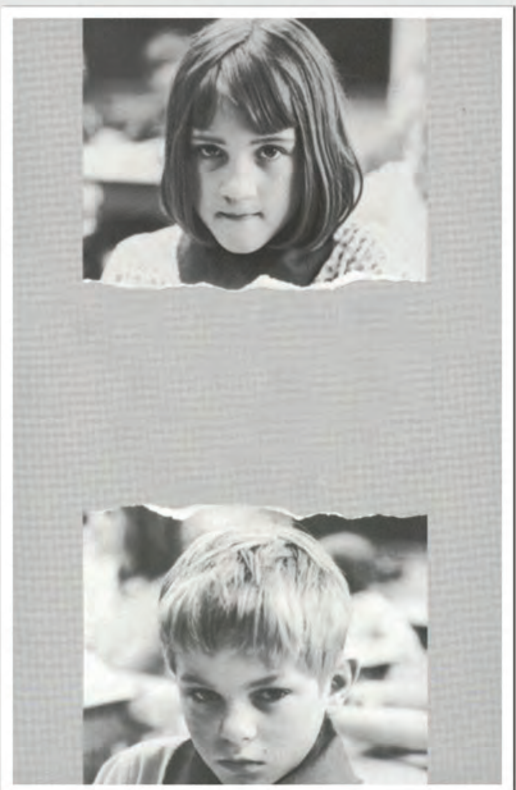
التحرير

عندما قال رسول الله ﷺ: «لا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى»، أسس لقاعدة المساواة قبل أن تعرفها المجتمعات الحديثة بألف عام أو يزيد.. هنا قانون السماء يتجلى مقابل قانون وضعي أذاق الفئات المستضعفة العذابات قبل أن تنجح في فرض رأيها الحر. منذ البداية أقر الإسلام القاعدة، ووجد المسلمون أن ذا البشرة السوداء مؤذن، وقائد، وأمير عليهم؛ لأنه أصلح وأتقى.. وأن الأعجمي الغريب بينهم قريب؛ لأنه أصلح.. واختفت من قاموس المسلم مفردات التمييز والتكبر، فنحن جميعا خلق الله، لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم.. ولعل تجربة غربية في العصر الحديث، اضطرت أن تقوم بها معلمة أميركية مع تلاميذها، تعطي الدلالة على المحاولة المستميتة «والناجحة» لزحزحة الفكر العنصري من أذهان الأجيال الجديدة في أميركا، في وقت اندثرت فيه هذه التفرقة من المجتمع المسلم قبل ألف.. ففي عام ١٩٦٨م قامت المعلمة جين إليوت في أسبوع التآخي بنشاط مدهش مع تلاميذها، إذ قالت لهم إن أصحاب العيون الزرقاء، وهي منهم، لاشك أذكى من أصحاب العيون البنية! ودللت على هذا بنشاط واحد من التلاميذ كانت عيناه زرقاوين، ومضت في إقناع التلاميذ بذلك، حتى إنها طلبت من أصحاب العيون البنية أن يرتدوا مناديل داكنة اللون حول رقابهم لتمييزهم عن التلاميذ الأفضل منهم بسبب لون عيونهم!

قالت مثلا: «أنظروا إلى بروس البني كيف نسي واجبه.. سوزان الزرقاء لم تنس واجبها». وقالت إن التفرقة بين البنيين والزرق ستستمر طوال ذلك اليوم، ومنها أن الفريق الأفضل سيأخذ حظا أوسع في اللعب.

بالطبع شعر أصحاب العيون الزرق بالسعادة الطارئة، بينما انهارت معنويات أصحاب العيون البنية، وشعروا بظلم كبير. وحدث أن أنجز الفريق الأول نشاطه الدراسي في مدة أقصر بكثير من تلك التي احتاج إليها المغبونون. وسخر أحدهم من صاحبه ونعته بذي العيون البنية!

تقول إليوت: «رأيت كيف تحول تلاميذ رائعون متعاونون أذكياء إلى أطفال متعصبين بذيئين أشرار في ظرف ١٥ دقيقة». في اليوم التالي قالت إليوت لطلابها إنها كانت على خطأ، وإن أصحاب العيون البنية هم في الحقيقة الأفضل والأذكى، وإن الآخرين أقل شأنا وذكاء وعليهم أن يرتدوا اليوم المناديل حول رقابهم، وألا يتمتعوا بفترة اللعب كأصحاب العيون البنية الأذكياء! ودللت على ذلك بأن التلميذ صاحب العيون الزرقاء، الذي سخر بالأمس من صاحبه، هو من نسي نظارته بينما التلميذة الذكية الأخرى لم تنس نظارتها؛ لأنها صاحبة عيون بنية. وبالطبع تبدل إحساس الفريقين، فشعر أصحاب العيون الزرقاء بالمهانة وبمرارة التفرقة، وأثر ذلك كثيرا في حماستهم للدراسة وأدائهم في الفصل.



وأخيرا، شرحت إليوت لتلاميذها المغزى مما عملته، وأن غرضها كان أن يعرفوا ما يشعر به من تمارس ضده التفرقة ويتعرض إلى النظرة الدونية طوال حياته.. بعد سنوات استدعت إليوت تلاميذ الأمس، وقد كبروا وتزوج البعض منهم؛ ليشاهدوا الفيديو الذي صورته آنذاك، وقد شهدوا جميعا بأن درس المساواة العملي هذا غير طريقة تفكيرهم إلى الأبد.. وإلى اليوم، يعد من أكبر المشاهدات على قناة اليوتيوب هذا المقطع المسجل لإليوت بعنوان «الصف المقسوم». ولا نقول إلا الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ونور طريقنا إلى المساواة قبل كل هذه السنوات عن طريق رسوله الكريم الذي لا ينطق عن الهوى.



د. آندي حجازي
كاتبة تربوية أردنية

رحلة المساواة والعدل

إذا أردت أن تشعر بالمعنى الحقيقي للمساواة وقانون العدالة الإلهية بين البشر، فعليك القيام برحلة الحج. الحج رحلة مميزة لا يمكن أن تجد مثيلا لها في أي رحلة تقوم بها في أرجاء هذا العالم، وفي الرحلات الترفيهية أنت تذهب لأجل الاستجمام والاستمتاع بجمال الطبيعة وسحر المكان ورفاهيته، لكنك في الحج أنت تقصد أرضا جرداء لا زرع فيها ولا استجمام ولا خصب، وهذا من قدر الله وحكمته أن جعل البيت الحرام في واد غير ذي زرع، وكذلك منى والمزدلفة، فالحكمة من ذلك تتجلى في مساعدة الحاج والمعتمر على تصفية نيته وجعلها خالصة لله تعالى عند القدوم لأداء الحج أو العمرة، فلا تختلط نيته بالاستجمام والاستمتاع بالطبيعة، فلا إشراك في النية، بل نية واحدة خالصة لله تعالى، ألا وهي طاعته وكسب الثواب والقيام بفرضه مهما بلغت الصعوبات، سواء قدمت عبر البر أو البحر أو الجو، فلابد من مشاق، والثواب بقدر المشقة والنية الخالصة لله والصبر.

الحج بمناسكه وأركانه هو تدريب فردي وجماعي على الطاعة المطلقة لله تعالى في كل ما أمر من دون اعتراض أو تذمر، وعلى فنون التعامل مع بني البشر، أفرادا وجماعات. وقد تدرك الحكمة من كل منسك أو لا تدركها إلا لاحقا، لكنها تبقى رحلة فريدة رائعة بمعنى الكلمة، تشمل كل معاني المساواة البشرية التي نحتاج إليها ونتمناها، والتي سنعيش معها تاليا.

الإحرام بداية رحلة المساواة

إذا بدأت رحلة الحج فستبدأ بالإحرام وبارتداء ملابس الإحرام. والإحرام



هو ركن من الأركان، ومنذ تلك اللحظة تبدأ تشعر بالتوحد والتساوي مع الآخرين، التوحد في النية والشكل والملبس والهدف وفي المسموحات والمحظورات (كمنع التطيب والترفه)، ستتجرد من شهوات النفس والهوى، وستبدأ برحلة فريدة ملؤها الطاعة لله والتفكير في أوامره، وكذلك كل من حولك سيتجرد، فلست وحدك في ذلك، ستنظر حولك وستجد الجميع يرتدون اللباس نفسه.. الآن بدأت المساواة بين كل من اجتمع في تلك الرحلة الربانية، لم تعد تميز الآن بين غني وفقير، وبين سيد وتابع، ورئيس ومرؤوس.. وبدأت تلبي التلبية نفسها «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».. الجميع فقير إلى الله، الجميع بحاجة إلى الله.

ملابس الإحرام تطهرك من كل مظاهر الكبر والغطرسة ودواعي العجب والخيلاء، والتعالي للبعض بما أوتوا من مال وجاه ومنصب، فالآن لا تفاضل إلا بالتقوى والعمل الصالح وصفاء النية. ومهما حاولت أن تبرز وتتعالى في تلك الرحلة فستتذكر ملابسك التي ترتديها بأنك كالآخرين لست بأفضل منهم في تلك المشاعر.. إنك في رحلة المساواة والتجرد والتقشف، لا رحلة الرفاهية والتباهي بجميل الملابس والسيارات والبيوت، إنها الملابس التي تذكرك بالكفن والفقر إلى الله!

الجميع سيطوفون في الحج

بعد وصولك إلى أطهر بقعة على الأرض عند وصولك إلى مكة المكرمة، ستبدأ بالطواف في البيت. ومن أجمل ما تشعر به آنذاك القرب من الله تعالى؛ لأنك في بيته وعند الكعبة المشرفة. الآن الجميع سيطوفون في البيت طواف القدوم، ومن ثم سيبدأون السعي بين الصفا والمروة، وسواء أكان طوافك طواف قدوم أم إفاضة أم وداع، فأنت ستطوف سبعة أشواط، والجميع سيطوفون، فلا حج بلا طواف.

وستجد حولك الغني والفقير، والأبيض والأسود، والمريض والمعافى، والكبير والصغير، والذكر والأنثى، والرئيس والمرؤوس، والحاكم والمحكوم... الكل يدعو، الكل يبتهل إلى الله، الجميع يتواضعون يطأطئون رؤوسهم مهابة من الله الخالق الجليل، كل الحجيج يرجون المغفرة والرحمة والثواب من الله. إنها الفروق.. تتلاشى، تضمحل، لا مجال للتعالي، حتى وإن حاولت فلن تجد مجالا لذلك، فلن يكترث أحد بك، فالأمر أعظم من ذلك، فالكل مشغولون بجلال الموقف وعظمة البيت المعمور والكعبة المشرفة، لا أحد يفكر في مكانتك ودرجة رفعتك!

وعندما تسعى بين الصفا والمروة ستنتابك مشاعر المساواة بين بني البشر نفسها، فالكل سيسعى سبعة أشواط مهما بلغ به التعب؛ لأن السعي ركن من أركان الحج. وستتذكر وأنت تسعى السيدة هاجر مع ابنها إسماعيل وقصة زمزم؛ الماء الذي تشرب منه، فالحج يتضمن ذكريات جليلة لأحداث حدثت عبر التاريخ خلدها الله تعالى عبر مناسك الحج.

عرفة يوم التوحد والمساواة

إنه يوم عظيم، يوم رجاء رحمة الله ومغفرته، وأنت مازلت بملابس الإحرام، أينما نظرت يمنة أو يسرى فستجد حجاجا، إنه مد بشري، لا قطعة فارغة من أرض بلا رداء أبيض، أرض عرفة جميعها اكتست باللون الأبيض (رمز الحجيج)، الآن الجميع يجلسون يبتهلون بالدعاء والترجي لله تعالى بأن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يحقق أمنياتهم ويغفر لهم ذنبهم ويدخلهم جنته. الجميع مشغولون بالاستغفار، بالدعاء، بصلاة الجماعة، بمناجاة الله تعالى... الأيدي مرفوعة، الألسن مشغولة بالذكر والابتهال، الآمال صادقة، المشاعر والآمال متجهة للوجهة ذاتها، وتمني العودة كيوم ولدتهم أمهاتهم!

الجميع في موقف عرفة مجتهدون في الدعاء والبكاء بين يدي ربهم، حتى أكثر من انشغالهم بالصلاة، لأنهم في مكان طلب الرحمات والحاجات، الجميع يسابقون الوقت قبل غروب الشمس في الاجتهاد بالدعاء والرجاء، وألا يكون قد نسوا حاجة جاءوا يدعون بها ولم يطلبوها من الله تعالى. أينما تلفت سترى الجميع مشغولون بالدعاء؛ باختلاف اللغات واللهجات والألوان والأعراق.. إنها ساعات قليلة وستنقضي، فلا مجال لتفويتها في الكلام والمناقشات والتفاهات الدنيوية، إنها اللحظات التي ستذكرك بأن الحياة ذات نهاية، وأن بعد تلك النهاية لابد من مآل: إما



إلى جنة وإما إلى نار.

عرفة إنه المكان الذي لا فرق فيه بين بني البشر، ولن تستطيع تخيل الموقف مهما حاول الكاتب وصف تلك المشاعر واللحظات، ما لم تجربها، عندها ستشعر بالعدل الإلهي كيف أن جميع البشر مخلوقات خاضعة لله تعالى، جميعهم بحاجة إلى الله؛ مهما علا شأنهم أو ارتفع منصبهم، أو امتلأت جيوبهم، فهم ما زالوا فقراء إلى رحمة الله ومغفرته.

وانشغال الناس من حولك بالدعاء ومناجاة الله والبكاء لطلب المغفرة منه، سيجعلك تشعر كم أنت صغير وبسيط، وأنك واحد من ملايين البشر على الأرض، فلم التكبر والتعجرف؟! ما أروعها من رحلة وسويعات تذوب معها كل الفوارق وتذيب كل مشاعر الاستعلاء والغرور!

مواقف لا تنسى

قد تتعرض وأنت في الحج إلى صعوبات تذكرك بمواقف عظيمة جليلة، وكان مما تعرضنا له في رحلة الحج، أننا خرجنا لانتظار قطار المشاعر منذ طلوع شمس يوم عرفة، فقد كان هذا موعدنا لركوب القطار الذي سيوصلنا إلى عرفة، لكن الازدحام شديد على القطار، وعلى كل حملة الانتظار حتى يأتي دورها، خصوصا أنه كان أول عام لتشغيل القطار. انتظرنا أربع ساعات ليأتينا دورنا في الركوب، ولا خيار أمامنا سوى الانتظار؛ لأن المكان بعيد للسير على الأقدام، ولا حافلات تنقلنا، فهي ليست لحملتنا. انتظر الجميع تلك الساعات تحت قيظ الشمس ولهيبها الحارق، تصببنا عرقا، الجميع صامتون، الجميع في ملابس الإحرام، الجميع ينظرون إلى المكان ذاته، لا تستطيع إعلاء الصوت أو الجدال أو الصراخ؛ لأنك في الحج، عليك ضبط مشاعرك وانفعالاتك، فالحج رحلة تعويد الصبر ولا جدال في الحج، جميعنا صبرنا، وسكتنا، وانتظرنا حتى قارب وقت صلاة الظهر، ومن رحمة الله أننا أدركنا صلاة الظهر في عرفة، بعد أن حان دورنا لركوب القطار حمدا لله، وأكاد أجزم أنه لم يبق أحد ممن وقف هذا الموقف – آنذاك – لم يتذكر موقف الحشر، إنه موقف رهيب، فالهدوء كان يعم المكان والصمت، لا اعتراضات، ولا شيء غير الانتظار.. والانتظار، لحظات لا يمكن أن تنسى، إنها تربية ربانية! إنها إرادة الله لتذكرنا بيوم الحشر.

المزدلفة، وما أدراك ما المزدلفة، إنها قمة التواضع لله والمساواة وتعظيم المشعر الحرام، فإن كنت من قبل المزدلفة قد وجدت فراشا تنام عليه في مكة أو منى، فأنت الآن لا مجال أمامك إلا أن تفترش الأرض وتلتحف السماء، فلا فراش وثير! وأنت في رحلة الحج لا خيار أمامك إلا أن تبيت في المزدلفة وتنام على أرضها وبين غبارها، وبملابس الإحرام (ملابس المساواة والتواضع). المزدلفة منطقة كبيرة مفتوحة منبسطة لا زرع فيها إلا ما ندر، لا شيء فيها سوى الحجارة والتراب، مهجورة طوال العام، ولكن

أرضها ستغطى باللون الأبيض من الحجيج على مد البصر في منظر مهيب لا ينسى يذكرك بيوم الحشر.
في المزدلفة جميع الحجاج سيذهبون لجمع الحصى، لا فرق بين البشر في ذاك المكان، ستنسى منصبك وجاهك، ستتواضع، ستجمع الحصى... إنها التربية الإلهية، لن تنسى تلك اللحظات، من الصلاة المغرب والعشاء والنوم على أرض المزدلفة، ما حييت! فهي سويعات مميزة جميلة تعلمك أنك من التراب خلقت وإلى التراب ستعود يوما ما، فاليوم تنام فوق التراب وغدا تحت التراب المبيت.

كيف أنت في منى؟

منى أرض محدودة المساحة جدا، استغلت كل بقعة فيها في بناء الخيم للحجيج، من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، فلا مجال لتمددها، وفي ضيق المكان هذا، ستجد نفسك تنام في خيمة أيام التشريق الثلاثة مع أشخاص أول مرة ترافقهم في حياتك وأول مرة تنام معهم، أو تأكل معهم! ولكنهم رفاق الحج، تلك الرفقة المميزة في أهدافها وأخوتها، تجمعكم وحدة الهدف ووحدة الأفعال ووحدة النسك ووحدة الطاعة لله تعالى، ستنسى أنك صاحب جاه ومال (إن كنت كذلك)، لأنه مهما بلغ مالك فأنت ستقوم بنسك المبيت في خيام منى، وستجد مكانا محددا جدا لنومك بقدر حجمك فقط! وداخل خيمة! وبلا أي كماليات أو رفاهية!
ستتعلم الزهد والتواضع والتفاعل الاجتماعي وتعظيم مشاعر الله. ففي الحج التعارف والتآلف والأخوة بين المسلمين من شتى الأصقاع والألوان والأجناس. وأيام منى أيام أكل وشرب وذكر لله، ستتعامل مع كل من اجتمع في تلك الخيمة أو المخيم، ستلتقي معهم من أجل صلاة الجماعة ومن أجل سماع موعظة أو ذكر لله، أو من أجل تزود بطعام.. ستتعرف على بعض الأشخاص وبعض الأحكام، قد تعجبك أو لا تعجبك بعض السلوكيات.. لكن عليك أن تتعلم الصبر والاجتهاد، وستخرج بنفسية مختلفة خفيفة الروح والهوى.
في منى ستذهب إلى رمي الجمرات، الجميع سيذهب إلا أصحاب الأعذار الذين اضطروا إلى توكيل أحد عنهم بالرمي، ولكن نسك الرمي من أجمل المناسك، ففيه طاعة لله، وتذكر لقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما اعترض له الشيطان موسوسا له ومغريا له بالعزوف عن تنفيذ أمر الله تعالى لما هم بذبح ابنه أمرا من الله تعالى وامتحانا لطاعته وصبره، فعرض له الشيطان في موضع الجمرات الثلاث، عرض له ثلاث مرات، فلعنه إبراهيم عليه السلام ورماه بسبع حصيات، فرجع الشيطان اللعين خاسئا مدحورا.
وهنا ستلحظ توحد المسلمين وهم يأتون أفواجا أفواجا كسيل الماء العرم من كل حدب وصوب في منى من أجل رمي الجمرات، يا لها من لحظات تشعر فيها بالعظمة والوحدة والقوة للمسلمين ولهذا الدين العظيم، وستشعر بعد الرمي بارتياح روحاني لطاعتك لله ولأدائك النسك الأخير قبل التحلل من الإحرام وطواف الوداع، وستعجبك مشاهد الحجيج وهي تقف فوق مرمى الجمرات ترمي تلك الحصوات في مكان واحد وفي اللحظات نفسها.. تتسارع الأيدي لتقذف مئات الحصوات، يا لها من مشاهد لا يمكن أن تشاهدها في مواقع أخرى على هذه المعمورة!

انتهاء رحلة المساواة

للأسف، رحلة الحج قصيرة وستستمر لأيام معدودات فقط! ولكنها ستترك أثرا كبيرا في النفس... وغالب الحجاج سينهون رحلتهم تلك بطواف الوداع للبيت، وفي الحديث عن ابن عباس قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن الحائض» (صحيح البخاري، ج٢، كتاب الحج). وفي طواف الوداع ستجد المشاعر تختلط والعبرات تسكب، ستشعر بفراق المحبوب لمحبوبته، ستدرك صعوبة ألم فراق مكة، ستجد نفسك تدعو الله بأن يقبل منك تلك الحجة وأن يعيدك إلى هذا المكان الجليل العظيم، لا أصعب من لحظات فراق مكة، لكن تختلط بها مشاعر الفرح بإتمام مناسك الحج جميعها وقرب العودة إلى الديار، وقد تنشطت روحك، وتجددت همتك، وتعلمت دروسا عظيمة في الزهد، والتواضع، والتقشف، والتعاون، والتسامح، والصبر، والأخوة، والإيثار، والاتحاد في الصف، والانضباط، وضبط الانفعالات، والمحبة للمسلمين... لا يمكن تعلمها في أي مكان في تلك الفترة الزمنية القصيرة.
ما أعظم الحج! تتجلى به مظاهر الوحدة والتوافق والتناغم بين أبناء الأمة الإسلامية بشكل مبهر في كل أعماله، تذوب فيه كل الفروقات الناتجة عن اختلاف الجنسية أو الجنس أو اللون أو اللغة أو المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي. الحج كله مشاهد مساواة تراها في أجمل صورها متجسدة بين ملايين البشر الذين جمعهم النداء الرباني: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:٢٧).
فلا يوجد تجمع إنساني آخر يكون بهذه الصورة يعمق مفاهيم الوحدة والمساواة والعدالة بكل جلاء وقوة، ويعززها، قولا وفعلا، في أي مكان آخر في هذا العالم، فالحمد لله على نعمة الإسلام ونعمة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد.

مستشرقون ومهتدون في مشهد الحج الأعظم!

محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ والتراث

للمستشرقين والرحالة والمهتدين الغربيين في مكة مشاهد وجولات، تتميز هذه المشاهد بطابع التدوين الانطباعي الذي يعكس أمرين في غالب ما كتبه هؤلاء؛ الأول: أثر المعتقدات الغربية في ثقافة هؤلاء ونظرتهم إلى الآخر المسلم وإلى شعائر الإسلام، ومنها الحج. والثاني: أثر مشهد الحج ذاته، ومكة المكرمة في نفس هذا الرحالة أو المستشرق بعد الزيارة والمعاينة والتلاقي مع المسلمين من أصقاع العالم أجمع. ولهذا الموضوع أهميته بلا شك.

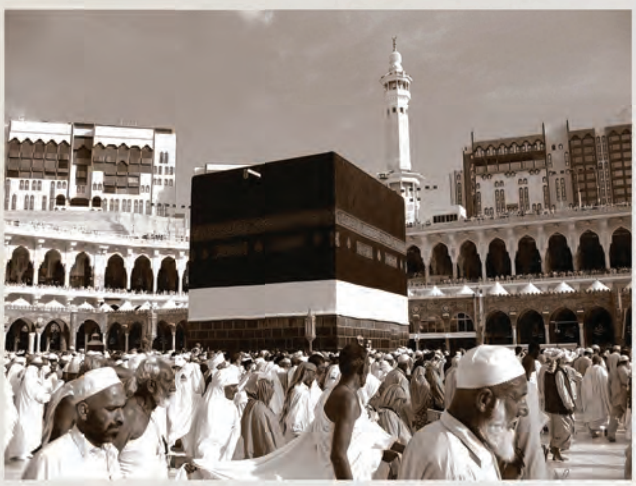
لقد كان أول من ادعى الوصول إلى مكة المكرمة من المستشرقين جون كابوت عام ١٤٨٠م، أي قبل ١٢ عاما من سقوط الأندلس واكتشاف أميركا، ولكن لم يصل إلينا أي شيء مما كتب عن تلك الرحلة، على حد قول الكاتب خالد الطويلي (١).

على أن أول تقرير وصلنا حول رحلة مستشرق إلى الحج، كان من رجل إيطالي يدعى لودفيجو دي فارتيما عام ١٥٠٣م، حيث دخل مكة المكرمة بوصفه جنديا في حرس المماليك، وانتحل لنفسه اسم الحاج يونس المصري. وفي الثامن من أبريل ١٥٠٣م تحرك فارتيما إلى مكة المكرمة في زي جندي مملوك، وحينما وصل إلى المدينة النبوية بقي فيها ثلاثة أيام، ودخل الحرم النبوي الشريف، فوصفه وصفا موجزا.

لقد مضى فارتيما في نقل انطباعاته ومشاهداته عن مكة المشرفة في موعد الحج، فيذكر في الفصل المخصص للحج من رحلته أن مركز مكة المكرمة يوجد فيه «معبد» جميل جدا – على حد تعبيره؛ وهو يقصد بذلك المسجد الحرام – وللمسجد الحرام أو المعبد، كما يسميه، مئة باب. ثم يشير إلى وجود الكعبة الشريفة في الوسط بوصفها برجا، ثم يصف بئر زمزم قائلا: «إن ستة أو سبعة رجال يقفون عادة حول البئر ليستقوا الماء للناس منها. وهؤلاء يريقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق كل حاج من الحجاج، فيتبلل به من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ولو كان لباسه من حرير» (٢).

وعن الأعداد الكبيرة، والأجناس الشتى من الناس الذين رآهم في مشهد الحج فإنه يقول: «وجدنا أعدادا كبيرة من الحجاج في مكة، أتى بعضهم من إثيوبيا، وبعضهم الآخر من الهند الكبرى، وبعضهم الآخر من الهند الصغرى، وآخرون من فارس، وطائفة من سوريا. والحق أقول لكم: إنني لم أر أبدا تجمعا هائلا احتشد في مكان واحد كما رأيت هنا (في مكة) خلال العشرين يوما التي مكثتها في هذا البلد. لقد أتى بعض هؤلاء الناس بغية التجارة، وبعضهم بغية الحج طمعا في أن تغفر ذنوبهم ويعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم» (٣).

أما السويسري جون لويس بوركهارت فيعد من أشهر رحالي القرن التاسع عشر. وقد شارك في موسم الحج متخفيا تحت اسم مستعار، وهو الشيخ إبراهيم، وقد نزل في جدة عام ١٨١٤م، وسار منها إلى الطائف لمقابلة محمد علي باشا والي مصر، ثم قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وعن رحلته إلى مكة ومشاهداته في موسم حج ذاك العام يقول: «خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتي عشتها في مكة، وسأحتفظ بذكريات جميلة عن





إقامتي هنا» (٤).
لقد دهش الكولونيل والمؤلف البريطاني ف. بودلي من شعيرة الحج وثباتها على مدار السنين، ففي كتابه «الرسول» يعلق على مشهد حج الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم قائلا: «إن الذين حضروا ذلك اليوم (حجة الوداع) وعوا كل شيء، ثم نفذوه على مر السنين. ولما نجح السير ريتشارد بيرتون في عام ١٨٥٣م في الإفلات من تحريم دخول غير المسلمين إلى مكة، قام بالشعائر نفسها التي قام بها محمد ﷺ في عام ٦٣٢م، بما في ذلك الهرولة غير المقصودة» (٥).

وقد تمكن السير البريطاني ريتشارد بيرتون من النفاذ إلى زيارة مكة المكرمة بالفعل في موسم الحج لعام ١٨٥٣م، وقبل أشهر عديدة على رحلته استعد بيرتون متخذا جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته، حتى إنه عمد إلى الاختتان وهو يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره. وقد وصل بيرتون إلى المدينة المنورة أولا، وكتب عن تشكيلات خدم الحرم النبوي، ثم إلى مكة المكرمة، التي يقول عنها حينما وصلها لأول مرة: إنه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذي يتجلى في آثار اليونان وإيطاليا، ولا الفخامة المتجلية في أبنية الهند، لكنه لم ير مثل هذه المشاهد المهيبة والرائعة في أي مكان آخر. ثم يفند بعض المزاعم الغربية التي انتشرت حول مكة قائلا: «وهنا - أي في مكة - لا نرى على أي حال خداعا غبيا بادعاء هبوط نار سماوية بخداع كبريت الفسفور»، ثم يسرد قائلا: «إننا لا نرى في مكة شيئا مسرحيا مصطنعا، ولا نرى إلباس الحج لباس الأوبرا؛ بل كل شيء هنا بسيط ومؤثر، ويملأ العقل بخشية الله» (٦).

أما عبدالكريم جرمانوس فمن المستشرقين المجريين المحدثين نسبيا، وأحد هؤلاء الغربيين المهتدين القلائل الذين زاروا الأماكن المقدسة في مكة والمدينة في النصف الأول من القرن العشرين، حيث سافر عام ١٩٣٥م، وكتب مذكرات رحلته إلى الأماكن المقدسة باللغة المجرية تحت عنوان «الله أكبر»، وترجم هذا الكتاب إلى لغات عدة، ولشدة تأثره بهذه الفريضة عاد إلى الأراضي المقدسة مرة ثانية حاجا عام ١٩٣٩م (٧).

وإن لجرمانوس فضلا غير مباشر في حث الكاتب والأديب المصري محمد حسين هيكل على الحج وزيارة الأماكن المقدسة التي سجلها في كتابه «في منزل الوحي»؛ حيث يقول في مقدمة كتابه الآنف: جعلت أدير شارة الراديو على محطات مختلفة حتى كانت «بودابست»، وكانت أول عبارة تنفست عنها الإذاعة قول المحاضر (يقصد جرمانوس): «وسط هذه الجموع الحاشدة حول الكعبة جعلت أسمع: الله أكبر، الله أكبر: فلما انتهيت من الطواف ذهبت أسعى بين ربوتي الصفا والمروة» (٨). ويقول محمد حسين هيكل: فقلت في نفسي: «أويكون هذا الأستاذ الأوروبي الحديث العهد بالإسلام أصدق عزما مني في زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة؟».

أما من أشهر المستشرقين المهتدين الذين زاروا مكة في الأعوام الثلاثين الأخيرة، فهو المفكر والدبلوماسي الألماني المسلم مراد هوفمان، الذي حج مرارا منذ أسلم في بداية الثمانينيات، وفي حجه في بداية التسعينيات، يروي تأملاته القيمة حول هذه الفريضة العظيمة؛ إذ يقرر أنه اطلع على معظم التقارير التي كتبها بنو جلدته من الغربيين حول الحج، مثل: بيرتون وبوركهارت.. وغيرهما، لكنه يقر بأنه لم يجد أفضل من القرآن زادا لتلك الرحلة. وهو عن يوم عرفة وما شاهده فيه يقول: «كان يوما طويلا رائعا، كان يوما للتأمل وللسلام، يوما للصلاة، وللأحاديث القيمة. لم أكن - منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية في سنوات الصبا - قد عايشت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفاء الداخلي الباهر، فلا شيء يوم عرفة سوى مناجاته؛ وهنا يتجسد نداؤنا الدائم: لبيك اللهم لبيك.. هذا إذن هو معنى الوقوف بين يدي الله بعرفات.. ملايين من الناس يتشحون بأكفان، ويتركون في هذا اليوم كل شيء وراء ظهورهم.. فوجودهم اليوم مكرس لله وحده.. يتوقعون موتهم، يصلون ويتضرعون في خشوع ويقين لم يحدثا من قبل، ولن يحدثا في الغالب من بعد» (٩).

وحسبنا بقول هوفمان هذا أن نختم هذا التطواف السريع لمشاهد بعض هؤلاء الغربيين عن الحج منذ القرن السادس عشر الميلادي وحتى القرن العشرين، وهي في مجملها لا تخلو من بعض الأغاليط والأخطاء التي رسختها الثقافة الغربية في نفس هؤلاء المستشرقين، لكن انطباعاتهم وتدويناتهم كانت في المقابل تفنيدا لهذه المزاعم، وانعكاسا لتجربة ذاتية جديدة أثرت فيهم، حتى إن بعضهم تداعى إلى الحج مرة أخرى كما فعل جرمانوس وهوفمان!

الهوامش

١- خالد الطويلي: مقال بعنوان «الحج والحجاج في كتب المستشرقين»، مجلة المعرفة، ديسمبر ٢٠٠٨م.
٢- رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق عبدالرحمن الشيخ، ص:٥٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
٣- رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق عبدالرحمن الشيخ، ص:٥٢ و٥٣.
٤- خالد الطويلي: مقال بعنوان «الحج والحجاج في كتب المستشرقين»، مجلة المعرفة، ديسمبر ٢٠٠٨م.
٥- ر. ف. بودلي: الرسول، ترجمة محمد محمد فرج وعبدالحميد السحار، ص:٣١٤، مكتبة مصر، بدون.
٦- رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، تحقيق عبدالرحمن الشيخ، ٣/٧، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
٧- ياسر حجازي: مقال بعنوان «عبدالكريم جرمانوس؛ المستشرق عاشق القرآن والعربية»، موقع إسلام أون لاين.
٨- محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، ص:٣٩، دار المعارف، الطبعة الثامنة.
٩- مراد هوفمان، الطريق إلى مكة، ص:٢٤، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٨م.





على هامش مؤتمر الحج السنوي

د. محمد السقا عيد
استشاري طب وجراحة العيون

الحج أكبر تجمع يمثل الوحدة الإسلامية على مختلف شعوبها واختلاف لغاتها، وليكون المؤتمر السنوي للأمة الإسلامية؛ تلتقي فيه الأفئدة والقلوب، وتذوب فيه جميع أشكال النعرات العنصرية بين آحاد الأمة الإسلامية، ويتساوى فيه الناس جميعا؛ فيذكرهم بيوم الحشر والنشر بين يدي الله تعالى، فيجددون فيه العهد مع الله. تراهم هناك كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.



الحج هو التجمع العالمي الوحيد الذي يجسد معنى الوحدة والمساواة بين الناس، تجمع لا مثيل له.. ويمثلها واقعا يعيشونه بينهم، لا نظير له في كل التجمعات البشرية والمؤتمرات العالمية بمختلف أشكالها وأنواعها وأهدافها. كيف لا يكون ذلك وهو التجمع الوحيد الذي هدفه الأول عبادة الله حقا، وأداء المناسك والشعائر التي تعبر عن تقوى المؤمن لله تعالى، وشهود المنفعة الدنيوية للأمة؟

وقد شرع الله العبادات والفرائض لحكم جليلة وغايات عظيمة؛ فليست الفرائض شعارات يتلفظ بها وحركات نعملها فحسب، إنها أكبر من تلك الحركات والشعارات، إنها تربية للأمة على صفات تجعلها تحافظ على خيريتها؛ فهي تقوي الإيمان، وتزكي النفوس، وتقوم السلوك، وتهذب الأخلاق، وتجمع الشتات، وتؤلف القلوب. وإذا لم يتحقق شيء من ذلك فهناك خلل في هذه العبادات، ولم تؤد بالشكل المطلوب. لذا، لن يكون لها أثر يذكر.

ولاشك في أن عبادة الحج انفردت بدروس عظيمة وغايات كبيرة للأمة بأسرها، قد لا توجد في طاعة أخرى؛ فالحج مدرسة عظيمة ومنحة ربانية، وله مقاصد وأسرار كثيرة وعظيمة لمن تعرف عليها وتدبرها.

والمتأمل في أعمال الحج يستفيد منها دروسا خالدة، ويأخذ منها معاني سامية، وسنركز هنا على بعض الدروس المهمة من تلك الدروس العظيمة من الحج ونستخلص أبرز تلك العبر المستفادة فيما يلي:

الحج يحقق وحدة المسلمين وقوتهم

إن أبرز درس من هذه الدروس هو الوحدة الإسلامية؛ فالقبلة واحدة، والرب واحد، والدين واحد، والوجهة واحدة، واللبس واحد.. فلماذا التفرقة؟! أليس هذا درسا عظيما وبليغا يعلمنا أن الانتماء إلى الدين يلغي القوميات والطائفية والمذهبية واللون؟! فالكل سواسية.

إن حجاج بيت الله الحرام تختلف بلدانهم ولغاتهم وألوانهم، لكن يجمعهم شيء واحد، هو الإسلام، فيجتمعون في الحج، وتبلغ أعدادهم ملايين الأشخاص، وينتقلون من مشعر إلى مشعر في منظر يشعر بالرهبة، ويدل على أن قوة المسلمين هي في اجتماعهم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وهذا يغيظ الشيطان، كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ، فما رئي الشيطان أصغر ولا أحقر ولا أذل منه في يوم عرفة إلا ما رئي منه يوم بدر، وهذا يغيظ أعداء الرحمن وأولياء الشيطان.

وفي هذا درس للمسلمين بأهمية الاجتماع ونبذ التفرق والاختلاف، فإن الخلاف شر والاجتماع خير، وقد أمرنا ربنا - جل وعلا - في كتابه الكريم بالاجتماع، فقال سبحانه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران:١٠٣).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأنفال:٤٦).

ومظاهر الوحدة في موسم الحج





متعددة وكثيرة، منها:

- وحدة الزمان والمكان؛ فالحج له زمان ومكان محددان يؤدى فيهما، ولا يجوز أن يكون في غيرهما، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧)، وقال ﷺ: «الحج عرفة» (رواه الترمذي).

- وحدة المناسك؛ فالجميع مطالب بأداء مناسك الحج، من الإحرام، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمنى، ورمي الجمار.. وكلهم يقومون بالأعمال نفسها، مما يجسد الأخوة والمحبة ويعمقهما.

والجميع يلبون تلبية التوحيد لله تعالى «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك»؛ فهو نداء لله وحده، لا لمذهب أو قبيلة أو دولة أو جماعة...أو... فهي عبودية لله وحده.. إنه شعار واحد.

- لباس واحد؛ ومن الجوانب الظاهرة لهذا النظام العظيم، الذي يربي على الوحدة، أنه يطلب من الكل التخلي عن ملابسهم الخاصة، وارتداء لباس واحد بسيط؛ فيزول هنا الفرق بين الملك والرعية، وتختفي هنا امتيازات الملابس الغربية والشرقية، ويبدو الناس في لباس الإحرام المشترك وكأن لكل منهم وضعا واحدا.. فالكل عباد الله ولا وضع لهم سوى وضع العبودية لله.

- وحدة الهدف والغاية والشعور؛ فالجميع قد جاءوا من كل فج عميق، يحدوهم الأمل، ويحفهم الخوف والرجاء، رافعين أكف الضراعة إلى الله عزوجل، راغبين في مغفرته، طامعين في فضله ورضوانه.

فالقبلة واحدة، والرب واحد، والمشاعر واحدة، واللباس واحد، وكل هذه الأمور تجتمع في هذا الموسم المبارك، وهي مدعاة للإحساس بوحدة الشعور، وموجبة لتعزيز التآخي، والتعارف بين المسلمين، ومشاطرة الآلام والآمال، والتعاون على مصالح الدين والدنيا.

التآلف والتعارف بين المسلمين والعطف المتبادل

ما أجمل الحج عندما تتعرف على أحد إخوانك المسلمين من بقاع الأرض الأخرى، لا رابط يجمعكما، لا نسب، ولا وطن، ولا تراب، ولا مال، ولا شيء.. إلا الإسلام. ففي أيام الحج تظهر أجمل معاني الأخوة وأروعها، ونكون كما أخبر المصطفى ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» (رواه البخاري في كتاب الأدب).

تنظيم الوقت والالتزام بالموعد

وهذا درس آخر من دروس الحج، فارتباط مناسك الحج بالوقت ارتباط وثيق، يدل على أهمية الوقت والحرص على الزمان، ويظهر ذلك من خلال تأمل تحديد الشارع زمان كل منسك من مناسك الحج، كالوقوف

بعرفة والمبيت بمزدلفة، والنفرة منها إلى منى، ورمي جمرة العقبة، وتحديد زمان بداية رمي الجمار أيام التشريق بعد الزوال. وكذا كون الحج في وقت محدد من العام لا يقبل قبل ذلك ولا بعده.. إلى غير ذلك، مما يرشدنا وينبهنا إلى الاهتمام بالوقت، فالوقت هو الحياة، وهو رأس المال الذي يلزم المسلم الحفاظ عليه من أن يقضى فيما لا نفع ولا ثمرة فيه ولا مصلحة دينية أو دنيوية، فضلا عن أن يبذل هذا الوقت فيما حرمه الله عزوجل.

الحج يعلم الصبر على طاعة الله

لكي يؤدي الحاج حجه فإنه يعرض له الكثير من المشقة والتعب، ويواجهه الكثير من الزحام والبقاء مدة طويلة في الانتظار، وهذا يعوده على الصبر على طاعة الله عزوجل، لاسيما أن المسلم مأمور بالصبر على طاعة ربه عزوجل، وهو أعظم أنواع الصبر.

الحج يعود المسلم على الدعاء

فإن الله قريب يجيب دعاء السائلين، ولقد بين رسول الله ﷺ أن فضل الله تعالى كبير، وأنه سبحانه وتعالى يستجيب دعاء السائلين، ويعتق عباده في يوم عرفة أكثر مما يعتقهم فيما سواه من الأيام، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة» (رواه مسلم).

ولذلك حث النبي ﷺ على الدعاء، خصوصا في يوم عرفة، فقال: «خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» (رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٢٧٤).

وإن اعتياد الحاج على الدعاء في هذه الأيام يجعله يعتاده فيما بعد، ويشجع غير الحاج على دعاء الكريم سبحانه الذي وعد بإجابة الداعين فقال:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ (البقرة:١٨٦).

الحج يكفر الذنوب ويوجب دخول الجنة

يقول النبي الكريم ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعة بينهما تنفي الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد» (رواه ابن ماجه والإمام أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٢٨٩٩).

ويدل أيضا على تكفير الحج للذنوب قول النبي ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (متفق عليه).

ويرى جمهور العلماء وهو الصحيح، إن شاء الله، أن المغفرة مقتصرة على صغائر الذنوب، بينما يرى بعضهم أنها تشمل حتى كبائر الذنوب.

وأما كون الحج سببا لدخول الجنة فلقول النبي الكريم ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» (متفق عليه).



سمــاحــة الإســـــلام.. وأباطيل خصومه

د. محمد محمـود العطـــار
أستاذ مساعد - جامعة الباحة

تعيش أمتنا الإسلامية في العصر الحاضر فترة عصيبة من تاريخها، إذ تتقاذفها الأمواج من كل الاتجاهات، وتكاد تعصف بها تيارات العولمة ومؤامرات الأعداء. ومن داخلها تتحرك عناصر خفية تسهم - بوعي أو بغير وعي - في تشويه صورتها والإساءة إلى عقيدتها، الأمر الذي جعل الإعلام الدولي يلصق بالإسلام تهم العنف والإرهاب والدموية والعدوان.

ويتخذ أعداء الإسلام من أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م ذريعة لنشر سمومهم ضد الإسلام والمسلمين. ولسنا هنا في موقف الدفاع عن الإسلام، لأن الإسلام قد أعلن منذ اللحظة الأولى أنه جاء رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). فالإسلام إذن ليس في حاجة إلى من يدافع عنه، ولكن أبواق الشر صاخبة، وظلمات الباطل طاغية، وأصوات الكراهية والحقد عالية، الأمر الذي تسبب في حجب ضوء الحق عن الوصول إلى العقول والأفهام. ومن هنا راجت في الخارج مفاهيم خاطئة وأفكار مغلوطة عن الإسلام، واستقرت في أذهان الكثيرين في عالمنا المعاصر في نطاق لم يسبق له مثيل، وقد ساعد على ذلك ما شهده عالمنا المعاصر من ثورات وتطورات هائلة في عالم الاتصالات والمعلومات والأقمار الصناعية والقنوات الفضائية والإنترنت. وأصبح دين الرحمة يقترن في أذهان عامة الناس في الغرب بالإرهاب والتطرف والتعصب والانغلاق ورفض الآخر ومعاداة الحضارة والتقدم.

وفي هذا الجو المشحون بالمفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة عن الإسلام والمسلمين، لم يكن مقبولا ولا معقولا أن نقف جامدين مذهولين من هول الصدمة، عاجزين عن فعل أي شيء لرد الهجمة الشرسة على الإسلام وتاريخه وحضارته، بل كان علينا أن نكشف للقاصي والداني، في داخل العالم الإسلامي وخارجه، عن قيم الإسلام الحقة وتعاليمه السمحة التي استظلت البشرية بظلها ونعمت بأمنها وأمانها قرونا عديدة من عمر الزمن (١).

فقد تسامح الرسول ﷺ مع أعرابي جاء إليه وهو يقسم الغنائم، وقال له: يا محمد، أعطني من هذا فهو ليس مالك ولا مال أبيك. فأعطاه الرسول ﷺ وقال له: «هل أرضيتك يا أعرابي؟». قال: لا، زدني. وكرر ذلك عدة مرات إلى أن قال له الرسول ﷺ:«هل أرضيتك يا أعرابي؟». فما كان من الرجل إلا أن قال: أشهد أن هذه أخلاق الأنبياء.

وتسامح الرسول ﷺ لأن المسألة كانت تتعلق بذاته هو. لكنه لم يتسامح عندما جاءه صحابي من أحب الناس إليه ليشفع في حد من حدود الله، وقال له ﷺ: «يا أسامة، أتشفع في حد من حدود الله؟ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

كما تسامح ﷺ عندما ذهب إلى الطائف واستقبل أسوأ استقبال، وجلس ﷺ تحت بستان وأخذ يدعو الله ويقول: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي».

ونزل سيدنا جبريل يقول له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (أي الجبلين). ولأن تلك الضربات توجهت إلى بدنه وإلى رأسه ﷺ قال: «لا يا أخي يا جبريل لعل الله

أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله عزوجل، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». كما تسامح ﷺ عندما كان في غزوة أحد وشج وجهه الشريف، وكان يتلقى الدماء وهي تقطر من وجهه على يده ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟». فيقول له بعض أصحابه: ادع عليهم الله. فيقول: لا. لأن المسألة تتعلق بذاته ﷺ، ولكنه لم يتسامح عندما رأى بعض أصحابه يتكاسلون عن صلاة الجماعة، وقال في حديثه المشهور: «لقد هممت أن آمر بحطب فيجمع ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أخالفه إلى رجال يتخلفون عن صلاة الجماعة فأحرق عليهم بيوتهم».

كما لم يتسامح أيضا في صلح الحديبية عندما أرسل سيدنا عثمان رضي الله عنه لكي يخبر المشركين أنه لم يأت لحرب وإنما أتى للعمرة، وأشيع بين المسلمين أن المشركين قد قتلوا سيدنا عثمان رضي الله عنه. هنا لم يتسامح، بل جمع أصحابه، وقال لهم: «بايعوني على الموت إذا كان المشركون قد اعتدوا على واحد من أصحابي، بايعوني على الموت». ونزل القرآن الكريم بعد أن بايع المسلمون نبيهم ﷺ على الموت، نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشام، وقد حانت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فطلب البطريق من عمر أن يصلي بها، فاعتذر عمر قائلا إنه يخشى أن يصلي بالكنيسة فيدعي المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم، فيأخذوها من النصارى. ولا شك أن تلك سماحة تتخطى الحاضر إلى المستقبل، وتعتمد على بصيرة بعيدة، حيث يريد عمر رضي الله عنه ممن يجيئون بعده أن يكونوا سمحاء مثله (٢).

إن دين الإسلام هو دين التسامح الذي تذهب معه كل الدعاوى الباطلة التي يحاول أن يلصقها به أعداؤه، معتبرين أن الإسلام دين إرهاب وعنف وتعصب.

إن عالمنا في أشد الحاجة إلى التسامح أكثر من أي وقت مضى؛ فالتعصب والانغلاق من شأنهما تغذية نار الكراهية بين الأمم والشعوب، والانزلاق إلى مزيد من الحروب والنزاعات التي تؤدي إلى التدمير العبثي لكل ما هو جميل في هذا العالم. ونحن جميعا مسؤولون عن كل ما يحدث إذا لم نبذل أقصى الجهود لمنع هذا التدمير العبثي.

الإسلام والتسامح

لقد تميزت الحضارة الإسلامية بشكل خاص عن باقي الحضارات بما تتسم به من معان وقيم صالحة لكل زمان ومكان، لأن مصادرها مستمدة من كتاب الله وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين، وتضم في حدودها غير المسلمين وترتبط مع جميع البشر بعدة روابط، فهي أمة وسط واعتدال وتسامح ترفض المفاهيم المنحرفة كالكراهية والعنف والعنصرية والاعتداء على الغير بأي شكل من الأشكال أو حتى على الحيوان والنبات.

كما ترفض كل ما ينجم عن هذه الأشكال من ظلم إنسان لآخر واضطهاد جماعة لأخرى، وجعلت مقياس التفاضل هو التقوى لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

وقد قرر الإسلام وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير وفي المحيا والممات، وحث على التعاون والتعارف والعمل الإنساني المشترك، فالناس جميعا متساوون في الحقوق والواجبات.

وقد أمرت الشريعة الإسلامية بالعدل والتسامح والإحسان وإحقاق الحق وإبطال الباطل، وفي ذلك حماية لكرامة الإنسان، وأكدت الآيات القرآنية على ضرورة الحوار، الذي كان سمة ميزت الدعوة الإسلامية، قامت عليها منذ خلق البشر، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣٠-٣١)، وقال تعالى مؤكدا ضرورة الحوار بين أصحاب وجهات النظر المختلفة وأصحاب الحضارات المختلفة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦).

وكذلك علم القرآن الكريم أتباعه ضرورة اتباع الأسلوب الهادئ الحكيم، وهو الأسلوب الذي يستميل قلوب المخالفين، ويجعلهم يستمعون إلى الرأي الآخر بقلوب مفتوحة من حوارات ومواقف متعددة وردت في القرآن الكريم بين أنبياء الله تعالى وأقوامهم ومن أرسلوا إليهم، فهذا حوار نبي الله إبراهيم عليه السلام مع النمرود يورده القرآن الكريم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ

﴿ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨).

وعلى ذلك فقد جاءت الشرائع السماوية، التي ختمت بالإسلام، لإصلاح المجتمع الإنساني وتوجيه الأفراد والجماعات وجهة الخير وإبعادهم عن الشرور والآثام، وتوجيه المسلم إلى عبادة الله وحده لا شريك له رحمة بالإنسانية جميعا؛ لأنها وسعت كل شيء، وهي ميزان عدل بين الناس جميعا (٣).

إن الإسلام أسس للتسامح أسسا راسخة، وعقد له مواثيق متينة، كان ذلك فيما يتعلق بواجب المسلمين بعضهم نحو بعض من تضامن وتواد أو ما يتعلق بحسن معاملتهم مع من تقضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى، وقاعدة كل ذلك وأساسه هو ما ورد في القرآن الكريم وكلام رسول الله ﷺ من أن الاختلاف ضروري في جبلة البشر، وذلك يعود إلى اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحج:٦٧-٦٨).

ولقد دعا الإسلام الناس إلى الوحدة في دين الفطرة، وأراهم محاسنها، ولكنه لم يدع أتباعه إلى مناوأة من أعرض عن الدخول في تلك الوحدة واختار لنفسه الحالة الناقصة (٤).

وإذا كان التسامح وحسن المعاملة وعدم التعصب أمورا مطلوبة من المسلمين في معاملتهم مع غير المسلمين، فإنها كذلك مطلوبة من غير المسلمين مع المسلمين، حتى تتم معاملة كل طرف للآخر في دائرة التعاون والتضامن، فلا يسيء أحدهم إلى الآخر، بل يتعاملون بروح الفريق الواحد في الوطن الواحد.

إن روح التسامح تعد اليوم أمرا ضروريا لا غنى عنه أكثر من أي وقت مضى. ويمكن القول إن روح التسامح يجب أن تسبق روح الفهم الصحيح. فالتسامح – الذي يعد شكلا من أشكال الهدنة العقلية – يجعل من السهل الوصول إلى الفهم الصحيح للآخرين (٥).

مزاعم باطلة

نعجب أشد العجب إذ نقرأ لبعض أعداء الإسلام اليوم، ولبعض أعدائه بالأمس القريب والبعيد، تهجما عليه، واتهاما له بأنه دين التعصب الماحق للحرية، والإكراه القاضي على الاختيار، والجمود المانع من التطور.

هكذا افترى على الإسلام وعلى أتباعه شرذمة من أعدائه، ولا تزال لهذه الشرذمة أبواق تردد ما سبقوا به، وتزيد عليه أباطيل من عندها، طابعها الافتراء والادعاء والتجاهل والتجني، وبعضها يستجلب الضحك مما يحمل من جهل وسفسطة وهذيان.

وأغلب الظن أننا كنا نتلمس بعض العذر لهؤلاء المتهجمين، لو أنهم ترفعوا في تفكيرهم وفي تعبيرهم، واقتصروا على التنديد بحال المسلمين وضعفهم في الأمس القريب، ولم يتجاوزا إلى الإسلام نفسه من حيث هو عقيدة وتشريع وعبادة وسياسة ومعاملة.

ولكنهم خلطوا خلطا بين الإسلام وأتباعه، وزعموا أن ضعف المسلمين نتيجة لدينهم، متغافلين عما كان للمسلمين من قوة ومجد وحضارة وسلطان أيام استمساكهم بدينهم، واعتزازهم بتعاليمه، ومتجاهلين أن ما نزل بالمسلمين من كوارث الضعف والاستسلام والتخلف والانقسام، إنما كان عاقبة وجزاء وفاقا لانحرافهم عن الصراط المستقيم الذي شرعه الله لهم، فتقاسم أعداؤهم ديارهم، وخدروهم تخديرا ليخربوا أوطانهم باسم الاستعمار، وباسم الاحتلال، وباسم الوصاية، وباسم الانتداب.

بل لقد كان المستعمرون على يقين من أن الإسلام سر قوة المسلمين وعزتهم، فجعلوا معاولهم في حنق وقوة، يهجمون بها على حصون الإسلام ليقوضوها، فيزلزلوا ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم، لكن طال عليهم الأمد، وأرهقهم الكد والجهد، ولم يبلغوا مما أرادوا، إلا أن تحطمت معاولهم، وضعفت سواعدهم، وأصم دوي الصخور الصلدة آذانهم، وبقي الإسلام كما كان أشم الحصون، أرسخ من الطود، متعاليا في عزة، متأبيا على القوى المجتمعة أن تنال منه، إلا ما ينال الوعل، يظل ينطح الصخرة حتى يضعف ويتحطم قرنه، ويدمى رأسه، فيرتد كسير القرن، حسير النفس، طليح الجسد (٦).

ورغم علمهم بأن التسامح كان منهجا إسلاميا عبر التاريخ الطويل للإسلام، ومنه كان النموذج العملي في التسامح الذي أعطاه صلاح الدين الأيوبي للإنسانية، ولا يزال

صداه يتردد في التاريخ، حين رفض القائد المسلم المنتصر أن يفعل بالصليبيين مثل ما فعلوه بالمسلمين من مذابح راح ضحيتها ما يربو على سبعين ألفا من المسلمين. إن هذا النموذج يعرفه الغرب معرفة تامة، لذا يعرف صلاح الدين لديهم بالفروسية والنبل (٧).

وما من شك في أن الإسلام يقتضي منا أن نرد عنه كيد الكائدين، لا بالسباب والأباطيل كما صنع أعداؤه، بل بالدرس، والاحتكام إلى البحث العلمي، والموازنات الكاشفة.

ولاشك أن الإسلام يقتضي منا أيضا أن نكشف عن بعض مزاياه؛ ليستبين للجاهلين من أتباعه بعض ما في دينهم من سمو، وحكمة، وسماحة، وصلاحية للتطبيق، ومرونة في مسايرة الزمن، فيشتد حرصهم على دينهم، ويعظم اعتزازهم بتشريعه، ويتسلحون بسلاح بتار يقضون به على ما يوجه إلى دينهم من أكاذيب وأباطيل (٨).

خاتمة

يروى عن الإمام الشافعي قوله: «رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب». لكن أناسا هذه الأيام قد أخذوا يحتكرون النجاة في الآخرة لأنفسهم، ويقولون إنهم الحق وما سواهم الضلال، وهو خلاف ما سارت عليه الأمة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد نهى الله في كتابه عن التفرق والتشتت، وأمر بالاعتصام بحبله. فهذا موضع يجب على المؤمن أن يثبت فيه، ويعتصم بحبل الله، فإن السنة مبتغاها على العلم والعدل والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله». إن المشكلة التي يطرحها ذلك اللون من التفكير القائم على الإصرار على احتكار الحق والحقيقة والصواب ومصادرة حق الآخرين في الاجتهاد، إنما تكمن في بعدين؛ يتمثل الأول في منهجية الإقصاء الفكري التي تنشر العنف الفكري في المجتمع بما ينطوي عليه ذلك من خلافات وفرقة وتشتت ونزاع بين أبناء الأمة، بينما يتمثل الثاني فيما يمكن أن يؤدي إليه من عنف حقيقي، فالقتل والاحتكام إلى السلاح يبدآن بالخصومة الفكرية والإقصاء المذهبي أو العقائدي، وفي هذا البعد خطورة جمة تابعنا بعض فصولها خلال العقدين الأخيرين باستسهال البعض قتل المسلمين من دون حق.

لا تسأل بعد ذلك عن حجم التشويه الذي يصيب الأمة ودينها حين تعجز عن نشر ثقافة التسامح فيما بين أبنائها. وفي كل الأحوال، فإن القناعة بديمومة الاختلاف لابد منها، لأن قناعة بعض القوم بقدرتهم على صب الأمة في قالبهم بالقوة والعنف الفكري وغير الفكري هي المحطة الأولى للشرذمة، وربما لما هو أسوأ منها (٩).

يبقى أن المجتمعات لا يمكن أن تتعايش وتبني نفسها من دون حد معقول من التسامح، وهو الأمر الذي اكتشفه الغرب بعد حروب طويلة طاحنة، أكانت حروبا أهلية أم حروبا بين الدول والقوميات. ومن العبث أن تستعيد الأمة في هذه المرحلة الحرجة كل أشكال المعارك الفقهية والخلافات المذهبية وتنسى العدو الواقف بالباب ويتربص بها الدوائر.

إن استعادة وحدة الأمة الإسلامية هي حجر الأساس في استعادة الدور الريادي للإسلام والمسلمين، وإذا ما بقي الحال على ما نحن فيه فلا أمل، كما أن الاشتغال بهموم الأمة الإسلامية بات اليوم من باب فرض العين على كل مسلم ومسلمة، لأنه يعني استعادة حيوية الجسد الواحد، وإيجابية التعامل مع ما يتوالى علينا من الكوارث والمصائب. ويجب علينا كعرب ومسلمين أن نصطحب دائما في كل أعمالنا أن الله سبحانه وتعالى حافظ لكتابه، وأنه دائما هو الغالب على أمره قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠).

الهوامش

١- محمود حمدي زقزوق: تقديم - في التسامح في الحضارة الإسلامية، العدد ١١٠، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ص:٥.

٢- عبدالفتاح مصطفى غنيمة: «جوهر الإسلام الحضاري بين التيسير والتسامح»، مجلة منبر الإسلام، السنة ٦٣، العدد ٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ص:٥٨.

٣- محمد سيد أحمد علي الدين: «من سمات خيرية الإسلام»، مجلة منبر الإسلام، السنة ٦٥، العدد ١٠، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، شوال ١٤٢٧هـ، ص:١٣٣.

٤- محمد صلاح الدين المستاوي: (مرجع سابق)، ص:٨٩.

٥- محمود حمدي زقزوق: الإسلام والغرب، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ١٠١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ص:٦٧.

٦- أحمد محمد الحوفي: سماحة الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص:٣-٤.

٧- محمود حمدي زقزوق: «الدروس والعبر في فتح مكة»، مجلة منبر الإسلام، السنة ٦٣، العدد ١٠، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، شوال ١٤٢٥هـ، ص:٤٤.

٨- أحمد محمد الحوفي: مرجع سابق، ص:٥.

٩- ياسر الزعاترة: «الأقوى أولى التسامح»، مجلة المعرفة، العدد ١٢١، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية، ربيع الآخر ١٤٢٦هـ، ص:٤٢-٤٣.

المهلوسات في خط إنتاج الصناعات الدوائية العالمية

(رؤية شرعية)

د. رضا عبدالحكيم
باحث أكاديمي

الصناعات الدوائية غير متوقفة بفعل التقدم العلمي غير المسبوق في مجال الرعاية الصحية، وكنتيجة لتطور أساليب الطب وتقنياته، التي تحاول الإحاطة بالعلاجات اللازمة لمواجهة أمراض العصر، وما أكثر المسجل عنها في مواثيق مجتمع علوم الطب والبيولوجيا.

كان من قدر معظم الأمم والشعوب الإسلامية في عالم اليوم، أن تلقى عليها ظلال التقانة الطبية والصناعات الدوائية الغربية والشرقية.. من هنا دقت الحاجة، وهذا هو دور الاجتهاد الإسلامي، إلى الإفراز المعرفي بالتنبيه إلى ما هو مخالف لشرعتنا من تصرفات؛ حتى لا تأخذنا رياح العولمة الدوائية والطبية، إذا صح هذا التعبير.

تناقش دراستنا إحدى الصناعات الدوائية، ومادتها إنتاج مواد مهلوسة لعلاج حالات طبية. فلقد دخلت تلك الصناعة من نافذة الثورة الصناعية، وتطور علم المواد وما يتصل به من كشوف العلوم التجريبية، بيولوجية وطبية وكيميائية.. وغيرها. ومنتجات تلك الصناعة وتعاطيها قائمة على قدم وساق لدى شعوب ومجتمعات في دول عدة. وتختلف الدول ما بين دول تضع قوانين لحماية حقوق هذه الصناعة، ودول تشرع قوانين تحرم الصناعة على إطلاقها، ودول أخرى تجيز الصناعة وترتب تعاطي المهلوسات للأغراض الطبية والعلاجية.

وقفت عند سياسة التقنين التي تجيز الصناعة والتعاطي العلاجي، لما يثير ذلك من تساؤلات شرعية. فقد نشر تقرير حديث حول «المهلوسات باعتبارها أدوية»، فبحسب مختصر هذا التقرير (١):

«ظهرت المئات من التقارير حول أبحاث أجريت على المهلوسات في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، وقاد الاستخدام المنافي للقوانين للمهلوسات إلى حظر هذه الأدوية، ومنع إجراء الأبحاث حولها. ألمحت المجموعة الباكرة من الأبحاث التي أجريت حول المهلوسات إلى أن هذه المواد الكيميائية قد تساعد على معالجة اضطرابات نفسية مختلفة، إلا أن تلك الأبحاث توقفت بسبب التضييق عليها. بدأت موجة جديدة من الدراسات حول المهلوسات، لاسيما «البسيلوسايبين»، لمعرفة فيما إذا كان بمقدور هذه الأدوية معالجة القلق لدى مرضى السرطان، أو مساعدة المدمنين على التخلص من عاداتهم بفعالية. تشير النتائج الباكرة لهذه التجارب الجديدة إلى أنها ستكون معالجات واعدة. وقد كتب بعض المرضى عن معايشتهم لتجارب روحانية عميقة، وعن إمكانية إحداث تغيرات مهمة في حياتهم نتيجة لذلك».

ما هي الهلوسة؟ وما مدى تأثيرها على مبدأ سلطان الإرادة، الذي هو أساس مسؤولية الشخص عن أفعاله وتصرفاته؟ وما حكم تعاطي المهلوسات للأغراض الطبية والصحية؟

هذا ما نحاول الإجابة عليه في السطور التالية:

الهلوسة

وهي نطق عربي للاصطلاح الإنجليزي

hallucination. ومعناه: الإحساس بمحسوس غير موجود. ويشعر بهذا الإنسان وهو في حالة يقظة.. إنه لا يحلم؛ لأنه واع تماما، وليس متوهما كأصحاب الإحساس المشوه أو التفسير الخاطئ.

والهلوسة متلازمة قد يصاب بها المرء فطريا، ويدرسها خبراء الطب النفسي، الذين يضعون برامج لعلاج الهلوسة حسب نوعها. والهلوسة تختلف عن الاضطراب العقلي، ولكنها تتفق معه في عدم الاتزان النفسي. ومع ذلك، فهي حالة قائمة بذاتها. وقد تقع الهلوسة كعرض جانبي لبعض الأدوية الأخرى، كما يؤدي الحرمان من النوم إلى الهلوسة، أو نقص حاجة ما، كطلب الماء الملح عقب مجهود شاق ينعكس في ذهن الإنسان.

عبر القرآن الكريم خير تعبير عن مثل هذه المتلازمة، وبصفة خاصة نمط الحالة الأخيرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ (النور:٣٩). وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢)، أن موضوعها مثل ضربه الله في الكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات وليسوا في الأمر نفسه على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام. والقيعة، هي: الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيها يكون السراب... يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه فلما انتهى إليه ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾.



إن المهلوس يرى ويتعامل مع الحقائق التي يشاهدها ويدركها هو شخصيا في عالمه الخاص، فهو يشاهد ما لا يشاهده الآخرون، ويسمع ما لا يسمعه الآخرون، ويشم الروائح الطيبة أو الخبيثة طبقا لحاسة الشم لديه في وعيه الذاتي المنفصل عن وعي الآخرين، ويلمس ويتحسس الأشياء من أدوات اللمس لديه، فهو يستشعر السخونة والبرودة والخشونة والنعومة على طريقته، إنه يستشعر تسلق البراغيث على جسده، فيما لا يستشعر غيره ذلك، لأن الأخير مثلا لم يتعاط الكوكايين الذي استمتع بتناوله الأول، جرعة فوق جرعة كي يحلق في آفاق الهلوسة الحسية التي تعد أشد الهلوسات تنظيرا مع غيرها من هلوسات، سواء كانت بصرية أو سمعية أو شمية أو تذوقية خاصة باستطابته وتلذذه ما يأكل أو لفظه لغير المستطاب من طعام وشراب.. فهو له مذاقه الخاص، وهذا حقيقي في مملكة شعوره الذاتي الذي لا يستشعر سوى ما هو كائن فعلي... هذا من وجهة نظر المهلوس.

تأثير الهلوسة على إرادة الإنسان

إن النفس الإنسانية بحكم فطرتها مختصة داخليا بتوجهات الخير والشر معا، والإنسان هو فقط الذي يملك توجهاته بإرادته الذاتية الحرة، ويختار ما يشاء من التصرفات، ومن جنس فعله تكون التبعة التي يتحملها، ألم يقل ربنا ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان:٣).

هذا، ويذهب علماء النفس إلى القول إن الإرادة تحكمها ملكتان: الأولى هي ملكة الوعي والإدراك، والثانية هي ملكة الاختيار. والمهلوس يختار بإرادته الذاتية تصرفاته، لا مناص في هذا، ولكنه يختار ما هو واقع في قناعته الذاتية المستمدة من أنظومة وعيه وإدراكه الذي لا يعيه أو يدركه غيره. إن معايير استخدام المهلوس لملكتيه (الوعي والإدراك - الاختيار) هي معايير ذاتية تنطبق عليه فيتصرف ويمارس، على هوى منطقته الشعورية، وبالتالي كانت الهلوسة خارقة للقانون الطبيعي للإرادة، التي هي أساس مسؤولية الإنسان عن أعماله.

حكم تعاطي المواد المهلوسة

إن تعاطي المواد المحدثة للهلوسة يدخل، بحسب الأصل، في باب المحظورات الشرعية، لسبب بسيط،

وهو كونها تصيب منطقة الإرادة في تصرفات الإنسان كما سبق القول. فالإرادة لها تسويتها الفطرية من جملة تسوية الإنسان على أحسن صورة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٧-٨). والمساس عمدا بهذه التسوية الخلقية دون مقتضى شرعي مؤثم، من هنا يجيء عدم شرعية تعاطي المهلوسات، ولكونها كذلك تدخل في معنى الخبائث المنهي عن تعاطيها شرعا، ولما تحدثه من تأثير في الصحة النفسية والعقلية.

هل يؤخذ متعاطي المهلوسات مأخذ شارب الخمر؟

من المحقق تحريم شرب الخمر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة:٩٠)، وقول رسولنا المصطفى ﷺ لما سئل عن الأشربة عام حجة الوداع: «حرم الخمر بعينها والسكر من كل شراب». والخمر المحرمة، في قليلها وكثيرها باتفاق آراء الفقهاء، هي التي من عصير العنب، أما الأنبذة المستخلصة من غير العنب ففيها اختلاف من حيث دخولها في باب الخمر المحرمة، وإن كان هناك اتفاق على تحريم السكر منها. وعند أبي حنيفة أن المحرم من سائر الأنبذة المسكرة هو السكر نفسه لا العين. وعقاب جريمة شرب الخمر تحدد بثمانين جلدة في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان على عهد الرسول ﷺ الضرب غير المحدود بالنعال أو أطراف الثياب والجريد. وهناك، لهذا السبب، خلاف كبير في الفقه حول طبيعة عقوبة شرب الخمر. والواقع أنه مادام رسولنا صلوات الله وسلامه عليه لم يحد للخمر حدا معينا، فإن الرأي القائل بدخول عقاب شرب الخمر في باب التعزير يجد بعض التبرير. ولكن الذي يحتم إدخال هذه الجريمة في باب الحدود الشرعية هو صفتها الدينية التي ينبئ عنها تاريخ تحريم شرب الخمر في الإسلام بعد أن كان مباحا. ولعل هذا الاعتبار نفسه يساعد على حسم الخلاف المحتدم في الفقه حول هذه الجريمة وطبيعتها، فضلا عن المقصود بالخمر. فإنه يمكن القول، استنادا إلى الاعتبار المذكور، إن ما يدخل في عداد الحدود الشرعية هو «السكر»، أي فقدان الصواب؛ بسبب شرب الخمر، بينما لا يكون مجرد شرب الخمر دون حدوث السكر إلا من قبيل جرائم التعزير (٣).

أرى، والله أعلم، أن علة التحريم متوافرة بين متعاطي الخمر ومتعاطي المواد المهلوسة، وذلك لكون الخمر والمهلوسات مصادر تتلاعب بإرادة الإنسان، من خلال التأثير على ضوابطها الرئيسية، ويسأل جنائيا متعاطي المهلوسات متحملا تبعة تصرفه العمدي، ويؤخذ بالتعزير شرعا، وهذا هو الأحوط، لأنه لا قياس في الحدود الشرعية.

تعاطي المهلوسات للأغراض العلاجية

حكم تعاطي المهلوسات لا مناص يأخذ حكم التداوي بالمسكرات (٤)، لاتفاق السكران والمهلوس في الانفلات الإرادي، وبالتالي يطبق على المهلوس أحكام التداوي بالمسكرات.

ففي مادة التداوي بالمسكرات كانت لعلمائنا أقوال في تعاطيها، أكلا وشربا، حيث يتعاطى الشخص المسكر خالصا، أو مختلطا بمباح ولكن الغلبة للمادة المسكرة. ذهب الجمهور إلى عدم جواز ذلك، وهو المذهب عند الحنفية (٥)، والمذهب المشهور عند المالكية (٦) والوجه الأصح عند الشافعية (٧)، وهو مذهب الحنابلة (٨).

في حين إنه نص بعض العلماء على أنه يجوز التداوي بالمسكرات الخالصة والغالبة، أكلا وشربا، إذا تيقن حصول الشفاء بها واضطر إليها بحيث لم يجد ما يقوم مقامها، وهو وجه عند الحنفية (٩)، وقول عند المالكية (١٠)، ووجه عند الشافعية (١١)، وهو مذهب الظاهرية (١٢).

رجح شيخ الإسلام ابن تيمية ما ذهب إليه الجمهور، وهذا ما اعتمده المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، وبعض أعلام الاجتهاد الإسلامي المعاصر (١٣).

ورأي الجمهور هو الأولى بالاتباع، فيحرم تعاطي الأدوية المختصة بالمسكر، جلها أو إذا كان المسكر له غلبة تكوين مادة الدواء.

أما إذا كان الدواء يحوي قدرا من المسكر، بحيث لا تكون المادة المسكرة لها الغلبة في تكوين الدواء، فإن مثل هذا الفرض لا يخرج عن حالتين:

الأولى: إن المادة المسكرة، رغم كونها قليلة، إلا أنها تحدث السكر، وحكمها ههنا حكم التداوي بالخمر الخالصة.

الثانية: إن المادة المسكرة لا تحدث السكر (بفعل قلتها في المخلوط الكلي المتحد المشكل للدواء محل التعاطي). وفي هذه المسألة قولان:

فأما الأول: جواز تعاطيها، وهو مذهب الحنفية (١٤)، وقول عند المالكية (١٥)، ومذهب الشافعية (١٦) والحنابلة (١٧)، وبه قال ابن حزم (١٨).

أما الثاني: فلا يجوز التعاطي للأدوية

المشتملة على شيء من المسكر، وهو مذهب عند المالكية (١٩).

والراجح الرأي الأول، ففي تحريم الأدوية المشتملة على شيء يسير من المادة المسكرة (مع الوضع في الاعتبار أنها لا تحدث السكر) مشقة كبيرة على الناس قد جاء الشرع برفعها، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨). وهذا ما ذهبت إليه المجامع الفقهية وكثير من أعلام الاجتهاد الإسلامي المعاصر (٢٠).

وعملا بسنة التواصل العلمي، هناك تساؤل أخير في شأن الجرائم التي يرتكبها الشخص، سواء كان مهلوسا فطريا، أو تحت تأثير المهلوسات أو الخمر أو المواد المحرمة التي يتعاطاها عمدا، أو لأسباب علاجية: فهذا موضوع يحتاج إلى تدخل الاجتهاد الإسلامي المعاصر لعرض رؤية تكاملية موضح فيها ضوابط المسؤولية الجنائية في الشريعة، ببيان الأحكام التفصيلية في ارتكاب الجاني (متعاطي المحرم) الجرائم التي تنظمها الشريعة في أبواب الحدود، والقصاص والدية، والتعزير.

والله من وراء القصد.

وصدق رب العالمين إذ يقول في محكم التنزيل: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر:٥٥).

الهوامش

(١) قاسم السارة وآخرون (٢٠١١م): المهلوسات باعتبارها أدوية، مجلة العلوم الأميركية، مج ٢٧، ع ١ و٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الحديث، القاهرة، الجزء ٣، ص٢٨٦.

(٣) راشد علي (١٩٧٤م): القانون الجنائي والمدخل وأصول النظرية العامة، دار النهضة العربية، ط ٢، ص٧.

(٤) حمد بن جابر الهاجري (٢٠١٣م): حكم التداوي بالمسكرات في الفقه الإسلامي، مجلة الحقوق، مجلس النشر العلمي بدولة الكويت، السنة ٣٧، العدد ١، ص٣٨٣-٤٣٢.

وانظر: عبدالله بن محمد الطريقي (١٩٩٢م): الاضطرار إلى الأطعمة والأدوية المحدثة، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

الوليد الغريان (١٤٣١هـ): التداوي بالمحرمات، مجموعة بحوث مؤتمر قضايا طبية معاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

محمد البار (١٤٠٦هـ): الخمر بين الطب والفقه، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة السابعة.

(٥) انظر: بدائع الصنائع ٥: ١١٣، فتح القدير ٩: ٢٩، ٤٠، شرح العناية ٩: ٢٩، الفتاوى الهندية ٥: ٣٥٥، حاشية رد المحتار ١: ٣٢٥، ٥: ٢٢٨، ٦: ٤٥٠، تبين الحقائق ١: ٩٧.

(٦) انظر: الكافي لابن عبدالبر ١٨٨، المنتقى ٣: ١٤١، بداية المجتهد ١: ٥٥٥، عقد الجواهر الثمينة ٢: ٤٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٨٧، قوانين الأحكام الشرعية ١٦٨، الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٤: ٣٥٣.

(٧) انظر: اللباب ٣٩٠، التهذيب ٨: ٧٢ ٧٣، روضة الطالبين ١٠ و١٦٩، المجموع ٩: ٥٥، مغني المحتاج ٤: ١٨٨.

(٨) انظر: المغني ١٢: ٥٠٠ ٥٠١، ١٣: ٣٤٣، الفروع ٢: ١٦٧، الإنصاف ٢٦: ٤١٩، منتهى الإرادات ٢: ٢٩٤، الروض المربع ٢: ١٠٠١.

(٩) انظر: بدائع الصنائع ١: ٦١ ٦٢، الفتاوى الهندية ٥: ٣٥٥، حاشية رد المحتار ٥: ٢٢٨، ٦: ٤٥٠.

(١٠) انظر: المنتقى ٣: ١٤١، بداية المجتهد ١: ٥٥٥، عقد الجواهر الثمينة ٢: ٤٠٣، قوانين الأحكام الشرعية ١٦٨، الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ٤: ٣٥٣.

(١١) انظر: التهذيب ٨: ٢ ٧-٧٣، المجموع ٩: ٥٥، روضة الطالبين ١٠: ١٦٩، مغني المحتاج ٤: ١٨٨.

(١٢) انظر: المحلى ١: ١٧٥، ١٧٦، ٦: ١٠٥، ١٠٦، ٢٢٥.

(١٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٤: ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٥، قرارات المجمع الفقهي الإسلامي ٣٤٣، فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٢٥: ٢٢-٢٤، الشرح الممتع ١٤: ٣٠١.

(١٤) انظر: بدائع الصنائع ١:٦١-٦٢، حاشية رد المحتار ٦: ٤٨٥.

(١٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١: ٢٠١، حاشية العدوي ١: ٥٨٢.

(١٦) انظر: روضة الطالبين ١٠: ١٦٩ ١٧٠، ١٧١، مغني المحتاج ٤: ١٨٨.

(١٧) انظر: الفروع ٢: ١٦٧، الإنصاف ٦: ١١، ٢٦: ٤٢٨، شرح منتهى الإرادات ٣: ٣٥٨، معرفة أولي النهى ٨: ٤٣٩، ٦٠٩، مطالب أولي النهى ٢:٣٣٥، حاشية الروض المربع ٧: ٣٤١.

(١٨) المحلى ١ و١٧٥، ١٧٦، ٦: ١٠٥، ١٠٦، ٢٢٥.

(١٩) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١: ٢٠١، حاشية العدوي ١، ٥٨٢، الشرح الكبير للدردير ٤: ٣٥٤، حاشية الدسوقي ١: ٥٢.

(٢٠) الهاجري، مصدر سابق، ص٤١٧ و٤١٨، وانظر: قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي المنبثق من منظمة المؤتمر الإسلامي ٤٥ ومجلة البحوث العلمية ١٩: ١٦٤.



في فن البحث والمناظرة

جواب الفقيه الباجي على راهب فرنسا

منتصر الخطيب
تطوان- المغرب

يعد فن البحث والمناظرة، وما يتطلبه من آداب ومنهجيات خاصة، من المباحث والفنون العلمية التي اهتم بها علماء الإسلام قديما وحديثا، ودرسوها دراسة مستوعبة، وتعمقوا فيها ومارسوها نظريا وعمليا؛ بهدف توسيع آفاقهم وصقل مداركهم وإقناع الغير بآرائهم واجتهاداتهم، ومن ثم تعاطوا مع هذا الفن ومارسوه في مختلف العلوم الشرعية واللغوية، ولم يخل أي عصر من العصور الإسلامية من وجود مناظرات ومحاورات ومناقشات في هذا العلم أو ذاك، وبين هذا أو ذاك، أو في هذه المسألة أو تلك من المسائل التي تكون مجال بحث ومناظرة تثري البحث العلمي وتبين قيمة فكر هؤلاء العلماء الأجلاء.

ولئن كان فن البحث والمناظرة وآدابه ومنهجه قد عرف بين العلماء واشتهر في بلاد الشرق الإسلامي، فإنه عرف وانتشر كذلك في بلاد الغرب الإسلامي - المغرب والأندلس - بحكم ما أنجبت هذه البلاد من علماء كبار، التقى علمهم بعلم الشرق، فكون ذلك الرصيد العلمي الهائل، والثراء الفكري والحضاري الكبير الذي لايزال جله حبيس المخطوطات.

يقول أبوزهرة: «وقد عني العلماء في الإسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة من يوم أن نشب الخلاف الفكري بين العلماء ورجال الفكر في هذه الأمة، وانتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة، لكي يكونا في دائرة المنطق والفكر المستقيم، أسموها علم الجدل أو علم أدب البحث والمناظرة» (١).

وهكذا اندرج المسلمون والنصارى بالأندلس معا ضمن ذلك التقليد، وأسهموا في هذا الرصيد التاريخي والثقافي والمعرفي بها. وقد جمعت المناظرة الدينية بين الإسلام والنصرانية منذ أن اضطرهما التاريخ إلى الالتقاء ببعضهما، فدفعت بالإسلام والمسيحية إلى الانخراط معا في تقليد التعايش والمثاقفة بينهما على أرض الأندلس. ولقد عبرت عن أجزاء من تمظهرات هذا الواقع، أعداد من كتب المناظرات الدينية التي كانت تعقد باستمرار، عمل بعض المهتمين بموضوعها على إخراج بعض متونها وتحقيقها؛ ومن بينهم يمكن أن نذكر عبدالمجيد التركي، وعبدالمجيد الشرفي، وأحمد حجازي السقا، ومحمد رزوق، وغيرهم.

يقول د. عبدالواحد العسري: «لم تتبلور بالأندلس مناظرات جدلية دينية بين النصارى والمسلمين خلال الفترة نفسها التي ظهرت فيها بالشرق الإسلامي، بيد أنه بمجرد ما وصلت رسالة عبدالمسيح الكندي إلى الأندلس، أخذ النصارى في إنتاج ردود ضد الإسلام على منوالها، ووفقا لمحتوياتها. ولقد دافع «فان كونينكز فلد» على هذه الأطروحة وانتصر لها، معززا ذلك بشواهد تاريخية ونصية متعددة» (٢).

ويعد كتاب أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) «المنهاج في ترتيب الحجاج» أهم الكتب التي اعتنت بفن المناظرة والجدل، ويعتبر الباكورة في هذا الفن في الغرب الإسلامي/الأندلس؛ موطنه، وقد اتسم الباجي بطابع الثقافة الفقهية الأصولية الجدلية الشاسعة والجامعة، فهو الفقيه المالكي الوحيد الذي استطاع أن يجادل الفقيه الظاهري ابن حزم في المجالس التي كانت تعقد بدعوة من الأمير ابن رشيق، بعد رجوعه من رحلته المشرقية، كما شهد بذلك مؤرخ المالكية القاضي عياض في ترتيب المدارك. وقد ذكر الباجي ذلك في مقدمة كتابه فقال: «ولو تأملت ما في كتابنا هذا من هذه الطريقة؛ لرأيته كله مأخوذا من الكتاب والسنة ومناظرة الصحابة، وإنما للمتأخر في ذلك تحرير الكلام وتقريبه من الأفهام» (٣).

ولقد سطر مفكرو الإسلام منذ العهود الأولى شروطا وآدابا لهذه المناظرات، ووضعوا ضوابط علمية لإقامتها؛ خشية الانزلاق بها إلى متاهات عقيمة لا طائل من ورائها، وقد رسم ابن خلدون في المقدمة معالم هذا العلم، ومسوغاته وغاياته فقال: «فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا، وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه» (٤).

ويقول د. حبنكة الميداني: «ولما كان الجدال في الواقع الإنساني من الوسائل التي تستخدم لنشر الأفكار والإقناع بها، وكان الإنسان أكثر شيء جدلا، والجدال سلاحه للدفاع عن أفكاره؛ فقد أمر الإسلام به للدفاع عن الحق الإسلامي؛ مشروطا بأن يكون بالتي هي أحسن.. فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل:١٢٥)، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦).. ومن هذا يتحصل لدينا أن الجدال للوقوف على الحق لإقناع الناس به عمل محمود.. أما الجدال انتصارا للنفس ورغبة بالاستعلاء والغلبة فهو عمل مذموم، وقد يكون حراما إذا كان فيه طمس للحق أو تضليل للمناظر» (٥).

وشهد تاريخ المسلمين عددا كبيرا من هذه المناظرات منذ الفجر الأول؛ ولنا في سيرة رسول الله ﷺ الأسوة في ذلك حين أتاه أحد مبعوثي قريش - عتبة - يفاوضه فقال له رسول الله ﷺ: «أفرغت؟ قال: نعم. قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ (فصلت:١-٢) حتى بلغ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ (فصلت:١٣). فقال عتبة: حسبك حسبك» (٦). وحفظ لنا التاريخ نماذج لمناظرات أجراها بعض علماء الإسلام مع مختلف الفرق وأهل الديانات؛ كمناظرة عبدالله بن عباس رضي الله عنه مع الحرورية فيما أنكروه على علي رضي الله عنه. ومناظرة اليهودي لمسلم في مجلس المرتضى. ومناظرة في الرد على النصارى من تأليف فخر الدين الرازي. وجهود الفقيه أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) في الجدل مع اليهود؛ ثم الرسالتان موضوع هذه المشاركة: رسالة راهب فرنسا إلى الأمير الأندلسي المقتدر بالله

الأندلسي حاكم سرقسطة يدعوه فيها إلى الدخول في النصرانية، وجواب الفقيه أبي الوليد الباجي عليها، والتي تبقى أهم هذه المناظرات وأشهرها، وقد تم تحقيقها ونشرها من طرف الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي الأستاذ بقسم الفلسفة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وصدرت عن دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

جاء في تصديرها: «هاتان وثيقتان بالغتا الأهمية، لأنهما تكشفان عن جانب من العلاقة الثقافية أو الجدلية الدينية أو الحضارية - سمها كيف شئت - بين المسلمين في الأندلس، والنصرانية في أوروبا الغربية في القرن الخامس الهجري. الوثيقة الأولى أو الرسالة الأولى بعث بها راهب فرنسا - متطاولا - إلى الأمير المسلم المقتدر بالله، حاكم سرقسطة؛ يدعوه فيها إلى الدخول في دين النصارى، ويشرح له بعض أسسه وقواعده ومحاسنه. والوثيقة الثانية: هي نص الجواب الذي كلف الأمير القاضي أبا الوليد الباجي بكتابته ردا على رسالة الراهب الفرنسي، بعد مقابلة مبعوثَيه ومناقشتهما. والرسالتان معروفتان لدى الباحثين الغربيين معرفة جيدة، فقد نشرتا في الغرب وترجمتا إلى أكثر من لغة أوروبية، ولكنهما - للأسف - على أهميتهما الكبيرة لا يكاد يعرفهما إلا نفر يسير جدا من الباحثين المسلمين المتخصصين، فضلا عمن سواهم» (٧). ومما جاء في رسالة الراهب الفرنسي من الدعوة الصريحة لهذا الأمير بالدخول في النصرانية قوله: «... إلى الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلا مدانيا، المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا، الملك الشريف، من الراهب أحقر الرهبان، الراغب في الإنابة والإيمان بالمسيح يسوع، ابن الله سيدنا!!!.. لما انتهى إلينا أيها الأمير العزيز أمرك الرفيع في الدنيا وبصيرتك في تبيين أحوالها المتغيرة، رأينا أن نراسلك وندعوك، لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني... وقد كان فيما سلف من ذنوب إبليس وتضليله للعباد ما يلقيه العذاب الأليم يوم القيامة من الله سيدنا يسوع المسيح، وقد ضاعف تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الأمم العظيمة.. فاعتبر . أيها الملك الشريف ولا تؤثر شيئا على نجاة نفسك يوم الحكم والجزاء، فإنا مخلصون في خدمة أمورك، ومسارعون إلى تفديتك بنفوسنا... وإن لم يظهر لك - يا أيها الحبيب - مراجعتنا بجوابك على ما تضمنه كتابك لآفات الكتب، فأودع ذلك إخواننا هؤلاء وأطلعهم على سرك، وما يتمثل في نفسك، ونحن نضرع إلى سيدنا يسوع المسيح أن يتولى رعايتك، ويتكفل سلامتك، ويهديك إلى دينه المقدس، ويسعدنا بالإيمان الصحيح به آمين...» (٨).

فجاء جواب الفقيه القاضي الجليل الفاضل أبي الوليد الباجي رحمه الله على هذه الرسالة ببيان ضعف موضوعها ودحض مفترياتها: حيث قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم، العزة لله، والصلاة على رسوله.. تصفحت أيها الراهب الكتاب الوارد من قبلك، وما متت به من مودتك، وأظهرته من نصيحتك، وأبديته من طويتك، فقبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملتك، واتصل بنا من جميل إرادتك، ونبهتنا لعمر الله بنصيحتك، على ما يلزمنا من ذلك لك، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك، وتعذر وصول كتابنا إليك لكنا أحرياء أن نأتي من ذلك ما يلزم، ونسلك منه السبيل الأوجب، ولكنت - عندنا - جديرا بعرض الحق عليك وإيصاله إليك، فقد قرر لدينا من وصل من رسلك، وأهل ملتك ما تظهره من حرصك على الخير، ورغبتك في الحق، مما قوى رجاءنا في قبولك له، وإقبالك عليه، وأخذك عليه، وأخذك به، وإنابتك إليه... ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضتك، فيما رضيناه من مسألتك، ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك في النصح، الذي يجري إليه أهل الفضل، وأمرنا الله به على ألسنة الرسل، وكففنا عن معارضتك على ما استقبحناه من خطابك، وسخطناه من كتابك، من سب الرسل الكرام، والأنبياء المعظمين - عليهم السلام -، وانحرفنا عن ذلك إلى أن نحذرك وننذرك ونعذرك فيما لم يبلغك علمه، ولم يتحقق لديك حكمه، ونبالغ في الرفق بك، والتبيين لك على منهج الخطب والرسائل، لا على طريق البراهين والدلائل، مساعدة لك على مذهبك في كتابك، وموافقة لك في مقصدك، فعسى أن يكون أقرب إلى استمالتك، وأبلغ في معارضتك ومعالجتك...

ولوددنا أن تصير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك، ونتمكن من تفهيمك، ونبين لك من تحقيق الكلام وتحريره، وتفصيله وتوجيهه، وترتيب الأدلة ومقتضاها، وإحكام البراهين ومنتهاها، ما يزيل كل سخيفة من نفسك، ويطهر من دنسها قلبك، فتعاين الحق جليا واضحا، والدين قويا لائحا... والله نسأل أن يهديك ويهدي بك من قبلك فتفوز بأجورهم، وتكون سببا إلى استنقاذهم، فأنت فيما بلغنا مطاع فيهم. والسلام على من اتبع الهدى» (٩).

لقد كان أبوالوليد الباجي من العلماء والفقهاء البارزين في الأندلس، بذل جهودا كبيرة لتوحيد صفوف المسلمين في الأندلس ضد النصارى الإسبان، فطاف مدن الأندلس وقواعده لجمع شتات الأمة الممزق. وكان عميق الفهم، صاحب حجة، يقيم الحجة على خصومه من الفقهاء، فكان صادقا في أقواله وأفعاله، وفي دعوته وفي عرضها. واستطاع أن يستوعب المناهج التي درسها سواء في بلاده الأندلس أو في رحلته إلى المشرق من فقه وحديث ولغة وعلم الكلام وغيرها، حتى تأهل ليكون داعية لحمل رسالة التوحيد والجهاد في سبيل الله. وكان تردده بشرق الأندلس وما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية؛ فحدث يوما أثناء وجوده في سرقسطة أيام حكم المقتدر أحمد بن هود (حكمه ما بين:

٤٣٨هـ و٤٧٤هـ) أن جاءت رسالة من أحد عمالقة الرهبان الفرنسيين يدعو فيها هذا الأمير إلى الدخول في الديانة المسيحية والانسلاخ عن العقيدة الإسلامية، فكتب الباجي رسالة على لسانه رد فيها على هذا الراهب؛ وسلك فيها طريق الاعتدال، وطرق الحجة بالحجة، وأعاد الداعي مدعوا، وبقي الأمير وإمارته سرقسطة على دين الإسلام.

وأول ما يلاحظ على مجمل هذه الرسالة كما يقول د. الشرقاوي محقق الرسالتين: «بيد أن رسالة الباجي تظهر - في تقديري - رؤية إسلامية صحيحة وعميقة، لما عليه العقيدة النصرانية من اضطراب وتناقض ووهاء، كما أنها تبرز مسؤولية القاضي الباجي في الدعوة إلى الله تعالى بين غير المسلمين، ووعيه بالطريق الأرشد إلى ذلك. فالقضية - عنده - لم تكن مجرد تدبيج جواب على رسالة راهب فرنسي بعث بها - مع رسولين - إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة، أقصى ما يؤمله الباجي من ورائه أن يرضى المقتدر بالله عنه، لكن طموحه السديد كان أبعد من ذلك وأعظم؛ إذ كان يروم تعريف راهب فرنسا وكبير رجالات الكنيسة فيها بمحاسن الإسلام، وما عليه النصرانية - بعد التحريف - من مجافاة للعقل والمنطق، فضلا عن مصادمتها للفطرة السليمة بأسلوب قويم حكيم. وإن كل فقرة في الرسالة لتؤكد هذا المعنى وتعمقه» (١٠).

كما أن الموضوع الأكثر إثارة في هذه الرسالة هو محاولة الباجي الجواب على الراهب الفرنسي في مسائل الاعتقاد، وخاصة فيما يتعلق بنبي الله عيسى - عليه السلام - الذي يعتقدون ببنوته - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - يقول د. عبدالواحد العسري: «سبق أن ذهبنا إلى أن الخلاف الأساسي الذي تدور عليه جميع المجادلات الإسلامية النصرانية يكمن في التصورات المختلفة للنصارى وللمسلمين لله وللنبوة. ذلك هو ما استقطب مجموع الدعاوى والاعتراضات التي دارت بالمجلس الخامس الذي ناظر فيه الأنصاري، رئيس كتبة الملك وحاجبه» (١١)، في إشارة إلى مناظرة أخرى في نفس المجال.

ولقد نقض الباجي دعوى الراهب دون أن يعترض على لفظ رسالته ولا على صحة نقلها. كما عمل على منعها بإبطال ما استلزم من ألفاظها مناظره من تصورات تشبيهية وتحييزية لله ولصفاته التي رام بنسبتها للإسلام نسف دعوى هذا الدين بخصوص التوحيد والتنزيه اللذين يقوم عليهما. وبذلك استطاع أبوالوليد الباجي أن يحقق هدفه من مجادلته للنصارى التي اضطر إليها، باعتراضه على دعاواهم ومنعها وإبطالها، فأفحمهم وانتصر عليهم، معتمدا في كل ذلك بعض قواعد المناظرة المنطقية والتداولية والأخلاقية.

وهكذا أبطل الباجي دعوة النصارى المبطلين لدينه والمنكرين لنبوة نبيه، بالاستناد إلى كتبهم المقدسة على دعواهم. واتخذ نفسه في مناظرته أدوار المدعي المعلل والمجيب للدفاع عن تصور اعتقاد المسلمين لله تعالى ولنبوة نبيه محمد ﷺ، لذلك بادر في مناظرته إلى القول: «وما من نحلة ولا ملة إلا وهي تزعم أن نفوسها نيرة بما تعلمه، منشرحة بما تعتقده، وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل، والدهرية الذين يدعون الأزل، والفلاسفة القائلون بقدم العالم، والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام، فما أحد من هذه الفرق إلا وهو يدعي أن نفسه أسكن إلى ما تعتقده، وأوثق بما تنتحله، وأنور بما يزعم أنه يعلمه من نفوس مثبتي الرسل، ومتبعي الكتب. لكن وضع الكلام ونشره، وتمييزه ووصفه يعلي الحق ويثبته، ويدحض الباطل ويمحقه» (١٢).

وأهم خصلة في جواب الباجي هذا التزامه بشروط المناظرة التي وضحناها من قبل، والتي منها التزام المتناظرين بالأدب والأخلاق والجدال بالتي هي أحسن، يقول د. حبنكة الميداني: «فالمسلم مطالب بأن يلتزم في مجادلته لإثبات الحق الذي يؤمن به وإقناع الناس به، الخطة التي هي أحسن من كل خطة يمكن أن يتخذها الناس في مجادلتهم. لذلك كان من أخلاق المسلم وآدابه مع خصوم دينه ومخالفي عقيدته؛ فضلا عن إخوانه المؤمنين أنه لا يسلك مسالك السب والشتم والطعن واللعن والهمز واللمز والهزء والسخرية والفحش والبذاءة» (١٣)، وهذا ما نلحظه في الأسلوب الذي اعتمده الباجي في رسالته في الرد على راهب فرنسا؛ فقد كان شديد الأدب حافظا لسانه من الزلل متجنبا الاستهزاء والسخرية.. ولاشك أن في هذا الجواب ما يدفعنا إلى تجلي دور هذه المناظرات في إحقاق الحق ودفع الخصوم. مما يضطرنا إلى البحث عن المزيد من أصول هذه المناظرات لتتبع ردود المسلمين على نصارى الأندلس في محاورتهم لهم في باب الاعتقادات من أصول الدين، واستجلائه ووضعه في الحسبان أثناء المناظرات الفكرية التي تدار اليوم، متتبعين روح التسامح التي طبعت نقاشهم ذلك، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش

١- تاريخ الجدل، محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي، ص:٣٦.
٢- مقال بعنوان: قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس، د. عبدالواحد العسري، مجلة كلية آداب تطوان.
٣- المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد الباجي، تحقيق عبدالمجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ص:٨-٩.
٤- المقدمة، ابن خلدون، دار الفكر، ص:٢٦٣.
٥- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، د. حبنكة الميداني، دار القلم، ص:٣٦٣.
٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، دار الفكر، الحديث رقم: ٩٨٢٤.
٧- رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين ورد أبي الوليد الباجي عليها، د. محمد عبدالله الشرقاوي، دار الصحوة، ص:٢٧.
٨- نفسه، نص الرسالة والجواب عليها.
٩- نفسه، نص الرسالة والجواب عليها.
١٠- نفسه، المقدمة.
١١- المقال السابق.
١٢- نص الرسالة.
١٣- ضوابط المعرفة، د. حبنكة الميداني، ص:٣٦٣.

٤ سنوات في بلاد الصقالبة والروس

ابن فضلان

أحمد أمين
باحث في التاريخ الإسلامي

يمتلئ تاريخنا العربي بآلاف الرحلات العلمية، والثقافية، والسياسية، التي قام بها علماء المسلمين ورحالتهم، منها ما تم نشره وتقديمه للقارئ، وكثير منها تم تجاهلها ونسيانها، وتركها حبيسة بطون الكتب.

ومن تلك الرحلات رحلة السفير أحمد بن فضلان إلى بلاد الصقالبة والبلغار وروسيا والدول الإسكندنافية (الدنمارك، السويد، فنلندا، النرويج، وآيسلندا).

تلك الدول التي أصبحت تدين بالفضل لابن فضلان ورحلته التي وثقها بنفسه بعد عودته إلى بغداد، لتصبح كتاباته تلك هي أول وصف موثق لهذه الدول في تلك الحقبة الزمنية المظلمة في تاريخ هذه الدول.

وقد وصف جغرافيتها، وعادات شعوبها، وحالتها الاجتماعية والسياسية والدينية، لتصبح كتاباته وسجلاته المرجع التاريخي الأول للباحثين في حياة تلك الدول والشعوب.

التعريف بصاحب الرحلة

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (١)، عاش ما بين النصف الثاني من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادي).

كان من موالي فاتح مصر محمد بن سليمان المنفق الكاتب (٢).

كان ابن فضلان رجل دولة ذا عقل راجح وبصيرة ثاقبة، وفهم وعلم يؤهلانه إلى استنباط الأمور وإدراك الحقائق وتفهم عادات وتقاليد الشعوب المختلفة، فضلا عن كونه كاتبا وأديبا.

كان ابن فضلان رجلا تقيا ورعا، شديد الإيمان بالله، عظيم التمسك بدينه وأخلاقه وتقواه، لا يخون الأمانة ولو خانها رفاقه، ولا يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طوال الرسالة، فتراه يتضرع إلى الله أن ينجيه من شر ما يلقاه، ويبرأ إليه من شرور الناس الذين يراهم في طريقه، ويتقزز من القذارة والأوساخ، ويهوله أن يرى النساء إلى جانب الرجال، بل يفزعه أن يراهن في عري مخجل، فيدعوهن إلى التستر، وكم ستر وجهه حين تكشف النساء عن عوراتهن.

وكان يرتجف لسماع أسئلة ملؤها الكفر، فيستغفر الله لسائله حين يقول له: «ألربنا عزوجل امرأة؟».

وغمه أن يسجد أقوام لخشب ينحتونه على أشكال مخزية، أو يتخذوا أربابا كثيرة، فيتلو للحال آية الله



الكريمة: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٤٣).
وقد غضب ابن فضلان لانتهاك حرمة المسلمة حين ذكر أن ملك الخزر اليهودي يغصب المسلمة على الزواج منه (٣).

بداية الرحلة

بدأت الرحلة عندما أرسل ملك الصقالبة (٤)، الذي دخل في الإسلام هو وشعبه، إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله (٥) عام ٩٢١م، يطلب منه أن يرسل إليه من يعلمه أمور الدين الإسلامي ويبني له مسجدا، ويساعده في بناء بعض القلاع؛ لكي تحميه من قبائل اليهود الخزر (٦) الذين عاثوا فسادا في أراضيه.
وأراد ملك الصقالبة أيضا أن يعلن دخوله في طاعة الخليفة وانضواءه تحت لواء الخلافة ليستظل بحمايتها وأمنها، وتصبح قوته مهابة، فأرسل الخليفة وفدا مكونا من بعض علماء الدين وبعض رجال الدولة، وجعل على رأسهم أحمد بن فضلان (٧)؛ نظرا لمكانته العلمية والثقافية وإحاطته بعلوم الشريعة التي تؤهله أن يكون مشرفا على الفقهاء والمعلمين خلال تلك الرحلة.
وعلى الرغم من اتساع رقعة دولة الصقالبة، وسعة خراجها، وكثرة أموالها، فإن ملكها أرسل إلى الخليفة مستنجدا به، ومعلنا خضوعه للطاعة والولاء، وهذا الأمر يدعو إلى الزهو من جانب بغداد، ويوضح هيبة الخليفة، ويرسم مكانة السلطان في أوروبا آنذاك، خصوصا حين يستنجد به ملك لمملكة واسعة، ويسعى معه إلى حلف ثقافي ديني عسكري، كما نعبر عن ذلك اليوم (٨).

وقد تم تشكيل وفد للسفارة تكون من أربعة أشخاص رئيسيين:
١ــ أحمد بن فضلان (رئيس الوفد).
٢ـ تكين التركي.
٣ـ بارس الصقلابي.
٤ـ سوسن الرسي.
وقد تولى هؤلاء أمر الترجمة؛ لمعرفتهم وانتسابهم إلى تلك البلاد التي سوف يمر بها ابن فضلان، وكان بصحبتهم بعض الفقهاء والمعلمين وبعض من الخدم.

مسار الرحلة

غادرت السفارة بغداد في الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩هــ/٢١ يونيو ٩٢١م، ووصلت إلى بلغار في الثامن عشر من المحرم عام ٣١٠هــ/١٢ مايو ٩٢٢م؛ وقد مرت في طريقها بهمدان والري ونيسابور ومرو وبخارى، ومر أيضا ببلاد الترك (٩)، حيث التقى ابن فضلان في سبتمبر من عام ٩٢١م بوزير السامانيين (١٠) والعالم الجغرافي الشهير الجيهاني (١١).
وكانت الرحلة ممتلئة بالمغامرات والمشاق والصعوبات السياسية والانفتاحات على الآخر المختلف ثقافيا واجتماعيا وسياسيا.
وصلت سفارة ابن فضلان إلى ملك الصقالبة، الذي رحب بهم واحتفى بقدومهم، وقرأ عليه ابن فضلان كتاب الخليفة، وأعلن ملك الصقالبة الخضوع والانضواء تحت لواء الخلافة، وبعد ذلك قام الفقهاء والمعلمون بتعليم الصقالبة بعض آيات القرآن وبعض الأمور الفقهية.
وأنشأ ابن فضلان مسجدا كبيرا للصقالبة، وأشرف على بناء بعض القلاع وتحصينها.

وقد سلم ابن فضلان لملك الصقالبة كمية كبيرة من الأدوية كان قد طلبها ولم تكن معروفة عند الصقالبة ففرحوا بها كثيرا.

مدة الرحلة

استغرقت الرحلة حوالي ٤ سنوات، منها أحد عشر شهرا في طريق الذهاب، طاف خلالها ابن فضلان وأعضاء سفارته، فيما كان يسمى في ذلك الوقت ببلاد الشمال (الدول الإسكندنافية)، أو بلاد مقاتلي الفايكنج الشرسين، والذين كانوا عبارة عن قبائل وثنية همجية، تقوم حياتها على السرقة والنهب، فاحتك بهم ابن فضلان، وتحدث عنهم باستفاضة، وأطلق لقلمه العنان ليسجل للتاريخ كل ما تقع عليه عيناه، واصفا حياتهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم.
كما تحدث ابن فضلان عن بلاد الروس (روسيا)، ووصفها بدقة بالغة، وتحدث عن حياتهم الاجتماعية وعن دياناتهم المختلفة وعاداتهم الغريبة.

مشاهد من الرحلة

قدم ابن فضلان في رسالته وصفا دقيقا لتلك الدول التي زارها، مبينا طبيعتها الجغرافية والسكانية، واستفاض في الحديث عن طقسها ومناخها، ثم وصف بعد ذلك الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية لتلك الدول.
في ذلك التوقيت، كانت تلك البلاد غارقة في ظلام عميق وجهل مطبق وعادات غريبة؛ لذلك كان ابن فضلان يندهش كثيرا مما يراه، مثل: قتل الجارية ودفنها مع سيدها حتى تخدمه في العالم الآخر.
ووصف ابن فضلان الروس بقوله: «ورأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم، فنزلوا على نهر إتل، فلم أر أتم أبدانا منهم، كأنهم



النخل شقر حمر، ومع كل رجل منهم فأس وسكين وسيف لا يفارقوه أبدا» (١٢).

كما تكلم عن تقاليد وعادات هذه الشعوب عند موت أحدهم، وكيف يتم حرق جثثهم بعد الموت في مراسيم وطقوس تصاحبها تضحية بشرية.

كما تناول ابن فضلان الحياة الاقتصادية للروس، والتي كانت تقوم على تجارة الرقيق الأبيض، وبيع الفراء التي كانوا يتحصلون عليها من صيدهم الوفير في تلك المناطق.

أما عن حياتهم الدينية، فقد ذكر ابن فضلان عبادتهم للأوثان، وعدم معرفتهم بالأديان السماوية.

أما عن العلوم الطبية لدى تلك الدول، فلم يكونوا يعرفون عنها شيئا، وإذا مرض أحدهم حملوه وحده في خيمة بعيدة، ووضعوا معه طعاما وشرابا حتى يبرأ أو يقتله المرض فيحرقون جثمانه.

وكذلك وصف طرق تناول طعامهم وأنواعه، التي كان يراها ابن فضلان مقززة، فهو القادم من بغداد، عاصمة العالم آنذاك، مدينة العلم، ففي الوقت الذي كانت تنعم فيه بلاد المسلمين بنور العلم، كانت أوروبا غارقة في ظلام الجهل، لذا تأثر كثير ممن التقى بهم ابن فضلان بعلمه ومعرفته وثقافته.

وقد ذكر ابن فضلان في رسالته رؤيته لغرائب وعجائب في تلك الرحلة، فذكر أنه رأى جثمان رجل طوله اثنتا عشرة ذراعا، ورأسه كأكبر ما يكون من القدور، وأنفه أكبر من شبر، وعيناه عظيمتان، وأصابعه كل واحدة شبر.

وقد تحدث ابن فضلان أيضا عن الطقس البارد الذي تشتهر به تلك البلاد، خاصة خوارزم (١٣)، فقال: «ورأيت نهر جيحون وقد تجمد تماما، وسُمك الجليد تسعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق، وهو ثابت لا يتخلخل» (١٤).

وقال أيضا: «كنت أخرج من الحمام فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار».

أثر رحلة ابن فضلان العلمي والثقافي

كان لرحلة ابن فضلان الفضل الكبير في معرفة عادات وتقاليد تلك الشعوب التي مر بها أثناء رحلته، وتعتبر رسالة ابن فضلان هي المرجع الأول للباحثين عن حياة تلك الشعوب في تلك الحقبة.

وقد تناولت كتب الجغرافيا والرحلات رسالة ابن فضلان، التي ذكر فيها رحلته، باهتمام كبير، وأصبح مصدرهم الأول في توثيق حياة تلك الشعوب وعاداتها ووصف جغرافيتها وطبيعتها.

ومن أشهر من نقل عن أحمد بن فضلان ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»، ونقل عنه أيضا



القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد».

كان لرحلة ابن فضلان صدى واسع في بلاد أوروبا، وتلقفها الباحثون الغربيون بالبحث والتدقيق والمراجعة، وخرجت عشرات الكتب والمراجع التي تتحدث عن ابن فضلان ورحلته العلمية الثقافية، والتي كان لها الفضل الأول في معرفة جوانب الحياة المختلفة، وطبيعة الشعوب في تلك الفترة الحالكة السواد في ذلك الجانب من العالم، وقد ترجمت رحلة ابن فضلان إلى معظم اللغات الأوروبية، وصدر عنها الكثير من التحليلات والمناقشات.

يقول المستشرق فرهن في مقدمة دراسته لابن فضلان: «إن تاريخ روسيا، وما جاورها في العصور القديمة، غير معروف، وما زال غامضا مبهما في أكثر نواحيه، ولم يضئ من جوانبه أحد من الأوروبيين، فإذا كان الغرب قد أغفلوا روسيا، فإن العرب والشرقيين قد تحدثوا عنها، فألقى العرب أنوارا كثيرة على تاريخ الغرب القديم، وأدلوا بمعلومات نافعة، وخاصة عن البلغار وروسيا في عهدها البعيد» (١٥).

ابن فضلان في عيون الغرب

وفي تناول المصادر الغربية لرحلة ابن فضلان، نسج حولها الكثير من الأساطير والروايات الخيالية، والتي كان ابن فضلان مصدر إلهامها، وهو بطلها، كرواية «آكلي الموتى»، لمايكل كريتشتون (١٩٧٤م)، والتي تحولت إلى فيلم سينمائي «الفارس ١٣»، من بطولة أنطونيو بانداريس، ومعه الممثل المصري عمر الشريف.

ويوضح الفيلم الفارق الكبير بين ابن فضلان القادم من بغداد بعلمه وأدبه وحنكته، وبين قبائل همجية بلا علم ولا أدب.

ويظهر الفيلم أيضا تأثر مقاتلي الفايكنج بابن فضلان وشجاعته وجرأته، وإن كان كريتشتون في روايته حاول كثيرا الانتقاص من قدر ابن فضلان ووصفه بالجبن والخوف، محاولا أن يبخس ابن فضلان حقه ويقلل من شأنه، لكن رسالة ابن فضلان تبرز شجاعته وإقدامه على الدخول في بلاد غريبة يمتاز أهلها بالشراسة والقسوة، حتى بعد أن نصحه أمير خوارزم في بداية الرحلة بعدم التوغل في بلاد الترك؛ خوفا عليه منهم، لكن ابن فضلان رفض وأكمل رحلته بشجاعة وبسالة حتى أدى سفارته وواجبه، وعاد إلى بغداد ليدون تلك الرسالة الخالدة، التي تجلت فيها آيات العظمة والقوة عند المسلمين، مبرزا ذلك الدور القوي لحبل الخلافة، الذي كان بمنزلة الأمن والأمان لمن يلجأ إليها وينضوي تحتها.

الهوامش

(١) الأعلام للزركلي، (١/١٩٥-١٩٦).
(٢) أحد قادة العباسيين الذي أعاد مصر إلى الخلافة العباسية مرة أخرى بعد أن استقل بها أحمد بن طولون.
(٣) رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ص:٢٦-٢٧.
(٤) الصقالبة: هم سكان شمال القارة الأوروبية، وكانوا يسكنون على أطراف نهر الفولغا، وتقع عاصمتهم بالقرب من «قازان» اليوم في خط يوازي مدينة موسكو.
(٥) أحد خلفاء العباسيين (٢٩٧ - ٣٥٧هـ / ٩١٠ - ٩٦٨م).
(٦) قبائل يهودية كانت تسكن منخفض الفولغا جنوب روسيا.
(٧) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، (١/٣٢٢).
(٨) رسالة ابن فضلان، تحقيق د. سامي الدهان، ص:٢٣.
(٩) ما يعرف اليوم بدول وأقاليم أوزبكستان وأذربيجان وتركمانستان وقرغيزستان وكازاخستان.
(١٠) سلالة تركية حكمت بلاد ما وراء النهر وأجزاء من فارس وأفغانستان (٢٦١هـ/٨٧٥م - ٣٨٩هـ/٩٩٩م).
(١١) عالم جغرافي مسلم، عاش في القرن الرابع الهجري، استطاع رسم الكرة الأرضية، وتحديد موقع مكة المكرمة عليها بدقة شديدة.
(١٢) رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، الناشر: دار السويدي، أبوظبي، ص:١٠٠.
(١٣) إمبراطورية من العصور الوسطى كانت في وسط آسيا ضمت بخارى وسمرقند ومعظم بلاد فارس في زمن السلاجقة الترك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وغزاها المغول بقيادة جنكيز خان وقضوا عليها (١٢١٨ - ١٢٢٤).
(١٤) معجم البلدان لياقوت الحموي، (٢/١٨٦).
(١٥) رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ص:٢٩.



محمد ﷺ بين الأخلاق وحقوق الإنسان

د. يسري عبدالغني
باحث وخبير في التراث الثقافي

كثر الحديث في زمننا الراهن عن حقوق الإنسان، واتخذ عالمنا المعاصر يوما خاصا أطلق عليه «اليوم العالمي لحقوق الإنسان»، وذلك رغم ما يعانيه بنو آدم في أنحاء عديدة في المعمورة الأرضية من الإذلال والإهانة والتشريد والقتل، أضف إلى ذلك إهدار الكرامة الإنسانية، وتحكم القوى العظمى في مصائر الشعوب والأمم، والتحيز للمعتدين، وإغماض العين عن صنوف المعاناة التي يواجهها البشر في مناطق عديدة من عالمنا المعاصر، مع كيل الأمور بمكيالين، فلا يكون للضعيف من سند أو ناصر أو معين.

إنهم يساندون المعتدي؛ لأنه يوافقهم في المعتقد والهدف، والمعتدى عليه ليس على نحلتهم أو هدفهم، وأصدق مثال على ذلك ما وقع وما يقع في بلاد المسلمين المختلفة، مما يدمغ هذه القوى بالتحيز والخديعة والنفاق واسترخاء الأعصاب، رافعة شعار «مصالحنا أولا وأخيرا»، كأنه ليس هناك على الأرض أنفس تزهق، وبيوت تدمر وتهدم، وأعراض تنتهك، وشعوب تواجه الموت والخراب، ثم تحرم من الحصول على سلاح تحمي به نفسها وحقوقها، وتدافع به عن كيانها المستباح.

هل هناك ظلم أبشع من هذا الظلم، وتنكر لقيم الحق والعدل والجمال والإنصاف أمعن في الضلال والتضليل والخداع وأعتى مكرا من هذا الذي يقع تحت سمع العالم وبصره، وعلى مرأى منه صباحا ومساء، بل ويلقى أي عدوان أو اعتداء حماية صريحة من هيئة الأمم المتحدة على أي شعب مسلم يبغي أن يعيش حرا كريما آمنا على أرضه.

إن المسلمين، الذين يواجهون كل هذا العدوان على القيم الإنسانية، هم أتباع النبي محمد ﷺ، الذي رد للإنسان كرامته، وحفظ عليه إنسانيته، ونادى بحقه في الحرية والأمن والحياة الكريمة المستقرة، وكم عمل جاهدا حتى يحقق للضعفاء من الفقراء والمحتاجين أمنا وسلاما، نعموا بهما، فذاقوا طعم الحياة الهانئة الكريمة في ظل القيم والمبادئ والمثل التي أرسى الإسلام قواعدها، وقد كان الرسول محمد ﷺ صاحب أخلاق تهوى إليها النفوس العالية، أخلاق يتعشقها النبلاء والفضلاء والعظماء، لو لم يقم محمد ﷺ دينا لقامت هذه الأخلاق دينا وحدها.

جاء محمد ﷺ بدعوته السمحة لينصف أهل الفقر من أهل الغنى، معلنا أن الجميع في حق الحياة سواء، الفقراء الذين أعاد إليهم إنسانيتهم، وأعطاهم حقوقهم، وحررهم من العبودية والذل.

الحق في الحياة

هذه اللمحة النورانية، التي حبا الله بها نبيه محمدا ﷺ، ردت الكرامة الإنسانية إلى قوم أفقدهم الظلم

إياها، وسلبهم نعمتها، وأعادت إليهم الإحساس بقيمتهم ودورهم كبشر بحق في الحياة المعاشة، أعادت إليهم حقهم الأصيل في الحياة الحرة الكريمة التي لا تعرف تمييزا بين البشر بسبب الجنس أو اللون أو العرق أو اللغة أو الطبقة أو المعتقد، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب.

أعلن محمد ﷺ أنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، وإن الله لا ينظر إلى صورنا وأجسامنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، وأعلن أيضا إن قيمة الإنسان بتقواه وأعماله النافعة المفيدة للناس وللمجتمع الذي يحيا فيه، بل للبشر أجمعين، وعليه، فإن الأعمال النافعة الصالحة هي مناط التقدم عند الله، فقد خلقنا الله شعوبا وقبائل لنتعارف، لنتعاون، لنتضامن، لنتبادل الآراء والأفكار والخبرات والتجارب، لنعمر معا الأرض التي نحيا عليها من أجل واقع أحسن، ومستقبل أفضل لنا ولذوينا وللأجيال القادمة. إذن، لم يخلقنا الله على الأرض لنتعارك أو لنتحارب أو لنتعادى أو ليصطدم بعضنا ببعض، أو ليتعالى بعضنا على بعض، أو ينهب بعضنا خيرات بعض.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات:١٣).

الإسلام يرفض نزعة التعالي

لقد علم محمد ﷺ الناس أن الله وحده هو الذي تخضع له الرقاب، وتخر له الجباه ساجدة طالبة عفوه وغفرانه ورضاه، والناس جميعا أمام الحق سواء، والله فوق الخلق كلهم، والناس تحت لوائه أكفاء.

ولذلك، كان الرسول الكريم ﷺ لا يسمح لنزعة التعالي والعنصرية أن تتواجد، بل كان يواجهها بكل حزم وصرامة حتى يقتلعها من جذورها، ولذلك، عندما سمع الصحابي أبا ذر الغفاري رضي الله عنه يعير آخر بسواد أمه، بدا عليه الغضب الشديد (وقلما كان يغضب)، وقال له مقرعا ومعبرا عن ضيقه بهذه النزعة المقيتة: «طف الصاع، طف الصاع، إنك أمرؤ فيك جاهلية، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل».

ونزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات:١١).

عندما طلب بعض الزعماء من نبي الله محمد ﷺ أن يجعل لهم مجلسا خاصا بهم لا يشاركهم فيه الضعفاء والفقراء، نزل القرآن الكريم ينهى عن الاستجابة لهم، ويطلب من رسول الله ﷺ أن يصبر نفسه على الجلوس إلى الضعفاء والفقراء، لأن نزعة التعالي هذه يمقتها الإسلام، ويؤكد دوما الأخوة الإنسانية العامة.

يقول تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ (الكهف:٢٨).

سمو واستقامة

كانت حياة رسول الله محمد ﷺ نموذجا فذا في التاريخ الإنساني، لم تعرف الدنيا، وبشهادة الأعداء قبل الأصدقاء، مثلا فريدا في سمو الخلق، واستقامة السلوك، واستواء الطبيعة، وحسن المعاملة، كما عرفت من سيرة نبي الرحمة محمد ﷺ، تلك السيرة التي فاضت بالأخبار الكثيرة، ورواها من خالطه وتعامل معه، وسجلتها بوضوح وأمانة كتب السير على ألسنتهم إعجابا بما رأوا، وما لمسوه جليا من نبل الأخلاق، وطيب المعشر، وكرم المعاملة، ولا غرو في ذلك، فالله سبحانه قد أثنى عليه في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ (القلم:٤).

كما وصفه بالرحمة ولين الجانب والتواضع، والبعد عن الجفوة والغلظة والخشونة، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

الطهر والنقاء

إن القارئ الدارس، والباحث المتفحص لحياة النبي محمد ﷺ، حينما يجد ملامح هذه العظمة، التي لم تعرف البشرية لها مثيلا، والتي كانت سمة واضحة تبدو ظاهرة في كل تصرفاته وأقواله وأفعاله، حينما نرى ذلك نتساءل: من أين اكتسب (صلوات الله وسلامه عليه) هذه الشمائل المضيئة؟ هل جاءته من البيئة المحيطة به، أم جاءته من المجتمع الذي نشأ فيه وترعرع؟ وهل ورثها وتلقاها من والديه ومن أهله وذويه؟



حينما يحاول المرء أن يجد جوابا شافيا عن هذه التساؤلات، يجد أن الجو العام الذي نشأ وشب فيه رسول الله ﷺ كان يمثل مجتمعا أو محيطا بعيدا كل البعد عما اتصف به الرسول الكريم من مثل وأخلاق والتزام، ولنقرأ معا ما تناقلته كتب السيرة النبوية وقاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه (ابن عم محمد ﷺ) للنجاشي (ملك الحبشة) يصف ما كان عليه المجتمع في بلاد العرب قبل دعوته ﷺ من ظلم، وضياع للحقوق، وفساد للأخلاق، وانعدام للقيم والمثل، واستغلال من القوي للضعيف، وما جاء به نبي الرحمة (صلوات الله وسلامه عليه) من احترام للإنسان، واحترام للآخر، ورد لكرامة البشر الضائعة، وحماية الضعفاء من عسف الأقوياء، ودعوى للحب والسلام والطهر والعفاف والنقاء والتسامح، وإصلاح للعقائد، واحترام لعقل الإنسان.

يقول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى إله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا».

ويواصل جعفر رضي الله عنه كلامه، فيقول عن النبي محمد ﷺ: «وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاءه من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك (الحبشة وهي بلاد مسيحية)، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك».

وبالطبع فقد رحب النجاشي بالمسلمين المهاجرين من مكة إلى الحبشة، وأحسن إليهم، كما أنه رفض أن يسلمهم إلى وفد قريش الذي جاء يطلبهم، باعتبارهم خارجين على قانون العرب الوثني في تلك الآونة. ونحب أن نشير إلى أن النبي ﷺ اختار الحبشة مكانا لهجرة المسلمين الأوائل لمعرفته أن النجاشي مؤمن بدين سماوي، وهو المسيحية السمحة، والمسلم لا يكون مسلما حقا إلا عندما يؤمن بجميع الرسالات السماوية، وبجميع أنبياء الله ورسله، وبأن جميع الأديان من رحم واحد، كما كان الرسول محمد (صلوات الله وسلامه عليه) يعرف أن النجاشي كمسيحي رجل صالح لا يظلم عنده أحد.

الرحمة المهداة

نعود لنقول: لقد صور جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في كلامه للنجاشي حال المجتمع العربي قبل دعوة النبي محمد ﷺ إلى الإسلام، ووضع في مقابل ذلك ما جاء به الرسول ﷺ من إصلاح للعقيدة والأخلاق والسلوك والمعاملات، وبخاصة حماية الضعفاء من ظلم الأقوياء المتجبرين.

فهل يعتقد أحد أن بيئة كهذه، أو محيطا اجتماعيا سماته هذه يكون له تأثير إيجابي في حياة رسول الله محمد ﷺ؟ إذن، فليس للبيئة أو المحيط أثر يذكر في هذا السمو النبيل في الأخلاق التي تحلى بها.

وإذا عرفنا أن أباه مات وهو جنين في بطن أمه، وأن أمه ماتت وهو في سن السادسة، أدركنا أن ليس لهما أدنى توجيه في حياته، وعليه يعود السؤال مرة أخرى: من أين جاء ذلك لنبي الرحمة والهدى؟

الإجابة ببساطة شديدة تأتي في آية من القرآن الكريم، جامعة لكل معاني الرحمة لبني البشر أجمعين، هي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

إذن، فهي رسالته ﷺ، وعليه تكون تلك هي الإجابة.



ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:

ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة :

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

الوعي الإسلامي

الإسلام والآخر.. عود على بدء

د. أمان محمد قحيف
باحث أكاديمي



يتجدد تناول إشكالية علاقة «الإسلام والآخر» بين الحين والحين في المنتديات الفكرية والثقافية العالمية، ويتجدد هذا التناول في الغالب كرد فعل على سلوك أو تصرف يقع ويحدث من بعض المسلمين هنا أو هناك.. الأمر الذي يتيح لنا القول بأن الواقع الراهن يؤكد أن بعض المنتسبين للإسلام قد أساءوا إليه – سواء بقصد أو بغير قصد – أيما إساءة؛ وذلك من خلال تصرفاتهم وسلوكاتهم التي تتعارض من حيث المعنى والمبنى مع جوهر الإسلام وحقيقة تشريعاته.

إن الساحات الفكرية والإعلامية لا تكف ليل نهار عن التحدث بشكل سلبي حول علاقة الإسلام بالآخر؛ متكئين في ذلك على ما يصدر من بعض المسلمين من فتاوى متشددة أو مواقف تتعارض مع قيم الحضارة والإنسانية.. ناسين أو متناسين أن الإسلام هو دين السلام العالمي، والتآخي الإنساني، والتواصل الحضاري.

ولم يكن الإسلام يوما إلا عونا للبشرية على التحاب، والتفاعل الإيجابي، والتعاون الأممي، ويجب ألا نلصق به ما يقع من سلوكات شاذة من بعض المنتسبين إليه؛ لأن هؤلاء خرجوا عليه يوم أن أقدموا على ما فعلوا ويوم أن نطقوا بما قالوا.. أما إذا كان هناك من خصومه من يذهب – من تلقاء نفسه – إلى الخوف منه أو الترويج لإدانته فإن ذلك يرجع إلى مجموعة من الأسباب نستطيع أن نذكر منها ما يلي:

أ: قدرة الإسلام على جذب الناس تجاه القيم الروحية

فالمعلوم أن النفس الإنسانية مجبولة

على الحاجة إلى الإشباع الروحي تماما مثل حاجة الجسد إلى الإشباع المادي سواء بسواء، ولعل هذا هو ما جعل المفكر الإسلامي الكبير المرحوم عباس محمود العقاد (ت ١٩٦٤م) يقول في كتابه «الله» ص١٤: في الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام. ولنا أن نقول: إن الروح تجوع كما يجوع الجسد، وأن طلب الروح لطعامها، كطلب الجسد لطعامه، حتى لا يقبل الجدل أن الحاسة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان. وحتى لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن، ولا يستقر في وسط هذه العوالم بغير إيمان، وهو قد وجد في وسط هذه العوالم لا مراء، فإذا كان الإيمان هو الحالة التي يتطلبها منه وجوده، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين، ويدل على خلل في الكيان. وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان، على تأصل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ».

يؤخذ مما سبق إذن أن العقيدة الدينية ضرورة وجودية للإنسان السوي، وأن المرء الذي يعيش بغير اعتقاد هو إنسان يخالف طبيعته الإنسانية في جزء مهم من مكوناتها؛ ألا وهو الجانب الروحي.

وإذا كان التدين فطرة إنسانية ويعد مكونا أساسيا من مكونات الطبيعة البشرية فإن هذا الأمر يتأكد للجميع يوما بعد يوم، من خلال بحث العديد من الشباب في الغرب أو في الشرق عن سبل للإشباع الروحي، حتى وإن جاء ذلك من خلال الانضمام إلى بعض التيارات الفكرية التي لا علاقة لها بوحي السماء.

ومعلوم أن التدين - في إطاره العام - يتعارض جوهريا مع الفكر المادي، ولديه القدرة على جذب الناس إلى الجانب الروحي الذي تشتاق إليه النفس البشرية وتتطلع إلى إشباعه باعتباره مكونا أساسيا من مكوناتها ومطلبا حيويا لاستمرار وجودها السوي والطبيعي.. وإذا كان ذلك يتحقق من خلال أي طرح ديني فإنه يتحقق بصورة أوضح وشكل أعم من خلال الدين الإسلامي، لما تحتويه بنية هذا الدين الحنيف من سلامة في المنهج واتساق في التصور عن الكون والوجود.. من ثم فإن من المنطقي والطبيعي أن يقلق الماديون في العالم أجمع من كل التوجهات الدينية الروحية، ومن الطبيعي أن يتعاظم قلقهم ويزداد من الإسلام الحنيف لاستكماله شروط القدرة على جذب الناس إليه أكثر من غيره من الشرائع والملل والدعوات الروحية التي تشهدها الساحة العالمية المعاصرة.

ب: قدرة الإسلام على البقاء والاستمرارية

هنالك العديد من التيارات الفكرية التي ظهرت في الغرب أو وفدت إليه من الحضارات المغايرة له، ونجح بعضها في الانتشار والظهور في كثير من دول الحضارة الغربية ولمدد ليست قصيرة، لكن ما لبث عجلة الزمان أن دارت، وتبدلت بعض البنى السيكلوجية والاجتماعية للإنسان، وتطور الواقع الحضاري.. وعندها سارعت هذه التيارات بالاختفاء والانزواء، وتوارت لتفسح المجال لغيرها من تيارات فكرية مستحدثة عنها وأكثر معاصرة منها، لتملأ هذه الأخيرة الفراغ لبعض الوقت ثم لا تلبث أن تتوارى وتزول هي الأخرى ليحل محلها فكر آخر وتصورات مختلفة.. ولقد حدث ذلك مع ظهور الفلسفة الوجودية التي تراجعت لتحل البنيوية محلها، ثم توارت هذه لتبرز التفكيكية ثم الحداثة، ثم ذهبت الحداثة ودخل الغرب عصر ما بعد الحداثة، ثم جاءت العولمة.. وهكذا دواليك!!.

كل هذه تيارات فكرية تناوبت الظهور والاختفاء وفقا لما تطلبته المراحل الحضارية ووفقا لما أملته ظروف الواقع الغربي المعاش آنذاك.. ولقد ظهرت هذه التيارات واختفت وكان لابد لها أن تظهر وكان لابد لها أن تختفي!.. فهي تظهر لأن العقل البشري يستفرغ جهده من أجل الوصول إلى فكر يساهم في إسعاد الإنسان ويعينه على التلاؤم، والتناغم، والانسجام مع الكون الذي يعيش فيه، وهي تختفي لأنها تتسم في كثير من الأحيان بالقصور والعجز عن معالجة كل متطلبات النفس الإنسانية واحتياجاتها المادية والروحية.

ونود التأكيد على أن كل هذه التيارات الفكرية لم تسبب قلقا للماديين الغربيين ولم تقض مضجعهم على الإطلاق، نظرا لانطلاقها هي الأخرى من منطلقات مادية بحته، فهذه التيارات تتعامل - في الأغلب الأعم - مع الجانب المادي في الإنسان وتغفل الجانب الروحي الذي ينظر الإسلام إليه باعتباره لا يقل قيمة ولا أهمية عن الجانب المادي.. ولعل من أهم الأسباب الكامنة وراء قلق وتوتر الماديين في الغرب - بل في كل أرجاء الدنيا - من انتشار الإسلام وظهوره هو قدرة هذا الدين العجيبة والمدهشة على الاستمرار والبقاء لدرجة أن خصومه اعترفوا بأنه من أقوى الأديان والعقائد المنتشرة في العالم أجمع.. فلقد عبر «شلاير ماخر» (١٧٦٨ -

١٨٣٤) المفكر الألماني المعروف عن هذا المعنى في بداية القرن التاسع عشر الميلادي عندما «أكد أن هناك ثلاث ديانات عظيمة هي: اليهودية والمسيحية والإسلام. ويذهب إلى أن من الأفضل أن نقول: هناك ديانتان لأن اليهودية في طريق الزوال، بينما المسيحية والإسلام لاتزالان تتنافسان في السيطرة على الجنس البشري» (ألبرت حوراني، الإسلام في الفكر الغربي، ص٣٣).

من ثم فإن مما يزعج الماديين في العالم أجمع من الإسلام هي قدرته على الانتشار والبقاء، فهو ليس تيارا فلسفيا يظهر لبعض الوقت ثم ما يلبث أن يتوارى ويختفي، وليس رؤية تأملية أو رياضة روحية يمارسها الناس بعض الوقت ثم يتركونها منصرفين عنها إلى غيرها.

إن الإسلام يبقى مع المسلم - أيا ما كانت جنسيته وأيا ما كانت لغته وثقافته - طوال عمره، لأنه يمنحه الطمأنينة النفسية والراحة الذهنية ويرفع عنه الإحساس بالاغتراب عن الكون والوجود، ويأخذ بيده تجاه تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.. وكل ذلك نابع من الإيمان بالله تعالى والثقة في رحمته وعدله ورعايته للناس أجمعين.. تلك الأمور التي يفتقدها الماديون أينما كانوا وحيثما كانوا.

ولأن الإسلام كذلك، فالماديون قلقون من انتشاره وظهوره بين أمم العالمين، لأنه يمنح المؤمنين به إشباعا روحيا ووجدانيا تتعطش النفس الإنسانية إليه في كل وقت وحين.. الأمر الذي يساهم في انصراف الناس من حول الفكر المادي ويجعلهم يلتفون حول الدين من أجل تحقيق الإشباع الروحي؛ ذلك المطلب الذي عجزت كل فلسفات الدنيا وكل الإبداعات البشرية عن تحقيقه للإنسان الذي هو في أمس الحاجة إليه.

ج: سقوط التهم التي تلصق بالإسلام تترا

تاريخيا، كان هناك دائما من يقوم بإلصاق بعض التهم والأساطير بالإسلام ظلما وزورا.. فقد كان هناك من تطاول وافترى على الإسلام كثيرا حتى في زمن النبوة والخلافة، وسجل التاريخ أيضا أنه ظهر بين الناس من احترف مهاجمة الدين والافتراء عليه إبان فترة الحروب الصليبية وما بعدها، بل إن هناك الكثير من الكتاب - إلى الآن - الذين يهاجمون الإسلام سواء عن جهل أو سوء طوية في العصر الحديث.. غير أن الله تعالى قد قيض لهذا الدين جماعة من الكتاب الغربيين المنصفين والمحايدين الذين اهتموا بالرد على افتراءات ومغالطات هؤلاء المدعين الذين هاجموا الدين الحنيف دون وجه حق.

ومن الرائع أن يكون أكثر من دافع عن الإسلام - من الغربيين - جماعة من العلماء الذين اعترف العالم لهم بالفضل، لمكانتهم العلمية ولاشتهارهم بالموضوعية والحيادية والدقة والنزاهة.. من ثم فإن أكثرهم من أصحاب السمعة الحسنة بين دوائر الأكاديميين الغربيين والشرقيين على السواء، ونذكر من هؤلاء: الكاتبة الألمانية الشهيرة «زيجريد هونكه» وذلك في كتابيها «الله ليس كذلك»، و«شمس العرب تسطع على الغرب». ومنهم «مراد هوفمان» المستشرق الألماني الذي أسلم، وتبنى الدفاع عن الإسلام؛ وذلك من خلال العديد من المؤلفات، وأشهرها «الإسلام في الألفية الثالثة.. ديانة في صعود»، و«الإسلام كبديل»...إلخ.. ومنهم المفكر والفيلسوف الفرنسي الشهير «روجيه جارودي» الذي دافع عن الإسلام والمسلمين في العديد من أبحاثه ودراساته ذات الشهرة العالمية.. وقبل هؤلاء جميعا كان هناك الفيلسوف الألماني الكبير «جوته» الذي انبهر بعظمة الإسلام وحضارته واللغة العربية وثقافتها.. لقد تبنى هؤلاء المفكرون العظام.. وغيرهم كثير - ومعهم كوكبة من الباحثين والمفكرين العرب والمسلمين من ذوي الشهرة العالمية أمثال العقاد ومالك بن نبي وابن باديس وأحمد ديدات.. وغيرهم - الدفاع عن الإسلام وإظهار تهافت التهم والأباطيل التي تشاع عنه؛ متشحين في ذلك بالمنهجية العلمية الدقيقة وبالروح الإسلامية السمحة.. الأمر الذي ساهم إلى حد كبير في نشر هذا الدين الحنيف داخل المجتمعات الأوروبية والأميركية، وخصوصا المجتمع الأميركي الذي يعيش فيه عدد كبير من المسلمين المثقفين أصحاب الدرجات العلمية العالية، القادرين بمكانتهم الاجتماعية والفكرية على أن يقدموا لدينهم الكثير من الدعم المعنوي والمادي، الأمر الذي يعطي الإسلام هناك دفعة كبيرة.. من ثم يتوقع «مراد هوفمان» في كتابه «الإسلام في الألفية الثالثة» أن يحرز الإسلام في الولايات المتحدة نجاحات قد لا تتوافر لأي دين سواه، بل قد لا تتوافر للإسلام نفسه في المجتمعات الأخرى، يقول في هذا المعنى: «إذا كان مقدرا للإسلام أن يحقق في المستقبل المرئي نجاحا في الغرب فإنه سيحققه في الولايات المتحدة الأميركية.. وهناك أسباب كثيرة تؤيد هذا الرأي، بينما لا ينفيه إلا القليل جدا من المعطيات» (ص ٢٣٥).. ويقول في موضع آخر: «إن غالبية

المهاجرين المسلمين أتوا - ويأتون إلى يومنا هذا - كطلبة علم إلى الولايات المتحدة، وبالتالي فإن الجزء الأعظم من أمة المسلمين في أميركا يتألف من مسلمين على درجة عالية من التعليم والثقافة.. وأن تكون مسلما في أميركا يعني أن تكون أكاديميا.. وتدفع هذه الحقيقة عن الإسلام شبهة أن يكون دين أميين وجهلة، بل على النقيض.. هذه الحقيقة تمنح الإسلام وضعا اجتماعيا متميزا وموقفا ماليا قويا» (ص٢٣٥).

هكذا يسقط هذا الاتهام الذي حاول خصوم الدين الحنيف إلصاقه به، وهو أنه دين الأميين والجهلة!!، ولقد سبق هذا الاتهام في السقوط والانحدار العديد من الاتهامات الباطلة التي كان الخصوم يلفقونها لهذا الدين.. وكانت طبيعة الإسلام ذاته والأبحاث العلمية الرصينة من أهم الأسباب التي جعلت تلك الافتراءات تتساقط الواحدة تلو الأخرى كما تتساقط أوراق الشجر الذابل في أيام الخريف.. الأمر الذي ساهم - ومازال - في انتشار الإسلام وارتفاع أعداد المسلمين الذين يدخلون طواعية في رحابه بعد أن أثبت الواقع المعاش والبحوث العلمية الرصينة أنه الدين الأسلم والأصلح والأكثر اتفاقا مع طبيعة الوجود الإنساني، مما أكد أنه المنهج الصادق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده في هذه الحياة الدنيا.

د: تصاعد معدلات الإيمان به والدخول فيه

أيضا يعد من أسباب قلق المؤمنين بالفكر المادي من الإسلام، أن الإحصاءات التي تنشر بين الحين والآخر تكشف النقاب عن أن هذا الدين ينتشر في كل قارات الدنيا بصورة تلفت الانتباه وتشد النظر.. ساعد على ذلك طبيعة الإسلام ذاته، ثم تعدد الجهات الرسمية والمؤسسية التي يستطيع من يريد الدخول في الدين اللجوء إليها لإعلان إسلامه، فهناك المراكز الإسلامية المنتشرة في أوروبا وأميركا ومختلف دول العالم المعاصر، وهناك مجامع البحوث الإسلامية ومجالس الشؤون الإسلامية المنتشرة في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وكذلك رابطة العالم الإسلامي، وأيضا الأزهر الشريف الذي نشر إحصائية تكشف عن عدد الذين جاءوا إليه طواعية من مختلف قارات الدنيا ليشهروا إسلامهم، وذلك عندما أصدر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر السابق بيانا عن عدد من اعتنقوا الإسلام في الأزهر وحده ما بين عام ٢٠٠٠م وعام ٢٠٠٥م، وجاءت الإحصائية على النحو التالي: «في سنة ٢٠٠٠م بلغ عدد الذين دخلوا في الإسلام من ٩٠ دولة ٩٣٨ فردا. وفي سنة ٢٠٠١م بلغ عدد الذين دخلوا في الإسلام من ٩١ دولة ٨٦٠ فردا. وفي سنة ٢٠٠٢م بلغ عدد الذين دخلوا في الإسلام من ٩٣ دولة ١١١٦ فردا. وفي سنة ٢٠٠٣م بلغ عدد الذين دخلوا في الإسلام من ٩٨ دولة ١٣٤٤ فردا. وفي سنة ٢٠٠٤م بلغ عدد الذين دخلوا في الإسلام من ١٢٢ دولة ١٦٧١ فردا. وفي سنة ٢٠٠٥م بلغ عدد الذين دخلوا في الإسلام من ١٠٤ دولة ٢٠٥٢ فردا» (راجع ملحق مجلة الأزهر ذو القعدة ١٤٢٧ هـ)..

وهذا في الأزهر الشريف وحده.

ومازالت الإحصاءات الصادرة عن الجهات الرسمية وغير الرسمية في العالم الإسلامي وخارجه تكشف النقاب عن تصاعد في عدد من يدينون بالإسلام من غير أهله.. ومن المؤكد أن الماديين في العالم لا يروقهم هذا الأمر.. فتكون النتيجة أن تتصاعد عندهم حدة القلق من الإسلام والمسلمين في كل مكان.

ما نود الإشارة إليه هو أن فهم بعض المسلمين لقضية الدين يمثل خطرا على الإسلام ذاته في حين أن الواقع العالمي لا يتحمل ذلك.. وعلينا أن نبرز جوهر ديننا الحنيف من حيث كونه الدين الأكثر إيمانا بحق الآخرين في الوجود؛ سواء كانوا من أهل الملل والشرائع الأخرى أم كانوا من الماديين والملحدين.. وذلك بنص القرآن الكريم القائل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون).

فالإسلام يقر لغير المسلم بالحق في الوجود والعيش، ولا يجيز قتاله أو محاربته إلا إذا اعتدى على الدين أو الوطن أو الأرواح، قال تعالى ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ (الممتحنة:٨-٩).. وتلك تشريعات سمحة تفتقدها عدة ملل وفلسفات وشرائع أخرى.

الأدب والمدرسة

د. المصطفى البوسعيدي
باحث دراسات إسلامية

تكمن قيمة تدريس الأدب في كونه وسيلة للاتصال والتواصل والإبلاغ بين الأفراد والمجتمعات والأمم، فقراءة الأدب أداة تكسب صاحبها المعارف والعلوم، وأداة من أدوات المجتمع للربط بين أفراده وأقوامه البشرية للتعارف بين شعوبها مهما تفرقت أوطانهم وبين أجيالها مهما تباعدت أزمانهم (١).

فمنذ أن بدأ الإنسان يقرأ ويكتب، بدأ العلم ينمو. ونماء العلم وسعته يكون بالقراءة، وسيظل الأمر كذلك (٢). وتكمن أهمية القراءة في حمولتها الدينية، خصوصا أن أول فعل رباني أوصى بفعل القراءة. ومادام تدريس الأدب إحدى الركائز الأساسية التي تقوم اليوم بهذه الوظيفة، فإنه - أي تدريس الأدب - يعاني من عدة إكراهات تحول دون القيام بوظيفته الأساسية. إلى درجة أن نظرة العامة تجعل من الأدب مجرد مضيعة للوقت، مع العلم أنه - الأدب - أساس كل إصلاح للحياة وللنفس (٣). في هذا الصدد، تأتي هذه الورقة لتجيب عن بعض التساؤلات التي تمس تدريس الأدب بالمدرسة، كما تحاول أن تعرض لبعض إكراهات وعوائق الأدب، من دون نسيان التطرق إلى وظيفته الحقة، خصوصا في علاقته بالحياة.

يبدو الأدب في نظر عامة الناس من دون أي صلة بحياة الإنسان اليومية، كما يبدو مجرد خطاب تافه لا يرجى من ورائه أي نفع مباشر ومادي. لذلك تبدو الحاجة ماسة إلى إبراز طبيعة العلاقة بين الأدب المدرسي والحياة (٤).

ما علاقة الأدب بالحياة؟ لاسيما أن الأدب يبدو مجرد أفكار ونصوص في غالب الأحيان هي متعالية على انفعالات الناس وعلى أوضاعهم وهمومهم؟

إن غالبية الناس يرتبطون ارتباطا وثيقا بحاجاتهم الضرورية. وكل ما يحقق لهم رغد العيش، كما يرتبطون بالواقع المباشر بشكل يجعلهم لا يعترفون إلا بما يلامسونه ويتعاملون معه حسيا. ولعل ذلك ما يفسر إقبالهم على الصنائع والحرف والمهن والعلوم التطبيقية، وكل ما له نفع مادي مضمون أو مباشر. كما يفسر في آن واحد نفور الإنسان من الأدب واعتباره فكرا غامضا أو تلاعبا بالأفكار والألفاظ، ومن ثمة مضيعة للوقت لا غير.

ولإبراز أهمية الأدب في الحياة، لابد من تحويل التساؤل السابق إلى محاولة إبراز وظائف الأدب. وقبله تشخيص واقع القراءة بالمدرسة وتحديد نظرة المجتمع إلى هذه القراءة.

عزوف القراء عن الأدب

يصعب التكهن بوضع تحديد دقيق وشامل لأهم الأسباب الحقيقية والكامنة وراء عزوف القراء عن الأدب، لأن الظاهرة يتداخل فيها الاقتصادي بالسياسي بالسيكولوجي، إلا أن هذا الأمر لا يمنعنا من استحضار بعض من هذه الأسباب الحقيقية، وما أصبح يعيشه الأدب ودارس الأدب.

وسائل الإعلام

فكثرة القنوات الفضائية اليوم وبرامجها تغذي ثقافات وفنونا تبتعد عن الأدب أو تدريس الأدب. وإذا كانت وزارة التربية والتعليم قد قدمت لقرائها مشروعا تثقيفيا عبر إنشاء الإدارات والمؤسسات الأدبية، فإنها قد بخلت عليهم بعدم توفير أولويات اقتصادية، مع قلة التشجيع والتحفيز لأهل الأدب، مما يشكل عاملا محبطا للإنتاج الفكري بصفة عامة.

دور المجتمع

إذ نجد غيابا شبه تام لتشجيع الناشئة على قراءة الأدب، بل غالبية الناس لهم رؤية سوداوية عن الأدب وآفاق الآداب، كما أن مدرسي الأدب أنفسهم يفتقدون رؤى واسعة حول أهميته في الحياة، مما يحرم المقبلين عليه من أي تشويق للمطالعة والرغبة والاهتمام. أما دور الجامعات في تدريس الأدب، فهو يفتقر إلى قنوات تصريف وتوظيف هذه الكفاءات، بل يكاد ينعدم وجود أي صلة بسوق الشغل. كما نجد أكثر المعيقات التدريسية مجسدة في النظام التعليمي الابتدائي والثانوي (٥)، إذ إن المتحكمين في وضع البرامج التعليمية لا يراعون مسألة الجودة الأدبية بقدر ما يراهنون على جعل المدرسة قنوات لتصريف إيديولوجيات لتصورات سائدة، والتدريس وفق رؤى ضيقة تفتقد هامش الحرية والإبداع وتنمية الملكات الفطرية، وتضخم المقرر الدراسي بالكم الهائل للكتب، من دون مراعاة كيفية تدريس هذا الكم، وإثقال الكاهل بكثرة الكتب والمطبوعات من دون مراعاة المناخ التعليمي الملائم.

وظائف الأدب

يمكن التمييز في وظائف الأدب بين وظيفتين، عمل جل المتتبعين للشأن المعرفي منذ الأزل على إبرازهما (٦).

● **وظيفة اجتماعية:**

يعمل الأدب منذ نشأته على التفكير في الإنسان، ويجعل منه محور اهتماماته. فقد عملت الفلسفات الأدبية، على سبيل المثال، منذ عصر اليونان - في إرهاصاتها الأولية - على تحليل طبيعة الإنسان، وفهم سلوكه مع تنظيم تفكيره. وقد أبرز الأدب منذ القدم ما ينبغي امتلاكه من أسلحة عقلية وجسدية لولوج الطبيعة، وفهم قوانينها وتسخير ظواهرها لمصلحته. وفي هذا الإطار تبرز عدة نظريات نذكر منها: المجتمع والجريمة، والأدب والحياة، كما دققت العلوم الإنسانية والفلسفة نظرة الإنسان إلى ذاته حينما عملت على رد الاعتبار لهذا الكائن عبر تحليل بعض الظواهر التي تمس بكرامته وسلامته ووجوده. كما هي الحال عند ميشيل فوكو الذي طرح في أحد مؤلفاته histoire de la folies مسألة الجريمة، وحاول أن يبرز دوافعها وعلاقاتها، فخصص جزءا منها لدراسة ظاهرة الحمق، واعتبر ذلك انهزاما للمجتمع.

● **وظيفة معرفية:**

يمكن تقسيم هذه الوظيفة إلى قسمين، إذ يعمل الأدب من جهة على تزويد الإنسان بالمعارف والمعلومات وأفكار الناس عبر الزمان والمكان، فهو يمثل الجسر الرابط بين الحضارات، ويفتح إلى اللانهاية إمكانية هذا التفاعل مع الآخرين، فهو يثرينا ويزودنا بإحساسات لا تعوض تجعل العالم الحقيقي أشحن بالمعنى وأجمل (٧). ولاشك أن ذلك الرصيد



سيساهم في بلورة شخصية الإنسان، وتصحيح معارفه، وتطور ثقافته، وتعميم التفكير، فباطلاع الفرد على الأدب يمكنه اكتساب أسلوب في التحليل وتقنيات في طرح التساؤلات والإشكاليات وكيفية معالجتها، وفهم الحوار والتعامل، ثم انعكاس ذلك على الشخصية واكتساب الاستقلال والقدرة على الإقناع، ونبذ العنف، لأن الأدب يؤمن بأن العنف هو أسلوب من لا يملك منهجا في التفكير والحوار.

كيف يكون الأدب فاعلا؟

يشكل الأدب بكل فنونه وفروعه، وبخاصة الأدب التعليمي، نافذة حرية للرأي والمعرفة والتعليم والتعلم، كما يمثل قنوات مختلفة للبوح والكشف لكثير من الظواهر الاجتماعية. إننا لا نستطيع ترسيخ أسلوب تعليمي إلا عبر منح الأدب قيمته المطلقة، تلك القيمة التي تعبر عن المحيط، وتجعل من القيم بذرة أولى في نواة الأسرة، حيث تزرعه داخل أبنائها، وبأساليب تربيتنا لهم لتعلو في دواخلهم شجرة للوعي البناء والناجح، خصوصا عندما ننمي في دواخلهم روابط الوعي الأمتن للإصلاح، الذي يبتعد عن التقليد والجمود الفكري. ولعل خطرا يواجه الأدب اليوم بين دفتي حجران المؤسسات يكاد يكون شيئًا ثانويا لا فائدة منه سوى صرف الأموال بلا طائل من ذلك (٨).

والأدب الفاعل لا يكون موجها إلا عندما يتنفس بتجربة مسؤولة، وأن يشكل الهاجس الرئيسي المخلص، ولابد كذلك له أن يستند إلى قاعدة صلبة تتلقى النقل من دون أن تميد، وهذه القاعدة ينبغي أن تتشكل لدى الخاصة المسؤولة بوعي الأدب، وتدبير رابطتهم الجغرافية (٩).

إن ما نمارسه وندرسه في بعض الدروس – إن لم نقل جلها – باسم

الأدب لا يعدو أن يكون أدبا بمفهومه الحقيقي، إذ لا نمارسه وفق الإبداع الفردي، ولا نتقبله في بعده الاجتماعي الحقيقي، وكثيرا ما يخلط فيه بين إبداء حرية الرأي، وغياب الذوق وسوء تدريسه، ومنه فلا يمكن أن نجعل من الأدب موجها حقيقيا مادام تدريسه ينهض على الاعتباطية، كما لا يمكن تصحيح أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية إلا بتصحيح نظرتنا إلى الأدب، مادمنا لا نفرق بين النقد الشخصي والنقد الموضوعي، مع العلم أن الأدب هو منبع هذه التفرقة.

رهانات الأدب

إن الأدب يجعل من الإنسان مركز اهتماماته، ويعمل على طرح الإشكاليات المرتبطة به وبواقعه الاجتماعي، غير أن واقع الأدب يتغير كما تتغير التحديات والمشاكل التي تعترض الإنسان. وذلك ما يدفعنا إلى تفحص قيمة الأدب.

لقد عرف المجتمع الإنساني، خصوصا منذ بداية العصر الحديث، تقلبات شكلت في رمتها ما اصطلح على تسميته بعصر النهضة أو الثورة، وقد مست مخلفات هذا التغيير مختلف جوانب الحياة اليومية للإنسان، كالمجال الاجتماعي، والاقتصادي، والنفسي، والسيكولوجي. (١٠).

إننا لا نجادل في أهمية التطور الذي عرفته حياة البشرية، وما حققته العلوم التطبيقية الحديثة من منافع ساهمت في تسهيل حياة الإنسان، وتذليل الصعوبات التي كان يعاني منها، ومن ذلك اختراع الطاقة وما يرتبط بها وبكل أنواعها. والتقدم الحاصل في مجال الطب. وفي تقلص حدة الأوبئة وانتشارها، فضلا عن تطور وسائل التنقل والاتصال، إلى درجة أن أحد مخترعي الإنترنت قال: «إننا سنجعل من العالم قرية صغيرة».

إن هذه الإنجازات بقدر ما تبعث على الانبهار والتقدير، بقدر ما تخفي وراء إيجابياتها سلبيات ومخاطر تهدد استقراريته وإنسانيته، كالتقدم الحاصل في الأسلحة، ودخول الناس في دوامة الصراع والتسابق نحو الاستهلاك، حتى أصبح مقياس قيمة كل إنسان بما يملكه من المصنوعات والمنتجات، وليس ما هو عليه من قدرات عقلية أو ثقافية أو فكر خاص. ومن ثم، انحطت قيمة الإنسان، ولم يعد غاية كما أراده الأدب، بل أصبح أداة لتحقيق المنافع وترويج البضائع والأفكار التي تنتجها مؤسسات معينة من أجل ترسيخ قناعات تحقق منافع خاصة.

يهدف الأدب، إذن، بوصفه فكرا محايدا ومستقلا وشموليا، إلى صيانة كرامة الإنسان، والتعامل معه غاية وقيمة، وليس وسيلة وأداة. ولتحقيق ذلك يتجه التفكير الأدبي إلى إيقاظ وعي الإنسان لتخليصه من أوهامه ومن الأفكار التي تصنع من أجل أغراض معينة وعابرة، فتشوه حقيقته وتزيد الإنسان ابتعادا عن الواقع. فالأدب يعمل على مساعدة الإنسان على فهم واقعه وذاته حتى تكون طموحاته مطابقة لإمكاناته، وحتى يتمكن من فهم وتحديد موقعه داخل دوامة الصراع الاجتماعي والثقافي والسياسي (١١). كما يعمل الأدب على نقد العلوم من أجل توجيهها نحو خدمة الصالح العام، أي الإنسان بغض النظر عن انتماءاته العرقية أو العنصرية وإمكاناته الطبيعية.

خاتمة

هكذا يتبين أن السؤال: ما الأدب؟ سؤال مستمر، لأن الأدب ليس له وصف نهائي وقار. بل يتلون بتلون المشاكل التي يفرزها المجتمع الإنساني. ولأنه فكر يصدر من الإنسان ولأجل الإنسان، فهو وعي العالم. والعالم بلا أدب، لا يفكر إلا في المنافع التي قد يجنيها عمله، فلا يتنبه إلى هذه المخاطر التي تصاحب ذلك.

إن الأدب من خلال هذه الوظائف وغيرها، يبقى وثيق الصلة بحياة الإنسان، مادام هذا الإنسان يفكر، فإن الأدب يمكنه من تنظيم هذا التفكير وعقلنته، كما يساعده على فهم واقعه الاجتماعي والطبقي من أجل بناء علاقات بناءة داخل المجتمع، والحفاظ على الطبيعة، إذ إنه - أي الإنسان - أخطر مكوناتها.

الهوامش

١- كتاب القراءة أولا، لمحمد عدنان سالم،ص:٤٢.
٢- الجسر والهاوية.. سيرة شعرية، محمد بن طلحة، ص:٥، نهاية التاريخ وبداية الشعر.
٣- يمكن العودة إلى كتاب إدانة الأدب، لعبدالرحيم جيران.
٤- انظر كتاب الأدب والمؤسسة، لسعيد يقطين، نحو ممارسة أبية جديدة.
٥- انظر كتاب المعرفة والمدرسة، آليات النقل والتبسط، محمد حمود، منشورات صدى التضامن.
٦- الأدب وفنونه، عزالدين إسماعيل، ص:٢٤-٢٥.
٧- الأدب في خطر، تزيفتان تودروف، ترجمة عبدالكبير الشرقاوي، ص:٧.
٨- المجلة العربية، بتصرف ٧٩.
٩- نفسه، ص٧٩.
١٠- يمكن العودة لكتاب اقرأ وربك الأكرم، لجودة سعيد، ص:٣٢-٣٣.
١١- يمكن العودة لكتاب جينالوجيا المعرفة، لميشيل فوكو.



عائشة التيمورية

(١٢٥٦ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٤٠ - ١٩٠٢م)

د.محمود خلف
باحث في الدراسات الأدبية

هي: عائشة عصمت بنت إسماعيل باشا تيمور بن محمد كاشف تيمور، أديبة فاضلة، حكيمة عاقلة، بارعة باهرة، شاعرة ناثرة. تنتمي إلى الأسرة التيمورية ذات الأثر في الثقافة العربية الحديثة، فأخوها أحمد باشا تيمور مؤسس المكتبة التيمورية والمؤلف أيضا، وابنا أخيها: محمد تيمور الكاتب المسرحي وأحد رواد فن القصة القصيرة، ومحمود تيمور رائد الواقعية في الأدب العربي الحديث.

ولدت سنة (١٢٥٦ هـ/١٨٤٠م) في مدينة القاهرة، والدتها شركسية الأصل. والدها إسماعيل باشا تيمور. رضعت عائشة الأدب وهي في مهد الطفولة، وتحلت بحلي لغات العرب قبل تضلعها باللغات التركية، وفاقت أقرانها فصاحة عند بلوغها سن الرشاد، وصارت ندرة زمانها بين أهل الإنشاء والإنشاد، وسارت في مضمار أدباء هذا العصر.

تعلمت العلم والأدب في مصر على أساتذة أفاضل بين أبويها، وكان أكثر ميلها إلى علم النحو والعروض حتى بلغت في الشعر حدا لم يبلغه غيرها من نساء عصرها. ولما انطوى بساط مهدها، وفرقت بين أبيها وجدها، بادرت والدتها إلى تعليمها فن التطريز، واستحضرت لها آلات التعليم، وكانت أفكارها غير متجهة لتلك، بل جل مرغوبها تعلم القراءة والكتابة، وقد علم منها هذا الميل من ائتلافها مع كتاب والدها، وكلما كانت والدتها تمنعها عن الحضور مع الكتاب وتجبرها على تعلم التطريز، تزداد هي نفورا من طلب والدتها.

ولما رأى والدها تلك المحاورات تفرس فيها النجابة، وقال لوالدتها: «دعيها فإن ميلها إلى القراءة أقر». وأحضر لها اثنين من الأساتذة: أحدهما يدعى إبراهيم أفندي مؤنس؛ كان يعلمها القرآن الكريم والخط العربي والفقه. والثاني يدعى خليل أفندي؛ كان يعلمها علم الصرف واللغة الفارسية.

وبعدما تعلمت القرآن الكريم تاقت نفسها إلى مطالعة الكتب الأدبية - وأخصها الدواوين الشعرية - حتى تربت عندها ملكة التصورات لمعاني التشبيهات الغزلية وخلافها، ولما صارت قريحتها تجود بمعان مبتكرة لم يسبقها إليها غيرها، رأى والدها أن يستحضر لها أساتذة عروضيين من النساء الأديبات. وقبل إتمام ذلك صار زواجها من السيد الشريف محمود بك الإسلامبولي، وذلك كان في سنة (١٢٧١هـ/١٨٥٣م).

وهنالك اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الأشعار، والتفتت إلى تدبير

المنزل وما يلزم له، خصوصا حينما رزقت بالأولاد والبنات، وبقيت على ذلك حتى كبرت لها بنت، كان اسمها توحيدة، فألقت إليها زمام منزلها، وفي تلك الفترة توفي والدها في سنة(١٢٨٩هـ/١٨٧٢م)، وزوجها في سنة (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م)، وصارت حاكمة نفسها، فأحضرت لنفسها اثنتين لهما إلمام بالنحو والعروض: إحداهما: تدعى فاطمة الأزهرية. والثانية: ستيتة الطبلاوية - وصارت تأخذ منهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره وأحسنت الشعر، وصارت تنشد القصائد المطولة والأزجال المتنوعة، والموشحات البديعة التي لم يسبقها أحد إلى معانيها، ومن ذلك قد جمعت ثلاثة دواوين بثلاث لغات: العربية، والتركية، والفارسية.



وقبل أن تشرع في طبعها توفيت كريمتها توحيدة، وهي في سن الثامنة عشرة من عمرها، فاستولى عليها الحزن والأسف الشديد، حيث إنها كانت مدبرة منزلها، ولم تحوجها إلى أحد سواها، وهناك تركت الشعر والعروض والعلوم وجعلت ديدنها الرثاء والعديد والنوح مدة سبع سنوات حتى أصابها رمد العيون. ثم قللت شيئا فشيئا من البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون. فجمعت ما وجدته من أشعارها فوجدت بعضه والباقي تفرق مدة حزنها، فجاء منه ديوان بالتركية سمته «شكوفة»، وديوان عربي سمته «حلية الطراز»، وكان له وقع عظيم في النفوس وقبول زائد عند أهل الأدب. وبعد ذلك، رأت نفسها أنها قادرة على التأليف فألفت كتابا سمته «نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال». ولها رواية تمثيلية (مسرحية) بعنوان: «اللقا بعد الشتات». ولها رواية أخرى بخطها، لم تكتمل، ورسالة أخرى في الأدب بعنوان: «مرآة التأمل في الأمور». ولما انتشرت مؤلفاتها - المذكورة - سار في حديثها الركبان إلى أقصى العمران، وطار صيتها في الآفاق، ووردت إليها التقاريظ من كل أديب.

نماذج من شعرها

قالت في الفخر:

بيد العفاف أصون عز حجابي
وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة
نقادة قد كملت آدابي
فجعلت مرآتي جبين دفاتر
وجعلت من نقش المداد خطابي
ما عاقني خجلي عن العليا ولا
سدل الخمار بلمتي ونقابي
عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت
صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتي في راحتي وتفرسي
في حسن ما أسعى لخير مآب

نماذج من النثر

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية (ت١٣١٣هـ/١٨٩٥م):

«استهل براعة سلام مل الشوق وتقلد الشقق ما نشقت ناشقة عف الوداد كفالته ورضيت المجال في صدق المقال لنطق بخالص الوفاء مداد حروفه، وأقام بأداء التحية العاطرة قبل فض ختام مظروفه، ولعمري قد توجته أزهار الثناء بلآلئ غراء كللته زواهر الوفاء من خالص الوداد إلى حضرة من لا تزال تستروح الأسماع بنسيم أنبائها صباح مساء، وتتشوق الأرواح إلى استطلاع بدر إنسانها الكامل أطرافا وآناء، ومما زادني شوقا إلى شوق حتى لقد شب فيه طفل الشفق تعن الطوق اجتلائي حديقة «الورد» القدسية ونافجة الأدب المكية فيا لها من حديقة رقمتها أحداق الأذهان فاقتبست نورا وأنشقتها مسام الآذان فثملت طربا وسرورا.

ولعائشة تيمور قصائد مختلفة في الأوصاف والأخلاق والغزل والمديح، وإنما أخذت في كل ذلك مأخذ كتاب زمانها، فلم تعالج المواضيع المبتكرة. وكذلك نثرها لا يخلو من التصنع في نظم سجعاته. هذا فضلا عما يحتويه من التخيلات والأقاصيص المصنوعة التي قصدت بها ترويح الأفكار وتلهية الأحداث.

ومع ذلك، فإنني أستطيع القول إن شعر عائشة التيمورية يعد طليعة الشعر العربي «النسوي» في العصر الحديث، هو بديباجته وأسلوبه أقرب إلى الموروث، وبمحتواه وتنوعه الموضوعي أقرب إلى حياة صاحبته وتجاربها، كان لموقعها في أسرة مستنيرة تأثير إيجابي على تكوينها الثقافي وإبداعها الشعري. وبعض صور الغزل في شعرها - مثلها مثل صور البكاء على ابنتها - تنم عن صدق الإحساس، وخصوصية الشعور الأنثوي.

الإعاقة في الموروث الشعبي العربي القديم



محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

كانت النظرة الطبقية العنصرية مسيطرة على العرب؛ إذ إن السيد الشريف المصاب بالمرض أو الإعاقة لا يستطيع أحد أن يعيره بذلك، بل قد يتمدحون ذلك فيه.

قال الجاحظ: «وقد فخروا بالعمى، وذلك كثير، واحتجوا بالعرج وذلك غير قليل.

وإذا كان الأعرابي يعتريه البرص فيجعله زيادة في الجمال ودليلا على المجد، فما ظنك بقوله في العرج والعمى، وهما لا يستقذران ولا يتقزز منهما ولا يعديان ولا يظن ذلك بهما، ولا ينقصان من تدبير، ولا يمنعان من سؤدد، وهذا المعنى نفسه قد ذكره شاعر قريش حين عدد أسماء من عمي من أشرافهم فقال في كلمة له:

ومطعم وعدي في سيادته
فذاك داء قريش آخر الزمن
وخير دائك داء لا تسب به
ولا تبيت تَمَنَّى لذةَ الوسن
داء كريم فلا دعوى فتحذره
فالحمد لله ذي الآلاء والمنن» (١)

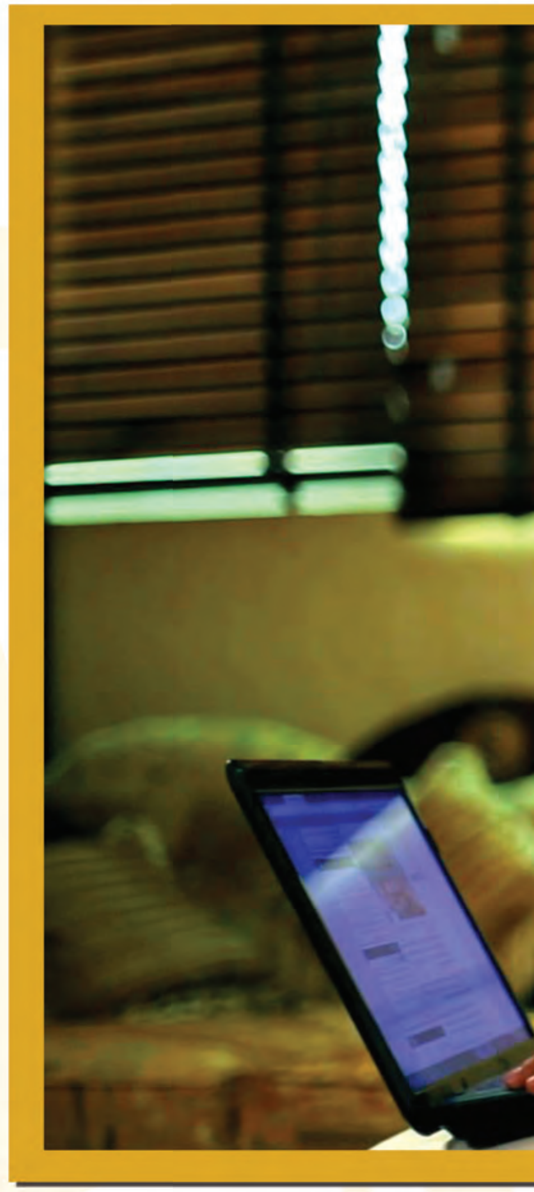
و«عيرت أبا طالب بعض نسائه بالعرج فقال:

قالت عرجت فقد عرجت فما الذي
أنكرت من جلدي وحسن فعالي
وأنا ابن بجدتها وَفِي صُيَّابِهَا
وسليل كل مسود مفضال
أدع الرقاحة (٢) لا أريد نماءها
كيما أفيد رغائب الأموال
وأكف سهمي عن وجوه جمة
حتى تصيب مقاتل البخال

وقال أبوطالب قولا هو أجمل وأرجح من قول الجميع؛ وذلك أنه قال وفسر:

أنا يوم السلم مكفي
ويوم الحرب فارس
أنا للخميسة أنف
حين ما للخمس عاطس

فزعم - كما ترى - أنه إذا كان في السلم فهو لا يحتاج مع الكفاية والأعوان إلى



ابتذال نفسه في حوائجه، وإذا كان في الحرب فهو فارس يبلغ جميع إرادته.

وما ضر - أكرمك الله - هرثمة بن أعين (٣) ونصر بن شبث (٤) وغيرهما من الرؤساء المحاربين المقربين الذي كان يمنعهم من المشي إذا كانوا على ظهور الخيل أمثال العقبان (٥)» (٦).

ما سبق كان في السادة والأشراف والكبراء، لكننا إذا حولنا النظر لرأينا عكس ذلك، حيث الاستحقار والتقزز من ذوي العاهات والمرض؛ فهذا سعْد رأى أن له فضْلا على منْ دونه، فقال النبي مصححا له وموجها: «هلْ تنْصرون وترْزقون إلا بضعفائكمْ؟» (٧).

و«كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض، فقال بعضهم: إنما كان بهم التقذر والتقزز» (٨).

وهذا كان نهج السابقين الذين ينظرون للخلق نظرة طبقية متعالية، وشعارهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ (هود:٢٧)، أي: «ما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر لنا» (٩).

وللعرب أمثال كانوا يضربونها تعبر عن تجاربهم الحياتية ونظرتهم التي قد تتفق أو تختلف معها، وقد تناولوا من خلالها ذوي الحاجات، ومنها:

- أعمى يقود شجْعة

الشجْعة: الزمْنى، أي: ضعيف يقود ضعيفا ويعينه (١٠).

- صاحب الحاجة أعْمى (١١).
- يطْرق أعمى والبصير جاهل

الطرْق: الضرب بالحصى، وهو نوع من الكهانة.

يضرب لمن يتصرف في أمر ولا يعلم مصالحه، فيخبره بالمصلحة غيره من خارج (١٢).

- ربما أصاب الأعْمى رشْده

أي: ربما صادف الشيء وفْقه من غير طلب منه وقصد (١٣).

- أقْرب منْ حبْل الوريد ومنْ عصا الأعْرج (١٤).
- أوْهى من الأعْرج (١٥).
- أسرع من لمع الأصم

لأنه يكتفي من الإشارة باللمعة (١٦).

- أصم عما ساءه سميع

أي: أصم عن القبيح الذي يكْرثه (تقول: كرثه الغم - من بابي ضرب ونصر - وأكرثه: إذا اشتد عليه) ويغمه، وسميع لما يسره، أي: يسمع الحسن، ويتصامم عن القبيح، فعل الرجل الكريم (١٧).

- كم من ذي عرج في درج المعالي عرج، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم.

وقيل: إن من الصم من يسمع السر فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه.

ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي (١٨).

والأمثلة في كتب الحكم والأمثال كثيرة، وإنما أردنا أن نلقي نظرة سريعة عما يدور في خلد العرب تجاه المرضى وذوي الحاجات.

الهوامش

١- عمرو بن بحر بن محبوب، أبوعثمان الجاحظ: البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ص(٣٧-٣٨).

٢- «الرقاحة: الكسّب والتجارة» (لسان العرب، مادة: رقح).

٣- «ابن أعين (٠٠٠- ٢٠٠هـ =٠٠٠- ٨١٦م): هرثمة بن أعين: أمير، من القادة الشجعان. له عناية بالعمران.
ولاه «الرشيد» مصر (سنة ١٧٨هـ)، ثم وجهه إلى إفريقية لإخضاع عصاتها، فدخل «القيروان» (سنة ١٧٩هـ).
وطلب من الرشيد أن يعفيه، فنقله (سنة ١٨١هـ) وعقد له على خراسان، فأقام فيها.
ولما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، انحاز إلى المأمون، فقاد جيوشه وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين.
وانتظمت الدولة للمأمون، فنقم عليه أمرا، فدعاه إليه وشتمه وضربه وحبسه.
وكان الفضل بن سهل (الوزير) يبغضه، فدس إليه من قتله في الحبس سرا، بمرو» (الأعلام، ٨٢/٨).

٤- «نصر بن شبث» ٠٠٠- بعد ٢١٠هـ - ٠٠٠- بعد ٨٢٥م: نصر بن شبث العقيلي: ثائر للعصبية العربية.
كان أسلافه من رجال بني أمية.
وفي أيامه مات هارون الرشيد، وحدثت الفتنة بين الأمين والمأمون، وقتل الأمين.
فامتنع نصر عن البيعة للمأمون، وثار في كيسوم، وتغلب على ما جاورها من البلاد، وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وقويت نفسه، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي (سنة ١٩٨هـ).
واستمر في امتناعه إلى أن ولى «المأمون» عبدالله بن طاهر (سنة ٢٠٦هـ) من الرقة إلى مصر، وأمره بحرب نصر بن شبث، فذهب إلى الرقة، وقاتل نصرا وضيق عليه.
وانتهى أمره بالاستسلام فسيره عبدالله إلى المأمون، وهو ببغداد، فدخلها في صفر (سنة ٢١٠هـ) (السابق، ٢٣/٨-٢٤).

٥- «العقاب: طائر، وجمع القلة: أعْقب؛ لأنها مؤنثة، والكثير عقِبان» (الصحاح، مادة: عقب).

٦- البرصان والعرجان والعميان والحولان، ص(٤٦-٤٧).

٧- أخرجه البخاري في «الجهاد»، باب: «من اسْتعان بالضعفاء والصالحين في الحرْب...»، ح (٢٨٩٦).

٨- تفسير الطبري، (٢١٩/١٩).

٩- السابق، (٢٩٥/١٥).

١٠- أبوالفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت، (٢٩/٢).

١١- السابق، (٤١٧/١).

١٢- السابق، (٤٢٣/٢).

١٣- السابق، (٣٠٧/١).

١٤- السابق، (١٢٩/٢).

١٥- السابق، (٣٨٢/٢).

١٦- جمهرة الأمثال، (٥٢٨/١).

١٧- مجمع الأمثال، (٤٠٢/١).

١٨- المستطرف، (٥٦٢/٢).

حوار بين زوجين

محمد أحمد عبدالقادر
شاعر إسلامي

تقول رفيقتي أنت الحبيب ... وليس لغيركم فينا نصيب

إذا أقبلت أقبلت الحياة ... وإن فارقت فالدنيا غروب

تراودني لنأيكمو ظنون ... وتحملني وتلقيني دروب

ولا شيء يسر به فؤادي ... ولا زاد بغيركمو يطيب

* * *

رفيقة دربنا رفقا بقلب ... يكاد لطيب عشرتكم يذوب

فما الدنيا وما أضحى عليها ... بغير جواركم إلا خطوب

إذا ابتسمت كأن الشمس تجري ... بوجه قد خلا منه القطوب

وإن تغضب تعاتبني برفق ... وتستر إن بدت مني عيوب

وإن تعصف بنا الأيام قالت ... وربك لن تضعضعنا كروب

* * *

فكم مرت ليال قاسيات ... ولم يسمع بشكوانا القريب

وإن أمرض - فداها الروح - تبقى ... على رأسي ويغلبها النحيب

وأسمعها إذا سجدت بليل ... تناجي الله باكية أطيب

وتخفي سقمها - نفسي فداها - ... فلا تشكو ويخبرنا الشحوب

لها ودي وما ملكت يميني ... ومهجتنا إذا سألت نجيب

حتى يكون حوارا لا جدالا

من أدب الحوار

محمد رشيد العويد
باحث دراسات إسلامية

ما أحوج كثيرا من الناس إلى تعلم آداب الحوار، حتى ينجحوا في تحقيق ما يريدونه من حوارهم، ويحافظوا على استمراره، ويختصروا أوقاتا تضيع حين يتحول الحوار جدالا عقيما.

وخير من نتعلم منه آداب الحوار، كما نتعلم منه كل شيء، إنما هو أسوتنا ﷺ، إذ نجد آدابا عظيمة، جميلة، في كثير من محاوراته التي تزخر بها سيرته ﷺ.

وأختار اليوم ما دار بينه ﷺ وبين عتبة ابن ربيعة، سيد من سادات مكة، حين جاءه يعرض عليه أمورا، فقال: يابن أخي، إنك منا حيث علمت من السلطة - المكانة - في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها، فقال النبي ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

وأرجو أن نقف هنا نتأمل كيف وجه عتبة أربع تهم عظيمة للنبي ﷺ هي: أنه ﷺ فرق قومه، وسفه عقولهم، وعاب آلهتهم، وكفر آباءهم، فلم يرد ﷺ على أي واحدة من هذه التهم، ولم يفندها ولم يعترض عليها، لأنه لا يحمل هم نفسه، ولا يريد أن يضيع الوقت في تفنيدها، والانشغال بها، فهو يحمل رسالة عظيمة هي كل همه.

لم يقل ﷺ: قبل أن أسمع منك أريد أن أبين لك بطلان ما اتهمتني به، فأنا لم أفرق قومي بل جئتهم بما هو خير لهم، ولم أسفه عقولهم إنما سفهت عبادتهم للأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولم أعب آلهتهم إلا لأنها أصنام تحتاج إلى تحطيم.

وفي هذا توجيه للدعاة ألا ينشغلوا بالفروع، وألا يكون همهم دفاعهم عن أنفسهم، وألا يخوضوا في ما يبعدهم عن أساس دعوتهم.

وللأسف فإن كثيرا ممن يحسبون أنفسهم محاورين إنما هم مجادلون، ينساقون إلى ما يخرجهم عن حقيقة الحوار وآدابه، وعن دعوتهم وغاياتها.

ثم نلاحظ أدب النبي ﷺ في خطاب عتبة إذ قال: يا أبا الوليد، فخاطبه بكنيته، ولم يخاطبه باسمه، وهذا ما يحسن بالمحاور أن يقوم به فيقدر من يحاوره، ولا ينال من شخصه، ولا ينقص من قدره. ولقد تكرر خطابه ﷺ بأبي الوليد مرة أخرى كما سنجد في بقية الحوار.

قال عتبة يعرض أموره: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

وهنا أيضا نجد النبي ﷺ لا يناقشه في عروضه، ولا ينشغل بالرد عليها ورفضها، إنما يكتفي بأن يسأله إن كان قد انتهى من كلامه «أقد فرغت يا أبا الوليد»؟ قال: نعم. قال ﷺ: «فاسمع مني»: قال عتبة: أفعل. فتلا ﷺ سورة فصلت، أي أنه ﷺ اكتفى بكلام الله تعالى يتلوه عليه، فهو الذي يريد تبليغه للناس، هو الرسالة التي لا يمكن أن يتركها ﷺ، إنه لا يدعو لنفعه، ولا يريد شيئا مما عرضه عليه، حتى إنه لم يلتفت ﷺ إليه، ولم يقف عنده، ولم يكترث به، ولم يحاوره حوله.

إنها الرسالة الخاتمة، النبأ العظيم.

هكذا ينبغي أن يكون الدعاة، لا يلتفتون إلى شيء سوى إبلاغ رسالة الله تعالى، «بلغوا عني ولو آية» (البخاري). ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (المائدة:٩٢)، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (المائدة:٩٩)، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ (الرعد:٤٠)، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النحل:٣٥)، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النحل:٨٢)، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور:٥٤ والعنكبوت:١٨)، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (يس:١٧)، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (الشورى:٤٨)، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (التغابن:١٢).

ومما نتعلمه مما سبق:

- حرص المحاور على حسن الخطاب، فلا يخاطب صاحبه الآخر بألفاظ تفتقد الاحترام والتقدير، مثل «أنت»، «يا فهيم»، ذكر اسمه دون كنيته، بل يحرص على مخاطبته بما يؤكد تقديره له واحترامه لشخصه؛ ولعل أفضل خطاب هو بكنيته.
- عدم الانشغال بالتفاصيل، والأشياء الصغيرة، بل يركز على جوهر الموضوع، ويصبر على هذا، فلا يستجر إلى الفروع والهوامش.
- الانتصار للحق وليس للنفس، وخاصة الداعية الذي يبتغي رضا ربه، ونصرة دعوته، ولا يبتغي مجدا شخصيا، ولا انتصارا لنفسه.
- الحذر الشديد من تحول الحوار إلى جدال، وذلك بالحرص على العمل بالأمور الثلاثة السابقة.

الغش وانحراف التعليم

د. مولاي المصطفى البرجاوي
باحث في علوم التربية

تعد المدرسة، في صورتها العلمية الدينامية، نظاما معقدا من السلوك الاجتماعي، يؤدي وظائف اجتماعية وتربوية مهمة، وهي تشكل بدورها بنية اتصالية تفاعلية (١).

وتهدف التربية عبر برامجها وفلسفاتها ومناهجها وأنشطتها ووسائلها إلى غرس القيم الفاضلة التي ارتضاها المجتمع لتنمية الحس الإنساني. وعندما يختل التوازن في المؤسسات التعليمية، وتهتز قيمة الأمانة والصدق والثقة، ينحرف مسار تعليم الناشئة، فكرا وسلوكا (٢).

ويظل الغش المدرسي سرطانا وسلوكا منحرفا يشل العملية التعليمية - التعلمية، بل يشكل معول هدم لإحدى ركائزها الأساسية؛ المتمثلة في التقويم التربوي، إذ يعمل الغش في الامتحانات المدرسية على تشويه معالم التقويم وتزييف حقائقه، ويضعف مخرجات منظومة التربية والتكوين، مما ينعكس سلبا على تجويد التعليم والارتقاء به.

كما أن خطورة الغش في الامتحانات ليست مشكلة محلية، بل تعولت بشكل متنام لتشمل البلدان النامية والبلدان المتقدمة، ولم تقتصر حدودها الجغرافية عند المدرسة، بل اقتحمت أسوار الجامعات ومعاهد التكوين. والأدهى والأمر، امتد أخطبوطها ليشمل جوانب الحياة، لتعود الفرد على الغش وتزييف الحقائق وتزويرها!

- ما المقصود بالغش في منظومة الحياة والتربية والتكوين؟ وما أسبابه في البيئة المدرسية؟
- كيف ينمو ويتطور الغش في ممارسة الغشاش؟
- ما الإجراءات الواجب اتخاذها للحد من استفحال الظاهرة؟

إشكال مجتمعي

أ- تعريف الغش في الاتجاهات العلمية والتربوية:

قضية الغش ليست محصورة في تناولها ومقاربتها على الجانب التربوي - المدرسي، بل عنيت باهتمام كبير من لدن علوم ومجالات مختلفة:

- من منظور علم الاجتماع: «الغش ظاهرة اجتماعية منحرفة، وذلك لخروجها عن المعايير والقيم الاجتماعية التي يضعها المجتمع، ولما تتركه من آثار سلبية تنعكس بصورة واضحة على مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع، وعلى نظمه ومؤسساته» (٣).
- من منظور الشرع الإسلامي: لقد ذم الله عزوجل الغش وأهله في القرآن وتوعدهم بالويل والهلاك، إذ يساهم في فساد المجتمع وضياع مقومات التنمية الحضارية والعلمية وأسسها.. ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ (المطففين:١-٣).

كما حذر الرسول ﷺ من الغش وتوعد فاعله، وذلك أن النبي ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟»، قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني»، وفي رواية: «من غشنا فليس منا»، وفي رواية: «ليس منا من غشنا» (رواه مسلم).

- من منظور علم النفس: الغش عبارة عن سلوك لا أخلاقي، وغير تربوي، وينم عن شخصية غير سوية أو غير ناضجة، تتصف بالخوف، والقلق، والعجز، والسلبية، والتواكل، وضعف الإرادة، وضعف الثقة بالنفس.
- من منظور التربية والتعليم: وبحكم أن موضوعنا يعرض للغش المدرسي، لا بأس أن نقف عند جملة من التعاريف المتنوعة لمحاولة استخلاص تعريف جامع:

● «الغش المدرسي عبارة عن استخدام التلميذ لأي وسيلة كانت تمكنه من الحصول على إجابات، أو درجات في الامتحان بصفة غير شرعية، سواء كانت الوسيلة خطية أو شفهية أو حركية» (٤).

● الغش المدرسي هو محاولة المتعلم إيهام المدرس أن العمل المقدم من إنجازه. وفي هذا المضمار لا يتمكن الأستاذ من تقويم قدرات التلميذ ومهاراته ومعارفه، للوقوف عند مواطن الخلل والضعف والقصور



لمعالجتها من جهة، وتقدمه وتحسنه من جهة أخرى، مما يساهم في تزييف حقائق التقويم (٥).

● «يتمثل الغش الدراسي في الاختبارات وأداء الواجبات المدرسية في حصول المتعلم على الإجابة جاهزة من قرين، أو من مصدر آخر لغرض النجاح في أداء متطلبات أو مهمات موكلة إليه من دون جهد ومثابرة، مما يؤدي إلى الضعف في التحصيل الأكاديمي» (٦).

نستخلص مما سبق أن الغش المدرسي سلوك انحرافي وممارسة مشينة وغير مشروعة، يستخدم فيها المتعلم أشكالا مختلفة من الخداع والتحايل والتزوير للغش في الامتحانات، ويتم ذلك إما بالحصول على إجابات جاهزة، وإما بتدخل الأستاذ ليمنح المتعلم درجات لا يستحقها، مما يؤدي إلى تزييف حقائق التقويم التربوي ويشوه معالم الخريطة المدرسية من دون التمييز بين المتفوقين والراسبين حسب الاستحقاق.

ب - أسباب الغش في البيئة المدرسية:

في هذا السياق، يميز بين العوامل المدرسية وغير المدرسية في استفحال هذه الظاهرة:

● العوامل المدرسية: وتتمثل في:

- طبيعة المنهج: وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن طرائق التدريس التي تركز على التلقين فقط من دون إدماج المتعلم في بناء الدرس والمساهمة فيه. كما أن المدرس يكلف المتعلم بأعمال منزلية مرهقة لا يجد لها حيزا زمنيا لإنجازها. أضف إلى ذلك، اكتظاظ الفصول الدراسية، وطول المقرر الدراسي الذي يجعل المدرس يركز على إلقاء الملخصات وإملائها من دون إشراك المتعلم في بناء العملية التعليمية - التعلمية والتعلم الذاتي.

- نظام التقويم التربوي: الذي يركز على اختبار المتعلم في الجانب المعرفي (الحفظ والاستظهار)، وإغفال المستويات العليا من التفكير (التحليل، التطبيق، النقد، التركيب...).

كما أن نظم التقويم الحالية، المتمثلة في الامتحانات، لم تعد موائمة للتطور، بل معيقة لاستمرار الفرد في التجديد والإبداع. إن قاعدة عمليات التعليم، التي تقوم على أساس معايير جامدة تقليدية، تؤدي إلى الغربلة والتصفية بناء على نتائج الامتحانات من دون تطويرها لتوجيه غير المسايرين لتوجهات أخرى من قبيل التكوين المهني في تخصصات ومهن أخرى طبقا لمبادئ نظرية الذكاءات المتعددة (٧).

- ضعف الإجراءات الإدارية (المراقبة التربوية): إذ إن بعض المؤسسات التربوية، في إطار رغبتها في الحصول على تكريم من طرف الوزارة الوصية على التعليم، تضطر إلى التنسيق فيما بينها، إدارييها وأساتذتها، لتجنب الصرامة في المراقبة، مما يساهم في تسيب الامتحانات، ويرفع من عدد الناجحين من دون استحقاق. كما أن تعرض الأساتذة المراقبين للتهديد من قبل التلاميذ وذويهم، وعدم تكفل الدولة بحمايتهم، يجعلهم لا يعيرون أي اهتمام للمراقبة، من دون أن ننسى أن بعض المديرين يرون أن الصرامة في المراقبة وإتمام الإجراءات الإدارية في تسجيل عملية الغش يمسان بسمعة المؤسسة، ويلفتان الأنظار إليها، ويجعلانها عرضة للفحص الإداري المتكرر؛ بدعوى عجزها عن أداء الدور المنوط بها.



- ضعف الإجراءات القانونية: على الرغم من صدور بعض القوانين الزاجرة للغش في الامتحانات، فإن تفعيلها وأجرأتها يبقيان من قبيل اليوتوبيا. فالأولى عرض لائحة الغشاشين في المؤسسات التربوية، واتخاذ إجراءات صارمة في حقهم، حتى لا تستمر الظاهرة في الاستشراء.

- ضعف التوجيه والتحسيس التربوي: ونسجل في هذا الباب أن الموجهين التربويين لا يقومون بدورهم من خلال القيام بحملات تحسيسية في المؤسسات التعليمية، حيث يتم إشراك جمعيات آباء وأولياء الأمور وجمعيات المجتمع المدني في إطار ما يسمى بالمقاربة التشاركية.

● العوامل غير المدرسية: وتتجلى في:

- التنشئة الاجتماعية: فالمتعلم الذي ينشأ تنشئة أسرية سلبية ينقل سلوكياته المنحرفة إلى المدرسة. فالعلاقات التربوية السلبية - مثلا - وتعلم سلوكيات انحرافية كالتدخين، ومصاحبة أصدقاء السوء، يمكن أن ينقل المتعلم تأثيراتها إلى المجال الأسري، ويبقى تتبع هذا التأثير واكتشافه ومواجهته قبل أن يتحول إلى سوء تكيف مدرسي، وانحراف مرتبط بطبيعة الجو الأسري والعلاقات الأسرية (٨).

- هيمنة المجتمع التحصيلي: إذ الغالب في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ما يتم التركيز على نجاح المتعلم من مستوى تعليمي إلى آخر، من دون مراعاة مدى ما تحقق لديه من تحسن وتقدم في أدائه التعلمي - التربوي.

- وسائل الإعلام: فالإعلام من أشد وسائل التربية خطرا؛ لسهولة تقبله، فبدلا من أن يساهم مع المدرسة ويأخذ دوره الحقيقي في بناء الأجيال وغرس القيم الأصيلة، نراه ينشئ جيلا فارغا مزعزع الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية. فماذا تفعل المدرسة أمام الإعلام الذي يشيع الفاحشة وثقافة الرداءة والمكر والخداع والتزوير للحقائق؟

- التكنولوجيا الحديثة: فشبكة الإنترنت من خلال أدواتها، خصوصا مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك)، التي تنشر أشكالا شتى وطرائق متعددة للغش، وخطة عمل هذه الصفحات أنها تقوم بتجنيد أعضاء «عصابة إجرامية» (قد تتكون من طلبة حاصلين على شهادات عليا أو مدرسين يقومون بدروس خصوصية مؤدى عنها...)، ما إن يجد المتعلم فرصة حتى يرسل إليها صورة من الامتحان فور دخوله، بعدها يقوم فريق مستعد من «العصابة» بكتابة الإجابات بشكل سريع ورفعها على الصفحة بشكل واضح للمتعلمين الذين يؤدون الامتحان، وتتم مطالعة هذه الحلول بواسطة الهواتف النقالة والبلوتوث، وذلك بعد إخفائها في أماكن

حساسة بالجسم لا يتم تفتيشها، لأن الهواتف لا يسمح بإدخالها إلى قاعة الامتحان.

- القدوة السلبية: إذ إن نجاح بعض المتعلمين الغشاشين في الحصول على درجات عالية غير مستحقة، يدفع أقرانهم إلى الاقتداء بهذه التجربة الفاشلة، رغم أن الشاذ لا يقاس عليه.

نمو الغش

ذكر أحد الباحثين (٩) في دراسته أن الغش يتم عبر أربع مراحل تطورية طبقا للمرحلة العمرية التي يمر بها الفرد الذي يمارس سلوك الغش، وهي على النحو التالي:

- مرحلة الغش البريء أو العشوائي (١ - ٧ سنوات): وهذه مرحلة تعلم الحقائق والمفاهيم بمختلف أنواعها بالنسبة إلى الطفل، بما في ذلك مفهومه لذاته. والطفل - خلال هذه المرحلة - حينما يقوم بالغش لا يقوم به بشكل واع مقصود، بل يقوم به بشكل يقلد من خلاله ما يراه أو يحس به ليدرك مفهومه ووسائله ليكتشف طبيعة نتائجه عليه وردود فعل من حوله تجاه ذلك.

- مرحلة غش الحاجة (٨ - ١٢ سنة): حينما يلجأ الطفل إلى الغش خلال هذه المرحلة من عمره فإنه يلجأ إليه من دون وعي حقيقي لمفهوم هذا الغش وسلوكه ونواتجه السلبية، فهو قد ينقل واجب الحساب - مثلا - بسبب عدم تمكنه من القيام به في المنزل، أو عدم قدرته على حل مسائل أو تمارين هذا الواجب، من دون أن يدرك بأن ما يقوم به هو غش. إن الغش هنا، الذي يلجأ إليه الطفل خلال هذه المرحلة، ليس بسبب عجز دائم في التحصيل لديه، وإنما يتم لقضاء حاجة مؤقتة لإرضاء السلطة المسؤولة، سواء كانت هذه السلطة في المعلم أو الأب أو الأم أو الأخ الأكبر أو ولي الأمر. ويلاحظ أن الغش على هذا النحو لا يستمر بريئا تماما، بل يتحول إلى سلوك مؤقت شبه مقصود تتحقق به منفعة أو رغبة فردية مرحلية.

- مرحلة الغش المنظم (١٩ سنة فأكثر): هنا يصبح الغش لدى الطالب خلال هذه المرحلة العمرية عادة متأصلة، هادفة أو متخصصة، أو إطارا عمليا غير سوي لفلسفة حياته وتعامله مع الآخرين، حيث لا يقتصر الغش على مجال الامتحانات فقط، وإنما يتعداه لمجالات حياتية أخرى.

وهكذا يصبح الغش عادة سلوكية غير سوية، ويمثل مشكلة تربوية يعاني منها الفرد والنظام التعليمي ككل، مما يوجب تشخيصها ومعالجتها.

الآثار والنتائج

للغش آثار سلبية على نظام التربية والتعليم (١٠) كما يلي:

أ - إن ممارسة المتعلمين للغش في الاختبارات تعد مظهرا من مظاهر عدم الشعور بالمسؤولية، وسببا لتكاسل المتعلمين وعزوفهم عن أداء واجبهم الدراسي.

ب - إن الغش يؤدي إلى قتل روح المنافسة بين المتعلمين.

ج - يقلل من أهمية الاختبارات في تقويم التحصيل المدرسي للمتعلمين، ويؤدي إلى إعطاء عائد غير حقيقي وصورة مزيفة لنتائج العملية التعليمية تنتهي إلى تخريج أفراد ناقصي الكفاءة وأقل انضباطا في أعمالهم.

د - تزداد خطورة الغش عندما تتورط فيه المدرسة، وهو ما يهدد قيم المجتمع، فمؤسسة القيم أصبحت تدمر القيم بممارستها غير المسؤولة.

هـ - إن مضار الغش تمتد إلى ما بعد الدراسة، فالموظف أو المهني الذي اعتاد الغش أثناء تعليمه، قد يستحل المال العام، ويمارس الكسب غير المشروع والتزوير في الأوراق الرسمية، وقد يستحل الرشوة.

وعليه، فإن مكافحة الغش تكفل رفع مستوى الكفاءة وتحسين أداء الأفراد بعد تخرجهم في مجالات الحياة العملية.

الهوامش

١ - علي أسعد وطفة وعلي جاسم الشهاب (٢٠٠٤م)، علم الاجتماع المدرسي: بنيوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية، ط١، مجد المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص:٩.

٢ - لطيفة حسين الكندري (٢٠١٠م)، ظاهرة الغش في الاختبارات: أسبابها وأشكالها من منظور طلبة كلية التربية الأساسية في دولة الكويت، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، الكويت، ص:٢.

٣ - فيصل محمد خير الزراد(٢٠٠٢م)، ظاهرة الغش في الاختبارات الأكاديمية لدى طلبة المدارس والجامعات: التشخيص وأساليب الوقاية والعلاج، دار المريخ، الرياض، ص:٢٠.

٤ - محمد حسن العمايرة (٢٠٠٢م)، المشكلات الصفية السلوكية التعليمية - الأكاديمية: مظاهرها، أسبابها، علاجها، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ص:١٧٦.

٥ - MarieEstelle Pech(٢٠١١م) : Lécole de la triche. par Yves Desrichard. Paris، Léditeur. France، Avec modification.

٦ - سهيلة محسن كاظم الفتلاوي (٢٠٠٤م)، تعديل السلوك في التدريس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص:٥٠٦.

٧ - حامد عمار (١٩٩٦م): دراسات في التربية والثقافة في التوظيف الاجتماعي للتعليم، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ص:٤٣، بتصرف.

٨ - محمد الشهب (٢٠٠٠م)، المدرسة والسلوك الانحرافي: دراسة اجتماعية تربوية، السلسلة البيداغوجية، العدد:٩، دار الثقافة للنشر والتوزيع- الدار البيضاء، ص:٧١.

٩ - محمد زياد حمدان (١٩٨٦م)، الغش في الاختبارات وأداء الواجبات المدرسية: ماهيته وأصوله، وتشخيصه وعلاجه، دار التربية الحديثة، عمان.

١٠- سعد عجيل مبارك الدراجي (٢٠٠٤م)، ظاهرة الغش: أسبابها - نتائجها - طرق معالجتها، المعهد العالي لإعداد المعلمين - مزده، ص:١١.



أجنحة للأطفال

حمدي هاشم حسانين
كاتب صحفي

تظل الكتابة للأطفال هي ذلك الدرب الصعب الذي يجب أن يتحلى من يسلكه بمقومات تساعده على الوصول لعقل وقلب الطفل معا، فالكتابة للأطفال هي تلك الأجنحة التي تحمل الأطفال وتطير بهم إلى عوالم ملونة جميلة يحلمون بارتيادها بين الحين والآخر، الكتابة للأطفال هي جسر من المخمل على العابر أن يكون حذرا واعيا يملك في جعبته عوامل جذب انتباه الطفل ويحفظ عن ظهر قلب المعجم اللغوي الخاص بكل فئة عمرية كي يتم التواصل ولا تكون هناك حلقة مفقودة بين الكاتب والطفل.

ـ الأطفال ذوو الاحتياجات الخاصة (المعوقون) هم أطفال ككل الأطفال يحلمون ويضحكون ويبكون، قد يكون ينقصهم شيء ما ـ لا دخل لهم بهذا النقص. ولكنهم رغم إعاقتهم يتميزون عن الطفل العادي دوما بالعديد من المميزات، ولذا نجد معظم عباقرة الأدب والثقافة والعلوم والفنون من ذوي الاحتياجات الخاصة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر عميد الأدب العربي طه حسين الذي ألف مئات الكتب رغم فقده لبصره، والموسيقار



العالمي بيتهوفن الذي أدهش العالم بموسيقاه الخالدة رغم أنه فاقد لنعمة السمع.

. الطفل المعاق يحب القراءة والكتاب والقصة والمجلة الموجهة للأطفال، ولكنه يتمنى أن يجد نفسه بطلا على صفحات تلك المطبوعات، لا يحب أن يكون قارئا فقط لأبطال في مثل سنه ولكنه يتمنى أن يكون عنصرا فعالا مثل هؤلاء الأبطال فيساعدهم في حل القضايا الغامضة وفي القبض على المجرمين العتاة وفي مطاردة اللصوص، ولكنه نادرا ما يجد ما يتمنى، فمعظم أبطال القصص التي يقرأها من الأطفال الأسوياء.

ولكن ليست هذه نقطة النهاية، تلوح بين الحين والآخر أعمال موجهة للطفل المعاق تجعل منه بطلا في قصة أو رواية أو سيناريو، مثل هذه الأعمال يقبل عليها الأطفال بشغف وحب شديدين، فهو يرى نفسه فوق صفحات الأوراق الملونة، يرى نفسه بطلا، يفك شفرات صعبة لمساعدة الشرطة، عبقري في الحاسوب تلجأ إليه السلطات لمساعدتهم، عقله الفذ القادر على ترتيب المعلومات والوصول إلى نتائج صحيحة لمساعدة الشرطة في الوصول إلى الجناة.

. الإعاقة دافع للنجاح: على الكاتب حين يتوجه للطفل المعاق أن يكتب بلغة لا تشعر هذا الطفل بإعاقته، فهو كالطبيب الذي يساعد مريضه على تجاوز محنته والشفاء من المرض، لذا يجب على الكاتب أن يختار كلماته وعبارته بعناية فائقة، أذكر هنا عملا مهما تم كتابته لمجلة عربية عن طفل معاق على مقعد متحرك.. هذا الطفل لم يركن لإعاقته بل أخذ يفتش في ذاته عن طاقاته ومواهبه وقدراته وبدأ يكتشفها شيئا فشيئا حتى أصبح اسمه ذائع الصيت، وصار يشارك شرطة المدينة بموهبته هذه في حل أصعب وأغرب القضايا.

شخصية المعاق

تظل ثقافتنا مخاطبة الأكثرية والسواد الأعظم وإغفال الأقلية، وهذا خطأ شائع في مجتمعاتنا، فآلية السوق مازالت تحتكر إنتاجنا لكتب الأطفال وهي عملة نادرة في مجتمعاتنا أن تجد كتبا للطفل المعاق، وإن وجدت هذه الكتب فإنها تكون صادرة بهدف توعوي أو إرشادي فتكون صبغتها صبغة تقليدية وليست مكتوبة ومرسومة بالحرفية المطلوبة، أما إذا عرجنا قليلا لمجلات الأطفال فمن النادر أن نجد طفلا معاقا بطلا لقصة طويلة أو مسلسل كومكيس يجذب القارئ، ولذا نخلص من هذه المقدمات لبعض النتائج.

النتيجة الأولى: كيف أجذب الطفل المعاق للقراءة.. يظل هذا السؤال عالقا في مخيلة الجميع.. هل هو سؤال صعب لهذه الدرجة.. كلا بالتأكيد، الطفل المعاق كائن حي نهم يود اكتشاف ما حوله وكل ما ينتظره كاتب يحترم فكره كطفل ويعرض عليه أعمالا تحترم عقله ولا تشعره بإعاقته.. بل تشعره أنه بإعاقته هذه يتميز عن الأسوياء.

النتيجة الثانية: كتب الأطفال هي تلك النافذة التي يطل من خلالها الطفل المعاق فيجد عالما رحبا مليئا بالأحداث الشيقة التي تحبس الأنفاس من فرط روعتها وجمالها، هو مستعد لقراءة الكتاب حتى الصفحة الأخيرة إذا أحسنا مخاطبته وتعبنا قليلا في كتابة كتاب جيد يناسبه.

١. الطفل المعاق هو بطل أول وليس ثانويا فيستطيع أن ينجح في كل المجالات رغم إعاقته ويستطيع أن يندمج في المجتمع فيبهر الجميع بأدائه وذكائه.

٢. الطفل المعاق أسوة حسنة لمن حوله.

٣. الطفل المعاق محط اهتمام الجميع بعبقريته وقدرته على الأداء والعمل كالأسوياء تماما.

النتيجة الثالثة: الكتابة للطفل المعاق يجب ألا تقتصر على نوع واحد من أنواع الكتابة، بل يجب أن نتوجه للطفل بالأنشودة والقصيدة الشعرية المبسطة التي تسعده وتبهجه، والقصة المصورة التي تتحدث إليه وتحكي عنه، والرواية الصغيرة التي يكون هو بطلها رغم إعاقته يبهر الجميع بقدراته، والمسرحيات التي تخاطبه وتتحدث عنه ويكون بطلها، الطفل المعاق كنز يحتاج منا أن نكتشفه ونتصالح معه ونقدمه عضوا صالحا فاعلا لمجتمعه، على مجلات الأطفال أن تعطيه حقه وتخصص له صفحات كالأطفال الأسوياء، علينا أن ندمجه في هذا العالم كي يحبه حين يكبر ويسعد بالمشاركة في بنائه، على دور النشر أن تفتح ذراعيها للكتاب الجادين لتقديم أفكارهم الخصبة التي ستسعد الطفل المعاق، الطفل المعاق نهر جار يحتاج فقط أن نمده بما يحتاج إليه ليتدفق فيما بعد.



أنموذج للتفاهم والذكاء الإيماني

أسرة أبي طلحة

نجاح عبدالقادر
باحث تربوي

الأسرة السعيدة هي التي تقوم على أسس من المودة والرحمة، فإذا بالتفاهم والتوافق يرفرفان بأجنحة السعادة على البيت وأهله.

هذا أبوطلحة وهذه أم سليم؛ نموذج للتفاهم، وحسن التصرف، والذكاء الإيماني. ولنبدأ بهذا الموقف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: اشتكى ابن لأبي طلحة؛ فمات وأبوطلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا ونحته في جانب البيت فلما جاء أبوطلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبوطلحة أنها صادقة. قال: فبات؛ فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات؛ فصلى مع النبي ﷺ ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما». قال رجل من الأنصار فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن (١).

هذا الحديث يبرهن على ذكاء أم سليم رضي الله عنها، ويظهر ذكاؤها في هذا التدرج الواعي في إعلام زوجها بخبر موت طفلهما الصغير أبي عمير. وتمثل هذا التدرج في:

١- كتمان الخبر عنه تماما في البداية.

٢- تعمدها أن تتزين له لتسليه وتنسيه قلقه على ولده ولو مؤقتا.

٣- استخدامها أسلوب التعريض بقولها: «وأرجو أن يكون قد استراح».

٤- استخدامها أسلوب تهيئة النفس لتلقي الخبر المؤلم بقولها في رواية مسلم: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوما أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. ثم لما تأكدت من عدم اعتراضه على أن يسترد صاحب العارية عاريته قالت: فاحتسب ابنك.

إنه ذكاء إيماني امتزج بأخلاق كريمة منها:

١- الصبر الجميل، وهي الأم التي مات طفلها الحبيب.

٢- التحكم الهائل في مشاعر الحزن إلى الدرجة التي تزينت فيها لزوجها، حتى تغشاها!

٣- رسوخ الإيمان بقدر الله، والتسليم لقضائه.

فكان طبيعيا أن يبارك الله لهما في ليلتهما - كما دعا رسول الله ﷺ لهما - فيرزقا تسعة من الولد كلهم قد حفظ القرآن وعلمه.

يقول ابن حجر: وفي قصة أم سليم هذه من الفوائد: مشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها. وشرط جوازها ألا تبطل حقا لمسلم. والمبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر في أول الحال تنكد عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذي أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلغها مناها وأصلح لها ذريتها... وفيه بيان حال أم سليم من التجلد وجودة الرأي وقوة العزم (٢).

موقف آخر: قال البخاري: عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل النبي ﷺ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله؟».

فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. وفي رواية. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته؛ فجعلا يريانه أنهما يأكلان. فباتا طاويين (٣). وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه: «فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة» (٤).

هذا الحديث الشريف يبدو فيه جليا الذكاء الجميل المختلط بالحفاظ على الإحساس والشعور في أعلى درجاته. ويتمثل ذلك في:

أولا - إثارة أبي طلحة اهتمام زوجه بالضيف إلى أقصى درجة بذكاء شديد، وذلك بقوله لها «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ»، وهو بهذا الأسلوب الموجز البليغ يحثها على أمرين: طاعة رسول الله ﷺ بإكرام ضيفه؛ ثم طاعة الزوج الواجبة في المعروف؛ فقدمت للضيف طعام أولادها! ونفذت أمر زوجها: «ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا».

ثانيا - ذكاء أم سليم في ردها على زوجها؛ إنها تقول له: «والله ما عندي إلا قوت الصبية».. كأنها تستأذن زوجها في أنها ستقدم للضيف طعام أولادها الذي ليس في البيت سواه؟! واستئذانها هذا يقطع الطريق على لوم زوجها إياها إذا استيقظ طفل من الأطفال باكيا من الجوع؛ وكأنها تقول له: لنكن متفقين على ذلك.

ثالثا - الذكاء الشديد وحسن التصرف مع الصبية الصغار. قال: «نومي صبيانك إذا أرادوا عشاء». ونحن لا ندري كيف استطاعت أم سليم أن تنوم صبيانها بغير عشاء، اللهم إلا بذكائها الشديد وحسن تصرفها.

رابعا - الحرص على إحساس الضيف، وتنفيذ دواعي الإكرام معه كاملة؛ ومنها الجلوس مع الضيف وتناول الطعام معه؛ وهذه عادة عربية أصيلة أقرها الإسلام وشجع عليها؛ ولكن السؤال هنا: كيف سيجلس أبو طلحة وزوجه لتناول العشاء مع الضيف، والطعام قليل قليل لا يكاد يكفي إلا هذا الضيف وحده؟! إن حل هذه المعضلة يحتاج إلى ذكاء شديد، وتفاهم كامل؛ وهذا ما فعله أبو طلحة وأم سليم؛ لقد قال لها: «فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج»، ففعلت ذلك بمنتهى الذكاء: «ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته»، فجعلا يريانه أنهما يأكلان وهما في الحقيقة لا يأكلان.. إنه الحرص على تنفيذ آداب الضيافة، من إيناس للضيف، وإيثاره بالطعام المتوافر؛ مع إيهامه بأنهما يأكلان معه.

خامسا - لقد علم أبو طلحة وأم سليم بذكائهما الإيماني أن إرضاء رسول الله ﷺ هو في الحقيقة إرضاء لله عزوجل، وأن في هذه الطاعة، وفي هذا التصرف الأخلاقي الذكي، ثمرات عظيمة عند الله عزوجل، فإذا بأبي طلحة حين يصبح ذاهبا إلى المسجد يبادره النبي ﷺ بقوله: «ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما». ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما الرضا بصنيعهما. لقد علم رسول الله ﷺ، عن طريق الوحي، بما صنع أبوطلحة وزوجه مع الضيف؛ ففرح بحسن تصرفهما، وبشرهما بنزول قول الله تعالى فيهما وفي من يصنع مثلهما:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر:٩). هذا والله أعلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- البخاري ٥/٥٣، ومسلم ١٢/٢٢١.
٢- فتح الباري، لابن حجر ٤/٣٥.
٣- البخاري ١٢/١٥٧.
٤- مسلم ١/٣٨.



تغذية المواليد

د. عبد الرحمن النمر
طبيب بشري

تختلف الظروف المعيشية والاقتصادية من أسرة إلى أخرى. مما قد يكون له تأثير مباشر على اختيار طريقة تغذية المواليد؛ فالأم التي تعمل خارج البيت تفضل الرضاعة الصناعية على الطبيعية، لأن أي إنسان غير الأم يمكن أن يساعد الوليد على الرضاعة الصناعية. كذلك فقد تضطر أم إلى اللجوء إلى الرضاعة الصناعية عندما لا يكون في ثدييها مقدار كاف من اللبن، أو عندما تضطرها ظروفها المعيشية إلى ترك الرضاعة الطبيعية.
علاوة على ذلك، فإن اختيار نوع أو طريقة تغذية الوليد يتأثر بدرجة المعرفة عند الوالدين.

في استقصاء (استفتاء أو استبيان) أجرته جامعة «جلاسجو «Glasgow» في المملكة المتحدة على مئة وسبعين (١٧٠) سيدة حديثة الولادة، كان رأي الأم أن الرضاعة الطبيعية ليس لها مزية على الرضاعة الصناعية عند خمسة في المئة من المجموع. بينما كان اتجاه الأم نحو الرضاعة الصناعية لموافقة رأي الزوج عند اثنتي عشرة في المئة من المجموع.

الأمر الذي لاشك فيه هو أن لبن الأم أفضل غذاء للمواليد. وللرضاعة الطبيعية مزايا عدة يمكن تلخيصها فيما يلي:

- لبن الثدي جاهز للرضاعة لا يحتاج إلى تحضير. وفي هذا توفير للوقت والجهد.
- لبن الثدي مصدر طبيعي للتغذية بدون نفقة. وعلى ذلك فإنه أوفر من الناحية الاقتصادية.
- لا يحتاج لبن الثدي إلى تسخين أو تبريد. فدرجة حرارته مناسبة تماما للمولود. وهذا كذلك يوفر الجهد والوقت.
- يحتوي لبن الثدي على أجسام مناعة. وبذا فإنه وسيلة طبيعية لوقاية المولود من المرض، علاوة على كونه غذاء كاملا.
- لا يسبب لبن الثدي أمراض الحساسية التي تنشأ عند بعض المواليد نتيجة تغذيتهم بألبان البقر.

«الأيض» «Metabolism» اسم يطلق على مجموع العمليات الغذائية في الخلية الحية، والتي من خلالها تحصل الخلية على الطاقة اللازمة للأنشطة والعمليات الحيوية، وتعوض المندثر من مواد بناء الخلية.

● **الرضاعة الصناعية**

البديل المتاح للرضاعة الطبيعية، سواء بالاختيار أو بالاضطرار، هو الرضاعة الصناعية. والمزية الكبرى للرضاعة الصناعية هي تحرير الأم من قيد إرضاع المولود من ثديها، إذ يمكن لأي أحد أن يساعد المولود على الرضاعة عن طريق زجاجة الرضاعة.

توجد في الأسواق عدة أنواع من ألبان تغذية المواليد، أهمها ما يلي:

● **ألبان البقر**

تنتج هذه الألبان لتغذية المواليد من لبن البقر، بعد معالجته ليكون تركيبه الكيميائي قريبا من لبن الثدي. ومع ذلك فإن محتوى هذه الألبان من البروتين يكاد يكون ضعف محتوى لبن الثدي. ومعظم هذه الألبان يضاف إليها الفيتامينات والأملاح المعدنية.

جدير بالذكر أن أصناف ألبان البقر المتوفرة في الأسواق لتغذية المواليد ليست بينها فروق جوهرية، بل يكاد يكون تركيبها جميعا متماثلا. لذلك فإن الأصناف الغالية منها لا تعني بالضرورة أنها الأجود.

● **لبن الصويا**

ألبان الصويا لا تحتوي على سكر اللبن (لاكتوز) كما أن مصدر البروتين فيها هو نبات الصويا «Soya» (نوع من البقول). وتستعمل هذه الألبان لتغذية المواليد الذين يثبت عندهم



- على الرغم من المزايا العظيمة للبن الثدي، فإنه ينصح بتجنب الرضاعة الطبيعية في بعض الأحوال نتيجة أسباب تتعلق بالأم أو بالمولود. من ذلك ما يلي:
- إصابة الأم بمرض خطير، مثل إخفاق الكليتين المزمن.
- إصابة الأم بمرض معد، مثل السل الرئوي (الدرن) أو خراج الثدي.
- إذا كانت حلمة الثدي غائرة (منغمدة) وأخفق العلاج في إبرازها.
- عند تعاطي أدوية معينة، مثل العقاقير السامة للخلايا (وتستخدم في علاج السرطان وبعض أنواع أمراض المناعة الذاتية) والعقاقير الكابحة لجهاز المناعة.
- إذا كانت الأم تتعرض للإشعاع، سواء للعلاج أو بسبب طبيعة العمل.
- إذا كان المولود مصابا بتشوه خلقي يعوق تغذيته بامتصاص حلمة الثدي مثل «انشطار سقف الحنك» «cleft palate» أو انشطار الشفة المعروف باسم «شفة الأرنب» «cleft lip».
- إذا كان المولود مصابا بأحد أمراض الأيض (أمراض الهضم والتحول الغذائي).

حساسية لألبان البقر، ويجب أن يقتصر استعمالها على هذه الحالة فحسب. وكذلك تضاف الفيتامينات والأملاح المعدنية إلى هذا اللبن.

• ألبان الجبنين

«الجبنين» «Casein» هو البروتين الرئيسي في اللبن. ويعالج الجبنين معالجة خاصة لإنتاج ما يسمى «لبن الجبنين» «Casein Milk» ولا يحتوي هذا النوع من غذاء المواليد على سكر اللبن (لاكتوز). لذا فإنه مثل لبن الصويا يعتبر غذاء خاصا للمواليد المصابين بحساسية لألبان البقر. كما يعطى لبن الجبنين للمواليد المصابين بأمراض الأيض، كذلك يعطى لفترة قصيرة في أعقاب الإصابة بنزلة معوية.

الأنواع الخاصة من ألبان تغذية المواليد، مثل لبن الصويا ولبن الجبنين يجب عدم إعطائها للمولود إلا تحت إشراف طبيب أو متخصص في تغذية المواليد.

• مشاكل الرضاعة

إذا كانت الأم حديثة الولادة تنوي إرضاع مولودها طبيعيا، فيجب أن تبدأ ذلك في أسرع وقت ممكن بعد الولادة، لأن الإسراع في إرضاع المولود سوف يحث (أو يزيد) إدرار اللبن في الثدي. وإذا حدث ورفض المولود مص الثدي، دون وجود علة مرضية تؤدي إلى ذلك، فيجب ألا تسرع الأم إلى إعطاء المولود تغذية صناعية، لأنه سوف يتعود عليها ويرفض الثدي نهائيا. وإنما يجب أن تعاود الأم محاولاتها لإرضاع المولود من الثدي، إلى أن يقبل الرضيع على مص الثدي. وأثناء هذه المحاولات، يمكن إعطاء المولود لبن الثدي بملعقة صغيرة.

من الأمور الشائعة قلة اللبن في ثدي الأم في أول أسبوعين بعد الولادة. ويجب ألا يكون ذلك دافعا إلى تغذية الطفل صناعيا، إذ سوف يزيد إدرار اللبن في الثدي مع استمرار إرضاع المولود منه. أما اللجوء إلى الرضاعة الصناعية فسوف يؤدي إلى نتيجة عكسية.

ومن الأمور الشائعة كذلك بكاء المولود في أعقاب الرضاعة. وكثير من الأمهات يفسرن ذلك بأن المولود لم يحصل على كفايته من اللبن وأنه مازال جائعا. وقد يكون الأمر كذلك حقا، لكن يتعين على الأم الجديدة أن تعلم أن الوليد يمكن أن يبكي لعدة أسباب، وليس لمجرد الجوع فحسب. ومن أسباب بكاء المولود ما يلي:

- الرغبة في النوم، ولكن يحول دونها وجود إضاءة قوية أو ضوضاء عالية.
- الإمساك. هنا نلفت نظر الأمهات إلى أن عدد مرات التبرز إذا كان قليلا، أو إذا كان أقل من المعتاد، فلا يعني هذا بالضرورة وجود إمساك. وإنما يكون هناك إمساك إذا كانت مادة الإخراج (البراز) صلبة (جامدة) مع وجود تعب شديد وتعنية أثناء قضاء الحاجة.
- إذا كان المولود عطشانا.
- إذا كانت الحفاظة مبتلة.
- إذا كان المولود يشعر بالحر أو بالبرد.

على أن أكثر أسباب بكاء المواليد بعد الرضاعة شيوعا هو عدم إشباع الرغبة في المص. أي إن المولود قد يكون شبع من اللبن ولكن لم يشبع من مص الحلمة. ويلي ذلك على قائمة الأسباب الشائعة للبكاء بعد الرضاعة، الرغبة في التجشؤ (أي إخراج ما في البطن من غازات عن طريق الفم). ثم هناك رغبة المولود في الصحبة. فبعض الأمهات تترك مولودها وحيدا بمجرد الفراغ من إرضاعه. بتعبير آخر، فإن الطعام ليس هو كل شيء لهذه المخلوقات الصغيرة!

• مشاكل التغذية

بشكل عام، تبدأ المشاكل الحقيقية لتغذية المولود في الظهور حول الشهر الرابع، عندما تبدأ الأم في إعطاء مولودها أطعمة إضافية إلى جانب اللبن. إذ قد تتكرر المحاولات من جانب الأم، والرفض من جانب المولود، إلى أن تصاب الأم بالإحباط. وحلا لهذه المشكلة يجب أن يكون تعويد المولود على الأطعمة الإضافية تدريجيا ودون إكراه. مع ملاحظة أن حاسة التذوق عند المولود تكون قد نمت في ذلك الوقت من عمره (بين الشهر الرابع إلى السادس) بحيث يصبح المولود ذواقا يختار من الأطعمة ما يطيب له! كذلك يجب ألا تستعجل الأم الأمور، طالما ليست هناك علة مرضية. إذ سوف يقبل المولود على الطعام، طال به الأمد أم قصر.

من أسباب إحباط الأم الجديدة كذلك، عدم زيادة وزن المولود بسرعة أو بصورة مطردة، مما قد يدفع الأم إلى الاعتقاد بأن مولودها غير سوي. وقد تشتغل الأم بمحاولة إطعام المولود طول الوقت، ظنا منها أنه ربما لا يحصل على كفايته من الطعام!

هذا والمعيار الحقيقي لجودة التغذية وتوازنها هو نمو الطفل نموا سليما مطردا، وليس مجرد زيادة الوزن. والقاعدة الذهبية لتغذية المواليد هي عدم التقيد بنظام جامد للتغذية. فما يصلح لمولود قد لا يصلح لآخر. وواجب كل أم أن تراعي طبيعة مولودها وتحاول مسايرته ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

صفة التواضع عند الطفل

علياء ناصف
باحثة أسرية

إن الكثير من الآباء والأمهات بقصد أو بدون قصد يبثون في نفوس أبنائهم صفات الغرور والاختيال بالنفس.. فغالبيتنا العظمى يسمع كلمات من قبل الوالدين للطفل والطفلة مثل «أنت الأفضل».. «أنت الأقوى».. «انت الأجمل».. «أنت الأكثر تفوقا» وغيرها الكثير من صيغ أفعل التفضيل التي هي الأكثر تأثيرا في تغليب معاني الأنا والنرجسية والكبر والغرور لتكون عاملا قويا في إضفاء الكبر على شخصيات الأطفال، فنكون بذلك أمام ثمرة لإنسان مغرور تسيطر عليه آفة الكبر.. تلك الصفة المذمومة التي نهى عنها المولى عزوجل في كتابه الكريم في أكثر من موضع، فعلى سبيل المثال لا الحصر قوله عزوجل: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:١٨).

كما جاءت الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على التواضع وتنهى عن الكبر والعجب والغرور: فعلى سبيل المثال لا الحصر عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» (رواه مسلم).

ومن هنا جاءت الأهمية القصوى لأن نبث في وجدان أبنائنا وبناتنا التضاد الجذري لهذه الصفة الذميمة، ألا وهي صفة التواضع.. تلك الصفة التي تجعل الإنسان أقرب إلى ربه وأقرب إلى الناس من حوله، فالإنسان بطبيعته وفطرته البشرية يميل إلى التواد والتقارب مع كل من هو متواضع غير مختال بنعمة أو متكبر بمنحة هي فيض إلهي عليه لا من فعل نفسه التي لا تقدر على شيء إلا بإرادة خالقها العظيم.

الثقة بالنفس ليس مرادفا للغرور

إن الطفل عندما يتعود وينشأ على أن فكرة الثقة بالنفس ليست هي المرادف للزهو بالنفس والتكبر على الآخرين، يترسخ داخل وجدانه فكرة ومعنى التواضع الحق.. حين نربيه ونعوده على أنه عندما ينجح في امتحانه أو يؤدي أي مهمة مطلوبة منه بمهارة وإتقان يتوجه بالشكر الفوري إلى الله لأنه عزوجل هو من تفضل عليه بالتوفيق والسداد.. وعندما نثني على أداء الطفل في أي فعل محمود يقوم به نقوم أمامه بحمد الله وشكره على أن وفقه على أداء هذه المهام والأفعال.. وعندما يُثني الآخرون على الطفل يكون حديثنا معه على أن ما مدحه وأثنى عليه الآخرون فيه هو نعمة الله عليه وعطيته إياه، ولذلك ففي كل الأحوال علينا أن نرسخ ونعزز قيمة الشكر والحمد لله داخل وجدان أطفالنا بقوة..ومن منا لم يسمع المقولة الشهيرة أن التعليم في الصغر كالنقش في الحجر..

التطبيق العملي

نأتي إلى مرحلة التطبيق العملي كوسيلة أساسية لتعميق معنى التواضع في عقل وقلب الطفل.. وتأتي في مقدمتها تعويد الطفل على الصلاة منذ عمر السابعة والعمل على إفهامه أن الله يأمر جميع البشر أيا كان سمتهم ورسمهم وحسبهم ونسبهم.. أيا كانت طبقاتهم الاجتماعية؛ فقراء كانوا أم أغنياء بالصلاة والوقوف أمام خالقهم.. جميعهم في ذلك سواء وسواسية.. أيضا نتطرق إلى العبادات الأخرى كالصيام والزكاة والحج، والعمل على أن يستوعب الطفل أن الأفضلية بين الناس هي أفضلية تقوى لا أفضلية شكل أو جاه أو منصب مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

ثم نأتي إلى ضرورة اصطحاب الطفل إلى الدور الخيرية المختلفة حتى لا يعيش الطفل في برج عاجي لا علاقة له بأحوال مجتمعه من حوله.. وهنا نأتي إلى خطأ كبير في أن يكون الاصطحاب من جانب الأهل للأطفال عندما يتعلق الأمر بالذهاب إلى دور الأيتام أو مؤسسات الرعاية الخاصة بالأطفال مجهولي النسب؛ لأن الطفل ربما لا يستوعب أنه ربما يجرح أحاسيس ومشاعر قرنائه ممن ليس لهم أب أو أم بكلمة أو تعبير لا يقصده ويشعرهم أنه له مأوى خاص به في حين أنهم محرومون من هذه النعمة.. وإنما يكون هنا دور المدرسة ومؤسسات التعليم، فعندما تكون هناك رحلات جماعية تحت رعاية مؤسسات التعليم يكون الأطفال في هذه الحالة سواسية مع الأطفال الآخرين بمعنى أنهم يكونون بصحبة معلميهم ومدرسيهم لا والديهم مما يحقق جو الألفة المطلوب بينهم وبين الأطفال الآخرين.



نموذج رائد.. ومستقبل واعد

جامعة الأطفال

التحرير

زارت مجلة «الوعي الإسلامي» جامعة الأطفال»، بمدينة اسطنبول والتقى الزميل رئيس التحرير فيصل العلي بمدير المدرسة ألب أرسلان منار، و تجاذب معه أطراف الحديث حول هذا الصرح الشامخ، الذي يمثل ارتقاء وسموا بصناعة التعليم الرائد في البلاد التركية خصوصا، وفي العالم عموما.

الزيارة جاءت على هامش رحلة مجلة «الوعي الإسلامي» العلمية إلى مدينة إسطنبول التاريخية.

تم اختيار هذا الاسم «جامعة الأطفال» تعبيرا عن نسبة الذكاء العالية التي تم اختيار الدارسين فيها على أساسها.

فالدارسون صغار في السن، إلا أنهم في الحقيقة يتمتعون بصفات الكبار، علما وأدبا ومقدرة.

وقد نشأت فكرة جامعة الأطفال منذ عدة سنوات، وبدأ التجهيز لها على أساس انتقاء الأطفال المتميزين الذين يتمتعون بقدر عال من الفطنة والذكاء، والقدرة الفائقة على جمع شتى أصناف العلوم، وتم اختيارهم من خلال معايير دولية معترف بها عالميا، حيث يتم الإعلان للتسجيل عن طريق شبكة الإنترنت، ويتقدم الراغبون من الأهالي في تسجيل أبنائهم، ثم يخضع المتقدمون لاختبار نفسي وذهني شامل، ولابد من حصول الطالب على درجة ١٣٠ كمؤشر رئيسي من مؤشرات الذكاء، ويتم هذا الاختبار عن طريق لجنة علمية مؤلفة من نخبة علمية متخصصة من الأساتذة النفسيين والتربويين.

وبما أن هذه المدرسة الوقفية تؤمن الدراسة والخدمات المجانية للطلاب، والتي تتحمل نفقاتها بلدية «إسكدار»؛ كان الإقبال من قبل الأهالي كبيرا لتسجيل أبنائهم؛ ورغبة منهم وحرصا على تنمية مهارات أبنائهم ورفع مستواهم العلمي، والتوجيه الصحيح لذكائهم الذي من الله تعالى به عليهم.

وكانت الانطلاقة المباركة لهذه الجامعة المباركة عام ٢٠١٢م.

ومن أهم أهدافها:

١. استغلال مواهب الطلاب الأذكياء وتوجيهها التوجيه الصحيح لخدمة

دينهم وبلدهم.

٢. تنمية القدرات الكامنة لـدى هـؤلاء الـطـلاب، وإعطاؤهم الاهتمام الذي يستحقونه بما يتناسب مع قدراتهم العقلية المتميزة.

٣. التأسيس لفكرة رائدة في المجتمع تعيد النظر في نظام السنوات الدراسية الطويلة.

٤. تخريج جيل من الأذكياء ليكونوا نموذجا يقتدى في مجتمعهم.



رئيس التحرير يتلقى هدية من مسؤول الجامعة

منهج التعليم

تتبع «جامعة الأطفال» منهجا تعليميا متقدما ومكثفا؛ حيث يقوم طلابها بـدراسـة منهجهم الحكـومـي المقرر فـي مدارسـهـم خـلال أيـام الأسبوع الدراسية، ثم يلتحقون بجامعتهم يومي السبت والأحد (حيث العطلة الرسمية في البلاد) وتكون دراستهم كالآتي:

● من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة الواحدة ظهرا، بواقع خمس حصص، يدرس الطالب خلالها العديد مـن المـواد العـلـمـيـة مـثـل: «الفيزياء والكيمياء والمواد البيولوجية، والميكانيك إلكترونك».

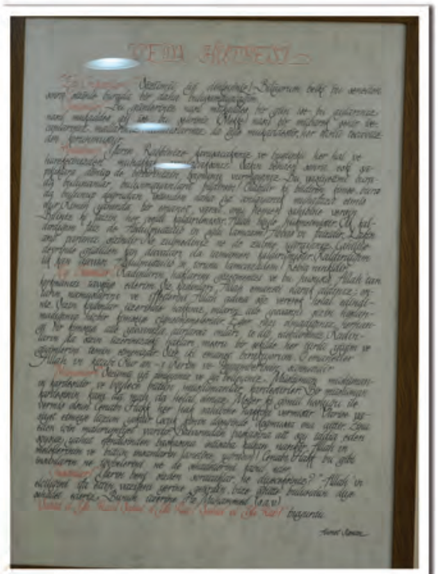
● ثم يأخذ الطلاب استراحتهم لتناول وجبة الغداء.

● وتنطلق فترتهم المسائية لتكون حافلة بالأنشطة الرياضية والترفيهية المنظمة والمدروسة بعناية فائقة من قبل لجنة متخصصة. ويترك للطلاب في هذه الفترة حرية اختيار رغباتهم الترفيهية، ما بين رياضة ورسم وأعمال ترفيهية أخرى.

● أما طلاب السنة الثانية فيضاف إلى دراستهم في المواد سابقة الذكر:

. ممارسة القراءة السريعة مع الفهم الدقيق.

. الحفظ والتركيز؛ لإعدادهم ليكونوا من علماء المستقبل الحافظين.



. دراسـة برنامج تعليمي على جزئية تواصل الجسد مع العقل، والتركيز عليه واكتشافه لدى الطلاب الدارسين وتوجيهه التوجيه المناسب.

. إضافة إلى التركيز على المواد الثقافية في علم «الأوبرا، والخط، والتذهيب».

● كـما تقـام لـهـم فـي فـصـل الصيـف الدورات العلمية في «اللغة العربية».

● وتتكون الفصول الموجودة في المدرسة الآن، حسب التسلسل الدراسـي، من فصلين دراسيين (الأول والثاني)، أما الثالث والـرابـع فـلا يـزالان فـي طـور التجهيز.

هـذا، وتـولـي إدارة الجامعة اهتماما بالغا بالجانب الاجتماعي، حيث تقيم اجتماعات لأهالي الـطـلاب لتفعيل الدور المشترك بين المـدرسـة كجانب تـربـوي تعليمي، والـبـيـت كجانب عـاطـفـي سلوكي؛ لـتـصـل بالطلاب الـدارسـيـن إلـى أعلى مستوى من التحصيل العلمي الممنهج.

ومن خـلال جولة ميدانية بصحبة مـديـر «جـامـعـة الأطـفـال» الأستاذ ألـب أرسـلان منار، في بناء الجامعة وحديقتها ومرافقها؛ تبين لنا حجم الاهـتـمـام الـذي توليه إدارة الجامعة لجـانـب الـتـرتيب الإداري والنظافة، ودقة تقسيم الفصول الدراسـيـة بما يتناسب مع قواعد الأمـن والسلامة العالمية.

أما الـقـاعـات العلمية؛ فـهـي مجهزة بأحدث الأجهزة ووسائل التعليم العالمية، التي تتيح للطلاب الدارسين التعرف على آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا المعاصرة من حداثة وتقدم.

وأخيرا، إن مشروع «جامعة الأطفال» يـأتـي ضمن سلسلة لا نهاية لها من الـنـمـاذج الـتـي تـقـدمـهـا المؤسسات الاجتماعية التركية، والـتـي لا يغيب دور الـوقـف فيها، كمؤسس لأغلبها؛ حيث إن ثقافة الوقف ثقافة متجذرة في المجتمع التركي، وهـي امتداد لعرف اجتماعي ديني امتدت جذوره إلى ديننا الحنيف.

ولـعـل الـهـدف الأسـمـى لـهـذه النماذج العلمية الرائدة هو بناء مجتمع علمي يـجـمـع بـيـن سـمـو الأخـــلاق ومواكبة التقدم العلمي؛ لينهض بأمته ودينه، ويعيد لهما دورهما القيادي الرائد بين الأمم.

د. شريف شحاتة: السعادة والإيجابية أصلان في ديننا الإسلامي



«تغيير مفاهيم الشباب للإيجابية، وترك بصمة في توجيههم للنجاح والسعادة والقيادة».. بهذه الكلمات حدد الدكتور شريف شحاتة، الداعية الإسلامي، الحاصل على دكتوراه في علم النفس الإكلينيكي، ومقدم العديد من البرامج المتنوعة، هدفه في الحياة. وقال إن مقارنة الشاب نفسه بغيره من أكثر الأشياء التي تتسبب في عدم قدرته على الارتقاء والتميز.. وفي حواره مع «الوعي الشبابي» ينصح الشباب بالسعي والاجتهاد وربط أهدافهم بسنة النبي ﷺ؛ وإلى نص الحوار:

■ ما أبرز الأفكار التي تعتمد عليها في برامجك للشباب؟

- أعتمد في أفكاري على ثلاثة محاور واضحة: الأول هو أن الأصل في الدين السعادة والإعمار والإيجابية، والاستعانة بالقرآن والسنة، لتوجيه الناس نحو السعادة والنجاح وترك بصمة وأثر في الحياة.

المحور الثاني هو الاستناد القوي جدا على التخصص الأعمق في علم النفس والصحة النفسية وعلوم القيادة، حيث كيف نتعامل مع الحياة.

المحور الثالث يكمن في الاستعانة بالقصص، سواء المحكاة مثل قصص الصحابة أو التابعين ، أو القصص الواقعية لأناس نجحوا وتركوا أثرا وبصمة مهما كان لونهم أو جنسهم.

■ من وجهة نظرك، ما أبرز المخاطر التي تهدد الشباب المسلم في الوقت الحالي؟

- خمسة أشياء، أولها الإعلام الذي يحمل معاني عكس دينهم. ثانيها وسائل التواصل الاجتماعي، إذ كما لها إيجابيات لها سلبيات وعيوب. وثالثها الصحبة السيئة وضعف قيمة الأخلاق عند البعض. ورابعها يكمن في ثقافة الجهل وليس الجهل ذاته، لأنها أفكار وعادات وتقاليد خاطئة، حيث الاعتماد على ما يورد لنا من أفكار مشوهة ونفهمها ونستوعبها على أنها مسلمات.

الشيء الخامس هو عدم وعي الشباب بصعوبات الحياة أو الوصول إلى النجاح، فكل شاب اليوم ينتظر النجاح المفاجئ، فالإنسان يجب أن يعي أنه لابد أن يبذل مجهودا نفسيا، زمنيا، ماديا، اجتماعيا، عقليا، فكريا.

■ ما مدى أهمية تجديد الخطاب الديني بالنسبة إلى الشباب؟

- التجديد يكون في ثلاثة اتجاهات: أولها في طريقة الكلام، فيجب الاقتداء بالمعلومات الدينية في علوم تنموية ونفسية. وثانيها في عمق المعلومات وتغييرها، ولا يكون ثابتا على الكلام ذاته، بالنمط ذاته، فمن يستخدم الطريقة نفسها يصل إلى النتيجة ذاتها، فنحن في حاجة إلى تغيير الأسلوب واستخدام لغة الشباب، وعدم الهروب من المشكلات، خصوصا في ظل انتشار الأفكار المضللة.

أما الاتجاه الثالث فيتمثل في الكلام فيما يمس الاحتياج، وعدم الحديث في أمور أخرى بعيدة عن الموضوع الذي يحتاج إليه الشاب.

■ نصيحة أخيرة للشباب.

- أوصيهم بثلاثة أشياء: الأول: أنت فريد من نوعك، ستجد نفسك بداخلك، فكر في إمكاناتك ومهاراتك، طور من نفسك، ابذل مجهودا، فليس هناك نجاح عشوائي.

الوصية الثانية: ابحث عن عمرك الحقيقي وليس عمرك الميلادي، لأن العمر الحقيقي هو العمر الذي بذلنا فيه مجهودا، وتركنا فيه بصمة.

الوصية الثالثة: حتى تنجح وتسعد في حياتك لابد أن تسعى جاهدا لأن يكون هدفك وحلمك مرتبطين باتباع النبي ﷺ.

٧ دروس للنجاح من أديسون أهمها الشجاعة

يعتبر توماس أديسون من أنجح الأسماء في تاريخ العلم. واشتهر بكونه مخترعا لامعا وتاجرا ذكيا، وأثر في العالم بأسره من خلال إنجازاته العظيمة، مثل الفونوغراف، وكاميرا الصور المتحركة، والمصباح بالطبع. ومن وحي هذه الشخصية المهمة، يقدم موقع «مستر سيلف ديفلوبمنت» دروسا للنجاح.

وفيما يلي ٧ دروس للنجاح من توماس أديسون:

١ - نفي الاستحالة

كان أديسون يرى أن أصعب الأفكار وأهمها تصل إلى نقطة تبدو فيها مستحيلة التحقق.. وهنا يجبن الكثيرون، لكن في هذه الأوقات بالذات عليك أن تتحلى بالشجاعة.

الناجح لا يتوقف ويتراجع حين تشتد الأمور، عليك ألا تفقد الإصرار والعزيمة، وتذكر أن أحلك الأوقات تلك التي تسبق الفجر.

٢ - التعب

يقول أديسون: «السبب الحقيقي وراء عدم رؤية البعض للفرص المتاحة، هو في اعتقادهم أنها صعبة المنال، لكنها في الواقع تتخفى تحت هذا الغطاء».

لا نجاح بلا تعب، وبعد المخاض تنال أثمن ما تريد.

٣ - استكشاف المقدرة

يستخف الكثيرون بقدراتهم، والأدهى أن بعضهم لا يكتشفها من الأساس. وتكمن فرص النجاح في هذه القدرات، يقول أديسون: «لو فعلنا جميعا ما نقدر عليه فعلا، لأخذتنا دهشة عظيمة».

٤ - تقدير العزلة

من أفضل الأوقات للتحليل والتخطيط، تلك التي تنعم بالهدوء، يقول أديسون: «أعظم الأفكار جاءت في عزلة صاحبها».

٥ - الأرق

اعتبر أديسون نبذ الراحة والأرق والقلق النابع من البحث عن الفكرة، أساس التقدم، فاستخدمها بأفضل شكل، فيقول:

«اعطني رجلا مرتاحا راضيا، وتأكد أنك أعطيتني ساعتها فاشلا».

٦ – المنظور الفريد

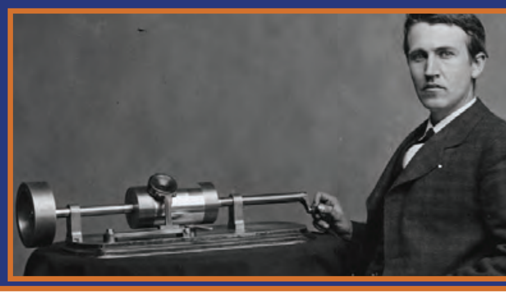
من أشهر عبارات أديسون، «أنا لم أفشل، بل اكتشفت ١٠ آلاف طريقة غير ناجحة».

يعتبر منظورك للأمور والمواقف في حياتك سيد احتمالات النجاح من عدمه، وبالتالي حين تفكر كأديسون تستطيع التقدم عوضا عن التلهي في إحساس الخسارة والخوف.

٧ – ثلاثية الحس السليم والالتزام والتحمل المستمر

تعتبر هذه الثلاثية من أهم الدروس المستوحاة من أديسون.

الاستمرار في المحاولة رغم صعوبة أو كراهية الأمر، مضافة إلى تبني حس سليم تجاه الحياة، ناهيك عن الالتزام بما يقطعه المرء من وعود لنفسه بالأساس، وبما يشعر أنه يجب أن يكون، كل ذلك يعتبر وصفة نجاح ثمينة.



طالبان يبتكران شاشة بيضاء لمنع التلصص على المعلومات

ابتكر طالبان بمعهد التكنولوجيا التطبيقية في أبوظبي، مشروع «الشاشة البيضاء» لضمان حفظ سرية المعلومات ومنع أي شخص من الاطلاع عليها، والتحكم في قراءة البيانات من خلال نظارة مخصصة لذلك.

قال الطالبان عبدالله أحمد الخنبشي، ومحمد جاسم العلي: «إن الفكرة جاءتهما من خلال تكرار الشكوى من تسرب بعض المعلومات، وعدم وجود خصوصية في أماكن العمل، فقررا توظيف دراستهما في إيجاد طريقة لضمان الحفاظ على سرية المعلومات أثناء استخدام أجهزة الكمبيوتر، أو الهواتف المتحركة في أماكن العمل».



كما أوضح الطالبان أن فكرة الابتكار تعتمد على إزالة مادة «البولرايز» من شاشة الكمبيوتر أو الهاتف الذكي، والتي تعكس الضوء على السطح، وبالتالي ستصبح الشاشة بيضاء ولا يمكن مشاهدة أي شيء عليها، ولصق هذه المادة على نظارة، فيمكنها قراءة الموجود على الشاشة.

وأكد الطالبان أنهما يقومان حاليا بتطوير المشروع، وإضافة برامج حماية إضافية، تزيد ضمان أمن المعلومات وسريتها.

الكويت تحصد جائزة أفضل برنامج تلفزيوني لخدمة القرآن

حققت دولة الكويت، ممثلة في إمام المسجد الكبير القارئ الشيخ فهد الكندري، المركز الأول في الجائزة العالمية لخدمة القرآن برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود.

وقد فاز برنامج «مسافر مع القرآن» – الجزء الأول والثاني – بجائزة أفضل برنامج تلفزيوني قرآني على مستوى العالم الإسلامي والذي يقدمه الشيخ فهد الكندري.

وتسلم الشيخ فهد الكندري الجائزة من الأمير مشعل بن ماجد محافظ جدة، بحضور الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن د. عبدالله التركي، والأمين العام للهيئة العالمية د. عبدالله بصفر في فندق بارك حياتي في جدة الاثنين الماضي.



وشكر الكندري دولة الكويت، حكومة وشعبا، وعلى رأسهم حضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد على دعمه اللامحدود لخدمة القرآن الكريم والقضايا الإسلامية.

وقدم الشكر لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز لرعايته الكريمة، مؤكدا أن الحفل يزداد بهجة وسرورا برعاية خادم الحرمين الذي قدم ويقدم كل ما يستطيع لخدمة كتاب الله عزوجل.

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال العلمنة

في خضم المعركة الحضارية الجارية على قدم وساق منذ ما يقرب من قرنين من الزمان، كانت عملية نشر متتاليات العلمنة الشاملة بمفاهيم أستاذنا الدكتور عبدالوهاب المسيري هي أمضى الأسلحة على الإطلاق في تلك المواجهة الحضارية الكبرى.

فسؤال العلمنة كان أحد الأسئلة الوجودية الكبرى التي طرحت تحديا جديا على المحور الحضاري الذي يظلل الرقعة الممتدة من طنجة إلى جاكرتا، سواء من حيث حمولته الفلسفية، أو من حيث تجلياته المترامية الأبعاد والمتداخلة في كل مناحي الحياة المعاصرة، أو من حيث تداعياته على كل جوانب العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

تعني العلمنة الشاملة بمفهوم الدكتور عبدالوهاب المسيري: «رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة فحسب، وإنما تفصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر، ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تماما عن العالم، بحيث يتحول العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية. وهي رؤية شاملة، لأنها تشمل كلا من الحياتين العامة والخاصة، بحيث تتساوى كل الظواهر الإنسانية والطبيعية، وتصبح كل الأمور مادية. إن العالم، من منظور العلمانية الشاملة (شأنها في هذا شأن الفلسفة المادية)، خاضع لقوانين مادية كامنة فيه لا تفرق بين الإنسان وغيره من الكائنات. كل هذا يعني نزع القداسة عن الطبيعة والإنسان وتحويلهما إلى مادة استعمالية، يوظفها القوي لحسابه.

والعلمانية الشاملة، بطبيعة الحال، لا تؤمن بأي معايير أو مطلقات أو كليات، فهي لا تؤمن إلا بالنسبية المطلقة. بل إنني أذهب إلى أن ثمة ترادفا بين العلمانية الشاملة والرؤية الداروينية الصراعية، ولذا أسميها «العلمانية المادية» أو «العلمانية المنفصلة عن القيمة» أو «العلمانية الداروينية»، إذ إنه في غياب المعايير التي تتجاوز الذات الإنسانية، تظهر آلية واحدة لحسم الصراع، وهي القوة. ولذا، نجد أن البقاء هو للأقوى. ولعل المنظومة الداروينية الصراعية هي أقرب المنظومات اقترابا من نموذج العلمانية الشاملة».

كانت الإشكالية الأولى، منذ أن تمت ترجمة مصطلح Secularism بترجمة مضللة، هي كلمة العلمانية، وظل العالم الإسلامي ردحا من الزمن يعيش أوهام: هل هي بكسر العين (من العلم)، أم بفتحها (من العالم)؟ وتم صك المصطلح وسكه باعتباره عملية مجردة لفصل الدين عن الدولة، وربما كان هذا أبسط أشكال العلمانية، وهي العلمانية السياسية. ومع تعقد أنظمة الحياة، أضحت تلك

العملية البسيطة لا تعبر عن عمق عمليات التوظيف الشامل لكل مجالات الحياة في إطار رؤية مادية داروينية لا تلقي بالا للقيم ولا للمعايير الأخلاقية ولا للمرجعية السماوية المتجاوزة.
ولم تكن مشكلة العلمانية أنها بفتح العين أو بكسرها، إنما بآليات الفصل الشاملة التي اشتغلت عليها، ففصلت الدين عن الأخلاق، ثم فصلت السياسة هي الأخرى عن الأخلاق، وكذلك فعلت مع كل نواحي الحياة. وما كرسته عملية الفصل هذه في الحياة من تشوهات تركت آثارها في كل المجالات، السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
لقد توغلت الدولة القومية الحديثة وانتشر نفوذها في كل مجالات الحياة، ولم يعد أحد خارج سلطات الدولة ولا آلياتها بعيدا عن إمكان السيطرة والضبط والإحجام، وكلما زادت مساحات تغول الدولة على المجتمع، قلت مساحات الخصوصية والذاتية الفردية والمجتمعية، وتغول التنميط، ودخلت أغلب قطاعات المجتمع في قوالب ثابتة في الحديث واللباس والحركة الاجتماعية.
ولعل ذلك ما جعل كاتبا كبيرا بوزن عبدالوهاب المسيري يقول: فالعلمانية ثمرة عمليات كثيرة متداخلة، بعضها ظاهر واضح، والآخر بنيوي كامن. وتشمل كل جوانب الحياة، العامة والخاصة، الظاهرة والباطنة، وقد تتم هذه العمليات من خلال الدولة المركزية، بمؤسساتها الرسمية، أو من خلال قطاع اللذة من خلال مؤسساته الخاصة، أو من خلال عشرات المؤسسات الأخرى (ومنها المؤسسات الدينية)، أو من خلال أهم المنتجات الحضارية أو أتفهها.
لم تكن العلمانية في بيئتها الأصلية الغربية تداعيات منظومات أفكار مجردة، بل كانت تعبيرا عن حالة اجتماعية تطورت عبر أزمان متتابعة ومتوالية، فحدث ما يمكن تسميته بـ «التراكم العلماني» أو «التتالي العلماني»، وهو الذي أوصلها إلى هذه الحالة؛ كم من الاستئصالية والتوحش أو تلك الدرجة البشعة من الداروينية والهوبزية.
حاول الفيلسوف المغربي طه عبدالرحمن في كتابه «روح الدين: من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية» فك إشكال العلاقة بين الدين والسياسة، وهي إحدى تجليات أزمة عالمنا العربي والإسلامي المعاصر، فكانت مقاربته التي تخاطب ليس عقل الإنسان المجرد إنما ذلك العقل المؤيد بالروح، إذ يقرر أن: «الإنسان أشبه بالكائن الطائر منه بالكائن الزاحف» (...) ليخلص إلى أن حل هذا الإشكال الخفي ليس في وجود ضيق يفصل بين الدين والسياسة، ولا في وجود دونه ضيق يصل بينهما، وإنما في تجاوزهما معا إلى فضاء وجودي غاية في السعة، يتداخل فيه المرئي والغيبي (بيت القصيد) «تداخل اللحمة والسدى» بتعبيره، فهنالك لا فصل ولا وصل، وإنما وحدة أولى تتلاشى فيها الحدود بين التعبد والتدبير (ويقصد بالتدبير هنا العمل السياسي بشكل عام). وواضح أن هذه الوحدة الروحية تجلت في ثمرة اللقاء الغيبي، الذي عرض فيه الخالق عزوجل على خلقه أجمعين، في يوم لا كالأيام، أماناته الثقيلة، فبادر الإنسان إلى حملها، متعهدا بالوفاء بحقوقها، إذ قضى الخالق في هذا اللقاء العظيم أن يكون التدبير أمانة، فصار بذلك عبادة، وأن تكون العبادة، هي الأخرى، أمانة، فصارت بذلك تدبيرا؛ لولا أنه ما لبث الإنسان أن نسي عهده للخالق، سبحانه، ونسي حقيقة «الأمانة»، ففصل ما كان موصولا، ووصل ما لم يكن مفصولا.

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

«الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي. الثقافة معناها الفن الذي يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فتعني فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة. الثقافة هي الخلق المستمر للذات، أما الحضارة فهي التغيير المستمر للعالم، وهذا هو تضاد: الإنسان والشيء، الإنسانية والشيئية».

(المفكر علي عزت بيجوفيتش)

«إذا كانت الحضارة هي النمو المطرد، في المنظومات المادية، والعقلية والروحية، التي تنقل المجتمع من البدائية إلى التحضر، وتجعله يتجاوز - كما ذكر ابن خلدون - إنتاج الحاجيات إلى الكماليات، أو تطوير نوعية إرضاء الحاجات، فإن المدنية هي المبادئ التي تقوم عليها هذه المنظومات، أو التي تشكل نواتها الأولى. وإذا كانت الحضارة مرتبطة أساسا بتنظيم علاقة الإنسان بالطبيعة، ودرجة سيطرته عليها، وأنماط إنتاجه المادي والروحي، فالمدنية ترتبط بتنظيم علاقات الإنسان الاجتماعية، وبدرجة تحول هذه العلاقات إلى علاقات مبنية على التواصل والتبادل السلمي، لا على العنف والإكراه، وعكسها».

(«البربرية» - د. برهان غليون)

مقولات في الوعي الحضاري

يقول الشيخ محمد الغزالي:

«ما زلت أؤكد أن العمل الصعب هو تغيير الشعوب، أما تغيير الحكومات فإنه يقع تلقائيا عندما تريد الشعوب ذلك».

يقول ستيف جوبز:

«الناس يحكمون عليك من خلال أدائك، لذلك ركز على مخرجاتك. اجعل الجودة والإتقان هما مقياسا أعمالك، ولا تنظر إلى الكم ولكن إلى الكيف».

يقول بيل غيتس:

«الناس يخشون دائما التغيير. خشي الناس الكهرباء عندما اخترعت، وخشي الناس الفحم. إنهم يخشون المحركات التي تعمل بالغاز... سيكون هناك دائما جهل، والجهل يؤدي إلى الخوف. ولكن مع مرور الوقت سوف يقبل الناس حكم السيليكون».

عرض كتاب



العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة

د. عبدالوهاب المسيري

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م، مجلدان.

تقوم الفكرة المركزية لهذا الكتاب على التفرقة بين ما يطلق عليه المسيري «العلمانية الجزئية»، أي فصل الدين عن الدولة، و«العلمانية الشاملة»، وهي تعني فصل الدين عن الطبيعة وحياة الإنسان، أو فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبيها العام والخاص، بحيث تنزع القداسة عن العالم، ويتحول إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها لمصلحة الأقوى.

ويتكون الكتاب من مجلدين:

الأول: يتناول النظرية والتعريف.

أما المجلد الثاني فيتناول التطبيق.

ونحاول في هذه العجالة عرض أبرز النقاط الجوهرية في الكتاب، وإن لم نأت على ما فيه من قضايا:

خصص المؤلف الجزء الأول لتعريف العلمانية، فتناول إشكالية تعريف العلمانية، والأسباب التي ساهمت في تقلص الحقل الدلالي لكلمة «علمانية»، وأضعفت قيمتها التفسيرية ومنها:

- تعريف العلمانية، باعتبارها فصل الدين عن الدولة، وهو ما سطح القضية تماما، وقلص من نشاطها. رغم أن هذا التعريف أكثر التعريفات شيوعا للعلمانية في العالم، سواء في الغرب أو في الشرق، وهي تحصر عمليات العلمنة في المجال السياسي، وتستبعد شتى النشاطات الإنسانية.

وتعريف «العلمانية» بهذا الشكل تجاهل قضية المرجعية، والنموذج الكامن وراء المصطلح؛ إذ لابد أن نسأل عن الإطار المعرفي الكلي والنهائي الذي تتم في إطاره عملية الفصل، وقد أدى هذا إلى خلل كبير، إذ إن مصطلح «العلمانية»، وفق هذا التصور، عزل عن أي مرجعية نهائية، وأصبح يشير إلى مجموعة من الإجراءات، وكأن الأمر حسم بهذه الطريقة، مع أن هذه الإجراءات يختلف مدلولها باختلاف مرجعيتها، ولا يتحدد معنى المصطلح إلا بالعودة إليها.

- تصور البعض أن العلمانية ليست ظاهرة تاريخية، وإنما هي ظاهرة محددة تتم من خلال آليات واضحة يمكن تحديدها ببساطة. ولكن تصور العلمانية باعتبارها مجموعة أفكار وممارسات واضحة يظل مع هذا التصور ساذجا، ويشكل اختزالا وتبسيطا لظاهرة العلمانية وتاريخها، وللظواهر الاجتماعية على وجه العموم.

- إشكالية تصور العلمانية باعتبارها فكرة ثابتة لا متتالية نماذجية آخذة في التحقق.

وفي الفصل الثاني تناول المؤلف إشكالية اختلاط الحقل الدلالي لمصطلح «العلمانية» ومفهومها، وذلك من خلال عرضه وتحليله للتعريفات الموجودة بالفعل في المعجمين العربي والغربي لكل من مصطلح «العلمانية» ومفهومها.

وفي الفصل الثالث رصد بعض المراجعات المهمة التي حدثت بشأن نقد المصطلح من قبل بعض الباحثين في الشرق والغرب.

أما الفصلان الرابع والخامس فانصبا على تفكيك مجموعة من المصطلحات والمفاهيم التي استخدمتها العلوم الإنسانية الغربية لوصف بعض ظواهر المجتمع الغربي الحديثة مثل «التطبيع» و«التحييد» و«التعاقدية» و«العقل الأداتي» و«التسلع» و«التشيؤ» و«الاغتراب» و«نهاية التاريخ» و«الاستنارة المظلمة» و«اللامعنى»، مشيرا إلى أنها مصطلحات ومفاهيم تنطوي على معالم العلمانية الشاملة.

الفصل السادس عرض فيه السمات العامة للحضارة الغربية التي ساهمت في بلورة الرؤية الواحدية المادية، والعوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي ساعدت على هيمنتها على المجتمعات الغربية.

وفي الفصل السابع حاول تقديم تعريف للعلمانية يتسم بمقدرة تفسيرية عالية ويمكنه أن يحيط بأكبر عدد ممكن من الظواهر والأفكار، حيث فرق بين:

١ - العلمانية الجزئية: وهي رؤية جزئية للواقع «برجماتية - إجرائية» لا تتعامل مع أبعاده الكلية والنهائية «المعرفية»، ومن ثم لا تتسم بالشمول. ومؤدى هذه الرؤية فصل الدين عن عالم السياسة، وهو ما يعبر عنه بعبارة فصل الدين عن الدولة.

٢ - العلمانية الشاملة: وهي رؤية شاملة للعالم ذات بعد معرفي «كلي ونهائي»، تحاول بكل صرامة تحديد علاقة الدين والمطلقات والـ«ما ورائيات» بكل مجالات الحياة، وهي رؤية عقلانية مادية تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحدية المادية التي ترى أن مركز الكون كامن فيه غير مفارق أو متجاوز له.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

حوادث السير على الطرق العامة

- الخلاصة الحكمية:

١- لابد من نظر القاضي في قضايا حوادث السيارات، لكي توزع المسؤولية فيها بطريقة عادلة، في اعتبار الخطأ والعمد، والضمان والقصاص، والوقوف على توافر الشروط والأسباب.

٢- السائق مسؤول عما يحدثه من أضرار بالغير؛ إلا إذا وقع الحادث نتيجة لقوة قاهرة لا يستطيع دفعها، أو لسبب خطأ الغير، وتعديه.

٣- كثير من الأحكام المقررة بشأن حوادث السير مبنية على دليل المصلحة المرسلة، وبعض القواعد والضوابط الفقهية؛ التي يمكن للقاضي والمفتي إدراج الكثير من النوازل المرورية المعاصرة ضمنها.

■ **القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:**

● أولا - البحث المقدم من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء؛ كما جاء في مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٦، لعام ١٤٠٩/١٤١٠هـ:

بناء على ما تقدم من أقوال الفقهاء في مسائل الموضوع الرابع من الإعداد، وما بنيت عليه من العلل أو اندرجت تحته من القواعد الشرعية، يمكن أن يخرج توزيع المسؤولية في حوادث السيارات على الطريقة الآتية:

أولا - إذا صدمت سيارة إنسانا عمدا أو خطأ فرمته إلى جانب وأصابته سيارة أخرى مارة في الوقت نفسه فمات:

أ - فإن كانت إصابة كل منهما تقتله لو انفردت وجب القصاص منهما له، أو الدية عليهما مناصفة، على ما تقدم من الخلاف والشروط في مسألة اشتراك جماعة في قتل إنسان، سواء تساوت الإصابتان أو كانت إحداهما أبلغ من الأخرى، ما دامت الدنيا منهما لو انفرد قتلت.

ب - وإن تتابعت الإصابتان وكانت الأولى منهما تقتل وجب القصاص أو الدية على سائق الأولى، ويعزر سائق الثانية. وإن كانت الأولى لا تقتل ومات بإصابة الثانية فالقصاص أو الدية على سائق الثانية، ويجب على سائق الأولى جزاء ما أصاب من قصاص أو دية أو حكومة.

● ثانيا - إذا أصابت سيارة إنسانا بجروح أو كسور، وأصابته أخرى بجروح أو كسور أقل أو أكثر من الأولى، وكل من الإصابتين لا تقتل إذا انفردت، فمات المصاب من مجموع الإصابتين، وجب القصاص أو الدية على السائقين مناصفة.

● ثالثا - إذا دفع إنسان آخر فسقط أو أوثقه في طريق فأدركته سيارة ووطئته فقتلته أو كسرته مثلا فقد يقال: على السائق ضمان ما أصاب من نفس أو كسر، ويعزر الدافع أو الموثق بعقوبة دون الموت أو يحبس حتى يموت، لأن السائق مباشر والموثق أو الدافع متسبب، ويحتمل أن يكون الضمان عليهما قصاصا أو دية أو حكومة، لأن كليهما مشترك مع السائق في ذلك.

● رابعا - إذا أصابت سيارة إنسانا أو مالا وأصابته أخرى في الوقت نفسه أو بعده، ولم يمت، وتمايزت الكسور أو الجروح أو التلف، فعلى كل من السائقين ضمان ما تلف أو أصيب بسيارته، قل أو كثر.

● خامسا - إذا أصابت سيارتان إنسانا بجروح أو كسور، ولم تتمايز ولم يمت، أو أصابتا شيئا، أو أتلفته، فعليهما القصاص في العمد وضمان الدية والمال بينهما مناصفة.

● سادسا - إن استعمل السائق المنبه (البوري) من أجل إنسان أمام سيارته، أو يريد العبور، فسقط من قوة الصوت أمام سيارته ووطئته سيارته فمات، أو كسر مثلا، ضمنه السائق. وإن سقط تحت سيارة أخرى ضمنه سائقها، لأنه مباشر ومستعمل المنبه متسبب، ويحتمل أن يكون بينهما لاشتراكهما كالممسك مع القاتل، وإن سقط فمات أو كسر مثلا بمجرد سماعه الصوت ضمنه مستعمل المنبه.

● سابعا - إذا خالف سائق نظام السير المقرر من جهة السرعة، أو عكس خط السير وأصاب إنسانا أو سيارة أو أتلف شيئا عمدا أو خطأ ضمنه.

وإن خرج إليه إنسان أو سيارة من منفذ فحصل الحادث ففي من يكون عليه الضمان احتمالات: الأول: أن يكون على السائق المخالف للنظام لاعتدائه ومباشرته، ويحتمل أن يكون على من خرج من المنفذ فجأة، لأنه

لم يثبت ولم يحتط لنفسه ولغيره، وعلى من خالف نظام المرور التعزيز بما يراه الحاكم أو نائبه، ويحتمل أن يكون الضمان عليهما للاشتراك في الحادث، وإن اعترضته سيارة تسير في خطها النظامي أو زحمته، فإن كان ذلك عمدا منه فالضمان عليه، وإن كان خطأ فالضمان عليهما، وعلى المخالف للنظام الحق العام وهو التعزير بما يراه الإمام.

انتهى النقل من البحث المشار إليه.

● **التعليق:**

مما ذكره بعض الباحثين في ضوابط الدية والكفارة في حوادث السيارات:

١- إذا تعدى السائق، فعليه الكفارة، والدية على عاقلته.

٢- إذا فرط السائق، فعليه الكفارة، والدية على عاقلته.

٣- المشتركون في الخطأ، على كل واحد منهم الكفارة، والدية على عاقلتهم بقدر الخطأ.

٤- إذا كان سبب الحادث عملا أراد به السائق السلامة، فلا دية على عاقلته لمن قتل معه، ولا كفارة عليه.

٥- إذا كان المقتول متعديا، فلا كفارة على غيره، ولا دية له في مال غيره، وفي ماله ضمان المتلف، والدية على عاقلته.

٦- إذا لم يتعد السائق ولم يفرط، فلا كفارة عليه فيمن قتل معه، ولا دية لورثتهم على عاقلته.

٧- الأصل أن المباشر للقتل عليه الكفارة، والدية على عاقلته.

● **ثانيا: صدر قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الثامن في بروناي دار السلام من (١ - ٧ محرم ١٤١٤هـ) الموافق (٢١ - ٢٧ يونيو ١٩٩٣م)؛ وجاء فيه:**

بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع حوادث السير، قرر ما يلي:

● أولا:

أ- إن الالتزام بتلك الأنظمة التي لا تخالف أحكام الشريعة الإسلامية واجب شرعا، لأنه من طاعة ولي الأمر فيما ينظمه من إجراءات بناء على دليل المصالح المرسلة، وينبغي أن تشتمل تلك الأنظمة على الأحكام الشرعية التي لم تطبق في هذا المجال.

ب - مما تقتضيه المصلحة أيضا سن الأنظمة الزاجرة بأنواعها، ومنها التعزير المالي، لمن يخالف تلك التعليمات المنظمة للمرور لردع من يعرض أمن الناس للخطر في الطرقات والأسواق من أصحاب المركبات ووسائل النقل الأخرى أخذا بأحكام الحسبة المقررة.

● ثانيا: الحوادث التي تنتج عن تسيير المركبات تطبق عليها أحكام الجنايات المقررة في الشريعة الإسلامية، وإن كانت في الغالب من قبيل الخطأ، والسائق مسؤول عما يحدثه بالغير من أضرار، سواء في البدن أو المال إذا تحققت عناصرها من خطأ وضرر، ولا يعفى من هذه المسؤولية إلا في الحالات الآتية:

أ - إذا كان الحادث نتيجة لقوة قاهرة لا يستطيع دفعها وتعذر عليه الاحتراز منها، وهي كل أمر عارض خارج عن تدخل الإنسان.

ب - إذا كان بسبب فعل المتضرر المؤثر تأثيرا قويا في إحداث النتيجة.

ج - إذا كان الحادث بسبب خطأ الغير أو تعديه فيتحمل ذلك الغير المسؤولية.

● ثالثا: ما تسببه البهائم من حوادث السير في الطرقات يضمن أربابها الأضرار التي تنجم عن فعلها إن كانوا مقصرين في ضبطها، والفصل في ذلك إلى القضاء.

● رابعا: إذا اشترك السائق والمتضرر في إحداث الضرر كان على كل واحد منهما تبعة ما تلف من الآخر من نفس أو مال.

خامسا:

أ- مع مراعاة ما سيأتي من تفصيل، فإن الأصل أن المباشر ضامن ولو لم يكن متعديا، وأما المتسبب فلا يضمن إلا إذا كان متعديا أو مفرطا.

ب - إذا اجتمع المباشر مع المتسبب كانت المسؤولية على المباشر دون المتسبب، إلا إذا كان المتسبب متعديا والمباشر غير متعد.

ج - إذا اجتمع سببان مختلفان كل واحد منهما مؤثر في الضرر، فعلى كل واحد من المتسببين المسؤولية بحسب نسبة تأثيره في الضرر، وإذا استويا أو لم تعرف نسبة أثر كل واحد منهما فالتبعة عليهما على السواء.

(«مجلة المجمع الفقهي» العدد الثامن، ٢/١٧١).

انتهى القرار.

● **التعليق:**

نجد أن الأحكام التي قررها المجمع بشأن حوادث السير مبنية في مجملها على دليل المصلحة المرسلة، وبعض القواعد والضوابط الفقهية؛ التي يمكن للقاضي والمفتي إدراج الكثير من النوازل المرورية المعاصرة ضمنها.

- فالمصلحة المرسلة هي دليل الالتزام بالأنظمة المرورية التي لا تخالف أحكام الشريعة؛ لما في الالتزام بها فيما تنظمه من إجراءاتها من حفظ لمقصود الشرع؛ في الأنفس، والأموال.

- ومن القواعد المهمة التي تضبط حقوق الناس في حوادث المرور، قول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». ومنها: «المباشر ضامن، وإن لم يكن متعديا»، و«المسبب ضامن، وإن كان متعديا»، و«إذا اجتمع المباشر والمسبب، أضيف الحكم إلى المباشر».. وغيرها.

وقد ابتنى على هذه القواعد تحديد الضمان والمسؤولية الجزئية الواقعة عند حصول حوادث السير المشتركة.

إعداد: تركي محمد النصر

العلم أربعة أصناف

العلم أربعة أصناف: علم للمكسب؛ فذلك مهنة وابتذال، وعلم للمفاخرة؛ فذلك علم السفهاء، وعلم للآخرة؛ وذلك علم الصالحين، ورابع يبعث عليه شرف النفس وذلك علم النبلاء.

(الفصول والغايات للمعري ١/١٢٤)

على من يتعين طلب العلم

قال الإمام القرافي رحمه الله: «العلم وضبط الشريعة، وإن كان فرض كفاية، غير أنه يتعين له طائفة من الناس، وهي من جاد حفظهم، ورق فهمهم، وحسنت سيرتهم، وطابت سريرتهم، فهؤلاء هم الذين يتعين عليهم الاشتغال بالعلم، فإن عديم الحفظ أو قليله أو سيئ الفهم لا يصلح لضبط الشريعة المحمدية، وكذلك من ساءت سيرته لا يحصل به الوثوق للعامة، فلا تحصل به مصلحة التقليد، فتضيع أحوال الناس. وإذا كانت هذه الطائفة متعينة بهذه الصفات تعينت بصفاتها وصار طلب العلم عليها فرض عين».

(الفروق ١/١٤٦)

وعظ بليغ

قال ابن خيرة، وكان من أصحاب علي رضي الله عنه: جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة.

قيل: وما التعسر في اللذة؟

قال: لا يصادف لذة حلالا إلا جاء من ينغصه إياها.

(تفسير ابن كثير ٣/٥٣٣)

الدنيا والماء

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ (الكهف:٤٥).

قال الحكماء: «إنما شبه تعالى الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد.

ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا.

ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تفنى.

ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها.

ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر».

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/٢٨٩)

أبوحنيفة

قال أبويوسف (صاحب أبي حنيفة): بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمع رجلا يقول لرجل: هذا أبوحنيفة لا ينام الليل. فقال أبوحنيفة: والله لا يتحدث الناس عني بما لا أفعل؛ فكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعا.

وقال أسد بن عمر: صلى أبوحنيفة صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة؛ فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة، وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه.

(تاريخ بغداد ١٣/٣٥٣)

العلم والتربية

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، رحمه الله: العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزتهم؛ إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم، وكم شقي أصحاب العلم المجرد بالعلم وأشقوا أممهم، والسعادة غاية لا يسلك إليها طريق العلم وحده من غير أن تصاحبه التربية، وأن الجمع بين التربية والتعليم هو وظيفة النبوة التي تبينها الآية: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (البقرة:١٥١).

(آثار الإبراهيمي ٤/١٧٣)

طبع جامع

قال ثابت البناني: «جالست الناس خمسين سنة، فما جالست أحدا إلا وهو يحب أن تنقاد الناس لهواه، وإن الرجل ليخطئ فيحب أن تخطئ الناس كلهم».

(الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، ص:٢٥٠)

ترس المؤمن

نظر رجل إلى سفيان الثوري فقال: يا أبا عبدالله، تمسك هذه الدنانير؟!
قال: أسكت، فلولا هذه الدنانير لتمندل بنا هؤلاء الملوك.
وقال سفيان أيضا:
- من كان في يده من هذه شيء فليصلحه، فإنه زمان إن احتاج كان أول ما يبذله دينه.
- كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن.
- لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها؛ أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس.

(تهذيب الكمال في أسماء الرجال ١٦٨/١)

من فقه الدعاء

قال أبوالعباس القرافي، رحمه الله: «لا يجوز أن تقول لمصاب بمرض أو فقد محبوب أو غير ذلك: جعل الله لك هذه المصيبة كفارة؛ لأنها كفارة قطعا، والدعاء بتحصيل الحاصل حرام لا يجوز، لأنه قلة أدب مع الله تعالى.
وقد بسطت هذا في كتاب «المنجيات والموبقات في الأدعية»، بل يقال: اللهم عظم له الكفارة، لأن تعظيمها لم يعلم ثبوته، بخلاف أصل التكفير فإنه معلوم لنا بالنصوص الواردة في الكتاب والسنة، فلا يجوز طلبه، فاعلم ذلك فيه وفي نظائره».

(الفروق ٣٩٤/٤)

أغبط الناس عيشا

قال زياد لجلسائه: من أغبط الناس عيشا؟ قالوا: الأمير وجلساؤه. فقال: ما صنعتم شيئا، إن لأعواد المنبر هيبة، وإن لقرع لجام البريد لفزعة، ولكن أغبط الناس رجل له دار لا يجري عليه كراؤها، وله زوجة صالحة قد رضيته ورضيها، فهما راضيان بعيشهما لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنه إن عرفنا وعرفناه أتعبنا ليله ونهاره وأذهبنا دينه ودنياه.

(تاريخ دمشق لابن عساكر ١٩٤/١٩)

العدل في الخلاف

قال العلامة ابن أبي العز الأذرعي الحنفي، رحمه الله: «إذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف».

(شرح العقيدة الطحاوية، ص:٣٦٣)

الكلمة النافعة

قال الإمام الشعبي، رحمه الله: «لو أن رجلا سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره؛ ما رأيت سفره ضائعا، ولو سافر في طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد؛ لرأيت سفره عقوبة وضياعا».

(البداية والنهاية ٢٩٣/٩)

حقيقة الرضا

قال عبدالله بن عون، رحمه الله: لن يصيب العبد حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى. كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفا لهواك؟!.. ما أنصفت نفسك، ولا أصبت باب الرضا.

(صفة الصفوة ٢٢٣/٣)

تعظيم القرآن

عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون أن يتلو الآية عند الشيء يعرض له من أمر الدنيا.
قال أبوعبيد: وهذا كالرجل يريد لقاء صاحبه، أو يهم بالحاجة فتأتيه من غير طلب؛ فيقول: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه:٤٠) وهذا من الاستخفاف بالقرآن.

(جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي ١٨٨/١)

إعداد: علاء عبدالفتاح

التوحيد وأثره في التغير الاجتماعي

الرسول الخاتم وانطلاق العلوم

أدرك الرسول ﷺ أنه لكي يؤدي المجتمع المسلم الجديد رسالته العالمية التاريخية فلابد أن يتسلح بالعلم والمعرفة، ولقد أتيح للمجتمع المسلم ما لم يتح لغيره من اغتراف العلم من منابعه في شتى فروعه، بل وتطوير علوم كانت حكرا على الغرب كالفلسفة والمنطق بعد استيعابها استيعابا تاما من قبل المجتهدين المسلمين.

فاقتناع الأمة الإسلامية بأن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين أورث في صدورهم إيمانا بأهمية حمل رسالة الدعوة المبنية على العلم كسبيل للرشاد الذي ينقذ العالم من براثن الجهل، وأن يتسم ذلك بالديمومة مادامت الحياة قائمة على ظهر الأرض، ولذا انتشرت في العالم الإسلامي مؤسسات متنوعة وعظيمة للعلم والتعليم كالكتاتيب والمدارس والجامعات، وأدت المساجد دورها على الوجه الأكمل متميزة ومنفردة عن المؤسسات الدينية للعقائد الأخرى، فصارت ميدانا للتباري في العلم النافع للبشرية جمعاء وليس للأمة الإسلامية فقط، وصارت أقدار الناس توزن بقدراتهم العقلية وتوجهاتهم العلمية واهتمامهم بتحصيل المزيد والمزيد من العلوم، كل ذلك بسبب لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

مجتمع جديد بني على العلم ثم العمل، مبني على الإصرار على النجاح وإثبات الذات، مبني على التقوى، مبني على وحدة المصير، مبني على الاتساع للجميع، مبني على حق المواطنة ومفاهيم الحرية والعدالة والتكاتف من أجل الوصول إلى الهدف الأسمى وهو مرضاة المولى عزوجل وسيادة دين الإسلام على ظهر البسيطة.

• د. نبيه فرج الحصري

عش بالإرادة.. عش للتغيير

عندما تجبرك الحياة على المواجهة المباشرة للعراقيل والمشاكل يجب علينا أولا أن نتفكر في مواجهة أنفسنا قبل كل شيء.

فالإصلاح الحقيقي يبنى، على أساس كل فرد، من قلب متوكل على الله إلى فكر وجسم سليم غير رافض للتغيير نحو الأفضل.

وأن نكون قادرين على فعل التغيير في ظروف عادية بمحض إرادتنا غير مجبرين على ذلك، ولكي نصل لهذه المرحلة يجب علينا إعادة بناء أنفسنا ودراسة سلبياتنا قبل إيجابياتنا.

فالحياة محطة نحو الآخرة والله سبحانه وتعالى خلقنا لكي نعبده ونعمر الأرض بالخيرات والدعوات والذكر والصلاة. فلكي تزرع بذرة تحاول قدر المستطاع حمايتها من الأعشاب الضارة وتسقيها بمقدار معين من الماء وتواصل على ذلك لتصل إلى النتيجة المرغوب فيها.

وهكذا تكون حياتنا.. ازرع عملا متواصلا واسقه بالصبر والعزيمة لتصل إلى النجاح وتحقيق الأهداف بإذن الله.

• صفوان العويان



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

في ركب العلم والتعليم

تتسابق الكلمات وتتزاحم العبارات لتنظيم عقد الشكر الذي لا يستحقه الا أنتم يا مجلة «الوعي الإسلامي».

إليكم يا من كان لكم قدم السبق في ركب العلم والتعليم إليكم يا من بذلتم ولم تنتظروا العطاء.

إليكم أهدي عبارات الشكر والتقدير حيث تلوح في سمائنا دوما نجوم براقة، لا يخفت بريقها عنا لحظة واحدة نترقب إضاءتها بقلوب ولهانة ونسعد بلمعانها في سمائنا كل ساعة، فاستحقت وبكل فخر أن يرفع اسمها في عليانا، فعبر نفحات النسيم وأريج الأزاهير وخيوط الأصيل.

أرسل شكرا من الأعماق لكل القيمين على مجلة «الوعي الإسلامي»، ونؤكد لكم أننا سنبدع ونرسل لكم كل جديدنا.

● **د. كريمة مهتدي**

- **المحرر:** الشكر لكم وننتظر إبداعاتكم جعلها الله في ميزان أعمالكم.



أمام المكتبة

جاءت المجلة في شهر مايو بهدية غالية، ألا وهي جدول حول الصرف العربي، وقد اعتنينا بها، حيث جعلناها في إطار كي يستفيد منها جميع الطلاب، وعلقناها أمام مكتبتنا، ليسهل لهم الرجوع إليها حينما تضطرهم الحاجة إلى اللجوء إليها، لذلك نحن شاكرين لحسن نياتكم، وكريم تعاونكم معنا، تفضلوا بقبول فائق احترامنا وتقديرنا.

● **أخوكم/ محمد علي الوافي**

- **المحرر:** الأخ الكريم بارك الله فيك وفي جميع الطلاب.. ما قمنا إلا بواجبنا، نسأل الله أن يتقبل الأعمال منا ومنكم.



ورفعنا لك ذكرك

فضائل النبي ﷺ لا تحصى، هو رحمة الله للعالمين، وهو هداية للناس أجمعين، وهو منة الله على المؤمنين.. شهد بفضله القاصي والداني، والصديق والعدو.

وحياة النبي ﷺ صور متتابعة مشرقة.. هو رجل السياسة والأعمال، وهو الخطيب والمصلح.. هو ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحرر النساء..

لقد كانت وظيفته ﷺ ترقية العقول، وذلك بإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد الحياة. وقد جعله ميكل هارت في كتابة المئة الأوائل: أول شخصية مؤثرة في التاريخ.

ويقول الكاتب الأيرلندي الساخر برنارد شو في كتابه «محمد»: إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل مثل تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه موضع الإجلال والتقدير.. إنه دين خالد خلود الأبد، إنه يجب أن يسمى: «منقذ البشر».

لقد خاض ﷺ معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية مصرا على مبادئه، حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين، فأصبح شرعه أكمل الشرائع.. إنه فوق عظماء التاريخ.

سيدي رسول الله!..

لقد نهيت عن قطع الشجر.. نهيت عن تلويث الحياة، وأخبرتنا أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة وعبادة.. إن هديك يا سيدي هو المنقذ للعالم من شقائه، هو مصدر الأمن والأمان، والسلم والسلام.

بعثت يا سيدي! والناس في جاهلية جهلاء، يتيهون في الضلال والشقاء، يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام، قد استحلوا الميسر والربا، وعاقروا الخمر، يئدون البنات ولا يورثون الزوجات، ففتح الله برسالتك أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، فأشرقت الأرض بنور ربها، وصلحت حالها..

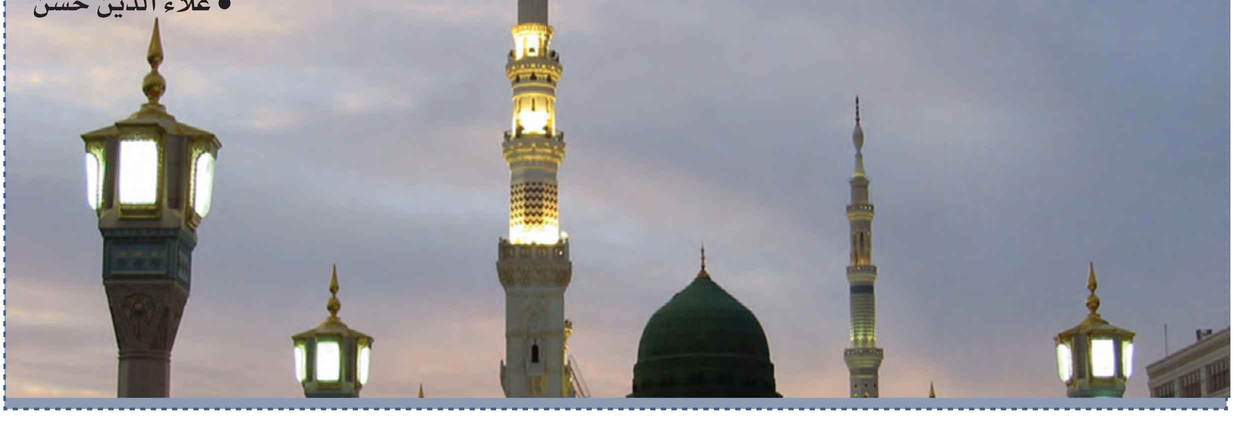
أقمت شرع الله على أقرب الأقربين.. قلت للمرأة المخزومية التي سرقت: «والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها» (رواه مسلم).

كما كنت تسمع بكاء الصبي فتسرع في الصلاة؛ مخافة أن تفتتن أمه. كنت رحيما ولم تكن فاحشا ولا صخابا. عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، والله ما قال أف قط، ولا قال لشيء: لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا (صحيح البخاري).

ما خيرت بين أمرين إلا اخترت أيسرهما، وما انتقمت لنفسك إلا أن تنتهك حرمة الله فتنتقم. وعندما قيل لك: ادع على المشركين، قلت: «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة» (رواه مسلم). ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

كنت يا سيدي إمام المتواضعين ممتثلا قول الله عزوجل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (القصص:٨٣).

● علاء الدين حسن



النوم.. الأحلام من يفك أسرارهما؟

نقضي حوالي ثلث أعمارنا في النوم، ومن هذا الثلث يقتطع حوالي ٢٠-٢٥ في المئة للأحلام الهادئة والتعيسة.. على أية حال: هل نعرف شيئا عن هذا العمر الطويل الذي نقضيه فيما يسمى بالنوم والأحلام التي تحدث أثناءه؟

النوم ليس خمولا للعقل والجسم كما يظن غالب الناس، النوم عبارة عن حالة مؤقتة من اللاوعي (يكون النائم فيها غير واع لما حوله)، لكن نشاط دماغه يكون متجها للاستجابة للمؤثرات الداخلية في الجسم أكثر من المؤثرات الخارجية.

إلا إذا كانت هذه المؤثرات الخارجية قوية بما فيه الكفاية لإيقاظ النائم.

هذا الهدوء الذي نراه على النائم ليس هدوءا بالفعل، إذ إن دماغه في تلك الحالة يمارس أوج نشاطه الطبيعي الحدوث أثناء النوم، وهو نشاط معقد كثيرا وعسير على فهمه، تماما كصعوبة النشاط الذي يقوم به الدماغ أثناء اليقظة.

أما زر النوم فموجود في إحدى مناطق الدماغ، هذا الزر هو عبارة عن مجموعة من الخلايا الدماغية توجد في منطقة ما تحت المهاد (hypothalamus)، اكتشف الباحثون أن هذه الخلايا تكون نشيطة جدا أثناء النوم، ونشاطها يكون متركزا على إرسال إشارات عصبية مستمرة تقوم بإخماد عمل منطقة الوعي الموجودة في الدماغ، وبذلك يصبح النائم (لاواعيا) بسبب همود نشاط منطقة الوعي بفعل «زر النوم».

● د. أنس الشومي

بادر بالعمل

بادر بالعمل قبل حلول الأجل، واغتنم حياتك وشبابك وفراغك وصحتك وغناك قبل حصول أضدادها. فقد قال ﷺ: اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك (رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي).

أيها الصائم القائم: لئن كان رمضان موسما للصيام والقيام، فإن العام كله موسم للأعمال الصالحة، وإليك طائفة من الأعمال المشروعة في مجال الصلاة والصيام فاحرص على فعلها وتحقيقها لتفوز بسعادة الدنيا والآخرة:

١- صيام التطوع: كالأيام الست من شوال: ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان ثم اتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر»، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر: لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أوصاني خليلي بثلاث.. وذكر: ثلاثة أيام من كل شهر» (متفق عليه) وصيام الاثنين والخميس: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس» (رواه الترمذي) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» (رواه الترمذي).

٢- قيام الليل في كل ليلة من ليالي العام: ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «أفضل صلاة بعد الفريضة صلاة الليل»، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ حتى مطلع الفجر».

٣- السنن الرواتب التابعة للفرائض: وهي اثنتا عشرة ركعة: أربع قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل صلاة الفجر.

٤- الصدقات: جاء في الصحيحين والسنن والأسانيد أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ: «الصدقة برهان»، «الصدقة تطفئ غضب الرب كما يطفئ الماء النار»، «ما نقص مال من صدقة»، «داووا مرضاكم بالصدقة»، وممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله يوم القيامة: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

● الشيخ رسمي عجلان

مسك الختام

الأخلاق الاجتماعية

اعتنى القرآن الكريم بالأخلاق عناية كبيرة، وورد الحث على مكارم الأخلاق في آيات كثيرة من سور القرآن، والهدف من بعثة الرسول ﷺ، كما ورد في الحديث، هو إتمام مكارم الأخلاق، وعندما سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن».

وسورة الحجرات تناولت جملة من الآداب السامية، منها الأدب مع الله عزوجل، والأدب مع الرسول ﷺ، والأدب مع الآخرين، وبينت أن علاقة المسلم بالله عزوجل تقوم على الإيمان والانقياد والتسليم، وعلاقته بالنبي ﷺ تقوم على المحبة والاتباع. ووضعت السورة أسس المجتمع القوي المتماسك من خلال التوجيهات الأخلاقية السامية التي وردت فيها.

والمسلمون اليوم، بل والعالم بأسره في حاجة ماسة إلى الأخلاق الفاضلة التي جاءت بها سورة الحجرات، والكثير من المشكلات والمآسي في عالمنا المعاصر هي نتيجة الغفلة والإعراض عن الآداب الاجتماعية السامية التي وردت في هذه السورة وغيرها من سور القرآن العظيم.

والمحور الأول في سورة الحجرات تناول الأدب مع الله عزوجل ومع رسوله ﷺ، وأشار إلى ضرورة احترام القيادات لما لذلك من آثار إيجابية على المجتمع، ولأن عدم احترام القيادات وتشويه صورتها أديا إلى ضعف هيبة أصحاب الرأي والقرار وتأثيرهم وإلى التجرؤ على أصحاب الفضل والمكانة في المجتمع، وصار السفهاء في وسائل الإعلام يتطاولون على قادة الأمة ورموزها وأعلامها.

وتشويه صورة القدوات والقيادات في المجتمع المسلم من الأدوات التي يستخدمها أعداء الأمة في هدم القيم ومحاربة الفضائل في المجتمع المسلم، وهو ما يفسر الحملات المسعورة في الغرب والشرق على الرسول ﷺ، وعلى الصحابة رضي الله عنهم، وعلى قادة الأمة العظام، وعلى المصلحين، قديما وحديثا.

وتتناول السورة أهمية التثبت من صحة الأخبار، وضرورة محاربة الإشاعات والقضاء عليها في مهدها، ونحن نرى اليوم التأثير السلبي للإشاعات والأكاذيب التي تتناقلها الفضائيات والمواقع الإخبارية والصفحات الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي على المجتمعات وتماسكها.

والكذب والدجل الإعلامي أصبحا من الصناعات المزدهرة في هذا العصر، والأخبار الكاذبة والملفقة التي يتلقاها الكثيرون ويتداولونها فيما بينهم كحقائق ومسلمات، فرقت بين أفراد الأسرة الواحدة، وقسمت المجتمع إلى طوائف يعادي بعضها بعضا، وحولت الدعاة والمصلحين والمجاهدين إلى إرهابيين، وحولت أعداء الأمة إلى أصدقاء! يقول الله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ (الحجرات: ٦-٨).

والترتيب القرآني في الآية الثانية عشرة ترتيب فريد، فسوء الظن يؤدي إلى التجسس، والتجسس يؤدي إلى الغيبة، التي نفر القرآن منها عندما شبه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه وهو ميت. وفي السورة تقرير المساواة بين الناس، والحث على التقوى التي تمنع الإنسان من الإساءة إلى الآخرين، وجعل التقوى هي ميزان التفاضل بين الناس في الدنيا. يقول الله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات:١٣).

محمد خاطر
كاتب صحفي

جديد



هذا الكتاب عبارة عن بحث علمي محكم في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المملكة العربية السعودية ليؤكد أن الوحدة الوطنية منهج أصيل في الشريعة الإسلامية



أسست عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

Al-Waei Al-Islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٦٠٤) ذو الحجة ١٤٣٦ هـ - سبتمبر - أكتوبر ٢٠١٥ م

التاريخ.. رؤية جديدة

- المسجد العتيق يضيء جدة
- صفحات مجهولة من حياة الرافعي
- فتاوى النوازل الفقهية وأوقاف المقدسات
- علامة الشام.. د. وهبة الزحيلي في ذمة الله
- حوار مع خبير الموروث الكويتي عبدالله فليح

هدية العدد: «ذخائر الوعي الإسلامي (٩)»

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٦٠٤ - السنة ٥٢ - ذو الحجة ١٤٣٦ هـ / سبتمبر - أكتوبر ٢٠١٥ م

مجلة الوعي الإسلامي
www.alwaei.gov.kw
info@alwaei.com

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

Al-Waei Al-islami

جديدنا



الإنسان والتاريخ

إن علم التاريخ علم عظيم المقدار، شهدت بفضله الآيات والأخبار، واعتنى بنقله الأثبات والأخيار، وأنفقوا في ذلك نفائس الأعمار، يطلع به العاقل على ما مر من الأعصار، فيزيده من الكياسة والاستبصار، بما حدث للأمم الماضية من الحوادث التي فيها عظة واعتبار، وإن لكل زمان رجالاً، ولكل حلبة مضماراً ومجالاً، فغير بدع إن تشبهت بالأوائل، وتأسيت بذوي العلم والفضائل، على أن تأخر الزمان لا ينافي التقدم في الإحسان، فقد يتأخر الهاطل عن الرعد، والنائل عن الوعد، ولقد كان من فضل أولئك الرواة الأخيار، أن كشفوا عن الأمة كل غمة بما رووا من الأخبار، وجلوا غياهب كل ظلمة بنيرات الآثار، ولولا هذا العلم الجليل حقا لماتت الدول، ولم يصل إلينا من أخبار الماضين غير الأقل، شكر الله صنيعهم، وعمّر بواسع مغفرته جميعهم.

وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات الواهية والضعيفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار من بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وفن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، وحتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط.

والهدف من هذا العلم، وقوف الإنسان على حقيقة نفسه، ليعرف طبيعته كإنسان، وما يستطيع أن يعمل أو يقدم لبني جنسه، للاستنارة بالماضي، لتجنب الأخطاء، والاستزادة من الصواب، لإصلاح الحاضر وبناء المستقبل، وثمرته الاتعاظ وكبح النفوس عن الاغترار بزهرة الدنيا والنظر بتقلب أحوالها..

في صورة الدهر ما أغنى عن العبر   لذي فؤاد وذي فهم وذي نظر

وفي لياليه والأيام ناصحة   قد لقنت قلب مغتر ومعتبر

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، وأنه لا يحدث له أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره فيزداد عقلا، ويصبح لأن يقتدى به أهلا.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

● هذه الافتتاحية منشورة في العدد ٥٤٦

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٦٠٤ | ذو الحجة ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
سبتمبر - أكتوبر ٢٠١٥م

في هذا العدد



رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

مدير التحرير
فهد محمد الخزي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هداية الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net
المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

•الكويت : ٥٠٠ فلس •السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة •الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه •اليمن : ١٠٠ ريال •لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري •تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

كلمة العدد

حركة التاريخ

لم يعد التاريخ ينحصر في الماضي، بل غدا يمثل «حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحيان والناس على سطح الأرض، وما تتبعه هذه الحركة الدائمة من تغيير دائم»، فالتاريخ يشمل الماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا يتبين أن الاتجاهات تختلف في النظرة إلى التاريخ، فالبعض يعتبره مجرد البحث عن الحقائق وتدوينها، وهناك من يرى فيه تفسير هذه الحقائق وربطها، وقد أوضح زكي صالح نفسه هذه النظرة الأخيرة بقوله: «إن التاريخ يحاول الإجابة عن خمسة أسئلة هي: من الفاعل؟ ما هو الفعل؟ أين وقع؟ متى وقع؟ ولماذا حدث بالشكل الذي حدث فيه؟». ولكن بعض المؤرخين يترددون في الإجابة على التساؤل الأخير، ويرون أنه ليس من واجبات المؤرخ أن يفسر الأحداث.

ويتساءل مؤلف «التدوين التاريخي عند المسلمين» د. فاروق فوزي: ألا يصح أن تكون محاولات الهيمنة الثقافية الأوروبية تحت ستار العولمة حافزا لإعادة قراءة دور التاريخ والنظرة إليه في مجتمعنا العربي؟

ثم يقول: دور المؤرخ العربي لا يوصف بكونه إيجابيا أو بالمستوى المطلوب، بل إن الاستقراء يشير إلى وجود هوة واسعة بين الواقع والطموحات. فإذا ما عدنا إلى التاريخ الإسلامي الوسيط نلاحظ أن الغزالي وابن رشد وابن حزم وابن خلدون لم يكونوا غريبين عن مجتمعهم المعاصر لهم، إن هؤلاء كانوا يعكسون أفكار شطر كبير من مجتمعهم. أما المفكر أو المؤرخ العربي المعاصر فهناك قطيعة بينه وبين مجتمعه، وقد جعلته الأحداث المعاصرة يفر إلى نفسه وعزلته، ويهاب المواجهة والاتصال والتفاعل.

إن المطلوب بلورة نظرة إلى التاريخ «لا تتغنى بالصفحات اللامعة أو تردد الآراء الجميلة»، بل تؤكد في انطلاقها من مشاكلنا المعاصرة وتدرجها باتجاه الماضي، تؤكد على الموضوعية والشمولية وقبول الرأي الآخر، وقبل هذا وذاك نظرة تدعو إلى محبة الحقيقة ومجابهتها مهما كانت صعبة، فليكن شعارنا «الأمانة التاريخية مهما صعبت من أجل إجلاء الحقيقة التاريخية مهما كانت مرة غير متقبلة».

● **التحرير**

الاشتراكات

● داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا ● الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).

● دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها). ● للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)



تتلاعب بأدمغة النشء

المخدرات الرقمية!

د. رضا إسماعيل رضوان
باحث أكاديمي

المخدرات الرقمية مؤثرات صوتية، وهي عبارة عن نغمات موسيقية معينة ذات ذبذبات ثنائية لها مسميات متعددة، وتوجد في مواقع إلكترونية مختلفة، ووجدت في الأصل ضمن مجال العلاج النفسي، وتطبق في بعض المراكز النفسية في الدول الغربية، تحت مسمى «العلاج بالموسيقى» وتستخدم في نطاق ضيق لدى مدمني المخدرات للبحث عن مزيد من النشوة. ولقد أكدت دراسات حديثة أنها تؤثر على المخ، ولكن كيفية ومدى تأثير هذه النغمات وهذه الأصوات على الدماغ البشري يخضع للدراسة، وهناك هيئات علمية تبحث حاليا مدى تأثير وخطورة هذه المؤثرات الصوتية على مخ الإنسان.

المخدرات لغة جاءت من اللفظ «خدر» ومصدره التخدير، ويعني «ستر». بحيث يقال تخدر الرجل أو المرأة أي استتر أو استترت، ويقال يوم خدر، أي: «مليء بالسحاب الأسود»، وليلة خدرة، أي: «الليل الشديد الظلام». ويقال أن المخدر هو الفتور والكسل الذي يعتري شارب الخمر في ابتداء السكر، أو أنها الحالة التي يتسبب عنها الفتور والكسل والسكون الذي يعتري متعاطي المخدرات، كما أنها تعطل الجسم عن أداء وظائفه، وتعطل الإحساس والشعور.

في المفهوم الشرعي: أطلق على المخدرات «المفترات» (أي: ما يغيب العقل والحواس دون أن يصيب ذلك النشوة والسرور)، أما إذا صحب ذلك نشوة فإنه مسكر.

نعلم أن المخدرات الطبيعية هي كل مادة خام مصدرها طبيعي أو مصنعة كيميائيا، تحتوي على مواد مثبطة أو منشطة إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية، فإنها تسبب خللا في عمليات العقل، وتؤدي إلى حالة من التعود أو الإدمان عليها، مما يضر بصحة الشخص جسميا ونفسيا واجتماعيا. والمتفق عليه شرعا تحريم تعاطي المخدرات وحيازتها والاتجار بها أو الترويج لها أو تهريبها. وفي الآونة الأخيرة بزغ اصطلاح



المخدرات الرقمية «Digital Drugs» أو «iDoser» في نطاق التقانة الرقمية الصوتية، تمثلها نغمات صادرة عبر مواقع متخصصة تقوم ببيع هذه النغمات على مواقع الإنترنت، ويتم ترويجها عبر مواقع التواصل الاجتماعي أيضا بمقابل مالي، إلى جانب إمكانية الحصول عليها عبر موقع يوتيوب بشكل مجاني، ويزعم مروجوها أن الاستماع إليها يحدث التأثير ذاته الذي تحدثه المخدرات المتعارف عليها، وقد نشرت تقارير تحذر من أنه لم يعُد الإدمان مقتصرا على المخدرات التقليدية، فمع انتشار استخدام الإنترنت انتشر نوع آخر من الإدمان يتمثل في برنامج يستخدمه الشباب لتحميل أنواع من الموسيقى الصاخبة يحدث تأثيرا على الحالة المزاجية يحاكي تأثير الماريجوانا والحشيش والكوكايين وأنواع أخرى من المخدرات، أطلق عليه المخدرات الرقمية. وحسب المنظمة العربية للمعلومات والاتصالات فإن تلك المخدرات عبارة عن ذبذبات صوتية تتراوح أمواجها ما بين ألفا ثم بيتا و ثيتا وصولا إلى دلتا. يؤدي الاستماع إليها لفترة طويلة لعدة أحاسيس كالنعاس أو اليقظة الشديدة أو الدوخة أو الارتخاء أو الصرع والانزعاج.

تقوم فكرة «المخدرات الرقمية» على أن يبدأ المستمع باختيار مقطوعة موسيقية بحسب «نمط أو أنموذج السماع المطلوب من بين عدة نغمات متاحة عبر الشبكة» وتحميلها على جهاز مشغل الصوت ثم الاستلقاء على وسادة، والاسترخاء في غرفة ذات ضوء خافت مع ارتداء ملابس فضفاضة وتغطية العينين، وإغلاق جرس الهاتف للتركيز على المقطوعة دون مقاطعة، وتتراوح مدة السماع ما بين ١٥ و٣٠ دقيقة للنغمات المعتدلة أو٤٥ دقيقة للأنغام شديدة التأثير!

وتعرف هذه التقنية بـ«الهولو تروبيك» وهو نوع من الموسيقى العلاجية التي تسمح للمستمع بعد فترة بسيطة بالدخول إلى مرحلة تعرف بـ «ما قبل الوعي»، وهي مرحلة وسطى تقع ما بين الوعي واللاوعي، وفيها يسترجع الشخص الأحداث السعيدة والذكريات غير المؤلمة في محاولة للإيحاء بالسعادة والنشوة.

وللآن، لم تستطع الدراسات والتقارير العالمية، أن تدرج هذا النوع من السماع ضمن المخدرات، ولكنها بينت خطورتها من حيث ترويجها للمخدرات، وتُدخل الشخص المستمع لهذا النوع من الموسيقى في حالة نفسية ومزاجية أقرب إلى شخصية المتعاطي. من هنا يرجح النظر إلى هذه الظاهرة في إطار الترويج والتحريض على تعاطي المخدرات.

وتلح الحاجة إلى فتوى شرعية، وهذا - بالقطع - دور الاجتهاد الإسلامي المعاصر، على أن يكون مأخوذا في الاعتبار، أن مفهوم المخدرات الرقمية يتمثل في سماع موسيقى ذات إيقاع ونغمات يتم بثها عبر الوسيط المعلوماتي الشهير (إنترنت)، وقد أطلق المجرمون المعلوماتيون اصطلاح «مخدرات» على مثل هذه الموسيقى لإكسابها مكانة تضاهي مكانة المخدرات التقليدية. فالمخدرات الرقمية - بحسب المفهوم السابق - لا تأخذ حكم المخدرات شرعا، وإنما يبحث حكمها - والله أعلم - في باب الأحكام الشرعية المقررة للمعازف، هذا في جانب. ومن جانب آخر، وبحسب النظام الجنائي الإسلامي، فإن تعزير المروجين لتقانة موسيقى المخدرات الرقمية أولى من معاقبة متعاطيها، ويوافق شرعتنا ملاحقة المجتمع الدولي مواقعها لوقف نشاطها، طالما أكد العلم الحديث أضرارها بشكل أو بآخر، وصدق رب العالمين حيث يقول في محكم التنزيل:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف:٣٣).

السكينة في القرآن

الشفيع أحمد
باحث دراسات إسلامية

يدل كل موضوع ورد فيه لفظ سكن في القرآن الكريم على أمر هو على خلاف الاضطراب والحركة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ (البقرة:٣٥)، أي اتخذها مسكنا، وخصت الجنة بالسكن في تلك الآية وغيرها، لأن الجنة يعمها السكون أكثر مما تعمها الحركة.

وأيضا قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (الأنعام:١٣)، بمعنى هدأ واستقر، والمراد سكن وما تحرك، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف:١٨٩).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ (يونس:٦٧)، فكلها بمعنى السكون، وهو الهدوء والبعد عن الاضطراب وما هو في دلالته تلك، ولا يخرج عما قلنا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة:١٨٤)، والمسكين هو الذي أسكنته الحاجة وأذلته، وسمي بذلك لقلة تصرفه وحركته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ (البقرة:٦١)، والمسكنة الخضوع، وهي بدورها مأخوذة من السكون. أي قلة الحركة بسبب الفقر، أو ما هو في مقامه في القوة على تقليل الحركة.

أما لفظ السكينة فهو وإن ورد بمعنى مفارقة الحركة والاضطراب في كل حالة عند الخوف أو الغضب أو الحزن إلا إنه يرد دائما بمعنى الطمأنينة والثبات. مما أدى لأن يوضع للسكينة تعريف أسهل وأبسط، فعرفت بأنها هي ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزل الغيب، فهي بالتالي نور في القلب يبعث على الاطمئنان والسكون.

يفيدنا التعريف السابق أن السكينة علوية المصدر، وليست ناشئة أو متولدة عن قوى القلب أو النفس، وإلا لكانت أخذت لها معنى هو أقرب إلى الوقار والوداعة منه إلى الطمأنينة.

لأجل هذا تطابق معنى السكينة مع الطمأنينة، بيد أن القرآن عندما استخدم لفظ السكينة ليعبر به عن طمأنينة القلب وثباته، لم يقف في حدود هذا المعنى وحده، بل تجاوزه إلى درجة أعطى فيها السكينة المعنى الذي صارت لموجبه لطفا إلهيا خالصا، خص به المؤمنين دون سواهم.

إن الذي جعل السكينة تنفرد بهذه الخاصية الفردية دون غيرها من الألفاظ قريبة الصلة بها في المعنى؛ مثل الطمأنينة والوقار، هي أنها كما قلنا منزلة من عند الله، ونزولها قد اقتضى أن تكون بمثابة التأييد والتقوية لعباده المؤمنين في حركتهم التعبدية.

اختلف الإسلاميون في ماهية السكينة بهذه الخاصية المتميزة، فمنهم من قال إنها روح من الله، ومنهم من قال إنها ملك يسكن في قلب المؤمن، ومنهم من رأى أنها ريح سريعة المرور، أي إنها أشبه بالإشعاع الإلهي الذي يفيض على القلب، فينعش بعد همود، ويسكن بعد اضطراب، ويقوى بعد ضعف.. وأمر كهذا يصعب تحديد ماهيته، وإن شعر وأحس به كل مؤمن عقب أي اضطراب يعتريه من سكون للمخاوف والأحزان.



والحق عزوجل ينزل هذه السكينة على عباده المؤمنين في حالتين.
الأولى: في حالة الاضطراب.
والثانية: في حالة التأييد والتقوية.
أما حالة الاضطراب فهي التي تنشأ نتيجة لموقف يجد فيه المؤمن نفسه عاجزا، لا حول له ولا قوة، فيحدث جراء ذلك العجز اختلال في قواه وارتباك في حركته، وتضارب في خواطره، وتردد في بواعثه ودوافعه، فيتولد من هذا كله الخوف والحزن، عندها تنزل السكينة على قلبه لتقضي على الاضطراب، ولتعطيه من القوة القلبية ما يساعده على التغلب على كل ما كان سببا في اضطرابه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (التوبة:٢٥-٢٦).
والمعنى أن الله تعالى أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين بعد أن عرض لهم الأسف والحزن والخوف حين وقوع الهزيمة بهم يوم حنين، فسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فازدادوا بها ثباتا وشجاعة، بحيث وجد الجميع أثر السكينة ملحوظا في تحول موقفهم المضطرب الذي لا ثبات فيه، إلى موقف فيه ثبات وشدة بأس، واطمئنانهم بعد هذا كله للكر بعد الفرار، ثم ظهرت آثار الموقف الجديد في هزيمة الكفار وتشتت شملهم.

ومن ذلك أيضا قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (التوبة:٤٠).
والمقصود هنا أن السكينة نزلت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأنه خاف على النبي ﷺ من المشركين، فقال له رسول الله ﷺ «إن الله معنا» بالنصرة والحفظ ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي ألقى في قلبه ما سكن به من أن الكفار غير واصلين إليه، وأنهم لن يصيبوه بأذى.. حينئذ سكن جأشه وذهب روعه، وحصل له الأمن.
وأما حالة التأييد والتثبيت والتقوية فهي على العكس من الحالة الأولى، فلا نجد فيها الاضطراب، بل نجد فيها رضا وطمأنينة وتسليما بالحالة التي هو عليها، وهذه الحالة، أي: حالة الاطمئنان، ناشئة عن قلب المؤمن، لا واردة عليه، فتتحرك السكينة في هذه الحالة كجزاء له، فيثبت على ما هو عليه.
ومثال هذه السكينة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ (الفتح:٤).
وهذه السكينة التي أنزلها الله على قلوب المؤمنين وفي الموضع المحدد لها، هي التي حصل بها من البصيرة والإيمان الحق ما تسكن معه النفوس، وهي بهذا إظهار لفضل الله على عباده المؤمنين، مما يعني أنها نعمة خالصة، بها يزدادون إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم.

ومن ذلك أيضا قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح:١٨)
والمعنى أن الله تعالى عندما علم ما في قلوب المؤمنين من صدق النية والعزيمة على الوفاء بعهدهم إلى رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، أنزل عليهم السكينة لتقوى بها قلوبهم حتى يقاتلوا بها عدوهم، فكانت سببا لفتح خيبر ومغانم كثيرة أخذوها عقب سقوط الحصن.
وعلى أي حال فإن السكينة في حال نزولها على قلب المؤمن تحدث أثرا واضحا في جسمه وفي نفسه، فأبرز ما تحدث في الجسم تلك الشارة الظاهرة التي تعرف بالوقار، والتي هي أقرب إلى الرزانة منها إلى اطمئنان الأعضاء، وإلى الحلم أقرب منها إلى ثقل البدن، لأن أثر السكينة في الجسم يكون للعقل وأحكامه أثر بارز فيها، وهي لأجل هذا زينة الجسم وجماله.
أما أثر السكينة على النفس، فالرفق الدائم والإطراق الذي لا وجوم فيه ولا تجهم، والغيبة الدائمة عن الخلق، غيبة لا غفلة معها ولا سهو، والشهامة التي لا طيش فيها ولا تهور، والإقبال الدائم على الخير، والنفور الطبيعي من الشر مهما قل أو كثر.

المراجع

١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي أحمد عبدالموجود، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م.
٢- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية تونس، دون تاريخ.
٣- معجم المقاييس في اللغة، أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق شهاب الدين أبوعمرو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت ١٩٩٨م.

خبير الموروث الكويتي عبدالله فليح لـ «الوعي الإسلامي»:

السلوك اللغوي مفتاح فهم الآخر

حوار: سليمان الرومي وعلاء عبدالفتاح

منذ صغره أحب القراءة وتدوين المعلومات التي يحصلها من الكتب ومن حكايات الأجداد في أوراق متساوية وكأنه يعمل على بحث أكاديمي، شيئا فشيئا اتضحت الصورة أمامه، صار الموروث الثقافي المحلي جل اهتمامه، انتبه إلى اندثار كلمات وإهمال أخرى لم تعد في دائرة اهتمام المتحدثين، قرر أن يكون أحد حماة هذا التاريخ اللغوي، باعتبار أن اللهجات روافد تصب في نهر الفصحى وتضم ما يعززها ويثريها.. إنه خبير الموروث الثقافي الكويتي عبدالله فليح، الذي زار «الوعي الإسلامي» أخيرا فكان هذا اللقاء الكاشف عن علاقة اللهجة بالهوية، والحدود التي يمكن التحرك فيها لتعزيز العربية لغة الذكر الحكيم.

في البداية، يوضح الفليح أنه بدأ دراسته وهو طفل في الكتاتيب، ثم التحق بالمعهد الديني، وتخرج في جامعة الأزهر الشريف. لذا، فقد جمع بين دراسة شعبية وأخرى أكاديمية رسمية، فكان أن اتسع أفقه بتعدد مصادر معرفته.

● سألناه: كيف كانت بداية اهتمامك بالتراث؟

- فقال: بدايتي كانت بداية عمياء، تلتهم عيناي كل ما يقع عليه بصري من أوراق، فأبصرت عمق التاريخ. وقد تخيرت مقاسا واحدا للورق الذي أدون عليه المعلومات لتسهل مهمة الاسترجاع. أتذكر أنها كانت كبطاقات البحث العلمي مقاسها ١٥ سنتيمترا عرضا وطولها ٢١ سنتيمترا. كنت أدون ما استقيه من معلومات من الأشخاص ومن الكتب وحتى من البرامج التي استمع إليها في الإذاعة، شدني الكنز المسمى بالموروث الكويتي واللهجة الكويتية، فكونت أرشيفا عن كل ما أقرأ في سن مبكرة، ربما عام ١٩٦٥م، وعندما حان الدور علي لأقدم برنامجا بالإذاعة عام ١٩٩٤م، انتفعت كثيرا بهذه البطاقات.

● لكن ألم تنتفع بها في تأليف كتب تضاف إلى المكتبة العربية؟

- طبعت كتابا واحدا ومازال الباقي في انتظار الطباعة.



● نود أن نسألك عن علاقة اللهجة بالهوية الوطنية وهل هناك خوف على الفصحى من اللهجات المحلية؟

– اللهجة لها اسم دقيق هو اللغة، وهي أساس الهوية، وما نقول عنه إنه لغة هو اللسان إن أردنا الدقة. والقرآن نزل بلسان عربي مبين. وعلى الرغم من أن اللغة المحلية هي الأساس ورافد من روافد اللغة العربية الفصحى فإن البعض يحاربها، متناسين أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف. والجهل في هذا الجانب مصيبة، إذ يضيع علينا مفردات وصيغا وضعت منذ ١٥ قرنا، ولنضرب مثالا على ذلك: كلمة «وبية» من معانيها «الخيبة»، وتجد ذلك في التراث الشعبي المصري ربطا بين الخيبة والوبية.. ومن معانيها «الهلاك» وهذه الكلمة منذ أكثر من ١٤٠٠هـ سنة هي نفسها.

ثم لماذا نخاف على الفصحى ومنذ أيام الرسول ﷺ واللغات المحلية موجودة، بينما العربية الفصحى هي لغة الخطاب الرسمي تحتفظ بمكانتها ولا تتأثر.

قضية التدوين

● لكن البعض يستخدم اللغة العامية في التدوين، وهناك مؤلفات بالعامية متداولة، فما موقفك من هذا؟

– أنا شخصيا أقرأ باللهجات، وأكاد أجيد اللهجات العامية المصرية والعراقية، والكويتية طبعا، وأكتب الشعر بها، وهذا يقدم إثراء، ومنه نتلمس الحياة عند الأقوام، وسلوكهم اللغوي نفهمه من خلالها.

المثل الشعبي يقول: «اللي يعيش ياما يشوف واللي يمشي يشوف اكتر»، وأنا مشيت كثيرا ورأيت كثيرا.

بدأت بداية عمياء بأرشفة المعلومات فأبصرت عمق التاريخ

أهمية المفردات المحلية

● ما أهمية المفردات المحلية من وجهة نظرك؟

– نحن نبدأ العلاقة بالكلام، وطيب الكلام يحسن العلاقة الإنسانية، وهناك جمل موروثة تلطف المقابلات، فمثلا إذا قطعت كلام أحدهم لأمر مهم تقول: «مقطوع كلامك بالخير»، وإذا صادفت أحدا تقول له: «تفضل»، فيرد: «يزيد فضلك». لكن هذه الجمل اختفت بسبب تغير إيقاع الحياة وعدم وضع الصيغ البديلة، وبالتالي تأثرت العلاقات.

● ما خصائص المجتمع الكويتي التي احتفظ بها في موروثه الثقافي؟

– أهل الكويت كانوا أصحاب سفن بحر وسفن بر، وهذا التواصل خصيصة تعطي ميزة التعامل مع جنسيات كثيرة: الهندي والإفريقي والأوروبي، فمثلا إذا أردت أن تخبر بأن فلانا يسكن بعيدا تقول: هو يسكن في «جندهار» (قندهار)؛ ذلك لأن القوافل كانت تأتي الكويت بالبضائع وهي زيادة عن حاجة أهلها فيتاجر بها التجار ويسافرون بقوافل برية إلى قندهار.

> **الفليج شاعرا**
>
> كتب عبدالله الفليج أشعارا عن المعهد الديني ودراسته الثرية فيه، فقد كانت به أنشطة تمثيل وخط وكشافة، على حد قوله، منها:
>
> **يسمو على دور العلم المعهد**
> **أبدا كنجم في العلا يتوقد**
> **أخلاق روحية خفاقة يدعو لها**
> **الدين العظيم الأمجد**
>
> ومنها:
>
> **أنت خلاق العقول النيرة**
> **أنت ماء للصحاري المقفرة**
> **أنت جملت الورود الناضرة**
> **أنت أعددت الشباب للغد**

● هذا قبل ظهور النفط، فماذا حدث بعده؟

– التغيير الأكثر بدأ في السبعينات، فما عاد لدينا التواصل الكويتي الحميم، كان الآباء يصطحبون الأبناء معهم إلى الدواوين فيتلقون السلوك من الكبار، لكن الآن الوضع اختلف، الأب مشغول والأم مشغولة، قارن بين ذلك الوضع وبين «الحمولة»، والحمولة لمن لا يعرف: هي العائلة الكبيرة التي كانت تجتمع في بيت واحد، والجد كان يزوج الأبناء ويراعيهم حتى لو لم يجدوا عملا.

وكان للجدة الكلمة الأولى فيما يخص ترتيب البيت وتموينه (دار الكيلة) وطعامه، وبالطبع لم يكن هناك تبذير (اليوم نحن من المبذرين نرمي في الحاويات فائضا كبيرا من الطعام)، كانت كل الكويت تشترك في تنظيف الشوارع قبل العيد، وتشم رائحة الورد والبخور منها لكن الآن الكل منشغل.

دور الدراما

● كيف ساهمت في إخراج الموروث الثقافي للنور؟

– كتبت عدة أعمال درامية للمحافظة على الموروث الثقافي، لكن للأسف اكتشفت أن المنتجين يفتقدون العناية المطلوبة بهذا الجانب، فمثلا في عام ١٩٩٤م كتبت دراما توثيقية عن ١٥ مهنة



سكرتير التحرير يسأل الضيف

كويتية (عرضت ثلاث مرات في اليوم الواحد).

فمثلا في سياق الحديث عن مهنة «التناك» كتبت كيف عندما يمنع الملا الصغار من الخروج إلى البحر، فينزلون إلى خزان الماء، وهو «التانك»، وقد حددت أعمارهم من ٨ إلى ١٠ سنوات، ففوجئت بالمخرج يأتي بشباب أعمارهم ٢٥ سنة! وهذا يخالف الحقيقة.

ومع ذلك عدت في عام ٢٠٠٢م، وبتكليف من مؤسسة الإنتاج المشترك، فكتبت دراما توثيقية عن الزواج في الكويت، وكتبت عملا تلفزيونيا آخر في البحرين.

ويستطرد فليح: أنا لا أعمل من أجل المال، وإنما للتوثيق، وقد كنت مستعدا بمادة علمية لأكتب عن ٧١ مهنة أساسية، منها «القلاف» (من قلف السفينة)، والحداد، و«المحماص» (هون يستخدم في تحميص البن وأداة لحفر الآبار)، والنجار، و«الصفار»

أطالب منتجي الإذاعة والتلفزيون بالاهتمام بالدراما التراثية



(يعمل بمادة الصفر على النحاس الأحمر)، و«النكاس» (صانع رحى طحن الحبوب والعامل على صيانتها).. غير المهن الأخرى التي تتفرع منها، لكنني توقفت لأن المخرج لم ينفذ رؤيتي بدقة.

• ما نصيحتك كي نحافظ على الهوية الوطنية؟

- أرى أنه على المسؤولين في وزارة التربية إدراج العامية والعاميات المقارنة في المناهج، وعلى المسؤولين في الأجهزة الإعلامية الاهتمام بالتراث وتقديم أعمال درامية مكثفة عن هذا الجانب المنسي؛ لحفظ الموروث. والآن أنا مستعد بمشاريع درامية كثيرة، كما أساعد كل من يكتب دراما تاريخية بتصويب أي خطأ يرد فيها بالمجان؛ لأني أريد وجه الله بالحفاظ على موروثنا الثقافي من الاندثار.

رحلة إلى مكة.. بعيون الألماني المسلم مراد هوفمان

السنوسي محمد السنوسي
كاتب إسلامي



لطالما هوت القلوب، وانسكبت العبرات، واهتاجت المشاعر، وبذل الغالي والنفيس عن طيب خاطر وسماحة نفس؛ سعيا لزيارة بيت الله الحرام، ومشاهدة منازل أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وأسرته، ومطالعة آثار ميلاد النبي ﷺ وبدء دعوته..

هي أطهر البقاع وأشرفها، وهي أم القرى، وهي موضع نظر المؤمنين في صلواتهم على مدار اللحظة من مشارق الأرض ومغاربها..

دعا خليل الرحمن بالأمن لها وبالرزق الوفير لأهلها، وأعرب خاتم النبيين ﷺ عن حبه الجارف لها، وارتباطه الوثيق بها.. فكان المؤمنون على سننهما تبعا، ولخطاهما ملتمسين.

قال خليل الرحمن: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم:٣٧).

وقال ﷺ عند خروجه منها: «أما والله لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي وأكرمه على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» (١).

ولم يتوقف هذا الأمر عند المسلمين فحسب، بل حظيت تلك البقاع باهتمام فائق من المستشرقين، حتى حرص بعضهم على زيارتها متنكرين في أسماء وأزياء عربية، ليقفوا بأنفسهم على الأسرار الكامنة في هذه البقعة الجدباء من الأرض؛ ودونوا مشاهداتهم وانطباعاتهم (٢).

والسفير الألماني المسلم مراد هوفمان هو واحد ممن أكرمهم الله بزيارة بيته الحرام، وقد سجل تفاصيل رحلته وما خرج به من زاد روحي وتأملي، ومن وقفات وإضاءات، في كتابه الماتع «رحلة إلى مكة»، الذي سنقف معه هنا لنرى من خلال ما سجله هوفمان كيف أن لكل منسك من مناسك الحج مقصدا ومعنى، وأدبا تربويا يغرسه في نفس المؤمن.

في البداية، يشير هوفمان إلى ضرورة «الإعداد الروحي» لهذه الرحلة، موضحا أن أهم شيء فيما يتعلق بذلك هو «دراسة آيات القرآن المتفرقات عن الحج في السورتين البقرة والحج، وكذا حفظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التي تتناول الحج» (٣).

مناسك.. وقيم

ويؤكد هوفمان أن مناسك الحج تترابط ظاهريا وباطنيا، ماديا وروحيا؛ وأن هذا الترابط ليس غريبا على المسلمين؛ فالعقيدة الإسلامية تؤلف بين الروح والمادة معا، ولذا فإن التوجه إلى الله في الإسلام لا ينحصر في الروح فقط، أو الجسد فقط؛ والمسلم في صلاته، وفي صومه، وفي نحره للأضحية، وفي حجه، ليس حاضرا بروحه وعقله وقلبه فقط، وإنما بلحمه ودمه أيضا؛ فهو إما أن يكون حاضرا كله وإما ألا يكون حاضرا البتة؛ وهذا ناتج عن التوحيد بوصفه مبدأ جامعا من منظور إسلامي (٤).

● ويوضح هوفمان أن الصبر والانضباط من أهم القيم التي تغرسها مناسك الحج في نفس المؤمن، فيقول: «على الحاج أن يتحلى بالصبر، وأن يتفادى الدخول في خلاف أو حتى الشروع فيه؛ ناهيك عن أنه محرم عليه أن يجرح شخصا أو شيئا أو أن يقتلع نباتا أو حتى يقتل بعوضة» (٥).

ويذكر أنه «عندما تحاول سيارات الأجرة الفارهة، التي تقل بعض الحجاج، اختراق حشود المسلمين، لا تسمع كلمة غاضبة، ولا تصدر إشارة قبيحة، ولا أحد يضرب بيده على السيارة حقدا على أصحابها. ويبقى الانضباط والالتزام بهذا السلوك من جانب هذا الحشد من المسلمين مثيرا للدهشة، حتى بالنظر إلى التزام الحجاج بمسالمة الإنسان والحيوان والنبات. ولم أكن أعتقد قبل هذه التجربة أن التعاليم الدينية تستطيع أن تلغي بعض القوانين والقواعد الاجتماعية مدة من الزمن» (٦).

● وبالنسبة لملابس الإحرام يشير هوفمان إلى أن «أهم ما في الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها، يستوي في ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم، أقوياؤهم وضعفاؤهم، أذكياؤهم وبسطاؤهم، كبيرهم وصغيرهم. ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر، ولو بمجرد الخياطة الأنظف. ولا ترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوي البشر أمام الله، وإنما ترمز أيضا إلى يوم القيامة؛ فلقد كنا نبدو - ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهابا - كمن قام من الموت ومازال يرتدي كفنه؛ بل إن كثيرا من الحجاج يحتفظون بملابس الإحرام لتكون أكفانا لهم» (٧).

● ويستخلص هوفمان معنى رمزيا من طريقة بناء الكعبة يتصل - أي هذا المعنى - بما تتميز به العقيدة الإسلامية من وضوح وبساطة، ومن خلو من التعقيد الذي يكتنف عقائد ومذاهب أخرى، فيقول: «الكعبة مكعب مجوف خال تماما، مبني بأحجار ضخمة. إنها صورة معمارية لكمال بيت الله في أبسط صورة، بعيدا عن التعقيد الذي يبدو في الفن القوطي وفن الروكوكو» (٨).

● وأما عن الحجر الأسود فيقول هوفمان: «هو الأثر الوحيد الباقي من مدة ما قبل الإسلام، وهو بإيجاز أقدم أجزاء الكعبة، ناهيك عن أن محمدا ﷺ شخصيا هو الذي وضعه حيث هو اليوم؛ فعند إعادة بناء الكعبة تنازع أشراف مكة على شرف وضع الحجر الأسود موضعه القديم، وقام محمد ﷺ بحل نزاعهم عندما اقترح وضع الحجر الأسود في ثوب يمسك بأطرافه جميع أشراف مكة لرفعه، ليقوم - هو الحكم المحايد - بوضعه حيث هو الآن. ولذلك فإن من يلمس هذا الحجر يتصل اتصالا ماديا بالرسول ﷺ، وينضم مثل ملايين سبقوه في سلسلة متواصلة» (٩).

● ويأتي منسك السعي بين الصفا والمروة ليمثل - كما يذكر هوفمان - إحياء لذكرى سعي السيدة هاجر بين الجبلين بحثا عن ماء لطفلها الصغير إسماعيل في الوادي المقفر بمكة (١٠).

● ولا تخلو شعائر الحج رغم ما تتطلبه من طاقة بدنية، وما تسببه من جهد ومشقة.. لا تخلو من لمحات جمالية تأسر النفس، وتذهب عنها الألم والتعب، فضلا عما تمثله من زاد روحي وإيماني.

وهنا يتوقف هوفمان أمام مشهد الطواف ليلاحظ أنه مشهد «شديد الجمال؛ فالكعبة تبدو مركزا ثابتا لا يتحرك لأسطوانة تدور ببطء وفي سكون تام في اتجاه مضاد لاتجاه عقارب الساعة. ولا يتغير هذا المشهد إلا عند الصلاة؛ حيث تصير الكعبة مركزا لدوائر عديدة متحدة المركز، تتكون من الآلاف من أجسام ناصعة البياض لأناس يرغبون في شيء واحد، ويبحثون عن شيء واحد، ويفعلون شيئا واحدا؛ رمزا لتسليم النفس إلى بارئها» (١١).

● أما يوم عرفة الذي هو الأساس في أعمال الحج، فيطيل هوفمان الوقوف معه، بما يحتويه هذا اليوم العظيم عند الله وعند عباده المؤمنين من دعوات وإجابات وضراعات، فيقول: «كان يوما طويلا رائعا، كان يوما للتأمل والسلام، يوما للصلاة وللأحاديث القيمة. لم أكن منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية في سنوات الصبا، قد عايشت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفا الداخلي الباهر؛ فلا شيء يوم عرفة سوى مناجاته. وهنا يتجسد نداؤنا الدائم: لبيك اللهم لبيك. هذا إذن هو معنى الوقوف بين يدي الله بعرفات؛ ملايين من الناس يتشحون بأكفان ويتركون في هذا اليوم كل شيء وراء ظهورهم، فوجودهم اليوم مكرس لله وحده، يتوقعون موتهم، يصلون ويتضرعون في خشوع ويقين لم يحدث من قبل، ولن يحدث في الغالب من بعد» (١٢).

● ثم يحدثنا هوفمان عن رمي الجمرات وما يرمز إليه من مجاهدة إبليس اللعين، فيقول: «وصلت حافلتنا في الساعة الثانية صباحا إلى منى، قريبا من موضع رمي الجمرات؛ ذلك الرمي الذي يرمز لرفض الإنسان القاطع للشر بداخله هو نفسه، وفي العالم أيضا. واقتربت من العمود حتى أضمن إصابته باستخدام إصبعين فقط، مع احتفاظي بمسافة تحميني من التعرض لوابل من حِصِي الحجاج من الخلف. إنه موقف صعب حقا؛ لأن بعضا من البسطاء ينتابهم شعور بأن في مقدورهم أن ينالوا من إبليس مرة واحدة في حياتهم، فيرموا رمزه بأحجار كبيرة وبأحذية ومظلات» (١٣).

● وبعد انتهاء مناسك الحج، شرع للحاج أن يختم تلك الرحلة الفريدة في حياته بزيارة صاحب الرسالة ﷺ، ومطالعة أماكن الغزوات والأحداث التي غيرت مجرى التاريخ، فيؤكد هوفمان أن «الوجود حيث عاش الرسول ﷺ، وحيث خطط، وعمل، ووعظ، وأحب، وعانى سكرات الموت؛ لأمر يستحوذ على الأنفس كلها. وفي هذا المكان، الذي يفوح منه عبق التاريخ، هزت التجربة - من الأعماق - بعض الحجاج الذين صاحبوني، فأجهشوا ببكاء حار» (١٤).

الحج.. التقاء عالمي

لاشك أن الحج تجربة فريدة، سواء في روحانياتها أو في جمعها ملايين المسلمين من مختلف الألوان والعادات والبلاد، في تمازج نادر من الاجتماع البشري.

يذكر هوفمان أن مشاعر دافقة بالترحيب والإحساس بالأمان التام قد غمرته وهو بين إخوانه من حجيج بيت الله، وأنه قد أدرك من ذلك معنى تحية «السلام عليكم» وقد بدت نابضة بالحياة، حيث تتجسد الكرامة، والجمال، والإيمان، والأممية. ويضيف: «لقد شعرنا بأننا مثل ذرات في وحدة كونية كبيرة، حيث تختفي في (مكة) الفوارق بين الأجناس؛ وخلال ركوعي في الصلاة فقط، أدركت من الأقدام المختلفة الألوان، أن كل الأجناس والقارات ممثلة هنا» (١٥).

كما أن شعائر الحج تربط المسلم بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ فهو الذي أمره الله برفع القواعد من البيت، وفي هذا ما يؤكد وحدة الرسالات السماوية، والترابط بين الأنبياء على اختلاف شرائعهم ومناهجهم.

وكما يذكر هوفمان فإن «هذا الوعي التاريخي خليق بدين ترجع شعائر الحج فيه إلى إبراهيم عليه السلام على امتداد فترة تزيد على ٣٨٠٠ عام، شريطة أن يكون الحاج على علم كاف بالمضامين التاريخية والرمزية للطقوس التي يؤديها بطبيعة الحال. إن الكنائس المسيحية لا تعترف بسهولة بالشعائر اليهودية والوثنية التي تتضمنها طقوسها، إلا إن الإسلام لا يجد حرجا في الاعتراف بالأصول القديمة لشعائره. فمحمد ﷺ لم يدع مطلقا بأنه قد جاء بدين جديد، وإنما كانت رسالته تجديد وإتمام دين الله الواحد، أي التسليم والخضوع، أي الإسلام منذ الأزل» (١٦).

● وفي ختام هذه الإطلالة على مناسك الحج وقيمه وآدابه، والتي صحبنا فيها السفير المسلم مراد هوفمان أثناء رحلته للأراضي المقدسة، أعتقد أننا لو استحضرنا هذه المعاني والمرامي ونحن نؤدي تلك الشعيرة المهمة من شعائر الإسلام، فإن عباداتنا سيكون لها الأثر الفعال في حياتنا؛ وسندرك أن مناسك الحج ليست حركات رياضية تؤدى، بل روح ينبغي أن تسري في جوانحنا، وأن تظلل حياتنا بالسكينة والفعالية.

الهوامش

١- أخرجه أبويعلى الموصلي في مسنده عن ابن عباس. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رجاله ثقات».
٢- انظر أخبار بعض هؤلاء المستشرقين في مقال خالد الطويلي «الحج والحجاج في كتب المستشرقين»، بمجلة «المعرفة» السعودية.
٣- هوفمان، رحلة إلى مكة، ص: ٢٨، مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠١م.
٤- المصدر نفسه، ص: ٢٨، بتصرف يسير.
٥- المصدر نفسه، ص: ٧.
٦- المصدر نفسه، ص: ١٣.
٧- المصدر نفسه، ص: ١٧.
٨- المصدر نفسه، ص: ١٩.
٩- المصدر نفسه، ص: ٢١.
١٠- المصدر نفسه، ص: ٢٣، بتصرف.
١١- المصدر نفسه، ص: ٣٠.
١٢- المصدر نفسه، ص: ٣١، ٣٢.
١٣- المصدر نفسه، ص: ٣٣.
١٤- المصدر نفسه، ص: ١٤.
١٥- مراد هوفمان، يوميات ألماني مسلم، ص: ١٠٢، ١٠٣، ترجمة د. عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.
١٦- المصدر نفسه، ص: ١٠٦.



وليد عبدالماجد كساب
كاتب مصري

صفحات مجهولة من حياة الرافعي

مليئة حياته بتفاصيل كثيرة الأسى والشجن تثير الشفقة كما تبعث على التقدير والإعجاب، فمنذ فقد سمعه صغيرا وهو يواجه صعوبات كثيرة لم تزده إلا صلابة وعزما على أن يكون شخصا متفردا بين أقرانه يشار إليه بالبنان.. أوجز مذهبه في الحياة في عبارة خالدة قال فيها: «إذا لم تزد شيئا على الدنيا؛ كنت زائدا عليها».. أراد المرض أن يهزمه، لكنه هزم مرضه بالقاضية..

وبسبب من عزلته النسبية نتيجة صممه واحتباس صوته، ورغم الكتابات التي تناولت مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧م) ومنجزه بداية من «حياة الرافعي» لتلميذه محمد سعيد العريان (١٩٠٥-١٩٦٤م)؛ فقد ظلت كثير من جوانب حياته مطمورة، وظل أدبه يحتاج إلى من يعيد كشفه واكتشافه.

لم ينشغل الرافعي بكتاب مثل انشغاله بإنجاز كتاب «أسرار الإعجاز»، وكثيرا ما توقع أنه سيكون فتحا في مجال البلاغة القرآنية، وكان كما قال العريان «يعتد بهذا الكتاب اعتدادا كبيرا، وهو جدير بذلك حقا» (١)، ويتجلى هذا الاعتداد في رسائله العديدة لمحمود أبي رية، فقد أحصيت سبع عشرة مرة - عبر ثماني سنوات - تحدث فيها الرافعي عن كتابه بداية من الرسالة المؤرخة بـ ٣٠ يناير ١٩٢٦م، وكذا رسالته في ٣١ ديسمبر ١٩٢٨م، التي يقول فيها: «فإن فكري دائما يشتغل بهذا الكتاب وبطريقة وضعه وتدوين بعض الآراء فيه» (٢)، وقد سماه «العمل الأعظم» في رسالته المؤرخة بـ ١٥ أبريل ١٩٣١م، وهو لاشك يقصد أعظم أعماله كما بينته الرسائل الأخرى التي لا مجال لبسطها.

كان الرافعي حريصا على أن يضيف كتابه هذا شيئا وإلا فلا فائدة ترتجى من ورائه، كما كان أحرص على ألا يُظهر من الكتاب شيئا للناس، ويظل سريا، وهذا دأبه في أغلب كتبه، يقول مخاطبا أبا رية: «وإن لم يجئ هذا الكتاب مبتكرا محدثا انقلابا كبيرا؛ فاعلم أنه لا محل له، ولهذا تراني حريصا على ألا أظهر منه شيئا إلا بعد تقرير أمره والمضي فيه والتفرغ له» (٣).

وحسب العريان فقد كانت بالكتاب فصول تامة التأليف، وأخرى أجمل الرافعي فكرتها في كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها، وتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية وردها إلى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماؤها منذ كانت، ووضع لها قواعد وأصولا أخرى، وتناول في الفصل الأخير آيات من القرآن على أسلوب من التفسير بيّن سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة، يقول العريان: «وقد أتم الكتابة إلى آخر يوم كنت معه عن بضع وثمانين آية» (٤).

وقد وقف كاتب هذا المقال منذ نحو سبع

سنوات في بيت العقيد سليمان حافظ - حفيد الرافعي - على ملف مكتوب عليه بخط موغل في القدم «أسرار الإعجاز» وبداخله بعض الأوراق العتيقة التي تسلل إليها البلى، فتصفحتها على عجل فإذا بها آيات وخواطره عليها، وقد حاولت مرارا أن أتحصل على صورة من الكتاب لنشره حتى يفيد منه الناس؛ لكن ذلك لم يكن مجديا مع أسرته التي أوعدتني غير مرة.

في أسر الوظيفة

منذ عين الرافعي كاتبا صغيرا بمحكمة طلخا الشرعية سنة ١٨٩٩م وهو ناقم على الوظيفة غير محبذ لها؛ لكن ظروف الحياة كانت أقوى منه، فلم يكن أمامه سوى الرضوخ للروتين ومأساة الحضور والانصراف، ولازمه شعور بالتميز واستحقاق أكثر مما هو فيه، ولم لا وآل الرافعي يتبوأون مناصب كثيرة في القضاء؟! وقيل إنهم بلغوا في فترة من الفترات أربعين قاضيا، وهو ما لفت نظر «اللورد كرومر» فكتب إلى الحكومة البريطانية يعلمهم بالأمر وينبه إلى ارتفاع شأن هذه العائلة (٥).

تنقل الرافعي بين المحاكم فعمل في محكمة إيتاي البارود ومنها إلى محكمة طنطا حيث محل إقامته، لكن حلم الخلاص من الوظيفة ظل يراوده طوال سني خدمته، ففي رسالة كتبها لأبي رية في ٢٦ يناير ١٩٢٩م، يقول: «إنني في هذه الأيام منصرف الفكر إلى ترك الحكومة والخروج بالمعاش متى صدر القانون الجديد ثم أتفرغ إن شاء الله لأعمالي... هذه الأعمال من غير الفراغ تهان إهانة شديدة»؛ لكن سرعان ما تراجع عن الفكرة بعد عملية حسابية رأى بها أنه سيخسر عشرة جنيهات من راتبه.

على أن بصيص أمل تراءى له عندما أعلنت الوزارة عام ١٩٣٠م، أنها بصدد عمل قانون التشريع المؤقت والاستغناء عن بعض الوظائف، لكنه وجد أنه سيخسر أيضا من راتبه حال الخروج المبكر على المعاش فعدل عن الفكرة ورضي بالأمر الواقع (٦).

كان الرجل يحب أن يعيش كالطير طليقا بعيدا عن مواعيد الحضور والانصراف، يذهب إلى المحكمة بعد كل العاملين، وينصرف في الوقت الذي يروق له، ونشب خلاف بينه وبين أحد مديريه؛ فرفع المدير شكواه إلى وزارة الحقانية يقول فيها: «إن في محكمة طنطا كاتبا أصم لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح وتجب إقالته».

بعثت الوزارة أحد مفتشيها للتحقيق في الشكوى، وكان هذا المفتش هو الشاعر الأديب حفني ناصف بك، ولم يكن بينهما سابق معرفة إلا أن الرافعي قد لمزه في مقاله المشهور «شعراء العصر» (٧) الذي نشر بمجلة الثريا سنة ١٩٠٥م، وسأله المفتش عن الشكوى فأجابه قائلا: «قل لهم في الوزارة إن كانت وظيفتي هنا للعمل فليؤاخذوني بالتقصير والخطأ فيما يسند إلي من عمل، وإن كانت الوظيفة: تعالَ في الساعة الثامنة واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بحبل حتى يحين موعد الانصراف؛ فلا علي إذا تمردت على هذا التعبد... قل لهم في الوزارة: إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار».

أعجب حفني ناصف بمنطق الموظف؛ فطوى الشكوى وكتب في تقريره: «إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين التي تعنيهم الوزارة بهذه القيود.. إن للرافعي حقا على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية.. إن فيه قناعة ورضا، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه. دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش، واتركوه يعمل ويتقن ويبدع لهذه الأمة في آدابها كما يشاء أن يبدع، وإلا فاكفلوا له العيش الرخي في غير هذا المكان» (٨)، واستجابت الوزارة للتقرير فعاش الرافعي طليقا في غدوته وروحته... فأبدع ما أبدع!

والسؤال الآن: لماذا لا يعتنى بأهل الإبداع وتوفر لهم الأجواء المناسبة لإبداعهم حتى تفيد الأمة من إنتاجهم؟! وإذا كان الرجل مفيدا لمجتمعه في جانب فلماذا لا يفرغ له ويعطى من الأموال ما يغنيه عن المعاناة بدلا من التضييق عليه؟!

الرافعي مسرحيا

لم أكن أعرف ولا أكثر القراء أن للرافعي مسرحية كتبها في بداياته، لكن عبارة فجأتني في «ديوان الرافعي» وأثارت فضولي؛ فقد وردت أبيات عدة نسبت إلى رواية تسمى «موعظة الشباب»، وجاء في هامش الكتاب: «هذه الرواية هي أول رواية تمثيلية مطبقة على دروس الأخلاق العصرية، وهي فوق ذلك تمتاز بروح الشعر الطائفة في كل معانيها، وستطبع قريبا بعد تمثيلها إن شاء الله» (٩). وبالبحث والتنقيب لم أقف على المسرحية المذكورة، لكن وجدت مسرحية أخرى تحت عنوان «حسام الدين الأندلسي» فأعدت نشرها.

والسؤال المحير: لماذا أهمل الرافعي مسرحياته؟!

أغلب الظن أنه لم يرد الحديث عن هذه المسرحية - التي كتبها وعمره ما بين ١٦ و١٧ عاما - لكونها من بواكير ما كتب، وهو الأمر الذي ينبغي ألا نغض عنه الطرف عند النظر إلى المسرحية وتقييمها. ومعلوم أنه كثيرا ما يتغاضى الكتاب بعد نضجهم عن أعمالهم الأولى باعتبارها من التجارب الساذجة قبل التمرس في مجال الإبداع والتأليف.

الهوامش

١- محمد سعيد العريان: حياة الرافعي، ص ٢٨٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م، ضمن سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد (٥٤).

٢- محمود أبورية: رسائل الرافعي، ص ١٨٣، الدار العمرية، دون تاريخ.

٣- نفسه، ص ٢٢٦.

٤- العريان، ص ٢٨٦-٢٨٧.

٥- د. مصطفى الشكعة: مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا، ص ٢٠، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة والطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٦- راجع رسائل الرافعي، ص ١٥٤، ١٦٠، ١٨٢.

٧- مقال نادر كتبه الرافعي في مجلة الثريا باسم رمزي وقسم فيه شعراء عصره طبقات ووضع نفسه في الطبقة الأولى، وقد بحثت عنه عدة سنوات حتى وجدته، وسيتاح للقارئ قريبا ضمن الأعمال المجهولة للرافعي التي وفقت إليها.

٨- راجع التفاصيل: العريان، ص ٣٠ وما بعدها.

٩- ديوان الرافعي ٣/ ١٤٣، شرح محمد كامل الرافعي، نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة - مصر، وهي مصورة من ديوانه القديم.

وهبة مصطفى الزحيلي في ذمة الله
علامة الشام

إعداد : تركي محمد النصر

فقدت دمشق والأمة الإسلامية أحد مشايخها الكرام، وعلمائها الأعلام، الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي - رحمه الله وغفر له - والذي توفي صباح يوم السبت ٢٤ شوال ١٤٣٦هـ، الموافق ٨ أغسطس ٢٠١٥م، عن عمر ناهز ٨٣ عاما وقد قال عنه أستاذه العلامة الشيخ صادق حبنكة الميداني: «إن الشيخ وهبة الزحيلي له في قلبي مكانة مكينة، ملكه إياها - وهو أحق بها - تواضعه بلا مذلة، واستقامته بغير انحراف، ودأبه على العلم الناصح والعمل الصالح، وما عملت يداه من الكتب المجيدة في المواضع المفيدة».

ولد وهبة مصطفى الزحيلي في بلدة «دير عطية» من ريف دمشق في عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، لأبوين كريمين موصوفين بالصلاح والتقوى.

كان لوالده الحاج مصطفى الزحيلي - الذي كان حافظا لكتاب الله، شديد التمسك بالسنة النبوية، كثير العبادة والصيام - الأثر الأكبر في توجيهه، وتحصيله العلمي الشرعي، وكانت والدته سيدة فاضلة شديدة الورع.

أتقن - رحمه الله - القرآن الكريم، حفظا وتجويدا، في كتاتيب بلدته عند امرأة حافظة صالحة، وأدخل بعدها المدرسة الابتدائية الرسمية وأتمها في بلدته أيضا.

دراسته وتحصيله العلمي

قدم - رحمه الله - دمشق سنة ١٩٤٦م، بعد أن أنهى دراسته الابتدائية في بلدته، وعمره ١٤ عاما؛ لمتابعة دراسته في معاهدها، حيث التحق بالثانوية الشرعية، ونال بعد دراسة ست سنوات الشهادة الثانوية الشرعية عام ١٩٥٢م، وكان ترتيبه الأول على جميع المتقدمين، ثم توجه بعدها إلى مصر والتحق بعدد من الكليات في آن واحد،



فدرس في الجامعة الأزهرية في كليتي الشريعة واللغة العربية، كما درس في كلية الحقوق بجامعة عين شمس، وكانت حصيلة تلك الدراسة أن نال الشهادات الآتية:

١. الشهادة العالية في الشريعة الإسلامية من كلية الشريعة بالأزهر بتقدير ممتاز عام ١٩٥٦م.

٢. إجازة التخصص بالتدريس من كلية اللغة العربية بالأزهر عام ١٩٥٧م.

٣. إجازة في الحقوق من جامعة عين شمس بتقدير جيد عام ١٩٥٧م.

وبعد تخرجه تابع دراسته التخصصية في كلية الحقوق في جامعة القاهرة بقسم الشريعة، ونال سنة ١٩٥٩م، درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية، ثم نال الدكتوراه في الكلية ذاتها بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٦٣م.

شيوخه

طلب الشيخ وهبة العلم على طبقة متميزة من الشيوخ والعلماء في الشام ومصر، وكانت هذه الطبقة من العلماء صاحبة نهضة علمية مباركة جددت معالم الدين في بداية هذا القرن، ومن أشهرهم:

١. الشيخ محمد هاشم الخطيب الرفاعي: خطيب الجامع الأموي، وقد قرأ عليه الشيخ وهبة الفقه.

٢. الشيخ عبدالرزاق الحمصي: مفتي الديار الشامية بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٩م، وقد قرأ عليه الشيخ الزحيلي في الفقه.

٣. الشيخ حسن الشطي: فقيه حنبلي فرضي، ومدير الكلية الشرعية بدمشق، تلقى عليه الشيخ وهبة علوم الفرائض والأحوال الشخصية.

٤. الشيخ حسن حبنكة الميداني: شيخ الكل، وعلامة الشام، حضر الشيخ وهبة دروسه في التفسير.

٥. الشيخ صالح الفرفور: مؤسس «جمعية الفتح الإسلامي» ومعهدها، وقد قرأ عليه المترجم في علوم اللغة

العربية (البلاغة والأدب).
٦. الشيخ محمد لطفي الفيومي: فقيه حنبلي، ومدرس بارع، قرأ عليه الزحيلي في أصول الفقه ومصطلح الحديث.
٧. الشيخ محمود الرنكوسي: العالم العامل الفاضل، مدير «دار الحديث الأشرفية»، ورئيس رابطة العلماء، قرأ عليه الزحيلي في علوم العقائد والكلام.
٨. الشيخ محمد أبوزهرة: الفقيه الإمام وعلم العصر، وقد تأثر الزحيلي بأسلوبه في الكتابة.
٩. الشيخ محمود شلتوت: الفقيه المصلح، ومؤسس «مجمع البحوث الإسلامية».
١٠. الشيخ محمد علي الخفيف: أحد أعلام القضاء والفقه في مصر... وغيرهم كثير من العلماء والأعلام.

أعماله ومناصبه

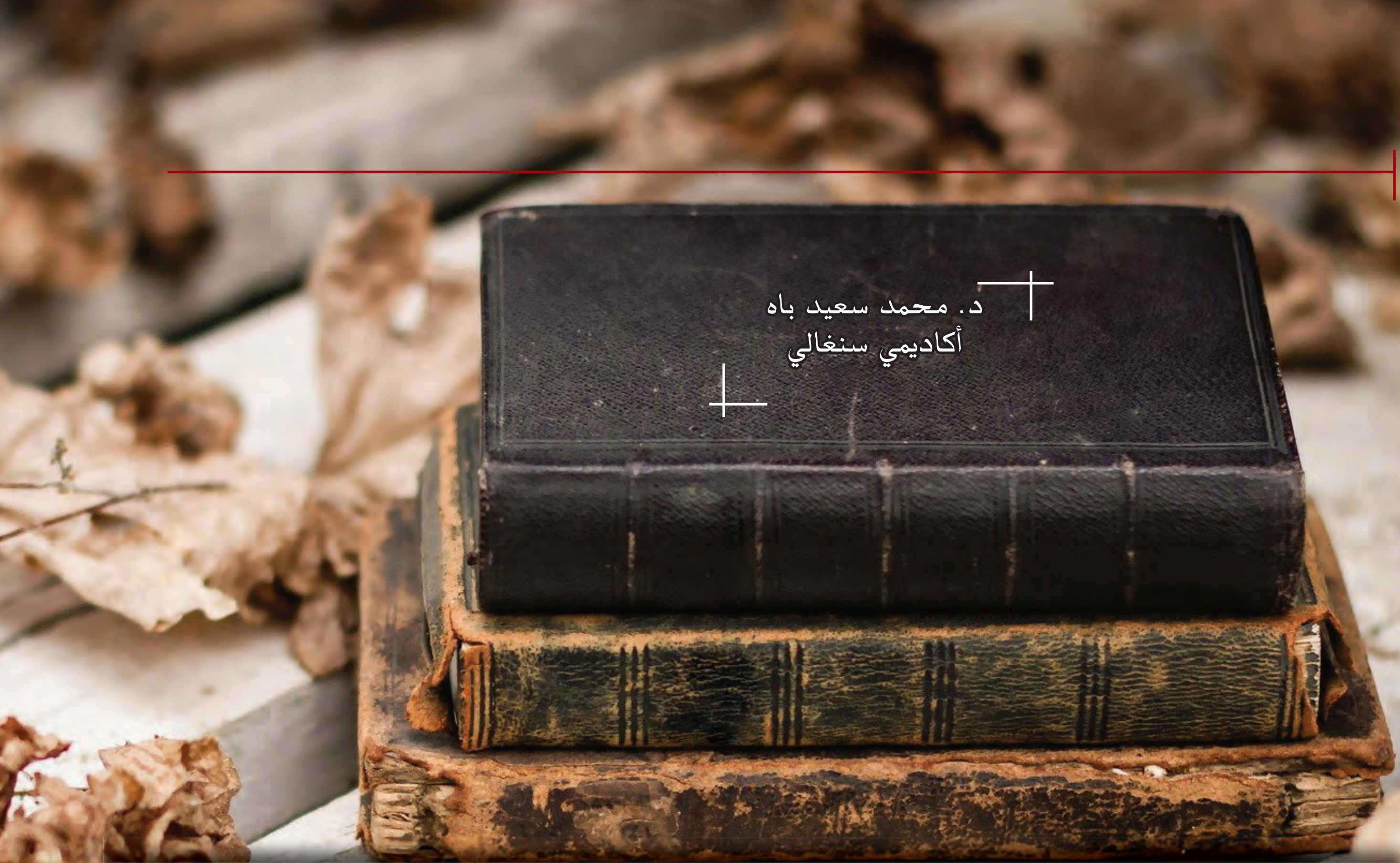
كان أول عمل بدأ فيه الشيخ وهبة حياته العملية هو التدريس الجامعي، إذ عين مدرسا في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٦٣م، ثم رقي إلى درجة أستاذ مساعد، وأستاذ.
وتنقل بعدها بين عدد من الجامعات العربية بصفة أستاذ زائر، فدرس في كلية الشريعة والقانون بجامعة بنغازي، وفي قسم الشريعة بجامعة الخرطوم بالسودان، والمركز العربي للدراسات الأمنية بالرياض، وأمضى خمس سنوات في جامعة الإمارات العربية في العين.
وخلال هذه الفترة شغل العلامة الزحيلي - رحمه الله - العديد من المناصب العلمية والإدارية منها:
. عين وكيلا لكلية الشريعة بجامعة دمشق.
. عين رئيسا لقسم الشريعة في كلية الشريعة والقانون في جامعة الإمارات العربية المتحدة، ثم عميدا للكلية بالنيابة حتى نهاية مدة إعارته سنة ١٩٨٩م.
. عين رئيسا لقسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق.
. عضوا خبيرا في مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ومكة المكرمة، والهند، والسودان وأميركا.
. عضوا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن.
. عضوا في الموسوعة العربية بدمشق.
. رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية لشركة المضاربة والمقاصة الإسلامية في البحرين.
. رئيسا لهيئة الرقابة الشرعية للبنك الإسلامي الدولي في البحرين.
. عضوا بهيئة الإفتاء الأعلى بالجمهورية العربية السورية... وغيرها الكثير الكثير.
كما شارك في معظم المؤتمرات والندوات الدولية الإسلامية التي تعقد في مختلف العواصم والمدن العربية والإسلامية في (الكويت والأردن والبحرين والسعودية وأميركا... وغيرها).

أوصافه وأخلاقه

لقد حبا الله الأستاذ الزحيلي بسطة في العلم والجسم، فهو طويل القامة، حنطي اللون، خفيف العارضين، سريع المشي والحركة، ذو همة عالية.
يمتاز بحسن الخلق وطيب المعاملة، وهو لطيف المعشر، دائم البشر، يألف ويؤلف، وهو محب لطلابه وإخوانه، حريص على أوقاتهم، نصوح لهم، يؤثر خدمتهم، ويستجيب لدعواتهم، ويشاركهم في مناسباتهم بطيب خاطر.
وكان - رحمه الله - كارها للتعصب المذهبي كرها شديدا.
وقد أوتي الشيخ - رحمه الله - من الصبر والجلد والمحافظة على الوقت وعدم إضاعته، ما يجعله في ذلك مثلا يحتذى.

مؤلفاته ومقالاته

يعد الدكتور وهبة الزحيلي من أغزر المعاصرين تأليفا وأكثرهم إنتاجا فكريا، وهو يعد العمل بالتأليف بقصد نفع الآخرين وتبصيرهم بحقائق دينهم ودعوتهم إلى دين الله من آكد الواجبات، وقد بلغت كتبه وبحوثه ومقالاته نحو خمسمئة.
أما مقالاته الفقهية فهي كثيرة ومتنوعة، ومن أبرزها تلك التي خص بها الشيخ الزحيلي - رحمه الله - مجلة «الوعي الإسلامي» على مدار ١٥ سنة، ونشرتها المجلة في أعدادها ما بين سنتي ١٩٦٦ إلى ١٩٨١م، ومن أبرزها:
١. حالات الضرورة الشرعية وقواعدها (١ و٢). نشرا في العددين ٥١ و٥٣.
٢. مبادئ المسؤولية الجنائية (١ و٢). نشرا في العددين ٦٢ و٦٥.
٣. القيافة وأثرها في إثبات النسب. نشر في العدد ٢٢٦.
٤. البواكير الأولى لعلم أصول الفقه. نشر في العدد ٢٣٩.
٥. من هم العلماء ورثة الأنبياء. نشر في العدد ١٦٢.
٦. أصول الفقه ومدارس البحث فيه (١ و٢). نشرا في العددين ٢٩٧ و٢٩٨.
٧. رؤية إسلامية لبعض المشاكل الصحية. نشر في العدد ٣٥٥.
هذا، وقد كان لمجلة «الوعي الإسلامي» مكانة خاصة لدى الشيخ وهبة الزحيلي، وظهر هذا من خلال كلامه عنها عندما وصفها بقوله:
«... إن مجلة «الوعي الإسلامي» تعمل وفق مجموعة من الغايات بهدف ترسيخ الفكر الإسلامي المعتدل، والفهم الصحيح للإسلام، وبناء نموذج متميز للإعلام الإسلامي الهادف، وتعزيز الانتشار الثقافي الإسلامي، والمساهمة في المعالجة الفكرية للمشكلات الإسلامية المعاصرة، وقامت أيضا بطباعة إصدارات مختلفة ومتنوعة من كتب وبوسترات وأسطوانات إلكترونية في جميع المجالات».



د. محمد سعيد باه
أكاديمي سنغالي

التاريخ من المنظور الإسلامي.. صونا وفقها وتوظيفا

نسوق هنا استهلالا، مقولة حكيمة لابن الأثير الذي نعت بها التاريخ بأنه: «معاد معنوي يعيد الأعصر وقد سلفت.. لولاه لجملت الأنساب»، وأما ابن خلدون فقد جاءت عبارته على هذا النحو: «فن التاريخ عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية» (١)؛ وهو ما يجعلنا نعبر عنه بمصطلح العصر كونه أطول فيلم شاهده البشر على الإطلاق وأبرز نقيصة فيه أن بعض مقاطعه مدبلجة والبعض الآخر قد لعب فيه مقص الرقابة والذي يبقي على رونقه ويحافظ على نصاعته غالبا ما يكون في أسطر باهتة.

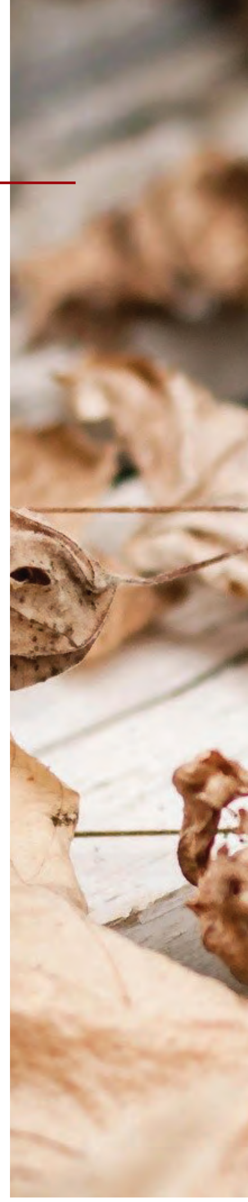
تشتد العلة القادحة، لأن مخ التاريخ رواية مسندة وحكاية مهذبة، حين يتعلق الأمر بنا نحن الذين كان الأجدر بنا أن نكون أكثر صونا لجوهره، وأدق فهما لمنعرجاته، وأرشد استنتاجا من دروسه وعبره، وأصلح توظيفا لإفرازاته؛ لو لم يكن قد غام إلى حد يقرب من الانطماس.. ذلك النهج السديد الذي خطه لنا كتاب الله وهو يمهد لسرد أحد أكثر فصول التاريخ جذبا وتأثيرا من خلال دعامتين يصبح التاريخ بدونهما أسمالا بالية يتدثر بها أولئك الذين وصفوا بأنهم ممن «لا تاريخ لهم» (٢):

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ ...﴾ (الكهف:١٣).

ننطلق من هذه المقولة «لولا التاريخ لجملت الأنساب»، لنناقش إشكالية «التاريخ» من زاوية رصد علل قد تكون ساهمت في شل قدرتنا على صون ثم توظيف تاريخنا الذي يمثل أضخم صفحات الحضارة البشرية وأشدها نصاعة على الإطلاق، رغم أن هذه الصفحة قد تعرضت من التشويش ما لو وقع على غيرها لكانت قد تمزقت شذر مذر واختفى آخر سطر فيها.

لا يمكننا أن نديم النظر في العلل التي عرت تاريخنا دون أن نمرر النظر ولو يسيرا على مصدره الأم والمنبع الأصل، مضموما إلى ما وثقه كتاب الله من أحداث جسام هزت مرارا الموكب البشري وهو يرشد سير المجتمع الإيماني الذي كان ينشأ على مكث، ألا وهو السيرة النبوية التي شكلت مصدرا للإلهام لأجيال تلاحقت طيلة كل هذه القرون التي مضت ونحن نعارك الأمم ونبدل في تركيبة الحضارات ونقترب من حقائق ديننا أحيانا فنسمو ونسود ونتجافى حينا فتنتكس راياتنا وننكفئ.

رغم الجهد المستأنف الذي ظلت الجهابذة يبذلونه من أجل تحرير



صفحات السيرة العطرة، حتى ما سطره بعض المعاصرين أمثال المباركفوري الذي قارب الكمال في صحة الإسناد والاتساق، فإن النظرة المنعكسة على محيا من ينظر فيها (إذا لم يكن ممن استقر الإيمان بصدق الرسالة في قلبه) قد تصطبغ بقدر غير يسير من الشك والتساؤل، وذلك حين يجد تلك الصفحات الغالبة على سطور الكتاب تحت عنوان يكاد يختزل العناوين الأخر «غزوة..»، ووصل طغيان هذا الخط على بقية الخطوط درجة أصبحت بها بقية الوقائع في بناء المجتمع وتحديد ملامح شخصية الأمة ورسم معالم حضارة متصلة بالسماء وانتشال الإنسان من حمإ الرذيلة الفكرية والرداءة السلوكية.. مجرد خيط رفيع لا يكاد يعثر عليه الباحث حتى ولو أمعن النظر وأصاخ السمع، لأن هدير المعركة العسكرية المزعومة والمتصلة من البعثة للحظات الوداع يحجب كل مشهد أخاذ ويطغى على كل صوت ندي.

لمعالجة هذا الزوغان في تعاملنا مع التاريخ في عمومه وفي الشق الخاص بالسيرة النبوية الشريفة نحتاج إلى صياغة منهجية جديدة تصلح في منطلقاتها الكلية وفي رؤاها التصورية وفي آلياتها التطبيقية إلى إعمال الرؤية الجديدة التي هدي إليها بعض مجددي هذا العصر من عمالقة الإسلام الذين استعادوا لهذه السيرة العطرة بعض رونقها حين أعادوا بناء المصطلح الأم في باب تناول السيرة ووظفوا «فقه السيرة» (٣) وتعاملوا مع ذلك الكم المتراكم بقدر عال من سمو الهدف ودقة النظرة؛ ما جعلهم يختزلون المسافة الزمنية الفاصلة بين الحقبتين ودفع الجماهير المتعطشة إلى الأنموذج الصالح إلى الانعطاف نحو السيرة مجددا بعد حقب من الهجران تحت مفعول التشكيك.

أميل إلى القول بأنه لو كان السابقون أو اللاحقون قد عنوا باستقصاء المسار المنهجي للأبعاد التاريخية في المسيرة البشرية الجامع بين المطالب الثلاثة (صون، فقه، توظيف)، والذي يرسمه القرآن الكريم عبر عشرات السور بدءا بالصفحة الأولى لهذا التاريخ والتي كتبت سطورها في الملإ الأعلى، لو تم ذلك ما لحق بتاريخنا كل ما لحق به من عطب على شاكلة قص ولصق إلى أن طال هذا الغبش الكثيف بعض مصادرنا، وربما بسبب ذلك، أن يجهد المستشرقون خيلهم ورجلهم في حملة للتشكيك لم يشهد التاريخ الفكري مثلها.

فإذا تصفحنا الكتاب الكريم ونحن نبحث عن صفحات التاريخ وجدنا حشدا من السور والآيات تتناول مسائل التاريخ من زوايا عديدة، حيث نعثر إلى جانب سرد الأحداث مع إيراد دقائق مطوية لن تجد لها آثارا إلا بين دفتيه، نجد القوانين الحضارية في صرامتها والتي ظلت تسري على الأمم لن تحابي أحدا ولن تستثني أمة، وفي مقابل الدفع إلى استخلاص العبر يعنى الكتاب الكريم بقضية المنهجية التاريخية، ثم يخرج التناول من المألوف حين يسرد علينا القرآن التاريخ القادم بصرامة تضاهي تلك التي ينتهجها وهو يحكي وقائع الماضي المنصرم في تتابعها وتشابهها أو تضاربها.

من أكثر النماذج تجلية لهذا المنحى في كتاب الله ذلك التشخيص التاريخي للعلل التي غالبا ما تنخر في الحضارات البشرية ساعة تبلغ ذروة السؤدد فينتشر في مضاربها ثقافة الترف التي تبدأ في أوساط محصورة قبل أن تصبح ظاهرة متفشية (٤) وتتوقف عن العطاء الذي هو الوقود الحقيقي لكل حضارة ويكون ذلك لحظة ميلاد فترة تآكل الأجهزة المحركة لخطوات الأمة الممكنة ثم يعقب ذلك التحطم الذي عبر عنه القرآن الكريم على طريقته الخاصة بـ: «سوط عذاب».

إن كون الأمة الإسلامية تملك إرثا من أنفس ما في أيدي البشر من لدن أبيهم حقيقة راسخة نحن في غنى عن الانتصار لها بحجة أو شاهد، لكن الذي يعكر هذه المفخرة يكمن في الطريقة الفجة التي تعاطينا بها مع هذا الميراث الضخم الذي آل إلينا حيث لا يزال تاريخنا الإسلامي بين لوحات مطمورة وأخرى مشوشة يجعلنا الجهد الذي يتحتم أن نبذله لقراءته نفضل الزهد فيه؛ ما يجعله مرتعا لغلمان يجتزئون نصا هنا ويبترون واقعة هناك ثم يبنون على ذلك أوهاما تكبر حتى تغطي وجه الحقيقة.

أما السؤال الذي ظل يقض المضجع طيلة الانهماك في رص هذه الأسطر فلا يعدو القول:

أنّى لهذه الأمة الشاهدة أن تستعيد إدارة عجلة التاريخ البشري في الاتجاه الصحيح؟

الهوامش

١- مقدمة كتاب «العبر..».

٢- وصف استخدمه شيخ حامد كن المفكر ورجل الدولة السنغالي المسلم، وهو يتحدث عن العالم الغربي يوم التقى بالمسلمين وهم «يحملون العالم فوق أكتافهم» على حد تعبيره.

٣- كما فعل كل من الشيخين/ محمد الغزالي والبوطي في مؤلفيهما التجديديين.

٤- وهي الثقافة التي تتحدث عنها الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ (الإسراء:١٦).



مسار لتصويب التاريخ

القاهرة - إسلام لطفي وعبدالله شريف
دار الإعلام العربية

«اقرأوا التاريخ، إذ فيه العبر.. ضل قوم ليس يدرون الخبر». دائما وأبدا وكلما واجهت أمتنا نازلة نجد من يهمس في آذاننا أن اقرأوا التاريخ، فمآسي الماضي هي عبر المستقبل، وسنن الله لا تتغير ولا تتبدل. وعدوك قديما هو ذاته عدوك الآن وغدا، مهما تلون وتقنع، فإذا كانت قراءة التاريخ أمرا لا غنى عنه، فكيف بتدوين التاريخ ذاته وتأصيله وتصويبه من الدخل والشوائب.. هذا ما ينبه إليه عديد من الخبراء وأساتذة التاريخ التقتهم «الوعي الإسلامي» ليضعونا أمام مسار صحيح في تدوين التاريخ وتصويبه، فإليهم.

بداية، يؤكد د. بسام شماع، مؤرخ وعالم مصريات، أن لتدوين التاريخ أهمية كبيرة في حياة البشرية، فإذا قرأنا التاريخ واستوعبناه لن نكرر أخطاء وكوارث الماضي، فمن التاريخ وتوصيفه وتوثيقه نستطيع أن نقرأ عن عقيدتنا وعن نشأة دولة الإسلام، وأن نسير على ذات الطريق الذي بنيت من خلاله نهضتها وحضارتها التي أنارت الغرب والشرق، فكيف نكون أمة اقرأ ونحن لا نقرأ؟!

وأضاف شماع أن تدوين التاريخ يضعنا أمام مواطن القوة والضعف، ومن ثم يمكننا من تنمية أسس القوة وتجنب عوامل الضعف، فعلى سبيل المثال: حضارة الأندلس كانت نبراسا للحضارات في زمن من الأزمنة، ولنعرف أسباب سقوطها لابد أن نبحث عن المتشابه من الأحداث في الكتب والمخطوطات التي رسمت حول تلك الفترة، فنجد أن هناك عدوا داخليا وخارجيا وصراعات ومعارك طاحنة بدأت بينهم ساعدت على الانهيار. ومن هنا ندرك أن التدوين تذكرة للجميع: كيف كنا وكيف أصبحنا، فبدونه لم نكن نعرف شيئا عن حضاراتنا، وفي حالة غياب شخصيات قيادية في دولة الإسلام وغياب شخصيات تواجه أعداء الإسلام كان لابد من وجود تذكرة لقادة الدول الإسلامية عن انتصاراتنا وكيف بنيت الحضارات بالقوة لا الوهن، والبعض يقلق من مقارنة التاريخ بالحاضر ويؤرق نومهم ذلك الوهن الذي أصبحنا عليه الآن.

د. بسام شماع: التدوين يضعنا أمام مواطن القوة والضعف ومن ثم يمكننا من تنمية أسس القوة

رموز تاريخية

وأضاف شماع: بنظرة حقيقية في تدوين التاريخ نجد إعلاء قيمة العمل ونتذكر كيف تصدرنا الحضارات وكيف كانت للعمل قيمة مهمة في تاريخنا، وفي أغلب الأمثلة التاريخية

نجد الشباب تصدروا الموقف وهم من أعلوا مكانة الحضارة الإسلامية، وكان ذلك في أوائل أعمارهم، فنجد محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية وهو في العشرينيات، ومحمد بن القاسم من فتح بلاد السند وكان عمره ١٨ عاما، وعمر بن عبدالعزيز الذي حكم سنتين و٥ شهور وبضعة أيام وحقق فيها الاكتفاء الذاتي في كل شيء، فلم نجد وقتها شابا غير قادر على الزواج أو أسرة جائعة أو رجلا محتاجا، وهذه الأمثلة ينبغي أن تكون نموذجا للقادة في الوقت الحالي، وألا يقللوا من دور الشباب المتحمس الذي لا يحتاج فقط إلا للفرصة، وليس للتنقيص والتحييد، ولديه استعداد لقيادة الأمة الإسلامية بأسرها.

أيضا من أبرز الأمثلة التاريخية: الدمشقي الذي اخترع سائلا أحرق به أبراج الصليبيين وكان البرج يحمل ٥٠٠ جندي صليبي، وكانت الأبراج في وقتها صعبة الاختراق، لكن الاستفادة من عقول الشباب وهممهم وإرادتهم وإعطاءهم الفرصة وإيمان القادة الكبار وقتها في عزيمتهم كانت وراء نجاح تلك الحضارات في وقتها، فبقراءة التاريخ نستطيع أن نستفيد منه في الوصول إلى أهمية الشباب وكيفية الاستفادة من هذه القيمة الكبيرة في بناء الحضارات.

وعن تحري الحقيقة في التدوين، أضاف أنه من أعظم مميزات تاريخنا المخطوطات التاريخية أمثال الرازي وابن سينا والجزري والبيروني، فالحضارة الإسلامية موثقة بالمخطوطات التي تمكننا من تنقيح حضارتنا.

واقترح عالم المصريات إنشاء مؤسسة تضم علماء من مختلف الدول الإسلامية من غير ذوي الاتجاهات أو الأجندات الخاصة بهم، يكون أساسها الإخلاص للمادة التي يكتبونها وفي النهاية يخرجون مجلدا تاريخيا محترما وموثقا بأيد إسلامية وبلغة يسهل فهمها، لفئة عمرية أقل من ١٥ عاما، بحيث يتم تنقيح المحتوى ليصل المستوى العلمي المطلوب تلك الفئة العمرية ثم إخراج المجلد لفئة عمرية أقل من ٨ أعوام عن طريق ألعاب وصور وألغاز، بحيث تحبب للطفل فكرة قراءة التاريخ ومعرفة حضاراته السابقة بشكل يسهل فهمه ويتم تربية النشء على إعلاء قيمة الحضارة التاريخية.

د. زكي البحيري: التأريخ بدأ في العصر العباسي وازدهر في القرن الثالث الهجري

وتابع: «من المؤسف أننا لم نقدر بعد القيمة من وراء حضارتنا الإسلامية في ظل احترام الآخر لها، فنجد على سبيل المثال أن الصهاينة أنشأوا متحفا للفن الإسلامي داخل القدس المحتلة من بين ما يحويه مخطوطة الجزري التي توثق اختراعه للساعة المائية الأوتوماتيكية، ونحن هنا ماذا فعلنا لمخطوطة الجزري؟!».

وقال: إذا تطرقنا لفكرة المستشرقين وكتابتهم للتاريخ فنجد مجموعة من الأسماء للمستشرقين الموثوق فيهم، من وجهة نظري المتواضعة، على سبيل المثال: جورج فارسون صاحب مجلد تاريخ العلم والذي تطرق فيه إلى الحضارات الإسلامية بكافة تطوراتها، أيضا زيغريد هونكه صاحبة مجلد «الله ليس كمثله شيء» و«شمس الله تشرق على الغرب» وغيرهما من المستشرقين الموثوق فيهم والأقرب إلى الموضوعية والأوقع في نقل التاريخ، فنجد للمستشرق أيضا أهمية بالغة، فكتابات المستشرقين تفسر رؤية الآخر عنا، فنعرف إلى أي مدى اعترف بحضاراتنا وبأهمية تلك الحضارات. ولكن، تكمن خطورة المستشرق في اتجاهاته أثناء كتابة التاريخ، حيث التزييف، ومن المفترض ألا يؤرخ التاريخ وبشكل عام في خضم الفترة الزمنية التي يكتب عنها حتى نضمن كتابة التاريخ بشكل سليم ويسري في مساره الصحيح بعيدا عن أي تنويهات شخصية أو اتجاهات. ولذلك علينا الحذر في قراءتنا للمستشرقين.

وأشار إلى كارثة حلت بنا في الزمن الحالي وهي عدم الأمانة في نقل الوقائع، وكثرة التهويل، ودس الأكاذيب، وغياب الذمم، وكان القدماء يعملون على تنقيح المعلومة خوفا من ضياعها واهتموا كثيرا بالدقة في المعنى والوصف عن الزمن الحالي.

المسار الصحيح للتدوين

من جانبه، أكد أستاذ التاريخ والفكر الإسلامي المعاصر د. مصطفى معوض ضرورة تنقيح التاريخ من خلال ما يعرف بعلم «المقارنة التاريخية»، فيجب الاطلاع على أكثر من مؤرخ والمقارنة بينهم في المعلومات بل وفي حياتهم وطرق تجميعهم المعلومات، ومن ثم الأخذ بالأقرب إلى العقل.

وتابع: «الاعتماد على العقل وعلم المقارنة وتحري الحقائق الأقرب للعقل هما الطريق الأسلم للمسار الصحيح في تدوين التاريخ وتأريخه وتوصيفه على الشكل الذي كان عليه، وينقح التاريخ أيضا من خلال باحثين ثقات من ذوي الخبرة والمعتمد عليهم. ولكتابة الفترة التاريخية المؤرخ لها يجب مرور فترة من الممكن أن يقدر لها بمرور جيل كامل.

وعن دور المستشرقين في النقل، أكد أن هناك عددا لا بأس به من المستشرقين الموثوق فيهم، وعلى سبيل المثال «جولد تسيهر» الذي أرخ لمذاهب التفسير إلى حد كبير من الموضوعية رغما عن وجود نقد له في كتابه إلا أنه يعد من المؤرخين الأقرب للحيادية ومن الممكن الرجوع لهذا الكتاب للاعتماد عليه في معرفة هذه الفترة التاريخية.

خريطة المستقبل

بدوره، أكد المؤرخ وأستاذ التاريخ الحديث والمعاصر د. زكي البحيري أن مناقشة موضوع تدوين التاريخ، وخاصة العربي والإسلامي، شائكة جدا، حيث

نتحدث في أنظمة حكم مختلفة وطرق كانت بدائية تطورت شيئا فشيئا.
وأضاف أن هناك أخطاء كثيرة في طريقة التدوين وأهداف التدوين تسبب كثير منها في ضياع التاريخ وتشوهه، ولابد من وقفة حقيقية لمواجهة هذه الجرائم التي أثرت على أجيال طويلة وأخفت حقائق متعددة.
وعن أهمية التدوين، أكد أنه بمثابة خريطة للمستقبل تسير عليها الأجيال، فإذا كانت الخريطة كاذبة عاش من سار خلفها في التيه، وتفرقت أحلامه، وضعفت أساساته.
وأشار إلى أن أحداثا كثيرة سقطت من التاريخ، بل وصلت في بعض الأمر إلى سنوات طويلة، والتاريخ في الغالب يجمع ويؤرخ ويجمع من مصادر ومراجع وموارد مختلفة، ففي التاريخ المعاصر يعتمد المؤرخ والمدون على المراسلات والمؤتمرات والمستندات والدساتير والمجالس النيابية وضبطيات «المجالس النيابية» والصحافة بشكل عام ومكاتبات الشهر العقاري والوثائق الخاصة بالملكيات والأراضي وبيعها وشرائها ودار الوثائق بالوزارات المختلفة والمحاكم والقرارات الصادرة من المحاكم التي تكتب وتحفظ كالحوادث المختلفة، بالإضافة إلى وثائق سرية عسكرية كأعداد الجيش والأسلحة ووثائق اجتماعات القادة العسكريين وتكتيكاتهم، وتظل سرية لفترة معينة (كما في بريطانيا) وتحدد فترة لإعلانها.
وتابع: «فترات كتابة التاريخ في العصر الإسلامي كانت تعتمد على مدونين كالطبري وابن حوقل وابن خلدون والإدريسي والمقريزي وابن كثير وابن خلدون والذهبي وابن الشماع وابن عساكر وابن منظور وعبدالرحمن الجبرتي وغيرهم، ومن أبرز المشاكل التي واجهها المؤرخ القديم غياب الوثائق، فمنها من كان يأخذ صفة السرية، وغياب وسائل التواصل كان له تأثير كبير على دقة المعلومة، وغطى جزءا من ذلك المخطوطات، مثل التي جمعت في دار الوثائق القومية، والهيئة العامة للكتاب.

د. عفيفي: كلما زاد وعي الإنسان زاد حرصه على تدوين التاريخ وفهمه والاستفادة منه

وأشار إلى أن التاريخ الإسلامي والعربي لم يخل من بعض المدونين وكتاب التاريخ الذين روجوا للحاكم، سواء كان خليفة أو أميرا أو حاكما في فترة زمنية معينة، وكانوا يستخدمون التهويل والمبالغة وانتقاء الأحداث التي ترضي الحكام، كي يزيدوا من المبالغ المدفوعة، ويستبعدون بعض الأحداث المهمة.
وأضاف أن التأريخ الفعلي بدأ في العصر العباسي ولكن البداية كانت غير دقيقة أيضا، فالمؤرخ كان يكتب ما شاهده وما رآه في فترة زمنية معينة وربما غلب عليه النسيان.
وتابع أن من أهم الفترات التي اعتدلت فيها الدقة نوعا ما هي القرن الثالث مع بداية ترسخ فكرة كتابة تاريخ إسلامي، وساعد في ذلك عدد كبير من المؤرخين، منهم محمد بن جرير الطبري وأبوحنيفة الدينوري واليعقوبي.
وأضاف أن ذلك لا يعني أن فترة الصحابة لم يكن فيها تدوين، لكنه لم يكن علما بعد، مشيرا إلى بداية التاريخ الهجري على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبداية كتابة ١٠ سنوات وقصص الصحابة مع الرسول ﷺ وعملية «العنعنة» وتاريخ الفرس والروم، وهذه الخطوة كانت نقلة هائلة في بداية التاريخ الإسلامي، ومن أبرز روادها عبدالملك بن هشام المؤرخ العربي، ومن أهم أعماله «السيرة النبوية».
وأشار إلى أن مقولة «التاريخ يكتبه المنتصرون» حقيقية جدا، ومن أبرز الحلول لتنقيح التاريخ إعادة كتابته من أجل الأجيال المقبلة التي تأثرت بمبادئ الغرب، ويجب عقد مؤتمرات عنوانها تنقية التاريخ وإيجاد تاريخ عربي مشترك.
وتابع أنه لتنقية التاريخ مما جاء فيه من أخطاء من المدونين أو المستشرقين فلابد من عقد مؤتمرات وورش كبيرة يكون هدفها خدمة الأمة وليس التحصل على مكاسب شخصية، مشيرا إلى أن عملية التنقية في منتهى الصعوبة وتحتاج جهدا ووقتا وبحثا هائلا.
وأشار إلى أن المستشرقين على أحوال مختلفة، فبعضهم عرف عنه الدقة وآخرون جاءوا للإضرار بل لتخريب التاريخ وكان بعضهم عبئا على التدوين.

تاريخ العرب مظلوم

أما د. محمد عفيفي، المؤرخ ورئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة، فأكد أن تدوين التاريخ أساس لحياة الإنسان، حيث يعد حفظا لذاكرته، وكلما زاد وعي الإنسان زاد حرصه على تدوين التاريخ وفهمه والاستفادة منه، لذلك نجد أن العرب أقل الشعوب قراءة للتاريخ، وبالتالي لديهم مشكلات تتكرر أخطاؤها والوقوع فيها، ونجد أن الديمقراطية والوعي الثقافي والتنمية تزيد من الحرص على قراءة التاريخ.
واستطرد قائلا: التاريخ مظلوم مع العرب والمسلمين، وإذا رأينا المساحة المعطاة للتاريخ في وسائل الإعلام أو في حجم الكتب التي تصدر فسنجدها قليلة، أو حتى في صناعة القرار، فمن يصنع القرار ومن حوله يجب أن يكونوا قارئين جيدين للتاريخ حتى يعرفوا السبل الصحيحة.
وعن المصاعب في رحلة البحث عن المعلومات الصحيحة، أكد أنها مشكلة في العالم العربي، لعدم إتاحة المعلومات والوثائق، وفرص الرأي والرأي الآخر في كتابة التاريخ، وإذا وجدنا ذلك فستكون هناك سهولة في كتابة التاريخ بوجهات نظر مختلفة وسهولة في الاستفادة منه لرسم خطوات المستقبل.
وعن وجود تواريخ منسية تعزز من دور

أمتنا الحضاري أكد أن هناك أشياء كثيرة جدا، ويجب استقراء التاريخ للاستفادة من الأخطاء.

إعادة نظر

بينما أكد المؤرخ الإسلامي د. مجاهد الجندي أن المؤرخ ينبغي أن يكون أمينا في نقله للحدث التاريخي، عكس ما يفعله البعض ممن يميلون إلى الحكومات والحكام ولا يكتبون التاريخ الحقيقي للأحداث، لافتا إلى أن التاريخ ظلم بسبب بعض المؤرخين الذين يميلون ميلة واحدة مع الحاكم، كما أنه ظلم من الدول نفسها لأنها لا تفرج عن الوثائق إلا بعد ما يقرب من ١٠٠ عام، لأن أصحاب الأحداث يكونون على قيد الحياة، والمؤرخ قد يصيبه الضرر أو الموت نتيجة كتابته عن هؤلاء الأشخاص الذين أفسدوا في الأرض.

وشدد على أنه لابد من إعادة النظر في كتابة التاريخ مرة أخرى، حيث أصبحت الوثائق والأرشيفات أيسر من ذي قبل، ومن ثم يمكن إعادة كتابة التاريخ بصورة أفضل، لكن لابد من اختيار المؤرخين الذين سيقومون بذلك بدقة، ولا ينبغي أن يكتب التاريخ غيرهم، لاسيما ضرورة الاستفادة من الأحداث التاريخية وما فيها من جمال وقوة المسلمين وعظمتهم في الفتوحات الإسلامية، مثل الحروب الصليبية وانتصار المسلمين، والفتوحات الإسلامية في الأندلس وبلاد المغرب والمشرق وآسيا الوسطى، فكلها أحداث في غاية الأهمية في التاريخ الإسلامي، ولابد من التركيز عليها، لأن المستشرقين أعداء الإسلام كتبوا عن التفكك الإسلامي وفي أشياء تضر تاريخ المسلمين، فيجب تنقية التاريخ من هذه الشوائب.

وأضاف: هناك أحداث كثيرة ينبغي التوقف عندها، فهناك معركة عين جالوت وكيف انتصر المسلمون فيها على التتار لأنه لو هزم المسلمون لضاع الإسلام وتغير التاريخ، وانتصار المسلمين في هذه المعركة جعل الأعداء يدخلون الإسلام، وأصبحوا من الذين يدافعون عنه، وهناك فتن حدثت في التاريخ الإسلامي، مثل الفتنة الكبرى، وأيضا قتل علي بن أبي طالب وعثمان ابن عفان رضي الله عنهما.

د. مجاهد الجندي: تاريخنا ظلم.. والمستشرقون كتبوا عن أشياء تضر تاريخ المسلمين

بدوره، يوضح د. عاصم الدسوقي، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة حلوان، أن تسجيل التاريخ مهم لأنه يسجل وقائع وتاريخ الشعوب، حيث يتم التسجيل دون تدخل المدون بالتعليق، منوها بأن من يكتب التاريخ يرجع إلى تسجيل من سبقه حتى يربط بين الأحداث بعضها البعض.

وشدد على ضرورة كتابة جميع الوقائع صغيرة كانت أو كبيرة، فعندما تتراكم هذه الأحداث التي تسجل يوما بعد يوم تصبح مجالا للبحث في الفترة التي تكتب فيها عن طريق الرجوع إلى الوثائق، وعلى الباحث أن يربط بين الجزئيات بعضها البعض، وأنه إذا لم تسجل أي واقعة تكون ضاعت على الزمن.

وأكد أن تحري الأمانة والدقة شرط أساسي في مهنة المؤرخ والباحثين في التاريخ، إذ إن من لا يتحرى الأمانة والدقة يخرج من زمرة الباحثين، فهذه المهنة لا تعتمد على الجانب الأخلاقي وعدمه، حيث يسجل الحدث كما وقع، إما أن يقول «شاهدت أو رأيت أو سمعت»، لكن لا يمكن ذكر أحداث دون ذلك السند، وهناك فرق بين المؤرخ والباحث في التاريخ الذي يعتمد في إعادة بناء صورة الحدث من خلال ما كتبه المؤرخون الذين سجلوا الوقائع، سواء في خطابات شخصية أو مذكرات أو غيرها.

كيفية التصدي للمستشرقين

أما د. عبدالمقصود باشا، أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر، فأكد أن التاريخ مهم جدا في حياة الأمم، مشيرا إلى أنه لا يمكن تأكيد صحة كل ما كتب عن تاريخ أي دولة، إذ إن المؤرخ لا يستطيع أن يكتب التاريخ مجردا، حيث ترك بصمته، مما ينبهنا بضرورة البحث عما هو سليم وما هو خطأ، غير ما سجله القرآن الكريم وأحاديث رسولنا الكريم سيدنا محمد ﷺ.

وتطرق إلى كيفية التصدي للمستشرقين غير المنصفين بضرورة تعلم لغات أهل الأرض، حيث سبقنا إلى ذلك رسول الله ﷺ بأمره بعض أتباعه بتعلم لغات الناس في عصره، فتعلم بعضهم اللغة الفارسية والعربية وغيرها من اللغات، علاوة على سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي كان يجيد لغة الحبش في إفريقيا إضافة إلى إجادته للغة العربية وكذلك اللغة القبطية الخاصة بأهل مصر، واللغة الرومانية التي كان يتحدث بها الرومان في بلاد الشام، هو وغيره من الصحابة.

وأضاف: يجب أن نتعلم لغات الدول الأخرى إذا أردنا أن نقف على فكر هؤلاء المستشرقين، حيث نجدهم تفوقوا علينا في الكتابة عن تاريخنا وعن تفسير آيات القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ لإجادتهم اللغة العربية الفصحى وفهموها وتأولوا عليها.

واستطرد قائلا إن هناك أيضا المفسدين الذين استفاد منهم العرب، ولابد أن نخاطبهم من موقعهم من حيث فكرهم ويكون الرد على الثقافة بثقافة، واللغة بلغة، لكن كثيرا من هؤلاء لم يفقهوا دقائق اللغة العربية، لأن لها دقائقها البعيدة التي لا يفهمها المستعربون بل لا يفهمها إلا كبار المتخصصين.

وتابع: لابد من الاستفادة من المفسدين والمصلحين، ومن الضروري معاملة الناس بفكرهم، ورغم أن اللغة الإنجليزية هي المسيطرة والمهيمنة على العالم، فإنه من الأفضل أن يتعلم المؤرخ لغة أهل البلد التي سيؤرخ بها.



تأمل أسباب الوقائع بغرض استنباط السنن الحاكمة

فلسفة التاريخ

د. أحمد خليل الشال
باحث متخصص في التاريخ الإسلامي

هناك وجه آخر لمعنى التاريخ عند المسلمين أدرجه المتأخرون والمعاصرون في المعنى العام للتاريخ، هو ما عرف بتفسير التاريخ، أو فلسفة التاريخ (١). ويمكن تعريفه بأنه هو: التلطف في تأمل الأخبار والوقائع التاريخية - بعد التثبت من صحتها - من أجل الوقوف على أسبابها ومُسَبَّبَاتها، بغرض استنباط السنن الحاكمة في مسيرة تاريخ الأمم والشعوب.

يمكن توضيح جانب من هذا التعريف بقول: إنه ما من شيء - كما هو معلوم - إلا وهو محتاج إلى غيره. فالمحتاج إليه في وجود شيء يسمى سببا أو علة، والشيء نفسه يسمى مُسَبّبًا أو معلولا. ومن ثم، فإنه ما من شيء من الأشياء إلا وهو مسبب عن شيء آخر من جهة، ثم هو سبب لغيره من جهة أخرى، غير أن عدد الأسباب الظاهرة للناظر تتناقص كلما أمعن التأمل حتى ترجع الأسباب كلها إلى سبب واحد يسميه بعض المتكلمين بالسبب الواجب، أو واجب الوجود، ويقصدون به الخالق عزوجل ويطلقون على هذا اسم «قانون السببية» (٢)، ويعبر ابن تيمية عن ذلك بقوله: فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمُسَبَّبَات (٣).

ويظهر من هذا التعريف اختصاص هذا الباب بما يعرف حديثا بعلم الفلسفة، فهو باب من أبوابه، إذ لم تعد مباحثه من اختصاص المؤرخين فحسب، بل شاركهم فيه الفلاسفة والمفكرون من غير المؤرخين. فكانوا ممن شقق الكلام فيه، أبوابا، وفصولا، فصنعوا فيه التصانيف المختلفة في مناهجها وتقسيماتها باختلاف الزمان والمكان لكل باحث فيه.

ومن ثم فعملية تفسير التاريخ إنما هي «اجتهاد بشري يمكن أن يخطئ ويصيب، كاجتهاد الفقهاء في استنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ويمكن أن تختلف في وجهات النظر كما تختلف فيه وجهات النظر بين الفقهاء» (٤).

إلا إنه ينبغي التنبيه هنا على وجوب الفصل بين تاريخ وضع الاصطلاح، وبين تاريخ مدلوله. ذلك أن دلالة الاصطلاح ومعناه يسبق بكثير المصطلح نفسه،

فإن التفكير من خصائص الإنسان بموجب حقه في الاختيار. فهو أمر فطري يتصل بالإنسان منذ كلفه الله تعالى بعمارة الأرض، يبحث في سر وجود الإنسان، ووظيفته في الدنيا. فهو مطالب بالنظر إلى هذا الخلق بأرضه، وسمائه، وما بينهما: مم خُلق؟ ولِمَ خُلق؟ وما مهمته على هذه الأرض؟ ثم إلى أين يكون مصيره..

أسئلة عدة تحتاج إلى التأمل والنظر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ (العنكبوت:٢٠)

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾ (الروم:٨). ولكن من رحمته تعالى بخلقه أنه لم يتركهم هملا، بل إنه لما خلقهم، جعل لهم العقول، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ (النحل:٧٨).

وهداهم النجدين. فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ (البلد:٨- ١٠)

وأعانهم على ذلك بالأنبياء والكتب فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥).

ولكن أبى كثير منهم إلا الضلالة، فنبذوا كتب الله وراء ظهورهم واتبعوا أهواءهم بإغواء الشيطان، قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٢٩﴾ (الروم:٢٩).

ومن ثم فإننا سوف نجد أنفسنا بين طريقين لا ثالث لهما يمثلان منهجين متصارعين على مدار التاريخ كله: مناهج الحق، ويمثله الأنبياء ومن اتبعهم بما أنزل عليهم من الكتب، يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ (البقرة:٢١٣).

ومناهج الباطل، ويمثله أولئك الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، فاتخذوها آلهة من دون الله، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ (الجاثية:٢٣).

والخلاصة: أنه لما وُجد الإنسان، وُجد النظر والتفكير، والتأمل والتعليل.

وصدق من قال: «الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له تاريخ، إن الكائنات الأخرى لا تعقل تجربتها على الأرض، وبالتالي لا ينقلها جيل منها إلى جيل نقلا واعيا تتسع به مداركها في مواجهة ما يعترضها من الظروف.. فالحمار الأول لا يفترق كثيرا عن الحمار الأخير، لا في طعامه، ولا عاداته.. فضلا عن كون تصرفاته تمليها الغريزة ولا مجال فيها للاختيار. وإن بدا لنا أحيانا أنه يختار، فخياراته - المحدودة النطاق - محكومة في النهاية، ليس فيها إرادة حقيقية ولا وعي. ومن ثم فإن الحمار ليس له تاريخ. ليس فقط لأنه دوّن تاريخه بالفعل بصورة من صور التدين، بالرسم على جدران الكهوف، أو بالكتابة على الجدران أو على الأوراق، ولكن قبل ذلك، لأنه الكائن ذو الوعي الذي يعقل تجربته على الأرض. ومن خلال التجربة تنشأ له مواقف جديدة فيتكون له تاريخ (٥).

وأيا كانت نظرة الأمم الأولى لتجاربها وخبراتها، سواء عليهم اهْـتَـدَوا في نظرتهم تلك أم ضلوا، فقد كانت لهم تأملاتهم التي فسروا بها سرّ وجودهم على الأرض، ودورهم فيها، وعلاقتهم بمفردات الكون الذي هم فيه.

وتُمثل التأملات الفلسفية للحضارات السومرية، والفرعونية، والهندية، والصينية القديمة.. النشأة الأولى لمعنى تفسير التاريخ، أو فلسفته، وذلك بما قدمته تلك التأملات من تفسيرات لحقيقة الإنسان، وسر وجوده، وعلاقته بالكون المحيط به..

ومن يتلطف في تأمل «فلسفات» تلك الحضارات القديمة - سواءٌ عليها ضَلّت أم اهتدت - يمكنه أن يتلمس ذلك الخط الأول من نور الهداية الربانية الذي أودعه الله تعالى في نفس كل إنسان ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢﴾ (الأعراف:١٧٢).

ذلك النور الذي عززه الله تعالى ببعثة الأنبياء وإنزال الكتب.

الهوامش

١- يقول أستاذنا الدكتور عبدالحليم عويس: «من الجدير بالملاحظة أن هذا المصطلح (تفسير التاريخ) يُنظر إليه عند المؤرخين ومفسري التاريخ على أنه مرادف تماما لمصطلح «فلسفة التاريخ»، ولكن تراثنا الإسلامي، ولاسيما السلفي الحديث يشعر بنوع من الحرج في استعماله لكلمة «فلسفة» بصفة عامة، انظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، ص ١٥.

٢- راجع: المواقف، للإيجي، ص ٨٥، وكبرى اليقينيات الكونية، لمحمد سعيد البوطي، ص ٢٨٦ -٢٨٧، والسنن الإلهية في الأمم والأفراد، لمجدي عاشور، ص ١٤٣.

٣- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨/ ٧٠.

٤- حول التفسير الإسلامي للتاريخ، لمحمد قطب ص ١٩٦.

٥- حول التفسير الإسلامي للتاريخ، لمحمد قطب ص ٢٣- ٢٤.



في مقدمته الشهيرة شدد العلامة ولي الدين بن خلدون (ت٨٠٨هـ) على أهمية التثبت في نقل وقائع التاريخ؛ لأن عدم التثبت ومجرد النقل دون تبصر، أو الكتابة الواهمة المنتقاة تفضي إلى نتائج كارثية أهمها ضياع الحقيقة، وانتشار الزيف، وتغييب الوعي، وتنشئة أجيال من المغيبين، يقول رحمه الله: «إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب؛ فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط».

كيف كتب أجدادنا تاريخهم؟!

محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ والتراث

إن ما ذكره ابن خلدون يكشف حقيقة المأساة التي عاشتها أجيال متأخرة، ممن تربت على تشويه لحقائق التاريخ، فعرفته من منظور عاطفي أو دعائي أو كاذب منتحل، فانقلبت الحقائق في وعيها ولاتزال، ولربما يجد القارئ الواعي بالتاريخ صعوبة في إعادة بعثرة الحقائق أمام هؤلاء، فلا تجد إلا المقاومة والتسفيه، وهي مأساة بلاشك، تكشف كيف يمكن أن يشوه التاريخ المزيف أجيالا وأجيالا!

وخشية من فشو الكذب والتزييف والخداع، نهج المؤرخون الأولون من أجدادنا العظماء في جمع الأخبار وتدوينها نهجا اتسم بالاهتمام بالجانب الجمعي؛ فمن الملاحظ أن مجال التدوين التاريخي في القرون الثلاثة الأولى انصب على جمع الروايات وتدوينها وتصنيفها في كتب دون التدخل في نقدها وتمحيصها، ولذلك استشعر بعض المؤرخين ذلك العيب الخطير؛ ومنهم العلامة ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) الذي قال في مقدمة تاريخه: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا».

ولم يكن الطبري الذي أعلن صراحة عن منهجه في جمع الروايات دون تمحيصها هو وحده الذي انتهج ذلك النهج دون غيره، إذ كان أمرا عاما بين الأخباريين وبعض المؤرخين، لكن جل ما عمله هؤلاء الأخباريون أنهم جمعوا الروايات المتعلقة بالموضوع الواحد ووضعوها في كتب مفردة، وكان أبرز هؤلاء الزهري وأبومخنف وسيف بن عمر والواقدي والمدائني.

ولذلك أصبح التاريخ بوتقة لكل أنواع الأخبار الصحيحة والضعيفة والموضوعة، وكل ما استطاع المؤرخون الأولون أن يقدموه لنا، أنهم جعلوا عهدة هذه الروايات على رواتها، ولذلك حرصوا على إيراد سلسلة الرواة وإن طالت، ولم يشذ عن هؤلاء إلا القليل



ممن تعمد أو أغفل ذلك، واعتبروا ذكر رواة الأخبار أمرا أصيلا، فاطمأنت نفوسهم إلى ذلك؛ من حيث إن المدققين في هذه الروايات يستطيعون أن يقبلوا الأخبار من الرواة الثقاة، ويرفضوا ما دونها بالاعتماد على علوم الرجال والطبقات والأسانيد.

ويكفي للتدليل على ذلك بأني أحصيت عدد الروايات المتعلقة بقضية خروج الإمام الحسين واستشهاده في تاريخ الطبري، فوجدتها ١٠١ رواية، روى منها أبومخنف الوضاع ٧٦ رواية، وروى هشام بن محمد الكلبي صاحب «العجائب والأخبار التي لا أصول لها» ١٣ رواية؛ ليكون مجموع الروايات التي رويت عنهما ٨٩ رواية من أصل ١٠١ تحدثت عن هذه الواقعة، وهذا دليل على أن تشويه التاريخ أمر قديم ومقصود لأغراض عقائدية أو عرقية وسياسية.

ومن هنا يأتي على الخاطر سؤال مهم، هل يمكن تنقيح هذه الروايات التاريخية؟ وهل يمكن أن يكون بين أيدينا تاريخ صحيح نقي من كل عيب، مستصفى من كل كذب وتلفيق؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا أن نوضح أمرا مهما حقا، وهو إذا تراءى لدى بعض القراء أن المؤلفات التاريخية الإسلامية تحمل فجوات أو تلفيقات، فيجب التنبيه على أن طريقة الإسناد وإيراد كافة الروايات المتعلقة بالموضوع الواحد، ليعد من الابتكارات الحقيقية للعقلية الإسلامية، فليس هناك مثل هذه الدراسات والقواعد والتحرزات في أي تاريخ أو شريعة أخرى سبقتنا، وقد تنبه الإمام ابن حزم رحمه الله (ت٤٥٦هـ) إلى هذا الأمر، قائلا: «نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبي شيء خص به المسلمون دون جميع الملل والنحل، أما مع الإرسال والإعضال فيوجد في اليهود، لكن لا يقربون به من موسى قربنا من نبينا، بل يقفون حيث يكون بينهم وبينه أكثر من ثلاثين نفسا، وإنما يبلغون إلى نوح وشمعون، وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق..»».

وبالرغم من وجود هذه الثغرات والفجوات التي وجدت في تاريخنا الإسلامي، فإنه لا توجد مقارنة من حيث المنهجية ومن ثم الدقة مع ما كتبه اليهود والنصارى في كتبهم المقدسة، وشرائعهم، فضلا عن تاريخهم وتراثهم الإنساني، ولذلك يقول عالم الاجتماع الأميركي هاري بارنز: «في عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخر أبدى بعض أبناء الكنيسة شكوكهم في صحة أفكار تقليدية معينة عن تأليف الكتاب المقدس، ولكن أول دارس أثار مسائل على جانب كبير من الأهمية من ناحية الآراء التقليدية كان عالم العهد الوسيط ابن عزرا الذي تحدى في سنة ١١٥٠م، فكرة تأليف موسى عليه السلام للأسفار الخمسة. وفي القرن السابع عشر أبدى الفيلسوف الناقد الشهير توماس هوبز شكه في تأليف موسى عليه السلام للأسفار على أساس اعتبارات منطقية ومفاهيم الإدراك العام لا على أساس الدراسة التاريخية للنصوص، وأشار إلى أنه ليس من المألوف أن يشير مؤلف وهو يكتب سيرته الذاتية إلى موته ويفخر بأنه قد أحسن دفنه إلى حد أنه لم يستطع أحد لمدة سنوات عدة أن يعرف موضع قبره!».

إن هذه الأسئلة والاستنتاجات التي حيرت عقول علماء الغرب لمدة طويلة – ومازالت – تؤكد لنا أن أخباريي المسلمين ومؤرخيهم تحروا قدر طاقتهم الدقة والصواب في إيراد الروايات المتعددة المتعلقة بالحادثة المراد التأريخ لها، وإن ضمت هذه الروايات كذبا وتلفيقا؛ لأنهم جعلوا الإسناد المحك الرئيس في قبول رواية ما أو رفضها، ولأهمية الإسناد في علم الحديث بصفة خاصة، وبقية العلوم ومنها التاريخ، نرى ابن المبارك يقول: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»، ولهذا يعجب المستشرق الألماني سبرنجر من هذه المنهجية، فيقول: «لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم».

وفي العصر الحديث حدثت ثورة في علوم المنهجية «الميثدولوجيا» التاريخية، وكان أول كتاب عربي يتناول هذه المنهجية، مستفيدا بما كتبه المؤرخون المسلمون في تاريخهم من قواعد وأصول علوم المصطلح الحديثي، ومن الغربيين الذين شرعوا في الاهتمام بهذا الجانب منذ عصر النهضة، كان المؤرخ اللبناني اللامع «أسد رستم» في كتابه القيم «مصطلح التاريخ» الذي ظهر في ثلاثينيات القرن العشرين، ثم تتابعت الدراسات العربية المنهجية في علم التاريخ حتى يومنا هذا؛ كلها تضع القواعد، وترسم الأصول التي تعين المؤرخين والباحثين على الوصول إلى الحقيقة من خلال مناهج علمية دقيقة، وهي أعظم إفادة للتاريخ وللحقيقة بلا ريب.



التاريخ عند المسلمين

التحرير

بدأ التاريخ مع العرب في الإسلام تقويما مثله في ذلك مثل غيره من الأمم، خاصة عرب الجنوب، وذلك أن الحاجة صارت ملحة إلى أصل واحد يرجع إليه المسلمون جميعا عند العد أو التأريخ يقيد مصالح المسلمين ومعاملاتهم جميعا على السواء، كمثل الأمر في جمع القرآن في عصر عثمان رضي الله عنه حين رد المسلمين إلى حرف واحد لا يختلفون عليه، فبعد أن كان كل امرئ يرجع في عده وتأريخه إلى ما شاء بما اشتهر عنده وقومه، صار هذا الأصل الذي اجتمع عليه المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه هو الأصل الذي ينبغي للمسلمين جميعا التقيد به لمن أراد التوريخ، وترك ما سواه، مع وجوب لزومه في المكاتبات والرسائل بعد أن كان هذا الأمر قبل عهد عمر رضي الله عنه مهملا على غير وجهة مضبوطة، أو على الخيار غير ملزم لأحد. فإنه على الرغم من إجماع القدماء على وجود تواريخ عرفتها العرب في جاهليتها، فإن ما وصل إلينا من نقوشهم ووثائق معاهداتهم تدل على عدم التزامهم أصلا بتاريخ واحد يتعارفون عليه، فتاريخ قريش يختلف عن تاريخ الغساسنة، وكلاهما يختلف عن تاريخ المناذرة، ناهيك عن تاريخ اليهود..

ولم يكن مع ذلك ملزما كما قلت، وإلا فهذه صحيفة المشركين ضد بني هاشم حين حصروهم في الشعب، وهذا صلح الحديبية، وهذه كتب النبي ﷺ إلى ملوك الأمصار، وغيرها من العهود والمواثيق.. أين هي تواريخها؟ وما هي هذه التواريخ؟ وكأنهم اعتبروا بدء توقيع العهد أو الميثاق هو بداية تاريخ المعاهدة، ومنها يبدأ العد أو التاريخ. وكان هذا دأبهم في التوريخ والعد من الجاهلية والإسلام، بل حتى بعد إلزام عمر بتاريخ واحد، واعتبارهم هذا التاريخ لا محيد عنه في العهود والمواثيق، لم نعدم مع ذلك بقاء بعضهم على فطرة العرب الأولى في التوريخ بما اشتهر لديه من حوادث لها شأنها

● من كتاب «التاريخ في الإسلام» الذي أصدرته مجلة «الوعي الإسلامي» للدكتور أحمد الشال



وذكراها عنده، يدل على ذلك كثير من النصوص.

والعرب الشمالية وإن لم يكن لديهم قبل بعثة النبي ﷺ تقويم واحد يرجعون إليه؛ إذ أرخوا بمشهور الحوادث وبولاية الملوك، فهذا أمر كان كذلك عند الجنوبيين، حتى جاء الإسلام واجتمعوا على تقويم واحد هو التقويم الهجري الذي ألزم به الجميع دون سواه.

وهذا يدفع بنا إلى نتيجة أخرى، هي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمسلمين في عهده لم يبتدعوا في الإسلام تأريخا كانوا يجهلون معناه قبل ذلك، بل علموه وعقلوه، ولكن كل ما فعله عمر وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين هو إلزام المسلمين بتاريخ لا يختلف عليه، ليس أكثر ولا أقل، ذلك أن القائل بابتداع عمر للتاريخ في الإسلام إنما ينفي بذلك عن العرب الأولين معرفتهم بالعد أو التأريخ، وهذا خطأ، ودليل ذلك أن القائل بهذا القول لا يلبث أن يناقض نفسه حين يتكلم بعد ذلك عن التأريخ عند العرب في الجاهلية وما أرخت به. وقد ذكرت من قبل أنه قد ظهر من النقوش الشمالية ما يؤكد معرفة الشماليين لظاهرة التوريخ.

يقول خليفة بن خياط موضحا مفهوم التاريخ عنده وعند أهل عصره: «وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدد نسائهم، ومحل ديونهم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة:١٨٩).

وهذا الأمر وإن شابه بعض التغيرات منذ القرن الرابع الهجري حين بدأت الأخبار والقصص تأخذ طريقها إلى كتب التاريخ عند المصنفين المسلمين والعرب منذ ذلك الحين حتى صارت الأخبار جزءا لا ينفك غالبا عن التاريخ، فأصبحت بمثابة الجسد له، لا يكاد يتجسد التاريخ إلا بها، وصار كل مؤرخ في هذا العصر أخباريا مؤرخا، وليس العكس، ونجد معنى ذلك في نفس ابن حجر حين قال: «ومن ثمة قيل لمن يشتغل بالتواريخ وما شاكلها الأخباري».

فضلا عن أن التاريخ حمل منذ ذلك الوقت معنى الأولى والآخرة، سن ذلك مؤرخ مجدد تزعم حركة انتقالية بين عصر وعصر، شارك في منهاج الأول وابتدع منهاج الآخر، هو الطبري في تاريخه، وتبعه من بعده أسوة به، فلم يعد التاريخ هو «التأريخ» المطلق كما كان قبل، بل قيده فهم جديد أضاف لـ «التاريخ» في هذا العصر معنى جديدا، فلم يعد «التاريخ» مجرد العد، ولا مجرد التقييد على الأيام والسنين فحسب، بل صار مع ذلك هو العبرة في الدنيا للفوز بالآخرة، فهو: «تاريخ الرسل والملوك»، و«تجارب الأمم» و«مرآة الزمان»، و«البداية والنهاية»..

إلا إنه مع ذلك ظل مفهوم الفصل واضحا بين هذا العلم وبين غيره من العلوم لم يتغير، وإن توسع بعض منهاج تدوينه، وظلت دلالة كلمة التاريخ لها معناها القديم في نفوس أصحاب هذه التصانيف المتأخرة، دل على ذلك عناوين ومحتويات تلك التصانيف.

فالتاريخ لم يعد منذ هذا الزمان كما كان سابقا في أول الإسلام، التقييد المجرد للحوادث والوفيات عبر الأيام والسنين، فإن الدولة قد اتسعت مع الأيام، تعاقبت فيها ملوك وأتت أخرى، وتقلبت بها أعصار، وأصابتها نوائب ونوازل تستحق أن تروى ليعتبر بها، فضلا عن أمم سبقت أخبر عنها القرآن احتيج إلى التأريخ لها والتعرف عليها، فكانت الحاجة إلى تقييد ذلك كله واجبة، فكان التاريخ هو وعاء هذه الأخبار شريطة أن يعتبر عامل الزمن عند إلحاق هذه الأخبار في ثناياه حتى يحمل معنى «التاريخ» وإلا ألحق حسب طبيعة ما يروى بأنواع أخرى من أنواع سرد الرواية والخبر، كالأخبار أو السير أو القصص أو الأيام..

فالتاريخ في عصر الكافيجي (ت ٨٧٩هـ) هو: «علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وأحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته».

ثم يقول بعد ذلك في موضع آخر: «وأما موضوعه فهو أمور حادثة غريبة لا تخلو من مصالح وترغيب وتحذير وتنشيط وتثبيط واعتبار وبسط وانفعال، بحيث يلاحظ فيها



ضبطها بتحرير تحديد، وتقرير تعيين، وتوقيت لغرض صحيح في ذلك.. وأما ما يوجد في هذا الفن من مباحث لا يلاحظ فيها تلك الحيثية المذكورة في تعريف الموضوع فهو من باب التتميم والتكميل والإلحاق لغرض من الأغراض».

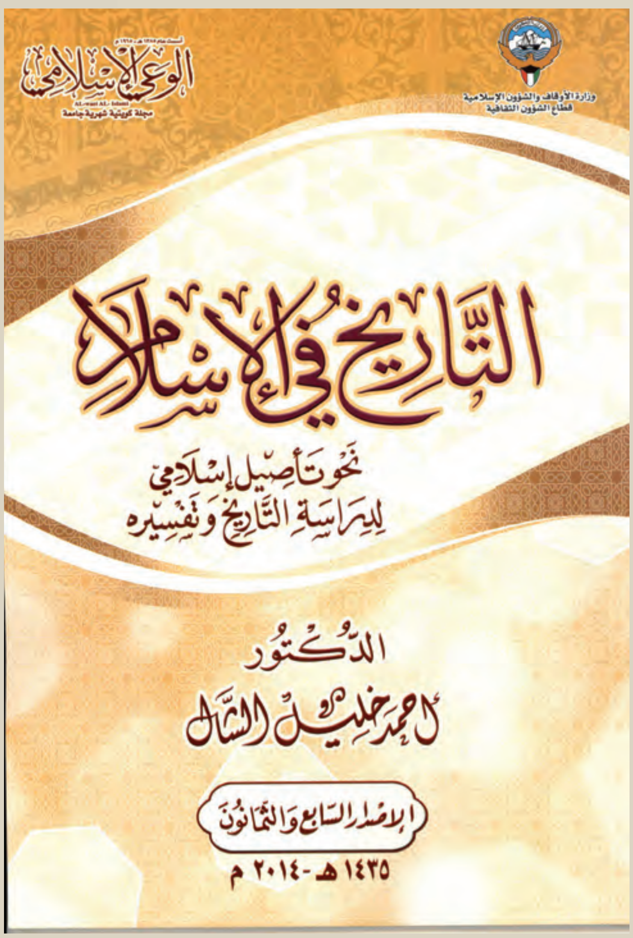
ثم لا يلبث أن يتبع هذا الكلام بقوله: «وأما استغناء الأوائل عن تدوينه فهو لا يقدح في وجوبه.. وقد كانت الحوادث قليلة في ذلك الزمان، وأما الحوادث والوقائع فقد كثرت جدا في هذا الزمان، فمست الحاجة إلى ضبطها على وجه كلي معتبر فيه، والضابط لها على وجه معتبر هو علم التاريخ».

وهو عند السخاوي (ت ٩٠٢هـ): «فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت.. وأما موضوعه: فالإنسان والزمان، ومسائله: أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان».

ويقول في موضع آخر: «وأما ما لعله يذكر فيه يعني التاريخ من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننتهم، فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم، والحكماء وكلامهم، والزهاد والنساك ومواعظهم، عظيم الغناء، ظاهر المنفعة، فيما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته، وسيرته في أمور الدين وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوي».

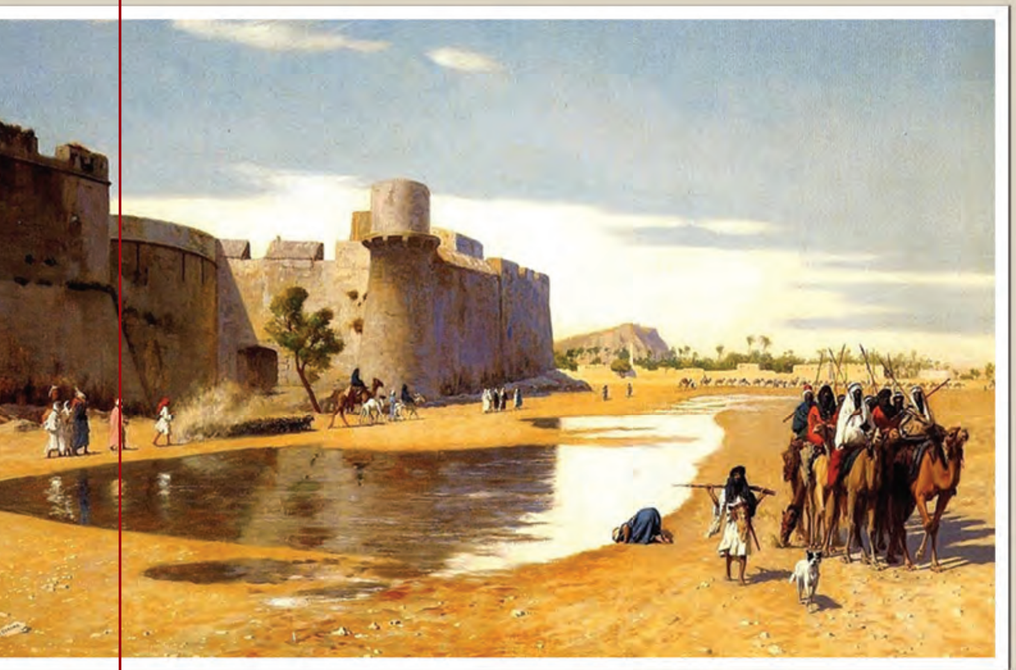
وكان ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) قد أشار إلى شيء من هذا قبل ذلك حين قال: «التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل».

وتتمثل أهمية ووظيفة التاريخ عند السيوطي (ت٩١١هـ) في معرفة الأجيال وحلولها وانقضاء الأجل وأوقات التعاليق ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم فيعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين.



وهكذا حتى نقترب بعد ذلك من عصر النهضة الأوروبية (القرن ١١هـ ١٧م)، فنشهد فيه إهمالا وتدهورا وانحدارا لعلم التاريخ عند المسلمين، فمن يطلع على حركة التصنيف في هذا العصر عامة وفي مصر خاصة - وكانت قد تقلدت زعامة العالم الإسلامي حضاريا وعلميا في هذا الوقت - يجده على قلة ما دون فيه، هزيلا ضعيفا مضطربا، لا منهاج لهم فيه ولا استواء، فهو لا يكاد يعبر عن شيء، وكأنه لم يعد هناك ما يستحق التأريخ له عندهم في هذا الزمان، يعبر عن ذلك عبدالرحمن الجبرتي الذي

يمثل آخر رجال المرحلة الوسطى السابق الحديث عنها بأبلغ تعبير حين قال: «ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني تعتني بتدوينه سلفا عن سلف، وخلفا من بعد خلف، إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين، وأساطير الأولين، ولعمري إنهم لمعذورون، وبالأهم مشتغلون، ولا يرضون لأقلامهم المتعبة في مثل هذه المنقبة، فإن الزمان قد انعكست أحواله، وتقلصت ظلاله، وانخرمت قواعده في الحساب، فلا تضبط وقائعه في دفتر ولا كتاب، وإشغال الوقت في غير فائدة ضياع، وما مضى وفات ليس له استرجاع إلا أن يكون مثل الحقير منزويا في زوايا الخمول والإهمال، منجمعا عما شغلوا به من الأشغال، فيشغل نفسه في أوقات من خلواته، ويسلي وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته».



وفي المقابل لم يعرف الأوروبيون علم التاريخ الذي هو تقييد الحوادث والوفيات على السنين حتى بداية عصر النهضة الأوروبية! وإنما كان مبلغ علمهم في هذا الباب هو ذلك العلم الذي يختص بمعنى الحدث وما يحويه من خبر عن شيء مضى أو قصة حدثت، فترصد عن طريقه آثار ظاهرة من الظواهر الإنسانية. وعرف عندهم بالاسم المشتق من الإغريقية ذي الأصل العربي Istoria (أسطورة الذي لا يزال كما هو في اليونانية الحديثة بحروفه علما على فن هو في الحقيقة ليس هو من التاريخ (Date) أو (chronicle) في شيء، هذا الأصل الذي تشتق منه اسم هذا العلم في جل اللغات الأوروبية بعد ذلك للدلالة على معنى الحدث الماضي، فهو في اللاتينية والإنجليزية History، وفي الفرنسية Histoire، وفي الإسبانية Historia، وفي الإيطالية Storia، وينطق في الروسية Istoriya.. ومما يدل على أن هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة أنها حين ترجمت إلى بعض اللغات الأوروبية المحلية حملت هذا المعنى نفسه وهو الحدث الذي مضى كالألمانية التي حمل هذا العلم فيها اسم Geschichte.

وكان من أبرز من تناول قضية تعريف هذا العلم ووظيفته عند الغرب: هرنشو في كتابه المترجم بـ «التاريخ» حيث حدد له ثلاثة معان، الأول: مجرى الحوادث الفعلي، يعني بذلك الرجال الذين غيروا بأعمالهم مجرى شؤون العالم.

الثاني: التدوين القصصي لمجرى شؤون العالم كله أو بعضه. الثالث، وهو الأدق عنده في تحديد معنى (History): أن هذا اللفظ في أصل معناه واشتقاقه الدقيق يفيد «البحث»، أو «التعلم بواسطة البحث»، أو «المعرفة التي يتوصل إليها من طريق البحث». ثم حدد موقعه من العلوم بأنه علم نقد وتحقيق، أقرب العلوم شبها به الجيولوجيا، لأن العامل في ميدانه يدرس الآثار المادية والسجلات المتخلفة عن الماضي، ليفسر بواسطتها الحاضر، فهو في نهاية الأمر يبحث عن العوامل الخفية، والحقائق الروحية الخالدة على مر الزمان التي تبعث الناس على العمل.

وحين تحدث عن موضوعه صرح بأنه «لا موضوع له على الإطلاق، هو مجرد طريقة بحث، ولكي يتعين له موضوع ينبغي أن نقرن اسمه بوصف من الأوصاف: Political HistoryEcclesiastical History.. وهلم جرا» .

أما كون الأوروبيين لم يعرفوا علم التاريخ حتى بداية عصر النهضة الحديثة لديهم، فهذا ما شهد به مرجليوث وغيره، إذ يقول: «نلاحظ مناهج معينة ابتكرها المؤرخون العرب لضمان الصحة في تسجيل الأحداث، أحدها تأريخها بالسنة والشهر، بل باليوم»، ويصرح المؤرخ الإنجليزي بكل Buckle أن ذلك الأمر لم يعرف في أوروبا قبل سنة ١٥٩٧م.



مقاصد التاريخ في القرآن الكريم

د. مسعود صبري
باحث في الموسوعة الفقهية- الكويت

التاريخ حافظة الأمم، وسجل الزمان، به يعرف أخبار من غبر، وأحوال من مضى، ويستمد منه الناس معالم القوة لحاضرهم، وآفاق البقاء لمستقبلهم، ولذا، فقد كانت عناية الأمة به حاضرة، والأمر فيه كما قال ابن خلدون في مقدمته إن: «فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. والأنبياء في سيرهم. والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق».

ولأهمية التاريخ، فقد حفل القرآن الكريم به كثيرا، حتى إنه يكاد ينال منه النصيب الأكبر والحظ الأوفر، وهو تنبيه إلهي لنا لإدراك أهمية التاريخ في حياة الأمم عامة، وفي حياة تلك الأمة المحمدية خاصة.

وقد تنوع ما ذكره القرآن الكريم من تاريخ عبر آياته، فمنه ما كان تاريخا للأنبياء - عليهم السلام - فقد ذكر قصص آدم وإدريس ونوح، وهود، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذي الكفل، ويونس، وموسى وهارون، وإلياس، واليسع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ثم ختم بهم بمحمد صلوات الله عليهم أجمعين، كما ذكر القرآن قصصا تاريخية لغير الأنبياء، منها ما كان ذكرا لتاريخ بعض الجماعات، كأصحاب الأخدود، وأهل الكهف، وأصحاب الجنة، وأصحاب الفيل، ويأجوج ومأجوج، ومنها ما كان ذكرا لتاريخ بعض الأفراد، منهم من كان مؤمنا، كمؤمن آل فرعون، وذي القرنين، وملكة سبأ، والعبد الصالح مع موسى عليه السلام، ولقمان، وطالوت وغيرهم، كما كان منهم من كان كافرا، كقارون، وجالوت، وأبي لهب وامرأته، أو عاصيا كصاحب الجنة، ونحوهم.

وهي إشارة من القرآن الكريم في العناية بتدوين التاريخ بأنواعه، من التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي، وهو الذي غفل عنه كثير من المؤرخين.

مقاصد التاريخ في القرآن

وقد اعتنى القرآن الكريم بذكر تاريخ الأمم والأنبياء وذكر قصص بعض

الجماعات والأفراد لمقاصد مهمة، منها:

أولا- الاعتبار

من جميل مقاصد القرآن الكريم فيما يورده من قصص التاريخ وفلسفته أنه تحدى حيز السرد والحكاية إلى ما وراءها من الدروس والعبر، والوقوف وراء الحدث تحليلا ونقدا وإدراكا ليتخطى الحدث ذاته إلى مقصوده من أخذ العبرة، وهذا ما يفصح عنه القرآن من بيان أحد مقاصد التاريخ فيه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف:١١١)، فالقرآن يلفت الانتباه إلى «العبرة التاريخية» وهي العبور من الحدث وعدم الوقوف عنده مليا بالانشغال في تفاصيله إلى الوقوف على جذوره، حتى نصل إلى إدراك أسباب الحادثة، ثم تطبيق تلك الحادثة على ما يشابهها من حوادث متكررة، والاستفادة منها في واقعنا المعاصر، بل وفي استشراف المستقبل أيضا، ومن هنا كان التاريخ أحد كواشف خلود القرآن، وأنه ليس نصا تاريخيا، وإن احتوى حوادث تاريخية لا للوقوف عليها بل للاستفادة منها في غيرها من الحوادث التي لا تنتهي، وذلك من إعجاز القرآن.

ويلفت القرآن الانتباه إلى أن الوصول إلى مقصد «العبرة التاريخية» له شروط، أهمها: القائم بالكشف عن مقصد «العبرة التاريخية»، وهو جودة آلة التفكير من العقل (لأولي الألباب)، فليس كل أحد قادرا على اكتشاف العبرة التاريخية، وأن الوصول إلى تلك العبرة يجب أن يصل إلى حد الحقيقة لا مجرد الخرص والظن: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، وأنه يجري مجرى السنن التي وضعها الله تعالى في الكون والحياة ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وأن العبرة التاريخية واضحة جلية تضيء للناس طريقهم حتى يعرفوا إلى أين هم صائرون، وفي أي اتجاه يخوضون: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى﴾، فهناك الهداية التاريخية التي تنير للأمة مسالكها ودروبها، ولذا، فهي تهديهم إلى الرحمة، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتلك الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين الصادقين.

ثانيا- التعاون الإنساني

إن الاطلاع على التجارب البشرية السابقة، وسبر أغوارها، والوقوف على الحوادث المتنوعة لها في مجالات الحياة، ليدفع المسلمين إلى اعتبار مقصد التعاون الإنساني، وأنهم لم يجيئوا لهذه الأرض - مفضلين على غيرهم بما أوتوا من الكتاب - ليعيشوا وحدهم، ولا أن يتسلطوا على غيرهم، ولا أن يسمحوا لغيرهم أن يتسلطوا عليهم، بل يدركون أن الحياة الدنيا مبنية على التعاون بين بني آدم جميعا، لأن الله تعالى أكسبهم الأرض مسلمهم وكافرهم، وأن في طيات ذكر تاريخ الأمم السابقة ما يحمل من أسباب الحياة الكريمة وبيان أسباب انهدام الحضارات وتلاشي نزول العذاب، وقد أكثر القرآن الكريم من تنبيه المسلمين إلى ما حصل لمن قبلهم، فذكر عشرات الآيات مقرونة بـ «من قبلهم»، و: «من قبلكم» و: «من قبل»، ليربط المسلمين بتاريخ الأمم جميعا، وأنه يجب التفريق بين ما هو عقدي لا يمكن التنازل عنه، ولا التقارب فيه، ولا اعتباره واحدا، وبين الاشتراك والتعاون على الأرض التي جعلنا الله تعالى جميعا فيها شركاء لتحقيق المصالح الدنيوية، وقد جاء الحث بالتعاون في سياق الحديث عن الخلاف بين المسلمين والمشركين، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ (المائدة:٢)، وقد جاء الأمر بالتعاون على البر، والبر اسم جامع لكل خير، والخير غير ممنوع عن الناس أيا كانت عقائدهم.

ثالثا- إثبات صدق النبوة

إن التاريخ الذي جاء به محمد ﷺ في القرآن، لهو أكبر دليل على صدق نبوته، فمحمد بن عبدالله ﷺ الذي نشأ في مكة أميا، لم يذهب إلى معلم، ولم يعرف عنه أنه قرأ أو كتب كتابا أو رسالة، أو قال شعرا كما هو معهود قومه وعشيرته، لكنه يأتي بنصوص تخبر عن تاريخ الأمم السابقة، بما لم يكن يعلمه العرب، ويغيب عن كثير ممن كان يعيش معه في زمنه؛ لهو دليل على صدق نبوته، وأنه ما كان حديثا يفترى، فالإعجاز التاريخي - كما ذكره السيوطي - هو ما انطوى عليه من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة ممّا كان لا يَعْلَمُ منه القصَّة الواحدة إلّا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلُّم ذلك، فيورده رسول الله ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصِّه، وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

رابعا - علاج أمراض الأمم

إن النظر في تاريخ الأمم السابقة ليس ضربا من الماضي، وأن تلك هي حدوده الموقوف عندها، ذلك أن السنن الكونية في الشعوب والأمم واحدة، وأن تجارب الإنسان متكررة، وكما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه «نظرات في القرآن» (٩٥-٩٨): «فالإنسان هو الإنسان - من مائة قرن خَلَتْ إلى مائة قرن يلدها المستقبل المنظور أو أكثر - لن تتغيّر طبيعته، ولن يتبدّل جوهره؛ لذلك فقد حفظ

القرآن قصص الأوّلين مع أنبيائهم، وجدّد على الناس ذكرها بعدما طَوَت الليالي أصحابَهَا؛ ليُدَاوِيَ بها عِلَلا متشابهة، وقد كثرت القصص لتحصي جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعيّة، وتستأصل جرثومتها بصنوف العِبَر وشتَّى النُّذُر».

خامسا- تعلم الثبات على الحق

إن القصص القرآني بما يحويه من تاريخ الأمم السابقة وما حدث لها من حوادث عبر الزمن، لهو زاد كبير للمؤمنين في الثبات على الحق، والحفاظ على الدين، باعتباره أحد مقاصد الشريعة الكبرى، وقد اختتم الله تعالى الحديث عن قصة هود عليه السلام في السورة التي سميت باسمه بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (هود:١٢٠)، فجعل التذكير بتاريخ الأنبياء والصالحين من الوسائل المعينة على الثبات على الدين، وأن ما يلاقيه المسلمون من عنت وحرب وفتنة من أعدائهم هو من سنن الله تعالى في الصالحين، فيهون ذلك في نفوسهم، ومن جميل ما ذكر القرآن أنه جعل الثبات محله القلب: ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، ذلك أن الثبات على الدين من الحق الواجب اتباعه، وهو ذكرى للأمة حتى لا تنسى وتخالف سنن الصالحين عبر تاريخهم.

ويتكرر المعنى في سورة الأنعام، فيذكر الله تعالى رسوله بثبات الأنبياء على ما أوتوا من الشريعة والدين رغم ما لاقوه من تكذيب شعوبهم، لكنهم ما حادوا عن الحق، وصبروا على ما لاقوا من قومهم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ﴾ ثم ختمت الآية باعتبار تلك القصص جزءا من التاريخ الذي يجب العناية به، والالتفات إليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام:٣٤)، ولذلك نجد أن كثيرا من الناس قد يغير قلبه سماع بعض الحكايات متأثرا بها أكثر من الحديث المجرد، فهي كما قال الجنيد رحمه الله: الحكايات جند من جند الله عزوجل يقوي بها إيمان المريدين.

سادسا- معرفة سنن قيام الحضارات وهدمها

إن ما زخر به القرآن الكريم من ذكر قصص السابقين وتاريخ الأمم التي كانت قبلنا كان من أهم مقاصده معرفة السنن الكونية في بناء الحضارات وانهدامها، وزوال الممالك وبقائها، وهي عبر تمهد للأمة معرفة مواطن القوة ومواطن الخلل في مسيرتها الحضارية، بما يحفظ بقاءها وأسباب تماسكها الداخلي، وإدراك طبيعة العلاقة مع غيرها تعاونا وحذرا وجهادا وصدا للعدوان، وإعدادا لصد الخطر الذي قد يداهمها، ومد يد العون لغير المعتدين، والسعي والتعاون لبناء حضارة إنسانية راقية على منهج الإسلام، وذلك من خلال إعمال العقل فيما حفل به القرآن من تاريخ غيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦).

إن القرآن الكريم كتاب هداية في المقام الأول، لكنه حفل بالحديث عن كثير من العلوم الإنسانية، منها: علم التاريخ، وهو يؤسس لمنهجية رائعة في التعاطي مع التاريخ، وكيفية التأسيس له، والاستفادة منه، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف:١١١).



أسلم على يديها ٣٢١٠

أقدم داعية فلبينية في الكويت.. وداعا

مهدي عبدالستار
إعلامي مصري

احتضن ثرى الكويت قبل أيام قليلة جثمان أقدم داعية إسلامية فلبينية عملت على أرض الكويت بعد أن أسلم على يديها ٣٢١٠ وقدمت ٤٦ دورة شرعية علمية وتخرج على يديها ٣٥١ داعية وتمكنت من إنشاء ٤٤ مسجدا و٥ مدارس وعشرات الآبار بعد أن ضربت أعظم الأمثلة لنموذج الداعية الربانية التي تحمل هم الأمة وتدعو إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة.

إنها الداعية الفلبينية عرفية سرانجاني أميريل «أم عارف» والتي تنحدر من أسرة إسلامية عريقة في منطقة سالبادور لاناو الجنوبي - الفلبين، وترعرعت الداعية في مدينة مراوي مقر رابطة النساء الخيرية في الفلبين، وقد قدمت الكويت في بداية ثمانينيات القرن الماضي، وحصلت على شهادة الثانوية العامة عام ١٩٨٨م من مدرسة الدوحة الثانوية للبنات، ثم التحقت بكلية العلوم الصحية وحصلت على دبلوم كلية العلوم الصحية تخصص «علوم الأغذية والتغذية عام ١٩٩٣م» من الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب - دولة الكويت.

ثم استكملت دراستها للعلوم الشرعية وحصلت على شهادة «بكالوريوس» في الدراسات الشرعية بكلية ليك لاناو في مدينة ماراوي بمحافظة لاناو جنوبي الفلبين عام ٢٠٠٧م.

واستطاعت بحكمتها المعهودة أن توازن بين متطلبات الحياة، فقامت بحق زوجها وأولادها وأسرتها حق



• أنشأت ٤٤ مسجدا و٥ مدارس وعشرات الآبار ورأست رابطة النساء الخيرية الفلبينية

قيام، في الوقت الذي اهتمت فيه بنفسها في تحصيل العلوم الشرعية والدنيوية، ولم تتأخر عن ركب الدعاة إلى الله المجدين المخلصين واستمرت في أداء كل هذه الواجبات على أكمل وجه طوال سنوات وجودها على أرض الكويت، حتى حققت تميزا لأسرتها وأبنائها وزوجها، وأثمرت دعوتها بين أبناء الجالية الفلبينية ثمارا مباركة، وتمكنت من تثبيت أركان الدعوة بين بنات جنسيتها بإيجاد جيل جديد من الداعيات زاد على الثلاث مئة داعية ليواصلن ما بدأته من دعوة مباركة، ويستمر عطاؤها الدعوي.

وأخيرا حطت الداعية الإسلامية الفلبينية رحالها وختمت مسيرتها الدعوية الحافلة بالعطاء الخيري والإنساني والإسلامي لترقد بسلام في ثرى الكويت الغالي، فلطالما أحبت هذا البلد واستخدمت كل طاقاتها الإيمانية والعلمية والشرعية لتحقيق أهدافها الإسلامية الطموحة من خلال مؤسسات الخير الكويتية.

ولسوف تظل سيرة حياة عرفية سرانجاني أميريل الحافلة بالعطاء والجد والاجتهاد شعلة مضيئة ونموذجا فريدا لعطاء المرأة المسلمة وكانت قد سافرت إلى الفلبين مع قافلة إغاثية لتوزيع الإغاثة الإنسانية التي أرسلتها الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية إلى متضرري الفيضانات في جنوب ووسط الفلبين في داباو ومدينة إيلوويلو في شهر أبريل الماضي، وعادت وقد تمكن الإرهاق منها فأدخلت المستشفى ثم وافتها المنية ودفنت بالكويت في مقبرة الصليبخات.

هذا وقد أعلن المدير العام للجنة التعريف بالإسلام والذي شهد جهودها في اللجنة عن إنشاء مسجد في الفلبين بتكلفة مالية ١٥ ألف دينار على نفقة أهل الخير باسم الداعية الفلبينية عرفية إمام إحدى أبرز داعيات اللجنة تقديرا للدور المناط بالفقيدة رحمها الله تعالى، واعتبارها صدقة جارية.

فتاوى النوازل الوقفية وأوقاف المقدسات الفلسطينية

د. عطية الويشي
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

مصداقية فتاوى النوازل الوقفية تكمن في كونها تعبيرا عن ممارسة حضارية متأسسة على قناعات عبادية اقتضتها طبيعة الالتزام الأخلاقي المتبادل داخل المجتمعات الإسلامية. وكذلك هي مرتبطة باليقين أكثر من ارتباطها بالظن والتخمين في مجال الثبوت التاريخي. ولذلك سوف ترتكز الورقة على مدى الفكرة الباحثة في إمكانية اعتماد كتب النوازل كأولوية مصدرية لإثبات الحق التاريخي في أوقاف المقدسات الفلسطينية، ومن ثم النظر في إمكانيات التنسيق القانوني أو التحكيمي عبر آلية معنية باسترداد هذه الأوقاف وإعادة استثمارها وفق شروط واقفيها.

ولقد كشفت حركة التمدد الحضاري الإسلامي دعوة وتحضرا وعمرانا وتمصيرا وتمدينا مشرقا ومغربا... عن مدى تغلغل الروح الإحسانية الخيرية في نفوس أبنائها بشكل لافت – ولاسيما حين شاعت ثقافة الوقف، وأصبحت أحد أهم مظاهر السلوك النهضوي الحضاري للأمة المسلمة أفرادا وجماعات وهيئات ومؤسسات ونظما سياسية وحكومات...

وتنبئنا التجربة الحضارية، أن ما من حاجة عنت للمجتمع الإسلامي من الاحتياجات الروحية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والاقتصادية وغيرها... إلا وانبرى المحسنون وأهل الخير وقفا عليها وتحبيسا بغرض الوفاء بتلك الاحتياجات؛

ذلك، ولم يكن مستبعدا أن يحبس المسلمون على المسجد الأقصى والقدس أوقافهم سواء لرعاية السابلة، أو المجاورين أو لرعاية المقدسات وصيانتها كضمانة لاستدامة الإشعاع الروحي والحضاري من تلك البقاع المقدسة؛ وذلك بالنظر إلى أن القدس – فضلا عن كونها حرما مقدسا مقصودا بالزيارة – كانت ممرا للحجاج القادمين الحرمين الشريفين من بلاد المغرب والقارة



الأفريقية، فضلا عن بلاد شرق وغرب أوروبا، فكان محطات خدمات الحجيج والمسافرين عبر فلسطين على الطريق الممتدة في أعماق أفريقيا وآسيا وأوروبا... وكانت جميعها بتمويل من الأوقاف؛

فمثلا، تشير بعض الفتاوى إلى أن أول من أحدث وقف أراضي وعقارات على المقدسات الإسلامية بفلسطين: نور الدين محمود الشهيد صاحب دمشق، ثم صلاح الدين يوسف صاحب مصر. لكن بعض هذه الأوقاف كانت من بيت المال... ولعل هذا ما أثار جدلا فقهيا استدعى إصدار فتوى في الواقعة من جانب الفقيه ابن أبي عصرون فأفتاهما بالجواز، على معنى أنه إرصاد وإفراز من بيت المال على بعض مستحقيه ، ليصلوا إليه بسهولة؛ لأنه وقف حقيقي؛ إذ من شرط الموقوف أن يكون مملوكا للواقف، والسلطان ليس بمالك لذلك.

ووافق ابن أبي عصرون على فتواه جماعة من علماء عصره، من المذاهب الأربعة (١).

وقد أولى السلطان المغاربي أبوالحسن المريني القراءة على روح أبيه عنايته؛ فاشترى أملاكا ببلاد الشام وبالقاهرة برسم التحبيس على الربعات القرآنية المكتوبة بغرض قراءتها، والحبس على القراء في المسجد الأقصى ومدينة الخليل إبراهيم عليه السلام، وكان ذلك سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة (٢). ولاشك أن إهداء تلك المصاحف كان يهدف – ولو أنه لم ينص عليه – إلى الإشعار بحضور المغرب الدائم في تلك الزوايا والأركان المتباعدة جغرافيا عنه... وحتى يستمر ذلك الحضور طوال السنة، كان لابد من التفكير فيما يضمن سير هذه العملية؛ ومن هنا جاءت الفكرة باقتناء عقارات في تلك المراكز المقدسة ثلاثتها؛ ولمّا وصية الوقف إذا لم يكن وراءها ما يقوي أزرها فراحت إلى زوال (٣).

وتكشف لنا كتب الفتاوى عن عديد من محاولات التحبيس على القدس والأقصى والأرض المباركة، التي لجأ أصحابها إلى الفقهاء مستفسرين عن التكييف الشرعي لتلك الأوقاف وعن سبل استدامتها بالخيرات على أغراضها الرعوية...

وقد كان التماس المشورة الشرعية والتوثيقية والفنية من الفقهاء والمفتين بمثابة البداية البديهية للشروع في تحبيس الأوقاف؛ وتشير كثير من كتب الفتاوى إلى مشاورات بين المستفتين والمفتين بشأن طبيعة الوظيفة التي يمكن أن ينهض بها الوقف ومدى مشروعية التحبيس ومآلات الانتفاع به والأطر المنظمة لنشاط تلك الأوقاف والإجراءات الشرعية الكفيلة بضمانات استمراريته واستدامة عطائه...

وعلى الصعيد الواقعي، تعد فتاوى الأوقاف في الاعتبار الديني من أبرز مظاهر الإنتاج الفقهي العملي، الذي يمثل مرآة عاكسة لحركة التفاعل بين المفتي والمستفتي في سياق الممارسة الوقفية كشعيرة حضارية.

وتشير دراسة إلى هذا السجال النوازلي بين المفتي والمستفتي يبدو «مشحونا بمادة دسمة تمكننا من سد فراغات تركتها كتب التاريخ الإسلامي، ونقصد بهذه الفراغات: القضايا الاجتماعية وحياة الناس التي انشغلت عنها معظم الدراسات التاريخية الإسلامية بالقضايا السياسية وما نشأ عنها من حروب ومآس شوهت في جملتها وجه حقيقة الحضارة



الإسلامية (٤). فمثلا، نجد من بين الموضوعات التي حظيت باهتمام كبير في كتب النوازل الفقهية: موضوع الأراضي التي كانت خاضعة لنظام الأحباس؛ فقد وفرت لنا مصادرنا الفقهية مادة تاريخية غنية سمحت لنا بملامسة جوانب قلما أعارتها الكتابات التاريخية اهتماما خاصا (٥).

وقد أسهمت المشورات الإيجابية للفقهاء في تثبيت اعتقادنا بوجود أوقاف مترامية في بلدان عديدة من هذا العالم؛ وهو الأمر الذي يعد أحد المفاتيح الاستيثاقية لإثبات الأحقية الحضارية والملكية القانونية للأقصى والقدس وغيرهما ولإضفاء صفة الموضوعية سواء على تكوين آلية للمطالبة الدبلوماسية بهذه الأوقاف وإحالتها من حيز «التكتيم» و«التعتيم» إلى «التعليم» و«التحكيم» أو لإقامة الدعاوى القضائية الخليقة باستردادها وإعادة استغلالها بالطرق المتوافق عليها بين الأفراد والجهات الحائزة لهذه الأوقاف بحكم وضع اليد أو بأية وسيلة وبين الجهة القدسية الموقوف عليها...

وهكذا، كانت التجربة الحضارية - سواء في الحقل الفقهي لفتاوى النوازل الوقفية، أو في سياق الممارسة المطردة في مجال تحبيس الأوقاف على المقدسات الفلسطينية - مجالا ممكنا للبناء التشريعي عليها بحكم رصيد التراكمات الاجتهادية عبر مراحل مختلفة من تاريخ التطور التشريعي في مجال الأوقاف؛ ومن عند هذه النقطة يمكن التقاط ذلك الخيط الرفيع الذي يصل مدونات الفتاوى بالمدونات التشريعية والقانونية، فتوسعت من ثم الدراسات التاريخية لتشمل رصيد التراكمات الاجتهادية عبر مراحل مختلفة من عمر الأمة المسلمة... وهو الأمر الذي يشجعنا على السعي من أجل تأطير مسارات قانونية معنية بتخليق روافد توثيقية جديدة للأوقاف على المقدسات الفلسطينية، استنادا إلى معطيات تاريخية ونوازلية فقهية.

ومن الأهمية: الإشارة إلى أن التقييدات النوازلية ذات الدلالة التاريخية العميقة لا تتوفر كثيرا إلا في نوازل الأوقاف، نظرا لأهمية دورها ولأنها تتعلق بجوانب مالية وذمم مشغولة بحقوق وواجبات متبادلة.. وترتيبات إدارية ومسائل فقهية ومشكلات بين يدي القضاة...إلخ؛ فليست نوازل الأوقاف كنوازل العبادات والمعاملات الأخرى من حيث أهمية التقييد وضرورة التوثيق، فلها وجوه قانونية ودلالات قضائية، وتراكمات تنبئ عن ثروة فقهية وشرعية مفيدة في عملية استعادة الحقوق الوقفية الضائعة.

إثبات الحق التاريخي

تشير دراسة إلى أن بداية حركة التوثيق التاريخية يجب أن تمر من خلال فك الحصار عن وثائق التاريخ العربي، ولاسيما تلك التي تتسم بكونها مهملة بشكل يشبه التعمد وتعامل بشيء من المكابرة والتهميش: ألا إنها كتب النوازل والفتاوى الفقهية، فهي أبرز الأمثلة على تلك النوعية من المصادر المهمة والمهملة (٦). وتعد كتب النوازل من أهم المصادر التي تمكن من سد الثغرات التي تعتري أية محاولة يمكن أن تصلنا بحقائق حول الأوقاف الفلسطينية فتربطنا بحقوق نسعى إلى تحقيقها واستعادتها...

وفيما يلي إشارات عابرة إلى أهمية النوازل في مجال الكتابة التاريخية:

أولا: أن فتاوى النوازل الوقفية تتمتع بأكبر قدر من المصداقية التاريخية، لأنها تتصل بممارسة نوع من الشعائر التعبدية؛ ولأن السائل والمسؤول كلاهما متصل مباشرة ببعضهما، فإن النازلة تتمتع بمصداقية ذاتية، فتضحى فرص الاستفادة منها في التوثيق التاريخي ليست أمرا ممكنا فحسب، بل واجبا علميا تقتضيه طبيعة التحدي الحضاري المتعلق بتوثيق الحقوق التاريخية في القدس ومجمل الأرض المباركة.

ثانيا: أن فتاوى الأوقاف تعكس وجها أو أكثر من وجوه الدلالة التاريخية على الأبعاد الحقوقية في الأملاك والأعيان الوقفية ليس تعريفا بأوقاف القدس وفلسطين فحسب، بل من شأنها تعزيز ثبوتية الحق التاريخي المستدام من خلال الممارسة الحضارية المطردة.

ثالثا: يذهب بعض الباحثين إلى أن الحفر التاريخي من خلال كتب فتاوى النوازل بحثا عن الأوقاف: إنما يعتبر في حد ذاته «عملية قانونية شخصية أو عائلية أو اجتماعية تندرج في إطار استراتيجيات ورهانات وصراعات اجتماعية شديدة التداخل تربط عمليا بين فئات مختلفة وفي بعض الأحيان متنافرة لكل منها مصلحتها الخاصة (٧). ولعل هذا من شأنه أن يعيننا على تفسير طبيعة الصراع على

القدس وفلسطين باعتبارها وقفا إسلاميا.

رابعا: وضع حد لمتاهة الأوقاف الضائعة بين التقادم العدمي وبين العدم التقادمي... وذلك من خلال الدراسات التاريخية التي تركز على البعد التوثيقي المرتبط بمشاريع استرداد الولاية على الأوقاف واستعادة نشاطها.

وفي تقديري، أن فتاوى النوازل الوقفية حول الأقصى والقدس والخليل وسائر المقدسات الفلسطينية... ليست مجرد تعبير عن وقائع عادية التأثير ما يلبث الحديث حولها أن ينفض لمجرد تدوينه؛ بل إن هذه النوازل تعطينا في مجملها مؤشرات وصورا لمشاريع اجتماعية واقتصادية ودينية وحضارية بعيدة الأجل الذي قد يمتد لقرون عديدة قادمة.

موارد للحفر التاريخي المقترحة

- كتب الفتاوى المخطوطة والمطبوعة.
- الوثائق الوقفية المعززة لمحتوى فتاوى النوازل الوقفية.
- كتب التاريخ العام التي تتضمن بعض الإشارات التاريخية إلى ما وقفه الملوك والسلاطين والأمراء من أوقاف على القدس وفلسطين.
- كتب المناقب.

أهم الحقول الدراسية المساعدة

- حقل علوم النقائش والرخامات الإبيغرافيا Epigraphia والذي يعنى بدراسة النقوش والكتابات القديمة وشواهد القبور.
- خواتيم بعض الكتب المحبسة.
- كتب الرحلات.
- كتب الحسبة.
- كتب الفلاحة.

خطط العمل والآليات المقترحة

- مسح شامل واستقصاء إحصائي لكافة كتب الفتاوى المخطوطة والمطبوعة كمدخل لدراستها دراسة توثيقية.
- صياغة منهجية لتوثيق الأوقاف الضائعة وتلك التي لا توجد وثائق لها في ضوء المعطيات النوازلية.
- إعداد برامج ومشاريع علمية متكاملة - مثل تدشين كرسي لدراسة الأوقاف الفلسطينية.
- التكليف المباشر بإجراء البحوث والدراسات التوثيقية - التي تعهد لمختصين في البحث التاريخي وفقا لمعطيات نوازلية.
- الاستعانة بخبراء مختصين في علم المخطوطات Codicology، الذي يعنى بدراسة الكتب والأوراق والرقاعات المخطوطة.
- تكوين فرق للعمل العلمي يقوم بحصر ومسح كتب الفتاوى والنوازل لاستخراج مظان توثيق.
- وضع تصور علمي لإطار تحكيمي دولي في مجال الأوقاف بناء على معطيات ثبوتية غير تقليدية - تكون تتويجا للدراسات المتحصلة في حقل توثيق الأوقاف وفق الأولية المقترحة.

خاتمة

ومن المتوقع في ضوء المعطيات الآنفة الذكر، أن تتشكل آلية في صورة نموذج وقفية دولية ذات اختصاص ولائي وفني، تتولى اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بمسح وحصر وإحصاء الأعيان الموقوفة على المقدسات الفلسطينية بكافة تنويعاتها الدينية والمذهبية، والعمل على استردادها أو إعادتها إلى وضعيتها القانونية الأصلية، والتوسل بكافة السبل الدبلوماسية والقانونية والقضائية الكفيلة بإصلاح شؤونها وصيانتها واستثمارها في ضوء الأغراض التي تأسست من أجلها.

والله من وراء القصد.

الهوامش

(١) مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي الدمشقي الحنبلي (ت: ١٢٤٣هـ): مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ط٢ جـ٤، ص٣٣٢.

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب (٧١١: ٧٨١هـ/١٣١١: ١٣٧٩م): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، مكتبة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص٤٧٧.

(٣) عبدالهادي التازي (١٥ يونيو١٩٢١: ٢ أبريل٢٠١٥م): توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية للمغرب، بحث منشور ضمن أعمال ندوة «الوقف في العالم الإسلامي.. أداة سلطة اجتماعية وسياسية»، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٥م ص٧٠.

(٤) عبدالعزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، أبوظبي، ٢٠٠٠م، ص٥٥.

(٥) بينما تتناثر معلومات قليلة حول بعض تحبيسات السلاطين والأمراء، فإن المصادر الفقهية هي التي احتفظت لنا بأهم مادة تاريخية حول الأحباس خلال القرنين ٨و٩هـ /١٤ و١٥م، جاسم العبودي: ناظر الأحباس في الأندلس والمغرب في القرنين الثامن والتاسع الهجري، بحث منشور ضمن أعمال ندوة «الأندلس.. قرون من التقلبات والعطاءات»، مطبوعات الملك عبدالعزيز العامّة، الرياض١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ٥، ص٣٠٩.

(٦) محمد مزين: حصيلة استخدام كتب النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية، بحث منشور ضمن كتاب «البحث في تاريخ المغرب.. حصيلة وتقويم»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٩م، ص٧٣ وما بعدها.

(٧) المولدي الأحمر: الأوقاف في الشريعة والعرف والمجتمع في المغرب العربي والأندلس ق١١: ١٥ أفرنجي، بحث منشور بمجلة البحوث التاريخية طرابلس الغرب، يوليو ١٩٩٥م، السنة ١٧، العدد٢ ص٥٢. ولعل المراد بالمشرق هنا: البلاد الواقعة إلى الشرق من أفريقية.



سنن الله في الكون «بين السقوط والنهوض»

منتصر الخطيب
باحث مغربي

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (آل عمران:١٣٧-١٤٠).

تتحدث هذه الآيات عن شأن عظيم من شؤون الاجتماع البشري وعلاقة أهل الإيمان به، وفيها بيان لقواعد جارية في حياة البشر، وسنن ماضية في تطور الحضارات والدول والمجتمعات والمنظمات والأفراد، لا تتغير ولا تتبدل، مما يدخل تحت مسمى السنن الكونية.

ويزخر القرآن الكريم بتأصيلات رائعة في موضوع السنن، فهو دائما يوجه أنظارنا إلى استنطاق التاريخ واستقراء الحوادث والأسباب التي حطت أقواما ورفعت آخرين؛ لاستكشاف سنن الله تعالى في الكون.

ونحتاج في التعرف إلى سنن الله في الكون إلى استخدام أدوات النظر والمعرفة العقلية، وقراءة التاريخ الإنساني المكتوب، كما نبه إلى ذلك القرآن الكريم في عدة آيات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الروم:٩-١٠).

١- السنن الكونية: فالسنن الكونية هي نواميس الله تعالى وقوانينه الأزلية التي تضبط حركة المخلوقات من أجرام وكواكب ومركبات.. وغيرها. وكل ذلك في تكامل وانسجام، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، بحيث يؤدي كل منها ما خلق لأجله من دون أدنى خلل أو تخلف، إذ ليس الجميع سوى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٨٨)، فهو سبحانه الذي أبدع: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان:٢). فالكون - إجمالا - تحكمه قوانين دقيقة مبنية على أساس العلل والمعلولات، والأسباب والمسببات، وليس هناك مجال للفوضى والعبث، ولم يكن خلق السماوات والأرض صدفة ولعبا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الأنبياء:١٦).

٢- السنن الاجتماعية: أما السنن الاجتماعية أو سنن الله في المجتمعات، فقد ظهر هذا المصطلح عند بعض

علماء الاجتماع المسلمين المعاصرين، اقتباسا من لفظة السنة الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ (آل عمران:١٣٧)، وقوله سبحانه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب:٦٢).. وغيرهما من الآيات. ويعنون بها تلك القوانين المطردة والثابتة التي أودعها الله في الحياة البشرية، والتي تشكل إلى حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية وتعين على فهمها. إنها إذن المبادئ الأساسية التي تحكم حركة التاريخ البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله، وتتناول من جهة أخرى طريقة الله في معاملة البشر، وتتناول أيضا ما يترتب على ذلك من نتائج معينة في الدنيا والآخرة.

ولاشك أن من أهم شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات، أن نفهم فهما شاملا رشيدا هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السنن».. ذلك الفقه الذي يحيلنا القرآن الكريم إليه في مواضع كثيرة، ويأمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائه ومعرفة حقيقته، واليقين بأن هذه الحياة لم تخلق عبثا، وإنما تخضع لسنن وقوانين، وتتبع أمر البشر في اجتماعهم وما يحدث بينهم من الصراع والتدافع الحضاري، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة والتداول الحضاري، وأن ذلك يجري على طريقة قويمة، وقواعد ثابتة. من سار على سنن الله ظفر بالفوز، وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر، وإن كان صديقا أو نبيا.

وإذا كان الأمر بالنسبة إلى الكون وسننه ونظامه واضحا ودقيقا، فهل هو كذلك بالنسبة إلى سنن الله في الحياة الاجتماعية؟ نعم، فإن السنن الكونية وسنن الله في الحياة البشرية متعانقتان مطردتان لا تتخلفان ولا تتوقفان، والقرآن يكرر هذه الحقيقة بالنسبة إلى الحياة البشرية حين يقول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ (آل عمران:١٣٧)، ويقول في آية أخرى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب:٦٢).

إن النظر في ملكوت السماوات والأرض يهدينا إلى معرفة السنن الكونية، والنظر في تاريخ الأمم وأحوال المجتمعات يهدينا إلى معرفة السنن الاجتماعية، وكل منهما - تبعا للمنهج القرآني - ذو أهمية في الحياة العملية للإنسان. غير أن التمييز بينهما يغدو أمرا ضروريا تقتضيه منهجية البحث للتفريق بين الظواهر الطبيعية وكيف تحدث؟ والظواهر الاجتماعية وكيف تعمل؟

ولهذا، فإن الاستفادة من السنن وملاحظة الأمثلة والأحداث، تقدمان للناس بصرا ومعرفة عملية، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم، أو تنقذهم إذا وقعوا فيها.

وقد فطن ابن تيمية - رحمه الله - لهذا الأمر حين قال: «إن السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار»، مما يقتضي تبديل بعض ما في العالم وفق ما وقع كثير منه في الماضي وسيقع في المستقبل، فعلم أن هذه السنن دينيات لا طبيعيات (...) فقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر:٤٣) دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف (١).

سنة التمكين

التمكين لدين الله في الأرض هو هيمنة منهاج الله على ما عداه من المناهج على الأرض، والقدرة التامة لعباد الله على التصرف في أرض الله حسب منهاجه، حسا ومعنى؛ بأن تصطبغ الحياة بصبغة الإسلام كما أراده الله. فالمراد من سنن التمكين إذن؛ قانون الله المطرد في خلقه، ونظامه الحاكم المهيمن في أفعالهم، الذي إذا اتبعه عباده أقدرهم على التصرف في أرضه والهيمنة عليها، وجعل لهم مكانة مكينة في كيفية التعامل مع مفرداتها وإحسان توظيفها.

وهذا قد يحصل للمؤمن ولغير المؤمن، فقد قال سبحانه عن عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأحقاف:٢٥).

وتبرز لنا الآية كيف أن الله تعالى يعدل بين عباده، وسنته واحدة فيهم، من حيث إنه ركب فيهم أدوات الإدراك، وهم يعيشون في كون واحد له سنن ثابتة، وقد يصل كل منهم عن طريق تلك السنن إلى القوة والتمكين، وقد يكون بعضهم أكثر قدرة وإمكانات مثل: ثمود قوم صالح - عليه وعلى نبينا السلام - فقد كان هؤلاء: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الحجر:٨٢).

ولكن هذا كله يمكن أن يزول ليكون هباء؛ إما بسبب السنة الكونية

الثابتة هنا، وهي عدم خلود شيء من مخلوقات الله تعالى، وأنه لا بد لكل أول من آخر: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ (الرحمن:٢٦-٢٧)، أو بسبب السنة الشرعية في أن المعاصي تذهب الخير والبركة. والآية التي تتكلم عن قوم هود - عليه وعلى نبينا السلام - توضح ذلك؛ يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦﴾ (الأنعام:٦).

فندرك من هذا ارتباط السنة الكونية بالسنة الشرعية، فالشيء يبقى مستقرا في مكانه ما دامت أسباب استقراره قائمة، ولكن يختل استقراره، وربما يزول إذا حدث شيء في الأسباب.

فالتمكين تصل إليه الأمة بمعرفة أسبابه الكونية والشرعية، فتأخذ بها، وقد يتحقق بإذن الله، ولكن بقاءه مرهون بالمحافظة على تلك الأسباب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝٤١﴾ (الحج:٤١).

وهذا يؤكد لنا أن الالتزام بالسنن الكونية تتحقق نتائجه بالالتزام بهذه السنن وما يترتب عنها، لأنها متعاضدة متكاملة، مصداقا لوعد الله تعالى في الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥﴾ (النور:٥٥).

فالتمكين قد يحصل لأي عبد من عباد الله تعالى إذا أخذ بالأسباب، ثم وافق ذلك مشيئة الله. ولكن سنة الله الثابتة أن بقاء التمكين له مقومات وشروط، وإلا زال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝٤١﴾ (الحج:٤١)، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران:١٠٤)، فقضت مشيئته سبحانه عدم استمرار الدولة الظالمة الفاسدة وإن كانت قوية أو مسلمة، رأفة بعباده، ولأنه لا يحب الفساد. ومن خلال تدبر هذه السنن الإلهية نفهم التاريخ، ونفسر أحداثه تفسيرا شرعيا سليما ينفعنا في تقييم حاضرنا وتوقع مستقبلنا؛ وإن كان الكثير منا اليوم لا يملك القدرة على ربط النتائج بالأسباب، وكشف اللثام عن حقيقة هذه السنن وتبدلها بين عوامل البناء والأمن والاستقرار والصحة والرفاهية، وعوامل الهدم والخوف والجوع والمرض.

يقول منير شفيق في معرض حديثه عن صحابة رسول الله ﷺ: «والأحاديث الصحيحة كثيرة في إبراز مزايا الصحابة ودرجتهم العالية في سلم الذين أسلموا وصدق إيمانهم وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده. وهذا كله لا ينفي عنهم بشريتهم.. وإن كانت لهم من ميزة خاصة حرم منها من أتى بعدهم، فقد جاءت من وجودهم في زمن رسول الله ﷺ، وسبقهم إلى الإسلام وتتلمذهم على يد النبي المعلم القائد.. أما ما عدا ذلك فما حصلوه يمكن أن يحصله غيرهم من الرجال والنساء إن فقهوا. فالقرآن الذي هداهم وعلمهم هو القرآن الذي بين أيدينا، والسنة التي نهلوا منها هي السنة التي في الصحاح والأخبار المؤكدة..» (٢).

سنة السقوط

ما يقصد بالسقوط الحضاري من خلال القرآن ليس هو دائما زوال الأمم من الوجود وفناء أفرادها في العدم، لكن المقصود بالسقوط الحضاري هو الانهيار الداخلي للمجتمعات، وذهاب قوة الأمم وعزتها وهوانها على الأمم الأخرى، وذلك عندما تذوب في غيرها، وتنمحي شخصيتها المعنوية والروحية، وهذا ما هو كائن في حياة الأمم التي سقطت حضاراتها. فكثيرة هي الأمم والحضارات التي غابت عن مسرح الحياة الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فاستوعبتها حضارات أمم أخرى هي أشد وأبقى حتى صارت جزءا منها لا ينفصل، وأنشئت على أنقاض كيانها الحضاري حضارات جديدة.

ولعل أوضح مثال على ذلك هو حضارة العرب البائدة، كقوم عاد وثمود، الذين بلغوا شأنا عظيما في التحضر، فقد حكى القرآن الكريم بعضه للاعتبار، ودلت عليه بقايا الدهر وأبحاث التاريخ. والثابت أن هؤلاء العرب وغيرهم من الأمم الهالكة لم يستأصلوا استئصالا كليا تاما، وإنما أهلك الله الظالمين والكافرين منهم، وأنجى رسلهم والذين آمنوا منهم ليستمروا في عمارة الحياة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا

﴿ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ (الفجر:٦-٩).

وقد جرت سنة الله أن يعامل البشر حسب ما عملوا، فهو سبحانه لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة والرخاء والهناء ويبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والفتن والأحداث.. وغيرها من ضروب العقاب الرباني، حتى يزيلوا هم ويغيروا، فيجحدوا النعمة ويعلنوا الكفر والمعاصي ويتظاهروا بالفحش والمنكر والفساد، فتكون النتيجة أن تحل بهم قوارع الدهر، وينزل بهم عذاب الله.

وآفة الحضارات البائدة التي نقرأ عنها في بطون التاريخ، أو تلك التي بقيت أطلالها منثورة هنا وهناك، هي الفساد أو الإفساد في الأرض بجميع أشكاله وأنواعه: فساد العقيدة (الشرك) وفساد العلاقات بين أفراد الأمة (بترك التواد والتعاون، مما يؤدي إلى العداء والتباغض ثم الظلم)، وفساد النفوس (بالغرور والتكبر والعجب)، وهذا هو الفساد الذي ظل القرآن الكريم يكرر الحديث عنه، ويكثر التحذير منه، ويلفت نظر الإنسان إلى مغبات التورط في أسبابه؛ لتفادي السقوط في المصائب التي لابد أن يتحملها الإنسان على نتائجه. فعملية السقوط تبدأ عندما تتغير النفوس وتخلد إلى غرائزها، فترتكب الأخطاء، وتتراكم، لتتحول إلى أمراض اجتماعية، فإذا استفحل الفساد، واستشرى الظلم، وفسق الناس عن أمر ربهم، حق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ (الإسراء:١٦- ١٧).

وقد عبر عن ذلك د. مالك بن نبي بمصطلح «القابلية للاستعمار» التي تؤدي إلى الاستعمار في كتابه «شروط النهضة» (٣). وينطبق هذا على قابليات عدة؛ كالقابلية للتخلف، والقابلية للسقوط الحضاري، وهي في حد ذاتها سنة. وهو المعنى نفسه الذي ذهب إليه د. محمد سعيد رمضان البوطي في قوله: «فإن التخلف الذي يعاني منه المسلمون إنما يتمثل في أنهم تحولوا من الإبداع إلى «التبعية»، وأن أمرهم آل بعد الإنتاج والتصدير إلى الاستيراد والاستهلاك..» (٤)، وبتعبير آخر يقول: «إن الأمة الإسلامية تقع اليوم، بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية، في منطقة «الجاذبية الغربية»، فهي مهما تحركت لا تتقلب إلا ضمن سلطان التأثر بها والالتفاف حولها..» (٥).

وسقوط الحضارة كما يؤكد القرآن ناتج أساسا عما تكسبه أيدي الناس: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ (الشورى:٣٠). ويأتي الظلم بوصفه أحد أبرز المكاسب السيئة التي ترتكبها الحضارة بأي شكل من الأشكال. ولعل فرعون أحسن نموذج يقدم للتدليل على أثر الظلم في سقوط الحضارات وانتقال الحضارة من بعده إلى بني إسرائيل، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ (الأعراف:١٠٣).

وما ذكر الله تعالى أمة أصيبت بالدمار والهلاك، إلا وقد ذكر بجانب ذلك جريمتها وفسادها في الأرض وانحرافها وفسوقها عن أمر ربها، حتى يعلم الناس أن ما يصيبهم من حسنات وسيئات، أو فرح وقرح أو سعادة وشقاء فبما كسبت أيديهم.

وإذا تجاوز الظلم والفساد مستوى الأفراد، الذين لا يشكلون القاعدة أو الظاهرة العامة، إلى مستوى دائرة الأمة، أخذت تلك الأمة في الهبوط من علياء الكرامة والعز إلى درك الذل والهوان حتى تحين ساعة الدمار والسقوط.

التغيير ما بين سنتي التمكين والسقوط

بعد هذا الحديث عن سنن التمكين وسنن السقوط، تظهر بين السنتين الحاجة إلى سنة التغيير الاجتماعي والحضاري؛ إذ من المعلوم أن هذه السنة هي أم السنن في القرآن الكريم، وهي قطب الرحى الذي تدور حوله السنن الاجتماعية الأخرى؛ لأنها الأصل الأصيل للقرآن باعتباره كتاب هداية، فإن الله تعالى إنما أنزل الكتب وأرسل الرسل لتغيير الأنفس والمجتمعات، وإخراجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام.

وهذه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (الرعد:١١) هي قاعدة التغيير وأساسه، وهي من الكليات القرآنية التي تنبثق عنها فروع وجزئيات كثيرة. فالتغيير هو انتقال وتحول من وضع إلى وضع آخر، ومن حال إلى حال أخرى، ولأنه سنة عامة، فوجب التركيز هنا على الجانب الإيجابي منه، وهو التغيير نحو الأحسن؛ حيث قضى الله تعالى أنه لا يغير واقع مجتمع حتى يبدأ أفراده بتغيير ما بداخل أنفسهم من عقائد ومفاهيم وأفكار وأخلاق، ويصلحوا أحوالهم وأوضاعهم، فيغير الله تعالى حينئذ ما بهم، ويأخذ بأيديهم.

إن الأقوام والمجتمعات لا تتغير إلا بمغير، وهو مغير من داخلها، لا من خارجها، وهو أن تغير ما بأنفسها ليغير الله ما بها، أي تغييره من الشر إلى الخير، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغواية إلى الرشد، ومن الكسل إلى العمل، فيغير الله حالها من الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة، ومن التشرذم إلى الوحدة، ومن الانفراط إلى التماسك، ومن القنوط إلى الأمل، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاستضعاف والسقوط إلى التمكين والبناء أو إعادة البناء. يقول د. جودت سعيد: «ومن أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر «الآفاق والأنفس» على أساس السنن المودعة فيهما.. إن تغيير ما بالنفس، سواء كان في مجال الوعي أو كان مترسبا منسيا بكل محتوى النفس الظاهر والباطن، إن هذا التغيير من مهمة الإنسان، وكلما كشف سنن التعامل مع النفس كان قادرا على إحداث التغيير، فمن هنا تتأكد الحاجة إلى ضرورة تحصيل علم سنن تغيير ما بالنفس» (٦).

إن أساس كل تغيير- وفق سنة الله الاجتماعية التي لا تتبدل ولا تتحول- هو «التغيير النفسي» أو بتعبير القرآن «تغيير ما بالأنفس»؛ فجعل القرآن علاقة عضوية وثيقة العرى بين تغيير ما بداخل النفس وتغيير الواقع الاجتماعي، خلافا لقوانين المادية التاريخية التي تجعل الإنسان كائنا سلبيا لا إرادة له إزاء قوة المادة أو قوة الاقتصاد ووسائل الإنتاج.

وقد تنبه إلى ذلك علامة المسلمين عبدالرحمن بن خلدون في تأصيله لعلم العمران البشري، يقول د. محمد الفاضل بن عاشور: «وقد كان العلامة ولي الدين بن خلدون.. أجدر من طأطأت له الرؤوس اعترافا بدقيق تحليله لهذه المشكلة - يقصد مشكلة الحضارة - وإجلالا لحسن عرضه إياها وحكم بيانه لها؛ لأنه تناولها على منهج دراسي نظري مؤصل مفصل، إذ نظر إلى طبيعة الدولة الإسلامية ومقوماتها، وفكك بين الأصول التي قامت عليها والواقع الذي آلت إليه، ورجع إلى النفسية الفردية للمسلم بين عهد السلف وعهد الخلف يضبط حقيقتها.. فجعل شؤون السياسة والعمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية تبعا لشأن «الدين»، وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي «العقيدة» الفردية، أصلا وأساسا لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة وركود ريح العمران في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة وانتقاص الصنائع وتلاشي ملكات العلوم واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلا ذلك كله راجعا إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين التي هي أساس العمران الناشئ به والدولة القائمة عليه؛ أعني العقيدة الدينية. فرد ذلك كله إلى صورة تكون الفرد تكونا إيمانيا، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية» (٧).

فالتغيير الاجتماعي في التصور الإسلامي إذن يحدث من داخل الإنسان وبإرادته ووفق اختياره، والله سبحانه وتعالى يعين الإنسان على إحداث هذا التغيير، فهو من يحدث هذا التغيير الاجتماعي بتغيير الأنماط القيمية والعقائدية والمعيارية، فإذا تغير ذلك انعكس إيجابيا على السلوك الخارجي للفرد والمجتمع، وبالتالي على النظم والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية. يقول الإمام ابن عطية الأندلسي في تفسير آية التغيير: «ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله عزوجل إذا أنعم على قوم نعمة، فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم، غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته» (٨).

إن الفرق الأساسي بين الإسلام وغيره من الفلسفات المادية الحديثة، أن الإسلام وضع للإنسان محورا مستندا إلى قوانين كونية واجتماعية، ينطلق منها إلى التفكير والحركة والبناء، بينما الفلسفات المادية حطمت هذا المحور، وهذه الثغرة الخطيرة في الحضارة هي التي قادت تلك الفلسفات المادية إلى هذا الدمار الذي يشكو منه اليوم الكثير من مفكري الغرب وفلاسفته.

الهوامش

١- الفتاوى، ج:٣، ص:٢٦٧، وانظر كذلك: ج:١٣، ص:٢٠.

٢- بين النهوض والسقوط، منير شفيق، الناشر للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة:١٩٩٢، ص:٣٢، وما بعدها.

٣- شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:١٤٥.

٤- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص:١٥٧.

٥- نفسه، ص:١٦٦.

٦- انظر كتاب جودت سعيد «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، مؤسسة دار الفكر، بيروت، ص:١٦٦-١٨٦.

٧- الفاضل بن عاشور، روح الحضارة والثقافة الإسلامية، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وصدر كذلك ضمن سلسلة «في التنوير الإسلامي»، عدد:٦٥.

٨- المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، ج:٣، ص:١٩٨.

الطريق إلى نجاة العالم

تأملات في سورة العصر

أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر:١-٣)

مثل الكتاب العزيز، منذ نزول الوحي الكريم، طريقا لنجاة العالم، وهو الأمر الذي عبر عنه بمدونة واسعة التنوع لمشتقات الجذر اللغوي (ن/ج/و)، مستغرقة التوزع على زمان التنزيل جميعا، مكية ومدنية معا، مستوعبة للأفراد والجماعات والأمم ما داموا مؤمنين، متفقة على ماضي التاريخ ومستقبله معا.

يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:١٠٣)، ويقول عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء:٨٨)، وهو طريق لتحقق معاني النجاة جميعا، خلاصا من الضرب وسلامة من الهلاك، وارتفاعا وترقيا في الوجود على ما يقرر أصحاب الوجوه والنظائر (انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٨٧م؛ ص:٥٨٢/٢٨١).

وأصبح الارتباط بالكتاب العزيز طريقا مانعا الشقاء حقيقة يقينية واضحة يقول تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ (طه:٢)؛ وهو ما يعني أن فحص الكتاب الكريم والدوران معه حيث يدور هما الطريق لتحقيق الارتياح!

معجم سورة العصر

يمثل المعجم خطوة محورية في برامج قراءة النصوص وتحليلها. والحق أن معجم الكتاب العزيز نمط فريد في اكتنازه، وطاقته المتوهجة المناسبة لتزاحم المعاني، وهو المبدأ الذي يحكم بناء الكتاب الكريم.

- ﴿وَالْعَصْرِ﴾ كلمة تعني الزمان الممتد؛ أي هي الدهر، وربما صح أن تكون ما يسبق الغروب، وربما صح أن يكون المعنى: صلاة العصر، أو عصر النبي ﷺ. وهي جميعا مرادة استيعابا بتزاحم المعاني، فإن إرادة بيان أهمية هذه المعاني الأربعة المتداخلة غير مستنكر، ولا مستبعد.

غير أن إرادة معنى الزمان الدهر تصبح الأرجح بتحكيم السياق، أو قرائن ما بعده في نظم السورة الكريمة.



وتحليل العصر في ضوء قوائم الاستبدال المعجمي كاشف عن تحكيم مبدأ مهيمن في بناء الكتاب العزيز، هو دفع التوهم، فقد ترادف العصر والدهر ترادفا تاما، وتطابقا، كما يقال: «وزنا ومعنى»، غير أن إيثار العصر كان دفعا لتوهم إرادة تعظيم الدهر، وقد جاء في الكتاب العزيز ما يوحي بتأخير رتبته، وهو الأمر الذي يمنع مادة الكتاب العزيز من اتهامها بشبهة التناقض الظاهري.

إن الزمان خزينة النجاة، وهو ما كان سببا في العناية به.

- ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إن أظهر ما يكشف عنه استعمال هذه الكلمة من معنى هو: جنس الإنسانية، وتصبح: «ال» هنا للجنس المفيد للاستغراق والعموم.

والكلمة صالحة من أي جانبي أصل اشتقاقها حملت، فالإنسانية خاسرة إن استجابت للهو المفضي إلى الهلاك، وهي الدلالة المستكنة في جذر (أ/ن/س)؛ والإنسانية خاسرة إن استنامت للنسيان، وذهلت عن مواريث الوحي، وهو المعنى الكامن في الجذر (ن/س/ي)!

- ﴿خُسْرٍ﴾ الخسر أصل في النقصان، وعدم الزيادة، وهي في هذا السياق يمكن أن تتضمن معاني: الشر والهلاك، والضياع، والتردي، والمآل المذموم. وهذه الصيغة الأسمية «فعل» بضم الفاء وسكون العين تحمل الديمومة والاستقرار، بما يزيد في النذارة والتحذير.

- ﴿ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان في الكتاب العزيز محور، وقطب، وهو بداية النجاة؛ بعد تحصيل الإقرار باللسان وانعقاد القلب عليه، وطمأنينة القلب إلى صدق ما حصل الإقرار به، والعمل بمقتضى ما كان مما صدق به، إقرارا واعتقادا، على حد تعبير ابن الجوزي في نزهة الأعين (ص:١٤٥).

وفحص سياقات ورود هذه اللفظة المفتاح كاشف عن المعاني التالية:

أ - التصديق.

ب - الإقرار باللسان.

ج - الاعتقاد بالقلب والجنان.

د - التوحيد.

هـ - الإيمان الشرعي الجامع لأركان ثلاثة: إقرار لساني - اعتقاد قلبي - عمل جارحي!

و - الصلاة.

ز - الدعاء.

ومن هنا فإن بداية تحصيل طريق النجاة الكامن في تحصيل هذه المعاني في كل جيل على امتداد الزمان.

- ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: إن قيمة الفعل الكلامي والطمأنينة القلبية في الترجمة العملية في الواقع، وهو بعض ما منح التصور الإسلامي في الحياة قوة أو طاقة إيجابية مقتحمة!

إن عمل الصالحات، جنس الخيرات باب لا ينفصل عن مفهوم الإيمان.

- ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ هذا الفعل من وزن التفاعل، وهو وزن دال على المشاركة، يتجاوز حدود الفرد إلى النطاق الجمعي، ويترقى نحو التذكير لمحاربة النسيان، بما هي أصل في معنى الإنسان على من يرى اشتقاقه من الجذر (ن/س/ي).

وهذا الفعل يفتح الباب أمام التنمية المعرفية، وترقية التعليم، والنهوض بمسؤولية الإعلام، استجابة لطبيعة الإنسان، وتعاطفا معها.

- ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحق هو الصواب والحكمة بإطلاق، وهو التوحيد والكتاب العزيز، وهو الله تعالى وما يصدر عنه في سياقات وروده في الذكر الحكيم، وهو الإسلام، وهو العدل والصدق، وإيضاح الحلال من الحرام، وكل ما هو ضد الباطل.

- ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ إن الصبر في المعجمية العربية «حمل النفس على التحمل، وحبسها عن الجزع». وهو في الذكر الحكيم بمعناه اللغوي، وبمعنى الصوم، وبمعنى الجرأة والقوة والصلابة في ميادين الحق.

إعراب السورة..
أو تحليل التراكيب

- ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، «الواو»: حرف جر وقسم، «العصر»: مقسم به بعد الواو. والافتتاح بالقسم بيان عن خطر قضية الوقف، وتنبيه إلى جلالها ومركزيتها في حياة الإنسان.

والأصل أن يقف المجتمع العلمي أمام أقسام القرآن بالفحص والدراسة استملاء لمكامن الخطر فيها. والقسم هنا هو الذي دفع استعمال الدهر، منعا لتوهم إرادة تعظيمه خروجا من فتح شبهة التناقض في الكتاب العزيز كله.

- ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، «إن»: حرف توكيد، والتوكيد في النحو العربي باب واسع تقوية للقضاة، ومنع من حملها على المجاز أو التهويل.

«الإنسان»: اسم إن منصوب، وهو الطرف الأول في القضية المراد تقويتها، وحملها بعيدا عن دائرة المجاز أو التهويل.

- ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾، «اللام»: مؤكدة، صانعة للتوازن في توزيع معاني التقوية والتوكيد بين طرفي الجملة. «في»: حرف جر يفيد الظرفية، «خسر»: اسمها مجرور بها، وشبه الجملة متعلق بمحذوف خبر إن، وهو ما يعني أن قضية الحكم بخسران الإنسانية محاطة من جانبيها بما يخيف، ويبعث على التنبه المفرط، نظرا لخطر المآلات والنتائج.

وهذا التوزيع لعناصر التوكيد يعكس رحمة الرب سبحانه بالإنسانية، إذ النذارة هي عين الرحمة، والمبالغة في توكيد النذارة مبالغة في الإرشاد إلى الراحة!

﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء. وهو هنا حرف أمل وبشرى، يفتح الباب أمام خلق فرصة للنجاة من العموم المرعب الذي يقرر: خسران الإنسانية جميعا.

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مستثنى، وهو ما يعني أن انفتاح باب النجاة وإن كان قليلا ومضيقا بحكم العادة التي تقرر أن المستثنى في الغالب أقل من المستثنى منه - فهو قائم يفتح باب البهجة، ويعين على التماسك في مواجهة طوفان الدمار والخسران المحيط بالعالم.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، «الواو»: حرف عطف فيها جميعا. وعملوا الصالحات الفعل؛ وفاعل؛ ومفعول به.
وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، فعل، وفاعل، وجار ومجرور، والجمل جميعا متعاطفة، لا محل لها من الإعراب، صلة الموصول (الذين) لا قيام له بغيرها.
وهو ما يعني أن الاستثناء من الخسران لن يتحقق إلا لمن استجمع نفسه أربعة مبادئ كلية، هي:
أولا- الإيمان.
ثانيا- عمل الصالحات.
ثالثا- التواصي بالحق.
رابعا- التواصي بالصبر.
إن تحليل التراكيب كاشف عن بركان مزلزل لإيقاظ الإنسانية من مصير مرعب جدا، ومزعج جدا.

عطاءات السورة

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ربما صح أن نقرر أن الكتاب العزيز في مجمله قصة عظيمة للنذارة والتحذير، تأسيسا على أن النبي ﷺ هو النذير المبين!
ومن هنا يفهم حفاية الكتاب الكريم بالقسم، لفتح الباب أمام العقول والنفوس لتوقي مخاطر النهاية، وفزع القيامة.

وهو مدخل جليل لتثمين الوقت الذي هو بمنزلة خزينة الأعمال، وآلة تحصيل ما به يكون الحكم على منجز الإنسان.
إن هذا القسم البديع ربما صح معه أن نلخص الحضارة والحياة معا بأنها قطار الدقائق والساعات!
وعلى قدر تحميل عرباته بالأعمال تكون النجاة من عدمها.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾
هذا الجواب الذي وقع بعد جملة القسم، وعبر من جهتين؛ جهة التمهيد بين يديه بالقسم من الله تعالى، مما يجب معه تقدير خطر القضية التي يدخل إليها بتعظيم آلة الزمان، الذي هو في الحقيقة جزء من هوية الحياة الإنسانية.
والآية من الناحية التركيبية تحيط ركنيها بطاقة عجيبة من عناصر تقوية مدلولها، وهي العناصر المتمثلة في عناصر التوكيد (إن/اللام).
وهي كذلك تستبعد قرائن الزمان من بنيتها، لتجعل حقيقتها باقية على الزمان الممتد، لا تعرف خرما، ولا انقطاعا هو بعض ما يرقى بخطرها، إذ الحكم أصيل، ومستمر، ومستوعب وعام.
والقضية المحمولة في العبارة تعلن خسران الإنسانية، وهو الخسران المستديم غير المنقطع بدلالة فراغ التركيب من قرائن الزمن، وهو الخسران المستمر بدلالة استعمال ﴿خُسْرٍ﴾ غير مشتق لكي تطرد عن ساحتها معاني الانتقال المؤقت!
ولعل البنية الاشتقاقية للإنسان في الآية تحمل في ضميرها مسوغات الحكم بالخسران، وهما سوغا الأنس الملهي، واللهو الصانع للحضارات المريضة، والنسيان المذهل عن حقائق التوحيد والتزكية والعمران.
واستعمال في الظرفية، مرعب مؤكد لمعنى الاستغراق الوارد في «ال» التي للجنس من جانب: لقد صورت الآية الإنسانية كرجل غارق في بئر الخسران!

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جاءت إلا بابا مشرعا يمنح الأمل في النجاة من بئر الخسران، غير أن هذا الباب المفتوح على ساحات النجاة من جحيم الخسران لا ينفتح إلا لمن امتلك مفتاحه.
جاءت إلا لتمثل مفتاحا لباب الأمل. وجاءت الجمل الأربع المتممة للصلة بمنزلة أسنانه التي تعينه على فتح المغلاق الموصد.
وقد انضم إلى «إلا» استعمال المستثنى اسما موصولا مصحوبا جملة صلته الممتدة الطويلة بالعطف، لكي يجعل الأمل باقيا في الأجيال جميعا، ممتدا في الزمان جميعا، مستوعبا للمكان جميعا، لقد تجلت رحمة الله فلم يأت المستثنى اسما مشتقا، إذ المشتقات متنقلات مؤمنات، والله تعالى يريد لباب الأمل أن يشمل الذين حصلوا ثمنه على الزمان والمكان.
والناجون هم من حصلوا في أنفسهم اطمئنان القلب وانعقاده على حقيقة السماء، ولهج لسانهم بوحيه، وما يأمر به، وتعاونوا على القيام بالحق، وصانوه، وتحملوا في سبيله، ولم يجزعوا، ولم يقنطوا، وفهموا عن الله مراده سبحانه.
إن هذه السورة الجليلة مثال فريد للنصوص المكتملة في الكتاب العزيز الدالة على واحد من أعظم مقاصده، وهو الدلالة على سبيل نجاة العالم.
الآية منهاج كامل يكشف عن حقيقة الوجود، وصعوبته، ويشرح ما به تكون النجاة، ويعصم طالبيها من مزالق الطريق، بما يحمي عقولهم، ويقي نفوسهم؛ ليبقى الكتاب العزيز دوما هو الطريق إلى نجاة العالم.



زهية فراح
إعلامية جزائرية

إرهاب الطرقات في الوطن العربي

من بديع صنعه سبحانه وتعالى أن خلق النفس البشرية، ونفخ فيها من روحه، وعلمها من علمه، وأسجد لها الملائكة بعظمته. بالمقابل، استودع هذه النفس النفيسة في أعناق أصحابها مكرمة معززة، لا يملكون إحياءها ولا هلاكها، إنما جعل الله حفظها واجبا عليهم، ومن أهم مقاصد الشريعة الإسلامية الغراء، التي من شأنها ضبط تصرفات البشر وتوجيه سلوكياتهم على الوجه الذي يعصمهم من التفاسد والتهالك على ظهر الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧).
غير أن واقع الحال في صراع وصدام دائمين مع ما يجب أن يكون، فظاهرة إرهاب الطرقات التي ضربت بجذورها العميقة في وطننا العربي طغت واستفحلت لتصبح مرآة تعكس طمس الكرامة الإنسانية، وكذا التنكيل بالنفس البشرية المعصومة بالإسلام واستحلال دمائها. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ (النساء:٢٩).

وبالنظر من بؤرة الإحصاءات، تؤكد لنا منظمة الصحة العالمية والبنك الدولي أن حوادث الطرق تعتبر ثاني الأسباب الرئيسية للوفاة بين سكان العالم، خصوصا في الفئة العمرية المحصورة بين ٥ و٢٩ سنة، كما أنها تعتبر السبب الثالث الرئيسي للوفاة بين سكان العالم في المرحلة العمرية من ٣٠ إلى ٤٤ سنة.
ويقتل إرهاب الطرقات ١٢ مليون نسمة سنويا، أما عن مخلفاته من الإصابات والإعاقات والعاهات فهي ما بين ٢٠ و٢٥ مليون إصابة.
أما فيما يخص وطننا العربي من المحيط إلى الخليج، فتشير دراسة صادرة عن الجامعة السعودية، اعتمدت في دراستها على مؤشرات عالمية، أكدت هذه الدراسة أن مؤشرات حوادث المرور في الوطن العربي تفوق ما يماثلها في الدول الأخرى بمراحل كثيرة، كما أنها أشد حدة وقسوة ودموية (١).
إن حقائق هذه الحوادث صادمة مؤسفة، وكذا ألمها موجع قاس لا يستشعره إلا من عايشه وتجرع مرارته على اختلاف مظاهرها.. من نفوس توفى إلى بارئها.. إعاقات وعاهات تلازم أصحابها.. نساء ترمل وأطفال تيتم.. مظاهر توحدها القسوة والألم غير أن أسبابها تفرقها الظروف والأحوال، مما جعلها عديدة ومتشعبة، أبطالها الفرد والمركبة والطريق. أما أسباب الحوادث فيما تعلق بالطريق والمركبة فنجد:
- انتشار ظاهرة الغش في بيع قطع الغيار، الأمر الذي دفع عجلة حوادث المرور في وطننا العربي.
- عدم مرور المركبة على المراقبة، وكذا قدمها من الأسباب ذات الأثر البالغ في زيادة انتشار هذه الظاهرة.
- عدم استيفاء الطرق لشروط الأمن والسلامة، حتى الطرق الجديدة تفتقد عنصري التفاني والإتقان.
الأسباب السالفة الذكر تعتبر ثانوية مقارنة بما يتحمله الفرد من مسؤولية كبرى تجاه هذه الحوادث المرعبة التي عاثت في الأرض الفساد، ولم يتورع أصحابها عن الولوغ في الدماء، وكذا استحلالها.
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: «الفساد إما في الدين وإما في الدنيا، فأعظم فساد الدنيا قتل النفوس بغير الحق، ولهذا كان أكبر الكبائر بعد أعظم فساد الدين الذي هو الكفر» (٢).
فساد الدنيا مسؤولية الفرد، وكذا المجتمع، فقيادة المركبة، وإن كانت سلوكا فرديا، غير أنها امتداد يعكس سلوكا ووعيا اجتماعيا لدى الدول، فإن ساد الوعي بأحكام الشريعة الغراء وبضرورة حفظ النفس مما يهلكها، درئت المفاسد وولت. وإن غاب الوعي بأحكامها، فالفرد المسلم يتحمل المسؤولية الأعظم من التسيب الذي هذه مظاهره:
- غضب الطرقات ظاهرة طاغية في مجتمعاتنا العربية، تعكس التوتر والمشاحنات بين السائقين في محاولة للوصول أولا ولو على حساب أمنهم وسلامتهم، في صورة تعكس انعدام الوعي، خصوصا عند الشباب، بضرورة حماية أنفسهم وكذا غيرهم.
- تعاطي المخدرات والمسكرات، وهي من أكثر الأسباب فتكا بالعباد، بمن فيهم الأبرياء، كيف لا وهذه المخدرات تؤثر بشكل مباشر في الجهاز العصبي، مما يجعل التحكم في المركبة شبه مستحيل.
- التصرفات الصبيانية واللامسؤولة لبعض الأفراد للتمتع بالسرعة المفرطة.
- حيازة بعض الأفراد رخص القيادة ممن يفتقدون أخلاقيات القيادة السليمة.
هكذا هي الأسباب عديدة ومتعددة تعدد الحوادث التي نسمع بها في كل نشرة تذاع أو خبر يلقى، وقد طرح الباحثون في مجال إرهاب الطرقات عدة حلول علها تحد من استفحال الظاهرة.
- التربية المرورية وضرورة تدريسها في مختلف الأطوار المدرسية في محاولة لتربية الأفراد منذ الصغر على ضرورة احترام القوانين وحفظ النفس من كل سوء قد يطالها، فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر.
- الابتعاد عن الغش، ليس فقط في هذا المجال، وإنما في كل مجالات الحياة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» (٣).
- منظومة متكاملة تعمل على مواجهة الظاهرة بما تحوزه من حملات توعوية، ومحاضرات توجيهية، وأيام دراسية كلها تصب في مجال الأمن والسلامة عبر الطرق.
- ضرورة سحب رخص القيادة ممن يفتقدون أخلاق القيادة.
- المسؤولية الكاملة والتصرف الرشيد أثناء القيادة يوحيان باحترام الشريعة الإسلامية وما جاء فيها من حفظ للنفس، وكذا الابتعاد عن مذهبات العقول.
ليبقى السبيل الرئيسي لدرء مفسدة إرهاب الطرقات ليس فقط بالتربية المرورية والحلول المقترحة سابقا، إنما بالتربية الشاملة للفرد المسلم، ففي النهاية هو صورة نموذجية للشخصية المسلمة المتوازنة التي تدرك كل الإدراك ما تفعل، وإلام سينتهي إليه فعلها، والأكثر من ذلك تدرك أيما إدراك كرامة هذه النفس التي بين جنبيها، والتي كرمها الله من فوق سبع سماوات.
يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠).

الهوامش

١- عامر بن ناصر المطير، حوادث المرور في الوطن العربي.
٢- اقتضاء الصراط المستقيم، ص٧٦.
٣- رواه مسلم.



شخصية الحصان في الثقافة العربية

د. أحمد يحيى علي
أستاذ الأدب والنقد - جامعة عين شمس

ما من شك في أن العربي منذ القدم قد عقد صداقة مع فعل اسمه الرحلة، القائمة على التنقل والترحال من مكان إلى آخر، ويأتي إطار المكان الكلي (شبه الجزيرة العربية) بمثابة عين شاهدة على ذلك النشاط، وقد اكتسبت هذه العين في الوقت نفسه هويتها من خلاله؛ إن هذا الرحال في حركته قد سطر في كتاب الحضارة رصيدا معرفيا به يعرف، ينبني هذا الرصيد - بدرجة كبيرة - على الكلمة التي طافت في الآفاق بما تحمله من قيم فكرية وما تنطوي عليه من قيم جمالية منحتها فرصا قوية للبقاء والتواصل مع أطر زمانية ومكانية متعاقبة.

وإذا نظرنا إلى عدة هذا الرحال فإننا نستطيع تلخيصها وتحديدها في هذه الرباعية:

- درعه وسيفه.
- حصانه وناقته.
- كلمته التي سكنت وعاء أدبيا اسمه القصيدة.
- هو، أي الرحال نفسه.

إننا إذن بصدد حالة جمعية تعكسها هذه الأربعة، ومنها استطاع هذا الفاعل/الراحل في الزمان وفي المكان وبين أفضية الكلمات أن ينجز شيئا يمكن وصفه بأنه تاريخ يتيح للآتين بعد إمكانية قراءته؛ ومن ثم القدرة على الوقوف على مفردات هذا السياق الثقافي الذي منه خرج.

إن الحصان بالنسبة إلى العربي لم يكن فقط مجرد مطية أو أداة للحركة ووسيلة يتم الاعتماد عليها في الحروب؛ بل إنه يعد بمثابة صديق أو رفيق رأى فيه العربي ما يرتقي به فوق رتبته الحيوانية الطبيعية؛ فاختيار العربي لحصانه اسما يعرف به، أو لو شئنا قلنا وصفا يعكس نظرته إليه من جهة، ونظرته لواقعه المحيط من جهة ثانية يؤكد هذه الصداقة التي انعقدت بين هذا الراعي الرحال المسافر وحصانه في صحراء دفعته



إلى أن يتحدى الموت والقساوة التي تنتشر بين ربوعها وفوق صخورها بسلوك مبدع عبقري يحدث توازنا؛ إنه الحياة المتواصلة الطويلة في مواجهة بيداء قاتلة لم يعطها الفرصة لإفنائه كلية؛ إن حديث الملك الضليل (امرؤ القيس) عن حصانه العبقري ذي القدرات الخارقة لم يكن مجرد كلمة جميلة أسكنها قصيدته، بل يأتي تعبيرا عن واقع حضاري استطاع فيه الإنسان العربي أن يقيم صحبة مع مفردات العالم من حوله التي تمثل جيرانا له، من جمادات وحيوانات وطيور ونجوم:

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وها نحن أولاء نجدنا برفقة مصنف عربي قديم نرحل معه ذهنيا في داخل عالمه حيث تراثنا؛ إنه ابن الأعرابي المتوفى (٢٣١هـ) في كتابه «أسماء خيل العرب وفرسانها» الذي استهله بهذا المقول المنسوب إلى رسول الله ﷺ «ارتبطوا هذه الخيل؛ فإنها دعوة أبيكم إسماعيل، وكانت وحوشا فدعا ربه فسخرها له».. ثم يعرج بعد ذلك إلى هذا البيت من الشعر:

أبونا الذي لم تركب الخيل قبله
ولم يدر حي قبله كيف يركب

إن التدبر في لفظة «خيل» يدعو إلى السفر المعرفي في الجذر اللغوي الذي منه خرجت؛ إنها مادة: خيل؛ إنها وعاء حاضن لكلمتين يتشاركان معا في الحروف نفسها؛ إنهما «خَيَال»، و«خَيَّال»؛ إن المعنِي بالخيل ركوبا واهتماما، يأتي جارا في المعجم لهذه الكلمة التي هي ضد الواقع والحقيقة «خَيَال»، ومن هذه الثانية يأتي هذا العالم الفني الذي يأخذ موقعه في مقدمة كتاب الحضارة العربي؛ ألا وهو الشعر؛ لذا نجدنا مع ابن الأعرابي وغيره على سبيل المثال على موعد مع البيان جنبا إلى جنب في هذه المعالجة التي تجعل من الخيل بطلا تَسلط عليه الضوء..

وقد كان له ﷺ أفراس بأسماء: الظرب، ولزاز، والسكب، والمرتجز لحسن صهيله، وكان له ﷺ اللحيف.. وكان لحمزة بن عبدالمطلب فرس يقال له الورد، قال فيه:

ليس عندي إلا سلاح وورد
قارح من بنات ذي العقال

أتقي دونه الحروب بنفسي
وهو دوني يغشى صدور العوالي

وقيل: إن أول من ارتبط فرسا في سبيل الله سعد بن أبي وقاص.. وكان للزبير بن العوام فرس يقال له اليعسوب، وفرس شهد عليه خيبر، يقال له: معروف، وفرس شهد عليه معركة الجمل يقال له: ذو الخمار..

وكان لأبي جهل: عمرو بن هشام فرس يقال له مجاح، ولمسافع بن عبدالعزى أحد بني عامر بن لؤي فرس يقال له: النعامة، قال فيه:

والله لا أنسى النعامة ليلة
ولا يومها حتى أوسد معصمي

إن معالجة أسماء الخيل وأنسابها بالنظر إلى أصحابها وقبائلهم عبر ابن الأعرابي تقدم لنا ما يمكن تسميته مفتاحا ثقافيا يكشف عن واقع اجتماعي كان فيه لهذا الحيوان حضور في داخل هذا النظام الحياتي؛ بوصفه ليس فقط أداة للتنقل، ولكن بوصفه شاهدا أو لو شئنا قلنا عينا نطل منها على هذه الظاهرة التي تحتل مكانا لا ينكر في دفتر يوميات العربي القديم؛ إنها الحروب والصراعات التي لم تكد تفتر أو تتوقف حتى تعاود الاشتعال من جديد، وهذه الأخيرة تعد محطة ثقافية تأخذنا إلى هذا التنوع في نسيج الثوب العربي منذ جاهليته، وقد جاء الإسلام محاولا بجدية أن يجعله لونا واحدا، يتأسس على فضيلة الأخوة التي تنفي الاستعلاء وتزيل العصبية المنتنة، نقصد بذلك القبائل العربية؛ لذا يمكن القول: إن حديث ابن الأعرابي عن الخيل يشكل منطلقا لقناعات فكرية عدة:

- الصداقة بين العربي والحصان؛ بحكم حياته القائمة على التنقل

والسفر الدائمين.

- الحصان/الخيل/الخيال كلمات تأخذنا بشكل أو بآخر إلى هذا النظام الفني الذي يشغل موقعا في كتاب الحضارة العربي، ألا وهو الشعر المعتمد على هذا الخيال الذي هو نقيض الحقيقة والواقع.

- حياة هذا العربي القلقة التي منحت للحرب والصراع والمواجهة المسلحة فرصة لإظهار قيم سلبية، مثل التعصب القبلي المبني على جاهلية لم تعط للحكمة وللتعقل مساحة في فكرها ولا في سلوكها إلا القليل.

- حديث ابن الأعرابي عن الخيل مرتبطا بقبائلها، تقف بنا عند قواسم مشتركة يلتقي عندها أبناء الجماعة العربية على ما بينهم من تنوع قبلي؛ فنظام الحياة في شبه جزيرة العرب يأتي تحت مظلة بيئة صحراوية تغادر أثرها في الطبع وفي الفكر وفي السلوك في الجميع، فالرحلة، والإصرار على الحياة في ظل ندرة الماء وقلة الطعام منطقة التقاء؛ ومن ثم فإن الحصان يعد بمثابة مشترك ثقافي قد وظفه العربي في:

أ- رحلته.

ب- حربه.

ج- قصيدته.

ولنكمل مع ابن الأعرابي:

من خيل بني أسد يذكر صاحب الكتاب المنيحة لدثار بن فقعس الذي قال فيه:

قربا مربط المنيحة مني
شبت الحرب للصلاء سعارا

ومن خيل بني ضبة الأحوى فرس قبيصة بن ضرار الضبي الذي قال فيه:

تقول بنو سليم إذ رأوني
على الأحوى تقرب في العنان
علي مفاضة ومعي قناة
وعاملها وحسبك من سنان

ومن خيل غطفان بن أسد داحس والغبراء فرسا قيس بن زهير، وفيهما قيل:

بكفي ألقيت العصا واشتريتهم
بحي حلال يحبسون المحابسا
بحي بني سعد بن ذبيان إذ رأى
لدي بأنمار سرابا وداحسا

وسراب هي الغبراء

ومن خيل بني قيس بن ثعلبة النعامة للحارث بن عباد الذي قال منشدا في حرب البسوس:

قربا مربط النعامة مني
لقحت حرب وائل عن حيال

ومن خيل إياد بن نزار العرادة لأبي داود وقال فيها:

قربا مربط العرادة إن الـ
ـحرب فيها بلابل وحزوم

ومن خيل اليمن المعلى فرس ابن مالك الجعفي، وفيه يقول:

أريد دماء بني مازن
وراق المعلى بياض اللبن

إن اختيار العربي أسماء للحصان يؤكد حقيقة قدرة هذا العربي على الارتقاء بفكره من رتبة الفيزيقي المشاهد إلى ما وراءه؛ إنها هذه المنطقة المبنية على التخيل والإدراك المؤسس على درجة من الارتفاع فوق عالم طبيعي أصر العربي على أن يطوعه وفق متطلباته، في توظيف لمفردات اللغة يجعلها بمثابة مرآة يمكننا أن نرى فيها ونرسم ملامح ثقافة هذا العربي الرعوي الرحال من خلال أنجم بها نهتدي ونحن سائرون في صحراء شبه جزيرة العرب التي تعد الحاضنة الأم لهذا النظام الحضاري الكبير، ومن بين هذه الأنجم التي ارتدت مع العربي ثيابا تنسجم وطاقته الخيالية العالية ترتقي بها فوق ما هو معروف عنها في سياق الواقع وفي عالم الطبيعة هذه الأسماء التي تتميز بكثرة وتنوع يأتي منطلقا من حالات ذهنية وعاطفية هي بنت الموقف واللحظة التي مرت على هذا الرحال؛ فجاء من رحمها هذا الاسم الذي تطور في حضوره ليأخذ مكانا له في سياق الجمال؛ إنها ديوان العربي؛ إنها قصيدة الشعر.

ولاشك في أن هذا الحصان يعد عضوا في قسم متطلبات أو لو شئنا قلنا جزءا من دائرة احتياجات هذه الجماعة في سبيل رغبتها وحرصها على العيش الذي ينشد الأمن المتكئ على قوة تحميه وتضمن له استمرار البقاء؛ يعكس ذلك هذا الأثر المنسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل»؛ يفهم منه أن النشاط العسكري/الحرب الذي تمارسه الشخصية العربية أحيانا قبل الإسلام وبعده يتطلب قدرات ومهارات، من بينها القدرة على ركوب هذا الحيوان وتطويعه في مواقف بعينها تحتاج إلى وجوده، ألا وهي مواقف المواجهة الخشنة التي تعتمد على استخدام السلاح..

إذن فمن خلال مرافقتنا لابن الأعرابي في مصنفه «أسماء خيل العرب وفرسانها» نستطيع الوقوف عند ثلاثية يطرحها منهجه في المعالجة:

المفرد الإنساني الحقيقي: الفارس صاحب الحصان

المفرد الإنساني المجازي: الحصان الذي يصير بمثابة صديق لصاحبه قد منحه اسما به يعرف.

الجمع الإنساني: المعبر عن قبيلة هذا الفارس.

يمكن الرجوع في كتاب ابن الأعرابي إلى:

الموسوعة الشعرية الإلكترونية، القسم الخاص بالمكتبة، إصدار ٢٠٠٣م، المجمع الثقافي العربي، الإمارات العربية المتحدة.

مشاعر

عبد العزيز العسكر
شاعر سعودي

يسرني أن أخص «الوعي الإسلامي» بهذا النص الشعري الذي فرغت من نظمه الآن ولم أجد أجدر به ولا أحق من مجلة «الوعي الإسلامي» تقديرا لتجاوبكم وتألق المجلة وتميزها في العناية بالفصحى وعلومها.. لكم مني خالص التحيات وأسمى الأمنيات بالتوفيق والنجاح في جهودكم كلها.

إلى أهل الحجاز بعثت ودي ... ليحمل نحوهم سيل التحايا

فـؤادي فـي مرابعهم مقيم ... سباه بدارهم حسن السجايا

إذا سطع الهلال فأخبروه ... بـأن ضيـاءه بـعض المزايا

أخاطب في منازلكم فؤادا ... يعز عليه أن بعدت خطايا

أيـا ريــان رحـلـتـنـا تمهل ... فقد خلفت من بعدي حشايا

إذا هب النسيم يزيد شوقي ... وأرقــب بـعـد روعـتـه منايا

وشوقي لم يذق في العمر مرا ... وما عرف الجواهر في الخبايا

فيا قمر الزمان سكنت قلبا ... يـؤرقـه مـن الأحـبـاب نايا



دورهما في تجديد الخطاب الديني

اللغة والإشارة

د. محمد مبارك البنداري
أستاذ مساعد في جامعتي الأزهر وأم القرى

أثر الإسلام على اللغة العربية بين عشية وضحاها، فأصبح العرب يعرفون مدلولات جديدة لكلمات: الصلاة، والزكاة، والصوم، والسجود، والركوع، والتقوى... إلخ، غير التي كانوا يعرفونها قبل مجيء الإسلام، ووضح النبي ﷺ كثيرا من دلالات هذه الكلمات، وظهرت علوم تساعد على فهم هذه الدلالات كعلم الغريب، والمعاجم، والنحو، والبلاغة، ودارت كل هذه العلوم حول رحى القرآن الكريم، ونشأت لغة جديدة للخطاب الديني والثقافي في المجتمع العربي.

ولعل مصطلح تجديد الخطاب الديني من الناحية اللغوية حديث جدا، أما من ناحية المضمون فهو دعوة قديمة جدا، قدم الرسالات؛ لأن التجديد بمفهومنا هو عودة للمنابع والأصول، عودة كاملة صافية، وترك التقليد الفاسد القائم على الاتباع والمحاكاة على غير بصيرة، فهو عملية إصلاحية محافظة، وليس عملية تخريبية متفلتة.

إذن التجديد المشروع هو إعادة الدين إلى النحو الذي كان عليه زمن النبي ﷺ وإعادة الناس إليه على النحو الذي مضى عليه أهل القرون الثلاثة المفضلة، فينفي عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وغلو المتنطعين وتفلت الفاسقين، ويعود إليه بالقبول والتلقي، والانقياد والتسليم، والتصديق والاتباع، والتوقير والتقديم والفهم والالتزام والتطبيق، مع مواكبة العصر الذي نعيش فيه، فالإسلام كالثوب الفضفاض صالح لكل زمان ومكان.

وقد بين النبي ﷺ خصيصة من الخصائص التي خص الله عزوجل بها الأمة المحمدية، لحفظ دينها من التبديل والتغيير فقال ﷺ: «إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها» (١)، وإذا تجاوزنا المراد بالتجديد في الحديث، واكتفينا بأن الدلالة تدور حول معنى حفظ الدين سواء بتعليم الناس السنن، وإماتة البدعة، وتبيين السنة، أو تصنيف الكتب والتدريس، فإنه يتبين لنا من خلال حديث التجديد فضل الله تعالى على هذه الأمة المرحومة التي هي خير أمة أخرجت للناس؛ حيث لا يمر عليها مئة عام إلا وقيض الله تعالى لها من يجدد الدين،

وهذه بشرى أن التجديد لا ينقطع في هذه الأمة، وأن أية غربة تلحق بالأمة فإنه يعقبها التجديد، فأي قرن لا يخلو من مجدد، ولا يلزم من لفظ الحديث أن يكون المجدد شخصا واحدا، كما أن جلال المهمة وخطرها يحتاج إلى وجود عدد يقومون بهذه المهمة.

والحديث في ثناياه تضمن الإشارة إلى ما يطرأ على حياة الناس بمرور الزمن في العصور المتعاقبة، مما يستدعي الحاجة الملحة إلى التجديد.

وفي عصرنا هذا نجد الواقع يلح على ضرورة التجديد، خاصة أن كثيرا من العامة بَعُدَ عهدهم بالعربية الفصحى مما أوجد حاجزا بينهم والفهم الصحيح لكثير من الأمور الواردة في النصوص، وكذا ظهور كثير من المعاملات والتصرفات التي لم تكن موجودة زمن نزول الوحي أو زمن الأئمة الأعلام، مما يحتاج إلى بيان الوجه الشرعي الصحيح بإزائها، عن طريق القياس، أو الاجتهاد، وكذا التقدم التقني الهائل الذي غزا العالم في منتصف القرن الماضي، فقرب البعيد، وعمل على ظهور تكتلات وتحالفات بين القوى المختلفة،

وأوجب على الدول الإسلامية أن تضبط تلك الأمور، وتحدد موقفها من هذه المستجدات التي تنظم العالم وتصنفه، وكذا ظهور جماعات تنتسب إلى الإسلام وهو منها براء، تتكئ على سياقات خاصة تفسر بها النصوص لتصل إلى مآربها من التمكين في السلطة أو الحكم باسم الدين، وتدعي الفهم الصحيح للدين ومفهوم التجديد من وجهة نظرها، وهي لا تريد التجديد لكي لا ينكشف زيفها، وتزال الهالات المحيطة بها.

وبهذا يتضح لنا أن الهدف الأسمى من التجديد هو نقل الدين من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل، وهو محاط بالحفظ والصيانة؛ بحيث لا يزاد فيه ولا ينقص منه، ولا يحال بينه وبين قيادة الحياة الدنيا وتوجيهها، والتي جاء لإصلاحها لتكون معبرا آمنا للحياة الآخرة، بيد أنه لابد من ضوابط للتجديد وهذا هو المأمول من علماء الأمة؛ وإلا فهو بناء منهار في نهاية أمره، وإن تطاول إلى عنان السماء.

وللأسف الشديد فهم كثير منا مفهوم التجديد بأنه تخريب، وتغريب للأمة، وإملاء من الخارج لهدم ثوابت الدين، وهذا واقع أليم، لا يؤيده عاقل، ولا يقول به إلا جاهل، وهذا الفهم كان سائدا في بداية القرن العشرين، خاصة مع ظهور الثورات العلمية، حتى فهم الناس ضرورة التجديد ليتعاملوا مع التطورات العلمية بسلاسة ويسر، فنجدهم حرموا القهوة في بدايتها، والمياه الغازية، والصنبور حال الوضوء... إلخ، لأنهم لم يدركوا مفهوم التجديد جيدا؛ ولإزالة هذا اللبس يمكننا أن نتلمس ضوابط للتجديد، والأطر التي تحيط بعملية التجديد التي تناسب الزمان والمكان دون المساس بثوابت الدين (٢)، ومنها:

– صفات يجب توافرها في المجدد: فيجب أن يكون المتصدي للتجديد من أهل الدين، والمؤمنين حقا، وأن يكون من المتفقهين فيه المتمسكين به في أقوالهم وأفعالهم، لا يظهر منه تهاون فيه أو خروج عليه، أو تساهل وتفريط فيما دل عليه.

– ولابد أن يكون عارفا بأحوال الأمة، متلمسا موضع الداء، محيطا بأحداث العالم المحيط، لكي يبذل جهده بعد ذلك في نفع الأنام، قال شمس الحق – شارح سنن أبي داود –: «المجدد لا يكون إلا من كان عالما بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن ونشرها ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها وكسر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب والتدريس، ومن لا يكون كذلك لا يكون مجددا البتة، وإن كان عالما بالعلوم مشهورا بين الناس مرجعا لهم» (٣)، وهذه الأوصاف لاشك أنها تخرج العلمانيين والزنادقة والملاحدة والمبتدعة، والأدعياء الذين يريدون تسلق هذه القمة العالية – التي لا يرقاها إلا أفاضل المؤمنين – بغير عدة ولا استعداد فيخرج من ذلك أهل البدع؛ إذ كيف يجددون الدين وهم ساعون في خرابه؟.

وكيف يحيون السنة وهم عاملون على إماتتها؟ وكيف يمحون البدع وهم جادون في نشرها وترويجها؟ وبالطبع يخرج من باب أولى المرتدون عن هذا الدين.

– ولابد أن ينطلق التجديد من الكتاب والسنة، ففيهما بيان كل شيء، ولو انطلق التجديد من غيرهما كان مذموما، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء:٥٩)، أي إذا حدث اختلاف أو تنازع وجب الرد إلى الكتاب والسنة، ويفهم من ذلك أنه لو لم يكن فيهما جواب وبيان لكل شيء لم يكن في الرد إليهما حسم للنزاع، قال أبو إسحاق الشاطبي ت ٧٩٠هـ في سفره القيم «الاعتصام»: «إن الله تعالى أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها تبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمروا بها، وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله ﷺ حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى بذلك؛ حيث قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة:٣)، فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء لم يكمل فقد كذب بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ﴾ (٤).

ولعل لغة الخطاب الديني هي أداة التجديد المعبرة عنه عبر المنابر المتعددة (الإلقاء – الكتابة) وهي لغة عند العرب بدأت مع الدعوة الإسلامية، واتخذت أسلوبها الخاص بها الذي يختلف عن أساليب أخرى، لها أغراضها، وخطتها في الاستدلال، وصلتها القوية بمناحي الإدراك والوجدان، بل بمناحي الحياة عامة، وهذه اللغة لم تنشأ دفعة واحدة، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم الإسلامية والعربية وتقدمها، وتكونت لغة خاصة بالخطاب الديني، وظهرت اصطلاحات في الفقه والتفسير والحديث... إلخ، ثم تلتها اصطلاحات أخرى خاصة بالسياسة والأخلاق، والطب والكيمياء... وخضع المصطلح العربي القديم لسنة النشوء والارتقاء، مع المحافظة على الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي الفصيح.

ومع تطور الزمن تطورت لغة الخطاب الديني، وفي العصر الحديث وجدنا بعض الخطباء مازال يتشدق بألوان البديع كالجناس والتورية والطباق ويدور في فلكها، وكأنه في عصر الكاتب الفاضل، وصنع حاجزا لغويا بينه وبين الناس؛ لأن هذا أفقد الخطاب الديني مضمونه، فصاحبه يركز في هذه الألوان دون غيرها، ووجدنا بعض الخطباء يلجأ إلى العامية المبتذلة، ويتشدق حال

النطق ليضفي عليها ثوب الفصحى، ويستشهد بالأحاديث الضعيفة بل ربما والموضوعة، والقصص الذي لا يتناسب والعصر، فهو في واد والمجتمع في واد آخر.

وهذا دور اللغة في المجتمع، أداة للتواصل المجتمعي، فهي كما عرفها العلامة ابن جني ت ٣٩٢هـ في كتابه «الخصائص»: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (٥)، ولنا مع كتاب الخصائص وقفة متأنية، فـ «الخصائص» أي خصائص اللغة العربية، وهذا الكتاب يكاد ينفرد وحده في التراث العربي كله؛ من حيث تناوله للغة العربية تناولا هو أقرب ما يكون لما يصح تسميته بـ «فلسفة اللغة»، دون أن يورد المؤلف في سفره الضخم هذه الصفة لما يكتبه، وإضفاء صفة الفلسفة على العلم كأن نقول: فلسفة السياسة، فلسفة العلم... إنما نعني البحث عن المبادئ الأساسية العامة الكامنة وراء مجموعة القوانين الخاصة بهذا الفن، وهنا هو يبحث عن فلسفة اللغة العربية.

إن اللغة التي نريدها يجب أن تكون سليمة، خالية من اللحن، قريبة المعنى من السامع، سهلة المنال، يعرفها جميع طبقات المجتمع، وليس بشرط أن نكرر بعض الأساليب الناجحة، كطريقة بعض الدعاة المشهورين في عالمنا العربي في العصر الحديث.

وغني عن البيان أن ضعف الدعاة في اللغة العربية، وتباينهم في طريقة الأداء، يؤدي إلى النفور من السامعين، وإلى تأخر تجديد الخطاب الديني.

يجب أن ينظر الدعاة إلى اللغة على أنها وسيلة لإيصال الحقائق، أو التعبير عنها، وهذا بالطبع جزء من وظيفتها، والمجدد عموما يجب أن يعنى بجمال القول، ورقة الأسلوب، وحسن البيان، وبلاغة التعبير، ويراعي مقتضى حال المخاطب؛ لأنه يخاطب ويتعامل مع جميع فئات المجتمع، فلكل مقام مقال - كما قال الحطيئة -، فلا يأتي بالغريب أو الحوشي في كلامه.

فالتقدم العلمي وظهور مصطلحات جديدة يستعملها الإنسان العادي في كلامه اليومي فرض علينا نشوء أسلوب للتفاهم، ولغة بسيطة غير معقدة؛ لأن التفاهم وعرض الفكر يجب أن يكون بأبسط وسائل التعبير اللغوي، ولابد من معرفة النظام الصوتي للعربية، وإتقان مخارج الحروف وصفاتها، عبر دورات في فن الإلقاء (٦)، وهو فن لا غنى عنه للمعلم والمفكر والإعلامي. وللأستاذ عبدالوارث عسر مؤلَّف صغير يحمل اسم «فن الإلقاء»، وكتب التجويد لا تخلو من مخارج الحروف وصفاتها وما يترتب على معرفتهما.

وأما الإشارة فلها دور كبير في إيصال المعنى، يقولون: إن امرأة دخلت على الإمام الشافعي رحمه الله وهو في مجلسه بين أصحابه، فوضعت أمامه تفاحة ثم انصرفت غير بعيد، فدعا الإمام بسكين فشطر بها التفاحة ثم وضعها مكانها، وعادت المرأة فأخذت شطري التفاحة، وذهبت إلى حال سبيلها.

وتعجب الحاضرون الذين لم يفهموا شيئا مما رأوا، لكن أستاذهم لم يتركهم في دهشتهم طويلا، فقد كشف لهم السر وأعلمهم أن هذه السيدة تسأل عن الحكم فيما لو اختلطت الصفرة بالحمرة في دم الحيض؟ وأنه أجابها بأن الطهر لا يتم حتى ترى البياض الخالص.

ولكن كيف حدث ذلك؟ والجالسون لم يسمعوا سؤالا، ولم تصل إلى آذانهم أصوات جواب؟

لقد رمزت المرأة بلون ظاهر التفاحة لما يدور في ذهنها، فرمز الإمام بلون باطنها للحكم في مشكلتها، وتمت بذلك عملية اتصالية بواسطة الإشارة المتسمة بالذكاء الذهني من الطرفين.

وليس ما رأينا - في هذا الموقف بغريب - فاستخدام الإشارة في الاتصال والتفاهم (٧) ومن باب أولى في الخطاب الديني أحيانا أمر مقرر في الواقع عند جميع الأمم، وما أظننا ننسى هنا قول شاعرنا العربي:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا
وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم (٨)

وفي القرآن الكريم ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ (آل عمران:٤١)، أي بطريق الإشارة، وفيه - أيضا - في قصة مريم: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ...﴾ بعد قولها: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ (مريم:٢٦-٢٩).

لكن استخدام الإشارة من قبل المجدد أو الخطيب في الاتصال والتفاهم لا يتم بصورة واحدة، فقد تستقل الإشارة في بعض الظروف بأداء هذا الدور وتحقيق العملية الاتصالية دون تدخل من وسيلة اللغة المنطوقة أو الكلام،

ويجب على المجدد استخدام الإشارة عندما يحول حائل من استخدام وسيلة الكلام، كبعد المسافة مثلا، أو المحافظة على سرية الحديث، أو تحريم النطق بسبب ديني، أو وجود مانع مرضي كما في حالات الصم والبكم.

وقد تكون «الإشارة» مجرد صاحب ومعين للكلام أو للنطق، وهذا أمر عام لا يكاد يخلو منه موقف اتصالي عند فرد من الأفراد، أو جماعة من الجماعات، فمن منا يتحدث في أي موقف من المواقف دون أن يشير بيده، أو برأسه أو بملامح وجهه وتقاطيعه، إن إشارة بإصبع أو إيماءة برأس أو تلويحة بقبضة يد قد تعني لمن يرى الشيء الكثير، وقد تعطيه تفسيرات كثيرة لما يسمع، ويجعله في غاية من الوعي بما تريد توصيله إليه.

وقد أشار الجاحظ إلى أهمية الإشارة ودورها في ذلك، فقال: «فأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين وبالحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زجرا ومانعا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا، والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط» (٩).

ومن ثم فقد رأينا القرآن الكريم يساوي في المسؤولية تقريبا بين الإيماءة والإشارة والتصريح بالكلمة والعبارة، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة:١)، ويقول جل شأنه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففين:٣٠) قال النيسابوري صاحب «غرائب القرآن»: «وقال ابن زيد: الهمز باليد واللمز باللسان، وقال أبوالعالية: الهمز بالمواجهة واللمز بظهر الغيب، وقد يكون كل ذلك سرا بالحاجب أو العين» (١٠) وقال أيضا: «والتغامز تفاعل من الغمز وهو الإشارة بالعين أو الحاجب أو الشفة، وأكثر ذلك إنما يكون على سبيل الخبث» (١١).

وإذا كان «شيشيرون» قد علم الخطباء منذ ألفي عام تقريبا أهمية الإشارة، وأفهمهم أن الحركات مثلها مثل لغة الجسد يفهمها الناس على البعد حتى البرابرة والبدائيون (١٢).

فالجاحظ (أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥هـ) منذ أكثر من ألف سنة قد تحدث عن هذه الأهمية وأبدع في توضيحها وتصويرها، ويجب على المجدد أن يراعي حتى «تعبيرات الوجه»، فيبين للناس الكثير عن طريق الإشارة والحركة عموما، ويراعي أن لكل مجتمع إشاراته وحركاته المعروفة، ولعلنا نذكر باستخدام القرآن الكريم لكثير من الحركة الجسمية كاليد والوجه وغيرهما، واستخدامه ﷺ الحركة الجسمية في إيصال المعنى.

ولابد في حال استخدام اللغة لإيصال الأمر المراد تجديده من صوغ الأفكار والأطروحات التي يراد عرضها في قوالب لغوية، ونظام تركيب للجملة بسيط جدا، يراعى فيه الدلالة النحوية (علم المعاني) أي أحوال المتلقي والمخاطب.

لكننا نجد أن الواقع عكس ذلك تماما، إذ إننا نجد بعض المجددين سرعان ما يعودون للسجع، ويميلون في لغتهم إلى الزينة والترف والتأنق، تاركين وراءهم البساطة، واليسر.

ونجد بعضهم صاحب لغة واهية ضعيفة، وأخطاء نحوية كثيرة، ولكنه يعتمد على جهارة الصوت فيصرخ في سامعيه، ليبادلوه نفس الصراخ، رغم تعذر فهم المراد بسبب اختلاط العامية بالفصحى.

إذن لابد من وجوب تبسيط الخطاب الديني من خلال لغة بسيطة يفهمها أكبر عدد من المخاطبين، وتكون مزودة بالحيوية الكافية حتى لا يضيق بها أحد منهم، ويجب تطويرها عبر مجامعها اللغوية حتى تتسع للتعبير عن كل جديد، أو مستحدث في العلم أو السياسة أو الفن الهادف.

ولا نعني بتبسيط الأسلوب وإيضاحه الخروج على قواعد اللغة التي تعارف عليها الأسلوب العربي في صياغته، وهندسة الجملة العربية من حيث البناء، ودلالة ألفاظها (الصرفية) التي تستمد عن طريق الصيغ وبنيتها، و(النحوية) التركيبية؛ إذ يحتم نظام الجملة العربية ترتيبا خاصا لو اختل لأصبح من العسير أن يفهم المراد من الجملة، ومن ثم الدلالة (المعجمية).

وأخيرا ثمة ظاهرة جديرة بالتمييز ألا وهي مخاطبة المجتمع باللهجة التي يعرفها في غير المنابر الرسمية، ونعني باللهجة – كما عرفها د. إبراهيم أنيس في «اللهجات العربية»: «مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة» (١٣) وأهم شيء هو الفهم الذي يترتب على استخدام هذه اللهجة وهو متوقف على قدر الرابطة التي تربط هذه اللهجات.

الهوامش

١- رواه أبوداود في سننه.
٢- ينظر في تفصيل ذلك: تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، محمد بن شاكر الشريف، طبع مجلة البيان ١٤٢٥هـ.
٣- عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١/٢٦٣-٢٦٤، دار الكتب العلمية – بيروت، أولى ١٤١٥هـ =١٩٩٤م.
٤- ينظر: الاعتصام لإبراهيم بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ٢/ ٣٠٤، ط. مكتبة الأسرة بمصر ٢٠٠٨م.
٥- الخصائص لابن جني ١/٣٣، تح. الشيخ محمد علي النجار، ط. ١٩٩٣م.
٦- طبع في الهيئة العامة للكتاب بمصر ١٩٨١م.
٧- وينظر: د. محمد العبد: الإشارة والعبارة، مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠٠٦م.
٨- ينظر: شرح الألفية لابن عقيل/ ٩، ط. دار التراث، ٢٠٠٨ م.
٩- البيان والتبيين تح. عبدالسلام هارون ج١/ ٧٨، ط. الخانجي بمصر ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.
١٠- ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ج٣٠/ ١٧٦، بيروت، أولى ١٤١٦هـ.
١١- المرجع السابق ج ٣٠/٥٣.
١٢ – الأصوات والإشارات لكاندراتوف/ ١٧، مترجم، ط. الهيئة العامة للكتاب بمصر.
١٣ – ينظر: في اللهجات العربية والقراءات القرآنية/ ٩، ط. الأنجلو بمصر ١٩٩٢م.



حفني ناصف والشعر الوصفي الأخلاقي

(١٢٧٢ - ١٣٣٨هـ / ١٨٥٦ - ١٩١٩م)

د. محمود خلف
باحث في الدراسات الأدبية

حفني (أو محمد حفني) بن إسماعيل ابن خليل بن ناصف: ولد في قرية بركة الحج (المجاورة لضاحية المرج القريبة من القاهرة حاليا).

عاش في عدة مدن مصرية، وقام برحلات إلى سورية وبلاد العرب والآستانة واليونان ورومانيا والنمسا وألمانيا وسويسرا والسويد.. وغيرها من بلدان أوروبا.

حفظ القرآن الكريم في كُتّاب القرية، ثم التحق بالأزهر مدة عشر سنوات (١٢٨٦ - ١٢٩٧هـ/ ١٨٦٩ - ١٨٧٩م)، درس فيها علوم التجويد وحفظ المتون، ودرس الفقه الشافعي، والنحو والصرف، وعلوم البلاغة والعروض والقوافي والمنطق والتوحيد والحديث والتفسير. وحصل على إجازة في رواية الحديث من الشيخ الأشموني، ثم التحق بمدرسة دار العلوم عند إنشائها، وحصل على إجازتها (١٣٠٠هـ /١٨٨٢م)، فدرس الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والتاريخ والجغرافيا ووظائف الأعضاء ومبادئ اللغة الفرنسية.

اشتغل مدرسا في مدرسة الصم والبكم والعميان ثلاث سنوات، وتنقل في وظائف وزارتي المعارف والحقانية (العدل حاليا) - وفي أثناء عمله بمدرسة الحقوق اشترك في ترجمة القوانين المصرية، كما اشتغل في القضاء الأهلي عشرين عاما، وكان آخر مناصبه فيه وكيل محكمة طنطا الكلية.

كان من دعاة إنشاء الجامعة المصرية (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وقد تبرع لها، ورأس لجنة الاكتتاب، وكان من أوائل المدرسين فيها، ثم انتخب أول رئيس لها. كما شارك في إنشاء المجمع اللغوي الأول، ونادي دار العلوم. وآخر عمل مارسه كتابة القرآن الكريم بخط يده، حسب قواعد الإملاء الحديثة.

وله مداعبات شعرية مع حافظ إبراهيم وغيره. وكان يتجنب المدح والفخر في شعره. وهو والد «باحثة البادية».

تتلمذ على يديه: مصطفى كامل وأحمد شوقي وأحمد لطفي السيد وطلعت حرب وطه حسين وأحمد زكي (شيخ العروبة).. وغيرهم.

اشترك مع الشيخ محمد عبده في تحرير «الوقائع المصرية»، وكان يكتب في «الأهرام» بتوقيع «إدريس محمدين»، كما شارك في تحرير «المؤيد»، التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف، واشترك في الثورة العرابية بخطب كان يلقيها ويكتبها ويوزعها على خطباء المساجد والشوارع.

نال رتبة «البكوية» (من الدرجة الأولى)، واعتذر في زمن السلطان حسين كامل عن عدم قبول رتبة «الباشوية».

له عدة مؤلفات في تاريخ الأدب ومميزات لغة العرب، وفي البلاغة، وتعريب أسماء المستحدثات الحضارية والمدنية، وله رسائل في المنطق والبحث والمناظرة وعلم الأصول والتوحيد، بالإضافة إلى مجموعة نثر.

تدل عناوين قصائده على طابع شعره الوصفي الأخلاقي، ففيه تكثر

أسماء الشخصيات، وأسماء المدن التي زارها، وهذا ملمح من ملامح تجديده، إذ كان معاصرا للبارودي، وتأثر به. وشعر حفني ناصف يمثل عصره المتطلع إلى النهوض، كما يمثل طبائع المصريين وطبيعتهم، فمن الناحية الفنية تبدو الحلى البلاغية، وبخاصة الجناس والتورية والتضمين، ومن ناحية الطبائع يذكر بروح البهاء زهير في رشاقة العبارة والميل إلى الدعابة.

ويقول عنه تلميذه طه حسين: إنه «كان ذكي القلب، خصب الذهن، نافذ البصيرة، حاضر البديهة، سريع الخاطر، ذرب اللسان، وكان أسمع الناس طبعا، وأرجحهم حلما، وأعذبهم روحا، وأرقهم شمائل».

له «تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية» (جزآن من أربعة)، و«مميزات لغات العرب»، ورسالة في «المقابلة بين لهجات بعض سكان القطر المصري».

واشترك في تأليف «الدروس النحوية» (أربعة أجزاء). وجمع ابنه مجد الدين ناصف شعره، في ديوان سماه «شعر حفني ناصف».

توفي بمدينة حلوان (جنوب القاهرة).

نماذج من شعره

قال فقيد الأدب حفني بك ناصف:

أتقضي معي -إن حان حيني- تجاربي
وما نلتها إلا بطول عناء
وأبذل جهدي في اكتساب معارف
ويفنى الذي حصلته بفنائي
ويحزنني ألا أرى لي حيلة
لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورث الجهال أبناءهم غنى
وجاها فما أشقى بني الحكماء

نماذج من نثره

ولعل من أشهر رسائله، وأدلها على أسلوبه وخصائصه، وكيف كان يضمنها الأمثال والأشعار، ويحل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بطريقة تدل على مقدرة وتمكن في الكتابة، وعلى أن حفني قد يجد - وكثيرا ما يجد - في كتابته فيغضب لكرامته، ويكون قاسيا في معاتبته، مع أدب جم، وذوق رفيع في اختيار الكلمات، وعرض الفكرة. لعل من أشهر رسائله في هذا الباب رسالته إلى السيد توفيق البكري، وقد زاره في بيته فوجد زوارا كثيرين، فانتظر حتى قدم صاحب الدار، ولكنه لم يعره التفاتا، فكتبت إليه يعتب عليه:

«كتابي إلى السيد السند، ولا أجشمه الجواب عنه، فذلك ما لا أنتظره منه، وإنما أسأله أن ينشط لقراءته، وتنزل إلى مطالعته، وله الرأي بعد ذلك أن يحاسب نفسه، أو يزكيها ويحكم لها أو عليها.

فقد تنفع الذكرى إذا كان هجرهم
دلالا فأما إن ملالا فلا نفعا

زرت «السيد»، ويعلم الله أن شوقي إلى لقائه، كحرص على بقائه، وكلفي بشهوده، كشغفي بوجوده، فقد بعد والله عهد هذا التلاق، وطال أمد الفراق، وتصرم الزمان، وأنا من رؤيته في حرمان. فسألت عنه فقيل لي: إنه خرج لتشييع زائر، وهو عما قليل حاضر، فانتظرت رجوعه، وترقبت طلوعه، ولم أزل أعد اللحظات، وأستطل الأوقات، حتى بزغت الأنوار، وارتج صحن الدار، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار، وجاء «السيد» في موكبه وجلاله محتده ومنصبه، فقمنا باستقباله، وهيّمنا بكماله، فمر يتعرف وجوه القوم، حتى حاذاني، وكبر على عينه أن تراني، فغادرني ومن على يساري، وأخذ في السلام على جاري، وجر السلام الكلام، وتكرر القعود والقيام، وأنا في هذه الحال أوهم جاري أني في داري، وأظهر للناس أن شدة الألفة تسقط الكلفة، مر السيد بعد ذلك من أمامي ثلاث مرات، ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات.

تمرون الديار ولم تعوجوا
كلامكم علي إذا حرام

وكنت أظن أن مكانتي عند السيد لا تنكر، وأن عهدي لديه لا يخفر، فإذا أنا لست في العير ولا في النفير، وغيري عند السيد كثير، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير.

ومن مدت العليا إليه يمينها
فأكبر إنسان لديه صغير

ولا أدعي أني أوازي السيد - صانه الله - في علو حسبه، أو أدانيه في علمه وأدبه، وأقاربه في مناصبه ورتبه، أو أكاثره في فضته وذهبه، وإنما أقول: ينبغي للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغاني والأذكار، وشهود الأواني على مائدة الإفطار، وبين من يزوره للسلام، وتأييد جامعة الإسلام، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص، ومن يتردد إجابة لدعوى الإخلاص، وألا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد، وقناص الشوارد، بنقباء الموالد، ورواد الطرف بأرباب الحرف.

فما كل من لاقيت صاحب حاجة
ولا كل من قابلت سائلك العرفا

فإن حسن عند السيد أن يغضي عن بعض الأجناس، فلا يحسن أن يغضي عن جميع الناس، وإلا فلماذا يطوف على الضيوف، ويحييهم بصنوف من المعروف، يتخطى الرقاب «لصروف»، ويخترق لأجله الصفوف؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام، فليس بأقدم هجرة في الإسلام، وإن رأى أنه أقدر مني على إطرائه، فليس بممكن أن يتخذه من أوليائه.

ولا أروم بحمد الله منزلة
غيري أحق بها مني إذا راما

وإنما أصون نفسي عن المهانة والضعة، ولا أعرضها للضيق وفي الدنيا سعة.

وأكرم نفسي، إنني إن أهنتها
وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فلا يصعر السيد من خده، فقد رضيت بما ألزمني من بعده، ولا يغض من عينه، فهذا فراق بيني وبينه، وليتخذني صاحبا من بعيد، ولا يكلمني إلى يوم الوعيد.

كلانا غني عن أخيه حياته

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

ومني على السيد السلام، على الدوام، ومبارك إذا لبس جديدا، وكل عام وهو بخير إذا استقبل عيدا، ومرحى إذا أصاب، وشيعته السلامة إذا غاب، وقدوما مباركا إذا آب، وبالرفاء والبنين إذا أعرس، وبالطالع المسعود إذا أنجب، ورحمة الله إذا عطس، ونوم العافية إذا نعس، وصح نومه إذا استيقظ، وهنيئا إذا شرب، وما شاء الله إذا ركب، ونعم صباحه إذا انفجر الفجر، وسعد مساؤه إذا أذن العصر، وبخ بخ إذا نثر، ولا فض فوه إذا شعر، وأجاد وأفاد إذا خطب، وأطرب وأغرب إذا كتب، وإذا حج البيت فحجا مبرورا، وإذا شيع جنازتي فسعيا مشكورا، والسلام».

ونرى حفني قد سار في هذه الرسالة سيرا طبيعيا، ومهد لعتبه تمهيدا لبقا، فبيّن كم كان مشوقا إلى لقائه، والحوافز التي دعته إلى زيارته، ثم أجاد في وصف موكب السيد، ووصف حاله هو حين تخطاه ولم يعره التفاتا، وكيف حز ذلك في نفسه، وبيّن أنه على الرغم من التفاوت بينهما في المنصب والجاه والحسب والمال، فإنه لم يزره طالبا رفده أو منظرا فضله، ويجب عليه أن يفرق بين أنواع الزوار، وضرب مثلا بحفاوة السيد يعقوب صروف، وبين أنه لا يقل عنه منزلة، فليس ممن سبقوا إلى الإسلام، ثم اشتد في عتبه وثأر لنفسه في أدب، وبين أنه كريم يحافظ على مكانته، وأنه سيفارقه إلى الأبد ضنا بنفسه عن المهانة، وقطع عليه خط الرجعة، فقدم كل ما يمكن أن يقال في المناسبات، حتى تشييع جنازته، فهي رسالة أديب حر كريم، ونموذج صادق في ميدان الأدب والكرامة.

ولقد كان حفني بارعا في تصوير المواقف، والحالات النفسية والمناظر، وكان أسلوبه فيها شفافا عن نفسه، لم يحل سجعه دون ظهور صدقه، ولم تحل سماحته وسجاحته دون شدته وقوة عارضته، وقد أفاء على سجعه طلاوة قصر فقراته، ومجيئه متمكنا في مواضعه حتى لا نحس بأدنى تكلف. وقد ضمنها كثيرا من الأشعار جاءت في مكانها مناسبة للمقام تمام المناسبة.

ولا شك أن ذوق حفني، وكثرة محصوله من الأدب، نثره وشعره، وما كان فيه من حالة نفسية عاطفية، قد أضفت على القطعة كلها جوا من القوة، وجمال الرونق.

وكان حفني مولعا بالسجع، متمكنا فيه كل التمكن، ولذلك لم يعدل عنه في رسائله، بل كان يحرر به المقالات، وينشئ المقامات، وفي أخريات تلك الحقبة اشتدت الحملة على السجع ممن أرادوا تحرير النثر من قيوده، وكان ذلك طبيعيا لتطور العقول، وتحررها من مخلفات الماضي، وازدياد صلتها بالثقافات الأجنبية، ولتطور المقالة الصحفية بمختلف أنواعها، فلم لا تسلك ألوان النثر الأخرى مسلكها، ولقد كان حفني يمثل الفريق المحافظ في هذا الصراع بين الثقافتين، ولذلك سجل رأيه في السجع واضحا فقال:

«أخذوا في ذم السجع والمقفى، وأطلقوا القول في تهجينه، وضللوا المتقدمين من المنشئين، وأئمة الأدب وفرسان البراعة، ولا أقول: إن ذلك ناشئ عن عجزهم وقلة بضاعتهم في ذلك الشأن، فأخذوا يحسنون به القبيح ويقبحون الحسن، سفسطة على العالم، ومغالطة الناس، ومن جهل شيئا عاداه، بل أقول: إن هذا إطلاق في مقام التقييد، وإرسال للعنان في موضع الإمساك، وإجمال في ساحة التفصيل.

والحق أن لكل مقام مقالا، وأن السجع والتقفية، قد يلبسان القول حسنا، ويكسبانه رونقا لا ينهض به تفلسفهم المسجوع، وسفسطتهم الباردة.

نعم إن بعض القاصرين من المنشئين قد يضطره الازدواج، وتحكم عليه القافية، فيأتي بألفاظ عن الغرض، أو يعقد الكلام فلا يفي بالمرام، فكانوا - لو أنصفوا - يجعلون هذا محط تهجينهم، ومرمى قذفهم، فإن الحشو مذهب لانتظام القول، مضيع لزينته.

فالغاية أنه يلزم المنشئ أن يكون كلامه وافيا بالغرض، مؤديا للمطلوب في سياق مناسب لاختلاف المقامات وتباين الدواعي، فإن سهل عليه ذلك مع مراعاة السجع والقافية، كان أدخل في تمكين المعاني في الأذهان، وأنشط للأسماع،

وأدعى للإقبال، وأخف على الأرواح، فتركه إنما هو رخصة لا عزيمة، فعليك أن تستعمل فكرك في استخلاص الحق، وتبصر وتشيم كل برق، فما كل داع بأهل لأن يصاخ له، ولا ترم بنفسك في إسار التقليد، ولا تكن في الأمور إمعة، كلما سار إنسان سرت معه».

ومع هذا الدفاع عن السجع، وبيان مواطنه المناسبة، فإن التيار كان قويا، وقد كان حفني ناصف نفسه من العاملين على إشاعة الترسل في الكتابة، كما يقول صاحبا الوسيط، وإن ظل الأسلوب الأدبي متميزا بطابع خاص، وقد مرت بنا بعض رسائل قل فيها السجع، ومع ذلك حفظت رونقها وطلاوتها كتلك التي كان يكتبها الشيخ مفتاح.

إن دفاع حفني ناصف وثيقة قيمة تكشف عن الصراع في سبيل الوصول إلى الأسلوب المناسب مع تيارات العصر، وكان آخر سهم وجهته الفرقة المحافظة قبل أن تستسلم.

أنت السبب

محمد عبدالقادر
أديب مصري

تحول لتوه إلى قطعة حزن متجمدة، كل شيء فيه يقطر حزنا وأسى! كلمات هذا المدير المتغطرس مازالت ترن بأذنيه: «لولا كبر سنك لكان لي معك تصرف آخر. والمشكلات الشخصية عليك أن تدعها عند عتبة المصلحة». ابتلع كلماته ممتعضا ولم ينطق ببنت شفة، أخطاؤه المتكررة في الأيام الأخيرة أخرست لسانه. خرج من غرفة المدير كسيرا يجر أقدامه كالشاة التي تساق لذبحها! حتى عيون الموظفين هي الأخرى لم ترحمه، سواء المشفقة منها أو المتشفية، فجميعها تحولت إلى سهام مسلطة على جسد نحيف قد أنهكته همومه حتى لكأنها محدودة به من كل ناحية. دفع بإذن مكتوب إلى زميله وانصرف قافلا إلى البيت ينشد الراحة أو الهروب من هذا الجو الخانق.

لم يشعر بنفسه إلا وقد فتحت زوجته له الباب، الغريب أنها لم تأبه بعودته باكرا على غير عادته، كذلك لم تقرأ - كعادتها - وجهه الواجم ولا تعبيراته البائسة.. دلفت إلى المطبخ بينما كان هو يحاول أن يدخل إلى غرفته بصعوبة لا متناهية وهو يشعر بأنه يحمل أثقالا على كتفيه من كثرة الإعياء، كانت قطع الأثاث كريمة ورحيمة معه إلى حد بعيد، فقد تعكز عليها واحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى غرفته التي وجدها على حالتها كما تركها. لم تفطن زوجته إلى معالجة الأمر فتسبقه إلى الغرفة لتهيئ الفراش وتجلس بجانبه لمواساته، عودتها إلى المطبخ واستكمال غسل الملابس من دون أن تعبأ بمشاعره زاداه ألما وراح يسأل نفسه: «ما ضرورة المجيء إلى البيت إذن؟!». وبدأت ذاكرته للتو تجتر مواقف زوجته السلبية تجاهه، والتي كان يحسبها في مكان سحيق من الذاكرة يصعب أن تخرج، مواقف مؤلمة حقا: عدم الاكتراث بمرضه، وإهمال مشاعره، وكذلك الترحيب البارد بوالدته عند زيارتها لهم على الرغم من المبالغة في الترحيب بعائلتها! كان يشعر بنفسه تزداد حنقا مع اجترار حوادث الماضي حتى تحول إلى ما يشبه القنبلة التي حان وقت انفجارها.. أسود وجهه القمحي حتى تحول من شدة غضبه إلى فحمة مشتعلة، وشعر أن الصورة المزرية التي أصبح عليها أمام المدير وزملائه إنما هي بسبب هذه الزوجة التي حرمت نعمة المشاعر، ارتفع صوته فجأة: «إننا لسنا زوجين في بيت واحد، بل في جزيرتين بينهما بحر وأمواج عاتية». دارت الدنيا به، وحاول أن يستجمع ما بقي فيه من قوة وقد تحول إلى كتلة غضب وزلزال يشي بهلاك كل شيء أمامه.. ترك غرفته واندفع صوب المطبخ صائحا:

- أنت امرأة عجيبة، كيف لك لم تدركي أن وراء مجيئي باكرا شيئا فتسألي عنه، فلربما كنت مريضا أو حدث بيني وبين أحد مشكلة؟!.

- والله إنك أنت العجيب حقا، ألا ترى ما أنا فيه؟ ثم مالي أنا ومشاكلك؟ أم تريدني أن أذهب معك إلى عملك كي أحلها لك؟!

شعر باختناق قاتل فأجاب على الفور:

- أنت لا يصلح الحوار معك.

ارتفع صوتها، وهي تنفض يديها في وجهه بلامبالاة.

- لقد مللت العيش معك.. كل يوم أسئلة وأجوبة، هيا طلقني لأستريح، وابحث لنفسك عن زوجة أخرى تتحملك.

ارتفع صوتها أكثر وهي تحد النظر وبتحد استطردت:

- هيا هيا طلقني.

لم يشعر بنفسه إلا وقد أرضى رجولته ونطق بكلمة الطلاق، وقد أجهشت الزوجة بالبكاء، فيما كان على الباب الأولاد الصغار قافلين من المدرسة.



الرسول ﷺ ربى جيل النصر على العدل والسلام

المدرسة النبوية في التربية للدكتور الغضبان

السيد المخزنجي
صحافي - عضو اتحاد الكتاب - القاهرة

المدرسة النبوية في التربية للدكتور/ منير الغضبان - أكاديمي وصاحب مؤلفات فكرية وإسلامية عديدة - صدر ضمن سلسلة «تهيئة الأجواء» باللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية - إدارة البحوث والدراسات - الديوان الأميري بدولة الكويت.

يقع الكتاب في نحو (٢٤٠ ص) مائتين وأربعين صفحة، من القطع المتوسط، ويحتوي على مقدمة وخمسة أبواب هي: تربية القائد تربية إلهية، معالم التربية في العهد المكي، ومعالم التربية في العهد المدني، والفتح المبين وانتشار الإسلام، ونصر الله والفتح.

في الباب الأول عرض المؤلف لمعالم تربية الرسول محمد ﷺ وتتمثل في اختيار الله له من بيت شرف ونسب، ويتمه، ورضاعته، ورعيه للغنم بمكة واشتغاله بالتجارة، وما يؤخذ من ذلك من «فقه عمله وكسبه» عليه الصلاة والسلام، وحفظ الله تعالى له قبل البعثة ولقائه مع بحيرا الراهب... وشهوده حلف الفضول،... وزواجه من خديجة وتلقيه للوحي (القرآن) الكريم، ودروس من الوحي.

الباب الثاني معالم التربية في العهد المكي، وتضمن تسعة أمور وهي: الربانية، (شرح المفهوم)، ودعوة التوحيد واعتماد الحوار -منهجا- في الدعوة، وقيادات مكة تدير الحوار، والتربية في المواجهة، والمستضعفون في الأرض، ونماذج الانخلاع من الجاهلية وإعادة الصياغة -الإيمانية- على ضوء هذا الدين، والهجرة إلى الحبشة، وقريش تحاول إعادة المهاجرين إليها، وتخطيط ذكي جديد، ومؤامرة جديدة تتحطم، والشخصيات العظيمة ودورها في نصرة الإسلام (إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نموذجا)، وكف اليد ودورها في نصرة الإسلام. وكف اليد ونصرة الإسلام بأبي طالب وبني هاشم. والتربية على الثبات وتحمل الأذى والآلام، والشعب وفك الحصار... وتربية جديدة للأنصار حتى إقامة الدولة- عقيدة وسياسة... والقاعدة الصلبة للدولة الجديدة.

«ثم معالم التربية في العهد المدني» -موضوع الباب الثالث للكتاب- وتناول فيه المؤلف: التربية المسجدية والجهادية والقيادية، من خلال اثنين وعشرين خطا هي: التربية بالمعركة والحرب، والتربية بالمناورات الحربية، والتربية على الشورى، والتربية بإبراز النموذج، والتربية بالإعراض والترغيب في الآخرة، وتربية الأسرى... والتربية بالقدوة في استئصال العادات الجاهلية، وتربية المنافقين، والمحافظة على السمعة والسياسة والعسكرية، وبث الدعاة لنشر الدعوة، وتحويل الفاتكين المحاربين إلى دعاة مؤمنين، والاستفادة من الطاقات الجديدة، والقضاء على العصبية الجاهلية وتصعيد مفهومها، والقضاء على الخونة المتمالئين مع العدو، وإقامة «الرسول» الكريم ﷺ العدل المطلق الذي قامت به السموات والأرض، ورعاية حقوق أفراد الأمة.

وفي الباب الرابع للكتاب (الفتح المبين وانتشار الإسلام) تناول المؤلف: جيل الدعوة - محمد رسول الله والذين معه -، وتربية جيل النصر في خيبر... التربية على العدل والسلام القائم عليه، والذي قامت عليه السموات والأرض.

والباب الأخير (نصر الله والفتح) فقد عرض فيه المؤلف لنوعين من التربية هما: التربية الجماعية بعد -موقعة- خيبر، والتربية السياسية لصحابة رسول الله ﷺ.

مقتطفات

وفيما يلي بعض مقتطفات من أبواب الكتاب، ففي الباب الأول يشير المؤلف إلى أن تربية رسول الله ﷺ هي تربية إلهية خالصة، لا دور لأي يد بشرية فيها، وهذا ما تؤكده الروايات الصحيحة التي ذكرت في «السيرة النبوية»، وفي حياته ﷺ قبل البعثة، فمن رحمته تعالى أن يتوفى والده، وهو جنين في بطن أمه، والأب عادة هو الذي يربي، وأن يسترضع في بني سعد لأربع سنين بعيدا عن أمه التي تربي عادة كذلك، والسنوات الثلاث التي عاشها حتى وفاة أمه آمنة، كان الله تعالى قد نزع حظ الشيطان من

قلبه، إذ لم يكن هذا لبشر قبله ولا بعده كذلك.

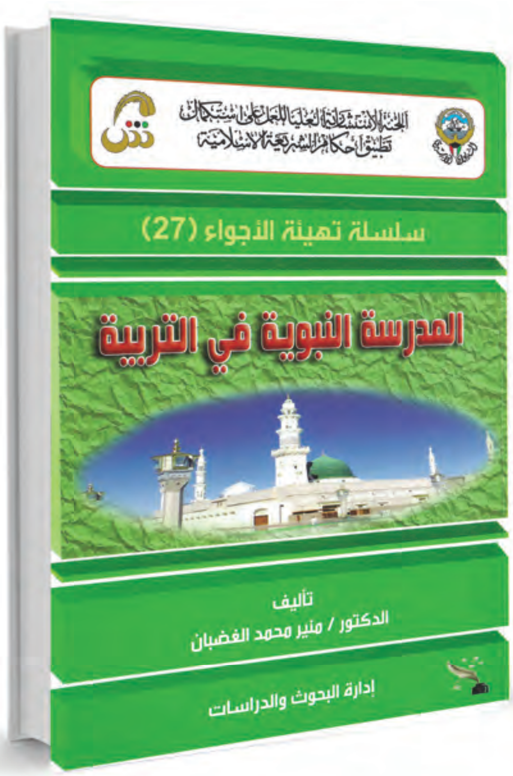
ويعلق د. منير الغضبان على ذلك بقوله: ولاشك أن موقف خديجة رضي الله عنها هو من أعظم المواقف التي شهدها تاريخ الأمة المسلمة، فكانت كما قال ابن هشام: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره ﷺ، أي شدت من أزره وعزيمته ﷺ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، وكان لا يسمع شيئا ممن يكرهه من رد عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه إذا رجع إليها، حيث تثبته وتخفف عليه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس، رضي الله عنهما. واستحقت على هذه المواقف العظيمة أن يقرئها ربها السلام، ويقرئها جبريل السلام، تحية من عند الله مباركة طيبة (ص٦١-٦٢ من الكتاب).

التربية في العهد المدني

أما القطفة الأخيرة من «المدرسة النبوية».. فهي عن «معالم التربية في العهد المدني» وقد تمثلت في ثلاثة أمور، هي: التربية المسجدية، والتربية الجهادية، والتربية القيادية، حيث عرض المؤلف لما سماه بـ «الخطوط العريضة في التربية والبناء» والتي شملت اثنين وعشرين خطا، هي: التربية بالمعركة والحرب، التربية بالمناورات الحربية، والتربية والتدريب على الشورى، ولها ثلاث صور (ص٢٠٣-٢٠٥ من الكتاب)، ثم التربية بإبراز النموذج، والتربية بالإعراض، والتربية بالترغيب في الآخرة، وتربية الأسرى، واستثارة الطاقات الكامنة، وتكليف الأبطال بالمهمات الصعبة، والتربية بالقدوة، والتضحية بأقرب الناس إليه، والتربية بالقدوة في استئصال العادات الجاهلية، ثم تربية المنافقين -هذه الظاهرة الخطيرة التي برزت في الصف الإسلامي، وكان يمكن لها أن تودي بالصف الإسلامي كله لولا عظمة التربية القرآنية والنبوية التي قلصت حزبهم وأفشلت فتنتهم (ص٢١٤-٢١٧ من الكتاب). ثم المحافظة على السمعة السياسية والعسكرية، من خلال نموذجين هما: عمر بن الخطاب حينما طلب من رسول الله ﷺ قتل ابن أبي، فرفض النبي ﷺ ذلك. والثانية: إصراره ﷺ على الخروج لمواجهة المشركين في غزوة بدر. ثم بث أو نشر رسول الله ﷺ الدعاة -من الصحابة- لنشر دعوة الإسلام، وهؤلاء يقول عنهم المؤلف: صحيح أنهم لم يدعوا بلسانهم، لكنهم دعوا بدمائهم، وانتشرت أخبار ثباتهم، وحبهم لرسول الله ﷺ وحبهم للموت، واعتباره فوزا لهم، ولكراماتهم في من صعد إلى السماء، وأن محمدا وأصحابه طراز فريد من البشر، وثقتهم بدينهم وتمسكهم به، واستعدادهم للموت في سبيله يفوق كل وصف.

ثم: تحويل الفاتكين المحاربين إلى دعاة مؤمنين، والاستفادة من الطاقات الجديدة، ثم القضاء على العصبية الجاهلية. وهنا يشير المؤلف إلى أن أخوة الإسلام هي الميزان الذي توزن به أعمال الناس والأشخاص والقيم والأعراف والعصبية. والقضاء على الخونة المتمالئين مع العدو، وفي ذلك يشير المؤلف -على سبيل المثال إلى- العصماء بنت مروان التي كانت تعيب الإسلام وتؤذي رسول الله ﷺ وتحرض عليه وتقول الشعر، وتطرح المحايض في مسجد بني خطمة، أهدر رسول الله ﷺ دمها فقتلها عمير بن عدي، وأبوعفك اليهودي الذي كان يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، وقد نجم نفاقه فقصد إليه سالم بن عمير، فقتله بعد أن قال عليه الصلاة والسلام: «من لي بهذا الخبيث؟».

وبعد.. فالكتاب سياحة علمية ممتعة في السيرة النبوية، بذل فيه المؤلف جهدا محمودا لبيان أسس وملامح المدرسة النبوية في التربية الإسلامية، في مختلف جوانبها العقدية والسياسية والاجتماعية، في العهدين المكي والمدني، التي أدت إلى انتشار الإسلام خارج دولة الرسول ﷺ، فأثمرت نصر الله عزوجل لرسوله والمؤمنين، وجاءت بالفتح المبين الذي تحققت به راية الإسلام وعمت بلاد المسلمين تجسيدا لرسالة الإسلام العالمية، ودينه الخاتم.



ترميمه ضمن خطة البرنامج الوطني للعناية بالمساجد التاريخية

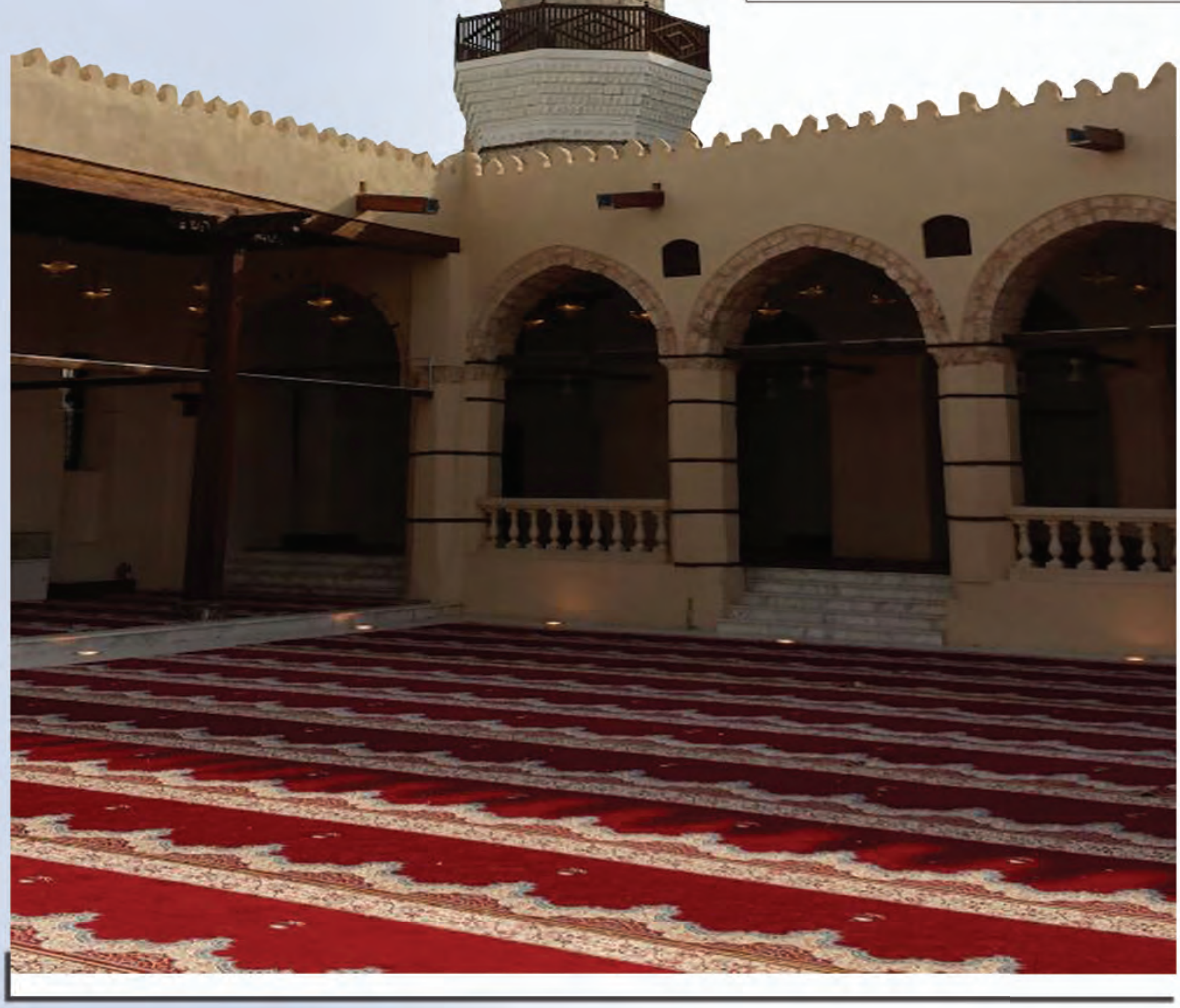
المسجد العتيق يضيء جدة

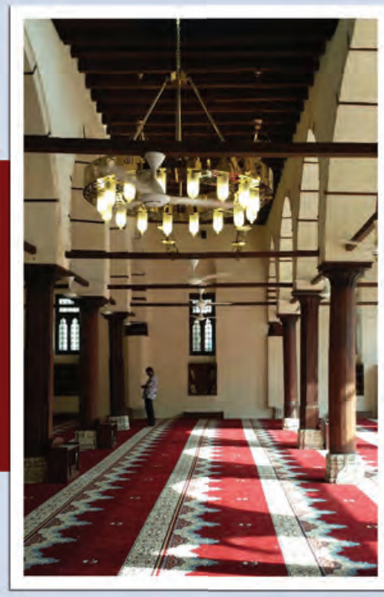
(مسجد الإمام الشافعي يرحمه اللّه)

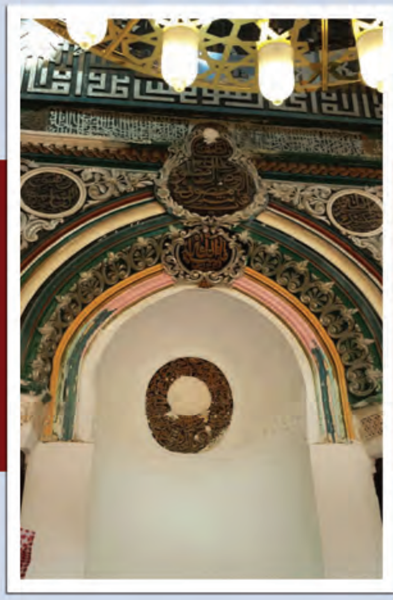
هدايت الله نثار أحمد

تشهد المملكة العربية السعودية حركة ترميم واسعة النطاق للمساجد التاريخية حتى إن عدد المساجد التي اكتمل تنفيذ ترميمها بلغ ثلاثة عشر مسجدا، من أصل ٣٤ مسجدا في خطة البرنامج الوطني للعناية بالمساجد التاريخية الذي حَظِيَ باهتمام ومتابعة ملكية



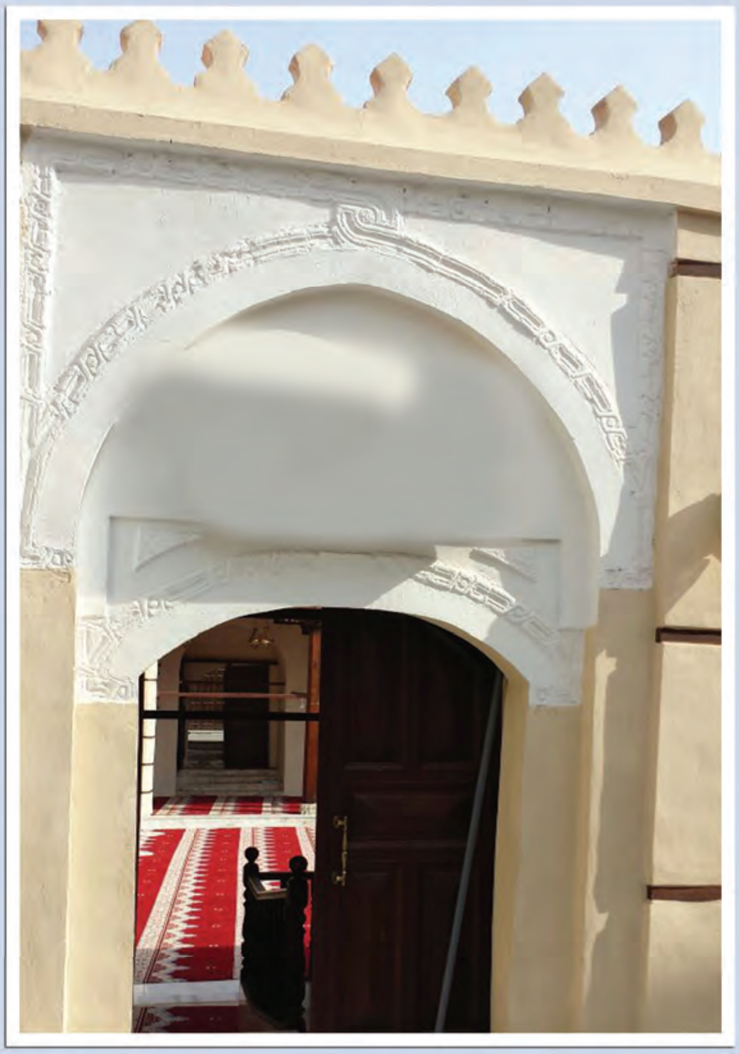








سامية، ويتم حاليا حصر جميع المساجد التي تحتاج إلى ترميم، وقد شهدت إمارة جدة أخيرا افتتاح المسجد العتيق أو «مسجد الشافعي» بعد الانتهاء من مشروع ترميمه على نفقة الملك عبدالله بن عبدالعزيز، رحمه الله، وتكمن أهمية هذا المسجد في أنه أقيم في عهد ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإن كانت أول عمارة للمسجد حدثت في عهد السلطان المظفر شمس الدين يوسف.. يُنسب المسجد إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي أحد أئمة المذاهب الأربعة للسنة، المولود في غزة عام ١٥٠ للهجرة النبوية الموافق ٧٦٧ ميلادية، وقد عُرِفَ باسم الجامع العتيق لقدمه ومكانته، ويمكن زيارة المسجد حاليا بعد ترميمه في حارة «مظلوم» في جدة التاريخية، وسيلاحظ الزائر أن البناء تم باستخدام المواد التقليدية كالطين البحري، والحجر المنقبي، والأخشاب، وهي من المواد الأساسية التي كان سكان جدة يعتمدون عليها.



وكان رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز، قد أعلن عن مشروع ترميم مسجد الشافعي، أثناء زيارته لجدة التاريخية؛ على هامش فعاليات ملتقى التراث العمراني الأول، الذي أقيم مطلع عام ١٤٣٣هـ بجدة.

وقد بدأ مشروع



ترميم المسجد قبل نحو ثلاثة أعوام، من خلال مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز للأعمال الإنسانية. حافظ الترميم على شكل المسجد القديم ونقوشه الإسلامية الفريدة؛ ليكون واجهة مشرّفة تعكس العمارة الإسلامية الفريدة مع إبراز العناصر المخفية نتيجة الترميمات السابقة مثل: الفتحات والنوافذ على الجدران الخارجية، مع إزالة التشوهات والتلبيس القديم المتهالك للجدران.

اهتمام المملكة

وحَظِيَ المسجد باهتمام ومتابعة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز فزاره أثناء زيارته لجدة التاريخية في رمضان من العام الماضي ١٤٣٥هـ واستمع إلى شرح رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار عن المسجد وأعمال الترميم الجارية فيه، وقد أعلن عن موافقته - حفظه الله - على رعاية برنامج خاص للعناية بالمساجد التاريخية في محيط مشروع الدرعية التاريخية، الذي يشمل ترميم ٣٤ مسجدا تاريخيا تقوم به الهيئة العامة للسياحة والآثار ووزارة الشؤون الإسلامية والهيئة العليا لتطوير منطقة الرياض، وحتى الآن تم حصر ٦١٧ مسجدا على مستوى مناطق المملكة، والعمل مستمر لاستكمال الحصر والتوثيق، كما تم استهداف عدد من المساجد التاريخية بالترميم والتأهيل؛ خصوصا في مراكز المدن التاريخية

عمارة المسجد

ويتبين من المصادر أن منارة المسجد جاءت لاحقة على مبناه مربع الأضلاع ذي الوسط المكشوف، فقد بنيت في القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر ميلادي.

ينقسم مسجد الشافعي إذن إلى قسمين، فالجزء الغربي وهو الصحن المكشوف بغرض التهوية مربع الشكل وسط دكة ترتكز على أربعة أعمدة، والقسم الثاني (الجزء الشرقي)، هو إيوان القبلة، ويحتوي على صفين من البوائك، تعلوها عقود مدببة تقسم الإيوان إلى ثلاثة إيوانات موازية لحائط القبلة، وتقوم عقود البوائك على أعمدة بعضها رخامي، وتنتهي بمقرنصات من ثلاثة صفوف، وبعضها الآخر مبني من الحجر.







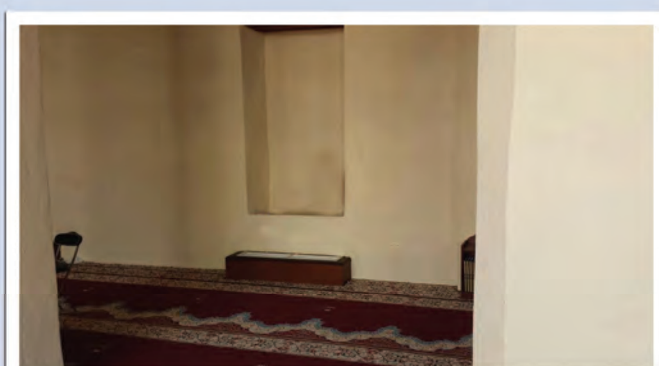
والقرى التراثية الجاري تطويرها.

ترميم قبل ٥٠٠ عام

كانت آخر عملية إصلاح وترميم للمبنى قبل ٥٠٠ عام، ومنذ تلك السنوات والمسجد لم يشهد أي عملية ترميم، والمدهش أنه خلال عملية التنقيب والبحث في المسجد عثر على محراب تحت المحراب الحالي للمسجد يتجاوز عمره ١٠٠٠ عام، كما عثر على أحجار كريمة ومرجان.

مكونات المبنى

تبين أن المواد المستخدمة في بناء المسجد قديما تحتوي على ٢٨ في المئة رمل و١٠,٣ في المئة جبس و٦١,٧ في المئة أخرى، وهناك مادة الرصاص في قاعدة أعمدة المسجد، بالإضافة إلى وجود أساسات بأعماق أكبر نتيجة الردم في الأعوام الماضية بهدف الترميم، وأن بعض الترميمات السابقة استخدمت مادة قريبة من الأسمنت مما قلل من قيمة وجمالية المسجد.



٩ نصائح لبداية الحياة الزوجية

د. آندي حجازي/ علم النفس التربوي



حينما تقبل على الزواج وتخطو هذه الخطوة اعلم أنك بدأت حياة جديدة مختلفة تماما عما كنت عليه سابقا، حياة تمتلئ بالمسرات وبالصعوبات أحيانا، فهي مرحلة جديدة جميلة تعتريها التغيرات والتي بإذن الله تعالى هي للأفضل لأن الزواج سنة من سنن ديننا العظيم التي حث الإسلام عليها صونا للنفس وسموا بها.. ومن هنا فإنني أقدم لك أخي الشاب - المقبل على الزواج أو الذي بدأت به فعليا منذ عهد قريب - بعض النصائح التي قد تفيدك للاستمتاع والاستمرار بالحياة الزوجية بلا مشاكل كبرى بتوفيق الله تعالى، ومن تلك النصائح:

ليكن هدفك إنشاء أسرة

اجعل هدفك الأسمى من الزواج هو إنشاء أسرة وتربية أبنائك على طاعة الله تعالى، وليس قضاء حاجاتك الغريزية فحسب، وقد تتساءل وما قيمة ذلك؟ ولكي تعرف أهمية أن يكون هدفك الأول من الزواج هو إنشاء أسرة، انظر إلى الغرب وكيف أنهم بسبب عدم اهتمامهم بالزواج وبناء الأسر، أصبحت العلاقات بين الذكر والأنثى علاقة صداقة حميمة فقط، يعيشون معا بدون أي رابط أو ميثاق غليظ يربطهم، هدفهم هو إشباع شهواتهم ورغباتهم الجنسية فحسب، والنتيجة أصبحت أن لا أسر لديهم، وظهور جيل كبير من الأبناء لا يعرفون آباءهم، وأمهات بلا أزواج، وأطفال بلا تربية، وأطفال في بيوت اللقطاء، أسر مفككة أو لا أسر أصلا، فأصبحت مجتمعات هزيلة فاسدة أخلاقيا.. شهوانية يتمنون لو يستطيعون العودة لمفهوم الأسرة.. ونحن ديننا الإسلامي حافظ على الأسرة لأنه دين الرقي والتهذيب والسمو الأخلاقي، فهم يحسدوننا على ارتباطنا بأسرتنا واهتمامنا بأفرادها حتى الممات.

الصبر الصبر

اعلم حينما أقبلت على الزواج من فتاة، أنه لا يمكن أن تكون هذه الفتاة تمتلك نفس عاداتك وتقاليدك وأفكارك التي نشأت عليها مهما تقاربت العادات، فهي أيضا نشأت في بيئة لها عاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، وهذا يعني أن تصبر على زوجتك وتصبر هي عليك كي تتعودا على عادات بعضكما البعض،

وغالبا ما تنشأ الخلافات بين الزوجين في بدايات سنوات زواجهما لهذا السبب، وهو اختلاف ما تربى كل طرف عليه، وتوقع كل طرف أن الآخر سوف يسير وفق هواه ومن أول لحظة! لكن تغيير العادات والتقاليد أو الأفكار التي نشأ عليها الشخص أمر يحتاج لأشهر بل إلى سنوات، لذلك عليك بالصبر أيها الشاب إن كنت ترغب من زوجتك أن تتعود على ما تحب وما تكره وما لها وما عليها، وكذلك هي، فالصبر الصبر، ولا تعجل بالانفصال، بل التروي لأن الأيام كفيلة بالتغيير.

الحوار هو الحل الأمثل

الحياة لا تخلو من معكرات المزاج وصفاء الحياة الزوجية، ومع ضغوطات الحياة قد تجد كل يوم ما تختلف عليه مع زوجتك، أو قد تجد سلوكات تعجبك أو لا تعجبك من زوجتك، ولكن إياك أن تبدأ بالحلول العنيفة التي يصعب الإصلاح بعدها، وتحتاج هي إلى حلول كالصراخ على الزوجة أو الضرب أو الهجران، بل ابدأ بالحوار والنقاش والعتاب وإظهار المودة والحنان مع تبيان الأخطاء بطريقة محببة للنفس، فالحوار هو الأسلوب الأمثل للإقناع بالخطأ وتقديم النصائح ووضع النقاط على الحروف.

عبادة مشتركة يومية

حاول أن تتفق مع زوجتك على عبادة تؤديانها مع بعضكم البعض وتستمران عليها مادامت الحياة بينكما، كالصلاة الجماعية لبعض الصلوات، أو الصيام في أيام معينة كالخميس مثلا، أو الصدقة المشتركة كوضع حصالة في البيت للصدقة، أو حفظ سور من القرآن الكريم وتشجيع بعضكما البعض كحفظ السبع المنجيات والكهف، أو قراءة بعض الصفحات اليومية المشتركة من القرآن الكريم، أو التسبيح والاستغفار لمدة محددة يوميا... فاعلم أنك إن بدأت حياتك بطاعة يومية مشتركة بينكما؛ فإن بركة هذه الطاعة ستنعكس على حياتكما وأسرتكما حفظا لها وسعادة ورزقا ومحبة ومودة بينكما.

رسائل المحبة

فلكي تدوم السعادة بينكما فليس عيبا أن تعبر عن مشاعرك لزوجتك أو تعبر هي كذلك عن مشاعرها لك، مهما تقدم بكما العمر، فلا تجعلا هذه التعبيرات فقط في مرحلة الخطوبة، ثم تنتهي بلا رجعة، فالحياة تحتاج إلى شريك محب تشعر بمحبته قولا وفعلا؛ فيبث لك مشاعر ورسائل المحبة ليخفف عنك صعوبات الحياة، فتذكر كيف كان رسول الله ﷺ يظهر محبته لزوجاته كالسيدة عائشة رضي الله عنهن.

انتظار هدأة النفوس

حينما تغضب أيها الزوج حاول أن تتمالك نفسك والتروي وأن لا تبدأ بالصراخ أو الشتائم أو توجيه الاتهامات واللوم، بل حاول تأجيل أقوالك قليلا إلى حيث تهدأ نفسك، خوفا من الوقوع فيما لا يحمد عقباه، والزوجة الذكية تسكت حينما ترى غضبا باديا من زوجها، لأن محاولتها الرد عليه بنفس الأسلوب وكلمة بكلمة سوف يؤجج النار بينهما، مما يوصل الخلاف لمراحل يصعب التراجع عنها أحيانا، وقد يوقع الشيطان بينهما العداوة والبغضاء، وسكوتها لا يعني دمارا لكرامتها، بل ذكاء وحكمة.

التعامل باحترام

إن لك القوامة في البيت طالما أنك تقوم بواجباتك كالإنفاق على البيت ورعاية الزوجة والأبناء والالتفات لحاجاتهم وحل مشاكلهم، ولكن القوامة لا تعني عدم احترام الزوجة أو التقليل من شأنها أمام الآخرين أو حتى أمامها هي، فلا تحاول التقليل من قيمتها أو إقناعها بأنها لا تعقل شيئا أو لا قدرة لديها على حل المشكلات واتخاذ القرارات الصائبة، لأن لا شيء يورث الكراهية بين الزوجين أكثر من التحقير أو التحطيم النفسي والذي يصعب جبره أو احتماله، فالزوج العاقل يحترم آراء زوجته ويسمع لها ويشعرها بالاهتمام لما تبديه من أفكار وطروحات.

تعرف الأقارب

قم أيها الشاب في بداية حياتك الزوجية بزيارة أقاربك وأقارب الزوجة من أعمام وأخوال وعمات وخالات.. من أجل تعريف الزوجة عليهم، وفي المقابل تعرف أنت كذلك على أقربائها، فهذا مهم من أجل تعرف العائلة الكبيرة وصلة الرحم والتواصل الاجتماعي، خاصة إن كان منهم كبار في السن فتلك أيام لا تنسى حين الالتقاء بهم والجلوس معهم وتعرف أفكارهم والتعلم من حكمتهم.

التنزه والسفر معا

من الجميل جدا الخروج في نزهات ورحلات ترفيهية وسياحية داخل البلد وخارجه، والاستمتاع بجمال الطبيعة مع شريكة حياتك الجديدة، خاصة في أشهر وسنوات الزواج الأولى، وقبل ازدحام المسؤوليات الأسرية وتوالي الأبناء، وتلك الرحلات تنشط العقل والروح وتجدد الطاقة، وتعطي تفاؤلا بالحياة، وليس بالضرورة الخروج وحدكما، بل مع بعض أهل الزوج أو الزوجة، فهذه أمور لا تنسى بمرور الوقت، خاصة التي تكون في بدايات الزواج ومع الأهل والأحباب، وتعين على توطيد العلاقات، وتوسيع المدركات.



التربية الجمالية عند الطفل

محمد شعطيط
باحث تربوي

بصمات الجمال في الشرع والكون استشعار الجمال وتذوقه فطرة في النفس البشرية. ونعمة العقل التي ميز الله بها بين الإنسان وغيره من المخلوقات أعطاها الله ملكة التمييز بين الجميل والقبيح. وقد اعتنى الإسلام بالجمال في شتى مظاهره وصنوفه. فالله سبحانه وتعالى جميل يحب الجمال. وكتاب ربنا قال عنه العدو قبل الصديق: والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه (١).

ونبينا الكريم جمع من كريم الصفات الخَلقية والخُلقية ما جعل من يراه يقول: ليس هذا بوجه كذاب (٢).

وقد رآه الصحابي الجليل جابر ابن سمرة رضي الله عنه فقال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان – مضيئة مقمرة – وعليه حُلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر (٣).

كما أن لباسه ﷺ كان غاية في الروعة والبهاء. يقول عنه الصحابي الجليل البراء بن عازب رضي الله عنه: ما

رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ (٤). وكان يأمر أصحابه أن يصلحوا رحالهم ويصلحوا لباسهم حتى يكونوا كالشامة في الناس (٥).

وكان قمة في جمال الأخلاق وحسن العشرة وسائر الخصال، حتى قال عنه ربنا الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم:٤).

أما إذا انتقلنا إلى أوامر الشرع ونواهيه فنجد مراعاة الجمال حاضرة. فالذهاب إلى المسجد يكون بأبهى حلة وزينة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ (الأعراف:٣١) وكان النبي الكريم ﷺ إذا رأى رجلا شعثا قد تفرق شعره يقول: أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره (٦).

وقد كان رسول الوحي جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي، وكان من أجمل الصحابة رضوان الله عليهم.

والأذان يكون بالأجمل والأندى صوتا كما أشار بذلك الرسول ﷺ للصحابي الكريم عبدالله بن زيد حين قال له: ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتا (٧). حتى تستشعر النفوس جمالية الدين من خلال جمالية وروعة النداء.

وإذا تتبعنا صيغ الجمال ومفرداته في القرآن نجدها تتكرر في أكثر من موضع: عند الحديث عن جمال الكون وما بث الله فيه من صور الإبداع من نجوم وسماء وكواكب، هذا في الجمال العلوي أما السفلي فقد نبه الشرع إلى خلق الأرض وما أبدع فيها من أزهار وأنهار وبحار وأنعام ودواب وريش وزينة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٤).

إضافة إلى التنبيه على جمال خلق الإنسان ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾﴾ (التين:٤). والتعامل مع الناس لا يكون إلا بالقول الجميل الحسن ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ (البقرة:٨٣) وبالصبر الجميل، والهجر الجميل والصفح الجميل كما في الآيات الكريمات. فسبحان الله والحمد لله.

إن تربية أبنائنا على تذوق الجمال إنما هي دعوة إلى شكر الله وحمده على ما أنعم به علينا من النعم الغزيرة، والآلاء الكثيرة. فكل فضل وخير إنما هو منه سبحانه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ (النحل:٥٣). يقول الإمام الغزالي عليه رحمة الله: «لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسنات الله وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده، سواء أدرك هذا الجمال بالعقول أو بالحواس. وجمال الله تعالى لا يتصور له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود» (٨).

فتربية الأبناء على استشعار الجمال - بشتى تمظهراته - هو تربية على الإيمان برب هذه النعم وخالقها ومنشئها. وكثيرا ما نسمع عبارات تتردد في وسائل الإعلام عند إشهار ماء طبيعي أو غيره من المواد المستخلصة من الطبيعة تقول: it is the gift of nature أي هذا هبة من الطبيعة، وهو صرف للبوصلة وتحريف للفطرة عن الإشارة إلى الفاعل الحقيقي في الكون والخالق الفعلي لهذه النعم والمبدع المستحق للشكر على هذا الجمال. يقول الإمام القرضاوي حفظه الله: وبعض الحضارات تغفل هذا الجانب وتوجه أكبر همها إلى محاولات الإنسان إلى نقل جمال الطبيعة على حجر أو ورق، أو غير ذلك، فهو يرى السماء أو البحر أو الجبل، أو الأنعام، ولا يلتفت إلى ما فيها من سر الجمال الإلهي، وإنما يلتفت إليها حين تنقل إلى لوحة، أو صورة مشكلة، فليت شعري أيهما أهم وأقوى تأثيرا في النفس البشرية: الأصل الطبيعي أم الصورة المقلدة؟ (٩).

الجمال جمالان

بعض الفلسفات تجعل الجمال مقتصرا على الأشياء المحسوسة دون غيرها، وبعضها يجمع بين الجمال المادي والمعنوي. جمال الروح وجمال الجسد. وهذه النظرة هي التي تتماشى مع رؤية الإسلام. فكما دعا إلى العناية بالجسد تزينا ونظافة ولباسا وحفظا من سائر المحرمات والمعاصي التي تضر به، دعا إلى العناية بالروح والنفس تزكية وتطهيرا ورفعة. قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ (الأنعام:١٢٠).

فالتربية الجمالية للطفل ينبغي أن تعتني بهذين المجالين دون إفراط ولا تفريط: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (القصص:٧٧).

مفهوم التربية الجمالية في الإسلام

إن تعريف التربية الجمالية في الإسلام يحتم علينا دراسة مفهومي التربية والجمال في المنظور الإسلامي، وهذا ما لا يتسع له المجال. ولهذا يمكن أن نقول وبعد الاطلاع على مجموعة من التعاريف لعدد من الكتاب والمفكرين (١٠)، مع استحضار أن الخلاف حول تحديد ماهية التربية المنشودة والخلاف حول مفهوم الجمال بين الإسلام والمذاهب الوضعية يعطي نتائج تصل أحيانا

إلى حد التباين. فالمدخلات المختلفة تعطي بالطبع مخرجات متباينة. فإذا تجاوزنا هذه النظرة يمكن القول وباختصار شديد: إن التربية الجمالية في الإسلام هي تنمية قدرة الإنسان على التعبير الجمالي من أجل تهذيب علاقته بربه وبني جنسه وبالكون. فالإسلام لا ينظر إلى الجمال كهدف في حد ذاته، بل هو - حسب نظرنا - وسيلة لتحقيق أعلى المقامات الجمالية، سواء في علاقة العبد بربه أو بمحيطه. وهو باختصار ما دعا إليه الحديث النبوي الشريف: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» (١١).

تذوق الجمال

١- الحفاظ على الموجود

عندما يذهب المرء إلى فسحة في الطبيعة فإن أول ما يفكر فيه عندما يجد أزهارا مبعثرة وعشبا مقتلعا ونفايات.. أن شخصا أو أكثر قد مروا من هذا المكان. وذلك لأننا نفهم المتعة والترويح والجمال في اكتسابه والاستئثار به دون غيرنا من الناس. ولو أن كل شخص دخل حديقة عمومية فقطف زهرة أو وردة وكسر غصنا لما بقيت هناك حديقة ولا منظر تهوي إليه النفوس بعد عمل النهار ونهاية الدوام. فأول خطوة لتربية الأبناء على تذوق الجمال هي دعوتهم بالحال والمقال إلى الحفاظ على الموجود مع التدبر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦).

٢- الربط بين الكتابين: المسطور والمنظور

الربط بين جمالية الكون وبين نصوص الشرع ربطا تربويا حكيما دون تعسف وتكلف. مع اجتناب الوعظ المباشر والنصح البارد الممل. وذلك باستحضار النص المناسب وقراءته قراءة عابرة على مسمع الطفل عند رؤية منظر طبيعي أو غروب شمس خلاب أو غيرها، كقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل:٦١). وهكذا يتم الربط النفسي بين الكون وما بث الله فيه من روعة وبين الخالق سبحانه وشرعته السمحة. كما يفعل أهل الدنيا في الإشهار في الربط بين بعض المنتجات وبين جسد المرأة دون علاقة تجمع بينهما سوى ابتغاء الربح. وقد ذكرت بعض الجرائد أن رب شركة اتفق مع مخرج فيلم على عرض منتج للشركة - وهو عبارة عن مشروب غازي - في أحد أقوى لقطات فيلم في جزء من الثانية. فكانت الحصيلة أن ثلثي من شاهدوا الفيلم في قاعة السينما اقتنوا ذلك المنتوج عند خروجهم من القاعة.

فإذا تم الربط اللبيب الحكيم بين ما أودعه الله من جمال في الكون وبين ما سطره المولى في كتابه الكريم تربى الطفل على حب الله عزوجل وحب شرعه وعلى تقدير الجمال وتذوقه واستشعاره مع نسبته إلى الخالق المبدع الحكيم. والعجب من أناس يترددون على المعارض الفنية ويطوفون ويعجبون ويطرون الرسام والمبدع، وينسون الخالق العظيم والمبدع الكبير الذي ما نقل الرسام إلا عنه سبحانه، كما نقلنا عن علمائنا سابقا.

٣- الاهتمام بالتربية الجمالية في المناهج

من أهم دواعي تطوير التربية الجمالية إعطاؤها بعض الأولوية في المناهج التربوية والمقررات الدراسية، مع زيادة وعي المدرسين بأهمية هذه المادة. فكثيرا ما تعطى الأولوية لبعض المواد على حساب مواد التربية الفنية والتذوق الجمالي، وهذا ما يقلص من حجم الثقافة الجمالية ويجعل تنمية الإحساس والشعور بالجمال ضمن الكماليات وعلى الهوامش وأثناء فترة ملل المدرسين أو شعورهم بالتعب. مما يجعل المتعلم يحس بأن الظاهرة الجمالية هي عامل ثانوي «إن الاهتمام بمناهج التربية الفنية في التعليم العام بوضع مساحة لدراسة النقد الفني والتذوق الجمالي للفنون يساهم في الارتقاء بمستوى الذوق العام لدى النشء» (١٢). وقد تنبه أحد رواد التربية الحديثة وهو المدرس السويسري: بستالوزي إلى افتقار التربية الحديثة إلى التنشئة الجمالية فقال: إن الطبيعة مملوءة بمناظر الفتنة والجمال، ولكن المدارس لا تصنع شيئا لتوقظ في الأطفال هذه العاطفة (١٣).

٤- فضاءات أخرى

تحضر هنا مجموعة من الفضاءات التي تساهم في الترقي بالذوق الجمالي عند الطفل مثل: فضاء المنزل الذي يجب أن يكون راقيا مليئا بالإحساس والذوق، بحيث لا تقع عين الطفل فيه إلا على جميل، ولا يشم إلا طيبا، مما يعزز لديه الثقافة الجمالية «لأن الطفل يستقي القيم الجمالية من بيئته التي تشبع وجدانه، وتروي أحاسيسه المتعطشة لما هو جميل». كما أن وسائل الإعلام يمكن أن تساهم في ترقيق المشاعر وتنمية الذوق والحس الجمالي

عن طريق بث برامج فنية وجمالية ومقاطع فنية رائعة في مختلف الفنون. والارتقاء بذوق المشاهد دون النزول به إلى درجة الإسفاف بحجة تلبية الرغبات ورفع نسبة المشاهدة. وللمرء أن يتساءل: من نزل بالمشاهد إلى هذه الدركات قادر على الارتفاع به إلى أعلى المقامات. فدور الإعلام من الخطورة بحيث لا يخفى على ذي عقل، كما يمكن إضافة فضاء المعارض والمسارح والزيارات الميدانية للمتاحف والمكتبات، وتزيين الفضاءات العامة ومداخل المدن والإدارات والمصالح والمعاهد، دون إغفال تزيين المدارس ورياض الأطفال ومحطات القطار والحافلات وغيرها... كما يجب ألا ننسى الفضاء الكبير والجنة المفتوحة التي نحملها معنا أينما رحلنا وارتحلنا: الأصغرين؛ القلب واللسان. القلب الجميل واللسان الطيب الذي يسيل رقة وعذوبة، فالجمال الحقيقي ينبعث من الوجدان، ويظهر أثره على الجوارح وملكها اللسان.

فوائد التربية على تذوق الجمال

١- الحفاظ على الفطرة والنشأة السوية

تقدير الجمال وتذوقه يؤدي بالطفل إلى حب كل جميل واستحسانه وتمثله، سواء في الأخلاق أو الأفعال أو التصرفات. فالطفل الذي نشأ لا يسمع إلا الكلمة الجميلة ولا يرى إلا المنظر الجميل ولا يلبس إلا اللباس الجميل - وليس بالضرورة الجديد - ينشأ النشأة السوية التي جبله الله تعالى عليها: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (الروم:٣٠).

وأغلب الظن أن مشاهد العنف والإجرام والإرهاب إنما تولدت عن نفس تربت في أحضان الصراع والحقد والبغض والكراهية، وفي بيئة لا تقدر الأخلاق الجميلة ولا الإبداع والفن والجمال، سواء في الكتاب المسطور أو الكون المنظور.

٢- الصنعة دالة على الصانع

هل سبق وفكرنا لماذا أمرنا الله عزوجل بالتسبيح عند طلوع الشمس وعند غروبها، لماذا هذا الذكر عند هذه الأوقات بالذات، وعند ميل هذا المخلوق للغروب او إشراقته البديعة في الصباح؟ إنها إحدى مظاهر عظمة الصانع سبحانه. وهذا التفاعل/ التسبيح هو الذي يعطي لهذه الحركية معنى. التسبيح تنزيه، والمخلوق ليس هو الخالق، ولذلك حرفت بعض الأمم البوصلة وعبدت الشمس، لأنها ظنت أن هذه العظمة والنور مستقلة بذاتها، لكنها غفلت عن أن هذه العظمة والجمال والبهاء إنما هي خلق من خلق الله تعالى. فبتفاعل الطفل مع مخلوقات الله وما جعل الله فيها من روعة وإبداع تبقى صلته بالله متينة. ويستشعر عظمة الله في كل حركة وسكون، وهو دائم الترداد بلسان قلبه وجارحته: سبحان ربي العظيم.

خاتمة

إن التنافر الذي نبتدعه بقصد أو بغير قصد بين جمالية الروح وجمالية الكون وجدران الجفاف التي نبنيها بين أبنائنا وبين ما خلقه الله عزوجل من إبداع وصنعة يضر بهذه الأغصان الطرية والبراعم الفتية ويفقدها رونقها وبهاءها ونضارتها. فلنجعل من أبنائنا باقات ورود متفتحة تعشق الجمال وتتحسسه وتتذوقه.. الجمال في شتى لوحاته: خَلقا وخُلقا، لأنهم أمانة في أعناقنا ونحن مكلفون بالحفاظ على فطرتهم لأنه كما ورد في الحديث: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

الهوامش

١- أخرجه الحاكم (٣٨٠٠) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٣٢)، قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

٢- وردت في حديث عبدالله بن سلام رضي الله عنه: فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. أخرجه ابن ماجه (٣٢٥٠) والترمذي (٢٤٢٢).

٣- أخرجه الترمذي (٢٨١١) وفي «الشمائل» (١٠) والدارمي (٥٧) والحاكم (٧٤٤٥) والطبراني في «الكبير» (١٨٤٢).

٤- أخرجه الإمام مسلم (٢٣٣٨).

٥- أخرجه الإمام أحمد (١٧١٧٠) والحاكم (٧٤٣٣) وصححه ووافقه الذهبي.

٦- أخرجه أبوداود (٤٠٦٢) وهو حديث صحيح.

٧- أخرجه أبوداود (٤٩٩) وهو حديث صحيح.

٨ - «إحياء علوم الدين» أبوحامد الغزالي، دار المعرفة للنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص: ٣٠٦.

٩- الإسلام والفن، الشيخ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط:١(١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص: ٦-٧.

١٠- انظر على سبيل المثال: أضواء على التربية في الإسلام، القاضي علي، ط:١، دار الأنصار، ١٩٧٩م.

١١- أخرجه الإمام أحمد (٢١٤١٢) والترمذي (١٩٩٤) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

١٢- معايير قيم التربية الجمالية في الفكر الإسلامي والفكر الغربي، دراسة مقارنة، إعداد الدكتور زياد علي الجرجاوي، ٢٠١١م، ص: ٩، بتصرف.

١٣- المصدر السابق، ص:١٧.



١٥ نصيحة للزوجات لكسب قلوب الحموات

نجلاء محفوظ
خبيرة تنمية بشرية

تشكو زوجات كثيرات من سوء العلاقة مع الحموات، ويوجد مثل: «الحماة عمى أو أم ثانية من السما»، ولن تكون الحماة أما ثانية إلا نادرا، وبإمكاننا ألا نجعلها عمى.
أخبرتني فتاة: «صديقاتي نصحنني بترويض حماتي». استوقفتني الكلمة، فالترويض لا تقال إلا للوحوش والحيوانات، فكيف نتوقع نجاح علاقة تبنى على هذا التفكير؟

تستطيع الزوجة - إن أرادت - الفوز بعلاقة ناجحة مع حماتها، أو كسب حيادها ومنعها من إيذائها بتذكر الآتي:

١ - لا تدخلي في منافسة معها حول من صاحبة التأثير الأقوى على زوجك.

زوجة صرخت بوجهي: «مهما فعلت لا ينسى أمه».

سألتها عن علاقتها بوالدها فردت: أحبه.

قلت: ألم يؤثر حبك لزوجك على حبك لوالدك؟

قالت: كلا.

هتفت: زوجك يحبك ويحب والدته ولا تعارض بين الحبين.

٢ - لن ينسى أمه فلا تدخلي في صراع خاسر، كوني ذكية أو لا تأمني له إن فضلك عليها؛ فمن يبع أمه يسهل عليه ظلم زوجته.

٣ - عاملي حماتك بلسان حلو وسيحبك زوجك أكثر عندما يحس باحترامك له وتقديره أمام أهله.

اختاري

٤ - تثور معارك كثيرة مع الحموات حول تربية الأبناء وإدارة البيت، وتوجد خيارات:

● هذه حياتي وحدي، أنا متعلمة وسأدير حياتي بتفكيري، وأمي لا تكلمني هكذا ولا تتدخل في حياتي وسيفتح أبواب النكد.

● تجاهل لكلام الحماة وعدم الرد، كما أخبرتني زوجة، والتجهم بوجهها، والانفجار بوجه الزوج وقول: والدتك قالت كذا وكذا، وتحاملت على نفسي ولم أرد، وأريد حقي. وتوقع تراجع الحماة، وقد يحدث، وتحس بالضغينة، وقد تلجأ الحماة إلى العناد وتتدخل بحدة أكثر.

● خيار ثالث تهدئ نفسها وتريح ملامح وجهها وتتعامل بذكاء.

٥ - لا تتوقعي أن كل ما تقوله خطأ، فبعض معلوماتها صحيحة فاستفيدي منها.

ولو كلامها خطأ فلن تخسري عندما تعامليها بلطف.

احذري

٦ - لا تقولي لزوجك والدتك قالت كلاما خاطئا، فسيؤلمه، ويوغر صدره ضدك، وقد ينتقم بمضايقة أهلك.

٧- حددي مطالبك من حماتك بألا تحرض ابنها ضدك، ولا تحاول إجبارك على ما تكرهينه، أو توجه إهانات.

٨ - من حقها أن تفعل بحياتها ما تريد وأن تقول كلاما خطأ بالتربية وأمور البيت.

٩ - جامليها بلطف، ولا تقولي أتحامل على نفسي وليته يقدر، فهذا عبء سيجعلك تتوقفين أو تنفجرين بوجهها أو بوجه زوجك.

قولي لنفسك: أحسن معاملتها لإسعاد نفسي ولتجميل حياتي. وتقليل الصراعات يمكن بتجنبها واحتواء بدايات المشاكل، وهو ذكاء، فمهما كانت عيوبها فهي أم زوجي وجدة أولادي، عندما أعاملها جيدا لن تحرضه وستعامل أولادي جيدا وسأسعد.

والعكس إذا كانت علاقتنا سيئة.

كوني ذكية

١٠ - يسمع كلام والدته، وتستمعين لكلام والدتك لتستفيدي بخبراتها، وينفذ كلام والدته، لأنه «يتفق» معها بالرأي وربما بالميول.

١١ - التعامل بود ومن دون تحفز مع والدته، ولا تحكي لصديقاتك فسيقمن بتحريضك ضده هو وأمه، والذكية تكسب قلب حماتها.

١٢ - لا تتذكريها إلا عند رؤيتها فقط، قولي لنفسك حماتي ليست أسوأ امرأة بالكون وسأحسن معاملتها لإرضاء ربي ولإنجاح زواجي، وليتعامل معي جيدا أزواج بناتي مستقبلا.

١٣ - تجاهلي ما يسوءك منها، واجعلي ملامح وجهك مسترخية، وتصرفي بهدوء، فما نخفيه بألسنتنا يبدو واضحا على ملامح وجوهنا، فسيبدو عليك أنك تضيقين بها وتحرضين عليها.

١٤ - ابدي اهتمامك، باعتدال، بصحتها، وابتسمي بوجهها، وأشعريها بأنك تحبينها، وتوقفي عن تغذية مشاعرك ضدها.

١٥ - حماتك لن تخسر بضيقك منها، وستخسرين وحدك، وبهذا نصحت زوجات، وعندما نزعت الزوجة فتيل الغضب والضيق من الحماة فازت بالراحة، وقالت لي إحداهن: أتعبت نفسي بلا جدوى، وتحسنت معاملة الحماة لشعورها أن زوجة الابن تعاملها بود.



وله القلب

بلال المريسي
كاتب يمني

لا أجد في نفسي أعمق ولا أرق ولا أعذب معنى من الحب فأرسله إليك أخي القارئ الكريم، فهو روح المشاعر ونسيمها العذب.

وهو ذلك البلسم الذي يداوي جراح المتعبين، ويخفف آلام المحرومين، ويواسي قلوب المحزونين.

الحب هو ماء الحياة، وغذاء الروح، وقوت النفس، وربيع العمر، به تشرق الوجوه، وتبتسم الشفاه، وتتألق العيون، وتسكن الأفئدة، وتعم السعادة. إذا عاش في قلب إنسان، أشعل فيه جذوة الأمل، ورسم له خريطة النجاح، ودفعه في عزيمة وإصرار نحو تحقيق أهدافه، فنال بذلك أسمى المراتب وأرقى الدرجات، وتذوق معنى الحياة وطعمها الرائع الجميل.

مثله الشاعر إقبال بقوله: «الحب إذا تجرد منه إنسان كان صورة من لحم ودم، وإذا تجردت منه أمة كانت قطيعا من غنم، وإذا تجرد منه شعر كان كلاما موزونا مقفى فحسب، وإذا تجردت منه عبادة كانت طقسا من الطقوس وهيكلا بلا روح، وإذا تجرد منه كتاب كان حبرا على ورق، وإذا تجردت منه مدينة أصبحت تمثالا لا روح فيه، وإذا تجردت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليدا أو تكليفا لا متعة فيه ولا حافز له، وإذا تجردت

منه حياة كلت الطبائع، وجمدت القرائح، وأجدبت العقول، وانطفأت شعلة الحياة، واختنقت المواهب». فلله درك يا شاعر الإسلام، أدركت معناه وحقيقته، وذقت طعمه ونلت ثمرته، فذهبت تشدو به بين الناس، فليتهم عرفوه كما عرفته، وأدركوا سره وعذوبته.

قال ابن منظور: هو في اللغة: الوداد. وقال الجوهري: ينطق بضم الحاء وبكسرها، ويجمع أحباب وحبان، والحباب. والأنثى (حبة)، ومنه حديث فاطمة الزهراء حين قال لها ﷺ عن عائشة: «إنها حبة أبيك».

وقال الراغب: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرا، وهو ضربان: طبيعي؛ ويكون في الإنسان والحيوان وقد يكون في الجمادات. والآخر اختياري؛ ويختص به الإنسان.

وإنني في هذه اللحظات، التي أنسج فيها هذه الأسطر من أعماق قلبي، وأهديها إليك أخي القارئ الكريم مع عبق الزهور وأريج المسك والرياحين، لا أتصور أن مخلوقا على وجه الأرض خال من هذه المشاعر أو محروم من هذه المعاني.

إنني لن أخصص حديثي عن حب شخص لآخر أو حبه لجماعة أو فئة أو أسرة أو منطقة أو بلدة.. إنما أتحدث عن الحب الذي يلتحفه جميع الناس، لنعيش معا في رحاب الحياة الجميلة متذوقين طعمها الرائع. نعم، أتحدث عن ذلك الحب الذي نسجت أحرفه من النور، الحب الذي ينبع من القلب، ويحلو بالصدق، ويكبر بحسن الظن، لا ينتهي بالوداع وطول الغربة، بل هو شوق وترقب وانتظار.

وأعظم الحب وأحمده ما كان في الله ولله، فكل محبوب عذاب على محبه إلا الله عزوجل، ورسوله ﷺ، قال سيد قطب: «حب الله لعبد من عبيده، أمر هائل عظيم، وفضل غامر جزيل، لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه».

لن أضيف إليك بجديد أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان؛ بل به تذق حلاوته وطعمه، وقد جاء الهدي النبوي في إخبار من تحب لتأنس نفسه، وتسكن مشاعره تجاهك، وتثمر تلك المحبة في الله وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ ويكفي من ذلك منابر من نور على عرصات القيامة.

وهذا الحب العظيم من غير اتباع دعوى فحسب، ومن غير إخلاص بلوى لا أكثر، ومن غير نجوى وقرب حسرة وندامة.

فإذا ما استقر حب الله ورسوله في القلب جاء الحب لما أحباه ومن ذلك: الصحابة الكرام، مشاعل الهداية، وخير الخليقة بعد الأنبياء، هم الراضون المرضيون، فتحوا الأمصار بسمو أخلاقهم، وعلو تربيتهم، ومما يؤلمني ويؤلم كل غيور على دينه ما نسمعه اليوم من بعض الخبثاء المارقين الذين يشوهون صورة أولئك الأبرار، ويوغلون في الصدور بغضهم وكراهيتهم، وما مثل هؤلاء إلا كذبابة وقعت على نخلة شامخة فلما أرادت أن ترحل عنها قالت: أيتها النخلة تماسكي فإني راحلة عنك! فأجابتها النخلة: وهل أحسست بك أصلا حين وقعتي علي؟! فاللهم إنا نشهدك أننا نحب صحابة رسولك كما أحبهم ﷺ، اللهم فاجعلنا خير خلف لخير سلف.

أخي القارئ الكريم، ليس يغيب عنك اليوم أن العالم اكتظ بمشاعر الأسى والبؤس، وبأمواج عاتية من اليأس والقنوط والحرمان، جعلت الكثير من الناس لا يوجد في قلوبهم مجال للحب ولا مساحة له، فما أحوج هذه اللحظات إلى قلب يهتف بالحب والإخاء.

ولكي يسود الحب بين البشر لابد أن يكون منطلقه من داخل الإنسان نفسه، فإذا استقر به قلبه، رقت مشاعره، وسمت نفسه، فيمتلئ قلبه رقة يعامل بها من حوله، فلا يصدر عنه إلا جميل الخصال، وحميد الخلال، ومحاسن الأفعال. ومن هنا تبدأ دائرة الحب بالتوسع، فتشمل ألصق الناس بك، وأحوج الناس إلى لين جانبك وحسن تعاملك «أهلك»، وفي مقدمتهم أمك، كيف لا وهي قسيمة الحياة، وموطن الشكوى، وعتاد البيت، وعاطفة الرجل، ومدار الوجدان، ومشرق السعادة، ومنبع السخاء، ومحل الهنا.

سئلت أمٌ: من أحب أبنائك إليك؟ فأجابت إجابة تشفي العليل قائلة: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود.. يا لروعة مشاعرها ورهافة حسها. ويأتي من بعدها الرجل الوحيد الذي لا يمانع في أن تكون خيرا منه، كما أنه لا ينسى أبدا شقاءه وعناءه في سبيلك، إلا أن يراك بارا مستقيما، فإذا ما وجدك على غير ذلك، فإن ندمه يبدأ عليك منذ ولادتك حتى يفارق أحدكما الحياة، فرد إليه محسنا بعض معروفه، وتذكر أن «الوالد أوسط أبواب الجنة» كما جاء في الحديث.

والأقربون الأقربون هم أولى الناس بمحبتك وعطفك. وإني لأعجب من إنسان يجعل حبه وخيره لغير أهله، ونسي هذا المسكين: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، إذ كيف يتصور بيت قائم على أركانه من دون حب، فالزوجة محتاجة إلى حبك وحنانك، يعوضها ما كانت فيه عند أهلها. وحبها والتودد إليها دليلان على الكمال الإنساني لمن يسعى إليه، فقد سئل ﷺ: «من أحب الناس إليك؟»، فلم يستطع أن يكتم حب زوجته عائشة؛ فأعلنها على الملأ: «عائشة». هكذا باسمها؛ فكان

أول حب في الإسلام، كما ذكر ذلك الزهري، وأما السيدة خديجة فقد قال ﷺ: «إني رزقت حبها».

ولقد حاز الحب الدور الأسمى في تربية الأبناء؛ لما يثمره من الأخلاق الجميلة، والطباع العذبة الرائقة، والمعاني اللطيفة، والمشاعر المرهفة، والعبارات المهذبة. ومن هنا، لابد من التنبيه على أمرين يجعلهما الأبوان نصب أعينهما: الأول: إن الولد إذا يئس من عطفك عليه نشأ عاقا، وإذا طمع في عطفك عليه نشأ كسولا، وخير الآباء من لم يؤيس ولده من حنانه، ولم يطمعه في الاعتماد على إحسانه.

والثاني: من أخطر الأمور على الأسرة، وهو التمييز والتفضيل بين الأبناء في الحب والدلال والإغضاء عن الزلات، وأخطر من ذلك أن يعلن الأبوان كرههما لواحد من الأبناء وحبهما لآخر، فتلك والله بذرة العداء، ومنبت القطيعة والخصام، ولقد أوصى الأب المربي بالعدل بين الأبناء، وعدم التفضيل بينهما حتى في الأعطيات، وحديث النعمان بن بشير صريح في ذلك، إذ لم يوافقه على أن يعطي بشيرا حديقة دون أن يعطي إخوانه مثلها، وقال: «أشهد على هذا غيري فإني لا أشهد على جور».

ولكي يحبك من حولك فأفدهم من علمك، وأشركهم في مالك، وسعهم بأخلاقك، وناصحهم بدافع محبتك لهم، وكن عونا لهم عند كرباتهم، ومواسيا عند أحزانهم، ومشاركا لهم في أفراحهم يحبوك كثيرا.

صدقني، أخي القارئ الكريم، إن الحياة أفسح من لحظة غضب، أو جرعة غيظ، أو ساعة أسى... أفسح ما تكون في قلوب المحبين، وأروع ما تكون في لقائهم. هب أن صديقك ظلمك، أو قريبك شتمك، أو زميلك غدر بك، أو.... تخيل لو حصل كل ذلك في لحظة غضب عارمة، فإن الحب باستطاعته أن يداوي تلك الجراح، ويدفن تلك المآسي، المهم أن تدرك أن لحظات الأحزان سرعان ما تنطوي، وتبقى مشاعر الحب تسفها نسفا مهما كانت تلك الأحزان كبيرة أو مؤثرة.



لقد خلقت السماوات والأرض بالحق، وبالحب قامتا، فلولاه ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات، ولا هبت الرياح المسخرات، ولا تحركت الأجنة في أرحام الأمهات، ولا انصدع عن الحب النبات، ولا اضطربت البحار الزاخرات، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسماوات، وما فيها من أنواع المخلوقات، ولولاه لكانت الحياة لغزا لا يفهم معناه.

ولقد ضل من زعم أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم، وكثرة المعلومات، وزيادة الذكاء. وأن الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية، وحسن اختيار اللفظ، ودقة المعاني. وأن المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة، وكثرة التأليف والإنتاج. وأن المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة، واستحضار المادة الدراسية، وكثرة المراجع. وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة، وأساليب السياسة والحكمة واللباقة... إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب، والإخلاص لغاياتهم.

ولعل أجمل ما قرأت عن أهمية الحب كلام للمفكر الإسلامي أبوالحسن الندوي، رحمه الله، قال فيه: «من تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق، والعلم العميق، والحكمة الرائعة، والمعاني البديعة، والبطولة الفائقة، والشخصية الفذة، والعبقرية النادرة؛ وإليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ».

تلك الكلمة لم يتنكر لها الإسلام، ولم تحاربها الشريعة، ولم يحذفها الدين من قاموسه، وإنما رفعها الإسلام وجعلها ثمنا لظلال العرش في عرصات القيامة، قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..»، وذكر منهم: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه»، بل جعل الإسلام درجة المحب في الجنة إلى درجة المحبوب حين يسبقه ويعلوه فقال: «المرء مع من أحب».

هكذا تعامل الإسلام مع الحب، فهذب معناه، وسما به، ونأى به عن أن يكون وسيلة لإثارة الشهوات، ودغدغة العواطف، وتهييج الغرائز، فليس الحب ما نسمعه ونراه اليوم على شاشات التلفاز بين عاشق ومعشوقة يتبادلان كلمات الحب والغرام في مشاهد ساخنة، وملابس فاضحة، وعلاقة آثمة من خلال فلم ماجن أو مسرحية ساقطة، وليس



هو ما نسمعه في أغنية ماجنة لإحدى الداعرات.. إنما هؤلاء أبواق الشياطين يستخدمها أولياؤهم ليستميلوا بها صرعى العشق والهوى،

قال الله عن مثل هؤلاء: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ (النساء:٢٧). فكم من فتاة زلت قدمها بسبب الحب، وكم من شاب ضيع مستقبله ودفن أحلامه للسبب ذاته، وكم من العوانس يبكين ندما على فوات قطار الزواج لذات السبب، وكم... وكم.

فالإسلام يرفض الحب الذي تكون نهايته أن تبذل الفتاة أغلى ما عندها ثم لا تأخذ شيئا، بل تصير لعبة في يد عشيقها، ثم سرعان ما يتركها وينصرف إلى غيرها، كما هي الحال عند بعض شباب المسلمين اليوم وللأسف.

ولقد غرر بكثير من شبابنا اليوم بخدعة «الحب البريء»، فتلك والله مكيدة الشيطان وأولى خطواته، يستميل بها كل غافل بليد. وكان الناطق الرسمي لهذه الخديعة والمروج المحترف لها هم: سارقو العفة ومعلمو العشق والغرام - الممثلون والممثلات - فكم من خلق جميل فينا أماتوه ونحن لا نشعر، وكم من فتاة بريئة تعلمت دروس الحب الزائف من تلك العواطف الهائجة إثر مشاهدتها لذلك المسلسل أو الفيلم حين تكررت تلك المقاطع الخبيثة أمام ناظريها، فخلفت في نفسها توهجا عاطفيا لا تجد من تفرغ له هذه العواطف إلا زميل الدراسة أو العمل، فأصبح ما شاهدته تلك الفتاة واقعا مؤلما مرا.

والممثلون والممثلات يتحولون بهذه الجريمة إلى مجموعة لصوص، كما وصفهم بذلك الرافعي؛ فقال: «ترى أحدهم شريفا يأنف أن يكون لصا، وأن يسمى لصا، ثم لا يعمل إلا عمل اللص في استلاب العفاف، وسرقة الفتيات من تاريخهن الاجتماعي، وتراه نجدا يستنكف أن يكون فيه أوصاف قطاع الطرق، ثم يأبى إلا أن يقطع الطريق في حياء العذارى وشرف النساء».

فإن قال قائل: فما المخرج لمن أصيب بداء أفئدة الكرام «العشق والغرام»؟ نقول: المخرج له هو الحب الحلال، وطريقه الزواج، كما جاء في سنن ابن ماجه مرفوعا: «لم ير للمتحابين مثل النكاح»، وأن يكون على بصيرة بالفرق بين الحب والغرام؛ فالحب عطاء بلا ألم.. والغرام آلام بلا عطاء، الحب سفينة شاطئها الحلال.. والغرام سفينة شاطئها الحرام.

الحب مشاعر تذكر فتشكر، وتنشر ولا تستر.. والغرام شهوات تدفن فتحرق، وآهات تدوم ولا تتوقف.

الحب مروءة وكرامة وطريق نهايته مشرقة.. والغرام خسة ونذالة وطريق نهايته مؤلمة.

وأما عن أنواع الحب فثلاثة: حب إلهي؛ وفيه ضراعة المحب وشكر المحبوب. وحب إنساني؛ وفيه وفاء المحب وتقدير المحبوب. وحب حيواني؛ وفيه مراوغة المحب ولؤم المحبوب.

وبالجملة؛ فإن الحب وله القلب، فإن تعلق بحقير كان وله الأطفال، وإن تعلق بإثم كان وله الحمقى، وإن تعلق بفان كان وله المرضى، وإن تعلق بباق عظيم كان وله الأنبياء والصديقين.

وهذا الوله كالجاذبية بالنسبة إلى الأرض، به تروض النفس، وتهذب الأخلاق، ويصفى كدر القلب. وهو للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، وهو سر من أسرار الناجحين، وسمة من سمات العظماء البارزين، وبه تصنع المعجزات، ومن عجائبه أنه لا يحده جنس ولا مذهب ولا لون، اهتز لأجله جبل أحد فقال: «أحد يحبنا ونحبه»، وبه حن الجذع حين صنع المنبر لرسولنا الكريم فسمع الناس أزيزه فنزل إليه الحبيب وضمه ثم قال: «لقد حن إلى ما كان يتلى عليه من الذكر»، وصاح به حرام ابن ملحان قائلا: فزت ورب الكعبة، ودماؤه تسيل، وليس المهم أن يبقى الحب ملتصقا بالمصالح، فسرعان ما تنتهي وتعقبها الأحقاد، ولا أن يبقى حبيس القلب، ولكن الأهم أن تمتد مساحته إلى فقراء المشاعر الدافئة، والعواطف الحانية، فهم بأمس الحاجة إليه.

فعش بالحب، عش بالتسامح، عش كل لحظة وكأنها آخر لحظة في حياتك، فالحياة لا متسع فيها للأحقاد والكراهية، بل هي أفسح ما تكون في قلوب المحبين.

اللهم اجعلنا من المتحابين فيك، وهب لنا عملا صالحا يبلغنا إليك.

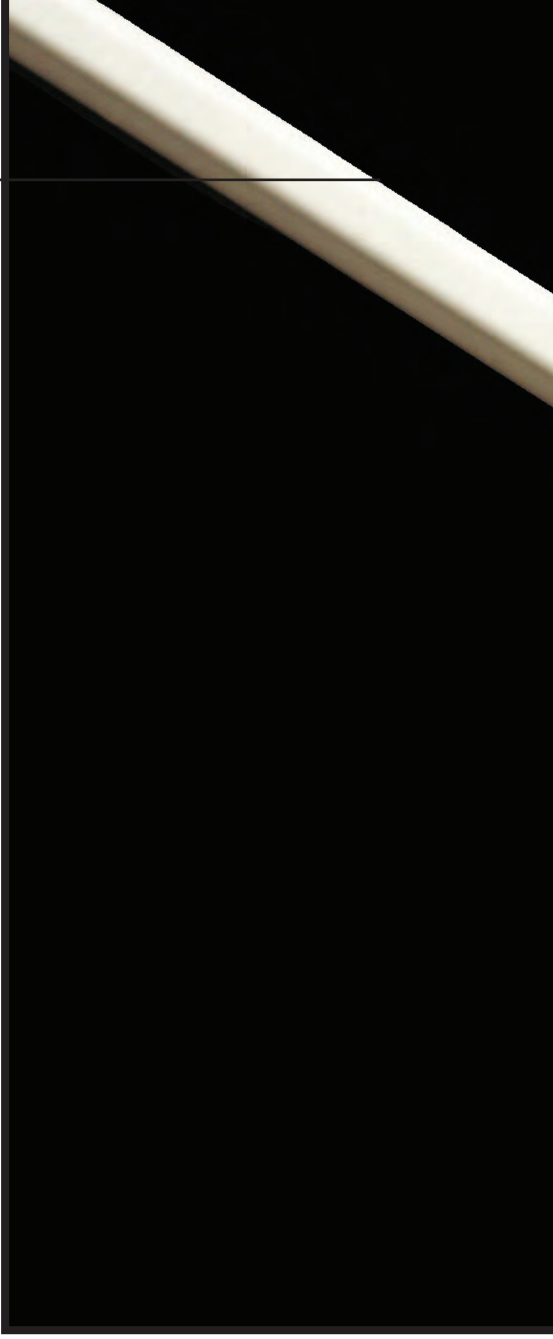


أسماء السكاف
كاتبة سورية

هل في الشر خير؟

كنت أجلس بين أطفالي أقرأ عن الأندلس ويتحدثون ويلعبون أمامي، قرأت لابنتي جزءا مؤثرا ومليئا بالمشاعر عن بداية الانهيار وعن محاكم التفتيش فنظرت لي ببراءة وقالت: ما هذا الشر؟ هذا الموقف وكلمة «شر» ضربا على وتر الذاكرة عندي، أعاداني إلى كتيب رائع كنت قد قرأته عندما أحضره والدي، وأذكر جيدا كيف كان معجبا بمضمونه وعنوانه وأسلوب كاتبه (الأستاذ الشيخ محمد سعيد الطنطاوي)، تذكرت جيدا مناوشتي مع أخي على من سيقرأه أولا، قرأته حينها ربما مرتين لأني رأيت إعجاب والدي به وأنا أثق بخيارات أبي، إضافة لذلك عنوانه الجاذب والملفت، كنت صغيرة نوعا ما، وما أذكره أن الكتاب أعطاني دافعا جيدا وثقة وإيمانا أكبر بخالقي (جل وعلا) ولكن الآن بعد أن كبرت إذا سألت نفسي هذا السؤال: يا ترى هل ما زلت على نفس الدرجة من الثقة والإيمان أم أن هناك أشياء تتغير بعقولنا ومفاهيمنا عندما نكبر؟ هل الأحداث والهموم والمشاكل تغير شيئا أم أنها تترك فقط طبقة على قلوبنا نحتاج إلى إزالتها بين الحين والآخر؟

حسنا، قلت لنفسي: سأخضع نفسي لاختبار لأرى كيف حالي اليوم، سألت عقلي وقلبي أيضا سؤالا سريعا ومباشرا، ما أكثر شر مر بحياتي وآلمني إلى الآن؟ وكما توقعت كانت الإجابة أيضا سريعة ومباشرة: (فقد أبي)، حسنا، أشكر قلبي وعقلي على الإجابة، ولكن هل فقده كان شرا مطلقا أم هل فيه خير؟ أحسست بقلبي يحاول نخزي وإيلامي: خيرا! هل في فقد أبيك خير؟ أحسست بالوضاعة لبرهة، ولكن أنقذني عقلي بتذكيره لي: لو كان موجودا إلى الآن لكانت معاناته كبيرة جدا، ربما لا تحتمل من ناحية مرضه المفاجئ الذي أصابه ومن ناحية تطور الأحداث المتسارع في وطني وفقد الأحبة والأهل المتواصل هناك، وأبي مرهف الحس إذن كان سيعاني كثيرا وسيحزن كثيرا.. هذا يعني أن رحيله بهذا التوقيت بالذات خير له، إذن اعتبار هذا الأمر شرا ربما كان من الأنانية، أسرع عقلي بإكمال ما بدأ: وهو



خير لك أيضا! أجبت: خير لي!؟ وأنا اللي تعلقت بأبي لدرجة لا تسعها كتب لأحكي عن علاقتي وتفاهمي وصداقتي معه، أكمل عقلي: لهذا السبب كان خيرا لك فتعلقك به كان أيضا تعليقا للمسؤوليات التي عليك، فوجوده قربك دائما واطمئنانك لوجوده جعل منك طفلة كبيرة لا تقوم بمهامها المنوطة بها ولا تحقق الهدف من وجودها في هذه الحياة، كنت تستشيرينه بأدق الأمور والتفاصيل، هل لاحظت كيف أصبحت خياراتك صحيحة وأصبحت أكثر مسؤولية وإنجازا في الآونة الأخيرة، إذن هو خير لك أيضا، هذا ما توصل له عقلي المتواضع وما عند الله من علم وأسرار أكثر بكثير طبعا.. لبرهة أحسست أن هذا مجرد تخدير للألم أو مسكن ربما ولكنني عاجلت نفسي وراجعت الركن السادس لأركان الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره، إذن هذا ليس مجرد تسكين بل هو إيمان راسخ ورضا بالقضاء والقدر.

لو كان كل منا يملك قوة إيمان راسخة مستحضرة في كل حين لما حزنا ولا جزعنا لأي أمر؛ لا من ترك حبيبا سيتألم ولا من فقد ابنا سيشعر أن الكون مات بعينيه، ولا من خسر وظيفة سيشعر أنه ظلم ولا... ولا...، نفسية الرضا والاطمئنان ستلازمنا في كل حين، وما أروعها من نفسية وما أجملها من حياة تلك التي سنعيشها مع الرضا، ستسمو أرواحنا لتعانق السحب.. سنمشي على الأرض لن نلامسها.. سنطير كما تطير الطيور في الحرم دون خوف أو تحسب.. ليس سذاجة كما تصور الأفلام والمسلسلات الأشخاص المتفائلين، بل ثقة بمالك الكون المتصرف الأوحد فيه.

ذكر الأستاذ الشيخ محمد سعيد الطنطاوي في بحثه «هل في الشر خير؟» واحدة من أروع وأكبر الأمثلة التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وهي حادثة الإفك وكيف كانت شرا ظهر خيره لاحقا، بل إننا نستقي الفوائد منها إلى الآن رغم مضي أكثر من ١٤٣٠ عاما على هذه الحادثة، الكثير الكثير من الأحداث والقصص التي مرت في السابق بل وحتى التي تحدث الآن ظاهرها يبدو لنا شرا وباطنها أو يليها خير كبير.

أذكر جيدا صديقة لي كانت تمسك عملا بشركة خاصة بمنصب مريح لها وبراتب رائع يناسبها ومتطلباتها.. بالمختصر كانت مرتاحة جدا بعملها وممتنة، دخلت مكتبها صباحا لتفاجأ بورقة استغناء عن خدماتها من الشركة، حاولت البقاء قدر المستطاع دون جدوى، مازلت أذكر كيف ضاقت الدنيا بوجهها حينها ودخلت بدوامة اكتئاب قوية، والإحساس بالظلم كان يطفئ بريق عينيها، حاولنا معها لأشهر بعد أزمتها حتى اقتنعت وقدمت طلب عمل لشركة أخرى، اتصلوا بها ليحددوا موعد مقابلة العمل، وفي يوم واحد أنهت المقابلة وقبلت وأخبروها بطبيعة عملها والراتب الذي يفوق راتبها القديم بضعفه، وتعرفت على الفريق الذي ستعمل معه.. فريق متعاون كانت تفتقده في عملها القديم، وكأن الله أخرجها من عملها القديم فبدا لها الأمر شرا ووضعت في اختبار للرضا بالقضاء والقدر ثم تلا ذلك الخير الذي تمثل بالعمل الجديد، فرحت صديقتي حينها جدا ولكنها بالمقابل حزنت لجزعها لفترة ليست قصيرة، كان ذلك بمثابة درس عملي لها، أظنها تعلمت منه إلى آخر يوم في حياتها.

هل نحن بحاجة لابتلاءات واختبارات للرضا؟ بالتأكيد نحن بحاجة لأنها تقوي علاقتنا بخالقنا في لحظة من اللحظات عندما تنقطع الأسباب الدنيوية الملموسة يقوى الرابط مع الخالق وتتطهر العلاقة بين المسلم وخالقه من أي شائبة وتصبح الحياة أكثر بساطة ومساحة السعادة فيها أكبر.

نفسية الرضا تولد مع الإنسان بالفطرة فأبواه والمجتمع المحيط به إما ينميانها أو يميتانها، وعندما يكبر يصبح الأمر بيده إما أن يختار طريق الرضا والسعادة وإما أن يختار طريق السخط والتعاسة، ونهاية الطريقين معروفة.

عودة لما بدأت، أجبت صغيرتي: سقوط الأندلس شر فيه خير قد نعرف بعضه وقد لا نعرفه الآن. ولكن نعم في الشر خير، قرأت أبياتا رائعة أحسستها ملامسة:

لا يدفع المرء ما يأتي به القدر
وفي الخطوب إذا فكرت معتبر
فليس ينجي من الأقدار إن نزلت
رأي وحزم ولا خوف ولا حذر
فاستعمل الصبر في كل الأمور ولا
تجزع لشيء فعقبى صبرك الظفر

إعداد: خالد خلاوي

القارئ الشاب إسلام فكري:

أتمنى أن أكون سفيرا للقرآن



تحمل أمانة إمامة أول مسجد بني في مصر وإفريقيا كلها، وهو جامع عمرو بن العاص، في قلب القاهرة.. هذا هو القارئ الشاب الشيخ إسلام فكري الذي بدأ صوته يصدح معلنا مولد قارئ جديد، وكان للوعي الشبابي هذا الحوار معه:

• ما دور الأهل والأسرة والرفقة الصالحة في تجربتك القرآنية؟

- والدي رحمه الله ووالدتي بارك الله فيها كان لهما الفضل بعد توفيق المولى جل وعلا فيما أنا فيه باهتمامهما بي والمثابرة والمتابعة الدائمة والتوجيه والتقويم والإصرار على أن أكون من حفظة القرآن، فلولاهما ما وصلت لشيء، فجزاهما الله عني خير الجزاء وجعل ذلك في ميزان حسناتهما.

• برأيك.. كيف ينعكس حفظ القرآن على سلوك الإنسان وأخلاقه؟

- لابد لحافظ القرآن أن يكون أهلا لما يحمله في صدره، لأن الله اختصه واختاره من بين الناس بهذا الشرف العظيم والمسؤولية الكبرى من بين كل الناس؛ فلابد أن يكون أهلا لما حمله الله تأسيا بحبيبنا المصطفى ﷺ الذي كان خلقه القرآن.. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين».

• أغلب مشاهير القراء تعلموا في الكتاتيب.. فهل ترى ضرورة إحيائها مجددا أم أن معاهد القراءات تغني عنها؟

- لا شيء يغني عن الكتاتيب، وأنا أتحيز لها تحيزا شديدا لانتمائي لها، لكن بشرط أن تجمع بين أصول الماضي من حيث الانضباط والثواب والعقاب وأيضا بين الحاضر من حيث الأساليب والتكنولوجيا، حيث إنه لابد من الوصول إلى الجيل الحالي بالطريقة التي يحب وبأسهل الوسائل القريبة منه.

• بماذا تنصح الشاب الراغب في حفظ القرآن الكريم وأن يكون يوما من القراء الناجحين؟

- أنصح من يرغب بأن يكون قارئا ناجحا أن لا يمل من مدارسة أهل العلم وأن يطرق كل باب في سبيل ذلك، فالمسألة تحتاج إلى عزيمة وصبر وتوفيق من الله، قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه».

وعلى الطالب ألا ينظر إلى الخلافات وأن يجتهد في تحصيل العلم من كافة الأبواب، بدون انتقاص أو إهانة رأي أحد أو تسفيه اتجاهه.

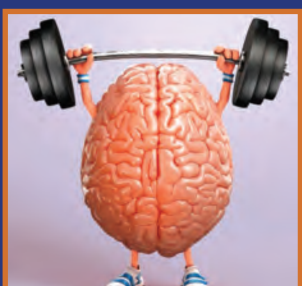
ضاعف نشاطاتك العقلية

تشير العديد من الدراسات والبحوث العلمية الحديثة إلى أن هناك طرقا كثيرة يمكن اتباعها لزيادة طاقة الدماغ ونشاط المخ، وتساعد على تعزيز المهارات الشخصية، ومنها ١٠ طرق تساعد على زيادة النشاطات العقلية:

١- الإنسان الذي يحصل على مقدار وافر من التمارين البدنية يتمتع بعقل أفضل، فلابد من الحرص على ممارسة الرياضة، كالجري الخفيف مثلا.

٢- محاولة إيجاد طرق جديدة وغريبة في التفكير ورؤية العالم؛ مثل اكتشاف طرق جديدة في العمل، مزاولة نشاط جديد، وهذا يمكن أن يحسن من وظائف الأجزاء غير النشطة وغير المستخدمة في المخ.

٣- سؤال النفس!.. اسأل لماذا؟ اجعل نفسك فضوليا! اسأل نفسك لماذا حدثت هذه الأشياء؟ اجعلها عادة جديدة السؤال لماذا؟ على الأقل عشر مرات في اليوم، وفي هذه الحالة سيكون المخ أكثر سعادة.



٤- الضحك جيد للصحة؛ فهو يحرر الإنسان من الداخل ويدعم الطاقة الكيميائية داخل الجهاز العصبي؛ ويطلق على الضحك أحيانا أنه الشاحن السريع لبطارية المخ.

٥- تناول زيت أوميغا ٣، الذي يوجد في الجوز وبذر الكتان وفي السمك بشكل خاص، فقد اكتشف الباحثون أخيرا مدى أهميته للمخ البشري، إذ يساعد نظام الدورة الدموية في ضخ الأوكسجين في منطقة الرأس.

٦ - مشاهدة ألبومات الصور القديمة واسترجاع الذكريات، وجعل العقل يفكر فيها، وبهذه الطريقة سوف يرد ذلك بعواطف إيجابية وعلاقات جديدة مع هذه الذكريات، كما يساعد على تواصل إنجاز المهام وتجاوز التحديات.

٧- حل الألغاز في وقت الفراغ ينشط المخ ويجعله يعمل بحالة جيدة، لذلك يرى الخبراء أن حل الألغاز هو للمتعة وبنفس الوقت يدرب المخ.

٨- العمل على توسيع المهارات وتحسينها أثناء القيام بالأعمال اليومية مثل: القراءة، الرسم، العمل على الحاسوب، الخياطة، قراءة الكتب في مجالات جديدة.

٩- احذر من الإدمان؛ فذاكرة المدمن تميل إلى الانخفاض ويحدث تدمير في خلايا المخ، وهذا يوضح مدى التأثير الضار للكحول، الذي يمنع المدمنين من إعادة بناء أنفسهم بعد ذلك.

١٠- التركيز يزيد طاقة المخ وأداءه، ويجعلك أكثر استرخاء، وتستطيع التفكير بوضوح.

٥ خطوات لتحصل على منحة دراسية مناسبة

إذا كنت مهتما بالحصول على منحة دراسية، أو تسعى إلى فرص التعلم بالخارج، إليك هذه الخطوات التي تساعدك وفق مصطفى جمعة في أراجيك في إتمام هذا الأمر.

الخطوة الأولى: ابدأ الآن

الكثير من راغبي الحصول على المنح يقومون بالانتظار حتى يبدأ العام الدراسي الجديد. لا تقع في هذا الخطأ!، ابدأ من الآن في البحث عن منحة مناسبة لك، ودعك من التسويف الذي لن يؤدي في النهاية إلا إلى خسارة فرصتك في الحصول على المنحة.

وهناك العديد من طرق البحث عن المنح الدراسية، أهمها وأفضلها على الإطلاق هو من خلال المواقع المخصصة لذلك على الإنترنت. هذه بعض المواقع التي يمكنك البحث من خلالها، موقع منحة/www.min7a.com/ar، وموقع فرصة www.for9a.co، وموقع www.worldwide.edu.

الخطوة الثانية: التقديم للمنحة

نعم لا تستغرب فقد يبدو الأمر بديهيا، إلا أن العديد من راغبي الحصول على المنحة يتوهمون أنهم لن يحصلوا عليها، ومن ثم يتكاسلون عن هذه الخطوة تاركين المجال لغيرهم من الشجعان الذين تقدموا بالفعل وازدادت فرصتهم في الفوز بها.

هذه مجموعة من المواقع التي يمكنك الاستعانة بها في تلك الخطوة، مؤسسة علماء مصر: www.egyptscholars.org/ar

وموقع:www.ucas.com

وموقع www.studyabroad.com

الخطوة الثالثة: لا تتوقف عند منحة واحدة

قم بزيادة احتمالات فوزك بالمنحة من خلال التقديم في العديد من المنح، وفي بلدان وجامعات مختلفة.

لا تتقدم لمنحة واحدة وتكتفي بذلك، معتمدا في تقديمك على المنحة



التي تغطي كافة مصاريفك الدراسية بنسبة ١٠٠٪. جرب التقديم في منح أخرى طالما كانت في المجال الذي تريده حتى إذا بدت غير ملائمة لك بنسبة كبيرة.

الخطوة الرابعة: حضر جميع أوراقك من الآن

ابدأ بتجهيز كافة الوثائق والمستندات التي ستحتاج إليها للحصول على المنحة.

لا تقم بإهمال أي ورقة أو مستند قد يتوقف عليه حصولك على المنحة، امنح نفسك وقتا كافيا لتحضير هذه الأوراق ومراجعتها وتوثيقها لدى الجهات المعتمدة.

الخطوة الخامسة: ضع بصمتك!

اصنع لنفسك شيئا يصبح علامة إيجابية، ومميزة لك في طلب الالتحاق بالمنحة.

ابتكر في طريقة سردك لمؤهلاتك وطموحاتك العلمية بشكل يجعل استمارة التقديم الخاصة بك تحظى بإعجاب لدى المراجعين الذين سئموا من النماذج الروتينية، والتي لا تحمل شيئا مميزا لأصحابها. اجعل الاستمارة الخاصة بك هي الشيء المميز لديهم، واللافت لأنظارهم بين مئات وآلاف الاستمارات الأخرى.

أخيرا: الأمر صعب، لكن ليس مستحيلا..

تذكر دائما أن هناك الآلاف من الطلاب الذين يحصلون على المنح الدراسية كل عام، لذا فالأمر ليس مستحيلا كما قد تتصور من الوهلة الأولى للتقديم للمنحة. الأمر في غاية السهولة مادمت تمتلك الشغف والمهارات الكافية للالتحاق بتلك المنحة. تذكر فقط تلك النصائح السريعة التي قد تساعدك أثناء عملية التقديم.

إنجاز كويتي جديد يحققه شباب الكاراتيه

أشاد رئيس الاتحاد الكويتي للكاراتيه الشيخ خالد العبدالله الصباح بالإنجاز المشرف للمنتخب الوطني الكويتي للعبة بحصولهم على ١٤ ميدالية متنوعة في البطولة العربية للناشئين والشباب التي اختتمت بالقاهرة ٣ أغسطس الماضي.

وقال العبدالله في تصريح صحافي اليوم إن لاعبي الكويت أظهروا مستويات ومهارات عالية في البطولة التي شاركت فيها ١٤ دولة وتمكنوا خلالها من اقتناص ثلاث ميداليات ذهبية ومثلها فضية وثماني برونزيات.



وأهدى هذا الإنجاز المشرف إلى سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح وإلى سمو ولي العهد الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح وإلى سمو الشيخ جابر مبارك الحمد الصباح رئيس مجلس الوزراء وإلى الشعب الكويتي الكريم.

وأثنى على الجهود التي بذلها الجهازان الفني والإداري واللاعبون من أجل بلوغ هذا الإنجاز متمنيا لهم التوفيق والسداد في الاستحقاقات المقبلة ورفع علم الكويت خفاقا في مختلف المحافل القارية والعالمية.

إعداد : د. عمرو عبد الكريم

موضوع العدد

معركة الوعي: سؤال التراث

سؤال التراث في أسئلة الوعي الحضاري هو سؤال الصلة بين ماضي الأمة وحاضرها، وهو سؤال تواصل لا فصل فيه، واتصال لا انقطاع معه، سؤال منهجي في أشد تجليات قضايا المنهج وما قبل المنهج.

لقد كانت إشكالية التراث: النظرة إليه، ومناهج وأدوات التعامل معه، وحدود الاستفادة منه، وقابليات النهل من معينه وروافده أحد أهم إشكاليات الوعي الحضاري على مدار عقود الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وهما يعبران عن حضارة في طور الأفول، وحضارة في مرحلة التوغل والتغول، ومحاولة إلغاء أو إذابة ما قبلها من حضارات تواريخ شعوب وأمم.

يرى الفيلسوف المغربي الدكتور طه عبدالرحمن التراث بعدا أساسيا من أبعاد الوجود الإنساني، فالتراث، كما يؤكد عبدالرحمن، جملة من المضامين والوسائل الخطابية والسلوكية التي تحدد الوجود الإنتاجي للمسلم العربي في أخذه بمجموعة مخصوصة من القيم القومية والإنسانية، حية كانت أم ميتة.

وعلى هذا فكما يكون التراث أداة من أدوات تحرير الإنسان، يمكن أن يشكل عائقا في الوقت نفسه، عائق يحول دون رقي الإنسان وارتقائه.

ومن المهم في تحديد مناطات أسئلة الوعي الحضاري التحرر من الثنائيات المتقابلة التي شكلت وعي كثير من الأجيال على مر العصور، وخاصة في سياقها الصراعي ما بين قضايا الأصالة والمعاصرة، والمحافظة والتجديد، أو الصراع بين القديم والحديث، أو معركة التقليد والحداثة، وغيرها من الثنائيات المتقابلة التي شغلت المجال الثقافي والفكري في عالمنا العربي والإسلامي على مدى عقود، منذ بزوغ أسئلة النهضة وإشكالات الوعي الحضاري.

فمن يتأمل الدلالة المعجمية لكلمة التراث، فسيجدها مشتقة من فعل ورث، ومرتبطة دلاليًا بالإرث والميراث والتركة والحسب، وما يتركه الرجل الميت، ويخلّفه لأولاده.

أما التراث في أبسط معانيه فهو كل ما خلّفه الأجداد للأحفاد على صعيد الآداب والمعارف والفنون والعلوم، لذا يعد التراث بمثابة الذاكرة الثقافية والحضارية والروحية والدينية التي تبقى للأبناء والأحفاد من أجدادهم وآبائهم، وهو ما يشكل الوعي الجمعي والذاكرة التاريخية لأمة من الأمم.

في كتابه المهم «نقد التراث» حاول مؤلفه عبدالإله بلقزيز التحرر بالقطع المعرفي مع ثلاث نزعات مؤذية في التعامل مع موضوع شديد الحساسية مثل التراث:

أولاها: النزعة التبجيلية للتراث، وهي السائدة في أوساط التراثويين، المتمسّكين بفرضية جاهزية التراث لتقديم أجوبة لمشكلات العصر.

وثانيتها: النزعة الاحتقارية للتراث المتمسكة بفرضية أن المستقبل يبدأ من القطيعة مع الماضي.

ثم ثالثتها: النزعة الاستثمارية للتراث، المتمسّكة بفرضية أن التراث جبهة صراع ثقافي أيديولوجي، ومادة للاستغلال لمصلحة هذا الموقع أو ذاك.

كما أن أي جهد إبداعي في قراءة التراث يحتاج إلى نموذج متميز في «العمارة المعرفية» يقوم على ثلاثة أعمدة:

- قدرة خارقة على الترتيب والتنسيق واشتقاق المفاهيم وتوليدها بلغة قوية وذات نفحة تراثية.
- وآلة منطقية متماسكة في بناء الاستدلالات واستخلاص النتائج.
- وعدة معرفية قوية تجمع بين النصوص التراثية وما استجد في الفكر الغربي مادة ومنهجا.

وبدون ذلك لا يمكن أن يكون التراث أحد أهم عوامل صناع النهضة وبناء الحضارة، فلا مستقبل مشرقا دون حاضر يتميز بالجد والاجتهاد، ولا حاضر حقيقيا لا يستند على ماض عريق.

لقد ضاعت كثير من جهود المفكرين وأعمارهم في سؤال إشكالي أقرب للزيف منه للحقيقة: ماذا نأخذ من التراث وماذا ندع؟

وكان الأولى أن تنصب جهود المصلحين والمفكرين على السؤال المحوري: ما هي مناهج التعامل مع التراث؟ وما هي أصول التعامل معه وما هي الأدوات اللازمة للتعامل مع هذه العمارة المعرفية المعقدة؟

لقد ظل سؤال التراث أهم أسئلة الوعي الحضاري لأنه يختزل بحمولته المعرفية كل الأسئلة الثقافية والحضارية المتعلقة بكيان الأمة سواء في بعده الزماني حينما يطرح قضية الأنا الجماعية في ماضيها، أو حينما يطرح قضية الأنا المعاصرة في علاقتها بالعالم من حولها. إنه سؤال مركب، من حيث الزمان ومن حيث المكان، ومن حيث القضايا التي يناقشها أو يطرحها، وتظل الإجابة عليه هي البداية المنهجية للتعامل مع إشكالات الواقع المعاصر.

لقد طرح سؤال التراث منذ بواكير النهضة العربية الحديثة في ذات اللحظة التي طرح فيها سؤال: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ وتنوعت مناهج الإجابة على هذا السؤال المحوري، وتوزعته الأيديولوجيات المختلفة، وظل سؤالا عالقا يراوح مكانه في الفضاءين العربي والإسلامي، ولن تكون هناك بوادر أي نهضة حقيقية ما لم تحل تلك الأسئلة العالقة. لكن للأسف كان الاستقطاب وحدة الإجابة وحاسمية اللحظة التاريخية وحساسيتها هي ما شكلت وجهة الإجابة على هذا التساؤل المحوري:

فما بين العداء للتراث ومحاولة إهالة التراب على كل منجزاته، باعتباره حالة مصمتة إما أن تؤخذ بكاملها أو تترك بكاملها، وما بين العيش في التراث والإيمان المطلق بكل ما أتى فيه ومن خلاله تراوحت الإجابات وتعددت محاولات التصدي لها على مدار ما يقرب من قرن من الزمان.

كان الاستقطاب الحاد هو الذي شكل وجهة الإجابة: إما باعتباره ماضيا تم تجاوزه، وإما باعتباره ماضيا عريقا يصلح لكل زمان ومكان، وشاعت المقولة السائدة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، واتخذ كل فريق من التاريخ ما رآه هو أول هذه الأمة.

كانت الإجابة: إما الانغماس في التراث حتى النخاع، أو المجافاة المعرفية حتى القطيعة. وكلا طرفي الأمر ذميم.

ونتج عن هذه الحالة العدائية أو الاستلابية كل الثنائيات الصلبة وكل الصراعات الثقافية بين المتقابلات الحدية إما: الأصالة والمعاصرة، أو المحافظة والتجديد، أو الصراع بين القديم والحديث، أو المعركة الدائرة راحاها بين التقليد والحداثة، أو النزاع بين طريقي الاتباع والابتداع، ولاتزال هذه المعارك الفكرية والثقافية مستمرة في عالمنا العربي والإسلامي، ومازال المفكرون ينقسمون انقساما حديا بين بديلين لا ثالث لهما، وهو ما أسفر عن حالة من السيولة والتماهي لم تثمر فكرا ولم تنتج حضارة.

لقد أسفرت الموجات المتتالية من المفكرين والعلماء الذين عكفوا على دراسة التراث وتحديد مناهج التعامل معه عن بروز جيل من المفكرين متسلحين بكل ما استجد في مدارس الفلسفة والعلوم المعاصرة مادة ومنهجا من أمثال محمد عابد الجابري وطه عبدالرحمن وإن مثل كل واحد منهما مدرسة فكرية قائمة الذات، سواء في عمليات تفكيك أو تركيب وبناء النظام المعرفي الإسلامي: فقها وفلسفة وأصولا وتصوفا وكلاما، أو في إنتاج أفق لأسئلة الحاضر، كل بطريقته الخاصة، حيث تعد مقاربتا كل من الجابري وطه عبدالرحمن للتراث، منعطفا جديدا في الدرس التراثي، لما تحملانه من مستجدات وخيارات على مستوى المسلمات والنتائج، لذلك جاءت قراءتهما للتراث مزدوجة ومتمثلة في استنطاق المأصول منه، وفي تقريب المنقول الغربي من خلال تصحيحه وإخضاعه لما يلائم مقتضيات المجال التداولي العربي الإسلامي منهجا ومضمونا، فهذا الوعي بطبيعة المادة التراثية وكيفية معالجتها، لدى كل من الجابري وعبدالرحمن جعل كلا منهما علما على مدرسة متكاملة في الدرس التراثي: تأسيسا وتأصيلا ومناهج اقتراب وأدوات تعامل.

في المفاهيم والمصطلحات الحضارية

في مفهوم الحضارة

يقول الدكتور نصر محمد عارف:

والواقع أن أي تجربة بشرية يمكن إطلاق لفظ حضارة عليها مادامت تتوافر فيها الشروط التالية:

١- وجود نسق عقدي يحدد طبيعة العلاقة مع عالم الغيب ومفهوم الإله سلبا أو إيجابا.

٢- وجود بناء فكري سلوكي في المجتمع يشكل نمط القيم السائدة وهي الأخلاقيات العامة والأعراف.

٣- وجود نمط مادي يشمل جميع الأبعاد المادية في الحياة.

٤- تحديد نمط العلاقة مع الكون ومسخراته وعالم أشيائه.

٥- تحديد نمط العلاقة مع الآخر، أي المجتمعات الإنسانية الأخرى وأسلوب إقناعها بهذا النموذج والهدف من ذلك الإقناع.

ويعرف الدكتور أحمد عبد الرازق الحضارة بأنها:

«مجموعة من المفاهيم الموجودة عند مجموعة من البشر وما ينبثق عن هذه المفاهيم من مثل وتقاليد وأفكار ونظم وقوانين تعالج المشكلات المتعلقة بأفراد هذه المجموعة البشرية، أو بعبارة مختصرة هي جميع مظاهر النشاط البشري الصادر عن تدبير عقلي».

مقولات في الوعي الحضاري

«إن تغيير «الإنسان» هو الطريق الوحيد الذي يمكن لشعوبنا أن تتحرّر به. أمّا مقتل طاغية وهزيمة مستبد وانهيار نظام دكتاتور فهي من قبيل عمليات جراحيّة، لا تستطيع أن تستأصل المرض من جذوره؛ لأنّ استئصاله يحتاج إلى إرساء دعائم التوحيد الخالص في قلوب مؤمنة نقيّة طاهرة، وإلى إرساء النّظام التربوي التعليمي المتين المنطلق من التصوّر القرآني للإنسان والكون والحياة. فيا شعوبنا أجيبي داعي الله ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون».

الدكتور طه جابر العلواني

«ليست حقيقة الإنسان بما يظهره لك، بل بما لا يستطيع أن يظهره، لذلك إذا أردت أن تعرفه فلا تصغ إلى ما يقوله بل إلى ما لا يقوله».

جبران خليل جبران

«كل ما يتطلبه الطغيان للوجود هو بقاء ذوي الضمير الحي صامتين».

توماس جفرسون

عرض كتاب

نقد التراث



عبد الإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ٢٠١٤م، ٤٦٤ صفحة.

«نقد التراث» كما جاء في مقدمة الكتاب: هو الجزء الثالث من مشروع «العرب والحداثة» الذي نُشر منه جزآن، حتى الآن ويشتغل المؤلف على جزئه الرابع.

وقد اهتم الجزء الأول – في سياق التفكير بالحداثة أو في تاريخها بما فيه من أسئلة وموضوعات ومحطات وإشكاليات – بالبحث في الخطاب الإصلاحي والنهضوي العربي، كما عبَّر عن نفسه منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

فيما اهتم الجزء الثاني بتناول خطاب الحداثة لدى رموزه الأساسيين في النصف الثاني من القرن العشرين والعقد الأول من هذا القرن.

أما الجزء الثالث من الكتاب، فيرتبط بنظرة الحداثة نفسها إلى التراث بما هي، في الوقت عينه، نظرة إلى ذاتها في مرآة ذلك التراث. ويوضح المؤلف أن نقد التراث ومنه نقد العقل، جزء من فاعليات الحداثة، ومن تاريخها. ولعله يكون الأهم في فاعلياتها تلك، لأنه يطلعها على معدل انفصالها عن منظومته، وإقامتها منظومتها الخاصة.

وربما كانت أهمية هذا الكتاب الكبيرة نابعة من المسح الفكري العميق والنقدي الذي أجراه الكاتب لمجموعة كبيرة من المفكرين العرب الذين تناولوا التراث، مفهوما وتاريخا ومنهجا في التعامل.

يقع الكتاب في خمسة أقسام:

يعرض الأول (مقدمات نظرية ومنهجية في التراث) للأسباب التي ولدت الانشغال بالتراث، وهو يعزوها إلى سياقين متضافرين: سياسي تاريخي، وثقافي معرفي، أطلقهما ما بات يعرف بالاصطدام الذي حصل بين المدنية الأوروبية الصاعدة والمدنية العربية الإسلامية المتقهقرة، وقد نتجت عن ذلك رؤيتان للتراث: الأولى تجعل منه الملاذ لعملية الاستنهاض، فيما اتجهت الرؤية الثانية إلى محاولة المواءمة بين الماضي (الإسلام) والحاضر (المدنية الأوروبية).

ويتناول الثاني، التاريخ الثقافي، يقول المؤلف: إذا كانت دائرة المعارف لبطرس البستاني أول عمل يؤرخ للثقافة والفكر في الفكر العربي الحديث، فإن البداية الفعلية لممارسة التاريخ الثقافي بدأت مع فرح أنطون في مقالات عن ابن رشد ما لبثت أن وضعت في كتاب.

ثم يدرس المؤلف ما يسميه لحظة فرح أنطون وهي لحظة التاريخ الثقافي الجزئي، ثم طه حسين، ثم جرجي زيدان، حيث تبدأ مرحلة التأريخ الثقافي الشامل عبر موسوعته التي حملت عنوان «تاريخ التمدن الإسلامي»، وتستمر لحظة التأريخ الثقافي الشامل مع أحمد أمين في ثلاثيته (فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام). ثم مع عبدالرحمن بدوي يجتمع التاريخ الجزئي بالتاريخ الشامل، شامل لأنه تاريخ الفلسفة والفكر النظري، وجزئي لأنه عني بالكلام والتصوف والفلسفة والعلوم دون اهتمام بعلوم أخرى كالحديث والتفسير والفقه...إلخ.

فيما يبحث الثالث في نقد التراث (الطلب الإيديولوجي) حيث بدأ استعمال المنهج المادي التاريخي (الماركسية) في الفكر العربي في ستينيات القرن المنصرم، وكانت النكسة عاملا حاسما في رفع معدل انتباه مثقفي اليسار لمسألة التراث، فدرس المؤلف طيب تيزيني وحسين مروة وحسن حنفي.

والرابع في نقد التراث (البنية والتاريخ)، يبدأ الدكتور بلقزيز هذا الفصل مع كتاب الثابت والمتحول لأدونيس، ثم تناول المقاربة التأويلية لدى نصر حامد أبوزيد. ثم كانت الرؤية التاريخية للتراث محور اهتمام علي أومليل، وكذلك ناصيف نصار الذي ينتمي للمدرسة التاريخية النقدية.

فيما يختم القسم الخامس بنقد التراث ومنه نقد العقل العربي، حيث يبدأ المؤلف الفصل بتناول أفكار محمد عابد الجابري، ومشروعه المهم «نقد العقل العربي» بأجزائه الأربعة الذي شكل فتحا كبيرا على صعيد الثقافة العربية من حيث الرؤية والمنهج.

وإذا كان نقد الجابري انحصر في العقل العربي، فإن محمد أركون خصص نقده للعقل الإسلامي كما تشكل لدى المسلمين عبر التاريخ بأثر من النص الديني والتفسير التقليدي المغلق، وما تولد منه من قواعد في التفكير حكمت مجالات الثقافة الإسلامية كافة، والغاية من ذلك فك ارتباط المحافظين وقوى السلطة بالرأسمال الرمزي الذي على أساسه تقيم هذه الأطراف مشروعيتها.

ثم انتقل إلى دراسة عبدالله العروي الذي اختلف مفهوم نقد العقل عنده عن الجابري وأركون.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
عضو هيئة تدريس
جامعة أم القرى - مكة

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

الشرط الجزائي في العقود التجارية

- الخلاصة الحكمية:

١- الشرط الجزائي الذي يجري اشتراطه في العقود شرط صحيح معتبر، يجب الأخذ به، ما لم يكن هناك عذر في الإخلال بالالتزام الموجب له يعتبر شرعا، وإذا كان الشرط الجزائي كثيرا عرفا؛ فيجب الرجوع في ذلك إلى العدل والإنصاف، على حسب ما فات من منفعة، أو لحق من مضرة.

٢- إذا شرط على المدين أو فرض عليه أن يدفع له مبلغا من المال غرامة مالية جزائية إذا تأخر عن السداد في الموعد المحدد؛ فهو شرط باطل؛ لأن هذا بعينه هو ربا الجاهلية الذي نزل القرآن بتحريمه.

٣- يجوز أن يشترط الشرط الجزائي في جميع العقود المالية ما عدا العقود التي يكون الالتزام الأصلي فيها دينا؛ فإن هذا من الربا الصريح.

٤- الضرر الذي يجوز التعويض عنه يشمل الضرر المالي الفعلي، دون الأدبي أو المعنوي.

● **القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع الفقهية، واللجان والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:**

- أولا: صدر قرار هيئة كبار العلماء المنشور في عام (١٣٩٥هـ)؛ بخصوص الشرط الجزائي؛ وهذا نصُّه بتصرف يسير:

بعد مداولة الرأي والمناقشة، واستعراض المسائل التي يمكن أن يقاس عليها الشرط الجزائي، ومناقشة توجيه قياسه على تلك المسائل والإيراد، وتأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ (المائدة:١)، وما روي عنه ﷺ من قوله: «المسلمون على شروطهم، إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا». ولقول عمر رضي الله عنه: «مقاطع الحقوق عند الشروط»، والاعتماد على القول الصحيح: من أن الأصل في الشروط الصحة، وأنه لا يحرم منها ويبطل إلا ما دل الشرع على تحريمه وإبطاله نصا أو قياسا.

واستعراض ما ذكره أهل العلم من تقسيم الشروط في العقود إلى صحيحة، وفاسدة:

- وتقسيم الصحيحة إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: شرط يقتضيه العقد؛ كاشتراط التقابض، وحلول الثمن.

الثاني: شرط من مصلحة العقد؛ كاشتراط صفة في الثمن كالتأجيل أو الرهن، أو الكفيل به، أو صفة في المثمن، ككون الأمة بكرا.

الثالث: شرط فيه منفعة معلومة، وليس من مقتضى العقد ولا من مصلحته، ولا منافيا لمقتضاه؛ كاشتراط البائع سكنى الدار شهرا.

- وتقسيم الفاسدة إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اشتراط أحد طرفي العقد على الطرف الثاني عقدا آخر؛ كبيع، أو إجارة، ونحو ذلك.

الثاني: اشتراط ما ينافي مقتضى العقد؛ كأن يشترط في المبيع ألا خسارة عليه، أو ألا يبيع أو يهب ولا يعتق.

الثالث: الشرط الذي يتعلق به العقد، كقوله: بعتك إن جاء فلان.

وبتطبيق الشرط الجزائي عليها، وظهور أنه من الشروط التي تعتبر من مصلحة العقد، إذ هو حافز لإكمال العقد في وقته المحدد له، والاستئناس بما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن سيرين: «أن رجلا قال لكريّه أدخل ركابك، فإن لم أرحل معك يوم كذا وكذا فلك مائة درهم، فلم يخرج، فقال شريح: من شرط على نفسه طائعا غير مكره؛ فهو عليه».

وفي القول بتصحيح الشرط الجزائي سد لأبواب الفوضى والتلاعب بحقوق عباد الله، وسبب من أسباب الحفز على الوفاء بالعهود والعقود؛ تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ (المائدة:١).

لذلك كله؛ فإن المجلس يقرر بالإجماع: أن الشرط الجزائي الذي يجري اشتراطه في العقود شرط صحيح معتبر، يجب الأخذ به، ما لم يكن هناك عذر في الإخلال بالالتزام الموجب له يعتبر شرعا، فيكون العذر مسقطا لوجوبه حتى يزول.

وإذا كان الشرط الجزائي كثيرا عرفا، بحيث يُراد به التهديد المالي، ويكون بعيدا عن مقتضى القواعد الشرعية؛ فيجب الرجوع في ذلك إلى العدل والإنصاف، على حسب ما فات من منفعة، أو لحق من مضرة.

ويرجع تقدير ذلك عند الاختلاف إلى الحاكم الشرعي عن طريق أهل الخبرة والنظر؛ عملا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:٥٨)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة:٨)، وبقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

انتهى القرار.

- ثانيا: ثم صدر قرار مجلس مجمع الفقه الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة في رجب عام ١٤٠٩هـ بشأن موضوع: هل يجوز للمصرف أن يفرض غرامة جزائية على المدين بسبب تأخره عن سداد الدين في المدة المحددة بينهما؟

وقد جاء في قرار المجلس ما يلي: إن الدائن إذا شرط على المدين أو فرض عليه أن يدفع له مبلغا من المال غرامة مالية جزائية محددة أو بنسبة معينة إذا تأخر عن السداد في الموعد المحدد بينهما فهو شرط أو فرض باطل، ولا يجب الوفاء به، بل ولا يحل، سواء كان الشارط هو المصرف أو غيره؛ لأن هذا بعينه هو ربا الجاهلية الذي نزل القرآن بتحريمه.

انتهى القرار.

- التعليق:

يحتج كثير من الناس أن هذا شرط متفق عليه بين الطرفين؛ وهنا يقال: إن فرض بعض البنوك الإسلامية أو بعض الدوائر الحكومية لغرامة عند تأخر المدين عن الوفاء بالدين ليس تشريعا حتى يحتج به، ويجعل ذلك أصلا شرعيا يقاس عليه، ولا يجوز الاتفاق عليه؛ فمثله كمثل الاتفاق على أي محرم بشرط الرضا.

ولذا؛ فإن غرامة التأخير لا يجوز فرضها ولا أخذها على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لأن ذلك كله من ربا الجاهلية، حيث كانوا يقولون للمدين إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي.

- ثالثا: ثم صدر قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة؛ رقم: (١٠٩ (١٢/٣)) بشأن موضوع الشرط الجزائي، ونصه:

بعد الاطلاع على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع «الشرط الجزائي»، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حول الموضوع بمشاركة أعضاء المجمع وخبرائه وعدد من الفقهاء؛ قرر ما يلي:

أولا: الشرط الجزائي في القانون هو اتفاق بين المتعاقدين على تقدير التعويض الذي يستحقه من شرط له عن الضرر الذي يلحقه إذا لم ينفذ الطرف الآخر ما التزم به أو تأخر في تنفيذه.

ثانيا: يؤكد المجلس قراراته السابقة بالنسبة للشرط الجزائي الواردة في قراره في «السلم» رقم ٨٥ (٩/٢)، ونصه: لا يجوز الشرط الجزائي عن التأخير في تسليم المسلم فيه؛ لأنه عبارة عن دين، ولا يجوز اشتراط الزيادة في الديون عند التأخير. وقراره في «الاستصناع» رقم ٦٥ (٧/٣)، ونصه: يجوز أن يتضمن عقد الاستصناع شرطا جزائيا بمقتضى ما اتفق عليه العاقدان؛ ما لم تكن هناك ظروف قاهرة. وقراره في «البيع بالتقسيط» رقم ٥١ (٦/٢)، ونصه: إذا تأخر المشتري المدين في دفع الأقساط بعد الموعد المحدد؛ فلا يجوز إلزامه أي زيادة على الدين بشرط سابق أو بدون شرط؛ لأن ذلك ربا محرم.

ثالثا: يجوز أن يكون الشرط الجزائي مقترنا بالعقد الأصلي كما يجوز أن يكون في اتفاق لاحق قبل حدوث الضرر.

رابعا: يجوز أن يشترط الشرط الجزائي في جميع العقود المالية ما عدا العقود التي يكون الالتزام الأصلي فيها دينا؛ فإن هذا من الربا الصريح.

وبناء على هذا؛ فيجوز هذا الشرط - مثلا - في عقود المقاولات بالنسبة للمقاول، وعقد التوريد بالنسبة للمورد، وعقد الاستصناع بالنسبة للصانع إذا لم ينفذ ما التزم به أو تأخر في تنفيذه.

ولا يجوز - مثلا - في البيع بالتقسيط بسبب تأخر المدين عن سداد الأقساط المتبقية، سواء كان بسبب الإعسار أو المماطلة، ولا يجوز في عقد الاستصناع بالنسبة للمستصنع إذا تأخر في أداء ما عليه.

خامسا: الضرر الذي يجوز التعويض عنه يشمل الضرر المالي الفعلي، وما لحق المضرور من خسارة حقيقية، وما فاته من كسب مؤكد، ولا يشمل الضرر الأدبي أو المعنوي.

سادسا: لا يعمل بالشرط الجزائي إذا أثبت من شرط عليه أن إخلاله بالعقد كان بسبب خارج عن إرادته، أو أثبت أن من شرط له لم يلحقه أي ضرر من الإخلال بالعقد.

سابعا: يجوز للمحكمة بناء على طلب أحد الطرفين أن تعدل في مقدار التعويض إذا وجدت مبررا لذلك، أو كان مبالغا فيه.

- التعليق:

وقد صدر عن المجمع المشار إليه آنفا عام (١٤٢٣هـ) الموافق لعام (٢٠٠٣م) قرار رقم: ١٣٣ (١٤/٧) بشأن موضوع مشكلة المتأخرات في المؤسسات المالية الإسلامية، وأكد قراراته السابقة بالنسبة للشرط الجزائي الواردة في قراره في السلم رقم: ٨٥ (٩/٢)، وقراره في الشرط الجزائي رقم: ١٠٩ (١٢/٤).

إعداد: التحرير

خطورة التكفير

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «... ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام، فكفر أهلها المسلمين، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم»

(فتاوى ابن تيمية، ١٣/٣١)

أثر الأسماء والصفات في سنن الكون

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «لابد من ظهور أثر أسماء الله ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمة الله أن أنزل الأبوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تربت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين؛ والملك هو الذي يأمر وينهى، ويكرم ويهين، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل؛ فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام».

(شفاء العليل، ص١٩٩)

السعادة التامة

قال ابن حزم رحمه الله: «إذا نام المرء خرج من الدنيا، ونسي كل سرور وكل حزن، فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك أيضا لسعد السعادة التامة».

وقال رحمه الله: «من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ من أساء إليه منهم فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم، فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم».

(مداواة النفوس لابن حزم، ص٢٠)

مزارع الألسن

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة فيها؛ فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها».

(مناقب الشافعي للبيهقي، ٢/٧٦)

هكذا كانوا!

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: قال الشافعي: يا أبا عبدالله، إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فأخبرونا حتى نرجع إليه.

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي رحمه الله تعالى وقد روى حديثا، فقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا؟ فقال: إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا، فلم آخذ به؛ فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب، ومد يده.

(صفة الصفوة، ٢/٥٥٦)

النصيحة والفضيحة

قال العلامة زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ): «شتان بين من قصده النصيحة، وبين من قصده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأخرى إلا على من ليس من ذوي العقول الصحيحة... فإظهار السوء وإشاعته في قالب النصح وغرضه التعيير والأذى فهو من إخوان المنافقين الذين ذمهم الله في كتابه في مواضع فقال وقد فضحهم بأوصافهم الخبيثة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾(التوبة: ١٠٧)».

(الفرق بين النصيحة والتعيير لزين الدين بن رجب الحنبلي، ص١٤)

الرضا والقناعة

قال عمرو بن أسلم العابد رحمه الله: «سمعت أبا معاوية الأسود يقول: في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧) قال: الرضا والقناعة».

وقال مالك بن أنس رحمه الله: «بلغني أن أبا الدرداء رضي الله عنه دخل على رجل وهو يموت، وهو يحمد الله تعالى، فقال أبوالدرداء: أصبت؛ إن الله تعالى إذا قضى أحب أن يرضى به».

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده، عن ابن عون رحمه الله، أنه قال: «أرض بقضاء الله على ما كان من عسر ويسر، فإن ذلك أقل لغمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا، حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء، كرضاه عند الغنى والرخاء».

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «قال عمر بن عبدالعزيز لابنه: كيف تجدك؟ قال: في الموت. قال: لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال والله يا أبه، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب».

(تسلية أهل المصائب لشمس الدين المنبجي، ص١٧٥)

شرف العمر وقيمته

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله في ختام كتابه الماتع «مواسم العمر»: «من عرف شرف العمر وقيمته، لم يفرط في لحظة منه، فلينظر الشاب في حراسة بضاعته، وليتحفظ الكهل بقدر استطاعته، وليتزود الشيخ للحاق بجماعته، ولينظر الهرم أن يؤخذ في ساعته، نفعنا الله وإياكم بعلومنا، ولا سلبنا وإياكم فهومنا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، ولا جعل علمنا حجة علينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه».

(مواسم العمر لابن الجوزي، ص٥٢)

ضياع الأمانة

نقل العلامة ابن مفلح الحنبلي رحمه الله عن الفريابي أنه قال: كنت عند الأوزاعي إذ جاءه رجل فقال: يا أبا عمرو، هذا كتاب صديقك وهو يقرأ عليك السلام.

فقال الأوزاعي: متى قدمت؟ قال: أمس. قال: ضيعت أمانتك، لا أكثر الله في المسلمين أمثالك.

(الآداب الشرعية والمنح المرعية، ٤٠/١)

بين الصفر والذهب

باعت امرأة طستا في سوق الصفر بدمشق، فوجده المشتري ذهبا، فقال لها: أما إني لم أشتره إلا على أنه صفر وهو ذهب فهو لك.

فقالت المرأة: ما ورثناه إلا على أنه صفر، فإن كان ذهبا فهو لك.

فاختصما إلى الوليد بن عبدالملك، فأحضر رجاء بن حيوة وكان قاضيا فقال: انظر فيما بينهما؛ فعرضه رجاء على المرأة؛ فأبت أن تقبله، وعرضه على الرجل؛ فأبى أن يقبله، فقال: يا أمير المؤمنين، اعطها ثمنه، واطرحه في بيت مال المسلمين».

(تاريخ دمشق لابن عساكر، ٣١٩/١)

أمهات الفضائل

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أمهات الفضائل: العلم، والدين، والشجاعة، والكرم».

(منهاج السنة النبوية، ٣٧٩/٦)

إعداد: التحرير

اللغة العربية.. ونشاط أهلها

تتميز اللغة بأنها ظاهرة اجتماعية، فهي محرك نشاط الأفراد والجماعات، وأداة كل مخطط للهيمنة، فإذا احتلت أمة أرض أمة أخرى يسعى الغالب إلى تقويض كيان المغلوب وتحطيم شخصيته ولغته، يقول الحافظ ابن حزم، رحمه الله: «إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرها عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. أما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم. هذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة».

وفي دراسة تشرف عليها «اليونسكو» تشير إلى أن ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ لغة قائمة اليوم ستختفي خلال القرن الجاري، وفي دراسة أخرى هناك ٥٥٠٠ لغة من أصل ٦٧٠٣ لغات ستختفي خلال قرن. وتشير الدلائل إلى أن اللغات المتوقع بقاؤها لن تكون إلا ضمن لغات الأمم القوية، وبخاصة اللغات العالمية منها، وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية، تليها الفرنسية، ثم اللغات الأربع الباقية: العربية، والإسبانية، والصينية، والروسية بمنازل متقاربة. فحري بنا معرفة ما يحيط بلغتنا من تحديات في هذا العصر، وما أحدثته من آثار في هذه اللغة الجميلة.

• سالم بن عميران

السياق القرآني

تبدو عظمة الإعجاز القرآني واضحة جلية، حيث تتجدد مع تجدد الاستغراق والتأمل وتتباين مع التدبر والتفكر في هذا السياق الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت:٤٢).

وذلك لأن الإعجاز القرآني يحمل من الخبايا والأسرار ما يضع القارئ في عوالم الإعجاب والدهشة حتى إن الجن نطق بهذا الإعجاب والتميز قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجن:١و٢).

وعبر العصور والأزمنة توالت إبداعات أهل القرآن وعلماء التفسير المتعددة في بيان روعة الإعجاز القرآني بمختلف أنماطه، ومازالت تلك الإبداعات تتجددبغير توقف، وذلك أن من إعجاز القرآن العظيم أنه يقبل التفسير والتأويل في كل زمان إلى أن تقوم الساعة مهما بلغ الإنسان ما بلغ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران:٧).

وقد تأخذ القراءة في القرآن الكريم كثيرا منحى نفسيا مشتركا بين هوية السياق القرآني من ناحية والتأمل النفسي من القارئ من ناحية أخرى، ولن يتأتى ذلك إلا بممارسة الاستغراق النفسي واستحضار عوالم الآية الواحدة، سياقا ومشهدا، امتثالا لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (محمد:٢٤)، فكثيرا ما يكون التدبر معايشة نفسية وتأملا وجدانيا يتولد عنه تصور المشهد الذي تسمو معه درجات الإيمان، ومن هنا يتحقق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنفال: ٢)

• عثمان أحمد

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الماء هو الحياة

هذا السائل الساحر الفضي اللامع الغامض، المنساب في الوديان والسهول والخرائط والعروق، نارا وعشقا وهدوءا وسيلا وخريرا وطوفانا وهمسا وخادما أمينا، إذا عرفت كيف تحافظ عليه وتأمنه وتنميه، فسيحمل لكل الحياة: القوت والشراب والميلاد وندى الصباح. يتدفق من السماء مطرا وثلجا، ومن البحيرات أنهارا، ومن الجبال سيولا، ومن الآبار والعيون جداول وينابيع.

ملك الحياة، وسيد وجود الإنسان والحيوان والنبات، حتى ولو كان البترول أثمن وأكثر تألقا، يظل الماء هو سبب الوجود واستمرار الحياة على الأرض، قادرا على مداهمة الأحلام، وتحطيم الرغبات، وصياغة الجسد والعقل. منابعه أو أماكن هطوله، قلوب تنبض وتضخ، كي تخرج منها شرايين تتمدد في الجسد الحي للجغرافيا، وتنشئ بيوتا للتاريخ، وبسببه قامت الحضارات وبنيت المدن، وتكونت المجتمعات. حتى في الحيوان، جميع القطعان تتجمع وتسافر وتهاجر لأماكن المياه، ولا يهمها ما يعترض طريقها من وحوش أو تماسيح أو صيادين، ليظل الماء هو الهدف المأمول، حتى ولو خسرت في سبيله كثيرا من أفرادها. إن العطش لعنة توقف القلب، وتجفف العقل، وتصيب الروح بالتشقق والتيبس.

عمرنا كله نعيشه في ظله، ولا نحيا من دونه، قال الله عزوجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠)، فإن خف يصيبنا التوتر، وإن جف وشح يصيبنا الجفاف والضيق ويبدأ الصراع، وإن زاد وفاض أصبح كارثة محطمة ودموعا منسابة. وبين الجفاف والشح والفيضان تضطرب حياة الإنسان والحيوان والنبات، وبين كل اضطرابة وأخرى نبحث عنه وعن أماكنه وعن وسائل نقله وعن طرق حمايته وتأمينه والمحافظة عليه. ودائما هو موجود في كل شكل، بخارا أو سائلا أو متجمدا، لكن الوصول إليه أصبح حلما، والمحافظة عليه أصبحت أمنية، بل من الممكن أن تتحول إلى كابوس وكارثة عظيمة.

● **محمد مستجاب**

مضامين إسلامية في شعر الجاهلية

تمتلئ كتب الأدب بالأشعار التي تصور المواقع الحربية والغزوات والفتوحات. وهي أشعار تتمثل فيها المعاني الإسلامية والقيم الأخلاقية الجليلة حتى قبل ظهور الإسلام.

وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من أن الوجود الحقيقي للأدب الإسلامي كان بعد ظهور الإسلام، فإن الشعر القديم الذي يمثل الفترة الجاهلية التي سبقت ظهور الإسلام - ويحددها المؤرخون بحوالي مئة وخمسين إلى مئتين من الأعوام - قد تضمن بعضا من المعاني والحكم والتجارب الصادقة، مما تهدي إليه الفطرة، ويستحسنه العقل، ولا يعارض التوجيه الإسلامي، ولا يناقض نظرة الإسلام.

إن المعاني التي حملتها لنا بعض الأشعار الجاهلية يمكن أن ندرجها تحت مصطلح الأدب الإسلامي، على الرغم من سبقها لعصر الإسلام، وإن الجاهليين كانوا يدركونها ويحسونها بالفطرة والسليقة.

وطبيعي أن تتأصل هذه المعاني وتتسع بعد مجيء الإسلام، ويمتثل الشعراء - شأنهم شأن جميع الناس - لحث الدين على التدبر وإمعان النظر في الكون، فينشغلوا في أمور الدنيا وسنن الكون وأحوال الوجود ومشكلات الموت والحياة، ويسجلوا تأملاتهم في صور حكم لا تختلف كثيرا عن معاني الحكم التي سادت الشعر الجاهلي، بل يمكن القول إنها امتداد للحكمة الجاهلية، وأضيفت بعض المعاني المقتبسة من الحكمة القرآنية والحكمة التي وردت في السنة النبوية.

● **د. محمود سعيد**

في مدح الحبيب

من أين أبدأ - يا طه - بمدحكم
وكلكم شرف؟ والله لا أدري!
يا أدعج العين، يا بدر الدجى ألقا
وأزهر اللون وجها، أسود الشعر
قد أحسن الله خلق المصطفى شرفا
يزيد في شرف الأخلاق والطهر
فلا حرير ولا ديباج ألين من
كف الحبيب، وما كالريح من عطر
يا من تخلق بالقرآن فهو به
يمشي على النهج في نهي وفي أمر
يا أحلم الناس حتى عن محاربه
وأرحم الناس حتى مع ذوي الكفر
وأعدل الناس، لا خل يميزه
عن العدو إذا ما باء بالوزر
ولا أعف ولا أسخى إذا قصدوا
بلا جزاء من المعطى ولا شكر
فلا يبيت ودينار بحوزته
يطوف في الناس يعطي كل ذي فقر
إن اليراع استحى عجزا لوصفكم
وأنت أحيا من العذراء في الخدر
معنى التواضع معروف بشيمته
فسيد الناس معصوم من الكبر

● أحمد عرابي الأحمد



السقا شربة



حامل الجرة أو القربة الجلدية عبارة عن سبيل ماء بشري متحرك يعرف باسم «السقا شربة». ونتعرف عليه من خلال ندائه: «يعوض الله».

نعود إلى هذا السبيل البشري المتحرك الذي يعرف باسم «السقا شربة»، الذي يقدم لنا المياه في أسطال من النحاس الملمع (أحمر أو أصفر)، والمنقوشة على سطحه الخارجي رسوم بارزة ذات أشكال بعناصر زخرفية هندسية أو نباتية، أو من الفخار الأحمر أو الأبيض. والأبيض يقال عنه «قناوي»، نسبة إلى محافظة «قنا» في صعيد مصر، (والقلة = شارما) موجودة في الأسواق إلى اليوم، ويقال عنها «القلل القناوي»، وتتميز بجدار رقيق، وهي سريعة تبريد المياه. كما أن هناك أسطال عبارة عن نصف قشرة جوز هند مقعرة تبدو وكأنها سطل للشرب.

المستشرق الفرنسي أندريه ريمون حدثنا عن هذا السقا شربة في أسواق القاهرة العثمانية عند حديثه عن الأسبلة التي انتشرت في شوارع المدينة وحواريها. وقدمه لنا في كتابه المعروف: «فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة»، وكتب عنه إدوارد وليام لين في كتابه «المصريون المحدثون - عاداتهم وشمائلهم»، وعلي باشا مبارك في «الخطط التوفيقية»، وجوستاف لوبون في «حضارة العرب»، وليو الأفريقي. ومن المحدثين الدكتور ثروت عكاشة في «مصر في عيون الغرباء»، وكاتب هذه السطور عند حديثه عن الأسبلة.

● عبدالغني محمد عبدالله



جامعة الغزالي

أديب الدعوة في القرن العشرين فضيلة الشيخ محمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦م) رحمه الله، غني عن التعريف، فهو بالنسبة إلى قراء العربية بمنزلة الذهب في عالم المعادن، لا يكاد يجهله أحد، فقد كان أسلوبه يتوهج حمية، ويلتهب غيرة؛ أسلوب يأسر عواطف القارئ في نحو ستين مؤلفا، كونت مكتبة إسلامية، تكفلت بشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة، فوقفت في وجه الطوفان الزاحف على الإسلام، فاكتسحت الأراجيف، وتركت ذوي الريبة حفاة عراة، وكانت رسالة وعي وخطابا إسلاميا تنويريا ضد السلبيات التي تفشت بين أبناء الأمة. وحين تستعرض مؤلفات الغزالي تجد كل اسم أو عنوان كأنه رأس لقضية كبرى، تستحق أن يتوافر لها قضاة ومحامون وأساتذة وبحوث وجامعات، فإذا ما طالعت الكتاب الذي يحمل الاسم فسوف تندهش، لأن الموضوع قد وفاه حقه في رحاب عشرات الصفحات أو مئاتها بأسلوب متقن بليغ جامع، تتوازن فيه المنقولات والمعقولات والاجتهادات والمنتقدات، وبلغة يأتلف فيها العقل والعاطفة والوجدان.
إن كتابا واحدا من كتب الغزالي ليشمل على حقائق علمية ونقدية واجتهادية يمكن توزيعها في عشرات من كتب غيره، فما بالك بأسفار مجتمعة؟! إنها تستحق أن نطلق عليها جامعة الغزالي.

• **محمد عباس عرابي**

عالم الدعوة

في الوقت الذي يعاني فيه «مناخ الدعوة والدعاة» هزة واضطرابا، وما يعتريه من شبه قصور في هوية المقصد وذاتية الهدف ووسيلته، حيث كثرت في الآونة الأخيرة لغة الحوار والجدل حول الخطاب الديني ووضعه الراهن وما آل إليه عالم الدعوة والدعاة.
وفي خضم هذا الزخم الهائل من علامات الاستفهام المحيرة التي تحتاج حتما إلى صدق الرؤية يأتي كتاب «تخوين الداعية... ذاتيا وعلميا» للدكتور أحمد محمد أحمد محمد جوابا شافيا وردا منطقيا مقنعا لما ينبغي أن يكون عليه عالم الدعوة وهوية الدعاة. الكتاب صادر حديثا عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية، وهو يكشف عن هوية مؤلفه، حيث يسلك في سياقه اتجاه البحث الأكاديمي من حيث تسلسل خطوات البحث ومضمونه ونتائجه، وفي الوقت ذاته لم يتخل المؤلف عن استخدام مفردات لغة البحث العلمي انتماء بذاته وتأكيدا على حتمية نتائج بحثه وصدقها.

• **عثمان إسماعيل**



مسك الختام

هذا هو ديننا

من براعة ديننا اغتنامه لما كان محمودا في العرب قديما من صفات، لكنه هذبها، ووضع لها حدودا وضوابط؛ فهذب «الشجاعة والإقدام» بتشريع الجهاد متى توافرت أسبابه ودواعيه، وهذب «الكرم»، وقد اشتهر به العرب، ووضع له ضوابط على أساسها يحمد بها ويذم، وحمد لهم ستر النساء وصيانة الكلمة والوفاء بالعهود، وأقر حزب الفضول.. وغير ذلك، مما يدل على أن الدين لم يأت للهدم وليغير لمجرد التغيير، بل هو دين بناء، يهدم القبيح ويقر الحسن، وصدق المصطفى الأمين حيث يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وجاء الإسلام مخاطبا العقل البشري مرتقيا به، حاثا أتباعه على التدبر في آيات الكون المرئية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية:١٧-٢٠)؛ فدخل الناس في دين الله أفواجا قناعة ويقينا بهذا الدين، الذي جعل النظر والتأمل في حد ذاته عبادة يثاب فاعلها: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات:٢٠-٢١).

هذا، ولم يفرض الإسلام على الناس فرضا ولم يكره الناس على اعتقاده ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦)، بل دعا إلى التأمل والنظر؛ داعيا إلى إعمال العقل، وهو ما يدل على احترامه للإنسان كإنسان، وأنه ليس مجرد طقوس تؤدى دون النظر في المقاصد والمآلات، فالإسلام دين يحترم العقل، ومن احترامه له أن وجه طاقة هذا المخلوق للنظر والإبداع والابتكار وحسن التصرف في المواقف والأحداث ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ (البقرة:٢٦٩)، وحث أتباعه على التأليف والتدوين، فكان المسلمون في عصور نهضتهم سفراء خير في مجالات متعددة من العلوم والفنون والمعارف.

يقول إبراهيم الحيدري: «كان العرب والمسلمون يشكلون مرجعية ثقافية لمفكري أوروبا حتى عصر النهضة، حيث انعقدت علاقات ثقافية مباشرة، سبقت الحروب الصليبية بين المسلمين والأوروبيين. وقد تأثر الأوروبيون بمنجزات الحضارة الإسلامية في مختلف فروع المعرفة، خصوصا في الحركة الفلسفية والعلمية التجريبية، التي كانت أول حركة تنويرية، قامت على أيدي المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين. وكانت حصيلة تلك العلاقات الثقافية نقل كثير من الأعمال الفلسفية والعلمية إلى اللغة اللاتينية، خصوصا أعمال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، مما أدى إلى إغناء الثقافة الأوروبية بأهم مصادر الثقافة العالمية آنذاك».

بل إن أول معجم عربي لحفظ اللغة العربية من اللحن كان واضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي هو معجم «العين».

وغير ذلك مما حفلت به البشرية، وكانت خير زاد لها يوجه خطواتها ويعالج خطأها ويهدي حائرها.

محمد جمال
كاتب صحفي